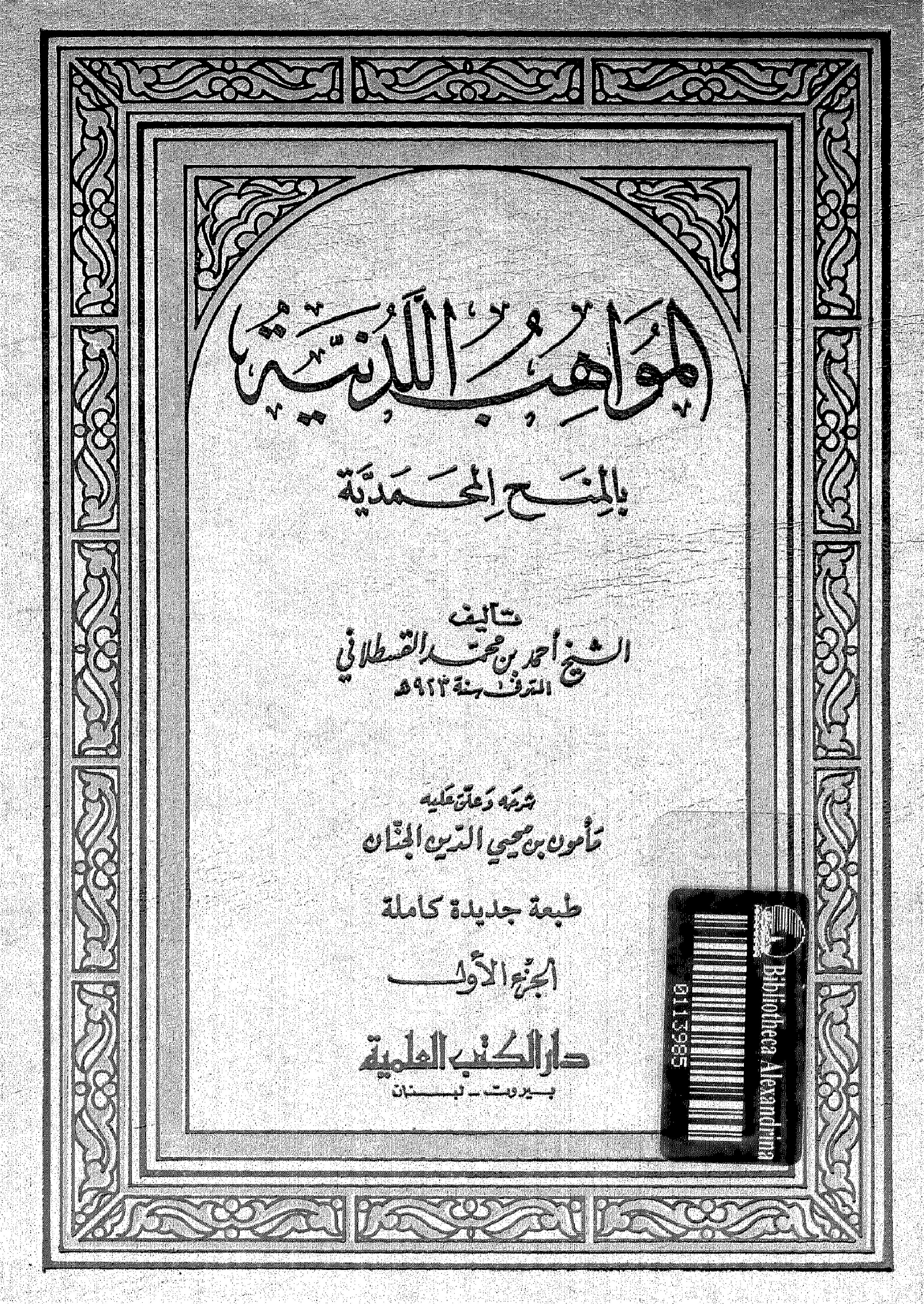


# المواهب اللدنية

## بالمنح المحمدية

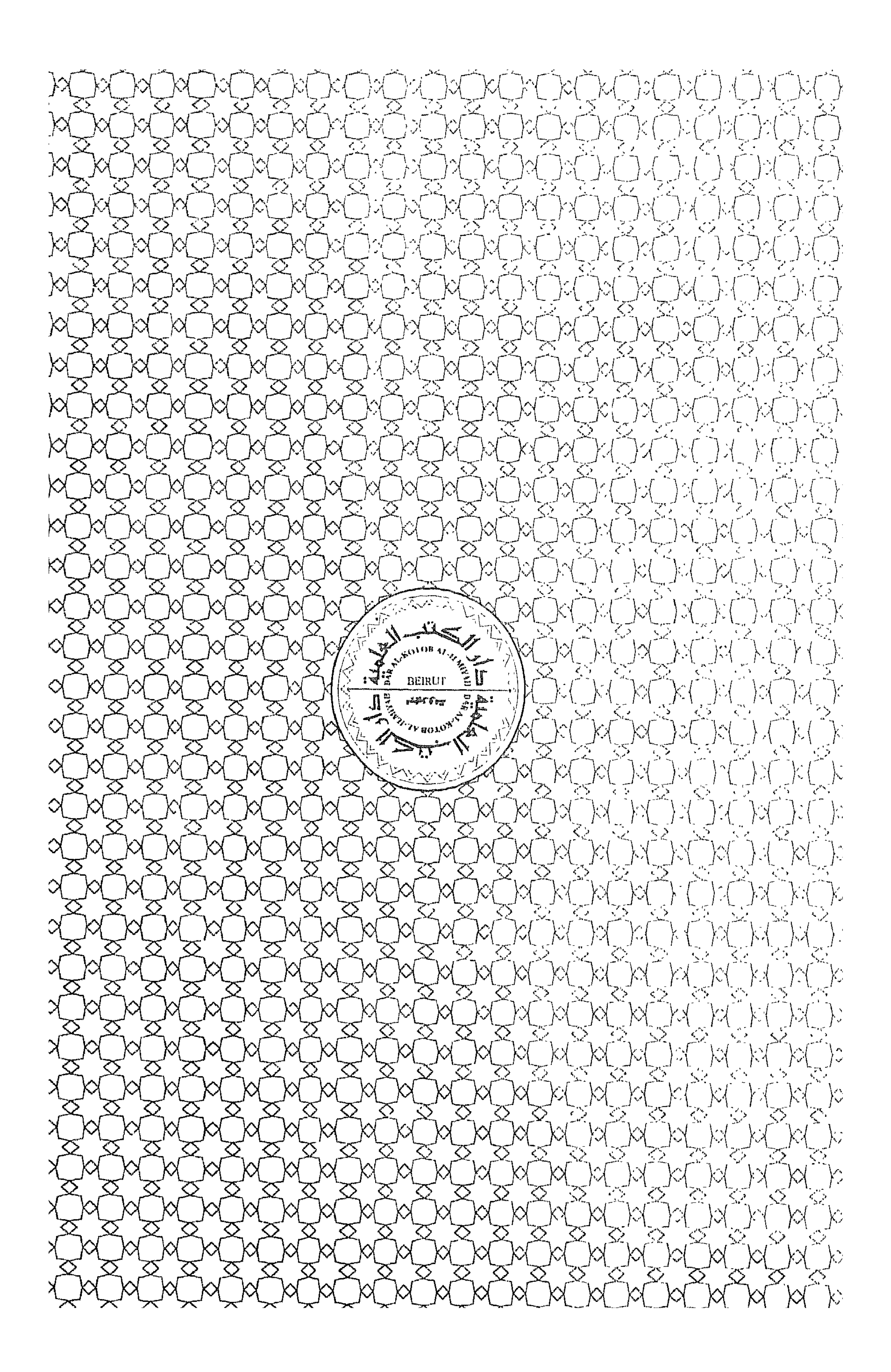
تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القسطلاني
المتوفى سنة ٩٢٣هـ

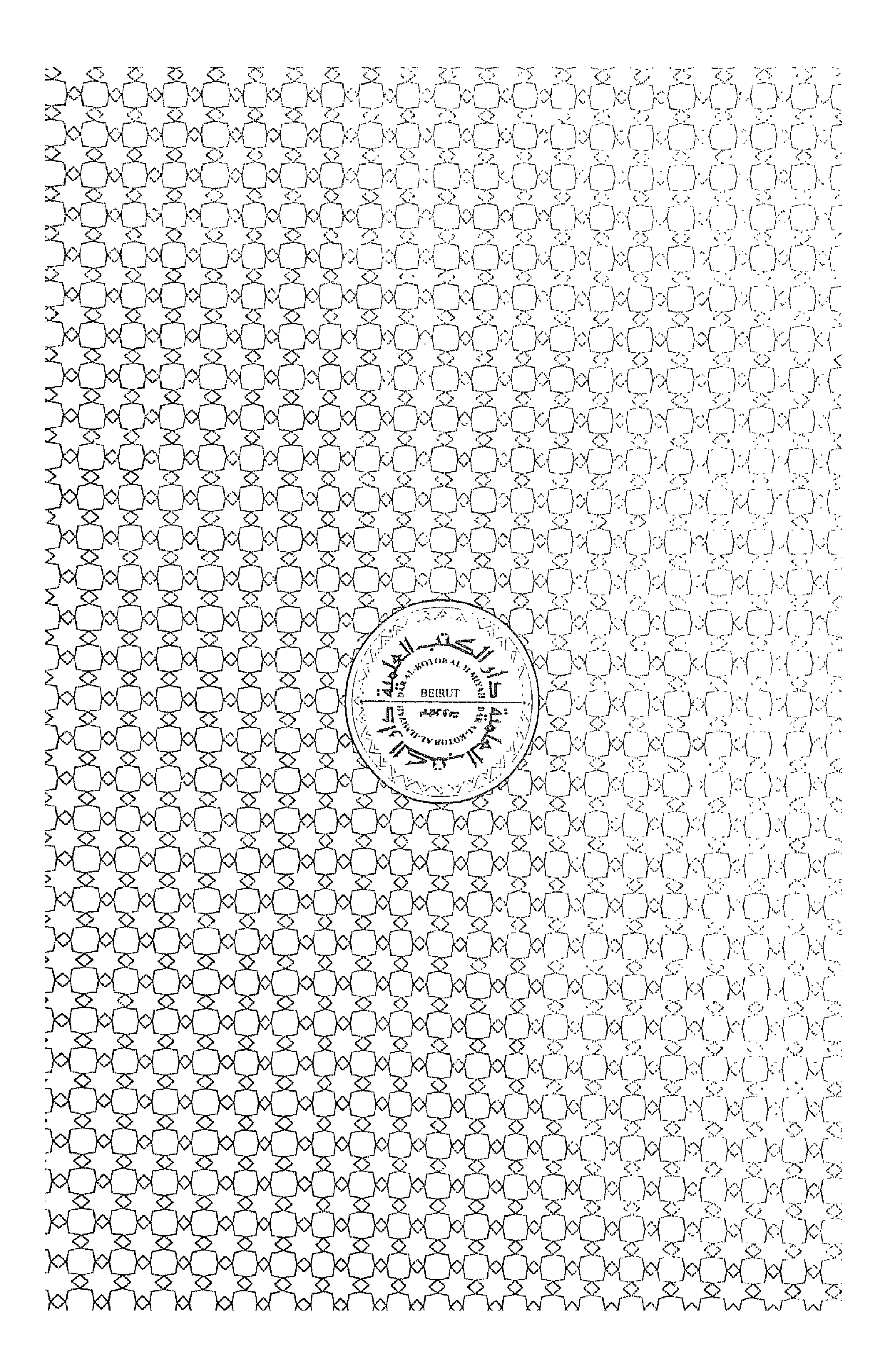
شرحه وعلق عليه
مأمون بن محيي الدين الجنان

طبعة جديدة كاملة

الجزء الأول

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان


دار الكتب العلمية
DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
BEIRUT
بيروت


دار الكتب العلمية
DÂR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
BEIRUT
بيروت

# المواهب اللدنية

## بالمنح المحمدية

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القسطلاني
المتوفى سنة ٩٢٣هـ

شرحه وعلق عليه
مأمون بن محيي الدين الجنان

طبعة جديدة كاملة

الجزء الأول

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# المقدمة

الحمد لله واجب الوجود، ذي الكرم والفضل والجود، المستغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه، الأول القديم بلا بداية، والآخر الكريم بلا نهاية، لم يزل ولا يزال يتصف بصفات الكمال، المنزه عن سمات النقصان والحدوث والزوال، وعن الخير والتغير من حال إلى حال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، نبي الرحمة، وشفيع الأمة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وعلى أتباعه وأشياعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن علم السيرة النبوية لم تنقطع العناية بالتأليف فيه إلى يومنا هذا، إلا أن الموضوع في ذاته ليس أمراً يقوم على التجارب أو على النظريات العلمية الحديثة. وإنما هو أمر عماده النقل والرواية. ولقد ذلَّت ألسنة كثيرة بعد أن اعتمدت على الأحاديث الموضوعة والضعيفة، مما أدى بالطبع إلى اجتهادات خاطئة نبعت عن تصور واهم لحقه التبدل والتغير خلال الأعوام والدهور.

ومما يثير الاستغراب حقاً أن بعض القضايا التي اكتنفها الغموض عبثت فيها يد الغزاة بمحاولات مغرضة وجهود مضللة هدفها التشكيك والتشويه، فكان هناك جواب واحد... هو الدفاع عن هذه السيرة المطهرة... وقذف آراء المشوهين بمقلاع الحجج والبراهين قياماً بنصرة هذا الدين. ويبدو أن بعضاً من علمائنا القدامى تنبهوا لهذه القضايا فنظروا في حال المؤلف والراوي والمروي عنه، وميزوا بين المرذول والصحيح، فأتت أقوالهم في معظم الأحيان تعبيراً صحيحاً وصادقاً عن دورهم في توجيه عقل الأمة، بعد أن عنوا كل العناية في تنزيه السيرة المحمدية عن كل شائبة شائنة، وجعلوا الأصل فيها أتباع الكتاب والسنة امتثالاً لأمر الله تعالى: **﴿وما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** [الحشر: ٧]، وما قدمته النخبة من علمائنا ليس عن طريق الاستقرار والدلالات الظنية، بل بالنظر في حقيقة الأمر وإثباته بالاستعانة بالدلائل والقرائن، مبنية بهذا أضاليل وتمويهات أهل البدع والأهواء.

فخير الكلام كلام الله عز وجل، وخير الهدى محمد صلى الله عليه وعلى آله

وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

وأما عن طريقة عملي في هذا الكتاب ـ بعد توفيق الله ـ فقد تمت على عدة مراحل تتلخص كالآتي:

تناولت المخطوط والطبعات السابقة والشروح التي عثرت عليها للكتاب وأعدت النظر فيها متملياً متأملاً محللاً معللاً بعد أن استرعت انتباهي كثرة الأخطاء والتحريفات وذلك إما عن سهو أو لقلة دراية، فكان لا بد لي من الاستقصاء في المصادر والاحتكام إلى أساس شمولي، ولست أدعي أنني أتيت على كل ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع لأن ذلك يعني أن أعيد مادة الكتاب في شكل آخر. ولو أنني ذهبت أنبه إلى كل ما فيه من الأغلاط والتحريف والنقص لملأت صفحات قد تعادل صفحات الكتاب ولكنني اكتفيت بالإشارة إلى كلمات قليلة ليستدل بما ذكر على ما لم يذكر.

وبعد مقابلة النصوص ومعالجتها على ضوء أصول الفكر الإسلامي وبعد تصحيح الأخطاء واستدراك النقص والدلالة على التحريف والضعيف قمت بمقارنة الأحداث بتواريخها على المصادر وبنيت بعض حال الرواة وثبت ملاحظات كمؤشرات وركائز على ما تطرق إليه شكي. وشرحت الغريب المبهم وعدلت إلى بيانه في الحاشية. ومما ألحقت بالشرح أيضاً تراجم رجال الأعلام والصحابة، وخرجت الآيات والأحاديث بعزوها إلى مظانها، وقد عدت إلى الدراسات الحديثة فثبت كل ما يوثق النتائج التي خرجت بها، وأضفت إلى الكتاب شروحات من نتاجات عقلية قلما تجد أحداً تطرق أو أشار إليها، وذلك بالاعتماد على جملة أقوال الفقهاء والمحدثين. وعلى مجموعة ضخمة من المصادر والمراجع.

وأخيراً فإن جهد سنة كاملة من البحث الدؤوب والتتبع والتمحيص والتدوين ليس كثيراً إزاء موضوع تطرق لسيرة النبي محمد ﷺ. فإن أصبت فتلك غاية الأمر وإلا فأرجو ألا أحرم أجره وثوابه ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل عرفاناً مني بالجميل والفضل إلى كل من ساهم وساعد في إخراج هذا الكتاب على هذا النحو وذلل عقباته.

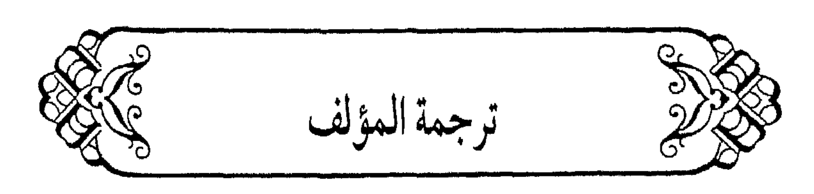
وما حاولت صنعه في هذا الكتاب ليس إلا مساهمة متواضعة شاركت فيها إخواني الذين سبقوني، ولا أدعي أنني بلغت بهذا كمالاً فالكمال لله وحده ولكنني آمل أن يجد فيه القارىء والباحث ما يصبو إليه.

وإن كان ثمة شيء يذكر فهو ثنائي على أساتذتي الذين منهم تعلمت وعلى كتبهم عوّلت ومن آثارهم اقتبست نفعني الله بهم وغفر لي ولهم. والله من وراء القصد.

**مأمون بن محيي الدين الجنّان**

**دمشق ٥/ ٥/ ١٩٩٤**

**ص. ب ٢٩١٧٣**



# ترجمة المؤلف

**نسبه :**

هو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك بن أحمد المعروف بالقسطلاني[1] الإمام العلامة والحجة الرحلة الفهامة الفقيه النبيه المقري المجيد المسند المحدث أبو العباس شهاب الدين القتيبي المصري ثم القاهري، صاحب المؤلفات الحافلة والفضائل الكاملة. وأمه حليمة ابنة الشيخ أبي بكر بن أحمد بن حميرة النحاس.

**ولادته ونشأته :**

ولد الإمام في ثاني عشر ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وثمانمائة بمصر ونشأ بها، فحفظ القرآن والشاطبية والجزرية والوردية في النحو.

**مشايخه :**

أخذ عن ابن حجر العسقلاني وعدة مشايخ منهم: عمر بن قاسم الأنصاري النشار وعبد الغني الهيثمي والشهاب بن أسد وخالد الأزهري النحوي، والفخر المقسمي والسخاوي، والبرهان العجلوني وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري وقرأ صحيح البخاري في خمسة مجالس على العلوي النشاوي وتلمذ له. وأخذ بمكة أيضاً عن جماعة منهم: النجم بن فهد وزينب ابنة الشوبكي.

**صفاته :**

لقد كان من أزهد الناس كثير الأسقام قانعاً متعفف، وكان منقاداً إلى الحق من رد له سهواً أو غلطاً، جيد القراءة للقرآن والحديث والخطابة شجي الصوت، مشارك في الفضائل، متواضع متودد لطيف العشرة.

---

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع ٢/ ١٠٣ شذرات الذهب ٨/ ١٢١ الكواكب السائرة ١/ ١٢٦ معجم المؤلفين ٢/ ٨٥ والنور المسافر ١١٣ وخطط مبارك ٦/ ١١ والأعلام ١/ ٢٣٢ ومعجم المطبوعات ١٥١١.

وكان يجلس للوعظ بالجامع الغمري فيجتمع عنده الجم الغفير ليس له نظير في الوعظ، وكان له اعتقاد تام في الصوفية.

ولي مشيخة مقام أحمد بن أبي العباس الحرار بالقرافة الصغرى، واقرأ الطلبة وكتب بخطه لنفسه ولغيره. ويحكى أن جلال الدين السيوطي كان ينقصه ويزعم أنه يسرق من كتبه ويستمد منها ولم ينسب النقل إليها وأدعى عليه بذلك بين يدي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري فألزمه ببيان مدعاه فقال: إنه نقل عن البيهقي وله عدة مؤلفات فليذكر لنا أنه ذكره في أي من مؤلفاته لنعلم أنه نقله عنه، ولكنه رأى ذلك في مؤلفاتي فنقله، وكان الواجب عليه أن يقول: نقل السيوطي عنه.

ثم إن الشيخ القسطلاني قصد إزالة ما في خاطره فمشى من القاهرة حافير مكشوف الرأس إلى الروضة وكان السيوطي معتزلاً عن الناس بها. فوصل إلى بابه ودقه فقال له: من أنت؟. فقال: أنا القسطلاني جئت إليك حافياً مكشوف الرأس ليطيب خاطرك عليَّ. فقال له: قد طاب ولم يفتح له الباب ولم يقابله:

وحج غير مرة وجاور سنة أربع وثمانين وأربع وتسعين وستين قبلها، وبالجملة فإنه كان إماماً حافظاً متقناً جليل القدر حسن التقرير والتحرير لطيف الإشارة بليغ العبارة حسن الجمع والتأليف لطيف الترتيب والترصيف زينة أهل عصره ونقاوة ذوي دهره ولا يقدح فيه، تحامل معاصريه عليه فلا زالت الأكابر على هذا في كل عصر.

وقد ألف شرحه على البخاري قبل أن يؤلف شيخ الإسلام زكريا الأنصاري شرحه عليه، وكان يقول للشيخ عبد الوهاب الشعرواي: احضر عند شيخ الإسلام شرحي فمهما وصبرته خالفني فيه فاكتبه لي في ورقة، فكان يكتب له أوراقاً ويجهزها إليه وتارة يرسل الشيخ عبده فيأخذها، وقال له مرة: لا تغفل عن كتابة كل ما يخالفني فيه الشيخ فإنه لا يحرر الكتاب إلا الطلبة ولا طلبة لي. وقال العلائي: «إنه كان فاضلاً محصلاً ديناً عفيفاً متقللاً من عشرة الناس إلا في المطالعة والتأليف والاقراء والعبادة».

وقال الشعراوي: كان من أحسن الناس وجهاً طويل القامة حسن الشيب يقرأ بالأربع عشرة رواية. وكان صوته بالقرآن يبكي القاسي إذا قرأ في المحراب تساقط الناس من الخشوع والبكاء وقال: أقام عند النبي ﷺ فحصل له جذب فصنف المواهب اللدنية لما صحا [وقد أكثر فيه من الاستشهاد بكلام سيد وفا وكان يميل إلى الغلو في رفعة قدر النبي ﷺ حتى أنه اختار مذهب مالك في تفضيل المدينة على مكة][1].

**وفاته:**

وكانت وفاته ليلة الجمعة ثامن المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة لعروض فالج

(١) انظر الكواكب السائرة ١/١٢٧.

له، نشأ من تأثره ببلوغه قطع رأس إبراهيم بن عطاء الله المكي صديق السلطان الغوري، بحيث سقط عن دابته وأغمي عليه فحمل إلى منزله ثم مات بعد أيام، وصلي عليه بالأزهر عقب صلاة الجمعة ودفن بقبة قاضي القضاة بدر الدين العيني من مدرسته بقرب جامع الأزهر. وتأثر كثير من الناس لموته لحسن معاشرته وتواضعه، وصلي عليه غائبة بدمشق مع جماعة منهم: البرهان ابن أبي شريف. وقال ابن أياس: وافق يوم وفاته دخول السلطان سليم عنوة إلى مصر وتملكه بها.

مصنفاته:

قال في النور: ولقد ارتفع شأنه فأعطي السعادة في قلمه وكلمه وصنف التصانيف المقبولة التي سارت بها الركبان في حياتها، وأول دليل على قبول أعماله وأخلاصه في تأليفه عناية الناس بكتابه المواهب اللدنية ومغالاتهم في ثمنه. ومن تصانيفة:

١ ـ **إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري**[١]: وهو في عشرة مجلدات.

٢ ـ **الإسعاد في تلخيص الإرشاد**[٢]: من فروع الشافعية لشرف الدين المقري.

٣ ـ **إمتاع الأسماع والابصار**[٣]:

٤ ـ **الأنوار المضية في شرح البردة**[٤]:

٥ ـ **تحفة السامع والقاري بختم صحيح البخاري**[٥]:

٦ ـ **رسالة في الربع المجيب**[٦]:

٧ ـ **الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر**[٧]:

٨ ـ **زهر الرياض**[٨]:

٩ ـ **العقود السنية في شرح المقدمة الجزرية**[٩]: في القراءات.

١٠ ـ **فتح الداني في شرح حرز الأماني**[١٠]: للشاطبي. زاد فيه زيادات ابن الجزري مع فوائد غريبة لا توجد في غيره.

١١ ـ **فتح المواهبي في مناقب الشاطبي**[١١]:

١٢ ـ **الكنز في حمزة وهشام على الهمز**[١٢]:

---

(١) انظر كشف الظنون ١/ ٥٥٢ ومعجم المطبوعات ١٥١١.

(٢) انظر كشف الظنون ١/ ٦٩.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٦٦.

(٤) المصدر السابق ١/ ١٣٣٥.

(٥) المصدر السابق ١/ ٣٦٦.

(٦) انظر كشف الظنون ١/ ٨٦٧.

(٧) المصدر السابق ١/ ٩١٩

(٨) المصدر السابق ٢/ ٩٧٠.

(٩) المصدر السابق ٢/ ١٧٩٩.

(١٠) المصدر السابق ١/ ٦٤٧ و ٢/ ١٢٣٢.

(١١) المصدر السابق ٢/ ١٢٣٥.

(١٢) المصدر السابق ٢/ ١٥١٩.

١٣ ـ اللآلىء السنية[١]:
١٤ ـ لطائف الإشارات لفنون القراءات[٢]:
١٥ ـ لوامع الأنوار في الأوعية والأذكار[٣]:
١٦ ـ مدارك المرام في مسالك الصيام[٤]:
١٧ ـ مراصد الصلات في مقاصد الصلاة[٥]:
١٨ ـ مسالك الحنفا إلى مشارع الصلاة على النبي المصطفى[٦]:
١٩ ـ مشارق الأنوار المضية في شرح الكواكب الدرية[٧]:
٢٠ ـ منهاج الابتهاج في شرح الجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج[٨]: وهو إلى نحو نصفه في ثمان مجلدات.
٢١ ـ منهاج الهداية[٩]:
٢٢ ـ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: في السيرة النبوية[١٠].
٢٣ ـ نزهة الأبرار في مناقب الشيخ أبي العباس أحمد الحرار[١١]:
٢٤ ـ نفائس الأنفاس في الصحبة واللباس[١٢]:
٢٥ ـ النور الساطع في مختصر الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع[١٣]: للسخاوي.
٢٦ ـ يقظة ذوي الاعتبار في موعظة أهل الاغترار[١٤]: .

## التعريف بكتاب المواهب اللدنية

إن كتاب المواهب اللدنية بالمنح المحمدية جامع للسيرة النبوية المطهرة حسب تسلسلها الزمني ابتداء من المولد وانتهاء بالوفاة، ويتضمن المغازي والسرايا والبعوث والوفود والغزوات ثم الحديث عن صفات النبي ﷺ. وخصائصه وجمال خَلقه وخُلقه ومواليه وأزواجه وسراريه وخدمه وركوبه وسلاحه وأصناف ثيابه ومعجزاته وغير ذلك.

وقد قال ابن العماد الحنبلي عنه: «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية كتاب جليل

---

(١) انظر كشف الظنون ٢/ ١٥٣٤.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٥٥١.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٥٦٢.
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٦٤١.
(٥) المصدر السابق ٢/ ١٦٥٢.
(٦) المصدر السابق ٢/ ١٦٦٢.
(٧) المصدر السابق ٢/ ١٣٣٥ و ١٦٨٨.
(٨) المصدر السابق ٢/ ٥٥٨.
(٩) انظر كشف الظنون ٢/ ١٨٤٧.
(١٠) المصدر السابق ٢/ ١٨٩٦ ومعجم المطبوعات ١٥١٢.
(١١) المصدر السابق ٢/ ١٩٣٨.
(١٢) المصدر السابق ٢/ ١٩٦٥.
(١٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٩٠.
(١٤) المصدر السابق ٢/ ٢٠٥٠.

المقدار عظيم الوقع كثير النفع ليس له نظير في بابه»[1].

وقال صاحب كتاب كشف الظنون: «وقد شرح كتاب المواهب المولى العلامة خاتمة المحدثين محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري المالكي المتوفي سنة (١١٢٢ هـ)؛ شرحاً حافلاً في أربع مجلدات جمع فيه أكثر الأحاديث المروية في شمائل المصطفى وسيره وصفاته الشريعة»[2].

وقال الزرقاني شارح الكتاب: «وله [أي القسطلاني] عدة مؤلفات أعظمها هذه المواهب اللدنية التي أشرقت من سطورها أنوار الأبهة والجلالة وقطرت من أديمها ألفاظ النبوة والرسالة أحسن فيها ترتيباً وضعاً وأحكمها ترصيعاً ووضعاً وكساه الله فيها رداء القبول ففاقت على كثير مما سواها عند ذوي العقول».

وللشيخ أبي الضياء علي بن علي الشبراملسي المتوفي سنة (١٠٨٧ هـ). حاشية على المواهب في خمس مجلدات ضخام نقلها الأميني في خلاصة السير، وقد لخصه يوسف النبهاني في كتاب سماه «الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية». طبع في بيروت سنة (١٣١٠ هـ).

وقد اعتمد مصنف كتاب المواهب اعتماداً كبيراً على كتاب الشفا للقاضي عياض. وهو المومن إليه بقوله عن كتابه المواهب: «ولم أكن والله أهلا لذلك ولم أر نفسي فيما هنالك، لصعوبة هذا المسلك ومشقة السير في طريق لم يكن لمثلي يسلك وإنما هو نكتة سر قراءتي كتاب الشفا بحضرة التخصيص والأصطفا في مكتب التأديب والتعليم. . . ».

وقال الزرقاني شارحه: «لقد صدق المصنف رحمه الله فإنه في هذا الكتاب اقتبس من أنوار الشفا وتعلق بأذياله في غالب التقسيم والأبواب حتى أنه اقتضى أثره في صدر الخطبة. . . ».

كما كان لكتاب فتح الباري للعسقلاني أثره أيضاً وقد ذكر ذلك في المقدمة فقال: «مستمداً من فتح الباري فيض فضله الساري». وفي خاتمة الكتاب أيضاً إشارة إلى ذلك قوله: «واستفتحت مغاليق المعاني بمغاشيح فتح الباري. . . ».

وقوله أيضاً: «وقد انتهت كتابة النسخة المنقولة منها النسخة المباركة النافعة إن شاء الله تعالى في خامس عشر شعبان المكرم سنة تسع وتسعين ثمانمائة وكان الابتداء في المسودة المذكورة ثاني يوم قدومي من مكة المشرفة صحبة الحاج في شهر محرم سنة ثمان وتسعين وثمانمائة».

فيكون على ذلك أنه قضى في تأليفه مدة سنة وثمانية أشهر تقريباً.

---

(١) انظر شذرات الذهب ٨/ ١٢٢.
(٢) انظر كشف الظنون ٢/ ١٨٩٧.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي أطلع في سما الازل شمس معارف
النبوة المحمدية واشرق من افق اسرار الرسالة
مظاهر تجلي الصفات الاحمدية احمده على ان وضع
اساس نبوته على سوابق ازليته ورفع دعايم رسالته
على لواحق ابديته واشهد ان لا اله الا الله وحده
لا شريك له الفرد المنفرد في فردانيته بالعظمة
والجلال الواحد المتوحد في وحدانيته باستحقاق الكمال
واشهد ان سيدنا وحبيبنا محمدا عبده ورسوله
اشرف نوع الانسان وانسان عيون الاعيان المتخلص
من خلاصة ولد عدنان الممنوح ببدايع الايات
المخصوص بعموم الرسالة وغرايب المعجزات
السر الجامع الفرقاني والمخصص بمواهب القرب
من النوع الانساني مورد الحقايق الازلية ومصدرها
وجامع جوامع مفرداتها ومنبرها وخطيبها
اذ احضر في حضاير قدسها ومحضرها بيت الله
المعمور الذي اتخذه لنفسه وجعله ناظما لحقايق
قدسه مدة مداد نقطة الاكوان ومنبع ينابيع
الحكم والعرفان المفيض من بحر مداد الوفا على القابل

هذه

صورة بداية الجزء الأول من المخطوط

عليه زاده الله شرفا لديه ان ثمرتها عايدة
علي المصلي اشار لنحوه الحافظ ابن حجر
خصيصة هذه الامة انهم يدخلون الجنة
قبل ساير الامم رواه الطبراني في الاوسط من حديث
عمر بن الخطاب مرفوعا حرمت الجنة علي الانبيا
حتي ادخلها وحرمت علي الامم حتي تدخلها امتي
ومنها انه يدخل الجنة سبعون الفا بغير
حساب رواه الشيخان وعند الطبراني والبيهقي
في البعث ان ربي وعدني ان يدخل من امتي الجنة سبعين
الفا لا حساب عليهم واني سالت ربي المزيد فاعطاني
مع كل واحد من السبعين سبعين الفا وبالجملة فما
اختصت هذه الامة بما لم يعطه غيرها من الامم تكرمة
لنبيها عليه الصلاة والسلام وزيادة في شرفه وتفصيل
فضلها وخصايصها يستدعي سفرا بل اسفارا وذلك فضل
الله يوتيه من يشا والله ذو الفضل العظيم

تم الجزء الاول من كتاب المواهب اللدنيه
بالمنح المحمدية علي صاحبها افضل الصلاة
واتم السلام يتلوه في الجزء الثاني المقصد
الخامس في تخصيصه عليه الصلاة
والسلام بخصايص الاسرا
والمعراج والله اعلم

وصلي الله علي سيدنا محمد النبي الامي وعلي اله وصحبه وسلم

صورة نهاية الجزء الأول من المخطوط

علي يد العبد الفقير الحقير المعترف بالعجز والتقصير
الراجي عفو ربه القدير افقر الورى واذل الفقرا
ابراهيم نصر الكلسي المالكي غفر الله له ولجميع
المسلمين بمنه وكرمه امين بجاه سيد المرسلين
صلى الله عليه وسلم وكان الفراغ
من كتابة هذا الجزء المبارك يوم الاربع المبارك
الذي هو من ايام شهر شوال ٢٩ سنة الف ومايتين
سبعه وستين من هجرة من له العز والشرف ٧

صورة الصفحة الأخيرة من الجزء الأول من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

... عليه الصلاة

و... والاسرا وتعظيمه

... حضرة التقريب بالمكالمة

... اعلم منحني الله

واياك الترقي في معارج السعادات واوصلنا به اليه في حظاير

الكرامات ان قصة الاسرا والمعراج من اشهر المعجزات

واظهر البراهين البينات واقوي الحجج المحكمات واصدق

الانبا واعظم الايات واتم الدلالات الدالة علي تخصيصه

عليه السلام بعموم الكرامات وقد اختلف العلما

في الاسرا هل هو اسرا واحد في ليلة واحدة يقظة او مناما

او اسراان كل واحد في ليلة مرة بروحه وبدنه يقظة ومرة

مناما او يقظة بروحه وجسده من المسجد الحرام الي المسجد

الاقصي ثم مناما من المسجد الاقصي الي العرش

وهي اربع اسرات احتج القايلون بانه رويا مناما مع اتفاقهم

بان رويا الانبيا وحي بقوله تعالي وما جعلنا الرؤيا

التي اريناك الا فتنة للناس لان الرويا مصدر الحلمية

واما البصرية فالروية بالتا وقد انكر ابن مالك

والحريري وغيرهما كما افاده الشيخ بدر الدين الزركشي

ورود

صورة بداية الجزء الثاني من المخطوط

ولو اتركت علي تبير لخشع ونصدع لكنني اخذت غفلة
الظلام الغاسق والليل لواسق فسرقته من ايدي
العوايق والليل يعين السارق واستفتحت مغالق
المعاني بمفاتيح فتح الباري واستخرجنا من مطالب
كنوز العلوم نفايس الدراري حامدا الله تعالي
علي ما انعم والهم وعلم ما لم اكن اعلم مصليا
مسلما علي رسوله محمد اشرف انبيايه وافضل
مبلغ لانبايه وعلي اله واصحابه واحبابه وخلفا
صلاة لا ينقطع مددها ولا يفني امدها قال
مولفه حفظه الله وختم بالصالحات عمله
وقد انهيت كتابة النسخة المنقول منها النسخة
المباركة النافعة ان شا الله تعالي في خامس
عشر شعبان المكرم سنة تسع وتسعين وثمانماية
ومن المسودة في الثاني من شعبان سنة ثمان
وتسعين وثمانماية والله اسال ان ينفع به جيلا
بعد جيل وحسبنا الله ونعم الوكيل واستودع
الله تعالي نفسي وديني وخواتيم عملي وما
انعم به علي ربي وهذا الكتاب وان ينفعني به
والمسلمين وان يوديني واحبابي الي الحرمين الشريفين

بلغ

صورة الصفحة قبل الأخيرة من الجزء الثاني من المخطوط

على احسن وجه واتمه ويرزقني الاقامة بهما في عافية
بلا محنة وان يطيل عمري في طاعته ويلبسني اثواب
عافيته ويجمع لي وللمسلمين بين خيري الدنيا والاخرة
ويصرف عني همومها ويجعل وفاتي ببلد رسوله
ويمتعنا من المدد المحمدي بجامعيه من عبارة ...
مع رضوانه ويمتعنا بلذة النظر الى وجهه الكريم
من غير عذاب يسبق فانه سبحانه وتعالى ...
استودع حفظه والحمد لله وحده وصلى الله
على سيدنا محمد واله وصحبه
وسلم تسليما كثيرا دايما ابدا
الى يوم الدين امين امين
امين والحمد لله
رب العالمين
فانه كريم
...

وكان الفراغ من كتابة هذا الكتاب المبارك في يوم الخميس
المبارك في خامس يوم مضى منه شهر جمادى الاخر
الذي هو من شهور سنة الف وما يتين ...
وستين بعد الهجرة النبوية على صاحبها ...

صورة آخر المخطوط




تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القسطلاني
المتوفى سنة ٩٢٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي أطلع في سماء الأزل شمس أنوار معارف النبوة المحمدية، وأشرق من أفق أسرار الرسالة مظاهر تجلي الصفات الأحمدية، أحمده على أن وضع أساس نبوته على سوابق أزليته، ورفع دعائم رسالته على لواحق أبديته.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الفرد المنفرد في فردانيته بالعظمة والجلال، الواحد المتوحد في وحدانيته باستحقاق الكمال، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا محمداً عبده ورسوله أشرف نوع الإنسان، وإنسان عيون الأعيان، المستخلص من خالص خلاصة ولد عدنان، الممنوح ببدائع الآيات، المخصوص بعموم الرسالة وغرائب المعجزات، السر الجامع الفرقاني، والمخصص بمواهب القرب من النوع الإنساني، مورد الحقائق الأزلية ومصدرها، وجامع جوامع مفرداتها ومنبرها، وخطيبها إذا حضر في حظائر قدسها ومحضرها، بيت الله المعمور الذي اتخذه لنفسه، وجعله ناظماً لحقائق أنسه، مدة مداد نقطة الأكوان، ومنبع ينابيع الحكم والعرفان، المفيض من بحر مدد الوفا، على القائل من أهل المعارف والاصطفا، حيث خاطب ذاته الأقدسية، بالمنح الأنفسية، فقال:

فأنت رسول الله أعظم كائن ... وأنت لكل الخلق بالحق مرسل

عليك مدار الخلق إذ أنت قطبه ... وأنت منار الحق تعلو وتعدل

فؤادك بيت الله دار علومه ... وباب عليه منه للحق يدخل

ينابيع علم الله منه تفجرت ... ففي كل حي منه لله منهل

منحت بفيض الفضل كل مفضل ... فكل له فضل به منك يفضل

نظمت نثار الأنبياء فتاجهم ... لديك بأنواع الكمال مكلل

فيا مدة الإمداد نقطة خطه ... ويا ذروة الإطلاق إذ يتسلسل

محال يحول القلب عنك وإنني ... وحقك لا أسلو ولا أتحول

عليك صلاة الله منه تواصلت ... صلاة اتصال عنك لا تتنصل

شخصت أبصار بصائر سكان سدرة المنتهى لجلال جماله، وحنت أرواح رؤساء الأنبياء إلى مشاهدة كماله، وتلفتت لفتات أنفس الملأ الأعلى إلى نفائس نفحاته، وتطاولت أعناق العقول إلى أعين لمحاته ولحظاته، فعرج به إلى المستوى الأقدس، وأطلعه على السر الأنفس، في إحاطته الجامعة، وحضرات حظيرة قدسه الواسعة، فوقفت أشخاص الأنبياء في حرم الحرمة، على أقدام الخدمة، وقامت أشباح الملائكة في معراج الجلال، على أرجل الإجلال، وهامت أرواح العشاق في مقامات الأشواق:

| | |
|---|---|
| كـــل إليـــك بكلـــه مشتـــاق | وعليـــه مـــن رقبـــائـــه أحـــداق |
| يهـــواك مـــا نـــاح الحمـــام بـــأيكـــة | أو لاح بـــرق فـــي الـــدجـــى خفـــاق |
| شـــوق إليـــه لا يـــزال يـــديـــره | فجميعـــه لجميعـــه عشـــاق |

**اشتاق القمر لمشاهدته فانشق، فشق مرائر الأشقياء المشاققين، وحن لمفارقته الجذع فتصدع فانصدعت قلوب الأغبياء المنافقين.**

وبرقت من مشكاة بعثته بوارق طلائع الحقائق، وانقادت لدعوته العامة خاصة خلاصة الخلائق، ولم يزل يجاهد في الله بصادق عزماته، وينظم أشتات الإسلام بعد افتراق جهاته، حتى كملت كمالات دينه وحججه البالغة، وتمت على سائر أمته الأمية نعمته السابغة، وخير فاختار الرفيق الأعلى، وآثر الآخرة على الأولى، فنقله الله قائماً على قدم السلامة، إلى دار السلام وفردوس الكرامة، وبوأه أسنى مراقي التكريم في دار المقامة، ومنحه أعلى مواهب الشرف في اليوم المشهود، فهو الشاهد والمشهود، والمحمود بالمحامد التي يلهمها للحامد المحمود، ذو المنزلة العلية، والدرجة السنية، في حظائر القدس الأقدسية، والمشاهد الأنفسية، واصل الله عليه فضائل الصلوات، وشرائف التسليم، ونوامي البركات، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأبرار، صلاة وسلاماً لا ينقطع عنهما أمد الأمد، ولا يحصرهما العدد أبد الأبد.

وَبَعْد:

فهذه لطيفة من لطائف نفحات العواطف الرحمانية، ومنحة من منح مواهب العطايا الربانية، تنبىء عن نبذة من كمال شرف نبينا محمد ـ عليه أفضل الصلوات وأنمى التسليم وأسنى الصلات ـ وسبق نوبته في الأزمان الأزلية، وثبوت رسالته في الغايات الأحدية، والتبشير بأحمديته في الأعصر الخالية، والتذكير بمحمديته في الأمم الماضية، وإشراق بوارق لوامع أنوار آيات ولادته التي سار ضوء فجرها في سائر بريته، ودار بدر فجرها في أقطار ملته، وعواطف لطائف رضاعه وحضانته، وينابيع أسرار سر مسراه وبعثته وهجرته، وعوارف معارف عبوديته الساري عرف شذاها في آفاق قلوب أهل ولايته،

ونفائس أنفاس أحواله الزكية، ودقائق حقائق سيرته العلية، إلى حين نقلته لروضة قدسه الأحدية، وتشريفه بشرائف الآيات، وتكريمه بكرائم المعجزات، وترفيعه في آي التنزيل برفعة ذكره، وعلو خطره، وتعظيم محاسن شمائله وخلائقه، وتخصيصه بعموم رسالته، ووجوب محبته واتباع طرائقه وسيادته الجامعة لجوامع السؤدد في مشهد مشاهد المرسلين، وتفضيله بالشفاعة العظمى، العامة لعموم الأولين والآخرين، إلى غير ذلك من عجائب آياته ومنحه، وغرائب أعلام نبوته وحججه.

أوردتها حججاً قاهرة على الملحدين، وذكرى نافعة للموحدين، وتنبيهاً لعزائم المهتدين، ولم أكن ـ والله ـ أهلاً لذلك، ولم أر نفسي فيما هنالك، لصعوبة هذا المسلك، ومشقة السير في طريق لم يكن لمثلي يُسلك، وإنما هو نكتة سر قراءتي كتاب الشفا بحضرة التخصيص والاصطفا، في مكتب التأديب والتعليم في مشهد مشاهد المؤانسة والتكريم، مستجلياً في مجالي تجليات الأنوار الأحمدية، محاسن صفات خلقته، وعظيم أخلاقه الزكية، سارياً بسر سيرته في منهاج ملته إلى سماء هديه الأسنى، راتعاً في رياض روضة سنته النزيهة الحسنا، مستمداً من فتح الباري، فيض فضله الساري، فمنحني صاحب هذه المنح من مصون حقائقه، وأبرز لي مما أكنَّه من مكنون رقائقه، فانفتحت بالفتح المحمدي عين بصيرة الاستبصار وتنزه الناظر في رياض ارتياض رقائق الأسرار، فاستجليت من أبكار مخدرات السنة النبوية من كل صورة معناها، واقتبست من تلألؤ مصباح مشكاة المعارف من كل بارقة أضواها، وانتشقت من كل عبقة صوفية شذاها، واجتنيت من أفنان لطائف تأويل آي الكتاب العزيز من كل ثمرة مشتهاها، ولا زلت في جنات لطائف هذه المنح أغدو وأروح، في غبوق وصبوح، حتى انهلت غمائم المعاني على أرض رياض المباني، فأينعت أزهارها، وتكللت بنفائس جواهر العلوم أوراقها، وطابت لمجتني رقائق الحقائق ثمارها، وتدفقت حياض بدائع ألفاظها، بزلال جوامع كلماتها، وخطب خطيب قلوب أبناء الهوى، على منبر الغرام الأقدس، يدعو لكمال محاسن الحبيب الأرأس، فترنحت بسلاف راح الإرتياح نفائس الأرواح، وتمايلت بمطربات ألحان الحنين إلى جمال المحبوب كرائم الأشباح، وزمزم مزمزم الصفا، بحضرة خلاصة أولي الوفا، منشداً مردداً:

| | |
|---|---|
| حضر الحبيب وغاب عنه رقيبه | حسبي نعيم زال عنه حسيبه |
| داوى فؤادي الوصل من أدوائه | طوبى لقلبي والحبيب طبيبه |
| صدق المحب حبيبه في حبه | فحباه صدق الحب منه حبيبه |
| لباه لب فؤاده فأجابه | لما دعاه إلى الغرام وجيبه |

ولجـــامـــع الأهـــواء حيعـــل حبـــه    ولحسنـــه خطـــب القلـــوب خطيبـــه

فلما سمعت هذه المواهب آذان قلوب أولي الألباب، تلفتت عيون أعيانهم لتلخيص خلاصة جوهر هذا الخطاب، في سفر يسفر عن وجه المنح النبوية منيع النقاب، فثنيت عنان القلم إلى تحصيل مآربهم، وتسطير مطالبهم، جانحاً صوب الصواب، مودعاً ما كان مستودعاً لي في غيابات الغيب في هذا الكتاب، مستعيناً في ذلك بالقوي الوهاب، حتى أتاح الله لي ذلك، وتمم ما هنالك، فأوضحت ما خفي من الدليل، ومهدت ما توعر من السبيل.

وسميته: «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» ورتبته على عشرة مقاصد تسهيلاً للسالك والقاصد:

المقصد الأول:

في تشريف الله تعالى له عليه السلام بسبق نبوته في سابق أزليته، ونشره منشور رسالته في مجلس مؤانسته، وكتبه توقيع عنايته في حظائر قدس كرامته، وطهارة نسبه وبراهين أعلام آيات حمله وولادته ورضاعه وحضانته، ودقائق حقائق بعثته وهجرته، ولطائف معارف مغازيه وسراياه وبعوثه وسيرته، مرتباً على السنين من حين نشأته إلى وقت وفاته ونقلته لرياض روضته.

المقصد الثاني:

في ذكر أسمائه الشريفة المنبئة عن كمال أخلاقه المنيفة، وأولاده الكرام الطاهرين وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، وأعمامه، وعماته وإخوته من الرضاعة، وجداته وخدمه ومواليه وحرسه، وكتّابه وكتبه إلى أهل الإسلام في الشرائع والأحكام، ومكاتباته إلى الملوك وغيرهم من الأنام، ومؤذنيه وخطبائه وحداته وشعرائه، وآلات حروبه، ودوابه، والوافدين إليه ﷺ وفيه عشرة فصول.

المقصد الثالث:

فيما فضله الله سبحانه وتعالى به من كمال خلقته، وجمال صورته، وما كرمه به من الأخلاق الزكية وشرفه به من الأوصاف المرضية، وما تدعو ضرورة حياته إليه ﷺ، وفيه ثلاثة فصول.

المقصد الرابع:

في معجزاته الدالة على ثبوت نبوته وصدق رسالته وما اختص به من خصائص آياته وبدائع كراماته. وفيه فصلان.

المقصد الخامس:

في تخصيصه عليه السلام بخصائص المعراج والإسراء، وتعميمه بعموم لطائف التكريم في حضرة التقريب بالمكالمة والمشاهدة والآيات الكبرى.

المقصد السادس:

فيما ورد في آي التنزيل من تعظيم قدره، ورفعة ذكره، وشهادته له تعالى بصدق نبوته، وثبوت بعثته، وقَسَمه تعالى على تحقيق رسالته، وعلو منصبه الجليل ومكانته، ووجوب طاعته واتباع سنته، وأخذه تعالى له الميثاق على سائر النبيين فضلاً ومنة إن أدركوه ليؤمنن به ولينصرنه، والتنويه به في الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل، بأنه صاحب الرسالة والتبجيل. وفيه عشرة أنواع.

المقصد السابع:

في وجوب محبته واتباع سنته، والاهتداء بهديه وطريقته، وفرض محبة آله وأصحابه، وقرابته وعترته، وحكم الصلاة والتسليم عليه، زاده الله فضلاً وشرفاً لديه. وفيه ثلاثة فصول.

المقصد الثامن:

في طبه ﷺ لذوي الأمراض والعاهات، وتعبيره الرؤيا، وإنبائه بالأنباء المغيبات. وفيه ثلاثة فصول.

المقصد التاسع:

في لطيفة من حقائق عباداته، ويشتمل على سبعة أنواع.

المقصد العاشر:

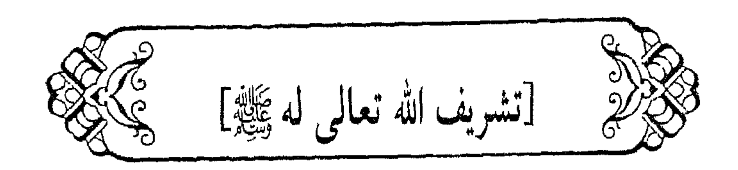
في إتمامه تعالى نعمته عليه بوفاته ونقلته إليه، وزيارة قبره الشريف، ومسجده المنيف، وتفضيله في الآخرة بفضائل الأوليات الجامعة لمزايا التكريم، والدرجات العليات، وتشريفه بخصائص الزلفى في مشهد مشاهد الأنبياء والمرسلين، وتحميده بالشفاعة والمقام المحمود، وانفراده بالسؤدد في مجمع مجامع الأولين والآخرين، وترقيه في جنة عدن أرقى مدارج السعادة، وتعاليه في يوم المزيد أعلى معالي الحسنى وزيادة. وفيه ثلاثة فصول.

والله تعالى جل جده وعز مجده أسأل بوجاهة وجهه الوجيه ونبيه النبيه أن يمدني في هذا الكتاب العزيز بمدد الإقبال والقبول، وينيلني ومن كتبه أو قرأه أو سمعه والمسلمين من العواطف النبوية لطائف السؤل، ونهاية المأمول، وعلى الله قصد السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

# المقصد الأول

- في تشريف الله تعالى له عليه السلام بسبق نبوته في سابق أزليته، ونشره منشور رسالته في مجلس مؤانسته، وكتبه توقيع عنايته في حظائر قدس كرامته.
- وطهارة نسبه ﷺ.
- وبراهين أعلام آيات حمله وولادته.
- ورضاعه وحضانته.
- ودقائق حقائق بعثته.
- وهجرته.
- ولطائف معارف مغازيه وسراياه وبعوثه.
- وسيرته.

مرتباً على السنين من حين نشأته إلى وقت وفاته ونقلته لرياض روضته.



## [تشريف الله تعالى له ﷺ]

اعلم ياذا العقل السليم، والمتصف بأوصاف الكمال والتتميم ـ وفقني الله وإياك بالهداية إلى الصراط المستقيم ـ أنه لما تعلقت إرادة الحق تعالى بإيجاد خلقه، وتقدير رزقه، **أبرز الحقيقة المحمدية من الأنوار الصمدية**[1] في الحضرة الأحدية، ثم سلخ منها العوالم كلها، علوها وسفلها، على صورة حكمه، كما سبق في سابق إرادته وعلمه، ثم أعلمه تعالى بنبوته، وبشره برسالته، هذا وآدم لم يكن إلا ـ كما قال؛ بين الروح والجسد، ثم انبجست منه ﷺ عيون الأرواح، فظهر بالملأ الأعلى، وهو بالمنظر الأجلى، فكان لهم المورد الأحلى، فهو ﷺ الجنس العالي على جميع الأجناس، والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس.

ولما انتهى الزمان باسم الباطن في حقه ﷺ إلى وجود جسمه، وارتباط الروح به، انتقل حكم الزمان إلى الإسم الظاهر، فظهر محمد ﷺ بكليته جسماً وروحاً، فهو ﷺ وإن تأخرت طينته، فقد عرفت قيمته، فهو خزانة السر، وموضع نفوذ الأمر، فلا ينفذ أمر إلا منه، ولا ينقل خير إلا عنه:

---

(١) قال السيوطي في شرح الترمذي: «وأما حديث أولية النور المحمدي فلم يثبت». وأما قول ابن حجر المكي في شرح الأربعين النووية: «إن أولية النور المحمدي أولية مطلقه وأولية ما سواه من الماء والعقل والقلم فنسبية». فباطل لأنه جعل الحديث الصحيح (حديث أولية الماء) تابعاً مرجوحاً لحديث أولية النور الذي هو غير ثابت. والقاعدة الحديثية تقول: إنّ الضعيف إذا عارض الصحيح فلا حاجة إلى تأويل الصحيح من أجل الضعيف. وما ذكر في كتاب مولد العروس الملصق بابن الجوزي «إن الله قبض قبضة من نوره فقال كوني محمداً فكانت محمداً» فما أعظم ضرر هذا الحديث المفترى على الجهال فقد اعتقدوا بسببه أن الله جسم نوراني وأن الرسول جزء منه فكأن هؤلاء لم يسمعوا بقوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ [فصلت: ٦ والكهف: ١١٠] وهذا منشأه ترك النص الثابت من أجل الخبر السقيم والموضوع، واغتر كثير من الناس بشهرة قول إن أول خلق الله نور محمد ﷺ في كتب المدائح والموالد وقد شهر نسبة ذلك إلى عبد الرزاق مع أنه لا وجود له في مصنفه.

| | |
|---|---|
| ألا بـأبـي مـن كـان ملكـاً وسيـداً | وآدم بيـن المـاء والطيـن واقـف |
| فـذاك الـرسـول الأبطحـي محمـد | لـه فـي العـلا مجـد تليـد وطـارف |
| أتـى بـزمـان السعـد فـي آخـر المـدى | وكـان لـه فـي كـل عصـر مـواقـف |
| أتـى لانكسـار الـدهـر يجبـر صـدعـه | فـأثنـت عليـه ألسـن وعـوارف |
| إذا رام أمـراً لا يكـون خـلافـه | وليـس لـذاك الأمـر فـي الكـون صـارف |

أخرج **مسلم**[١] في صحيحه، من حديث **عبد الله بن عمرو بن العاص**[٢]، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله عز وجل كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»[٣].

ومن جملة ما كتب في الذكر ـ وهو أم الكتاب ـ أن محمداً خاتم النبيين [الأحزاب: ٤٠].

وعن **العرباض بن سارية**[٤] عن النبي ﷺ قال: «**إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته**»[٥] رواه **أحمد**[٦] **والبيهقي**[٧]، **والحاكم**[٨]، وقال: صحيح الإسناد.

---

(١) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري أبو الحسين (٢٠٤ ـ ٢٦١ هـ). حافظ من أئمة المحدثين الاعلام ٧/ ٢٢١ تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٨٨ رقم الترجمة (٦١٣) ووفيات الأعيان ٢/ ٩١ تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٠ معجم المطبوعات ١٧٤٥.

(٢) هو عبد الله بن عمرو بن العاص (٧ ق. هـ ـ ٦٥ هـ) صحابي. الأعلام ٤/ ١١١ طبقات ابن سعد ٤/١٩٧ رقم الترجمة (٤٤٧) الإصابة ٤/ ١١١ رقم الترجمة (٤٨٣٨) حلية الأولياء ١/ ٢٨٣ رقم الترجمة (٤٣).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب القدر رقم الحديث (٢٦٥٣).

(٤) هو عرباض بن سارية السلمي أبو نجيح. صحابي مات سنة (٧٥ هـ) وقيل غير ذلك انظر الإصابة ٤/ ٢٣٤ رقم الترجمة (٥٤٩٣) شذرات الذهب ١/ ٨٢.

(٥) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٨٣ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ١٢٧ والحاكم في المستدرك ٢/ ٤١٨ و٦٠٠.

(٦) هو أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ). إمام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة. الاعلام ١/ ٢٠٣ حلية الأولياء ٩/ ١٦١ رقم الترجمة (٤٤٥). وفيات الأعيان ١/ ١٧ تاريخ بغداد ٤/ ٤١٢.

(٧) هو أحمد بن الحسين بن علي البيهقي أبو بكر (٣٨٤ ـ ٤٥٨ هـ) من أئمة الحديث حافظ. الاعلام ١/ ١١٦ شذرات الذهب ٣/ ٣٠٤ طبقات الشافعية ٣/ ٣ المنتظم ١٦/ ٩٧ رقم الترجمة (٣٣٨٧) وفيات الأعيان ١/ ٢٠ بروكلمان ٦/ ٢٢٩ تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٣٢ رقم الترجمة (١٠١٤). معجم المؤلفين ١/ ٢٠٦.

(٨) هو محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي أبو عبد الله (٣٢١ ـ ٤٠٥ هـ) حافظ شهير بالحاكم ويعرف بابن البيع. الأعلام ٦/ ٢٢٧ طبقات الشافعية ٣/ ٦٤ وفيات الأعيان ١/ ٤٨٤ تاريخ بغداد=

وقوله: لمنجدل، يعني: طريحاً ملقى على الأرض قبل نفخ الروح فيه.

وعن **ميسرة الضبي**[1] قال: قلت يا رسول الله، متى كنت نبياً؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد**»[2] هذا لفظ رواية الإمام أحمد. ورواه **البخاري**[3] في تاريخه **وأبو نعيم**[4] في الحلية، وصححه الحاكم.

وأما ما اشتهر على الألسنة بلفظ: كنت نبياً وآدم بين الماء والطين[5]. فقال شيخنا العلامة الحافظ **أبو الخير السخاوي**[6] ـ نفع الله بعلومه ـ في كتابه «**المقاصد الحسنة**»: لم نقف عليه بهذا اللفظ. انتهى.

وقال **الحافظ ابن رجب**[7]، في اللطائف: وبعضهم يرويه: «متى كتبت» من الكتابة، انتهى.

قلت: وكذا رويناه في جزء من حديث أبي عمرو، **إسماعيل بن نجيد**[8]، ولفظه:

---

= ٥/ ٤٧٣. تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٣٩ رقم الترجمة (٩٦٢). شذرات الذهب ٣/ ١٧٦. المنتظم ١٥/ ١٠٩ رقم الترجمة (٣٠٥٩).

(١) هو ميسرة الفجر ذكره البخاري والبغوي وابن السكن وغيرهم في الصحابة وقال الذهبي هو صحابي من أعراب البصرة. يحتمل أنه ضبي ويلقب بالفجر. راجع الإصابة ٦/ ١٤٩ رقم الترجمة (٨٢٧٧) وطبقات ابن سعد ٧/ ٤٢ رقم الترجمة (٢٩٠٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ميسرة الفجر ٥/ ٥٩ وهذا الحديث لا يدل على أوليته ﷺ: بالنسبة لجميع الخلق وإنما يدل على أن الرسول كان مشهوراً بوصف الرسالة بين الملائكة في الوقت الذي لم يتم تكوّن جسد آدم بدخول الروح فيه فليس فيه دليل على أنه «أول المخلوقات».

(٣) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ) إمام في الحديث. صاحب الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري. الاعلام ٦/ ٣٤ تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٥٥ رقم الترجمة (٥٧٨). وفيات الأعيان ١/ ٤٥٥ تاريخ بغداد ٢/ ٤ شذرات الذهب ٢/ ١٣٤. طبقات الشافعية ٢/ ٢ مفتاح السعادة ٢/ ١٣٠ معجم المطبوعات العربية والمعربة صفحة ٥٣٤.

(٤) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني أبو نعيم (٣٣٦ ـ ٤٣٠ هـ) حافظ مؤرخ. الاعلام ١/ ١٥٧ وفيات الأعيان ١/ ٢٦ طبقات الشافعية ٣/ ٧ شذرات الذهب ٣/ ٢٤٥ تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٩٢. رقم الترجمة (٩٩٣). معجم المؤلفين ١/ ٢٨٢.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنتثرة ١٢٦ وفي تنزية الشريعة لابن عراق ٢/ ٣٤١ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١٩١ وفي تذكرة الموضوعات للفتني ٨٦ وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري ٢٧١.

(٦) هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (٨٣١ ـ ٩٠٢ هـ) مؤرخ عالم بالحديث والتفسير والأدب. الاعلام ٦/ ٩٤ الضوء اللامع ٨/ ٢ شذرات الذهب ٨/ ١٥ معجم المطبوعات ١٠١٢.

(٧) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي أبو الفرج زين الدين (٧٣٦ ـ ٧٩٥ هـ). حافظ من العلماء. الاعلام ٣/ ٢٩٥ شذرات الذهب ٦/ ٣٣٩ الدرر الكامنة ٢/ ٣٢١ رقم الترجمة (٣٢٧٦).

(٨) هو إسماعيل بن نجير بن أحمد بن يوسف السلمي النيسابوري. صوفي توفي سنة (٣٦٦ هـ) بمكة. =

متى كتبت نبياً؟ قال: «**كتبت وآدم بين الروح والجسد**».

فتحمل هذه الرواية مع رواية العرباض بن سارية على وجوب نبوته وثبوتها، وظهورها في الخارج، فإن الكتابة تستعمل فيما هو واجب. قال تعالى: ﴿**كتب عليكم الصيام**﴾ [البقرة: ١٨٣]. و ﴿**كتب الله لأغلبن**﴾ [المجادلة: ٢١].

وعن **أبي هريرة**[1] أنهم قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة قال: «**وآدم بين الروح والجسد**» رواه **الترمذي**[2] وقال: حديث حسن.

وروينا في جزء من أمالي أبي سهل القطان عن سهل بن صالح الهمداني، قال: سألت **أبا جعفر، محمد بن علي**[3]، كيف صار محمد ﷺ يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث؟ قال: إن الله تعالى لما أخذ ﴿من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟﴾ [الأعراف: ١٧٢]. كان محمد ﷺ أول من قال بلى، ولذلك صار يتقدم الأنبياء، وهو آخر من بعث.

فإن قلت: إن النبوة وصف لا بد أن يكون الموصوف به موجوداً، وإنما يكون بعد بلوغ أربعين سنة أيضاً، فكيف يوصف به قبل وجوده وإرساله؟

أجاب **العلامة الغزالي**[4] في كتاب «النفخ والتسوية» عن هذا، وعن قوله: «**كنت أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً**»[5]: «بأن المراد بـ «الخلق» هنا: التقدير دون الإيجاد،

---

= الاعلام ١/٣٢٨ المنتظم ١٤/٢٤٨ رقم الترجمة (٢٧٢٧) والبداية والنهاية ١١/٣٠٦ أحداث سنة (٣٦٦ هـ).

(١) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي الملقب بأبي هريرة (٢١ ق. هـ ـ ٥٩ هـ). صحابي. انظر الاعلام ٣/٣٠٨ حلية الأولياء ١/٣٧٦ رقم الترجمة (٨٥) الإصابة. الكنى ٧/١٩٩ رقم الترجمة (١١٧٩).

(٢) هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي أبو عيسى (٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ) من أئمة علماء الحديث وحفاظه. الاعلام ٦/٣٢٢ وتذكرة الحفاظ ٢/٦٣٣ رقم الترجمة (٦٥٨) ـ الفهرست صفحة ٢٣٣ وفيات الأعيان ١/٤٨٤.

(٣) هو محمد بن علي زين العابدين بن الحسين الطالبي الهاشمي القرشي، أبو جعفر الباقر. (٥٧ ـ ١١٤ هـ) له في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال. الأعلام ٦/ ٢٧٠، تذكرة الحفاظ ١/١٢٤ رقم الترجمة (١٠٩) وفيات الأعيان ١/ ٤٥٠ حلية الأولياء ٣/ ١٨٠ رقم الترجمة (٢٣٥).

(٤) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) صوفي، فيلسوف الأعلام ٧/٢٢ وفيات الأعيان ١/٤٦٣ طبقات الشافعية ٤/١٠١ وشذرات الذهب ٤/١٠ والوافي بالوفيات ١/٢٧٧ مفتاح السعادة ٢/١٩١ معجم المطبوعات ١٤٠٨.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الدلائل صفحة ٤٢ وهو في الشفا ١/٤٥ وفي مناهل الصفا صفحة ٣٨ رقم=

فإنه قبل أن ولدته أمه لم يكن موجوداً مخلوقاً، ولكن الغايات والكمالات سابقة في التقدير لاحقة في الوجود».

«قال: وهو معنى قولهم: «أول الفكرة آخر العمل، وآخر العمل أول الفكرة» وبيانه: أن المهندس المقدر للدار، أول ما يمثل في نفسه صورة الدار، فتحصل في تقديره دار كاملة، وآخر ما يوجد من أعماله هي الدار الكاملة، فالدار الكاملة هي أول الأشياء في حقه تقديراً، وآخرها وجوداً، لأن ما قبلها من ضرب اللبنات وبناء الحيطان، وتركيب الجذوع، وسيلة إلى غاية وكمال وهي الدار، فالغاية هي الدار ولأجلها تقوم الآلات والأعمال».

«ثم قال: وأما قوله عليه السلام: (كنت نبياً) فإشارة إلى ما ذكرناه، وأنه كان نبياً في التقدير قبل تمام خلقة آدم عليه السلام، لأنه لم ينشأ خلقُ آدم إلا ليُنتزَعَ من ذريته محمد ﷺ ويستصفى تدريجاً إلى أن يبلغ كمال الصفا».

«قال: ولا تفهم هذه الحقيقة إلا بأن يعلم أن للدار وجودين: وجوداً في ذهن المهندس ودماغه، والوجود الثاني أنه ينظر إلى صورة الدار خارج الذهن في الأعيان، والوجود الذهني سبب الوجود الخارج للعين، فهو سابق لا محالة. وكذلك فاعلم أن الله تعالى يقدر ثم يوجد على وفق التقدير ثانياً»، انتهى.

وهو متعقب بقول الشيخ **تقي الدين السبكي**[1]: «إنه قد جاء أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، فقد تكون الإشارة بقوله: (كنت نبياً) إلى روحه الشريفة، أو إلى حقيقة من الحقائق، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها، وإنما يعلمها خالقها ومن أمده الله بنور إلهي، ثم إن تلك الحقائق يؤتي الله كل حقيقة منها ما يشاء في الوقت الذي يشاء، فحقيقة النبي ﷺ قد تكون من حين خلق آدم آتاها الله ذلك الوصف، بأن يكون خَلَقها متهيئة لذلك، وأفاضه عليها من ذلك الوقت، فصار نبياً، وكتب اسمه على العرش،

---

= الحديث (٤٨). وهو ضعيف ولا يدل على أنه أول خلق الله وإنما فيه أنه أول الأنبياء. ومعلوم أن البشر أولهم آدم الذي هو آخر الخلق باعتبار أنواع العوالم.

ولو صح الحديث لكان معناه أن روحه ﷺ أول أرواح البشر وفرق بين أن يقال أول أرواح البشر وبين أن يقال أول خلق الله لأن بين كتابة القلم على اللوح المحفوظ وبين خلق السموات والأرض خمسين ألف سنة. كما مر.

(١) هو علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري الخزرجي أبو الحسن تقي الدين (٦٨٣ ـ ٧٥٦ هـ) فقيه حافظ مفسر. الاعلام ٤/٣٠٢ طبقات الشافعية ٦/١٤٦ الدرر الكامنة ٣/٦٣ رقم الترجمة (١٤٨).

وأخبر عنه بالرسالة ليعلم ملائكته وغيرهم كرامته عنده».

«فحقيقته موجودة من ذلك الوقت وإن تأخر جسده الشريف المتصف بها، واتصاف حقيقته بالأوصاف الشريفة المفاضة عليه من الحضرة الإلهية حاصل من ذلك الوقت[1]، وإنما يتأخر البعث والتبليغ، وكل ما له من جهة الله ومن جهة تأهل ذاته الشريفة وحقيقته معجل لا تأخر فيه. وكذلك استنباؤه وإيتاؤه الكتاب والحكم والنبوة، وإنما المتأخر تكونه وتنقله إلى أن ظهر ﷺ».

«وقد علم من هذا: أن من فسره بعلم الله بأنه سيصير نبياً لم يصل إلى هذا المعنى، لأن علم الله تعالى محيط بجميع الأشياء. ووصف النبي ﷺ بالنبوة في ذلك الوقت ينبغي أن يفهم منه أنه أمر ثابت له في ذلك الوقت. ولو كان المراد بذلك مجرد العلم بما سيصير في المستقبل لم يكن له خصوصية بأنه نبي وآدم بين الروح والجسد، لأن جميع الأنبياء يعلم الله تعالى نبوتهم في ذلك الوقت وقبله، فلا بد من خصوصية للنبي ﷺ لأجلها أخبر بهذا الخبر إعلاماً لأمته ليعرفوا قدره عند الله تعالى».

وعن **الشعبي**[2]: قال رجل يا رسول الله، متى استنبئت؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد، حين أخذ مني الميثاق**»[3] رواه **ابن سعد**[4]، من رواية **جابر الجعفي**[5]، فيما ذكره ابن رجب.

فهذا يدل على أنه من حين صور آدم طيناً استخرج منه محمد ﷺ ونبىء وأخذ منه الميثاق، ثم أُعيد إلى ظهر آدم حتى يخرج وقت خروجه الذي قدر الله خروجه فيه فهو أولهم خلقاً.

لا يقال: يلزم خلق آدم قبله، لأن آدم كان حينئذ مواتاً لا روح فيه، ومحمد ﷺ

---

(١) انظر شرح المواهب ١/ ٣٨.

(٢) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري أبو عمرو (١٩ ـ ١٠٣ هـ) راوية من التابعين. الأعلام ٣/ ٢٥١ حلية الأولياء ٤/ ٣١٠ رقم الترجمة (٢٧٦) وفيات الأعيان ١/ ٢٤٤ تاريخ بغداد ١٢/ ٢٢٧ طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٩ رقم الترجمة (٢٣١٦) الكاشف ٢/ ٤٩ رقم الترجمة (٢٥٥٦) وتذكرة الحفاظ ١/ ٧٩ رقم الترجمة (٧٦).

(٣) انظر طبقات ابن سعد ٧/ ٤٢.

(٤) هو محمد بن سعد بن منيع الزهري أبو عبد الله (١٦٨ ـ ٢٣٠ هـ) مؤرخ حافظ. الأعلام ٦/ ١٣٦ وفيات الأعيان ١/ ٥٠٧ تاريخ بغداد ٥/ ٣٢١ الوافي بالوفيات ٣/ ٨٨ تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٢٥ رقم الترجمة (٤٣١). والفهرست لابن النديم صفحة (١٤٥).

(٥) هو جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي أبو عبد الله تابعي من فقهاء الشيعة. توفي بالكوفة سنة (١٢٨ هـ). الأعلام ٢/ ١٠٥ ميزان الاعتدال ١/ ١٧٦.

كان حياً حين استخرج ونبىء وأخذ منه الميثاق، فهو أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً.

فإن قلت إن استخراج ذرية آدم منه كان بعد نفخ الروح فيه، كما دل عليه أكثر الأحاديث، والذي تقرر هنا: أنه استخرج ونبىء قبل نفخ الروح في آدم عليه السلام.

أجاب بعضهم: بأنه ﷺ خص باستخراجه من ظهر آدم قبل نفخ الروح. فإن محمداً ﷺ هو المقصود من خلق النوع الإنساني، وهو عينه وخلاصته وواسطة عقده. والأحاديث السابقة صريحة في ذلك، والله أعلم.

وروي عن **علي بن أبي طالب**[1] رضي الله عنه أنه قال: لم يبعث الله تعالى نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ لئن بعث، وهو حي، ليؤمنن به ولينصرنه، ويأخذ العهد بذلك على قومه.

وهو مروي عن **ابن عباس** أيضاً[2] ذكرهما **العماد بن كثير**[3] في تفسيره: [آل عمران: ٨١].

وقيل: إن الله تعالى لما خلق نور نبينا محمد ﷺ أمره أن ينظر إلى أنوار الأنبياء عليهم السلام، فغشيهم من نوره ما أنطقهم الله به فقالوا: يا ربنا، من غشينا نوره؟ فقال الله تعالى: هذا نور محمد بن عبد الله، إن آمنتم به جعلتكم أنبياء، قالوا: آمنا به وبنبوته فقال الله تعالى: أشهد عليكم؟ قالوا: نعم. فذلك قوله تعالى: **﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾** إلى قوله: **﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾** [آل عمران: ٨١].

قال الشيخ تقي الدين السبكي: «في هذه الآية الشريفة من التنويه بالنبي ﷺ وتعظيم

---

(١) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي أبو الحسن (٢٣ق. هـ - ٤٠ هـ) رابع الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين وأحد العشرة المبشرين بالجنة ابن عم النبي ﷺ وصهره. الأعلام ٤/ ٢٩٥ وانظر الكامل في التاريخ حوادث سنة (٤٠) وحلية الأولياء ١/ ٦١ رقم الترجمة (٤) والإصابة ٤/ ٢٧٢ رقم الترجمة (٥٦٩٠).

(٢) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي أبو العباس (٣ ق. هـ - ٦٨ هـ) حبر الأمة. صحابي جليل. الأعلام ٤/ ٩٥ الإصابة ٤/ ٩٠ رقم الترجمة (٤٧٧٢) حلية الأولياء ١/ ٣١٤ رقم الترجمة (٤٥) طبقات المفسرين ١/ ٢٣٩ رقم الترجمة (٢٢٤) تذكرة الحفاظ ١/ ٤٠ رقم الترجمة (١٨) تاريخ بغداد ١/ ١٧٣ الكاشف ٢/ ٩٠ رقم الترجمة (٢٨٣٢).

(٣) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي ثم الدمشقي أبو الفداء عماد الدين (٧٠١ - ٧٧٤ هـ). حافظ مؤرخ فقيه. الأعلام ١/ ٣٢٠، الدرر الكامنة ١/ ٣٧٣ رقم الترجمة (٩٤٤) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١ والبداية والنهاية ١٤/ ٣٢٤ وطبقات المفسرين ١/ ١١١ رقم الترجمة (١٠٣).

(٤) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٧٧ الآية (٨١) من سورة آل عمران.

قدره العلي ما لا يخفى، وفيه مع ذلك: أنه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مرسلاً إليهم، فتكون رسالته ونبوته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته، ويكون قوله: «**وبعثت إلى الناس كافة**»[1] لا يختص به الناس من زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضاً. ويتبين بذلك معنى قوله ﷺ: «**كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد**».

«ثم قال: فإذا عرف هذا فالنبي ﷺ نبي الأنبياء، ولهذا ظهر في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه، وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم. ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به ونصرته. وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم». انتهى وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد لذلك في المقصد السادس.

وذكر العارف الرباني **عبد الله بن أبي جمرة**[2] في كتابه «بهجة النفوس»، ومن قبله **ابن سبع** في «شفاء الصدور»[3] عن **كعب الأحبار**[4]، قال: لما أراد الله تعالى أن يخلق محمداً، أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها، قال: فهبط جبريل في ملائكة الفردوس وملائكة الرقيع الأعلى، فقبض قبضة رسول الله ﷺ من موضع قبره الشريف، وهي بيضاء منيرة، فعجنت بماء التسنيم في معين أنهار الجنة، حتى صارت كالدرة البيضاء، لها شعاع عظيم، ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسي، وفي السماوات والأرض والجبال والبحار، فعرفت الملائكة وجميع الخلق سيدنا محمداً وفضله قبل أن تعرف آدم عليهما السلام[5].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب (١) رقم الحديث (٣٣٥) بلفظ «بعثت إلى الناس عامة» وأخرجه النسائي في كتاب الغسل باب التيمم بالصعيد رقم الحديث (٢٦).

(٢) هو عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي أبو محمد. من العلماء بالحديث مالكي. توفي بمصر سنة (٦٩٥ هـ). الأعلام ٤/٨٩ الديباج المذهب ١٤٠ (بالهامش) وفيه وفاته سنة (٦٩٩ هـ) وانظر بروكلمان ٦/ ٢٨٢.

(٣) انظر كشف الظنون ٢/ ١٠٥٠.

(٤) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري أبو إسحاق. تابعي توفي في حمص سنة (٣٢ هـ). الأعلام ٥/٢٢٨ تذكرة الحفاظ ١/ ٥٢ رقم الترجمة (٣٣) وحلية الأولياء ٥/ ٣٦٤ رقم الترجمة (٣٢٥) وطبقات ابن سعد ٧/٣٠٩ رقم الترجمة (٣٨٢٨).

(٥) قال بعض العلماء: «وهذا لا يقال من قبل الرأي». وقال الزرقاني: «. . . يعني فهو إما عن الكتب القديمة لأنه حبرها أو عن المصطفى بواسطة فهو مرسل وتضعيف بعض المتأخرين جداً له باحتمال أنه من الكتب القديمة وقد بدلت غير مسموع فإن التضعيف إنما هو من جهة السند لأنه المرقاة كما=

وقيل: لما خاطب الله تعالى السماء والأرض بقوله: ﴿**ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين**﴾ [فصلت: ١١]. أجاب موضع الكعبة الشريفة، ومن السماء ما يحاذيها. وقد قال ابن عباس: أصل طينة رسول الله ﷺ من سرة الأرض بمكة. فقال بعض العلماء: هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض إلا درة المصطفى محمد ﷺ، ومن موضع الكعبة دحيت الأرض فصار رسول الله ﷺ هو الأصل في التكوين، والكائنات تبع له. وقيل: لذلك سمي أمياً لأن مكة أم القرى، ودرته أم الخليقة.

فإن قلت: تربة الشخص مدفنه، فكان مقتضى هذا أن يكون مدفنه عليه الصلاة والسلام بمكة، حيث كانت تربته منها.

فقد أجاب عنه صاحب **عوارف المعارف**(١) ـ أفاض الله علينا من عوارفه، وتعطف علينا بعواطفه ـ بأنه قيل: إن الماء لما تموج رمى الزبد إلى النواحي، فوقعت جوهرة النبي ﷺ إلى ما يحاذي تربته بالمدينة، فكان ﷺ مكياً مدنياً، حنينه إلى مكة وتربته بالمدينة انتهى.

وفي «المولد الشريف» **لابن طغر بك**(٢): ويروى أنه لما خلق الله تعالى آدم، ألهمه أن قال: يا رب، لم كنيتني أبا محمد، قال الله تعالى: يا آدم ارفع رأسك، فرفع رأسه فرأى نور محمد ﷺ في سرادق العرش، فقال: يا رب، ما هذا النور؟ قال: هذا نور نبي من ذريتك اسمه في السماء أحمد، وفي الأرض محمد، لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضاً.

ويشهد لهذا، ما رواه الحاكم في صحيحه أن آدم عليه السلام رأى اسم محمد ﷺ مكتوباً على العرش(٣)، وأن الله تعالى قال لآدم لولا محمد ما خلقتك.

ولله در **القائل**:

وكـان لـدى الفـردوس فـي زمـن الـرضـى    وأثـواب شمـل الأنـس محكمـة السـدى

= هو معلوم عند من له أدنى إلمام بالفن وليس كل ما ينقل من الكتب القديمة مردوداً بمثل هذا الاحتمال. انظر شرح المواهب ١/ ٤٢ وما بعدها.

(١) هو عمر بن محمد بن عبد الله ابن عمويه أبو حفص شهاب الدين القرشي التيمي البكري السهروردي (٥٣٩ ـ ٦٣٢ هـ) فقيه شافعي مفسر واعظ صوفي. الأعلام ٥/ ٦٢ وفيات الأعيان ١/ ٣٨٠ شذرات الذهب ٥/ ١٥٣ وطبقات الشافعية ٥/ ١٤٣ وطبقات المفسرين ٢/ ١٢ رقم الترجمة (٣٩٢).

(٢) هو عمر بن أيوب بن عمر بن أرسلان سيف الدين أبو جعفر المعروف بابن طغروبك الدمشقي التركي الحنفي. فاضل من آثاره: الدرر النظيم في مولد النبي الكريم. توفي سنة (٦٧٠ هـ). انظر هدية العارفين ١/ ٧٨٧ ومعجم المؤلفين ٧/ ٢٧٨.

(٣) انظر اللآليء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١/ ٢٩٧ وانظر مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٤١.

يشاهد في عدن ضياء مشعشعاً يزيد على الأنوار في الضوء والهدى
فقال إلهي ما الضياء الذي أرى جنود السما تعشو إليه تردداً
فقال نبي خير من وطىء الثرى وأفضل من في الخير راح أو اغتدى
تخيرته من قبل خلقك سيداً وألبسته قبل النبيين سؤدداً[1]

فإن قلت: إن **مذهب الأشاعرة**[2]: أن أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض، فكيف تكون خلقة محمد علة في خلق آدم صلى الله عليهما وسلم؟

أجيب: بأن الظاهرة من الأدلة تعليل بعض الأفعال بالحكم والمصالح التي هي غايات ومنافع لأفعاله تعالى، لا بواعث على إقدامه، ولا علل مقتضية لفاعليته، لأن ذلك محال في حقه تعالى، لما فيه من استكماله بغيره. والنصوص شاهدة بذلك، كقوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: قرنت الخلق بالعبادة، أي خلقتهم وفرضت عليهم العبادة، فالتعليل لفظي لا حقيقي، لأن الله تعالى مستغن عن المنافع، فلا يكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره، لأن الله قادر على إيصال المنفعة إلى الغير من غير واسطة العمل.

وروى **عبد الرزاق**[3] بسنده عن **جابر بن عبد الله الأنصاري**[4] قال: قلت يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء. قال: يا جابر، إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم، ولا جنة ولا نار، ولا ملك ولا سماء، ولا أرض ولا شمس ولا قمر، ولا جني ولا أنسي، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش. ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول

---

(١) عزاه صاحب مصباح الظلام لصالح بن حسين الشاعر.

(٢) نسبة لأبي الحسن الأشعري وهو علي بن إسماعيل بن إسحاق (٢٦٠ ـ ٣٢٤ هـ) مؤسس مذهب الأشاعرة. الأعلام ٤/ ٢٦٣ طبقات الشافعية ٢/ ٢٤٥ وفيات الأعيان ١/ ٣٢٦ ومعجم المطبوعات (٤٥١).

(٣) هو عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري أبو بكر الصنعاني (١٢٦ ـ ٢١١ هـ) حافظ ثقة الأعلام ٣/ ٣٥٣ وفيات الأعيان ١/ ٣٠٣ تذكرة الحفاظ ١/ ٣٦٤ رقم الترجمة (٣٥٧) شذرات الذهب ٢/ ٢٧ وطبقات المفسرين ١/ ٣٠٢ رقم الترجمة (٢٧٨) طبقات ابن سعد ٦/ ٧٤ رقم الترجمة (١٧٧٥).

(٤) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي (١٦ ق. هـ ـ ٧٨ هـ) صحابي كثير الرواية. الأعلام ٢/ ١٠٤ الإصابة ١/ ٢٢٢ رقم الترجمة (١٠٢٢) شذرات الذهب ١/ ٨٤. تذكرة الحفاظ ١/ ٤٣ رقم الترجمة (٢١).

حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السماوات، ومن الثاني الأرضين ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم ـ وهي المعرفة بالله ـ ومن الثالث نور أنسهم، وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله[1]. .

وقد اختلف: هل القلم أول المخلوقات بعد النور المحمدي؟

فقال الحافظ **أبو يعلى الهمداني**[2]: الأصح أن العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**»[3]، فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش. والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث **عبادة بن الصامت**[4]، مرفوعاً: «**أول ما خلق الله القلم قال له اكتب، قال: رب، وما أكتب، قال: اكتب مقادير كل شيء**»[5] رواه أحمد، والترمذي وصححه.

ورويا أيضاً من حديث **أبي رزين العقيلي**[6] مرفوعاً: «**إن الماء خلق قبل العرش**»[7].

---

(١) قال المحدث أحمد الغماري في كتاب «المغير على الجامع الصغير» هذا الحديث موضوع وهو جدير بكونه موضوعاً. وهذا الحديث لا وجود له في مصنف عبد الرزاق.

(٢) هو الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن سهل العطار أبو العلاء الهمذاني (٤٨٨ ـ ٥٦٩ هـ) إمام العراقين في القراءات له باع في التفسير والحديث والأنساب والتواريخ. الأعلام ٢/ ١٨١ طبقات المفسرين ١/ ١٣٢ رقم الترجمة (١٢٧) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٢٤ رقم الترجمة (١٠٩٣) معجم الأدباء ٢/ ٤٣٢ رقم الترجمة (٣٠٥) المنتظم ١٨/ ٢٠٨ رقم الترجمة (٤٢٩٩) شذرات الذهب ٤/ ٢٣١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر (١٦ ـ رقم الحديث ٢٦٥٣) وانظر الدر المنثور ٣/ ٣٢٢.

(٤) هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أبو الوليد (٣٨ ـ ق. هـ ـ ٣٤ هـ) صحابي كان أحد النقباء. الأعلام ٣/ ٢٥٨ الإصابة ٤/ ٢٧ رقم الترجمة (٤٤٨٨).

(٥) أخرجه الترمذي كتاب القدر باب (١٧) رقم الحديث (٢١٥٥) وفي تفسير سورة (٦٨ ـ القلم) باب (٦٦) رقم الحديث (٣٣١٩) وفي مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٣١٧ وأبو داوود كتاب السنة باب في القدر رقم الحديث (٤٧٠٠).

(٦) هو لقيط بن عامر بن المنتفق بن عامر بن عقيل بن عامر العامري أبو رزين العقيلي. صحابي. انظر الإصابة ٦/ ٨ رقم الترجمة (٧٥٤٩) والكاشف ٣/ ١٢ رقم الترجمة (٤٧٥٨).

(٧) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب (١٢) سورة هود رقم الحديث (٣١٠٩). وانظر البخاري كتاب بدء الخلق باب (١). وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ١١ و ١٢.

وروى السدي[1] بأسانيد متعددة: «أن الله تعالى لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء»[2] فيجمع بينه وبين ما قبله، بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا النور النبوي المحمدي والماء

---

(١) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي تابعي حجازي الأصل توفي سنة (١٢٨ هـ). الأعلام ١/٣١٧ والكاشف ١/٧٥ رقم الترجمة (٣٩٤) وفيه أنه توفي سنة (١٢٧ هـ).

(٢) قال الله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ [الأنبياء: ٣٠]

وروى البخاري وابن الجارود والبيهقي من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه قال:
أتى أناس من أهل اليمن إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله جئناك لنتفقه في الدين فأنبئنا عن بدء هذا الأمر ما كان؟ قال: كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض. وفي رواية ابن الجارود: «عن أول هذا الأمر». وهو أيضاً رواية للبخاري. وفي رواية البيهقي من طريق أبي معاوية: «كان الله قبل كل شيء» فقوله ﷺ: «كان الله» أي لم يزل موجوداً في الأزل ليس معه غيره. وقوله: «وكان عرشه على الماء» أي وجد وحدث عرشه على الماء أي أن الماء والعرش أول خلق الله. وأولهما وجوداً الماء. فالماء أصل لغيره والماء خلق من غير أصل فبداية العالم من غير مادة ولا يحيل العقل وجود أصل العالم من العدم من غير مادة والقول بأن العالم هيولى أزلية يلزم منه المحال الذي هو التسلسل أو الدور المحالان.
هذا الحديث رواه البخاري في كتاب «التوحيد» بلفظ: «ولم يكن شيء قبله».
قال الحافظ ابن حجر وفي رواية غير البخاري «ولم يكن شيء معه» والقصة متحدة فاقتضى ذلك أن الرواية بالمعنى. ولعل راويها: [أي راوي رواية كتاب «التوحيد»: كان الله ولم يكن شيء قبله]. أخذها من قوله ﷺ في دعائه في صلاة الليل من حديث ابن عباس:
«أنت الأول فليس قبلك شيء». لكن رواية الباب هي: «ولم يكن شيء غيره» أصرح في القدم وفيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره لا الماء ولا العرش ولا غيرهما لأن كل ذلك غير الله. ويكون قوله «كان عرشه على الماء» معناه أنه خلق الماء سابقاً ثم خلق العرش على الماء. وقد وقع في قصة نافع بن زيد الحميري بلفظ:
«كان عرشه على الماء ثم خلق القلم فقال اكتب ما هو كائن ثم خلق السموات والأرض وما فيهن».
وقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء».
قال الحافظ والمرادبكان في الأول الأزلية وفي الثاني الحدوث. انتهى وقد روى ابن حبان وابن ماجه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «كل شيء خلق من الماء».
ولفظ ابن حبان: «قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فأنبئني عن كل شيء. قال إن الله تعالى خلق كل شيء من الماء وفي لفظ: «كل شيء خلق من الماء».
قال الحافظ: روى السدي في تفسيره بأسانيد متعددة عن جماعة من الصحابة:
«أن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء» وأما ما رواه أحمد والترمذي من حديث عبادة بن الصامت عن النبي قال: «أول ما خلق الله القلم ثم قال أكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة». فجمع بينه وبين ما قبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش أو بالنسبة إلى ما صدر من الكتابة أي أنه قيل له أول ما خلق.

والعرش، انتهى. وقيل: الأولية في كل بالإضافة إلى جنسه، أي أول ما خلق الله من الأنوار نوري، وكذا في باقيها.

وفي أحكام ابن القطان[1]، مما ذكره ابن مرزوق[2]، عن **علي بن الحسين**[3] عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: **«كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام»**[4].

وفي الخبر: لما خلق الله آدم جعل ذلك النور في ظهره فكان يلمع في جبينه، فيغلب على سائر نوره، ثم رفعه الله على سرير مملكته وحمله على أكتاف ملائكته وأمرهم فطافوا به في السماوات ليرى عجائب ملكوته.

قال جعفر بن محمد: مكثت الروح في رأس آدم مئة عام، وفي صدره مئة عام وفي ساقيه وقدميه مئة عام، ثم علمه الله تعالى أسماء جميع المخلوقات، ثم أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس، فطرده الله تعالى وخزاه.

وكان السجود لآدم سجود تعظيم وتحية، لا سجود عبادة، كسجود أخوة يوسف له، فالمسجود له في الحقيقة هو الله تعالى، وآدم كالقبلة.

وروي عن **جعفر الصادق**[5] أنه قال: كان أول من سجد لآدم جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقربون.

وعن **أبي الحسن النقاش**[6]: أول من سجد إسرافيل، قال ولذا جوزي بتولية اللوح المحفوظ.

---

(١) هو علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي أبو الحسن ابن القطان (٥٦٢ ـ ٦٢٨ هـ) حافظ ناقد، الاعلام ٣٣١/٤ شذرات الذهب ١٢٨/٥ معجم المطبوعات ٢١٥.

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي أبو عبد الله شمس الدين (٧١٠ ـ ٧٨١ هـ) فقيه خطيب من أعيان تلمسان. الأعلام ٣٢٨/٥ شجرة النور ٤٣٦ نيل الإبتهاج هامش الديباج (٢٦٧).

(٣) هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي أبو الحسن الملقب بزين العابدين (٣٨ ـ ٩٤ هـ) تابعي. الأعلام ٢٧٧/٤ وفيات الأعيان ٣٢٠/١ طبقات ابن سعد ١٦٢/٥ رقم الترجمة (٧٥٥) حلية الأولياء ١٣٣/٣ رقم الترجمة (٢٢٩).

(٤) انظر كشف الخفاء للعجلوني ١٨٨/١ و ٣١٢.

(٥) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي أبو عبد الله الملقب بالصادق (٨٠ ـ ١٤٨ هـ) تابعي من سادات أهل البيت. الأعلام ١٢٦/٢ وفيات الأعيان ١٠٥/١ حلية الأولياء ١٩٢/٣ رقم الترجمة (٢٣٦).

(٦) هو علي بن عيسى بن هبة الله أبو الحسن مهذب الدين ابن النقاش عالم بالطب أديب له مشاركة في الحديث توفي سنة (٥٧٤ هـ) في دمشق. الأعلام ٣١٨/٤ طبقات الأطباء ١٦٢/٢.

وعن ابن عباس: كان السجود يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر.

ثم خلق الله تعالى له حواء زوجته من ضلع من أضلاعه اليسرى، وهو نائم، وسميت حواء لأنها خلقت من حي، فلما استيقظ ورآها سكن إليها، فقالت الملائكة مه يا آدم، قال: ولم وقد خلقها الله لي؟ فقالوا: حتى تؤدي مهرها، قال: وما مهرها؟ قالوا: تصلي على محمد ﷺ ثلاث مرات.

وذكر **ابن الجوزي**[1] في كتابه «سلوة الأحزان»: أنه لما رام القرب منها طلبت منه المهر، فقال: يا رب، وماذا أعطيها، فقال: يا آدم صل على حبيبي محمد بن عبد الله عشرين مرة، ففعل.

ثم إن الله تعالى أباح لهما نعيم الجنة، ونهاهما عن شجرة الحنطة، وقيل: شجرة العنب، وقيل: شجرة التين، فحسدهما إبليس، فهو أول من حسد وتكبر، فأتى إلى باب الجنة فاحتال حتى دخل الجنة، وأتى إلى آدم وحواء، فوقف وناح نياحة أحزنتهما، فهو أول من ناح، فقالا: ما يبكيك؟ قال: عليكما، تموتان وتفقدان النعيم، ألا أدلكما على شجرة الخلد، فكلا منها، وحلف لهما أنه ناصح، فهو أول من حلف كاذباً، وأول من غش.

فأكلت حواء منها، ثم زينت لآدم حتى أكل، وظنا أن أحداً لا يتجاسر أن يحلف بالله كاذباً، فقال الله تعالى: يا آدم، ألم يكن فيما أبحتك من الجنة مندوحة عن الشجرة؟! قال: بلى يا رب وعزتك، ولكن ظننت أن أحداً لا يحلف بك كاذباً، قال الله: وعزتي وجلالي، لأهبطنك إلى الأرض، لا تنال العيش إلا كداً، فأهبط من الجنة.

وعن ابن عباس: قال الله تعالى: يا آدم، ما حملك على ما صنعت؟ قال: زينته لي حواء، قال: فإني أعقبها أن لا تحمل إلا كرها، ولا تضع إلا كرهاً، ولأدمينها في الشهر مرتين.

وقال وهب بن منبه[2]: لما أهبط آدم إلى الأرض مكث يبكي ثلاثمائة سنة لا يرقأ له دمع.

---

(١) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج (٥٠٨ ـ ٥٩٧ هـ) عالم في التاريخ والحديث توفي ببغداد. الأعلام ٣/٣١٦ وفيات الأعيان ١/٢٧٩ مفتاح السعادة ١/٢٠٧.

(٢) هو وهب بن منبه الأنباري الصنعاني الذماري أبو عبد الله (٣٤ ـ ١١٤ هـ) مؤرخ كثير الأخبار عن الكتب القديمة يعد في التابعين توفي بصنعاء. الأعلام ٨/١٢٥ شذرات الذهب ١/١٥٠ وفيات الأعيان ٢/١٨٠ طبقات ابن سعد ٦/٧٠ رقم الترجمة (١٧٥٥) حلية الأولياء ٤/٢٣ رقم الترجمة (٢٥٠). كشف الظنون ١٣٢٨.

وقال المسعودي[1]: لو أن دموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم أكثر حين أخرجه الله من الجنة.

وقال مجاهد[2]: بكى آدم مائة عام لا يرفع رأسه إلى السماء، وأنبت الله من دموعه العود الرطب والزنجبيل والصندل وأنواع الطيب، وبكت حواء حتى أنبت الله من دموعها القرنفل والأفاوى.

يا بني آدم، انظروا كيف بكى أبوكم على فعلة واحدة ثلاثمائة سنة، فكيف بكم يا أرباب الكبائر العظيمة؟ فاعتبروا يا أولي الأبصار، كان كلما رأى الملائكة تصعد وتهبط ازداد شوقاً إلى الأوطان، وتذكر العهد والجيران، يا أصحاب الذنوب احذروا زلة يقول فيها الحبيب: هذا فراق بيني وبينك، فياذا العقل السليم، انظر كيف جلس أبوك آدم على سرير المملكة، فمديده إلى لقمة نهي عنها فأخرج من الجنة، فاحذروا يا بنيه عواقب المعاصي فإنها من نزلت به نزلت به وحطته عن مرتبته.

فإن قلت: هذه الفعلة التي أهبط بها آدم من الجنة، إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء، وإن كانت صغيرة فلم جرى عليه ما جرى بسببها، من نزع اللباس والإخراج من الجنة وغير ذلك؟

أجاب الزمخشري[3]: بأنها ما كانت إلا صغيرة، مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجل الطاعات، وأعظم الأعمال، وإنما جرى عليه ما جرى تعظيماً للخطيئة، وتفظيعاً لشأنها وتهويلاً، ليكون ذلك لطفاً له ولذريته في اجتناب الخطايا، واتقاء المآثم.

يا هذا، انظر كم لله من لطف وحكمة في إهباط آدم من الجنة إلى الأرض، لولا نزوله لما ظهر جهاد المجاهدين، واجتهاد العابدين المجتهدين، ولا صعدت زفرات

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود الهذلي المسعودي أخو أبو العميس توفي سنة (١٦٠ هـ) الكاشف ٢/ ١٥٢ رقم الترجمة (٣٢٨١) شذرات الذهب ١/ ٢٤٧.

(٢) هو مجاهد بن جبير أبو الحجاج المكي مولى بني مخزوم (٢١ ـ ١٠٤ هـ) تابعي مفسر شيخ القراء. الأعلام ٥/ ٢٧٨ حلية الأولياء ٣/ ٢٧٩ رقم الترجمة (٢٤٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٩٢ رقم الترجمة (٨٣) معجم الأدباء ٥/ ٥٣ رقم الترجمة (٧٥٦).

(٣) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري جار الله أبو القاسم (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ) معتزلي مجاهر. توفي في الجرجانية من قرى خوارزم. الأعلام ٧/ ١٧٨ وفيات الأعيان ٢/ ٨١ معجم الأدباء ٥/ ٤٨٩ رقم الترجمة (٩٤٥) أنباه الرواة ٣/ ٢٦٥. مفتاح السعادة ٢/ ٩٧ المنتظم ١٨/ ٣٧ رقم الترجمة (٤١٠٤) طبقات المفسرين ٢/ ٣١٤ رقم الترجمة (٦٢٥) مرآة الجنان ٢/ ٢٦٩.

أنفاس التائبين، ولا نزلت قطرات دموع المذنبين، يا آدم إن كنت أهبطت من دار القرب فإني قريب، أجيب دعوة الداع، إن كان حصل لك بالإخراج من الجنة كسر فأنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، وإن كان فاتك في السماء زجل المسبحين فقد تعوضت في الأرض أنين المذنبين، أنين المذنبين أحب إلينا من تسبيحهم، زجل المسبحين ربما يشوبه الافتخار، وأنين المذنبين يزينه الانكسار، «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم**»[(١)].

سبحان من إذا لطف بعبده في المحن قلبها منحاً، وإذا خذل عبداً لم ينفعه كثرة اجتهاده وكان عليه وبالاً، لقن الله آدم حجته، وألقى عليه ما تقبل به توبته، وطرد إبليس اللعين بعد طول خدمته، فصار عمله هباء منثوراً، قال: اخرج منها ﴿**فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين**﴾ [الحجر: ٣٤ و ٣٥] إذا وضع عدله على عبد لم يبق له حسنة، وإذا بسط فضله على عبد لم يبق له سيئة.

انظر لما ظهرت فضائل آدم عليه الصلاة والسلام على الخلائق بالعلم، وكان العلم لا يكمل إلا بالعمل بمقتضاه، والجنة ليست دار عمل ومجاهدة، إنما هي دار نعيم ومشاهدة، قيل له: يا آدم اهبط إلى أرض الجهاد، وصابر جنود الهوى بالجد والاجتهاد، وكأنك بالعيش الماضي وقد عاد على أكمل من ذلك المعتاد.

ولما أظهر إبليس ـ عليه اللعنة ـ الحسد، سعى في الأذى، حتى كان سبباً في إخراج السيد آدم من الجنة، وما فهم الأبله أن آدم إذا خرج من الجنة كملت فضائله، ثم عاد إلى الجنة على أكمل من الحال الأول.

قالوا: وفيه إشارة، كأنه تعالى يقول: لو غفرت في الجنة لما تبين كرمي، بأني أغفر لنفس واحدة، بل أخرجه إلى الدنيا، وآتي بألوف من العصاة حتى أغفر له ولهم ليتبين جودي وكرمي. وأيضاً: علم الله تعالى أن في صلبه الأولاد، والجنة ليست دار توالد، وأيضاً: ليخرج من ظهره في الدنيا من لا نصيب له في الجنة.

يا هذا، الجنة إن شاء الله إقطاعنا. وقد وصل منشور الإقطاع مع جبريل عليه الصلاة والسلام إلى نبينا ﷺ ﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ [البقرة: ٢٥]، إنما يخرج الإقطاع عمن خرج عن الطاعة، نسأل الله التوفيق.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب التوبة باب (١١) حديث رقم (٩) ـ (٢٧٤٩) والترمذي كتاب صفة الجنة باب (٢) رقم الحديث (٢٥٢٦). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٠٩.

وقد اختلف في الجنة التي سكنها آدم.

فقيل: هي جنة الخلد.

وقيل غيرها، جعلها الله دار ابتلاء، لأن جنة الخلد إنما يدخل إليها يوم القيامة، ولأنها دار جزاء وثواب لا دار تكليف وأمر ونهي، ودار سلامة لا دار ابتلاء وامتحان، ودار قرار لا دار انتقال.

واحتج القائلون بأنها جنة الخلد، بأن الدخول العارض قد يقع قبل يوم القيامة، وقد دخلها نبينا عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء، وبأن ما ذكروه من أن الجنة لا يوجد فيها ما وجده آدم من الحزن والنصب فإنما هو إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة، كما يدل عليه سياق الآيات كلها، فإن نفي ذلك مقرون بدخول المؤمنين إياها، والله أعلم، انتهى.

وروي أنه لما خرج آدم من الجنة رأى مكتوباً على ساق العرش وعلى كل موضع في الجنة اسم محمد ﷺ مقروناً باسم الله تعالى، فقال يا رب هذا محمد من هو؟ فقال الله: هذا ولدك الذي لولاه ما خلقتك. فقال: يا رب بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد، فنودي: يا آدم، لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السماوات والأرض لشفعناك.

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب، أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: لأنك يا رب لما خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقه قد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك**»[1] رواه البيهقي في دلائله من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[2] وقال تفرد به عبد الرحمن ورواه الحاكم وصححه، وذكره الطبراني[3] وزاد فيه: وهو آخر الأنبياء من ذريتك.

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٨٩ والمستدرك ٢/ ٦١٥.

(٢) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي العمري مولاهم المدني. توفي سنة (١٨٢ هـ) شذرات الذهب ١/ ٢٩٧ والكاشف ٢/ ١٤٦ رقم الترجمة (٣٢٣٧) خلاصة تهذيب الكمال ١٩٢. ميزان الإعتدال ٢/ ٥٦٤.

(٣) هو سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبو القاسم (٢٦٠ ـ ٣٦٠ هـ) محدث، مفسر توفي بأصبهان. الأعلام ٣/ ١٢١، وفيات الأعيان ١/ ٢١٥، شذرات الذهب ٣/ ٣٠ تذكرة الحفاظ ٣/ ٩١٢ رقم الترجمة (٨٧٥) طبقات المفسرين ١/ ٢٠٤ رقم الترجمة (١٩٤)، المنتظم ١٤/ ٢٠٦ رقم الترجمة (٢٦٩١)، مرآة الجنان ٢/ ٣٧٢.

وفي حديث سلمان[1] عند ابن عساكر[2] قال: «**هبط جبريل على النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول: إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً، فقد اتخذتك حبيباً، وما خلقت خلقاً أكرم علي منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا**»[3].

ولله در سيدي علي وفا[4] حيث قال في قصيدته التي أولها:

سكــن الفؤاد فعش هنيئــاً يــا جســد ... هــذا النعيــم هــو المقيــم إلــى الأبــد

روح الــوجــود حيــاة مــن هــو واجــد ... لــولاه مــا تــم الــوجــود لمــن وجــد

عيســـى وآدم والصـــدور جميعهـــم ... هـــم أعيـــن هـــو نـــورهـــا لمـــا ورد

لـــو أبصـــر الشيطـــان طلعـــة نـــوره ... فـــي وجـــه آدم كـــان أول مـــن سجـــد

أو لـــو رأى النمـــروذ نـــور جمـــالـــه ... عبـــد الجليـــل مـــع الخليـــل ولا عنـــد

لكـــن جمـــال الله جـــل فـــلا يـــرى ... إلا بتخصيـــــص مـــــن الله الصمـــــد

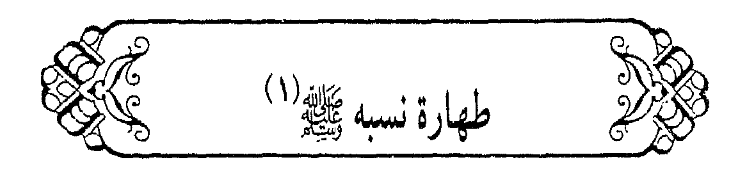
---

(١) هو سلمان الفارسي أبو عبد الله صحابي توفي في المدائن سنة (٣٦ هـ). الأعلام ٣/ ١١١ الإصابة ٣/ ١١٣ رقم الترجمة (٣٣٥٠) حلية الأولياء ١/ ١٨٥ رقم الترجمة (٣٤) طبقات ابن سعد ٧/ ٥٦ رقم الترجمة (٣٥٩) شذرات الذهب ١/ ٤٤.

(٢) هو القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله أبو محمد ابن عساكر (٥٢٧ ـ ٦٠٠ هـ) محدث حافظ. الأعلام ٥/ ١٧٨ طبقات الشافعية ٥/ ١٤٨ شذرات الذهب ٤/ ٣٤٧ تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٦٧ رقم الترجمة (١١١٠).

(٣) انظر تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٣٢٣.

(٤) هو علي بن محمد بن محمد بن وفا أبو الحسن القرشي الأنصاري الشاذلي المالكي (٧٥٩ ـ ٨٠٧ هـ) متصوف، توفي بالقاهرة. الأعلام ٥/ ٧ الضوء اللامع ٦/ ٢١ رقم الترجمة (٤٦).



## طهارة نسبه ﷺ(١)

ولما خلق الله تعالى حواء لتسكن إلى آدم ويسكن إليها، فحين صار لديها فاضت بركاته عليها، فولدت له في تلك الأعوام الحسناء أربعين ولداً في عشرين بطناً، ووضعت شيئاً وحده، كرامة لمن أطلع الله تعالى بالنبوة سعده.

ولما توفي آدم، كان شيث ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصياً على ولده، ثم أوصى شيث ولده بوصية آدم: أن لا يضع هذا النور إلا في المطهرات من النساء، ولم تزل هذه الوصية جارية، تنقل من قرن إلى قرن، إلى أن أدى الله النور إلى عبد المطلب وولده عبد الله، وطهر الله سبحانه هذا النسب الشريف من سفاح الجاهلية، كما ورد عنه ﷺ في الأحاديث المرضية.

قال ابن عباس ـ فيما رواه البيهقي في سننه ـ قال رسول الله ﷺ **«ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح الإسلام»**(٢).

والسفاح ـ بكسر السين المهملة ـ: الزنا، والمراد به هاهنا: أن المرأة تسافح رجلاً مدة، ثم يتزوجها بعد ذلك.

وروى ابن سعد وابن عساكر عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي(٣)، عن أبيه قال: كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أم، فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان في أمر الجاهلية.

وعن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال: **«خرجت من نكاح، ولم أخرج من**

---

(١) انظر زاد المعاد بشرح المواهب ١/٤٨.

(٢) اخرجه البيهقي في سننه ٧/ ١٩٠ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/٣٩٩ وكنز العمال (٣٢٠١٨).

(٣) هو هشام بن محمد أبي النضر ابن السائب ابن بشر الكلبي أبو المنذر مؤرخ عالم بالأنساب وأخبار العرب توفي في الكوفة سنة (٢٠٤ هـ). الأعلام ٨/ ٨٧ وفيات الأعيان ٢/ ١٩٥ ومعجم الأدباء ٥/ ٥٩٥ رقم الترجمة (١٠١٦) مرآة الجنان ٢/ ٢٩ تاريخ بغداد ١٤/ ٤٥.

**سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يصبني من نكاح أهل الجاهلية شيء»**[1] رواه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم وابن عساكر.

وروى أبو نعيم، عن ابن عباس، مرفوعاً: **«لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذباً، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما»**[2].

وعنه في قوله تعالى: **﴿وتقلبك في الساجدين﴾** [الشعراء: ٢١٩]. قال: من نبي إلى نبي حتى أخرجتك نبياً[3]. رواه البزار[4].

وعنه أيضاً في الآية قال: ما زال النبي ﷺ يتقلب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه. رواه أبو نعيم.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه، في قوله تعالى: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾** [التوبة: ١٢٨] قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، قال: وقال النبي ﷺ: **«خرجت من نكاح غير سفاح»**.

وعن أنس[5] قال: قرأ رسول الله ﷺ **﴿لقد جاءكم رسول من أنفَسكم﴾** ـ بفتح الفاء ـ وقال: أنا أنفسكم نسباً وطهراً وحسباً، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح، كلنا نكاح. رواه ابن مردوية[6].

وفي الدلائل لأبي نعيم، عن عائشة عنه ﷺ عن جبريل قال: **«قلبت مشارق الأرض ومغاربها، فلم أر رجلاً أفضل من محمد، ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم»**[7] كذا

---

(١) انظر كنز العمال (٣١٨٦٨ ـ ٣١٨٧٠) تاريخ جرجان ٣٦١ دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ١١.

(٢) ذكره ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٣٤٩ والدر المنثور ٣/ ٢٩٤ و ٥/ ٩٨ والحاوي للفتاوي ٢/ ٣٦٨.

(٣) انظر تفسير البغوي ٣/ ٣٤٤ وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٢.

(٤) هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري أبو بكر البزار حافظ عالم بالحديث توفي في الرملة سنة (٢٩٢ هـ). الأعلام ١/ ١٨٩ شذرات الذهب ٢/ ٩ تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٥٣ رقم الترجمة (٦٧٥).

(٥) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاري أبو ثمامة أو أبو حمزة (١٠ ق. هـ ـ ٩٣ هـ). صحابي خادم الرسول. مات بالبصرة. الأعلام ٢/ ٢٤ طبقات ابن سعد ٧/ ٣٢ رقم الترجمة (٢٨٧٧) شذرات الذهب ١/ ١٠٠ تذكرة الحفاظ ١/ ٤٤ رقم الترجمة (٢٣).

(٦) هو أحمد بن موسىٰ بن مردويه الأصبهاني أبو بكر ويقال له ابن مردويه الكبير (٣٢٣ ـ ٤١٠ هـ) حافظ مؤرخ مفسر. الأعلام ١/ ٢٦١ تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٥٠ رقم الترجمة (٩٦٥) شذرات الذهب ٣/ ١٩٠ طبقات المفسرين ١/ ٩٤ رقم الترجمة (٨٧).

(٧) انظر مجمع الزوائد ٨/ ٢١٧ ومناهل الصفا ٣١ رقم الحديث (٧).

أخرجه الطبراني في الأوسط. قال الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر[1]: لوائح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن.

وفي البخاري عن أبي هريرة، عنه ﷺ **«بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرنا، حتى كنت من القرن الذي كنت منه»**[2].

وفي مسلم عن واثلة بن الأسقع[3] قال ﷺ: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**[4] رواه الترمذي.

وعن العباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله خلق الخلق، فجعلني في خير فرقهم، وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلني في خير القبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً، وخيرهم بيتاً»**[5] رواه الترمذي هكذا منفرداً به وقال: حديث حسن. أي خيرهم روحاً وذاتاً، وخيرهم بيتاً أي أصلاً.

وفي حديث رواه الطبراني عن ابن عمر[6] قال: **«إن الله اختار خلقه فاختار منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب، ثم اختارني من العرب، فلم أزل خياراً من خيار، ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم»**[7].

---

(١) هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين بن حجر (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ) عالم بالتاريخ والأدب ثم طلب الحديث. توفي بالقاهرة. الأعلام ١/١٧٨ الضوء اللامع ٢/٣٦ رقم الترجمة (١٠٤) شذرات الذهب ٧/١٠٨. الدرر الكامنة ٤/٤٩٢.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٥٧).

(٣) هو واثلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل الليثي الكناني (٢٢ ق. هـ ـ ٨٣ هـ) صحابي من أهل الصفة. توفي في القدس أو دمشق. الأعلام ٨/١٠٧ الإصابة ٦/٣١٠ رقم الترجمة (٩٠٨٨) حلية الأولياء ٢/٢١ رقم الترجمة (١٢٠).

(٤) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب في فضل النبي رقم الحديث (٣٦٠٥). وأحمد بن حنبل في مسنده ٤/١٠٧.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب (١) رقم الحديث (٣٦٠٧) وهو باختلاف يسير. وانظر الشفا ١/٨٢ ومناهل الصفا ٥٣ رقم الحديث (١٢٥).

(٦) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي أبو عبد الرحمن. (١٠ ق. هـ ـ ٧٣ هـ) صحابي توفي بمكة. الأعلام ٤/١٠٨ الإصابة ٤/١٠٧ رقم الترجمة (٤٨٢٥) وفيات الأعيان ١/٢٤٦. طبقات ابن سعد ٤/١٠٥ رقم الترجمة (٤٠٢) تذكرة الحفاظ ١/٣٧ رقم الترجمة (١٧) شذرات الذهب ١/٨١ وفيه وفاته (٧٤ هـ).

(٧) انظر الشفا ١/٨٢ وانظر مناهل الصفا ٥٣ رقم الحديث (١٢٧) وانظر الطبراني ١٢/٤٥٥ والمستدرك ٤/٨٦ وفي مجمع الزوائد ٨/٢١٥.

ثم اعلم أنه عليه الصلاة والسلام لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ولا أخت، لانتهاء صفوتهما إليه، وقصور نسبهما عليه، ليكون مختصاً بنسب جعله الله تعالى للنبوة غاية، ولتمام الشرف نهاية، وأنت إذا اختبرت حال نسبه الشريف، وعلمت طهارة مولده تيقنت أنه سلالة آباء كرام.

فهو ﷺ النبي العربي الأمي الأبطحي الحرمي الهاشمي القرشي، نخبة بني هاشم، المختار المنتخب من خير بطون العرب وأعرقها في النسب، وأشرفها في الحسب، وأنضرها عوداً، وأطولها عموداً، وأطيبها أرومة، وأعزها جرثومة، وأفصحها لساناً، وأوضحها بياناً، وأرجحها ميزاناً، وأصحها إيماناً، وأعزها نفراً، وأكرمها معشراً، من قبل أبيه وأمه، ومن أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده.

● فهو محمد بن عبد الله، الذبيح.

● ابن عبد المطلب، واسمه شيبة الحمد، في قول ابن إسحاق[1]، وهو الصحيح، وقيل سمي به لأنه ولد وفي رأسه شيبة.

وقيل: اسمه عامر، وهو قول ابن قتيبة[2]، وتابعه عليه المجد الشيرازي[3]، وكنيته أبو الحارث، بابن له أكبر ولده.

قيل: وإنما قيل له عبد المطلب، لأن أباه هاشماً قال لأخيه المطلب، وهو بمكة، حين حضرته الوفاة: أدرك عبدك بيثرب، فمن ثم سمي عبد المطلب، وقيل: إن عمه المطلب جاء به إلى مكة رديفه ـ وهو بهيئة بذة ـ فكان يُسأل عنه فيقول: هو عبدي، حياء أن يقول: هو ابن أخي، فلما أدخله وأحسن من حاله، أظهر أنه ابن أخيه، فلذلك قيل له: عبد المطلب.

وهو أول من خضب بالسواد من العرب، وعاش مائة وأربعين سنة.

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني من حفاظ الحديث مؤرخ توفي في بغداد سنة (١٥١ هـ) كان قدرياً. الأعلام ٦/٢٨ شذرات الذهب ١/ ٢٣٠ وفيات الأعيان ١/ ٤٨٣ تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٢ رقم الترجمة (١٦٧) تاريخ بغداد ١/ ٢١٤ معجم الأدباء ٥/ ٢١٩ رقم الترجمة (٨١٥) وطبقات المدلسين صفحة ١٩.

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو جعفر قاض أديب حفظ كتب أبيه في غريب القرآن والحديث والأدب والأخبار توفي في مصر سنة (٣٢٢ هـ) الأعلام ١/ ١٥٦ معجم الأدباء ١/ ٣٩٤ رقم الترجمة (٩٦) بغية الوعاة صفحة ١٣٧ تاريخ بغداد ٤/ ٢٢٩.

(٣) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر أبو طاهر مجد الدين الشيرازي الفيروز آبادي. (٧٢٩ ـ ٨١٧ هـ) لغوي أديب توفي في زبيد. الأعلام ٧/ ١٤٦ الضوء اللامع ١٠/ ٧٩ رقم الترجمة (٢٧٤) بغية الوعاة (١١٧) مفتاح السعادة ١/ ١٠٣ كشف الظنون ١٦٥٧.

● ابن هاشم، واسمه عمرو، وإنما قيل له هاشم لأنه كان يهشم الثريد لقومه في الجدب.

● ابن عبد مناف، واسمه المغيرة.

●ابن قصي - بفتح الصاد - تصغير قصي، أي بعيد، لأنه بعد عن عشيرته في بلاد قضاعة، حين احتملته أمه فاطمة، واسمه مجمع، قال الشاعر:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعاً ... به جمع الله القبائل من فهر

وقيل زيد، وقال الشافعي[1]، كما حكاه عنه الحاكم أبو أحمد[2]: يزيد.

● ابن كلاب، وهو إما منقول من المصدر الذي في معنى المكالبة، نحو: كالبت العدو مكالبة، وإما من الكلاب: جمع كلب، لأنهم يريدون الكثرة، كما تسموا بسباع.

وسئل أعرابي: لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء، نحو كلب وذئب، وعبيدكم بأحسن الأسماء، نحو: مرزوق ورباح؟ فقال: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا. يريدون أن الأبناء عدة للأعداء، وسهام في نحورهم، فاختاروا لهم هذه الأسماء.

واسم كلاب: حكيم، وقيل: عروة.

● ابن مرة.

● ابن كعب، وهو أول من جمع يوم العروبة، وكانت تجتمع إليه قريش في هذا اليوم، فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ ويعلمهم بأنه من ولده، ويأمرهم باتباعه والإيمان به، وينشد في ذلك أبياتاً منها:

يا ليتني شاهد فحواء دعوته ... حين العشيرة تبغي الحق خذلانا

● ابن لؤي، تصغير اللّاي بوزن العصا، وهو الثور.

● ابن غالب.

---

(١) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع الهاشمي القرشي المطلبي أبو عبد الله (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) أحد الأئمة الأربعة مناقبه كالشمس توفي في القاهرة. الأعلام ٦/ ٢٦ تذكرة الحفاظ ١/ ٣٦١ رقم الترجمة (٣٥٤) وفيات الأعيان ٢/ ٤٤٧ معجم الأدباء ٥/ ١٩٠ رقم الترجمة (٨١٣) حلية الأولياء ٩/ ٦٣ رقم الترجمة (٤١٥) شذرات الذهب ٢/ ٩ طبقات المفسرين ٢/ ١٠٢ رقم الترجمة (٤٦١). تاريخ بغداد ٢/ ٥٦ مرآة الجنان ٢/ ١٣ طبقات الشافعية ١/ ١٨٥.

(٢) هو محمد بن محمد بن إسحاق أبو أحمد النيسابوري الكرابيسي يعرف بالحاكم الكبير (٢٥٨ - ٣٧٨ هـ) محدث حافظ. توفي في نيسابور. الأعلام ٧/ ٢٠ شذرات الذهب ٣/ ٩٣ نكت الهميان ٢٧٠ تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٧٦ رقم الترجمة (٩١٤).

● ابن فهر، واسمه قريش، وإليه تنسب قريش، فما كان فوقه فكناني لا قرشي على الصحيح.

● ابن مالك.

● ابن النضر، واسمه قيس.

● ابن كنانة.

● ابن خزيمة، تصغير خزمة.

● ابن مدركة.

● ابن إلياس، بكسر الهمزة في قول ابن الأنباري[1]، وبفتحها في قول قاسم بن ثابت[2]، ضد الرجاء، واللام فيه للتعريف والهمزة للوصل، قال السهيلي[3]: وهذا أصح. وهو أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام، ويذكر أنه كان يسمع في صلبه تلبية النبي ﷺ بالحج؟!

● ابن مضر، وهو أول من سن الحداء للإبل، وكان من أحسن الناس صوتاً.

● ابن نزار ـ بكسر النون ـ من النزر، وهو القليل، قيل لأنه لما ولد، ونظر أبوه إلى نور محمد ﷺ بين عينيه فرح فرحاً شديداً، وأطعم وقال: إن هذا كله نزر، أي قليل لحق هذا المولود، فسمي نزاراً لذلك.

● ابن معد.

● ابن عدنان.

قال ابن دحية[4]: أجمع العلماء ـ والإجماع حجة ـ على أن رسول الله ﷺ إنما انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزه. انتهى.

---

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار أبو بكر الأنباري (٢٧١ ـ ٣٢٨ هـ) أديب لغوي توفي في بغداد. الأعلام ٦/ ٣٣٤ وفيات الأعيان ١/ ٥٠٢ بغية الوعاة ١/ ٢١٢ تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٤٢ رقم الترجمة (٨٢١) معجم الأدباء ٥/ ٤١٠ رقم الترجمة (٩٠٤) أنباة الرواة ٣/ ٢٠١ تاريخ بغداد ٣/ ١٨١ شذرات الذهب ٢/ ٣١٥ مرآة الجنان ٢/ ٢٩٤ طبقات المفسرين ٢/ ٢٢٧ رقم الترجمة (٥٦٢) والمنتظم ١٣/ ٣٩٧ رقم الترجمة (٢٤٢٧).

(٢) هو قاسم بن ثابت بن حزم العوفي السرقسطي أبو محمد (٢٥٥ ـ ٣٠٢ هـ) عالم بالحديث واللغة توفي في سرقسطة. الأعلام ٥/ ١٧٤ نفح الطيب ١/ ٣٤٦.

(٣) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي أبو القاسم (٥٠٨ ـ ٥٨١ هـ) حافظ لغوي عالم بالتفسير. توفي بمراكش. الأعلام ٣/ ٣١٣، وفيات الأعيان ١/ ٢٨٠. تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٤٨ رقم الترجمة (١٠٩٩) طبقات المفسرين ١/ ٢٧٢ رقم الترجمة (٢٥٧). شذرات الذهب ٤/ ٢٧١، أنباه الرواة ٢/ ١٦٢ مرآة الجنان ٣/ ٤٢٢.

(٤) هو عمر بن الحسن بن علي بن محمد أبو الخطاب بن دحية الكلبي، (٥٤٤ ـ ٦٣٣ هـ) أديب مؤرخ=

ولله در القائل:

ونسبة عز هاشم من أصولها ومحتدها المرضي أكرم محتد
سمت رتبة علياء أعظم بقدرها ولم تسم إلا بالنبي محمد

ويرحم الله القائل:

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان[1]

وعن ابن عباس أنه ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز معد بن عدنان، ثم يمسك ويقول: «**كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً**» رواه في مسند الفردوس. لكن قال السهيلي: الأصح في هذا الحديث أنه من قول ابن مسعود[2].

وقال غيره: كان ابن مسعود إذا قرأ قوله تعالى: ﴿**ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله**﴾ [إبراهيم: ٩] قال: كذب النسابون[3]، يعني أنهم يدعون علم الأنساب ونفى الله علمها عن العباد.

وروي عن عمر أنه قال: إنما ينتسب إلى عدنان وما فوق ذلك لا ندري ما هو.

وعن ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون.

وعن عروة بن الزبير[4]: ما وجدنا أحداً يعرف بعد معد بن عدنان.

وسئل مالك[5] ـ رحمه الله ـ عن الرجل يرفع نسبة إلى آدم، فكره ذلك، وقال من

---

= حافظ توفي بالقاهرة. الأعلام ٥/ ٤٤ وفيات الأعيان ١/ ٣٨١. شذرات الذهب ٥/ ١٦٠. نفح الطيب ١/ ٣٦٨ حسن المحاضرة ١/ ٢٠١.

(١) انظر ديوان ابن الرومي ٦/ ١٧٩ وخزانة الأدب ١١/ ٣٨ ومغني اللبيب ١/ ١١٨ وبلا نسبة في تخليص الشواهد صفحة ١٨٧.

(٢) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمن صحابي توفي في المدينة سنة (٣٢ هـ). الأعلام ٤/ ١٣٧ الإصابة ٤/ ١٢٩ رقم الترجمة (٤٩٤٥) حلية الأولياء ١/ ١٢٤ رقم الترجمة (٢١) شذرات الذهب ١/ ٣٨ طبقات ابن سعد ٣/ ١١١ رقم الترجمة (٤١) تاريخ بغداد ١/ ١٤٧.

(٣) انظر تفسير البغوي ٣/ ٢٢ وتفسير ابن كثير ٢/ ٥٢٤.

(٤) هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله (٢٢ ـ ٩٣ هـ). تابعي ـ فقيه ـ حافظ. توفي بالمدينة. الأعلام ٤/ ٢٢٦ وفيات الأعيان ١/ ٣١٦. حلية الأولياء ٢/ ١٧٦ رقم الترجمة (١٧١) شذرات الذهب ١/ ١٠٣ وفيه توفي سنة (٩٤ هـ). طبقات ابن سعد ٥/ ١٣٦ رقم الترجمة (٧٢٩).

(٥) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله (٩٣ ـ ١٧٩ هـ) عالم. محدث ـ فقيه توفي في المدينة. الأعلام ٥/ ٢٥٧ وفيات الأعيان ١/ ٤٣٩. حلية الأولياء ٦/ ٣١٦ رقم الترجمة=

أخبره بذلك؟ وكذا روي عنه في رفع نسب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فالذي ينبغي لنا، الإعراض عما فوق عدنان، لما فيه من التخليط والتغيير للألفاظ، وعواصة تلك الأسماء، مع قلة الفائدة.

وقد ذكر الحافظ أبو سعد النيسابوري[1] عن أبي بكر بن أبي مريم عن سعيد بن عمرو الأنصاري[2] عن أبيه عن كعب الأحبار: أن نور رسول الله ﷺ لما صار إلى عبد المطلب وأدرك، نام يوماً في الحجر فانتبه مكحولاً مدهوناً، قد كسي حلة البهاء والجمال، فبقي متحيراً لا يدري من فعل به ذلك، فأخذه أبوه بيده ثم انطلق به إلى كهنة قريش فأخبرهم بذلك، فقالوا له: اعلم أن إله السماوات قد أذن لهذا الغلام أن يتزوج، فزوجه قيلة فولدت له الحارث ثم ماتت، فزوجه بعدها هند بنت عمرو، وكان عبد المطلب يفوح منه رائحة المسك الإذفر، ونور رسول الله ﷺ يضيء في غرته، وكانت قريش إذا أصابها قحط تأخذ بيد عبد المطلب فتخرج به إلى جبل ثبير فيتقربون به إلى الله تعالى، ويسألونه أن يسقيهم الغيث، فكان يغيثهم ويسقيهم ببركة نور محمد ﷺ غيثاً عظيماً.

ولما قدم أبرهة[3] ملك اليمن ـ من قبل أصحمة النجاشي ـ لهدم بيت الله الحرام، وبلغ عبد المطلب ذلك، قال: يا معشر قريش، لا يصل إلى هدم البيت، لأن لهذا البيت رباً يحميه ويحفظه.

ثم جاء أبرهة فاستاق إبل قريش حتى طلع جبل ثبير، فاستدارت دائرة غرة رسول الله ﷺ على جبينه كالهلال واشتد شعاعها على البيت الحرام مثل السراج، فلما نظر عبد المطلب إلى ذلك قال: يا معشر قريش: ارجعوا فقد كفيتم هذا الأمر، فوالله ما استدار هذا النور مني إلا أن يكون الظفر لنا، فرجعوا متفرقين.

ثم إن أبرهة أرسل رجلاً من قومه ليهزم الجيش، فلما دخل مكة ونظر إلى وجه عبد المطلب خضع وتلجلج لسانه وخر مغشياً عليه، فكان يخور كما يخور الثور عند ذبحه، فلما أفاق خر ساجداً لعبد المطلب، وقال: أشهد أنك سيد قريش حقاً.

---

= (٣٨٦) شذرات الذهب ١/ ٢٨٩ طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦ رقم الترجمة (٦٣٩) طبقات المفسرين ٢/ ٢٩٤ رقم الترجمة (٦١٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٧ رقم الترجمة (١٩٩).

(١) هو عبد الرحمن بن حسن الأصبهاني النيسابوري أبو سعد، حافظ توفي سنة (٣٠٧ هـ). انظر الأعلام ٣/ ٣٠٤.

(٢) هو سعيد بن عمرو بن شرحبيل الأنصاري السعدي. انظر الكاشف ١/ ٢٩٣ رقم الترجمة (١٩٥٩).

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٣ وانظر شرح المواهب ١/ ٨٣.

وروي: أنه لما حضر عبد المطلب عند أبرهة أمر سايس فيله الأبيض العظيم الذي كان لا يسجد للملك أبرهة كما تسجد سائر الفيلة أن يحضره بين يديه، فلما نظر الفيل إلى وجه عبد المطلب، برك كما يبرك البعير، وخر ساجداً، وأنطق الله تعالى الفيل، فقال: السلام على النور الذي في ظهرك يا عبد المطلب، كذا في النطق المفهوم.

ولما دخل جيش أبرهة ومعهم الفيل لهدم الكعبة الشريفة برك الفيل، فضربوه في رأسه ضرباً شديداً ليقوم فأبىء فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام.

ثم أرسل الله عليهم طيراً أبابيل من البحر، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار، حجر في منقاره وحجران في رجليه كأمثال العدس، لا تصيب أحداً منهم إلا أهلكته، فخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق.

وأصيب أبرهة في جسده بداء، فتساقطت أنامله أنملة أنملة، وسال منه الصديد والقيح والدم، وما مات حتى انصدع قلبه.

وإلى هذه القصة أشار سبحانه وتعالى بقوله لنبيه ﷺ: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل**﴾ [الفيل: ١ ـ ٥] السورة إلى آخرها.

فإن قلت: لم قال الله تعالى له عليه الصلاة والسلام: ﴿**ألم تر كيف** ..﴾ [الفيل: ١] مع أن هذه القصة كانت قبل البعث بزمان طويل؟

فالجواب أن المراد من الرؤية هنا: العلم والتذكر، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر، فكأن العلم الحاصل به ضروري، مساوٍ في القوة للرؤية.

وقد كانت هذه القصة دالة على شرف سيدنا محمد ﷺ وتأسيساً لنبوته وإرهاصاً لها، وإعزازاً لقومه بما ظهر عليهم من الاعتناء حتى دانت لهم العرب، واعتقدت شرفهم وفضلهم على سائر الناس، بحماية الله عز وجل لهم، ودفعه عنهم مكر أبرهة، الذي لم يكن لسائر العرب بقتاله قدرة، وكان ذلك كله إرهاصاً لنبوته عليه الصلاة والسلام.

قال الرازي[1]: ومذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيساً، قال: ولذلك قالوا: كانت الغمامة تظله عليه الصلاة والسلام، يعني قبل بعثته.

---

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ) مفسر عالم في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. توفي في هراة. الأعلام ٦/٣١٣ وفيات الأعيان ١/٤٧٤ مفتاح السعادة ١/٤٤٥ معجم المطبوعات ٩١٥ طبقات الشافعية ٥/٣٣ روضات الجنات ٤/٩٠.

وخالفه العلامة السيد[1] في شرح المواقف ـ تبعاً لغيرة ـ فاشترط في المعجز أن لا يتقدم على الدعوى، بل يكون مقارناً لها. كما سيأتي إن شاء الله في المقصد الرابع.

فإن قلت: إن الحجاج[2] خرب الكعبة ولم يحدث شيء من ذلك!!

فالجواب: أن ذلك وقع إرهاصاً لأمر نبينا ﷺ، والإرهاص إنما يحتاج إليه قبل قدومه، فلما ظهر عليه الصلاة والسلام، وتأكدت نبوته بالدلائل القطعية فلا حاجة إلى شيء من ذلك، والله أعلم.

ولما فرج الله عن عبد المطلب، ورجع أبرهة خائباً، فبينما هو يوماً نائم في الحجر، إذ رأى مناماً عظيماً، فانتبه فزعاً مرعوباً، وأتى كهنة قريش، وقص عليهم رؤياه، فقالت له الكهنة: إن صدقت رؤياك ليخرجن من ظهرك من يؤمن به أهل السماوات والأرض وليكونن في الناس علماً مبيناً. فتزوج فاطمة. وحملت في ذلك الوقت بعبد الله الذبيح، وقصته في ذبحه مشهورة مخرجة عند الرواة مسطورة[3].

وكان سببها حفر أبيه عبد المطلب زمزم، لأن الجرهمي عمرو بن الحارث لما أحدث قومه بحرم الله الحوادث، وقيض الله لهم من أخرجهم من مكة، فعمد عمرو بن الحارث إلى نفائس فجعلها في زمزم وبالغ في طمها، وفر إلى اليمن بقومه، فلم تزل زمزم من ذلك العهد مجهولة إلى أن رفعت عنها الحجب برؤيا منام رآها عبد المطلب، دلته على حفرها بأمارات عليها.

فمنعته قريش من ذلك، ثم آذاه من السفهاء من آذاه، فاشتد بذلك بلواه، ومعه ولده الحارث ولم يكن له ولد سواه، فنذر لئن جاءه عشرة بنين وصاروا له أعواناً ليذبحن أحدهم لله قرباناً. ثم احتفر عبد المطلب زمزم فكانت له فخراً وعزاً.

فلما تكامل بنوه عشرة وهم: الحارث والزبير وحجل وضرار والمقوم وأبو لهب والعباس وحمزة وأبو طالب وعبد الله، وقر الله عينه بهم، نام ليلة عند الكعبة المطهرة فرأى في المنام قائلاً يقول: يا عبد المطلب: أوف بنذرك لرب هذا البيت، فاستيقظ فزعاً مرعوباً، وأمر بذبح كبش وأطعمه للفقراء والمساكين. ثم نام فرأى: أن قرب ما هو أكبر

---

(١) هو علي بن محمد بن علي السيد الزين أبو الحسن الحسيني المعروف بالجرجاني الحنفي ويعرف بالسيد الشريف. (٧٤٠ ـ ٨١٦ هـ) فيلسوف من العلماء بالعربية. توفي بشيراز. الأعلام ٥/ ٧ الضوء اللامع ٥/ ٣٢٨ رقم الترجمة (١٠٧٨) مفتاح السعادة ١/ ١٦٧ معجم المطبوعات ٦٧٨.

(٢) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي أبو محمد (٤٠ ـ ٩٥ ـ هـ) قائد وخطيب. مات بواسط. الأعلام ٢/ ١٦٨ وفيات الأعيان ١/ ١٢٣ تهذيب تاريخ دمشق ٤/ ٤٨.

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٠ والبداية والنهاية ١/ ١٤٧.

من ذلك، فاستيقظ من نومه وقرب ثوراً، ثم نام فرأى: أن قرب ما هو أكبر من ذلك، فانتبه وقرب جملاً، وأطعمه للمساكين، ثم نام: فنودي: أن قرب ما هو أكبر من ذلك، فقال: ما أكبر من ذلك فقال: قرب أحد أولادك الذي نذرته.

فاغتم غماً شديداً، وجمع أولاده، وأخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء، فقالوا: إنا نطيعك، فمن تذبح منا؟ فقال: ليأخذ كل واحد منكم قدحاً ـ والقدح: سهم بغير نصل ـ ثم ليكتب فيه اسمه، ثم ائتوا به، ففعلوا، وأخذوا أقداحهم ودخلوا على هبل [اسم صنم عظيم].

وكان في جوف الكعبة، وكانوا يعظمونه، ويضربون بالقداح عنه، فيستقسمون بها، أي يرتضون بما يقسم لهم، ثم يضرب بها القيم الذي لها ـ قال: فدفع عبد المطلب إلى ذلك القيم القداح وقام يدعو الله تعالى، فخرج على عبد الله، وكان أحب ولده إليه.

فقبض عبد المطلب على يد ولده عبد الله، وأخذ الشفرة ثم أقبل إلى إساف ونائلة ـ صنمين عند الكعبة ينحر ويذبح عندهما النسائك ـ فقام إليه سادة قريش فقالوا: ما تريد أن تصنع؟ فقال: أوفي بنذري، فقالوا: لا ندعك أن تذبحه حتى تعذر فيه إلى ربك، ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه وتكون سنة. وقالوا له: انطلق إلى فلانة الكاهنة ـ قلت: قيل اسمها: قطبة، كما ذكره الحافظ عبد الغني[1] في كتاب المبهمات، وذكر ابن إسحاق أن اسمها: سجاح ـ فلعلها أن تأمرك بأمر فيه فرج لك.

فانطلقوا حتى أتوها بخيبر، فقص عليها عبد المطلب القصة، فقالت: كم الدية فيكم؟ قالوا: عشرة من الإبل، فقالت: ارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم ثم قربوا عشرة من الإبل، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت القداح على صاحبكم فزيدوا في الإبل ثم اضربوا أيضاً، هكذا حتى يرضى ربكم. فإذا خرجت على الإبل فانحروها فقد رضي ربكم وتخلص صاحبكم.

فرجع القوم إلى مكة، وقربوا عبد الله، وقربوا عشرة من الإبل، وقام عبد المطلب يدعو، فخرجت القداح على ولده، ولم يزل يزيد عشراً عشراً حتى بلغت مائة فخرجت القداح على الإبل. فنحرت الإبل وتركت، لا يصد عنها إنسان ولا طائر ولا سبع.

ولهذا روي ـ كما عند الزمخشري في الكشاف ـ أنه ﷺ قال: «**أنا ابن الذبيحين**»[2].

---

(١) هو عبد الغني بن سعيد بن علي الأزدي أبو محمد (٣٣٢ ـ ٤٠٩ هـ) حافظ وعالم بالأنساب وفاته بالقاهرة. الأعلام ٤/ ٣٣ وفيات الأعيان ١/ ٣٠٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٨١ وفي تفسير القرطبي ١٥/ ١١٣ وفي السلسلة الضعيفة للألباني ٣٣١ وكشف الخفا للعجلوني ١/ ٢٣٠ والضعفاء للعقيلي ٣/ ٩٤ والكشاف لابن حجر ١٤١.

وعند الحاكم في المستدرك، عن معاوية بن أبي سفيان[1]: كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه أعرابي، فقال: يا رسول الله، خلفت البلاد يابسة، والماء يابساً، هلك المال وضاع العيال، فعد عليَّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. قال: فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه. الحديث، وتأتي تتمته قريباً إن شاء الله تعالى.

ويعني بالذبيحين: عبد الله وإسماعيل بن إبراهيم.

وإن كان قد ذهب بعض العلماء إلى أن الذبيح إسحاق[2].

فإن صح هذا، فالعرب تجعل العم أباً، قال الله تعالى إخباراً عن بني يعقوب عليه السلام: ﴿**أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي، قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق**﴾ [البقرة: ١٣٣].

وفي حديث معاوية ـ الموعود بتتمته قريباً ـ قال معاوية: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الأمر بها أن ينحر بعض ولده، فأخرجهم فأسهم بينهم فخرج السهم لعبد الله، فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بني مخزوم، وقالوا أرضِ ربك، وافد ابنك، ففداه بمائة ناقة، فهو الذبيح الأول وإسماعيل الذبيح الثاني.

قال ابن القيم[3]: «ومما يدل على أن الذبيح إسماعيل، أنه لا ريب أن الذبح كان بمكة، ولذلك جعل القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمرات تذكيراً بشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر الله تعالى، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه».

ثم قال: «ولو كان الذبح بالشام ـ كما يزعم أهل الكتاب، ومن تلقى عنهم ـ لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة».

«وأيضاً فإن الله سمى الذبيح حليماً، لأنه لا أحلم ممن سلم نفسه للذبح طاعة لربه، ولما ذكر إسحاق سماه: عليماً».

---

(١) هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي. (٢٠ ق. هـ ـ ٦٠ هـ). مؤسس الدولة الأموية في الشام. مات في دمشق. الأعلام ٧/ ٢٦١ أخباره كثيرة.

(٢) انظر زاد المعاد بشرح المواهب ١/ ٤٩.

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن أسعد الزرعي الدمشقي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ) تلميذ ابن تيمية. وفاته في دمشق. الأعلام ٦/ ٥٦ الدرر الكامنة ٣/ ٤٠٠ رقم الترجمة (١٠٦٧) معجم المطبوعات ٢٢٢ وشذرات الذهب ٦/ ١٨٦.

«وأيضاً: فإن الله أجرى العادة البشرية: أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم لما سأل ربه الولد، ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذ إبراهيم خليلاً، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد جاءت غيرة الخلة تنزعها من قلب الخليل، فأمر بذبح المحبوب، فلما قدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس، وقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدي الذبيح، وصدق الخليل الرؤيا». انتهى.

وقد أنشد بعضهم فقال:

إن الذبيح - هديت - إسماعيل ... نطق الكتاب بذاك والتنزيل
شرف به خص الإله نبينا ... وأبانه التفسير والتأويل

وروي مما ذكره المعافى بن زكريا[1]، أن عمر بن عبد العزيز[2] سأل رجلاً أسلم من علماء اليهود: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين، إن اليهود ليعلمون أنه إسماعيل، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن يكون أباكم، للفضل الذي ذكره الله عنه، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم. انتهى.

فانظر أيها الخليل ما في هذه القصة من السر الجليل، وهو أن الله تعالى يري عباده الجبر بعد الكسر، واللطف بعد الشدة، فإنه كان عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم لذبح الولد، آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى يوم الدين، وهذه سنة الله تعالى فيمن يريد رفعته من خلقه بعد استضعافه وذله وانكساره وصبره، وتلقيه القضاء بالرضا فضلاً منه، قال الله تعالى: **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم**

---

(١) هو المعافى بن زكريا بن يحيى الجريري النهرواني أبو الفرج المعروف بابن طرارة (٣٠٣ ـ ٣٩٠ هـ) قاض من الأدباء الفقهاء له شعر حسن. وفاته بالنهروان في العراق. الأعلام ٧/ ٢٦٠ وفيات الأعيان ٢/ ١٠٠ تاريخ بغداد ١٣/ ٢٣٠ إنباه الرواة ٣/ ٢٩٦ معجم الأدباء ٥/ ٥٠٧ رقم الترجمة (٩٥٣) طبقات المفسرين ٢/ ٣٢٣ رقم الترجمة (٦٣٧) تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠١٠ رقم الترجمة (٩٤٣) مرآة الجنان ٢/ ٤٤٣.

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو حفص (٦١ ـ ١٠١ هـ) من ملوك الدولة المروانية الأموية. توفي في المعرة. الأعلام ٥/ ٥٠ فوات الوفيات ٣/ ١٣٣ رقم الترجمة (٣٧٥) حلية الأولياء ٥/ ٢٥٣ رقم الترجمة (٣٢٣) الأغاني ٩/ ٢٩٢ وفيات الأعيان ٢/ ١٢٨.

أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض﴾ [القصص: ٥ و ٦] ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [الجمعة: ٤].

وقد استشكل بعض الناس: أن عبد المطلب نذر نحر أحد بنيه إذا بلغوا عشرة، وقد كان تزويجه بهالة أم ابنه حمزة بعد وفائه بنذره، فحمزة والعباس ولدا عبد المطلب إنما ولدا بعد الوفاء بنذره، وإنما كان أولاده عشرة بهما.

قال السهيلي: ولا إشكال في هذا، فإن جماعة من العلماء قالوا: كان أعمامه عليه السلام اثني عشر، فإن صح هذا، فلا إشكال في الخبر، وإن صح قول من قال: كانوا عشرة لا يزيدون، فالولد يقع على البنين وبنيهم حقيقة لا مجازاً، فكان عبد المطلب قد اجتمع له من ولده وولد ولده عشرة رجال حين وفى بنذره.

ويقع في بعض السير أن عبد الله كان أصغر بني أبيه عبد المطلب. وهو غير معروف. ولعل الرواية أصغر بني أمه، وإلا فحمزة كان أصغر من عبد الله، والعباس أصغر من حمزة.

وروي عن العباس أنه قال: أذكر مولد رسول الله ﷺ وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها، فجيء به حتى نظرت إليه، وجعل النسوة يقلن لي: قبل أخاك، فقبلته.

فكيف يصح أن يكون عبد الله هو الأصغر؟!

ولكن رواه البكائي[1]، ولروايته وجه: وهو أن يكون أصغر ولد أبيه حين أراد نحره، ثم ولد له بعد ذلك حمزة والعباس.

---

(١) هو زياد بن عبد الله بن الطفيل القيسي العامري البكائي أبو محمد راوي السيرة النبوية عن محمد بن إسحاق كان ثقة في الحديث توفي سنة (١٨٣ هـ). الأعلام ٣/ ٥٤ وفيات الأعيان ١/ ١٥٩.



# [آيات حمله ﷺ]

ولما انصرف عبد الله مع أبيه من نحر الإبل، مرَّ على امرأة من بني أُسد بن عبد العزى، وهي عند الكعبة، واسمها قتيلة ـ بضم القاف وفتح المثناة الفوقية ـ ويقال رقية بنت نوفل، فقالت له حين نظرت إلى وجهه، وكان أحسن رجل رؤي في قريش: لك مثل الإبل التي نحرت عنك وقع علي الآن، لما رأت في وجهه من نور النبوة، ورجت أن تحمل بهذا النبي الكريم ﷺ، فقال لها: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه[1]، وقيل: أجابها بقوله:

أمـا الحـرام فـالممـات دونـه والحـل لا حـل فـأستبينـه
فكيـف بـالأمـر الـذي تبغينـه يحمـي الكـريـم عـرضـه ودينـه

وعند أبي نعيم والخرائطي[2] وابن عساكر، من طريق عطاء[3] عن ابن عباس: لما خرج عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه، مر به على كاهنة من تَبَالَة[4] متهودة قد قرأت الكتب، يقال لها: فاطمة بنت مر الخثعمية، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله فقالت له . . . وذكر نحوه.

ثم خرج به عبد المطلب، حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة ـ وهو يومئذ

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٤.

(٢) هو محمد بن جعفر بن محمد بن سهل أبو بكر الخرائطي السامري (٢٤٠ ـ ٣٢٧ هـ) حافظ للحديث وفاته في مدينة يافا. الأعلام ٦/ ٧٠ شذرات الذهب ٢/ ٣٠٩ معجم الأدباء ٥/ ٢٧٧ رقم الترجمة (٨٣٣).

(٣) هو عطاء بن أبي رباح بن أسلم بن صفوان (أبو محمد) (٢٧ ـ ١١٤ هـ) تابعي فقيه توفي في مكة. الأعلام ٤/ ٢٣٥ تذكرة الحفاظ ١/ ٩٨ رقم الترجمة (٩٠) حلية الأولياء ٣/ ٣١٠ رقم الترجمة (٢٤٤) شذرات الذهب ١/ ١٤٧ وفيات الأعيان ١/ ٣١٨ طبقات ابن سعد ٦/ ٢٠ رقم الترجمة (١٥٤٢).

(٤) تبالة: بالفتح موضع ببلاد اليمن، بلدة مشهورة من أرض تهامة. انظر معجم البلدان ٢/ ٩.

سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ـ فزوجه ابنته آمنة، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً.

فزعموا: أنه دخل عليها حين ملكها مكانه[1]، فوقع عليها يوم الإثنين أيام منى، في شعب أبي طالب عند الجمرة، فحملت برسول الله ﷺ. ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال لها: مالك لا تعرضين علي اليوم ما عرضت بالأمس، فقالت: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة، إنما أردت أن يكون النور في فأبى الله، إلا أن يجعله حيث شاء.

ولما حملت آمنة برسول الله ﷺ ظهر لحمله عجائب، ووجد لإيجاده غرائب.

فذكروا أنه لما استقرت نطفته الزكية، ودرته المحمدية في صدفة آمنة القرشية نودي في الملكوت ومعالم الجبروت، أن عطروا جوامع القدس الأسنى، وبخروا جهات الشرف الأعلى، وافرشوا سجادات العبادات في صفف الصفا لصوفية الملائكة المقربين، أهل الصدق والوفا، فقد انتقل النور المكنون إلى بطن آمنة ذات العقل الباهر، والفخر المصون، قد خصها الله تعالى القريب المجيب بهذا السيد المصطفى الحبيب، لأنها أفضل قومها حسباً وأنجب، وأزكاهم أصلاً وفرعاً وأطيب.

وقال سهل بن عبد الله التستري[2] فيما رواه الخطيب البغدادي[3] الحافظ: لما أراد الله تعالى خلق محمد ﷺ في بطن أمه آمنة، ليلة رجب، وكانت ليلة جمعة، أمر الله تعالى

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٥ وفيه: «يقال إن المرأة التي مر عليها عبد الله مع أبيه أسمها «فاطمة بنت مر» وكانت من أجمل النساء وأعفهن وكانت قرأت نور النبوة في وجهه فدعته إلى نكاحها فأبى فلما أبى قالت:

إنـي رأيـت مخيلـة نشـأت ... فتـلألأت بحنـاتـم القطـر

لله مـا زهـريـة سلبـت ... منـك الـذي استلبـت ومـا تـدري

ويقال: إن التي عرضت نفسها عليه هي ليلى العدوية. وانظر دلائل النبوة ١/ ١٠٣.

(٢) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد (٢٠٠ ـ ٢٨٣ هـ) صوفي عالم في علوم الرياضيات والإخلاص وعيوب الأفعال. توفي بالبصرة. الأعلام ٣/ ١٤٣ طبقات الصوفية ٢٠٦ وفيات الأعيان ١/ ٢١٨ حلية الأولياء ١٠/ ١٨٩ رقم الترجمة (٥٤٦) طبقات المفسرين ١/ ٢١٥ رقم الترجمة (٢٠٢) تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٨٥ [ترجمة ابن جراش].

(٣) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبو بكر المعروف بالخطيب (٣٩٢ ـ ٤٦٣ هـ) مؤرخ حافظ توفي ببغداد. الأعلام ١/ ١٧٢ معجم الأدباء ١/ ٤٩٧ رقم الترجمة (١١٩) وفيات الأعيان ١/ ٢٧ طبقات الشافعية ٣/ ١٢ تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٣٥ رقم الترجمة (١٠١٥) شذرات الذهب ٣/ ٣١١ مرآة الجنان ٣/ ٨٧ مفتاح السعادة ١/ ٢٥٨.

في تلك الليلة رضوان خازن الجنان، أن يفتح الفردوس، وينادي مناد في السماوات والأرض: ألا إن النور المخزون المكنون الذي يكون منه النبي الهادي، في هذه الليلة **يستقر في بطن أمه الذي فيه يتم خلقه ويخرج إلى الناس بشيراً ونذيراً**.

وفي رواية كعب الأحبار: أنه نودي تلك الليلة في السماء وصفاحها، والأرض وبقاعها، أن النور المكنون الذي منه رسول الله ﷺ يستقر الليلة في بطن آمنة، فيا طوبى لها ثم يا طوبى، وأصبحت يومئذ أصنام الدنيا منكوسة، وكانت قريش في جدب شديد، وضيق عظيم، فاخضرت الأرض وحملت الأشجار، وأتاهم الرفد من كل جانب، فسميت تلك السنة التي حمل فيها برسول الله ﷺ سنة الفتح والإبتهاج.

وطوبى: الطيب والحسنى والخير والخيرَة. قاله في القاموس[1]. وقال غيره: فرح وقرة عين. وقال الضحاك[2]: عطية. وقال عكرمة[3]: نِعَم. وفي الحديث: «**طوبى للشام فإن الملائكة باسطة أجنحتها عليها**»[4] فالمراد بها هنا: «فعلى» من الطيب وغيره مما ذكر، لا الجنة ولا الشجرة.

وفي حديث ابن إسحاق: أن آمنة كانت تحدث: أنها أتيت حين حملت به ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، وقالت: ما شعرت بأني حملت به، ولا وجدت له ثقلاً، ولا وحماً، كما تجد النساء إلا أني أنكرت رفع حيضتي، وأتاني آت وأنا بين النائمة واليقظانة فقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام، ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني فقال لي: قولي:

أعيذه بالواحد من شر كل حاسد

ثم سميه محمداً[5].

---

(١) راجع القاموس المحيط ١/ ١٠٢ مادة (طاب).

(٢) هو الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني أبو القاسم. مفسر توفي بخراسان سنة (١٠٥ هـ). الأعلام ٣/ ٢١٥ طبقات المفسرين ١/ ٢٢٢ رقم الترجمة (٢١٠) خلاصة تهذيب الكمال ١٥٠.

(٣) هو عكرمة بن عبد الله البربري المدني أبو عبد الله (٢٥ ـ ١٠٥ هـ) مفسر حافظ تابعي. توفي بالمدينة. الأعلام ٤/ ٢٤٤ حلية الأولياء ٣/ ٣٢٦ رقم الترجمة (٢٤٥) وفيات الأعيان ١/ ٣١٩ تذكرة الحفاظ ١/ ٩٥ رقم الترجمة (٨٧) معجم الأدباء ٣/ ٥١٨ رقم الترجمة (٥٢٦) شذرات الذهب ١/ ١٣٠ طبقات المفسرين ١/ ٣٨٦ رقم الترجمة (٣٣١).

(٤) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب في فضل الشام واليمن رقم الحديث (٣٩٥٤) وأحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ١٨٤ وهو في مجمع الزوائد ١٠/ ٦٠ وكنز العمال (٣٥٠١٦).

(٥) انظر السيرة لابن هشام ١/ ١٦٦ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٨٢.

وفي رواية غير ابن إسحاق: وعلقي عليه هذه التميمة، قالت فانتبهت وعند رأسي صحيفة من ذهب مكتوب فيها هذه الأبيات:

أعيـــذه بـــالـــواحـــد ... مـــن شـــر كـــل حـــاســـد
وكـــل خلـــق رائـــد ... مـــن قـــائـــم وقـــاعـــد
عـــن السبيـــل حـــائـــد ... علـــى الفســـاد جـــاهـــد
مـــن نـــافـــث أو عـــاقـــد ... وكـــل خلـــق مـــارد
يـــأخـــذ بـــالمـــراصـــد ... فـــي طـــرق المـــوارد

قال الحافظ عبد الرحيم العراقي[1]. هكذا ذكر هذه الأبيات بعض أهل السير، وجعلها من حديث ابن عباس ولا أصل لها. انتهى.

وعن شداد بن أوس[2] أن رجلاً من بني عامر سأل رسول الله ﷺ: ما حقيقة أمرك، قال: «**بدو شأني أني دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، وأني كنت بكر أبي وأمي، وأنها حملت بي كأثقل ما تحمل النساء، وجعلت تشتكي إلى صواحبها ثقل ما تجد، ثم إن أمي رأت في منامها أن الذي في بطنها نور**»[3]. الحديث.

ففيه: أن أمه ـ عليه السلام ـ وجدت الثقل في حمله، وفي سائر الأحاديث أنها لم تجد ثقلاً؟!

وجمع أبو نعيم الحافظ بينهما: بأن الثقل كان في ابتداء علوقها به، والخفة عند استمرار الحمل به، فيكون على الحالين خارجاً عن المعتاد المعروف، انتهى.

وخرج أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان من دلالة حمل آمنة برسول الله ﷺ أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة، وقالت: حمل برسول الله ﷺ ورب الكعبة، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً، وفرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذلك أهل

---

(١) هو عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن أبو الفضل زين الدين المعروف بالحافظ العراقي (٧٢٥ ـ ٨٠٦ هـ) باحث حافظ. توفي بالقاهرة. الأعلام ٣/ ٣٤٤، الضوء اللامع ٤/ ١٧١ رقم الترجمة (٤٥٢) شذرات الذهب ٧/ ٥٥ معجم المطبوعات ١٣١٧.

(٢) هو شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري أبو يعلى صحابي من الأمراء توفي في القدس سنة (٥٨ هـ). الأعلام ٣/ ١٥٨ الإصابة ٣/ ١٩٥ رقم الترجمة (٣٨٤٢) حلية الأولياء ١/ ٢٦٤ رقم الترجمة (٤١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ١٢٧ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٦٠٠ وكنز العمال (٣٥٤٠٦ ـ ٣٥٤١٩) ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٨٣ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٣.

البحار يبشر بعضهم بعضاً، وله في كل شهر من كل شهور حمله نداء في الأرض ونداء في السماء: أن أبشروا فقد آن أن يظهر أبو القاسم ﷺ ميموناً مباركاً. الحديث. وهو شديد الضعف.

وعن غيره: لم يبق في تلك الليلة دار إلا أشرقت ولا مكان إلا دخله النور، ولا دابة إلا نطقت.

وعن أبي زكريا يحيى بن عائذ[1]: بقي ﷺ في بطن أمه تسعة أشهر كملاً، لا تشكو وجعاً ولا مغصاً ولا ريحاً ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء، وكانت تقول: والله ما رأيت من حمل هو أخف منه ولا أعظم بركة منه.

ولما تم لها من حملها شهران توفي عبد الله[2]، وقيل: توفي وهو في المهد، قاله الدولابي[3].

وعن ابن أبي خيثمة[4]: وهو ابن شهرين.

وقيل: وهو ابن سبعة. وقيل: وهو ابن ثمانية وعشرين شهراً[5].

والراجح المشهور: الأول.

وكان عبد الله قد رجع ضعيفاً مع قريش لما رجعوا من تجارتهم، ومروا بالمدينة يثرب، فتخلف عند أخواله بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً، فلما قدم أصحابه مكة سألهم عبد المطلب عنه فقالوا: خلفناه مريضاً، فبعث إليه أخاه الحارث فوجده قد توفي، ودفن في دار التابعة، وقيل دفن بالأبواء.

وقالت آمنة زوجته ترثيه:

عفا جانب البطحاء من آل هاشم — وجاور لحداً خارجاً في الغمائم

---

(١) هو يحيى بن مالك بن عائذ أبو زكريا الأندلسي حافظ مات بالأندلس سنة (٣٧٦ هـ). انظر تذكرة الحفاظ ٣/١٠٠٣ رقم الترجمة (٩٣٦) وتاريخ الأندلس ٢/ ١٩٣.

(٢) انظر زاد المعاد بهامش شرح المواهب ١/ ٥٥.

(٣) هو محمد بن أحمد بن حماد بن سعد بن مسلم أبو بشر الأنصاري بالولاء الرازي الدولابي الورّاق (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ) مؤرخ من حفاظ الحديث. توفي بين مكة والمدينة. الأعلام ٥/٣٠٨ تذكرة الحفاظ ٢/ ٧٥٩ رقم الترجمة (٧٦٠) شذرات الذهب ٢/ ٢٦٠ وفيات الأعيان ١/ ٥٠٧.

(٤) هو أحمد بن زهير أبي خيثمة بن حرب بن شداد النسائي ثم البغدادي أبو بكر (١٨٥ ـ ٢٧٩ هـ) مؤرخ من حفاظ الحديث راوية للأدب بصير بأيام الناس. وفاته ببغداد الأعلام ١/ ١٢٨ شذرات الذهب ٢/ ١٧٤ تاريخ بغداد ٤/ ١٦٢ تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٩٢ رقم الترجمة (٦١٩).

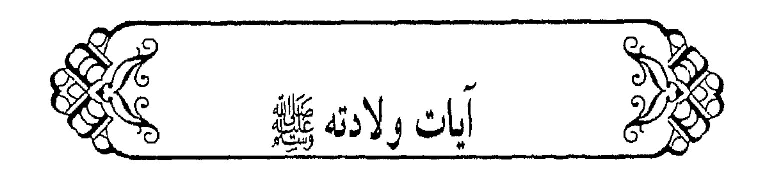
(٥) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٨٧.

دعتـــه المنـــايـــا دعـــوة فـــأجـــابهـــا		وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشيـــة راحـــوا يحملـــون ســـريـــره		تعـــاوره أصحـــابـــه فـــي التـــزاحـــم
فـــإن تـــك غـــالتـــه المنـــايـــا وريبهـــا		فقـــد كـــان معطـــاء كثيـــر التـــراحـــم

ويذكر عن ابن عباس، أنه لما توفي عبد الله قالت الملائكة إلهنا وسيدنا، بقي نبيك يتيماً، فقال الله تعالى: أنا له حافظ ونصير.

وقيل لجعفر الصادق: لم يتم النبي ﷺ من أبويه؟ قال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق[1]. نقله عنه أبو حيان[2] في البحر.

(١) انظر النهر الماد ٣/١٢٧٨ في تفسير قوله تعالى: ﴿ألم يجدك يتيماً﴾ [الضحى: ٦].
(٢) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي الجياني النفري أثير الدين أبو حيان (٦٥٤ ـ ٧٤٥ هـ) عالم بالعربية والتفسير والحديث والتراجم توفي في القاهرة. الأعلام ٧/ ١٥٢ فوات الوفيات ٤/ ٧١ رقم الترجمة (٥٠٦) طبقات الشافعية ٦/ ٣٢ شذرات الذهب ٦/ ١٤٥ الدرر الكامنة ٤/ ٣٠٢ رقم الترجمة (٨٣٢).



# آيات ولادته ﷺ

وروى أبو نعيم عن عمرو بن قتيبة قال: سمعت أبي ـ وكان من أوعية العلم ـ قال: لما حضرت ولادة آمنة قال الله تعالى لملائكته: افتحوا أبواب السماء كلها، وأبواب الجنان، وألبست الشمس يومئذ نوراً عظيماً، وكان قد أذن الله تعالى تلك السنة لنساء الدنيا أن يحملن ذكوراً كرامة لمحمد ﷺ. . الحديث وهو مطعون فيه.

وذكر أبو سعيد عبد الملك النيسابوري[1] في كتابه الكبير كما نقله عنه صاحب كتاب السعادة والبشرى عن كعب في حديثه الطويل، ورواه أبو نعيم من حديث ابن عباس قال: كانت آمنة تحدث وتقول: أتاني آت حين مر بي من حملي ستة أشهر في المنام وقال لي يا آمنة إنك حملت بخير العالمين فإذا ولدتيه فسميه محمداً واكتمي شأنك قالت ثم لما أخذني ما يأخذ النساء ولم يعلم بي أحد لا ذكر ولا أنثى، وإني لوحيدة في المنزل وعبد المطلب في طوافه، فسمعت وجبة عظيمة وأمراً عظيماً هالني، ثم رأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادي فذهب عني الرعب وكل وجع أجده، ثم التفت فإذا أنا بشربة بيضاء فتناولتها فأصابني نور عال، ثم رأيت نسوة كالنخل طولاً كأنهن من بنات عبد مناف، يحدقن بي فبينا أنا أتعجب وأنا أقول واغوثاه من أين علمن بي. قال في غير هذه الرواية فقلن لي نحن آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وهؤلاء من الحور العين واشتد بي الأمر وأنا أسمع الوجبة في كل ساعة أعظم وأهول مما تقدم فبينا أنا كذلك إذا بديباج أبيض قد مد بين السماء والأرض، وإذا قائل يقول خذاه عن أعين الناس، قالت ورأيت رجالاً قد وقفوا في الهواء بأيديهم أباريق من فضة، ثم نظرت فإذا أنا بقطعة من الطير قد أقبلت حتى غطت حجرتي، مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من الياقوت فكشف الله عن بصري فرأيت مشارق الأرض ومغاربها، ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات، علماً بالمشرق

---

(١) هو عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الخركوشي، أبو سعد أو أبو سعيد، واعظ محدث، حافظ، مفسر، فقيه. توفي بنيسابور سنة (٤٠٧ هـ) الأعلام ٤/ ١٦٣. شذرات الذهب ٣/ ١٨٤. طبقات الشافعية ٣/ ٢٨٢ معجم البلدان ٣/ ٤٢٢. كشف الظنون ١/ ٢٤٥.

وعلماً بالمغرب وعلماً على ظهر الكعبة فأخذني المخاض فوضعت محمداً ﷺ فنظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعيه إلى السماء كالمتضرع المبتهل، ثم رأيت سحابة بيضاء قد اقبلت من السماء حتى غشيته فغيبته عني، فسمعت منادياً ينادي طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها وأدخلوه البحار ليعرفوه باسمه ونعته وصورته، ويعلمون أنه سمي فيها الماحي، لا يبقى شيء من الشرك إلا محي في زمنه، ثم انجلت عنه في أسرع وقت. . الحديث. وهو مما تكلم فيه.

وروى الخطيب البغدادي بسنده كما ذكره صاحب السعادة والبشرى أيضاً أن آمنة قالت لما وضعته عليه السلام رأيت سحابة عظيمة لها نور أسمع فيها صهيل الخيل وخفقان الأجنحة وكلام الرجال، حتى غشيته وغيب عني فسمعت منادياً ينادي طوفوا بمحمد ﷺ جميع الأرض وأعرضوه على كل روحاني من الجن والإنس والملائكة والطيور والوحوش وأعطوه خلق آدم، ومعرفة شيث، وشجاعة نوح، وخلة إبراهيم ولسان إسماعيل، ورضا إسحاق، وفصاحة صالح، وحكمة لوط، وبشرى يعقوب، وشدة موسى، وصبر أيوب، وطاعة يونس، وجهاد يوشع، وصوت داود وحب دانيال ووقار إلياس وعصمة يحيى وزهد عيسى، واغمسوه في أخلاق النبيين قالت: ثم انجلت عني فإذا به قد قبض على حريرة بيضاء خضراء مطوية طياً شديداً ينبع من تلك الحريرة ماء وإذا قائل يقول بخ بخ قبض محمد ﷺ على الدنيا كلها لم يبق خلق من أهلها إلا دخل طائعاً في قبضته، قالت ثم نظرت إليه فإذا به كالقمر ليلة البدر وريحه يسطع كالمسك الإذفر، وإذا بثلاثة نفر في يد أحدهم إبريق من فضة، وفي يد الثاني طست من زمرد أخضر وفي يد الثالث حريرة بيضاء فنشرها فأخرج منها خاتماً تحار أبصار الناظرين دونه فغسله من ذلك الإبريق سبع مرات ثم ختم بين كتفيه بالخاتم ولفه في الحريرة ثم احتمله فأدخله بين أجنحته ساعة ثم رده إلي ورواه أبو نعيم عن ابن عباس وفيه نكارة.

وروى الحافظ أبو بكر بن عائذ في كتابه المولد ـ كما نقله عنه الشيخ بدر الدين الزركشي[1] في شرح بردة المديح ـ عن ابن عباس: لما ولد ﷺ قال في أذنه رضوان خازن الجنان: أبشر يا محمد فما بقي لنبي علم إلا وقد أعطيته، فأنت أكثرهم علماً، وأشجعهم قلباً.

وروى محمد بن سعد من حديث جماعة منهم عطاء وابن عباس: أن آمنة بنت

(١) هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله بدر الدين (٧٤٥ ـ ٧٩٤ هـ) فقيه شافعي، مات في مصر. الأعلام ٦/ ٦٠ الدرر الكامنة ٣/ ٣٩٧ رقم الترجمة (١٠٥٩). شذرات الذهب ٦/ ٣٣٥ كشف الظنون ١٢٥.

وهب قالت: لما فصل مني - تعني النبي ﷺ - خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع إلى الأرض معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء.

وروى الطبراني: أنه لما وقع إلى الأرض وقع مقبوضة أصابع يده مشيراً بالسبابة كالمسبح بها.

وروي عن عثمان بن أبي العاصي[١] عن أمه أم عثمان الثقفية - واسمها فاطمة بنت عبد الله - قالت: لما حضرت ولادة رسول الله ﷺ رأيت البيت حين وقع قد امتلأ نوراً، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع علي[٢]. رواه البيهقي.

وأخرج أحمد والبزار والطبراني والحاكم والبيهقي عن العرباض بن سارية. أن رسول الله ﷺ قال: «**إني عبد الله وخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم عن ذلك، إني دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات الأنبياء يرين، وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاء له قصور الشام**»[٣] قال الحافظ ابن حجر: صححه ابن حبان والحاكم.

وأخرج أبو نعيم عن عطاء بن يسار[٤] عن أم سلمة عن آمنة: قالت: لقد رأيت ليلة وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام حتى رأيتها. وأخرج أيضاً، عن بريدة[٥] عن مرضعته في بني سعد أن آمنة قالت: رأيت كأنه خرج من فرجي شهاب أضاءت له الأرض حتى رأيت قصور الشام.

---

(١) هو عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد بن دهمان أبو عبد الله من ثقيف صحابي مات بالبصرة سنة (٥١ هـ) الأعلام ٢٠٧/٤ الإصابة ٢٢١/٤ رقم الترجمة (٥٤٣٣) طبقات ابن سعد ٤٧/٦ رقم الترجمة (١٦٧٢).

(٢) وهو في دلائل النبوة للبيهقي باختلاف ١١١/١ وقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٠/٨.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١٢٧/٤ والحاكم في المستدرك ٦٠٠/٢ ودلائل النبوة للبيهقي ٨٠/١ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٣/٢.

(٤) هو عطاء بن يسار الهلالي القاصي مولى ميمونة أم المؤمنين أبو عبد الله أو أبو محمد المدني فقيه واعظ صاحب قصص وعبادة. توفي سنة (١٠٣ هـ) وقيل سنة (٩٤ هـ) وقيل (١٠٤ هـ). انظر طبقات ابن سعد ١٣١/٥ رقم الترجمة (٧١٨) تذكرة الحفاظ ٩٠/١ رقم الترجمة (٨٠) شذرات الذهب ١٢٥/١. والكاشف ٢٣٣/٢ رقم الترجمة (٣٨٦٥).

(٥) هو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي، صحابي توفي في مرو سنة (٦٣ هـ). الأعلام ٥٠/٢ الإصابة ١٥١/١ رقم الترجمة (٦٢٩) تهذيب التهذيب ٤٣٢/١ طبقات ابن سعد ٢٥٩/٧ رقم الترجمة (٣٦١٦).

وعن همام بن يحيى[1] عن إسحاق بن عبد الله أن أم رسول الله ﷺ قالت: لما ولدته خرج من فرجي نور أضاء له قصور الشام، فولدته نظيفاً ما به قذر، رواه ابن سعد.

وإلى هذا أشار العباس بن عبد المطلب في شعره، حيث قال:

وأنت لما ولدت أشرقت الـ ... أرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذاك الضياء وفي النو ... ر وسبل الرشاد نخترق

قال في **اللطائف**: «وخروج هذا النور عند وضعه، إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزال به ظلمة الشرك. قال تعالى: **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾** [المائدة: ١٥ و ١٦]. الآية، وأما إضاءة قصور بصرى بالنور الذي خرج معه فهو إشارة إلى ما خص الشام من نور نبوته، فإنها دار ملكه ـ كما ذكر كعب: أن في الكتب السالفة: محمد رسول الله ﷺ مولده بمكة ومهاجره بيثرب وملكه بالشام ـ فمن مكة بدت نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام، وإلى الشام انتهى ملكه، ولهذا أسري به ﷺ إلى الشام، إلى بيت المقدس، كما هاجر قبله إبراهيم عليه السلام إلى الشام، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، وهي أرض المحشر والمنشر. وخرج أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم في صحيحهما عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده»[2]. انتهى ملخصاً.

وأخرج أبو نعيم عن عبد الرحمن بن عوف[3] عن أمه **الشفاء**[4] قالت: لما ولدت آمنة رسول الله ﷺ وقع على يدي فاستهل، فسمعت قائلاً يقول: رحمك الله، قالت الشفاء: وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب، حتى نظرت إلى بعض قصور الروم، قالت: ثم ألبنته وأضجعته، فسمعت قائلاً يقول: أي ذهبت به؟ قال: إلى المشرق، قالت: فلم يزل الحديث مني على بال حتى بعثه الله فكنت في أول الناس إسلاماً.

---

(١) هو همام بن يحيى بن دينار الأزدي العوذي المحلمي بالولاء أبو عبد الله البصري. له علم بالحديث توفي سنة (١٦٤ هـ) وقيل سنة (١٦٣ هـ). الأعلام ٨/ ٩٤ تهذيب التهذيب ١١/ ٦٧ ميزان الاعتدال ٣/ ٢٥٨ شذرات الذهب ١/ ٢٥٨ تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠١ رقم الترجمة (١٩٤).

(٢) أخرجه أبو داوود في كتاب الجهاد باب في سكنى الشام رقم الحديث (٢٤٨٣) وفي كنز العمال (٣٨٢٠٦) تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٣٠.

(٣) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد مناف الزهري أبو محمد القرشي (٤٤ ق. هـ ـ ٣٢ هـ) صحابي توفي في المدينة مناقبه كثيرة. الأعلام ٣/ ٣٢١ حلية الأولياء ١/ ٩٨ رقم الترجمة (٩) والإصابة ٤/ ١٧٦ رقم الترجمة (٥١٧١).

(٤) انظر طبقات ابن سعد ٨/ ١٩٥ رقم الترجمة (٤١٩٣).

ومن عجائب ولادته عليه السلام ما خرجه البيهقي وأبو نعيم عن حسان بن ثابت قال: إني لغلام ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل ما رأيت وسمعت، إذا يهودي يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود، فاجتمعوا إليه، وأنا أسمع، قالوا: ويلك مالك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي ولد به هذه الليلة.

وعن عائشة قالت: كان يهودي قد سكن مكة، فلما كانت الليلة التي ولد فيهارسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش: هل ولد فيكم الليلة مولود، قالوا: لا نعلم، قال: انظروا، فإنه ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة. بين كتفيه علامة. فانصرفوا فسألوا، فقيل لهم قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام، فذهب اليهودي معهم إلى أمه، فأخرجته لهم، فلما رأى اليهودي العلامة خر مغشياً عليه، وقال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل، يا معشر قريش: أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب[1]. رواه يعقوب بن سفيان[2] باسناد حسن كما قاله في فتح الباري.

ومن عجائب ولادته أيضاً: ما روي من ارتجاج إيوان كسرى وسقوط أربع عشرة شرافة من شرفاته، وغيض بحيرة طبرية، وخمود نار فارس. وكان لها ألف عام لم تخمد[3]، كما رواه البيهقي وأبو نعيم والخرائطي في «الهواتف» وابن عساكر.

وفي سقوط الأربع عشرة شرافة إشارة إلى أنه يملك منهم ملوك وملكات بعدد الشرفات، وقد ملك منهم في أربع سنين عشرة، ذكره ابن ظفر[4] وزاد ابن سيد الناس[5]: وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه.

ومن ذلك أيضاً: ما وقع من زيادة حراسة السماء بالشهب، وقطع رصد الشياطين، ومنعهم من استراق السمع.

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٠٨. وهو في المستدرك ٢/ ٦٠١.

(٢) هو يعقوب بن سفيان بن جوان الفارس الفسوي أبو يوسف حافظ مات بالبصرة سنة (٢٧٧ هـ). الأعلام ٨/ ١٩٨ تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٨٢ رقم الترجمة (٦٠٧).

(٣) انظر دلائل النبوة ١/ ١٨ و ٤٩.

(٤) هو محمد بن عبد الله أبي محمد بن محمد بن ظفر العقلي المكي، أبو عبد الله حجة الدين (٤٩٧ - ٥٦٥ هـ). أديب، رحالة، مفسر. مات في حماة. الأعلام ٦/ ٢٣٠. وفيات الأعيان ١/ ٥٢٢. معجم الأدباء ٥/ ٤٤٢ رقم الترجمة (٩١٦). هدية العارفين ٢/ ٩٦. مفتاح السعادة ١/ ٢٣٣.

(٥) هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري الربعي أبو الفتح فتح الدين (٦٧١ - ٧٣٤ هـ) مؤرخ، أديب، حافظ توفي بالقاهرة. الأعلام ٧/ ٣٤. فوات الوفيات ٣/ ٢٨٧ رقم الترجمة (٤٢٧). شذرات الذهب ٦/ ١٠٨. مرآة الجنان ٤/ ٢٩١. الدرر الكامنة ٤/ ٢١٣ رقم الترجمة (٥٧٤).

ولقد أحسن الشقراطيسي[1] حيث قال:

| | |
|---|---|
| ضاءت لمولده الآفاق واتصلت | بشرى الهواتف في الإشراق والطفل |
| وصرح كسرى تداعى من قواعده | وانقض منكسر الأرجاء ذا ميل |
| ونار فارس لم توقد وما خمدت | مذ ألف عام ونهر القوم لم يسل |
| خرت لمبعثه الأوثان وانبعثت | ثواقب الشهب ترمي الجن بالشعل |

وولد ﷺ معذوراً أي مختوناً[2] مسروراً ـ أي مقطوع السرة ـ كما روي من حديث أبي هريرة عند ابن عساكر.

وروى الطبراني في الأوسط وأبو نعيم والخطيب وابن عساكر من طرق، عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «**من كرامتي على ربي أني ولدت مختوناً، ولم ير أحداً سوأتي**»[3] وصحَّحه الضياء[4] في المختارة.

وعن ابن عمر قال: ولد النبي ﷺ مسروراً مختوناً. رواه ابن عساكر.

قال الحاكم في المستدرك: تواترت الأخبار أنه عليه السلام ولد مختوناً. انتهى.

وتعقبه الحافظ الذهبي[5] فقال: ما أعلم صحة ذلك؟! فكيف يكون متواتراً؟ وأجيب: باحتمال أن يكون أراد بتواتر الأخبار اشتهارها وكثرتها في السير، لا من طريق السند المصطلح عليه عند أئمة الحديث.

وقد حكى الحافظ زين الدين العراقي، أن الكمال بن العديم[6] ضعف أحاديث

---

(١) هو عبد الله بن يحيى بن علي أبو محمد الشقراطيسي التوزري. فقيه مالكي توفي بتوزر سنة (٤٦٦ هـ) الأعلام ٤/ ١٤٤ شجرة النور ١١٧ معجم المؤلفين ١٠/ ٧٠.

(٢) انظر زاد المعاد بشرح المواهب ١/ ٦٠.

(٣) انظر العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ١٦٥. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٤. وكنز العمال (٣١٩٢٤ ـ ٣٢١٣٤). وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٤٦. وفي البداية والنهاية ٢/ ٢٤٧.

(٤) هو محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن السعدي المقدسي أبو عبد الله ضياء الدين (٥٦٩ ـ ٦٤٣ هـ) مؤرخ عالم بالحديث. توفي في دمشق. الأعلام ٦/ ٢٥٥. فوات الوفيات ٣/ ٤٢٦ رقم الترجمة (٤٧٧) شذرات الذهب ٥/ ٢٢٤ تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٠٥ رقم الترجمة (١١٢٩).

(٥) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي شمس الدين أبو عبد الله (٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ) حافظ مؤرخ توفي في دمشق. الأعلام ٥/ ٣٢٦. فوات الوفيات ٣/ ٣١٥ رقم الترجمة (٤٣٦) طبقات الشافعية ٥/ ٢١٦ شذرات الذهب ٦/ ١٥٣. الدرر الكامنة ٣/ ٣٣٦ رقم الترجمة (٨٩٤) المنهل الصافي ٣٦٦ رقم الترجمة (٢٠١).

(٦) هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي كمال الدين ابن العديم (٥٨٨ ـ ٦٦٠ هـ) مؤرخ=

كونه ولد مختوناً، وقال: إنه لا يثبت في هذا شيء من ذلك.

وأقره عليه، وبه صرح ابن القيم ثم قال: ليس هذا من خصائصه ﷺ، فإن كثيراً من الناس ولد مختوناً.

وحكى الحافظ ابن حجر: أن العرب تزعم أن الغلام إذا ولد في القمر فسخت قلفته ـ أي اتسعت ـ فيصير كالمختون.

وفي «الوشاح» لابن دريد[1]: قال ابن الكلبي: بلغني أن آدم خلق مختوناً واثني عشر نبياً من بعده خلقوا مختونين آخرهم محمد ﷺ: **شيث وإدريس ونوح وسام ولوط ويوسف وموسى وسليمان وشعيب ويحيى وهود [وصالح] صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.**

وفي هذه العبارة تجوز، لأن الختان هو القطع، وهو غير ظاهر، لأن الله تعالى يوجد ذلك على هذه الهيئة من غير قطع، فيحمل الكلام باعتبار أنه على صفة المقطوع.

وقد حصل من الاختلاف في ختانه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ولد مختوناً كما تقدم.

الثاني: أنه ختنه جده عبد المطلب يوم سابعه، وصنع له مأدبة وسماه محمداً. رواه الوليد بن مسلم[2] بسنده إلى ابن عباس وحكاه ابن عبد البر[3] في التمهيد.

---

= محدث كاتب. توفي بالقاهرة. الأعلام ٥/ ٤٠ فوات الوفيات ٣/ ١٢٦ رقم الترجمة (٣٧٢) معجم الأدباء ٤/ ٤٣٣ رقم الترجمة (٦٨١) مرآة الجنان ٤/ ١٨٥ شذرات الذهب ٥/ ٣٠٣ كشف الظنون ٢٩١.

(١) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أبو بكر (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ). لغوي أديب توفي في بغداد. الأعلام ٦/ ٨٠ معجم الأدباء ٥/ ٢٩٦ رقم الترجمة (٨٤٩) وفيات الأعيان ١/ ٤٩٧ طبقات الشافعية ٢/ ١٤٥ تاريخ بغداد ٢/ ١٩٥ خزانة الأدب ١/ ٤٩٠.

(٢) هو الوليد بن مسلم الأموي بالولاء الدمشقي أبو العباس (١١٩ ـ ١٩٥ هـ) حافظ للحديث. توفي بذي المروة. الأعلام ٨/ ١٢٢. تذكرة الحفاظ ١/ ٣٠٢ رقم الترجمة (٢٨٢) طبقات المدلسين صفحة (٢٠) شذرات الذهب ١/ ٣٤٤. طبقات ابن سعد ٧/ ٣٢٦ رقم الترجمة (٣٩٢٦).

(٣) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي أبو عمر (٣٦٨ ـ ٤٦٣ هـ). حافظ، مؤرخ، أديب، بحاثة. توفي بشاطبة. الأعلام ٨/ ٢٤٠. وفيات الأعيان ٢/ ٣٤٨. معجم المطبوعات (١٥٩). تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٢٨ رقم الترجمة (١٠١٣) شذرات الذهب ٣/ ٣١٤.

والثالث: أنه ختن عند حليمة، كما ذكره ابن القيم والدمياطي[١] ومغلطاي[٢] وقالا: إن جبريل عليه السلام ختنه حين طهر قلبه.

وكذا أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم من حديث أبي بكرة.

قال الذهبي: وهذا منكر.

واعلم أن الختان: هو قطع القلفة التي تغطي الحشفة من الرجل، وقطع بعض الجلدة التي في أعلى الفرج من المرأة، ويسمى ختان الرجل: إعذاراً - بالعين المهملة والذال المعجمة والراء - وختان المرأة خفاضاً - بالخاء المعجمة والفاء والضاد المعجمة أيضاً -.

واختلف العلماء: هل هو واجب؟.

● فذهب أكثرهم إلى أنه سنَّة وليس بواجب، وهو قول مالك وأبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي.

● وذهب الشافعي إلى وجوبه، وهو مقتضى قول سحنون[٣] من المالكية.

● وذهب بعض أصحاب الشافعي إلى أنه واجب في حق الرجال، سنة في حق النساء.

واحتج من قال إنه سنة، بحديث أبي المليح بن أسامة عن أبيه: أن النبي ﷺ قال: «**الختان سنة للرجال مكرمة للنساء**»[٤] رواه أحمد في مسنده والبيهقي.

وأجاب من أوجبه بأنه ليس المراد بالسنة هنا خلاف الواجب، بل المراد الطريقة، واحتجوا على وجوبه بقوله تعالى: ﴿**أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً**﴾ [النحل: ١٢٣]، وثبت

---

(١) هو عبد المؤمن بن خلف الدمياطي أبو محمد شرف الدين. (٦١٣ - ٧٠٥ هـ) حافظ. توفي بالقاهرة. الأعلام ٤/١٦٩. فوات الوفيات ٢/٤٠٩ رقم الترجمة (٣٠٨) طبقات الشافعية ٤/١٠ شذرات الذهب ٦/١٢ الدرر الكامنة ٢/٤١٧ رقم الترجمة (٢٥٢٥) تذكرة الحفاظ ٤/١٤٧٧ رقم الترجمة (١١٦٦).

(٢) هو مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري الحنفي أبو عبد الله علاء الدين (٦٨٩ - ٧٦٢ هـ). مؤرخ، حافظ، نسابة، ناقد. الأعلام ٧/٢٧٥ الدرر الكامنة ٤/٣٥٢ رقم الترجمة (٩٦٣). شذرات الذهب ٦/١٩٧. معجم المطبوعات (١٧٦٨).

(٣) هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الملقب بسحنون (١٦٠ - ٢٤٠ هـ) قاض، فقيه. توفي بالقيروان. الأعلام ٤/٥ وفيات الأعيان ١/٢٩١.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/٧٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/٣٢٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ٧/٣٣٠ و ١١/٣٣٣ وفي كنز العمال (٤٥٣٠٥).

في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**اختتن إبراهيم النبي ﷺ وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم**»[1] وبما روى أبو داود من قوله ﷺ للرجل الذي أسلم: «**ألق عنك شعر الكفر واختتن**»[2].

واحتج القفال لوجوبه: بأن بقاء القفلة يحبس النجاسة، ويمنع صحة الصلاة، فيجب إزالتها.

وقال الفخر الرازي: «الحكمة من الختان، أن الحشفة قوية الحس، فما دامت مستورة تقوي اللذة عند المباشرة، فإذا قطعت القلفة تصلبت الحشفة فضعفت اللذة، وهو اللائق بشريعتنا تقليلاً للذة لا قطعاً لها، كما تفعل المانوية، فذلك إفراط وإبقاء القفلة تفريط، فالعدل الختان». انتهى.

وإذا قلنا بوجوب الختان، فمحل الوجوب بعد البلوغ على الصحيح من مذهبنا، لما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس أنه سئل: مثل من أنت حين قبض رسول الله ﷺ قال: «وأنا يومئذ مختون وكانوا لا يختنون الرجل حتى يدرك»[3]. وقال بعض أصحابنا: يجب على الولي أن يختن الصبي قبل البلوغ، والله أعلم.

وقد اختلف في عام ولادته ﷺ:

فالأكثرون على أنه عام الفيل، وبه قال ابن عباس، ومن العلماء من حكى الإتفاق عليه، وقال: كل قول يخالفه وهم.

والمشهور: أنه ولد بعد الفيل بخمسين يوماً، وإليه ذهب السهيلي في جماعة.

وقيل: بعده بخمسة وخمسين يوماً، وحكاه الدمياطي في آخرين وقيل: بشهر، وقيل بأربعين يوماً.

وقيل: بعد الفيل بعشر سنين وقيل: قبل الفيل بخمس عشرة سنة، وقيل: غير ذلك.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/٤١٨ وأخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث (٢٣٧٠) والبخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب (٨) رقم الحديث (٣٣٥٦) وكتاب الاستئذان باب (٥١) رقم الحديث (٦٢٩٨) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٢٢٥ وفي كنز العمال (٤٥٣٠٤) وانظر البداية والنهاية ١/ ١٤٧.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة باب في الرجل يُسلم فيؤمر بالغسل رقم الحديث (٣٥٦) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٤١٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ١٧٢ وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٤٠٨ و ٤١٨ وفي الدر المنثور ١/ ١١٤ وفي كنز العمال (١٣٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان باب (٥١) رقم الحديث (٦٢٩٩). وهو في مسند الإمام أحمد ابن حنبل ١/ ٢٨٧ و ٣٥٧ باختلاف يسير.

والمشهور أنه بعد الفيل، لأن قصة الفيل كانت توطئة لنبوته، وتقدمة لظهوره وبعثته، وإلا فأصحاب الفيل ـ كما قاله ابن القيم ـ كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك، لأنهم كانوا عباد أوثان، فنصرهم الله تعالى على أهل الكتاب نصراً لا صنع للبشر فيه، إرهاصاً وتقدمة للنبي الذي خرج من مكة، وتعظيماً للبلد الحرام.

واختلف أيضاً في الشهر الذي ولد فيه.

والمشهور: أنه ولد في شهر ربيع الأول، وهو قول جمهور العلماء. ونقل ابن الجوزي الاتفاق عليه.

وفيه نظر: فقد قيل في صفر، وقيل في ربيع الآخر. وقيل في رجب، ولا يصح.

وقيل: في رمضان، وروي عن ابن عمر بإسناد لا يصح، وهو موافق لمن قال: إن أمه حملت به في أيام التشريق.

وأغرب من قال: ولد في عاشوراء.

وكذا اختلف أيضاً في أي يوم من الشهر:

فقيل إنه غير معين، إنما ولد يوم الإثنين من ربيع الأول من غير تعيين، والجمهور على أنه يوم معين منه.

فقيل: لليلتين خلتا منه.

وقيل: لثمان خلت منه، قال الشيخ قطب الدين القسطلاني[1]: وهو اختيار أكثر أهل الحديث، ونقل عن ابن عباس وجبير بن مطعم، وهو اختيار أكثر من له معرفة بهذا الشأن، واختاره الحميدي[2]، وشيخه ابن حزم[3]، وحكى القضاعي[4] في «عيون

---

(١) هو محمد بن أحمد بن علي العنبسي الشاطبي أبو بكر قطب الدين التوزري القسطلاني (٦١٤ ـ ٦٨٦ هـ) محدث عالم بالحديث ورجاله. توفي في القاهرة. الأعلام ٥/ ٣٢٣. طبقات الشافعية ٥/ ١٨ وفوات الوفيات ٣/ ٣١٠ رقم الترجمة (٤٣٣). شذرات الذهب ٥/ ٣٩٧.

(٢) هو محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي أبو عبد الله ابن أبي نصر. (٤٢٠ ـ ٤٨٨ هـ) مؤرخ محدث توفي في بغداد. الأعلام ٦/ ٣٢٧ نفح الطيب ١/ ٣٨١ وفيات الأعيان ١/ ٤٨٥ مفتاح السعادة ١/ ١٣.

(٣) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ) حافظ. فقيه. ناقد. توفي في بادية لبلة (من بلاد الأندلس). . الأعلام ٤/ ٢٥٤ معجم الأدباء ٣/ ٥٤٦ رقم الترجمة (٥٤٢) وفيات الأعيان ١/ ٣٤٠ شذرات الذهب ٣/ ٢٩٩ تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٤٦ رقم الترجمة (١٠١٦).

(٤) هو محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون. أبو عبد الله القضاعي. مؤرخ. مفسر. محدث. =

المعارف» إجماع أهل الزيج عليه، ورواه الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم، وكان عارفاً بالنسب وأيام العرب، أخذ ذلك عن أبيه جبير.

وقيل لعشر، وقيل لاثني عشر، وعليه عمل أهل مكة في زيارتهم موضع مولده في هذا الوقت، وقيل لسبع عشرة وقيل لثمان عشرة، وقيل لثمان بقين منه. وقيل: إن هذين القولين غير صحيحين عمن حكيا عنه بالكلية.

والمشهور: أنه ولد [يوم الإثنين] ثاني عشر شهر ربيع الأول، وهو قول ابن إسحاق وغيره.

وإنما كان في شهر ربيع على الصحيح ولم يكن في المحرم، ولا في رجب، ولا في رمضان، ولا غيرها من الأشهر ذوات الشرف، لأنه عليه السلام لا يتشرف بالزمان، وإنما الزمان يتشرف به كالأماكن، فلو ولد في شهر من الشهور المذكورة، لتوهم أنه تشرف بها، فجعل الله تعالى مولده ﷺ في غيرها ليظهر عنايته به وكرامته عليه.

وإذا كان يوم الجمعة الذي خلق فيه آدم عليه السلام خص بساعة لا يصادفها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، فما بالك بالساعة التي ولد فيها سيد المرسلين. ولم يجعل الله تعالى في يوم الإثنين ـ يوم مولده ﷺ ـ من التكليف بالعبادات ما جعل في يوم الجمعة ـ المخلوق فيه آدم ـ من الجمعة والخطبة وغير ذلك، إكراماً لنبيه ﷺ بالتخفيف عن أمته، بسبب عناية وجوده قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ومن جملة ذلك: عدم التكليف.

واختلف أيضاً في الوقت الذي ولد فيه.

والمشهور أنه يوم الإثنين. فعن. أبي قتادة الأنصاري[(١)]: أنه ﷺ سئل عن صيام يوم الإثنين فقال: «**ذاك يوم ولدت فيه، وأنزلت علي فيه النبوة**»[(٢)] رواه مسلم، وهذا يدل على أنه ﷺ ولد نهاراً.

وفي المسند، عن ابن عباس قال: ولد ﷺ يوم الإثنين، واستنبىء يوم الإثنين،

---

= توفي في مصر سنة (٤٥٤ هـ). الأعلام ٦/١٤٦ وفيات الأعيان ١/٤٦٢ طبقات الشافعية ٣/٦٢. معجم المطبوعات (١٥١٥) معجم المؤلفين ١٠/ ٤٢. كشف الظنون (١٧٢).

(١) هو الحارث (أو النعمان، أو عمرو) بن ربعي الأنصاري الخزرجي السلمي. أبو قتادة (١٨ ق. هـ ـ ٥٤ هـ) صحابي. توفي بالمدينة. الأعلام ٢/ ١٥٤. الإصابة ٧/ ١٥٥ رقم الترجمة (٩١٢) الكاشف ٣/ ٣٢٥ رقم الترجمة (٣٣٤). شذرات الذهب ١/ ٦٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/٢٩٧. وأبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٥٢. وفي البداية والنهاية ٢/ ٢٤٢.

وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين،.ورفع الحجر يوم الإثنين. انتهى.

وكذا فتح مكة ونزول سورة المائدة يوم الإثنين.

وقد روي أنه ولد [يوم الإثنين] عند طلوع الفجر، فعن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: كان بمر الظهران راهب يسمى عيصى، من أهل الشام، وكان يقول: يوشك أن يولد فيكم يا أهل مكة مولود تدين له العرب ويملك العجم، هذا زمانه، فكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه، فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد المطلب حتى أتى عيصى فناداه، فأشرف عليه، فقال له عيصى: كن أباه، فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه يوم الإثنين، ويبعث يوم الإثنين، ويموت يوم الإثنين. قال: ولد لي الليلة مع الصبح مولود، قال: فما سميته؟ قال: محمداً، قال: والله لقد كنت أشتهي أن يكون هذا المولود فيكم أهل هذا البيت، بثلاث خصال تعرّفه: فقد أتى عليهن منها: أنه طلع نجمه البارحة، وأنه ولد اليوم، وأن اسمه محمد. رواه أبو جعفر بن أبي شيبة[1]، وخرجه أبو نعيم في الدلائل بسند فيه ضعف.

وقيل: كان مولده ﷺ عند طلوع الغفر، وهو ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر، وهو مولد النبيين، ووافق ذلك من الشهور الشمسية نيسان، وهو برج الحمل، وكان لعشرين مضت منه.

وقيل ولد ليلاً فعن عائشة قالت: كان بمكة يهودي يتجر فيها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود قالوا لا نعلم قال ولد الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس فخرجوا باليهودي حتى أدخلوه على أمه فقالوا: أخرجي لنا ابنك فأخرجته وكشفوا عن ظهره فرأى تلك الشامة فوقع اليهودي مغشياً عليه فلما أفاق قالوا مالك ويلك قال: ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل، رواه الحاكم.

قال الشيخ بدر الدين الزركشي: «**والصحيح أن ولادته** ﷺ كانت نهاراً، قال: وأما ما روي من تدلي النجوم فضعفه ابن دحية **لاقتضائه** أن الولادة ليلاً. قال: وهذا لا يصلح أن يكون تعليلاً، فإن زمان النبوة صالح للخوارق، ويجوز أن تسقط النجوم نهاراً» انتهى.

---

(١) هو محمد بن عثمان بن محمد بن أبي شيبة العبسي أبو جعفر الكوفي. مؤرخ. محدث ـ حافظ. مات في بغداد سنة (٢٩٧ هـ). الأعلام ٦/ ٢٦٠. تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٦١ رقم الترجمة (٦٨١). طبقات المفسرين ٢/ ١٩٤ رقم الترجمة (٥٣٢) تاريخ بغداد ٢/ ٤٢.

فإن قلت: إذا قلنا بأنه عليه الصلاة والسلام ولد ليلاً، فأيما أفضل: ليلة القدر أو ليلة مولده ﷺ؟

أجيب: بأن ليلة مولده أفضل من ليلة القدر من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن ليلة المولد ليلة ظهوره ﷺ، وليلة القدر معطاة له، وما شرف بظهور ذات المشرف من أجله أشرف مما شرف بسبب ما أعطيه، ولا نزاع في ذلك، فكانت ليلة المولد ـ بهذا الاعتبار ـ أفضل.

الثاني: أن ليلة القدر شرفت بنزول الملائكة فيها، وليلة المولد شرفت بظهوره ﷺ فيها. ومن شرفت به ليلة المولد أفضل ممن شرفت بهم ليلة القدر، على الأصح المرتضى، فتكون ليلة المولد أفضل.

الثالث: أن ليلة القدر وقع التفضل فيها على أمة محمد ﷺ، وليلة المولد الشريف وقع التفضل فيها على سائر الموجودات، فهو الذي بعثه الله عز وجل رحمة للعالمين، فعمت به النعمة على جميع الخلائق، فكانت ليلة المولد أعم نفعاً، فكانت أفضل.

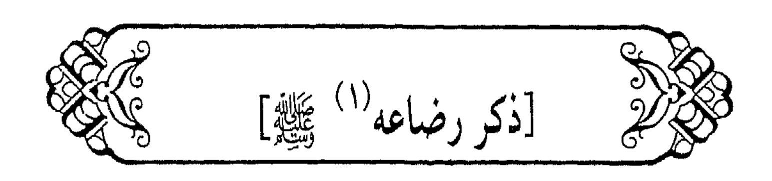
فيا شهراً ما أشرفه وأوفر حرمة لياليه، كأنها لآلىء في العقود، ويا وجهاً ما أشرفه من مولود، فسبحان من جعل مولده للقلوب ربيعاً وحسنه بديعاً.

يقول لنا لسان الحال منه ... وقول الحق يعذب للسميع
فوجهي والزمان وشهر وضعي ... ربيع في ربيع في ربيع

واختلف أيضاً في مدة الحمل به، فقيل: تسعة أشهر، وقيل ثمانية وقيل سبعة وقيل ستة.

وولد عليه السلام في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ويقال بالشعب، ويقال بالردم ويقال بعسفان[1].

(١) هو محمد بن يوسف الثقفي. أمير استعمله الحجاج على صنعاء. ومات فيها سنة (٩١ هـ). الأعلام ٧/ ١٤٧.



## [ذكر رضاعه[1] ﷺ]

وأرضعته ﷺ ثويبة، عتيقة أبي لهب، أعتقها حين بشرته بولادته عليه السلام.

وقد رؤي أبو لهب بعد موته في النوم فقيل له ما حالك؟ فقال: في النار، إلا أنه خفف عني كل ليلة إثنين، وأمص من بين أصبعي هاتين ماء[2]، وأشار برأس أصبعه وأن ذلك بإعتاقي لثويبة عندما بشرتني بولادة النبي ﷺ وبإرضاعها له.

قال ابن الجزري[3]: فإذا كان هذا أبو لهب الكافر، الذي نزل القرآن بذمه جوزي في النار بفرحه ليلة مولد النبي ﷺ به، فما حال المسلم الموحد من أمته عليه السلام الذي يسر بمولده، ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ﷺ، لعمري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضله العميم جنات النعيم.

ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السلام[4]، ويعملون الولائم، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرات. ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم.

ومما جرب من خواصه أنه أمان في ذلك العام، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام، فرحم الله امرءاً اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً، ليكون أشد علة على من في قلبه مرض وأعيا داء.

---

(١) انظر زاد المعاد بشرح المواهب ١/ ٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب (٢١) رقم الحديث (٥١٠١).

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف. أبو الخير شمس الدين العمري الدمشقي ثم الشيرازي الشافعي الشهير بابن الجزري. (٧٥١ هـ ـ ٨٣٣ هـ). حافظ، مقرىء. توفي في شيراز. الأعلام ٧/ ٤٥. شذرات الذهب ٧/ ٢٠٤. الضوء اللامع ٩/ ٢٥٥ رقم الترجمة (٦٠٨) مفتاح السعادة ٣/ ٨٥ هدية العارفين ٢/ ١٨٧.

(٤) أول من أحدث فعل ذلك كوكبري. مظفر الدين ابن الأمير زين الدين أبي الحسن علي بن بكتكين التركماني. أبو سعيد الملك المظفر صاحب إربل المتوفي بإربل سنة (٦٣٠ هـ). وقال ابن كثير: «كان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول، ويحتفل فيه احتفالاً هائلاً». البداية والنهاية ١٣/ ١٤٧.

ولقد أطنب ابن الحاج[1] في «المدخل» في الإنكار على ما أحدثه الناس من البدع والأهواء والغناء بالآلات المحرمة عند عمل المولد الشريف، فالله يثيبه على قصده الجليل، ويسلك بنا سبيل السنة، فإنه حسبنا ونعم الوكيل.

وقد ذكروا أنه لما ولد ﷺ، قيل: من يكفل هذه الدرة اليتيمة، التي لا يوجد لمثلها قيمة؟ قالت الطيور: نحن نكفله ونغنم خدمته العظيمة، قالت الوحوش: نحن أولى بذلك ننال شرفه وتعظيمه، فنادى لسان القدرة: أن يا جميع المخلوقات: إن الله تعالى قد كتب في سابق حكمته القديمة أن نبيه الكريم يكون رضيعاً لحليمة الحليمة[2].

قالت حليمة: فيما رواه ابن إسحاق وابن راهويه[3] وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وأبو نعيم: قدمت مكة في نسوة من بني سعد بن بكر، نلتمس الرضعاء في سنة شهباء، فقدمت على أتان لي ومعي صبي لنا وشارف لنا، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك، لا يجد في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه.

فقدمنا مكة، فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها يتيم، فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم أجد غيره، قلت لزوجي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، فذهبت فإذا به مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن، يفوح منه المسك، وتحته حريرة خضراء، راقداً على قفاه، يغط، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله، فدنوت منه رويداً فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكاً، وفتح عينيه لينظر إلي، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر، فقبلته بين عينيه، وأعطيته ثديي الأيمن، فأقبل عليه بما شاء من لبن، فحولته إلى الأيسر فأبى، وكانت تلك حاله بعد. ـ قال أهل العلم: أعلمه الله تعالى أن له شريكاً فألهمه العدل ـ قالت: فروي وروي أخوه.

ثم أخذته، فما هو إلا أن جئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن،

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد ابن الحاج. أبو عبد الله العبدري المالكي الفاسي فقيه. توفي بالقاهرة سنة (٧٣٧ هـ). الأعلام ٧/ ٣٥. الدرر الكامنة ٤/ ٢٣٧ رقم الترجمة (٦٢٧).

(٢) انظر زاد المعاد بشرح المواهب ١/ ٦٢.

(٣) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي أبو يعقوب ابن رهويه. (١٦١ ـ ٢٣٨ هـ). حافظ. توفي بنيسابور. الأعلام ١/ ٢٩٢. حلية الأولياء ٩/ ٢٣٤ رقم الترجمة (٤٤٦). وفيات الأعيان ١/ ٦٤. شذرات الذهب ٢/ ٨٩، تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٣٣ رقم الترجمة (٤٤٠). مفتاح السعادة ٢/ ٢٩٧.

فشرب حتى روي [وشرب أخوه حتى روي]، فقام صاحبي - تعني زوجها - إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا، وبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي: يا حليمة، والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه، فلم يزل الله يزيدنا خيراً.

قال في رواية ذكرها ابن طغر بك في «النطق المفهوم»: فلما نظر صاحبي إلى هذا قال لي: اسكتي واكتمي أمرك، فمن ليلة ولد هذا الغلام أصبحت الأحبار قواماً على أقدامها، لا يهنؤها عيش النهار ولا نوم الليل.

قالت حليمة: فودعت النساء بعضهن بعضاً وودعت أنا أم النبي ﷺ، ثم ركبت أتاني وأخذت محمداً ﷺ بين يدي، قالت: فنظرت إلى الأتان وقد سجدت نحو الكعبة ثلاث سجدات ورفعت رأسها إلى السماء ثم مشت حتى سبقت دواب الناس الذين كانوا معي، وصار الناس يتعجبون مني ويقلن النساء لي وهن ورائي: يا بنت أبي ذؤيب أهذه أتانك التي كنت عليها وأنت جائية معنا تخفضك طوراً وترفعك أخرى؟ فأقول: تالله إنها هي فيتعجبن منها ويقلن إن لها لشأناً عظيماً. قالت: فكنت أسمع أتاني تنطق وتقول والله إن لي لشأناً ثم شأناً بعثني الله بعد موتي ورد لي سمني بعد هزالي، ويحكن يا نساء بني سعد إنكن لفي غفلة وهلى تدرين من على ظهري، على ظهري خيار النبيين وسيد المرسلين وخير الأولين والآخرين وحبيب رب العالمين.

قالت حليمة - فيما ذكره ابن إسحاق وغيره -: ثم قدمنا منازل بني سعد، ولا أعلم أرضاً من أرض الله أجدب - [بالدال المهملة] - منها، فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا به شباعاً لُبناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضر من قومنا يقولون لرعاتهم: اسرحوا حيث يسرح راعي غنم بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن، وتروح أغنامي شباعاً لُبناً.

فللّه درها من بركة كثرت بها مواشي حليمة ونمت وارتفع قدرها به وسمت ولم تزل حليمة تتعرف الخير والسعادة وتفوز منه بالحسنى وزيادة.

| | |
|---|---|
| لقد بلغت بالها شمي حليمة | مقاماً علا في ذروة العز والمجد |
| وزادت مواشيها وأخصب ربعها | وقد عم هذا السعد كل بني سعد |

قال ابن الطراح رأيت في كتاب الترقيص لأبي عبد الله محمد بن المعلى الأزدي[١] أن من شعر حليمة ما كانت ترقص به النبي ﷺ:

---

(١) انظر كشف الظنون ١/ ٤٠١.

يـــــا رب إذ أعطيتـــــه فـــــأبقـــــه وأعلـــــه إلـــــى العـــــلا وأرقـــــه
وأدحـــــض أبـــــاطيـــــل العـــــدا بحقـــــه

وعند غيره كانت الشيماء[1] أخته من الرضاعة تحضنه وترقصه وتقول:

هـــــذا أخ لـــــم تلـــــده أمـــــي وليـــــس مـــــن نســـــل أبـــــي وعمـــــي
فـــــديتـــــه مـــــن مخـــــول معمـــــي فـــــأنمـــــه اللهـــــم فيمـــــا تنمـــــي

وأخرج البيهقي والصابوني[2] في المائتين والخطيب وابن عساكر في تاريخهما وابن طغر بك السياف في النطق المفهوم عن العباس بن عبد المطلب قال قلت يا رسول الله دعاني للدخول في دينك أمارة لنبوتك رأيتك في المهد تناغي القمر وتشير إليه بأصبعك فحيث أشرت إليه مال قال: «**إني كنت أحدثه ويحدثني ويلهيني عن البكاء وأسمع وجبته حين يسجد تحت العرش**»[3] قال البيهقي تفرد به أحمد بن إبراهيم الجيلي وهو مجهول وقال الصابوني: هذا حديث غريب الإسناد والمتن وهو في المعجزات حسن.

والمناغاة: المحادثة، وقد ناغت الأم صبيها: لاطفته وشاغلته بالمحادثة والملاعبة.

وفي فتح الباري عن سيرة الواقدي[4]: أنه ﷺ تكلم في أوائلُ ما ولد. وذكر ابن سبع في الخصائص أن مهده كان يتحرك بتحريك الملائكة.

وأخرج البيهقي وابن عساكر عن ابن عباس قال كانت حليمة تحدث أنها أول ما فطمت رسول الله ﷺ تكلم فقال: «**الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً**»، فلما ترعرع كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم[5]. الحديث.

---

(١) هي ابنة الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السعدية. أخت النبي من الرضاع. توفيت بعد (٨ هـ). الأعلام ٣/ ١٨٤. الإصابة ٨/١٢٣ رقم الترجمة (٦٣٠). حسن الصحابة (٢٩٠). جمهرة الأنساب (٢٥٣).

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل أبو عثمان الصابوني (٣٧٣ ـ ٤٤٩ هـ). عارف بالحديث والتفسير. مات في نيسابور. الأعلام ١/ ٣١٧. تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٢٧. طبقات الشافعية ٣/ ١١٧.

(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٢٨). وفي البداية والنهاية ٢/ ٢٤٨ وفيه «تفرد به الليثي وهو مجهول».

(٤) هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء المدني أبو عبد الله الواقدي. (١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ). مؤرخ. من حفاظ الحديث توفي في بغداد. الأعلام ٦/ ٣١١. تذكرة الحفاظ ١/ ٣٤٨ رقم الترجمة (٣٣٤). تاريخ بغداد ٣/ ٣ وفيات الأعيان ١/ ٥٠٦ معجم الأدباء ٥/ ٣٩١ رقم الترجمة (٩٠٠) شذرات الذهب ٢/ ١٨ طبقات ابن سعد ٧/ ٢٤١ رقم الترجمة (٣٤٩٩).

(٥) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٤٠.

وقد روى ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر، عن ابن عباس قال: كانت حليمة لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً، فغفلت عنه، فخرج مع أخته الشيماء في الظهيرة إلى البهم، فخرجت حليمة تطلبه، حتى تجده مع أخته فقالت: في هذا الحر؟ قالت أخته: يا أمه ما وجد أخي حراً، رأيت غمامة تظل عليه، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع الحديث.

وكان ﷺ يشب شباباً لا يشبه الغلمان.

قالت حليمة: فلما فصلته قدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا، لما نرى من بركته، فكلمنا أمه وقلنا: لو تركتيه عندنا حتى يغلظ، فإنا نخشى عليه وباء مكة، ولم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به.

فوالله إنه لبعد مقدمنا بشهرين أو ثلاثة مع أخيه من الرضاعة، لفي بُهم لنا خلف بيوتنا، جاء أخوه يشتد، فقال: ذاك أخي القرشي، قد جاء رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه وشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه، فنجده قائماً منتقعاً لونه، فاعتنقه أبوه وقال: أي بني، ما شأنك، فقال: جائني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني، ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه، ثم رداه كما كان. فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب، فانطلق بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف، قالت حليمة فاحتملناه حتى قدمنا به مكة إلى أمه، فقالت: ما ردكما به فقد كنتما حريصين عليه؟ قلنا نخشى عليه الإتلاف والأحداث، فقالت: ما ذاك بكما، فاصدقاني شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناه خبره، قالت: أخشيتما عليه الشيطان، كلا والله ما لشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن عظيم فدعاه عنكما.

وفي حديث شداد بن أوس عن رجل من بني عامر، عند أبي يعلى وأبي نعيم وابن عساكر: أن رسول الله ﷺ قال: **«كنت مسترضعاً في بني سعد بن بكر، فبينا أنا ذات يوم في بطن واد، مع أتراب لي من الصبيان، إذا أنا برهط ثلاثة معهم طست من ذهب، مليء ثلجاً، فأخذوني من بين أصحابي، وانطلق الصبيان هراباً مسرعين إلى الحي، فعمد أحدهم فأضجعني على الأرض إضجاعاً لطيفاً، ثم شق ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي وأنا أنظر إليه، لم أجد لذلك مساً، ثم أخرج أحشاء بطني ثم غسلها بذلك الثلج، فأنعم غسلها، ثم أعادها مكانها، ثم قال الثاني فقال لصاحبه تنح، ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ثم قال بيده يمنة ويسرة كأنه يتناول شيئاً فإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظر دونه فختم به قلبي فامتلأ وذلك نور النبوة والحكمة ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهراً،**

**ثم قال الثالث لصاحبه تنح، فأمَرّ يده بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضاً لطيفاً ثم قال للأول: زنه بعشرة من أمته فوزنوني بهم فرجحتهم ثم قال زنه بمائة من أمته فرجحتهم ثم قال زنه بألف فرجحتهم فقال: دعوه فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم، ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ثم قالوا: يا حبيب لم ترع إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك الحديث»**.

وفي رواية ابن عباس، عند البيهقي، قالت حليمة: إذا أنا بابني ضمرة يعدو فزعاً، وجبينه يرشح باكياً ينادي: يا أبت، يا أماه، الحقا محمداً فما تلحقاه إلا ميتاً. أتاه رجل فاختطفه من أوساطنا، وعلا به ذروة الجبل، حتى شق صدره إلى عانته، وفيه: أنه عليه السلام قال: **«أتاني رهط ثلاثة، بيد أحدهم إبريق من فضة، وفي يد الثاني طست من زمردة خضراء»** الحديث[1].

فإن قلت: هل غسل قلبه الشريف في الطست خاص به، أو فعل بغيره من الأنبياء عليهم السلام؟

أجيب: بأنه ورد في خبر التابوت والسكينة: أنه كان فيه الطست الذي غسلت فيه قلوب الأنبياء، ذكره الطبري، وعزاه العماد ابن كثير في تفسيره لرواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس.

فإن قلت: ما الحكمة في ختم قلبه المقدس؟

أجيب: بأنه إشارة إلى ختم الرسالة به، وهذا مسلم، إن كان الختم خاصاً به، أما إذا ورد أنه ليس خاصاً به بل بكل نبي ـ وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما في الخاتم الشريف من المباحث ـ فتكون الحكمة أنه علامة يمتاز بها عن غيره ممن ليس بنبي.

والمراد بالوزن: في قوله «زنه بعشرة الخ» الوزن الإعتباري، فيكون المراد الرجحان في الفضل، وهو كذلك.

وفائدة فعل الملكين، ذلك، ليعلم الرسول ذلك، حتى يخبر به غيره ويعتقده، إذ هو من الأمور الإعتقادية.

وقد وقع شق صدره السريف [واستخراج قلبه] مرة أخرى عند مجيء جبريل له

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/١٤٦ و ٢/٥ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٨٤ وفي تهذيب تاريخ دمشق ١/٣٨ و ١/ ٣٧٢.

بالوحي في غار حراء. ومرة أخرى عند الإسراء به، وسيأتي كل في موضعه إن شاء الله تعالى.

وروى الشق أيضاً، وهو ابن عشر أو نحوها، مع قصة له مع عبد المطلب، أبو نعيم في الدلائل.

وروي خامسة، ولا تثبت.

والحكمة في شق صدره الشريف في حال صباه، واستخراج العلقة منه، تطهيره عن حالات الصبا حتى يتصف في سن الصبا بأوصاف الرجولية، ولذلك نشأ عليه السلام على أكمل الأحوال من العصمة.

وقد روي أنه ختم بخاتم النبوة بين كتفيه، وكان ينم مسكاً، وأنه مثل زر الحجلة[1]، ذكره البخاري.

وفي مسلم: جمع عليه خيلان، كأنها الثآليل السود عند نغض كتفه[2]، ويروى: غضروف كتفه اليسرى.

وفي كتاب أبي نعيم: الأيمن.

وفي مسلم أيضاً: كبيضة الحمام[3].

وفي صحيح الحاكم: شعر مجتمع.

وفي البيهقي: مثل السلعة.

وفي **الشمائل**: بضعة ناشزة.

وفي حديث عمرو بن أخطب: كشيء يختم به.

وفي تاريخ ابن عساكر: مثل البندقة.

وفي الترمذي ودلائل البيهقي: كالتفاحة[4].

وفي الروض: كأثر المحجمة القابضة على اللحم.

وفي تاريخ ابن أبي خيثمة: شامة خضراء محتفرة في اللحم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم [٣٥٤١ و ٥٦٧٠] ومسلم في كتاب الفضائل (١١١). والترمذي في المناقب (١١) برقم (٣٦٤٣) وأحمد بن حنبل في المسند ٦/ ١١٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٨٢ ورواه مسلم رقم الحديث (٢٣٤٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (١٠٩ و ١١٠) وهو في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٩٠.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب (٣) رقم الحديث (٣٦٢٠) وهو في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٦٣.

وفيه أيضاً: شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متراكمات كأنها عرف الفرس.

وفي تاريخ القضاعي: ثلاث شعرات مجتمعات.

وفي كتاب الترمذي الحكيم[1]: كبيضة حمام، مكتوب في باطنها: الله وحده لا شريك له، وفي ظاهرها: توجه حيث كنت فإنك المنصور.

وفي كتاب المولد لابن عائذ: كان نوراً يتلألأ.

وفي سيرة ابن أبي عاصم: عذرة كعذرة الحمام، قال أبو أيوب: يعني قرطمة الحمامة.

وفي تاريخ نيسابور: مثل البندقة من لحم مكتوب فيه باللحم: محمد رسول الله.

وعن عائشة: كتينة صغيرة تضرب إلى الدهمة، وكان مما يلي الفقار قالت: فلمسته حين توفي فوجدته قد رفع.

حكى هذا كله الحافظ مغلطاي.

لكن قال في فتح الباري: ما ورد من أن الخاتم كان كأثر المحجم، أو كالشامة السوداء أو الخضراء، مكتوب عليها: محمد رسول الله، أو: سر فإنك المنصور. لم يثبت منها شيء[2]. قال: ولا يغتر بما وقع في صحيح ابن حبان، فإنه غفل حيث صحح ذلك.

وقال الهيثمي[3] في «موارد الظمآن» بعد أن أورد الحديث ولفظه: مثل البندقة من اللحم مكتوب عليه: محمد رسول الله. اختلط على بعض الرواة خاتم النبوة بالخاتم الذي كان يختم به.

وبخط الحافظ ابن حجر على الهامش: البعض المذكور هو إسحاق بن إبراهيم قاضي سمرقند وهو ضعيف.

وقوله: زر الحجلة ـ بالزاي والراء ـ والحجلة ـ بالحاء المهملة والجيم ـ قال

---

(١) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر أبو عبد الله الحكيم الترمذي، باحث صوفي عالم بالحديث و «أصول الدين» اضطراب في تاريخ وفاته فمنهم من قال: سنة (٢٥٥ هـ و٢٨٥ هـ وقيل ٣١٨ و٣٢٠ هـ). الأعلام ٦/ ٢٧٢ طبقات الشافعية ٢/ ٢٠ مفتاح السعادة ٢/ ١٧٠ لسان الميزان ٥/ ٣٠٨ كشف الظنون ١/ ٩٣٨ معجم المطبوعات ٦٣٣ تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٤٥ رقم الترجمة (٦٦٨).

(٢) انظر فتح الباري ٦/ ٦٩٨.

(٣) هو علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي أبو الحسن نور الدين المصري القاهري (٧٣٥ ـ ٨٠٧ هـ) حافظ. الأعلام ٤/ ٢٦٦ الضوء اللامع ٥/ ٢٠٠ رقم الترجمة (٦٧٦) أنباء القمر ٢/ ٣٠٧.

النووي: هي واحدة الحجال، وهي بيت كالقبة، لها أزرار كبار وعرى، هذا هو الصواب. وقال بعضهم: المراد بالحجلة: الطائر المعروف. وزرها: بيضها[1]، وأشار إليه الترمذي وأنكره عليه العلماء.

وقوله: جمع ـ بضم الجيم وإسكان الميم ـ أي كجمع الكف، وصورته: أن تجمع الأصابع وتضمها.

وقوله: خيلان: ـ بكسر الخاء المعجمة وإسكان التحتية ـ جمع خال، وهوالشامة على الجسد.

وقوله: نغض: ـ بالنون والغين والضاد، المعجمتين ـ قال النووي: النُغْض والنَّغْض والناغض: أعلى الكتف، وقيل هو العظم الرقيق الذي على طرفه، وقيل: ما يظهر منه عند التحرك، سمي ناغضاً لتحركه.

وقوله: بضعة ناشزة ـ بالمعجمة والزاي ـ أي قطعة لحم مرتفعة على جسده. وبيضة الحمامة: معروفة. انتهى.

والثآليل: ـ بالمثلثة ـ جمع ثؤلول: وهو حب يعلو ظاهر الجسد، واحدته كالحمصة فما دونها.

وفي القاموس: وقرطمتا الحمام ـ أي بكسر القاف ـ نقطتان على أصل منقاره[2].

وقال بعض العلماء: اختلفت أقوال الرواة في خاتم النبوة، وليس ذلك باختلاف، بل كل شبه بما سنح له، وكلها ألفاظ مؤداها واحد، وهو: قطعة لحم، ومن قال: شعر، فلأن الشعر حوله متراكم عليه، كما في الرواية الأخرى.

وقال القرطبي[3]: الأحاديث الثابتة دالة على أن خاتم النبوة كان شيئاً بارزاً أحمر عند كتفه الأيسر، إذا قلل، قدر ببيضة الحمامة، وإذا كبر: جُمع اليد.

وقال القاضي عياض[4]. وهذه الروايات متقاربة متفرقة، متفقة على أنه شاخص

---

(١) انظر فتح الباري ٦/ ٦٩٨.

(٢) راجع القاموس المحيط ٤/ ١٦٥ مادة (القرطم).

(٣) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم أبو العباس الأنصاري القرطبي (٥٧٨ ـ ٦٥٦ هـ) فقيه مالكي من رجال الحديث. توفي في الاسكندرية. الأعلام ١/ ١٨٦ نفح الطيب ٢/ ٦٤٣.

(٤) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي أبو الفضل (٤٧٦ ـ ٥٤٤ هـ) محدث عالم بأنساب العرب وأيامهم. توفي بمراكش. الأعلام ٥/ ٩٩ وفيات الأعيان ١/ ٣٩٢ وقضاة الأندلس ١٠١ ومفتاح السعادة ٢/ ١٩ إنباه الرواة ٢/ ٣٦٢ الديباج المذهب ١٦٨ معجم المطبوعات=

في جسده، قدر بيضة الحمامة، وزر الحجلة. وأما رواية جمع الكف فظاهرها المخالفة، فتتأول على وفق الروايات الكثيرة، ويكون معناه: على هيئة جمع الكف، لكنه أصغر منه في قدر بيضة الحمامة. قال: وهذا الخاتم هو أثر شق الملكين بين كتفيه.

قال النووي: هذا الذي قاله ضعيف، بل باطل، لأن شق الملكين إنما كان في صدره وبطنه. انتهى.

ويشهد له قول أنس في حديث عند مسلم ـ يأتي في ذكر قلبه الشريف، من المقصد الثالث، إن شاء الله تعالى ـ: فلقد كنت أرى أثر المخيط في صدره[1].

لكن أجيب: بأن في حديث عتبة بن عبد السلمي[2] ـ عند أحمد والطبراني ـ أن الملكين لما شقا صدره قال أحدهما للآخر: خطه، فخاطه وختم عليه بخاتم النبوة، فلما ثبت أن خاتم النبوة بين كتفيه حمل القاضي عياض ذلك على أن الشق لما وقع في صدره، ثم خيط حتى التأم كما كان، ووقع الختم بين كتفيه كان ذلك أثر الختم. وفهم النووي وغيره منه: أن قوله بين كتفيه متعلق بالشق وليس كذلك، بل هو متعلق بأثر الختم، وحينئذ فليس ما قاله القاضي عياض بباطل، انتهى.

وقال السهيلي: والصحيح أنه ـ يعني خاتم النبوة ـ كان عند نغض كتفه الأيسر.

واختلف هل ولد به؟ أو وضع بعد ولادته؟ على قولين.

وقد وقع التصريح بوقت وضع الخاتم، وكيف وضع، ومن وضعه، في حديث أبي ذر عند البزار وغيره قال: قلت يا رسول الله: كيف علمت أنك نبي، وبم علمت أنك نبي حتى استيقنت؟ قال: **«أتاني آتيان، وفي رواية ملكان، وأنا ببطحاء مكة، فوقع أحدهما بالأرض، وكان الآخر بين السماء والأرض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: هو هو، قال: فزنه برجل». الحديث**[3]. وفيه: ثم قال أحدهما لصاحبه: شق بطنه، فشق بطني فأخرج قلبي فأخرج منه معمز الشيطان وعلق الدم فطرحهما، فقال أحدهما لصاحبه: اغسل بطنه غسل الإناء، وأغسل قلبه غسل الملاء، ثم قال أحدهما لصاحبه:

---

= ١٣٩٧ تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٠٤ رقم الترجمة (١٠٨٣) روضات الجنات ٥٠٦ طبقات المفسرين ٢/ ٢١ رقم الترجمة (٣٩٨) تاج العروس مادة (حصب).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان (٢٦١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٢١ ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٥.

(٢) هو عتبة بن عبد السلمي أبو الوليد، صحابي توفي بالشام سنة (٨٧هـ). الكاشف ٢/ ٢١٥ رقم الترجمة (٣٧٢١) والإصابة ٤/ ٢١٤ رقم الترجمة (٥٣٩٩).

(٣) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٥ وما بعدها.

خط بطنه، فخاط بطني وجعل الخاتم بين كتفي كما هو الآن، ووليا عني، وكأني أرى الأمر معاينة.

وعند أبي نعيم في الدلائل: أنه ﷺ لما ولد، ذكرت أمه أن الملك غمسه في الماء الذي أنبعه ثلاث غمسات، ثم أخرج سرقة من حرير أبيض، فإذا فيها خاتم فضرب على كتفه كالبيضة المكنونة، تضيء كالزهرة.

وقيل: ولد به، فالله أعلم.

وأخرج الحاكم في المستدرك عن وهب بن منبه قال: لم يبعث الله نبياً إلا وقد كان عليه شامات النبوة في يده اليمنى، إلا أن يكون نبينا ﷺ فإن شامة النبوة كانت بين كتفيه.

وعلى هذا: فيكون وضع الخاتم بين كتفيه بإزاء قلبه مما اختص به عن سائر الأنبياء والله أعلم.

ولما بلغ ﷺ أربع سنين ـ وقيل خمساً، وقيل ستاً، وقيل سبعاً، وقيل تسعاً، وقيل اثنتي عشرة سنة وشهراً وعشرة أيام ـ ماتت أمه بالأبواء[١] وقيل بشعب أبي ذئب بالحجون. وفي القاموس: ودار رائعة بمكة فيها مدفن آمنة أم النبي ﷺ.

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس وعن الزهري، وعن عاصم بن عمرو بن قتادة[٢] دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا: لما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين خرجت به أمه إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة، تزورهم، ومعه أم أيمن[٣]، فنزلت به دار التابعة. فأقامت به عندهم شهراً، فكان ﷺ يذكر أموراً كانت في مقامه ذلك، ونظراً إلى الدار فقال: ها هنا نزلت بي أمي، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إلي. قالت أم أيمن فسمعت أحدهم يقول: هو نبي هذه الأمة، وهذه دار هجرته، فوعيت ذلك كله من كلامهم، ثم رجعت به أمه إلى مكة، فلما كانت بالأبواء توفيت.

وروى أبو نعيم من طريق الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت: شهدت آمنة

---

(١) انظر معجم البلدان ١/ ٧٩ وفيه: وبالأبواء قبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ. وانظر زاد المعاد بشرح المواهب ١/ ٥٥ وشرح المواهب ١/ ١٦٢.

(٢) هو عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الظفري المدني الأنصاري الأوسي. عالم بالمغازي كثير الحديث. مات سنة (١٢٠ هـ وقيل سنة ١٢٩ هـ). الكاشف ٢/ ٤٦ رقم الترجمة (٢٥٣٦).

(٣) هي بركة الحبشية بنت ثعلبة مولاة رسول الله وحاضنته، توفيت في أول خلافة عثمان وقيل بعد موت النبي ﷺ بخمسة أشهر. طبقات ابن سعد ٨/ ١٧٩ رقم الترجمة (٤١٥٦).

أم النبي ﷺ في علتها التي ماتت بها، ومحمد عليه السلام غلام يفع له خمس سنين عند رأسها، فنظرت إلى وجهه ثم قالت:

| | |
|---|---|
| بــــارك الله فيـــك مـــن غـــلام | يــا ابــن الــذي مــن حــومـة الحمــام |
| نجـــا بعـــون الملـــك المنعـــام | فـــودي غـــداة الضـــرب بـــالسهـــام |
| بمـــائـــة مـــن إبـــل ســـوام | إن صــح مـــا أبصـــرت فـــي المنــام |
| فـــأنـــت مبعـــوث إلـــى الأنـــام | مـــن عنـــد ذي الجـــلال والإكـــرام |
| تبعـــث فـــي الحـــل وفـــي الحـــرام | تبعـــث فـــي التحقيـــق والإســـلام |
| ديـــن أبيـــك البـــر إبـــراهـــام | فـــالله أنهـــاك عـــن الأصنـــام |

أن لا تواليها مع الأقوام

ثم قالت: كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كبير يفنى وأنا ميتة وذكري باق، وقد تركت خيراً، وولدت طهراً، ثم ماتت. فكنا نسمع نوح الجن عليها فحفظنا من ذلك هذه الأبيات:

| | |
|---|---|
| نبكـــي الفتـــاة البـــرة الأمينـــة | ذات الجمـــال العفـــة الـــرزينـــة |
| زوجـــة عبـــد الله والقـــرينـــة | أم نبـــــي الله ذي السكينـــــة |
| وصـــاحـــب المنبـــر بـــالمـــدينـــة | صـــارت لـــدى حفـــرتهـــا رهينـــة |

وقد روي أن آمنة آمنت به ﷺ بعد موتها.

فروى الطبري[1] بسنده عن عائشة أن النبي ﷺ نزل الحجون كئيباً حزيناً، فأقام به ما شاء الله عز وجل، ثم رجع مسروراً، قال: «**سألت ربي فأحيا لي أمي، فآمنت بي ثم ردها**»[2].

ورواه أبو حفص بن شاهين[3] في كتاب: «الناسخ والمنسوخ» له، بلفظ، قالت عائشة: حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع، فمر بي على عقبة الحجون، وهو باك حزين

---

(١) هو أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري أبو العباس محب الدين (٦١٥ ـ ٦٩٤ هـ). حافظ فقيه شافعي. توفي في مكة. الأعلام ١/ ١٥٩ شذرات الذهب ٥/ ٤٢٥ طبقات الشافعية ٥/ ٨ وفيه مولده سنة (٦١٠ هـ) مرآة الجنان ٤/ ٢٢٤ والمنهل الصافي ٣٢٠ رقم الترجمة (١٨٤) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٧٤ رقم الترجمة (١١٦٣).

(٢) ذكره السيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ١٣٨.

(٣) هو عمر بن أحمد بن عثمان ابن شاهين أبوحفص(٢٩٧ ـ ٣٨٥ هـ) عالم بالحديث حافظ. الأعلام ٥/ ٤٠ تاريخ بغداد ٥/ ٢٦٥ لسان الميزان ٤/ ٢٨٣ كشف الظنون ١٤٢٥ تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٨٧ رقم الترجمة (٩٢٣) مرآة الجنان ٢/ ٤٢٦.

مغتم، فبكيت لبكائه، ثم إنه نزل فقال: «يا حميراء استمسكي» فاستندت إلى جنب البعير، فمكثت ملياً، ثم عاد إلي وهو فرح متبسم فقال: «**ذهبت لقبر أمي فسألت ربي أن يحييها، فأحياها فآمنت بي**»[1].

وكذا روي من حديث عائشة أيضاً إحياء أبويه ﷺ حتى آمنا به. أورده السهيلي، وكذا الخطيب في السابق واللاحق.

وقال السهيلي: إن في إسناده مجاهيل.

وقال ابن كثير: إنه حديث منكر جداً، وسنده مجهول.

وقال ابن دحية: هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع. انتهى.

وقد جزم بعض العلماء: أن أبويه ﷺ ناجيان، وليسا في النار، متمسكاً بهذا الحديث وغيره.

وتعقبه عالم آخر: بأنه لم ير أحداً صرح بأن الإيمان بعد انقطاع العمل بالموت ينفع صاحبه، فإن ادعى أحد الخصوصية فعليه الدليل. انتهى.

وقد سبقه لذلك، أبو الخطاب بن دحية، وعبارته: من مات كافراً لم ينفعه الإيمان بعد الرجعة، بل لو آمن عند المعاينة لم ينفعه ذلك، فكيف بعد الإعادة. انتهى.

وتعقبه القرطبي[2] في «التذكرة»: بأن فضائله ﷺ وخصائصه لم تزل تتوالى وتتابع إلى حين مماته، فيكون هذا مما فضله الله به وأكرمه، قال: وليس إحياؤهما وإيمانهما بممتنع عقلاً ولا شرعاً، فقد ورد في الكتاب العزيز إحياء قتيل بني إسرائيل، وإخباره بقاتله، وكان عيسى عليه السلام يحيي الموتى، وكذلك نبينا ﷺ أحيا الله على يده جماعة من الموتى، وإذا ثبت هذا فلا يمتنع إيمانهما بعد إحيائهما، ويكون ذلك زيادة في كرامته وفضيلته.

ثم قال: وقوله: من مات كافراً إلى آخر كلامه، مردود بما روي في الخبر أن الله تعالى رد الشمس على نبيه ﷺ بعد مغيبها. ذكره الطحاوي[3] وقال: إنه حديث ثابت،

---

(١) ذكره السيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/١٣٨ والفوائد المجموعة للشوكاني ٣٢٢.

(٢) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي أبو عبد الله القرطبي. مفسر توفي في مصر (شمال أسيوط بالمنية) سنة (٦٧١ هـ). الأعلام ٥/ ٣٢٢ نفح الطيب ١/ ٤٢٨ والديباج المذهب ٣١٧.

(٣) هو أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي، أبو جعفر (٢٣٩ ـ ٣٢١ هـ) فقيه حنفي توفي بالقاهرة. الأعلام ١/ ٢٠٦ وفيات الأعيان ١/ ١٩ لسان الميزان ١/ ٢٧٤ معجم المطبوعات=

فلو لم يكن رجوع الشمس نافعاً، وأنه لا يتجدد به الوقت لما ردها عليه، فكذلك يكون إحياء أبوي النبي ﷺ نافعاً لإيمانهما وتصديقهما بالنبي ﷺ انتهى.

وقد طعن بعضهم في حديث رد الشمس. كما سيأتي إن شاء الله في مقصد المعجزات.

وقد تمسك القائل بنجاتهما أيضاً بأنهما ماتا قبل البعثة، في زمن الفترة، ولا تعذيب قبلها لقوله تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ [الإسراء: ١٥] قال: وقد أطبقت الأئمة الأشاعرة من أهل الكلام والأصول، والشافعية من الفقهاء على أن من مات ولم تبلغه الدعوة يموت ناجياً.

قال: وقال الإمام فخر الدين الرازي في كتابه «أسرار التنزيل» ما نصه: «قيل أن آزر لم يكن والد إبراهيم، بل كان عمه، واحتجوا عليه بوجوه، منها: أن آباء الأنبياء ما كانوا كفاراً، ويدل عليه وجوه منها: قوله تعالى: ﴿**الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين**﴾ [الشعراء: ٢١٨ و ٢١٩] قيل معناه: أنه كان ينتقل نوره من ساجد إلى ساجد، ففيه دلاله على أن جميع آباء محمد كانوا مسلمين».

ثم قال: ومما يدل على أن آباء محمد ﷺ ما كانوا مشركين، قوله عليه السلام: «**لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات**» وقال تعالى: ﴿**إنما المشركون نجس**﴾ [التوبة: ٢٨] فوجب أن لا يكون أحد من أجداده مشركاً». كذا قال.

وهو متعقب:

● بأنه لا دلالة في قوله: ﴿**وتقلبك في الساجدين**﴾ [الشعراء: ٢١٩] على ما ادعاه، فقد ذكر البيضاوي[1] ـ في تفسيره ـ وغيره، أن معنى الآية: وترددك في تصفح أحوال المتهجدين، كما روي أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون، حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع لها من دندنتهم بذكر الله تعالى.

● وقد ورد النص بأن أبا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مات على الكفر، كما صرح به البيضاوي وغيره، قال تعالى: ﴿**فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه**﴾ [التوبة: ١١٤]،

---

= ١٢٣٢ هدية العارفين ١/ ٥٨ تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٠٨ رقم الترجمة (٧٩٧) شذرات الذهب ٢/ ٢٨٨ مفتاح السعادة ٢/ ٢٧٥ مرآة الجنان ٢/ ٢٨١ طبقات المفسرين ١/ ٧٤ رقم الترجمة (٦٩).

(١) هو عبد الله بن عمر بن علي الشيرازي أبو سعيد أو أبو الخير ناصر الدين البيضاوي. مفسر قاض توفي في تبريز سنة (٦٨٥ هـ وقيل ٦٩١ هـ). الأعلام ٤/ ١١٠ طبقات الشافعية ٥/ ٥٩ مفتاح السعادة ١/ ٤٣٦ مرآة الجنان ٤/ ٢٢٠ هدية العارفين ١/ ٤٦٢.

وأما قوله إنه كان عمه فعدول عن الظاهر من غير دليل. انتهى.

ونقل الإمام أبو حيان في «البحر» عند تفسير قوله: ﴿**وتقلبك في الساجدين**﴾ [الشعراء: ٢١٩] أن الرافضة هم القائلوزن أن آباء النبي ﷺ كانوا مؤمنين، مستدلين بقوله تعالى: ﴿**وتقلبك في الساجدين**﴾ [الشعراء: ٢١٩] وبقوله عليه السلام: «**لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين**» الحديث. انتهى.

● وروى ابن جرير[1] عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه: أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر، فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً فقلنا يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت، قال: «**إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي**»[2]. فما رؤي باكياً أكثر من يومئذ.

● وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن عبد الله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ أومأ إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً، ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدعاه ثم دعانا، فقال: ما أبكاكم؟ قلنا: بكينا لبكائك، فقال: إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي، وإني استأذنته في الدعاء لها فلم يأذن لي، وأنزل الله علي: ﴿**ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى**﴾ [التوبة: ١١٣] فأخذني ما يأخذ الولد للوالد. ورواه الطبراني من حديث ابن عباس.

● وفي مسلم: «**استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور، فإنها تذكر الآخرة**»[3].

قال القاضي عياض: بكاؤه عليه السلام على ما فاتها من إدراك أيامه والإيمان به.

● وفي مسلم أيضاً: «أن رجلاً قال: يا رسول الله: أين أبي، قال «**في النار**» فلما قفا دعاه، قال: «**إن أبي وأباك في النار**»[4].

---

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ). مؤرخ مفسر توفي ببغداد. الأعلام ٦٩/٦ معجم الأدباء ٢٤٢/٥ رقم الترجمة (٨٣٠). تذكرة الحفاظ ٧١٠/٢ رقم الترجمة (٧٢٨). شذرات الذهب ٢٦٠/٢ طبقات الشافعية ١٣٥/٢ مفتاح السعادة ٢٠٥/١ وفيات الأعيان ٤٥٦/١ طبقات المفسرين ١١٠/٢ رقم الترجمة (٤٦٨).

(٢) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٧٦/٤ وفي المطالب العالية لابن حجر ٨٠١. وفي إرواء الغليل للألباني ٢٢٤/٣ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨٢/٥ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩٨/٣ وفي تفسير ابن كثير ١٥٩/٤ وفي تفسير الطبري ٣١/١١ وفي كنز العمال (٣٥٥١٦).

(٣) ذكره في الأمالي الشجرية ٣٠٠/٢ وذكره مسلم في صحيحه كتاب الجنائز رقم (١٠٨).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم (٢٤٧).

قال النووي: فيه أن من مات على الكفر فهو في النار، ولا ينفعه قرابة المقربين. وفيه: أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو في النار، وليس في هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء.

وقال الإمام فخر الدين: من مات مشركاً فهو في النار، وإن مات قبل البعثة، لأن المشركين كانوا قد غيروا الحنيفية دين إبراهيم، واستبدلوا بها الشرك وارتكبوه، وليس معهم حجة من الله به، ولم يزل معلوماً من دين الرسل كلهم، من أولهم إلى آخرهم، قبح الشرك والوعيد عليه في النار، وأخبار عقوبات الله لأهله متداولة بين الأمم قرناً بعد قرن، فللّه الحجة البالغة على المشركين، في كل وقت وحين، ولو لم يكن إلا ما فطر الله عباده عليه من توحيد ربوبيته، وأنه يستحيل في كل فطرة وعقل أن يكون معه إله آخر، وإن كان سبحانه لا يعذب بمقتضى هذه الفطرة وحدها، فلم تزل دعوة الرسل إلى التوحيد في الأرض معلومة لأهلها، فالمشرك مستحق للعذاب في النار لمخالفته دعوة الرسل، وهو مخلد فيها دائماً كخلود أهل الجنة في الجنة. انتهى.

وقد تعقب العلامة أبو عبد الله الأبي[1] من المالكية فيما وضعه على صحيح مسلم قول النووي الماضي وفيه «أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان في النار، إلى آخره» بما معناه:

تأمل ما في كلامه من التنافي، فإن من بلغتهم الدعوة ليسوا بأهل فترة، لأن أهل الفترة هم: الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول، ولا أدركوا الثاني، كالأعراب الذين لم يرسل إليهم عيسى ولا لحقوا النبي ﷺ. والفترة بهذا التفسير تشمل ما بين كل رسولين، كالفترة بين نوح وهود، لكن الفقهاء إذا تكلموا في الفترة فإنهم يعنون التي بين عيسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام. وذكر البخاري عن سلمان أنها كانت ستمائة سنة.

ولما دلت القواطع على أن لا تعذيب حتى تقوم الحجة أي قوله تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]، علمنا أنهم غير معذبين، فإن قلت قد صحت أحاديث بتعذيب أهل الفترة، كحديث «**رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في**

---

(١)هو محمد بن خلفة بن عمر الأبي الوشتاتي المالكي. عالم بالحديث توفي بتونس سنة (٨٢٧ هـ). الأعلام ٦/ ١١٥ شجرة النور ٢٤٤ معجم المطبوعات ٣٦٣ نيل الابتهاج هامش الديباج صفحة ٢٨٧.

النار»[1] و «رأيت صاحب المحجن في النار، وهو الذي يسرق الحاج بمحجنه، فإذا بصر به، قال: إنما تعلق بمحجني»[2].

أجيب بأجوبة:

● أحدها: أنها أخبار آحاد فلا تعارض القطع.

● الثاني: قصر التعذيب على هؤلاء، والله أعلم بالسبب.

● الثالث: قصر التعذيب المذكور في هذه الأحاديث على من بدل وغير من أهل الفترة، بما لا يعذر به من الضلال كعبادة الأوثان وتغيير الشرائع. فإن أهل الفترة ثلاثة أقسام:

الأول: من أدرك التوحيد ببصيرته، ثم من هؤلاء من لم يدخل في شريعة، كقس ابن ساعدة[3]، وزيد بن عمرو بن نفيل[4]. ومنهم من دخل في شريعة حق قائمة الرسم، كتبع[5] وقومه من حمير وأهل نجران، وورقة بن نوفل[6]، وعمه عثمان بن الحويرث.

● القسم الثاني من أهل الفترة: وهم من بدل وغير، فأشرك ولم يوحد، وشرع لنفسه فحلل وحرم، وهم الأكثر، كعمور بن لحي، أول من سن للعرب عبادة الأصنام وشرع الأحكام، فبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة وحمى الحام[7]، وتبعته العرب في ذلك وغيره مما يطول ذكره.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٩) رقم الحديث (٣٥٢١)، ومسلم في صحيحه رقم (٩٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الكسوف رقم (١٠) والإمام أحمد في المسند ٢/ ١٥٩.

(٣) هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك توفي نحو (٢٣ ق. هـ). الأعلام ٥/ ١٩٦ والأغاني ١٥/ ٢٣٦.

(٤) هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي توفي سنة (١٧ ق. هـ). الأعلام ٣/ ٦٠. الأغاني ٣/ ١١٧ خزانة الأدب ٣/ ٩٩.

(٥) هو تبع بن حسان بن تبان قيل اسمه مرثد وهو تبع الأصفر ملك من ملوك حمير في اليمن. الأعلام ٢/ ٨٣.

(٦) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى القرشي. توفي نحو (١٢ ق. هـ). الأعلام ٨/ ١١٤. الإصابة ٦/ ٣١٧ الترجمة (٩١٣٢) الأغاني ٣/ ١١٣.

(٧) البحيرة: التي يمنع درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: التي كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء، والوصيلة: الناقة البكر فكانوا يسيبونها بعد لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء وسموه الحام. انظر سيرة ابن هشام ١/ ٩٣.

القسم الثالث من أهل الفترة: وهم من لم يشرك ولم يوحد، ولا دخل في شريعة نبي، ولا ابتكر لنفسه شريعة، ولا اخترع ديناً، بل بقي عمره على حين غفلة من هذا كله. وفي الجاهلية من كان على ذلك.

وإذا انقسم أهل الفترة إلى الثلاثة أقسام، فيحمل من صح تعذيبه على أهل القسم الثاني لكفرهم بما تعدوا به من الخبائث، والله سبحانه وتعالى قد سمى جميع هذا القسم كفاراً ومشركين، فإنا نجد القرآن كلما حكى حال أحد سجل عليهم بالكفر والشرك، كقوله تعالى: ﴿**ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة**﴾ ثم قال: ﴿**ولكن الذين كفروا**﴾ الآية [المائدة: ١٠٣].

والقسم الثالث هم أهل الفترة حقيقة، وهم غير معذبين.

وأما أهل القسم الأول: كقس وزيد بن عمرو، فقد قال عليه السلام في كل منهما «**أنه يبعث أمة وحده**»[١].

وأما عثمان بن الحويرث، وتبّع وقومه وأهل نجران، فحكمهم حكم أهل الدين الذين دخلوا فيه، ما لم يلحق أحد منهم الإسلام الناسخ لكل دين. انتهى ملخصاً وسيأتي ما قيل في ورقة في حديث المبعث إن شاء الله تعالى.

فهذا ما تيسر في مسألة والديه ﷺ، وقد كان الأولى ترك ذلك، وإنما جرَّنا إليه ما وقع من المباحثة فيه بين علماء العصر.

ولقد أحسن الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي حيث قال:

حبا الله النبي مزيد فضل ... على فضل وكان به رؤوفاً

فأحيا أمه وكذا أباه ... لإيمان به فضلاً لطيفاً

فسلم فالقديم بذا قدير ... وإن كان الحديث به ضعيفاً

فالحذر الحذر، من ذكرهما بما فيه نقص، فإن ذلك قد يؤذي النبي ﷺ، فإن العرف جار بأنه إذا ذكر أبو الشخص بما ينقصه، أو وصف بوصف به، وذلك الوصف فيه نقص تأذى ولده بذكر ذلك له عند المخاطبة. وقد قال عليه السلام: «**لا تؤذوا الأحياء بسبِّ الأموات**»[٢] رواه الطبراني في الصغير، ولا ريب أن أذاه عليه السلام كفر يقتل فاعله ـ إن

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ١/ ٢٨ وكنز العمال (٣٤٠٧١ ـ ٣٠٤٧٢) واللآلىء المصنوعة ١/ ١٠٠ ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١١٣، وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٤٣٨.

(٢) ذكره في كنز العمال (٣٧٤١٧) وفي الترمذي بلفظ «لا تسبوا» برقم (١٩٨٢) وفي مسند الإمام=

لم يتب ـ عندنا. وستأتي مباحث ذلك إن شاء الله تعالى في الخصائص من مقصد المعجزات.

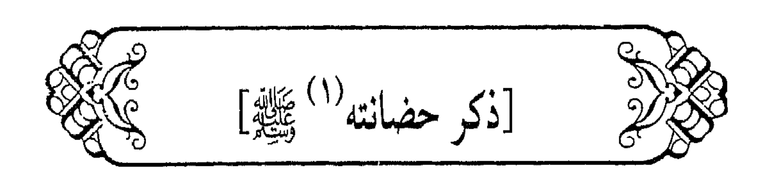
وقد أطنب بعض العلماء في الاستدلال لإيمانهما، فالله تعالى يثيبه على قصده الجميل.

قال الحافظ ابن حجر في بعض كتبه: والظن بآله ـ يعني الذين ماتوا قبل البعثة ـ أنهم يطيعون عند الامتحان إكراماً له ﷺ لتقر عينه.

وقال في الأحكام: ونحن نرجو أن يدخل عبد المطلب الجنة في جملة من يدخلها طائعاً فينجو، إلا أبا طالب فإنه أدرك البعثة ولم يؤمن.

---

= أحمد بن حنبل ٤/ ٢٥٢ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٧٦ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٤٩٠ وفي كنز العمال (٤٢٧١٥) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٥٦٨.



# [ذكر حضانته[1] ﷺ]

وقد كانت أم أيمن، بركة، دايته وحاضنته بعد موت أمه، وكان عليه السلام يقول لها: أنت أمي بعد أمي.

ومات جده عبد المطلب كافله، وله ثمان سنين ـ وقيل ثمان سنين وشهر وعشرة أيام، وقيل تسع، وقيل عشر، وقيل ست، وقيل ثلاث وفيه نظر ـ وله عشر ومائة سنة، وقيل مائة وأربعون سنة.

وكفله أبو طالب، واسمه عبد مناف، وكان عبد المطلب قد أوصاه بذلك لكونه شقيق عبد الله.

وقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادي وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب، ومعه غلام كأنه شمس دجن، تجلت عنه سحابة قتماء[2]، حوله أغيلمة فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام بأصبعه، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا، وأغدق واغدودق، وانفجر الوادي، وأخصب النادي والبادي. وفي ذلك يقول أبو طالب:

| | |
|---|---|
| وأبيض يستسقى الغمام بوجهه | ثمال اليتامى عصمة للأرامل |
| يلوذ به الهلاك من آل هاشم | فهم عنده في نعمة وفواضل |

والثمال ـ بكسر المثلثة ـ: الملجأ والغياث، وقيل: المطعم في الشدة.

وعصمة للأرامل: أي يمنعهم من الضياع والحاجة. والأرامل: المساكين من رجال

---

(١) انظر زاد المعاد بشرح المواهب ١/ ٦٣.

(٢) الدجن إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء. انظر القاموس المحيط ٤/ ٢٢٤ مادة (دجن). والقتماء: التي يعلوها سواد غير شديد.

ونساء، ويقال لكل واحد من الفريقين على انفراده: أرامل، وهو بالنساء أخص، وأكثر استعمالاً، والواحد أرمل وأرملة.

وهذا البيت من أبيات في قصيدة لأبي طالب، ذكرها ابن إسحاق بطولها، وهي أكثر من ثمانين بيتاً. قالها لما تمالأت قريش على النبي ﷺ، ونفروا عنه من يريد الإسلام، وأولها:

| | |
|---|---|
| لما رأيت القوم لا ود عندهم | وقد قطعوا كل العرى والوسائل |
| وقد جاهرونا بالعداوة والأذى | وقد طاوعوا أمر العدو المزايل |
| أعبد مناف أنتم خير قومكم | فلا تشركوا في أمركم كل واغل |
| فقد خفت إن لم يصلح الله أمركم | تكونوا كما كانت أحاديث وائل |
| أعوذ برب الناس من كل طاعن | علينا بسوء أو ملح بباطل |
| وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه | وراقٍ لبر في حراء ونازل |
| وبالبيت حق البيت في بطن مكة | وتالله إن الله ليس بغافل |
| كذبتم وبيت الله نبزي محمداً | ولما نطاعن دونه ونناضل |
| ونسلمه حتى نصرع حوله | ونذهل عن أبنائنا والحلائل |

ومعنى نناضل: نجادل ونخاصم ونذافع.

ونُبزي: ـ بضم النون وسكون الموحدة آخره زاي ـ أي نقهر ونغلب عليه.

قال ابن التين: إن في شعر أبي طالب هذا دليلاً على أنه كان يعرف نبوة النبي ﷺ قبل أن يبعث، لما أخبره به بحيرى وغيره من شأنه.

وتعقبه الحافظ أبو الفضل بن حجر: بأن ابن إسحاق ذكر أن إنشاء أبي طالب لهذا الشعر كان بعد البعثة، ومعرفة أبي طالب بنبوته عليه السلام جاءت في كثير من الأخبار. وتمسك بها الشيعة في أنه كان مسلماً.

قال: ورأيت لعلي بن حمزة البصري[1] جزءاً جمع في شعر أبي طالب، وزعم أنه كان مسلماً، وأنه مات على الإسلام، وأن الحشوية[2] تزعم أنه مات كافراً، واستدل لدعواه بما لا دلالة فيه. انتهى[3].

---

(١) هو علي بن حمزة البصري أبو القاسم لغوي أديب، توفي سنة (٣٧٥ هـ). الأعلام ٤/ ٢٨٣ بغية الوعاة ٣٣٧.

(٢) الحشوية: هم المنتمون للظاهر، قيل سموا بذلك لقول الحسن البصري لما رأى سقوط كلامهم وكانوا يجلسون في حلقته. ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة. أي جانبها.

(٣) اعلم أن الإسلام والإيمان متلازمان فلا يصح كل منهما بدون الآخر. فالنطق بالشهادتين لا يقبل عند=

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام، حتى بلغ بصرى، فرآه بحيرى الراهب، واسمه جرجيس، فعرفه بصفته فقال، وهو آخذ بيده: هذا سيد العالمين، هذا يبعثه رحمة للعالمين. فقيل له: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم به من العقبة، لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة، في أسفل من غضروف كتفه، مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، وسأل أبا طالب أن يرده خوفاً عليه من اليهود.

والحديث رواه ابن أبي شيبة، وفيه: أنه ﷺ أقبل وعليه غمامة تظله.

و «بحيرى» ـ بفتح الموحدة وكسر المهملة وسكون المثناة التحتية آخره راء مقصورة ـ قال الذهبي ـ في تجريد الصحابة ـ: رأى رسول الله ﷺ قبل البعثة وآمن به، وذكره ابن منده[1]، وأبو نعيم في الصحابة. وهذا ينبني على تعريفهم الصحابي: بمن رآه

---

= الله بدون التصديق بالقلب، والتصديق القلبي لا يقبل عند الله بدون النطق، قال الإمام أبو حنيفة: فهما كالظهر مع البطن. وقال الإمام النووي: من صدق بقلبه ولم ينطق بلسانه فهو كافر مخلّد في النار بالإجماع. وخالف بعضهم فقال: من صدّق بقلبه ولم ينطق فهو مؤمن عند الله إذا لم يعرض عليه فيأبى. كأبي طالب فقد عرض عليه الرسول أن يقول لا إله إلا الله فأبى [أخرجه البخاري في كتاب الجنائز رقم الحديث (١٣٦٠)] فلم يختلف اثنان من العلماء في كفر الآبي. الممتنع. وقد روى أبو داوود [٣٢١٤] والبيهقي في دلائله [٣٤٨/٢ و ٣٤٩]: «أن علياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن عمّك الشيخ الضال قد مات، فقال: إذهب فواره وفي رواية إن عمك الشيخ الكافر. فلذلك لم يختلفوا في كفر الآبي، وقال الفقيه محمد بن أحمد ميارة المالكي في كتابه «الدر الثمين» ما نصه: «وانظر المسلم الذي ولد في الإسلام إذا اتفق له أنه لم ينطق بالشهادتين قط. فإن كان لعجز كالأخرس فهو كمن نطق وإن كان إباية وامتناعاً فهو كافر بلا شك. وإن كان لغفلة فقط فهل هو كمن امتنع فهو كافر قطعاً أو هو كمن نطق فهو مؤمن». ونسب للجمهور قولان: اهـ. والقول الصحيح أنه مؤمن عاصي. وفي ذلك قال صاحب مراصد المعتمد نظماً:

ومن يكن ذا النطق منه ما اتفق ... فإن يكن عجزاً يكن كمن نطق
وإن يكن ذلك عن إباءِ ... فحكمه الكفر بلا امتراءِ
وإن يكن لغفلة فكالإبا ... وذا لسنة عياض نسبا
وقيل كالنطق وللجمهور ... نسب والشيخ أبي منصور

وقال محمد بن يوسف السنوسي: «إعلم أن الناس على ضربين مؤمنٌ وكافر أما المؤمن بالأصالة فيجب أن يذكرها [أي كلمة الإخلاص] مرة في العمر ينوي في تلك المرة بذكرها الوجوب وإن ترك ذلك فهو عاصٍ وإيمانه صحيح وأما الكافر فذكره لهذه الكلمة واجب شرط في صحة إيمانه القلبي مع القدرة وإن عجز عن ذكرها بعد حصوله إيمانه القلبي لمفاجأة الموت ونحو ذلك سقط عنه الواجب. اهـ.

(١) هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى ابن منده أبو عبد الله العبدي الأصبهاني (٣١٠ ـ ٣٩٥ هـ) حافظ للحديث من الرحالين في طلبه. الأعلام ٢٩/٦ تذكرة الحفاظ ٧٤١/٢ رقم الترجمة (٧٤٠).

ﷺ، هل المراد حال النبوة، أو أعم من ذلك حتى يدخل من رآه قبل النبوة ومات قبلها على دين الحنيفية. وهو محل نظر، وسيأتي البحث فيه إن شاء الله في المقصد السابع.

وخرج الترمذي وحسنه ـ، والحاكم وصححه ـ أن في هذه السفرة أقبل سبعة من الروم يقصدون قتله عليه السلام، فاستقبلهم بحيرى، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: إن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليها بأناس، فقال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا قال: فبايعوه وأقاموا معه، ورده أبو طالب. وبعث معه أبو بكر بلالاً.

قال البيهقي: هذه القصة مشهورة عند أهل المغازي. انتهى.

وضعف الذهبي الحديث لقوله في آخره: «وبعث معه أبو بكر بلالاً» فإن أبا بكر إذ ذاك لم يكن متأهلاً، ولا اشترى بلالاً.

قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: الحديث رجاله ثقات، وليس فيه منكر سوى هذه اللفظة، فتحمل على أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر وهماً من أحد رواته.

وفي حديث عند البيهقي وأبي نعيم: أن بحيرى رآه ـ وهو في صومعته ـ في الركب حين أقبلوا، وغمامة بيضاء تظله من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا بظل شجرة قريباً منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها الحديث.

وفيه: أن بحيرى قام فاحتضنه وأنه جعل يسأله عن أشياء حاله: من نومه وهيئته وأموره. ويخبره رسول الله ﷺ فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ورأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

وتقدم أن أخته الشيماء بنت حليمة رأته في الظهيرة، وغمامة تظله، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت، رواه أبو نعيم وابن عساكر. ولله در القائل:

إن قال يوماً ظللته غمامة ... هي في الحقيقة تحت ظل القائل

ونقل الشيخ بدر الدين الزركشي عن بعض أهل المعرفة: أنه ﷺ كان معتدل الحرارة والبرودة، فلا يحس بالحر ولا بالبرد، وأنه كان في ظل غمامة من اعتداله. كذا نقل رحمه الله.

وأخرج ابن منده، بسند ضعيف عن ابن عباس: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صحب النبي ﷺ وهو ابن ثمان عشرة، والنبي ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في تجارة، حتى نزل منزلاً فيه سدرة، فقعد في ظلها، ومضى أبو بكر إلى راهب يقال له

بحيرى، يسأله عن شيء، فقال له: من الرجل الذي في ظل الشجرة، فقال له: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: هذا والله نبي، ما استظل تحتها بعد عيسى عليه السلام إلا محمد. ووقع في قلب أبي بكر التصديق، فلما بعث النبي ﷺ اتبعه.

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر في الإصابة: إن صحت هذه القصة فهي سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب. انتهى.

ثم خرج ﷺ أيضاً ومعه ميسرة غلام خديجة ابنة خويلد ابن أسد، في تجارة لها حتى بلغ سوق بصرى، وقيل سوق حباشة بتهامة، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، فنزل تحت ظل شجرة،ة فقال نسطورا الراهب: ما نزل تحت ظل هذه الشجرة إلا نبي، وفي رواية بعد عيسى. وكان ميسرة يرى في الهاجرة ملكين يظلانه من الشمس، ولما رجعوا إلى مكة في ساعة الظهيرة، وخديجة في علية لها، فرأت رسول الله ﷺ وهو على بعيره وملكان يظلان عليه. رواه أبو نعيم.

وتزوج ﷺ خديجة بعد ذلك بشهرين وخمسة وعشرين يوماً ـ وقيل: كان سنة إحدى وعشرين سنة، وقيل ثلاثين ـ وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة، وكانت تحت أبي هالة بن زرارة التميمي فولدت له هنداً وهالة، وهما ذكران، ثم تزوجها عتيق بن عابد المخزومي فولدت له هنداً.

وكان لها ـ حين تزويجها بالنبي ﷺ ـ من العمر أربعون سنة وبعض أخرى.

وكانت عرضت نفسها عليه، فذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه منهم حمزة حتى دخل خويلد بن أسد فخطبها إليه.

فتزوجها عليه السلام، وأصدقها عشرين بكرة[1]، وحضر أبو طالب ورؤساء مضر، فخطب أبو طالب فقال:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضىء معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا، محمد بن عبد الله، لا يوزن برجل إلا رجح به، فإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي كذا، وهو ـ والله ـ بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، فزوجها.

والضئضىء: الأصل.

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ١/ ٢٠١

وحضنة بيته: أي الكافلين له والقائمين بخدمته.

وسواس حرمه: أي: متولي أمره.

قال: ابن إسحاق: وزوجه إياها خويلد.

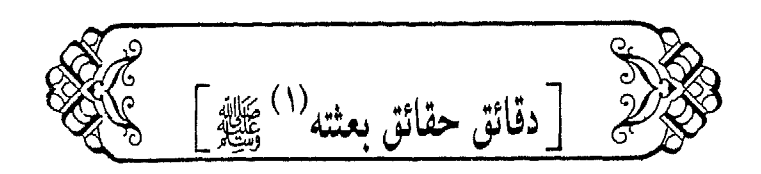
وقد ذكر الدولابي وغيره: أن النبي ﷺ أصدق خديجة اثنتي عشر أوقية ذهباً ونشاً. قالوا: وكل أوقية أربعون درهماً، والنش: نصف أوقية.

ولما بلغ ﷺ خمساً وثلاثين سنة، خافت قريش أن تنهدم الكعبة من السيول، فأمروا باقوم ـ بموحدة فألف فقاف مضمومة فواو ساكنة فميم ـ النجار النبطي مولى سعيد ابن العاصي، وصانع المنبر الشريف، بأن يبني الكعبة المعظمة.

وحضر ﷺ وكان ينقل معهم الحجارة، وكانوا يضعون أزرهم على عواتقهم، ويحملون الحجارة، ففعل ذلك ﷺ فلبط به ـ بالموحدة، كعنى أي سقط من قيامه كما في القاموس[1] ـ ونودي: عورتك، فكان ذلك أول ما نودي. فقال له أبو طالب أو العباس: يا ابن أخي اجعل إزارك على رأسك، فقال: ما أصابني ما أصابني إلا من التعري.

---

(١) انظر القاموس المحيط ٢/٣٩٦ مادة. (لبط).



## [ دقائق حقائق بعثته(1) ﷺ ]

ولما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة وقيل: وأربعين يوماً، وقيل: وعشرة أيام، وقيل: وشهرين، يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان ـ وقيل: لسبع، وقيل: لأربع وعشرين ليلة ـ

وقال ابن عبد البر: يوم الإثنين لثمان من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من الفيل. وقيل: في أول ربيع:

بعثه الله رحمة للعالمين، ورسولاً إلى كافة الثقلين أجمعين.

ويشهد لبعثه يوم الإثنين ما رواه مسلم عن أبي قتادة أنه ﷺ سئل عن صوم الإثنين فقال: «**فيه ولدت وفيه أنزل علي**»(2).

وقال ابن القيم في «الهدي النبوي»: واحتج القائلون بأنه كان في رمضان بقوله تعالى: ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن**﴾ [البقرة: 185] قالوا: أول ما أكرمه الله بنبوته أنزل عليه القرآن.

وقال الآخرون: إنما نزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة، ثم نزل نجوماً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة.

وقيل: كان ابتداء المبعث في رجب.

وروى البخاري في «التعبير»(3) من حديث عائشة: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وكان يأتي

---

(1) انظر شرح المواهب ١/٢٠٦ وزاد المعاد بهامشه ١/ ٥٥ و ٦٤. والبداية والنهاية ٣/٣. وطبقات ابن سعد ١/١٤٩.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الصيام رقم الحديث (١٩٨) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/٢٩٩ والسنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٢٩٣ ومشكاة المصابيح للتبريزي(٢٠٤٥) ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٣٣.

(3) أخرجه البخاري في كتاب التعبير رقم الحديث (٦٩٨٢) وفي كتاب التفسير رقم الحديث (٤٩٥٦).

حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها، حتى فجأة الحق وهو في غار حراء.

فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، «**فقلت ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني**»، فقال: اقرأ، فقلت: «**ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني**»، فقال: اقرأ، «**فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني**» فقال: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾ حتى ـ بلغ ـ ﴿**ما لم يعلم**﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، حتى دخل على خديجة، فقال: «**زملوني زملوني**» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: «**يا خديجة، مالي؟**» وأخبرها الخبر، ثم قال: «**قد خشيت على نفسي**».

فقالت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها ـ وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ـ وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي[١] فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا[٢] حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك».

● وقد تكلم العلماء في معنى قوله ﷺ لخديجة: «**قد خشيت على نفسي**» فذهب

---

(١) المصدر السابق (٦٩٨٢).

(٢) انظر فتح الباري ١٢/٤٣٦ وما بعدها.

الإسماعيلي[1] إلى أن هذه الخشية كانت منه قبل أن يحصل له العلم الضروري بأن الذي جاءه ملك من عند الله. وكان أشق شيء عليه أن يقال عليه مجنون.

وقيل: إن خشيته كانت من قومه أن يقتلوه، ولا غرو، فإنه بشر يخشى من القتل والأذية، كما يخشى البشر.

● وقوله: «ما أنا بقارىء» أي: أنا أمي فلا أقرأ الكتب.

● وقال القاضي عياض: إنما ابتدىء ﷺ بالرؤيا، لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا تحتملها قوى البشر، فبدىء بأوائل خصال النبوة وتباشير الكرامة. انتهى.

فإن قلت: فلم كرر قوله «ما أنا بقارىء» ثلاثاً؟

أجاب أبو شامة[2] كما في فتح الباري: بأن يحمل قوله أولاً «ما أنا بقارىء» على الإمتناع، وثانياً: على الإخبار بالنفي المحض، وثالثاً: على الإستفهام[3].

● والحكمة من الغط ثلاثاً، شغله عن الالتفات لشيء آخر، وإظهاراً للشدة والجد في الأمر، تنبيهاً على ثقل القول الذي سيلقى عليه.

وقيل: إبعاداً لظن التخيل والوسوسة، لأنهما ليسا من صفات الجسم، فلما وقع ذلك بجسمه علم أنه من أمر الله.

● فإن قلت: من أين عرف ﷺ أن جبريل ملك من عند الله، وليس من الجن؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أظهر على يدي جبريل عليه السلام معجزات عرفه بها. كما أظهر الله تعالى على يد محمد ﷺ معجزات عرفناه بها.

وثانيهما: إن الله تعالى خلق في محمد ﷺ علماً ضرورياً بأن جبريل من عند الله ملك لا جني ولا شيطان، كما أن الله تعالى خلق في جبريل علماً ضرورياً بأن المتكلم معه هو الله تعالى، وأن المرسل له ربه تعالى لا غير.

● وقول ورقة: يا ليتني فيها جذعاً. الضمير للنبوة، أي: ليتني كنت شاباً عند

---

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو بكر الإسماعيلي الجرجاني (٢٩٧ ـ ٣٧١ هـ) حافظ فقيه. الأعلام ١/٨٦.

(٢) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي أبو القاسم شهاب الدين أبو شامة (٥٩٩ ـ ٦٦٥ هـ) مؤرخ محدث باحث ـ توفي في دمشق. الأعلام ٣/٢٩٩ فوات الوفيات ٢/٢٦٩ رقم الترجمة (٢٥١) بغية الوعاة (٢٩٧) تذكرة الحفاظ ٤/١٤٦٠ رقم الترجمة (١١٥٧) طبقات الشافعية ٥/٦١ طبقات المفسرين ١/٢٦٨ رقم الترجمة (٢٥٤) مرآة الجنان ٤/١٦٤ شذرات الذهب ٥/٣١٨.

(٣) راجع فتح الباري ١/٣١.

ظهورها حتى أبالغ في نصرتها وحمايتها. وأصل الجذع: من أسنان الدواب، وهو ما كان منها شاباً فتياً.

وأخرج البيهقي من طريق العلاء بن جارية الثقفي عن بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته وابتداءه بالنبوة كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه وسمع منه، فيلتفت رسول الله خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يرى إلا الشجر وما حوله من الحجارة. وهي تحييه بتحية النبوة: السلام عليك يا رسول الله الحديث.

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «**جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فلم أثبت له، فأتيت خديجة فقلت: دثروني دثروني وصبوا علي ماء بارداً فنزلت: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر﴾** [المدثر: ١ ـ ٣] **الآية، وذلك قبل أن تفرض الصلاة**»[١] رواه البخاري ومسلم والترمذي.

ولم يكن جواره ﷺ لطلب النبوة، لأنها أجل من أن تنال بالطلب أو الاكتساب، وإنما هي موهبة من الله، وخصوصية يخص بها من يشاء من عباده، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ولم تكن الرجفة المذكورة خوفاً من جبريل عليه السلام، فإنه ﷺ أجل من ذلك، وأثبت جناناً، وإنما رجف غبطة بحاله وإقباله على الله عز وجل، فخشي أن يشغل بغير الله عن الله.

وقيل: خاف من ثقل أعباء النبوة.

وفي رواية البيهقي في الدلائل: أن خديجة قالت لأبي بكر: يا عتيق اذهب به إلى ورقة بن نوفل، فأخذه أبو بكر، فقص عليه ما رأى، فقال ﷺ: «**إذا خلوت وحدي سمعت نداء: يا محمد، يا محمد، فانطلق هارباً**». . فقال: لا تفعل إذا قال، فاثبت حتى تسمع، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه يا محمد فثبت فقال: قل بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. إلى آخرها. ثم قال: قل لا إله إلا الله[٢]. الحديث.

واحتج به من قال بأولية نزول الفاتحة.

والصحيح أن أول ما نزل عليه ﷺ من القرآن «اقرأ» كما صح ذلك عن عائشة،

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب التفسير رقم الحديث (٤٩٢٢) ومسلم في كتاب الإيمان رقم (٢٥٧) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/٣٠٦.
(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/١٥٨.

وروي ذلك عن أبي موسى الأشعري[1] وعبيد بن عمير[2].

قال النووي: وهو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف.

وأما ما روي عن جابر وغيره: أن أول ما نزل ﴿**يا أيها المدثر**﴾ [المدثر: ١] فقال النووي: ضعيف، بل باطل، وإنما نزلت بعد فترة الوحي.

وأما حديث البيهقي أنه الفاتحة ـ كقول بعض المفسرين ـ فقال البيهقي: هذا منقطع، فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعدما نزلت عليه ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ [العلق: ١] و ﴿**يا أيها المدثر**﴾ [المدثر: ١].

وقال النووي ـ بعد ذكر هذا القول ـ بطلانه أظهر من أن يذكر. انتهى.

وقد روي أن جبريل عليه السلام أول ما نزل بالقرآن على النبي ﷺ أمره بالاستعاذة، كما رواه الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس قال: «**أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد، استعذ، قال: استيعذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق. قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد ﷺ**».

قال الحافظ عماد الدين بن كثير، بعد أن ذكره: وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً، والله أعلم.

وقد أورد ابن أبي جمرة سؤالاً، وهو أنه: لم اختص ﷺ بغار حراء، فكان يخلو فيه ويتحنث دون غيره من المواضع؟

وأجاب: بأن هذا الغار له فضل زائد على غيره: من جهة أنه منزوٍ ومجموع لتحنثه وهو يبصر بيت ربه، والنظر إلى البيت عبادة، فكان له فيه اجتماع ثلاث عبادات: الخلوة والتحنث والنظر إلى البيت. وغيره ليس فيه هذه الثلاث.

ولله در المرجاني[3] حيث قال في فضائل حراء وما اختص به:

---

(١) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب أبو موسى من بني الأشعر من قحطان (٢١ ق. هـ ـ ٤٤ هـ). صحابي توفي في الكوفة. الأعلام ٤/ ١١٤ حلية الأولياء ١/ ٢٥٦ رقم الترجمة (٤٠) والإصابة ٤/ ١١٩ رقم الترجمة (٤٨٨٩) طبقات ابن سعد ٤/ ٧٨ رقم الترجمة (٣٦٧). أخبار القضاة ١/ ٢٨٣ الأنساب ١/ ١٦٦ مادة (الأشعري) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٣ رقم الترجمة (١٠) شذرات الذهب ١/ ٢٩.

(٢) هو عمر بن عبيد بن قتادة أبو عاصم الليثي المكي. قاض مكة حافظ. توفي سنة (٦٨ هـ). الكاشف ٢/ ٢٠٩ رقم الترجمة (٣٦٧٩) أخبار القضاة ١/ ١٢٣.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبد الملك أبو محمد المرجاني. (٦٣٣ ـ ٦٩٩ هـ) واعظ. مفسر. صوفي=

تـأمــل حــراء فــي جمــال محيــاه | فكـم مـن أنـاس مـن حـلا حسنـه تـاهـوا
فممـا حـوى مـن جـا لعليـاه زائـراً | يفـرج عنـه الهـم فـي حـال مـرقـاه
بـه خلـوة الهـادي الشفيـع محمـد | وفيـه لـه غـار لـه كـان يـرقـاه
وقبلتـه للقـدس كـانـت بغـاره | وفيـه أتـاه الـوحـي فـي حـال مبـداه
وفيـه تجلـى الـروح بـالمـوقـف الـذي | بـه الله فـي وقـت البـداءة سـواه
وتحـت تخـوم الأرض فـي السبـع أصلـه | ومـن بعـد هـذا اهتـز بـالسفـل أعـلاه
ولمـا تجلـى الله قـدس ذكـره | لطـور تشظـى فهـو إحـدى شظـايـاه
ومنهـا ثبيـر ثـم ثـور بمكـة | كـذا قـد أتـى فـي نقـل تـاريـخ مبـداه
وفـي طيبـة أيضـاً ثـلاث فعـدهـا | فعيـراً وورقـانـاً وأحـداً روينـاه
ويقبـل فـي سـاعـة الظهـر مـن دعـا | بـه ينـادي مـن دعـانـا أجبنـاه
وفـي أحـد الأقـوال فـي عقبـة حـرا | أتـى ثـم قـابيـل لهـابيـل غشـاه
وممـا حـوى سـراً حـوتـه صخـوره | مـن التبـر إكسيـراً يقـام سمعنـاه
سمعـت بـه تسبيحهـا غيـر مـرة | وأسمعتـه جمعـاً فقـالـوا سمعنـاه
بـه مـركـز النـور الإلهـي مثبتـاً | فللّـه مـا أحلـى مقـامـاً بـأعـلاه

وروى أبو نعيم أن جبريل وميكائيل شقا صدره وغسلاه ثم قال: ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ [العلق: ١ ـ ٥] الآيات، الحديث، وفيه: فقال ورقة: أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي مرسل.

وكذا روى شق صدره الشريف هنا أيضاً الطيالسي[١] والحارث[٢] في مسنديهما.

والحكمة فيه: ليتلقى النبي ﷺ ما يوحي إليه بقلب قوي، في أكمل الأحوال من التطهير.

قال ابن القيم وغيره: وكمل الله تعالى له عليه السلام من الوحي مراتب عديدة:

---

= عالم بالفقه. توفي في تونس. الأعلام ٤/ ١٢٥ شذرات الذهب ٥/ ٤٥١. هدية العارفين ١/ ٤٦٣.

(١) هو سليمان بن داوود بن الجارود مولى قريش أبو داوود الطيالسي (١٣٣ ـ ٢٠٤ هـ) حافظ للحديث توفي بالبصرة. الأعلام ٣/ ١٢٥ تاريخ بغداد ٩/ ٢٤ معجم المطبوعات ٣١٠ كشف الظنون ١٦٧٩ تذكرة الحفاظ ١/ ٣٥١ رقم الترجمة (٣٤٠) شذرات الذهب ٢/ ١٢ طبقات ابن سعد ٧/ ٢٢٤ رقم الترجمة (٣٣٩٨).

(٢) هو الحارث بن محمد بن أبي أسامة داهر التميمي أبو محمد (١٨٦ ـ ٢٨٢ هـ) حافظ للحديث بغدادي. الأعلام ٢/ ١٥٧ مراة الجنان ٢/ ١٩٤ تذكرة الحفاظ ٢/ ٦١٩ رقم الترجمة (٦٤٦) شذرات الذهب ٢/ ١٧٨.

● أحدها: الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

● الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال ﷺ: **«إن روح القدس نفث في روعي، لن تموت نفسي حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»**[1] الحديث رواه ابن أبي الدنيا[2] في القناعة، وصححه الحاكم.

والروع ـ بضم الراء ـ أي نفسي، وروح القدس: جبريل عليه السلام.

● الثالثة: كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، فقد كان يأتيه في صورة دحية الكلبي[3]. رواه النسائي[4] بسند صحيح من حديث ابن عمر.

قلت: وكان دحية جميلاً وسيماً، إذا قدم لتجارة خرجت الظعن لتراه.

فإن قلت: إذا لقي جبريل النبي ﷺ في صورة دحية، فأين تكون روحه؟ فإن كانت في الجسد الذي له ستمائة جناح، فالذي أتى لا روح جبريل ولا جسده، وإن كانت في هذا الذي هو في صورة دحية فهل يموت الجسد العظيم أم يبقى خالياً من الروح المنتقلة عنه إلى الجسد المشبه بجسد دحية[5].

أجيب ـ كما ذكره العيني[6] ـ بأنه لا يبعد أن لا يكون انتقالها موجب موته، فيبقى الجسد حياً، لا ينقص من معارفه شيء، ويكون انتقال روحه إلى الجسد الثاني كانتقال

---

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات ١٩٨ وجمع الجوامع للسيوطي (٥٥٧٥) اتحاف السادة المتقين ٥/ ٤١٦ الدر المنثور ٥/ ٩٤ ومسند الشافعي ٢٣٣ وكنز العمال (١٩٢٩٠).

(٢) هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان ابن أبي الدنيا القرشي الأموي بالولاء البغدادي أبو بكر (٢٠٨ ـ ٢٨١ هـ) حافظ للحديث توفي ببغداد. الأعلام ٤/ ١١٨ تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٧٧ رقم الترجمة (٦٩٩). تاريخ بغداد ١٠/ ٨٩ فوات الوفيات ٢/ ٢٢٨ رقم الترجمة (٢٣٥). طبقات الحنابلة ١/ ١٩٢.

(٣) هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي. صحابي توفي نحو سنة (٤٥ هـ) في دمشق «المزة» الأعلام ٢/ ٣٣٧ الإصابة ٢/ ١٦١ رقم الترجمة (٢٣٨٦) طبقات ابن سعد ٤/ ١٨٨ رقم الترجمة (٤٤٤). والأنساب ٥/ ٨٥ مادة (الكلبي).

(٤) هو أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن النسائي. (٢١٥ ـ ٣٠٣ هـ). حافظ قاضي. مات بالرملة (بفلسطين) وقيل بمكة. الأعلام ١/ ١٧١ وفيات الأعيان ١/ ٢١ طبقات الشافعية ٢/ ٨٣ تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٩٨ رقم الترجمة (٧١٩) شذرات الذهب ٢/ ٢٣٩.

(٥) انظر زاد المعاد بهامش شرح المواهب ١/ ٥٥.

(٦) هو محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد أبو محمد بدر الدين العيني الحنفي (٧٦٢ ـ ٨٥٥ هـ) مؤرخ. محدث. توفي بالقاهرة. الأعلام ٧/ ١٦٣. الضوء اللامع ١٠/ ١٣١ رقم الترجمة (٥٤٥). شذرات الذهب ٧/ ٢٨٦. ومعجم المطبوعات (١٤٠٢).

أرواح الشهداء إلى أجواف طير خضر، وموت الأجساد بمفارقة الأرواح ليس بواجب عقلاً، بل بعادة أجراها الله تعالى في بني آدم، فلا تلزم في غيرهم. انتهى.

● الرابعة: كأن يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، حتى إن راحلته لتبرك به في الأرض، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت[1]، فثقلت عليه حتى كادت ترضها[2].

قلت: وروى الطبراني عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ، وكان إذا نزل عليه أخذته برحاء شديدة، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان، ثم سري عنه. وكنت أكتب وهو يملي علي، فما أفرغ حتى تكاد رجلي تكسر من ثقل الوحي، حتى أقول: لا أمشي على رجلي أبداً.

ولما نزلت عليه سورة المائدة، كادت أن تنكسر عضد ناقته من ثقل السورة[3]، ورواه أحمد والبيهقي في الشعب.

● الخامسة: أن يرى الملك في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما في سورة النجم.

● السادسة: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السماوات من فرض الصلوات وغيرها.

● السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى.

● قال: وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب. انتهى.

قال شيخ الإسلام الولي ابن العراقي[4]: وكأن ابن القيم أخذ ذلك من روض السهيلي لكنه لم يذكر نزول إسرافيل إليه بكلمات من الوحي قبل جبريل.

فقد ثبت في الطرق الصحاح عن عامر الشعبي أن رسول الله ﷺ وكل به إسرافيل

---

(١) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي أبو خارجة (١١ ق. هـ - ٤٥ هـ) صحابي. الأعلام ٣/ ٥٧. الإصابة ٣/ ٢٢ رقم الترجمة (٢٨٧٤)،

(٢) أخرجه النسائي بكتاب الجهاد رقم الحديث (٤). والبخاري بكتاب الصلاة باب (١٢). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٩١ و ١٨٤. وفي سنن أبي داوود بكتاب الجهاد باب (١٩) رقم الحديث (٢٥٠٧).

(٣) اخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٦/ ٤٥٥.

(٤) هو أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري أبو زرعة ولي الدين ابن العراقي. (٧٦٢ - ٨٢٦ هـ). قاض حافظ توفي بالقاهرة. الأعلام ١/ ١٤٨ الضوء اللامع ١/ ٣٣٦ المنهل الصافي صفحة ٣١٢ رقم الترجمة (١٧٩) ذيل تذكرة الحفاظ ٥/ ٢٨٤.

فكان يتراءى له ثلاث سنين ويأتيه بالكلمة من الوحي، والشيء، ثم وكل به جبريل فجاء بالقرآن.

وأما قوله ـ أعني ابن القيم ـ: السادسة، ما أوحاه الله إليه فوق السماوات، يعني ليلة المعراج، السابعة كلام الله بلا واسطة. فإن أراد ما أوحاه إليه جبريل فهو داخل فيما تقدم، لأنه إما أن يكون جبريل في تلك الحالة على صورته الأصلية، أو على صورة الآدمي، وكلاهما قد تقدم ذكره، وإن أراد وحي الله بلا واسطة ـ وهو الظاهر ـ فهي الصورة التي بعدها.

وأما قوله: وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة: وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب، فهذا على مذهب من يقول إنه ﷺ رأى ربه تعالى، وهي مسألة خلاف يأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى.

ويحتمل أن ابن القيم رحمه الله تعالى أراد بالمرتبة السادسة وحي جبريل، وغاير بينه وبين ما قبله باعتبار محل الإيحاء، أي كونه فوق السماوات، بخلاف ما تقدم، فإنه كان في الأرض، ولا يقال، يلزم عليه أن تتعدد أقسام الوحي باعتبار البقعة التي جاء فيها جبريل إلى النبي ﷺ وهو غير ممكن، لأنا نقول: الوحي الحاصل في السماء باعتبار ما في تلك المشاهد من الغيب نوع غير نوع الأرض على اختلاف بقاعها. انتهى.

قلت: ويزاد أيضاً:

● كلامه تعالى له في المنام، كما في حديث الزهري «**أتاني ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى..**»[1] الحديث.

● ثم مرتبة أخرى، وهي العلم الذي يلقيه الله تعالى في قلبه، وعلى لسانه عند الاجتهاد في الأحكام، لأنه اتفق على أنه ﷺ إذا اجتهد أصاب قطعاً، وكان معصوماً من الخطأ، وهذا خرق للعادة في حقه دون سائر الأمة، وهو يفارق النفث في الروع من حيث حصوله بالاجتهاد، والنفث بدونه.

● ومرتبة أخرى: وهي مجيء جبريل في صورة رجل غير دحية، لأن دحية كان معروفاً عندهم، ذكره ابن المنير[2]، وإن كانت داخلة في المرتبة الثالثة التي ذكرها ابن القيم.

---

(١) أخرجه الترمذي رقم الحديث (٣٢٣٤) وفي المعجم الكبير للطبراني ٣٤٩/٨ وتفسير ابن كثير ٥١٦/٤ والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣٦٨/١.

(٢) هو أحمد بن محمد بن منصور المعروف بابن منير الإسكندري (٦٢٠ ـ ٦٨٣ هـ) قاض وخطيب. الأعلام ٢٢٠/١ فوات الوفيات ١٤٩/١ رقم الترجمة (٥٥) شذرات الذهب ٣٨١/٥ والديباج المذهب صفحة ٧١.

وذكر الحليمي[1] أن الوحي كان يأتيه على ستة وأربعين نوعاً، فذكرها، وغالبها ـ كما قال في فتح الباري ـ من صفات حامل الوحي، ومجموعها يدخل فيما ذكر والله أعلم.

وذكر ابن المنير أن الحال كان يختلف في الوحي باختلاف مقتضاه، فإن نزل بوعد وبشارة نزل الملك بصورة الآدمي، وخاطبه من غير كدّ، وإن نزل بوعيد ونذارة كان حينئذٍ كصلصلة الجرس. انتهى.

وقد ذكر ابن عادل، في تفسيره: أن جبريل عليه السلام نزل على النبي ﷺ أربعة وعشرين ألف مرة، ونزل على آدم اثنتي عشرة مرة، وعلى إدريس أربع مرات وعلى نوح خمسين مرة، وعلى إبراهيم اثنتين وأربعين مرة، وعلى موسى أربعمائة مرة، وعلى عيسى عشر مرات. كذا قال رحمه الله.

وقد روي: أن جبريل تبدى له ﷺ في أحسن صورة وأطيب رائحة فقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أنت رسولي إلى الجن والإنس، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء فتوضأ منها جبريل ثم أمره أن يتوضأ وقام جبريل يصلي وأمره أن يصلي معه فعلمه الوضوء والصلاة ثم عرج إلى السماء ورجع رسول الله ﷺ لا يمر بحجر ولا مدر ولا شجر إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله، حتى أتى خديجة فأخبرها فغشي عليها من الفرح ثم أمرها فتوضأت وصلى بها كما صلى به جبريل فكان ذلك أول فرضها ركعتين ثم إن الله أقرها في السفر كذلك وأتمها في الحضر[2].

وقال مقاتل: كانت الصلاة أول فرضها ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، لقوله تعالى: **﴿وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾** [غافر: ٥٥].

قال في فتح الباري: كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعاً[3]، وكذلك أصحابه، ولكن اختلف: هل افترض قبل الخمس شيء من الصلاة أم لا؟ فقيل: إن الفرض كان صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، والحجة فيه قوله تعالى: **﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾** [طه: ١٣٠]. انتهى.

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني أبو عبد الله (٣٣٨ ـ ٤٠٣ هـ). فقيه شافعي قاض. وفاته في بخارى. الأعلام ٢/ ٢٣٥. وتاريخ جرجان ١٩٨ رقم الترجمة (٢٨٦).

(٢) هو في كنز العمال (٤٥٨٧) وفي علل الحديث للرازي صفحة ١٥١.

(٣) انظر فتح الباري ١/ ٦١١ كتاب الصلاة باب (١).

قال النووي: أول ما وجب الإنذار والدعاء إلى التوحيد، ثم فرض الله من قيام الليل ما ذكره في أول سورة المزمل، ثم نسخه بما في آخرها، ثم نسخه بإيجاب الصلوات الخمس ليلة الإسراء بمكة، وأما ما ذكره في هذه الرواية من أن جبريل علمه الوضوء وأمره به فيدل على أن فرضية الوضوء كانت قبل الإسراء.

ثم فتر الوحي فترة شق عليه وأحزنه.

وفترة الوحي: عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب عنه ما كان يجده عليه السلام من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود.

وكانت مدة فترة الوحي ثلاث سنين، كما جزم به ابن إسحاق.

وفي تاريخ الإمام أحمد، ويعقوب بن سفيان عن الشعبي: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة، وكذا رواه ابن سعد والبيهقي.

فقد تبين أن نبوته ﷺ كانت متقدمة على إرساله، كما قال أبو عمر وغيره، كما حكاه أبو أمامة بن النقاش[1]. فكان في نزول سورة «اقرأ» نبوته، وفي نزول سورة المدثر إرساله بالنذارة والبشارة والتشريع، وهذا قطعاً متأخر عن الأول، لأنه لما كانت سورة «اقرأ» متضمنة لذكر أطوار الآدمي: من الخلق والتعليم والإفهام، ناسب أن تكون أول سورة أنزلت، وهذا هو الترتيب الطبيعي، وهو أن يذكر سبحانه وتعالى ما أسداه إلى نبيه عليه السلام من العلم والفهم والحكمة والنبوة، ويمن عليه بذلك في معرض تعريف عباده بما أسداه إليهم من نعمة البيان الفهمي والنطقي والخطي، ثم يأمره سبحانه وتعالى بأن يقوم فينذر عباده.

وكان أول من آمن بالله وصدق صديقة النساء خديجة، فقامت بأعباء الصديقية. قال لها ﷺ: خشيت على نفسي، فقالت: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً. ثم استدلت بما فيه من الصفات والأخلاق والشيم على أن من كان كذلك لا يخزى أبداً.

وكان أول ذكر آمن من بعدها صديق الأمة، وأسبقها إلى الإسلام أبو بكر، فآزره

---

(١) هو محمد بن علي بن عبد الواحد الدكالي المصري أبو أمامة المعروف بابن النقاش (٧٢٠ ـ ٧٦٣ هـ). مفسر واعظ فقيه. توفي بالقاهرة. الأعلام ٦/ ٢٨٦ الدرر الكامنة ٤/ ٧١ رقم الترجمة (٢٠٩) بغية الوعاة ٧٨ شذرات الذهب ٦/ ١٩٨ طبقات المفسرين ٢/ ٢٠٢ رقم الترجمة (٥٤٠).

في الله. وعن ابن عباس أنه أول الناس إسلاماً، واستشهد له بقول حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجوى من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبي وأوفاها بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس قدماً صدق الرسلا

رواه أبو عمر.

وممن وافق ابن عباس وحساناً على أن الصديق أول الناس إسلاماً، أسماء بنت أبي بكر، والنخعي[1] وابن الماجشون[2] ومحمد بن المنكدر[3] والأخنس[4].

وقيل: إن علي بن أبي طالب أسلم بعد خديجة، وكان في حجر النبي ﷺ. فعلى هذا يكون أول من أسلم من الرجال أبو بكر، ويكون علي أول صبي أسلم، لأنه كان صبياً لم يدرك، ولذا قال:

سبقتكمُ إلى الإسلام طراً ... صغيراً ما بلغت أوان حلمي

وكان سن علي إذ ذاك عشر سنين، فيما حكاه الطبري.

وقال ابن عبد البر: وممن ذهب إلى أن علياً أول من أسلم من الرجال: سلمان وأبو ذر والمقداد وخباب وجابر وأبو سعيد الخدري، وزيد بن الأرقم، وهو قول ابن شهاب وقتادة وغيرهم.

قال: واتفقوا على أن خديجة أول من أسلم مطلقاً.

وقيل: أول رجل أسلم، ورقة بن نوفل. ومن يمنع، يدعى أنه أدرك نبوته عليه السلام لا رسالته. لكن جاء في السير، وهو في رواية أبي نعيم المتقدمة أنه قال: أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي مرسل،

---

(١) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود أبو عمران النخعي، (٤٦ ـ ٩٦ هـ) تابعي حافظ. الأعلام ١/ ٨٠ حلية الأولياء ٤/ ٢١٩ رقم الترجمة (٢٧٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٧٩ رقم الترجمة (٢٣٢٥) تذكرة الحفاظ ١/ ٧٣ رقم الترجمة (٧٠) شذرات الذهب ١/ ١١١ وفيات الأعيان ١/ ٣.

(٢) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله التيمي بالولاء أبو مروان ابن الماجشون. فقيه مالكي توفي سنة (٢١٢ هـ). الأعلام ٤/ ١٦٠ وفيات الأعيان ١/ ٢٨٧.

(٣) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير (بالتصغير) بن عبد العزى القرشي التيمي المدني. (٥٤ ـ ١٣٠ هـ) زاهد من رجال الحديث. الأعلام ٧/ ١١٢ وطبقات الحفاظ ١/ ١٢٧ رقم الترجمة (١١٤).

(٤) هو الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى. مات في أول خلافة عمر. الإصابة ١/ ٢٣ رقم الترجمة (٦١).

وأنك ستؤمر بالجهاد، وإن أدرك ذلك لأجاهدن معك. فهذا صريح بتصديقه برسالة محمد ﷺ.

قال البلقيني[1]: بل يكون بذلك أول من أسلم من الرجال. وبه قال العراقي في نكته على ابن الصلاح[2] وذكره ابن منده في الصحابة.

وحكى العراقي: كون علي أول من أسلم عن أكثر العلماء، وحكى ابن عبد البر الإتفاق عليه.

وادعى الثعلبي[3] اتفاق العلماء على أن أول من أسلم خديجة، وأن اختلافهم إنما هو في أول من أسلم بعدها.

قال ابن الصلاح: والأورع أن يقال:

أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر.

ومن الصبيان أو الأحداث علي.

ومن النساء خديجة.

ومن الموالي زيد.

ومن العبيد بلال. والله أعلم، انتهى.

وقال الطبري: الأولى التوفيق بين الروايات كلها وتصديقها فيقال:

أول من أسلم مطلقاً خديجة.

وأول من أسلم علي بن أبي طالب، وهو صبي لم يبلغ، وكان مستخفياً بإسلامه.

وأول رجل عربي بالغ أسلم وأظهر إسلامه أبو بكر بن أبي قحافة.

وأول من أسلم من الموالي زيد.

---

(١) هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكناني العسقلاني الأصل ثم البلقيني المصري أبو حفص سراج الدين (٧٢٤ ـ ٨٠٥ هـ). حافظ فقيه شافعي. توفي بالقاهرة الأعلام ٥/ ٤٦ الضوء اللامع ٦/ ٨٥ رقم الترجمة (٢٨٦) شذرات الذهب ٧/ ٥١ طبقات المفسرين ٢/ ٥ رقم الترجمة (٣٨٥).

(٢) هو عثمان بن عبد الرحمٰن (صلاح الدين) بن عثمان بن موسى بن أبي النصر الشهرزوري الكردي الشرخاني أبو عمر تقي الدين المعروف بابن الصلاح (٥٧٧ ـ ٦٤٣ هـ) مفسر محدث فقيه توفي في دمشق. الأعلام ٤/ ٢٠٧ وفيات الأعيان ١/ ٣١٢ طبقات الشافعية ٥/ ١٣٧ طبقات المفسرين ١/ ٣٨٢ رقم الترجمة (٣٢٧) شذرات الذهب ٥/ ٢٢١ مفتاح السعادة ١/ ٣٩٧ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٣٠ رقم الترجمة (١١٤١) تاريخ بغداد (١٣٠).

(٣) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أبو إسحاق مفسر، مؤرخ توفي سنة (٤٢٧ هـ). الأعلام ١/ ٢١٢. وفيات الأعيان ١/ ٢٢ إنباه الرواة ١/ ١١٩ معجم المطبوعات ٦٦٣ معجم الأدباء ٢/ ١٩ رقم الترجمة (١٨٤) طبقات الشافعية ٣/ ٢٣ مرآة الجنان ٣/ ٤٦ مفتاح السعادة ٢/ ٦٧.

قال: وهذا متفق عليه لا خلاف فيه، وعليه يحمل قول من قال: أول من أسلم من الرجال أبو بكر، أي الرجال البالغين الأحرار، ويؤيد هذا ما روي عن الحسن أن علي بن أبي طالب قال: إن أبا بكر سبقني إلى أربع لم أوتهن: سبقني إلى إفشاء الإسلام، وقدم الهجرة، ومصاحبته في الغار، وإقام الصلاة، وأنا يومئذ بالشعب يظهر إسلامه وأخفيه. الحديث، خرجه صاحب فضائل أبي بكر وخيثمة بمعناه.

وأما ما روي: من صحبة الصديق للنبي ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة، وهم يريدون الشام في تجارة، وحديث بحيرى، وأنه وقع في قلب أبي بكر اليقين، وقول ميمون بن مهران[٢]: والله لقد آمن أبو بكر بالنبي ﷺ زمن بحيرى، فالمراد بهذا الإيمان اليقين بصدقه، وهو ما وقر في قلبه، وإلا فالنبي ﷺ تزوج خديجة وسافر إلى الشام قبل المبعث.

ثم أسلم بعد زيد بن حارثة، عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، بدعاء أبي بكر الصديق، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له، فأسلموا وصلوا.

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بعد تسعة أنفس. والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون الجمحي. وأخواه: قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وامرأته فاطمة بنت الخطاب.

وقال ابن سعد: أول امرأة أسلمت بعد خديجة أم الفضل زوج العباس، وأسماء بنت أبي بكر، وعائشة أختها. كذا قاله ابن إسحاق وغيره. وهو وهم، لأن عائشة لم تكن ولدت بعد فكيف أسلمت. وكان مولدها سنة أربع من النبوة، قاله مغلطاي وغيره.

ودخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء.

---

(١) هو خيثمة بن سليمان بن حيدرة القرشي الطرابلسي أبو الحسن. (٢٥٠ ـ ٣٤٣ هـ) من حفاظ الحديث رحالة. توفي في طرابلس (الشام). الأعلام ٢/ ٣٢٦ شذرات الذهب ٢/ ٣٦٥ تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٥٨ رقم الترجمة (٨٣٤). العبر ٢/ ٢٦٢.

(٢) هو ميمون بن مهران الرقي أبو أيوب (٣٧ ـ ١١٧ هـ) فقيه من القضاة. الأعلام ٧/ ٣٤٢ تذكرة الحفاظ ١/ ٩٨ رقم الترجمة (٩١) حلية الأولياء ٤/ ٨٢ رقم الترجمة (٢١٥) شذرات الذهب ١/ ١٥٤ طبقات ابن سعد ٧/ ٣٣٢ رقم الترجمة (٣٩٤٨) العبر ١/ ١٤٧.

## [فصل في ترتيب الدعوة النبوية][1]

ثم إن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يصدع بما جاء به، أي يواجه المشركين به.

وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة.

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿**فاصدع بما تؤمر**﴾ [الحجر: ٩٤] فجهر هو وأصحابه.

وقال البيضاوي: ﴿**فاصدع بما تؤمر**﴾ [الحجر: ٩٤] من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً أو فرق به بين الحق والباطل. وأصله: الإبانة والتمييز. و «ما» مصدرية أو موصولة، و «الراجع» محذوف، أي بما تؤمر به من الشرائع انتهى.

قالوا: وكان ذلك بعد ثلاث سنين من النبوة، وهي المدة التي أخفى فيها رسول الله ﷺ أمره إلى أن أمره الله تعالى بإظهاره.

فبادى قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله تعالى.

ولم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه، حتى ذكر آلهتهم وعابها، وكان ذلك سنة أربع، كما قاله العتقي[2]. فأجمعوا على خلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم بالإسلام. وحدب عليه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه.

فاشتد الأمر، وتضارب القوم، وأظهر بعضهم لبعض العداوة، وتذامرت قريش على من أسلم منهم يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم.

ومنع رسول الله بعمه أبي طالب وبني هاشم ـ غير أبي لهب ـ وبني المطلب.

وقال مقاتل: كان رسول الله ﷺ عند أبي طالب يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون بالنبي ﷺ سوءاً، فقال أبو طالب: حين تروح الإبل فإن حنت ناقة إلى غير فصيلها دفعته إليكم. وقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفيناً

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وأبشر وقر بذاك منك عيوباً

ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ... ولقد صدقت وكنت ثم أميناً

وعرضت ديناً لا محالة إنه ... من خير أديان البرية ديناً

---

(١) انظر كتاب زاد المعاد بهامش شرح المواهب ١/ ٦٥.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد العتقي الإفريقي أبو عبد الرحمٰن. فلكي مؤرخ توفي في مصر سنة (٣٨٥ هـ). الأعلام ٦/ ٢٢٥ أخبار الحكماء ١٨٧ الوافي بالوفيات ٣/ ٢٣٩.

لـــولا المـــلامـــة أو حـــذاري سبـــة لـــوجـــدتنـــي سمحـــاً بـــذاك مبينـــاً

وقد كفى الله تعالى نبيه ﷺ المستهزئين. كما قال تعالى: ﴿**وأعرض عن المشركين**﴾ [الحجر: ٩٤] أي لا تلتفت إلى ما يقولون: ﴿**إنا كفيناك المستهزئين**﴾ [الحجر: ٩٥] يعني بقمعهم وإهلاكهم. وقد قيل: إنهم كانوا خمسة من أشراف قريش:

الوليد بن المغيرة.

والعاصي بن وائل.

والحارث بن قيس.

والأسود بن عبد يغوث.

والأسود بن المطلب.

وكانوا يبالغون في إذائه ﷺ والاستهزاء به. فقال جبريل لرسول الله ﷺ: أمرت أن أكفيكهم. فأومأ إلى ساق الوليد، فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظيماً لأخذه، فأصاب عرقاً في عقبه فمات، وأومأ إلى أخمص العاصي فدخلت فيها شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى فمات، وأشار إلى أنف الحارث فامتخط قيحاً فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات، وإلى عيني الأسود بن عبد المطلب فعمي.

وكان ﷺ يطوف على الناس في منازلهم يقول: «**يا أيها الناس، إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً**»، وأبو لهب وراءه يقول: يا أيها الناس: إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم[1].

ورماه الوليد بن المغيرة بالسحر، وتبعه قومه على ذلك.

وآذته قريش ورموه بالشعر والكهانة والجنون.

ومنهم من كان يحثو التراب على رأسه، ويجعل الدم على بابه.

ووطىء عقبة بن أبي معيط على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان. وخنقوه خنقاً شديداً، فقام أبو بكر دونه، فجذبوا رأسه ولحيته ﷺ حتى سقط أكثر شعره، فقام أبو بكر دونه وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله.

وقال ابن عمرو ـ كما في البخاري ـ: بينا رسول الله ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ فلف ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو

---

(١) أخرجه في زوائد المسند ٣/ ٤٩١ و ٤/ ٣٤١ والمستدرك للحاكم ١/ ١٥ والمعجم الكبير للطبراني ٥/ ٥٦ وما بعدها.

بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ[1]. وفي رواية ثم قال: ﴿**أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله**﴾ [غافر: ٢٨].

وقد ذكر العلماء، أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل من مؤمن آل فرعون، لأن ذاك اقتصر حيث انتصر على اللسان، وأما أبو بكر فأتبع اللسان يداً، ونصر بالقول والفعل محمداً ﷺ.

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه بالتراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: مالك؟ قال: إن بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً، وأنزل الله ﴿**إن الإنسان ليطغى**﴾ [العلق: ٦ ـ ١٩] إلى آخر السورة[2].

ولما نزلت ﴿**تبت يدا أبي لهب وتب**﴾ [المسد: ١] جاءت امرأة أبي لهب، فقال أبو بكر: يا رسول الله، لو تنحيت عنها فإنها امرأة بذية، قال: «**سيحال بيني وبينها**» فقالت: يا أبا بكر، هجانا صاحبك، قال: والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله، فاندفعت راجعة، فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما رأتك، قال: «**كان بيني وبينها مالك سترني بجناحه حتى ذهبت**». رواه ابن أبي شيبة وأبو نعيم. وفي رواية البيهقي فقال ﷺ: «**قل لها: ترين عندي أحداً؟ فإنها لن تراني**»[3].

وفي رواية أيضاً: «كان ﷺ يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم، فلما سجد ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة وهي جويرية، فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: اللهم عليك بقريش ثم سمى فقال: اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة ابن الوليد.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب (٢٩) رقم الحديث (٣٨٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث (٢٧٩٧). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٧٠.

(٣) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ١/ ١٦.

قال عبد الله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: «**وأتبع أصحاب القليب لعنة**»[1].

واستدل بهذا الحديث: على أن من عرض له في صلاته ما يمنع انعقادها ابتداء لا تبطل صلاته، فلو كانت نجاسة فأزالها في الحال، ولا أثر لها صحت صلاته اتفاقاً.

واستدل به أيضاً: على طهارة فرث ما يؤمل لحمه، وعلى أن إزالة النجاسة ليست بفرض، وهو ضعيف.

وأجاب النووي: بأنه عليه السلام لم يعلم ما وضع على ظهره، فاستمر في سجوده، استصحاباً لأصل الطهارة.

وتعقب: بأنه مشكل على قولنا بوجوب الإعادة، في مثل هذه الصورة.

وأجيب عنه: بأن الإعادة إنما تجب في الفريضة، فإن ثبت أنها فريضة فالوقت موسع فلعله أعاد.

وتعقب: بأنه لو أعاد لنقل، ولم ينقل، وبأن الله لا يقره على صلاة فاسدة.

وقد استشكل بعضهم عد عمارة بن الوليد في المذكورين، لأنه لم يقتل في بدر، بل ذكر أصحاب المغازي: أنه مات بأرض الحبشة، وله قصة مع النجاشي، إذ تعرض لامرأته فأمر النجاشي ساحراً فنفخ في احليل عمارة من سحره فتوحش، وصار مع البهائم إلى أن مات في خلافة عمر.

وأجيب: بأن كلام ابن مسعود ـ أنه رآهم صرعى في القليب ـ محمول على الأكثر، ويدل عليه: أن عقبة بن أبي معيط لم يطرح في القليب، وإنما قتل صبراً بعد أن رحلوا عن بدر بمرحلة. وأمية بن خلف لم يطرح في القليب، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقوله: ثم قال رسول الله ﷺ: «**وأتبع أصحاب القليب لعنة**» يحتمل أن يكون من تمام الدعاء الماضي، فيكون فيه علم عظيم من أعلام النبوة ويحتمل أن يكون قاله ﷺ بعد أن ألقوا في القليب.

ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب[2]، وكان أعز فتى في قريش، وأشده شكيمة، وكان إسلامه ـ فيما قاله العتقي ـ سنة ست، فعزَّ به رسول الله ﷺ، وكفت عنه قريش قليلاً، وقال حمزة حين أسلم:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب (١٠٩) رقم الحديث (٥٢٠).

(٢) انظر السيرة لابن هشام ١/ ٣١١.

| | |
|---|---|
| حمـــدت الله حيـــن هـــدى فـــؤادي | إلــى الإســلام والــديــن الحنيــف |
| لـــديـــن جـــاء مـــن رب عـــزيـــز | خبيـــر بـــالعبـــاد بهـــم لطيـــف |
| إذا تليـــت رســـائلـــه علينـــا | تحـــدر دمـــع ذي اللـــب الحصيـــف |
| رســـائـــل جـــاء أحمـــد مـــن هـــداهـــا | بـــآيـــات مبينـــة الحـــروف |
| وأحمـــد مصطفـــى فينـــا مطـــاع | فـــلا تغشـــوه بـــالقـــول العنيـــف |
| فـــلا والله نسلمـــه لقـــوم | ولمـــا نقـــض فيهـــم بـــالسيـــوف |

وعند مغلطاي: وسألوه ـ يعني: النبي ﷺ ـ إن كنت تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه فيك.

فقال لهم عليه السلام: «**ما بي ما تقولون، ولكن الله بعثني رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم**»[1].

والرئي ـ بفتح الراء، وقد تكسر، ثم همزة، فياء مشددة ـ جني يري فيحب، أو المكسورة للمحبوب منها، قاله في القاموس.

ثم إن النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط ذهبا إلى أحبار اليهود، فسألاهم عنه ﷺ فقالوا لهما: سلاه عن ثلاثة، فإن أخبركما بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو متقول. سلاه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، وعن رجل طواف، وعن الروح ما هو؟

فقال لهم عليه السلام: «**أخبركم غداً**»، ولم يقل إن شاء الله تعالى، فلبث الوحي أياماً، ثم نزل قوله تعالى: ﴿**ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله**﴾ [الكهف: ٢٣ و ٢٤] وأنزل الله تعالى ذكر الفتية الذين ذهبوا، وهم أصحاب الكهف، وذكر الرجل الطواف. وهو ذو القرنين. وقال فيما سألوه عن الروح ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي**﴾ [الإسراء: ٨٥] الآية.

وفي البخاري[2] من حديث عبد الله بن مسعود قال: «بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث، وهو متكيء على عسيب، إذ مر اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، قالوا: ما رابكم إليه، وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فسألوه

(١) المصدر السابق ١/ ٣١٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم باب (٤٧) رقم الحديث (١٢٥).

عن الروح، فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي فلما نزل الوحي قال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ [الإسراء: ٨٥]».

قال الحافظ ابن كثير: وهذا يقتضي - فيما يظهر من بادىء الرأي - أن هذه آية مدنية، وأنها إنما نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة [الإسراء] كلها مكية.

وقد يجاب عن هذا: بأنه قد تكون نزلت عليه مرة ثانية بالمدينة، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك. ومما يدل على نزولها بمكة ما رواه الإمام أحمد من حديث ابن عباس قال قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه فنزلت[1] الحديث. انتهى.

وهذا الحديث رواه الترمذي أيضاً باسناد رجاله رجال مسلم.

فيحمل على تعدد النزول كما أشار إليه ابن كثير، ويحمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك.

وقد اختلف في المراد بالروح المسؤول عنه في هذا الخبر:

فقيل: روح الإنسان.

وقيل: جبريل.

وقيل: عيسى.

وقيل: ملك يقوم وحده صفاً يوم القيامة.

وقيل: غير ذلك.

وقال القرطبي: الراجح أنهم سألوه عن روح الإنسان لأن اليهود لا تعترف بأن عيسى روح الله، ولا تجهل أن جبريل ملك، وأن الملائكة أرواح.

وقال الإمام فخر الدين: المختار أنهم سألوه عن الروح الذي هو سبب الحياة، وأن الجواب وقع على أحسن الوجوه وبيانه: أن السؤال عن الروح يحتمل عن ماهيته، وهل هي متحيزة أم لا؟ وهل هي حالة في متحيز أم لا؟ وهل هي قديمة أو حادثة، وهل تبقى بعد انفصالها من الجسد أو تفنى، وما حقيقة تعذيبها وتنعيمها، وغير ذلك من متعلقاتها.

قال: وليس في السؤال ما يخصص أحد هذه المعاني، إلا أن الأظهر أنهم سألوه عن الماهية. وهل الروح قديمة أو حادثة؟ والجواب يدل على أنها شيء موجود مغاير للطبائع والأخلاط وتركيبها، فهي جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث، وهو قوله تعالى: «كن»، فكأنه قال: هي موجودة محدثة بأمر الله وتكوينه ولها تأثير في إفادة الحياة

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣١ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٥٥.

للجسد، ولا يلزم من عدم العلم بكيفيتها المخصوصة نفيه.

قال: ويحتمل أن يكون المراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿من أمر ربي﴾ [الإسراء: ٨٥] الفعل، كقوله تعالى: ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ [هود: ٩٧] أي فعله. فيكون الجواب: أنها حادثة.

ثم قال: وقد سكت السلف عن البحث في هذه الأشياء والتعمق فيها. انتهى.

وقال في فتح الباري: وقد تنطع قوم فتباينت أقوالهم:

فقيل: هي النفس الداخل الخارج.

وقيل: جسم لطيف، يحل في جميع البدن.

وقيل: هي الدم.

وقيل: إن الأقوال فيها بلغت المائة.

ونقل ابن منده عن بعض المتكلمين: أن لكل نبي خمسة أرواح، ولكل مؤمن ثلاثة، ولكل حي واحدة.

وقال ابن العربي: اختلفوا في الروح والنفس، فقيل متغايران، وهو الحق، وقيل هما شيء واحد، وقد يعبر بالروح عن النفس وبالعكس.

وقال ابن بطال[1]: معرفة حقيقة الروح مما استأثر الله بعلمه بدليل هذا الخبر.

قال: والحكمة في إبهامه: اختبار الخلق، ليعرفهم عجزهم عن علم ما لا يدركونه حتى يضطرهم إلى رد العلم إليه.

وقال القرطبي: الحكمة في ذلك إظهار عجز المرء، لأنه إذا لم يعلم حقيقة نفسه مع القطع بوجوده، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق من باب أولى.

وقال بعضهم: ليس في الآية دلالة على أن الله لم يطلع نبيه ﷺ على حقيقة الروح بل يحتمل أن يكون أطلعه الله ولم يأمره أن يطلعهم. وقد قالوا في علم الساعة نحو هذا والله أعلم. انتهى.

ولما كثر المسلمون، وظهر الإيمان، أقبل كفار قريش على من آمن يعذبونهم ويؤذونهم ليردوهم عن دينهم.

حتى إنه مر عدو الله، أبو جهل، بسمية أم عمار بن ياسر، وهي تعذب فطعنها بحربة في فرجها فقتلها.

---

(١) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال أبو الحسن. عالم بالحديث توفي سنة (٤٤٩ هـ). الأعلام ٤/٢٨٥. شذرات ٣/٢٨٣ الديباج المذهب ٢٠٣ كشف الظنون ١١٩ و ٥٤٦ والصلة ١/٤٠٧.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مر بأحد من العبيد يعذب اشتراه منهم وأعتقه، منهم بلال وعامر بن فهيرة.

وعن أبي ذر: كان أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس، وإن بلالاً هانت عليه نفسه في الله عز وجل، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد(١). رواه أحمد في مسنده.

وعن مجاهد مثله، وزاد في قصة بلال: وجعلوا في عنقه حبلاً ودفعوه إلى الصبيان يلعبون به حتى أثر الحبل في عنقه.

فانظر كيف فعل ببلال ما فعل من الإكراه على الكفر، وهو يقول أحد أحد، فمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان، وهذا كما وقع له أيضاً عند موته، كانت امرأته تقول: واحزناه وهو يقول: واطرباه. غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه، فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء. ولله در أبي محمد الشقراطسي حيث قال:

| | |
|---|---|
| لاقى بلال بلاء من أمية قد | أحله الصبر فيه أكرم النزل |
| إذ أجهدوه بضنك الأسر وهو على | شدائد الأزل ثبت الأزر لم يزل |
| ألقوه بطحا برمضاء البطاح وقد | عالوا عليه صخور جمة الثقل |
| فوحد الله إخلاصاً وقد ظهرت | بظهره كندوب الطل في الطلل |
| إن قدَّ ظهر ولي الله من دبر | قد قدَّ قلب عدو الله من قبل |

يعني إن كان ظهر ولي الله بلال قد ظهر فيه التعذيب بقده، فقد جوزي عدو الله أمية وقد قلبه ببدر، لأنه قتل يومئذ، وكان عبد الرحمن بن عوف قد أسره يومئذ وأراد استبقاءه لأخوة كانت بينهما في الجاهلية، فرآه بلال معه فصاح بأعلى صوته يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا فنهشوه بأسيافهم حتى قتلوه.

وأخرج البيهقي عن عروة أن أبا بكر أعتق ممن كان يعذب في الله سبعة منهم(٢)، الزنيرة، فذهب بصرها، وكانت ممن تعذب في الله، فتأبى إلا الإسلام، فقال المشركون: ما أصاب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كلا والله ما هو كذلك فرد الله عليها بصرها.

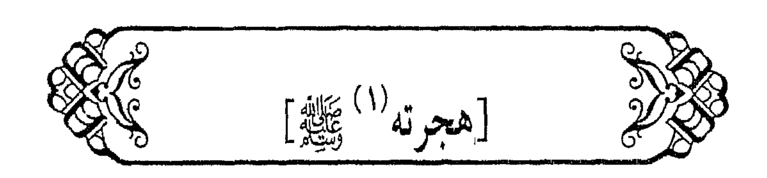
والزنيرة: بكسر الزاي وتشديد النون المكسورة. كسكينة: كذا في القاموس(٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٤٠٤.

(٢) وهم: بلال ـ وعامر بن فهيرة ـ وأم عنيس ـ وزنيرة ـ والنهدية وبنتها ـ والمؤملية.

(٣) راجع القاموس المحيط ٢/ ٤٢ مادة (زنرة).



# [هجرته[1] ﷺ]

ثم أذن رسول الله ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة، وذلك في رجب سنة خمس من النبوة.

فهاجر إليها ناس ذوو عدد، منهم من هاجر بأهله، ومنهم من هاجر بنفسه، وكانوا أحد عشر رجلاً ـ وقيل اثنا عشر رجلاً ـ وأربع نسوة ـ وقيل: وخمس نسوة، وقيل وامرأتين ـ.

وأميرهم عثمان بن مظعون، وأنكر ذلك الزهري وقال: لم يكن لهم أمير. وخرجوا مشاة إلى البحر، فاستأجروا سفينة بنصف دينار.

وكان أول من خرج عثمان بن عفان مع امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأخرج يعقوب بن سفيان بسند موصول إلى أنس قال: أبطأ على رسول الله ﷺ خبرهما، فقدمت امرأة فقالت: قد رأيتهما وقد حمل عثمان امرأته على حمار، فقال: إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط.

فلما رأت قريش استقرارهم في الحبشة وأمنهم أرسلوا عمرو بن العاصي، وعبد الله ابن أبي ربيعة بهدايا وتحف من بلادهم إلى النجاشي ـ واسه أصحمة ـ وكان معهما عمارة ابن الوليد، ليردهم إلى قومهم، فأبى ذلك وردهما خائبين بهديتهما.

وأسلم عمر بن الخطاب بعد حمزة بثلاثة أيام فيما قاله أبو نعيم بدعوته ﷺ: «**اللهم أعز الإسلام بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب**»[2] وكان المسلمون إذ ذاك بضعة وأربعين رجلاً، وإحدى عشرة امرأة.

---

(١) انظر شرح المواهب ١/ ٢٧٠ و ٢٨٧ والبداية والنهاية ٣/ ١٧٣ وزاد المعاد بهامش شرح المواهب ١/ ٨٠ وطبقات ابن سعد ١/ ١٥٩.

(٢) ذكره السيوطي في جمع الجوامع (٩٧٢٣) وفي الدر المنثور ٣/ ٤٣ وكنز العمال (٣٢٧٧١ ـ ٣٥٨٥٢) ومشكاة المصابيح للتبريزي (٦٠٣٦) وشرح السنة للبغوي ١٤/ ٩٢ وبلفظ آخر في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٩٥ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢١٦.

وكان سبب إسلامه ـ فيما ذكره أسامة بن زيد عن أبيه عن جده عن عمر ـ أنه قال: بلغنى إسلام أختي فدخلت عليها، فقلت يا عدوة نفسها، قد بلغني عنك أنك صبوت، ثم ضربتها، فسال الدم فلما رأت الدم بكت وقالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل فقد أسلمت.

قال: فدخلت وأنا مغضب فإذا كتاب في ناحية البيت، فإذا فيه ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي، قال: ثم رجعت إليها فإذا فيها ﴿**سبح لله ما في السموات والأرض**﴾ حتى بلغت ﴿**آمنوا بالله ورسوله**﴾ [الحديد: ١ ـ ٧] فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوا مني، فجئت إلى رسول الله ﷺ في بيت في أسفل الصفا، فدخلت وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من النبي ﷺ فقال: «أرسلوه» فأرسلوني فجلست بين يديه، فأخذ بمجمع ثيابي فجذبني إليه ثم قال: «**أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهد قلبه**» فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة[١].

وكان الرجل إذا أسلم استخفى ثم خرجت إلى رجل لم يكن يكتم السر، فقلت له إني صبوت، قال فرفع صوته بأعلاه: ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، فما زال الناس يضربوني وأضربهم، فقال خالي: ما هذا؟ قالوا: ابن الخطاب، فقام على الحجر وأشار بكمه فقال: ألا إني قد أجرت ابن اختي، فانكشف الناس عني، قال: فما زلت أضرب وأضرب حتى أعز الله الإسلام.

قال ابن عباس: لما أسلم عمر قال جبريل للنبي ﷺ: يا محمد، لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر[٢]. ررواه ابن ماجه.

ولما رأت قريش عزة النبي ﷺ بمن معه، وإسلام عمر، وعزة أصحابه بالحبشة، وفشو الإسلام في القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا النبي ﷺ، فبلغ أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله، فأجابوه حتى كفارهم، فعلوا ذلك حمية على عادة الجاهلية.

فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب: أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوا منهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم،

---

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ١/ ٤١ وكنز العمال (٣٥٧٤٠) وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٦.

(٢) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٧٣٨) والكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٥٢٥.

ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

وكتبوه في صحيفة بخط منصور بن عكرمة ـ وقيل بغيض بن عامر ـ فشلت يده، وعلقوا الصيحفة في جوف الكعبة، هلال المحرم سنة سبع من النبوة.

فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه، إلا أبا لهب فكان مع قريش. فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً، وقال ابن سعد: سنتين حتى جهدوا وكان لا يصل إليهم شيء إلا سراً.

وقدم نفر من مهاجرة الحبشة، حين قرأ ﷺ **﴿والنجم إذا هوى﴾** حتى بلغ **﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾** [النجم: ١ ـ٢٠] ألقى الشيطان في أمنيته[١] أي في تلاوته: تلك الغرانيق[٢] العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فلما ختم السورة «سجد ﷺ وسجد معه المشركون»[٣] لتوهمهم أنه ذكر آلهتهم بخير، وفشا ذلك في الناس، وأظهره الشيطان حتى بلغ أرض الحبشة، ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه. وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا معه ﷺ، وقد أمن المسلمون بمكة، فأقبلوا سراعاً من الحبشة.

والغرانيق في الأصل: الذكور من طير الماء، واحدها: غرنوق وغرنيق، سمي به لبياضه. وقيل: هو الكركي.

والغرنوق أيضاً: الشاب الأبيض الناعم.

وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله، وتشفع لهم، فشبهت بالطيور التي تعلوا في السماء وترتفع.

ولما تبين للمشركين عدم ذلك، رجعوا إلى أشد ما كانوا عليه.

وقد تكلم القاضي عياض ـ رحمه الله ـ في «الشفاء» على هذه القصة وتوهين أصلها بما يشفي ويكفي، لكن تعقب في بعضه كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال الإمام فخر الدين الرازي ـ مما لخصته من تفسيره ـ هذه القصة باطلة

---

(١) قال في فتح الباري: «وما قيل من أن ذلك بسبب إلقاء الشيطان في أثناء قراءة رسول الله ﷺ لا صحة له عقلاً ولا نقلاً» راجع: ٧٩١/٨.

(٢) الغرانيق: جمع غرنيق أو غرنوق. وهو طائر أبيض طويل العنق من طير الماء، ويطلق في العراق على ما يسمى بالأوز العراقي. وهو نوع من الكراكي. انظر الحيوان للجاحظ ٥٣٨/٥، وحياة الحيوان الكبرى ١٨١/٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (٤) رقم الحديث (٤٨٦٢). وهو بلفظ آخر في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٨٨/١.

موضوعة، لا يجوز القول بها. قال الله تعالى: ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى**﴾ [النجم: ٣ و ٤] وقال الله تعالى: ﴿**سنقرئك فلا تنسى**﴾ [الأعلى: ٦].

وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعونون.

وأيضاً: فقد روى البخاري في صحيحه أنه ﷺ قرأ سورة النجم وسجد، وسجد المسلمون والمشركون والإنس والجن، وليس فيه حديث الغرانيق. بل روي هذا الحديث من طرق كثيرة، وليس فيها ألبته حديث الغرانيق.

ولا شك أن من جوز على الرسول تعظيم الأوثان فقد كفر، لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان، ولو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه، وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك. ويبطل قوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**﴾ [المائدة: ٦٧] فإنه لا فرق في الفعل بين النقصان في الوحي وبين الزيادة فيه.

فبهذه الوجوه، عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة. وقد قيل: إن هذه القصة من وضع الزنادقة لا أصل لها. انتهى.

وليس كذلك. بل لها أصل.

فقد خرجها: ابن أبي حاتم، والطبري، وابن المنذر[1]، من طرق عن شعبة، عن ابن بشر، عن سعيد بن جبير.

وكذا ابن مردوية، والبزار، وابن إسحاق في السيرة، وموسى بن عقبه في المغازي، وأبو معشر[2] في السيرة.

كما نبه عليه الحافظ عماد الدين بن كثير وغيره، لكن قال: إن طرقها كلها مرسلة وأنه لم يرها مسندة من وجه صحيح. وهذا متعقب بما سيأتي:

وكذا نبه على ثبوت أصلها شيخ الإسلام الحافظ أبو الفضل العسقلاني فقال: أخرج ابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ، بمكة والنجم، فلما بلغ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى،

(١) هو محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري أبو بكر (٢٤٢ ـ ٣١٩ هـ) فقيه من الحفاظ توفي بمكة. الأعلام ٥/ ٢٩٤. طبقات الشافعية ٢/ ١٢٦. وفيات الأعيان ١/ ٤٦١ شذرات الذهب ٢/ ٢٨٠. تذكرة الحفاظ ٣/ ٧٨٢ رقم الترجمة (٨٧٥).

(٢) هو نجيح بن عبد الرحمن السندي أبو معشر. فقيه. له معرفة بالتاريخ توفي ببغداد سنة (١٧٠ هـ). الأعلام ٨/ ١٤. تذكرة الحفاظ ١/ ٢٣٤ رقم الترجمة (٢٢١)، هدية العارفين ٢/ ٤٨٩.

القى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا، فنزلت هذه الآية **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾** [الحج: ٥٢] الآية.

وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبه فقال: في إسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، فيما أحسب، ثم ساق الحديث. وقال البزار: لا يروي متصلاً إلا بهذا الإسناد. وتفرد بوصلة أمية بن خالد وهو ثقة مشهور.

قال؛ وإنما يروى هذا من طريق الكلبي[1] عن أبي صالح عن ابن عباس. انتهى، والكلبي متروك لا يعتمد عليه.

وكذا أخرجه النحاس بسند آخر فيه الواقدي.

وذكرها ابن إسحاق في السيرة مطولاً، وأسندها عن محمد بن كعب، وكذلك عن موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب الزهري.

وكذا أبو معشر في السيرة له عن محمد بن كعب[2] القرظي ومحمد بن قيس وأورده من طريق الطبري.

وأورده ابن أبي حاتم من طريق أسباط عن السدى.

ورواه ابن مردوية من طريق عباد بن صهيب عن يحي بن كثير[3] عن الكلبي عن أبي صالح، وعن أبي بكر الهذلي، وأيوب عن عكرمة، وعن سليمان التيمي عمن حدثه، ثلاثتهم عن ابن عباس.

وأوردها الطبري أيضاً من طريق العوفي[4] عن ابن عباس. ومعناهم كلهم في ذلك واحد.

---

(١) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي، أبو النضر مفسر راوية له معرفة في النسب وأخبار العرب وأيامها. توفي بالكوفة سنة (١٤٦ هـ). الأعلام ٦/ ١٣٣ وفيات الأعيان ١/ ٤٩٣.

(٢) هو محمد بن كعب القرظي (٤٠ ـ ١٢٠ هـ) توفي بالكوفة انظر الكاشف ٣/ ٨١ رقم الترجمة (٥٢١٤).

(٣) هو يحيى بن صالح الطائي بالولاء اليمامي أبو نصر بن أبي كثير. أخذ عن أعيان التابعين من أهل الحديث. توفي سنة (١٢٩ هـ). الأعلام ٨/ ١٥٠ تذكرة الحفاظ ١/ ١٢٨ رقم الترجمة (١١٥) طبقات ابن سعد ٦/ ٧٩ رقم الترجمة (١٧٩٠).

(٤) هو عطية بن سعد بن جنادة العوفي الجدلي القيسي الكوفي أبو الحسن. من رجال الحديث. كان يعد من شيعة أهل الكوفة. توفي بالكوفة سنة (١١١ هـ). الأعلام ٤/ ٢٣٧ والكاشف ٢/ ٢٣٥ رقم الترجمة (٣٨٧٦).

وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع. لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً.

مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيح.

أحدهما: ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب: حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فذكر نحوه.

والثاني: ما أخرجه إيضاً من طريق المعتمر بن سليمان،[1] وحماد ابن سلمة[2] كلاهما عن داود بن أبي هند، عن أبي العالية.

قال الحافظ ابن حجر: وقد تجرأ ابن العربي[3] ـ كعادته ـ فقال: ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة لا أصل لها. وهو إطلاق مردود عليه.[4]

وكذا قول القاضي عياض:

«هذا الحديث لم يخرجه أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته وانقطاع إسناده».

وكذا قوله: «ومن حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم في ذلك ضعيفة واهية».

قال: «وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره، إلا طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير، مع الشك الذي وقع في وصله وأما الكلبي فلا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه».

---

(١) هو معتمر بن سليمان بن طرخان التيمي الدار أبو محمد (١٠٦ ـ ١٨٧ هـ) حافظ. الأعلام ٧/ ٢٦٥ تذكرة الحفاظ ١/ ٢٦٦ رقم الترجمة (٣٥١) العبر ١/ ٢٩٨ طبقات ابن سعد ٧/ ٢١٣. رقم الترجمة (٣٣١٩).

(٢) هو حماد بن سلمة بن دينار البصري الربعي بالولاء أبو سلمة أحد رجال الحديث نحوي. مفتي البصرة. توفي سنة (١٦٧ هـ). الأعلام ٢/ ٣٧٢ حلية الأولياء ٦/ ٢٤٩ رقم الترجمة (٣٧٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٢ رقم الترجمة (١٩٧) شذرات الذهب ١/ ٢٦٢ العبر ١/ ٢٤٩.

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي أبو بكر ابن العربي. (٤٦٨ ـ ٥٤٣ هـ) حافظ قاض، مات بقرب فاس. الأعلام ٦/ ٢٣٠ وفيات الأعيان ١/ ٤٨٩ نفح الطيب ١/ ٣٤٠ قضاة الاندلس ١٠٥ الديباج المذهب (٢٨١) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٩٤ رقم الترجمة (١٠٨١) مرآة الجنان ٣/ ٢٨٩.

(٤) انظر شرح المواهب للزرقاني وفيه: لكثرة الطرق مع المراسيل الصحيحة ١/ ٢٨٤.

«ثم رده من طريق النظر: بأن ذلك لو وقع لارتد كثير ممن أسلم. قال: ولم ينقل ذلك». انتهى.

وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد:

فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلاً.

وقد ذكرنا أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض.

وإذا تقرر ذلك: تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر، وهو قوله: **ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى.**

فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره، لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس فيه، وكذا سهواً إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته.

وقد سلك العلماء في ذلك مسالك:

فقيل: جرى ذلك على لسانه حين أصابته سنة، وهو لا يشعر، فلما علم بذلك أحكم الله آياته، وهذا أخرجه الطبري عن قتادة.

ورده القاضي: عياض: بأنه لا يصح، لكونه لا يجوز على النبي ﷺ ذلك، ولا ولاية للشيطان عليه في النوم.

وقيل: إن الشيطان ألجأه إلى أن قال ذلك بغير اختياره. ورده ابن العربي بقوله تعالى، حكاية عن الشيطان: **﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾** [إبراهيم: ٢٢] الآية، قال: فلو كان للشيطان قوة على ذلك لما بقي لأحد قوة على طاعة.

وقيل: إن المشركين كانوا إذا ذكروا آلهتهم وصفوها بذلك، فعلق بحفظه ﷺ فجرى ذلك على لسانه لما ذكرهم سهواً.

وقد رد ذلك القاضي عياض فأجاد.

وقيل: لعله قال ذلك توبيخاً للكفار.

قال القاضي عياض: وهذا جائز إذا كانت هناك قرينة تدل على المراد، ولا سيما وقد كان الكلام في ذلك الوقت جائزاً في الصلاة.

وإلى هذا نحا الباقلاني[١].

---

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر الباقلاني (٣٣٨ ـ ٤٠٣ هـ). قاض متكلم. توفي=

وقيل: إنه لما وصل إلى قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ [النجم: ٢٠] خشي المشركون أن يأتي بعدها بشيء يذم آلهتهم به فبادروا إلى ذلك الكلام، فخلطوه في تلاوة النبي ﷺ على عادتهم في قولهم: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) ونسب ذلك إلى الشيطان لكونه الحامل لهم على ذلك. أو المراد بالشيطان شيطان الإنس.

وقيل المراد بالغرانيق العلى، الملائكة، وكان الكفار يقولون: الملائكة بنات الله، ويعبدونها، فنسق ذكر الكل ليرد عليهم بقوله: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ [النجم: ٢١] فلما سمعه المشركون حملوه على الجميع، وقالوا: إنه عظم آلهتنا ورضوا بذلك، فنسخ الله تينك الكلمتين وأحكم آياته.

وقيل: كان النبي ﷺ يرتل القرآن، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكياً نغمة النبي ﷺ بحيث سمعه من دنا إليه فظنها من قوله، وأشاعها.

قال: وهذا أحسن الوجوه، ويؤيده ما ورد عن ابن عباس في تفسير «تمنى» بـ«تلا».

وكذا استحسن ابن العربي هذا التأويل وقال: معنى قوله: في أمنيته، أي في تلاوته، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أن سنة الله في رسله، إذا قالوا قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه، فهذا نص في أن الشيطان زاد في قول النبي ﷺ، لا أن النبي ﷺ قاله.

وقد سبق إلى ذلك الطبري، مع جلالة قدره وسعة علمه وشدة ساعده في النظر، فصوب هذا المعنى. انتهى.

ثم هاجر المسلمون الثانية إلى أرض الحبشة[1]. وعدتهم ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان عمار بن ياسر فيهم، وثماني عشرة امرأة.

وكان معهم عبيد الله بن جحش مع امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فتنصر هناك ثم توفي على دين النصرانية. وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان سنة سبع من الهجرة إلى المدينة، وهي بالحبشة كما سيأتي إن شاء الله تعالى في المقصد الثاني عند ذكر أزواجه ﷺ.

وخرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه مهاجراً إلى الحبشة حتى بلغ برك الغماد[2]

---

= ببغداد. الأعلام ٦/ ١٧٦ وفيات الأعيان ١/ ٤٨١ قضاة الأندلس ٣٧ تاريخ بغداد ٥/ ٣٧٩ الديباج المذهب ٢٦٧.

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ١٦١ والبداية والنهاية ٣/ ٦٤ وزاد المعاد بهامش شرح المواهب ١/ ٨٠.

(٢) برك الغماد: موضع وراء مكة وقيل بلد من اليمن. انظر معجم البلدان ١/ ٣٩٩. والروض المعطار في خبر الأقطار (٨٦).

ورجع في جوار سيد القارة، مالك بن الدغنة ـ بفتح الدال المهملة وكسر الغين المعجمة، وتخفيف النون. وبضم الدال والغين وتشديد النون ـ يعبد ربه في داره، وابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، ويعجبون منه. وكان أبو بكر رجلاً بكّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن.

فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فقالوا لابن الدغنة: إنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربّه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك.

فقال أبو بكر لابن الدغنة: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله[1]. الحديث رواه البخاري.

ثم قام رجال في نقض الصحيفة، فأطلع الله نبيه ﷺ على أن الأرضة أكلت جميع ما فيها من القطيعة والظلم، فلم تدع إلا اسم الله تعالى فقط، فلما أنزلت لتمزق وجدت كما قال ﷺ: وذلك في السنة العاشرة.

ولما أتت عليه ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً، مات عمه أبو طالب، وله سبع وثمانون سنة.

وقيل في النصف من شوال من السنة العاشرة.

وقال ابن الجزار[2]: قبل هجرته عليه الصلاة والسلام بثلاث سنين.

وروي أنه ﷺ كان يقول له عند موته: يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة.

فلما رأى أبو طالب حرص رسول الله ﷺ قال له: والله يا ابن أخي، لولا مخافة قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها. فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه، فأصغى إليه بأذنه فقال: يا ابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته بها فقال ﷺ: لم أسمعه. كذا رواية ابن إسحاق أنه أسلم عند الموت.

ورواه البيهقي في الدلائل من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدثنا العباس

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الكفالة باب (٤) رقم الحديث (٢٢٩٧).

(٢) هو أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد أبو جعفر القيرواني ابن الجزار. طبيب مؤرخ. توفي سنة (٣٦٩ هـ). الأعلام ١/ ٨٥. كشف الظنون (٩٤٦). معجم الأدباء ١/ ٢٥١ رقم الترجمة (٤٩).

عن عبد الله بن معبد بن عباس عن بعض أهله عن ابن عباس[1] فذكره، وقال البيهقي: إنه منقطع.

وأجيب عنه: بأن شهادة العباس لأبي طالب لو أداها بعد ما أسلم كانت مقبولة ولم ترد بقوله ﷺ لم أسمع، لأن الشاهد العدل إذا قال سمعت وقال من هو أعدل منه: لم أسمع أخذ بقول من أثبت السماع. ولكن العباس شهد بذلك قبل أن يسلم.

مع أن الصحيح من الحديث قد أثبت لأبي طالب الوفاة على الكفر والشرك، كما روينا في صحيح البخاري من حديث سعيد بن المسيب. حتى قال أبو طالب أخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله تعالى: **﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾** [التوبة: ١١٣] وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: **﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾**[2] [القصص: ٥٦].

وأجيب أيضاً بأن أبا طالب لو قال كلمة التوحيد، ما نهى الله تعالى نبيه ﷺ عن الاستغفار له.

وفي الصحيح عن العباس أنه قال لرسول الله ﷺ: إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟ قال: نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح[3].

وفي رواية الصحيح أيضاً أنه ﷺ قال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبية يغلي منه دماغه[4].

وفي رواية يونس عن ابن إسحاق زيادة فقال: يغلي منه دماغه حتى يسيل على قدميه.

قال السهيلي: من باب النظر في حكمة الله، ومشاكلة الجزاء للعمل؛ أن أبا طالب كان مع رسول الله ﷺ بجملته متحزباً له، إلا أنه كان متثبتاً بقدميه على ملة عبد المطلب، حتى قال عند الموت: أنا على ملة عبد المطلب، فسلط العذاب على قدميه خاصة لتثبيته

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٤٦.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/٣٩٣ تفسير سورة التوبة آية (١١٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب (٤٠) رقم الحديث (٣٨٨٣). وأخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث (٢٠٩).

(٤) أخرجه البخاري فيكتاب مناقب الأنصار باب(٤٠) رقم الحديث(٣٨٨٥).ومسلمرقم الحديث(٢١٠).

إياهما على ملة آبائه. ثبتنا الله على الصراط المستقيم.

وفي شرح التنقيح للقرافي:[1] الكفار أربعة أقسام، فذكر منها من آمن بظاهره وباطنه وكفر بعدم الإذعان للفروع، كما حكي عن أبي طالب أنه كان يقول: إني لأعلم أن ما يقوله ابن أخي لحق، ولولا أني أخاف أن تعيرني نساء قريش لا تبعته. وفي شعره يقول:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... يقينا ولا يعزى لقول الأباطل

فإن هذا تصريح باللسان واعتقاد بالجنان غير أنه لم يذعن. انتهى.

وحكي عن هشام بن السائب الكلبي، أو أبيه أنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جمع إليه وجوه قريش، فأوصاهم فقال:

يامعشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه. إلى أن قال: وإني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الوبر والأطراف، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصغت له فؤادها، وأعطته قيادها، يا معشر قريش، كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي. ثم هلك.

ثم بعد ذلك بثلاثة أيام ـ وقيل: بخمسة ـ في رمضان، بعد البعث بعشر سنين، على الصحيح، ماتت خديجة رضي الله عنها.

وكان ﷺ يسمي ذلك العام عام الحزن، فيما ذكر صاعد وكانت مدة إقامتها معه ﷺ خمساً وعشرين سنة على الصحيح. ثم بعد أيام من موت خديجة تزوج عليه السلام سودة بنت زمعة.

ثم خرج عليه السلام إلى الطائف بعد موت خديجة بثلاثة أشهر، في ليال بقين من

---

(١) هو أحمد بن إدريس بن عبد الرحمٰن أبو العباس شهاب الدين الصنهاجي القرافي. من علماء المالكية توفي في مصر سنة (٦٨٤ هـ). الأعلام ١/ ٩٥ الديباج المذهب ٦٢ شجرة النور ١٨٨ معجم المطبوعات ١٥٠١ حسن المحاضرة ١/ ١١٢.

شوال، سنة عشر من النبوة. لما ناله من قريش بعد موت أبي طالب. وكان معه زيد بن حارثة.

فأقام به شهراً، يدعو ثقيف إلى الله تعالى فلم يجيبوه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه.

قال موسى بن عقبة: ورجموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء، زاد غيره: وكان إذا أزلقته الحجارة قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون، وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شج في رأسه شجاجاً.

وفي البخاري ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبي ﷺ، هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد، قال: **«لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل [عليه السلام]، فناداني»**. فقال: إن الله قد سمع قول قومك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[1] قال ﷺ: **«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»**[2].

وعبد ياليل - بالتحتانية وبعدها ألف ثم لام مكسورة ثم تحتانية ساكنة ثم لام - ابن عبد كلال - بضم الكاف وتخفيف اللام آخره لام - وكان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطائف من ثقيف.

وقرن الثعالب: هو ميقات أهل نجد، ويقال له: قرن المنازل.

وأفاد ابن سعد: أن مدة أقامته ﷺ بالطائف كانت عشرة أيام.

ولما انصرف ﷺ عن أهل الطائف، مر في طريقه بعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما في حائط لهما، فلما رأيا ما لقي تحركت له رحمهما، فبعثا له مع عداس النصراني - غلامهما - قطف عنب، فلما وضع ﷺ يده في القطف قال: بسم الله، ثم أكل، فنظر عداس إلى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ: من

(١) الأخشبين: تثنية الأخشب. جبلا مكة. يقال، أحدهما أبو قبيس والآخر قيعقان. انظر معجم ما استعجم ١/ ١٢٣. معجم البلدان ١/ ١٢٢. الروض المعطار في خبر الأقطار (١٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب (٧) رقم الحديث (٣٢٣١). ومسلم رقم الحديث (١٧٩٥).

أي البلاد أنت. وما دينك؟ قال نصراني من نينوى. فقال ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال: وما يدريك؟ قال: ذاك أخي، وهو نبي مثلي. فأكب عداس على يديه ورأسه ورجليه يقبلها وأسلم.

ولما نزل نخلة[1] ـ وهو موضع على ليلة من مكة ـ صرف الله إليه سبعة من جن نصيبين ـ مدينة بالشام ـ وكان ﷺ قد قام في جوف الليل يصلي فاستمعوا له وهو يقرأ سورة الجن.

وفي الصحيح أن الذي آذنه ﷺ بالجن ليلة الجن شجرة، وأنهم سألوه الزاد فقال كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في يد أحدكم أوفر ما كان لحماً، وكل بعر علف لدوابكم[2].

وفي هذا رد على من زعم أن الجن لا تأكل ولا تشرب.

وذكر صاحب الروض من أسماء السبعة الذين أتوه ﷺ، عن ابن دريد: منشي وناشي وشاصر وماضر والأحقب. لم يزد تسمية على هؤلاء.

قال الحافظ ابن كثير: وقد ذكر ابن إسحاق خروجه عليه السلام إلى أهل الطائف ودعاءه إياهم، وأنه لما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن، فاستمعه الجن من أهل نصيبين.

قال: وهذا صحيح، لكن قوله إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر، فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء، ويدل له حديث ابن عباس عند أحمد قال: كان الجن يستمعون الوحي فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشراً، فيكون ما سمعوه حقاً وما زادوه باطلاً، وكانت النجوم لا يرمي بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب منه، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبعث جنوده فإذا النبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة فأخبروه فقال: **«هذا الحدث الذي حدث في الأرض»**[3].

ورواه النسائي وصححه الترمذي.

قال: وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه.

---

(١) انظر معجم البلدان ٥/ ٢٧٧. مادة (نخلة الشامية).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث (٤٥٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٧٤ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٥٠٣ والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ١٩٤. وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ١٦٢ (الأحقاف آية ٢٩) وتفسير البغوي ٤/ ١٥٥.

وروى ابن أبي شيبة عن عبدالله بن مسعود قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن**﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فهذا مع رواية ابن عباس تقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً، قوماً وفوجاً بعد فوج. انتهى.

وفي طريقه ـ عليه السلام ـ هذه، دعا بالدعاء المشهور:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين، إلى من تكلني إلى عدو بعيد يتجهمني أم إلى صديق قريب ملكته أمري، إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي غضبك، أو يحل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[(١)].

أورده ابن إسحاق، ورواه الطبراني في كتاب الدعاء عن عبدالله بن جعفر قال: لما توفي أبو طالب، خرج النبي ﷺ ماشياً إلى الطائف، فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال: اللهم إليك أشكو. فذكره.

وقوله: يتجهمني ـ بتقديم الجيم على الهاء ـ أي يلقاني بالغلظة والوجه الكريه.

ثم دخل ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي.

ولما كان في شهر ربيع الأول أسري[(٢)] بروحه وجسده يقظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به من المسجد الأقصى إلى فوق سبع سماوات، ورأى ربه بعيني رأسه[(٣)]، وأوحى الله إليه ما أوحى، وفرض عليه الصلوات الخمس، ثم انصرف في ليلته إلى مكة.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ١٦٣ [الأحقاف: ٢٩٠].

(٢) انظر شرح المواهب ١/ ٣٠٦. وطبقات ابن سعد ١/ ١٦٦ والبداية والنهاية ٣/ ١٠٧.

(٣) وهو قول: أنس والحسن وعكرمة. وروى الطبراني في المعجم الأوسط بإسناد قوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «رأى محمد ربه مرتين» وروى ابن خزيمة بإسناد قوي: رأى محمد ربه، والمراد أنه راه بقلبه بدليل حديث مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأىٰ**﴾ [النجم: ١١] ﴿**ولقد آره نزلة أخرى**﴾ [النجم: ١٣]. قال: رأى ربه بفؤاده مرتين: وأخرج أيضاً من طريق عطاء عن ابن عباس قال: «رآه بقلبه» فيحمل المطلق على المقيد فتحمل رواية ـ رأى=

فأخبـر بذلك، فصدقه الصديق، وكل من آمن بالله.

وكذبه الكفار واستوصفوه مسجد بيت المقدس، فمثله الله له، فجعل ينظر إليه ويصفه.[1]

قال الزهري: وكان ذلك بعد المبعث بخمس سنين. حكاه عنه القاضي عياض، ورجحه القرطبي والنووي. واحتج: بأنه لا خلاف أن خديجة صلت معه بعد فرض الصلاة، ولا خلاف أنها توفيت قبل الهجرة إما بثلاث أو بخمس، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء.

وتعقب: بأن موت خديجة بعد البعث بعشر سنين على الصحيح في رمضان، وذلك قبل أن تفرض الصلاة. ويؤيده إطلاق حديث عائشة أن خديجة ماتت قبل أن تفرض الصلوات الخمس. ويلزم منه أن يكون موتها قبل الإسراء وهو المعتمد، وأما

---

= محمد ربه ـ على رواية رأى ربه بفؤاده مرتين. ولا سيما وقد روى ابن مردويه عنه أنه قال لم يره رسول الله ﷺ بعينه إنما رآه بقلبه. قال الحافظ وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة. [أخرجه الشيخان بـ ٣٢٣٤ ـ ٤٨٥٥ ـ م ٢٨٧ ـ ٢٨٩. والترمذي ٣٢٧٨]. بأن يحمل على نفيها على رؤية البصر وإثباته على رؤية القلب [فتح الباري ٨/ ٨٨٢ وما بعدها].

فإن قيل: فكيف يوفق بين الرؤية بالفؤاد وبين ما رواه مسلم عن عائشة أنها قالت في قوله تعالى: ﴿ولقد رآه نـزلة أخرى﴾ [النجم: ١٣] أنا أول من سأل رسول الله ﷺ عن هذا، فقال: «إنما هو جبريل» قلنا الإشكال ظاهر، فنصير إلى ترجيح. ما روته عائشة عن النبي ﷺ. في تفسير: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ [النجم: ١٣] على ما جاء عن ابن عباس من تفسير الآية برؤيته ﷺ لربه مرتين. لأن المرفوع يقدم على الموقوف وبالنسبة لغير هذه الحيثية، فالجمع المذكور صحيح. وبذلك يجمع بين ما ذكر وبين ما روى مسلم عن أبي ذر: قلت هل رأيت ربك يا رسول الله؟. قال: نور أنى أراه. [كتاب الإيمان (٢٩١) والترمذي (٣٢٨٢)] وما رواه أحمد من حديثه أيضاً: رأيت نوراً. . بدليل ما رواه ابن خزيمة عنه أنه قال: «رآه بقلبه ولم يره بعينه ومعنا قوله ﷺ : «نور أنىٰ آراه» [على أن الحافظ العراقي نقل عن أحمد أنه أنكر هذا الحديث وعليه فيكون حديث مسلم نور أنىٰ آراه. من جملة ما انتقد على مسلم] حال دون رؤيتي له ببصري نور منعني وهو نور من الأنوار المخلوقة وليس في قوله عليه السلام «نور أنىٰ آراه» وقوله: «رأيت نوراً». منافاة لإثبات الرؤية بالفؤاد وإنما يفيد نفي الرؤية البصرية وليس معنى الرؤية بالفؤاد، العلم بل معناها نظر إلى ربه بقوة جعلها الله من قلبه كقوة العين.

ومجمل القول: إنه لم يثبت أن النبي ﷺ قال رأيته بعيني ولا أن أحداً من الصحابة أو التابعين أو أتباعهم أنه قال رآه بعيني رأسه.

(١) انظر السيرة لابن هشام ٢/ ٣٦. وفتح الباري ٨/ ٤٩٥. وتفسير ابن كثير ٣/ ٢. وانظر أيضاً تفسير البغوي ٣/ ٧٦.

التردد في سنة وفاتها فيرده جزم عائشة بأنها ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين قاله الحافظ ابن حجر.

وقيل: قبل الهجرة بسنة. قاله ابن حزم، وادعى فيه الإجماع.

وقيل: قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر، قاله السدي وأخرجه من طريقه الطبري والبيهقي، فعلى هذا كان في شوال.

وقيل: كان في رجب. حكاه ابن عبد البر، وقَبْله ابن قتيبة، وبه جزم النووي في الروضة.

وقيل: كان قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر، فعلى هذا يكون في ذي الحجة، وبه جزم ابن فارس.[1]

وقيل: قبل الهجرة بثلاث سنين، ذكره ابن الأثير.

وقال الحربي[2]: إنه كان في سابع عشري ربيع الآخر، وكذا قال النووي في فتاويه، لكن قال في شرح مسلم: في ربيع الأول.

وقيل: كان ليلة السابع والعشرين من رجب، واختاره الحافظ عبد الغني بن سرور المقدسي[3].

وأما اليوم الذي يسفر عن ليلتها، فقيل الجمعة، وقيل السبت وعن ابن دحية: يكون إن شاء الله يوم الإثنين، ليوافق المولد والمبعث والهجرة والوفاة، فإن هذه أطوار الإنتقالات: وجوداً ونبوة ومعراجاً وهجرة ووفاة.

وسيأتي إن شاء الله تعالى في قصة الإسراء والمعراج وما فيهما من المباحث والله الموفق والمعين.

ولما أراد الله تعالى إظهار دينه وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له، خرج ﷺ في

---

(١) هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين (٣٢٩ ـ ٣٩٥ هـ). لغوي أديب. توفي بالري. الأعلام ١/ ١٩٣ وفيات الأعيان ١/ ٣٥ يتيمة الدهر ٣/ ٤٦٣ رقم الترجمة (٣٤).

(٢) هو إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله البغدادي الحربي أبو إسحاق (١٩٨ ـ ٢٨٥ هـ) محدث توفي ببغداد. الأعلام ١/ ٣٢ تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٨٤ رقم الترجمة (٦٠٩) معجم الأدباء ١/ ٧٠ رقم الترجمة (٦) تاريخ بغداد ٦/ ٢٧ العبر ٢/ ٧٤ فوات الوفيات ١/ ١٤ رقم الترجمة (٢).

(٣) هو عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي الدمشقي الحنبلي أبو محمد تقي الدين (٥٤١ ـ ٦٠٠ هـ). حافظ عالم بالرجال توفي بمصر. الأعلام ٤/ ٣٤ تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٧٢ رقم الترجمة (١١١٢) شذرات الذهب ٤/ ٣٤٥. مرآة الجنان ٣/ ٤٩٩.

الموسم الذي لقي فيه الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ.

فعرض نفسه ﷺ على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم[1]، فبينما هو عند العقبة، لقي رهطاً من الخزرج، أراد الله بهم خيراً، فقال لهم: «**من أنتم**» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «**أفلا تجلسون أكلمكم**» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان من صنع الله، أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب، وكان الأوس والخزرج أكثر منهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبياً سيبعث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه. فلما كلمهم النبي ﷺ عرفوا النعت، فقال بعضهم لبعض: لا تسبقنا اليهود إليه.

فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، وصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، فأسلم منهم ستة نفر وكلهم من الخزرج وهم:

أبو أمامة، أسعد بن زرارة.

وعوف بن الحارث بن رفاعة، وهو ابن عفراء.

ورافع بن مالك بن العجلان.

وقطبة بن عامر بن حديدة.

وعقبة بن عامر بن نابي.

وجابر بن عبد الله بن رئاب، وليس بجابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام.

ومن أهل العلم بالسير، من يجعل فيهم عبادة بن الصامت ويسقط جابر بن رئاب.

فقال لهم النبي ﷺ: «**تمنعون ظهري حتى أبلغ رسالة ربي**».

فقالوا: يا رسول الله، إنما كانت بعاث عام الأول، يوم من أيامنا، اقتتلنا به، فإن تقدم ونحن كذلك لا يكون لنا عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا، لعل الله أن يصلح ذات بيننا، وندعوهم إلى ما دعوتنا، فعسى الله أن يجمعهم عليك، فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك، وموعدك الموسم العام القابل.

وانصرفوا إلى المدينة. ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ.

فلما كان العام المقبل لقية اثنا عشر رجلاً ـ وفي الإكليل: أحد عشر ـ وهي العقبة الثانية، فيهم خمسة من الستة المذكورين، وهم: أبو أمامة. وعوف بن عفراء، ورافع بن مالك وقطبة بن عامر ابن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، ولم يكن فيهم جابر بن عبد

(١) انظر السيرة لابن هشام ٢/ ٦٣.

(٢) انظر فتح الباري ٧/ ٢٧٩ (٣٨٨٩).

الله ابن رئاب لم يحضرها. والسبعة تتمة الأثني عشر هم:

معاذ بن الحارث بن رفاعة، وهو ابن عفراء أخو عوف المذكور.

وذكوان بن عبد قيس الزرقي، وقيل إنه رحل إلى رسول الله ﷺ إلى مكة فسكنها معه، فهو مهاجري أنصاري قتل يوم أحد.

وعبادة بن الصامت بن قيس.
وأبو عبد الرحمن، يزيد بن ثعلبة البلوي.
والعباس بن عبادة بن نضلة.
وهؤلاء من الخزرج، ومن الأوس رجلان:
أبو الهيثم بن التيهان، من بني عبد الأشهل.
وعويم بن ساعدة.

فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء، أي وفق بيعتهم التي نَزلت بعد ذلك عند فتح مكة وهي: أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، والسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأثره علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق حيث كنا لا نخاف في الله لومة لائم. قال ﷺ **«فإن وفيتم فلكم الجنة، ومن غشي من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه»**[1] ولم يفرض يومئذ القتال.

ثم انصرفوا إلى المدينة فأظهر الله الإسلام.

وكان أسعد بن زرارة يجمع بالمدينة بمن أسلم.

وكتبت الأوس والخزرج إلى النبي ﷺ: إبعث إلينا من يقرئنا القرآن، فبعث إليهم مصعب بن عمير.

وروى الدارقطني عن ابن عباس أن النبي ﷺ كتب إلى مصعب ابن عمير أن يجمع بهم.. الحديث، وكانوا أربعين رجلاً.

فأسلم على يد مصعب بن عمير خلق كثير من الأنصار، وأسلم في جماعتهم سعد ابن معاذ وأسيد بن حضير، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد، الرجال والنساء، ولم يبق منهم أحد إلا أسلم، حاشا الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر بإسلامه إلى يوم أحد، فأسلم واستشهد ولم يسجد لله سجدة واحدة،

---

(١) أخرج البخاري نحوه في كتاب مناقب الأنصار باب (٤٣) رقم الحديث (٣٨٩٢).

وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة. ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة، بل كانوا كلهم حنفاء مخلصين رضي الله عنهم.

ثم قدم على النبي ﷺ في العقبة الثالثة في العام المقبل في ذي الحجة، أوسط أيام التشريق منهم سبعون رجلاً ـ وقال ابن سعد: يزيدون رجلاً أو رجلين ـ وامرأتان.

وقال ابن إسحاق: ثلاث وسبعون وامرأتان.

وقال الحاكم: خمسة وسبعون نفساً.

فكان أول من ضرب على يده الشريفة عليه السلام البراء بن معرور. ويقال: أبو الهيثم، ويقال أسعد بن زرارة، على أنهم يمنعونه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وعلى حرب الأحمر والأسود.

وكانت أول آية نزلت في الإذن بالقتال ﴿**أذن للذين يقاتلون**﴾ [الحج: ٣٩] الآية وفي الإكليل ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين**﴾ [التوبة: ١١١] الآية.

ونقب عليهم اثني عشر نقيباً.

وفي حديث جابر عند أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان: مكث ﷺ عشر سنين يتتبع الناس في منازلهم في المواسم بمنى وغيرها، يقول: من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟ حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فذكر الحديث. وفيه: وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم بيثرب، فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة[1] الحديث.

وحضر العباس العقبة تلك الليلة متوثقاً لرسول الله ﷺ، ومؤكداً على أهل يثرب، وكان يومئذ على دين قومه.

قال ابن إسحاق: ولما تمت بيعة هؤلاء لرسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكانت سراً عن كفار قريش، أمر رسول الله ﷺ من كان معه بالهجرة إلى المدينة[2]. فخرجوا أرسالاً، وأقام بمكة ينتظر أن يؤذن له في الخروج، فكان أول من هاجر من مكة إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد، قبل بيعة العقبة بسنة، قدم من الحبشة لمكة، فآذاه أهلها، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار فخرج إليهم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٣٢٢ وفي مجمع الزوائد ٦/ ٤٦.

(٢) انظر البداية والنهاية ٣/ ١٦٦ و ١٧٥، طبقات ابن سعد ١/ ١٧٤. وزاد المعاد بشرح المواهب ١/ ٨٠.

ثم عامر بن ربيعة وامرأته ليلى، ثم عبد الله بن جحش. ثم المسلمون أرسالاً، ثم عمر بن الخطاب وأخوه زيد وعياش بن أبي ربيعة في عشرين راكباً، فقدموا المدينة فنزلوا في العوالي.

ثم خرج عثمان بن عفان، حتى لم يبقَ معه ﷺ إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر. كذا قاله ابن إسحاق، قال مغلطاي وفيه نظر لما يأتي بعده.

وكان الصديق كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول: لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكون هو.

ثم اجتمع قريش ومعهم إبليس، في صورة شيخ نجدي في دار الندوة، دار قصي بن كلاب، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، يتشاورون فيما يصنعون في أمره عليه الصلاة والسلام، فاجتمع رأيهم على قتله وتفرقوا على ذلك.

فإن قيل: لم تمثل الشيطان في صورة نجدي؟

فالجواب: لأنهم قالوا ـ كما ذكره بعض أهل السير ـ لا يدخلن معكم في المشاروة أحد من أهل تهامة، لأن هواهم مع محمد، فلذلك تمثل في صورة نجدي. انتهى.

ثم أتى جبريل النبي ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، فلما كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه، فأمر ﷺ عليا فنام مكانه، وغطى ببرد أخضر، فكان أول من شرى نفسه في الله ووقى بها رسول الله وفي ذلك يقول علي:

| | |
|---|---|
| وقيت بنفسي خير من وطىء الثرى | ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر |
| رسول إله خاف أن يمكروا به | فنجاه ذو الطول الإله من المكر |

ثم خرج ﷺ، وقد أخذ الله على أبصارهم، فلم يره أحد منهم، ونثر على رؤوسهم كلهم تراباً كان في يده، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿**يس**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**فأغشيناهم فهم لا يبصرون**﴾ [يسٓ: ١ ـ٩]. ثم انصرف عليه السلام حيث أراد.

فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمداً، قال: قد خيبكم الله، قد والله خرج محمد عليكم، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل يده على رأسه، فإذا عليه تراب.

وفي رواية أبي حاتم، مما صححه الحاكم من حديث ابن عباس: فما أصاب رجلاً منهم حصاة إلا قتل يوم بدر كافراً.

وفي هذه نزل قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية.

ثم أذن الله تعالى لنبيه ﷺ في الهجرة. قال ابن عباس: بقوله تعالى: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ [الإسراء: ٨٠] أخرجه الترمذي وصححه الحاكم.

فإن قلت ما الحكمة في هجرته ﷺ إلى المدينة وإقامته بها إلى أن انتقل إلى ربه عز وجل؟

أجيب: بأن حكمة الله تعالى قد اقتضت أنه عليه السلام تتشرف به الأشياء، لا أنه يتشرف بها، فلو بقي عليه السلام في مكة إلى انتقاله إلى ربه لكان يتوهم أنه قد تشرف بمكة، إذ أن شرفها قد سبق بالخليل وإسماعيل، فأراد الله تعالى أن يظهر شرفه عليه السلام فأمره بالهجرة إلى المدينة، فلما هاجر إليها تشرفت به، حتى وقع الإجماع على أن أفضل البقاع الموضع الذي ضم أعضاءه الكريمة صلوات الله وسلامه عليه.

وذكر الحاكم أن خروجه عليه السلام كان بعد بيعة العقبة بثلاثة أشهر أو قريباً منها.

وجزم ابن إسحاق: بأنه خرج أول يوم من ربيع الأول. فعلى هذا يكون بعد البيعة بشهرين وبضعة عشر يوماً، وكذا جزم الأموي ـ في المغازي ـ عن ابن إسحاق فقال: كان مخرجه من مكة بعد العقبة بشهرين وليال. قال: وخرج لهلال ربيع الأول وقدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول.

قال في فتح الباري: وعلى هذا خرج يوم الخميس. وقال الحاكم: تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الإثنين، ودخوله المدينة كان يوم الإثنين، إلا أن محمد بن موسى الخوارزمي[١] قال: إنه خرج من مكة يوم الخميس. ويجمع بينهما: بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس وخروجه من الغار كان ليلة الإثنين، لأنه أقام فيه ثلاث ليال: ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، وخرج أثناء ليلة الإثنين.

وكانت مدة مقامه بمكة من حين النبوة إلى ذلك الوقت بضع عشرة سنة، ويدل عليه قول صرمة[٢]:

---

(١) هو محمد بن موسى الخوارزمي أبو عبد الله. رياضي فلكي مؤرخ توفي سنة (٢٣٢ هـ). الأعلام ١١٦/٧. كشف الظنون ٥٧٩ هدية العارفين ٩/٢.

(٢) هو صرمة بن أنس ويقال ابن قيس توفي نحو (٥ هـ) صحابي شاعر. الأعلام ٢٠٣/٣ الإصابة ٢٤١/٣ رقم الترجمة (٤٠٥٦).

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا

وقيل غير ذلك.

وأمره جبريل أن يستصحب أبا بكر.

وأخبر عليه السلام علياً بمخرجه وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس.

قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة: فبينما نحن جلوس يوماً في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها. قال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل، فقال ﷺ لأبي بكر: «**أخرج من عندك**»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي وأمي يا رسول الله.

قال السهيلي: وذلك أن عائشة قد كان أبوها أنكحها منه ﷺ قبل ذلك.

فقال ﷺ: «**إنه قد أذن لي في الخروج**»[1].

فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

قال ﷺ: «**نعم**».

فقال أبو بكر: فخذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين.

قال رسول الله ﷺ: بل بالثمن.

فإن قلت: لم لم يقبلها إلا بالثمن، وقد أنفق عليه أبو بكر من ماله ما هو أكثر من هذا فقبل؟

أجيب: بأنه إنما فعل ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه السلام في استكمال فضل الهجرة إلى الله، وأن يكون على أتم الأحوال. انتهى.

قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، وصنعنا لهما سفرة من جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت بها على فم الجراب فبذلك سميت بذات النطاقين.

قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار ثور ـ جبل بأسفل مكة ـ.

وكان من قوله ﷺ حين خرج من مكة، لما وقف على الحزورة، ونظر إلى البيت

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ١٧٦.

فقال: **«والله إنك لأحب أرض الله إلي، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»**[١].

وهذا من أصح ما يحتج به في تفضيل مكة على المدينة.

ولم يعلم بخروجه عليه السلام إلا علي وآل أبي بكر.

وروي أنهما خرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ليلاً إلى الغار.

ولما فقدت قريش رسول الله ﷺ طلبوه بمكة، أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة أثره في كل وجه، فوجد الذي ذهب قبل ثور أثره هنالك، فلم يزل يتبعه حتى انقطع لما انتهى إلى ثور.

وشق على قريش خروجه وجزعوا لذلك، وجعلوا مائة ناقة لمن رده.

ولله در الشيخ شرف الدين الأبوصيري[٢] حيث قال:

ويح قوم جفوا نبيا بأرض ... ألفته ضبابها والظباء

وسلوه وحن جذع إليه ... وقلوه ووده الغرباء

أخرجوه منها وآواه غار ... وحمته حمامة ورقاء

وكفته بنسجها عنكبوت ... ما كفته الحمامة الحصداء

يقال شجرة حصداء: أي كثيرة الورق، فكأنه استعاره للحمامة لكثرة ريشها.

وفي حديث مروي في الهجرة، أنه عليه السلام ناداه ثبير: اهبط عني، فإني أخاف أن تقتل على ظهري فأعذب، فناداه حراء: إلي يا رسول الله.

وذكر قاسم بن ثابت في الدلائل أن رسول الله ﷺ لما دخل الغار وأبو بكر معه، أنبت الله على بابه الراءة. قال قاسم: وهي شجرة معروفة، وهي أم غيلان. وعن أبي حنيفة[٣]: تكون مثل قامة الإنسان لها خيطان وزهر أبيض تحشى به المخاد فيكون

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب باب (٦٨) رقم الحديث (٣٩٢٥). وابن ماجه في المناسك باب (١٠٣) رقم الحديث (٣١٠٨). وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل باختلاف يسير في المسند ٤/ ٣٠٥.

(٢) هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري شرف الدين أبو عبد الله (٦٠٨ ـ ٦٩٦ هـ). شاعر توفي في الإسكندرية. الأعلام ٦/ ١٣٩. فوات الوفيات ٣/ ٣٦٢ رقم الترجمة (٤٥٦). شذرات الذهب ٥/ ٤٣٢.

(٣) هو أحمد بن داود بن ونند الدينوري أبو حنيفة. مهندس مؤرخ نباتي. توفي سنة (٢٨٢ هـ). الأعلام ١/ ١٢٣. معجم الأدباء ١/ ٣٥٢ رقم الترجمة (٨٠). أنباه الرواة ١/ ٤١ بغية الوعاة ١٣٢ وخزانة الأدب ١/ ٢٥.

كالريش لخفته ولينه، لأنه كالقطن، فحجبت عن الغار أعين الكفار.

وفي مسند البزار: أن الله عز وجل أمر العنكبوت[1] فنسجت على وجه الغار وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار، وأن ذلك مما صد المشركين عنه، وأن حمام الحرم من نسل تينك الحمامتين.

ثم أقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وهراويهم وسيوفهم، فجعل بعضهم ينظر في الغار، فلم ير إلا حمامتين وحشيتين بفم الغار، فرجع إلى أصحابه فقالوا له: مالك؟ قال: رأيت حمامتين وحشيتين فعرفت أنه ليس فيه أحد. وقال آخر: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: ما أربكم إلى الغار، إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد.

وقد روي أن الحمامتين باضتا في أسفل النقب ونسج العنكبوت، فقالوا: لو دخلا لتكسر البيض وتفسخ نسج العنكبوت. وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود.

فتأمل كيف أظلت الشجرة المطلوب وأضلت الطالب، وجاءت العنكبوت فسدت باب الطلب، وحاكت وجه المكان فحاكت ثوب نسجها، فحاكت ستراً حتى عمي على القائف الطلب ولله در القائل:

والعنكبوت أجادت حوك حلتها ... فما تخال خلال النسج من خلل

ولقد حصل للعنكبوت الشرف بذلك، وما أحسن قول ابن النقيب:[2]

ودود القز إن نسجت حريراً ... يجمل لبسه في كل شي

فإن العنكبوت أجل منها ... بما نسجت على رأس النبي

وروي أنه ﷺ قال: «**اللهم أعم أبصارهم**»[3]، فعميت عن دخوله، وجعلوا يضربون يميناً وشمالاً حول الغار. وهذا يشير إليه قول صاحب البردة:

أقسمت بالقمر المنشق إن له ... من قلبه نسبة مبرورة القسم

وما حوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عم

فالصدق في الغار والصديق لم يرما ... وهم يقولون ما بالغار من أرِم

---

(١) ورد ذكر العنكبوت عن ابن عباس في مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/٣٤٨ وانظر طبقات ابن سعد ١/١٧٧.

(٢) هو الحسن بن شاور بن طرخان بن الحسن ابن النقيب الكناني، ناصر الدين المعروف بالنفيسي. شاعر. الأعلام ٢/١٩٢. فوات الوفيات ١/٣٢٤ رقم الترجمة (١١٥) شذرات الذهب ٥/٤٠٠. حسن المحاضرة ١/٥٦٩ وفيه أسمه «محمد بن الحسن بن شاور».

(٣) ذكره ابن حجر في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص٧٦.

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

أي عموا عما في الغار مع خلق الله ذلك فيهم، لأنهم ظنوا أن الحمام لا يحوم حوله ﷺ وأن العنكبوت لا تنسج عليه لما جرت العادة أن هذين الحيوانين متوحشان لا يألفان معموراً، فمهما أحسا بالإنسان فرا منه، وما علموا أن الله تعالى يسخر ما شاء من خلقه لمن شاء من عباده، وأن وقاية عبده بما شاء تغني عبده عن التحصن بمضاعفة من الدروع، وعن التحصن بالعالي من الأطم، وهي الحصون، فللّه در الأبو صيري شاعراً، وما أحسن قوله في قصيدته اللامية حيث قال:

واغيرتا حين أضحى الغار وهو به كمثل قلبي معمور ومأهول
كأنما المصطفى فيه وصاحبه الـ ـصديق ليثان قد آواهما غيل
وجلل الغار نسج العنكبوت على وهن فياحبذا نسج وتجليل
عناية ضل كيد المشركين بها وما مكائدهم إلا الأضاليل
إذ ينظرون وهم لا يبصرونهما كأن أبصارهم من زيغها حول

وفي الصحيح عن أنس قال أبو بكر: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا، فقال له رسول الله ﷺ: **«ما ظنك باثنين الله ثالثهما»**[1].

وروي أن أبا بكر قال: نظرت إلى قدمي رسول الله ﷺ في الغار وقد تفطرتا دماً فاستبكيت وعلمت أنه ﷺ لم يكن تعود الحفا والجفوة.

وروي أيضاً أن أبا بكر دخل الغار قبل رسول الله ﷺ ليقيه بنفسه، وأنه رأى جحراً فيه، فألقمه عقبه لئلا يخرج منه ما يؤذي رسول الله ﷺ فجعلت الحيات والأفاعي تضربنه وتلسعنه، فجعلت دموعه تتحدر. وفي رواية: فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجر أبي بكر فنام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: ما لك يا أبا بكر؟ فقال لدغت فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله ﷺ فذهب ما يجده. رواه رزين[2].

وروي أيضاً: أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال إن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب (٤٥) رقم الحديث (٣٩٢٢) ومسلم رقم الحديث (٢٣٨١).

(٢) هو رزين بن معاوية بن عمار العبدري السرقسطي الأندلسي أبو الحسن. عالم بالحديث. توفي في مكة سنة (٥٣٥ هـ). الأعلام ٣/ ٢٠ شذرات الذهب ٤/ ١٠٦.

قتلت أنا فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة، فعندها قال له رسول الله ﷺ: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠] يعني بالمعونة والنصر، فأنزل الله سكينته ـ وهي أمنة تسكن عندها القلوب ـ على أبي بكر لأنه كان منزعجاً، وأيده ـ يعني النبي ﷺ ـ بجنود لم تروها من الملائكة ليحرسوه في الغار، أو ليصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته(١).

انظر، لما رأى الرسول حزن الصديق قد اشتد لكن لا على نفسه، قوي قلبه ببشارة ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠] وكانت تحفة «ثاني اثنين» مدخرة له دون الجميع، فهو الثاني في الإسلام والثاني في بذل النفس والعمر وسبب الموت لما وقى الرسول ﷺ بماله ونفسه وجوزي بمواراته معه في رمسه، وقام مؤذن التشريف ينادي على منائر الأمصار «ثاني اثنين إذ هما في الغار» ولقد أحسن حسان حيث قال:

وثـانـي اثنيـن فـي الغـار المنيـف وقـد ... طـاف العـدو بـه إذ صـاعـد الجبـلا
وكـان حـب رسـول الله قـد علمـوا ... مـن الخـلائـق لـم يعـدل لـه بـدلا

وتأمل قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾ [الشعراء: ٦٢] وقول نبينا ﷺ للصديق: ﴿إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠] فموسى خص بشهود المعية ولم يتعد منه إلى أتباعه، ونبينا تعدى منه إلى الصديق، ولم يقل «معي» لأنه أمد أبا بكر بنوره فشهد سر المعية، ومن ثم سرى سر السكينة على أبي بكر، وإلا لم يثبت تحت أعباء هذا التجلي والشهود، وأين معية الربوبية في قصة موسى عليه السلام من معية الإلهية في قصة نبينا ﷺ. قاله العارف شمس الدين بن اللبان(٢).

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عطاء بن ميسرة، قال: نسجت العنكبوت مرتين، مرة على داود حين كان طالوت يطلبه، ومرة على النبي ﷺ في الغار(٣).

وكذا نسجت على الغار الذي دخله عبد الله بن أنيس لما بعثه ﷺ لقتل خالد بن

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي رقم الحديث (٣٦٥٢ ـ ٣٦٥٣ ـ ٣٩٢٢ ـ ٤٦٦٣). وصحيح مسلم رقم الحديث (٢٣١٠) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/٢ ودلائل النبوة للبيهقي ٤٧٨/٢ ومجمع الزوائد للهيثمي ٥٢/٦. وشرح السنة للبغوي ٣٦٩/١٣. والدر المنثور للسيوطي ٢٣٩/٣.

(٢) هو محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الإسعردي الدمشقي شمس الدين ابن اللبان (٦٧٩ ـ ٧٤٩ هـ). مفسر. من علماء العربية. أديب توفي في مصر. الأعلام ٢٢٧/٥. الدرر الكامنة ٣/ ٣٣٠ رقم الترجمة (٨٨٧). طبقات الشافعية ٢١٣/٥. مرآة الجنان ٣٣٣/٤ ذيل تذكرة الحفاظ ١٢١/٥.

(٣) انظر حلية الأولياء ١٩٧/٥.

نبيح الهذلي بعرنة، فقتله ثم حمل رأسه ودخل في غار فنسجت عليه العنكبوت، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً فانصرفوا راجعين.

وفي تاريخ ابن عساكر: أن العنكبوت نسجت أيضاً على عورة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لما صلب عرياناً في سنة إحدى وعشرين ومائة.

وكان مكثه ﷺ وأبو بكر في الغار ثلاث ليال، وقيل بضعة عشر يوماً. والأول هو المشهور.

وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقف ـ أي ثابت المعرفة بما يحتاج إليه لقن ـ فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت معهم، فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك اليوم حين يختلط الظلام.

ويرعى عليهما عامر بن فهيرة ـ مولى أبي بكر ـ منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل، وهو لبن منحتهما، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر، عبد الله بن الأريقط دليلاً ـ وهو على دين كفار قريش، ولم يعرف له إسلام ـ فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال.

فأتاهما براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم على طريق السواحل، فمروا بقديد على أم معبد ـ عاتكة بنت خالد الخزاعية ـ وكانت برزة جلدة، تحتبي بفناء القبة، ثم تسقي وتطعم.

وكان القوم مرملين مسنتين، فطلبوا لبناً ولحماً يشترونه منها، فلم يجدوا عندها شيئاً، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، خلفها الجهد عن الغنم، فسألها رسول الله ﷺ «**هل بها من لبن**» فقالت: لهي أجهد من ذلك، فقال: «**أتأذنين لي أن أحلبها**» فقالت: نعم بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح ضرعها، وسمى الله، فتفاجت ودرت، ودعا بإناء يربض الرهط ـ أي يشبع الجماعة حتى يربضوا ـ فحلب فيه ثجا وسقى القوم حتى رووا، ثم شرب آخرهم، ثم حلب فيه مرة أخرى علا بعد نهل، ثم غادره عندها وذهبوا.

فقل ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد ـ قال السهيلي: لا يعرف اسمه، وقال العسكري: أكثم بن أبي الجون، ويقال: ابن الجون ـ يسوق أعنزاً عجافاً، يتساوكن هزالاً، مخهن قليل.

فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال: ما هذا يا أم معبد؟ أنى لك هذا والشاء

عازب حيال، ولا حلوب في البيت؟ فقالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا. فقال: صفيه يا أم معبد.

فقالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة. مليح الوجه حسن الخلق، لم تعبه ثجلة ولم تزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أحور أكحل، أزج أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند.

فقال: هذا والله صاحب قريش، لو رأيته لاتبعته[1].

قالت أسماء بنت أبي بكر: ولما خفي علينا أمر رسول الله ﷺ، أتانا نفر من قريش منهم أبو جهل بن هشام، فخرجت إليهم، فقال: أين أبوك؟ فقلت: والله لا أدري أين أبي، قالت: فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدي لطمة خرج منها قرطي، قالت: ثم انصرفوا.

ولما لم ندر أين توجه رسول الله ﷺ، أتى رجل من الجن يسمعون صوته ولا يرونه، وهو ينشد هذه الأبيات:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر ثم ترحلا ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصي ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجارى وسؤدد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... له بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهناً لديها لحالب ... يرددها في مصدر ثم مورد[2]

فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه ﷺ.

وقوله: مرملين: أي نفدت أزوادهم. ومسنتين: أي مجدبين، ويروى: مشتين:

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ١٧٨.
(٢) المصدر السابق ١/ ١٧٩.

دخلوا الشتاء. وكسر الخيمة: ـ بكسر الكاف وفتحها، وسكون السين ـ جانبها. وتفاجت: بتشديد الجيم ـ فتحت ما بين رجليها. ويربض الرهط: ـ بضم المثناة التحتية، وكسر الموحدة ـ أي يرويهم ويثقلهم حتى يناموا ويمتدوا على الأرض. من أربض في المكان يربض: إذا لصق به وأقام. والثج: السيلان. وفي رواية: فحلب ثجا حتى علاه الثمال ـ بضم المثلثة ـ الرغوة واحدة: ثمالة. والبهاء أي بهاء اللبن: وهو وبيص رغوته. وتساوكن هزالاً: أي تمايلن، ويروى: تشاركن من المشاركة، أي تساوين في الهزال. وغادره: ـ بالغين المعجمة ـ أبقاه والشاء عازب، أي بعيدة المرعى. والأبلج: ـ بالجيم ـ المشرق الوجه المضيئة. والحيال: ـ بكسر الحاء المهملة ـ جمع حائل، وهي التي ليس بها حمل. والوضاءة: الحسن. والثجلة: ـ بفتح الثاء المثلثة، وسكون الجيم ـ عظم البطن، ويروى بالنون والحاء: أي نحول ودقة. والصعلة: ـ بفتح الصاد ـ صغر الرأس، وهي أيضاً الدقة والنحول في البدن. والوسيم: الحسن، وكذلك: القسيم. وفي عينيه دعج: أي سواد. والوطف: قال في القاموس: محركة، كثرة شعر الحاجبين والعينين. وفي صوته صحل: ـ بالتحريك ـ وهو كالبحة ـ بضم الموحدة ـ أن لا يكون حاد الصوت. وأحور: قال في القاموس: الحور ـ بالتحريك ـ أن يشتد بياض بياض العين، وسواد سوادها. والكحل: ـ بفتحتين ـ سواد في أجفان العين خلقه، والرجل: أكحل وكحيل. والأزج: الدقيق طرف الحاجبين وفي القاموس: والزجج ـ محركة ـ دقة الحاجبين في طول. والأقرن: المقرون الحاجبين. وفي عنقه سطع: ـ بفتحتين ـ أي ارتفاع وطول. وفي لحيته كثاثة: الكثاثة في اللحية أن تكون غير دقيقة ولا طويلة، وفيها كثاثة، يقال: رجل كث اللحية ـ بالفتح ـ وقوم كث ـ بالضم ـ. وإذا تكلم سما وعلاه البهاء: أي ارتفع وعلا على جلسائه. وفصل ـ بالصاد المهملة ـ ولا نزر ـ بسكون المعجمة ـ ولا هذر ـ بفتحها ـ: أي بين ظاهر، يفصل بين الحق والباطل. ولا تشنؤه من طول: كذا جاء في رواية، أي لا يبغض لفرط طوله، ويروى: ولا يشنى من طول: أبدل من الهمزة ياء، يقال: شنيته أشنؤه، شنأ وشنآناً، قاله ابن الأثير. ولا تقتحمه عين من قصر: أي لا تتجاوزه إلى غيره احتقاراً، وكل شيء ازدريته فقد اقتحمته. ومحفود: أي مخدوم. والمحشود: الذي عنده حشد وهم الجماعة. ولا عابس: من عبوس الوجه. والمفند: الذي يكثر اللوم وهو التفنيد. والضرة: لحمة الضرع. وغادرها: أي خلف الشاة عندها مرتهنة بأن تدر، انتهى.

وأخرج ابن سعد وأبو نعيم من طريق الواقدي: حدثني حزام ابن هشام عن أبيه عن أم معبد قالت: بقيت الشاة التي لمس عليه السلام ضرعها عندنا حتى كان زمان الرمادة، زمان عمر بن الخطاب، وكنا نحلبها صبوحاً وغبوقاً وما في الأرض قليل ولا كثير.

ثم تعرض لهما بقديد سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي[1]، فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله أتينا، قال: «كلا» ودعا رسول الله ﷺ بدعوات، فساخت قوائم فرسه، وطلب الأمان، فقال: أعلم أن قد دعوتما علي، فادعوا لي ولكما أن أرد الناس عنكما ولا أضركما. قال: فوقفا لي، فركبت فرسي حتى جئتهما، قال: ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فأخبرتهما أخبار ما يريد بهما الناس، وعرضت عليهما الزاد والمتاع فلم يرزآني[2].

واجتاز ﷺ في وجهه ذلك بعبد يرعى غنماً، فكان من شأنه ما رويناه من طريق البيهقي بسنده عن قيس بن النعمان قال: لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفيين، مرا بعبد يرعى غنماً، فاستسقياه اللبن فقال: ما عندي شاة تحلب، غير أن ها هنا عناقاً حملت عام أول، فما بقي بها لبن، فقال: ادع بها، فاعتقلها ﷺ ومسح ضرعها، ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فحلب فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت، فوالله ما رأيت مثلك. فقال: أو تراك تكتم علي حتى أخبرك؟ قال نعم، قال: فإني رسول الله، فقال أنت الذي تزعم قريش أنك صابىء؟ قال: إنهم ليقولون ذلك، قال: فأشهد أنك نبي، وأن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال: إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فائتنا.

قال الحافظ مغلطاي ـ بعد ذكره لقصة أم معبد ـ: وفي الإكليل قصة أخرى شبيهة بقصة أم معبد. قال الحاكم: فلا أدري أهي هي، أم غيرها.

ولما سمع المسلمون بالمدينة خروج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي نفسه فنادى بأعلى صوته يا بني قيلة هذا جدكم ـ أي حظكم ومطلوبكم ـ قد أقبل، فخرج إليه بنو

---

(١) هو سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني، أبو سفيان. صحابي. توفي في سنة (٢٤ هـ). الأعلام ٣/ ٨٠. الإصابة ٣/ ٦٩. رقم الترجمة (٣١٠٩). وسياق قصة سراقة بشرح المواهب ١/ ٣٤٦.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب مناقب الأنصار. باب (٤٥) رقم الحديث (٣٩٠٦). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ١٧٦.

قيلة ـ وهم الأوس والخزرج ـ سراعاً بسلاحهم فتلقوه، فنزل بقباء على بني عمرو بن عوف. . الحديث رواه البخاري[1].

وفيه: أن أبا بكر قام للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.

وظاهر هذا أنه عليه السلام كانت الشمس تصيبه، وما تقدم من تظليل الغمام والملك له كان قبل بعثته، كما هو صريح في موضعه.

قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: وكان قدومه عليه السلام لهلال ربيع الأول، أي أول يوم منه.

وفي رواية جرير بن حازم[2] عن ابن إسحاق: قدمها لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، ونحوه عند أبي معشر، لكن قال: ليلة الإثنين.

وعن ابن سعد: قدمها لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول.

وفي «شرف المصطفى» من طريق أبي بكر بن حزم: قدم لثلاث عشرة من ربيع الأول.

وهذا يجمع بينه وبين الذي قبله بالحمل على الإختلاف في رؤيه الهلال.

وقيل: كان حين اشتد الضحاء يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة منه وبه جزم النووي في كتاب السير من الروضة.

وقال ابن الكلبي: خرج من الغار يوم الإثنين أول يوم من ربيع الأول ودخل المدينة يوم الجمعة لثنتي عشرة منه، وقيل لليلتين منه.

وعند البيهقي: لثنتين وعشرين ليلة.

وقال ابن حزم: خرجا من مكة وقد بقي من صفر ثلاث ليال.

وأقام علي بمكة بعد مخرج النبي ﷺ ثلاثة أيام، ثم أدركه بقباء يوم الإثنين سابع ـ وقيل: ثامن ـ عشر ربيع، وكانت مدة مقامه مع النبي ﷺ ليلة أو ليلتين.
وأمر ﷺ بالتاريخ فكتب من حين الهجرة.

---

(١) أخرجه البخاري رقم الحديث (٣٩٠٦).

(٢) هو جرير بن حازم بن زيد بن عبد الله الأزدي البصري. أبو النضر توفي سنة (١٧٠ هـ). الكاشف ١/ ١٢٦ رقم الترجمة (٧٧٧). تذكرة الحفاظ ١/ ١٩٩ رقم الترجمة (١٩١). العبر ١/ ٢٥٨.

وقيل: إن عمر أول من أرخ وجعله من المحرم(١).

وأقام ﷺ بقباء (٢) في بني عمرو بن عوف اثنتين وعشرين ليلة.

وفي صحيح مسلم: أقام فيهم أربع عشرة ليلة(٣).

ويقال: إنه أقام يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس.

وأسس مسجد قباء الذي أسس على التقوى(٤)، على الصحيح، وهو أول مسجد بني في الإسلام وأول مسجد صلى فيه ﷺ بأصحابه جماعة ظاهراً، وأول مسجد بني لجماعة المسلمين عامة، وإن كان تقدم بناء غيره من المساجد لكن لخصوص الذي بناه.

ثم خرج ﷺ من قباء يوم الجمعة حين ارتفع النهار، فأدركته الجمعة في بني سالم ابن عوف فصلاها بمن كان معه من المسلمين، وهم مائة، في بطن وادي رانوناء - براء مهملة ونونين ممدوداً، كعاشوراء وتاسوعاء - واسم المسجد «الغبيب» - بضم الغين المعجمة، تصغير غب ، كما ضبطه صاحب المغانم المطابة، والوادي: ذي صلب - ولذا سمي مسجد الجمعة، وهو مسجد صغير مبني بحجارة قدر نصف القامة، وهو على يمين السالك إلى مسجد قباء.

وركب ﷺ على راحلته بعد الجمعة متوجهاً إلى المدينة.

وروى أنس بن مالك أنه ﷺ أقبل إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف، والنبي ﷺ شاب لا يعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك، قال: فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير(٥)، الحديث رواه البخاري.

وقد روى ابن سعد أنه ﷺ قال لأبي بكر: أله عني الناس، فكان إذا سئل من أنت قال: باغي حاجة، فإذا قيل: من هذا معك؟ قال: هذا يهديني السبيل.

وفي حديث الطبراني، من رواية أسماء: فكان أبو بكر رجلاً معروفاً في الناس، فإذا لقيه لاق يقول لأبي بكر: من هذا معك؟ فيقول: هذا يهديني [السبيل] يريد الهداية في الدين، ويحسبه الآخر دليلاً.

---

(١) انظر المنتظم ٤/٢٢٦ حوادث سنة (١٧ هـ).

(٢) قباء: بالضم: وأصله اسم بئر في طريق مكة على ميلين من المدينة. انظر معجم البلدان ٤/٣٠١ ومعجم ما استعجم (١٠٤٤) والروض المعطار (١٤٥٢) وانظر طبقات ابن سعد ١/١٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب (٤٨) رقم الحديث (٤٢٨).

(٤) وعنه قوله تعالى: ﴿لمَسجدٌ أسس على التقوى من أول يوم أحق أنْ تقوم فيه﴾ [التوبة: ١٠٨]. وقد جاء في فضائل مسجد قباء أحاديث كثيرة. انظر فتح الباري ٣/٨٨ - (١١٩١).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب (٤٥) رقم الحدبث (٣٩١١).

وإنما كان أبو بكر معروفاً لأهل المدينة لأنه كان يمر عليهم في سفره للتجارة، وكان ﷺ لم يشب، وكان ﷺ أسن من أبي بكر. وفي حديث أنس: لم يكن في الذين هاجروا أشمط غير أبي بكر[1].

وكان ﷺ كلما مرّ على دار من دور الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم: يا رسول الله، هلم إلى القوة والمنعة، فيقول: «**خلوا سبيلها**» - يعني ناقته - «**فإنها مأمورة**»[2]. وقد أرخى زمامها، وما يحركها، وهي تنظر يميناً وشمالاً، حتى إذا أتت دار مالك ابن النجار، بركت على باب المسجد، وهو يومئذ مربد لسهل وسهيل ابني رافع بن عمرو، وهما يتيمان في حجر معاذ بن عفراء - ويقال أسعد بن زرارة وهو المرجح - ثم ثارت، وهو ﷺ عليها حتى بركت على باب أبي أيوب الأنصاري، ثم ثارت منه وبركت في مبركها الأول، وألقت جرانها بالأرض - يعني باطن عنقها أو مقدمه من المذبح - وأزرمت - يعني صوتت من غير أن تفتح فاها - ونزل عنها ﷺ وقال: «**هذا المنزل إن شاء الله**».

واحتمل أبو أيوب رحله وأدخله في بيته، ومعه زيد بن حارثة، وكانت دار بني النجار أوسط دور الأنصار وأفضلها، وهم أخوال عبد المطلب، جده عليه السلام.

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري، عند أبي يوسف يعقوب[3] في كتاب الذكر والدعاء له قال: نزل علي رسول الله ﷺ حين قدم المدينة فكنت في العلو، فلما خلوت إلى أم أيوب قلت لها: رسول الله ﷺ أحق بالعلو منا، تنزل عليه الملائكة وينزل عليه الوحي، فما بت تلك الليلة لا أنا ولا أم أيوب، فلما أصبحت، قلت: يا رسول الله، ما بت الليلة أنا ولا أم أيوب، قال: «**لم يا أبا أيوب**» قلت: كنت أحق بالعلو منا تنزل عليك الملائكة وينزل عليك الوحي، لا والذي بعثك بالحق لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبداً[4]. الحديث. ورواه الحاكم أيضاً.

وقد ذكر أن هذا البيت الذي لأبي أيوب، بناه له عليه السلام تبع الأول لما مر بالمدينة وترك فيها أربعمائة عالم، وكتب كتاباً للنبي ﷺ ودفعه إلى كبيرهم، وسأله أن

---

(١) المصدر السابق (٣٩١١).

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/١٨٣ والبداية والنهاية ٣/١٩٦.

(٣) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي أبو يوسف (١١٣ - ١٨٢ هـ) فقيه حنفي حافظ، توفي ببغداد. الأعلام ٨/١٩٣ مفتاح السعادة ٢/١٠٠ أخبار القضاة ٣/٢٥٤ تاريخ بغداد ١٤/٢٤٢ شذرات الذهب ١/٢٩٨ وفيات الأعيان ٢/٣٠٣ مرآة الجنان ١/٣٨٢.

(٤) انظر المستدرك للحاكم ٣/٤٦٠.

يدفعه للنبي ﷺ، فتداول الدار الملاك إلى أن صارت لأبي أيوب، وهو من ولد ذلك العالم. قال: وأهل المدينة الذين نصروه ﷺ من ولد أولئك العلماء. فعلى هذا: إنما نزل في منزل نفسه، لا في منزل غيره. كذا حكاه في تحقيق النصرة.

وفرح أهل المدينة بقدومه ﷺ، وأشرقت المدينة بحلوله فيها، وسرى السرور إلى القلوب. قال أنس بن مالك: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير عند قدومه يقلن:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيّاتِ الوَدَاعْ
وَجَبَ الشُكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا لِلّهِ دَاع

قلت: إنشاد هذا الشعر عند قدومه ﷺ المدينة رواه البيهقي في الدلائل[1]، وأبو الحسن بن المقري[2] في كتاب الشمائل له عن ابن عائشة، وذكره الطبري في الرياض عن أبي الفضل بن الجمحي قال: سمعت ابن عائشة يقول ـ أراه عن أبيه ـ فذكره. وقال خرجه الحلواني على شرط الشيخين. انتهى.

وسميت ثنية الوداع لأنه ﷺ ودعه بها بعض المقيمين بالمدينة في بعض أسفاره.

وقيل: لأنه عليه السلام شيع إليها بعض سراياه، فودعه عندها.

وقيل: لأن المسافر من المدينة كان يشيع إليها ويودع عندها قديماً.

وصحح القاضي عياضْ هذا الأخير، واستدل عليه بقول نساء الأنصار حين مقدمه ﷺ:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيّاتِ الوداعْ

فدل على أنه اسم قديم.

وقال ابن بطال: إنما سميت ثنية الوداع لأنهم كانوا يشيعون الحاج والغزاة إليها، ويودعونهم عندها، وإليها كانوا يخرجون عند التلقي. انتهى.

قال شيخ الإسلام الولي العراقي: وهذا كله مردود، ففي صحيح البخاري وسنن أبي داود والترمذي عن السائب بن يزيد قال: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك خرج الناس يتلقونه من ثنية الوداع[3]. قال: وهذا صريح في أنها من جهة الشام، ولهذا لما نقل

---

(١) انظر فتح الباري ٧/ ٣٣٣ (٣٩٢٥).

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن علي بن عاصم بن زاذان الخازن الأصبهاني أبو بكر ابن المقري. (٢٨٥ ـ ٣٨١ هـ) حافظ. الأعلام ٥/ ٢٩٥ تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٧٣ رقم الترجمة (٩١٣) شذرات الذهب ٣/ ١٠١ العبر٣/ ١٨.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب (١٦٤) رقم الحديث ٢٧٧٩ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٢٦٥.

والدي رحمه الله في شرح الترمذي كلام ابن بطال قال: إنه وهم، قال: وكلام ابن عائشة معضل لا تقوم به حجة. انتهى.

وسبقه إلى ذلك ابن القيم في الهدي النبوي فقال: هذا وهم من بعض الرواة، لأن ثنية الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادم من مكة ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام، وإنما وقع ذلك عند قدومه من تبوك. انتهى.

لكن قال ابن العراقي أيضاً: ويحتمل أن تكون الثنية التي من كل جهة يصل إليها المشيعون يسمونها ثنية الوداع. انتهى.

وفي «شرف المصطفى» وأخرجه البيهقي عن أنس: لما بركت الناقة على باب أبي أيوب خرج جوار من بني النجار بالدفوف يقلن:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فقال ﷺ: «أتحببنني»، قلن: نعم يا رسول الله. وفي رواية الطبراني في الصغير فقال ﷺ: «الله يعلم قلبي يحبكم»[1].

وقال الطبري: وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون جاء محمد، جاء رسول الله.

ووعك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرىء مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

اللهم العن شيبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء

ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا، وصححها لنا وانقل حماها إلى الجحفة**»[2].

---

(١) ذكره الطبراني في المعجم الصغير ١/ ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب (٤٣) رقم الحديث (٦٣٧٢) ومسلم في الحج رقم الحديث (٤٨٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/٥٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٣٢ وفي موطأ مالك كتاب الجامع باب (٤) رقم الحديث (١٤) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/٥٦٦ وفي كنز العمال. (٣٤٨٨١ ـ ٣٨١٥٩) وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٤٧٩.

قالت ـ يعني عائشة ـ: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، فكان بطحان يجري نجلا. تعني: ماء آجنا[1].

وقال عمر: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك. رواه البخاري[2].

وقوله: يرفع عقيرته: أي صوته، لأن العقيرة الساق، كأن الذي قطعت رجله رفعها وصاح، ثم قيل لكل من صاح ذلك، حكاه الجوهري. وشامة وطفيل: عينان بقرب مكة، والمراد بالوادي وادي مكة.

وجليل: نبت ضعيف.

وأقام ﷺ عند أبي أيوب سبعة أشهر. وقيل: إلى صفر من السنة الثانية وقال الدولابي: شهراً.

وكان يصلي حيث أدركته الصلاة، ولما أراد ﷺ بناء المسجد الشريف[3]، قال: «**يا بني النجار ثامنوني بحائطكم**» قالوا: لا نطلب ثمنه إلا إلى الله[4]، فأبى ذلك ﷺ وابتاعها بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر رضي الله عنه، وكان قد خرج من مكة بماله كله.

قال أنس: وكان في موضع المسجد نخل وخرب ومقابر مشركين، فأمر بالقبور فنبشت وبالخرب فسويت وبالنخل فقطعت، ثم أمر باتخاذ اللبن فاتخذ، وبني المسجد وسقف بالجريد، وجعلت عمده خشب النخل، وعمل فيه المسلمون، وكان عمار بن ياسر ينقل لبنتين لبنتين، لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام: «**للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك من الدنيا شربة لبن، وتقتلك الفئة الباغية**»[5].

وروينا أنه ﷺ كان ينقل معهم اللبن ويقول وهو ينقل [اللبن]:

هـذا الحمـال لا حمـال خيبـر ... هـذا أبـر ربنـا وأطهـر

اللهـم إن الأجـر أجـر الآخـرة ... فـارحـم الأنصـار والمهـاجـرة

قال ابن شهاب: ولم يبلغنا أنه ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذا[6]. انتهى.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل المدينة باب (١٢) رقم الحديث (١٨٨٩).

(٢) أخرجه البخاري باب (١٢) رقم الحديث (١٨٩٠).

(٣) انظر السيرة لابن هشام ٢/ ١٤٠ والبداية والنهاية ٣/ ٢١٣ وطبقات ابن سعد ٢/ ١٨٤.

(٤) أخرجه البخاري في عدة مواضع (٢٧٧١ ـ ٢٧٧٤ ـ ٢٧٧٩ ـ ٣٩٣٢) وأبو داوود في كتاب الصلاة رقم الحديث (٤٥٣) والنسائي في المساجد رقم (١٢) وأحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٢١٢.

(٥) انظر فتح الباري ٧/ ٣٠٤ رقم (٣٩٠٦).

وقد قيل: إن الممتنع عليه ﷺ إنشاء الشعر لا إنشاده، ولا دليل على منع إنشاده متمثلاً.

وقوله: هذا الحمال: ـ بكسر الحاء المهملة، وتخفيف الميم ـ أي المحمول من اللبن أبر عند الله من حمال خيبر، أي: التي تحمل منها من التمر والزبيب ونحو ذلك. وفي رواية المستملي بالجيم. انتهى.

وفي كتاب «تحقيق النصرة» قيل: ووضع عليه السلام رداءه فوضع الناس أرديتهم وهم يقولون:

لئـــن قعــدنــا والنبــي يعمــل ... ذاك إذاً للعمــــل المضلـــل

وآخرون يقولون:

لا يستـوي مــن يعمــر المســاجــدا ... يــدأب فيهــا قــائمــاً وقــاعــدا

ومن يرى عن التراب حائدا

وجعلت قبلة المسجد للقدس، وجعل له ثلاثة أبواب: باب في مؤخره، وباب يقال له: باب الرحمة، والباب الذي يدخل منه.

وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه.

وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع، وبنى بيوتاً إلى جنبه باللبن وسقفها بجذوع النخل والجريد، فلما فرغ من البناء بنى لعائشة في البيت الذي يليه شارعاً إلى المسجد، وجعل سودة بنت زمعة في البيت الآخر الذي يليه إلى الباب الذي يلي آل عثمان.

ثم تحول عليه السلام من دار أبي أيوب إلى مساكنه التي بناها.

وكان قد أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه إلى مكة، فقدما بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة وأسامة بن زيد وأم أيمن، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبيه.

وكان في المسجد موضع مظلل، تأوي إليه المساكين، يسمى الصفة، وكان أهله يسمون: أهل الصفة، وكان ﷺ يدعوهم بالليل فيفرقهم على أصحابه، وتتعشى طائفة منهم معه عليه السلام.

وفي البخاري من حديث أبي هريرة: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة، ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساق، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته[1].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب (٥٨) رقم الحديث (٤٤٢).

وهذا يشعر بأنهن كانوا أكثر من سبعين، وهؤلاء الذين رآهم أبو هريرة غير السبعين الذين بعثهم في غزوة بئر معونة، وكانوا من أهل الصفة أيضاً، لكنهم استشهدوا قبل إسلام أبي هريرة.

وقد اعتنى بجمع أصحاب الصفة ابن الأعرابي[1] والسلمي[2]. والحاكم وأبو نعيم، وعند كل منهم ما ليس عند الآخر، وفيما ذكروه اعتراض ومناقشة، قاله في فتح الباري.

وكان ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جذع في المسجد قائماً، فقال: إن القيام قد شق علي، فصنع له المنبر.

وكان عمله وحنين الجذع في السنة الثامنة ـ بالميم ـ من الهجرة، وبه جزم ابن النجار[3] وعورض: بما في حديث الإفك[4] في الصحيحين، قالت عائشة: فثار الحيان ـ الأوس والخزرج ـ حتى كادوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر فنزل فخفضهم حتى سكتوا.

وجزم ابن سعد بأن عمل المنبر كان في السنة السابعة. وعورض: بذكر العباس وتميم فيه، وكان قدوم العباس بعد الفتح في آخر سنة ثمان، وقدوم سنة تسع.

وعن بعض أهل السير: أنه عليه السلام كان يخطب على منبر من طين قبل أن يتخذ المنبر الذي من خشب. وعورض: بأن الأحاديث الصحيحة أنه كان يستند إلى الجذع إذا خطب.

وستأتي قصة حنين الجذع إن شاء الله تعالى في مقصد المعجزات.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم أبو سعيد ابن الأعرابي (٢٤٦ ـ ٣٤٠ هـ) مؤرخ متصوف. توفي في مكة. الأعلام ١/ ٢٠٨ تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٥٣ رقم الترجمة (٨٣٠) شذرات الذهب ٢/ ٣٥٤ حلية الأولياء ١٠/ ٣٧٥ رقم الترجمة (٦٤٧). العبر ٢/ ٢٥٢.

(٢) هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي النيسابوري أبو بعد الرحمٰن (٣٢٥ ـ ٤١٢ هـ) متصوف. توفي في نيسابور. الأعلام ٦/ ٩٩ مفتاح السعادة ١/ ٤٥١ تاريخ بغداد ٢/ ٢٤٨ تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٤٦ رقم الترجمة (٩٦٣) مرآة الجنان ٣/ ٢٦ والمنتظم ١٥/ ١٥٠ رقم الترجمة (٣١٠٥).

(٣) هو محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن أبو عبد الله محب الدين ابن النجار (٥٧٨ ـ ٦٤٣ هـ). مؤرخ حافظ للحديث. توفي في بغداد. الأعلام ٧/ ٨٦ طبقات الشافعية ٥/ ٤١ مفتاح السعادة ١/ ٢١٠ شذرات الذهب ٥/ ٢٢٦ فوات الوفيات ٤/ ٣٦ رقم الترجمة (٤٩٤). مرآة الجنان ٤/ ١١١ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٢٨ رقم الترجمة (١١٤٠) معجم الأدباء ٥/ ٤٤٣ رقم الترجمة (٩١٧).

(٤) انظر البداية والنهاية ٤/ ١٦١ وطبقات ابن سعد ٢/ ٥٠. والمنتظم ٣/ ٢٢١.

ولما كان بعد قدومه بخمسة أشهر، آخى عليه السلام بين المهاجرين والأنصار[1] وكانوا تسعين رجلاً، من كل طائفة خمسة وأربعون، على الحق والمواساة والتوارث.

وكانوا كذلك إلى أن نزل بعد بدر ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض**﴾ [الأنفال: ٧٥] الآية.

وبنى بعائشة على رأس تسعة أشهر. وقيل ثمانية، وقيل ثمانية عشر شهراً في شوال.

## [رؤيا الأذان][2]

وكان الناس ـ كما في السير وغيرها ـ إنما يجتمعون إلى الصلاة لتحين مواقيتها، من غير دعوة.

وأخرج ابن سعد في الطبقات، من مراسيل سعيد بن المسيب: أن بلالاً كان ينادي للصلاة بقوله: الصلاة جامعة الحديث.

وشاور رسول الله ﷺ أصحابه فيما يجمعهم به للصلاة ـ وكان ذلك فيما قيل في السنة الثانية ـ فقال بعضهم: ناقوس كناقوس النصارى، وقال آخرون: بوق كبوق اليهود، وقال بعضهم: بل نوقد ناراً ونرفعها فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة.[3]

فرأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه في منامه رجلاً فعلمه الأذان والإقامة، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فأخبره بما رأى، وفي رواية معاذ بن جبل عند الإمام أحمد قال: يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم ـ ولو قلت إني لم أكن نائماً لصدقت ـ رأيت: شخصاً عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة فقال: الله أكبر، الله أكبر، مثنى مثنى، حتى فرغ من الأذان. الحديث، فقال ﷺ «**إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى، قم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به، فإنه أندى صوتاً منك**». قال: فقمت مع بلال فجعلت ألقيه ويؤذن.[4].

قال: فسمع بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في بيته، فخرج يجر رداءه يقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله، لقد رأيت مثل ما رأى.

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ٢/ ١٥٠ وانظر طبقات ابن سعد ١/ ١٨٣ والمنتظم ٣/ ٧٠.

(٢) انظر السيرة لابن هشام ٢/ ١٥٤ وانظر طبقات ابن سعد ١/ ١٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان باب (١) رقم الحديث (٦٠٤).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب (٢٨) رقم الحديث (٤٩٩) وأحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٤٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٣٩٠ ودلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٨ كنز العمال (٢٠٩٥٢)

ووقع في الأوسط للطبراني: أي أبا بكر أيضاً رأى الأذان.

وفي الوسيط للغزالي: أنه رآه بضعة عشر رجلاً.

وعبارة الجيلي في شرح التنبيه: أربعة عشر.

وأنكره ابن الصلاح ثم النووي، وفي سيرة مغلطاي: أنه رآه سبعة من الأنصار.

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر رحمه الله: ولا يثبت شيء من ذلك إلا لعبد الله بن زيد، وقصة عمر جاءت في بعض الطرق. انتهى. قال السهيلي: فإن قلت: ما الحكمة التي خصت الأذان بأن يراه رجل من المسلمين في نومه. ولم يكن عن وحي من الله لنبيه كسائر العبادات والأحكام الشرعية، وفي قوله ﷺ له: «إنها لرؤيا حق». ثم بنى حكم الأذان عليها، وهل كان ذلك عن وحي من الله له أم لا؟

وأجاب: بأنه ﷺ قد أريه ليلة الإسراء. فروى البزار عن علي قال: لما أراد الله تعالى أن يعلم رسوله الأذان جاء جبريل عليه السلام بدابة يقال لها البراق فركبها حتى أتى بها الحجاب الذي يلي عرش الرحمن، فبينما هو كذلك خرج ملك من الحجاب، فقال: يا جبريل من هذا؟ قال: والذي بعثك بالحق، إني لأقرب الخلق مكاناً، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه. فقال الملك: الله أكبر، الله أكبر، فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبدي؛ أنا أكبر، أنا أكبر.. وذكر بقية الأذان.

قال السهيلي: وهذا أقوى من الوحي، فلما تأخر فرض الأذان إلى المدينة وأراد إعلام الناس بوقت الصلاة تلبث الوحي حتى رأى عبد الله الرؤيا فوافقت ما رأى ﷺ فلذلك قال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى، وعلم حينئذ أن مراد الله بما رآه في السماء أن يكون سنة في الأرض وقوى ذلك عنده موافقة رؤيا عمر للأنصاري. انتهى.

وتعقب: بأن حديث البزار في إسناده زياد بن المنذر أبو الجارود [1]، وهو متروك.

وقال في فتح الباري: وقد استشكل إثبات حكم الأذان برؤيا عبد الله بن زيد، فإن رؤيا غير الأنبياء لا ينبني عليها حكم شرعي:

وأجيب: باحتمال مقارنة الوحي لذلك [2]. ويؤيده ما رواه عبد الرزاق وأبو داود في المراسيل، من طريق عبيد بن عمير الليثي ـ أحد كبار التابعين ـ أن عمر لما رأى

(١) هو زياد بن المنذر الهمذاني الخراساني أبو الجارود. رأس الفرقة الجارودية توفي (بعد سنة ١٥٠ هـ). الأعلام ٣/ ٥٥ تهذيب التهذيب ٣/ ٣٨٦ مروج الذهب ٣/ ٢٢٠ والملل والنحل ١/ ١٥٧.

(٢) أو لأنه ﷺ أمر بمقتضاها لينظر أيقر على ذلك أم لا، ولا سيما لما رأى نظمها يبعد دخول الوسواس فيه، وهذا ينبني على القول بجواز إجتهاده ﷺ في الأحكام وهو المنصور في الأصول. انظر فتح الباري ٢/ ١٠٤.

الأذان جاء ليخبر النبي ﷺ فوجد الوحي قد ورد بذلك، فما راعه إلا أذان بلال، فقال له النبي ﷺ: «**سبقك بذلك الوحي**»[١].

وهذا أصح مما حكى الداودي[٢]عن ابن إسحاق: أن جبريل أتى النبي ﷺ بالأذان قبل أن يخبره عبد الله بن زيد وعمر بثمانية أيام.

وقد عرفت رؤيا عبد الله بن زيد برواية ابن أسحاق وغيره: وذلك أنه قال:

«طاف بي ـ وأنا نائم ـ رجل يحمل ناقوساً في يده، فقلت يا عبد الله أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على ما هو خير لك من ذلك؟ فقلت [له][٣] بلى، قال: تقول الله أكبر، الله أكبر وذكر بقية كلمات الأذان. قال: ثماستأخر عني غير بعيد ثم قال [ثم تقول][٣] إذا أقمت. . .الصلاة فقل: الله أكبر، الله أكبر، إلى آخر كلمات الإقامة»[٤]. ورواه أبو داود بإسناد صحيح.

ولم تعرف كيفية رؤيا عمر حين رأى النداء، وقد قال: رأيت مثل الذي رأى.

وفي مسند الحارث: أول من أذن بالصلاة جبريل، أذن في سماء الدنيا فسمعه عمر وبلال، فسبق عمر بلالاً إلى رسول الله ﷺ فأخبره بها، فقال عليه السلام لبلال «**سبقك بها عمر**»[٥]وظاهره: أن عمر وبلالاً سمعا ذلك في اليقظة.

وقد وردت أحاديث تدل على أن الأذان شرع بمكة قبل الهجرة:

منها للطبراني من طريق سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه قال: لما أسري بالنبي ﷺ أوحى الله إليه الأذان فنزل به وعلمه بلالا.

وفي إسناده طلحة بن زيد وهو متروك.

ومنها: للدارقطني في «الأفراد»، من حديث أنس أن جبريل أمر النبي ﷺ بالأذان حين فرضت الصلاة. وإسناده ضعيف.

ومنها: حديث البزار عن علي، المتقدم.

قال في فتح الباري: والحق أنه لا يصح شيء من هذه الأحاديث وقد جزم ابن

---

(١) انظر مراسيل أبو داوود صفحة ٥ وفتح الباري ٢/ ١٠٥.

(٢) هو أحمد بن نصر البشكري أبو جعفر. فقيه مالكي توفي بتلمسان سنة (٤٣٠ هـ) الديباج المذهب ٣٥.

(٣) ليست في الأصل وهي في سنن أبي داوود.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب (٢٨) رقم الحديث (٤٩٩).

(٥) انظر فتح الباري ٢/ ١٠٠ (٦٠٤).

المنذر بأنه ﷺ كان يصلي بغير أذان منذ فرضت الصلاة بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة، إلى أن وقع التشاور في ذلك. والله سبحانه أعلم.

فإن قلت: هل أذن ﷺ بنفسه قط؟

أجاب السهيلي: بأنه قد روى الترمذي من طريق يدور على عمر ابن الرماح، قاضي بلخ يرفعه إلى أبي هريرة أنه ﷺ أذن في سفر وصلى وهم على رواحلهم[1]. الحديث. قال: فنزع بعض الناس بهذا الحديث إلى أنه ﷺ أذن بنفسه. انتهى.

وليس هذا الحديث من حديث أبي هريرة، إنما هو من حديث يعلى بن مرة.

وكذا جزم النووي بأنه عليه الصلاة والسلام أذن مرة في السفر، وعزاه للترمذي وقواه.

ولكن روى الحديث الدارقطني وقال فيه: أمر بالأذان، ولم يقل: أذن. قال السهيلي: والمفصل يقضي على المجمل المحتمل.

وفي مسند أحمد من الوجه الذي أخرج منه الترمذي هذا الحديث: فأمر بلالاً فأذن[2]، قال في فتح الباري فعرف أن في رواية الترمذي اختصاراً، وأن قوله أذن: أمر، كما يقال: أعطى الخليفة فلاناً ألفاً، وإنما باشر العطاء غيره، ونسب للخليفة لكونه أمر، انتهى.

فإن قلت هل صلى النبي ﷺ خلف أحد من أصحابه؟ قلت:

نعم، ثبت في صحيح مسلم وغيره أنه ﷺ صلى خلف عبد الرحمن بن عوف، ولفظه: عن المغيرة بن شعبة أنه غزا مع رسول الله ﷺ تبوك، فتبرز رسول الله ﷺ قبل الغائط، فحمل معه إداوة قبل صلاة الفجر... الحديث إلى أن قال: فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم، فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين، فصلى مع الناس الركعة الأخيرة، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتم صلاته، فأفزع ذلك المسلمين، فأكثروا التسبيح، فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم ثم قال: أحسنتم، أو قال: أصبتم يغبطهم أن صلوا لوقتها[3].

ورواه أبو داود في السنن بنحوه ولفظه: ووجدنا عبد الرحمن وقد ركع بهم ركعة

(١) أخرجه الترمذي باب (١٨٦) رقم الحديث (٤١١).
(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ١٧٤.
(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٢٤٩ وصحيح مسلم رقم الحديث (٢٧٤).

من صلاة الفجر، فقام رسول الله ﷺ فصف مع المسلمين فصلى وراء عبد الرحمن بن عوف الركعة الثانية، ثم سلم عبد الرحمن، فقام رسول الله ﷺ في صلاته[1] الحديث.

قال النووي: فيه جواز اقتداء الفاضل بالمفضول، وجواز اقتداء النبي ﷺ خلف بعض أمته.

قال: وأما بقاء عبد الرحمن في صلاته وتأخر أبي بكر رضي الله عنه ليتقدم النبي ﷺ، فالفرق بينهما أن عبد الرحمن كان قد ركع ركعة، فترك النبي ﷺ التقدم لئلا يختل ترتيب صلاة القوم، بخلاف صلاة أبي بكر.

نعم في السيرة الهشامية: أن أبا بكر كان الإمام وأن رسول الله ﷺ كان يأتم به. لكنه ـ كما قال السهيلي ـ حديث مرسل في السيرة، والمعروف في الصحاح أن أبا بكر كان يصلي بصلاة رسول الله ﷺ، والناس يصلون بصلاة أبي بكر.

لكن قد روي عن أنس من طريق متصل: أن أبا بكر كان الإمام يومئذ، واختلف فيه خبر عائشة رضي الله عنها. انتهى.

وفي الترمذي مصححاً من حديث جابر: أن آخر صلاة صلاها رسول الله ﷺ في ثوب واحد متوشحاً به خلف أبي بكر[2].

قال ابن الملقن[3]: وقد نصر هذا القول غير واحد من الحفاظ: منهم الضياء، وابن ناصر[4]، وقال: صح وثبت أنه ﷺ صلى خلف أبي بكر مقتدياً به في مرضه الذي مات فيه ثلاث مرات، ولا ينكر هذا إلا جاهل لا علم له بالرواية.

وقيل: إنه كان مرتين، جمعاً بين الأحاديث، وبه جزم ابن حبان.

---

(١) أخرجه أبو داود، في كتاب الطهارة باب (٦٠) رقم الحديث (١٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الصلاة باب (١٥١) رقم الحديث (٣٦٣).

(٣) هو عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، سراج الدين أبو حفص بن النحوي، المعروف بابن الملقن. (٧٢٣ ـ ٨٠٤ هـ). عالم بالحديث والفقه توفي في القاهرة. الأعلام ٥/ ٥٧. الضوء اللامع ٣/ ١٠٠ رقم الترجمة (٣٣٠).

(٤) هو محمد بن ناصر بن محمد بن علي أبو الفضل السلامي ويقال له بن ناصر. (٤٦٧ ـ ٥٥٠ هـ). محدث. توفي في بغداد. الأعلام ٧/ ١٢١. وفيات الأعيان ١/ ٤٨٨. المنتظم ١٨/ ١٠٣ رقم الترجمة (٤٢٠١). شذرات الذهب ٤/ ١٥٥. تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٨٩ رقم الترجمة (١٠٧٩).

وروى الدارقطني من طريق المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ قال: «**ما مات نبي حتى يؤمه رجل من أمته**»[١].

ولما كان بعد شهر من مقدمه عليه الصلاة والسلام لاثنتي عشرة خلت من ربيع الآخر ـ قال الدولابي يوم الثلاثاء، وقال السهيلي بعد الهجرة بعام أو نحوه ـ زيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان، وتركت صلاة الفجر لطول القراءة فيها، وصلاة المغرب لأنها وتر النهار، وأقرت صلاة السفر.

وفي البخاري عن عائشة (فرضت الصلاة ركعتين [ركعتين]) ثم هاجر النبي ﷺ [إلى المدينة] ففرضت أربعاً. وتركت صلاة الفجر لطول القراءة فيها، وصلاة المغرب لأنها وتر النهار، وأقرت صلاة السفر)[٢].

وفي البخاري عن عائشة فرضت الصلاة ركعتين ثم هاجر النبي ففرضت أربعاً، وتركت صلاة السفر على الفريضة الأولى[٣].

وقيل إنما فرضت أربعاً، ثم خفف عن المسافر. ويدل له حديث: (إن الله وضع عن المسافر شطر الصلاة)[٤].

وقيل: إنما فرضت في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وهو قول ابن عباس، قال رضي الله عنه: (فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين)[٥] رواه مسلم وغيره.

وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في أول الصلاة من مقصد عباداته عليه الصلاة والسلام.

قال ابن إسحاق وغيره: ونصبت أحبار يهود العداوة للنبي ﷺ بغياً وحسداً، وسحره لبيد بن الأعصم، وهو من يهود بني زريق، فكان يخيل إليه أنه يفعل الفعل وهو لا يفعله، وجعل سحره في مشط ومشاطة، ودفنه في بئر ذي أروان ـ وأكثر أهل الحديث

---

(١) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ١٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب (١) رقم الحديث (٣٥٠ ـ ٣٩٣٥) والنسائي باب كيف فرضت الصلاة ١/ ٢٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب (٤٨) رقم الحديث (٣٩٣٥).

(٤) أخرجه أبو داوود في كتاب الصيام باب (٤٤) رقم الحديث (٢٤٠٨). وجمع الجوامع (٥٠٨٦) والدر المنثور ١/ ١٩٣ كنز العمال (٢٠١٨١).

(٥) أخرجه أبو داوود في كتاب الصلاة باب (١٨) رقم الحديث (١٢٤٧) وأخرجه مسلم أيضاً برقم (٦٨٧).

يقول: ذروان ـ تحت راعوفة البئر[1]، كما ثبت في الصحيح.

وليس هذا بقادح في النبوة، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يبتلون في أبدانهم بالجراحات والسموم والقتل غير ذلك مما جوّزه العلماء عليهم.

وانضاف إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج، منافقون، على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أنهم قهروا بظهور الإسلام، فأظهروه واتخذوه جنة من القتل، ونافقوا في السر، منهم عبد الله بن أبي بن سلول، وكان رأس المنافقين، وهو الذي قال: ﴿**لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل**﴾ [المنافقون: ٨] كما سيأتي إن شاء الله في غزوة بني المصطلق.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب باب (٤٧) رقم الحديث (٥٧٦٣ ـ ٣١٧٥) ومسلم في صحيحه رقم الحديث (٢١٨٩).

## مغازيه وسراياه وبعوثه[1] ﷺ

وأذن الله تعالى لرسوله ﷺ بالقتال. قال الزهري: أول آية نزلت في الإذن بالقتال ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ [الحج: ٣٩] أخرجه النسائي بإسناد صحيح[2].

قال في البحر: والمأذون فيه ـ أي في الآية ـ محذوف، أي: في القتال، لدلالة «يقاتلون» عليه، وعلل الإذن: بأنهم ظلموا، كانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج، فيقول لهم: اصبروا، فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجر فأذن له بالقتال بعدما نهي عنه في نيف وسبعين آية. انتهى.

وقال غيره: وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت اللائق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمون ـ وهم قليلون ـ بقتال الباغين لشق عليهم، فلما بغى المشركون، وأخرجوه ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله، واستقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة واجتمع عليه أصحابه، وقاموا بنصره، وصارت المدينة لهم دار إسلام، ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الله تعالى جهاد الأعداء، فبعث ﷺ البعوث والسرايا وغزا وقاتل هو وأصحابه حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً.

وكان عدد مغازيه ﷺ التي خرج فيها بنفسه، سبعاً وعشرين. قاتل في تسع منها بنفسه الشريفة ﷺ: بدر، وأحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف. وهذا على قول من قال: فتحت مكة عنوة.

---

(١) جرت عادة أهل السير غالباً أن يسموا كل عسكر حضره النبي ﷺ بنفسه غزوة ـ ومالم يحضر سرية وبعثاً. انظر طبقات ابن سعد ٢/٣ والسيرة لابن هشام ٢/ ٢٤٠ وما بعدها وانظر شرح المواهب ١/ ٣٧٥.

(٢) انظر تفسير البغوي ٣/ ٢٤٤ [الحج: ٣٩] أخرجه النسائي كتاب الجهاد باب وجوب الجهاد ٦/ ٢.

وكانت سراياه التي بعث فيها سبعاً وأربعين سرية[1]. وقيل: إنه قاتل في بني النضير.

وأفاد في فتح الباري: أن السرية ـ بفتح المهملة وكسر الراء وتشديد التحتانية ـ هي التي تخرج بالليل ـ والسارية: التي تخرج بالنهار.

قال: وقيل سميت بذلك ـ يعني السرية ـ لأنّه يخفى ذهابها. وهذا يقتضي أنها أخذت من السر، ولا يصح، لاختلاف المادة.

وهي قطعة من الجيش تخرج منه وتعود إليه، وهي من مائة إلى خمسمائة، فما زاد على خمسمائة يقال له منسر ـ بالنون ثم المهملة ـ فإن زاد على الثمانمائة سمي جيشاً، [وما بينهما يسمى هبطة][2]، فإن زاد على أربعة آلاف سمي جحفلاً، والخميس: الجيش العظيم، وما افترق من السرية يسمى بعثاً[3]، والكتيبة ما اجتمع ولم ينتشر[4]، انتهى ملخصاً.

وكان أول بعوثه ﷺ على رأس سبعة أشهر، في رمضان، وقيل في ربيع الأول سنة اثنتين. بعث عمه حمزة[5]، وأمره على ثلاثين رجلاً من المهاجرين.

وقيل من الأنصار، وفيه نظر، لأنه لم يبعث أحداً من الأنصار حتى غزا بهم بدراً، لأنهم شرطوا له أن يمنعوه في دارهم.

فخرجوا يعترضون عيراً لقريش، فيها أبو جهل اللعين، فلقيه في ثلاثمائة راكب فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص، فلما تصافوا حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان عليه السلام قد عقد له لواء أبيض.

«واللواء هو العلم الذي يحمل في الحرب، يعرف به موضع صاحب الجيش، وقد يحمله أمير الجيش، وقد يدفعه لمقدم المعسكر».

وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادف اللواء والراية، لكن روى أحمد والترمذي

---

(١) قال ابن إسحاق: وكانت بعوثه ﷺ وسراياه ثمانياً وثلاثين من بين بعث وسرية. انظر البداية والنهاية ٥/ ١٩١. و ٣/ ٢٣٥.

(٢) ليست في الأصل. وهي من كلام الحافظ في فتح الباري ٨/ ٧٠.

(٣) قوله: فالعشرة وما بعدها تسمى حفيرة والأربعون عصبة وإلى الثلاثمائة مقنب [بقاف ونون ثم موحدة] فإن زاد سمي جمرة بالجيم.

(٤) انظر فتح الباري ٨/ ٧٠.

(٥) انظر طبقات ابن سعد ٣/٢ والبداية والنهاية ٣/ ٢٣٢ وانظر شرح المواهب ١/ ٣٩٠.

عن ابن عباس: كانت راية رسول الله ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض[١]، ومثله عند الطبراني عن بريدة، وعند ابن عدي[٢] عن أبي هريرة وزاد: مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وهو ظاهر في التغاير، ولعل التفرقة بينهما عرفية.

وذكر ابن إسحاق، وكذا أبو الأسود عن عروة: أن أول ما حدثت الرايات يوم خيبر، وما كانوا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية. انتهى.

ثم سرية عبيدة بن الحارث[٣] إلى بطن رابغ، في شوال، على رأس ثمانية أشهر، في ستين رجلاً، وعقد له لواء أبيض، حمله مسطح بن أثاثة، يلقى أبا سفيان بن حرب. وكان على المشركين ـ وقيل مكرز بن حفص، وقيل عكرمة بن أبي جهل ـ في مائتين، ولم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص رمى بسهم، فكان أول سهم رمي في الإسلام.

وقال ابن إسحاق: وكانت راية عبيدة ـ فيما بلغنا ـ أول راية عقدت في الإسلام، وبعض الناس يقول: راية حمزة. قال: وإنما أشكل أمرهما لأنه عليه الصلاة والسلام بعثهما معاً، فاشتبه ذلك على الناس. انتهى.

وهذا يشكل بقولهم: إن بعث حمزة كان على رأس سبعة أشهر، لكن يحتمل أن يكون ﷺ عقد رايتيهما معاً، ثم تأخر خروج عبيدة إلى رأس الثمانية، لأمر اقتضاه، والله أعلم.

ثم سرية سعد بن أبي وقاص[٤] إلى الخرار ـ بخاء معجمة وراءين مهملتين، وهو واد بالحجاز يصب في الجحفة ـ وكان ذلك في ذي القعدة، على رأس تسعة أشهر، وعقد له لواء أبيض، حمله المقداد بن عمرو، في عشرين رجلاً، يعترض عيراً لقريش،

---

(١) انظر شرح السنة للبغوي ١٠/ ٤٠٤.

(٢) هو عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد ابن مبارك بن القطان الجرجاني أبو أحمد (٢٧٧ ـ ٣٦٥ هـ). عالم بالحديث. الأعلام ٤/ ١٠٣ تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٤٠ رقم الترجمة (٨٩٣) شذرات الذهب ٣/ ٥١ طبقات الشافعية ٢٠/ ٢٣٣. مرآة الجنان ٢/ ٣٧١ كشف الظنون ١٣٨٢ تاريخ جرجان ٢٦٦ رقم الترجمة (٤٤٣).

(٣) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٤ والبداية ٣/ ٢٣٢ والسيرة لابن هشام ٢/ ٢٤١ تاريخ الطبري ٢/ ٤٠٤ شرح المواهب ١/ ٣٩١.

(٤) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٤ والسيرة لابن هشام ٢/ ٢٥١ وتاريخ الطبري ٢/ ٤٠٤ وشرح المواهب ١/ ٣٩٢.

فخرجوا على أقدامهم، فصبحوها صبح خامسة فوجدوا العير قد مرت بالأمس.

ثم غزوة ودان[1]، وهي الأبواء، وهي أول مغازيه، كما ذكره ابن إسحاق وغيره.
وفي البخاري: أن أولها الأبواء.

خرج ﷺ في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة، يريد قريشاً، في ستين رجلاً، وحمل اللواء حمزة بن عبد المطلب. فكانت الموادعة ـ أي المصالحة ـ على أن بني ضمرة لا يغزونه ولا يكثرون عليه جمعاً، ولا يعينون عليه عدواً.
واستعمل على المدينة سعد بن عبادة[2].

وليس بين ما وقع في سيرة ابن إسحاق وبين ما نقله عنه البخاري اختلاف، لأن الأبواء وودان مكانان متقاربان بينهما ستة أميال أو ثمانية.

ثم غزوة بواط[3] ـ بفتح الموحدة وقد تضم وتخفيف الواو وآخره مهملة ـ وهي الثانية، غزاها ﷺ في شهر ربيع الأول، على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة، حتى بلغها من ناحية رضوى ـ بفتح الراء وسكون المعجمة، مقصور ـ في مائتين من أصحابه، يعترض عيراً لقريش فيهم أمية بن خلف الجمحي واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون.

فرجع ولم يلقَ كيداً، أي حرباً، قال ابن الأثير: والكيد الاحتيال والاجتهاد، وبه سميت الحرب كيداً.

ثم غزوة العشيرة[4] ـ بالشين المعجمة، والتصغير، آخره هاء. لم يختلف أهل المغازي في ذلك، وفي البخاري: العشيراء، أو: العسيرة، والأولى بالمعجمة بلا هاء، والثانية: بالمهملة وبالهاء ـ وأما غزوة العسرة ـ بالمهملة بغير تصغير ـ فهي غزوة تبوك، وستأتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٥ والسيرة لابن هشام ٢/ ٢٤١ والمنتظم ٣/ ٨٨ وتاريخ الطبري ٢/ ٤٠٧ البداية والنهاية ٣/ ٢٤٠ وشرح المواهب ١/ ٣٩٢.

(٢) هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي أبو ثابت صحابي توفي سنة (١٤ هـ). الأعلام ٣/ ٨٥ الإصابة ٣/ ٨٠ رقم الترجمة (٣١٦٧).

(٣) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٥ وتاريخ الطبري ٢/ ٤٠٧ والسيرة لابن هشام ٢/ ٢٤٨ والبداية ٣/ ٢٤٥ والمنتظم ٣/ ٨٩ وشرح المواهب ١/ ٣٩٣.

(٤) انظر السيرة لابن هشام ٢/ ٢٤٨ المنتظم ٣/ ٩٠ والبداية ٣/ ٢٤٥ وطبقات ابن سعد ٢/ ٦ والطبري ٢/ ٤٠٨ وشرح المواهب ١/ ٣٩٤.

ونسبت هذه إلى المكان الذي وصلوا إلى المكان الذي وصلوا إليه، وهو موضع لبني مدلج بينبع.

وخرج إليها ﷺ في جمادى الأولى - وقيل: الآخرة - على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة، في خمسين ومائة رجل - وقيل في مائتي رجل - ومعهم ثلاثون بعيراً يتعقبونها، وحمل اللواء - وكان أبيض - حمزة، يريد عير قريش التي صدرت من مكة إلى الشام بالتجارة. فخرج إليها ليغنمها فوجدها قد مضت.

ووداع بني مدلج من كنانة[1].

وكانت نسخة الموادعة فيما ذكره غير ابن إسحاق.

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم أن لا يحاربوا في دين الله ما بل بحر صوفة، وأن النبي إذا دعاهم لنصر أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله ورسوله[2].

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد.

ثم غزوة بدر[3] الأولى. قال ابن إسحاق: ولما رجع عليه الصلاة والسلام - أي: من غزوة العشيرة - لم يقم إلا ليالي، وقال ابن حزم: بعد العشيرة بعشرة أيام، حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج ﷺ في طلبه حتى بلغ سفوان - بفتح المهملة والفاء - موضع من ناحية بدر، ففاته كرز بن جابر. وتسمى بدراً الأولى.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وحمل اللواء علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه.

ثم سرية أمير المؤمنين عبد الله بن جحش[4] في رجب على رأس سبعة عشر شهراً، وكان معه ثمانية - وقيل اثنا عشر - من المهاجرين، إلى نخلة على ليلة من مكة، في رجب يترصد قريشاً، فمرت بهم عيرهم تحمل زبيباً وأدماً من الطائف، فيها عمرو بن الحضرمي، فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب، فإن قتلناهم هتكنا

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٦.

(٢) [كانت هذه الموادعة في غزوة ودان - الأبواء -] انظر السيرة لابن هشام ٢/ ٢٤١ وطبقات ابن سعد ٢/ ٥ والمنتظم ٣/ ٨٩ والبداية ٣/ ٢٤٠.

(٣) انظر السيرة لابن هشام ٢/ ٢٥١ وشرح المواهب ١/ ٣٩٦ والبداية والنهاية ٣/ ٢٤٦.

(٤) انظر السيرة لابن هشام ٢/ ٢٥٢ والمنتظم ٣/ ٩١ والبداية ٣/ ٢٤٧ طبقات ابن سعد ٢/ ٧ وشرح المواهب ١/ ٣٩٧.

حرمة الشهر، وإن تركناهم الليلة دخلوا حرمة مكة، فأجمعوا على قتلهم فقتلوا عمراً واستأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وهرب من هرب، واستاقوا العير، وكانت أول غنيمة في الإسلام، فقسمها ابن جحش، وعزل الخمس من ذلك قبل أن يفرض، ويقال: بل قدموا بالغنيمة كلها.

فقال النبي ﷺ: «**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**»[1] فأخر الأسيرين والغنيمة حتى رجع من بدر فقسمها مع غنائمها.

وتكلمت قريش: إن محمداً سفك الدماء، وأخذ المال في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه..**﴾ [البقرة: ٢١٧] الآية وفي ذلك يقول عبد الله بن جحش:

| | |
|---|---|
| تعدون قتلاً في الحرام عظيمة | وأعظم منه لو يرى ذاك راشد |
| صدودكم عما يقول محمد | وكفر به والله راء وشاهد |
| سقينا من ابن الحضرمي رماحنا | بنخلة لما أوقد الحرب واقد |

وبعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء الأسيرين، وهما: عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، ففاداهما رسول الله ﷺ. فأما الحكم فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً، وأما عثمان فلحق بمكة فمات بها كافراً.

ثم حولت القبلة إلى الكعبة[2]، وكان رسول الله ﷺ يصلي إلى بيت المقدس بالمدينة ستة عشر شهراً[3].

وقيل سبعة عشر، وقيل ثمانية عشر شهراً.

وقال الحربي: قدم ﷺ المدينة في ربيع الأول، فصلى إلى بيت المقدس تمام السنة وصلى من سنة اثنتين ستة أشهر. ثم حولت القبلة.

وقيل: كان تحويلها في جمادى، وقيل: كان يوم الثلاثاء في نصف شعبان، وقيل يوم الإثنين نصف رجب.

---

(١) انظر المنتظم ٣/ ٩٣ والبداية ٣/ ٢٤٨.

(٢) انظر المنتظم ٣/ ٩٣ والبداية ٣/ ٢٥١ وطبقات ابن سعد ١/ ١٨٦ والسيرة لابن هشام ٢/ ٢٥٧ وانظر شرح الزرقاني للمواهب ١/ ٣٩٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث (٥٢٥) والنسائي كتاب الصلاة باب فرض القبلة ١/ ٢٤٣ وفي كتاب القبلة باب استقبال القبلة ٢/ ٦٠.

وظاهر حديث البراء في البخاري: أنها كانت صلاة العصر.

ووقع عند النسائي من رواية سعيد بن المعلى: أنها الظهر.

وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني، كما في الصحيحين عن ابن عمر أنه قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة[1].

وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله، لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم.

وروى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما هاجر ﷺ إلى المدينة، واليهود أكثر أهلها يستقبلون بيت المقدس أمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها سبعة عشر شهراً، وكان ﷺ يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء فنزلت الآية[2].

قال في فتح الباري وظاهر حديث ابن عباس هذا أن استقبال بيت المقدس إنما وقع بعد الهجرة إلى المدينة. لكن أخرج أحمد من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان ﷺ يصلي بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه، قال: والجمع بينهما ممكن: بأن يكون أمر لما هاجر أن يستمر على الصلاة لبيت المقدس.

وأخرج الطبري أيضاً من طريق ابن جريج قال: صلى النبي ﷺ أول ما صلى إلى الكعبة، ثم صرف إلى بيت المقدس وهو بمكة، فصلى ثلاث حجج، ثم هاجر، فصلى إليه بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً، ثم وجهه الله إلى الكعبة.

وقوله في حديث ابن عباس الأول: «أمره الله تعالى» يرد قول من قال: إنه صلى إلى بيت المقدس باجتهاد.

وعن أبي العالية: أنه صلى إلى بيت المقدس يتألف أهل الكتاب. وهذا لا ينفي أن يكون بتوقيف.

واختلفوا في المسجد الذي كان يصلي فيه:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب (٣٤) رقم الحديث (٤٠٣) ومسلم برقم (٥٢٦).

(٢) ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً ترضَاهَا فَوَلِّ وجهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحَرامِ وحيثُ ما كُنْتُم فولُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَهُ وإنَّ الذينَ أُوْتوا الكتابَ ليعلمونَ أنه الحقُّ منْ رَبهم وما الله بغَافِلٍ عَمَّا يَعملُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

فعند ابن سعد في الطبقات: أنه صلى ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين، ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام، فاستدار إليه ودار معه المسلمون.

ويقال: إنه ﷺ زار أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة، فصنعت له طعاماً، وكانت الظهر، فصلى عليه الصلاة والسلام بأصحابه ركعتين، ثم أمر فاستدار، إلى الكعبة، واستقبل الميزاب، فمسي مسجد القبلتين. قال ابن سعد قال الواقدي: هذا عندنا أثبت[1].

ولما حول الله تعالى القبلة حصل لبعض الناس من المنافقين والكفار واليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وشك، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، أي: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا، فأنزل الله جوابهم في قوله **﴿قل لله المشرق والمغرب﴾** [البقرة: ١٤٢] أي الحكم والتصرف، والأمر كله لله، فحيثما توجهنا فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجهنا كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبيده، وفي تصريفه وخدامه حيثما وجهنا توجهنا.

ولله تعالى بنبينا عليه السلام وبأمته عناية عظيمة، إذ هداهم إلى قبلة خليله، قال عليه السلام فيما رواه أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها: إن اليهود لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة، التي هدانا الله إليها وضلوا عنها. وعلى القبلة التي هدانا الله إليها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين[2].

وقال بعض المؤمنين: فكيف صلاتنا التي صليناها نحو بيت المقدس؟ وكيف من مات من إخواننا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾** [البقرة: ١٤٣].

وقيل قال اليهود: اشتاق إلى بلد أبيه، وهو يريد أن يرضي قومه، ولو ثبت على قبلتنا لرجونا أن يكون هو النبي الذي ننتظر أن يأتي. فأنزل الله تعالى: **﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾** [البقرة: ١٤٤] يعني أن اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله سيوجهك إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم.

ثم فرض صيام شهر رمضان[3]، بعدما حولت القبلة إلى الكعبة بشهر، في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدمه ﷺ.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ١٨٦

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ١٣٥.

(٣) انظر شرح الزرقاني للمواهب ١/ ٣٩٩.

وزكاة الفطر قبل العيد بيــومين: أن يــخرج عن الصغيــر والكبيــر والحر والعبد والذكر والأنثى صاع من تمر، أو صاع من زبيب، أو صاع من شعير أو صاع من بر، وذلك قبل أن تفرض زكاة الأموال.

وقيل إن زكاة الأموال فرضت فيها، وقيل: قبل الهجرة والله أعلم.

ثم غزوة بدر الكبرى[1]، وتسمى العظمى، والثانية، وبدر القتال.

وهي قرية مشهورة، نسبت إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة، كان نزلها، وقيل: بدر بن الحارث، حافر بئرها، وقيل بدر اسم البئر التي بها سميت لاستدارتها، أو لصفائها ورؤية البدر فيها.

وقال ابن كثير: وهو يوم الفرقان، والذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله، وهذا مع قلة عدد المسلمين، وكثرة العدو مع ما كانوا فيه من سوابغ الحديد، والعدة الكاملة، والخيول المسومة، والخيلاء الزائدة، فأعز الله تعالى رسوله وأظهر وحيه وتنزيله، وبيّض وجه النبي ﷺ وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله، ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة**﴾ [آل عمران: ١٢٣] أي قليل عددكم، لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعدد[2]. انتهى.

فقد كانت هذه الغزوة أعظم غزوات الإسلام، إذ منها كان ظهوره، وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره، ومن حين وقوعها أذل الله الكفار، وأعز من حضرها من المسلمين، فهو عنده من الأبرار.

وكان خروجهم يوم السبت لثنتي عشرة خلت من رمضان، على رأس تسعة عشر شهراً، ويقال: لثمان خلون منه. قاله ابن هشام.

واستخلف أبا لبابة الأنصاري.

وخرج معه الأنصار، ولم تكن قبل ذلك خرجت معه، وكان عدة من خرج معه ثلاثمائة وخمسة، وثمانية لم يحضروها، إنما ضرب لهم بسهمهم وأجرهم فكانوا كمن حضرها.

وكان معهم ثلاثة أفراس: «بعزجة» فرس المقداد، و «العيسوب» فرس الزبير

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣/ ٢٥٥ تاريخ الطبري ٢/ ٤٢١ والسيرة لابن هشام ٢/ ٢٥٦ والمنتظم ٣/ ٩٧ وشرح المواهب للزرقاني ١/ ٤٠٦ وطبقات ابن سعد ٢/ ٨.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٤٠٠.

وفرس لمرثد الغنوي[1]، لم يكن لهم خيل يومئذ غير هذه، وكان معهم سبعون بعيراً.

وكان المشركون ألفاً ويقال: تسعمائة وخمسون رجلاً، معهم مائة فرس، وسبعمائة بعير.

وكان قتالهم يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان، وقيل يوم الإثنين وقيل غير ذلك.

وكانت من غير قصد من المسلمين إليها ولا ميعاد، كما قال الله تعالى: ﴿**ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً**﴾ [الأنفال: ٤٢].

وإنما قصد ﷺ والمسلمون التعرض لعير قريش. وذلك أن أبا سفيان كان بالشام في ثلاثين راكباً منهم عمرو بن العاصي، فأقبلوا في قافلة عظيمة، فيها أموال قريش، حتى إذا كانوا قريباً من بدر، فبلغ النبي ﷺ ذلك، فندب أصحابه إليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدو، وقال: «**هذه عير لقريش فيها أموال فاخرجوا إليها، لعل الله أن ينفلكموها**»[2].

فلما سمع أبو سفيان بسيره عليه السلام، استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري أن يأتي قريشاً بمكة، فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لعيرهم في أصحابه.

فنهضوا في قريب من ألف ولم يتخلف أحد من أشراف قريش إلا أبا لهب، وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة.

وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه، حتى بلغ الروحاء، فأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عن عيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس في طلب العير، أو حرب النفير، وقال: «**إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير وإما قريش**» وكانت العير أحب إليهم.

فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن.

ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون[3]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا برك

---

(١) هو مرثد بن كناز بن الحصين بن يربوع الغنوي صحابي توفي سنة (٤ هـ). الأعلام ٧/ ٢٠١ الإصابة ٦/ ٧٨ رقم الترجمة (٧٨٧٢).

(٢) انظر الدر المنثور ٣/ ١٦٨ وطبقات ابن سعد ٢/ ٨ والبداية والنهاية ٣/ ٢٥٦ وتفسير القرطبي ٧/ ٣٧٣ وتفسير الطبري ٩/ ١٢٢.

(٣) إشارة إلى الآية (٢٤) من سورة المائدة. وانظر البداية والنهاية ٣/ ٢٦٢.

الغماد ـ يعني مدينة الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال له ﷺ: «**خيراً**» ودعا له بخير. ثم قال ﷺ: «**أيها الناس أشيروا علي**» وإنما يريد الأنصار. لأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا. وكان ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك عليه الصلاة والسلام:

قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: «**أجل**».

قال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله تعالى.

فسر عليه الصلاة والسلام بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «**سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم**» قال ثابت عن أنس رضي الله عنه قال ﷺ: «**هذا مصرع فلان**» ويضع يده على الأرض، ها هنا وها هنا.. قال فما ماط أحدهم ـ أي ما تنحى ـ عن موضع يده عليه الصلاة والسلام[1].

تنبيه: قال ابن سيد الناس في «عيون الأثر»: روينا من طريق مسلم أن الذي قال ذلك: سعد بن عبادة سيد الخزرج، وإنما يعرف ذلك عن سعد بن معاذ، كذا رواه ابن إسحاق وغيره.

واختلف في شهود سعد بن عبادة بدراً، ولم يذكره ابن عقبة ولا ابن إسحاق في البدريين، وذكره الواقدي والمدائني[2] وابن الكلبي منهم. انتهى.

ثم ارتحل ﷺ قريباً من بدر، ونزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادي، ونزل

---

(١) ذكره في مجمع الزوائد ٦/ ٨٠ والبداية والنهاية ٣/ ٢٦٢.

(٢) هو علي بن محمد بن عبد الله أبو الحسن المدائني (١٣٥ ـ ٢٢٥ هـ) مؤرخ توفي في بغداد. الأعلام ٤/ ٣٢٣ تاريخ بغداد ١٢/ ٥٤ معجم الأدباء ٤/ ٢٢٠ رقم الترجمة (٦٢٦) شذرات الذهب ٢/ ٥٤.

المسلمون على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر فأحرزوه، وحفروا القلب لأنفسهم.

وأصبح المسلمون بعضهم محدث وبعضهم جنب، وأصابهم الظمأ، وهم لا يصلون إلى الماء، ووسوس الشيطان لبعضهم وقال: تزعمون أنكم على الحق، وفيكم نبي الله. وأنكم أولياء الله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم عطاش، وتصلون محدثين مجنبين، وما ينتظر أعداؤكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ويذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاؤوا.

فأرسل الله عليهم مطراً سال منه الوادي، فشرب المسلمون واغتسلوا وتوضؤوا وسقوا الركاب وملؤوا الأسقية، وأطفأ الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام. وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم، فذلك قوله تعالى: ﴿**وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به**﴾ [الأنفال: ١١]. أي من الأحداث والجنابة ﴿**ويذهب عنكم رجز الشيطان**﴾ [الأنفال: ١١] أي وسوسته ﴿**وليربط على قلوبكم**﴾ [الأنفال: ١١] بالصبر ﴿**ويثبت به الأقدام**﴾ [الأنفال: ١١]. حتى لا تسوخ في الرمل، بتلبيد الأرض.

وبني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه[1].

ثم خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، ودعا إلى المبارزة، فخرج فتية من الأنصار وهم: عوف ومعاذ ابنا الحارث ـ وأمهما عفراء ـ وعبد الله بن رواحة. فقالوا من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، فقالوا ما لنا بكم من حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا. فقال ﷺ قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي.

فلما قاموا ودنوا منهم قالوا من أنتم؟ فتسموا لهم، فقالوا: نعم أكفاء كرام، فبارز عبيدة ـ وكان أسن القوم ـ عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علي الوليد بن عتبة.

فقتل علي الوليد. هكذا ذكره ابن إسحاق.

وعند موسى بن عقبة ـ كما نقله في فتح الباري ـ برز حمزة لعتبة، وعبيدة لشيبة وعلي للوليد.

ثم اتفقا: فقتل علي الوليد، وقتل حمزة الذي بارزه، واختلف عبيدة ومن بارزه

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ٢/ ٢٧٢.

بضربتين، فوقعت الضربة في ركبة عبيدة ومال علي وحمزة على الذي بارزه عبيدة فأعاناه على قتله.

وعند الحاكم، من طريق عبد خير عن علي: مثل قول موسى بن عقبة.

وعند أبي الأسود عن عروة مثله.

وأورد ابن سعد من طريق عبيدة السلماني: أن شيبة لحمزة، وعبيدة لعتبة، وعلياً للوليد، ثم قال: الثبت أن عتبة لحمزة، وشيبة لعبيدة.

وأخرج أبو داود عن علي قال: تقدم عتبة وتبعه ابنه وأخوه، فنادى: من يبارز فانتدب له شبان من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمنا، فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة**» فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه واحتملنا عبيدة[1].

قال الحافظ ابن حجر: وهذا أصح الروايات، لكن الذي في السير من أن الذي بارزه علي هو الوليد هو المشهور هو اللائق بالمقام، لأن عبيدة وشيبة كانا شيخين كعتبة وحمزة، بخلاف علي والوليد فكانا شابين.

وقد روى الطبراني بإسناد حسن عن علي قال: أعنت أنا وحمزة عبيدة بن الحارث على الوليد بن عتبة، فلم يعب النبي ﷺ علينا ذلك. وهذا موافق لرواية أبي داود. والله أعلم. انتهى.

قال ابن إسحاق: ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض.

ورسول الله ﷺ في العريش ومعه أبو بكر، ليس معه فيه غيره، وهو ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان اليوم فلا تعبد في الأرض أبداً**». وأبو بكر يقول: يا رسول الله، خل بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك[2].

---

(١) أخرجه أبو داوود كتاب الجهاد باب (١٠٩) رقم الحديث (٢٦٦٥) وذكره في السنن الكبرى ٣/ ٢٧٦ وفي مجمع الزوائد ٦/ ٧٦ وفي المستدرك ٣/ ١٩٤ وشرح السنة للبغوي ١١/ ٦٦ ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٧٢ كنز العمال (٢٩٩٤٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٣٨٣ ـ ١٣٨٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٢ وفي اتحاف السادة المتقين ٩/ ٢٢٨ وفي تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦٣ وفي البخاري عن ابن عباس برقم (٢٩١٥ ـ ٣٩٥٣).

وعند سعيد بن منصور[1] من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثرهم وإلى المسلمين فاستقلهم، فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه، فقال عليه السلام وهو في صلاته: «**اللهم لا تخذلني، اللهم أنشدك ما وعدتني**»[2].

وروى النسائي والحاكم عن علي قال: قاتلت يوم بدر شيئاً من قتال، ثم جئت فإذا رسول الله ﷺ يقول في سجوده: «**يا حي، يا قيوم**» فرجعت وقاتلت ثم جئت فوجدته كذلك[3].

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ متبسماً، فقال: «**أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع**»[4] ثم خرج من باب العريش وهو يتلو ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ [القمر: ٤٥].

فإن قلت: كيف جعل أبو بكر يأمره عليه الصلاة والسلام بالكف عن الإجتهاد في الدعاء ويقوي رجائه ويثبته، ومقام الرسول ﷺ هو المقام الأحمد، ويقينه فوق يقين كل أحد؟

أجاب السهيلي نقلاً عن شيخه: بأن الصديق في تلك الساعة كان في مقام الرجاء، والنبي ﷺ في مقام الخوف، لأن لله تعالى أن يفعل ما يشاء، فخاف أن لا يعبد الله في الأرض، فخوفه ذلك عبادة. انتهى.

وقال الخطابي: لا يتوهم أحد أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي ﷺ في تلك الحالة، بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقته على أصحابه وتقوية قلوبهم، فبالغ في التوجه والدعاء والابتهال لتسكن نفوسهم عند ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة، فلما قال له أبو بكر ما قال، كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة، فلهذا عقبه بقوله: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ [القمر: ٤٥].

---

(١) هو سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني: حافظ توفي سنة (٢٢٧ هـ). وتذكرة الحفاظ ٢/ ٤١٦ رقم الترجمة (٤٢٢) شذرات الذهب ٢/ ٦٢ العبر ١/ ٣٩٩ طبقات ابن سعد ٦/ ٤٤ رقم الترجمة (١٦٥٨) وفيه: «كنيته أبو عثمان».

(٢) انظر فتح الباري ٧/ ٣٦٦ (٣٩٥٣).

(٣) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٤٩ وكنز العمال (١٧٩٩٩ ـ ٢٩٩٥١) وميزان الاعتدال (٥٣٧٨) والمستدرك ١/ ٢٢٢ وفتح الباري ٧/ ٣٦٧.

(٤) ذكره ابن كثير في تفسيره ٣/ ٥٦٣ ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٥٤.

وقال غيره: وكان النبي ﷺ في تلك الحالة في مقام الخوف، وهو أكمل حالات الصلاة، وجاز عنده أن لا يقع النصر يومئذ، لأن وعده بالنصر لم يكن معيناً لتلك الواقعة، وإنما كان مجملاً. هذا هو الذي يظهر من بادىء الرأي.

وإنما قال ﷺ: اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بعد اليوم لأنه علم أنه خاتم النبيين، فلو هلك هو ومن معه حينئذ، لا يبعث أحد ممن يدعو إلى الإيمان.

وأما شدة اجتهاده عليه الصلاة والسلام ونصبه في الدعاء، فإنه رأى الملائكة تنصب في القتال وجبريل على ثناياه الغبار وأنصار الله يخوضون غمرات الموت. والجهاد على ضربين جهاد بالسيف وجهاد بالدعاء، ومن سنة الإمام أن يكون وراء الجند لا يقاتل معه، فكان الكل في جهاد واجتهاد، ولم يكن ليريح نفسه من أحد الجدين والجهادين وأنصارِ الله وملائكته يجتهدون، ولا ليؤثر الدعة وحزب الله مع أعدائه يجتلدون. انتهى.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال عمر بن الخطاب: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً دخل العريش، فاستقبل القبلة ثم مد يديه، وجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني**»... فما زال يهتف بربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم**﴾ [الأنفال: ٩]. مرسل إليكم مداداً لكم ﴿**بألف من الملائكة مردفين**﴾ [الأنفال: ٩]. أي متتابعين بعضهم في إثر بعض[1]. وعلى قراءة فتح الدال معناه: أردف الله المسلمين وجاءهم بهم مداداً.

وفي الآية الأخرى ﴿**بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين**﴾ [آل عمران: ١٢٤]. فقيل معناه: إن الألف أردفهم بثلاثة آلاف. فكان الأكثر مداداً للأقل، وكان الألف مردفين بمن وراءهم. والألف هم الذين قاتلوا مع المؤمنين، وهم الذين قال لهم ﴿**فثبتوا الذين آمنوا**﴾ [الأنفال: ١٢] وكانوا في صور الرجال، ويقولون للمؤمنين: اثبتوا فإن عدوكم قليل وإن الله معكم.

وقال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (١٣٨٤ ـ ١٧٦٣) والدر المنثور ٣/ ١٧٠ وفي تفسير الطبري ٩/ ١٢٧ والقرطبي في تفسيره ٤/ ١٩٣.

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف.

وعن عامر الشعبي: أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين فشق عليهم، فأنزل الله: ﴿**ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين**﴾ إلى قوله: ﴿**مسومين**﴾ [آل عمران: ١٢٤ و ١٢٥]، قال: فبلغت كرزاً الهزيمة فلم يمد المشركين، ولم تمد المسلمون بالخمسة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين، معه رايته، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما أقبل جبريل والملائكة كانت يده في يد رجل من المشركين,فانتزع يده ثم نكص على عقبيه، فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك جار؟

فقال إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب.

وروي أن جبريل نزل في خمسمائة وميكائيل في خمسمائة في صورة الرجال على خيل بلق، عليهم ثياب بيض، وعلى رؤوسهم عمائم بيض، قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم.

وقال ابن عباس: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض، ويوم حنين: عمائم خضر.

وعن علي: كانت سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكانت سيماهم أيضاً في نواصي خيلهم. رواه ابن أبي حاتم.

وروى ابن مردويه عن ابن عباس رفعه، في قوله تعالى: ﴿**مسومين**﴾ [آل عمران: ١٢٥]. قال: معلمين، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود ويوم حنين عمائم خضر.

وروى ابن أبي حاتم عن الزبير: أن الملائكة نزلت وعليهم عمائم صفر.

قيل: ولم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر من الأيام، وكانوا يكونون فيما سواه عدداً ومدداً، وبذلك صرح العماد بن كثير في تفسيره فقال: المعروف من قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، ثم روى عن ابن عباس قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر[١].

وقال ابن مرزوق: ولم تكن تقاتل في غيرها بل يحضرون خاصة على المختار من الأقوال عند بعضهم.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٨٣.

وفي نهاية البيان في تفسير القرآن عند تفسير قوله تعالى: **﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾** [التوبة: ٢٥]. وهل قاتلت الملائكة يومئذ أم لا؟ فيه قولان: أحدهما ـ وهو قول الجمهور ـ أنها لم تقاتل، انتهى.

وهذا يرده حديث مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص أنه رأى عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد ـ يعني جبريل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام ـ يقاتلان كأشد القتال[١].

قال النووي: فيه بيان إكرامه ﷺ بإنزال الملائكة تقاتل معه، وبيان أن قتالهم لم يختص بيوم بدر. قال: وهذا هو الصواب خلافاً لمن زعم اختصاصه، فهذا صريح في الرد عليه. وفيه أن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل يراهم الصحابة والأولياء. انتهى.

قال ابن الأنباري: وكانت الملائكة لا تعلم كيف تقتل الآدميون، فعلمهم الله تعالى بقوله: **﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾** [الأنفال: ١٢]. أي الرؤوس **﴿واضربوا منهم كل بنان﴾** [الأنفال: ١٢]. قال ابن عطية: كل مفصل.

قال السهيلي: جاء في التفسير أنه ما وقعت ضربة يوم بدر إلا في رأس أو مفصل، وكانوا يعرفون قتلى الملائكة من قتلاهم بآثار سود في الأعناق والبنان.

وعن ابن عباس قال: حدثني رجل من بني غفار قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى صعدنا على جبل يشرف على بدر ـ ونحن مشركان ـ ننظر الوقعة على من تكون الدبرة، فننهب مع من ينهب، فبينما نحن في الجبل إذ دنت منا سحابة فيها حمحمة الخيل فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم، فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه في الحال. وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت. رواه البيهقي وأبو نعيم.

والدبرة: ـ بسكون الموحدة ـ الهزيمة في القتال.

وحيزوم:[٢] إسم فرس جبريل. قاله في القاموس.

وروى أبو أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: لقد رأيتنا يوم بدر، وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.. رواه الحاكم وصححه والبيهقي وأبو نعيم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل رقم الحديث (٤٧).
(٢) انظر القاموس المحيط ٤/ ٩٧ مادة (حزم).

قال الشيخ تقي الدين السبكي: سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه.

فقلت: ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش، رعاية لصور الأسباب وسنتها التي أجراها الله تعالى في عباده، والله فاعل الجميع انتهى.

ولما التقى الجمعان، تناول رسول الله ﷺ كفاً من الحصباء، فرمى به في وجوههم وقال: شاهت الوجوه. فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه ومنخريه منها شيء فانهزموا وقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾** [الأنفال: ١٧] قال: هٰذا يوم بدر، أخذ ﷺ ثلاث حصيات، فرمى بحصاة في ميمنة القوم وبحصاة في ميسرة القوم، وبحصاة بين أظهرهم، وقال: **«شاهت الوجوه»** فانهزموا[1].

وقد روي عن غير واحد: أن هذه الآية نزلت في رميه ﷺ يوم بدر، وإن كان فعل ذلك يوم حنين أيضاً كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقد اعتقد جماعة: أن المراد بالآية سلب فعل الرسول عنه، وإضافته إلى الرب تعالى، وجعلوا ذلك أصلاً في الجبر، وإبطال نسبة الأفعال إلى العباد، وتحقيق نسبتها إلى الرب وحده.

وهذا غلط منهم في فهم القرآن، ولو صح ذلك لوجب طرده، فيقال: ما صليت إذ صليت، ولا صمت إذ صمت، ولا فعلت كذا إذ فعلت ولكن الله فعل ذلك، فإن طردوا ذلك لزمهم في أفعال العباد طاعتهم ومعاصيهم إذ لا فرق، وإن خصوه بالرسول وحده وأفعاله جميعها، أو برميه وحده ناقضوا. فهؤلاء لم يوفقوا لفهم ما أريد بالآية.

ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ، فكان منه ﷺ مبدأ الرمي، وهو الحذف، ومن الرب تعالى نهايته وهو الإيصال، فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته.

ونظير هذا في الآية نفسها قوله تعالى: **﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾** [الأنفال: ١٧]. ثم قال: **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾** [الأنفال: ١٧]. فأخبر أنه تعالى

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٨٤ وتهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٣٥١ وفي المعجم الكبير للطبراني ٧/ ٣٥٩.

وحده هو الذي انفرد بإيصال الحصباء إلى أعينهم، ولم يكن برسوله ﷺ، ولكن وجه الإشارة بالآية أنه سبحانه أقام أسباباً تظهر للناس، فكان ما حصل من الهزيمة والقتال والنصر مضافاً إليه وبه وهو خير الناصرين.

قال ابن إسحاق: وقاتل عكاشة بن محصن الأسدي يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب فقال له قاتل به، فهزه فعاد في يده سيفاً طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديد، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قتل وهو عنده.

وجاءه عليه الصلاة والسلام يومئذ ـ فيما ذكره القاضي عياض عن ابن وهب ـ معاذ بن عمرو يحمل يده، ضربه عكرمة عليها فتعلقت بجلدة، فبصق ﷺ عليها فلصقت. قال ابن إسحاق: ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمن عثمان.

وعن عروة بن الزبير، عن عائشة: لما أمر ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب، فطرحوا فيه، إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملأها، فألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة.

وإنما ألقوا في القليب ولم يدفنوا، لأنه عليه الصلاة والسلام كره أن يشق على أصحابه لكثرة جيف الكفار أن يأمرهم بدفنهم فكان جرهم إلى القليب أيسر عليهم[1].

وفي الطبراني عن أنس بن مالك قال: أنشأ عمر بن الخطاب يحدثنا عن أهل بدر فقال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس من بدر، يقول: «**هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله**» قال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدها ﷺ، حتى انتهى إليهم فقال: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقاً؟! فإني وجدت ما وعدني الله حقاً[2].

وفي رواية فنادى: يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا

---

(١) وفي مختصر الروضة للحجازي: وتحرم الصلاة على الكافر ولا يجب على المسلم غسله، ويجوز، وقريبه الكافر أولى، ويجب علينا تكفين الذمي ودفنه، لا حربي ومرتد، بل يجوز إغراء الكلاب عليه، فإن دفن فلئلا يتأذى بريحه.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب (١١٥) رقم الحديث (٢٦٨١) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٧ وما بعدها وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢١٩ وفي النسائي ٤/ ١٠٩ وفي كنز العمال (٣٠٠٢٣) وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٤ ومجمع الزوائد ٦/ ٨٠.

جهل بن هشام: . . وفي بعضه نظر، لأن أمية بن خلف لم يكن في القليب لأنه كان ـ كما تقدم ـ ضخماً وانتفخ فألقوا عليه من الحجارة والتراب ما غيبه. لكن يجمع بينهما بأنه كان قريباً من القليب فنودي فيمن نودي لكونه كان من جملة رؤسائهم.

وقال ابن إسحاق: حدثني بعض أهل العلم أنه ﷺ قال: «**يا أهل القليب، بئس العشيرة كنتم، كذبتموني وصدقني الناس**»[1].

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، كيف تكلم أجساداً لا روح فيها، فقال: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً**»[2].

وتأولت عائشة ذلك فقالت: إنما أراد النبي ﷺ: إنهم الآن ليعلمون أن الذي أقول لهم حق. ثم قرأت ﴿**إنك لا تسمع الموتى**﴾ [النمل: ٨٠] الآية، فقولها يدل على أنها كانت تنكر ذلك مطلقاً، لقولها: إنهم الآن ليعلمون.

وقال قتادة: أحياهم الله تعالى توبيخاً وتصغيراً، ونقمة وحسرة.

وفيه رد على من أنكر أنهم يسمعون، كما روي عن عائشة رضي الله عنها.

ومن الغريب، أن في المغازي ـ لابن إسحاق ـ من رواية يونس بن بكير، بإسناد جيد عن عائشة حديثاً وفيه: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**». وأخرجه الإمام أحمد بإسناد حسن. فإن كان محفوظاً فكأنها رجعت عن الإنكار، لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة، لكونها لم تشهد القصة.

وقال الإسماعيلي: كان عند عائشة من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم ما لا مزيد عليه، لكن لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله، يدل على نسخه أو تخصيصه أو استحالته، فكيف والجمع بين الذي أنكرته وأثبته غيرها ممكن، لأن قوله تعالى: ﴿**إنك لا تسمع الموتى**﴾ [النمل: ٨٠] لا ينافي قوله عليه السلام: «**إنهم الآن ليسمعون**» لأن الإسماع هو إبلاغ الصوت من المسمع في أذن السامع، فالله تعالى هو الذي أسمعهم بأن أبلغهم صوت النبي ﷺ بذلك. وأما جوابها بأنه إنما قال: إنهم ليعلمون، فإن كانت سمعت ذلك فلا ينافي رواية يسمعون بل يؤيدها.

---

(١) ذكره في إتحاف السادة المتقين ١/ ٣٨٠.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الجنة باب (١٧) رقم الحديث (٧٦ ـ ٧٧) والنسائي ٤/ ١٠٩ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٧ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ١٩٨ وفي مجمع الزوائد ٦/ ٩١ إتحاف السادة المتقين ١/ ٣٨٠ وفي كنز العمال (٢٩٨٦٧) وأخرجه أيضاً البخاري في كتاب المغازي باب (٨) رقم الحديث (٣٩٧٦).

وقال السهيلي ما محصله: إن في نفس الخبر ما يدل على خرق العادة بذلك لنبيه ﷺ لقول الصحابة له: أتخاطب أقواماً قد جيفوا؟! فأجابهم بما أجابهم. قال: وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحالة عالمين جاز أن يكونوا سامعين، وذلك إما بآذان رؤوسهم إذا قلنا إن الروح تعاد إلى الجسد، أو إلى بعضه عند المسألة، وهو قول أكثر أهل السنة، وإما بآذان القلب أو الروح على مذهب من يقول بتوجه السؤال إلى الروح من غير رجوع إلى الجسد أو إلى بعضه.

قال: وقد روي عن عائشة أنها احتجت بقوله تعالى: ﴿**وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير**﴾ [فاطر: ٢٢ و ٢٣] وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي**﴾ [الزخرف: ٤٠] أي إن الله هو الذي يهدي ويوفق ويوصل الموعظة إلى آذان القلوب لا أنت. وجعل الكفار أمواتاً وصماً على جهة التشبيه بالأموات وبالصم، فالله هو الذي يسمعهم على الحقيقة إذا شاء، لا نبيه ولا أحد، فإذاً لا تعلق بالآية من وجهين:

أحدهما: أنها إنما نزلت في دعاء الكفار إلى الإيمان.

الثاني: أنه إنما نفى عن نبيه أن يكون هو المسمع لهم، وصدق الله فإنه لا يسمعهم إذا شاء إلا هو، يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير. انتهى ولقد أحسن العلامة ابن جابر[1] حيث قال:

| | |
|---|---|
| بدا يوم بدر وهو كالبدر حوله | كواكب في أفق الكواكب تنجلي |
| وجبريل في جند الملائك دونه | فلم تغن أعداد العدو المخذل |
| رمى بالحصى في أوجه القوم رمية | فشردهم مثل النعام المجفل |
| وجاد لهم بالمشرفي فسلموا | فجاد له بالنفس كل مجندل |
| عبيدة سل عنهم وحمزة واستمع | حديثهم في ذلك اليوم من علي |
| فهم عتبوا بالسيف عتبة إذ غدا | فذاق الوليد الموت ليس له ولي |
| وشيبة لما شاب خوفاً تبادرت | إليه العوالي بالخضاب المعجل |
| وجال أبو جهل فحقق جهله | غداة تردى بالردى عن تذلل |
| فأضحى قليباً في القليب وقومه | يؤمونه فيها إلى شر منهل |

(١) هو محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الهواري المالكي أبو عبد الله شمس الدين (٦٩٨ - ٧٨٠ هـ). شاعر عالم بالعربية اشتهر بالأعمى والبصير. مات في «البيرة». الأعلام ٥/٣٢٨ مفتاح السعادة ١/١٥٦ بغية الوعاة ١٤ نفح الطيب ٢/٦٦٨ الدرر الكامنة ٣/٣٣٩ رقم الترجمة (٩٠٠) شذرات الذهب ٦/٢٦٨.

وجـاء لهـم خيـر الأنـام مـوبخـاً | ففتـح مـن أسمـاعهـم كـل مقفـل
وأخبـر مـا أنتـم بـأسمـع منهـم | ولكنهـم لا يهتـدون لمقـول
سـلا عنهـم يـوم السلا إذا تضـاحكـوا | فعـاد بكـاء عـاجـلاً لـم يـؤجـل
ألـم يعلمـوا علـم اليقيـن بصـدقـه | ولكنهـم لا يـرجعـون لمعقـل
فيـا خيـر خلـق الله جـاهـك ملجئـي | وحبك ذخـري فـي الحسـاب ومـوئلـي
عليـك صـلاة يشمـل الآل عـرفهـا | وأصحـابـك الأخيـار أهـل التفضـل

وحكى العلامة ابن مرزوق: أن ابن عمر رضي الله عنهما مر مرة ببدر فإذا رجل يعذب ويئن، فلما اجتاز به ناداه: يا عبد الله، قال ابن عمر، رضي الله عنهما: فلا أدري أعرف اسمي أم كما يقول الرجل لمن يجهل اسمه يا عبد الله، فالتفت إليه، فقال: اسقني، فأردت أن أفعل، فقال الأسود الموكل بتعذيبه: لا تفعل يا عبد الله، فإن هذا من المشركين الذين قتلهم رسول الله ﷺ ببدر. ورواه الطبراني في الأوسط.

قال: ومن آيات بدر الباقية، ما كنت اسمعه من غير واحد من الحجاج أنهم إذا اجتازوا بذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل ملوك الوقت، ويرون أن ذلك لنصر أهل الإيمان، قال: وربما أنكرت ذلك، وربما تأولته بأن الموضع لعله صلب فتستجيب فيه حوافر الدواب، فكان يقال لي: إنه دهس رمل غير صلب، وغالب ما يسير هناك الإبل وإخفافها لا تصوت في الأرض الصلبة، فكيف بالرمال؟ قال ثم لما منَّ الله عليه بالوصول إلى ذلك الموضع المشرف، نزلت عن الراحلة أمشي وبيدي عود طويل من شجر السعدان المسمى بأم غيلان، وقد نسيت ذلك الخبر الذي كنت أسمع، فما راعني وأنا أسير في الهاجرة إلا وواحد من عبيد الأعراب الجمالين يقول: أتسمعون الطبل، فأخذتني ـ لما سمعت كلامه ـ قشعريرة بينة وتذكرت ما كنت أخبرت به، وكان في الجو بعض ريح، فسمعت صوت الطبل، وأنا دهش مما أصابني من الفرح أو الهيبة، أو ما الله أعلم به، فشككت، وقلت: لعل الريح سكنت في هذا العود الذي في يدي وحدث مثل هذا الصوت، وأنا حريص على طلب التحقيق لهذه الآية العظيمة، فألقيت العود من يدي، وجلست على الأرض، أو ثبت قائماً، أو فعلت جميع ذلك، فسمعت صوت الطبل سماعاً محققاً، أو صوتاً لا أشك فيه أنه صوت طبل، وذلك من ناحية اليمين ونحن سائرون إلى مكة المشرفة، ثم نزلنا إلى بدر، فظللت أسمع ذلك الصوت يومي أجمع، المرة بعد المرة.

قال: لقد أخبرت أن ذلك الصوت لا يسمعه جميع الناس اهـ.

وروى الطبراني من حديث أبي اليسر[1]، أنه أسر العباس، وقيل للعباس ـ وكان جسيماً ـ كيف أسرك أبو اليسر وهو دميم، ولو شئت لجعلته في كفك، فقال: ما هو إلا أن لقيته فظهر في عيني كالخندمة ـ وهي بالخاء المعجمة ـ جبل من جبال مكة، قاله في القاموس.

ولما ولي عمر بن الخطاب وثاق الأسرى شد وثاق العباس، فسمعه النبي ﷺ وهو يئن فلم يأخذه النوم، فبلغ الأنصار، فأطلقوا العباس، فكأن الأنصار فهموا رضى رسول الله ﷺ بفك وثاقه، وسألوه أن يتركوا له الفداء طلباً لتمام رضاه فلم يجبهم.

وفي حديث أنس عند الإمام أحمد: استشار ﷺ الناس في الأسرى يوم بدر فقال: «**إن الله قد أمكنكم منهم**»، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم، فأعرض عنه عليه السلام، ثم عاد ﷺ فقال: «**يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم**». فقال عمر: يا رسول الله، اضرب أعناقهم، فأعرض عنه عليه السلام، فعل ذلك ثلاثاً، فقام أبو بكر فقال يا رسول الله، أرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، فذهب من وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله ﴿**لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً**﴾ [الأنفال: ٦٨ و ٦٩][2]. الآية. ويأتي الكلام عليها في النوع العاشر في إزالة الشبهات من الآيات المشكلات من المقصد السادس إن شاء الله تعالى.

وأخرج ابن إسحاق من حديث ابن عباس أنه ﷺ قال: «**يا عباس، افد نفسك وابني أخيك، عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو**». قال إني كنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني. قال: «**الله تعالى أعلم بما تقول، إن يكن ما تقول حقاً فإن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا**»[3].

وذكر موسى بن عقبة أن فداءهم كان أربعين أوقية ذهباً.

وعند أبي نعيم في الدلائل بإسناد حسن من حديث ابن عباس أنه جعل على العباس

---

(١) هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري السلمي الخزرجي (أبو عبد الله). صحابي شاعر توفي سنة (٥٠ هـ) وقيل (٥٥ هـ). الأعلام ٥/ ٢٨٨. نكت الهميان ٢٣١ خزانة الأدب ١/ ٢٠٠ والإصابة ٥/ ٣٠٨ رقم الترجمة (٧٤٢٧) (وكنيته: أبو بشير وقيل أبو عبد الرحمن).

(٢) هو في المسند ٣/ ٢٤٣ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٨٧ والبداية ٣/ ٢٩٧ وفي تفسير ابن كثير ٤/ ٣٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٣٥٣ وفي تهذيب تاريخ دمشق ٧/ ٢٣٢ وفي فتح الباري ٧/ ٤٠٩ رقم (٤٠١٨) وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢٧ [الأنفال: ٧٠].

مائة أوقية وعلى عقيل ثمانين، فقال له العباس: اللقرابة صنعت هذا؟ فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم﴾ [الأنفال: ٧٠]. الآية. فقال العباس: وددت لو أخذ مني أضعافها لقوله تعالى ﴿يؤتكم خيراً مما أُخذ منكم﴾[الأنفال:٧٠][1].

وكان قد استشهد يوم بدر من المسلمين أربعة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، ستة من الخزرج، واثنان من الأوس[2].

تنبيه: لا يقدح في وعد الله أن استشهد هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، وإنما هذا الوعد كقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ إلى قوله: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ [التوبة: ٢٩]. فقد نجز الموعود وغلبوا كما وعدوا، فكان وعد الله مفعولاً ونصره للمؤمنين ناجزاً والحمد لله.

وقتل من المشركين سبعون، وأسر سبعون، وكان من أفضلهم العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وكل أسلم.

وكان العباس رضي الله عنه ـ فيما قاله أهل العلم بالتاريخ ـ قد أسلم قديماً، وكان يكتم إسلامه، وخرج مع المشركين يوم بدر فقال النبي ﷺ: من لقي العباس فلا يقتله، فإنه خرج مستكرهاً، ففادى نفسه ورجع إلى مكة.

وقيل إنه أسلم يوم بدر، فاستقبل النبي ﷺ يوم الفتح بالأبواء، وكان معه حين فتح مكة، وبه ختمت الهجرة.

وقيل أسلم يوم فتح خيبر.

وقيل كان يكتم إسلامه وأظهره يوم فتح مكة، وكان إسلامه قبل بدر، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى النبي ﷺ، وكان يحب القدوم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه عليه الصلاة والسلام: «إن مقامك بمكة خير لك».

وقيل إن سبب إسلامه، أنه خرج لبدر بعشرين أوقية من ذهب ليطعم بها

---

(١) انظر تفسير البغوي ٢/ ٢٢١ [الأنفال: ٧٠] ـ وأسباب النزول للواحدي ١٣٧. ورواه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس.

(٢) من المهاجرين: عبيدة بن الحارث ـ ومهجع مولى عمر ـ وعمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص ـ وعاقل بن البكير الليثي ـ وصفوان بن بيضاء الفهري ـ وذو الشمالين عمير بن عبد عمرو بن نضلة الخزاعي. من الأنصار: عوف بن عفراء ـ وشقيقه معوذ بن عفراء ـ وحارثة بن سراقة ـ ويزيد بن الحارث ـ ورافع بن المعلى ـ وعمير بن الحمام ـ [من الأوس]: سعد بن خيثمة ـ ومبشر بن عبد المنذر.

المشركين، فأُخذت منه في الحرب، فكلم النبي ﷺ أن يحسب العشرين أوقية من فدائه، فأبى وقال: «**أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا نتركه لك**»، فقال العباس تركتني أتكفف قريشاً، فقال له ﷺ: «**فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة**» فقال العباس: وما يدريك؟ فقال: «**أخبرني ربي**»، فقال: أشهد أنك صادق، فإن هذا لم يطلع عليه أحد إلا الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله.[1].

ولما فرغ ﷺ من بدر في آخر رمضان وأول يوم من شوال، بعث زيد بن حارثة بشيراً فوصل المدينة ضحى، وقد نفضوا أيديهم من تراب رقية بنت رسول الله ﷺ، وهذا هو الصحيح في وفاة رقية[2].

وقد روي أنه ﷺ شهد دفن بنتـه رقية، فقعد على قبرها ودمعت عيناه، وقال «**أيكم لم يقارف الليلة**» فقال أبو طلحة أنا، فأمره أن ينزلها قبرها.

وأنكر البخاري هذه الرواية، وخرج الحديث في الصحيح فقال فيه: عن أنس. شهدنا دفن بنت رسول الله ﷺ وذكر الحديث ولم يسم رقية ولا غيرها.

وذكر الطبراني أنها أم كلثوم فحصل في حديث الطبراني التبيين. ومن قال: كانت رقية فقد وهم.

وكان عثمان قد تخلف لأجل رقية زوجته فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره.

وأمر ﷺ عند انصرافه عاصم بن ثابت ـ وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب ـ بقتل عقبة بن أبي معيط، فقتله صبراً.

ثم أقبل عليه السلام قافلاً إلى المدينة ومعه الأسرى من المشركين، واحتمل النفل الذي أصيب منهم، وجعل عليه عبد الله بن كعب من بني مازن. فلما خرج من مضيق الصفراء قسم النفل بين المسلمين على السواء.

وأمر علياً بالصفراء بقتل النضر بن الحارث.

ثم مضى ﷺ حتى قدم المدينة قبل الأسرى بيوم. فلما قدموا فرقهم بين أصحابه وقال: استوصوا بهم خيراً.

وقد استقر الحكم في الأسرى عند الجمهور من العلماء: أن الإمام مخير فيهم، إن شاء قتل كما فعل ﷺ ببني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف مقرر في كتب الفقه والله أعلم.

---

(١) انظر تفسير البغوي ٢/ ٢٢١ [الأنفال: ٧٠].

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ١٣.

ولما قدم أبو سفيان بن الحارث من بدر لمكة، سأله أبو لهب عن خبر قريش. فقال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وأيم الله ـ مع ذلك ـ ما لمت الناس. لقينا رجالٌ بيض على خيل بلق بين السماء والأرض، والله لا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع ـ مولى رسول الله ﷺ وكان غلاماً للعباس بن عبد المطلب قال: وكان الإسلام قد دخلنا ـ فقلت: والله تلك الملائكة. فرفع أبو لهب يده فضربني في وجهي ضربة، فقامت أم الفضل إلى عمود فضربت به في رأس أبي لهب وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده.

قال: فوالله ما عاش إلا سبع ليال، حتى رماه الله بالعدسة، وهي قرحة كانت العرب تتشاءم بها. وقيل إنها تعدي أشد العدوى، فتباعد عنه بنوه حتى قتله الله، وبقي بعد موته ثلاثاً لا تقرب جنازته ولا يحاول دفنه. فلما خافوا السبة في تركه حفروا له ثم دفعوه بعود في حفرته، وقدفوا بالحجارة من بعيد حتى واروه.

وقال ابن عقبة: أقام النوح على قتلى قريش شهراً.

ثم سرية عمير بن عدي الخطمي[1]، وكانت لخمس ليال بقين من رمضان، على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة، إلى عصماء بنت مروان ـ زوج يزيد بن زيد الخطمي ـ وكانت تعيب الإسلام، وتؤذي رسول الله ﷺ، فجاءها ليلاً، وكان أعمى، فدخل عليها بيتها، وحولها نفر من ولدها نيام، منهم من ترضعه، فجسها بيده، ونحى الصبي عنها، ووضع سيفه على صدرها، حتى أنفذه من ظهرها. ثم صلى الصبح معه ﷺ بالمدينة وأخبره بذلك، فقال: «**لا ينتطح فيها عنزان**» أي لا يعارض فيها معارض ولا يسأل عنها فإنها هدر.

قالوا: وهذا من الكلام المفرد الموجز البليغ، الذي لم يسبق إليه ﷺ، وسيأتي لذلك نظائر إن شاء الله تعالى.

## [غزوة قرقرة الكُدْر] [2]

وفي أول شوال صلى صلاة الفطر.

وفي أول شوال أيضاً ـ وقيل بعد بدر بسبعة أيام، وقيل في نصف المحرم سنة

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٢٠ والمغازي للواقدي (١٧٢).

(٢) انظر السيرة لابن هشام ٣/ ٤٦ وطبقات ابن سعد ٢/ ٢٣ وتاريخ الطبري ٢/ ٤٨٧ والمغازي للواقدي=

ثلاث ـ خرج ﷺ يريد بني سليم، فبلغ ماء يقال له الكدر، وتعرف بغزوة قرقرة، وهي أرض ملساء.

والكدر: طير في ألوانها كدرة عرف بها ذلك الموضع.

فأقام بها عليه السلام ثلاثاً، وقيل عشراً، فلم يلق أحداً. وكانت غيبته ﷺ خمس عشرة ليلة، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة، وقيل ابن أم مكتوم، وحمل اللواء علي بن أبي طالب.

وذكرها ابن سعد بعد غزوة السويق.

ثم سرية سالم بن عمير[1] إلى أبي عفك اليهودي ـ وكان شيخاً كبيراً، قد بلغ عشرين ومائة سنة ـ وكان يحرض على النبي ﷺ، ويقول فيه الشعر، فأقبل إليه سالم ووضع سيفه على كبده ثم اعتمد عليه حتى خش في الفراش، فصاح عدو الله أبو عفك. فثار إليه أناس ممن هم على قوله، فأدخلوه منزله فقتل.

وكانت هذه السرية في شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة.

ثم غزوة بني قينقاع[2] ـ بتثليث النون، والضم أشهر ـ بطن من يهود المدينة، لهم شجاعة وصبر.

وكانت يوم السبت نصف شوال، على رأس عشرين شهراً من الهجرة.

وقد كانت الكفار بعد الهجرة مع النبي ﷺ على ثلاثة أقسام:

● قسم وادعهم ﷺ على أن لا يحاربوه ولا يؤلبوا عليه عدوه وهم طوائف اليهود الثلاثة: قريظة والنضير وبنو قينقاع.

● وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة كقريش.

● وقسم تاركوه، وانتظروا ما يؤول إليه أمره، كطوائف من العرب. فمنهم من كان يحب ظهوره في الباطن كخزاعة. وبالعكس كبني بكر. ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوه باطناً، وهم المنافقون.

وكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم ﷺ في شوال بعد وقعة بدر. قال الواقدي بشهر.

---

= ١٨٢ وانظر معجم البلدان ٤/ ٤٤١ مادة (كُدر) وانظر شرح المواهب ١/ ٤٥٤ والبداية والنهاية ٣/ ٣٤٦.

(١) انظر المغازي للواقدي ١٧٤ وطبقات ابن سعد ٢/ ٢١ وانظر شرح المواهب ١/ ٤٥٥.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٢/ ٤٧٩ والسيرة لابن هشام ٣/ ٥٠ وطبقات ابن سعد ٢/ ٢١ ووفاء الوفاء ٢/ ٣٥٦ والمغازي للواقدي ١٧٦ وفي شرح المواهب للزرقاني ١/ ٤٥٦ والبداية والنهاية ٤/ ٤.

وأغرب الحاكم، فزعم أن إجلاء بني قينقاع وإجلاء بني النضير كان في زمن واحد، ولم يوافق على ذلك، لأن إجلاء بني النضير كان بعد بدر بستة أشهر، على قول عروة، أو بعد ذلك بمدة طويلة على قول ابن إسحاق.

وكان من أمر بني قينقاع، أن امرأة من العرب جلست إلى صائغ يهودي، فراودها على كشف وجهها، فأبت فعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، ووقع الشر بين المسلمين وبين بني قينقاع[1].

فسار إليهم النبي ﷺ بعد أن استخلف أبا لبابة بن عبد المنذر.

فحاصرهم أشد الحصار، خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي العقدة، وكان اللواء بيد حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض، فقذف الله في قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ، على أن لهم أموالهم، وأن لهم النساء والذرية.

فأمر عليه الصلاة والسلام المنذر بن قدامة بتكتيفهم.

وكلم عبد الله بن أُبي بن سلول رسول الله ﷺ فيهم، وألح عليه من أجلهم. فأمر ﷺ أن يجلوا، وتركهم من القتل، وأمر أن يجلوا من المدينة، فلحقوا بأذرعات. فما كان أقل بقاءهم فيها. وأخذ من حصنهم سلاحاً وآلة كثيرة.

وكانت بنو قينقاع حلفاء لعبد الله بن أبي، وعبادة بن الصامت، فتبرأ عبادة من حلفهم، فقال: يا رسول الله، أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم. ففيه وفي عبد الله أنزل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض**﴾ [المائدة: ٥١]. إلى قوله: ﴿**فإن حزب الله هم الغالبون**﴾ [المائدة: ٥٦].

ثم غزوة السويق[2] في ذي الحجة، يوم الأحد لخمس خلون منها، على رأس اثنين وعشرين شهراً من الهجرة، وقال ابن إسحاق في صفر.

وسميت: غزوة السويق، لأنه كان أكثر زاد المشركين، وغنمه المسلمون.

واستخلف أبا لبابة.

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ٣/ ٥١ وانظر البداية والنهاية ٤/ ٤ وطبقات ابن سعد ٢/ ٢١.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٢/ ٤٨٣ والسيرة لابن هشام ٣/ ٤٧ ووفاء الوفاء ٢/ ٣٤٤ والمغازي للواقدي ١٨٢ وطبقات ابن سعد ٢/ ٢٢ وشرح المواهب ١/ ٤٥٨.

وكان سبب هذه الغزوة أن أبا سفيان حين رجع بالعير من بدر إلى مكة نذر لا يمس النساء والدهن حتى يغزو محمداً ـ عليه السلام ـ فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه: حتى أتوا العريض ـ ناحية من المدينة على ثلاثة أميال ـ فحرقوا نخلاً وقتلوا رجلاً من الأنصار، فرأى أبو سفيان أن قد انحلت يمينه، فانصرف بقومه راجعين.

وخرج ﷺ في طلبهم، في مائتين من المهاجرين والأنصار، وجعل أبو سفيان وأصحابه يلقون جرب السويق ـ وهي عامة أزوادهم ـ يتخففون للهرب، فيأخذها المسلمون، ولم يلحقهم عليه الصلاة والسلام، فرجع إلى المدينة.

وكانت غيبته خمسة أيام.

وفي ذي الحجة صلى رسول الله ﷺ صلاة العيد وأمر بالأضحية[1].

وفيه مات عثمان بن مظعون.

وفي شوال ولد عبد الله بن الزبير.

وفي هذه السنة تزوج علي فاطمة[2] رضي الله عنهما، كما قاله الحافظ مغلطاي.

وقال الطبري في كتابه «ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى»: تزوجها في صفر في السنة الثانية، وبنى بها في ذي الحجة على رأس اثنين وعشرين شهراً من التاريخ.

وقال أبو عمر بعد وقعة أحد.

وقال غيره: بعد بنائه ﷺ بعائشة رضي الله عنها بأربعة أشهر ونصف، وبنى بها بعد تزويجها بسبعة أشهر ونصف.

وتزوجها وهي ابنة خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ـ أو ستة ونصف ـ وسنه يومئذ إحدى وعشرون سنة وخمسة أشهر. ولم يتزوج عليها حتى ماتت.

وعن أنس قال: جاء أبو بكر ثم عمر يخطبان فاطمة إلى النبي ﷺ فسكت ولم يرجع إليهما شيئاً، فانطلقا إلى علي يأمرانه بطلب ذلك. قال علي: فنبهاني لأمر، فقمت أجر ردائي حتى أتيت النبي ﷺ. فقلت: تزوجني فاطمة؟ قال: «**وعندك شيء**» قلت: فرسي وبدني، فقال: «**أما فرسك فلا بد لك منها وأما بدنك فبعها**»، فبعتها بأربعمائة درهم وثمانين، فجئته بها، فوضعها في حجره، فقبض منها قبضة وقال: «**أي بلال: ابتع**

---

(١) ذكر بعض وقائع السنة الثانية للهجرة. في شرح المواهب ١/ ٤٦٠.
(٢) انظر شرح المواهب ٢/ ٣.

**لنا بها طيباً»**. وأمرهم أن يجهزوها، فجعل لها سرير مشرَّط، ووسادة من أدم حشوها ليف. وقال لعلي: «**إذا أتتك فلا تحدث شيئاً حتى آتيك**».

فجاءت أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت وأنا في جانب، وجاء رسول الله ﷺ فقال: «**ها هنا أخي**»، قالت أم أيمن: أخوك وقد زوجته ابنتك؟ قال: «**نعم**». ودخل ﷺ فقال لفاطمة: «**ائتني بماء**»، فقامت إلى قعب في البيت فأتت فيه بماء فأخذه ومج فيه ثم قال لها: «**تقدمي**» فتقدمت، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال: «**اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**». ثم قال لها: «**أدبري**» فأدبرت فصب بين كتفيها. ثم فعل مثل ذلك بعلي. ثم قال: «**ادخل بأهلك بسم الله والبركة**»[1]. أخرجه أبو حاتم، وأحمد في المناقب بنحوه.

وفي حديث أنس عند أبي الخير القزويني الحاكمي: خطبها علي بعد أن خطبها أبو بكر ثم عمر فقال ﷺ: «**قد أمرني ربي بذلك**».

قال أنس: ثم دعاني عليه السلام بعد أيام فقال لي يا أنس: «**ادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن وعدة من الأنصار**»، فلما إجتمعوا وأخذوا مجالسهم وكان علي غائباً فقال ﷺ.

**الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع بسلطانه، المرهوب من عذابه وسطوته، النافذ أمره في سمائه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميزهم بأحكامه، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ. إن الله تبارك اسمه وتعالت عظمته جعل المصاهرة سبباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً، أوشج به الأرحام، وألزم به الأنام، فقال عز من قائل** ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً﴾ [الفرقان: ٥٤]. **فأمر الله تعالى يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل قضاء قدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. ثم إن الله عزّ وجل أمرني أن أزوج فاطمة من علي بن أبي طالب، فاشهدوا أني قد زوجته على أربعمائة مثقال فضة إن رضي بذلك علي.**

ثم دعا ﷺ بطبق من بسر ثم قال: **انتهبوا فانتبهنا**.

ودخل علي فتبسم النبي ﷺ في وجهه ثم قال: «**إن الله عزّ وجل أمرني أن أزوجك فاطمة على أربعمائة مثقال فضة، أرضيت بذلك؟**» فقال قد رضيت بذلك يا رسول الله،

---

(١) أخرجه مسلم رقم الحديث (١٠٧١) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/١٢٦ وهو في كنز العمال (٣٧٧٥٥).

فقال عليه السلام: «**جمع الله شملكما وأعز جدكما، وبارك عليكما، وأخرج منكما كثيراً طيباً**».

قال أنس: فوالله لقد أخرج الله منهما الكثير الطيب.

والعقد لعلي وهو غائب محمول على أنه كان له وكيل حاضر، أو على أنه لم يرد به العقد، بل إظهار ذلك، ثم عقد معه لما حضر، أو على تخصيصه بذلك، جمعا بينه وبين ما ورد، مما يدل على شرط القبول على الفور.

وأخرج الدولابي، عن أسماء قالت: لقد أولم علي على فاطمة، فما كان وليمة في ذلك الزمان أفضل من وليمته، رهن درعه عند يهودي بشطر شعير، وكانت وليمته آصعاً من شعير وتمر وحيس. والحيس: التمر والأقط.

وأخرج أحمد في المناقب عن علي: كان جهاز فاطمة خميلة وقربة ووسادة من أدم حشوها ليف.

ثم سرية محمد بن مسلمة[1] وأربعة معه إلى كعب بن الأشرف اليهودي، لأربع عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة.

روى أبو داود والترمذي من طريق الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه: أن كعب بن الأشرف كان شاعراً، وكان يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه كفار قريش. وكان النبي ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاط، فأراد إستصلاحهم، وكان اليهود والمشركون يؤذون المسلمين أشد الأذى، فأمر رسول الله ﷺ بالصبر.

فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذاه، أمر رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً ليقتلوه[2].

وفي رواية قال ﷺ: «**من لنا بابن الأشرف**»؟ ـ وفي أخرى: «**من لكعب بن الأشرف**» أي من ينتدب لقتله ـ «**فقد استعلن بعداوتنا وهجانا، وقد خرج إلى قريش فجمعهم إلى قتالنا. وقد أخبرني الله بذلك**»[3]. ثم قرأ على المسلمين ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من**

---

(١) انظر المغازي للواقدي ١٨٤ وطبقات ابن سعد ٢/ ٢٤ ووفاء الوفاء ٢/ ٢٦٢ والبداية والنهاية ٤/ ٦ والسيرة لابن هشام ٣/ ٥٨ وتاريخ الطبري ٢/ ٤٨٧ وشرح المواهب ٢/ ٨.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب [الخراج والفيء والإمارة] باب (٢٢) رقم الحديث (٣٠٠٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرهن باب (٣) رقم الحديث (٢٥١٠ ـ ٣٠٣١ ـ ٣٠٣٢ ـ ٤٠٣٧ ـ ٤٥٦٦) وذكره الحاكم في المستدرك ٣/ ٤٣٤ وفي طبقات ابن سعد ٢/ ٢٤.

**الذين آمنوا سبيلاً، أولئك الذين لعنهم الله﴾** [النساء: ٥١ و ٥٢].

وفي الإكليل: فقد آذانا بشعره، وقوى المشركين.

وفي رواية ابن إسحاق: فقال محمد بن مسلمة، أخو بني عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: «**فافعل إن قدرت على ذلك**». قال: يا رسول الله إنه لا بد لنا أن نقول، قال: «**قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك**».

فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة وأبو نائلة ـ بنون وبعد الألف تحتانية ـ سلكان بن سلامة ـ وكان أخا كعب من الرضاعة ـ وعباد بن بشر، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبر. وهؤلاء الخمسة من الأوس.

وفي رواية ابن سعد: فلما قتلوه وبلغوا بقيع الغرقد كبروا، وقد قام عليه السلام تلك الليلة يصلي، فلما سمع تكبيرهم كبر وعرف أن قد قتلوه، ثم انتهوا إليه فقال: «**أفلحت الوجوه**»[(١)]. قالوا: أفلح وجهك يا رسول الله، ورموا برأسه بين يديه، فحمد الله على قتله.

وفي كتاب «شرف المصطفى» أن الذين قتلوا كعباً حملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة، فقيل إنه أول رأس حمل في الإسلام.

وأصاب ذباب السيف الحارث بن أوس فجرح ونزف الدم فتفل عليه على جرحه فلم يؤذه بعد.

غزوة غطفان، وهي غزوة ذي أمر[(٢)] ـ بفتح الهمزة والميم ـ وسماها الحاكم غزوة أنمار. وهي بناحية نجد.

وكانت لثنتي عشرة مضت من ربيع الأول على رأس خمس وعشرين شهراً من الهجرة.

وسببها: أن جمعاً من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا يريدون الإغارة، جمعهم دعثور بن الحارث المحاربي ـ وسماه الخطيب: غورث، وغيره: غورك ـ وكان شجاعاً.

فندب ﷺ المسلمين وخرج في أربعمائة وخمسين فارساً، واستخلف على المدينة

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٠ والحاكم في المستدرك ٣/ ٤٣٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٢٥٦ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٩٨ والبداية ٤/ ١٤٢.

(٢) انظر المغازي للواقدي ١٩٣ وتاريخ الطبري ٢/ ٤٨٧ والسيرة لابن هشام ٣/ ٤٩ ووفاء الوفاء ٢/ ٢٦٢ شرح المواهب ٢/ ١٤ وطبقات ابن سعد ٢/ ٢٦.

عثمان بن عفان. فلم سمعوا بمهبطه ﷺ عليهم هربوا في رؤوس الجبال، فأصابوا رجلاً منهم يقال له: حبان من بني ثعلبة، فأدخل على رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلم، وضمه إلى بلال.

وأصاب النبي ﷺ مطر فنزع ثوبيه ونشرهما على شجرة ليجفا، واضطجع تحتها، وهم ينظرون، فقالوا لدعثور: قد إنفرد محمد فعليك به، فأقبل ومعه سيف حتى قام على رأسه ﷺ فقال: من يمنعك مني اليوم؟ فقال ﷺ: «الله» فدفع جبريل في صدره، فوقع السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ فقال: «**من يمنعك مني**»؟ فقال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله ألا الله وأنك رسول الله. ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام. وأنزل الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم**﴾ [المائدة: ١١]. الآية[١].

ويقال كان ذلك في ذات الرقاع.

ثم رجع ﷺ ولم يلق كيداً، وكانت غيبته إحدى عشرة ليلة.

غزوة بحران[٢] وتسمى غزوة بني سليم، من ناحية الفرع ـ بفتح الفاء والراء ـ كما قيده السهيلي، وقال في القاموس: وبحران موضع بناحية الفرع، كذا رأيته بخطه بضم الفاء لا غير.

وسببها: أنه بلغه ﷺ أن بها جمعاً كبيراً من بني سليم، فخرج في ثلاثمائة رجل من أصحابه، فوجدهم قد تفرقوا في مياههم، فرجع ولم يلق كيداً.

وكان قد إستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، كما قاله ابن هشام، وكانت غيبته عشر ليال.

سرية زيد بن حارثة[٣] إلى القردة ـ بالقاف المفتوحة وسكون الراء، وقيل بالفاء

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٣٦٥ وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٣٩ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ١٦٨ وفي تغليق التعليق لابن حجر (١١٥٠) ومشكاة المصابيح للتبريزي (٥٣٠٥) وفي طبقات ابن سعد ٢/ ٢٦ والسنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٦٧ وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١٩٣ وفي أخلاق النبوة (٤٣) وفي سنن سعيد بن منصور (٢٥٠٤) وكنز العمال (٣١٨٢٣).

(٢) انظر السيرة لابن هشام ٣/ ٥٠ والمغازي للواقدي ١٩٦ وطبقات ابن سعد ٢/ ٢٧ والبداية ٤/ ٤ ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ١٧٢ وانظر معجم ما استعجم ١/ ٢٢٨ وشرح المواهب ٢/ ١٤.

(٣) انظر تاريخ الطبري ٢/ ٤٩٢ والسيرة لابن هشام ٣/ ٥٣ والمغازي للواقدي ١٩٧ وطبقات ابن سعد ٢/ ٢٧ والبداية ٤/ ٥ وشرح المواهب ٢/ ١٧.

وكسر الراء، كما ضبطه ابن الفرات[1] ـ إسم ماء من مياه نجد[2].

وسببها: ـ كما قال ابن إسحاق ـ أن قريشاً خافوا من طرقهم التي يسلكون إلى الشام، حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب، ومعهم فضة كثيرة.

وعند ابن سعد: بعثه ﷺ لهلال جمادى الآخرة على رأس ثمانية وعشرين شهراً من الهجرة، في مائة راكب يعترض عيراً لقريش فيها صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى، ومعهم مال كثير وآنية فضة. فأصابوها وقدموا بالعير على رسول الله ﷺ، وخمسها فبلغ الخمس قيمة عشرين ألف درهم.

وعند مغلطاي: خمسة وعشرين ألف درهم.

وذكرها ابن إسحاق قبل قتل ابن الأشرف.

[ثم غزوة أحد][3] وهو جبل مشهور بالمدينة على أقل من فرسخ منها.

وسمي بذلك لتوحده وإنقطاعه عن جبال أخر هناك، ويقال له: ذو عينين، قال في القاموس: بكسر العين وبفتحها مثنى، جبل بأحد. انتهى.

وهو الذي قال فيه ﷺ: **«أحد جبل يحبنا ونحبه»**[4]

وقيل: وفيه قبر هارون، أخي موسى، عليهما السلام.

وكانت عنده الوقعة المشهورة، في شوال سنة ثلاث بالإتفاق، يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت منه ـ وقيل لسبع ليال خلون منه، وقيل في نصفه ـ .

وعن مالك: بعد بدر بسنة، وعنه أيضاً: كانت على أحد وثلاثين شهراً من الهجرة.

---

(١) هو محمد بن العباس بن أحمد بن محمد بن الفرات، أبو الحسن (٣١٩ ـ ٣٨٤ هـ) حافظ. الأعلام ٦/ ١٨٣، المنتظم ١٤/ ٣٧١ رقم الترجمة (٢٩٠٥)، تاريخ بغداد ٣/ ١٢٢ وتذكرة الحفاظ ٣/ ١٠١٥ رقم الترجمة (٩٤٦)، العبر ٣/ ٢٦.

(٢) انظر معجم البلدان ٤/ ٣٢٢ مادة (قردة).

(٣) انظر تاريخ الطبري ٢/ ٤٩٩ والسيرة لابن هشام ٣/ ٦٤ طبقات ابن سعد ٢/ ٢٨ والمغازي للواقدي ١٩٩ والبداية ٤/ ١٠ وصحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ١٤٧ ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٠١ ومعجم البلدان ١/ ١٠٩ مادة (أحد). وشرح المواهب ٢/ ١٨.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة باب (٥٤) رقم الحديث (١٤٨١) والمعجم الكبير للطبراني ٧/ ١٠٦ وفي ميزان الإعتدال (٣١٤٣) ومجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ١٣ وفي إتحاف السادة المتقين ١/ ١٦٥ وفي كنز العمال (٣٤٩٨٦) وفي فتح الباري ٣/ ٤٨١. و ٧/ ٤٣٩.

وكان سببها. كما ذكره ابن إسحاق عن شيوخه، وموسى بن عقبة عن ابن شهاب، وأبو الأسود عن عروة، وابن سعد، قالوا ـ أو من قال منهم ـ ما حاصله.

إن قريشاً لما رجعوا من بدر إلى مكة، وقد أصيب أصحاب القليب، ورجع أبو سفيان بعيره، قال عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة ابن أبي جهل، في جماعة ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم وأبناؤهم يوم بدر: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه ـ يعنون عير أبي سفيان، ومن كانت له في تلك العير تجارة ـ لعلنا أن ندرك به ثأرنا. فأجابوا لذلك، فباعوها وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار.

وفيهم ـ كما قال ابن إسحاق وغيره ـ أنزل الله **﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾** [الأنفال: ٣٦].

واجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ. وكتب العباس بن عبد المطلب كتاباً يخبر رسول الله ﷺ بخبرهم، وسار بهم أبو سفيان حتى نزلوا ببطن الوادي من قبل أحد مقابل المدينة.

وكان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر.

وأري ﷺ ليلة الجمعة رؤيا، فلما أصبح قال: «**إني والله قد رأيت خيراً، رأيت بقراً تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، فأما البقر فناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم الذي أريت في سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل**»[١].

وقال ابن عقبة، ويقول رجال: كان الذي بسيفه ما قد أصاب وجهه، فإن العدو أصابوا وجهه الشريف ﷺ يومئذ، وكسروا رباعيته، وجرحوا شفته.

وفي رواية قال عليه الصلاة والسلام: «**وأولت الدرع الحصينة بالمدينة فامكثوا، فإن دخل القوم الأزقة قاتلناهم، ورموا من فوق البيوت**»[٢].

فقال أولئك القوم: يا رسول الله، كنا نتمنى هذا اليوم، أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم.

---

(١) أخرج مسلم نحوه في كتاب الرؤيا رقم الحديث (٢٠). وأخرجه البخاري مقطعاً في غير موضع من المغازي باب (٢٦) رقم الحديث (٤٠٨١) وفي المناقب باب علامات النبوة في الإسلام وفي كتاب التعبير باب إذا رأى بقراً تنحر وأخرجه ابن ماجه في كتاب تعبير الرؤيا باب (١٠) رقم الحديث (٣٩٢١).

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٠١ و ٢٠٧ وانظر فتح الباري ٧/ ٤٤٠ كتاب المغازي باب (١٧).

فصلى ﷺ بالناس الجمعة، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والإجتهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ففرح الناس بذلك.

ثم صلى بالناس العصر وقد حشدوا، وحضر أهل العوالي، ثم دخل ﷺ بيته ومعه صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فعمماه وألبساه.

وصف الناس ينتظرون خروجه عليه السلام، فقال سعد بن معاذ وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج، فردوا الأمر إليه، فخرج ﷺ وقد لبس لأمته ـ وهي بالهمزة وقد يترك تخفيفاً: الدرع ـ وتقلد سيفه، فندموا جميعاً على ما صنعوا، فقالوا: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت. فقال: «**ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه**»[1].

وفي حديث ابن عباس عند أحمد والنسائي والطبراني، وصححه الحاكم: نحو حديث ابن أسحاق، وفيه إشارة النبي ﷺ إليهم أن لا يبرحوا من المدينة، وإيثارهم الخروج لطلب الشهادة، ولبسه للأمته، وندامتهم على ذلك وقوله ﷺ: «**لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل**» وفيه: «**إني رأيت أني في درع حصينة**» الحديث.

وعقد عليه السلام ثلاثة ألوية:

ـ لواء بيد أسيد بن حضير.

ـ ولواء للمهاجرين بيد علي بن أبي طالب وقيل بيد مصعب بن عمير.

ـ ولواء للخزرج بيد الحباب بن المنذر وقيل بيد سعد بن عبادة.

وفي المسلمين مائة دارع. وخرج السعدان أمامه يعدوان: سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة، دارعين.

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وعلى الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة.

وأدلج عليه السلام في السحر، وكان قد رد جماعة من المسلمين لصغرهم، منهم: أسامة، وابن عمر، وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري. والنعمان بن بشير. قال مغلطاي: وفيه نظر.

وكان المسلمون ألف رجل، ويقال: تسعمائة، والمشركون ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع ومائتا فرس، وثلاثة آلاف بعير وخمس عشرة امرأة.

ونزل عليه السلام بأحد ورجع عنه عبد الله بن أبي في ثلاثمائة ممن تبعه من قومه

---

(١) هو في دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٠٨ وفي فتح الباري ٧/ ٤٣٩ كتاب المغازي باب (١٧).

من أهل النفاق. ويقال: إن النبي ﷺ أمرهم بالإنصراف لكفرهم بمكان يقال له الشوط، وقيل بأحد.

ثم صف المسلمون بأصل أحد، وصف المشركون بالسبخة.

قال ابن عقبة: وكان على ميمنة خيل المشركين خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل.

وجعل ﷺ على الرماة ـ وهم خمسون رجلاً ـ عبد الله بن جبير، وقال: «**إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**»(١) كذا في البخاري من حديث البراء.

وفي حديث ابن عباس عند أحمد والطبراني والحاكم: أنه ﷺ أقامه في موضع ثم قال: «**إحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا.**»(٢).

قال ابن إسحاق: وقال رسول الله ﷺ «**من يأخذ هذا السيف بحقه**»(٣). فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة سماك، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه، وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، فلما رآه ﷺ يتبختر قال: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن.

قال الزبير بن العوام ـ فيما قاله ابن هشام ـ فقلت والله لأنظرن ما يصنع أبو دجانة. فاتبعته فأخذ عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج عصابة الموت فخرج وهو يقول

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب (١٦٤) رقم الحديث (٣٠٣٩ ـ ٣٩٨٦ ـ ٤٠٤٣ ـ ٤٠٦٧ ـ ٤٥٦١) وأبو داوود في كتاب الجهاد باب (١٠٦) رقم الحديث (٢٦٦٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٩٣.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١١٠ والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٧٠ وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٣٦٦ وفي الدر المنثور ٢/ ٨٤ وانظر فتح الباري ٧/ ٤٤٤ كتاب المغازي باب (١٧) رقم الحديث (٤٠٤٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ١٢٣ والمستدرك للحاكم ٣/ ٢٣٠ ومصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٠٦ و ١٤/ ٤٠١ ومجمع الزوائد ٦/ ١٠٩ و ٩/ ١٢٤ والعلل لابن أبي حاتم الرازي (١٠١٣) وكنز العمال (١٠٩٧٢ ـ ١٠٩٧٣).

ألا أقوم الدهر في الكيّول أضرب بسيف الله والرسول[1]

فجعل لا يلقى أحداً من المشركين إلّا قتله.

وقوله: في الكيول ـ بفتح الكاف وتشديد المثناة التحتية ـ مؤخر الصفوف. وهو: فيعول من كال الزند يكيل كيلاً إذا كبا ولم يخرج ناراً، فشبه مؤخر الصفوف به لأن من كان فيه لا يقاتل. قال أبو عبيدة: ولم يسمع إلا في هذا الحديث. وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتى قتل أرطأة بن شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف.

والتقى حنظلة الغسيل وأبو سفيان فضربه شداد بن أوس فقتله فقال ﷺ: «**إن حنظلة لتغسله الملائكة**»، فسألوا امرأته جميلة أخت عبد الله ابن أبي فقالت: خرج وهو جنب فقال عليه السلام «**لذلك غسلته الملائكة**»[2].

وبذلك تمسك من قال من العلماء: إن الشهيد يغسل إذا كان جنباً.

وقتل علي طلحة بن أبي طلحة، صاحب لواء المشركين، ثم حمل لواءهم عثمان بن أبي طلحة، فحمل عليه حمزة فقطع يده وكتفه.

ثم أنزل الله نصره على المسلمين فحسوا الكفار بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة، فولى الكفار لا يلوون على شيء، ونساؤهم يدعون بالويل، وتبعهم المسلمون حتى أجهضوهم. ووقعوا ينهبون العسكر ويأخذون ما فيه من الغنائم.

وفي البخاري: قال البراء: فقال أصحاب عبد الله بن جبير: أي قوم، الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون، فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين. وفي حديث عائشة عند البخاري أيضاً: لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: أي عباد الله أخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت مع أخراهم[3].

وعند أحمد والحاكم من حديث ابن عباس: أنهم لما رجعوا اختلطوا بالمشركين والتبس العسكران فلم يتميزوا، فوقع القتل في المسلمين بعضهم في بعض.

وفي رواية غيرهما: ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخيل،

---

(١) انظر البداية والنهاية ٤/١٧.

(٢) ذكره الحاكم في المستدرك ٣/ ٢٠٤ وفي تلخيص الحبير لابن حجر ٢/ ١١٨ وفي حلية الأولياء ١/ ٣٥٧ وفي السيرة لابن هشام ٣/ ٧٩ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٤٦ وكنز العمال (٣٣٢٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب (١١) رقم الحديث (٣٢٩٠ ـ ٣٨٢٤ ـ ٤٠٦٥ ـ ٦٦٦٨ ـ ٦٨٨٣ ـ ٦٨٩٠).

وتبعه عكرمة بن أبي جهل فحملوا على من بقي من النفر الرماة فقتلوهم وأميرهم عبد الله بن جبير.

وفي البخاري: أنهم لما اصطفوا للقتال، خرج سباع فقال: هل من مبارز، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فشد عليه فكان كأمس الدابر، وكان وحشي كامناً تحت صخرة، فلما دنا منه رماه بحربته حتى خرجت من بين وركيه فكان آخر العهد به[1]. انتهى.

وكان مصعب بن عمير قاتل دون رسول الله ﷺ حتى قتل، وكان الذي قتله ابن قمئة، وهو يظنه رسول الله ﷺ فصاح ابن قمئة إن محمداً قتل. ويقال كان ذلك إزب العقبة، ويقال: بل هو إبليس لعنه الله تصور في صورة جعال.

وقال قائل: أي عباد الله أخراكم، أي: احترزوا من جهة أخراكم فعطف المسلمون يقتل بعضهم بعضاً وهم لا يشعرون، وانهزمت طائفة منهم جهة المدينة، وتفرق سائرهم، ووقع فيهم القتل. قال موسى بن عقبة: ولما فقد عليه السلام، قال رجل منهم: إن رسول الله ﷺ قد قتل، فارجعوا إلى قومكم ليؤمنوكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، فإنهم داخلوا البيوت. وقال رجال منهم: إن كان رسول الله ﷺ قتل أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجل شهداء. منهم أنس بن مالك بن النضر شهد له بها عند رسول الله ﷺ سعد بن معاذ.

قال في «عيون الأثر»: كذا وقع في هذا الخبر: أنس بن مالك، وإنما هو أنس بن النضر عم أنس بن مالك بن النضر. انتهى.

وثبت رسول الله ﷺ حتى انكشفوا عنه، وثبت معه من أصحابه أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين، فيهم أبو بكر الصديق، وسبعة من الأنصار.

وفي البخاري: لم يبق معه عليه الصلاة والسلام إلا اثنا عشر رجلاً. فأصابوا منا سبعين، وكان ﷺ وأصحابه أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً.

فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد، ثلاث مرات، فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فما ملك عمر نفسه فقال:

---

(١) انظر سياق القصة في السيرة لابن هشام ٣/ ٧٤ والبداية ٤/ ١٨.

كذبت يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وبقي لك ما يسوؤك، قال: يوم بيوم، والحرب سجال[1].

وتوجه ﷺ يلتمس أصحابه، فاستقبله المشركون فرموا وجهه فأدموه وكسروا رباعيته[2]، والذي جرح وجهه عبد الله بن قمئة، وعتبة ابن أبي وقاص أخو سعد هو الذي كسر رباعيته، ومن ثم لم يولد من نسله ولد يبلغ الحنث إلا وهو أبخر أو أهتم ـ أي مكسور الثنايا من أصلها ـ يعرف ذلك في عقبه.

وقال ابن هشام؛ في حديث أبي سعيد الخدري: إن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله ﷺ يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السلفى، وأن عبد الله بن هشام الزهري شجه في جبهته وأن ابن قمئة جرح وجنته فدخلت خلقتان من المغفر في وجنته، ووقع ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين.

وفي رواية: وهشموا البيضة على رأسه[3] ـ أي كسروا الخوذة ـ ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر، فأخذ علي بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً، ونشبت حلقتان من المغفر في وجهه، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما حتى سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه.

وامتص مالك بن سنان ـ والد أبي سعيد الخدري ـ الدم من وجنته ثم ازدرده، فقال له ﷺ: من مس دمي دمه لم تصبه النار، وسيأتي إن شاء الله تعالى حكم دمه عليه السلام.

وفي الطبراني من حديث أبي أمامة قال: رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد فشج وجهه وكسر رباعيته فقال: خذها وأنا ابن قميئة، فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه: «**أقمأك الله**»[4] فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب (١٦٤) رقم الحديث (٣٠٣٩) وانظر البداية ٤/ ٢٧.

(٢) وفي ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد. أخرج مسلم في صحيحه كتاب الجهاد (١٠٦) وفي الدر المنثور ٢/ ٨٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٣١٧ وفي البخاري كتاب المغازي باب (٢٥) رقم الحديث (٤٠٧٣ ـ ٤٠٧٤ ـ ٤٠٧٦) والمستدرك للحاكم ٣/ ٢٦٦ سنن سعيد بن منصور (٢٨٤٧) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٢/ ٦٩٧.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الطب باب (٢٧) رقم الحديث (٥٧٢٢) وأخرجه أيضاً ابن ماجه في كتاب الطب باب (١٥) رقم الحديث (٣٤٦٤).

(٤) ذكره في فتح الباري ٧/ ٤٦٤ (٤٠٦٩) (٤٠٧٥). وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٩٣ وفي الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر (٣٢).

وروى ابن إسحاق عن حميد الطويل عن أنس قال: كسرت رباعيته ﷺ يوم أحد وشج وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسحه ويقول: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم،وهو يدعوهم إلى ربهم**»[1] فأنزل الله تعالى:﴿**ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون**﴾ [آل عمران: ١٢٨] ورواه أحمد والترمذي والنسائي من طريق حميد به.

وعند ابن عائذ[2] من طريق الأوزاعي[3]: بلغنا أنه لما جرح ﷺ يوم أحد، أخذ شيئاً فجعل ينشف دمه وقال: لو وقع منه شيء على الأرض لنزل عليهم العذاب من السماء، ثم قال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[4].

وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال: ضرب وجه النبي ﷺ يومئذ بالسيف سبعين ضربة، ووقاه الله شرها كلها. قال في فتح الباري: وهذا مرسل قوي، ويحتمل أن يكون أراد بالسبعين حقيقتها أو المبالغة، انتهى.

وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد ـ فيما قاله ابن هشام ـ فخرجت أول النهار حتى انتهت إلى رسول الله قالت: فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراحة إلي، أصابني ابن قمئة ـ أقمأه الله تعالى ـ لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا، قالت فاعترضت له، فضربني هذه الضربة، ولكن ضربته ضربات على ذلك، ولكن عدو الله عليه درعان.

قالت أم سعد بن الربيع: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (٢٢) رقم الحديث (٤٠٦٨) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٢٠٦ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٩٢ وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد باب (٢٧) رقم الحديث (١٠٤) وفي تفسير القرطبي ٤/ ١٩٩ مشكاة المصابيح (٥٨٤٩) والدر المنثور ٢/ ٧١.

(٢) هو محمد بن عائذ بن أحمد القرشي الدمشقي (١٥٠ ـ ٢٣٣ هـ) حافظ كاتب، وهو من القدرية. الأعلام ٦/ ١٧٩ شذرات الذهب ٢/ ٧٨ العبر ١/ ٤١٤ النجوم الزاهرة ٢/ ٢٦٥ والوافي بالوفيات ٣/ ١٨١.

(٣) هو عبد الرحمٰن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي أبو عمرو (٨٨ ـ ١٥٧ هـ) فقيه كثير الحديث توفي في بيروت. الأعلام ٣/ ٣٢٠ حلية الأولياء٦/ ١٣٥ رقم الترجمة (٣٥٤) وفيات الأعيان ١/ ٢٧٥ شذرات الذهب ١/ ٢٤١.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٤٤١ وفي مجمع الزوائد ٦/ ١١٧ وفي تفسير الطبري ١/ ١٣ وفي تفسير القرطبي ٤/ ١٩٩. وفي الدر المنثور ٣/ ٩٥. وفي المعجم الكبير للطبراني ٦/ ١٤٦ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٤ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢١٥ وفي كنز العمال (٢٩٨٨٣ ـ ٣٥٥٦٣).

وتترس دون رسول الله ﷺ ـ فيما قاله ابن إسحاق ـ أبو دجانة بنفسه، يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه حتى كثر عليه النبل وهو لا يتحرك.

ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ. قال سعد: فلقد رأيته يناولني النبل ويقول: إرم فداك أبي وأمي، حتى إنه ليناولني السهم ماله نصل فيقول: إرم به.

وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فأتى بها إلى رسول الله ﷺ فأخذها رسول الله بيده وردها إلى موضعها وقال: «**اللهم اكسه جمالاً**»[1] فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظراً[2]. ورواه الدارقطني بنحوه، ويأتي لفظه إن شاء الله تعالى في مقصد المعجزات.

ورمي أبو رهم كلثوم بن الحصين بسهم فوقع في نحره فبصق عليه ﷺ فبرىء.

وانقطع سيف عبد الله بن جحش، فأعطاه ﷺ عرجوناً فعاد في يده سيفاً، فقاتل به وكان ذلك السيف يسمى العرجون، ولم يزل يتوارث حتى بيع من بغا التركي من أمراء المعتصم بالله في بغداد بمائتي دينار.

وهذا نحو حديث عكاشة السابق في غزوة بدر إلا أن سيف عكاشة كان يسمى العون، وهذا يسمى العرجون.

واشتغل المشركون بقتلى المسلمين يمثلون بهم، يقطعون الآذان والأنوف والفروج ويبقرون البطون وهم يظنون أنهم أصابوا رسول الله ﷺ واشراف أصحابه.

وكان أول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك، قال عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين، هذا رسول الله ﷺ، فلما عرفوه نهضوا ونهض معهم نحو الشعب، معه أبو بكر وعمر وعلي ورهط من المسلمين، فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أين محمد، لا نجوت إن نجا، فقالوا: يا رسول الله، يعطف عليه رجل منا؟ فقال ﷺ: دعوه، فلما دنا تناول ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها منه عليه السلام انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله عليه الصلاة والسلام، فطعنه طعنة وقع بها عن فرسه ولم يخرج له دم فكسر ضلعاً من أضلاعه.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٥٢. وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٧.

(٢) وقيل في هذا المعنى شعراً:

إن كان موسى سقى الأسباط من حجر ... فإن في الكف معنى ليس في الحجر

إن كان عيسى برا الأعمى بدعوته ... فكم براحته قد رد من بصر

فلما رجع إلى قريش قال: قتلني والله محمد، أليس قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق علي لقتلني. فمات عدو الله بسرف وهم قافلون به إلى مكة[1]. رواه البيهقي وأبو نعيم ولم يذكر: فكسر ضلعاً من أضلاعه.

قال الواقدي: وكان ابن عمر يقول: مات أبي بن خلف ببطن رابغ، فإني لأسير ببطن رابغ بعد هوي من الليل إذا نار تأجج لي لهبها فهبتها، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها يصيح العطش، وإذا رجل يقول: لا تسقه، فإن هذا قتيل رسول الله ﷺ، هذا أبي بن خلف، ورواه البيهقي.

ولما انتهى ﷺ إلى فم الشعب ملأ علي بن أبي طالب درقته من المهراس ـ وهو صخرة منقورة تسع كثيراً من الماء، وقيل هو اسم ماء بأحد ـ فجاء به إلى رسول الله ﷺ وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: اشتد غضب الله على من رمى وجه نبيه.

وصلى النبي ﷺ الظهر يومئذ قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

قال ابن إسحاق: ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الآذان والآنف، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.

ولما أراد أبو سفيان الانصراف أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمت فعال، إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، أعل هبل.

وكان أبو سفيان حين أراد الخروج إلى أحد، كتب على سهم نعم، وعلى آخر: لا، وأجالها عند هبل، فخرج سهم نعم، فخرج إلى أحد، فلما قال: أعل هبل، أي زد علواً.

فقال رسول الله ﷺ لعمر أجبه فقل: «الله أعلا وأجل».

فقال أبو سفيان: أنعمت فعال، أي اترك ذكرها فقد صدقت في فتواها وأنعمت، أي أجابت بنعم.

فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/٢٥٨. وإتحاف السادة المتقين ٧/١٨٣. وفي طبقات ابن سعد ٢/ ٣٥.

فقال: إن لنا عزى ولا عزى لكم.

فقال ﷺ قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم.

.ولما انصرف أبو سفيان وأصحابه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل، فقال ﷺ لرجل من أصحابه: «**قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد**»[1].

وذكر الطبراني: أنه لما انصرف المشركون، خرج النساء إلى الصحابة يعنهم فكانت فاطمة فيمن خرج، فلما لقيت النبي ﷺ اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته بالماء فيزداد الدم، فلما رأت ذلك أخذت شيئاً من حصير أحرقته بالنار وكمدته به حتى لصق بالجرح فاستمسك الدم[2].

ثم أرسل عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة ـ كما ذكره الواقدي ـ فنادى في القتلى: يا سعد بن الربيع، مرة بعد أخرى، فلم يجبه، حتى قال إن رسول الله ﷺ أرسلني إليك، فأجابه بصوت ضعيف، فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق فقال: أبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: يقول لك، جزاك الله عنا خير ما جزى به نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم وفيكم (عين) تطرف، ثم مات[3].

وقتل أبو جابر، فما عرف إلا ببنانه ـ أي أصابعه، وقيل أطرافها، واحدتها. بنانه.

وخرج ﷺ يلتمس حمزة، فوجده ببطن الوادي، قد بقر بطنه عن كبده، ومثل به فجدع أنفه وأذناه، فنظر عليه السلام إلى شيء لم ينظر إلى شيء أوجع لقلبه منه فقال: «**رحمة الله عليك، لقد كنت فعولاً للخير، وصولاً للرحم، أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك**» قال: فنزلت عليه خواتيم سورة النحل ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به**﴾ [النحل: ١٢٦][4] الآية، فصبر وكفر عن يمينه وأمسك عما أراد.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣/ ١٠٠.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٦٠ وفي صحيح البخاري كتاب الجهاد باب (٨٥) رقم الحديث (٢٩١١) وفي فتح الباري ٧/ ٤٧٤ كتاب المغازي باب (٢٥) وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد باب (٣٧) رقم الحديث (١٠١) وأخرجه ابن ماجه كتاب الطب باب (١٥) رقم الحديث (٣٤٦٤). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٣٣٠.

(٣) ذكره الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٠١.

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٨٨. وفي مجمع الزوائد ٦/ ١١٩. والدر المنثور ٤/ ١٣٥ وفي المستدرك للحاكم ٣/ ١٩٧. والطبراني ٣/ ١٥٦ وفي فتح الباري ٧/ ٤٧٢. كتاب المغازي باب (٢٤). وفي السلسلة الضعيفة للألباني (٥٥٠).

وممن مثل به كما مثل بحمزة عبد الله بن جحش، ابن أخت حمزة، ولذا يعرف بالمجدع في الله، وكان حين قتل ابن بضع وأربعين سنة، ودفن مع حمزة في قبر واحد.

ولما أشرف ﷺ على القتلى قال: «**أنا شهيد على هؤلاء، وما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمي جرحه، اللون لون دم والريح ريح المسك**».

وفي رواية عبد الله بن ثعلبة قال ﷺ لقتلى أحد: «**زملوهم بجراحهم**»[1].

وروى أبو بكر بن مردويه أن رسول الله ﷺ قال: «**يا جابر ألا أخبرك: ما كلم الله تعالى أحداً قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً، فقال سلني أعطك، فقال أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال الرب عز وجل: إنه سبق مني أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قال: أي رب فأبلغ من ورائي، فأنزل الله ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾** [آل عمران: ١٦٩][2] الآية.

وعن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: **لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، قال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله عز وجل هذه الآيات: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا﴾**[3] [آل عمران: ١٦٩].

قال بعض من تكلم على هذا الحديث: قوله: ثم تأوي إلى قناديل، يصدقه قوله تعالى: **﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾** [الحديد: ١٩] وإنما تأوي إلى تلك القناديل ليلاً وتسرح نهاراً، وبعد دخول الجنة في الآخرة لا تأوي إلى تلك القناديل، وإنما ذلك في البرزخ.

وقال مجاهد: الشهداء يأكلون من ثمر الجنة وليسوا فيها.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٩٠. وفي سيرة ابن هشام ٣/ ١٠٤. تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٣١٦. وفي طبقات ابن سعد ٢/ ٣٣ وفي كنز العمال (١١٧٣٨ ـ ٢٩٨٩٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الجهاد باب (١٦) رقم الحديث (٢٨٠٠). وفي السنن الكبرى للبيهقي (١٩٠ ـ ٢٨٠٠) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٣١٣ وفي السنة لابن أبي عاصم ١/ ٢٦٧.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٢٦٦. وفي سنن أبي داود كتاب الجهاد باب (٢٥) رقم الحديث (٢٥٢٠). وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٣٨٨. وفي الحاوي للفتاوي للسيوطي ٢/ ٣٠٦.

وقد رد هذا القول، ويشهد له ما وقع في مسند ابن أبي شيبة وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «**الشهداء بنهر أو على نهر يقال له بارق عند باب الجنة، في قباب خضر يأتيهم رزقهم منها بكرة وعشياً**»[1].

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: كأن الشهداء أقسام، منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أني يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح.

قال: وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه بشرى لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة أيضاً وتسرح فيها وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة.

قال: وهو إسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة، أصحاب المذاهب المتبعة، فإن الإمام أحمد رواه عن الشافعي عن مالك بن أنس عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه يرفعه: «**نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه**»[2].

وقوله يعلق، أي يأكل، وفي هذا الحديث أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة، وأما أرواح الشهداء ففي حواصل طير خضر، فهي كالراكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها. فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان.

وقد استشهد يوم أحد من المسلمين سبعون ـ فيما قاله مغلطاي. وغيره ـ وقيل خمسة وستون أربعة من المهاجرين.

وروى ابن منده من حديث أبي بن كعب قال: استشهد من الأنصار يوم أحد أربعة وستون ومن المهاجرين ستة وصححه ابن حبان من هذا الوجه.

وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون رجلاً، وقتل ﷺ بيده أبي بن خلف.

وحضرت الملائكة يومئذ، ففي حديث سعد بن أبي وقاص عند مسلم في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٢٦٦ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٧٤. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٤٠٥ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٣٨٨. والدر المنثور ٢/ ٩٦. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٢٩٤. وفي تفسير الطبري ٢/ ٣٤ وتفسير ابن كثير ٢/ ١٤٢ وفي كنز العمال (١١٠٩٩) وفي الحاوي للفتاوي للسيوطي ٢/ ٣٠٦. وفي مصنف ابن أبي شيبه ٥/ ٢٩٠.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٤٥٥. وفي زاد المسير لابن الجوزي ١/ ٥٠١. وفي البداية والنهاية ١٠/ ٣٤١.

صحيحه: «أنه رأى عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل يقاتلان كأشد القتال»[1].

وفيه ـ كما قدمناه في غزوة بدر ـ أن قتال الملائكة معه ﷺ لا يختص بيوم بدر، خلافاً لمن زعمه، كما نص عليه النووي في شرح مسلم كما قدمته والله أعلم.

ولما بكى المسلمون على قتلاهم سر بذلك المنافقون وظهر غش اليهود.

ذكر القاضي عياض في الشفاء عن القاضي أبي عبد الله بن المرابط[2] من المالكية أنه قال: من قال إن النبي ﷺ هزم يستتاب فإن تاب وإلا قتل، لأنه تنقص، إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصته، إذ هو على بصيرة من أمره ويقين من عصمته. انتهى.

وهذا موافق لمذهبنا. لكن قال العلامة البساطي[3] من المالكية: هذا القائل إن كان يخالف في أصل المسألة، أعني حكم الساب، فله وجه، وإن وافق على أن الساب لا تقبل توبته فمشكل انتهى.

وقد كان في قصة أحد، وما أصيب به المسلمون من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة:

منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ أن لا يبرحوا منه.

ومنها: أن عادة الرسل أن تبتلى ثم تكون لهم العافية، والحكمة في ذلك أن لو انتصروا دائماً لدخل في المسلمين من ليس منهم ولم يتميز الصادق من غيره ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين ليتميز الصادق من الكاذب. وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول حتى عاد التلويح تصريحاً، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دارهم، واستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (١٨) رقم الحديث (٤٠٥٤ ـ ٥٨٢٦).

(٢) هو محمد بن خلف بن سعيد بن وهب أبو عبد الله ابن المرابط قاضي. فقيه محدث. توفي بالمدينة سنة (٤٨٥ هـ). الأعلام ٦/ ١١٥. الوافي بالوفيات ٣/ ٤٦. كشف الظنون (١٣٦١) الديباج المذهب (٢٧٣).

(٣) هو محمد بن أحمد بن عثمان الطائي البساطي أبو عبد الله شمس الدين. (٧٦٠ ـ ٨٤٢ هـ). فقيه. قاضي. توفي بالقاهرة. الأعلام ٥/ ٣٣٢. شذرات الذهب ٧/ ٢٤٥ الضوء اللامع ٧/ ٥ رقم الترجمة (٧) بغية الوعاة (١٣).

ومنها: أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس وكسراً لشماختها فلما ابتلي المسلمون صبروا وجزع المنافقون.

ومنها: أن الله تعالى هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها.

ومنها: أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقهم إليها.

رمنها: أنه أراد هلاك أعدائه فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في إيذاء أوليائه، فمحص ذنوب المؤمنين ومحق بذلك الكافرين.

## غزوة حمراء الأسد(١)

وهي على ثمانية أميال من المدينة على يسار الطريق إذا أردت ذا الحليفة.

وكانت صبيحة يوم الأحد لست عشرة، أو لثمان خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة لطلب عدوهم بالأمس، ونادى مؤذن رسول الله ﷺ أن لا يخرج معنا أحد إلا من حضر يومناً بالأمس، أي من شهد أحداً.

وإنما خرج عليه الصلاة والسلام مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم.

وأقام ﷺ بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة يوم الجمعة وقد غاب خمساً.

وظفر ﷺ في مخرجه ذلك بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص فأمر بضرب عنقه صبراً.

قال الحافظ مغلطاي: وحرمت الخمر في شوال، ويقال في سنة أربع. انتهى.

قال أبو هريرة فيما رواه أحمد: حرمت الخمر ثلاث مرات: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله **﴿يسألونك عن الخمر والميسر. قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾** [البقرة: ٢١٩] إلى آخر الآية. فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: فيهما إثم كبير.

---

(١) انظر المنتظم ٣/ ١٧٢ السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٢٨ وطبقات ابن سعد ٢/ ٣٧. وتاريخ الطبري ٢/ ٢١٣. والكامل في التاريخ ٢/ ٥٧. ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣١٢. والبداية والنهاية ٤/ ٥٢. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ٥٩.

وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوماً من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب خلط في قراءته، فأنزل الله آية أغلظ منها ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**﴾ [النساء: ٤٣] .

وكان الناس يشربون ثم نزلت آية أغلظ منها ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر**﴾ إلى قوله: ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ [المائدة: ٩٠] قال: انتهينا ربنا[١].

والميسر: القمار وقيل غيره.

وولد الحسن بن علي في هذه السنة.

ثم سرية عبدالله بن عبد الأسد،[٢] هلال المحرم على رأس خمس وثلاثين شهراً من الهجرة، إلى قطن - جبل بناحية فيد - ومعه مائة وخمسون رجلاً من الأنصار والمهاجرين، لطلب طليحة وسلمة ابني خويلد، فلم يجدهما، ووجد إبلاً وشاء فأغار عليهما ولم يلق كيداً.

ثم سرية عبد الله بن أنيس وحده[٣]، يوم الإثنين لخمس خلون من المحرم، على رأس خمسة وثلاثين شهراًمن الهجرة، إلى سفيان بن خالد الهذلي بعرنة - وادي عرفة - لأنه بلغه ﷺ أنه جمع الجموع لحربه.

فلما وصل إليه قال له ممن الرجل؟ قال: من بني خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد فجئتك لأكون معك، قال: أجل. فمشى معه ساعة، ثم اغتره وقتله، وأخذ رأسه، فكان يسير الليل ويتوارى النهار، حتى قدم المدينة، فقال ﷺ: «**أفلح الوجه**» قال: أفلح وجهك يا رسول الله، ووضع رأسه بين يديه.[٤]

وكانت غيبته ثمان عشرة ليلة، وقدم يوم السبت لسبع بقين من محرم.

ثم سرية عاصم بن ثابت[٥]، في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة إلى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٣٥١.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٣٨. ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣١٩. والمنتظم ٣/ ١٩٧. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ٦٢. ومغازي الواقدي (٣٤٠).

(٣) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٣٩. والمنتظم ٣/ ١٩٧. وشرح المواهب ٢/ ٦٣.

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٤٩٦. والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٢٢٢. والهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٣ و ٩/ ٣١٩.

(٥) انظر المنتظم ٢/ ٢٠٠. وطبقات ابن سعد ٢/ ٤٢. الأغاني ٤/ ٢٢٥ (الأحوص). وسيرة ابن هشام ٣/ ١٧٨ ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٢٣. والكامل في التاريخ ٢/ ٥٩. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ٦٤.

الرجيع ـ بفتح الراء وكسر الجيم، اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان ـ بناحية الحجاز، وكانت الوقعة بالقرب منه فسميت به.

وحديث عضل والقارة ـ بفتح الضاد المعجمة بعدها لام ـ بطن من بني الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، ينسبون إلى عضل بن الديش. وأما القارة، فبالقاف وتخفيف الراء، بطن من الهون ينسبون إلى الديش المذكور، قال ابن دريد: القارة: أكمة سوداء فيها حجارة، كأنهم نزلوا عندها فسموا بها.

وقصة عضل القارة كانت في بعث الرجيع، لا في سرية بئر معونة، وقد فصل بينهما ابن إسحاق، فذكر بعث الرجيع في أواخر سنة ثلاث، وبئر معونة أوائل سنة أربع.

وذكر الواقدي أن خبر بئر معونة وخبر أصحاب الرجيع جاءا إلى النبي ﷺ في ليلة واحدة.

وسياق ترجمة البخاري يوهم أن بعث الرجيع وبئر معونة شيء واحد، وليس كذلك، لأن بعث الرجيع كان سرية عاصم وخبيب وأصحابهما، وهي مع عضل والقارة. وبئر معونة كانت سرية القراء، وهي مع رعل وذكوان، وكأن البخاري أدمجها معها لقربها منها.

ويدل على قربها منها ما في حديث أنس من تشريك النبي ﷺ بين بني لحيان وبين عصية وغيرهم في الدعاء.

ولم يرد البخاري ـ رحمه الله ـ أنهما قصة واحدة، ولم يقع ذكر عضل والقارة عنده صريحاً.

وإنما وقع ذلك عند ابن إسحاق. فإنه بعد أن استوفى قصة أحد قال: ذكر يوم الرجيع: حدثني عاصم بن عمر بن قتاده قال: قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا، فبعث معهم ستة من أصحابه وأمر ﷺ على القوم مرثد بن أبي مرثد الغنوي. كذا في السيرة له ـ وفي الصحيح: وأمر عليهم عاصم بن ثابت، كما سيأتي، وهو أصح ـ فخرجوا مع القوم حتى أتوا على الرجيع ـ ماء لهذيل ـ غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً فلم يرع القوم، وهم في رحالهم، إلا الرجال بأيديهم السيوف، وقد غشوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا لهم: إنا والله لا نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم، فأبوا، فأما مرثد وخالد وعاصم، فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً وقاتلوا حتى قتلوا.

وفي البخاري: وأمر عليهم عاصم بن ثابت، حتى إذا كانوا بالهدأة ـ بين عسفان ومكة ـ ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا لهم في مائتيْ رجل. وعند بعضهم فتبعوهم بقريب من مائة رام.

والجمع بينهما واضح، بأن تكون المائة الأخرى غير رماة.

وفي رواية أبي مشعر في مغازيه: فنزلوا بالرجيع سحراً، فأكلوا تمر عجوة، فسقط نواه بالأرض، وكانوا يسيرون الليل ويكمنون بالنهار، فجاءت امرأة من هذيل ترعى غنماً، فرأت النواءات وأنكرت صغرهن، وقالت هذا تمر يثرب فصاحت في قومها قد أتيتم، فجاؤوا في طلبهم، فوجدوهم قد كمنوا في الجبل، وتبعوا آثارهم حتى لحقوهم.

وفي رواية ابن سعد: فلم يرع القوم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم.

فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد ـ بفاءين مفتوحتين، ومهملتين، الأولى ساكنة ـ وهي الرابية المشرفة، فأحاط بهم القوم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم بن ثابت أيها القوم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، ثم قال اللهم أخبر عنا رسولك، فاستجاب الله لعاصم فأخبر رسول الله خبرهم يوم أصيبوا.

فرموهم بالنبل، فقتلوا عاصماً، ونزل إليهم على العهد والميثاق: خبيب بن عدي[1] وزيد بن الدثنة ـ بفتح الدال المهملة، وكسر المثلثة، والنون المفتوحة المشددة ـ وعبد الله بن طارق.

فانطلقوا بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة، فابتاع بنو الحارث بن عامر خبيباً، فلبث خبيب عندهم أسيراً، حتى إذا أجمعوا على قتله استعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها ـ يعني يحلق عانته، فغفلت عن ابن لها صغير فأقبل إليه الصبي فأجلسه عنده فخشيت المرأة أن يقتله، ففزعت، فقال خبيب: ما كنت لأغدر.

قال قالت: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يأكل قطفاً من عنب مثل رأس الرجل، وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة، وما كان إلا رزقاً رزقه الله[2].

---

(١) هو خبيب بن عدي بن مالك بن عامر الأوسي الأنصاري. صحابي توفي في سنة (٤ هـ). الإصابة ٢/ ١٠٣. رقم الترجمة (٧٧) المنتظم ٣/ ٢٠٩ رقم الترجمة (٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (١٠) رقم الحديث (٣٩٨٩ ـ ٤٠٨٦).

وهذه كرامة جعلها الله تعالى لخبيب، آية على الكفار، وبرهاناً لنبيه لتصحيح رسالته.

والكرامة للأولياء ثابتة مطلقاً عند أهل السنة. لكن استثنى بعض المحققين منهم كالعلامة الرباني أبي القاسم القشيري[1] ما وقع به التحدي لبعض الأنبياء فقال: ولا يصلون إلى مثل إيجاد ولد من غير أب ونحو ذلك. وهذا أعدل المذاهب في ذلك[2].

وإن إجابة الدعوة في الحال، وتكثير الطعام والمكاشفة بما يغيب عن العين، والإخبار بما سيأتي ونحو ذلك قد كثر جداً، حتى صار وقوع ذلك ممن ينسب إلى الصلاح كالعادة.

---

(١) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، أبو القاسم. (٣٧٦ ـ ٤٦٥ هـ) حافظ مفسر. توفي بنيسابور. الأعلام ٤/٥٧. فوات الوفيات ١/٢٩٩. تاريخ بغداد ١١/٨٣. مفتاح السعادة ١/٤٣٨. كشف الظنون ٥٢٠ طبقات الشافعية ٣/٢٤٣.

(٢) يجب الإيمان بوجود الأولياء وكراماتهم، قال الله تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ [يونس: ٦٢و ٦٣] والولي هو المؤمن المستقيم بطاعة الله، وقال تعالى: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾ [فصلت: ٣٠]. وصف الأولياء بالاستقامة وهي لزوم طاعة الله بأداء الواجبات واجتناب المحرمات والإكثار من نوافل العبادات.

ـ ثم الكرامة هي أمر خارق للعادة تظهر على يد المؤمن المستقيم بطاعة الله وبذلك تفترق الكرامات عن السحر والشعوذة. وتفترق الكرامة عن المعجزة بأن المعجزة تكون لإثبات النبوة وأما الكرامة فتكون للدلالة على صدق اتباع صاحبها لنبيه وهي قد تقع باختيار الولي وطلبه. قال بعضهم: «وقد يكون من لا يكشف له أفضل ممن كشف لأن الذي يكاشف بشيء من الخوارق قد يكون ذلك ليقوي إيمانه ويثبت جنانه، وفوق هؤلاء باشر بواطنهم روح اليقين وصفت سرائرهم بنور التقوى فلا حاجة لهم إلى مدد من الحوادث».

ولهذا لم تكثر في الصحابة الكرامات كثرتها فيمن بعدهم ومما يفترق به الولي عن النبي أن الولي تجوز عليه المعاصي الكبيرة والصغيرة لكنه معصوم من الكفر. والدليل على ذلك حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ عن الله تعالى: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب. ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها». [أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب (٣٨) رقم الحديث (٦٥٠٢)]. وفي رواية الطبراني من حديث حذيفة: «ويكون من أوليائي وأصفيائي ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء في الجنة».

ومعنى الحديث: «أي بلا كيف لا بالحلول والمجاورة الحسية لتعاليه سبحانه عن الحلول في شيء من خلقه أو مجاورته لشيء من خلقه بالحيّز والمكان كما تعتقد ملاحدة المتصوفة والمشبهة».

فانحصر الخارق الآن في نحو ما قاله القشيري، وتعين تقييد من أطلق، بأن كل معجزة لنبي يجوز أن تقع كرامة لولي.

ووراء ذلك: أن الذي استقر عند العامة، أن خرق العادة يدل على أن من وقع له ذلك يكون من أولياء الله، وهو غلط. فإن الخارق قد يظهر على يد المبطل من ساحر وكاهن وراهب، فيحتاج من يستدل بذلك على ولاية أولياء الله إلى فارق، وأولى ما ذكروه: أن يختبر حال من وقع له ذلك، فإن كان متمسكاً بالأوامر الشرعية والنواهي، كان علامة على ولايته، ومن لا فلا[1]. والله أعلم انتهى ملخصاً من الفتح.

ولما خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه قال: دعوني أصلي ركعتين ـ وعند موسى ابن عقبة: أنه صلاهما في موضع مسجد التنعيم ـ وقال: اللهم أحصهم عدداً، ولا تبق منهم أحداً، واقتلهم بدداً ـ يعني متفرقين، فلم يحل الحول ومنهم أحد حي ـ. وفي رواية بريدة بن سفيان، فقال خبيب: اللهم إني لا أجد من يبلغ رسولك مني السلام فبلغه.

وفي رواية أبي الأسود عن عروة، جاء جبريل إلى النبي ﷺ فأخبرة بذلك.. الحديث.

ثم أنشأ يقول:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع[2]

والأوصال جمع: وصل، وهو العضو. والشلو ـ بكسر المعجمة ـ الجسد ويطلق على العضو. لكن المراد به هنا الجسد. والممزع ـ بالزاي، ثم المهملة ـ المقطع ومعنى الكلام: أعضاء جسد مقطع.

وعند أبي الأسود عن عروة زيادة في هذا الشعر:

لقد أجمع الأحزاب في وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع

---

(١) والدليل على كرامة الولي ما جاء في القرآن من قوله تعالى ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي﴾ [النحل: ٤٠].
وما رواه الترمذي كتاب التفسير باب (١٦) رقم الحديث (٣١٢٧) بلفظ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وما ثبت بالإسناد الصحيح أن عمر نادى أمير الجيش الذي كان بنهاوند «سارية بن زنيم»: يا سارية الجبل الجبل. فسمع سارية وكان عمر بالمدينة يخطب. وانظر ما حصل لخبيب في البخاري (٣٩٨٩) وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٥٣٢ والسلسلة الصحيحة للألباني (١١١٠).

(٢) انظر فتح الباري ٧/ ٤٨٢ رقم الحديث (٣٩٨٩).

وفيه أيضاً:

إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي     وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي

وساق ابن إسحاق هذه الأبيات ثلاثة عشر بيتاً، قال ابن هشام: ومن الناس من ينكرها لخبيب.

وكان خبيب أول من سن الركعتين عند القتل لكل مسلم قتل صبراً، كذا قال ابن إسحاق، وقوله هذا يدل على أنها سنة جارية.

وإنما صار فعل خبيب سنة ـ والسنة إنما هي أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريره ـ لأنه فعله في حياته ﷺ، فاستحسن ذلك من فعله واستحسنها المسلمون. والصلاة خير ما ختم به عمل العبد[1].

وقد صلى هاتين الركعتين زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، وذلك في حياته عليه الصلاة والسلام، كما رويناه من طريق السهيلي بسنده إلى الليث بن سعد قال: بلغني أن زيد بن حارثة اكترى بغلاً من رجل بالطائف، فاشترط عليه المكري أن ينزله حيث شاء. قال: فمال به إلى خربة، فقال له انزل فنزل، فإذا في الخربة قتلى كثيرة، قال فلما أراد أن يقتله قال له دعني أصلي ركعتين، قال: صلِّ فقد صلى قبلك هؤلاء فلم تنفعهم صلاتهم شيئاً، فلما صليت أتاني ليقتلني فقلت: يا أرحم الراحمين، قال: فسمع صوتاً: لا تقتله، فهاب ذلك، فخرج يطلبه فلم ير شيئاً، فرجع إلي، فناديت: يا أرحم الراحمين

---

(١) أخرج البخاري عن عائشة قولها: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد». رقم الحديث (٢٦٩٧).

وقال الحافظ في الفتح: «وهذا الحديث معدود من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده. فإن معناه من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه. قال النووي: هذا الحديث مما ينبغي أن يعتنى بحفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به كذلك.

وقال الطرقي: هذا الحديث يصلح أن يسمى نصف أدلة الشرع لأن الدليل يتركب من مقدمتين والمطلوب بالدليل إما إثبات الحكم أو نفيه وهذا الحديث مقدمة كبرى في إثبات كل حكم شرعي ونفيه، لأن منطوقه مقدمة كلية في كل دليل نافٍ لحكم مثل أن يقال: «في الوضوء بماء نجس» هذا ليس من أمر الشرع وكل ما كان كذلك فهو مردود فهذا العمل مردود فالمقدمة الثانية ثابتة بهذا الحديث، وإنما يقع النزاع في الأولى ومفهومه أن من عمل عملاً عليه أمر الشرع فهو صحيح مثل أن (يقال) في الوضوء بالنية هذا عليه أمر الشرع وكل ما كان عليه أمر الشرع فهو صحيح فالمقدمة ثابتة بهذا الحديث والأولى فيها النزاع. فلو اتفق أن يوجد حديث يكون مقدمة أولى في إثبات كل حكم شرعي ونفيه لاستقل الحديثان بجميع أدلة الشرع. لكن هذا الثاني لا يوجد فإذا حديث الباب نصف أدلة الشرع والله أعلم».

فعل ذلك ثلاثاً، فإذا بفارس على فرس في يده حربة حديد في رأسها شعلة نار، فطعنه بها فأنفذها من ظهره فوقع ميتاً. ثم قال: لما دعوت المرة الأولى: يا أرحم الراحمين كنت في السماء السابعة، فلما دعوت المرة الثانية يا أرحم الراحمين كنت في سماء الدنيا، فلما دعوت الثالثة أتيتك. انتهى.

ووقع في رواية أبي الأسود عن عروة: فلما وضعوا فيه السلاح وهو مصلوب ـ يعني خبيباً ـ نادوه وناشدوه: أتحب أن محمداً مكانك؟ قال: لا والله، ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه [1].

ويقال: إن الذي قال ذلك زيد بن الدثنة، وأن أبا سفيان قال له: يا زيد، أنشدك الله أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإني لجالس في أهلي. قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب كحب أصحاب محمد محمداً.

ثم قتله نسطاس ـ بكسر النون ـ.

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، ولعل العظيم المذكور: عقبة بن أبي معيط، فإن عاصماً قتله صبراً بأمر النبي ﷺ بعد أن انصرفوا من بدر. ووقع عند ابن إسحاق وكذا في رواية بريدة بن سفيان: أن عاصماً لما قتل أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد، وهي أم مسافع وجلاس ابني طلحة العبدري، وكان عاصم قتلهما يوم أحد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه ـ بكسر القاف، وهو ما انفلق من الجمجمة فبان ـ.

قال الطبري: وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة.

فمنعهم منه الدبر ـ بفتح المهملة وسكون الموحدة: الزنابير ـ فلم يقدروا منه على شيء [2].

وكان عاصم بن ثابت قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً. فكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته، كما حفظه في حياته.

وإنما استجاب الله تعالى له في حماية لحمه من المشركين، ولم يمنعهم من قتله

---

(١) انظر المنتظم ٣/ ٢٠١ حوادث سنة (٤ هـ).

(٢) والعرب تجعل الفراش والنحل والزنابير والدبر كلها من الذبان. انظر كتاب الحيوان ٣/ ٣٠٥، وحياة الحيوان الكبرى ٢/ ٢٩٧.

لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من هتك حرمته بقطع لحمه.

سرية المنذر بن عمرو[1] ـ بفتح العين المهملة ـ إلى بئر معونة ـ بفتح الميم وضم المهملة وسكون الواو بعدها نون ـ موضع ببلاد هذيل بين مكة وعسفان. في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة، على رأس أربعة أشهر من أحد.

بعث معه المطلب السلمي ليدلهم على الطريق.

وكانت مع رعل ـ بكسر الراء وسكون العين المهملة ـ بطن من بني سليم، ينسبون إلى رعل بن عوف بن مالك. وذكوان بطن من بني سليم أيضاً ينسبون إلى ذكوان بن ثعلبة. فنسبت الغزوة إليها.

وهذه الوقعة تعرف بسرية القراء، وكان من أمرها ـ كما قاله ابن إسحاق ـ أنه قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر المعروف بملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام. وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوتهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. فقال ﷺ: «**إني أخشى أهل نجد عليهم**» قال أبو براء: أنا لهم جار فابعثهم[2].

فبعث عليه الصلاة والسلام المنذر بن عمرو، ومعه القراء وهم سبعون ـ وقيل أربعون وقيل: ثلاثون ـ.

وقد بين قتاده في روايته أنهم كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، وفي رواية ثابت: يشترون به الطعام لأهل الصفة، ويتدارسون القرآن بالليل[3].

فساروا حتى نزلوا بئر معونة، بعثوا حرام بن ملحان بكتابه ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل العامري، ومات كافراً ـ وليس هو عامر بـن الطفيل الأسلمي الصحابي ـ فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر فلم يجيبوه، وقالوا: لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ عليهم قبائل من سليم: عصية ورعلاً فأجابوه إلى ذلك، ثم خرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم،

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٣٩. والمنتظم ٣/ ١٩٨. والكامل في التاريخ ٢/ ٦٣. ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٣٨. والبداية والنهاية ٤/ ٧٣. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ٧٤. وسيرة ابن هشام ٣/ ١٩٣.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٢٨. ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٣٩. والبداية والنهاية ٤/ ٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي باب (٢٩) رقم الحديث (٤٠٩٠). ومسلم في كتاب الإمارة رقم الحديث (١٤٧). ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٤٤.

فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا إلى آخرهم، إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً.

وأسر عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبرهم أنه من مضر أخذه عامر بن الطفيل وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

فلما بلغ النبي ﷺ خبرهم، قال «**هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً**»[1]، فبلغ ذلك أبا براء فمات أسفاً على ما صنع عامر بن الطفيل.

وقتل عامر بن فهيرة يومئذ فلم يوجد جسده، دفنته الملائكة[2].

قال ابن سعد عن أنس بن مالك: ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة.

وفي صحيح مسلم عن أنس أيضاً: (دعا ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحاً، يدعو على رعل ولحيان وعصية عصت الله ورسوله، قال أنس: أنزل الله في الذين قتلوا يوم بئر معونة قرآناً قرأناه ثم نسخ بعد ـ أي نسخت تلاوته ـ أن بلغوا قومنا أنا قد لقينا ربنا، فرضي عنا ورضينا عنه)[3].

كذا وقع في هذه الرواية، وهو يوهم أن بني لحيان ممن أصاب القراء يوم بئر معونة، وليس كذلك. وإنما أصاب رعل وذكوان وعصية ومن صحبهم من سليم، وأما بنو لحيان فهم الذين أصابوا بعث الرجيع. وإنما أتى إلى رسول الله ﷺ عنهم كلهم في وقت واحد، فدعا على الذين أصابوا أصحابه في الموضعين دعاء واحداً والله أعلم.

## [غزوة بني النضير][4]

ثم غزوة بني النضير ـ بفتح النون وكسر الضاد المعجمة ـ قبيلة كبيرة من اليهود، في ربيع الأول سنة أربع. وذكرها ابن إسحاق هنا.

قال السهيلي: وكان ينبغي أن يذكرها بعد بدر، لما روى عقيل بن خالد وغيره عن

---

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢/ ٤٠. ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٤١. ومجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٢٩. والبداية والنهاية ٤/ ٧٥.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٤٠. والبداية والنهاية ٤/ ٧٥. ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٤٢. وتاريخ الطبري ٢/ ٢٢١. والسيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٩٦. والكامل في التاريخ ٢/ ٦٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث (٦٧٧). ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٤٧.

(٤) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٤٣. والمنتظم ٣/ ٢٠٣. والسيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٩٩. والكامل في التاريخ ٢/ ٦٤. ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ١٧٦. وتاريخ الطبري ٢/ ٢٢٣ والبداية والنهاية ٤/ ٧٦ وصحيح البخاري في كتاب المغازي باب (١٤) رقم الحديث (٤٠٢٨). وفتح الباري ٧/ ٤١٩. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ٧٩.

الزهري قال: كانت غزوة بني النضير على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل أحد.

ورجح الداودي ما قاله ابن إسحاق من أن غزوة بني النضير بعد بئر معونة، مستدلاً بقوله تعالى ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم﴾ [الأحزاب: ٢٦].

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: وهو استدلال واه، فإن الآية نزلت في شأن بني قريظة، فإنهم هم الذين ظاهروا الأحزاب، وأما بنو النضير فلم يكن لهم في الأحزاب ذكر، بل كان من أعظم الأسباب في جمع الأحزاب ما وقع من إجلائهم، فإنه كان من رؤوسهم حيي بن أخطب، وهو الذي حسن لبني قريظة الغدر، وموافقة الأحزاب حتى كان من هلاكهم ما كان فكيف يصير السابق لاحقاً. انتهى.[(١)]

وقد تقدم قريباً أن عامر بن الطفيل أعتق عمرو بن أمية لما قتل أهل بئر معونة عن رقبة عن أمه، فخرج عمرو إلى المدينة فصادف رجلين من بني عامر معهما عقد وعهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به عمرو، فقال لهما عمرو من أنتما؟ فذكرا له أنهما من بني عامر، فتركهما حتى ناما فقتلهما عمرو، وظن أنه ظفر ببعض ثأر أصحابه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال «لقد قتلت قتيلين لأدينهما»[(٢)].

قال ابن إسحاق وغيره: ثم خرج ﷺ إلى بني النضير ليستعين بهم في دية ذينك القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية، للجوار الذي كان ﷺ عقده لهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف.

فلما أتاهم ﷺ يستعينهم في ديتهما قالوا: يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذا الحال. وكان ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم.

وقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت فيلقي هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه الصخرة ورسول الله في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم.

قال ابن سعد: فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا، والله ليخبرن بما هممتم، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه.

---

(١) انظر المنتظم ٣/ ٢٠٣. والسيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٠٠. ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ١٨١. والكامل في التاريخ ٤/ ٦٥. والبداية والنهاية ٤/ ٧٧. وطبقات ابن سعد ٢/ ٤٤. وتاريخ الطبري ٢/ ٢٢٥.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٢٩. وتغليق التعليق. (١١٢٥).

قال ابن إسحاق: وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام ﷺ مظهراً أنه يقضي حاجته، وترك أصحابه في مجلسهم، ورجع مسرعاً إلى المدينة.

واستبطأ النبي ﷺ أصحابه، فقاموا في طلبه حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما أرادت يهود من الغدر به.

قال ابن عقبة: ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم**﴾ [المائدة: ١١] الآية.

قال ابن إسحاق: فأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

ثم سار بالناس حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال. قال ابن إسحاق: فتحصنوا منه في الحصون فقطع النخل وحرقها وخرب.

فنادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها.

قال السهيلي: قال أهل التأويل: وقع في نفوس بعض المسلمين من هذا الكلام شيء حتى أنزل الله: ﴿**ما قطعتم من لينة**﴾ إلى قوله: ﴿**وليخزي الفاسقين**﴾ [الحشر: ٥] واللينة: ألوان التمر ما عدا العجوة والبرني. ففي هذه الآية أنه ﷺ لم يحرق من نخلهم إلا ما ليس بقوت الناس، وكانوا يقتاتون العجوة، وفي الحديث «**العجوة من الجنة وتمرها يغذو أحسن غذاء**»[1]، والبرني أيضاً كذلك. ففي قوله تعالى: ﴿**ما قطعتم من لينة**﴾ [الحشر: ٥] ولم يقل من نخلة على العموم، تنبيه على كراهة قطع ما يقتات ويغذو من شجر العدو إذا رجي أن يصل إلى المسلمين.

قال ابن إسحاق: وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي ابن سلول بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم. فتربصوا، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فلم ينصروهم. فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم عن أرضهم ويكف عن دمائهم.

وعند ابن سعد: أنهم حين هموا بغدره ﷺ وأعلمه الله بذلك، بعث إليهم محمد بن مسلمة: أن اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رؤي منكم بعد ذلك ضربت عنقه.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٢/ ٢٠١. والترمذي في سننه في كتاب الطب باب (٢٢) رقم الحديث (٢٠٦٦). وابن ماجه في سننه كتاب الطب باب (٨) رقم الحديث (٣٤٥٣). والدارمي في الرقاق (١١٥).

فمكثوا على ذلك أياماً يتجهزون، وتكاروا من أناس من أشجع إبلاً، فأرسل إليهم عبد الله بن أبي: لا تخرجوا من دياركم، وأقيموا في حصونكم فإن معي ألفين من قومي من العرب يدخلون حصونكم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، فطمع حيي فيما قاله ابن أبي، فأرسل إلى رسول الله ﷺ، إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فأظهر ﷺ التكبير، وكبر المسلمون بتكبيره، وسار إليهم ﷺ في أصحابه، فصلى العصر بفناء بني النضير، وعلي يحمل رايته، فلما رأوا رسول الله ﷺ قاموا على حصونهم، ومعهم النبل والحجارة، واعتزلهم ابن أبي ولم يمنعهم، وكذا حلفاؤهم من غطفان، فيئسوا من نصرهم، فحاصرهم ﷺ وقطع نخلهم، وقال لهم عليه الصلاة والسلام: «**اخرجوا منها، ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة**»[1] ـ وهي بإسكان اللام قال في القاموس؛ الدرع ـ فنزلت يهود على ذلك فحاصرهم خمسة عشر يوماً، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم.

ثم أجلاهم عن المدينة وولي إخراجهم محمد بن مسلمة. وحملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير فلحقوا بخيبر. وحزن عليهم المنافقون حزناً شديداً.

وقبض ﷺ الأموال، ووجد من الحلقة خمسين درعاً وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً.

وكانت بنو النضير صفياً لرسول الله ﷺ حبساً لنوائبه، ولم يسهم منها لأحد، لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، وإنما قذف في قلوبهم الرعب، وأجلوا عن منازلهم إلى خيبر، ولم يكن ذلك عن قتال من المسلمين لهم، فقسمها ﷺ بين المهاجرين ليرفع بذلك مؤنتهم عن الأنصار، إذ كانوا قد قاسموهم في الأموال والديار، غير أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف لحاجتهما. وفي الإكليل: وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق، وكان سيفاً له ذكر عندهم.

## [غزوة ذات الرقاع][2]

واختلف فيها متى كانت:

فعند ابن إسحاق: بعد بني النضير سنة أربع، في شهر ربيع الآخر، وبعض جمادى.

---

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢/ ٤١.

(٢) انظر المنتظم ٣/ ٢١٤. وطبقات ابن سعد ٢/ ٤٦. والكامل في التاريخ ٢/ ٦٦. والسيرة النبوية

وعند ابن سعد وابن حبان: في المحرم سنة خمس.

وجزم أبو معشر: بأنها بعد بني قريظة في ذي القعدة سنة خمس، فتكون ذات الرقاع في آخر السنة الخامسة وأول التي تليها.

قال في فتح الباري: قد جنح البخاري إلى أنها كانت بعد خيبر، واستدل لذلك بأمور، ومع ذلك فذكرها قبل خيبر، فلا أدري: هل تعمد ذلك تسليماً لأصحاب المغازي أنها كانت قبلها، أو أن ذلك من الرواة عنه، أو إشارة إلى احتمال أن تكون ذات الرقاع اسماً لغزوتين مختلفتين كما أشار إليها البيهقي. على أن أصحاب المغازي مع جزمهم بأنها كانت قبل خيبر مختلفون في زمانها. انتهى.

والذي جزم به ابن عقبة تقدمها، لكن تردد في وقتها فقال: لا ندري كانت قبل بدر أو بعدها؟ أو قبل أحد أو بعدها؟

قال الحافظ ابن حجر: وهذا التردد لا حاصل له، بل الذي ينبغي الجزم به أنها بعد غزوة بني قريظة، لأن صلاة الخوف في غزوة الخندق لم تكن شرعت، وقد ثبت وقوع صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع. فدل على تأخرها بعد الخندق.

ثم قال عند قول البخاري: «وهي بعد خيبر» لأن أبا موسى جاء بعد خيبر، وإذا كان كذلك وثبت أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع لزم أنها كانت بعد خيبر.

قال: وعجبت من ابن سيد الناس كيف قال: جعل البخاري حديث أبي موسى هذا حجة في أن غزوة ذات الرقاع متأخرة عن خيبر. قال: وليس في خبر أبي موسى ما يدل على شيء من ذلك، انتهى كلام ابن سيد الناس.

قال: وهذا النفي مردود، والدلالة على ذلك واضحة كما قررته.

قال: وأما الدمياطي: فادعى غلط الحديث الصحيح، وأن جميع أهل السير على خلافه. وقد تقدم أنهم مختلفون في زمانها. فالأولى الاعتماد على ما ثبت في الصحيح.

وأما قول الغزالي: إنها آخر الغزوات. فهو غلط واضح، وقد بالغ ابن الصلاح في إنكاره.

وقال بعض من انتصر للغزالي: لعله أراد آخر غزوة صليت فيها صلاة الخوف.

---

= لابن هشام ٣/ ٢١٣. ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٦٩. والبداية والنهاية ٤/ ٨٤. وصحيح البخاري في كتاب المغازي باب (٣٢) رقم الحديث (٤١٢٥). وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ٨٦.

وهو انتصار مردود، بما أخرجه أبو داود والنسائي وصححه ابن حبان من حديث أبي بكرة: أنه صلى مع النبي ﷺ صلاة الخوف[1]. وإنما أسلم أبو بكرة بعد غزوة الطائف بالإتفاق. انتهى.

وأما تسميتها بذات الرقاع:

فلأنهم رقعوا فيها راياتهم، قاله ابن هشام.

وقيل: لشجرة في ذلك الموضع يقال لها ذات الرقاع.

وقيل: الأرض التي نزلوا بها فيها بقع سود وبقع بيض، كأنها مرقعة برقاع مختلفة، فسميت ذات الرقاع لذلك.

وقيل: إن خيلهم كان بها سواد وبياض. قاله ابن حبان.

وقال الواقدي: سميت بجبل هناك فيه بقع. قال الحافظ ابن حجر: وهذا لعله مستند ابن حبان، ويكون قد تصحف عليه بخيل.

قال: وأغرب الداودي فقال: سميت ذات الرقاع لوقوع صلاة الخوف فيها، فسميت بذلك لترقيع الصلاة فيها. انتهى.

قال السهيلي: وأصح من هذه الأقوال كلها، ما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع، لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا)[2].

وكان من خبر هذه الغزوة، كما قاله ابن إسحاق: أنه ﷺ غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة ـ بالمثلثة ـ من غطفان ـ بفتح الغين المعجمة والمهملة ـ لأنه ﷺ بلغه أنهم جمعوا الجموع. فخرج في أربعمائة من أصحابه ـ وقيل: سبعمائة ـ واستعمل على المدينة عثمان بن عفان، وقيل أبا ذر. حتى نزل نخلاً ـ بالخاء المعجمة ـ موضعاً من نجد من أراضي غطفان.

قال ابن سعد: فلم يجد في محالهم إلا نسوة فأخذهن.

وقال ابن إسحاق: فلقي جمعاً منهم فتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب، وقد

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الصلاة باب (١٤) رقم الحديث (١٢٣٨). والنسائي في سننه ٣/ ١٧٢. وفتح الباري في ٧/ ٥٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (٣٢). رقم الحديث (٤١٢٨).

أخاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف الناس.

قال ابن سعد: وكان ذلك أول ما صلاها.

وقد رويت صلاة الخوف من طرق كثيرة وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام على ما تيسر منها في مقصد عباداته ﷺ.

وكانت غيبته ﷺ في هذه الغزوة خمس عشرة ليلة.

وفي البخاري عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة فاخترطه ـ يعني سله من غمده ـ فقال تخافني قال: لا، قال: فمن يمنعك مني؟ قال: «الله»[1].

وعند أبي عوانة: فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: **«من يمنعك مني؟»** قال: كن خير آخذ. قال: **«تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟»** قال الأعرابي: أعاهدك أني لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. قال: فخلى سبيله. فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس.

وفي رواية عند البخاري: ولم يعاقبه[2].

وإنما لم يؤاخذه ﷺ بما صنع، وعفا عنه، لشدة رغبته عليه الصلاة والسلام في استئلاف الكفار ليدخلوا في الإسلام.

وفي رواية أبي اليمان عند البخاري ـ في الجهاد ـ قال: من يمنعك مني ثلاث مرات[3]. وهو استفهام إنكاري، أي لا يمنعك مني أحد.

وقد كان الأعرابي قائماً على رأسه والسيف في يده والنبي ﷺ جالس لا سيف معه.

ويؤخذ من مراجعة الأعرابي له في الكلام أن الله سبحانه منع نبيه، وإلا فما الذي أحوجه إلى مراجعته مع احتياجه إلى الحظوة عند قومه بقتله. وفي قوله ﷺ في جوابه: الله، أي يمنعني منك، إشارة إلى ذلك، ولذلك لما أعادها الأعرابي فلم يزده على ذلك الجواب، وفي ذلك غاية التهكم وعدم المبالاة به.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب (٣٢) رقم الحديث (٤١٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب (٣٢) رقم الحديث (٤١٣٥ ـ ٢٩١٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب (٨٤) رقم الحديث (٢٩١٠).

وذكر الواقدي في نحو هذه القصة أنه أسلم، ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير. وقال فيه: إنه رمي بالزلخة حين هم بقتله ﷺ، فندر السيف من يده وسقط إلى الأرض. والزلخة ـ بضم الزاي وتشديد اللام ـ وجع يأخذ في الصلب.

وقال البخاري: قال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر: اسم الرجل غورث بن الحارث، أي على وزن جعفر.

وحكى الخطابي فيه: غويرث، بالتصغير. وقد تقدم في غزوة غطفان وهي غزوة ذي أمر بناحية نجد مثل هذه القصة لرجل اسمه دعثور، وأنه قام على رأسه ﷺ بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ فقال: ﷺ: الله، ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده وأنه أسلم.

قال في عيون الأثر: والظاهر أن الخبرين واحد.

وقال غيره من المحققين: الصواب أنهما قصتان في غزوتين.

وفي هذه القصة: فرط شجاعته، وقوة يقينه وصبره على الأذى، وحلمه على الجهال ﷺ.

وفي انصرافه ﷺ من هذه الغزوة، أبطأ جمل جابر بن عبد الله فنخسه ﷺ فانطلق متقدماً بين يدي الركاب، ثم قال: «أتبيعينيه؟» فابتاعه منه وقال: لك ظهره إلى المدينة، فلما وصلها أعطاه الثمن وأرجح، ووهب له الجمل[(١)]. والحديث أصله في البخاري.

ولا حجة فيه لجواز بيع وشرط، لما وقع فيه من الاضطراب. وقيل غير ذلك مما يطول ذكره والله أعلم.

## [غزوة بدر][(٢)]

وهي الصغرى، وتسمى: بدر الموعد.

وكانت في شعبان، بعد ذات الرقاع. قال ابن إسحاق: لما قدم رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب (٣٤ ـ ٤٩) رقم الحديث (٢٠٩٧ ـ ٢٨٦١). فتح الباري ٦/ ٨٢. ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٨١. وصحيح مسلم كتاب الرضاع رقم الحديث (٥٧). ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣١٦. وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/ ٣٩٠. والبداية ٤/ ٨٧.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٢٠. والبداية والنهاية ٤/ ٨٩. وطبقات ابن سعد ٢/ ٤٥. وذكره الواقدي في المغازي (٣٨٤ ـ ٣٩١). وتاريخ الطبري ٢/ ٢٢٩. والمنتظم ٣/ ٢٠٤ وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ٩٣.

المدينة من غزوة ذات الرقاع، أقام بها جمادى الأولى إلى آخر رجب، ثم خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان. ويقال: كانت في هلال ذي القعدة.

وميعاد أبي سفيان: هو ما سبق أن أبا سفيان قال يوم أحد: الموعد بيننا وبينكم بدر العام القابل، فقال ﷺ لرجل من أصحابه: قل: «نعم هو بيننا وبينكم موعد».

فخرج ﷺ ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه، وعشرة أفراس، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، فأقاموا على بدر ينتظرون أبا سفيان.

وخرج أبو سفيان حتى نزل مجنة من ناحية مر الظهران، ويقال: عسفان، ثم بدا له الرجوع، فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب، ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا، فرجع الناس. فسماهم أهل مكة: جيش السويق يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

وأقام ﷺ ببدر ثمانية أيام، وباعوا ما معهم من التجارة، فربحوا الدرهم درهمين. وأنزل الله في المؤمنين: ﴿**الذين استجابوا لله والرسول**﴾ إلى قوله: ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء**﴾ [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٤] الآية.

والصحيح أن هذه الآية نزلت في شأن حمراء الأسد، كما نص عليه العماد بن كثير.

## غزوة[١] دومة الجندل[٢]

وهي بضم الدال من «دومة» هي مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وبعدها من المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة. قال أبو عبيد البكري: سميت بدومي بن إسماعيل، كان نزلها.

وكانت في شهر ربيع الأول، على رأس تسعة وأربعين شهراً من الهجرة، وكان سببها أنه بلغه ﷺ أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مر بهم، فخرج عليه الصلاة والسلام لخمس ليال بقين من شهر ربيع، في ألف من أصحابه، فكان يسير الليل ويكمن النهار.

واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٢٤. والمنتظم ٣/ ٢١٥. والبداية والنهاية ٤/ ٩٢. وطبقات ابن سعد ٢/ ٤٧ ومغازي الواقدي ١/ ٤٠٢ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٨٩ وتاريخ الطبري ٢/ ٢٣٢. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ٩٤.

(٢) انظر معجم البلدان ٢/ ٤٨٧ مادة (دومة). ومعجم ما استعجم ٢/ ٢٦٤. والروض المعطار (٢٤٥).

فلما دنا منهم، لم يجد إلا النعم والشاء، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم فأصاب من أصاب، وهرب من هرب في كل وجه. وجاء الخبر أهل دومة فتفرقوا، ونزل ﷺ بساحتهم فلم يلق بها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا وفرقها، فرجعوا، ولم يصب منهم أحد. ودخل المدينة في العشرين من ربيع الآخر.

## غزوة بني المصطلق(١)

غزوة المريسيع: ـ بضم الميم وفتح الراء وسكون التحتيتين بينهما مهملة مكسورة وآخره عين مهملة ـ وهو ماء لبني خزاعة، بينه وبين الفرع يومان.

وتسمى غزوة بني المصطلق ـ بضم الميم وسكون المهملة وفتح الطاء المهملة، وكسر اللام بعدها قاف ـ وهو لقب واسمه: جذيمة بن سعد بن عمرو، بطن من خزاعة.

وكانت لليلتين خلتا من شعبان، سنة خمس، وفي البخاري، قال ابن إسحاق سنة ست، وقال موسى بن عقبة: سنة أربع انتهى.

قالوا: وكأنه سبق قلم، أراد أن يكتب سنة خمس فكتب سنة أربع، والذي في مغازي موسى بن عقبة من عدة طرق أخرجها الحاكم وأبو سعيد النيسابوري والبيهقي في الدلائل وغيرهم سنة خمس.

وسببها أنه بلغه ﷺ أن رئيسهم الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب، فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوه، وتهيؤوا للمسير معه إليه.

فبعث ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي يعلم علم ذلك، فأتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه، ورجع إلى رسول الله ﷺ.

وخرج عليه السلام مسرعاً في بشر كثير من المنافقين، لم يخرجوا في غزاة قط مثلها. واستخلف على المدينة زيد بن حارثة. وقادوا الخيل، وكانت ثلاثين فرساً وخرجت عائشة وأم سلمة.

وبلغ الحارث ومن معه مسيره عليه السلام فسيء بذلك هو ومن معه، وخافوا خوفاً شديداً، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب.

وبلغ عليه السلام المريسيع، وصف أصحابه، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر،

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/٣٠٢. والمنتظم ٣/٢١٨. والمغازي للواقدي ١/٤٠٤. وطبقات ابن سعد ٢/٤٨. والكامل في التاريخ ٢/٨١. وتاريخ الطبري ٢/٢٦٠. وشرح المواهب للزرقاني ٢/١٠٢. والبداية والنهاية ٤/١٥٧.

وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة، فتراموا بالنبل ساعة ثم أمر عليه السلام أصحابه فحملوا حملة رجل واحد، وقتلوا عشرة وأسروا سائرهم، وسبوا النساء والرجال والذرية والنعم والشاء. ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد، كذا ذكره ابن إسحاق.

والذي في صحيح البخاري من حديث ابن عمر يدل على أنه أغار عليهم على حين غفلة منهم فأوقع بهم ولفظه: «أغار على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تستقي على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وهم على الماء»[1].

فيحتمل أن يكون حين الإيقاع بهم ثبتوا قليلاً، فلما كثر فيهم القتل انهزموا بأن يكونوا لما دهمهم وهم على الماء وتصافوا وقع القتال بين الطائفتين، ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم.

قيل وفي هذه الغزوة نزلت آية التيمم. وفي الصحيحين من حديث عائشة: أنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره[2]، فذكر حديث التيمم.

قال في فتح الباري: «قوله في بعض أسفاره» قال ابن عبد البر في التمهيد: يقال إنه كان في غزوة بني المصطلق. وجزم بذلك في الاستذكار. وسبقه إلى ذلك ابن سعد وابن حبان، وغزوة بني المصطلق هي غزوة المريسيع.

وفيها كانت قصة الإفك[3] لعائشة، وكان ابتداء ذلك بسبب وقوع عقدها أيضاً.

فإن كان ما جزموا به ثابتاً، حمل على أنه سقط منها في تلك السفرة مرتين، لاختلاف القصتين، كما هو بين من سياقهما.

قال: واستبعد بعض شيوخنا ذلك، لأن المريسيع من ناحية مكة بين قديد والساحل، وهذه القصة كانت من ناحية خيبر لقولها في الحديث: حتى إذا كنا بالبيداء، أو بذات الجيش، وهما بين مكة وخيبر كما جزم به النووي.

قال: وما جزم به مخالف لما جزم به ابن التين فإنه قال البيداء هي ذو الحليفة

(١) أخرجه البخاري كتاب العتق باب (١٣) رقم الحديث (٢٥٤١). ومصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٦٥. وسنن سعيد بن منصور (٢٤٨٤). والتمهيد لابن عبد البر ٢/٢١٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب (١) رقم الحديث (٣٣٤). وأبو داود كتاب الطهارة باب (١٢١) رقم الحديث (٣١٧) وابن ماجه أيضاً باب (٩٠) رقم الحديث (٥٦٥) ومسلم في كتاب الحيض رقم الحديث (١٠٨) وفي النسائي كتاب الطهارة باب (١٩٣) ١/١٦٣ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/٥٧.

(٣) انظر السيرة لابن هشام ٣/٣٠٩ والمنتظم ٣/٢٢١ والبداية والنهاية ٤/١٦١ والكامل في التاريخ ٢/٣. وتاريخ الطبري ٢/ ٢٦٤. وفتح الباري ٧/ ٥٤٨.

بالقرب من المدينة من طريق مكة، وذات الجيش وراء ذي الحليفة.

وقال أبو عبيد البكري في معجمه: البيداء أدنى إلى مكة من ذي الحليفة[1]، ثم ساق حديث عائشة هذا، ثم قال: وذات الجيش من المدينة على بريد. قال: وبينها وبين العقيق سبعة أميال. والعقيق من طريق مكة لا من طريق خيبر، فاستقام ما قاله ابن التين.

وقد قال قوم بتعدد ضياع العقد، ومنهم محمد بن حبيب الأخباري فقال: سقط عقد عائشة في غزوة ذات الرقاع وفي غزوة بني المصطلق.

وقد اختلف أهل المغازي في أي هاتين الغزوتين كانت أولاً.

وقال الداودي: كانت قصة التيمم في غزوة الفتح ثم تردد في ذلك.

وروى ابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت آية التيمم لم أدر كيف أصنع. فهذا يدل على تأخرها عن غزوة بني المصطلق، لأن إسلام أبي هريرة كان في السنة السابعة، وهي بعدها بلا خلاف.

وكان البخاري يرى أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد قدوم أبي موسى، وقدومه كان وقت إسلام أبي هريرة.

ومما يدل على تأخر القصة أيضاً عن قصة الإفك ما رواه الطبراني من طريق يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت: لما كان من أمر عقدي ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا، خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة أخرى، فسقط أيضاً عقدي حتى حبس الناس على التماسه، فقال لي أبو بكر: يا بنية في كل سفرة تكونين عناء وبلاء على الناس، فأنزل الله الرخصة في التيمم، فقال أبو بكر: إنك لمباركة.

وفي إسناده محمد بن حميد الرازي. وفيه مقال.

وفي سياقه من الفوائد: بيان عتاب أبي بكر الذي أبهم في حديث الصحيح، والتصريح بأن ضياع العقد كان مرتين في غزوتين. انتهى.

وفي هذه الغزوة قال ابن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فسمعه زيد بن أرقم، ذو الأذن الواعية، فحدث رسول الله ﷺ بذلك فأرسل إلى ابن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فأنزل الله تعالى: ﴿**إذا جاءك المنافقون**﴾ [المنافقون: ١] فقال له رسول الله ﷺ: «**إن الله قد صدقك يا زيد**»[2]. رواه البخاري.

---

(١) انظر معجم ما استعجم ١/ ٢٩٠ مادة (البيداء).

(٢) أخرجه البخاري - كتاب التفسير باب (١) رقم الحديث (٤٩٠٠ - ٤٩٠١ - ٤٩٠٢ - ٤٩٠٣ - ٤٩٠٤). والترمذي كتاب تفسير القرآن باب ٦٣ رقم الحديث (٣٣١٢ - ٣٣١٤). وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٥/ ٤٤١.

وكانت غيبته ﷺ في هذه الغزوة ثمانية وعشرين يوماً.

## غزوة الخندق(١)

وهي الأحزاب: جمع حزب، أي طائفة.

فأما تسميتها بالخندق: فلأجل الخندق الذي حفر حول المدينة بأمره ﷺ، ولم يكن اتخاذ الخندق من شأن العرب، ولكنه من مكايد الفرس. وكان الذي أشار بذلك سلمان، فقال: يا رسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فأمر النبي ﷺ بحفره، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين.

وأما تسميتها بالأحزاب، فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين، وهم: قريش وغطفان واليهود ومن معهم. وقد أنزل الله تعالى في هذه القصة صدراً من سورة الأحزاب.

واختلف في تاريخها:

فقال موسى بن عقبة: كانت في شوال سنة أربع.

وقال ابن إسحاق: كانت في شوال سنة خمس، وبذلك جزم غيره من أهل المغازي.

ومال البخاري إلى قول موسى بن عقبة، وقواه بقول ابن عمر: أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة فأجازه(٢). فيكون بينهما سنة واحدة، وأحد كانت سنة ثلاث، فتكون الخندق سنة أربع.

ولا حجة فيه إذا ثبت لنا أنها كانت سنة خمس، لاحتمال أن يكون ابن عمر في أحد كان أول ما طعن في الرابعة عشر، وكان في الأحزاب استكمل الخمس عشرة، وبهذا أجاب البيهقي.

وقال الشيخ ولي الدين بن العراقي: والمشهور أنها في السنة الرابعة.

وكان من حديث هذه الغزوة: أن نفراً من يهود قدموا على قريش بمكة وقالوا: إنا

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٢٤. وطبقات ابن سعد ٢/ ٥٠. المنتظم ٣/ ٢٢٧. والبداية والنهاية ٤/ ٩٤. تاريخ الطبري ٢/ ٢٣٣. والكامل في التاريخ ٢/ ٧٠. ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٩٢.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٣٠) رقم الحديث (٤٠٩٧) وسنن أبي داود. كتاب الحدود باب (١٨) رقم الحديث (٤٤٠٦).

سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له.

ثم خرج أولئك اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حربه عليه الصلاة والسلام، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد بايعوهم على ذلك واجتمعوا معهم.

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في فزارة، والحارث بن عوف المري في مرة.

وكان عدتهم ـ فيما ذكره ابن إسحاق ـ عشرة آلاف. والمسلمون ثلاثة آلاف وقيل غير ذلك.

وذكر ابن سعد أنه كان مع المسلمين ستة وثلاثون فرساً.

ولما سمع رسول الله ﷺ بالأحزاب، وبما أجمعوا عليه من الأمر، ضرب على المسلمين الخندق، فعمل فيه ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون، فدأب ودأبوا.

وأبطأ على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين في عملهم ذاك ناس من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف عن العمل.

وفي البخاري: عن سهل بن سعد قال: كنا مع النبي ﷺ في الخندق، وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار**»[1].

والأكتاد. ـ بالمثناة الفوقية ـ جمع كتد ـ بفتح أوله وكسر المثناة ـ وهو ما بين الكاهل إلى الظهر، وفي بعض نسخ البخاري: أكبادنا بالموحدة، وهو موجه على أن يكون المراد به مما يلي الكبد من الجنب.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب (٣٠) رقم الحديث (٤٠٩٨ ـ ٣٧٩٥ ـ ٣٧٩٦ ـ ٣٧٩٧). وفي سنن ابن ماجه. كتاب المساجد والجماعات باب (١) رقم الحديث (٧٤٢). والترمذي كتاب المناقب باب (٥٦) رقم الحديث (٣٨٥٧). وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ٣٠١. وسنن أبي داود كتاب الصلاة باب (١٢) رقم الحديث (٤٥٣). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٧٢. والسنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٨ والمطالب العالية لابن حجر (٤٣٣٢) والمعجم الكبير للطبراني ٦/ ٢٣٠. ومشكاة المصابيح للتبريزي (٤٧٩٣). وفي فتح الباري ٧/ ١٤٩. والدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي (٤٣) وكنز العمال (٤٧٩٠٥).

وفي البخاري أيضاً: عن أنس: فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً[1]

قال ابن بطال: وقوله اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، هو من قول ابن رواحة تمثل به ﷺ. وعند الحارث بن أبي أسامة من مرسل طاووس زيادة في آخر الرجز:

والعن عضلاً والقارة ... هم كلفونا نقل الحجارة

وفي البخاري من حديث البراء قال: (لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

إن الألى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

قال: يمد بها صوته. .) وفي رواية له أيضاً:

إن الألى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

وفي حديث سليمان التيمي[2] عن أبي عثمان النهدي[3] أنه ﷺ حين ضرب في الخندق قال:

بسم الإله وبه بدينا ... ولو عبدنا غيره شقينا

فحبذا ربا وحب ديناً

قال في النهاية: يقال بديت بالشيء ـ بكسر الدال ـ أي بدأت به، فلما خفف الهمزة

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٣٠) رقم الحديث (٤٠٩٩). وفي فتح الباري ٨/١٥٦.

(٢) هو سليمان بن طرخان أبو المعتمر التيمي. تابعي. محدث توفي بالبصرة سنة (١٤٣ هـ). الكاشف ١/٣١٦. رقم الترجمة (٢١٢٣) وطبقات ابن سعد ٧/١٨٨ رقم الترجمة (٣١٩٨).

(٣) هو عبد الرحمن بن مل أبو عثمان النهدي. تابعي محدث. حافظ توفي بالبصرة سنة (٩٥ هـ). الكاشف ٢/١٦٥ رقم الترجمة (٣٣٦٧) طبقات ابن سعد ٧/٦٨ رقم الترجمة (٢٩٧٨)، تذكرة الحفاظ ١/٦٥ رقم الترجمة (٥٦) شذرات الذهب ١/١١٨. العبر ٢/٢٧٤.

كسر الدال، فانقلبت الهمزة ياء، وليس هو من بنات الياء. انتهى.

وقد وقع في حفر الخندق آيات من أعلام نبوته ﷺ. منها ما في الصحيح عن جابر قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة ـ وهي بضم الكاف وتقديم الدال المهملة على التحتانية، وهي القطعة الصلبة ـ فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم[1].

كذا بالشك من الراوي، وفي رواية الإسماعيلي باللام من غير شك، والمعنى: أنه صار رملاً يسيل ولا يتماسك.

وأهيم: بمعنى أهيل. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿**فشاربون شرب الهيم**﴾ [الواقعة: ٥٥]. المراد: الرمال التي لا يرويها الماء.

وقد وقع عند أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن من حديث البراء قال: لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء وأخذ المعول فقال: «**بسم الله**»، ثم ضرب ضربة فنثر ثلثها، وقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة**»، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر، فقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، وإني والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن**»، ثم ضرب الثالثة فقال: «بسم الله» فقطع بقية الحجر، فقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة**»[2].

ومن أعلام نبوته ما ثبت في الصحيح من حديث جابر من تكثير الطعام القليل يوم حفر الخندق، كما سيأتي إن شاء الله تعالى مستوفى في مقصد المعجزات مع غيره[3].

وقد وقع عند موسى بن عقبة أنهم أقاموا في عمل الخندق قريباً من عشرين ليلة.

وعند الواقدي: أربعاً وعشرين.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٣٠). رقم الحديث (٤١٠١).

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٤٢١ وفي فتح الباري ٧/ ٥٠٥. وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٠٣. ومصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٢٢. وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١/ ١٣١ وجمع الجوامع للسيوطي (٩٦٦٧). وكنز العمال (٣٠٠٨٠ ـ ٣١٧٩٢).

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٣٠) رقم الحديث (٤١٠١) وفتح الباري ٧/ ٥٠٧. وصحيح مسلم كتاب الأشربة باب (٢٠) رقم الحديث (١٤١) والبداية والنهاية ٤/ ٩٩ ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٢٦. وكنز العمال (٣٣٢٣٧).

وفي الروضة للنووي: خمسة عشر يوماً.

وفي الهدي النبوي لابن القيم: أقاموا شهراً.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع السيول في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وتهامة.

ونزل عيينة بن حصن في غطفان ومن تبعهم من أهل نجد إلى جانب أحد.

وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين حتى جعلوا أظهرهم إلى سلع، وكانوا ثلاثة آلاف رجل. فضرب هنالك عسكره، والخندق بينه وبين القوم. وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة. وكان ﷺ يبعث الحرس إلى المدينة خوفاً على الذراري من بني قريظة.

قال ابن إسحاق: وخرج عدو الله حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده، فأغلق كعب دونه باب حصنه، وأبى أن يفتح له، وقال ويحك يا حيي، إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، فإني لم أر منه إلا وفاء وصدقاً. فقال: ويلك افتح، ولم يزل به حتى فتح له، فقال: ويلك يا كعب، جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال، ومن دونه غطفان وقد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه، ولم يزل به حتى نقض عهده، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

وعن عبد الله بن الزبير قال: كنت يوم الأحزاب أنا وعمرو بن أبي سلمة مع النساء في أطم حسان، فنظرت فإذا الزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً، فلما رجعت قلت يا أبت رأيتك تختلف، قال: رأيتني يا بني قلت: نعم. قال: كان رسول الله ﷺ قال: «**من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم» فانطلقت**، فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال: فداك أبي وأمي[1]. أخرجه الشيخان والترمذي وقال: حديث حسن.

وفي رواية أصحاب المغازي: فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ بعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومعهما ابن رواحة وخوات بن جبير ليعرفوا الخبر، فوجدوهم على

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/١٦٦. وابن ماجه في المقدمة باب (١١) رقم الحديث (١٢٢) وفي صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير باب (٤١) رقم الحديث (٢٨٤٦ ـ ٢٨٤٧ ـ ٢٩٩٧ ـ ٣٧١٩ ـ ٤١١٣ ـ ٧٢٦١) وفي فتح الباري ٦/١٦٦. وفي مشكاة المصابيح (٦١٠٢). وكنز العمال (٣٦٦٤٠).

أخبث ما بلغه عنهم، نالوا من رسول الله ﷺ وتبرؤوا من عقده وعهده، ثم أقبل السعدان ومن معهما على رسول الله ﷺ وقالوا: عضل والقارة، أي كغدرهما بأصحاب الرجيع.

فعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن.

ونجم النفاق من بعض المنافقين، وأنزل الله تعالى: **﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾** [الأحزاب: ١٢] الآيات.

وقال رجال ممن معه: يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، وقال أوس بن قيظي: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة من العدو، فائذن لنا فنرجع إلى ديارنا، فإنها خارج المدينة.

وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي على فرس له ليوثبه الخندق فوقع في الخندق فقتله الله. وكبر ذلك على المشركين، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ إنا نعطيك الدية على أن تدفعوه إلينا فندفنه، فرد إليهم النبي ﷺ: «**إنه خبيث خبيث الدية، فلعنه الله ولعن ديته، ولا نمنعكم أن تدفنوه ولا أرب لنا في ديته**»[١].

قال ابن إسحاق: وأقام ﷺ والمسلمون وعدوهم يحاصرهم، ولم يكن بينهم قتال إلا مراماة بالنبل، لكن كان عمرو بن عبد ود العامري اقتحم هو ونفر معه خيولهم من ناحية ضيقة من الخندق، حتى صاروا بالسبخة، فبارزه علي فقتله، وبرز نوفل بن عبد الله بن المغيرة فقتله الزبير وقيل قتله علي، ورجعت بقية الخيول منهزمة.

ورمي سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل ـ وهو بفتح الهمزة والمهملة بينهما كاف ساكنة ـ عرق في وسط الذراع. قال الخليل: هو عرق الحياة يقال إن في كل عضو منه شعبة فهو في اليد الأكحل وفي الظهر الأبهر وفي الفخذ النسا، إذا قطع لم يرفأ الدم.

وكان الذي رمى سعداً، ابن عرقة، أحد بني عامر بن لؤي، قال: خذها مني وأنا ابن العرقة، فقال له سعد: عرق الله وجهك في النار. ثم قال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ١/٢٤٨ وفي البداية والنهاية ٤/١٠٩. وفي الجامع الكبير ٢/٧٩٩.

وأقام عليه الصلاة والسلام وأصحابه بضع عشرة ليلة. فمشى نعيم بن مسعود الأشجعي ـ وهو مخف إسلامه ـ فثبط قومه عن قوم وأوقع بينهم شراً لقوله ﷺ: «**الحرب خدعة**»[1] فاختلفت كلمتهم.

وروى الحاكم عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب وأبو سفيان ومن معه من فوقنا، وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة أشد ظلمة ولا ريحاً منها، فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون بيوتنا عورة، فمر بي النبي ﷺ وأنا جاث على ركبتي، ولم يبق معه إلا ثلاثمائة فقال: اذهب فائتني بخبر القوم، ودعا لي، فأذهب الله عني القر والفزع، فدخلت عسكرهم فإذا الريح فيه لا تجاوز شبراً، فلما رجعت رأيت فوارس في طريقي فقالوا: أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم.

وفي رواية: أن حذيفة لما أرسله ﷺ ليأتيه بالخبر سمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك الخف والكراع، واختلفنا وبنو قريظة، ولقينا من هذا الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل ووثب على جمله فما حل عقال يده إلا وهو قائم.

ووقع في البخاري أنه ﷺ قال يوم الأحزاب: «**من يأتينا بخبر القوم**» فقال الزبير: أنا، فقال: «**من يأتينا بخبر القوم**»، فقال الزبير: أنا، فقال: «**من يأتينا بخبر القوم؟**» قالها ثلاثاً[2].

وقد استشكل ذكر الزبير في هذه.

فقال ابن الملقن: وقع هنا أن الزبير هو الذي ذهب والمشهور أنه حذيفة بن اليمان.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب (١٥٧) رقم الحديث (٣٠٢٨ ـ ٣٠٢٩ ـ ٣٠٣٠). وفي فتح الباري ٦/ ١٩٤. وفي سنن الترمذي كتاب الجهاد باب (٥) رقم الحديث (١٦٧٥) وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٩٠. وفي صحيح مسلم برقم (١٣٦١) وابن ماجه في كتاب الجهاد باب (٢٨) رقم الحديث (٢٨٣٣ ـ ٢٨٣٤) وفي حلية الأولياء (٧/ ٢٤٧) وفي المسند للحميدي ٢/ ٥١٩ رقم الحديث (١٢٣٧) وفي البداية والنهاية ٤/ ١١٤. وفي المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٨٣. وفي تفسير القرطبي ٨/ ٣٣. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٠ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٣٢٠. وفي كنز العمال (١٠٨٩١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب باب (٢٤) رقم الحديث (٣٧٤٥). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٣٦٥. وفي فتح الباري ٦/ ٦٦ وفي صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير باب (٤١) رقم الحديث (٢٩٩٧ ـ ٣٧١٩). وفي سنن ابن ماجه في المقدمة باب (١١) رقم الحديث (١٢٢). وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٣١. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٣٦٧. ومشكاة المصابيح (٦١٠٢).

قال الحافظ بن حجر: وهذا الحصر مردود، فإن القصة التي ذهب لكشفها غير القصة التي ذهب حذيفة لكشفها، فقصة الزبير كانت لكشف خبر بني قريظة هل نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، ووافقوا قريشاً على محاربة المسلمين؟ وقصة حذيفة كانت لما اشتد الحصار على المسلمين بالخندق، وتمالأت عليهم الطوائف، ثم وقع بين الأحزاب الاختلاف، وحذرت كل طائفة من الأخرى، وأرسل الله عليهم الريح واشتد البرد تلك الليلة، فانتدب عليه السلام من يأتيه بخبر قريش فانتدب له حذيفة بعد تكراره طلب ذلك، وقصته في ذلك مشهورة لما دخل بين قريش في الليل وعرف قصتهم.

وفي البخاري من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «**اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»[1].

وروى أحمد عن أبي سعيد قال: قلنا يوم الخندق يا رسول الله هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر قال: نعم، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا. قال: فضرب الله وجوه أعدائنا بالريح.

وفي «ينبوع الحياة» لابن ظفر[2]: قيل إنه ﷺ دعا فقال: يا صريخ المكروبين يا مجيب المضطرين اكشف همي وغمي وكربي فإنك ترى ما نزل بي وبأصحابي. فأتاه جبريل فبشره بأن الله سبحانه يرسل عليهم ريحاً وجنوداً، فأعلم أصحابه ورفع يديه قائلاً: شكراً شكراً، وهبت ريح الصبا ليلاً فقلعت الأوتاد وألقت عليهم الأبنية وكفأت القدور وسفت عليهم التراب ورمتهم بالحصى، وسمعوا في أرجاء معسكرهم التكبير وقعقعة السلاح فارتحلوا هراباً في ليلتهم وتركوا ما استثقلوه من متاعهم. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿**فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها**﴾ [الأحزاب: ٩].

وفي البخاري عن علي أن رسول الله ﷺ قال يوم الخندق: «**ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس**»[3] ومقتضى هذا أنه

---

(١) أخرجه ابن ماجه كتاب الجهاد باب (١٥) رقم الحديث (٢٧٩٦) وفي صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير باب (٩٨) رقم الحديث (٢٩٣٣ ـ ٢٩٦٥ ـ ٣٠٢٥ ـ ٤١١٥ ـ ٦٣٩٢ ـ ٧٤٨٩) وفتح الباري ١٩٣/٦ وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣٥٣/٤. وطبقات ابن سعد ٥٧/٢. والبداية والنهاية ١١٣/٤ وحلية الأولياء ٢٥٦/٨. ودلائل النبوة للبيهقي ٤٥٦/٣.

(٢) ذكره القرطبي ١٥٧/١٤.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب (٩٨) رقم الحديث (٢٩٣١ ـ ٤١١١ ـ ٤٥٣٣ ـ =

استمر اشتغاله بقتال المشركين حتى غابت الشمس.

ويعارضه ما في صحيح مسلم عن ابن مسعود أنه قال: حبس المشركون رسول الله ﷺ عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت، فقال رسول الله ﷺ: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى**»(١) الحديث. ومقتضى هذا أنه لم يخرج الوقت بالكلية.

قال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، الحبس انتهى إلى ذلك الوقت، أي الحمرة أو الصفرة، ولم تقع الصلاة إلا بعد المغرب انتهى.

وفي البخاري عن عمر بن الخطاب: أنه جاء يوم الخندق وجعل يسب كفار قريش قال: يا رسول الله، ما كدت أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب فقال ﷺ: «**والله ما صليتها**»، فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا، فصلى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب(٢).

وقد يكون ذلك للاشتغال بأسباب الصلاة أو غيرها، ومقتضى هذه الرواية المشهورة أنه لم يفت غير العصر.

وفي الموطأ: الظهر والعصر.

وفي الترمذي عن ابن مسعود أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق. وقال: ليس بإسناده بأس إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من عبد الله، فمال ابن العربي إلى الترجيح وقال: الصحيح أن التي اشتغل عنها ﷺ واحدة وهي العصر.

وقال النووي: طريق الجمع بين هذه الروايات، أن وقعة الخندق بقيت أياماً فكان هذا في بعض الأيام وهذا في بعضها. قال: وأما تأخيره ﷺ صلاة العصر حتى غربت الشمس فكان قبل نزول صلاة الخوف.

---

= ٦٣٩٦). وابن ماجه كتاب الصلاة باب (٦) رقم الحديث (٦٨٤). وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٨٢ وفي صحيح مسلم كتاب المساجد رقم الحديث (٢٠٢ ـ ٢٠٥). وفي فتح الباري ٨/ ٢٤٧، وفي سنن الدارمي ١/ ٢٠٨. والسنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢٢٠. وفي طبقات ابن سعد ٢/ ٥٣. والبداية والنهاية ٤/ ١١١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٤٠. وفي كنز العمال (٢١٩٣ ـ ٢٩٩٠٠).

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ١٣٧. وصحيح مسلم كتاب المساجد باب (٣٦) رقم الحديث (٢٠٢ ـ ٢٠٥). وسنن النسائي ١/ ٢٣٦. وفتح الباري ٨/ ٢٤٧. وحلية الأولياء ٤/ ١٦٥. والبداية والنهاية ٤/ ١١١. والتمهيد لابن عبد البر ٤/ ٢٨٨. والمعجم الكبير للطبراني ١١/ ٣٨٤. والسنن الكبرى للبيهقي ١/ ٤٦٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب (٣٦) رقم الحديث (٥٩٦ ـ ٥٩٨ ـ ٦٤١ ـ ٩٤٥ ـ ٤١١٢). وفتح الباري ٢/ ٨٨.

قال العلماء: يحتمل أن يكون أخرها نسياناً لا عمداً، وكان السبب في النسيان الاشتغال بأمر العدو، ويحتمل أنه أخرها عمداً للاشتغال بالعدو قبل نزول صلاة الخوف، وأما اليوم فلا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها بسبب العدو والقتال، بل يصلي صلاة الخوف على حسب الحال.

وقد اختلف في المراد بالصلاة الوسطى. وجمع الحافظ الدمياطي في ذلك مؤلفاً مفرداً سماه: كشف المغطى عن الصلاة الوسطى، فبلغ تسعة عشر قولاً، وهي: الصبح أو الظهر، أو العصر، أو المغرب، أو جميع الصلاة وهو يتناول الفرائض والنوافل واختاره ابن عبد البر، أو الجمعة وصححه القاضي حسين في صلاة الخوف من تعليقه، أو الظهر في الأيام والجمعة يوم الجمعة، أو العشاء لأنها بين صلاتين لا تقصران، أو الصبح والعشاء، أو الصبح والعصر لقوة الأدلة. فظاهر القرآن الصبح، ونص السنة العصر، أو صلاة الجماعة أو الوتر أو صلاة الخوف أو صلاة عيد الأضحى أو الفطر أو صلاة الضحى، أو واحدة من الخمس غير معينة، أو الصبح أو العصر على الترديد وهو غير القول السابق أو التوقف انتهى.

وانصرف ﷺ من غزوة الخندق يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من ذي القعدة، وكان قد أقام بالخندق خمسة عشر يوماً، وقيل أربعة وعشرين يوماً.

وقال ﷺ: «**لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا**»[1].

وفي ذلك علم من أعلام النبوة. فإنه ﷺ اعتمر في السنة التي صدته قريش عن البيت، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها فكان ذلك سبب فتح مكة فوقع الأمر كما قال عليه الصلاة والسلام. وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

وقد أخرج البزار من حديث جابر بإسناد حسن شاهداً لهذا ولفظه: إن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب، وقد جمعوا له جموعاً كثيرة: «**لا يغزونكم بعدها أبداً، ولكن أنتم تغزونهم**»[2].

## [غزوة بني قريظة][3]

ولما دخل ﷺ المدينة يوم الأربعاء هو وأصحابه ووضعوا السلاح جاء جبريل عليه

---

(١) أخرجه البيهقي بدلائل النبوة ٣/٤٥٨. وفي تفسير ابن كثير ٦/٣٩٦. وفي البداية والنهاية ٤/١١٧.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٣٩. وفي البداية والنهاية ٤/١١٧.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ٢/٥٧ والمنتظم ٣/٢٣٨. والسيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٤٤. والبداية =

السلام معتجراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج.

وفي رواية البخاري من حديث عائشة أنه لما رجع ﷺ ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال له: قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه. فاخرج إليهم[1].. وأشار إلى بني قريظة.

وعند ابن إسحاق: إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة.

وعند ابن عائذ: قم فشد عليك سلاحك، فوالله لأدقنهم دق البيض على الصفا، وبعث يومئذ منادياً ينادي يا خيل الله اركبي.

وعند الحاكم والبيهقي: وبعث علياً على المقدمة، وخرج ﷺ في أثره.

وعند ابن سعد: ثم سار إليهم في المسلمين، وهم ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثون فرساً، وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة.

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، فيما قاله ابن هشام.

ونزل ﷺ على بئر من آبار بني قريظة وتلاحق به الناس. فأتى رجال منهم بعد العشاء الآخرة، ولم يصلوا العصر، لقوله ﷺ «**لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**»[2] فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة، فما عابهم الله بذلك في كتابه ولا عنفهم به رسول الله ﷺ.

وفي البخاري عن ابن عمر: فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم[3].

---

= والنهاية ١١٨/٤. والكامل في التاريخ ٧٥/٢. وتاريخ الطبري ٢٤٥/٢. وشرح المواهب للزرقاني ١٢٦/٢.

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٣١) رقم الحديث (٤١١٧).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الخوف باب (٥) رقم الحديث (٩٤٦ ـ ٤١١٩). وصحيح مسلم كتاب الجهاد باب (٢٣) رقم الحديث (٦٩) وفتح الباري ٥١٩/٧. وشرح السنة للبغوي ١١/١٤. وتغليق التعليق لابن حجر العسقلاني ٣٧٧. والبداية والنهاية ١١٩/٤. والإستذكار لابن عبد البر (١٠٣١١).

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٣١) رقم الحديث (٤١١٩).

كذا وقع في جميع النسخ من البخاري: أنها العصر. واتفق عليه جميع أهل المغازي.

ووقع في مسلم أنها الظهر مع اتفاق البخاري ومسلم على روايته عن شيخ واحد وبإسناد واحد. ووافق مسلماً أبو يعلى وآخرون.

وجمع بين الروايتين باحتمال أن يكون بعضهم ـ قبل الأمر ـ كان صلى الظهر، وبعضهم لم يصلها، فقيل لمن لم يصلها لا يصلين أحد الظهر، ولمن صلاها: لا يصلين أحد العصر.

وجمع بعضهم باحتمال أن تكون طائفة منهم راحت بعد طائفة، فقيل للطائفة الأولى: الظهر، وللطائفة التي بعدها العصر، والله أعلم.

قال ابن إسحاق: وحاصرهم ﷺ خمساً وعشرين ليلة، حتى أجهدهم الحصار.

وعند ابن سعد: خمس عشرة. وعند ابن عقبة: بضع عشرة ليلة.

وقذف الله في قلوبهم الرعب. فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يؤمنوا فقال لهم: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني أعرض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي:

قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين أنه لنبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. فأبوا.

فقال: إذا أبيتم عليّ هذه، فهلم نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا ما نخشى عليه.

فقالوا: أي عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا.

فقال: إن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت، وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة.

قالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا، إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ.

وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة ـ وهو رفاعة بن عبد المنذر ـ نستشيره في أمرنا.

فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في

وجهه، فرقَّ لهم، وقالوا يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه: إنه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبداً، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً.

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه قال: «**أما لو جاءني لاستغفرت له، وأما إذا فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه**»[1].

قال: وأقام أبو لبابة مرتبطاً بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم تعود فتربطه بالجذع.

وقال أبو عمر: روى وهب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر أن أبا لبابة ارتبط بسلسلة ثقيلة بضع عشرة ليلة حتى ذهب سمعه، فما كاد يسمع، وكاد يذهب بصره، وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة، أو أراد أن يذهب لحاجة، فإذا فرغ أعادته.

وعن يزيد بن عبد الله بن قسيط: أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة. قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك، فقالت: قلت مم تضحك، أضحك الله سنك. قال: «**تيب على أبي لبابة**». قالت: قلت أفلا أبشره يا رسول الله، قال: «**بلى إن شئت**». قال: فقامت على باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب ـ فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك. قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مر عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه[2].

وروى البيهقي في دلائله بسنده عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم**﴾ [التوبة: ١٠٢] قال: هو أبو لبابة إذ قال لبني قريظة ما قال وأشار إلى حلقه إن محمداً يذبحكم إن نزلتم على حكمه. قال البيهقي وترجم محمد بن إسحاق بن يسار أن ارتباطه كان حينئذ[3].

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١٦. وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٤٨.
(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١٧ وفي سيرة ابن هشام ٣/ ٢٤٨.
(٣) انظر تفسير البغوي ٢/ ٢٧٢ [التوبة: ١٠٢].

وقد روينا عن ابن عباس ما دل على أن ارتباطه بسارية المسجد كان لتخلفه عن غزوة تبوك، كما قال ابن المسيب قال: وفي ذلك نزلت هذه الآية.

ولما اشتد الحصار ببني قريظة أذعنوا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فحكم فيهم سعد بن معاذ، وكان قد جعله في خيمة في المسجد الشريف لامرأة من أسلم يقال لها رفيدة وكانت تداوي الجرحى، فلما حكمه أتاه قومه فحملوه على حمار وقد وطؤوا له بوسادة من أدم ـ وكان رجلاً جسيماً ـ ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ.

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال عليه الصلاة والسلام: «**قوموا إلى سيدكم**»[1]. فأما المهاجرون من قريش فيقولون إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار، وأما الأنصار فيقولون: عم بها رسول الله ﷺ المسلمين.

فقالوا: إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم.

فقال سعد: فإني أحكم فيهم، أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء.

فقال ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة**» والرقيع: السماء سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم.

ووقع في البخاري: قال: قضيت فيهم بحكم الله، وربما قال: «**بحكم الملك**» ـ بكسر اللام ـ.

وفي رواية محمد بن صالح[2] «**لقد حكمت اليوم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سموات**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب (١٦٩) رقم الحديث (٣٠٤٣ ـ ٣٨٠٤ ـ ٤١٢١ ـ ٦٢٦٢). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٢٢. وصحيح مسلم كتاب الجهاد باب (٢٢) رقم الحديث (٦٤). وسنن أبي داود كتاب الأدب باب (١٤٤) رقم الحديث (٥٢١٥).
وفتح الباري ١١/ ٥٨ والسنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٥٨. والمعجم الكبير للطبراني ٦/ ٦. ودلائل النبوة ٤/ ١٨. ومجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٣٨ وكنز العمال (٢٥٤٨٣). وطبقات ابن سعد ٣/ ٢٢٣.

(٢) هو محمد بن صالح بن دينار المدني. التمار المتوفي سنة (١٦٨ هـ). الكاشف ٣/ ٤٧. رقم الترجمة (٤٩٨٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٦/ ٥٦. وطبقات ابن سعد ٢/ ٥٨. والمعجم الكبير للطبراني ٦/ ٦. والسلسلة الصحيحة للألباني ١/ ١٠٥. وإصلاح خطأ المحدثين للخطابي (٢٨). وشرح معاني الآثار ٣/ ٢١٦.

وفي حديث جابر ـ عند ابن عائذ ـ فقال: «**احكم فيهم يا سعد**»، فقال: الله ورسوله أحق بالحكم، قال: «**قد أمرك الله أن تحكم فيهم**»[1].

وفي هذه القصة: جواز الإجتهاد في زمنه ﷺ وهي مسألة اختلف فيها أهل أصول الفقه. والمختار: الجواز، سواء كان في حضرته ﷺ أم لا، وإنما استبعد المانع وقوع الإعتماد على الظن مع إمكان القطع، ولا يضر ذلك لأنه بالتقرير يصير قطعياً، وقد ثبت وقوع ذلك بحضرته ﷺ كما في هذه القصة وغيرها. انتهى.

وانصرف ﷺ يوم الخميس لسبع ليال ـ كما قال الدمياطي، أو لخمس كما قاله مغلطاي ـ خلون من ذي الحجة.

وأمر ﷺ ببني قريظة فأدخلوا المدينة، وحفر لهم أخدود في السوق، وجلس ﷺ ومعه أصحابه، وأخرجوا إليه فضربت أعناقهم، وكانوا ما بين ستمائة إلى سبعمائة، وقال السهيلي: المكثر يقول إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة، وفي حديث جابر عند الترمذي والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل.

فيحتمل في طريق الجمع أن يقال: إن الباقين كانوا أتباعاً.

واصطفى ﷺ لنفسه الكريمة ريحانة فتزوجها، وقيل كان يطؤها بملك اليمين، وأمر بالغنائم فجمعت، وأخرج الخمس من المتاع والسبي ثم أمر بالباقي فبيع فيمن يريد وقسمه بين المسلمين، فكانت على ثلاث آلاف واثنتين وسبعين سهماً، للفرس سهمان ولصاحبه سهم، وصار الخمس إلى محمية بن جزء الزبيدي، فكان النبي ﷺ يعتق منه ويهب ويخدم منه من أراد، وكذلك صنع بما صار إليه من الرثة ـ وهو السقط من المتاع ـ.

وانفجر جرح سعد بن معاذ، فمات شهيداً.

وفي البخاري أنه دعا: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك [وأخرجوه]، اللهم إني أظن أنك قد وضعت الحرب فافجرها واجعل موتي فيها، فانفجرت من لبته، فلم يرعهم ـ وفي المسجد خيمة لامرأة من بني غفار ـ إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دماً فمات منها[2].

---

(١) ذكره في فتح الباري ٧/ ٥٢٤. وفي طبقات ابن سعد ٣/ ٣٢٥.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب (٣١) رقم الحديث (٤١٢٢) وفي فتح الباري ٧/ ٥٢٧. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٧. وفي البداية والنهاية ٤/ ١٢٩. وفي طبقات ابن سعد ٣/ ٣٢٤.

وقد كان ظن سعد مصيباً، ودعاؤه في هذه القصة مجاباً، وذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش من بعد وقعة الخندق حرب يكون ابتداء القصد فيه من المشركين، فإنه ﷺ تجهز إلى العمرة فصدوه عن دخول مكة، وكاد الحرب أن يقع بينهم فلم يقع كما قال تعالى: ﴿**وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم**﴾ [الفتح: ٢٤]. ثم وقعت الهدنة واعتمر عليه السلام من قابل، واستمر ذلك إلى أن نقضوا العهد فتوجه إليهم غازياً ففتحت مكة، فعلى هذا: فالمراد بقوله: أظن أنك قد وضعت الحرب، أي: أن يقصدونا محاربين. وهو كقوله ﷺ «**نغزوهم ولا يغزونا**» ـ كما تقدم ـ.

وقد بين سبب انفجار جرح سعد في مرسل حميد بن هلال ـ عند ابن سعد ـ ولفظه: أنه مرت به عنز، وهو مضطجع، فأصاب ظلفها موضع النحر فانفجرت حتى مات.

وحضر جنازته سبعون ألف ملك، واهتز لموته عرش الرحمن[١] رواه الشيخان.

قال النووي: اختلف العلماء في تأويله:

فقالت طائفة: هو على ظاهره، واهتزاز العرش تحركه فرحاً بقدوم سعد، وجعل الله تعالى في العرش تمييزاً حصل به هذا، ولا مانع منه، كما قال تعالى: ﴿**وإن منها لما يهبط من خشية الله**﴾ [البقرة: ٧٤]. وهذا القول هو ظاهر الحديث. وهو المختار. قال المازري: قال بعضهم: هو على حقيقته، وأن العرش تحرك لموته، وهذا لا ينكر من جهة العقل، لأن العرش جسم من الأجسام، يقبل الحركة والسكون. قال: لكن لا تحصل فضيلة سعد بذلك إلا أن يقال: إن الله تعالى جعل حركته علامة للملائكة على موته.

وقال آخرون: المراد بالاهتزاز الاستبشار والقبول. ومنه قول العرب: فلان يهتز للمكارم، لا يريدون اضطراب جسمه وحركته، وإنما يريدون ارتياحه إليها، وإقباله عليها.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب (١٢) رقم الحديث (٣٨٠٣). وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (١٢٤) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٣١٦. وسنن الترمذي كتاب المناقب باب (٥٠) رقم الحديث (٣٨٤٨). وسنن ابن ماجة المقدمة باب (١١) رقم الحديث (١٥٧) وفتح الباري ٧/ ١٥٦. وطبقات ابن سعد ٣/ ٣٢٨. والبداية والنهاية ٤/ ١٣٠. والمعجم الكبير للطبراني ٦/ ١٤. وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٩/ ٤٩. واللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/ ٢٣٤. ومشكاة المصابيح للتبريزي (٦١٩٧). وكنز العمال (٣٣٣١٨). ومجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٣٠٩.

وقال الحربي: هو عبارة عن تعظيم شأن وفاته، والعرب تنسب الشيء المعظم إلى أعظم الأشياء، فيقولون: أظلمت لموت فلان الأرض، وقامت له القيامة.

وقال جماعة: المراد اهتزاز سرير الجنازة. وهو النعش. وهذا القول باطل يرده صريح الروايات التي ذكرها مسلم «اهتز لموته عرش الرحمن» وإنما قال هؤلاء هذا التأويل لكونهم لم تبلغهم الروايات التي ذكرها مسلم والله أعلم. انتهى.

وقيل المراد باهتزاز العرش حملة العرش، وصحح الترمذي من حديث أنس قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون لرسول الله ﷺ ما أخف جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون لرسول الله ﷺ ما أخف جنازته، فقال النبي ﷺ: «**إن الملائكة كانت تحمله**».

وعن البراء قال: أهديت للنبي ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها، فقال ﷺ: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»[1] هذا لفظ رواية أبي نعيم في مستخرجه على مسلم.

والمناديل: جمع منديل ـ بكسر الميم في المفرد ـ وهو معروف.

قال العلماء: وهذا إشارة إلى عظم منزلة سعد في الجنة، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه، لأن المنديل أدنى الثياب، لأنه معد للوسخ والامتهان، فغيره أفضل. انتهى.

وأخرج ابن سعد وأبو نعيم، من طريق محمد بن المنكدر عن محمد بن شرحبيل بن حسنة قال: قبض إنسان يومئذ بيده من تراب قبره قبضة فذهب بها، ثم نظر إليها بعد ذلك فإذا هي مسك، فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله، سبحان الله**»، حتى عرف ذلك في وجهه، فقال: «**الحمد لله، لو كان أحد ناجياً من ضمة القبر لنجا منها سعد، ضم ضمة ثم فرج الله عنه**»[2].

وأخرج ابن سعد عن أبي سعيد الخدري قال: كنت ممن حفر لسعد قبره، فكان يفوح علينا المسك كلما حفرناه.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب (١٢) رقم الحديث (٣٨٠٢). وفي صحيح مسلم رقم الحديث (٢٤٦٨). وفي سنن الترمذي كتاب المناقب باب (٥٠) رقم الحديث (٣٨٤٧) وفي طبقات ابن سعد ٣/ ٣٣٢. وفي سنن ابن ماجه المقدمة باب (١١) رقم الحديث (١٥٧) وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٢٠٩. وفي حلية الأولياء ٧/ ١٣٢ وفي سنن النسائي ١٩٩/٨. وفي مجمع الوزائد للهيثمي ٩/ ٣١٠ وكنز العمال(٣٣٣٢٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٩٨/٦. وطبقات ابن سعد ٣/ ٣٣١. وإتحاف السادة للزبيدي ١٠/ ٤٢٢. ومجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ٤٧. والمغني عن حمل الأسفار للعراقي ١٦٦/٤.

قال الحافظ مغلطاي وغيره: وفي هذه السنة فرض الحج. وقيل: سنة ست وصححه غير واحد، وهو قول الجمهور.

وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة ثمان ورجحه جماعة من العلماء.

وسيأتي البحث في ذلك إن شاء الله تعالى في ذكر وفد عبد القيس في المقصد الثاني، وفي ذكر حجه عليه الصلاة والسلام من مقصد عباداته.

ثم سرية محمد بن مسلمة[1] إلى القرطاء، بطن من بني بكر بن كلاب وهم ينزلون بناحية ضربة بالبكرات، وبين ضربة والمدينة سبع ليال. لعشر ليال خلون من المحرم سنة ست على رأس تسعة وخمسين شهراً من الهجرة.

بعثه في ثلاثين راكباً، فلما أغار عليهم هرب سائرهم.

وعند الدمياطي: فقتل نفراً منهم وهرب سائرهم. واستاق نعماً وشاء، وقدم المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعه ثمامة بن أثال الحنفي أسيراً.

فربط بأمره ﷺ بسارية من سواري المسجد، ثم أطلق بأمره ﷺ، فاغتسل وأسلم وقال: يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الأديان كلها إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره النبي ﷺ، وأمره أن يعتمر.

فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا، ولكن أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ. ذكر قصته البخاري[2].

## غزوة بني لحيان[3]

ثم غزوة بني لحيان ـ بكسر اللام وفتحها، لغتان ـ في ربيع الأول سنة ست من الهجرة. وذكرها ابن إسحاق في جمادى الأول على رأس ستة أشهر من قريظة. قال ابن حزم: الصحيح أنها في الخامسة.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٦٠. والمنتظم ٣/ ٢٤٩. ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٧٨. والكامل في التاريخ ٢/ ٩٢. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٤٣. والمغازي للواقدي ٢/ ٥٤٣. والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٥٧.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب (٧١) رقم الحديث (٤٣٧٢). وفي صحيح مسلم رقم الحديث (١٧٦٤).

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٩٢. والمنتظم ٣/ ٢٤٩ والبداية والنهاية ٤/ ٨٣. وطبقات ابن =

قالوا: وجد رسول الله ﷺ على عاصم بن ثابت وأصحابه وجداً شديداً، فأظهر أنه يريد الشام، وعسكر في مائتي رجل ومعهم عشرون فرساً. واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.

ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران ـ واد بين أمج وعسفان، وبينها وبين عسفان خمسة أميال ـ حيث كان مصاب أصحابه أهل الرجيع الذين قتلوا ببئر معونة، فترحم عليهم ودعا لهم.

فسمعت به بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يوماً أو يومين يبعث السرايا في كل ناحية. ثم خرج حتى أتى عسفان فبعث أبا بكر في عشرة فوارس لتسمع به قريش فيذعرهم، فأتوا كراع الغميم، ثم رجعوا ولم يلقوا أحداً.

وانصرف ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً وهو يقول: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون**»[1] وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة.

## غزوة الغابة[2]

وتعرف بذي قرد ـ بفتح القاف والراء وبالدال المهملة ـ وهو ماء على بريد من المدينة. في ربيع الأول سنة ست، قبل الحديبية.

وعند البخاري أنها كانت قبل خيبر بثلاثة أيام، وفي مسلم نحوه.

قال مغلطاي: وفي ذلك نظر لإجماع أهل السير على خلافهما. انتهى.

قال القرطبي شارح مسلم: لا يختلف أهل السير أن غزوة ذي قرد كانت قبل الحديبية.

وقال الحافظ ابن حجر: ما في الصحيح من التاريخ لغزوة ذي قرد أصح مما ذكر أهل السير. انتهى.

---

= سعد ٢/ ٦٠. والمغازي للواقدي ٢/ ٥٣٥ وتاريخ الطبري ٢/ ٢٥٤. ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٦٤ والكامل في التاريخ ٢/ ٧٨ وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٤٦.

(١) أخرجه أبو نعيم بتاريخ أصبهان ٢/ ٣٦٧. وإتحاف السادة المتقين ٤/ ٣٢٦. ومصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٠. ومصنف عبد الرزاق (٩٢٤١). وفي عمل اليوم والليلة لابن السني (٥١٣). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ٢٥٩. والمعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٣٦٩. وفي طبقات ابن سعد ٢/ ٦١.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٩٣. والمنتظم ٣/ ٢٥١ وطبقات ابن سعد ٢/ ٦١ والبداية والنهاية ٤/ ١٥١. وتاريخ الطبري ٢/ ٢٥٥ والكامل في التاريخ ٢/ ٧٨ وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٤٨.

وسببها: أنه كان لرسول الله ﷺ عشرون لقحة ـ وهي ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة ـ ترعى بالغابة، وكان أبو ذر فيها، فأغار عليهم عيينة بن حصن الفزاري ليلة الأربعاء، في أربعين فارساً فاستاقوها، وقتلوا ابن أبي ذر.

وقال ابن إسحاق: وكان فيها رجل من بني غفار وامرأة، فقتلوا الرجل وسبوا المرأة، فركبت ناقة للنبي ﷺ ليلاً حين غفلتهم ونذرت لئن نجت لتنحرنها، فلما قدمت على النبي ﷺ أخبرته بذلك فقال: «**لا نذر في معصية، ولا لأحد فيما لا يملك**»[1].

ونودي: يا خيل الله اركبي، وكان أول ما نودي بها.

وركب رسول الله ﷺ في خمسمائة وقيل: سبعمائة، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وخلف سعد بن عبادة في ثلاثمائة يحرسون المدينة.

وكان قد عقد للمقداد بن عمرو لواء في رمحه وقال له امض حتى تلحقك الخيول، وأنا على أثرك. فأدرك أخريات العدو. وقتل أبو قتادة مسعدة فأعطاه رسول الله ﷺ فرسه وسلاحه. وقتل عكاشة بن محصن أبان بن عمرو. وقتل من المسلمين محرز بن نضلة قتله مسعدة.

وأدرك سلمة بن الأكوع القوم، وهو على رجليه، فجعل يرميهم بالنبل ويقول:

خذها وأنا ابن الأكوع     واليوم يوم الرضع

يعني هلاك اللئام، من قولهم: لئيم راضع، أي راضع اللؤم في بطن أمه، وقيل معناه: اليوم يعرف من أرضعته الحرب من صغره وتدرب بها، ويعرف غيره.

ولحق رسول الله ﷺ الناس والخيول عشاء، قال سلمة: فقلت يا رسول الله إن القوم عطاش، فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما في أيديهم من السرح وأخذت بأعناق القوم. فقال ﷺ: «**ملكت فأسجح**» ـ وهي بهمزة قطع ثم سين مهملة ثم جيم مكسورة ثم حاء مهملة ـ أي فارفق وأحسن، والسجاحة: السهولة، أي لا تأخذ بالشدة بل ارفق. فقد حصلت النكاية في العدو ولله الحمد. ثم قال: «**إنهم ليقرون في غطفان**»[2].

---

(١) أخرجه النسائي في سننه ٧/ ٢٩. وفي سنن ابن ماجه كتاب الكفارات باب (١٦) رقم الحديث (٢١٢٤) وفي سنن الترمذي. كتاب النذور والإيمان باب (٣) رقم الحديث (١٥٢٧) وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/ ١٩٠. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ١٨٧. والمستدرك للحاكم ٤/ ٣٠٥. وفي كنز العمال (٤٦٤٧٩).

(٢) أخرجه النووي في صحيح مسلم كتاب الجهاد برقم (١٣١). وفي طبقات ابن سعد ٢/ ٦٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٣٦.

وذهب الصريخ إلى بني عمرو بن عوف فجاءت الأمداد فلم تزل الخيل تأتي والرجال على أقدامهم وعلى الإبل حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ بذي قرد فاستنقذوا عشر لقاح، وأفلت القوم بما بقي وهي عشر.

وصلى رسول الله ﷺ بذي قرد صلاة الخوف، وأقام يوماً وليلة ورجع. وقد غاب خمس ليال، وقسم في كل مائة من أصحابه جزوراً ينحرونها.

سرية عكاشة بن محصن الأسدي[1] إلى غمر مرزوق ـ بالغين المعجمة المفتوحة ـ وهو ماء لبني أسد على ليلتين من فيد، في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة، في أربعين رجلاً، فخرج سريعاً، فنذر به القوم ـ بكسر الذال المعجمة كفرح ـ فهربوا فنزلوا علياء بلادهم. فاستاقوا مائتي بعير وقدموا على رسول الله ﷺ ولم يلقوا كيداً.

ثم سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة[2] ـ بالقاف والصاد المهملة المشددة المفتوحتين ـ موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً، في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة. ومعه عشرة إلى بني ثعلبة.

فورد عليهم ليلاً فأحدق به القوم، وهم مائة رجل فتراموا ساعة من الليل ثم حملت الأعراب عليهم بالرماح فقتلوهم إلا محمد بن مسلمة فوقع جريحاً، وجردوهم من ثيابهم. فمر رجل من المسلمين بمحمد بن مسلمة فحمله حتى ورد به المدينة.

فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في ربيع الآخر في أربعين رجلاً إلى مصارعهم، فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأصاب رجلاً واحداً فأسلم وتركه، وأخذ نعماً من نعمهم فاستاقه، ورثة من متاعهم وقدم به المدينة فخمسه رسول الله ﷺ وقسم ما بقي عليهم.

قال في القاموس[3]: الرث: السقط من متاع البيت، كالرثة بالكسر.

ثم سرية زيد بن حارثة[4] إلى بني سليم بالجموم ـ ويقال: الجموح ـ ناحية ببطن نخل من المدينة على أربعة أميال. في شهر ربيع الآخر سنة ست، فأصابوا امرأة من مزينة

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٦٥. والمنتظم ٣/٢٥٣. البداية والنهاية ٤/ ١٨٠. وشرح المواهب للزرقاني ٢/١٥٣. ومغازي الواقدي (٥٥٠).

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٦٥. والبداية والنهاية ٤/ ١٨٠. والمنتظم ٣/ ٢٥٤. والمغازي للواقدي ٢/ ٥٥١. شرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٥٤.

(٣) انظر القاموس المحيط ١/ ١٧٣ مادة (الرث).

(٤) انظر طبقات ابن سعد ٢/٦٦. والمنتظم ٣/٢٥٦. البداية والنهاية ٤/ ١٨٠. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٥٥. ومغازي الواقدي (٥٥٣).

يقال لها حليمة، فدلتهم على محلة من محال بني سليم، فأصابوا نعماً وشاء وأسرى، فكان فيهم زوج حليمة المزنية، فلما قفل زيد بما أصاب، وهب رسول الله ﷺ للمزنية نفسها وزوجها.

ثم سرية زيد بن حارثة[1] أيضاً إلى العيص، موضع على أربع ليال من المدينة، في جمادى الأولى سنة ست، ومعه سبعون راكباً، لما بلغه ﷺ أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام يتعرض لها، فأخذها وما فيها، وأخذ يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية، وأسر منهم ناساً، منهم أبو العاصي بن الربيع، وقدم بهم المدينة، فأجارته زوجته زينب ابنة النبي ﷺ ونادت في الناس ـ حين صلى رسول الله ﷺ الفجر ـ إني قد أجرت أبا العاصي.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما علمت بشيء من هذا، وقد أجرنا من أجرت**»[2] ورد عليه ما أخذ منه.

وذكر ابن عقبة: أن أسره كان على يد أبي بصير بعد الحديبية.

وكانت هاجرت قبله وتركته على شركه، وردها النبي ﷺ بالنكاح الأول، قيل بعد سنتين وقيل بعد ست سنين، وقيل قبل انقضاء العدة.

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «ردها له بنكاح جديد سنة سبع»[3].

ثم سرية زيد بن حارثة أيضاً إلى الطرف، وهو ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، في جمادى الآخرة سنة ست.

فخرج إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً، فأصاب نعماً وشاء، وهربت الأعراب، وصبح زيد بالنعم المدينة، وهي عشرون بعيراً، ولم يلق كيداً، وغاب أربع ليال.

ثم سرية زيد أيضاً[4] إلى حسمى ـ بكسر المهملة ـ وهي وراء وادي القرى، وكانت في جمادى الآخرة سنة ست.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٦٦ والمنتظم ٣/ ٢٥٦. والبداية والنهاية ٤/ ١٨٠. ومغازي الواقدي ٢/ ٥٥٣. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٥٥.

(٢) ذكره ابن سعد في الطبقات ٢/ ٦٧. والمنتظم ٣/ ٢٥٧.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٦٧. والمنتظم ٣/ ٢٥٧، البداية والنهاية ٤/ ١٨٠. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٥٨. والمغازي للواقدي (٥٥٥).

(٤) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٦٧. والمنتظم ٣/ ٢٥٨. والبداية والنهاية ٤/ ١٨١. والمغازي للواقدي ٢/ ٥٥٥. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٥٨.

وسببها أنه أقبل دحية بن خليفة الكلبي من عند قيصر، وقد أجازه وكساه، فلقيه الهنيد في ناس من جذام بحسمى فقطعوا عليه الطريق، فسمع بذلك نفر من بني الضبيب فنفروا إليهم فاستنقذوا لدحية متاعه.

وقدم دحية على رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فبعث زيد بن حارثة وخمسمائة رجل، ورد معه دحية. فكان زيد يسير الليل ويكمن النهار، فأقبل بهم حتى هجموا مع الصبح على القوم فأغاروا عليهم، فقتلوا فيهم فأوجعوا، وقتلوا الهنيد وابنه، وأغاروا على ماشيتهم ونعمهم ونسائهم. فأخذوا من النعم ألف شاة، ومائة من النساء والصبيان.

فرحل زيد بن رفاعة الجذامي في نفر من قومه، فدفع إلى رسول الله ﷺ كتابه الذي كان كتب له ولقومه ليالي قدم عليه فأسلم.

وبعث ﷺ علياً إلى زيد بن حارثة يأمره أن يخلي بينهم وبين حرمهم وأموالهم، فرد عليهم.

ثم سرية زيد أيضاً[1] إلى وادي القرى أيضاً، في رجب سنة ست، فقتل من المسلمين قتلى، وارتث زيد، أي حمل من المعركة رثيثاً، أي جريحاً وبه رمق ـ وهو مبني للمجهول، قاله في القاموس[2].

ثم سرية عبد الرحمن بن عوف[3] إلى دومة الجندل، في شعبان سنة ست.

قالوا: دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف، فأقعده بين يديه، وعممه بيده، وقال: «**اغز، باسم الله، وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، ولا تغدر، ولا تقتل وليداً**»، وبعثه إلى كلب بدومة الجندل، وقال: «**إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم**»[4].

فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة الجندل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانياً، وكان رئيسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية.

وتزوج عبد الرحمن تماضر ـ بضم المثناة الفوقية، وكسر الضاد المعجمة ـ بنت

---

(١) انظر المنتظم ٣/ ٢٥٩. وطبقات ابن سعد ٢/ ٦٨. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٦٠.

(٢) انظر القاموس المحيط ٣/ ٢٤٥ مادة (الرمق).

(٣) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ٦٨. والمنتظم ٣/ ٢٥٩. والبداية والنهاية ٤/ ١٨١. والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٧٩ والمغازي للواقدي (٥٦٠). وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٦٠.

(٤) ذكره ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٨٧. وطبقات ابن سعد ٢/ ٦٨. وفي الجامع الكبير ٢/ ٤٩٢.

الأصبغ، وقدم بها المدينة فولدت له أبا سلمة.

ثم سرية علي بن أبي طالب(١) في شعبان سنة ست من الهجرة، ومعه مائة رجل إلى بني سعد بن بكر، لما بلغه ﷺ أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر.

فأغاروا عليهم بالغمج بين فدك وخيبر، فأخذوا خمسمائة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد، وقدم علي ومن معه المدينة ولم يلقوا كيداً.

ثم سرية زيد بن حارثة(٢) إلى أم قرفة فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزارية، بناحية وادي القرى، على سبع ليال من المدينة في رمضان سنة ست من الهجرة.

وكان سببها: أن زيد بن حارثة خرج في تجارة إلى الشام. ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ، فلما كان بوادي القرى لقيه ناس من فزارة من بني بدر، فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم.

وقدم على رسول الله ﷺ فأخبره، فبعثه عليه السلام إليهم، فكمن هو وأصحابه بالنهار وساروا بالليل، ثم صبحهم زيد وأصحابه، فكبروا وأحاطوا بالحاضر، وأخذوا أم قرفة ـ وكانت ملكة رئيسة ـ وأخذوا ابنتها جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر.

وعمد قيس بن المحسر إلى أم قرفة ـ وهي عجوز كبيرة ـ فقتلها قتلاً عنيفاً، وربط بين رجليها حبلاً ثم ربطها بين بعيرين ثم زجرهما فذهبا فقطعاها(٣).

وقدم زيد بن حارثة من وجهه ذلك، فقرع باب النبي ﷺ، فقام إليه عرياناً يجر ثوبه، حتى اعتنقه وقبله وسأله فأخبره بما أظفره الله به.

ثم سرية عبد الله بن عتيك(٤) لقتل أبي رافع، عبد الله ـ ويقال سلام ـ بن أبي الحقيق اليهودي، وهو الذي حزب الأحزاب يوم الخندق.

وكانت هذه السرية في شهر رمضان سنة ست، كذا ذكره ابن سعد هاهنا وذكر في ترجمة عبد الله بن عتيك: أنه بعثه في ذي الحجة إلى أبي رافع سنة خمس بعد وقعة بني قريظة. وقيل في جمادى الآخرة سنة ثلاث.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/٦٩. والمنتظم ٣/ ٢٦٠. والكامل في التاريخ ٢/ ٩٣. وفي تاريخ الطبري ٢/ ٤٠٦. وفي المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٢. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٦٢.

(٢) انظر المنتظم ٣/ ٢٦٠. وطبقات ابن سعد ٢/٦٩. والكامل في التاريخ ٢/ ٩٤. والمغازي للواقدي ٢/ ٥٦٤. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٦٢. والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٦٥.

(٣) ذكر الدولابي أن زيداً إنما قتلها كذلك لسبها رسول الله ﷺ. قال بعضهم: إنه خبر منكر وفي صحيح مسلم حديث سبي امرأة وبنتها فيه قائد تلك السرية أبي بكر. (١٧٧٥).

(٤) انظر المنتظم ٣/ ٢٦١. وطبقات ابن سعد ٢/ ٧٠. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٦٤.

وفي البخاري: قال الزهري: بعد قتل كعب بن الأشرف.

وأرسل معه أربعة: عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن أنيس، وأبا قتادة والأسود بن خزاعي، ومسعود بن سنان، وأمرهم بقتله.

فذهبوا إلى خيبر، فكمنوا، فلما هدأت الرجل جاؤوا إلى منزله فصعدوا درجة له، وقدموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن باليهودية، فاستفتح وقال: جئت أبا رافع بهدية، ففتحت له امرأته، فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح فأشار إليها بالسيف فسكتت، فدخلوا عليه فما عرفوه إلا ببياضه، فعلوه بأسيافهم.

وفي البخاري: وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له.. فلما دنوا منه وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم، قال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس، فهتف البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت، فكمنت فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على وتد، قال: فقمت إلى الأغاليق فأخذتها ففتحت الباب.

وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل، فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف، وأنا دهش، فما أغنيت شيئاً، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف. قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه، حتى أخذ في ظهره، فعرفت أني قتلته[1].

وفي رواية له: ثم جئت كأني أغيثه فقلت: مالك يا أبا رافع؟ ـ وغيرت الصوت ـ فقال: لأمك الويل، دخل علي رجل فضربني، قال: فعمدت له أيضاً فأضربه أخرى، فلم تغن شيئاً، فصاح وقام أهله، قال: ثم جئت وغيرت صوتي، كهيئة المغيث، فإذا هو مستلق على ظهره، فأضع السيف في بطنه، ثم انكفىء عليه، فسمعت صوت العظم.

فجعلت أفتح الأبواب حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامة، فلما

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب (١٦) رقم الحديث (٤٠٤٠) وفي فتح الباري ٧/ ٤٣٤.

صاح الديك قام الناعي على السور، فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع.

فانتهيت إلى رسول الله ﷺ فحدثته فقال: «**أبسط رجلك**»، فمسحها النبي ﷺ، فكأنما لم أشتكها قط[1]. هذا لفظ رواية البخاري.

وفي رواية محمد بن سعد: أن الذي قتله عبد الله بن أنيس. والصواب: أن الذي دخل عليه وقتله عبد الله بن عتيك وحده، كما في البخاري.

## [سرية ابن رواحة إلى ابن رزام][2]

وكان سببها أنه لما قتل أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، أمرت يهود عليها أسيراً، فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحربه ﷺ.

وبلغه ذلك فوجه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر، في شهر رمضان سراً، فسأل عن خبره وغرته، فأخبر بذلك، فقدم على رسول الله ﷺ فأخبره.

فندب عليه السلام الناس، فانتدب له ثلاثون رجلاً، فبعث عليهم عبد الله بن رواحة، فقدموا عليه وقالوا: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه، يستعملك على خيبر ويحسن إليك، فطمع في ذلك فخرج وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود، مع كل رجل رديف من المسلمين، حتى إذا كانوا بقرقرة ضربه عبد الله بن أنيس ـ وكان في السرية ـ بالسيف فسقط عن بعيره ومالوا على أصحابه فقتلوهم غير رجل، ولم يصب من المسلمين أحد، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فقال: «**قد نجاكم الله من القوم الظالمين**»[3].

سرية كرز[4] ـ بضم الكاف وسكون الراء بعدها زاي ـ ابن جابر الفهري، إلى العرنيين ـ بضم العين وفتح الراء المهملتين ـ حي من قضاعة، وحي من بجيلة، والمراد هنا الثاني، كذا ذكره ابن عقبة في المغازي.

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب المغازي باب (١٦) رقم الحديث (٤٠٣٩) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٨. وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٠. وكنز العمال (٤٦٣٥٩).

(٢) انظر المنتظم ٣/ ٢٦٢. وطبقات ابن سعد ٢/ ٧٠. والمغازي للواقدي ٢/ ٥٦٦. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٧٠. وفي السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٦٦ والبداية والنهاية ٤/ ٢٢١.

(٣) ذكره ابن سعد في الطبقات ٢/ ٧١.

(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٩٠. والمنتظم ٣/ ٢٦٣ والكامل في التاريخ ٢/ ٩٤. والمغازي للواقدي ٢/ ٥٦٨. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٧١ والبداية والنهاية ٤/ ١٨١.

وذكر ابن إسحاق: أن قدومهم كان بعد غزوة ذي قرد، وكانت في جمادى الآخرة سنة ست.

وذكرها البخاري بعد الحديبية، وكانت في ذي القعدة منها.

وعند الواقدي: في شوال منها، وتبعه ابن سعد وابن حبان.

وفي البخاري ـ في كتاب المغازي ـ عن أنس أن ناساً من عكل ـ يعني بضم العين وسكون الكاف ـ وعرينة قدموا على رسول الله ﷺ وتكلموا بالإسلام، فقالوا يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها.

فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة، كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الذود. فبلغ النبي ﷺ فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم[1].

وفي لفظ: وسمر أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا.

وفي لفظ: ولم يحسمهم، أي لم يكو مواضع القطع فينحسم الدم.

وقال أنس: إنما سمل رسول الله ﷺ أعينهم لأنهم سملوا أعين الرعاة رواه مسلم فيكون ما فعل بهم قصاصاً.

وفي رواية أنهم كانوا ثمانية.

وعند البخاري أيضاً ـ في المحاربين ـ أنهم كانوا في الصفة قبل أن يطلبوا الخروج إلى الإبل.

وفي رواية قال أنس: فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه حتى مات.[2].

وعند الدمياطي ـ كابن سعد ـ أن اللقاح كانت خمسة عشر لقحة ـ بكسر اللام وسكون القاف ـ ويقال لها ذلك إلى ثلاثة أشهر.

وفي صحيح مسلم: أن السرية كانت قريباً من عشرين فارساً من الأنصار.

وروى ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال: كان للنبي ﷺ مولى يقال له: يسار، فنظر إليه يحسن الصلاة فأعتقه، وبعثه في لقاح له بالحرة، فكان بها. قال: فأظهر قوم الإسلام من عرينة، وجاؤوا ـ وهم مرضى موعوكون قد عظمت بطونهم ـ وعدوا على

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب (٣٧) رقم الحديث (٤١٩٢).

(٢) أخرجه أبي داود في سننه كتاب الحدود باب (٣) رقم الحديث (٤٣٦٧).

يسار فذبحوه وجعلوا الشوك في عينيه، ثم طردوا الإبل، فبعث النبي ﷺ في آثارهم خيلاً من المسلمين، أميرهم كرز بن جابر الفهري، فلحقهم فجاء بهم إليه، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم. قال ابن كثير: غريب جداً(1).

وروى ابن جرير عن محمد بن إبراهيم عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة الحديث.. وفيه قال جرير: فبعثني رسول الله ﷺ ونفراً من المسلمين حتى أدركناهم، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمل أعينهم، فجعلوا يقولون: الماء، ورسول الله ﷺ يقول: «النار»، حتى هلكوا. قال: وكره الله عز وجل سمل الأعين، فأنزل الله هذه الآية: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله**﴾ [المائدة: ٣٣]. إلى آخر الآية. وهو حديث غريب ضعيف. وفيه أن أمير السرية جرير بن عبد الله البجلي. قال مغلطاي: وفيه نظر، لأن إسلام جرير كان بعد هذه بنحو أربع سنين.

وفي مغازي ابن عقبة: أن أمير هذه السرية سعيد بن زيد، كذا عنده ـ بزيادة ياء ـ وعند غيره: أنه سعد ـ بسكون العين ـ ابن زيد الأشهلي، وهذا أنصاري، فيحتمل أنه كان رأس الأنصار، وكان كرز أمير الجماعة.

وأما قوله: فكره الله سمل الأعين فأنزل الله هذه الآية، فإنه منكر. فقد تقدم أن في صحيح مسلم أنهم سملوا أعين الرعاة، فكان ما فعل بهم قصاصاً والله أعلم.

تنبيه: قال في فتح الباري: وزعم ابن التين تبعاً للداودي أن عرينة هم عكل وهو غلط، بل هما قبيلتان متغايرتان، عكل من عدنان، وعرينة من قحطان.

ثم سرية عمرو بن أمية الضمري(2) إلى أبي سفيان بن حرب بمكة، لأنه أرسل للنبي ﷺ من يقتله غدراً، فأقبل الرجل ومعه خنجر ليغتاله، فلما رآه النبي ﷺ قال: «**إن هذا يريد غدراً**». فجذبه أسيد بن حضير بداخلة إزاره فإذا بالخنجر، فسقط في يده. فقال ﷺ: «**أصدقني ما أنت؟**» قال: وأنا آمن؟ قال: «**نعم**»، فأخبره بخبره فخلى عنه ﷺ(3).

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الحدود باب (١٥) رقم الحديث (٦٨٠٢). وأبو داود في كتاب الحدود باب (٣) رقم الحديث (٤٣٦٤). والترمذي في كتاب الطهارة باب (٥٥) رقم الحديث (٧٢). وفي صحيح مسلم كتاب قسامة رقم الحديث (٩ ـ ١٤) وفي ابن ماجه. كتاب الحدود باب (٢٠) رقم الحديث (٢٥٧٨ ـ ٢٥٧٩). وللإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٦٣ ـ ١٧٧ ـ ١٩٨.

(2) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٨٢. والمنتظم ٣/ ٢٦٥. والبداية والنهاية ٤/ ٧١. وطبقات ابن سعد ٢/ ٧٢. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٧٧.

(3) أخرجه البيهقي بدلائل النبوة ٣/ ٣٣٤ وطبقات ابن سعد ٢/ ٧٢. وفي البداية والنهاية ٤/ ٧١.=

وبعث عمرو بن أمية الضمري ومعه **سلمة بن أسلم**، ويقال: جبار بن صخر إلى أبي سفيان وقال: إن أصبتما منه غرة فاقتلاه.

ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلاً، فرآه معاوية بن أبي سفيان، فأخبر قريشاً بمكانه، فخافوه وطلبوه، وكان فاتكاً في الجاهلية، فحشد له أهل مكة وتجمعوا له.

فهرب عمرو وسلمة، فلقي عمرو عبيد الله بن مالك التيمي فقتله، وقتل آخر، ولقي رسولين لقريش بعثتهما يتحسسان الخبر، فقتل أحدهما وأسر الآخر، فقدم به المدينة. فجعل عمرو يخبر رسول الله ﷺ خبره، وهو عليه السلام يضحك.

## صلح الحديبية[1]

ثم الحديبية ـ بتخفيف الياء وتشديدها ـ وهي بئر سمي المكان بها، وقيل شجرة، وقال المحب الطبري قرية قريبة من مكة أكثرها في الحرم، وهي على تسعة أميال من مكة.

خرج ﷺ يوم الإثنين هلال ذي القعدة سنة ست من الهجرة للعمرة، وأخرج معه زوجته أم سلمة، في ألف وأربعمائة. ويقال ألف وخمسمائة وقيل ألف وثلاثمائة.

والجمع بين هذا الاختلاف: أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة، فمن قال: ألف وخمسمائة جبر الكسر، ومن قال: ألف وأربعمائة ألغاه، ويؤيده رواية البراء: ألف وأربعمائة أو أكثر.

واعتمد على هذا الجمع النووي. وأما رواية ألف وثلاثمائة فيمكن حملها على ما اطلع هو عليه، واطلع غيره على زيادة مائتين لم يطلع هو عليهم، والزيادة من الثقة مقبولة.

وأما قول ابن إسحاق: إنهم كانوا سبعمائة، فلم يوافقه أحد عليه، لأنه قاله استنباطاً من قول جابر: نحرنا البدنة عن عشرة، وكانوا نحروا سبعين بدنة، وهذا لا يدل على أنهم ما كانوا نحروا غير البدن، مع أن بعضهم لم يكن أحرم أصلاً.

وجزم موسى بن عقبة: بأنهم كانوا ألفاً وستمائة.

---

= والمعجم الكبير للطبراني ١٧/ ٥٧. وكنز العمال (٣٥٤٢٥).

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣٢١. والمنتظم ٣/ ٢٦٧. والبداية والنهاية ٤/ ١٧٥. وطبقات ابن سعد ٢/ ٧٢. والكامل في التاريخ ٢/ ٨٦. ومغازي الواقدي ٢/ ٥١٧ وتاريخ الطبري ٢/ ٢٧٠ وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٧٩.

وعند ابن أبي شيبة من حديث سلمة بن الأكوع: ألف وسبعمائة.

وحكى ابن سعد: ألف وخمسمائة وخمسة وعشرين.

واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ولم يخرج معه بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف في القرب.

وفي البخاري ـ في المغازي ـ عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما كان بذي الحليفة قلد الهدي، وأشعر وأحرم منها ـ وفي رواية: أحرم منها بعمرة ـ وبعث عيناً له من خزاعة. وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك.

فقال: «**أشيروا عليَّ أيها الناس، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت . .**»

وفيه: قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، قال: «**امضوا على اسم الله**»[1].

وزاد أحمد: كان أبو هريرة يقول: ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

وفي رواية للبخاري: (حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «**إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين**»، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش)[2].

(وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت راحلته، فقال الناس: حل حل فألحت ـ يعني تمادت على عدم القيام ـ فقالوا: خلأت القصواء خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»[3].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب (٣٦) رقم الحديث (٤١٧٨ ـ ٤١٧٩) وفي فتح الباري ٥٧٦/٧ . وطبقات ابن سعد ٧٦/٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشروط باب (١٥) رقم الحديث (٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢). وفي فتح الباري ٤١٩/٥ . وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢١٨/٩. ودلائل النبوة للبيهقي ١٠١/٤ . والبداية والنهاية ١٧٥/٤ . والدر المنثور ٧٦/٦. ومصنف عبد الرزاق (٩٧٢٠).

(٣) أخرجه أبي داود في سننه. كتاب الجهاد باب (١٥٦) رقم الحديث (٢٧٦٥) وأحمد بن حنبل في مسنده ٣٢٣/٤. وتفسير القرطبي ٢٧٥/١٦. وفي تفسير ابن كثير ٣٢٨/٧.

أي حبسها الله عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها، ومناسبة ذلك أن الصحابة لو دخلوا مكة على تلك الصورة، وصدتهم قريش لوقع بينهم القتال المفضي إلى سفك الدماء ونهب الأموال، كما لو قدر دخول الفيل، لكن سبق في علم الله أنه سيدخل في الإسلام منهم خلق، ويستخرج من أصلابهم ناس يسلمون ويجاهدون. انتهى.

ثم قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**».

(ثم زجرها فوثبت. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء ـ يعني حفرة فيها ماء قليل ـ يتبرضه الناس تبرضاً ـ أي يأخذونه قليلاً قليلاً ـ فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه).

(فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة. ـ وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة ـ فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت).

والعوذ: بالذال المعجمة: جمع عائذ ـ وهي الناقة ذات اللبن.

والمطافيل: الأمهات اللاتي معها أطفالها.

يريد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها، ولا يرجعوا حتى يمنعوه، أو كنى بذلك عن النساء معهن الأطفال. والمراد، أنهم خرجوا بنسائهم وأولادهم لإرادة طول المقام ليكون أدعى إلى عدم الفرار.

(فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس إن شاؤوا، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا**». يعني استراحوا ـ «**وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي**» ـ أي صفحة العنق، كنى بذلك عن القتل ـ «**ولينفذن الله أمره**»[1]).

(فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئناكم من

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٤/٣٢٩. وفتح الباري ٥/ ٤٣٤. ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٠٢. وفي البداية والنهاية ٤/ ١٧٥.

عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ).

(فقام عروة بن مسعود، فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي ـ وهو بالحاء المهملة، أي تمنعوا عن الإجابة ـ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا بلى قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد ـ أي خصلة خير وصلاح ـ اقبلوها، ودعوني آته، قالوا ائته).

(فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك).

(فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟).

قال العلماء: وهذا مبالغة من أبي بكر في سب عروة، فإنه أقام معبود عروة، وهو صنمه مقام أمه، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبته إلى الفرار.

والبظر: ـ بالباء الموحدة المفتوحة والظاء المعجمة الساكنة ـ قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة. واللات: اسم صنم. والعرب تطلق هذا اللفظ في معرض الذم. انتهى.

(فقال ـ أي عروة ـ: من هذا؟ قالوا: أبو بكر، فقال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك).

(قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ).

قال العلماء: وقد كانت عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه، لا سيما عند الملاطفة، وفي الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير، لكن كان ﷺ يغضي لعروة استمالة له وتأليفاً. والمغيرة يمنعه إجلالاً للنبي ﷺ وتعظيماً. انتهى.

قال (فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم،

ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «**أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شي**»[1].

(ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له).

قال في فتح الباري: فيه إشارة إلى الرد على ما خشيه من فرارهم، فكأنهم قالوا بلسان الحال: من يحبه هذه المحبة ويعظمه هذا التعظيم كيف يظن أنه يفر عنه ويسلمه لعدوه، بل هم أشد اغتباطاً به وبدينه ونصره من هذه القبائل التي تراعي بعضها بمجرد الرحم والله أعلم. انتهى.

قال: (فرجع عروة إلى أصحابه فقال أي قوم. والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له. وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها).

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: «**هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له**»، فبعثت له واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت:[2].

(فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال دعوني آته.. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: هذا مكرز، وهو رجل فاجر. فجعل يكلم النبي ﷺ).

فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، قال معمر فأخبر أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل قال النبي ﷺ «**قد سهل لكم من أمركم**».

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشروط باب (١٥) رقم الحديث (٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٣٢٩. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١١٣ وفي الدر المنثور ٦/ ٧٧ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٠٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٣٣٠. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٠٥. وفي الدر المنثور ٦/ ٧٧.

وفي رواية ابن إسحاق: فدعت قريش سهيل بن عمرو فقالت: اذهب إلى هذا الرجل فصالحه، فقال النبي ﷺ: قد أرادت قريش الصلح حيث بعثت هذا، فلما انتهى إلى النبي ﷺ جرى بينهما القول حتى وقع بينهما الصلح على أن توضع الحرب بينهم عشر سنين وأن يأمن بعضهم بعضاً، وأن يرجع عنهم عامهم هذا.

(وقال معمر قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النبي ﷺ الكاتب. فقال له النبي ﷺ أكتب: «**بسم الله الرحمن الرحيم**». فقال سهيل: أما الرحمن الرحيم فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: «**اكتب باسمك اللهم**». ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ـ وفي حديث عبد الله بن مغفل عند الحاكم: هذا ما صالح محمد رسول الله أهل مكة. الحديث ـ فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك. ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني**»[1].

وفي رواية له ـ يعني البخاري ـ ولمسلم: فقال النبي ﷺ لعلي: «**امحه**»، فقال ما أنا بالذي أمحاه[2]، وهي لغة في أمحوه.

قال العلماء: وهذا الذي فعله علي من باب الأدب المستحب، لأنه لم يفهم من النبي ﷺ تحتم محو علي نفسه، ولهذا لم ينكر عليه، ولو حتم محوه لنفسه لم يجز لعلي تركه انتهى.

ثم قال ﷺ «**أرني مكانها**» **فأراه مكانها فمحاها وكتب: ابن عبد الله**.

وفي رواية البخاري ـ في المغازي ـ فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب ـ وليس يحسن يكتب ـ فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله[3].

وكذا أخرجه النسائي وأحمد ولفظه: فأخذ الكتاب ـ وليس يحسن أن يكتب ـ فكتب مكان رسول الله: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله.

قال في فتح الباري: وقد تمسك بظاهر هذه الرواية أبو الوليد الباجي[4]. فادعى أن

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الشروط باب (١٥) رقم الحديث (٢٧٣١).

(٢) المصدر السابق كتاب الصلح باب (٦) رقم الحديث (٢٦٩٨).

(٣) المصدر السابق كتاب المغازي باب (٤٤) رقم الحديث (٤٢٥١).

(٤) هو سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي أبو الوليد الباجي (٤٠٣ ـ ٤٧٤ هـ) فقيه مالكي من رجال الحديث توفي بالمرية. الأعلام ٣/ ١٢٥ الديباج المذهب ١٢٠ وفيات الأعيان ١/ ٢١٥. =

النبي ﷺ كتب بيده بعد أن لم يكن يحسن أن يكتب.

فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه ورموه بالزندقة، وأن الذي قاله يخالف القرآن حتى قال قائلهم:

برئت ممن شرى دنيا بآخرة وقال إن رسول الله قد كتبا

فجمعهم الأمير فاستظهر الباجي عليهم بما لديه من المعرفة وقال للأمير:

فهذا لا ينافي القرآن، بل يؤخذ من مفهوم القرآن، لأنه قيد النفي بما قبل ورود القرآن، قال تعالى: **﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾** [العنكبوت: ٤٨] وبعد أن تحققت أميته وتقررت بذلك معجزته، وأمن الارتياب في ذلك، لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم، فيكون معجزة أخرى.

وذكر ابن دحية أن جماعة من العلماء وافقوا الباجي على ذلك، منهم شيخه أبو ذر الهروي[1] وأبو الفتح النيسابوري وآخرون من علماء إفريقية.

واحتج بعضهم لذلك بما أخرجه ابن أبي شيبة وعمر بن شبة من طريق مجالد عن عون بن عبد الله قال: ما مات رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ.

قال مجالد: فذكرته للشعبي فقال صدق، قد سمعت من يذكر ذلك.

وقال القاضي عياض: وردت آثار تدل على معرفته حروف الخط وحسن تصويرها، كقوله لكاتبه: ضع القلم على أذنك فإنه أذكر لك، وقوله لمعاوية: ألق الدواة وحرف القلم وفرق السين ولا تعور الميم إلى غير ذلك. قال: وهذا وإن لم يثبت أنه كتب فلا يبعد أن يرزق علم وضع الكتابة، إنه أوتي علم كل شيء.

وأجاب الجمهور.

بضعف هذه الأحاديث.

وعن قصة الحديبية: بأن القصة واحدة، والكاتب فيها علي بن أبي طالب، وقد صرح في حديث المسور بن مخرمة بأن علياً هو الذي كتب فيحمل على أن النكتة في قوله

---

= فوات الوفيات ٢/ ٦٤ رقم الترجمة (١٧٣). معجم الأدباء ٣/ ٣٩٣. رقم الترجمة (٤٦٣) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٧٨ رقم الترجمة (١٠٢٧) شذرات الذهب ٣/ ٣٣٤ مرآة الجنان ٣/ ١٠٨.

(١) هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير أبو ذر الأنصاري الهروي عالم بالحديث من الحفاظ فقيه مالكي، توفي في مكة سنة (٤٣٤ هـ). الأعلام ٣/ ٢٦٩ شجرة النور ١٠٤ وفيه وفاته سنة (٤٣٥ هـ) كشف الظنون ٤٤١ و١٦٧٢ وفيه وفاته سنة (٤٣٦ هـ) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٠٣ رقم الترجمة (٩٩٧) شذرات الذهب ٣/ ٢٥٤ وتاريخ بغداد ١١/ ١٤١.

«فأخذ الكتاب، وليس يحسن يكتب» لبيان أن قوله «أرني إياها» أنه إنما احتاج إلى أن يريه موضع الكلمة التي امتنع علي من محوها إلا لكونه كان لا يحسن الكتابة.

وعلى أن قوله بعد ذلك «فكتب» فيه حذف تقديره: فمحاها فأعادها لعلي فكتب:

أو أطلق «كتب» بمعنى: أمر بالكتابة، وهو كثير، كقوله: كتب إلى كسرى وقيصر.

وعلى تقدير حمله على ظاهره، فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف في ذلك اليوم ـ وهو لا يحسن الكتابة ـ أن يصير عالماً بالكتابة، ويخرج عن كونه أمياً، فإن كثيراً ممن لا يحسن الكتابة يعرف صور بعض الكلمات، ويحسن وضعها بيده، وخصوصاً الأسماء، ولا يخرج بذلك عن كونه أمياً ككثير من الملوك.

ويحتمل أن يكون جرت يده بالكتابة حينئذ، وهو لا يحسنها، فخرج المكتوب على وفق المراد، فيكون معجزة أخرى في ذلك الوقت خاصة، ولا يخرج بذلك عن كونه أمياً. وبهذا أجاب أبو جعفر السمناني[1] أحد أئمة الأصول من الأشاعرة وتبعه ابن الجوزي.

وتعقب ذلك السهيلي وغيره:

بأن هذا وإن كان ممكناً، ويكون آية أخرى لكنه يناقض كونه أمياً لا يكتب، وهي الآية التي قامت بها الحجة، وأفحم الجاحد، وانحسمت الشبهة، فلو جاز أن يصير يكتب بعد ذلك لعادت الشبهة، وقال المعاند: كان يحسن يكتب لكنه كان يكتم ذلك.

قال السهيلي: والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً، والحق: أن معنى قوله «فكتب» أمر علياً أن يكتب انتهى.

قال: وفي دعوى أن كتابة اسمه الشريف فقط على هذه الصورة تستلزم منا المعجزة، وتثبت كونه غير أمي نظر كبير، والله أعلم، انتهى.

وأما قوله: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم وقوله: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب اسمك اللهم.. الخ.

فقال العلماء: وافقهم ﷺ في ترك كتابة بسم الله الرحمن الرحيم وكتب: باسمك اللهم، وكذا وافقهم في محمد بن عبد الله، وترك كتابة رسول الله للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح.

---

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد السمناي أبو جعفر (٣٦١ ـ ٤٤٤ هـ). قاضي حنفي. توفي بالموصل. الأعلام ٥/ ٣١٤. الجواهر المضية ٢/ ٢١.

مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور: أما البسملة وباسمك اللهم فمعناهما واحد، وكذا قوله: محمد بن عبد الله، هو أيضاً رسوله، وليس في ترك وصف الله تعالى في هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفي ذلك، ولا في ترك وصفه ﷺ عنا بالرسالة ما ينفيها، فلا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم ونحو ذلك. انتهى.

(قال في رواية البخاري: فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله.

فقال ﷺ: «**على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به**».

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة. ولكن ذلك في العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ـ وإن كان على دينك ـ إلا رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟)[1].

والضغطة: بالضم، قال في القاموس: الضيق والإكراه والشدة[2]. انتهى.

فإن قلت: ما الحكمة في كونه ﷺ وافق سهيلاً على أنه لا يأتيه منهم رجل وإن كان على دين الإسلام إلا ويرده إلى المشركين.

فالجواب: إن المصلحة المترتبة على إتمام هذا الصلح ما ظهر من ثمراته الباهرة، وفوائده المتظاهرة التي كانت عاقبتها فتح مكة وإسلام أهلها كلهم، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تتظاهر عندهم أمور النبي ﷺ كما هي، ولا يخلون بمن يعلمهم بها مفصلة، فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين، وجاؤوا إلى المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه، وسمعوا منهم أحوال النبي ﷺ ومعجزاته الظاهرة، وأعلام نبوته المتظاهرة، وحسن سيرته، وجميل طريقته، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك، فمالت نفوسهم إلى الإيمان، حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام، قبل فتح مكة، فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلاً إلى الإسلام.

فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم، لما كان قد تمهد لهم من الميل.

وكانت العرب من غير قريش في البوادي ينتظرون بإسلامهم إسلام قريش، فلما

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب الشروط باب (١٥) رقم الحديث (٢٧٣١) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٠٥.
(٢) انظر القاموس المحيط ٢/ ٣٨٥ مادة (ضغطه).

أسلمت قريش أسلمت العرب في البوادي. قال الله تعالى ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً**﴾ [النصر: ١ و ٢] فالله ورسوله أعلم. انتهى.

قال في رواية البخاري: (فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.

فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي.

فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نقض الكتاب بعد**».

قال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً.

قال النبي ﷺ: «**فأجزه لي**»، قال ما أنا بمجيز ذلك.

قال: «**بلى فافعل**». قال: ما أنا بفاعل.

قال مكرز: بلى، قد أجزناه لك.

قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً)[1].

زاد ابن إسحاق: فقال ﷺ: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإنا لا نغدر، وإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً. ووثب عمر يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر إنما هم المشركون، وإن دم أحدهم كدم كلب.

قال الخطابي: تأول العلماء ما وقع في قصة أبي جندل على وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى قد أباح التقية للمسلم إذا خاف الهلاك، ورخص له أن يتكلم بالكفر مع إضمار الإيمان إن لم يمكنه التورية، فلم يكن رده إليهم إسلاماً لأبي جندل إلى الهلاك، مع وجود السبيل إلى الخلاص من الموت بالتقية.

والوجه الثاني: إنما رده لأبيه، والغالب أن أباه لا يبلغ به إلى الهلاك. وإن عذبه أو سجنه فله مندوحة بالتقية أيضاً.

وأما ما يخاف عليه من الفتنة فإن ذلك امتحان من الله تعالى يبتلي به صبر عبادة المؤمنين.

واختلف العلماء: هل يجوز الصلح مع المشركين على أن يرد إليهم من جاء مسلماً من عندهم، أم لا؟

فقيل: نعم، على ما دلت عليه قصة أبي جندل وأبي بصير.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الشروط باب (١٥) رقم الحديث (٢٧٣١).

وقيل: لا، وإن الذي وقع في القصة منسوخ. وإن ناسخه حديث «**أنا بريء من مسلم بين مشركين**»[1] وهو قول الحنفية.

وعند الشافعية: تفصيل بين العاقل والمجنون والصبي، فلا يردان. وقال بعض الشافعية: ضابط جواز الرد أنِ يكون المسلم بحيث لا تجب عليه الهجرة من دار الحرب. والله أعلم. قاله في فتح الباري.

قال في رواية البخاري: (فقال عمر بن الخطاب: فأتيت النبي ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال: «**بلى**»، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**»، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**». قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، «**أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟**» قلت: لا، قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**».

قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به)[2].

قال العلماء: لم يكن سؤال عمر رضي الله عنه وكلامه المذكور شكاً، بل طلباً لكشف ما خفي عليه، وحثاً على إذلال الكفار، وظهور الإسلام، كما عرف في خلقه وقوته في نصرة الدين، وإذلال المبطلين.

وأما جواب أبي بكر لعمر رضي الله عنهما بمثل جواب النبي ﷺ فهو من الدلائل الظاهرة على عظم فضله وبارع علمه، وزيادة عرفانه ورسوخه، وزيادته في ذلك على غيره.

وكان الصلح بينهم عشر سنين، كما في السير، وأخرجه أبو داود من حديث ابن عمر.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه بلفظ «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» كتاب الجهاد باب (٩٥) رقم الحديث (٢٦٤٥) والترمذي كتاب السير باب (٤٢) رقم الحديث (١٦٠٤). والمعجم الكبير للطبراني ٤/ ١٣٤ والسنن الكبرى للبيهقي ٨/ ١٣١ وتفسير القرطبي ٨/ ٦٣ ومشكاة المصابيح (٣٥٤٧) مجمع الزوائد ٥/ ٢٥٣ وفي التمهيد ٨/ ٣٩٠ وفي النسائي كتاب القسامة باب (٢٧) وإتحاف السادة المتقين ٦/ ١٩٥ وكنز العمال (٤٦٢٩٦ ـ ٤٦٣٠٣ ـ ١١٠٣١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشروط باب (١٥) رقم الحديث (٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢).

ولأبي نعيم في مسند عبيد الله بن دينار كانت أربع سنين. وكذا أخرجه الحاكم في البيوع من المستدرك. والأول أشهر.

وكان الصلح على وضع الحرب، بحيث يأمن الناس فيها، ويكف بعضهم عن بعض، وأن لا يدخل البيت إلا العام القابل ثلاثة أيام، ولا يدخلوها إلا بجلبان السلاح، وهو القراب بما فيه. والجلبان ـ بضم الجيم وسكون اللام ـ شبه الجراب من الأدم، يوضع فيه السيف مغموداً. ورواه القتيبي[1]: بضم الجيم واللام وتشديد الباء، وقال: هو أوعية السلاح بما فيها.

وفي بعض الروايات: لا يدخلها إلا بجلبان السلاح: السيف والقوس.

وإنما اشترطوا ذلك ليكون علماً وأمارة للسلم، إذ كان دخولهم صلحاً.

وقال مكي بن أبي طالب القيرواني[2] في تفسيره:

وبعث عليه الصلاة والسلام بالكتاب إليهم مع عثمان بن عفان. وأمسك سهيل بن عمرو عنده، فأمسك المشركون عثمان فغضب المسلمون.

وقال مغلطاي فاحتبسته قريش عندها. فبلغ النبي ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا الناس إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت، وقيل على أن لا يفروا، انتهى.

ووضع النبي ﷺ شماله في يمينه وقال: هذه عن عثمان. وفي البخاري: «**فقال ﷺ بيده اليمنى هذه بيعة عثمان، فضرب بها على يده اليسرى**».

ولما سمع المشركون بهذه البيعة خافوا وبعثوا عثمان وجماعة من المسلمين.

وفي هذه البيعة نزل قوله تعالى: ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم**﴾ [الفتح: ١٠].

وحلق الناس مع النبي ﷺ، ونحروا هداياهم بالحديبية، قال مغلطاي: وأرسل الله ريحاً حملت شعورهم فألقتها في الحرم.

---

(١) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. أبو محمد (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ). من أئمة الأدب. محدث، مؤلف، توفي ببغداد. الأعلام ١٣٧/٤. وفيات الأعيان ٢٥١/١. تاريخ بغداد ١٧٠/١٠. تذكرة الحفاظ ٦٣١/٢. مرآة الجنان ١٩١/٢. لسان الميزان ٣٥٧/٢ روضات الجنان (٤٤٧). أنباه الرواة ١٤٣/٢.

(٢) هو مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار الأندلسي القيسي أبو محمد القيراوني (٣٥٥ ـ ٤٣٧ هـ). مقرىء. عالم بالتفسير والعربية توفي في قرطبة الأعلام ٢٨٦/٧. وفيات الأعيان ١٢٠/٢، الديباج المذهب (٣٤٦)، طبقات القراء لابن الجزري ٣٠٩/٢، معجم الأدباء ٥١٧/٥ رقم الترجمة (٩٥٩) مفتاح السعادة ٨٤/٢.

وأقام ﷺ بالحديبية بضعة عشر يوماً، وقيل عشرين يوماً، ثم قفل وفي نفوس بعضهم شيء، فأنزل الله سورة الفتح يسليهم بها ويذكرهم نعمه، فقال تعالى: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ [الفتح: ١].

قال ابن عباس وأنس البراء بن عازب: الفتح هنا فتح الحديبية، ووقوع الصلح بعد أن كان المنافقون يظنون أن لم ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، أي حسبوا أنهم لا يرجعون بل يقتلون كلهم.

وأما قوله تعالى: ﴿**وأثابهم فتحاً قريباً**﴾ [الفتح: ١٨] فالمراد فتح خيبر على الصحيح، لأنها وقعت فيها المغانم الكثيرة للمسلمين.

وقد روى أحمد وأبو داود والحاكم من حديث مجمع بن جارية قال: (شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا وجدنا رسول الله ﷺ واقفاً عند كراع الغميم، وقد جمع الناس فقرأ عليهم: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ [الفتح: ١] الآية فقال رجل: يا رسول الله، أو فتح هو؟ فقال: إي والذي نفسي بيده إنه لفتح).

وروى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبي (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) الحديبية، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وتبايعوا بيعة الرضوان وأطعموا نخيل خيبر، وظهرت الروم على فارس، وفرح المسلمون بنصر الله.

وأما قوله تعالى: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ [النصر: ١] وقوله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح) فالمراد فتح مكة فاتفاق.

قال الحافظ ابن حجر: فبهذا يرتفع الإشكال وتجتمع الأقوال والله أعلم.

ثم رجع ﷺ إلى المدينة.

وفي هذه السنة كسفت الشمس.

وظاهر أوس بن الصامت من امرأته خولة.

وفي هذه السنة أيضاً استسقى في رمضان ومطر الناس، فقال النبي ﷺ: «**أصبح الناس مؤمناً بالله وكافراً بالكواكب**»[١].

قال مغلطاي: وجزم الدمياطي في سيرته: بأن تحريم الخمر كان في سنة الحديبية.

وذكر ابن إسحاق: أنه كان في وقعة بني النضير، وهي بعد أحد، وذلك سنة أربع على الراجح.

---

(١) جاء في البخاري نحوه كتاب المغازي باب (٣٦) رقم الحديث (٤١٤٧). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/١٨٨. ومشكاة المصابيح (٤٥١٦) وفي مسند الشافعي (٨٠).

وفيه نظر: لأن أنساً كان الساقي يوم حرمت، وأنه لما سمع المنادي بتحريمها بادر فأراقها، فلو كان ذلك سنة أربع، لكان أنس يصغر عن ذلك.

وأخرج النسائي والبيهقي بسند صحيح عن ابن عباس: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى في وجهه ورأسه الأثر فيقول: صنع هذا أخي فلان ـ وكانوا أخوة ليس في قلوبهم ضغائن ـ فيقول: والله لو كان بي رحيماً ما صنع بي هذا، حتى وقعت في قلوبهم الضغائن، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر**﴾ إلى ﴿**منتهون**﴾ [المائدة: ٩٠و ٩١] فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان وفلان وقد قتل يوم أحد، فأنزل الله تعالى ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا**﴾ إلى ﴿**المحسنين**﴾ [المائدة: ٩٣].

وآية تحريم الخمر نزلت في عام الفتح قبل الفتح.

والخمر في الأصل مصدر خمره: إذا ستره، سمي به عصير العنب إذا اشتد وغلا كأنه يخمر العقل، كما يسمى مسكراً لأنه يسكره، أي يحجره.

وهي حرام مطلقاً، وكذا كل ما أسكر عند أكثر العلماء. وقال أبو حنيفة: نقيع الزبيب والتمر إذا طبخ حتى ذهب ثلثاه ثم اشتد حل شربه ما دون السكر انتهى.

وأما الحشيشة وتسمى القنب الهندي والحيدرية والقلندرية فلم يتكلم فيها الأئمة الأربعة ولا غيرهم من علماء السلف، لأنها لم تكن في زمنهم، وإنما ظهرت في أواخر المائة السادسة وأول السابعة.

واختلف هل هي مسكرة فيجب فيها الحد، أو مفسدة للعقل فيجب التعزير، والذي أجمع عليه الأطباء أنها مسكرة، وبه جزم الفقهاء وصرح به الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتاب التذكرة في الخلاف، والنووي في شرح المهذب، ولا نعرف فيه خلافاً عندنا.

ونقل عن ابن تيمية أنه قال: الصحيح أنها مسكرة كالشراب، فإن أكلتها ينشون عنها ولذلك يتناولونها بخلاف البنج وغيره فإنه لا ينشي ولا يشتهى.

قال الزركشي: ولم أر من خالف في هذا إلا القرافي في قواعده فقال: نص العلماء بالنبات في كتبهم أنها مسكرة، والذي يظهر لي أنها مفسدة. في كلام تعقبه الزركشي يطول ذكره.

وقد تضافرت الأدلة على حرمتها: ففي صحيح مسلم «**كل مسكر حرام**»[1] وقد قال

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب (٦١) رقم الحديث (٤٣٤٣ ـ ٤٣٤٤ ـ ٤٣٤٥). وفي=

تعالى: ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ [الأعراف: ١٥٧] وأي خبيث أعظم مما يفسد العقول التي اتفقت الملل والشرائع على إيجاب حفظها. ولا ريب أن متناول الحشيشة يظهر به أثر التغير في انتظام الفعل والقول المستمد كماله من نور العقل. وقد روى أبو داود ـ بإسناد حسن ـ عن ديلم الحميري قال: (سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنا بأرض باردة نعالج فيها عملاً شديداً وإنا نتخذ شراباً من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا، قال: فهل يسكر؟ قلت: نعم، قال: فاجتنبوه، قلت: فإن الناس غير تاركيه، قال: فإن لم يتركوه فقاتلوهم).

وهذا منه ﷺ تنبيه على العلة التي لأجلها حرم المزر. فوجب أن كل شيء عمل عمله يجب تحريمه، ولا شك أن الحشيشة تعمل ذلك وفوقه.

وروى أحمد في مسنده وأبو داود في سننه عن أم سلمة قالت: (نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر)[1].

قال العلماء: المفتر كل ما يورق الفتور والخدر في الأطراف. وهذا الحديث أدل دليل على تحريم الحشيشة وغيرها من المخدرات، فإنها إن لم تكن، مسكرة كانت مفترة، ولذلك يكثر النوم من متعاطيها، وتثقل رؤوسهم بواسطة تبخيرها في الدماغ.

وقد نقل الإجماع على تحريمها غير واحد، منهم القرافي وابن تيمية وقال: إن من استحلها فقد كفر.

وتعقبه الزركشي: بأن تحريمها ليس معلوماً من الدين بالضرورة، سلمنا ذلك، لكن لا بد أن يكون دليل الإجماع قطعياً على أحد الوجهين، وقد ذكر أصحابنا أن المسكر من غير عصير العنب، كعصير العنب في وجوب الحد، لكن لا يكفر مستحله لاختلاف العلماء فيه.

واختلف: هل يحرم تعاطي اليسير الذي لا يسكر؟

---

= صحيح مسلم كتاب الأشربة باب (٦) رقم الحديث (٦٤ ـ ٧٠ ـ ٧٣). والترمذي كتاب الأشربة باب (٣) رقم الحديث (١٨٦٦). وسنن النسائي ٨/٢٩٧ ـ ٢٩٨. وفي سنن أبي داود كتاب الأشربة، باب (٥) رقم الحديث (٣٦٨٧)، وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/٢٧٤. وابن ماجه، كتاب الأشربة باب (٩) رقم الحديث (٣٣٨٧). وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/١٩٣. وإتحاف السادة المتقين ٦/١٦ وفي سنن القرطبي ١٠/١٣٠. وكنز العمال (١٣١٤٣ ـ ١٣١٤٤ ـ ١٣١٤٥).

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٦/٣٠٩. وفي سنن أبي داود. كتاب الأشربة باب (٥) رقم الحديث (٣٦٨٦).

فقال النووي في شرح المهذب إنه لا يحرم أكل القليل الذي لا يسكر من الحشيش، بخلاف الخمر، حيث حرم قليلها الذي لا يسكر. والفرق أن الحشيش طاهر والخمر نجس فلا يجوز شرب قليله للنجاسة.

وتعقبه الزركشي بأنه صح في الحديث: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»[1]، قال: والمتجه أنه لا يجوز من الحشيش لا قليل ولا كثير.

رأما قول النووي: إنها طاهرة وليست بنجسة، فقطع به ابن دقيق العيد وحكى الإجماع عليه. قال: والأفيون وهو لبن الخشخاش، أقوى فعلاً من الحشيش، لأن القليل منه يسكر جداً، وكذلك السيكران وجوز الطيب مع أنه طاهر بالإجماع. انتهى.

وقد جمع بعضهم في الحشيشة مائة وعشرين مضرة دينية وبدنية، حتى قال بعضهم كل ما في الخمر من المذمومات موجود في الحشيش وزيادة. فإن أكثر ضرر الخمر في الدين لا في البدن. وضررها فيهما.

فمن ذلك: فساد العقل، وعدم المروءة، وكشف العورة، وترك الصلوات، والوقوع في المحرمات، وقطع النسل، والبرص والجذام والأسقام والرعشة والأبنة، ونتن الفم وسقوط شعر الأجفان، وحفر الأسنان وتسويدها، وتضييق النفس وتصفير الألوان، وتنقيب الكبد، وتجعل الأسد كالجعل، وتورث الكسل والفشل، وتعيد العزيز ذليلاً، والصحيح عليلاً، والفصيح أبكماً، والصحيح أبلماً، وتذهب السعادة وتنسي الشهادة، فصاحبها بعيد عن السنة طريد عن الجنة، موعود من الله باللعنة إلا أن يقرع من الندم سنه ويحسن بالله ظنه. ولقد أحسن القائل:

قل لمن يأكل الحشيشة جهلاً ... يا خسيساً قد عشت شر معيشة
دية العقل بدرة فلماذا ... يا سفيهاً قد بعتها بحشيشة

## [غزوة خيبر][2]

وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام.

قال ابن إسحاق: خرج النبي ﷺ في بقية شهر المحرم سنة سبع، فأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأشربة رقم الحديث (١٨) والكامل في الضعفاء لابن عدي ٢/٧٦٧ و ٤/١٣٦٢.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/٣٤٢. والمنتظم ٣/٢٩٣ ومغازي الواقدي ٢/٦٣٣. والبداية والنهاية ٤/١٨٣. وطبقات ابن سعد ٢/٨١. والكامل في التاريخ ٢/٩٩. وتاريخ الطبري ٢/٢٩٨.

وقيل: كانت في آخر سنة ست، وهو منقول عن مالك، وبه جزم ابن حزم.

قال الحافظ ابن حجر: والراجح ما ذكره ابن إسحاق، ويمكن الجمع بأن من أطلق سنة ست بناء على أن ابتداء السنة من شهر الهجرة الحقيقي وهو ربيع الأول.

وأغرب ابن سعد وابن أبي شيبة فرويا من حديث أبي سعيد الخدري: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر لثمان عشرة من رمضان، وإسناده حسن، لكنه خطأ ولعلها كانت إلى حنين فتصحفت. وتوجيهه: بأن غزوة حنين كانت ناشئة عن غزوة الفتح، وغزوة الفتح خرج فيها ﷺ في رمضان جزماً.

قال: وذكر الشيخ أبو حامد في التعليقة: أنها كانت سنة خمس، وهو وهم، ولعلها انتقال من الخندق إلى خيبر.

وكان معه ﷺ ألف وأربعمائة راجل ومائتا فارس، ومعه أم سلمة زوجته.

وفي البخاري من حديث سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع النبي إلى خيبر فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر، ألا تسمعنا من هنيهاتك وكان عامر رجلاً شاعراً، فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا — ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اتقينا — وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينة علينا — إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا

وفي رواية إياس بن سلمة عن أبيه عند أحمد في هذا الرجز من الزيادة:

إن الذين قد بغوا علينا — إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن عن فضلك ما استغنينا[1]

فقال رسول الله ﷺ ـ كما في رواية البخاري ـ «من هذا السائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع، قال: «يرحمه الله». قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به[2]. الحديث.

وفي رواية أحمد: فجعل عامر يرتجز ويسوق الركاب، وهذه كانت عادتهم إذا أرادوا تنشيط الإبل في السير ينزل بعضهم فيسوقها، ويحدو في تلك الحال.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٥٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤١٩٥).

وقوله: «اللهم لولا أنت ما اهتدينا» كذا الرواية، قالوا: وصوابه في الوزن: لا هم، أو: تالله، كما في الحديث الآخر.

وقوله: «فداء لك» قال المازري[1]: هذه اللفظة مشكلة، فإنه لا يقال للباري سبحانه: فديتك، لأن ذلك إنما يستعمل في مكروه يتوقع حلوله بالشخص، فيختار شخص آخر أن يحل ذلك به ويفديه منه. قال: ولعل هذا وقع من غير قصد إلى حقيقة معناه، كما يقال: قاتله الله، ولا يريد بذلك حقيقة الدعاء عليه، وكقوله عليه السلام: تربت يداك، وتربت يمينك، وفيه كله ضرب من الاستعارة لأن المفادي مبالغ في طلب رضا المفدى حين بذل نفسه عن نفسه للمكروه، فكان مراد الشاعر: أي أبذل نفسي في رضاك. وعلى كل حال فإن المعنى وإن أمكن صرفه إلى جهة صحيحة فإطلاق اللفظ واستعارته والتجوز فيه يفتقر إلى ورود الشرع بالإذن فيه.

قال: وقد يكون المراد بقوله: «فداء لك» رجلاً يخاطبه، وفصل بين الكلام بذلك، ثم عاد إلى الأول فقال: ما اتقينا. وهذا تأويل يصح معه اللفظ والمعنى لولا أن فيه تعسفاً اضطرنا إليه تصحيح الكلام. انتهى.

وقيل: إنه يخاطب بهذا الشعر النبي ﷺ. والمعنى: لا تؤاخذنا بتقصيرنا في حقك ونصرك. وعلى هذا فقوله: «اللهم» لم يقصد بها الدعاء وإنما افتتح بها الكلام. والمخاطب بقول الشاعر: «لولا أنت» النبي، لكن يعكر عليه بعد ذلك:

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

فإنه دعاء لله تعالى.

ويحتمل أن يكون المعنى فاسأل ربك أن ينزل ويثبت والله أعلم.

وقوله: «إذا صيح بنا أتينا» أي إذا صيح بنا للقتال ونحوه من المكاره أتينا ولم نتأخر عنه. وفي رواية أيضاً بالموحدة بدل المثناة، أي أبينا الفرار. وقوله: «وبالصياح عولوا علينا» أي استعانوا بنا واستفزعونا للقتال. قيل: هو من التعويل على الشيء وهو الاعتماد عليه، وقيل: هو من العويل، وهو الصوت.

وقوله: «من هذا السائق؟ قالوا: عامر، قال: يرحمه الله، قال رجل من القوم وجبت»: أي ثبتت له الشهادة وستقع قريباً، وكان معلوماً عندهم أن من دعا له النبي ﷺ

(١) هو محمد بن علي بن عمر التميمي المازري. أبو عبد الله (٤٥٣ ـ ٥٣٦ هـ). محدث من فقهاء المالكية. توفي بالمهدية، الأعلام ٦/٢٧٧ وفيات الأعيان ١/٤٨٦.

هذا الدعاء في هذا الموطن استشهد، فقالوا: هلا أمتعتنا به؟ أي: وددنا أنك أخرت الدعاء له بهذا إلى وقت آخر لنتمتع بمصاحبته ورؤيته مدة.

وفي البخاري من حديث أنس أنه ﷺ أتى خيبر ليلاً ـ وكان إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح ـ فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «**خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»[1].

وفي رواية: فرفع يديه وقال الله أكبر خربت خيبر.

والخميس: الجيش: سمي به لأنه مقسوم بخمسة أقسام: المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب.

ومحمد: خبر مبتدأ، أي هذا محمد.

قال السهيلي: يؤخذ من هذا الحديث التفاؤل، لأنه ﷺ لما رأى آلة الهدم عرف أن مدينتهم ستخرب. انتهى.

ويحتمل ـ كما قاله في فتح الباري ـ أن يكون قال: «**خربت خيبر**» بطريق الوحي، ويؤيده قوله بعد ذلك: «**إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**».

وفي رواية: أنه ﷺ صلى الصبح قريباً من خيبر بغلس ثم قال: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

وقال مغلطاي وغيره: وفرق ﷺ الرايات، ولم تكن الرايات إلا بخيبر، وإنما كانت الألوية.

وقال الدمياطي: وكانت راية النبي ﷺ السوداء من برد لعائشة.

وفي البخاري: وكان علي بن أبي طالب تخلف عن النبي ﷺ وكان رمداً.. فلحق فلما بتنا الليلة التي فتحت قال: لأعطين الراية غداً ـ أو ليأخذن الراية غداً ـ رجل يحبه الله ورسوله يفتح الله عليه.

فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتي به،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤١٩٧ ـ ٤١٩٨). وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد باب (٤٣) رقم الحديث (١٢٠ ـ ١٢١) وللإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١١ و ٤/ ٢٨ والسنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢٣٠. وفي فتح الباري ٧/ ٥٩٥. وفي المسند للحميدي برقم (١١٩٨). وفي تفسير القرطبي ١٥/ ١٤٠. وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٤٦٠.

فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرىء، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن تكون لك حمر النعم. الحديث[1].

ولما تصاف القوم، كان سيف عامر قصيراً، فتناول ساق يهودي ليضربه فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه. فلما قفلوا، قال سلمة: قلت يا رسول الله، فداك أبي وأمي، زعموا أن عامراً حبط عمله، قال النبي ﷺ «**كذب من قال، وإن له أجرين**»، وجمع بين إصبعيه، «**إنه لجاهد مجاهد**»[2]. رواه البخاري أيضاً.

وعن يزيد بن أبي عبيد قال: رأيت أثر ضربة بساق سلمة، فقلت ما هذه الضربة؟ قال: هذه ضربة أصابتها يوم خيبر... فأتيت النبي ﷺ فنفث فيها ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة. أخرجه البخاري[3].

وعنده أيضاً عن أبي هريرة: شهدنا خيبر فقال رسول الله ﷺلرجل ممن معه يدعي الإسلام: «هذا من أهل النار»، فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال، حتى كثرت به الجراحة، فكاد بعض الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة فأهوى بيده إلى كنانته، فاستخرج منها سهماً فنحر نفسه، فاشتد رجال من المسلمين فقالوا: يا رسول الله، صدق الله حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه. فقال: «**قم يا فلان فأذن: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[4].

وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ عن ذلك: إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ـ فيما يبدو للناس ـ وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ـ فيما يبدو للناس ـ وهو من أهل الجنة. الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤٢١٠). وفي فتح الباري ٧/٦٠٦. وفي صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (٣٤) وللإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/٣٣٣. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/٢٠٥ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٥٨٢). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/١٠٧ وفي كنز العمال (١٥٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الأدب. باب (٩٠) رقم الحديث (٦١٤٨). وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد رقم الحديث (١٢٣) ودلائل النبوة للبيهقي ٤/٢٠٢.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤٢٠٦).

(٤) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤٢٠٣) ومسلم في كتاب الإيمان رقم الحديث (١٧٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/١٣٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/١٩٧ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/٩. ودلائل النبوة للبيهقي ٤/٢٥٣.

وقاتل النبي ﷺ أهل خيبر، وقاتلوه أشد القتال، واستشهد من المسلمين خمسة عشر، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون.

وفتحها الله حصناً حصناً، وهي: النطاة، وحصن الصعب، وحصن ناعم، وحصن قلعة الزبير، والشق، وحصن أبي، وحصن البريء، والقموس والوطيح والسلالم، وهو حصن بني أبي الحقيق.

وأخذ كنز آل أبي الحقيق الذي كان في مسك الحمار، وكانوا قد غيبوه في خربة، فدل الله رسوله عليه فاستخرجه.

وقلع علي باب خيبر، ولم يحركه سبعون رجلاً إلا بعد جهد.

وفي رواية ابن إسحاق: سبعة، وأخرجه من طريق البيهقي في الدلائل، وزواه الحاكم، وعنه البيهقي من جهة ليث بن أبي سليم عن أبي جعفر محمد بن علي بن حسين عن جابر: أن علياً حمل الباب يوم خيبر، وأنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً. وليث ضعيف.

وفي رواية البيهقي: أن علياً لما انتهى إلى الحصن اجتذب أحد أبوابه فألقاه بالأرض، فاجتمع عليه بعده منا سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب مكانه.

قال شيخنا: وكلها واهية، ولذا أنكره بعض العلماء. انتهى.

وفي البخاري: وتزوج ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب، وكان قد قتل زوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وكانت عروساً، فذكر له جمالها، فاصطفاها لنفسه فخرج بها حتى بلغت سد الصهباء حلت له ـ يعني طهرت من الحيض ـ فبنى بها ﷺ فصنع حيساً في نطع صغير، ثم قال لأنس: «آذن من حولك»، فكانت تلك وليمته على صفية. قال: خرجنا إلى المدينة فرأيت النبي ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة. ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب[1].

وفي رواية له: فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه؟ قالوا إن حجبها فهي إحدى أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطأ لها ومد الحجاب.

وفي رواية أنه ﷺ قتل المقاتلة وسبى الذرية، وكان في السبي صفية فصارت إلى دحية الكلبي ثم صارت إلى النبي ﷺ فجعل عتقها صداقها.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤٢١١). وفي سنن سعيد بن منصور (٢٦٧٦) وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٢٤.

وفي رواية: فأعتقها وتزوجها[1].

وفي رواية: قال ﷺ لدحية: خذ جارية من السبي غيرها.

وفي رواية لمسلم: أنه ﷺ اشترى صفية منه بسبعة أرؤس.

وإطلاق الشراء على ذلك، على سبيل المجاز، وليس في قوله سبعة أرؤس ما ينافي قوله في رواية البخاري: خذ جارية من السبي غيرها، إذ ليس هنا دلالة على نفي الزيادة والله أعلم.

وإنما أخذ ﷺ صفية لأنها بنت ملك من ملوكهم، وليست ممن توهب لدحية لكثرة من كان من الصحابة مثل دحية وفوقه، وقلة من كان في السبي مثل صفية في نفاستها، فلو خصه بها لأمكن تغير خاطر بعضهم، فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه، واختصاصه ﷺ بها، فإن في ذلك رضا الجميع، وليس ذلك من الرجوع في الهبة في شيء. انتهى.

قال مغلطاي وغيره: وكانت صفية قبل رأت أن القمر سقط في حجرها، فتؤول بذلك. قال الحاكم: وكذا جرى لجويرية.

وفي هذه الغزوة حرم ﷺ لحوم الحمر الأهلية. كما في البخاري ولفظه: فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم - يعني خيبر - أوقدوا نيراناً كثيرة، فقال النبي ﷺ: «ما هذه النيران، على أي شيء توقدون؟» قالوا: على لحم، قال «على أي لحم؟ قالوا: لحم الحمر الإنسية، فقال النبي ﷺ: «أهريقوها واكسروها». فقال رجل: يا رسول الله، أو نهريقها ونغسلها، قال: «أو ذاك»[2].

والمشهور في الإنسية: كسر الهمزة، منسوبة إلى الإنس، وهم بنو آدم. وحكي ضم الهمزة، ضد الوحشية، ويجوز فتحها والنون أيضاً، مصدر أنست به، آنس أنساً وأنسة.

وفي رواية: نهى يوم خيبر عن أكل الثوم، وعن لحوم الحمر الأهلية. وفي رواية. نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية ورخص في الخيل[3].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤٢٠٠ ـ ٤٢١٣ ـ ٤٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤١٩٦) وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد رقم الحديث (١٢٣) وفي كتاب الصيد رقم الحديث (٣٣). وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/٢٠١. وفي المعجم الكبير للطبراني ٧/٣٦.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤٢١٥ ـ ٤٢١٩) وفي النسائي ٧/٢٣٩ =

قال ابن أبي أوفى: فتحدثنا أنه إنما نهى عنها لأنها لم تخمس، وقال بعضهم: نهى عنها ألبتة لأنها كانت تأكل العذرة.

قال العلماء: وإنما أمر بإراقتها لأنها نجسة محرمة، وقيل: إنما نهى عنها للحاجة إليها، وقيل: لأخذها قبل القسمة، وهذان التأويلان للقائلين بإباحة لحومها. والصواب ما قدمناه.

وأما قوله ﷺ: «اكسروها» فقال رجل: أو نهريقها ونغسلها قال: «أو ذاك». فهذا محمول على أنه ﷺ اجتهد في ذلك فرأى كسرها ثم تغير اجتهاده، أو أوحي إليه بغسلها.

وأما لحوم الخيل فاختلف العلماء في إباحتها:

فمذهب الشافعي والجمهور من السلف والخلف: أنه مباح لا كراهة فيه، وبه قال عبد الله بن الزبير وأنس بن مالك وأسماء بنت أبي بكر. وفي صحيح مسلم عنها قالت: نحرنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ فأكلناه ونحن بالمدينة، وفي رواية الدارقطني: فأكلناه نحن وأهل بيت النبي ﷺ.

قال في فتح الباري: ويستفاد من قولها: «ونحن بالمدينة» أن ذلك بعد فرض الجهاد، فيرد على من استند إلى منع أكلها لعلة أنها من آلات الجهاد.

وفي قولها: «وأهل بيت النبي ﷺ» الرد على من زعم أنه ليس فيه أن النبي ﷺ اطلع على ذلك، مع أن ذلك لو لم يرد لم يظن بآل أبي بكر أنهم يقدمون على فعل شيء في زمنه ﷺ إلا وعندهم العلم بجوازه لشدة اختلاطهم به ﷺ وعدم مفارقتهم له، هذا مع توفر داعية الصحابة إلى سؤاله عليه السلام عن الأحكام.

ومن ثم كان الراجح أن الصحابي إذا قال: كنا نفعل كذا على عهده ﷺ كان له حكم الرفع، لأن الظاهر اطلاعه ﷺ على ذلك وتقريره، وإذا كان ذلك في مطلق الصحابة فكيف بآل أبي بكر.

وقال الطحاوي: ذهب أبو حنيفة إلى كراهة أكل الخيل، وخالفه صاحباه وغيرهما. واحتجوا بالأخبار المتواترة في حلها. انتهى.

وقد نقل بعض التابعين: الحل عن الصحابة مطلقاً من غير استثناء أحد، فأخرج ابن

---

= و ٢٠٣ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٦١ و ٢/ ٢١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٢٥ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ١٣٧ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٦٨ و ١٩/ ٦٩. وفي المعجم الصغير للطبراني ١/ ٢٥٦. وفي السلسلة الصحيحة للألباني (٣٥٩).

أبي شيبة بسند صحيح - على شرط الشيخين - عن عطاء قال: لم يزل سلفك يأكلونه. قال ابن جريج: قلت له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نعم.

وأما ما نقل في ذلك عن ابن عباس من كراهتها: فأخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق بسندين ضعيفين.

وقال أبو حنيفة في الجامع الصغير: أكره لحوم الخيل، فحمله أبو بكر الرازي على التنزيه، وقال: لم يطلق أبو حنيفة فيه التحريم، وليس هو عنده كالحمار الأهلي، وصحح أصحاب المحيط والهداية والذخيرة عنه التحريم، وهو قول أكثرهم.

وقال القرطبي في شرح مسلم. مذهب مالك الكراهة، وقال الفاكهاني: المشهور عند المالكية الكراهة، والصحيح عند المحققين منهم التحريم.

وقال ابن أبي جمْرة: الدليل على الجواز مطلقاً واضح، لكن سبب كراهة مالك لأكلها لكونها تستعمل غالباً في الجهاد، فلو انتفت الكراهة لكثر استعماله، ولو كثر استعماله لأفضى إلى فنائها، فيؤول إلى النقص من إرهاب العدو الذي وقع الأمر به في قوله تعالى: ﴿**ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ [الأنفال: ٦٠] فعلى هذا فالكراهة لسبب خارج، وليس البحث فيه، فإن الحيوان المتفق على إباحته لو حدث أمر يقتضي أن لو ذبح لأفضى إلى ارتكاب محذور لامتنع، ولا يلزم من ذلك القول بتحريمه. انتهى.

وأما قول بعض المانعين: لو كانت حلالاً لجازت الأضحية بها. فمنتقض بحيوان البر، فإنه مأكول ولم تشرع الأضحية به. وأما حديث خالد بن الوليد عند أبي داود والنسائي: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الخيل والبغال والحمير[1]، فضعيف، ولو سلم ثبوته، لا ينهض معارضاً لحديث جابر الدال على الجواز، وقد وافقه حديث أسماء. وقد ضعف حديث خالد بن الوليد أحمد والبخاري والدارقطني والخطابي وابن عبد البر وعبد الحق وآخرون.

وزعم بعضهم: أن حديث جابر دال على التحريم لقوله «رخص» لأن الرخصة استباحة المحظور مع قيام المانع، فدل على أنه رخص لهم بسبب المخمصة التي أصابتهم بخيبر، فلا يدل ذلك على الحل المطلق.

وأجيب: بأن أكثر الروايات جاء بلفظ الإذن، كما رواه مسلم، وفي رواية له: أكلنا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الاطعمة باب (٢٥) رقم الحديث (٣٧٨٨ - ٣٧٨٩ - ٣٧٩٠).

زمن خيبر الخيل وحمر الوحش، ونهانا النبي ﷺ عن الحمار الأهلي وعند الدارقطني من حديث ابن عباس: نهانا ﷺ عن الحمر الأهلية وأمر بلحوم الخيل. فدل على أن المراد بقوله: «رخص«» أذن. ونوقض أيضاً بالإذن في أكل الخيل، ولو كان رخصة لأجل المخمصة لكانت الحمر الأهلية أولى بذلك لكثرتها وعزة الخيل حينئذ، فدل على أن الإذن في أكل الخيل إنما كان للإباحة العامة لا لخصوص الضرورة.

وقد نقل عن مالك وغيره من القائلين بالتحريم: أنهم احتجوا للمنع بقوله تعالى: ﴿**والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة**﴾ [النحل: ٨] وقرروا ذلك بأوجه

أحدها: أن اللام للتعليل، فدل على أنها لم تخلق لغير ذلك، لأن العلة المنصوصة تفيد الحصر. فإباحة أكلها تقتضي خلاف ظاهر الآية.

ثانيها: عطف البغال والحمير، فدل على اشتراكها معهما في حكم التحريم، فيحتاج من أفرد حكم ما عطف عليها إلى دليل.

ثالثها: أن الآية سيقت مساق الامتنان، فلو كان ينتفع بها في الأكل لكان الامتنان به أعظم، والحكيم لا يمتن بأدنى النعم ويترك أعلاها، ولا سيما وقد وقع الامتنان بالأكل في المذكورات قبلها.

رابعها: لو أبيح أكلها لفاتت المنفعة بها فيما وقع به الامتنان من الركوب والزينة.

وأجيب: بأن آية النحل [٨] مكية اتفاقاً، والإذن في أكل الخيل كان بعد الهجرة من مكة بأكثر من ست سنين، فلو فهم النبي ﷺ من الآية المنع لما أذن في الأكل.

وأيضاً: فآية النحل [٨] ليست نصاً في منع الأكل والحديث صريح في جوازه.

وأيضاً: فلو سلمنا أن اللام للتعليل، لم نسلم إفادة الحصر في الركوب والزينة، فإنه ينتفع بالخيل في غيرهما، وفي غير الأكل اتفاقاً، وإنما ذكر الركوب والزينة لكونهما أغلب ما تطلب له الخيل. ونظيره حديث البقرة المذكورة في الصحيحين[1] حين خاطبت راكبها فقالت لم أخلق لهذا وإنما خلقت للحرث، فإنه مع كونه أصرح في الحصر، ما يقصد به إلا الأغلب، وإلا فهي تؤكد وينتفع بها في أشياء غير الحرث اتفاقاً.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحة كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (١٣) ـ (٢٣٨٨) والبخاري كتاب الحرث والمزارعة باب (٤) رقم الحديث (٢٣٢٤ ـ ٣٤٧١ ـ ٣٦٦٣ ـ ٣٦٩٠) وفي مسند الحميدي رقم الحديث (١٠٥٤ ـ ١٠٥٥) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٦٠٤٧) وفي مشكل الآثار للطحاوي ١٦٨/٤. إرواء الغليل للألباني ٢٤٢/٧ وشرح السنة للبغوي ٩٧/١٤ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥٠٢/٢.

وقال البيضاوي: واستدل بها أي بآية النحل [٨] ـ على حرمة لحومها، ولا دليل فيها، إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه غالباً أن لا يقصد منه غيره أصلاً. انتهى.

وأيضاً: فلو سلم الاستدلال للزم منع حمل الأثقال على الخيل والبغال والحمير ولا قائل به. وأما عطف البغال والحمير، فدلالة العطف إنما هي دلالة اقتران وهي ضعيفة.

وأما أنها سيقت مساق الامتنان إنما قصد به غالب ما كان يقع به انتفاعهم بالخيل، فخوطبوا بما ألفوا وعرفوا، ولم يكونوا يعرفون أكل الخيل لعزتهم في بلادهم، بخلاف الأنعام، فإن أكثر انتفاعهم بها كان لحمل الأثقال والأكل، فاقتصر في كل من الصنفين على الامتنان بأغلب ما ينتفع به، فلو لزم من ذلك الحصر في هذا الشق لأضر.

وأما قولهم: لو أبيح أكلها لفاتت المنفعة بها الخ. .

فأجيب عنه: بأنه لو لزم من الإذن في أكلها أن تفنى، للزم مثله في البقر وغيرها مما أبيح أكله ووقع الامتنان به.

وإنما أطلت في ذلك لأمر اقتضاه، والله أعلم.

وفي هذه الغزوة أيضاً نهى ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغانم حتى تقسم، وأن لا توطأ جارية حتى تستبرأ.

وفي هذه الغزوة أيضاً سمت النبي ﷺ زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم[١]، كما في البخاري من حديث أبي هريرة ولفظه: (لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ، **«اجمعوا لي من كان ها هنا من اليهود»**، فجمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ **«إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقوني عنه»**؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«من أبوكم»**؟ قالوا: أبونا فلان. فقال رسول الله ﷺ: **«كذبتم، بل أبوكم فلان»**، **فقالوا: صدقت وبررت، فقال:** **«هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه»**؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا، كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: **«من أهل النار»**؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«اخسؤوا فيها. والله لا نخلفكم فيها أبداً»**، ثم قال لهم **«هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه»**؟ قالوا: نعم. فقال: **«هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟»** فقالوا: نعم، فقال: **«ما حملكم على**

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/٣٥٢ وطبقات ابن سعد ٢/١٥٤ والبداية والنهاية ٤/٢٠٩ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/٢٥٦.

ذلك»؟ فقالوا: أردنا إن كنت كذاباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك[1].

وفي حديث جابر عند أبي داود: أن يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية ثم أهدتها إلى رسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، فقال رسول الله ﷺ: «ارفعوا أيديكم»، وأرسل إلى اليهود فقال: «سممت هذه الشاة»؟ فقالت: من أخبرك؟ قال: «أخبرتني هذه في يدي»، للذراع. قالت نعم، قلت: إن كان نبياً فلن يضره، وإن لم يكن نبياً استرحنا منه. فعفا عنها ﷺ ولم يعاقبها، وتوفي أصحابه الذين أكلوا من الشاة، واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة[2].

وفي رواية غيره: جعلت زينب بنت الحارث امرأة ابن مشكم تسأل أي الشاة أحب إلى محمد فيقولون الذراع فعمدت إلى عنز لها فذبحتها وصلتها، ثم عمدت إلى سم لا يبطىء ـ يعني لا يلبث أن يقتل من ساعته ـ وقد شاورت يهود في سموم فاجتمعوا لها على هذا السم بعينه، فسمت الشاة وأكثرت في الذراعين والكتف، فوضعت بين يديه ومن حضر من أصحابه، وفيهم بشر بن البراء، وتناول ﷺ الذراع فانتهس منها، وتناول بشر بن البراء عظماً آخر، فلما ازدرد ﷺ لقمته، ازدرد بشر بن البراء ما في يده وأكل القوم، فقال ﷺ ارفعوا أيديكم، فإن هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة. وفيه: أن بشر بن البراء مات، وفيه أنه دفعها ﷺ إلى أولياء بشر بن البراء فقتلوها. رواه الدمياطي.

وقد اختلف هل عاقبها ﷺ:

فعند البيهقي من حديث أبي هريرة: فأعرض عنها، ومن طريق أبي نضرة عن جابر نحوه قال: فلم يعاقبها. وقال الزهري: أسلمت فتركها.

قال البيهقي: يحتمل أن يكون تركها أولاً ثم لما مات بشر بن البراء من الأكلة قتلها. وبذلك أجاب السهيلي وزاد: أنه تركها لأنه كان لا ينتقم لنفسه، ثم قتلها ببشر قصاصاً.

ويحتمل أن يكون تركها لكونها أسلمت. وإنما أخر قتلها حتى مات بشر، لأن بموته يتحقق وجوب القصاص بشرطه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجزية والموادعة باب (٧) رقم الحديث (٣١٦٩ ـ ٤٢٤٩ ـ ٥٧٧٧) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/٢٥٦. وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/٤٥١ وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٢٣ وفي طبقات ابن سعد ٢/ ١٥٤.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الديات باب (٦) رقم الحديث (٤٥١٠).

وفي مغازي سليمان التيمي: أنها قالت: إن كنت كذاباً أرحت الناس منك. وقد استبان لي الآن أنك صادق وأنا أشهدك ومن حضر أني على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، قال: فانصرف عنها حين أسلمت. وفيه: موافقة الزهري على إسلامها، فالله أعلم.

وفي هذه الغزوة أيضاً: نام ﷺ عن صلاة الفجر، لما وكل به بلالاً كما في حديث أبي هريرة عند مسلم (أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر، سار ليلته حتى أدركه الكرى عرس، وقال لبلال: «**إكلأ لنا الليل**»، فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله ﷺ وأصحابه فلما قارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً، فقال: «**أي بلال!**» فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ ـ بأبي أنت وأمي يا رسول الله ـ بنفسك. قال: «**اقتادوا**» فاقتادوا رواحلهم شيئاً، ثم توضأ رسول الله ﷺ وأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة قال: «**من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها، فإن الله قال: «أقم الصلاة لذكري**»[1].

وفيها قدم جعفر ومن معه من الحبشة.

واختلف في فتح خيبر هل كان عنوة أو صلحاً؟

وفي حديث عبد العزيز بن صهيب عن أنس التصريح بأنه كان عنوة، وبه جزم ابن عبد البر، ورد على من قال فتحت صلحاً. قال: وإنما دخلت الشبهة على من قال فتحت صلحاً بالحصنين اللذين أسلمهما أهلهما لتحقن دماؤهما، وهو ضرب من الصلح، لكن لم يقع ذلك إلا بحصار وقتال. انتهى.

ثم فتح وادي القرى، في جمادى الآخرة بعدما أقام أربعاً يحاصرهم، ويقال: أكثر من ذلك.

وأصاب «مدعماً» مولاه سهم فقال ﷺ: «**إن الشملة التي غلها من خيبر لتشتعل عليه ناراً**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحة. كتاب المساجد رقم الحديث (٣٠٩) (٦٨٠) وفي سنن أبي داود كتاب الصلاة باب (١١) رقم الحديث (٤٣٥) وفي سنن ابن ماجة كتاب الصلاة باب (١٠) رقم الحديث (٦٩٧) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢١٧. والتمهيد لابن عبد البر ٥/ ٢٥٠. والاستذكار لابن عبد البر ١/ ٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور باب (٣٣) رقم الحديث (٦٧٠٧) وأبو داود كتاب الجهاد=

وصالحه أهل تيماء على الجزية، قاله الحافظ مغلطاي.

ثم سرية عمر بن الخطاب[1] رضي الله عنه إلى تربة في شعبان سنة سبع، ومعه ثلاثون رجلاً فخرج معه دليل من بني هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر إلى هوازن فهربوا، وجاء عمر بن الخطاب، إلى محالهم فلم يلق منهم أحداً، فانصرف راجعاً إلى المدينة.

ثم سرية أبي بكر الصديق[2] رضي الله عنه إلى بني كلاب بنجد ناحية ضربة، سنة سبع، ويقال إلى فزارة، فسبى منهم جماعة وقتل آخرين.

وفي صحيح مسلم: فزارة، وهو الصواب.

ثم سرية بشير بن سعد الأنصاري[3] إلى بني مرة بفدك، في شعبان سنة سبع، ومعه ثلاثون رجلاً، فقتلوا، وقاتل بشير حتى ارتث وضرب كعبه، وقيل قد مات.

وقدم علبة بن زيد الحارثي بخبرهم على رسول الله ﷺ ثم قدم بعده بشير بن سعد.

ثم سرية غالب بن عبد الله الليثي[4] إلى الميفعة بناحية نجد من المدينة، على ثمانية برد، في شهر رمضان سنة سبع من الهجرة، في مائتين وثلاثين رجلاً، فهجموا عليهم في وسط محالهم، فقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا نعماً وشاء إلى المدينة.

قالوا: وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد نهيك بن مرداس بعد أن قال: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «ألا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟» فقال أسامة: لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلا الله[5].

---

= باب (١٣٣) رقم الحديث (٢٧١١) وفي صحيح مسلم كتاب الأيمان رقم الحديث (١٨٣) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/٢٦٩ وفي النسائي كتاب الأيمان والنذور باب (٣٨). وفي تفسير القرطبي ٤/٢٥٨. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/٣٠٩. والسنن الكبرى للبيهقي ٩/١٠٠. وفي المسند لأبي عوانة ١/٥٠.

(١) انظر المنتظم ٣/٣٠١ والمغازي للواقدي ٢/٧٢٢ وتاريخ الطبري ٣/٢٢ وطبقات ابن سعد ٢/٨٩ والبداية والنهاية ٤/٢٢١ والكامل لابن الأثير ٢/١٠٦.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢/٩٠ والبداية والنهاية ٤/٢٢١ والمنتظم ٣/٣٠١ وتاريخ الطبري ٣/٢٢ والمغازي للواقدي ٢/٧٢٢.

(٣) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/١٠٦ والمنتظم ٣/٣٠٢ والبداية والنهاية ٤/٢٢٢ وطبقات ابن سعد ٢/٩١ والمغازي للواقدي ٢/٧٢٣.

(٤) انظر المنتظم ٣/٣٠٣ والمغازي للواقدي ٢/٧٢٦ وطبقات ابن سعد ٢/٩١.

(٥) أخرجه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٥/٢٠٧ وفي الدر المنثور ٢/١٩٣ وتفسير الطبري ٥/١٢٩ وجمع الجوامع للسيوطي ٨/٩١ وفي طبقات ابن سعد ٢/٩١ وفي كنز العمال (٢٩٨٨١) والبداية والنهاية ٤/٢٢٢.

وفي الإكليل: فعل ذلك أسامة في سرية كان هو أميراً عليها سنة ثمان.

وفي البخاري: (عن أبي ظبيان قال: سمعت أسامة بن زيد يقول: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه، وطعنته برمحي حتى قتلته. فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: «يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟» قلت: كان متعوذاً. فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم)[1].

ثم سرية بشير بن سعد الأنصاري[2] أيضاً إلى يمن وجبار - بفتح الجيم - وهي أرض لغطفان، ويقال لفزارة وعذرة، في شوال سنة سبع من الهجرة، وبعث معه ثلاثمائة رجل لجمع تجمعوا للإغارة على المدينة، فساروا الليل وكمنوا النهار، فلما بلغهم مسير بشير هربوا.

وأصاب لهم نعماً كثيرة فغنمها، وأسر رجلين وقدم بهما إلى المدينة إلى رسول الله ﷺ فأسلما.

## عمرة القضاء[3]

ثم عمرة القضية، وتسمى عمرة القضاء، لأنه قاضى فيها قريشاً، لا لأنها قضاء عن العمرة التي صد عنها، لأنها لم تكن فسدت حتى يجب قضاؤها. بل كانت عمرة تامة، ولهذا عدوا عُمَر النبي ﷺ أربعاً، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال آخرون: بل كانت قضاء عن العمرة الأولى. وعدوا عمرة الحديبية في العمر لثبوت الأجر فيها، لا لأنها كملت.

وهذا الخلاف مبني على الاختلاف في وجوب القضاء على من اعتمر فصد عن البيت.

فقال الجمهور: يجب عليه الهدي ولا قضاء عليه.

وعند أبي حنيفة: عكسه.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٤٦) رقم الحديث (٤٢٦٩).

(٢) انظر المنتظم ٣/٣٠٣ والمغازي للواقدي ٢/٧٢٧ وطبقات ابن سعد ٢/٩١ والكامل في التاريخ ٢/١٠٦.

(٣) انظر البداية والنهاية ٤/٢٢٦ وطبقات ابن سعد ٢/٩٢ ومغازي الواقدي ٢/٧٣١ والكامل في التاريخ ٢/١٠٦.

وعن أحمد رواية أنه لا يلزمه هدي ولا قضاء. وأخرى: يلزمه القضاء والهدي.

فحجة الجمهور: قوله تعالى: ﴿**فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي**﴾ [البقرة: ١٩٦].

وحجة أبي حنيفة: أن العمرة تلزم بالشروع، فإذا أحصر جاز له تأخيرها، فإذا زال الحصر أتى بها، ولا يلزم من التحلل بين الإحرامين سقوط القضاء.

وحجة من أوجبها: ما وقع للصحابة، فإنهم نحروا الهدي حيث صدوا واعتمروا من قابل وساقوا الهدي.

وحجة من لم يوجبها: أن تحللهم بالحصر لم يتوقف على نحر الهدي، بل أمر من معه هدي أن ينحر، ومن ليس معه هدي أن يحلق.

قال الحاكم في الإكليل: تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هلَّ ذو القعدة ـ يعني سنة سبع ـ أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صدهم المشركون عنها بالحديبية، وأن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف منهم إلا رجال استشهدوا بخيبر ورجال ماتوا.

وخرج معه ﷺ من المسلمين ألفان، واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري، وساق ﷺ ستين بدنة، وحمل السلاح والبيض والدرع والرماح، وقاد مائة فرس، فلما انتهى إلى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه، عليها محمد بن مسلمة، وقدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد.

وأحرم ﷺ ولبى، والمسلمون يلبون معه، ومضى محمد بن مسلمة في الخيل إلى مر الظهران، فوجد بها نفراً من قريش، فسألوه فقال: هذا رسول الله ﷺ يصبح هذا المنزل غداً إن شاء الله تعالى. فأتوا قريشاً فأخبروهم ففزعوا.

ونزل رسول الله ﷺ بمر الظهران وقدم السلاح إلى بطن يأجج ـ كيسمع وينصر ويضرب ـ موضع بمكة، حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، وخلف عليه أوس بن خولى الأنصاري في مائتي رجل.

وخرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال.

وقدم رسول الله ﷺ الهدي أمامه، فحبس بذي طوى، وخرج رسول الله ﷺ على راحلته القصواء، والمسلمون متوشحون السيوف محدقون برسول الله ﷺ يلبون، فدخل من الثنية التي تطلعه على الحجون، وابن رواحة آخذ بزمام راحلته.

وفي رواية الترمذي في الشمائل، من حديث أنس أنه ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول:

خلـوا بنـي الكفـار عـن سبيلـه اليـوم نضـربكـم علـى تنـزيلـه
ضـربـاً يـزيـل الهـام عـن مقيلـه ويـذهـل الخليـل عـن خليلـه

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ تقول شعراً؟ فقال ﷺ: «**خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل**»[1].

ورواه عبد الرزاق من حديث أنس أيضاً من وجهين بلفظ

خلـوا بنـي الكفـار عـن سبيلـه قـد أنـزل الـرحمـن فـي تنـزيلـه
بـأن خيـر القتـل فـي سبيلـه نحـن قتلنـاكـم علـى تـأويلـه
كما قتلناكم على تنزيله

وأخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل وفيه:

اليـوم نضـربكـم علـى تنـزيلـه ضـربـاً يـزيـل الهـام عـن مقيلـه
ويـذهـل الخليـل عـن خليلـه يـا رب إنـي مـؤمـن بقيلـه

وعن ابن عقبة في المغازي بعد قوله:

قـد أنـزل الـرحمـن فـي تنـزيلـه فـي صحـف تتلـى علـى رسـولـه

لكنه لم يذكر أنساً، وزاد ابن إسحاق بعد قوله:

يـا رب إنـي مـؤمـن بقيلـه إنـي رأيـت الحـق فـي قبـولـه

وقال ابن هشام: إن قوله:

نحن ضربناكم على تأويله

إلى آخر الشعر من قول عمار بن ياسر قاله يوم صفين.

قالوا: ولم يزل رسول الله ﷺ يلبي حتى استلم الركن بمحجنه مضطبعاً بثوبه وطاف على راحلته، والمسلمون يطوفون معه وقد اضطبعوا بثيابهم.

وفي البخاري، عن ابن عباس (... قال المشركون: إنه يقدم عليكم وقد وهنتهم

---

(١) أخرجه الترمذي. كتاب الأدب باب (٧٠) رقم الحديث (٢٨٤٧) والنسائي. كتاب الحج باب (١٠٨). وشرح السنة للبغوي ١٢/ ٣٧٥ وتفسير القرطبي ٧/ ٣٩٤. وفي حلية الأولياء ٦/ ٢٩٢، والسلسلة الصحيحة للألباني (٥٩٣) وفي البخاري رقم الحديث (٤٢٥١).

حمى يثرب. فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم)[1].

وفي رواية: (قال: ارملوا ليرى المشركون قوتكم والمشركون من قبل قعيقعان)[2].

ومعنى قوله: «إلا الإبقاء عليهم» أي لم يمنعه من أمرهم بالرمل في جميع الطوفات إلا الرفق بهم، والإشفاق عليهم.

ثم طاف رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته، فلما كان الطواف السابع عند فراغه ـ وقد وقف الهدي عند المروة ـ قال: هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر.

فنحر عند المروة. وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون.

وأمر رسول الله ﷺ ناساً منهم أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يأجج، فيقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثاً.

وفي البخاري من حديث البراء (.. فلما دخلها ـ يعني مكة ـ ومضى الأجل، أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل).

(فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم، فتناولها علي فأخذ بيدها وقال لفاطمة دونك ابنة عمك، فحملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد ابنة أخي فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم»[3]) الحديث.

وإنما أقرهم النبي ﷺ على أخذها مع اشتراط المشركين أن لا يخرج بأحد من أهلها أراد الخروج، لأنهم لم يطلبوها.

وقوله: «الخالة بمنزلة الأم» أي في هذا الحكم الخاص، لأنها تقرب منها في الحنو والشفقة والاهتداء إلى ما يصلح الولد. ويؤخذ منه أن الخالة في الحضانة مقدمة على

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٤٤) رقم الحديث (٤٢٥٦). وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٢٥.

(٢) أخرجه الامام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٣٧٣. وفي البخاري رقم الحديث (٤٢٥٦). وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٢٦.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٤٤) رقم الحديث (٤٢٥١).

العمة، لأن صفية بنت عبد المطلب كانت موجودة حينئذ، وإذا قدمت على العمة مع كونها أقرب العصبات من النساء، فهي مقدمة على غيرها. ويؤخذ منها تقديم أقارب الأم على أقارب الأب انتهى[1].

قال ابن عباس: وتزوج ﷺ ميمونة وهو محرم وبنى بها وهو حلال[2].

وقد استدرك ذلك على ابن عباس وعد من وهمه، قال سعيد بن المسيب: وهل ابن عباس وإن كانت خالته، ما تزوجها ﷺ إلا بعدما حل. ذكره البخاري.

و «وهل» بكسر الهاء أي غلط.

وقال يزيد بن الأصم عن ميمونة: تزوجني رسول الله ﷺ ونحن حلالان بسرف. رواه مسلم.

وسيأتي في الخصائص من مقصد معجزاته إن شاء الله تعالى: أن له ﷺ النكاح في حال الإحرام على أصح الوجهين عند الشافعية.

ثم سرية ابن أبي العوجاء السلمي[3] إلى بني سليم، في ذي الحجة سنة سبع، في خمسين رجلاً، فأحدق بهم الكفار من كل ناحية، وقاتل القوم قتالاً شديداً، حتى قتل عامتهم وأصيب ابن أبي العوجاء جريحاً مع القتلى، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ في أول صفر سنة ثمان.

ثم سرية غالب بن عبد الله الليثي[4] إلى بني الملوح ـ بالحاء المهملة ـ بالكديد ـ بفتح الكاف ـ قال في القاموس: الكديد بفتح الكاف ماء بين الحرمين شرفهما الله تعالى. والبطن الواسع من الأرض الغليظة، كالكدة بالكسر، ويوم الكديد معروف.

في صفر سنة ثمان من مهاجره، فغنم.

وفي هذا الشهر قدم خالد بن الوليد وعثمان بن أبي طلحة وعمرو بن العاصي المدينة فأسلموا. وقال ابن أبي خيثمة: كان ذلك سنة خمس، وقال الحاكم: سنة سبع.

ثم سرية غالب[5] أيضاً إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك في صفر سنة ثمان، ومعه مائتا رجل، فأغاروا عليهم مع الصبح وقتلوا منهم قتلى وأصابوا نعماً.

---

(١) انظر فتح الباري ٧/ ٦٤٥.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٤٤) رقم الحديث (٤٢٥٨).

(٣) انظر المنتظم ٣/ ٣٠٦ وطبقات ابن سعد ٢/ ٩٤.

(٤) انظر المنتظم ٣/ ٣١٤ وطبقات ابن سعد ٢/ ٩٤ ومغازي الواقدي ٢/ ٧٥٠.

(٥) انظر المنتظم ٣/ ٣١٥ وطبقات ابن سعد ٢/ ٩٦.

ثم سرية شجاع بن وهب الأسدي[1] إلى بني عامر، بالسيء؛ ماء من ذات عرق إلى وجرة على ثلاث مراحل من مكة إلى البصرة، وخمس مراحل من المدينة.

في شهر ربيع الأول سنة ثمان، ومعه أربعة وعشرون رجلاً إلى جمع من هوازن، وأمره أن يغير عليهم فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى صبحهم، فأصابوا نعماً وشاء واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة، وكانت غيبتهم خمس عشرة ليلة، واقتسموا الغنيمة وكانت سهامهم خمسة عشر بعيراً وعدلوا البعير بعشر من الغنم.

ثم سرية كعب بن عمير الغفاري[2] إلى ذات أطلاح، وراء ذات القرى، في ربيع الأول سنة ثمان، في خمسة عشر رجلاً، فساروا حتى انتهوا إلى ذات أطلاح، فوجدوا جمعاً كثيراً فقاتلهم الصحابة أشد القتال حتى قتلوا، وأفلت منهم رجل جريح في القتلى. قال مغلطاي: قيل هو الأمير. فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فشق ذلك عليه، وهم بالبعث إليه فبلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر فتركهم.

## غزوة مؤتة [3]

ثم سرية مؤتة ـ بضم الميم وسكون الواو ـ بغير همز لأكثر الرواة، وبه جزم المبرد، وجزم ثعلب والجوهري وابن فارس بالهمز، وحكى غيرهم الوجهين.

وهي من عمل البلقاء بالشام، دون دمشق. في جمادى الأولى سنة ثمان.

وذلك أن رسول الله ﷺ كان أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى ملك بصرى، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره.

فأمر ﷺ زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف وقال: إن قتل فجعفر بن أبي طالب فإن قتل فعبد الله بن رواحة فإن قتل فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم.

وفي حديث عبد الله بن جعفر عند أحمد والنسائي. بإسناد صحيح «**إن قتل زيد فأميركم جعفر**»[4] الحديث.

---

(١) انظر المنتظم ٣/٣١٦ وطبقات ابن سعد ٢/٩٦.

(٢) انظر المنتظم ٣/٣١٦ وطبقات ابن سعد ٢/٩٧.

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/١٥. والمنتظم ٣/٣١٨ وطبقات ابن سعد ٢/٩٧. والكامل في التاريخ ٢/١١٢ ومغازي الواقدي ٢/٧٥٥ والبداية والنهاية ٤/٢٤١.

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ١/٢٠٤. وفي صحيح البخاري كتاب المغازي باب (٤٥) رقم الحديث (٤٢٦١). وفي طبقات ابن سعد ٢/٩٨. والسنن الكبرى للبيهقي ٨/١٥٤. وفي دلائل=

قالوا: وعقد لهم ﷺ لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعينوا عليهم بالله وقاتلوهم.

وخرج مشيعاً لهم، حتى إذا بلغ ثنية الوداع فوقف وودعهم، فلما ساروا نادى المسلمون: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين، فقال ابن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

فلما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم، فجمعوا لهم، وقام شرحبيل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف، وقدم الطلائع أمامه.

وقد نزل المسلمون معان ـ بفتح الميم ـ موضع من أرض الشام، وبلغ الناس كثرة العدو وتجمعهم، وأن هرقل نزل بأرض البلقاء في مائة ألف من المشركين. فأقاموا ليلتين لينظروا في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضي، فمضوا إلى مؤتة.

ووافاهم المشركون فجاء منهم ما لا قبل لأحد به من العدد والعدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب.

والتقى المسلمون والمشركون. فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم، فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل وقاتل المسلمون معه على صفوفهم حتى قتل طعناً بالرماح.

ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب، فنزل عن فرس له شقراء وقاتل حتى قتل، ضربه رجل من الروم فقطعه نصفين، فوجد في أحد نصفيه بضعة وثمانون جرحاً وفيما أقبل من بدنه اثنان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح.

قال في رواية البخاري: ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية[1].

وفي رواية: أن ابن عمر وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل قال: فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره.

وذكر ابن إسحاق بإسناد حسن، وهو عند أبي داود من طريقه عن رجل من مرة قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر بن أبي طالب، حين اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم تقدم فقاتل حتى قتل[2].

---

= النبوة للبيهقي ٤/ ٣٦١. وفي إرواء الغليل للألباني ٥/ ٢٨٤ وفي كنز العمال (٣٠٢٤٦).

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٤٥) رقم الحديث (٤٢٦١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب (٥٩) رقم الحديث (٢٥٧٣). وفي صحيح البخاري. كتاب=

قالوا: ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل.

فأخذ اللواء ابن أقرم العجلاني، إلى أن اصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ اللواء، وانكشف الناس فكانت الهزيمة فتبعهم المشركون فقتل من قتل من المسلمين.

وقال الحاكم: قاتلهم خالد بن الوليد فقتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب غنيمة.

وقال ابن سعد: إنما انهزم بالمسلمين.

وقال ابن إسحاق: انحازت كل طائفة من غير هزيمة.

ورفعت الأرض لرسول الله ﷺ حتى نظر إلى معترك القوم.

وعن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: حدثني أبي الذي أرضعني ـ وكان أحد بنيْ مرة قال: شهدت مؤتة مع جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فرأيت جعفراً حين التحم القتال اقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها وقاتل القوم حتى قتل، خرجه البغوي في معجمه.

وقطعت في تلك الوقعة يداه جميعاً ثم قتل، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء**»، أخرجه أبو عمر.

وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها: لما جاء قتل ابن رواحة وابن حارثة وجعفر بن أبي طالب جلس رسول الله ﷺ يعرف فيه الحزن[1].

وأخرج الطبراني بإسناد حسن عن عبد الله بن جعفر قال قال لي رسول الله ﷺ: «**هنيئاً لك أبوك يطير مع الملائكة في السماء**»[2].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: رأيت جعفر بن أبي طالب يطير مع الملائكة، أخرجه الترمذي والحاكم[3] وفي إسناده ضعف، لكن له شاهد من حديث علي عند ابن سعد.

وعن أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ قال: مر بي جعفر الليلة في ملأ من الملائكة

---

= المغازي باب (٤٥) رقم الحديث (٤٢٦٠). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٥٩. والسنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٧ وفي حلية الأولياء ١/ ١١٨.

(١) أخرجه البخاري. كتاب المغازي باب (٤٥) رقم الحديث (٤٢٦٣).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٩٧٣. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٣١٥ وفي فتح الباري ٧/ ٩٦.

(٣) أخرجه الترمذي. كتاب المناقب باب (٢٩) رقم الحديث (٣٧٦٣). وفي فتح الباري ٧/ ٩٦ والمعجم الكبير للطبراني ١١/ ٣٩٦ ومشكاة المصابيح للتبريزي (٦١٥٣) وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٢٠٩ والسلسلة الصحيحة للألباني (١٢٢٦) وكنز العمال (٣٣١٨٩ ـ ٣٣٢٠٥).

وهو مخضب الجناحين بالدم[1]، أخرجه الترمذي والحاكم بإسناد على شرط مسلم.

وأخرج أيضاً هو والطبراني عن ابن عباس مرفوعاً: دخلت البارحة الجنة فرأيت فيها جعفر بن أبي طالب يطير مع الملائكة.

وفي طريق أخرى عنه: إن جعفراً يطير مع جبريل وميكائيل له جناحان، عوضه الله من يديه[2]. وإسناد هذا جيد.

فقد عوضه الله تعالى عن قطع يديه في هذه الوقعة، حيث أخذ اللواء بيمينه فقطعت ثم أخذه بشماله فقطعت ثم احتضنه فقتل.

قال السهيلي: له جناحان، ليسا كما يسبق إلى الوهم كجناحي الطائر وريشه، لأن الصورة الآدمية أشرف الصور وأكملها، فالمراد بالجناحين صفة ملكية وقوة روحانية أعطيها جعفر. وقد عبر القرآن عن العضد بالجناح توسعاً في قوله تعالى: ﴿**واضمم يدك إلى جناحك**﴾ [طه: ٢٢]. وقال العلماء في أجنحة الملائكة إنها صفات ملكية لا تفهم إلا بالمعاينة، فقد ثبت أن لجبريل ستمائة جناح، ولا يعهد للطير ثلاثة أجنحة فضلاً عن أكثر من ذلك، وإذا لم يثبت خبر في بيان كيفيتها فنؤمن بها من غير بحث عن حقيقتها. انتهى[3].

قال الحافظ ابن حجر: وهذا الذي جزم به في مقام المنع، والذي حكاه عن العلماء ليس صريحاً في الدلالة لما ادعاه.

ولا مانع من الحمل على الظاهر، إلا من جهة ما ذكره من المعهود، وهو قياس الغائب على الشاهد وهو ضعيف.

وكون الصورة البشرية أشرف الصور لا يمنع من حمل الخبر على ظاهره، لأن الصورة باقية. وقد روى البيهقي في الدلائل من مرسل عاصم بن عمر بن قتادة: أن جناحي جعفر من ياقوت. وجاء في جناحي جبريل أنهما من لؤلؤ. أخرجه ابن منده في ترجمة ورقة.

وذكر موسى بن عقبة في المغازي، أن يعلى بن أمية قدم بخبر أهل مؤتة، فقال له رسول الله ﷺ «**إن شئت فأخبرني وإن شئت أخبرتك**» قال: أخبرني، فأخبره خبرهم

---

(١) ذكره في فتح الباري ٧/ ٩٦ وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٢١٢. في السلسلة الصحيحة للألباني ٣/ ٢٢٨. وفي طبقات ابن سعد ٢/ ٩٩. وفي كنز العمال (٣٣٢٠٧).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر فتح الباري ٧/ ٦٥٦.

فقال: والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً لم تذكره[١].

وعند الطبراني من حديث أبي اليسر الأنصاري: أن أبا عامر الأشعري هو الذي أخبر النبي ﷺ بمصابهم.

ثم سرية عمرو بن العاصي[٢] إلى ذات السلاسل. وسميت بذلك لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا. وقيل لأن بها ماء يقال له السلسل، وراء ذات القرى، من المدينة على عشرة أيام.

وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان، وقيل: كانت سنة سبع، وبه جزم ابن أبي خالد في كتاب صحيح التاريخ . ونقل ابن عساكر الاتفاق على أنها كانت بعد غزوة مؤتة، إلا أن ابن إسحاق قال قبلها.

وسببها: أنه بلغه ﷺ أن جمعاً من قضاعة قد تجمعوا للإغارة، فعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار. ومعهم ثلاثون فرساً.

فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب منهم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مكيث ـ بفتح الميم ـ الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح، وعقد له لواء، وبعث معه مائتين من سراة المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا.

فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو: إنما قدمت علي مدداً، وأنا الأمير، فأطاع له بذلك أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس.

وسار حتى وصل إلى العدو: بلي وعذرة، فحمل عليهم المسلمون، فهربوا في البلاد وتفرقوا.

ثم سرية أبي عبيدة بن الجراح[٣]. وسماها البخاري: غزوة سيف البحر، وتعرف بسرية الخبط.

وبعث معه ﷺ ثلاثمائة، كما في الصحيحين وغيرهما وهو المشهور، لكن في رواية النسائي: وبضع عشرة، فإن صحت هذه الرواية فلعله اقتصر في الرواية المشهورة

---

(١) انظر فتح الباري ٧/ ٦٥٣. وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٩٧.

(٢) انظر المنتظم ٣/ ٣٢١. وطبقات ابن سعد ٢/ ٩٩ والبداية والنهاية ٤/ ٢٧٢ والكامل في التاريخ ٢/ ١١٠.

(٣) انظر المنتظم ٣/ ٣٢٢ وطبقات ابن سعد ٢/ ١٠٠ والبداية والنهاية ٤/ ٢٧٥ والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٨١. والكامل في التاريخ ٢/ ١١٠.

على الثلاثمائة استسهالاً لأمر الكسر، والأخذ بالزيادة مع صحتها واجب.

وكان فيهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

يتلقى عيراً لقريش. رواه مسلم، وعنده أيضاً: إلى أرض جهينة.

ولا منافاة بينهما: فالجهة أرض جهينة، والقصد تلقي عير قريش ـ وهي الإبل المحملة للطعام وغيره ـ.

لكن في كتب السير: أن البعث إلى حي من جهينة بالقبلية ـ بفتح القاف والموحدة ـ مما يلي ساحل البحر، وبينها وين المدينة خمس ليال.

ولعل البعث لمقصدين: رصد عير قريش، ومحاربة حي من جهينة.

وقال ابن سعد: وكانت في رجب سنة ثمان.

وفيه نظر: فإن تلقي عير قريش ما يتصور أن يكون في هذه المدة، لأنهم حينئذ كانوا في الهدنة، فالصحيح أن تكون هذه السرية سنة ست أو قبلها، قبل هدنة الحديبية.

نعم يحتمل أن يكون تلقيهم العير ليس لمحاربتهم بل لحفظهم من جهينة، ولهذا لم يقع في شيء من طرق الخبر أنهم قاتلوا أحداً. بل فيه أنهم أقاموا نصف شهر أو أكثر في مكان واحد. فالله أعلم. قاله الحافظ ابن حجر.

لكن قال شيخ الإسلام ابن العراقي في شرح التقريب، قالوا: وكانت هذه السرية في شهر رجب سنة ثمان من الهجرة وذلك بعد نكث قريش العهد وقبل الفتح، فإنه كان في رمضان من السنة المذكورة انتهى.

قالوا وزودهم ﷺ جراباً من التمر، فلما فني أكلوا الخبط[1] ـ وهو بفتح المعجمة والموحدة بعدها مهملة ـ ورق السلم. وفي رواية أبي الزبير: وكنا نضرب بعصينا الخبط ونبله بالماء فنأكله، وهذا يدل على أنه كان يابساً، خلافاً لمن زعم أنه كان أخضر رطباً.

وقد كان معهم تمر غير الجراب النبوي، ويدل عليه حديث البخاري ـ في الجهاد ـ خرجنا ونحن ثلاثمائة نحمل زادنا على رقابنا في زادنا، حتى كان الرجل منا يأكل تمرة تمرة[2].

وابتاع قيس بن سعد جزوراً ونحرها لهم[3].

(١) أخرجه مسلم رقم الحديث (١٩٣٥).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب (١٢٤) رقم الحديث (٢٩٨٣).

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٦٦) رقم الحديث (٤٣٦١).

وأخرج الله لهم من البحر دابة تسمى العنبر فأكلوا منها وتزودوا ورجعوا ولم يلقوا كيداً.

وفي رواية جابر عند الأئمة الستة: بعثنا رسول الله ﷺ ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، فأقمنا على الساحل حتى فني زادنا، حتى أكلنا الخبط ثم إن البحر ألقى لنا دابة يقال لها العنبر، فأكلنا منها نصف شهر، حتى صلحت أجسامنا، فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعها فنصبه ونظر إلى أطول بعير فجاز تحته[1] الحديث.

زاد الشيخان في رواية: فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال: «**هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم شيء من لحمه فتطعمونا؟**» قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكل[2].

ثم سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري[3] إلى خضرة، وهي أرض محارب بنجد، في شعبان سنة ثمان، وبعث معه خمسة عشر رجلاً إلى غطفان، فقتل من أشرف منهم، وسبى سبياً كثيراً، واستاق النعم، وكانت الإبل مائتي بعير، والغنم ألفي شاة، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

ثم سرية أبي قتادة أيضاً[4] إلى بطن أضم ـ فيما بين ذي خشب وذي المروة ـ على ثلاثة برد من المدينة، في أول شهر رمضان سنة ثمان.

وذلك أنه ﷺ لما هم أن يغزو أهل مكة، بعث أبا قتادة في ثمانية نفر، سرية إلى بطن أضم، ليظن ظان أنه ﷺ توجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار.

فلقوا عامر بن الأضبط، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فقتله محلم بن جثامة، فأنزل الله تعالى: ﴿**ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً**﴾ [النساء: ٩٤] إلى آخر الآية رواه أحمد ، وهو عند ابن جرير من حديث ابن عمر بنحوه وزاد : فجاء محلم بن جثامة في بردين فجلس بين يدي رسول الله ﷺ ليستغفر له، فقال رسول الله ﷺ: لا غفر الله لك، فقام يتلقى دموعه ببرديه، فما مضت له سابعة حتى مات فلفظته الأرض. وعند غيره: ثم عادوا به فلفظته الأرض، فلما غلب قومه عمدوا إلى صدين فسطحوه ثم رضموا عليه الحجارة حتى واروه.

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الصيد رقم الحديث (١٨).

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٦٦) رقم الحديث (٤٣٦٢) ومسلم رقم الحديث (١٩٣٥).

(٣) انظر المنتظم ٣/ ٣٢٣ وطبقات ابن سعد ٢/ ١٠٠ ومغازي الواقدي ٢/ ٧٧٧.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٢/ ١١١. والمنتظم ٣/ ٣٢٣ وطبقات ابن سعد ٢/ ١٠١ والسيرة لابن هشام ٤/ ٢٧٥.

وفي رواية ابن جرير: فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله يريد أن يعظكم.

ونسب ابن إسحاق هذه السرية لابن أبي حدرد ومعه رجلان إلى الغابة، لما بلغه ﷺ أن رفاعة بن قيس يجمع لحربه، فقتلوا رفاعة وهزموا عسكره، وغنموا غنيمة عظيمة، حكاه مغلطاي والله أعلم.

ثم فتح مكة[1] زادها الله شرفاً. وهو كما قال في زاد المعاد:

«الفتح الأعظم، الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحرمه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجاً».

خرج له ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن لنقض قريش العهد الذي وقع بالحديبية. فإنه كان قد وقع الشرط: أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فعل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل. فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده.

وكان بين بني بكر وخزاعة حروب وقتلى في الجاهلية، فتشاغلوا عن ذلك لما ظهر الإسلام، فلما كانت الهدنة خرج نوفل بن معاوية الديلي من بني بكر في بني الديل حتى بيت خزاعة وهم على ماء لهم يقال له الوتير. فأصاب منهم رجلاً يقال له منبه، واستيقظت لهم خزاعة فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم ولم يتركوا القتال.

وأمدت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل بعضهم معهم ليلاً في خفية.

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة، فقدموا على رسول الله ﷺ يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه. فقام وهو يجر رداءه وهو يقول: «لا نصرت إن لم أنصركم بما أنصر منه نفسي»[2].

وفي المعجم الصغير للطبراني، من حديث ميمونة أنها سمعته ﷺ يقول في متوضئه ليلاً: «لبيك لبيك ثلاثاً، نصرت نصرت ثلاثاً»، فلما خرج قلت: يا رسول الله سمعتك تقول في متوضئك: لبيك لبيك ثلاثاً، نصرت نصرت ثلاثاً، كأنك تكلم إنساناً، فهل كان

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ٤/ ٣١ والمنتظم ٣/ ٣٢٤ والبداية والنهاية ٤/ ٢٧٧ والمغازي للواقدي ٢/ ٧٨٠ وطبقات ابن سعد ٢/ ١٠٢ والكامل في التاريخ ٢/ ١١٦ ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ١٩.

(٢) ذكر نحوه في مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٦١ والمطالب العالية لابن حجر (٤٣٥٦).

معك أحد؟ فقال: ﷺ: «**هذا راجز بني كعب يستصرخني ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بني بكر**».

ثم خرج عليه السلام فأمر عائشة أن تجهزه ولا تعلم أحداً. قالت: فدخل عليها أبو بكر فقال: يا بنية، ما هذا الجهاز؟ فقالت: والله ما أدري، فقال: والله ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد رسول الله ﷺ؟ قالت: والله لا علم لي. قالت فأقمنا ثلاثاً ثم صلى الصبح بالناس فسمعت الراجز ينشده:

يا رب إني ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
أن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست تدعو أحداً ... فانصر هداك الله نصراً أبدا
وادع عباد الله يأتوا مدداً ... فيهم رسول الله قد تجردا
إن سيم خسفاً وجهه تربدا

قال في القاموس: وتربد ـ يعني بالراء ـ تغير[1]. انتهى. وزاد ابن إسحاق:

هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركعاً وسجدا
وزعموا أن لست أدعو أحداً ... وهم أذل وأقل عددا

فقال له رسول الله ﷺ: «**نصرت يا عمرو بن سالم**»[2].

فكان ذلك ما هاج فتح مكة. وقد ذكر البزار من حديث أبي هريرة بعض الأبيات المذكورة.

وقدم أبو سفيان بن حرب على رسول الله ﷺ المدينة يسأله أن يجدد العهد ويزيد في المدة. فأبى عليه، فانصرف إلى مكة.

فتجهز رسول الله ﷺ من غير إعلام أحد بذلك.

فكتب حاطب كتاباً وأرسله إلى مكة يخبر بذلك. فأطلع الله نبيه على ذلك.

فقال عليه السلام لعلي بن أبي طالب والزبير والمقداد: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها**». قال فانطلقنا.. حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب. قلنا لتخرجن الكتاب أو

---

(١) انظر القاموس المحيط ١/ ٣٠٤ مادة (ربد).

(٢) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٢٣٤ وفي دلائل النبوة أيضاً ٥/ ٧ وفي الدر المنثور ٣/ ٢١٥ وكنز العمال (٣٠١٦٦).

لنلقين الثياب. قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ. فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال: **«يا حاطب، ما هذا؟»**. قال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش ـ يقول: كنت حليفاً ولم أكن من أنفسها ـ وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: **«أما إنه قد صدقكم»**. فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: **«إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»** فأنزل الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾** إلى قوله: **﴿فقد ضل سواء السبيل﴾**(1) [الممتحنة: ١]. رواه البخاري.

قال في فتح الباري: وإنما قال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق مع تصديق رسول الله ﷺ لحاطب فيما اعتذر به، لما كان عند عمر من القوة في الدين وبغض المنافقين، فظن أن من خالف ما أمر به النبي ﷺ استحق القتل. لكنه لم يجزم بذلك، فلذلك استأذن في قتله. وأطلق عليه منافقاً لكونه أبطن خلاف ما أظهر. وعذر حاطب ما ذكره، فإنه صنع ذلك متأولاً أن لا ضرر فيه.

وعند الطبري أيضاً: عن عروة: فإني غافر لكم. وهذا يدل على أن المراد: بـ «غفرت» أغفر، على طريق التعبير عن الآتي بالواقع مبالغة في تحققه.

قال: والذي يظهر أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف، تضمن أن هؤلاء حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السالفة وتأهلوا أن يغفر لهم ما يستأنف من الذنوب اللاحقة. وقد أظهر الله تعالى صدق رسوله في كل من أخبر عنه بشيء من ذلك، فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا، ولو قدر صدور شيء من أحدهم لبادر إلى التوبة ولازم الطريقة المثلى، يعلم ذلك من أحوالهم بالقطع من اطلع على سيرهم. قاله القرطبي.

وذكر بعض أهل المغازي ـ وهو في تفسير يحيى بن سلام ـ أن لفظ الكتاب الذي كتبه حاطب: أما بعد: يا معشر قريش، فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش عظيم يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له، فانظروا لأنفسكم والسلام. هكذا حكاه السهيلي.

---

(1) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٤٧) رقم الحديث (٤٢٧٤ ـ ٤٨٩٠).

وروى الواقدي بسند له مرسل: أن حاطباً كتب إلى سهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة: أن رسول الله ﷺ أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم وقد أحببت أن تكون لي عندكم يد. انتهى.

وبعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من العرب فجلبهم: أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه بالطريق.

فكان المسلمون في غزوة الفتح: عشرة آلاف.

وفي «الإكليل» و «شرف المصطفى» اثني عشر ألفاً.

ويجمع بينهما أن العشرة آلاف خرج بها من نفس المدينة، ثم تلاحق به الألفان.

واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم وقيل أبا رهم الغفاري.

وخرج ﷺ يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من رمضان، بعد العصر، سنة ثمان، قاله الواقدي.

وعند أحمد بإسناد صحيح عن أبي سعيد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الفتح لليلتين خلتا من شهر رمضان[1].

فما قاله الواقدي ليس بقوي لمخالفته ما هو أصح منه. وفي تعيين هذا التاريخ أقوال أخر منها عند مسلم: لست عشرة، ولأحمد: ثماني عشرة، وفي أخرى: لثنتي عشرة. والذي في المغازي: لتسع عشرة مضت. وهو محمول على الاختلاف في أول الشهر، وفي أخرى: تسع عشرة أو سبع عشرة على الشك.

ولما بلغ ﷺ الكديد ـ بفتح الكاف ـ الماء الذي بين قديد وعسفان أفطر فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر. رواه البخاري[2]، وفي أخرى: أفطر وأفطروا، الحديث.

وكان العباس قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً، فلقي رسول الله ﷺ بالجحفة، وكان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله ﷺ عنه راض.

وكان ممن لقيه في الطريق أبو سفيان بن الحارث، ابن عمه، وأخوه من رضاع حليمة السعدية، ومعه ولده جعفر بن أبي سفيان. وكان أبو سفيان يألف رسول الله ﷺ،

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ١/٢١٩ و ٣٤٨.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٤٨) رقم الحديث (٤٢٧٥ ـ ٤٢٧٦) ومسلم كتاب الصيام رقم الحديث (٨٧) والامام مالك في الموطأ كتاب الصيام أيضاً باب (٧) رقم الحديث (٢١) والنسائي صيام (٦٠) ومجمع الزوائد للهيثمي ٤/٢٦٤.

فلما بعث عاداه وهجاه. وكان لقاؤهما له عليه السلام بالأبواء وأسلما قبل دخول مكة.

وقيل: بل لقيه هو وعبد الله بن أبي أمية، ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب بين السقيا والعرج، فأعرض ﷺ عنهما لما كان يلقى منهما من شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك، وقال علي: لأبي سفيان ـ فيما حكاه أبو عمر وصاحب ذخائر العقبى ـ: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال أخوة يوسف ليوسف: «تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين» فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له ﷺ: «**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**»[1].

ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه.

قالوا: ثم سار ﷺ فلما كان بقديد عقد الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل.

ثم نزل مر الظهران عشاء، فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار، ولم يبلغ قريشاً مسيره وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم، فبعثوا أبا سفيان بن حرب وقالوا: إن لقيت محمداً فخذ لنا منه أماناً، فخرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء حتى أتوا مر الظهران، فلما رأوا العسكر أفزعهم.

وفي البخاري: (فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ لكأنها نيران عرفة، فقال له بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو، فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك. فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ، فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلم أبو سفيان.

فلما سار قال للعباس: احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين، فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع النبي ﷺ: تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان. فمرت كتيبة فقال: يا عباس من هذه؟ قال: هذه غفار؟ قال: مالي ولغفار؟ ثم مرت جهينة فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس، حبذا يوم الذمار)[2] بالمعجمة المكسورة: الهلاك.

قال الخطابي: تمنى أبو سفيان أن تكون له يد فيحمي قومه ويدفع عنهم. وقيل:

---

(١) ذكره العراقي في المغني عن حمل الأسفار ٣/ ١٧٩.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٤٩) رقم الحديث (٤٢٨٠).

هذا يوم الغضب للحريم والأهل والانتصار لهم لمن قدر عليه، وقيل: هذا يوم يلزمك فيه حفظي وحمايتي من أن ينالني مكروه.

وقال ابن إسحاق: زعم بعض أهل العلم أن سعداً قال: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله، ما آمن أن يكون لسعد في قريش صولة. فقال لعلي: «**أدركه فخذ الراية منه فكن أنت تدخل بها**».

وقد روى الأموي في المغازي: أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ لما حاذاه: أمرت بقتل قومك؟ قال: «**لا**»، فذكر له ما قال سعد بن عبادة ثم ناشده الله والرحم، فقال: «**يا أبا سفيان: اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشاً**»، وأرسل إلى سعد فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه قيس.

وعند ابن عساكر من طريق أبي الزبير عن جابر قال: لما قال سعد بن عبادة ذلك عارضت امرأة من قريش رسول الله ﷺ فقالت:

يا نبي الهدى إليك لجا حي قريش ولات حين لجائي
حين ضاقت عليهم سعة الأر ض وعاداهم إله السماء
إن سعداً يريد قاصمة الظهـ ـر بأهل الحجون والبطحاء

فلما سمع هذا الشعر دخلته رأفة لهم ورحمة. فأمر بالراية فأخذت من سعد ودفعت إلى ابنه قيس.

وعند أبي يعلى من حديث الزبير أن النبي ﷺ دفعها إليه فدخل مكة بلواءين، وإسناده ضعيف جداً. لكن جزم موسى بن عقبة في المغازي عن الزهري أنه دفعها إلى الزبير بن العوام.

فهذه ثلاثة أقوال فيمن دفعت إليه الراية التي نزعت من سعد.

والذي يظهر في الجمع أن علياً أرسل لينزعها ويدخل بها، ثم خشي تغير خاطر سعد فأمر بدفعها إلى ابنه قيس، ثم إن سعداً خشي أن يقع من ابنه شيء يكرهه النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ أن يأخذها منه فحينئذ أخذها الزبير.

قال في رواية البخاري (.. ثم جاءت كتيبة فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ مع الزبير، فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: ما قال؟ قال: قال كذا وكذا فقال: كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسي فيه الكعبة. قال وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون.

قال وقال عروة أخبرني نافع بن جبير بن مطعم قال: سمعت العباس يقول للزبير بن

العوام: يا أبا عبد الله، ها هنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية؟ قال: نعم.

وأمر رسول الله ﷺ يومئذ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء ـ أي بالفتح والمد ـ ودخل النبي ﷺ من كدى ـ أي بالضم والقصر ـ فقتل من خيل خالد يومئذ رجلان: حبيش بن الأشعر وكرز بن جابر الفهري)[1].

قال الحافظ ابن حجر: وهذا مخالف للأحاديث الصحيحة الآتية في البخاري أيضاً أن خالداً دخل من أسفل مكة والنبي ﷺ من أعلاها.

يعني حديث ابن عمر: أنه ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد، وحديث عائشة أنه ﷺ دخل عام الفتح من كداء التي بأعلى مكة وغيرهما.

قال: وقد ساق ذلك موسى بن عقبة سياقاً واضحاً فقال:

وبعث ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه.

وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت.

وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة، وقد تجمع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناف، وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين استنصرت بهم قريش، فقاتلوا خالداً فقاتلهم فانهزموا، وقتل من بني بكر نحو من عشرين رجلاً، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، حتى انتهى بهم القتل إلى الحزورة إلى باب المسجد حتى دخلوا الدور، فارتفعت طائفة منهم على الجبال.

وصاح أبو سفيان: من أغلق بابه وكف يده فهو آمن.

قال: ونظر رسول الله ﷺ إلى البارقة فقال: «**ما هذا؟ وقد نهيت عن القتال**». فقالوا: نظن أن خالداً قوتل وبدىء بالقتال فلم يكن له بد من أن يقاتلهم.

قال: وقال رسول الله ﷺ ـ بعد أن اطمأن ـ لخالد بن الوليد: «**لم قاتلت وقد نهيتك**

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٤٩) رقم الحديث (٤٢٨٠).

عن القتال؟» فقال هم بدؤونا بالقتال، وقد كففت يدي ما استطعت، قال: «قضاء الله خير».

وعند ابن إسحاق: فلما نزل ﷺ مر الظهران، رقت نفس العباس لأهل مكة، فخرج ليلاً راكباً بغلة النبي ﷺ لكي يجد أحداً فيعلم أهل مكة بمجيء النبي ﷺ ليستأمنوه، فسمع صوت أبي سفيان ابن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، فأردف أبا سفيان خلفه وأتى به إلى النبي ﷺ فأسلم وانصرف الآخران ليعلما أهل مكة.

ويمكن الجمع: بأن الحرس لما أخذوه استنقذه العباس.

وروي أن عمر رضي الله عنه لما رأى أبا سفيان رديف العباس دخل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان، دعني أضرب عنقه، فقال العباس: يا رسول الله: إني قد أجرته. فقال ﷺ: إذهب يا عباس به إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به، فذهب فلما أصبح غدا به على رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عني شيئاً. ثم قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه ففي النفس منها شيء.

فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. فأسلم وشهد شهادة الحق. فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: نعم. وأمر ﷺ فنادى مناديه: من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن إلا المستثنين.

وهم كما قال مغلطاي: عبد الله بن سعد بن أبي سرح. أسلم. وابن خطل: قتله أبو برزة. وقينتاه وهما: فرتنى ـ بالفاء المفتوحة، والراء الساكنة والتاء المثناة الفوقية والنون ـ وقريبة ـ بالقاف والراء والموحدة مصغراً ـ أسلمت إحداهما وقتلت الأخرى. وذكر غير ابن إسحاق أن التي أسلمت فرتنى وأن قريبة قتلت. وسارة: مولاة لبني المطلب، أسلمت، ويقال كانت مولاة عمرو بن صيفي بن هشام. وأرنب ـ علم امرأة ـ وقريبة: قتلت وعكرمة بن أبي جهل: أسلم والحويرث بن نقيد قتله علي ومقيس بن صبابة ـ بمهملة وموحدتين الأولى خفيفة ـ قتله نميلة الليثي. وهبار بن الأسود: أسلم، وهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت فنخس بها بعيرها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها. وكعب بن زهير: أسلم وهند بنت عتبة: أسلمت ووحشي بن حرب: أسلم انتهى. وابن خطل: بفتح الخاء والطاء المهملة. وابن نقيد: بضم النون

وفتح القاف وسكون المثناة التحتية آخره دال مهملة مصغراً. ومقيس: بكسر الميم وسكون القاف وفتح المثناة التحتية آخره مهملة. وقد جمع الواقدي عن شيوخه أسماء من لم يؤمن يوم الفتح وأمر بقتله عشرة أنفس، ستة رجال، وأربع نسوة.

وروى أحمد ومسلم والنسائي عن أبي هريرة قال: لما أقبل رسول الله ﷺ وقد بعث على أحد المجنبتين خالد بن الوليد، وبعث الزبير على الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحسر ـ بضم المهملة وتشديد السين المهملة، أي الذين بغير سلاح ـ فقال لي يا أبا هريرة، اهتف لي بالأنصار، فهتفت بهم فجاؤوا فأطافوا به، فقال لهم: أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، ثم قال بإحدى يديه على الأخرى: احصدوهم حصداً، حتى توافوني بالصفا. قال أبو هريرة: فانطلقنا، فما نشاء أن نقتل أحداً منهم إلا قتلناه، فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله: أبيحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم. فقال ﷺ: «**من أغلق بابه فهو آمن**»[1].

قال في فتح الباري: وقد تمسك بهذه القصة من قال: إن مكة فتحت عنوة، وهو قول الأكثر.

وعن الشافعي، وهو رواية عن أحمد: أنها فتحت صلحاً، لما وقع من هذا التأمين، ولإضافة الدور إلى أهلها، ولأنها لم تقسم، ولأن الغانمين لم يملكوا دورها. وإلا لجاز إخراج أهل الدور منها.

وحجة الأولين: ما وقع التصريح به من الأمر بالقتال، ووقوعه من خالد بن الوليد، وبتصريحه ﷺ بأنها أحلت له ساعة من نهار، ونهيه عن التأسي به في ذلك.

وأجابوا عن ترك القسمة: بأنها لا تستلزم عدم العنوة، فقد تفتح البلد عنوة ويمن على أهلها، ويترك لهم دورهم.

وأما قول النووي: واحتج الشافعي بالأحاديث المشهورة بأن النبي ﷺ صالحهم بمر الظهران قبل دخول مكة ففيه نظر، لأن الذي أشار إليه، إن كان مراده ما وقع من قوله ﷺ: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ـ كما تقدم وكذا من دخل المسجد ـ كما عند ابن إسحاق ـ فإن ذلك لا يسمى صلحاً إلا إذا التزم من أشير إليه بذلك الكف عن القتال، والذي ورد في الأحاديث الصحيحة ظاهر في أن قريشاً لم يلتزموا ذلك لأنهم استعدوا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٢٩٢. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٣٤ وفي المعجم الكبير للطبراني ٧/ ٨٨ وفي سنن الدارقطني ٣/ ٦٠ ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٢ وفي تفسير القرطبي ٦/ ٦٠ وفي نصب الراية للزيلعي ٣/ ٤٣٩ وفي فتح الباري ٨/ ١٤. كتاب المغازي باب (٤٩) وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد برقم (٨٦). وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٧٢.

للحرب. وإن كان مراده بالصلح وقوع عقده فهذا لم ينقل، ولا أظنه عنى إلا الاحتمال الأول وفيه ما ذكرته. انتهى.

ثم دخل رسول الله ﷺ مكة في كتيبته الخضراء، وهو على ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير، فرأى أبو سفيان ما لا قبل له به، فقال للعباس: يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك ملكاً عظيماً، فقال العباس: ويحك، إنه ليس بملك ولكنها نبوة، قال: «نعم».

وروي أنه ﷺ وضع رأسه تواضعاً لله لما رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن رأسه لتكاد تمس رحله شكراً وخضوعاً لعظمته أن أحل له بلده ولم تحل لأحد قبله ولا لأحد بعده.

وفي البخاري من حديث أنس أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر ـ وهو بكسر الميم وسكون الغين المعجمة وفتح الفاء: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، وفي المحكم: هو ما يجعل من فضل درع الحديد على الرأس مثل القلنسوة ـ فلما نزعه جاء رجل فقال: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال: اقتله[1].

وفي حديث سعيد بن يربوع عند الدارقطني والحاكم: أن رسول الله ﷺ قال: أربعة لا أؤمنهم في حل ولا حرم: الحويرث وهلال بن خطل ومقيس بن صبابة وعبد الله بن أبي سرح. قال: فأما هلال بن خطل فقتله الزبير. الحديث.

وفي حديث سعد بن أبي وقاص عند البزار والحاكم والبيهقي في الدلائل نحوه، لكن قال: أربعة نفر وامرأتان وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة فذكره. لكن قال: عبد الله بن خطل بدل هلال، وقال عكرمة بدل الحويرث، ولم يسم المرأتين. وقال: فأما عبد الله بن خطل فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد ابن حريث وعمار بن ياسر فسبق سعيد عماراً، وكان أشب الرجلين فقتله. الحديث.

وروى ابن أبي شيبة من طريق أبي عثمان النهدي: أن أبا برزة الأسلمي قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة وإسناده صحيح مع إرساله.

ورواه أحمد من وجه آخر، وهو أصح ما ورد في تعيين قاتله، وبه جزم البلاذري وغيره من أهل الأخبار.

وتحمل بقية الروايات على أنهم ابتدروا قتله فكان المباشر له منهم أبو برزة، ويحتمل أن يكون غيره شاركه فيه، فقد جزم ابن هشام في السيرة: بأن سعيد بن حريث وأبا برزة الأسلمي اشتركا في قتله.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٤٩) رقم الحديث (٤٢٨٦).

وإنما أمر بقتل ابن خطل، لأنه كان مسلماً فبعثه ﷺ مصدقاً، وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى يخدمه ـ وكان مسلماً ـ ونزل منزلاً فأمر المولى أن يذبح تيساً ويضع له طعاماً ونام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً، فعدى عليه فقتله، ثم ارتد مشركاً، وكان له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ.

وأما الجمع بين ما اختلف فيه من اسمه، فإنه كان يسمى عبد العزى، فلما أسلم سمي عبد الله. وأما من قال: هلال، فالتبس عليه بأخ له اسمه هلال.

وفي رواية أبي داود من حديث مصعب: لما كان يوم الفتح أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر فذكرهم ثم قال: وأما ابن أبي سرح فاختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، جاء به حتى أوقفه على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: «**أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟**» فقالوا: يا رسول الله ما ندري ما في نفسك، ألا أومأت إلينا؟ فقال: «**إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**»[1]. الحديث.

قال مالك ـ كما في رواية البخاري ـ: ولم يكن رسول الله ﷺ فيما نرى يومئذ محرماً. انتهى. وقول مالك هذا رواه عبد الرحمن بن مهدي عن مالك جازماً به. أخرجه الدارقطني في الغرائب. ويشهد له ما رواه مسلم من حديث جابر: دخل ﷺ يوم الفتح مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام[2]. وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن طاوس قال: لم يدخل النبي ﷺ مكة إلا محرماً إلا يوم الفتح. وقد اختلف العلماء: هل يجب على من دخل مكة الإحرام أم لا؟ فالمشهور من مذهب الشافعي عدم الوجوب مطلقاً. وفي قول: يجب مطلقاً، وفيمن يتكرر دخوله خلاف مرتب، وهو أولى بعدم الوجوب. والمشهور عن الأئمة الثلاثة: وفي رواية عن كل منهم: لا يجب، وجزم الحنابلة باستثناء ذوي الحاجات المتكررة، واستثنى الحنفية من كان داخل الميقات والله أعلم.

وقد زعم الحاكم في الإكليل: أن بين حديث أنس في المغفر وبين حديث جابر في العمامة السوداء معارضة.

وتعقبوه باحتمال أن يكون أول دخوله كان على رأسه المغفر ثم أزاله ولبس العمامة بعد ذلك، فحكى كل منهما ما رآه.

---

(١) أخرجه النسائي في سننه ٧/١٠٦. وأبي داود. كتاب الجهاد باب (١١٧) رقم الحديث (٢٦٨٣). وفي التمهيد لابن عبد البر ٦/١٧٦. وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/٢٢٦ وفي فتح الباري ١١/١١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب اللباس باب (٢١) رقم الحديث (٤٠٧٦).

ويؤيده: أن في حديث عمرو بن حريث أنه خطب الناس وعليه عمامة سوداء. أخرجه مسلم أيضاً. وكانت الخطبة عند باب الكعبة وذلك بعد تمام الدخول. وهذا الجمع للقاضي عياض.

وقال غيره: يجمع بأن العمامة السوداء كانت ملفوفة فوق المغفر، أو كانت تحت المغفر وقاية لرأسه من صدإ الحديد، فأراد أنس بذكر المغفر كونه دخل متأهباً للحرب، وأراد جابر بذكر العمامة كونه دخل غير محرم.

وفي البخاري: عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله، أين تنزل غداً، قال النبي ﷺ: «**وهل ترك لنا عقيل من منزل؟**» وفي رواية: «**وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟**»[1].

وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرث جعفر ولا علي شيئاً لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين. فكان عمر بن الخطاب يقول: لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر.

وفي رواية أخرى له قال ﷺ منزلنا إن شاء الله ـ إذا فتح الله ـ الخيف، حيث تقاسموا على الكفر. يعني به المحصب، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب: أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ، كما تقدم.

وفي رواية أخرى له: أنه يوم فتح مكة اغتسل في بيت أم هانىء ثم صلى الضحى ثمان ركعات، قالت: لم أره صلى صلاة أخف منها، غير أنه يتم الركوع والسجود.

وأجارت أم هانىء حموين لها، فقال النبي ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء**»[2]، والرجلان: الحارث بن هشام، وزهير بن أمية بن المغيرة، كما قاله ابن

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الحج باب (٤٤) رقم الحديث (١٥٨٨ ـ ٣٠٥٨ ـ ٤٢٨٢ ـ ٦٧٦٤). وفي سنن أبي داود. كتاب الفرائض باب (١٠) رقم الحديث (٢٩١٠) وفي صحيح مسلم (٩٨٤، ٩٨٥) وفي سنن ابن ماجه. كتاب الفرائض باب (٦) رقم الحديث (٢٧٣٠ ـ ٢٩٤٢) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ١٦٠ وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٢٠٢ وفي سنن الدارقطني ٣/ ٦٢ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٩١. وفي كنز العمال (٣٠٤٢٩ ـ ٣٠٦٨٥).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب (٤) رقم الحديث (٣٥٧ ـ ٣١٧١ ـ ٦١٥٨). وفي صحيح مسلم كتاب المسافرين رقم (٨٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٤١، ٣٤٢، ٤٢٥. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٥٩ وفي سنن أبي داود كتاب الجهاد باب (٥٥) رقم الحديث (٢٧٦٣) وللإمام مالك في الموطأ كتاب قصر صلاة السفر باب (٨) رقم الحديث (٢٨) وفي دلائل النبوة للبيهقي =

هشام، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلهما فأغلقت عليهما باب بيتها وذهبت إلى النبي ﷺ.

ولما كان الغد من يوم الفتح قام ﷺ خطيباً في الناس، فحمد الله وأثنى عليه ومجده بما هو أهله ثم قال: «**أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص فيها لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب**».

ثم قال: «**يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم؟**». قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[1]. أي: الذين أطلقوا، فلم يسترقوا ولم يؤسروا. والطليق: الأسير إذا أطلق. والمراد بالساعة التي أحلت له ـ عليه السلام ـ ما بين أول النهار ودخول وقت العصر، كذا قاله في فتح الباري.

ولقد أجاد العلامة أبو محمد الشقراطسي حيث يقول في قصيدته المشهورة:

ويوم مكة إذ أشرفتَ في أمم ... تضيق عنها فجاج الوعث والسهل

خوافق ضاق ذرع الخافقين بها ... في قاتم من عجاج الخيل والإبل

وجحفل قذف الأرجاء ذي لجب ... عرمرم كزهاء الليل منسحل

وأنت صلى عليك الله تقدمهم ... في بهو إشراق نور منك مكتمل

ينير فوق أغر الوجه منتجب ... متوج بعزيز النصر مقتبل

يسمو أمام جنود الله مرتدياً ... ثوب الوقار لأمر الله ممتثل

خشعت تحت بهاء العز حين سمت ... بك المهابة فعل الخاضع الوجل

وقد تباشر أملاك السماء بما ... ملكت إذ نلت منه غاية الأمل

والأرض ترجف من زهو ومن فرق ... والجو يزهر إشراقاً من الجذل

والخيل تختال زهواً في أعنتها ... والعيس تنثال رهواً في ثنى الجدل

لولا الذي خطت الأقلام من قدر ... وسابق من قضاء غير ذي حول

أهل ثهلان بالتهليل من طرب ... وذاب يذبل تهليلاً من الذبل

الملك لله هذا عز من عقدت ... له النبوة فوق العرش في الأزل

---

= ٥/ ٨١ وفي المعجم الصغير للطبراني ٢/ ٦٧. وسنن سعيد بن منصور (٢٦١٢). وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٤٥ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٧٦. ومشكاة المصابيح (٣٩٧٧) وكنز العمال (٢٣٤٥١ ـ ١٠٩٥٠).

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٨٨.

شعبت صدع قريش بعد ما قذفت … بهم شعوب شعاب السهل والقلل

قالوا محمد قد زادت كتائبه … كالأسد تزأر في أنيابها العصل

فويل مكة من آثار وطأته … وويل أم قريش من جوى الهبل

فجدت عفواً بفضل العفو منك ولم … تلمم ولا بأليم اللوم والعذل

أضربت بالصفح صفحاً عن غوائلهم … طولاً أطال مقيل النوم في المقل

رحمت واشج أرحام أتيح لها … تحت الوشيج نشيج الروع والوجل

عاذوا بظل كريم العفو ذي لطف … مبارك الوجه بالتوفيق مشتمل

أزكى الخليقة أخلاقاً وأطهرها … وأكرم الناس صفحاً عن ذوي الزلل

وطفت بالبيت محبوراً وطاف به … من كان عنه قبيل الفتح في شغل

والجحفل: الجيش العظيم. وقذف الأرجاء: أي متباعدها. واللجب: بالجيم المفتوحة: الضجة من كثرة الأصوات. والعرمرم: الضخم الكثير العدد. وقوله: كزهاء الليل: شبهه بالليل في سده الأفق، واسوداده بالسلاح. والمنسحل: ـ بالحاء المهملة ـ الماضي في سيره يتبع بعضه بعضاً. وقوله: في بهو إشراق: شبه النور الذي يغشاه ـ عليه السلام ـ ببهو أحاط به. والبهو: البناء العالي كالإيوان ونحوه. والمنتجب: المتخير من أصل نجيب، أي كريم، والمقتبل: المستقبل الخير. وترتجف: تهتز. والزهو: الخفة من الطرب، يعني: أن الأرض اهتزت فرحاً بهذا الجيش، وفرقاً من صولته، أي كادت تهتز، قال تعالى: ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ [الأحزاب: ١٠]. والجدل: جمع جديل، وهو الزمام المصفور. وثنى الجدل: ما انثنى على أعناق الإبل، أي انعطف. وثهلان: اسم جبل معروف. وأهل: رفع صوته. ويذبل: اسم جبل أيضاً. والذبل: الرماح الذوابل وهي التي لم تقطع من منابتها حتى ذبلت أي جفت ويبست. وتهليلاً: أي صياحاً، جبناً وفزعاً. يعني: لولا ما سبق من تقدير الله أن الجبال لا تنطق لرفع ثهلان صوته وهلل الله من الطرب، ولذاب يذبل من الجزع والفرق. وقوله: شعبت أي جمعت وأصلحت. وقذفت بهم: أي فرقت بهم مخافة شعوب. وشعوب: اسم للمنية لأنها تفرق الجماعات، من شعبت أي فرقت، وهو من الأضداد. والشعاب: الطرق في الجبال. والسهل: خلاف الجبل. والقلل: رؤوس الجبال. يعني أنه ﷺ عفا عنهم بعدما تصدعوا، أي تفرقوا وهربوا من خوفه إلى كل سهل وجبل.

وقوله: كالأسد تزأر في أنيابها العصل: أي المعوجة. والله أعلم.

ولمافتح الله مكة على رسوله ﷺ قال الأنصار فيما بينهم: أترون أن رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟

وكان ﷺ يدعو على الصفا رافعاً يديه، فلما فرغ من دعائه قال: «**ماذا قلتم؟**» قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال ﷺ: «**معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم**»[1].

وهم فضالة بن عمير أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: «**أفضالة**»، **قال: نعم يا رسول الله، قال**: «**ماذا كنت تحدث به نفسك؟**» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك ﷺ ثم قال: «**استغفر الله**»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه[2].

وطاف ﷺ يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان. وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فكلما مر بصنم أشار إليه بقضيب وهو يقول: «**جاء الحق وزهق الباطل. إن الباطل كان زهوقاً**»، فيقع الصنم لوجهه. رواه البيهقي[3].

وفي رواية أبي نعيم: قد ألزقها الشياطين بالرصاص والنحاس.

وفي تفسير العلامة ابن النقيب المقدسي[4]: إن الله تعالى لما أعلمه ﷺ بأنه قد أنجز له وعده بالنصر على أعدائه، وفتح مكة وإعلاء كلمة دينه، أمره إذ دخل مكة أن يقول: وقل جاء الحق وزهق الباطل، فصار ﷺ يطعن الأصنام التي حول الكعبة بمحجنة ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، فيخر الصنم ساقطاً، مع أنها كانت مثبتة بالحديد والرصاص، وكانت ثلاثمائة وستين صنماً بعدد أيام السنة.

قال: وفي معنى الحق والباطل لعلماء التفسير أقوال:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد رقم الحديث (٨٤، ٨٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٥٣٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١١٧ وفي سنن الدارقطني ٣/ ٦٠ رقم الحديث (٢٣٣) وفي نصب الراية للزيلعي ٣/ ٤٤٠ وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ٣٨٩.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٥٩ والبداية والنهاية ٤/ ٣٠٦ والشفا ١/ ١٩٢.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب (١٧) رقم الحديث (٤٧٢٠). وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد رقم الحديث (٨٤ ـ ٨٧). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٧٧. وفي الترمذي رقم الحديث (٣١٣٨). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ١٠١ و ٩/ ١١٧. وفي مسند الحميدي رقم الحديث (٨٦). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٧٦ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٢٣٦. وفي دلائل النبوة ٥/ ٧٠ ـ ٧٢. وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٧٠٢) وفي الدر المنثور للسيوطي ٤/ ١٩٩. وفي فتح الباري ٨/ ٥١١. وفي البداية والنهاية ٤/ ٣٠١. وفي السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٩٥ وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/ ٦٠٩. وفي كنز العمال (٣٠١٦١).

(٤) هو محمد بن سليمان بن الحسن البلخي المقدسي. أبو عبد الله جمال الدين ابن النقيب (٦١١ ـ ٦٩٨هـ). مفسر من فقهاء الحنفية. توفي في القدس. الأعلام ٦/ ١٥٠. وفوات الوفيات ٣/ ٣٨٢ رقم الترجمة (٤٦٠). العبر ٥/ ٣٩٨. النجوم الزاهرة ٨/ ١٨٨ الجواهر المضيئة ٢/ ٥٧.

قال قتادة: جاء القرآن وذهب الشيطان. وقال ابن جريج: جاء إلجهاد وذهب الشرك، وقال مقاتل: جاءت عبادة الله وذهبت عبادة الشيطان.

وقال ابن عباس: وجد ﷺ يوم الفتح حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، كانت لقبائل العرب يحجون إليها، ويخرون لها، فشكا البيت إلى الله تعالى فقال: «**أي رب، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك**» فأوحى الله تعالى إليه إني سأحدث لك نوبة جديدة، يدفون إليك دفيف النسور، ويحنون إليك حنين الطير إلى بيضها، لهم عجيج حولك بالتلبية. قال: ولما نزلت الآية[1] يوم الفتح قال جبريل عليه الصلاة والسلام لرسول الله ﷺ: خذ مخصرتك ثم ألقها، فجعل يأتي صنماً صنماً ويطعن في عينه أو بطنه بمخصرته ويقول: «**جاء الحق وزهق الباطل**»، فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعاً. وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر. فقال يا علي: ارم به، فحمله عليه السلام حتى صعد ورمى به وكسره. فجعل أهل مكة يتعجبون. انتهى.

وعن ابن عباس قال: لما قدم ﷺ أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام، يعنى: القداح التي كانوا يستقسمون بها، فقال رسول الله ﷺ: «**قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط**»[2]. فدخل البيت وكبر في نواحيه ولم يصل. رواه الترمذي.

وعن ابن عمر قال: أقبل رسول الله ﷺ عام الفتح على ناقته القصواء، وهو مردف أسامة حتى أناخ بفناء الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة فقال: «**ائتني بالمفتاح**»، فذهب إلى أمة فأبت أن تعطيه فقال: والله لتعطينه، أو ليخرجن هذا السيف من صلبي، فأعطته إياه، فجاء به النبي ﷺ فدفعه إليه، ففتح الباب[3] رواه مسلم.

وروى الفاكهي من طريق ضعيفة، عن ابن عمر أيضاً قال: كان بنو أبي طلحة يزعمون أنه لا يستطيع أحد فتح باب الكعبة غيرهم، فأخذ رسول الله المفتاح ففتحها بيده.

---

(١) انظر فتح الباري ٨/ ٥١١ كتاب التفسير باب (١٢).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الحج باب (٥٤) رقم الحديث (١٦٠١ ـ ٣٣٥٢ ـ ٤٢٨٨) والمستدرك للحاكم ٢/ ٥٥٠ وفي المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٣١٤ ومصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٨٧ وفي سنن أبي داود كتاب المناسك باب (٩٢) رقم الحديث (٢٠٢٧) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٦٥ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٧٣ وشرح السنة للبغوي ١٢/ ١٢٨ والسنن الكبرى للبيهقي ٥/ ١٥٨.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحج رقم الحديث (٣٩٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٣ و ٦/ ١٥ وفي كشف الخفا للعجلوني ١/ ٤٤٩.

وعثمان المذكور: هو عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى، ويقال له: الحجبي، بفتح المهملة والجيم، ويعرفون الآن بالشيبيين، نسبة إلى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة وهو ابن عم عثمان، وعثمان هذا لا ولد له وله صحبة ورواية.

واسم أم عثمان: سلافة ـ بضم السين المهملة والتخفيف والفاء ـ.

وفي الطبقات لابن سعد عن عثمان بن طلحة قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الإثنين والخميس. فأقبل النبي ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظت له ونلت منه، فحلم عني ثم قال: «**يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت**»، فقلت لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، قال: «**بل عمرت وعزت يومئذ**»، ودخل الكعبة، فوقعت كلمته مني موقعاً ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال. فلما كان يوم الفتح قال: «**يا عثمان ائتني بالمفتاح**» فأتيته به فأخذه مني، ثم دفعه إلي وقال: «**خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف**». قال: فلما وليت ناداني، فرجعت إليه فقال: «**ألم يكن الذي قلت لك؟!**» قال: فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة: «**لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت**». قلت: بلى أشهد أنك رسول الله.

وفي التفسير: أن هذه الآية ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ [النساء: ٥٨] نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي. أمره ﷺ أن يأتيه بمفتاح الكعبة فأبى عليه، وأغلق باب البيت وصعد إلى السطح وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه، فلوى علي يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب، فدخل ﷺ البيت، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له بين السقاية والسدانة، فأنزل الله هذه الآية. وأمر ﷺ علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك علي، فقال: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق؟! فقال علي: لقد أنزل الله في شأنك قرآناً، وقرأ عليه الآية. فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله. فجاء جبريل عليه السلام فقال: ما دام هذا البيت أو لبنة من لبناته قائمة، فإن المفتاح والسدانة في أولاد عثمان. فكان المفتاح معه، فلما مات دفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسدانة في أولاده! إلى يوم القيامة[1].

قال ابن ظفر في «ينبوع الحياة»: قوله: «لو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه» هذا وهم، لأنه كان ممن أسلم. فلو قال هذا كان مرتداً.

---

(١) انظر تفسير البغوي ١/ ٣٥٣ [النساء الآية: ٥٨] وتفسير ابن كثير ١/ ٥١٥ وانظر اسباب النزول لأبي الحسن النيسابوري صفحة (٩٠).

وعن الكلبي: لما طلب ﷺ المفتاح من عثمان مد يده إليه، فقال العباس: يا رسول الله اجعلها مع السقاية، فقبض عثمان يده بالمفتاح، فقال: هاكه بالأمانة، فأعطاه إياه ونزلت الآية. قال ابن ظفر: وهذا أولى بالقول.

وفي رواية لمسلم: دخل ﷺ هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان ابن طلحة الحجبي فأغلقوا عليهم الباب. قال ابن عمر فلما فتحوا كنت أول من ولج، فلقيت بلالاً فسألته: هل صلى فيه رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، بين العمودين اليمانيين، وذهب عني أسأله: كم صلى[١].

وفي إحدى روايات البخاري: جعل عموداً عن يساره وعموداً عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه[٢].

وليس بن الروايتين مخالفة، لكن قوله في الرواية الأخرى: وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة مشكل، لأنه يشعر بكون ما عن يمينه أو يساره كان اثنين، ولهذا عقبه البخاري برواية إسماعيل بن أبي أويس التي قال فيها: عمودين عن يمينه.

ويمكن الجمع بين الروايتين بأنه: حيث ثنى أشار إلى ما كان عليه البيت في زمنه ﷺ، وحيث أفرد أشار إلى ما صار إليه بعد ذلك، ويرشد إلى قوله: وكان البيت يومئذ. لأن فيه إشعاراً بأنه تغير عن هيئته الأولى.

ويحتمل أن يقال: لم تكن الأعمدة الثلاثة على سمت واحد، بل اثنان على سمت والثالث على غير سمتهما، ولفظ «المتقدمين» في إحدى روايات البخاري مشعر به.

وفي رواية لمسلم جعل عمودين عن يساره وعموداً عن يمينه، عكس رواية إسماعيل، وكذلك قال الشافعي، وبشر بن عمر في إحدى الروايتين عنهما.

وقد جمع بعض المتأخرين بين هاتين الروايتين باحتمال تعدد الواقعة، وهو بعيد لاتحاد مخرج الحديث.

وجزم البيهقي بترجيح رواية إسماعيل، ووافقه عليها ابن القاسم[٣] والقعنبي[٤]

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الحج رقم الحديث (٣٩٣ ـ ٣٩٤) والبخاري كتاب الحج باب (٥١) رقم الحديث (١٥٩٨) والنسائي كتاب المساجد رقم الحديث (٥) وفي مسند الامام أحمد بن حنبل ٢/ ١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب (٩٦) رقم الحديث (٥٠٥).

(٣) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جناده العتقي المصري أبو عبد الله ويعرف بابن القاسم. (١٣٢ ـ ١٩١ هـ). زاهد عالم بالفقه الأعلام ٣/ ٣٢٣. وفيات الأعيان ١/ ٢٧٦. شذرات الذهب ١/ ٣٢٩. تذكرة الحفاظ ١/ ٣٥٦ رقم الترجمة (٣٤٦). الديباج المذهب (١٤٦).

(٤) هو عبد الله بن مسلمة بن قعنب الحارثي أبو عبد الرحمن. حافظ. توفي بالبصرة أو بطريق مكة سنة=

وأبو مصعب[1] ومحمد بن الحسن[2] وأبو حذافة[3] وكذلك الشافعي وابن مهدي[4] وفي إحدى الروايتين عنهما. انتهى ملخصاً من فتح الباري.

وقد بين موسى بن عقبة في روايته عن نافع أن بين موقفه ﷺ وبين الجدار الذي استقبله قريباً من ثلاثة أذرع، وجزم برفع هذه الزيادة مالك عن نافع فيما أخرجه الدارقطني في الغرائب. ولفظه: وصلى وبينه وبين القبلة ثلاثة أذرع.

وفي كتاب مكة للأزرقي[5]، والفاكهي[6]: أن معاوية سأل ابن عمر: أين صلى رسول الله ﷺ، فقال: اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة، فعلى هذا ينبغي لمن أراد الاتباع في ذلك أن يجعل بينه وبين الجدار ثلاثة أذرع، فإنه تقع قدماه في مكان قدميه ﷺ إن كانت ثلاثة سواء، أو تقع ركبتاه أو يداه أو وجهه إن كان أقل من ثلاثة أذرع والله أعلم.

وفي رواية عن ابن عباس قال: أخبرني أسامة أنه ﷺ لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج، فلما خرج ركع في قبل البيت ركعتين وقال: «هذه القبلة»[7] رواه مسلم.

---

= (٢٢١ هـ) الأعلام ١٣٧/٤ تذكرة الحفاظ. ٣٨٣/١ رقم الترجمة (٣٨٢). الديباج المذهب (١٣١)، العبر ٣٨٢/١.

(١) هو أحمد بن أبي بكر. أبو مصعب الزهري. العوفي. (١٥٠ ـ ٢٤٢ هـ) قاضٍ. حافظ. توفي بالمدينة. الكاشف ١٤/١ رقم الترجمة (١٣) طبقات ابن سعد ٥٠٥/٥ رقم الترجمة (١٤٧٢).

(٢) هو محمد بن الحسن بن فرقد. الشيباني. أبو عبد الله. (١٣١ ـ ١٨٩ هـ) إمام بالفقه والأصول مات بالري. الأعلام ٨٠/٦. وفيات الأعيان ٤٥٣/١. وتاريخ بغداد ١٧٢/٢ ـ ١٨٢. مفتاح السعادة ١٠٧/٢ النجوم الزاهرة ١٣٠/٢. لسان الميزان ١٢١/٥.

(٣) هو أحمد بن إسماعيل أبو حذافة السهمي المدني حافظ توفي سنة (٢٥٩ هـ). الكاشف ١٣/١. رقم الترجمة (٨).

(٤) هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري البصري اللؤلؤي أبو سعيد. (١٣٥ ـ ١٩٨ هـ). حافظ. توفي بالبصرة. الأعلام ٣٣٩/٣ شذرات الذهب ٣٥٥/١. تذكرة الحفاظ ٣٢٩/١ رقم الترجمة (٣١٣). طبقات ابن سعد. ٢١٨/٧ رقم الترجمة (٣٣٤٥). تاريخ بغداد ٢٤٠/١٠.

(٥) هو محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد ابن الوليد بن عقبة بن الأزرق. أبو الوليد الأزرقي. مؤرخ جغرافي. توفي سنة. (٢٥٠ هـ) الأعلام ٢٢٢/٦. مفتاح السعادة ١٥٤/٢. كشف الظنون (٣٠٦ ـ ١٦٨٤). الفهرست لابن النديم ١١٢/١. معجم المؤلفين ١٩٨/١٠.

(٦) هو محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي. أبو عبد الله. مؤرخ. توفي سنة (٢٧٢ هـ). الأعلام ٢٨/٦. كشف الظنون (٣٠٦) معجم المؤلفين ٤٠/٩ الفهرست لابن النديم ١٠٩/١.

(٧) أخرجه النسائي في كتاب المناسك باب (١٢٧) ٢١٧/٥ ومسلم في الحج رقم الحديث (٣٩٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٠١/٥

والجمع بينه وبين حديث ابن عمر، أن أسامة أخبره أن النبي ﷺ صلى في الكعبة كما رواه أحمد والطبراني: بأن أسامة حيث أثبتها اعتمد في ذلك على غيره وحيث نفاها أراد ما في علمه لكونه لم يره -ين صلى، ويكون ابن عمر ابتـدأ بلالاً بالسؤال ثم أراد زيادة الاستثبات في مكان الصلاة، فسأل أسامة أيضاً.

قال النووي: وقد أجمع أهل الحديث على الأخذ برواية بلال لأنه مثبت فمعه زيادة علم، فوجب ترجيحه. قال: وأما نفي أسامة فيشبه أنهم لما دخلوا الكعبة أغلقوا الباب واشتغلوا بالدعاء، فرأى أسامة النبي ﷺ يدعو ثم اشتغل أسامة في ناحية من نواحي البيت والنبيﷺ في ناحية أخرى، وبلال قريب منه، ثم صلى النبي ﷺ فرآه بلال لقربه منه ولم يره أسامة لبعده واشتغاله بالدعاء، وكانت صلاته ـ عليه السلام ـ خفيفة فلم يرها أسامة لإغلاق الباب مع بعده واشتغاله بالدعاء، وجاز له نفيها عملاً بظنه، وأما بلال فتحققها وأخبر بها. انتهى.

وتعقبوه بما يطول ذكره. وأقرب ما قيل في الجمع: أنه ﷺ صلى في الكعبة لما غاب عنه أسامة من الكعبة لأمر ندبه إليه، وهو أن يأتي بماء يمحو به الصور التي كانت في الكعبة، فأثبت الصلاة بلال لرؤيته لها ونفاها أسامة لعدم رؤيته، ويؤيده ما رواه أبو داود الطيالسي عن أسامة بن زيد قال: دخلت على رسول الله ﷺ في الكعبة، ورأى صوراً فدعا بدلو من ماء، فأتيته به فجعل ﷺ يمحوها ويقول: «**قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون**»[1] **ورجاله ثقات**.

وأفاد الأزرقي ـ في تاريخ مكة ـ أن خالد بن الوليد كان على باب الكعبة يذب عنه ﷺ الناس.

وفي البخاري: أنه ﷺ أقام خمس عشرة ليلة، وفي رواية: تسع عشرة[2]. وفي رواية أبي داود: سبع عشرة[3].

وعند الترمذي: ثمان عشرة[4].

وفي الإكليل: أصحها بضع عشرة يقصر الصلاة.

---

(١) انظر فتح الباري ٨/ ٢١ كتاب المغازي باب (٥٠). وفي المعجم الكبير للطبراني١/ ١٣٠ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٧٣. ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٦٩٦. وفي السلسلة الصحيحة للألباني (٩٩٦) وفي تفسير القرطبي (٢/ ١١٦) وكنز العمال (٩٣٧٦ ـ ١٢٩٣٥).

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٤٥) رقم الحديث (٤٢٩٨ ـ ٤٢٩٩)

(٣) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الصلاة باب (١٠) رقم الحديث (١٢٣٠ ـ ١٢٣١ ـ ١٢٣٢).

(٤) أخرجه الترمذي كتاب الصلاة. باب (٤١). رقم الحديث (٥٥٠ ـ ٥٤٨).

وقال الفاسي[1] في تاريخ مكة: وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان.

ثم سرية خالد بن الوليد[2] عقب فتح مكة إلى العزى بنخلة، وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وكانت أعظم أصنامهم. لخمس ليال بقين من رمضان، وسنة ثمان، ومعه ثلاثون ليهدمها إلى رسول الله ﷺ بمكة فأخبره. فقال: «**هل رأيت شيئاً**» قال: لا، قال «**فإنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها**»، فرجع فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عجوز عريانة سوداء ثائرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجزلها اثنتين، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «**نعم، تلك العزى، وقد يئست أن تعبد ببلادكم أبداً**»[3].

ثم سرية عمرو بن العاصي[4] إلى سواع صنم هذيل على ثلاثة أميال من مكة. في شهر رمضان سنة ثمان ـ حين فتح مكة ـ.

قال عمرو: فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ فقلت أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك. قلت: لم؟ قال: تمنع، فقلت: ويحك، وهل يسمع أو يبصر؟ قال: فدنوت منه فكسرته ثم قلت للسادن كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

ثم سرية سعد بن زيد الأشهلي[5] إلى مناة، صنم للأوس والخزرج بالمشلل، في شهر رمضان، حين فتح مكة، فخرج في عشرين فارساً حتى انتهى إليها، قال السادن: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك.

فأقبل سعد يمشي إليها، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها، فضربها سعد بن زيد فقتلها، وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموه وانصرف راجعاً إلى النبي ﷺ وكان ذلك لست بقين من رمضان.

---

(١) هو محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين. أبو الطيب المكي الحسني. الفاسي. (٧٧٥ ـ ٨٣٢ هـ). مؤرخ عالم بالأصول. حافظ للحديث. توفي بمكة الأعلام ٥/ ٣٣١. الضوء اللامع ٧/ ١٨ رقم الترجمة (٣٣). ومعجم المطبوعات (١٤٢٩).

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٧٩. والمنتظم ٣/ ٣٢٩ وطبقات ابن سعد ٢/ ١١٠. والمغازي للواقدي ٣/ ٨٧٣. والبداية والنهاية ٤/ ٣١٤. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ٣٤٧

(٣) ذكره البيهقي بدلائل النبوة ٥/ ٧٧. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٧٦. والدر المنثور ٦/ ١٢٦ وفي تفسير ابن كثير ٧/ ٤٣١

(٤) انظر المنتظم ٣/ ٣٣٠ وطبقات ابن سعد٢/ ١١١. وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ٣٤٨.

(٥) انظر المنتظم ٣/ ٣٣٠ وطبقات ابن سعد ٢/ ١١١ وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ٣٤٩.

ثم سرية خالد بن الوليد[1] إلى بني جذيمة، قبيلة من عبد القيس، أسفل مكة على ليلة بناحية يلملم، في شوال سنة ثمان. وهو يوم الغميصاء.

بعثه ﷺ لما رجع من هدم العزى، وهو ﷺ مقيم بمكة، وبعث معه ثلاثمائة وخمسين رجلاً، داعياً إلى الإسلام لا مقاتلاً، فلما انتهى إليهم قال: ما أنتم قالوا: مسلمين قد صلينا وصدقنا بمحمد، وبنينا المساجد في ساحاتنا.

وفي البخاري: لم يحسنوا أن يقولوا ذلك فقالوا صبأنا فقال لهم: إستأسروا فاستأسر القوم، فأمر بعضهم فكتف بعضاً، وفرقهم في أصحابه، فلما كان السحر، نادى منادي خالد: من كان معه أسير فليقتله، فقتلت بنو سليم من كان بأيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أساراهم.

فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: **«اللهم إني أبرأ إليك من فعل خالد»**.[2] وبعث علياً فودى قتلاهم.

قال الخطابي: يحتمل أن يكون نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ولم ينقادوا إلى الدين، فقتلهم متأولاً، وأنكر ﷺ العجلة وترك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا.

ثم غزا ﷺ حنينا[3] ـ بالتصغير ـ وهو وادٍ قرب ذي المجاز، وقيل: ماء بينه وبين مكة ثلاث ليال، قرب الطائف، وتسمى غزوة هوزان.

وذلك أن النبي ﷺ لما فرغ من فتح مكة وتمهيدها، وأسلم عامة أهلها مشت أشراف هوزان وثقيف بعضهم إلى بعض، وحشدوا وقصدوا محاربة المسلمين، وكان رئيسهم مالك بن عوف النصري.

فخرج إليهم رسول الله ﷺ من مكة يوم السبت لست ليال خلون من شوال، في

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٧٠ وطبقات ابن سعد ٢/ ١١٢ والبداية والنهاية ٤/ ٣١١ والكامل في التاريخ ٢/ ١٢٨ والمنتظم ٣/ ٣٣١.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب المغازي باب (٥٩). وفي سنن النسائي ٨/ ٢٣٧. وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/ ١٥١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١١٥. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ١١٤ وفي تفسير القرطبي ٧/ ٢٢٤. وفي مشكاة المصابيح (٣٩٧٦). وفي مشكل الآثار للطحاوي ٤/ ٢٥٤ وفي تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣١. وفي كنز العمال (١٤٨٩).

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٨٠. والمنتظم ٣/ ٣٣١. وطبقات ابن سعد ٢/ ١١٤ والكامل في التاريخ ٢/ ١٣٥. وتاريخ الطبري ٢/ ٣٤٤. والبداية والنهاية ٤/ ٣٢١ ومغازي والواقدي ٣/ ٨٨٥ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ١١٩.

إثني عشر ألفاً من المسلمين. عشرة آلاف من أهل المدينة وألفان ممن أسلم من أهل مكة. وهم الطلقاء، يعني: الذين خلى عنهم يوم فتح مكة وأطلقهم فلم يسترقهم، وأحدهم طليق ـ فعيل بمعنى مفعول ـ وهو الأسير إذا أطلق سبيله.

واستعمل ﷺ على مكة **عتاب بن أسيد**. وخرج معه ﷺ ثمانون من المشركين، منهم صفوان بن أمية، وكان ﷺ استعار منه مائة درع بأداتها، فوصل إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر ليال خلون من شوال.

فبعث مالك بن عوف ثلاثة نفر يأتونه بخبر أصحاب رسول الله ﷺ، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم من الرعب.

ووجه رسول الله ﷺ عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي، فدخل عسكرهم، فطاف به وجاء بخبرهم.

وفي حديث **سهل بن الحنظلية** ـ عند أبي داود بإسناد حسن ـ أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ فأطنبوا السير، فجاء رجل فقال: إني انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم، بظعنهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم النبي ﷺ وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غدا، إن شاء الله تعالى**».[1]

وقوله عن بكرة أبيهم: كلمة للعرب، يريدون بها الكثرة وتوفر العدد، وليس هناك بكرة في الحقيقة، وهي التي يستقى عليها الماء، فاستعيرت هنا.

وقوله: بظعنهم: أي نسائهم، واحدتها ظعينة، وأصل الظعينة الراحلة التي يرحل ويظعن عليها، أي يسار، وقيل للمرأة ظعينة لأنها تظعن مع زوجها حيثما ظعن، ولأنها تحمل على الراحلة إذا ظعنت. وقيل الظعينة: المرأة في الهودج، ثم قيل للمرأة بلا هودج، وللهودج بلا امرأة ظعينة. انتهى.

وروى يونس بن بكير، في زيادة المغازي عن الربيع قال: قال رجل يوم حنين لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ.

ثم ركب ﷺ بغلته البيضاء «دلدل» ولبس درعين والمغفر والبيضة. فإستقبلهم من هوازن ما لم يروا مثله قط من السواد والكثرة، وذلك في غبش الصبح، وخرجت الكتائب

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/١٤٩. وفي المستدرك للحاكم ٢/٨٤ وفي المعجم الكبير للطبراني ٦/١١٦ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/١٢٦. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٣٢) وفي الترغيب والترهيب ٢/٢٥١ وفي تفسير ابن كثير ٢/١٧٤.

من مضيق الوادي، فحملوا حملة واحدة فانكشفت خيل بني سليم مولية وتبعهم أهل مكة والناس.

ولم يثبت معه ﷺ يومئذ إلا العباس بن عبد المطلب، وعلى بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو بكر وعمر وأسامة بن زيد، في أناس من أهل بيته وأصحابه.

قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلته أكفها مخافة أن تصل إلى العدو، لأنه ﷺ كان يتقدم في نحر العدو، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركابه، وجعل عليه السلام يقول للعباس: «**ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة**» - يعني شجرة بيعة الرضوان - التي بايعوه تحتها، أن لا يفروا عنه.

فجعل ينادي تارة يا أصحاب السمرة، وتارة: يا أصحاب سورة البقرة - وكان العباس رجلاً صيتاً - فلما سمع المسلمون نداء العباس أقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها.

وفي رواية لمسلم: قال العباس: فوالله لكأن عطفتهم - حين سمعوا صوتي - عطفة البقر على أولادها. يقولون: يا لبيك، يا لبيك. فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ، حتى أن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع انحدر عنه وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ.

فأمرهم ﷺ أن يصدقوا الحملة، فاقتتلوا مع الكفار، فأشرف رسول الله ﷺ فنظر إلى قتالهم فقال: الآن حمي الوطيس، وهو التنور يخبز فيه، يضرب مثلاً لشدة الحرب الذي يشبه حرها حره. وهذه من فصيح الكلام الذي لم يسمع من أحد قبل النبي ﷺ.

وتناول ﷺ حصيات من الأرض ثم قال: «**شاهت الوجوه**»[1] - أي قبحت - ورمى بها في وجوه المشركين، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه من تلك القبضة.

وفي رواية لمسلم: قبضة من تراب الأرض.[2] فيحتمل أنه رمى بذا مرة وبذا مرة أخرى. ويحتمل أن يكون أخذ قبضة واحدة مخلوطة من حصى وتراب.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٣٠٣ وفي سنن الدارمي ٢/ ٢٢٠. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ٨٤. وفي المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٢٢٧. وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٥٣٠. وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٧٣. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ١٤١ ومشكاة المصابيح (٥٨٩١) وفي الدر المنثور ٥/ ١٧٤؛ وفي كنز العمال (٣٦٩٧ - ٢٩٩٢٤ - ٢٩٩٢٥ - ٣٠٢٠٤).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الجهاد باب (٢٨) رقم الحديث (٢٨).

ولأحمد وأبي داود والدارمي، من حديث أبي عبد الرحمن الفهري في قصة حنين قال: فولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «**أنا عبدالله ورسوله**»، ثم اقتحم عن فرسه، فأخذ كفا من تراب. قال: فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب وجوههم وقال: «**شاهت الوجوه فهزمهم الله**». قال **يعلى بن عطاء** ،راويه عن **أبي همام**عن أبي عبد الرحمن الفهري فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً وسمعنا صلصلة من السماء كإمرار الحديد على الطست الجديد ـ بالجيم ـ

قال في النهاية: وصف الطست وهي مؤنثة بالجديد وهو مذكر، إما لأن تأنيثها غير حقيقي فأوله على الإناء والظرف، أو لأن فعيلا يوصف به المؤنث بلا علامة تأنيث كما يوصف به المذكر، نحو امرأة قتيل. انتهى

ولأحمد والحاكم من حديث ابن مسعود: فحادت به ﷺ بغلته، فمال السرج فقلت ارتفع رفعك الله، فقال: «**ناولني كفاً من تراب**»، فضرب وجوههم وامتلأت أعينهم تراباً، وجاء المهاجرون والأنصار سيوفهم بإيمانهم كأنها الشهب فولى المشركون الأدبار.[1]

وروى أبو جعفر بن جرير بسنده عن عبد الرحمن بن مولى عن رجل كان في المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة، فلما لقيناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ. قال: فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا. قال: فانهزمنا وركبوا أكتافنا.

وفي سيرة الدمياطي: كان سيما الملائكة يوم حنين عمائم حمر أرخوها بين أكتافهم.

وفي حديث جبير بن مطعم: نظرت والناس يقتتلون يوم حنين إلى مثل البجاد الأسود يهوي من السماء.

والبجاد: بالموحدة والجيم آخره دال مهملة: الكساء، وجمعه: بجد، أراد الملائكة الذين أيدهم الله بهم، قاله ابن الأثير.

وفي البخاري: عن البراء وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم إنكشفوا فأكبينا على الغنائم فاستقبلنا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٤٥٣. وفي المستدرك للحاكم ٢/ ١١٧ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٧٤. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٨٠. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٢٠٩. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٢٢٤.

البيضاء وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها، وهو يقول: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**».[1]

وهذا فيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب، فكأنه قال: أنا النبي، والنبي لا يكذب، فلست بكاذب فيما أقول حتى أنهزم، بل أنا متيقن أن الذي وعدني الله به من النصر حق، فلا يجوز عليّ الفرار.

وأما ما في مسلم عن سلمة بن الأكوع من قوله: «فأرجع منهزماً» إلى قوله: «مررت على رسول الله ﷺ منهزماً» فقال: «**لقد رأى ابن الأكوع فزعاً**»[2] فقال العلماء: قوله منهزماً حال من ابن الأكوع ـ لا من رسول الله ﷺ ـ كما صرح أولاً بانهزامه، ولم يرد أن النبي ﷺ انهزم، وقد قالت الصحابة كلهم: إنه عليه السلام ما انهزم ولم ينقل أحد قط أنه انهزم في موطن من المواطن. وقد نقلوا إجماع المسلمين على أنه لا يجوز أن يعتقد انهزامه ﷺ، ولا يجوز ذلك عليه، بل كان العباس وأبو سفيان بن الحارث آخذين ببغلته يكفانها عن إسراع التقدم إلى العدو.

وقد تقدم في غزوة أحد ما نسب لابن المرابط، من المالكية، مما حكاه القاضي عياض في الشفاء: أن من قال إن النبي ﷺ هزم يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وأن العلامة البساطي[3] تعقبه بما لفظه: هذا القائل إن كان يخالف في أصل المسألة يعني: حكم الساب، فله وجه، وإن وافق على أن الساب لا تقبل توبته فمشكل. انتهى.

قال بعضهم: وقد كان ركوبه ﷺ البغلة في هذا المحل الذي هو موضع الحرب والطعن والضرب تحقيقاً لنبوته، لما كان الله تعالى خصه به من مزيد الشجاعة وتمام النبوة، وإلا فالبغال عادة من مراكب الطمأنينة، ولا يصلح لمواطن الحرب في العادة إلا

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الجهاد رقم الحديث (٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠) وفي الترمذي كتاب الجهاد باب (١٥) رقم الحديث (١٦٨٨). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٦٤ و٤/ ٢٨٠. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٥٥. وفي دلائل النبوة للبيهقي ١٣/١ و٣/ ٣٣٤ و٥/ ١٣٢. والدر المنثور ٣/ ١٢٥. ومجمع الزوائد ١/ ٢٨٩ وكنز العمال (٣٠٢٠٦ ـ ٣٠٢١٩ ـ ٣١٨٧٣ ـ ٣٥٥٠٣) وفي المنتقى لابن الجارود (١٠٦٦). طبعة دار الجنان. وفي البخاري رقم الحديث (٤٣١٧ ـ ٢٨٦٤ ـ ٤٣١٦).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الجهاد باب (٢٨) رقم الحديث (٨١ ـ و ١٧٧٧) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ١٤٠ والدر المنثور ٣/ ٢٢١

(٣) هو محمد بن أحمد بن عثمان الطائي البساطي أبو عبد الله شمس الدين (٧٦٠ ـ ٨٤٢ هـ) فقيه مالكي من القضاة. توفي بالقاهرة. الاعلام ٥/ ٣٣٢ شذرات الذهب ٧/ ٢٤٥ الضوء اللامع ٧/ ٥ رقم الترجمة (٧) نيل الإبتهاج صفحة ٣٠٠ حسن المحاضرة ١/ ٢٦٣ وبغية الوعاة (١٣) كشف الظنون (٤٧٥ ـ ١١١٧ ـ ١٧١٧).

الخيل فبين ﷺ أن الحرب عنده كالسلم قوة قلب وشجاعة نفس وثقة وتوكلا على الله تعالى، وقد ركبت الملائكة في الحرب معه ﷺ على الخيل لا غير لأنها بصدد ذلك عرفا دون غيرها من المركوبات، ولهذا لا يسهم في الحرب إلا للخيل، والسر في ذلك أنها المخلوقة للكر والفر بخلاف البغال والإبل. انتهى.

وعند ابن أبي شيبة، من مرسل الحكم بن عتيبة: لم يبق معه عليه الصلاة والسلام إلا أربعة نفر، ثلاثة من بني هاشم ورجل من غيرهم: علي العباس بين يديه، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بالعنان، وابن مسعود من الجانب الأيسر، وليس يقبل نحوه أحد إلا قتل.

وفي الترمذي بإسناد حسن من حديث ابن عمر: لقد رأيتنا يوم حنين، وإن الناس لمولون، وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل[1].

وفي شرح مسلم للنووي: أنه ثبت معه ﷺ اثنا عشر رجلاً وكأنه أخذه من قول ابن إسحاق.

ووقع في شعر العباس بن عبد المطلب أن الذين ثبتوا كانوا عشرة فقط وذلك لقوله:

| | |
|---|---|
| نصرنا رسول الله في الحرب تسعة | وقد فر من قد فر عنه فاقشعوا |
| وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه | لما مسّه في الله لا يتوجع |

وقد قال الطبري: الانهزام المنهي عنه هو ما وقع على غير نية العود، وأما الاستطراد للكثرة فهو كالتحيز إلى فئة. انتهى.

وأما قوله ﷺ: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**» فقد قال العلماء: إنه ليس بشعر، لأن الشاعر إنما سمي شاعراً لوجوه، منها: أنه شعر القول وقصده واهتدى إليه، وأتى به كلاما موزوناً على طريقة العرب مقفى، فإن خلا من هذه الأوصاف أو بعضها لم يكن شعراً، ولا يكون قائله شاعراً. والنبي ﷺ لم يقصد بكلامه ذلك الشعر، ولا أراده، فلا يعد شعراً، وإن كان موزوناً.

وأما قوله ﷺ: أنا ابن عبد المطلب، ولم يقل: ابن عبد الله، فأجيب: بأن شهرته بجده كانت أكثر من شهرته بأبيه، لأن أباه توفي في حياة أبيه عبد المطلب قبل مولده ﷺ، وكان عبد المطلب مشهوراً شهرة ظاهرة شائعة وكان سيد قريش وكان كثير من

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب الجهاد باب (١٥) رقم الحديث (١٦٨٩).

الناس يدعو النبي ﷺ ابن عبد المطلب ينسبونه إلى جده لشهرته، ومنه حديث ضمام بن ثعلبة في قوله: أيكم ابن عبد المطلب[1]. وقيل غير ذلك.

وأمر ﷺ أن يقتل من قدر عليه، وأفضى المسلمون في القتل إلى الذرية، فنهاهم ﷺ عن ذلك.

وقال: من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه. واستلب أبو طلحة وحده ذلك اليوم عشرين رجلاً.

وقال ابن القيم في الهدي النبوي: كان الله تعالى وعد رسوله أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجا، ودانت له العرب بأسرها، فلما تم له الفتح المبين اقتضت حكمته أن أمسك قلوب هوزان ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا لحربه ﷺ، ليظهر أمره تعالى، وتمام إعزازه لرسوله ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح، وليظهر الله تعالى رسوله وعباده، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون قبلها مثلها، ولا يقاومهم بعد أحد من العرب، فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وعددهم وقوة شوكتهم، ليطامن رؤوساً رفعت بالفتح ولم تدخل بلده وحرمه كما دخل عليه الصلاة والسلام واضعاً رأسه منحنياً على مركوبه تواضعاً لربه، وخضوعاً لعظمته أن أحل له بلده، ولم يحله لأحد قبله ولا لأحد بعده، وليبين سبحانه لمن قال: لن نغلب اليوم من قلة، أن النصر إنما هو من عنده تعالى، وأنه من ينصره فلا غالب له ومن يخذله فلا ناصر له، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه، لاكثرتكم التي أعجبتكم، فإنها لم تغن عنكم شيئاً فوليتم مدبرين، فلما انكسرت قلوبهم ارسلت خلع الجبر مع بريد: أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها. وقد اقتضت حكمته تعالى: أن خلع النصر وجوائزه إنما تفاض على أهل الانكسار، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض.

قال: وبهاتين الغزوتين ـ أعني حنيناً وبدراً ـ قاتلت الملائكة بأنفسها مع المسلمين، ورمى رسول الله ﷺ وجوه المشركين بالحصباء فيهما. وبهاتين الغزاتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ. انتهى.

وأمر ﷺ بطلب العدو، فانتهى بعضهم إلى الطائف، ويعضهم نحو نخلة، وقوم منهم إلى أوطاس.

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب (٢٣) رقم الحديث (٤٨٧).

واستشهد من المسلمين أربعة: منهم أيمن ابن أم أيمن.

وقتل من المشركين أكثر من سبعين قتيلاً.

ثم سرية أبي عامر الأشعر[1]، وهو عم أبي موسى الأشعري، وقال ابن أسحاق: ابن عمه والأول أشهد.

بعثه ﷺ حين فرغ من حنين، في طلب الفارين من هوازن يوم حنين إلى أوطاس ـ وهو واد في ديار هوازن ـ وكان معه سلمة بن الأكوع، فانتهى إليهم، فإذا هم ممتنعون فقتل منهم أبو عامر تسعة أخوة مبارزة بعد أن يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه، ثم برز له العاشر فدعاه إلى الإسلام وقال اللهم اشهد عليه، فقال اللهم لا تشهد علي فكف عنه أبو عامر فأفلت. ثم أسلم بعد فحسن إسلامه فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال: هذا شريد أبي عامر[2].

ورمى أبا عامر ابنا الحارث ـ العلاء وأوفى ـ فقتلاه، فخلفه أبو موسى الأشعري فقاتلهم حتى فتح الله عليه.

وكان في السبي الشيماء ـ أخته عليه الصلاة والسلام من الرضاعة ـ.

وقتل قاتل أبي عامر. فقال ﷺ: «**اللهم اغفر لأبي عامر واجعله من أعلى أمتي في الجنة**».

وفي رواية البخاري قال ـ يعني أبا عامر لأبي موسى الأشعري، لما رمي بالسهم ـ: يا ابن أخي: أقرىء النبي ﷺ السلام، وقل له: يستغفر لي ثم مات. فرجعت فدخلت على النبي ﷺ فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، وقال: قل له: استغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه وقال: «**اللهم اغفر لعبيدك أبي عامر**» ـ ورأيت بياض إبطيه ـ ثم قال: «**اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك**»... فقلت: ولي... فقال: «**اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً**»[3]. قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى.

---

(١) انظر البداية والنهاية ٤/٣٣٦ ودلائل النبوة للبيهقي ٥/١٢٥.

(٢) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٤/٣٣٧.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٥٦) رقم الحديث (٤٣٢٣) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/١٥٣ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٩٦٤) وفي شرح السنة للبغوي ٥/٢٠١ وفي تغليق التعليق لابن حجر العسقلاني (١٠٧٨) وفي البداية والنهاية ٤/٣٣٨.

ثم سرية الطفيل بن عمرو الدوسي[1] إلى ذي الكفين، صنم من خشب، كان لعمرو بن حممة، في شوال ـ لما أراد ﷺ السير إلى الطائف ـ ليهدمه ويوافيه بالطائف.

فخرج سريعاً فهدمه وجعل يحش النار في وجهه ويحرقه ويقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا ... ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حشوت النار في فؤادكا

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعاً، فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام. وعند مغلطاي: وقدم معه أربعة مسلمون.

## غزوة الطائف [2]

ثم غزوة الطائف، وهي بلد كبير، على ثلاث مراحل أو اثنين من مكة، من جهة المشرق، كثيرة الأعناب والفواكه. وقيل: إن أصلها أن جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ اقتلع الجنة التي كانت لأصحاب الصريم، فسار بها إلى مكة، فطاف بها حول البيت ثم أنزلها حيث الطائف، فسمي الموضع بها. وكانت أولاً بنواحي صنعاء. واسم الأرض: وج، بتشديد الجيم المضمومة.

وسار إليها النبي ﷺ في شوال سنة ثمان، حين خرج من حنين وحبس الغنائم بالجعرانة.

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته، وكانت ثقيف لما انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم بالطائف، وأغلقوه عليهم بعد أن أدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة. وتهيؤوا للقتال.

وسار ﷺ فمر بطريقة بقبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف ـ[3] فيما يقال ـ فاستخرج منه غصناً من ذهب.

ونزل قريباً من الحصن وعسكر هناك. فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً، كأنه رجل جراد، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة وقتل منهم اثنا عشر رجلاً منهم: عبد الله بن أبي أمية. ورمي عبد الله ابن أبي بكر الصديق يومئذ بجرح فاندمل ثم نقض بعد ذلك فمات منه في خلافة أبيه.

---

(١) انظر المنتظم ٣/ ٣٤١. وطبقات ابن سعد ٢/ ١١٩.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ١٢١. والمنتظم ٣/ ٣٤١ وطبقات ابن سعد ٢/ ١٢٠. ومغازي الواقدي ٣/ ٩٢٢. والبداية والنهاية ٤/ ٣٤٤ ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ١٥٦.

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الخراج باب (٤١). رقم الحديث (٣٠٨٨). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ١٥٦ ودلائل النبوة للبيهقي أيضاً ٦/ ٢٩٧ وفي كنز العمال (٣٤٠٨٤).

وارتفع ﷺ إلى موضع مسجد الطائف اليوم، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب، فضرب لهما قبتين. وكان يصلي بين القبتين حصار الطائف كله.

فحاصرهم ثمانية عشر يوماً، ويقال خمسة عشر يوماً. ونصب عليهم المنجنيق وهو أول منجنيق رمي به في الإسلام، وكان قدم به الطفيل الدوسي معه لما رجع من سرية ذي الكفين، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتل منهم رجال، فأمر ﷺ بقطع أعنابهم وتحريقها. فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً، ثم سألوه أن يدعها لله وللرحم، فقال ﷺ «**إني لله وللرحم**»[١]

ثم نادى مناديهﷺ: أيما عبد نزل من الحصين وخرج إلينا فهو حر.

قال الدمياطي: فخرج منهم بضعة عشر رجلاً فيهم أبو بكرة، وعند مغلطاي: ثلاثة وعشرون عبداً.

وفي البخاري عن أبي عثمان النهدي قال: سمعت سعداً وأبا بكرة عن النبي ﷺ... قال عاصم: «لقد شهد عندك رجلان... أما أحدهما فأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأما الآخر فنزل إلى النبي ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف»[٢] الحديث.

وأعتق ﷺ من نزل منهم، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة.

ولم يؤذن له ﷺ في فتح الطائف. وأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك، وقالوا.: نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال ﷺ: فاغدوا على القتال، فغدوا فأصاب المسلمين جراحات، فقال ﷺ: إنا قافلون إن شاء الله تعالى فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك.

قال النووي: قصد ﷺ الشفقة عليهم والرفق بهم بالرحيل عن الطائف لصعوبة أمره، وشدة الكفار الذين هم فيه، وتقويهم بحصنهم، مع أنه ﷺ علم أولاً، أو رجا أنه سيفتحه بعد ذلك بلا مشقة. فلما حرص الصحابة على المقام والجهاد أقام، وجد في القتال حتى أصابتهم الجراح رجع إلى ما كان قصده أولاً من الرفق بهم ففرحوا بذلك لما رأوا ممن المشقة الظاهرة، ووافقوا على الرحيل، فضحك ﷺ تعجباً من تغير رأيهم.

وفقئت عين أبي سفيان صخر بن حرب يومئذ، فذكر ابن سعد أن النبي ﷺ قال له وهي في يده: «**أيما أحب إليك عين في الجنة أو أدعوا الله أن يردها عليك**» قال: بلا عين في الجنة ورمى بها.

---

(١) ذكره ابن سعد في طبقاته ٢/ ١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٥٧) رقم الحديث (٤٣٢٦ ـ ٤٣٢٧ ـ ٦٧٦٦ ـ ٦٧٦٧).

وشهد اليرموك فقاتل وفقئت عينه الأخرى يومئذ. ذكره الحافظ زين الدين العراقي في شرح التقريب.

وقال ﷺ لأصحابه: قولوا: **لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»**[١].

فلما ارتحلوا قال: «**آيبون، تائبون عابدون، لربنا حامدون**»[٢].

فانظر كيف كان ﷺ إذا خرج للجهاد يعتد لذلك بجمع أصحابه واتخاذ الخيل والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الجهاد والسفر، ثم إذا رجع يتعرى من ذلك ويرد الأمر كله لمولاه عز وجل لا لغيره بقوله: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده**».

وانظر إلى قوله ﷺ: «**وهزم الأحزاب وحده**» فنفى ﷺ ما تقدم ذكره، وهذا هو معنى الحقيقة، لأن الإنسان وفعله خلق لربه عز وجل، فهو لله سبحانه وتعالى الذي خلق ودبر، وأعان وأجرى الأمور على يد من شاء، ومن اختار من خلقه، فكل منه وإليه، ولو شاء أن يبيد أهل الكفر من غير قتال لفعل، قال تعالى: ﴿**ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض**﴾ [محمد: ٤] فيثبت سبحانه وتعالى الصابرين ويجزل الثواب للشاكرين، قال تعالى: ﴿**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم**﴾ [محمد: ٣١].

فعلى المكلف الامتثال في الحالتين، أي: امتثال تعاطي الأسباب، والرجوع إلى المولى والسكون إليه بساحة كرمه، كما كان ﷺ يأتي الأسباب أولاً تأدباً مع الربوبية وتشريعاً لأمته، ثم يظهر الله تعالى على يديه ما يشاء من قدرته الغامضة التي ادخرها له عليه الصلاة والسلام.

قال ابن الحاج في المدخل: ولما قيل له: يا رسول الله، ادع على ثقيف. فقال: «**اللهم اهد ثقيفا وائت بهم**»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الديّات باب (١٧) رقم الحديث (٤٥٤٧) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٤١٢ و٣/ ٤٩٤ و ٤١٠ والسنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٦٩ وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤١ وفي كنز العمال (١٢٣٥٩).

(٢) ذكره أبو نعيم في الحلية ٧/ ١٣٢

(٣) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب (٧٣) رقم الحديث (٣٩٤٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٤٣ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٨٦) وفي كنز العمال (٣٤٠٠٧) وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٩٥٧).

وكان ﷺ قد أمر أن يجمع السبي والغنائم مما أفاء الله على رسوله يوم حنين، فجمع ذلك كله إلى الجعرانة، فكان بها إلى أن انصرف عليه السلام من الطائف.

وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة.

واستأنى ﷺ ـ أي انتظر وتربص ـ بهوازن أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة. ثم بدأ يقسم الأموال، فقسمها.

وفي البخاري: وطفق ﷺ يعطي رجالاً المائة من الإبل. فقال ناس من الأنصار يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟!

قال أنس: فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم، ثم قال لهم: «**أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟! فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، قالوا: يا رسول الله قد رضينا**»[1].

وعن جبير بن مطعم قال: بينما أنا مع النبي ﷺ ومعه الناس مقفله من حنين، علقت برسول الله ﷺ الأعراب حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه، فوقف ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العضاة نعما لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوبا ولا جبانا.[2] ورواه مسلم.

وذكر محمد بن سعد كاتب الواقدي عن ابن عباس أنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ من الطائف نزل الجعرانة فقسم بها الغنائم ثم اعتمر منها وذلك لليلتين بقيتا من شوال.

قال ابن سيد الناس وهذا ضعيف، والمعروف عند أهل السير أن النبي ﷺ انتهى إلى الجعرانة ليلة الخميس، لخمس ليال خلون من ذي القعدة، فأقام بها ثلاثة عشرة ليلة، فلما أراد الإنصراف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة ليلاً، فأحرم بعمرة ودخل مكة.

وفي تاريخ الأزرقي أنه ﷺ أحرم من وراء الوادي، حيث الحجارة المنصوبة.

وعند الواقدي: من المسجد الأقصى الذي تحت الوادي بالعدوة القصوى من

---

(١) أخرجه البخاري كتاب فرض الخمس باب (١٩) رقم الحديث (٣١٤٧).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الخمس باب (١٩) رقم الحديث (٣١٤٨) وفي الجهاد باب (٢٤) رقم الحديث (٢٨٢١) وفي الموطأ كتاب الجهاد باب (١٣) رقم الحديث (٢٢). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٨٢ والمعجم الكبير للطبراني ٢/ ١٣٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٠٧٥) وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٤٠ و٨/ ١٩٤.

الجعرانة. وكانت صلاته عليه الصلاة والسلام إذ كان بالجعرانة به.

والجعرانة موضع بينه وبين مكة بريد، كما قاله الفاكهي. وقال الباجي: ثمانية عشر ميلاً، وسمي بامرأة تلقب بالجعرانة، كما ذكره السهيلي.

قالوا: وقدم ﷺ المدينة وقد غاب عنها شهرين وستة عشر يوماً.

وبعث ﷺ قيس بن سعد بن عبادة[1] إلى ناحية اليمن في أربعمائة فارس، وأمره أن يقاتل قبيلة صداء، حين مروره عليهم في الطرق.

فقدم زياد بن الحارث الصدائي، فسأل عن ذلك البعث فأخبر، فقال: يا رسول الله أنا وافدهم، فاردد الجيش، وأنا لك بقومي، فردهم النبي ﷺ من قناة.

وقدم الصدائيون بعد خمسة عشر يوماً فأسلموا. وتأتي قصة وفدهم في الفصل العاشر من المقصد الثاني إن شاء الله تعالى.

وبعث عيينة بن حصن الفزاري[2] إلى بني تميم بالسقيا ـ وهي أرض بني تميم ـ في المحرم سنة تسع في خمسين فارسا من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري.

فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم في صحراء، فدخلوا وسرحوا مواشيهم فلما رأوا الجمع ولّوْا، فأخذوا منهم أحد عشر رجلاً، ووجدوا في المحلة إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً.

فقدم منهم عشرة من رؤسائهم، منهم: عطارد والزبرقان، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس، فجاؤوا إلى باب النبي ﷺ فنادوا: يا محمد اخرج إلينا فخرج ﷺ وأقام بلال الصلاة، وتعلقوا برسول الله ﷺ يكلمونه، فوقف معهم ثم مضى فصلى الظهر. ثم جلس في صحن المسجد.

فقدموا عطارد بن حاجب فتكلم وخطب. فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس فأجابهم.

ونزل فيهم ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات**﴾ [الحجرات: ٤] الآية ورد عليهم ﷺ الأسرى والسبي[3].

وفي البخاري: عن عبد الله بن الزبير: أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٤٧.
(٢) انظر المنتظم ٣/ ٣٥٢ وطبقات ابن سعد ٢/ ١٢١.
(٣) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣١٣ وما بعدها.

فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد بن زرارة، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي. قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله....**﴾ [الحجرات: ١] حتى انقضت(١). أي لا تقدموا القضاء في أمر قبل أن يحكم الله ورسوله فيه.

ولما نزل ﴿**لا ترفعوا أصواتكم**﴾ [الحجرات ٢] أقسم أبو بكر لا يتكلم بين يدي رسول الله إلا كمن يسارر صاحبه، فنزل فيه وفي أمثاله ﴿**إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله**﴾ [الحجرات: ٣] الآية.

ثم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط(٢) إلى بني المصطلق من خزاعة يصدقهم، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية. وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد، فلما سمعوا بدنو الوليد خرج منهم عشرون رجلاً يتلقونه بالجزر والغنم، فرحاً به وتعظيماً لله ولرسوله، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله. فرجع من الطريق قبل أن يصلوا إليه، وأخبر النبي ﷺ أنهم لقوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة.

فهمَّ ﷺ أن يبعث إليهم من يغزوهم. وبلغ ذلك القوم، فقدم عليه الركب الذين لقوا الوليد، فأخبروا النبي ﷺ الخبر على وجهه، فنزلت هذه الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ...**﴾ [الحجرات: ٦] إلى آخر الآية، فقرأ عليهم ﷺ القرآن. وبعث معهم عباد بن بشر يأخذ صدقات أموالهم ويعلمهم شرائع الإسلام ويقرئهم القرآن.

وفي «شرف المصطفى» للنيسابوري، مما ذكره مغلطاي أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن عوسجة إلى بني عمرو بن حارثة، وقيل حارثة بن عمر - قال: وهو الأصح - في مستهل صفر يدعوهم إلى الإسلام فأبوا أن يجيبوا واستخفوا بالصحيفة، فدعا عليهم ﷺ بذهاب العقل، فهم إلى أهل رعدة وعجلة وكلام مختلط.

ثم سرية قطبة بن عامر بن حديدة(٣) إلى خثعم، من تربة - بفتح الراء - من أعمال مكة سنة تسع، وبعث معه عشرين رجلاً، وأمره أن يشن الغارة عليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعاً، وقتل قطبة من قتل، وساقوا النعم والشاء والنساء

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٦٩) رقم الحديث (٤٣٦٧ - ٤٨٤٥ - ٤٨٤٧ - ٧٣٠٢). وانظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/٢٠٦.

(٢) انظر المنتظم ٣/ ٣٥٧.

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ١٢٢ والمنتظم ٣/٣٥٨ والمغازي للواقدي (٩٨١).

إلى المدينة. وكانت سهمانهم أربعة أبعرة، والبعير يعدل بعشرة من الغنم بعد أن أخرج الخمس.

ثم سرية الضحاك بن سفيان الكلابي [1] إلى بني كلاب، في ربيع الأول سنة تسع، إلى القرطاء، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، فقاتلوهم فهزموهم وغنموهم.

ثم سرية علقمة بن مجزز المدلجي [2] إلى طائفة من الحبشة في ربيع الآخر، وقال الحاكم في صفر سنة تسع.

وذكر ابن سعد أن سبب ذلك: أنه بلغه ﷺ أن ناسا من الحبشة تراآهم أهل جدة، فبعث إليهم بن مجزز في ثلاثمائة، فانتهى إلى جزيرة في البحر، فلما خاض البحر إليهم هربوا.

فلما رجع، بعض القوم إلى أهليهم، فأمر عبد الله بن حذاقة على من تعجل، وكانت فيه دعابة، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا ناراً يصطلون عليها، فقال عزمت عليكم إلا تواثبتم في هذه النار، فلما همّ بعضهم بذلك قال: اجلسوا، إنما كنت أمزح.

فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: من أمركم بمعصية فلا تطيعوه. ورواه الحاكم وابن ماجه وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث أبي سعيد الخدري.

وبوب عليه البخاري فقال: سرية عبد الله بن حذافة السهمي وعلقمة بن مجزز المدلجي، ويقال: إنها سرية الأنصاري. ثم روى حديثاً عن علي قال: بعث النبي ﷺ سرية، فاستعمل رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب فقال: أليس قد أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا حطباً، فجمعوا، فقال: أقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوا، فهموا، وجعل بعضهم يمسك بعضاً يقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فمازالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: « **لو دخلوها ما خرجوا منها**»[3].

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: في قوله: «ويقال إنها سرية الأنصاري» إشارة إلى احتمال تعدد القصة، وهو الظاهر لاختلاف سياقهما واسم أميرهما. ويحتمل الجمع بينها بضرب من التأويل، ويبعده وصف عبد الله بن حذافة السهمي القريشي المهاجري بكونه أنصارياً. ويحتمل أن يكون الحمل على المعنى الأعم، أي أنه نصر رسول الله ﷺ

---

(١) انظر المنتظم ٣/٣٥٩ وطبقات ابن سعد ٢/١٢٣ والمغازي للواقدي ٩٨٢.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢/١٢٣ والمغازي للواقدي ٩٨٣ وفي المنتظم لابن الجوزي ٣/٣٥٩.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٦٠) رقم الحديث (٤٣٤٠).

في الجملة. وإلى التعدد جنح ابن القيم، وأما ابن الجوزي فقال: قوله «من الأنصار» وهم من بعض الرواة، وإنما هو سهمي.

قال في فتح الباري: ويؤيده حديث ابن عباس عند أحمد، في قوله تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾** [النساء: ٥٩] نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، بعثه رسول الله ﷺ في سرية. انتهى.

وقال النووي: وهذا الذي فعله هذا الأمير، قيل: أراد امتحانهم، وقيل: كان مازحاً، وقيل: إن هذا الرجل عبد الله بن حذافة السهمي، قال: وهذا ضعيف: لأنه قال في الرواية التي بعدها إنه رجل من الأنصار، فدل على أنه غيره. انتهى.

ثم سرية علي بن أبي طالب[١] إلى الفلس ـ بضم الفاء وسكون اللام ـ وهو صنم طيء ليهدمه، في ربيع الآخر سنة تسع، وبعث معه مائة وخمسين رجلاً من الأنصار، على مائة بعير وخمسين فرساً ـ وعند ابن سعد: مائتي رجل ـ فهدمه وغنم سبياً ونعماً وشاء.

وكان في السبي سفانة بنت حاتم، أخت عدي بن حاتم، فأطلقها النبي ﷺ، فكان ذلك سبب إسلام عدي.

وعند ابن سعد أيضاً: أن الذي كان سباها خالد بن الوليد رضي الله عنه.

ثم سرية عكاشة بن محصن[٢] إلى الجباب ـ موضع بالحجاز ـ أرض عذرة وبلي، وقيل أرض فزارة وكلب ولعذرة فيها شركة.

قصة كعب [٣] بن زهير مع النبي ﷺ، وكانت فيما بين رجوعه ﷺ من الطائف وغزوة تبوك.

وكان من خبر كعب وأخيه بجير ما ذكره ابن إسحاق وعبد الملك ابن هشام وأبو بكر محمد بن القاسم بن يسار بن الأنباري، دخل حديث بعضهم في حديث البعض:

أن بجيرا قال لكعب: اثبت حتى آتي هذا الرجل ـ يعني النبي ﷺ ـ فأسمع كلامه وأعرف ما عنده، فأقام كعب ومضى بجير، فأتى رسول الله ﷺ فسمع كلامه فآمن به..

وذلك أن زهيراً فيما زعموا كان يجالس أهل الكتاب فسمع منهم أنه قد آن مبعثه

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ١٢٤ والمنتظم ٣/ ٣٦٠ ومغازي الواقدي (٩٨٤).

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ١٢٤. والمنتظم ٣/٣٦١.

(٣) انظر السيرة النبوية لاين هشام ٤/ ١٤٤ والكامل في التاريخ ٢/١٤٦ والبداية والنهاية ٤/ ٣٦٧.

ﷺ، ورأى زهير في منامه أنه قد مد سبب من السماء، وأنه قد مد يده ليتناوله، ففاته فأوله بالنبي الذي يبعث في آخر الزمان، وأنه لا يدركه، وأخبر بنيه بذلك، وأوصاهم إن أدركوه أن يسلموا.

قال ابن إسحاق: ولما قدم ﷺ من الطائف، كتب بجير بن زهير إلى أخيه كعب: إن رسول الله قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه، وإن من بقي من شعراء قريش كابن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائباً، وإن كنت لم تفعل فانج إلى نجائك. وكان كعب قد قال:

ألا بلغا عني بجيرا رسالة ... فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
فبين لنا إن كنت لست بفاعل ... على أي شيء غير ذلك دلكا
على خلق لم تلف أما ولا أبا ... عليه ولا تلقى عليه أخا لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ... ولا قائل إما عثرت لعا لكا
سقاك بها المأمون كأسا روية ... فأنهلك المأمون منها وعلكا

قال السهيلي: «لعا» كلمة تقال للعاثر دعاء له. انتهى.

قال ابن إسحاق: وبعث بها إلى بجير، فلما أتت بجيرا كره أن يكتمها رسول الله ﷺ فأنشده إياها. فقال ﷺ: سقاك بها المأمون. صدق وإنه لكذوب، وأنا المأمون.. ولما سمع: على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه، قال: أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه. ثم قال عليه الصلاة والسلام: من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله.. فكتب إليه أخوه بهذه الأبيات.

من مبلغ كعبا فهل لك في التي ... تلوم عليها باطلا وهي أحزم
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده ... فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت ... من الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا شيء دينه ... ودين أبي سلمى علي محرم

فلما بلغ كعبا الكتاب ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدوه فقال: هو مقتول. فلما لم يجد من شيء بدا، قال قصيدته التي يمدح بها رسول الله ﷺ ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه.

ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسول الله فقم إليه واستأمنه، فقام حتى جلس رسول الله

ﷺ فوضع يده في يده ـ وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه ـ فقال: يا رسول الله، إن كعب ابن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: (نعم) قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أنه وثب عليه رجل من الأنصار وقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه. فقال ﷺ: **«دعه عنك فقد جاء تائبا نازعا»**.[1] قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير. ثم قال قصيدته اللامية التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

ومنها.

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن ولو كثرت في الأقاويل

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرد السود التنابيل

وفي رواية أبي بكر بن الأنباري أنه لما وصل إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

رمى عليه الصلاة والسلام إليه بردة كانت عليه. وأن معاوية بذل فيها عشرة آلاف فقال: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدا، فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفا فأخذها منهم. قال: وهي البردة التي عند السلاطين إلى اليوم.

قال ابن إسحاق: قال عاصم بن عمر بن قتادة: فلما قال كعب: «إذا عرد السود التنابيل» وإنما عنى معشر الأنصار، لما كان صاحبهم صنع به، وخص المهاجرين بمدحته غضب عليه الأنصار، فقال بعد أن أسلم ـ يمدح الأنصار ـ قصيدته التي يقول فيها:

من سره كرم الحياة فلا يزل ... في مقنب من صالحي الأنصار

ورثوا المكارم كابرا عن كابر ... إن الخيار همُ بنو الأخيار

المكرهين السمهري بأدرع ... كسوالف الهندي غير قصار

والناظرين بأعين محمرة ... كالجمر غير كليلة الأبصار

---

(١) ذكره في المستدرك للحاكم ٣/ ٥٨٣ والمعجم الكبير للطبراني ١٩/ ١٧٧.

والبـــائعيـــن نفـــوسهـــم لنبيهـــم للمـــوت يـــوم تعـــانـــق وكـــرار
قـــوم إذا خـــوت النجـــوم فـــإنهـــم للطـــارقيـــن النـــازليـــن مقـــاري

وقد كان كعب بن زهير من فحول الشعراء، وأبوه وابنه عقبة وابن ابنه العوام بن عقبة.

## غزوة تبوك(1)

مكان معروف، وهي نصف طريق المدينة إلى دمشق.

وهي غزوة العسرة، وتعرف بالفاضحة لافتضاح المنافقين فيها

وكانت يوم الخميس في رجب سنة تسع من الهجرة بلا خلاف، وذكر البخارى لها بعد حجّة الوداع لعله خطأ من النساخ.

وكان حراً شديداً، وجدبا كثيراً، فلذلك لم يور عنها كعادته في سائر الغزوات.

وفي تفسير عبد الرزاق، عن معمر عن ابن عقيل قال: خرجوا في قلة من الظهر وفي حر شديد، حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة في الماء وفي الظهر وفي النفقة، فسميت غزوة العسرة.

وسببها أنه بلغهﷺ من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل. فندب ﷺ الناس إلى الخروج وأعلمهم بالمكان الذي يريد، ليتأهبوا لذلك،

وروى الطيراني من حديث عمران بن الحصين قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم. فبعث رجلاً من عظمائهم وجهز معه أربعين ألفاً. فبلغ ذلك النبي ﷺ ولم يكن للناس قوة.

وكان عثمان قد جهز عيرا إلى الشام فقال: يا رسول الله، هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية ـ يعني من ذهب ـ قال: فسمعته يقول: «**لا يضر عثمان ما عمل بعدها**»(2)

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٥٩/٤. والمنتظم ٣٦٢/٣ وطبقات ابن سعد ١٢٥/٢ والكامل في التاريخ ١٤٩/٢ ومغازي الواقدي ٩٨٩/٣. والبداية والنهاية ٣/٥.

(٢) ذكره في المعجم الكبير للطبراني ٢٣٢/١٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٩١/٦. وفي فتح الباري ١٤٠/٨. كتاب المغازي باب (٧٩) وفي كنز العمال (٣٦١٨٨).

وروى عن قتادة أنه قال: حمل عثمان في جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرساً.

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان بن عفان بألف دينار في كمه حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره ﷺ، فرأيت رسول الله ﷺ يقلبها في حجره ويقول: «**ماضر عثمان ما عمل بعد اليوم**»خرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

وعند الفضائلي والملاء في سيرته، كما ذكره الطبري في الرياض النضرة من حديث حذيفة: بعث عثمان ـ يعني في جيش العسرة ـ بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله ﷺ فصبت بين يديه، فجعل ﷺ يقول بيديه ويقلبها ظهراً لبطن يقول: «**غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي ما عمل بعدها**»[1].

ولما تأهب رسول الله ﷺ للخروج، قال قوم من المنافقين: لا تنفروا في الحر، فنزل قوله تعالى: ﴿**وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون**﴾ [التوبة: ٨١].

وأرسل عليه السلام إلى مكة وقبائل العرب يستنفرهم.

وجاء البكاؤون يستحملونه، فقال عليه السلام: لا أجد ما أحملكم عليه. وهم: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب المازني، والعرباض بن سارية، وهرم بن عبد الله، وعمرو بن عنمة، وعبد الله بن مغفل، وعبد الله بن عمرو المزني، وعمرو بن الحمام، ومعقل المزني، وحرمي بن مازن، والنعمان وسويد ومعقل وعقيل وسنان وعبد الرحمن وهند بنو مقرن. وهم الذين قال الله فيهم: ﴿**تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألاّ يجدوا ما ينفقون**﴾ [التوبة: ٩٢] قاله مغلطاي.

وفي البخاري عن أبي موسى قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ، أسأله الحملان لهم، يا نبي الله، إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال «**والله لا أحملكم على شيء**» فرجعت حزيناً من منع النبي ﷺ، ومن مخافة أن يكون النبي ﷺ وجد في نفسه علي فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي ﷺ. فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالا ينادي: أين عبد الله بن قيس، فأجبته، فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك. فلما أتيته قال: «**خذ هاتين القرينتين وهاتين القرينتين لستة أبعره ابتاعهم حينئذ من سعد،**

(١) ذكر في كنز العمال (٣٢٨٤٧ـ ٣٦١٨٩ ـ ٣٦٢٤٥) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٢٢٥٣/٦.

**فانطلق بهن إلى أصحابك فقل: إن الله، أو إن رسول الله يحملكم على هؤلاء فاركبوهن»**[1] الحديث.

وقام علبة بن زيد، فصلى من الليل وبكى وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها، مال أو جسد أو عرض. ثم أصبح مع الناس. فقال النبي: «**أين المتصدق بهذه الليلة**» فلم يقم أحد، ثم قال: أين المتصدق بهذه الليلة؟ فلم يقم أحد، ثم قال أين المتصدق فليقم، إليه فأخبره، فقال ﷺ: «**أبشر فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المقبلة**[2]» رواه يونس والبيهقي في الدلائل، كما ذكره السهيلي في الروض له.

وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم في التخلف، فأذن لهم، وهم اثنان وثمانون رجلاً.

وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علة جرأة على الله ورسوله وهو قوله تعالى: ﴿**وقعد الذين كذبوا الله ورسوله**﴾ [التوبة: ٩٠].

واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة. قال الدمياطي: وهو عندنا أثبت ممن قال استخلق غيره. انتهى.

وقال الحافظ زين الدين العراقي، في ترجمة علي بن أبي طالب من شرح التقريب: لم يتخلف عن المشاهد إلا تبوك، فإن النبي ﷺ خلفه على المدينة، وعلى عياله، وقال له يومئذ: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**»[3] وهو في الصحيحين من حديث سعد ابن أبي وقاص. انتهى. ورجحه ابن عبد البر.

وقيل: استخلف سباع بن عرفطة.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٧٩) رقم الحديث (٤٤١٥). وفي مسلم كتاب الإيمان رقم الحديث (٧ ـ ٨ ـ ٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/١٧٩ ومجمع الزوائد للهيثمي ٤/١٨٣.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٥/٢١٩.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٧٩) رقم الحديث (٤٤١٦) وفي مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (٣٠ ـ ٣١). وفي الترمذي كتاب المناقب باب (٢٠) رقم الحديث (٣٧٣٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/١٧٩ وفي حلية الأولياء ٤/٣٤٥ اتحاف السادة المتقين ٢/٢٢٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/١٠٩ وفي كنز العمال (١٤٢٤٢ ـ ٣٢٨٨١ ـ ٣٦٥٧٢ ـ ٤٤٢١٦).

وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، منهم، كعب ابن مالك، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وفيهم نزل ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلفوا**﴾ [التوبة: ١١٨] وأبو ذر، وأبو خثيمة، ثم لحقاه بعد ذلك.

ولما رأى ﷺ أبا ذر الغفاري ـ وكان ﷺ نزل في بعض الطريق ـ فقال: «**يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده**»[١]. فكان كذلك.

وأمر ﷺ لكل بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لواء وراية.

وكان معه ﷺ ثلاثون ألفاً. وعند أبي زرعة سبعون ألفاً، وفي رواية عنه أيضاً أربعون ألفاً. وكانت الخيل عشرة آلاف فرس.

ولما مر ﷺ بالحجر ـ بكسر الحاء وسكون الجيم ـ بديار ثمود قال: «**لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا يخرجن أحد منكم إلا ومعه صاحب له**» ففعل الناس، إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر في طلب بعيره، فأما الذي خرج لحاجته فخنق على مذهبه وأما الذي خرج في طلب بعيره فاحتمله الريح حتى طرحته بجبلي طيء. فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ألم أنهكم**» ثم دعا للذي خنق على مذهبه فشفي، وأما الآخر فأهدته طيء لرسول الله حين قدم المدينة[٢].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي حميد: انطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ «**ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله**» فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيء[٣]

وروى الزهري: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر سجى ثوبه على وجهه واستحث راحلته ثم قال: «**لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم**»[٤] رواه الشيخان.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٤٣٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ٥/٨٨ مجمع الزوائد للهيثمي ٩/٤١٦ وفي المطالب العالية لابن حجر ٤٠٥٦ وفي كنز العمال (٣٤٠٧٨ ـ ٣٧٨٦١).

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٥/٢٤٠ وفي المعجم الكبير للطبراني ٧/١٣٦ وفي البداية والنهاية ٥/١٠.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (١١) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/٢٣٨.

(٤) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٨١) رقم الحديث (٤٤١٩ ـ ٤٤٢٠) وفي مسلم كتاب الزهد باب (١) رقم الحديث (٣٩). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/٦٦ وفي سنن الدارمي (٥٤٣). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/٤٥١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥١٢٥) وكنز العمال (٣٨٢٨٢ ـ ٤٣٧٤٢) والبداية والنهاية ٥/١٠.

ولما كان ﷺ ببعض الطريق ضلت ناقته. . فقال زيد بن اللصيت ـ وكان منافقاً ـ: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن رجلاً يقول**». . . وذكر مقالته، «**وإني لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها، وهي في الوادي في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها. فانطلقوا حتى تأتوني بها**»[1] فانطلقوا فجاؤوا بها. رواه البيهقي وأبو نعيم.

وفي مسلم من حديث معاذ بن جبل: أنهم وردوا عين تبوك، وهي تبض بشيء من ماء، وأنهم غرفوا منها قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شن ثم غسل ﷺ به وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت بماء كثير، فاستقى الناس[2]. الحديث. ويأتي إن شاء الله في مقصد المعجزات.

ولما انتهى ﷺ إلى تبوك أتاه صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية. وأتاه أهل جرباء ـ بالجيم ـ وأذرح ـ بالذال المعجمة والراء والحاء المهملتين ـ بلدين بالشام بينهما ثلاثة أميال، فأعطوه الجزية، وكتب لهم ﷺ كتاباً.

ووجد هرقل بحمص، فأرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك النصراني، وكان ملكاً عظيماً بدومة الجندل، في أربعمائة وعشرين فارساً في رجب سرية، وقال له عليه الصلاة والسلام: «**إنك ستجده ليلاً يصيد البقر**»، فانتهى إليه خالد، وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة، إلى بقر يطاردها، هو وأخوه حسان، وهرب من كان معهما فدخل الحصن، ثم أجار خالد أكيدر من القتل، حتى يأتي به رسول الله ﷺ على أن يفتح له دومة الجندل، ففعل وصالحه على ألفي بعير وثمانمائة فرس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح[3].

وفي هذه الغزوة كتب ﷺ كتاباً في تبوك إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، فقارب الإجابة ولم يجب. رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أنس.

وفي مسند أحمد أن هرقل كتب من تبوك إلى النبي ﷺ: أني مسلم فقال النبي ﷺ: «**كذب هو على نصرانيته**»[4]

وفي كتاب الأموال لأبي عبيد، بسند صحيح من مرسل بكر بن عبد الله نحوه ولفظه: فقال: «**كذب عدو الله ليس بمسلم**».

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (١٠) والإمام مالك في الموطأ كتاب قصر صلاة السفر باب (١) رقم الحديث (٢) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٢٣٨.

(٢) ذكره البيهقي بدلائل النبوة ٥/ ٢٥٠ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٨٧. وكنز العمال (٣٠٢٧٧).

(٣) انظر فتح الباري ١/ ٥١. كتاب بدء الوحي باب (٦).

ثم انصرف ﷺ من تبوك، بعد أن أقام بها بضع عشرة ليلة. وقال الدمياطي ـ ومن قبله ابن سعد ـ عشرين ليلة، يصلي ركعتين، ولم يلق كيدا، وبنى في طريقه مساجد.

وأقبل ﷺ حتى نزل بذي أوان ـ بفتح الهمزة بلفظ الأوان: الحين ـ وبينهما وبين المدينة ساعة جاءه خبر مسجد الضرار من السماء.

فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدي العجلاني فقال: انطلقا إلى مسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه. فخرجا فحرقاه وهدماه.

وذلك بعد أن أنزل الله فيه: ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا﴾ [التوبة: ١٠٧].

قال الواحدي: قال ابن عباس ومجاهد وقتاده وعامة أهل التفسير: الذين اتخذوا مسجد الضرار كانوا اثني عشر رجلاً، يضارون به مسجد قباء، وذلك أنهم قالوا في طائفة من المنافقين: نبني مسجدا فنقيل فيه فلا نحضر خلف محمد.

قال المفسرون: ولما بنوا ذلك لأغراضهم الفاسدة عند ذهاب رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك، ونحن نحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إني على جناح سفر، وإذا قدمن إن شاء الله تعالى صلينا فيه**»[1]. فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد، فنزلت هذه الآية.

ولما دنا ﷺ من المدينة خرج الناس لتلقيه. وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

وقد وهم بعض الرواة ـ كما قدمته ـ وقال: إنما كان هذا عند مقدمه المدينة، وهو وهم ظاهر، لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يراها إلا إذا توجه إلى الشام ـ كما قدمت ذلك ـ.

وفي البخاري: لما رجع ﷺ من غزوة تبوك فدنا من المدينة، قال: (إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم العذر)[2] وهذا يؤيد معنى ما ورد: نية المؤمن خير من عمله، فإن نية هؤلاء أبلغ منه أعمالهم، فإنها بلغت بهم مبلغ

---

(١) ذكره البيهقي بدلائل النبوة ٥/ ٢٦٠. وفي تفسير ابن كثير ٤/١٤٩ وتفسير الطبري ١١/ ١٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه. كتاب الجهاد باب (٦) رقم الحديث (٢٧٦٤ ـ ٢٧٦٥). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ١٠٣ ـ ٣٤١. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/٢٦٧. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٢٤ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٧. وفي سنن سعيد بن منصور (٢٣١٠) وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٥٤٦ وفي تاريخ أصفهان ١/ ٣٦٢. وفي البخاري كتاب المغازي. باب (٨٢) رقم الحديث (٤٤٢٣).

أولئك العاملين بأبدانهم، وهم على فرشهم في بيوتهم. والمسابقة إلى الله تعالى وإلى درجات العلا بالنيات والهمم لا بمجرد الأعمال.

ولما أشرف ﷺ على المدينة قال: «**هذه طابة وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه**»[1].

ولما دخل قال العباس يا رسول الله، ائذن لي أمتدحك قال: قل لا يفضض الله فاك، فقال:

| | |
|---|---|
| مـن قبلهـا طبـت فـي الظـلال وفـي | مسـتـودع حيـث يخصـف الـورق |
| ثـم هبطـت البـلاد لا بشـر | أنـت ولا مضغـة ولا علـق |
| بـل نطفـة تـركـب السفيـن وقـد | ألجـم نسـراً وأهلـه الغـرق |
| تنقـل مـن صـالـب إلـى رحـم | إذا مضـى عـالـم بـدا طبـق |
| وردت نـار الخليـل مكتتمـا | فـي صلبـه أنـت كيـف يحتـرق |
| حتـى احتـوى بيتـك المهيمـن مـن | خنـدف عليـاء تحتهـا النطـق |
| وأنـت لمـا ولـدت أشـرقـت الأر | ض وضـاءت بنـورك الأفـق |
| فنحـن فـي ذلـك الضيـاء وفـي الـ | ـنـور وسبـل الـرشـاد نختـرق |

وقوله: من قبلها طبت الخ: أي ظلال الجنة، أي إنك كنت طيباً في صلب آدم حيث كان في الجنة.

وقوله: من قبلها: أي قبل نزولك إلى الأرض فكنى عنها ولم يتقدم لها ذكر لبيان المعنى.

وقوله: ثم هبطت البلاد لا بشر، أي لما أهبط الله آدم إلى الدنيا، كنت في صلبه غير بالغ هذه الأشياء.

وقوله: وقد ألج نسراً وأهله الغرق، يريد الصنم الذي كان يعبده قوم نوح وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿**ولا يغوث ويعوق ونسراً**﴾ [نوح: ٢٣].

وقوله: حتى احتوى بيتك المهمين الخ. النطق: جمع نطاق. وهي أعراض من جبال بعضها فوق بعض أي: نواح وأوساط منها شبهت بالنطق التي تشد بها أوساط الناس. ضربه مثلاً في ارتفاعه وتوسطه في عشيرته وجعلهم تحته بمنزلة أوساط الجبال، وأراد ببيته: شرفه، والمهمين: نعته، أي احتوى شرفه الشاهد إلى فضلك أعلى مكان من

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي. باب (٨٢) رقم الحديث (٤٤٢٢). وفي صحيح مسلم كتاب الحج (٥٠٣) وكتاب الفضائل (١١) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/٣٧٢. وبدلائل النبوة للبيهقي ٥/٢٦٦. وفي كنز العمال (٣٤٩٩٣) وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/٤٢٥.

نسب خندف ـ وهو بكسر الخاء المعجمة والدال المهملة ـ انتهى.

وجاءه ﷺ من كان تخلف عنه، فحلفوا له فعذرهم واستغفر لهم، وأرجأ أمر كعب وصاحبيه حتى نزلت توبتهم في قوله تعالى: ﴿**لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم**﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٨].

والثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

وعند البيهقي في الدلائل، من مرسل سعيد بن المسيب: أن أبا لبابة بن عبد المنذر لما أشار لبني قريظة بيده إلى حلقه: إنه الذبح وأخبر عنه رسول الله ﷺ بذلك فقال له رسول الله ﷺ: «**أحسبت أن الله قد غفل عن يدك حين تشير إليهم بها إلى حلقك**»، فلبث حينا ورسول الله ﷺ عاتب عليه، ثم غزا تبوكاً فتخلف عنه أبو لبابة فيمن تخلف، فلما قفل رسول الله ﷺ منها جاءه أبو لبابة يسلم عليه فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ففزع أبو لبابة، فارتبط بسارية التوبة سبعا وقال: لا يزال هذا مكاني حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله علي[1]. الحديث.

وعنده أيضاً من حديث ابن عباس في قوله تعال: ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً**﴾ [التوبة: ١٠٢]. قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فلما رجع ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر النبي ﷺ إذ رجع في المسجد عليهم، فقال: «**من هؤلاء**»؟ قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله، حتى تطلقهم وتعذرهم، فقال: **أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو**» فأنزل الله تعالى: ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم**﴾ [التوبة: ١٠٢]. فلما نزلت أرسل النبي ﷺ فأطلقهم وعذرهم[2]. الحديث.

---

(١) ذكره البيهقي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٢٧٠. وفي الدر المنثور ٣/ ٢٧٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/ ٣٦٣ وفي المعجم الكبير للطبراني ٧/ ٦٣ وفي نصب الراية للزيلعي ٣/ ٤٢٣ و ٤٢٤ والسلسلة الصحيحة للألباني ٣/ ٩٢ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٧٦ و ٥/ ٣٠٣ و ٦/ ١٧٥ و ١٠/ ٥١، وفي المستدرك للحاكم ٢/ ١٢٢ وفي إتحاف السادة المتقين ١/ ٤٢٩ و ٧/ ١٠٠ وفي البداية والنهاية ٥/ ٢٤ وفي كنز العمال (٣٠٠٤٨ ـ ٣١٨٦١ ـ ٣٩٧٩٩).

قالوا: ولما قدم ﷺ من تبوك وجد عويمر العجلاني امرأته حبلى، فلاعن عليه السلام بينهما.

## حجة أبي بكر(1)

ثم حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالناس، سنة تسع في ذي القعدة، كما ذكره ابن سعد وغيره بسند صحيح عن مجاهد، ووافقة عكرمة بن خالد، فيما أخرجه الحاكم في الإكليل.

وقال قوم في ذي الحجة، وبه قال الداودي والثعلبي والماوردي. ويؤيده أن ابن إسحاق صرح بأن النبي ﷺ أقام بعد ما رجع من تبوك رمضان وشوالا وذا القعدة ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج، فهو ظاهر في أن بعث أبي بكر كان بعد انسلاخ ذي القعدة، فيكون حجه في ذي الحجة على هذا والله أعلم.

وكان مع أبي بكر ثلاثمائة رجل من المدينة، وعشرون بدنة.

وفي البخاري ومسلم، عن أبي هريرة: أن أبا بكر بعثه في الحجة التي أمره رسول الله ﷺ قبل حجه الوداع في رهط يؤذن في الناس يوم النحر: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان(2).

ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب، وأمره أن يؤذن ببراءة، فأذن معلنا في أهل منى ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

قال: فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العاك فلم يحج في العام القابل الذي حج فيه رسول الله ﷺ حجة الوداع مشرك. فأنزل الله في العام الذي نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين: **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾** [التوبة: ٢٨] الآية.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما في الصحيح «المؤمن لا

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ١٨٨. والمنتظم ٣/ ٣٧٢. وطبقات ابن سعد ٢/ ١٢٧ والبداية والنهاية ٥/ ٣٣ ومغازي الواقدي ٣/ ١٠٧٦. والكامل في التاريخ ٢/ ١٦٠.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب المغازي باب (٦٦) رقم الحديث (٤٣٦٣) وفي صحيح مسلم كتاب الحج رقم الحديث (٤٢٥) وفي سنن أبي ذاود كتاب المناسك باب (٦٦) رقم الحديث (١٩٤٦). وفي سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن باب (٦) رقم الحديث (٣٠٩١) وفي سنن النسائي كتاب الحج رقم الحديث (١٦١). وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/ ٢٩٩. وفي سنن الدارمي كتاب الصلاة برقم ١٤٠.

ينجس» وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وهذا ضعيف، لأن أعيانهم لو كانت نجسة كالكلب والخنزير لما طهرهم الإسلام، ولاستوى في النهي عن دخول المشركين المسجد الحرام وغيره من المساجد. فالمراد: الأخباث لما فيهم من خبث الظاهر بالكفر وخبث الباطن بالعداوة قاله مقاتل.

وروى النسائي عن جابر أن النبي ﷺ لما رجع من عمرة الجعرانة بعث أبا بكر على الحج، فأقبلنا معه حتى إذا كنا بالعرج ثوب للصبح، فلما استوى للتكبير سمع الرغوة خلف ظهره فوقف عن التكبير فقال: هذه رغوة ناقة رسول الله ﷺ الجدعاء، لقد بدا لرسول الله ﷺ في الحج، فلعله أن يكون رسول الله ﷺ فنصلي معه، فإذا علي عليها، فقال له أبو بكر أمير أم رسول، قال: لا بل رسول، أرسلني رسول الله ﷺ ببراءة أقرؤها على الناس في مواقف الحج، فقدمنا مكة، فلما كان قبل التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس فحدثهم عن مناسكهم، حتى إذا فرغ قام علي فقرأ علي الناس براءة حتى ختمها، ثم كان يوم النحر، فأفضنا فلما رجع أبو بكر خطب الناس فحدثهم عن إفاضتهم وعن نحرهم وهن مناسكهم، فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر فخطب الناس، فحدثهم كيف ينفرون، وكيف يرمون يعلمهم مناسكهم، فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها.

وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحج سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتاب بن أسيد، أما أبو بكر رضي الله عنه فأنما كان سنة تسع.

واستدل بهذه القصة على أن فرض الحج كان قبل حجة الوادع، والأحاديث في ذلك كثيرة شهيرة.

وذهب جماعة إلى أن حج أبي بكر هذا لم يسقط عنه الفرض بل كان تطوعاً قبل فرض الحج ولا يخفى ضعفه.

وفي هذه السنة أيضاً مات عبد الله بن أبي بن سلول، فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه أباه، فأعطاه. ثم سأله أن يصلي عليه، فقام ليصلي عليه، فقام عمر رضي الله عنه فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه، فقال ﷺ: «**إنما خيرني الله عز وجل**» قال: ﴿**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**﴾ [التوبة: ٨٠]. وسأزيد على السبعين قال: إنه منافق.

فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: **﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾** [التوبة: ٨٤][(١)]. رواه الشيخان والنسائي.

وفي هذه السنة أيضاً آلى رسو الله ﷺ من نسائه شهراً. وجحش شقه ـ أي خدش ـ وجلس في مشربة له درجها من جذوع، فأتاه أصحابه يعودونه فصلى بهم جالساً وهم قيام، فلما سلم قال: إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا صلى قائماً فصلوا قياماً، وإذ صلى قاعداً فصلوا قعودا، ولا تركعوا حتى يركع، ولا ترفعوا حتى يرفع.

ونزل لتسع وعشرين فقالوا: يا رسول الله إنك آليت شهراً، فقال: **«إن الشهر يكون تسعا وعشرين»**[(٢)].

ثم بعث أبا موسى ومعاذا إلى اليمن قبل حجة الوداع. كل واحد منهما على مخلاف. قالوا: واليمن مخلافان، ثم قالوا: **«يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا»**. وقال لمعاذ: **«إنك ستأتي قوماً أهل كتاب. فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة. فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»**[(٣)]. رواه البخاري.

والمخلاف: ـ بكسر الميم وسكون المعجمة وآخره فاء ـ بلغة أهل اليمن الكورة والإقليم والرستاق.

وكانت جهة معاذ العليا إلى صوب عدن، وكان من عمله الجند ـ بفتح الجيم

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب (١٢) رقم الحديث (٤٦٧٠ ـ ٤٦٧٢). وفي صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم (٢٥) وصفات المنافقين المتقدمة (٣). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٤٠٢. وفي الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف (٧٨) وفي تاريخ الطبري (١٤١). وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ١٣. وفي تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصيام (٢٢ ـ ٢٤ ـ ٢٥) والطلاق (٣٠ ـ ٣٥ ـ وفي ٧٦٤ و١١٠٧). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٠٥ و ٣١٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٣٨١ وفي اتحاف السادة المتقين ٦/ ٣٣ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٣٦ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٦٥١٥). وفي مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٨٦ وفي كنز العمال (٢٣٧٦٦).

(٣) أخرجه البخاري. كتاب المغازي. باب (٦١) رقم الحديث (٤٣٣١ ـ ٤٣٤٢). وفي صحيح مسلم كتاب الايمان (٣٠) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٩٦ و٧/ ٧. في صحيح ابن خزيمة (٢٢٧٥) وفي الدر المنثور ١/ ١٩٤ وفي ١٩٤ وفي كنز العمال (١٥٧٧٣).

والنون - وله بها مسجد مشهور. وكانت جهة أبي موسى السفلى.

ثم أرسل خالد بن الوليد[1] قبل حجة الوداع أيضاً، في ربيع الأول سنة عشر - وفي الإكليل: في ربيع الآخر، وقيل: في جمادى الأولى - إلى بني عبد المدان بنجران فأسلموا.

ثم أرسل علي بن أبي طالب[2] إلى اليمن في شهر رمضان، سنة عشر من الهجرة، وعقد له لواء وعممه بيده.

وأخرج أبو داود وأحمد والترمذي من حديث علي قال: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن فقلت يا رسول الله. تبعثني إلى قوم أسن مني وأنا حديث السن لا أبصر القضاء. قال: فوضع يده في صدري وقال: «**اللهم ثبت لسانه واهد قلبه**»، وقال: «**يا علي إذا جلس إليك الخصمان، فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر**»[3]. الحديث.

فخرج في ثلاثمائة، ففرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك. ثم لقي جمعهم فدعاهم إلى السلام فأبوا. ورموا بالنبل، ثم حمل عليهم علي بأصحابه فقتل منهم عشرين رجلاً فتفرقوا وانهزموا فكف عن طلبهم، ثم دعاهم إلى السلام فأسرعوا وأجابوا، وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام وقالوا نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله.

ثم قفل فوافى النبي ﷺ بمكة قد قدمها للحج سنة عشر.

ثم حج ﷺ حجة الوداع[4]، وتسمى حجة الإسلام، وحجة البلاغ، وكره ابن عباس أن يقال: حجة الوداع.

وكان ﷺ قد أقام بالمدينة يضحي كل عام ويغزو المغازي، فلما كان في ذي القعدة سنة عشر من الهجرة أجمع على الخروج إلى الحج فتجهز وأمر الناس بالجهاز له.

قال ابن سعد: ولم يحج غيرها منذ تنبأ إلى أن توفاه الله تعالى.

وفي البخاري عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، وأنه حج بعدما

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/١٢٨. والمنتظم ٣/٣٧٩ والبداية والنهاية ٥/٩٣.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢/١٢٨ والبداية والنهاية ٥/٩٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه كتاب الأحكام باب (١) رقم الحديث (٢٣١٠). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/١١١ وفي المستدرك للحاكم ٣/١٣٥ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٩٧٥) وفي كنز العمال (٣٢٠٣٧ - ٣٦٣٩٨).

(٤) انظر البداية والنهاية ٥/٩٩ وطبقات ابن سعد ٢/١٣٠ والمنتظم ٤/٥.

هاجر حجة واحدة لم يحج بعدها، حجة الوداع[1].

قال• وقال ابن إسحاق: وبمكة أخرى، وقيل: حج حجتين. هذا بعد النبوة وقبلها لا يعلمه إلا الله.

فخرج ﷺ من المدينة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة وجزم ابن حزم بأن خروجه كان يوم الخميس، وفيه نظر. لأن أول ذي الحجة كان يوم الخميس قطعاً، لما ثبت وتواتر وقوفه بعرفة كان يوم الجمعة، فتعين أن أول الشهر كان يوم الخميس، فلا يصح أن يكون خروجه يوم الخميس، بل هو ظاهر الخبر أن يكون يوم الجمعة.

لكن ثبت في الصحيحين عن أنس: صلينا مع رسول الله ﷺ الظهر بالمدينة أربعا، والعصر بذي الحليفة ركعتين[2]. فدل على أن خروجهم لم يكن يوم الجمعة ويحمل قول من قال: لخمس بقين، أي إن كان الشهر ثلاثين فاتفق أن جاء تسعا وعشرين فيكون يوم الخميس أول ذي الحجة بعد مضي أربع ليال لا خمس، وبها تتفق الأخبار.

هكذا جمع الحافظ عماد الدين بن كثير بين الروايات، وقوى هذا الجمع بقول جابر: إنه خرج لخمس بقين من ذي القعدة أو أربع.

وصرح الواقدي بأن خروجه ﷺ كان يوم السبت لخمس ليال بقين من ذي القعدة.

وكان خروجه من المدينة بين الظهر والعصر. وكان دخول مكة صبح رابعة، كما ثبت في حديث عائشة وذلك يوم الأحد. وهذا يؤيد أن خروجه من المدينة كان يوم السبت، كما تقدم، فيكون مكثه في الطريق ثمان ليال، وهي المسافة الوسطى.

وخرج معه عليه السلام تسعون ألفاً، ويقال مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، ويقال أكثر من ذلك، كما حكاه البيهقي.

ويأتي الكلام على حجة الوداع وما فيها من المباحث في مقصد العبادات إن شاء الله تعالى.

ثم سرية أسامة بن زيد بن حارثة[3] إلى أهل أبنى بالشراة ناحية بالبلقاء، وكانت يوم

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٣٧٠ والبداية والنهاية ٥/١٩٠ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٥٣ وفي البخاري كتاب المغازي باب (٧٨) رقم الحديث (٤٤٠٤).

(٢) أخرجه البخاري كتاب تقصير الصلاة باب (٥) رقم الحديث (١٠٨٩ ـ ١٥٤٦ ـ ٢٩٨٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١١٠.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ١٤٥ والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٩١ والمغازي للواقدي (١١١٧). وراجع المنتظم حوادث سنة (١١ هـ) ٤/ ٧٣.

الإثنين لأربع ليال بقين من صفر، سنة إحدى عشرة.

وهي آخر سرية جهزها النبي ﷺ وأول شيء جهزه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لغزو الروم مكان قتل أبيه زيد.

فلما كان يوم الأربعاء بدىء برسول الله ﷺ وجعه، فحمّ وصدع، فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده، فخرج بلوائه معقوداً فدفعه إلى بريدة الأسلمي، وعسكر بالجرف. فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا انتدب، فيهم أبو بكر عمر.

فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين؟ فخرج رسول الله ﷺ وقد عصب رأسه وعليه قطيفة، فصعد المنبر، فحمد الله وأنثى عليه ثم قال: «**أما بعد، أيها الناس، ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة فقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله إن كان للإمارة لخليقاً، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، فاستوصوا به خيراًفإنه من خياركم**». ثم نزل عن المنبر فدخل بيته[١]. وذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول سنة إحدى عشرة.

وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ، ويخرجون إلى معسكر بالجرف.

فلما كان يوم الأحد اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فدخل أسامة من معسكره والنبي ﷺ مغمور، وهو اليوم الذي لدوه فيه، فطأطأ أسامة فقبله، ورسول الله ﷺ لا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة. قال أسامة: فعرفت أنه يدعو لي، ورجع أسامة إلى معسكره.

ثم دخل يوم الإثنين وأصبح ﷺ مفيقاً، فودعه أسامة وخرج إلى المعسكر، فأمر الناس بالرحيل. فبينا هو يريد الركوب إذا رسول أمه أم أيمن قد جاء يقول: إن رسول الله ﷺ يموت. فأقبل هو وعمر وأبو عبيدة. فتوفي ﷺ حين زاغت الشمس لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول.

واستشكله السهيلي ومن تبعه، وذلك: أنهم اتفقوا على أن ذا الحجة كان أوله يوم الخميس، فمهما فرضت الشهور الثلاثة: توامّ أو نواقص، أو يعضها، لم يصح.

قال الحافظ ابن حجر: وهو ظاهر لمن تأمله.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة باب (١٧) رقم الحديث (٣٧٣٠ ـ ٤٢٥٠ ـ ٧١٨٧) وفي الترمذي كتاب المناقب باب (٣٩) رقم الحديث (٣٨١٦) وفي مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (٦٣ ـ ٦٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٠.

وأجاب البارزي ثم ابن كثير: باحتمال وقوع الأشهر الثلاثة كوامل، وكان أهل مكة والمدينة اختلفوا في رؤية هلال ذي الحجة، فرآه أهل مكة ليلة الخميس، ولم يره أهل المدينة إلا ليلة الجمعة، فحصلت الوقفة برؤية أهل مكة، ثم رجعوا إلى المدينة فأرخوا برؤية أهلها. وكان أول ذي الحجة الجمعة وآخره السبت، وأول المحرم الأحد وآخره الإثنين وأول صفر الثلاثاء وآخره الأربعاء، وأول ربيع الأول الخميس، فيكون ثاني عشر الإثنين.

قال: وهذا الجواب بعيد، من حيث إنه يلزم منه توالي أربعة أشهر كوامل، وقد جزم سليمان التيمي أحد الثقات: بأن ابتداء مرضه كان يوم السبت الثاني والعشرين من صفر، ومات يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول. فعلى هذا يكون صفر ناقصاً، ولا يمكن أن يكون أول صفر السبت إلا إن كان ذو الحجة والمحرم ناقصين. فيلزم منه نقص ثلاثة أشهر متوالية.

قال: والمعتمد ما قاله أبو مخنف: أنه توفي في ثاني ربيع الأول. وكان سبب غلط غيره أنهم قالوا: مات في ثاني شهر ربيع الأول، فغيرت فصار: ثاني عشر، واستمر الوهم بذلك يتبع بعضهم بعضاً من غير تأمل. انتهى.

ثم إن وفاته ﷺ يوم الإثنين من ربيع الأول بلا خلاف. بل كاد يكون إجماعاً لكن في حديث ابن مسعود: في حادي عشر رمضان رواه البزار. والمعتمد ما تقدم. والله أعلم. انتهى.

وسيأتي إن شاء الله تعالى حديث الوفاة الشريفة في المقصد الأخير. ولما توفي ﷺ دخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة، ودخل بريدة بلواء أسامة معقوداً حتى أتى به باب رسول الله ﷺ فغرزه عند بابه. فلما بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه أمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ليمضي لوجهه، فمضى به إلى معسكرهم الأول، وخرج أسامة هلال ربيع الآخر سنة إحدى عشرة إلى أهل أبنى، فشن عليهم الغارة، فقتل من أشرف له، وسبى من قدر عليه، وحرق منازلهم ونخلهم، وقتل قاتل أبيه في الغارة، ثم رجع إلى المدينة، ولم يصب أحد من المسلمين.

وخرج أبو بكر في المهاجرين وأهل المدينة يتلقونه سروراً، والله أعلم.

فجميع سراياه وبعوثه نحو ستين ومغازيه نحو سبع وعشرين.

# المقصد الثاني

وفيه عشرة فصول

- في ذكر آسمائه الشريفة المنبئة عن كمال صفاته المنيفة
- وذكر أولاده الكرام الطاهرين
- وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين
- وأعمامه وعماته وإخوته من الرضاعة وجداته
- وخدمه ومواليه وحرسه
- وكتَّابه وكتبه إلى أهل الإسلام بالشرائع والأحكام، ومكاتباته إلى الملوك وغيرهم من الأنام.
- ومؤذنيه وخطبائه وحداته وشعرائه
- وآلات حروبه
- ودوابه
- والوافدين إليه ﷺ

# الفصل الأول

## في ذكر أسمائه الشريفة المنبئة عن كمال صفاته المنيفة[1]

اعلم أن الأسماء جمع إسم، وهو كلمة وضعتها العرب بإزاء مسمى، متى أطلقت فهم منها ذلك المسمى، فعلى هذا لا بد من مراعاة أربعة أشياء: الاسم والمسمى ـ بفتح الميم ـ المسمي ـ بكسرها ـ والتسمية. فالإسم: هو اللفظ الموضوع على الذات لتعريفها أو تخصيصها عن غيرها كلفظ: زيد. والمسمَّى: هو الذات المقصود تمييزها بالإسم، كشخص زيد. والمسمِّي: هو الواضع لذلك اللفظ. والتسمية: هي اختصاص ذلك اللفظ بتلك الذات. والوضع: تخصيص لفظ بمعنى إذا أطلق أو أُحِسَّ فهم ذلك المعنى.

واختلفوا، هل الإسم عين المسمى أو غيره؟ وهي مسألة طويلة تكلم الناس فيها قديماً وحديثاً. فذهب قوم إلى أن الإسم عين المسمى. واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ [الأعلى: ١] والتسبيح إنما هو للرب جل وعلا، فدل على أن اسمه هو هو.

وأجيب، بأنه أشرب معنى سبح «اذكر» فكأنه قال: اذكر إسم ربك الأعلى، كقوله تعالى: ﴿**واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا**﴾ [الإنسان: ٢٥] وقد أشرب معنى اذكر «سبح»، عكس الأول. قال تعالى: ﴿**واذكر ربك**﴾ [آل عمران: ٤١] أي سبح ربك. والإشراب جار في لغتهم، يشربون معنى فعل فعلا.

واستشكل على معنى كونه هو المسمى إضافته إليه، فإنه يلزم منه إضافة الشيء إلى نفسه. وأجيب: بأن الإسم هنا بمعنى التسمية، والتسمية غير الإسم، لأن التسمية هي اللفظ بالإسم، والإسم هو اللازم للمسمى فتغايرا.

واحتج من قال بأن الإسم عين المسمى أيضاً بقوله تعالى: ﴿**بغلام اسمه يحيى**﴾ [مريم: ٧] ثم قال: ﴿**يا يحيى خذ الكتاب بقوة**﴾ [مريم: ١٢] فنادى الإسم فدل على أنه المسمى.

---

(١) انظر الشفا ١/٢٢٨ وزاد المعاد ١/٦٦ وطبقات ابن سعد ١/٨٣ ودلائل النبوة للبيهقي ١/١٥١.

وجوابه: أن المعنى: يا أيها الغلام الذي اسمه يحيى، ولو كان الإسم عين المسمى لكان من قال: النار، احترق لسانه، ومن قال: العسل، ذاق حلاوته.

وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، وقد سمى الله تعالى نبينا ﷺ بأسماء كثيرة في القرآن العظيم وغيره من الكتب السماوية، وعلى ألسنة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ثم إن أشهر أسمائه ﷺ: محمد، وبه سماه جده عبد المطلب وذلك أنه لما قيل له: ما سميت ولدك؟ فقال: محمداً، فقيل له: كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك؟ فقال: لأني أرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم. وذلك لرؤيا كان رآها عبد المطلب ـ كما ذكر حديثها علي القيرواني العابر في كتابه «البستان» ـ قال: كان عبد المطلب قد رأى في المنام كأن سلسلة من فضة قد خرجت من ظهره، لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها. فقصها، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق وأهل المغرب، ويحمده أهل السماء وأهل الأرض، فلذلك سماه محمداً، مع ما حدثته به أمه آمنة حين قال لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضعتيه فسميه محمداً.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لما ولد النبي ﷺ عق عنه عبد المطلب وسماه محمداً فقيل له: يا أبا الحارث، ما حملك على أن سميته محمداً، ولم تسمه باسم آبائه؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء، ويحمده الناس في الأرض.

وعن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**»[1] رواه الشيخان.

وقد روي: (**على قدمي**) بتخفيف الياء وبالإفراد، وبالتشديد على التثنية. قال النووي في شرح مسلم: معنى الروايتين: يحشرون على أثري وزماني ورسالتي.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (١٧) رقم الحديث (٣٥٣٢ ـ ٤٨٩٦). وفي صحيح مسلم رقم الحديث (٢٣٥٤). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٨٠. وفي مسند الحميدي رقم الحديث (٥٥٥). وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٥٢. والترمذي في السنن كتاب الأدب باب (٦٧) رقم الحديث (٢٨٤٠). والإمام مالك في الموطأ كتاب أسماء النبي ﷺ باب (١) رقم الحديث (١) وفي سنن الدارمي ٢/ ٣١٧ ـ ٣١٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ٢/ ١٢٢ ـ ١٢٥. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٥٦). وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٦٣ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ١٢، وفي التاريخ الصغير للبخاري ١/ ١٠، وفي كنز العمال (٣٢١٦٥) وفي الشفا ١/ ٢٢٩.

وفي رواية نافع بن جبير عند البخاري في تاريخه الصغير والأوسط، والحاكم في مستدركه وصححه، وأبي نعيم في الدلائل وابن سعد: أنه دخل على عبد الملك بن مروان، فقال: أتحصي أسماء رسول الله ﷺ التي كان جبير بن مطعم يعدها؟ قال: نعم، هي ستة، فذكر الخمسة التي ذكرها محمد بن جبير، وزاد: الخاتم.

وفي حديث حذيفة (أحمد، ومحمد، والحاشر، والمقفي ونبي الرحمة).

ولفظ رواية أبي نعيم (هي ستة: محمد، وأحمد، وخاتم، وحاشر، وعاقب، وماح، فأما الحاشر، فبعث مع الساعة نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد، وأما العاقب: فإنه أعقب الأنبياء، وأما ماح: فإن الله عز وجل محا به سيئات من اتبعه).

وذكر بعضهم: أن العدد ليس من قول النبي ﷺ، وإنما ذكره الراوي بالمعنى.

وفيه نظر: لتصريحه في الحديث: «**إن لي خمسة أسماء**»[1]. والذي يظهر أنه أراد إن لي خمسة أسماء أختص بها لم يتسم بها أحد قبلي، أو مشهورة في الأمم الماضية لا أنه أراد الحصر فيها، وبهذا يجاب عن الإستشكال الوارد، وهو أن المقرر في علم المعاني أن تقديم الجار والمجرور يفيد الحصر، ولكن ورود الروايات بما هو أكثر يدل على أنه ليس حصراً مطلقاً، فالطريق في ذلك أن يحمل على حصر مقيد كما ذكر والله أعلم.

وروى النقاش[2] عنه عليه الصلاة والسلام: لي في القرآن سبعة أسماء: محمد، وأحمد ويّس، وطّه، والمزمل، والمدثر، وعبد الله.

وقد جاءت من ألقابه ﷺ وسماته في القرآن عدة كثيرة، و[قد] تعرض جماعة لتعدادها وبلغوا بها عدداً مخصوصاً. فمنهم من بلغ تسعة وتسعين، موافقة لعدد أسماء الله الحسنى الواردة في الحديث.

قال القاضي عياض: وقد خصه الله تعالى بأن سماه من أسمائه الحسنى بنحو من ثلاثين إسماً.

---

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ٢/١٢٣. والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢١٤ وابن عبد البر في التمهيد ٩/ ١٥٢. والطحاوي في مشكل الآثار ٢/ ٥٠ وانظر مناهل الصفا ٣٥ رقم الحديث (٣٥) وفي الشفا ١/ ٨٨.

(٢) وهو محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون. أبو بكر النقاش (٢٦٦ ـ ٣٥١ هـ). عالم بالقرآن وتفسيره. الأعلام ٦/ ٨١. وفيات الأعيان ١/ ٤٨٩. معجم الأدباء ٥/ ٣٠٨ رقم الترجمة (٨٥٢). تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٠٨ رقم الترجمة (٨٧٢) شذرات الذهب ٣/ ٨ طبقات الشافعية ٢/ ١٤٨ طبقات المفسرين ٢/ ١٣٥ رقم الترجمة (٤٨١). تاريخ بغداد ٢/ ٢٠١ مرآة الجنان ٢/ ٣٤٧ الأنساب للسمعاني (٥٥٦).

وقال ابن دحية في كتابه «المستوفىٰ»: إذا فحص عن جملتها من الكتب المتقدمة والقرآن والحديث وفّىٰ الثلاثمائة، انتهى.

ورأيت في كتاب «أحكام القرآن» للقاضي أبي بكر بن العربي: قال بعض الصوفية: لله تعالى ألف إسم وللنبي ﷺ ألف إسم، انتهى.

والمراد الأوصاف: فكل الأسماء التي وردت أوصاف مدح، وإذا كان كذلك، فله ﷺ من كل وصف إسم، ثم إن منها ما هو مختص به أو الغالب عليه، ومنها ما هو مشترك، وكل ذلك بيّن بين بالمشاهدة لا يخفى، وإذا جعلنا له من كل وصف من أوصافه إسماً بلغت أوصافه ما ذكر، بل أكثر، والذي رأيته في كلام شيخنا في «القول البديع»، والقاضي عياض في «الشفا» وابن العربي في «القبس»، والأحكام له، وابن سيد الناس، وغيرهم يزيد على الأربعمائة، وقد سردتها مرتبة على حروف المعجم، وهي:

الأبر بالله، الأبطحي، أتقى الناس، الأجود، أجود الناس، الأحد، الأحسن وأحسن الناس، أحمد، أحيد ـ بضم أوله وكسر المهملة ثم ياء تحتانية ـ، الآخذ بالحجزات، آخذ الصدقات، الآخر، الأخشى لله، أذن خير، أرجح الناس عقلاً، أرحم الناس بالعباد، الأزهر: وهو النير المشرق الوجه، أشجع الناس، الأصدق في الله، أطيب الناس ريحاً، الأعز الأعلى، الأعلم بالله، أكثر الناس تبعاً، الأكرم، أكرم الناس، أكرم ولد آدم، آلمص، إمام الخير، إمام الرسل، إمام المتقين، إمام النبيين، الإمام، الآمر والناهي، الآمن أمنة أصحابه، الأمين، الأمي، أنعُم الله، الأول، أول شافع، أول المسلمين، أول المؤمنين، أول من تنشق عنه الأرض.

البر، البارقليط، الباطن، البرهان، بَشَر، بشرى عيسى، البشير، البصير، البليغ، بالغ البيان، البينة.

التالي، التذكرة، التقي، التنزيل، التهامي.

ثاني إثنين.

الجبار، الجد، الجواد، جامع.

حاتم، حزب الله، الحاشر، الحافظ، الحاكم بما أراه الله، الحامد، حامل لواء الحمد، الحائد لأمته عن النار، الحبيب، حبيب الرحمن، حبيب الله، الحجازي، الحجة البالغة، حجة الله على الخلائق، حرز الأميين، الحرمي، الحريص على الإيمان، الحسيب، الحفيظ، الحق، الحكيم، الحليم، حماد، حمطايا أو قال حمياطا، حمعسق، حفي، الحمد، الحنيف، الحي.

الخبير، خاتم النبيين خاتم المرسلين، الخاتم، الخازن لمال الله، الخاشع، الخاضع، الخالص، خطيب الأنبياء، خطيب الأمم، خطيب الوافدين على الله، الخليل، خليل الرحمن، خليل الله، الخليفة، خير الأنبياء، خير البرية، خير خلق الله، خير العالمين طراً، خير الناس، خير هذه الأمة، خيرة الله.

دار الحكمة، الداعي إلى الله، دعوة إبراهيم، دعوة النبيين، دليل الخيرات.

الذاكر، الذكر، ذكر الله، ذو الحوض المورود، ذو الخُلُق العظيم، ذو الصراط المستقيم، ذو القوة، ذو مكانة، ذو عزة، ذو فضل، ذو المعجزات، ذو المقام المحمود، ذو الوسيلة.

الراضع، الراضي، الراغب، الرافع، راكب البراق، راكب البعير، راكب الجمل، راكب الناقة، راكب النجيب، الرحمة، رحمة الأمة، رحمة العالمين، رحمة مهداة، الرحيم، الرسول، رسول الراحة، رسول الرحمة، رسول الله، رسول الملاحم، الرشيد. الرفيع الذكر، رافع الرتب، رفيع الدرجات، الرقيب، روح الحق، روح القدس، الرؤوف، ركن المتواضعين.

الزاهد، زعيم الأنبياء، الزكي، الزمزمي، زين من وافى القيامة.

السابق، السابق بالخيرات، سابق العرب، الساجد، سبيل الله، السراج المنير، السراط المستقيم، السعيد، سعد الله، سعد الخلائق، السميع، السلام، السيد، سيد ولد آدم، سيد المرسلين، سيد الناس، سيد الكونين، سيد الثقلين، سيف الله المسلول.

الشارع، الشافع، الشاكر، الشاهد، الشكور، الشكار، الشمس، الشهيد.

الصابر، الصاحب، صاحب الآيات، صاحب المعجزات، صاحب البراهين، صاحب البيان، صاحب التاج، صاحب الجهاد، صاحب الحجة، صاحب الحطيم، صاحب الحوض المورود، صاحب الخاتم، صاحب الخير، صاحب الدرجة العالية الرفيعة، صاحب الرداء، صاحب الأزواج الطاهرات، صاحب السجود للرب المحمود، صاحب السرايا، صاحب السلطان، صاحب السيف، صاحب الشرع، صاحب الشفاعة الكبرى، صاحب العطايا، صاحب العلامات الباهرات، صاحب العلو والدرجات، صاحب الفضيلة، صاحب الفرج، صاحب القضيب، صاحب القضيب الأصغر، صاحب قول لا إله إلا الله، صاحب القدم، صاحب الكوثر، صاحب اللواء، صاحب المحشر، صاحب المدينة، صاحب المغفر، صاحب المغنم، صاحب المعراج، صاحب المظهر المشهود، صاحب المقام المحمود، صاحب المنبر، صاحب المئزر، صاحب النعلين،

صاحب الهراوة، صاحب الوسيلة، الصادع بما أمر، الصادق، الصبور، الصدق، صراط الله، صراط الذين أنعمت عليهم، الصراط المستقيم، الصفوح، الصفوح عن الزلات، الصفوة، الصفي، الصالح.

الضارب بالحسام المثلوم، الضحاك، الضحوك.

طاب طاب، الطاهر، الطبيب، طسم، طس، طه، الطيب.

الظاهر، الظفور، من الظفر وهو الفوز.

العابد، العادل، العظيم، العافي، العاقب، العالم، عَلَم الإيمان، علَم اليقين، العالم بالحق، العامل، عبد الله، العبد، العدل، العربي، العروة الوثقى، العزيز، العفو، العطوف، العليم، العلي، العلامة، عين العز، عبد الكريم، عبد الجبار، عبد الحميد، عبد المجيد، عبد الوهاب، عبد القهار، عبد الرحيم، عبد الخالق، عبد القادر، عبد المهيمن، عبد القدوس، عبد الغياث، عبد الرزاق، عبد السلام، عبد المؤمن، عبد الغفار.

الغالب، الغفور، الغني، الغني بالله، الغوث، الغيث، الغياث.

الفاتح، الفارقليط ـ وقيل بالباء، وتقدم ـ، الفارق، فاروق، الفتاح. الفجر، الفرط، الفصيح، فضل الله، فواتح النور.

القاسم، القاضي، القانت، قائد الخير، قائد الغر المحجلين، القائل، القائم، القتال، القتول، قثم، القثوم، قدم صدق، القرشي، القريب، القمر، القيم: ومعناه: الجامع الكامل، وصوابه بالمثلثة بدل الياء، القوي.

كافة الناس، الكفيل، الكامل في جميع أموره، الكريم، كهيعص.

اللسان.

الماجد، ماذُماذُ، المؤمل، الماحي، المأمون، المانح، الماء العين، المبارك، المبتهل، المبرأ، المبشر، مبشر اليائسين، المبعوث بالحق، المبعوث، المبلغ، المبيح، المبين، المتين، المتبتل، المتبسم، المتربص، المتضرع، المتقي، المتلو عليه، المتهجد، المتوسط، المتوكل، المتثبت، مجاب، مجيب، المجتبى، المجبر، المحرض، المحرم، المحفوظ، المحلل، محمد، المحمود، المخبر، المختار، المخصوص بالشرف، المخصوص بالعز، المخصوص بالمجد، المخلص، المدثر، المدني، مدينة العلم، المذكر، المذكور، المرتضى، المرتل، المرسل، المرتجى، المرحوم، المرتفع الدرجات، المرء ـ وهو الرجل الكامل المروءة ـ، المزكي، المزمل، المسبح، المستغفر، المستغني، المستقيم، المسري به، المسعود، المسلِّم، المسلَّم

المشاور، المشفع، المشفوع، المشفح، المشهود، المشير، المصباح، المصارع، المصافح، مصحح الحسنات، المصدوق، المصطفى، المصلح، المصلى عليه، المطاع، المطهر، المظهر، المطلع، المطيع، المظفر، المعزز، المعصوم، المعقب، المعلِّم، معلم أمته، المعلَّم، المعلن، المعلى، المفضال، المفضل، المفتاح، مفتاح الجنة، المقتصد، المقتفى: يعني قفا النبيين، المقدَّس، المقري، المقسط، المقسم، المقصوص عليه، المقفى، وقيل بزيادة تاء بعد القاف كما تقدم، مقيل العثرات، مقيم السنة بعد الفترة، المكرم، المكتفي، المكين، المكي، الملاحمي، ملقى القرآن، الممنوح، المنادى، المنتظر، المنجي، المنذر، المنزل عليه، المنحمنا، المصنف، المنصور، المنيب، المنير، المهاجر، المهتدي، المهدي، المهداة، المهيمن، المؤتى جوامع الكلم، الموحى إليه، الموصل، الموقر، المولى، المؤمن المؤيَّد، الميسّر.

النابذ، الناجز، الناس لقوله تعالى: ﴿**أم يحسدون الناس**﴾ [النساء: ٥٤] المفسر به عليه السلام، الناسخ، الناشر، الناصح، الناضر، الناطق بالحق، الناهي، نبي الأحمر، نبي الأسود، نبي التوبة، نبي الحرمين، نبي الراحة، نبي الرحمة، النبي الصالح، نبي الله نبي المرحمة، نبي الملحمة، نبي الملاحم، النبي، النجم، النجم الثاقب، نجي الله، النذير، النسيب، نصيح، ناصح، النعمة، نعمة الله، النقيب، النقي، النور، نور الأمم أي الهادي لها الذي أوصلها نور الله الذي لا يطفأ.

الهادي، هدى، هدية الله، الهاشمي.

الوجيه، الواسط، الواسع، الواصل الواضح، الواعد، الواعظ، الورع، الوسيلة، الوفي، الوافي، ولي الفضل، الولي.

اليثربي، يٓس.

وكنيته المشهورة أبو القاسم، كما جاء في عدة أحاديث صحيحة.

ويكنىٰ بأبي إبراهيم، كما جاء في حديث أنس في مجيء جبريل إليه عليهما الصلاة والسلام، وقوله السلام عليك يا أبا إبراهيم.[١] وبأبي الأرامل، فيما ذكره ابن دحية. وبأبي المؤمنين، فيما ذكره غيره.

واعلم أنه لا سبيل لنا أن نستوعب شرح جميع هذه الأسماء الشريفة، إذ في ذلك تطويل يفضي بنا إلى العدول عن غرض الإختصار، فلنذكر من ذلك ما يفتح الله تعالى به مما يدل على سواه. وبالله تعالى أستعين.

فأول ذلك ما له عليه الصلاة والسلام من معنىٰ الحمد الذي هو اسمه المنبىء عن

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١/ ١٦٤ والحاكم في المستدرك ٢/ ٦٠٤.

ذاته، الذي سائر أسماء أوصافه راجعة إليه، وهو في المعنى واحد، وله في الإشتقاق صيغتان:

الإسم المبني صيغته على صيغة «أفعل» المنبئة عن الإنتهاء إلى غاية ليس وراءها منتهى، وهو اسمه «أحمد».

والإسم المبني على صيغة «التفعل» المنبئة عن التضعيف والتكثير إلى عدد لا ينتهي له الإحصاء وهو اسمه «محمد».

قال السهيلي: «محمد» منقول من الصفة، فالمحمد في اللغة هو الذي يحمد حمداً بعد حمد، ولا يكون «مفعَّل» مثل: مضرب، وممدح، إلا لمن تكرر منه الفعل مرة بعد أخرى.

وأما «أحمد» وهو إسمه عليه الصلاة والسلام الذي سمي به على لسان عيسى وموسى، فإنه منقول أيضاً من الصفة التي معناها التفضيل، فمعنى «أحمد» أحمد الحامدين لربه، وكذلك هو في المعنى، لأنه يفتح عليه في المقام المحمود بمحامد لم تفتح على أحد قبله، فيحمد ربه بها، ولذلك يعقد له لواء الحمد.

قال: وأما «محمد» فمنقول من صفة أيضاً، وهو في معنى «محمود». ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فالمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة، كما أن المكرَّم من أكرم مرة بعد أخرى، وكذلك الممدح ونحو ذلك. فاسم «محمد» مطابق لمعناه، والله سبحانه وتعالى سماه به قبل أن يُسمى به، عَلَم من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، إذ كان اسمه صادقاً عليه، فهو ﷺ محمود في الدنيا بما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة. وهو محمود في الآخرة بالشفاعة، فقد تكرر معنى الحمد، كما يقتضيه اللفظ.

ثم إنه لم يكن محمداً حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه، فلذلك تقدم إسم أحمد على الإسم الذي هو محمد، فذكره عيسى فقال: ﴿**اسمه أحمد**﴾ [الصف: ٦]، وذكره موسى حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. فبأحمد ذكر قبل أن يذكر بمحمد، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له، فلما وجد وبعث كان محمداً أيضاً بالفعل. وكذلك في الشفاعة، يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الحامدين لربه، ثم يشفع فيُحمد على شفاعته.

فانظر كيف ترتب هذا الإسم قبل الإسم الآخر في الذكر والوجود، وفي الدنيا والآخرة، تلح لك الحكمة الإلهية في تخصيصه بهذين الاسمين. انتهى.

وقال القاضي عياض: كان عليه الصلاة والسلام أحمد قبل أن يكون محمداً، كما

وقع في الوجود، لأن تسميته أحمد وقعت في الكتب السالفة، وتسميته محمداً وقعت في القرآن، وذلك أنه حمد ربه قبل أن يحمده الناس. انتهى.

وهذا موافق لما قال السهيلي، وذكره في فتح الباري وأقره عليه، وهو يقتضي سبقية اسمه أحمد، خلافاً لما ادعاه ابن القيم.

وذكر ابن القيم في اسمه «أحمد» أنه قيل فيه إنه بمعنى «مفعول» ويكون التقدير: أحمد الناس، أي أحق الناس وأولاهم أن يحمد، فيكون محمداً في المعنى، لكن الفرق بينهما: أن محمداً هو الكثير الخصال التي يحمد عليها، وأحمد: هو الذي يحمد أفضل مما يحمد غيره، فمحمد في الكثرة والكمية، وأحمد في الصفة والكيفية، فيستحق من الحمد أكثر مما يستحق غيره، أي أفضل حمد حمده البشر، فالإسمان واقعان على المفعول.

قال: وهذا أبلغ في مدحه وأكمل معنى، فلو أريد معنى الفاعل لسمي «الحماد» أي الكثير الحمد، فإنه ﷺ كان أكثر الناس حمداً لربه، فلو كان اسمه أحمد باعتبار حمده لربه لكان الأولى به الحماد، كما سميت بذلك أمته. وأيضاً فإن هذين الإسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحمودة التي لأجلها استحق أن يسمى محمداً وأحمد.

وقال القاضي عياض ـ في باب تشريفه تعالى له عليه الصلاة والسلام بما سماه به من أسمائه الحسنى ـ: أحمد بمعنى أكبر، من حَمِد، وأجل: من حُمِد.

ثم إن في إسمه «محمد» خصائص:

منها: كونه على أربعة أحرف ليوافق اسم الله تعالى اسم محمد، فإن عدد الجلالة على أربعة أحرف كمحمد.

ومنها: أنه قيل: إن مما أكرم الله به الآدمي أن كانت صورته على شكل كتب هذا اللفظ، فالميم الأول رأسه، والحاء جناحاه، والميم سرته والدال رجلاه. قيل: ولا يدخل النار من يستحق دخولها ـ أعاذنا الله منها ـ إلا ممسوخ الصورة إكراماً لصورة اللفظ.

حكاهما ابن مرزوق، والأول: ابن العماد في كتاب كشف الأسرار.

ومنها: أنه تعالى اشتقه من اسمه «المحمود» كما قال حسان بن ثابت:

| | |
|---|---|
| أغر عليه للنبوة خاتم | من الله من نور يلوح ويشهد |
| وضم الإله اسم النبي إلى اسمه | إذا قال في الخمس المؤذن أشهد |
| وشق له من اسمه ليجله | فذو العرش محمود وهذا محمد |

وأخرج البخاري في تاريخه الصغير من طريق علي بن زيد قال: كان أبو طالب يقول:

وشـق لـه مـن اسمـه ليجلـه ... فـذو العـرش محمـود وهـذا محمـد

وقد سماه الله تعالى بهذا الاسم قبل الخلق بألفي ألف عام، كما ورد من حديث أنس بن مالك، من طريق أبي نعيم في مناجاة موسى.

وروى ابن عساكر عن كعب الأحبار قال: إن الله أنزل على آدم عصياً بعدد الأنبياء والمرسلين. ثم أقبل على ابنه شيث فقال: أي بني، أنت خليفتي من بعدي، فخذها بعمارة التقوى، والعروة الوثقى، وكلما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد، فإني رأيت اسمه مكتوباً على ساق العرش، وأنا بين الروح والطين، ثم إني طفت السموات فلم أر في السماوات موضعاً إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه، وإن ربي أسكنني الجنة فلم أرَ في الجنة قصراً ولا غرفة إلا إسم محمد مكتوباً عليه، ولقد رأيت اسم محمد مكتوباً على نحور الحور العين، وعلى ورق قصب آجام الجنة، وعلى ورق شجرة طوبى، وعلى ورق سدرة المنتهى، وعلى أطراف الحجب، وبين أعين الملائكة، فأكثر ذكره فإن الملائكة تذكره في كل ساعاتها.

بـدا مجـده مـن قبـل نشـأة آدم ... فـأسمـاؤه فـي العـرش مـن قبـل تكتـب

وروينا في جزء الحسن بن عرفة[1] من حديث أبي هريرة عنه ﷺ قال: لما عرج بي إلى السماء ما مررت بسماء إلا وجدت ـ أي علمت ـ اسمي فيها مكتوباً: محمد رسول الله، وأبو بكر خلفي.

ووجد على الحجارة القديمة مكتوب: محمد تقي مصلح أمين. ذكره في الشفاء.

وعلى الحجر بالخط العبراني: باسمك اللهم، جاء الحق من ربك بلسان عربي مبين، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكتبه موسى بن عمران. ذكره ابن ظفر في «البشر» عن معمر عن الزهري.

وشوهد ـ كما ذكره في الشفاء ـ في بعض بلاد خراسان مولود ولد على أحد جبينيه مكتوب: لا إله إلا الله، وعلى الآخر: محمد رسول الله.

وببلاد الهند ورد أحمر مكتوب عليه بالأبيض: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وذكر العلامة ابن مرزوق عن عبد الله بن صوحان: عصفت بنا ريح، ونحن في

---

(١) هو الحسن بن عرفة. أبو علي العبدي. (١٥٠ ـ ٢٥٧ هـ). مؤدب من رجال الحديث. توفي بسامراء. الأعلام ٢/١٩٩ شذرات الذهب ٢/١٣٦.

لجج بحر الهند، فأرسينا في جزيرة، فرأينا فيها ورداً أحمر زكي الرائحة طيب الشم وفيه مكتوب بالأبيض، لا إله إلا الله محمد رسول الله، ووورداً أبيض مكتوب عليه بالأصفر: براءة من الرحمن الرحيم إلى جنات نعيم، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وفي تاريخ ابن العديم عن علي بن عبد الله الهاشمي الرقي: أنه وجد ببعض قرى الهند وردة كبيرة طيبة الرائحة سوداء، عليها مكتوب بخط أبيض: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق. قال فشككت في ذلك وقلت: إنه معمول، فعمدت إلى وردة لم تفتح فكان فيها مثل ذلك، وفي البلد منه شيء كثير وأهل تلك القرية يعبدون الحجارة، لايعرفون الله تعالى.

وقال عبد الله بن مالك: دخلت بلاد الهند، فسرت إلى مدينة يقال لها: نميلة ـ أو ثميلة ـ فرأيت شجرة كبيرة تحمل ثمراً كاللوز، له قشر. فإذا كسرت ثمرته خرج منها ورقة خضراء مطوية مكتوب عليها بالحمرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأهل الهند يتبركون بها ويستسقون بها إذا منعوا الغيث. حكاه القاضي أبو البقاء بن الضياء في منسكه.

وفي كتاب روض الرياحين لليافعي[1] عن بعضهم أنه وجد ببلاد الهند شجرة تحمل ثمراً كاللوز، له قشر إذا كسر خرجت منه ورقة خضراء طرية مكتوب فيها بالحمرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله. كتابة جلية وهم يتبركون بها. قال: فحدثت بذلك أبا يعقوب الصباء فقال: ما أستعظم هذا، كنت صياداً على نهر الأبلة فاصطدت سمكة، على جنبها الأيمن: لا إله إلا الله، وعلى جنبها الأيسر: محمد رسول الله، فلما رأيتها قذفتها في الماء احتراماً لها.

وعن بعضهم ـ مما ذكره ابن مرزوق في شرحه لبردة الأبوصيري ـ أنه أتي بسمكة فرأى في إحدى شحمتي أذنها لا إله إلا الله، وفي الأخرى: محمد رسول الله.

وعن جماعة: أنهم وجدوا بطيخة صفراء فيها خطوط شتى بالأبيض خلقة، ومن جملة الخطوط كتب بالعربي في أحد جنبيها: الله، وفي الآخر: عز أحمد، بخط بين لا يشك فيه عالم بالخط.

وأنه وجد سنة تسع أو قال: سنة سبع ـ بالموحدة ـ وثمانمائة حبة عنب مكتوب فيها بخط بارع بلون أسود: محمد.

---

(١) هو عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي عفيف الدين. (٦٩٨ ـ ٧٦٨ هـ). مؤرخ باحث متصوف شافعي. توفي بمكة. الأعلام ٤/ ٧٢. الدرر الكامنة ٢/ ٢٤٧ رقم الترجمة (٢١٢٠) شذرات الذهب ٦/ ٢١٠. معجم المطبوعات (١٩٥٢). طبقات الشافعية ٦/ ١٠٣ مفتاح السعادة ١/ ٢١٧.

وفي كتاب «النطق المفهوم» لابن طغربك السياف، عن بعضهم أنه رأى في جزيرة شجرة عظيمة لها ورق كبير طيب الرائحة، مكتوب فيه بالحمرة والبياض في الخضرة كتابة بينة واضحة خلقة ابتدعها الله بقدرته، في الورقة ثلاثة أسطر، الأول: لا إله إلا الله، والثاني: محمد رسول الله، والثالث: إن الدين عند الله الإسلام.

قال ابن قتيبة: ومن أعلام نبوته ﷺ أنه لم يسم قبله أحد باسمه «محمد» صيانة من الله تعالى لهذا الاسم، كما فعل بيحيى، إذ لم يجعل له من قبل سميا، وذلك أنه تعالى سماه به في الكتب المتقدمة، وبشر به الأنبياء، فلو جعل اسمه مشتركاً فيه لوقعت الشبهة، إلا أنه لما قرب زمنه وبشر أهل الكتاب بقربه سمى قوم أولادهم بذلك رجاء أن يكون هو هو، والله أعلم حيث يجعل رسالته:

ما كل من زار الحمى سمع الندا ... من أهله أهلا بذاك الزائر

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد عدهم القاضي عياض: ستة، ثم قال: لا سابع لهم.[1]

وذكر أبو عبد الله بن خالويه[2] في كتاب «ليس»، والسهيلي في «الروض»: أنه لا يعرف في العرب من تسمى محمداً قبل النبي ﷺ إلا ثلاثة.

قال الحافظ بن حجر: وهو حصر مردود، والعجب أن السهيلي متأخر الطبقة عن عياض، ولعله لم يقف على كلامه.

قال: وقد جمعت أسماء من تسمى بذلك في جزء مفرد فبلغوا نحو العشرين، مع تكرير في بعضهم، ووهم في بعض، فيتلخص منهم خمسة عشر نفساً:

وأشهرهم: محمد بن عدي بن ربيعة بن سواءة بن جشم بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي السعدي. ومنهم: محمد بن أحيحة ـ بضم الهمزة وفتح المهملة ـ ابن الجلاح ـ بضم الجيم وتخفيف اللام آخره مهملة ـ الأوسي.

ومحمد بن أسامة بن مالك بن حبيب بن العنبر.

ومحمد بن البراء ـ وقيل: البر ـ بن طريف بن عتوارة بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة البكري العتواري.

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٣٠.

(٢) هو الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله. لغوي نحوي. توفي في حلب سنة (٣٧٠ هـ). الأعلام ٢/ ٢٣١. وفيات الأعيان ١/ ١٥٧. معجم الأدباء ٣/ ٩٩ رقم الترجمة (٣٤١). طبقات المفسرين ١/ ١٥١ رقم الترجمة (١٤٥). مرآة الجنان ٢/ ٣٩٤ لسان الميزان ٢/ ٢٦٧.

ومحمد بن الحارث بن حديج بن حويص.
ومحمد بن حرماز بن مالك اليعمري.
ومحمد بن حمران بن أبي حمران، ربيعة بن مالك الجعفي المعروف بالشويعر.
ومحمد بن خزاعي بن علقمة بن حرابة السلمي، من بني ذكوان.
ومحمد بن خولى الهمداني.
ومحمد بن سفيان بن مجاشع..
ومحمد بن اليحمد الأزدي.
ومحمد بن يزيد بن عمرو بن ربيعة.
ومحمد بن الأسيدي.
ومحمد الفقيمي. ولم يدركوا الإسلام إلا الأول ففي سياق خبره ما يشعر بذلك، وإلا الرابع فهو صحابي جزماً[1].

وفيمن ذكره عياض: محمد بن مسلمة الأنصاري. وليس ذكره بجيد، فإنه ولد بعد النبي ﷺ بأزيد من عشرين سنة، لكنه قد ذكر تلو كلامه المتقدم: محمد بن يحمد - الماضي - فصار من عنده ستة لا سابع لهم. انتهى.

وأما اسمه عليه الصلاة والسلام «محمود» فاعلم أن من أسماء الله تعالى الحميد، ومعناه: المحمود، لأنه تعالى حمد نفسه، وحمده عباده، وقد سمى الرسول ﷺ بمحمود، وكذا وقع اسمه في زبور داود[2].

وأما «الماحي» ففسر في الحديث بمحو الكفر، ولم يمح الكفر بأحد من الخلق ما محي بالنبي ﷺ، فإنه بعث وأهل الأرض كلهم كفار، ما بين عابد أوثان ويهود ونصارى ضالين وصابئة ودهرية لا يعرفون ربا ولا معاداً، وبين عباد الكواكب وعباد النار، وفلاسفة لا يعرفون شرائع الأنبياء ولا يقرون بها، فمحاها برسوله، حتى أظهر دينه على كل دين، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار، ولما كانت البحار هي الماحية للأدران كان إسمه عليه الصلاة والسلام فيها الماحي.

وأما «الحاشر» ففسر أيضاً في الحديث بأنه الذي يحشر الناس على قدمه، أي يقدمهم وهم خلفه، وقيل على سابقته، وقيل: قدامه وحوله، أي يجتمعون إليه في القيامة. وقد كان حشره لأهل الكتاب: إخراجه لهم من حصونهم وبلادهم. من دار هجرته إلى حيث أذاقهم الله من شدة الحشر ما شاء في دار الدنيا إلى ما اتصل لهم بذلك في برزخهم.

---

(١) أي محمد بن البراء وعده في الإصابة من الصحابة ٦/ ١٩٠ رقم الترجمة (٨٤٩٨).
(٢) انظر الشفا ١/ ٢٣٦.

وهـو أول مـن تنشـق عنـه الأرض فيحشـر النـاس علـى أثـره، وإليـه يلجـؤون فـي محشرهم، وقيل: على سببه.

وأما «العاقب» فهو الذي جاء عقب الأنبياء، فليس بعده نبي، لأن العاقب هو الآخر، أي: عقب الأنبياء، وقيل: وهو اسمه عليه الصلاة والسلام في النار، فإذا جاء ـ لحرمة شفاعته ـ خمدت النار وسكنت، كما روي أن قوماً من حملة القرآن يدخلونها فينسيهم الله تعالى ذكر محمد ﷺ حتى يذكرهم جبريل، فيذكرونه فتخمد النار وتنزوي عنهم.

وأما «المقفي» فكذلك، أي: قفا آثار من سبقه من الرسل، وهي لفظة مشتقة من «القفو» يقال: قفاه يقفوه إذا تأخر عنه، ومنه قافية الرأس، وقافية البيت، فالمقفي المقفي: الذي قفا من قبله من الرسل فكان خاتمهم وآخرهم.

وأما «الأول» فلأنه أول النبيين خلقاً ـ كما مر ـ وكما أنه أول في البدء فهو أول في العود، فهو أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يدخل الجنة، وهو أول شافع وأول مشفع، كما كان في أوليات البدء في عالم الذر أول مجيب، إذ هو أول من قال: بلى، إذ أخذ ربه الميثاق على الذرية الآدمية، فأشهدهم على أنفسهم: (**ألست بربكم**) [الأعراف: ١٧٢] فهو ﷺ الأول في ذلك كله على الإطلاق.

وأما «الآخر» فلأنه آخر الأنبياء في البعث كما في الحديث.

وأما «الظاهر» فلأنه ظهر على جميع الظاهرات ظهوره، وظهر على الأديان دينه، فهو الظاهر في وجوه الظهور كلها.

وأما «الباطن» فهو المطلع على بواطن الأمور بواسطة ما يوحيه الله تعالى إليه.

وأما «الفاتح الخاتم» ففي حديث الإسراء عن أبي هريرة من طريق الربيع بن أنس قوله تعالى له: «وجعلتك فاتحاً وخاتماً». وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً وفي الإسراء، قوله ﷺ: «**وجعلني فاتحاً وخاتماً**» فهو الذي فتح الله به باب الهدى بعد أن كان مرتجاً، وفتح به أعينا عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وفتح أمصار الكفر، وفتح به أبواب الجنة، وفتح به طرق العلم النافع والعمل الصالح، والدنيا والآخرة، والقلوب والأسماع والأبصار والإبصار.

وقد يكون المراد: المبدأ المقدم في الأنبياء، والخاتم لهم، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث**».

وأما «الرؤوف الرحيم» ففي القرآن ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما**

عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨] وهو فعول من الرأفة، وهي أرق من الرحمة، قاله أبو عبيدة، والرحيم فعيل من الرحمة، وقيل رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين.

وأما «الحق المبين» فقال تعالى: ﴿حتى جاءهم الحق ورسول مبين﴾ [الزخرف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ [الحجر: ٨٩] وقال تعالى ﴿قد جاءكم الحق من ربكم﴾ [يونس: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ [الأنعام: ٥]، قبل [المراد]: محمد عليه السلام، وقيل القرآن، ومعناه هنا ضد الباطل، والمتحقق صدقه وأمره، والمبين البين أمره ورسالته، أو المبين عن الله ما بعثه به، كما قال تعالى: ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ [النحل: ٤٤].

وأما «المؤمن» فقال تعالى: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ [التوبة: ٦١] أي يصدق، وقال ﷺ: «أنا أمنة لأصحابي»[١] فهذا بمعنى المؤمن.

وأما «المهيمن» فقال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾ [المائدة: ٤٨] قال ابن الجوزي في زاد المسير - إن ابن نجيح روى عن مجاهد (ومهيمناً عليه) قال: محمد مؤتمن على القرآن، قال: فعلى قوله في الكلام تقدير محذوف، كأنه قال: وجعلناك يا محمد مهيمناً عليه، وسماه العباس بن عبد المطلب في شعره مهيمناً في قوله:

حتى احتوى بيتك المهيمن من ... خندق علياء تحتها النطق

وروي: ثم اغتدى بيتك المهيمن، قيل أراد: يا أيها المهيمن، القتبي والإمام أبو القاسم القشيري.

وأما «العزيز» فمعناه: جلالة القدر، أو الذي لا نظير له، أو المعز لغيره، وقد استدل القاضي عياض لهذا الاسم بقوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله﴾ [المنافقون: ٨] أي فجائز أن يوصف النبي ﷺ بالعزيز والمعز، لحصول العز له. ولقائل أن يقول: هذا اللفظ أيضاً للمؤمنين لشمول العطف إياهم، فلا اختصاص للنبي ﷺ، والغرض اختصاصه، قال اليمني: وعجبت من القاضي كيف خفي عليه مثل هذا: ويجاب: باختصاصه عليه الصلاة والسلام برتبة من العزة ليست لغيره والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (٢٠٧) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٣٩٩. وفي مناهل الصفا ٣٨ رقم الحديث (٥٠) وفي الشفا ١/ ١١٩.

وأما «العالم» و«العليم» و«العلم» و«معلم أمته» فقد قال تعالى: **﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾** [النساء: ١١٣] وقال: **﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾** [البقرة: ١٥١].

وأما «الخبير» فمعناه: المطلع على كنه الشيء، العالم بحقيقته، وقيل: المخبر، قال الله تعالى: **﴿الرحمن فاسأل به خبيراً﴾** [الفرقان: ٥٩]. قال القاضي بكر بن العلاء[١] فيما ذكره في الشفاء ـ: المأمور بالسؤال غير النبي ﷺ، والمسؤول الخبير هو النبي ﷺ. وقال غيره: بل السائل النبي ﷺ والمسؤول الله عز وجل، فالنبي ﷺ خبير بالوجهين المذكورين، قيل لأنه عليه الصلاة والسلام عالم على غاية من العلم بما أعلمه الله من مكنون علمه، وعظيم معرفته، مخبر لأمته بما أذن له في إعلامهم به. انتهى.

وأما «العظيم» فقال الله تعالى في شأنه: **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾** [القلم: ٤] ووقع في أول سفر من التوراة عن إسماعيل: وسيلد عظيماً لأمة عظيمة. فهو ﷺ عظيم وعلى خلق عظيم.

وأما «الشاكر» و«الشكور» فقد وصف ﷺ نفسه بذلك فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**» أي: أأترك تهجدي فلا أكون عبداً شكوراً؟! والمعنى: أن المغفرة سبب لكون التهجد شكراً، فكيف أتركه؟ وعلى هذا فتكون «الفاء» للسببية. وقال القاضي عياض: شكوراً أي: معترفاً بنعم ربي، عالماً بقدر ذلك، مثنياً عليه، مجهداً نفسي في الزيادة من ذلك، لقوله تعالى: **﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾** [إبراهيم: ٧].

وأما «الشكار» فهو أبلغ من شاكر، وفي حديث ابن ماجه أنه ﷺ كان من دعائه: «**رب اجعلني لك شكاراً**»[٢].

وأما «الكريم» و«الأكرم» و«أكرم ولد آدم» فسماه الله تعالى به في قوله تعالى: **﴿إنه لقول رسول كريم﴾** [الحاقة: ٤٠] أي محمد ﷺ، وليس المراد به جبريل، لأنه تعالى لما قال: **﴿إنه لقول رسول كريم﴾** ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر ولا كاهن، والمشركون لم يكونوا يصفوا جبريل بذلك، فتعين أن يكون المراد بالرسول الكريم هنا محمداً ﷺ،

---

(١) هو بكر بن محمد بن العلاء كنيته أبو الفضل فقيه مالكي من حفاظ الحديث. توفي سنة (٣٤٤ هـ) بمصر. انظر شذرات الذهب ٢/٣٦٦، ترتيب المدارك ٣/ ٢٩٠، حسن المحاضرة ١/ ٤٥٠، الديباج المذهب صفحة (١٠٠) والعبر ٢/ ٢٦٣.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٢٢٧. وفي إتحاف السادة المتقين ٩/ ٤٩. وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٤١٤).

كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه في مقصد آي التنزيل. وقال عليه السلام: «**أنا أكرم ولد آدم**»[1].

وأما «الولي» و«المولى» فقال عليه الصلاة والسلام: «**أنا ولي كل مؤمن**»[2].

وأما «الأمين» فقد كان عليه الصلاة والسلام يعرف به، وشهر به قبل النبوة وبعدها، وهو أحق العالمين بهذا الإسم، فهو أمين على وحيه ودينه، وهو أمين من في السماء والأرض.

وأما «الصادق» و«المصدوق» فقد ورد في الحديث تسميته بهما، ومعناهما غير خفي، وكذلك «**الأصدق**». وروي أنه عليه الصلاة والسلام لما كذبه قومه حزن فقال له جبريل: إنهم يعلمون أنك صادق.

وأما «**الطيب**» و«ماذ ماذ» ـ بميم ثم ألف ثم ذال معجمة منونة، ثم ميم ثم ألف ثم ذال معجمة ـ كذا رأيته لبعض العلماء، ونقل العلامة الحجازي[3] في حاشيته على الشفاء عن السهيلي: ضم الميم وإشمام الهمزة ضمة بين الواو والألف ممدود، وقال: نقلته عن رجل أسلم من علماء بني إسرائيل، وقال معناه: طيب طيب، ولا ريب أنه ﷺ أطيب الطيبين، وحسبك أنه كان يؤخذ من عرقه ليتطيب به، فهو ﷺ طيب الله الذي نفحه في الوجود، فتعطرت به الكائنات وسمت، واغتذت به القلوب فطابت، وتنسمت به الأرواح فنمت.

وأما «الطاهر» و«المطهر» و«المقدس» أي المطهر من الذنوب، كما قال تعالى: ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ [الفتح: ٢] أو الذي يُتطهر به من الذنوب، ويتنزه بأتباعه عنها، كما قال الله تعالى: ﴿**ويزكيهم**﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال: ﴿**ويخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾ [المائدة: ١٦] أو يكون مقدساً بمعنى مطهراً من الأخلاق الذميمة والأوصاف الدنية.

---

(١) ذكر في مناهل الصفا (٢٩). وفي الدر المنثور ٦/ ١١٩. وفي تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٣. وفي تفسير ابن كثير ٧/ ١٢ . وفي زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٢٤٥ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٩٦. وفي دلائل النبوة لابن نعيم ١/ ١٣.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٣٧١. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٢١٤ وفي السند لابن أبي عاصم ٢/ ٦٤٤ . وفي الأسماء والصفات للبيهقي ٨٢. وفي مناهل الصفا (٣٦) وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٤٦٧.

(٣) هو أحمد بن محمد بن علي الأنصاري الخزرجي شهاب الدين المعروف بالحجازي (٧٩٠ ـ ٨٧٥ هـ). أديب شاعر. مات في (القاهرة). الأعلام ١/ ٢٣٠. الضوء اللامع ٢/ ١٤٧ رقم الترجمة (٤١٦). معجم المطبوعات (١١٥١) شذرات الذهب ٧/ ٣١٩ وكشف الظنون (٣٨٨).

وأما «العفو» و«الصفوح» فمعناهما واحد، وقد وصفه الله تعالى بهما في القرآن والتوراة والإنجيل، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي عند البخاري (ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح) وأمره تعالى بالعفو فقال: ﴿**خذ العفو**﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال: ﴿**فاعف عنهم واصفح**﴾ [المائدة: ١٣].

وأما «العطوف» فهو الشفوق، وسمي به عليه الصلاة والسلام لكثرة شفقته على أمته، ورأفته بهم.

وأما «النور» فقال تعالى: ﴿**قد جاءكم من الله نور**﴾ [المائدة: ١٥] قيل: محمد ﷺ وقيل القرآن، فهو نور الله الذي لا يطفأ.

وأما «السراج» فسماه الله تعالى به في قوله: ﴿**وسراجاً منيراً**﴾ [الأحزاب: ٤٦] لوضوح أمره، وبيان نبوته، وتنوير قلوب المؤمنين والعارفين بما جاء به، فهو نيّر في ذاته منير لغيره، فهو السراج الكامل في الإضاءة، ولم يوصف بالوهاج كالشمس، لأن المنير الذي ينير من غير إحراق بخلاف الوهاج.

وأما «الهادي» فبمعنى الدلالة والدعاء، قال الله تعالى: ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾ [الشورى: ٥٢] وقال تعالى فيه: ﴿**وداعياً إلى الله بإذنه**﴾ [الأحزاب: ٤٦].

وأما «البرهان» فقال تعالى: ﴿**يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم**﴾ [النساء: ١٧٤] قيل: هو محمد ﷺ، وقيل معجزاته وقيل القرآن.

وأما «النقيب» فروي أنه ﷺ لما مات نقيب بني النجار أبو أمامة أسعد بن زرارة وجد عليه ﷺ ولم يجعل عليهم نقيباً بعده، وقال: أنا نقيبكم فكانت من مفاخرهم، والنقيب هو شاهد القوم وناظرهم وضمينهم.

وأما «الجبار» فسمي به في مزامير داود، في قوله في مزمور أربعة وأربعين. تقلد أيها الجبار سيفك، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، لأنه الجبار الذي جبر الخلق بالسيف على الحق، وصرفهم عن الكفر جبراً. قال القاضي عياض: وقد نفى الله تعالى عنه جبرية التكبر التي لا تليق به فقال: ﴿**وما أنت عليهم بجبار**﴾ [ق: ٤٥].

وأما «الشاهد» و«الشهيد» فسماه الله بهما في قوله: ﴿**إنا أرسلناك شاهداً**﴾ [الأحزاب: ٤٥] أي على من بعثت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم، ونجاتهم وضلالهم. وقوله: ﴿**ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾ [البقرة: ١٤٣] روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله ببينة التبليغ ـ وهو أعلم بهم ـ إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتهم؟ فيقولون

علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته، فيشهد بعدالتهم، وهذه الشهادة وإن كانت لهم لكن لما كان الرسول كالرقيب المهيمن على أمته عدى بـ«على» وقدمت الصلة للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. قاله البيضاوي.

وأما «الناشر» فسمي به لأنه نشر الإسلام وأظهر شرائع الأحكام.

وأما «المزمل» فأصله المتزمل، فأدغمت التاء في الزاي وسمي به، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يفرق من جبريل ويتزمل بالثياب أول ما جاءه، وقيل: أتاه وهو في قطيفة، وقال السدي معناه: يا أيها النائم، قال: وكان متلففاً في ثياب نومه، وعن ابن عباس: يعني المتزمل بالقرآن، وعن عكرمة بالنبوة.

وقيل من الزمل، بمعنى الحمل، ومنه الزاملة، أي: المتحمل بأعباء النبوة، وعلى هذا يكون التزمل مجازاً.

وقال السهيلي: ليس «المزمل» باسم من أسمائه يعرف به، وإنما هو مشتق من حالته التي كان التبس بها حالة الخطاب، والعرب إذا قصدت الملاطفة بالمخاطب بترك المعاتبة نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه ـ وقد نام ولصق جنبه بالتراب ـ قم أبا تراب إشعاراً بأنه ملاطف له، فقوله: ﴿**يا أيها المزمل**﴾ [المزمل: ١] فيه تأنيس وملاطفة.

وأما ما روي عن عائشة أنها قالت: كان متزملاً مرطا طوله أربعة عشر ذراعاً، نصفه علي وأنا نائمة ونصفه عليه، فكذب صراح، لأن نزول يا أيها المزمل بمكة في أول مبعثه، ودخوله بعائشة كان بالمدينة.

وأما «المدثر» فأصله: المتدثر، فأدغمت التاء في الدال. روي أنه ﷺ قال: «**كنت بحراء فنوديت فنظرت عن يميني وشمالي. فلم أر شيئاً فنظرت فوقي فإذا هو على عرش بين السماء والأرض**» ـ يعني الملك الذي ناداه ـ «**فرعبت فرجعت إلى خديجة فقلت دثروني دثروني**»، فنزل جبريل وقال: يا أيها المدثر[١]. وعن عكرمة: يا أيها المدثر بالنبوة وأثقالها قد تدثرت هذا الأمر فقم به.

وقيل: ناداه بالمزمل والمدثر في أول أمره، فلما شرع خاطبه الله تعالى بالنبوة والرسالة.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير سورة (٧٤) باب (١) رقم الحديث (٤٩٢٢ ـ ٤٩٢٥). وفي صحيح مسلم كتاب الإيمان رقم الحديث (٢٥٥ ـ ٢٥٧) وفي سنن الترمذي كتاب التفسير باب (٧٠) رقم الحديث (٣٣٢٥). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/٣٠٦. وفي المستدرك للحاكم ٢/٥٠٨.

وأما «طه» فروى النقاش عنه عليه الصلاة والسلام: لي في القرآن سبعة أسماء فذكر منها طه. وقيل: هو اسم الله، وقيل معناه: يا رجل، وقيل: يا إنسان. وقيل: يا طاهر يا هادي يعني النبي ﷺ، وهو مروي عن الواسطي[1]، وقيل معناه: يا مطمع الشفاعة للأمة، ويا هادي الخلق إلى الملة، وقيل: الطاء في الحساب بتسعة والهاء بخمسة وذلك أربعة عشر فكأنه قال: يا بدر، وهذه من محاسن التأويل، لكن المعتمد أنهما من أسماء الحروف.

وأما «يس» فحكى أبو محمد مكي أنه روى عنه ﷺ أنه قال: لي عند ربي عشرة أسماء ذكر منها «يس». وقد قيل معناه: يا إنسان بلغة طيء، وقيل بالحبشية، وقيل بالسريانية، وأصله كما قاله البيضاوي وابن الخطيب وغيرهما: يا أنيسين: فاقتصر على شطره لكثرة النداء به وقيل ياسين. لكن تعقب بأنه لا يعلم أن العرب قالوا في تصغيره أنيسين، وأن الذي نقل عنهم في تصغيره أنيسيان، بياء بعدها ألف، وبأن التصغير من التحقير الممتنع في حق النبوة لنصهم على أن التصغير لا يدخل في الأسماء المعظمة شرعاً. ويأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله تعالى في الفصل الرابع من النوع الخامس من أنواع المقصد السادس. وعن ابن الحنفية: معناه يا محمد، وعن أبي العالية: يا رجل، وعن أبي بكر الوراق: يا سيد البشر، وعن جعفر الصادق: ياسيد مخاطبة له عليه الصلاة والسلام، وفيه من تعظيمه على تفسير أنه يا سيد ما فيه.

وأما «الفجر» فقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿**والفجر وليال عشر**﴾ [الفجر: ١ و ٢] الفجر محمد ﷺ، لأن منه تفجر الإيمان.

وهو تأويل غريب لم ير لغيره، والصواب أنه الفجر المفسر بالصبح في قوله تعالى: ﴿**والصبح إذا تنفس**﴾ [التكوير: ١٨].

وأما «القوي» فقال الله تعالى: ﴿**ذي قوة عند ذي العرش مكين**﴾ [التكوير: ٢٠] قيل محمد، وقيل جبريل عليهما الصلاة والسلام، وسيأتي في المقصد السادس ما في ذلك.

وأما ما قاله ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿**ق والقرآن المجيد**﴾ [ق: ١] أقسم بقوة قلب حبيبه محمد ﷺ حيث حمل الخطاب والمشاهدة ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله، فلا يخفى ما فيه.

وأما «النجم» فعن جعفر بن محمد بن الحسين في تفسير قوله تعالى: ﴿**والنجم**﴾

---

(١) هو محمد بن موسى الواسطي أبو بكر. متصوف. مات (بمرو) سنة (٣٣١ هـ). الأعلام ٧/١١٧. طبقات الصوفية ٣٠٢.

[النجم: ١] أنه محمد ﷺ ﴿إذا هوى﴾ إذا نزل من السماء ليلة المعراج. وحكى السلمي في قوله: تعالى ﴿والسماء والطارق، وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب﴾ [الطارق: ١ ـ ٣] أن النجم هنا أيضاً محمد ﷺ.

والصحيح: أن المراد به النجم على ظاهره، وسمي به عليه السلام لأنه يهتدىٰ به في طرق الهدى كما يهتدىٰ بالنجم.

وأما «الشمس» فسمي بها ﷺ لكثرة نفعه، وعلو رفعته، وظهور شريعته، وجلالة قدره وعظم منزلته، لأنه لا يحاط بكماله، حتى لا يسع الرائي له أن ينظر إليه ملء عينيه إجلالاً له، كما أن الشمس في الرتبة أرفع من غالب الكواكب لأنها في السماء السادسة والانتفاع بها أكثر من غيرها، كما لا يخفى، ولا يدركها البصر لكبر جرمها، وأيضاً فلما كان سائر الكواكب تستمد من نورها ناسب تسميته عليه الصلاة والسلام بها، لأن نور الأنبياء مستمد من نوره.

وأما «النبي» و«الرسول» فمن خصائصه عليه الصلاة والسلام أنه خاطبه تعالى بهما في القرآن دون سائر أنبيائه.

ثم إن النبوءة بالهمز مأخوذة من النبأ، وهو الخبر، وقد لا يهمز تسهيلاً. أي أن الله أطلعه على غيبه وأعلمه أنه نبيه، فيكون نبياً منبأ، أو يكون مخبراً عما بعثه الله به ومنبئاً بما أطلعه الله عليه. وبغير الهمزة يكون مشتقاً من النبوة وهو ما ارتفع من الأرض، أي أن له رتبة شريفة ومكانة عند الله منيفة. قال الشيخ بدر الدين الزركشي في شرح البردة: وكان نافع يقرأ: النبيء ـ بالهمز ـ في جميع القرآن. والإختيار تركه.

وهو لغة النبي ﷺ، وقد جاء في الحديث أن رجلاً قال: يا نبيء الله ـ يعني بالهمز ـ فقال له: «**لست نبيء الله، ولكني نبي الله**»[1] فأنكر الهمز لأنه لم يكن من لغته عليه الصلاة والسلام.

وقال الجوهري والصاغاني: إنما أنكر لأن الأعرابي أراد: يا من خرج من مكة إلى المدينة، يقال: نبأت من أرض إلى أرض إذا خرجت منها إلى أخرى.

وتكلم جماعة من القراء في هذا الحديث: وقد رواه الحاكم في المستدرك عن أبي الأسود عن أبي ذر، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وفيما قاله نظر فإن فيه حسيناً الجعفي، كذا قاله بعضهم وليس من شرطهما. ورواه أبو عبيد: حدثنا محمد بن سعد عن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢١٣. وفي الدر المنثور ١/ ٧٣. وفي تفسير القرطبي ١/ ٤٣١ وفي كنز العمال (٣٢١٤٨).

حمزة الزيات عن حمران بن أعين أن رجلاً. . . الحديث، وهذا منقطع. انتهى.

والرسول: إنسان بعثه الله إلى الخلق بشريعة مجددة يدعو الناس إليها.

واختلف هل هما بمعنى أو بمعنيين؟

فقال بالأول قوم مستدلين بقوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي**﴾ [الحج: ٥٢] فأثبت لهما معاً الإرسال. وعلى هذا فلا يكون النبي إلا رسولاً، ولا الرسول إلا نبياً.

وقال آخرون بالثاني، وأنهما يجتمعان في النبوة التي هي الاطلاع على الغيب والإعلام بخواص النبوة أو الرفعة بمعرفة ذلك وحوز درجتها، وافترقا في زيادة الإرسال. وحجتهم من الآية نفسها: التفريق بين الاسمين، إذ لو كانا شيئاً واحداً لما حسن تكرارهما في الكلام البليغ، ويكون المعنىٰ: وما أرسلنا من نبي إلى أمة، أو نبي ليس بمرسل إلى أحد.

وذهب آخرون: إلى أن الرسول: من جاء بشرع مبتدأ، ومن لم يأت به نبي غير رسول وإن أمر بالإبلاغ والإنذار.

والصحيح: أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

نعم نوزع في هذا بأنه كلام يطلقه من لا تحقيق عنده، فإن جبريل عليه الصلاة والسلام رسول، وغيره من الملائكة المكرمين بالرسالة رسل لا أنبياء. فالانفصال عنه: بأن يقيد الفرق بين الرسول والنبي، بالرسول البشري.

ثم إن النبوة والرسالة ليستا ذاتاً للنبي ﷺ، ولا وصف ذات بل تخصيص الله إياه بذلك خلافاً للكرامية.

وقال القرافي، كما نقله عنه ابن مرزوق: يعتقد كثير أن النبوة مجرد الوحي، وهو باطل، لحصوله لمن ليس بنبي كمريم وليست نبية على الصحيح، مع أنه تعالى يقول: ﴿**فأرسلنا إليها روحنا**﴾ [مريم: ١٧] الآية، و﴿**إن الله يبشرك**﴾ [آل عمران: ٤٥]. وفي مسلم: بعث الله تعالى ملكاً لرجل على مدرجته وكان خرج في زيارة أخ له في الله تعالى، وقال له: إن الله يعلمك أنه يحبك لحبك لأخيك في الله[1] وليس بنبوة، لأنها عند المحققين: إيحاء الله لبعض بحكم إنساني يختص به كقوله: ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ [العلق: ١] فهذا تكليف يختص به في الوقت، فهذه نبوة لا رسالة، فلما نزل ﴿**قم فأنذر**﴾

---

(١) أخرجه مسلم كتاب البرّ رقم الحديث (٣٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٩٢.

[المدثر: ٢] كانت رسالة لتعلق هذا التكليف بغيره أيضاً، فالنبي كلف بما يخص به، والرسول بذلك، وتبليغ غيره، فالرسول أخص مطلقاً، انتهى.

وهل نبينا ﷺ رسول الآن؟ قال أبو الحسن الأشعري: هو ﷺ في حكم الرسالة، وحكم الشيء يقوم مقام أصل الشيء، ألا ترى أن العدة تدل على ما كان من أحكام النكاح، ويأتي لذلك مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

وأما «المذكر» فقال تعالى: ﴿**فذكر إنما أنت مذكر**﴾ [الغاشية: ٢١].

وأما «البشير» و«المبشر» و«النذير» و«المنذر» فقال تعالى: ﴿**إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً**﴾ [الأحزاب: ٤٥] أي مبشراً لأهل طاعته بالثواب، وقيل بالمغفرة، ونذيراً لأهل معصيته بالعذاب، وقيل: محذراً من الضلالات.

وأما «المبلغ» فقال تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك**﴾ [المائدة: ٦٧].

وأما «الحنيف» فقال تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً**﴾ [الروم: ٣٠] كذا قاله بعضهم.

وأما «نبي التوبة» فلأن الأمم رجعت لهدايته عليه السلام بعدما تفرقت بها الطرق إلى الصراط المستقيم.

وأما «رسول الرحمة» و«نبي الرحمة» و«نبي المرحمة» فقال الله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال تعالى: ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ [التوبة: ١٢٨] فبعثه تعالى رحمة لأمته، ورحمة للعالمين وروى البيهقي مرفوعاً «**إنما أنا رحمة مهداة**»[١] فرحم الله تعالى به الخلق مؤمنهم وكافرهم، وهذا الاسم من أخص أسمائه.

وقد كان حظ آدم من رحمته سجود الملائكة له تعظيماً إذ كان في صلبه، ونوح: خروجه من السفينة سالماً، وإبراهيم: كانت النار عليه برداً وسلاماً إذ كان في صلبه، فرحمته عليه الصلاة والسلام في البدء والختام والدوام لما أبقى الله له من دعوة الشفاعة، ولما كانت نبوته رحمة دائمة مكرّرة مضاعفة اشتق له من الرحمة اسم الرحمة.

وأما «نبي الملحمة والملاحم» وهي الحروب، فإشارة إلى ما بعث به من القتال

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ١/١٥٨. وفي مسند شهاب (١١٦٠ ـ ١١٦١) وفي تفسير ابن كثير ٥/٣٨١. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٨٠٠) وفي إتحاف السادة المتقين ٧/١٦٢ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١١/٥٠٤. وفي ميزان الإعتدال (٧٢١١) وفي لسان الميزان لابن حجر ٥/٢٣٣.

والسيف، ولم يجاهد نبي وأمته قط ما جاهد ﷺ وأمته، والملاحم التي وقعت وتقع بين أمته وبين الكفار لم يعهد مثلها قبله، فإن أمته يقاتلون الكفار في الأقطار على تعاقب الأعصار حتى يقاتلون الأعور الدجال.

وأما «صاحب القضيب» فهو السيف، كما وقع مفسراً به في الإنجيل قال: معه قضيب من حديد[1] يقاتل به، وأمته كذلك. وقد يحمل على أنه القضيب الممشوق الذي كان يمسكه[2].

وأما «صاحب الهراوة» فهي في اللغة: العصا، وقد كان ﷺ يمسك في يده القضيب كثيراً، وكان يمشي بين يديه بالعصا، وتغرز له في الأرض فيصلي إليها، قال القاضي عياض: وأراها العصا المذكورة في حديث الحوض: أذود الناس عنه بعصاي لأهل اليمن[3]. أي لأجلهم ليتقدموا، فلما كان ﷺ راعياً للخلق سائقاً لجميعهم إلى مواردهم كان صاحب الهراوة يرعى بها أهل الطواعية، وصاحب السيف يقد به من لا تزيده الحياة إلا شراً.

وأما «الضحاك» ـ بالمعجمة ـ فهو الذي يسيل دماء العدو في الحروب لشجاعته.

وأما «صاحب التاج» فالمراد به العمامة، ولم تكن حينئذٍ إلا للعرب، والعمائم تيجانها.

وأما «صاحب المغفر» فهو ـ بكسر الميم وسكون الغين المعجمة وفتح الفاء ـ زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، كان ﷺ يلبسه في حروبه.

وأما «قدم صدق» فقال قتادة والحسن وزيد بن أسلم في قوله تعالى: **﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾** [يونس: ٢] هو محمد ﷺ يشفع لهم، وعن أبي سعيد الخدري: هي شفاعة نبيهم محمد ﷺ هو شفيع صدق عند ربهم، وعن سهل بن عبد الله: هي سابقة رحمة أودعها في محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما «نعمة الله» فقال سهل في قوله تعالى: **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾** [النحل: ١٨] قال: نعمته بمحمد ﷺ، وقال: **﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾** [النحل:

---

(١) انظر المزامير ٢/ ٩.

(٢) انظر الشفاء للقاضي عياض ١/ ٢٣٤.

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٢٨١ ـ ٢٨٣ وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (١٧٩٩ ـ ٢٣٠١) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٤١٨ ـ وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/ ١٩٩. وفي التمهيد لابن عبد البر ٢/ ٢٩٥. وانظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٣٥.

٨٣] يعني يعرفون أن محمداً نبي ثم يكذبونه، وهذا مروي عن مجاهد والسدي وقال به الزجاج.[١]

وأما «الصراط المستقيم» فقال أبو العالية والحسن البصري في تفسير سورة الفاتحة: هو رسول الله وخيار أهل بيته وأصحابه. حكى الماوردي ذلك في تفسير ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ [الفاتحة: ٦] عن عبد الرحمن بن زيد.

وأما «العروة الوثقى» فحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿**فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾ [البقرة: ٢٥٦] الآية أنه محمد ﷺ.

وأما «ركن المتواضعين» فلأنه عمادهم، وقد ظهر عليه ﷺ من التواضع ما لم يظهر على غيره، فكان يرقع القميص، ويخصف النعل، ويقم البيت.

ووقع فيما ترجموه من كتاب شعياء مما يدل صريحاً في البشارة برسول الله ﷺ: ولا يميل إلى الهوى، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة بل يقوي الصديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفأ.

وأما «قثم» و«قثوم» ـ بالقاف والمثلثة ـ ففسره القاضي عياض بالجامع للخير، وقال ابن الجوزي مشتق من القثم، وهو الإعطاء يقال: قثم له من العطاء، يقثم، إذا أعطاه، وقد كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق ندى وأسخاهم يداً.

وأما «البارقليط» و«الفارقليط» ـ بالموحدة. وبالفاء بدلها، وفتح الراء والقاف. وبسكون الراء مع فتح القاف. وفتح الراء مع سكون القاف. وبكسر الراء وسكون القاف غير منصرف للعجمة والعلمية ـ فوقع في إنجيل يوحنا، ومعناه: روح الحق. وقال ثعلب[٢] الذي يفرق بين الحق والباطل،[٣] وفي نهاية ابن الأثير، في صفته عليه السلام، أن اسمه في الكتب السالفة «فارق ليطا» أي يفرق بين الحق والباطل، قال: ومنه

---

(١) هو ابراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج (٢٤١ ـ ٣١١ هـ) عالم بالنحو واللغة مات في بغداد. الأعلام ١/ ٤٠. ومعجم الأدباء ١/ ٨٢ رقم الترجمة (٩) تاريخ بغداد ٦/ ٨٩ وفيات الأعيان ١/ ١١ وهو فيه «إبراهيم بن محمد». إنباه الرواة ١/ ١٥٩.

(٢) هو أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء. أبو العباس المعروف بثعلب. (٢٠٠ ـ ٢٩١ هـ) إمام في النحو واللغة. راوية للشعر. محدث. حافظ. مات في بغداد. الأعلام ١/ ٢٦٧. تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٦٦ رقم الترجمة (٦٨٦). تاريخ بغداد ٥/ ٢٠٤. وفيات الأعيان ١/ ٣٠. الفهرست (٨٤). إنباه الرواة ١/ ١٣٨. مرآة الجنان ٢/ ٢١٩.

(٣) انظر الشفا ١/ ٢٣٤.

الحديث: محمد فرق بين الناس، أي يفرق بين المؤمنين والكافرين بتصديقه وتكذيبه.

وأما «حمطايا» ـ[1] فبفتح الحاء المهملة وسكون الميم ـ قال الهروي: أي حامي الحرم، وقال ابن الأثير في حديث كعب أنه قال في أسماء النبي ﷺ في الكتب السالفة: محمد وأحمد وحمياطا ـ يعني بالحاء المهملة ثم ميم ساكنة فمثناة تحتية فألف فطاء مهملة فألف ـ. قال أبو عمرو: سألت بعض من أسلم من اليهود عنه فقال: معناه يحمي الحرم من الحرام، ويوطىء الحلال.

وأما «أحيد» ـ وهو بهمزة مضمومة ثم حاء مهملة مكسورة ثم مثناة تحتية ساكنة ثم دال مهملة. كذا وجدته في بعض نسخ الشفاء المعتمدة. والمشهور ضبطه بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة وبفتح المثناة التحتية، وفي نسخة بفتحها وكسر الحاء وسكون المثناة ـ فقال النووي في كتابه تهذيب الأسماء واللغات: عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «**إسمي في القرآن محمد، وفي الإنجيل أحمد، وفي التوراة أحيد، وإنما سميت أحيد لأني أحيد عن أمتي نار جهنم**»[2].

وأما «المنحمنا» وهو بضم الميم وسكون النون وفتح الحاء المهملة وكسر الميم وتشديد النون الثانية المفتوحة، مقصور، وضبطه بعضهم بفتح الميمين، فمعناه بالسريانية محمد.

وأما «المشفح» ـ وهو بضم الميم وبالشين المعجمة وبالفاء المشددة المفتوحتين ثم حاء مهملة، وروي بالقاف بدل الفاء ـ ففي كتاب شعيا في البشارة به عليه السلام: يفتح العيون العور، والآذان الصم ويحيي القلوب، وما أعطيه لا أعطيه أحداً، مشفح يحمد الله حمداً جديداً، وهو بلغتهم السريانية الحمد.

وأما «مقيم السنة» ففي كتاب الشفاء: قال داود عليه الصلاة والسلام: اللهم ابعث لنا محمداً يقيم السنة بعد الفترة.

وأما «المبارك» فمبدأ الكون ونماؤه كائن من بركته المستمدة من بركة الله، ومن كمال بركته نبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام القليل ببركته حتى أشبع الجيش الكثير، وغير ذلك مما لمسه أو باشره، كما سيأتي ذلك إن شاء الله تعالى في مقصد معجزاته.

---

(١) وقيل: جمطايا: بجيم مفتوحة وميم مشددة مفتوحة وطاء مهملة بعدها ألف فمثناة تحتية فألف. راجع مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء ١/ ٢٣٤.

(٢) ذكر في تنزيه الشريعة لابن عراق ١/٣٣٨. وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (٣٥٩). وفي ميزان الاعتدال (٧٣٩). وفي لسان الميزان لابن حجر ١/١٠٩٦. وفي تذكرة الموضوعات للفتني ٨٦.

وأما «المكين» فهو ﷺ المكين بعلو مكانته عند ربه تعالى، ومن ذلك أن قرن سبحانه ذكره بذكره فما أذن باسم أحد سواه، ولا قرن اسم أحد مع اسمه إلا إياه، فأعلن له في السابقة على ساق العرش وأذن به في اللاحقة على منار الإيمان.

وأما «الأمي» فهو من أخص أسمائه، وقال تعالى: ﴿**ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**﴾ [الشورى: ٥٢]، فهو تعالى يقرئه ما كتبه بيده، وما خطته أقلامه العلمية في ألواح قدسه الأقدسية، فيغنيه بذلك عن أن يقرأ ما تكتب الخلق.

وأما «المكي» فقد كان بداية ظهوره عليه الصلاة والسلام في الأرض في مكة، التي هي حرم الله، وهي مدد البركة ومنشأ الهدى، فهو ﷺ مكي الإقامة ومبدأ النبوة، ومكي الإعادة، وكان من آية ذلك توجيهه لها حيث ما توجه، فهو ﷺ المكي الذي لم يبرح وجوداً وقصداً، والمرء حيث قصده لا حيث جسمه، حتى كان من شرعه أن يوجه الميت للكعبة. ومن أومأ لشيء فهو لما أومأ إليه، ولذلك صحت الصلاة إيماء.

وأما «المدني» فلأن المدينة دار هجرته وإقامته لا رحلة له عنها، وخصت تربتها بأن ضمت أعضاءه المقدسة.

وأما «عبد الكريم» فذكر الحسين بن محمد الدامغاني[1] في كتابه «شوق العروس وأنس النفوس» نقلاً عن كعب الأحبار أنه قال: اسم النبي ﷺ عند أهل الجنة عبد الكريم، وعند أهل النار عبد الجبار، وعند أهل العرش عبد الحميد، وعند سائر الملائكة عبد المجيد، وعند الأنبياء عبد الوهاب، وعند الشياطين عبد القهار، وعند الجن عبد الرحيم، وفي الجبال عبد الخالق، وفي البر عبد القادر وفي البحر عبد المهيمن، وعند الحيتان عبد القدوس، وعند الهوام عبد الغياث، وعند الوحوش عبد الرزاق، وعند السباع عبد السلام، وعند البهائم عبد المؤمن، وعند الطيور عبد الغفار، وفي التوارة موذ موذ، وفي الإنجيل طاب طاب، وفي الصحف عاقب، وفي الزبور فاروق، وعند الله طَه ويّس، وعند المؤمنين محمد ﷺ، وكنيته أبو القاسم لأنه يقسم الجنة بين أهلها.

وأما «عبد الله» فسماه الله تعالى به في أشرف مقاماته فقال: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله**﴾ [البقرة: ٢٣] وقال: ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً**﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿**الحمد لله الذي أنزل**

---

(١) هو حسين بن محمد بن إبراهيم أبو عبد الله الدامغاني. فقيه حنفي توفي سنة (٤٧٨ هـ). الأعلام ٢/ ٢٥٤. هدية العارفين ١/ ٣١٠.

على عبده الكتاب﴾ [الكهف: ١] فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه والتحدي بأن يأتوا بمثله. وقال تعالى: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ [الجن: ١٩] فذكره في مقام الدعوة إليه، وقال تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿فأوحى إلى عبده﴾ [النجم: ١٠]، ولو كان له اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالات العلية.

ولما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية، ورقاه إلى أعلى المعالي العلوية، ألزمه ـ تشريفاً له ـ اسم العبودية، وقد كان ﷺ يجلس للأكل جلوس العبد، وكان يتخلى عن وجوه الترفعات كلها في ملبسه ومأكله ومبيته ومسكنه إظهاراً لظاهر العبودية فيما يناله العيان، صدقاً عما في باطنه من تحقق العبودية لربه تحقيقاً لمعنى ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾ [الزمر: ٣٣].

ولما خير بين أن يكون نبياً ملكاً، أو نبياً عبداً، اختار أن يكون نبياً عبداً، فاختار ما هو الأتم، وكان ﷺ يقول كما في الصحيح: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى، ولكن قولوا عبد الله ورسوله**»(١) فاستثبت ما هو ثابت له، وأسلم لله ما هو له لا لسواه، وليس للعبد إلا اسم العبد، ولذا كان «عبد الله» أحب الأسماء إلى الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري كتاب الحدود باب (٣١) رقم الحديث (٦٨٣٠). وفي صحيح مسلم كتاب القدر باب (٧) رقم الحديث (٣٤) وفي الدر المنثور ٢/ ٢٤٩. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٩٨ وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٢٧). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٢٣ ـ ٢٤ وفي الشمائل للترمذي (١٧٢).

# في ذكر أولاده الكرام عليه وعليهم الصلاة والسلام[1]

اعلم أن جملة ما اتفق عليه منهم ستة: القاسم وإبراهيم، وأربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وكلهن أدركن الإسلام وهاجرن معه.

واختلف فيما سوى هؤلاء: فعند ابن إسحاق: الطاهر والطيب أيضاً فتكون على هذا ثمانية، أربعة ذكور وأربع إناث. وقال الزبير بن بكار[2]: كان له ﷺ سوى إبراهيم والقاسم عبد الله، مات صغيراً بمكة، ويقال له: الطيب والطاهر، ثلاثة أسماء.

وهو قول أكثر أهل النسب، قاله أبو عمر، وقال الدارقطني: هو الأثبت. وسمي عبد الله بالطيب والطاهر لأنه ولد بعد النبوة. فعلى هذا تكون جملتهم سبعة، ثلاثة ذكور. وقيل: عبد الله غير الطيب والطاهر، حكاه الدارقطني وغيره. فتكون جملتهم على هذا تسعة خمسة ذكور. وقيل: كان له الطيب والمطيب، ولدا في بطن، والطاهر والمطهر، ولدا في بطن، ذكره صاحب الصفوة، فيكونون على هذا أحد عشر. وقيل: ولد له ولد قبل المبعث يقال له عبد مناف، فيكونون على هذا اثني عشر، وكلهم سوى هذا ولد في الإسلام بعد المبعث. وقال ابن إسحاق: كلهم غير إبراهيم قبل الإسلام. ومات البنون قبل الإسلام وهم يرتضعون، وقد تقدم من قول غيره أن عبد الله ولد بعد النبوة ولذلك سمي بالطيب والطاهر.

فتحصل من جميع الأقوال ثمانية ذكور: إثنان متفق عليهما: القاسم وإبراهيم، وستة مختلف فيهم: عبد مناف، وعبد الله، الطيب والمطيب، والطاهر، والمطهر. والأصح أنهم ثلاثة ذكور والأربع بنات متفق عليهن وكلهم من خديجة بنت خويلد إلا إبراهيم. فأما القاسم فهو أول ولد ولد له عليه الصلاة والسلام قبل النبوة، وبه كان

---

(١) انظر زاد المعاد (بشرح المواهب) ١/ ٨٦.

(٢) هو الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكي من أحفاد الزبير بن العوام أبو عبد الله (١٧٢ ـ ٢٥٦ هـ) عالم بالأنساب وأخبار العرب راوية توفي بمكة الأعلام ٣/ ٤٢. وفيات الأعيان ١/ ١٨٩ وفي تاريخ بغداد ٨/ ٤٦٧ شذرات الذهب ٢/ ١٣٣ تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٢٨ رقم الترجمة (٥٤٦).

يكنى. وعاش حتى مشى، وقيل عاش سنتين، وقال مجاهد مكث سبع ليال، وخطأه الغلابي[1] في ذلك وقال: الصواب أنه عاش سبعة عشر شهراً. وقال ابن فارس: بلغ ركوب الدابة ومات قبل المبعث. وفي مستدرك الفرياني[2] ما يدل على أنه توفي في الإسلام. وهو أول من مات من ولده عليه الصلاة والسلام. وأما زينب فهي أكبر بناته بلا خلاف إلا ما لا يصح، وإنما الخلاف فيها وفي القاسم أيهما ولد أولاً. وعند ابن إسحاق أنها ولدت في سنة ثلاثين من مولد النبي ﷺ، وأدركت الإسلام، وهاجرت، وماتت سنة ثمان من الهجرة عند زوجها ـ وابن خالتها ـ أبي العاص لقيط وقيل مهشم بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس.

وكانت هاجرت قبله وتركته على شركه، وردها النبي ﷺ إليه بالنكاح الأول بعد سنتين، وقيل بعد ست سنين وقيل قبل انقضاء العدة، فيما ذكره ابن عقبة. وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ردها له بنكاح جديد سنة سبع.

وولدت له علياً مات صغيراً وقد ناهز الحلم، وكان رديف النبي ﷺ على ناقته يوم الفتح، وولدت له أيضاً أمامة التي حملها ﷺ في صلاة الصبح على عاتقه، وكان إذا ركع وضعها وإذا رفع رأسه من السجود أعادها[3]، وتزوجها علي بن أبي طالب بعد موت فاطمة.

وأما رقية فولدت سنة ثلاث وثلاثين من مولده ﷺ. وذكر الزبير بن بكار وغيره أنها أكبر بناته ﷺ وصححه الجرجاني النسابة. والأصح الذي عليه الأكثرون كما تقدم، أن زينب أكبرهن.

وكانت رقية تحت عتبة بن أبي لهب، وأختها أم كلثوم تحت أخيه عتيبة، فلما نزلت ﴿**تبت يدا أبي لهب**﴾ [المسد: ١] قال لهما أبوهما ـ أبو لهب ـ رأسي من رأسكما حرام إن لم تفارقا ابنتي محمد، ففارقاهما ولم يكونا دخلا بهما.

---

(١) هو الفضل بن غسان الغلابي البغدادي محدث مؤرخ توفي سنة (٢٤٥ هـ). معجم المؤلفين ٨/ ٧١ هدية العارفين ١/ ٨١٨.

(٢) هو جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض. أبو بكر الفريابي (٢٠٧ ـ ٣٠١ هـ) قاضي عالم بالحديث. الأعلام ٢/ ١٢٧ شذرات الذهب ٢/ ٢٣٥. تاريخ بغداد ٧/ ١٩٩. تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٩٢. رقم الترجمة (٧١٤). معجم البلدان ٦/ ٣٧٢.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد رقم الحديث (٤٢) وفي صحيح البخاري كتاب الأدب باب (١٨) رقم الحديث (٥٦٩٦) وأبو داوود كتاب الصلاة باب (١٦٥) رقم الحديث (٩١٨) وفي النسائي المساجد (١٩) إمامة (٣٧) والسهو (١٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٣١١ و٣٠٣.

فتزوج عثمان بن عفان رقية بمكة، وهاجر بها الهجرتين إلى أرض الحبشة، وكانت ذات جمال رائع. وذكر الدولابي أن تزويجه بها كان في الجاهلية، وذكر غيره ما يدل على أنه كان بعد إسلامه.

وتوفيت والنبي ﷺ ببدر. وعن ابن عباس: لما عزي ﷺ برقية قال: «**الحمد لله، دفن البنات من المكرمات**»[1] أخرجه الدولابي.

وأما أم كلثوم فلا يعرف لها اسم، إنما تعرف بكنيتها، وكانت تحت عتيبة بن أبي لهب ـ كما قدمته ـ ففارقها قبل الدخول.

ويروى أن عتيبة لما فارق أم كلثوم جاء إلى النبي ﷺ فقال: كفرت بدينك، وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك. ثم سطا عليه وشق قميصه وهو خارج نحو الشام تاجراً. فقال ﷺ: «**أما إني أسأل الله أن يسلط عليك كلبه**» وفي رواية: «**اللهم سلط عليه كلباً من كلابك**»[2] وأبو طالب حاضر فوجم لها وقال: ما كان أغناك عن دعوة ابن أخي، فخرج في تجر من قريش حتى نزلوا مكاناً من الشام يقال له الزرقاء ليلاً، فأطاف بهم الأسد تلك الليلة فجعل عتيبة يقول: يا ويل أمي، هو والله آكلي، كما دعا علي محمد، أقاتلي ابن أبي كبشة وهو بمكة وأنا بالشام، فعدا عليه الأسد من بين القوم فأخذ برأسه ففدغه. وفي رواية: فجاء الأسد فجعل يتشمم وجوههم، ثم ثنى ذنبه فوثب فضربه ضربة واحدة فخدشه، فقال: قتلني ومات. وفي رواية: أن الأسد أقبل يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة ففدغه، ذكره الدولابي.

ولما توفيت رقية خطب عثمان ابنة عمر حفصة[3] فرده، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: يا عمر، أدلك على خير لك من عثمان، وأدل عثمان على خير له منك؟ قال: نعم يا نبي الله، قال: تزوجني ابنتك، وأزوج عثمان ابنتي، خرجه الخجندي.

وكان تزويج عثمان بأم كلثوم سنة ثلاث من الهجرة. وروي أنه ﷺ قال له:

---

(١) ذكر في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥/٦٧. و٧/٢٩١ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٢٩٨ و ٧/٢٧٩ وفي تذكرة الموضوعات للفتني ٢١٧. وفي الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي ٨٤. وفي الموضوعات لابن الجوزي ٣/٢٣٥. وفي كنز العمال (٤٥٣٧٧) والنكت البديعات صفحة ١١٨ رقم الحديث (٩٨) وفي حلية الأولياء ٥/٢٠٩ رقم الترجمة (٣١٧).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٩. وفي تفسير القرطبي ١٧/٨٢. وفي الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ١٦٠. وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١٦٣. وفي كنز العمال (٣٥٣٥٦).

(٣) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب (٣٧). رقم الحديث (٥١٢٩ ـ ٥١٤٥).

«**والذي نفسي بيده لو أن عندي مائة بنت يمتن واحدة بعد واحدة، زوجتك أخرى بعد أخرى، هذا جبريل أخبرني أن الله يأمرني أن أزوجكها**».[1] رواه الفضائلي.

وماتت أم كلثوم سنة تسع من الهجرة، وصلى عليها ﷺ ونزل في حفرتها علي والفضل وأسامة ابن زيد. وفي البخاري (جلس ﷺ على القبر وعيناه تذرفان وقال: «**هل فيكم أحد لم يقارف الليلة فقال أبو طلحة: أنا، فقال: انزل قبرها فنزل**»)[2].

وقد روي نحو ذلك في رقية، وهو وهم، فإنه ﷺ لم يكن حال دفنها حاضراً، بل كان في غزوة بدر كما قدمته.

وغسلتها أسماء بنت عميس، وصفية بنت عبد المطلب، وشهدت أم عطية غسلها، وروت قوله ﷺ: «**اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً، أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك، بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافوراً، فإذا فرغتن فآذنني**» فلما فرغنا آذناه فألقى إلينا حقوه وقال: «**أشعرنها إياه**» قالت ومشطناها ثلاثة قرون وألقيناها خلفها[3].

و«الحقو»: الإزار، و«أشعرنها» أي اجعلنه شعارها الذي يلي جسدها، وذلك هو الشعار وما فوقه الدثار.

وأما فاطمة الزهراء البتول فولدت سنة إحدى وأربعين من مولد النبي ﷺ، قاله أبو عمر، وهو مغاير لما رواه ابن إسحاق: أن أولاده ﷺ كلهم ولدوا قبل النبوة إلا إبراهيم، وقال ابن الجوزي: ولدت قبل النبوة بخمس سنين، أيام بناء البيت.

وروي مرفوعاً: «**إنما سميت فاطمة، لأن الله قد فطمها وذريتها عن النار يوم القيامة**» أخرجه الحافظ الدمشقي. وروى الغساني والخطيب مرفوعاً: «**لأن الله فطمها ومحبيها عن النار**»[4].

---

(١) ذكره في كنز العمال (٣٦٢٠٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ١٢٦. والبخاري كتاب الجنائز باب (٧١) رقم الحديث (١٣٤٢). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٥١٣. وفي تغليق التعليق لابن حجر العسقلاني (٤٨٨) وفي التاريخ الصغير للبخاري ١/ ١٨. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١٧٢٥).

(٣) أخرجه النسائي كتاب الجنائز رقم (٣٥). وابن ماجه كتاب الجنائز باب (٨) رقم الحديث (١٤٥٨ ـ ١٤٥٩) وأبي داود في سننه كتاب الجنائز باب (٢٩) رقم الحديث (٣١٤٢). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٨٤. والإمام مالك في الموطأ كتاب الجنائز باب (١) رقم الحديث (٢) وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٣٦٠). وفي نصب الراية للزيلعي ٢/ ١٠٧. وفي مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٢٤٢. وفي موارد الظمآن للهيثمي (٦٠٨٩).

(٤) ذكره السيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ٢٠٨. وفي الموضوعات لابن الجوزي ١/ ٤٢١. وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ١/ ٤١٣. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٧٧٨٠) وفي كنز العمال (٣٤٢٢٧).

وسميت بتولاً لانقطاعها عن نساء زمانها فضلاً وديناً وحسباً، وقيل: لانقطاعها عن الدنيا إلى الله، قاله ابن الأثير.

وتزوجت بعلي بن أبي طالب في السنة الثانية، وقيل بعد أحد.، وقيل بعد بنائه عليه السلام بعائشة بأربعة أشهر ونصف، وبنى بها بعد تزويجها بسبعة أشهر ونصف، وقيل في صفر في السنة الثانية، وبنى بها في ذي الحجة على رأس اثنين وعشرين شهراً.

وكان تزويجها بأمر الله ووحيه. وتزوجت ولها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف ولعلي إحدى وعشرون سنة وخمسة أشهر، وقيل غير ذلك. وتقدم مزيد لذلك في المغازي والسير من المقصد الأول.

قال أبو عمر: وفاطمة وأم كلثوم أفضل بنات النبي ﷺ، وكانت فاطمة أحب أهله إليه ﷺ، وكان يقبلها في فيها ويمصها لسانه، وإذا أراد سفراً يكون آخر عهده بها، وإذا قدم أول ما يدخل عليها.

وقال ﷺ: «**فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني**»[1] رواه البخاري. وقال لها: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين**»[2] رواه مسلم، وفي رواية أحمد «**أفضل نساء أهل الجنة**»[3].

وتوفيت بعده ﷺ بستة أشهر، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة، وهي ابنة تسع وعشرين سنة، قاله المديني. وقيل توفيت بعده بثمانية أشهر وقيل غير ذلك، والأول أصح كذا قالوه فيما رأيته، وهو غير منتظم مع السابق فليتأمل.

وروي أنها قالت لأسماء بنت عميس: إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء أن يطرح على المرأة الثوب فيصفها، فقالت أسماء: يا بنت رسول الله ألا أريك شيئاً رأيته بأرض

---

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب (١٢) رقم الحديث (٣٧١٤). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٦٤ و١٠/ ٢٠١. وفي المستدرك للحاكم ٣/ ١٥٨. وفي اتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٤٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٦١٣٠) وفي كشف الخفا للعجلوني ٢/ ١٣٠. وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٣/ ٣٤. وفي كنز العمال (٣٤٢٢٢ ـ ٣٤٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٦٢٤ ـ ٣٦٢٦ ـ ٣٧١٦ ـ ٤٤٣٤ ـ ٦٢٨٦). وفي صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم (٩٨) وفي تهذيب خصائص علي للنسائي (٦٣) وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٥١. وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٤٤. وفي كنز العمال (٣٤٢٣٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٨٠ و٥/ ٣٩١ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٥٤. وفي كنز العمال (٣٤٢٢٤).

الحبشة، فدعت بجرائد رطبة، فحنتها ثم طرحت عليها ثوباً، فقالت فاطمة ما أحسن هذا، تعرف به المرأة من الرجل، فإذا أنا مت فاغسليني أنت وعلي، ولا يدخل علي أحد، الحديث خرجه أبو عمر.

وفي حديث أم رافع سلمى أنها لما اشتكت اغتسلت ولبست ثياباً جدداً واضطجعت في وسط البيت، ووضعت يدها اليمنى تحت خدها، ثم استقبلت القبلة وقالت: إني مقبوضة الآن فلا يكشفني أحد ولا يغسلني، ثم قبضت مكانها، ودخل علي فأخبر بالذي قالت، فاحتملها فدفنها بغسلها ذلك، ولم يكشفها ولا غسلها أحد. رواه أحمد في المناقب والدولابي وهذا لفظه مختصراً، وهو مضاد لخبر أسماء المتقدم.

قال أبو عمر: فاطمة أول من غطي نعشها من النساء على الصفة المذكورة في خبر أسماء المتقدم، ثم بعدها زينب بنت جحش صنع بها ذلك أيضاً.

وولدت لعلي: حسناً وحسيناً ومحسناً، فمات محسن صغيراً، وأم كلثوم وزينب.

ولم يكن لرسول الله ﷺ عقب إلا من ابنته فاطمة رضي الله عنها فانتشر نسله الشريف منها من جهة السبطين الحسن والحسين فقط. ويقال للمنسوب لأولهما: حسني، ولثانيهما: حسيني.

وقد يضم للحسيني من يكون من ذرية إسحاق بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الإسحاقي، فيقال: الحسيني الإسحاقي.

وإسحاق هذا، هو زوج السيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، وله منها: القاسم وأم كلثوم ولم يعقبا.

وتزوج عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت فاطمة، فولدت له: زيداً ورقية، ولم يعقبا. ثم تزوجت أم كلثوم بعد موت عمر بعون بن جعفر، ثم تزوجت بعد وفاته بأخيه محمد بن جعفر ثم مات عنها فتزوجت بأخيهما عبد الله بن جعفر ثم ماتت عنده ولم تلد لواحد من الثلاثة سوى للثاني ابنة صغيرة فليس لها عقب.

ثم تزوج عبد الله بن جعفر أختها زينب بنت فاطمة، فولدت له عدة من الأولاد، منهم: علي وأم كلثوم.

وتزوج أم كلثوم ـ هذه ـ ابن عمها القاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب فولدت له عدة من الأولاد منهم: فاطمة زوج حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام، وله منها عقب.

وبالجملة: فعقب عبد الله بن جعفر انتشر من علي واخته ام كلثوم ابني زينب بنت الزهراء. ويقال لكل من ينتسب لهؤلاء جعفري، ولا ريب أن لهؤلاء شرفاً.

وأما الجعافرة المنسوبون لعبد الله بن جعفر فلهم أيضاً شرف، لكنه يتفاوت، فمن كان من ولده من زينب بنت الزهراء فهم أشرف من غيرهم، مع كونهم لا يوازون شرف المنسوبين للحسن والحسين لمزيد شرفهما، وكذا يوصف العباسيون بالشرف لشرف بني هاشم.

قال الحافظ ابن حجر في الألقاب: وقد لقب به ـ يعني بالشريف ـ كل عباسي ببغداد وعلوي بمصر. وفي شيوخ ابن الرفعة شخص يقال له الشريف العباسي.

وأما عبد الله ابن النبي ﷺ فقيل مات صغيراً بمكة، فقال العاصي بن وائل: قد انقطع ولده فهو أبتر، فأنزل الله تعالى: ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾ [الكوثر: ٣].

واختلف: هل ولد قبل النبوة أو بعدها؟ وهل هو الطيب والطاهر؟ والصحيح: أنهما لقبان له، كما تقدم.

وأما إبراهيم فمن مارية القبطية، وسيأتي ذكرها في سراريه عليه السلام إن شاء الله تعالى في الفصل التالي لهذا في أمهات المؤمنين.

وولد في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، وقيل ولد بالعالية، ذكره الزبير بن بكار، وكانت سلمى زوج أبي رافع مولاة رسول الله ﷺ قابلته، فبشر أبو رافع به النبي ﷺ فوهب له عبداً، وعق عنه يوم سابعه بكبشين، وحلق رأسه أبو هند، وسماه النبي ﷺ يومئذ، وتصدق بزنة شعره ورقا على المساكين، ودفنوا شعره في الأرض.

وفي البخاري: من حديث أنس بن مالك، أنه ﷺ قال: «**ولد لي الليلة غلام سميته باسم أبي إبراهيم**» ثم دفعه إلى أم سيف، امرأة قين بالمدينة يقال له أبو سيف[(١)]، الحديث، وفيه: أنه بقي عندها إلى أن مات، والقين: الحداد.

ويجمع بينهما: بأن التسمية كانت قبل السابع، كما في حديث أنس هذا ثم ظهرت فيه، وأما حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ عند الترمذي مرفوعاً ـ أنه أمر بتسمية المولود يوم سابعه،[(٢)] فيحمل على أنها لا تؤخر عن السابع، لا أنها لا تكون إلا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الجنائز باب (٢٤). رقم الحديث (٣١٢٦) والبخاري كتاب العقيقة باب (١) رقم الحديث (٥٤٦٧). وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل رقم (٦٢) وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ١٩٤. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٣٠. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٩٣. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٦٩ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٩٣. وفي كنز العمال (٣٢٢٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي كتاب الأدب باب (٦٣) رقم الحديث (٢٨٣٢).

فيه، بل هي مشروعة من الولادة إلى السابع.

قال الزبير بن بكار: وتنافست الأنصار فيمن ترضع إبراهيم عليه السلام، فإنهم أحبوا أن يفرغوا مارية له عليه السلام، فأعطاه لأم بردة بنت المنذر بن زيد الأنصاري، زوجة البراء بن أوس، فكانت ترضعه بلبن ابنها في بني مازن بن النجار وترجع به إلى أمه. وأعطى ﷺ أم بردة قطعة نخل.

وقد تقدم أنه أعطاه أم سيف وبقي عندها إلى أن مات، فيحتمل أن يكون أعطاه أولاً أم بردة ثم أعطاه أم سيف وبقي عندها إلى أن توفي، لكن قد روي أنه توفي عند أم بردة، فيرجع في الترجيح إلى الصحيح.

وعن أنس بن مالك قال: ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مسترضعاً في عوالي المدينة فكان ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت وكان ظئره قيناً، فيأخذ فيقبله ثم يرجع. الحديث رواه أبو حاتم.

وفي حديث جابر: أخذ ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف، فأتى به النخل فإذا ابنه إبراهيم يجود بنفسه، فأخذه ﷺ فوضعه في حجره ثم ذرفت عيناه، ثم قال: «**إنا بك يا إبراهيم لمحزنون، تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب**»[1] خرجه بهذا السياق أبو عمرو بن السماك، ومعناه في الصحيح.

وتوفي وله سبعون يوماً ـ فيما ذكره أبو داود ـ في ربيع الأول يوم الثلاثاء لعشر خلون منه، وقيل: بلغ ستة عشر شهراً وثمانية أيام، وقيل: سنة وعشرة أشهر وستة أيام.

وحمل على سرير صغير، وصلى عليه النبي ﷺ بالبقيع وقال: «**ندفنه عند فرطنا عثمان بن مظعون**». وروي أن عائشة قالت: دفنه ﷺ ولم يصل عليه، فيحتمل أن يكون لم يصل عليه بنفسه وأمر أصحابه أن يصلوا عليه، أو لم يصل عليه في جماعة.

وروي أن الذي غسله أبو بردة، وروي الفضل بن العباس، ولعلهما اجتمعا عليه.

ونزل قبره الفضل وأسامة، والنبي ﷺ على شفير القبر، ورش قبره وعلم بعلامة. قال الزبير: وهو أول قبر رش.

وانكسفت الشمس يوم موته فقال الناس: إنما كسفت لموت إبراهيم، فقال ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب الجنائز باب (٤٣) رقم الحديث (١٣٠٣) وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل رقم (٦٢) وفي سنن أبي داود كتاب الجنائز باب (٢٤) رقم الحديث (٣١٢٦). وفي سنن ابن ماجه. كتاب الجنائز باب (٥٣) رقم الحديث (١٥٨٩). وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ١٩٤.

«**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد**»[1] رواه الشيخان. قيل: الغالب أن الكسوف يكون يوم الثامن والعشرين أو التاسع والعشرين، فكسفت يوم موت إبراهيم في العاشر، فلذلك قالوا: كسفت لموته.

وقال ﷺ: «**إن له مرضعاً في الجنة**»[2] رواه ابن ماجه.

وقد روي من حديث أنس بن مالك أنه قال: «**لو بقي - يعني إبراهيم بن النبي ﷺ - لكان نبياً، ولكن لم يبق لأن نبيكم آخر الأنبياء**» أخرجه أبو عمر.

قال الطبري: وهذا إنما يقوله أنس عن توقيف يخص إبراهيم، وإلا فلا يلزم أن يكون ابن النبي نبياً، بدليل ابن نوح عليه السلام.

وقال النووي في تهذيب الأسماء واللغات: وأما ما روي عن بعض المتقدمين: لو عاش إبراهيم لكان نبياً فباطل وجسارة على الكلام على المغيبات، ومجازفة وهجوم على عظيم. انتهى.

قال شيخنا في كتابه «المقاصد الحسنة»: ونحوه قول ابن عبد البر في تمهيده: لا أدري ما هذا، فقد ولد نوح غير نبي، ولو لم يلد النبي إلا نبياً لكان كل أحد نبياً، لأنهم من ولد نوح. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: ولا يلزم من الحديث المذكور ما ذكره الطبري لما لا يخفى، وكأنه سلف النووي، وقال أيضاً عقب كلام النووي: إنه عجيب مع وروده عن ثلاثة من الصحابة، قال: وكأنه لم يظهر له وجه تأويله، فقال في إنكاره ما قال.

وجوابه أن القضية الشرطية لا تستلزم الوقوع، ولا يظن بالصحابي الهجوم على مثل هذا بالظن.

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب الكسوف باب (١) رقم الحديث (١٠٤١ - ١٠٥٧ - ٣٢٠٤ - ١٠٤٢ - ٣٢٠١) والنسائي. كتاب الكسوف رقم الحديث (١). وفي صحيح مسلم كتاب الكسوف رقم (١ - ٣ - ٢٩). وسنن ابن ماجه. كتاب إقامة الصلاة. باب (١٢٥) رقم الحديث (١٢٦٣). وللإمام أحمد ابن حنبل في مسنده ١/ ٢٩٨ - ٢/ ١٥٩ و٤/ ٢٩٨ و٦/ ٣٥٤. وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٤٥٥) وفي سنن أبي داود. كتاب الصلاة باب (٣) رقم الحديث (١١٧٧ - ١١٧٨). وفي المنتقى من السنن المسندة لابن الجارود رقم الحديث (٢٤٨ - ٢٤٩).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الجنائز باب (٩١) رقم الحديث (١٣٨٢ - ٣٢٥٥ - ٦١٩٥). وفي سنن ابن ماجه. كتاب الجنائز باب (٢٧) رقم الحديث (١٥١١). وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٢٨٤ - ٣٠٤. وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٣٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٦٢. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ٢٨٩. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٦١٢٨). في كنز العمال (٣٢٢١١ - ٣٢٢٢٢ - ٣٥٥٤٦ - ٣٥٥٥٥).

قال شيخنا: والطرق الثلاثة:

**أحدها**: ما أخرجه ابن ماجه وغيره من حديث ابن عباس: لما مات إبراهيم بن النبي ﷺ، صلى عليه وقال: «**إن له مرضعاً في الجنة، لو عاش لكان صديقاً نبياً، ولو عاش لأعتقت أخواله من القبط، وما استرق قبطي**»[1]. وفي سنده أبو شيبة إبراهيم بن عثمان الواسطي، وهو ضعيف، ومن طريقه أخرجه ابن منده في المعرفة وقال: إنه غريب.

**ثانيها**: ما رواه إسماعيل السدي عن أنس قال: كان إبراهيم قد ملأ المهد، ولو بقي لكان نبياً[2]، الحديث.

**ثالثها**: ما عند البخاري من طريق محمد بن بشر عن إسماعيل بن أبي خالد قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى: «رأيت إبراهيم بن النبي ﷺ؟ قال: مات صغيراً، ولو قضى بعد محمد نبي عاش ابنه إبراهيم، ولكن لا نبي بعده».

وأخرجه أحمد عن وكيع عن إسماعيل سمعت ابن أبي أوفى يقول: لو كان بعد النبي ﷺ نبي ما مات ابنه. انتهى.

---

(١) أخرجه ابن ماجه. كتاب الجنائز باب (٢٧) رقم الحديث (١٥١١). وفي تهذيب دمشق لابن عساكر ١/٢٩٦. وفي الحاوي للفتاوي للسيوطي ٢/١٨٨. وفي كنز العمال (٣٢٢٠٥).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الأدب باب (١٠٩) رقم الحديث (٦١٩٤) وفي مسند الإمام ابن حنبل ٤/١٥٤ و٣٥٣.

# في ذكر أزواجه الطاهرات وسراريه المطهرات[1]

قال الله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ [الأحزاب: ٦] أي أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين، سواء من مات عنها أو ماتت عنه وهي تحته. وذلك في تحريم نكاحهن، ووجوب احترامهن، لا في نظر وخلوة.

ولا يقال بناتهن أخوات المؤمنين، ولا آباؤهن وأمهاتهن أجداد وجدات، ولا اخوتهن ولا إخواتهن أخوال وخالات. قال البغوي[2]: كن أمهات المؤمنين دون النساء، روي ذلك عن عائشة رضي الله عنها ولفظها ـ كما في البيضاوي ـ: «لسنا أمهات النساء» وهو جار على الصحيح عند أصحابنا وغيرهم من أهل الأصول: أن النساء لا يدخلن في خطاب الرجال. قال: وكان ﷺ أبا للرجال والنساء. ويجوز أن يقال أبو المؤمنين في الحرمة. وفضلت زوجاته ﷺ على النساء، وثوابهن وعقابهن مضاعفان، ولا يحل سؤالهن إلا من وراء حجاب. وأفضلهن خديجة وعائشة رضي الله عنهما، وفي أفضلهما خلاف يأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى قريباً.

واختلف في عدة أزواجه ﷺ وترتيبهن، وعدة من مات منهن قبله، ومن مات عنهن ومن دخل بها ومن لم يدخل بها، ومن خطبها ولم ينكحها، ومن عرضت نفسها عليه.

والمتفق عليه: أنهن إحدى عشرة امرأة، ست من قريش:

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٩٣. وطبقات ابن سعد ٨/ ٤٢. وزاد المعاد بشرح المواهب ١/ ٨٧.

(٢) هو الحسين بن مسعود بن محمد. الفراء أو ابن الفراء أبو محمد ويلقب بمحيي السنة البغوي. (٤٣٦ ـ ٥١٠ هـ). فقيه محدث مفسر. توفي بمرو الروذ. الأعلام ٢/ ٢٥٩. وفيات الأعيان ١/ ١٤٥ وفيه رواية أخرى في وفاته سنة (٥١٦ هـ). تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٥٧ رقم الترجمة (١٠٦٢). شذرات الذهب ٤/ ٤٨. طبقات الشافعية للسكبي ٤/ ٢١٤ طبقات المفسرين ١/ ١٦٠ رقم الترجمة (١٥٤). مفتاح السعادة ٢/ ١٠٢.

وعائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي.

وحفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط ابن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي.

وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب مرة بن كعب بن لؤي.

وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة ابن كعب بن لؤي.

وسودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي.

وأربع عربيات:

زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة.

وميمونة بنت الحارث الهلالية.

وزينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين.

وجويرية بنت الحارث الخزاعية المصطلقية.

وواحدة غير عربية من بني إسرائيل وهي صفية بنت حيي من بني النضير.

ومات عنده ﷺ منهن اثنتان: خديجة وزينب أم المساكين، ومات ﷺ عن تسع، ذكر أسماءهن الحافظ أبو الحسن بن الفضل المقدسي نظماً فقال:

| | |
|---|---|
| توفي رسول الله عن تسع نسوة | إليهن تعزى المكرمات وتنسب |
| فعائشة ميمونة وصفية | وحفصة تتلوهن هند وزينب |
| جويرية مع رملة ثم سودة | ثلاث وست ذكرهن مهذب |

ولا خلاف في أن أول امرأة تزوج بها منهن خديجة بنت خويلد، وأنه ﷺ لم يتزوج عليها حتى ماتت.

وهذا حين الشروع في ذكرهن على الترتيب:

فأما أم المؤمنين خديجة ـ وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم ـ فكانت تدعى في الجاهلية «الطاهرة»، وكانت تحت أبي هالة النباش بن أبي زرارة فولدت له هنداً وهالة وهما ذكران.

ثم تزوجها عتيق بن عائذ المخزومي، فولدت له جارية اسمها هند، وبعضهم يقدم عتيقاً على أبي هالة.

ثم تزوجها رسول الله ﷺ، ولها يومئذ من العمر أربعون سنة وبعض أخرى، وكان سنه ﷺ إحدى وعشرين سنة، وقيل خمساً وعشرين، وعليه الأكثر، وقيل ثلاثين.

وكانت عرضت نفسها عليه، فذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه منهم حمزة، حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوجها ﷺ وأصدقها عشرين بكرة. وزاد ابن إسحاق من طريق آخر: وحضر أبو طالب ورؤساء مضر: فخطب أبو طالب. وقد قدمت خطبته في المقصد الأول عند ذكر تزويجها له ﷺ. وذكر الدولابي وغيره أن النبي ﷺ أصدق خديجة اثنتي عشرة أوقية ذهباً.

وقد كانت خديجة ـ كما قدمته ـ أول من آمن من الناس، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «أن جبريل قال للنبي ﷺ يا محمد، هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه طعام ـ أو إدام أو شراب ـ فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»[1] والقصب: اللؤلؤ المجوف.

قال ابن إسحاق: كان ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له عليه السلام، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بخديجة إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت.

وعن عبد الرحمن بن زيد قال: قال آدم عليه السلام: إني لسيد البشر يوم القيامة، إلا رجلاً من ذريتي نبياً من الأنبياء، يقال له أحمد، فضل علي باثنتين: زوجته عاونته فكانت له عوناً، وكانت زوجتي علي عوناً، وأعانه الله على شيطانه فأسلم، وكفر شيطاني. خرجه الدولابي، كما ذكره الطبري.

وخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه ﷺ قال: «**أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب مناقب الأنصار باب (٢٠) رقم الحديث (٣٨٢٠ ـ ٧٤٩٧). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٢٢٥. وفي المستدرك للحاكم ٣/ ١٨٥. وفي جامع مسانيد أبي حنيفة ١/ ٢٠٧. وفي كنز العمال (٣٧٧٦٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٦٠، ١٨٥. وفي تفسير ابن كثير ٨/ ٢٠٠. وللإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٣٢٢. وفي الدر المنثور ٢/ ٢٣ وفي فتح الباري ٧/ ١٦٩. كتاب مناقب الأنصار باب (٢٠).

قال الشيخ ولي الدين العراقي: خديجة أفضل أمهات المؤمنين على الصحيح المختار، وقيل: عائشة. انتهى.

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري[1] في شرح بهجة الحاوي، عند ذكر أزواجه ﷺ: وأفضلهن خديجة وعائشة وفي أفضلهما خلاف، صحح ابن العماد تفضيل خديجة، لما ثبت أنه ﷺ قال لعائشة، حين قالت له: قد رزقك الله خيراً منها فقال: «**لا والله ما رزقني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس**».

وسئل ابن داود [بن علي الظاهري] أيهما أفضل؟ فقال: عائشة أقرأها النبي ﷺ السلام من جبريل، وخديجة أقرآها جبريل من ربها السلام على لسان محمد، فهي أفضل. قيل له: فمن أفضل خديجة أم فاطمة؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**فاطمة بضعة مني**»[2] فلا أعدل ببضعة رسول الله ﷺ أحداً.

ويشهد له قوله ﷺ لها: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم**»[3].

واحتج من فضل عائشة بما احتجت به من أنها في الآخرة مع النبي ﷺ في الدرجة، وفاطمة مع علي فيها.

وسئل السبكي عن ذلك فقال: الذي نختاره، وندين الله به، أن فاطمة بنت محمد أفضل من أمها خديجة، ثم أمها خديجة، ثم عائشة، ثم استدل لذلك بما تقدم بعضه.

وأما خبر الطبراني: خير نساء العالمين مريم بنت عمران ثم خديجة بنت خويلد، ثم فاطمة بنت محمد، ثم آسية امرأة فرعون. فأجاب عنه ابن العماد: بأن خديجة إنما فضلت فاطمة باعتبار الأمومة، لا باعتبار السيادة.

واختار السبكي: أن مريم أفضل من خديجة لهذا الخبر، وللاختلاف في نبوتها، انتهى.

وقال أبو أمامة بن النقاش: إن سبق خديجة، وتأثيرها في أول الإسلام وموازرتها ونصرها وقيامها في الدين لله بمالها ونفسها، لم يشركها فيه أحد، لا عائشة ولا غيرها من

---

(١) هو زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي أبو يحيى. (٨٢٣ ـ ٩٢٦ هـ). قاض. مفسر. محدث. حافظ. الأعلام ٣/ ٤٦. معجم المطبوعات ١/ ٤٨٣. شذرات الذهب ٨/ ١٣٤ وفيه توفي سنة (٩٢٥ هـ). معجم المؤلفين ٤/ ١٨٢.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٥٨ والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٦٤ و١٠/ ٢٠٢ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٤٤ وفي كنز العمال (٣٤٢٢٢ ـ ٣٤٢٢٣).

(٣) ذكره السيوطي في جمع الجوامع (٤٢٤٨) وابن كثير في البداية ٥/ ١٩٩.

أمهات المؤمنين. وتأثير عائشة في آخر الإسلام، وحمل الدين وتبليغه إلى الأمة وإدراكها من الأحاديث ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها، مما تميزت به عن غيرها، انتهى.

وماتت خديجة بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل بأربع، وقيل بخمس، ودفنت في الحجون، وهي ابنة خمس وستين سنة، ولم يكن يومئذٍ يصلى على الجنازة، وكانت مدة مقامها مع النبي ﷺ خمساً وعشرين سنة، وقيل أربعاً وعشرين سنة.

وأما سودة بنت زمعة ـ وأمها الشموس بنت قيس ـ فأسلمت قديماً وكانت تحت ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو ـ أخو سهيل بـن عمرو ـ أسلم معها قديماً، وهاجرا جميعاً إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، فلما قدما مكة مات زوجها، وقيل إنه مات بالحبشة.

وتزوجها ﷺ بمكة بعد موت خديجة قبل أن يعقد على عائشة، هذا قول قتادة وأبي عبيدة، ولم يذكر ابن قتيبة غيره، ويقال تزوجها بعد عائشة ويجمع بين القولين: بأنه ﷺ عقد على عائشة قبل سودة، ودخل بسودة قبل عائشة، والتزويج يطلق على كل منهما، وإن كان المتبادر إلى الفهم العقد دون الدخول.

ولما كبرت سودة أراد ﷺ طلاقها، فسألته أن لا يفعل وجعلت يومها لعائشة فأمسكها.

وتوفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين. وروى البخاري في تاريخه بإسناد صحيح إلى سعيد بن أبي هلال: أنها ماتت في خلافة عمر، وجزم الذهبي في التاريخ الكبير بأنها ماتت في آخر خلافة عمر، وقال ابن سيد الناس: إنه المشهور.

وأما أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ـ وأمها أم رومان ابنة عامر بـن عويمر بن عبد شمس، من بني مالك بن كنانة ـ فكانت مسماة على جبير بن مطعم، فخطبها النبي ﷺ وأصدقها ـ فيما قاله ابن إسحاق ـ أربعمائة درهم، وتزوجها بمكة في شوال سنة عشر من النبوة قبل الهجرة بثلاث سنين، ولها ست سنين، وأعرس بالمدينة في شوال سنة اثنتين من الهجرة على رأس ثمانية عشر شهراً، ولها تسع سنين. وقيل بعد سبعة أشهر من مقدمه عليه الصلاة والسلام.

وخرج الشيخان عن عائشة أنها قالت: «تزوجني رسول الله ﷺ وأنا ابنة ست سنين فقدمنا المدينة، فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج، فوعكت فتمزق شعري، فأتتني أمي ـ أم رومان ـ وإني لفي أرجوحة مع صواحب لي، فصرخت بي فأتيتها، ما أدري ما تريد مني، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وأنا أنهج، حتى سكن بعض نفسي، ثم

أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة، فأسلمتني إليهن فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه، وأنا يومئذٍ بنت تسع سنين [١].

وأخرجه أبو حاتم بتغيير بعض ألفاظه.

قال أبو عمر: كان نكاحه ﷺ لعائشة في شوال، وابتنى بها في شوال، وكانت تحب أن يدخل النساء من أهلها وأحبتها في شوال على أزواجهن.

وكانت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه، وكانت إذا هويت الشيء تابعها عليه، وفقدها عليه السلام في بعض أسفاره فقال: «واعروساه»[٢]. أخرجه أحمد.

وقال لها ﷺ ـ كما في الصحيحين ـ: «**رأيتك في المنام ثلاث ليال، جاءني بك الملك في سرقة من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فأقول: إن يكن من عند الله يمضه**»[٣] والسَرَقَة: شقة الحرير أو البيضاء.

وفي الترمذي أن جبريل جاءه عليه الصلاة والسلام بصورتها في خرقة حرير خضراء وقال هذه زوجتك في الدنيا والآخرة. وفي رواية عنده: قال جبريل: إن الله قد زوجك بابنة أبي بكر، ومعه صورتها[٤].

وكانت مدة مقامها معه ﷺ تسع سنين، ومات عنها ﷺ ولها ثماني عشرة سنة ولم يتزوج بكراً غيرها، وكانت فقيهة عالمة فصيحة، كثيرة الحديث عن رسول الله ﷺ، عارفة بأيام العرب وأشعارها، روى عنها جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين، وكان ﷺ يقسم لها ليلتين، ليلتها وليلة سودة بنت زمعة، لأنها وهبت ليلتها لما كبرت لها ـ كما تقدم ـ ولنسائه ليلة ليلة، وكان يدور على نسائه ويختم بعائشة.

وماتت بالمدينة سنة سبع وخمسين. وقال الواقدي: ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان سنة ثمان وخمسين، وهي ابنة ست وستين سنة، وأوصت أن تدفن بالبقيع

---

(١) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب (٤٤) رقم الحديث (٣٨٩٤ ـ ٣٨٩٦ ـ ٥١٣٣ ـ ٥١٥٨ ـ ٥١٦٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢٤٨/٦ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢٢٨/٩ وفي الكنى والأسماء للدولابي ٨/٢.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التعبير باب (٢٠ ـ ٢١) رقم الحديث (٧٠١١ ـ ٧٠١٢) وفي مناقب الأنصار باب (٤٤) وفي كتاب النكاح باب (٣٥). وفي مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (٧٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٢٨/٦ ـ ١٦١.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب (٦٢) رقم الحديث (٣٨٨٠).

ليلاً، وصلى عليها أبو هريرة، وكان يومئذ خليفة مروان على المدينة في أيام معاوية بن أبي سفيان.

وكانت عائشة تكنى أم عبد الله، يروى أنها أسقطت من النبي ﷺ سقطاً، ولم يثبت والصحيح أنها كانت تكنى بعبد الله بن الزبير، ابن أختها، فإنه عليه الصلاة والسلام تفل في فيه لما ولد، وقال لعائشة: «**هو عبد الله وأنت أم عبد الله**» قالت: فما زلت أكنى بها وما ولدت قط. خرجه أبو حاتم.

وأما أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ـ وأمها زينب بنت مظعون ـ فأسلمت وهاجرت. وكانت قبل رسول الله ﷺ تحت خنيس ـ بضم المعجمة وفتح النون وبالسين المهملة ـ ابن حذافة السهمي، هاجرت معه، ومات عنها بعد غزوة بدر.

فلما تأيمت ذكرها عمر على أبي بكر وعثمان فلم يجبه واحد منهما إلى زواجها[1]، فخطبها رسول الله ﷺ فأنكحه إياها في سنة ثلاث من الهجرة، وطلقها تطليقة واحدة، ثم راجعها[2]، نزل عليه الوحي: راجع حفصة فإنها حوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة[3].

وروى عنها جماعة من الصحابة والتابعين. وماتت في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية، وقيل سنة إحدى وأربعين، وهي ابنة ستين سنة، وقيل إنها ماتت في خلافة عثمان.

وأما أم المؤمنين أم سلمة هند، وقيل رملة والأول أصح ـ وأمها عاتكة بنت عامر ابن ربيعة، وليست عاتكة بنت عبد المطلب ـ فكانت قبل رسول الله ﷺ تحت أبي سلمة ابن عبد الأسد، وكانت هي وزوجها أول من هاجر إلى أرض الحبشة، فولدت له بها زينب، وولدت له بعد ذلك سلمة وعمر ودرة، وقيل هي أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة، وقيل غيرها، ومات أبو سلمة سنة أربع وقيل سنة ثلاث من الهجرة.

وكانت أم سلمة سمعته ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول: اللهم آجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها**»[4] قالت: فلما مات أبو

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب (٣٧) رقم الحديث (٥١٢٩ ـ ٥١٤٥).

(٢) أخرجه أبو داوود في كتاب الطلاق باب (٣٨) رقم الحديث (٢٢٨٣) وفي ابن ماجه كتاب الطلاق باب (١) رقم الحديث (٢٠١٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٧٨.

(٣) ذكره ابن سعد في طبقاته ٨/ ٦٧.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الجنائز رقم الحديث (٣ ـ ٤) (٦٣٢) وأبو داوود كتاب الجنائز باب (١٨) رقم =

سلمة قلت أي المسلمين خير من أبي سلمة، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ فأرسل إلي رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له.

وفي رواية: فخطبها أبو بكر فأبت، وخطبها عمر فأبت، ثم أرسل إليها رسول الله ﷺ فقالت: مرحباً برسول الله، إن في خلالا ثلاثاً: أنا امرأة شديدة الغيرة، وأنا امرأة مصبية وأنا امرأة ليس لي ها هنا أحد من أوليائي فيزوجني. فغضب عمر لرسول الله ﷺ أشد مما غضب لنفسه حين ردته، فأتاها رسول الله ﷺ فقال: **«أما ما ذكرت من غيرتك فإني أدعو الله أن يذهبها عنك، وأما ما ذكرت من صبيتك فإن الله سيكفيهم، وأما ما ذكرت من أوليائك فليس أحد من أوليائك يكرهني»** فقالت لابنها: زوج رسول الله ﷺ فزوجه[1]. قال صاحب «السمط الثمين» رواه بهذا السياق هدبة بن خالد «وصاحب الصفوة» وخرج أحمد والنسائي طرفاً منه، ومعناه في الصحيح.

وفيه دلالة على أن الابن يلي العقد على أمه، وعندنا أنه إنما زوجها بالعصوبة لأنه ابن ابن عمها، لأن أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله، وأم سلمة هند بنت سهيل بن المغيرة بن عبد الله، ولم يكن أحد من عصبتها حاضراً غيره.

وكانت أم سلمة من أجمل النساء، وتزوجها رسول الله ﷺ في ليال بقين من شوال من السنة التي مات فيها أبو سلمة.

وماتت سنة تسع وخمسين وقيل سنة اثنتين وستين، والأول أصح، ودفنت بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة، وقيل سعيد بن زيد، وكان عمرها أربعاً وثمانين سنة.

وأما أم المؤمنين أم حبيبة، رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب، وقيل اسمها هند، والأول أصح ـ وأمها صفية بنت أبي العاصي بن أمية عمة عثمان بن عفان ـ فكانت تحت عبيد الله بن جحش وهاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ثم تنصر وارتد عن الإسلام ومات هناك، وثبتت أم حبيبة على الإسلام.

واختلف في وقت نكاح رسول الله ﷺ إياها، وموضع العقد، فقيل: إنه عقد عليها بأرض الحبشة سنة ست، فروي أنه ﷺ بعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطبها عليه، فزوجها إياه، وأصدقها عنه أربعمائة دينار، وبعث بها إليه مع شرحبيل بن حسنة.

---

= الحديث (٣١١٩) وفي الترمذي كتاب الدعوات باب (٨٣) رقم الحديث (٣٥١١) وفي المعجم الكبير للطبراني نحوه ٣٥٩/١٩ وفي كنز العمال نحوه (٦٨٣٩). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٠٩/٦.

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢٨/٤ وفي البداية والنهاية ٤/ ٩٠ و٩٣.

وروي أن النجاشي أرسل إليها جاريته «أبرهة» فقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلي أن أزوجك منه، وأنها أرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاصي فوكلته وأعطت أبرهة سوارين وخواتم من فضة سروراً بما بشرتها به، فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا، فخطب النجاشي فقال: الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وقد أصدقتها عنه أربعمائة دينار ذهباً، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم. فتكلم خالد بن سعيد فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أما بعد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسوله ﷺ فيها. ودفع الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا فقال: اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا. خرجه صاحب الصفوة كما قال الطبري. وكان ذلك سنة سبع من الهجرة.

قال أبو عمر: واختلف فيمن زوجها، فروي أنه سعيد بن العاصي، وروي عثمان ابن عفان وهي ابنة عمته. وذكر البيهقي أن الذي زوجها خالد بن سعيد بن العاصي وهو ابن ابن عم أبيها، لكن إن صح التاريخ المذكور فلا يصح أن يكون عثمان هو الذي زوجها، فإنه كان مقدمه من الحبشة قبل وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة.

وكان أبو سفيان أبوها حال نكاحها بمكة مشركاً محارباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد قيل إن عقد النكاح عليها كان بالمدينة بعد رجوعها من أرض الحبشة والمشهور الأول. وماتت بالمدينة سنة أربع وأربعين وقيل: سنة اثنتين وأربعين.

وأما أم المؤمنين زينب بنت جحش ـ وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ـ فكان رسول الله ﷺ زوجها من زيد بن حارثة، فمكثت عنده مدة ثم طلقها ـ كما سيأتي إن شاء الله تعالى في الخصائص ـ فلما انقضت عدتها منه قال ﷺ لزيد بن حارثة «اذهب فاذكرني لها» قال: فذهبت إليها، فجعلت ظهري إلى الباب فقلت يا زينب بعث رسول الله ﷺ يذكرك، فقالت: ما كنت لأحدث شيئاً حتى أؤامر ربي عز وجل، فقامت إلى مسجد لها، فأنزل الله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾ [الأحزاب: ٣٧]

فجاء رسول الله فدخل عليها بغير إذن[1]. أخرجه مسلم.

وقال المنافقون:[2] حرم محمد نساء الولد، وقد تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله تعالى: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم**﴾ [الأحزاب: ٤٠] الآية.

وكانت زينب تفجر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن آباؤكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات[3]، رواه الترمذي وصححه.

وكان اسمها «برة» ﷺ زينب. وعن أنس: لما تزوج ﷺ زينب بنت حجش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو ﷺ يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام وقام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم انطلقوا. فجاء حتى دخل فذهبت لأدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي**﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية.

وكان تزويجها له ﷺ في سنة خمس من الهجرة، وقيل سنة ثلاث. وهي أول من مات من أزواجه بعده وقالت عائشة في شأنها: ولم تكن امرأة خيراً منها في الدين، وأتقى لله وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تتصدق به وتتقرب به إلى الله رواه مسلم.

وماتت بالمدينة سنة عشرين، وقيل سنة إحدى وعشرين، ولها ثلاث وخمسون

---

(١) أخرجه مسلم كتاب النكاح رقم الحديث (٨٩). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٩٥ وفي حلية الأولياء ٢/ ٥٢.

(٢) طعن بعض الكفار فيه ﷺ بقولهم: أن محمداً احتال على زيد بن حارثة لما علقت نفسه بزوجته زينب بنت جحش حتى توصل لزواجها.

الجواب: أن زينب لم تكن معرفته بها جديدة لأنها بنت عمته أمها أميمة بنت عبد المطلب وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك ثم رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه ثم أعلم الله عز وجل نبيه ﷺ أنها تكون من أزواجه فكان يستحي أن يأمره بطلاقها. وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس. فأمره رسول الله ﷺ. أن يمسك عليه زوجه وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه وكان قد تبنى زيداً فكان مما قاله زيد: يا رسول الله إن زينب اشتد عليَّ لسانها وأنا أريد أن أطلقها، فقال له: اتق الله وامسك عليك زوجك. فمعنى قوله تعالى ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ [الأحزاب: ٣٧] أنه كان يخفي إخبار الله الذي أخبره أنها ستصير زوجته بوحي غير قرآن [وذلك أنه كان يبلغ ما أنزل من القرآن فوراً] والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشيته قول الناس تزوج امرأة ابنه. وأراد الله إبطال ما كان عليه الناس قبل البعثة من أحكام التبني.

(٣) أخرجه الترمذي كتاب التفسير باب (١٦) رقم الحديث (٣٢١٣).

سنة، وصلى عليها عمر بن الخطاب، وهي أول من جعل على جنازتها نعش.

وأما أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية، وكانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لإطعامها إياهم، فكانت تحت عبد الله بـن جحش في قول ابن شهاب، قتل عنها يوم أحد فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث، ولم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة وتوفيت في حياته ﷺ، وقيل مكثت عنده ثمانية أشهر، ذكره الفضائلي.

وقيل كانت قبله ﷺ تحت الطفيل بن الحارث، ثم خلف عليها أخوه عبيدة بن الحارث وقتل عنها يوم أحد شهيداً، فخلف عليها رسول الله ﷺ، والأول أصح.

وتوفيت في ربيع الآخر سنة أربع ودفنت بالبقيع على الطريق قال الطبري: كذا ذكره الفضائلي، وإنما يكون هذا على ما حكاه من أنها مكثت عنده عليه السلام ثمانية أشهر، أما على ما حكاه أبو عمر فلا يصح، إذ العقد كان في سنة ثلاث، ومدتها عنده ﷺ شهران أو ثلاثة فلا يصح أن تكون وفاتها في ربيع الآخر، انتهى، فليتأمل.

وأما أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية ـ وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة بن حمير ـ فتزوجها ﷺ لما كان بمكة معتمراً سنة سبع بعد غزوة خيبر، وكانت أختها أم الفضل لبابة الكبرى تحت العباس بن عبد المطلب، وأختها لأمها أسماء بنت عميس تحت جعفر، وسلمى بنت عميس تحت حمزة، وكانت جعلت أمرها إلى العباس فأنكحها النبي ﷺ وهو محرم، فلما رجع بنى بها بسرف حلالا، ذكره أبو عمر. وفي الصحيح من أفراد مسلم،عنها أنه ﷺ تزوجها وهو حلال،زاد البرقاني [1] بعد قوله تزوجها حلالاً: وبنى بها حلالاً وماتت بسرف. فيحمل قوله: وهو محرم، أي داخل في الحرم، ويكون العقد وقع بعد انقضاء العمرة، ثم خرج بها إلى سرف وابتنى بها فيه، وهو على عشرة أميال من مكة، كذا قاله الطبري. وسيأتي في مقصد المعجزات في ذكر الخصائص مزيد بيان لذلك إن شاء الله تعالى.

وكانت ميمونة قبل عند أبي رهم بن عبد العزى، ويقال: بل عبد الله بن أبي رهم، وقيل: بل عند حويطب بن عبد العزى، وقيل: بل فروة بن عبد العزى.

قال ابن إسحاق. ويقال: إنها وهبت نفسها للنبي ﷺ وذلك أن خطبته ﷺ انتهت إليها وهي على بعيرها فقالت: البعير وما عليه لله ولرسوله. وقيل: الواهبة نفسها غيرها.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب أبو بكر المعروف بالبرقاني (٣٣٦ ـ ٤٢٥ هـ) عالم بالقرآن والحديث والفقه والنحو. توفي ببغداد. الأعلام ١/ ٢١٢ تاريخ بغداد ٤/ ٣٧٣ شذرات الذهب ٣/ ٢٢٨ تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٧٤ . رقم الترجمة (٩٨٠) طبقات الشافعية ٤/ ٤٧ .

وتوفيت ميمونة بسرف في الموضع الذي بنى بها فيه رسول الله ﷺ، وذلك سنة إحدى وخمسين، وقيل ست وخمسين وقيل ثلاث وستين، وصلى عليها ابن عباس ودخل قبرها.

وأما أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ـ بكسر الضاد المعجمة وتخفيف الراء ـ فكانت تحت مسافح ـ بالسين المهملة والفاء ـ ابن صفوان المصطلقي. وكانت قد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق، في سنة خمس وقيل سنة ست، فكاتبته على نفسها، ثم جاءت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث وكان من أمري ما لا يخفى عليك، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بـن شماس وإني كاتبت نفسي، فجئت أسألك في كتابتي، فقال رسول الله ﷺ «**فهل لك إلى ما هو خير**» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك**» قالت: قد فعلت. فتسامع الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية فأرسلوا ما في أيديهم من السبي، فأعتقوهم وقالوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قالت عائشة: فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها، أعتق في سببها مائة أهل بيت من بني المصطلق[1] خرجه أبو داود من حديث عائشة.

وقال ابن هشام: ويقال اشتراها ﷺ من ثابت بن قيس وأعتقها وتزوجها وأصدقها أربعمائة درهم.

وعن ابن شهاب: سبى ﷺ جويرية بنت الحارث يوم المريسيع فحجبها وقسم لها، وكانت ابنة عشرين سنة، وكان اسمها «برة» فحوله ﷺ وسماها جويرية. وقد تقدم مثل ذلك في زينب بنت جحش. وتوفيت وعمرها خمس وستون سنة في ربيع الأول سنة خمسين، وقيل سنة ست وخمسين.

وأما أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب بن سعية ـ بفتح السين وسكون العين المهملتين وبالياء المثناة التحتية ـ ابن ثعلبة بن عبيد من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران عليه الصلاة والسلام. وأمها ضرة ـ بفتح الضاد المعجمة وتشديد الراء ـ بنت سموءل ـ بفتح السين المهملة وفتح الميم وسكون الواو وفتح الهمزة وباللام ـ. فكانت تحت كنانة بن أبي الحقيق ـ بضم الحاء المهملة وفتح القاف الأولى وسكون المثناة التحتية ـ فقتل يوم خيبر في المحرم سنة سبع من الهجرة.

---

(١) أخرجه أبو داوود كتاب العتق باب (٢) رقم الحديث (٣٩٣١).

قال أنس: لما افتتح ﷺ خيبر وجمع السبي، جاءه دحية فقال يا رسول الله أعطني جارية من السبي، فقال: «اذهب فخذ جارية» فأخذ صفية بنت حيي فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير، ما تصلح إلا لك، قال: «ادعوه بها» فجاء بها، قال: فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: «**خذ جارية من السبي غيرها**» قال: وأعتقها وتزوجها. قال له ثابت: يا أبا حمزة ما أصدقها؟ قال: نفسها، أعتقها وتزوجها. حتى إذا كان الطريق جهزتها له أم سليم فأهدتها له من الليل، فأصبح ﷺ عروساً، فقال: «**من كان عنده شيء فليجيء به**» قال: فبسط نطعاً، قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، فحاسوا حيساً فكانت وليمة رسول الله ﷺ.[1].

وفي رواية: فقال الناس لا ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد، قالوا: إن حجبها فهي امرأته وإن لم يحجبها فهي أم ولد، فلما أراد أن يركب حجبها.

وفي رواية: فانطلقنا حتى إذا رأينا جدر المدينة هششنا إليها، فدفعنا مطايانا، ودفع رسول الله ﷺ مطيته، قال: وصفية خلفه قد أردفها، قال: فعثرت مطية رسول الله ﷺ فصرع وصرعت، فليس أحد من الناس ينظر إليه ولا إليها حتى قام رسول الله ﷺ فسترها. قال: فدخلنا المدينة، فخرج جواري نسائه يتراءينها ويشمتن بصرعتها[2] رواه الشيخان وهذا لفظ مسلم.

وروي عن جابر أنه ﷺ أتي بصفية يوم خيبر، وأنه قتل أباها وأخاها، وأن بلالاً مر بها بين المقتولين، وأنه ﷺ خيرها بين أن يعتقها فترجع إلى من بقي من أهلها، أو تسلم فيتخذها لنفسه، فقالت: أختار الله ورسوله. خرجه في الصفوة.

وأخرج تمام[3] في فوائده من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال لها: «**هل لك فيَّ**» قالت: يا رسول الله لقد كنت أتمنى ذلك في الشرك، فكيف إذ أمكنني الله في الإسلام.

وأخرج أبو حاتم من حديث ابن عمر: رأى ﷺ بعين صفية خضرة فقال: «**ماهذه الخضرة**»؟ فقالت: كان رأسي في حجر ابن الحقيق وأنا نائمة، فرأيت قمراً وقع في

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب (١٢) رقم الحديث (٣٧١ ـ ٢٢٢٨ ـ ٥٥٢٨ ـ ٧٣٣٣) وأبو داوود في كتاب الإمارة باب (٢١) رقم الحديث (٢٩٩٨). والنسائي ٦/ ١٣٣ والبداية والنهاية ٤/ ١٩٧.

(٢) أخرجه مسلم كتاب النكاح رقم الحديث (٨٧ ـ ٨٨). والبخاري كتاب الجهاد باب (١٩٧) رقم الحديث (٣٠٨٥ ـ ٣٠٨٦). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٢٣ و١٨٧ و١٨٩ و١٩٥ و٢٤٦.

(٣) هو تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر أبو القاسم البجلي الرازي ثم الدمشقي (٣٣٠ ـ ٤١٤ هـ). حافظ محدث. الأعلام ٢/ ٨٧ شذرات الذهب ٣/ ٢٠٠ كشف الظنون (١٢٩٦).

حجري فأخبرته بذلك فلطمني وقال: تمنين ملك يثرب. وبنى بها ﷺ بالصهباء.

وماتت في رمضان سنة خمسين في زمن معاوية، وقيل غير ذلك.

فهؤلاء أزواجه اللاتي دخل بهن لا خلاف في ذلك بين أهل السير والعلم بالأثر.

وقد ذكر أنه ﷺ تزوج نسوة غير من ذكر، وجملتهن اثنتا عشرة امرأة:

**الأولى**: الواهبة نفسها لهﷺ، واختلف من هي، فقيل أم شريك القرشية العامرية، واسمها: غزية ـ بضم الغين المعجمة وفتح الزاي وتشديد المثناة التحتية ـ بنت جابر بن عوف، من بني عامر بن لؤي. وقيل بنت دودان بن عوف، وطلقها النبي ﷺ واختلف في دخوله بها.

وقيل هي أم شريك غزية الأنصارية من بني النجار، وفي الصفوة: هي أم شريك غزية بنت جابر الدوسية قال: والأكثرون على أنها التي وهبت نفسها ﷺ فلم يقبلها فلم تتزوج حتى ماتت.

وذكر ابن قتيبة في المعارف عن أبي اليقظان، أن الواهبة نفسها خولة بنت حكيم السلمي، ويجوز أن يكونا وهبتا أنفسهما من غير تضاد.

وقال عروة بن الزبير: كانت خولة بنت حكيم، من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، فقالت عائشة: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل، فلما نزلت: ﴿**ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء**﴾ [الأحزاب: ٥١] قالت عائشة: يا رسول الله، ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك[1] رواه الشيخان. وهذه خولة هي زوجة عثمان بن مظعون، ولعل ذلك وقع منها قبل عثمان.

**الثانية**: خولة بنت الهذيل بن هبيرة. تزوجها ﷺ فهلكت قبل أن تصل إليه.

**الثالثة**: عمرة بنت يزيد بن الجون ـ بفتح الجيم ـ الكلابية، وقيل بنت يزيد بن عبيد ابن أوس بن كلاب الكلابية. قال أبو عمر: وهذا أصح. تزوجها ﷺ فتعوذت منه حين أدخلت عليه، فقال لها: «**لقد عذت بمعاذ**» فطلقها وأمر أسامة بن زيد فمتعها بثلاثة أثواب، قال أبو عمر: هكذا روي عن عائشة.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب (٧) رقم الحديث (٤٧٨٨ ـ ٥١١٣) ومسلم في الرضاع رقم الحديث (٤٩) والنسائي كتاب النكاح رقم (١) وفي موطأ مالك كتاب الرضاع (٤٩). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٥٨/٦. وقال النووي في معنى (ما أرى ربك إلايسارع في هواك). أي يخفف عنك ويوسع عليك في الأمور، ولهذا خيرك. راجع تفسير البغوي ٣/ ٤٦٤ [الأحزاب: ٥١] وطبقات ابن سعد ٨/ ١٢٤.

وقال قتاده: كان ذلك في امرأة من سليم. وقال أبو عبيدة: إنما ذلك لأسماء بنت النعمان بن الجون، وهكذا ذكره ابن قتيبة. وسيأتي وقال في عمرة هذه: إن أباها وصفها للنبي ﷺ ثم قال وأزيدك: أنها لم تمرض قط فقال ﷺ: «**ما لهذه عند الله من خير فطلقها**»[1].

**الرابعة**: أسماء بنت النعمان بن الجون ـ بفتح الجيم ـ ابن الحارث الكندية وهي الجونية. قال أبو عمر: أجمعوا أن رسول الله ﷺ تزوجها واختلفوا في سبب فراقه لها، فقال قتادة وأبو عبيدة: إنه ﷺ لما دعاها قالت: تعال أنت وأبت أن تجيء، وقال بعضهم: قالت: أعوذ بالله منك، فقال: «**عذت بمعاذ ولقد أعاذك الله مني**» وقيل: إن نساءه ﷺ علمنها ذلك فإنها كانت أجمل الناس فخفن أن تغلبهن عليه، فقلن لها إنه يحب إذا دنا منك أن تقولي: أعوذ بالله منك، فقال: «**قد عذت بمعاذ**» وطلقها، ثم سرحها إلى أهلها وكانت تسمي نفسها الشقية.

وقال الجرجاني: قلن لها: إن أردت أن تحظي عنده فتعوذي بالله منه، فقالت ذلك فولى وجهه عنها. وقيل المتعوذة غيرها، قال أبو عبيدة: ويجوز أن تكونا تعوذتا، وقال آخرون: كان بأسماء وضح فقال لها «**الحقي بأهلك**» وقد قيل في اسمها أميمة، وقيل: أمامة.

**الخامسة**: مليكة بنت كعب الليثية، قال بعضهم: هي التي استعاذت من النبي ﷺ وقيل دخل بها، وماتت عنده، والأول أصح، ومنهم من ينكر تزويجه بها أصلاً.

**والسادسة**: فاطمة بنت الضحاك بن سفيان الكلابي، تزوجها بعد وفاة ابنته زينب وخيرها حين نزلت آية التخيير،[الأحزاب: ٢٨ و ٢٩] فاختارت الدنيا ففارقها عليه الصلاة والسلام فكانت بعد ذلك تلقط البعر وتقول هي الشقية اختارت الدنيا، هكذا رواه ابن إسحاق.

لكن قال أبو عمر: هذا عندنا غير صحيح، لأن ابن شهاب يروي عن عروة عن عائشة، أنه ﷺ حين خير أزواجه بدأ بها فاختارت الله ورسوله، وتابع أزواج النبي ﷺ على ذلك.

وقال قتادة وعكرمة: كان عنده ﷺ عند التخيير تسع نسوة وهن اللاتي توفي عنهن.

وقيل إنه ﷺ تزوجها سنة ثمان، وقيل إن أباها قال: إنها لم تصدع قط، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لاحاجة لي بها**».

**السابعة**: عالية بنت ظبيان بن عمرو بن عوف، تزوجها ﷺ وكانت عنده ما شاء

(١) ذكره الربيع بن حبيب في مسنده ٢/ ٣٥.

الله، ثم طلقها، وقل من ذكرها، وقال أبو سعد: طلقها حين أدخلت عليه صلى الله عليه وسلم.

**الثامنة**: قتيلة ـ بضم القاف وفتح المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتية ـ بنت قيس أخت الأشعث بن قيس الكندي، زوجه إياها أخوها في سنة عشر، ثم انصرف إلى حضر موت فحملها فقبض ﷺ سنة إحدى عشرة قبل قدومها عليه، وقيل تزوجها عليه السلام قبل وفاته بشهرين، وقال قائلون: إن رسول الله ﷺ أوصى بأن تخير، فإن شاءت ضرب عليها الحجاب، وكانت من أمهات المؤمنين، وإن شاءت الفراق فلتنكح من شاءت، فاختارت النكاح فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بحضر موت، فبلغ ذلك أبا بكر فقال: هممت أن أحرق عليها بيتها، فقال له عمر رضي الله عنهما: ما هي من أمهات المؤمنين، ما دخل بها رسول الله ﷺ ولا ضرب عليها الحجاب.

وقال بعضهم: لم يوص فيها عليه السلام بشيء، ولكنها ارتدت حين ارتد أخوها. وبذلك احتج عمر على أبي بكر رضي الله عنهما: أنها ليست من أمهات المؤمنين بارتدادها.

**التاسعة**: سنا بنت أسماء بن الصلت السلمية، تزوجها ﷺ ومات قبل أن يدخل بها، وعند ابن إسحاق: طلقها قبل أن يدخل بها.

**العاشرة**: شرف ـ بفتح الشين المعجمة وتخفيف الراء وبالفاء ـ بنت خليفة الكلبية، أخت دحية بن خليفة الكلبي، تزوجها رسول الله ﷺ فماتت قبل دخوله عليه السلام بها.

**الحادية عشر**: ليلى بنت الخطيم ـ بفتح الخاء المعجمة وكسر الطاء المهملة ـ أخت قيس تزوجها ﷺ وكانت غيوراً فاستقالته فأقالها فأكلها الذئب، وقيل هي التي وهبت نفسها له صلى الله عليه وسلم.

الثانية عشر: امرأة من غفار تزوجها ﷺ فأمرها فنزعت ثيابها فرأى بكشحها بياضاً فقال: «**ألحقي بأهلك**» ولم يأخذ مما آتاها شيئاً، أخرجه أحمد.

فهؤلاء جملة من ذكر من أزواجه ﷺ، وفارقهن في حياته، بعضهن قبل الدخول وبعضهن بعده ـ كما ذكرناه ـ فيكون جملة من عقد عليهن ثلاثاً وعشرين امرأة دخل ببعضهن دون بعض. مات منهن عنده بعد الدخول خديجة وزينب بنت خزيمة، ومات منهن قبل الدخول اثنتان: أخت دحية وبنت الهذيل باتفاق.

واختلف في مليكة وسنا، هل ماتتا أو طلقهما، مع الإتفاق على أنه ﷺ لم يدخل بهما.

وفارق بعد الدخول باتفاق بنت الضحاك، وبنت ظبيان، وقبله باتفاق: عمرة وأسماء والغفارية.

واختلف في أم شريك: هل دخل بها؟ مع الإتفاق على الفرقة. والمستقيلة التي جهل حالها، فالمفارقات بالإتفاق سبع، واثنتان على خلاف. الميتات في حياته باتفاق أربع، ومات ﷺ عن عشر، واحدة لم يدخل بها.

وروي أنه ﷺ خطب عدة نسوة:

الأولى منهن: امرأة من بني مرة بن عوف بن سعد، خطبها ﷺ إلى أبيها فقال: إن بها برصاً، وهو كاذب، فرجع فوجد البرص بها، ويقال: إن ابنها شبيب بن البرصاء بن الحارث بن عوف. ذكره ابن قتيبة، كما قاله الطبري، وعند ابن الأثير في جامع الأصول: جمرة بنت الحارث بن عوف خطبها ﷺ فقال أبوها: إن بها سوءاً، ولم يكن بها شيء، فرجع إليها أبوها وقد برصت، قال: وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر.

الثانية: امرأة قرشية يقال لها سودة، خطبها ﷺ وكانت مصبية، فقالت: أخاف أن تضغو صبيتي ـ أي يصيحوا ويبكوا ـ عند رأسك، فدعا لها وتركها.

الثالثة: صفية بنت بشامة ـ بفتح الموحدة وتخفيف الشين المعجمة ـ كان أصابها في سبي فخيرها بين نفسه الكريمة وبين زوجها، فاختارت زوجها.

الرابعة: ولم يذكر اسمها، قيل إنه ﷺ خطبها، فقالت: أستأمر أبي، فلقيت أباها فأذن لها، فعادت إلى النبي ﷺ فقال لها: «**قد التحفنا لحافاً غيرك**»[1].

الخامسة: أم هانىء، فاختة بنت أبي طالب أخت علي، خطبها ﷺ فقالت: إني امرأة مصبية واعتذرت إليه، فعذرها.

السادسة: ضباعة ـ بضم الضاد المعجمة وتخفيف الموحدة وبالعين المهملة ـ بنت عامر بن قرط ـ بضم القاف وسكون الراء وبالطاء المهملة ـ خطبها ﷺ إلى ابنها سلمة بن هشام فقال: حتى أستأمرها، فقيل للنبي ﷺ: إنها قد كبرت، فلما عاد ابنها ـ وقد أذنت له ـ سكت عنها ﷺ فلم ينكحها.

السابعة: أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب، عرضت عليه ﷺ فقال: «**هي ابنة أخي من الرضاعة**». الثامنة: عزة بنت أبي سفيان، عرضتها أختها أم حبيبة عليه ﷺ فقال «**إنها لا تحل لي**» لمكان أختها أم حبيبة تحت النبي ﷺ.

---

(١) ذكره ابن سعد في طبقاته ٨/ ١٢٧ وفي تفسير القرطبي ١٤/ ١٦٩ وفي كنز العمال (١٨٣٢٦).

وقيل: تزوج ﷺ الجندعية ـ بضم الجيم وسكون النون وضم الدال وبالعين المهملة ـ امرأة من جندع، وهي ابنة جندب بن ضمرة، ولم يدخل بها. وأنكره بعض الرواة. فهؤلاء النساء اللاتي ذكر أنه ﷺ تزوجهن أو خطبهن أو دخل بهن، أو لم يدخل بهن أو عرضن عليه.

وأما سرارية فقيل إنهن أربعة:

مارية القبطية بنت شمعون ـ بفتح الشين المعجمة ـ أهداها له المقوقس القبطي صاحب مصر والإسكندرية، وأهدى معها أختها سيرين ـ بكسر السين المهملة وسكون المثناة التحتية وكسر الراء وبالنون آخرها ـ، وخصيا يقال له: مأبور، وألف مثقال ذهباً وعشرين ثوباً ليناً من قباطي مصر، وبغلة شهباء وهي دلدل، وحماراً أشهب وهو عفير ويقال: يعفور، وعسلاً من عسل بنها، فأعجب النبي ﷺ العسل ودعا في عسل بنها بالبركة. قال ابن الأثير: وبنها ـ بكسر الباء وسكون النون ـ قرية من قرى مصر، بارك النبي ﷺ في عسلها، والناس اليوم يفتحون الباء، انتهى.

ووهب ﷺ سيرين لحسان بن ثابت وهي أم عبد الرحمن بن حسان، ومارية أم إبراهيم بن النبي ﷺ. وماتت مارية في خلافة عمر سنة ست عشرة ودفنت بالبقيع.

وريحانة بنت شمعون من بني قريظة، وقيل من بني النضير، والأول أظهر، وماتت قبل وفاته ﷺ مرجعه من حجة الوداع سنة عشر، ودفنت بالبقيع، وكان ﷺ وطئها بملك اليمين، وقيل أعتقها وتزوجها ولم يذكر ابن الأثير غيره.

وأخرى: وهبتها له زينب بنت جحش.

الرابعة: أصابها في بعض السبي.

# في أعمامه[١] وعماته[٢] وإخوته من الرضاعة وجداته[٣]

قال صاحب «ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى»: كان له ﷺ اثنا عشر عماً بنو عبد المطلب، أبوه ـ عبد الله ـ ثالث عشرهم: الحارث، وأبو طالب واسمه عبد مناف، والزبير ويكنى أبا الحارث، وحمزة، وأبو لهب واسمه عبد العزى، والغيداق، والمقوم، وضرار، والعباس، وقثم، وعبد الكعبة، وجحل ـ بتقديم الجيم، وهو السقاء الضخم، وقال الدارقطني بتقديم الحاء وهو القيد والخلخال ـ ويسمى المغيرة.

وقيل كانوا أحد عشر فأسقط: المقوم، وقال هو عبد الكعبة، وقيل عشرة، فأسقط الغيداق وجحلاً، وقيل تسعة فأسقط قثم.

فأما حمزة، فأمه هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، ويكنىٰ أبا عمارة وأبا يعلى، كنيتان له بابنيه عمارة ويعلى، وكان يدعى أسد الله وأسد رسوله وفي معجم البغوي أنه ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده إنه لمكتوب عند الله عز وجل في السماء السابعة: حمزة أسد الله وأسد رسوله**»[٤].

وكان إسلامه في السنة الثانية من المبعث، وقيل في السادسة بعد دخوله ﷺ دار الأرقم، وقيل قبل إسلام عمر بثلاثة أيام.

وشهد بدراً، وقتل بها عتبة بن ربيعة مبارزة، قاله موسى بن عقبة، وقيل: بل قتل شيبة بن ربيعة مبارزة، قاله ابن إسحاق.

وأول راية عقدها ﷺ لأحد من المسلمين كانت لحمزة، وأول سرية بعثها، وقال ﷺ: «**خير أعمامي حمزة**» رواه الحافظ الدمشقي.

---

(١) انظر زاد المعاد بشرح المواهب ١/ ٨٧.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٨/ ٣٤.

(٣) المصدر السابق ١/ ٨٧.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٩٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٢٦٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ٣/ ١٦٣ وفي كنز العمال (٣٣٢٧١).

وروى ابن السري مرفوعاً: «**سيد الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب**»[1].

وذكر السلفي[2] عن بريدة في قوله تعالى: ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة**﴾ [الفجر: ٢٧] قال: حمزة بن عبد المطلب، وعن ابن عباس ﴿**فمنهم من قضى نحبه**﴾ [الأحزاب: ٢٣] قال: حمزة.

واستشهد في وقعة أحد، قتله وحشي. وعن سعيد بن المسيب كان يقول: كنت أعجب لقاتل حمزة كيف ينجو، حتى إنه مات غريقاً في الخمر. رواه الدارقطني على شرط الشيخين. وقال ابن هشام: بلغني أن وحشياً لم يزل يحد في الخمر حتى خلع من الديوان، فكان عمر يقول: لقد علمت أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة.

ولما رأى النبي ﷺ حمزة قتيلاً بكى، فلما رأى ما مثل به شهق. وعن أبي هريرة: وقف ﷺ علىٰ حمزة ـ وقد قتل ومثل به ـ فلم ير منظراً كان أوجع لقلبه منه. رواه أبو عمر، والمخلص[3]، وصاحب الصفوة.

وعند ابن هشام أنه ﷺ قال: «**لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قط أغيظ لي من هذا**»[4].

وعند ابن شاذان من حديث ابن مسعود: ما رأينا رسول الله ﷺ باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب، وضعه في القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشغ من البكاء يقول: «**يا حمزة يا عم رسول الله وأسد الله وأسد رسوله، يا حمزة يا فاعل الخيرات، يا حمزة يا كاشف الكربات، يا حمزة يا ذاباً عن وجه رسول الله**».

والنشغ: الشهيق حتى يبلغ به الغشي.

وكان ﷺ إذا صلى على جنازة كبر عليها أربعاً، وكبر على حمزة سبعين تكبيرة، رواه البغوي في معجمه. وقد روى أنس بن مالك أن شهداء أحد لم يغسلوا ودفنوا

---

(١) ذكره في كنز العمال (٣٣٢٦٠).

(٢) هو أحمد بن محمد بن سلفة (بكسر السين وفتح اللام) الأصبهاني صدر الدين أبو طاهر السلفي (٤٧٨ ـ ٥٧٦ هـ) حافظ توفي بالإسكندرية الأعلام ١/ ٢١٥ وفيات الأعيان ١/ ٣١ شذرات الذهب ٤/ ٢٥٥ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٩٨ رقم الترجمة (١٠٨٢) حسن المحاضرة ١/ ٣٥٤ العبر ٤/ ٢٢٧ لسان الميزان ١/ ٣٩٩ والأنساب ٣/ ٢٢٤ مادة «السلفي».

(٣) هو محمد بن عبد الرحمن بن العباس أبو طاهر المخلِّص الذهبي البغدادي (٣٠٥ ـ ٣٩٣ هـ) حافظ. الأعلام ٦/ ١٩٠ تاريخ بغداد ٢/ ٣٢٢ هدية العارفين ٢/ ٥٧ واللباب ٣/ ١١١.

(٤) انظر السيرة لابن هشام ٣/ ١٠١.

بدمائهم ولم يصل عليهم[١]. خرجه أحمد وأبو داود. فيحمل أمر حمزة على التخصيص، ومن صلى عليه غيره على أنه جرح حال الحرب ولم يمت حتىٰ انقضت الحرب. وكان سن حمزة يوم قتل تسعاً وخمسين سنة، ودفن هو وابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد.

وأما العباس وكنيته أبو الفضل، فأمه نتله، ويقال نتيله بنت جناب بن كلب بن النمر ابن قاسط، ويقال: إنها أول عربية كست البيت الحرام الديباج وأصناف الكسوة، لأن العباس ضل وهو صبي، فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت.

وكان العباس جميلاً وسيماً أبيض، له ضفيرتان، معتدلاً وقيل كان طوالاً، وولد قبل الفيل بثلاث سنين، وكان أسن من النبي ﷺ بسنتين أو ثلاث، وكان رئيساً في قريش وإليه عمارة المسجد الحرام.

وكان مع النبي ﷺ يوم العقبة يعقد له البيعة على الأنصار، وكان عليه السلام يثق به في أمره كله. ولما شدوا وثاقه في أسرى بدر سهر ﷺ تلك الليلة، فقيل: ما يسهرك يا رسول الله؟ قال: «**لأنين العباس**» فقام رجل فأرخى وثاقه، وفعل ذلك بالأسرى كلهم، ذكره أبو عمر، وصاحب الصفوة.

وقيل: كان يكتم إسلامه وخرج مع المشركين يوم بدر فقال ﷺ «**من لقي العباس فلا يقتله فإنه خرج مستكرهاً**»[٢] فأسره كعب بن عمرو، ففادى نفسه ورجع إلى مكة.

وقيل: إنه أسلم يوم بدر ثم أقبل إلى المدينة مهاجراً، فاستقبل النبي ﷺ يوم الفتح بالأبواء وكان معه في فتح مكة، وبه ختمت الهجرة. وقال أبو عمر: أسلم قبل فتح خيبر وكان يكتم إسلامه ويسره ما يفتح الله على المسلمين، وأظهر إسلامه يوم فتح مكة، وشهد حنيناً والطائف وتبوك.

ويقال: إن إسلامه كان قبل بدر، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون بمكة يثقون به، وكان يحب القدوم على رسول ﷺ، فيكتب إليه ﷺ «إن مقامك بمكة خير لك» وقال أبو مصعب إسماعيل بن قيس بن سعد بن زيد بن ثابت حدثنا أبو حازم سلمة بن دينار عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: استأذن العباس رضي الله عنه النبي ﷺ في الهجرة فكتب إليه: «يا عم أقم مكانك الذي أنت فيه، فإن الله عز وجل

---

(١) أخرجه البخاري أيضاً في كتاب الجنائز باب (٧٢) رقم الحديث (١٣٤٣ ـ ١٣٤٧ ـ ١٣٥٣ ـ ٤٠٧٩) وأبو داوود كتاب الجنائز باب (٢٧) رقم الحديث (٣١٣٥ ـ ٣١٣٨) وفي الترمذي كتاب الجنائز باب (٤٦). رقم الحديث (١٠٣٦) وفي ابن ماجه كتاب الجنائز باب (٢٨) رقم الحديث (١٥١٤).

(٢) ذكره ابن سعد في طبقاته ٤/ ٧ وفي تفسير ابن كثير ٤/ ٣٥ وفي تفسير القرطبي ٨/ ٤٩.

يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوة»[1] رواه أبو يعلى والهيثم بن كليب ـ في مسنديهما ـ والطبراني في الكبير.

وأبو مصعب متروك، لكن يعتضد بقول عروة بن الزبير: كان العباس قد أسلم وأقام على سقايته ولم يهاجر، رواه الحاكم في مستدركه. وذكر السهمي[2] في الفضائل أن أبا رافع لما بشر النبي ﷺ بإسلام العباس أعتقه. وكان ﷺ يكرم العباس بعد إسلامه ويعظمه، ووصفه عليه السلام فقال: «**أجود الناس كفاً، وأحناه عليهم**» رواه الفضائلي. وفي معجم البغوي: العباس «**عمي وصنو أبي، من آذاه فقد آذاني**»[3] وفي الترمذي نحوه، وقال: حسن صحيح.

وذكر السهمي في الفضائل: أن العباس أتى النبي ﷺ فلما رآه قام إليه، وقبل ما بين عينيه، ثم أقعده عن يمينه ثم قال: «**هذا عمي فمن شاء فليباه بعمه**» فقال العباس: نعم القول يا رسول الله، قال «**ولم لا أقول هذا، أنت عمي وصنو أبي وبقية آبائي ووارثي وخير من أخلف من أهلي**» وقال له ﷺ «**يا عم لا ترم منزلك أنت وبنوك غداً حتى أتيكم فإن لي فيكم حاجة**» فلما أتاهم اشتمل عليهم بملاءة ثم قال: «**يا رب، هذا عمي وصنو أبي وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه**» قال: فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت فقالت: آمين آمين آمين. رواه ابن غيلان، وأبو القاسم حمزة، والسهمي، ورواه ابن السري وفيه: فما بقي في البيت مدرة ولا باب إلا أمن. ورواه الترمذي من حديث ابن عباس بلفظ «**فألبسنا كساء**» ثم قال: «**اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً، اللهم احفظه في ولده**،[4]» وقال حسن غريب.

وعند ابن عبد الباقي من حديث أبي هريرة: «**اللهم اغفر للعباس ولولد العباس ولمن أحبهم**[5]».

---

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ٦/ ١٩٠. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٢٦٩. وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٢٣٥ وفي ميزان الإعتدال ١/ ١٣٢٩.

(٢) هو حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي القرشي الجرجاني أبو القاسم. مؤرخ حافظ. توفي بنيسابور سنة (٤٢٧ هـ). الأعلام ٢/ ٢٨٠. تاريخ جرجان صفحة (١٢). تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٨٩ رقم الترجمة (٩٩٠). العبر ٢/ ١.

(٣) أخرجه الترمذي. كتاب المناقب باب (٢٨) رقم الحديث (٣٧٥٨). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ١٦٥.

(٤) أخرجه الترمذي. كتاب المناقب. باب (٢٨) رقم الحديث (٣٧٦٢). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٦١٤٩). وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٢٣٨. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٧٦٨). وفي كنز العمال (٣٣٤٤٣).

(٥) ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد. ١٠/ ٣٩. وفي كنز العمال (٣٧١٨٥).

وفي تاريخ دمشق من حديث ابن عباس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له في فتح مكة «**اللهم انصر العباس وولد العباس**» قالها ثلاثاً ثم قال: يا «**يا عم أما علمت أن المهدي من ولدك**»[1]. وروى الحاكم في مستدركه والبغوي في معجمه عن سعيد بن المسيب أنه قال: «**العباس حبر هذه الأمة، ووارث النبي ﷺ وعمه**» قال الذهبي سنده صحيح. قال: ويتكلف لتأويله إن كان قوله خير ـ بالمعجمة والتحتية ـ.

وفي الأفراد للدارقطني عن جابر الأنصاري رضي الله عنه، قال سمعت: رسول الله ﷺ يقول «**من لم يحب العباس بن عبد المطلب وأهل بيته فقد بريء من الله ورسوله**» وفي سنده عمر بن راشد الحارثي. وهو ضعيف جداً. لكن يشهد له ما رواه محمد بن حسين الأشناني ثم أبو بكر بن عبد الباقي في أماليه ومن طريقهما المنذري من طريق منصور عن مسلم بن صبيح بن الضحى عن مسروق عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**من لم يحب عمي**» هذا ـ وأخذ بيد العباس فرفعها «**لله عز وجل ولقرابته لي فليس بمؤمن**»[2].

وللترمذي وقال: حسن، عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب أن رسول الله ﷺ قال للعباس «**والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان ما لم يحبكم لله ولرسوله**» ثم قال «**يا أيها الناس من آذى عمي فقد آذاني فإنما عم الرجل صنو أبيه**»[3].

وروى البغوي أنه عليه الصلاة والسلام قال له: «**لك يا عم من الله حتى ترضى**»[4].

وروى السهمي في الفضائل أنه عليه السلام قال للعباس: «**إن الله عز وجل غير معذبك ولا أحد من ولدك**».

وفي المعجم الكبير للطبراني عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ اللهم اغفر للعباس، وأبناء العباس وأبناء أبناء العباس. وفي سنده عبد الرحمن بن حاتم المرادي المصري وهو متروك.

وفي تاريخ دمشق ـ مما هو شديد الوهي ـ عن أبي هريرة مرفوعاً: «**اللهم اغفر**

---

(١) ذكره ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٧/ ٢٣٦ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٧٦٦). وفي كنز العمال (٣٣٤٣١ ـ ٣٩٦٥٥).

(٢) ذكره العقيلي في الضعفاء ٤/ ١٤٩.

(٣) أخرجه الترمذي. كتاب المناقب باب (٢٨) رقم الحديث (٣٧٥٨) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ١٦٥. وفي أمالي الشجري ١/ ١٥٧. وفي كنز العمال (٣٣٣٩).

(٤) ذكره ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٧/ ٢٤٣.

للعباس ولولد العباس ولمحبي ولد العباس وشيعتهم»[1].

وفي المناقب للإمام أحمد بسند لا بأس به، أن العباس قال: كنت عند النبي ﷺ ذات ليلة فقال: «انظر هل ترى في السماء نجماً» قلت: نعم قال: «ما ترى» قلت: الثريا، قال: «أما إنه يلي هذه الأمة بعددها من صلبك»[2].

وروى السهمي من حديث ابن عباس أنه ﷺ قال له: «ألا أبشرك يا عم» قال: بلى بأبي أنت وأمي فقال عليه السلام: «إن من ذريتك الأصفياء ومن عترتك الخلفاء»[3].

ومن حديث أبي هريرة: «فيكم النبوة والمملكة»[4].

ومن حديث ابن عباس عن أبيه: «هذا عمي أبو الخلفاء أجود قريش كفاً وأجملها وإن من ولده السفاح والمنصور والمهدي»[5].

وذكر ابن حبان والملاء من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا بكر هذا العباس قد أقبل وعليه ثياب بيض وسيلبس ولده من بعده السواد».

وعن جابر بن عبد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول «ليكونن في ولده» - يعني العباس - «ملوك يكونون أمراء أمتي، يعز الله بهم الدين»[6] قال الحافظ أبو الحسن الدارقطني: هذا حديث غريب من حديث عمرو بن دينار عن جابر، خرجه الأصفهاني.

وتوفي العباس رضي الله عنه في خلافة عثمان رضي الله عنه قبل مقتله بسنتين بالمدينة، يوم الجمعة لاثنتي عشرة - وقيل لأربع عشرة - خلت من رجب، وقيل من رمضان سنة اثنتين وقيل ثلاث وثلاثين، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وقيل سبع وثمانين سنة، أدرك منها في الإسلام اثنتين وثلاثين سنة ودفن بالبقيع، ودخل قبره ابنه عبد الله. وكان عظيماً جليلاً، وكان يسمى ترجمان القرآن، وهو أبو الخلفاء.

---

(١) ذكره ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٧/٢٣٩. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٠/٢٧، ١١/٢٤. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/٢٨٧.

(٢) أخرج نحوه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/٢٠٩ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٥٦٧) وفي كنز العمال (٣٣٤٢٩).

(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣٣٤٢٠).

(٤) ذكره البيهقي في دلائله ٦/٥١٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/١٩٢ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/٢٨٩ وفي كنز العمال (٣٣٤٣٤ - ٣٧١٨٤).

(٥) ذكره السيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/٢٢٦ وفي الموضوعات لابن الجوزي ٢/٣٧ وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/٨.

(٦) ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/٢٨٨ وفي كنز العمال (٣٣٤٠٠).

ويروى أن أمه أم الفضل لما وضعته أتت به النبي ﷺ فأذن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، وقال: «**اذهبي بأبي الخلفاء**» [1] رواه ابن حبان وغيره. وقد ملأ عقبه الأرض حتى قيل إنهم بلغوا في زمن المأمون ستمائة ألف. واستبعد والله أعلم. وكان العباس أصغر أعمامه ﷺ ولم يسلم منهم إلا هو وحمزة. وأسنهم الحارث.

وأما عماته[2] ﷺ بنات عبد المطلب بن هاشم، فجملتهن ست: عاتكة، وأميمة، والبيضاء وهي أم حكيم، وبرة، وصفية، وأروى، ولم يسلم منهن إلا صفية أم الزبير بلا خلاف.

واختلف في أروى وعاتكة، فذهب أبو جعفر العقيلي إلى إسلامهما، وعدهما في الصحابة، وذكر الدارقطني: عاتكة في جملة الإخوة والأخوات، ولم يذكر أروى . وأما ابن إسحاق فذكر أنه لم يسلم منهن غير صفية.

فأما صفية فأسلمت باتفاق، كما ذكرته، وشهدت الخندق، وقتلت رجلاً من اليهود، وضرب لها ﷺ بسهم، وأمها هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، شقيقة حمزة والمقوم وحجل، وكانت في الجاهلية تحت الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس، ثم هلك فخلفه عليها العوام بن خويلد أخو خديجة أم المؤمنين، فولدت له الزبير والسائب وعبد الكعبة، وتوفيت بالمدينة في خلافة عمر رضي الله عنه سنة عشرين، ولها ثلاث وسبعون سنة، ودفنت بالبقيع.

وأما عاتكة المختلف في إسلامها فأمها فاطمة بنت عمرو بن عائد، فتكون شقيقة عبد الله أبي النبي ﷺ وأبي طالب والزبير وعبد الكعبة، وهي صاحبة الرؤيا في قصة بدر[3] .

وأما أروى المختلف أيضاً في إسلامها، فأمها صفية بنت جندب، فهي شقيقة الحارث بن عبد المطلب، وكانت تحت عمير بن وهب بن عبد الدار بن قصي، فولدت له طليباً، ثم خلفه عليها كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي. وأسلم طليب وكان سبباً في إسلام أمه، كما ذكره الواقدي. وأما أم حكيم، البيضاء، فهي شقيقة عبد الله أبي

---

(١) ذكره في ميزان الإعتدال ٣٧٥ وفي كنز العمال (٣٣٤٣٢ ـ ٣٣٥٨٧). وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٢٤٧.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٨/ ٣٤ وزاد المعاد بشرح المواهب ١/ ٨٧. ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٨٥.

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٨ والدلائل للبيهقي ٣/ ٢٨ وطبقات ابن سعد ٨/ ٣٦ والإصابة ٨/ ١٣٨ رقم الترجمة (٦٩٥).

النبي ﷺ. وأما برة فأمها فاطمة أيضاً، وكانت عند أبي رهم بن عبد العزى العامري، ثم خلفه عليها عبد الأسد بن هلال المخزومي، فولدت له أبا سلمة بن عبد الأسد الذي كانت عنده أم سلمة قبل النبي ﷺ. وأما أميمة فأمها فاطمة، وكانت تحت جحش بن رئاب، فولدت له عبد الله وعبيد الله وأبا أحمد وزينب وأم حبيبة وحمنة، أولاد جحش ابن رئاب.

وأما جداته عليه الصلاة والسلام من أبيه:

فأم عبد الله ـ أبيه ـ هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم.[1].

وأم عبد المطلب، سلمى ابنة عمرو من بني النجار، وكانت قبل هاشم تحت أحيحة بن الجلاح فولدت له عمرو بن أحيحة، وهو أخو عبد المطلب لأمه.

وأم هاشم عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان من بني سليم.

وأم عبد مناف عاتكة بنت فالج بن مليك بن ذكوان من بني سليم.

وأم قصي فاطمة بنت سعد من أزد الشراة.

وأم كلاب، نعم بنت سرير بن ثعلبة بن مالك بن كنانة.

وأم مرة وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهم.

وأم كعب، سلمى بنت محارب من فهم.

وأم لؤي، وحشية بنت مدلج بن مرة بن عبد مناف من كنانة.

وأم غالب، سلمى بنت سعد من هذيل.

وأم فهر، جندلة بنت الحارث الجرهمي.

وأم مالك: هند بنت عدوان بن عمرو بن قيس بن غيلان.

وأم النضر، برة بنت مرة، أخت تميم بن مرة.

ذكره ابن قتيبة في كتاب المعارف كما حكاه الطبري عنه وقال: فالجدة الأولى قرشية مخزومية، والثانية نجارية، والثالثة سليمية والرابعة سليمية أيضاً، وقيل خزاعية والخامسة أزدية، والسادسة كنانية، والسابعة فهمية والثامنة فهمية أيضاً أو فهرية ـ والخط في الأصل يوهم ـ والتاسعة كنانية، والعاشرة هذلية، والحادية عشر جرهمية، والثانية عشر قيسية، والثالثة عشر مرية.

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٨٤.

وأما جداته عليه الصلاة والسلام من أمه:[1].

فأم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، برة بنت عبد العزى بن عثمان ابن عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة وأم أبيها وهب: عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان من بني سليم، ذكره ابن قتيبة.

وقال أبو عمر: ويعرف أبوها بأبي كبشة الذي كان ينسب إليه رسول الله ﷺ فيقال: ابن أبي كبشة، ونسب إليه لأنه كان يعبد «الشعرى» ولم يكن أحد من العرب يعبدها غيره، فلما جاءهم ﷺ بخلاف ما كانت عليه العرب قالوا: هذا ابن أبي كبشة، ولم يقصدوا ذمه ﷺ بذلك. وقيل: بل نسب إلى وهب أخي أمه كان يدعى بها، وقيل: كان يدعى بها أبوه من الرضاعة: الحارث بن عبد العزى زوج حليمة فنسب إليه.

وأم برة هي أم حبيب، قاله ابن قتيبة وقال أبو سعد: أم سفيان بنت أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب.

وأم أم حبيب هي برة بنت عوف بن عبيد بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب.

وأم برة بنت عوف، قلابة بنت الحارث بن صعصعة بن عائذ بن لحيان بن هذيل.

وأم قلابة، هند بنت يربوع من ثقيف. قاله ابن قتيبة، وقال ابن سعد: أمها بنت مالك بن عثمان من بني لحيان.

فالجدة الأولى والثانية والثالثة من أمهات أمه ﷺ قرشيات، وأم أبي أمه سلمية والرابعة لحيانية هذلية، والخامسة ثقفية، ففي كل قبيلة من قبائل العرب له ﷺ علقة نسب.

وأما إخوته عليه الصلاة والسلام من الرضاعة:[2]

فحمزة وأبو سلمة بن عبد الأسد، أرضعتهما معه ﷺ ثويبة جارية أبي لهب بلبن ابنها مسروح بن ثويبة.

وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أرضعته ورسول الله ﷺ حليمة السعدية، وعبد الله وآسية وجدامة ـ وتعرف بالشيماء ـ الثلاثة أولاد حليمة.

وقد روي أن خيلاً له ﷺ أغارت على هوازن، فأخذوها في جملة السبي، فقالت: أنا أخت صاحبكم، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالت له: يا محمد، أنا أختك،

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ١/ ١٦٥ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٨٣ وطبقات ابن سعد ١/ ٤٩.
(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٧٠ وطبقات ابن سعد ١/ ٨٧.

فرحب بها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه ودمعت عيناه، وقال ﷺ: «**إن أحببت فأقيمي عندي مكرمة محببة، وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك وصلتك**» قالت: بل أرجع إلى قومي، فأسلمت، وأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية ونعماً وشاء[1] ذكره أبو عمر وابن قتيبة.

وأما أمه من الرضاعة، فحليمة بنت أبي ذؤيب من هوازن، وهي التي أرضعته حتى أكملت رضاعه، وجاءته ﷺ يوم حنين فقام إليها وبسط رداءه لها، فجلست عليه. وكذا ثويبة جارية أبي لهب أيضاً، واختلف في إسلامها كما اختلف في إسلام حليمة وزوجها، فالله أعلم.

وكانت ثويبة تدخل عليه ﷺ بعد أن تزوج خديجة، فكانت تكرمها. وأعتقها أبو لهب، وكان ﷺ يبعث إليها من المدينة بكسوة وصلة حتى ماتت بعد فتح خيبر. ذكره أبو عمر.

وكانت حاضنته ﷺ أم أيمن، بركة بنت ثعلبة بن حصن بن مالك، غلبت عليها كنيتها، وكنيت باسم ابنها أيمن الحبشي، وهي أم أسامة بن زيد، تزوجها زيد بعد عبيد، فولدت له أسامة، ويقال: إنها مولاة رسول الله ﷺ. هاجرت الهجرتين إلى أرض الحبشة وإلى المدينة. وكانت لعبد الله بن عبد المطلب، فورثها النبي ﷺ. وقيل كانت لأمه عليه السلام. وكان ﷺ يقول: «**أم أيمن أمي بعد أمي**»[2].

وكانت الشيماء بنت حليمة السعدية تحضنه أيضاً مع أمها حليمة السعدية.

---

(١) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/١٢٨ وفي مناهل الصفا صفحة ٧٣ رقم الحديث (٢٤٦) وفي إتحاف السادة المتقين ٦/٢٢٦.

(٢) ذكره السيوطي في جمع الجوامع (٤٣٨٢) وفي كنز العمال (٣٤٤١٧).

# في خدمه[1] وحرسه[2] ومواليه[3] ومن كان على نفقاته وخاتمه ونعله وسواكه[4] ومن يأذن عليه ومن كان يضرب الأعناق[5] بين يديه

أما خدمه:

فمنهم أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا حمزة، خدم النبي ﷺ تسع سنين أو عشر سنين، ودعا له ﷺ فقال: اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة. وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ منه. وتوفي سنة ثلاث وتسعين وقيل سنة اثنين وقيل سنة إحدى وتسعين وقد جاوز المائة.

ومنهم ربيعة بن كعب الأسلمي، صاحب وضوئه، وتوفي سنة ثلاث وستين.

ومنهم: أيمن ابن أم أيمن، صاحب مطهرته ﷺ، استشهد يوم حنين.

ومنهم عبد الله بن مسعود بن غافل ـ بالمعجمة والفاء ـ ابن حبيب الهذلي، أحد السابقين الأولين، شهد بدراً والمشاهد، وكان صاحب الوسادة والسواك والنعلين والطهور وكان يلي ذلك من النبي ﷺ، وكان إذا قام النبي ﷺ ألبسه نعليه، وإذا جلس جعلهما في ذراعيه حتى يقوم. وتوفي بالمدينة وقيل بالكوفة سنة اثنتين وثلاثين، وقيل سنة ثلاث.

ومنهم عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو الجهني، وكان صاحب بغلته يقود به ﷺ في الأسفار، روينا عنه أنه قال: بينما أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب إذ قال لي رسول الله ﷺ: «اركب يا عقبة» قال فأجللت رسول الله ﷺ أن أركب مركبه ثم أشفقت أن يكون معصية قال: فركبت هنيهة ثم نزلت، ثم ركب النبي ﷺ وقدت به، فقال

(١) انظر البداية والنهاية ٥/ ٢٧٠ و٢٨٨ وزاد المعاد بشرح المواهب ١/ ١٠٢ وطبقات ابن سعد ١/ ٣٨٥.

(٢) انظر زاد المعاد بشرح المواهب ١/ ١٠٩.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٠١ وفي البداية ٥/ ٢٨٨.

(٤) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٣٦٤ و٢/ ١٨٠ والبداية ٦/ ٤ و٧.

(٥) انظر زاد المعاد ١/ ١١٢.

لي: «**يا عقبة ألا أعلمك من خير سورتين قرأ بهما الناس**» فقلت: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ [الفلق: ١] و﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾ [الناس: ١][1] الحديث رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

ولأحمد: فقال «**يا عقبة، ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم**»، قال: قلت بلى، قال: «**فأقرأني**» ﴿**قل هو الله أحد**﴾ [الإخلاص: ١] و﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ و ﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾.

وكان عقبة عالماً بكتاب الله وبالفرائض فصيحاً شاعراً مفوهاً، ولي مصر لمعاوية سنة أربع وأربعين ثم صرفه بمسلمة بن مخلد، وتوفي بها سنة ثمان وخمسين.

ومنهم أسلع بن شريك صاحب راحلته. وفي الطبراني عن الربيع بن بدر قال: حدثني أبي عن أبيه عن رجل يقال له أسلع قال كنت أخدم النبي ﷺ وأرحل له، فقال لي ذات يوم: «**يا أسلع، قم فأرحل**» فقلت: يا رسول الله أصابتني جنابة، فسكت رسول الله ﷺ وأتاه جبريل فنزل بآية الصعيد [النساء: ٤٣ والمائدة: ٦] فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا أسلع فتيمم**» قال: فقمت، ثم رحلت له ثم سار حتى مر بماء ثم قال لي يا أسلع: «**مسَّ أو أمسَّ هذا جلدك**» قال: فأراني التيمم ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين[2] انتهى.

ومنهم: سعد مولى أبي بكر، وقيل سعيد، ولم يثبت، وروى عنه ابن ماجه.

ومنهم: أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، أسلم قديماً، وتوفي بالربذة سنة إحدى وثلاثين، وصلى عليه عبد الله بن مسعود ثم مات بعده في ذلك اليوم، قاله ابن الأثير في «معرفة الصحابة»، وفي التقريب للحافظ ابن حجر سنة اثنتين وثلاثين.

ومنهم: مهاجر مولى أم سلمة.

ومنهم: حنين والد عبد الله، مولى عباس، كان يخدم النبي ﷺ، ثم وهبه لعمه العباس.

ومنهم: نعيم بن ربيعة الأسلمي.

---

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب الصلاة باب (١٩) رقم الحديث (١٤٦٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١١٤ و١٥٠ وفي النسائي كتاب الإستعاذة ٨/ ٢٥٣.

(٢) ذكره ابن كثير في البداية ٥/ ٢٨٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٢٧٦ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٢٦٢ وفي الدر المنثور ٢/ ١٦٥ وفي شرح معاني الآثار ١/ ١١٣ وفي تفسير الطبري ٥/ ٦٨ وفي طبقات ابن سعد ٧/ ٤٦ ترجمة (ميمون الأسلع رقم ٢٩١٨) وفي كنز العمال (٢٧٥٨١).

ومنهم: أبو الحمراء، مولاه ﷺ وخادمه، واسمه هلال بن الحارث، أو ابن ظفر، نزل حمص وتوفي بها.

ومنهم: أبو السمح خادمه ﷺ واسمه إياد.

ومن النساء:

بركة أم أيمن الحبشية، وهي والدة أسامة بن زيد ماتت في خلافة عثمان رضي الله عنه.

وخولة جدة حفص.
وسلمى أم رافع، زوج أبي رافع.
وميمونة بنت سعد.

وأم عياش مولاة رقية بنت النبي ﷺ.

وكان يضرب الأعناق بين يديه: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، والمقداد ابن عمرو، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، والضحاك بن سفيان.

وكان قيس بن سعد بن عبادة بن يديه ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة. وكان بلال على نفقاته. ومعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي على خاتمه. وابن مسعود على سواكه ونعله، كما تقدم. وأبو رافع واسمه أسلم ـ وقيل غير ذلك ـ قبطي، كان على ثقله. وأذن عليه ﷺ في المشربة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه رياح النوبي.

وأما حراسه:[1]

فمنهم سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس، سيد الأوس، أسلم بين العقبتين على يد مصعب بن عمير، وشهد بدراً وأحداً والخندق، فرمي فيه بسهم فعاش شهراً ثم انتقض جرحه فمات. حرس النبي ﷺ يوم بدر حين نام في العريش.

ومنهم: محمد بن مسلمة الأنصاري، حرسه يوم أحد.

ومنهم: الزبير بن العوام حرسه يوم الخندق.

ومنهم: بلال، المؤذن، أسلم قديماً، وعذب في الله، وسكن الشام أخيراً، ولا عقب له، وتأتي وفاته إن شاء الله تعالى، وكان يحرس النبي ﷺ بوادي القرى.

وكان أبو بكر الصديق يوم بدر في العريش شاهراً سيفه على رأسه ﷺ لئلا يصل إليه أحد من المشركين. رواه ابن السمان في الموافقة.

---

(١) انظر زاد المعاد ١/ ١١٢.

ووقف المغيرة بن شعبة على رأسه بالسيف يوم الحديبية.

وكان يحرسه ﷺ أيضاً عباد بن بشر. فلما نزل ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ [المائدة: ٦٧] ترك ذلك.

وأما مواليه ﷺ [(١)]:

أسامة وأبوه زيد بن حارثة، حب رسول الله ﷺ، أعتقه وزوجه مولاته أم أيمن واسمها بركة فولدت له أسامة.

وكان زيد قد أسر في الجاهلية، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، فاستوهبه النبي ﷺ منها، ذكر قصته محمد بن إسحاق في السيرة، وأن أباه وعمه أتيا مكة فوجداه، فطلبا أن يفدياه، فخيره النبي ﷺ بين أن يدفعه لهما أو يبقى عنده ﷺ، وفي رواية الترمذي قال: يا رسول الله، لا أختار عليك أحداً أبداً.

واستشهد زيد في مؤته، ومات ابنه أسامة بالمدينة أو بوادي القرى سنة أربع وخمسين.

ومنهم: ثوبان، لازم رسول الله ﷺ ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

وأبو كبشة، أوس، ويقال سليم من مولدي مكة وشهد بدراً.

وشقران ـ بضم الشين المعجمة وسكون القاف ـ واسمه صالح الحبشي، ويقال: فارسي، شهد بدراً وهو مملوك، ثم عتق، قاله الحافظ ابن حجر وقال: أظنه مات في خلافة عثمان.

ورباح ـ وهو بفتح الراء وبالموحدة ـ الأسود، وكان يأذن عليه أحياناً إذا انفرد، وهو الذي أذن لعمر بن الخطاب في المشربة، كما تقدم.

ويسار، الراعي، وهو الذي قتله العرنيون.

وزيد وهو أبو يسار ـ وليس زيد بن حارثة والد أسامة ـ ذكره ابن الأثير.

ومدعم ـ بكسر الميم وفتح العين المهملة ـ عبد أسود، كان لرفاعة بن زيد الضبيبي ـ بضم الضاد المعجمة وفتح الموحدة الأولى ـ فأهده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأبو رافع، واسمه: أسلم القبطي، وكان للعباس فوهبه للنبي ﷺ، فلما بشر النبي

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٠١.

ﷺ بإسلام العباس أعتقه، توفي قبل قتل عثمان بيسير.

ورفاعة بن زيد الجذامي.

وسفينة، واختلف في اسمه، فقيل: طهمان، وقيل: كيسان، وقيل: مهران، وقيل غير ذلك، وسماه رسول الله ﷺ سفينة لأنهم كانوا حملوه شيئاً كثيراً في السفر[1].

ومأبور القبطي، وهو من جملة من أهداه المقوقس للنبي ﷺ.

وواقد، أو أبو واقد،

وأنجشة الحادي، ويأتي ذكره في حداته ﷺ إن شاء الله تعالى.

وسلمان الفارسي، أبو عبد الله، ويقال له سلمان الخير، أصله من أصبهان، وقيل من رام هرمز، أول مشاهده الخندق، مات سنة أربع وثلاثين، يقال بلغ ثلاثمائة سنة.

وشمعون بن زيد، أبو ريحانة. قال الحافظ ابن حجر: حليف الأنصار، ويقال مولى رسول الله ﷺ، شهد فتح دمشق وقدم مصر، وسكن بيت المقدس.

وأبو بكرة، نفيع بن الحارث بن كلدة، جد القاضي الجليل بكار بن قتيبة الحنفي قاضي مصر المدفون بها.

ومن النساء: أم أيمن الحبشية، وسلمى أم رافع زوج أبي رافع، ومارية وريحانة وقيسر أخت مارية وغير ذلك.

قال ابن الجوزي: مواليه ثلاثة وأربعون، وإماؤه إحدى عشرة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٢٢١ وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٦٠٦ وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٩٧ وفي حلية الأولياء ١/ ٣٦٩.

# في أمرائه[1] ورسله وكتّابه وكتبه إلى أهل الإسلام في الشرائع والأحكام، ومكاتباته إلى الملوك وغيرهم من الأنام[2]

أما كتابه فجمع كثير وجم غفير ذكرهم بعض المحدثين في تأليف له بديع استوعب فيه جملاً من أخبارهم، ونبذاً من سيرهم وآثارهم، وصدر فيه بالخلفاء الأربعة الكرام، خواص حضرته عليه الصلاة والسلام.

فأولهم في التقديم أبو بكر الصديق، وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، وفي الإسلام عبد الله، وسمي بالصديق لتصديقه النبي ﷺ، وقيل إن الله صدقه، ويلقب عتيقاً لجماله، أو لأنه ليس في نسبه ما يعاب به، وقيل لأنه عتيق من النار.

ولي الخلافة سنتين ونصفاً، وسنه سن المصطفى ﷺ. وتوفي مسموماً.

وأسلم أبوه أبو قحافة يوم الفتح، وتوفي بعد ولده في خلافة عمر، وأسلمت أمه أم الخير سلمى بنت صخر قديماً في دار الأرقم.

وعمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، استخلفه أبو بكر فأقام عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال، وقتله أبو لؤلؤة، فيروز غلام المغيرة بن شعبة.

وعثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً، ثم قتل يوم الدار شهيداً.

وروي عن عائشة، مما ذكره الطبري في فضائله من كتابه «الرياض» أن الرسول الله ﷺ لمسند ظهره إلي، وإن جبريل ليوحي إليه القرآن، وإنه ليقول له: «اكتب يا عثيم»[3]. رواه أحمد.

وروى البيهقي عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلس جلس أبو بكر عن يمينه، وعمر عن يساره وعثمان بين يديه، وكان كاتب سر رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر زاد المعاد ١/١٠٩.

(٢) المصدر السابق ١/١٠٣ والبداية والنهاية ٤/ ٢٦٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٦/ ٢٥٠ والبداية والنهاية ٧/ ٢٠٩.

وعلي بن أبي طالب، وأقام في الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام، وتوفي شهيداً على يد عبد الرحمن بن ملجم واختص علي بكتابة الصلح يوم الحديبية.

وطلحة بن عبيد الله التيمي، أحد العشرة، استشهد يوم الجمل سنة ست وثلاثين وهو ابن ثلاث وستين سنة.

والزبير بن العوام بن خويلد الأسدي ابن عمته وحواريه، أحد العشرة أيضاً، قتل سنة ست وثلاثين، يوم الجمل، قتله عمرو بن جرموز، بوادي السباع غيلة وهو نائم.

وسعيد بن العاص[1]، أخو خالد وأبان.

وسعد بن أبي وقاص.

وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه.

وعبد الله بن الأرقم القرشي الزهري، كان يكتب الرسائل عن رسول الله ﷺ إلى الملوك وغيرهم، وكتب بعده لأبي بكر، ثم لعمر من بعده، رضي الله عنهم، واستعمله عمر على بيت المال مدة ولايته ثم عثمان من بعده، إلى أن استعفى عثمان من الولاية وبقي عاطلاً، وكان أمير المؤمنين عمر يقول: ما رأيت أحداً أخشى لله منه، مات في خلافة عثمان.

وأبيّ بن كعب ـ بضم الهمزة وفتح الموحدة ـ من سُبّاق الأنصار، كان يكتب الوحي له ﷺ، وهو أحد الستة الذين حفظوا القرآن على عهده ﷺ وأحد الفقهاء الذين كانوا يفتون على عهده عليه السلام، توفي بالمدينة سنة تسع عشرة. وقيل سنة عشرين، وقيل غير ذلك، وهو الذي كتب الكتاب إلى ملكي عمان «جيفر» و«عبد» ابني الجلندى، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وثابت بن قيس بن شماس، استشهد باليمامة، وهو الذي كتب كتاب قطن بن حارثة العليمي، كما سيأتي إن شاء الله.

وحنظلة بن الربيع الأسيدي الذي غسلته الملائكة حين استشهد.

وأبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي.

وابنه معاوية، ولي لعمر الشام، وأقره عثمان. قال ابن إسحاق: وكان أميراً عشرين سنة، وخليفة ـ أمير المؤمنين ـ بعد نزول الحسن بن علي سبط سيد المرسلين عشرين سنة. وروينا في مسند الإمام أحمد من حديث العرباض قال: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) انظر ترجمته في الإصابة برقم (٣٢٥٦).

يقول: «**اللهم علم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب**»[1]. وهو مشهور بكتابة الوحي.

أسلم يوم فتح مكة ومات في العشر الأخير من رجب سنة تسع وخمسين، وقيل سنة ستين وقد قارب الثمانين. وقال ابن عبد البر عن اثنتين وثمانين سنة والله أعلم.

وأخوه يزيد بن أبي سفيان بن حرب، أمرّه عمر على دمشق حتى مات بها سنة تسع عشرة بالطاعون، فوليها بعده أخوه معاوية حتى رقي منها إلى الخلافة، وكان يزيد رضي الله عنه من سروات الصحابة وساداتهم، أسلم يوم الفتح أيضاً وأعطاه رسول ﷺ من غنائم حنين مائة بعير وأربعين أوقية وزنها له بلال رضي الله عنه.

وزيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري النجاري، مشهور بكتب الوحي، مات سنة خمسين أو ثمان وأربعين، وقيل بعد الخمسين. وكان أحد فقهاء الصحابة، وهو أحد من جمع القرآن في خلافة أبي بكر، ونقله إلى المصحف في خلافة عثمان.

وشرحبيل ابن حسنة، وهي أمه، وهو أول كاتب للنبي ﷺ.

والعلاء بن الحضرمي.

وخالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، سيف الله، أسلم بين الحديبية والفتح، مات سنة إحدى أو اثنتين وعشرين.

وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، فاتح مصر في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، أسلم عام الحديبية وولي إمرة مصر مرتين، وهو الذي فتحها، ومات بها سنة نيف وأربعين وقيل بعد الخمسين.

والمغيرة بن شعبة الثقفي، أسلم قبل الحديبية، وولي إمرة البصرة ثم الكوفة، مات سنة خمسين على الصحيح.

وعبد الله بن رواحة الخزرجي الأنصاري أحد السابقين، شهد بدراً واستشهد بمؤتة.

ومعيقيب ـ بقاف وآخره موحدة، مصغر ـ ابن أبي فاطمة الدوسي، من السابقين الأولين، وشهد المشاهد ومات في خلافة عثمان أو علي.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ١٢٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٣٥٦ وفي التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ٣٢٧ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٢٧٨) وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٧٣٥) وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٢٥٢ والبداية والنهاية ٨/ ١٢٢ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ٢٧١ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٥/ ١٨١٠ و٦/ ٢٤٠٢ وفي كنز العمال (٣٣٦٥٦).

وكتب له خالد بن سعيد بن العاص كتاب ثقيف كما سيأتي إن شاء الله تعالى في الوفود.

وحذيفة بن اليمان، من السابقين، صح في مسلم أنه ﷺ أعلمه بما كان وما يكون إلى أن تقوم الساعة، وأبوه صحابي أيضاً استشهد بأحد، ومات حذيفة في أول خلافة علي سنة ست وثلاثين.

وحويطب بن عبد العزى العامري، أسلم يوم الفتح، عاش مائة وعشرين سنة، ومات سنة أربع وخمسين. وله كتّاب أخر سوى هؤلاء، وذكروا في الكتاب الذي تقدم ذكره. وكان معاوية وزيد بن ثابت ألزمهم لذلك وأخصهم به، كما قاله الحافظ الشرف الدمياطي وغيره، ونبهت عليه. قال الحافظ ابن حجر: وقد كتب له قبل زيد بن ثابت، أبي بن كعب، وهو أول من كتب له بالمدينة، وأول من كتب له بمكة من قريش عبد الله ابن أبي سرح، ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام يوم الفتح، وممن كتب له في الجملة أكثر من غيره الخلفاء الأربعة وأبان وخالد ابنا سعيد بن العاص بن أمية.

وقد كتب ﷺ إلى أهل الإسلام كتباً في الشرائع والأحكام:

منها كتابه في الصدقات الذي كان عند أبي بكر، فكتبه أبو بكر لأنس لما وجهه إلى البحرين[1] ولفظه كما في البخاري وأبي داود والنسائي:

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين، والتي أمر الله بها رسوله، فمن سُئلها من المسلمين على وجهها فليعطها، ومن سُئل فوقها فلا يعط:

في أربعة وعشرين من الإبل فما دونها، من الغنم في كل خمس من الإبل شاة.

فإذا بلغت خمساً وعشرين إلى خمس وثلاثين، ففيها بنت مخاض أنثى، فإن لم تكن ابنة مخاض فابن لبون ذكر.

فإذا بلغت ستاً وثلاثين إلى خمس وأربعين، ففيها بنت لبون أنثى.

فإذا بلغت ستاً وأربعين إلى ستين، ففيها حقة طروقة الجمل.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الزكاة باب (٣٨) رقم الحديث (١٤٥٤ ـ ٢٤٨٧ ـ ٦٩٥٥) وفي أبي داوود كتاب الزكاة باب (٥) رقم الحديث (١٥٦٧) وفي النسائي كتاب الزكاة ٥/ ١٧ وفي ابن ماجه كتاب الزكاة باب (١٠). رقم الحديث (١٨٠٠). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ١١ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٣٩٠ وفي إتحاف السادة المتقين ٤/ ٢٤ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١٧٩٦).

فإذا بلغت إحدى وستين إلى خمس وسبعين، ففيها جذعة.

فإذا بلغت ستاً وسبعين إلى تسعين، ففيها بنتا لبون.

فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة، ففيها حقتان طروقتا الجمل.

فإذا زادت عن عشرين ومائة، ففي كل أربعين ابنة لبون وفي كل خمسين حقة.

ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل، فليست فيها صدقة، إلا أن يشاء ربها، فإذا بلغت خمساً من الإبل ففيها شاة.

ومن بلغت عنده من الإبل صدقة الجذعة، وليست عنده جذعة، وعنده حقة، فإنها تقبل منه الحقة، ويجعل معها شاتين إن استيسرتا له، أو عشرين درهماً.

ومن بلغت عنده صدقة الحقة، وليست عنده الحقة، وعنده الجذعة فإنها تقبل منه الجذعة ويعطيه المصدق عشرين درهماً أو شاتين.

ومن بلغت عنده صدقة الحقة، وليست عنده إلا ابنة لبون، فإنه تقبل منه بنت لبون، ويعطي شاتين أو عشرين درهماً.

ومن بلغت صدقته بنت لبون، وعنده حقة، فإنه تقبل منه الحقة ويعطيه المصدق عشرين درهماً أو شاتين.

ومن بلغت عنده صدقة بنت لبون، وليست عنده وعنده بنت مخاض، فإنها تقبل منه بنت المخاض، ويعطي معها عشرين درهماً أو شاتين.

ومن بلغت صدقته بنت مخاض، وليست عنده، وعنده بنت لبون، فإنها تقبل منه بنت لبون، ويعطيه المصدق عشرين درهماً أو شاتين، فإن لم يكن عنده بنت مخاض على وجهها وعنده ابن لبون فإنه يقبل منه وليس معه شيء.

وفي صدقة الغنم في سائمتها إذا بلغت أربعين إلى عشرين ومائة شاةٍ شاةٌ.

فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين ففيها شاتان.

فإذا زادت على مائتين إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه.

فإذا زادت على ثلاثمائة ففي كل مائةٍ شاةٌ.

فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة عن أربعين شاة شاة واحدة، فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها.

ولا يجمع بن متفرق، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة، وما كان من خليطين

فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية، ولا يخرج في الصدقة هرمة ولا ذات عوار ولا تيس إلا أن يشاء المُصَدِّقُ.

وفي الرقة ربع العشر، فإن لم تكن إلا تسعين ومائة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها).

قوله وفي الرقة: الدراهم المضروبة، والهاء فيه عوض من الواو المحذوفة من الورق. قاله ابن الأثير في الجامع. وقال في فتح الباري: هي بكسر الراء وتخفيف القاف: الفضة الخالصة سواء كانت مضروبة أو غير مضروبة.

ومنها كتابه الذي كان عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في نُصُب الزكاة وغيرها، كما رواه أبو داود والترمذي عن سالم عن أبيه: كتب ﷺ كتاب الصدقة ولم يخرجه إلى عماله وقرنه بسيفه حتى قبض، فعمل به أبو بكر حتى قبض، ثم عمل به عمر حتى قبض وكان فيه:

في خمس من الإبل شاة، وفي عشر شاتان وفي خمسة عشر ثلاث شياه، وفي عشرين أربع شياه، وفي خمس وعشرين بنت مخاض، إلى خمس وثلاثين، فإن زادت واحدة ففيها ابنة لبون، إلى خمس وأربعين، فإن زادت واحدة ففيها حقة إلى ستين، فإن زادت واحدة ففيها جذعة، إلى خمس وسبعين فإن زادت واحدة ففيها ابنتا لبون إلى تسعين، فإن زادت واحدة ففيها حقتان إلى عشرين ومائة، فإذا كانت الإبل أكثر من ذلك ففي كل خمسين حقة وفي كل أربعين ابنة لبون.

وفي الغنم في كل أربعين شاةٍ شاةٌ إلى عشرين ومائة، فإذا زادت واحدة فشاتان، إلى المائتين ففيها ثلاث شياه إلى ثلاثمائة، فإن كانت الغنم أكثر من ذلك ففي كل مائةِ شاة شاةٌ، ثم ليس فيها شيء حتى تبلغ المائة.

ولا يفرق بين مجتمع، ولا يجمع بن متفرق مخافة الصدقة، وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بالسوية، ولا يؤخذ في الصدقة هرمة ولا ذات عيب.

قال الزهري: وإذا جاء المصدق قسم الشاء أثلاثاً، ثلث خيار، وثلث أوساط، وثلث شرار، وأخذ من الوسط[1] رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن، قال:

---

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب الزكاة باب (٥) رقم الحديث (١٥٦٨) وفي الترمذي كتاب الزكاة باب (٤) رقم الحديث (٦٢١). وفي ابن ماجه. كتاب الزكاة. باب (٩) رقم الحديث (١٧٩٨). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/ ١٤ ـ ١٥. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٨٨. وفي سنن الدارقطني ٢/ ١١٢ رقم الحديث (١). وفي الدر المنثور ١/ ٣٤٣. وفي المستدرك للحاكم ١/ ٣٩٢.

ورواه يونس وغير واحد عن الزهري عن سالم ولم يرفعه.

قال ابن الأثير في النهاية: والخليط: المخالط، يريد به الشريك الذي يخلط ماله بمال شريكه، والتراجع بينهما هو أن يكون لأحدهما مثلاً أربعون بقرة وللآخر ثلاثون بقرة ومالهما مختلط، فيأخذ الساعي عن الأربعين مسنة وعن الثلاثين تبيعاً، فيرجع باذل المسنة بثلاثة أسباعها على شريكه، وباذل التبيع بأربعة أسباعه على شريكه، لأن كل واحد من السنين واجب على الشيوع وكأن المال ملك واحد. انتهى.

وقال في فتح الباري: واختلف في المراد بالخليط، فعند أبي حنيفة أنه الشريك، واعترض عليه بأن الشريك لا يعرف عين ماله. وقد قال: إنهما يتراجعان بينهما بالسوية، وما يدل على أن الخليط لا يستلزم أن يكون شريكاً قوله تعالى: **﴿وإن كثيراً من الخلطاء﴾** [صَ: ٢٤] وقد بينه قبل ذلك بقوله: **﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة﴾** [صَ: ٢٣].

واعتذر بعضهم عن الحنفية: بأنهم لم يبلغهم هذا الحديث، أو رأوا أن الأصل قوله: ليس فيما دون خمس ذودٍ صدقة، وحكم الخليط يغاير هذا الأصل، فلم يقولوا به، وقال أبو حنيفة: لا يجب على أحد منهم فيما يملك إلا مثل الذي يجب عليه لو لم يكن خلطة.

وقال سفيان الثوري: لا يجب حتى يتم لهذا أربعون شاة ولهذا أربعون شاة.

وقال الشافعي وأحمد وأصحاب الحديث: إذا بلغت ماشيتهما النصاب زكيا، والخلطة عندهم أن يجتمعا في المسرح والمبيث والحوض والفحل، والشركة أخص منها. انتهى.

ومنها كتابه ﷺ إلى أهل اليمن، وهو كتاب جليل، فيه من أنواع الفقه في الزكاة والديات والأحكام، وذكر الكبائر والطلاق والعتاق، وأحكام الصلاة في الثوب الواحد والاحتباء فيه، ومس المصحف وغير ذلك. واحتج الفقهاء كلهم بما فيه من مقادير الديات، ورواه النسائي وقال: قد روى هذا الحديث يونس عن الزهري مرسلاً، وأبو حاتم في صحيحه وغيرهما متصلاً عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن، وكان في كتابه:

أن من اعتبط مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قود إلا أن يرضى أولياء المقتول، وفيه: أن الرجل يقتل بالمرأة، وفيه: في النفس الدية مائة من الإبل وعلى أهل الذهب ألف دينار، وفي الأنف إذا أوعب جدعه الدية مائة من الإبل، وفي الأسنان الدية، وفي الشفتين

الدية، وفي البيضتين الدية، وفي الذكر الدية، وفي الصلب الدية، وفي العينين الدية، وفي الرجل الواحدة نصف الدية، وفي المأمومة ثلث الدية، وفي الجائفة ثلث الدية، وفي المنقلة خمس عشرة من الإبل، وفي كل أصبع من أصابع اليد والرجل عشر من الإبل، وفي السن خمس من الإبل.

وفي رواية مالك: وفي العين خمسون، وفي اليد خمسون، وفي الرجل خمسون، وفي الموضحة خمس من الإبل. ومنها كتابه إلى بني زهير. وأما مكاتباته عليه الصلاة والسلام إلى الملوك [1] وغيرهم: فروي أنه ﷺ لما رجع من الحديبية كتب إلى الروم، فقيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، و«الله» سطر، وختم به الكتاب. [2]

وإنما كانوا لا يقرؤون الكتاب إلا مختوماً خوفاً من كشف أسرارهم، وللإشعار بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن تكون مما لا يطلع عليها غيرهم. وعن أنس، إن ختم كتاب السلطان والقضاة سنة متبعة، وقال بعضهم: هو سنة لفعله صلى الله عليه وسلم.

فكتب إلى قيصر، المدعو «هرقل» ملك الروم يوم ذاك، ثم قال بعد تمام الكتاب «**من ينطلق بكتابي هذا إلى هرقل وله الجنة**» فقالوا: وإن لم يصل يا رسول الله؟ قال: «**وإن لم يصل**» فأخذه دحية بن خليفة الكلبي، وتوجه إلى مكان فيه هرقل[3]. ولفظه:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله - وفي رواية البخاري: عبد الله ورسوله - إلى هرقل عظيم الروم - وفي روايه غير البخاري: إلى قيصر صاحب الروم -: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و﴿**يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾ [آل عمران: ٦٤] رواه البخاري.

وكان ﷺ أرسل هذا الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل في آخر سنة ست، بعد أن رجع من الحديبية، كما قاله الواقدي. ووقع في تاريخ خليفة[4] أن إرساله

---

(١) انظر البداية والنهاية ٤/ ٢٦٢ وطبقات ابن سعد ١/ ١٩٨. والمنتظم لابن الجوزي ٣/ ٢٧٤ تاريخ الطبري ٢/ ٦٤٥ والكامل في التاريخ ٢/ ٩٥.

(٢) انظر زاد المعاد ١/ ١٠٤ والمنتظم ٣/ ٢٧٤ حوادث سنة (٦ هـ).

(٣) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب (٦) رقم الحديث (٧ - ٥١ - ٢٦٨١ - ٢٨٠٤ - ٢٩٤١ - ٢٩٧٨ - ٣١٧٤ - ٤٥٥٣ - ٥٩٨٠ - ٦٢٦٠ - ٧١٩٦ - ٧٥٤١) وفي مسلم كتاب الجهاد رقم الحديث (٧٣). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٦٣.

(٤) هو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري أبو عمرو ويعرف بشبّاب محدث نسابة=

كان سنة خمس، والأول أثبت، بل هذا غلط لتصريح أبي سفيان: بأن ذلك كان في مدة صلح الحديبية كما في حديث البخاري، في المدة التي كان ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، يعني مدة صلح الحديبية، وكانت سنة ست اتفاقاً.

ولم يقل ﷺ إلى هرقل ملك الروم، لأنه معزول بحكم الإسلام، ولم يخله من الإكرام لمصلحة التأليف.

وقوله: يؤتك لله أجرك مرتين، أي لكونه مؤمناً بنبيه ثم امن بمحمد ﷺ.

وقوله: فإن عليك إثم الأريسين: أي فإن عليك مع إثمك إثم الأتباع بسبب أنهم اتبعوك على استمرار الكفر.

وقيل: إنه ﷺ كتب هذه الآية: يعني ﴿يا أهل الكتاب﴾ [آل عمران: ٦٤] قبل نزولها، فوافق لفظه لفظها لما نزلت، لأن هذه الآية نزلت في قصة وفد نجران، وكانت قصتهم سنة الوفود سنة تسع، وقصة أبي سفيان هذه كانت قبل ذلك سنة ست. وقيل: نزلت في اليهود، وجوز بعضهم نزولها مرتين، وهو بعيد والله أعلم.

ولما قرىء كتاب النبي ﷺ غضب ابن أخي قيصر غضباً شديداً وقال: أرني الكتاب، فقال له وما تصنع به؟ فقال: إنه بدأ بنفسه، وسماك صاحب الروم، فقال له عمه: إنك لضعيف الرأي، أتريد أن أرمي بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر، أو كلاماً هذا معناه، أو قال: أن أرمي بكتاب ولم أعلم ما فيه، لئن كان رسول الله إنه لأحق أن يبدأ بنفسه، ولقد صدق: أنا صاحب الروم، والله مالكي ومالكه، ثم أمر بإنزال دحية وإكرامه إلى أن كان من أمره ما ذكره البخاري في حديثه. انتهى.

وكتب ﷺ إلى كسرى أبرويز بن هرمز بن أنو شروان ملك فارس[١].

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله، فإني رسول الله إلى الناس كلهم، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن توليت فعليك إثم المجوس).

فلما قرىء عليه الكتاب مزقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**مزق ملكه**»[٢].

---

= إخباري. توفي سنة (٢٤٠ هـ). الأعلام ٢/ ٣١٢ تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٣٦ رقم الترجمة (٤٤٢) وفيات الأعيان ١/ ١٧٢ والعبر ١/ ٤٣٢ وميزان الإعتدال ١/ ٦٦٥.

(١) انظر الطبقات لابن سعد ١/ ١٩٩ والبداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٢٦٨ والمنتظم ٣/ ٢٨١.

(٢) ذكره البيهقي في الدلائل ٤/ ٣٨٨ وفي نصب الراية للزيلعي ٤/ ٤٢١ تاريخ بغداد ١/ ١٣٢ تهذيب=

وفي البخاري من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلي كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فحسبت أن ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق.(١)

وقيل: بعثه مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والذي في البخاري هـو الصحيح.

وفي كتاب «الأموال» لأبي عبيد من مرسل عمير بن إسحاق قال: كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر، فأما كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه، وأما قيصر فلما قرأ الكتاب طواه ثم رفعه، فقال رسول الله ﷺ: «**أما هؤلاء فيمزقون، وأما هؤلاء فسيكون لهم بقية**».

وروي أنه لما جاء جواب كسرى قال: «**مزق ملكه**» ولما جاء جواب هرقل قال: «**ثبت ملكه**».

وذكر شيخ الإسلام أبو الفضل ابن حجر العسقلاني في فتح الباري. عن سيف الدين قلج المنصوري، أحد أمراء الدولة القلاوونية، أنه قدم على ملك المغرب بهدية من الملك المنصور قلاوون، فأرسله ملك المغرب إلى ملك الفرنج في شفاعة، وأنه قبله وأكرمه، وقال: لأتحفنك بتحفة سنية، فأخرج له صندوقاً مصفحاً بذهب، فأخرج منه مقلمة من ذهب فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه، وقد ألصقت عليه خرقة حرير، فقال: هذا كتاب نبيكم لجدي قيصر، ما زلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا آباؤنا عن آبائهم إلى قيصر، إنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا، فنحن نحفظه غاية الحفظ، ونعظمه ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا. انتهى.

وكتب ﷺ إلى النجاشي:(٢)

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله تعالى، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، وقد بعثت

---

= تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٣٥٦ والبداية والنهاية ٤/ ٢٦٨ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٣٨.

(١) أخرجه البخاري. كتاب الجهاد والسير باب (١٠١) رقم الحديث (٢٩٣٩).

(٢) انظر المنتظم ٣/ ٢٨٧ وتاريخ الطبري ٢/ ٦٥٢ والكامل في التاريخ ٢/ ٩٦ وزاد المعاد ١/ ١٠٤.

إليكم ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين، والسلام على من اتبع الهدى).

وبعث الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري، فقال النجاشي له عندما قرأ الكتاب: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر عنه، ولكن أعواني من الحبش قليل، فأنظرني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب.

ثم كتب النجاشي جواب الكتاب إلى النبي ﷺ:

(بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني للإسلام أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله، فما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقاً، إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين. وقد بعثت إليك ابني، وإن شئت أتيتك بنفسي فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته).

ثم إنه أرسل ابنه في أثر من أرسله من عنده مع جعفر بن أبي طالب عم رسول الله، فلما كانوا في وسط البحر غرقوا، ووافى جعفر وأصحابه رسول الله ﷺ وكانوا سبعين رجلاً عليهم ثياب الصوف، منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ من القرآن يس إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه الصلاة والسلام، وفيهم أنزل الله: ﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا**﴾ [المائدة: ٨٢] إلى آخر الآية، لأنهم كانوا من أصحاب الصوامع.[1] انتهى.

الثفروق: علاقة ما بين النواة والقشر.

وهذا هو أصحمة الذي هاجر إليه المسلمون في رجب سنة خمس من النبوة، وكتب إليه النبي ﷺ كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام مع عمرو بن أمية الضمري سنة ست من الهجرة، فآمن به وأسلم على يد جعفر ابن أبي طالب، وتوفي في رجب سنة تسع من الهجرة ونعاه النبي ﷺ يوم توفي وصلى عليه بالمدينة[2].

---

(١) انظر تفسير البغوي ٢/ ٤٧ [المائدة: ٨٢].

(٢) أخرجه أبو داوود كتاب الجنائز باب (٥٨) رقم الحديث (٣٢٠٤) وفي النسائي كتاب الجنائز ٤/ ٧٠ وفي التمهيد لابن عبد البر ٦/ ٣٢٥ وفي شرح السنة للبغوي ٥/ ٣٣٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٣٥.

وأما النجاشي الذي ولي بعده، وكتب له النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام فكان كافراً، لم يعرف إسلامه ولا اسمه. وقد خلط بعضهم ولم يميز بينهما.

وفي صحيح مسلم عن قتادة: أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه[1].

وكتب ﷺ إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية واسمه جريج بن مينا[2].

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط، ﴿**يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾ [آل عمران: ٦٤].

وبعث به مع حاطب بن أبي بلتعة، فتوجه إليه إلى مصر، فوجده بالإسكندرية، فذهب إليها، فرآه في مجلس مشرف على البحر، فركب سفينة إليه وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه، فلما رآه أمر بإحضاره بين يديه، فلما جيء به إليه، ووقف بين يديه، ونظر إلى الكتاب فضه وقرأه، وقال لحاطب: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو علي فيسلط علي؟ فقال له حاطب: وما منع عيسى أن يدعو على من خالفه أن يسلط عليه؟ فاستعاد منه الكلام مرتين ثم سكت، فقال له حاطب: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك. فقال: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فَقْدَ ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعاء أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به. فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ومل أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد رقم الحديث (٧٥).

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٠٠ والبداية والنهاية ٤/ ٢٧١ وزاد المعاد ١/ ١٠٦.

فأخذ كتاب النبي ﷺ وجعله في حق من عاج ودفعه لجارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى النبي ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظن أن يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام. ولم يزد على هذا، ولم يسلم[1].

وكتب ﷺ إلى المنذر بن ساوى:[2]

ذكر الواقدي بإسناده عن عكرمة قال: وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس بعد موته، فنسخته فإذا فيه:

بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى وكتب إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام. فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ: أما بعد، يا رسول الله فإني قد قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي يهود ومجوس، فأحدث إلي في ذلك أمرك.

فكتب إليه رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. أما بعد، فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.

وكتب ﷺ إلى ملكي عمان[3]، وبعثه مع عمرو بن العاص: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى جيفر - بفتح الجيم وسكون التحتية بعدها فاء - وعبد ابني الجلندى: السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما

---

(١) انظر المنتظم ٣/ ٢٧٤.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٠٢ و٢١١ وزاد المعاد ١/ ١٠٨ والمنتظم ٣/ ٣٤٠.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٠١ وزاد المعاد ١/ ١٠٨ والمنتظم ٤/ ٩.

زائل عنكما، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما. وكتب أبي بن كعب، وختم الكتاب.

قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد ـ وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً ـ فقلت إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك. فقال: أخي المقدم علي بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى تقرأ كتابك عليه.

ثم قال: وما تدعو إليه؟

قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال: يا عمرو إنك كنت ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة.

قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، وددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام.

قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريباً، فسألني: أين كان إسلامك؟

قلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم.

قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه.

قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم.

قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من كذب.

قلت: ما كذبت وما نستحله في ديننا.

ثم قال: فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه.

قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب.

قال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، ولو كان أخي يتابعني لزكبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً.

قلت: إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقرائهم.

قال: إن هذا لخلق حسن. وما الصدقة؟

فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال، حتى انتهيت إلى

الإبل، فقال: يا عمرو، يؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم. قال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون هذا.

قال: فمكثت ببابه أياماً وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري، ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعي فقال: دعوه، فأرسلت، فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني لأجلس فنظرت، فقال: تكلم بحاجتك فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففض ختمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره. ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أني رأيت أخاه أرق منه، فقال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه إما راغب الدين وإما مقهور بالسيف، قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله أنهم كانوا في ضلال. فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحرجة، وإن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال.

قال: دعني يومي هذا وارجع إلي غداً.

فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه. حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أني لم أصل إليه، فأوصلني إليه فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي، وهو لا تبلغ خيله ها هنا، وإن بلغت خيله ألفت قتالاً ليس كقتال من لاقى.

قلت: وأنا خارج غداً، فلما أيقن بمخرجي، خلا به أخوه فأصبح فأرسل إلي فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدق النبي ﷺ، وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني.

وكتب ﷺ إلى صاحب اليمامة هوذة بن علي [1]، وأرسل به سليط بن عمرو العامري:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يدك).

فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله ﷺ مختوماً، أنزله وحباه واقترأ عليه الكتاب، فرد رداً دون رد وكتب إلى النبي ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجله، والعرب تهاب مكاني فاجعل إلي بعض الأمر أتبعك. وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر.

---

(١) انظر زاد المعاد ١/١٠٧ وطبقات ابن سعد ١/٢٠٩ والمنتظم ٣/ ٢٩٠.

فقدم بذلك على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه وقال: لو سألني سَيابة من الأرض ما فعلت. باد، وباد ما في يديه.

فلما انصرف النبي ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة مات، فقال ﷺ: «**أما إن اليمامة سيظهر بها كذاب يتنبأ، يقتل بعدي**»[1] فكان كذلك.

وكتب ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني[2]، وكان بدمشق، بغوطتها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك). وأرسله مع شجاع بن وهب.

قال صاحب «باعث النفوس»: روي عن أبي هند الداري قال:[3] قدمنا على رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر: تميم بن أوس الداري، وأخوه نعيم، ويزيد بن قيس، وأبو عبد الله ابن عبد الله ـ وهو صاحب الحديث ـ وأخوه الطيب بن عبد الله فسماه النبي ﷺ عبد الرحمن، وفاكه بن النعمان، فأسلمنا وسألنا رسول الله ﷺ أن يقطعنا أرضاً من أرض الشام، فقال: ﷺ «**سلوا حيث شئتم**» قال أبو هند فنهضنا من عنده ﷺ إلى موضع نتشاور فيه: أين نسأل.

فقال تميم: أرى أن نسأله بيت القدس وكورتها، فقال أبو هند: رأيت ملك العجم اليوم، أليس هو بيت المقدس، قال تميم: نعم، فقال أبو هند: فكذلك يكون فيه ملك العرب، وأخاف أن لا يتم لنا هذا. قال تميم: نسأله بيت جيرون وكورتها، فقال أبو هند: أكبر وأكبر، فقال تميم: فأين ترى أن نسأل؟ قال: أرى أن نسأله القرى التي نصنع فيها حصوناً مع ما فهيا من آثار إبراهيم عليه السلام، فقال تميم: أصبت ووفقت.

قال: فنهضنا إلى رسول الله ﷺ فقال: **يا تميم أتحب أن تخبرني بما كنتم فيه، أو أخبركم**» فقال تميم: بل تخبرنا يا رسول الله فنزداد إيماناً، فقال عليه السلام: أردت يا تميم أمراً، وأراد أبو هند غيره، ونعم الرأي رأي أبي هند، فدعا رسول الله ﷺ بقطعة من أدم، وكتب لهما فيها كتاباً نسخته:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب ذكر فيه ما وهب رسول الله ﷺ للداريين إذا

---

(١) ذكره الزيلعي في نصب الراية ٤/ ٤٢٥.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٠٠ وزاد المعاد ١/ ١٠٧ والبداية والنهاية ٤/ ٢٦٧ وفيه أنه المنذر بن الحارث بن أبي شمر وفي المنتظم ٣/ ٢٨٩.

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٨ وانظر المنتظم ٣/ ٣٥٦.

أعطاه الله الأرض، وهب لهم بيت عينون وحبرون والمرطوم وبيت إبراهيم ومن فيهم إلى أبد الأبد) شهد عباس بن عبد المطلب وخزيمة بن قيس، وشرحبيل بن حسنة وكتب.

قال: ثم دخل بالكتاب إلى منزله فعالج في زاوية الرقعة بشيء لا يعرف، وعقد من خارج الرقعة بسير عقدتين، وخرج به إلينا مطوياً وهو يقول: ﴿**إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين**﴾ [آل عمران: ٦٨] ثم قال: انصرفوا حتى تسمعوا أني قد هاجرت.

قال أبو هند: فانصرفنا، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة قدمنا عليه وسألناه أن يجدد لنا كتاباً آخر، فكتب لنا كتاباً آخر نسخته.

(بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الداري وأصحابه، إني أنطيتكم بيت عينون وحبرون والمرطوم وبيت إبراهيم برمتهم وجميع ما فيهم نطية بت ونفذت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم أبد الأبد، فمن آذاهم فيه آذاه الله)[١] شهد أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وكتب.

فلما قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر رضي الله عنه وجند الجنود إلى الشام كتب كتاباً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم. من أبي بكر الصديق إلى أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فامنع من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من الفساد في قرى الداريين، وإن كان أهلها قد جلوا عنها وأراد الداريون يزرعونها فليزرعوها بلا خراج وإذا رجع إليها أهلها فهي لهم وأحق بهم والسلام عليك انتهى. نقل من كتاب الأخصا بفضائل المسجد الأقصى.

وكتب ﷺ ليوحنة بن رؤبة صاحب أيلة[٢] لما أتاه بتبوك، وصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة أساقفتهم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر. هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل ابن حسنة بإذن رسول الله ﷺ.

---

(١) ذكره ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٣٥٤ و١٠/ ٤٦٥.

(٢) انظر البداية والنهاية ٥/ ١٥ وطبقات ابن سعد ١/ ٢١٢.

وكتب ﷺ لأهل جربا وأذرح لما أتوه بتبوك أيضاً وأعطوه الجزية:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل أذرح وجربا أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد. وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة[1].

وعن حسين بن عبد الله بن ضميرة عن أبيه عن جده ضميرة أن رسول الله ﷺ مرَّ بأم ضميرة وهي تبكي، فقال «**ما يبكيك أجائعة أنت أم عارية أنت؟**» فقالت: يا رسول الله فرق بيني وبين ابني فقال رسول الله ﷺ: «**لا يفرق بين الوالدة وولدها**» ثم أرسل إلى الذي عنده ضميرة فدعاه فابتاعه منه ببكر قال ابن أبي ذؤيب ثم أقرأني كتاباً عنده: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لأبي ضميرة وأهل بيته، أن رسول الله أعتقهم وأنهم أهل بيت من العرب، إن أحبوا أقاموا عند رسول الله وإن أحبوا رجعوا إلى قومهم فلا يعرض لهم إلا بحق، ومن لقيهم من المسلمين فليستوص بهم خيراً. وكتب أبي بن كعب[2].

وكتب ﷺ كتاباً إلى أهل وج[3]، سيأتي في وفد ثقيف في الفصل العاشر من هذا المقصد إن شاء الله تعالى.

وكذا كتابه ﷺ إلى مسيلمة الكذاب[4] في وفد بني حنيفة.

وكتب ﷺ لأكيدر ولأهل دومة الجندل لما صالحه[5]:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر ولأهل دومة، إن لنا الضاحية من الضحل، والبور والمعامي وأغفال الأرض، والحلقة والسلاح والحافر والحصن، ولكم الضامنة من النخل، والمعين من المعمور، لا تعدل سارحتكم، ولا تعدُّ فاردتكم، ولا يحصر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك حق الله والميثاق، ولكم به الصدق والوفاء. شهد الله ومن حضر من المسلمين[6].

والضاحي: البارز الظاهر. والضحل: الماء القليل. البور: الأرض تستخرج.

---

(١) انظر البداية والنهاية ٥/ ١٥ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٢١.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٠٧ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٢٦.

(٣) انظر البداية والنهاية ٥/ ٣٠ وطبقات ابن سعد ١/ ٢١٧.

(٣) انظر زاد المعاد ١/ ١٠٨ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٠٩ والبداية والنهاية ٥/ ٤٧.

(٥) انظر البداية والنهاية ٥/ ١٦ والمنتظم ٣/ ٣٦٤.

(٦) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٢٠.

والمعامي: أعفال الأرض. والحصن: دومة الجندل. والضامنة: النخل الذي معهم في الحصن. والمعين: الظاهر من الماء الدائم.

وباع ﷺ للعداء عبداً وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوذة من محمد رسول الله، اشترى عبداً أو أمة ـ شك الراوي ـ لا داء ولا غائلة ولا خبثة، بيع المسلم للمسلم [1]. رواه أبو داود والدارقطني.

والغائلة: الإباق والسرقة والزنا. الخبثة: قال ابن أبي عروبة: بيع غير أهل المسلمين.

وكان إسلام العداء بعد فتح خيبر، وهذا يدل على مشروعية الإشهاد في المعاملات قال الله تعالى: ﴿**وأشهدوا إذا تبايعتم**﴾ [البقرة: ٢٨٢] والأمر هنا ليس للوجوب. فقد باع ﷺ ولم يشهد، واشترى ورهن درعه عند يهودي ولم يشهد، ولو كان الإشهاد أمراً واجباً لوجب مع الرهن خوف المنازعة والله أعلم.

وأما أمراؤه عليه الصلاة والسلام [2]:

فمنهم: باذان بن ساسان من ولد بهرام، أمره ﷺ على اليمن، وهو أول أمير في الإسلام على اليمن، وأول من أسلم من ملوك العجم [3].

وأمر ﷺ على صنعاء خالد بن سعيد. وولى زياد بن لبيد الأنصاري حضرموت. وولى أبا موسى الأشعري زبيد وعدن. وولى معاذ بن جبل الجند. وولى أبا سفيان بن حرب نجران. وولى ابنه يزيد تيماء.

وولى عتّاب ـ بفتح المهملة وتشديد المثناة الفوقية ـ ابن أسيد ـ بفتح الهمزة وكسر السين ـ مكة، وإقامة الموسم والحج بالمسلمين سنة ثمان. وولى علي بن أبي طالب القضاء باليمن. وولى عمرو بن العاص عمان وأعمالها. وولى أبا بكر الصديق إقامة الحج سنة تسع، وبعث في أثره علياً، فقرأ على الناس براءة، فقيل: لأن أولها نزل بعد أن خرج أبو بكر إلى الحج، وقيل أردفه به عوناً له ومساعداً، ولهذا قال له الصديق: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور، وأما الرافضة فقالوا: بل عزله، وهذا لا يبعد من بهتهم

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب البيوع باب (٨) رقم الحديث (١٢١٦) وفي ابن ماجه كتاب التجارات باب (٤٧) رقم الحديث (٢٢٥١) وفي سنن الدارقطني ٣/ ٧٧ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ٣٢٨ وفي طبقات ابن سعد ٧/ ٣٧ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٨٨٢).

(٢) انظر زاد المعاد ١/ ١١٠.

(٣) انظر المنتظم ٤/ ١٣ رقم الترجمة (١٣١).

وافترائهم. وقد ولى ﷺ على الصدقات جماعة كثيرة.

وأما رسله ﷺ[1]، فقد روي أنه عليه السلام بعث ستة نفر في يوم واحد، في المحرم سنة سبع. وذكر القاضي عياض في الشفاء مما عزاه للواقدي: أنه أصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم. انتهى.

وكان أول رسول بعثه ﷺ عمرو بن أمية الضمري، إلى النجاشي ملك الحبشة، وكتب إليه كتابين يدعوه في أحدهما إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن، فأخذه النجاشي ووضعه على عينيه ونزل عن سريره، فجلس على الأرض ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته. وفي الكتاب الآخر أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فزوجه إياها كما تقدم في ذكر الأزواج، ودعا بحق من عاج فجعل فيه كتابي رسول الله ﷺ وقال: «**لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرهم**» وصلى عليه النبي ﷺ وهو بالحبشة كذا قاله الواقدي وغيره.

وليس كذلك، فإن النجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ ليس هو الذي كتب إليه، كما قدمته.

وبعث ﷺ دحية بن خليفة الكلبي[2] ـ وهو أحد الستة ـ إلى قيصر ملك الروم، واسمه هرقل يدعوه إلى الإسلام، فهمَّ بالإسلام فلم توافقه الروم فخافهم على ملكه فأمسك.

وبعث عبد الله السهمي إلى كسرى وهو الثالث.

وبعث الرابع وهو حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس فأكرمه، وبعث إلى النبي ﷺ بجاريتين وكسوة وبغلة ولم يسلم.

وبعث الخامس وهو شجاع بن وهب الأسدي إلى ملك البلقاء الحارث بن أبي شمر الغساني.

وبعث السادس وهو سليط بن عمرو العامري إلى هوذة وإلى ثمامة بن أثال الحنفي فأسلم ثمامة.

وبعث عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ابني الجلندى بعمان فأسلما وصدقا.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ١٩٨.

(٢) انظر الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ١٦١ رقم الترجمة (٢٣٨٦).

وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى بن العبدي ملك البحرين قبل منصرفه من الجعرانة ـ وقيل قبل الفتح ـ فأسلم وصدق.

وبعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري باليمن، فقال سأنظر في أمري.

وبعث أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن عند انصرافه من تبوك سنة عشر في ربيع الأول داعيين إلى الإسلام، فأسلم غالب أهلها من غير قتال. ثم بعث علي بن أبي طالب بعد ذلك إليهم ووافاه بمكة في حجة الوداع.

وبعث جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع وذي عمرو يدعوهم إلى الإسلام، فأسلما وتوفي ﷺ وجرير عندهم.

وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى مسيلمة الكذاب بكتاب.

وبعث إلى فروة بن عمرو الجذامي ـ وكان عاملاً لقيصر ـ يدعوه إلى الإسلام فأسلم، وكتب إلى النبي ﷺ بإسلامه، وبعث إليه بهدية مع مسعود بن سعد، وهي: بغلة شهباء، يقال لها فضة، وفرس يقال له الظرب، وحمار يقال له يعفور، وبعث إليه أثواباً وقباء سندسياً مذهباً، فقبل هديته ووهب لمسعود بن سعد اثني عشر أوقية.

وبعث المصدقين لأخذ الصدقات هلال المحرم سنة تسع:

فبعث عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم. وبعث بريدة ـ ويقال كعب بن مالك ـ إلى أسلم وغفار. وبعث عباد بن بشر إلى سليم ومزينة. وبعث رافع بن مكيث إلى جهينة. وبعث عمرو بن العاص إلى فزارة. وبعث الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب. وبعث بشر بن سفيان الكعبي ـ ويقال النحام العدوي ـ إلى بني كعب.

وبعث عبد الله بن اللتبية إلى ذبيان. وبعث رجلاً من سعد هذيم إلى قومه.

# في مؤذنيه[1] وخطبائه وحداته وشعرائه

أما **مؤذنوه** فأربعة: اثنان بالمدينة:

بلال بن رباح، وأمه حمامة، مولى أبي بكر الصديق، .وهو أول من أذن لرسول الله ﷺ، ولم يؤذن بعده لأحد من الخلفاء، إلا أن عمر لما قدم الشام حين فتحها أذن بلال، فتذكر الناس رسول الله ﷺ، قال أسلم ـ مولى عمر ـ فلم أر باكياً أكثر من يومئذٍ، وتوفي بلال سنة سبع عشرة، أو ثمان عشرة، أو عشرين بداريا بباب كيسان، وله بضع وستون سنة، وقيل دفن بحلب، وقيل بدمشق. وعمرو بن أم مكتوم القرشي الأعمى، وهاجر إلى المدينة قبل النبي ﷺ.

وأذن له عليه السلام بقباء، سعد بن عائذ أو ابن عبد الرحمن المعروف بسعد القرظ وبالقرظي، مولى عمار، بقي إلى ولاية الحجاج على الحجاز، وذلك سنة أربع وسبعين.

وبمكة أبو محذورة، واسمه أوس الجمحي المكي، أبوه: معير ـ بكسر الميم وسكون المهملة وفتح التحتانية ـ مات بمكة سنة تسع وخمسين، وقيل تأخر بعد ذلك.

وكان منهم من يرجع الأذان ويثني الإقامة، وبلال لا يرجع ويفرد الإقامة، فأخذ الشافعي بإقامة بلال، وأهل مكة أخذوا بأذان أبي محذورة وإقامة بلال. وأخذ أبو حنيفة وأهل العراق بأذان بلال وإقامة أبي محذورة، وأخذ أحمد وأهل المدينة بأذان بلال وإقامته، وخالفهم مالك في موضعين: إعادة التكبير وتثنية لفظ الإقامة.

وأما **شعراؤه** ﷺ الذين يذبون عن الإسلام:

فكعب بن مالك. وعبد الله بن رواحة الخزرجي الأنصاري. وحسان بن ثابت بن المنذر بن عمرو بن حرام الأنصاري، دعا له ﷺ فقال: «**اللهم أيده بروح القدس**»[2]

---

(١) انظر زاد المعاد ١/ ١٠٩.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب بدء الخلق باب (٦) رقم الحديث (٣٢١٢ ـ ٦١٥٢). وفي صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (١٥١ ـ ١٥٢). وفي النسائي كتاب المساجد رقم الحديث (٢٤) =

فيقال: أعانه جبريل بسبعين بيتاً، وفي الحديث «**إن جبريل مع حسان ما نافح عني**»[1] وهو بالحاء المهملة أي دافع، والمراد هجاء المشركين ومجاوبتهم على أشعارهم.

وعاش مائة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام، وكذا عاش أبوه ثابت، وجده المنذر، وجد أبيه حرام، كل واحد منهم عاش مائة وعشرين سنة، وتوفي حسان سنة أربع وخمسين.

ولما جاءه ﷺ بنو تميم، وشاعرهم الأقرع بن حابس، فنادوه يا محمد اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك، فإن مدحنا زين وذمنا شين. فلم يزد ﷺ على أن قال: «**ذاك الله إذا مدح زان وإذا ذم شان، إني لم أبعث بالشعر، ولم أومر بالفخر، ولكن هاتوا**» فأمر عليه السلام ثابت بن قيس أن يجيب خطيبهم فخطب فغلبهم. فقام الأقرع بن حابس شاعرهم فقال:

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا ... إذا خالفونا عند ذكر المكارم
وأنا رؤوس الناس في كل معشر ... وإن ليس في أرض الحجاز كدارم[2]

فأمر ﷺ حساناً يجيبهم فقام فقال:

بني دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالاً عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خول ما بين قن وخادم[3]

وكان أول من أسلم شاعرهم.

وكان أشد شعرائه ﷺ على الكفار حسان وكعب. ولما رجع ﷺ من تبوك وفد عليه وفد همدان، وعليهم مقطعات الحبرات ـ الخز ـ والعمائم العدنية، جعل ملك بن النمط يرتجز بين يديه ﷺ.

---

= والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٢٢٢. وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٠٧. وفي المعجم الصغير للطبراني ٢/ ٤ وفي الدر المنثور ٥/ ١٠٠.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (١٥٧). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٩٩، ٣٠٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٣٨. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٥١. وفي المعجم الكبير للطبراني ٤/ ٤٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٧٩١). وفي كنز العمال (٣٣٢٤٦ ـ ٣٦٩٥٧).

(٢) انظر السيرة لابن هشام ٤/ ٢١١ ونسبه للزبرقان بن بدر المتوفي سنة (٤٥ هـ).

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢١٢ وبعده:

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ... ولا تلبسوا زياً كزي الأعاجم

وكان خطيبه ﷺ ثابت بن قيس بن شماس ـ بمعجمة وميم مشددة وآخره مهملة ـ وهو خزرجي، شهد له النبي ﷺ بالجنة، وكان خطيبه وخطيب الأنصار، واستشهد يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة.

وكان يحدو بين يديه ﷺ في السفر عبد الله بن رواحة، وفي رواية الترمذي في الشمائل عن أنس أنه ﷺ دخل مكة في عمرة القضية وابن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله　　　اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله　　　ويذهل الخليل عن خليله[1]

وقد تقدم مزيد لهذا في عمرة القضية والله أعلم.

وعامر بن الأكوع ـ بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح الواو وبالعين المهملة ـ وهو عم سلمة بن الأكوع، استشهد يوم خيبر، ومرت قصته في غزوتها.

وأنشجة، العبد الأسود ـ وهو بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الجيم وبالشين المعجمة ـ وكان حسن الحداء. قال أنس: كان البراء بن مالك يحدو بالرجال وأنجشة يحدو بالنساء. وقد كان يحدو وينشد القريض والرجز. فقال له ﷺ ـ كما في رواية البراء ابن مالك ـ: «**عبد رويدك رفقاً بالقوارير**»[2] أي النساء.

فشبههن بالقوارير من الزجاج، لأنه يسرع إليها الكسر، فلم يأمن ﷺ أن يصيبهن أو يقع في قلوبهن حداؤه فأمره بالكف عن ذلك. وفي المثل: الغناء رقية الزنا. وقيل أراد أن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي واشتدت فأزعجت الراكب وأتعبته، فنهاه عن ذلك لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة.

---

(١) انظر فتح الباري ٧/ ٦٣٧ رقم (٤٢٥١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب (٩٠) رقم الحديث (٦١٤٩ ـ ٦١٦١ ـ ٦٢٠٢ ـ ٦٢١٠) وفي مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (٧٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٧٦ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٤٨٢ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٨٠٧) وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٢٧ وفي تاريخ بغداد ١٢/ ٢٠٨.

# في آلات حروبه ﷺ كدروعه وأقواسه ومنطقته وأتراسه[1]

أما أسيافه ﷺ فكان له تسعة أسياف:

مأثور، وهو أول سيف ملكه ﷺ وهو الذي يقال إنه قدم به إلى المدينة في الهجرة.

والعَضْب، أرسله إليه سعد بن عبادة حين سار إلى بدر.

وذو الفقار[2]، لأنه كان في وسطه مثل فقرات الظهر، ويجوز في «فائه» الفتح والكسر، وصار إليه يوم بدر، وكان للعاصي بن منبه، وكان هذا السيف لا يفارقه ﷺ يكون معه في كل حرب يشهدها، وكانت قائمته وقبيعته وحلقته وذؤابته وبكراته ونعله من فضة.

والقلعي، بضم الفاء وفتح اللام، وهو الذي أصابه من قلع، موضع بالبادية.

والبتار، أي القاطع.

والحتف، وهو الموت.

والمخدم، وهو القاطع.

والرسوب، أي يمضي في الضريبة ويغيب فيها، وهو فعول من رسب يرسب إذا ذهب إلى أسفل وإذا ثبت.

أصابهما من الفلس ـ بضم الفاء وإسكان اللام ـ صنم كان لطيء.

والقضيب.

وأما أدراعه فسبعة:

---

(١) انظر زاد المعاد ١/١١٥ والبداية والنهاية ٦/٣ وطبقات ابن سعد ١/٣٧٦.

(٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/٢٧١ قال: عن ابن عباس قال: تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى الرؤيا يوم أحد الحديث.

ذات الفضول، بالضاد المعجمة، لطولها، أرسل بها إليه سعد ابن عبادة حين سار إلى بدر، وكانت من حديد، وهي التي رهنها عند أبي الشحم اليهودي على شعير، وكان ثلاثين صاعاً، وكان الدين إلى سنة[1].

وذات الوشاح.

وذات الحواشي.

والسعدية، ويقال بالغين المعجمة، وهي درع عكبر القينقاعي، قيل وهي درع داود عليه السلام التي لبسها حين قتل جالوت.

وفضة وكان قد أصابهما من بني قينقاع.

والبتراء، لقصرها.

والخرنق، باسم ولد الأرنب. وكان عليه ﷺ يوم أحد درعان، ذات الفضول وفضة[2]. وكان عليه ﷺ يوم حنين درعان: ذات الفضول والسعدية[3].

وأما أقواسه ﷺ فكانت ستة: الزوراء، وثلاث من سلاح بني قينقاع، قوس تدعى الروحاء، وقوس تدعى الصفراء، وشوحط، والكتوم كسرت يوم أحد فأخذها قتادة، والسداد.

وكانت له جعبة تدعى الكافور، وكانت له منطقة من أديم فيها ثلاث حلق من فضة، والإبزيم من فضة، والطرف من فضة.

وأما أتراسه، فكان له ﷺ ترس اسمه: الزلوق، يزلق عنه السلاح، وترس يقال له الفتق، وترس أهدي إليه، فيه صورة تمثال عقاب أو كبش، فوضع يده عليه فأذهب الله ذلك التمثال[4].

وأما أرماحه ﷺ، فالمثوي: قال ابن الأثير سمي به لأنه يثبت المطعون به، من الثوى وهو الإقامة. انتهى. والمثْنَى، ورمحان آخران.

وكانت له ﷺ حربة كبيرة اسمها البيضاء، وكانت له عليه السلام حربة أخرى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب (٨٩) رقم الحديث (٢٩١٦ ـ ٤٤٦٧). وفي الترمذي كتاب البيوع باب (٧) رقم الحديث (١٢١٤) وفي ابن ماجه كتاب الرهون باب (١) رقم الحديث (٢٤٣٧) ٢٤٣٦ ـ ٢٤٣٨ ـ (٢٤٣٩).

(٢) أخرجه ابن سعد في طبقاته عن محمد بن مسلمة ١/ ٣٧٨.

(٣) المصدر السابق ١/ ٣٧٨.

(٤) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٣٧٩.

صغيرة دون الرمح شبه العكاز، يقال لها العنزة، وكانت تركز أمامه ويصلي إليها. وكان له ﷺ مغفر من حديد يسمى السبوغ، أو ذا السبوغ، وآخر يسمى الموشح.

تكميل:

وكان له ﷺ فسطاط يسمى الكن. وكان له محجن قدر ذراع أو أكثر يمشي ويركب به ويعلقه بين يديه على بعيرة. وكانت له مخصرة تسمى العرجون، وقضيب من الشوحط يسمى الممشوق. وكان له قدح يسمى الريان، وآخر يسمى مغيثاً، وآخر مضبب بسلسلة من فضة في ثلاث مواضع، وآخر من عيدان، وآخر من زجاج. وتور من حجارة يسمى المخضب، وركوة تسمى الصادرة، ومخضب من نحاس، ومغتسل من صفر، ومدهن وربعة اسكندرانية يجعل فيها المرآة، ومشط من عاج - وهو الذبل - والمكحلة يكتحل منها عند النوم ثلاثاً في كل عين، وكان له في الربعة أيضاً المقراض والسواك. وهذا الربعة أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية مع مارية أم إبراهيم عليه السلام.

وكانت له قصعة تسمى الغراء، بأربع حلق، وصاع،. ومد. وقطيفة وسرير قوائمه من ساج، وفراش من أدم حشوه ليف. وخاتم من حديد، ملوي بفضة، وخاتم فضة، فصه منه، يجعله في يمينه، وقيل: كان أولاً في يمينه ثم حوله إلى يساره، منقوش عليه: محمد رسول الله. وأهدى له النجاشي خفين ساذجين فلبسهما.

وكان له ثلاث جباب يلبسهن في الحرب، جبة سندس أخضر، وجبة طيالسة. وعمامة يقال لها السحاب، وأخرى سوداء، ورداء، صلوات الله وسلامه عليه.

# في ذكر خيله ﷺ ولقاحه ودوابه[1]

أما خيله ﷺ: فالسكب، يقال: فرس سكب أي: كثير الجري كأنما يصب جريه صباً، وأصله من سكب الماء يسكب، وهو أول فرس ملكه، اشتراه عليه السلام بعشرة أواق، وكان أغر محجلاً طلق اليمين، كميتاً، وقال ابن الأثير: كان أدهم.

والمرتجز ـ بضم الميم وسكون الراء وفتح التاء وكسر الجيم بعدها زاي ـ سمي به لحسن صهيله، مأخوذ من الرجز الذي هو ضرب من الشعر، وكان أبيض، وهو الذي شهد له فيه خزيمة بن ثابت، فجعل شهادته بشهادة رجلين [2].

والظرب ـ بالظاء المعجمة ـ واحد الظراب، سمي به لكبره وسمنه، وقيل لقوته وصلابة حافره، أهداها له فروة بن عمرو الجذامي.

واللحيف ـ بالمهملة ـ أهداها له ربيعة بن البراء، سمي به لسمنه وكبره، كأنه يلحف الأرض أي يغطيها بذنبه لطوله، فعيل بمعنى فاعل، يقال لحفت الرجل باللحاف: طرحته عليه، ويروىٰ بالجيم وبالخاء المعجمة، رواه البخاري ولم يتحققه، والمعروف بالحاء المهملة، قاله في النهاية.

واللزاز، سمي به لشدة تلززه، أو لاجتماع خلقه. ولزبه الشيء أي لزق به، كأنه يلتزق بالمطلوب لسرعته، وهذه أهداها له المقوقس.

والورد، قال ابن سعد: أهداها له تميم الداري، فأعطاه عمر فحمل عليه في سبيل

---

(١) انظر زاد المعاد ١/ ١١٩ والبداية والنهاية ٦/ ٩ وطبقات ابن سعد ١/ ٣٨٠.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية باب (٢٠) رقم الحديث (٣٦٠٧) وفي البخاري كتاب التفسير باب (٣) رقم الحديث (٤٧٨٤). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٨٨/٥ ـ ٢١٦ وفي مستدرك الحاكم ١٨/٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٤٦/١٠ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠١/٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٢٢٠ وفي تاريخ ابن عساكر ١٣٦/٥ وفي كشف الخفا للعجلوني ٢/ ١٩ وفي كنز العمال (٣٧٠٣٨).

الله، ثم وجده يباع برخص فقال: «لا تشتره».

وسبحة، بالموحدة، من قولهم: فرس سابح إذا كان حسن مد اليدين في الجري. قال ابن بنين. هي فرس شقراء اشتراها من أعرابي من جهينة بعشر من الإبل.

فهذه سبعة متفق عليها:

وذكر ابن بنين فميا حكاه الحافظ الدمياطي: البحر، في خيله ﷺ، قال: وكان اشتراه من تجار قدموا من اليمن، فسبق عليه مرات، فجثا ﷺ على ركبتيه ومسح وجهه وقال « **ما أنت إلا بحر**» فسمي بحراً. قال ابن الأثير: وكان كميتاً وكان سرجه دفتان من ليف.

والسجل، بكسر السين وسكون الجيم، ذكره علي بن محمد بن الحسين بن عبدوس الكوفي، ولعله مأخوذ من قولك سجلت الماء فانسجل، أي صببته فانصب.

وذو اللمة ـ بكسر اللام وتشديد الميم ـ ذكره ابن حبيب[1].

وذو العقال بضم العين المهملة وتشديد القاف، وحكى بعضهم تخفيفها.

والسرحان ـ بكسر المهملة وسكون الراء ـ ذكره ابن خالويه.

والطرف ـ بكسر الطاء المهملة وسكون الراء بعدها فاء ـ ذكره ابن قتيبة في المعارف، وذكر في رواية أنه الذي اشتراه من الأعرابي وشهد له به خزيمة بن ثابت.

والمرتجل ـ بكسر الجيم ـ ذكره ابن خالويه، من قولهم ارتجل الفرس ارتجالاً، إذا خلط العنق بشيء من الهملجة.

والمرواح، ـ بكسر الميم ـ من أبنية المبالغة ـ كالمطعام ـ مشتق من الريح، أو من الرواح لتوسعه في الجري، أهداها له قوم من مذحج، ذكره ابن سعد.

وملاوح، ـ بضم الميم وكسر الواو ـ ذكره ابن خالويه.

والمندوب، ذكره بعضهم في خيله ﷺ.

والنجيب، ذكره ابن قتيبة، وأن في رواية: أنه الذي اشتراه من الأعرابي وشهد له به خزيمة.

---

(١) هو محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو والهاشمي بالولاء أبو جعفر البغدادي. عالم بالانساب والأخبار واللغة والشعر. توفي بسامراء سنة (٢٤٥ هـ). الأعلام ٦/ ٧٨ ومعجم الأدباء ٥/ ٢٨٦ رقم الترجمة (٨٤٣) تاريخ بغداد ٢/ ٢٧٧ بغية الوعاة (٢٩) والفهرست لابن النديم (١٠٦) واللباب ٣/ ١٠٤.

واليعبوب واليعسوب ذكرهما قاسم بن ثابت في كتاب الدلائل، وكان سرجه دفتان من ليف.

وكان له ﷺ من البغال:

دلدل: بدالين مهملتين، وكانت شهباء أهداها له المقوقس.

وفضة: أهداها له فروة بن عمرو الجذامي.

وأخرى: أهداها له ابن العلماء، صاحب أيلة. وأخرى من دومة الجندل، وأخرى من عند النجاشي.

قيل: وأهدى له كسرى بغلة أخرى، وفي ذلك نظر، لأن كسرى مزق كتابه ﷺ.

وكان له ﷺ من الحمير: عفير، أهداه له المقوقس، ويعفور، أهداه له فروة بن عمرو، ويقال: هما واحد، وذكر أن سعد بن عبادة أعطى للنبي ﷺ حماراً فركبه.

وكان له ﷺ من اللقاح: القصواء وهي التي هاجر عليها، والعضباء والجدعاء ولم يكن بهما عضب ولا جدع، وإنما سميتا بذلك، وقيل كان بأذنها عضب، وقيل: العضباء والجدعا ـ واحدة، والعضباء هي التي كانت لا تسبق فجاء أعرابي على قعود له فسبقها فشق ذلك على المسلمين فقال ﷺ: «**إن حقاً على الله أن لا يرفع من الدنيا شيئاً إلا وضعه**»[1].

وغنم ﷺ يوم بدر جملاً لأبي جهل في أنفه برة من فضة، فأهداه يوم الحديبية ليغيظ بذلك المشركين. وكانت له خمسة وأربعون لقحة أرسل بها إليه سعد بن عبادة: منها: أطلال، وأطراف، وبردة، وبركة، والبغوم، والحناء، ورمزه، والرياء، والسعدية، وسقيا، والسمراء، والشقراء، وعجرة، والعريس، وغوثة، وقيل: غيثة، وقمر، ومروة، ومهرة، وورشة، والعسيرة. وكانت له مائة شاة، وكانت له ستة أعنز منائح ترعاهن أم أيمن.

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب الرقاق باب (٣٨) رقم الحديث (٦٥٠١). وأبو داود. كتاب الأدب باب (٨) رقم الحديث (٤٨٠٢ ـ ٤٨٠٣). وفي سنن النسائي كتاب الخيل ٦/ ٢٢٧. وفي مسند الإمام أحمد ابن حنبل ٣/ ١٠٣ ـ ٢٥٣. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٣٩٣. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٨٧١). وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ٨٨. وفي كنز العمال (٤٤٠٩٧).

# في ذكر من وفد عليه ﷺ وزاده فضلاً وشرفاً لديه[1]

قال النووي: الوفد: الجماعة المختارة للتقدم في لقاء العظماء، واحدهم: وافد، انتهى.

وقد كان ابتداء الوفود عليه بعد رجوعه ﷺ من الجعرانة في آخر سنة ثمان وما بعدها، وقال ابن إسحاق: بعد غزوة تبوك، وقال ابن هشام: كانت سنة تسع تسمى سنة الوفود[2].

وقد سرد محمد بن سعد في الطبقات الوفود، وتبعه الدمياطي في السيرة له، وابن سيد الناس، ومغلطاي، والحافظ زين الدين العراقي. ومجموع ما ذكروه يزيد على الستين.

فقدم عليه ﷺ وفد هوازن[3]، كما ذكره البخاري وغيره، وذكر موسى بن عقبة في المغازي: أن رسول الله لما انصرف من الطائف في شوال إلى الجعرانة وفيها السبي - يعني سبي هوازن - قدمت عليه وفود هوازن مسلمين، فيهم تسعة نفر من أشرافهم فأسلموا وبايعوا، ثم كلموه فقالوا: يا رسول الله، إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات، فقال: «سأطلب لكم، وقد وقعت المقاسم، فأي الأمرين أحب إليكم، السبي أم المال» قالوا: يارسول الله، خيرتنا بين الحسب والمال، فالحسب أحب إلينا، ولا نتكلم في شاة ولا بعير، فقال: «أما الذي لبني هاشم فهو لكم، وسوف أكلم لكم المسلمين فكلموهم وأظهروا إسلامكم».

فلما صلى رسول الله ﷺ الهاجرة قاموا، فتكلم خطباؤهم فأبلغوا ورغبوا إلى

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٢٣ والبداية والنهاية ٥/ ٢٧ ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٠٩ وتاريخ الطبري ٣/ ١١٥ والسيرة لابن هشام ٤/ ٢٠٥ والمنتظم ٣/ ٣٥٣.

(٢) انظر السيرة لابن هشام ٤/ ٢٠٥.

(٣) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ١٩٢ وفي البخاري كتاب المغازي باب (٥٥) رقم الحديث (٤٣١٨ - ٤٣١٩) وفي البداية والنهاية ٢/ ٢٥٨ وفي المنتظم ٣/ ٣٣٧.

المسلمين في رد سبيهم، ثم قام رسول الله ﷺ حين فرغ، فشفع لهم وحض المسلمين عليه، وقال: «قد رددت الذي لبني هاشم عليهم»[1]، وفي رواية ابن إسحاق عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده: وأدركه وفد هوازن بالجعرانة، وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك. فامنن علينا منَّ الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله، إن اللواتي في الحظائر من السبايا خالاتك وعماتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، وأنت خير مكفول ثم أنشد:

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخر

الأبيات المشهورة الآتية إن شاء الله تعالى.

وروينا في المعجم الصغير للطبراني من ثلاثياته، عن زهير بن صرد الجشمي يقول: لما أسرنا رسول الله ﷺ يوم حنين ـ يوم هوازن ـ وذهب يفرق السبي والشاء أتيته فأنشأت أقول هذا الشعر:

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخر
امنن على بيضة قد عاقها قدر ... مشتت شملها في دهرها غير
أبقت لنا الدهر هتافاً على حزن ... على قلوبهم الغماء والغمر
إن لم تداركهم نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلماً حين تختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك تملؤه من مخضها الدرر
إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتي وما تذر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منا فإنا معشر زهر
إنا لنشكر للنعماء إذ كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه ... من أمهاتك إن العفو مشتهر
يا خير من مرحت كمت الجياد به ... عند الهياج إذا ما استوقد الشرر
إنا نؤمل عفواً منك تلبسه ... هادي البرية إذ تعفو وتنتصر
فاعفو عفا الله عما أنت راهبه ... يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر

قال: فلما سمع النبي ﷺ هذا الشعر قال: «ما كان لي ولعبد المطلب فهو لكم» وقالت قريش: ما كان لنا فهو لله ولرسوله، وقالت الأنصار: ما كان لنا فهو لله ولرسوله[2].

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٦٦ وفي فتح الباري ٨/ ٤١.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٩٥ والمنتظم ٣/ ٣٣٧ والمعجم الكبير للطبراني ٥/ ٣١٢ ومجمع=

ومن بين الطبراني وزهير لا يعرف، لكن يقوى حديثه بالمتابعة المذكورة، فهو حديث حسن، وقد وهم من زعم أنه منقطع. وقد زاد الطبراني على ما أورده ابن إسحاق خمسة أبيات.

وذكر الواقدي: أن وفد هوازن كانوا أربعة وعشرين بيتاً، فيهم أبو برقان السعدي، فقال: يا رسول الله، إن هذه لأمهاتك وخالاتك وحواضنك ومرضعاتك فامنن علينا منَّ الله عليك، فقال: **«قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قسمت السبي»**[1].

وقدم عليه ﷺ وفد ثقيف[2]، بعد قدومه ﷺ من تبوك، وكان من أمرهم أنه ﷺ لما انصرف من الطائف قيل له: يا رسول الله ادع على ثقيف، فقال: **«اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم»**[3].

ولما انصرف عنهم، اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فلما أشرف على علية له، وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله.

ثم أقامت ثقيف بعد قتله أشهراً، ثم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ.

فبعثوا عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومعه اثنان من الأحلاف: الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب بن مالك، وشرحبيل بن غيلان، وثلاثة من بني مالك: عثمان بن أبي العاص، وأوس بن عوف، ونمير بن خرشة، فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب لهم قبة في ناحية المسجد، وكان خالد بن سعيد بن العاصي هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى أسلموا واكتتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي كتبه، وكان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية ـ وهي اللات ـ لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى عليهم ﷺ إلا أن

---

= الزوائد للهيثمي ٦/١٨٦ وما بعدها وفي تغليق التعليق لابن حجر ٩٨٥ والتاريخ الصغير للبخاري ١/٥ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/٢٦٦ والأمالي الشجرية ٢/٢٠ تاريخ بغداد ٧/١٠٦ ولسان الميزان لابن حجر ٤/١١٩ (١١٩٩). وأخرجه النسائي كتاب الهبة باب (١) ٦/٢٦٣.

(١) انظر فتح الباري ٨/٤٢.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/٢٣٧ والبداية والنهاية٥/٢٦ والسيرة لابن هشام ٤/١٨٢.

(٣) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب (٧٣) رقم الحديث (٣٩٤٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/٣٤٣ وفي البداية والنهاية ٤/٣٥٢ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٨٦) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ١/٣١٢ ومصنف ابن أبي شيبة ١٢/٢٠١ و ١٤/٥٠٨ وكنز العمال (٣٤٠٠٧).

يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها.

وكانوا سألوه مع ذلك أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم إلا بأيديهم، فقال ﷺ «**كسروا أوثانكم بأيديكم وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه**»[1] فلما أسلموا وكتب لهم الكتاب أمّر عليهم عثمان بن أبي العاص وكان من أحدثهم سناً، لكنه كان من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

فرجعوا إلى بلادهم ومعهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم الطاغية، فلما دخل المغيرة عليها علاها يضربها بالمعول، وخرج نساء ثقيف حسراً يبكين عليها، وأخذ المغيرة بعد أن كسرها مالها وحليها.

وكان كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لهم: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المؤمنين: إن عضاه وج وصيده حرام لا يعضد، من وجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يجلد، وتنزع ثيابه، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ النبي محمداً، وإن هذا أمر النبي محمد رسول الله، وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله، فلا يتعداه أحد فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله.

و«وج»: واد بالطائف. واختلف فيه: هل هو حرم يحرم صيده وقطع شجره؟ فالجمهور: أنه ليس في البقاع حرم إلا حرم مكة والمدينة. وخالفهم أبو حنيفة في حرم المدينة.

وقال الشافعي ـ في أحد قوليه ـ وج حرم، يحرم صيده وشجره، واحتج لهذا القول بحديثين: أحدهما: ما تقدم، والثاني: حديث عروة بن الزبير عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «**إن صيد وج وعضاهه حرم محرم لله**»[2] رواه الإمام أحمد وأبو داود. لكن في سماع عروة من أبيه نظر، وإن كان قد رآه.

وفي مغازي المعتمر بن سليمان التيمي عن عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي عن عمه عمرو بن أوس عن عثمان بن أبي العاص، قال: استعملني رسول الله ﷺ وأنا أصغر الستة الذين وفدوا عليه من ثقيف، وذلك أني كنت قرأت سورة البقرة، فقلت: يا رسول الله، إن القرآن يتفلت مني، فوضع يده على صدري وقال: «**يا شيطان اخرج من صدر**

---

(١) انظر البداية والنهاية ٥/ ٢٧ والسيرة لابن هشام ٤/ ١٨٥.

(٢) أخرجه أبو داوود في كتاب المناسك باب (٩٣ ـ ٩٤) رقم الحديث (٢٠٣٢). والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ١٦٥ وفي مسند الحميدي رقم الحديث (٦٣). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٩ ٢٧) والبداية والنهاية ٥/ ٣١ وميزان الإعتدال (٤٢١٥) وفي كنز العمال (٣٤٩٩٧).

**عثمان»**[1]، فما نسيت شيئاً بعده أريد حفظه.

وفي صحيح مسلم، عن عثمان بن أبي العاص، قلت: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، فقال: **«ذلك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثاً»** قال: ففعلت فأذهبه الله عني[2].

وقدم وفد بني عامر[3] عليه ﷺ، قال ابن إسحاق: لما فرغ ﷺ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، فدخلوا في دين الله أفواجاً يضربون إليه من كل وجه.

فوفد إليه ﷺ بنو عامر، فيهم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس وخالد بن جعفر، وحيان بن أسلم بن مالك، وكان هذا النفر رؤساء القوم وشياطينهم، فقدم ـ عدو الله ـ عامر بن الطفيل على رسول الله ﷺ وهو يريد أن يغدر به، فقال لأربد إذا قدمنا على الرجل فإني شاغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف فكلم عامر رسول الله ﷺ وقال: والله لأملأنها عليك خيلاً ورجلاً، فلما ولى قال ﷺ: **«اللهم اكفني عامر بن الطفيل»**[4].

فلما خرجوا، قال عامر لأربد: ويحك، أينما كنت أمرتك به؟ فقال: والله ما هممت بالذي أمرتني به إلا دخلت بيني وبينه، أفأضربك بالسيف؟

ولما كانوا ببعض الطريق بعث الله تعالى على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه فقتله الله.

وفي صحيح البخاري: أن عامراً أتى النبي ﷺ فقال: أخيرك بين ثلاث خصال، يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء. فطعن في بيت امرأة فقال: أغدة كغدة البكر في بيت امرأة من بني فلان. ائتوني بفرسي فركب فمات على ظهر فرسه[5].

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/٩ والطبراني في المعجم الكبير ٩/٣٧ والبيهقي في دلائل النبوة ٥/٣٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب السلام رقم الحديث (٦٨) وفي مصنف ابن أبي شيبة ٧/٤١٩ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/٢٦٨ وفي عمل اليوم والليلة لابن سني ٥٧٠ وفي الأذكار للنووي ١١٨.

(٣) انظر البداية والنهاية ٥/٥١ والسيرة لابن هشام ٤/٢١٣ وطبقات ابن سعد ١/٢٣٥ والمنتظم ٤/٣ ودلائل النبوة للبيهقي ٥/٣١٨.

(٤) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٥/٣١٩ وما بعدها وابن كثير في البداية ٥/٥٢.

(٥) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٢٩) رقم الحديث (٤٠٩١).

وقدم وفد عبد القيس[1] عليه، زاده الله فضلاً وشرفاً لديه وهي قبيلة كبيرة يسكنون البحرين ينسبون إلى عبد القيس بن أفصى ـ بسكون الفاء بعدها مهملة بوزن أعمى ـ ابن دُعْمي ـ بضم الدال وسكون العين المهملتين وكسر الميم بعدها تحتانية ـ.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: (قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ فقال: «**ممن القوم**» قالوا: من ربيعة، قال: «**مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى**» فقالوا: يا رسول الله، إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر فصل، نأخذ به ونأمر به من ورائنا، وندخل به الجنة. قال: «**آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس، وأنهاكم عن أربع: عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت، فاحفظوهن وادعوا إليهن من وراءكم**)[2].

قال ابن القيم: ففي هذه القصة أن الإيمان بالله مجموع هذه الخصال من القول والعمل، كما على ذلك أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون وتابعوهم كلهم، ذكر ذلك الشافعي في المبسوط، وعلى ذلك ما يقارب مائة دليل من الكتاب والسنة، ولم يعد الحج من هذه الخصال، وكان قدومهم في سنة تسع، وهذا أحد ما يحتج به على أن الحج لم يكن فرض بعد، وأنه إنما فرض في العاشرة ، ولو كان فرض لعده من الإيمان كما عد الصوم والزكاة. انتهى.

وقد كان لعبد القيس وفدتان:

إحداهما: قبل الفتح، ولهذا قالوا له ﷺ: حال بيننا وبينك كفار مضر، وكان ذلك قديماً، إما سنة خمس أو قبلها، وكانت قريتهم بالبحرين، وكان عدد الوفد الأول ثلاثة عشر رجلاً، وقيل كانوا أربعة عشر راكباً، وفيها سألوه عن الإيمان، وعن الأشربة، وكان فيهم الأشج، وكان كبيرهم، وقال له ﷺ: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله، الحلم والأناة**»[3] رواه مسلم من حديث أبي سعيد.

(١) انظر المنتظم ٣/ ٣٨٢ ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٢٠ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٣٨ والبداية والنهاية ٥/ ٤٣ وتاريخ الطبري ٣/ ١٣٦.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب (٤٠) رقم الحديث (٥٣) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٢٩٤ ومجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٢٩ ودلائل النبوة لأبي نعيم ١٠٠ ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٣٥ والبداية والنهاية ٥/ ٤٣ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٢٨ وفي فتح الباري ٦/ ٦٧٢ راجع أيضاً البخاري (٤٣٦٩ ـ ٣٥١٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم الحديث (٢٥ ـ ٢٦) والترمذي كتاب البر والصلة باب (٦٦) رقم=

وأخرج البيهقي: بينما النبي ﷺ يحدث أصحابه قال: «**سيطلع عليكم من هاهنا ركب هم خير أهل المشرق**» فقام عمر نحوهم، فلقي ثلاثة عشر راكباً، فبشرهم بقوله ﷺ ثم مشى معهم حتى أتى النبي ﷺ، فرموا بأنفسهم عن ركائبهم، فأخذوا يده فقبلوها[1] الحديث وأخرجه البخاري في الأدب المفرد. فيمكن أن يكون أحد المذكورين غير راكب أو مرتدفاً.

وثانيتهما: كانت في سنة الوفود وكان عددهم حينئذ أربعين رجلاً، كما في حديث أبي خيرة الصباحي عند ابن منده.

ويؤيد التعدد: ما أخرجه من وجه آخر أنه ﷺ قال لهم: «**مالي أرى ألوانكم تغيرت**»[2] ففيه إشعار بأنه كان رآهم قبل التغير، وفي قولهم: يا رسول الله، دليل على أنهم كانوا حين المقالة مسلمين، وكذا في قولهم كفار مضر، وقولهم: الله ورسوله أعلم.

ويدل على سبقهم إلى الإسلام أيضاً، ما في البخاري: إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجواثي من البحرين وهي قرية لهم،[3] وإنما جمَّعوا بعد رجوع وفدهم إليهم، وقال في فتح الباري: فدل على أنهم سبقوا جميع القرى إلى الإسلام.

وما جزم به ابن القيم من أن السبب في كونه لم يذكر الحج في الحديث، لأنه لم يكن فرض، هو المعتمد. وقدمت الدليل على قدم إسلامهم، لكن جزمه تبعا للواقدي بأن قدومهم كان في سنة تسع قبل فتح مكة ليس بجيد، لأن فرض الحج كان سنة ست على الأصح، لكنه اختار ـ كغيره ـ أن فرض الحج في السنة العاشرة، حتى لا يرد على مذهبه أنه على الفور شيء.

وقد احتج الشافعي لكونه على التراخي بأن فرض الحج كان بعد الهجرة، وأنه ﷺ

---

= الحديث (٢٠١١) وأبو داوود كتاب الأدب باب (١٤٩) رقم الحديث (٥٢٢٥) وابن ماجه في كتاب الزهد باب (١٨) رقم الحديث (٤١٨٧ ـ ٤١٨٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٣ و٥٠ و٤/ ٢٠٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ١٠٢ وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٣٩٣) ومجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٣٨٨ وفي تاريخ بغداد ٣/ ١٩٦ و٥/ ٢٧٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٢٣٠ والأسماء والصفات للبيهقي ٤٩٩ وفي الأدب المفرد للبخاري (٥٨٥ ـ ٥٨٦) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٧٦ وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣١ وفي كنز العمال (٥٨١١ ـ ٥٨٣٦ ـ ٥٨٣٧ ـ ٣٦٧٢٤).

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٣٢٧ والبداية والنهاية ٥/ ٤٤.

(٢) انظر فتح الباري ٨/ ١٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب(٧٠) رقم الحديث (٤٣٧١) وفي البداية والنهاية ٥/ ٤٤.

كان قادرا على الحج في سنة ثمان، وفي سنة تسع، ولم يحج إلا في سنة عشر، وسيأتي في حجه ﷺ من مقصد عباداته مزيد لذلك إن شاء الله تعالى[1].

فإن قلت كيف قال ﷺ آمركم بأربع، والمذكورات خمس؟ قلت أجاب القاضي [عياض][2] تبعاً لابن بطال: بأن الأربع، ما عدا أداء الخمس، قال: وكأنه أراد إعلامهم بقواعد الإيمان وفروض الأعيان، ثم أعلمهم بما يلزمهم إخراجه إذا وقع لهم جهاد، لأنهم كانوا بصدد محاربة كفار مضر، ولم يقصد إلى ذكرها بعينها لأنها مسببة عن الجهاد، ولم يكن الجهاد إذ ذاك فرض عين. قال: ولذلك لم يذكر الحج لأنه لم يكن فرض.

وقال غيره: وقوله «وأن تعطوا» معطوف على قوله «بأربع» أي: آمركم بأربع وبأن تعطوا، ويدل عليه العدول عن سياق الأربع والإتيان: بأن والفعل، مع توجيه الخطاب إليهم[3].

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: يحتمل أن يقال: إنه ﷺ عد الصلاة والزكاة واحدة لأنها قرينتها في كتاب الله، وتكون الرابعة أداء الخمس، أو أنه لم يعد الخمس لأنه داخل في عموم إيتاء الزكاة والجامع بينهما: أنه إخراج مال معين.

وقال البيضاوي: الظاهر أن الأمور الخمسة هنا تفسير للإيمان، وهو أحد الأربعة الموعود بذكرها، والثلاثة الأخرى حذفها الراوي اختصاراً أو نسياناً.

وتعقب بأنه وقع في صحيح البخاري أيضاً في رواية: «آمركم بأربع: **شهادة أن لا إله إلا الله، وعقد واحدة**» فدل على أن الشهادة إحدى الأربع.

وقال القرطبي: قيل إن أول الأربع المأمور بها: إقام الصلاة، وإنما ذكر الشهادتين تبركاً، وإلى هذا نحا الطيبي، فقال عادة البلغاء أن الكلام إذا كان منصوباً لغرض جعلوا سياقه له، وطرحوا ما عداه، وهنا لم يكن الغرض في الإيراد ذكر الشهادتين لأن القوم كانوا مؤمنين مقرين بكلمتي الشهادة، ولكن ربما كانوا يظنون الإيمان مقصور عليهما كما كان الأمر في صدر الإسلام. قال: ولهذا لم يعد الشهادتين في الأوامر[4]، انتهى ملخصاً من فتح الباري.

---

(١) وفي الفتح ١/ ١٧٨ قوله: وأما قول من قال إنه ترك الحج لكونه على التراخي فليس بجيد. لأن كونه على التراخي لا يمنع من الأمر به.

(٢) في الأصل عبد الوهاب والمذكور في الفتح عياضي. وهو الصواب انظر فتح الباري ١/ ١٧٧ (٥٣).

(٣) المصدر السابق ١/ ١٧٧.

(٤) المصدر السابق ١/ ١٧٦.

وقدم عليه ﷺ وفد بني حنيفة[1]، فيهم مسيلمة الكذاب، فكان منزلهم في دار امرأة من الأنصار، من بني النجار، فأتوا بمسيلمة إلى رسول الله ﷺ وهم يسترونه بالثياب، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه، في يده عسيب من سعف النخل، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ـ وهم يسترونه بالثياب ـ كلمه وسأله، فقال له رسول الله ﷺ: «**لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك**»[2].

وذكر حديثه ابن إسحاق على غير ذلك فقال: حدثني شيخ من أهل اليمامة من بني حنيفة: أن وفد بني حنيفة أتوا رسول الله ﷺ وخلفوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا له مكانه، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا يحفظها لنا، فأمر له رسول الله ﷺ بما أمر به للقوم، وقال لهم «**إنه ليس بشركم مكانا**» يعني لحفظه صنيعة أصحابه، ثم انصرفوا، فلما قدموا اليمامة ارتد ـ عدو الله ـ وتنبأ وقال: إني أشركت في الأمر معه، ثم جعل يسجع السجعات، فيقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن:

لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشى.

وسجع اللعين على سورة ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ [الكوثر: ١] فقال: إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وهاجر، إن مبغضك رجل فاجر. وفي رواية: إنا أعطيناك الجماهر فخذ لنفسك وبادر، واحذر أن تحرص أو تكاثر، وفي رواية: إنا أعطيناك الكواثر فصل لربك وبادر في الليالي الغوادر.

ولم يعرف المخذول أنه محروم عن المطلوب، وسيأتي في أوائل مقصد معجزاته ﷺ من تسجيع مسيلمة الركيك مزيد لذلك على ما ذكرته هنا إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنه أدخل البيضة في القارورة وادعى أنها معجزة له، فافتضح بنحو ما ذكر: أن النوشادر إذا ضرب في خل الخمر ضرباً جيداً، وجعلت في بيضة بنت يومها يوماً وليلة فإنها تمتد كالخيط، فتجعل في القارورة ويصب عليها الماء البارد فإنها تجمد.

ولما سمع اللعين أن النبي ﷺ مسح رأس صبي كان ألمَّ به داء فشفي ومج في بئر فكثر ماؤها، وتفل في عين علي ـ وكان أرمد ـ فبرىء. فتفل اللعين في بئر فغار ماؤها، وفي عين بصير فعمي، ومسح بيده ضرع شاة حلوب فارتفع درها. ويبس ضرعها، ولله در الشقراطيسي حيث يقول يخاطب النبي ﷺ:

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ٤/ ٢٢٢. والمنتظم ٣/ ٣٨٢ والبداية والنهاية ٥/ ٤٥. ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٣٠ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٤٠ وتاريخ الطبري ٣/ ١٣٧.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٦٢٠ ـ ٤٣٧٣ ـ ٤٣٧٨ ـ ٧٠٣٣ ـ ٧٤٦١). وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٣٠ و٦/ ٣٥٨. وفي البداية والنهاية ٥/ ٤٥.

أعجزت بالوحي أرباب البلاغة في ... عصر البيان فضلَّت أوجه الحيل
سألتهم سورة في مثل حكمته ... فتلَّهم عنه حين العجز حين تلي
فرام رجس كذوب أن يعارضه ... بعي غي فلم يحسن ولم يطل
مثبج بركيك الإفك ملتبس ... ملجلج بزري الزور والخطل
يمج أول حرف سمع سامعه ... ويعتريه كلال العجز والملل
كأنه منطق الورهاء شذَّ به ... لبس من الخبل أو مس من الخبل
أمرت البئر واغورت لمجته ... فيها وأعمى بصير العين بالتفل
وأيبس الضرع منه شؤم راحته ... من بعد إرسال رسل منه منهمل

فشبه هذا الكلام الذي عارض به مسيلمة، بكلام امرأة ورهاء، وهي الحمقاء الّتي تتكلم لحمقها بما لا يفهم، فهي تهذي بكلام مشذب ـ أي مختلط ـ لا يقترن بعضه ببعض، ولا يشبه بعضه بعضاً ككلام من به خبل ـ بسكون الموحدة ـ أي فساد، أو مس من الخَبل ـ بفتحها ـ أي جنون.

ثم إن اللعين وضع عن قومه الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنا، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي.

وقد كان كتب لرسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإني قد أشركت معك في الأمر، وإن لنا نصف الأمر، ولقريش نصف الأمر.

فقدم على رسول الله ﷺ رسوله بهذا الكتاب، فكتب إليه رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[1].

وفي الصحيحين من حديث نافع بن جبير عن ابن عباس قال: قدم مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل النبي ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد النبي ﷺ قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: «**لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني**» ثم انصرف[2].

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٠٩. ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٣١. والبداية والنهاية ٥/ ٤٧. والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٤٧.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب المغازي باب (٧١) رقم الحديث (٤٣٧٣) وفي صحيح مسلم كتاب الرؤيا. باب (٤) رقم الحديث (٢١). وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٣٧٦. وكنز العمال (٣٨٣٨٧).

قال ابن عباس: فسألت عن قول النبي ﷺ: «**إنك الذي أريت فيه ما رأيت**» فأخبرني أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «**بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحى الله إلي في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما: كذابين يخرجان من بعدي، فهذان هما: أحدهما العنسي صاحب صنعاء والآخر مسيلمة**»[1].

فإن قلت: كيف يلتئم خبر ابن إسحاق مع الحديث الصحيح أن النبي ﷺ اجتمع به وخاطبه، وصرح بحضرة قومه أنه لو سأله القطعة من الجريدة ما أعطاه.

فالجواب: إن المصير إلى ما في الصحيح أولى.

ويحتمل أن يكون مسيلمة قدم مرتين، الأولى كان تابعاً وكان رئيس بني حنيفة غيره، ولهذا أقام في حفظ رحالهم، ومرة متبوعاً، وفيها خاطبه النبي ﷺ.

أو القصة واحدة، وكانت إقامته في رحالهم باختياره أنفة منه واستكباراً أن يحضر مجلس النبي ﷺ، وعامله ﷺ معاملة الكرم على عادته في الاستئلاف فقال لقومه: «**إنه ليس بشركم**» أي مكاناً، لكونه كان يحفظ رحالهم، وأراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل، فلما لم يفد في مسيلمة توجه بنفسه إليه ليقيم عليه الحجة ويعذر إليه بالإنذار. والعلم عند الله تعالى.

وقدم عليه ﷺ وفد طيء[2] وفيهم زيد الخيل وهو سيدهم، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم. وقال ﷺ: «**ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كل ما فيه**» ثم سماه زيد الخير. فخرج راجعاً إلى قومه، فلما انتهى إلى ماء من مياه نجد أصابته الحمى بها فمات[3].

قال ابن عبد البر: وقيل مات في آخر خلافة عمر. وله ابنان: مكنف وحريث، أسلما وصحبا رسول الله ﷺ، وشهدا قتال أهل الردة مع خالد.

وقدم عليه ﷺ وفد كنده[4] في ثمانين أو ستين راكباً من كنده، فدخلوا عليه

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب المغازي باب (٧١) رقم الحديث (٤٣٧٤ ـ ٤٣٧٥). وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٣٥٨. وصحيح مسلم كتاب الرؤيا. باب (٤) رقم الحديث (٢١) وفي مسند الإمام أحمد ابن حنبل ١/ ٢٦٣ وفي الترمذي كتاب الرؤيا باب (١٠) رقم الحديث (٢٢٩٢) وفي ابن ماجه كتاب التعبير باب (١٠) رقم الحديث (٣٩٢٢).

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٤٣ والبداية والنهاية ٥/ ٥٧ ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٣٧ والسيرة لابن هشام ٤/ ٢٢٤ والمنتظم ٣/ ٣٥٦ وتاريخ الطبري ٣/ ١١١ وعيون الأثر ٢/ ٣٠١.

(٣) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٣٣٧.

(٤) انظر المنتظم ٣/ ٣٨٢ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٤٨ والبداية والنهاية ٥/ ٦٥ ودلائل النبوة للبيهقي =

مسجده، قد رجَّلوا جممهم وتسلحوا، ولبسوا جباب الحبرات مكففة بالحرير، فلما دخلوا قال ﷺ: «**أو لم تسلموا**» قالوا: بلى، قال: «**فما هذا الحرير في أعناقكم فشقوه فنزعوه وألقوه**»[1].

وقدم عليه ـ زاده الله شرفاً لديه ـ الأشعريون وأهل اليمن[2].

قيل هو من عطف الخاص على العام، وقال الحافظ أبو الفضل شيخ الإسلام ابن حجر: المراد بهم بعض أهل اليمن، وهم وفد حمير. قال: ووجدت في كتاب الصحابة لابن شاهين من طريق إياس بن عمرو الحميري: أنه قدم وافداً على رسول الله ﷺ في نفر من حمير فقالوا: أتيناك لنتفقه في الدين الحديث.

والحاصل: أن الترجمة تشتمل على طائفتين، وليس المراد اجتماعهما في الوفادة، فإن قدوم الأشعريين كان مع أبي موسى في سنة سبع عند فتح خيبر، وقدوم حمير كان في سنة تسع، وهي سنة الوفود، ولهذا اجتمعوا مع بني تميم.

وروى يزيد بن هارون عن حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوباً**»[3] فقدم الأشعريون فجعلوا يرتجزون:

غداً نلقى الأحبه　　　محمداً وحزبه

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة وأضعف قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية والسكينة في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في الفدادين أهل الوبر قبل مطلع الشمس**»[4] رواه مسلم.

وفي البخاري: إن نفراً من بني تميم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «**أبشروا يا بني تميم**» فقالوا: بشرتنا فأعطنا، فتغير وجه رسول الله ﷺ وجاء نفر من أهل اليمن، فقال: «**اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم**» قالوا: قد قبلنا، ثم قالوا: يا رسول الله جئنا لنتفقه في الدين ونسألك عن هذا الأمر، فقال: «**كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء. وكتب في الذكر كل شيء**»[5].

---

= ٥/ ٣٦٨ والسيرة لابن هشام ٤/ ٢٣٢.

(١) الحديث في البداية والنهاية ٥/ ٦٥ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٤٨.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٢ والمنتظم ٣/ ٣٠٤ والبداية والنهاية ٥/ ٦٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ١٠٥ و١٥٥ و١٨٢ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٢ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٢٦٥) وفي طبقات ابن سعد ٤/ ٧٩.

(٤) أخرجه مسلم رقم الحديث (٥٢) وفي البخاري كتاب المغازي باب (٧٥) رقم الحديث (٤٣٨٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٠٥ وفي كنز العمال (٣٨٠٠٩).

(٥) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب (١) (٣١٩٠ ـ ٣١٩١ ـ ٤٣٦٥ ـ ٤٣٨٦ ـ ٧٤١٨) وفي=

وقوله: وجاء نفر من أهل اليمن، هم الأشعريون قوم أبي موسى.

وقدم عليه ﷺ صرد بن عبد الله الأزدي(١)، فأسلم وحسن إسلامه، في وفد من الأزد فأمَّره ﷺ على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم أهل الشرك من قبائل اليمن.

فخرج صرد يسير بأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بجرش، وبها قبائل من قبائل العرب، فحاصروهم فيها قريباً من شهر، وامتنعوا فيها، فرجع عنهم قافلاً، حتى إذا كان في جبل لهم وظنوا أنه إنما ولى عنهم منهزماً خرجوا في طلبه، حتى أدركوه عطف عليهم فقتله قتلاً شديداً.

وكان أهل جرش بعثوا إلى رسول الله ﷺ رجلين منهم، فبينما هما عنده ﷺ عشية فقال لهما عليه السلام: «**إن بدن الله لتنحر عند شكر**» أي المكان الذي وقع به قتل قومهم، قال: فجلس الرجلان إلى أبي بكر وعثمان فقالا لهما إن رسول الله ﷺ ينعي لكما قومكما. فخرجا إلى قومهما فوجداهم قد أصيبوا في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر.

فخرج وفد جرش حتى قدموا عليه ﷺ فأسلموا وحمى لهم حمى حول قريتهم.

وفد بني الحارث بن كعب(٢). قال ابن إسحاق: بعث ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر، أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم.

فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه، ويدعون إلى الإسلام، ويقولون: أيها الناس أسلموا تسلموا، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه.

فأقام خالد يعلمهم الإسلام وكتب إلى رسول ﷺ بذلك. ثم أقبل على رسول الله ﷺ ومعه وفدهم، منهم: قيس بن الحصين، ويزيد بن المحجل، وشداد بن عبد الله. وقال لهم ﷺ: «**بم كنتم تغلبون من قاتلكم**» قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: «**صدقتم**»(٣).

---

= الترمذي كتاب المناقب باب (٧٣) رقم الحديث (٣٩٥١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٤٢٦ و٤٣٣ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٠٣ ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٥٣.

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٥٤ والمنتظم ٣/ ٣٨١ وتاريخ الطبري ٣/ ١٣٠ والبداية والنهاية ٥/ ٨٤ والسيرة لابن هشام ٤/ ٢٣٣.

(٢) انظر السيرة لابن هشام ٤/ ٢٤٠ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٥٧ والمنتظم ٣/ ٣٧٩ والبداية ٥/ ٨٩.

(٣) ذكره ابن كثير في تاريخه ٥/ ٨٩.

وأمر عليهم قيس بن الحصين، فرجعوا إلى قومهم في بقية من شوال أو من ذي القعدة، فلم يمكثوا إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقدم عليه ﷺ وفد همدان[1] فيهم: مالك بن النمط، وضمام بن مالك، وعمرو بن مالك، فلقوا رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم العدنية، على الرواحل المهرية والأرحبية، ومالك بن النمط يرتجز بين يديه ﷺ. وذكروا له كلاماً كثيراً حسناً فصيحاً.

فكتب لهم ﷺ كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه، وأمر عليهم مالك بن النمط، واستعمله على من أسلم من قومه، وأمره بقتال ثقيف. وكان لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه.

وروى البيهقي بإسناد صحيح عن البراء أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام. قال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد، فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا، ثم إن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب فأمره أن يقفل خالداً إلا رجلاً ممن كان مع خالد أن يعقب مع علي.

فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا، فصلى بنا علي، ثم صفنا صفاً واحداً، ثم تقدم بين أيدينا، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدان جميعاً، فكتب علي إلى رسول الله ﷺبإسلامهم. فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه فقال: «**السلام على همدان، السلام على همدان**»[2] وأصل الحديث في صحيح البخاري.

وهذا أصح مما تقدم، ولم تكن همدان تقاتل ثقيفاً ولا تغير على سرحهم، فإن همدان باليمن وثقيف بالطائف. قاله ابن القيم في الهدي النبوي.

روى البيهقي عن النعمان بن مقرن قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أربعمائة رجل من مزينة[3]، فلما أردنا أن ننصرف قال: «**يا عمر زود القوم**» قال: ما عندي إلا شيء من تمر ما أظنه يقع من القوم موقعاً. قال: «**انطلق فزودهم**» قال: فانطلق بهم عمر فأدخلهم منزله ثم أصعدهم إلى علية، فلما دخلنا فإذا فيها من التمر مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم. قال النعمان: وكنت في آخر من خرج، فنظرت: وما أفقد موضع تمرة من مكانها[4].

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ٤/ ٢٤٣ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٥٦.

(٢) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣٦٦ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٦٩.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٢٢ والمنتظم ٣/ ٢١٧. ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٦٥.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٤٤٥. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٦٦.

وفد دوس[1]: وكان قدومهم عليه ﷺ بخيبر. قال ابن إسحاق: كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا له: إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين المرء وابنه وبين المرء وأخيه، وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمع منه.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً، فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله.

قال: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريباً منه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله: فسمعت كلاماً حسناً، فقلت: واثكل أماه. والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان ما يقول حسناً قبلت، وإن كان قبيحاً تركت.

قال: فمكثت حتى أتى ﷺ إلى بيته، فتبعته حتى إذا دخل بيته فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوفوني أمرك حتى سددت أذني بكرسف أن لا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعنيه، فسمعت قولاً حسناً، فاعرض علي أمرك.

فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا رسول الله، إني امرؤ مطاع في قومي وإني راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية.

قال: فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر، وقع نور بين عيني مثل المصباح، قال قلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يقولوا إنها مثلة وقعت في وجهي لفراق دينهم، قال: فتحول فوقع في رأس سوطي كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثنية، حتى جئتهم وأصبحت فيهم، فلما نزلت أتاني أبي ـ وكان شيخاً كبيراً ـ فقلت: إليك عني يا أبت، فلست مني ولست منك، قال: ولم يا بني؟ قلت: قد أسلمت وتابعت دين محمد، قال: يا بني فديني دينك، قال فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال أعلمك ما علمت، قال فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٥. والمنتظم ٣/ ٣٠٤ والبداية والنهاية ٥/ ٦١.

ثم أتتني صاحبتي فقلت: إليك عني فلست منك ولست مني، قالت: لم؟ قلت: فرق الإسلام بيني وبينك، أسلمت وتابعت محمداً ﷺ، قالت: فديني دينك فأسلمت.

ثم دعوت دوساً إلى الإسلام، فأبطؤوا علي فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبي الله إنه قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم، فقال: «**اللهم اهد دوساً**» ثم قال «**ارجع إلى قومك فادعهم إلى الله وارفق بهم**»، فرجعت إليهم فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الله، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بخيبر، فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس. ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين[1].

وهذا يدل على تقدم إسلامه، وقد جزم ابن أبي حاتم بأنه قدم مع أبي هريرة بخيبر، وكأنها قدمته الثانية.

وقدم عليه ﷺ وفد نصارى نجران[2]، فلما دخلوا المسجد النبوي بعد العصر حانت صلاتهم، فقاموا يصلون فيه، فأراد الناس منعهم فقال ﷺ دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم.

وكانوا ستين راكباً، منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم؛ العاقب، أمير القوم، وذو رأيهم وصاحب مشورتهم واسمه عبد المسيح. والسيد: صاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم ـ بتحتانية ساكنة ـ ويقال شرحبيل. وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، قد شرف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه، وكان يعرف أمر النبي ﷺ وشأنه ر.. فته مما علمه من الكتب المتقدمة. ولكن حمله جهله على الاستمرار في النصرانية، لما يرى من تعظيمه ووجاهته عند أهلها.

فدعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، فقال: «**إن أنكرتم ما أقول فهلم أباهلكم**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب الجهاد والسير باب (١٠٠) رقم الحديث (٢٩٣٧ ـ ٤٣٩٢ ـ ٦٣٩٧). وفي صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (١٩٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٤٣، ٤٤٨، ٥٠٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٩٦). وفي مسند الحميدي رقم الحديث (١٠٥٠). وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٦٥. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٥٩. وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٧٩. وفي طبقات ابن سعد ٤/ ١٨١. وفي مسند الشافعي (٢٨٠). وفي كنز العمال (٣٤٠١٠).

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٧. والبداية والنهاية ٥/ ٤٩. ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٨٢ والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٢. نهاية الأرب ١٨/ ١٢١. وفتوح البلدان للبلاذري (٧٠).

(٣) ذكره ابن سعد في طبقاته ١/ ٢٦٨ وفي فتح الباري ٨/ ١١٨.

وفي البخاري من حديث حذيفة؛ (جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه ـ يعني يباهلاه ـ فقال أحدهما لا تفعل)[1].

وعند أبي نعيم: أن القائل ذلك هو السيد، وعند غيره: بل الذي قال ذلك هو العاقب، لأنه صاحب رأيهم، وفي زيادات يونس بن بكير في المغازي أن الذي قال ذلك هو شرحبيل.

(فوالله لئن كان نبياً فلاعناه ـ يعني: باهلناه ـ لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ـ زاد في رواية ابن مسعود: أبداً ـ ثم قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «**لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين**» فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «**قم يا أبا عبيدة بن الجراح**»فلما قام قال رسول الله ﷺ: «**هذا أمين هذه الأمة**» [2].

وفي رواية يونس بن بكير أنه صالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب وألف في صفر، ومع كل حلة أوقية، وساق الكتاب الذي بينهم مطولاً. وذكر ابن سعد: أن السيد والعاقب رجعا بعد ذلك وأسلما. وفي ذلك مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة. ووقع ذلك لجماعة من العلماء سلفاً وخلفاً، ومما عرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلاً لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة.

وقدم عليه ﷺ رسول فروة بن عمرو الجذامي ملك الروم[3] وكان منزله معان ـ بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، ولما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه، فحسبوه ثم صلبوه على ماء بفلسطين، وضربوا عنقه على ذلك الماء[4].

وقدم عليه ﷺ ضمام بن ثعلبة، بعثه بنو سعد بن بكر[5].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٧٣) رقم الحديث (٤٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب (٧٣) رقم الحديث (٤٣٨٠ ـ ٤٣٨١). وفي صحيح مسلم. كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (٥٤) وفي سنن ابن ماجه في المقدمة رقم الحديث (١٣٦). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٤١٤ و٣/١٤٦، ٢٨٦. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ١٧ وفي المستدرك للحاكم ٣/٢٦٧. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٩٢. وفي الدر المنثور ٢/ ٣٨. وفي مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ٢٠١ وفي كنز العمال (٤٦٦٥٩).

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٣٧. وطبقات ابن سعد ١/ ٢٦٦ والبداية والنهاية ٥/ ٧٧. وعيون الأثر ٢/ ٣١١، ونهاية الأرب ١٨/ ٢٨.

(٤) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ٤/ ٢٣٨.

(٥) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢١٩. والبداية والنهاية ٥/ ٥٥ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٢٨. ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٧٤ وعيون الأثر ٢/ ٢٩٧.

روى البخاري من حديث أنس بن مالك قال؛ (بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكىء بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكىء، فقال له الرجل: أبن عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**قد أجبتك**». فقال: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك. فقال: «**سل عما بدا لك**». فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «**اللهم نعم**». فقال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «**اللهم نعم**». فقال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «**اللهم نعم**». قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا. فقال النبي ﷺ: «**اللهم نعم**».

فقال الرجل: آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة، أخو بني سعد بن بكر)[1].

وزاد ابن إسحاق في مغازيه: فقال: آلله أمرك أن نعبده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟

فقال ﷺ: «**اللهم نعم**».

قال: وكان ضمام رجلاً جلداً أشقر ذا غديرتين، ثم أتى بعيره وأطلق عقاله ثم خرج حتى أتى قومه فاجتمعوا إليه، وكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى فقالوا: مه يا ضمام اتق البرص والجنون والجذام، قال: ويلكم، إنهما لا يضران ولا ينفعان. إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، فوالله ما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

قال ابن عباس: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة[2].

وفد طارق بن عبد الله وقومه[3]. روى البيهقي عن جامع بن شداد قال: حدثني

---

(١) أخرجه البخاري كتاب العلم باب (٦) رقم الحديث (٦٣) وأبو داود كتاب الصلاة باب (٢٣) رقم الحديث (٤٨٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٦٨. .وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب (١٩٤) رقم الحديث (١٤٠٢). والنسائي كتاب الصيام ٤/ ١٢٣. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ٢٠٤. وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٢٨. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٤٤ و٧/ ٩.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٢١. ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٧٧.

(٣) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٨٠. والبداية والنهاية ٥/ ٧٧.

رجل يقال له طارق بن عبد لله قال: إني لقائم بسوق ذي المجاز إذ أقبل رجل وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة يقول: يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه، فقلت من هذا؟ فقالوا: هذا غلام من بني هاشم يزعم أنه رسول الله. قال قلت: من هذا الذي يفعل به هذا؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى.

قال: فلما أسلم الناس وهاجروا، خرجنا من الربذة نريد المدينة نمتار من تمرها، فلما دنونا من حيطانها قلنا: لو نزلنا فلبسنا ثياباً غير هذه، فإذا رجل في طمرين له فسلم وقال: من أين أقبل القوم؟ قلنا: من الربذة، قال: وأين تريدون؟ قلنا: نريد المدينة، قال: ما حاجتكم فيها؟ قلنا: نمتار من تمرها، قال: ومعنا ظعينة لنا، ومعنا جمل أحمر مخطوم، فقال: أتبيعون جملكم هذا؟ قالوا: نعم بكذا وكذا صاعاً من تمر، فأخذ بخطام الجمل فانطلق، فلما توارى عنا بحيطان المدينة ونخلها قلنا: ما صنعنا، والله ما بعنا جملنا ممن نعرف ولا أخذنا له ثمناً. قال: تقول المرأة التي معنا: والله لقد رأيت رجلاً كأن وجهه قطعة القمر ليلة البدر، أنا ضامنة لثمن جملكم. وفي رواية ابن إسحاق قالت الظعينة: فلا تلاوموا، لقد رأيت وجه رجل لا يغدر بكم، ما رأيت شيئاً أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه، إذ أقبل رجل فقال: أنا رسول رسول الله إليكم، هذا تمركم فكلوا واشبعوا واكتالوا واستوفوا، فأكلنا حتى شبعنا، واكتلنا واستوفينا، ثم دخلنا المدينة، فلما دخلنا المسجد إذا هو قائم على المنبر يخطب الناس فأدركنا من خطبته وهو يقول: «**تصدقوا فإن الصدقة خير لكم، اليد العليا خير من اليد السفلى**»[1].

وقدم عليه ﷺ وفد تجيب[2]، وهم من السكون، ثلاثة عشر رجلاً، قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم، فسر عليه السلام بهم وأكرم منزلهم، وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم، ثم جاؤوا رسول الله ﷺ يودعونه فأمر بلالاً فأجازهم بأرفع مما كان يجيز به الوفود. قال: «**هل بقي منكم أحد؟**» قالوا: غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سناً، قال: **أرسلوه إلينا**» فلما أقبل الغلام على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي، وإن كانوا راغبين في الإسلام، والله ما أخرجني من بلادي إلا أن تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني وأن يجعل غناي في قلبي، فقال ﷺ: «**اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه**» ثم أمر له بما أمر به لرجل من أصحابه. ثم انطلقوا راجعين إلى أهليهم.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٣٧٧. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ٢٣. وفي الدر المنثور ١/ ٢٥٥. وفي كنز العمال (١٦١٦١).

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٤٤. والمنتظم ٣/ ٣٥٤ والبداية والنهاية ٥/ ٨٤.

ثم وافوا رسول الله ﷺ بمنى سنة عشر، فقال: «**ما فعل الغلام؟**» قالوا: يا رسول الله ما رأينا مثله قط، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها[1].

قدوم وفد بني سعد هذيم من قضاعة[2]:

روى الواقدي عن ابن النعمان عن أبيه من سعد هذيم قال: قدمت على رسول الله ﷺ وافداً في نفر من قومي، فنزلنا ناحية من المدينة ثم خرجنا نؤم المسجد الحرام، فقمنا ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم حتى نلقى رسول الله ﷺ ونبايعه، ثم بايعناه ﷺ على الإسلام ثم انصرفنا إلى رحالنا.

وقد كنا خلفنا أصغرنا، فبعث ﷺ في طلبنا فأتي بنا إليه، فتقدم صاحبنا إليه فبايعه على الإسلام، فقلنا يا رسول الله، إنه أصغرنا وخادمنا، فقال: «**أصغر القوم خادمهم، بارك الله عليك**» قال: فكان والله خيرنا وأقرأنا بدعاء رسول الله ﷺ، ثم أمَّره علينا، فكان يؤمنا مرجعنا إلى قومنا، فرزقهم الله الإسلام.

وفد بني فزارة[3]: قال أبو الربيع بن سالم[4] في كتاب الاكتفاء: ولما رجع رسول الله ﷺ من تبوك، قدم عليه وفد بني فزارة، بضعة عشر رجلاً فيهم خارجة بن حصن، والحر بن قيس، ابن أخي عيينة بن حصن، وهو أصغرهم، مقرين بالإسلام، وهم مسنتون، على ركاب عجاف، فسألهم ﷺ عن بلادهم فقال أحدهم؛ يا رسول الله، أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا، وأجدب جنابنا، وغرث عيالنا، فادع لنا ربك يغيثنا، واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنا ربك إليك.

فقال ﷺ: «**سبحان الله!! ويلك، هذا إنما شفعت إلى ربي عز وجل: فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا هو العلي العظيم، وسع كرسيه السماوات والأرض، فهي تئط من عظمته وجلاله، كما يئط الرحل الجديد**»[5].

---

(١) ذكره ابن سعد في طبقاته ١/ ٢٤٥ وفي البداية والنهاية ٥/ ٨٤ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٢٩١ و١٠/ ٤٠٩.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٤٩ والمنتظم ٣/ ٣٤٩ والبداية والنهاية ٥/ ٨٥.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٢٦. والبداية والنهاية ٥/ ٧٩ والمنتظم ٣/ ٣٥٣.

(٤) هو سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري أبو الربيع (٥٦٥ ـ ٦٣٤ هـ). محدث حافظ. بليغ. الأعلام ٣/ ١٣٦. تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤١٧ رقم الترجمة (١١٣٥) الديباج المذهب (١٢٢). كشف الظنون (١٤١).

(٥) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ١٤٣ وابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ٩٤.

وقال ﷺ: «**إن الله عز وجل ليضحك من شفقكم وقرب غياثكم**».

فقال الأعرابي: يا رسول الله، ويضحك ربنا عز وجل؟ قال: «**نعم**».

فقال الأعرابي: لن نعدمك من رب يضحك خيراً.

فضحك ﷺ من قوله وصعد المنبر فرفع يديه حتى رؤي بياض ابطيه، وكان مما حفظ من دعائه: «**اللهم اسق بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مربعاً طبقاً واسعاً عاجلاً غير آجل، نافعاً غير ضار، اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق. اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء**»[1]، الحديث رواه ابن سعد والبيهقي، ويأتي تمامه إن شاء الله تعالى في الاستسقاء في مقصد عباداته ﷺ.

وقدم عليه ﷺ وفد بني أسد[2]، عشرة رهط فيهم وابصة بن معبد، وطلحة بن خويلد، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه، فقال متكلمهم: يا رسول الله إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك ولم تبعث إلينا بعثاً.

فأنزل الله تعالى[3]: ﴿**يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**﴾ [الحجرات: ١٧].

وقدم عليه ﷺ وفد بهراء من اليمن[4]، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، فلما انتهوا إلى باب المقداد رحب بهم، وقدم لهم جفنة من حيس، فأكلوا منها حتى نهلوا. وردت القصعة وفيها شيء، فجمع في قصعة صغيرة وأرسل بها إلى رسول الله ﷺ في بيت أم سلمة، فأصاب منها هو ومن معه في البيت حتى نهلوا، ثم أكل منها الضيف ما أقاموا، يرددون ذلك عليهم وما تغيض، حتى جعلوا يقولون: يا أبا معبد، إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا، وما كنا نقدر على مثل هذا إلا في الحين، فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله ﷺ أنه أكل منها وردها، وأن هذه بركة أصابعه ﷺ، فجعل القوم يقولون: نشهد أنه رسول الله، وازدادوا يقيناً، وتعلموا الفرائض، وأقاموا أياماً، ثم ودعوا رسول الله ﷺ فأمر لهم بجوائز وانصرفوا إلى أهليهم.

وقدم عليه ﷺ وفد عذرة[5]، في صفر سنة تسع، وكانوا اثني عشر رجلاً، منهم

---

(١) ذكره البيهقي وفي دلائل النبوة ٦/ ١٤٤. في طبقات ابن سعد ١/ ٢٢٦. ومصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٠٠. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٩١٦). وفي البداية والنهاية ٥/ ٧٩.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٢٣. والمنتظم ٣/ ٣٥٥. والبداية والنهاية ٥/ ٧٩.

(٣) انظر تفسير البغوي ٤/ ١٩٧ وتفسير الطبري ٢٦/ ٩٢.

(٤) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٥٠. والمنتظم ٣/ ٣٥٦.

(٥) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٥٠.

جمرة بن النعمان، فرحب بهم ﷺ، فأسلموا وبشرهم بفتح الشام وهرب هرقل إلى ممتنع من بلاده، ثم انصرفوا وقد أجيزوا.

وقدم عليه ﷺ وفد بلي[1]، فأسلموا، فقال ﷺ: «**الحمد لله الذي هداكم للإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار**». ثم ودعوا رسول الله ﷺ بعد أن أجازهم.

وقدم عليه ﷺ وفد بني مرة[2] وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، ورئيسهم الحارث بن عوف، فقال لهم ﷺ: «**كيف البلاد؟**» فقالوا: والله إنا لمسنتون، فادع الله لنا، فقال عليه السلام: «**اللهم اسقهم الغيث**»[3]. ثم أقاموا أياماً ورجعوا بالجائزة فوجدوا بلادهم قد أمطرت في ذلك اليوم الذي دعا لهم فيه رسول الله ﷺ.

وقدم عليه ـ زاده الله شرفاً لديه ـ وفد خولان[4]، في شعبان سنة عشر، وكانوا عشرة، فقالوا: يا رسول الله، نحن مؤمنون بالله مصدقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، وركبنا حزون الأرض وسهولها، والمنة لله ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك. فقال ﷺ: «**أما ما ذكرتم من مسيركم إلي فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة، وأما قولكم زائرين لك، فإنه من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة**».

ثم قال ﷺ: «**ما فعل صنم خولان الذي كانوا يعبدونه؟**» قالوا: بدلنا الله به ما جئت به، إلا أن عجوزاً وشيخاً كبيرين يتمسكان به، وإن قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله تعالى.

ثم علمهم ﷺ فرائض الدين، وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار، وأن لا يظلموا أحداً، ثم أجازهم ورجعوا إلى قومهم، وهدموا الصنم.

وقدم عليه ﷺ وفد محارب[5] عام حجة الوداع، وكانوا أغلظ العرب وأفظهم عليه أيام عرضه على القبائل يدعوهم إلى الله، فجاءه ﷺ منهم عشرة فأسلموا، ثم انصرفوا إلى أهليهم.

وقدم عليه ﷺ وفد صداء[6] في سنة ثمان، وذلك أنه لما انصرف من الجعرانة بعث

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٤٩ والمنتظم ٣/ ٣٥٥.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٢٧ والبداية والنهاية ٥/ ٨٠.

(٣) ذكره أبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٠) وابن سعد في طبقاته ١/ ٢٢٧. وابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٨٠.

(٤) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٤٥. وفي البداية والنهاية ٥/ ٨٤. والمنتظم ٤/ ٣. وتاريخ الطبري ٣/ ١٤٠.

(٥) انظر المنتظم ٣/ ٣٨١ والبداية والنهاية ٥/ ٨٠ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٢٧ والكامل لابن الأثير ٢/ ١٦٦.

(٦) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٤٧.

قيس بن سعد بن عبادة في أربعمائة، وأمره أن يطأ ناحية من اليمن فيها صداء، فقدم رجل منهم علم بالبعث على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله اردد الجيش، وأنا لك بقومي، فرد قيساً.

ورجع الصدائي إلى قومه فقدم على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً منهم، فبايعوه على الإسلام ورجعوا إلى قومهم ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع. ذكره الواقدي.

وذكر من حديث زياد بن الحارث الصدائي أنه الذي قدم على رسول الله ﷺ فقال له: اردد الجيش، وقال: كان زياد هذا معه ﷺ في بعض أسفاره وأنه ﷺ قال له: «**يا أخا صداء هل معك ماء؟**» قلت: معي شيء في إداوتي، فقال: «**صبه**»، فصببته في قعب ثم وضع عليه الصلاة والسلام كفه فيه فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه عيناً تفور.

وقدم عليه ﷺ وفد غسان[1]، في شهر رمضان سنة عشر، وكانوا ثلاثة نفر، فأسلموا وأجازهم ﷺ بجوائز، وانصرفوا راجعين.

وقدم عليه ﷺ وفد سلامان[2] في شوال سنة عشر، كما قال الواقدي، وكانوا سبعة نفر، فيهم حبيب بن عمرو، فأسلموا وشكوا إليه جدب بلادهم فدعا لهم ثم ودعوه وأمر لهم بالجوائز، ورجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت في اليوم الذي دعا لهم فيه رسول الله ﷺ تلك الساعة.

وقدم عليه ﷺ وفد بني عبس[3]، فقالوا: يا رسول الله، قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواش، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا، فقال ﷺ: «**اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئاً**»[4].

وقدم عليه وفد غامد[5] سنة عشر، وكانوا عشرة، فأقروا بالإسلام وكتب لهم كتاباً فيه شرائع الإسلام، وأمر أبي بن كعب فعلمهم قرآناً، وأجازهم ﷺ وانصرفوا.

وقدم عليه وفد الأزد[6]، ذكر أبو نعيم في كتاب معرفة الصحابة، وأبو موسى

(١) انظر المنتظم ٣/ ٣٨٢ وتاريخ الطبري ٣/ ١٣٠ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٥٥ والكامل لابن الأثير ٢/ ١٦٣.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٥١ والمنتظم ٣/ ٣٨٠ والكامل لابن الأثير ٢/ ١٦٣.

(٣) انظر الطبقات لابن سعد ١/ ٢٢٥ والبداية والنهاية ٥/ ٧٩ والكامل لابن الأثير ٢/ ١٦٦.

(٤) ذكره ابن سعد في طبقاته عن أبي هريرة ١/ ٢٢٦.

(٥) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٠.

(٦) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٥٤ والكامل لابن الأثير ٢/ ١٦٣ والمنتظم ٣/ ٣٨١ وتاريخ الطبري=

المديني[1]، من حديث أحمد بن أبي الحواري[2]، قال: سمعت أبا سليمان الداراني[3] قال: حدثني علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي قال: حدثني أبي عن جدي قال:

وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله ﷺ فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه ما رأى من سمتنا فقال: «**ما أنتم**» قلنا مؤمنون فتبسم ﷺ وقال: «**إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم**»؟ قلنا: خمس عشرة خصلة، خمس منها أمرتنا رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا أن نعمل بها، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً، فقال ﷺ: «**ما الخمس التي أمرتكم بها رسلي؟**».

قلنا: أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: «**وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟**».

قلنا: أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلاً. قال: «**وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية؟**».

قلنا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء.

فقال ﷺ: «**حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء**»، ثم قال: «**وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة، إن كنتم كما تقولون، فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً زائلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون، وفيه تخلدون**»[1]. **فانصرفوا وقد حفظوا وصيته ﷺ وعملوا بها.**

---

= ٣/ ١٣٠ والبداية والنهاية ٥/ ٨٤.

(١) هو محمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن محمد الأصبهاني المديني أبو موسى (٥٠١ ـ ٥٨١ هـ). حافظ توفي في أصبهان. الأعلام ٦/ ٣١٣ وفيات الأعيان ١/ ٤٨٦ طبقات الشافعية ٤/ ٩٠ تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٣٤ رقم الترجمة (١٠٩٥) وشذرات الذهب ٤/ ٢٧٣ مرآة الجنان ٣/ ٤٢٣ والوافي بالوفيات ٤/ ٢٤٦.

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن ميمون ويعرف بأحمد ابن أبي الحواري أبو الحسن ـ زاهد محدث صوفي ـ توفي سنة (٢٤٦ هـ). شذرات الذهب ٢/ ١١٠.

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي أبو سليمان الداراني. زاهد. مات في داريا سنة (٢١٥ هـ). الأعلام ٣/ ٢٩٤. وفيات الأعيان ١/ ٢٨٦. حلية الأولياء ٩/ ٢٥٤ رقم الترجمة (٤٤٨). تاريخ بغداد ١٠/ ٢٤٨.

(٤) ذكره ابن كثير في البداية ٥/ ٨٤ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٩/ ٦٤٩ وفي كنز العمال (١٣٦٣).

وقدم عليه ﷺ وفد بني المنتفق. روى عبد الله، ابن الإمام أحمد في مسند أبيه عن دلهم بن الأسود عن عاصم بن لقيط، أن لقيط بن عامر بن صبرة بن عبد الله بن المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، أبا رزين العقيلي، المعدود في أهل الطائف، خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ ومعه صاحب له يقال له نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق، فوافيناه ﷺ حين انصرف من صلاة الغداة، فقام في الناس خطيباً فقال: «**يا أيها الناس، ألا إني قد خبأت لكم صوتي منذ أربعة أيام لتسمعوا اليوم، ألا فهل من امرىء بعثه قومه**» فقالوا له: اعلم لنا ما يقول رسول الله ﷺ، ألا ثم لعله يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه، ألا وإني مسؤول هل بلغت، ألا اسمعوا تعيشوا... الحديث. وفيه ذكر البعث والنشور والجنة والنار، وفيه: ثم قلت: يا رسول الله، علامَ أبايعك؟ فبسط ﷺ يده وقال: «**على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن لا تشرك بالله شيئاً**»[1].

وقدم عليه ﷺ وفد النخع[2]، وهم آخر الوفود قدوماً عليه. وكان قدومهم في نصف المحرم سنة إحدى عشرة، في مائتي رجل، فنزلوا دار الأضياف، ثم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل.

فقال رجل منهم، يقال له زرارة بن عمرو، يا رسول الله إني رأيت في سفري هذا عجباً، قال: «**وما رأيت؟**» قال: رأيت أتانا تركتها كأنها ولدت جدياً أسفع أحوى، فقال له رسول الله ﷺ: «**هل تركت لك مصرة على حمل؟**» قال: نعم، قال: «**فإنها قد ولدت غلاماً وهو ابنك**»، قال يا رسول الله: ما باله أسفع أحوى؟ قال: «**ادن مني**»، فدنا منه، قال: هل بك من برص تكتمه؟ قال: والذي بعثك بالحق نبياً ما علم به أحد، ولا اطلع عليه غيرك، قال: «**فهو ذلك**».

قال: يا رسول الله، ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان مدلجيان ومسكتان. قال: «**ذلك مُلْك العرب رجع إلى أحسن زيه وبهجته**».

قال: يا رسول الله، ورأيت عجوزاً شمطاء، خرجت من الأرض. قال: «**تلك بقية الدنيا**».

قال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال لي عمرو، قال رسول الله ﷺ: «**تلك فتنة تكون في آخر الزمان**». قال: يا رسول الله، وما الفتنة؟ قال:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ١٣ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٥٦١ و٢٨٦ وفي السنة لابن أبي عاصم ١/ ٢٨٦ وفي البداية والنهاية ٥/ ٧٢.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٠.

«**يقتل الناس إمامهم**» - وخالف رسول الله ﷺ بين أصابعه - «**يحسب المسيء فيها أنه محسن، ويكون دم المؤمن عند المؤمن أحلى من شرب الماء، إن مات ابنك أدركت الفتنة، وإن مت أدركها ابنك**».

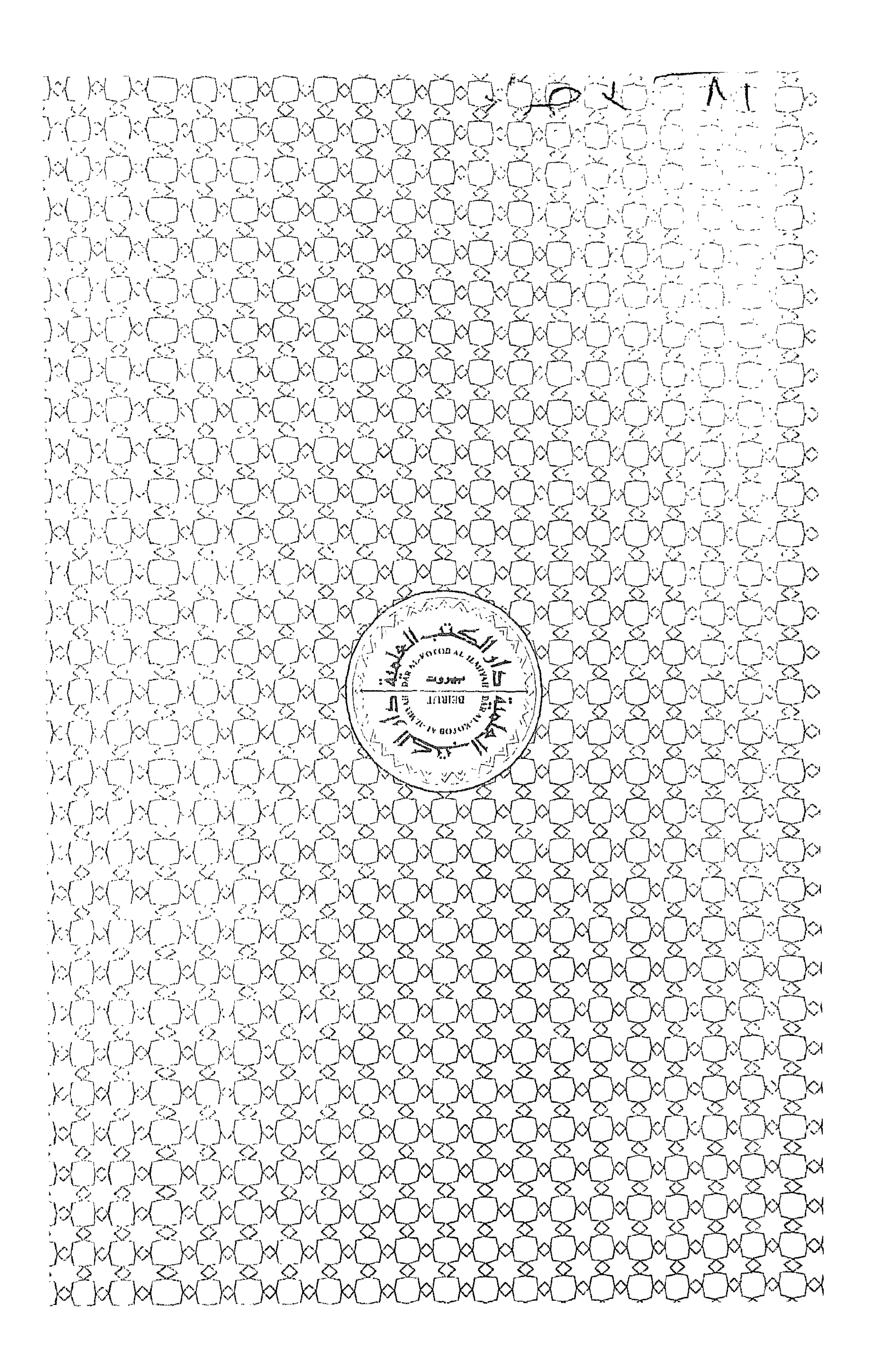
قال: يا رسول الله ادع الله أن لا أدركها، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم لا يدركها**». فمات فبقي ابنه فكان ممن خلع عثمان بن عفان رضي الله عنه[1]. انتهى ملخصاً من الهدي النبوي، والله الموفق وسيأتي هذا إن شاء الله تعالى في تعبيره ﷺ الرؤيا من المقصد الثامن.

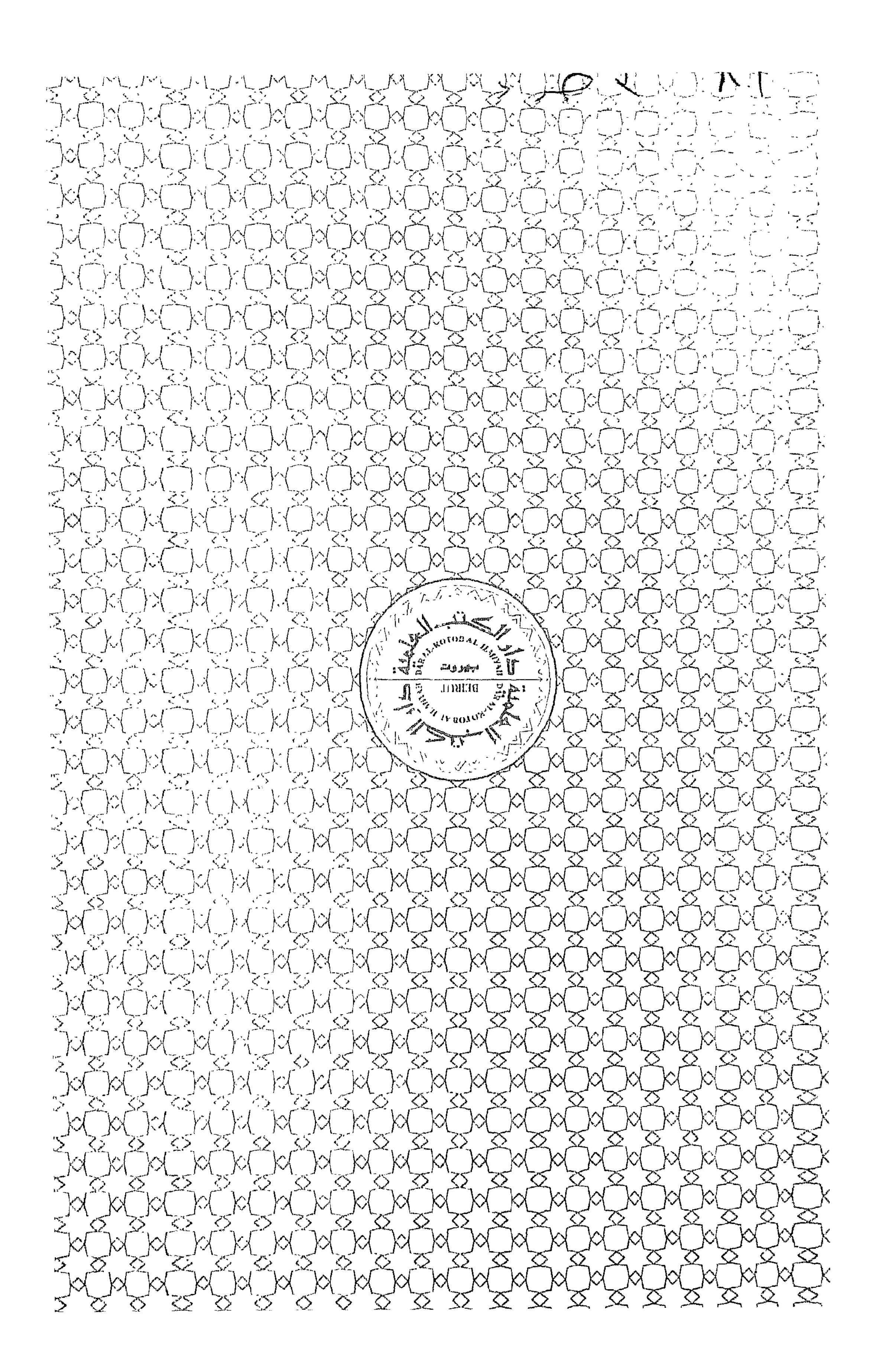
---

(١) ذكره ابن سعد في طبقاته ٥/٣٨٨.

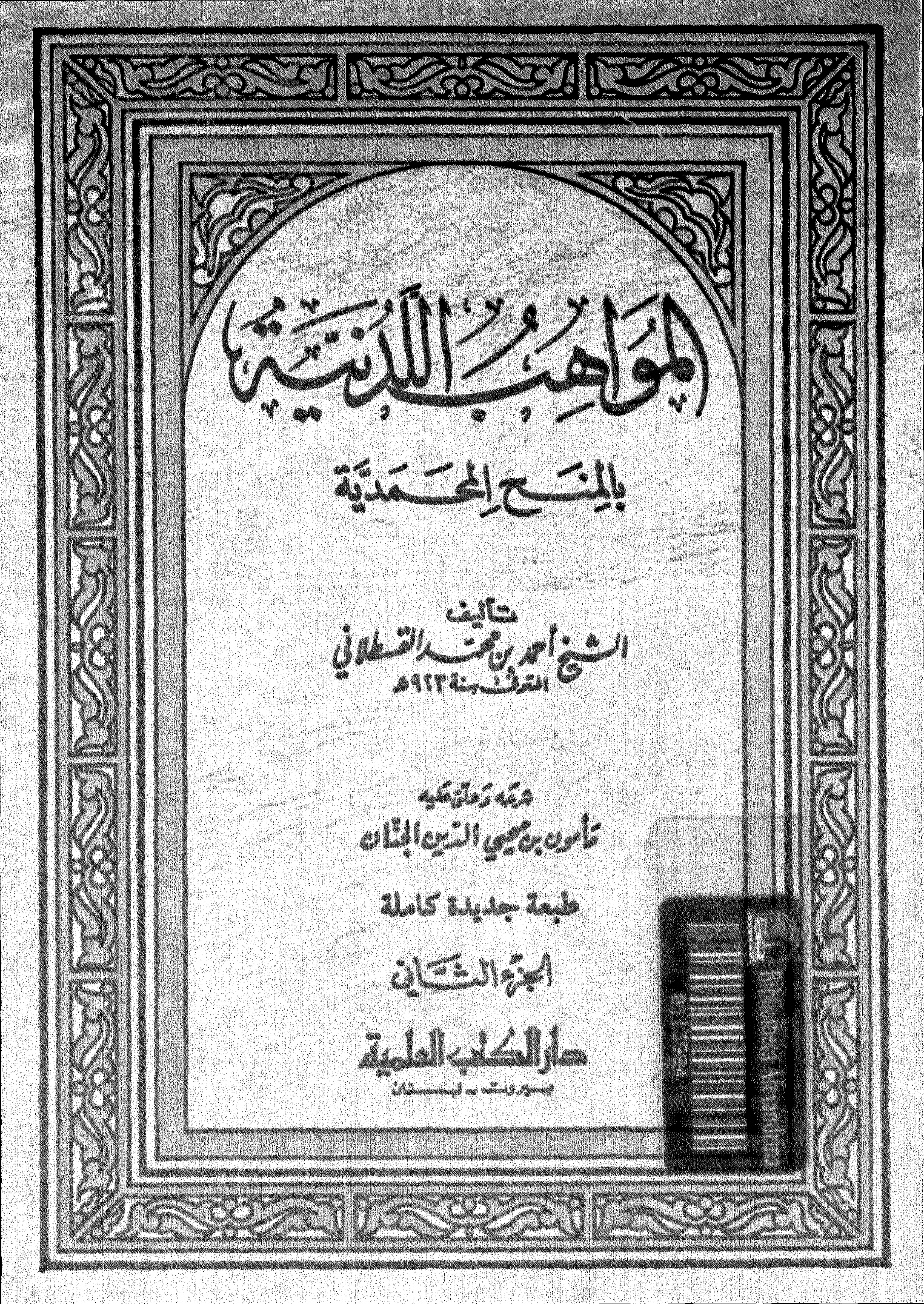
# فهرس محتويات
# الجزء الأول
# من المواهب اللدنية

# فهرس المحتويات









# المواهب اللدنية

## بالمنح المحمدية

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القسطلاني
المتوفى سنة ٩٢٣هـ

ضبطه وعلق عليه
مأمون بن محيي الدين الجنان

طبعة جديدة كاملة

الجزء الثاني


دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

# المواهب اللدنية

## بالمنح المحمدية

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد القسطلاني

المتوفى سنة ٩٢٣هـ

شرحه وعلق عليه

مأمون بن محيي الدين الجنان

طبعة جديدة كاملة

الجزء الثاني


دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

# المقصد الثالث

وفيه أربعة فصول

- فيما فضله الله تعالى به من كمال خلقته وجمال صورته
- وكرمه تعالى به من الأخلاق الزكية وشرفه به من الأوصاف المرضية
- وما تدعو ضرورة حياته إليه ﷺ

# في كمال خلقته وجمال صورته[1] صلى الله عليه وسلم وشرفه وكرمه

اعلم أن من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله تعالى جعل خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمي مثله، فيكون ما يشاهد من خلق بدنه آيات على ما يتضح لك من عظيم خلق نفسه الكريمة، وما يتضح من عظيم أخلاق نفسه آيات على ما تحقق له من سر قلبه المقدس، ولله در الأبوصيري حيث قال:

فهو الذي تم معناه وصورته ... ثم اصطفاه حبيباً بارىء النسم
منزه عن شريك في محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم

يعني: حقيقة الحسن الكامل كائنة فيه، لأنه الذي تم معناه دون غيره، وهي غير منقسمة بينه وبين غيره، وإلا لما كان حسنه تاماً، لأنه إذا انقسم لم ينله إلا بعضه فلا يكون تاماً.

وفي الأثر: أن خالد بن الوليد خرج في سرية من السرايا، فنزل ببعض الأحياء فقال له سيد ذلك الحي: صف لنا محمداً فقال: أما إني أفصل فلا، فقال الرجل: أجمل، فقال: الرسول على قدر المرسل، ذكره ابن المنير في أسرار الإسرار.

فمن ذا الذي يصل قدره أن يقدر قدر الرسول، أو يبلغ من الإطلاع على مأثور أحواله المأمول والمسؤول؟!

وقد حكى القرطبي - في كتاب الصلاة - عن بعضهم أنه قال: لم يظهر لنا تمام حسنه ﷺ، لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته ﷺ. ولقد أحسن الأبوصيري أيضاً حيث قال:

أعيى الورى فهم معناه فليس يرى ... للقرب والبعد فيه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد ... صغيرة وتكل الطرف من أمم

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٣١٥ والبداية والنهاية ٦/ ١٣ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٠١.

وهذا مثل قوله أيضاً:

إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء

وأشار بقوله «تظهر» إلى وجه التشبيه بالشمس لا مطلقاً، ولقد بين عيب التشبيه بها على الإطلاق أبو النواس[1] حيث قال:

تتيه الشمس والقمر المنير ... إذا قلنا كأنهما الأمير

لأن الشمس تغرب حين تمسي ... وأن البدر ينقصه المسير

وهذه التشبيهات الواردة في حقه ﷺ إنما هي على سبيل التقريب والتمثيل، وإلا فذاته أعلى ومجده أغلى.

فأما رأسه[2] الشريف المقدس فحسبك ما ذكره الترمذي في جامعه بسنده إلى هند بن أبي هالة قال: كان رسول الله ﷺ عظيم الهامة.

وقال نافع بن جبير: وصف لنا علي رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال: كان عظيم الهامة.

وأما وجهه الشريف[3] فحسبك ما روى الشيخان من حديث البراء قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً، ليس بالطويل الذاهب، ولا بالقصير البائن[4].

وعن أبي هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه[5] رواه الترمذي والبيهقي وأحمد وابن حبان.

قال الطيبي: شبه جريان الشمس في فلكها بجريان الحسن في وجه ﷺ، قال: ويحتمل أن يكون من تناهي التشبيه جعل وجهه مقراً ومكاناً للشمس ولله در القائل:

لم لا يضيء بك الوجود وليله ... فيه صباح من جمالك مسفر

---

(١) هو الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء أبو نواس (١٤٦ ـ ١٩٨ هـ) شاعر توفي ببغداد. الأعلام ٢/ ٢٢٥ تهذيب ابن عساكر ٤/ ٢٥٤ خزانة الأدب ١/ ١٦٨ وفيات الأعيان ١/ ١٣٥ تاريخ بغداد ٧/ ٤٣٦ والشعر والشعراء ٣١٣.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢١٦ وطبقات ابن سعد ١/ ٣١٥.

(٣) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٧ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٩٤ وطبقات ابن سعد ١/ ٣١٥.

(٤) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٤٩).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٣٨٠ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٠٩ والترمذي كتاب المناقب باب (١٢) رقم الحديث (٣٦٤٨).

فبشمس حسنك كل يوم مشرق    وببدر وجهك كل ليل مقمر

وفي البخاري: سئل البراء: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل القمر[1].

وكأن السائل أراد مثل السيف في الطول، فرد عليه البراء فقال: بل مثل القمر، أي في التدوير، ويحتمل أن يكون أراد مثل السيف في اللمعان والصقالة، فقال: بل فوق ذلك، وعدل إلى القمر لجمعه الصفتين من التدوير واللمعان.

وقال الحافظ النسابة أبو الخطاب بن دحية رحمه الله تعالى في كتابه «التنوير في مولد البشير النذير»[2] ﷺ وشرف وعظم وكرم، عند إيراد حديث البراء المذكور ما لفظه: ففي هذا الحديث من العلم أن التشبيه ممن لا يحسنه لا يصلح الإقرار عليه، لأن السائل شبه وجه رسول الله ﷺ بالسيف، ولو شبهه بالشمس لكان أولى، فرد عليه البراء قوله وقال: بل مثل القمر، وأبدع في تشبيهه، لأن القمر يملأ الأرض بنوره، ويؤنس كل من يشاهده، ونوره من غير حر يفزع، ولا كلل ينزع، والناظر إلى القمر متمكن من النظر بخلاف الشمس التي تغشي البصر وتجلب للناظر الضرر. انتهى.

وفي رواية مسلم من حديث جابر بن سمرة، وقال له رجل أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر وكان مستديراً[3].

وإنما قال: مستديراً للتنبيه على أنه جمع الصفتين، لأن قوله: مثل السيف يحتمل أن يريد به الطول، ويحتمل أن يريد به اللمعان كما تقدمت إليه الإشارة فيما سبق من العبارة، فرده المسؤول رداً بليغاً، ولما جرى التعارف به من أن التشبيه بالشمس إنما يراد به غالباً الإشراق، وبالقمر إنما يراد به الملاحة دون غيرهما، فقوله وكان مستديراً، أشار به إلى أنه أراد به التشبيه بالصفتين معاً: الحسن والاستدارة.

وقال المحاربي عن أشعث عن أبي إسحاق عن جابر بن سمرة.

---

(1) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٥٢) وفي الترمذي كتاب المناقب أيضاً باب (٨) رقم الحديث (٣٦٣٦) وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٩٥ والدارمي في المقدمة. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٢٨١ و٥/ ١٠٤.

(2) وقع في كشف الظنون ١/ ٥٠٢ التنوير في مولد السراج المنير لأبي الخطاب المعروف بابن دحية الكلبي المتوفي سنة (٦٣٣ هـ).

(3) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٥٢). والترمذي كتاب المناقب باب (٨) رقم الحديث (٣٦٣٦) وأحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٢٨١ و٥/ ١٠٤ والبداية والنهاية ٦/ ١٤ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٩٥.

أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضحيان وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو كان أحسن في عيني من القمر، وفي رواية: بعد قوله حمراء: فجعلت أماثل بينه وبين القمر.

وروى الترمذي والبيهقي عن علي أنه نعته ﷺ فقال: لم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم، كان في وجهه تدوير[1]. والمكلثم: المدور الوجه، أي لم يكن شديد تدوير الوجه بل في وجهه تدوير قليل.

وفي حديث علي عند أبي عبيد في الغرائب: وكان في وجهه تدوير قليل، قال أبو عبيد في شرحه: يريد أنه ما كان في غاية التدوير، بل كان فيه سهولة وهي أحلى عند العرب.

وفي حديث أبي هريرة عند الذهلي[2] في الزهريات في صفته ﷺ: كان أسيل الخدين. قال ابن الأثير: الأسالة في الخد: الإستطالة وأن لا يكون مرتفع الوجنة. قال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: ولعل هذا هو الحامل لمن سأله أكان وجهه مثل السيف.

وأخرج البخاري عن كعب بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه[3]. أي الموضع الذي يتبين فيه السرور وهو جبينه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: دخل النبي ﷺ يوماً مسروراً تبرق أسارير وجهه[4]. ولذلك قال كعب كأنه قطعة قمر. وفي حديث جبير بن مطعم عند الطبراني: التفت إلينا رسول الله ﷺ بوجه مثل شقة القمر، فهذا محمول على صفته عند الالتفات.

وقد أخرج الطبراني حديث كعب بن مالك من طرق في بعضها: كأنه دارة قمر.

ويسأل عن السر في التقييد بالقطعة مع كثرة ما ورد في كثير من كلام البلغاء من تشبيه الوجه بالقمر بغير تقييد. وقد كان كعب بن مالك قائل هذا من شعراء الصحابة، فلا بد من التقييد بذلك من حكمة، وما قيل في أن ذلك من الاحتراز من السواد الذي في القمر ليس بقوي، لأن المراد بتشبيهه ما في القمر من الضياء والاستنارة وهو في تمامه لا يكون فيها

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب (٨) رقم الحديث (٣٦٣٨).

(٢) هو محمد بن يحيى بن عبد الله الذهلي مولاهم النيسابوري أبو عبد الله (١٧٢ ـ ٢٥٨ هـ) من حفاظ الحديث. الأعلام ٧/ ١٣٥ تاريخ بغداد ٣/ ٤١٥ تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٣٠ رقم الترجمة (٥٤٩).

(٣) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٥٦ ـ ٤٤١٨) وفي البداية والنهاية ٦/ ١٤ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٩٧.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الفرائض باب (٣١) رقم الحديث (٦٧٧٠ ـ ٣٥٥٥ ـ ٣٧٣١ ـ ٦٧٧١) وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٩٨.

أقل مما في القطعة المجردة، فكأن التشبيه وقع على بعض الوجه فناسب أن يشبه ببعض القمر.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: كان وجه رسول الله ﷺ كدارة القمر[1]، أخرجه أبو نعيم.

وروى البيهقي عن أبي إسحاق الهمداني عن امرأة من همدان ـ سماها ـ قالت: حججت مع النبي ﷺ مرات فرأيته على بعير له يطوف بالكعبة بيده محجن عليه بردان أحمران يكاد يمس شعره منكبه إذا مر بالحجر استلمه بالمحجن ثم يرفعه إلى فمه فيقبله. قال أبو إسحاق: فقلت لها شبهيه قالت: كالقمر ليلة البدر، لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ[2].

وروى الدارمي والبيهقي وأبو نعيم والطبراني عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: قلت للربيع بنت معوذ صفي لي رسول الله ﷺ، قالت: لو رأيته لقلت: الشمس طالعة[3]، وفي لفظ: يا بني لو رأيته رأيت الشمس طالعة.

وروى مسلم عن أبي الطفيل أنه قيل له: صف لنا رسول الله ﷺ فقال: كان أبيض مليح الوجه[4].

وفيما أخرجه الترمذي من حديث هند بن أبي هالة: كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر[5].

وقالت أم معبد حين وصفته لزوجها: متبلج الوجه، يعني: مشرقه مضيئه، ومنه تبلج الصبح إذا أسفر، وما أحسن قول سيدي علي بن وفا حيث قال:

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٨٥٢٦) وفي الجامع الكبير ٢/٣٠١.

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ١/١٩٩. وابن كثير في البداية والنهاية ٦/١٧.

(٣) أخرجه الدارمي في المقدمة رقم الحديث (١٠). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/٢٨٠. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٩٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل رقم الحديث (٩٨). وفي سنن أبي داود كتاب الأدب باب (٣٠) رقم الحديث (٤٨٦٤). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/٤٥٤. وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/٢٠٥. والبداية والنهاية ٦/١٦. وفي طبقات ابن سعد ١/٣٢١.

(٥) ذكره البغوي في شرح السنة ٣/٢٧٠ وطبقات ابن سعد ١/٣٢٤ ومجمع الزوائد للهيثمي ٨/٢٧٣ وفي الشمائل للترمذي ٩ ـ ١٩ ـ ١٦٥ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/٢٨٦ والبداية والنهاية ٦/٣٣ وكنز العمال (١٧٨٠٧). وفي دلائل النبوة لأبي نعيم صفحة ٥٥١ مختصر تاريخ دمشق ١/٣٢٩ تاريخ الإسلام للذهبي ٢/٣١١ وفي كتاب شمائل الرسول لابن كثير صفحة (٥٠) والخصائص الكبرى للسيوطي ١/٧٦ عيون الأثر ٢/٤٠٥.

ألا يـا صـاحـب الـوجـه المليـح سـألتـك لا تغيـب عني فـأنـت روحـي
متى مـا غـاب شخصـك عـن عيـانـي رجعـت فـلا تـرى إلا ضـريحـي
بحقـك جـد لـرقـك يـا حبيبـي وداو لـوعـة القلـب الجـريـح
ورقّ لمغـرم فـي الحـب أمسـى وأصبـح بـالهـوى دنفـاً طـريـح
محـب ضـاق بـالأشـواق ذرعـاً وآوى منـك للكـرم الفسيـح

وفي النهاية: أنه عليه السلام كان إذا سر فكأن وجهه المرآة، وكأن الجدر تلاحك وجهه. قال: الملاحكة، شدة الملاءمة، أي يرى شخص الجدر في وجهه صلى الله عليه وسلم. وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر. وذلك: لأن القمر يملأ الأرض بنوره ويؤنس كل من شاهده، وهو يجمع النور من غير أذى ويتمكن من النظر إليه بخلاف الشمس التي تغشي البصر فتمنع من تمكن الرؤية، والتشبيه بالبدر أبلغ في العرف من التشبيه بالقمر، لأنه وقت كماله، كما قال الفاروق رضي الله عنه حين رآه أو كلما رآه:

لـو كنـت مـن شـيء سـوى بشـر كنـت المنـور ليلـة البـدر

وقد صادف هذا التشبيه تحقيقاً، فمن أسمائه ﷺ: البدر. ولهذا أنشدوا لما قدم المدينة:

طلـع البـدر علينـا مـن ثنيـات الـوداع

ولقد أحسن من قال:

كـالبـدر والكـاف إن أنصفـت زائـدة فيـه فـلا تظننهـا كـافـاً لتشبيـه

وما أحلى قول ابن الحلاوي:

يقـولـون يحكي البدر في الحسن وجهـه وبـدر الـدجـى عـن ذلـك الحسـن ينحـط
كمـا شبهـوا غصـن النقـا بقـوامـه لقـد بالغوا فـي المـدح للغصـن واشتطـوا

فقد حصل للبدر والغصن غاية من الفخر بهذا التشبيه، على أن هذه التشبيهات الواردة في صفاته ﷺ إنما هي على عادة الشعراء والعرب، وإلا فلا شيء في هذه التشبيهات المحدثات يعادل صفاته الخُلقية والخلقية، ولله در إمام العارفين سيدي محمد وفا الشاذلي المالكي [1] حيث قال:

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد السكندري أبو الفضل أو أبو الفتح المعروف بالسيد محمد وفا الشاذلي (٧٠٢ ـ ٧٦٥ هـ) رأس الوفائية بمصر مالكي المذهب. توفي بالقاهرة. الأعلام ٧/ ٣٧ شذرات =

| | |
|---|---|
| كم فيه للأبصار حسن مدهش | كم فيه للأرواح راح مسكر |
| سبحان من أنشاه من سبحاته | بشراً بأسرار الغيوب يبشر |
| قاسوه جهلا بالغزال تغزلاً | هيهات يشبهه الغزال الأحور |
| هذا وحقك ما له من مشبه | وأرى المشبه بالغزالة يكفر |
| يأتي عظيم الذنب في تشبيهه | لولا لرب جماله يستغفر |
| فخر الملاح بحسنهم وجمالهم | وبحسنه كل المحاسن تفخر |
| فجماله مجلى لكل جميلة | وله منار كل وجه نير |
| جنات عدن في جنى وجناته | ودليله أن المراشف كوثر |
| هيهات ألهو عن هواه بغيره | والغير في حشر الأجانب يحشر |
| كتب الغرام علي في أسفاره | كتباً تؤول بالهوى وتفسر |
| فدع الدعي وما ادعاه في الهوى | فدعيه بالهجر فيه يهجر |
| وعليك بالعلم العليم فإنه | لخطيبه في كل خطب منبر |

وأما بصره الشريف[1] ﷺ فقد وصفه الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يرى بالليل في الظلمة كما يرى في النهار في الضوء[2]. رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يرى في الظلماء كما يرى في الضوء[3]. رواه البيهقي.

وعن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «هل ترون قبلتي ها هنا، فوالله ما يخفى علي ركوعكم ولا سجودكم، إني لأراكم من وراء ظهري»[4]. رواه البخاري ومسلم.

وعند مسلم من رواية أنس أنه ﷺ قال: «أيها الناس، إني أمامكم فلا تسبقوني

---

= الذهب ٦/ ٢٠٦ والدرر الكامنة ٤/ ٢٧٩ رقم الترجمة (٧٨٣).

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢١٠ والبداية والنهاية ٦/ ١٧.

(٢) قال الزرقاني في الشرح: «لم أجده في البخاري» وهو في الدلائل للبيهقي ٦/ ٧٥.

(٣) ذكره أيضاً البيهقي في الدلائل ٦/ ٧٥.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب (٤٠) رقم الحديث (٤١٨ و٧٤١) وهو عند مسلم كتاب الصلاة رقم الحديث (١٠٩) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/ ٣٠٣ ـ ٣٦٥ ـ ٣٧٥ وفي مسند أبي عوانة (١٣٨) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٧٣ وفي الدر المنثور ٥/ ٩٨ وشرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٨٩ وفي كنز العمال (٢٠٤٨١ ـ ٣١٦٩٢). وفي مسند الحميدي ٢/ ٤٢٧ رقم الحديث (٩٦١).

بالركوع ولا بالسجود، فإني أراكم من أمامي ومن خلفي»[1].

وعن مجاهد: في قوله تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين﴾ [الشعراء: ٢١٨ ـ ٢١٩] قال: كان ﷺ يرى من خلفه من الصفوف، كما يرى من بين يديه[2]، رواه الحميدي في مسنده، وابن المنذر في تفسيره.

وهذه الرؤية رؤية إدراك: والرؤية لا تتوقف على وجود آلتها التي هي العين ـ عند أهل الحق ـ ولا شعاع ولا مقابلة، وهذا بالنسبة إلى القديم العالي، أما المخلوق فتتوقف صفة الرؤية في حقه على الحاسة والشعاع والمقابلة بالاتفاق، ولهذا كان خرق عادة في حقه ﷺ، وخالق البصر في العين قادر على خلقه في غيرها.

قال الحرالي[3]: وهذه الآية قد جعلها الله تعالى دالة على ما في حقيقة أمره في الاطلاع الباطن لسعة علمه، ومعرفته لما عرف بربه لا بنفسه أطلعه الله على ما بين يديه مما تقدم من أمر الله، وعلى ما وراء الوقت مما تأخر من أمر الله، فلما كان على ذلك من الإحاطة في إدراك مدركات القلوب جعل الله تعالى له ﷺ مثل ذلك في مدركات العيون، فكان يرى المحسوسات من وراء ظهره كما يراها من بين يديه كما قال ﷺ. انتهى.

ومن الغريب ما ذكره الزاهدي بختيار محب بن محمود[4]، شارح القدوري في رسالته الناصرية أنه ﷺ كان له بين كتفيه عينان كسم الخياط يبصر بهما، ولا تحجبهما الثياب؟؟؟[5].

وقيل: بل كانت صورهم تنطبع في حائط قبلته كما تنطبع في المرآة أمثلتهم فيها، فيشاهد أفعالهم وهذا إن كان نقلاً عن الشارع عليه السلام بطريق صحيح فمقبول وإلا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة رقم الحديث (١١٢) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٩٢ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٣٢٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١١٣٧) وفي صحيح ابن خزيمة (٩٥٨٧) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٧٤ وفي كنز العمال (٢٠٤٩٥).

(٢) انظر تفسير البغوي ٣/ ٣٤٣ وفي مسند الحميدي ٢/ ٤٢٧ رقم الحديث (٩٦٢) وفي الدر المنثور ٥/ ٩٨.

(٣) هو علي بن أحمد بن الحسن الحرالي التجيبي أبو الحسن. مفسر من علماء المغرب. توفي في حماه (سورية) سنة (٦٣٨ هـ). الأعلام ٤/ ٢٥٦ نفح الطيب ١/ ٤١٧ ميزان الإعتدال ٢/ ٢١٨ لسان الميزان ٤/ ٢٠٤ طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٩٢ رقم الترجمة (٣٣٨).

(٤) هو مختار بن محمود بن محمد أبو الرجا نجم الدين الزاهدي الغزميني. فقيه حنفي. توفي سنة (٦٥٨ هـ). الأعلام ٧/ ١٩٣ الفوائد البهية ٢١٢ كشف الظنون ١/ ٦٢٨.

(٥) انظر فتح الباري ١/ ٦٧٧.

فليس المقام مقام رأي، على أن الأقعد في إثبات كونه معجزة حملها على الإدراك من غير آلة والله أعلم.

وقد ذهب بعضهم إلى أن هذه الرؤية رؤية قلبه الشريف. وعن بعضهم: المراد بها العلم إما بأن يوحي الله إليه كيفية فعلهم، وإما بأن يلهم، والصحيح والصواب ما تقدم. وقد استشكل على قول من يقول: إن المراد بذلك العلم، ما ذكره ابن الجوزي في بعض كتبه بغير إسناد أنه ﷺ قال: «إني لا أعلم ما وراء جداري هذا» فإن صح فالمراد منه نفي العلم بالمغيبات، فكيف يجتمعان؟

وأجيب: بأن الأحاديث الأُوَل ظاهرها ينطق باختصاص ذلك بحالة الصلاة، ويحمل المطلق منها على المقيد. وأما إذا ذهبنا إلى الإدراك بالبصر ـ وهو الصواب ـ فلا إشكال، لأن نفي العلم هنا عن الغيب وذاك عن مشاهدة.

وفي «المقاصد الحسنة» للحافظ شمس الدين السخاوي حديث: «ما أعلم ما خلف جداري هذا»[1] قال شيخنا ـ يعني شيخ الإسلام ابن حَجر ـ: لا أصل له. قلت: ولكنه قال في تلخيص تخريج أحاديث الرافعي عند قوله في الخصائص: «ويرى من وراء ظهره كما يرى من قدامه». هو في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس وغيره، والأحاديث الواردة في ذلك مقيدة بحالة الصلاة وبذلك يجمع بينه وبين قوله: لا أعلم ما وراء جداري هذا. انتهى.

قال شيخنا، وهذا مشعر بوروده، وعلى تقدير وروده لا تنافي بينهما لعدم تواردهما على محل واحد. انتهى.

قال شيخنا، وهذا مشعر بوروده، وعلى تقدير وروده لا تنافي بينهما لعدم تواردهما على محل واحد.

فإن قيل: يشكل على هذا ـ أيضاً ـ إخباره ﷺ بكثير من المغيبات التي في زمانه وبعده، ووقعت كما أخبر صلى الله عليه وسلم.

فالجواب: إن نفي العلم في هذا ورد على أصل الوضع، وهو أن علم الغيب مختص بالله تعالى، وما وقع منه على لسان نبيه ﷺ وغيره فمن الله تعالى، إما بوحي أو إلهام، ويدل على ذلك الحديث الذي فيه: أنه لما ضلت ناقته ﷺ تكلم بعض المنافقين وقال: إن محمداً يزعم أنه يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال ﷺ لما

---

(١) ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات ٨٧ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٢٥٠ وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري (٣٠٠).

بلغه ذلك: «والله إني لا أعلم إلا ما علمني ربي، وقد، دلني ربي عليها وهي في موضع كذا وكذا» حبستها شجرة بخطامها فذهبوا فوجدوها كما أخبر صلى الله عليه وسلم.

فصح أنه لا يعلم ما وراء جداره ولا غيره إلا ما علمه ربه تبارك وتعالى.

وذكر القاضي عياض ـ في الشفاء ـ أنه ﷺ كان يرى في الثريا أحد عشر نجماً، وعند السهيلي، اثني عشر.

وفي حديث ابن أبي هالة: وإذا التفت التفت جميعاً[1] خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء جل نظره الملاحظة.

وهي مفاعلة من اللحظ: وهو النظر بشق العين الذي يلي الصدغ، وأما الذي يلي الأنف فالموق والماق. وقوله: إذا التفت التفت جميعاً أراد أنه لا يسارق النظر، وقيل: لا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة إذا نظر إلى الشيء، وإنما يفعل ذلك الطائش الخفيف ولكن كان يقبل جميعاً ويدبر جميعاً. قاله ابن الأثير.

وعن علي قال: كان رسول الله ﷺ عظيم العينين، أهدب الأشفار، مشرب العين بحمرة[2]، رواه البيهقي.

وعن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ ضليع الفم أشكل العينين منهوس القدمين[3]، رواه مسلم.

والشكلة: الحمرة تكون في بياض العين وهو محمود محبوب، وأما الشهلة: فإنها حمرة في سوادها. وهذا هو الصواب: لا ما فسره بعضهم، بأنه طول شق العين.

وعند الترمذي في حديث عن علي، أنه نعت رسول الله ﷺ فقال: كان في وجهه تدوير أبيض مشرب بحمرة، أدعج العينين، أهدب الأشفار[4] الحديث.

والأدعج: الشديد سواد الحدقة.

والأهدب: الطويل الأشفار: وهي شعر العين.

---

(١) انظر [سنن الترمذي (٣٦٤٥) ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٩٧ و١٠٥ والمستدرك للحاكم ٢/ ٦٠٦ ومصنف ابن أبي شيبة ٩/ ١١٤ والشمائل (١١٤) وتهذيب ابن عساكر ١/ ٣٢٢].

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٢١٢.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (٩٧) وفي الترمذي كتاب المناقب باب (١٢) رقم الحديث (٣٦٤٧) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٩٧ ـ ١٠٣.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب (٨) رقم الحديث (٣٦٣٨) وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢١٣.

وعنده ـ أيضاً ـ عن علي قال: كان أسود الحدقة أهدب الأشفار.

وعن علي: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن فقمت لأخطب يوماً على الناس، وحبر من أحبار اليهود واقف بيده سفر ينظر فيه، فلما رآني قال: صف لي أبا القاسم، فقلت: ليس بالطويل البائن ولا بالقصير. الحديث، وفيه: قال علي: ثم سكت، فقال الحبر وماذا: قلت: هذا ما يحضرني، قال الحبر: في عينيه حمرة حسن اللحية، ثم قال علي: هذه والله صفته، قال الحبر: فإني أجد هذه الصفة في سفر آبائي، وإني أشهد أنه نبي وأنه رسول الله إلى الناس كافة. الحديث.

وأما سمعه الشريف فحسبك أنه قال ﷺ «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله تعالى»[1] رواه الترمذي من رواية أبي ذر.

وما رواه أبو نعيم عن حكيم بن حزام، بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ قال لهم: «تسمعون ما أسمع» قالوا: ما نسمع من شيء، قال: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم».

وأما جبينه الكريم[2] ﷺ فقد كان واضح الجبين، مقرون الحاجبين. بهذا وصفه علي، كما عند ابن سعد وابن عساكر فقال: مقرون الحاجبين صلت الجبين[3] أي: واضحه، والقرن: اتصال شعر الحاجبين.

وعند البيهقي عن رجل من الصحابة قال: رأيت رسول الله ﷺ، فإذا رجل حسن الجسم عظيم الجبهة رقيق الحاجبين. ولله در القائل:

جبينه مشرق من فوق طرته ... يتلو الضحى ليله والليل كافره

بالمسك خطت على كافور جبهته ... من فوق نوناتها سينا ضفائره

مكحل الخلق ما تحصى خصائصه ... منضر الحسن قد قلت نظائره

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب الزهد باب (٩) رقم الحديث (٢٣١٢) وفي ابن ماجه كتاب الزهد أيضا باب (١٩) رقم الحديث (٤١٩٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٧٣ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٥١٠ و٤/ ٥٤٤ ـ ٥٧٩ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ٢٣٦ وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٣٧٠ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٣٤٧) وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٢٦٥ و٥/ ٢٩٣ و٦/ ٢٩٧ وفي دلائل أبي نعيم (١٥٨) وكنز العمال (٢٩٨٢٩ ـ ٢٩٨٣٨) والأطيط: صوت الرحل والإبل من ثقلها. انظر القاموس المحيط ٢/ ٣٦٢ مادة (أط).

(٢) انظر دلائل النبوة ١/ ٢١٤ والبداية والنهاية ٦/ ١٧.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٣١٦.

وقال ابن أبي هالة: أزج الحواجب ـ وفسر: بالمقوس الطويل الوافر الشعر ـ ثم قال: سوابغ من غير قرن بينهما عرق يدره الغضب، أي يمتلىء دما إذا غضب كما يمتلىء الضرع لبناً إذا در. قاله في النهاية.

وعن مقاتل بن حيان[1] قال: أوحى الله إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: اسمع وأطع يا ابن الطاهرة البتول، إني خلقتك من غير فحل، فجعلتك آية للعالمين، فإياي فاعبد، وعلي فتوكل، فسر لأهل سوران أني أنا الله الحي القيوم، الذي لا أزول، صدقوا النبي الأمي، صاحب الجمل والمدرعة والعمامة والنعلين والهراوة، الجعد الرأس، الصلت الجبين، المقرون الحاجبين، الأهدب الأشفار، الأدعج العينين، الأقنى الأنف، الواضح الخدين، الكث اللحية، عرقه في وجهه كاللؤلؤ، وريح المسك ينفح منه، كأن عنقه إبريق فضة الحديث.

والأنجل: الواسع شق العينين. والقرن: بالتحريك: التقاء الحاجبين. وما وصفه به ابن أبي هالة مخالف لما في حديث مقاتل بن حيان وما في حديث أم معبد فإنها قالت: أزج أقرن، أي مقرون الحاجبين، قال ابن الأثير: والأول هو الصحيح في صفته، يعني: سوابغ في غير قرن. والقنى في الأنف: طوله ورقة أرنبته مع حدب في وسطه. وقد وصفه ﷺ غير واحد: بأنه عظيم الهامة، أي الرأس، كذا في حديث ابن أبي هالة المشهورة. وقال علي بن أبي طالب ـ في حديث رواه الترمذي وصححه والبيهقي ـ: ضخم الرأس. وكذا قال أنس في رواية البخاري.

وكان ﷺ أيضاً ضخم الكراديس، وهي رؤوس العظام، كما وصفه به علي في حديث الترمذي. وقال أيضاً في رواية للترمذي: جليل المشاش والكتد[2]. وفسر برؤوس العظام كالركبتين والمرفقين والمنكبين، أي عظيمها. والكتد ـ بفتحتين ويجوز كسر التاء ـ مجمع الكتفين.

وكان ﷺ دقيق العرنين، أي أعلى الأنف، كما وصفه به علي في رواية ابن سعد وابن عساكر. وفي رواية أيضاً عن ابن عمر من وصف علي له أيضاً: أقنى الأنف، وفسر بالسائل المرتفع وسطه، وقال ابن أبي هالة: أقنى العرنين له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشمّ، والأشم: الطويل قصبة الأنف.

---

(١) هو مقاتل بن حيان النبطي البلخي الخزار، أبو بسطام محدث مفسر. توفي قبل العام (١٥٠ هـ). انظر الكاشف ٣/ ١٥١ رقم الترجمة (٥٧١٣) وتذكرة الحفاظ ١/ ١٧٤ رقم الترجمة (١٦٨) والتهذيب ١٠/ ٢٧٧ وميزان الإعتدال ٤/ ١٧١ وطبقات المفسرين للداودي ٢/ ٣٢٩ رقم الترجمة (٦٤١) وفيه أنه توفي بأرض الهند.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب (٨) رقم الحديث (٣٦٣٧ ـ ٣٦٣٨).

وأما فمه الشريف[1] ﷺ ففي مسلم من حديث جابر أنه ﷺ كان ضليع الفم يعني واسعه. وكذا وصفه به ابن أبي هالة، وزاد يفتتح الكلام ويختم بأشداقه يعني لسعة فمه، والعرب تمدح به وتذم بصغر الفم. وقال شمر[2]: عظيم الأسنان.

وفي حديث عند البزار والبيهقي قال أبو هريرة: كان رسول الله ﷺ أسيل الخدين واسع الفم.

ووصفه ﷺ ابن أبي هالة فقال: أشنب مفلج الأسنان. والشنب: رونق الأسنان وماؤها. وقيل: ر نها وتحديدها. وأفلج الأسنان أي متفرقها.

وقال علي مبلج الثنايا، بالموحدة، أخرجه ابن سعد من حديث أبي هريرة. وعند ابن عساكر: عن علي: براق الثنايا.

وعند ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أفلج الثنيتين، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من ثناياه[3]، رواه الترمذي في الشمائل، والدارمي، والطبراني في الأوسط.

وكان ﷺ أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم.

بحر من الشهد في فيه مراشفه    يا قوته صدف فيه جواهره

وعن أبي قِرْصافة[4] قال: بايعنا رسول الله أنا وأمي وخالتي، فلما رجعنا قالت لي أمي وخالتي: يا بني، ما رأينا مثل هذا الرجل أحسن وجهاً ولا أنقى ثوباً ولا ألين كلاماً، ورأينا كالنور يخرج من فيه.

وأما ريقه الشريف،[5] ففي الصحيحين عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» فلما أصبح الناس غدوا على رسوله الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، قال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه» فأتي به، فبصق رسول ﷺ في عينيه فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع[6] الحديث متفق عليه.

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢١٤.

(٢) هو شمر بن عطية الأسدي. انظر الكاشف ٢/ ١٤ رقم الترجمة (٢٣٣٠).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٧٩ والبيهقي في الدلائل ١/ ٢١٥.

(٤) هو جندرة بن خيشة أبو قرصافة الكناني. صحابي. الإصابة ١/ ٢٦٣ رقم الترجمة (١٢٢٩).

(٥) انظر دلائل النبوة ٦/ ٢٢٦ وما بعدها.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب (١٠٢) رقم الحديث (٢٩٤٢ ـ ٢٩٧٥ ـ ٣٧٠١ ـ ٤٢١٠) وفي مسلم كتاب الجهاد باب (٤٥) رقم الحديث (١٣٢) وفي الترمذي (٣٧٢٤) وفي ابن ماجه (١٢١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٥٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٣١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٠٨ و٢١٣ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٢٣ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٢٣٧ =

وأتي بدلو من ماء، فشرب من الدلو، ثم صب في البئر، أو قال: «مج في البئر» ففاح منها مثل رائحة المسك[1] رواه أحمد وابن ماجه من حديث وائل بن حجر.

وبزق في بئر في دار أنس، فلم يكن بالمدينة بئر أعذب منها، رواه أبو نعيم.

وكان ﷺ يوم عاشوراء يدعو برضعائه ورضعاء ابنته فاطمة فيتنقل في أفواههم ويقول للأمهات «لا ترضعنهم إلى الليل» فكان ريقه يجزئهم [2]. رواه البيهقي.

ودخلت عليه عميرة بنت مسعود هي وأخواتها يبايعنه وهن خمس فوجدنه يأكل قديداً فمضغ لهن قديدة فمضغنها كل واحدة منهن قطعة قطعة فلقين الله وما وجدن لأفواههن خلوف، رواه الطبراني.

ومسح ﷺ بيده الشريفة بعد أن نفث فيها من ريقه على ظهر عتبة وبطنه وكان به شرى، فما كان يشم أطيب منه رائحة. رواه الطبراني. وأعطى الحسن لسانه ـ وكان قد اشتد ظمؤه ـ فمصه حتى روي. رواه ابن عساكر. ولله در إمام العارفين سيدي محمد وفا الشاذلي حيث يقول:

| | |
|---|---|
| جنـى النحـل فـي فيـه وفيـه حياتنـا | ولكنـه مـن لـي بلثـم لثـامـه |
| رحيـق الثنـايـا والمثـانـي تنفسـت | إذا قـال فـي فيـح بطيـب ختـامـه |

وأما فصاحة لسانه[3] وجوامع كلمه، وبديع بيانه وحكمه، فكان ﷺ أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقاً، حتى كان كلامه يأخذ بمجامع القلوب ويسلب الأرواح.

| | |
|---|---|
| ينظـم در الثغـر نثـر مقـولـه | بـا حسنـه فـي نثـره ونظـامـه |
| ينـاجـي فينجـي مـن ينـاجـي مـن الجـوى | فكـل كليـم بـرؤه فـي كـلامـه |

ففصاحة لسانه ﷺ غاية لا يدرك مداها، ومنزلة لا يداني منتهاها، وكيف لا يكون ذلك وقد جعل الله تعالى لسانه سيفاً من سيوفه، يبين عن مراده، ويدعو به إليه عباده،

ـ وفي التمهيد لابن عبد البر ٢/ ٢١٨ وفي إتحاف السادة المتقين ١/ ١٠٦ و٧/ ١٨٨ وحلية الأولياء لابي نعيم ٤/ ٣٥٦ وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٤٣٧.

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطهارة باب (١٣٦) رقم الحديث (٦٥٩ ـ ٦٦٠). وأحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٣١٥.

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٢٦ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ١٨٦ وفي المطالب العالية لابن حجر (١٠٠٨) وفي الإصابة في تمييز الصحابة ٨/ ٨١ رقم الترجمة (٤١٧).

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٨٣ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٧٩ والبداية والنهاية ٦/ ٣٠ وما بعدها، والشفا للقاضي عياض ١/ ٧٠.

فهو ينطق بحكمه عن أمره، ويبين عن مراده بحقيقة ذكره.

أفصح خلق الله إذا لفظ، وأنصحهم إذا وعظ، لا يقول هجراً، ولا ينطق هذراً، كلامه كله يثمر علماً، ويمتثل شرعاً وحكماً، لا يتفوه بشر بكلام أحكم منه في مقالته، ولا أجزل منه في عذوبته.

وخليق بمن عبر عن مراد الله بلسانه، وأقام به الحجة على عباده ببيانه، وبين مواضع فروضه وأوامره ونواهيه، وزواجره ووعده ووعيده وإرشاده أن يكون أحكم الخلق جناناً وأفصحهم لساناً، وأوضحهم بياناً.

وقد كان ﷺ إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين، يعده العاد، ليس بهذا مسرع لا يحفظ، قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان ﷺ يسرد سردكم هذا، كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه[1] وكان يعيد الكلمة ثلاثاً لتفهم عنه[2].

وكان يقول: «أنا أفصح العرب»[3].

وقد قال له عمر بن الخطاب: يا رسول الله، مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ فقال: «كانت لغة إسماعيل قد درست فجاءني بها جبريل فحفظنيها».[4] رواه أبو نعيم.

وروى العسكري في الأمثال من حديث علي بسند ضعيف جداً قال: قدم بنو نهد على النبي ﷺ: الحديث وفيه: ذكرخطبتهم وما أجابهم به النبي ﷺ قال: فقلنا: يا نبي الله، نحن بنو أب واحد، ونشأنا في بلد واحد، وإنك تكلم العرب بلسان ما نفهم أكثره، فقال: «إن الله عز وجل أدبني فأحسن أدبي، ونشأت في بني سعد بن بكر»[5].

وعن محمد بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن جده قال: قال رجل: يا رسول الله، أيدالك الرجل امرأته؟ قال: «نعم إذا كان مفلجاً» فقال له أبو بكر: يا رسول الله، ما قال لك، وما قلت له؟ قال: قال «أيماطل الرجل أهله» قلت له: « نعم إذا كان مفلساً»

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٦٨) ومسلم في فضائل الصحابة رقم الحديث (١٦٠) وأبو داوود كتاب العلم باب (٧) رقم الحديث (٣٦٥٥) وفي الترمذي كتاب المناقب باب (٩) رقم الحديث (٣٦٣٩). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١١٨ ـ ١٣٨ ـ ١٥٧ ـ ٢٥٧.

(٢) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب (٩) رقم الحديث (٣٦٤٠).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٣٢ و٢/ ٨٥٠ وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٢/ ٣٦٤ وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري ١١٧ وفي الشفا ١/ ٨٠.

(٤) ذكره العراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٣٦٤ وكنز العمال (٣٥٤٦٢).

(٥) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٨٦٧٣).

قال أبو بكر: يا رسول الله، لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك، قال: «أدبني ربي ونشأت في بني سعد» رواه السرقسطي في الدلائل بسند واه. وكذا أخرجه ابن عساكر. قال في القاموس: ودالكه أي ماطله[1] انتهى.

وقوله: «ملفجاً» بضم الميم وفتح الفاء، اسم فاعل من «ألفج الرجل» فهو ملفج، إذا كان فقيراً، وهو غير مقيس. ومثله أحصن فهو محصن، وأسهب فهو مسهب، في ألفاظ شذت، والقياس الكسر، قاله ابن مرزوق. لكن قال ابن الأثير: لم يجيء إلا في ثلاثة أحرف، أسهب وأحصن وألفج.

وقال غيره: معناه: أيداعب الرجل امرأته، يعني قبل الجماع؟ وسماه مطلا لكون غرضها الأعظم الجماع. قال: إذا كان عاجزاً، ليكون ذلك محركاً لشهوته، ولعجزه سمي مفلساً. وقال ابن الأثير: يماطلها بمهرها إذا كان فقيراً. وأما ما يروى: «أنا أفصح من نطق بالضاد»[2] فقال: ابن كثير: لا أصل له. انتهى لكن معناه صحيح والله أعلم.

وقد حدوا الفصاحة: بخلوص الكلمة من التنافر والغرابة ومخالفة القياس. والمراد بالتنافر: تقارب مخارج الحروف كقوله: غدائره مستشزرات إلى العلا فإن السين والتاء والزاي كلها متقاربة المخارج. والغرابة: كون الكلمة لا تدل على المراد من أول وهلة لاحتمال معنى آخر. ومخالفة القياس: استعمال الكلمة على غير قياس، كإبقاء وجود المثلين من كلمة واحدة من غير إدغام. كقوله: الحمد لله العلي الأجلل. والفصاحة: يوصف بها الكلام والكلمة والمتكلم. والبلاغة: أن يطابق الكلام مقتضى الحال مع فصاحته، الجزالة خلاف الركاكة.

ففصاحته ﷺ إلى الحد الخارق للعادة، البالغ نهاية المزية والزيادة التي تصدع القلوب قبل الأذهان، وتقرع الجوانح قبل الآذان، مما يروق ويفوق، ويثبت له على سائر البشر الحقوق التي لا تقابل بالعقوق، فهو صاحب جوامع الكلم وبدائع الحكم، وقوارع الزجر وقواطع الأمر، والأمثال السائرة، والغرر السائلة، والدرر المنثورة والدراري المأثورة والقضايا المحكمة، والوصايا المبرمة، والمواعظ التي هي على القلوب محكمة، والحجج التي هي للد الخصماء مفحمة ملجمة.

وقليل هذا الوصف في حقه ﷺ وزاده فضلاً وشرفاً لديه، وقد روى الحاكم في مستدركه وصححه من حديث ابن عباس : إن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد ﷺ

---

(١) انظر القاموس المحيط للفيروز آبادي ٣/ ٣١٢ مادة (دلكه).

(٢) ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة ٢٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٣٢ وتذكرة الموضوعات للفتني ٨٧ والأسرار المرفوعة لعلي القاري ١١٦ والفوائد المجموعة للشوكاني ٣٢١.

وبالجملة فلا يحتاج العلم بفصاحته إلى شاهد، ولا ينكرها موافق ولا معاند، وقد جمع الناس من كلامه الفرد الموجز البديع الذي لم يسبق إليه دواوين، وفي كتاب الشفاء للقاضي عياض من ذلك ما يشفي العليل.

كقوله ﷺ: «المرء مع من أحب»[1].

وقوله: «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين».

وقوله: «السعيد من وعظ بغيره»[2]. ومما لم يذكره القاضي رحمه الله.

قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» رواه الشيخان وغيرهما.

وقوله: «ليس للعامل من عمله إلا ما نواه».

وتحت هاتين الكلمتين كنوز من العلم لهذا قال الشافعي رحمه الله: حديث الأعمال بالنيات يدخل في نصف العلم، وذلك أن للدين ظاهراً وباطناً، والنية متعلقة بالباطن، والعمل هو الظاهر، وأيضاً: فالنية عبودية القلب، والعمل عبودية الجوارح. وقال بعض الأئمة: حديث الأعمال بالنيات ثلث الدين، ووجهه: أن الدين: قول وعمل ونية.

وقوله: «نية المرء خير من عمله»[3] رواه الطبراني. لكن قال بعضهم لا يصح رفعه قال: ورواه القضاعي عن إسماعيل بن عبد الرحمن الصفار، أخبرنا علي بن عبد الله الفضل حدثنا محمد بن الحنفية الواسطي، حدثنا محمد بن عبد الله الحلبي، حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «نية المؤمن أبلغ من عمله»[4]. قال: وهذا إسناد لا ضوء عليه ويوسف بن عطية متروك الحديث.

---

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب الأدب باب (١١٣) رقم الحديث (٥١٢٧) ورواه الشيخان [م ٢٠٣٤ ـ ب ٦١٦٨] والكامل في الضعفاء لابن عدي ٢/ ٥٩٠ والترمذي (٢٣٨٦) وفي مسند أحمد بن حنبل ١/ ٣٩٢ والشفا للقاضي عياض ١/ ٧٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٩٣ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٣٥ وفي الدر المنثور ٢/ ٢٢٥ وفي سنن ابن أبي عاصم ١/ ٧٨ وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري ٢١٦ وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (٤٥٦) وتذكرة الموضوعات للفتني (٢٠٠). وفي الشفا ١/ ٨٠ وفي مناهل الصفا ص ٥٢ رقم الحديث (١٢٠).

(٣) هو عند الطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٢٢٨ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ١٥ وفي حلية الأولياء ٣/ ٢٥٥ وفي الدرر المنتثرة (١٦٦) وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٣٨ وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٤/ ٣٥٥.

(٤) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ١٥.

ورواه عثمان بن عبد الله الشامي من حديث النواس بن سمعان وقال: «نية المؤمن خير من عمله، ونية الفاجر شر من عمله»[1] وقال ابن عدي: عثمان بن عبد الله الشامي له أحاديث موضوعات، هذا من جملتها، وقال ابن الجوزي: لا يصح رفعه، قال: ومعناه: أن النية سر، والعمل ظاهر، [وعمل] السر أفضل، وهو يقتضي أنه لو نوى أن يذكر الله أو يتفكر، تكون نية الذكر والتفكير خيراً منه، وليس بصحيح.

وقيل: إن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية، وهذا بعيد، لأن العمل إذا خلا عن النية لم يكن فيه خير أصلاً.

وقيل: إن النية عمل القلب، والفعل عمل الجوارح، وعمل القلب خير من عمل الجوارح، فإن القلب أمير الجوارح، وبينه وبينها علاقة، فإذا تألمت تألم القلب، وإذا تألم القلب تألمت فارتعدت الفرائص وتغير اللون، فإنه الملك الراعي والجوارح جيشه ورعيته، وعمل الملك أبلغ من عمل رعيته.

وقيل: لما كانت النية أصل الأعمال كلها وروحها ولبها. والأعمال تابعة لها تصح بصحتها وتفسد بفسادها، وهي التي تقلب العمل الصالح فتجعله فاسداً، وغير الصالح تجعله صالحاً مثاباً عليه، ويثاب عليها أضعاف ما يثاب على العمل، فلذا كانت نية المؤمن خيراً من عمله. وقال أبو بكر بن دريد في مجتباه: المعنى ـ والله أعلم ـ أن المؤمن ينوي الأشياء من أبواب البر نحو الصدقة والصوم وغير ذلك فلعله يعجز عن بعض ذلك وهو معقود النية عليه، فنيته خير من عمله[2].

وقوله: «يا خيل الله اركبي»[3].

رواه أبو الشيخ في الناسخ والمنسوخ عن سعيد بن جبير، والعسكري عن أنس، وابن عائذ في المغازي عن قتادة ولفظه عند ابن عائذ: قال بعث رسول الله ﷺ يومئذ ـ يعني يوم الأحزاب ـ منادياً ينادي: يا خيل الله اركبي.

قال العسكري وابن دريد في مجتباه، وهذا على المجاز والتوسع، أراد: يا فرسان خيل الله اركبي، فاختصره.

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ١٥ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٦١ و١٠٩ وتاريخ بغداد للخطيب ٩/ ٢٣٧.

(٢) قال في فتح الباري: الهم ترجيح قصد الفعل وهو فوق مجرد خطور الشيء بالقلب. ١١/ ٣٩٣ راجع البخاري رقم الحديث (٦٤٩١) ومسلم إيمان [٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٢٥٩] والترمذي تفسير سورة الانعام [٦] باب (١٠) والدارمي رقاق (٧٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٧٩.

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٣٩٠، ٥٣١ وفي الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ٧٧٩ وتفسير الطبري ٦/ ١٣٣ وكنز العمال (٤٣٦٣).

وقوله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[1].

رواه الشيخان وغيرهما، والمعنى ـ والله أعلم ـ أن حظ العاهر الحجر ولا شيء له في الولد، وقيل: أراد أن حظه الغلظة والخشونة من إقامة الحد التي نهايتها رميه بالحجر. وقيل: أراد بالحجر هنا الكناية عن رجوعه بالخيبة على الولد إذا لم تكن المرأة زوجاً له، والله أعلم.

وقوله: «كل الصيد في جوف الفرا».

وهو بفتح الفاء، حمار الوحش، رواه الرامهرمزي[2] في الأمثال، وسنده جيد، ولكنه مرسل، ونحوه عند العسكري وقال: جوف أو جنب.

وهذا خاطب به النبي ﷺ أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب حين جاءه مسلماً بعد أن كان عدواً له وهجاه كثير الهجاء مقذعاً فيه، فكأنه يقول ﷺ إن الحمار الوحشي من أعظم ما يصاد، وكل صيد دونه، كما أنك من أعظم أهلي وأمسهم رحماً بي، ومن أكرم من يأتيني وكل دونك. انتهى.

وقوله: «الحرب خدعة».

رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: سمى النبي ﷺ الحرب خدعة. وليس عند مسلم «سمى»، وقوله: «خدعة» مثلث الخاء، أشهرها: فتح الخاء وإسكان الدال، قال ثعلب وغيره: وهي لغة النبي ﷺ، والثانية، ضم الخاء وإسكان الدال. والثالثة: ضم الخاء وفتح الدال.

وقد قال ذلك ﷺ يوم الأحزاب، لما بعث نعيم بن مسعود وأمره أن يخذل بين قريش وغطفان واليهود، وأشار بذلك إلى أن المماكرة أنفع من المكاثرة.

قال النووي: اتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب كيف أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل.

وقوله: «إياكم وخضراء الدمن».

---

(١) أخرجه البخاري كتاب البيوع باب (٣) رقم الحديث (٢٠٥٣ ـ ٢٢١٨ ـ ٢٧٤٥ ـ ٤٣٠٣ ـ ٦٨١٧) وفي أبو داوود (٢٢٧٣) وابن ماجه (٢٠٠٦) والترمذي (١١٥٧) وأحمد بن حنبل ١/ ٥٩ والموطأ (٧٣٩) والدارمي ٢/ ١٥٢ ومسند الحميدي (١٠٨٥) والدر المنثور ٢/ ٣٣٥ ومجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٣ و٧/ ٢٥١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٨٦ ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٨٩.

(٢) هو الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي أبو محمد. محدث أديب قاض. توفي نحو سنة (٣٦٠ هـ) الأعلام ٢/ ١٩٤ تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٠٥ رقم الترجمة (٨٧٠) ويتيمة الدهر ٣/ ٤٩٠ رقم الترجمة (٥٨).

رواه الرامهرمزي والعسكري في الأمثال، وابن عدي في الكامل، وأبو بكر بن دريد[1] في المجتبى والقضاعي في مسند الشهاب والديلمي من حديث الواقدي قال: حدثنا محمد بن سعيد بن دينار عن أبي وجزة يزيد بن عبيد عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي سعيد مرفوعاً: قيل يا رسول الله وماذا؟ قال: «المرأة الحسناء في المنبت السوء»[2] قال ابن عدي: تفرد به الواقدي.

ومعناه: أنه كره نكاح الفاسدة، وقال: إن أعراق السوء تنزع أولادها، وتفسير حقيقته: أن الريح تجمع الدمن، وهو البعر، في البقعة من الأرض، ثم يركبه السافي فإذا أصابه المطر أنبت نبتاً غضاً ناعماً، يهتز وتحته الأصل الخبيث، فيكون ظاهره حسناً وباطنه قبيحاً فاسداً. والدمن جمع دمنة وأنشد زفر بن الحارث:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

ومعنى البيت: أن الرجلين قد يظهران الصلح والمودة، وينطويان على البغض والعداوة، كما ينبت المرعى على الدمن. وهذا أكثري أو كلي في زماننا، أشار إليه شيخنا.

وقوله: «الأنصار كرشي وعيبتي»[3].

رواه البخاري، أي إنهم بطانته وموضع سره، والعيبة كذلك، لأن المجتر يجمع علفه في كرشه، والرجل يضع ثيابه في عيبته. وقيل: هم الذين أعتمد عليهم وأفزع إليهم وأقوى بهم، وقيل أراد بالكرش الجماعة، أي جماعتي وصحابتي، ويقال: عليه كرش من الناس أي جماعة، ووقع في رواية الترمذي: «ألا إن عيبتي التي آوي إليها أهل بيتي وإن كرشي الأنصار»[4].

وقوله: «ولا يجني على المرء إلا يده».

---

(١) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أبو بكر (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) لغوي أديب. توفي في بغداد. الأعلام ٦/ ٨٠ ومعجم الأدباء ٥/ ٢٩٦ رقم الترجمة (٨٤٩) وفي وفيات الأعيان ١/ ٤٩٧ وطبقات الشافعية ٢/ ١٤٥ ونزهة الألباء (٣٢٢) معجم الشعراء (٤٦١) تاريخ بغداد ٢/ ١٩٥ خزانة الأدب ١/ ٤٩٠.

(٢) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ٨٩ والأحكام النبوية للكحال ٢/ ٢٢ وتذكرة الموضوعات للفتني (١٢٧).

(٣) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب (١١) رقم الحديث (٣٨٠١) وفي الترمذي (٣٩٠٧) وفي المسند لابن حنبل ٣/ ١٥٦ و١٨٨ و٢٠١. وفي مسند الحميدي (١٢٠١) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٣٧ وشرح السنة للبغوي ١٤/ ١٧٢ والدر المنثور ٣/ ٢٧٠.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب (٦٥) رقم الحديث (٣٩٠٤).

رواه الشيخان، ولأحمد وابن ماجه من حديث عمرو بن الأحوص: «لا يجني جان إلا على نفسه»[1] وقد أراد ﷺ بهذا: أنه لا يؤخذ إنسان بجناية غيره، إن قتل أو جرح أو زنى، وإنما يؤخذ بما جنته يده، فيده هي التي أدته إلى ذلك.

وقوله: «ليس الشديد من غلب الناس إنما الشديد من غلب نفسه»[2].

رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه الشيخان بلفظ (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[3] يعني أنه إذا ملكها كان قد قهر أقوى أعدائه وشر خصومه. ولذلك قال: «أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك»[4]. وهذا من باب المجاز، ومن فصيح الكلام، لأنه لما كان الغضبان بحالة شديدة من الغيظ وقد ثارت عليه شدة الغضب فقهرها بحلمه، وصرعها بثباته كان كالصرعة الذي يصرع الرجال ولا يصرعونه.

وقوله: «ليس الخبر كالمعاينة»[5].

رواه أحمد وابن منيع والطبراني والعسكري.

وقوله: «المجالس بالأمانة»[6].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل ٣/٤٩٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٧/٣٢ وكنز العمال (٤٠١٠٦).

(٢) ذكره الهيثمي في موارد الظمآن (٢٥١٨) وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/٢٥٤ وشرح السنة للبغوي ١٣/١٦٠ والترغيب والترهيب للمنذري ٣/٤٧٧ وكشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٣٨.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب (٧٦) رقم الحديث (٦١١٤) ومسلم في البر والصلة باب (٣٠) رقم الحديث (١٠٧ و١٠٨) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/٢٣٦، ٢٦٨، ٥١٧ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/٢٣٥ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/٢٥٤ وفي الموطأ (٩٠٦) ومشكاة المصابيح للتبريزي (٥١٠٥) وفي إتحاف السادة المتقين ٤/١٦٨ وتاريخ جرجان للسهمي ٤٥١ وفي تفسير القرطبي ٤/٢٠٨.

(٤) ذكره العراقي في المغني ٣/٤ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/٢٠٦ و٩/٣٣.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/٢٧١ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٠٨٧) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/١٥٣ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٣٨) وفي إتحاف السادة المتقين ٦/٣٦٣ والتمهيد لابن عبد البر ٤/٣٣٤ وتاريخ جرجان للسهمي ٧٣ و٥٠٥ وتاريخ بغداد ٣/٣٦٠ ٦/٥٦ و٨/١٢ وتفسير القرطبي ٣/٢٩٨ ٢٠/١٧١. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ١/٣٠٣ و٤/١٥٨٠ و٧/٢٤٩٣. وفي الدرر المنتثرة ١٣٤. وفي تذكرة الموضوعات للفتني ٢٠٤. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٣٦ وفي كنز العمال (٤٤١١٠ ـ ٤٤١٢٦).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/٣٤٢ وأبي داود كتاب الأدب باب (٣٢). رقم الحديث (٤٨٦٩). وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/٢٤٧. وفي إتحاف السادة المتقين ٦/٢١٦، ٨/٣٢٣.

رواه العقيلي في ترجمة حسين بن عبد الله بن ضمرة عن أبيه عن جده عن علي رفعه، وعن جابر بن عتيك «إذا حدث الرجل ثم التفت فهي أمانة»[1] ورواه أبو داود في سننه والترمذي في جامعه وابن أبي الدنيا في الصمت. وغيرهم.

ففي هاتين الكلمتين من الحمل على آداب العشرة وآداب الصحبة وكتم السر، وحفظ الود وحسن العهد، وإصلاح ذات البين والتحذير من النميمة بين الإخوان، الموقعة للشنآن ما لا يكاد يخفى على مبادي الأذهان.

وقوله: «البلاء موكل بالمنطق»[2].

رواه ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، من رواية إبراهيم عن ابن مسعود، ورواه الديلمي عن أبي الدرداء مرفوعاً: «البلاء موكل بالمنطق» وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي الدرداء وابن مسعود. قال شيخنا في المقاصد الحسنة: ولا يحسن مع مجموع ما ذكرناه الحكم عليه بالوضع، ويشهد لمعناه قوله ﷺ للأعرابي الذي دخل عليه يعوده. وقال: «لا بأس طهور» فقال الأعرابي: بل هي حمى تفور على شيخ كبير تزيده القبور، فقال ﷺ: «فنعم إذاً»[3]. وأنشد في معناه:

= وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٠٩٣) وفي فتح الباري ٩٧/١١. وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٧٦/٢. وكشف الخفاء للعجلوني ٢٧٧/٢ وفي كنز العمال (٢٥٣٧٩ ـ ٢٥٣٧٧ ـ ٢٥٤٣٤).

(١) أخرجه الترمذي كتاب البر والصلة. باب (٣٩) رقم الحديث (١٩٥٩). وأبي داود كتاب الأدب باب (٣٢) رقم الحديث (٤٨٦٨). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣٠٨/٣. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٠٦١). وفي كشف الخفاء للعجلوني ٩٠/١ وفي الدر المنثور للسيوطي ٢٢٦/٥. وفي إتحاف السادة المتقين ٢١٦/٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٧/١٠. والمغني للعراقي ١٧٦/٢. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩٨/٨ وفي المطالب العالية لابن حجر (٢٦٣٧) وفي مشكل الآثار للطحاوي ٣٣٦/٤. وفي شرح السنة للبغوي ١٩١/١٣ وفي كنز العمال (٥٣٧٨).

(٢) ذكره ابن حجر في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف (١٥٧) وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (٥٨). وفي الموضوعات لابن الجوزي. ٨٣/٣. وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (٣٢٠) وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢٩٦/٢. وكشف الخفاء للعجلوني ٣٤٣/١ و٣٤٤. وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٧٠). وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢٧٩/١٣. وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ١٥٨/٢. وفي جمع الجوامع للسيوطي (١٠٣١٦) وفي كنز العمال (٤٦٤٠٠).

(٣) أخرجه البخاري. كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٦١٦ ـ ٥٦٥٦ ـ ٥٦٦٢ ـ ٧٤٧٠). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤٢٤/٦ وفي الأدب المفرد للبخاري رقم الحديث (٥١٤). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣٨٣/٣. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١٥٢٩). وفي شرح السنة للبغوي ٢٢٣/٥. وفي المعجم الكبير للطبراني ٣٤٢/١١ وفي الأذكار النووية (١٢٥). وفي زاد المسير لابن الجوزي ٢١٨/٩ وفي تهذيب خصائص علي للنسائي (٧٠).

لا تنطقن بما كرهت فربما نطق اللسان بحادث فيكون

وقوله ﷺ: «ترك الشر صدقة»[1].

رواه بعضهم، ومعنى ذلك أن من ترك الشر وأذى الناس فكأنه تصدق عليهم، وعلم من ذلك أن فضل ترك الشر كفضل الصدقة.

وقوله «وأي داء أدوأ من البخل»[2].

رواه البخاري، والبخل قد جعله ﷺ داء، وليس بداء مؤلم لصاحبه، وإنما شبهه بالداء إذ كان مفسداً للرجل مورثاً له سوء الثناء، كما أن الداء يؤول إلى طول الضنا وشدة العنا، والقصد من هذا النهي عن البخل أعاذنا الله منه.

وقوله: «لا ينتطح فيها عنزان»[3].

أي لا يجري فيها خلف ولا نزاع.

وقوله: الحياء خير كله»[4] متفق عليه.

وقوله: «اليمين الفاجرة تدع الديار بلا قع»[5].

رواه في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة.

وقوله: «سيد القوم خادمهم»[6].

رواه أبو عبد الرحمن السلمي في «آداب الصحبة» له عن عقبة بن عامر رفعه، وفي سنده ضعف وانقطاع. ورواه غيره أيضاً.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٦٠.

(٢) ذكره العراقي في المغني ٣/ ٢٤٩ وفي تاريخ بغداد ٤/ ٢١٧ وفي مكارم الأخلاق للخرائطي ٥٩ وكنز العمال (٣٦٨٥٨ ـ ٣٦٨٥٩).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٥٢٤ وتاريخ بغداد ١٣/ ٩٩ والعلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ١٧٥ وكنز العمال (٤٤١٣١).

(٤) أخرجه مسلم كتاب الإيمان رقم الحديث (٦١) وفي أبي داوود (٤٧٩٦) وفي مسند أحمد بن حنبل ٤/ ٤٢٦ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٦ والمعجم الكبير للطبراني ١٨/ ١٧١ إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٠٧ وحلية الأولياء ٢/ ٢٥١ و٦/ ٢٦٢ كنز العمال (٥٧٦٢ ـ ٥٧٨٥).

(٥) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٣٥ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٦٢٢ وفي الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٤٥ وفي جامع مسانيد أبي حنيفة ١/ ١١٤ و٢٥٩ وفي كنز العمال (٤٦٣٨٨).

(٦) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٥٦١ و٥٦٢ وفي تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٧ وفي الدرر المنتثرة ٩٥ والحاوي للفتاوي للسيوطي ٢/ ١٠١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٩٢٥) وكنز العمال (١٧٥١٦ ـ ٢٤٨٣٤ ـ ٢٤٨٣٥).

وقوله: «فضل العلم خير من فضل العبادة»[1]. رواه الطبراني والبزار.

وقوله: «الخيل في نواصيها الخير».

متفق عليه من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر رفعه بلفظ: «الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» وفي لفظ لغيرهما: «معقود بنواصيها الخير»[2].

وقوله: «أعجل الأشياء عقوبة البغي».

وقوله: «إن من الشعر لحكما».

رواه أبو داود من رواية صخر بن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن جده سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من البيان لسحراً، وإن من العلم جهلاً، وإن من الشعر حكماً»[3] فقال صعصعة بن صوحان: صدق رسول الله ﷺ. أما قوله: «إن من البيان لسحراً» فالرجل يكون عليه الحق، وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق. وأما قوله: «إن من العلم جهلاً، فتكلف العالم إلى علمه ما لم يعلم يجهله» وأما قوله: «إن من الشعر حكماً» في هذه المواعظ والأمثال التي يتعظ بها الناس. ومفهومه: أن بعض الشعر ليس كذلك. لأن من تبعيضية. وفي البخاري: إن من الشعر حكمة. أي قولاً صادقاً مطابقاً للحق.

قال الطبري: وفي هذا الحديث رد على من كره الشعر مطلقاً، واحتج بقول ابن مسعود: الشعر مزامير الشيطان. وعن أبي أمامة ـ رفعه ـ أن إبليس لما أهبط إل الأرض

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٩٢ وفي حلية الأولياء ٢/ ٢١٢ وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١١١ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٢٠ وفي الدر المنثور ١/ ٣٥٠ وفي المعجم الكبير للطبراني ٣٨/١١ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ٦٧ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٥١٤ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ٩٣ و٢/ ٥٦٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب (٢٣) رقم الحديث (٢٨٤٩ ـ ٣٦٤٤) وابن ماجه (٢٧٨٧ ـ ٢٧٨٨) والنسائي كتاب الخيل باب (٧) وفي مسلم الإمارة (٩٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٨/٢ وفي الموطأ (٤٦٧) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٨١ و٦/ ٣٢٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٣٠٦ وتفسير القرطبي ١/ ٨٠ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٢٥٩ و٢٦١ وفي حلية الأولياء ٩/ ٤٣ وفي كنز العمال (٣٥٢٥٨).

(٣) أخرجه أبو داوود كتاب الأدب باب (٨٧) رقم الحديث (٥٠١٠ ـ ٥٠١١ ـ ٥٠١٢) وفي البخاري رقم (٦١٤٥) وابن ماجه كتاب الأدب باب (٤١) رقم الحديث (٣٧٥٥ ـ ٣٧٥٦). وفي مسند الدارمي الإستئذان (٦٨) والترمذي أدب (٦٩) ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٥٦ و٥/ ١٢٥ وفي تاريخ بغداد ٣/ ٩٨ وفي تاريخ ابن عساكر ٦/ ٤٢٥ وفي الضعفاء للعقيلي ١/ ٣٠٠ وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (٢٤١ ـ ٢٢٥٩) وحلية الأولياء ٨/ ٣٠٩.

قال: رب اجعل لي قرآناً، قال: قرآنك الشعر. ثم أجاب عن ذلك: بأنها أحاديث واهية. وهو كذلك. فحديث أبي أمامة فيه: علي بن زيد الألهاني، وهو ضعيف. وعلى تقدير قوتها فهو محمول على الإفراط فيه والإكثار منه.

ويدل على الجواز أحاديث كثيرة، منها: ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد، عن عمرو بن الشريد عن أبيه: استنشدني رسول الله ﷺ من شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته مائة قافية[1].

وقوله: «الصحة والفراغ نعمتان»[2]. رواه البخاري.

وقوله: «استعينوا على الحاجات بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود»[3].

رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة عن معاذ بن جبل رفعه، وأخرجه الخلعي عن علي مرفوعاً، «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان لها».

وقوله: «المكر والخديعة في النار»[4].

رواه الديلمي عن أبي هريرة، ومعناه: أن ذا المكر والخداع لا يكون تقياً ولا خائفاً لله، لأنه إذا مكر غدر، وإذا غدر خدع، وإذا فعلهما أوبق وهذا لا يكون في تقي، فكل خلة جانبت التقى فهي في النار.

---

(١) أخرجه مسلم في الشعر رقم الحديث (١) وابن ماجه في كتاب الأدب باب (٤١) رقم الحديث (٣٧٥٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/٣٨٨ ـ ٣٩٠ وفي الأدب المفرد للبخاري (٢٩١ رقم الحديث ٨٧٢).

(٢) أخرجه البخاري بلفظ آخر في كتاب الرقاق باب (١) رقم الحديث (٦٤١٢) وفي مسند الإمام أحمد ابن حنبل ١/٣٧٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/٣٩٢ وفي الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ١٢٧ وفي تهذيب ابن عساكر ١/٤٤٥ وفي فتح الباري ١١/٢٧٦.

(٣) ذكر بألفاظ متقاربة في: تاريخ جرجان للسهمي ٢٢٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/١٣٥ وفي إتحاف السادة المتقين ٨/٥٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/١٩٥ وفي الموضوعات لابن الجوزي ٢/١٦٥ وحلية الأولياء ٦/٩٦ وفي التمهيد لابن عبد البر ١٠/١٥٢ والدرر المنتثرة للسيوطي ١٤ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/١٢٤٠ وتذكرة الموضوعات للفتني ٢٠٥ واللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/٤٣ وفي المغني للعراقي ٣/١٨٤ وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (٢٢٥٨) وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/١٣٥ وفي كنز العمال (١٦٨٠٠ ـ ١٦٨٠٩).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٦٠٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/١٠٢ وفي الدر المنثور ١/٣٠ وفي تغليق التعليق لابن حجر (٧٥٢) وفي البداية النهاية ٨/١٠٥ والكامل في الضعفاء لابن عدي ٢/٥٨٤ و٦/٢٠٩٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/١٦٩ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/٤٨٦ والترغيب والترهيب للمنذري ٢/٥٧٢ وموارد الظمآن للهيثمي ١١٠٧ وكنز العمال (٤٣٧٢٥). وفي مراسيل أبي داوود ٢٠.

وقوله: «من غشنا فليس منا»[1] رواه مسلم في صحيحه.

وقوله: «المستشار مؤتمن»[2].

رواه أحمد وغيره. ومعناه: أن من أفضى إليك بسره وآمنك على ذات نفسه فقد جعلك بموضع نفسه، فيجب عليك أن لا تشير عليه إلا بما تراه صواباً، فإنه كالأمانة للرجل الذي لا يأمن على إيداع ماله إلا الثقة في نفسه، والسر الذي ربما كان في إذاعته تلف النفس أولى بأن لا يجعل إلا عند الموثوق به.

وقوله: «الندم توبة»[3] رواه الطبراني في الكبير.

وقوله: «الدال على الخير كفاعله»[4].

رواه العسكري وابن جميع، ومن طريقه المنذري عن ابن عباس في حديث مرفوع بلفظ: «وكل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان» والمعنى:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأيمان رقم الحديث (١٦٤) وأحمد بن حنبل في المسند ٣/٤٩٨ والدارمي ٢/٢٤٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/٢٥٥ وفي المستدرك للحاكم ٢/٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/١٦٩ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/٥٧١ ومجمع الزوائد للهيثمي ٤/٧٨ و٧٩ وتفسير القرطبي ٣/٢٥٢ و٧/١٥٠ حلية الأولياء ٤/١٨٩ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/٤١١ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/٢٤٠.

(٢) أخرجه أبو داوود في كتاب الأدب باب (١١٣ ـ ١١٤) رقم الحديث (٥١٢٨) وفي الترمذي (٢٨٢٢ ـ ٢٨٢٣) وابن ماجه (٣٧٤٥ ـ ٣٧٤٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/٢٧٤ وفي الدارمي ٢/٢١٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/١١٢ وفي المستدرك للحاكم ٤/١٣١ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/٤٠٩ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/٩٦، ٩٧ وحلية الأولياء ٦/١٩٠ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٨٧ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/٢٦٠ وفي الدرر المنتثرة ١٤٢ وفي كنز العمال (٢٠٩٤٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب (٣٠) رقم الحديث (٤٢٥٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/٣٧٦ و٤٢٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/١٥٤ وفي المستدرك للحاكم ٤/٢٤٣ وفي مسند الحميدي ١/٥٩ رقم الحديث (١٠٥) وفي شرح السنة للبغوي ٥/٩١ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/٣٥ وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (١٨١٦ ـ ١٨٤١ ـ ١٨٨٩ ـ ١٩١٨) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/١٩٩ وحلية الأولياء ٨/٢٥١ و١٠/٣٩٨ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ١/٢٠٤ و٤/١٣٢٩ وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/٤٣٦.

(٤) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ٦/٢٣٠ و١٧/٢٢٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/١٦٦ و٣/١٧٣. وفي تفسير القرطبي ٦/٤٦. وفي إتحاف السادة المتقين ١/١١٥ و٤/٥٠١ وفي حلية الأولياء ٦/٢٦٦ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/٤٨٠ وفي الدرر المنتثرة (٨٣) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٢/٥٧٣ و٣/١١٤٥، و٥/١٧٤٤ وفي المغني لابن عراقي ١/١٢ والترغيب والترهيب للمنذري ١/١٢٠ وفي كنز العمال (١٦٠٥٢ ـ ١٦٠٥٥ ـ ١٦٣١٩).

أن من دلك على الخير وأرشدك إليه فنلته بإرشاده فكأنه فعل ذلك الخير.

وقوله: «حبك الشيء يعمي ويصم»[1].

رواه أبو داود والعسكري من حديث بقية بن الوليد، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن خالد بن محمد الثقفي عن بلال بن أبي الدرداء عن أبيه مرفوعاً، ولم ينفرد به بقية بل توبع عليه. وابن أبي مريم ضعيف. وقد حكم الصغاني عليه بالوضع. وتعقبه العراقي وقال: إن ابن أبي مريم لم يتهمه أحد بكذب، ويكفينا سكوت أبي داود عليه، فليس بموضوع، بل ولا شديد الضعف، فهو حسن.

قال العسكري: أراد النبي ﷺ أن من الحب ما يعميك عن طريق الرشد، ويصمك عن استماع الحق، وأن الرجل إذا غلب الحب على قلبه ولم يكن له رادع من عقل أو دين أصمه حبه عن العذل وأعماه عن الرشد، ولذا قال بعض الشعراء:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

أشار إليه شيخنا في المقاصد الحسنة.

وقوله ﷺ: «العارية مؤداة والمنحة مردودة والدين مقضي والزعيم غارم»[2]. رواه الترمذي وأبو داود.

وقوله: «سبقك بها عكاشة»[3] رواه البخاري.

---

(1) أخرجه أبو داوود في كتاب الأدب باب (١١٦) رقم الحديث (٥١٣٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٩٤ و٦/ ٤٥٠ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٧٦ و٩/ ٦٨٤ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي ٩/ ٦٨٤ و(٤٩٠٨) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤١٠ وتذكرة الموضوعات للفتني ١٩٩ وفي تنزيه الشريعة ١/ ٤٠٣ وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري ١٧٧ وكنز العمال (٤٤١٠٤) والدرر المنتثرة ٧١ وفي الكامل لابن عدي ٢/ ٤٧٢.

(2) أخرجه أبو داوود في كتاب البيوع باب (٨٨) رقم الحديث (٣٥٦٥) وفي الترمذي (١٢٦٥) وفي ابن ماجه (٢٣٩٨ ـ ٢٣٩٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٦٧ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٨٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ١٦٠ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ١٤٥ وفي شرح السنة للبغوي ٨/ ٢٢٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٩٥٦) وفي سنن الدارقطني (١٦٥) وفي حلية الأولياء ٩/ ١٦٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٦٧ وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري ٢٤٣ وكنز العمال (١٤٥٧٤ ـ ٢٩٨١٣ ـ ٢٩٨١٦).

(3) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب (٥٠) رقم الحديث (٦٥٤١ ـ ٦٥٤٢) وفي مسلم الإيمان باب (٩٤) رقم الحديث (٣٦٧ ـ ٣٧١ ـ ٣٧٤) وفي الترمذي (٢٤٤٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٧١ و٤٠١ و٢/ ٣٠٢ و٤/ ٤٣٦ وفي الدارمي ٢/ ٣٢٨ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٥٧٧ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٦ و١٨/ ١٧٠ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ١٣ وفي إتحاف السادة=

وقوله: «عجب ربك»[1]. من كذا.

روي في عدة روايات عند البخاري وغيره. ومعناه كما قاله ابن الأثير: عظم ذلك عنده وكبر لديه، أعلم الله أنه إنما يتعجب الآدمي من الشيء إذا عظم موقعه عنده وخفي عليه سببه، فأخبرهم بما يعرفون ليعلموا موقع هذه الأشياء عنده.

وقيل معنى عجب ربك أي رضي وأثاب، فسماه عجباً مجازاً وليس بعجب في الحقيقة. والأول أوجه.

وقوله: «قتل صبراً» رواه غير واحد.

وقوله: «ليس المسؤول بأعلم من السائل»[2] رواه مسلم وغيره.

وقوله: «ولا ترفع عصاك عن أهلك أدباً»[3].

رواه أحمد، أي لا تدع تأديبهم وجمعهم على طاعة الله، يقال شق العصا، أي فارق الجماعة، وليس المراد. الضرب بالعصا، ولكنه جعله مثلاً، وقيل: لا تغفل عن أدبهم ومنعهم من الفساد، قاله ابن الأثير.

وقوله: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم»[4].

رواه البخاري، وذكره ابن دريد وقال: إنه من الكلام الفرد الوجيز الذي لم يسبق

---

= المتقين ٤/ ٤٢٤ وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٣٠٠ وفي الدر المنثور ٦/ ١٥٩ وفي الدرر المنتثرة للسيوطي ٩٥.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٨ ـ ٣٠١٠). وفي إتحاف السادة المتقين ٩/ ٦٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٩٦٠) وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٧٦. وفي تفسير القرطبي ٥/ ٧١. وفي كنز العمال (١٠٦٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم الحديث (١) وفي سنن أبي داوود كتاب السنة باب (١٦) رقم الحديث (٤٦٩٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٥١ وفي صحيح البخاري كتاب الإيمان باب (٣٧) رقم الحديث (٥٠ ـ ٤٧٧٧) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٣٢٥ وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٤٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ١٤٩ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٩٥ وفي الدر المنثور ١/ ٢١٠ و٣/ ٦٩ وفي صحيح ابن خزيمة ١/ ٣٠٦٥ وفي موارد الظمآن للهيثمي ١٦ وفي كنز العمال (٣٨ ـ ٤٠ ـ ١٣٥٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٢٣٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٠٥ و٨/ ١٠٦ وحلية الأولياء ٧/ ٣٢٢ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٤١ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٣٩٢ وفي علل الحديث للرازي (١٢٥٤) وفي كنز العمال (٤٤٩٩٦).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الزكاة باب (٤٧) رقم الحديث (١٤٦٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٩١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ١٩٨ والدر المنثور ٦/ ٨.

ﷺ إلى معناه. أي كل ما أنبت الجدول، وإسناد الإنبات إليه مجاز، والمنبت في الحقيقة هو الله تعالى، وليست «من» للتبعيض، وحبطا: بفتح المهملة والموحدة والطاء المهملة أيضاً، وهو انتفاخ البطن من كثرة الأكل حتى ينتفخ فيموت، ويلم: بضم الياء، أي يقرب من الهلاك. وهو مثل للمنهمك في جمع الدنيا، المانع من إخراجها في وجهها.

وقوله ﷺ: «خير المال عين ساهرة لعين نائمة».

ومعناه: عين ماء تجري ليلاً ونهاراً وصاحبها نائم، فجعل دوام جريانها: سهراً لها.

وقوله: «خير مال المرء مهرة مأمورة أو سكة مأبورة»[1].

رواه أحمد والطبراني عن سويد بن هبيرة. ومعنى مأمورة: أي كثيرة النتاج، وسكة مأبورة: أي طريقة مصطفة من النخل، ومنه قيل للأزقة: سكة، والتأبير: تلقيح النخل. انتهى.

وقوله ﷺ: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[2] رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

وقوله: «زر غباً، تزدد حباً»[3].

رواه البزار، والحارث بن أبي أسامة عن أبي هريرة مرفوعاً، وفي بعض أحاديث الباب، أنه قيل له: «يا أبا هريرة أين كنت أمس» قال: زرت ناساً من أهلي، فقال: «يا أبا هريرة زر غباً تزدد حباً».

وقوله: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»[4].

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٤٦٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٢٥٨ وفي فتح الباري ٨/ ٥٠٣.

(٢) أخرجه أبو داود. كتاب العلم باب (١) رقم الحديث (٣٦٤٣). وابن ماجه في المقدمة باب (١٧) رقم الحديث (٢٢٥). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٥٢. وفي موارد الظمآن للهيثمي (٧٨) وفي تفسير القرطبي ١/ ٨.

(٣) ذكره الحاكم في المستدرك ٣/ ٣٤٧، ٤/ ٣٣٠. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٧٥. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٣٦٦. وفي المعجم الكبير للطبراني ٤/ ٢٦. وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ١٦٢ ـ ١٦٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٥٢٨. وفي فتح الباري ١٠/ ٦١١. وفي حلية الأولياء ٣/ ٣٢٢. وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (٩١). وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (٢١٧٢ ـ ٢٤٣١). وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٢٥٣. وفي المطالب العالية لابن حجر (٢٥٩٦). وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ٢٨٨ وفي كنز العمال (٢٤٧٧٨).

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢. وفي فتح الباري ١٠/ ٥٦٢ وفي المطالب العالية لابن حجر

رواه أبو يعلى والبزار من طرق، أحدها حسن بلفظ : إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق.

وقوله: «الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل»[1] رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي.

وقوله: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[2].

رواه البزار والحاكم في علومه، والبيهقي في سننه، كلهم من طريق محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً.

وهو مما اختلف فيه على ابن سوقة في إرساله ووصله، وفي رفعه ووقفه، ثم في الصحابي، أهو جابر أو عائشة أو عمر. ورجح البخاري في تاريخه من حديث ابن المنكدر الإرسال، ومعناه: أنه بقي في طريقه عاجزاً عن مقصده، ولم يقض وطره، وقد أعطب ظهره.

والوغول: الدخول، فكأنه قال: إن هذا الدين ـ مع كونه يسيراً سهلاً شديد، فبالغوا فيه بالعبادة، لكن اجعلوا تلك المبالغة مع رفق، فإن من بالغ بغير رفق وتكلف من العبادة فوق طاقته يوشك أن يمل حتى ينقطع عن الواجبات، فيكون مثله كمثل الذي يعسف الركاب ويحملها على السير على ما لا تطيق رجاء الإسراع، فينقطع ظهره، فلا هو الذي قطع الأرض التي أراد، ولا هو أبقى ظهره سالماً ينتفع به بعد ذلك.

وقوله ﷺ: «من شاد هذا الدين غلبه».

رواه العسكري عن بريدة، وللبخاري من حديث معن بن محمد الغفاري عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا

---

= (٢٥٣٩). وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٢٠ و٧/ ٣٢٠ ـ ٣٣٧. وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٣/ ٤٩.

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٣٨٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٤. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٤١١. وفي كنز العمال (٥١٣٢ ـ ٥١٣٣).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٦٢. وفي فتح الباري ١١/ ٣٥٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ١٨ ـ ١٩. وفي الزهد لابن المبارك (٤١٥) وفي إتحاف السادة المتقين ٤/ ٢٦٤ و٦/ ٣٦٨. وفي الدر المنثور ١/ ٩٢. وفي التمهيد لابن عبد البر ١/ ١٩٥. وفي المغني للعراقي ٤/ ٧٧. وفي كنز العمال (٥٣٥٠ ـ ٥٣٥١).

وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[1].

وقوله: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[2].

رواه الحاكم عن شداد بن أوس، وقال: صحيح على شرط البخاري، وتعقبه الذهبي بأن فيه ابن أبي مريم وهو واه. وكذا رواه العسكري والقضاعي والترمذي وابن ماجه.

وقوله: «ما حاك في نفسك فدعه»[3].

رواه الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة.

وقوله ﷺ: «تنكح المرأة لجمالها ومالها ودينها وحسبها فعليك بذات الدين تربت يداك»[4]. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وقوله: «الشتاء ربيع المؤمن، قصر نهاره فصامه وطال ليله فقامه»[5] رواه البيهقي

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب (٢٩) رقم الحديث (٣٩ ـ ٥٦٧٣ ـ ٦٤٦٣ ـ ٧٢٣٥) وفي إتحاف السادة المتقين ٦/٣٦٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١٢٤٦) وفي جمع الجوامع للسيوطي (٥٤٨٤) وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ١٢١ وفي كنز العمال (٥٣٤٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب (٣١) رقم الحديث (٤٢٦٠) وفي الترمذي كتاب القيامة باب (٢٥) رقم الحديث (٢٤٥٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٢٤ وفي فتح الباري ٩/ ٤٢٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٦٩ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٥٧ و٤/ ٢٥١ وفي المعجم الكبير للطبراني ٧/ ٣٣٨ و٣٤١ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٤٤ و٨/ ٤٢٨ وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٣٠٨ وفي المعجم الصغير للطبراني ٢/ ٣٦ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٢٨٩) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٢٥٢ وفي حلية الأولياء ١/ ٢٦٧ و٨/ ١٧٤ وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١٩٦ وفي المغني للعراقي ٢/ ٣٢٦ و٣/ ٣٦٨ وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (١٢٧).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٥٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ١٣٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ٢٩٨ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٩٨ وفي مصنف عبد الرزاق (٢٠١٠٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه. كتاب النكاح باب (٦) رقم الحديث (١٨٥٨) وفي البخاري. كتاب النكاح باب (١٦) رقم الحديث (٥٠٩٠) وفي أبي داود رقم الحديث (٢٠٤٧). والنسائي. كتاب النكاح باب (١٣). وفي صحيح مسلم كتاب الرضاع رقم الحديث (٥٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤٢٨. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٧٩. وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٤٠. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٠٨٢) وفي حلية الأولياء ٨/ ٣٨٣. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٤٥ وفي سنن الدارقطني ٣/ ٣٠٣ رقم الحديث (٢١٣). وفي المطالب العالية لابن حجر (١٥٧٠) وفي شرح السنة للبغوي ٩/ ٨ وفي المغني للعراقي ٢/ ٣٩. وفي الدر المنثور ١/ ٢٥٧. وفي سنن سعيد ابن منصور (٥٠٦). وفي كنز العمال (٤٤٥٥٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٧٥. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢٩٧. وفي مجمع=

وأحمد وأبو نعيم مختصراً، والعسكري بتمامه، كلهم من حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد، وله شواهد.

وإنما كان الشتاء ربيع المؤمن لأنه يرتع فيه في بساتين الطاعات، ويسرح في ميادين العبادات، ويتنزه قلبه في رياض الأعمال الميسرة فيه من الطاعات، فإن المؤمن يقدر على صيام نهاره من غير مشقة ولا كلفة ولا يحصل له جوع ولا عطش، فإن نهاره قصير بارد فلا يحصل فيه مشقة الصيام.

وقوله: «القناعة مال لا ينفد وكنز لا يفنى»(1).

رواه الطبراني في الأوسط من حديث المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر، والقضاعي بدون: «وكنز لا يفنى» عن أنس.

وفي القناعة أحاديث كثيرة، ولو لم يكن في القنع إلا التمتع بالعز لكفى صاحبه، وكان من دعائه ﷺ: «اللهم قنعني بما رزقتني»(2) وأنشد بعضهم:

ما ذاق طعم الغنى من لا قنوع له ... ولن ترى قانعاً ما عاش مفتقراً

وقوله ﷺ: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد»(3) رواه الطبراني في معجمه الأوسط من حديث أنس.

وقوله ﷺ: «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم»(4).

---

= الزوائد للهيثمي ٣/ ٢٠٠ وفي حلية الأولياء ٥/ ٢٢٤. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ٣١٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٦ ـ ١٤٠. وفي الدرر المنتثرة (٩٧) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/ ٩٨١. وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/ ٢٢٤. وفي كنز العمال (٣٥٢٠٨ ـ ٣٥٢٠٩).

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ١٥١. وفي الدر المنثور ٤/ ١٣٠ وفي أمالي الشجري ٢/ ١٩٨. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٥٠٧ وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (١٨١٣). وفي الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/ ٤٩. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ٥٩٠.

(٢) ذكره الحاكم في المستدرك ١/ ٥١٠ و٢/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧. وفي الدر المنثور ٤/ ١٣٠ وفي تاريخ جرجان للسهمي (٩١). وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١٥١. وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (٢٠٥٢). وفي تلخيص الحبير لابن حجر ٢/ ٢٤٨. وفي جمع الجوامع للسيوطي (١٠٠٣٠).

(٣) ذكره الطبراني في المعجم الصغير ٢/ ٧٨. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٢٦٠. وفي فتح الباري ١١/ ٢٢٠. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣/ ٥٤. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢/ ٢٨٠ و٨/ ٩٦. وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/ ١٦٤ والأسرار المرفوعة لعلي القاري (١٩٥). والدر المنثور للسيوطي (٩٠) ولسان الميزان لابن حجر ٤/ ١٣٤.

(٤) ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٠٦٧) وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ٦١ وفي مجمع=

رواه البيهقي في الشعب، والعسكري في الأمثال، وابن السني[1] والديلمي من طريقه والقضاعي كلهم من حديث نافع عن ابن عمر مرفوعاً. وضعفه البيهقي، لكن له شاهد عند العسكري من حديث خلاد بن عيسى عن ثابت عن أنس رفعه: «الاقتصاد نصف العيش، وحسن الخلق نصف الدين». وكذا أخرجه الطبراني وابن لال. ومن شواهده أيضاً: ما للعسكري عن أنس رفعه: «السؤال نصف العلم، والرفق نصف المعيشة، وما عال امرؤ في اقتصاد» وللديلمي من حديث أبي أمامة رفعه: «السؤال نصف العلم والرفق نصف المعيشة».

وفي صحيح ابن حبان من حديث طويل عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال له: «يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق» وهذا اللفظ عند البيهقي في الشعب. وله أيضاً وللعسكري عن علي مرفوعاً: «التودد نصف الدين، وما عال امرؤ قط على اقتصاد»[2] أي: ما افتقر من أنفق قصداً ولم يجاوزه إلى الإسراف.

وقوله ﷺ: «المؤمن من أمنه الناس»[3]. رواه الترمذي.

وقوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما حرم الله»[4]. متفق عليه عن ابن عمرو، به مرفوعاً، وعن أبي موسى، ومسلم عن جابر.

---

= الزوائد للهيثمي ١/ ١٦٠ والدر المنثور للسيوطي ١٧٨/٤. وكشف الخفاء للعجلوني ١٧٩/١. وعلل الحديث للرازي (٢٣٥٤). وميزان الإعتدال (٨٣٩٩). ولسان الميزان لابن حجر ٤/ ١٣٤ و٦/ ٣٥ وكنز العمال للمتقي الهندي (٥٤٣٤).

(١) هو أحمد بن محمد بن إسحاق بن ابراهيم بن اسباط الدينوري أبو بكر ابن السني (٢٨٤ ـ ٣٦٤ هـ). محدث من تلاميذ النسائي الأعلام ١/ ٢٠٩. طبقات الشافعية ٢/ ٩٦. وشذرات الذهب ٣/ ٤٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٤٣. وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ١٨٠. وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٦٤ و١٦٨.

(٣) أخرجه الترمذي. كتاب الإيمان باب (١٢) رقم الحديث (٢٦٢٧) وابن ماجه رقم الحديث (٢٩٣٤) وفي النسائي. كتاب الإيمان باب (٨). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٧٩ و٣/ ١٥٤ و٦/ ٢٢ وفي المستدرك للحاكم ١/ ١١. وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٥٤. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٥٤ و٣/ ٢٦٨. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٠٨. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٣٥٣. وفي المغني للعراقي ٢/ ١٩٢ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٦). وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٤٤. وفي كنز العمال (٧٤٨).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب (٢٦) رقم الحديث (٦٤٨٤) والترمذي كتاب الإيمان باب (١٢) رقم الحديث (٢٦٢٨). وفي أبي داود رقم الحديث (٢٤٨١) وفي صحيح مسلم كتاب الإيمان رقم الحديث (٦٥ ـ ٦٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ١٦٣ و١٩٥ و٢٠٥ و٢١٢ و٣/ ١٥٤ وفي سنن الدارمي ٢/ ٣٠٠ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٨٧ وفي مسند الحميدي ٢/ ٢٧١ رقم=

وقوله: «قلة العيال أحد اليسارين»[1].

رواه صاحب مسند الفردوس لفظه: «التدبير نصف المعيشة، والتودد نصف العقل والهم نصف الهرم، وقلة العيال أحد اليسارين».

وقوله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»[2].

رواه أبو داود والترمذي من رواية شريك وقيس بن الربيع، كلاهما عن أبي صالح والحارث من رواية الحسن، كلاهما عن أبي هريرة. وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وأخرجه الدارمي في مسنده، والدارقطني والحاكم وقال: إنه صحيح على شرط مسلم، ولكن أعله ابن حزم وكذا ابن القطان والبيهقي. وقال أبو حاتم: إنه منكر، وقال الشافعي: إنه ليس بثابت عند أهله. وقال أحمد: هذا حديث باطل لا أعرفه عن النبي ﷺ من وجه صحيح. قال شيخنا لكن بانضمامها يقوى الحديث. انتهى.

وقوله: «الرضاع يغير الطباع»[3] رواه أبو الشيخ من حديث ابن عمر.

وقوله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»[4]. رواه أحمد وأبو

---

= الحديث (٥٩٥). وفي المستدرك للحاكم ١/ ١٠ و٣/ ٥١٧ وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٣٥٦ و١٨/ ٣٠٩ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٥٣ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٥٤ و٥٦. وحلية الأولياء ٤/ ٣٣٣. وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٤٤ ومشكاة المصابيح للتبريزي ٦/ ٣٣. وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢/ ٤٦١ وفي تغليق التعليق لابن حجر (٢٢). وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥/ ١٣٩. وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٥ ـ ٢٦) وفي كنز العمال (٧٣٨ ـ ٧٣٩ ـ ٧٤٠).

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٧٩ وإتحاف السادة المتقين ٨/ ١٦٥ و٥/ ٢٩١. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١٤٨ وتذكرة الموضوعات للفتني (١٣٢) والمغني عن حمل الأسفار للعراقي ١/ ٢٤. وكنز العمال (٤٤٥٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي كتاب البيوع باب (٣٨) رقم الحديث (١٢٦٤) وفي أبي داود كتاب البيوع باب (٧٩) رقم الحديث (٣٥٣٤ ـ ٣٥٣٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤١٤. وفي سنن الدارقطني ٣/ ٣٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٢٣٤ و٨/ ١٥٠. والمعجم الصغير للطبراني ١/ ١٧١. والسنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٧١. والمستدرك للحاكم ٢/ ٤٦. ومشكاة المصابيح للتبريزي (٢٩٣٤) ومجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ١٤٥. ولسان الميزان لابن حجر ٤/ ١٤٣٧. وميزان الإعتدال (٤٠٢٦). وكشف الخفاء للعجلوني ١/ ٧٥. وحلية الأولياء ٦/ ١٣٢ وفي شرح السنة للبغوي ٨/ ٢٠٦ والدر المنثور ٢/ ١٧٥. والتاريخ الكبير للبخاري ٤/ ٣٦٠. والعلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ١٠٢ و١٠٣. وكنز العمال (٥٤٩٤).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٥١٩. وفي مسند شهاب (٣٥) والأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ٢/ ٢٢ وفي كنز العمال (١٥٦٥٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ١٣٥ و١٥٤ و٢١٠ و٢٥١. وفي المعجم الكبير للطبراني =

يعلى في مسنديهما، والبيهقي في الشعب عن أنس.

وقوله: «النساء حبائل الشيطان»[1] رواه في مسند الفردوس عن عقبة بن عامر.

وقوله ﷺ: «حسن العهد من الإيمان»[2].

رواه الحاكم في مستدركه (عن عائشة قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي فقال لها «من أنت؟» فقالت: جثامة المزينة قال: «أنت حسانة، كيف أنتم، كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا» قالت: بخير بأبي أنت وأمي، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ قال: «إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان»[3] وقال: إنه صحيح على شرط الشيخين وليس له علة.

وقوله ﷺ: «الخمر جماع الإثم»[4].

وقوله ﷺ: «جمال الرجل فصاحة لسانه»[5].

رواه القضاعي من حديث الأوزاعي والعسكري من حديث المنكدر بن محمد بن المنكدر، كلاهما عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً. وأخرجه أيضاً الخطيب وابن طاهر، وفي إسناده أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقي والديلمي من حديث جابر رفعه: «الجمال صواب المقال، والكمال حسن الفعال بالصدق».

---

= ٨/ ٢٣٠. ومجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٩٦. وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ٤٢ و٢/ ١٧٥. وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٨٥ وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٥٥. وشرح السنة للبغوي ١/ ٧٥. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٥) وتاريخ جرجان للسهمي (١٠٥). وفي حلية الأولياء ٣/ ٢٢٠. والترغيب والترهيب للمنذري (٢٤١) وفي موارد الظمآن للهيثمي (٤٧) وكنز العمال (٥٥٠٣).

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٤٣٦. في الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٢٥. وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ٢٨٠ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٢٥٧. وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٣/ ٩٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/ ٤٢. وفي التاريخ الكبير للبخاري ١/ ٣١٥ وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (٧٤) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤١٤ و٤٣١. وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري (١٨٢). وفي كنز العمال (١٠٩٣٧)

(٣) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٣٥. وفي أمالي الشجري ٢/ ١٥٢. وفي الجامع الكبير ٢/ ٧٤١. وفي مسند شهاب (٧٩٢). وفي كنز العمال (٣٤٣٤٤).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٢٥. وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤٦٠. وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/ ٥٤١. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٢١٢). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٢٥٧.

(٥) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٩٩. وفي تذكرة الموضوعات للفتني (٢٠٤). وفي كنز العمال (٢٨٧٧٥).

وعند العسكري من حديث العباس: قلت يا نبي الله ما الجمال في الرجل: قال «فصاحة لسانه».

وقوله ﷺ: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا»[1].

رواه الطبراني في الكبير والقضاعي عن ابن مسعود، وهو عند البيهقي في المدخل: عن القاسم قال: قال ابن مسعود: منهومان لا يشبعان طالب علم وصاحب الدنيا. ولا يستويان، أما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، وأما صاحب العلم فيزداد من رضى الرحمن. وقال: إنه موقوف منقطع. وكذا رواه البزار والعسكري وغيرهما وبمجموعها يتقوى، وإن كانت مفرداته ضعيفة، والله أعلم.

وقوله ﷺ: «لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أكثر من العقل، ولا وحشة أشد من العجب»[2] رواه ابن ماجه.

وقوله ﷺ: «الذنب لا ينسى، والبر لا يبلى، والديان لا يموت، فكن كما شئت»[3] رواه في مسند الفردوس عن ابن عمر.

وقوله ﷺ: «ما جمع شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم»[4].

رواه العسكري في الأمثال من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي مرفوعاً بزيادة: «وأفضل الإيمان التحبب إلى الناس، ثلاث من لم تكن فيه فليس مني ولا من الله، حلم يرد به جهل الجاهل، وحسن خلق يعيش به في الناس، عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله تعالى بها عزاً».

وعنده أيضاً من حديث جابر مرفوعاً: «ما أوى شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، وصاحب العلم غرثان إلى حلم».

---

(١) ذكره الحاكم في المستدرك ١/ ٩٢. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٢٢٣. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٣٩٨. وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/ ١٥٨ و٢٤٢. وفي تذكرة الموضوعات للفتني (٢١ ـ ١٧٧) وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري (٩٥) وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ٨٦، و٨٧. والدرر المنتثرة للسيوطي (١٦٢) وفي تفسير ابن كثير ٨/ ٤٥٩. وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٣/ ٢٣٢ و٢٧٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٦٠) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٣٥. وفي كنز العمال (٢٨٩٣٢ ـ ٢٨٩٣٣ ـ ٤٤١١٣ ـ ٢٨٩٣٤).

(٢) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٦٨. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٩٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢٨٣. وفي حلية الأولياء ٢/ ٣٦. وفي البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ٤١. وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤/ ٢٢١. وفي كنز العمال (٤٤١٣٥ ـ ٤٤٢٣٧ ـ ٤٤٣٨٩).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ١٨٣.

(٤) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٤١٦ و٤١٧ و٤٥٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٢١.

وقوله ﷺ: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض»[1].

رواه في جزء ب ي ب ي [2] عن ابن أبي شريح والمراد الزرع، وأنشدوا:

تتبــع خبــايــا الأرض وادع مليكهــا    لعلــك يــومــاً أن تجــاب فتــرزقــا

وقوله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك في أهل القبور»[3] رواه البيهقي في الشعب والعسكري من حديث ابن عمر مرفوعاً: وأخرجه البخاري والترمذي وغيرهم.

وقوله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفىء غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»[4]. خرج الطبراني في الكبير بسند حسن.

وقول ﷺ: «العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، والتواضع لا يزيده إلا رفعة. وما نقص مال من صدقة»[5].

وروى مسلم: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[6].

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/٢٠٣. وفي كنز العمال (٩٣٠٣).

(٢) كذا بخط المصنف مقطع الحروف وهي بنت عبد الصمد بن علي بن محمد الهرثمية وجزؤها من عوالي الأجزاء.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب (٣) رقم الحديث (٦٤١٦). وفي الترمذي رقم الحديث (٢٣٣٣). . وفي سنن ابن ماجه (٤١١٤) وفي شرح السنة للبغوي ١٤/٢٣١. وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/٢٣٦. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/٣٩٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٢٧٤). وفي التاريخ الصغير للطبراني ١/٣٠. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/١٩٤. وفي حلية الأولياء ١/٣١٣ و٣/٣٠١. وفي الزهد لابن المبارك (٥). وفي آمالي الشجري ٢/١٩٣. وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/١٧٤. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤/٩٦ و١٣/٤٧٣. وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/٣١٩.

(٤) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ٨/٣١٢. وفي الدر المنثور للسيوطي ١/٣٥٤ و٣/٢٥٦. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/١١٥ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٩ و٤٢. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/٣٠ وفي مسند شهاب (١٠١ ـ ١٠٢) وفي كنز العمال (١٥٩٦٥ ـ ١٥٩٦٦ ـ ١٥٩٧٣).

(٥) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/٣٩ و٣٥٣.

(٦) أخرجه الترمذي. كتاب البر والصلة باب (٨٢) رقم الحديث (٢٠٢٩) وفي صحيح مسلم. كتاب البر والصلة رقم الحديث (٦٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/٢٣٥ ـ ٣٨٦. وفي سنن الدارمي. كتاب الزكاة رقم الحديث (٣٤) وفي المعجم الكبير للطبراني ١١/٤٠٥. وفي شرح السنة للبغوي ٦/١٣٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/٢٣٥ و٤/١٨٧. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/١١٠ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/٥، ٣/٣٠٧ وفي كنز العمال (١٥٧٦٧).

وروى القضاعي عن أبي سلمة عن أم سلمة مرفوعاً: «ما نقص مال من صدقة ولا عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله تعالى بها عزاً».

وروى الديلمي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «والذي نفس محمد بيده لا ينقص مال من صدقة» رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

وقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي ومن شر منيي»[1] أخرجه أبو داود في جامعه والحاكم في مستدركه عن شكل.

وقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من شر فتنة الغنى»[2] رواه الترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه.

وقوله ﷺ: «إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل قادر، يحق فيها الحق ويبطل الباطل، فكونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء الدنيا. فإن كل أم يتبعها ولدها»[3] رواه أبو نعيم في الحلية من حديث شداد.

وقوله ﷺ: «أخسر الناس صفقة من أذهب آخرته بدنيا غيره»[4]. وعند ابن النجار من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه وهو مما بيض له الديلمي: «أخسر الناس صفقة رجل أخلق يديه في آماله ولم تساعده الأيام على أمنيته، فخرج من الدنيا بغير زاد وقدم على الله بغير حجة».

وقوله ﷺ: «إن من كنوز البر كتمان المصائب»

وقوله ﷺ: «اليمين حنث أو ندم».

---

(١) أخرجه الترمذي. كتاب الدعوات باب (٧٤) رقم الحديث (٣٤٩٢). وفي أبي داود. كتاب الصلاة باب (٣٢) رقم الحديث (١٥٥١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٢٩. وفي المستدرك للحاكم ١/ ٥٣٢. وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٨٥ ـ ٣٠٣. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٩١٢) وفي المغني للعراقي ١/ ٣٢٥. وفي مكارم الأخلاق للخرائطي (٩٤) وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ١٩٣ و١٥/ ١٣٠ وفي كنز العمال (٣٦٤١ ـ ٣٧١١).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الدعوات باب (٣٩) رقم الحديث (٦٣٦٨) وفي صحيح مسلم كتاب الذكر رقم الحديث (٤٩) وفي الترمذي كتاب الدعوات باب (٧٦) رقم الحديث (٣٤٩٥). وابن ماجه. كتاب الدعاء باب (٣) رقم الحديث (٣٨٣٨). وفي أمالي الشجري ٢/ ٢١١.

(٣) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٢١٦ وفي مسند الشافعي (٦٧) وفي ميزان الإعتدال (٣٢٠٨).

(٤) ذكره السيوطي في جمع الجوامع (٨٣١).

رواه أبو يعلى وابن ماجه إلا أنه قال: «إنما الحلف»[1].

وقوله ﷺ: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك»[2]. رواه الترمذي من حديث مكحول عن واثلة، وقال: حسن غريب، وهو عند الطبراني أيضاً، وفي رواية لابن أبي الدنيا: «فيرحمه الله» بدل: فيعاقبه الله. وروى الترمذي مرفوعاً: «من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله»[3].

وقوله ﷺ لأبي هريرة «جف القلم بما أنت لاق»[4].

قال صاحب فتح المنة بشرح الأخبار لمحيي السنة: هو كناية عن جريان القلم بالمقادير وإمضائها والفراغ منها، فإن الفراغ بعد الشروع يستلزم جفاف القلم عن مداده، فهو من إطلاق اللازم على الملزوم، وهذا اللفظ لم يوجد في كلام العرب، بل هو من الألفاظ التي لم يهتد إليها البلغاء، بل اقتضتها الفصاحة النبوية.

وقوله ﷺ: «اليوم الرهان وغداً السباق والغاية الجنة والهالك من دخل النار»[5].

وقوله ﷺ: «من ضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه ضمنت له على الله الجنة»[6].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الكفارات باب (٥) رقم الحديث (٢١٠٣) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤٣٧ و٢/ ٥٥٨ ومسند الشهاب (١١٦٩) وفي موارد الظمآن للهيثمي (١١٧٥) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٨٧ وفي المعجم الصغير للطبراني ٢/ ١١٢ وفي ميزان الإعتدال (١١٧٩) وفي كنز العمال (٤٦٣٩٧).

(٢) رواه الترمذي كتاب صفة القيامة باب (٥٤) رقم الحديث (٢٥٠٦) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٤١ وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/ ٢٢٨ وفي الدرر المنتثرة (١٧٨) وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٣ وفي تذكرة الموضوعات لابن القيسراني (٩٥٤) وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٩٨ وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (٢٦٥) وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٣٦٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣١١) وفي الحاوي للفتاوي ١/ ٥٥٦ وحلية الأولياء ٥/ ١٨٦ وفي تذكرة الموضوعات للفتني ٢١٧ وفي المغني للعراقي ٣/ ١٨٤.

(٣) أخرجه الترمذي كتاب القيامة باب (٥٣) رقم الحديث (٢٥٠٥) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٨٥٥) وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٣٦٥ وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٤٠ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٧١) وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٢٩٥ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٣١٠ وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/ ١٥٧ وفي الموضوعات لابن الجوزي ٣/ ٨٢ وفي المغني للعراقي ٣/ ١٢٨ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٠٤ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٦/ ٢١٨١.

(٤) أخرجه البخاري كتاب القدر باب (٢) رقم الحديث (٦٥٩٦ ـ ٧٥٥١) وفي فتح الباري ١١/ ٦٠١ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٣٩٣.

(٥) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١١٩.

(٦) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٠٠ وفي كنز العمال (٤٣٢٠٥).

رواه جماعة، منهم العسكري عن جابر، وفي البخاري والترمذي عن سهل بن سعد بلفظ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة». والمراد بما بين لحييه: اللسان وما يأتي به النطق، وما بين رجليه: الفرج، وقال الداودي: المراد بما بين اللحيين: الفم، فيتناول الأقوال والأكل والشرب وسائر ما يأتي بالفم.

وفي لفظ: «من توكل لي ما بين فقميه ورجليه أتوكل له بالجنة». والفقم: بالضم والفتح: اللحى.

وفي لفظ آخر: «من تكفل لي تكفلت له».

وللديلمي ـ بسند ضعيف ـ عن أنس رفعه: «من وُقي شر قبقبه وذبذبه ولقلقه وجبت له الجنة» ولفظ الإجياء: وقي يعني البطن من القبقبة، وهو صوت يسمع في البطن، وكأنها حكاية ذلك الصوت، ويجوز أن يكون كناية عن أكل الحرام وشبهه، والذكر واللسان.

فهذا وأشباهه، مما يعسر استقصاؤه. يدلك على ذلك أنه ﷺ قد رقى من الفصاحة وجوامع الكلم درجة لا يقاس بها غيره، وحاز مرتبة لا يقدر فيها قدره صلى الله عليه وسلم.

ومما عد من وجوه بلاغته: ما ذكر أنه جمع متفرقات الشرائع وقواعد الإسلام في أربعة أحاديث وهي:

حديث «إنما الأعمال بالنية» رواه الشيخان.
وحديث «الحلال بين والحرام بين»[1] رواه مسلم.
وحديث «البينة على المدعي واليمين على من أنكر»[2].
وحديث «لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[3] رواه الشيخان.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساقاة رقم الحديث (١٠٨) والترمذي (١٢٠٥) وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٣٢٤ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٧٦٢) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٤٥٤ وفي مسند أبي حنيفة (١٢٠) وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٠١ وفي الكامل لابن عدي ٤/ ١٦٢٩.

(٢) أخرجه الترمذي كتاب الأحكام باب (١٢) رقم الحديث (١٣٤١) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٢٧٩ وفي شرح السنة للبغوي ١٠/ ١٠١ وفي المطالب العالية لابن حجر (١٢٣٠) وفي تلخيص الحبير لابن حجر ٤/ ٣٩ و٢٠٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٧٦٩) وفي نصب الراية للزيلعي ٤/ ٩٥ وفي سنن الدارقطني ٤/ ١٥٧ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٤٢ وفي جمع الجوامع للسيوطي (١٠٣٧) وفي كنز العمال (١٥٢٨٢ ـ ١٥٢٨٣).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب (٧) رقم الحديث (١٣) بلفظ: «لا يؤمن أحدكم» وفي مسلم=

فالحديث الأول: يشتمل على ربع العبادات.

والثاني: على ربع المعاملات.

والثالث: على ربع الحكومات وفصل الخصومات.

والرابع: على ربع الآداب والمناصفات ويدخل تحته التحذيز من الجنايات. قاله ابن المنير.

ومما عدَّ أيضاً من أنواع بلاغته كلامه ﷺ مع كل ذي لغة بليغة بلغته انساعاً في الفصاحة، واستحداثاً للألفة، فكان ﷺ يخاطب أهل الحضر وبكلام ألين من الدهن وأرق من المزن، ويخاطب أهل البدو بكلام أرسى من الهضب وأرهف من العضب.

فانظر إلى دعائه لأهل المدينة وقد سألوه ذلك فقال: «اللهم بارك لهم في مكيالهم وبارك لهم في صاعهم ومدهم»[1] وفي حديث آخر: «اللهم بارك لنا في تمرنا وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا. اللهم إني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك إبراهيم لمكة ومثله معه».

ثم انظر دعاءه لبني نهد وقد وفدوا عليه في جملة الوفود، فقام طهفة بن رهم النهدي يشكو الجدب فقال: أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة، بأكـوار الميـس، ترتمي بنا العيس، نستحلب الصبير، ونستخلب الخبير، ونستعضد البرير، ونستخيل الرهام، ونستجيل الجهام، من أرض غائلة النطا، غليطة الوطا، قد نشف المدهن، ويبس الجعثن، وسقط الأملوج، ومات العسلوج، وهلك الهدي، ومات الودي، برئنا إليك يا رسول الله من الوثن والعنن وما يحدث الزمن، لنا دعوة السلام وشريعة الإسلام، ما طمى البحر وقام تعار، ولنا نعم همل، أغفال ما تبل ببلال، ووقير كثير الرسل، قليل الرسل، أصابتها سنية حمراء مؤزلة، وليس لها علل ولا نهل.

---

= كتاب الإيمان باب (١٧) رقم الحديث (٧١) وفي الترمذي (٢٥١٥) وفي النسائي ٨/ ١١٥ و١٢٥ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٧٦ وفي سنن الدارمي ٢/ ٣٠٧ وفي إتحاف السادة المتقين. ٦/ ٢٩١ و٧/ ٣٥٨ و٥٣٠ وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٦٠ وفي مسند أبي عوانة ١/ ٣٣ والترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٥٧٨ وفي كنز العمال (٩٤ ـ ٩٦) وفي ابن ماجه (٦٦).

(١) أخرجه البخاري كتاب البيوع باب (٥٣) رقم الحديث (٢١٣٠ ـ ٦٧١٤ ـ ٧٣٣١) وفي مسلم كتاب الحج رقم الحديث (٤٦٢ ـ ٤٦٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٥٩ وفي سنن الدارمي ٢/ ٢٥٧ وفي موطأ الإمام مالك رقم الحديث (٨٨٥) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٣٠٤ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٦٩٩) وفي التمهيد لابن عبد البر ١/ ٢٧٨ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/ ٩٧ وفي كنز العمال (٣٤٨٧٦).

فقال لهم رسول الله ﷺ: «اللهم بارك لهم في محصنها ومخضها ومذقها، وابعث راعيها في الدثر بيانع الثمر، وافجر له الثمد، وبارك له في المال والولد، من أقام الصلاة كان مسلماً، ومن آتى الزكاة كان محسناً، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً، لكم يا بني نهد ودائع الشرك، ووضائع الملك، لا تلطط في الزكاة، ولا تلحد في الحياة، ولا تتثاقل عن الصلاة»[1].

ثم كتب معه كتاباً إلى بني نهد: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى بني نهد بن زيد، السلام على من آمن بالله عز وجل ورسوله، لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة، ولكم الفارض والفريش، وذو العنان الركوب، والفلو الضبيس، لا يمنع سرحكم، لا يعضد طلحكم، ولا يحبس دركم ما لم تضمروا الإماق، وتأكلوا الرباق، من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبي فعليه الربوة».
وتحتاج هذه الألفاظ البالغة أعلى أنواع البلاغة إلى تفسير:

فالميس: شجر صلب تعمل منه أكوار الإبل ورحالها. نستحلب ـ بالحاء المهملة ـ الصبير: بفتح الصاد المهملة وكسر الموحدة، وهو سحاب أبيض متراكب متكاثف. أي نستدر السحاب. ونستخلب ـ بالخاء المعجمة ـ الخبير: بالخاء المعجمة أيضاً ثم الموحدة: النبات والعشب، شبه بخبير الإبل وهو وبرها، واستخلابه: احتشاشه بالمخلب وهو المنجل، والخبير: يقع على الوبر والزرع والأكار قاله ابن الأثير.

ونستعضد البرير: أي نقطعه ونجنيه من شجره للأكل، هـو بموحدة وراءين بينهما مثناة تحتية، ثمر الأراك إذا اسود وبلغ، وقيل: وهو اسم له في كل حال، وكانوا يأكلونه في الجدب. ونستخبل ـ بالخاء المعجمة ـ الرهام: بكسر الراء، وهي الأمطار الضعيفة، واحدتها رهمة، أي نتخيل الماء في السحاب القليل، وقيل: الرهمة أشد وقعاً من الديمة. ونستجيل: بالجيم، أي نراه جائلاً تذهب به الريح ها هنا وها هنا. والجهام: بالجيم، أي السحاب الذي فرغ ماؤه. ومن روى نستخيل ـ بالخاء المعجمة ـ فهو نستفعل من «خلت، أخال» إذا ظننت، أراد لا نتخيل في السحاب حالاً إلا المطر وإن كان جهاماً لشدة حاجتنا إليه، ومن رواه بالحاء المهملة ـ وهو الأشهر ـ أراد: لا ننظر من السحاب في حال إلا جهام من قلة المطر.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/١٧٩ والسيوطي في جمع الجوامع (٩٩٢٧) وفي الشفا ١/٧٢ وفي كنز العمال (٢١٦٠٧ ـ ٣٠٣١٧ ـ ٣٠٣٢٥). وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣٢٧ وأبو نعيم في معرفة الصحابة، والديلمي في مسند الفردوس من حديث عمران بن حصين وأبو نعيم من حديث حذيفة بن اليمان.

وأرض غائلة ـ بالغين المعجمة ـ والنطا ـ بكسر النون ـ أي مهلكة للبعد، يقال: بلد نطي، أي بعيد، ويروى المطي وهو مفعل منه. والمدهن: نقرة في الجبل. والجعثن: بالجيم والمثلثة، أصل النبات، ويقال: أصل الصليان خاصة وهو نبت معروف. والعسلوج: بضم العين وبالسين المهملتين، آخره جيم، وهو الغصن إذا يبس وذهبت طراوته، وقيل: هو القضيب الحديث الطلوع، يريد أن الأغصان يبست وهلكت من الجدب، وجمعه: عساليج.

والأملوج: بالضم والجيم، ورق شجر يشبه الطرفاء والسرو، وقيل: هو ضرب من النبات ورقه كالعيدان، وقيل: هو نوى المقل. وفي رواية: وسقط الأملوج من البكارة ـ بالكسر ـ جمع البكرة ـ بالفتح ـ يريد أن السمن الذي قد علا بكارة الإبل بما رعت من هذه الشجرة قد سقط عنها، فسماه باسم المرعى، إذ كان سبباً له.

وهلك الهدي: بفتح الهاء وكسر الدال المهملة والتشديد، كالهدي بالتخفيف، وهو ما يهدى إلى البيت الحرام من النعم لتنحر، فأطلق على جميع الإبل لم وإن لم تكن هديا، تسمية للشيء ببعضه، يقال: كم هدي بني فلان؟ أي كم إبلهم.

ومات الودي: بالتشديد، فسيل النخل، يريد هلكت الإبل ويبست النخيل. وبرئنا إليك من الوثن والعنن: الوثن: الصنم، والعنن، الاعتراض، يقال: عنّ لي الشيء أي اعترض، كأنه قال: برئنا إليك من الشرك والظلم، وقيل: أراد به الخلاف والباطل. وما طمى البحر: أي ارتفع بأمواجه. وتعار: بكسر التاء المثناة الفوقية، يصرف ولا يصرف، اسم جبل. ولنا نعم همل: أي مهملة لا رعاء لها، ولا فيها ما يصلحها ويهديها، فهي كالضالة. والإبل الأغفال: لا لبن فيها.

وقوله عليه الصلاة والسلام. في محضها: بالحاء المهملة والضاد المعجمة، أي خالص لبنها.

ومخضها: بالمعجمة، ما مخض من اللبن وأخذ زبده. ومذقها: بفتح الميم وسكون المعجمة وبالقاف، أي ممزوج بالماء.

وابعث راعيها في الدثر: بالمهملة المفتوحة ثم المثلثة الساكنة ثم الراء، المال الكثير، وقيل: الخصب والنبات الكثير.

وافجر له الثمد: بفتح المثلثة، الماء القليل، أي صيره كثيراً.

وودائع الشرك: قيل المراد بها العهود والمواثيق، يقال: توادع الفريقان، إذا أعطى كل واحد منهم عهده للآخر لا يغزوه، وقيل: ما كانوا استودعوه من أموال الكفار الذين

لم يدخلوا في الإسلام، أراد إحلالها لهم لأنها مال كافر قدر عليه من غير عهد ولا شرط.

ووضائع الملك: جمع وضيعة، وهي الوظيفة التي تكون على الملك، وهي ما يلزم الناس في أموالهم من الزكاة والصدقة، أي لكم الوظائف التي تلزم المسلمين لا تتجاوز عنكم ولا نزيد عليكم فيها شيئاً.

ولا تلطط، بضم المثناة الفوقية، ثم اللام الساكنة ثم طاءان، الأولى مكسورة والثانية مجزومة على النهي، أي لا تمنعها. ولا تلحد في الحياة: بضم المثناة الفوقية وإسكان اللام وكسر الحاء المهلمة آخره دال مهملة، أي: لا تمل عن الحق ما دمت حياً. قال بعضهم: كذا رواه القتيبي: لا تلطط ولا تلحد على النهي للواحد، ولا وجه له لأنه خطاب للجماعة، ورواه غيره ما لم يكن عهد ولا موعد ولا تثاقل عن الصلاة، ولا تلطط في الزكاة ولا تلحد في الحياة. قال الحافظ أبو السعادات الجزري، وهو الوجه، لأنه خطاب للجماعة واقع على ما قبله.

وقوله: «ولا نتثاقل عن الصلاة» أي لا نتخلف. والوظيفة: الحق الواجب. والفريضة: أي الهرمة المسنة، أي لا تأخذ في الصدقات هذا الصنف كما أنا لا نأخذ خيار المال.

والفارض: ـ بالفاء والضاد المعجمة ـ المريضة. والفريش: بفتح الفاء آخره شين معجمة، وهي من الإبل كالنفساء من بنات آدم، أي لكم خيار المال وشراره، ولنا وسطه. وذون العنان: بكسر العين، سير اللجام. والركوب: بفتح الراء، أي الفرس الذلول. والضبيس، بفتح المعجمة وكسر الموحدة آخره مهملة، المهر العسر الصعب. امتن عليهم بترك الصدقة في الخيل جيدها ورديئها. ولا يمنع ـ بضم المثناة التحتية وفتح النون ـ، سرحكم ـ بفتح السين المهملة وسكون الراء وبالحاء المهملة ـ ما سرح من المواشي، أي لا يدخل عليكم أحد في مراعيكم. ولا يعضد طلحكم: أي لا يقطع. ولا يحبس دركم: أي لا تحبس ذوات الدر عن المرعى إلى أن تجمع الماشية ثم تعد، أو أنا منعناه أن يأخذها لما في ذلك من الإضرار.

والإماق: بالميم، أي ما لم تضمروا الغيظ، والبكاء، مما يلزمكم من الصدقة، قاله في القاموس. وقال الزمخشري: المراد إضمار الكفر والعمل على ترك الاستبصار في دين الله، وفي رواية: الرماق ـ بالراء والميم ـ أي النفاق، يقال: رامقته رماقاً، وهو أن تنظر إليه شزراً نظرة العداوة، يعني ما لم تضق قلوبكم عن الحق، يقال: عيش رماق، أي ضيق، وعيش رمق ومرمق: أي يمسك الروح، والرمق: بقية الروح وآخر النفس.

وتأكلوا الرباق: ـ بكسر الراء وبالموحدة المخففة ـ أي إلا أن تنقضوا العهد، واستعار الأكل لنقض العهد لأن البهيمة إذا أكلت الربق ـ وهو الحبل تجعل فيه عرى وتشد به ـ خلصت من الرباط.

والربوة: ـ بكسر الراء وفتحها وضمها ـ أي الزيادة. يعني: من تقاعد عن إعطاء الزكاة فعليه الزيادة في الفريضة عقوبة له.

فانظر إلى هذا الدعاء والكتاب الذي انطبق على لغتهم، وجاد وزاد عليها في الجزالة والبداوة وأين هذا من كتابه ﷺ لأنس في الصدقة، وأين ذلك من كتابه بين قريش والأنصا [١] أنهم أمة واحدة دون الناس من قريش على رباعتهم، يتعاقلون بينهم معاقلهم الأول ، ويفكون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين المتقين أيديهم على من بغى عليهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، وأن سلم المؤمنين واحد على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضاً، ومن اعتبط مؤمناً قتلاً فهو قود إلا أن يرضى ولي المقتول، ومن ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن. كذا روي مختصراً من حديث ابن شطب.

وقوله: «دسيعة ظلم» أي عظيمة من الظلم. ورباعتهم: أمرهم القديم الذي كانوا عليه. ويتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى: أي يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها، وهو تفاعل من العقل، والمعاقل الديات، جمع معقلة، يقال: بنو فلان على معاقلهم التي كانوا عليها، أي مراتبهم وحالتهم.

ولا يوتغ: أي لا يهلك. ويعقب بعضهم بعضاً: أي يكون الغزو بينهم نوباً، فإذا خرجت طائفة ثم عادت لم تكلف أن تعود ثانية حتى يعقبها غيرها. وأين هذا اللين في القول، وقرب المأخذ في اللفظ على طريق الحاضرة وعرف الجمهور المشهور من كتابه لذي المشعار الهمداني، لما لقيه وفد همدان مقدمه من تبوك، فقال مالك بن نمط: يا رسول الله، نصية من همدان من كل حاضر وباد، أتوك على قلص نواج، متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم، من مخلاف خارف ويام لا ينقض عهدهم عن سنة ماحل، ولا سوداء عنقفير، ما قام لعلع، وما جرى اليعفور بصلع.

فكتب إليهم النبي ﷺ: هذا كتاب من محمد رسول الله لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحفاف الرمل، مع وافدها ذي المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ١٤٦/٢ والبداية والنهاية ٢٢٣/٣ والمنتظم ٧٠/٣ وطبقات ابن سعد ١٨٣/١.

قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها، ويرعون عفاها[1] لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب والناب والفصيل والفارض والداجن والكبس الحوري، وعليهم فيها المصالغ والقارح.

وقوله نصية من كل حاضر وباد قال ابن الأثير: النصية من ينتصي من القوم أي يختار من نواصيهم، وهم الرؤوس والأشراف، ويقال للأشراف: نواص، كما يقال للأتباع أذناب. وأتوك على قلص: بضم القاف واللام، جمع قلوص، وهي الناقة الشابة. والنواج: السراع.

وقوله متصلة بحبائل الإسلام أي عهوده وأسبابه. وخارف: بالخاء المعجمة. ويام: بالمثناة التحتية: قبيلتان. ولا ينقض عهدهم عن سنة ماحل: أي لا ينقض عهدهم بسعي ساع أي بالنميمة والإفساد، كما يقال: لا أفسد ما بيني وبينك بمذاهب الأشرار وطرقهم في الفساد. والسنة: الطريقة، والسنن أيضاً. والعنقفير: بفتح العين المهملة وسكون النون وتقديم القاف، الداهية. أي لا ينقض عهدهم بسعى الواشي ولا بداهية تنزل. ولعلع: جبل.

وما جرى اليعفور: بفتح التحتية، الخشف وولد البقرة الوحشية، وقيل: هو تيس الظباء، والجمع: اليعافير، والياء: زائدة. وبصلع: بضم الصاد المهملة وتشديد اللام، الأرض التي لا نبات فيها. وقوله عليه الصلاة والسلام: «وأهل الجناب الهضب» بكسر الجيم، اسم موضع. و«حفاف الرمل» أسماء بلادهم. «وفراعها» بكسر الفاء وبراء وعين مهملة، أي ما علا من الجبال أو الأرض. «ووهاطها» بكسر الواو، وبطاء مهملة، المواضع المطمئنة، واحدها وهط، وبه سمي الوهط، وهو مال كان لعمرو بن العاص بالطائف. وقيل الوهط: قرية بالطائف كان الكرم المذكور بها.

«وعزازها» بفتح العين المهملة ثم زاءين مخففتين، ما صلب من الأرض واشتد وخشن، وإنما يكون في أطرافها.

«ويأكلون علافها» بكسر العين المهملة وتخفيف اللام وبالفاء، جمع علف، وهو ما تأكله الماشية. «وعفاها» بفتح وتخفيف الفاء وبالمد، أي المباح. «ومن دفئهم» بكسر الدال المهملة وسكون الفاء وبالهمز. قال في المجمل: نتاج الإبل وألباها والانتفاع بها. «وصرامهم» بكسر الصاد المهملة وتخفيف الراء، أي من نخلهم. والثلب: بكسر المثلثة

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ٤/ ٢٤٥.

واللام الساكنة وبباء موحدة، ما هرم من ذكور الإبل وتكسرت أسنانه. والناب: بالنون والموحدة: الناقة الهرمة التي طال نابها. والفصيل: بالمهملة الذي انفصل عن أمه. والفارض: بالفاء المسن من الإبل. والداجن: بالمهملة والجيم، الدابة التي تألف البيوت.

والكبش الحوري: بالحاء المهملة، وواو مفتوحتين فراء مسكورة: الذي في صوفه حمرة. والصالغ: بالصاد المهملة والغين المعجمة، من صلغت الشاة ونحوها: إذا تمت أسنانها. والقارح: بالقاف والراء والحاء المهملة، من الخيل الذي دخل في السنة الخامسة. انتهى.

وهذا على جنس كتابه لقطن بن حارثة العليمي من كلب:

هذا كتاب من محمد لعمائر كلب وأحلافها، ومن ظأره الإسلام من غيرهم مع قطن ابن حارثة العليمي، بإقام الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة بحقها في شدة عقدها ووفاء عهدها، بمحضر من شهود المسلمين، وسمى جماعة منهم دحية بن خليفة الكلبي، عليهم من الهمولة الراعية البساط الظئار في كل خمسين ناقة غير ذات عوار، والحمولة المائرة لهم لاغية، وفي الشوي الوري مسنة حامل أو حائل، وفيما سقى الجدول من العين المعين العشر، وفي العشري شطره بقيمة الأمين لا يزاد عليهم وظيفة ولا يفرق. شهد على ذلك الله ورسوله، وكتب ثابت بن قيس بن شماس.

وتفسير غريبه أن قوله: ومن ظأره الإسلام: بالظاء المعجمة والهمز، آخره هاء أي: عطف عليه وعليهم. في الهمولة: بفتح الهاء، التي ترعى بأنفسها. ولا تستعمل فعولة بمعنى مفعولة. والبساط: التي معها أولادها. والظئار: أن تعطف الناقة على غير ولدها. والحمولة المائرة لهم لاغية: يعني أن الإبل التي تحمل عليها الميرة - وهي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع - لا يؤخذ منها زكاة لأنها عوامل.

وفي الشوي: بفتح الشين المعجمة وكسر الواو والياء المشددة: اسم جمع للشاة. والوري: السمينة. ومن هذا النمط كتابه ﷺ لوائل بن حجر - بتقديم الحاء المضمومة على الجيم الساكنة - إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب، وذكر الفرائض فقال: في التيعة شاة لا مقورة الألياط ولا ضناك، وأنطوا الثبجة وفي السيوب الخمس، ومن زنى مم بكر فاصقعوه مائة واستوفضوه عاماً، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم، ولا توصيم في الدين، ولا غمة في فرائض الله، وكل مسكر حرام، ووائل بن حجر يترفل على الأقيال.

وفسر الأقيال ـ وهو بالقاف والمثناة التحتية ـ بالرؤساء الذين دون الملوك. والعباهلة: بالمهملة المفتوحة والموحدة، الذين أقروا على ملكهم لا يزالون. والأوراع: ـ بفتح الهمزة وسكون الراء آخره عين مهملة ـ جمع رائع، وهم ذوو الهيئآت الحسان الوجوه. والمشابيب: ـ بفتح الميم والشين المعجمة وباءين موحدتين بينهما مثناة تحتية ساكنة ـ السادة الرؤوس، الحسان الوجوه. وفي التيعة: ـ بكسر المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتية وبالعين المهملة ـ أربعون من الغنم. وفي القاموس والنهاية: أدنى ما تجب فيه الصدقة من الحيوان. ولا مقورة: بضم الميم وفتح القاف وتشديد الواو.

والألياط: ـ بفتح الهمزة وسكون اللام آخرها طاء مهملة ـ أي: لا مسترخية الجلود لكونها هزيلة. ولا ضناك: ـ بكس المعجمة وتخفيف النون ـ ضدها وهي المستكثرة اللحم. وأنطوا: بقطع الهمزة أي أعطوا. والثبجة: بالمثلثة ثم موحدة ثم جيم مفتوحات، وقد تكسر الموحدة، أي أعطوا الوسط في الصدقة لا من خيار المال ولا من رذالته. والسيوب: ـ بضم المهملة وآخره موحدة ـ أي: الركاز، قاله الهروي، وقيل: المال المدفون في الجاهلية أو المعدن.

ومن زنى مم بكر: ـ بكسر الراء بلا تنوين، لأن أصله من البكر، لكن أهل اليمن يبدلون لام التعريف ميماً، وهي ساكنة فأدغمت النون فيها، والمراد بالبكر الجنس، وقال ابن الأثير: أي من بكر ومن ثيب، فقلبت النون الساكنة ميماً، أما مع بكر فلأن النون إذا سكنت قبل الباء فإنها تقلب ميماً في النطق، نحو: عنبر وشنبا، وأما مع غير الباء فإنها لغة يمانية، كما يبدلون الميم من لام التعريف. انتهى.

و: فاصقعوه: بهمزة وصل وإسكان الصاد المهملة، وفتح القاف وضم العين المهملة، أي: اضربوه. واستوفضوه: بهمزة وصل وكسر الفاء وضم الضاد المعجمة، أي: غربوه وانفوه. وفضرجوه: بالضاد المعجمة وتشديد الراء وبالجيم. وبالأضاميم: بفتح الهمزة والضاد المعجمة، أي: أدموه بالضرب بجماهير الحجارة. ولا توصيم: بصاد مهملة مكسورة، أي لا كسل عن إقامة الحدود. ولا غمة: بضم المعجمة وتشديد الميم، أي لا تستر ولا تخفى. ويترفل: بتشديد الفاء المفتوحة: يتسود ويترأس، استعارة من ترفيل الثوب وهو إسباغه وإسباله. وقريب من هذا، كتابه لأكيدر وأهل دومة، كما قدمته في مكاتباته صلى الله عليه وسلم.

وقال ﷺ في حديث عطية السعدي«فإن اليد العليا هي المنطية والسفلى هي المنطاة»[1] قال: فكلمنا رسول الله ﷺ بلغتنا.

---

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٦٧/١٧ و١٦٩. وفي الدر المنثور ٣٥٩/١. وفي المستدرك=

وقد كان هذا من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه أن يكلم كل ذي لغة بليغة بلغته على اختلاف لغة العرب وتركيب ألفاظها وأساليب كلمها، وكان أحدهم لا يتجاوز لغته، وإن سمع لغة غيره فكالعجمية يسمعها العربي، وما ذلك منه ﷺ إلا بقوة إلهية وموهبة ربانية، لأنه بعث إلى الكافة طراً، وإلى الخليقة سوداً وحمراً، والكلام باللسان يقع في غاية البيان، ولا يوجد غالباً متكلم بغير لغته إلا قاصراً في الترجمة نازلاً عن صاحب الأصالة في تلك اللغة، إلا نبينا وسيدنا محمد ﷺ كما تقدم، فإنه زاده الله تكريماً وشرفاً تكلم في كل لغة من لغة العرب أفصح وأنصع بلغاتها منها بلغة نفسها، وجدير به ذلك فقد أوتي في سائر القوى البشرية المحمودة زيادة ومزية على الناس، مع اختلاف الأصناف والأجناس ما لا يضبطه قياس ولا يدخل في تحقيقه إلباس. انتهى.

وأما صوته الشريف[1]، فعن أنس قال: ما بعث الله نبياً قط إلا بعثه حسن الوجه حسن الصوت، حتى بعث الله نبيكم ﷺ فبعثه حسن الوجه حسن الصوت، رواه ابن عساكر. وروي نحوه من حديث علي بن أبي طالب. وروي أنه كان إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من ثناياه. وقد كان صوته ﷺ يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره. فعن البراء قال: «خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في خدورهن[2]. رواه البيهقي.

وقالت عائشة رضي الله عنها جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر فقال للناس: «اجلسوا»، فسمعه عبدالله بن رواحة وهو في بني غنم فجلس في مكانه[3] رواه أبو نعيم.

وقال عبد الرحمن بن معاذ التيمي:[4] خطبنا رسول الله ﷺ بمنى، ففتحت أسماعنا ـ وفي لفظ ففتح الله أسماعنا ـ حتى إن كنا لنسمع ما يقول ونحن في منازلنا. رواه ابن سعد.

وعن أم هانىء قالت كنا نسمع قراءة النبي ﷺ في جوف الليل عند الكعبة، وأنا على عريشي[5]، رواه ابن ماجه.

---

= للحاكم ٤/ ٣٢٧. والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ١٩٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ٩٨ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٦٠١٠). وفي مناهل الصفا صفحة (٤٨) رقم الحديث (١٧)، وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ١٢٧ وفي كنز العمال (١٧١٢٩ ـ ١٦٧٠٧ ـ ١٧٠٠٦).

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٨٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٤٢٤. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٥٦.

(٣) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٥٦. والهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣١٦.

(٤) هو عبد الرحمن بن معاذ بن عثمان التيمي. انظر الكاشف ٢/ ١٦٤. رقم الترجمة (٣٣٦٠).

(٥) أخرجه النسائي ٢/ ١٧٩. والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٥٧. وفي كنز العمال (٢٢١٧٣).

وأما ضحكه ﷺ، ففي البخاري عن عائشة: ما رأيت رسـول الله ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى لهواته، إنما كان يتبسّم[1]، أي: ما رأيته مستجمعاً من جهة الضحك بحيث يضحك ضحكاً تاماً مقبلاً بكليته على الضحك. واللهوات: بفتح اللام، جمع لهاة، وهي اللحمة التي بأعلى الحنجرة من أقصى الفم. وهذا لا ينافيه ما في حديث أبي هريرة في قصة المواقع أهله في رمضان، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه[2]. رواه البخاري. وهي بالجيم والذال المعجمة: الأضراس. ولا تكاد تظهر إلا عند المبالغة في الضحك. لأن عائشة إنما نفت رؤيتها، وأبو هريرة أخبر بما شاهده، والمثبت مقدم على النافي.

وقد قال أهل اللغة: التبسم: مبادي الضحك، والضحك: انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور، فإن كان بصوت وكان بحيث يسمع من بعد فهو القهقهة، وإلا فالضحك، وإن كان بلا صوت فهو التبسم. وقال ابن أبي هالة: جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام، أي يبدي أسنانه ضاحكاً، وحب الغمام: البرد. وقال الحافظ ابن حجر: والذي يظهر من مجموع الأحاديث: أنه ﷺ كان في معظم أحواله لا يزيد على التبسم، وربما زاد على ذلك فضحك. قال: والمكروه إنما هو الإكثار منه والإفراط فيه لأنه يذهب الوقار. وقال ابن بطال: والذي ينبغي أن يقتدى به من أفعاله ما واظب عليه من ذلك.

وقد روى البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه عن أبي هريرة رفعه: «لا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»[3]. وقال أبو هريرة: وإذا ضحك ﷺ يتلألأ في الجدر. رواه البزار والبيهقي، أي يضيء في الجدر ـ بضم الجيم والدال، جمع جدار وهو الحائط ـ أي يشرق نوره عليها إشراقاً كإشراق الشمس عليها.

وكان ﷺ إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسَّم ضاحكاً حتى يرتفع عنه، بل كان

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب التفسير باب (٢) رقم الحديث (٤٨٢٨ ـ ٦٠٩٢). وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٤٥٦. وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الأدب باب (٦٨) رقم الحديث (٦٠٨٧). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٢٠١. وفي مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٣٧٩. وفي الضعفاء للعقيلي ١/ ١٢٣.

(٣) أخرجه الترمذي. كتاب الزهد. باب (٢) رقم الحديث (٢٣٠٥). وابن ماجه رقم الحديث (٤١٩٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣١٠. وفي المعجم الكبير للطبراني ٢/ ١٦٨. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١٥٧. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٢١٦. وفي إتحاف السادة المتقين ٠/ ٣٩٤. وفي الأدب المفرد للبخاري باب (١٢٦) رقم الحديث (٢٥٢ ـ ٢٥٣).

إذا خطب أو ذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته كأنه منذر جيش، صبحكم ومساكم(١). رواه مسلم.

وكان بكاؤه ﷺ من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة ولكن تدمع عيناه حتى تهملان، ويسمع لصدره أزيز، يبكي رحمة لميت خوفاً على أمته وشفقة، ومن خشية الله، وعند سماع القرآن، وأحياناً في صلاة الليل، قاله في الهدي النبوي. وقد حفظه الله تعالى من التثاؤب، ففي تاريخ البخاري ومصنف ابن أبي شيبة عن يزيد بن الأصم: «ما تثاءب النبي قط»(٢) لكن في رواية عند ابن أبي شيبة: «ما تثاءب نبي قط».

وأما يده الشريفة ﷺ(٣)، فقد وصفه غير واحد بأنه كان شثن الكفين كما سيأتي، أي غليظ أصابعهما، وبأنه عبل الذراعين رحب الكفين. وقد مسح ﷺ خد جابر بن سمرة قال: فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جونة عطار(٤)، رواه مسلم.

وفي حديث وائل بن حجر عند الطبراني والبيهقي: لقد كنت أصافح رسول الله ﷺ أو يمس جلدي جلده، فأتعرفه بعد في يدي، وإنه لأطيب رائحة من المسك. وقال يزيد ابن الأسود: ناولني رسول الله ﷺ يده فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب ريحاً من المسك(٥)، رواه البيهقي. وعن المستورد بن شداد عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ فأخذت بيده فإذا هي ألين من الحرير وأبرد من الثلج، رواه الطبراني. ودخل ﷺ على سعد بن أبي وقاص بمكة يعوده وقد اشتكى، قال: فوضع يده على جبهتي فمسح وجهي وصدري وبطني، فما زلت يخيل إلي أني أجد برد يده على كبدي حتى الساعة(٦).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب (٧) رقم الحديث (٤٥). وفي صحيح مسلم كتاب الجمعة باب (١٣) رقم الحديث (٤٣). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/٢٠٦. وفي شرح السنة للبغوي ٤/٢٥٤. وفي إتحاف السادة المتقين ٣/٢٣٠ و٧/١١٤ ـ ١١٥، و١٠/٢٥٤. وفي المغني للعراقي ٢/٣٦٥ و٤/٤٤٤. ومشكاة المصابيح للتبريزي (١٤٠٧). وفي الأسماء والصفات للبيهقي (١٨٨) وفي المنتقى لابن الجارود صفحة (٨٣) رقم الحديث (٢٩٧). وفي كنز العمال (١٧٩٧٤).

(٢) انظر فتح الباري ١٠/٧٤٧ وأخرجه الخطابي من طريق مسلمة بن عبد الملك بن مروان. ويؤيد الحديث ما ثبت أن التثاؤب من الشيطان.

(٣) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/٢٤٢. والبداية والنهاية ٦/٢٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الفضائل رقم الحديث (٨٠). (جؤنة العطار): مهموزة. وقد يترك همزها قال الجوهري: «هي بالواو وقد تهمز». وهي السفط الذي فيه متاع العطار. هكذا فسره الجمهور وقال الخليل بن أحمد: هي سليلة مستديرة مغشاة أدماً.

(٥) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/٢٥٦.

(٦) أخرجه البخاري. كتاب المرضى باب (١٣) رقم الحديث (٥٦٥٩). وفي صحيح مسلم رقم (١٢٥٣). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/١٦٨ ـ ١٧١ وفي سنن أبي داود. كتاب الجنائز باب=

وفي البخاري من حديث أنس: ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف رسول الله ﷺ[1]. وهو من باب عطف الخاص على العام، لأن الديباج نوع من الحرير. قيل: وهذا الوصف في هذا الحديث يخالف ما وقع في حديث ابن أبي هالة عند الترمذي في صفته ﷺ، فأن فيه ـ كما تقدم ـ كان شثن الكفين والقدمين، أي غليظهما في خشونة، وهكذا وصفه عليّ من عدة طرق عند الترمذي والحاكم وغيرهما، وكذا وصف عائشة له عند ابن أبي خيثمة. والجمع بينهما: أن المراد اللين في الجلد. والغلظ في العظام، فيجتمع له نعومة البدن وقوته. وقال ابن بطال: كانت كفه ﷺ ممتلئة لحماً، غير أنها مع ضخامتها كانت لينة، كما في حديث أنس، قال: وأما قول الأصمعي: الشثن: غلظ الكف في خشونة، فلم يوافق على تفسيره بالخشونة، والذي فسر به الخليل أولى، قال: وعلى تسليم ما فسر به الأصمعي الشثن: يحتمل أن يكون أنس وصف حالتي كف النبي ﷺ فكان إذا عمل بكفه في الجهاد، أو في مهنة أهله، صار كفه خشناً للعارض المذكور، وإذا ترك ذلك رجع كفه إلى أصل جبلته من النعومة.

وقال القاضي عياض: فسر أبو عبيدة الشثن بالغلظ مع القصر. وتعقب: بأنه ثبت في وصفه ﷺ أنه كان سائل الأطراف[2]. انتهى. ويؤيد كونها كانت لينة قوله في رواية النعمان: كان سبط الكفين. بتقديم المهملة على الموحدة، فإنه موافق لوصفها باللين. والتحقيق في الشثن أنه الغلظ من غير قصر ولا خشونة. وقد نقل ابن خالويه: أن الأصمعي لما فسر الشثن بما مضى، قيل له إنه ورد في صفة النبي ﷺ أنه لين الكفين، فآلى على نفسه أن لا يفسر شيئاً في الحديث. انتهى. وفي حديث معاذ عند الطبراني والبزار: أردفني رسول الله ﷺ خلفه في سفر، فما مسست شيئاً قط ألين من جلده ﷺ.

وأصيب عائذ بن عمرو في وجهه يوم حنين، فسال الدم على وجهه وصدره، فسلت النبي ﷺ الدم بيده عن وجهه وصدره، ثم دعا له، فكان أثر يده ﷺ إلى منتهى ما مسح من صدره غرة سائلة كغرة الفرس رواه الحاكم وأبو نعيم وابن عساكر. وأخرج البخاري في تاريخه والبغوي وابن منده في الصحابة من طريق صاعد بن العلاء بن بشر

---

= (٧) رقم الحديث (٣١٠٤) وفي المستدرك للحاكم ١/ ٣٤٢. وفي الأدب المفرد للبخاري صفحة (١١٤) رقم الحديث (٤٩٩). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٨١ و١٨/٩ وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦/ ١٠٣ وفي البداية والنهاية ٧٨/٨.

(١) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٦١). ومسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (٨١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٠٧ وفي مواضع أخرى غيرها.

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ١٦٣ قال ابن الأثير شثن الكفين والقدمين: أي يميلان إلى الغلظ والقصر: وقيل هو الذي في أنامله غلظ بلا قصر ويحمد ذلك في الرجال.

عن أبيه عن جده بشر بن معاوية: أنه قدم مع أبيه معاوية بن ثور على رسول الله ﷺ فمسح رأسه ودعا له بالبركة فكانت في وجهه مسحة النبي ﷺ كالغرة وكان لا يمسح شيئاً إلا برىء.

ومسح ﷺ رأس مدلوك[1] أبي سفيان فكان ما مرت يده عليه أسود، وشاب ما سوى ذلك. رواه البخاري في تاريخه والبيهقي. وكذا وقع له ﷺ في رأس السائب. رواه البغوي والبيهقي وابن منده. وأخرج البيهقي وصححه، والترمذي وحسنه، عن أبي زيد الأنصاري قال: مسح ﷺ بيده على رأسي ولحيتي ثم قال: «اللهم جمله»، قال: فبلغ بضعاً ومائة سنة وما في لحيته بياض. ولقد كان منبسط الوجه ولم ينقبض وجهه حتى مات[2]. ومسح ﷺ رأس حنظلة بن حذيم بيده وقال له: «بورك فيك،» فكان يؤتى بالشاة الوارم ضرعها والبعير والإنسان به الورم، فيتفل في يده ويمسح بصلعته ويقول بسم الله على أثر يد رسول الله ﷺ فيمسحه ثم يمسح موضع الورم فيذهب الورم[3]. رواه أحمد والبخاري في التاريخ وأبو يعلى وغيرهم.

وقد جاء في عدة أحاديث عن جماعة من الصحابة بياض إبطيه. فعن أنس قال: رأيت رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى رأيت بياض إبطيه. وقال الطبري: ومن خصائصه ﷺ أن الإبط من جميع الناس متغير اللون غيره، أي إلا هو ﷺ، ومثله للقرطبي وزاد: أنه لا شعر عليه، لكن نازع فيه صاحب شرح تقريب الأسانيد، وقال: إنه لم يثبت ذلك بوجه من الوجوه، قال: والخصائص لا تثبت بالاحتمال، ولا يلزم من ذكر أنس وغيره بياض إبطيه أن لا يكون له شعر. وقد قال عبدالله بن أقرم الخزاعي ـ وقد صلى معه ﷺ ـ كنت أنظر إلى عفرة إبطيه. حسنه الترمذي. والعفرة: بياض ليس بالناصع كما قاله الهروي وغيره، وسيأتي مزيد لذلك في الخصائص إن شاء الله تعالى.

وعن رجل من بني حريش قال: ضمني رسول الله ﷺ فسال عليّ من عرق إبطيه مثل ريح المسك. رواه البزار. ووصفه عليّ فقال: ذو مسربة، وفسر بخيط من الشعر بين الصدر والسرة. وقال ابن أبي هالة: دقيق المسربة. وعند ابن سعد عن علي: طويل

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢١٥. وفي التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ٢/ ٥٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٧٧ و٣٤٠. وفي المستدرك للحاكم ٤/١٣٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/٣٧٨ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢١٠ و٢١٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٧/ ٢٨.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٦٨ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢١٤ وفي التاريخ للبخاري ٢/ ١/ ٣٧.

المسربة. وعند البيهقي: له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب. ليس على صدره ولا على بطنه غيره.

ووصفت بطنه أم هانيء فقالت: ما رأيت بطن رسول الله ﷺ إلا ذكرت القراطيس المثني بعضها على بعضها. رواه الطيالسي والطبراني. وقال أبو هريرة: كان ﷺ أبيض كأنما صيغ من فضة، رجل الشعر، مفاض البطن، عظيم مشاش المنكبين.

وتقدم أن المشاش: رؤوس العظام كالركبتين، ومفاض: أي واسع البطن، وقيل: مستوي البطن مع الصدر. وخرج الإمام أحمد عن محرش الكعبي قال: اعتمر النبي ﷺ من الجعرانه ليلاً، فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة[1].

وكان ﷺ بعيد ما بين المنكبين رواه البخاري. أي عريض الصدر، ووقع عند ابن سعد من حديث أبي هريرة: رحب الصدر.

وأما قلبه الشريف ﷺ[2]، فاعلم أن القلب مضغة في الفؤاد معلقة بالنياط، فهو أخص من الفؤاد. قاله الواحدي، وسمي به لتقلبه بالخواطر والعزوم، قال الشاعر:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وقال الزمخشري: مشتق من التقلب الذي هو المصدر لفرط تقلبه، ألا ترى إلى ما روى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ: ومثل هذا القلب كمثل ريشة ملقاة بفلاة يقلبها الريح بطناً لظهر. قال: والفرق بينه وبين الفؤاد، أن الفؤاد وسط القلب، سمي به لتفؤده، أي توقده. وفسر الجوهري القلب بالفؤاد ثم فسر الفؤاد بالقلب. قال الزركشي: والأحسن قول غيره: الفؤاد غشاء القلب، والقلب حبته وسويداؤه، ويؤيد الفرق قوله ﷺ: ألين قلوباً وأرق أفئدة، وهو أولى من قول بعضهم: إنه كرر لاختلاف اللفظ.

وقال الراغب: يعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به كالعلم والشجاعة. وقيل: حيثما ذكر الله القلبَ فإشارة إلى العقل والعلم، كقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾[ق: ٣٧]، وحيثما ذكر الصدر فإشارة إلى ذلك وإلى سائر القوى من الشهوة والغضب ونحوهما انتهى.

قال بعض العلماء: وقد خلق الله تعالى الإنسان، وجعل له قلباً يعقل عنه، وهو

---

(١) أخرجه النسائي كتاب الحج (١٠٤) ٥/ ٢٠٠ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٢٦ و٤/ ٦٩ و٥/ ٣٨.

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٦٧.

أصل وجوده، إذا صلح قلبه صلح سائره، وإذا فسد قلبه فسد سائره. وجعل سبحانه القلوب محل السر والإخلاص، الذي هو سر الله يودعه قلب من شاء من عباده، فأول قلب أودعه قلب محمد ﷺ لأنه أول خلق وصورته ﷺ آخر صورة ظهرت من صور الأنبياء، فهو أولهم وآخرهم.

وقد جعل سبحانه وتعالى أخلاق القلوب للنفوس أعلاماً على أسرار القلوب، فمن تحقق قلبه بسر الله اتسعت أخلاقه لجميع خلق الله، ولذلك جعل الله تعالى لمحمد ﷺ جثمانية اختص بها من بين سائر العالمين، فتكون علامات اختصاص جثمانيته آيات دالة على أحوال نفسه الشريفة وعظيم خلقه، وتكون علامات عظيم أخلاقه آيات على سر قلبه المقدس. ولما كان قلبه ﷺ أوسع قلب اطلع الله عليه ـ كما ورد في الخبر ـ كان هو الأولى أن يكون هو قلب العبد الذي يقول فيه الله تعالى: ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن[١].

ولما كان كماله قبل الإسراء بمنزلة سائر النبيين كان صدره يضيق، فاتسع قلبه لما انشرح صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره. وقد صح أن جبريل عليه الصلاة والسلام شقه واستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه فأعاده في مكانه. قال أنس فلقد كنت أرى أثر المخيط في صدره[٢]. رواه مسلم.

وإنما خلقت هذه العلقة في ذاته الكريمة ثم استخرجت منه لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية، فخلقها تكملة للخلق الإنساني فلا بد منها، ونزعها أمر رباني طرأ بعد ذلك، قاله السبكي.

وعند أحمد وصححه الحاكم: ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين فقال أحدهما لصاحبه ائتني بماء وثلج فغسلا به جوفي ثم قال: ائتني بماء بَرَد فغسلا به قلبي ثم قال: ائتني بالسكينة فذراها في قلبي ثم قال أحدهما لصاحبه حصه فحاصه وختم عليه بخاتم النبوة[٣].

وفي رواية البيهقي أن ملكين جاآني في صورة كركيين معهما ثلج وبرد وماء بارد فشرح أحدهما صدري، ومج الآخر بمنقاره فيه.

---

(١) أخرجه الحافظ العراقي وقال: لم أر له أصلاً.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الإيمان رقم الحديث (٢٦١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٢١ و١٤٩ و٢٨٨.

(٣) هو في المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٨٤.

وعن أبي هريرة قال: يا رسول الله، ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة. قال: «إني لفي صحراء أمشي ابن عشر حجج إذا أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأخذاني فألصقاني لحلاوة القفا ثم شقا بطني، وكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب والآخر يغسل جوفي، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فإذا صدري ـ فيما أرى ـ مفلوق لا أجد له وجعاً، ثم قال: اشقق قلبه فشق قلبي، فقال أخرج الغل والحسد منه، فأخرج شبه العلقة فنبذ به ثم قال: أدخل الرأفة والرحمة قلبه، فأدخل شيئاً كهيئة الفضة، ثم أخرج ذروراً كان معه فذر عليه، ثم نقر إبهامي، ثم قال: اغد فرجعت بما لم أغد به من رحمتي للصغير ورأفتي على الكبير». رواه عبدالله بن الإمام أحمد في زوائد المسند وأبو نعيم وقال: تفرد به معاذ عن أبيه، وتفرد بذكر السن.

وعند أبي نعيم في حديث يونس بن ميسرة: فاستخرج حشوة جوفي فغسلها ثم ذر عليه ذروراً ثم قال: قلب وكيع يعي ما وقع فيه، عينان تبصران وأذنان تسمعان وأنت محمد رسول الله المقفي الحاشر قلبك سليم ولسانك صادق ونفسك مطمئنة وخلقك قيم وأنت قثم. وهذا الشق روي أنه وقع له ﷺ مرات في حال طفوليته ارهاصاً. وتقديم المعجزة على زمان البعثة جائز للإرهاص، ومثل هذا في حق الرسول ﷺ كثير. وبه يجاب عن استشكال وقوع ذلك في حال طفوليته لأنه من المعجزات، ولا يجوز أن تتقدم على النبوة، قاله الرازي.

والذي عليه أكثر أهل الأصول: اشتراط اقتران المعجزة بالدعوى كما نبهت عليه في أوائل الكتاب، ويأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى في المقصد الرابع. وهو المراد بقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾[الشرح: ١] وقد قيل المراد بالشرح في الآية ما يرجع إلى المعرفة والطاعة. ثم ذكروا في ذلك وجوهاً منها أنه لما بعث إلى الأحمر والأسود من جني وإنسي أخرج تعالىٰ عن قلبه جميع الهموم، وانفسح صدره حتى اتسع لجميع المهمات، فلا يقلق ولا يضجر بل هو حالتي البؤس والفرج منشرح الصدر مشتغل بأداء ما كلف. فإن قلت: لم قال: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ ولم يقل: قلبك. أجيب: بأن محل الوسوسة الصدر، كما قال تعالى: ﴿يوسوس في صدور الناس﴾[الناس: ٥] فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشرح، لا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب.

وقد قال محمد بن علي الترمذي: القلب محل العقل والمعرفة، وهو الذي يقصد الشيطان، يجيء إلى الصدر الذي هو حصن القلب فإذا دخل مسلكاً أغار فيه وأنزل جنده فيه وبث فيه الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذٍ، ولا يجد للطاعة لذة، ولا

للإسلام حلاوة، وإذا طرد العدو في الابتداء حصل الأمن وزال الضيق وانشرح الصدر وتيسر له القيام بأداء العبودية.

وها هنا دقيقة: «قال الله تعالى حكاية عن موسى: ﴿رب اشرح لي صدري﴾[طه: ٢٥] وقال لنبينا محمد ﷺ : ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح: ١] أعطي بلا سؤال، ثم إنه تعالى نعته عليه السلام فقال﴿وسراجاً منيراً﴾[الأحزاب: ٤٦] فانظر إلى التفاوت، فإن شرح الصدر هو أن يصير قابلاً للنور، والسراج المنير هو الذي يقتبس منه النور، والفرق واضح. قال الدقاق: كان موسى عليه السلام مريداً إذ قال: ﴿رب اشرح لي صدري﴾[طه: ٢٥] ونبينا محمد ﷺ مراد إذ قال الله له: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾والله أعلم».

وأما جماعه ﷺ[1] فقد كان يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة، قال الراوي قلت لأنس: أوَ كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين[2]. رواه البخاري. وعند الإسماعيلي عن معاذ: قوة أربعين زاد أبو نعيم عن مجاهد: كل رجل من رجال أهل الجنة. وعن أنس مرفوعاً: «يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في الجماع»قلت يا رسول الله، أو يطيق ذلك؟ قال: «يعطى قوة مائة»[3].

قال الترمذي صحيح غريب لا نعرفه عن حديث قتادة إلا من حديث عمران القطان. فإذا ضربنا أربعين في مائة بلغت أربعة آلاف، فبهذا يندفع ما استشكل من كونه ﷺ أوتي قوة أربعين فقط وسليمان عليه الصلاة والسلام قوة مائة رجل أو ألف على ما ورد.

وذكر ابن العربي: أنه كان له ﷺ القوة الظاهرة على الخلق في الوطء، وكان له في الأكل القناعة، ليجمع الله له الفضيلتين في الأمور الاعتيادية كما جمع له الفضيلتين في الأمور الشرعية، حتى يكون حاله كاملاً في الدارين. انتهى. وطاف ﷺ على نسائه التسع في ليلة. رواه ابن سعد.

وروي أنه ﷺ قال: «أتاني جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلاً في الجماع»[4] رواه ابن سعد: حدثنا عبدالله بن موسى عن أسامة بن زيد عن صفوان

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٧ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الغسل باب (١٢) رقم الحديث (٢٦٨ـ٢٨٤ ـ ٥٠٦٨ ـ ٥٢١٥).

(٣) أخرجه الترمذي كتاب صفة الجنة باب (٦) رقم الحديث (٢٥٣٦) وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٤٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٦٣٦) وفي تفسير ابن كثير ٨/ ١١٠ وفي كنز العمال (٣٩٣٦١).

(٤) ذكره ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٨٢ وفي جمع الجوامع للسيوطي ٢٦٦ وفي كشف الخفاء للعجلوني=

ابن سليم مرسلاً من حديث أبي هريرة: شكا رسول الله ﷺ إلى جبريل قلة الجماع فتبسم جبريل حتى تلألأ مجلس رسول الله ﷺ من بريق ثنايا جبريل فقال له: أين أنت من أكل الهريسة فإن فيه قوة أربعين رجلاً. ومن حديث حذيفة بلفظ«أطعمني جبريل الهريسة أشد بها ظهري وأتقوى بها على الصلاة»رواه الدارقطني. ومن حديث جابر بن سمرة وابن عباس وغيرهم.

وكلها أحاديث واهية. بل صرح الحافظ ابن ناصر الدين في جزء له سماه رفع الدسيسة بوضع حديث الهريسة بأنه موضوع. وروي أنه ﷺ أعطي قوة بضع وأربعين رجلاً كل رجل من أهل الجنة، رواه الحارث بن أبي أسامة. وقد حفظه الله من الاحتلام، فعن ابن عباس قال: ما احتلم نبي قط، وإنما الاحتلام من الشيطان، رواه الطبراني.

وأما قدمه الشريف[1] ﷺ فقد وصفه غير واحد بأنه كان شثن القدمين، أي غليظ أصابعهما. رواه الترمذي وغيره. وعن ميمونة بنت كردم قالت: رأيت رسول الله ﷺ فما سيت طول أصبع قدميه السبابة على سائر أصابعه[2]، رواه أحمد والطبراني. وعن جابر ابن سمرة: كانت خنصر رسول الله ﷺ من رجله متظاهرة، رواه البيهقي. وقد اشتهر على الألسنة أن سبابة النبي ﷺ كانت أطول من الوسطى. قال الحافظ ابن حجر: وهو غلط ممن قاله، وإنما ذلك في أصابع رجليه. انتهى.

وقال شيخنا ـ في المقاصد الحسنة ـ: وسلف جمهورهم الكمال الدميري[3]. هو خطأ نشأ عن اعتماد رواية مطلقة. وعبارته: «كذا رواه ابن هارون عن عبدالله بن مقسم عن سارة ابنة مقسم أنها سمعت ميمونة ابنة كرم تخير أنها رأت أصابع النبي ﷺ كذلك». فضم ما وقع فيها من إطلاق الأصابع إلى كون الوسطى من كل أطول من السبابة، وعين اليد منه ﷺ لذلك بناء على أن القصد ذكر وصف اختص به ﷺ عن غيره.

ولكن الحديث في مسند الإمام أحمد من حديث يزيد بن هارون المذكور مقيد

---

= ١/ ٢٠٠ وفي حلية الأولياء ٨/ ٣٧٦ وكنز العمال (٤٤٨٥١ ـ ٣١٧٩٧ ـ ٣١٨٩٦ ـ ٣١٨٩٧ ـ ٣٤٢٢٨).

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٤٢ وفي البداية والنهاية ٦/ ٢٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ٣٦٦ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٨٠ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٤٦ وقال الطبراني: «فيه من لم أعرفهم».

(٣) هو محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري أبو البقاء كمال الدين (٧٤٢ ـ ٨٠٨ هـ). باحث أديب فقيه شافعي توفي بالقاهرة. الأعلام ٧/ ١١٨ ومفتاح السعادة ١/ ١٨٦ والضوء اللامع ١٠/ ٥٩ رقم الترجمة (٢٠٤). حسن المحاضرة ١/ ٢٠٧ روضات الجنات ٤/ ٢٠٨ ومعجم المطبوعات (٨٨٧).

بالرجل، ولفظه ـ كما قدمته ـ فما نسيت طول أصبع قدمه السبابة على سائر أصابعه.

وهو عند البيهقي أيضاً في الدلائل من طريق يزيد بن هارون ولفظها: رأيت رسول الله ﷺ بمكة وهو على ناقته وأنا مع أبي، فدنا منه أبي فأخذ بقدمه فأقر له رسول الله ﷺ قالت: فما نسيت طول أصبع قدمه السبابة على سائر أصابعه.

وعن أبي هريرة أنه ﷺ كان إذا وطىء بقدمه بكلها ليس له أخمص[1]. رواه البيهقي. وعن أبي أمامة الباهلي قال: كان النبي ﷺ لا أخمص له يطأ على قدمه كلها رواه ابن عساكر. وقال ابن أبي هالة: خمصان الأخمصين، مسيح القدمين.

وقال ابن الأثير: الأخمص من القدم الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطء. والخمصان: البالغ منه، أي إن ذلك الموضع من أسفل قدمه شديد التجافي عن الأرض. وسئل ابن الأعرابي عنه فقال: إذا كان خمص الأخمص بقدر لا يرتفع جداً، لم يستو أسفل القدم جداً فهو أحسن ما يكون، وإذا استوى أو ارتفع جداً فهو ذم، فيكون بمعنى أن أخمصه معتدل الخمص بخلاف الأول. ووقع في حديث أبي هريرة إذا وطىء بقدمة وطىء بكلها ليس له أخمص. وقوله: مسيح القدمين أي ملساوتان لينتان ليس فيهما تكسر ولا شقاق، فإذا أصابهما الماء نبا عنهما كما قال ابن أبي هالة: ينبو عنهما الماء، وهو معنى حديث أبي هريرة. وعن عبدالله بن بريدة قال: كان ﷺ أحسن الناس قدماً. رواه ابن سعد.

وأما طوله ﷺ[2] فقال علي: كان ﷺ لا قصير ولا طويل، وهو إلى الطول أقرب. رواه البيهقي. وعنه: كان ﷺ ليس بالذاهب طولاً، وفوق الربعة إذا جامع القوم غمرهم. رواه عبدالله بن الإمام أحمد.

وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ ربعة وهو إلى الطول أقرب رواه البزار.

وقوله: ربعة، أي مربوعاً، والتأنيث باعتبار النفس. وقد فسر في الحديث الآتي بأنه ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، والمراد بالطويل البائن: المفرط في الطول مع اضطراب القامة.

وقال ابن أبي هالة: أطول من المربوع وأقصر من المشذب ـ وهو بمعجمتين مفتوحتين ثانيهما مشدد، أي البائن الطول في نحافة، وهو مثل قوله في الحديث الآخر لم يكن بالطويل الممغط ـ وهو بتشديد الميم الثانية ـ المتناهي الطول. وأمغط النهار إذا

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٤٥.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٥٠ والبداية والنهاية ٦/ ٢٥.

امتد، ومغطت الحبل إذا مددته، وأصله منمغط والنون للمطاوعة فقلبت ميماً وأدغمت في الميم، ويقال بالعين المهملة بمعناه.

وعن عائشة قالت: لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، وكان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده، ولم يكن على حال يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما، فإذا فارقاه نسب رسول الله ﷺ إلى الربعة، رواه ابن عساكر والبيهقي. وزاد ابن سبع في الخصائص: أنه كان إذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين. ووصفه ابن أبي هالة بأنه بادن متماسك، أي معتدل الخلق، كأن أعضاءه يمسك بعضها بعضاً.

وأما شعره الشريف ﷺ[1]، فعن قتادة قال: سألت أنساً عن شعر رسول الله ﷺ فقال: شعر بين شعرين، لا رَجْل ولا سبط ولا جعد قطط كان بين أذنيه وعاتقه. وفي رواية للشيخين قال: كان رجْلا ليس بالسبط ولا الجعد بين أذنه وعاتقه[2]. وفي أخرى: إلى أنصاف أذنيه[3]. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي. وعن عائشة قالت: كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ عن أناء واحد، وكان له شعر فوق الجمة ودون الوفرة[4]. رواه الترمذي وأبو داود. والوفرة: الشعر الواصل إلى شحمة الأذن. وقال ابن أبي هالة أيضاً: كان رجل الشعر ـ وهو بفتح الراء وكسر الجيم، أي يتكسر قليلاً، بخلاف السبط والجعد ـ إن انفرقت عقيقته فرق وإلا فلا، يجاوز شعره شحمة أذنه إذا هو وفره. والعقيقة بالقافين، شعر رأسه الشريف، يعني إن انفرقت بنفسها فرقها وإلا تركها معقوصة، ويروى: إن انفرقت عقيصته ـ بالصاد المهملة ـ وهي الشعر المعقوص.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ٢١ وفي طبقات ابن سعد ١/ ٣٢٩ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢١٩.

(٢) أخرجه البخاري كتاب اللباس باب (٦٨) رقم الحديث (٥٩٠٥ ـ ٥٩٠٦) ومسلم في كتاب الفضائل (٩٤ ـ ١١٣) وفي الموطأ كتاب (٤٩) رقم الحديث (١) وفي الترمذي باب (٢١) رقم الحديث (١٧٥٤). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٣٥ و٢٠٣ و٢٤٠.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل (٩٦) وفي أبي داود كتاب الترجل باب (٩) رقم الحديث (٤١٨٦) وفي البخاري (٥٩٠١) وفي النسائي زينة (٩) ٨/ ١٣٣ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١١٣ و١٦٥.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب اللباس باب (٢١) رقم الحديث (١٧٧٥) وفي ابن ماجه اللباس باب (٣٦) رقم الحديث (٣٦٣٥) وفي سنن أبي داود كتاب الترجل باب (٩) رقم الحديث (٤١٨٧).

يؤمر فيه بشيء، ثم فرق ﷺ رأسه[1]. رواه الترمذي في الشمائل. وفي صحيح مسلم نحوه.

وسدل الشعر إرساله، والمراد هنا إرساله على الجبين واتخاذه كالقُصة. وأما الفرق: فهو فرق الشعر بعضه من بعض. قال العلماء: والفرق سنة، لأنه الذي رجع إليه ﷺ، والصحيح جواز الفرق والسدل، لكن الفرق أفضل. وعن عائشة: كان له ﷺ شعر فوق الجمة ودون الوفرة. رواه الترمذي. وفي حديث أنس كان إلى أذنيه، وفي حديث البراء: يضرب منكبيه. وفي حديث أبي رمثة: يبلغ إلى كتفيه أو منكبيه[2]. وفي رواية: ما رأيت من ذي لمة أحسن منه[3]. والجمة: هي الشعر الذي نزل إلى المنكبين. والوفرة: ما نزل إلى شحمة الأذنين، واللمة: التي لمت بين المنكبين. قال القاضي عياض: والجمع بين هذه الرويات: أن ما يلي الأذن هو الذي يبلغ شحمة أذنيه، وما خلفه هو الذي يضرب منكبيه. قال: وقيل: بل ذلك لاختلاف الأوقات، فإذا غفل عن تقصيرها بلغت المنكب وإذا قصرها كانت إلى أنصاف الأذنين، فكانت تطول وتقصر بحسب ذلك.

وعن أم هانىء بنت أبي طالب قالت: قدم رسول الله ﷺ علينا مكة قدمة وله أربع غدائر[4]. رواه الترمذي في الشمائل. والغدائر: ـ بالغين المعجمة والدال المهملة ـ هي الذوائب، واحدتها غديرة. وفي مسلم عن أنس، كان في لحيته ﷺ شعرات بيض. وفي رواية عنده: لم ير من الشيب إلا قليلاً، وفي أخرى له أيضاً: لو شئت أن أعد شمطات كن في رأسه ولم يخضب. وعنده أيضاً: لم يخضب ﷺ إنما كان البياض في عنفقته وفي الصدغين وفي الرأس نبذ ـ بضم النون وفتح الباء الموحدة، وبفتح النون وإسكان الموحدة ـ أي شعرات متفرقة. وفي رواية أخرى: ما شانه الله ببيضاء[5].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٧٠) رقم الحديث (٥٩١٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٧٧) وفي مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (٩٥) وفي النسائي كتاب الزينة (٦٠) ٨/ ١٨٣ وفي سنن أبي داود كتاب الترجل باب (٩) رقم الحديث (٤١٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (٩٢) وفي سنن أبي داود كتاب الترجل باب (٩) رقم الحديث (٤١٨٣) وفي الترمذي كتاب اللباس باب (٤) رقم الحديث (١٧٢٤) وفي النسائي (٦٠) ٨/ ١٨٣.

(٤) أخرجه أبو داود أيضاً في كتاب الترجل باب (١٢) رقم الحديث (٤١٩١).

(٥) انظر جملة الروايات: في البخاري لباس (٦٦) رقم الحديث (٥٨٩٤ ـ ٥٨٩٥) وفي صحيح مسلم فضائل رقم الحديث (١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١٠٤ ـ ١٠٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٩٨ و٢١٦ و٢٢٣ و٢٢٧ و٢٦٢ و٢٦٦ و٤/ ١٩٠ ٥/ ٩٠ و٩٢ و١٠٠ و١٠٣.

قال الشيخ عبد الجليل في شعب الإيمان، فيما حكاه عنه الفاكهاني: إنما كان كذلك لأن النساء يكرهن الشيب غالباً، ومن كره من النبي ﷺ شيئاً كفر. وقال في النهاية: قد تكرر في الحديث جعل الشيب ها هنا عيبا وليس بعيب، فإنه قد جاء في الحديث: أنه وقار وأنه نور، والشيب ممدوح، وذلك عجيب منه لا سيما في حق النبي ﷺ. ويمكن الجمع بينهما: ووجه الجمع أنه ﷺ لما رأى أبا قحافة ورأسه كالثغامة، أمرهم بتغييره وكرهه، ولذلك قال: «غيروا الشيب»[1]، فلما علم أنس ذلك من عادته قال: ما شانه الله ببيضاء بناء على هذا القول وحملاً له على هذا الرأي. ولم يسمع الحديث الآخر، ولعل أحدهما ناسخ للآخر انتهى. وفي رواية أبي جحيفة عنده، رأيت رسول الله ﷺ وهذه منه بيضاء. ووضع الراوي بعض أصابعه على عنفقته. وفي حديث أنس عند البيهقي: ما شانه الله بالشيب، ما كان في رأسه ولحيته إلا سبع عشرة أو ثمان عشرة يعني شعرة بيضاء. وعن أبي جحيفة كان أبيض قد شمط[2]. وراه البخاري. وفي الصحيحين: أن ابن عمر رأى النبي ﷺ يصبغ بالصفرة[3]. وعن ابن عمر: إنما كان شيبه ﷺ نحواً من عشرين شعرة بيضاء رواه الترمذي. وروي أيضاً عن ابن عباس قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»[4]. وفي حديث جابر عنده: لم يكن في رأسه ﷺ شيب إلا شعرات في مفرق رأسه إذا ادهن واراهن الدهن. وفي رواية البيهقي: كان أسود اللحية حسن الشعر. واختلف العلماء: هل خضب ﷺ أم لا؟ قال القاضي عياض: منعه الأكثرون وهو مذهب مالك. وقال النووي: المختار أنه صبغ في وقت وترك في معظم الأوقات، فأخبر كل بما رأى وهو صادق، قال: وهذا التأويل كالمتعين، فحديث ابن عمر في الصحيحين ولا يمكن تركه ولا تأويل له[5]. وأما اختلاف الرواية في قدر شيبه فالجمع بينهما أنه رأي

---

(١) أخرجه الترمذي (١٧٥٢) وفي النسائي ٨/ ١٣٧ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٦٥ و٢/ ٢٦١ و٣/ ٢٤٧ وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٢٤٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٣١١ وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٤٢٠ وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ١١٥ وفي المعجم الصغير للطبراني ١/ ١٧٤ وكنز العمال (١٧٣١٧ ـ ١٧٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٤٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحج (٢٥) وفي البخاري كتاب الوضوء باب (٣٠) رقم الحديث (١٥١٤ ـ ١٦٦ ـ ١٥٥٢ ـ ١٦٠٩ ـ ٢٨٦٥ ـ ٥٨٥١). وفي سنن أبي داود رقم الحديث (١٧٧٢).

(٤) الحديث في الترمذي برقم (٣٢٩٧) وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٣٤٣ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٥٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ٣٧. وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٥٠ و١٠/ ٤٦١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٣٥٤) وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٣١٩ وكنز العمال (٢٥٨٨).

(٥) انظر سنن أبو داود رقم (٤٠٦٤ ـ ٤٢١٠) والنسائي كتاب الزينة (٦٥).

شيباً يسيراً، فمن أثبت شيبه أخبر عن ذلك اليسير ومن نفاه أراد. لم يكثر فيه، كما قال في الرواية الأخرى: لم ير الشيب إلا قليلاً، انتهى.

وعن جابر بن سمرة قال: كان ﷺ قد شمط مقدم رأسه ولحيته، وكان إذا ادهن لم يتبين، فإذا شعث رأسه تبين وكان كثير شعر اللحية. رواه مسلم والنسائي. وعن أنس كان ﷺ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته. رواه البغوي في شرح السنة. وقد وصفه ﷺ ابن أبي هالة بأنه كان موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط عاري الثديين مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر. وعن أنس قال: رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل[1]. رواه مسلم. وسيأتي إن شاء الله تعالى قصة حلق رأسه الشريف في حجة الوداع.

ولم يرو أنه ﷺ حلق رأسه الشريف في غير نسك حج أو عمرة فيما علمته، فتبقية الشعر في الرأس سنة ومنكرها مع علمه يجب تأديبه، ومن لم يستطع التبقية فيباح له إزالته. وقد رأيت بمكة المشرفة في ذي القعدة سنة سبع وتسعين وثمانمائة شعرة عند الشيخ أبي حامد المرشدي، شاع وذاع أنها من شعره ﷺ، زرتها صحبة المقام المقري[2] خليل العباسي والى الله إحسانه عليه. وعن محمد بن سيرين قال: قلت لعبيدة، عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه من قبل أنس أو من قبل أهل أنس، قال: لأن تكون عندي شعرة منه أحب إلي من الدنيا وما فيها[3]. رواه البخاري. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أنه ﷺ كان يأخذ من لحيته من عرضها وطولها[4]. رواه الترمذي وقال: حديث غريب.

وأخرج الترمذي عن ابن عباس وحسنه قال: كان النبي ﷺ يقص شاربه[5]. وعنده من حديث زيد بن أرقم قال ﷺ «من لم يأخذ من شاربه فليس منا»[6]. وفي الصحيحين:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (٧٥).

(٢) [وقوله: المقري. هكذا في بعض النسخ وفي بعضها القرشي وفي بعضها الغرسي ـ بالغين المعجمة ـ وفي بعضها القدسي.]

(٣) رواه البخاري كتاب الوضوء باب (٣٣) رقم الحديث (١٧٠ ـ ١٧١).

(٤) أخرجه الترمذي. كتاب الأدب باب (١٧) رقم الحديث (٢٧٦٢) وفي أخلاق النبوة (٢٨٢).

(٥) أخرجه الترمذي. كتاب الأدب باب (١٦) رقم الحديث (٢٧٦٠). وفي الدر المنثور ١/ ١١٢. وفي تفسير القرطبي ٢/ ١٠٥ ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٣٧٩.

(٦) أخرجه الترمذي. كتاب الأدب باب (١٦) رقم الحديث (٢٧٦١) والنسائي. كتاب الزينة ٨/ ١٢٩. وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٦٦ و٣٦٨. وفي المعجم الكبير للطبراني ٥/ ٢٠٨. وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٤١١ و٤١٣. وفي المعجم الصغير للطبراني ١/ ١٠٠ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٤٣٨). وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٣٠ وفي الدر المنثور للسيوطي=

«خالفوا المشركين وفروا اللحى وأحفوا الشوارب»[1]. واختلف في قص الشارب وحلقه أيهما أفضل: ففي الموطأ يؤخذ من الشارب حتى يبدو طرف الشفة، وعن ابن عبد الحكم عن مالك قال: ويحفي الشارب ويعفي اللحية، وليس إحفاء الشارب حلقه، وأرى تأديب من حلق شاربه. وعن أشهب أن حلقه بدعة قال: وأرى أن يوجع ضرباً من فعله. وقال النووي: المختار أنه يقصه حتى يبدو طرف الشفة ولا يحفه من أصله. وقال الطحاوي: لم نجد عن الشافعي شيئاً منصوصاً في هذا، وكان المزني والربيع يحفيان شاربهما. وأما أبو حنيفة وصاحباه فمذهبهم في شعر الرأس والشارب أن الإحفاء أفضل من التقصير. وأما أحمد، فقال الأثرم رأيته يحفي شاربه شديداً. وقد اختلفوا في كيفية قص الشارب، هل يقص طرفاه أيضاً، وهما المسميان بالسبالين أم تترك السبالان كما يفعله كثير من الناس؟

قال الغزالي في الإحياء: لا بأس بترك سباليه وهما طرفا الشارب. فعل ذلك عمر رضي الله عنه وغيره، لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبقى فيه غمرة الطعام إذ لا يصل إليه انتهى. وروى أبو داود عن جابر قال: كنا[نعفي] السبال إلا في حج أو عمرة[2]. وكره بعضهم إبقاءه لما فيه من التشبه بالأعاجم بل بالمجوس وأهل الكتاب، وهذا أولى بالصواب لما رواه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر قال: ذكر لرسول الله ﷺ المجوس فقال: «إنهم يوفرون سبالهم ويحلقون لحاهم فخالفوهم»[3]، فكان يجز سباله كما يجز الشاة أو البعير. وروى أحمد في مسنده في أثناء حديث لأبي أمامة. فقلنا يا رسول الله، فإن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم فقال: «قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب»[4]، والعثانين ـ بالعين المهملة والثاء المثلثة وتكرار النون ـ جمع عثنون وهو اللحية قاله في شرح تقريب الأسانيد. وأما العانة ففي

---

= ١/ ١١٢. وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ١٠٨ وفي كنز العمال (١٧٢٤٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الطهارة رقم الحديث (٥٢). والترمذي كتاب الأدب باب (١٨) رقم الحديث (٢٧٦٣). والبخاري. كتاب اللباس باب (٦٤) رقم الحديث (٥٨٩٢ ـ ٥٨٩٣) وفي النسائي طهارة (١٤) ١/ ١٦ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ١٦ و٥٢ و٢٢٩ و٤٨٩ وفي المعجم الصغير للطبراني ٢/ ١٧٠ وفي ابن ماجه (١٨٢) وفي المسند لأبي عوانة ١/ ١٨٨ وفي كنز العمال (١٧٢١٧).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الترجل باب (١٦) رقم الحديث (٤٢٠١).

(٣) ذكره البيهقي في سننه الكبرى ١/ ١٥١ وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٤٠٩ وفي حلية الأولياء ٤/ ٩٤ وفي فتح الباري ١٠/ ٤٢٦.

(٤) الحديث في المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٦٥ وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٧٩ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٣١ وفي المغني للعراقي ١/ ١٤٠ وفي كنز العمال (١٧٢٥٧).

حديث أنس أن النبي ﷺ كان لا يتنور، وكان إذا كثر شعره حلقه[1] ولكن سنده ضعيف. وروى ابن ماجه والبيهقي، ورجاله ثقات، ولكن أعل بالإرسال. وأنكر الإمام أحمد صحته من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ كان إذا طلى بدأ بعانته فطلاها بالنورة وسائر جسده أهله[2].

وأما الحديث الذي يروى أن النبي ﷺ دخل حمام الجحفة، فموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث كما قاله الحافظ ابن كثير، بل ولم تعرف العرب الحمام ببلادهم إلا بعد موته ﷺ. وأخرج البيهقي من مرسل أبي جعفر الباقر قال: كان رسول الله ﷺ يستحب أن يأخذ من أظفاره وشاربه يوم الجمعة[3]. وله شاهد موصول من حديث أبي هريرة ولكن سنده ضعيف أخرجه البيهقي أيضاً في الشعب. وسئل عنه أحمد فقال يسن يوم الجمعة قبل الزوال. وعنه: يوم الخميس، وعنه يتخير. قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: وهذا هو المعتمد، أنه يستحب كيفما احتاج إليه، قال: ولم يثبت في استحباب قص الظفر يوم الخميس حديث، وكذا لم يثبت في كيفيته شيء، ولا في تعيين يوم له عن النبي ﷺ. وما يعزى من النظم في ذلك لعلي رضي الله عنه ثم لشيخ الإسلام ابن حجر قال شيخنا: إنه باطل. والمراد: إزالة ما يزيد على ما يلامس رأس الأصبع من الظفر، لأن الوسخ يجتمع فيه فيستقذر، وقد يتنهي إلى حد يمنع من وصول الماء إلى ما يجب غسله في الطهارة. وقد حكى أصحاب الشافعي فيه وجهين: فقطع المتولي بأن الوضوء حينئذٍ لا يصح، وقطع الغزالي في الإحياء بأنه يعفى عن مثل ذلك.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة: كان النبي ﷺ لا يفارق سواكه ومشطه وكان ينظر في المرآة إذا سرح لحيته[4]. وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كانت له مكحلة يكتحل منها كل ليلة ثلاثة في هذه وثلاثة في هذه[5]. رواه ابن ماجه والترمذي وأحمد ولفظه: كان يكتحل بالإثمد كل ليلة قبل أن ينام، وكان يكتحل في كل عين ثلاثة أميال.

---

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ١/ ١٥٢ وفي الحاوي للفتاوي للسيوطي ١/ ٥٢٥ و٥٢٩ وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ١١٣ وفي فتح الباري ١٠/ ٤٢٢ وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ١١٤. وفي تفسير القرطبي ٢/ ١٠١ وفي أخلاق النبوة (٥٧) وفي تاريخ أصبهان ١/ ٣٢١.

(٢) أخرجه ابن ماجه. كتاب الأدب.. باب (٣٩) رقم الحديث (٣٧٥١ ـ ٣٧٥٢). وفي الحاوي للفتاوي للسيوطي ١/ ٥٢٤ و٥٢٥ وفي كنز العمال (١٨٣١٤).

(٣) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/ ٤٠٩ وفي أخلاق النبوة ٢٥٧.

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٢ وفي فتح الباري ١٠/ ٤٤٩.

(٥) أخرجه الترمذي (١٧٥٧ ـ ٢٠٤٨) وابن ماجه في كتاب الطب باب (٢٦) رقم الحديث ٣٤٩٩ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٥٤ وفي أخلاق النبوة (١٧٠).

وروى النسائي والبخاري في تاريخه عن محمد بن علي قال سألت عائشة: أكان النبي ﷺ يتطيب؟ قالت: نعم، بذكارة الطيب، المسك والعنبر[١].

وأما مشيه ﷺ [٢] فعن علي قال: كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفياً، كأنما ينحط من صبب[٣]، رواه الترمذي وصححه البيهقي. والتكفؤ: الميل إلى سنن المشي. وعند البزار من حديث أبي هريرة: إذا وطىء بقدمه وطىء بكلها. وعند الترمذي في الشمائل من حديثه: وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ: كأنما الأرض تطوى له، إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث[٤]. وعن يزيد بن مرثد قال: كان رسول الله ﷺ إذا مشى أسرع، حتى يهرول الرجل وراءه فلا يدركه: رواه ابن سعد. ويروى أنه كان إذا مشى مشى مجتمعاً أي قوي الأعضاء غير مسترخ في المشي. وقال علي رضي الله عنه كان إذا مشى تقلع[٥].

وقال ابن أبي هالة: إذا زال زال تقلعاً، يخطو تكفياً، ويمشي هونا، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وفي رواية إذا زال زال قلعاً ـ بالفتح والضم، فبالفتح هو مصدر بمعنى الفاعل أي لا يزول قالعاً لرجله من الأرض، وهو بالضم إما مصدر أو اسم وهو بمعنى الفتح ـ.

وقال الهروي: «قرأت هذا الحرف في كتاب غريب الحديث لابن الأنباري: قلعاً: بفتح القاف وكسر اللام، وكذلك قرأته بخط الأزهري، وهو كما جاء في حديث آخر كأنما ينحط من صبب، والانحدار من الصبب والتقلع من الأرض قريب بعضه من بعض. أراد: أنه كان يستعمل التثبت ولا يتبين منه في هذه الحال استعجال ومبادرة شديدة». وذريع المشية: أي واسع الخطوة قاله ابن الأثير.

وقال ابن القيم: التقلع الارتفاع من الأرض بجملته، كحال المنحط من الصبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، فكثير من الناس يمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة، فهي مذمومة، وإما أن يمشي بانزعاج مشي الجمل الأهوج وهي مشية مذمومة، وهي علامة خفة عقل صاحبها ولا سيما إن

---

(١) رواه النسائي. كتاب الزينة (٣١) ٨/ ١٥١.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٨٦.

(٣) الحديث في المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٧٠ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٦٠٦.

(٤) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٧.

(٥) ذكره الترمذي في الشمائل (٦٠) وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٥٢ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٧٢ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل نحوه ٢/ ٣٢٤.

أكثر الالتفات حال مشيه يميناً وشمالاً. وفي بعض المسانيد: أن المشاة شكوا إلى رسول الله ﷺ من المشي في حجة الوداع فقال: «استعينوا بالنسلان:» وهو العدو الخفيف الذي لا يزعج الماشي.

وأما مشيه ﷺ مع أصحابه، فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم، ويقول: «خلوا ظهري للملائكة»[1]، وهو معنى قول القائل: وكان يسوق أصحابه ويماشيهم فرادى وجماعة. ومشى ﷺ في بعض غزواته مرة فجرحت أصبعه وسال منها الدم فقال: «هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت»[2]. رواه أبو داود. ولم يكن له ﷺ ظل في شمس ولا قمر رواه الترمذي الحكيم عن ذكوان. وقال ابن سبع كان ﷺ نوراً. فكان إذا مشى في الشمس أو القمر لا يظهر له ظل. قال غيره: ويشهد له قوله ﷺ في دعائه: «واجعلني نوراً»

وأما لونه[3] الشريف الأزهر ﷺ فقد وصفه ـ عليه السلام ـ جمهور أصحابه بالبياض، منهم: أبو بكر وعمر وعلي وأبو جحيفة وابن عمر وابن عباس وابن أبي هالة والحسن بن علي وأبو الطفيل ومحرش الكعبي وابن مسعود والبراء وأنس في إحدى الروايتين عنه.

فأما أبو جحيفة فقال: كان أبيض. رواه البخاري. وأما أبو الطفيل فقال: كان أبيض مليحاً. رواه الترمذي في الشمائل، وفي رواية مسلم: أبيض مليح الوجه. وفي رواية عنه للطبراني: ما أنسى شدة بياض وجهه مع شدة سواد شعره. وفي شعر أبي طالب:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وقال علي: أبيض مشرب. والمشرب: هو الذي في بياضه حمرة، كما في الرواية الأخرى: أبيض مشرب بحمرة، وبهذا فسر قول أنس في صحيح مسلم: أزهر اللون. وفي النسائي من حديث أبي هريرة: بينا النبي ﷺ جالس بين أصحابه جاء رجل فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقالوا: هذه الأمغر المرتفق. والأمغر: المشرب بحمرة.

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٩٨ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ١٠.

(٢) الحديث في البخاري كتاب الأدب باب (٩٠) رقم الحديث (٦١٤٦) وفي مسلم الجهاد رقم الحديث (١١٢) وفي الترمذي رقم (٣٣٤٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣١٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ٢/ ١٨٥ وفي مسند الحميدي (٧٧٦) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٤ وفي الشمائل للترمذي (١٢٤) وفي التمهيد لابن عبد البر ٦/ ٤٨٩ وفي الدر المنثور ٦/ ٣٦٠ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٤/ ٢٩٩.

(٣) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٥ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٠١.

المرتفق: المتكيء على مرفقه. وفي البخاري من حديث أنس: ليس بأبيض أمهق. قال الحافظ ابن حجر: ووقع عند الداودي تبعاً لرواية المروزي: أمهق ليس بأبيض، وفي رواية عند أبي حاتم وغيره أسمر. واستشكله بعضهم وقال: إن غالب هذه الروايات متدافع، وبعضها ممكن الجمع كالأبيض مع رواية مشرب بالحمرة والأزهر، وبعضها غير ممكن الجمع كالأبيض الشديد الوضح مع الأسمر. واعترض الداودي رواية أمهق ليس بأبيض. وهي التي وقعت عنده تبعاً لرواية المروزي. وقال القاضي عياض: إنها وهم، وقال: وكذلك رواية من روى أنه ليس بالأبيض ولا الآدم، ليس بصواب. قال الحافظ ابن حجر: هذا ليس بجيد لأن المراد أنه ليس بالأبيض الشديد البياض ولا بالآدم الشديد الأدمة، وإنما يخالط بياضه الحمرة، والعرب قد تطلق على كل من كان كذلك أسمر، ولهذا جاء في حديث أنس عند أحمد والبزار وابن منده بإسناد صحيح أن النبي ﷺ كان أسمر، وأخرجه البيهقي في الدلائل من وجه آخر عن أنس، فذكر الصفة النبوية فقال: كان ﷺ أبيض بياضه إلى السمرة. وفي حديث ابن عباس في صفته ﷺ: رجل بين رجلين جسمه ولحمه، أحمر إلى البياض، أخرجه أحمد. وقد تبين من مجموع الروايات: أن المراد بالسمرة؛ الحمرة التي تخالط البياض، وأن المراد بالبياض المثبت ما تخالطه الحمرة، والمنفي ما لا تخالطه، وهو الذي تكره العرب لونه وتسميه أمهق، وبهذا تبين أن رواية المروزي أمهق ليس بأبيض مقلوبة، على أنه يمكن توجيهها بأن المراد بالأمهق الأخضر اللون الذي ليس بياضه في الغاية، ولا سمرته ولا حمرته، فقد نقل عن رؤبة: أن المهق خضرة الماء، فهذا التوجيه يتم على تقدير ثبوت الرواية، وقد تقدم في حديث أبي جحيفة إطلاق كونه كان أبيض، وكذا في حديث أبي الطفيل عند مسلم والترمذي.

وفي حديث سراقة عند ابن إسحاق فجعلت أنظر إلى ساقه كأنها جمارة، ولأحمد من حديث محرش الكعبي في عمرة الجعرانة قال: فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة. وعن سعيد بن المسيب أنه سمع أبا هريرة يصفه ﷺ فقال: كان شديد البياض أخرجه يعقوب بن سفيان والبزار بإسناد قوي. ويجمع بينهما بما تقدم. وقال البيهقي: يقال: إن المشرب منه بحمرة وإلى السمرة منه ما ضحى للشمس والريح أي كالوجه والعنق وأما ما تحت الثياب فهو الأزهر الأبيض انتهى. وهذا ذكره ابن أبي خيثمة عقب حديث عائشة في صفته ﷺ بأبسط من هذا وزاد: ولونه الذي لا يشك فيه الأبيض الأزهر. انتهى والله أعلم.

وقد ضعف بعضهم قول من قال: إنما وصف بالسمرة ما كانت الشمس تصيب منه، بأن أنساً لا يخفى عليه أمره حتى يصفه بغير صفته اللازمة له لقربه منه، ولم يكن ﷺ

ملازماً للشمس، نعم لو وصفه بذلك بعض القادمين ممن صادفه في وقت غيرته الشمس لأمكن، فالأولى حمل السمرة في رواية أنس على الحمرة التي تخالط البياض كما قدمناه.

تنبيه: في الشفاء حكاية عن أحمد بن سليمان صاحب سحنون: من قال إن النبي: ﷺ أسود يقتل. انتهى. وهذا يقتضي أن مجرد الكذب عليه في صفة من صفاته كفر يوجب القتل. وليس كذلك، بل لا بد من ضميمة ما يشعر بنقص في ذلك. كما في مسألتنا هذه فإن الأسود لون مفضول.

وأما طيب ريحه ﷺ وعرقه وفضلاته[1]، فقد كانت الرائحة الطيبة صفته ﷺ وإن لم يمس طيباً. وروينا عن أنس قال: ما شممت ريحاً قط ولا مسكاً ولا عنبراً أطيب من ريح رسول الله ﷺ. لحديث رواه الإمام أحمد. وفي البخاري: ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة النبي ﷺ. وفي رواية الترمذي: ولا شممت مسكاً قط ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ. وقوله: شممت: بكسر الميم الأولى وسكون الثانية. وعن أم عاصم امرأة عتبة بن فرقد السلمي قالت: كنا عند عتبة أربع نسوة، فما منا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب لتكون أطيب ريحاً منا، وكان إذا خرج إلى الناس قالوا: ما شممنا ريحاً أطيب من ريح عتبة، فقلت له يوماً: إنا لنجتهد في الطيب، ولأنت أطيب ريحاً منا فمم ذلك؟ فقال: أخذني الشرى على عهد رسول الله ﷺ فأتيته فشكوت ذلك إليه، فأمرني أن أتجرد، فتجردت وقعدت بين يديه، وألقيت ثوبي على فرجي، فنفث في يده ثم مسح ظهري وبطني بيده، فعبق بي هذا الطيب من يومئذٍ. رواه الطبراني في معجمه الصغير.

وروى أبو يعلى والطبراني قصة الذي استعان به ﷺ على تجهيز ابنته، فلم يكن عنده شيء، فاستدعاه بقارورة فسلت له فيها من عرقه، وقال: «مرها فلتطيب به»، فكانت إذا تطيبت به شم أهل المدينة ذلك الطيب فسموا بيت المطيبين. وقال جابر بن عبدالله: كان في رسول الله ﷺ خصال: لم يكن في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيب عرقه وعرفه[2]، ولم يكن يمر بحجر إلا سجد له. رواه الدارمي والبيهقي وأبو نعيم. ولله در القائل:

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٦١ ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٥٤ والبداية والنهاية ٦/ ٢٥.

(٢) ذكره البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ١٥٤ وانظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٦٣ ومناهل الصفا صفحة ٤١ رقم الحديث (٦٦) وفي الدارمي ١/ ٣٢ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٨٢ وفي كشف الأستار ٣/ ١٦١ وفي مسند أبي يعلى ٥/ ٤٣٣.

فلــو أن ركبــاً يممــوك لقــادهــم　　نسيمــك حتــى يستــدل بــه الــركــب

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر في طريق من طرق المدينة وجدوا منه رائحة الطيب وقالوا: مر رسول الله ﷺ من هذا الطريق. رواه أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح. وما أحسن قول القائل:

يـروح علـى غيـر الطـريـق التـي غـدا　　عليهــا فــلا ينهــى عــلاه نهــاتــه
تنفســه فــي الــوقــت أنفــاس عطــره　　فمــن طيبــه طــابــت لــه طــرقــاتــه
تــروح لـه الأرواح حيــث تنسمـــت　　لهــا سحــراً مــن حيــه نسمــاتــه

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأنورهم لوناً، لم يصفه واصف قط إلا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر. وكان عرقه في وجهه مثل اللؤلؤ، أطيب من المسك الإذفر. رواه أبو نعيم. وعن أنس قال: دخل علينا رسول الله ﷺ فقال عندنا، فعرق وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ ﷺ فقال «يا أم سليم ما هذا الذي تصنعين؟» قالت: هذا عرقك نجعله لطيبنا، وهو أطيب الطيب. رواه مسلم.

وفي رواية له: كان ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه. قال فجاء ذات يوم فنام على فراشها فأتيت فقيل لها هذا النبي نائم في بيتك على فراشك قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش، ففتحت عتيدتها فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها، ففزع ﷺ فقال: «ما تصنعين يا أم سليم» فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: «أصبت» والعتيدة: كالصندوق الصغير الذي تترك فيه المرأة ما يعز عليها من متاعها.

وأما ما روي أن الورد خلق من عرقه ﷺ أو من عرق البراق فقال شيخنا في الأحاديث المشتهرة: قال النووي: لا يصح. وقال شيخ الإسلام ابن حجر: إنه موضوع، وسبقه لذلك ابن عساكر، وهو في مسند الفردوس بلفظ: «الورد الأبيض خلق من عرقي ليلة المعراج، والورد الأحمر خلق من عرق جبريل، والورد الأصفر خلق من عرق البراق»[1]. رواه من طريق مكي بن بندار الزنجاني. حدثنا الحسن بن علي بن عبد الواحد القرشي، حدثنا هشام بن عمار عن الزهري عن أنس به مرفوعاً ثم قال: قال أبو مسعود حدث به أبو عبد الله الحاكم عن رجل عن مكي. ومكي تفرد به انتهى. ورواه أبو الحسين

---

(١) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/ ٢٧٠ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٠٢ و٢/ ٣٥٢ و٤٦٥ وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/١٤٨ والأسرار المرفوعة لعلي القاري ١٣٥ ـ ٣٧٧ والموضوعات لابن الجوزي ٣/ ٦٢.

ابن فارس[1] اللغوي في «الريحان والراح» له عن مكي به. ومكي ممن اتهمه الدارقطني بالوضع، وله طريق أخرى رواه أبو الفرج النهرواني في الخامس والتسعين من «الجليس الصالح» له من طريق محمد بن عنبسة بـن حماد، حدثنا أبي عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار عن أنس رفعه: «لما عرج بي إلى السماء بكت الأرض من بعدي فنبت اللصف من نباتها، فلما أن رجعت قطر من عرقي على الأرض فنبت ورد أحمر، ألا من أراد أن يشم رائحتي فليشم الورد الأحمر». ثم قال أبو الفرج: اللصف: الكبر، وقال: وما أتى به هذا الخبر فهو اليسير من كثير مما أكرم الله به نبيه ودل على فضله ورفيع منزلته. انتهى. وإنما ذكرته ليعلم [أنه موضوع][2].

وعن جابر بن سمرة أنه ﷺ مسح خده، وقال: فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطار. قال غيره: مسها بطيب أو لم يمسها يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان ريحها. وجؤنة العطار: بضم الجيم وهمزة بعدها، ويجوز تخفيفها واواً: سلسلة مستديرة مغشاة أدماً.

وقد ورد مما عزاه القاضي عياض للأخباريين ومن ألف في الشمائل الكريمة أنه ﷺ كان إذا أراد أن يتغوط انشقت الأرض وابتلعت بوله وغائطه وفاحت لذلك رائحة طيبة. قال غيره: ولم يطلع على ما يخرج منه بشر قط. وأسند محمد بن سعد كاتب الواقدي ـ كما هو في بعض نسخ الشفاء، وقالوا إنه ليس من الرواية ولا من حواشي أصل ابن جبير بل من حواشي غيره ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: إنك تأتي الخلا فلا نرى منك شيئاً من الأذى فقال «يا عائشة أو ما علمت أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء فلا يرى منه شيء»[3] انتهى.

وفي الشفاء لابن سبع عن بعض الصحابة قال: صحبته ﷺ في سفر فلما أراد قضاء الحاجة تأملته وقد دخل مكاناً فقضى حاجته، فدخلت الموضع الذي خرج منه فلم ير له أثر غائط ولا بول، ورأيت في ذلك الموضع ثلاثة أحجار فأخذتهن فوجدت لهن رائحة طيبة وعطراً. قلت: وقد سئل الحافظ عبد الغني المقدسي: هل روي أنه ﷺ كان ما يخرج منه تبتلعه الأرض؟ فقال: قد روي ذلك من وجه غريب، والظاهر يؤيده، فإنه لم يذكر عن أحد من الصحابة أنه رآه ولا ذكره، وأما البول فقد شاهده غير واحد. وشربته أم أيمن

---

(١) هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين (٣٢٩ ـ ٣٩٥ هـ). من أئمة اللغة والأدب توفي في الري. الأعلام ١/ ١٩٣ وفيات الأعيان ١/ ٣٥ ويتيمة الدهر ٣/ ٤٦٣ رقم الترجمة (٣٤).

(٢) ليس في الأصل: ولكن يتطلبه السياق.

(٣) انظر الشفا ١/ ٦٣.

والله أعلم انتهى. لكن قال البيهقي: وأما الحديث الذي أخبرنا به أبو الحسين بن بشر أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار حدثنا زيد بن إسماعيل الصائغ حدثنا حسين بن علوان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إذا دخل الغائط دخلت في أثره فلا أرى شيئاً إلا أني كنت أشم رائحة الطيب، فذكرت ذلك له فقال: «يا عائشة أما علمت أن أجسادنا تنبت على أرواح أهل الجنة وما خرج منها ابتلعته الأرض» فهذا من موضوعات الحسين بن علوان، لا ينبغي ذكره إلا لبيان أنه موضوع ففي الأحاديث الصحيحة المشهورة في معجزاته كفاية عن كذب ابن علوان انتهى.

لكن للحديث طرق غير طريق ابن علوان: فعند الدارقطني في الأفراد: حدثنا محمد ابن سليمان الباهلي حدثنا محمد بن حسان الأموي، أنبأنا عبدة بن سليمان عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: يا رسول الله، إني أراك تدخل الخلاء ثم يأتي الذي بعدك فلا يرى لما يخرج منك أثراً، فقال« يا عائشة أما علمت أن الله أمر الأرض أن تبتلع ما يخرج من الأنبياء»، ومحمد بن حسان بغدادي ثقة، وعبدة من رجال الصحيح. وله طريق أخرى عند ابن سعد، وأخرى عند الحاكم في مستدركه. وروي أنه كان يتبرك ببوله ودمه ﷺ. فروى ابن حبان في «الضعفاء» عن ابن عباس قال: حجم النبي ﷺ غلام لبعض قريش، فلما فرغ من حجامته أخذ الدم فذهب به من وراء الحائط، فنظر يميناً وشمالاً فلم ير أحداً، فحسا دمه حتى فرغ ثم أقبل فنظر في وجهه فقال: «ويحك ما صنعت بالدم» قلت غيبته من وراء الحائط، قال أين غيبته؟ قلت: يا رسول الله نفست على دمك أن أهريقه في الأرض فهو في بطني فقال:«اذهب فقد أحرزت نفسك من النار»[1].

وفي سنن سعيد بن منصور من طريق عمرو بن السائب أنه بلغه أن مالكاً والد أبي سعيد الخدري لما جرح النبي ﷺ مص جرحه حتى أنقاه ولاح أبيض فقيل: مجه، فقال: لا والله لا أمجه أبداً، ثم ازدرده فقال النبي ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»[2] فاستشهد.

وأخرج البزار والطبراني والحاكم والبيهقي وأبو نعيم في الحلية، من حديث عامر ابن عبدالله بن الزبير عن أبيه قال: احتجم رسول الله ﷺ فأعطاني الدم فقال: «اذهب فغيبه» فذهب فشربته فأتيته ﷺ فقال: «ما صنعت» قلت: غيبته، قال: «العلك شربته»

---

(١) ذكره ابن حجر في التلخيص ١/ ٣٠ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ١٨١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ١٨٦.

(٢) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٨٣ وفي دلائل النبوة أيضاً ٣/ ٢٦٦ وفي تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٣.

قلت: شربته، وفي رواية قلت: جعلته في أخفى مكان ظننت أنه خاف عن الناس، قال «لعلك شربته؟» قلت: شربته، فقال: «ويل لك من الناس وويل للناس منك». وفي رواية فقال رسول الله ﷺ «فما حملك على ذلك» قال: علمت أن دمك لا تصيبه نار جهنم فشربته لذلك، فقال: «ويل لك من الناس»[1].

وعند الدارقطني من حديث أسماء بنت أبي بكر نحوه، وفيه: ولا تمسك النار، وفي كتاب الجوهر المكنون في ذكر القبائل والبطون: أنه لما شرب - أي عبدالله ابن الزبير - دمه تضوع فمه مسكاً، وبقيت رائحته موجودة في فمه إلى أن صلب رضي الله عنه. وأخرج الحسن بن سفيان في مسنده والحاكم والدارقطني والطبراني وأبو نعيم من حديث أبي مالك النخعي عن الأسود بن قيس عن نبيح عن أم أيمن قالت: قام رسول الله ﷺ من الليل إلى فخارة في جانب البيت فبال فيها، فقمت من الليل وأنا عطشانة فشربت ما فيها وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبي ﷺ قال: «يا أم أيمن قومي فأهريقي ما في تلك الفخارة»، فقلت: قد والله شربت ما فيها قالت: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أما والله لا ييجعن بطنك أبداً».

وعن ابن جريج قال: أخبرت أن النبي ﷺ كان يبول في قدح من عيدان ثم يوضع تحت سريره فجاء فإذا القدح ليس فيه شيء فقال لامرأة يقال لها بركة كانت تخدم أم حبيبة جاءت معها من أرض الحبشة «أين البول الذي في القدح» قالت: شربته قال: «صحة يا أم يوسف» فما مرضت قط حتى كان مرضها الذي ماتت فيه. ورواه أبو داود عن ابن جريج عن حكيمة عن أمها أميمة بنت رقيقة.

وصحح ابن دحية أنهما قصتان وقعتا لامرأتين وقد وضح أن بركة أم يوسف غير بركة أم أيمن، وهو الذي ذهب إليه شيخ الإسلام البلقيني.

وفي هذه الأحاديث دلالة على طهارة بوله ودمه ﷺ. قال النووي في شرح المهذب: واستدل من قال بطهارتهما بالحديثين المعروفين: أن أبا طيبة الحجام حجمه ﷺ وشرب دمه ولم ينكر عليه، وأن امرأة شربت بوله ﷺ فلم ينكر عليها. وحديث أبي طيبة ضعيف، وحديث شرب البول صحيح رواه الدارقطني وقال: هو حديث حسن صحيح، وذلك كاف في الاحتجاج لكل الفضلات قياساً، ثم إن القاضي حسيناً قال: الأصح القطع بطهارة الجميع انتهى. وبهذا قال أبو حنيفة، كما قاله العيني. وأبو طيبة؛ بفتح الطاء المهملة وسكون الياء المثناة تحت وبالموحدة، نافع الحجام مولى محيصة -

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٥٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٧٠ وفي كنز العمال (٣٧٢٢٦).

بضم الميم وفتح المهملة وتشديد المثناة تحت وكسرها ـ هو أبو مسعود الأنصاري.

وقال شيخ الإسلام ابن حجر قد تكاثرت الأدلة على طهارة فضلاته ﷺ وعدَّ الأئمة ذلك في خصائصه. انتهى. قال بعضهم: وكأن السر في ذلك ما روي من صنيع الملكين حين غسلا جوفه والله أعلم.

وأما سيرته ﷺ في البراز، ففي حديث عائشة عند أبي عوانة في صحيحه والحاكم: ما بال رسول الله ﷺ قائماً منذ أنزل عليه القرآن. وفي حديث عبد الرحمن بن حسنة عند النسائي وابن ماجه: أنه بال جالساً، فقالوا: انظروا إليه يبول كما تبول المرأة.[1]. وحكى ابن ماجه عن بعض مشايخه أنه قال: كان من شأن العرب البول قائماً، ويؤيده ما في حديث عبد الرحمن هذا. وفيه دلالة على أنه كان يخالفهم في ذلك فيقعد لكونه أستر وأبعد عن مماسة البول. وقال حذيفة: أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم فبال قائماً ثم دعا بماء فجئته بماء فتوضأ[2]. رواه البخاري. وفي رواية غيره: بال قائماً ففجع رجليه، أي: فرقهما وباعد ما بينهما.

والسباطة: ـ بضم المهملة وبعدها موحدة ـ هي المزبلة والكناسة تكون بفناء الدور مرفقا لأهلها، وتكون في الغالب سهلة لا يرتد فيها البول على البائل، وإضافتها إلى القوم إضافة اختصاص لا ملك لأنها لا تخلو عن النجاسة. وبهذا يندفع إيراد من استشكله لكون البول يوهي الجدار ففيه إضرار، أو نقول: إنما بال فوق السباطة لا في أصل الجدار، وهو صريح في رواية أبي عوانة في صحيحه. وقيل: يحتمل أن يكون علم إذنهم في ذلك بالتصريح أو غيره أو لكونه مما يتسامح الناس به، أو لعلمه بإيثارهم إياه بذلك، أو لكونه يجوز له التصرف في مال أمته دون غيره لأنه أولى بالمؤمنين عن أنفسهم وأموالهم، وهذا وإن كان صحيح المعنى لكن لم يعهد ذلك من سيرته ومكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم. قال الحافظ ابن حجر: وأما مخالفته ﷺ لما عرف من عادته من الإبعاد عند قضاء الحاجة عن الطرق المسلوكة وعن أعين النظار، فقد قيل فيه إنه ﷺ كان

---

(١) الحديث في ابن ماجه كتاب الطهارة باب (١٤ ـ ٢٦) رقم الحديث (٣٠٩ ـ ٣٤٦) وفي النسائي كتاب الطهارة (٢٥) ١/ ٢٧ وفي سنن أبي داود باب (١١) رقم الحديث (٢٢). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٩٦.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الطهارة باب (٦٠) رقم الحديث (٢٢٤ ـ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ـ ٢٤٧١). وفي صحيح مسلم كتاب الطهارة رقم الحديث (٧٣ ـ ٧٤ ـ ١٨٧). وفي سنن أبي داود. كتاب الطهارة باب (١٢) رقم الحديث (٢٣). وفي الترمذي. كتاب الطهارة باب (٩) رقم الحديث (١٣) وفي ابن ماجه كتاب الطهارة باب (١٣) رقم الحديث (٣٠٥ ـ ٣٠٦). والنسائي. كتاب الطهارة (١٦) ١/ ١٩. وفي سنن الدارمي. كتاب الوضوء رقم (٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٨٤ و٤/ ٢٤٦ و٥/ ٣٨٢.

مشغولاً بمصالح المسلمين، ولعله طال عليه المجلس حتى احتاج إلى البول فلو أبعد لتضرر، واستدنى حذيفة ليستره من خلفه عن رؤية من لعله يراه،أو لعله فعله لبيان الجواز. ثم هو في البول أخف من الغائط لاحتياجه إلى زيادة تكشف، والغرض من الإبعاد التستر وهو يحصل بإرخاء الذيل والدنو من الساتر.[1].

وروى الطبراني من حديث عصمة بن مالك قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في بعض سكك المدينة فانتهى إلى سباطة قوم فقال: يا حذيفة استرني فذكر الحديث. وظهر منه الحكمة في إدنائه حذيفة في تلك الحالة.

وقيل: إنما بال قائماً لأنها حالة يؤمن معها خروج الريح بصوت، ففعل ذلك لكونه قريباً من الديار، ويؤيده ما رواه عبد الرزاق عن عمر رضي الله عنه قال: البول قائماً أحصن للدبر.

وقيل السبب في ذلك ما روي عن الشافعي وأحمد: أن العرب كانت تستشفي لوجع الصلب بذلك فلعله كان به. وروى الحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة قال: إنما بال ﷺ قائماً لجرح كان بمأبضه.

والمأبض: بهمزة ساكنة بعدها موحدة ثم معجمة: باطن الركبة.

فكأنه لم يتمكن لأجله من القعود، ولو صح هذا الحديث لكان فيه غنى عن جميع ما تقدم ولكن ضعفه الدارقطني والبيهقي. والأظهر: أنه فعل ذلك لبيان الجواز، وكان أكثر أحواله البول من قعود.

وقيل إن البول عن قيام منسوخ واستدل عليه بحديث عائشة المتقدم. والصواب: أنه غير منسوخ، والجواب عن حديث عائشة أنه مستند إلى علمها فيحمل على ما وقع منه في البيوت، وأما غير البيوت فلم تطلع عليه، وقد حفظه حذيفة، وهو من كبار الصحابة، وهو جائز من غير كراهة إذا أمن الرشاش.

وكان ﷺ إذا أراد أن يدخل الخلاء قال: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»[2]. رواه البخاري من حديث أنس. والخبث: ـ بضم المعجمة والموحدة ـ

---

(١) انظر فتح الباري ١/٤٣٧.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الوضوء باب (٩) رقم الحديث (١٤٢ ـ ٦٣٢٢). وابن ماجه رقم الحديث (٢٩٦) وفي صحيح مسلم رقم الحديث (٢٨٣) وفي الترمذي رقم الحديث (٥ ـ ٦). وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/٩٩ و٤/٣٦٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/٩٥. وفي سنن الدارمي ١/١٧١. وفي إتحاف السادة المتقين ٢/٣٣٩. وفي تفسير القرطبي=

ومراده: ذكران الشياطين وإناثهم. وقد كان ﷺ يستعيذ إظهاراً للعبودية، ويجهر بذلك للتعليم. وهل يختص هذا الذكر بالأبنية المعدة لذلك لكونه حضرة الشياطين، أو يعم؟ الأصح الثاني. ويقول ذلك قبيل الدخول في الأمكنة، وأما في غيرها فيقول في أول الشروع كتشمير ثيابه مثلاً، وهذا مذهب الجمهور، فلو نسي يستعيذ بقلبه لا بلسانه.

وعن أنس: كان ﷺ إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض[1]. رواه الترمذي وأبو داود والدارمي. وعن عائشة قالت: كان ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: «غفرانك»،[2] رواه الترمذي وابن ماجه. وعن أنس: كان ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: «الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني»[3]. رواه ابن ماجه. وقال ﷺ: «إذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يولها ظهره، شرقوا أو غربوا»[4]، رواه البخاري من حديث أبي أيوب الأنصاري. وهذا في الصحراء، أما في البنيان فلا، لما روي عن ابن عمر: ارتقيت فوق بيت حفصة لبعض حاجتي، فرأيت رسول الله ﷺ يقضي حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشام[5]. رواه الشيخان.

وأما حديث جابر: عند أبي داود وابن خزيمة، ولفظه عند أحمد: كان رسول الله

---

= ٣٩/١٤. وفي شرح السنة للبغوي ٣٧٦/١. وفي مسند أبي عوانة ٣١٦/١ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١/١ وفي كنز العمال (١٧٨٧٣).

(١) أخرجه الترمذي كتاب الطهارة باب (١٠) رقم الحديث (١٤) وفي سنن أبي داود. كتاب الطهارة باب (٦) رقم الحديث (١٤) وفي سنن الدارمي. كتاب الوضوء رقم الحديث (٧). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢٠٦/١. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٤٦) وفي شرح السنة للبغوي ٣٧٤/١. وفي كنز العمال (١٧٨٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود. كتاب الطهارة باب (١٧) رقم الحديث (٣٠) والترمذي رقم الحديث (٧) وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (٣٠٠). وفي التاريخ الكبير للبخاري ٣٨٦/٨. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩٧/١ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/١ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٣٣٠/١. وفي كنز العمال (١٧٨٦٩ ـ ١٧٨٧١ ـ ٣٧٢١١).

(٣) أخرجه ابن ماجه. كتاب الطهارة باب (١٠) رقم الحديث (٣٠١). وفي عمل اليوم والليلة لابن سني (٢١) وفي كنز العمال (١٧٨٧٠).

(٤) أخرجه البخاري. كتاب الوضوء باب (١١) رقم الحديث (١٤٤ ـ ٣٩٤) وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٨) والنسائي كتاب الطهارة ٢٣/١ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤١٦/٥. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٧٩/٤. وفي تفسير ابن كثير (٣٨٢١٦) وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (٧٥) وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣٧٨/٣.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الوضوء باب (١٤) رقم الحديث (١٤٨) وفي صحيح مسلم كتاب الطهارة رقم الحديث (٦٢). وفي الترمذي كتاب الطهارة باب (٧) رقم الحديث (١١). وفي مسند الإمام أحمد ابن حنبل ١٢/٢ و١٣.

ﷺ ينهانا أن نستدبر القبلة أو نستقبلها بفروجنا إذا أهرقنا الماء[1]. قال: ثم رأيته قبل موته بعام مستقبل القبلة. فقال في فتح الباري: الحق أنه ليس بناسخ لحديث النهي خلافاً لمن زعمه، بل هو محمول على أنه رآه في بناء أو نحوه، لأن ذلك هو المعهود من حاله ﷺ لمبالغته في التستر. ودعوى خصوصية ذلك بالنبي ﷺ لا دليل عليها، إذا الخصائص لا تثبت بالاحتمال.

ومذهب الجمهور وهو مذهب مالك والشافعي وإسحاق: التفريق بين البنيان والصحراء، وهذا أعدل الأقوال لإعماله جميع الأدلة. وقال قوم بالتحريم مطلقاً، وهو المشهور عن أبي حنيفة وأحمد، ورجحه من المالكية ابن العربي وحجتهم: أن النهي مقدم على الإباحة، ولم يصححوا حديث جابر المتقدم. وقال قوم بالجواز مطلقاً، وهو قول عائشة وعروة وربيعة، محتجين بأن الأحاديث تعارضت فلنرجع إلى أصل الإباحة.

وفي البخاري عن أنس كان ﷺ إذا خرج لحاجته أجيء أنا وغلام، معنا إداوة من ماء، يعني ليستنجي به. وفي رواية مسلم عنه: فخرج علينا وقد استنجى بالماء[2]. وعن أبي هريرة قال: اتبعت النبي ﷺ وخرج لحاجته فقال «ابغني أحجاراً أستنفض بها ولا تأتني بعظم ولا روث»، فأتيته بأحجار بطرف ثيابي فوضعتها إلى جنبه فلما قضى حاجته أتبعه بهن[3]. وعن عبدالله بن مسعود قال: أتى النبي ﷺ الغائط فأمرني أن آتيه بثلاثة أحجار، فوجدت حجرين والتمست الثالث فلم أجده فأخذت روثة فأتيته بها، فأخذ الحجرين وألقى الروثة[4]. رواه البخاري . وفي حديث سلمان عند مسلم مرفوعاً: «لا يستنج أحدكم بأقل من ثلاثة أحجار»[5].

وقد أخذ الشافعي وأحمد وأصحاب الحديث بهذا، فاشترطوا أن لا ينقص عن الثلاثةمع مراعاة الإنقاء إذا لم يحصل بها فتزاد حتى ينقى. ويستحب حينئذٍ الإيتار، لقوله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٣٦٠. وفي فتح الباري ١/ ٣٢٦.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الوضوء باب (١٧) رقم الحديث (١٥٢) وفي صحيح مسلم كتاب الطهارة رقم الحديث (٧٠) وفي النسائي كتاب الطهارة رقم (٤٠) ١/ ٤٢. وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٨٤ و١٧١ . وفي سنن الدارمي كتاب الوضوء رقم (١٥).

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الوضوء. باب (٢٠) رقم الحديث (١٥٥ ـ ٣٨٦٠).

(٤) أخرجه الترمذي كتاب الطهارة باب (١٣) رقم الحديث (١٧) وفي البخاري كتاب الوضوء باب (٢١) رقم الحديث (١٥٦). وفي ابن ماجه برقم (٣١٤) وفي النسائي طهارة (٣٧) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٨٨ و٤١٨.

(٥) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب (١٧) رقم الحديث (٥٧) وفي سنن الدارقطني ١/ ٥٤ وفي النسائي ١/ ٤٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ١٠٣ و١١٢.

ﷺ «ومن استجمر فليوتر»[1]. وليس بواجب لزيادة في أبي داود حسنة الإسناد، قال: ومن لا، فلا حرج، قال الخطابي: لو كان القصد الإنقاء فقط لخلا اشتراط العدد عن الفائدة، فلما اشترط العدد لفظاً وعلم الإنقاء فيه معنى دل على إيجاب الأمرين. ونظيره: العدة بالأقراء، فإن العدد مشترط ولو تحققت براءة الرحم بقرء واحد. وقال الطحاوي: لو كان العدد مشترطاً لطلب عليه السلام حجراً ثالثاً. وغفل ـ رحمه الله ـ عما أخرجه أحمد في مسنده من طريق معمر عن ابن مسعود في هذا الحديث، فإن فيه: فألقى الروثة وقال: «إنها ركس، ائتني بحجر،»ورجاله ثقات أثبات. واستدلال الطحاوي فيه نظر، لاحتمال أن يكون اكتفى بطرف أحدهما عن الثالث، لأن المقصود بالثلاثة: أن يمسح بها ثلاث مسحات، وذلك حاصل ولو بواحد. انتهى ملخصاً من فتح الباري.

(١) أخرجه مسلم في الطهارة رقم (٢٢) وفي سنن أبي داود الطهارة باب (١٥) رقم الحديث (٣٥) وفي النسائي طهارة (٧١) وفي ابن ماجه برقم (٣٣٧ ـ ٤٠٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٣٦ و٢٧٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٤٩ وفي صحيح ابن خزيمة (٧٥) وفي مسند أبي عوانة ١/ ٢٤٧ وفي التلخيص لابن حجر ١/ ١١٠ وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣٤٢ وفي نصب الراية للزيلعي ١/ ٢١٧ وفي المغني للعراقي ١/ ١٣١ وفي فتح الباري ١/ ٣٤١.

# فيما أكرمه الله تعالى به من الأخلاق الزكية وشرفه به من الأوصاف المرضية[1]

أعلم أن لأخلاق جمع خلق. بضم الخاء واللام ويجوز إسكانها. قال الراغب: الخلق ـ بالفتح وبالضم ـ في الأصل بمعنى واحد، كالشَرب والشُرب لكن خص الخلق الذي بالفتح بالهيئات والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق الذي بالضم بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة. انتهى. وقد اختلف: هل حسن الخلق غريزة أو مكتسب؟ وتمسك من قال بأنه غريزة بحديث ابن مسعود: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم» [2] الحديث رواه البخاري. وقد قال القرطبي: الخلق جبلة في نوع الإنسان. وهم في ذلك متفاوتون، فمن غلب عليه شيء منها كان محموداً وإلا فهو المأمور بالمجاهدة فيه حتى يصير محموداً، وكذا إن كان ضعيفاً فيرتاض حتى يقوى.

وقد وقع في حديث الأشج أنه ﷺ قال له: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»، قال: يا رسول الله قديماً كانا أو حديثاً؟ قال: «قديماً»، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله. ورواه أحمد والنسائي وصححه ابن حبان. فترديد السؤال وتقريره عليه بأن في الخلق ما هو جبلي وما هو مكتسب. وقد كان ﷺ يقول«اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي»[3] أخرجه أحمد وصححه ابن حبان، وعند مسلم في حديث دعاء الافتتاح: «واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت». ولما اجتمع فيه ﷺ

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٠٨ والبداية والنهاية ٦/ ٣٦. وفي طبقات ابن سعد ١/ ٢٧٣ و ٢٨٥ و ٢٨٩ و ٣١٤ وفي الشفا ١/ ١٢٦.

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٨٧ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٣٣ و ٢/ ٤٤٧ و ٤/ ١٦٥ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٩٠ و ٢٨٨ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٢٠٣٢ ـ ٤٣٤٣١) وفي الدر المنثور أيضاً ٢/ ١٥٩ و ٦/ ١٧ وفي شرح السنة للبغوي ٨/ ١٠ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٣٥٢ والكامل لابن عدي ٣/ ١١٥٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٩٩٤) وفي حلية الأولياء ٤/ ١٦٦ و ٥/ ٣٥ وفي كنز العمال (٢٠٣٢ ـ ٤٣٤٣١).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٧٣، وفي كشف الخفاء للعجلوني (٢١٧) وفي اتحاف السادة المتقين ٥/ ١١٣ وفي أخلاق النبوة (١٧١). وفي المغني للعراقي ٣/ ٤٩ وفي كنز العمال (٥١٩٧).

من خصال الكمال ما لا يحيط به حد، ولا يحصره عد، أثنى الله تعالى عليه في كتابه الكريم فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤]، وكلمة «على» للاستعلاء فدل اللفظ على أنه مستعل على هذه الأخلاق ومستول عليها.

والخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة، وقد وصف الله تعالى نبيه ﷺ بما يرجع إلى قوته العلمية بأنه عظيم فقال تعالى: ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ [النساء: ١١٣] ووصف ما يرجع إلى قوته العملية بأنه عظيم، فقال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤]. فدل مجموع هاتين الآيتين على أن روحه فيما بين الأرواح البشرية عظيمة عالية الدرجة، كأنها لقوتها وشدة كمالها كانت من جنس أرواح الملائكة. قال الحليمي: وإنما وصف خلقه بالعظم، مع أن الغالب وصف الخلق بالكرم لأن كرم الخلق يراد به السماحة والدماثة، ولم يكن خلقه ﷺ مقصوراً على ذلك، بل كان رحيماً بالمؤمنين، رفيقاً بهم، شديداً على الكفار، غليظاً عليهم، مهيباً في صدور الأعداء، منصوراً بالرعب منهم على مسيرة شهر، فكان وصف خلقه بالعظيم أولى ليشمل الإنعام والانتقام.

وقال الجنيد[1]: وإنما كان خلقه ﷺ عظمياً لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى. وقيل: لأنه ﷺ عاشر الخلق بخلقه، وباينهم بقلبه. وقيل: لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، قال ﷺ ـ فيما رواه الطبراني في الأوسط بسند فيه عمر بن إبراهيم المقدسي وهو ضعيف ـ عن جابر: «إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال»،[2] وفي رواية مالك في الموطأ بلاغاً: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3]. فجميع الأخلاق الحميدة كلها كانت فيه ﷺ، فإنه أدب بالقرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن)[4].

---

(١) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز أبو القاسم. صوفي من العلماء بالدين توفي في بغداد سنة (٢٩٧ هـ). الاعلام ٢/١٤١ وفيات الأعيان ١/١١٧ وحلية الأولياء ١٠/٢٥٥ رقم الترجمة (٥٧١) وطبقات الشافعية ٢/٢٨ وتاريخ بغداد ٧/٢٤١ وطبقات الحنابلة (٨٩).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/١٨٨ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٧٣٦) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/٢٤٥ وفي تاريخ ابن عساكر ٥/٤٣٨ وفي كنز العمال (٣١٩٤٧).

(٣) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٩٢ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/١٧١ وفي شرح السنة للبغوي ١٣/٢٠٢ وفي المستدرك للحاكم ٢/٦١٣ وفي تفسير القرطبي ٧/٣٤٥ و١٤/١٩٧ وفي المغني للعراقي ٢/١٥٥ و ٣٥٢ و ٣/٤٨ والشفا ١/٩٦ وفي الموطأ للإمام مالك رقم الحديث (٩٠٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/٢٨١.

(٤) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/٩١ و ١٦٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/٤٩٩ وفي ـ

قال بعض العارفين: وقد علم أن القرآن فيه المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به، أي أقررناه في نصابه، وأقررنا به من خلف حجابه، وتقلدنا سيف الحجة به ولكن في قرابه.

ومـــا كـــونـــه ممـــا تحصـــل مقلـــة ولا حـــده ممـــا تحـــس الأنـــامـــل

وقال صاحب عوارف المعارف: ولا يبعد أن قول عائشة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن) فيه رمز غامض، وإيماء خفي إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت الحضرة الإلهية أن تقول: كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى فعبرت عن المعنى بقولها: (كان خلقه القرآن) استحياء من سبحات الجلال وستراً للحال بلطف المقال، وهذا من وقور عقلها وكمال أدبها. انتهى.

فكما أن معاني القرآن لا تتناهى فكذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم لا تتناهى إذ في كل حالة من أحواله يتجدد له من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وما يفيضه الله تعالى عليه من معارفه وعلومه ما لا يعلمه إلا الله تعالى. فإذاً التعرض لحصر جزئيات أخلاقه الحميدة تعرض لما ليس من مقدور الإنسان، ولا من ممكنات عاداته.

قال الحرالي ـ وهو كما في القاموس: بتشديد اللام، نسبة إلى قبيلة بالبربر، واسمه: علي بن أحمد بن الحسين، ذو التصانيف المشهورة ـ: ولما كان عرفان قلبه ﷺ بربه عز وجل كما قال عليه السلام: «بربي عرفت كل شيء» كانت أخلاقه أعظم خلق، فلذلك بعثه إلى الناس كلهم، ولم يقصر رسالته على الإنس حتى عمت الجن، ولم يقصرها على الثقلين حتى عمت جميع العالمين: فكل من كان الله ربه فمحمد رسوله، وكما أن الربوبية تعم العالمين فالخلق المحمدي يشمل جميع العالمين. انتهى. وهذا مصير منه إلى أنه ﷺ قد أرسل إلى الملائكة أيضاً، وسيأتي الكلام في ذلك مستوفى إن شاء الله تعالى وهو المستعان.

وقد كان ﷺ مجبولاً على الأخلاق الكريمة في أصل خلقته الزكية النقية، لم يحصل له ذلك برياضة نفس، بل بجود إلهي، ولهذا لم تزل تشرق أنوار المعارف في قلبه حتى وصل إلى الغاية العليا والمقام الأسنى. وأصل هذه الخصال الحميدة، والمواهب المجيدة، كمال العقل، لأن به تقتبس الفضائل وتجتنب الرذائل، فالعقل لسان الروح وترجمان البصيرة، والبصيرة للروح بمثابة القلب، والعقل بمثابة اللسان. قال بعضهم:

---

= الدلائل له أيضاً ١/ ٣٠٩ وفي الدر المنثور ٥/ ٢ و ٦/ ٢٥٠ وفي الأدب المفرد للبخاري (٣٠٩) وفي الشفا ١/ ٩٦ وفي المغني للعراقي ٢/ ٣٥٢ وفي كنز العمال (١٨٣٧٨ ـ ١٨٧١٨).

لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر. وأما ما روي «أن الله لما خلق العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أشرف منك، فبك آخذ وبك أعطي». فقال ابن تيمية وتبعه غيره: إنه كذب موضوع باتفاق. انتهى. وفي زوائد عبدالله بن الإمام أحمد على «الزهد» لأبيه عن علي ابن مسلم عن سيار بن حاتم ـ وهو ممن ضعفه غير واحد وكان جماعاً للرقائق، وقال القواريري: إنه لم يكن له عقل ـ قال: حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي، حدثنا مالك ابن دينار عن الحسن البصري، مرسلاً: «لما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، بك آخذ وبك أعطي».

وأخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل له، وابن المحبر كذاب. قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: والوارد في أول ما خلق الله، حديث أول ما خلق الله القلم، وهو أثبت من حديث العقل. ولأبي الشيخ عن قرة بن إياس المزني رفعه: «الناس يعملون الخير وإنما يعطون أجورهم على قدر عقولهم» [1].

وقد اختلف في ماهية العقل اختلافاً طويلاً يطول استقصاؤه. وفي القاموس ومن خط مؤلفه نقلت: العقل العلم، أو بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين، أو يطلق لأمور لقوة بها يكون التمييز بين القبيح والحسن، ولمعان مجتمعة في الذهن تكون بمقدمات يُستثبت بها الأغراض والمصالح، ولهيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلماته، والحق أنه روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية، وابتداء وجوده عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ. انتهى.

وقد كان ﷺ من كمال العقل في الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه، ولهذا كانت معارفه عظيمة وخصائصه جسيمة، حارت العقول في بعض فيض ما أفاضه من غيبه لديه، وكلّت الأفكار في معرفة بعض ما أطلعه الله عليه، وكيف لا يعطى ذلك وقد امتلأ قلبه وباطنه وفاض على جسده المكرم ما وهبه من أسرار إلهيته ومعرفة ربوبيته وتحقق عبوديته. قال وهب بن منبه: قرأت في أحد وسبعين كتاباً، فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل بين رمل من جميع رمال الدنيا، وإن محمداً ﷺ أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً. رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر.

وعن بعضهم مما هو في عوارف المعارف: اللب والعقل مائة جزء، تسعة وتسعون

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٤٥٢ والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ٦٥.

في النبي ﷺ وجزء في سائر المؤمنين، ومن تأمل حسن تدبيره للعرب الذين هم كالوحش الشادر، والطبع المتنافر والمتباعد، وكيف ساسهم واحتمل جفاءهم وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه، واجتمعوا عليه، وقاتلوا دونه أهليهم وآباءهم وأبناءهم، واختاروا على أنفسهم، وهجروا في رضاه أوطانهم وأحباءهم، من غير ممارسة سبقت له، ولا مطالعة كتب يتعلم منها سير الماضين، تحقق أنه أعقل العالمين، ولما كان عقله ﷺ أوسع العقول لا جرم اتسعت أخلاق نفسه الكريمة اتساعاً لا يضيق عن شيء. فمن ذلك: اتساع خلقه العظيم في الحلم والعفو مع القدرة وصبره ﷺ على ما يكره، وحسبك صبره وعفوه عليه السلام عن الكافرين به المقاتلين المحاربين له في أشد ما نالوه به من الجراح بحيث كسرت رباعيته، وشج وجهه يوم أحد، حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف، حتى شق ذلك على أصحابه شديداً، وقالوا: لو دعوت عليهم، فقال: «إني لم أبعث لعاناً،ولكني بعثت داعياً ورحمة،اللهم اغفر لقومي،أو اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[1].

قال ابن حبان: أي اغفر لهم ذنبهم في شج وجهي لا أنه أردا الدعاء لهم بالمغفرة مطلقاً، إذ لو كان كذلك لأجيب، ولو أجيب لأسلموا كلهم. كذا قال رحمه الله. وقد روي عن عمر أنه قال في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين﴾ [نوح: ٢٦] الآية ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا، فلقد وطىء ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك بأبيت أن تقول إلا خيراً فقلت: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وها هنا دقيقة؛ وهي أنه ﷺ لما شج عفا وقال«اللهم اهد قومي»، وحين شغلوه عن الصلاة يوم الخندق قال: «اللهم املأ بطونهم ناراً» فتحمل الشجة الحاصلة في وجه جسده الشريف، وما تحمل الشجة الحاصلة في وجه دينه، فإن وجه الدين هو الصلاة، فرجح حق خالقه على حقه.

واعلم أن الصبر على الأذى جهاد النفس، وقد جبل الله تعالى النفس على التألم بما يفعل بها، ولهذا شق عليه ﷺ نسبتهم له إلى الجور في القسمة، لكنه عليه السلام حلم على القائل وصبر، لما علم من جزيل ثواب الصابر وأن الله يأجره بغير حساب. وصبره ﷺ على الأذى إنما هو فيما كان من حق نفسه، وأما إذا كان لله فإنه يمتثل فيه أمر الله

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة رقم الحديث (٨٧). وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨٩/١٩ . وفي الأدب المفرد للبخاري صفحة (١١٩) رقم الحديث (٣٢٢) وفي شرح السنة للبغوي ٢٤٠/١٣ وفي اتحاف السادة المتقين ١٠٨/٧ وفي الدر المنثور للسيوطي ٣٤٢/٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي (٧٢١٨). وفي الشفا للقاضي عياض ١٠٥/١ .

تعالى من الشدة كما قال له تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ [التوبة: ٧٣] وقد وقع له ﷺ أنه غضب لأسباب مختلفة مرجعها إلى أن ذلك كان في أمر الله، وأظهر الغضب فيها ليكون أوكد في الزجر. فصبره وعفوه إنما كان فيما يتعلق بنفسه الشريفة ﷺ.

وقد روى الطبراني وابن حبان والحاكم والبيهقي عن زيد بن سعنه ـ بالمهملة والنون المفتوحتين، كما قيده به عبد الغني وذكره الدارقطني: وبالمثناة التحتية، ثبت في الشفاء وصحح عليه مؤلفه بخطه، وهو الذي ذكره ابن إسحاق، وهو كما قاله النووي: أجل أحبار اليهود الذين أسلموا ـ أنه قال:

لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً. فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، فابتعت منه تمراً إلى أجل فأعطيته الثمن، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ ثم قلت: ألا تقضيني يا محمد حقي، فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مطل، فقال عمر: أي عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم ثم قال: «أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة»، اذهب به يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعاً مكان ما رعته»، ففعل، فقلت يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فقد اختبرتهما، فأشهدك أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً[1].

وعن أبي هريرة قال حدثنا رسول الله ﷺ يوماً ثم قام، فقمنا حين قام فنظرنا إلى أعرابي قد أدركه فجبذه بردائه فحمر رقبته، وكان رداء خشناً، فالتفت إليه فقال له الأعرابي: احملني على بعيري هذين، فإنك لا تحملني من مالك ولا من مال أبيك، فقال له ﷺ: «لا، وأستغفر الله، لا وأستغفر الله، لا وأستغفر الله، لا أحملك حتى تقيدني من جبذتك التي جبذتني»، فكل ذلك يقول له الأعرابي: والله لا أقيدكها، فذكر الحديث،

---

(١) ذكره الحاكم في المستدرك ٣٢/٢. وفي اتحاف السادة المتقين ٩٦/٧ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ٢٣/١ وفي البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٨/٢ وفي الشفا ١٠٩/١ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٣٢ والبيهقي في الدلائل ٢٧٨/٦.

قال: ثم دعا رجلاً فقال له: «احمل له على بعيريه هذين على بعير تمراً وعلى الآخر شعيراً»[1] رواه أبو داود.

ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتقه وقد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء[2].

وفي هذا بيان حلمه ﷺ وصبره على الأذى في النفس والمال، والتجاوز عن جفاء من يريد تألفه علىٰ الإسلام. وعن عائشة لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح[3]. رواه الترمذي، أي لم يكن له الفحش خلقاً ولا مكتسباً. وروى البخاري من حديث ابن عمر: ولم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفاحشاً، وفي روايته أيضاً من حديث أنس بن مالك: لم يكن النبي ﷺ سباباً ولا فاحشاً ولا لعاناً[4]. والفحش: كل ما خرج عن مقداره حتى يستقبح، ويدخل في القول والفعل والصفة، لكن استعماله في القول أكثر: والمتفحش: بالتشديد، الذي يتعمد ذلك ويكثر منه ويتكلفه.

وعن عائشة أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة، أو بئس ابن العشيرة، فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه. فقال ﷺ: «يا عائشة، متى عهدتيني فاحشاً، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»،[5] رواه البخاري. قال ابن بطال: هذا الرجل هو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، وكان يقال له الأحمق المطاع. وكذا فسره به القاضي عياض والقرطبي والنووي.

وأخرج عبد الغني من طريق أبي عامر الخزاعي، عن عائشة قالت: جاء مخرمة

---

(١) أخرجه أبو داود. كتاب الأدب باب (١) رقم الحديث (٤٧٧٥) والنسائي ٨/ ٣٣ وابن ماجه رقم الحديث (٣٤٢٣). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٨٨. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٤٢٣) وفي كنز العمال (١٨٧٠٩).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب فرض الخمس باب (١٩) رقم الحديث (٣١٤٩ ـ ٥٨٠٩ ـ ٦٠٨٨).

(٣) أخرجه الترمذي. كتاب البر والصلة باب (٦٩) رقم الحديث (٢٠١٦). وفي الشمائل (١٨٥).

(٤) أخرجه البخاري. كتاب الأدب باب (٣٨) رقم الحديث (٦٠٣١ ـ ٦٠٤٦).

(٥) أخرجه البخاري. كتاب الأدب باب (٨٢) رقم الحديث (٦٠٣٢ ـ ٦٠٥٤ ـ ٦١٣١). وفي فتح الباري ١٠/ ٥٥٨.

ابن نوفل يستأذن، فلما سمع النبي ﷺ صوته قال: «بئس أخو العشيرة». الحديث. والمراد بالعشيرة: الجماعة أو القبيلة، وإنما تطلق ﷺ في وجهه تألفاً له ليسلم قومه، لأنه كان رئيسهم. وقد جمع هذا الحديث كما قال الخطابي علماً وأدباً، وليس قوله ﷺ في أمته بالأمور التي يسمهم بها ويضيفها إليهم من المكروه غيبة، وإنما يكون ذلك من بعضهم في بعض، بل الواجب عليه ﷺ أن يبين ذلك ويفصح به، ويعرف الناس أمرهم فإن ذلك من باب النصيحة والشفقة على الأمة. ولكنه لما جبل عليه من الكرم وأعطيه من حسن الخلق أظهر له البشاشة ولم يجبهه بالمكروه، لتقتدي به أمته في اتقاء شر من هذا سبيله وفي مداراته ليسلموا من شره وغائلته. وقال القرطبي: فيه جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم ما لم يؤد ذلك إلى المداهنة في دين الله.

ثم قال تبعاً للقاضي حسين: والفرق بين المداراة والمداهنة، أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معاً وهو مباحة وربما استحسنت، والمداهنة بذل الدين لصلاح الدنيا، والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته، ومع ذلك فلم يمدحه بقول، فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معه حسن عشرة، فيزول مع هذا التقدير الإشكال ولله الحمد. وقال القاضي عياض: لم يكن عيينة ـ والله أعلم ـ حينئذٍ أسلم، فلم يكن القول فيه غيبة، أو كان أسلم ولم يكن إسلامه ناصحا، فأراد النبي ﷺ أن يبين ذلك لئلا يغتر به من لم يعرف باطنه، وقد كانت منه في حياة النبي ﷺ وبعده أمور تدل على ضعف إيمانه، فيكون ما وصفه به ﷺ من علامات النبوة، وأما إلانة القول بعد أن دخل فعلى سبيل الائتلاف وفي فتح الباري: أن عيينة ارتد في زمن الصديق وحارب ثم رجع وأسلم وحضر بعض الفتوح في عهد عمر. انتهى.

«وما انتقم ﷺ لنفسه»[1]. رواه البخاري. فإن قلت: قد صح أنه ﷺ أمر بقتل عقبة ابن أبي معيط وعبدالله بن خطل وغيرهما ممن كان يؤذيه ﷺ وهذا ينافي قوله: «وما انتقم لنفسه». فالجواب: أنهم كانوا مع ذلك ينتهكون حرمات الله. وقيل: أراد أنه لا ينتقم إذا أوذي في غير السبب الذي يخرج إلى الكفر، كما عفا عن الأعرابي الذي جفا في رفع صوته عليه، وعن الآخر الذي جبذ بردائه حتى أثر في كتفه. وحمل الداودي عدم الانتقام على ما يختص بالمال، وأما العرض فقد اقتص ممن نال منه.

وقد أخرج الحاكم هذا الحديث من طريق معمر عن الزهري مطولاً، وأوله: ما لعن

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٦٠ ـ ٦١٢٦ ـ ٦٧٨٦ ـ ٦٨٥٣). وفي التمهيد لابن عبد البر ١٤٦/٨ و ١٤٩.

رسول الله ﷺ مسلماً بذكر ـ أي بصريح اسمه ـ وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يضرب في سبيل الله، ولا سئل شيئاً قط فمنعه إلا أن يسأل مأثماً، ولا انتقم لنفسه من شيء إلا أن تنتهك حرمات الله فيكون لله ينتقم[1]. الحديث. ومما روي من اتساع خلقه وحلمه ﷺ، اتساع خلقه لطائفة المنافقين، الذين كانوا يؤذونه إذا غاب ويتملقون له إذا حضر، وذلك مما تنفر منه النفوس البشرية حتى تؤيدها العناية الربانية.

وكان ﷺ كلما أذن له في التشديد عليهم فتح لهم ﷺ باباً من الرحمة، فكان يستغفر لهم ويدعو لهم، حتى أنزل الله عليه﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ [التوبة: ٨٠] فقال ﷺ«خيرني ربي فاخترت أن أستغفر لهم» ولما قال تعالى: ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ [التوبة: ٨٠] فقال ﷺ«لأزيدن على السبعين»[2] وأمر ولد الذي تولى كبر النفاق والأذى منهم ببر أبيه، ولما مات كفنه في ثوبه خلعه عن بدنه وصلى عليه، هذا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يجذبه بثوبه ويقول: يا رسول الله أتصلي على رأس المنافقين؟ فنتر ثوبه من عمر وقال: «إليك عني يا عمر»[3]. فخالف مؤمناً ولياً في حق منافق عدو، وكل ذلك رحمة منه لأمته، أشار إليه الحرالي. وقال النووي: قيل إنما أعطاه قميصه وكفنه فيه تطييباً لقلب ابنه، فإنه كان صحابياً صالحاً[4] وقد سأل ذلك فأجابه إليه، وقيل مكافأة لعبد الله المنافق الميت، لأنه كان ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصاً. وفي ذلك كله بيان عظيم مكارم أخلاق النبي ﷺ، فقد علم ما كان من هذا المنافق من الإيذاء، وقابله بالحسنى فألبسه قميصه كفناً وصلى عليه واستغفر له، قال الله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤].

ومن ذلك أنه ﷺ لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره. وعفا عن اليهودية التي سمته في الشاة على الصحيح من الرواية. والله تعالى يرحم القائل:

وما الفضل إلا خاتم أنت فصه　　　وعفوك نقش الفص فاختم به عذري

ومن ذلك إشفاقه ﷺ على أهل الكبائر من أمته، وأمره إياهم بالستر، فقال: «من بلي بهذه القاذورات» يعني المحرمات«فليستتر»[5].

---

(١) ذكره الحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٦٤ و ٦/ ٢٢٤ وفي تفسير الطبري ١٠/ ١٣٨ وفي تفسير ابن كثير ٧/ ١٢٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٦٤ وفي السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ١٩٧.

(٤) انظر الإصابة ٤/ ٩٥ رقم الترجمة (٤٧٧٥).

(٥) أخرجه الإمام مالك في الموطأ كتاب الحدود باب (٢) رقم الحديث (١٢). وفي نصب الراية =

وأمر أمته أن يستغفروا للمحدود ويترحموا عليه لما حنقوا عليه فسبوه ولعنوه، فقال: «قولوا اللهم اغفر له، اللهم ارحمه» [1] وقال لهم في رجل كان كثيراً ما يؤتى به سكران بعد تحريم الخمر، فلعنوه مرة فقال: «لا تلعنوه فإنه يحب الله ورسوله» [2]. فأظهر لهم مكتوم قلبه لما رفضوه بظاهر فعله، وإنما ينظر الله إلى القلوب، [3] طهر الله قلوبنا وغفر عظيم ذنوبنا. ومن ذلك ما رواه الدارقطني من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يصغي إلى الهرة الإناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها.

ومن ذلك اتساع خلقه في شريف تواضعه وآدابه وحسن عشرته مع أهله وخدمه وأصحابه. وقال بعضهم: اعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وفي ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين وتنطبع للحق والخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغبارها. وكان الحظ الأوفر من التواضع لنبينا ﷺ في أوطان القرب وحسبك من تواضعه ﷺ أن خيره ربه تعالى بين أن يكون نبياً ملكاً، أو نبياً عبداً، فاختار أن يكون نبياً عبداً، فأعطاه الله تعالى بتواضعه أن جعله أول من تنشق عنه الأرض وأول شافع، وأول مشفع، فلم يأكل متكئاً بعد ذلك حتى فارق الدنيا. وقد قال ﷺ «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله» [4] رواه الترمذي.

---

= للزيلعي ٣/ ٣٢٣ وفي تفسير القرطبي ٦/ ١٥٧ و ١٩/ ١٠٤. وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٣٢١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٣٣٠.

(١) أخرجه أبو داود. كتاب الحدود باب (٣٦) رقم الحديث (٤٤٧٧). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٣١٢.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الحدود باب (٥) رقم الحديث (٦٧٨٠). وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ٤٨٧ و ٥٠٢ وفي شرح السنة للبغوي ١٠/ ٣٣٧. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٦٢٥) وفي المغني للعراقي ٣/ ١٢١.

(٣) أخرجه ابن ماجه. كتاب الزهد باب (٩) رقم الحديث (٤١٤٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٨٥ و ٥٣٩. وفي صحيح مسلم رقم الحديث (١٩٨٧). وفي جمع الجوامع للسيوطي (٥١٤٣ ـ ٥١٤٥). وفي اتحاف السادة المتقين ١/ ١٥٦ و ٣/ ١٢٥ و ١٠/ ٦. وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٣٤١. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٣١٤). وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٣٨ و ٦/ ٢٣١. وفي حلية الأولياء ٤/ ٩٨ و ٧/ ١٢٤ وفي المغني للعراقي ٣/ ٢٦٩ و ٤/ ٣٥١. وفي تفسير القرطبي ١٦/ ٣٢٦ وفي الكامل لابن عدي ٤/ ١٦٣٣. وفي زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٤٦٠ و ٧/ ٤٧٤. وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/ ٣٣٠.

(٤) أخرجه البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء رقم الحديث (٣٤٤٥ ـ ٦٨٣٠). وفي صحيح مسلم كتاب القدر باب (٧) رقم الحديث (٣٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٣ و ٢٤. وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٩٧ و ٥/ ٤٩٨. وفي الشمائل للترمذي (١٧٢). وفي المسند للحميدي رقم الحديث =

ومن تواضعه ﷺ أنه لا ينهر خادماً، روينا في كتاب الترمذي عن أنس قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط ولا قال لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟[1] وكذلك كان ﷺ مع عبيده وإمائه، ما ضرب منهم أحداً قط، وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية لولا التأييدات الربانية.

وفي رواية مسلم: ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ[2]. وقالت عائشة: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله. رواه مسلم.

وسئلت عائشة: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته؟ قالت: ألين الناس، بساماً ضحاكاً، لم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه. وعنها: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه إلا قال لبيك.

وعند أحمد وابن سعد وصححه ابن حبان عنها: كان ﷺ يخيط ثوبه ويخصف نعله، وفي رواية لأحمد: ويرقع دلوه، وعنده أيضاً: يغلي ثوبه، ويحلب شاته ويخدم نفسه. وهذا يتعين حمله على أوقات فإنه ثبت أنه كان له خدم، فتارة يكون بنفسه وتارة بغيره، وتارة بالمشاركة. وكان يركب الحمار، ويردف خلفه، وركب يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف[3] رواه الترمذي.

وعن قيس بن سعد قال: زارنا رسول الله ﷺ فلما أراد الانصراف قرب له سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة، وركب ﷺ ثم قال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله ﷺ، قال قيس: فقال لي رسول الله ﷺ «اركب» فأبيت، فقال: «إما أن تركب وإما أن تنصرف». وفي رواية أخرى: «اركب أمامي فصاحب الدابة أولى بمقدمها»[4] رواه أبو داود وغيره. وفي البخاري من حديث أنس بن مالك: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من خيبر، وإني لرديف أبي طلحة وهو يسير، وبعض نساء رسول الله ﷺ رديف رسول الله ﷺ، إذ عثرت الناقة،

---

= (٢٧). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٨٩٨) وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ١٣١.

(١) أخرجه أبو داود. كتاب الأدب باب (١) رقم الحديث (٤٧٧٤) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل رقم (٦٣).

(٣) ذكره الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٦٦.

(٤) أخرجه أبو داود. كتاب الأدب باب (١٢٨) رقم الحديث (٥١٨٥) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٤٢١. وفي الشفا ١/ ١٢٠. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٣٥٤ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٤. وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦/ ٨٩ وفي تفسير ابن كثير ٦/ ٣٤٧.

فقلت: المرأة، فقال رسول الله ﷺ«إنها أمكم»، فشددت الرحل، وركب رسول الله ﷺ، الحديث[1]. والمرأة: صفية، والردف والرديف: الراكب خلف الراكب بإذنه. وقال معاذ ابن جبل: بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل. وقد ركب ﷺ على حمار على إكاف عليه قطيفة فدكيه أردف أسامة وراءه.

ولما قدم ﷺ مكة استقبله أغيلمة بني عبد المطلب، فحمل واحداً بين يديه، وآخر خلفه. وقال ابن عباس: أتى رسول الله ﷺ مكة وقد حمل قثم بين يديه والفضل خلفه، أو قثم خلفه والفضل بين يديه[2]، رواه البخاري. وذكر المحب الطبري في مختصر السيرة النبوية له، أنه ﷺ ركب حماراً عرياً إلى قباء وأبو هريرة معه، قال: «يا أبا هريرة أأحملك» فقال: ما شئت يا رسول الله، فقال: «اركب»، فوثب أبو هريرة ليركب فلم يقدر فاستمسك رسول الله ﷺ فوقعا جميعاً. ثم ركب ﷺ ثم قال«يا أبا هريرة أأحملك»؟ فقال: ما شئت يا رسول الله فقال: «اركب» فلم يقدر فتعلق برسول الله ﷺ فوقعا جميعاً، ثم قال: «يا أبا هريرة أأحملك» فقال: لا والذي بعثك بالحق لا رميتك ثالثاً.

وذكر المحب الطبري أيضاً: أنه ﷺ كان في سفر، وأمر أصحابه بإصلاح شاة فقال رجل يا رسول الله علي ذبحها، وقال الآخر: يا رسول الله، علي سلخها، وقال آخر: يا رسول الله، علي طبخها فقال رسول الله ﷺ، «عليّ جمع الحطب» فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل، فقال: «قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه» انتهى. ولم أر هذا لغير الطبري بعد التتبع نعم رأيت في جزء تمثال النعل الشريف لأبي اليمن بن عساكر بعد أن روى حديث عبدالله بن عامر ابن ربيعة عن أبيه قال: كنت مع النبي ﷺ في الطواف فانقطعت شسعه فقلت يا رسول الله ناولني أصلحه، فقال «أثرة ولا أحب الأثرة»[3] والأثرة: بفتح الهمزة والثاء، الاسم من آثر يؤثر إذا أعطى، والأثرة: الاستئثار وهو الإنفراد بالشيء. قال وكأنه كره ﷺ أن ينفرد أحد بإصلاح نعله، فيحوز فضيلة الخدم فيكون له بمثابة الخادم ويكون له ﷺ ترفع المخدوم على خادمه، كره ذلك ﷺ لتواضعه وعدم ترفعه على من يصحبه.

ويؤيده ما روي أنه ﷺ أراد أن يمتهن نفسه في شيء فقالوا: نحن نكفيك يا رسول الله، قال: «قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم فإن الله يكره من عبده أن

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب اللباس باب (١٠٢) رقم الحديث (٥٩٦٨).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب العمرة باب (١٣) رقم الحديث (١٧٩٨ ـ ٥٩٦٥ ـ ٥٩٦٦).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٤٤، وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٢.

يراه متميزاً بين أصحابه» انتهى. ثم رأيت شيخنا في الأحاديث المشتهرة حكى ذلك والله الموفق.

وعن أبي قتادة: وفد وفد النجاشي، فقام النبي ﷺ يخدمهم، فقال له أصحابه: نكفيك، قال: «إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وأنا أحب أن أكافئهم» [1] ذكره في الشفاء.

وفي البخاري: عن أنس: كان الرجل يجعل للنبي ﷺ النخلات حتى افتتح قريظة والنضير، وإن أهلي أمروني أن آتي النبي ﷺ فأسأله الذي كانوا أعطوه أو بعضه، وكان ﷺ قد أعطاه أم أيمن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي تقول: كلا والذي لا إله غيره لا نعطيكم وقد أعطانيها ـ أو كما قال ـ والنبي ﷺ يقول: «لك كذا» وتقول كلا والله، حتى أعطاها ـ حسبت أنه قال ـ عشرة أمثاله[2] أو كما قال.

وإنما فعلت هذا أم أيمن لأنها ظنت أنها كانت هبة مؤبدة وتمليكاً لأصل الرقبة، وأراد النبي ﷺ استطابة قلبها في استرداد ذلك فلاطفها وما زال يزيدها في العوض حتى رضيت، وكل هذا تبرع منه ﷺ وإكرام لها، لما لها من حق الحضانة والتربية، ولا يخفى ما في هذا من فرط جوده وكثرة حلمه وبره ﷺ.

وجاءته ﷺ امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: إن لي إليك حاجة، فقال: «اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلس إليك» [3]، وفي رواية مسلم: «حتى أقضي حاجتك»، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها[4]. ولا ريب أن هذا كله من كثرة تواضعه ﷺ.

وقال عبدالله بنُ أبي الحمساء ـ بالحاء المهملة المفتوحة والميم الساكنة والسين المهملة وفي آخره همزة ممدودة ـ: بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث، وبقيت له بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت فذكرت بعد ثلاث فإذا هو في مكانه فقال: «لقد شققت علي، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك» [5]. رواه أبو داود.

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٠٧، وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٢.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب المغازي باب (٣٠) رقم الحديث (٤١٢٠). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢١٩ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٢٨٢ وفي تفسير ابن كثير ٨/ ٩٢ وفي البداية والنهاية ٤/ ٨١.

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب (١٢) رقم الحديث (٤٨١٨) والبغوي ٧/ ١٣٠ وأحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٢١٤ وفي المغني للعراقي ٢/ ١٩٥ وفي اتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٦٢.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (٧٦).

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩٨ والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٠٦.

وقال ابن أبي أوفى: كان عليه السلام لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة. رواه النسائي. وفي رواية البخاري: إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت، وفي رواية أحمد: فتنطلق به في حاجتها، وعنده أيضاً إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت.

والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الانقياد.

وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع، لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء، أي: أي أمة كانت، وبقوله: حيث شاءت، أي من الأمكنة، والتعبير باليد إشارة إلى غاية التصرف، حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست منه مساعدتها في تلك الحالة لساعدها على ذلك. وهذا من مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ.

ودخل الحسن وهو يصلي قد سجد، فركب على ظهره، فأبطأ في سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله قد أطلت سجودك. قال: «إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله». [1] أي جعلني كالراحلة فركب على ظهري. وكان ﷺ يعود المرضى، ويشهد الجنازة. أخرجه الترمذي في الشمائل. وحج ﷺ على رحل رث وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم. فقال: «اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة» [2].

وكان ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه، فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها[3]. رواه مسلم والترمذي.

وكان ﷺ حسن العشرة مع أزواجه، وكان ﷺ ينام مع أزواجه. قال النووي: وهو ظاهر فعله الذي واظب عليه مع مواظبته ﷺ على قيام الليل، فينام مع إحداهن، فإذا أراد القيام لوظيفته قام وتركها، فيجمع بين وظيفته وأداء حقها المندوب وعشرتها بالمعروف. وقد علم من هذا أن اجتماع الزوج مع زوجته في فراش واحد أفضل، لا سيما إذا عرف

---

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٢٦٣ وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤/ ٣٢٠ وفي البداية ٨/ ١٣٦ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٩٤.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٢١ والترمذي في الشمائل ١٧٤ وابن ماجه في كتاب المناسك باب (٤) رقم الحديث (٢٨٩٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (٧٤) وأحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٣٧ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٨٠٨) والبغوي في شرح السنة ١٣/ ٢٤٤ والبيهقي في الدلائل ١/ ٣٣٣ وفي تاريخ بغداد ٤/ ٩ وفي المغني للعراقي ١/ ٣٣٧ وفي كنز العمال (١٨٣٦٣ ـ ٤٩٤٧).

من حالها حرصها على هذا، ولا يلزم من نومه معها الجماع والله أعلم.

وقد كان ﷺ يسرب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها[1]. رواه الشيخان. وإذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه على موضع فمها وشرب رواه مسلم. وإذا تعرقت عرقاً ـ وهو العظم الذي عليه اللحم ـ أخذه فوضع فمه على موضع فمها[2]. رواه مسلم أيضاً. وكان يتكىء في حجرها، ويقبلها وهو صائم[3]. رواه الشيخان.

وكان يريها الحبشة وهم يلعبون في المسجد وهي متكئة على منكبه رواه الشيخان. ورواه الترمذي بلفظ: قام ﷺ فإذا حبشة تزفن والصبيان حولها، فقال: «يا عائشة تعالي فانظري» فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله ﷺ فجعلت أنظر إليها ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي: «أما شبعت أما شبعت» فجعلت أقول: لا، لا. وقال حسن صحيح غريب[4].

وروي أنه ﷺ سابقها فسبقته، ثم سابقها بعد ذلك فسبقها، قال: «هذه بتلك» [5]. رواه أبو داود بلفظ: سابقته في سفر فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني فقال: «هذه بتلك السبقة».

وعن أنس بن مالك: أنهم كانوا يوماً عند رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها، إذ أتي بصحفة خبز ولحم من بيت أم سلمة، فوضعت بين يدي النبي ﷺ فقال: «ضعوا أيديكم» فوضع نبي الله يده ووضعنا أيدينا فأكلنا، وعائشة تصنع طعاماً عجلته قد رأت الصحفة التي أتي بها، فلما فرغت من طعامها جاءت به فوضعته ورفعت صحفة أم سلمة فكسرتها، فقال رسول الله ﷺ: «كلوا بسم الله، غارت أمكم» ثم أعطى

---

(١) أخرجه البخاري. كتاب الأدب باب (٨١) رقم الحديث (٦١٣٠). وابن ماجه في كتاب النكاح باب (٥٠) رقم الحديث (١٩٨٢). وفي صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (٨١).

(٢) أخرجه أبو داود. كتاب الطهارة باب (١٠٢) رقم الحديث (٢٥٩) وابن ماجه كتاب الطهارة باب (١٢٥) رقم الحديث (٦٤٣) والنسائي كتاب الطهارة رقم (١٧٦ ـ ١٧٧) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ١٢٧.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الحيض باب (٢١) رقم الحديث (٣٢٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٨٦ و ٢٩٤ و ٣٠٠ و ٣١٨ وفي التمهيد لابن عبد البر ٣/ ١٦٥ وفي مسند الشافعي صفحة (١١١) وفي مسند أبي عوانة ١/ ٣١٠.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب (١٧) رقم الحديث (٣٦٩١). وفي فتح الباري ١/ ٥٦٤.

(٥) أخرجه أبو داود كتاب الجهاد باب (٦١) رقم الحديث (٢٥٧٨). وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٨. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٢٥١). وفي المغني للعراقي ٢/ ٤٥ وفي كنز العمال (١٠٦١٤).

صحفتها أم سلمة فقال: «طعام مكان طعام، وإناء مكان إناء»[1]. رواه الطبراني في الصغير.

وهو عند البخاري بلفظ: كان عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة وانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: «غارت أمكم» ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت.

وعندأحمد وأبي داود والنسائي، قالت عائشة: ما رأيت صانعة طعاماً مثل صفية، أهدت إلى النبي ﷺ إناء من طعام، فما ملكت نفسي أن كسرته، فقلت يا رسول الله ما كفارته؟ قال: «إناء كإناء وطعام كطعام» وعند غيرهم: فأخذت القصعة من بين يديه فضربت بها وكسرتها، فقام ﷺ يلتقط اللحم والطعام وهو يقول: «غارت أمكم» فلم يثرب عليها.

فوسع خلقه الكريم آثار طفحات آثار غيرتها، ولم يتأثر، وقضى عليها بحكم الله في التقاص. وهكذا كانت أحواله ﷺ مع أزواجه، لا يأخذ عليهن ويعذرهن، وإن أقام عليهن قسطاس عدل أقامه بغير قلق ولا غضب، بل رؤوف رحيم، حريص عليهن وعلى غيرهن، عزيز عليه ما يعنتهم.

قيل: وفي هذا الحديث إشارة إلى عدم مؤآخذة الغيرىٰ فيما يصدر منها، لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوباً بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة. وقد أخرج أبو يعلى بسند لا بأس به عن عائشة مرفوعاً، «إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه» انتهى.

وعن عائشة رضي الله عنها: أتيت النبي ﷺ بخزيرة طبختها له، وقلت لسودة ـ والنبي ﷺ بيني وبينها ـ: كلي، فأبت، فقلت لها؛ كلي، فأبت، فقلت لها: لتأكلين أو لألطخن بها وجهك، فأبت فوضعت يدي في الخزيرة فلطخت بها وجهها فضحك النبي ﷺ فوضع فخذه لها وقال لسودة«الطخي وجهها» فلطخت بها وجهي فضحك ﷺ الحديث رواه ابن غيلان من حديث الهاشمي وخرجه الملاء في سيرته. والخزيرة: لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق.

وبالجملة؛ فمن تأمل سيرته ﷺ مع أهله وأصحابه وغيرهم من الفقراء والأيتام والأرامل والأضياف والمساكين، علم أنه قد بلغ من رقة القلب ولينه الغاية التي لا مرمى

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب الأحكام باب (٢٣) رقم الحديث (١٣٥٩). وفي كنز العمال (٣٩٨٢٥).

وراءها لمخلوق. وإن كان يشتد في حدود الله وحقوقه ودينه، حتى قطع يدِ السارق، إلى غير ذلك.

وقد كان ﷺ يباسط أصحابه بما يولج حبه في القلوب، كان له رجل من البادية يسمى زهيراً، وكان يهادي النبي ﷺ بموجود البادية بما يستطرف منها، وكان ﷺ يهاديه ويكافئه بموجود الحاضرة وبما يستطرف منها، وكان ﷺ يقول: «زهير باديتنا، ونحن حاضرته» وكان ﷺ يحبه، فمشى ﷺ يوماً إلى السوق فوجده قائماً، فجاء من قبل ظهره وضمه بيده إلى صدره فأحس زهير أنه رسول الله ﷺ، قال: فجعلت أمسح ظهري في صدره رجاء بركته[1].

وفي رواية الترمذي في الشمائل: فاحتضنه من خلفه ولا يبصره، فقال أرسلني، من هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألوا ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «من يشتري العبد» فقال له زهير: يا رسول الله، إذن تجدني كاسداً، فقال ﷺ: «أنت عند الله غال»، وفي رواية للترمذي أيضاً: لكن عند الله لست بكاسد، أو قال: «أنت عند الله غال» [2].

وأخرج أبو يعلى عن زيد بن أسلم أن رجلاً كان يهدي للنبي ﷺ العكة من السمن والعسل، فإذا جاء صاحبه يتقاضاه جاء به إلى النبي ﷺ فقال: أعط هذا حق متاعه، فما يزيد النبي ﷺ أن يتبسم، ويأمر به فيعطى[3].

ووقع في حديث محمد بن عمرو بن حزم: وكان لا يدخل إلى المدينة طرفة إلا اشترى منها، ثم جاء فقال: يا رسول الله، هذا أهديته لك، فإذا جاء صاحبه يطلب ثمنه جاء به فقال: أعط هذا الثمن، فيقول: «ألم تهده لي» فيقول ليس عندي، فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه.

وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً[4]، كما روى أبو هريرة، وقد قال له رجل كان فيه بله: يا رسول الله احملني، فباسطه ﷺ من القول بما عساه أن يكون شفاء لبلهه بعد ذلك، فقال: «أحملك على ابن الناقة» فسبق لخاطره استصغار ما تصدق عليه البنوة فقال:

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٦١. وهو فيه زاهر. وفي الإصابة: زاهر بن حرام الأشجعي رقم الترجمة (٢٧٧٢).

(٢) ذكره الترمذي في الشمائل (١٢١).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٤٨ وفي المطالب العالية لابن حجر (١٤٢٩)

(٤) انظر البداية والنهاية ٦/ ٤٨.

يا رسول الله، ما عسى يغني عني ابن الناقة، فقال له ﷺ: «ويحك وهل يلد الجمل إلا الناقة»[1] روى حديثه الترمذي وأبو داود.

وباسط عمته صفية وهي عجوز فقال لها: «إن الجنة لا تدخلها عجوز»، فلما جزعت قال لها: «إنك تعودين إلى صورة الشباب في الجنة»[2] وفي رواية الترمذي عن الحسن: أتته ﷺ عجوز فقالت: يا رسول الله، ادع الله لي أن يدخلني الجنة، فقال: «يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز» قال: فولت تبكي فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز» إن الله تعالى يقول: ﴿إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً﴾ [الواقعة: ٣٥ و ٣٦] وذكره رزين.

وكان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويؤنسهم. ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره، ومع ذلك سره في الملكوت يجول حيث أراد الله به. والدعابة: ـ بضم الدال وتخفيف العين المهملتين وبعد الألف موحدة ـ هي الملاطفة في القول بالمزاح وغيره. وقد أخرج الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة؛ قالوا: يا رسول الله، إنك تداعبنا، قال: «إني لا أقول إلا حقاً».

وما ورد عنه ﷺ في النهي عن المداعبة محمول على الإفراط، لما فيه من الشغل عن ذكر الله والتفكر في مهمات الدين وغير ذلك. والذي يسلم من ذلك هو المباح، فإن صادف مصلحة مثل تطييب نفس المخاطب ـ كما كان هو فعله ﷺ ـ فهو مستحب. وقال أنس: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، وكان له نغر يلعب به فمات، فدخل علي النبي ﷺ ذات يوم فرآه حزيناً فقال: «ما شأنه» قالوا: مات نغره، فقال: «يا أبا عمير ما فعل النغير»[3] رواه البخاري ومسلم. وفي رواية الترمذي قال أنس: كان رسول الله ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير «يا أبا عمير ما

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة باب (٥٧) رقم الحديث (١٩٩١). وأبو داود في كتاب الأدب باب (٨٤) رقم الحديث (٤٩٩٨). وفي أخلاق النبوة (٨٦) وفي الأذكار النووية (٢٨٩) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٨٢ وفي البداية والنهاية ٦/ ٤٨.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٩ والترمذي في الشمائل (١٢٢) وفي تاريخ أصبهان لأبي نعيم ١/ ١٤٢ وفي تفسير الطبري ١٧/ ٨٠ وفي تفسير ابن كثير ٨/ ٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب (٨١) رقم الحديث (٦١٢٩ ـ ٦٢٠٣) وفي صحيح مسلم كتاب الأدب رقم الحديث (٣٠). وفي ابن ماجه كتاب الأدب باب (٢٤) رقم الحديث (٣٧٢٠). وفي الترمذي كتاب البر والصلة باب (٥٧) رقم الحديث (١٩٨٩). وفي سنن أبي داود كتاب الأدب باب (٦٩) رقم الحديث (٤٩٦٩). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١١٥ ـ ١١٩ ـ ١٩٠ ـ ٢٠١ ـ ٢٧٨ ـ ٢٨٨.

فعل النغير». قال الجوهري: النغير: تصغير نغر، والنغر جمع النغرة وهو طائر صغير كالعصفور، والجمع نغران مصل صرد وصردان.

وكان قد ألقي عليه مع الدعابة المهابة، ولقد جاء إليه ﷺ رجل فقام بين يديه فأخذته رعدة شديدة ومهابة، فقال له: هون عليك، فإني لست بملك ولا جبار إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة» فنطق الرجل بحاجته، فقام ﷺ فقال: «يا أيها الناس إني أوحى إلي أن تواضعوا، ألا فتواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد، وكونوا عباد الله إخوانا» [1]. فسكن ﷺ روعه شفقة، لأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وسلب عنه وصف الملوكية بقوله: «فإني لست بملك» لما يلزمها من الجبروتية، وقال: إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد» تواضعاً، لأن القديد مفضول، وهو مأكول المتمسكنة. ولما رأته ﷺ قيلة بنت مخرمة في المسجد، وهو قاعد القرفصاء، ارتعدت من الفرق[2] رواه أبو داود. وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: صحبت رسول الله ﷺ، ما ملأت عيني منها قط حياء منه وتعظيماً له، ولو قيل لي صفه لما قدرت، أو كما قال.

وإذا كان هذا قوله وهو من أجلة الصحابة، ولولا أنه ﷺ كان يباسطهم ويتواضع لهم ويؤنسهم لما قدر أحد منهم أن يقعد معه ولا أن يسمع كلامه عليه الصلاة والسلام لما رزقه الله تعالى من المهابة والجلالة. يبين ذلك ويوضحه ما روي أنه ﷺ كان إذا فرغ من ركوع الفجر حدث عائشة إن كانت مستيقظة، وإلا اضطجع بالأرض ثم خرج بعد ذلك إلى الصلاة، وما ذاك إلا أنه ﷺ لو خرج على تلك الحالة التي كان عليها، وما حصل له من القرب والتداني في مناجاته وسماع كلام ربه وغير ذلك من الأحوال التي يكل اللسان عن وصف بعضها، لما استطاع بشر أن يلقاه ولا يباشره، فكان ﷺ يتحدث مع عائشة أو يضطجع بالأرض حتى يحصل التأنيس بجنسهم، وهو التأنيس مع عائشة، أو جنس أصل الخلقة التي هي الأرض. ثم يخرج إليهم، وما ذاك إلا رفقاً بهم، وكان بالمؤمنين رحيماً. قاله ابن الحاج[3] في المدخل.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب (١٦) رقم الحديث (٤١٧٨ ـ ٤٢١٤). وفي سنن أبي داود. كتاب الأدب باب (٤٠) رقم الحديث (٤٨٩٥). وفي صحيح مسلم كتاب الجنة رقم الحديث (٦٤). وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٣٤. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٧/ ٣٦٥. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٧١٩). وفي الدر المنثور للسيوطي ٤/ ١١٤ و٦/ ١١١. وفي المغني للعراقي ٢/ ١٩٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٨٩٨) وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٥ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٥٥٨. وفي حلية الأولياء ٢/ ١٧ وفي كنز العمال (٥٧٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب (٢٢) رقم الحديث (٤٨٤٧).

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد ابن الحاج أبو عبد الله العبدري المالكي الفاسي. فقيه. توفي في=

وقد جاء في الحديث أنه لما خير بين أن يكون نبياً ملكاً، أو نبياً عبداً نظر ﷺ إلى جبريل كالمستشير له، فنظر جبريل إلى الأرض يشير إلى التواضع، فاختار، ﷺ العبودية، فلما كان تواضعه ﷺ إلى الأرض حيث أشار جبريل أورثه الله تعالى رفعته إلى السماء، ثم إلى الرفرف الأعلى[1]، إلى حضرة قاب قوسين أو أدنى[2]، ووقف بين يديه محمود بن الربيع، وهو صغير ابن خمس سنين، فمج ﷺ في وجهه مجة من ماء من دلو يمازحه بها، فكان في ذلك من البركة أنه لما كبر لم يبق في ذهنه من ذكر رؤية النبي ﷺ إلا تلك المجة، فعد بها من الصحابة[3] وحديثه مذكور في البخاري.

ودخلت عليه ربيبته زينب بنت أم سلمة وهو في مغتسله، فنضح الماء في وجهها، فكان في ذلك من البركة في وجهها أنه لم يتغير، فكان ماء الشباب ثابتاً في وجهها ظاهراً في رونقها وهي عجوز كبيرة. وحديثها مذكور في البخاري. فقد علمت أنه ﷺ كان مع أصحابه وأهله، ومع الغريب والقريب من سعة الصدر ودوام البشر وحسن الخلق والسلام على من لقيه، والوقوف مع من استوقفه والمزح بالحق مع الصغير والكبير أحياناً، وإجابة الداعي ولين الجانب حتى يظن كل واحد من أصحابه أنه أحبهم إليه. وهذا الميدان لا تجد فيه إلا واجباً أو مستحباً أو مباحاً، فكان يباسط الخلق ويلابسهم ليستضيؤوا بنور هدايته في ظلمات دياجي الجهل، ويقتدوا بهديه ﷺ.

وقد كانت مجالسه مع أصحابه رضي الله عنهم عامتها مجالس تذكير بالله، وترغيب وترهيب، إما بتلاوة القرآن، أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة، وتعليم ما نفع في الدين، كما أمره الله تعالى أن يذكر ويعظ ويقص، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة الموعظة الحسنة، وأن يبشره وينذر، فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه رقة

---

= القاهرة سنة (٧٣٧ هـ). الأعلام ٧/ ٣٥، الدرر الكامنة ٤/ ٢٣٧ رقم الترجمة (٦٢٧) الديباج الملهب (٣٢٧) وكشف الظنون ٢/ ١٦٤٣.

(١) الرفرف: البساط، وقيل لما كان من الديباج، وقيل الفراش وقيل: الرفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس: الواحدة رفرفة والرفرف أيضاً كسر الخبا وجوانب الدرع وما يدلى منه الواحدة: رفرفة. انظر القاموس المحيط ٣/ ١٥٠ مادة (رف).

(٢) قال في أنوار التنزيل: «والمقصود في الآية تمثيل تحقيق استماعه لما يوحى إليه بنفي البعد والملبس. وفي الكشاف قاب قوسين أي مقدار قوسين عربيتين والقاب والقيب والقاد والقيد والقيس: المقدار والتقدير في الآية فكان مسافة قربه مثل قاب قوسين. وأكثر المفسرين أن الدنو والتدلي منقسم ما بين محمد وجبريل عليهما السلام أو مختص بأحدهما من الآخر أو من السدرة المنتهى.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب (٣١) رقم الحديث (٦٣٥٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٣٢١.

القلوب، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، كما ذكره أبو هريرة فيما رواه أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه قال: قلنا يا رسول الله، مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا في الدنيا وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك عافسنا أهلنا وشممنا أولادنا وأنكرنا أنفسنا. فقال ﷺ: «لو أنكم إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك لزارتكم الملائكة في بيوتكم»[1] الحديث.

وقوله: عافسنا: ـ بالعين المهملة بعد الألف فاء فسين مهملة ساكنة ـ أي: عالجنا أهلنا ولا عبناهم.

ومن تواضعه ﷺ[2] أنه ما عاب ذواقاً قط، ولا عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه[3] رواه الشيخان. وهذا إن كان الطعام مباحاً، أما الحرام فكان يعيبه ويذمه وينهى عنه، وذهب بعضهم إلى أن العيب إن كان من جهة الخلقة كره، وإن كان من جهة الصنعة لم يكره، قال: لأن صنعة الله تعالى لا تعاب، وصنعة الآدميين تعاب. قال في فتح الباري: والذي يظهر: التعميم، فإن فيه كسر قلب الصانع. قال النووي: ومن آداب الطعام المتأكدة: أن لا يعاب، كقوله: مالح، حامض، قليل الملح، غليظ، رقيق، غير ناضج ونحو ذلك.

ومن تواضعه: أن هذه الدنيا شاع سبها في العالمين، فقال ﷺ: «لا تسبوا الدنيا»، ثم مدحها فقال: «نعمت مطية المؤمن، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر». وقال: «لا تسبوا الدهر»، رواه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ: «ولا تقولوا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر». وفي لفظ له: «يسب بنو آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار» وعند مسلم في حديث بلفظ «لا يسب أحدكم الدهر»[4]. ومحصل ما قيل في تأويله، ثلاثة أوجه:

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣١٠.

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ١٢٩.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة رقم الحديث (١٨٧ ـ ١٨٨) وفي البخاري كتاب الأطعمة باب (٢١) رقم الحديث (٣٥٦٣ ـ ٥٤٠٩) وأبو داود كتاب الأطعمة أيضاً باب (١٣) رقم الحديث (٣٧٦٣) والترمذي كتاب البر رقم الحديث (٨٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤٢٧ و ٤٧٤ و ٤٧٩ و ٤٨١ و ٤٩٥.

(٤) انظر الروايات: في اتحاف السادة المتقين ١/ ١١٠ وكشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤٩٦ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ١/ ٣٠٤ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٩٥ و ٤٩١ و ٤٩٦ و ٤٩٩ و ٥/ ٢٩٩ و ٣١١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٧١ وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٤/ ٣٩١ وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢/ ٣١٠ وفي حلية الأولياء ٨/ ٢٥٨ وفي تاريخ اصفهان=

أحدها: أن المراد بقوله: إن الله هو الدهر، أي: المدبر للأمور.

ثانيها: أنه على حذف مضاف. أي: صاحب الدهر.

ثالثها: التقدير: مقلب الدهر. ولذلك عقبه بقوله في روايه البخاري: بيدي الليل والنهار.

وقال المحققون: من نسب شيئاً من الأفعال إلى الدهر حقيقة كفر، ومن هذا اللفظ على لسانه غير معتقد لذلك فليس بكافر، لكن يكره ذلك لتشبهه بأهل الكفر في الإطلاق. وما خير ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه[1]. وراه البخاري. أي بين أمرين من أمور الدنيا لا إثم فيهما، وأبهم «فاعل» خير ليكون أعم، من قبل الله أو من قبل المخلوقين. وقوله: إلا اختار أيسرها وقوله: ما لم يكن إثماً: أي لم يكن الأسهل مقتضياً للإثم فإنه حينئذٍ يختار الأشد. وفي حديث أنس عند الطبراني في الأوسط: إلا اختار أيسرهما ما لم يكن لله فيه سخط. ووقوع التخيير بين ما فيه إثم وما لا إثم فيه من قبل المخلوقين واضح.

ومن تواضعه ﷺ أنه لم يكن له بواب راتب، كما جاء عن أنس أنه قال: مر النبي ﷺ بامرأة وهي تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري»، فقالت: إليك عني فإنك خلو من مصيبتي، قال فجاوزها ومضى. فمر بها رجل فقال لها؛ ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما عرفته. قال: إنه لرسول الله ﷺ. قال فجاءت إلى بابه فلم تجد عليه بواباً[2]. الحديث رواه البخاري. لكن في حديث أبي موسى: أنه كان بواباً للنبي ﷺ لما جلس على القف[3]. وجمع بينهما: بأنه ﷺ إذا لم يكن في شغل من أهله ولا انفراد من أمره أنه كان يرفع حجابه بينه وبين الناس ويبرز لطالب الحاجة إليه. وفي حديث عمر حين استأذن له الأسود في قصة حلفه أن لا يدخل على نسائه شهراً، ففيه: أنه كان في وقت خلوته بنفسه يتخذ بواباً، ولولا ذلك لاستأذن عمر بنفسه ولم يحتج إلى قوله يا رباح

---

= ١/ ١٢٠ و ١٦١ و ٣٣٧ وفي صحيح مسلم رقم الحديث (٥) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٦٥ وزاد المسير لابن الجوزي ٧/ ٣٦٣.

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٦٠ - ٦١٢٦ - ٦٧٨٦ - ٦٨٥٣). وفي سنن أبي داود في كتاب الأدب باب (٤) رقم الحديث (٤٧٨٥). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٥ وفي التمهيد لابن عبد البر ٨/ ١٤٨ - ١٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز باب (٢٣) رقم الحديث (٣١٢٤) والبخاري في كتاب الجنائز باب (٧) رقم الحديث (١٢٥٢ - ١٢٨٣ - ١٣٠٢ - ٧١٥٤).

(٣) اخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٤٠٨ والبخاري في كتاب الفتن باب (١٧) رقم الحديث (٧٠٩٧).

استأذن لي. لكن يحتمل أن يكون سبب استئذان عمر أنه خشي أن يكون وجد عليه بسبب ابنته، فأراد أن يختبر ذلك باستئذانه عليه، فلما أذن له اطمأن.

وقد اختلف في مشروعية الحجاب للحاكم. فقال الشافعي وجماعة: ينبغي أن يكون للحاكم أن لا يتخذ حاجباً. وذهب آخرون: إلى جوازه. وحمل الأول على زمن سكون الناس واجتماعهم على الخير وطواعيتهم للحاكم، وقال آخرون: بل يستحب ذلك حينئذٍ ليرتب الخصوم ويمنع المستطيل، ويدفع الشرير، والله أعلم

وأما ما روي من حيائه ﷺ[1]؛ فحسبك ما في البخاري من حديث أبي سعيد: كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها[2]. والعذراء: هي البكر. والخدر: - بكسر الخاء المعجمة - أي في سترها. وهو من باب التتميم، لأن العذراء في الخدر يشتد حياؤها أكثر مما تكون خارجة عنه، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها. فالظاهر: أن المراد تقييده بما إذا دخل عليها في خدرها لا حيث تكون منفردة فيه. والحياء - بالمد - وهو من الحياة، ومنه: الحيا للمطر، لكن هو مقصور. وعلى حسب حياة القلب تكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، وكلما كان القلب حياً كان الحياء أتم. وهو في اللغة: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وقد يطلق على مجرد ترك الشيء بسبب. والترك إنما هو من لوازمه. وفي الشرع: خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق.

وقال ذو النون[3]: «الحياء وجود الهيبة في القلب، مع وحشة ما يسبق منك إلى ربك، والحب ينطق والحياء يكست، والخوف يقلق».

وقال يحيى بن معاذ:[4] من استحيا من الله مطيعاً استحيا منه وهو مذنب. وهذا

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/١١٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٣) رقم الحديث (٣٥٦٢ - ٦١٠٢ - ٦١١٩) وفي صحيح مسلم. كتاب الفضائل باب (١٦) رقم الحديث (٦٧) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/٧٧ - ٩١. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/١٩٩. وابن ماجه في كتاب الزهد باب (١٧) رقم الحديث (٤١٨٠). وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/٣١٦. وفي المغني للعراقي ٢/٣٥٥. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي ٣/٥٨ وفي الشفا للقاضي عياض ١/١١٨. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/٢٠٦ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/٢٦ و ٩/١٧ وفي فتح الباري ٦/٥٦٦ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/٩٩ وفي الشمائل للترمذي (١٩٢) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/٢٥٥. وفي كنز العمال (١٧٨١٧).

(٣) هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري أبو الفياض أو أبو الفيض زاهد عابد توفي بالجيزة سنة (٢٤٥ هـ) الأعلام ٢/١٠٢ وفيات الأعيان ١/١٠١ تاريخ بغداد ٨/٣٩٣ لسان الميزان ٢/٤٣٧ ميزان الإعتدال ١/٣٣١.

(٤) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي أبو زكريا واعظ زاهد مات في نيسابور سنة (٢٥٨ هـ). الأعلام=

الكلام يحتاج إلى شرح ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستحي خجل، فإنه إذا وقع منه ذنب استحيا الله من نظره إليه في تلك الحالة لكرامته عليه، فيستحي أن يرى من وليه ما يشينه عنده. وفي الشاهد. شاهد بذلك، فإن الرجل إذا اطلع على أخص الناس به وأحبهم إليه وأقربهم منه، من صاحب أو ولد أو من يحبه، وهو يخونه، فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياء عجيب حتى كأنه هو الجاني. وهذا غاية الكرم. وللحياء أقسام ثمانية يطول استقصاؤها.

منها: حياء الكرم، كحيائه ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطولوا عنده المقام، واستحيا أن يقول لهم انصرفوا.

ومنها: حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في حال غيبته هاج الحياء من قلبه وأحس به في وجهه، فلا يدري ما سببه.

ومنها: حياء العبودية، وهو حياء يمتزج بين محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها، فعبوديته له توجب استيحاءه منه لا محالة.

ومنها: حياء المرء من نفسه، وهو حياء النفوس الشريفة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقنعها بالدون، فيجد نفسه مستحيياً من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر.

والحياء ـ كما قال ﷺ «لا يأتي إلا بخير، وهو من الإيمان»[1]، كما رواهما البخاري. قال القاضي عياض وغيره: وإنما جعل الحياء من الإيمان ـ وإن كان غريزة ـ لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب وعلم. وقال القرطبي: الحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان، وهو المكلف به دون الغريزي. غير أن من كان فيه غريزة منه فإنها تعينه على المكتسب، حتى يكاد يكون غريزياً، وكان النبي ﷺ قد جمع له النوعان، فكان في الغزيزي أشد حياء من العذراء في خدرها. وقال القاضي

---

= ٨/ ١٧٢ صفة الصفوة ٤/ ٧١ طبقات الصوفية (١٠٧).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب (٧٧) رقم الحديث (٦١١٧ ـ ٦١١٨). وفي صحيح مسلم في كتاب الإيمان رقم الحديث (٦٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٤٢٧. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٢٠٦. وفي اتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٠٨. وفي الأدب المفرد للبخاري رقم الحديث (١٣١٨ ـ ١٣١٩). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٠٧١). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٣٩٧. وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٧٣. وفي كنز العمال (٥٧٦٣).

عياض: وروي عنه ﷺ: كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد.

وأما خوفه ﷺ ربه[1] جل وعلا، فاعلم أن الخوف والوجل والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة. قال الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس. وقيل الخوف: اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف. وقيل الخوف: قوة العلم بمجاري الأحكام، وهذا سبب الخوف، لا أنه نفسه. وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره. والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله تعالى: قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨]، فهو خوف مقرون بمعرفة. وقال ﷺ «أنا أتقاكم لله وأشدكم له خشية»[2] فالخوف حركة والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحوهما له حالتان: إحداهما حركة للهرب منه وهي حالة الخوف، والثانية سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه وهي الخشية.

وأما الرهبة: فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه. وأما الوجل: فرجفان القلب وانصداعه للذكر من يخاف سلطانه وعقوبته. وأما الهيبة: فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما تكون مع المعرفة والمحبة. والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال ﷺ: «إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية» رواه البخاري، وقال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[3] رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وفيه دلالة على اختصاصه

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ١٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب (١٣) رقم الحديث (٢٠ ـ ٦١٠١ ـ ٧٣٠١). وفي صحيح مسلم كتاب الصيام رقم الحديث (٧٤) وفي الموطأ للإمام مالك كتاب الصيام رقم الحديث (١٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣١٧ و ٥/ ٤٣٤ و ٦/ ٦١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ١٦٦. وفي كنز العمال (٣١٩٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (١٢) رقم الحديث (٤٦٢١ ـ ٦٤٨٥ ـ ٦٦٣٧). وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل باب (٣٧) رقم الحديث (١٣٤). وفي الترمذي. كتاب الزهد باب (٩) رقم الحديث (٢٣١٢ ـ ٢٣١٣) وابن ماجة رقم الحديث (٤١٩٠ ـ ٤١٩١). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣١٢ ـ ٤٥٣ ـ ٥٠٢ و ٣/ ١٨٠ ـ ٢٦٨ وفي سنن الدارمي ٢/ ٣٠٦. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٣٨. وفي المعجم الكبير للطبراني ٧/ ٢٩٨. وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٦٣٥ و ٤/ ٣٢٠. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢٣٠. وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٢٦٥. وفي المطالب العالية لابن حجر (٣٣٠٥) وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ١٤٤. وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٦٦ و ٧/ ٤٩٦. وفي المغني للعراقي ١/ ٩٩ وفي كنز العمال (٢٠٨٩٤ـ ٢٠٨٩٥ ـ ٣٠٨٩٧ ـ ٣١٠١٧ ـ ٣١٠٢٣).

ﷺ بمعارف بصرية وقلبية. وقد يطلع الله تعالى عليها غيره من المخلصين من أمته لكن بطريق الإجمال، وأما تفصيلها فاختص بها ﷺ.

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أنه ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده، لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قالوا: وما رأيت يا رسول الله قال: «رأيت الجنة والنار»[1].

فقد جمع الله له بين علم اليقين وعين اليقين مع الخشية القلبية، واستحضار العظمة الإلهية على وجه لم يجتمع لغيره، ولذا قال: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»[2] وهو في الصحيح من حديث عائشة. وكان ﷺ يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء[3] رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحه بلفظ: كأزيز الرحا، أي خنين من الخوف ـ بالخاء المعجمة ـ وهو صوت البكاء. وقيل: وهو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء.

وأما ما روي من شجاعته[4] ﷺ ونجدته وقوته في الله وشدته، فعن أنس: (كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه وهو يقول: «لن تراعوا»[5].

وفي رواية: كان فزع بالمدينة فاستعار النبي ﷺ فرساً من أبي طلحة يقال له المندوب، فركب فلما رجع قال: «ما رأينا من شيء، وإن وجدناه لبحراً، أو إنه لبحر». قال وكان فرساً يبطؤ[6] رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة رقم الحديث (١١٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/١٢٦ ـ ٢١٧. وفي مسند أبي عوانة ٢/١٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب (١٣) رقم الحديث (٢٠). وفي جمع الجوامع للسيوطي (٦٠٧٧) وفي فتح الباري ١/٩٦ وفي كنز العمال (٣١٩٩١).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب (١٥٦ ـ ١٥٧) رقم الحديث (٩٠٤). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/٢٥ ـ ٢٦. في سنن النسائي ٣/١٣.

(٤) انظر البداية والنهاية ٦/٦١ والشفا للقاضي عياض ١/١١٤.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب (١٦٥) رقم الحديث (٣٠٤٠) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/١٤٧. وفي الشفا للقاضي عياض ١/١١٥. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/١٣٨ ـ ١٤٠ ـ ١٤٩ ـ ٣٢٢. وفي حلية الأولياء ٦/٢٦٠. وفي كنز العمال (١٧٨١٤).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الهبة باب (٣٣) رقم الحديث (٢٦٢٧ ـ ٢٨٢٠ ـ ٢٨٢٧ ـ ٢٨٦٢ ـ ٢٨٦٦ ـ ٢٨٦٧ ـ ٢٩٠٨ ـ ٦٢١٢). وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (٤٨ ـ ٤٩)=

وللبخاري: إن أهل المدينة فزعوا مرة، فركب النبي ﷺ فرساً لأبي طلحة كان يقطف، أو فيه قطاف، فلما رجع قال: «وجدنا فرسكم هذا بحراً» فكان بعد لا يجاري. وفي أخرى له: ثم خرج يركض وحده فركب الناس يركضون خلفه فقال: «لن تراعوا إنه لبحر، فما سبق بعد ذلك اليوم». قوله لن تراعوا: أي روعاً مستقراً، أو روعاً يضر بكم.

وفي هذا الحديث بيان شجاعته ﷺ من شدة عجلته في الخروج إلى العدو قبل الناس كلهم، بحيث كشف الحال ورجع قبل وصول الناس. وفيه: بيان عظيم بركته ومعجزته في انقلاب الفرس سريعاً بعد أن كان بطيئاً وهو معنى قوله ﷺ: «وجدناه بحراً» أي واسع الجري. وكان فيه قطاف: يقال: قطف الفرس في مشيه إذا تضايق خطوه وأسرع مشيه.

قال القاضي عياض: وقد كان في أفراسه ﷺ فرس يقال له: مندوب، فلعله صار إليه بعد أبي طلحة. وقال النووي: يحتمل أنهما فرسان اتفقا في الإسم. وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع ولا أنجد من رسول الله ﷺ[1]. وذكر ابن إسحاق في كتابه وغيره: أنه كان بمكة رجل شديد القوة يحسن الصراع وكان الناس يأتونه من البلاد للمصارعة فيصرعهم. فبينا هو ذات يوم في شعب من شعاب مكة إذ لقيه رسول الله ﷺ فقال له: «يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه» ـ أو كما قال له رسول الله ﷺ ـ فقال له ركانة: يا محمد، هل من شاهد يدل على صدقك؟ قال: «أرأيت إن صرعتك أتؤمن بالله ورسوله؟» قال: نعم يا محمد، فقال له: «تهيأ للمصارعة» قال: تهيأت، فدنا منه رسول الله ﷺ فأخذه ثم صرعه، قال فتعجب ركانة من ذلك، ثم سأله الإقالة والعودة، ففعل به ذلك ثانياً وثالثاً. فوقف ركانة متعجباً وقال: إن شأنك لعجيب[2]. رواه الحاكم في مستدركه عن أبي جعفر محمد بن ركانة المصارع، ورواه أبو داود والترمذي وكذا البيهقي من رواية سعيد بن جبير.

وقد صارع ﷺ جماعة غير ركانة، منهم أبو الأسود الجمحي، كما قاله السهيلي. ورواه البيهقي، وكان شديداً بلغ من شدته أنه كان يقف على جلد البقرة، ويجاذب أطرافه

---

= وفي سنن أبي داود كتاب الأدب باب (٧٩) رقم الحديث (٤٩٨٨). وفي ابن ماجه كتاب الجهاد باب (٩) رقم الحديث (٢٧٧٢) وفي الترمذي كتاب الجهاد باب (١٤) رقم الحديث (١٦٨٥ ـ ١٦٨٦). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/١٤٧ـ ١٦٣ ـ ٢٩١. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٧٠. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٢٦٤ وفي أخلاق النبوة (٥٨).

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة رقم الحديث (١٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (٤٢) رقم الحديث (١٧٨٤) وأبو داود في كتاب اللباس باب (٢١) رقم الحديث (٤٠٧٨) وفي البداية والنهاية ٣/ ١٠١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٥٠.

عشرة لينزعوه من تحت قدميه، فيتفرى الجلد ولم يتزحزح عنه، فدعا رسول الله ﷺ إلى المصارعة وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه رسول الله ﷺ فلم يؤمن وفي قصته طول.

وفي البخاري من حديث البراء، وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: فأكببنا على المغانم فاستقبلنا بالسهام. ولقد رأيت النبي ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، لأنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة ليست بسريعة الجري، ولا تصلح لكل ولا فر ولا هرب، ومع ذلك يركضهـا إلى وجوههم، وينوه باسمه ليعرفه من ليس يعرفه صلوات الله وسلامه عليه. وفي حديث البراء: كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله ﷺ أي جعلناه قدامنا واستقبلنا العدو به، وقمنا خلفه.

وأما ما ذكر من سخائه وجوده وكرمه[1]، فاعلم أن السخاء صفة غريزية، وفي مقابلته الشح، والشح من لوازم صفة النفس، قال الله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحـون﴾ [الحشر: ٩] فحكم بالفلاح لمن وقي الشح، وحكم بالفلاح أيضاً لمن أنفق وبذل فقال: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ [البقرة: ٣ والأنفال: ٣ والحج: ٣٥ والقصص: ٥٤ والسجدة: ١٦ والشورى: ٣٨] ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ [البقرة: ٥] والفلاح أجمع اسم لسعادة الدارين. وليس الشح من الآدمي بعجيب، لأنه جبلي فيه، وإنما العجب وجود السخاء في الغريزة. والسخاء أتم وأكمل من الجود، وفي مقابلته البخل. وفي مقابلة السخاء الشح، والجود والبخل يتطرق انتهى الاكتساب بطريق العادة بخلاف الشح والسخاء إذ كان ذلك من ضرورة الغريزة، فكل سخي جواد وليس كل جواد سخياً. والجود يتطرق إليه الرياء، ويأتي به الإنسان متطلعاً لغرض من الخلق أو الحق بمقابلة من الثناء أو غير ذلك من الخلق والثواب من الله تعالى، ولا يتطرق الرياء إلى السخاء لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الأغراض. أشار إليه في عوارف المعارف.

وقد كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس رواه البخاري ومسلم من حديث أنس. وأجود: أفعل تفضيل، من الجود وهو إعطاء ما ينبغي لمن

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ٤٤ والشفا للقاضي عياض ١/ ١١١.

ينبغي، ومعناه: هو أسخى الناس، ولما كانت نفسه أشرف النفوس ومزاجه أعدل الأمزجة لا بد أن يكون فعله أحسن الأفعال، وشكله أملح الأشكال، وخلقه أحسن الأخلاق، فلا شك يكون أجود الناس، وكيف لا وهو مستغن عن الفانيات بالباقيات الصالحات. واقتصار أنس على هذه الأوصاف الثلاثة من جوامع الكلم، لأنها أمهات الأخلاق، فإن في كل إنسان ثلاث قوى: إحداها الغضبية، وكمالها الشجاعة، وثانيها، الشهوانية وكمالها الجود، وثالثها العقلية وكمالها النطق بالحكمة.

وفي رواية لمسلم عنه: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر. وعنده أيضاً عن صفوان بن أمية قال: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لمن أبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي. قال ابن شهاب: أعطاه يوم حنين مائة من الغنم، ثم مائة، ثم مائة. وفي مغازي الواقدي: إن النبي ﷺ أعطى صفوان يومئذ وادياً مملوءاً إبلاً ونعماً، فقال صفوان: أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي. ويرحم الله ابن جابر حيث قال:

هـذا الـذي لا يتقـي فقـراً إذا ... يعطـي ولـو كثـر الأنـام ودامـوا
واد مـن الأنعـام أعطـى آمـلا ... فتحيـرت لعطـائـه الأوهـام

وإنما أعطاه ذلك لأنه ﷺ علم أن داءه لا يزول إلا بهذا الدواء وهو الإحسان فعالجه به حتى برىء من داء الكفر وأسلم، وهذا من كمال شفقته ورحمته ورأفته ﷺ إذ عامله بكمال الإحسان، وأنقذه من حر النيران إلى برد لطف الجنان. وكان علي إذا وصفه ﷺ قال: كان أجود الناس كفاً، وأصدق الناس لهجة. وخرج ابن عدي ـ بإسناد فيه ضعف ـ من حديث أنس مرفوعاً: «أنا أجود بني آدم»[1].

فهو ﷺ بلا ريب أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة، وكان جوده بجميع أنواع الجود، من بذل العلم والمال، وبذل نفسه لله في إظهار دينه وهداية عباده وإيصال النفع إليهم بكل طريق، من إطعام جائعهم ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم، ولقد أحسن ابن جابر حيث قال:

يـروي حـديث النـدى والبشـر عـن يـده ... ووجهـه بيـن منهـل ومنسجـم

---

(١) ذكره الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٧/ ٩٧ والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٣٢٠ وفي فتح الباري ١/ ٤١.

مـن وجـه أحمـد لـي بـدر ومـن يـده ... بحـر ومـن فمـه در لمنتظـم

يمـم نبيـاً تبـاري الـريـح أنملـه ... والمـزن مـن كـل هـام الـودق مـرتكـم

لـو عـامـت الفلـك فيمـا فـاض مـن يـده ... لـم تلـق أعظـم بحـر منـه إن تعـم

تحيـط كفـاه بـالبحـر المحيـط فلـذ ... بـه ودع كـل طـامـي المـوج ملتطـم

لـو لـم تحـط كفـه بـالبحـر مـا شملـت ... كـل الأنـام وروت قلـب كـل ظمـي

فسبحان من أطلع أنوار الجمال من أفق جبينه، وأنشأ أمطار السحاب من غمائم يمينه. روى البخاري من حديث جابر: (ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء قط فقال: لا) وكذا عند مسلم، أي ما طلب منه شيء من أمر الدنيا فمنعه. قال الفرزدق[1]:

مـا قـال لا قـط إلا فـي تشهـده ... لـولا التشهـد كـانـت لاؤه نعـم

لكن قال شيخ مشايخنا الحافظ أبو الفضل ابن حجر: ليس المراد أنه يعطي ما يطلب منه جزماً، بل المراد: أنه لا ينطق بالرد، بل إن كان عنده أعطاه إن كان الإعطاء سائغاً وإلا سكت. قال: وقد ورد بيان ذلك في حديث مرسل لابن الحنيفة عند ابن سعد ولفظه: إذا سئل فأراد أن يفعل قال: نعم، وإن لم يرد أن يفعل سكت. وهو قريب من حديث أبي هريرة؛ ما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه. قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام معناه: لم يقل: لا، منعاً للعطاء، ولا يلزم من ذلك أن لا يقولها اعتذاراً كما في قوله تعالى: ﴿قلتَ لا أجد ما أحملكم عليه﴾ [التوبة: ٩٢]، ولا يخفى الفرق بين قوله: لا أجد ما أحملكم وبين لا أحملكم انتهى. وهو نظير ما في حديث أبي موسى الأشعري: لما سأله الأشعريون الحملان فقال ﷺ: «ما عندي ما أحملكم».

لكن يشكل عليه أنه ﷺ حلف لا يحملهم فقال: «والله لا أحملكم».

لكن يشكل عليه أنه ﷺ حلف لا يحملهم فقال: «والله لا أحملكم» فيمكن أن يخص من عموم حديث جابر، ما إذا سئل ما ليس عنده والسائل يتحقق أنه ليس عنده ذلك، أو حيث كان المقام لا يقتضي الاقتصار على السكوت من الحالة الواقعة، أو من حال السائل، كأن لم يكن يعرف العادة، فلو اقتصر في جوابه على السكوت مع حاجة السائل لتمادى على السؤال مثلاً، ويكون القسم على ذلك تأكيداً لقطع طمع السائل، والسر في الجمع بين قوله: «لا أجد ما أحملكم» وقوله: «والله لا أحملكم» أن الأول لبيان أن الذي سئله لم يكن موجوداً عنده، والثاني

---

(١) هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس الشهير بالفرزدق شاعر. توفي في بادية البصرة سنة (١١٠ هـ). الأعلام ٨/٩٣، وفيات الأعيان ٢/١٩٦. الأغاني ٩/٣٦٧، الشعر والشعراء ٤٤٢.

أنه لا يتكلف الإجابة إلى ما سئل بالقرض مثلاً أو بالاستيهاب، إذ لا اضطرار حينئذٍ. وروى الترمذي أنه حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

قال: وجاءه رجل فقال ما عندي شيء ولكن ابتع علي، فإذا جاءنا شيء قضيناه، فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر، فكره النبي ﷺ، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتبسم ﷺ وعرف البشر في وجهه. وقال: «بهذا أمرت»[1].

وإنما فعل ذلك للمصلحة الداعية لذلك كالاستئلاف ونحوه.

وذكر ابن فارس في كتابه «في أسماء النبي ﷺ» أنه في يوم حنين جاءت امرأة فأنشدت شعراً تذكره أيام رضاعته في هوازن فرد عليهم ما أخذ وأعطاهم عطاء كثيراً حتى قوم ما أعطاهم ذلك اليوم فكان خمسمائة ألف ألف. قال ابن دحية: وهذا نهاية الجود الذي لم يسمع بمثله في الوجود.

وفي البخاري من حديث أنس: أنه أتي بمال من البحرين فقال: «انثروه» يعني صبوه ـ في المسجد، وكان أكثر مال أتي به النبي ﷺ، فخرج إلى المسجد ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس فقال: أعطني، فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً، فقال له «خذ»، فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال يا رسول الله مر بعضهم يرفعه إلي، قال: لا، قال: فارفعه أنت علي، قال: لا، فنثر منه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال: يا رسول الله مر بعضهم يرفعه علي، قال: لا، قال: فارفعه أنت قال: لا، ثم نثر منه ثم احتمله فألقاه على كاهله فانطلق، فما زال النبي ﷺ يتبعه بصره حتى خفي علينا عجباً من حرصه، فما قام ﷺ وثم منها درهم[2].

وفي رواية ابن أبي شيبة من طريق حميد بن هلال مرسلاً: كان مائة ألف، وأنه أرسل به العلاء بن الحضرمي من خراج البحرين، قال: وهو أول مال حمل إليه ﷺ.

وسايره جابر على جمل له، فقال له ﷺ: «بعني جملك» فقال: هو لك يا رسول

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل (٢٨١) وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجزية والموادعة باب (٤) رقم الحديث (٣١٦٥) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٣٥٦ وفي المطالب العالية لابن حجر (٣٦٤٧) وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٢٣٤ وفي البداية والنهاية ٣/ ٣٠٠ وفي تغليق التعليق لابن حجر (٢٢٤ و ٩٩٢).

الله، بأبي أنت وأمي، فقال: «بل بعنيه» فباعه إياه وأمر بلالاً أن ينقده ثمنه فنقده، ثم قال: ﷺ «اذهب بالثمن والجمل بارك الله لك فيهما». مكافأة لقوله: هو لك، فأعطاه الثمن ورد عليه الجمل وزاده الدعاء بالبركة فيهما. وحديثه في البخاري ومسلم وغيرهما.

وقد كان جوده ﷺ كله لله وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو لمحتاج وتارة ينفقه في سبيل الله، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه. وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا توقد في بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريفة من الجوع.

وكان ﷺ قد أتاه سبي، فشكت إليه فاطمة ما تلقى من خدمة البيت وطلبت منه خادماً يكفيها مؤنة بيتها، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد، وقال: «لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع»[1]. وأتته امرأة ببردة فقالت: يا رسول أكسوك هذه، فأخذها ﷺ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها فقال: «نعم» فلما قام ﷺ لامه أصحابه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه. رواه البخاري من حديث سهل بن سعد. وفي رواية ابن ماجه والطبراني قال: نعم، فلما دخل طواها وأرسل بها إليه[2]. وأفاد الطبراني في رواية زمعة ابن صالح أنه ﷺ أمر أن يصنع له غيرها فمات قبل أن يفرغ منها. وفي هذا الحديث من الفوائد: حسن خلقه ﷺ وسعة جوده.

واستنبط منه السادة الصوفية: جواز استدعاء المريد خرقة التصوف من المشايخ تبركاً بهم وبلباسهم، كما استدلوا لإلباس الشيخ للمريد بحديث أنه ﷺ ألبس أم خالد خميصة سوداء ذات علم[3] رواه البخاري.

لكن قال شيخنا: ما يذكرونه من أن الحسن البصري لبسها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال ابن دحية وابن الصلاح: إنه باطل، وقال شيخ الإسلام الحافظ ابن

---

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٢/ ٤١ وفي كنز العمال للمتقي الهندي (٤١٩٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز: باب (٢٨) رقم الحديث (١٢٧٧ ـ ٢٠٩٣ ـ ٥٨١٠ ـ ٦٠٣٦). وابن ماجه كتاب اللباس باب (١) رقم الحديث (٣٥٥٥). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٢٢ و ٢٢٤. وفي سنن النسائي ٨/ ٢٠٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٢٢) رقم الحديث (٥٨٢٣ ـ ٥٨٤٥).

حجر ليس في شيء من طرقها ما يثبت، ولم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أنه ﷺ ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية لأحد من أصحابه، ولا أمر أحداً من أصحابه بفعلها، وكل ما يروى صريحاً في ذلك فباطل. قال: ثم إن من الكذب المفترى قول من قال: إن علياً ألبس الخرقة الحسن البصري، فإن أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن من علي سماعاً فضلاً عن أن يلبسه الخرقة.

وكذا قال الدمياطي والذهبي والعلاء ومغلطاي والعراقي والأبناسي[1] والحلبي وغيرهم مع كون جماعة منهم لبسوها وألبسوها تشبهاً بالقوم، نعم ورد لبسهم لها مع الصحبة له المتصلة إلى كميل بن زياد[2]، وهو صحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه من غير خلف في صحبته له بين أئمة الجرح والتعديل.

وفي بعض الطرق اتصالها بأويس القرني، وهو اجتمع بعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وهذه صحبة لا مطعن فيها، وكثير من السادة يكتفي بمجرد الصحبة كالشاذلية وشيخنا أبي إسحاق المتبولي.

وكان الشيخ يوسف العجمي يجمع بين تلقين الذكر وأخذ العهد واللبس وله في ذلك رسالته «ريحان القلوب» قرأتها على ولد ولده العارف المسلك سيدي علي، مع إلباسه لي الخرقة والتلقين والعهد.

وللشيخ قطب الدين القسطلاني «ارتقاء الرتبة في اللباس والصحبة» والله يهدينا إلى سواء السبيل.

---

(١) هو إبراهيم بن موسى بن أيوب، برهان الدين أبو إسحاق الأبناسي (٧٢٥ ـ ٨٠٢ هـ) فقيه شافعي. ولد بأبناس وتوفي آيباً من الحج في عون القصب. الأعلام ١/ ٧٥ شذرات الذهب ٧/ ١٣ والضوء اللامع ١/ ١٧٢.

(٢) هو كميل بن زياد بن نهيك النخعي (١٢ ـ ٨٢ هـ). تابعي ثقة. الأعلام ٥/ ٢٣٤. الإصابة ٥/ ٣٢٥ رقم الترجمة (٧٤٩٥). طبقات ابن سعد ٦/ ٢١٧ رقم الترجمة (٢١٠٦) تهذيب التهذيب ٨/ ٤٤٧.

# فيما تدعو ضرورته إليه ﷺ من غذائه وملبسه ومنكحه وما يلحق بذلك(١)

وفيه أربعة أنواع:

## النوع الأول
## في عيشه ﷺ في المأكل والمشرب

اعلم أن تناول الطعام أصل كبير، يحتاج إلى علوم كثيرة، لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية، وتعلق أثره بالقلب والقالب، وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك، والقالب مركب القلب، وبهما عمارة الدنيا والآخرة، والقالب بمفرده على طبيعة الحيوان يستعان به على عمارة الدنيا ، والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة، وباجتماعهما يصلحان لعمارة الدارين.

قال الغزالي: ولا طريق إلى الوصول إلى اللقاء إلا بالعلم والعمل، ولا يمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات، والتناول منها بقدر الحاجات، على تكرار الأو ات. فمن هذا الوجه، قال بعض السلف الصالحين: إن الأكل من الدين، وعليه نبه رب العالمين بقوله، وهو أصدق القائلين: ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ [المؤمنون: ٥١]، فمن تناول الأكل ليستعين به على العلم والعمل، ويقوى به على التقوى فلا ينبغي أن يترك نفسه سدى يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المرعى، فإنما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إليه، ينبغي أن تظهر أنوار الدين عليه، وإنما نور الدين وآدابة وسننه، التي يزم العبد بزمامها، ويلجم المتقي بلجامها، حتى يزن بميزان الشرع، شهوة الطعام في إقدامها واحجامها، فيصير بسببها مدفعة للوزر ومجلبة للأجر.

واعلم أن الشبع بدعة ظهرت بعد القرن الأول، وقد روى النسائي وابن ماجه وصححه الحاكم من حديث المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال: «ما ملأ ابن

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٩٨ ـ ٣٤٧ والشفا للقاضي عياض ١/ ٨٣.

آدم وعاء شراً من بطنه، حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمي نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»[1].

قال القرطبي في شرح «الأسماء» كما نقله شيخ الإسلام والحفّاظ ابن حجر: لو سمع بقراط بهذه القسمة لعجب من هذه الحكمة. وقال غيره: إنما خص الثلاثة بالذكر لأنها أسباب حياة الحيوان، ولأنه لا يدخل البطن سواها. وهل المراد بالثلث التساوي على ظاهر الخبر، أو التقسيم على ثلاثة أقسام متقاربة؟ محل احتمال. وقد صح، (المؤمن يأكل في معى واحد - وهي بكسر الميم مقصور: المصارين - والكافر يأكل في سبعة أمعاء)[2] وليست حقيقة العدد مرادة، وتخصيص السبعة للمبالغة في التكثير، والمعنى: أن المؤمن من شأنه التقلل من الأكل لاشتغاله بأسباب العبادة ولعلمه بأن مقصود الشرع من الأكل ما سد الجوع، ويعين على العبادة، ولخشيته أيضاً من حساب من زاد على ذلك، والكافر بخلاف ذلك.

وعند أهل التشريح أن أمعاء الإنسان سبعة؛ المعدة ثم ثلاثة أمعاء بعدها متصلة بها: البواب ثم الصائم ثم الرقيق، والثلاثة رقاق. ثم الأعور والقولون والمستقيم وطرفه الدبر، وكلها غلاظ، وقد نظمها زين الدين العراقي في قوله:

سبعة أمعاء لكل آدمي معدة بوابها مع صائم
ثم الرقيق أعور قولون مع المستقيم مسلك المطاعم

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب (٤٧) رقم الحديث (٢٣٨٠). وابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٥٠) رقم الحديث (٣٣٤٩). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٣٢. وفي سنن الدارمي (٢١٣). وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٣٣١ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٢٧٨. وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥١٩٢). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١٣٦. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ٣٨٧. وفي المغني للعراقي ٢/ ٤. وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٨٠ وفي تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٣. وفي تفسير القرطبي ٧/ ١٩٢. وفي فتح الباري ١١/ ٣٤٨. وفي كنز العمال (٤٠٨٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (١٢) رقم الحديث (٥٣٩٣ - ٥٣٩٦ - ٥٣٩٧) وفي صحيح مسلم في كتاب الأشربة رقم الحديث (١٨٢ - ١٨٤ - ١٨٥). وفي الترمذي رقم الحديث (١٨١٨). وابن ماجه رقم الحديث (٣٢٥٦ - ٣٢٥٧ - ٣٢٥٨). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢١ و٣/ ٣٥٧ و٦/ ٣٣٥. وفي سنن الدارمي ٢/ ٩٩ وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٩٦٩). وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ٣٨٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٣٢ - ٣٣. وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/ ٤٠٧. وفي التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ١٩٩. وفي تفسير القرطبي ٧/ ١٩٢. وفي المغني للعراقي (٧٩) وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/ ٣٤٧ وفي العلل لابن أبي حاتم الرازي (١٥٤٠) وفي كنز العمال (٦٧٠ - ٧٨٠).

فيكون المعنى: أن الكافر لكونه يأكل بشرهه لا يشبعه إلا ملء أمعائه السبعة، والمؤمن يشبعه ملء معى واحد.

ولا يلزم من هذا الحديث اطراده في حق كل مؤمن وكافر، فقد يكون في المؤمنين من يأكل كثيراً، إما بحسب العادة أو لعارض له من مرض باطن أو لغير ذلك. ويكون في الكفار من يأكل قليلاً إما لمراعاة الصحة على رأي الأطباء، وإنما للرياضة على رأي الرهبان، وإما لعارض كضعف المعدة.

ومحصل القول إن من شأن المؤمن الحرص على الزهادة والاقتناع بالبلغة، بخلاف الكافر. وقيل: المراد أن المؤمن يسمي الله عند طعامه وشرابه فلا يشركه الشيطان فيكفيه القليل بخلاف الكافر. وقيل: المراد بالمؤمن ـ في هذا الحديث ـ التام الإيمان، لأن من حسن إسلامه وكمل إيمانه اشتغل فكره فيما يصير إليه من الموت وما بعده، فيمنعه شدة الخوف وكثرة الفكر والإشفاق على نفسه من استيفاء شهوته كما ورد في حديث لأبي أمامة رفعه: «من كثر تفكره قل مطعمه، ومن قل تفكره كثر مطعمه، وقسا قلبه» وقالوا: لا تدخل الحكمة معدة ملئت طعاماً، ومن قل طعامه قل شربه وخف منامه، ومن خف منامه ظهرت بركة عمره، ومن امتلأ بطنه كثر شربه، ومن كثر شربه ثقل نومه، ومن ثقل نومه محقت بركة عمره، فإذا اكتفى بدون الشبع حسن اغتذاء بدنه، وصلح حال نفسه وقلبه، ومن تملا من الطعام ساء غذاء بدنه وأشرت نفسه وقسا قلبه.

وعن ابن عباس قال ﷺ «إن أهل الشبع في الدنيا هم أهل الجوع غداً في الآخرة»[1] رواه الطبراني.

وعن سلمان وأبي جحيفة أن النبي ﷺ قال: «إن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً في الآخرة»[2].

وقالت عائشة؛ لم يمتلىء جوف النبي ﷺ شبعاً قط. وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب.

وقولها: لم يمتلىء جوف النبي ﷺ شبعاً قط، محمول على الشبع الذي يثقل المعدة ويثبط صاحبه عن القيام بالعبادة، ويفضي إلى البطر والأشر والنوم والكسل، وقد

---

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٢٦٧. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢٥٠. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ٣٩١ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٦٣١٩). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١٣٧. وفي كنز العمال (٦١٥٦).

(٢) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ١٩٨. وفي الضعفاء للعقيلي ٣/ ٣٦٠.

تنتهي كراهته إلى التحريم بحسب ما يترتب عله من المفسدة، وليس المراد بالشبع النسبي المعتاد في الجملة، ففي صحيح مسلم: خروجه ﷺ وصاحبيه من الجوع وذهابهم إلى بيت الأنصاري، وذبحه الشاة. وفيه: فلما أن شبعوا ورووا. قال النووي: فيه جواز الشبع، وما جاء في كراهته محمول على المداومة عليه.

وعن أبي هريرة قال: ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيام تباعاً حتى قبض. رواه الشيخان.

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة وأهله طاوياً لا يجدون عشاء، وإنما كان خبزهم الشعير. رواه الترمذي وصححه.

وفي حديث مسعر عند مسلم: «ما شبع آل محمد يومين من خبز البر، إلا وأحدهما تمر»[1].

وأخرج ابن سعد من طريق عمران بن زيد المدني: حدثني والدي قال: دخلنا على عائشة فقالت: خرج - تعني النبي ﷺ - من الدنيا ولم يملأ بطنه في يوم من طعامين، كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الشعير، وإذا شبع من الشعير لم يشبع من التمر.

وليس في هذا ما يدل على ترك الجمع بين لونين، فقد جمع ﷺ القثاء والرطب كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وعن الحسن قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام، وإنها لتسعة أبيات» والله ما قالها استقلالاً لرزق الله ولكن أراد أن تتأسى به أمته. رواه الدمياطي في السيرة له.

وعن عائشة قالت: كان يعجب نبي الله ﷺ من الدنيا ثلاثة أشياء: الطيب والنساء والطعام، فأصاب اثنتين ولم يصب واحدة، أصاب النساء والطيب، ولم يصب الطعام. ذكره الدمياطي أيضاً.

وفي رواية مسلم: «يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدَقَل ما يملأ بطنه»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٢٣) رقم الحديث (٥٤١٦ - ٦٤٥٤). وفي صحيح مسلم في كتاب الزهد رقم الحديث (٢٠ - ٢٥ - ٣٣). وابن ماجة كتاب الأطعمة باب (٤٨) رقم الحديث (٣٣٤٤). وفي سنن النسائي ٧/ ٢٣٦ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٩٨ و ٤/ ٤٤٢ و ٦/ ١٢٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٣١٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤١٩٣ - ٥٢٣٧). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ١٨٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد رقم الحديث (٣٦) والترمذي كتاب الزهد باب (٣٩) رقم الحديث (٢٣٧٢). وابن ماجه كتاب الزهد باب (١٠) رقم الحديث (٤١٤٦). وفي البداية والنهاية ٦/ ٥٤.

وقالت عائشة: إن كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار، إن هو إلا الماء والتمر[1].

وقال عتبة بن غزوان: لقد رأيتني - وإني لسابع سبعة - مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق السمر حتى تقرحت أشداقنا.

وفي البخاري ومسلم: كانت عائشة تقول لعروة: والله يا ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، قال: قلت يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه[2].

ولمسلم أيضاً: قالت: لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين[3].

وقال أنس: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطاً بعينه حتى لحق بالله[4]. رواه البخاري.

والمرقق: الملين المحسن كخبز الحوارى وشبهه، والترقيق: التليين، ولم يكن عندهم مناخل، وقد يكون المرقق: الرقيق الموسع، قاله القاضي عياض. وجزم به ابن الأثير فقال: وهو السميد ومايصنع من كعك وغيره، وقال ابن الجوزي: هو الخفيف. كأنه أخذه من الرقاق وهي الخشبة التي يرقق بها.

والحوارى: - بضم المهملة وتشديد الواو وفتح الراء - الخالص الذي ينخل مرة بعد أخرى.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع باب (٣٤) رقم الحديث (٢٤٧١). وابن ماجه كتاب الزهد باب (١٠) رقم الحديث (٤١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الهبة باب (١) رقم الحديث (٢٥٦٧ - ٦٤٥٨ - ٦٤٥٩) وابن ماجه كتاب الزهد باب (١٠) رقم الحديث (٤١٤٥) وفي صحيح مسلم كتاب الزهد رقم الحديث (٢٨) وفي البداية والنهاية ٦/ ٥٣

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب (٣٨) رقم الحديث (٢٣٥٧) وفي صحيح مسلم كتاب الزهد رقم الحديث (٢٩) وفي البداية والنهاية ٦/ ٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٢٦) رقم الحديث (٥٤٢١ - ٦٤٥٧) وابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٢٩) رقم الحديث (٣٣٠٩) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٢٨ - ١٣٤ - ٢٥٠.

وقوله: ولا شاة سميطاً: هو الذي أزيل شعره بالماء السخن وشوي بجلده، وإنما يصنع ذلك في الصغير السن، وهو من فعل المترفهين من وجهين: أحدهما المبادرة إلى ذبح ما لو بقي لازداد ثمنه، وثانيهما: أن المسلوخ ينتفع بجلده في اللبس وغيره. والسمط يفسده، وقد جرى ابن بطال وابن الأثير على أن المسموط هو المشوي، لكن الثاني ذكر أن أصله نزع صوفه بالماء الحار كما تقدم، قال: وإنما يفعل ذلك في الغالب ليشوى.

ولعله يعني: أنه لم ير السميط في مأكوله، وإلا فإن لم يكن معهوداً فلا تمدح.

وعن أبي حازم أنه سأل سهلاً: هل رأيتم في زمان النبي ﷺ النقى؟ قال لا، فقلت: كنتم تنخلون الشعير؟ قال: لا، ولكن كنا ننفخه[1]. رواه البخاري.

وفي رواية له: هل كانت لكم في عهد رسول الله ﷺ مناخل؟ فقال: ما رأى النبي ﷺ منخلاً من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله[2].

قال شيخ الإسلام ابن حجر: أظنه احترز عما قبل البعثة، لكونه ﷺ كان يسافر في تلك المدة إلى الشام تاجراً، وكانت الشام إذ ذاك مع الروم، والخبز النقى عندهم كثير، وكذا المناخل وغيرها من آلات الترفه، ولا ريب أنه رأى ذلك عندهم، وأما بعد البعثة فلم يكن إلا بمكة والطائف والمدينة، ووصل إلى تبوك وهي من أطراف الشام لكن لم يفتحها ولا طالت إقامته بها. انتهى.

وقد تتبعت هل كانت أقراص خبزه صغاراً أم كباراً؟ فلم أجد في ذلك شيئاً بعد التفتيش. نعم روي أمره بتصغيرها في حديث عند الديلمي عن عائشة رفعته بلفظ: «صغروا الخبز وأكثروا عدده يبارك لكم فيه»، وهو واه، بحيث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات وقال: إن المتهم به جابر بن سليم. وروي عن ابن عمر مرفوعاً: «البركة في صغر القرص»، ونقل عن النسائي أنه كذب. لكن روى البزار بسند ضعيف عن أبي الدرداء مرفوعاً. «قوتوا طعامكم يبارك لكم فيه» قال في النهاية: وحكي عن الأوزاعي أنه تصغير الأرغفة، كذا حكى البزار عن إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد عن بعض أهل العلم: أنه تصغير الأرغفة. أشار إلى ذلك شيخنا في المقاصد الحسنة. ولعل هذا سند شيخي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٢٢) رقم الحديث (٥٤١٠ ـ ٥٤١٣) وفي الترمذي كتاب الزهد باب (٣٨) رقم الحديث (٢٣٦٤). وفي سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٤٤) رقم الحديث (٣٣٣٥). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٣٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٢٣) رقم الحديث (٥٤١٣) وفي سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٤٤) رقم الحديث (٣٣٣٥). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٧١.

وقدوتي وإنسان عين بصيرتي العارف الرباني رهان العارفين أبي إسحاق إبراهيم المتبولي في تصغير أرغفة سماطه كالشيخ أبي العباس أحمد البدوي والسادات اكسير معارف السعادات أولي المواهب العلية والحقائق المحمدية بني الوفاء أعاد الله من بركاتهم وواصل امداداتهم إلينا.

وعن عائشة قالت: توفي ﷺ وليس عندي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي فكلته ففني[1] رواه البخاري ومسلم.

وعندهما أيضاً قالت: توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير.

وقال ابن عباس: ودرعه مرهونة بعشرين صاعاً من طعام أخذه لأهله. رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله، قال «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما» فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً. فقال لها ﷺ: أين فلان»؟ قالت: ذهب يستعذب لنا الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني. قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا، وأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»[2] رواه مسلم وغيره. وهذا السؤال سؤال تشريف وإنعام وتعديد فضل وإكرام.

وعن طلحة بن نافع أنه سمع جابر بن عبدالله يقول: أخذ رسول الله ﷺ بيدي ذات يوم إلى منزله فأخرج إليه فلق من خبز، فقال «ما من أدم» فقالوا: لا، إلا شيء من خل، قال: «نعم الأدم الخل». قال جابر: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من نبي الله ﷺ وقال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب (١٦) رقم الحديث (٦٤٥١) وفي صحيح مسلم كتاب الزهد رقم الحديث (٢٧). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١٠٨/٦. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢٧٤/٧.

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ كتاب صفة النبي ﷺ باب (١٠) رقم الحديث (٢٨). وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (١٤٠). وفي الدر المنثور للسيوطي ٣٨٩/٦ وفي اتحاف السادة المتقين ٨/ ١٢٠ وفي كنز العمال (٦٤٣٩).

طلحة: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر[1] رواه مسلم.

وروي عن ابن بجير قال: أصاب النبي ﷺ جوع يوماً، فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه ثم قال: ألا رب نفس الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم» رواه ابن أبي الدنيا.

وعن أنس عن أبي طلحة قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه عن حجرين، قال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث أبي طلحة لا نعرفه إلا من هذا الوجه. ومعنى قوله: ورفعنا عن بطوننا عن حجر. قال: كان أحدهم يشد في بطنه الحجر من الجهد والضعف الذي به من الجوع.

وقصة جابر - يوم الخندق - حين رأى النبي ﷺ يوم الخندق، وقد قام إلى الكدية وبطنه معصوب بحجر. وتقدمت، وما أحسن قول الأبوصيري:

وشـــد مـــن سغـــب أحشـــاءه وطـــوى تحـــت الحجـــارة كشحـــاً متـــرف الأدم

والكشح: كما ذكرته في شرح هذه القصيدة، ما بين خاصرته الشريفة وأقصر ضلع من جنبه الشريف. وإنما فعل هذا ﷺ ليسكن بعض ألم الجوع، وإنما كان هذا الفعل مسكناً لأن كلب الجوع من شدة حرارة المعدة الغريزية، فهي إذا امتلأت من الطعام اشتغلت تلك الحرارة بالطعام، فإذا لم يكن فيها طعام طلبت رطوبات الجسم وجواهره، فيتألم الإنسان بتلك الحرارة فتتعلق بكثير من جواهر البدن، فإذا انضمت على المعدة الأحشاء والجلد خمدت نارها بعض الخمود فقل الألم.

وإنما تألمه بالجوع ليحصل به تضعيف الأجر مع حفظ قوته ونضارة جسمه، حتى إن من رآه لا يظن أن به جوعاً، لأن جسمه ﷺ إنما كان يرى أشد نضارة من أجسام المترفين بالنعم في الدنيا. وهذا المعنى هو الذي قصده الناظم بقوله «مترف الأدم» وهو من باب الاحتراس والتكميل، لأنه لما ذكر أنه شد من سغب. خاف أن يتوهم أن جسمه الشريف حينئذٍ يظهر فيه أثر الجوع فاحترس ورفع ذلك الإبهام بقوله: مترف الأدم.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (٣٥) رقم الحديث (١٨٣٩ - ١٨٤٢). وابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٣٣) رقم الحديث (٣٣١٧). وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (١٦٨ - ١٦٩) وفي سنن أبي داود كتاب الأطعمة باب (٣٩) رقم الحديث (٣٨٢٠ - ٣٨٢١). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٠١ - ٣٦٤. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٨٠ و ١٠/ ٦٣ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٣٢.

وقد أنكر أبو حاتم بن حبان أحاديث وضع الحجر على بطنه الشريف من الجوع، وقال: إنها باطلة، متمسكاً بحديث الوصال «لست كأحدكم إني أطعم وأسقى» قال وإنما معناه: الحجز، بالزاي وهو طرف الإزار، لأن الله تعالى قد كان يطعم رسول الله ﷺ ويسقيه إذا واصل، فكيف يحتاج إلى شد الحجر على بطنه؟ وما يغني الحجر عن الجوع. انتهى.

وقال بعضهم: يجوز أن يكون عصب الحجر لعادة العرب أو أهل المدينة أنهم يفعلون ذلك إذا خلت أجوافهم وغارت بطونهم يشدون عليها حجراً ففعل ﷺ ذلك ليعلم أصحابه أنه ليس عنده ما يستأثر به عليهم. والصواب: صحة الأحاديث، وأنه ﷺ فعل ذلك اختيار للثواب.

وقد استشكل كونه ﷺ وأصحابه كانوا يطوون الأيام جوعاً، مع ما ثبت أنه كان يرفع لأهله قوت سنة، وأنه قسم بين أربعة أنفس من أصحابه ألف بعير مما أفاء الله عليه، وأنه ساق في عمرته مائة بدنة فنحرها وأطعمها المساكين، وأنه أمر لأعرابي بقطيع من الغنم، وغير ذلك، مع من كان معه من أصحاب الأموال كأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة وغيرهم، مع بذلهم أنفسهم وأموالهم بين يديه. وقد أمر بالصدقة فجاء أبو بكر بجميع ماله، وعمر بنصفه، وحث على تجهيز جيش العسرة فجهزهم عثمان بألف بعير إلى غير ذلك.

وأجاب عنه الطبري ـ كما حكاه في فتح الباري ـ أن ذلك كان منهم في حالة دون حالة لا لعوز وضيق، بل تارة للإيثار وتارة لكراهة الشبع وكثرة الأكل، انتهى. وتعقب: بأن ما نفاه مطلقاً فيه نظر لما تقدم من الأحاديث وأخرج ابن حبان في صحيحه عن عائشة: «من حدثكم أنا كنا نشبع من التمر فقد كذبكم»، فلما افتتحت قريظة أصبنا شيئاً من التمر والودك إلى غير ذلك.

قال الحافظ ابن حجر: والحق أن الكثير منهم كانوا في حال ضيق قبل الهجرة، حيث كانوا بمكة ثم لما هاجروا إلى المدينة كان أكثرهم كذلك، فواساهم الأنصار بالمنازل والمنائح، فلما فتحت لهم النضير وما بعدها ردوا عليهم منائحهم كما تقدم.

وقد قال ﷺ «لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من يوم وليلة ما لي ولبلال طعام يأكله أحد إلا شيء يواريه ابط بلال»[1]. رواه الترمذي وصححه.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب (٣٤) رقم الحديث (٢٤٧٢). وفي المسند للإمام أحمد=

نعم كان ﷺ يختار ذلك مع إمكان حصول التوسع والتبسط في الدنيا له، كما أخرج الترمذي من حديث أبي أمامة، أن رسول الله ﷺ قال: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا، يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»[1] وحكمة هذا التفصيل الاستلذاذ بالخطاب، وإلا فالله تعالى عالم بالأشياء جملة وتفصيلاً.

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا، فقال رسول الله ﷺ «يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة من دقيق، ولا كف من سويق»، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته فقال رسول الله ﷺ «أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: لا، ولكن أمر إسرافيل فنزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل فقال: إن الله سمع ما ذكرت فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض عليك أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة فإن رضيت فعلت، فإن شئت نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً، فأومأ إليه جبريل أن تواضع فقال: بل نبياً عبداً ثلاثاً»[2]، رواه الطبراني بإسناد حسن.

فانظر إلى همته العلية كيف عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأباها، ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربه، فأبى ذلك واختار العبودية المحضة، فيا لها من همة شريفة رفيعة ما أسناها ونفس زكية كريمة ما أبهاها، ولله در صاحب بردة المديح حيث قال:

| | |
|---|---|
| وراودته الجبال الشم من ذهب | عن نفسه فأراه أيما شمم |
| وأكدت زهده فيها ضرورته | إن الضرورة لا تعدو على العصم |
| وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من | لولاه لم تخرج الدنيا من العدم |

= ابن حنبل ٣/٢٨٦. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٩/٨٨. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٢٥٣). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/١٨٩. وفي تفسير البغوي ٦/١٦٢. وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٥٢٨). وفي الشمائل للترمذي (٧٤) وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/٣٠٨.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب (٣٥) رقم الحديث (٢٣٤٧). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/٢٥٤. وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/٢٤٥ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٤/٢٦١ و ٧/٣٩٦. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥١٩٠) وفي المغني للعراقي ١/٢٣٩ و ٣/٢٠٧ وفي الحلية لأبي نعيم ٨/١٣٣ وفي شرح السنة للبغوي ١٤/٢٤٦ وفي أخلاق النبوة (٢٦٧). وفي كنز العمال (٦١٢٠).

(٢) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٠/٣٥٠. والهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٢٠ و ١٠/٣١٥. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/١٩٦. وفي الزهد لابن المبارك (٢٦٤).

أي كيف تدعو ضرورة سيد المعصومين إلى زخرف الدنيا، وهي وما فيها إنما برزت لأجله، فكيف يضطر إليها. لكن في كلامه شيء، فإنه في مقام المديح فلا يليق منه الوصف بالزهد ولا بالضرورة.

قال الحليمي في شعب الإيمان: من تعظيم النبي ﷺ أن لا يوصف بما هو ء د. الناس من أوصاف الضعة، فلا يقال كان فقيراً.

وأنكر بعضهم إطلاق الزهد في حقه ﷺ. وقد حكى صاحب «نثر الدر» عن محمد ابن واسع أنه قيل له: فلان زاهد، قال: وما قدر الدنيا حتى يزهد فيها. وقد ذكر القاضي عياض في الشفاء، ونقله عنه الشيخ تقي الدين السبكي في كتابه «السيف المسلول» أن فقهاء الأندلس أفتوا بقتل حاتم المتفقه الطليطلي وصلبه لاستخفافه بحق النبي ﷺ وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم، وزعمه أن زهده لم يكن قصداً، ولو قدر على الطيبات لأكلها. انتهى.

وقد ذكر الشيخ بدر الدين الزركشي عن بعض الفقهاء المتأخرين أنه كان يقول: لم يكن النبي ﷺ فقيراً من المال قط، ولا حاله حال فقير، بل كان أغنى الناس بالله، قد كفي أمر دنياه في نفسه وعياله، وكان يقول في قوله ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً»[1] إن المراد به استكانة القلب لا المسكنة التي هي أن لا يجد ما يقع موقعاً من كفايته. وكان يشدد النكير على من يعتقد خلاف ذلك انتهى. وأما ما يروى أنه ﷺ قال: «الفقر فخري وبه أفتخر»[2] فقال شيخ الإسلام والحفّاظ ابن حجر: هو باطل موضوع.

واعلم أنه لم يكن من عادته الكريمة ﷺ حبس نفسه الشريفة على نوع واحد من الأغذية لا يتعداه إلى سواه، فإن ذلك يضر بالطبيعة جداً، ولو أنه أفضل الأغذية، بل كان ﷺ يأكل مما جرت عادة أهل بلده بأكله من اللحم والفاكهة والخبز والتمر وغيره مما

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب (٣٧) رقم الحديث (٢٣٥٢). وابن ماجه في كتاب الزهد باب (٧) رقم الحديث (٤١٢٦). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ١٢. وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٣٢٢. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢٦٢. وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٠٦ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥١٤٥). وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (٤٤). وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٧٠٢) وفي التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ١٩٤. وفي المغني للعراقي ٢/ ٢٠٦. وفي الموضوعات لابن الجوزي ٣/ ١٤١ وفي فتح الباري ١١/ ٣٣٠. وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/ ١٧٤. وفي كنز العمال (١٦٥٩٢ ـ ١٦٦٦٨ ـ ١٦٦٦٩).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا ٢/ ١٣١ والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٨/ ٢١٨. والفتني في تذكرة الموضوعات (٨٧ ـ ١٧٨) وذكره في الأسرار المرفوعة علي القاري ص ٢٥٥..

سيأتي، فأكل ﷺ الحلوى والعسل وكان يحبهما[1]، رواه البخاري والترمذي. والحلوى: بالقصر والمد، كل حلو، وقال الخطابي: اسم الحلوى لا يقع إلا على ما دخلته الصنعة، وقال ابن سيده: ما عولج من الطعام بحلو، وقد يطلق على الفاكهة.

قال الخطابي: ولم يكن حبه ﷺ لها على معنى كثرة التشهي لها، وشدة نزاع النفس إليها، وإنما كان ينال منها إذا أحضرت إليه نيلاً صالحاً فيعلم بذلك أنها تعجبه، ووقع في كتاب فقه اللغة للثعالبي: أن حلوى النبي ﷺ التي كان يحبها هي المجيع ـ بالميم والجيم، بوزن عظيم ـ وهو تمر يعجن بلبن، حكاه في فتح الباري.

ولم يصح ورود أنه ﷺ كان يحب السكر ولا أنه تصدق به ولا أنه رآه. لكن أخرج أبو جعفر الطحاوي والبيهقي في سننه من حديث لمازة عن ثور بن يزيد عن خالد ابن معدان عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ حضر ملاك رجل من الأنصار، فجاءت الجواري معهن الأطباق عليها اللوز والسكر فأمسك القوم أيديهم، فقال ﷺ: «ألا تنتهبون؟ قالوا: إنك نهيت عن النهبة، قال: أما العرسان فلا»[2]، قال: فرأيت النبي ﷺ يجاذبهم ويجاذبونه.

واحتج به الطحاوي على أن النثار غير مكروه، كما ذهب إليه أبو حنيفة، وقضىٰ به على الأحاديث الصحيحة التي فيها النهي عن النهبة. لكن قال البيهقي بعد رواية الحديث: وهذا لا يثبت، ثم قال: وروي من حديث عائشة عنه ﷺ، ولا يثبت في هذا المعنى شيء، وشنع على الطحاوي القول في ذلك جداً في كتاب المعرفة وقال: الحديث إنما يروى عن عون بن عمارة وعصمة بن سليمان وكلاهما لا يحتج به، وشيخهما لمازة ابن المغيرة مجهول، فهاتان علتان كل منهما منفردة توجب ضعف الحديث فكيف بهما مجتمعتان؟! هذا وخالد بن معدان منقطع ولا حجة في منقطع. فهذه علل ثلاث يضعف الحديث بدونها. وقد أفرد الكلام على ذلك ابن مفلح اليوسفي والله أعلم.

وعن ليث بن أبي سالم قال: أول من خبص في الإسلام عثمان بـن عفانٰ، قدمت عليه عير تحمل الدقيق والعسل فخلط بينهما وبعث به إلى رسول الله ﷺ فأكل فاستطابه. قال الطبري في الرياض: رواه خيثمة في فضائل عثمان. وعن عبدالله بن سلام قال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة باب (١٠) رقم الحديث (٥٥٩٩). وفي الترمذي كتاب الأطعمة باب (٢٩) رقم الحديث (١٨٣١) وفي سنن أبي داود كتاب الأشربة باب (١١) رقم الحديث (٣٧١٥) وفي ابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٣٦) رقم الحديث (٣٣٢٣). وفي سنن الدارمي كتاب الأطعمة رقم الحديث (٣٤) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٥٩.

(٢) ذكره السيوطي في اللآلىء المصنوعة ٢/ ٩١. وفي شرح معاني الآثار ٣/ ٥٠.

قدمت عير فيها جمل لعثمان بن عفان عليه دقيق حوارى وسمن وعسل، فأتى بها النبي ﷺ فدعا فيها بالبركة ثم دعا ببرمة فنصبت على النار وجعل فيها من العسل والدقيق والسمن ثم عصد حتى نضج أو كاد ينضج ثم أنزل فقال ﷺ: «كلوا هذا شيء تسمه فارس الخبيص»[1] قال الطبري: خرجه تمام في فوائده والطبراني في معجمه ورجاله ثقات. وأكل ﷺ لحم الضأن. وهذه الثلاثة ـ أعني: الحلوى والعسل واللحم ـ من أفضل الأغذية وأنفعها للبدن والكبد والأعضاء، ولا ينفر منها إلا من به علة وآفة.

«واللحم سيد طعام أهل الجنة»، وفي رواية «هو سيد الطعام لأهل الدنيا والآخرة»[2]، رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا من حديث أبي الدرداء مرفوعاً. وسنده ضعيف وله شواهد منها:

عن علي رفعه: سيد طعام الدنيا اللحم ثم الأرز، أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي. وأكل اللحم يزيد سبعين قوة. قاله الزهري.

وعن علي: أنه يصفي اللون ويحسن الخلق ومن تركه أربعين ليلة ساء خلقه. ولأبي الشيخ بن حيان من رواية ابن سمعان قال: سمعت من علمائنا يقولون: كان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم، وهو يزيد في السمع، وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل. وقال الإمام الشافعي. إن أكله يزيد في العقل.

وكان ﷺ يعجبه الذراع ولذلك سم فيه، وعن أبي رافع أنه أهديت له شاة فجعلها في قدر، فدخل رسول الله ﷺ فقال «ما هذا يا أبا رافع؟» فقال: شاة أهديت لنا يا رسول الله فطبختها في القدر. قال: «ناولني الذراع يا أبا رافع»، فناولته الذراع، ثم قال «ناولني الذراع الآخر»، فناولته الذراع الآخر، فقال: ناولني الذراع الآخر» فقال: يا رسول الله، إنما للشاة ذراعان فقال له رسول الله ﷺ: «أما إنك لو سكت لناولتني ذراعاً فذراعاً ما سكتُ»، ثم دعا بماء فمضمض فاه وغسل أطراف أصابعه ثم قام فصلى. الحديث رواه أحمد.

ورواه الدارمي والترمذي عن أبي عبيد بلفظ: طبخت له ﷺ قدراً، وكان يعجبه الذراع، فناولته الذارع، ثم قال: «ناولني الذراع»، فقلت يا رسول الله وكم للشاة من

(١) ذكره الحاكم في المستدرك ٤/ ١٠٩ ـ ١١٠. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١١٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٢٧) رقم الحديث (٣٣٠٥). وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٥٦٠ و ٢/ ٢٢٦.

ذراع؟ فقال: «والذي نفسي بيده لو سكت لناولتني الذراع ما دعوت».

وقالت عائشة: وكان الذراع أحب إليه، وكان لا يأكل اللحم إلا غباً، وكان يعجل إليها لأنه أعجل نضجاً[1]، رواه الترمذي.

وكذلك كان يحب لحم الرقبة. فعن ضباعة بنت الزبير أنها ذبحت في بيتها شاة، فأرسل إليها رسول الله ﷺ «أن أطعمينا من شاتكم»، فقالت: ما بقي عندنا إلا الرقبة، وإني لأستحي أن أرسل بها إلى رسول الله ﷺ. فرجع الرسول فأخبره، فقال: «ارجع إليها فقل لها: أرسلي بها فإنها هاربة الشاة وأقرب الشاة إلى الخير وأبعدها من الأذى»[2].

ولا ريب أن أخف لحم الشاة لحم الرقبة ولحم الذراع والعضد، وهو أخف على المعدة وأسرع انهضاماً، وفي هذا أنه ينبغي مراعاة الأغذيـة التي تجمع ثلاث خواص: أحدها: كثرة نفعها وتأثيرها في القوى، الثاني: خفتها على المعدة وسرعة انحدارها عنها، الثالث: سرعة هضمها، وهذا أفضل ما يكون من الغذاء.

وقال ﷺ: «أطيب اللحم لحم الظهر»[3]، رواه الترمذي.

وأما الحديث أنه ﷺ كان يكره الكليتين لمكانهما من البول، فقال الحافظ العراقي رويناه في جزء من حديث أبي بكر محمد بن عبدالله بن الشخير من حديث ابن عباس بإسناد فيه ضعف. انتهى.

وكان ﷺ ينتهش اللحم، أي يقبض عليه بفمه ويزيله من العظم أو غيره، وينتشله أي يقتلعه من المرق. والنهش بعد الانتشال.

وفي البخاري: أنه ﷺ احتز من كتف شاة في يده، فدعي إلى الصلاة، فألقاها والسكين التي يحتز بها، ثم قام إلى الصلاة، ولم يتوضأ[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (٣٤) رقم الحديث (١٨٣٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٢٨) رقم الحديث (٣٣٠٨) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥. وفي المستدرك للحاكم ٤/ ١١١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٧٠ وفي لسان الميزان لابن حجر ١/ ١١٧٦ وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٥٣٩) وفي تاريخ أصبهان لأبي نعيم ١/ ٢٣٧ وفي كنز العمال (٤٠٩٧).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء باب (٥٠) رقم الحديث (٢٠٧ ـ ٥٤٠٤ ـ ٥٤٠٥). وفي الترمذي كتاب الأطعمة باب (٣٣) رقم الحديث (١٨٣٦) وفي صحيح مسلم كتاب الحيض باب (٩٢) وفي سنن الدارمي كتاب الوضوء باب (٥٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٦٥ و ٤/ ١٣٩ ـ ١٧٩ و ٥/ ٢٨٨.

قال ابن بطال: هذا الحديث يرد حديث أبي معشر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رفعته: «لا تقطعوا اللحم بالسكين فإنه من صنيع الأعاجم وانهشوا فإنه أهنأ وأمرأ»[1] قال أبو داود وهو حديث ليس بالقوي.

قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني رحمه الله، له شاهد من حديث صفوان بن أمية. أخرجه الترمذي بلفظ: «انهشوا اللحم نهشاً، فإنه أهنأ وأمرأ»[2] وقال: لا نعرفه إلا من حديث عبد الكريم انتهى. قال: وعبد الكريم هو أبو أمية بن أبي المخارق، ضعيف، لكن أخرجه ابن أبي عاصم من وجه آخر عن صفوان بن أمية فهو حسن لكن ليس فيه ما زاده أبو معشر من التصريح بالنهي عن قطع اللحم بالسكين. وأكثر ما في حديث صفوان أن النهش أولى. انتهى.

ويمكن الجمع: بأن النهش مما على العظم الصغير، والاحتزاز مما على الكبير. وأكل ﷺ الشواء، فعن أم سلمة أنها قربت إلى النبي ﷺ جنباً مشوياً فأكل منه ثم قام إلى الصلاة وما توضأ[3]، قال الترمذي حسن صحيح. وأكل ﷺ القديد، كما في حديث في السنن عن رجل قال: ذبحت لرسول الله ﷺ شاة ونحن مسافرون. فقال: «أصلح لحمها»[4]، فلم أزل أطعمه منه إلى المدينة وأكل ﷺ من الكبد المشوية. وأكل لحم الدجاج رواه الشيخان والترمذي وغيرهم. وأكل لحم حمار الوحش رواه الشيخان. وأكل

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٢٠) رقم الحديث (٣٧٧٨) وفي سنن النسائي ٤/ ١٧٢. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٨٠ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢١٥) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١٣٢. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٧/ ٢٥١٨ وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٢٤٨ وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/ ١٢٢ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٤٥ ـ ١٤٦) وفي الموضوعات لابن الجوزي ٢/ ٣٠٣ وفي كنز العمال (٤٠٧٣١) وفي فتح الباري ٩/ ٦٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (٣٢) رقم الحديث (١٨٣٥) وفي سنن الدارمي كتاب الأطعمة باب (٣٠) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٠٦ و٦/ ٤٦٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٥٧. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٦١٠) وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٦/ ٤٢٩. وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٢٩٧. وفي طبقات ابن سعد ٥/ ١٨.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (٢٧) رقم الحديث (١٨٢٩) وفي سنن النسائي ١/ ١٠٨. والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ٣٠٧.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الضحايا باب (١١) رقم الحديث (٢٨١٤). وفي صحيح مسلم كتاب الأضاحي باب (٣٥ ـ ٣٦). وفي سنن الدارمي كتاب الأضاحي باب (٦) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٢٧٧ ـ ٢٨١. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٢٩١. وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٢٣٠. وفي التمهيد لابن عبد البر ٣/ ٢١٩. وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ ٩٤.

لحم الجمل سفراً وحضراً. وأكل لحم الأرنب رواه الشيخان. وأكل من دواب البحر رواه مسلم.

وأكل الثريد ـ وهو بفتح المثلثة ـ أن يثرد الخبز بمرق اللحم، وقد يكون معه اللحم. ومن أمثالهم: الثريد أحد اللحمين. وروى أبو داود من حديث ابن عباس قال: أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ الثريد من الخبز والثريد من الحيس[1]. وأكله ﷺ بالسمن، وأكل الخبز بالزيت.

وعن حذيفة أن النبي ﷺ قال: «إن جبريل أطعمني الهريسة، يشد بها ظهري لقيام الليل»[2]، رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن الحجاج اللخمي، وهو الذي وضع هذا الحديث.

وأكل ﷺ الدباء وكانت تعجبه، وكان يتتبعها من حوالي القصعة، قال أنس فلم أزل أحب الدباء من يومئذ[3]. رواه مسلم. وقال النووي: فيه أنه يستحب أن تحب الدباء وكذلك كل شيء كان يحبه ﷺ. وكذلك أكل ﷺ السلق مطبوخاً بالشعير قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وأتى الحسن بن علي وابن عباس وابن جعفر إلى سلمى فقالوا: اصنعي لنا طعاماً مما كان يعجب رسول الله ﷺ ويحسن أكله: فقالت: يا بني لا تشتهيه اليوم فقال: بلى اصنعيه لنا، فقامت فأخذت شيئاً من الشعير فطحنته ثم جعلته في قدر وصبت عليه شيئاً من زيت ودقت الفلفل والتوابل فقربته إليهم فقالت: هذا مما كان يعجبه ﷺ ويحسن أكله. رواه الترمذي.

وأكل ﷺ الخزيرة ـ وهي بخاء معجمة مفتوحة ثم زاي مكسورة، وبعد التحتانية الساكنة راء ـ ما يتخذ من الدقيق على هيئة العصيدة، لكن أرق منها، قاله الطبري. وقال ابن فارس: دقيق يخلط بشحم، وقال القتبي وتبعه الجوهري: أن يؤخذ اللحم فيقطع

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٢٢) رقم الحديث (٣٧٨٣).

(٢) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣١٠. والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ٢/ ١٢٧. وفي الموضوعات لابن الجوزي ٣/ ١٧. وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ١/ ٢٠٠ وفي لسان الميزان لابن حجر ٥/ ٣٩٠. وفي ميزان الإعتدال (٧٣٥١). وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢/ ٢٧٩ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٦/ ٢١٥٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٢٥) رقم الحديث (٥٤٢٥ ـ ٥٤٣٣ ـ ٥٤٣٥ ـ ٥٤٣٦). وفي سنن أبي داود كتاب الأطعمة باب (٢١) رقم الحديث (٣٧٨٢) وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (١٤٤ ـ ١٤٥). وفي الموطأ للإمام مالك كتاب النكاح باب (٢١) رقم الحديث (٥١). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ١١٥ و ٤/ ٣٥٢.

صغاراً ويصب عليه ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق، فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة. وقيل: مرقة تصفى من بلالة النخالة ثم تطبخ، وقيل: الخزيرة بالإعجام من النخالة، والحريرة ـ يعني بالإهمال ـ من اللبن.

وقال عتبان: غدا علي رسول الله ﷺ وأبو بكر حين ارتفع النهار، وحبسناه على خزير صنعناه وأكل ﷺ الأقط، قاله ابن عباس فيما رواه وهو جبن اللبن المستخرج زبده، أكلته وهو كثير بمكة والمدينة زادهما الله شرفاً، وهو أشبه شيء بالكشك. وأكل ﷺ الرطب والتمر والبسر. رواه مسلم والترمذي وغيرهما.

وأكل الكباث. رواه مسلم، وهو بفتح الكاف وتخفيف الموحدة وبعد الألف مثلثة، النضيج من تمر الأراك. وقيل ورق الأراك، وتعقبه الاسماعيلي فقال: إنما هو تمر الأراك وهو البرير ـ بموحدة بوزن الحرير ـ فإذا اسود فهو الكباث. وفي النهاية لابن الأثير؛ أنه ﷺ كان يحب الجذب ـ بالجيم والذال المعجمة المفتوحتين ـ أي الجمار، وهو شحم النخل واحدتها جذبة. وأما الجبن، ففي السنن من حديث ابن عمر قال: أتي النبي ﷺ بجبنة في تبوك فدعا بسكين فسمى وقطع[1] رواه أبو داود.

وكان ﷺ يراعي صفات الأطعمة وطبائعها واستعمالها على قاعدة الطب، فإذا كان في أحد الطعامين ما يحتاج إلى كسر وتعديل كسره وعدله بضده إن أمكن، كتعديله حرارة الرطب بالبطيخ. وهذا أصل كبير في المركبات من الأدوية، وإن لم يجد ذلك تناوله على حاجة وداعية من النفس من غير إسراف. وروى أبو داود من حديث أبي أسامة عن هشام أنه ﷺ كان يأكل البطيخ بالرطب، ويقول يكسر حر هذا ببرد هذا، وبرد هذا بحر هذا[2]. ورواه يزيد بن رومان عن الزهري عن عروة بتقديم «الطاء» كما للنوقاتي[3]، وبتأخيرها كما للنسائي في الوليمة، فكأنه عند هشام باللفظين. وكذا رواه ابن حبان في صحيحه من حديث محمد بن عبد الرحمن عن الإمام أحمد بن حنبل عن وهب بن جرير بن حازم، حدثنا أبي، سمعت حميداً يحدث عن أنس أن النبي ﷺ كان يأكل الطبيخ أو البطيخ بالرطب، وقال عقبة: الشك من أحمد. وتقديم الطاء لغة حكاها صاحب المحكم.

---

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب الأطعمة باب (٣٨) رقم الحديث (٣٨١٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٤٤) رقم الحديث (٣٨٣٦). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٨١. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٠١ ـ ١١٩. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٢٥). وفي تفسير القرطبي ٧/ ١٩٩.

(٣) هو محمد بن أحمد بن سليمان النوقاتي أبو عمر. أديب حافظ. توفي سنة (٣٨٢ هـ). الأعلام ٥/ ٣١٢. معجم الأدباء ٥/ ١٤٠ رقم الترجمة (٧٩٤). معجم البلدان ٨/ ٣٢٧.

وقد كان محمد بن أسلم[1] لا يأكل البطيخ لأنه لم ينقل كيفية أكل رسول الله ﷺ له. وروى الطبراني في الأوسط من حديث عبدالله بن جعفر قال: رأيت في يمين النبي ﷺ قثاء وفي شماله رطباً وهو يأكل من ذا مرة، ومن ذا مرة[2]، وفي سنده ضعف. وأخرج فيه، وفي الطب لأبي نعيم من حديث أنس. كان يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره، فيأكل الرطب بالبطيخ، وكان أحب الفاكهة إليه. وسنده ضعيف أيضاً.

وأخرج النسائي بسند صحيح عن حميد عن أنس: رأيت رسول الله ﷺ يجمع بين الرطب والخربز -[3] وهو بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء وكسر الموحدة بعدها زاي - نوع من البطيخ الأصفر. وفي هذا تعقب على من زعم أن المراد بالبطيخ في الحديث الأخضر، واعتلوا بأن الأصفر فيه حرارة كما في الرطب، وقد ورد التعليل بأن أحدهما يطفىء الآخر. والجواب عن ذلك بأن في الأصفر بالنسبة للرطب برودة، وإن كان فيه لحلاوته طرف حرارة، والله أعلم.

وفي رواية النسائي أيضاً، بسند صحيح عن عائشة أن نبي الله ﷺ أكل البطيخ والرطب جميعاً[4]. وأخرج ابن ماجه عن عائشة: أرادت أمي معالجتي للسمنة لتدخلني على رسول الله ﷺ فما استقام لها ذلك حتى أكلت الرطب بالقثاء، فسمنت كأحسن سمنة[5]. ورواه النسائي وقال: بالتمر، مكان الرطب. وأما فضائل البطيخ فأحاديثه باطلة، وإن أفرده النوقاتي في جزء كما قال الحافظ والله أعلم.

وقد كان ﷺ يأكل التمر بالزبد ويعجبه. فعن عبدالله وعطية ابني بسر، قالا: دخل

---

(١) هو محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد أبو الحسن الكندي مولاهم الطوسي. حافظ توفي سنة (٢٤٢ هـ). الأعلام ٦/ ٣٤. شذرات الذهب ٢/ ١٠٠ تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٣٢ رقم الترجمة (٥٥٠) حلية الأولياء ٩/ ٢٣٨ رقم الترجمة (٤٤٧) الرسالة المستطرفة (٦٤).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٧٠. وفي الصحيحين (ب ـ ٥٤٤٠ ـ ٥٤٤٧ ـ ٥٤٤٩ ـ م. أشربة ـ ١٤٨) وفي الترمذي كتاب الأطعمة باب (٣٧) رقم الحديث (١٨٤٤). وفي سنن أبي داود كتاب الأطعمة باب (٤٤) رقم الحديث (٣٨٣٥). وفي سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٣٧) رقم الحديث (٣٣٢٥) وفي سنن الدارمي كتاب الأطعمة رقم الحديث (٢٤) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٠٣.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (٣٦) رقم الحديث (١٨٤٣). وأبو داود في كتاب الأطعمة باب (٤٤) رقم الحديث (٣٨٣٦). وابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٣٧) رقم الحديث (٣٣٢٦).

(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٣٧) رقم الحديث (٣٣٢٤). وفي سنن أبي داود كتاب الطب باب (٢٠) رقم الحديث (٣٩٠٣).

علينا رسول الله ﷺ فقدمنا له زبداً وتمراً، وكان يحب الزبد والتمر[1]. رواه أبو داود وابن ماجه. وسمى النبي ﷺ اللبن والتمر الأطيبين[2]. رواه أحمد. وكان يأكل الخبز مأدوماً ما وجد له إداماً، فتارة يأدمه باللحم ويقول: هو سيد الطعام لأهل الدنيا والآخرة، وتارة بالبطيخ[3]، وتارة بالتمر، فإنه وضع تمرة على كسرة من خبز الشعير، وقال «هذه إدام هذه»[4]، رواه أبو داود والترمذي بسند حسن من حديث يوسف بن عبدالله بن سلام قال: رأيت النبي ﷺ أخذ. . . فذكره. قال ابن القيم: وهذا من تدبير الغذاء، فإن الشعير بارد يابس، والتمر حار رطب ـ على أصح القولين ـ فإدام خبز الشعير به من أحسن التدبير. وتارة بالخل، ويقول: نعم الأدم الخل رواه مسلم، وتقدم.

قال الخطابي والقاضي عياض: معناه مدح الاقتصاد في المأكل، ومنع النفس من ملاذ الأطعمة، تقديره: ائتدموا بالخل وما في معناه مما تخف مؤنته ولا يعز وجوده، ولا تنافسوا في الشهوات فإنها مفسدة للدين مسقمة للبدن. وتعقبه النووي فقال: الذي ينبغي أن يجزم به، أنه مدح للخل نفسه، وأما الاقتصاد في المطعم وترك الشهوات فمعلوم من قواعد أخر. انتهى. وقال ابن القيم: هذا ثناء عليه بحسب مقتضى الحال الحاضر، لا تفضيله على غيره كما ظنه بعضهم، قال: وسبب الحديث أنه دخل على أهله يوماً فقدموا له خبزاً فقال: «ما من أدم؟» فقالوا: ما عندنا إلا الخل، فقال: «نعم الأدم الخل» والمقصود أن أكل الخبز مع الأدم من أسباب حفظ الصحة بخلاف الاقتصار على أحدهما، وسمى الأدم أدماً لإصلاحه الخبز وجعله ملائماً لحفظ الصحة، وليس في هذا تفضيل له على اللبن واللحم والعسل والمرق، ولو حضر لحم أو لبن لكان أولى بالمدح منه، فقال هذا جبراً وتطييباً لقلب من قدمه له، لا تفضيلاً له على سائر أنواع الأدم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٤٤) رقم الحديث (٣٨٣٧). وفي سنن ابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٤٣) رقم الحديث (٣٣٣٤). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٦٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٣٢) وفي الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ٢/ ٩٨. وفي فتح الباري ٩/ ٧١٦. وفي كنز العمال (١٨٢٠٧).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٤٧٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٢٧) رقم الحديث (٣٣٠٥). وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٥٦٠ و ٢/ ٢٢٦ قال الحافظ العراقي: أكله الخبز بالبطيخ لا أصل له.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور باب (٨) رقم الحديث (٣٢٥٩ ـ ٣٨٣٠). وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٦٣. وفي الشمائل للترمذي (٩٤ ـ ٩٦). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٤٠. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٢٣). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٢٠. وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٣٢٣. وفي تفسير القرطبي ١٢/ ١١٧. وفي كنز العمال (٤١٠١٥).

وكان ﷺ يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها، ولا يحتمي عنها. وهذا من أكبر أسباب الصحة، فإن الله سبحانه بحكمته جعل في كل بلد من الفاكهة ما ينتفع به أهلها في وقته، فيكون تناوله من أسباب صحتهم وعافيتهم، ويغني عن كثير من الأدوية، وقل من احتمى عن فاكهة بلده خشية السقم إلا وهو من أسقم الناس جسماً وأبعدهم من الصحة والقوة، فمن أكل منها ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي، على الوجه الذي ينبغي كان له دواء نافعاً.

وقد روى ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﷺ يأكل العنب خرطاً. رويناه في الغيلانيات. لكن قال أبو جعفر العقيلي ـ كما حكاه في الهدي ـ: لا أصل لهذا الحديث. قال ابن الأثير: يقال خرط العنقود واخترطه إذا وضعه في فيه ثم يأخذ حبه ويخرج عرجونه عارياً منه. قال: وجاء في بعض الروايات خرصاً ـ بالصاد بدل الطاء ـ.

وأما البصل فروى أبو داود في سننه عن عائشة أنها سئلت عن البصل فقالت: إن آخر طعام أكله رسول الله ﷺ فيه بصل[1]. وثبت عنه في الصحيحين أنه منع آكله من دخول المسجد. وكان ﷺ يترك الثوم دائماً لأنه يتوقع مجيء الملائكة والوحي كل ساعة. قال النووي: واختلف أصحابنا في حكم الثوم في حقه ﷺ وكذلك البصل والكراث ونحوها، فقال بعض أصحابنا: هي محرمة عليه، والأصح عندهم أنها مكروهة كراهة تنزيه وليست محرمة لعموم قوله ﷺ: «لا» في جواب: أحرام هي؟ ومن قال بالأول يقول: معنى الحديث: ليس بحرام في حقكم. انتهى. فينبغي لمحبه موافقته ﷺ في ترك الثوم ونحوه، وكراهة ما كان يكرهه ﷺ، فإن من أوصاف المحب الصادق أن يحب ما أحب محبوبه ويكره ما يكرهه.

وكان ﷺ يأكل بأصابعه الثلاث[2]. رواه الترمذي في الشمائل وهذا ـ كما في الهدي ـ أنفع ما يكون من الأكلات، فإن الأكل بأصبع أكل المتكبر، ولا يستلذ به الآكل ولا يمريه ولا يشبعه إلا بعد طول، ولا يفرح آلات الطعام والمعدة بما ينالها في كل أكلة فيأخذها على إغماض كما يأخذ الرجل حقه حبة حبة أو نحو ذلك، فلا يلتذ بأخذه،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٤٠) رقم الحديث (٣٨٢٩). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٣١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٥١) رقم الحديث (٣٨٤٨). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/٣٨٦. وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة باب (١٨) رقم الحديث (١٣٢). وفي سنن الدارمي ٢/٩٧. والترمذي في الشمائل (٧٧). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/٢٧٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/٢٥. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/٢٧٢ و٧/١١٧ وفي فتح الباري ٩/٧٢٣. وفي أخلاق النبوة (١٩٥). وفي كنز العمال (١٨١٩٧).

والأكل بالخمسة والراحة يوجب ازدحام الطعام على الآلة وعلى المعدة، وربما استدت الآلات فمات، وتغصب الآلات على دفعه، والمعدة على احتماله، ولا يجد له لذة ولا استمراء، فأنفع الأكل أكله ﷺ، وأكل من اقتدى به بالأصابع الثلاثة.

وكان ﷺ يلعق أصابعه إذا فرغ ثلاثاً: رواه الترمذي في الشمائل. وفي رواية مسلم ويلعق يده قبل أن يمسحها. وفي رواية أنه أمر بلعق الأصابع والصحفة[1]. وقد روى الترمذي عن أم عاصم قالت: دخل علينا نبيشة الخير، ونحن نأكل في قصعة فحدثنا أن رسول الله ﷺ قال «من أكل في قصعة ثم لحسها استغفرت له القصعة»[2]، وكذا أخرجه ابن ماجه وأحمد وابن شاهين والدارمي وغيرهم. وقال الترمذي: إنه حديث غريب. وأورده بعضهم بلفظ: تستغفر الصحفة للاحسها. وفي حديث جابر مرفوعاً عن أبي الشيخ في الثواب: «من أكل ما يسقط من الخوان أو القصعة أمن من الفقر والبرص والجذام وصرف عن ولده الحمق». وللديلمي من طريق الرشيد عن آبائه عن ابن عباس رفعه؛ «من أكل ما يسقط من المائدة خرج ولده صباح الوجوه، ونفي عنه الفقر».

وأورده الغزالي في الإحياء بلفظ: «عاش في سعة وعوفي في ولده» وكلها مناكير[3].

لكن في مسلم عن جابر وأنس مرفوعاً: «إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها فليمط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان، ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه لأنه لا يدري في أي طعامه البركة»[4]. وفي حديث كعب بن عجرة عند الطبراني في الأوسط

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة باب (١٨) رقم الحديث (١٣٣). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٦١٤) وفي أخلاق النبوة (١٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (١١) رقم الحديث (١٨٠٤). وابن ماجة في كتاب الأطعمة باب (١٠) رقم الحديث (٣٢٧١ ـ ٣٢٧٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٧٦. وفي سنن الدارمي ٢/ ٩٦ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٣١٨. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢١٨ ـ ٤٢٤٢). وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٣١٦. وفي كنز العمال (٤٠٧٨٧). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٢٥ و ٧/ ١٢٣.

(٣) ذكره الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٢٤. وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٤٢). والغزالي في إحياء علوم الدين ٢/ ٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأشربة رقم الحديث (١٣٤). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٧٧. وفي ابن ماجه رقم الحديث (٣٢٧٨). وفي اتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٢٠. وفي المغني للعراقي ٢/ ٥ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٤٢) وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (١٥٣٦).

صفة لعق الأصابع، ولفظه: رأيت رسول الله ﷺ يأكل بأصابعه الثلاث، بالإبهام والتي تليها والوسطى، ثم رأيته يلعق أصابعه الثلاث قبل أن يمسحها، الوسطى ثم التي تليها ثم الإبهام. قال الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي: كأن السر فيه أن الوسطى أكثر تلويثاً لأنها أطول فيبقى فيها من الطعام أكثر من غيرها، ولأنها لطولها أول ما ينزل الطعام. وقد وقع في مرسل ابن شهاب عند سعيد بن منصور أن النبي ﷺ كان إذا أكل أكل بخمس. فيجمع بينه وبين ما تقدم باختلاف الحال. وقد جاءت علة اللعق مبينة ـ في بعض الروايات ـ أنه لا يدري أحدكم في أي طعامه البركة. وفي الحديث رد على من كره لعق الأصابع استقذاراً ممن ينسب للرياسة والإمرة في الدنيا. نعم، يحصل ذلك لو فعله أثناء الأكل لأنه يعيد أصابعه في الطعام، وعليها أثر ريقه.

قال الخطابي: عاب قوم أفسد عقلهم الترفه لعق الأصابع، وزعموا أنه مستقبح، كأنهم لم يعلموا أن الطعام الذي علق بالأصابع والصحفة جزء من أجزاء ما أكلوه، وإذا لم يكن سائر أجزائه مستقذراً لم يكن الجزء اليسير منه مستقذراً، وليس في ذلك أكثر من مصه أصابعه بباطن شفتيه، ولا يشك عاقل أن لا بأس بذلك، فقد يتمضمض الإنسان فيدخل أصبعه في فيه فيدلك أسنانه وباطن فمه، ثم لم يقل أحد إن ذلك قذارة وسوء أدب، انتهى. ولا ريب أن من استقذر ما نسب إلى رسول الله ﷺ سيء الأدب، يخشى عليه أمر عظيم، فنسأل الله بوجاهة وجهه الكريم أن لا يسلك بنا غير حلاوة سبيل سنته وأن يديم لنا محبته. وقد كان ﷺ لا يأكل متكئاً، لما صح أنه قال «لا آكل متكئاً»[1]. رواه البخاري. وقال: «إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد»[2]. وروى ابن ماجه والطبراني بإسناد حسن قال: أهديت للنبي ﷺ شاة، فجثا على ركبتيه يأكل فقال له أعرابي: ما هذه الجلسة؟ فقال: «إن الله جعلني كريماً ولم يجعلني جباراً عنيداً»[3].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (١٣) رقم الحديث (٥٣٩٨ ـ ٥٣٩٩). وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٣٧٦٩). وفي الترمذي رقم الحديث (١٨٣٠). وفي الشمائل للترمذي (٦٤). وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٧/٢٥٦.

(2) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/١٣١. والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٥/٢١٤ و ٧/١١٦ و ٨/٣٩٣ و ٩/٣٥١. وفي المغني للعراقي ٢/٤ ـ ٣٦٧ و ٣/٣٥٠. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٥/١٩٧١. وفي الزهد لابن مبارك (٥٥٣) وفي أخلاق النبوة (١٩٧). وفي كنز العمال (٤٠٧٠٨ ـ ٤٠٧٩٣).

(3) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (١٧) رقم الحديث (٣٧٧٣). وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (٣٢٦٣). وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٧٧٥ ـ ٤٧٧٦). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي=

قال ابن بطال: إنما فعل ذلك النبي ﷺ تواضعاً لله، ثم ذكر من طريق أيوب عن الزهري قال: أتى النبي ﷺ ملك لم يأته قبلها فقال: إن ربك يخيرك بين أن تكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، فنظر إلى جبريل كالمستشير له، فأومأ إليه أن تواضع، فقال: «بل عبداً نبياً» قال فما أكل متكئاً[1].

وهذا مرسل أو معضل، وقد وصله النسائي من طريق الزبيدي عن الزهري عن محمد بن عبدالله بن عمرو بن العاصي قال: ما رؤي النبي ﷺ يأكل متكئاً قط. وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال: ما أكل النبي ﷺ متكئاً إلا مرة واحدة. ويمكن الجمع بأن تلك المرة التي في أثر مجاهد لم يطلع عليها عبد الله بن عمرو. فقد أخرج ابن شاهين «في ناسخه» من مرسل عطاء بن يسار: أن جبريل رأى النبي ﷺ يأكل متكئاً فنهاه، وروى ابن ماجه أنه ﷺ نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه[2]. وقد فسر القاضي عياض في الشفاء الاتكاء بالتمكن للأكل والتقعدد للجلوس له كالمتربع وشبهه من تمكن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته. قال: والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه. والنبي ﷺ إنما كان جلوسه للأكل المستوفز مقعياً. قال: وليس معنى الحديث في الاتكاء الميل على شق عند المحققين انتهى. والإقعاء: أن يلصق أليتيه بالأرض وينصب ساقيه ويتساند إلى ظهره، وهو المنهي عنه في الصلاة.

وتفسير القاضي عياض الاتكاء بما فسره به حكاه في الإكمال عن الخطابي،وقال: إن الخطابي خالف في هذا التأويل أكثر الناس، وأنهم إنما حملوا الاتكاء على أنه الميل على أحد الجانبين. انتهى. والذي رأيته يعزى للخطابي: تحسب العامة أن المتكيء هو الآكل على أحد شقيه وليس كذلك، بل هو المعتمد على الوطاء الذي تحته. انتهى. وقد فسر أيضاً بالميل على أحد الشقين، وبه فسر ابن الجوزي. وقيل هو الاعتماد على الشيء، وقيل: أن يعتمد على يده اليسرى من الأرض. وقد أخرج ابن عدي بسند ضعيف: زجر النبي ﷺ أن يعتمد الرجل على يده اليسرى عند الأكل. قال الإمام مالك: هو نوع من الاتكاء، قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني: وفي هذا إشارة من مالك إلى

---

= (٤٢٥١). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١٣٠. وفي فتح الباري ٩/ ٦٧٥ وفي كنز العمال (٣١٩٨٦ ـ ٤٠٨١٠ ـ ٤١٧٠٧).

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٢٣١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٨. وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢١٣٧). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١١٦ وفي فتح الباري ٩/ ٦٧٦. وفي أخلاق النبوة (١٩٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٦٢) رقم الحديث (٣٣٧٠). وفي الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ١/ ١٠١.

كراهة كل ما يعد الآكل فيه متكئاً، ولا يختص بصفة بعينها. وحكى ابن الأثير في النهاية أن من فسر الاتكاء بالميل على أحد الشقين تأوله على مذهب الطب. وقال ابن القيم: إنه يضر بالآكل، فإنه يمنع مجرى الطعام الطبيعي عن هيئته ويعوقه عن سرعة نفوذه إلى المعدة ويضغط المعدة فلا يستحكم فتحها للغذاء.

وأما الاعتماد على الشيء فهو جلوس الجبابرة المنافي للعبودية، ولهذا قال ﷺ «آكل كما يأكل العبد». وإن كان المراد بالاتكاء الاعتماد على الوسائل والوطاء الذي تحت الجالس ـ كما ذكرته عن الخطابي ـ فيكون المعنى: أني إذا أكلت لم أقعد متكئاً على الأوطئة والوسائد كفعل الجبابرة ومن يريد الإكثار من الطعام، لكني آكل بلغة من الزاد، فلذلك أقعد مستوفزاً.

وفي حديث أنس أنه ﷺ أكل تمراً وهو مقع ، من الجوع . وفي رواية : وهو محتفز . والمراد الجلوس على وركيه غير متمكن . واختلف السلف في حكم الأكل متكئاً، فزعم ابن القاص: أن ذلك من خصائصه ﷺ. وتعقبه السهيلي فقال: قد يكره لغيره أيضاً لأنه من فعل المتعظمين، وأصله مأخوذ من ملوك العجم، قال: فإن كان بالمرء مانع لا يتمكن معه من الأكل إلا متكئاً لم يكن في ذلك كراهة، ثم ساق عن جماعة من السلف أنهم أكلوا كذلك، وأشار إلى حمل ذلك عنهم على الضرورة.

قال في فتح الباري: وفي الحمل نظر، وقد أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس. وخالد بن الوليد ومحمد بن سيرين وعطاء بن يسار وغيرهم جواز ذلك مطلقاً، وإذا ثبت كونه مكروهاً أو خلاف الأولى، فالمستحب في صفة الجلوس للآكل أن يكون جاثياً على ركبتيه وظهور قدميه، أو ينصب الرجل اليمنى ويجلس على اليسرى. انتهى.

وقال ابن القيم: ويذكر عنه ﷺ أنه كان يجلس للأكل متوركاً على ركبتيه ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر اليمنى تواضعاً ﷺ عز وجل وأدباً بين يديه. قال وهذه الهيئة أنفع هيئات الأكل وأفضلها لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعي الذي خلقها الله تعالى عليه. انتهى. وأخرج ابن أبي شيبة من طريق إبراهيم النخعي قال: كانوا يكرهون أن يأكلوا اتكاة مخافة أن تعظم بطونهم.

وكان ﷺ إذا وضع يده في الطعام يسمي الله تعالى[1]. وأما قول النووي في آداب الأكل من الأذكار: والأفضل أن يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، فإن قال: بسم الله كفاه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/٣٣٧. وفي المغني للعراقي ٢/٣٦٧. وفي كنز العمال (١٨١٨١).

وحصلت السنة. فقال في فتح الباري: لم أر لما أدعاه من الأفضلية دليلاً خاصاً. وكان ﷺ يحمد في آخره فيقول: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مودع ولا مستغنى عنه ربنا»[1] رواه الترمذي. وقوله: «غير مودع» بفتح الدال الثقيلة - أي غير متروك. ولا مستغنى: بفتح النون. و: ربنا: بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ربنا، ويجوز النصب على المدح، أو الاختصاص، أو إضمار أعني. وقال ابن الجوزي: بالنصب على النداء مع حذف أداة النداء.

وفي رواية: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»[2]. وللنسائي من طريق عبد الرحمن بن جبير المصري أنه حدثه رجل خدم النبي ﷺ ثمان سنين أنه كان يسمع النبي ﷺ إذا قرب إليه طعام يقول: «بسم الله»، فإذا فرغ قال: «اللهم أطعمت وسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت وأحييت فلك الحمد على ما أعطيت»[3] وسند صحيح.

وقد كان ﷺ يحب التيامن[4] من شأنه كله، وقال ﷺ: «يا غلام سم الله وكل بيمينك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٥٤) رقم الحديث (٥٤٥٨ - ٥٤٥٩). وفي صحيح مسلم في كتاب المساجد رقم الحديث (١٤٩) وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٣٨٤٩). وفي الترمذي رقم الحديث (٣٤٥٦). وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (٣٢٨٤). وفي سنن الدارمي ٢/ ٩٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٩٥. وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ١٦٨. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ١٤ و ٧/ ١٢٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤١٩٩). وفي الشمائل للترمذي (٦٨) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٤٤٢. وفي كنز العمال (١٨١٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات باب (٥٥) رقم الحديث (٣٤٧). وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٣٨٥٠). وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (٣٢٨٣). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٢ - ٩٨ - ٢٥٣. وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٧ وفي فتح الباري ٩/ ٧٢٥ وفي المطالب العالية لابن حجر (٢٣٥٣). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٢٩. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٣٨٦). وفي الشمائل للترمذي (٩٨). وفي أخلاق النبوة (٢١٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٦٢ - ٣٣٧. وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٣٧. وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٠٧ و ٦/ ٤٠٤. وفي فتح الباري ٩/ ٧٢٥. وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٨٨. وفي أخلاق النبوة (٦٠ - ٢٢٠). وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (٣١ - ١٠٣). وفي تاريخ الطبري ٢/ ٣٤٦. وفي كنز العمال (٣٠٠٨٠ - ٣٠٠٨٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب (٤٧) رقم الحديث (٤٢٦ - ٥٣٨٠). وفي صحيح مسلم كتاب الطهارة باب (١٩) رقم الحديث (٦٦ - ٦٧). وفي سنن النسائي ١/ ٧٨. وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٤١٤٠). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٩٤ - ١٣٠ - ١٤٧. وفي الترمذي رقم الحديث (٦٠٨) وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (٤٠١). وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٣٨٣. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/ ١٣٩. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٢/ ٣٦١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٠٠). وفي مسند أبي عوانة ١/ ٢٢٢ وفي كنز العمال (٤٢٠٣٧).

وكل مما يليك»[1]. قال الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي: حمله أكثر الشافعية على الندب، وبه جزم الغزالي ثم النووي. لكن نص الشافعي في الرسالة وفي موضع آخر من الأم على الوجوب، كذا ذكر عنه الصيرفي في شرح الرسالة. ونقل البويطي في مختصره: أن الأكل من رأس الثريد، والتعريس على الطريق، والقران في التمر حرام. ومثل البيضاوي في منهاجه للندب بقوله: «كل مما يليك» وتعقبه الشيخ تاج الدين بن السبكي في شرحه: بأن الشافعي نص في غير هذا الموضع على أن من أكل مما لا يليه عالماً بالنهي كان عاصياً آثماً، قال: وقد جمع والدي نظائر هذه المسألة في كتاب له سماه «كشف اللبس عن المسائل الخمس» ونصر القول بأن الأمر فيها للوجوب.

قال شيخ الإسلام ابن حجر، بعد أن ذكر ذلك: ويدل على وجوب الأكل باليمين ورود الوعيد في الأكل بالشمال، ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ رأى رجلاً يأكل بشماله فقال: «كل بيمينك» فقال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت»[2] فما رفعها إلى فيه بعد

فإن قلت: إنه ﷺ كان يتتبع الدباء من حوالي القصعة وهو يعارض الأكل مما يلي:

فالجواب: أنه يحمل الجواز على ما إذا علم رضى من يأكل معه، فإذا علم كراهة من يأكل معه لذلك لم يأكل إلا مما يليه. قال ابن بطال: وإنما جالت يد رسول الله ﷺ في الطعام، لأنه علم أن أحداً لا يتكره ذلك منه ولا يتقذره، بل كانوا يتبركون بريقه وبما مسه بيده، بل كانوا يتبادرون إلى نخامته فيتدلكون بها. وقال غيره: إنما فعل ذلك لأنه كان يأكل وحده. وهو غير مسلّم، لأن أنساً أكل معه ﷺ. وحديث عكراش عند الترمذي: الذي فيه التفصيل بين ما إذا كان لوناً واحداً فلا يتعدى ما يليه، أو أكثر من لون فيجوز، ضعيف والله أعلم.

وقرب إليه ﷺ طعام، فقالوا: ألا نأتيك بوضوء؟ قال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة»[3] رواه الترمذي. وفي رواية له: أنه ﷺ قال: «بركة الطعام الوضوء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٢) رقم الحديث (٥٣٧٦ ـ ٥٣٧٧ ـ ٥٣٧٨) وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (١٠٨). وفي سنن ابن ماجه في كتاب الأطعمة باب (٨) رقم الحديث (٣٢٦٨). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٦. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٧٧، وفي تفسير القرطبي ٤/ ٧٨. وفي مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ١٠٤. وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٢٧٥. وفي كنز العمال (٤٠٧٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأشربة باب (١٣) رقم الحديث (١٠٧) وفي المسند للإمام أحمد ابن حنبل ٤/ ٤٦. وفي سنن الدارمي ٢/ ٩٧. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٣٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ٧/ ١٥. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٧٧. وفي فتح الباري ٩/ ٦٥٢. وفي التمهيد لابن عبد البر ١/ ٢٧٧ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٠٤).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (١١) رقم الحديث (٣٧٦٠) وفي سنن النسائي ١/ ٨٥. وفي =

قبله والوضوء بعده»[1]. فيحمل الوضوء الأول على الشرعي والثاني على اللغوي. وروى أبو يعلى بإسناد ضعيف من حديث ابن عمر: من أكل من هذه اللحوم شيئاً فليغسل يده من ريح وضره، ولا يؤذي من حذاءه.

ولم يكن ﷺ يأكل طعاماً حاراً، فروى الطبراني في الصغير والأوسط من حديث بلال بن أبي هريرة عن أبيه أن النبي ﷺ أتي بصحفة تفور، فقال «إن الله لم يطعمنا ناراً»[2] قال: وبلال قليل الرواية عن أبيه. انتهى. وعند أبي نعيم في الحلية، من حديث أنس مرفوعاً: كان يكره الكي والطعام الحار ويقول: «عليكم بالبارد فإنه ذو بركة، ألا وإن الحار لا بركة له»[3] الحديث. ولأحمد وأبي نعيم من حديث أسماء أنها كانت إذا ثردت غطته بشيء حتى يذهب فوره ثم تقول: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هو أعظم بركة»[4]. لكن عند البيهقي ـ بسند صحيح ـ عن أبي هريرة قال: أتي النبي ﷺ بطعام سخن فقال: «ما دخل بطني طعام سخن منذ كذا وكذا قبل اليوم»[5]

وكان له ﷺ قدح من خشب مضبب بحديد، قال أنس لقد سقيته ﷺ بهذا القدح الشراب كله: الماء والنبيذ والعسل. وفي البخاري عن سهل بن سعد قال: أقبل النبي

---

= المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٨٢ ـ ٣٥٩. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٤٢ ـ ٣٤٨. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٨٢ و ١١/ ١٢٢. وفي الشمائل للترمذي (٩٥ ـ ٣٤٨). وفي اتحاف السادة المتقين ٥/ ٢١٣. وفي الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٢٦٢. وفي صحيح ابن خزيمة (٣٥). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٠٩ ـ ٤٢١٠). وفي تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣. وفي فتح الباري ١/ ٥١٩.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب (٣٩) رقم الحديث (١٨٤٦). وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٣٧٦١). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٤٤١. وفي المعجم الكبير للطبراني ٦/ ٢٩٢. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٤. وفي الشمائل للترمذي (٩٦). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٠٨). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢١٢. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ١٦٣. وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٤١). وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٦/ ٢٠٦٨. وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٢٨٢. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١٥٠. وفي كنز العمال (١٨٢٢٤ ـ ٤٠٧٦٣).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٨٠.

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٨. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٨/ ٢٥٢. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١١٦ وفي كنز العمال (١٨٣٥٩).

(٤) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٧٧. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٤١) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٨.

(٥) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٨٠. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١١٦. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ١٨٨. وفي المغني للعراقي ٢/ ٣٦٧.

ﷺ حتى جلس في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه، ثم قال «اسقنا يا سهل» فأخرجت لهم هذا القدح فأسقيتهم فيه[1]، فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه ثم استوهبه عمر بن عبد العزيز بعد ذلك فوهبه له. الحديث. وكان عمر بن عبد العزيز قد ولي حينئذٍ إمرة المدينة.

وعند البخاري من حديث عاصم الأحول قال: رأيت قدح النبي ﷺ عند أنس بن مالك، وكان قد انصدع فسلسله بفضة. قال: وهو قدح جيد عريض من نضار، وقال: قال أنس: لقد سقيت رسول ﷺ في هذا القدح أكثر من كذا وكذا، قال: وقال ابن سيرين: إنه كان فيه حلقة من حديث فأراد أنس أن يجعل مكانها حلقة من ذهب أو فضة، فقال أبو طلحة: لا تغيرن شيئاً صنعه رسول الله ﷺ وتركه.

وعنده: في فرض الخمس من طريق أبي حمزة السكري عن عاصم قال: رأيت القدح وشربت منه. وأخرجه أبو نعيم من طريق علي بن الحسن بن شقيق عن أبي حمزة، ثم قال: قال علي بن الحسن وأنا رأيت القدح وشربت منه. وذكر القرطبي في مختصر البخاري أنه رأى في بعض النسخ القديمة من البخاري: قال أبو عبد الله البخاري: - رأيت هذا القدح بالبصرة وشربت فيه، وكان اشتري من ميراث النضر بن أنس بثمانمائة ألف. ووقع عند أحمد من طريق شريك عن عاصم: رأيت عند أنس قدح النبي ﷺ فيه ضبة من فضة. وقوله من نضار - بضم النون وبالضاد المعجمة - الخالص من العود ومن كل شيء ويقال: أصله من شجر النبع، وقيل: من الأثل ولونه يميل إلى الصفرة. ولم يأكل ﷺ على خوان ولا أكل خبزاً مرققاً[2]، رواه الترمذي. والخوان - بكسر المعجمة ويجوز ضمها - المائدة ما لم يكن عليها طعام. وأما السفرة: فاشتهرت لما يوضع عليه الطعام. وكان ﷺ ينهى عن النوم على الأكل، ويذكر أنه يقسي القلب، ذكره أبو نعيم، ولذا قال الأطباء - كما في الهدي - من أراد حفظ الصحة فليمش بعد العشاء ولو مائة خطوة ولا ينام عقبه فإنه يضر جداً، والصلاة بعد الأكل تسهل هضمه.

وأما شربه ﷺ فقد كان يستعذب له الماء، أي يطلب له الماء الحلو. قالت عائشة:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة باب (٣٠) رقم الحديث (٥٦٣٧) وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (٨٨). وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٣١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٨) رقم الحديث (٥٣٨٦ - ٥٤١٥ - ٦٤٥٠). وفي الترمذي كتاب الأطعمة باب (١) رقم الحديث (١٧٨٨). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٣٠. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٤٣ و ٩/ ٣٣١. وفي المغني للعراقي ٢/ ٣٨١.

كان يستعذب له الماء من بيوت السقيا[1]. رواه أبو داود. وهي ـ بضم المهملة وبالقاف ـ وهي عين بينها وبين المدينة يومان.

قال ابن بطال: واستعذاب الماء لا ينافي الزهد، ولا يدخل في الترفه المذموم، بخلاف تطييب الماء بالمسك ونحوه، فقد كرهه مالك لما فيه من السرف. وأما شرب الماء الحلو وطلبه فمباح قد فعله الصالحون. وليس في شرب الماء المالح فضيلة. وقد كان ﷺ يشرب العسل الممزوج بالماء البارد.

قال ابن القيم: وفي هذا من حفظ الصحة ما لا يهتدي إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء، فإن شرب العسل ولعقه على الريق يزيل البلغم ويغسل خمل المعدة، ويجلو لزوجتها ويدفع عنها الفضلات، ويسخنها باعتدال ويفتح سددها، والماء البارد رطب يقمع الحرارة ويحفظ البدن. وقالت عائشة: كان أحب الشراب إليه ﷺ الحلو البارد[2]. رواه الترمذي. ويحتمل أن تريد به الماء الممزوج بالعسل أو الذي نقع فيه التمر والزبيب. وكان ينبذ له أول الليل ويشربه إذا أصبح يومه ذلك، والليلة التي تجيء، والغد إلى العصر، فإن بقي شي سقاه الخادم أو أمر به فصب.[3] رواه مسلم.

وهذا النبيذ: هو ماء يطرح فيه تمر يحليه، وله نفع عظيم في زيادة القوة، ولم يكن يشربه بعد ثلاث خوفاً من تغيره إلى الإسكار. وكان ﷺ يشرب اللبن خالصاً تارة، وتارة مشوباً بالماء البارد، لأن اللبن عند الحلب يكون حاراً، وتلك البلاد في الغالب حارة، فكان يكسر حر اللبن بالماء البارد. وعن جابر أنه ﷺ دخل على رجل من الأنصار، ومعه صاحب له، فسلم فرد الرجل وهو يحول الماء في حائطه، فقال ﷺ: «إن كان عندك ماء بات في شنه وإلا كرعنا» فقال: عندي ماء بات في شن، فانطلق إلى العريش فسكب في

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأشربة باب (٢٢) رقم الحديث (٣٧٣٥). وفي طبقات ابن سعد ١/ ٣٠١. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٨٢٨٤). وفي اتحاف السادة المتقين ٤/ ٤٢٧ و ٥/ ٢٥٥. وفي أخلاق النبوة (٢٢٧ ـ ٢٢٨). وفي شرح السنة للبغوي ١١/ ٣٨٣. وفي المغني للعراقي ١/ ٢٦٢. وفي كنز العمال (١٨٢٣٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الأشربة باب (٢١) رقم الحديث (١٨٩٥). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٨ ـ ٤٠ وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٢٥٧) وفي شمائل الترمذي (١٠٤) وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٥٥. وفي أخلاق النبوة (٢٠٨ ـ ٢٢٧ ـ ٢٢٨). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٨٢). وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (١٥٨٨). وفي كنز العمال (١٨٢٢١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأشربة باب (٩) رقم الحديث (٧٩). وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ١١١. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٨٨). وفي أخلاق النبوة (٢١٠).

قدح ثم حلب عليه من لبن داجن، فشرب ﷺ[1] الحديث. رواه البخاري.

وكان ﷺ يقول: «ليس يجزىء من الطعام والشراب إلا اللبن» قال الترمذي: حديث حسن.

وللترمذي أيضاً: عن ابن عمر مرفوعاً: «ثلاثة لا ترد: اللبن والوسادة والدهن» وأنشد بعضهم.

قد كان من سيرة خير الورى صلى عليه الله طول الزمن
أن لا يرد الطيب والمتكا واللحم أيضاً يا أخي واللبن

قال ابن القيم: ولم يكن ﷺ يشرب على طعامه لئلا يفسده، ولا سيما إن كان الماء حاراً أو بارداً فإنه رديء جداً. انتهى. وكان ﷺ يشرب قاعداً وكان ذلك عادته[2]. ورواه مسلم. وفي رواية له أيضاً: أنه نهى عن الشرب قائماً[3] وفي رواية له أيضاً عن أبي هريرة: «لا يشربن أحدكم قائماً، فمن نسي فليستقىء»[4]. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: أتيت النبي ﷺ بدلو من ماء زمزم فشرب وهو قائم. وفي حديث علي عند البخاري: أنه شرب وهو قائم، ثم قال: إن أناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن النبي ﷺ صنع مثل ما صنعت[5].

وكل هذه الأحاديث صحيحة ولا إشكال فيها ولا تعارض، وغلط من زعم أن فيه نسخاً، وكيف يصار إلى النسخ مع إمكان الجمع بين الأحاديث، والصواب: أن النهي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة باب (١٤) رقم الحديث (٥٦١٣ ـ ٥٦٢١). وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٣٧٢٤). وفي ابن ماجة رقم الحديث (٣٤٣٢). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٢٨. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٧٤. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي (٢٥٥). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٧). وفي سنن الدارمي ٢/ ١٢٠.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الأشربة باب (١٢) رقم الحديث (١٨٨٣). وفي سنن النسائي ٣/ ٨٢ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٠١ و ٢/ ١٧٤ ـ ٢١٥ ـ وفي شمائل الترمذي (١٠٩) وفي شرح معاني الآثار ٤/ ٢٧٣. وفي كنز العمال (٤١٨٢٦ ـ ٤١٨٢٧).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الأشربة باب (١١) رقم الحديث (١٨٨١). وابن ماجة في كتاب الأشربة باب (٢١) رقم الحديث (٣٤٢٤). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٨٢ ـ ٢٧٧. وفي مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ١٨. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٤٣٣. وفي مسند الربيع بن حبيب ١/ ٧٤ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ١٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة باب (١٤) رقم الحديث (١١٦) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٨٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٦٧). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٢٢. وفي فتح الباري ١٠/ ١٠١ وفي كنز العمال (٤١٠٣٤).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة باب (١٦) رقم الحديث (٥٦١٥ ـ ٥٦١٦).

محمول على كراهة التنزيه، وأما شربه ﷺ قائماً فلبيان الجواز. فإن قلت: كيف يكون الشرب قائماً مكروهاً، وقد فعله ﷺ؟ فالجواب: أن فعله ﷺ إذا بياناً للجواز لا يكون مكروهاً، بل البيان واجب عليه ﷺ. وأما قوله ﷺ «فمن نسي فليستقيء» فمحمول على الاستحباب والندب، فيستحب لمن شرب قائماً أن يتقيأ لهذا الحديث الصحيح الصريح سواء كان ناسياً أو لا، قاله النووي.

وقال المالكية: لا بأس بالشرب قائماً، واستدلوا لذلك بحديث جبير بن مطعم قال: رأيت أبا بكر الصديق يشرب قائماً. ويقول مالك إنه بلغه عن عمر بن الخطاب وعثمان وعلي أنهم كانوا يشربون قياماً. وأجابوا عن حديث أبي هريرة «لا يشربن أحدكم قائماً، فمن نسي فليستقيء» بأن عبد الحق قال: في إسناده عمر بن حمزة العمري، وهو ضعيف. انتهى. وقال المازري: قال بعض شيوخنا لعل النهي ينصرف لمن أتى أصحابه بماء فبادر لشربه قائماً قبلهم استبداداً به، وخروجاً عن كون ساقي القوم آخرهم شرباً.

وقال بعض الشيوخ: الأظهر أنه موقوف على أبي هريرة: قال: والأظهر لي أن أحاديث شربه قائماً تدل على الجواز، وأحاديث النهي تحمل على الإستحباب والحث على ما هو أولى وأكمل، لأن في الشرب قائماً ضرراً ما، فكره من أجله، وفعله هو لأمنه منه، قال: وعلى هذا الثاني يحمل قوله: «فمن شرب فليستقيء» على أن ذلك يحرك خلطاً يكون القيء دواءه، ويؤيده قول النخعي: إنما نهى عن ذلك لداء البطن. انتهى. وقال ابن القيم: للشرب قائماً آفات عديدة منها: أنه لا يحصل به الري التام، ولا يستقر في المعدة حتى يقسمه الكبد على الأعضاء وينزل بسرعة إلى المعدة فيخشى منه أن تبرد حرارتها، ويسرع النفوذ إلى أسافل البدن بغير تد يج، وكل هذا يضر بالشارب قائماً، فإذا فعله نادراً لم يضره.

وعند أحمد عن أبي هريرة أنه رأى رجلاً يشرب قائماً، فقال له قئه، فقال لم؟ قال: أيسرك أن يشرب معك الهر قال: لا، قال: قد شرب معك من هو شر منه: الشيطان. وكان ﷺ يتنفس في الشراب ثلاثاً ويقول: «إنه أروى وأمرأ وأبرأ»[1] رواه مسلم. ومعنى تنفسه: إبانة القدح عن فيه، وتنفسه خارجه، ثم يعود إلى الشرب. وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ كان يشرب في ثلاثة أنفاس: إذا أدنى الإناء إلى فيه سمى الله، فإذا أخره حمد الله، يفعل ذلك ثلاثاً.

وفي هذا الشرب حكم جمة وفوائد مهمة، نبه ﷺ على مجامعها بقوله «إنه أروى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة رقم الحديث (١٢٣).

وأمرأ وأبرأ» فأروى: من الري ـ بكسر الراء من غير همز ـ أشد رياً وأبلغه وأنفعه. وأبرأ، أفعل من البرء ـ بالهمز ـ وهو الشفاء، أي يبرىء من شدة العطش ودائه لتردده على المعدة الملتهبة دفعات، تسكن الدفعة الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه، والثالثة ما عجزت عنه الثانية. وأيضاً: فإنه أسلم لحراراة المعدة، وأبقى عليها من أن يهجم عليها البارد وهلة واحدة ونهلة واحدة، فإنه أسلم عاقبة وآمن غائلة من تناول جميع ما يروى دفعة واحدة، فإنه يخاف منه أن يطفىء الحرارة الغريزية لشدة برده وكثرة كميته، أو يضعفها فيؤدي لك إلى فساد المعدة والكبد، وإلى أمراض رديئة، خصوصاً في سكان البلاد الحارة، ،بي الأزمنة الحارة، فإن الشرب فيهما وهلة واحدة مخوف عليهم جداً.

وقوله: ،مرأ: بالهمز، أفعل من مرؤ الطعام والشراب في بدنه إذا داخله وخالطه بسهولة ولذة ونفع. انتهى. وقال بعضهم: والمعنى أنه يصير هنيئاً مريئاً. أي: سالماً أو مبرئاً من مرض أو عطش أو أذى. ويؤخذ من ذلك: أنه أقمع للعطش وأقوى على الهضم. ومن آفات الشرب نهلة واحدة، أنه يخاف منه الشرق، بأن ينسد مجرى الشراب لكثرة الوارد عليه، فإذا تنفس رويداً ثم شرب أمن من ذلك. وقد روى عبد الله بن المبارك والبيهقي وغيرهما عن النبي ﷺ: إذا شرب أحدكم فليمص الماء مصاً، ولا يعب عباً فـ يورث الكباد. والكباد: ـ بضم الكاف وتخفيف الباء ـ وجع الكبد.

ولا معارضة بين التنفس هنا وبين النهي عن التنفس في الإناء الوارد في الحديث لأن المنهي عنه التنفس داخل الإناء، فإنه ربما حصل للماء تغير من النفس، إما لكو المتنفس كان متغير الفم لمأكول مثلاً، أو لبعد عهده بالسواك والمضمضة، أو لأن النفس يصعد ببخار المعدة، وهاهنا التنفس خارج الإناء فلا تعارض، فلو لم يتنفس جاز الشرب بنفس واحد، وقيل يمنع مطلقاً لأنه شرب الشيطان.

وكان ﷺ إذا دعي لطعام وتبعه أحد أعلم به رب المنزل، فيقول: «إن هذا تبعنا فإن شئت رجع»[1]. وكان يكرر على أضيافه ويعرض عليهم الأكل مراراً، وفي حديث أبي هريرة في قصة شرب اللبن، وقوله مراراً: «اشرب» فما زال يقول: اشرب حتى قال: والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكاً[2]. رواه البخاري. وكان ﷺ إذا أكل مع قوم كان آخرهم أكلاً. رواه البيهقي في الشعب عن جعفر بن محمد عن أبيه مرسلاً. وفي حديث ابن عمرو مرفوعاً عند ابن ماجه والبيهقي: «إذا وضعت المائدة فلا يقوم الرجل وإن شبع

---

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٧/ ١٩٦ ـ ١٩٨ ـ ١٩٩. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٦٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ٥ ـ ٤٥٥. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٤٦ و ٧/ ٨٣ و ٨/ ٦٩٤. وفي دلائل النبوة لابي نعيم (١٥١). وفي كنز العمال (٣٠٢٤٢).

حتى يفرغ القوم، فإن ذلك يخجل جليسه وعسى أن يكون له في الطعام حاجة[3].

وكان ﷺ إذا أكل عند قوم لم يخرج حتى يدعو لهم. فدعا في منزل عبد الله بن بسر فقال: «اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم»[2] رواه مسلم، ودعا في منزل سعد فقال: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة»[3] رواه أبو داود، وسقاه آخر لبناً فقال: «اللهم أمتعه بشبابه»[4] فمرت عليه ثمانون سنة لم ير شعرة بيضاء، رواه ابن السني.

## النوع الثاني

## في لباسه ﷺ وفراشه[5]

قال البخاري: باب ما كان النبي ﷺ يتجوز من اللباس[6]. يعني يتوسع فلا يضيق بالاقتصار على صنف بعينه، أو لا يضيق بطلب النفيس الغالي، بل يستعمل ما تيسر.

وقال القاضي عياض: كان ﷺ قد اقتصر منه على ما تدعوه ضرورته إليه، وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجده، فيلبس - في غالب أحواله - الشملة والكساء الخشن والأردية والأزر، ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضر. إذ المباهاة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة، وهي من سمات النساء، والمحمود منها نقاوة الثوب، والتوسط في جنسه، وكونه لبس مثله، غير مسقط لمروءة جنسه. انتهى.

---

(١) ذكره الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٢٥ و ١ ٢.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأشربة باب (٢٠) رقم الحديث (٣٧٢٩). وفي صحيح مسلم رقم الحديث (١٦١٦) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/١٨٨ - ١٩٠. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٧٣ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٤٢٧). وفي كنز العمال (٢٤٢٧).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة باب (٥٤) رقم الحديث (٣٨٥٤). وابن ماجة في كتاب الصيام باب (٤٥) رقم الحديث (١٧٤٧). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/١١٨. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/٢٣٩ - ٢٤٠ وفي المطالب العالية لابن حجر (٣١٤٥) وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٢٥ - ٢٤٠. وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٣٥٣) وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/٧٢. وفي نصب الراية للزيلعي ٢/ ٤٨٠. وفي كنز العمال (٢٥٩٨٨ - ٢٥٩٨٩).

(٤) ذكره ابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٦٩). والنووي في الأذكار (٢١٣). وفي مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٤٩٤.

(٥) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٤٧ - ٣٥٩.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٣١) رقم الحديث (٥٨٤٣ - ٥٨٤٤).

وقد روى أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر مرفوعاً: «أن من كرامة المؤمن على الله عز وجل نقاء ثوبه ورضاه باليسير»(1).

وله أيضاً من حديث جابر: أن النبي ﷺ رأى رجلاً وسخة ثيابه فقال: «أما وجد هذا شيئاً ينقي به ثيابه؟»(2).

فقد كانت سيرته ﷺ في ملبسه أتم وأنفع للبدن وأخفه عليه، فإنه لم تكن عمامته بالكبيرة التي يؤذي حملها ويضعفه ويجعله عرضة للآفات، كما يشاهد من حال أصحابها، ولا بالصغيرة التي تقصر عن وقاية الرأس من الحر والبرد، بل وسطاً بين ذلك، وكان يدخلها تحت حنكه، فإنها تقي العنق من الحر والبرد، وهو أثبت لها عند ركوب الخيل والإبل، والكر والفر، وكذلك الأردية والأزر أخف على البدن من غيرها.

وقد أطنب ابن الحاج في المدخل في الاستدلال لاستحباب التحنيك، ثم قال: وإذا كانت العمامة من باب المباح فلا بد فيها من فعل سنن تتعلق بها، من تناولها باليمين والتسمية والذكر الوارد، إن كانت مما لبس جديداً، وامتثال السنة في صفة التعميم، من فعل التحنيك والعذبة. وتصغير العمامة يعني سبعة أذرع أو نحوها، يخرجون منها التحنيك والعذبة، فإن زاد في العمامة قليلاً لأجل حر أو برد فيسامح فيه. ثم قال بعد أن ذكر قوله: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧]، فعليك بأن تتسرول قاعداً وتتعمم قائماً. انتهى.

ولم يكن ﷺ يطول أكمامه ويوسعها، بل كان كم قميصه إلى الرسغ، وهو منتهى الكف عند المفصل، لا يجاوز اليد فيشق على لابسه ويمنعه سرعة الحركة والبطش، ولا يقصره ﷺ عن هذا فتبرز للحر والبرد، وقد روي عن أسماء بنت يزيد قالت: كان كم قميص رسول الله ﷺ إلى الرسغ. رواه الترمذي.

وكان ذيل قميصه وردائه إلى أنصاف الساقين، لم يتجاوز الكعبين، فيؤذي الماشي ويجعله كالمقيد، ولم يقصر عن عضلة ساقيه، فيتأذى بالحر والبرد. أشار إليه في زاد المعاد.

وأخرج الترمذي عن الأشعث بن سليم قال: سمعت عمتي تحدث عن عمها قال: بينا أنا أمشي بالمدينة إذا إنسان خلفي يقول: «ارفع إزارك فإنه أتقى وأنقى»، فإذا هو

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢.

(2) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٤١ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٢٧٧) وفي حلية الأولياء ٣/ ١٥٦ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ١/ ٣٠٦.

رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إنما هي بردة قال: «أما لك في أسوة؟» فنظرت فإذا إزاره إلى نصف ساقيه[1].

وأخرج الطبراني من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن ابن عمر قال: رآني النبي ﷺ أسبلت إزاري، فقال: «يا ابن عمر، كل شيء لمس الأرض من الثياب فهو في النار»[2]. وفي البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما أسفل من الكعبين من الإزار في النار»[3].

قال الخطابي: يريد أن الموضع الذي يناله الإزار من أسفل الكعبين في النار، فكنى بالثوب عن بدن لابسه، ومعناه: أن الذي دون الكعبين من القدم يعذب بالنار عقوبة. وحاصله أنه من باب تسمية الشيء باسم ما جاوره أو حل فيه، وتكون «من» بيانية.

وللطبراني من حديث عبد الله بن مغفل، رفعه: (إزرة المؤمن إلى أنصاف الساقين وليس عليه حرج فيما بينه وبين الكعبين، وما أسفل من ذلك ففي النار)[4] والإزرة: ـ بالكسر ـ الحالة وهيئة الائتزار مثل الركبة والجلسة.

واعلم طهر الله ثوبي وثوبك، ونزه سري وسرك ـ أن هذا الإطلاق محمول على ما ورد من قيد الخيلاء، فهو الذي ورد فيه الوعيد بالاتفاق. وقد أخرج أصحاب السنن إلا الترمذي ـ واستغربه ـ وابن أبي شيبة من طريق عبد العزيز بن أبي رواد عن سالم بن عبد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٣٦٤. وفي شمائل الترمذي (٥٨) وفي البداية والنهاية ٦/ ٤٧ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٩/ ٢٨١ وفي فتح الباري ١٠/ ٣٢٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٩٨. وفي فتح الباري ١٠/ ٣١٦. وفي كنز العمال (٤١١٩٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٤) رقم الحديث (٥٧٨٧). وفي سنن النسائي ٨/ ٢٠٧. وفي ابن ماجة كتاب اللباس باب (٧) رقم الحديث (٣٥٧٣). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤٦١ و ٥/ ٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٢٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣١٤). وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٨٨. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/ ١٢٢٧. وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ١٢. وفي كنز العمال (٤١١٥٨).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٢٧) رقم الحديث (٤٠٩٣). وابن ماجه في كتاب اللباس باب (٧) رقم الحديث (٣٥٧٣). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٦ ـ ٩٧. وفي الموطأ للإمام مالك في كتاب اللباس باب (٥) رقم الحديث (١٢). وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٧٣٧). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢٤٤. وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٨٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٣٤١. وفي اتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٥٩. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٣٠). وفي التاريخ الكبير للبخاري ٥/ ٣٦٦ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٦٣٨. وفي التمهيد لابن عبد البر ٣/ ٢٤٥. وفي كنز العمال (٤١٠٩٨ ـ ٤١١٢٤).

الله بن عمر عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «الإسبال في الإزار والقميص والعمامة، من جر شيئاً منها خيلاء»[1] الحديث، فبين في هذه الرواية أن الحكم ليس خاصاً بالإزار، وإن جاء في أكثر طرق الأحاديث بلفظ الإزار. قال الطبري: إنما ورد الخبر بلفظ الإزار، لأن أكثر الناس في عهده كانوا يلبسون الأزر والأردية، فلما لبس الناس القمص والدراريع كان حكمها حكم الإزار في النهي.

قال ابن بطال: هذا قياس صحيح لو لم يأت النص بالثوب فإنه يشمل جميع ذلك، وفي تصوير جر العمامة نظر إلا أن يكون المراد ما جرت به عادة العرب من إرخاء العذبات،فمهما زاد على العادة في ذلك كان من الإسبال . وهل يدخل في الزجر عن جر الثوب تطويل أكمام القميص ونحوه؟ محل نظر. والذي يظهر أن من أطالها حتى خرج عن العادة كما يفعله بعض الحجازيين دخل في ذلك. قال ابن القيم: وأما هذه الأكمام الواسعة الطوال، التي هي كالأخراج، وعمائم كالأبراج، فلم يلبسها ﷺ هو ولا أحد من أصحابه، وهي مخالفة لسنته، وفي جوازها نظر، فإنها من جنس الخيلاء، انتهى. وقال صاحب «المدخل»: ولا يخفى على ذي بصيرة أن كم بعض من ينسب إلى العلم اليوم فيه إضاعة المال المنهي عنها، لأنه قد يفضل من ذلك الكم ثوب لغيره. انتهى. لكن حدث للناس اصطلاح بتطويلها، وصار لكل نوع من الناس شعار يعرفون به، ومهما كان من ذلك على سبيل الخيلاء فلا شك في تحريمه، وما كان على طريق العادة، فلا تحريم فيه ما لم يصل إلى جر الذيل الممنوع منه. ونقل القاضي عياض عن العلماء كراهة كل ما زاد على العادة وعلى المعتاد في اللباس من الطول والسعة.

وفي حديث أبي هريرة عند البخاري مرفوعاً (بينما رجل يمشي تعجبه [نفسه] مرجل جمته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة)[2]. وفي الطبراني وأبي

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٢٧) رقم الحديث (٤٠٩٤). وابن ماجه رقم الحديث (٣٥٧٦). وفي سنن النسائي ٢٠٨/٨. وفي المعجم الكبير للطبراني ٣١١/١٢. وفي شرح السنة للبغوي ٩/١٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٣٢). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٣٤٧/٨ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٨٩/٣. وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (١٤٥٤). وفي فتح الباري ٣٢٢/١٠. وفي كنز العمال (٤١١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٥) رقم الحديث (٥٧٨٩). وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٤٩). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤٥٦/٢ ـ ٤٧٦. وفي التاريخ الكبير للبخاري ٢١٢/١ ـ ٤١٣. وفي اتحاف السادة المتقين ٣٤٦/٨. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٥٦٨/٣.

داود (إن رجلاً ممن كان قبلكم لبس بردة فتبختر فيها، فنظر الله إليه فمقته، فأمر الأرض فأخذته)[1].

وهذا الوعيد المذكور يتناول الرجال والنساء على هذا الفعل المخصوص، وقد فهمت ذلك أم سلمة رضي الله عنها، فأخرج النسائي والترمذي ـ وصححه ـ من طريق أيوب عن نافع عن ابن عمر: فقالت أم سلمة فكيف تصنع النساء بذيولهن فقال: يرخين شبراً فقالت: إذاً تنكشف أقدامهن، قال: فيرخينه ذراعاً لا يزدن عليه. وحاصل ما ذكر في ذلك: أن للرجال حالين، حال استحباب: وهو أن يقتصر بالإزار على نصف الساق، وحال جواز: وهو إلى الكعبين، وكذلك للنساء حالان: حال استحباب وهو ما يزيد على ما هو جائز للرجال بقدر الشبر، وحال جواز بقدر ذارع، وأن الإسبال يكون في الإزار والقميص والعمامة، وأنه لا يجوز إسباله تحت الكعبين إن كان للخيلاء، وإن كان لغيرها فهو مكروه للتنزيه. قال النووي: وظواهر الأحاديث في تقييدها بالخيلاء يدل على أن التحريم مخصوص بالخيلاء، قال: وهذا نص الشافعي على الفرق كما ذكرنا انتهى.

تنبيه: قال العراقي في شرح الترمذي: الذراع الذي رخص للنساء فيه، هل ابتداؤه من الحد الممنوع منه الرجال، وهو من الكعبين، أو من الحد المستحب وهو أنصاف الساقين، أو حده من أول ما يمس الأرض؟ الظاهر أن المراد الثالث: بدليل حديث أم سلمة الذي رواه أبو داود والنسائي ـ واللفظ له ـ وابن ماجه، قالت: سئل رسول الله ﷺ كم تجر المرأة من ذيلها؟ قال «شبراً» قالت: إذاً ينكشف عنها، قال: «فذراع لا تزيد عليه»[2] فظاهره: أن لها أن تجر على الأرض منه ذراعاً. قال: والظاهر أن المراد بالذراع ذراع اليد وهو شبران، لما في سنن ابن ماجه عن ابن عمر قال: رخص رسول الله ﷺ لأمهات المؤمنين شبراً، ثم استزدنه فزادهن شبراً. فدل على أن الذراع المأذون فيه شبران وهو الذراع الذي يقاس به الحصر اليوم. انتهى. وإنما جاز ذلك للنساء لأجل الستر لأن المرأة كلها عورة إلا ما استثني

وقد كان له ﷺ عمامة تسمى السحاب، ويلبس تحتها القلانس اللاطئة. والقلانس:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب اللباس رقم الحديث (٥٠) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤١٢. وفي اتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٤٦.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٣٧) رقم الحديث (٤١١٧). والترمذي رقم الحديث (١٧٣١) وابن ماجه رقم الحديث (٣٥٨٠). وفي سنن النسائي ٨/ ٢٠٩. وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٥ ٦/ ١٢٣ ـ ٣٠٩. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢٣٣، وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٢٦. وفي مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٢٢٠ وفي تاريخ أصفهان ١/ ١٣٠.

جمع قلنسوة ـ بفتح القـاف، وسكون النون وضم المهملة وفتح الواو، وقد تبدل ياء تحتية، وقد تبدل ألفاً وتفتح السين، يقال: قلنساة، وقد تحذف النون من هذه بعدها هاء تأنيث ـ غشاء مبطن يستر به الرأس، قاله الفراء[1] في شرح «الفصيح». وقال ابن هشام: هي التي يقول لها العامة الشاشية، وفي «المحكم»: هي ملابس الرؤوس، معروفة، وقال أبو هلال العسكري: هي التي تغطى بها العمائم وتستر من الشمس والمطر، كأنها عنده رأس البرنس. انتهى.

وروى الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: (دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء)[2]، وفي رواية لأنس عند البخاري (دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر)[3] وهو بكسر الميم وسكون الغين المعجمة وفتح الفاء، زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس. ويجمع بينهما: بأن العمامة السوداء كانت فوق المغفر.

وجمع بينهما القاضي عياض: بأن أول دخوله كان على رأسه المغفر، ثم بعد ذلك كان على رأسه العمامة بعد إزالة المغفر، بدليل قوله في حديث عمرو بن حريث عن أبيه (خطب الناس وعليه عمامة سوداء) لأن الخطبة إنما كانت عند باب الكعبة بعد تمام فتح مكة. قال الولي بن العراقي: وهو أولى وأظهر في الجمع من الأول. وقد تقدم نحو ذلك في غزوة فتح مكة.

وعن ابن عمر قال: (كان النبي ﷺ إذا اعتم سدل) رواه الترمذي في الشمائل، زاد

---

(١) هو يحيىٰ بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي مولى بني أسد أبو زكرياء المعروف بالفراء (١٤٤ ـ ٢٠٧ هـ). عالم بالنحو واللغة متكلم توفي في طريق مكة. الأعلام ٨/ ١٤٥. وفيات الأعيان ٢/ ٢٢٨ معجم الأدباء ٥/ ٦١٩ رقم الترجمة (١٠٢٩) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٧٢ رقم الترجمة (٣٦٨). تاريخ بغداد ٤١/ ١٤٩ مرآة الجنان ٢/ ٣٨ مفتاح السعادة ٥/ ٢٢٥. الفهرست لابن النديم (٦٦ ـ ٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (١١) رقم الحديث (١٧٣٥). وأبو داود في كتاب اللباس باب (٢١) رقم الحديث (٤٠٧٦). وابن ماجة في كتاب اللباس باب (١٤) رقم الحديث (٣٥٨٥ ـ ٣٥٨٦). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٦٣ و ٤/ ٣٠٧. وفي سنن الدارمي كتاب المناسك رقم الحديث (٨٨). وفي سنن النسائي ٨/ ٢١١. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٦٧. وفي مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٢٣٤ ـ ٢٣٧. وفي اتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٥٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (١٧) رقم الحديث (٥٨٠٨). وفي شرح السنة للبغوي ١٠/ ٣٩٩.

مسلم (وقد أرخى طرفها بين كتفيه)[1]. وقد روى أبو محمد بن حيان[2] في كتاب «أخلاق النبي ﷺ» من حديث ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتم قال: يدير كور العمامة على رأسه ويغرسها من ورائه ويرخي لها ذؤابة بين كتفيه. وروى مسلم من حديث عمرو ابن حريث قال: (رأيت النبي ﷺ على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه) وعنده أيضاً عن جابر قال: (دخل مكة وعليه عمامة سوداء) ولم يذكر فيه ذؤابة، فدل على أنه لم يكن يرخيها دائماً بين كتفيه. لكن قد يقال: إن دخوله مكة كان وعليه أهبة القتال والمغفر على رأسه، فلبس في كل موطن ما يناسبه.

وقال ابن القيم في الهدي النبوي: وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر في سبب الذؤابة شيئاً بديعاً: وهو أن النبي ﷺ إنما اتخذها صبيحة المنام الذي رآه بالمدينة لما رأى رب العزة فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري، فوضع يده بين كتفي فعلمت ما بين السماء والأرض . الحديث وهو في الترمذي ، وسئل عنه البخاري فقال: صحيح. قال: فمن تلك الغداة أرخى الذؤابة بين كتفيه. قال: وهذا من العلم الذي تنكره ألسنة الجهال وقلوبهم، قال: ولم أر هذه الفائدة في شأن الذؤابة لغيره. انتهى.

وعبارة غير الهدي: وذكر ابن تيمية أنه ﷺ لما رأى ربه واضعاً يده بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعذبة. انتهى لكن قال العراقي بعد أن ذكره: لم نجد لذلك أصلاً. انتهى. وروى ابن أبي شيبة عن علي قال: عممني رسول الله ﷺ بعمامة سدل طرفها على منكبي وقال: «إن الله أمدني يوم بدر ويوم حنين بملائكة معممين هذه العمة» وقال: «إن العمامة حاجز بين المسلمين وبين المشركين»[3].

قال عبد الحق الإشبيلي:[4] وسنة العمامة ـ بعد فعلها ـ أن يرخي طرفها ويتحنك

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (١٢) رقم الحديث (١٧٣٦). وفي صحيح مسلم كتاب الحج رقم الحديث (٤٥٤) وفي سنن النسائي ٨/ ١٠٩. وابن ماجه في كتاب الجهاد باب (٢٢) رقم الحديث (٢٨٢١). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٤٨ ـ ١٥٢. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٤٦٩. وفي شمائل الترمذي (٥٦). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٢٠. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٣٨). وفي أخلاق النبوة (١١٧) وفي كنز العمال (١٨٢٦٩).

(٢) هو عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان الأصبهاني. أبو محمد يقال له أبو الشيخ. (٢٧٤ ـ ٣٦٩ هـ) حافظ محدث مفسر. مؤرخ. الأعلام ٤/ ١٢٠. تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٤٥ رقم الترجمة (٨٩٦). شذرات الذهب ٣/ ٦٨. كشف الظنون (١٤٠٦ ـ ١٤٠٧ ـ ١٤٣٩). اللباب ١/ ٢٣١. النجوم الزاهرة ٤/ ١٣٦.

(٣) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٤. وفي المطالب العالية لابن حجر (٢١٥٨).

(٤) هو عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي أبو محمد المعروف بابن الخراط. =

به، فإن كانت بغير طرف ولا تحنيك فذلك يكره عند العلماء، واختلف في وجه الكراهة، فقيل لمخالفة السنة فيها، وقيل: لأنها كذلك عمائم الشياطين. وجاءت الأحاديث في إرسال طرفها على أنواع: منها ما تقدم أنه أرسل طرفها على منكب علي، ومنها: أن عبد الرحمن بن عوف قال: عممني رسول الله ﷺ فسدلها بين يدي ومن خلفي[1]. ذكره أبو داود. وعن ابن عباس أنه رأى النبي ﷺ وعليه عمامة دسماء أي سوداء . رواه الترمذي.

وفي حديث ركانة أنه ﷺ قال: «إن فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس»[2]. رواه الترمذي أيضاً. وعن أبي كبشة الأنماري قال: كانت كمام أصحاب النبي ﷺ بطحاً. رواه الترمذي أيضاً. وفي رواية أكمة، وهما جمع كثرة وقلة، الكمة: القلنسوة، يعني أنها كانت منبطحة غير منتصبة. وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كانت له كمة بيضاء، رواه الدمياطي. وكان أحب الثياب إليه ﷺ القميص، كما في الشمائل للترمذي، من حديث أم سلمة قالت: (كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص). وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ في رهط من مزينة لنبايعه وإن قميصه لمطلق الأزرار ـ أو قال: زر قميصه مطلق ـ قال: فأدخلت يدي في جيب قميصه فمسست الخاتم[3]. رواه الترمذي.

وعن أنس قال: كان قميص رسول الله ﷺ قطناً قصير الطول والكمين، رواه الدمياطي. وعن أنس بن مالك قال: كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ يلبسه الحبرة[4].

---

= (٥١٠ ـ ٥٨١ هـ). حافظ. الأعلام ٣/ ٢٨١. شذرات الذهب ٤/ ٢٧١. تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٥٠ رقم الترجمة (١١٠٠). فوات الوفيات ٢/ ٢٥٦ رقم الترجمة (٢٤٤). العبر ٤/ ٢٤٣. مرآة الجنان ٣/ ٤٢٢. الديباج (١٧٥).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٢١) رقم الحديث (٤٠٧٩). وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٢٠. وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٥/ ١٨٢٠. قال العراقي: يحتمل أن المراد أرخن طرفها الواحد من خلفه والآخر من بين يديه.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (٤٢) رقم الحديث (١٧٨٤). وفي كنز العمال (٤١١٤٢). قال أبو عيسىٰ: هذا حديث حسن غريب وإسناده ليس بالقائم، ولا نعرف أبا الحسن العسقلاني ولا ابن ركانة.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب اللباس باب (١١) رقم الحديث (٣٥٧٨) وأبو داود في كتاب اللباس باب (٢٣) رقم الحديث (٤٠٨٢). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٣٤ و ٤/ ١٩.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (١٨) رقم الحديث (٥٨١٢ ـ ٥٨١٣). وفي الترمذي كتاب اللباس باب (٤٥) رقم الحديث (١٧٨٧). وأبو داود في كتاب اللباس باب (٣) رقم الحديث (٤٠٢٥). وفي سنن النسائي ٨/ ٢٠٣. وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٩١. وفي شمائل=

رواه الترمذي. والحبرة: ضرب من البرود فيه حمرة. وعن أبي رمثة قال: رأيت رسول الله ﷺ وعليه بردان أخضران رواه الترمذي. وعن عطاء عن أبي يعلى عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالبيت مضطبعاً ببرد أخضر[1]. رواه أبو داود. وعن عروة بن المغيرة بن شعبة عن أبيه أن النبي ﷺ لبس جبة رومية ضيقة الكمين[2]. رواه الترمذي. وعن أبي ذر: أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض[3]. رواه البخاري. وعن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط شعر أسود[4]. رواه الترمذي. وعن أنس قال كان رسول الله ﷺ يلبس الصوف، وكان له ﷺ كساء ملبد يلبسه ويقول: «إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد» رواه الشيخان.

فإن قلت قد علم من هذا، ومن سيرة السلف الصالح، بذاذة الهيئة ورثاثة الملابس، فما بال الشاذلية من الصوفية يجملون هيآتهم وملابسهم، وطريقهم الاقتداء بالسنة الشريفة والسلف الصالح.

أجاب العارف الرباني على الوفائي، أذاقنا الله حلاوة مشربه، ومن خطه الكريم نقلت بما لفظه: ذلك لأنهم نظروا إلى المعاني والحكم. فوجدوا السلف الصالح لما وجدوا أهل الغفلة والشغل لدنياهم منهمكين على الزينة الظاهرة، تفاخراً بدنياهم واطمئناناً إليها وإشعاراً بأنهم من أهلها، خالفوهم إظهاراً لحقارة ما حقره الحق مما عظمه الغافلون بالغنى عما اطمأن إليه الغافلون، فكأن أطمارهم يومئذٍ تقول الحمد لله الذي أغنانا به عما أفقر نفسه إليه من همه دنياه. فلما طال الأمد وقست القلوب بنسيان ذلك المعنى، واتخذ الغافلون رثاثة الأطمار وبذاذة الهيئة حيلة على جلب دنياهم انعكس الأمر، فصار مخالفة هؤلاء في ذلك لله هو قول السلف وطريقتهم كما تقدم. قال وقد

---

= الترمذي (٣٦). وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٢٦. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٢٨) وفي المغني للعراقي ٢/ ٢٥٧. وفي كنز العمال (١٨٢٦٤).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك باب (٤٩) رقم الحديث (١٨٨٣) والترمذي في كتاب الحج باب (٣٦) رقم الحديث (٨٥٩) وابن ماجه كتاب المناسك باب (٣٠) رقم الحديث (٢٩٥٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (٣٠) رقم الحديث (١٧٦٨) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٠٥).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٥٨٢٧) وفي صحيح مسلم كتاب الايمان رقم الحديث (١٥٤) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٦٦.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الأدب باب (٤٩) رقم الحديث (٢٨١٣) وفي سنن أبي داود كتاب اللباس باب (٥) رقم الحديث (٤٠٣٢) وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٣٦ ـ ٦١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٦٢ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ١٨٨ وفي الضعفاء للعقيلي ٤/ ١٩٧.

أرشد الأستاذ أبو الحسن الشاذلي[1]. قدس الله سره العزيز، إلى ذلك بقوله لبعض من أنكر عليه جمال هيئته من أصحاب الرثاثة: يا هذا هيئتي هذه تقول: الحمد لله، وهيئتك هذه تقول: أعطوني شيئاً من دنياكم. والقوم أفعالهم دائرة مع الحكمة الربانية مرادهم مرضاة ربهم. انتهى ما قاله سيدي علي وفا.

وقد ورد في الحديث الصحيح عنه ﷺ، «إن الله جميل يحب الجمال»[2] وفي الحديث الآخر «إن الله نظيف يحب النظافة»[3] وفي السنن عن أبي الأحوص الجشمي عن أبيه قال: رآني النبي ﷺ وعلي أطمار ـ وفي رواية النسائي: وعلي ثوب دون ـ فقال: «هل لك من مال؟» قلت: نعم، قال: «من أي المال؟» قلت: من كل ما آتى الله من الإبل والشاء، قال: «فكثر نعمته وكرامته عليك»[4]، وفي رواية النسائي قال: «فإذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته» وفي حديث جابر أنه ﷺ رأى رجلاً شعثاً قد تفرق شعره فقال: «ما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه»[5]، ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة

---

(١) هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف ابن هرمز الشاذلي المغربي. أبو الحسن (٥٩١ ـ ٦٥٦ هـ). رأس الطائفة الشاذلية صوفي توفي في صحراء عيذاب في طريقه إلى الحج. الأعلام ٤/ ٣٠٥. الوافي بالوفيات ١٢/ ٩٢. كشف الظنون (٤٠٤ ـ ٦٦١) وهدية العارفين ١/ ٧٠٩ ـ ٧١٠ وطبقات الشعراني ٢/ ٤. التاج ٧/ ٣٨٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ١٣٣ ـ ١٣٤. وفي صحيح مسلم كتاب الايمان رقم الحديث (١٤٧). وفي المستدرك للحاكم ١/ ٢٦ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٦٠. وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٢٤٠ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢/ ٢١٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥١٠٨). وفي المطالب العاليه لابن حجر (٢١٧٠) وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٧٩. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٧٧٧). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ٤٩٨ وفي المغني للعراقي ٤/ ٢٩٠. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ١٩٨ وفي كنز العمال (١٧١٦٥ ـ ١٧١٨٨ ـ ١٧١٩١).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الأدب باب (٤١) رقم الحديث (٢٧٩٩) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٤١. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٢/ ٣١١ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٢٢٤. وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري (١٥٤). وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (٦٠) وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٦٢.

(٤) أخرجه النسائي ٨/ ١٩٦ وفي الترمذي كتاب البر والصلة باب (٦٣) رقم الحديث (٢٠٠٦) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٣٧ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٢٥. وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٣١. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٠ وفي الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٣٣٧. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٣٢ وفي التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ٦٠. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٣١ وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٤٧ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٤/ ١٥٣ وفي تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٦ وفي تفسير القرطبي ٥/ ١٨٩.

(٥) ذكره البغوي في شرح السنة ١٢/ ٥٠.

فقال: «ما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه» رواه أحمد. وفي السنن: «إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[1].

فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه، وهو جمال باطن، فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة والجمال الباطن بالشكر عليها، ولأجل محبته تعالى للجمال أنزل على عباده لباساً يجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم فقال تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾ [الأعراف: ٢٦]. وقال في أهل الجنة: ﴿ولقاهم نضرة وسروراً، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً﴾ [الإنسان: ١١ و ١٢].

وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والهيئة، فيبغض القبيح وأهله ويحب الجمال وأهله. ولكن ضل في هذا الموضع فريقان:

فريق قالوا: كل ما خلق الله تعالى جميل، فهو يحب كل ما خلقه، ونحن نحب جميع ما خلقه فلا نبغض منه شيئاً، قالوا: ومن رأى الكائنات منه رآها كلها جميلة، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ [السجدة: ٧]. وهؤلاء قد عدموا الغيرة لله من قلوبهم، والبغض في الله، والمعاداة فيه، وإنكار المنكر وإقامة الحدود.

والفريق الثاني، قالوا: قد ذم الله جمال الصور، وتمام القامة والخلقة، فقال عن المنافقين: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ [المنافقون: ٤]. وفي صحيح مسلم مرفوعاً «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[2]، قالوا: وقد حرم الله علينا لباس الحرير والذهب، وآنية الذهب والفضة، وذلك من أعظم جمال

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الأدب باب (٥٤) رقم الحديث (٢٨١٩) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢١٣. وفي المستدرك للحاكم ٤/ ١٣٥. وفي جمع الجوامع للسيوطي (١٨٩٩) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٥) وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٣١١ وفي الدر المنثور ٣/ ٧٩. وفي التمهيد لابن عبد البر ٣/ ٢٥٤ وفي التاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٤٢٧. وفي المغني للعراقي ٣/ ٣٤٦. وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٤٩. وفي كنز العمال (١٧١٧٤ ـ ١٧١٩٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب (٩) رقم الحديث (٤١٤٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٨٥ وفي صحيح مسلم صفحة (١٩٨٧) وفي جمع الجوامع للسيوطي (٥١٤٣ ـ ٥١٤٥) وفي اتحاف السادة المتقين ١/ ١٥٦ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٣٨ و ٦/ ٢٣١. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٣١٤) وفي حلية الأولياء لابي نعيم ٤/ ٩٨. وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٣٤١ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٥/ ٣٣٠. وفي علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي (٨٩٥) وفي تفسير القرطبي ١٦/ ٣٢٦ ـ ٣٤٢.

الدنيا. وقال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾ [طه: ١٣١]. وفي الحديث «البذاذة من الإيمان»[1] وقد ذم الله المسرفين، والسرف كما يكون في الطعام والشراب يكون في اللباس.

وفصل النزاع أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع: منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم.

فالمحمود منه، ما كان لله وأعان على طاعة الله، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، كما كان النبي ﷺ يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه.

والمذموم منه: ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء، وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه، فإن كثيراً من الناس ليس له همة في سوى ذلك.

وأما ما لا يحمد ولا يذم فهو ما خلا عن هذين القصدين، وتجرد عن الوصفين. والمقصود من هذا الحديث أن الله تعالى يحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والشعور المكروهة، والختان وتقليم الأظافر وغير ذلك مما وردت به السنة، والله أعلم.

وعن جابر بن سمرة قال: رأيت النبي ﷺ في ليلة مقمرة أضحيان، فجعلت أنظر إليه ﷺ وإلى القمر، وعليه حلة حمراء، فإذا هو أحسن عندي من القمر[2]. رواه الدارمي والترمذي. وعن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: رأيت النبي ﷺ وعليه حلة حمراء كأنني أنظر إلى بريق ساقيه. قال سفيان: أراه حبرة. وعن البراء بن عازب قال: ما رأيت أحداً من الناس أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ. رواهما الترمذي.

وفي البخاري ومسلم: رأيته في حلة حمراء لم أر شيئاً قط أحسن منه. وفي رواية لأبي داود ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ[3]. وقوله: من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب (٥) رقم الحديث (٤١١٨) وفي المستدرك للحاكم ٩/١. وفي المعجم الكبير للطبراني ٢٤٦/١ وفي جمع الجوامع للسيوطي (١٠٢٨٦) وفي التمهيد لابن عبد البر ٣/ ٢٥٥. وفي التاريخ الكبير للبخاري ٩/ ٣. وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٣١٠. وفي المغني للعراقي ٣/ ٣٤٥. وفي مشكل الآثار للطحاوي ٤٨٧/١. وفي كنز العمال (٥٦١٩ ـ ٥٦٢٢).

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة رقم الحديث (١٠).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الترجل باب (٩) رقم الحديث (٤١٨٣) وفي الترمذي في كتاب المناقب=

ذي لمة: ـ بكسر اللام ـ أي شعر الرأس، دون الجمة، سميت بذلك لأنها ألمت بالمنكبين، فإذا زادت فهي الجمة.

وفي النسائي: ما رأيت رجلاً أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ. قال في القاموس: الحلة ـ بالضم ـ إزار ورداء، برد أو غيره، ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة.

قال ابن القيم: وغلط من ظن أنها كانت حمراء بحتاً، ولا يخالطها غيرها، وإنما الحلة الحمراء بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود، كسائر البرود اليمانية، وهي معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط، وإلا فالأحمر البحت ينهى عنه أشد النهي، وفي صحيح البخاري: (أنه ﷺ نهى عن المياثر الحمر)[1] وفي صحيح مسلم عن ابن عمر قال: (رأى النبي ﷺ علي ثوبين معصفرين فقال: «إن هذا لباس الكفار فلا تلبسهما»[2] ومعلوم أن ذلك إنما يصبغ صباغاً أحمر. قال: وفي جواز لبس الأحمر من الثياب والجوخ وغيرهما نظر، وأما كراهته فشديدة، فكيف يظن بالنبي ﷺ أنه لبس الأحمر القاني، كلا لقد أعاذه الله منه، وإنما وقعت الشبهة من لفظ الحلة الحمراء والله أعلم. انتهى.

وقال النووي: اختلف العلماء في الثياب المعصفرة، وهي المصبوغة بعصفر فأباحها جميع العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وبه قال الإمام الشافعي وأبو حنيفة ومالك، ولكنه قال: غيرها أفضل منها. وفي رواية عنه أنه أجاز لبسها في البيوت وأفنية الدور وكرهه في المحافل والأسواق وغيرها.

وقال جماعة من العلماء: هو مكروه كراهة تنزيه، وحملوا النهي على هذا، لأنه ثبت أنه ﷺ لبس حلة حمراء. وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أنه ﷺ صبغ بالصفرة. وحمل بعضهم النهي على المحرم بالحج أو العمرة.

وقد أتقن البيهقي المسألة في «معرفة السنن» فقال: نهى الشافعي الرجل عن

---

= باب (٨) رقم الحديث (٣٦٣٥) وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل باب في (صفة النبي ﷺ). وفي سنن النسائي ٨/ ١٨٣.

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٣٦) رقم الحديث (٥٨٤٩).

(٢) أخرجه النسائي ٨/ ٢٠٣ وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٢٧ ـ ٢٨) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ١٦٢ ـ ١٩٣ ـ ٢٠٧. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ٦٠ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٢٧) وفي المستدرك للحاكم ٤/ ١٩٠ وفي تلخيص الحبير لابن حجر ٢/ ٧٠.

المزعفر، وأباح له المعصفر، قال الشافعي: وإنما رخصت في المعصفر لأني لم أجد أحداً يحكي عنه ﷺ النهي عنه، إلا ما قال علي رضي الله عنه أنه ﷺ نهاني ولا أقول نهاكم. قال البيهقي: وقد جاءت أحاديث تدل على أن النهي على العموم، ثم ذكر حديث مسلم «أن هذه من لباس الكفار» وأحاديث غيرها، ثم قال: ولو بلغت هذه الأحاديث الشافعي لقال بها إن شاء الله تعالى، ثم ذكر بإسناده ما صح عن الشافعي أنه قال: إذا صح الحديث بخلاف قولي فاعملوا بالحديث ودعوا قولي. وفي رواية: مذهبي.

قال البيهقي: قال الشافعي: وأنهى الرجل الحلال بكل حال أن يتزعفر وآمره إذا تزعفر أن يغسله، قال البيهقي: فتبع السنة في المزعفر فمتابعتها في المعصفر أولى به، انتهى.

ورأيت في فتاوى شيخنا العلامة قاسم أحد أئمة الحنفية ومحققيها كراهته للتحريم مع صحة الصلاة فيه، واستدل له بما ذكرته، وبما في حديث طاووس عند الحاكم وقال على شرطهما عن ابن عمرو بن العاص قال: دخلت على النبي ﷺ وعلي ثوب معصفر، قال: «من أين لك هذا؟» قال: صنعته لي أهلي فقال ﷺ: «احرقه»[1] انتهى.

وعن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يلبس برده الأحمر في العيدين والجمعة، وعن يحيى بن عبد الله بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يصبغ ثيابه بالزعفران قميصه ورداءه وعمامته. رواهما الدمياطي. وهو عند أبي داود بلفظ: يصبغ بالورس والزعفران ثيابه حتى عمامته، وكذا رواه من حديث زيد بن أسلم وأم سلمة وابن عمر، لكن يعارضه ما في الصحيح أنه ﷺ نهى عن التزعفر والله أعلم.

وأما صفة إزاره ﷺ، فعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال: أخرجت إلينا عائشة كساء وإزاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين[2]، رواه البخاري، وفي رواية: إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن، وكساء من هذه التي تدعونها الملبدة، وفي رواية: كساء ملبداً. قال ابن الأثير: أي مرقعاً، يقال: لبدت القميص ألبده، ولبدته، ويقال للخرقة التي يرقع بها صدر القميص. اللبدة: وقيل الملبد: الذي ثخن وسطه وصفق حتى صار يشبه اللبد.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (١٧) رقم الحديث (٤٠٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (١٩) رقم الحديث (٥٨١٨) وفي صحيح مسلم كتاب اللباس والزينة باب (٦) رقم الحديث (٣٤) وفي فتح الباري ٦/ ٢١٢ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ٢٧٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٠٦).

ورروى مسلم من حديث عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود. والمرط: ـ بكسر الميم وإسكان الراء ـ كساء من صوف أو خز، يؤتزر به. والمرحل: بتشديد الحاء المهملة المفتوحة، كمعظم، هو الذي فيه صور الرحال، قال في القاموس في مادة ر ح ل: وكـ «معظم»: برد فيه تصاوير رحل، قال: وتفسير الجوهري إياه بإزار خز فيه علم، غير جيد، إنما ذلك تفسير المرجل ـ بالجيم ـ، وقال في مادة ر ج ل ـ يعني الجيم ـ: وبرد مرجل كمعظم، فيه صور الرجال، انتهى.

وقال النووي: والصواب الذي رواه الجمهور، وضبطه المتقنون: بالحاء المهملة، أي عليه صور رحال الإبل، ولا بأس بهذه الصورة، وإنما يحرم تصوير الحيوان. وقال الخطابي، المرحل، الذي فيه خطوط والله أعلم.

وعن عروة: أن طول رداء النبي ﷺ أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر وعن عروة أيضاً: أن ثوب رسول الله ﷺ الذي كان يخرج فيه إلى الوفد رداء أخضر في طول أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر. وعن معن بن عيسى قال حدثنا محمد بن هلال قال: رأيت على هشام بن عبد الملك برد النبي ﷺ من حبرة له حاشيتان. وعن ابن عمر قال: دخلت على رسول الله ﷺ وعليه إزار يتقعقع. وعن يزيد بن أبي حبيب أنه ﷺ كان يرخي الإزار بين يديه ويرفعه من ورائه. وعن ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﷺ يأتزر تحت سرته وتبدو سرته، ورأيت عمر يأتزر فوق سرته، رواها كلها الدمياطي.

(فصل) وعن أسماء بنت أبي بكر، أنها أخرجت جبة طيالسة كسروانية، لها لبنة ديباج، وفرجاها مكفوفان بالديباج، وقالت: هذه جبة رسول الله ﷺ، كانت عند عائشة، فلما قبضت قبضتها، وكان النبي ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى نستشفي بها[1]. رواه مسلم. وقوله: جبة طيالسة: بإضافة جبة إلى طيالسة. وكسروانية: بكسر الكاف وفتحها، والسين ساكنة والراء مفتوحة، نسبة إلى كسرى ملك الفرس. ولبنة: بكسر اللام وإسكان الباء، رقعة في جيب القميص.

وفيه: جواز لبس ما له فرجان وأنه لا كراهة فيه، وأن المراد بالنهي عن الحرير المتمحض منه، أو ما أكثره منه، وأنه ليس المراد تحريم كل جزء منه، بخلاف الخمر والذهب فإنه يحرم كل جزء منهما، قاله النووي.

(لطيفة) قيل: لما كان رسول الله ﷺ لا يبدو منه إلا طيب، كان آية ذلك في بدنه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب اللباس رقم الحديث (١٠) وفي سنن أبي داود في كتاب اللباس باب (٩) رقم الحديث (٤٠٥٤) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٤٧ ـ ٣٥٣.

الشريف أنه لا يتسخ له ثوب، فما اتسخ له ثوب قط، وقال ابن سبع في «الشفاء» والسبتي في «أعذب الموارد وأطيب الموالد»: لم يكن القمل يؤذيه تعظيماً له وتكريماً ﷺ لكن يشكل عليه ما رواه أحمد والترمذي في الشمائل عن عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يفلي ثوبه ويحلب شاته، ومن لازم التفلي وجود شيء يؤذي في الجملة، إما قملاً أو برغوثاً أو نحو ذلك. ويمكن أن يجاب: بأن التفلي لاستقذار وجود ما علق بثوبه الشريف من غيره، ولو لم يحصل منه أذى في حقه ﷺ، وهذا فيه بحث، لأن أذى القمل هو غذاؤه من البدن على ما أجرى الله العادة، وإذا امتنع الغذاء لا يعيش الحيوان عادة. ونقل الفخر الرازي: أن الذباب لا يقع على ثيابه قط، وأنه لا يمتص دمه البعوض.

وأما الطيلسان ـ وهو بفتح اللام، واحدة الطيالسة، والهاء في الجمع للعجمة لأنه فارسي معرب، وهو الساج أيضاً، وقال ابن خالويه في شرح «الفصيح» يقال للطيلسان الأخضر: الساج، وفي «المجمل» لابن فارس: الطاق الطيلسان ـ فقال ابن القيم: لم ينقل عنه ﷺ أنه لبسه، ولا أحد من أصحابه، بل ثبت في صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه ذكر الدجال فقال: «يخرج معه سبعون ألفاً من يهود أصبهان عليهم الطيالسة»[1] ورأى أنس جماعة عليهم الطيالسة فقال: ما أشبههم بيهود خيبر.

قال: ومن هاهنا كرهه جماعة من السلف والخلف، لما روى أبو داود والحاكم في المستدرك أنه قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»[2] وفي الترمذي: «ليس منا من تشبه بغيرنا»[3] وأما ما جاء في حديث الهجرة أنه ﷺ جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه متقنعاً بالهاجرة، فإنما فعله ﷺ تلك الساعة ليختفي بذلك للحاجة، ولم يكن عادته التقنع. وقد ذكر أنس عنه ﷺ أنه كان يكثر القناع. وهذا إنما كان يفعله للحاجة من الحر ونحوه. قال

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفتن رقم الحديث (١٢٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٥) رقم الحديث (٤٠٣١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٥٠ ـ ٩٢ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٣٣٢ وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (١٤٨) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢٧١ وفي نصب الراية للزيلعي ٤/ ٣٤٧ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ١٢٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٤٧) وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٨٨ وفي تغليق التعليق لابن حجر العسقلاني (٩٥٥ ـ ٩٥٦) وفي التمهيد لابن عبد البر ٦/ ٨٠ وفي المغني للعراقي ١/ ٢٧٠ وفي كنز العمال (٢٤٦٨٠). وفي فتح الباري ١٠/ ٣٣٧.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الإستئذان باب (٧) رقم الحديث (٢٦٩٦) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٣٨. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ٢٧٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٦٤٩) وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٢٣٤. وفي فتح الباري ١٠/ ٣٣٧ وفي كنز العمال (٢٥٣٣٣).

شيخ الإسلام الولي بن العراقي في شرح تقريب الأسانيد: التقنع معروف وهو تغطية الرأس بطرف العمامة أو برداء أو نحو ذلك. انتهى. وقال ابن الحاج في «المدخل»: وأما قناع الرجل فهو أن يغطي رأسه بردائه ويرد طرفه على أحد كتفيه. انتهى.

وأما قول ابن القيم: إنه ﷺ إنما فعل ذلك للحاجة، فيرد عليه حديث سهل بن سعد أنه ﷺ كان يكثر القناع. رواه البيهقي في الشعب والترمذي. وللبيهقي في الشعب أيضاً وابن سعد في طبقاته من حديث أنس بلفظ: يكثر التقنع، فهذا وما أشبهه يرد قول ابن القيم: أنه لم ينقل عنه أنه ﷺ لبسه.

وأما قوله: ولا أحد من أصحابه، فيرده ما أخرجه الحاكم في المستدرك، بسند على شرط الشيخين عن مرة بن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يذكر فتنة فقربها، فمر رجل مقنع في ثوب، فقال: «هذا يومئذٍ على الهدى»، فقمت فإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه[1]. وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن أبي العلاء قال: رأيت الحسن بن علي يصلي وهو مقنع رأسه، وأخرج ابن سعد عن سليمان بن المغيرة قال: رأيت الحسن يلبس الطيالسة، وأخرج عن عمارة بن زاذان قال: رأيت على الحسن طيلساناً أندقياً.

وأما ما ذكره ابن القيم من قصة اليهود، فقال الحافظ ابن حجر: إنما يصلح الاستدلال به في الوقت الذي تكون الطيالسة من شعارهم، وقد ارتفع ذلك في هذه الأزمنة فصار ذلك داخلاً في عموم المباح، وقد ذكره ابن عبد السلام في أمثلة البدعة المباحة. وقد يصير من شعار قوم فيكون تركه من الإخلال بالمروءة. وقيل: إنما أنكر أنس ألوان الطيالسة لأنها كانت صفراء. والله أعلم.

وأما الخاتم[2] ففي الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتماً من ورق، فكان في يده، ثم كان في يد أبي بكر، ثم كان في يد عمر، ثم كان في يد عثمان حتى وقع في بئر أريس[3]. وفيهما أيضاً عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ لبس خاتم فضة

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب (١٨) رقم الحديث (٣٧٠٤) وفي ابن ماجه في المقدمة باب (١١) رقم الحديث (١١١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٤٣. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٩/ ١٦٢. وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٤٣٣. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٩/ ١١٤. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٦٠٦٧) وفي البداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٣٦٤. والبداية والنهاية ٦/ ٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٤٥) رقم الحديث (٥٨٦٥ ـ ٥٨٦٦ ـ ٥٨٦٧ ـ ٥٨٧٣ ـ ٦٦٥١ ـ ٧٢٩٨). وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٥٦ ـ ٦١) وفي سنن أبي داود كتاب الخاتم باب (١) رقم الحديث (٤٢١٨) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ١٨ و ٣/ ٩٩.

فيه فص حبشي، وكان يجعل فصه مما يلي كفه. وأخرج أحمد والنسائي والترمذي والبزار في مسنده عن بريدة أن النبي ﷺ رأى في يد رجل خاتماً من حديد، فقال: «مالي أجد منك ريح الأصنام»، ثم قال له: «اتخذه من فضة ولا تزد على مثقال»[1].

وقد اختلف العلماء في لبسه في الجملة، فأباحه كثير من أهل العلم من غير كراهة، ومنهم من كرهه إذا قصد به الزينة، ومنهم من كرهه إلا لذي سلطان، لحديث أبي داود والنسائي عن أبي ريحانة أن النبي ﷺ نهى عن لبس الخاتم إلا لذي سلطان. ولأنه ﷺ إنما اتخذه لحاجة ختم الكتب التي يبعثها إلى الملوك، كما في حديث أنس أنه ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي فقيل له إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بختم فصاغ خاتماً ونقش فيه: محمد رسول الله، وإنما لبسه أبو بكر رضي الله عنه لأجل ولايته، فإنه كان يحتاج إليه كما كان ﷺ يحتاج إليه وكذلك عمر وعثمان.

وحكى ابن عبد البر عن طائفة من العلماء كراهة لبسه مطلقاً، احتجاجاً بحديث أنس أنه ﷺ نبذه ولم يلبسه. وفي الشمائل للترمذي عن ابن عمر أنه ﷺ اتخذ خاتماً من فضة فكان يختم به ولا يلبسه. وفي الصحيحين من حديث أنس أنه رأى في يده ﷺ خاتماً من ورق يوماً واحداً، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتيم من ورق ولبسوها، فطرح رسول الله ﷺ خاتمه فطرح الناس خواتيمهم.

والصواب: القول الأول، فإن لبس النبي ﷺ الخاتم إنما كان في الأصل لأجل المصلحة لختم الكتب التي يرسلها إلى الملوك، ثم استدام لبسه ولبسه أصحابه معه، ولم ينكره عليهم، بل أقرهم عليه، فدل ذلك على الإباحة المجردة. وأما حديث النهي عن الخاتم إلا لذي سلطان فقال ابن رجب: ذكر بعض أصحابنا أن أحمد ضعفه. وأما ما جاء في حديث الزهري عن أنس أنه ﷺ لبسه يوماً واحداً ثم ألقاه. فقد أجيب عنه بثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه وهم من الزهري، وسهو جرى على لسانه لفظ الورق، وإنما الذي لبسه يوماً واحداً ثم ألقاه كان من ذهب، كما ثبت ذلك من غير وجه في حديث ابن عمر وأنس أيضاً.

الثاني: أن الخاتم الذي رمى به ﷺ لم يكن كله فضة، وإنما كان حديداً عليه فضة،

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (٤٣) رقم الحديث (١٧٨٥) وفي سنن أبي داود كتاب الخاتم باب (٤) رقم الحديث (٤٢٢٣) وفي النسائي ٨/ ١٧٢. وفي فتح الباري ١٠/ ٣٩٦ وفي شرح السنة للبغوي ٩/ ١٢١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٩٦) وفي نصب الراية للزيلعي ٤/ ٢٣٤. وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٤٦٧) وفي كنز العمال (١٧٢٩٣).

وروى أبو داود عن معيقيب الصحابي ـ وكان على خاتم النبي ﷺ ـ قال: كان خاتم النبي ﷺ من حديد ملوي عليه فضة. فلعل هذا هو الذي لبسه يوماً واحداً ثم طرحه، ولعله هو الذي كان يختم به ولا يلبسه.

الثالث: إن طرحه إنما كان لئلا يظن أنه سنة مسنونة، فإنهم اتخذوا الخواتيم لما رأوه قد لبسه فتبين بطرحه أنه ليس بمشروع ولا سنة.

ثم إن الخاتم قد يكون تارة من ذهب، وتارة من فضة، وتارة يكون من حديد، وتارة من صفر أو رصاص أو نحوها، وتارة من عقيق:

● فأما الذهب ففي الصحيحين عن البراء بن عازب قال: (نهانا رسول الله ﷺ عن خاتم الذهب وآنية الفضة)[1]. وفيهما عن أبي هريرة عنه ﷺ: (أنه نهى عن خاتم الذهب)، وفيهما أيضاً عن ابن عمر أنه ﷺ اتخذ خاتماً من ذهب فجعله في يمينه وجعل فصه مما يلي باطن كفه، فاتخذ الناس خواتيم الذهب. قال: فصعد رسول الله ﷺ المنبر فألقاه ونهى عن التختم بالذهب[2].

وهو مذهب الأئمة الأربعة: مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وأكثر العلماء.

ورخصت فيه طائفة منهم إسحاق بن راهويه وقال: مات خمسة من أصحابه ﷺ خواتيمهم من ذهب. قال مصعب بن سعد: رأيت على طلحة وسعد وصهيب خواتيم من ذهب. وعن حمزة بن أبي أسيد والزبير بن المنذر بن أبي أسيد أنهما نزعا من يد أبي أسيد خاتماً من ذهب حين مات، وكان بدرياً، رواهما البخاري في تاريخه. وروى النسائي عن سعيد بن المسيب قال: قال عثمان لصهيب ما لي أرى عليك خاتم الذهب فقال: قد رآه من هو خير منك فلم يعبه، قال: من هو؟ قال: رسول الله ﷺ.

● وأما خاتم الفضة، فأباحه كثير من العلماء، ولبسه ﷺ وجماعة من أصحابه.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب (٧٢) رقم الحديث (٥١٧٥) وفي الترمذي كتاب الأدب باب (٤٥) رقم الحديث (٢٧٠٩) وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٢ ـ ٢٩ ـ ٣١ ـ ٥٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٨٤ و ٥/ ٣٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب (٢) رقم الحديث (١٢٣٩ ـ ٢٤٤٥ ـ ٥١٧٥ ـ ٥٦٣٥ ـ ٥٦٥٠ ـ ٥٨٣٨ ـ ٦٢٢٢ ـ ٦٦٥٤) وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٢ ـ ٣١ ـ ٥٢). وفي الترمذي كتاب الأدب باب (٤٥) رقم الحديث (٢٧٠٩) وفي سنن النسائي ٨/ ١٦٥ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٨١ و ٢/ ٤٦٨. وفي ابن ماجه كتاب اللباس باب (٤٠) رقم الحديث (٤٦٤٢ ـ ٤٦٤٣). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢٤٢. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٦/ ٢٤٣.

قال الرافعي: يجوز للرجل التختم بالفضة، وكذا قال النووي في الروضة وغيرها، وكتب أصحابنا طافحة بجوازه. وروى أبو داود وصححه ابن حبان، من حديث بريدة بن الحصيب أن النبي ﷺ قال للابس خاتم الحديد: «ما لي أرى عليك حلية أهل النار»، فطرحه وقال: يار سول الله، من أي شيء أتخذه؟ قال: «من «ورق ولا تتمه مثقالاً». وأخرجه أيضاً النسائي والترمذي وقال: غريب. وأخرجه أحمد وأبو يعلى في مسنديهما والضياء في المختارة مما ليس في الصحيحين ورجاله رجال الصحيحين إلا عبد الله بن مسلم المعروف بأبي طيبة، وهو محدث مشهور، وتصحيح ابن حبان لحديثه دال على قبوله، فأقل أحواله أن يكون من درجة الحسن.

والأصل في النهي كونه للتحريم، ولأن الأصل في استعمال الفضة للرجال التحريم إلا ما رخص فيه، فإذا حد فيه حد وجب الوقوف عنده، وبقي ما عداه على الأصل. وقد قال ابن الرفعة في باب ما يكره لبسه من «الكفاية»: وينبغي أن ينقص وزنه عن مثقال. لأن رسول الله ﷺ رأى رجلاً، وساق الحديث. وقوله ينبغي، يصلح للوجوب وغيره، وحمله عليه أولى، لأنه ساق الحديث مساق الاحتجاج لهذا الحكم، فلا يصرف النهي عن حقيقته إلا بصارف.

وظاهر صنيع ابن الملقن في شرح منهاج النووي يقتضيه، فإنه قال في زكاة النقد: فرع في أبي داود وصحيح ابن حبان من حديث بريدة أنه ﷺ قال لذلك الرجل.. فذكر الحديث فساقه سوق الفروع التي لا خلاف فيها بين الأصحاب، وظاهر ذلك تحريم المثقال.

وفي «القوت» للأذرعي[1]: لم يتعرض أصحابنا لمقدار الخاتم ولعلهم اكتفوا بالعرف، فما خرج عنه كان إسرافاً كما قالوا في الخلخال للمرأة ونحوه، والصواب الضبط بما نص عليه في الحديث وليس في كلامهم ما يخالفه، هذا لفظه. وهو يشير إلى هذا الحديث.

وكذا مشى عليه ابن العماد في التعقيبات وعبارته: وإذا جاز لبس الخاتم فشرطه أن لا يبلغ به مثقالاً للحديث. انتهى. لكن قال الحافظ العراقي في شرح الترمذي: إن النهي في قوله: «ولا تتمه مثقالاً» محمول على التنزيه، فيكره أن يبلغ به وزن مثقال. قال: وفي رواية لأبي داود، في رواية صاحب المعالم: «ولا تتمه مثقالاً ولا قيمة مثقال» وليست

---

(١) هو أحمد بن حمدان بن أحمد بن عبد الواحد أبو العباس شهاب الدين الأذرعي. (٧٠٨ ـ ٧٨٣ هـ). فقيه شافعي. توفي في حلب. الأعلام ١/ ١١٩. والدرر الكامنة ١/ ١٢٥ رقم الترجمة (٣٥٤). كشف الظنون ٢/ ١٣٦١. هدية العارفين ١/ ١١٥ الفهرس التمهيدي (٢٣١).

هذه الزيادة في رواية اللؤلؤي. ومعنى هذه الزيادة أنه ربما وصل الخاتم بالنفاسة في صنعته إلى أن يكون قيمة مثقال فهو داخل في النهي أيضاً. انتهى. وقد أفتى العلامة السراج العبادي بأنه يجوز أن يبلغ به مثقالاً وأن ما زاد عليه حرام.

● وأما خاتم الحديد، فأخرج أبو داود في الخاتم من سننه، والبيهقي في شعب الإيمان والأدب وغيرهما من تصانيفه من طريقه، والنسائي في الزينة من سننه، وابن حبان في صحيحه: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وعليه خاتم من شبه ـ وهو بفتح المعجمة والموحدة، وبإسكانها وكسر المعجمة، نوع من النحاس كانت الأصنام تتخذ منه، وسمي بذلك لشبهه بالذهب لوناً ـ فقال: «ما لي أجد منك ريح الأصنام»، فطرحه ثم جاء وعليه خاتم من حديد، فقال: «ما لي أرى عليك حلية أهل النار فطرحه» وأخرجه الترمذي لكنه قال: من صفر بدل من شبه، وهما بمعنى. قال النووي في شرح المهذب: قال صاحب الإبانة: يكره الخاتم من حديد أو شبه، وتابعه صاحب البيان فقال: يكره الخاتم من حديد أو نحاس أو رصاص لحديث بريدة.

وقال صاحب التتمة: لا يكره الخاتم من حديد أو رصاص لحديث الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال للذي خطب الواهبة نفسها: «اطلب ولو خاتماً من حديد» قال: ولو كان فيه كراهة لم يأذن فيه.

وفي سنن أبي داود بإسناد جيد عن معيقيب الصحابي: كان خاتمه ﷺ من حديد ملوي عليه فضة. والمختار: أنه لا يكره لهذين الحديثين. وقال في شرح مسلم في الكلام على حديث المرأة الواهبة نفسها: وفي هذا الحديث جواز اتخاذ خاتم الحديد، وفيه خلاف للسلف حكاه القاضي، ولأصحابنا في كراهته وجهان أصحهما لا يكره لأن الحديث في النهي عنه ضعيف. انتهى. ولعل تضعيف النووي للحديث إنما هو بالنسبة إلى مقاومة حديث سهل بن سعد في الصحيحين وغيرهما في قصة الواهبة نفسها لا مطلقاً، كيف وله في ذلك شواهد عدة، إن لم ترقه إلى درجة الصحة لم تدعه ينزل عن درجة الحسن.

● وأما خاتم العقيق: فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «تختموا بالعقيق، واليمين أحق بالزينة»[1] وفي سنده مجهول، وروي بلفظ تختموا بالعقيق فإنه ينفي الفقر. وروى يعقوب بن إبراهيم عن عائشة مرفوعاً: «تختموا بالعقيق فإنه مبارك»[2] ويعقوب متروك.

---

(١) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/٣٥٦. وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (١٩٤) وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/٢٠٥.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/٣٥٦ ـ ٣٥٧. وفي اللآلىء المصنوعة للسيوطي ٢/١٤٦. وفي=

وروى أبو بكر بن شعيب عن فاطمة رضي الله عنها مرفوعاً: «من تختم بالعقيق لم يزل يرى خيراً»[1] وهذا أيضاً لا يثبت.

وكذا ورد فيه أحاديث غير هذه، وكلها كما قال الحافظ ابن رجب لا تثبت، وقال العقيلي: لا يصح في التختم بالعقيق عن النبي ﷺ شيء. وروى ابن فنجويه في كتاب الخواتيم له بإسناد ضعيف عن علي مرفوعاً: «من تختم بالياقوت الأصفر منع الطاعون»[2]، وإسناده ضعيف.

وأما فص خاتمه ﷺ، فروى أنس أن النبي ﷺ اتخذ خاتماً من فضة، فصه منه. أخرجه البخاري وغيره. وفي صحيح مسلم أن خاتمه ﷺ كان فصه حبشياً. قال النووي: قال العلماء: يعني حجراً حبشياً، أي فصاً من جزع أو عقيق، فإن معدنهما بالحبشة واليمن. انتهى، فإن صح أنهم كانوا يعنون بالحبشي العقيق فيكون له خاتمان: أحدهما فصه عقيق، والآخر فصه فضة، وفي شرح مسلم للنووي حكاية أنه ﷺ كان له في وقت خاتم فصه منه، قال: وفي حديث آخر فصه من عقيق، انتهى. لكن لم يرو عنه ﷺ أنه لبسه خاتماً كله عقيقاً.

وأما نقش خاتمه ﷺ، ففي صحيح مسلم (عن أنس أن النبي ﷺ صنع خاتماً من ورق نقش فيه: محمد رسول الله. وقال للناس: «إني اتخذت خاتماً من فضة ونقشت فيه: محمد رسول الله، فلا ينقش أحد على نقشه»[3].

قال الترمذي: معنى قوله: «لا تنقشوا عليه» نهي أن ينقش أحد على خاتمه: محمد رسول الله. وفي رواية للنسائي: (اتخذ خاتماً من ورق فصه حبشي، ونقش فيه: محمد رسول الله). وفي رواية البخاري والترمذي (وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر).

قال في فتح الباري: ظاهره أنه لم يكن فيه زيادة على ذلك، وأنه كان على هذا

---

= تذكرة الموضوعات للفتني (١٥٨ ـ ١٥٩). وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٢٧٥ وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/ ٢٥١. وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري (١٥٨ ـ ٤٨٧) وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (١٩٤). وفي كنز العمال (١٧٢٨٥).

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٥٦. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٥٤. وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧٦.

(٢) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٧٩٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٥٤) رقم الحديث (٥٨٧٧) وفي صحيح مسلم رقم الحديث (١٦٥٦) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٩٠ وفي سنن ابن ماجه كتاب اللباس باب (٣٩) رقم الحديث (٣٦٣٩) وفي سنن أبي داود رقم الحديث (٤٢١٩). وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٢٨. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٨٣) وفي كنز العمال (١٧٢٩١).

الترتيب، لكن لم تكن كتابته على الترتيب العادي، فإن ضرورة الاحتياج إلى أن يختم به تقتضي أن تكون الأحرف المنقوشة مقلوبة ليخرج الختم مستوياً، وأما قول بعض الشيوخ أن كتابته كانت من فوق يعني الجلالة أعلى الأسطر الثلاثة، ومحمد أسفلها، فلم أر التصريح بذلك في شيء من الأحاديث، بل رواية الاسماعيلي يخالف ظاهرها ذلك، فإنه قال: محمد سطر، والسطر الثاني رسول، والسطر الثالث: الله.

وعن ابن عمر أنه ﷺ كان يلبس خاتمه في يمينه، فلما قبض صار في يد أبي بكر في يمينه، فلما قبض صار في يد عمر في يمينه، ثم صار في يد عثمان في يمينه، ثم ذهب يوم الدار عليه: «لا إله إلا الله». رواه بركة بن محمد الحلبي، كما حكاه ابن رجب في كتاب الخواتيم، ثم قال: وهي رواية ساقطة جداً، فإن بركة مذكور بالكذب، وفي لفظه ما يدل على بطلانه، وهو قوله: ذهب يوم الدار عليه: لا إله إلا الله، فإنه إنما سقط في بئر أريس قبل يوم الدار، وقد عاش عثمان بعده مدة واتخذ له خاتماً عوضه، وإنما كان نقشه، محمد رسول الله لا كلمة الإخلاص. انتهى.

تنبيه: قال شيخ الإسلام الشرف المناوي[1]: وتحصل السنة بلبس الخاتم مطلقاً، ولو مستعاراً أو مستأجراً، لكن الأوفق للسنة لبسه بالملك، والاستدامة على ذلك، ويجوز تعداد الخواتيم اتخاذاً، وأما الاستعمال فمفهوم كلام الرافعي عدم الجواز، وبه صرح المحب الطبري فقال: المتجه أنه لا يجوز للرجل أن يلبس خاتمين من فضة في يديه أو في إحداهما، لأن استعمال الفضة حرام إلا ما وردت به الرخصة، ولم ترد إلا في خاتم واحد، لكن ذكر الخوارزمي في الكافي أنه لايجوز له أن يلبس زوجاً في يد وفرادى في الأخرى، فإن لبس في كل واحدة زوجاً فقال الصيدلاني في الفتاوى لا يجوز. وقال الدارمي في الاستذكار يكره للرجل لبس فوق خاتمين، فاقتصاره على الكراهة يدل على عدم الحرمة، وإذا تقرر ذلك فالمسألة ذات خلاف، والذي يظهر كلام المحب الطبري، فإن تسامحنا اعتمدنا على ما أفتى به الصيدلاني. انتهى.

ويجوز التختم في اليمين واليسار، واختلف الناس في أفضلهما، فقيل: اليسار، وهو نص الإمام أحمد، في رواية صالح قال: التختم في اليسار أحب إلي، وهو مذهب الإمام مالك، ويروى أنه كان يلبسه في يساره، وكذلك الإمام الشافعي. وفي صحيح

---

(١) هو يحيىٰ بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد. أبو زكريا شرف الدين بن سعد الدين الحدادي المناوي. (٧٩٨ ـ ٨٧١ هـ) فقيه شافعي. توفي في القاهرة. الأعلام ٨/ ١٦٧. شذرات الذهب ٧/ ٣١٢. الضوء اللامع ١٠/ ٢٥٤ رقم الترجمة (١٠٣٣). كشف الظنون (١٦٣٥). حسن المحاضرة ١/ ٢٥٣.

مسلم عن أنس قال: (كان خاتم النبي ﷺ في هذه وأشار إلى الخنصر في يده اليسرى). وفي سنن أبي داود (عن ابن عمر أنه كان ﷺ يتختم في يساره) وروى إسماعيل بن مسلم عن السليطي قال: أتيت النبي ﷺ في ليلة قمراء، وكأني أنظر إلى عكن بطنه، وكأنها القباطي وإلى وبيص خاتمه في يساره. وإسماعيل هذا قال البخاري: تركه ابن المبارك، وربما روى عنه. وقد ذكر بعض الحفاظ ـ كما أفاده الحافظ ابن رجب ـ أن التختم في اليسار مروي عن عامة الصحابة والتابعين.

ورجحت طائفة التختم في اليمين، وهو قول ابن عباس، وعبد الله بن جعفر، وروى حماد بن سلمة قال: رأيت ابن أبي رافع يتختم في يمينه فسألته عن ذلك فقال: رأيت عبد الله بن جعفر يتختم في يمينه، وقال: كان ﷺ يتختم في يمينه[1]، رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال: قال محمد ـ يعني البخاري ـ هذا أصح شيء روي عن النبي ﷺ في هذا الباب.

وفي الشمائل للترمذي عن جابر أنه ﷺ كان يتختم في يمينه. وهذا فيه ضعف، لحال عبد الله بن ميمون. ويروى من حديث عباد بن صهيب عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال: قبض رسول الله ﷺ والخاتم في يمينه، وعباد بن صهيب متروك أيضاً. وروى البزار في مسنده من حديث عبيد بن القاسم عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ كان يتختم في يمينه، وقبض والخاتم في يمينه. وعبيد هذا كذاب. قال الحافظ ابن رجب: وقد جاء التصريح بأن تختمه ﷺ في يساره كان آخر الأمرين في حديث رواه سليمان بن محمد عن عبد الله بن عطاء عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يتختم في يمينه ثم إنه حوله إلى يساره. وقال وكيع: التختم في اليمين ليس بسنة.

ونص أحمد: أنه يكره التختم في السبابة والوسطى. وروي عن علي أنه قال: (نهاني رسول الله ﷺ أن أتختم في هذه أو هذه وأومأ إلى السبابة والوسطى)[2] والله

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الخاتم باب (٥) رقم الحديث (٤٢٢٦) وفي الترمذي رقم الحديث (١٧٤٤) وفي ابن ماجه رقم الحديث (٣٦٤٧) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٠٤. وفي سنن النسائي ٨/ ١٧٥ ـ ١٩٣. وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٢٩١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٥٣ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٢٩. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٩١ ـ ٤٣٩٢) وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٧/ ١٠٣. وفي العلل المتناهية ٢/ ٢٠٥. وفي أخلاق النبوة (١٢٤ ـ ١٢٥). وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٦٧ ـ ٦٨. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/ ٩٥. وفي كنز العمال (١٧٤٠٠ ـ ١٧٤٠٢ ـ ١٨٣١١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الخاتم باب (٤) رقم الحديث (٤٢٢٥) وفي الترمذي كتاب اللباس باب=

أعلم. وفي اللباب: وكان ﷺ يتختم، وربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يستذكر به الشيء، ورواه ابن عدي بسند ضعيف من حديث واثلة بلفظ: كان ﷺ إذا أراد حاجة أوثق في خاتمه خيطاً. وروى أبو يعلى عن ابن عمر أنه إذا أشفق من الحاجة أن ينساها ربط في أصبعه خيطاً ليذكرها. وكذا هو في رابع الخلعيات. لكن فيه سالم بن عبد الأعلى أبو الفيض، رماه ابن حبان بالوضع بل اتهمه أبو حاتم بهذا الحديث.

وأما السراويل فاختلف هل لبسها النبي ﷺ أم لا؟ فجزم بعض العلماء بأنه ﷺ لم يلبسه، ويستأنس له بما جزم به النووي في ترجمة عثمان بن عفان رضي الله عنه من كتاب تهذيب الأسماء واللغات: أنه رضي الله عنه لم يلبس السراويل في جاهلية ولا إسلام إلا يوم قتله. فإنهم كانوا أحرص شيء على اتباعه ﷺ.

لكن قد ورد في حديث عند أبي يعلى الموصلي في مسنده بسند ضعيف جداً عن أبي هريرة قال: دخلت السوق يوماً مع رسول الله ﷺ فجلس إلى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم، وكان لأهل السوق وزان يزن فقال له رسول الله ﷺ: «اتزن وأرجح»، فقال الوزان إن هذه الكلمة ما سمعتها من أحد، فقال أبو هريرة فقلت له: كفى بك من الوهن والجفاء في دينك ألا تعرف نبيك، فطرح الميزان، ووثب إلى يد رسول الله ﷺ يريد أن يقبلها فجذب يده ﷺ منه وقال: «يا هذا إنما تفعل هذا الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم»، فوزن فأرجح وأخذ رسول الله ﷺ السراويل. قال أبو هريرة: فذهبت لأحمله عنه فقال: «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله إلا أن يكون ضعيفاً يعجز عنه فيعينه أخوه المسلم»، قال: قلت يا رسول الله، وإنك لتلبس السراويل؟ قال: «أجل، في السفر والحضر، وبالليل والنهار، فإني أمرت بالستر، فلم أجد شيئاً أستر منه»[1].

وكذا أخرجه ابن حبان في الضعفاء عن أبي يعلى، ورواه الطبراني في الأوسط، والدارقطني في الأفراد، والعقيلي في الضعفاء، ومداره على يوسف بن زياد الواسطي. لكن قد صح شراء النبي ﷺ له. وفي الهدي: والظاهر أنه ﷺ إنما اشتراه ليلبسه. وقد روي أنه لبس السراويل، وكانوا يلبسونه في زمانه وبإذنه. قال أبو عبد الله الحجازي في

---

= (٤٤) رقم الحديث (١٧٨٦) وفي النسائي ٨/ ١٧٧. والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ١٠٩ ـ ١٥٤.

(١) ذكره الحاكم في المستدرك ٢/ ١٤١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٢١. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ٣٧١. وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/ ٢٧٢. وفي ميزان الإعتدال (٤٨٦٦). وفي الفوائد المجموعة للشوكاني (١٩٠).

حاشيته على «الشفاء»: وما قاله في الهدي من أنه ﷺ لبس السراويل، قالوا: سبق قلم والله أعلم. وقد أورد أبو سعيد النيسابوري ذكر الحديث في تجارته ﷺ من كتابه «شرف المصطفى». وقد ترجم البخاري في اللباس من صحيحه: باب السراويل، وأورد فيه حديث المحرم لكونه لم يرد فيه شيء على شرطه.

وأما الخف: فروى الترمذي عن بريدة أن النجاشي أهدى للنبي ﷺ خفين أسودين ساذجين، فلبسهما ثم توضأ ومسح عليهما[١].

وعن المغيرة بن شعبة قال: أهدى دحية للنبي ﷺ خفين فلبسهما. وقال إسرائيل عن جابر عن عامر: وجبة فلبسهما حتى تخرقا، لا يدري النبي ﷺ أذكيان هما أم لا[٢]. رواه الطبراني.

وأما نعله ﷺ، والنعل ـ كما قال صاحب المحكم ـ ما وقيت به القدم، ففي البخاري عن قتادة عن أنس (أن نعل النبي ﷺ كان لها قبالان)[٣]. والقبالان: تثنية القبال، وهو زمام النعل، وهو السير الذي يكون بين الأصبعين. وعن ابن عباس قال: كان لنعل النبي ﷺ قبالان مثنى شراكهما، رواه الترمذي في الشمائل، وفيها أيضاً عن أبي هريرة قال: كان لنعل رسول الله ﷺ قبالان. وعن عيسى بن طهمان قال: أخرج إلينا أنس بن مالك نعلين جرداوين لهما قبالان، فحدثني ثابت بعد عن أنس: أنهما كانتا نعلي النبي ﷺ[٤]. وعن عبيد بن جريج أنه قال لابن عمر: رأيتك تلبس النعال السبتية، قال: إني رأيت رسول الله ﷺ يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها[٥]. وعن عمرو بن حريث قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي في نعلين

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة باب (٦٠) رقم الحديث (١٥٤). وفي الترمذي كتاب الأدب باب (٥٥) رقم الحديث (٢٨٢٠). وفي ابن ماجه في كتاب الطهارة باب (٨٤) رقم الحديث (٥٤٩ ـ ٣٦٢٠). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٣٥٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس باب (٣٠) رقم الحديث (١٧٦٩).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٤١) رقم الحديث (٤١٣٤) وفي البخاري كتاب اللباس باب (٤١) رقم الحديث (٥٨٥٧) وفي النسائي ٨/ ٢١٧. وفي ابن ماجه رقم الحديث (٣٦١٤ ـ ٣٦١٥) وفي أخلاق النبوة (١٣٦). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٤١٣) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٣٨. وفي الشمائل للترمذي (٤١ ـ ٤٤) وفي كنز العمال (٤٢١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٤١) رقم الحديث (٥٨٥٨).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب (٣٧) رقم الحديث (٥٨٥١). وفي سنن أبي داود كتاب المناسك باب (٢١) رقم الحديث (١٧٧٢). وفي الموطأ للإمام مالك كتاب الحج باب (٩) رقم الحديث (٣١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٦٦ ـ ١١٠.

مخصوفتين[1]. وعن عائشة كان رسول الله ﷺ يحب التيمن ما استطاع في ترجله وتنعله وطهوره[2] رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة، قال ﷺ: «إذا تنعل أحدكم فليبدأ باليمين، فإذا نزع فليبدأ بالشمال، لتكن اليمين أولهما تنعل وآخرهما تنزع».

وكان ﷺ ينهى أن ينتعل الرجل قائماً. رواه أبو داود والترمذي.

وقد ذكر أبو اليمن بن عساكر تمثال نعله الكريمة عليه أفضل الصلاة والسلام في جزء مفرد رويته قراءة وسماعاً. وكذا أفرده بالتأليف أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن خلف السلمي المشهور بابن الحاج من أهل المرية بالأندلس وكذا غيرهما. ولم أثبتها هنا اتكالاً على شهرتها وصعوبة ضبط تسطيرها إلا على حاذق.

ومن بعض ما ذكر من فضلها وجرب من نفعها وبركتها، ما ذكره أبو جعفر أحمد بن عبد المجيد، وكان شيخاً صالحاً قال: حذوت هذا المثال لبعض الطلبة فجاءني يوماً فقال لي رأيت البارحة من بركة هذا النعل عجباً. أصاب زوجي وجع شديد كاد يهلكها فجعلت النعل على موضع الوجع وقلت: اللهم أرني بركة صاحب هذا النعل، فشفاها الله للحين.

وقال أبو إسحاق: قال أبو القاسم بن محمد: ومما جرب من بركته أن من أمسكه عنده متبركاً به كان له أماناً من بغي البغاة وغلبة العداة وحرزاً من كل شيطان مارد وعين كل حاسد، وإن أمسكته المرأة الحامل بيمينها وقد اشتد عليها الطلق تيسر أمرها بحول الله وقوته، ولله در أبي اليمن بن عساكر حيث قال:

| | |
|---|---|
| يا منشداً في رسم ربع خال | ومناشداً لدوارس الأطلال |
| دع ندب آثار وذكر مآثر | لأحبة بانوا وعصر خال |
| والثم ثرى الأثر الكريم فحبذا | إن فزت منه بلثم ذا التمثال |

---

(1) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/٣٠٧.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٤١) رقم الحديث (٤١٣٩) وفي الترمذي كتاب اللباس باب (٣٧) رقم الحديث (١٧٧٩) وفي البخاري رقم الحديث (٥٨٥٦) وفي ابن ماجه رقم الحديث (٣٦١٦) وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٦٧) وفي الموطأ للإمام مالك كتاب اللباس باب (٧) رقم الحديث (١٥) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٣٣ و ٢٤٥ ـ ٤٧٧. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٣٢. وفي المعجم الصغير للطبراني ١/ ٢٥. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٤١٠) وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٧٥ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/ ١٣٢ وفي كنز العمال (٣١٦٠٤).

أثــر لــه بقلــوبنــا أثــر لهــا ... شغــل الخلــي بحــب ذات الخــال
قبّـل لــك الإقبــال نعلــي أخمــص ... حــل الهــلال بهــا محــل قبــال
ألصــق بهــا قلبــاً يقلبــه الهــوى ... وجــلاً علــى الأوصــاب والأوجــال
صــافــح بهــا خــداً وعفــر وجنــة ... فــي تــربهــا وجــداً وفــرط فعــال
سَيّبْــل حــر جــوى ثــوى بجــوانــح ... فــي الحــب مــا جنحــت إلــى الإبــلال
يــا شبــه نعــل المصطفــى روحــي الفــدا ... لمحلــك الأسمــى الشــريــف العــال
هملــت لمــرآك العيــون وقــد نــأى ... مــرمــى العيــان بغيــر مــا إهمــال
وتــذكــرتْ عهــد العقيــق فتــأثــرت ... شــوقــاً عقيــقَ المــدمــع الهطــال
وصَبَتْ فــواصلــت الحنيــن إلــى الــذي ... مــا زال بــالــي منــه فــي بلبــال
أذكــرتنــي قَــدمــاً لهــا قِــدَم العــلا ... والجــــود والمعــــروف والإفضــــال
أذكــرتنــي مــن لــم يــزل ذكــري لــه ... يعتــــاد فــــي الأبكــــار والآصــــال
ولهــا المفــاخــر والمــآثــر فــي الــدنــا ... والــــديــــن والأقــــوال والأفعــــال
لــو أن خــدي يحتــذى نعــلاً لهــا ... لبلغــــت مــــن نيــــل المنــــى آمــــال
أو أن أجفــانــي لــوطء نعــالهــا ... أرض سمــــت عــــزاً بــــذا الإذلال

وما أحسن قول أبي الحكم بن المرحل في قصيدة ذكرها أبو إسحاق بن الحاج:

بــوصــف حبيبــي طــرز الشعــر نــاظمــه ... ونمنــم خــد الطــرس بــالنقــش راقمــه
رؤوف عطــوف أوســع النــاس رحمــة ... وجــادت عليهــم بــالنــوال غمــائمــه
لــه الحســن والإحســان فــي كــل مــذهــب ... فــــآثــــاره محبــــوبــــة ومعــــالمــــه
بــــه ختــــم الله النبييــــن كلهــــم ... وكــل فعــال صــالــح فهــو خــاتمــه
أحــب رســول الله حبــاً لــو أنــه ... تقــاسمــه قــومــي كفتهــم قســائمــه
كــأن فــؤادي كلمــا مــرَّ ذكــره ... مــن الــوُرْق خفــاق أصيبــت قــوادمــه
أهيــم إذا هبــت نــواســم أرضــه ... ومــن لفــؤادي أن تهــب نــواسمــه
فــأنشــق مسكــاً طيبــاً فكــأنمــا ... نــوافجــه جــاءت بــه ولطــائمــه
وممــا دعــانــي والــدعــاوى كثيــرة ... إلــى الشــوق أن الشــوق ممــا أكــاتمــه
مثــال لنعلــي مــن أحــب هــويتــه ... فهــا أنــا فــي يــومــي وليلــي ألاثمــه
أجــر علــى رأســي ووجهــي أديمــه ... وألثمــه طــوراً وطــوراً ألازمــه
أمثلــه فــي رجــل أكــرم مــن مشــى ... فتبصــره عينــي ومــا أنــا حــالمــه
أحــرك خــدي ثــم أحســب وقعــه ... علــى وجنتــي خطــوا هنــاك يــداومــه
ومــن لــي بــوقــع النعــل فــي حــر وجنتــي ... لمــاش علــت فــوق النجــوم بــراجمــه

سـأجعلـه فـوق الترائـب عـوذة لقلبـي لعـل القلـب يبـرد حـاجمـه
وأربطـة فـوق الشـؤون تميمـة لجفنـي لعـل الجفـن يـرقـأ سـاجمـه
ألا بـأبـي تمثـال نعـل محمـد لطـاب لحـاذيـه وقـدس خـادمـه
يـود هـلال الأفـق لـو أنـه هـوى يـزاحمنـا فـي لثمـه ونـزاحمـه
ومـا ذاك إلا أن حـب نبينـا يقـوم بـأجسـام الخليقـة لازمـه
سـلام عليـه كلمـا هبـت الصبـا وغنـت بـأغصـان الأراك حمـائمـه

ولأبي بكر أحمد بن الإمام أبي محمد عبد الله بن الحسين القرطبي رحمه الله:

ونعـل خضعنـا هيبـة لبهـائهـا وإنـا متـى نخضـع لهـا أبـداً نعلـو
فضعهـا علـى أعلـى المفـارق إنهـا حقيقتهـا تـاج وصـورتهـا نعـل
بـأخمـص خيـر الخلـق حـازت مـزيـة على التاج حتى باهت المفرق الرجل
طـريـق الهـدى عنهـا استنـارت لمبصـر وإن بحـار الجـود مـن فيضهـا حلـوا
سلـونـا ولكـن عـن سـواهـا وإنمـا نهيـم بمغنـاهـا الغـريـب ومـا نسلـوا
فمـا شـاقنـا مـذ راقنـا رسـم عـزهـا حميـم ولا مـال كـريـم ولا نسـل
شفـاء لـذي سقـم رجـاء لبـائـس أمـان لـذي خـوف كـذا يحسـب الفضـل

وأما فراشه ﷺ، فقد كان ﷺ آخذاً من ذلك بما تدعو ضرورته إليه، وترك ما سوى ذلك.

وفي صحيح مسلم قوله ﷺ: «فراش للرجل وفراش لامرأته والثالث للضيف، والرابع للشيطان»[1].

قال العلماء: معناه ما زاد على الحاجة فاتخاذه إنما هو للمباهاة والاختيال، والالتهاء بزينة الدنيا، وما كان بهذه الصفة فهو مذموم، وكل مذموم يضاف للشيطان لأنه يرتضيه ويوسوس به ويحسنه، وقيل: إنه على ظاهره، وإنه إذا كان لغير حاجة كان للشيطان عليه مبيت ومقيل، وأما تعداد الفراش للزوج والزوجة فلا بأس به لأنه قد يحتاج كل واحد منهما إلى فراش عند المرض ونحوه.

وعن عائشة: «إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدماً حشوه الليف»[2] رواه الشيخان.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب (٤٢) رقم الحديث (٤١٤٢) وفي صحيح مسلم كتاب اللباس رقم الحديث (٤١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٢٤. وفي سنن النسائي ٦/ ١٣٥. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٦٢. وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب (١٧) رقم الحديث (٦٤٥٦). وفي صحيح مسلم كتاب اللباس=

وروى البيهقي من حديثها، قالت: دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية، فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قلت: يا رسول الله، فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك فبعثت إلي بهذا، فقال: «رديه يا عائشة فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»[1].

وعند عبد الله بن مسعود: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه. الحديث رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح. والطبراني ولفظه: دخلت على النبي ﷺ وهو في غرفة كأنها حمام. وهو نائم على حصير، وقد أثر في جنبه فبكيت، فقال: «ما يبكيك يا عبد الله؟» قلت: يا رسول الله كسرى وقيصر يطؤون على الخز والديباج والحرير، وأنت نائم على هذا الحصير قد أثر بجنبك، فقال: «فلا تبك يا عبد الله، فإن لهم الدنيا ولنا الآخرة»[2].

وقوله: كأنها بيت حمام ـ بتشديد الميم ـ أي أن فيها من الحر والكرب كما في بيت الحمام. وعن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، قال: فجلست، فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وإذا إهاب معلق، فابتدرت عيناي، فقال: «ما يبكيك يا ابن الخطاب»، فقال: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته، وهذه خزائنك. قال: «يا ابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا». رواه ابن ماجه بإسناد صحيح. والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولفظه:

---

= باب (٦) رقم الحديث (٣٨) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٧٣ وفي الترمذي كتاب اللباس باب (٢٧) رقم الحديث (١٧٦١). وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٨ وفي الشفاء للقاضي عياض ١/ ١٤٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٣٠٧) وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ١١٠ و ٤/ ٢٠١. وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٥٢.

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٣٤٥. وفي فتح الباري ١١/ ٣٥٣. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٢٠٢. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/ ١٠٢. وفي البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٥٥ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٣١. وفي أخلاق النبوة (١٥٦) وفي كنز العمال (١٨٦١٢).

(٢) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢٠١ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٣٢٦. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٠٨. وفي أخلاق النبوة (٢٧٢).

قال عمر رضي الله عنه: استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة، وإنه لمضطجع على خصفة وإن بعضه لعلى التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً، وإن فوق رأسه لإهابَ عطين، وفي ناحية المشربة قرظ، فسلمت عليه وجلست فقلت: أنت نبي الله وصفوته، وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير، فقال: «أولئك عجلت لهم طيباتهم وهي وشيكة الانقطاع وإنا قوم أخرت لنا طيباتنا في آخرتنا».

وعن عائشة، كان لرسول الله ﷺ سرير مُرَمَّل بالبَرْدي، عليه كساء أسود، وقد حشوناه بالبردي، فدخل أبو بكر وعمر عليه فإذا النبي ﷺ نائم عليه، فلما رآهما استوى جالساً، فنظرا فإذا أثر السرير في جنب رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله ما يؤذيك خشونة ما نرى من فراشك وسريرك، وهذا كسرى وقيصر على فرش الحرير والديباج فقال ﷺ: «لا تقولا هذا، فإن فراشي كسرى وقيصر في النار، وإن فراشي وسريري هذا عاقبته إلى الجنة». رواه ابن حبان في صحيحه. ويروى أنه ﷺ ما عاب مضجعاً قط، إن فرش له اضطجع، وإلا اضطجع على الأرض. وتغطى ﷺ باللحاف، قال ﷺ: «ما أتاني جبريل وأنا في لحاف امرأة منكن غير عائشة»[1].

## النوع الثالث
## في سيرته ﷺ في نكاحه[2]

قد كان ﷺ يأخذ من الجماع بالأكمل، مما تحفظ به الصحة، وتتم به اللذة وسرور النفس، وتحصل به مقاصده التي وضع لأجلها. فإن الجماع في الأصل وضع لثلاثة أشياء، هي مقاصده الأصلية:

أحدها: حفظ النفس ودوام النوع الإنسا ي إلى أن تتكامل العدة التي قدر الله تعالى بروزها إلى هذا العالم.

[الثاني][3]: إخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن

[الثالث]: قضاء الوطر ونيل اللذة والتمتع بالنعمة، وهذه هي الفائدة التي في الجنة، إذ لا تناسل هناك، ولا احتقان يستفرغه الإنزال، وفضلاء الأطباء يرون أن الجماع من أسباب حفظ الصحة. لكن لا ينبغي إخراج المني إلا في طلب النسل، وإخراج ما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب (٣٠) رقم الحديث (٣٧٧٥). وفي الترمذي كتاب المناقب باب (٦٢) رقم الحديث (٣٨٧٩) وفي سنن النسائي ٧/ ٦٨.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٨٢ والشفاء للقاضي عياض ١/ ٨٧.

(٣) لم يذكره المصنف فقال الزرقاني الثاني: إخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن.

احتقن منه، فإنه إذا دام احتقانه أحدث أمراضاً رديئة، منها الوسواس والجنون والصرع وغير ذلك، وقد يبرىء استعماله من هذه الأمراض كثيراً، فإنه إذا طال احتباسه فسد واستحال إلى كيفية سمية توجب أمراضاً رديئة.

قال محمد بن زكريا: من ترك الجماع مدة طويلة ضعفت قوى أعضائه واستدت مجاريها، وتقلص ذكره، وقد رأيت جماعة تركوه لنوع من التقشف فبردت أبدانهم وعسرت حركاتهم ووقعت عليهم كآبة بلا سبب، وقلت شهواتهم وهضمهم. أشار إليه في زاد المعاد.

ومن منافعه . غض البصر، وكف النفس، والقدرة على العفة عن الحرام، وتحصيل ذلك للمرأة، فهو ينفع نفسه في دنياه وآخرته، وينفع المرأة، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتمادح به سيرة ماضية، ولذلك كان ﷺ يتعاهده ويقول كما في حديث أنس عند الطبراني في الأوسط، والنسائي في سننه: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1] أي لمناجاته فيها ربه، زاد الإمام أحمد في الزهد: وأصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن.

فمحبة النساء والنكاح من كمال الإنسان، هذا خليل الله إبراهيم، إمام الحنفاء، كان عنده سارة أجمل نساء العالمين، أحب هاجر وتسرى بها. وذكر سعد بن إبراهيم عن عامر بن سعد عن أبيه قال: كان الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يزور هاجر في كل يوم من الشام على البراق شغفاً بها وقلة صبر عنها. وهذا داود عليه الصلاة والسلام كان عنده تسع وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوج بها فكمل المائة وهذا سليمان ابنه كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة.

تنبيه: قد وقع في الإحياء للغزالي، وتفسير آل عمران من الكشاف، وكثير من كتب الفقهاء: «حبب إلي من دنياكم ثلاث». وقالوا: إنه عليه الصلاة والسلام قال «ثلاث» ولم يذكر إلا اثنين: الطيب والنساء. قالوا: ومنه قول الشاعر:

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت ... مالي وكنت بهن قدماً مولعا

---

(١) أخرجه النسائي ٧/ ٦١ وأحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ١٢٨ و ١٩٩ و ٢٨٥ والحاكم في المستدرك ٢/ ١٦٠ والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤٠٥ والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٠ وأيضاً في الدرر المنتثرة (٧١) والقاضي في الشفا ١/ ٨٩ وفي تفسير القرطبي ٢/ ١٤ و ١٠/ ٥٦ والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٢ و ٩/ ٥٥٢ والعراقي في المغني ٢/ ٣ وعلي القاري في الأسرار المرفوعة ١٧٦ والفتني في تذكرة الموضوعات ١٢٤ وفي كنز العمال (١٨٩١٣).

الخمـــر والمـــاء القـــراح وأطلـــي بـــالـــزعفـــران فـــلا أزال مـــولعـــا

وذكرها ابن فورك في جزء مفرد ووجهها وأطنب في ذلك، وهذا عندهم يسمى «طيا» وهو أن يذكر جمع ثم يؤتى ببعضه ويسكت عن ذكر باقيه لغرض للمتكلم، وأنشد الزمخشري عليه:

كـــانـــت حنيفـــة أثـــلاثاً فثلثهـــم مـــن العبيـــد وثلـــث مـــن مـــواليهـــا

وفائدة الطي عندهم تكثير ذلك الشيء: لكن قال ابن القيم وغيره: من رواه «حبب إلي من دنياكم ثلاث» فقد وهم، ولم يقل ﷺ: ثلاث، والصلاة ليست من أمور الدنيا التي تضاف إليها. انتهى، نعم تضاف إليها لكونها ظرفاً لوقوعها فقط، فهي عبادة محضة. وقال شيخ الإسلام والحفاظ ابن حجر في تاريخ الكشاف: إن لفظ «ثلاث» لم تقع في شيء من طرقه، وزيادته مفسدة للمعنى. وكذا قال شيخ الإسلام الولي ابن العراقي في أماليه، وعبارته: ليست هذه اللفظة وهي «ثلاث» في شيء من كتب الحديث، وهي مفسدة للمعنى، فإن الصلاة ليست من أمور الدنيا. وكذا صرح به الزركشي وغيره، كما حكاه شيخنا في المقاصد الحسنة وأقره.

وقال ابن الحاج في المدخل: أنظر إلى حكمة قوله ﷺ ««حبب» ولم يقل: أحببت، وقال: «من دنياكم» فأضافها إليهم دونه عليه الصلاة والسلام، فدل على أن حبه كان خاصاً بمولاه تعالى، وجعلت قرة عينه في الصلاة، فكان ﷺ بشريَّ الظاهر، ملكوتي الباطن. وكان ﷺ لا يأتي إلى شيء من أحوال البشرية إلا تأنيساً لأمته وتشريعاً لها، لا أنه محتاج إلى شيء من ذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك﴾ [الأنعام:٥٠] فقال: «لكم» ولم يقل: إني ملك، فلم ينف الملكية عنه إلا بالنسبة إليهم، اعني في معانيه ﷺ لا في ذاته الكريمة، إذ إنه ﷺ يلحق بشريته ما يلحق البشر، ولهذا قال سيدي أبو الحسن الشاذلي في صفته ﷺ: هو بشر ليس كالأبشار، كما أن الياقوت حجر ليس كالأحجار. وهذا منه ـ رحمه الله ـ على سبيل التقريب للفهوم، فدل على أنه ﷺ ملكي الباطن، ومن كان ملكي الباطن ملك نفسه. انتهى.

وها هنا لطيفة: روي أنه ﷺ لما قال: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، قال أبو بكر: وأنا يا رسول الله حبب إلي من الدنيا: النظر إلى وجهك، وجمع المال للإنفاق عليك، والتوسل بقرابتك إليك. وقال عمر: وأنا يا رسول الله حبب إلي من الدنيا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بأمر الله، وقال عثمان: وأنا يا رسول الله حبب إلي من الدنيا إشباع الجائع وإرواء الظمآن وكسوة

العاري، وقال علي بن أبي طالب: وأنا يا رسول الله حبب إلي من الدنيا الصوم في الصيف، وإقراء الضيف والضرب بين يديك بالسيف. قال الطبري: خرجه الجندي. كذا قال والعهدة عليه.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الناس بأربع بالسماحة والشجاعة وكثرة الجماع وشدة البطش»[1]. رواه الطبراني. وقال أنس: (كان ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل، وهن إحدى عشرة، قلت لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين)[2] رواه البخاري من طريق قتادة. قال ابن خزيمة[3]: تفرد بذلك معاذ بن هشام عن أبيه. ورواه سعيد بن أبي عروبة[4] وغيره عن قتادة فقال: (تسع نسوة) انتهى. وكذا رواه البخاري من طريق سعيد بن أبي عروبة أيضاً بلفظ (وله يومئذ تسع سنوة). وقد جمع بينهما ابن حبان في صحيحه بأن حمل ذلك على حالتين، لكنه وهم في قوله: إن الأولى كانت في أول قدومه المدينة، حيث كان تحته تسع نسوة، والحالة الثانية في آخر الأمر، حيث اجتمع عنده إحدى عشرة امرأة.

وموضع هذا الوهم منه: أنه ﷺ لما قدم المدينة لم يكن تحته سوى سودة ثم دخل على عائشة بالمدينة، ثم تزوج أم سلمة وحفصة وزينب بنت خزيمة في السنة الرابعة، ثم زينب بنت جحش في الخامسة، ثم جويرية في السادسة، ثم صفية وأم حبيبة وميمونة في السابعة، هؤلاء جميع من دخل بهن من الزوجات بعد الهجرة على المشهور... لكن تحمل رواية هشام على أنه ضم مارية وريحانة إليهن وأطلق عليهن لفظ «نسائه» تغليباً.
فإن قلت: وطء المرأة في يوم الأخرى ممنوع، والقسم وإن لم يكن واجباً عليه ﷺ لكنه

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٩ و ٩/ ١٣ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ٩٧ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٩١. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ١٦٩ وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٨/ ٧٠ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ ٣٤٧. وفي كنز العمال (٣١٩٣٥ـ ٣٢٠٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الغسل باب (١٢) رقم الحديث (٢٦٨ ـ ٢٨٤ ـ ٥٠٦٨ ـ ٥٢١٥). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٩١ وفي شرح السنة للبغوي ٢/ ٣٧. وفي أخلاق النبوة (٢٣١ ـ ٢٣٢). وفي سنن النسائي ١/ ١٤٣. وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٩٠ وفي كنز العمال (١٨٣٤٤).

(٣) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي أبو بكر (٢٢٣ ـ ٣١١ هـ). عالم بالحديث إمام فقيه توفي بنيسابور. الأعلام ٦/ ٢٩ شذرات الذهب ٢/ ٢٦٢. طبقات الشافعية ٢/ ١٣٠. تذكرة الحفاظ ٢/ ٧٢٠ رقم الترجمة (٧٣٤). الوافي بالوفيات ٢/ ١٩٦.

(٤)هو سعيد بن أبي عروبة مهران. العدوي بالولاء. البصري أبو النضر. حافظ توفي سنة (١٥٦ هـ). الأعلام ٣/ ٩٨. شذرات الذهب ١/ ٢٣٩. تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٧ رقم الترجمة (١٧٦). طبقات ابن سعد ٧/ ٢٠٢ رقم الترجمة (٣٢٥٦).

التزمه تطييباً لنفوسهن. أجيب: باحتمال إذن صاحبة اليوم له، أو أنه في يوم لم يثبت فيه قسم بعد، كيوم قدومه من سفر، أو اليوم الذي بعد كمال الدورة، لأنه يستأنف القسم فيما بعد، أو أنه من خصائصه ﷺ، وقد اختص في باب النساء بأشياء، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وعن طاووس ومجاهد: أعطي ﷺ قوة أربعين رجلاً في الجماع[1]. رواه ابن سعد. وفي رواية عن مجاهد: قوة بضع وأربعين رجلاً كل رجل من أهل الجنة. رواه الحارث بن أبي أسامة. وعند أحمد والنسائي، وصححه الحاكم من حديث زيد بن أرقم رفعه: «إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة في الأكل والشرب والجماع والشهوة»[2]. وعن صفوان بن سليم مرفوعاً: «أتاني جبريل بقدر، فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلاً في الجماع»[3]. رواه ابن سعد.

ولما كان ﷺ ممن أقدر على القوة في الجماع وأعطي الكثير منه، أبيح له من عدد الحرائر ما لم يبح لغيره. قال ابن عباس: تزوجوا فإن أفضل هذه الأمة أكثرها نساء. يشير إليه ﷺ، وقيد بهذه الأمة ليخرج مثل سليمان عليه السلام فإنه كان أكثر نساء.

ووقع عند الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: تزوجوا فإن خيرنا أكثرنا نساء، قيل المعنى: خير أمة محمد ﷺ من كان أكثر نساء من غيره ممن يتساوى معه فيما عدا ذلك من الفضائل.

قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني: والذي يظهر أن مراد ابن عباس بـ «الخير» النبي ﷺ وبـ «الأمة» أخصاء أصحابه، وكأنه أشار إلى أن ترك التزويج مرجوح، إذ لو كان راجحاً ما آثر النبي ﷺ غيره، وكان ـ مع كونه أخشى الناس لله وأعلمهم به ـ يكثر التزويج لمصلحة تبليغ الأحكام التي لا يطلع عليها الرجال، ولإظهار المعجزة البالغة في خرق العادة لكونه كان لا يجد ما يستمتع ه من القوت غالباً، وإن وجد فكان يؤثر بأكثره، ويصوم كثيراً ويواصل، ومع ذلك فكان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، ولا يطاق ذلك إلا مع قوة البدن، وقوة البدن تابعة لما يقوم به من استعمال المقويات من مأكول

---

(1) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٩٠ وابن سعد في طبقاته ١/ ٢٨٢.

(2) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٣٧١ والدارمي ٢/ ٣٣٤ والطبراني في المعجم الكبير ٥/ ١٩٩ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ١٠٨ والعراقي في المغني ٤/ ٥٢٥ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٩٢٩٠).

(3) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٧٦ والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٠٠ وابن سعد في الطبقات ١/ ٢٨ وفي كنز العمال (٣١٨٩٦ ـ ٣١٨٩٧ ـ ٤٤٨٥١).

ومشروب، وهي عنده ﷺ نادرة أو معدومة.

وقال بعض العلماء: لما كان الحر لفضله على العبد يستبيح من النساء أكثر مما يستبيح العبد، وجب أن يكون النبي ﷺ لفضله على جميع الأمة يستبيح من النساء أكثر مما تستبيحه الأمة. قالوا: ومن فوائد ذلك، زيادة التكليف بهن مع تحمل أعباء الرسالة، فيكون ذلك أعظم لمشاقه وأكثر لأجره، ومنها: أن النكاح في حقه عبادة، ومنها: نقل محاسنه الباطنة، وقد تزوج ﷺ أم حبيبة وكان أبوها في ذلك الوقت عدوه، وصفية وقد قتل أباها وعمها وزوجها، فلو لم يطلعن من باطن أحواله على أنه أكمل خلق الله لكانت الطباع البشرية تقتضي ميلهن إلى آبائهن وقرابتهن، فكان في كثرة النساء عنده بيان لمعجزاته وكماله باطناً، كما عرف الرجال منه الظاهر.

وقد رغب ﷺ في النكاح. فروى أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار مرفوعاً: «تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم» وفي ابن ماجه عن أبي هريرة رفعه: «انكحوا فإني مكاثر بكم الأمم». وهو معنى ما اشتهر على الألسنة: «تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الأمم»، ولم أقف عليه بهذا اللفظ[1].

وأرشد ﷺ من لم يستطع الباءة إلى الصوم، لأن كثرته تقلل مادة النكاح، وتضعف ما يجده المرء من الحرارة القوية التي تبعثه على النكاح، وخص الشباب في قوله: «يا معشر الشباب»[2] لأن للشباب من شهوة النكاح ما ليس لغيرهم. وقد ظهر لك أن النكاح أعظم في الأجر والثواب من الصيام، فإنه ﷺ لم يأمر أولاً بالصوم إنما أمر به عند عدم الطول إلى النكاح، وإذا كان النكاح ينوى به التناسل لتكثير هذه الأمة المحمدية فهو بلا شك أفضل.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لأطأ النساء ومالي إليهن حاجة، رجاء أن

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٨٠ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٢٥٣ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١٣) وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٨٦ وفي المغني للعراقي ٢/ ٢٢ وفي تفسير القرطبي ٥/ ٣٩١ وفي كنز العمال (٤٤٤٤٢)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب (٢) رقم الحديث (٥٠٦٥ و ٥٠٦٦) وفي صحيح مسلم كتاب النكاح رقم الحديث (١ و ٢) وفي سنن النسائي ٤/ ١٦٩ و ١٧١ و ٦/ ٥٨ وابن ماجه في كتاب النكاح باب (١) رقم الحديث (١٨٤٥) وفي سنن الترمذي رقم الحديث (١٠٨١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٨٧ و ٤٣٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٢٩٦ وفي سنن الدارمي ٢/ ١٣٢ وفي مسند الحميدي رقم الحديث (١١٥) وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ١٤٩ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٢٥٢ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٢٨٦ وفي كنز العمال (٤٤٤٠٨ و ٤٥٥٩٢).

يخرج الله من ظهري من يكاثر به محمد ﷺ الأمم يوم القيامة. ذكره ابن أبي جمرة.

وانظر كون نبينا ﷺ ـ بالإجماع ـ أعبد الناس، مع ما طبعت عليه بشريته من حب الجماع، وكيف لم يخل بعبادته شيئاً، لأنه ﷺ لم يكن يأتيها إلا على مشروعيتها، وهذا هو غاية الكمال في البشرية، لأنه يرجع ما طبع عليه تابعاً لما أمر به.

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «لا رهبانية في الإسلام»[1]. وهي ترك النساء، ولو كان تركهن أفضل لشرع ذلك في ديننا، إذ هو خير الأديان. وقد قال سليمان عليه السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة[2]. رواه البخاري. وهذا فيه معجزة لسليمان عليه السلام، إذ البشر عاجز عن الطواف على مائة امرأة في ليلة واحدة، فأظهر الله تعالى قدرته بأن أعطى لسليمان عليه السلام القوة على ذلك فكان فيها معجزة وإظهار قدرة وإبداء حكمة، رداً على من ربط الأشياء بالعوائد فيقول: لا يكون كذا إلا من كذا، ولا يتولد كذا إلا من كذا، فألقى الله في صلب سليمان ماء مائة رجل.

وكان له ثلاثمائة زوجة وألف سرية وهذا لا يعطي تفضيل سليمان عليه السلام على نبينا ﷺ، إذ سيدنا محمد لم يعط إلا ماء أربعين رجلاً، ولم يكن له غير عشر نسوة، لأن مرتبة نبينا ﷺ في الأفضلية لا يساويه فيها أحد، وسليمان تمنى أن يكون ملكاً فأعطي ذلك، وأعطي هذه القوة في الجماع لكي يتم له الملك على خرق العادة من كل الجهات ليمتاز بذلك. فكان نساؤه من جنس ملكه الذي لا ينبغي لأحد من بعده كما طلب.

ونبينا محمد ﷺ لما خير بين أن يكون نبياً ملكاً أبى ذلك، واختار أن يكون نبياً عبداً، فأعطي من الخصوصية ذلك القدر لكونه ﷺ اختار الفقر والعبودية فأعطي الزائد لخرق العادة في النوع الذي اختار وهو الفقر والعبودية، فكان ﷺ يربط على بطنه الأحجار من شدة الجوع والمجاهدة، وهو على حاله في الجماع لم ينقصه شيئاً، والناس أبداً إذا أخذهم الجوع والمجاهدة لا يستطيعون ذلك، فهو أبلغ في المعجزة، قاله في بهجة النفوس، والله أعلم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦/٢٢٦، والعجلوني في كشف الخفاء ٢/٥٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب (٢٣) رقم الحديث (٢٨١٩ ـ ٣٤٢٤ ـ ٥٢٤٢ ـ ٦٦٣٩ ـ ٦٧٢٠ ـ ٧٤٦٩) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/٢٢٩ و ٢٧٥ و ٥٠٦.

# النوع الرابع
## في نومه ﷺ[1]

كان ﷺ ينام أول الليل ويستيقظ في أول النصف الثاني، فيقوم فيستاك ويتوضأ، ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه، وكان ينام على جانبه الأيمن، ذاكراً الله حتى تغلبه عيناه، غير ممتلىء البدن من الطعام والشراب، لأنه ﷺ كان يحب التيامن في شأنه كله، وليرشد أمته، لأن في الاضطجاع على الشق الأيمن سراً، وهو أن القلب معلق في الجانب الأيسر، فإذا نام الرجل على الجانب الأيسر استثقل نوماً، لأنه يكون في دعة واستراحة فيثقل نومه، فإذا نام على الشق الأيمن فإنه يقلق ولا يستغرق في النوم لقلق القلب، وطلبه مستقره وميله إليه.

قالوا: وكثرة النوم على الجانب الأيسر ـ وإن كان أهنأ ـ مضر بالقلب بسبب ميل الأعضاء إليه، فتنصب المواد فيه. وأما قول القاضي عياض في الشفاء: وكان نومه على جانبه الأيمن استظهاراً على قلة النوم. . الخ، ففيه شيء، لأنه ﷺ لا ينام قلبه، فسواء كان نومه على الجانب الأيمن أو الأيسر فهذا الحكم ثابت له، وما علله به إنما تستقيم في حق من ينام قلبه، وحينئذٍ فالأحسن تعليله بحب التيامن، أو بقصده التعليم، كما مر. وأردأ النوم، النوم على الظهر، ولا يضر الاستلقاء عليه للراحة من غير نوم، وأردأ منه أن ينام منبطحاً على وجهه، وفي سنن ابن ماجه أنه ﷺ مر برجل في المسجد منبطح على وجهه فضربه برجله وقال: «قم، أو اقعد، فإنها نومة جهنمية»[2].

وكان ﷺ ينام على النطع تارة، وعلى الفراش تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة. وكان فراشه أدماً حشوه ليف. وكان له مسح ينام عليه. وكان ﷺ إذا أخذ مضجعه وضع كفه تحت خده الأيمن وقال: «رب قني عذابك يوم تبعث عبادك»[3] وفي رواية: «يوم تجمع عبادك».

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/٨٦

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب باب (٢٧) رقم الحديث (٣٧٢٥) وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/٢٧٩ وفي كنز العمال (٤١٣٧٩).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب (٩٨) رقم الحديث (٥٠٤٥) وفي صحيح مسلم كتاب (صلاة المسافرين) رقم الحديث (٦٢) وفي سنن الترمذي كتاب الدعوات باب (١٨) رقم الحديث (٣٣٩٨ و ٣٣٩٩) وفي مسند أحمد بن حنبل ٤/٢٩٠ و ٢٩٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/١٨٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/١٢٣ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٢/٣٤٤ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ١/٣٢١ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٢٨٨.

وقال أبو قتادة: كان ﷺ إذا عرّس بليل اضطجع على شقه الأيمن، وإذا عرس قبيل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه[1]. وقال ابن عباس: كان ﷺ إذا نام نفخ. وعن حذيفة كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمك اللهم أموت وأحيا»[2]. وقالت عائشة: كان يجمع كفيه فينفث فيهما ويقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١] و ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ [الفلق: ١] و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ [الناس: ١] ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده. يصنع ذلك ثلاث مرات. وقال أنس: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، وكم ممن لا كافي له ولا مؤوي». روى ذلك الترمذي.

وكان ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه، رواه البخاري من حديث عائشة، قاله لها عليه الصلاة والسلام لما قالت له: أتنام قبل أن توتر. وإنما كان ﷺ لا ينام قلبه لأن القلب إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن، وكمال هذه الحالة لنبينا ﷺ، ولمن أحيا الله قلبه بمحبته واتباع رسوله من ذلك جزء، بحسب نصيبه منها، فمستيقظ القلب وغافله، كمستيقظ البدن ونائمه، وإلى هذا الذي ذكرته أشار صاحب المعارف العلية والحقائق السنية سيدي علي ابن سيدي محمد وفا:

عينـــي تنـــام لكـــن قلبـــي والله مـــا ينـــام
وكيــف ينــام عــاشــق مسبــي فــي الحــب مستهــام
نــاظــر إلــى وجــه الحبيــب شــاخــص علــى الــدوام
أتــاه فــي المعنــى مــرســوم أن يمحــي الــرســوم
فقــال بــالحــي القيــوم يــا سعــد مــن يقــوم

وقد جمع العلماء بين هذا الحديث وبين حديث نومه ﷺ في الوادي عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس وحميت حتى أيقظه عمر رضي الله عنه بالتكبير[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/٢٩٨ و ٣٠٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/٢٥٦ وفي الشمائل للترمذي (١٣٩) وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٤/٣٣١. وفي البداية والنهاية لابن كثير ٦/١٠٢ وفي صحيح ابن خزيمة (٢٥٥٨) وفي كنز العمال (١٨١٥١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب (٨) رقم الحديث (٦٣١٤ ـ ٦٣٢٤ ـ ٦٣٢٥ و ٧٣٩٥) وفي مسند أحمد بن حنبل ٥/٣٨٥ وفي الأدب المفرد للبخاري رقم الحديث (١٢١٠) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٣٨٣) وفي تاريخ بغداد ١٢/٢٥٤ و ٤٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب (٦) رقم الحديث (٣٤٤ ـ ٣٤٨ ـ ٣٥٧١) وفي صحيح مسلم كتاب المساجد باب (٥٥) رقم الحديث (٣١٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/٤٣٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/٢١٨ و ٤٠٤ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/١٣٢ وفي صحيح ابن خزيمة (٩٨٧) وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٤٦) وفي كنز العمال (٢٢٧١٥).

فقال النووي: له جوابان، أحدهما: أن القلب إنما يدرك الحسيات المتعلقة به كالحدث والألم ونحوهما، ولا يدرك ما يتعلق بالعين لأنها نائمة والقلب يقظان، والثاني: أنه كان له حالان، حال كان قلبه لا ينام وهو الأغلب، وحال ينام فيه قلبه وهو نادر، فصادف هذا، أي قصة النوم عن الصلاة. قال: والصحيح المعتمد هو الأول والثاني ضعيف.

قال في فتح الباري: وهو كما قال، ولا يقال: القلب ـ وإن كان لا يدرك ما يتعلق بالعين من رؤية الفجر مثلاً ـ لكنه يدرك إذا كان يقظاناً مرور الوقت الطويل، فإن من ابتداء طلوع الفجر إلى أن حميت الشمس مدة طويلة، لا تخفى على من لم يكن مستغرقاً، لأنا نقول: يحتمل أن يقال: كان قلبه ﷺ إذ ذاك مستغرقاً بالوحي، ولا يلزم من ذلك وصفه بالنوم، كما كان يستغرق ﷺ حالة إلقاء الوحي في اليقظة، وتكون الحكمة في ذلك بيان التشريع بالفعل، لأنه أوقع في النفس، كما في قصة سهوه في الصلاة، وقريب من هذا جواب ابن المنير: أن القلب يحصل له السهو في اليقظة لمصلحة التشريع، ففي النوم بطريق الأولى، أو على السواء.

وقال ابن العربي في القبس: النبي ﷺ كيفما اختلف حاله من نوم أو يقظة في حق وتحقيق، ومع الملائكة في كل طريق، إن نسي فبآكد من المنسي اشتغل، وإن نام فبقلبه ونفسه على الله أقبل، ولهذا قالت الصحابة كان ﷺ إذا نام لا نوقظه حتى يستيقظ، لأنا لا ندري ما هو فيه، فنومه عن الصلاة أو نسيانه لشيء منها لم يكن عن آفة، وإنما كان بالتصرف من حالة إلى حالة مثلها لتكون لنا سنة. انتهى.

وقد أجيب عن أصل الإشكال بأجوبة أخرى ضعيفة منها: أن معنى قوله: «لا ينام قلبي» أي لا يخفى عليه حالة انتقاض وضوئه، ومنها: أن معناه لا يستغرقه النوم حتى يوجد منه الحدث، وهذا قريب من الذي قبله.

قال ابن دقيق العيد، كأن قائل هذا أراد تخصيص يقظة القلب بإدراك حالة الانتقاض، وذلك بعيد، وذلك أن قوله ﷺ: «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»[1] خرج جواباً عن قول عائشة: أتنام قبل أن توتر؟ وهذا كلام لا تعلق له بانتقاض الطهارة الذي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التهجد باب (١٦) رقم الحديث (١١٤٧ ـ ٢٠١٣ ـ ٣٥٦٩) وفي صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين رقم الحديث (١٢٥) وفي سنن النسائي ٣/ ٢٣٤ وفي سنن الترمذي كتاب الصلاة باب (٢٠٨) رقم الحديث (٤٣٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٠٤ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٦ وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٢٠٨ و ٦/ ٣٩٢ وفي الشمائل للترمذي (١٤٤) وفي صحيح ابن خزيمة (٤٩) وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٧١ وفي طبقات ابن سعد ١/ ١٣٦.

تكلموا فيه. وإنما هو جواب يتعلق بأمر الوتر، فتحمل يقظته على تعلق القلب باليقظة للوتر، وفرق بين من شرع في النوم مطمئن القلب به، وبين من شرع فيه متعلقاً باليقظة.

قال: وعلى هذا فلا تعارض ولا إشكال في حديث النوم حتى طلعت الشمس، لأنه يحتمل أنه اطمأن في نومه لما أوجبه تعب السير معتمداً على من وكله بكلاءة الفجر، انتهى.

ومحصله تخصيص اليقظة المفهومة من قوله «ولا ينام قلبي» بإدراكه وقت الوتر إدراكاً معنوياً لتعلقه به، وأن نومه في حديث الباب كان نوماً مستغرقاً، ويؤيده قول بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، كما في حديث أبي هريرة عند مسلم، ولم ينكر عليه، ومعلوم أن نوم بلال كان مستغرقاً، وقد اعترض عليه: بأن ما قاله يقتضي اعتبار خصوص السبب، وأجاب، بأنه يعتبر إذا قامت عليه قرينة، وأرشد إليها السياق، وهو هنا كذلك.

ومن الأجوبة الضعيفة أيضاً: قول من قال: كان قلبه يقظاناً وعلم بخروج الوقت، لكن ترك إعلامهم بذلك لمصلحة التشريع، والله أعلم انتهى.

# المقصد الرابع

وفيه فصلان

- في معجزاته الدالة على ثبوت نبوته وصدق رسالته
- وما خص به من خصائص آياته وبدائع كراماته

# في معجزاته(١)

## تعريف المعجزة بالدليل

اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم، والرسول العظيم ـ سلك الله بي وبك مناهج سنته، وأماتنا على محبته، بمنه ورحمته ـ أن المعجزة هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي الدال على صدق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وسميت معجزة لعجز البشر عن الإتيان بمثلها، فعلم أن لها شروطاً:

● أحدها: أن تكون خارقة للعادة، كانشقاق القمر، وانفجار الماء من بين الأصابع، وقلب العصا حية، وإخراج ناقة من صخرة، وإعدام جبل. فخرج غير الخارق للعادة، كطلوع الشمس كل يوم.

● الثاني: أن تكون مقرونة بالتحدي، وهو طلب المعارضة والمقابلة. قال الجوهري: يقال: تحديت فلاناً، إذا باريته في فعل ونازعته للغلبة. وفي القاموس: نحوه. وفي الأساس: حدا، يحدو، وهو حادي الإبل، واحتدى بها حداء إذا غنى، ومن المجاز: تحدى أقرانه إذا باراهم ونازعهم للغلبة. وأصله: الحداء، يتبارى فيه الحاديان ويتعارضان، فيتحدى كل واحد منهما صاحبه، أي يطلب حداءه. كما يقال: توفاه بمعنى استوفاه، وفي بعض الحواشي الموثوق بها، كانوا عند الحدو يقوم حاد عن يمين القطار وحاد عن يساره، يتحدى كل واحد منهما صاحبه، بمعنى يستحديه، أي يطلب منه

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/١٠ والبداية والنهاية ٦/٦٧ النُّبوة اشتقاقها من النبأ أي الخبر. لأن النبوة إخبار عن الله. أو من النَّبْوَةِ وهي الرفعة. فالنبي على الأول فعيل بمعنى فاعل لأنه يخبر عن الله بما يوحىٰ إليه، أو فعيل بمعنى مفعول أي مُخْبَرٌ عن الله أي يخبره الملك عن الله. فالنبوة جائزة عقلاً ليست مستحيلة. بعث الله الأنبياء رحمةً للعباد إذ ليس في العقل ما يُستغنى به عنهم لأن العقل لا يستقل بمعرفة الأشياء المنجية في الآخرة، ففي بعثة الأنبياء مصلحة ضرورية لحاجتهم لذلك، فالله متفضل بها على عباده فهي سفارة بين الحق تعالى وبين الخلق ثم السبيل إلى معرفة النبي هي المعجزة.

حداءه، ثم اتسع فيه حتى استعمل في كل مباراة. انتهى من حاشية الطيبي على الكشاف. وقال المحققون: التحدي، الدعوى للرسالة. انتهى.

● والشرط الثالث من شروط المعجزة: أن لا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة. وعبر عنه بعضهم بقوله: دعوى الرسالة مع أمن المعارضة وهو أحسن من التعبير: بعدم المعارضة، لأنه لا يلزم من عدم المعارضة امتناعها. والشرط إنما هو عدم إمكانها. وقد خرج بقيد «التحدي» الخارق من غير تحد، وهو الكرامة للولي. وبـ «المقارنة» الخارق المتقدم على التحدي، كإظلال الغمام، وشق الصدر، الواقعين لنبينا ﷺ قبل دعوى الرسالة، وكلام عيسى في المهد، وما شابه ذلك مما وقع من الخوارق قبل دعوى الرسالة، فإنها ليست معجزات إنما هي كرامات، ظهورها على الأولياء جائز، والأنبياء قبل نبوتهم لا يقصرون عن درجة الأولياء فيجوز ظهورها عليهم أيضاً، وحينئذٍ يسمى «إرهاصاً» أي تأسياً للنبوة كما صرح به العلامة السيد الجرجاني في شرح المواقف، وغيره، وهو مذهب جمهور أئمة الأصول وغيرهم.

وخرج أيضاً بقيد «المقارنة» المتأخر عن التحدي، بما يخرجه عن المقارنة العرفية، نحو ما روي بعد وفاته ﷺ من نطق بعض الموتى بالشهادتين وشبهه، مما تواترت به الأخبار. وخرج أيضاً بـ «أمن المعارضة» السحر المقرون بالتحدي، فإنه يمكن معارضته بالإتيان بمثله من المرسل إليهم. واختلف: هل السحر قلب الأعيان وإحالة الطبائع أم لا؟ فقال بالأول قائلون، حتى جوزوا للساحر أن يقلب الإنسان حماراً. وذهب آخرون: إلى أن أحداً لا يقدر على قلب عين ولا إحالة طبيعة إلا الله تعالى لأنبيائه، وأن الساحر والصالح لا يقلبان عيناً. قالوا: ولو جوزنا للساحر ما جاز على النبي فأي فرق عندكم بينهما؟ فإن لجأتم إلى ما ذكره القاضي أبو بكر الباقلاني من الفرق بالتحدي فقط قيل لكم هذا باطل من وجوه.

أحدها: أن اشتراط التحدي قول لا دليل عليه، لا من كتاب ولا من سنة، ولا من قول صاحب ولا إجماع، وما تعرى من البرهان فهو باطل.

الثاني: أن أكثر آياته ﷺ وأعمها وأبلغها كانت بلا تحد، كنطق الحصى، ونبع الماء، ونطق الجذع، وإطعامه المئين من صاع، وتفله في العين، وتكليم الذراع، وشكوى البعير، وكذا سائر معجزاته العظام، ولعله لم يتحد بغير القرآن، وتمني الموت. قالوا: فأف لقول لا يبقي من الآيات ما يسمى معجزة إلا هذين الشيئين، ويلقي معجزات كالبحر المتقاذف بالأمواج، ومن قال إن هذه ليست بمعجزات ولا آيات فهو إلى الكفر أقرب منه إلى البدعة.

قالوا: وقد كان ﷺ يقول عند ورود آية من هذه الآيات: «أشهد أني رسول الله»[1]، كما قال ذلك عند تحققهم مصداق قوله في الإخبار عن الذي أنكى في المشركين قتلاً في المعركة: إنه من أهل النار، فقتل نفسه بمحضر ذلك الذي اتبعه من المسلمين. قالوا:

والوجه الثالث: وهو الدافع لهذا القول، قوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ [الانعام: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ [الإسراء: ٥٩] فسمى الله تلك المعجزات المطلوبات من الأنبياء آيات، ولم يشترط تحدياً من غيره. فصح أن اشتراط التحدي باطل محض، انتهى ملخصاً من تفسير الشيخ أبي أمامة بن النقاش. وأجيب: بأنه ليس الشرط الاقتران بالتحدي بمعنى طلب الإتيان بالمثل الذي هو في المعنى الأصلي للتحدي، بل يكفي للتحدي دعوى الرسالة والله أعلم.

● الرابع من شروط المعجزة: أن تقع على وفق دعوى المتحدي بها، فلو قال مدعي الرسالة: آية نبوتي أن تنطق يدي، أو هذه الدابة، فنطقت يده أو الدابة بكذبه فقالت: كذب وليس هو نبي، فإن الكلام الذي خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدعي، لأن ما فعله الله تعالى لم يقع على وفق دعواه. كما يروى أن مسيلمة الكذاب ـ لعنه الله ـ تفل في بئر ليكثر ماؤها فغارت وذهب ما فيها من الماء. فمتى اختل شرط من هذه لم تكن معجزة. ولا يقال: قضية ما قلتم: إن ما توفرت فيه الشروط الأربعة من المعجزات لا يظهر إلا على أيدي الصادقين، وليس كذلك، لأن المسيح الدجال يظهر على يديه من الآيات العظام ما هو مشهور، كما وردت به الأخبار الصحيحة، لأن ما ذكر فيمن يدعي الرسالة وهذا فيمن يدعي الربوبية.

وقد قام الدليل العقلي على أن بعثة بعض الخلق غير مستحيلة، فلم يبعد أن يقيم الله الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة، ودلت القواطع على كذب المسيح الدجال فيما يدعيه للتغير من حال إلى حال، وغير ذلك من الأوصاف التي تليق

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٤١) رقم الحديث (٥٤٤٣) وفي صحيح مسلم في كتاب الايمان رقم الحديث (١٧٨) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/٢٢٩. وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/١٤٢. وفي الدر المنثور للسيوطي ١/٢٧٣. وفي دلائل النبوة لابي نعيم (١٦٥).

بالمحدثات ويتعالى عنها رب البريات ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١][1].

فإن قلت أي الاسمين أحق وأولى بما أتت به الأنبياء، هل لفظ «المعجزة» أو لفظ «الآية» أو «الدليل»؟.

فالجواب: إن كبار الأئمة يسمون معجزات الأنبياء: دلائل النبوة، وآيات النبوة، ولم يرد أيضاً في القرآن لفظ «المعجزة» بل ولا في السنة أيضاً، وإنما فيهما لفظ «الآية» و «البينة» و «البرهان». كما في قصة موسى ﴿فذانك برهانان من ربك﴾ [القصص: ٣٢]، في العصا واليد، وفي حق نبينا ﷺ ﴿قد جاءكم برهان من ربكم﴾ [النساء: ١٧٤]. وأما لفظ الآيات فكثير. بل هو أكثر من أن نسرده هنا، كقوله تعالى: ﴿وإذا جاءتهم آية﴾ [الانعام: ١٢٤] و ﴿إن في ذلك لآيات﴾ [الرعد: ٣]. وأما لفظ المعجز إذ أطلق فإنه لا يدل على كون ذلك آية إلا إذا فسر المراد به، وذكرت شرائطه، وقد كان كثير من أهل الكلام لا يسمى معجزاً إلا ما كان للأنبياء فقط، ومن أثبت للأولياء خوارق عادات سماها: كرامات، والسلف كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً كالإمام أحمد وغيره، بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي فإن هذا يجب اختصاصه به. وقد يسمون الكرامات آيات لكونها تدل على نبوة من اتبعه ذلك الولي، فإن الدليل مستلزم للمدلول، يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول، فلذلك كان آية وبرهاناً، انتهى.

وإذا علمت هذا، فاعلم أن دلائل نبوة نبينا ﷺ كثيرة، والأخبار بظهور معجزاته شهيرة. فمن دلائل نبوته: ما وجد في التوراة والإنجيل وسائر كتب الله المنزلة من ذكره ونعته، وخروجه بأرض العرب، وما خرج بين يدي أيام مولده ومبعثه من الأمور العجيبة الغريبة القادحة في سلطان الكفر، الموهنة لكلمتهم المؤيدة لشأن العرب المنوهة لذكرهم، كقصة الفيل، وما أحل الله تعالى بأصحابه من العقوبات والنكال، وخمود نار فارس وسقوط شرفات إيوان كسرى، وغيض ماء بحيرة ساوة، ورؤيا الموبذان[2]، وما

(١) قال الله تعالى ﴿ولم يكن له كفوًا أحد﴾ [الاخلاص: ٤] وقوله ﴿هل تعلم له سميا﴾ أي مثلاً [مريم: ٦٥] ونقل البيهقي في الأسماء والصفات عن الحافظ المحدث الفقيه أبي سليمان الخطابي أنه قال: «إن الذي يجب علينا وعلى كل مسلم أن يعلمه أن ربنا ليس بذي صورة ولا هيئة فإن الصورة تقتضي الكيفية وهي عن الله وعن صفاته منفية» وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي: «من وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر».

(٢) المؤبذان: اسم لحاكم المجوس رأى ليلة مولده ﷺ إبلاً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها. والقصة مذكورة في بعض كتب السيرة والتاريخ.

سمعْ من الهواتف الصارخة بنعوته وأوصافه، وانتكاس الأصنام المعبودة وخرورها لوجهها من غير دافع لها من أمكنتها، إلى سائر ما روي وما نقل في الأخبار المشهورة من ظهور العجائب في ولادته وأيام حضانته وبعدها إلى أن بعثه الله نبياً.

ولم يكن له ﷺ ما يستميل به القلوب من مال فيطمع فيه، ولا قوة فيقهر بها الرجال، ولا أعوان على الرأي الذي أظهره، والدين الذي دعا إليه، وكانوا يجتمعون على عبادة الأصنام، وتعظيم الأزلام، مقيمين على عادة الجاهلية في العصبة والحمية، والتعادي والتباغي وسفك الدماء، وشن الغارة ولا تجمعهم ألفة دين، ولا يمنعهم عن سوء أفعالهم نظر في عاقبة، ولا خوف عقوبة ولائمة، فألف ﷺ بين قلوبهم وجمع كلمتهم، حتى اتفقت الآراء وتناصرت القلوب، وترادفت الأيدي، فصاروا إلباً واحداً في نصرته، وعنقاً واحداً إلى طلعته، وهجروا بلادهم وأوطانهم، وجفوا قومهم وعشائرهم في محبته، وبذلوا مهجهم وأرواحهم في نصرته، ونصبوا وجوههم لوقع السيوف في إعزاز كلمته، بلا دنيا بسطها لهم، ولا أموال أفاضها عليهم، ولا عوض في العاجل أطمعهم في نيله يرجونه، أو ملك أو شرف في الدنيا يحوزونه، بل كان من شأنه ﷺ أن يجعل الغني فقيراً، والشريف أسوة الوضيع، فهل يلتئم مثل هذه الأمور، أو يتفق مجموعها لأحد هذا سبيله، من قبيل الاختيار العقلي والتدبير الفكري، لا والذي بعثه بالحق، وسخر له هذه الأمور، ما يرتاب عاقل في شيء من ذلك، وإنما هو أمر إلهي، وشيء غالب سماوي، ناقض للعادات، يعجز عن بلوغه قوى البشر، ولا يقدر عليه إلا من له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

ومن دلائل نبوته ﷺ أنه كان أمياً، لا يخط كتاباً بيده ولا يقرؤه، ولد في قوم أميين، ونشأ بين أظهرهم في بلد ليس بها عالم يعرف أخبار الماضين، ولم يخرج في سفر ضارباً إلى عالم فيعكف عليه، فجاءهم بأخبار التوراة والإنجيل والأمم الماضية، وقد كان ذهبت معالم تلك الكتب، ودرست وحرفت عن مواضعها، ولم يبق من المتمسكين بها وأهل المعرفة بصحيحها وسقيمها إلا القليل، ثم حاجَّ كل فريق من أهل الملل المخالفة له بما لو احتشد له حذاق المتكلمين وجهابذة النقاد المتفننين لم يتهيأ لهم نقض ذلك. وهذا أدلُّ شيء على أنه أمر جاءه من عند الله تعالى.

ومن ذلك ، القرآن العظيم، فقد تحدى بما فيه من الإعجاز، ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة من مثله، فنكلوا عنه وعجزوا عن الإتيان بشيء منه. قال بعض العلماء: إن الذي أورده ﷺ على العرب من الكلام أعجزهم عن الإتيان بمثله أعجب في الآية، وأوضح في الدلالة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، لأنه أتى أهل البلاغة

وأرباب الفصاحة ورؤساء البيان والمتقدمين في اللسن بكلام مفهوم المعنى عندهم، فكان عجزهم عنه أعجب من عجز من شاهد المسيح عند إحياء الموتى، لأنهم لم يكونوا يطمعون فيه، ولا إبراء الأكمه والأبرص ولا يتعاطون علمه، وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة، فدل على أن العجز عنه إنما كان ليصير علماً على رسالته، وصحة نبوته، وهذه حجة قاطعة وبرهان واضح.

وقال أبو سليمان الخطابي: وقد كان ﷺ من عقلاء الرجال عند أهل زمانه، بل هو أعقل خلق الله على الإطلاق. وقد قطع القول فيما أخبر به عن ربه تعالى بأنهم لا يأتون بمثل ما تحداهم به فقال: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ [البقرة: ٢٤] فلولا علمه بأن ذلك من عند الله علام الغيوب، وأنه لا يقع فيما أخبر عنه خلف، وإلا لم يأذن له عقله أن يقطع القول في شيء، بأنه لا يكون وهو يكون. انتهى.

وهذا أحسن ما يقال في هذا المجال وأبدعه وأكمله وأبينه، فإنه نادى عليهم بالعجز قبل المعارضة، وبالتقصير عن بلوغ الغرض في المناقضة، صارخاً بهم على رؤوس الأشهاد، فلم يستطع أحد منهم الإلمام به مع توفر الدواعي وتظاهر الاجتهاد، فقال ـ وكان بما ألقى إليهم من الأخبار عليماً خبيراً ـ: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] فرضيت هممهم السرية وأنفسهم الشريفة الأبية بسفك الدماء وهتك الحرم.

وقد ورد من الأخبار في قراءة النبي ﷺ بعض ما نزل عليه على المشركين الذين كانوا من أهل الفصاحة والبلاغة، واقرارهم بإعجازه جمل كثيرة: فمنها ما روي عن محمد بن كعب قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة قال ذات يوم ـ وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد ـ يا معشر قريش، ألا أقوم إلى هذا فأعرض عليه أموراً لعله يقبل منا بعضها ويكف عنا. قالوا: بلى يا أبا الوليد، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث ـ فيما قاله عتبة وفيما عرض عليه من المال وغير ذلك ـ فلما فرغ قال رسول الله ﷺ: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني»، قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ حتى بلغ: ﴿قرآناً عربياً﴾ [فصلت: ١ ـ ٣] فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها، وألقى بيديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة [فصلت: ٣٧] فسجد فيها ثم قال: «سمعت يا أبا الوليد؟» قال: سمعت قال، «فأنت وذاك»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا

أبا الوليد؟ قال: والله إني قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ. قال: فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة. قرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ حتى بلغ ﴿فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾[فصلت: ١ـ١٣] فأمسكت فمه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب[١]. رواه البيهقي وغيره.

وفي حديث إسلام أبي ذر، ووصف أخاه أنيساً فقال: والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس، وقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم، وأنه انطلق وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي ﷺ، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم، ولا يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، وإنه لصادق وإنهم لكاذبون[٢]. رواه مسلم والبيهقي.

وعن عكرمة في قصة الوليد بن المغيرة، وكان زعيم قريش في الفصاحة: أنه قال للنبي ﷺ: اقرأ علي، فقرأ عليه: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾ [النحل: ٩٠] إلى آخر الآية. قال: أعد، فأعاد ﷺ، فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر، ثم قال لقومه: والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى.

وفي خبره الآخر: حين جمع قريشاً عند حضورهم الموسم وقال: إن وفود العرب تردنا، فأجمعوا فيه رأياً، لا يكذب بعضكم بعضاً، فقالوا: نقول هو كاهن، قال: والله ما هو بزمزمته ولا سجعه، قالوا: مجنون. قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا بوسوسته، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر. قد عرفنا الشعر كله. رجزه وهزجه وقريضه

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٢/٢٠٤ ـ ٢٠٥. وفي البداية والنهاية لابن كثير ٣/٦١. وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/٣٥٨. وفي المطالب العالية لابن حجر (٤٢٨٥). وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/١٩٧. وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١/٧٦. وفي كنز العمال (٣٥٤٢٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (١٣٢) وفي الشفا للقاضي عياض ١/١٦٦. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٠٩ ـ ٢١٠ ـ ٢١٢ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/١٧٤.

ومبسوطه ومقبوضه، ما هو بشاعر. قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم قائلون من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل، رواه ابن إسحاق والبيهقي.

وأخرج أبو نعيم من طريق ابن إسحاق، حدثني إسحاق بن يسار عن رجل من بني سلمة قال: لما أسلم فتيان بني سلمة قال عمرو بن الجموح لابنه: أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل، فقرأ عليه ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة: ١] إلى قوله ﴿الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦] فقال: ما أحسن هذا وأجمله، أو كل كلامه مثل هذا قال: يا أبت وأحسن من هذا.

وقال بعض العلماء: إن هذا القرآن لو وجد مكتوباً في مصحف في فلاة من الأرض، ولم يعلم من وضعه هناك لشهدت العقول السليمة أنه منزل من عند الله، وأن البشر لا قدرة لهم على تأليف مثل ذلك، فكيف إذا جاء على يد أصدق الخلق وأبرهم وأتقاهم وقال: إنه كلام الله، وتحدى الخلق كلهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فكيف يبقى مع هذا شك. انتهى.

واعلم أن وجوه إعجاز القرآن لا تنحصر، لكن قال بعضهم: قد اختلف العلماء في إعجازه على ستة أوجه:

● أحدها: أن وجه إعجازه هو الإيجاز والبلاغة، مثل قوله: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ [البقرة: ١٧٩] فجمع في كلمتين عدد حروفهما عشرة أحرف معاني كلام كثير. وحكى أبو عبيد: أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام. وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً﴾ [يوسف: ٨٠] قال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام. وحكى الأصمعي: أنه رأى جارية خماسية أو سداسية وهي تقول: استغفر الله من ذنوبي كلها، فقلت لها: مم تستغفرين ولم يجر عليك قلم؟ فقالت:

استغفـــر الله لـــذنبـــي كلـــه    قتلـــت إنســـانـــاً بغيـــر حلـــه
مثـــل غـــزال نـــاعـــم فـــي دلـــه    انتصـــف الليـــل ولـــم أصلـــه

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: أو تعد هذا فصاحة بعد قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ [القصص: ٧] فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

وحكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوماً نائماً في المسجد، فإذا هو برجل قائم على رأسه، يتشهد شهادة الحق، فأعلمه أنه من بطارقة الروم، ممن يحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها فإذا قد جمع الله فيها ما أنزل على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة. وهي قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه﴾ [النور: ٥٢] الآية.

وقد رام قوم من أهل الزيغ والإلحاد، أوتوا طرفاً من البلاغة، وحظاً من البيان، أن يضعوا شيئاً يلبسون به، فلما وجدوه مكان النجم من يد المتناول، مالوا إلى السور القصار، كسورة الكوثر والنصر وأشباههما، لوقوع الشبهة على الجهال فيما قل عدد حروفه، لأن العجز إنما يقع في التأليف والاتصال.

وممن رام ذلك من العرب في التشبث بالسور القصار، مسيلمة الكذاب فقال: يا ضفدع نقي كم تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الماء تكدرين، ولا الشراب تمنعين. فلما سمع أبو بكر رضي الله عن هذا قال: إنه كلام لم يخرج من إل. قال ابن الأثير: أي من ربوبية، و «الإل» بالكسر هو الله تعالى. وقيل: الإل الأصل الجيد، أي لم يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن.

ولما سمع مسيلمة الكذاب ـ لعنه الله ـ «والنازعات» قال: والزارعات زرعاً والحاصدات حصداً والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والحافرات حفراً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر. إلى غير ذلك من الهذيان، مما ذكرت في الوفود من المقصد الثاني بعضه والله أعلم.

وقال آخر: ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى أخرج من بطنها نسمة تسعى، من بين شراسيف[1] وأحشى وقال آخر: الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وثيل، ومشفر طويل، وإن ذلك من خلق ربنا لقليل.

ففي هذا الكلام مع قلة حروفه من السخافة ما لا خفاء به على من لا يعلم، فضلاً عمن يعلم.

● والثاني: أن إعجازه هو الوصف الذي صار به خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر والرجز والسجع، فلا يدخل في شيء منها ولا يختلط بها مع كون ألفاظه وحروفه من جنس كلامهم، ومستعملة في نظمهم ونثرهم، ولذلك تحيرت عقولهم، وتدلهت[2] أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في حسن كلامهم، فلا ريب

---

(١) جمع شرسوف: غضروف معلق بكل ضلع.

(٢) تدهلت: أي دهشت وتحيرت.

أنه في فصاحته قد قرع القلوب ببديع نظمه، وفي بلاغته قد أصاب المعاني بصائب سهمه، فإنه حجة الله الواضحة، ومحجته اللائحة، ودليله القاهر، وبرهانه الباهر، ما رام معارضته شقي إلا تهافت تهافت الفراش في الشهاب، وذل ذل النقد حول الليوث الغضاب.

وقد حكي عن غير واحد ممن عارضه أنه اعترته روعة وهيبة كفَّته عن ذلك، كما حكِيَ عن يحيى بن حكيم الغزال[1] ـ بتخفيف الزاي وقد تشدد ـ وكان بليغ الأندلس في زمانه أنه قد رام شيئاً من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها، وينسج بزعمه عل منوالها، فاعترته خشية ورقة، حملته على التوبة والإنابة.

وحكي أيضاً أن ابن المقفع[2] ـ وكان أفصح أهل وقته ـ طلب ذلك ورامه، ونظم كلاماً وجعله مفصلاً، وسماه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرأ في مكتب قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر..﴾ [هود: ٤٤] الآية، فرجع ومحى ما عمل وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبداً، وما هو من كلام البشر.

ولله در العارف سيدي محمد وفا حيث قال، يعني النبي ﷺ والقرآن المعظم:

لـه آيـة الفـرقـان فـي عيـن جمعـه  جـوامـع آيـات بهـا اتضـح الـرشـد
حـديـث نـزيـه عـن حـدوث منـزهٌ  قـديـم صفـات الـذات ليـس لـه ضـد
بـلاغ بليـغ للبـلاغـة معجـز  لـه معجـزات لا يعـد لهـا عـد
تحلـت بـروح الـوحـي حلـة نسجـه  عقـود اعتقـاد لا يحـل لهـا عقـد
وغـايـة أربـاب البـلاغـة عجـزهـم  لـديـه وإن كـانـوا هـم الألسـن اللـد
فـأفـاكهـم بـالإفـك أعيـاه غيـه  تصـدى ولـلأسمـاع عـن غيـه صـد
قلـى الله أقـوالاً يهـاجـر هجـرهـا  هـوانـاً بهـا الـورهـاء[3] والبهـم البلـد
تـلاهـا فتـلَّ الفحـش فـي القبـح وجهها  وعـن ريبهـا الألبـاب نـزهـهـا الـزهـد
لقـد فـرق الفـرقـان شمـل فـريقـه  بجمـع رسـول الله واستعلـن الـرشـد
أتـى بـالهـدى صلـى عليـه إلهـه  ولـم يلـهُ بـالأهـواء إذ جـاءه الجـد

---

(١) هو يحيى بن الحكم البكري الجياني، المعروف بالغزال (١٥٦ ـ ٢٥٠ هـ) شاعر أندلسي. الأعلام ١٤٣/٨.

(٢) هو عبد الله بن المقفع (١٠٦ ـ ١٤٢ هـ). كاتب أصله من الفرس توفي بالبصرة. الأعلام ٤/ ١٤٠، معجم المطبوعات ٢٤٩، ولسان الميزان ٣/ ٣٦٦.

(٣) الورهاء: الحمقاء، والبهم: أولاد الضأن والبقر، البلد: جمع بليد.

● والثالث: أن وجه إعجازه هو أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة وطلاوة، لا يزال غضاً طرياً، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة ما بلغ يمل مع الترديد، ويعادى إذا أعيد، وكتابنا يستلذ به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك، حتى أحدث أصحابها لها لحوناً وطرقاً، يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها، ولهذا وصف ﷺ القرآن بأنه لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، هو الفصل ليس بالهزل، لا تشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به[1] أشار إليه القاضي عياض.

● والرابع: أن وجه إعجازه هو ما فيه من الإخبار بما كان، مما علموه وما لم يعلموه، فإذا سألوا عنه عرفوا صحته وتحققوا صدقه كالذي حكاه من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام، وحال ذي القرنين، وقصص الأنبياء مع أممها، والقرون الماضية في دهرها.

● والخامس: أن وجه إعجازه هو ما فيه من علم الغيب، والإخبار بما يكون، فيوجد على صدقه وصحته، مثل قوله تعالى لليهود: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ ثم قال: ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ [البقرة: ٩٤ ـ ٩٥] فما تمناه أحد منهم.

ومثل قوله تعالى لقريش: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ [البقرة: ٢٤] فقطع بأنهم لا يفعلون فلم يفعلوا. وتعقب: بأن الغيوب التي اشتمل عليها القرآن وقع بعضها في زمنه ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ [الفتح: ١] وبعضها بعد مدة كقوله تعالى: ﴿ألم غلبت الروم﴾ [الروم: ١] فلو كان كما قالوا لنازعوا وقع المتوقع، وبأن الإخبار عن الغيب جاء في بعض سور القرآن واكتفى منهم بمعارضة سورة غير معينة، فلو كان كذلك لعارضوه بقدر أقصر سورة لا غيب فيها.

● السادس: أن وجه إعجازه هو كونه جامعاً لعلوم كثيرة، لم تتعاط العرب فيها الكلام، ولا يحيط بها من علماء الأمم واحد منهم، ولا يشتمل عليها كتاب، بين الله فيه خبر الأولين والآخرين وحكم المتخلفين وثواب المطيعين وعقاب العاصين.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن باب (١٤) رقم الحديث (٢٩٠٦) والدارمي في سننه كتاب فضائل القرآن ٢/ ٤٣١ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٧٧.

فهذه ستة أوجه، يصح أن يكون كل واحد منها إعجازاً، فإذا جمعها القرآن فليس اختصاص أحدها بأن يكون معجزاً بأولى من غيره، فيكون الإعجاز بجميعها. وقد قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾ [الإسراء: ٨٨] فلم يقدر أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن في زمن رسول الله ﷺ ولا بعده على نظمه وتأليفه وعذوبة منطقه وصحة معانيه، وما فيه من الأمثال والأشياء التي دلت على البعث وآياته، والإنباء بما كان وبما يكون، وبما فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والامتناع من إراقة الدماء، وصلة الأرحام، إلى غير ذلك، فكيف يقدر على ذلك أحد وقد عجزت عنه العرب الفصحاء والخطباء البلغاء، والشعراء الفهماء، من قريش وغيرها، وهو ﷺ في مدة ما عرفوه قبل نبوته وأداء رسالته أربعين سنة لا يحسن نظم كتاب، ولا عقد حساب، ولا يتعلم سحراً، ولا ينشد شعراً، ولا يحفظ خبراً، ولا يروي أثراً، حتى أكرمه الله بالوحي المنزل، والكتاب المفصل، فدعاهم إليه وحاجهم به، قال الله تعالى: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ [يونس: ١٦]، وشهد له في كتابه بذلك فقال تعالى: ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وأما ما عدا القرآن من معجزاته ﷺ، كنبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام ببركته، وانشقاق القمر، ونطق الجماد، فمنه ما وقع التحدي به، ومنه ما وقع دالاً على صدقه من غير سبق تحد، ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير - كما يقطع بجود حاتم، وشجاعة علي - وإن كانت أفراد ذلك ظنية وردت موارد الآحاد مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر ورواه العدد الكثير، والجم الغفير، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار والعناية بالسير والأخبار، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه المرتبة لعدم عنايتهم بذلك.

فلو ادعى مدع أن غالب هذه الوقائع مفيد للقطع النظري لما كان مستبعداً، وذلك أنه لا مرية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدثوا بهذه الأخبار في الجملة، ولا يحفظ عن أحد من أصحابه مخالفة الراوي فيما حكاه من ذلك. ولا الإنكار عليه فيما هنالك، فيكون الساكت منهم كالناطق، لأن مجموعهم محفوظ عن الإغضاء على الباطل، وعلى تقدير أن يوجد من بعضهم إنكار أو طعن على بعض من روى شيئاً من ذلك فإنما هو من جهة توقف في صدق الراوي أو تهمته بكذب، أو توقف في ضبطه أو نسبته إلى سوء الحفظ، أو جواز الغلط، ولا يوجد أحد منهم طعن في المروي، كما وجد منهم في غير هذا الفن من الأحكام وحروف القرآن ونحو ذلك والله أعلم.

وأنت إذا تأملت معجزاته وباهر آياته وكراماته ﷺ وجدتها شاملة للعلوي والسفلي، والصامت والناطق، والساكن والمتحرك، والمائع والجامد، والسابق واللاحق، والغائب والحاضر، والباطن والظاهر، والعاجل والآجل، إلى غير ذلك، مما لو عد لطال، كالرمي بالشهب الثواقب، ومنع الشياطين من استراق السمع في الغياهب، وتسليم الحجر والشجر عليه، وشهادتها له بالرسالة بين يديه، ومخاطبتها له بالسيادة، وحنين الجذع، ونبع الماء من كفه في الميضأة والتور والمزادة، وانشقاق القمر، ورد العين من العور، ونطق البعير والذئب والجمل، وكالنور المتوارث من آدم إلى جبهة أبيه من الأزل، وما سوى ذلك من المعجزات التي تداولتها الحملة، ونقلتها عن الألسنة الأول النقلة، مما لو أعملنا أنفسنا في حصرها لفني المداد في ذكرها. ولو بالغ الأولون والآخرون في إحصاء مناقبه لعجزوا عن استقصاء ما حباه الكريم به من مواهبه، ولكان الملم بساحل بحرها مقصراً عن حصر بعض فخرها، ولقد صح لبعض محبيه أن ينشدوا فيه:

وعلــــى تفنــــن واصفيــــه لنعتــــه ... يفنى الـزمـان وفيـه مـا لـم يـوصـف[1]

وأنه لخليق بمن ينشد:

فمـــا بلغـــت كـــف امـــرىء متنـــاولاً ... مـــن المجـــد إلا والـــذي نـــال أطـــول
ولا بلـــغ المهـــدون فـــي القـــول مـــدحـــه ... ولـــو حـــذقـــوا إلا الـــذي فيـــه أفضـــل[2]

ولله در إمام العارفين سيدي محمد وفا فلقد كفى وشفى بقوله:

مـــا شئـــت قـــل فيـــه فـــأنـــت مصـــدق ... فـــالحـــب يقضـــي والمحـــاســـن تشهـــد

ولقد أبدع الإمام الأديب شرف الدين الأبوصيري حيث قال:

دع مـــا ادعتـــه النصـــارى فـــي نبيهـــم ... واحكـــم بمـــا شئـــت مـــدحـــاً فيـــه واحتكـــم
وانســـب إلـــى ذاتـــه مـــا شئـــت مـــن شـــرف ... وانســـب إلـــى قـــدره مـــا شئـــت مـــن عظـــم
فـــإن فضـــل رســـول الله ليـــس لـــه ... حـــد فيعـــرب عنـــه نـــاطـــق بفـــم

يعني أن المداح وإن انتهوا إلى أقصى الغايات والنهايات لا يصلون إلى شأوه، إذ لا حدَّ له، ويحكى أنه رؤي الشيخ عمر بن الفارض السعدي في النوم فقيل له: لم لا مدحت النبي ﷺ فقال:

أرى كـــل مـــدح فـــي النبـــي مقصـــراً ... وإن بـــالـــغ المثنـــي عليـــه وأكثـــرا

(١) البيت منسوب لابن الفارض.
(٢) البيت منسوب للخنساء.

إذا الله أثنــى بــالــذي هــو أهلــه عليــه فمــا مقــدار مــا يمــدح الــورى

. قال الشيخ بدر الدين الزركشي: ولهذا لم يتعاط فحول الشعراء المتقدمين ـ كأبي تمام والبحتري وابن الرومي ـ مدحه ﷺ، وكان مدحه عندهم من أصعب ما يحاولونه، فإن المعاني دون مرتبته، والأوصاف دون وصفه، وكل غلو في حقه تقصير، فيضيق على البليغ بحال النظم، وعند التحقيق إذا اعتبرت جميع الأمداح التي فيها غلو بالنسبة إلى من فرضت له وجدتها صادقة في حق النبي ﷺ، حتى كأن الشعراء على صفاته كانوا يعتمدون وإلى أمداحه كانوا يقصدون، وقد أشار الأبوصيري بقوله: «دع ما ادعته النصارى في نبيهم» إلى ما أطرت النصارى به عيسى ابن مريم من اتخاذه إلهاً. قال النيسابوري: إنهم صحفوا في الإنجيل «عيسى نبي وأنا ولدته» فحرفوا الأول بتقديم الباء الموحدة وخففوا اللام في الثاني، فلعنة الله على الكافرين. فإن قلت: هل ادعى أحد في نبينا ﷺ ما ادعي في عيسى؟ أجيب: بأنهم قد كادوا أن يفعلوا نحو ذلك حين قالوا له ﷺ: أفلا نسجد لك؟ قال: «لو كنت آمراً أحد أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[1] فنهاهم عما عساه يبلغ بهم من العبادة.

. وقد جاء في صفته في حديث ابن أبي هالة: ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء، أي: مقارب في مدحه غير مفرط فيه. وقال ابن قتيبة معناه؛ إلا أن يكون ممن له عليه منة، فيكافئه الآخر، وغلطه ابن الأنباري: بأنه لا ينفك أحد من إنعام رسول الله ﷺ، لأن الله بعثه رحمة للعالمين، فالثناء عليه فرض عليهم، لا يتم الإسلام إلا به. قال: وإنما المعنى: لا يقبل الثناء إلا من رجل عرف حقيقة إسلامه.

ثم إن حاصل معجزاته وباهر آياته وكراماته ﷺ كما نبه عليه القطب القسطلاني يرجع إلى ثلاثة أقسام:

. ماض: وجد قبل كونه، فقضى بمجده.

ومستقبل: وقع بعد مواراته في لحده.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح باب (٤٠) رقم الحديث (٢١٤٠) وفي سنن الترمذي كتاب الرضاع باب (١٠) رقم الحديث (١١٥٩) وفي سنن ابن ماجة كتاب النكاح باب (٤) رقم الحديث (١٨٥٢ و ١٨٥٣) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٩ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٨١ و ٦/ ٧٦ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ١٨٧ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٥٦ وفي الدر المنثور للسيوطي ٢/ ١٥٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٩١ وفي المعجم الكبير للطبراني ٥/ ٢٣٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٣١٠ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٢٢٨ وفي المغني للعراقي ٢/ ٥٩ وفي كنز العمال (٤٤٧٧٣ ـ ٤٤٧٧٦ ـ ٤٤٨٠٠).

وكائن معه من حين حمله ووضعه إلى أن نقله الله إلى محل فضله وموطن جمعه.

فأما القسم الأول الماضي وهو ما كان قبل ظهوره إلى هذا الوجود، فقد ذكرت منه جملة في المقصد الأول، كقصة الفيل وغير ذلك، مما هو تأسيس لنبوته وإرهاص لرسالته، قال الإمام فخر الدين الرازي: ومذهبنا: أنه يجوز تقديم المعجزة تأسيساً وإرهاصاً، قال: ولذلك قالوا: كانت الغمامة تظله، يعني في سفره قبل النبوة، خلافاً للمعتزلة القائلين بأنه لا يجوز أن تكون المعجزة قبل الإرسال. انتهى.

وقد تقدم أول هذا المقصد: أن الذي عليه جمهور أئمة الأصول وغيرهم: أن هذا ونحوه مما هو متقدم على الدعوى لا يسمى معجزة، بل تأسيساً للرسالة وكرامة للرسول ﷺ.

وأما القسم الثاني: وهو ما وقع بعد وفاته ﷺ فكثير جداً، إذ في كل حين يقع لخواص أمته من خوارق العادات بسببه مما يدل على تعظيم قدره الكريم ما لا يحصى كالاستغاثة به وغير ذلك مما يأتي في المقصد الأخير، في أثناء الكلام على زيارة قبره الشريف المنير.

وأما القسم الثالث: وهو ما كان معه من حين ولادته إلى وفاته، فكالنور الذي خرج معه حتى أضاء له قصور الشام وأسواقها، حتى رؤيت أعناق الإبل ببصرى، ومسح الطائر على فؤاد أمه حتى لم تجد ألماً لولادته، والطواف به في الآفاق، إلى غير ذلك. وكانشقاق القمر عند اقتراحه عليه، وانضمام الشجرتين لما دعاهما إليه، وكإطعام الجيش الكثير من النزر اليسير، في عدة من المواضع واستيلاء الفجائع، وغير ذلك مما أمده الله تعالى به من المعجزات، وأكرمه به من خوارق العادات تأييداً لإقامة حجته، وتمهيداً لهداية محجته، وتأييداً لسيادته في كل أمة، وتسديداً لمن ادكر بعد أمة، مما تتبعه يخرج عن مقصود الاختصار، إذ هو باب فسيح المجال منيع المنال، لكني أنبه من ذلك على نبذة يسيرة، وأنوه في أثنائها بجملة خطيرة. فأقول وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

أما معجزة انشقاق القمر[1]، فقد قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ [القمر: ١]. الآية، والمراد وقوع انشقاقه، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ [القمر: ٢]. فإن ذلك ظاهر في أن المراد بقوله: «انشق» وقوع انشقاقه، لأن الكفار لا يقولون ذلك يوم القيامة، وإذا تبين أن قولهم

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ٧٦.

إنما هو في الدنيا تبين وقوع الانشقاق وأنه المراد بالآية التي زعموا أنها سحر، وسيأتي ذلك صريحاً في حديث ابن مسعود وغيره.

واعلم أن القمر لم ينشق لأحد غير نبينا ﷺ، وهو من أمهات معجزاته ﷺ. وقد أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه لأجله ﷺ، فإن كفار قريش لما كذبوه ولم يصدقوه طلبوا منه آية تدل على صدقه في دعواه، فأعطاه الله هذه الآية العظيمة، التي لا قدرة لبشر على إيجادها، دلالة على صدقه ﷺ في دعواه الوحدانية لله تعالى، وأنه منفرد بالربوبية، وأن هذه الآلهة التي يعبدونها باطلة لا تنفع ولا تضر، وأن العبادة إنما تكون لله وحده لا شريك له.

قال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة، لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماوات خارجاً عن جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس فيما يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر. انتهى.

وقال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث - يعني حديث انشقاق القمر - جماعة كثيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا. وتأيد بالآية الكريمة. انتهى.

وقال العلامة ابن السبكي في شرحه لمختصر ابن الحاجب: والصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر، منصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق من حديث شعبة عن سليمان عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود، ثم قال: وله طرق أخر شتى، بحيث لا يمتري في تواتره. انتهى.

وقد جاءت أحاديث الانشقاق في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم: أنس، وابن مسعود، وابن عباس، وعلي، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر، وغيرهم. فأما أنس وابن عباس فلم يحضرا ذلك، لأنه كان بمكة قبل الهجرة بنحو خمس سنين، وكان ابن عباس إذ ذاك لم يولد، وأما أنس فكان ابن أربع سنين أو خمس بالمدينة، وأما غيرهما فيمكن أن يكون شاهد ذلك.

ففي الصحيحين: من حديث أنس رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما، وقوله: شقتين - بكسر الشين المعجمة - أي نصفين. ومن حديث ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ «اشهدوا»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٧) رقم الحديث (٣٦٣٦ - ٣٨٦٩ - ٣٨٧ - ٤٨٦٤ -=

وفي الترمذي من حديث ابن عمر، في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ قال: قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقتين، فلقة دون الجبل، وفلقة فوق الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا». وعند الإمام أحمد، من حديث جبير بن مطعم قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس.

وعن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقال كفار قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، قال: فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السفار فأخبروهم بذلك، رواه أبو داود الطيالسي.

ورواه البيهقي بلفظ: انشق القمر بمكة فقالوا: سحركم ابن أبي كبشة، فاسألوا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق وإن لم يكونوا رأوا ما رأيتم فهو سحر، فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا: رأيناه.

وعند أبي نعيم في الدلائل من حديث ضعيف عن ابن عباس قال: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فسأل ربه فانشق. وعند البخاري مختصراً من حديث ابن عباس بلفظ: إن القمر انشق على عهد رسول الله ﷺ، وابن عباس وإن كان لم يشاهد القصة كما قدمته، ففي بعض طرقه أنه حمل الحديث عن ابن مسعود. وعند مسلم من حديث شعبة عن قتادة بلفظ فأراهم انشقاق القمر مرتين[1].

وكذا في مصنف عبد الرزاق عن معمر بلفظ مرتين أيضاً. واتفق الشيخان عليه من رواية شعبة عن قتادة بلفظ: فرقتين، كما في حديث جبير عند أحمد. وفي حديث ابن عمر فلقتين ـ باللام ـ كما قدمته. وفي لفظ من حديث جبير: فانشق باثنتين. وفي رواية

= ٤٨٦٥). وفي سنن الترمذي في كتاب الفتن باب (٢٠) رقم الحديث (٢١٨٢). وفي صحيح مسلم في كتاب صفات المنافقين. رقم الحديث (٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٧٧ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٢. وفي الدر المنثور للسيوطي ٦/ ١٣٣ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٦٦. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٨٥٥). وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٩٥. وفي تفسير ابن كثير ٧/ ٤٤٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٩٤ وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٨٥) وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (١) رقم الحديث (٤٨٦٧) وفي صحيح مسلم كتاب المنافقين رقم الحديث (٤٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٠٧ و ٢٢٠.

عن ابن عباس عند أبي نعيم في الدلائل: فصار قمرين. ووقع في نظم السيرة للحافظ أبي الفضل العراقي: وانشق مرتين بالإجماع. قال الحافظ ابن حجر: وأظن قوله: «بالإجماع» يتعلق بـ«انشق» لا بـ«مرتين»، فإني لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق في زمنه ﷺ. ولعل قائل «مرتين» أراد: فرقتين. وهذا الذي لا يتجه غيره جمعاً بين الروايات. وقد وقع في رواية البخاري من حديث ابن مسعود: ونحن بمنى، وهذا لا يعارض قول أنس: إن ذلك كان بمكة، لأنه لم يصرح بأنه ﷺ كان ليلتئذٍ بمكة. فالمراد أن الانشقاق كان وهم بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة والله أعلم.

وقد أنكر هذه المعجزة جماعة من المبتدعة، كجمهور الفلاسفة، متمسكين بأن الأجرام العلوية لا يتهيأ فيها الانخراق والالتئام، وكذا قالوا في فتح أبواب السماء ليلة الإسراء، إلى غير ذلك. وجواب هؤلاء: إن كانوا كفاراً أن يناظروا أولاً على ثبوت دين الإسلام، فإذا تمت اشتركوا مع غيرهم ممن أنكر ذلك من المسلمين، ومتى سلَّم المسلم بعض ذلك دون بعض لزم التناقض. وأيضاً لا سبيل إلى إنكار ما ثبت في القرآن من الانخراق والالتئام في القيامة، وإذا ثبت هذا استلزم الجواز، ووقوعه معجزة للنبي ﷺ. وقد أجاب القدماء عن ذلك، فقال أبو إسحاق الزجاج في «معاني القرآن»: أنكر بعض المبتدعة الموافقين لمخالفي الملة انشقاق القمر، ولا إنكار للعقل فيه، لأن القمر مخلوق لله يفعل فيه ما يشاء، كما يكوره يوم القيامة ويفنيه. انتهى.

وأما قول بعض الملاحدة: لو وقع هذا النقل جاء متواتراً واشترك أهل الأرض كلهم في معرفته، ولم يختص بها أهل مكة، لأنه أمر صدر عن حس ومشاهدة، فالناس فيه شركاء، والدواعي متوفرة على رواية كل غريب، ونقل ما لم يعهد، ولو كان لذلك أصل لخلد في كتب التسيير والتنجيم، إذ لا يجوز إطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره.

فأجاب عنه الخطابي وغيره: بأن هذه القصة خرجت عن الأمور التي ذكروها، لأنه شيء طلبه خاص من الناس، فوقع ليلاً، لأن القمر لا سلطان له بالنهار، ومن شأن الليل أن يكون الناس فيه نياماً ومستكنين في الأبنية، والبارز منهم في الصحراء إذا كان يقظاناً يحتمل أن يتفق أنه كان في ذلك الوقت مشغولاً بما يلهيه من سمر وغيره. ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مراكز القمر ناظرين إليه ولا يغفلوا عنه، فقد يجوز أنه وقع ولم يشعر به أكثر الناس، وإنما رآه من تصدى لرؤيته ممن اقترح وقوعه، ولعل ذلك إنما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر، وقد يكون القمر حينئذٍ في بعض المنازل التي تظهر لبعض الآفاق دون بعض، كما يكون ظاهراً لقوم غائباً عند قوم، وكما يجد الكسوف أهل بلد دون بلد آخر.

وقد أبدى الخطابي حكمة بالغة في كون المعجزات المحمدية لم يبلغ شيء منها مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيه كالقرآن بما حاصله: إن معجزة كل نبي كانت إذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب بها من قومه، والنبي ﷺ بعث رحمة للعالمين، فكانت معجزته التي تحدى بها عقلية، فاختص بها القوم الذين بعث منهم، لما أوتوه من فضل العقول وزيادة الأفهام، ولو كان إدراكها عاماً لعوجل من كذب بها كما عوجل من قبلهم. انتهى. وكذا أجاب ابن عبد البر بنحوه.

تنبيه: ما يذكره بعض القصاص: أن القمر دخل في جيب النبي ﷺ وخرج من كمه، فليس له أصل، كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشي عن شيخه العماد بن كثير.

وأما رد الشمس له ﷺ[1]، فروي عن أسماء بنت عميس أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي رضي الله عنه، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله ﷺ: «أصليت يا علي؟» فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس»، قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت ووقعت على الجبال والأرض، وذلك في الصهباء في خيبر[2]، رواه الطحاوي في مشكل الحديث، كما حكاه القاضي عياض في الشفاء وقال: قال الطحاوي: إن أحمد بن صالح كان يقول: لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء لأنه من علامات النبوة. انتهى.

قال بعضهم: هذا الحديث ليس بصحيح، وإن أوهم تخريج القاضي عياض له في الشفاء عن الطحاوي من طريقين، فقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات وقال: إنه موضوع بلا شك وفي سنده أحمد بن داود وهو متروك الحديث كذاب، كما قال الدارقطني. وقال ابن حبان: كان يضع الحديث.

قال ابن الجوزي: وقد روى هذا الحديث ابن شاهين فذكره ثم قال: وهذا حديث باطل، قال: ومن تغفل واضعه أنه نظر إلى صورة فضيلة، ولم يلمح عدم الفائدة فيها، فإن صلاة العصر بغيبوبة الشمس تصير قضاء، ورجوع الشمس لا يعيدها أداء. انتهى.

وقد أفرد ابن تيمية تصنيفاً مفرداً في الرد على الروافض ذكر فيه الحديث بطرقه ورجاله وأنه موضوع، والعجب من القاضي مع جلالة قدره وعلو خطره في علوم

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ٨٠ و ٢٨٦ وما بعدها.

(٢) ذكره السيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ١٧٤ وابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ٨٠، ٨١، ٨٥ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (٩٦) وفي تفسير القرطبي ١٥/ ٩٧ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/ ٩ و ٤/ ٣٨٨.

الحديث كيف سكت عنه موهماً صحته، ناقلاً ثبوته، موثقاً رجاله. انتهى.

وقال شيخنا: قال أحمد: لا أصل له، وتبعه ابن الجوزي فأورده في الموضوعات. ولكن قد صححه الطحاوي والقاضي عياض، وأخرجه ابن منده وابن شاهين من حديث أسماء بنت عميس، وابن مردويه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه انتهى.

ورواه الطبراني في معجمه الكبير بإسناد حسن كما حكاه شيخ الإسلام ابن العراقي في شرح التقريب عن أسماء بنت عميس ولفظه: أن رسول الله ﷺ صلى الظهر بالصهباء ثم أرسل علياً في حاجة فرجع وقد صلى النبي ﷺ العصر، فوضع ﷺ رأسه في حجر علي ونام، فلم يحركه حتى غابت الشمس، فقال ﷺ: «اللهم إن عبدك علياً احتبس بنفسه على نبيه فرد عليه الشمس» قالت أسماء: فطلعت عليه الشمس حتى وقعت على الجبال وعلى الأرض، وقام علي فتوضأ وصلى العصر ثم غابت وذلك بالصهباء.

وفي لفظ آخر: كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغشى عليه، فأنزل الله عليه يوماً وهو في حجر علي، فقال له النبي ﷺ: «صليت العصر يا علي؟» فقال: لا، يا رسول الله، فدعا الله فرد عليه الشمس حتى صلى العصر قالت أسماء: فرأيت الشمس طلعت بعدما غابت حين ردت حتى صلى العصر.

قال: وروى الطبراني أيضاً في معجمه الأوسط بإسناد حسن عن جابر: أن رسول الله ﷺ أمر الشمس فتأخرت ساعة من نهار.

وروى يونس بن بكير في زيادة المغازي في روايته عن ابن إسحاق، مما ذكره القاضي عياض: لما أسري بالنبي ﷺ وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير، قالوا: متى تجيء؟ قال: «يوم الأربعاء»[1]، فلما كا ، ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون، وقد ولى النهار، ولم تجيء، فدعا رسول الله ﷺ فزيد له في النهار ساعة وحبست عليه الشمس. انتهى.

وهذا يعارضه قوله في الحديث: لم تحبس الشمس على أحد إلا ليوشع بن نون، يعني حين قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس خاف أن تغيب قبل أن يفرغ منهم ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم، فدعا الله تعالى فرد عليه الشمس حتى فرغ من قتالهم.

قال الحافظ ابن كثير: فيه أن هذا كان من خصائص يوشع، فيدل على ضعف الحديث الذي رويناه أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب، وقد صححه

---

(١) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٢٨٤.

أحمد بن صالح المصري، ولكنه منكر، ليس في شيء من الصحاح والحسان، وهو مما تتوفر الدواعي على نقله، وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها. انتهى. ويحتمل الجمع: بأن المعنى لم تحبس الشمس على أحد من الأنبياء غيري إلا ليوشع، والله أعلم.

وكذا روي حبس الشمس لنبينا ﷺ أيضاً يوم الخندق، حين شغل عن صلاة العصر، فيكون حبس الشمس مخصوصاً بنبينا ﷺ وبيوشع، كما ذكره القاضي عياض في الإكمال، وعزاه لمـ نكل الآثار، ونقله النووي في شرح مسلم في باب حل الغنائم عن عياض وكذا الحا؛ ـ ابن حجر في باب الأذان في تخريج أحاديث الرافعي ومغلطاي في الزهر الباسم، و' روه. وتعقب: بأن الثابت في الصحيح وغيره: أنه ﷺ صلى العصر في وقعة الخندق بعدما غربت الشمس. كما سبق في غزوتها. وذكر البغوي في تفسيره: أنها حبست لسليمان عليه السلام أيضاً، لقوله: ﴿ردوها علي﴾ [سورة ص: ٣٣][1]. ونوزع فيه بعدم ذكر الشمس في الآية، فالمراد: الصافنات الجياد والله أعلم.

قال القاضي عياض: واختلف في حبس الشمس المذكور هنا، فقيل: ردت على أدراجها وقيل: وقفت ولم ترد، وقيل: بطء حركتها. قال: وكل ذلك من معجزات النبوة. انتهى.

وأما ما روي من طاعات الجمادات وتكليمها له بالتسبيح والسلام ونحو ذلك مما وردت به الأخبار، فمنها تسبيح الطعام والحصا في كفه الشريف ﷺ[2]. فخرج محمد بن يحيى الذهلي في الزهريات قال: أخبرنا أبو اليمان قال حدثنا شعيب عن الزهري قال: ذكر الوليد بن سويدان رجلاً من بني سليم كبير السن كان ممن أدرك أبا ذر بالربذة: عن أبي ذر قال: هجرت يوماً من الأيام، فإذا النبي ﷺ قد خرج من بيته فسألت عنه الخادم فأخبرني أنه ببيت عائشة، فأتيته وهو جالس ليس عنده أحد من الناس، وكأني حينئذٍ أرى أنه في وحي، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: «ما جاء بك قلت الله ورسوله» فأمرني أن أجلس فجلست إلى جنبه، لا أسأله عن شيء ولا يذكره لي، فمكثت غير كثير، فجاء أبو بكر يمشي مسرعاً فسلم عليه، فرد عليه السلام، ثم قال: «ما جاء بك؟» قال: جاء بي الله ورسوله، فأشار بيده أن اجلس، فجلس إلى ربوة مقابل النبي ﷺ، ثم جاء عمر ففعل مثل ذلك، ثم قال له رسول الله ﷺ مثل ذلك، وجلس إلى جنب أبي بكر، ثم جاء عثمان كذلك

---

(١) انظر تفسير البغوي ٤/ ٥٢ سورة ص آية (٣٣).

(٢) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٣٨ وما بعدها ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٦٤.

وجلس إلى جنب عمر، ثم قبض رسول الله ﷺ على حصيات سبع أو تسع أو ما قرب من ذلك، فسبحن في يده، حتى سمع لهن حنين كحنين النحل في كف رسول الله ﷺ، ثم ناولهن أبا بكر، وجاوزني، فسبحن في كف أبي بكر، ثم أخذهن منه فوضعهن في الأرض فخرسن وصرن حصى، ثم ناولهن عمر، فسبحن في كفه، كما سبحن في كف أبي بكر، ثم أخذهن منه فوضعهن في الأرض فخرسن، ثم ناولهن عثمان فسبحن في كفه، كما سبحن في كف أبي بكر وعمر، ثم أخذهن فوضعهن في الأرض فخرسن[1].

وقال الحافظ ابن حجر: قد اشتهر على الألسنة تسبيح الحصى. ففي حديث أبي ذر قال: تناول النبي ﷺ سبع حصيات فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبحن، ثم وضعهن في يد عمر فسبحن، ثم وضعهن في يد عثمان فسبحن، أخرجه البزار، والطبراني في الأوسط.

وفي رواية الطبراني: فسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا، قال البيهقي في «الدلائل»[2]: كذا رواه صالح بن أبي الأخضر ـ ولم يكن بالحافظ ـ عن الزهري عن سويد بن يزيد السلمي عن أبي ذر. والمحفوظ مارواه شعيب عن أبي حمزة عن الزهري قال: ذكر الوليد بن سويد أن رجلاً من بني سليم كان كبير السن، انتهى. وليس لحديث تسبيح الحصى إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها، لكنه مشهور عند الناس. وما أحسن قول سيدي محمد وفا رحمه الله تعالى حيث قال:

لسبحة ذاك الوجه قد سبح الحصا ... ومن سح سحب الكف قد سبح الرعد

وقال الآخر:

ياحبذا لو لثمت كفاً ... قد سبحت وسطها الحصاء

وقد أخرج البخاري من حديث ابن مسعود: كنا نأكل مع النبي ﷺ الطعام، ونحن نسمع تسبيح الطعام[3]. وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: مرض النبي ﷺ فأتاه جبريل بطبق فيه رمان وعنب فأكل منه النبي ﷺ فسبح[4]. رواه القاضي عياض في «الشفاء»

---

(١) ذكره ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٢/١٠٨ وفي الشفا للقاضي عياض ١/٣٠٦.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦/٦٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٥٧٩). وفي الترمذي كتاب المناقب باب (٦) رقم الحديث (٣٦٣٣) وفي سنن الدارمي في المقدمة رقم الحديث (٥) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٤٦٠. وفي الشفا للقاضي عياض ١/٣٠٦. وفي التمهيد لابن عبد البر ١/٢١٩. وفي البداية والنهاية ٦/١٠١.

(٤) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/٣٠٧. وقال السيوطي: لم أجده في كتب الحديث.

ونقله عنه الحافظ أبو الفضل في فتح الباري.

واعلم أن التسبيح من قبيل الألفاظ الدالة على معنى التنزيه. واللفظ يوجد حقيقة ممن قام به اللفظ، فيكون في غير من قام به مجازاً، فالطعام والحصا والشجر ونحو ذلك، كل منها متكلم باعتبار خلق الكلام فيها حقيقة، وهذا من قبيل خرق العادة. وفي قوله: «ونحن نسمع تسبيحه» تصريح بكرامة الصحابة لسماع هذا التسبيح وفهمه وذلك ببركته ﷺ.

ومن ذلك تسليم الحجر عليه ﷺ[1]: خرج مسلم من حديث جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»[2]. وقد اختلف في هذا الحجر، فقيل: هو الحجر الأسود، وقيل: حجر غيره بزقاق يعرف به بمكة، والناس يتبركون بلمسه، ويقولون: إنه هو الذي كان يسلم على النبي ﷺ متى اجتاز به.

وقد ذكر الإمام أبو عبد الله، محمد بن رشيد ـ بضم الراء ـ في رحلته مما ذكره في «شفاء الغرام» عن علم الدين أحمد بن أبي بكر بن خليل قال: أخبرني عمي سليمان قال: أخبرني محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف قال: أخبرني أبو حفص الميانشي قال: أخبرني كل من لقيته بمكة أن هذا الحجر ـ يعني المذكور ـ هو الذي كلم النبي ﷺ[3].

وروى الترمذي والدارمي والحاكم وصححه، عن علي بن أبي طالب قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا حجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. وعن عائشة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما استقبلني جبريل بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله»[4] رواه البزار وأبو نعيم. وعن جابر بن عبد الله قال: لم يكن النبي ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له[5]

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٦٩ وما بعدها.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل رقم الصفحة (١٧٨٢) وفي سنن الدارمي ١/ ١٢ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٨٩ ـ ٩٥ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٣٠٧. وفي المعجم الكبير للطبراني ٢/ ٢٥٧. وفي المعجم الصغير للطبراني ١/ ٦٢. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٥٣. وفي السيرة لابن هشام ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣. وفي طبقات ابن سعد ١/ ١٥٧ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٨٥٣) وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٩٢ وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/ ٨٤. وفي دلائل النبوة لابي نعيم (١٤٢) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٨٧ وفي كنز العمال (٣٢٠٠٠).

(٣) هو الحجر المبني في الجدار المقابل لدار أبي بكر المشهور بسوق الليل.

(٤) ذكره الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٢ وفي دلائل النبوة لابي نعيم ١/ ٦٩.

(٥) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٣٠٧. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٦٩.

ومن ذلك: تأمين أسكفة الباب وحوائط البيت على دعائه ﷺ، عن أبي أسيد الساعدي قال قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب: «يا أبا الفضل، لا ترم منزلك أنت وبنوك غداً حتى آتيكم، فإن لي فيكم حاجة». فانتظروه حتى جاء بعدما أضحى، فدخل عليهم فقال: «السلام عليكم»، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، قال: «كيف أصبحتم؟» قالوا: أصبحنا بخير بحمد الله، فقال لهم: «تقاربوا» فتقاربوا يزحف بعضهم إلى بعض، حتى إذا أمكنوه اشتمل عليهم بملاءته فقال: «يا رب، هذا عمي، وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه، قال: فأمنت أسكفة الباب، وحوائط البيت فقال: آمين آمين آمين»[1] رواه البيهقي في الدلائل وابن ماجه مختصراً.

ومن ذلك كلامه للجبل وكلام الجبل له ﷺ، عن أنس قال: صعد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان أحداً، فرجف بهم، فضربه النبي ﷺ برجله وقال: «اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»[2] رواه أحمد والبخاري والترمذي وأبو حاتم. قال ابن المنير: قيل الحكمة في ذلك أنه لما رجف أراد رسول الله ﷺ أن يبين أن هذه الرجفة ليست من جنس رجفة الجبل بقوم موسى لما حرفوا الكلم، وأن تلك رجفة الغضب، وهذه هزة الطرب، ولهذا نص على مقام النبوة والصديقية والشهادة التي توجب سرور ما اتصلت به لا رجفانه، فأقر الجبل بذلك فاستقر، انتهى.

وأحد: جبل بالمدينة، وهو الذي قال فيه: «أحد جبل يحبنا ونحبه». رواه البخاري ومسلم. واختلف في المراد بذلك، فقيل: أراد به أهل المدينة، كما قال تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف: ٨٢]. أي أهلها، قاله الخطابي، وقال البغوي فيما حكاه الحافظ المنذري: الأولى إجراؤه على ظاهره، ولا ينكر وصف الجمادات بحب الأنبياء والأولياء، وأهل الطاعة، كما حنت الأسطوانة على مفارقته ﷺ حتى سمع الناس حنينها إلى أن سكنها، وكما أخبر أن حجراً كان يسلم عليه قبل الوحي، فلا ينكر أن يكون جبل

---

(٣) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٢٦٣ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٩٣ وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ٢٣٩ وفي البداية والنهاية ٦/ ١٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب (٦) رقم الحديث (٣٦٨٦) وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (٨١ - ٨٢ - ٢٥٥) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٣١. وفي سنن أبي داود كتاب السنة باب (٨) رقم الحديث (٤٦٥١). وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٥٥. وفي التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٢ و ١٧٨ وفي كنز العمال (٣٢٦٧٠ - ٣٦١١٧٩ - ٢٦٣٢٨). وفي الترمذي رقم الحديث (٣٦٩٧).

أحد وجميع أجزاء المدينة تحبه وتحن إلى لقائه حاله مفارقته إياها. انتهى.

وقال الحافظ المنذري: هذا الذي قاله البغوي جيد. وعن ثمامة عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ كان على ثبير مكة، ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض، فركله برجله وقال: «اسكن ثبير، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»[1]. خرجه النسائي والترمذي والدارقطني.

والحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل. وركله برجله: أي ضربه بها. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال ﷺ: «اسكن حراء، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد»[2]. وفي رواية: وسعد بن أبي وقاص، ولم يذكر علياً. خرجهما مسلم وانفرد بذلك. وخرجه الترمذي في مناقب عثمان، ولم يذكر «سعداً» وقال: «اهدأ» مكان «اسكن» وقال: حديث صحيح. وخرجه الترمذي أيضاً عن سعيد بن زيد وذكر أنه كان عليه العشرة إلا أبا عبيدة. وقال: اثبت حراء. وكذا رواه الخلعي عنه بنحوه، ولم يذكر أبا عبيدة بن الجراح. ورواه أيضاً إسحاق البغدادي فيما رواه الكبار عن الصغار، والآباء عن الأبناء، ولله در القائل.

ومال حراء من تحته فرحاً به ... لولا مقال «اسكن» تضعضع وانقضا

وحراء وثبير: جبلان متقابلان معروفان بمكة. واختلاف الروايات تحمل على أنها قضايا تكررت. قاله الطبري وغيره. لكن صحح الحافظ ابن حجر: أنه «أحد» قال: ولولا اتحاد المخرج لجوزت تعدد القصة، ثم ظهر لي أن الاختلاف فيه من سعيد، فإني وجدته في مسند الحارث بن أبي أسامة عن روح بن عبادة فقال فيه: «أحد» أو «حراء» بالشك. وقد أخرجه أحمد من حديث بريدة بلفظ حراء وإسناده صحيح. وأخرجه أبو يعلى من حديث سهل بن سعد بلفظ «أحد» وإسناده صحيح فقوى احتمال تعدد القصة.

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة ما يؤيد تعدد القصة، فذكر أنه كان على حراء ومعه المذكورون هنا وزاد معهم غيرهم. ولما طلبته ﷺ قريش قال له ثبير: اهبط يا

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب (18) رقم الحديث (3703) وفي سنن النسائي ٦/ ٢٣٦. وفي كنز العمال (٣٢٦٦٩ - ٣٣٠٩٩ - ٣٦٢٨٠).

(2) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٥٩. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ١٦٧. وفي سنن الدارقطني ٤/ ١٩٨. وفي التاريخ الكبير للبخاري ٨/ ١٠٥. وفي تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٥/ ٣٦٣. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٣. وفي البداية والنهاية ٧/ ٣٧٠.

رسول الله فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله، فقال له حراء: إلي يا رسول الله رواه في «الشفاء» وهو حديث مروي في الهجرة من السيرة. وحراء مقابل لثبير، والوادي بينهما، وهو على يسار السالك إلى منى، وحراء قبلي ثبير مما يلي شمال الشمس. وهذه الواقعة غير واقعة ثور في خبر الهجرة. هذا هو الظاهر والله أعلم.

قال السهيلي في حديث الهجرة: وأحسب في الحديث أن ثوراً ناداه أيضاً، لما قال له ثبير: اهبط عني. ومن ذلك كلام الشجر له وسلامها عليه وطواعيتها له، وشهادتها له بالرسالة ﷺ[1]. أخرج البزار وأبو نعيم من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لما أوحي إلي جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي سفيان طلحة بن نافع عن جابر قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ذات يوم وهو جالس حزين، قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: مالك؟ فقال لـه رسول الله ﷺ: «فعل بي هؤلاء وفعلوا»، فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ فقال: «نعم»، قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع تلك الشجرة فدعاها، قال فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع إلى مكانها، فأمرها فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: «حسبي حسبي»[2]، ورواه الدارمي من حديث أنس.

وعن علي قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله، رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

وخرج الحاكم في مستدركه بإسناد جيد عن ابن عمر قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فأقبل أعرابي، فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: «أين تريد» قال: إلى أهلي، قال: «هل لك إلى خير»، قال: وما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» قال: هل لك من شاهد على ما تقول؟ قال رسول الله ﷺ: «هذه الشجرة» فدعاها رسول الله ﷺ وهي على شاطىء الوادي فأقبلت تخد الأرض خداً، فقامت بين يديه فاستشهدها ثلاثاً فشهدت، ثم رجعت إلى منبتها[3]، الحديث. ورواه الدارمي أيضاً بنحوه.

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٢٨ ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٦٩ وما بعدها.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه ١/ ١٣ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٨٢ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٤٧٨.

(٣) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٤٣٢ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢١١٠) وفي تفسير ابن كثير ١/ ٤٣٠ وفي تفسير القرطبي ١٩/ ٥ وفي البداية والنهاية ٦/ ١٣٠.

وقوله: تخد ـ بضم الخاء المعجمة وتشديد الدال المهملة ـ أي تشق الأرض. وعن بريدة: سأل أعرابي النبي ﷺ آية، فقال له: «قل لتلك الشجر رسول الله يدعوك»، قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها، وبين يديها وخلفها، فتقطعت عروقها ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ فقالت: السلام عليك يا رسول الله، فقال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها، فرجعت فدلت عروقها في ذلك الموضع فاستقرت. فقال الأعرابي: ائذن لي أن أسجد لك، قال: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» رواه البزار في الشفاء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: «إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة، أتشهد أني رسول الله؟» قال: نعم فدعاه رسول الله فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: «ارجع» فعاد، فأسلم الأعرابي[1]، رواه الترمذي وصححه.

وفي حديث يعلى بن مرة الثقفي: ثم سرنا حتى نزلنا منزلاً فنام النبي ﷺ، فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ رسول الله ﷺ ذكرت له، فقال: «هي شجرة استأذنت ربها أن تسلم علي فأذن لها»[2] الحديث رواه البغوي في شرح السنة.

وفي حديث جابر بن عبد الله: سرنا مع سول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان في شاطىء الوادي فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «انقادي علي بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش[3] الذي يصانع قائده ، ثم فعل بالأخرى كذلك، حتى إذا كان بالمنصب بينهما قال: «التئما علي بإذن الله فالتأمتا»[4] الحديث رواه مسلم. والمنصف: ـ بفتح الميم ـ الموضع الوسط

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب باب (٦) رقم الحديث (٣٦٢٨) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٢٦) وفي المعجم الكبير للطبراني ١١٠/١٢ وفي التاريخ الكبير للبخاري ٣/٣ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١٧٣/٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٢٢) وفي اتحاف السادة المتقين ١٩٣/٧ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٣٩) وفي البداية والنهاية ١٤٥/٦.

(٣) الذي وضع في أنفه خشاش، أي عود من خشب لينقاد بسهولة.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزهد رقم الحديث (٧٤) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩٤/١ وفي الشفا للقاضي عياض ٢٩٩/١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٨/٦ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٣٩)=

بين الموضعين. والتلاؤم: الاجتماع. ولله در الأبوصيري حيث قال:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة　　تمشي إليه على ساق بلا قدم
كأنما سطرت سطراً لما كتبت　　فروعها من بديع الخط في اللقم

فشبه آثار مشي الشجر لما جاءت إليه ﷺ بكتابة كاتب أوقعها على نسبة معلومة في أسطر منظومة.

وإذا كانت الأشجار تبادر لامتثال أمره ﷺ حتى تخر ساجدة بين يديه، فنحن أولى بالمبادرة لامتثال ما دعا إليه زاده الله شرفاً لديه.

وتأمل قول الأعرابي: «ائذن لي أن أسجد لك» لما رأى من سجود الشجرة، فرأى أنه أحرى بذلك، حتى أعلمه ﷺ أن ذلك لا يكون إلا لله، فحق على كل مؤمن أن يلازم السجود للحق المعبود، ويقوم على ساق العبودية، وإن لم يكن له قدم كما قامت الشجرة.

ومن ذلك: حنين الجذع شوقاً إليه ﷺ[1]. اعلم أن «الحنين» مصدر مضاف إلى الفاعل. والمراد: شوقه وانعطافه إلى النبي ﷺ، والذي في الأحاديث المسوقة هنا أنه صوت، ولعل المراد منه الدلالة على الشوق، أي الصوت الدال على شوقه إلى رسول الله ﷺ. والجذع: واحد جذوع النخل، وهو بالذال المعجمة. وقد روي حديث حنين الجذع عن جماعة من الصحابة من طرق كثيرة تفيد القطع بوقوع ذلك.

قال العلامة التاج ابن السبكي في شرحه لمختصر ابن الحاجب: والصحيح عندي أن حنين الجذع متواتر: رواه البخاري عن نافع عن ابن عمر. ورواه أحمد من رواية أبي جناب عن أبيه عن ابن عمر.

ورواه ابن ماجه وأبو يعلى الموصلي وغيرهما من رواية حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس، وإسناده على شرط مسلم. ورواه الترمذي وصححه، وأبو يعلى وابن خزيمة والطبراني والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، يلزمه إخراجه من رواية إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس. ورواه الطبراني من رواية الحسن عن أنس. ورواه أحمد وابن منيع والطبراني وغيرهم من رواية حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عامر عن ابن عباس. ورواه أحمد والدارمي وأبو يعلى وابن ماجه وغيرهم من رواية

= وفي التمهيد لابن عبد البر ١/ ٢٢٢ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٢ وفي البداية والنهاية ٦/ ٩٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٨٨٥).

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٣١ ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٦٤.

الطفيل بن أبي كعب عن أبيه. ورواه الدارمي من رواية أبي حازم عن سهل بن سعد. ورواه أبو محمد الجوهري من رواية عبد العزيز أبي رواد عن نافع عن تميم الداري.

ثم قال: ولست أدعي أن التواتر حاصل بما عددت من الطريق، بل من طرق أخرى كثيرة يجدها المحدث ضمن المسانيد والأجزاء وغيرها، وإنما ذكرت في المشاهد منها أو في بعضها، ورب متواتر عند قوم غير متواتر عند آخرين. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر: في فتح الباري، حنين الجذع وانشقاق القمر نقل كل منهما نقلاً مستفيضاً يفيد القطع عند من يطلع على طرق الحديث دون غيرهم ممن لا ممارسة له في ذلك، والله أعلم، انتهى.

وقال البيهقي: قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة التي حملها الخلف عن السلف، انتهى. وهذه الآية من أكبر الآيات والمعجزات الدالة على نبوة نبينا ﷺ. قال الشافعي ـ فيما نقله ابن أبي حاتم عنه، في مناقبه ـ: ما أعطى الله نبياً ما أعطى نبينا محمداً ﷺ، فقيل له: أعطي عيسى إحياء الموتى، قال: أعطي محمد حنين الجذع حتى سمع صوته، فهو أكبر من ذلك. وقال القاضي عياض: حديث حنين الجذع مشهور منتشر، والخبر به متواتر، أخرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر، منهم: أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري، وبريدة، وأم سلمة، والمطلب بن أبي وداعة، انتهى.

فأما حديث أبي، فرواه الشافعي من حديث الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع إذ كان المسجد عريشاً، وكان يخطب إلى ذلك الجذع، فقال رجل من أصحابه: هل لك أن نجعل لك منبراً تقوم عليه يوم الجمعة، وتسمع الناس خطبتك؟ قال: «نعم» فصنع له ثلاث درجات، هي التي على المنبر، فلما صنع وضعه رسول الله ﷺ موضعه الذي هو فيه، فكان إذا بدا لرسول الله ﷺ أن يخطب عليه، تجاوز الجذع الذي كان يخطب عليه، خار حتى تصدع وانشق، فنزل رسول الله ﷺ لما سمع صوت الجذع فمسحه بيده ثم رجع إلى المنبر، الحديث.

وأما حديث جابر، فرواه البخاري من طرق، وفي لفظ له: أن رسول الله ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار، أو رجل من الأنصار: ألا نجعل لك منبراً؟ قال: «إن شئتم»فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة رفع إلى المنبر، فصاحت النخلة فنزل رسول الله ﷺ وضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي

يسكن، قال: «كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها»[1].

وفي لفظ: قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها؛ فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار ـ وهو بكسر العين: النوق الحوامل ـ وفي حديث أبي الزبير عن جابر ـ عند النسائي في الكبرى ـ: اضطربت تلك السارية كحنين الناقة الخلوج. انتهى. والخلوج: ـ بفتح الخاء المعجمة، وضم اللام الخفيفة وآخره جيم ـ الناقة التي انتزع منها ولدها. والحنين: صوت المتألم المشتاق عند الفراق.

وإنما يشتاق إلى بركة الرسول ويتأسف على مفارقته أعقل العقلاء. والعقل والحنين بهذا الاعتبار يستدعي الحياة، وهذا يدل على أن الله عز وجل خلق فيه الحياة والعقل والشوق ولهذا حنَّ وأنَّ. فإن قيل: مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري: أن الأصوات لا يستلزم خلقها في المحل خلق الحياة ولا العقل.

أجيب: بأنه كذلك، ونحن لم نجعل الحياة لازمة، إلا أن الشوق إلى الحق شوقاً معنوياً عقلياً لا طبيعياً بهيمياً . ومذهب الشيخ أبي الحسن أن الذكر المعنوي والكلام النفسي يستلزمان الحياة استلزام العلم لها. وقد بينا أن هذه المعاني وجدت في الجذع، وأطلق الحاضرون حينئذ على صوته أنه حنين، وفهموا أنه شوق إلى الذكر وإلى مقام الحبيب عنده، وقد عامله النبي ﷺ هذه المعاملة، فالتزمه كما يلتزم الغائب أهله وأعزته يبرد غليل شوقهم إليه وأسفلهم عليه، ولله در القائل:

وحــن إليــه الجــذع شــوقــاً ورقــة ... ورجــع صــوتــاً كــالعشــار مــردداً
فبــادره ضمـــا فقـــر لـــوقتـــه ... لكــل امــرىء مــن دهــره مــا تعــودا[2]

وأما حديث أنس، فرواه أبو يعلى الموصلي بلفظ: إن رسول الله ﷺ كان يوم الجمعة يسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد يخطب الناس، فجاءه رُومي فقال: ألا أصنع لك شيئاً تقعد عليه كأنك قائم؟ فصنع له منبراً له درجتان ويقعد على الثالثة، فلما قعد رسول الله ﷺ على المنبر جأر الجذع كجؤر الثور، حتى ارتج المسجد لجؤاره حزناً على رسول الله ﷺ فنزل إليه رسول الله ﷺ عن المنبر فالتزمه وهو يجأر، فلما التزمه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٥٨٣ ـ ٣٥٨٤ ـ ٣٥٨٥) وفي سنن الترمذي كتاب المناقب باب (٦) رقم الحديث (٣٦٢٧) وفي سنن ابن ماجه كتاب الإقامة باب (١٩٩) رقم الحديث (١٤١٤) وفي الشفا للقاضي عياض ٣٠٣/١ وفي سنن الدارمي في المقدمة ١٥/١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥٥٦/٢ ـ ٥٥٨.

(٢) هو منسوب للشاعر: صالح بن الحسين.

سكت. ثم قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لو لم ألتزمه لما زال هكذا حتى تقوم الساعة حزناً على رسول الله ﷺ، فأمر به ﷺ فدفن»[1] ورواه الترمذي وقال: صحيح غريب.

وكذا رواه ابن ماجه والإمام أحمد من طريق الحسن عن أنس ولفظه: كان رسول الله ﷺ إذا خطب يوم الجمعة يسند ظهره إلى خشبة، فلما كثر الناس قال: «ابنوا لي منبراً» أراد أن يسمعهم، فبنوا له عتبتين، فتحول من الخشبة إلى المنبر، قال: فأخبر أنس بن مالك أنه سمع الخشبة تحن حنين الواله، قال: فما زالت تحن حتى نزل رسول الله ﷺ عن المنبر فمشى إليها فاحتضنها فسكتت.

ورواه أبو القاسم البغوي وزاد فيه: فكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى ثم قال: يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه من الله، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

ولله در القائل:

| | |
|---|---|
| وألقى حتى في الجمادات حبه | فكانت لإهداء السلام له تُهدى |
| وفارق جذعاً كان يخطب عنده | فأنَّ أنين الأم إذ تجد الفقدا |
| يحن إليه الجذع يا قوم هكذا | أما نحن أولى أن نحنَّ له وجدا |
| إذا كان جذع لم يطق بعد ساعة | فليس وفاء أن نطيق له بعدا |

وأما حديث سهل بن سعد، ففي الصحيحين من طرق. وأما حديث ابن عباس فعند الإمام أحمد بإسناد على شرط مسلم، ورواه ابن ماجه. وأما حديث إبن عمر، ففي البخاري. وأما حديث أبي سعيد الخدري، فعند عبد بن حميد. وأما حديث عائشة، فعند البيهقي وفي آخره: أنه خير الجذع بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة. وأما حديث بريدة، فعند الدارمي وفيه: أن النبي ﷺ قال: «إن شئت أردك إلى الحائط الذي كنت فيه تنبت لك عروقك ويكمل خلقك، ويجدد لك خوص وثمرة، وإن شئت أغرسك في الجنة فتأكل أولياء الله من ثمرك؟» ثم أصغى له النبي ﷺ ليسمع ما يقول، فقال: بل تغرسني في الجنة فيأكل مني أولياء الله وأكون في مكان لا أبلى فيه، فسمعه من يليه، فقال النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الإقامة باب (١٩٩) رقم الحديث (١٤١٥) وفي سنن الدارمي ١/١٩. وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/٢٤٩ ـ ٣٦٣. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/١٨٧ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٤٢) وفي التاريخ الكبير للبخاري ٧/٢٦ وفي البداية والنهاية ٦/١٣٢ وفي كنز العمال (٣١٧٨٤ ـ ٣٢٠٨٤).

«قد فعلت» ثم قال: «اختار دار البقاء على دار الفناء»[1]. وأما حديث أم سلمة، فعند أبي نعيم في الدلائل. والقصة واحدة، وما في ألفاظها مما ظاهره التغاير هو من الرواة. وعند التحقيق ترجع إلى معنى واحد، فلا نطيل بذكر ذلك والله أعلم.

وأما كلام الحيوانات وطاعتها له ﷺ:

فمنها: سجود الجمل وشكواه إليه ﷺ[2]. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه، وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وأن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش النخل والزرع، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا» فقاموا فدخل الحائط، والجمل في ناحية فمشى رسول الله ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول الله، قد صار مثل الكلب الكَلِب، وإنا نخاف عليك صولته، فقال رسول الله ﷺ: «ليس علي منه بأس» فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خر ساجداً بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كان قط، حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك، فقال رسول الله ﷺ: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، لو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»[3]، رواه أحمد والنسائي. والحائط: هو البستان. وقوله: نسني عليه: ـ بالنون والسين المهملة ـ أي نستقي عليه. وفي حديث يعلى بن مرة الثقفي: بينا نحن نسير مع النبي ﷺ إذ مررنا ببعير يسنى عليه، فلما رآه البعير جرجر، فوضع جرانه، فوقف عليه النبي ﷺ فقال: «أين صاحب هذا البعير»، فجاءه، فقال: «بعنيه»، فقال: بل نهبه لك يا رسول الله، وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره، فقال: «أما إذ ذكرت هذا من أمره، فإنه شكا كثرة العمل، وقلة العلف، فأحسنوا إليه» رواه البغوي في شرح السنة.

والجران: بكسر الجيم، قال ابن فارس: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره. وروى الإمام أحمد قصة أخرى نحو ما تقدم من حديث جابر ضعيفة السند، والبيهقي

---

(١) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٣٠٤.

(٢) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٤١ وما بعدها ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٨.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٥٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٤ وفي الدر المنثور للسيوطي ٢/ ١٥٤. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٢/ ٢٠٦ و ٥/ ٤٠٣. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٥٥. وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٣٧). وفي التاريخ الكبير للبخاري ٩/ ٢٨.

بإسناد جيد. وكذا روى الطبراني قصة أخرى عن عكرمة عن ابن عباس: لكن بإسناد ضعيف. والإمام أحمد أيضاً من حديث يعلى بن مرة.

وأخرج ابن شاهين في الدلائل عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه فأسر إلي حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس، قال: وكان أحب ما استتر به النبي ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل، فدخل حائط رجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ فذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه، وفي رواية فسكن، ثم قال: «من رب هذا الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار فقال: هذا لي يا رسول الله، فقال: «ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه»[1] قال في المصابيح: وهو حديث صحيح، قال: ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل عن مهدي بن ميمون.

والحائش: ـ بالحاء المهملة وبالشين المعجمة ممدوداً ـ هو جماعة النخل، لا واحد له من لفظه. وقوله: ذفران: تثنية ذفرا، بكسر الذال المعجمة مقصور، وهو الموضع الذي يعرف من قفا البعير عند أذنه.

ومنها: سجود الغنم له ﷺ[2]، عن أنس بن مالك قال: دخل رسول الله ﷺ حائطاً للأنصار ومعه أبو بكر وعمر ورجل من الأنصار، وفي الحائط غنم فسجدت له، فقال أبو بكر: يا رسول الله، نحن أحق بالسجود لك من هذه الغنم، فقال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد»رواه أبو محمد عبد الله بن حامد الفقيه في كتاب دلائل النبوة بإسناد ضعيف. وذكره القاضي عياض في الشفاء وذكر أيضاً عن جابر بن عبد الله عن رجل أتى النبي ﷺ وآمن به وهو على بعض حصون خيبر، وكان من غنم يرعاها لهم، فقال: يا رسول الله، كيف لي بالغنم، قال: «احصب وجوهها فإن الله سيؤدي عنك أمانتك ويردها إلى أهلها» ففعل فسارت كل شاة حتى دخلت إلى أهلها[3]. ومنها: قصة كلام الذئب وشهادته له بالرسالة[4]. اعلم أنه قد جاء حديث قصة كلام الذئب في عدة طرق من

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب (٤٤) رقم الحديث (٢٥٤٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٠٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ١٣ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ١٠٠ وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٠٦ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩١٢٢) وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ٣٢٩ وفي كنز العمال (٢٤٩٨٢).

(٢) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٥٠.

(٣) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٤٣ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ١٣٦ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٢١ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٣ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٣١١ وما بعدها.

(٤) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٥٠ ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٣٩ و ٤١.

حديث أبي هريرة وأنس وابن عمر وأبي سعيد الخدري. فأما حديث أبي سعيد، فرواه الإمام أحمد بإسناد جيد ولفظه: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانتزعها منه فأقعى الذئب على ذنبه وقال: ألا تتقي الله؟ تنزع مني رزقاً ساقه الله إلي، فقال الراعي: يا عجباً، ذئب مقع على ذنبه يكلمني بكلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك: محمد بيثرب يخبر الناس بأنباء ما سبق قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة، ثم خرج فقال للأعرابي: «أخبرهم»[1] فأخبرهم.

وأما حديث ابن عمر فأخرجه أبو سعد الماليني والبيهقي. وأما حديث أنس فأخرجه أبو نعيم في الدلائل. وأما حديث أبي هريرة، فرواه سعيد بن منصور في سننه قال: جاء الذئب فأقعى بين يدي رسول الله ﷺ وجعل يبصبص بذنبه فقال رسول الله ﷺ «هذا وافد الذئاب جاء يسألكم أن تجعلوا له من أموالكم شيئاً» قالوا: والله لا نفعل، وأخذ رجل من القوم حجراً رماه به، فأدبر الذئب وله عواء، فقال رسول الله ﷺ «الذئب وما الذئب».

وروى البغوي في شرح السنة وأحمد وأبو نعيم بسند صحيح عن أبي هريرة أيضاً قال: جاء ذئب إلى راعي غنم فأخذ منه شاة، فطلبه الراعي حتى انتزعها منه، قال فصعد الذئب على تل فأقعى واستثفر وقال: عمدت إلى رزق رزقنيه الله أخذته ثم انتزعته مني فقال الرجل: تالله إن رأيت كاليوم ذئب يتكلم، فقال الذئب: أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى وما هو كائن بعدكم، ولا تتبعونه، قال: وكان الرجل يهودياً فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره وأسلم فصدقه النبي ثم قال ﷺ: «إنها أمارات بين يدي الساعة، قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى يحدثه فعلاه وسوطه بما أحدث أهله بعده». واستثفر: ـ بالسين والمثناة ثم المثلثة والفاء آخره راء ـ كاستفعل، أي جعل ذنبه بين رجليه كما يفعل الكلب.

قال القاضي عياض: وفي بعض الطرق عن أبي هريرة: فقال الذئب أنت أعجب مني واقفاً على غنمك وتركت نبياً لم يبعث الله قط أعظم منه عنده قدراً، وقد فتحت له أبواب الجنة وأشرف أهلها على أصحابه ينظرون قتالهم وما بينك وبينه إلا هذا الشعب، فتصير من جنود الله. قال الراعي: من لي بغنمي؟ قال الذئب: أنا أرعاها حتى ترجع، فأسلم الرجل إليه غنمه ومضى، وذكر قصته وإسلامه ووجوده النبي ﷺ يقاتل، فقال له.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٨٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٩١ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٤.

النبي ﷺ: «عد إلى غنمك تجدها بوفرها» فوجدها كذلك، وذبح للذئب شاة منها.

وقد روى ابن وهب مثل هذا أنه جرى لأبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية مع ذئب وجداه أخذ ظبياً، فدخل الظبي الحرم فانصرف الذئب، فعجبا من ذلك فقال الذئب: أعجب من ذلك محمد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار، فقال أبو سفيان: واللات والعزى، لئن ذكرت هذا بمكة لتتركنها خلوفاً ـ بضم الخاء المعجمة ـ أي فاسدة متغيرة، بمعنى: يقع الفساد والتغير في أهلها.

ومن ذلك حديث الحمار[1]: أخرج ابن عساكر عن أبي منظور قال: لما فتح رسول الله ﷺ خيبر أصاب حماراً أسود، فكلم رسول الله ﷺ الحمار، فكلمه الحمار، فقال له رسول الله ﷺ «ما اسمك» قال: يزيد بن شهاب، أخرج الله من نسل جدي ستين حماراً كلهم لا يركبه إلا نبي، وقد كنت أتوقعك أن تركبني، لم يبق من نسل جدي غيري ولا من الأنبياء غيرك وقد كنت قبلك لرجل يهودي وكنت أتعثر به عمداً، وكان يجيع بطني ويضرب ظهري، فقال له النبي ﷺ: «فأنت يعفور» فكان رسول الله ﷺ يبعثه إلى باب الرجل فيأتي الباب فيقرعه برأسه فإذا خرج إليه صاحب الدار أومأ إليه أن أجب رسول الله ﷺ، فلما قبض رسول الله ﷺ جاء إلى بئر كانت لأبي الهيثم بن التيهان فتردى فيها جزعا على رسول الله ﷺ[2]. ورواه أبو نعيم بنحوه من حديث معاذ بن جبل، لكن الحديث مطعون فيه. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

وفي معجزاته ﷺ ما هو أعظم من كلام الحمار وغيره. ومن ذلك: من حديث الضب[3]، وهو مشهور على الألسنة، ورواه البيهقي في أحاديث كثيرة، لكنه حديث غريب ضعيف. قال المزي[4]: لا يصح إسناداً ولا متناً، وذكره القاضي عياض في الشفاء، وقد روي من حديث عمر أن رسول الله ﷺ كان في محفل عن أصحابه، إذ جاء أعرابي من بني سليم قد صد ضباً جعله في كمه ليذهب به إلى رحله فيشويه ويأكله، فلما رأى الجماعة قال من هذا؟ قالوا: نبي الله، فأخرج الضب من كمه وقال: واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب. وطرحه بين يدي رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «يا ضب» فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة،

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦/١٥٨.

(٢) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/٣١٤.

(٣) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦/٣٦ والبداية والنهاية ٦/١٥٦.

(٤) هو يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف أبو الحجاج المزي (٦٥٤ ـ ٧٤٢ هـ) من المحدثين. ولد بظاهر حلب وتوفي في دمشق. الأعلام ٨/٢٣٦ والدرر الكامنة ٤/٤٥٧ رقم الترجمة (١٢٦١).

قال: «من تعبد؟» قال: الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله وفي الجنة رحمته وفي النار عقابه، قال: «فمن أنا؟» قال: رسول رب العالمين وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك وقد خاب من كذبك فأسلم الأعرابي [1] الحديث بطوله، وهو مطعون فيه وقيل إنه موضوع. لكن معجزاته ﷺ فيها ما هو أبلغ من هذا وليس فيه ما ينكر شرعاً خصوصاً وقد رواه الإئمة فنهايته الضعف لا الوضع، والله أعلم.

ومن ذلك: حديث الغزالة[2]. روى حديثها البيهقي من طرق، وضعفه جماعة من الأئمة، لكن طرقه يقوي بعضها بعضاً. وذكره القاضي عياض في الشفاء، ورواه أبو نعيم في الدلائل بإسناد فيه مجاهيل، عن حبيب بن محصن عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: بينما رسول الله ﷺ في صحراء من الأرض، إذا هاتف يهتف: يا رسول الله ثلاث مرات فالتفت فإذا ظبية مشدودة في وثاق، وأعرابي منجدل في شملة نائم في الشمس، فقال: «ما حاجتك؟» قالت: صادني هذا الأعرابي، ولي خشفان في ذلك الجبل فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وأرجع، قال: «وتفعلين؟» فقالت: عذبني الله عذاب العشار إن لم أعد، فأطلقها فذهبت ورجعت فأوثقها النبي ﷺ فانتبه الأعرابي وقال: يا رسول الله ألك حاجة؟ قال: «تطلق هذه الظبية» فأطلقها فخرجت تعدو في الصحراء فرحاً وهي تضرب برجليها الأرض وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

وكذا رواه الطبراني بنحوه، وساق الحافظ المنذري حديثه في الترغيب والترهيب من باب الزكاة. ونقل شيخنا الحافظ أبو الخير السخاوي عن ابن كثير: أنه لا أصل له، وأن من نسبه إلى النبي ﷺ فقد كذب، ثم قال: شيخنا: لكن ورد في الجملة في عدة أحاديث يتقوى بعضها ببعض أوردها شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر في المجلس الحادي والستين من تخريج أحاديث المختصر والله أعلم. انتهى.

وفي شرح مختصر ابن الحاجب للعلامة ابن السبكي، وتسبيح الحصى رواه الطبراني وابن أبي عاصم من حديث أبي ذر، وتسليم الغزالة رواه أبو نعيم الأصبهاني والبيهقي في دلائل النبوة، ونحن نقول فيهما: وإن لم يكونا متواترين فلعلهما استغني عنهما بنقل غيرهما، أو لعلهما تواترا إذ ذاك، انتهى.

ومن ذلك، داجن البيوت، وهو ما ألفها من الحيوان، كالطير والشاة وغيرهما،

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٣٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٩٤ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ٢/ ٣٧٧ وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٠٦ و٧/ ١٩٤ وفي البداية والنهاية ٦/ ١٥٧ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٣٠٩ وفي كنز العمال (٣٥٣٦٤).

(٢) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٥٤ ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٣٤.

روى قاسم بن ثابت عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندنا داجن، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قر وثبت مكانه، فلم يجيء ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب، وذكره القاضي عياض بسنده.

وأما نبع الماء[1] الطهور من بين أصابعه ﷺ، وهو أشرف المياه، فقال القرطبي: قصة نبع الماء من بين أصابعه قد تكررت منه ﷺ في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي، ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ﷺ، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه، وقد نقل ابن عبد البر عن المزني[2] أنه قال: نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى بالعصا فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم. انتهى.

وقد روى حديث نبع الماء جماعة من الصحابة، منهم أنس وجابر وابن مسعود. فأما حديث أنس ففي الصحيحين قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع يده في ذلك الإناء، فأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم وفي لفظ البخاري: كانوا ثمانين رجلاً، وفي لفظ له: فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه حتى توضأ القوم، قال: فقلنا لأنس كم كنتم قال: كنا ثلاثمائة[3].

قوله: «حتى توضؤوا من عند آخرهم» قال الكرماني: حتى للتدريج، ومن للبيان، أي: توضأ الناس حتى توضأ الذين هم عند آخرهم، وهو كناية عن جميعهم، و «عند» بمعنى «في» لأن «عند» وإن كانت للظرفية الخاصة لكن المبالغة تقتضي أن تكون لمطلق الظرفية، فكأنه قال: الذين هم في آخرهم. وقال التيمي: المعنى توضأ القوم حتى وصلت النوبة إلى الآخر، وقال النووي: «من» هنا بمعنى «إلى» وهي لغة، وتعقبه

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٧/٦ والبداية والنهاية ٩٦/٦ وما بعدها.

(٢) هو إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل أبو إبراهيم المزني (١٧٥ ـ ٢٦٤ هـ) إمام الشافعيين عالم مجتهد. زاهد. توفي بمصر. الأعلام ٣٢٩/١. وفيات الأعيان ٧١/١. شذرات الذهب ١٤٨/٢ ـ ١٤٩ كشف الظنون (٤٠٠) مفتاح السعادة ١٥٨/٢. الفهرست لابن النديم ٢١٢/١ مرآة الجنان ١٧٧/٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء باب (٣٢) رقم الحديث (١٦٩ ـ ١٩٥ ـ ٢٠٠ ـ ٣٥٧٢ ـ ٣٥٧٣ ـ ٣٥٧٤ ـ ٣٥٧٥). وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل ١٧٨٤/٤. وفي الشفا للقاضي عياض ٢٨٥/١. وفي التمهيد لابن عبد البر ٢١٧/١.

الكرماني بأنها شاذة، قال: ثم إن «إلى» لا يجوز أن تدخل على «عند» ويلزم عليه وعلى ما قاله التيمي أن لا يدخل إلا خبر، لكن ما قاله الكرماني من أن «إلى» لا تدخل على عند لا يلزم مثله في «من» إذا وقعت بمعنى «إلى» وعلى توجيه النووي يمكن أن يقال عند زائدة. قاله في فتح الباري.

وروى هذا الحديث أيضاً عن أنس، ابن شاهين، ولفظه: قال كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، فقال المسلمون: يا رسول الله، عطشت دوابنا وإبلنا، فقال: «هل من فضلة ماء» فجاء رجل في شن بشيء، فقال: «هاتوا صحيفة» فصب الماء ثم وضع راحته في الماء، قال: فرأيتها تخلل عيوناً بين أصابعه، قال: فسقينا إبلنا ودوابنا وتزودنا، فقال: «اكتفيتم؟» فقالوا: نعم اكتفينا يا نبي الله، فرفع يده فارتفع الماء[1].

وأخرج البيهقي عن أنس أيضاً، قال: خرج النبي ﷺ إلى قباء فأتي من بعض بيوتهم بقدح صغير، فأدخل يده فلم يسعه القدح، فأدخل أصابعه الأربعة ولم يستطع أن يدخل إبهامه، ثم قال للقوم: «هلموا إلى الشراب» قال أنس: بصر عيني ينبع الماء من بين أصابعه فلم يزل القوم يردون القدح حتى رووا منه جميعاً[2].

وأما حديث جابر: ففي الصحيحين، قال: عطش الناس يوم الحديبية، وكان رسول الله ﷺ بين يديه ركوة يتوضأ منها، وجهش الناس نحوه، فقال: «ما لكم؟» فقالوا يار سول الله ما عندنا ماء نتوضأ به ولا نشربه إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قلت: كم كنتم قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة[3]. وقوله: «يفور»، أي يغلي ويظهر متدفقاً.

وفي رواية الوليد بن عبادة بن الصامت عنه في حديث مسلم الطويل في ذكر غزوة بواط، قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر ناد: الوضوء» وذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٥٧٩) وفي الشفا للقاضي عياض ٢٨٦/١ وفي شرح السنة للبغوي ١٦٢/٤ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩١٠) وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ١٧١/٧ وفي البداية والنهاية ١٠١/٦.

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ١٢٣/٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٥٧٦ ـ ٤١٥٢ ـ ٤١٥٣ ـ ٤٨٤٠ ـ ٥٦٣٩) وفي المعجم الكبير للطبراني ١٧٤/٣ وفي شرح السنة للبغوى ٢٩١/١٣ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢٦٨/٥ وفي اتحاف السادة المتقين ٢٠٧/٢ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٤٤) وفي أخلاق النبوة (١٥٣).

إلا قطرة في عزلاء[1] شجب فأتى به النبي ﷺ فغمزه وتكلم بشيء لا أدري ما هو، وقال: «ناد بجفنة الركب» فأتيت بها فوضعتها بين يديه، وذكر أن النبي ﷺ بسط يده في الجفنة وفرق أصابعه وصب عليه جابر، فقال: «بسم الله»، فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجفنة واستدارت حتى امتلأت وأمر الناس بالاستقاء فاستقوا حتى رووا، فقلت: هل بقي من أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأى[2].

وروى حديث جابر أيضاً الإمام أحمد في مسنده بلفظ: اشتكى أصحاب رسول الله ﷺ إليه العطش، فدعا بعس فصب فيه شيئاً من الماء، فوضع رسول الله ﷺ فيه يده، وقال: «استقوا» فاستقى الناس، فكنت أرى العيون تنبع من بين أصابعه.

وفي لفظ من حديث له أيضاً: فوضع رسول الله ﷺ كفه في الإناء ثم قال: «بسم الله» ثم قال: «أسبغوا الوضوء» قال جابر: فوالذي ابتلاني ببصري، لقد رأيت العيون، عيون الماء يومئذٍ تخرج من بين أصابعه ﷺ فما رفعها حتى توضؤوا أجمعون.

ورواه أيضاً عنه البيهقي في الدلائل قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصابنا عطش فجهشنا إلى رسول الله ﷺ قال: «فوضع يده في تور من ماء بين يديه، قال: فجعل الماء ينبع من بين أصابعه كأنه العيون قال: خذوا بسم الله»، فشربنا، فوسعنا وكفانا، ولو كنا مائة ألف لكفانا، قلت لجابر: كم كنتم؟ قال: ألفاً وخمسمائة.

وأخرجه ابن شاهين من حديث جابر أيضاً، وقال: أصابنا عطش بالحديبية فجهشنا إلى رسول الله ﷺ، الحديث. وأخرجه أيضاً ـ عن جابر ـ أحمد من طريق نبيح العنزي عنه، وفيه: فجاء رجل بإداوة فيها شيء من ماء ليس في القوم ماء غيره، فصبه رسول الله ﷺ في قدح ثم توضأ فأحسن الوضوء، ثم انصرف وترك القدح، قال: «فتزاحم الناس على القدح» فقال: «على رسلكم»، فوضع كفه في القدح ثم قال: «أسبغوا الوضوء» قال: فلقد رأيت العيون عيون الماء تخرج من بين أصابعه.

وأما حديث ابن مسعود، ففي الصحيح من رواية علقمة: بينما نحن مع رسول الله ﷺ وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اطلبوا من معه فضل ماء»، فأتي بماء فصبه في إناء، ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ.

---

(١) عزلاء: أي فم القربة الأسفل أو مصب الماء من الراوية، والمعنى فم القربة معلقة بعود.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد رقم الحديث (٧٤) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٩ وفي فتح الباري ٩/ ٧٧٣ وفي البداية والنهاية ٦/ ٩٩ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٢/ ٢٠٧. وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٨٦.

وظاهر هذا أن الماء ينبع من بين أصابعه بالنسبة إلى رؤية الرائي، وهو في نفس الأمر ـ للبركة الحاصلة فيه ـ يفور ويكثر، وكفه ﷺ في الإناء، فيراه الرائي نابعاً من بين أصابعه.

وظاهر كلام القرطبي: أنه نبع من نفس اللحم الكائن في الأصابع، وبه صرح النووي في شرح مسلم، ويؤيده قول جابر: فرأيت الماء يخرج من بين أصابعه، وفي رواية: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، وهذا هو الصحيح، وكلاهما معجزة له ﷺ.

وإنما فعل ذلك ولم يخرجه من غير ملابسه ماء ولا وضع إناء تأدباً مع الله تعالى، إذ هو المنفرد بابتداع المعدومات وإيجادها من غير أصل.

وروى ابن عباس قال: دعا النبي ﷺ بلالا فطلب الماء، فقال: لا والله ما وجدت الماء، قال: «فهل من شن؟» فأتاه بشن فبسط كفه فيه فانبعث تحت يده عين، فكان ابن مسعود يشرب وغيره يتوضأ، رواه الدارمي وأبو نعيم، وكذا رواه الطبراني وأبو نعيم من حديث أبي ليلى الأنصاري وأبو نعيم من طريق القاسم بن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده.

ومن ذلك تفجير الماء ببركته، وانبعاثه بمسه ودعوته[1]. روى مسلم في صحيحه عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال لهم: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي» قال: فجئناها، وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء[2]، فسألهما رسول الله ﷺ «هل مسستما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم، فسبهما وقال لهما «ما شاء الله أن يقول» ثم غرفوا من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، ثم غسل ﷺ به وجهه ويديه ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس ثم قال ﷺ: «يا معاذ، يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملىء جناناً»[3]. أي بساتين وعمراناً، وهذا أيضاً من معجزاته ﷺ.

ورواه القاضي عياض في الشفاء بنحوه من طريق مالك في الموطأ، وزاد فقال: قال في حديث ابن إسحاق: فانخرق من الماء ماله حس كحس الصواعق.

وفي البخاري، في غزوة الحديبية، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن

---

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٠٣ وما بعدها ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٢٣٦.

(٢) الشراك: هو سير النعل، وتبض: أي تسيل وتقطر ومعناه: ماء قليل جداً.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (١٠) وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٧٢ وفي البداية والنهاية ٥/ ١٢ و ٦/ ١٠٤ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٨٨.

الحكم: أنهم نزلوا بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه[1]. والثمد: ـ بالمثلثة والتحريك ـ الماء القليل. وقوله: «يتبرضه الناس تبرضاً» ـ بالضاد المعجمة ـ أي يأخذونه قليلاً قليلاً، والبرض: الشيء القليل. وقوله: «فما زال يجيش» ـ بفتح المثناة التحتية، وبالجيم آخره شين ـ أي: يفور ماؤه ويرتفع. وفي رواية: أنه ﷺ توضأ فتمضمض ودعا ومج في بئر الحديبية من فمه، فجاشت بالماء كذلك.

وفي مغازي أبي الأسود عن عروة: أنه توضأ في الدلو، ومضمض فاه ثم مج فيه، وأمر أن يصب في البئر، ونزع سهماً من كنانته وألقاه في البئر ودعا الله تعالى، ففارت بالماء حتى جعلوا يغترفون بأيديهم منها وهم جلوس على شفتيها، فجمع بين الأمرين.

وكذا رواه الواقدي من طريق أوس بن خولى. وهذه القصة غير القصة السابقة في ذكر نبع الماء من بين أصابعه ﷺ مما رواه البخاري في المغازي من حديث جابر: عطش الناس بالحديبية وبين يدي رسول الله ﷺ ركوة فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه. الحديث. فبين القصتين مغايرة، وجمع ابن حبان بينهما: بأن ذلك وقع في وقتين، انتهى.

فحديث جابر في نبع الماء كان حين حضرت صلاة العصر عند إرادة الوضوء، وحديث البراء كان لإرادة ما هو أعم من ذلك. ويحتمل أن يكون الماء لما تفجر من أصابعه ويده في الركوة، وتوضؤوا كلهم وشربوا أمر حينئذٍ بصب الماء الذي بقي في الركوة في البئر فتكاثر الماء فيها. انتهى.

وفي حديث البراء وسلمة بن الأكوع مما رواه البخاري في قصة الحديبية وهم أربع عشرة مائة، وبئرها لا تروي خمسين شاة، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فقعد رسول الله ﷺ على جباها، قال البراء: وأتي بدلو منها فبصق ودعا، وقال سلمة: فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت فأرووا أنفسهم وركابهم، وقال في رواية البراء: ثم مضمض ودعا ثم صبه فيها ثم قال: «دعوها ساعة»[2]. قوله: «على جَبَاها» ـ بفتح الجيم والموحدة والقصر ـ ما حول البئر، وبالكسر: ما جمعت فيها من الماء. وقوله: «وركابهم» أي الإبل التي يسار عليها.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الشروط باب (١٥) رقم الحديث (٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢) وفي الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٧٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٢١٩ وفي البداية والنهاية ٤/ ١٧٥.

(2) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (٣٦) رقم الحديث (٤١٥١) وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٨٨.

وفي الصحيحين عن عمران بن الحصين قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلاناً ـ كان يسميه أبو رجاء ونسبه عوف ـ ودعا علياً، وقال: «اذهبا فابتغيا الماء» فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين من ماء، فجاءا بها إلى النبي ﷺ، فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النبي ﷺ بإناء ففرّغ فيه من أفواه المزادتين أو السطيحتين، وأوكأ أفواههما، وأطلق العزالى، ونودي في الناس: «اسقوا واستقوا» فسقى من سقى، واستقى من شاء، وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها، وأيم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لها» فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاماً، فجعلوه في ثوب وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها قال لها: «تعلمين ما رزأنا من مائك شيئاً ولكن الله هو الذي سقانا» فأتت أهلها فقالت: العجب، لقيني رجلان فذهبا بي إلى الرجل الذي يقال له الصابىء ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس كلهم أو إنه لرسول الله حقاً، فقالت لقومها: ما أرى أن هؤلاء يدعونكم عمداً فهل لكم في الإسلام[1]. الحديث.

وعن أبي قتادة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء غداً إن شاء الله» فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد، فبينا رسول الله ﷺ يسير حتى ابهارَّ الليل ـ أي ابيض ـ فمال عن الطريق فوضع رأسه ثم قال: «احفظوا علينا صلاتنا» فكان أول من استيقظ رسول الله ﷺ والشمس في ظهره، ثم قال: «اركبوا»، فركبنا فسرنا، حتى إذا ارتفعت الشمس نزل، ثم دعا بميضأة كانت معي فيها شيء من ماء، فتوضأ منها وضوءاً، قال: «وبقي شيء من ماء»، ثم قال: «احفظ علينا ميضأتك» فسيكون لها نبأ، ثم أذن بلال بالصلاة، فصلى رسول الله ﷺ ركعتين ثم صلى الغداة، وركب وركبنا معه، فانتهينا إلى الناس حين اشتد النهار وحمي كل شيء، وهم يقولون: يا رسول الله هلكنا وعطشنا، فقال: « لا هلك عليكم» ودعا بالميضأة فجعل يصب وأبو قتادة يسقيهم فلم يعدُ أن رأى الناس ماء في الميضأة فتكابوا عليها، فقال رسول الله ﷺ: «أحسنوا الملأ[2] كلكم سيروى»، قال: ففعلوا، فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم، حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ، ثم صب فقال لي: «اشرب» فقلت: لا أشرب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب (٦) رقم الحديث (٣٤٤ ـ ٣٤٨ ـ ٣٥٧١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٤٣٥ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٧٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٢١٩.

(٢) الملء، أي لأوانيكم.

حتى تشرب يا رسول الله، فقال: «إن ساقي القوم آخرهم» قال: فشربت وشرب[1]، الحديث رواه مسلم.

وعن أنس قال: أصاب الناس سنة[2] على عهد رسول الله ﷺ، فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة، قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة[3]، «فوالذي نفسي بيده» ما وضعهما حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته، فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد، حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي أو غيره وقال: يا رسول الله، تهدم البناء وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع يديه فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا»، فما يشير إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة، وسال الوادي قناة شهراً، ولم يجىء أحد من ناحية إلا حدث بالجود. وفي رواية قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر» فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس[4]. رواه البخاري ومسلم.

و «الجوبة» ـ بفتح الجيم والموحدة بينهما واو ساكنة ـ الحفرة المستديرة الواسعة، وكل منفتق بلا بناء جوبة، أي حتى صار الغيم والسحاب محيطاً بآفاق المدينة. و «الجـود»: ـ بفتح الجيم وإسكان الواو ـ المطر الواسع الغزير.

وعن عبد الله بن عباس، أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثنا عن ساعة العسرة فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل فلا يرجع حتى يظن أن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد رقم الحديث (٣١١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/٢٨٩ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/٢٨٤ وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٣٨٨ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩١١) وفي كنز العمال (٤١٠٤٠).

(٢) أي شدة وجهد من التعب.

(٣) قزعة: أي قطعة من سحاب متفرق أو رقيقة.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء باب (٦) رقم الحديث (١٠١٣) وفي صحيح مسلم كتاب الاستسقاء ٨/٩ وفي سنن النسائي ٣/١٦٠ و ١٦١ وفي ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب (١٥٤) رقم الحديث (١٢٦٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/١٠٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/٣٥٣ وفي الدر المنثور للسيوطي ٦/٢٨ وفي الأدب المفرد للبخاري رقم الحديث (٦١٢) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/١٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/٣٤٦ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/١٣٩. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/١٩٥. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٠٢)، وفي كنز العمال (٢٣٥٤٠ ـ ٢٣٥٤٨).

رقبته ستنقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع الله لنا، قال: «أتحبون ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فانسكبت، فملؤوا ما معهم من آنية، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها تجاوز العسكر[1]، قال الحافظ المنذري: أخرجه البيهقي في الدلائل، وشيخه ابن بشران ثقة، ودعلج ثقة، وابن خزيمة أحد الأئمة، ويونس احتج به مسلم في صحيحه وابن وهب وعمرو بن الحارث ونافع بن جبير احتج بهم البخاري ومسلم، وعتبة فيه مقال. وقد رواه القاضي عياض في الشفاء مختصراً وروى ابن إسحاق في مغازيه نحوه.

وروى صاحب «مصباح الظلام» عن عمرو بن شعيب: أن أبا طالب قال: كنت مع ابن أخي - يعني النبي ﷺ - بذي المجاز، فأدركني العطش، فشكوت إليه فقلت: يا ابن أخي عطشت، وما قلت له ذلك وأنا أرى عنده شيئاً إلا الجزع، فثنى وركه ثم نزل وقال: «يا عم، أعطشت؟» فقلت: نعم، فأهوى بعقبه إلى الأرض فإذا بالماء، فقال: «اشرب يا عم فشربت»[2] وكذا رواه ابن سعد وابن عساكر.

ومن ذلك: تكثير الطعام القليل ببركته ودعائه ﷺ[3]. عن جابر، في غزوة الخندق قال: فانكفأت إلى امرأتي، فقلت هل عندك شيء، فإني رأيت بالنبي ﷺ خمصاً شديداً، فأخرجت جراباً فيه صاع من شعير، ولنا بُهيمة داجن فذبحتها وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي ﷺ فساررته فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعاً من شعير. فتعال أنت ونفر معك. فصاح النبي ﷺ: «يا أهل الخندق، إن جابراً صنع سؤراً، فحي هلا بكم» فقال ﷺ: «لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء برجال» فأخرجت له عجيناً فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ثم قال: «ادع خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها» وهم ألف. فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو[4]، رواه البخاري ومسلم. وقوله: «فانكفأت» أي: انقلبت. وقوله: «داجن» يعني سمينة.

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٢٣١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٩٤. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٣٥٧. وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٧٠٧) وفي كنز العمال (٣٥٣٥٨).

(٢) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٢٩٠ وابن سعد في الطبقات ١/ ١٢١.

(٣) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٠٤ ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٨٣.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (٣٠) رقم الحديث (٤١٠٢) وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (١٤١) وفي البداية والنهاية ٤/ ١٠٠ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٢٦ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٦٧.

وقوله: «فذبحتها» بسكون الحاء، و «طحنت» بسكون التاء، يعني إن الذي ذبح هو جابر، والتي طحنت هي امرأته سهيلة بنت معوذ الأنصارية. وقوله: «سورا» بضم المهملة وسكون الواو بغير همز. قال ابن الأثير: أي طعاماً يدعو إليه الناس. قال: اللفظة فارسية. وقوله: «فحي هلا بكم» كلمة استدعاء فيه حث، أي هلموا مسرعين. وقوله: «واقدحي» أي: اغرفي. وقوله: «إن برمتنا لتغط» بالغين المعجمة والطاء المهملة، أي: تغلي ويسمع غطيطها.

وعن أنس قال: قال أبو طلحة لأم سليم، لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً، أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء، فقالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً، فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه - أي أدارت بعض الخمار على رأسي مرتين كالعمائم - ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فسلمت عليه، فقال لي رسول الله ﷺ: «أرسلك أبو طلحة؟» فقلت: نعم، قال: «الطعام؟» قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا» فانطلق وانطلقت بين أيديهم، حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلمي يا أم سليم ما عندك» فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ ففت، وعصرت أم سليم عكة فأدمته، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» ثم لعشرة، فأكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً[1]. رواه البخاري ومسلم.

والمراد بالمسجد - هنا - الموضع الذي أعده النبي ﷺ للصلاة فيه حين محاصرة الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق. وفي رواية لمسلم: أنه قال: «ائذن لعشرة» فدخلوا فقال: «كلوا وسموا الله»، فأكلوا حتى فعل ذلك بثمانين رجلاً، ثم أكل النبي ﷺ وأهل البيت وترك سؤراً. أي بقية وهو بالهمز. وفي رواية للبخاري: قال: «أدخل علي عشرة»، حتى عد أربعين، ثم أكل النبي ﷺ، فجعلت أنظر هل نقص منها شيء؟[2].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (٢٥) رقم الحديث (٣٥٧٨) ومسلم في صحيحه كتاب الأشربة رقم الحديث (١٤٢) وفي موطأ الإمام مالك كتاب صفة النبي باب (١٠) رقم الحديث (١٩) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/٨٩ وفي التمهيد لابن عبد البر ١/٢٨٩ وفي شرح السنة للبغوي ١٣/٣٠١ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٤٧) وفي اتحاف السادة المتقين ٧/١٦٩ وفي البداية والنهاية ٦/١٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة رقم الحديث (١٤٣).

وفي رواية يعقوب: أدخل علي ثمانية ثمانية، فما زال حتى دخل عليها ثمانون، ثم دعاني ودعا أمي وأبا طلحة فأكلنا حتى شبعنا. انتهى.

وهذا يدل على تعدد القصة، فإن أكثر الروايات فيها أنه أدخلهم عشرة عشرة سوى هذه، قاله الحافظ ابن حجر، قال: وظاهره أنه ﷺ دخل لمنزل أبي طلحة وحده، وصرح بذلك في رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى ولفظه: فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الباب قال لهم: «اقعدوا» ودخل. وفي رواية يعقوب عن أنس: فقال أبو طلحة: يا رسول الله إنما أرسلت أنساً يدعوك وحدك، ولم يكن عندنا ما يشبع من أرى، وفي رواية عمرو بن عبد الله عن أنس: فقال أبو طلحة: إنما هو قرص، فقال: «إن الله سيبارك فيه»[1].

قال العلماء: وإنما أدخلهم عشرة عشرة ـ والله أعلم ـ لأنها كانت قصعة واحدة، لا يمكن الجماعة الكثيرة أن يقدروا على التناول منها مع قلة الطعام، فجعلهم عشرة عشرة لينالوا من الأكل ولا يزدحموا.

وأما قوله ﷺ: «أرسلك أبو طلحة؟» قلت نعم، قال: «الطعام؟» قلت: نعم، فقال لمن معه: «قوموا» فظاهره: أن النبي ﷺ فهم أن أبا طلحة استدعاه إلى منزله، فلذلك قال لمن عنده قوموا، وأول الكلام يقتضي أن أم سليم وأبا طلحة أرسلا الخبز مع أنس؟!.

[فيجمع: بأنهما أرادا بإرسال الخبز مع أنس][2] أن يأخذه النبي ﷺ فيأكله، فلما وصل أنس ورأى كثرة الناس حول النبي ﷺ استحيى، وظهر له أن يدعو النبي ﷺ ليقوم معه وحده إلى المنزل فيحصل مقصودهم من إطعامه.

ويحتمل أن يكون ذلك عن رأي من أرسله، عهد إليه أنه إذا رأى كثرة الناس أن يستدعي النبي ﷺ وحده، خشية أن لا يكفي ذلك النبي ﷺ هو ومن معه، وقد عرفوا إيثاره ﷺ، وأنه لا يأكل وحده.

ووقع في رواية يعقوب بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس ـ عند أبي نعيم وأصله عند مسلم ـ فقال لي أبو طلحة: يا أنس اذهب فقم قريباً من رسول الله ﷺ، فإذا قام فدعه حتى يتفرق عنه أصحابه، ثم اتبعه حتى إذا قام على عتبة بابه فقل له: إن أبي يدعوك، وفيه: فقال أبو طلحة: يا رسول الله إنما أرسلت أنساً يدعوك وحدك، ولم يكن عندنا ما

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٤٨) رقم الحديث (٥٤٥٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٤٧ وفي المعجم الكبير للطبراني ٥/ ١٠٨ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٦٩.
(٢) عن فتح الباري ٦/ ٧٣٠.

يشبع من أرى، فقال: «ادخل فإن الله سيبارك فيما عندك».

وفي رواية مبارك بن فضالة: فقال هل من سمن؟ فقال أبو طلحة: قد كان في العكة شيء فجاء بها، فجعلا يعصرانها حتى خرج، ثم مسح رسول الله ﷺ القرص فانتفخ، وقال: «بسم الله» فلم يزل يصنع ذلك والقرص ينتفخ حتى رأيت القرص في الجفنة يتسع[1]. وفي رواية النضر بن أنس: فجئت بها ففتح رباطها ثم قال: «بسم الله، اللهم أعظم فيها البركة» وعرف بهذا المراد بقوله في رواية الصحيحين: «فقال فيها ما شاء الله أن يقول». وفي رواية أنس عند أحمد: أن أبا طلحة رأى رسول الله ﷺ طاوياً. وعند أبي يعلى من طريق محمد بن سيرين عن أنس: أن أبا طلحة بلغه أنه ليس عند رسول الله ﷺ طعام فآجر نفسه بصاع من شعير فعمل بقية يومه ذلك ثم جاء به الحديث.

وفي رواية عمرو بن عبد الله بن أبي طلحة عند مسلم وأبي يعلى قال: رأى أبو طلحة رسول الله ﷺ مضطجعاً ينقلب ظهراً لبطن. وفي رواية يعقوب بن عبد الله بن أبي طلحة عند مسلم أيضاً عن أنس قال: جئت رسول الله ﷺ فوجدته جالساً مع أصحابه يحدثهم وقد عصب بطنه بعصابة، فسألت بعض أصحابه فقال من الجوع، فذهبت إلى أبي طلحة فأخبرته، فدخل على أم سليم فقال: هل من شيء.

وفي رواية محمد بن كعب عن أنس عند أبي نعيم قال: جاء أبو طلحة إلى أم سليم فقال: «أعندك شيء؟» فإني مررت على النبي ﷺ وهو يقرىء أصحاب الصفة سورة النساء وقد ربط على بطنه حجراً».

وعن أبي هريرة قال: لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقال عمر: يا رسول الله ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، فقال: «نعم» فدعا بنطع فبسط، ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه. قال: فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجز عن الجنة»[2] رواه مسلم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٢٤٢. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٦٩ وفي البداية والنهاية ٦/ ١١٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الايمان باب (١٠) رقم الحديث (٤٥). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١١. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٢٠ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم (١٤٩) وفي تفسير القرطبي ٨/ ٢٧٩. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٧٠ ـ ١٩٠. وفي البداية والنهاية ٦/ ١١٨ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٩٣.

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ عروساً بزينب، فعمدت أمي أم سليم إلى تمر وسمن وأقط فصنعت حيساً، فجعلته في تور، فقالت: يا أنس اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام، فقال رسول الله ﷺ: «ضعه» ثم قال: «اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً» رجالاً سماهم، «وادع لي من لقيت» فدعوت من سمى ومن لقيت، فرجعت فإذا البيت غاص بأهله، قيل لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة، فرأيت النبي ﷺ وضع يده على تلك الحيسة وتكلم بما شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه، ويقول لهم: «اذكروا اسم الله، وليأكل كل رجل مما يليه» قال: فأكلوا حتى شبعوا، فخرجت طائفة بعد طائفة حتى أكلوا كلهم، قال لي: «يا أنس ارفع فرفعت، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت»[1] رواه البخاري ومسلم.

وعن جابر أن أم مالك كانت تهدي للنبي ﷺ في عكة لها سمناً، فيأتيها فيسألونها الأدم، وليس عندهم شيء، فتعمد إلى الذي كانت تهدي فيه للنبي ﷺ فتجد فيه سمناً، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته، فأتت النبي ﷺ فقال: «أعصرتيها؟» قالت: نعم، قال: «لو تركتيها ما زال قائماً»[2] رواه مسلم.

وعنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطر وسق من شعير، فما زال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى كاله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «لو لم تكله لأكلتم منه ولقام بكم»[3]. رواه مسلم أيضاً.

والحكمة في ذهاب بركة السمن حين عصرت العكة، وإعدام بركة الشعير حين كاله، أن عصرها وكيله مضاد للتسليم على رزق الله تعالى، ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة، وتكلف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله، فعوقب فاعله بزواله، قاله النووي.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب (٦٥) رقم الحديث (٥١٦٣) وفي صحيح مسلم كتاب النكاح رقم الحديث (٩٤) وفي تفسير ابن كثير ٦/ ٤٤٢ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٧٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل باب (٣) رقم الحديث (٨). وفي المسند للإمام أحمد ابن حنبل ٣/ ٣٤٠. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١١٤. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٧٠ وفي البداية والنهاية ٦/ ١٢٣ وفي فتح الباري ١١/ ٣٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب (٣) رقم الحديث (٩). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٣٧. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١١٤. وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٢٤٦. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١٧٠ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٩٤١) وفي البداية والنهاية ٦/ ١٢٣. وفي فتح الباري ١١/ ٣٣٨.

[حديث القصعة][1]

وعن أبي العلاء سمرة بن جندب قال: كنا مع النبي ﷺ نتداول من قصعة من غدوة حتى الليل، يقوم عشرة ويقعد عشرة، قلنا: فما كانت تمد؟ قال: «من أي شيء تعجب، ما كانت تمد إلا من هاهنا» وأشار بيده إلى السماء[2]، رواه الترمذي والدارمي.

وعنه: أتي النبي ﷺ بقصعة فيها لحم، فتعاقبوها من غدوة حتى الليل، يقوم قوم ويقعد آخرون، فقال رجل لسمرة: هل كانت تمد؟ قال: ما كانت تمد إلا من هاهنا، وأشار بيده إلى السماء. رواه الدارمي وابن أبي شيبة والترمذي والبيهقي والحاكم وصححوه، وأبو نعيم.

وفي حديث عبد الرحمن بن أبي بكر: كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة، وذكر الحديث أنه عجن صاع، وصنعت شاة فشوي سواد بطنها، قال: وأيم الله، ما من الثلاثين ومائة إلا وقد حزَّ له حزة من سواد بطنها، ثم جعل منها قصعتين فأكلنا أجمعون وفضل في القصعتين فحملته على البعير[3]. رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أدعو أهل الصفة، فتتبعتهم حتى جمعتهم، فوضعت بين أيدينا صحفة فأكلنا ما شئنا وفرغنا، وهي مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع. رواه ابن أبي شيبة والطبراني وأبو نعيم.

وعن علي بن أبي طالب: جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وكانوا أربعين، منهم قوم يأكلون الجذعة ويشربون الفرق، فصنع لهم مداً من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي كما هو، ثم دعا بعس فشربوا حتى رووا، وبقي كأنه لم يشرب منه، رواه في الشفاء.

ومن ذلك: إبراء ذوي العاهات، وإحياء الموتى، وكلامهم، وكلام الصبيان وشهادتهم له ﷺ بالنبوة[4].

روى البيهقي في الدلائل: أنه ﷺ دعا رجلاً إلى الإسلام، فقال: لا أؤمن بك حتى تحيي لي ابنتي، فقال ﷺ: «أرني قبرها» فأراه إياه، فقال ﷺ: «يا فلانة»، فقالت: لبيك وسعديك. فقال ﷺ: «أتحبين أن ترجعي إلى الدنيا؟» فقالت: لا والله يا رسول الله، إني

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٩٣ والبداية والنهاية ٦/ ١١٦.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب (٥) رقم الحديث (٣٦٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الهبة باب (٢٨) رقم الحديث (٢٦١٨) وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة رقم الحديث (١٧٥) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٩٧ و ١٩٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٢١٥. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٩٥. وفي البداية والنهاية ٦/ ١١٧ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٩٢.

(٤) انظر البداية والنهاية ٦/ ١٦٠ وما بعدها و ٦/ ١٦٧ ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٨ ـ ٥٠ ـ ٥٥.

وجدت الله خيراً لي من أبوي، ورأيت الآخرة خيراً لي من الدنيا.

وروى الطبري عن عائشة أن النبي ﷺ نزل الحجون كئيباً حزيناً، فأقام به ما شاء الله عز وجل ثم رجع مسروراً قال: «سألت ربي عز وجل فأحيا لي أمي فآمنت بي ثم ردها».

وكذا روي من حديث عائشة أيضاً إحياء أبويه ﷺ حتى آمنا به، أورده السهيلي وكذا الخطيب في السابق واللاحق، لكن قال السهيلي: إن في إسناده مجاهيل، وقال ابن كثير: إنه منكر جداً، وتقدم البحث في ذلك في أوائل المقصد الأول.

وعن أنس أن شاباً من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء، فسجيناه وعزيناها، فقالت: مات ابني؟ قلنا: نعم، قالت: اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعينني على كل شدة فلا تحملن علي هذه المصيبة، فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه فطعم وطعمنا. رواه ابن عدي وابن أبي الدنيا والبيهقي وأبو نعيم.

وعن النعمان بن بشير قال: كان زيد بن خارجة من سروات الأنصار، فبينما هو يمشي في طريق من طرق المدينة بين الظهر والعصر إذ خرَّ فتوفي، فأعلمت به الأنصار، فأتوه فاحتملوه إلى بيته فسجوه كساء وبردين، وفي البيت نساء من نساء الأنصار يبكين عليه، ورجال من رجالهم، فمكث على حاله حتى إذا كان بين المغرب والعشاء الآخرة سمعوا صوت قائل يقول: أنصتوا أنصتوا، فنظروا فإذا الصوت من تحت الثياب، فحسروا عن وجهه وصدره، فإذا القائل يقول على لسانه: محمد رسول الله النبي الأمي خاتم النبيين، لا نبي بعده، كان ذلك في الكتاب الأول، ثم قال: صدق صدق، ثم قال: هذا رسول الله، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت.

وعن سعيد بن المسيب أن رجلاً من الأنصار توفي، فلما كفن أتاه القوم يحملونه تكلم فقال: محمد رسول الله، أخرجه أبو بكر بن الضحاك. وأخرج أبو نعيم: أن جابراً ذبح شاة وطبخها، وثرد في الجفنة، وأتى به رسول الله ﷺ فأكل القوم، وكان ﷺ يقول لهم: «كلوا ولا تكسروا عظماً»، ثم إنه ﷺ جمع العظام ووضع يده عليها ثم تكلم بكلام فإذا بالشاة قد قامت تنفض أذنيها[1]، كذا رواه والله أعلم؟!.

وعن معرض بن معيقيب اليماني قال: حججت حجة الوداع، فدخلت داراً بمكة، فرأيت فيها رسول الله ﷺ، ورأيت منه عجباً، جاء رجل من أهل اليمامة بغلام يوم ولد، فقال له رسول الله ﷺ «يا غلام، من أنا» قال: أنت رسول الله، قال: «صدقت بارك الله

---

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٣٠٢.

فيك»، ثم إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شب، فكنا نسميه مبارك اليمامة[1]. رواه البيهقي من حديث معرض ـ بالضاد المعجمة ـ.

وعن فهد بن عطية، أن النبي ﷺ أتي بصبي قد شب لم يتكلم قط فقال: «من أنا»؟ قال: أنت رسول الله، رواه البيهقي.

وعن ابن عباس قال: إن امرأة جاءت بابن لها إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن ابني به جنون، وإنه ليأخذه عند غدائنا وعشائنا، فمسح رسول الله ﷺ صدره فثع ثعة وخرج من جوفه مثل الجرو الأسود يسعى[2]. رواه الدارمي. وقوله «ثع» يعني قاء.

وأصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فأتى بها إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي امرأة أحبها أخشى إن رأتني تقذرني فأخذها رسول الله ﷺ بيده وردها إلى موضعها وقال: «بسم الله اللهم اكسه جمالاً» فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما نظراً، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى[3].

وقد وفد على عمر بن عبد العزيز رجل من ذريته فسأله عمر: من أنت؟ فقال:

| | |
|---|---|
| أبونا الذي سالت على الخد عينه | فردت بكف المصطفى أيما رد |
| فعادت كما كانت لأول أمرها | فيا حسن ما عين ويا حسن ما خد |

فوصله عمر وأحسن جائزته[4]. قال السهيلي: ورواه محمد بن أبي عثمان عن عمار بن نصر عن مالك بن أنس عن محمد بن عبدالله بن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد عن أخيه قتادة بن النعمان قال: أصيبت عيناي يوم أحد فسقطتا على وجنتي، فأتيت بهما النبي ﷺ فأعادهما مكانهما وبصق فيهما فعادتا تبرقان، قال الدارقطني: هذا حديث غريب تفرد به عمار بن نصر وهو ثقة، ورواه الدارقطني عن إبراهيم الحربي عن عمار ابن نصر.

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٥٩ وفي البداية والنهاية ٩/ ١٦٧ وما بعدها. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٩٥ وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣/ ٤٤٣ وفي كنز العمال (٣٥٤٠١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٥٤ و ٢٦٨ وفي سنن الدارمي في المقدمة (٤) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٨٦.

(٣) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٥٢. وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٧.

(٤) وقال بعضهم: [البسيط]

| | |
|---|---|
| إن كان موسى سقى الاسباط من حجر | فإن في الكف معنًى ليس في الحجر |
| إن كان عيسى برا الاعمى بدعوته | فكم براحته قد رد من بصر |

وهذه المعجزات الثلاثة (خروج الماء ـ ورد عين قتادة ـ وتسبيح الطعام) أعجب من إحياء الموتى الذي هو إحدى معجزات المسيح.

وأخرج الطبراني وأبو نعيم عن قتادة قال: كنت يوم أحد أتقي السهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ، فكان آخرها سهماً ندرت منه حدقتي فأخذتها بيدي وسعيت إلى رسول الله ﷺ، فلما رآها في كفي دمعت عيناه فقال«اللهم قِ قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه، فاجعلها أحسن عينيه وأحدّهما نظراً»[1].

وفي البخاري في غزوة خيبر أنه ﷺ قال«أين علي بن أبي طالب» فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال«فأرسلوا إليه» فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع[2]. وعند الطبراني من حديث علي قال: فما رمدت ولا صدعت منذ دفع إلي رسول الله ﷺ الراية يوم خيبر. وفي رواية مسلم من طريق إياس ابن سلمة عن أبيه قال: فأرسلني النبي ﷺ إلى علي فجئت به أقوده أرمد، فبصق في عينيه فبرأ. وعند الحاكم من حديث علي قال: فوضع ﷺ رأسي في حجره ثم بصق في راحته فدلك بها عيني. وعند الطبراني: فما اشتكيتهما حتى الساعة، ودعا لي ﷺ فقال«اللهم اذهب عنه الحر والقر»، قال: فما اشتكيتهما حتى يومي هذا[3].

وأصيب سلمة يوم خيبر أيضاً بضربة في ساقه، فنفث فيها ﷺ ثلاث نفثات فما اشتكاها قط[4]. رواه البخاري. ونفث في عيني فديك وكانتا مبيضتين لا يبصر بهما شيئاً، وكان وقع على بيض حية، فكان يدخل الخيط في الإبرة وإنه لابن ثمانين سنة وإن عينيه لمبيضتان، رواه ابن أبي شيبة والبغوي والبيهقي والطبراني وأبو نعيم.

---

(١) ذكره الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤٢١٠) وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد رقم الحديث (١٣٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٨٥ و ٥/ ٣٣٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٠٧ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٠٥ وفي التمهيد لابن عبد البر ٢/ ٢١٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ٦/ ١٨٧ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٨ وفي كنز العمال (٣٠١١٩ ـ ٣٦٤٩٣ ـ ٣٦٤٩٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب (١١) رقم الحديث (١١٧) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٩٩ وفي البداية والنهاية ٧/ ٣٥٢ وفي فتح الباري ٧/ ٦٠٦.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الطب باب (١٩) رقم الحديث (٣٨٩٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٩٨.

# فيما خصّه الله تعالى به من المعجزات وشرفه به على سائر الأنبياء من الكرامات والآيات البيّنات(١)

اعلم نور الله قلبي وقلبك، ووقدس سري وسرك، أن الله تعالى قد خص نبينا ﷺ بأشياء لم يعطها لنبي قبله، وما خص نبي بشيء إلا وكان لسيدنا محمد ﷺ مثله، فإنه أوتي جوامع الكلم، وكان نبياً وآدم بين الروح والجسد، وغيره من الأنبياء لم يكن نبياً إلا في حال نبوته وزمان رسالته.

ولما أعطي هذه المنزلة علمنا أنه ﷺ الممد لكل إنسان كامل مبعوث ويرحم الله الأديب شرف الدين الأبوصيري فلقد أحسن حيث قال:

| | |
|---|---|
| وكل آي أتى الرسل الكرام بها | فإنما اتصلت من نوره بهم |
| فإنه شمس فضل هم كواكبها | يظهرن أنوارها للناس في الظلم |

قال العلامة ابن مرزوق: يعني أن كل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل فإنما اتصلت بكل واحد منهم من نور محمد ﷺ وما أحسن قوله: فإنما اتصلت من نوره بهم فإنه يعطي أن نوره ﷺ لم يزل قائماً به ولم ينقص منه شيء، ولو قال: فإنما هي من نوره لتوهم أنه وزع عليهم وقد لا يبقى له منه شيء. وإنما كانت آيات كل واحد من نوره ﷺ لأنه شمس فضل هم كواكب تلك الشمس يظهرن ـ أي تلك الكواكب ـ أنوار تلك الشمس للناس في الظلم. فالكواكب ليست مضيئة بالذات وإنما هي مستمدة من الشمس فهي عند غيبة الشمس تظهر نور الشمس. فكذلك الأنبياء قبل وجوده ﷺ كانوا يظهرون فضله فجميع ما ظهر على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام سواه من الأنوار فإنما هو من نوره الفائض ومدده الواسع من غير أن ينقص منه شيء.

وأول ما ظهر ذلك في آدم عليه السلام، حيث جعله الله خليفة وأمده بالأسماء كلها من مقام جوامع الكلم التي لمحمد ﷺ فظهر بعلم الأسماء كلها على الملائكة القائلين: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ [البقرة: ٣٠]، ثم توالت

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ٢٨٥.

الخلائف في الأرض إلى أن وصل إلى زمان وجود صورة جسم نبينا ﷺ الشريف لإظهار حكم منزلته، فلما برز كان كالشمس اندرج في نوره كل نور، وانطوى تحت منشور آياته كل آية لغيره من الأنبياء، ودخلت الرسالات كلها في صلب نبوته، والنبوات كلها تحت لواء رسالته، فلم يعط أحدمنهم كرامة أو فضيلة إلا وقد أعطي ﷺ مثلها.

فآدم عليه الصلاة والسلام أعطي أن الله تعالى خلقه بيده، فأعطي سيدنا محمد ﷺ شرح صدره، وتولى الله تعالى شرح صدره بنفسه، وخلق فيه الإيمان والحكمة، وهو الخلق النبوي، فتولى من آدم الخلق الوجودي ومن سيدنا محمد ﷺ الخلق النبوي، مع أن المقصود ـ كما مر ـ من خلق آدم خلق نبينا في صلبه، فسيدنا محمد ﷺ المقصود وآدم الوسيلة، والمقصود سابق على الوسيلة.

وأما سجود الملائكة لآدم، فقال فخر الدين الرازي في تفسيره: إن الملائكة أمروا بالسجود لآدم لأجل أن نور محمد ﷺ كان في جبهته، ولله در القائل:

تجليت جل الله في وجه آدم ... فصلى له الأملاك حين توسلوا[1]

وعن أبي عثمان الواعظ، فيما حكاه الفاكهاني قال: سمعت الإمام سهل بن محمد يقول: هذا التشريف الذي شرف الله تعالى به محمداً ﷺ بقوله: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآية أتم وأجمع من تشريف آدم عليه السلام بأمر الملائكة له بالسجود، لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف، فتشريف يصدر عنه تعالى وعن الملائكة والمؤمنين أبلغ من تشريف تختص به الملائكة، انتهى.

قال بعضهم: وأما تعليم آدم أسماء كل شيء، فأخرج الديلمي في مسند الفردوس

---

(١) يستحيل على الله عقلاً أن يكون صورة كالإنسان لأنه لو كان صورة لاحتاج إلى مصوِّر. روى مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ. «إذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته».

والمراد بهذا الحديث إن أعيد الضمير إلى الأخ «أن الله خلق آدم على صورة المضروب، وإن أعيد الضمير إلى الله كان على معنى المِلْك». فتكون الإضافة للتشريف فكأنه قال خلقه على الصورة التي هي مِلْكٌ له مشرفة عنده.

وهكذا يقال في حديث: «لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمٰن» فمعنى صورة الرحمٰن: صورته التي خلقها وشرّفها كما قال: ﴿لما خلقت بيدي﴾ [ص: ٧٥] وكالإضافة في قوله ﴿ناقة الله﴾ [الأعراف: ٧٣ وهود: ٦٤] ولا يصح تفسير الحديث بما قال بعضهم من أن المراد أنه خلقه على صفاته تعالى من السمع والبصر والعلم، فإن صفات الله لا تفارق ذاته. ولا يصح عقلاً أن يتصف العبد بصفة من صفاته تعالى لأن الحادث لا يتصف بالأزلي فلا يكون الحادث أزلياً ولا الأزلي حادثاً.

من حديث أبي رافع قال: رسول الله ﷺ: «مثلت لي أمتي في الماء والطين، وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها»[1] فكما أن آدم علم أسماء العلوم كلها كذلك نبينا ﷺ، وزاد عليه ـ واصل الله صلاته وسلامه عليه ـ بعلم ذواتها. ولله در الأبوصيري حيث قال:

لك ذات العلوم من عالم الغيب ومنها لآدم الأسماء

ولا ريب أن المسميات أعلى رتبة من الأسماء، لأن الأسماء يؤتى بها لتبين المسميات، فهي المقصودة بالذات، وإليه الإيماء بقوله: «ذات العلوم»، والأسماء مقصودة لغيرها فهي دونها، ففضل العالم بحسب فضل معلومه.

● وأما إدريس عليه السلام، فرفعه الله مكاناً علياً[2]، فأعطي سيدنا محمد ﷺ المعراج، ورفع إلى مكان لم يرفع إليه غيره.

● وأما نوح عليه السلام فنجاه الله تعالى ومن آمن معه من الغرق ونجاه من الخسف، فأعطي سيدنا محمد ﷺ أنه لم تهلك أمته بعذاب من السماء. قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣].

وأما قول الفخر الرازي في تفسيره: «أكرم الله نوحاً بأن أمسك سفينته على الماء وفعل بمحمد ﷺ أعظم منه. روي أنه ﷺ كان على شط ماء وقعد عكرمة بن أبي جهل فقال: إن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذي في الجانب الآخر فليسبح ولا يغرق، فأشار إليه ﷺ فانقلع الحجر من مكانه وسبح حتى صار بين يدي رسول الله ﷺ وشهد له بالرسالة، فقال له النبي ﷺ: «يكفيك هذا؟» فقال: حتى يرجع إلى مكانه»[3] فلم أره لغيره والله أعلم بحاله.

● وأما إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فكانت عليه نار نمروذ برداً وسلاماً، فأعطي سيدنا محمد ﷺ نظير ذلك، إطفاء نار الحرب عنه ﷺ وناهيك بنار حطبها السيوف ووهجها الحتوف وموقدها الحسد ومطلبها الروح والجسد، قال الله تعالى: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ [المائدة: ٦٤]. فكم أرادوا أن يطفئوا النور بالنار، وأبى الجبار إلا أن يتم نوره وأن يخمد شرورهم ويحمد لمحه. ﷺ سروره وظهوره.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/٤٩ وفي كنز العمال (٣٤٥٨٨).
(٢) سورة مريم: ٥٧.
(٣) ذكره ابن حجر في تغليق التعليق (١٩٣).

ويذكر أنه ﷺ مر ليلة المعراج على بحر النار الذي دون سماء الدنيا مع سلامته منه، كما روي مما رأيته في بعض الكتب. وروى النسائي أن محمد بن حاطب قال: كنت طفلاً فانصب القدر علي واحترق جلدي كله، فحملني أبي إلى رسول الله ﷺ فتفل ﷺ في جلدي ومسح بيده على المحترق وقال: «أذهب البأس رب الناس»، فصرت صحيحاً لا بأس بي[1].

وأما ما أعطيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام من مقام الخلة فقد أعطيه نبينا ﷺ، وزاد بمقام المحبة، وقد روي في حديث الشفاعة أن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذا قيل له: اتخذك الله خليلاً فاشفع لنا قال: «إنما كنت خليلاً من وراء وراء» اذهبوا إلى غيري إلى أن تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها»[2] وهذا يدل على أن نبينا ﷺ كان خليلاً مع رفع الحجاب وكشف الغطاء ولو كان خليلاً من وراء وراء لاعتذر كما اعتذر إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وفيه تنبيه ظاهر على أنه ﷺ فاز برؤية الحق سبحانه وكشف له الغطاء حتى رأى الحق بعيني رأسه، كما سيأتي البحث في ذلك إن شاء الله تعالى في المقصد الخامس.

والملخص من هذا: أن النبي ﷺ نال درجة الخلة التي اشتهرت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام على وجه نطق إبراهيم بأن نصيب سيدنا محمد ﷺ منه الأعلى، بمفهوم قوله عن نفسه: «إنما كنت خليلاً من وراء وراء» فلم يشفع، ففيه دليل على أنه إنما يشفع من كان خليلاً لا من وراء وراء بل مع الكشف والعيان وقرب المكانة من حظيرة القدس، لا المكان، وذلك مقام محمد ﷺ بالدليل والبرهان.

ومما أعطيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، انفراده في أهل الأرض بعبادة الله تعالى

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب المرضىٰ باب (٢٠) رقم الحديث (٥٦٧٥ ـ ٥٧٤٣ ـ ٥٧٤٤ ـ ٥٧٥٠). وفي صحيح مسلم كتاب السلام رقم الحديث (٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٩) وفي سنن أبي داود كتاب الطب باب (١٧) رقم الحديث (٣٨٨٣) وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (١٦١٩ ـ ٣٥٢٠ ـ ٣٥٣٠). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٤٤. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٨١ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٦٢. وفي المعجم الكبير للطبراني ٤/ ٣٢٧. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٧٤. وفي شرح السنة للبغوي ٥/ ٢٤٤. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١١٢. وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ١١٥. وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٤١٥ ـ ١٤١٧). وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١٥٣٠) وفي كنز العمال (١٨٠٧١ ـ ٢٥٦٩٢ ـ ٢٨٥٣٧ ـ ٢٨٥٣٩).

(2) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب (٣٦) رقم الحديث (٥٧١٠). وفي صحيح مسلم كتاب الإيمان، رقم الحديث (٣٢٩) وفي تفسير ابن كثير ٨/ ٤٢١. وفي البداية والنهاية ١/ ١٦٠. وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٢٠.

وتوحيده، والانتصاب للأصنام بالكسر والقسر، أعطي سيدنا ﷺ كسرها بأسرها بمحضر من أولي نصرها بقضيب ليس مما يكسر إلا بقوة ربانية ومادة إلهية، اجتزأ فيها بالأنفاس عن الفاس، وما عول على المعول، ولا عرض في القول ولا تمرض من الصول بل قال جهراً بغير سر: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ [الإسراء: ٨١].

ومما أعطيه الخليل عليه الصلاة والسلام بناء البيت الحرام، ولا خفاء أن البيت جسد وروحه الحجر الأسود بل هو سويداء القلب، بل جاء «أنه يمين الرب»[1] كناية عن استلامه كما تستلم الأيمان عند عقد العهود والأيمان، وقد أعطي سيدنا محمد ﷺ أن قريشاً لما بنت البيت بعد تهدمه ولم يبق إلا وضع الحجر تنافسوا على الفخر الفخم والمجد الضخم، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل، فاتفق دخول سيدنا محمد ﷺ فقالوا: هذا الأمين، فحكموه في ذلك فأمر ببسط ثوب ووضع الحجر فيه ثم قال: «يرفع كل بطن بطرف» فرفعوه جميعاً، ثم أخذه سيدنا محمد ﷺ فوضعه في موضعه[2]، فادخر الله تعالى له ذلك المقام ليكون منقبة له على مدى الأيام.

● وأما ما أعطيه موسى عليه الصلاة والسلام من قلب العصا حية غير ناطقة، فأعطي سيدنا محمد ﷺ حنين الجذع[3]، وقد مرت قصته.

وحكى الإمام الرازي ـ في تفسيره ـ وغيره: أنه لما أراد أبو جهل أن يرميه ﷺ بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين فانصرف مرعوباً.

وأما ما أعطيه موسى عليه السلام أيضاً من اليد البيضاء، وكان بياضها يغشى البصر، فأعطي سيدنا محمد ﷺ أنه لم يزل نوراً ينتقل في أصلاب الآباء وبطون الأمهات من لدن آدم إلى أن انتقل إلى عبد الله أبيه. وأعطى ﷺ قتادة بن النعمان وقد صلى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة عرجونا وقال: «انطلق به فإنه سيضيء لك من بين يديك عشراً، ومن خلفك عشراً، فإذا دخلت بيتك فسترى سواداً فاضربه حتى يخرج فإنه شيطان» فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ووجد السواد وضربه حتى خرج. رواه أبو نعيم.

---

(١) نص الحديث: «الحجر يمين الله فمن مسحه فقد بايع الله»، ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٧٢٩ ـ ٣٤٧٣٠).

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/٢٠٨ وما بعدها وفي البداية والنهاية ٢/٢٧٨.

(٣) نقل ابن أبي حاتم في كتاب «مناقب الشافعي» عن أبيه عن عمر بن سواد عن الشافعي قال: «ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمداً. فقلت أعطى عيسى إحياء الموتى قال: أعطي محمد حنين الجذع حتى سمع صوته فهذا أكبر من ذلك».

وأخرج البيهقي، وصححه الحاكم عن أنس قال: كان عباد بن بشر وأسيد بن حضير عند رسول الله ﷺ في حاجة: حتى ذهب من الليل ساعة، وهي ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا وبيد كل واحد منهما عصا، فأضاءت لهما عصا أحدهما، فمشيا في ضوئها، حتى إذا افترقت بهم الطريق أضاءت للآخر عصاه، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ هديه[1]، ورواه البخاري بنحوه في الصحيح.

وأخرج البخاري في تاريخه والبيهقي وأبو نعيم عن حمزة الأسلمي قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فتفرقنا في ليلة ظلماء، فأضاءت أصابعي حتى جمعوا عليها ظهرهم وما هلك منهم وإن أصابعي لتنير.

ومما أعطيه موسى عليه السلام أيضاً انفلاق البحر له، أعطي نبينا محمد ﷺ انشقاق القمر - كما مر - فموسى تصرف في عالم الأرض وسيدنا محمد ﷺ تصرف في عالم السماء، والفرق بينهما واضح، قاله ابن المنير.

وذكر ابن حبيب أن بين السماء والأرض بحراً يسمى المكفوف، يكون بحر الأرض بالنسبة إليه كالقطرة من البحر المحيط، قال: فعلى هذا يكون ذلك البحر انفلق لنبينا ﷺ حتى جاوزه - يعني ليلة الإسراء - وهو أعظم من انفلاق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام.

ومما أعطيه موسى عليه السلام إجابة دعائه، أعطي نبينا محمد ﷺ من ذلك ما لا يحصى. ومما أعطيه موسى عليه السلام تفجير الماء له من الحجارة، أعطي سيدنا محمد ﷺ أن الماء تفجر من بين أصابعه، وهذا أبلغ لأن الحجر من جنس الأرض التي ينبع منها الماء[2]، ولم تجر العادة بنبع الماء من اللحم، ويرحم الله القائل:

وكل معجزة للرسل قد سلفت ... وافى بأعجب منها عند إظهار
فما العصا حية تسعى بأعجب من ... شكوى البعير ولا من مشي أشجار
ولا انفجار معين الماء من حجر ... أشد من سلسل من كفه جار

ومما أعطيه موسى عليه السلام الكلام، أعطي سيدنا محمد ﷺ مثله ليلة الإسراء وزيادة الدنو والتدلي، وأيضاً كان مقام المناجاة في حق نبينا ﷺ فوق السماوات العلى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب (٧٩) رقم الحديث (٤٦٥ - ٣٦٣٩ - ٣٨٠٥).

(٢) فخروج الماء من الحجر معهود بخلاف نبع الماء الزلال من بين الأصابع. فهذه المعجزة في نبع الماء من بين أصابعه الذي كفى هذا الجيش الكثير أعجب من تفجير موسى الماء من الحجر حين ضربه بعصاه.

وسدرة المنتهى، والمستوى[1] وحجب النور والرفرف، ومقام المناجاة لموسى عليه السلام طور سيناء.

● وأما ما أعطيه هارون عليه الصلاة والسلام من فصاحة اللسان، فقد كان نبينا ﷺ من الفصاحة والبلاغة بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل. ولقد قال له بعض أصحابه: ما رأينا الذي هو أفصح منك فقال: «وما يمنعني وإنما نزل القرآن بلساني، لسان عربي مبين»[2].

وقد كانت فصاحة هارون غايتها في العبرانية، والعربية أفصح منها. وهل كانت فصاحة هارون معجزة أم لا؟ قال ابن المنير: الظاهر أنها لم تكن معجزة، ولكن فضيلة، ولم يتحد نبي من الأنبياء بالفصاحة إلا نبينا محمد ﷺ، لأن هذه الخصوصية لا تكون لغير الكتاب العزيز، وهل فصاحته ﷺ في جوامع الكلم التي ليست من التلاوة ولكنها معدودة من السنة، هل تحدى بها أم لا؟ فظاهر قوله ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم»[3] أنه من التحدث بنعمة الله عليه وخصائصه، ولا خلاف أنها باعتبار ما اشتملت عليه من الإخبار بالمغيبات ونحوها معجزة.

● وأما ما أعطيه يوسف عليه الصلاة والسلام من شطر الحسن، فأعطي نبينا ﷺ الحسن كله، وستأتي الإشارة إلى ذلك إن شاء الله تعالى في مقصد الإسراء. ومن تأمل ما نقلته في صفته تبين له من ذلك التفصيل التفضيل على كل مشهور بالحسن في كل جيل.

وأما ما أعطيه يوسف عليه السلام أيضاً من تعبير الرؤيا، فالذي نقل عنه من ذلك ثلاث منامات، أحدها: حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر، والثاني: منام صاحبي السجن، والثالث: منام الملك، وقد أعطي نبينا ﷺ من ذلك ما لا يدخله الحصر، ومن تصفح الأخبار وتتبع الآثار وجد من ذلك العجب العجاب، وستأتي نبذة من ذلك إن شاء الله تعالى.

● وأما ما أعطيه داود عليه الصلاة والسلام من تليين الحديد له، فكان إذا مسح الحديد لان، فأعطي نبينا ﷺ أن العود اليابس اخضر في يده وأورق، ومسح ﷺ شاة أم معبدة الجرباء، فبرئت ودرت.

---

(١) المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام.

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد رقم الحديث (٧ و ٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٥٠ و ٥٠١ وفي تفسير ابن كثير ٤/ ٧٢ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ١٤ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ١٤ وفي اتحاف السادة المتقين ٧/ ١١٣ وفي كنز العمال (٣٢٠٦٨).

● وأما ما أعطيه سليمان عليه الصلاة والسلام من كلام الطير وتسخير الشياطين والريح، والملك الذي لم يعطه أحد من بعده، فقد أعطي سيدنا محمد ﷺ مثل ذلك وزيادة.

أما كلام الطير والوحش فنبينا ﷺ كلمه الحجر، وسبح في كفه الحصى، وهو جماد، وكلمه ذراع الشاة المسمومة ـ كما تقدم في غزوة خيبر ـ، وكذلك كلمه الظبي وشكا إليه البعير ـ كما مر ـ. وروي أن طيراً فجع بولده فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه فيقول: أيكم فجع هذا بولده، فقال رجل أنا فقال: «اردد ولده» ذكره الرازي ورواه أبو داود بلفظ: كنا مع النبي ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش ـ أي تدنو ـ من الأرض، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»[1] الحديث. وقصة كلام الذئب مشهورة.

وأما الريح التي كانت غدوها شهر ورواحها شهر، تحمله أين أراد من أقطار الأرض، فقد أعطي سيدنا محمد ﷺ البراق الذي هو أسرع من الريح، بل أسرع من البرق الخاطف، فحمله من الفرش إلى العرش في ساعة زمانية، وأقل مسافة ذلك سبعة آلاف سنة، وتلك مسافة السماوات، وأما إلى المستوى وإلى الرفرف فذلك ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وأيضاً: فالريح سخرت لسليمان لتحمله إلى نواحي الأرض، ونبينا ﷺ زويت له الأرض ـ أي جمعت ـ حتى رأى مشارقها ومغاربها، وفرق بين من يسعى إلى الأرض، وبين من تسعى له الأرض.

وأما ما أعطيه من تسخير الشياطين فقد روي أن أبا الشياطين إبليس اعترض سيدنا محمد ﷺ وهو في الصلاة، فأمكنه الله منه وربطه بسارية من سواري المسجد[2] وخير مما أوتيه سليمان من ذلك إيمان الجن بمحمد ﷺ، فسليمان استخدمهم ومحمد استسلمهم.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الجهاد باب (١١٢) رقم الحديث (٢٦٧٥) وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/٢١٨ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/٣٣ وفي مستدرك الحاكم ٤/٢٣٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٥٤٢) وفي البداية والنهاية ٦/١٥٨ وفي نصب الراية للزيلعي ٣/٤٠٧ وفي كنز العمال (٤٣٧٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب (٧٥) رقم الحديث (٤٦١ ـ ١٢١٠ ـ ٣٢٨٤ ـ ٣٤٢٣ ـ ٤٨٠٨) وفي صحيح مسلم كتاب المساجد رقم الحديث (٣٩) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/٢٩٨. وفي شرح السنة للبغوي ٣/٢٦٩. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/٢٨٦. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٧/٩٧ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٩٨٧) وفي المغني للعراقي ٣/٣٦ وفي البداية والنهاية ١/٥٨ وفي كنز العمال (٣١٩٥٦).

وأما عد الجن من جنود سليمان في قوله تعالى: ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن﴾ [النمل: ١٧]. فخير منه عدّ الملائكة، جبريل ومن معه من جملة أجناده ﷺ، باعتبار الجهاد وباعتبار تكثير السواد على طريقة الأجناد.

وأما عد الطير من جملة أجناده، فأعجب منه حمامة الغار وتوكيرها في الساعة الواحدة وحمايتها له من عدوه، والغرض من استكثار الجند إنما هو الحماية، وقد حصلت من أعظم شيء بأيسر شيء. وأما ما أعطيه من الملك، فنبينا ﷺ خيّر بين أن يكون نبياً ملكاً ونبياً عبداً، فاختار ﷺ أن يكون نبياً عبداً. ولله در القائل:

يا خير عبد على كل الملوك ولي

● وأما ما أعطيه عيسى عليه الصلاة والسلام من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فأعطي سيدنا محمد ﷺ أنه رد العين إلى مكانها بعدما سقطت فعادت أحسن ما كانت، وفي دلائل البيهقي قصة الرجل الذي قال للنبي ﷺ لا أؤمن بك حتى تحيي لي ابنتي، وفيه أنه ﷺ أتى قبرها فقال: «يا فلانة»، فقالت: لبيك وسعديك يا رسول الله، الحديث، وقد مر. وروي أن امرأة معاذ بن عفراء - وكانت برصاء - فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فمسح عليها بعصا فأذهب الله البرص منها، ذكره الرازي، وأيضاً قد سبح الحصى في كفه ﷺ، وسلم عليه الحجر، وحن لفراقه الجذع، وذلك أبلغ من تكليم الموتى لأن هذا من جنس من لا يتكلم.

وأما ما أعطيه عيسى أيضاً من أنه كان يعرف ما تخفيه الناس في بيوتهم، فقد أعطي نبينا ﷺ من ذلك ما لا يحصى، وسيأتي من ذلك إن شاء الله تعالى ما يكفي ويشفي.

وأما ما أعطيه عيسى أيضاً من رفعه إلى السماء، فقد أعطي نبينا ﷺ ذلك ليلة المعراج، وزاد في الترقي لمزيد الدرجات وسماع المناجاة والحظوة في الحضرة المقدسة بالمشاهدات.

وبالجملة: فقد خص الله تعالى نبينا ﷺ من خصائص التكريم بما لم يعطه أحداً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد روى جابر عنه ﷺ أنه قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل حيث كان، ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة»[1] رواه البخاري. وفي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب (١) رقم الحديث (٣٣٥ - ٤٣٨ - ٣١٣٢) وفي صحيح مسلم=

روايـة: «وبعثـت إلـى النـاس كـافـة» . وزاد البخـاري فـي روايتـه ـ فـي الصـلاة ـ عـن محمد بن سنان (من الأنبياء).

وعند الإمام أحمد: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي، ولا أقوله فخراً» وفيه: «وأعطيت الشفاعة فاخترتها لأمتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً» وإسناده كما قال ابن كثير جيد.

وليس المراد حصر خصائصه ﷺ في هذه الخمسة المذكورة. فقد روى مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «فضلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»[1] فذكر الخمسة المذكورة في حديث جابر إلا الشفاعة، وزاد خصلتين وهما: أعطيت جوامع الكلم وختم بي النبيون، فتحصل منه ومن حديث جابر سبع خصال.

ولمسلم أيضاً من حديث حذيفة: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة»[2] وذكر خصلة الأرض كما تقدم، قال: وذكر خصلة أخرى. وهذه الخصلة المبهمة قد بينها ابن خزيمة والنسائي، وهي: وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش، يشير إلى ما حطه الله تعالى عن أمته من الإصر وتحميل ما لا طاقة لهم به، ورفع الخطأ والنسيان، فصارت الخصال تسعاً.

ولأحمد من حديث علي «أعطيت أربعاً لم يعطهن أحد من أنبياء الله تعالى قبلي

---

= كتاب المساجد رقم الحديث (٣) وفي سنن النسائي ١/ ٢١٠ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٠٤ و ٥/ ١٤٨ وفي سنن الدارمي ٢/ ٢٢٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٢١٢ وفي مسند الحميدي رقم الحديث (٩٤٥) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٥٩ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٣٧ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٤٧) وفي اتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٤٧ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٨/ ٣١٦ وفي البداية والنهاية ٣/ ٢٩٩ وفي كنز العمال (٣١٩٣٠ ـ ٣٢٠٦٢ ـ ٣٢٠٦٥).

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب السير باب (٥) رقم الحديث (١٥٥٣) وفي صحيح مسلم كتاب المساجد رقم الحديث (٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤١٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٣٢ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٧٢ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٦٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٤٨) وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٢٠٤ وفي كنز العمال (٣١٩٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد رقم الحديث (٤) وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٢١٣ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٩٣ وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٢٢١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٢٦) وفي تفسير القرطبي ٥/ ٢١٣ وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٤٥٠ وفي فتح الباري ١/ ٥٧٨ وفي كنز العمال (٣١٩١٢ ـ ٣٢٠٧٥).

أعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعلت أمتي خير الأمم، وذكر خصلة التراب، فصارت الخصال ثنتي عشرة خصلة»[1].

وعند البزار من وجه آخر عن أبي هريرة رفعه: «فضلت على الأنبياء، غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وجعلت أمتي خير الأمم، وأعطيت الكوثر، وإن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة، تحته آدم فمن دونه» وذكر ثنتين مما تقدم.

وله من حديث ابن عباس رفعه: «فضلت على الأنبياء بخصلتين: كان شيطاني كافراً فأعانني الله عليه فأسلم. قال: ونسيت الأخرى».

فينتظم بهذا سبع عشرة خصلة، ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التتبع.

وقد ذكر أبو سعيد النيسابوري في كتاب «شرف المصطفى» أن عدد الذي خص به ﷺ ستون خصلة. وطريق الجمع أن يقال: لعله ﷺ اطلع أولاً على بعض ما اختص له، ثم اطلع على الباقي. ومن لا يرى مفهوم العدد حجة يدفع هذا الإشكال من أصله. وقد ذكر بعض العلماء أنه ﷺ أوتي ثلاثة آلاف معجزة وخصيصية.

وقد اختلف في العلم بخصائصه ﷺ، فقال الصيمري من الشافعية: منع أبو علي بن خيران الكلام فيها، لأنه أمر انقضى فلا معنى للكلام فيه.

وقال إمام الحرمين: قال المحققون ذكر الاختلاف في مسائل الخصائص خبط غير مفيد، فإنه لا يتعلق به حكم ناجز تمس إليه حاجة، وإنما يجري الخلاف فيما لا يوجد بد من إثبات حكم فيه، فإن الأقيسة لا مجال لها، والأحكام الخاصة تتبع فيها النصوص، وما لا نص فيه فالخلاف فيه هجوم على الغيب من غير فائدة.

وقال النووي ـ في الروضة والتهذيب ـ بعد نقله هذين الكلامين: وقال سائر الأصحاب لا بأس به، وهو الصحيح، لما فيه من زيادة العلم، فهذا كلام الأصحاب، والصواب الجزم بجواز ذلك، بل استحبابه، ولو قيل وجوبه لم يكن بعيداً، لأنه ربما رأى جاهل بعض الخصائص ثابتاً في الحديث الصحيح فعمل به أخذاً بأصل التأسي، فوجب بيانها لتعرف، فلا يعمل بها، فأي فائدة أهم من هذه الفائدة، وأما ما يقع في ضمن الخصائص مما لا فائدة فيه اليوم فقليل لا تخلو أبواب الفقه عن مثله للتدريب ومعرفة الأدلة، وتحقيق الشيء على ما هو عليه. انتهى كلام النووي.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/١٥٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٢٨٥ وفي فتح الباري ١/٥٧٨ وفي كنز العمال (٣٢٠٦٧).

وقد تتبعت ما شرف الله تعالى به نبينا ﷺ من الخصائص والآيات، وأكرمه به من الفضائل والكرامات من كتب العلماء، كالخصائص لابن سبع، وخصائص الروضة للنووي، ومختصرها للحجازي، وشرح الحاوي لابن الملقن، وشرح البهجة لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، واللفظ المكرم في خصائص النبي ﷺ للشيخ قطب الدين الخيضري، واستفدت منه كثيراً في فصل المعجزات، مع ما رأيته أثناء مطالعتي لفتح الباري، وشرح مسلم للنووي، وشرح تقريب الأسانيد للعراقي وغير ذلك مما يطول ذكره، فتحصل لي من ذلك جملة. وقد قسمها غير واحد من الأئمة أربعة أقسام:

[القسم] الأول: ما اختص به ﷺ من الواجبات، والحكمة في ذلك زيادة الزلفى والدرجات، فإنه لن يتقرب المتقربون إلى الله تعالى بمثل أداء ما افترض عليهم. قال بعضهم: خص الله تعالى نبيه ﷺ بواجبات عليه لعلمه بأنه أقوم بها منهم، وقيل ليجعل أجره بها أعظم.

● فاختص ﷺ بوجوب الضحى على المذهب، لكن قول عائشة في الصحيح: (ما رأيت رسول الله ﷺ يسبح سبحة الضحى)[1] يدل على ضعف أنها كانت واجبة عليه. قال الحافظ ابن حجر: ولم يثبت ذلك في خبر صحيح. انتهى. وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في ذكر صلاة الضحى في مقصد عباداته ﷺ. وهل كان الواجب عليه أقل الضحى أو أكثرها، أو أدنى الكمال؟ قال الحجازي: لا نقل فيه، لكن في مسند أحمد: «أمرت بركعتي الضحى ولم تؤمروا بهما»[2].

● ومنها الوتر وركعتا الفجر، كما رواه الحاكم في المستدرك وغيره، ولفظ أحمد والطبراني: «ثلاث علي فريضة وهن لكم تطوع، الوتر وركعتا الفجر وركعتا الضحى»[3]. قال بعضهم: وقد ثبت أنه ﷺ صلى الوتر على الراحلة. قال: ولو كان واجباً لما جاز فعله على الراحلة. وتعقب: بأن فعله على الراحلة من الخصائص أيضاً كما سيأتي فيما اختص به ﷺ من المباحات، إن شاء الله تعالى. وأجيب بأنه يحتاج إلى دليل. وهل كان الواجب عليه أقل الوتر أم أكثره؟ أم أدنى الكمال؟ قال الحجازي: لم أر فيه نقلاً.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التهجد باب (٣٢) رقم الحديث (١١١٧) وفي الموطأ للإمام مالك كتاب قصر الصلاة في السفر باب (٨) رقم الحديث (٢٩) وفي صحيح مسلم كتاب المسافرين رقم الحديث (٧٧ و ٨١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٨٥ و ٢٣٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٣٢ و ٣١٧ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٤٣٧) وفي كنز العمال (٢١٤٨٦).

(٣) ذكره أبو نعيم في الحلية ٩/ ٢٣٢ وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ٤٥٣ وفي كنز العمال (١٩٥٤٠).

● ومنها صلاة الليل، قال تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ [الإسراء: ٧٩]. أي فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك، وهذا ما صححه الرافعي ونقله النووي عن الجمهور، ثم قال: وحكى الشيخ أبو حامد أن الشافعي نص على أنه نسخ وجوبه في حقه، كما نسخ في حق غيره.

● ومنها السواك، واستدلوا له بما رواه أبو داود من حديث عبد الله بن أبي حنظلة بن أبي عامر أن رسول الله ﷺ أمر بالوضوء عند كل صلاة طاهراً أو غير طاهر، فلما شق عليه ذلك أمر بالسواك لكل صلاة[1]. وفي إسناده محمد بن إسحاق، وقد رواه بالعنعنة وهو مدلس.

وحجة من لم يجعله واجباً عليه، ما رواه ابن ماجه في سننه من حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «ما جاءني جبريل إلا أوصاني بالسواك حتى خشيت أن يفرض علي وعلى أمتي»[2] وإسناده ضعيف. وروى أحمد في مسنده من حديث واثلة بن الأسقع قال قال رسول الله ﷺ: «أمرت بالسواك حتى خشيت أن يكتب علي»[3]، وإسناده حسن. والخصائص لا تثبت إلا بدليل صحيح، قاله في شرح تقريب الأسانيد.

● ومنها الأضحية، قال الله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾ [الكوثر: ٢]، وروى الدارقطني والحاكم عن ابن عباس أنه ﷺ قال: «ثلاث هن علي فرائض، وهن لكم تطوع: النحر والوتر وركعتا الفجر».

● ومنها المشاورة، قال الله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فظاهره الإيجاب، ويقال إنه استحباب، استمالة للقلوب، ومعناه: استخراج آرائهم، ونقل البيهقي في «معرفة السنن والآثار» عن النص: أن المشورة غير واجبة عليه، كما نبه عليه الحجازي وغيره.

واختلف في المعنى الذي لأجله أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالمشاورة مع كمال عقله وجزالة رأيه وتتابع الوحي عليه، ووجوب طاعته على أمته. فقال بعضهم: هو خاص في

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الطهارة باب (٢٥) رقم الحديث (٤٨) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣٨/١ وفي مستدرك الحاكم ١٥٦/١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطهارة باب (٧) رقم الحديث (٢٨٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٦٣/٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ٢٤٩/٨ وفي الدر المنثور للسيوطي ١١٣/١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٨٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤٩٠/٣ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٤٢٣ ـ ٤٤٣٠ ـ ٤٤٣٦) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩٨/٢ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ١٦٦/١.

المعنى، وإن كان عاماً في اللفظ، أي: وشاورهم فيما ليس عندك من الله فيه عهد، يدل عليه قراءة ابن عباس: وشاورهم في بعض الأمر. وقال الكلبي: يعني ناظرهم في لقاء العدو، ومكائد الحرب عند الغزو.

وقال قتادة ومقاتل: كانت سادات العرب إذا لم تشاور في الأمر شق عليهم، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاورهم، فإن ذلك أعطف لهم وأذهب لأضغانهم، وأطيب لنفوسهم. وقال الحسن: قد علم الله أن ما به إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستن به من بعده. وحكى القاضي أبو يعلى، في الذي أمر بالمشاورة فيه قولين: أحدهما: في أمر الدنيا خاصة، والثاني: في الدين والدنيا وهو الأصح، قاله المعافى بن زكريا في تفسيره.

والحكمة في المشاورة في الدين التنبيه لهم على علل الأحكام، وطريق الاجتهاد. وأخرج ابن عدي والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال رسول الله ﷺ: «أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ولكن جعلها الله رحمة لأمتي»[1].

وعند الترمذي الحكيم من حديث عائشة، رفعته: «إن الله أمرني بمداراة الناس، كما أمرني بإقامة الفرائض»[2].

● ومنها مصابرة العدو وإن كثر عددهم.

● ومنها تغيير المنكر إذا رآه، لكن قد يقال: كل مكلف تمكن من تغييره يلزمه، فيقال: المراد أنه لا يسقط عنه ﷺ بالخوف بخلاف غيره.

● ومنها قضاء دين من مات مسلماً معسراً، روى مسلم حديث: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دين فعلي قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته»[3].

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٩٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٩٠ وأيضاً وفي جمع الجوامع (٤٧١٣) وفي تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٨ وفي لسان الميزان لابن حجر ٢/ ٩٣ وفي ميزان الاعتدال (١٢٠٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الكفالة باب (٥) رقم الحديث (٢٢٩٨ ـ ٢٣٩٨ ـ ٢٣٩٩ ـ ٤٧٨١ ـ ٥٣٧١ ـ ٦٧٣١ ـ ٦٧٤٥ ـ ٦٧٦٣) وفي سنن الترمذي كتاب الجنائز باب (٧٠) رقم الحديث (١٠٧٠) وفي سنن ابن ماجه كتاب الصدقات باب (١٣) رقم الحديث (٢٤١٥) وفي سنن النسائي ٤/ ٦٦ وفي سنن أبي داود كتاب الخراج والفيء باب (١٥) رقم الحديث (٢٩٥٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٩٠ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٢٠١ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٩١٣) وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ١٨٢ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٦٠٨ وفي كنز العمال (٣٠٤٠٨).

قال النووي: كان هذا القضاء واجباً عليه ﷺ، وقيل: تبرع منه، والخلاف وجهان لأصحابنا وغيرهم، قال: ومعنى الحديث: أنه ﷺ قال: «أنا قائم بمصالحكم في حياة أحدكم أو موته، أنا وليه في الحالين، فإن كان عليه دين قضيته من عندي إن لم يخلف وفاء، وإن كان له مال فلورثته، لا آخذ منه شيئاً، وإن خلف عيالاً محتاجين ضائعين فليأتوا إلي فعلي نفقتهم ومؤنتهم». انتهى.

وفي وجوب قضائه على الإمام من مال المصالح وجهان، لكن قال الإمام: من استدان وبقي معسراً إلى أن مات لم يقض دينه من بيت المال، فإن كان ظلم بالمطل ففيه احتمال، والأولى: لا، والله أعلم.

● ومنها تخيير نسائه ﷺ في فراقه، وإمساكهن بعد أن اخترنه في أحد الوجهين، وترك التزوج عليهن والتبدل بهن مكافأة لهن، ثم نسخ ذلك، لتكون المنة له ﷺ عليهن، قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ [الأحزاب: ٢٨]. الآية.

واختلف في تخييره لهن على قولين، أحدهما: أنه خيرهن بين اختيار الدنيا فيفارقهن، واختيار الآخرة فيمسكهن، ولم يخيرهن في الطلاق، وهذا هو قول الحسن وقتادة، والثاني: أنه خيرهن بين الطلاق والمقام معه، وهذا قول عائشة ومجاهد والشعبي ومقاتل. واختلفوا في السبب الذي لأجله خير ﷺ نساءه على أقوال:

أحدها: أن الله تعالى خيره بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة على الدنيا، فاختار الآخرة وقال: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»، فلما اختار ذلك أمره الله تعالى بتخيير نسائه ليكن على مثل اختياره. حكاه أبو القاسم النميري.

الثاني: لأنهن تغايرن عليه.

والثالث: لأن أزواجه طالبنه وكان غير مستطيع، فكان أولهن أم سلمة سألته ستراً معلماً، وسألته ميمونة حلة يمانية، وسألته زينب ثوباً مخططاً وهو البرد اليماني، وسألته أم حبيبة ثوباً سحولياً، وسألته كل واحدة شيئاً إلا عائشة. حكاه النقاش.

والرابع: أن أزواجه ﷺ اجتمعن يوماً فقلن: نريد ما تريد النساء من الحلي فأنزل الله تعالى آية التخيير، حكاه النقاش أيضاً. وذلك أنه لما نصر الله تعالى رسوله وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق. وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملن بما يعامل به الملوك

والأكابر أزواجهم، فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن لئلا يكون لأحد منهن عليه منة في الصبر على ما اختاره من خشونة العيش.

فلما اخترنه وصبرن معه عوضهن الله على صبرهن بأمرين: أحدهما، أن جعلهن أمهات المؤمنين تعظيماً لحقهن وتأكيداً لحرمتهن، وتفضيلهن على سائر النساء بقوله: ﴿لستن كأحد من النساء﴾ [الأحزاب: ٣٢]، والثاني: أن حرم الله عليه طلاقهن والاستبدال بهن فقال تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج﴾ [الأحزاب: ٥٢]. الآية، فكان تحريم طلاقهن مستداماً، وأما تحريم التزوج عليهن فنسخ، قالت عائشة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء، يعني اللاتي حرمن عليه، وقيل: الناسخ لتحريمهن قوله تعالى: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾ [الأحزاب: ٥٠]. الآية.

وقال النووي في الروضة: لما خيرهن فاخترنه كافأهن على حسن صنيعهن بالجنة فقال: ﴿فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٢٩]. انتهى.

وإنما اختص ﷺ بوجوب التخيير لنسائه بين التسريح والإمساك، لأن الجمع بين عدد منهن يوغر صدورهن بالغيرة التي هي من أعظم الآلام، وهو إيذاء يكاد ينفر القلب ويوهن الاعتقاد، وكذا إلزامهن على الصبر والفقر يؤذيهن، ومهما ألقى زمام الأمر إليهن خرج عن أن يكون ضرراً، فنزه عن ذلك منصبه العالي. وقيل له: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ [الأحزاب: ٣٣].

● ومنها: إتمام كل تطوع شرع فيه، حكاه في الروضة وأصلها، قال النووي: وهو ضعيف. وفرعه بعض الأصحاب: على أنه كان يحرم عليه ﷺ إذا لبس لامته أن ينزعها حتى يلقى العدو ويقاتل. ذكره في تهذيب الأسماء واللغات.

● ومنها: أنه كان يلزمه ﷺ أداء فرض الصلاة بلا خلل. قاله الماوردي: قال العراقي في شرح المهذب: إنه كان معصوماً عن نقص الفرائض. انتهى، والمراد خلل لا يبطل الصلاة.

● وقال بعضهم: كان يجب عليه ﷺ إذا رأى ما يعجبه أن يقول: «لبيك أن العيش عيش الآخرة»[1] ثم قال: هذه كلمة صدرت منه ﷺ في أنعم حالة، وهو يوم حجه بعرفة، وفي أشد حالة، وهو يوم الخندق، انتهى.

---

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٧/٤٨ وفي اتحاف السادة المتقين ٣/٣٣٩ وفي الزهد لأحمد بن حنبل (٢٨) وفي تلخيص الحبير لابن حجر ٢/٢٤٠ وفي مصنف ابن أبي شيبة (٤٠٧).

● ومنها: أنه ﷺ كان يؤخذ عن الدنيا حالة الوحي، ولا يسقط عنه الصوم والصلاة وسائر الأحكام، كما ذكره في زوائد الروضة عن ابن القاص والقفال، وكذا ذكره ابن سبع.

● ومنها: أنه كان ﷺ يغان على قلبه فيستغفر الله سبعين مرة. ذكره ابن القاص ونقله ابن الملقن في الخصائص، ورواه مسلم وأبو داود من حديث الأغر المزني بلفظ: «إنه ليغان على قلبي وإنه لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[1] هذا لفظ مسلم، وقال أبو داود «في كل يوم»، قال الشيخ ولي الدين بن العراقي: والظاهر أن الجملة الثانية مرتبة على الأولى، وأن سبب الاستغفار: الغين، ويدل لذلك قوله في رواية النسائي في عمل اليوم والليلة: إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله كل يوم مائة مرة، وفي رواية له أيضاً: فاستغفر الله. وألفاظ الحديث يفسر بعضها بعضاً. ويحتمل من حيث اللفظ أن تكون الجملة الثانية كلاماً برأسه غير متعلق بما قبله، فيكون ﷺ أخبر بأنه يغان على قلبه، وبأنه يستغفر الله في اليوم مائة مرة، انتهى.

وقال أبو عبيد: أصل الغين في هذا، ما يغشى القلب ويغطيه، وأصله: من غين السماء، وهو إطباق الغيم عليها. وقال غيره: الغين يغشى القلب ولا يغطيه كل التغطية، كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهواء فلا يمنع ضوء الشمس.

قال القاضي عياض ـ بعد حكايته ذلك ـ: فيكون المراد بهذا الغين إشارة إلى غفلات قلبه وفترات نفسه وسهوها عن مداومة الذكر ومشاهدة الحق بما كان ﷺ دفع إليه من مقاساة البشر وسياسة الأمة ومعاناة الأهل، ومقاومة الولي والعدو، ومصلحة النفس، وما كلفه من أعباء أداء الرسالة وحمل الأمانة، وهو في كل هذا في طاعة ربه، وعبادة خالقه، ولكن لما كان ﷺ أرفع الخلق عند الله مكانة وأعلاهم درجة، وأتمهم به معرفة، وكانت حاله عند خلوص قلبه وخلو همته، وتفرده بربه وإقباله بكليته عليه، ومقامه هناك أرفع حاليه، رأى ﷺ حال فترته عنها، وشغله بسواها غضاً عليَّ حاله، وخفضاً من رفيع مقامه، فاستغفر الله من ذلك، قال: وهذا أولى وجوه الحديث وأشهرها، وإلى معنى ما أشرنا إليه مال كثير من الناس، وحام حوله فقارب ولم يرد، وقد قربنا غامض معناه،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الصلاة باب (٢٦) رقم الحديث (١٥١٥) وفي صحيح مسلم كتاب الذكر رقم الحديث (٤١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢١١ وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٢٨٠ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٥٢ وفي اتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٧ وفي الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٦٣ وفي التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٤٣ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٣٢٤) وفي كنز العمال (٢٠٧).

وكشفنا للمستفيد محياه، وهو مبني على جواز الفترة والغفلات والسهو في غير طريق البلاغ، انتهى.

وتعقب: بأنه لا ترضى نسبته ﷺ إلى ذلك، لما يلزم عليه من تفضيل الملائكة بعدم الفترة عن التسبيح والمشاهدة، ولقوله ﷺ: «لست أنسى ولكن أُنسى لأسنّ»[1] فهذه ليست فترة وإنما هي لحكمة مقصودة يثبت بها حكم شرعي، فالأولى أن يحمل على ما جعله علة فيه، وهو ما دفع إليه من مقاساة البشر وسياسة الأمة، ومعاناة الأهل، وحمل كل أعباء النبوة وحمل أثقالها. انتهى.

وقيل: الغين شيء يعتري القلب مما يقع من حديث النفس، قال الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر: وهذا أشار إليه الرافعي في أماليه، وقال: إن والده كان يقرره. وقيل: كانت حالة يطلع فيها على أحوال أمته فيستغفر لهم. وقيل: هو السكينة التي تغشى قلبه، والاستغفار لإظهار العبودية لله تعالى، والشكر لما أولاه.

وقال شيخ الإسلام ابن العراقي أيضاً: هذه الجملة حالية، أخبر ﷺ أنه يغان على قلبه مع أن حاله الاستغفار في اليوم مائة مرة، وهي حال مقدرة، لأن الغين ليس موجوداً في حال الاستغفار، بل إذا جاء الاستغفار أذهب ذلك الغين. قال: وعلى تقدير تعلق إحدى الجملتين بالأخرى، وأن الثانية مسببة عن الأولى، فيحتمل أن يكون هذا الغين تغطية للقلب عن أمور الدنيا، وحجاباً بينه وبينها، فينجمع القلب حينئذٍ على الله تعالى ويتفرغ للاستغفار شكراً وملازمة للعبودية، قال: وهذا معنى ما قاله القاضي عياض، انتهى ومراده قوله في «الشفاء»: وقد يحتمل أن تكون هذه الإغانة حالة خشية وإعظام تغشى قلبه فيستغفر حينئذٍ شكراً لله تعالى، وملازمة لعبوديته إلى آخر كلامه.

قال الشيخ ابن العراقي: وهو عندي كلام حسن جداً، وتكون الجملة الثانية مسببة عن الأولى، لا بمعنى أنه يسعى بالاستغفار في إزالة الغين، بل بمعنى أن الغين أصل محمود، وهو الذي تسبب عنه الاستغفار، وترتب عليه، وهذا أنزه الأقوال وأحسنها لأن الغين حينئذٍ وصف محمود وهو الذي نشأ عنه الاستغفار، وعلى الأول يكون «الغين» مما يسعى في إزالته بالاستغفار، وما ترتب الإشكال وجاء السؤال إلا على تفسير الغين بذلك، وأهل اللغة إنما فسروا الغين بالغشاء، فنحمله على غشاء يليق بحاله ﷺ، وهو الغشاء الذي يصرف القلب، ويحجبه عن أمور الدنيا، لا سيما وقد رتب على الغشاء أمراً

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في كتاب السهو باب (١)، رقم الحديث (٢) وفي صحيح مسلم كتاب المسافرين ١/ ٥٤٥. وفي الشفا للقاضي عياض ٢/ ١٤٠. وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٢٠٦ و ٦/ ٣٩٢.

محموداً وهو الاستغفار، فما نشأ هذا الأمر الحسن إلا عن أمر حسن، انتهى.

وذكر الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في كتابه «لطائف المنن» أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي قال: رأيت النبي ﷺ في النوم فسألته عن هذا الحديث «إنه ليغان على قلبي» فقال لي: «يا مبارك: ذلك غين الأنوار، لا غين الأغيار».

القسم الثاني: ما اختص به ﷺ مما حرم عليه:

● فمنها: تحريم الزكاة عليه، وكذا الصدقة على الصحيح المشهور المنصوص، قال ﷺ: «إنا لا نأكل الصدقة»[1] رواه مسلم، ومن قال بإباحتها له يقول: لا يلزم من امتناعه من أكلها تحريمها، فلعله ترك ذلك تنزهاً مع إباحتها له، وهذا خلاف ظاهر الحديث. قال شيخ الإسلام ابن العراقي، في شرح التقريب: وعلى كل حال ففيه أن من خصائصه ﷺ الامتناع من أكل الصدقة إما وجوباً وإما تنزهاً، انتهى. والحكمة من ذلك: صيانة منصبه الشريف عن أوساخ أموال الناس.

ومنها: تحريم الزكاة على آله ﷺ، وتحريم كون آله عمالاً على الزكاة في الأصح، وكذا يحرم صرف النذر والكفارة إليهم، وأما صدقة التطوع فتحل لهم في الأصح خلافاً للمالكية وهو وجه عندنا.

● ومنها: أنه يحرم عليه ﷺ أكل ما له رائحة كريهة، كثوم وبصل، لتوقع مجيء الملائكة والوحي كل ساعة. والأكل متكئاً في أحد الوجهين فيهما، والأصح في الروضة كراهتهما، وتعقب السهيلي الاتكاء فقال: قد يكره لغيره أيضاً لأنه من فعل المتعظمين، وقد تقدم مزيد لذلك.

● ومنها: تحريم الكتابة والشعر، وإنما يتجه القول بتحريمهما ممن يقول إنه ﷺ كان يحسنهما، والأصل أنه كان لا يحسنهما، قال تعالى: ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ [يس: ٦٩]. أي ما هو في طبعه، ولا يحسنه ولا تقتضيه جبلته ولا يصلح له. وأجيب: بأن المراد تحريم التوصل إليهما. وهل عدم الشعر خاص به ﷺ أو بنوع الأنبياء؟ قال بعضهم: هو عام لقوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ لأنه لا يظهر فيه للخصوص نكتة. وتقدم في قصة الحديبية البحث في كونه ﷺ هل كان يحسن الكتابة أو لا.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة باب (٦٠) رقم الحديث (١٤٩١) وفي صحيح مسلم كتاب الزكاة رقم الحديث (١٦١) وفي سنن النسائي ١/ ٨٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٩ وفي اتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٦ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤٠٦ وفي كنز العمال (١٦٥٢٠ ـ ١٦٥٢٤).

● ومنها: نزع لامته إذا لبسها، حتى يقاتل أو يحكم الله بينه وبين عدوه.

● ومنها: المن ليستكثر، ذكره الرافعي، قال الله تعالى: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ [المدثر: ٦] أي: لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه، بل أعط لربك، واقصد به وجهه، فأدبه بأشرف الآداب، قاله أكثر المفسرين، وقال الضحاك ومجاهد: هذا كان للنبي ﷺ خاصة، وليس على أحد من أمته، وقال قتادة: لا تعط شيئاً لمجازاة الدنيا، أي أعط لربك، وعن الحسن: لا تمنن على الله بعملك فتستكثره، وقيل: لا تمنن على الناس بالنبوة فتأخذ عليها أجراً وعوضاً من الدنيا.

● ومنها: مد العين إلى ما متع به الناس، قال الله تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به﴾ [الحجر: ٨٨] أي استحساناً له وتمنياً أن يكون لك مثله ﴿أزواجاً منهم﴾ [الحجر: ٨٨] أي أشكالاً وأشباهاً من الكفار، وهي المزاوجة بين الأشياء، وهي المشاكلة. وعن ابن عباس: أصنافاً منهم، فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته، فإنه كمال مطلوب بالذات مفض إلى دوام اللذات.

● ومنها: خائنة الأعين، وهي الإيماء إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يشعر به الحال، كما قيل له ﷺ في قصة رجل أراد قتله[1]. هلا أومأت إلينا بقتله، فقال: «ما كان ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»[2]. ولا يحرم ذلك على غيره إلا في محظور، قاله الرافعي فيما نقله الحجازي في مختصر الروضة.

● ومنها: نكاح من لم تهاجر، في أحد الوجهين. قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ [الأحزاب: ٥٠]. أي مهورهن، سمى المهر أجراً لأن المهر أجر على البضع وتقييد الإحلال بإعطائها معجله لا يتوقف الحل عليه، بل لإيثار الأفضل له، كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبية في قوله: ﴿وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ [الأحزاب: ٥٠]. يعني من نساء بني زهرة ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ [الأحزاب: ٥٠]. أي إلى المدينة، قالوا: والمراد هاجرن كما هاجرت، وإن لم تكن هجرتها في حال هجرته ﷺ.

وظاهره يدل على أن الهجرة شرط في التحليل، وأن من لم تهاجر من النساء لم

---

(١) هو عبد الله بن أبي سرح، وقد أسلم وحسن إسلامه.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب (١١٧) رقم الحديث (٢٦٨٣) وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٤٥ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٦٠ وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٣٠٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٢٠٧ وفي التمهيد لابن عبد البر ٦/ ١٧٦ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/ ٢٢٦ وفي فتح الباري ١١/ ١١ وفي تفسير الطبري ١٠/ ٣٦ وفي كنز العمال (٣٠١٨٧).

يحل له نكاحها. وقالت أم هانىء: خطبني ﷺ فاعتذرت إليه بعذر فعذرني، ثم أنزل الله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك﴾ إلى قوله: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ [الأحزاب: ٥٠]. فلم أكن لأحل له، فإني لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء[١]. وعن بعض المفسرين: أن شرط الهجرة في التحليل منسوخ، ولم يذكر ناسخه. وعن الماوردي قولان: أحدهما أن الهجرة شرط في إحلال كل النساء له ﷺ من غريبة وقريبة، والثاني: أنها شرط في إحلال بنات عمه وبنات عماته المذكورات في الآية وليس شرطاً في إحلال الأجنبيات، وعنه أيضاً: أن المراد بالمهاجرات المسلمات.

● ومنها: تحريم إمساك من كرهته، قاله الحجازي وغيره.

● ومنها: نكاح الكتابية، لأن أزواجه أمهات المؤمنين وزوجات له في الآخرة، ومعه في درجته في الجنة، ولأنه ﷺ أشرف من أن يضع ماءه في رحم كافرة، قالوا: ولو نكح كتابية لهديت إلى الإسلام كرامة له.

● ومنها: نكاح الأمة المسلمة، ولو قدر نكاحه أمة كان ولده منها حراً، ولا تلزمه قيمته لتعذر الرق. قاله القاضي حسين، وقال أبو عاصم: تلزم، نقله الحجازي، ولا يشترط في حقه حينئذٍ خوف العنت ولا فقد الطول. وأما التسري بالأمة فالأصح الحل، لأنه ﷺ استمتع بأمته ريحانة قبل أن تسلم، وعلى هذا، فهل عليه تخييرها بين أن تسلم فيمسكها أو تقيم على دينها فيفارقها؟ فيه وجهان: أحدهما: نعم لتكون من زوجاته في الآخرة، والثاني: لا، لأنه لما عرض على ريحانة الإسلام فأبت لم يزلها عن ملكه وأقام على الاستمتاع، وقد أسلمت بعد.

● ومنها: تحريم الإغارة إذا سمع التكبير، كما ذكره ابن سبع في الخصائص.

القسم الثالث: فيما اختص به ﷺ من المباحات:

● اختص ﷺ بإباحة المكث في المسجد جنباً، قاله صاحب التلخيص. ومنعه القفال، قال النووي: وما قاله في التلخيص قد يحتج له بقوله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري: «يا علي لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك»[٢] قال الترمذي حسن غريب. وقد يعترض على هذا الحديث بأن عطية ضعيف عند الجمهور. ويجاب

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب التفسير [الأحزاب: ٥٠] باب (١٧) رقم الحديث (٣٢١٤).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب باب (٢٠) رقم الحديث (٣٧٢٧) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٦٦ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٦٠٨٩) وفي تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٤ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (٩٥) وفي البداية والنهاية ٧/ ٣٥٦ وفي كنز العمال (٣٢٨٨٥ ـ ٣٣٠٥٢).

بأن الترمذي حكم بأنه حسن فلعله اعتضد بما اقتضى حسنه، لكن إذا شاركه ﷺ علي في ذلك لم يكن من الخصائص. وقد غلَّط إمام الحرمين وغيره صاحب التلخيص في الإباحة. واعلم أن معظم المباحات لم يفعلها ﷺ وإن جازت له.

● ومما اختص به أيضاً أنه لا ينتقض وضوؤه بالنوم مضطجعاً، وفي اللمس وجهان، قال النووي: المذهب الجزم بانتقاضه به. واستدل القائلون بالأول بنحو حديث عائشة، عند أبي داود، أن النبي ﷺ كان يقبل بعض أزواجه ثم يصلي ولا يتوضأ[1] ورواه النسائي أيضاً، وقال أبو داود: هو مرسل، إبراهيم التيمي لم يسمع من عائشة، وقال النسائي: ليس في هذا الباب حديث أحسن من هذا الحديث وإن كان مرسلاً.

● واختص أيضاً بإباحة الصلاة بعد العصر، فقد فاتته ركعتان بعد الظهر فقضاهما بعد العصر. ثم واظب عليهما، ذكره الحجازي، وبجواز صلاة الوتر على الراحلة مع وجوبه عليه، كما ذكره في شرح المهذب وعبارته: كان من خصائصه ﷺ جواز فعل هذا الواجب الخاص به على الراحلة. وبالصلاة على الغائب عند أبي حنيفة ومالك.

● وبالقبلة في الصوم، مع قوة الشهوة، روى البخاري من حديث عائشة قالت: (كان رسول الله ﷺ يقبل بعض نسائه وهو صائم، وكان أملككم لإربه)[2] قال الحافظ ابن حجر: فأشارت بذلك إلى أن الإباحة لمن يكون مالكاً لنفسه دون من لا يأمن الوقوع فيما يحرم. قال: وفي رواية حماد ـ عند النسائي ـ قال الأسود: قلت لعائشة: أيباشر الصائم؟ قالت: لا، قلت: أليس كان رسول الله ﷺ يباشر وهو صائم؟ قالت: إنه كان أملككم لإربه قال وظاهر هذا أنها اعتقدت خصوصية النبي ﷺ بذلك. قاله القرطبي، قال: وهو اجتهاد منها. ويدل على أنها لا ترى بتحريمها ولا بكونها من الخصائص: ما رواه مالك في الموطأ أن عائشة بنت طلحة كانت عند عائشة فدخل عليها زوجها وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر فقالت له عائشة: ما يمنعك أن تدنو من أهلك فتلاعبها وتقبلها؟ قال: أقبلها وأنا صائم؟ قالت: نعم[3].

---

(١) أخرجه النسائي في سننه ١/١٠٤ وفي سنن الدارقطني ١/١٣٥ وما بعدها وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٢٣) وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/١٦٨ وفي كنز العمال (٢٧١٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصوم باب (٢٣) رقم الحديث (١٩٢٧ و١٩٢٨) وفي سنن أبي داود كتاب الصوم باب (٣٤) رقم الحديث (٢٣٨٢) وفي سنن الترمذي كتاب الصوم باب (٣٢) رقم الحديث (٧٢٨ و ٧٢٩) وفي صحيح مسلم كتاب الصوم باب (١٢) رقم الحديث (٦٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/٤٢ ـ ٢٣٢ وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (١٦٨٤ و ١٦٨٥) وفي مسند الحميدي رقم الحديث (١٩٩) وفي شرح السنة للبغوي ٦/٢٧٥. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٧/١٦١ وفي كنز العمال (١٨٠٨٣ ـ ٢٤٤٠٣).

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ كتاب الصيام باب (٥) رقم الحديث (١٦).

● واختص أيضاً بإباحة الوصال في الصوم: كما سيأتي، وقال إمام الحرمين، هو قربة في حقه ﷺ.

● وأن يأخذ الطعام والشراب من مالكهما المحتاج إليهما إذا احتاج، ويجب على صاحبهما البذل. ويفدي بمهجته مهجة رسول الله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [الأحزاب: ٦]. ولو قصده ظالم وجب على من حضره أن يبذل نفسه دونه ﷺ، كما وقاه طلحة بنفسه يوم أحد.

● وبإباحة النظر إلى الأجنبيات لعصمته، وسيأتي إن شاء الله تعالى في القسم الرابع حكم غيره ﷺ. وبجواز الخلوة بهن. قال في فتح الباري: الذي وضح لنا بالأدلة القوية أن من خصائصه ﷺ جواز الخلوة بالأجنبية والنظر إليها، ويدل له قصة أم حرام بنت ملحان في دخوله ﷺ عليها ونومه عندها وتفليتها رأسه[1]، ولم يكن بينهما محرمية ولا زوجية، انتهى.

● ومنها نكاح أكثر من أربع نسوة، وكذلك الأنبياء، وفي الزيادة لنبينا ﷺ على التسع خلاف.

● ويجوز له النكاح بلفظ الهبة من جهة المرأة، قال الله تعالى: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ [الأحزاب: ٥٠]. وأما من جهته ﷺ فلا بد من لفظ النكاح أو التزويج على الأصح في أصل الروضة، وحكاه الرافعي عن ترجيح الشيخ أبي حامد لظاهر قوله تعالى: ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك﴾ [الأحزاب: ٥٠].

قال البيضاوي: في قوله تعالى: ﴿وامرأة مؤمنة﴾ الآية، أي أعلمناك حل امرأة مؤمنة تهب لك نفسها ولا تطلب مهراً إن اتفق ذلك، ولذلك نكَّرها.

واختلف في ذلك والقائل به ذكر أنها ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم، قال: وقرىء «أن» بالفتح، أي لأن وهبت، أو مدة أن وهبت، كقولك: اجلس ما دام زيد جالساً، قال: وقوله: ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ [الأحزاب: ٥٠] شرط للشرط الأول في استحباب الحل، فإن هبتها نفسها منه لا توجب له إلا بإرادته نكاحها، فإنها جارية مجرى القبول، قال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب (٣) رقم الحديث (٢٧٨٨ ـ ٢٧٨٩ ـ ٢٧٩٩ ـ ٦٢٨٢ ـ ٧٠٠١ ـ ٧٠٠٢). وفي سنن أبي داود كتاب الجهاد باب (٩) رقم الحديث (٢٤٩١) وفي الترمذي كتاب الجهاد باب (١٥) رقم الحديث (١٦٤٥). وفي الموطأ للإمام مالك كتاب الجهاد باب (١٨) رقم الحديث (٣٩). وفي سنن النسائي ٦/ ٤٠ وفي صحيح مسلم كتاب الإمارة رقم الحديث (١٦٠).

والعدول عن الخطاب إلى الغيبة بلفظ «النبي» ﷺ مكرراً. ثم الرجوع إليه في قوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ [الأحزاب: ٥٠]. إيذان بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاقه الكرامة لأجله. انتهى.

وقال المعافى: وفي معنى «خالصة» ثلاثة أقوال: أحدها: أن المرأة إذا وهبت نفسها له يلزمه صداقها دون غيره من المؤمنين. قاله أنس بـن مالك وابن المسيب. والثاني: أن له أن ينكحها بلا ولي ولا شهود دون غيره. قاله قتادة، والثالث: خالصة لك أن تملك عقد نكاحها بلفظ الهبة دون المؤمنين، قال: وهذا قول الشافعي وأحمد، وعن أبي حنيفة ينعقد النكاح بلفظ الهبة لغيره ﷺ أيضاً.

● وكذا يجوز له ﷺ النكاح بلا مهر ابتداء وانتهاء، كما تقدم أن المرأة إذا وهبت نفسها له ﷺ لا يلزمه صداقها. قال النووي: إذا وهبت امرأة نفسها له ﷺ فتزوجها بلا مهر حل له ذلك، ولا يجب عليه بعد ذلك مهرها بالدخول، ولا بغير ذلك، بخلاف غيره فإنه لا يخلو نكاحه من وجوب مهر، إما مسمى وإما مهر المثل والله أعلم.

● وكذا يجوز له النكاح في حال الإحرام، قال النووي في شرح مسلم: قال جماعة من أصحابنا أنه ﷺ كان له أن يتزوج في حال الإحرام، وهو مما خص به دون الأمة، قال: وهذا أصح الوجهين عند أصحابنا. انتهى.

● وكذا يجوز له ﷺ النكاح بغير رضى المرأة، فلو رغب في نكاح امرأة خلية لزمها الإجابة، وحرم على غيره خطبتها، أو متزوجة وجب على زوجها طلاقها.

قال الغزالي: ولعل السر فيه من جانب الزوج امتحان إيمانه بتكليف النزول عن أهله، فإنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وولده والناس أجميعن»(١).

ويدل لهذه الخصيصة قصة زينب بنت جحش بنت عمته ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، المنصوص عليها بقوله تعالى: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ [الأحزاب: ٣٧]. أي بنعمة الإسلام وهي أجل النعم ﴿وأنعمت عليه﴾ أي بالإعتاق بتوفيق الله لك،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/٣٣٦. وفي سنن الدارمي ٢/٣٠٧. وفي صحيح مسلم كتاب الايمان باب (١٦) رقم الحديث (٧٠) وفي البخاري كتاب الإيمان باب (١٤ ـ ١٥) وفي سنن النسائي ٨/ ١١٤ وفي سنن ابن ماجه رقم الحديث (٦٧) وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٢٢٣. وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٤٨٦. وفي اتحاف السادة المتقين ٩/ ٥٤٧. وفي مشكل الآثار للطحاوي (٧) وفي كنز العمال (٧٠ ـ ٩٢ ـ ٩٣).

وهو زيد بن حارثة الكلبي، وكان من سبي الجاهلية، فملكه رسول الله ﷺ قبل البعثة وأعتقه وتبناه وخطب له زينب فأبت هي وأخوها عبد الله، ثم رضيا لما نزل قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾ [الأحزاب: ٣٦]. الآية وكان الرجل في الجاهلية وصدر الإسلام إذا تبنى ولد غيره يدعوه الناس به ويرث ميراثه وتحرم عليه زوجته، فنسخ الله تعالى التبني بقوله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ [الأحزاب: ٥]. وبهذه القصة يثبت الحكم بالقول والفعل، فأوحى الله إليه أن زيداً سيطلقها، وأنه ﷺ يتزوجها، وألقى في قلب زيد كراهتها فأراد فراقها فأتى رسول الله ﷺ فقال إني أريد أن أفارق صاحبتي قال مالك؟ «أرابك منها شيء؟» قال: لا والله يا رسول الله ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم علي بشرفها وتؤذيني بلسانها، فقال رسول الله ﷺ: ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ [الأحزاب: ٣٧] ، أي في أمرها ، فلا تطلقها ضراراً وتعللاً ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾ [الأحزاب: ٣٧]. ولم يبق له فيها حاجة، وطلقها وانقضت عدتها زوجها الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿زوجناكها﴾ [الأحزاب: ٣٧]. والمعنى أنه أمره بتزويجها منه، أو جعلها زوجته بلا واسطة عقد. ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء رسول الله ﷺ: إن الله تولى نكاحي، وأنتن زوجكن أولياؤكن. وقيل إن زيداً كان السفير للتزويج، وفي ذلك لزيد ابتلاء عظيم وشاهد بين على قوة إيمانه.

وقد علل تعالى تزويجه إياها بقوله: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ [الأحزاب: ٣٧]. أي في أن يتزوجوا زوجات من كانوا يتبنونه إذا فارقوهن، وأن هؤلاء الزوجات ليست داخلات فيما حرم في قوله: ﴿وحلائل أبنائكم﴾ [النساء: ٢٣].

وأما قوله: ﴿وتخفي في نفسك﴾ [الأحزاب: ٣٧]. فمعناه[1]: علمك أنه سيطلقها وتتزوجها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر في شيء أباحه له، بأن قال: ﴿أمسك عليك زوجك﴾ [الأحزاب: ٣٧]. مع علمه أنه سيطلق، وهذا مروي عن علي بن الحسين، وعليه أهل التحقيق من المفسرين، كالزهري، وبكر بن العلاء، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم.

والمراد بقوله: ﴿وتخشى الناس﴾ [الأحزاب: ٣٧]. إنما هو في إرجاف المنافقين في تزويج نساء الأبناء، والنبي ﷺ معصوم في الحركات والسكنات. ولبعض المفسرين هنا كلام لا يليق بمنصب النبوة.

---

(١) أي أنه كان يخفي أخبار الله الذي أخبره أنها ستصير زوجته بوحي غير قرآن. وذلك أنه كان يبلغ ما أنزل من القرآن فوراً، ثم لما أنزل الله في ذلك قوله ﴿فلما قضى زيداً منها وطراً زوجناكها﴾ أظهر ذلك فتلاه على الناس قرآناً.

وقيل قوله: ﴿واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ [الأحزاب: ٣٧]. خطاب من الله تعالى، أو من الرسول ﷺ لزيد، فإنه أخفى الميل إليها وأظهر الرغبة عنها لما توهم أن رسول الله ﷺ يريد أن تكون من نسائه.

قال جار الله: وكم من شيء مباح يتحفظ الإنسان منه ويستحي من إطلاع الناس عليه، فطموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته من امرأة وغيرها غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع، وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضاً، وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استنزال زيد عنها ولا طلب إليه، ولم يكن مستكرهاً عندهم أن ينزل الرجل منهم عن امرأته لصديقه ولا مستهجناً إذا نزل عنها أن ينكحها آخر، فإن المهاجرين حين دخلوا المدينة واستهم الأنصار بكل شيء، حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما وأنكحها المهاجري، فإذا كان الأمر مباحاً من جميع جهاته لم يكن فيه وجه من وجوه للقبح. انتهى.

● وكذا يجوز له ﷺ النكاح بلا ولي وبلا شهود. قال النووي: الصحيح المشهور عند أصحابنا صحة نكاحه ﷺ بلا ولي ولا شهود لعدم الحاجة إلى ذلك في حقه عليه السلام، وهذا الخلاف في غير زينب أما زينب فمنصوص عليها والله أعلم.

قال العلماء: إنما اعتبروا الولي للمحافظة على الكفاءة، وهو ﷺ فوق الأكفاء، وإنما اعتبر الشهود لأمن الجحود، وهو ﷺ لا يجحد ولو جحدت هي لم يرجع إلى قولها، بل قال العراقي في شرح المهذب، تكون كافرة بتكذيبه. وكان له ﷺ تزويج المرأة ممن شاء بغير إذنها وإذن وليها، وله إجبار الصغيرة من غير بناته، وزوج ابنة حمزة مع وجود عمها العباس، فيقدم على الأب. وزوجه الله تعالى بزينب، فدخل عليها بتزويج الله من غير عقد من نفسه. وعبر في الروضة عن هذا بقوله: وكانت المرأة تحل له بتحليل الله تعالى.

● وأعتق أمته صفية وجعل عتقها صداقها وقد اختلف في معناه، فقيل إنه أعتقها بشرط أن يتزوجها، فوجب له عليها قيمتها وكانت معلومة، فتزوجها بها، ويؤيده: قوله في رواية عبد العزيز بن صهيب: سمعت أنساً قال: سبى رسول الله ﷺ صفية فأعتقها وتزوجها، فقال ثابت لأنس: ما أصدقها، قال: نفسها فأعتقها[1]؛ هكذا أخرجه البخاري في المغازي. وفي رواية حماد عن ثابت وعبد العزيز عن أنس في حديثه قال: وصارت صفية لرسول الله ﷺ ثم تزوجها وجعل عتقها صداقها. قال عبد العزيز لثابت: يا أبا

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب (٣٩) رقم الحديث (٤٢٠١).

محمد أنت سألت أنساً ما أمهرها؟ قال: أمهرها نفسها، فتبسم. فهو ظاهر جداً في أن المجعول مهراً هو نفس العتق. والتأويل الأول لا بأس به، فإنه لا منافاة بينه وبين القواعد حتى لو كانت القيمة مجهولة، فإن في صحة العقد بالشرط المذكور وجهاً عند الشافعية.

وقال آخرون: بل جعل نفس العتق المهر، ولكنه من خصائصه، وممن جزم بذلك الماوردي. وقال آخرون: قوله: «أعتقها وتزوجها» معناه: أعتقها ثم تزوجها، فلما لم يعلم أنه ساق لها صداقاً قال: أصدقها نفسها، أي: لم يصدقها شيئاً فيما أعلم، ولم ينف أصل الصداق، ومن ثم قال أبو الطيب الطبري من الشافعية، وابن المرابط من المالكية ومن تبعهم: أنه قول أنس قاله ظناً من قبل نفسه ولم يرفعه. ويعارضه ما أخرجه الطبراني وأبو الشيخ من حديث صفية نفسها قالت: أعتقني النبي ﷺ وجعل عتقي صداقي. وهذا موافق لحديث أنس، وفيه رد على من قال: إن أنساً قال ذلك بناء على ظنه.

ويحتمل أن يكون أعتقها بشرط أن ينكحها من غير مهر، فلزمها الوفاء بذلك، وهذا خاص بالنبي ﷺ دون غيره. ويحتمل: أنه أعتقها بغير عوض، وتزوجها بغير مهر في الحال، ولا في المآل، قال ابن الصلاح: معناه أن العتق حل محل الصداق وإن لم يكن صداقاً، قال: وهذا كقولهم الجوع زاد من لا زاد له، قال: وهذا الوجه أصح الأوجه وأقربها إلى لفظ الحديث، وتبعه النووي في «الروضة».

وممن جزم بأن ذلك كان من الخصائص يحيى بن أكثم فيما أخرجه البيهقي قال: وكذا نقله المزني عن الشافعي قال: وموضع الخصوصية، أنه أعتقها مطلقاً وتزوجها بغير مهر ولا شهود، وهذا بخلاف غيره. انتهى. وقال النووي في شرح مسلم: الصحيح الذي اختاره المحققون، أنه أعتقها تبرعاً بلا عوض ولا شرط، ثم تزوجها برضاها من غير صداق، والله أعلم. قاله الحافظ ابن حجر.

● واختلف في انحصار طلاقه ﷺ في الثلاث، وعلى الحصر، قيل: تحلل له من غير محلل، وقيل لا تحل له أبداً.

● وفي وجوب نفقة زوجاته وجهان، قال النووي: الصحيح: الوجوب، انتهىٰ. ولا يجب عليه القسم فيما قاله طوائف من أهل العلم، وبه جزم الاصطخري من الشافعية، والمشهور عندهم وعند الأكثرين الوجوب. وفي حل الجمع له بين المرأة وخالتها وعمتها وجهان، لا أختها وبنتها وأمها، قالوا: ومرجع غالب هذه الخصائص إلى أن النكاح في حقه كالتسري في حقنا.

● وكان له ﷺ أن يصطفي ما شاء من المغنم قبل القسمة من جارية وغيرها.

● وأبيح له القتال بمكة والقتل بها، وجواز دخول مكة بغير إحرام مطلقاً. ذكره ابن القاص، واستدلوا له بحديث أنس عند الستة: (دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر)[1] وذلك من كونه ﷺ كان مستور الرأس بالمغفر، والمحرم يجب عليه كشف رأسه. ومن تصريح جابر والزهري ومالك بأنه لم يكن محرماً.

وأبدى ابن دقيق العيد لستر الرأس احتمالاً فقال: يحتمل أن يكون لعذر. انتهى. وتعقبه الشيخ ولي الدين ابن العراقي فقال: هذا يرده تصريح جابر وغيره: قال: وهذا الاستدلال في غير موضع الخلاف المشهور، لأنه ﷺ كان خائفاً من القتال متأهباً، ومن كان كذلك فله الدخول عندنا بلا إحرام بلا خلاف عندنا، ولا عند أحد نعلمه.

وقد استشكل النووي في شرح المهذب ذلك، لأن مذهب الشافعي أن مكة فتحت صلحاً خلافاً لأبي حنيفة في قوله: إنها فتحت عنوة، وحينئذٍ فلا خوف. ثم أجاب عنه: بأنه ﷺ صالح أبا سفيان، وكان لا يأمن غدر أهل مكة، فدخلها صلحاً وهو متأهب للقتال إن غدروا. انتهى.

وقد ذكرت ما في فتح مكة من المباحث في قصة فتحها من المقصد الأول. ثم إن غيره ﷺ إذا لم يكن خائفاً، فقال أصحابنا: إن لم يكن ممن يتكرر دخوله، ففي وجوب الإحرام عليه قولان: أصحهما عند أكثرهم: أنه لا يجب، وقطع به بعضهم، فإن تكرر دخوله كالحطابين ونحوهم ففيه خلاف مرتب وهو أولى بعدم الوجوب وهو المذهب.

وقال الحنابلة بوجوب الإحرام إلا على الخائف وأصحاب الحاجات، وأوجبه المالكية في المشهور عندهم على غير ذوي الحاجات المتكررة، وأوجبه الحنفية مطلقاً إلا من كان داخل الميقات. وقد تحرر أن المشهور من مذهب الشافعي: عدم الوجوب مطلقاً. ومن مذاهب الأئمة الثلاثة الوجوب إلا فيما استثنى.

● ومن خصائصه ﷺ أنه كان يقضي بعلمه من غير خلاف. وأن يقضي لنفسه ولولده، وأن يشهد لنفسه ولولده. ولا تكره له الفتوى والقضاء في حاء الغضب، كما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصيد باب (١٨) رقم الحديث (١٨٤٦ ـ ٣٠٤٤ ـ ٤٢٨٦ ـ ٥٨٠٨). وفي صحيح مسلم كتاب الحج رقم الحديث (٤٥٠) وفي سنن أبي داود كتاب الجهاد باب (١١٧) رقم الحديث (٢٦٨٥) وفي سنن الترمذي كتاب الجهاد باب (١٨) رقم الحديث (١٦٩٣) وفي سنن النسائي ٥/ ٢٠١ وفي سنن الدارمي كتاب المناسك رقم الحديث (٨٨). وفي سنن ابن ماجه كتاب الجهاد باب (١٨) رقم الحديث (٢٨٠٥) وفي الموطأ للإمام مالك كتاب الحج باب (٨١) رقم الحديث (٢٤٧) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/١٠٩ ـ ١٦٤ و ١٨٠ ـ ٢٣٢ ـ ٢٤٠. وفي شرح السنة للبغوي ١٠/٣٩٩. وفي البداية والنهاية ٦/٩.

ذكره النووي في شرح مسلم، وقد قضى للزبير بشراج الحرة[1] بعد أن أغضبه خصم الزبير. لعصمته ﷺ، فلا يقول في الغضب إلا كما يقول في الرضى.

● وكان له أن يدعو لمن شاء بلفظ الصلاة، وليس لنا أن نصلي إلا على نبي أو ملك.

● وكان له أن يقتل بعد الأمان، وأن يلعن من شاء بغير سبب: واستبعد ذلك.

● وجعل الله شتمه ولعنه قربة للمشتوم والملعون لدعائه ﷺ بذلك[2]. قاله ابن القاص، وردوه عليه، حكاه الحجازي في مختصر الروضة عن نقل الرافعي.

● وكان يقطع الأراضي قبل فتحها، لأن الله ملكه الأرض كلها. وأفتى الغزالي بكفر من عارض أولاد تميم الداري فيما أقطعهم. وقال: إنه ﷺ كان يقطع أرض الجنة فأرض الدنيا أولى.

القسم الرابع: فيما اختص به ﷺ من الفضائل والكرامات.

● منها: أنه أول النبيين خلقاً[3]، كما تقرر في أول هذا الكتاب، وأنه كان نبياً وآدم بين الروح والجسد، رواه الترمذي من حديث أبي هريرة.

● ومنها. أنه أول من أخذ عليه الميثاق كما مر.

● ومنها: أنه أول من قال: «بلى» يوم ﴿ألست بربكم﴾ رواه أبو سهل القطان في جزء من أماليه.

● ومنها: أن آدم وجميع المخلوقات خلقوا لأجله[4]، رواه البيهقي وغيره.

● ومنها: أن الله كتب اسمه الشريف على العرش، وعلى كل سماء، وعلى الجنان وما فيها. رواه ابن عساكر عن كعب الأحبار.

---

(١) موضع معروف بالمدينة. انظر معجم البلدان ٣/ ٣٣٤ ومعجم ما استعجم ٣/ ٧٩.

(٢) راجع كتاب «مرشد الحائر لبيان وضع حديث جابر» للشيخ أبي الفضل عبد الله بن محمد الغماري الحسيني صفحة ١٢٥ وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب (٣٤) رقم الحديث (٦٣٦١). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٩٠ و٣/ ٣٣. وفي صحيح مسلم رقم الصفحة (٢٠٠٩) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٦١. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٦٦. وفي فتح الباري ١١/ ٢٠٥. وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٧٤٧) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٢٢٤) وفي شرح السنة للبغوي ٥/ ٨. وفي تلخيص الحبير لابن حجر ٣/ ١٣٦.

(٤) ومن الكذب السخيف قول بعضهم: «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك» ذكره الصغاني في الموضوعات صفحة ٥٢ ووافقه العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٢٣٢ في الحكم عليه بالوضع.

● ومنها: أن الله تعالى أخذ الميثاق على النبيين، آدم فمن بعده، أن يؤمنوا به وينصروه، قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ [آل عمران: ٨١]. قال علي بن أبي طالب: لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه.

● ومنها: أنه وقع التبشير به في الكتب السالفة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

● ومنها: أنه لم يقع في نسبه من لدن آدم سفاح. رواه البيهقي والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل.

● ومنها: أنه نكست الأصنام لمولده رواه الخرائطي ـ في الهواتف ـ وغيره.

● ومنها: أنه ولد مختوناً مقطوع السرة، رواه الطبراني، وتقدم ما فيه من البحث في أول الكتاب.

● ومنها: أنه خرج نظيفاً، ما به قذر، رواه ابن سعد.

● ومنها: أنه وقع إلى الأرض ساجداً رافعاً أصبعيه كالمتضرع المبتهل. رواه أبو نعيم من حديث ابن عباس. ورأت أمه عند ولادته نوراً خرج منها أضاء له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات الأنبياء. رواه الإمام أحمد، وكان مهده ﷺ يتحرك بتحريك الملائكة، كما ذكره ابن سبع في الخصائص، وكان القمر يحدثه وهو في مهده، ويميل حيث أشار إليه، رواه ابن طغر بك في «النطق المفهوم» وغيره. وتكلم في المهد، رواه الواقدي وابن سبع، وظللته الغمامة في الحر، رواه أبو نعيم والبيهقي، ومال إليه فيء الشجرة إذ سبق إليه، رواه البيهقي.

● ومنها: شق صدره الشريف. رواه مسلم وغيره.

● وغطه جبريل عند ابتداء الوحي ثلاث غطات. عند هذه بعضهم من خصائصه ﷺ كما نقله الحافظ ابن حجر، قال: ولم ينقل عن أحد من الأنبياء أنه جرى له عند ابتداء الوحي.

● ومنها: أن الله تعالى ذكره في القرآن عضواً عضواً، فقلبه بقوله: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ [النجم: ١١]. وقوله: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ [الشعراء: ١٩٣ و١٩٤]، ولسانه بقوله: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: ٣]، وقوله: ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ [مريم: ٩٧]. وبصره بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧]، ووجهه بقوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ [البقرة: ١٤٤]، ويده وعنقه بقوله:

﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ [الإسراء: ٢٩]، وظهره وصدره بقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك﴾ [الشرح: ١، ٣]. واشتق اسمه من اسم الله «المحمود» ويشهد له ما أخرجه البخاري في تاريخه الصغير من طريق علي بن زيد، قال: كان أبو طالب يقول:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

وهو مشهور لسحان بن ثابت. وسمي أحمد، ولم يسم به أحد قبله. رواه مسلم. ولأحمد من حديث علي: أعطيت أربعاً لم يعطهن أحد قبلي فذكر منها: وسميت أحمد.

● ومنها أ . ﷺ كان يبيت جائعاً، ويصبح طاعماً يطعمه ربه ويسقيه من الجنة، كما سيأتي البحث ف إن شاء الله تعالى في صيامه ﷺ من مقصد عباداته.

● وكان يرى من خلفه كما يرى أمامه. رواه مسلم.

ويرى في الليل وفي الظلمة كما يرى بالنهار والضوء[1]. رواه البيهقي.

● وكانت ريقه يعذب الماء الملح، رواه أبو نعيم. ويجزي الرضيع، رواه البيهقي.

● ومنها: أنه ﷺ كان إذا مشى في الصخر غاصت قدماه فيه، كما هو مشهور قديماً وحديثاً على الألسنة[2]، ونطق به الشعراء في منظومهم، والبلغاء في منثورهم، مع اعتضاده بوجود أثر قدمي الخليل إبراهيم عليه السلام في حجر المقام المنوه به في التنزيل في قوله تعالى: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ [آل عمران: ٩٧]. وهو البالغ تعيينه - وأنه أثره - مبلغ التواتر، القائل فيه أبو طالب:

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غيرنا عل

وبما في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً من معجزة تأثير ضرب موسى في الحجر ستاً أو سبعاً إذ فرَّ بثوبه لما اغتسل. إذ ما خص نبي بشيء من المعجزات والكرامات إلا ولنبينا ﷺ مثله، كما نصوا عليه، مع ما يؤيد ذلك: وهو وجود أثر حافر بغلته الشريفة - على ما قيل - في مسجد بطيبة، حتى عرف المسجد بها، بحيث يقال له مسجد البغلة، وما ذاك إلا من سره الساري فيها ليكون ذلك أقوى في الآية. وأوضح في الدلالة على إيتائه ﷺ هذه الآية التي أوتيها الخليل في حجر المقام على وجه أعلى منه.

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٧٥. وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤/ ٢٧٢. وفي العلل المتناهية لابن الجوزي ١/ ١٦٨.

(٢) قال الحافظ السيوطي: لم أقف له على أصل ولا سند ولا رأيت من خرجه في شيء من كتب الحديث.

بل قال الزبير بن بكار فيما نقله المجد الشيرازي في المغانم المطابة بعد ذكره لأثر البغلة ومسجدها: وفي غربي هذا المسجد أثر كأنه أثر مرفق يذكر أنه ﷺ اتكأ عليه ووضع مرفقه عليه، وعلى حجر آخر أثر الأصابع، والناس يتبركون بهما.

وقال السيد نور الدين السمهودي في كتاب «وفاء الوفا» بعد إيراد ذلك: قلت ولم أقف في ذلك على أصل إلا أن ابن النجار قال في المساجد التي أدركها خراباً بالمدنية ما لفظه: ومسجدان قرب البقيع أحدهما يعرف بمسجد الإجابة، والثاني يعرف بمسجد البغلة، فيه إسطوان واحد، وهو خراب، وحوله نشز من الحجارة، فيه أثر يقولون إنه أثر حافر بغلة النبي ﷺ، انتهى.

● وكان إبطه ﷺ لا شعر عليه، قاله القرطبي، وكان أبيض غير متغير اللون، كما ذكره الطبري وعده من الخصائص، وذكره بعض الشافعية، لحديث أنس ـ المتفق عليه ـ أنه ﷺ كان يرفع يديه في الاستسقاء حتى يرى بياض إبطيه.

وقال الشيخ جمال الدين الإسنوي[1] في «المهمات» إن بياض الإبط كان من خصائصه ﷺ. انتهى.

قال في شرح تقريب الأسانيد: وما ادعاه من كون هذا من الخصائص فيه نظر، إذ لم يثبت ذلك بوجه من الوجوه، بل لم يرد ذلك في شيء من الكتب المعتمدة، الخصائص لا تثبت بالاحتمال، ولا يلزم من ذكر أنس وغيره بياض أبطيه أن لا يكون له شعر، فإن الشعر إذا نتف بقي المكان أبيض، وإن بقي فيه آثار الشعر، ولذلك ورد في حديث عبد الله بن أقرم الخزاعي، أنه صلى مع رسول الله ﷺ فقال: كنت أنظر إلى عفرة إبطيه إذا سجد[2]، خرجه الترمذي، وحسنه، والنسائي وابن ماجه. وقد ذكر الهروي[3] في «الغريبين»، وابن الأثير في «النهاية» أن العمرة بياض ليس بالناصع ولكن كلون عفرة الأرض، وهو وجهها، وهذا يدل على أن آثار الشعر هو الذي جعل المكان أعفر، وإلا

---

(١) هو عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعي، أبو محمد جمال الدين (٧٠٤ ـ ٧٧٢ هـ). مؤرخ. مفسر. فقيه أصولي. عالم بالعربية. توفي في مصر. الأعلام ٣/ ٣٤٤. شذرات الذهب ٦/ ٢٢٤. الدرر الكامنة ٢/ ٣٥٤ رقم الترجمة (٢٣٨٦). كشف الظنون ٢/ ١١٠١. بغية الوعاة (٣٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الصلاة باب (٨٨) رقم الحديث (٢٧٤) وفي ابن ماجه في كتاب الإقامة باب (١٩) رقم الحديث (٨٨١) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٥.

(٣) هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الباشاني، أبو عبيد الهروي باحث، لغوي، أديب. توفي سنة (٤٠١ هـ). الأعلام ١/ ٢١٠ وفيات الأعيان ١/ ٢٨ ـ ٣٤. شذرات الذهب ٣/ ١٦١. معجم الأدباء ١/ ٦٤٠ رقم الترجمة (١٧٦). بغية الوعاة (١٦١) وكشف الظنون (١٢٠٦) مرآة الجنان ٣/ ٣.

فلو كان خالياً من نبات الشعر جملة لم يكن أعفر.

نعم الذي تعتقد فيه ﷺ أنه لم يكن لإبطه رائحة كريهة، بل كان نظيفاً طيب الرائحة، كما ثبت في الصحيح.

● وكان ﷺ يبلغ صوته وسمعه ما لا يبلغه صوت غيره ولا سمعه.

● وكان تنام علينه ولا ينام قلبه. رواه البخاري.

● وما تثاءب قط. رواه ابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه من مرسل يزيد بن الأصم قال: ما تثاءب نبي قط، ويؤيد ذلك. أن التثاؤب من الشيطان رواه البخاري.

● وما احتلم قط، وكذلك الأنبياء. رواه الطبراني. وكان عرقه أطيب من المسك. رواه أبو نعيم وغيره.

وإذا مشى مع الطويل طاله، رواه البيهقي، ولم يقع له ظل على الأرض، ولا رؤي له ظل في شمس ولا قمر. ويشهد له أنه ﷺ لما سأل الله تعالى أن يجعل في جميع أعضائه وجهاته نوراً، ختم بقوله: «واجعلني نوراً».

وكان ﷺ لا يقع على ثيابه ذباب قط. نقله الفخر الرازي، ولا يمتص دمه البعوض، كذا نقله الحجازي وغيره. وما آذاه القمل، قاله ابن سبع في «الشفاء»[1] والسبتي في «أعذب الموارد».

ومنها: انقطاع الكهنة عند مبعثه، وحراسة السماء من استراق السمع، والرمي بالشهب، قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يحجبون عن السماوات، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها، فيلقون على الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات، فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السماوات كلها، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب، وهو الشعلة من النار، فلا يخطىء أبداً، فمنهم من يقتله، ومنهم من يحرق وجهه، ومنهم من يخبله فيصير غولاً يضل الناس في البراري، وهذا لم يكن ظاهراً قبل مبعث النبي ﷺ، ولم يذكره أحد قبل زمانه. وإنما ظهر في بدىء أمره، وكان ذلك أساساً لنبوته.

وقال معمر قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أفرأيت قوله: ﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع﴾ [الجن: ٩] الآية، قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ﷺ.

وقال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعثه، ولكن لم يكن في شدة الحراسة إلا بعد

(١) أي شفاء الصدور في أعلام نبوة الرسول وخصائصه. انظر كشف الظنون ٢/ ١٠٥٠.

مبعثه، وقيل: إن النجم كان ينقض ويرمي الشياطين ثم يعود إلى مكانه. ذكره البغوي.

ومنها أنه أتي بالبراق ليلة الإسراء مسرجاً ملجماً، قيل كانت الأنبياء إنما تركبه عرياناً.

ومنها أنه أسري به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى المحل الأعلى، وأراه من آيات ربه الكبرى، وحفظه في المعراج حتى ما زاغ البصر وما طغى، وأحضر الأنبياء له وصلى بهم وبالملائكة إماماً. وأطلعه على الجنة والنار. وعزيت هذه للبيهقي.

ومنها: أنه رأى الله تعالى بعينيه[1]، كما يأتي في مقصد الإسراء إن شاء الله تعالى، وجمع الله له بين الكلام والرؤية، وكلمه تعالى في الرفيع الأعلى، وكلم موسى بالجبل.

ومنها أن الملائكة تسير معه حيث سار يمشون خلف ظهره وقاتلت معه ـ كما مر ـ في غزوة بدر وحنين.

ومنها: أنه يجب علينا أن نصلي ونسلم عليه، لآية ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ [الأحزاب: ٥٦] إلى آخرها، ولم ينقل أن الأمم المتقدمة كان يجب عليهم أن يصلوا على أنبيائهم.

ومنها: أنه أوتي الكتاب العزيز، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة.

ومنها: حفظ كتابه هذا من التبديل والتحريف، حتى سعى كثير من الملحدة والمعطلة لا سيما القرامطة في تغييره وتبديل محكمه، فما قدروا على إطفاء شيء من نوره، ولا تغيير كلمة من كلمه، ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه، قال تعالى: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ [فصلت: ٤٢] الآية.

وكتابه يشتمل على ما اشتملت عليه جميع الكتب، جامعاً لأخبار القرون السالفة والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلم ذلك. ويسر الله تعالى حفظه لمتعلميه، وقربه على متحفظيه، كما قال تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ [القمر: ١٧] وسائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منها، فكيف بالجم الغفير على مرور السنين عليهم، والقرآن ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة.

ومنها: أنه أنزل على سبعة أحرف[2] تسهيلاً علينا، وتيسيراً وشرفاً ورحمة وخصوصية لفضلنا.

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ١٩٥. وفي البداية والنهاية ٣/ ١٠٧ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات باب (٤) رقم الحديث (٢٤١٩ ـ ٤٩٩٢ ـ ٥٠٤١ ـ ٦٩٣٦ ـ =

ومنها: أنه تعالى تكفل بحفظه، فقال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩] أي من التحريف والزيادة والنقصان، ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء: ٨٢].

فإن قلت: هذه الآية تنفي الاختلاف فيه، وحديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» المروي في البخاري عن عمر، يثبته.

فأجاب الجعبري في أول شرحه للشاطبية: بأن المثبت اختلاف تغاير، والمنفي اختلاف تناقض، فموردهما مختلف. انتهى.

فإن قلت: فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في الصحف، وقد وعد الله تعالى بحفظه، وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه؟

فالجواب: ـ كما قال الرازي ـ إن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله تعالى إياه، فإنه تعالى لما أراد حفظه قيضهم لذلك، قال: وقال أصحابنا: وفي هذه الآية دلالة قوية على أن البسملة آية من أول كل سورة، لأن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن والحفظ لا معنى له إلا أن يبقى مصوناً عن التغيير، وإلا لما كان محفوظاً عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لوجب أيضاً أن يظن بهم النقصان. وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة. واختلف فيه، كيف يحفظ القرآن؟

فقال بعضهم: حفظه بأن يجعله معجزاً مبايناً لكلام البشر، يعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان منه، لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا منه تغير نظم القرآن، فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن. وقال آخرون: أعجز الخلق عن إبطاله وإفاده، بل قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف. وقال آخرون: المراد بالحفظ هو أن أحداً لو حاول أن يغير بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا: هذا كذب، حتى إن الشيخ المهيب لو اتفق له تغيير في حرف منه لقال الصبيان كلهم: أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا، ولم يتفق لشيء، من الكتب مثل هذا الكتاب، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتغيير والتحريف، وقد صان الله تعالى هذا الكتاب العزيز عن جميع

---

= ٧٥٥٠) وفي صحيح مسلم كتاب المسافرين (٢٦٤ ـ ٢٧٠ ـ ٢٧٢). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٣٢ و ٥/ ١١٤ و ٣٩١ وفي سنن النسائي ٢/ ١٣٩ رقم (٣٧) وانظر مجمع الزوائد للهيثمي (٧٥٠) والمعجم الكبير للطبراني ٣/ ١٨٥ والدر المنثور للسيوطي ٢/ ٧ وجمع الجوامع (٤٥٣٤) وكشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٤١ والمطالب العالية لابن حجر (٣٤٨٩) ومشكاة المصابيح للتبريزي (٢٣٨) والكامل في الضعفاء لابن عدي ٢/ ٦٧٩ وكنز العمال (٣٠٨٣ ـ ٣٠٩٤ ـ ٣٠٩٥).

التحريف، مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده، وقد انقضى الآن ثمانية وتسعون سنة وثمانمائة سنة، وهو بحمد الله في زيادة من الحفظ.

ومنها: أنه ﷺ خص بآية الكرسي، وبالمفصل وبالمثاني، وبالسبع الطوال، كما في حديث ابن عباس بلفظ: «وأعطيت خواتيم سورة البقرة من كنوز العرش، وخصصت به دون الأنبياء، وأعطيت المثاني مكان التوراة، والمئين مكان الإنجيل، الحواميم مكان الزبور، وفضلت بالمفصل». رواه أبو نعيم في الدلائل.

وقال تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ [الحجر: ٨٧]، وفي البخاري من حديث أبي هريرة، عنه ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»[1] سائرة.

واختلفوا: لم سميت مثاني، فعن الحسن وابن عباس وقتادة لأنها تثنى في الصلاة، فتقرأ في كل صلاة، وقيل لأنها مقسومة بين الله وبين العبد نصفين، نصفها ثناء ونصفها دعاء، كما في حديث أبي هريرة عنه ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»[2]. وقيل لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة. وعن مجاهد: لأن الله استثناها وادخرها لهذه الأمة، فما أعطاها غيرهم.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن السبع المثاني هي السبع الطوال، أولها سورة البقرة وآخرها سورة الأنفال مع التوبة، وقال بعضهم: سورة يونس بدل الأنفال: قال ابن عباس: وإنما سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر والعبر ثنيت فيها. وقال طاووس: القرآن كله مثاني، قال الله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾ [الزمر: ٢٣]، وسمى القرآن مثاني لأن القصص ثنيت فيه والله أعلم.

ومنها: أنه أعطي مفاتيح الخزائن[3]. قال بعضهم: وهي خزائن أجناس العالم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (٣) رقم الحديث (٤٧٠٤). والترمذي في كتاب تفسير القرآن باب (٣)، رقم الحديث (٣١٢٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب (١٣٢) رقم الحديث (٨٢١). وفي الترمذي كتاب التفسير باب (١) رقم الحديث (٩٢٥٤). وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٩٧٣) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٣٧ ـ ٣٠. وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٣/ ١٥٠. وفي التمهيد لابن عبد البر ٢/ ٢٣٠ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٣٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب (٧٢) رقم الحديث (١٣٤٤ ـ ٣٥٩٦ ـ ٤٠٤٢ ـ ٤٠٨٥ ـ ٦٠٦٢ ـ ٦٥٩٠).

ليخرج لهم بقدر ما يطلبونه لذواتهم، فكل ما ظهر من رزق العالم فإن الإسم الإلهي لا يعطيه إلا عن محمد ﷺ الذي بيده المفاتيح، كما اختص تعالى بمفاتيح الغيب فلا يعلمها إلا هو، وأعطى هذا السيد الكريم منزلة الإختصاص بإعطائه مفاتيح الخزائن.

ومنها: أنه أوتي جوامع الكلم، فالكلم جمع كلمة، وكلمات الله تعالى لا تنفد، فالكلمة منه كلمات، ولما علم جوامع الكلم أعطي الإعجاز بالقرآن الذي هو كلام الله تعالى، وهو المترجم عن الله تعالى،. فوقع الإعجاز في الترجمة التي هي له، فإن المعاني المجردة عن المواد لا يتصور الإعجاز بها وإنما الإعجاز ربط هذه المعاني بصور الكلم القائم من نظم الحروف، فهو لسان الحق وسمعه وبصره.

ومنها: أنه بعث إلى الناس كافة، قال بعضهم: وهو من الكفت، وهو الضم، قال الله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾ [المرسلات: ٢٥] تضم الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها، كذلك ضمت شريعته ﷺ جميع الناس، فلا يسمع به أحد إلا لزمه الإيمان به، ولما سمع الجن القرآن يتلى قالوا: ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به﴾ [الأحقاف: ٣١] الآية، فضمت شريعته الإنس والجن، وعمت رحمته التي أرسل بها العالم، قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فمن لم تنله رحمته فما ذلك من جهته، وإنما ذلك من جهة القابل. فهو كالنور الشمسي أفاض شعاعه على الأرض، فمن استتر عنه في كنٍّ أو ظل جدار فهو الذي لم يقبل انتشار النور عليه، وعدل عنه، فلم يرجع إلى الشمس من ذلك منع. انتهى.

فإن قلت: إن نوحاً كان مبعوثاً إلى أهل الأرض بعد الطوفان، فإنه لم يبق إلا من كان مؤمناً معه، وقد كان مرسلاً إليه، وقد جاء في حديث جابر وغيره «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود»[1] وفي رواية «إلى الناس كافة»[2].

أجاب الحافظ ابن حجر، رحمه الله تعالى: بأن هذا العموم الذي حصل لنوح عليه السلام لم يكن في أصل بعثته، وإنما اتفق بالحادث الذي وقع، وهو انحصارالخلق في الموجودين بعد هلاك سائر الناس. وأما نبينا ﷺ فعموم رسالته من أصل البعثة فثبت اختصاصه بذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد رقم الحديث (٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٥٠ و ٥/ ١٦٢ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٥٩. وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٤٠. وفي طبقات ابن سعد ١/ ١٥٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٣٠٤. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٣٣. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٥٩. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٤١٣. وفي طبقات ابن سعد ١/ ١٥٠ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٣٧. وفي تفسير ابن كثير ٢/ ١١٢ وفي كنز العمال (٣٢٠٠٤).

وأما قول أهل الموقف لنوح ـ كما صح في حديث الشفاعة ـ: إنه أول رسول إلى أهل الأرض، فليس المراد به عموم بعثته، بل إثبات أولية إرساله[1]، وعلى تقدير أن يكون مراداً فهو مخصوص بتنصيصه سبحانه وتعالى في عدة آيات على أن إرسال نوح كان إلى قومه، ولم يذكر انه أرسل إلى غيرهم.

واستدل بعضهم لعموم بعثته: بكونه دعا على جميع من في الأرض فأهلكوا بالغرق إلا أهل السفينة، ولو لم يكن مبعوثاً إليهم لما أهلكوا، لقوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، وقد ثبت أنه أول الرسل.

وأجيب: بجواز أن يكون غيره أرسل إليهم في أثناء مدة نوح، وعلم نوح بأنهم لم يؤمنوا فدعا على من لم يؤمن من قومه وغيرهم. فأجيب: وهذا جواب حسن، لكن لم ينقل أنه نبيء في زمن نوح غيره. ويحتمل أن يكون معنى الخصوصية لنبينا ﷺ في ذلك بقاء شريعته. انتهى.

وأما قول بعض اليهود: أن نبينا محمداً ﷺ إنما هو مبعوث إلى العرب خاصة، ففاسد. والدليل عليه أنهم ـ أي اليهود ـ سلموا أنه رسول صادق إلى العرب، فوجب أن يكون كل ما يقوله حقاً، وقد ثبت بالتواتر أنه يدعي أن رسول إلى كل الناس، فلو كذبوه فيه لزم التناقض، أشار إليه صاحب المعالم[2].

ومنها: نصره ﷺ بالرعب مسيرة شهر، والشهر قدر قطع القمر درجات الفلك المحيط، فهو أسرع قاطع، لعموم رعبه في قلوب أعدائه، فلا يقبل الرعب إلا عدوٌّ مقصود ليتميز السعيد من الشقي، ومفهوم هذا: أنه لم يوجد لغيره النصر بالرعب في هذه المدة، ولا في أكثر منها، أما ما دونها فلا، لكن لفظ رواية عمرو بن شعيب: «ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر»[3] فالظاهر اختصاصه به مطلقاً. وإنما جعل الغاية شهراً، لأنه لم يكن بين بلده ﷺ وبين أحد من أعدائه أكثر من شهر وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق، حتى ولو كان وحده بغير عسكر، وهل هي حاصلة لأمته من بعده، فيه احتمال.

---

(١) فقديماً كان البشر جميعهم على دين واحد، هو الإسلام، وإنما حدث الشرك والكفر بالله تعالى بعد النبي إدريس عليه الصلاة والسلام فكان نوح أول نبي أرسل إلى الكفار يدعو إلى عبادة الله الواحد الذي لا شريك له. وبين نوح وإدريس عليهما السلام ألف سنة. وتلك الفترة تسمى الجاهلية الأولى التي عناها الله بقوله: ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(٢) أي معالم السنن شرح أبي داود للخطابي انظر كشف الظنون ٢/ ١٧٢٦.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٢٢٢. وفي فتح الباري ١/ ٥٧٦. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٥٩. وفي المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٧٣.

ومنها: إحلال الغنائم ولم تحل لأحد قبله. وقد كان من تقدم على ضربين، منهم من لم يؤذن له في الجهاد، فلم تكن له مغانم، ومنهم من أذن له فيه، لكن كانوا إذا غنموا شيئاً لم يحل لهم أن يأكلوه، وجاءت نار فأحرقته[1]. قال بعضهم: أعطي ﷺ ما يوافق شهوة أمته، لأن النفوس لها التذاذ بها، لكونها حصلت لهم عن غير قهر منهم لتحصيلها وغلبة، فلا يريدون أن يفوتهم التنعم بها في مقابلة ما قاسوه من الشدة والتعب.

ومنها: جعل الأرض له ولأمته مسجداً وطهوراً[2]، والمراد: موضع سجود، أي لا يختص السجود منها بموضع دون غيره، ويمكن أن يكون مجازاً عن المكان المبني للصلاة، وهو من مجاز التشبيه، لأنه لما جازت الصلاة في جميعها كان كالمسجد في ذلك. وقيل المراد: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وجعلت لغيري مسجداً ولم تجعل له طهوراً، لأن عيسى كان يسيح في الأرض، ويصلي حيث أدركته الصلاة، قاله ابن التين ومن قبله الداودي. وقيل: إنما أبيح لهم في موضع يتيقنون طهارته، بخلاف هذه الأمة فأبيح لهم في جميع الأرض، إلا فيما تيقنوا نجاسته.

والأظهر: ما قاله الخطابي، وهو أن من قبله إنما أبيحت لهم الصلاة في أماكن مخصوصة كالبيع والصوامع، ويؤيده رواية عمرو بن شعيب بلفظ «وكان من قبلي إنما كانوا يصلون في كنائسهم» وهذا نص في موضع النزاع فتثبت الخصوصية. ويؤيده ما رواه البزار من حديث ابن عباس، نحو حديث جابر وفيه: ولم يكن من الأنبياء أحد يصلي حتى يبلغ محرابه قاله في فتح الباري[3].

ومنها: أن معجزته ﷺ مستمرة إلى يوم القيامة، ومعجزات سائر الأنبياء انقرضت لوقتها، فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العظيم لم تزل حجته قاهرة ومعارضته ممتنعة.

ومنها أنه أكثر الأنبياء معجزة. قال القاضي عياض: أما كونها كثيرة فهذا القرآن وكله معجز، وأقل ما يقع الإعجاز فيه عند بعض أئمة المحققين بسورة ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١] أو آية في قدرها، وذهب بعضهم: إلى أن كل آية منه كيف كانت معجزة، وذهب آخرون إلى أن كل جملة منتظمة منه معجزة، وإن كانت من كلمة أو كلمتين.

---

(١) راجع البخاري كتاب الخمس باب (٨) رقم الحديث (٣١٢٤ ـ ٥١٥٧) وانظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/٣١٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب (١) رقم الحديث (٣٣٥ ـ ٤٣٨ ـ ٣١٣٢). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/٢٥٦. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/٢٥٩. وفي مسند أبي عوانة ١/٣٠٣.

(٣) انظر فتح الباري ١/٥٧٦.

قال القاضي: والحق ما ذكرناه أولاً، لقوله تعالى: ﴿فاتتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: ٢٣] فهو أقل ما تحداهم به، مع ما ينصر هذا القول من نظر وتحقيق يطول بسطه. وإذا كان هذا، ففي القرآن من الكلمات نحو سبع وسبعين ألف كلمة ونيف على عدد بعضهم، وعدد كلمات ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ عشر كلمات، فيتجزأ القرآن على نسبة ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ أزيد من سبعة آلاف جزء، فكل واحد منها معجز في نفسه، ثم إعجازه ـ كما تقدم ـ بوجهين. طريق بلاغته، وطريق نظمه، فصار في كل جزء من هذا العدد معجزتان فتضاعف العدد من هذا الوجه، ثم فيه وجوه إعجاز أخر، من الإخبار بعلوم الغيب، فقد يكون في السورة الواحدة من هذه التجزئة الإخبار عن أشياء من الغيب، كل خبر منها بنفسه معجز، فتضاعفت العدد كرة أخرى. ثم وجوه الإعجاز الأخر التي ذكرناها توجب التضعيف، هذا في حق القرآن، فلا يكاد يأخذ العدد معجزاته، ولا يحوي الحصر براهينه[1]، انتهى.

ومن ذلك انشقاق القمر وتسليم الحجر، وحنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ، ولم يثبت لواحد من الأنبياء مثل ذلك، كما ذكره ابن عبد السلام وغيره، وتقدم ما فيه من المباحث.

ومنها: أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، قال ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنىٰ بيتاً فأحسنه إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين»[2]. رواه البخاري ومسلم.

ومنها: أن شرعه مؤيد إلى يوم الدين، وناسخ لجميع شرائع النبيين، وأنه أكثر الأنبياء تابعاً كما قال ﷺ: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[3]. رواه الشيخان من حديث أبي هريرة.

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب (١٨) رقم الحديث (٣٥٣٤ ـ ٣٥٣٥). وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل باب (٧) رقم الحديث (٢٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٦١. وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب (١) رقم الحديث (٤٩٨١ ـ ٧٢٧٤). وفي صحيح مسلم كتاب الايمان رقم الحديث (٢٣٩) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٥٢ و ٢/ ٣٤١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٤ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٢٩. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٤٦) وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ٣٥. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ١٠/ ٢٣٣. وفي البداية والنهاية ٦/ ٧٢ وفي كنز العمال (٣١٩١٢ ـ ٣٢١١٢).

ومنها أنه لو أدركه الأنبياء لوجب عليهم اتباعه، كما سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

ومنها أنه أرسل إلى الجن اتفاقاً، والدليل على ذلك قبل الإجماع: الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان: ١]، وقد أجمع المفسرون على دخول الجن في هذه الآية، وهو مدلول لفظها، فلا يخرج عنه إلا بدليل. وإن قيل إن الملائكة خارجون من ذلك فلا يضر، لأن العام المخصوص حجة عند جمهور العلماء والأصوليين، ولو بطل الاستدلال بالعمومات المخصوصة لبطل الاستدلال بأكثر الأدلة. وقال تعالى في الأحقاف: ﴿أجيبوا داعي الله﴾ [الأحقاف: ٣١]، فأمر بعضهم بعضاً بإجابته دليل على أنه داع لهم، وهو معنى بعثته إليهم، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما السنة، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست» فذكر منها «وأرسلت إلى الخلق كافة»[1] فإنه يشمل الإنس والجن، وحمله على الإنس خاصة تخصيص بغير دليل فلا يجوز. والكلام فيه كالكلام في آية الفرقان [١].

فإن قلت: إن قوله: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ [سبأ: ٢٨] ظاهر في اختصاص رسالته ﷺ بالإنس، واحتمال غير ذلك عدول عن الظاهر.

فالجواب: إن هذا إنما يتمشى على مذهب الدقاق القائل بأن مفهوم اللقب حجة، و«الناس» من قبيل اللقب، فإن المسألة المترجمة في الأصول «بمفهوم اللقب» لا تختص باللقب بل الأعلام كلها وأسماء الأجناس كلها كذلك ما لم تكن صفة. و«الناس» اسم جنس غير صفة فلا مفهوم له. فهذه الآية ليس فيها أصلاً ما يفهم منه أنه ليس رسولاً إلى غيرهم إلا على مذهب الدقاق، بل ولا يتم على مذهب التمسك بهذا المفهوم أيضاً لأن الدقاق إنما يقول به حيث لم يظهر غرض آخر سواه في تخصيص ذلك الإسم، وحيث ظهر غرض لا يقول بالمفهوم، بل يحمل التخصيص على ذلك الغرض، والغرض في الآية التعميم في جميع الناس، وعدم اختصاص الرسالة ببعضهم، فلا يلزم نفي الرسالة عن غيرهم، لا على مذهب الدقاق ولا على مذهب غيره. وإنما خاطب الناس لأنهم الذين

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب السير باب (٥) رقم الحديث (١٥٥٣). وفي صحيح مسلم كتاب المساجد رقم الحديث (٥) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤١٢. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٧٢. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٦٩. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٣٢. وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٤٨) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ١٩٨ وفي فتح الباري ١/ ٥٧٥. وفي كنز العمال (٣١٩٣٢).

تغلب رؤيتهم والخطاب معهم، فمقصود الآية خطاب الناس، والتعميم فيهم لا النفي عن غيرهم، وهذا إذا قلنا إن لفظ الناس لا يشمل الجن، فإن قلنا إنه يشملهم فواضح.

والخلاف فيه مبني على الخلاف في اشتقاق «الناس»، هل هو من النوس، وهو الحركة، أو من الإنس ضد الوحشة؟ فإذا قلنا بالأول أطلق على الفريقين، ولكن استعماله في الإنس أغلب، فحيث أطلق فالمراد به ولد آدم، وإذا قلنا بالثاني فلا، لأنا لا نبصر الجن ولا نأنس بهم، فدخول الجن في الآية إما ممتنع وإما قليل فلا يحمل عليه، وبهذا يتبين ضعف الاستدلال بها، لكنها لا تدل على خلافه.

وأما قول الضحاك ومن تبعه: أن الرسل إلى الجن منهم، لقوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ [الأنعام: ١٣] فهو ظاهر الآية، لكن لم يقل الضحاك ولا أحد غيره باستمرار ذلك في هذه الملة. وإنما محل الخلاف في ذلك في الملل المتقدمة خاصة، وأما في هذه الملة فنبينا محمد، ﷺ هو المرسل إليهم وإلى غيرهم، ولم ينقل أحد عن الضحاك أن رسل الجن منهم مطلقاً، ولا ينبغي أن ينسب إليه ما يخالف الإجماع، على أن الأكثرين قالوا: لم تكن الرسل إلا من الإنس، ولم يكن من الجن قط رسول، لكن لما جمعوا مع الجن في الخطاب صح ذلك. ونظيره: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ [الرحمن: ٢٢] وهما يخرجان من الملح دون العذب، وقيل الرسل من الجن رسل الرسل من بني آدم إليهم لا رسل الله، لقوله تعالى: ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ [الأحقاف: ٢٩]، قاله بعض العلماء.

ومنها أنه أرسل الملائكة في أحد القولين، ورجحه السبكي. قال تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان: ١] ولا نزاع أن المراد بالعبد ها هنا محمد ﷺ، والعالم هو ما سوى الله تعالى، فيتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة، ويطل بذلك قول من قال: إنه كان رسولاً إلى البعض دون البعض، لأن لفظ «العالمين» يتناول جميع المخلوقات، فتدل الآية على أنه رسول إلى جميع الخلق.

ولو قيل لمدعي «خروج الملائكة من هذا العموم» أقم الدليل عليه ربما عجز عنه، فإنه يحتمل أن يكون من الملائكة من أنذره ﷺ إما ليلة الإسراء وإما غيرها. لكن لا يلزم من الإنذار والرسالة إليهم في شيء خاص أن يكون بالشريعة كلها.

وإذا قلنا إن الملائكة هم مؤمنو الجن السماوية، فإذا ركب هذا مع القول بعموم الرسالة للجن الذي قام الإجماع عليه، لزم عموم الرسالة لهم، لكن القول بأن الملائكة من الجن قول شاذ.

والجمهور: على أن «العالمين» في آية الفرقان عام مخصوص بالجن والإنس كما فسر بهما حديث «وأرسلت إلى الخلق كافة» المروي في مسلم. وصرح الحليمي والبيهقي ـ في الباب الرابع من شعب الإيمان ـ بأنه ﷺ لم يرسل إلى الملائكة، وفي الباب الخامس عشر بانفكاكهم من شرعه. وفي تفسير الإمام فخر الدين الرازي، والبرهان النسفي: حكاية الإجماع في تفسير آية الفرقان على أنه لم يكن رسولاً إليهم، كما حكاه العلامة الجلال المحلي[1] والله أعلم.

وعبارة النسفي: ثم إنهم قالوا هذه الآية تدل على أحكام: أولها: أن قوله: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان: ١] يتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة. لكنا أجمعنا على أنه ﷺ لم يكن رسولاً إلى الملائكة، بل يكون رسولاً إلى الجن والإنس جميعاً. وهو عبارة الإمام فخر الدين أيضاً.

وقد تعقب الجلال المحلي العلامةُ كمال الدين بن أبي شريف فقال: اعلم أن البيهقي نقل ذلك عن الحليمي، فإنه قال: هذا معنى كلام الحليمي، وفي قوله هذا إشعار التبري من عهدته، وبتقدير أن لا إشعار فيه فلم يصرح بأنه مرضي عنده. وأما الحليمي فإنه وإن كان من أهل السنة فقد وافق المعتزلة في تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما نقله عنه موافق لقوله بأفضلية الملائكة، فلعله بناه عليه.

وأما ما ذكره من حكاية الرازي والنسفي الإجماع على أنه ﷺ لم يكن مرسلاً إليهم، فقد وقع في نسخ من تفسير الرازي «لكنا بيّنا» بدل «أجمعنا»، على أن قوله: «أجمعنا» ليس صريحاً في إجماع الأمة، لأن مثل هذه العبارة تستعمل لإجماع الخصمين المتناظرين، بل لو صرح به لمنع، فقد قال الإمام السبكي في قوله: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ قال المفسرون كلهم في تفسيرها للجن والإنس، وقال بعضهم وللملائكة، انتهى.

وبالجملة: فالاعتماد على تفسير الرازي والنسفي في حكاية إجماع انفردا بحكايته أمر لا ينتهض حجة على طريقة علماء النقل، لأن مدارك نقل الإجماع من كلام الأئمة وحفاظ الأمة كابن المنذر وابن عبد البر، ومن فوقهما في الاطلاع كالأئمة أصحاب المذاهب المتبوعة ومن يلحق بهم في سعة دائرة الاطلاع والحفظ والإتقان لها من الشهرة عند علماء النقل ما يغني عن بسط الكلام فيها.

---

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلي الشافعي. جلال الدين (٧٩١ ـ ٨٦٤ هـ). أصولي. مفسر. توفي بالقاهرة. الأعلام ٥/ ٣٣٣. شذرات الذهب ٧/ ٣٠٣. الضوء اللامع ٧/ ٣٩ رقم الترجمة (٨٢).

والـلائق بهذه المسألة التوقف عن الخوض فيها على وجه يتضمن دعوى القطع في شيء من الجانبين، انتهى.

ومنها: أنه أرسل رحمة للعالمين، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] قال السمرقندي: يعني للجن والإنس، وقيل لجميع الخلق، رحمة للمؤمن بالهداية ورحمة للمنافق بالأمان من القتل. وقال ابن عباس: رحمة للبر والفاجر، لأن كل نبي إذا كذب أهلك الله من كذبه، ومحمد ﷺ أخر من كذبه إلى الموت أو القيامة. وأما من صدقه فله الرحمة في الدنيا والآخرة. فذاته ﷺ - كما روي - رحمة تعم المؤمن والكافر كما قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣] وقال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة» رواه الدارمي والبيهقي من حديث أبي هريرة، وسيأتي في المقصد السادس مزيد لذلك إن شاء الله تعالى. والله الموفق.

● ومنها: أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم في القرآن، فقال: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا داود، يا زكريا، يا يحيى، يا عيسى، ولم يُخاطب هو فيه إلا بـ «يا أيها الرسول» «يا أيها النبي» «يا أيها المزمل» «يا أيها المدثر».

● ومنها أنه حرم على الأمة نداءه باسمه، قال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ [النور: ٦٣] أي لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه، ورفع الصوت به، والنداء وراء الحجرات، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، وقيل: لا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة.

● ومنها: أنه يحرم الجهر له بالقول، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ [الحجرات: ٢]. قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ [الحجرات: ٢] كان أبو بكر لا يكلم النبي ﷺ إلا كأخي السرار[1] وروي أنه ﷺ ما كان يسمع كلام عمر حتى يستفهمه مما يخفض صوته[2].

وكان ثابت بن قيس في أذنه وقر، وكان جهورياً، فلما نزلت تخلف عن رسول الله ﷺ، فتفقده ودعاه، فقال: يا رسول الله لقد أنزلت عليك هذه الآية، وإني رجل جهير

---

(١) قال ابن كثير أخرجه الحافظ والبزار عن أبي بكر وفيه حصين بن عمر هذا وإن كان ضعيفاً لكن رويناه من حديث عبد الرحمٰن بن عوف وأبي هريرة بنحو ذلك والله أعلم. تفسير ابن كثير ٤/٢٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (١) رقم الحديث (٤٨٤٥).

الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال ﷺ «لست هناك، إنك تعيش بخير وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة»[1]. قال أنس: فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا، فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكشاف وانهزمت طائفة منهم، فقاتل حتى قتل.

● ومنها أنه يحرم نداؤه من وراء الحجرات قال الله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ [الحجرات: ٤]، إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾ [الحجرات: ٥] أي لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول ﷺ الموجبين للثناء والثواب.

●ومنها أنه حبيب الله، وجمع له بين المحبة والخلة، وسيأتي تحقيق ذلك وما فيه من المباحث في آخر المقصد السابع، إن شاء الله تعالى.

● ومنها أنه تعالى أقسم على رسالته وبحياته وببلده وعصره، كما سيأتي ذلك في المقصد السادس، إن شاء الله تعالى.

● ومنها أنه كلم بجميع أصناف الوحي، كما نقل عن ابن عبد السلام وسبق تحقيقه في المبعث من المقصد الأول.

● ومنها أن إسرافيل هبط عليه، ولم يهبط على نبي قبله، أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد هبط عليّ ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي، وهو إسرافيل، فقال: أنا رسول ربك إليك أمرني أن أخبرك إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً ملكاً، فنظرت إلى جبريل فأومأ إلي أن تواضع، فلو أني قلت نبياً ملكاً، لسارت الجبال معي ذهباً»[2].

● ومنها أنه سيد ولد آدم، رواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» وعند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (١) رقم الحديث (٤٨٤٦) وفي المسند للحميدي رقم الحديث (٦٤٩) وفي المعجم الكبير للطبراني ٢/ ٦١. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٤٠٤. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢٤٣. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٣٢٢. وفي كنز العمال (٣٦٣٢١).

(٢) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٣٤٨. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٩. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/ ٢٥٦. وفي كنز العمال (٣٢٠٢٧).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن باب (١٨) رقم الحديث (٣١٤٨ ـ ٣٦١٥). وفي صحيح =

وإنما قال ذلك إخباراً عما أكرمه الله تعالى به من الفضل والسؤدد، وتحدثا بنعمة الله عنده، وإعلاماً لأمته ليكون إيمانهم به على حسبه وموجبه، ولهذا أتبعه بقوله: «ولا فخر» أي إن هذه الفضيلة التي نلتها كرامة من الله، لم أنلها من قبل نفسي ولا بلغتها بقوتي، فليس لي أن أفتخر بها.

● ومنها أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال الله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢].

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: من خصائصه ﷺ أنه أخبره الله تعالى بالمغفرة ولم ينقل أنه أخبر أحداً من الأنبياء بمثل ذلك، ويدل له قولهم في الموقف: «نفسي نفسي». وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية ـ يعني آية الفتح ـ لم يشاركه فيها غيره. وقد أخرج أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن ابن عباس قال: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء، قالوا: فما فضله على أهل السماء، قال: إن الله تعالى قال لأهل السماء: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾ [الأنبياء: ٢٩] وقال لمحمد ﷺ: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ فقد كتب له براءة، قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله تعالى قال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ [إبراهيم: ٤] وقال لمحمد: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ [سبأ: ٢٨]، فأرسله إلى الإنس والجن.

● ومنها أنه أكرم الخلق على الله، فهو أفضل من كل المرسلين، وجميع الملائكة المقربين، وسيأتي الجواب عن قوله ﷺ في حديث ابن عباس، عند مسلم: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[1] ونحو ذلك في المقصد السادس إن شاء الله تعالى.

---

= مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٨١ و ٣/ ٢. وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٠٧. وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٠٤. وفي اتحاف السادة المتقين ٩/ ٢٢٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٤١ ـ ٥٧٦١). وفي تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٢. وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٤٤٢ وفي كنز العمال (٣١٨٨١ ـ ٣٢٠٣٣ ـ ٣٩٠٥٢). وفي البداية والنهاية ١/ ١٦٠ و ٢/ ٢٤٠.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (٤) رقم الحديث (٤٦٣٠ ـ ٤٦٣١) وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (١٦٧) وفي سنن أبي داود كتاب السنة باب (١٣) رقم الحديث (٤٦٦٩ ـ ٤٦٧٠). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤٠٥. وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٩٤ وفي الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٢٦. وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٠٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧١٠). وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٤٤٧.

● ومنها إسلام قرينه. رواه مسلم من حديث ابن مسعود، والبزار من حديث ابن عباس.

● ومنها أنه لا يجوز عليه الخطأ، كما ذكره ابن أبي هريرة والماوردي: وقال قوم: ولا النسيان، حكاه النووي في شرح مسلم.

● ومنها أن الميت يسأل عنه ﷺ في قبره، فعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «وأما فتنة القبر فبي يفتنون وعني يسألون، فإذا كان الرجل أجلس، فيقال له ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله»[1]. الحديث رواه أحمد والبيهقي.

● ومنها أنه حرم نكاح أزواجه من بعده، قال الله تعالى: ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ [الأحزاب: ٦] أي هن في الحرمة كالأمهات، حرم نكاحهن عليهم بعده تكرمة له وخصوصية، ولأنهن أزواج له في الآخرة، وهذا في غير المخيرات، فمن اختارت منهن الدنيا ففي حلها للأزواج طريقان: أحدهما طرد الخلاف، والثاني: القطع بالحل واختاره الإمام[2] والغزالي.

وأزواجه اللاتي توفي عنهن محرمات على غيره أبداً، وفي جواز النظر إليهن وجهان: أشهرهما المنع، ويثبت لهن حكم الأمومة في احترامهن وطاعتهن وتحريم نكاحهن، لا في جواز الخلوة بهن والنفقة عليهن والميراث. ولا يتعدى ذلك إلى غيرهن فلا يقال بناتهن أخوات للمؤمنين على الأصح. وقيل: إنما حرمن لأنه ﷺ حي في قبره، ولذا حكى الماوردي أنه لا يجب عليهن عدة الوفاة. وفي التي فارقها في الحياة ـ كالمستعيذة ـ والتي رأى بكشحها بياضاً ـ أوجه: أحدها، يحرمن أيضاً، وهو الذي نص عليه الشافعي وصححه في الروضة، لعموم الآية، وليس المراد بمن بعده بعدية الموت بل بعدية النكاح. وقيل: لا. والثالث: وصححه إمام الحرمين والرافعي في الصغير: تحريم المدخول بها فقط، لما روي أن الأشعث بن قيس نكح المستعيذة في زمن عمر، فهم عمر برجمه فأخبر أنها لم تكن مدخولاً بها فكف. وفي أمة فارقها بعد وطئها أوجه ثالثها: تحرم إن فارقها بالموت ـ كمارية ـ ولا تحرم إن باعها في الحياة. انتهى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/١٣٩. وفي الدر المنثور للسيوطي ٤/٨٣ وفي اتحاف السادة المتقين ١٠/٤١٨ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/٣٦٤.

(٢) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني. أبو المعالي ركن الدين الملقب بإمام الحرمين. (٤١٩ ـ ٤٧٨ هـ). فقيه، أصولي، متكلم، مفسر، أديب. توفي بالمحفة من قرى نيسابور. الأعلام ٤/١٦٠. وفيات الأعيان ١/٢٨٧. شذرات الذهب ٣/٣٥٨ طبقات الشافعية ٣/٢٤٩. مفتاح السعادة ١/٤٤٢. كشف الظنون (٦٨ ـ ٧٠ ـ ٢٤٢).

● ومنها ما عده ابن عبد السلام أنه يجوز أن يقسم على الله به وليس ذلك لغيره، قال ابن عبد السلام: وهذا ينبغي أن يكون مقصوراً على النبي ﷺ، لأنه سيد ولد آدم، وأن لا يقسم على الله بغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء لأنهم ليسوا في درجته، وأن يكون هذا مما خص به لعلو درجته ومرتبته[1]، انتهى.

● ومنها أنه يحرم رؤية أشخاص أزواجه في الأزر، وكذا يحرم كشف وجوههن وأكفهن لشهادة أو غيرها، كما صرحه به القاضي عياض، وعبارته: فرض الحجاب مما اختصصن به، فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين، فلا يجوز كشف ذلك في شهادة ولا غيرها، ولا إظهار شخوصهن وإن كن مستقرات، إلا ما دعت إليه ضرورة من براز، ثم استدل بما في الموطأ، أن حفصة لما توفي عمر رضي الله عنه سترها النساء عن أن يرى شخصها، وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها لتستر شخصها. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: وليس فيما ذكره دليل على ما ادعاه من فرض ذلك عليهن، فقد كن بعد النبي ﷺ يحججن ويطفن، وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص. انتهى.

وأما حكم نظر غير أزواجه ففي الروضة وأصلها عن الأكثرين: جواز النظر إلى وجه حرة كبيرة أجنبية وكفيها إذا لم يخف فتنة، مع الكراهة، وقوة كلام الشيخين: الرافعي والنووي تقتضي رجحانه، وصوبه في «المهمات» لتصريح الرافعي في الشرح بأن الأكثرين عليه، لكن نقل ابن العراقي أن شيخه البلقيني قال: الترجيح بقوة المدرك، والفتوى على ما في المنهاج، وقد جزم به في «التدريب»، وقوة كلام الشرح الصغير تقتضي رجحانه، وعلله باتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات. ونقلا في «الروضة» و «أصلها» هذا الاتفاق وأقراه.

وعورض: بنقل القاضي عياض عن العلماء مطلقاً: أنه لا يجب على المرأة ستر وجهها في الطريق، وإنما هو سنة، وعلى الرجال غض البصر، وحكاه عنه النووي في

---

(١) روي عن عثمان بن حنيف: أنّ رجلاً ضرير البصر أتىٰ النبي ﷺ فقال أدع الله أن يعافيني، قال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت، فهو خير لك، قال: فادعه. قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء. اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي اللهم فشفعه فيّ. انظر الترمذي (٣٥٧٨). وابن ماجه (١٣٨٥). والمسند للإمام أحمد بن حنبل ١٣٨/٤ والمستدرك للحاكم ٣١٣/١. ومشكاة المصابيح للتبريزي (١٦٨١٦) وكنز العمال (٣٦٤٠).

شرح مسلم وأقره. قاله الشيخ نجم الدين ابن قاضي عجلون في تصحيح المنهاج والله أعلم. وكان النكاح في حقه ﷺ عبادة مطلقاً، كما قاله السبكي، وهو في حق غيره ليس بعبادة عندنا، بل من المباحات، والعبادة عارضة له.

● ومنها أن أولاد بناته ينسبون إليه، قال ﷺ في الحسن: «إن ابني هذا سيد» رواه أبو يعلى.

● ومنها أن كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه. قال ﷺ: «كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»[1]. والنسب بالولادة والسبب بالزواج. قيل: إن أمته ينتفعون بالنسبة إليه يوم القيامة بخلاف أمة غيره.

● ومنها: أنه لا يتزوج على بناته. فعن المسور بن مخرمة أنه سمع رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن طلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»[2] أخرجه الشيخان، وصححه الترمذي.

وعنه (أن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل، وعنده فاطمة بنت النبي ﷺ، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي ﷺ فقالت: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح ابنة أبي جهل. قال المسور: فقال النبي ﷺ فسمعته حين تشهد قال: «أما بعد فإني انكحت أبا العاصي بن الربيع، فحدثني فصدقني، وإن فاطمة بنت محمد بضعة مني، وإنما أكره أن يفتنوها، وإنه والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحدأبداً». قال: فترك علي الخطبة)[3]: أخرجه الشيخان.

---

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٣٦. وفي المستدرك للحاكم ٣/ ١٤٢. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ١١٤. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ٣٤. وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ١٥ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٤/ ٢٧١ وفي تفسير القرطبي ٤/ ١٠٤ وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٦/ ١٨٢. وفي تفسير ابن كثير ٥/ ٤٨٩ وفي البداية والنهاية ٧/ ٨٣ وفي كنز العمال (٣١٩١٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب (١١٠) رقم الحديث (٥٢٣٠) وفي سنن أبي داود كتاب النكاح باب (١٢) رقم الحديث (٢٠٧١) وفي الترمذي كتاب المناقب باب (٦٠) رقم الحديث (٣٨٦٧) وفي صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (٩٣) وفي سنن ابن ماجه كتاب النكاح باب (٥٦) رقم الحديث (١٩٩٨) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٢٨. وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٨٨ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٧/ ٣٢٥. وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ١٥٩ وفي كنز العمال (٣٤٢١٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح باب (٥٦) رقم الحديث (١٩٩٩) وفي صحيح مسلم كتاب=

واسم بنت أبي جهل هذه: جويرية، أسلمت وبايعت، وتزوجها عتاب بن أسيد، ثم أبان بن سعيد بن العاصي. قال أبو داود: حرم الله تعالى على علي أن ينكح على فاطمة في حياتها، بقوله عز وجل: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧].

وذكر الشيخ أبو علي السنجي[1]، في شرح التلخيص: أنه يحرم التزوج على بنات النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون ذلك خاصاً بفاطمة رضي الله عنها، وقد علل ﷺ بأن ذلك يؤذيه، وإذايته ﷺ حرام بالاتفاق، وفي هذا تحريم أذى من يتـأذى النبي ﷺ بتأذيه، لأن إيذاء النبي ﷺ حرام اتفاقاً، قليله وكثيره. وقد جزم ﷺ بأنه يؤذيه ما آذى فاطمة، فكل من وقع منه في حق فاطمة شيء فتأذت به فهو يؤذي النبي ﷺ بشهادة هذا الخبر الصحيح.

وقد استشكل اختصاص فاطمة بذلك، مع أن الغيرة على النبي ﷺ أقرب إلى خشية الافتتان في الدين، ومع ذلك فكان ﷺ يستكثر من الزوجات، وتوجد منهن الغيرة، ومع ذلك ما راعى ﷺ ذلك في حقهن، كما راعاه في حق فاطمة؟

وأجيب: بأن فاطمة كانت إذ ذاك فاقدة من تركن إليه ممن يؤنسها ويزيل وحشتها من أم أو أخت، بخلاف أمهات المؤمنين، فإن كل واحدة منهن كانت ترجع إلى من يحصل لها معه ذلك، وزيادة عليه وهو زوجهن ﷺ لما كان عنده من الملاطفة وتطييب القلوب وجبر الخواطر، بحيث إن كل واحدة منهن ترضى منه لحسن خلقه وجميل خلقه بجميع ما يصدر منه، بحيث لو وجد ما يخشى وجوده من الغيرة لزال عن قرب.

ومنها: أنه لا يجتهد في محراب صلى إليه يمنة ولا يسرة، وأفتى شيخ الإسلام أبو زرعة ابن العراقي في شخص امتنع من الصلاة إلى محراب النبي ﷺ وقال: أنا أجتهد وأصلي، بأنه إن فعل ذلك مع الاعتراف بأنه على ما كان في زمن النبي ﷺ فهو ردة، وإن ذكر تأويلاً بأن قال: ليس هو الآن على ما كان عليه في زمنه ﷺ بل غير عما كان عليه، فهذا سبب اجتهادي، لم يحكم بردته، وإن لم يكن هذا التأويل صحيحاً.

ومنها أن من رآه في المنام فقد رآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل به. وفي رواية

---

= الفضائل رقم الحديث (٩٦) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٢٦. وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٣٠٨.

(١) هو الحسين بن شعيب بن محمد السنجي. أبو علي. فقيه شافعي. توفي سنة (٤٢٧ هـ). الأعلام ٢/ ٢٣٩. وفيات الأعيان ١/ ١٤٥. كشف الظنون (٤٧٩ ـ ١٦٣٥) وفيه أنه توفي سنة (٤٣٠ هـ).

مسلم«من رآني في المنام فيسراني في اليقظة أو لكأنما رآني في اليقظة، لا يتمثل الشيطان بي»[1]. قال الحافظ ابن حجر: ووقع عند الإسماعيلي:«فقد رآني في اليقظة» بدل قوله«فسيراني» ومثله عند ابن ماجه وصححه الترمذي من حديث ابن مسعود. وفي رواية أبي قتادة ـ عند مسلم أيضاً ـ «من رآني فقد رأى الحق». وله أيضاً من حديث جابر«من رآني في المنام فقد رآني، فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي» وفي رواية«من رآني في المنام فقد رآني فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي». وفي حديث أبي سعيد عند البخاري«فإن الشيطان لا يتكونني»[2] أي لا يتكون كوني، فحذف المضاف ووصل المضاف إليه بالفعل.

وفي حديث أبي قتادة عند البخاري«لا يتراءى بي»[3] بالراء، بوزن يتعاطى، ومعناه: لا يستطيع أن يتمثل بي، يعني أن الله تعالى وإن أمكنه من التصور في أي صورة أراد فإنه لم يمكنه من التصور في صورة النبي ﷺ. وقد ذهب إلى هذا جماعة، فقالوا في الحديث: إن محل ذلك إذا رآه الرائي على صورته التي كان عليها، ومنهم من ضيق الذرع في ذلك حتى قال: لا بد أن يراه على صورته التي قبض عليها، حتى يعتبر عدد الشعرات البيض التي لم تبلغ عشرين شعرة.

وعن حماد بن زيد قال: كان محمد ـ يعني ابن سيرين ـ إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي ﷺ قال: صف الذي رأيته، فإن وصف له صفة لا يعرفها قال: لم تره، وسنده صحيح. وقد أخرج الحاكم من طريق عاصم بن كليب: حدثني أبي قال: قلت لابن عباس، رأيت النبي ﷺ في المنام، قال: صفه لي، قال: فذكرت الحسن بن علي فشبهته به، قال: قد رأيته، وسنده جيد.

لكن يعارضه: ما أخرجه ابن أبي عاصم من وجه آخر عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني، فإني أرى في كل صورة»[4] وفي سنده ابن التوأمة

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التعبير باب (١٠) رقم الحديث (٦٩٩٣). وفي سنن أبي داود في كتاب الأدب باب (٨٨) رقم الحديث (٥٠٢٣) وفي صحيح مسلم كتاب الرؤيا رقم الحديث (٧ ـ ١٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٥/٣٠٦. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٩/٢٩٧. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٧/١٨٢. وفي شرح السنة للبغوي ١٢/٢٢٧ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٦٦١) وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٠/ ٢٨٤.

(2) أخرجه البخاري في كتاب التعبير باب (١٠) رقم الحديث (٦٩٩٧) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٥٥ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ١٨١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ٤٥ وفي الشمائل للترمذي (٢١٠) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٦١٠).

(3) أخرجه البخاري كتاب التعبير باب (١٠) رقم الحديث (٦٩٩٥).

(4) انظر فتح الباري ١٢/ ٤٧٤.

وهو ضعيف لاختلاطه، وهو من رواية من سمع منه بعد الاختلاط. قال القاضي أبو بكر ابن العربي: رؤيته ﷺ بصفته المعلومة إدراك على الحقيقة، ورؤيته على غير صفته إدراك للمثال، فإن الصواب أن الأنبياء لا تغيرهم الأرض، ويكون إدراك الذات الكريمة حقيقة، وإدراك الصفات إدراك المثال.

قال: وقد شذ بعض القدرية فقال: الرؤيا لا حقيقة لها أصلاً[1].

قال وقوله: «فسيراني» معناه فسيرى تفسير ما رأى، لأنه حق وغيب، وأما قوله«فكأنما رآني» فهو تشبيه ومعناه: أنه لو رآني في اليقظة لطابق ما رآه في المنام، فيكون الأول حقاً وحقيقة، والثاني حقاً وتمثيلاً. قال: وهذا كله إذا رآه على صورته المعروفة، فإن رآه على خلاف صفته فهي أمثال. فإن رآه مقبلاً عليه مثلاً فهو خير للرائي، وعلى العكس فبالعكس.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بقوله«فقد رآني» أو«فقد رأى الحق» أن من رآه على صورته المعروفة في حياته كانت رؤياه حقاً، ومن رآه على غير صورته كانت رؤيا تأويل، انتهى. وتعقبه النووي فقال: هذا ضعيف، بل الصحيح أنه يراه حقيقة سواء كانت على صفته المعروفة أو غيرها، انتهى. وتعقبه شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر فقال: لم يظهر لي من كلام القاضي عياض ما ينافي ذلك، بل ظاهر قوله أنه يراه حقيقة في الحالين، لكن في الأولى تكون الرؤيا مما لا يحتاج إلى تعبير، والثانية: مما يحتاج إلى التعبير.

وقال بعضهم؛ معناه، أن من رآه [رآه][2] على صورته التي كان عليها. ويلزم من قول من قال: «إنه لا تكون رؤيته إلا على صورته المعلومة» أن من رآه على غير صفته أن تكون رؤياه من أضغاث الأحلام. ومن المعلوم أنه يرى في النوم على حالة بخلاف حالته في الدنيا من الأحوال اللائقة به، ولو تمكن الشيطان من التمثيل بشيء مما كان عليه أو ينسب إليه لعارض عموم قوله: «فإن الشيطان لا يتمثل بي» فالأولى أن ننزه رؤياه، وكذا رؤيا شيء منه، أو مما ينسب إليه عن ذلك، فإنه أبلغ في الحرمة، وأليق بالعصمة، كما عصم من الشيطان في يقظته،

فالصحيح في تأويل هذا الحديث: أن مقصوده أن رؤيته في كل حالة ليست باطلة ولا أضغاثاً، بل هي حق في نفسها، ولو رؤي على غير صورته، فتصور تلك الصورة ليس من الشيطان، بل هو من قبل الله، وهذا قول القاضي أبي بكر الطيب وغيره. ويؤيده قوله: «فقد رأى الحق» أشار إليه القرطبي.

---

(١) وشذ بعض الصالحين فزعم أنها تقع بعيني الرأس حقيقة، وقال بعض المتكلمين: هي مدركة بعينين في القلب. فتح الباري ١٢/ ٤٧٥.

(٢) هكذا في فتح الباري ١٢/ ٤٧٥.

وقال ابن بطال: قوله: «فسيراني في اليقظة» يريد تصديق تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها وخروجها على الحق، وليس المراد أنه يراه في الآخرة، لأنه سيراه يوم القيامة في اليقظة جميع أمته، من رآه في النوم ومن لم يره. وقال المازري: إن كان المحفوظ «فكأنما رآني في اليقظة» فمعناه ظاهر، وإن كان المحفوظ «فسيراني في اليقظة» احتمل أن يكون أراد أهل عصره ممن لم يهاجر إليه، فإنه إذ رآه في المنام جعل ذلك علامة على أنه يراه بعد ذلك في اليقظة، وأوحى الله بذلك إليه ﷺ. وقيل معناه: سيرى تأويل تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها.

وأجاب القاضي عياض: باحتمال أن تكون رؤياه له في النوم على الصفة التي عرف بها، ووصف عليها، موجبة لتكرمته في الآخرة، وأن يراه رؤية خاصة من القرب منه، أو الشفاعة له، بعلو الدرجة ونحو ذلك من الخصوصيات. قال: ولا يبعد أن يعاقب الله بعض المذنبين في القيامة بمنع رؤية نبيه ﷺ مدة.

وحمله ابن أبي جمرة على محمل آخر، فذكر عن ابن عباس أو غيره، أنه رأى النبي ﷺ في النوم، فبقي بعد اليقظة متفكراً في هذا الحديث، فدخل على بعض أمهات المؤمنين ـ لعلها خالته ميمونة ـ فأخرجت له المرآة التي كانت للنبي ﷺ فنظر فيها صورة النبي ﷺ ولم ير صورة نفسه.

وقال الغزالي: ليس معنى قوله: «فقد رآني» أنه رأى جسمي وبدني وإنما المراد أنه رأى مثالاً صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذي في نفسي إليه، وكذلك قوله: «فسيراني في اليقظة» ليس المراد أنه يرى جسمي وبدني. قال: والآلة تارة تكون حقيقية وتارة تكون خيالية، والنفس غير المثال المتخيل، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ﷺ ولا شخصه بل هو مثال له على التحقيق. قال: ومثل ذلك من يرى الله تعالى في المنام، فإن ذاته تعالى منزهة عن الشكل والصورة، ولكن تنتهي تعريفاته تعالى إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور[1] أو غيره، ويكون ذلك المثال آلة حقاً في كونه واسطة في التعريف، فيقول الرائي: رأيت الله عز وجل في المنام، لا يعني أني رأيت ذات الله تعالى، كما يقول في حق غيره.

وقال الغزالي أيضاً في بعض فتاويه: من رأى الرسول ـ يعني في المنام ـ لم ير

---

(١) لا يتوهم من هذا الكلام بأن الإله نور (بمعنى الضوء) لأن الله لا يشبه الأشياء: وأما معنى قوله تعالى ﴿الله نور السموات والأرض﴾ [النور: ٣٥] أي هادي أهل السموات والأرض لنور الايمان فالله تعالى ليس نوراً بمعنى الضوء، بل هو الذي خلق النور قال تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ [الانعام: ١]. أي خلق الظلمات والنور فكيف يمكن أن يكون نوراً كخلقه.

حقيقة شخصه المودع روضة المدينة، وإنما رأى مثاله لا شخصه، ثم قال: وذلك المثال مثال روحه المقدسة عن الصورة والشكل.

وقال الطيبي: المعنى من رآني في المنام بأي صفة كنت فليبشر وليعلم أنه قد رآني الرؤيا الحق، أي رؤية الحق لا الباطل، وكذا قوله: «فقد رآني» فالشرط والجزاء إذا اتحدا دل على الغاية في الكمال، أي فقد رآني رؤيا ليس بعدها شيء.

والحاصل من الأجوبة:

أنه على التشبيه والتمثيل ويدل عليه قوله «فكأنما رآني في اليقظة».

ثانيها: معناه، سيرى في اليقظة تأويلها بطريق الحقيقة.

ثالثها: أنه خاص بأهل عصره ممن آمن به قبل أن يراه.

رابعها: المراد أنه يراه في المرآة التي كانت له إن أمكنه ذلك، قال شيخ مشايخنا الحافظ ابن حجر: وهذا من أبعد المحامل.

خامسها: أنه يراه يوم القيامة بمزيد خصوصية، لا مطلق من رآه حينئذٍ ممن لم يره في المنام.

والصواب كما قدمناه في رؤيته ﷺ التعميم، على أي حالة رآه الرائي بشرط أن يكون على صورته الحقيقية في وقت ما، سواء كان في شبابه أو رجوليته أو كهوليته، أو آخر عمره، وقد يكون لما خالف ذلك تعبير يتعلق بالرائي، كما قال بعض علماء التعبير: إن من رآه شيخاً فهو غاية سلم، ومن رآه شاباً فهو غاية حرب.

وقال أبو سعيد أحمد بن محمد بن نصر: من رأى نبياً على حاله وهيئته فذلك دليل على صلاح الرائي وكمال جاهه وظفره بمن عاداه، ومن رآه متغير الحال عابساً مثلاً فذلك دال على سوء حال الرائي.

وقال العارف ابن أبي جمرة: من رآه في صورة حسنة فذاك حسن في دين الرائي، وإن كان في جارحة من جوارحه شين أو نقص فذلك خلل في الرائي من جهة الدين. قال: وهذا هو الحق. وقد جرب ذلك فوجد على هذا الأسلوب، وبه تحصل الفائدة الكبرى في رؤياه حتى يتبين للرائي هل عنده خلل أو لا؟ لأنه ﷺ نوراني مثل المرآة الصقيلة، ما كان في الناظر إليها من حسن أو غيره تصور فيها، وفي ذاتها على أحسن حال لا نقص فيها، كذلك يقال في كلامه ﷺ في النوم: أنه يعرض على سنته، فما وافقها فهو حق، وما خالفها فالخلل في سمع الرائي، فرؤيا الذات الكريمة حق، والخلل إنما هو في سمع الرائي له أو بصره، قال: وهذا خير ما سمعته في ذلك، انتهى.

وقال بعضهم: ليست رؤيته ﷺ رؤيا عين، إنما يرى بالبصائر، وذلك لا يستدعي حصر المرئي بل يرى من المشرق إلى المغرب ومن الأرض إلى العرش، كما ترى الصورة في المرآة المحاذية لها، وليست الصورة منتقلة إلى جرم المرآة، وعين الناظر مقابلة جميع الكائنات كالمرآة.

واختلاف رؤيته ﷺ بأن يراه بعضهم شيخاً وآخر شاباً، وآخر ضاحكاً وآخر باكياً، يرجع إلى حال الرائين، كاختلاف الصورة الواحدة في مرائي مختلفة الأشكال والمقادير، ففي الكبيرة يرى وجهه كبيراً، وفي الصغيرة صغيراً، وفي المعوجة معوجاً، وفي الطويلة طويلاً، إلى غير ذلك، فالاختلاف راجع إلى اختلاف أشكال المرائي، لا إلى وجه الرائي. كذلك الراؤون له ﷺ أحوالهم بالنسبة إليه مختلفة، فمن رآه متبسماً إليه دل على أن الرائي متمسك بسنته، والله أعلم.

وقد أجاب الشيخ بدر الدين الزركشي عن سؤال جماعة له ﷺ في أن واحد من أقطار متباعدة، مع أن رؤيته ﷺ حق: بأنه ﷺ سراج، ونور الشمس في هذا العالم، مثال نوره في العوالم كلها، وكما أن الشمس يراها كل من في المشرق والمغرب في ساعة واحدة وبصفات مختلفة فكذلك النبي ﷺ، ولله در القائل:

كالبدر من أي النواحي جئته ... يهدي إلى عينيك نوراً ثاقباً

وأما رؤيته ﷺ في اليقظة بعد موته ﷺ فقال شيخنا: لم يصل إلينا ذلك عن أحد من الصحابة، ولا عن من بعدهم.

وقد اشتد حزن فاطمة عليه ﷺ حتى ماتت كمداً بعده بستة أشهر ـ على الصحيح ـ وبيتها مجاور لضريحه الشريف، ولم ينقل عنها رؤيته في المدة التي تأخرت عنه.

وإنما حكى بعض الصالحين حكايات عن أنفسهم، كما هو في «توثيق عرى الإيمان» للبارزي و«بهجة النفوس» لأبي محمد عبدالله بن جمرة، و«روض الرياحين» للعفيف اليافعي، وغيره من تصانيفه، والشيخ صفي الدين بن أبي المنصور في رسالته.

وعبارة ابن أبي جمرة: قد ذكر عن السلف والخلف إلى هلم جراً عن جماعة كانوا يصدقون بهذا الحديث يعني«من رآني في المنام فسيراني في اليقظة» أنهم رأوه ﷺ في النوم فرأوه بعد ذلك في اليقظة، وسألوه عن أشياء كانوا منها متشوشين فأخبرهم بتفريجها، ونص لهم على الوجوه التي منها يكون فرجها، فجاء الأمر كذلك بلا زيادة ولا نقص.

ثم قال: والمنكر لهذا لا يخلو إما أن يكون ممن يصدق بكرامات الأولياء، أو لا،

فإن كان الثاني فقد سقط البحث معه، فإنه مكذب ما أثبتته السنة بالدلائل الواضحة، وإن كان الأول فهذه منها، لأن الأولياء يكشف لهم بخرق العادة في أشياء في العالمين العلوي والسفلي عديدة مع التصديق بذلك.

وقال الشيخ ابن أبي المنصور في رسالته، ويقال: إن الشيخ أبا العباس القسطلاني دخل مرة على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ «أخذ الله بيدك يا أحمد». وعن الشيخ أبي السعود قال: كنت أزور شيخنا أبا العباس وغيره من صلحاء مصر فلما انقطعت واشتغلت وفتح علي، لم يكن لي شيخ إلا النبي ﷺ، وأنه كان يصافحه عقب كل صلاة.

وقال الشيخ أبو العباس الحراز: دخلت على النبي ﷺ مرة فوجدته يكتب مناشير الأولياء بالولاية، قال: وكتب لأخي محمد معهم منشوراً، فقلت يا رسول الله، ما تكتب لي كأخي؟ قال: «أتريد أن تكون فمهاراً» وهذه لغة أندلسية، تعني طريقاً، وفهم عنه أن له مقاماً غير هذا.

وقال حجة الإسلام الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال»: وهم - يعني أرباب القلوب - في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. انتهى.

ورأيت في كتاب المنح الإلهية في مناقب السادة الوفائية عن سيدي علي بن سيدي محمد وفا أنه قال في بعض مشاهده: كنت وأنا ابن خمس سنين أقرأ القرآن على رجل يقال له الشيخ يعقوب، فأتيته يوماً فرأيت إنساناً يقرأ عليه سورة﴿الضحى﴾ [الضحى: ١] وصحبته رفيق له وهو يلوي شدقيه بالإمالة، ورفيقه يضحك إعجاباً، فرأيت النبي ﷺ يقظة لا مناماً وعليه قميص أبيض قطن، ثم رأيت القميص علي فقال لي: اقرأ فقرأت عليه سورة﴿والضحى﴾ و ﴿ألم نشرح﴾ [الشرح] ثم غاب عني، فلما بلغت إحدى وعشرين أحرمت بصلاة الصبح بالقرافة فرأيت النبي ﷺ قبالة وجهي فعانقني فقال لي: وأما بنعمة ربك فحدث، فأوتيت لسانه من ذلك الوقت. انتهى.

وأما ما حكاه الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في «لطائف المنن» عن الشيخ أبي العباس المرسي، أنه كان مع الشيخ أبي الحسن الشاذلي بالقيروان في ليلة الجمعة سابع عشري رمضان، فذهب معه إلى الجامع . . الحكاية، إلى أن قال: ورأيت رسول الله ﷺ وهو يقول«يا علي طهر ثيابك من الدنس تحظ بمدد الله في كل نفس الخ»، فيحتمل أن يكون مناماً.

وكذلك قول الشيخ قطب الدين القسطلاني: كنت أقرأ على أبي عبدالله محمد

ابن عمر بن يوسف القرطبي بالمدينة النبوية، فجئته يوماً في وقت خلوة، وأنا يومئذٍ حديث السن فخرج إلي وقال لي: من أدبك بهذا الأدب؟ وعاب علي، قال: فذهبت وأنا منكسر الخاطر، فدخلت المسجد وقعدت عند قبر النبي ﷺ، فبينا أنا جالس على تلك الحال، فإذا بالشيخ قد جاءني وقال: قم، فقد جاء فيك شفيع لا يرد.

ونحوه: ما حكاه السهروردي في «عوارف المعارف» عن الشيخ عبد القادر الكيلاني أنه قال: ما تزوجت حتى قال لي رسول الله ﷺ: «تزوج».

وحكي عن السيد نور الدين الإيجي، والد السيد عفيف الدين، أنه في بعض زياراته للنبي ﷺ سمع جواب سلامه من داخل القبر الشريف: عليك السلام يا ولدي.

وقال البدر حسن بن الأهدل في مسألة الرؤية له: إن وقوعها للأولياء قد تواترت بأجناسها الأخبار، وصار العلم بذلك قوياً، انتفى عنه الشك، ومن تواترت عليه أخبارهم لم يبق له شبهة فيه، ولكن يقع لهم ذلك في بعض غيبة حسّ وغموض طرف، لورود حالة لا تكاد تضبطها العبارة. ومراتبهم في الرؤية متفاوتة، وكثيراً ما يغلط فيها رواتها، فقل ما تجد رواية متصلة صحيحة عمن يوثق به. وأما من لا يوثق به فقد يكذب، وقد يرى مناماً، أو في غيبة حس، فيظنه يقظة، وقد يرى خيالاً ونوراً فيظنه الرسول، وقد يلبس عليه الشيطان فيجب التحرز في هذا الباب.

وبالجملة:

فالقول برؤيته ﷺ بعد موته بعين الرأس في اليقظة يدرك فساده بأوائل العقول، لاستلزامه خروجه ﷺ من قبره، ومشيه في الأسواق ومخاطبته للناس ومخاطبتهم له، وخلو قبره عن جسده المقدس، فلا يبقى منه فيه شيء، وبحيث يزار مجرد القبر، ويسلم على غائب. أشار إلى ذلك القرطبي في الرد القائل: بأن الرائي له في المنام راءٍ حقيقة، ثم يراه كذلك في اليقظة.

قال: وهذه جهالات لا يقول بشيء منها من له أدنى مسكة من المعقول، وملتزم شيء من ذلك مختل مخبول. وقال: القاضي أبو بكر بن العربي: وشذ بعض الصالحين فزعم أنها تقع بعيني الرأس حقيقة. وقال في فتح الباري - بعد أن ذكر كلام ابن أبي جمرة -: وهذا مشكل جداً، ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة، ولأمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة. وللشيخ مسلم شيخ الطائفة المسلمية شعر:

فمن يدعي في هذه الدار أنه ... يرى المصطفى حقاً فقد فاه مشتطا
ولكن بين النوم واليقظة التي ... يباشر هذا الأمر مرتبة وسطا

وقد جعل القاضي أبو بكر بـن العربي القول بأن الرؤية في المنام بعيني الرأس غلو وحماقة، ثم حكى ما نسب لبعض المتكلمين، وهو القول بأنها مدركة بعينين في القلب، وأنه ضرب من المجاز انتهى.

فلا يمتنع من الخواص، أرباب القلوب القائمين بالمراقبة والتوجه على قدم الخوف، بحيث لا يسكنون بشيء مما يقع لهم من الكرامات، فضلاً عن التحدث بها لغير ضرورة، مع السعي في التخلص من الكدورات، والإعراض عن الدنيا وأهلها جملة، وكون الواحد منهم يود أنه يخرج من أهله وماله، وأنه يرى النبي ﷺ، كالشيخ عبد القادر الكيلاني: أن يتمثل صورته ﷺ في خاطره ويتصور في عالم سره أنه يكلمه، بشرط استقرار ذلك وعدم اضطرابه، فإن تزلزل أو اضطراب كان لمة من الشيطان، وليس ذلك خادشاً في علو مناصبهم لعدم عصمة غير الأنبياء.

فقد قال العلامة التاج ابن السبكي في جمع الجوامع ـ تبعاً لغيره ـ: وإن الإلهام ليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوماً بخواطره، وحينئذٍ فمن قال ـ ممن حكينا عنه أو غيرهم ـ بأن المرئي هو المثال، لا يمتنع حمله على هذا، بل حمل كل من أطلق عليه هو اللائق. وقريب منه قوله ﷺ: «إني رأيت الجنة والنار» مع مزيد استبعاده هناك أن يكون المراد بالرؤية رؤية العلم.

ويحكى عن الشيخ أبي العباس المرسي أنه قال: لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين.

وعلى هذا فيكون معنى «فسيراني في اليقظة» أي يتصور مشاهدتي وتنزل نفسه حاضراً معي بحيث لا يخرج عن آدابه وسنته ﷺ بل يسلك منهاجه ويمشي على شريعته وطريقته. ومنه قوله ﷺ في الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه»[1] ويحمل العموم في «من رآني» علي الموفقين، وإليه يشير قول بعض المعتمدين: أي من رآني رؤية معظم لحرمتي ومشتاق لمشاهدتي وصل إلى رؤية محبوبه وظفر بكل مطلوبه.

وقريب منه قول شارح المصابيح: أو يراه في الدنيا حالة الذوق والانسلاخ عن العوائق الجسمانية، كما نقل ذلك عن بعض الصالحين أنه رآه في حالة الذوق والشوق، وقد قال الأهدل عقب الحكاية عن الشيخ أبي العباس المرسي: وهذا فيه تجوز يقع مثله

(١) أخرجه البخاري في كتاب الايمان باب (٣٧) رقم الحديث (٥٠ ـ ٤٧٧٧) ومسلم أيضاً رقم الحديث (٥ ـ ٧ ـ ٨) وفي سنن أبي داود كتاب السنة باب (١٦) رقم الحديث (٤٦٩٥) وفي سنن ابن ماجه المقدمة باب (٩) رقم الحديث (٦٣). والترمذي ايمان (٤) والنسائي ايمان (٥ و ٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٧/١ و ٥٢ و ١٠٧/٣ و ٢٨٥ و ٣/٥.

في كلام الشيوخ، وذلك أن المراد أنه لم يحجب حجاب غفلة ونسيان لدوام المراقبة واستحضارها في الأعمال والأقوال، ولم يرد أنه لم يحجب عن الروح الشخصية طرفة عين، فذلك مستحيل، والله أعلم. انتهى.

ومما اختص به ﷺ أن التسمي باسمه ميمون ونافع في الدنيا والآخرة.

روينا عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يوقف عبدان بين يدي الله تعالى فيؤمر بهما إلى الجنة فيقولان: ربنا بما استأهلنا الجنة ولم نعمل عملاً تجازينا به الجنة؟ فيقول الله تعالى: ادخلا الجنة، فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه أحمد ولا محمد»[1].

وروى أبو نعيم عن نبيط بن شريط قال قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «وعزتي وجلالي، لا عذبت أحداً تسمى باسمك في النار».

وعن علي بن أبي طالب قال: ما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس الله ذلك المنزل كل يوم مرتين، رواه أبو منصور الديلمي. وليس لأحد أن يتكنى بكنيته «أبي القاسم» سواء كان اسمه محمد أم لا، ومنهم: من كره الجمع بين الإسم والكنية، وجوز الإفراد، ويشبه أن يكون هو الأصح. قال النووي في هذه المسألة مذاهب: الشافعي منع مطلقاً، وجوزه مالك، والثالث: يجوز لمن ليس اسمه محمداً، ومن جوز مطلقاً خص النهي بحياته، وهو الأقرب. انتهى.

ومنها أنه يستحب الغسل لقراءة حديثه والتطيب، ولا ترفع عنده الأصوات، بل تخفض، كما في حياته إذا تكلم، فإن كلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه الشريف، وأن يقرأ على مكان مرتفع.

روينا عن مطرف قال: كان الناس إذا أتوا مالكاً ـ رحمه الله ـ خرجت إليهم الجارية فتقول: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل، فإن قالوا المسائل خرج إليهم في الوقت، وإن قالوا الحديث، دخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً وتعمم ولبس ساجه، ـ والساج: الطيلسان ـ وتلقى له منصة فيخرج ويجلس عليها، وعليه الخشوع، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ، ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث.

قال ابن أبي أويس: فقيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ

---

(١) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات ١/١٥٧ وابن عراق في تنزيه الشريعة ١/١٧٣ والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ٥٥.

ولا أحدث به إلا على طهارة متمكناً. ويقال: إنه أخذ ذلك عن سعيد بن المسيب. وقد كره قتادة ومالك وجماعة التحديث على غير طهارة، حتى كان الأعمش إذا كان على غيرها تيمم. ولا شك أن حرمته ﷺ وتعظيمه وتوفيره بعد مماته وعند ذكره، وذكر حديثه وسماع اسمه وسيرته كما كان في حياته والله أعلم.

ومنها: أنه يكره لقارى حديثه أن يقوم لأحد، قال ابن الحاج في «المدخل»: لأنه قلة أدب مع النبي ﷺ وقلة احترام وعدم مبالاة أن يقطع حديثه لأجل غيره، فكيف لبدعة، وقد كان السلف لا يقطعون حديثه ولا يتحركون وإن أصابهم الضر في أبدانهم ويتحملون المشقة التي تنزل بهم إذ ذاك احتراماً لحديث نبيهم ﷺ.

وحسبك ما وقع لمالك ـ رحمه الله ـ في لسع العقرب سبع عشرة مرة، وهو لم يتحرك، وتحمله للسعها توقيراً لجناب حديثه ﷺ أن يكون يقرأ وهو يتحرك لضر أصابه، مع أنه معذور فيما وقع، فكيف بالحركة والقيام إذ ذاك لا لضرورة بل للبدعة، لا سيما إذا انضاف إلى ذلك ما لا ينبغي من الكلام المعتاد. انتهى ملخصاً.

ومنها أن قراء حديثه لا تزال وجوههم نضرة، وأن قراء حديثه اختصوا بالتلقيب بالحفاظ، وأمراء المؤمنين من بين سائر العلماء.

ومنها أنه تثبت الصحبة لمن اجتمع به ﷺ لحظة، بخلاف التابعي مع الصحابي، فلا تثبت إلا بطول الاجتماع معه على الصحيح عند أهل الأصول، والفرق عظم منصب النبوة ونورها، فبمجرد ما يقع بصره على الأعرابي الجلف ينطق بالحكمة.

ومنها أن أصحابه كلهم عدول، لظواهر الكتاب والسنة، فلا يبحث عن عدالة أحد منهم، كما يبحث عن سائر الرواة. قال الله تعالى خطاباً للموجودين حينئذٍ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ [البقرة: ١٤٣] أي عدولاً، وقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه»[١]، وقال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[٢] في آيات كثيرة وأحاديث تقتضي القول بتعديلهم.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم الحديث (٤٦٥٨) والترمذي برقم (٣٨٦١) والحاكم في المستدرك (٤٧٨ ـ ٤٧٩) وابن ماجه برقم (١٦١) وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٧٥ والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٢ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٤٦٣).

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب (٥٢) رقم الحديث (٢١٢) والترمذي برقم (٣٨٥٩ ـ ٥٢٢١) والبخاري برقم (٢٦٥٢ ـ ٣٦٥١ ـ ٦٤٢٩) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٣٧٨ و ٤٣٤ والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٢٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٩ و ٢٠ وابن أبي شيبة في=

ولذلك: أجمع من يعتد به على ذلك، سواء في التعديل من لابس الفتنة منهم وغيره، لوجوب حسن الظن بهم، حملاً للملابس على الاجتهاد، ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر، من امتثال أوامره ﷺ، وفتحهم الأقاليم، وتبليغهم عنه الكتاب والسنة، وهدايتهم الناس، ومواظبتهم على الصلوات والزكوات وأنواع القربات، مع الشجاعة والبراعة والكرم والأخلاق الحميدة التي لم تكن في أمة من الأمم المتقدمة، ولا تكون لأحد بعدهم مثلهم في ذلك. كل ذلك بحلول نظره ﷺ.

وأفضلهم عند أهل السنة إجماعاً: أبو بكر ثم عمر، وأما بعدهما: فالجمهور على أنه عثمان ثم علي. وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في المقصد السابع.

ومنها أن المصلي يخاطبه بقوله؛ السلام عليك أيها النبي، ولا يخاطب غيره.

ومنها أنه كان يجب على من دعاه وهو في الصلاة أن يجيبه، ويشهد له حديث أبي سعيد بن المعلي: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ: فلم أجبه.[1] الحديث، وفيه: ألم يقل الله تعالى: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ [الأنفال : ٢٤]، فأجابته فرض، يعصي المرء بتركها.

وهل تبطل صلاته أم لا؟ صرح جماعة من أصحابنا الشافعية وغيرهم: أنها لا تبطل، وفيه بحث لاحتمال أن تكون إجابته واجبة مطلقاً، سواء كان المخاطب مصلياً أو غير مصل. أما كونه يخرج بالإجابة من الصلاة أو لا يخرج فليس في الحديث ما يستلزمه، فيحتمل أن تجب الإجابة ولو خرج المجيب من الصلاة، وإلى ذلك جنح بعض الشافعية، والله أعلم.

ومنها: أن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره، ومن كذب عليه لم تقبل روايته أبداً وإن تاب، فيما ذكره جماعة من المحدثين.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن رجل عن سعيد بن جبير أن رجلاً كذب على النبي ﷺ، فبعث علياً والزبير وقال: «إذهبا فإن أدركتماه فاقتلاه»[2]. ولهذا حكى إمام

---

= المصنف ١٢/١٧٦ و ١٧٧ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٣٧٦٧) والهيثمي في موارد الظمآن (٢٢٨٥) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٤٤٩ ـ ٣٢٤٩٥ ـ ٣٢٤٥١).

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٩٦ ـ ٤٧٠٣) وأبو داود في سننه برقم (١٤٥٨) وفي النسائي ١٣٩/٢ والحاكم في المستدرك ٥٥٨/١ والبيهقي في السنن الكبرى ٣٦٨/٢ و ٦٤/٧ والسيوطي في الدر المنثور ٤/١ والطحاوي في مشكل الآثار ٤٦٧/١ و ٧٧/٢ والبغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢١٩/١.

(٢) ذكره عبد الرزاق في مصنفه (٩٧٧).

الحرمين عن أبيه أن من تعمد الكذب على رسول الله ﷺ يكفر. لكن لم يوافقه أحد من الأئمة على ذلك. والحق أنه فاحشة عظيمة وموبقة كبيرة ولكن لا يكفر بها إلا إن استحله. وقال النووي: لم أر له في أصل المسألة دليلاً، ويجوز أن يوجه بأن ذلك جعل تغليظاً وزجراً بليغاً عن الكذب عليه ﷺ لعظم مفسدته فإنه يصير شرعاً مستمراً إلى يوم القيامة بخلاف الكذب على غيره والشهادة، فإن مفسدتهما قاصرة ليست عامة.

ثم قال: وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة ضعيف، مخالف للقواعد الشرعية. والمختار القطع بصحة توبته وقبول روايته بعدها إذا صحت توبته بشروطها المعروفة.

قال: فهذا هو الجاري على قواعد الشرع، وقد أجمعوا على صحة رواية من كان كافراً فأسلم، قال: وأجمعوا على قبول شهادته، ولا فرق بين الشهادة والرواية في هذا.

قال شيخنا: ويمكن أن يقال: فيما إذا كان كذبه في وضع حديث وحمل عنه ودوِّن أن الإثم غير منفك عنه بل هو لاحق له أبداً، فإن من سن سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، والتوبة حينئذٍ متعذرة ظاهراً وإن وجد مجرد اسمها.

ومنها أنه معصوم من الذنوب كبيرها وصغيرها، عمدها وسهوها وكذلك الأنبياء.

ومنها أنه لا يجوز عليه الجنون لأنه نقص، ولا الإغماء الطويل الزمن، فيما ذكره الشيخ أبو حامد في تعليقه، وجزم به البلقيني في حواشي الروضة، وكذلك الأنبياء. ونبه السبكي على أن إغماءهم يخالف إغماء غيرهم، وإنما هو غلبة الأوجاع للحواس الظاهرة دون القلب، لأنه قد ورد أنه إنما تنام أعينهم دون قلوبهم، فإذا حفظت قلوبهم وعصمت من النوم الذي هو أخف من الإغماء، فمن الإغماء بطريق الأولى. قال السبكي: ولا يجوز عليهم العمى، لأنه نقص، ولم يعم نبي قط. وأما ما ذكر عن شعيب أنه كان ضريراً فلم يثبت، وأما يعقوب فحصلت له غشاوة وزالت، انتهى.

قال الرازي: في قوله تعالى: ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ [يوسف: ٨٤] لما قال: ﴿يا أسفى على يوسف﴾ [يوسف: ٨٤] غلبه البكاء، وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين، فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء، وقوله: ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ [يوسف: ٨٤] كأنه من غلبة البكاء، والدليل على صحة هذا القول: أن تأثير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول العمى، فلما حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسناً، ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل، فكان ما ذكرناه أولى.

ثم قال: واختلفوا، فقال بعضهم: إنه كان قد عمي بالكلية، فالله تعالى جعله بصيرا في هذا الوقت، وقال آخرون: بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء والأحزان بحيث

صار يدرك إدراكاً ضعيفاً، فلما ألقوا القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه، فعند ذلك قوى بصره وزال النقصان عنه. انتهى. ومنها أن من سبه ﷺ أو انتقضه قتل.

واختلف هل يتحتم قتله في الحال، أو يوقف على استتابته؟ وهل الاستتابة واجبة أم لا؟ فمذهب المالكية: يقتل حداً لاردة: ولا تقبل توبته ولا عذره إن ادعى سهواً أو غلطاً، وعبارة شيخه م العلامة خليل في مختصره: «وإن سب نبياً أو ملكاً، [أو] عرض أو لعنه، أو عابه أو قذ ه، أو استخف بحقه، أو غيرّ صفته، أو ألحق به نقصاً وإن في [بدنه] أو خصلته أو غض م.، مرتبته أو وفور علمه أو زهده أو أضاف له ما لا يجوز عليه، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصه على طريق الذم، أو قيل له: بحق رسول الله، فلعن وقال أردت العقرب قتل ـ ولم يستتب ـ حداً، إلا أن يسلم الكافر، وإن ظهر أنه لم يرد ذمه لجهل أو سكر أو تهور»[1].

وهذا ذكره القاضي عياض في الشفاء[2] وغيره، واستدلوا له بالكتاب والسنة والإجماع:

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً﴾ [الأحزاب: ٥٧]، راللعنة من الله هي إبعاد الملعون عن رحمته وإحلاله في وبيل عقوبته، قال القاضي عياض: وإنما يستوجب اللعن من هو كافر، وحكم الكافر القتل.

والأذى: هو الشر الخفيف، فإن زاد كان ضرراً، كذا قاله الخطابي وغيره. وإطلاق الأذى في حقه تعالى إنما هو على سبيل المجاز لتعذر الحقيقة فيه. ويشهد لذلك الحديث الإلهي (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني)[3] وهذا بخلاف جانب الرسول ﷺ.

فالأذى في حقه تعالى وحق رسوله كفر بشهادة هذه الآية، لأن العذاب المهين إنما يكون للكفار، وكذلك العذاب الأليم.

وقال تعالى: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ [التوبة: ٦٥ و٦٦] قال القاضي عياض: قال أهل التفسير: كفرتم بقولكم في رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر مختصر العلامة خليل صفحة (٢٨٤).

(٢) انظر الشفا ٢/٢١٣.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر رقم الحديث (٥٥).

وأما السنة فروى أبو داود والترمذي: أن رسول الله ﷺ قال: «من لنا بابن الأشرف» وفي أخرى«من لكعب بن الأشرف» أي من ينتدب لقتله«فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا» وفي رواية«فإنه يؤذي الله ورسوله»[1].

قال القاضي عياض: ووجه إليه من قتله غيلة دون دعوة، بخلاف غيره من المشركين، وعلل بأذاه له، فدل على أن قتله إياه لغير الإشراك بل للأذى.

وفي حديث مصعب بن سعد عند أبي داود: لما كان يوم الفتح أمّن ﷺ الناس، إلا أربعة نفر فذكرهم ثم قال«وأما ابن سرح» فاختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله بايع عبدالله فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك وهو يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال «ما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيعته فيقتله» فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا؟ قال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»[2].

وفيه: أنه أمر بقتل عبدالله بن خطل، لأن ابن خطل كان يقول الشعر يهجو به النبي ﷺ ويأمر جاريتيه أن تغنيا به، وكذلك قتل جاريتيه[3].

قالوا: فقد ثبت أنه أمر بقتل من آذاه، ومن تنقّصه، والحق له ﷺ وهو مخير فيه، فاختار القتل لعدم الإطلاع على العفو، وليس لأمته بعده أن يسقطوا حقه ﷺ، فإنه لم يرد عنه الإذن في ذلك.

وأما الإجماع: فقال القاضي عياض: أجمعت الأمة على قتل منتقصه من المسلمين وسابه، فقال ابن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سب النبي ﷺ يقتل، وممن قال ذلك: مالك بن أنس والليث وأحمد وإسحاق، وهو مذهب الشافعي، وقال الخطابي: لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلماً. وقال محمد بن سحنون: أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ المنتقص له كافر، والوعيد جار

---

(١) الأحاديث: في البخاري برقم (٢٥١٠ ـ ٣٠٣١ ـ ٣٠٣٢ ـ ٤٠٣٧ ـ ٤٥٦٦) ومسلم برقم (١١٩) وفي سنن أبي داود (٢٧٦٨) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٠ و ٩/ ٨١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ (١٩٥ ـ ١٩٩) وللحاكم في المستدرك ٣/ ٤٣٤ وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٧٦ وفي كنز العمال (٢٩٨٦٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد باب (١١٧) رقم الحديث (٢٦٨٣) والنسائي في التحريم (١٤) وابن أبي شيبة في مصنفه ١٤/ ٤٩١ والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٦٨.

(٣)اقال الزرقاني في شرح المواهب: «الصواب أن احداهما قتلت: وأسلمت الثانية. اهـ.

عليه بعذاب الله وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر. انتهى.

ومذهب الشافعية: أن ذلك ردة، تخرج من الإسلام إلى الكفر، فهو مرتد كافر قطعاً لا نزاع في ذلك عند الجمهور من أئمتنا، والمرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

وفي الاستتابة قولان: أصحهما وجوبها؛ لأنه كان محترماً بالإسلام، وإنما عرضت له شبهة، فينبغي إزالتها، وقيل: تستحب لأنه غير مضمون الدم، فإن قلنا بالأول فتجب في الحال ولم يؤجل كغيره. وفي الصحيح حديث «من بدل دينه فاقتلوه»[1] وفي قول: يمهل ثلاثة أيام، فإن لم يتب وأصر - رجلاً كان أو امرأة - قتل، وإن أسلم صح إسلامه وترك لقوله تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة﴾ [التوبة: ٥] الآية.

وعن ابن عباس قال: أيما مسلم سب الله أو سب أحداً من الأنبياء فقد كذب رسول الله ﷺ وهي ردة يستتاب منها، فإن تاب وإلا قتل، وأيما معاهد سب الله أو سب أحداً من أنبيائه فقد نقض العهد فاقتلوه. «وأجيب» عما تقدم من أدلة المالكية:

فأما قوله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ [الأحزاب: ٥٧] الآية فليس فيه إلا كفر مؤذيه ﷺ، وأما كونه يقتل بعد التوبة والإسلام فلا دلالة فيه أصلاً، وأما ابن خطل فإنما قتل ولم يستتب للكفر والزيادة فيه بالأذى مع ما اجتمع فيه من موجبات القتل، ولأنه اتخذ الأذى ديدنا، فلا يقاس عليه من فرط منه فرطة - وقلنا بكفره بها - وتاب ورجع إلى الإسلام، فالفرق واضح. وكذلك قتل جاريتيه لأنهما جعلتا ذلك ديدنا مع ما قام بهما من صفة الكفر.

وقد روى البزار عن ابن عباس أن عقبة بن أبي معيط نادى: يا معشر قريش مالي أقتل من بينكم صبراً. فقال له النبي ﷺ «بكفرك وافترائك على رسول الله»[2] فذكر له سببين في تحتم قتله، وهذا في غاية الظهور. وأما قول الخطابي وغير: «لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلماً» فمحمول على التقييد بعدم التوبة.

وأما سياق القاضي عياض لقصة الرجل الذي كذب على رسول الله ﷺ، وأنه بعث

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٩٢٢) والترمذي برقم (١٤٥٨) والنسائي ٧/ ١٠٤ وابن ماجة برقم (٢٥٣٥) وأبو داود برقم (٤٣٥١) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢١٧ و ٢٨٢ و ٥/ ٢٣١ والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٩٥ والحاكم في المستدرك ٣/ ٥٣٨ والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٣٣٠ والدارقطني في سننه ٣/ ١١٣ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ ١٣٩ وعبد الرزاق في المصنف برقم (٩٤١٣) والزيلعي في نصب الراية ٣/ ٤٠٧ والهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٦١ وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٣٠٤ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٨٧ - ٣٩١).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٨٩ والشفا ٢/ ٤٨٩.

علياً والزبير ليقتلاه، فليس يفيد غرضاً في هذا المقام، لأن الظاهر أن هذا كذب، فيه إفساد وفتنة بين المؤمنين، لا سيما إن كافراً، فيكون من محاربي الله ورسوله، مع السعي في الأرض بالفساد، فيكون متحتم القتل، وإلا فليس مطلق الكذب عيله مما يوجب القتل.

وكذا سياقه حديث ابن عباس: هجت امرأة من خطمة[1] النبي ﷺ، فقال «من لي بها» فقال رجل من قومها: أنا يا رسول الله فنهض فقتلها فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال: «لا ينتطح فيها عنزان»[2] أي لا يجري فيها خلف ولا نزاع، فإن في هذه الحكاية ونظائرها نظراً واضحاً لقيام الكفر بالمحكي عنهم والزيادة منهم، وقد أخبر ﷺ أنه لا عصمة لأحد من الناس بعد دعواهم إلى الإسلام إلا بالإسلام[3]، فكل منهم مهدر الدم إلا من عصم الله منهم بالإسلام. وإنما النافع له في مقام الاستدلال ذكر من طرأ عليه من المسلمين وصمة الارتداد بالسب على القول بكونه ردة، فرجع إلى الإسلام وتاب. هذا هو محل النزاع وموضع الاستدلال لكل من المتنازعين.

وأما ذكر كافر أصلي بلغته دعوة النبي ﷺ وامتنع من إجابته وحاربه بيده ولسانه فلا نزاع في إهدار دمه قطعاً، لا سيما وقد نقل عن هذه المرأة الكافرة أنها كانت تعيب الإسلام، وتؤذي النبي ﷺ وتحرض عليه، فاجتمع فيها موجبات القتل إجماعاً.

فقد تبين مما ساقه القاضي عياض أن أمره ﷺ بقتل سابه إنما نقل عن الكفرة، ولم ينقل أنه ﷺ قتل مسلماً بسببه، وإنما كان ذلك في أهل الكفر والعناد، فلو نقل فلا يتعين كونه حداً، لاحتمال أن يكون قتله كفراً، وقد قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـــاء﴾ [النساء: ٤٨] فأعلمنا أن ما وراء الشرك في حيز إمكان المغفرة[4]، وقال تعالى: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) هي عصماء بنت مروان اليهودية نسبت إلى بني خطمة لكونها زوجة يزيد بن زيد الخطمي الصحابي.
(٢) ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه ١٣/ ٩٩ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٤٩١).
(٣) راجع صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة برقم (٢٣) ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٠٦ وسنن سعيد بن منصور برقم (٢٤٧٤) وتهذيب خصائص عليّ للنسائي (١٤) والبداية والنهاية ٤/ ١٨٧ والبخاري في المغازي برقم (٣٨) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٦٥ ـ ٣٠١٣٠).
(٤) نقل ابن المنذر: الاتفاق على أن من سب النبي ﷺ صريحاً وجب قتله، ونقل أبو بكر الفارسي أحد أئمة الشافعية في كتاب الإجماع: إن من سب النبي ﷺ بما هو قذف صريح كفر باتفاق العلماء، فلو تاب لم يسقط عنه القتل لأن حد قذفه القتل وحد القذف لا يسقط بالتوبة أ. هـ. وعن ابن عباس أن رجلاً كانت له أم ولد له منها ابنان مثل اللؤلؤتين فكانت تشتم النبي ﷺ فينهاها فلا تنتهي ويزجرها فلا تنزجر فلما كان ذات ليلة ذكرت النبي ﷺ فما صبر أن قام إلى معول فوضعه في بطنها ثم اتكأ =

فإن قلت: هذا بالنظر إلى ظلم النفس وحقوق الله تعالى لا بالنظر إلى حقوق العباد، لأن حقوق الله تعالى مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة. وهذا في حق النبي ﷺ وليس لنا أن نسقطه لأنه لم يرد إذنه في ذلك بخلافه هو ﷺ فإن له ذلك.

فالجواب: لا بد لنا من نص على ذلك منه ﷺ، كأن يقول مثلاً: من سبني فاقتلوه، ولا تقبلوا له توبة ولا رجوعاً عن سبه، فإن نقل اتبعناه، ثم إنه من جهة النظر ينبغي إلحاق حقوق رسول الله ﷺ بحقوق الله، فكما أن حقوقه تعالى مبناها على المسامحة، كذلك حقوقه ﷺ، فإنه متخلق بأخلاق الله تعالى.

ومما عد من خصائصه أنه إذا قصده ظالم وجب على من حضره أن يبذل نفسه دونه حكاه النووي في زيادة الروضة عن جماعة من الأصحاب.

● ومن خصائصه ﷺ أنه كان ﷺ يخص من شاء بما شاء من الأحكام.

كجعله شهادة خزيمة[1] بشهادة رجلين. روى أبو داود عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عمه وكان من أصحاب رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ ابتاع من أعرابي فرساً، فاستتبعه ليقبضه ثمن الفرس، فأسرع النبي ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي يساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن رسول الله ﷺ قد ابتاعه، حتى زادوا على ثمنه.. الحديث فطفق الأعرابي يقول هلم شهيداً يشهد أني قد بعتك، فمن جاء من المسلمين يقول ويلك، إن النبي ﷺ لم يكن ليقول إلا الحق، حتى جاء خزيمة بن ثابت فاستمع المراجعة فقال: أنا أشهد، أنك قد بايعته... الحديث. وفيه، قال: فجعل النبي ﷺ شهادة خزيمة برجلين. وفي البخاري من حديث زيد بن ثابت قال: فوجدتها مع خزيمة الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين.

وعند الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ اشترى من أعرابي فرساً، فجحده الأعرابي، فجاء خزيمة فقال: يا أعرابي أنا أشهد

---

= عليها حتى انفذه فقال النبي ﷺ: «ألا أشهدوا أن دمها هدر». أخرجه الدارقطني ٣/ ١١٢ رقم الحديث (١٠٢ ـ ١٠٣) والقاعدة: أن كل عقدٍ أو فعل أو قول يدلُّ على استخفاف بالله أو كتبه أو رسله أو ملائكته أو شعائره أو معالم دينه أو أحكامه أو وعده أو وعيده كفر. فليحذر الإنسان من ذلك جهده على أي حال. ولنا قول الله تعالى ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ [التوبة: ٦٥ و ٦٦].

(١) هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصاري أبو عمارة. صحابي توفي في صفين سنة (٣٧ هـ). الأعلام ٢/ ٣٠٥ الإصابة ٢/ ١١١ رقم الترجمة (٢٢٤٧).

عليك أنك بعته، فقال الأعرابي إذ شهد خزيمة فأعطني الثمن، فقال رسول الله ﷺ: «يا خزيمة إنا لم نشهدك، كيف تشهد؟» قال: أنا أصدقك على خبر السماء، ألا أصدقك على خبر ذا الأعرابي؟! فجعل رسول الله ﷺ يقول: «شهادته بشهادة رجلين» فلم يكن في الإسلام من تعدل شهادته شهادة رجلين غير خزيمة.

قال الخطابي: هذا الحديث حمله كثير من الناس على غير محمله، وتذرع به قوم من أهل البدع إلى استحلال الشهادة لمن عرف عندهم بالصدق على كل شيء ادعاه، وإنما وجه الحديث أنه ﷺ حكم على الأعرابي بعلمه، وجرت شهادة خزيمة مجرى التوكيد لقوله، والاستظهار على خصمه، فصار في التقدير بشهادة اثنين في غيرها من القضايا، انتهى.

ومن ذلك ترخيصه في النياحة لأم عطية، روى مسلم عنها «قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً... ولا يعصينك في معروف﴾ [الممتحنة: ١٢] قالت: كان منه النياحة، فقلت يا رسول الله إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني[1] في الجاهلية، فلا بد لي من أن أسعدهم، فقال: «إلا آل فلان» قال النووي: هذا محمول على الترخيص لأم عطية في آل فلان خاصة، وللشارع أن يخص من العموم ما شاء.

ومن ذلك: ترك الإحداد لأسماء بنت عميس، أخرج ابن سعد عن أسماء بنت عميس قالت: لما أصيب جعفر بن أبي طالب، قال لي رسول الله ﷺ: «تسلبي[2] ثلاثاً ثم اصنعي ما شئت»[3].

ومن ذلك: الأضحية بالعناق[4] لأبي بردة بن نيار، رواه الشيخان من حديث البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر فقال: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب السنة، ومن نسك قبل الصلاة فتلك شاة لحم»، فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، لقد نسكت قبل أن أخرج إلى الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب فتعجلت وأكلت وأطعمت أهلي وجيراني، فقال رسول الله ﷺ: «تلك شاة

---

(١) الإسعاد: المعونة والمساعدة. انظر اللسان ٦/ ٢٦٢ مادة (سعد).

(٢) السلاب، والسلب: ثياب سود تلبسها النساء في المأتم واحدتها سلبة. وسلبت وتسلبت المرأة: إذا كانت محدًّا تلبس الثياب السود. انظر اللسان ٦/٣١٨ مادة (سلب).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/٠١٧ والبيهقي في السنن الكبرى ٧/٣٤٨ والقرطبي في تفسيره ٣/١٨١.

(٤) العناق: الأنثى من المعز وقال الأزهري: العناق الأنثى من أولاد المعزى إذا أتت عليها سنة وجمعها عنوق. اهـ. انظر اللسان ٩/ ٤٣٢ مادة (عنق).

لحم»، قال: فإن عندي عناقاً جذعة هي خير من شاتي لحم فهل تجزي عني؟ قال: «نعم ولن تجزي عن أحد بعدك»[1].

و «نيار» بكسر النون وتخفيف المثناة التحتية وآخره راء. وقوله «تجزي» بفتح أوله غير مهموز، أي تقضي. و «الجذع» بالجيم والذال المعجمة. وفي هذا الحديث تخصيص أبي بردة بإجزاء الجذع من المعز في الأضحية. ولكن وقع في عدة أحاديث التصريح بنظير ذلك لغير أبي بردة، ففي حديث عقبة بن عامر ـ عند البيهقي ـ: ولا رخصة فيها لأحد بعدك. قال البيهقي: إن كانت هذه الزيادة محفوظة كان هذا رخصة لعقبة كما رخص لأبي بردة.

قال الحافظ ابن حجر: وفي هذا الجمع نظر، لأن في كل منهما صيغة عموم، فأيهما تقدم على الآخر اقتضى انتفاء الوقوع للثاني، ويحتمل أن تكون خصوصية الأول نسخت بثبوت الخصوصية للثاني، ولا مانع من ذلك، لأنه لم يقع في السياق استمرار المنع لغيره صريحاً.

وفي كلام بعضهم: أن الذين ثبتت لهم الرخصة أربعة أو خمسة، واستشكل الجمع وليس بمشكل، فإن الأحاديث التي وردت في ذلك ليس فيها التصريح بالنفي إلا في قضية أبي بردة في الصحيح، وفي قصة عقبة بن عامر عند البيهقي، وأما ما عدا ذلك: فأخرج أبو داود وصححه ابن حبان من حديث زيد بن خالد أن النبي ﷺ أعطاه عتوداً جذعاً، فقال: «ضح به»، فقلت إنه جذع أفأضحي به؟ قال: «ضح به»[2] وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس أنه ﷺ أعطى سعد بن أبي وقاص جذعاً من المعز فأمره أن يضحي به. وأخرجه الحاكم من حديث عائشة، وفي سنده ضعف.

فلا منافاة بين ذلك وحديثي أبي بردة وعقبة، لاحتمال أن يكون ذلك في ابتداء الأمر، ثم تقرر الشرع بأن الجذع من المعز لا يجزي، واختص أبو بردة، وعقبة بالرخصة في ذلك. وإن تعذر الجمع بين حديث أبي بردة وحديث عقبة، فحديث أبي بردة أصح مخرجاً. وإن كان حديث عقبة عند البيهقي من مخرج الصحيح والله أعلم.

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الأضاحي باب (٥) رقم الحديث (٢٨٠٠) والنسائي في العيدين (١٧) والضحايا (١٧) والبخاري كتاب العيدين باب (٥) رقم الحديث (٩٥٥).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الاضاحي باب (٥) رقم الحديث (٢٧٩٨) ومسلم باب (٢) رقم (١٥) والنسائي ٧/٢١٨ والترمذي برقم (١٥٠٠) وابن ماجه (٣١٣٨) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/٣٢ والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٢٧٠ والطبراني في المعجم الكبير ٥/٢٧٨ والتبريزي في مشكاة المصابيح برقم (١٤٥٦).

ومن ذلك: إنكاح ذلك الرجل بما معه من القرآن، فيما ذكره جماعة، وورد به حديث مرسل أخرجه سعيد بن منصور عن أبي النعمان الأزدي، قال: زوج رسول الله ﷺ امرأة على سورة من القرآن وقال: «لا يكون لأحد بعدك مهراً».

● ومنها أنه كان يوعك كما يوعك رجلان لمضاعفة الأجر.

● ومنها أن جبريل أرسل إليه ثلاثة في مرضه يسأله عن حاله، ذكره البيهقي وغيره.

● ومنها: أنه صلى عليه الناس أفواجاً أفواجاً بغير إمام، وبغير دعاء الجنازة المعروف ذكره البيهقي وابن سعد وغيرهما، وترك بلا دفن ثلاثة أيام كما سيأتي، وفرش له في لحده ﷺ قطيفة، والأمران مكروهان في حقنا، وأظلمت الأرض بعد موته كما سيأتي.

● ومنها: أنه لا يبلى جسده، وكذلك الأنبياء، رواه أبو داود وابن ماجه.

● ومنها: أنه لا يورث، فقيل لبقائه على ملكه، وقيل لمصيره صدقة، وبه قطع الروياني، ثم حكى وجهين في أنه هل يصير وقفاً على ورثته؟ وأنه إذا صار وقفاً هل هو الواقف؟ وجهان:

قال النووي في زيادات الروضة: الصواب الجزم بزوال ملكه، وأن ما تركه صدقة على المسلمين، لا يختص به الورثة. انتهى.

وقال في الشرح الصغير: المشهور أنه صدقة.

وذكر الرافعي في قسم الفيء أن الخمس كان له ﷺ ينفق منه على نفسه ومصالحه، ولم يكن يملكه ولا ينتقل إلى ورثته. وقال في باب الخصائص: إنه ملكه، ويجمع بينهما: بأن لجهة الإنفاق مادتين: مملوكة وغير مملوكة، والخلاف جار في إحداهما. انتهى والله أعلم.

وعلى هذا، فيباح له أن يوصي بجميع ماله للفقراء، ويمضي ذلك بعد موته بخلاف غيره فإنه لا يمضي مما أوصى به إلا الثلث بعد موته.

وكذلك الأنبياء لا يورثون، لما رواه النسائي من حديث الزبير مرفوعاً «إنا معاشر الأنبياء لا نورث»[1] وعلى هذا فيجاب عن قوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود﴾ [النمل:

---

(1) أخرجه نحوه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٥ ـ ٤٨ ـ ١٦٢ ـ ١٧٩ ـ ١٩١ والترمذي في الشمائل ٢١٤ وابن سعد في الطبقات الكبرى ٢/ ٢٣٩ وانظر التمهيد لابن عبد البر ٨/ ١٧٥.

١٦]. وقوله: ﴿فهب لي من لدنك ولياً يرثني﴾ [مريم: ٥و ٦]. بأن المراد إرث النبوة والعلم.

● ومنها: أنه حي في قبره، ويصلي فيه بأذان وإقامة وكذلك الأنبياء، ولهذا قيل: لا عدة على أزواجه.

وقد حكى ابن زبالة[١]، وابن النجار أن الآذان ترك في أيام الحرة[٢] ثلاثة أيام وخرج الناس، وسعيد بن المسيب في المسجد، قال سعيد: فاستوحشت فدنوت إلى القبر فلما حضرت الظهر سمعت الأذان في القبر فصليت الظهر، ثم مضى ذلك الأذان والإقامة في القبر لكل صلاة حتى مضت الثلاث ليال، ورجع الناس وعاد المؤذنون فسمعت آذانهم كما سمعت الأذان في قبر النبي ﷺ، انتهى.

وقد ثبت أن الأنبياء يحجون ويلبون. فإن قلت: كيف يصلون ويحجون ويلبون وهم أموات في الدار الآخرة، وليست دار عمل؟

فالجواب: أنهم كالشهداء، بل أفضل منهم، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فلا يبعد أن يحجوا ويصلوا، أو نقول: إن البرزخ ينسحب عليه حكم الدنيا في استكثارهم من الأعمال وزيادة الأجور، وأن المنقطع في الآخرة إنما هو التكليف، وقد تحصل الأعمال من غير تكليف على سبيل التلذذ بها، ولهذا ورد أنهم يسبحون ويقرؤون القرآن، ومن هذا سجود النبي ﷺ وقت الشفاعة.

وقد قال صاحب «التلخيص»: إن ماله ﷺ بعد موته قائم على نفقته وملكه، وعده من خصائصه. ونقل إمام الحرمين عنه أن ما خلفه بقي على ما كان في حياته، فكان ينفق منه أبو بكر على أهله وخدمه، وكان يرى أنه باق على ملك النبي ﷺ. فإن الأنبياء أحياء، وهذا يقتضي إثبات الحياة في أحكام الدنيا، وذلك زائد على حياة الشهيد.

والذي صرح به النووي: زوال ملكه ﷺ وأن ما تركه صدقة على جميع المسلمين لا يختص به ورثته. فإن قلت: القرآن ناطق بموته ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال ﷺ: «إني امرؤ مقبوض»[٣] وقال الصديق: فإن محمداً قد مات، وأجمع المسلمون على إطلاق ذلك.

فأجاب الشيخ تقي الدين السبكي، بأن ذلك الموت غير مستمر، وأنه ﷺ أحيي بعد

---

(١) هو محمد بن الحسن بن زبالة المخزومي، كذبوه ومات قبل المائتين.

(٢) الحرة: موقعة حصلت بظاهر المدينة بين أهل المدينة وبين عسكر يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين بسبب خلع أهل المدينة يزيد.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١٢٦/٢ والساعاتي في منحة المعبود (٧٦).

الموت، ويكون انتقال الملك ونحوه مشروطاً بالموت المستمر، وإلا فالحياة الثانية حياة أخروية، ولا شك أنها أعلى وأكمل من حياة الشهداء، وهي ثابتة للروح بلا إشكال، وقد ثبت أن أجساد الأنبياء لا تبلىٰ، وعود الروح إلى الجسد ثابت في الصحيح لسائر الموتى فضلاً عن الشهداء، فضلاً عن الأنبياء، وإنما النظر في استمرارها في البدن، وفي أن البدن يصير حياً كحالته في الدنيا، أو حياً بدونها، وهي حيث شاء الله تعالى، فإن ملازمة الروح للحياة أمر عادي لا عقلي، فهذا مما يجوزه العقل، فإن صح به سمعٌ اتبع، وقد ذكره جماعة من العلماء.

ويشهد له: صلاة موسى في قبره، فإن الصلاة تستدعي جسداً حياً، وكذلك الصفات المذكورة في الأنبياء ليلة الإسراء، كلها صفات الأجسام، ولا يلزم من كونها حياة حقيقة أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب وغير ذلك من صفات الأجسام التي نشاهدها بل يكون لها حكم آخر، فليس في العقل ما يمنع إثبات الحياة الحقيقية لهم. وما الإدراكات كالعلم والسماع فلا شك أن ذلك ثابت لهم بل ولسائر الموتى، حكاه الشيخ زين الدين المراغي، وقال: إنه مما يعز وجوده وفي مثله فليتنافس المتنافسون.

● ومنها: أنه وكل بقبره ملك يبلغه صلاة المصلين عليه. رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه بلفظ «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام»[1] وعند الأصبهاني عن عمارة، «إن لله ملكاً أعطاه الله سمع العباد كلهم، فما من أحد يصلي علي إلا أبلغنيها»[2].

وتعرض أعمال أمته عليه، ويستغفر لهم، روى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب «ليس من يوم إلا وتعرض على النبي ﷺ أعمال أمته غدوة وعشياً فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم».

● ومنها: أن منبره ﷺ على حوضه[3] كما في الحديث وفي رواية: «ومنبري على

---

(١) أخرجه النسائي ٣/ ٤٣ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٤٤١ ـ ٤٥٢ والدارمي ٢/ ٣١٧ والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٢١ والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢٧١ والهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤ والبيهقي في شعب الايمان برقم (٣١١٦) والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٤٩٨ والعراقي في المغني ١/ ١٧٢ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٩٢٤ ـ ٢٢٦٧) والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٤/ ٤١٩ ـ ٤٥٧ وفي الشفا ٢/ ١٨٣ والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ١٤٦ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٧٤٧).

(٢) أخرجه السيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ١٤٧ وفي جمع الجوامع (٦٩٤٨) والذهبي في ميزان الاعتدال ٨٢٩ والمنذري نحوه ٢/ ٤٩٩.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحج باب (٩٢) برقم (٥٠٠ ـ ٥٠٢) والبخاري برقم (١١٩٥ ـ ١٨٨٨ ـ=

ترعة من ترع الجنة» وأصل الترعة الروضة على المكان المرتفع خاصة، فإذا كان في المطمئن فهي روضة. ولم يختلف أحد من العلماء أنه على ظاهره وأنه حق محسوس موجود، فإن القدرة صالحة لا عجز فيها، وكل ما أخبر به الصادق ﷺ من أمور الغيب فالإيمان به واجب.

● ومنها أن ما بين منبره وقبره روضة من رياض الجنة، رواه البخاري بلفظ «ما بين بيتي ومنبري» وهذا يحتمل الحقيقة والمجاز.

أما الحقيقة: فأن يكون ما أخبر عنه ﷺ بأنه من الجنة مقتطعاً منها، كما أن الحجر الأسود منها[1]، وكذلك النيل والفرات من الجنة، وكذلك الثمار الهندية من الورق التي هبط بها آدم عليه السلام من الجنة، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يكون في هذه الدار من مياه الجنة، ومن ترابها، ومن حجرها، ومن فواكهها، حكمة حكيم جليل.

وأما المجاز: فبأن يكون من إطلاق اسم المسبب على السبب، فإن ملازمة ذلك المكان للصلاة والعبادة سبب في نيل الجنة، قاله ابن أبي جمرة، وهو معنى قول بعضهم: لكون العبادة فيه تؤول إلى دخول العابد روضة الجنة. وهذا فيه نظر: إذ لا اختصاص لذلك بتلك البقعة على غيرها.

وفي كتاب «بهجة النفوس» لابن أبي جمرة أيضاً حكاية قول: أن تلك البقعة تنقل بعينها فتكون من الجنة، يعني روضة من رياضها. قال: والأظهر الجمع بين الوجهين مما يعني احتمال كونها تنقل إلى الجنة، وكون العمل فيها يوجب لصاحبه روضة في الجنة، ويأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في فصل الزيارة من المقصد الأخير إن شاء الله تعالى.

● ومنها: أنه ﷺ أول من ينشق عنه القبر. وفي رواية مسلم «أنا أول من تنشق عنه الأرض».

---

= ٦٥٨٨) والترمذي برقم (٣٩١٥) والنسائي ٢/ ٥٣ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٢٣٦ والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٢٤٧ وعبد الرزاق في المصنف (٥٢٤٣) والحميدي في مسنده (٢٩٠) والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٨ وابن سعد في طبقاته ١/ ١٩٥ وابن عبد البر في التمهيد ٢/ ٢٨٥ والطحاوي في مشكل الآثار ٤/ ٦٩ وابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث (٨٨٥ ـ ٢٦٩٤) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٨٣٥ ـ ٣٤٩٤٤).

(١) الحديث: في النسائي ٥/ ٢٢٦ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٠٧ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ١٩٥ وفي المغني للعراقي ١/ ٢٤٢ وفي اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٤/ ٢٧٦ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤١٧ وفي كنز العمال (٣٤٧٢٦).

وهو أول من يفيق من الصعقة، قال ﷺ: «أنا أول من يرفع رأسه بعد النفخة فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور»[1] رواه البخاري. والظاهر أنه ﷺ لم يكن عنده علم بذلك حتى أعلمه الله تعالى، فقد أخبر عن نفسه الكريمة أنه ﷺ أول من ينشق عنه القبر. وهو أول من يجوز على الصراط[2]، رواه البخاري من حديث أبي هريرة. وأنه يحشر في سبعين ألفاً من الملائكة، كما روي عن كعب الأحبار: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألف ملك يحفون بقبره ﷺ يضربون بأجنحتهم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط سبعون ألف ملك، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه ﷺ[3]. الحديث رواه ابن النجار في تاريخ المدينة. وأنه يحشر راكب البراق، رواه الحافظ السلفي، كما ذكره الطبري.

ويكسى في الموقف أعظم الحلل من الجنة. رواه البيهقي بلفظ: «فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر»[4]، ورواه كعب بن مالك بلفظ: «يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي حلة خضراء»[5] رواه البخاري، وهو عند ابن أبي شيبة بلفظ: «يحشر الناس على تل، وأمتي على تل» وعند الطبراني أيضاً حديث ابن عمر فيرقى هو - يعني محمداً ﷺ - وأمته على كوم فوق الناس، وأنه يقوم عن يمين العرش، رواه ابن مسعود عنه ﷺ وفيه: لا يقومه غيره، يغبطه فيه الأولون والآخرون.

● ومنها: أنه يعطى المقام المحمود، قال مجاهد: هو جلوسه ﷺ على العرش، وعن عبد الله بن سلام، على الكرسي، ذكرهما البغوي، وسيأتي ما قيل في ذلك في ذكر تفضيله ﷺ بالمقام المحمود إن شاء الله تعالى.

● ومنها أنه يعطى الشفاعة العظمى في فصل القضاء بين أهل الموقف، حين يفزعون إليه بعد الأنبياء، والشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب، وفي رفع درجات ناس في الجنة.

كما جوز النووي اختصاص هذه والتي قبلها به. ووردت الأحاديث به في التي قبل، وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في المقصد الأخير، والله المعين.

● ومنها: أنه صاحب لواء الحمد، يوم القيامة، آدم فمن دونه تحته. رواه البزار.

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٢٤١١ - ٣٤٠٨ - ٣٣٩٨ - ٤٦٣٨ - ٦٩١٧ - ٧٤٢٧).
(٢) الحديث في البخاري برقم (٨٠٦).
(٣) قال الزرقاني في شرح المواهب: وهو من الكتب القديمة ا. هـ.
(٤) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٣ والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٣٧٩.
(٥) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٤٤٩ والقاضي عياض في الشفا ١/ ٤١٩.

وأنه أول من يقرع باب الجنة. روى مسلم من حديث المختار بن فلفل عن أنس قال: قال ﷺ: «أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة»[1] وعنده أيضاً عن أنس قال ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن، بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك» ورواه الطبراني بزيادة فيه، قال: فيقوم الخازن فيقول: لا أفتح لأحد قبلك، ولا أقوم لأحد بعدك، وهذه خصوصية أخرى له ﷺ وهي: أن خازن الجنة لا يقوم لأحد غيره ﷺ، فقيامه له ﷺ فيه إظهار لمزيته ومرتبته، ولا يقوم لأحد بعده، بل خزنة الجنة يقومون في خدمته وهو كالملك عليهم، وقد أقامه الله تعالى في خدمة عبده ورسوله حتى مشى وفتح له الباب.

● ومنها أنه ﷺ أول من يدخل الجنة، قال ﷺ: «وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر»[2] رواه الترمذي.

● ومن خصائصه ﷺ الكوثر، نهر في الجنة يسيل من حوضه مجراه على الدر والياقوت، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج.

● ومنها الوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة.

وأما خصائص أمته ﷺ وزادها شرفاً، فاعلم أنه لما أنشأ الله سبحانه وتعالى العالم على غاية من الإتقان، وأبرز جسد نبينا ﷺ للعيان، وظهرت عنايته بأمته الإنسانية، بحضوره وظهوره فيها، وإن كان العالم الإنساني والناري كله أمته، ولكن لهؤلاء خصوص وصف، فجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وجعلهم ورثة الأنبياء، وأعطاهم الاجتهاد في نصب الأحكام، فيحكمون بما أدى إليه اجتهادهم.

وكل من دخل في زمان هذه الأمة من الأنبياء بعد نبيها، كعيسى عليه السلام، أو قدر دخوله كالخضر، فإنه لا يحكم في العالم إلا بما شرعه محمد ﷺ في هذه الأمة، فإذا نزل سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فإنما يحكم بشريعة نبينا ﷺ بإلهام أو اطلاع على الروح المحمدي أو بما شاء الله تعالى، فيأخذ عنه ما شرع الله له أن يحكم به في أمته، فلا يحكم في شيء من تحريم وتحليل إلا بما كان يحكم به نبينا ﷺ، ولا يحكم بشريعته التي أنزلت عليه في أوان رسالته ودولته، فهو عليه السلام تابع لنبينا ﷺ. وقد نبه

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان رقم الحديث (٣٣٠) والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٤ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٩٧ وأبو عوانة في مسنده ١/ ١٠٩ والبغوي في شرح السنة ١٥/ ١٦٦ وابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ٥٠٣ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب برقم (٣٦١٦) والدارمي في المقدمة (٨) والإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٨٢ و ٣/ ١٤٤.

على ذلك الترمذي الحكيم في كتاب ختم الأولياء، وأعرب عنه صاحب «عنقاء مغرب»[1]، وكذا الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح عقائد النسفي وصحح أنه يصلي بالناس ويؤمهم ويقتدي به المهدي لأنه أفضل منه، فإمامته أولى. انتهى.

فهو عليه الصلاة والسلام وإن كان خليفة في الأمة المحمدية، فهو رسول ونبي كريم على حاله، لا كما يظن بعض الناس أنه يأتي واحداً من هذه الأمة، نعم هو واحد من هذه الأمة لما ذكر من وجوب اتباعه لنبينا ﷺ والحكم بشريعته.

فإن قلت: قد ورد في صحيح مسلم قوله ﷺ: «ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية»[2] وأن الصواب في معناه: أنه لا يقبل الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام أو القتل، وهذا خلاف ما هو حكم الشرع اليوم، فإن الكتابي إذا بذل الجزية وجب قبولها ولم يجز قتله ولا إكراهه على الإسلام، وإذا كان كذلك، فكيف يكون عيسى عليه السلام حاكماً بشريعة نبينا ﷺ؟

فالجواب: أنه لا خلاف أن عيسى عليه السلام إنما ينزل حاكماً بهذه الشريعة المحمدية ولا ينزل نبياً برسالة مستقلة وشريعة ناسخة، بل هو حاكم من حكام هذه الأمة.

وأما حكم الجزية وما يتعلق بها فليس حكماً مستمراً إلى يوم القيامة، بل هو مقيد بما قبل نزول عيسى، وقد أخبر نبينا ﷺ بنسخه، وليس عيسى عليه السلام هو الناسخ، بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ، فدل على أن الامتناع في ذلك الوقت من قبول الجزية هو شرع نبينا ﷺ. أشار إليه النووي في شرح مسلم.

فإن قلت: ما المعنى في تغيير حكم الشرع عند نزول عيسى عليه السلام في عدم قبول الجزية؟

فأجاب ابن بطال: بأنا إنما قبلناها نحن لاحتياجنا إلى المال، وليس يحتاج عيسى عليه السلام عند خروجه إلى مال، لأنه يفيض في أيامه المال حتى لا يقبله أحد، فلا يقبل إلا القتل أو الإيمان بالله وحده. انتهى.

---

(١) هو اسم كتاب ألفه الشيخ محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن عربي المتوفي بدمشق سنة (٦٣٨) «عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب». انظر كشف الظنون ٢/ ١١٧٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٢٢٢ ـ ٣٤٤٨) ومسلم برقم (٢٤٢) والامام أحمد بن حنبل ٢/٥٣٨ والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٢٤٤ و ٩/ ١٨٠ والطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٢٧ والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٤٢ وعبد الرزاق في المصنف (٢٠١٤٠) وأبو عوانة في المسند ١/ ١٠٤.

وأجاب الشيخ ولي الدين ابن العراقي: بأن قبول الجزية من اليهود والنصارى لشبهة ما بأيديهم من التوراة والإنجيل. وتعلقهم بزعمهم بشرع قديم، فإذا نزل عيسى عليه السلام زالت تلك الشبهة بحصول معاينته، فصاروا كعبدة الأوثان في انقطاع شبهتهم وانكشاف أمرهم، فعوملوا معاملتهم في أنه لا يقبل منهم إلا الإسلام، والحكم يزول بزوال علته. قال وهذا معنى حسن مناسب لم أر من تعرض له. قال: وهذا أولى مما ذكره ابن بطال. انتهى.

وكذلك من يقول من العلماء بنبوة الخضر، وأنه باق إلى اليوم، فإنه تابع لأحكام هذه الملة. وكذلك إلياس على ما صححه أبو عبد الله القرطبي أنه حي أيضاً. وليس في الرسل من يتبعه رسول له كتاب إلا نبينا ﷺ، وكفى بهذا شرفاً لهذه الأمة المحمدية زادها الله شرفاً.

فالحمد لله الذي خصنا بهذه الرحمة، وأسبغ علينا هذه النعمة، ومنَّ علينا بما عمنا به من الفضائل الجمة، ونوّه بنا في كتابه العزيز بقوله: ﴿كنتم خير أمة﴾ [آل عمران: ١١٠]، فتأمل قوله (كنتم) أي في اللوح المحفوظ، وقيل: كنتم في علم الله. فينبغي لمن هو من هذه الأمة المحمدية أن يتخلق بالأخلاق الزكية، ليثبت له ما لهذه الأمة الشريفة من الأوصاف المرضية، ويتأهل لما لها من الخيرية.

قال مجاهد: كنتم خير أمة أخرجت للناس إذا كنتم على الشرائط المذكورة، أي: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر. وقيل: إنما صارت أمة محمد ﷺ خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى. وقيل: هذا لأصحاب محمد ﷺ، كما قال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وهذا يدل على أن أول هذه الأمة أفضل ممن بعدها. وإلى هذا ذهب معظم العلماء.

وأن من صحبه ﷺ ورآه ولو مرة من عمره أفضل من كل من يأتي بعده، وأن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل، هذا مذهب الجمهور.

وذهب أبو عمر بن عبد البر: إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة، وأن قوله ﷺ: «خير الناس قرني» ليس على عمومه بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول، وقد جمع قرنه ﷺ جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان، وأهل الكبائر الذين أقام عليهم وعلى بعضهم الحدود، وقد روى أبو أمامة أنه ﷺ قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى سبع مرات لمن لم يرني وآمن بي»[1].

وفي مسند أبي داود الطيالسي عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه

---

(١) أخرجه الامام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٢٦٤ وابن عبد البر في الاستذكار ١/ ٢٣٦.

عن عمر قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فقال: «أتدرون أي الخلق أفضل إيماناً؟» قلنا: الملائكة، قال: «وحق لهم، بل غيرهم». قلنا: الأنبياء قال: «وحق لهم، بل غيرهم»، قال ﷺ: «أفضل: الخلق إيماناً قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني فهم أفضل الخلق إيماناً»[1].

وروي أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبد الله أن اكتب إلي بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها، فكتب إليه سالم: إن عملت بسيرة عمر فأنت أفضل من عمر، لأن زمانك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر، قال: وكتب إلى فقهاء زمانه فكلهم كتب بمثل قول سالم. قال أبو عمر: فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها، التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها في فضل العمل، إلا أهل بدر والحديبية. ومن تدبر هذا الباب بان له الصواب، والله يؤتي فضله من يشاء. انتهى.

وإسناد حديث أبي داود الطيالسي عن عمر ضعيف فلا يحتج به، لكن روى أحمد والدارمي والطبراني عن أبي عبيدة ـ أي ابن الجراح ـ: يا رسول الله، أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك؟ قال «قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني»[2] وإسناده حسن وصححه الحاكم.

والحق ما عليه الجمهور: أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ، والدلائل على أفضلية الصحابة على غيرهم كثيرة متظاهرة لا نطيل بذكرها وسيأتي بقية مباحث ذلك في فضل الصحابة من المقصد السابع إن شاء الله تعالى.

وقد خص الله تعالى هذه الأمة الشريفة بخصائص لم يؤتها أمة قبلهم، أبان بها فضلهم، والأخبار والآثار ناطقة بذلك.

فخرج أبو نعيم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى ـ عليه السلام ـ لما نزلت عليه التوراة وقرأها، فوجد فيها ذكر هذه الأمة، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون، فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة أنا جيلهم في صدورهم يقرؤونها ظاهراً فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة يأكلون الفيء فاجعلها أمّتي، قال تلك أمة أحمد، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة يجعلون الصدقة في بطونهم يؤجرون عليها فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا همَّ أحدهم

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٤/ ٢٣٨ وابن عبد البر في الاستذكار ١/ ٢٣٨.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٧٥ والطحاوي في مشكل الآثار ٣/ ١٧٥ والهيثمي في مجمع الزوائد نحوه ١٠/ ٦٥.

بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وإن عملها كتبت له عشر حسنات فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا همَّ أحدهم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت سيئة واحدة فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة يؤتون العلم الأول والعلم الآخر، فيقتلون المسيح الدجال، فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب فاجعلني من أمة أحمد، فأعطي عند ذلك خصلتين، فقال: يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين، قال: قد رضيت يا رب»[1].

وروى ابن طغر بك في «النطق المفهوم»[2] عن ابن عباس رفعه: قال موسى: يا رب، فهل في الأمم أكرم عليك من أمتي، ظللت عليهم الغمام، وأنزلت عليهم المنَّ والسلوى، فقال: سبحانه وتعالى: يا موسى، أما علمت أن فضل أمة محمد على سائر الأمم كفضلي على جميع خلقي؟ قال: يا رب فأرينهم، قال: لن تراهم، ولكن أسمعك كلامهم، فناداهم الله تعالى، فأجابوا كلهم بصوت واحد: لبيك اللهم لبيك، وهم في أصلاب آبائهم وبطون أمهاتهم فقال سبحانه وتعالى: صلاتي عليكم، ورحمتي سبقت غضبي، وعفوي سبق عذابي، استجيب لكم قبل أن تسألوني، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله غفرت له ذنوبه. قال ﷺ: «فأراد الله أن يمن علي بذلك» فقال: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ [القصص: ٤٦]. أي أمتك حتى أسمعنا موسى كلامهم.

ورواه قتادة، وزاد: فقال موسى: يا رب، ما أحسن أصوات أمة محمد ﷺ أسمعني مرة أخرى.

وفي الحلية لأبي نعيم، عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى موسى، نبيء بني إسرائيل أنه من لقيني وهو جاحد بأحمد أدخلته النار. قال: يا رب، ومن أحمد؟ قال: ما خلقت خلقاً أكرم علي منه، كتبت اسمه مع اسمي في العرش قبل أن أخلق السماوات والأرض، إن الجنة محرمة على جميع خلقي حتى يدخلها هو وأمته، قال: ومن أمته؟ قال: الحمادون، يحمدون صعوداً وهبوطاً وعلى كل حال. يشدون أوساطهم ويطهرون أطرافهم، صائمون بالنهار، رهبان بالليل، أقبل منهم اليسير، وأدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله، قال: اجعلني نبي تلك الأمة، قال: نبيها منها،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ١/ ١٤ والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٢٤.

(٢) اسم كتاب لأبي الفرج ابن الجوزي وهو من أغرب تصانيفه انظر كشف الظنون ٢/ ١٩٥٩.

قال: اجعلني من أمة ذلك النبي، قال: استقدمت، واستأخر، ولكن سأجمع بينك وبينه في دار الجلال»[1].

وعن وهب بن منبه قال: أوحى الله إلى شعيا: إني باعث نبياً أمياً، أفتح به آذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأعيناً عمياً، مولده بمكة، ومهاجره طيبة، وملكه بالشام، عبدي المتوكل المصطفى المرفوع الحبيب المنتخب المختار، لا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، رحيماً بالمؤمنين، يبكي للبهيمة المثقلة، ولليتيم في حجر الأرملة، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا متزين بالفحش ولا قوال للخنا، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب الرعراع لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشراً ونذيراً. . إلى أن قال: وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وتوحيداً لي، وإيماناً بي، وإخلاصاً لي، وتصديقاً لما جاءت به رسلي، وهم رعاة الشمس والقمر، طوبى لتلك القلوب والوجوه والأرواح التي أخلصت لي، ألهمهم التسبيح والتكبير والتحميد والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم، ويصفون في مساجدهم كما تصف الملائكة حول عرشي، هم أوليائي وأنصاري، أنتقم بهم من أعدائي عبدة الأوثان، يصلون لي قياماً وقعوداً وركعاً وسجوداً، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي ألوفاً، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً، أختم بكتابهم الكتب، وبشريعتهم الشرائع، وبدينهم الأديان، فمن أدركهم فلم يؤمن بكتابهم، ويدخل في دينهم وشريعتهم فليس مني، وهو مني بريء، وأجعلهم أفضل الأمم، وأجعلهم أمة وسطاً شهداء على الناس، إذا غضبوا هللوني، وإذا تنازعوا سبحوني، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب إلى الأنصاف، ويهللون على التلال والأشراف، قربانهم دماؤهم، وأنا جيلهم في صدورهم، رهباناً بالليل ليوثاً بالنهار، طوبى لمن كان معهم، وعلى دينهم ومنهاجهم وشريعتهم، وذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم. رواه أبو نعيم.

وقد ذكر الإمام فخر الدين: أن من كانت معجزاته أظهر يكون ثواب أمته أقل، قال السبكي: إلا هذه الأمة، فإن معجزات نبيها أظهر وثوابها أكثر من سائر الأمم. ومن خصائص هذه الأمة إحلال الغنائم، ولم تحل لأمة قبلها، وجعلت لهم الأرض مسجداً ولم تكن الأمم تصلي إلا في البيع والكنائس، وجعل لهم ترابها طهوراً وهو التيمم. وفي رواية أبي أمامة عند البخاري: «وجعلت الأرض كلها لي ولأمتي مسجداً وطهوراً»[2] وفي رواية

---

(١) انظر حلية الأولياء ٦/ ٣٣ وما بعدها.

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/٢٤٨.

مسلم من حديث حذيفة: «وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء»[1].

● ومن خصائص هذه الأمة الوضوء، فإنه لم يكن إلا للأنبياء دون أممهم، ذكره الحليمي، واستدل بحديث البخاري «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء»[2] لكن قال في فتح الباري: فيه نظر: لأنه ثبت في البخاري قصة سارة ـ عليها السلام ـ مع الملك الذي أعطاها هاجر: أن سارة لما همَّ الملك بالدنو منها قامت تتوضأ وتصلي، وفي قصة جريج الراهب أيضاً: أنه قام فتوضأ وصلى ثم كلم الغلام. فالظاهر أن الذي اختصت به هذه الأمة هو الغرة والتحجيل، لا أصل الوضوء.

وقد صرح بذلك في رواية لمسلم عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: «لكم سيما ليست لأحد غيركم»[3] أي علامة. وغاية التحجيل: استيعاب العضدين والساقين والغرة: غسل مقدمات الرأس وصفحة العنق مع الوجه.

● ومنها مجموع الصلوات الخمس، ولم تجمع لأحد غيرهم، أخرج الطحاوي عن عبيد الله بن محمد بن عائشة قال: إن آدم لما تيب عليه عند الفجر صلى ركعتين فصارت الصبح، وفدى إسحاق عند الظهر، فصلى أربع ركعات فصارت الظهر، وبعث عزيراً عند العصر، فقيل له: كم لبثت قال: يوماً، فرأى الشمس فقال: أو بعض يوم فصلى أربع ركعات فصارت العصر، وغفر لداود عند المغرب، فقام يصلي أربع ركعات فجهد فجلس في الثالثة فصارت المغرب ثلاثاً. وأول من صلى العشاء الآخرة نبينا ﷺ.

وأخرج أبو داود في سننه، وابن أبي شيبة في مصنفه والبيهقي في سننه عن معاذ بن جبل قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العتمة ليلة حتى ظن الظان أنه قد صلى ثم خرج فقال: «أعتموا بهذه الصلاة فإنكم فضلتم بها على سائر الأمم ولم تصلها أمة قبلكم»[4].

● ومنها الاذان والإقامة.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم المساجد رقم (٤) وفي شرح السنة للبغوي ٢/١١٣ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/١٠٤ و ١١/٤٣٥.

(٢) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣٦١ والسيوطي في جمع الجوامع برقم (٦٢٧٧) والمنذري في الترغيب ١/١٤٩ والتبريزي في المشكاة برقم (٢٩٠).

(٣) الحديث في صحيح مسلم طهارة رقم (٣٦ ـ ٣٧) وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/٥٠٢ وفي تفسير القرطبي ٦/١٠٧.

(٤) أخرجه أبو داود برقم (٤٢١) وأحمد في المسند ٥/٢٣٧ والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٤٥١ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٩/٢٣٨ والسيوطي في الدر المنثور ١/٣٠٠ و ٢/٦٥ في كنز العمال (١٩٤٧٧).

● ومنها البسملة، قاله بعضهم فيما نقله الشيخ شهاب الدين الحلبي النحوي في تفسيره، قال: ولم ينزلها الله على أحد من الأمم قبلنا إلا على سليمان بن داود، فهي مما اختصت به هذه الأمة. انتهى.

● ومنها التأمين، روى الإمام أحمد من حديث عائشة قالت: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ استأذن رجل من اليهود، فذكر الحديث وفيه: أن النبي ﷺ قال: «إنهم لم يحسدونا على شيء كما حسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين»[1].

قال الحافظ ابن حجر: وهذا الحديث غريب لا أعرفه بهذه الألفاظ إلا من هذا الوجه، لكن لبعضه متابع حسن في التأمين، أخرجه ابن ماجه وصححه ابن خزيمة كلاهما من رواية سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ما حسدتنا اليهود على شيء ما حسدتنا على السلام والتأمين»[2].

● ومنها الاختصاص بالركوع، عن علي رضي الله عنه قال: أول صلاة ركعنا فيها العصر، فقلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: «بهذا أمرت» رواه البزار والطبراني في الأوسط.

ووجه الاستدلال منه: أنه ﷺ صلى قبل ذلك الظهر، وصلى قبل فرض الصلوات الخمس قيام الليل، فكون الصلاة السابقة بلا ركوع قرينة لخلو صلاة الأمم السابقة منه. قاله بعض العلماء.

قال: وذكر جماعة من المفسرين في قوله تعالى: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ [البقرة: ٤٣]. أن مشروعية الركوع في الصلاة خاص بهذه الأمة، وأنه لا ركوع في صلاة بني إسرائيل، ولذا أمرهم بالركوع مع أمة محمد ﷺ.

وهذا يعارضه قوله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ [آل عمران: ٤٣]. المفسر بأنها أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها. قالوا: وقدم السجود قبل الركوع إما لكونه كذلك في شريعتهم، أو للتنبيه على أن «الواو» لا توجب الترتيب. وقيل: المراد بالقنوت إدامة الطاعة، كقوله: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً﴾ [الزمر: ٩]. وبالسجود: الصلاة، لقوله: ﴿وأدبار السجود﴾

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٣٢٨.

(٢) ذكره نحوه ابن عبد البر في التمهيد ٧/ ١٥ وفي مصنف عبد الرزاق ٢٦٤٩ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٥٢٧٦).

[ق: ٤٠]، وبالركوع: الخضوع والإخبات.

● ومنها الصفوف في الصلاة، كصفوف الملائكة، رواه مسلم من حديث حذيفة.

● ومنها تحية الإسلام لحديث عائشة السابق.

● ومنها الجمعة، قال ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد»[1] رواه البخاري.

● ومنها ساعة الإجابة التي في الجمعة، واختلف في تعيينها على أقوال تزيد على الثلاثين ذكرتها في «لوامع الأنوار في الأدعية والأذكار».

● ومنها: أنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله إليهم، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً، وتزيين الجنة فيه، وخلوف أفواه الصائمين أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة في كل يوم وليلة حتى يفطروا، وإذا كان آخر ليلة غفر لهم جميعاً. رواه البيهقي بإسناد لا بأس به بلفظ: أعطيت أمتي في شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبي قبلي[2] .. الحديث، و «تستغفر لهم الحيتان حتى يفطروا». رواه البزار. و «تصفد فيه مردة الشياطين» رواه أحمد والبزار.

● ومنها السحور، وتعجيل الفطر، رواه الشيخان. وإباحة الأكل والشرب والجماع ليلاً إلى الفجر، وكان محرماً على من قبلنا بعد النوم، وكذا كان في صدر الإسلام ثم نسخ.

● ومنها: ليلة القدر، كما قاله النووي في شرح المهذب.

وهل صيام رمضان من خصائص هذه الأمة أم لا؟ إن قلنا إن التشبيه الذي دلت عليه كاف «كما» في قوله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ [البقرة: ١٨٣] على حقيقته فيكون رمضان كتب على من قبلنا. وذكر ابن أبي حاتم عن ابن عمر رفعه: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم» وفي إسناده مجهول. وإن قلنا المراد مطلق الصيام دون قدره ووقته فيكون التشبيه واقعاً على مطلق الصوم، وهو قول الجمهور.

● ومنها أن لهم الاسترجاع عند المصيبة، قال سعيد بن جبير: لقد أعطيت هذه الأ :

---

(١) الحديث أيضاً في المسند ٢/ ٢٤٩ و ٥٠٤ وفي الدارقطني ٢/ ٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٢٩٨ وفي دلائل النبوة أيضاً ٥/ ٤٧٥ وفي إتحاف السادة المتقين ٣/ ٢١٥ وفي كنز العمال (٣٤٤٧٥ ـ ٣٤٥١٧).

(٢) والحديث أيضاً في الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٩٢ وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٨٤ وفي كنز العمال (٢٣٧٠٩).

عند المصيبة ما لم تعط الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثله: إنا لله وإنا إليه راجعون. ولو أعطيت الأنبياء لأعطيه يعقوب عليه الصلاة والسلام إذ قال: ﴿يا أسفي على يوسف﴾ [يوسف: ٨٤].

● ومنها: أن الله تعالى رفع عنهم الإصرار الذي كان على الأمم قبلهم، قال الله تعالى: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ [الأعراف: ١٥٧]. أي: ويخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة، كتعيين القصاص في العمد والخطأ وقطع الأعضاء الخاطئة، وقطع موضع النجاسة، وقتل النفس في التوبة. وقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب فيصبح قد كتب على باب بيته: إن كفارته أن تنزع عينيك فينزعهما. وأصل الإصل: الثقل: الذي يأصر صاحبه، أي يحبسه من الحراك لثقله.

● ومنها أن الله تعالى أحل لهم كثيراً مما شدد على من قبلهم، ولم يجعل عليهم في الدين من حرج، كما قال تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: ٧٨]. أي ضيق بتكليف ما اشتد القيام به عليهم، إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم في تركه، يعني من لم يستطع أن يصلي قائماً فليصل قاعداً، وأباح للصائم الفطر في السفر، والقصر فيه.

وقيل ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجاً، وفتح لهم باب التوبة، وشرع لهم الكفارات في حقوقه تعالى، والأروش[1] والديات في حقوق العباد، قاله البيضاوي.

وروي عن ابن عباس أنه قال: الحرج ما كان على بني إسرائيل من الإصر والشدائد، وضعه الله عن هذه الأمة. وعن كعب، أعطى الله هذه الأمة ثلاثاً لم يعطهن إلا الأنبياء: جعلهم شهداء على الناس، وما جعل عليهم في الدين من حرج، وقال: ادعوني استجب لكم.

● ومنها: أن الله رفع عنهم المؤاخذة بالخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه، وحديث النفس[2]، وقد كان بنو إسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أمروا به أو أخطؤوا عجلت لهم العقوبة، فحرِّم عليهم شيء من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب.

وقد قال ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[3] رواه

---

(١) الأرش في الجراحات وليس له قدر معلوم وهو دية الجراحات وسمي أرشاً لأنه من أسباب النزاع. راجع لسان العرب ١/١١٧ مادة (أرش).

(٢) رواه الشيخان وهو بلفظ: (إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٢٠٤٥) وفي نصب الراية للزيلعي ٢/٦٤ وفي كشف الخفاء للعجلوني=

أحمد وابن حبان والحاكم وابن ماجه.

● ومنها أن الإسلام وصف خاص بهم، لا يشركهم فيه غيرهم إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لقوله تعالى: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾ [الحج: ٧٨]. ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة: ٣]. إذ لو لم يكن خاصاً بهم لم يكن في الامتنان عليهم بذلك فائدة.

وقد يجاب: بأن رضى الإسلام ديناً لهم، وتسمية إبراهيم أباهم بذلك، لا ينفي اتصاف غيرهم به. وفائدة ذلك: الإعلام بالإنعام عليهم بما أنعم به على غيرهم من الفضائل.

وقيل: لا يختص بهم، بل يطلق على غيرهم أيضاً، وهو اسم لكل دين حق لغة وشرعاً. كما أجاب به ابن الصلاح لقوله تعالى ـ حكاية عن وصية يعقوب ـ ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٢]. ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ [الذاريات: ٣٦] إلى غير ذلك. ولأن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب كثير من العلماء، وليس خاصاً بهذه الأمة، بل يوصف به كل من دخل في شريعة مقراً بالله وبأنبيائه، كما قال الراغب.

● ومنها: أن شريعتهم أكمل من جميع شرائع الأمم المتقدمة، وهذا لا يحتاج إلى بيانه لوضوحه. وانظر إلى شريعة موسى عليه السلام، فقد كانت شريعة جلال وقهر، أمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات، وحرمت عليهم الغنائم، وعجلت لهم من العقوبات ما عجل، وحملوا من الآصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم.

وكان موسى عليه السلام من أعظم خلق الله هيبة ووقاراً وأشدهم بأساً وغضباً لله، وبطشاً بأعداء الله، فكان لا يستطاع النظر إليه.

وعيسى عليه السلام كان في مظهر الجمال، وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان، وكان لا يقاتل ولا يحارب، وليس في شريعته قتال ألبتة، والنصارى يحرم عليهم في دينهم القتال، وهم به عصاة، فإن الإنجيل يأمر فيه: أن من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك، ومن سخرك ميلاً فامش معه ميلين[1]، ونحو هذا،

---

= ١/ ٥٢٢ وفي كنز العمال للمتقي الهندي (٣٤٤٦٠).

(١) انظر متى ٥/ ٣٩ ـ ٤١.

وليس في شريعتهم مشقة ولا إصر ولا أغلال. وأما النصارى فابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم ولم تكتب عليهم.

وأما نبينا ﷺ فكان مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل والشدة في الله، واللين والرأفة والرحمة فشريعته أكمل الشرائع، وأمته أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات، ولذلك تأتي شريعته ﷺ بالعدل إيجاباً له وفرضاً، وبالفضل ندباً إليه واستحباباً، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندى موضعه، فيذكر الظلم ويحرمه، والعدل ويأمر به، والفضل ويندب إليه في بعض آية، كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠]. فهذا عدل ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [الشورى: ٤٠]. فهذا فضل ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ [الشورى: ٤٠]. فهذا تحريم للظلم.

وقوله: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ [النحل: ١٢٦]. فهذا إيجاب للعدل وتحريم للظلم ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ [النحل: ١٢٦] ندب إلى الفضل.

● وكذلك تحريم ما حرم على هذه الأمة صيانة وحمية، حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من كان قبلهم لم يخل من عقوبة، كما أشرت إليه قريباً. وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم كيوم الجمعة، كما سأذكره إن شاء الله تعالى في مقصد عباداته ﷺ، وتقدم ما يشهد له.

ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم، كما كمل لنبيهم من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله، وكمل في كتابهم من المحاسن ما فرقه في الكتب قبله، وكذلك في شريعته. فهذه الأمة هم المجتبون، كما قال إلٰههم: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: ٧٨]. وجعلهم شهداء على الناس، فأقامهم في ذلك مقام الرسل الشاهدين على أممهم، أشار إليه ابن القيم.

● ومنها: أنهم لا يجتمعون على ضلالة. رواه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، وابن أبي خيثمة في تاريخه عن أبي بصرة الغفاري مرفوعاً في حديث «سألت ربي أن لا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها»[1] ورواه ابن أبي عاصم والطبراني أيضاً من حديث أبي مالك الأشعري رفعه: «إن الله أجاركم من ثلاث» وذكر منها «وأن لا تجتمعوا على ضلالة».

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/٤٨٨ وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٨٧) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٧٩٠٤).

قال شيخنا: وبالجملة، فهو حديث مشهور المتن، ذو أسانيد كثيرة وله شواهد متعددة في المرفوع وغيره.

● ومنها: أن إجماعهم حجة وأن اختلافهم رحمة، وكان اختلاف من قبلهم عذاباً، روى البيهقي في المدخل في حديث من رواية سليمان بن أبي كريمة، عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «واختلاف أصحابي لكم رحمة»[1].
وجويبر: ضعيف جداً، والضحاك عن ابن عباس: منقطع.

وهو كما قال شيخ الإسلام ابن حجر: حديث مشهور على الألسنة، وقد أورده ابن الحاجب في المختصر في مباحث القياس بلفظ: اختلاف أمتي رحمة للناس. قال: وكثر السؤال عنه، وزعم كثير من الأئمة أنه لا أصل له، لكن ذكره الخطابي في غريب الحديث مستطرداً، وقال: اعترض على هذا الحديث رجلان، أحدهما ماجن والآخر ملحد، وهما: إسحاق الموصلي، وعمرو بن بحر الجاحظ وقالا جميعاً: لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق عذاباً، قال: ثم تشاغل الخطابي برد هذا الكلام، ولم يقع في كلامه نص في عزو الحديث، ولكنه أشعر بأن له أصلاً عنده.

ومن حديث الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد قال: أهل العلم أهل توسعة، وما برح المفتون يختلفون، فيحل هذا ويحرم هذا، فلا يعيب هذا على هذا، أشار إليه شيخنا في المقاصد الحسنة.

ومنها أن الطاعون لهم شهادة ورحمة، وكان على الأمم عذاباً. رواه أحمد والطبراني في الكبير، عن حديث أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ. ورجال أحمد ثقات ولفظه: «الطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجز على الكافرين»[2].

● ومنها أنهم إذا شهد اثنان منهم لعبد بخير وجبت له الجنة[3]. وكان الأمم السالفة إذا شهد منهم مائة.

● ومنها أنهم أقل الأمم عملاً، وأكثرهم أجراً وأقصرهم أعماراً، وأوتوا العلم الأول والآخر، وآخر الأمم فافتضحت الأمم عندهم ولم يفتضحوا.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/٦٨ والعراقي في المغني عن حمل الأسفه ١/٢٨ وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٢٨٥.

(٢) الحديث في الدارمي ٢/٢٠٧، وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٦/ ٣٩٢ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٣٣٤ وفي تفسير القرطبي ٣/ ٢٨٥ وفي كنز العمال (٢٨٤٣٧).

(٣) روى أحمد والبخاري والنسائي عن عمر مرفوعاً (أيما مسلم شهد له أربعة أدخله الله الجنة، قيل: وثلاثة؟ قال: وثلاثة، قيل واثنان، قال: واثنان...) والمقصود الثناء عليه بخير.

● ومنها: أنهم أوتوا الإسناد، وهو خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة، وسنة بالغة من السنن المؤكدة. وقد روينا من طريق أبي العباس الدغولي قال: سمعت محمد بن حاتم بن المظفر يقول: إن الله قد أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد موصول، إنما هو صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، فليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي اتخذوها عن غير الثقات.

وهذه الأمة الشريفة ـ زادها الله شرفاً بنبيها ـ إنما تنص الحديث عن الثقة المعروف في زمانه بالصدق والأمانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقصر مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهاً وأكثر، حتى يهذبوه من الغلط والزلل، ويضبطوا حروفه ويعدوه عداً، فهذا من فضل الله على هذه الأمة، فنستودع الله تعالى شكر هذه النعمة وغيرها من نعمه.

وقال أبو حاتم الرازي[1]: لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله تعالى آدم أمناء يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة، انتهى.

● ومنها: أنهم أوتوا الأنساب والإعراب، قال أبو بكر محمد بن أحمد[2]: بلغني أن الله خص هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها: الإسناد والأنساب والإعراب، انتهى. وهو مروي عن أبي علي الجياني[3] أيضاً.

● ومنها: أنهم أوتوا تصنيف الكتب، ذكره بعضهم. ولا تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله. رواه الشيخان.

● ومنها: أن فيهم أقطاباً وأوتاداً ونجباء وأبدالاً[4]. عن أنس مرفوعاً: «الأبدال

---

(١) هو محمد بن إدريس بن المنذر بن داود، أبو حاتم (١٩٥ ـ ٢٧٧ هـ). من حفاظ الحديث. ولد بالري وتوفي ببغداد. الأعلام ٦/ ٢٧، تهذيب التهذيب ٩/ ٣١، تاريخ بغداد ٢/ ٧٣ ومفتاح السعادة ٢/ ١٦٩.

(٢) هو محمد بن أحمد البغدادي، أبو بكر حافظ فاضل توفي سنة (٤٠٨٩).

(٣) هو الحسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني الأندلسي. أبو علي (٤٢٧ ـ ٤٩٨ هـ). عالم محدث توفي في قرطبة. الأعلام ٢/ ٢٥٥، وفيات الأعيان ١/ ١٥٨.

(٤) هذه مصطلحات صوفية ننقل بعض ما قاله الشارح في بيانها. الأقطاب جمع قطب: وهو الخليفة الباطن وسيد أهل زمانه سمي قطباً لجمعه جميع المقامات والأحوال. والأوتاد: وهم أربعة في كل زمان، وهم العمد وهم في حكم الجبال في الأرض، ولذا سموا أوتاداً. والنجباء: سبعون ورتبتهم فوق النقباء ودون الأبدال الأبدال: جمع بدل، سموا بذلك لأنه إذا مات واحد أبدل مكانه آخر.

أربعون رجلاً وأربعون امرأة، كلما مات رجل أبدل الله رجلاً مكانه، وإذا ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة»[1] رواه الخلال[2] في «كرامات الأوليا».

ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ: «لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن عليه السلام، فبهم يسقون وبهم ينصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر»[3].

ورواه ابن عدي في كامله بلفظ: «البدلاء أربعون، اثنان وعشرون بالشام وثمانية عشر بالعراق، كلما مات منهم أحد أبدل الله مكانه آخر، فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم، فعند ذلك تقوم الساعة»[4].

وكذا يروى كما عند أحمد في المسند، والخلال، من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «لا يزال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات واحد أبدل الله تعالى مكانه رجلاً»[5].

وفي لفظ الطبراني ـ في الكبير ـ: «بهم تقوم الأرض وبهم يمطرون وبهم ينصرون».

ولأبي نعيم في الحلية، عن ابن عمر رفعه: «خيار أمتي في كل قرن خمسمائة، والأبدال أربعون، فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر، وهم في الأرض كلها»[6].

وفي الحلية أيضاً عن ابن مسعود رفعه: «لا يزال أربعون رجلاً من أمتي، قلوبهم على قلب إبراهيم، يدفع الله بهم عن أهل الأرض، يقال لهم الأبدال، إنهم لم يدركوها بصلاة ولا بصوم ولا بصدقة»، قال: فيم أدركوها يا رسول الله؟ قال: «بالسخاء والنصيحة للمسلمين»[7].

---

(١) الحديث في الدر المنثور ٢/ ٧٦، وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٨٥، وفي كشف الخفاء ١/ ٢٥ وفي كنز العمال (٣٤٥٩٧).

(٢) هو الحسن بن محمد بن الحسن بن علي، أبو محمد الخلال (٣٥٢ ـ ٤٣٩ هـ). فاضل من أهل بغداد. الأعلام ٢/ ٢١٣ تاريخ بغداد وكشف الظنون ١/ ٢٦.

(٣) الحديث في مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٦٣، وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/ ٣٨٥ وفي الحاوي للفتاوي ٢/ ٤٢٣ وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ٣٢٠ وفي كنز العمال (٣٤٦٠٣).

(٤) الحديث في جمع الجوامع للسيوطي (١٢٠٨٢) وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٨٥ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٦ وفي كنز العمال (٦٤٦٠٩).

(٥) الحديث في إتحاف السادة المتقين للزبيد ٨/ ٩٨٦.

(٦) الحديث في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٩٤ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ١/ ٨ وفي كنز العمال (٣٤٥٩١).

(٧) الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٦٣ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٨٦،=

وعن معروف الكرخي[1]: من قال اللهم ارحم أمة محمد في كل يوم كتبه الله من الأبدال. وهو في الحلية بلفظ: «من قال في كل يوم عشر مرات اللهم أصلح أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد كتب من الأبدال»[2].

وعن غيره قال: من علامة الأبدال أن لا يولد لهم، ويروى في مرفوع معضل: «علامة أبدال أمتي أنهم لا يلعنون شيئاً أبداً».

وقال يزيد بن هارون: الأبدال هم أهل العلم، وقال الإمام أحمد: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فمن هم؟.

وفي تاريخ بغداد للخطيب، عن الكتاني[3] قال: النقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والبدلاء أربعون، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد، فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض ومسكن الغوث مكة، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد، فإن أجيبوا وإلاّ ابتهل الغوث، فلا يتم مسألته حتى تجاب دعوته، انتهى.[4]

● ومنها أنهم يدخلون قبورهم بذنوبهم، ويخرجون منها بلا ذنوب، تمحص عنهم باستغفار المؤمنين لهم. رواه الطبراني ـ في الأوسط ـ من حديث أنس، ولفظه: قال قال رسول الله ﷺ: «أمتي أمة مرحومة تدخل قبورها بذنوبها، وتخرج من قبورها لا ذنوب عليها، تمحص عنها باستغفار المؤمنين لها»[5].

---

= والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٢ والعجلوني في كشف الخفا ١/ ٢٥ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٦١٢ ـ ٣٤٦١٤).

(١) هو معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ. زاهد متصوف توفي ببغداد سنة (٢٠٠ هـ). الأعلام ٧/ ٢٦٩ وفيات الأعيان ٢/ ١٠٤ صفة الصفوة ٢/ ١٧٩ وتاريخ بغداد ١٣/ ١٩٩.

(٢) أورده أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٦٦.

(٣) هو عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن علي التميمي أبو محمد الكتاين (٣٨٩ ـ ٤٦٦ هـ) مؤرخ محدث. الأعلام ٤/ ١٣ وشذرات الذهب ٤/ ٣٢٥

(٤) قال السخاوي: خبر الأبدال له طرق عن أنس بألفاظ مختلفة كلها ضعيفة، ثم ساق ما ذكره المصنف ثم قال: وأحسن ما تقدم ما رواه أحمد من حديث شريح قال: ذكر أهل الشام عند علي وهو بالعراق فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين، قال: لا إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: البدلاء يكونون بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يستسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب. رجاله من رواة الصحيح إلا شريحاً، وهو ثقة، انتهى.

(٥) الحديث ذكره الحاكم في المستدرك ٤/ ٤٤٤، والعجلوني في كشف الخفا ١/ ٢٢٩ والزبيدي في

● ومنها أنهم اختصوا في الآخرة بأنهم أول من تنشق عنهم الأرض من الأمم. رواه أبو نعيم عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ «وأنا أول من تنشق الأرض عني وعن أمتي ولا فخر».

● ومنها: أنهم يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء. رواه البخاري. والغرة: بياض في وجه الفرس. والتحجيل: بياض في قوائمه وذلك مما يكسبه حسناً وجمالاً.

فشبه ﷺ النور الذي يكون يوم القيامة في أعضاء الوضوء بالغرة والتحجيل، ليفهم أن هذا البياض في أعضاء الإنسان مما يزينه لا مما يشينه، يعني أنهم إذا دعوا على رؤوس الأشهاد نودوا بهذا الوصف، أو كانوا على هذه الصفة.

● ومنها أنهم يكونون في الموقف على مكان عال. رواه ابن جرير وابن مردويه من حديث جابر مرفوعاً بلفظ: «أنا وأمتي على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ودَّ أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه». وعند ابن مردويه من حديث كعب قال: «أنا وأمتي على تل».

● ومنها: أن سيماهم في وجوههم من أثر السجود. قال تعالى: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ [الفتح: ٢٩]. وهل هذه العلامة في الدنيا أو في الآخرة؟ قولان:

أحدهما: أنها في الدنيا، قال ابن عباس في رواية ابن أبي طلحة: السمت الحسن. وفي رواية مجاهد: ليست بالتي ترون، هي سمت الإسلام وسيماه وخشوعه. وقيل: الصفرة في الوجه من أثر السهر فتحسبهم مرضى وما هم بمرضى.

والقول الثاني: أنه في الآخرة يعني أن مواضع السجود من وجوههم يكون أشد بياضاً يوم القيامة، يعرفون بتلك العلامة أنهم سجدوا في الدنيا. رواه العوفي عن ابن عباس. وعن شهر بن حوشب[1]: تكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر، وقال عطاء الخراساني[2]: دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس.

● ومنها أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم. رواه أحمد والبزار.

---

إتحاف السادة المتقين ١٧٥/٩ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٤٥٤ ـ ٣٧٩٠٦).

(١) هو شهر بن حوشب الأشعري (٢٠ ـ ١٠٠ هـ). فقيه من رجال الحديث. الأعلام ١٧٨/٣ تهذيب التهذيب ٣٦٩/٤.

(٢) هو عطاء بن مسلم بن ميسرة الخراساني (٥٠ ـ ١٣٥ هـ) في المفسرين. الأعلام ٢٣٥/٤ وشذرات الذهب ١٩٢/١.

● ومنها أن نورهم يسعى بين أيديهم. أخرجه أحمد بإسناد صحيح[1].

● ومنها: أن لهم ما سعوا، وما يسعى لهم، وليس لمن قبلهم إلا ما سعى، قاله عكرمة. وأما قوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩]. ففيها أجوبة:

أحدها: أنها منسوخة، روي ذلك عن ابن عباس، نسخها قوله تعالى: ﴿واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾ [الطور: ٢١]. فجعل الولد الطفل في ميزان أبيه، ويشفع الله الآباء في الأبناء، والأبناء في الآباء، بدليل قوله تعالى: ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾ [النساء: ١١].

الثاني: أنها مخصوصة بالكافر، وأما المؤمن فله ما سعى غيره. قال القرطبي: وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره. وفي الصحيح عن النبي ﷺ «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»[2] وقال ﷺ للذي حج عن غيره « حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة»[3]، وعن عائشة أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه.

وقال سعد للنبي ﷺ: إن أمي توفيت أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم»، قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»[4].

وفي الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر عن عمته أنها حدثته عن جدته: أنها جعلت على نفسها مشياً إلى مسجد قباء فماتت ولم تقضه، فأفتى عبد الله بن عباس: أنها تمشي عنها.

ومن المفسرين من قال: إن «الإنسان» في الآية، أبو جهل، ومنهم من قال: عقبة بن أبي معيط، منهم من قال: الوليد بن المغيرة، ومنهم من قال: إخبار عن شرع من قبلنا، وقد دل شرعنا أن الإنسان له سعيه، وما سعي له، ومنهم من قال: الإنسان بسعيه في الخير

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/١٩٩ والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصيام برقم (١٥٣) والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٢٥٥، والدارقطني في سننه ٢/ ١٩٥ وابن حجر في تعليق التعليق (٦٩٧) وابن عبد البر في التمهيد ٩/٢٨ والزيلعي في نصب الراية ٢/ ٤٦٤ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٣٨٢١).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه برقم (١٨١١) وابن عبد البر في التمهيد ٩/١٣٨، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٤٣ والهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٨٣.

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٦٨٤) والنسائي ٦/ ٢٥٤، ٢٥٥ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٢٨٥ و ٦/ ٧ والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ١٨٥ والحاكم في المستدرك ١/ ٤١٤ والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٩٠ والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٧٣.

وحسن صحبته وعشرته اكتسب الأصحاب، وأسدى لهم الخير وتودد إليهم فصار ثوابهم له بعد موته من سعيه.

ومنهم من قال «الإنسان» في الآية للحي دون الميت. ومنهم من قال: لم ينف في الآية انتفاع الرجل بسعي غيره له، وإنما نفى ملكه لسعي غيره، وبين الأمرين فرق:

فقال الزمخشري في ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩]. فإن قلت: أما صح في الأخبار الصدقة عن الميت والحج عنه؟ قلت: فيه جوابان.

أحدهما: أن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه، وهو أن يكون مؤمناً مصدقاً، كان سعي غيره كأنه سعي نفسه لكونه تبعاً له، وقائماً مقامه.

والثاني: أن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه، ولكن إذا نواه له فهو في حكم الشرع كالنائب عنه، والوكيل القائم مقامه.

والصحيح من الأجوبة: أن قوله: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩]. عام مخصوص بما تقدم من الأجوبة. وقد اختلف العلماء في ثواب القراءة، وهل يصل للميت؟. فذهب الأكثرون إلى المنع، وهو المشهور من مذهب الشافعي ومالك، ونقل عن جماعة من الحنفية.

وقال كثير من الشافعية والحنفية: يصل، وبه قال أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ بعد أن قال: القراءة على القبر بدعة، بل نقل عن الإمام أحمد: يصل إلى الميت كل شيء من صدقة وصلاة وحج واعتكاف وقراءة وذكر غير ذلك.

وذكر الشيخ شمس الدين القطان العسقلاني: أن وصول ثواب القراءة إلى الميت من قريب أو أجنبي هو الصحيح، كما تنفعه الصدقة والدعاء والاستغفار بالإجماع.

وقد أفتى القاضي حسين: بأن الاستئجار لقراءة القرآن على رأس القبر جائز، كالاستئجار للأذان وتعليماً لقرآن.

لكن قال الرافعي وتبعه النووي: عود المنفعة إلى المستأجر شرط في الإجارة، فيجب عود المنفعة في هذه الإجارة إلى المستأجر أو لميته، لكن المستأجر لا ينتفع بأن يقرأ الغير له، ومشهور أن الميت لا يلحقه ثواب القراءة المجردة، فالوجه تنزيل الاستئجار على صورة انتفاع الميت بالقراءة. وذكروا له طريقين:

أحدهما: أن يعقب القراءة بالدعاء للميت، فإن الدعاء يلحقه، والدعاء بعد القراءة أقرب إلى الإجابة وأكثر بركة.

والثاني: ذكر الشيخ عبد الكريم الشالوسي: أنه إن نوى القارىء بقراءته أن يكون ثوابها للميت لم يلحقه، لكن لو قرأ ثم جعل ما حصل من الأجر له، فهذا دعاء بحصول ذلك الأجر للميت فينتفع الميت.

قال النووي في زيادات الروضة: ظاهر كلام القاضي حسين صحة الإجارة مطلقاً وهو المختار، فإن موضع القراءة موضع بركة وتنزل الرحمة. وهذا مقصود: ينتفع الميت.

وقال الرافعي وتبعه النووي في الوصية: الذي يعتاد من قراءة القرآن على رأس القبر قد ذكرنا في باب الإجارة طريقين في عودة فائدتها إلى الميت. وعن القاضي أبي الطيب طريق ثالث: وهو أن الميت كالحي الحاضر، فترجى له الرحمة ووصول البركة إذ أهدى الثواب له القارىء.

وقال الشالوسي: إذا نوى بقراءته أن يكون ثوابها للميت لم يلحقه، إذ جعل ذلك قبل حصوله، وتلاوته عبادة البدن فلا تقع عن الغير، وإن قرأ ثم جعل ما حصل من الثواب للميت ينفعه، إذ قد جعل من الأجر لغيره، والميت يؤجر بدعاء الغير. لكن إطلاق أن الدعاء ينفع الميت، اعترض عليه بعضهم بأنه موقوف على الإجابة. ويمكن أن يقال: الدعاء للميت مستجاب ـ كما أطلقوا ـ اعتماداً على سعة فضل الله.

وقال الرافعي وتبعه النووي: يستوي في الصدقة والدعاء، الوارث والأجنبي. قال الشافعي: وفي وسع الله أن يثيب المتصدق أيضاً.

وقال الأصحاب: يستحب أن ينوي المتصدق الصدقة عن أبويه، فإن الله ينيلهما الثواب ولا ينقص من أجره شيئاً.

وذكر صاحب العدة: أنه لو أنبط عيناً أو حفر بئراً، أو غرس شجراً، أو وقف مصحفاً في حال حياته، أو فعل غيره بعد موته، يلحق الثواب بالميت.

وقال الرافعي والنووي: إن هذه الأمور إذا صدرت عن الحي فهي صدقات جارية يلحقه ثوابها بعد الموت، كما ورد في الخبر، ولا يختص الحكم بوقف المصحف، بل يلحق به كل وقف، وهذا القياس يقتضي جواز التضحية عن الميت، فإنها ضرب من الصدقة، لكن في التهذيب: أنه لا تجوز التضحية عن الغير بغير أمره، وكذا عن الميت إلا أن يكون أوصى به.

وقد روي عن علي أو غيره من الصحابة أنه كان يضحي عن النبي ﷺ بعد موته، وعن أبي محمد بن إسحاق السراج قال: ضحيت عن النبي ﷺ سبعين أضحية.

وأما إهداء القراءة إلى رسول الله ﷺ فلا يعرف فيه خبر ولا أثر، وقد أنكره جماعة

منهم الشيخ برهان الدين بن الفركاح لأن الصحابة لم يفعله أحد منهم.

وحكى صاحب «الروح»: أن من الفقهاء المتأخرين من استحبه، ومنهم من رآه بدعة، قالوا: والنبي ﷺ غني عن ذلك، فإن له أجر كل من عمل خيراً من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء.

قال الشافعي: ما من خير يعمله أحد من أمة النبي ﷺ إلا والنبي ﷺ أصل فيه.

قال في تحقيق النصرة: فجميع حسنات المسلمين وأعمالهم الصالحة في صحائف نبينا ﷺ زيادة على ما له من الأجر، مع مضاعفة لا يحصرها إلا الله تعالى، لأن كل مهتد وعامل إلى يوم القيامة يحصل له أجر، ويتجدد لشيخه مثل ذلك الأجر ولشيخ شيخه مثلاه، وللشيخ الثالث أربعة، وللرابع ثمانية وهكذا تضعيف كل مرتبة بعدد الأجور الحاصلة بعده الى النبي ﷺ.

وبهذا يعلم تفضيل السلف على الخلف. فإذا فرضت المراتب عشرة بعد النبي ﷺ، كان للنبي ﷺ من الأجر ألف وأربعة وعشرون، فإن اهتدى بالعاشر حادي عشر صار أجر النبي ﷺ ألفين وثمانية وأربعون، وهكذا كلما ازداد واحد يضاعف ما كان قبله أبداً، كما قال بعض المحققين، انتهى. ولله در القائل، وهو سيدي محمد وفا:

فلا حسن إلا من محاسن حسنه ... ولا محسن إلا له حسناته

وبهذا يجاب عن استشكال دعاء القارىء له ﷺ بزيادة التشريف مع العلم بكماله عليه الصلاة والسلام في سائر أنواع الشرف. فكأن الداعي لحظ أن قبول قراءته يتضمن لمعلمه نظير أجره، وهكذا حتى يكون للمعلم الأول ـ وهو الشارع ﷺ ـ نظير جميع ذلك.

ومن ذلك ما شرع عند رؤية الكعبة من قولهم: اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً، فثمرة الدعاء بذلك عائدة إلى الداعي، لاشتماله على طلب قبول القراءة، وهذا كما قالوا في الصلاة عليه ـ زاده شرفاً لديه ـ إن ثمرتها عائدة على المصلي، أشار لنحوه الحافظ ابن حجر.

● ومن خصائص هذه الأمة أنهم يدخلون الجنة قبل سائر الأمم. رواه الطبراني ـ في الأوسط ـ من حديث عمر بن الخطاب مرفوعاً: «حرمت الجنة على الأنبياء حتى أدخلها، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي»[1].

● ومنها: أنه يدخل منهم الجنة سبعون ألفاً بغير حساب رواه الشيخان، وعند

---

(١) الحديث في تذكرة الموضوعات للفتني (٢١٥) وفي كنز العمال (٣٢٠٤٩).

الطبراني والبيهقي في الشعب: «إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفاً لا حساب عليهم، وإني سألت ربي المزيد فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً»[1].

وبالجملة: فقد اختصت هذه الأمة بما لم يعطه غيرها من الأمم تكرمة لنبيها ﷺ وزيادة في شرفه، وتفصيل فضلها وخصائصها يستدعي سفراً بل أسفاراً، وذلك فضل الله، يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/٥٦٧ والطبراني في المعجم الكبير ١٧/١٢٧ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢١٠٤ ـ ٣٢١٠٦).

# الإسراء والمعراج

المقصد الخامس: في تخصيصه ﷺ بخصائص المعراج والإسراء، وتعميمه بلطائف التكريم في حضرة التقريب بالمكالمة والمشاهدة والآيات الكبرى.

اعلم ـ منحني الله وإياك الترقي في معارج السعادات، وأوصلنا به إليه في حظائر الكرامات ـ أن قصة الإسراء والمعراج من أشهر المعجزات، وأظهر البراهين البينات، وأقوى الحجج المحكمات، وأصدق الأنباء، وأعظم الآيات، وأتم الدلالات الدالة على تخصيصه ﷺ بعموم الكرامات.

وقد اختلف العلماء في الإسراء هل هو إسراء واحد في ليلة واحدة؟ يقظة أو مناماً؟ أو إسراءان كل واحد في ليلة، مرة بروحه وبدنه يقظة، ومرة مناماً، أو يقظة بروحه وجسده؟ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم مناماً من المسجد الأقصى إلى العرش، أو هي أربع إسراءات؟

● احتج القائلون بأنه رؤيا منام ـ مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء وحي ـ بقوله تعالى: ﴿وما جعلنا الرُّءيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ [الإسراء: ٦٠]، لأن الرؤيا مصدر الحُلميَّة، وأما البصرية: فالرؤية بالتاء، وقد أنكر ابن مالك والحريري وغيرهما ـ كما أفاده الشيخ بدر الدين الزركشي ـ ورود «الرؤيا» للبصرية، ولحنوا المتنبي في قوله:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

وأجيب: بأنه إنما قال «الرؤيا» لوقوع ذلك في الليل، وسرعة تقضيه كأنه منام، وبأن «الرؤيا» و «الرؤية» واحدة كقربى وقربة، ويشهد له قول ابن عباس في الآية ـ كما عند البخاري ـ: هي رؤيا عين أريها ﷺ ليلة أسري به. وزاد سعيد بن منصور عن سفيان في آخر الحديث: وليس رؤيا منام. ولم يصرح في رواية البخاري بالمرئي.

وعند سعيد بن منصور أيضاً من طريق أبي مالك قال: هو ما أري في طريقه إلى بيت المقدس وهذا مما يستدل به على إطلاق لفظ «الرؤيا» على ما يرى بالعين في اليقظة.

وهو يرد على من خطأ المتنبي. على أنه اختلف المفسرون في هذه الآية، فقيل: أي الرؤيا التي أريناك ليلة المعراج. قال البيضاوي ففسر الرؤيا بالرؤية. وقيل: رؤيا عام الحديبية، حين رأى أنه دخل مكة فصده المشركون وافتتن بذلك ناس. وقيل: رؤيا وقعة بدر. وسأل ابن النقيب شيخه أبا العباس القرطبي[1] عن الآية فقال: الصحيح أنها رؤية عين يقظة، أراه جبريل مصارع القوم ببدر، فأري النبي ﷺ الناس مصارعهم التي أراه جبريل، فتسامعت به قريش واستسخروا منه. انتهى.

● واحتج القائلون بأنه رؤيا منام أيضاً بقول عائشة: «ما فقدت جسده الشريف».

وأجيب: بأن عائشة لم تحدث به عن مشاهدة، لأنها لم تكن إذ ذاك زوجاً، ولا في سن من يضبط، أو لم تكن ولدت بعد على الخلاف في الإسراء متى كان. وقال التفتازاني: أي ما فقد جسده عن الروح، بل كان مع روحه، وكان المعراج للجسد والروح جميعاً. انتهى.

● واحتج القائلون بأنه بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، بقوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ [الإسراء: ١]، فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجب به بعظيم القدرة، والتمدح بتشريف النبي ﷺ به، وإظهار الكرامة له بالإسراء. قالوا: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ بالمدح.

وأجيب: بأن حكمة التخصيص بالمسجد الأقصى سؤال قريش له عنه على سبيل الامتحان عما شاهدوه وعرفوه من صفة بيت المقدس، وقد علموا أنه لم يسافر إليه، فيجيبهم بما عاين ويوافق ما يعلمونه، فتقوم الحجة عليهم، وكذلك وقع، ولهذا لم يسألوه عما رأى في السماء، إذ لا عهد لهم بذلك. وقال النووي في فتاويه: وكان الإسراء به ﷺ مرتين: مرة في المنام، ومرة في اليقظة.

وذكر السهيلي تصحيح هذا المذهب عن شيخه القاضي أبي بكر ابن العربي، وأن مرة النوم توطئة له وتيسير عليه، كما كان بدء نبوته الرؤيا الصادقة ليسهل عليه أمر النبوة، فإنه أمر عظيم تضعف عنه القوى البشرية، وكذلك الإسراء قد سهله الله عليه بالرؤيا، لأن هوله عظيم، فجاء في اليقظة على توطئة وتقدمة، رفقاً من الله بعبده وتسهيلاً عليه.

وقد جوز بعض قائلي ذلك أن تكون قصة المنام قبل المبعث، لأجل قول شريك

---

(١) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم أبو العباس الأنصاري القرطبي (٥٧٨ ـ ٦٥٦ هـ) فقيه محدث يعرف بابن المزين توفي بالإسكندرية. الاعلام ١/ ١٨٦ نفح الطيب ٢/ ٦٤٣.

في رواية: «وذلك قبل أن يوحى إليه». واستشهدوا له بقول عائشة رضي الله عنها: أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلى جاءت كفلق الصبح[1] وسيأتي البحث في ذلك إن شاء الله تعالى.

● واحتج القائلون بأنه أربع إسراءات يقظة بتعدد الروايات في الإسراء، واختلاف ما يذكر فيها، فبعضهم يذكر شيئاً لم يذكره الآخر، وبعضهم يسقط شيئاً ذكره الآخر.

وأجيب: بأنه لا يدل على التعدد، لأن بعض الرواة قد يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه. وقال الحافظ ابن كثير: من جعل كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب، ولم يحصل على مطلب. ولم ينقل ذلك عن أحد من السلف. ولو تعدد هذا التعدد لأخبر ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرار. انتهى.

وقد وقع في رواية عبثر بن القاسم - بموحدة ثم مثلثة بوزن جعفر - في رواية عن حصين بن عبد الرحمن، عند الترمذي والنسائي: لما أسري برسول الله ﷺ جعل يمر بالنبي ومعه الواحد ، الحديث . فإن كان ذلك محفوظاً كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء، وأن الذي وقع بالمدينة أيضاً غير الذي وقع بمكة.

قال في فتح الباري: والذي يتحرر في هذه المسألة أن الإسراء الذي وقع بالمدينة ليس فيه ما وقع بمكة، من استفتاح أبواب السماء باباً باباً، ومن التقاء الأنبياء كل واحد في سماء، ولا المراجعة معهم، ولا المراجعة مع موسى فيما يتعلق بفرض الصلاة، ولا في طلب تخفيفها وسائر ما يتعلق بذلك. وإنما تكررت قضايا كثيرة سوى ذلك رآها ﷺ فمنها بمكة البعض، ومنها بالمدينة بعد الهجرة البعض، ومعظمها في المنام والله أعلم. انتهى.

وقال بعض العارفين: إن له ﷺ أربعة وثلاثين مرة، الذي أسري به منها إسراء واحد بجسمه، والباقي بروحه رؤيا رآها. انتهى. فالحق: أنه إسراء واحد، بروحه وجسده يقظة، في القصة كلها. إلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله. قال الرازي: قال أهل التحقيق: الذي يدل على أنه تعالى أسرى بروح محمد ﷺ وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن والخبر: أما القرآن فهو

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (٣) رقم الحديث (٤٩٥٦) ومسلم كتاب الايمان رقم (٢٥٢ - ٢٥٤) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١٥٣/٦ و ٢٣٢.

قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ [الإسـراء: ١]، وتقرير الدليل: أن «العبد» اسم للجسد والروح، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً بجميع الجسد والروح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾[العلق: ٩-١٠] ولا شك أن المراد هنا مجموع الروح والجسد، وأيضاً: قال سبحانه وتعالى في سورة الجن: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ [الجن: ١٩]، والمراد: مجموع الروح والجسد وكذا هاهنا، انتهى.

واحتجوا أيضاً: بظاهر قوله ﷺ: «أسري بي» لأن الأصل في الأفعال أن تحمل على اليقظة حتى يدل دليل على خلافه. وبأن ذلك لو كان مناماً لما كان فيه فتنة للضعفاء، ولا استبعده الأغبياء. وبأن الدواب لا تحمل الأرواح وإنما تحمل الأجسام، وقد تواترت الأخبار بأنه أسري به على البراق. فإن قلت: ما الحكمة في كونه تعالى جعل الإسراء ليلاً؟

أجيب: بأنه إنما جعله ليلاً تمكيناً للتخصيص بمقام المحبة، لأنه تعالى اتخذه ﷺ حبيباً وخليلاً، والليل أخص زمان للمحبين لجمعهما فيه، والخلوة بالحبيب متحققة بالليل[1]. قال ابن المنير: ولعل تخصيص الإسراء بالليل ليزداد الذين آمنوا إيماناً بالغيب وليفتتن الذين كفروا زيادة على فتنتهم. إذ الليل أخفى حالاً من النهار، قال: ولعله لو عرج به نهاراً لفات المؤمن فضيلة الإيمان بالغيب، ولم يحصل ما وقع من الفتنة على من شقي وجحد، انتهى.

وفي ذلك حكمة أخرى على طريقة أهل الإشارات، ذكرها العلامة ابن مرزوق، وهي: أنه قيل لأن الله تعالى لما محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر قلب الليل، فجبر بأن أسري فيه بمحمد ﷺ. وقيل: افتخر النهار على الليل بالشمس فقيل له: لا تفتخر، إن كانت شمس الدنيا تشرق فيك فسيعرج شمس الوجود في الليل إلى السماء. وقيل: لأنه ﷺ سراج، والسراج إنما يوقد بالليل، وأنشد:

قلـــت يـــا سـيـــدي تـــؤثـــر الليـــــل على بهجـــة النهـــار المنيـــر
قـــال لا أستطيـــع تغييـــر رسمـــي هكـــذا الـــرسـم فـــي طلـــوع البـــدور
إنمـــا زرت فـــي الظـــلام لكيمـــا يشـــرق الليـــل مـــن أشعـــة نـــوري

فإن قلت: أيما أفضل، ليلة الإسراء أو ليلة القدر؟ فالجواب: ـ كما قاله الشيخ أبو أمامة بن النقاش ـ أن ليلة الإسراء أفضل في حق النبي ﷺ، وليلة القدر أفضل في حق

---

(١) هذا التعليل غير مقنع كما أنه لا يليق بالله عز وجل فإنه تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾.

الأمة، لأنها لهم خير من عمل في ثمانين سنة لمن قبلهم، وأما ليلة الإسراء فلم يأت في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف. ولذلك لم يعينها النبي ﷺ لأصحابه، ولا عينها أحد من الصحابة بإسناد صحيح، ولا صح إلى الآن ولا إلى أن تقوم الساعة فيها شيء، ومن قال فيها شيئاً فإنما قاله من كيسه لمرجح ظهر له استأنس به، ولهذا تصادمت الأقوال فيها وتباينت، ولم يثبت الأمر فيها على شيء، ولو تعلق بها نفع للأمة ـ ولو بذرة ـ لبينه لهم نبيهم ﷺ، انتهى.

فإن قلت: هل وقع الإسراء لغيره ﷺ من الأنبياء؟ أجاب العارف عبد العزيز المهدوي: بأن مرتبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العلية لم تكن لأحد من الأنبياء، إلا لنبينا ﷺ. انتهى.

وإنما قال تعالى: ﴿أسرى بعبده﴾ [الإسراء: ١] إشارة إلى أنه تعالى هو المسافر به، ليعلم أن الإسراء من عنده عز وجل هبة إلهية، وعناية ربانية، سبقت له ﷺ مما لم يخطر بسره، ولا اختلج في ضميره.

وأدخل «باء» المصاحبة في قوله تعالى: ﴿بعبده﴾ [الإسراء: ١] ليفيد أنه تعالى صحبه في مسراه، صحبة بالألطاف والعناية والإسعاف والرعاية، ويشهد له قوله ﷺ: «اللهم أنت الصاحب في السفر»[1].

وتأمل قوله تعالى: ﴿يسيركم في البر والبحر﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله ﴿أسرى بعبده﴾ [الإسراء: ١] يلح لك خصوصية مصاحبة الرسول ﷺ للحق دون عموم الخلق.

وقرن سبحانه وتعالى «التسبيح» بهذا المسرى، لينفي بذلك عن قلب صاحب الوهم ومن يحكم عليه خياله من أهل التشبيه والتجسيم ما يتخيله في حق الحق تعالى من الجهة والحد والمكان، ولذا قال: ﴿لنريه من آياتنا﴾ [الإسراء: ١] يعنى ما رأى في تلك الليلة من عجائب الآيات، كأنه تعالى يقول: ما أسريت به إلا لنريه الآيات، لا «إلي» فإنه لا يحدني مكان، ونسبة الأمكنة إلي نسبة واحدة، فكيف أسري به إلي، وأنا عنده، وأنا معه أينما كان. ولله در القائل:

سبحان من أسرى إليه بعبده ... ليرى الذي أخفاه من آياته
كحضوره في غيبه وكسكره ... في صحوه والمحو في إثباته

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٥٩٨) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/٢٥٦ و ٥/٨٣ والحاكم في المستدرك ٢/٩٩ والبيهقي في السنن الكبرى ٥/٢٥٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٢٩ وفي موارد الظمآن (٢٣٥٠) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٥ ـ ١٧٦١٦ ـ ١٧٦٣٦).

ويـــرى الـــذي عنـــه تكـــون ســـره فـــي صنعـــه إن شـــاءه وهبـــاتـــه
ويـــريـــه مـــا أســدى لـــه مـــن جـــوده بـــوجـــوده والفقـــد مـــن هيئـــآتـــه
سبحـــانـــه مـــن سيـــد ومهيمـــن فـــي ذاتـــه وسمـــاتـــه وصفـــاتـــه

وأكده تعالى بقوله: ﴿ليلاً﴾ [الإسراء: ١] مع أن الإسراء لا يكون في اللسان العربي إلا ليلاً، لا نهاراً، ليرتفع الإشكال حتى لا يتخيل أنه أسري بروحه فقط، ويزيل من خاطر من يعتقد أن الإسراء ربما يكون نهاراً، فإن القرآن ـ وإن كان نزل بلغة العرب ـ فإنه خاطب به الناس أجمعين، أصحاب اللسان وغيرهم.

وقال البيضاوي تبعاً لصاحب الكشاف: وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء، ولذلك قرىء «من الليل» أي بعضه: كقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ [الإسراء: ٧٩] وتعقبه القطب في حاشيته على الكشاف كما نبهت عليه في حاشية الشفاء.

والمعاريج ليلة الإسراء عشرة، سبع إلى السماوات، والثامن إلى سدرة المنتهى. والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف الأقدار، والعاشر إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة والكشف الحقيقي.

وقد وقع له ﷺ في سني الهجرة العشرة ما كان فيه مناسبات لطيفة لهذه المعاريج العشرة، ولهذا ختمت سني الهجرة بالوفاة، وهي لقاء الحق جل جلاله، والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق، وإلى الموعد الحق وإلى الوسيلة، وهي المنزلة الرفيعة. كما ختمت معاريج الإسراء باللقاء والحضور بحظيرة القدس.

وقد أفاد الإمام الذهبي أن الحافظ عبد الغني جمع أحاديث الإسراء في جزأين، ولم يتيسر لي الوقوف عليهما بعد الفحص. وقد صنف الشيخ أبو إسحاق النعماني ـ رحمه الله ـ في الإسراء والمعراج كتاباً جامعاً للأطناب بزيادة الرقائق والإشحان بفواضل الحقائق، ولم أقف عليه حالة كتابتي هذا المقصد الشريف.

ويرحم الله تعالى شيخ الإسلام والحفاظ الشهاب ابن حجر العسقلاني، فإنه قد جمع في كتابه "الفتح» كثيراً مما تشتت من طرق حديث الإسراء وغيره من الأحاديث، مع تدقيق مباحث فقهية، والكشف عن أسرار معاني كلمه وبدائع ألفاظه وحكمه. وكل من صنف في شيء من المنح النبوية، والمناقب المحمدية لا يستغني عن استجناء معارف اللطائف من رياض «عياض» والاستشفاء من أدواء المشكلات بدواء «شفائه» المبرىء

لمعضل الأمراض[1]. فالله تعالى يفيض عليه وعلى سائر علماء هذه الأمة سجال رحمته ورضوانه ويسكننا معهم في بحبوحة جناته.

وقد وردت أحاديث الإسراء من حديث أنس، وأبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وبريدة، وسمرة بن جندب، وابن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وابن عمرو، وحذيفة ابن اليمان، وشداد بن أوس، وصهيب، وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، ومالك ابن صعصعة، وأبي أمامة، وأبي أيوب، وأبي حبة، وأبي ذر، وأبي سعيد الخدري، وأبي سفيان بن حرب، وأبي هريرة، وعائشة، وأسماء بنت أبي بكر، وأم هانىء، وأم سلمة، وغيرهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وفي تفسير الحافظ ابن كثير من ذلك ما يكفي ويشفي. وبالجملة: فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة الملحدون، ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ [الصف: ٨].

وقد روى البخاري، عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به [قال]:

(بينما أنا نائم في الحطيم ـ وربما قال: في الحِجر ـ مضطجعاً، إذ أتاني آت فقدَّ ـ قال: سمعته يقول: فشق ـ ما بين هذه إلى هذه. قال: فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته. فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد.

ثم أتيت بدابة، دون البغل وفوق الحمار أبيض ـ فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم ـ يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح لنا، فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/١٧٦.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، فقال: مرحباً بالإبن الصالح والنبي الصالح.

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات.

ثم رفع إلي البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فاخترت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك.

ثم فرضت علي الصلاة، خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال: فقلت أمرت بخمسين، صلاة كل يوم، قال: أن أمتك لا تسطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضىٰ وأسلم. قال: فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي)[١].

وفي رواية له: (ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري ثم أطبقه)[٢].

وفي رواية شريك: (فحشا به صدره ولغاديده)[٣] وهي بلام مفتوحة وغين معجمة، أي عروق حلقه، وفي النهاية: جمع لغدوده: وهي لحمة مشرفة عند اللهاة.

والشك في قوله: «ربما قال في الحجر» من قتادة، كما بينه أحمد عن عفان، ولفظه: (بينما أنا في الحطيم، وربما قال قتادة: في الحجر). والمراد بالحطيم هنا: الحجر.

ووقع عند البخاري في أول بدء الخلق بلفظ (بينما أنا عند البيت)[٤] وهو أعم. وفي رواة الزهري عن أنس عن أبي ذر (فرج سقف بيتي وأنا بمكة)[٥]. وفي رواية الواقدي بأسانيده: أنه أسري به من شعب أبي طالب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب (٤٢) رقم الحديث (٣٨٨٧) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٢٠٨ وابن عبد البر في التمهيد ٣٨/٨ والبغوي في شرح السنة ٣٣٧/١٣ والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٤٠ والبيهقي في دلائله ٢/ ٣٧٧ وابن الجوزي في المنتظم ٢٦/٣ وابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ١١٤.

(٢) الحديث في البخاري برقم (٣٤٩).

(٣) أيضاً الحديث في البخاري برقم (٧٥١٧).

(٤) الحديث في البخاري برقم (٣٢٠٧).

(٥) فى البخاري برقم (٣٤٩).

وفي حديث أم هانىء ـ عند الطبراني ـ أنه بات في بيتها، قالت: ففقدته من الليل، فقال: «إن جبريل أتاني».

والجمع بين هذه الأقوال ـ كما في فتح الباري ـ أنه بات في بيت أم هانىء، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته، وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه، فنزل منه الملك فأخرجه من البيت إلى المسجد، فكان به مضطجعًا وبه أثر النعاس، ثم أخذه الملك فأخرجه من المسجد، فأركبه البراق. قال: وقد وقع في مرسل الحسن عند ابن إسحاق أن جبريل أتاه فأخرجه إلى المسجد فأركبه البراق، وهو يؤيد هذا الجمع.

فإن قيل: لم فرج سقف بيته ﷺ ونزل منه الملك، ولمَ لم يدخل عليه من الباب، مع قوله تعالى: ﴿وائتوا البيوت من أبوابها﴾ [البقرة: ١٨٩].

أجيب: بأن الحكمة من ذلك أن الملك أنصب من السماء انصبابة واحدة، ولم يعرج على شيء سواه، مبالغة في المفاجأة، وتنبيهًا له على أن الطلب وقع على غير ميعاد، كرامة له ﷺ.

وهذا بخلاف موسى عليه الصلاة والسلام، فكانت كرامته بالمناجاة عن ميعاد واستعداد بخلاف نبينا ﷺ فإنه حمل عنه ألم الإنتظار، كما حمل عنه ألم الإعتذار. ويؤخذ من هذا: أن مقام نبينا ﷺ بالنسبة إلى مقام موسى عليه السلام مقام المراد بالنسبة إلى مقام المريد. ويحتمل أن يكون توطئة وتمهيداً لكونه فرج عن صدره، فأراه الملك بإفراجه عن السقف ثم التأم السقف على الفور كيفية ما يصنع به، وقرب له الأمر في نفسه بالمثال المشاهد في بيته، لطفاً في حقه ﷺ وتثبيتاً لصبره، والله أعلم.

● وقوله: (مضطجعاً) زاد في بدء الخلق (بين النائم واليقظان) وهو محمول على ابتداء الحال، ثم لما خرج به إلى باب المسجد فأركبه البراق، استمر في يقظته.

● وأما ما وقع في رواية شريك عنده أيضاً (فلما استيقظت) فإن قلنا بالتعدد فلا إشكال، وإلا حمل على أن المراد استيقظت: أفقت، يعني أنه أفاق مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة الملكوت ورجع إلى العالم الدنيوي، فالمراد: الإفاقة البشرية من الغمرة الملكية.

● وقوله: (إذ أتاني آت) هو جبريل عليه السلام، وفي رواية شريك (أنه جاءه ثلاثة نفر، قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ قال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم وكانت تلك الليلة ـ أي كانت القصة الواقعه تلك الليلة ما ذكر هنا ـ فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه

ولا ينـام قلبـه، وكـذلـك الأنبيـاء تنـام أعينهـم ولا تنـام قلـوبهـم فلـم يكلمـوه حتـى احتملوه. . .).

وقد أنكر الخطابي قوله: (قبل أن يوحى إليه) وكذا القاضي عياض والنووي، وعبارة النووي: وقع في رواية شريك ـ يعني هذه ـ أوهام أنكرها العلماء، أحدها قوله: (قبل أن يوحى إليه) وهو غلط فلم يوافق عليه، وأجمع العلماء على أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء، فكيف يكون قبل الوحي. انتهى. فقد صرح هؤلاء بأن شريكاً تفرد بذلك.

لكن قال الحافظ ابن حجر: في دعوى التفرد نظر، فقد وافقه كثير بن خنيس ـ بالمعجمة ونون مصغراً ـ عن أنس، كما أخرجه سعيد بـن يحيى بن سعيد الأموي في كتاب المغازي له من طريقه. قال: ولم يقع التعيين بين المجيئين، فيحمل على أن المجيء الثاني كان بعد الوحي، وحينئذٍ وقع الإسراء والمعراج. وإذا كان بين المجيئين مدة فلا فرق بين أن تكون تلك المدة ليلة واحدة أو ليالي أو عدد سنين وبهذا يرتفع الإشكال من رواية شريك، ويحصل به الوفاق أن الإسراء كان في اليقظة بعد البعثة وقبل الهجرة وسقط تشنيع الخطابي وغيره بأن شريكاً خالف الإجماع في دعواه أن المعراج كان قبل البعثة، وأقوى ما يستدل به على أن المعراج كان بعد البعثة، قوله في هذا الحديث نفسه: أن جبريل قال لبواب السماء إذ قال له: أبعث؟ قال: نعم، فإنه ظاهر في أن المعراج كان بعد البعثة.

● ووقع في رواية ميمون بن سياه ـ عند الطبراني ـ: فأتاه جبريل وميكائيل، فقالا: أيهم؟ وكانت قريش ينام حول الكعبة، فقال: أمرنا بسيدهم، ثم ذهبا، ثم جاؤوه وهم ثلاثة. وفي رواية مسلم: سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت فانطلق بي. والمراد بالرجلين: حمزة وجعفر وكان النبي ﷺ نائماً بينهما.

● وقوله: «فقد» بالقاف والدال المهملة الثقيلة. «من ثغره» بضم المثلثة وسكون الغين المعجمة، وهو الموضع المنخفض الذي بين الترقوتين. «إلى شعرته» بكسر الشين المعجمة، أي شعر العانة الشريفة. وفي رواية مسلم: إلى أسفل بطنه. وفي رواية البخاري: إلى مراق البطن. وفي رواية شريك ـ عنده ـ: فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته ـ بفتح اللام وتشديد الموحدة ـ وهو موضع القلادة من الصدر.

وقد أنكر القاضي عياض في «الشفاء» وقوع شق صدره الشريف ليلة الإسراء، وقال: إنما كان وهو صبي قبل الوحي في بني سعد. ولا إنكار في ذلك ـ كما قاله الحافظ أبو الفضل العسقلاني رحمه الله ـ فقد تواترت الروايات به، وثبت شق الصدر أيضاً عند البعثة، كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل، ولكل منها حكمة:

فالأول: وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس: فأخرج علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك. وكان هذا في زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان. ولعل هذا الشق كان سبباً في إسلام قرينه المروي عند البزار من حديث ابن عباس. ويحتمل أن يكون إشارة إلى حظ الشيطان المباين كالعفريت الذي أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه.

وأما شق الصدر عند المبعث، فلزيادة الكرامة، وليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي على أكمل الأحوال من التطهير.

وأما شقه عند إرادة العروج إلى السماء، فللتهيؤ للترقي إلى الملأ الأعلى، والثبوت في المقام الأسنىٰ، والتقوي لاستجلاء الأسماء الحسنىٰ، ولهذا لما لم يتفق لموسى عليه الصلاة والسلام مثل هذا التهيؤ لم تتفق له الرؤية، وكيف يثبت الرجل لما لا يثبت له الجبل؟! ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل، لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة، كما تقرر في شرعه ﷺ. ثم إن جميع ما ورد من شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك.

قال العارف ابن أبي جمرة: فيه دليل على أن قدرة الله عز وجل لا يعجزها ممكن، ولا تتوقف لعدم شيء ولا لوجوده، وليست مربوطة بالعادة إلا حيث شاءته القدرة، لأنه ما يعهد ويعرف أن البشر مهما شق بطنه كله وانجرح القلب مات ولم يعش، وهذا النبي ﷺ قد شق بطنه المكرمة، حتى أخرج القلب فغسل، وقد شق بطنه كذلك أيضاً وهو صغير وشق قلبه وأخرجت منه نزغة الشيطان. ومعلوم أن القلب هما وصل له الجرح مات صاحبه، وهذا النبي ﷺ شق بطنه في هاتين المرتين، ولم يتألم بذلك، ولم يمت لما أن أراد الله تعالى أن لا يؤثر ما أجرى به العادة، أن يؤثر موت صاحبها، فأبطل تلك العادة. وقد رمي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار فلم تحرقه، وكانت عليه برداً وسلاماً. انتهى.

وقد حصل من شق صدره الكريم إكرامه ﷺ بتحقيق ما أوتي من الصبر، فهو من جنس ما أكرم به إسماعيل الذبيح بتحقيق صبره على مقدمات الذبح شداً وكتفاً وتلاً للجبين، وإهواء بالمدية إلى المنجر فقال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [الصافات: ١٠٢]، ووفى بما وعد الله، فأكرمه الله بالثناء على صبره إلى الأبد.

ولا مرية أن الذي حصل من صبر نبينا ﷺ على شق الصدر أشق وأجل، لأن تلك مقدمات وهذه نتيجة، وتلك معاريض وهذه حقيقة، والمنحر مقتل وما أصابه من

إسماعيل إلا صورة القتل لا فعله، وشق صدر نبينا ﷺ واستخراج قلبه ثم شقه ثم كذا ثم كذا مقاتل عديدة وقعت كلها، ولكن انخرقت العادة ببقاء الحياة، فهذا الإبتلاء أعظم من ابتلاء الذبيح بما ذكر.

فإن قلت: إنما يتحقق الصبر لو كان هناك مشقة، فلعل العادة لما انخرقت في إبقاء الحياة انخرقت في رفع المشاق وحمل الآلام.

أجيب بأنه ورد في حديث شق صدره: فأقبل وهو منتقع اللون أو ممتقع اللون، بالميم بدل النون، وهو يدل على أن الصبر على مشقة المعاجلة المذكورة محقق. قال القاضي عياض: وأصل «انتقع» صار كلون النقع، والنقع الغبار، وهو شبيه بلون الأموات، وهذا يدل على غاية المشقة. وأما قول ابن الجوزي: فشقه وما شق عليه، فيحمل على أنه صبر صبر من لا يشق عليه. انتهى.

وكذلك الإبتلاء أيضاً من حيث السن، فإن ذلك وقع لنبينا ﷺ بعيد ما فطم، وأيضاً: فإنه كان منفرداً عن أمه ويتيماً من أبيه، واختطف من بين الأطفال، وفعل به ما فعل من الأفعال تسهيلا لما يلقاه في المآل، وتعظيماً لما يناله على الصبر من الثواب والثناء، ولهذا لما شج وجرح وكسرت رباعيته قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[(1)]، زاده الله شرفاً. وقوله «ثم أتيت بطست من ذهب» إنما أتي بالطست لأنه أشهر آلات الغسل عرفًا.

فإن قلت: إن استعمال الذهب حرام في شرعه ﷺ فكيف استعمل الطست الذهب هنا؟

أجاب العارف ابن أبي جمرة: بأن تحريم الذهب إنما هو لأجل الإستمتاع به في هذه الدار، وأما في الآخرة فهو للمؤمنين خالصاً، لقوله ﷺ: «هو لهم في الدنيا وهو لنا في الآخرة» قال: ثم إن الإستمتاع بهذا الطست لم يحصل منه ﷺ وإنما كان غيره هو السائق له والمتناول لما كان فيه حتى وضعه في القلب المبارك. فسوقان الطست المبارك من هناك، وكونه كان من ذهب دال على ترفيع المقام فانتفى التعارض بدليل ما قررناه. انتهى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٤٤١ والطحاوي في مشكل الآثار ٣/ ١٨٩ والعراقي في المغني ١/ ٣١٣ ٣/ ٦٨ و ٢٨٣ والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٩٥ والطبراني في المعجم الكبير ٦/ ١٤٦ والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٤ و ٧/ ٩٣ والقاضي عياض في الشفاء ١/ ١٠٥ والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢١٥ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٩٨٨٣ ـ ٣٥٥٦٣).

وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأنه لا يكفي أن يقال: إن المستعمل له ممن لم يحرم عليه ذلك من الملائكة، لأنه لو كان قد حرم عليه استعماله لنزه أن يستعمله غيره في أمر يتعلق ببدنه المكرم. ويمكن أن يقال: إن تحريم استعماله مخصوص بأحوال الدنيا، ما وقع في تلك الليلة كان الغالب أنه من أحوال الغيب، فيلحق بأحوال الآخرة، أو لعل ذلك قبل أن يحرم استعمال الذهب في هذه الشريعة. ويظهر ها هنا مناسبات: منها أنه من أواني الجنة، ومنها أنه لا تأكله النار ولا التراب، وأنه لا يلحقه الصدأ، ومنها أنه أثقل الجواهر فناسب قلبه ﷺ لأنه من أواني أحوال الجنة، ولا تأكله النار ولا التراب، وإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، ولا يلحقه الصدأ، وأنه أثقل من كل قلب عدل به، وفيه مناسبة أخرى وهي ثقل الوحي فيه. انتهى.

قلت: قوله: «ولعل ذلك قبل أن يحرم استعمال الذهب في هذه الشريعة». قد جزم هو في أول الصلاة من كتابه فتح الباري: بأن تحريم الذهب إنما وقع بالمدينة. وقال السهيلي وابن دحية: إن نظر إلى لفظ الذهب ناسب من جهة إذهاب الرجس عنه ولكونه عند الذهاب إلى ربه، وإن نظر إلى معناه، فلوضاءته ونقائه وصفائه. انتهى. والمراد بقوله: (ملىء حكمة وإيماناً) أن الطست جعل فيها شيء يحصل به كمال الإيمان والحكمة، فسمي حكمة وإيماناً مجازاً. ويحتمل أن يكون على حقيقته، وتجسد المعاني جائز، كما أن سورة البقرة تجيء يوم القيامة كأنها ظلة، والموت في صورة كبش، وكذلك وزن الأعمال وغير ذلك. وقال البيضاوي: لعل ذلك من باب التمثيل، إذ تمثيل المعاني قد وقع كثيراً، كما مثلت له ﷺ الجنة والنار في عرض الحائط، وفائدته كشف المعنوي بالمحسوس.

وقال العارف ابن أبي جمرة: فيه دليل على أن الإيمان والحكمة جواهر محسوسات لا معاني، لأنه ﷺ قال عن الطست: إنه أتي به مملوءاً إيماناً وحكمة، ولا يقع الخطاب إلا على ما يفهم ويعرف، والمعاني ليس لها أجسام حتى تملأ، وإنما يمتلىء الإناء بالإجسام والجواهر، وهذا نص من الشارع ﷺ بضد ما ذهب إليه المتكلمون في قولهم: إن الإيمان والحكمة أعراض.

والجمع بين الحديث وما ذهبوا إليه، هو أن حقيقة أعيان المخلوقات التي ليس للحواس فيها إدراك، ولا من النبوة إخبار عن حقيقتها غير محققة، وإنما هي غلبة ظن، لأن للعقل - بالإجماع من أهل العقل المؤيدين بالتوفيق - حداً يقف عنده، ولا يتسلط فيما عدا ذلك، ولا يقدر أن يصل إليه، فهذا وما أشبهه منها، لأنهم تكلموا على ما ظهر لهم من الأعراض الصادرة عن هذه الجواهر التي ذكرها الشارع ﷺ في الحديث، ولم

يكن للعقل قدرة أن يصل إلى هذه الحقيقة التي أخبر بها ﷺ. فيكون الجمع بينهما أن يقال: ما قاله المتكلمون حق لأنه الصادر عن الجواهر وهو الذي يدرك بالعقل. والحقيقة ما ذكره ﷺ في الحديث.

ولهذا نظائر كثيرة بين المتكلمين وآثار النبوة، ويقع الجمع بينهما على الأسلوب الذي قررناه وما أشبهه. ثم مثل بمجيء الموت في هيئة كبش أملح، ثم بالأذكار والتلاوة، ثم قال: لأن ما ظهر منها هنا معان، وتوجد يوم القيامة جواهر محسوسات لأنها توزن، ولا يوزن في الميزان إلا الجواهر.

قال: وفي ذلك دليل لأهل الصوفية وأصحاب المعاملات[1] والتحقيق القائلين بأنهم يرون قلوبهم وقلوب إخوانهم، وإيمانهم وإيمان إخوانهم بأعين بصائرهم جواهر محسوسات، فمنهم من يعاين إيمانه مثل المصباح، ومنهم من يعاينه مثل الشمعة، ومنهم من يعاينه مثل المشعل وهو أقواها. ويقولون: بأنه لا يكون المحقق محققاً حتى يعاين قلبه بعين بصيرته، كما يعاين كفه بعين بصره فيعرف الزيادة فيه من النقصان[2].

فإن قيل: ما الحكمة في شق صدره الشريف ثم ملىء إيماناً وحكمة، ولمَ لم يوجد الله تعالى ذلك فيه من غير أن يفعل فيه ما فعل؟

أجاب العارف ابن أبي جمرة: بأنه ﷺ لما أعطي كثرة الإيمان والحكمة وقوي التصديق إذ ذاك، أعطي برؤية شق البطن والقلب عدم الخوف من جميع العادات الجارية بالهلاك، فحصلت له ﷺ قوة الإيمان من ثلاثة أوجه: بقوة التصديق، والمشاهدة، وعدم الخوف من العادات المهلكات فكمل له ﷺ بذلك ما أريد منه من قوة الإيمان بالله عز وجل، وعدم الخوف مما سواه. ولأجل ما أعطيه مما أشرنا إليه كان ﷺ في العالمين أشجعهم وأثبتهم وأعلاهم حالاً ومقالاً.

ففي العلوي: كان ـ كما أخبر ﷺ ـ أن جبريل لما وصل معه إلى مقامه قال: ها أنت وربك، وهذا مقامي لا أتعداه، فزج فيه ـ أي في النور ـ زجة ولم يتوان ولم يتلفت، فكان هناك في الحضرة كما أخبر عنه ربه عز وجل بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧]. وأما حاله ﷺ في هذا العالم: فكان إذا حمي الوطيس في الحرب ركض بغلته في نحر العدو، وهم شاكون في سلاحهم، ويقول: أنا ابن عبد المطلب، أنا النبي

---

(١) ومنازل هذه المعاملات عشر: الرعاية والمراقبة والحرمة والإخلاص والتهذيب والاستقامة والتوكل والتفويض والثقة والتسليم.

(٢) كلام فيه نظر.

لا كذب. ثم إن العناية بتطهير قلبه المقدس، وإفراغ الإيمان والحكمة، فيه إشارة إلى مذهب أهل السنة في أن محل العقل ونحوه من أسباب الإدراكات كالنظر والفكر إنما هو القلب لا الدماغ، خلافاً للمعتزلة والفلاسفة.

وأما الحكمة في غسل قلبه المقدس بماء زمزم، فقيل لأن ماء زمزم يقوي القلب ويسكن الروع. قال الحافظ الزين العراقي: ولذلك غسل به قلبه ﷺ ليلة الإسراء ليقوى على رؤية الملكوت. واستدل شيخ الإسلام البلقيني، بغسل قلبه الشريف به على أنه أفضل من ماء الكوثر، قال: لأنه لم يكن يغسل قلبه المكرم إلا بأفضل المياه، وإليه يومىء قول العارف ابن أبي جمرة في كتابه «بهجة النفوس».

وأما قوله ﷺ: «ففسل صدري» فالظاهر أن المراد به القلب، كما في الراوية الأخرى، وقد يحتمل أن تحمل كل رواية على ظاهرها، ويقع الجمع بأن يقال: أخبر ﷺ مرة بغسل صدره الشريف ولم يتعرض لذكر قلبه، وأخبر مرة بغسل قلبه ولم يتعرض لذكر صدره، فيكون الغسل قد حصل فيهما معاً مبالغة في تنظيف المحل المقدس. ولا شك أن المحل الشريف كان طاهراً مطهراً وقابلاً لجميع ما يلقى إليه من الخير، وقد غسل أولاً وهو ﷺ طفل، وأخرجت من قلبه نزغة الشيطان، وإنما كان ذلك إعظاماً وتأهباً لما يلقى هناك، وقد جرت الحكمة بذلك في غير ما موضع مثل الوضوء للصلاة لمن كان متنظفاً، لأن الوضوء في حقه إنما هو إعظام وتأهب للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته، فلذلك غسل جوفه الشريف هنا، وقد قال تعالى: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ [الحج: ٣٢] فكان الغسل له ﷺ من تعظيم شعائر الله، وإشارة لأمته بالفعل بتعظيم شعائر الله، كما نص لهم عليه بالقول.

وأما قوله: (ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا) وفي رواية عنده في الصلاة (ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء). فظاهره: أنه استمر على البراق حتى عرج إلى السماء.

قال العارف ابن أبي جمرة: أفاد ذلك أنهم كانوا يمشون في الهواء، وقد جرت العادة بأن البشر لا يمشي في الهواء. سيما وقد كان راكباً على دابة من ذوات الأربع، لكن لما أن شاءت القدرة ذلك كان، فكما بسط الله تعالى لهم الأرض يمشون عليها، كذلك يمشون في الهواء، كل ذلك بيد قدرته، لا ترتبط قدرته تعالى بعادة جارية. وقد سئل ﷺ حين أخبر عن الأشقياء الذين يمشون على وجوههم يوم القيامة فقال ﷺ: الذي أمشاهم في الدنيا على أقدامهم قادر أن يمشيهم يوم القيامة على وجوههم[1]. انتهى.

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٥٦.

وقد استدل بعضهم بهذا الحديث على أن المعراج كان في ليلة غير ليلة الإسراء إلى بيت المقدس، لكون الإسراء إليهم لم يذكر هنا. فأما المعراج ففي غير هذه الرواية من الأخبار أنه لم يكن على البراق، بل رقي في المعراج وهو السلم، كما وقع التصريح به في حديث عند ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ويمكن أن يقال: ما وقع هنا اختصار من الراوي، والإتيان بـ «ثم» المقتضية للتراخي لا ينافي وقوع الإسراء بين الأمرين المذكورين، وهما: الانطلاق والعروج. وحاصله: أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر، وثابت البناني قد حفظ الحديث. ففي روايته عند مسلم: أنه أتى بيت المقدس فصلى فيه ثم عرج إلى السماء كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وقد قيل: إن الحكمة في الإسراء به راكباً، مع القدرة على طي الأرض له، الإشارة إلى أن ذلك وقع تأنيساً له بالعادة، في مقام خرق العادة، لأن العادة جرت أن الملك إذا استدعى من يختص به بعث إليه بمركوب سني يحمله عليه في وفادته إليه.

وفي كلام بعض أهل الإشارات: لما كان ﷺ ثمرة شجرة الكون ودرة صدفة الوجود، وسرّ معنى كلمة «كن» ولم يكن بد من عرض هذه الثمرة بين يدي مثمرها رفعها إلى حضرة قربه، والطواف بها على ندمان حضرته، أرسل إليه أعز خدام الملك عليه، فلما ورد عليه قادماً، وافاه على فراشه نائماً، فقال له قم يا نائم، فقد هيئت لك الغنائم. قال: يا جبريل إلى أين؟ قال: يا محمد ارفع «الأين» من البين، إنما أنا رسول القدم أرسلت إليك لأكون من جملة الخدم، يا محمد أنت مراد الإرادة، الكل مراد لأجلك، وأنت مراد لأجله، أنت صفوة كأس المحبة، أنت درة هذه الصدفة، أنت شمس المعارف، أنت بدر اللطائف، ما مهدت الدار إلا لأجلك، ما حمي ذلك الحمى إلا لوصلك، وما روّق كأس المحبة إلا لشربك. فقال ﷺ: يا جبريل فالكريم يدعوني إليه، فما الذي يفعل بي؟ قال: ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: يا جبريل هذا لي، فما لعيالي وأطفالي؟ قال: ولسوف يعطيك ربك فترضى، قال: يا جبريل الآن طاب قلبي ها أنا ذاهب إلى ربي، ثم قال جبريل: يا محمد إنما جيء بي إليك الليلة لأكون خادم دولتك، وحاجب حاشيتك، وحامل غاشيتك، وجيء بالمركوب إليك لإظهار كرامتك، لأن من عادة الملوك إذا استزاروا حبيباً أو استودعوا قريباً وأرادوا ظهور إكرامه واحترامه أرسلوا أخص خدامهم وأعز نوابهم لنقل أقدامهم، فجئناك على رسم عادة الملوك وآداب السلوك، ومن اعتقد أنه وصل إليه بالخُطا فقد وقع بالخطأ، ومن ظن أنه محجوب بالغطا فقد حرم العطا. انتهى.

والحكمة في كون البراق دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، ولم يكن على شكل

الفرس، إشارة إلى أن الركوب كان في سلم وأمن لا في حرب وخوف، أو لإظهار المعجزة بوقوع الإسراع الشديد بدابة لا توصف بذلك في العادة. وذكره بقوله: أبيض، باعتبار كونه مركوباً، أو عطفاً على لفظ البراق. واختلف في تسميته بذلك، فقيل: من البريق، وقال القاضي عياض: لكونه ذا لونين، يقال: شاة برقاء، إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقات سود، وقيل: من البرق، لأنه وصف بسرعة السير، ويحتمل أن لا يكون مشتقاً.

ووصفه بأنه يضع خطوه عند أقصى طرفه ـ بسكون الراء وبالفاء ـ أي يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره. وقال ابن المنير: يقطع ما انتهى إليه بصره في خطوة واحدة، قال: فعلى هذا يكون قطع من الأرض إلى السماء في خطوة واحدة، لأن بصر الذي في الأرض يقع على السماء، فبلغ أعلى السماوات في سبع خطوات. انتهى.

وفي حديث ابن مسعود عند أبي يعلى والبزار ـ كما أفاده في الفتح ـ: إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه وإذا هبط ارتفعت يداه. وفي رواية لابن سعد عن الواقدي بأسانيده: له جناحان. قال الحافظ ابن حجر: ولم أرها لغيره.

وعند الثعلبي ـ بسند ضعيف ـ عن ابن عباس، في صفة البراق: له خد كخد الإنسان وعرف كعرف الفرس، وقوائم كالإبل، وأظلاف وذنب كالبقر، وكان صدره ياقوتة حمراء. وفي رواية أبي سعد[1] في «شرف المصطفى» فكان الذي أمسك بركابه جبريل وبزمام البراق ميكائيل.

وفي رواية معمر عن قتادة عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتي بالبراق ليلة أسري به مسرجاً ملجماً، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما حملك على هذا، ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه، قال: فارفض عرقاً[2]. أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب وصححه ابن حبان.

وذكر ابن إسحاق عن قتادة: أنه لما شمس وضع جبريل ـ عليه السلام ـ يده على معرفته وقال: أما تستحي وذكر نحوه، لكنه مرسل لأنه لم يذكر أنساً. وفي رواية وثيمة عند ابن إسحاق: نعست حتى لصقت بالأرض فاستويت عليها. وفي رواية للنسائي وابن مردويه من طريق يزيد بن أبي مالك عن أنس نحوه موصولاً، وزاد: وكانت تسخر للأنبياء

---

(١) قال الزرقاني: هو عبد الرحمٰن بن الحسن الأصفهاني الحافظ المشهور المتوفى سنة (٣٠٧ هـ). ووصفه الذهبي في تاريخه بالحافظ. وفي كشف الظنون ٢/ ١٠٤٥ هو الحافظ أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابوري (الخركوشي) المتوفى سنة (٤٠٦ هـ) بنيسابور.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٦٤ والترمذي برقم (٣١٣١).

قبله، ونحوه من حديث أبي سعيد عند ابن إسحاق.

وفيه دلالة على أن البراق كان معداً لركوب الأنبياء، خلافاً لمن نفى ذلك، كابن دحية، وأوَّل قول جبريل: «فما ركبك أكرم على الله منه» أي: ما ركبك أحد قط، فكيف يركبك أكرم منه؟ فيكون مثل قول امرىء القيس:

على لاحب لا يهتدي لمناره

فيفهم أن له مناراً لا يهتدىٰ له، وليس المراد: إلا أنه لا منار له البتة فكيف يهتدي به، فتأمله. وقد جزم السهيلي بأن البراق إنما استصعب عليه لبعد عهد ركوب الأنبياء قبله. وقال النووي: قال صاحب مختصر العين، وتبعه صاحب التحرير: كان الأنبياء يركبون البراق. قال: وهذا يحتاج إلى نقل صحيح، انتهى وقد تقدم النقل بذلك.

قال في الفتح: ويؤيده ظاهر قوله: (فربطته بالحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء) انتهى. فليتأمل فإنه ليس فيه فربطته بالحلقة التي كانت تربطه بها الأنبياء، وإنما قال: تربط بها الأنبياء وسكت عن ذكر المربوط ما هو؟ فيحتمل ـ كما قال ابن المنير ـ أن يكون غير البراق، ويحتمل أن يكون ارتباط الأنبياء أنفسهم بتلك الحلقة، أي تمسكهم بها، ويكون من جنس العروة الوثقى، انتهى.

ولكن وقع التصريح بذلك في حديث أبي سعيد عند البيهقي ولفظه: «فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيها» وقد وقع عند ابن إسحاق من رواية وثيمة في ذكر الإسراء: فاستصعب البراق وكانت بعيدة العهد بركوبهم، لم تكن ركبت في الفترة.

وفي مغازي ابن عائذ، من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب قال: البراق هي الدابة التي كان يزور إبراهيم عليها إسماعيل. وعلى هذا فلا يكون ركوب البراق من خصائصه ﷺ. نعم قيل: ركوبه مسرجاً ملجماً لم يرد لغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فإن قلت: ما وجه استصعاب البراق عليه؟

أجيب: بأنه تنبيه على أنه لم يذلل قبل ذلك، إن قلنا إنه لم يركبه أحد قبله، أو لبعد العهد بركوبه إن قلنا إنه ركب قبله. ويحتمل أن يكون استصعابه تيهاً وزهواً بركوبه ﷺ، وأراد جبريل «أبمحمد تستصعب» استنطاقه بلسان الحال أنه لم يقصد الصعوبة وإنما تاه زهواً لمكان الرسول ﷺ منه، ولهذا قال: فارفض عرقاً، فكأنه أجاب بلسان الحال متبرئاً من الاستصعاب، وعرق من خجل العتاب، ومثل هذا رجفة الجبل به حتى قال: (اثبت فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان)[1] فإنها هزة الطرب لا هزة الغضب. وكذلك البراق لما قال له جبريل: اسكن فما ركبك أحد أكرم على الله منه استقر وخجل من ظاهر

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٣٥٠.

الاستصعاب وتوجه الخطاب فعرق حتى غرق.

ووقع في حديث حذيفة عند الإمام أحمد قال: أتي رسول الله ﷺ بالبراق فلم يزل على ظهره هو وجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس. وهذا لم يسنده حذيفة عن النبي ﷺ، فيحتمل أنه قاله عن اجتهاد، ويحتمل أن يكون قوله: «هو وجبريل» متعلقاً بمرافقته في السير، لا في الركوب. وقال ابن دحية معناه: وجبريل قائد أو سائق أو دليل، قال: وإنما جزمنا بذلك لأن قصة المعراج كانت كرامة للنبي ﷺ، فلا مدخل لغيره فيها.

وقد تعقب الحافظ ابن حجر التأويل المذكور: بأن في صحيح ابن حبان من حديث ابن مسعود: أن جبريل حمله على البراق رديفاً له، وفي رواية الحارث في مسنده: أتي بالبراق فركبه خلف جبريل فسار بهما. فهذا صريح في ركوبه معه، والله أعلم، انتهى.

وقد وقع في غير هذه الرواية بيان ما رآه في ليلة الإسراء، فمن ذلك:

ما وقع في حديث شداد بن أوس ـ عند البزار والطبراني، وصححه البيهقي في الدلائل ـ أنه أول ما أسري به مرَّ بأرض ذات نخل، فقال له جبريل: انزل فصل، فصلى، فقال: صليت بيثرب، ثم مر بأرض بيضاء فقال: انزل فصل، فصلى، فقال: صليت بمدين، ثم مر ببيت لحم فقال: انزل فصل، فنزل فصلى، فقال صليت حيث ولد عيسى[1].

وفي حديث أنس عند البيهقي في الدلائل: لما جاء جبريل بالبراق إليه ﷺ فكأنها أصرت أذنيها، فقال لها جبريل: مه يا براق، فوالله ما ركبك مثله، فسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جنب الطريق، فقال: «ما هذا يا جبريل»؟ قال: سر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا هو بشيخ يدعوه متنحياً عن الطريق يقول: هلم يا محمد، فقال له جبريل: سر، وأنه مرَّ بجماعة فسلموا عليه فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد عليهم السلام، فرد، الحديث. وفي آخره فقال له جبريل: أما العجوز التي رأيت جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز، والذي دعاك إبليس، والعجوز الدنيا، أما لو أجبتهما لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام[2]، قال الحافظ عماد الدين ابن كثير: في ألفاظه نكارة وغرابة.

وفي حديث: أنه مر بموسى عليه السلام، وهو يصلي في قبره[3]. قال أنس: ذكر

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٥٥ والطبراني في المعجم الكبير ٧/ ٣٣٩.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٦٢.

(٣) أخرجه مسلم من حديث حماد بن سلمة في الفضائل برقم (١٦٤) والنسائي كتاب قيام الليل رقم الحديث (١٥) والإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٤٤ و ٢٤٨ وفي البداية والنهاية ١/ ٢٩٦.

كلمة فقال: أشهد أنك رسول الله. ولا مانع أن الأنبياء عليهم السلام يصلون في قبورهم لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، فهم يتعبدون بما يجدون من دواعي أنفسهم، لا بما يلزمون به، كما يلهم أهل الجنة الذكر. وستأتي الإشارة إليه في حجة الوداع إن شاء الله تعالى.

وفي حديث أبي هريرة عند الطبراني والبزار: أنه ﷺ مرَّ على قوم يزرعون ويحصدون في كل يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال لجبريل عليه السلام: ما هذا؟ فقال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين، ثم مرَّ على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة، ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام، يأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم، فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، وما ظلمهم الله وما ربك بظلام للعبيد. ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر، ولحم آخر نيء في قدر خبيث، فجعلوا يأكلون النيء الخبيث، ويدعون النضيج، فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال جبريل: هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت عنده حتى تصبح. ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك تكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها، وهو يريد أن يحمل عليها. ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة، قال: ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها. ثم أتى على واد فوجد فيه ريحاً طيبة باردة، وريح مسك، وسمع صوتاً، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت الجنة، تقول: رب آتني بما وعدتني، فقد كثرت غرفي واستبرقي وحريري وسندسي وعبقريي ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي، وأكوابي وصحافي وأباريقي، ومراكبي، وعسلي ومائي ولبني وخمري، فائتني بما وعدتني، فقال: لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحاً، ولم يشرك بي شيئاً، ولم يتخذ من دوني أنداداً، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني أجزيته، ومن توكل علي كفيته، إنني أنا الله، لا إله إلا أنا،

لا أخلف الميعاد، قد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين، قالت: رضيت، ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً منتنة فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت جهنم، تقول: رب آتني ما دعوتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وغساقي وعذابي، وقد بعد قعري واشتد حري، فائتني بما وعدتني، قال: لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة، وكل جبار عنيد لا يؤمن بيوم الحساب، قالت: رضيت. قال: فسار حتى أتى بيت المقدس.

وفي رواية أبي سعيد عند البيهقي: دعاني داعٍ عن يميني: انظرني أسألك، فلم أجبه، ثم دعاني آخر عن يساري كذلك فلم أجبه، وفيه: إذا امرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى فقالت: يا محمد انظرني أسألك، فلم ألتفت إليها، وفيه أن جبريل قال له: أما الداعي الأول فهو داعي اليهود، ولو أجبته لتهودت أمتك، وأما الثاني فداعي النصارى، ولو أجبته لتنصرت أمتك، وأما المرأة فالدنيا. وفيه: أنه صعد إلى السماء الدنيا ورأى فيها آدم، وأنه رأى أخونة عليها لحم طيب ليس عليها أحد. وأخرى عليها لحم منتن عليها ناس يأكلون، قال جبريل: هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام، وفيه: أنه مرَّ بقوم بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خرَّ، وأن جبريل قال له: هم أكلة الربا، وأنه مرَّ بقوم مشافرهم كالإبل، يلتقمون حجراً، فيخرج من أسافلهم، وأن جبريل قال: إن هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، وأنه مرَّ بنساء تعلقن بثديهن وأنهن الزواني، وأنه مرَّ بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيطعمون وأنهم الغمازون[1] اللمازون[2].

وفي حديث أبي هريرة ـ عند البزار والحاكم ـ أنه ﷺ صلى ببيت المقدس مع الملائكة، وأنه أتي هناك بأرواح الأنبياء فأثنوا على الله. وفيه قول إبراهيم: لقد فضلكم محمد.

وفي رواية عبد الرحمن بن هشام عن أنس: ثم بعث له آدم فمن دونه فأمهم تلك الليلة. وفي حديث أم هانىء عند أبي يعلى: ونشر لي رهط من الأنبياء، منهم إبراهيم وموسى وعيسى. وفي رواية أبي سلمة ثم حانت الصلاة فأممتهم. أخرجه مسلم. وفي

---

(١) الغمز الإشارة بالعين والحاجب والجفن قال الله تعالى: ﴿وإذا مروا بهم يتغامزون﴾ [المطففين: ٣٠] وقال ابن الأثير: وقد فسر الغمز في بعض الأحاديث بالإشارة كالرمز بالعين والحاجب واليد. انظر لسان العرب مادة (غمز) ١٠/ ١٢٠.

(٢) اللمز: كالغمز في الوجه. تلمزه بفيك بكلام خفي قال تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ [التوبة: ٥٨] ورجل لمزة: يعيبك في وجهك ورجل همزة: يعيبك بالغيب. وقال الزجاج: الهمزة اللمزة الذي يغتاب الناس ويغضُّهم. انظر لسان العرب مادة (لمز) ١٢/ ٣٢٦.

حديث أبي أمامة عند الطبراني في الأوسط: ثم أقيمت الصلاة فتدافعوا حتى قدموا محمداً ﷺ.

● وفي رواية ثابت البناني عن أنس عند مسلم قال: فربطته، يعني البراق، بالحلقة ـ وهي بإسكان اللام على الأشهر ـ التي تربط به الأنبياء ـ بضمير المذكر، إعادة على معنى الحلقة وهو الشيء، والمراد حلقة باب مسجد بيت المقدس. قاله صاحب التحرير ـ قال ﷺ: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة[1]. أي اخترت اللبن الذي عليه بنيت الخلقة، وبه نبت اللحم ونشز العظم، أو اخترته لأنه الحلال الدائم في دين الإسلام بخلاف الخمر فحرام فيما يستقر عليه الأمر.

وقال النووي: المراد بالفطرة هنا، الإسلام والاستقامة، قال: ومعناه ـ والله أعلم ـ: اخترت علامة الإسلام والاستقامة، قال: وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين، سليم العاقبة، أما الخمر فإنها أم الخبائث، وجالبة لأنواع الشر في الحال والمآل، انتهى. وقال القرطبي: يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة لكونه أول شيء يدخل جوف المولود، ويشق أمعاءه، والسر في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره لكونه مألوفاً له أولاً، انتهى. وإذا كانت الخمر مباحة ـ لأنها إنما حرمت بالمدينة والإسراء كان بمكة ـ فما وجه تعيينه ﷺ لأحد المباحين، وما وجه عد ذلك صواباً، وعد الآخر خطأ، وهما سواء في الإباحة؟

فيحتمل أن يكون توقاها تورعاً وتعريضاً بأنها ستحرم، وأنه لما وافق الصواب في علم الله تعالى قال له جبريل: أصبت الفطرة، أو أصبت أصاب الله بك، كما رويا. وإذا قلنا: بأنها كانت من خمر الجنة فيكون سبب تجنبها صورتها ومضاهاة الخمر المحرمة، أي في علم الله تعالى، وذلك أبلغ في الورع. ويستفاد منه: أن من اتخذ من ماء الرمان أو غيره، ولو ماء قراحاً، وضاهى به الخمر في الصورة وهيأه بالهيئة التي يتعاطاها أهل الشهوات من الاجتماعات والآلات فقد أتى منكراً، وإن كان لا يحد عليها. قاله ابن المنير. وينظر فيما يعمله كثير من فقراء اليمن وغيرهم بمكة المشرفة وجدة وغيرهما من ماء قشر البن ويسمونه بالقهوة، وهي اسم من أسماء الخمر[2].

وفي حديث ابن عباس ـ عند أحمد ـ: فلما أتى المسجد الأقصى قام يصلي، فلما

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩).

(٢) والقهوة: الخمر سميت بذلك لأنها تقهي شاربها عن الطعام أي تذهب بشهوته وفي التهذيب: أي تشبعه. انظر لسان العرب مادة (قها) ١١/ ٣٣٧.

انصرف جيء بقدحين في أحدهما لبن، وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن. وفي رواية البزار: بثلاثة أواني، وأن الثالث كان خمراً، وأن ذلك وقع ببيت المقدس، وأن الأول كان ماء، ولم يذكر العسل. وفي حديث شداد بن أوس: فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأتيت بإناءين أحدهما لبن والآخر عسل، ثم هداني الله تعالى فأخذت اللبن. فقال شيخ بين يدي ـ يعني لجبريل ـ: أخذ صاحبك الفطرة. وقد كان إتيانه بالأواني مرتين، مرة عند فراغه من الصلاة، ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة. وممن صرح بأنه كان مرتين الحافظ عماد الدين بن كثير، وعلى هذا فيكون تكرار جبريل عليه السلام للتصويب حيث اختار اللبن تأكيداً للتحذير مما سواه.

وقد أنكر حذيفة ربط البراق بالحلقة، فروى أحمد والترمذي من حديث حذيفة قال: يحدثون أنه ربطه، أخاف أن يفر منه، وقد سخره له عالم الغيب والشهادة؟ وكذا أنكر حذيفة أيضاً صلاته ﷺ ببيت المقدس.

وتعقبه البيهقي وابن كثير: بأن المثبت مقدم على النافي، يعني من أثبت ربط البراق والصلاة في بيت المقدس معه زيادة علم على من نفى، فهو أولى بالقبول. ووقع ذلك في رواية بريدة عند البزار: لما كان ليلة أسري به، فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس فوضع أصبعه فيها فخرقها، فشد بها البراق، ونحوه للترمذي. وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيه، فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل واحد منا ركعتين.

وفي رواية ابن مسعود نحوه، وزاد: ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين ما بين قائم وراكع وساجد، ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدي جبريل فقدمني فصليت بهم. وفي حديث ابن مسعود أيضاً ـ عند مسلم ـ: وحانت الصلاة فأممتهم. وفي حديث ابن عباس، عند أحمد: فلما أتى ﷺ الأقصى قام يصلي، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. وفي حديث أبي سعيد: ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل، فربط فرسه إلى صخرة، ثم دخل فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: يا جبريل من هذا معك؟ قال: هذا محمد رسول الله خاتم النبيين، قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حياه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة. ثم لقوا أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم. فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتاً يؤتم بي، وأنقذني من النار، وجعلها علي برداً وسلاماً.

ثم إن موسى عليه الصلاة والسلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليماً، واصطفاني، وأنزل علي التوراة، وجعل هلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون.

ثم إن داود عليه الصلاة والسلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً، وعلمني الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الجبار يسجن معي والطير وآتاني الحكمة وفصل الخطاب.

ثم إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح، وسخر لي الشياطين، يعملون ما شئت من محاريب وتماثيل، وعلمني منطق الطير وآتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والجن والطير، وآتاني ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، وجعل لي ملكاً طيباً ليس علي فيه حساب.

ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته، وجعلني بمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعلني أخلق أي أسوي من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وجعلني أبرىء الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهرني وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم. فلم يكن للشيطان علينا سبيل.

قال: وإن محمداً ﷺ أثنى على ربه فقال: كلكم أثنى على ربه وأنا أثني على ربي: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ الفرقان، فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي أمة وسطاً، وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحاً وخاتماً.

فقال إبراهيم: بهذا فضلكم محمد. ثم ذكر أنه عرج به إلى السماء الدنيا، ومن سماء إلى سماء. ذكره القاضي عياض في «الشفاء» مختصراً من حديث أبي هريرة من غير عزو[1]. ورواه البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري، وهذا لفظه.

وفي رواية ابن أبي حاتم في تفسيره، عن أنس: فلما بلغ بيت المقدس، فبلغ المكان الذي يقال له: باب محمد، أتى إلى الحجر الذي به، فغمز جبريل بأصبعه فنقبه، ثم ربطها، ثم صعدا[2]، فلما استويا في سرحة المسجد قال جبريل: يا محمد، هل

---

(١) انظر الشفا ١/ ١٨١ والحديث أخرجه البزار وابن جرير وابن مردويه وابن أبي حاتم وأبو يعلى كلهم من حديث أبي هريرة.

(٢) قال الزرقاني في الشرح: أي مرا: وإلا فلا معنى للصعود هنا، وأكثر النسخ بإسقاطها.

سألت ربك أن يريك الحور العين؟ قال: نعم، قال: فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن، قال: فسلمت عليهن فرددن علي السلام، فقلت لمن أنتن؟ فقلن: خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدرنوا، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا، قال: ثم انصرفت فلم ألبث إلا يسيراً، حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة، قال فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدي جبريل عليه السلام فقدمني فصليت بهم، فلما انصرفت قال لي جبريل: أتدري من صلى خلفك؟ قلت: لا، قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله.

قال القاضي عياض: يحتمل أن يكون ﷺ صلى بالأنبياء جميعاً في بيت المقدس، ثم صعد منهم من ذكر أنه ﷺ رآه في السماوات، ويحتمل أن يكون صلى بهم بعد أن هبط من السماء، فهبطوا أيضاً، والأظهر أن صلاته بهم في بيت المقدس كان قبل العروج. انتهى. وقال ابن كثير: صلى بهم ببيت المقدس قبل العروج وبعده، فإن في الحديث ما يدل على ذلك، ولا مانع منه، انتهى.

وقد اختلف في هذه الصلاة، هل هي فرض أو نفل؟ وإذا قلنا إنها فرض، فأي صلاة هي؟ قال بعضهم: الأقرب أنها الصبح، ويحتمل أن تكون العشاء، وإنما يتأتى على قول من قال: إنه صلى بهم قبل عروجه إلى السماء، وأما على قول من قال: إنه صلى بهم بعد العروج فتكون الصبح.

قال ابن كثير: ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه، لأنه لما مرَّ بهم في منازلهم جعل يسأل جبريل عنهم واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، ثم قال: وهذا هو اللائق، لأنه أولاً كان مطلوباً إلى الجناب العلوي، ليفرض الله عليه وعلى أمته ما يشاء، ثم لما فرغ مما أريد به اجتمع هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه عليهم بتقديمه في الإمامة.

وفي رواية ابن إسحاق: أنه ﷺ قال: لما فرغت مما كان في بيت المقدس، أتي بالمعراج ولم أر قط شيئاً أحسن منه، وهو الذي يمد إليه الميت عينيه إذا احتضر، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء. وفي رواية كعب: فوضعت له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب حتى عرج هو وجبريل. وفي «شرف المصطفى» أنه أتى بالمعراج من جنة الفردوس، وأنه منضد عن يمينه ملائكة، وعن يساره ملائكة. وفي رواية أبي سعيد ـ عند البيهقي ـ ثم أتيت بالمعراج الذي تعرج عليه أرواح بني آدم، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج، أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء، فإن ذلك عجبه بالمعراج.

وقد تقدم في حديث البخاري بالسابق: فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه قال: نعم. ولم يقل جبريل عليه السلام: أنا، حيث قيل له: من هذا؟ إنما سمى نفسه فقال: جبريل، لأن لفظ «أنا» فيه إشعار بالعظمة. وفي الكلام السائر: أول من قال «أنا» إبليس، فشقي، وأيضاً فقوله «أنا» مبهمة لافتقار الضمير إلى العود، فهي غير كافية في البيان. وعلى هذا فينبغي للمستأذن إذا قيل له من أنت؟ أن لا يقول: «أنا»، بل يقول: فلان.

وفي رواية للبخاري ومسلم: فعرج. وهو بفتح العين بمعنى صعد. وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء يقال له: باب الحفظة، وعليه ملك يقال له إسماعيل تحت يده اثنا عشر ألف ملك.

وفي رواية شريك ـ عند البخاري أيضاً ـ ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء الدنيا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك قال: محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحباً وأهلاً، فيستبشر به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم، أي على لسان من شاء كجبريل.

ووقع في هذه الرواية أنه رأى في سماء الدنيا النيل والفرات عنصرهما. وظاهره يخالف حديث مالك بن صعصعة فإن فيه بعد ذكر سدرة المنتهى: فإذا في أصلها أربعة أنهار. ويجمع بينهما: بأن أصل نبعهما من تحت سدرة المنتهى ومقرهما في السماء الدنيا، ومنها ينزلان إلى الأرض. ووقع في هذه الرواية أيضاً: ثم مضى به في سماء الدنيا فإذا هو بنهر آخر، عليه قصور من لؤلؤ وزبرجد، وأنه الكوثر. وهو مما استشكل من رواية شريك، فإن الكوثر من الجنة، والجنة فوق السماء بالسابعة. ويحتمل أن يكون تقديره: ثم مضى في السماء الدنيا إلى السابعة فإذا هو بنهر.

ثم إن في قوله في الحديث «افتح» دلالة على أنه صادف أبواب السماء مغلقة، والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ التنويه بقدره ﷺ، وتحقيق أن السماوات لم تفتح أبوابها إلا من أجله، ولو وجدها مفتوحة لم يتحرر أنها فتحت لأجله، فلما فتحت له تحقق ﷺ أن المحل مصون، وأن فتحه له كرامة وتبجيل.

وأما قوله في الحديث : «أرسل إليه؟» وفي رواية «بعث إليه؟» فيحتمل أن يكون استفهم عن الإرسال إليه للعروج إلى السماء، وهو الأظهر لقوله: «إليه» لأن أصل بعثته قد اشتهر في الملكوت الأعلى.

وقيل: سألوه تعجباً من نعمة الله عليه بذلك، واستبشاراً به، وقد علموا أن بشراً لا يترقى هذا الترقي إلا بإذن من الله تعالى، وأن جبريل لا يصعد إلا بمن أرسل إليه.

وقد قيل: إن الله تعالى أراد إطلاع نبيه على أنه معروف عند الملأ الأعلى، لأنهم قالوا: أبعث إليه؟ أو: أرسل إليه؟ فدل على أنهم كانوا يعرفون أن ذلك سيقع له، وإلا لكانوا يقولون: ومن محمد مثلاً؟ ولذلك أجابوا بقولهم: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، وكلامهم بهذه الصيغة أول دليل على ما ذكرناه من معرفتهم بجلالته وتحقيق رسالته، ولأن هذا أجل ما يكون من حسن الخطاب والترفيع، على المعروف من عادة العرب.

وأما قوله: «من معك؟» فيشعر بأنهم أحسوا به ﷺ، وإلا لكان السؤال بلفظ: أمعك أحد؟ وهذا الإحساس إما بمشاهدة لكون السماء شفافة، وإما بأمر معنوي كزيادة أنوار ونحوها. قاله الحافظ ابن حجر. ولعله أخذه من كلام العارف ابن أبي جمرة، حيث قال في «بهجته»: الثاني أن يكون سؤالهم له لما رأوا حين رأوا إقباله عليهم من زيادة الأنوار وغيرها من المآثر الحسان زيادة على ما يعهدونه منه. قال: وهذا هو الأظهر، كأنهم قالوا: من الشخص الذي من أجله هذه الزيادة معك؟ فأخبرهم بما أرادوا وهو تعيين الشخص باسمه حتى عرفوه، انتهى. وقد قال بعض العلماء: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم: ١٨] أنه رأى صورة ذاته المباركة في الملكوت فإذا هو عروس المملكة.

وأما قولهم له: «مرحباً به ولنعم المجيء جاء» فيحتمل أن يكونوا قالوه لما عاينوه من بركاته ﷺ التي سبقته للسماء مبشرة بقدومه. وفيه تقديم وتأخير، والتقدير: جاء فنعم المجيء مجيئه، وإنما لم يقل الخازن: مرحباً بك، بصيغة الخطاب، بل قال بصيغة الغيبة لأنه حياه قبل أن يفتح الباب، وقبل أن يصدر من النبي ﷺ خطاب، ويحتمل أن يكون حياه بصيغة الغيبة تعظيماً له، لأن «هاء» الغيبة ربما كانت أفخم من كاف الخطاب.

وأما قوله في الحديث: (فإذا رجل قاعد عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا ؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه. فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى)[1].

فالأسودة: بوزن أزمنة، هي الأشخاص. والنسم: ـ بالنون والسين المهملة

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٩).

المفتوحتين ـ جمع نسمة، وهي الروح. وقد قال القاضي عياض: جاء أن أرواح الكفار في سجين، وأن أرواح المؤمنين منعمة في الجنة، يعني: فكيف تكون مجتمعة في سماء الدنيا؟ وأجاب: بأنه يحتمل أنها تعرض على آدم أوقاتاً، فوافق عرضها مرور النبي ﷺ، ويدل على كونهم في النار إنما هو في أوقات دون أوقات، قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾ [غافر: ٤٦]. واعترض: بأن أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء، كما هو نص القرآن [الأعراف: ٤٠][1].

والجواب: ما أبداه هو احتمال أن الجنة كانت في جهة يمين آدم، والنار في جهة شماله: وكان يكشف له عنهما، ولا يلزم من رؤية آدم لها ـ وهو في السماء ـ أن تفتح لهم أبواب السماء ولا تلجها.

وفي حديث أبي هريرة عند البزار: فإذا عن يمينه باب تخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب تخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر عن يمينه استبشر، وإذا نظر عن شماله حزن. وهذا ـ لو صح ـ لكان المصير إليه أولى من جميع ما تقم، ولكن سنده ضعيف. قاله الحافظ ابن حجر.

وأما قوله في الحديث: (ثم صعد بي، حتى أتى السماء الثانية، فقيل من هذا؟ قال: جبريل، ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم فقيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصنا إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت عليهما فردا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. إلى قوله: ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام وقال مرحباً بالابن الصالح)[2].

فهذه الرواية موافقة لرواية ثابت عن أنس عند مسلم: أن في السماء الأولى؛ آدم، وفي الثانية يحيى وعيسى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون وفي السادسة موسى وفي السابعة إبراهيم[3].

وخالف في ذلك ابن شهاب الزهري في روايته عن أنس عن أبي ذر ـ كما في أول

---

(١) وهو قوله ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء﴾.
(٢) أخرجه البخاري رقم الحديث (٣٨٨٧).
(٣) الحديث في صحيح مسلم كتاب الايمان برقم (٢٥٩).

الصلاة من البخاري أيضاً ـ أنه لم يثبت كيف منازلهم. وقال فيه: وإبراهيم في السماء السادسة. وفي رواية شريك عن أنس أن إدريس في الثانية وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وابراهيم في السادسة وموسى في السابعة، بتفضيل كلام الله[1]. وسياقه يدل على أنه لم يضبط منازلهم كما صرح به الزهري.

ورواية من ضبط أولى، ولا سيما في اتفاق قتادة وثابت، وقد وافقهما يزيد بن أبي مالك عن أنس، إلا أنه خالف في إدريس وهارون، فقال: هارون في الرابعة، وإدريس في الخامسة. ووافقهم أبو سعيد إلا أن في روايته: يوسف في الثانية، وعيسى ويحيى في الثالثة. والمشهور في الروايات: أن الذي في السابعة هو إبراهيم، وأكد ذلك في حديث مالك بن صعصعة: بأنه كان مسنداً ظهره إلى البيت المعمور. فمع التعدد: لا إشكال.

ومع الاتحاد فقد جمع: بأن موسى كان حالة العروج في السادسة وإبراهيم في السابعة على ظاهر حديث مالك بن صعصعة. وعند الهبوط: كان موسى في السابعة، لأنه لم يذكر في القصة أن إبراهيم كلمه في شيء مما يتعلق بما فرض على أمته من الصلاة، كما كلمه موسى عليه السلام، والسماء السابعة هي أول شيء انتهى إليه حالة الهبوط، فناسب أن يكون موسى بها، لأنه هو الذي خاطبه في ذلك، كما ثبت في جمع الروايات.

ويحتمل أن يكون لقي موسى في السادسة فأصعد معه إلى السابعة تفضيلاً له على غيره من أجل كلام الله تعالى، وظهرت فائدة ذلك في كلامه مع نبينا فيما يتعلق بأمر أمته في الصلاة. قاله في فتح الباري. وقال: إن النووي أشار إلى شيء من ذلك.

وفي رواية شريك عن أنس في قصة موسى: (لم أظن أن أحداً يرفع علي). قال ابن بطال: فهم موسى عليه السلام من اختصاصه بكلام الله تعالى له في الدنيا دون غيره من البشر: لقوله تعالى: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أن المراد بالناس هنا: البشر كلهم، وأنه استحق بذلك أن لا يرفع عليه أحد، فلما فضل الله تعالى محمداً ﷺ بما أعطاه من المقام المحمود وغيره، ارتفع على موسى وغيره بذلك.

وفي حديث أبي سعيد قال موسى: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم على الله، وهذا أكرم على الله مني. زاد الأموي في روايته: ولو كان هذا وحده هان، ولكن معه أمته، وهم أفضل الأمم عند الله.

وفي حديث مالك بن صعصعة: (فلما جاوزته ـ يعني موسى ـ بكى، فنودي: ما

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري برقم (٧٥١٧).

يبكيك؟ قال: رب، هذا غلام بعثته بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي).

ولم يكن بكاء موسى حسداً، معاذ الله، فإن الحسد في ذلك العالم منزوع من آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى، بل كان آسفاً على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجات له بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم، المستلزمة لتنقيص أجره، لأن لكل نبي بمثل أجر كل من اتبعه، ولهذا كان من اتبعه في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ، مع طول مدتهم بالنسبة لمدة هذه الأمة.

وقال العارف ابن أبي جمرة: قد جعل الله تعالى في قلوب أنبيائه عليهم الصلاة والسلام الرأفة والرحمة لأمتهم، وركبهم على ذلك، وقد بكى نبينا ﷺ فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1]، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أخذوا من رحمة الله أوفر نصيب، فكانت الرحمة في قلوبهم لعباد الله أكثر من غيرهم، فلأجل ما كان لموسى عليه السلام من الرحمة واللطف بكى إذ ذاك رحمة منه لأمته، لأن هذا وقت إفضال وجود وكرم، فرجا لعل أن يكون وقت القبول والإفضال فيرحم الله أمته ببركة هذه الساعة.

فإن قال قائل: كيف يكون هذا، وأمته لا تخلو عن قسمين: قسم مات على الإيمان، وقسم مات على الكفر، فالذي مات على الإيمان لا بد له من دخول الجنة، والذي مات على الكفر لا يدخل الجنة أبداً، فبكاؤه لأجل ما ذكر لا يسوغ، لأن الحكم فيهم قد مرَّ ونفذ.

قيل: إن الله تعالى قدر قدره على قسمين، فقدر قدراً وقدر أن ينفذ على كل الأحوال، وقدر قدراً وقدر أن لا ينفذ، ويكون رفعه بسبب دعاء أو صدقة أو غير ذلك، فلأجل ما ركب في موسى عليه السلام من اللطف والرحمة بالأمة طمع لعل أن يكون ما اتفق لأمته من القدر الذي قدره الله تعالى وقدر ارتفاعه بسبب الدعاء والتضرع إليه، وهذا وقت يرجى فيه التعطف والإحسان من الله تعالى، لأنه وقت أسري فيه بالحبيب الكريم، ليخلع عليه خلع القرب والفضل الجسيم، فطمع الكليم لعل أن يلحق لأمته من هذا الخير العظيم نصيباً. وقد قال نبينا ﷺ: «إن لله نفحات فتعرضوا لنفحات الله»[2]. وهذه نفحة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب (٣٢) رقم الحديث [١٢٨٤ ـ ٥٦٥٥ ـ ٦٦٠٢ ـ ٦٦٥٥ ـ ٧٣٧٧ و ٧٤٤٨] ومسلم في كتاب الجنائز رقم الحديث (١١) وأحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٦٨ و ٥/ ٢٠٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٦٥ وفي مصنف عبد الرزاق (٦٦٧٠) والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٧٢٣) والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٢٩٠٢ ـ ٤٢٤٨١).

(٢) ذكر نحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥/ ٤٠ والبيهقي في الاسماء والصفات ١٥٠ وابن عبد=

من النفحات فتعرض لها موسى، فكان أمراً قد قدر، والأسباب لا تؤثر إلا بما سبقت القدرة بأنها فيه تؤثر، وما كان قضاء نافذاً لا تؤثر فيه ولا ترده الأسباب، حتم قد لزم.

وفي بكائه عليه السلام وجه آخر، وهو البشارة لنبينا ﷺ وإدخال السرور عليه، وذلك قول موسى عليه السلام ـ الذي هو أكثر الأنبياء أتباعاً ـ: إن الذين يدخلون الجنة من أمة محمد ﷺ أكثر مما يدخلها من أمتي.

وأما قول موسى عليه السلام: (لأن غلاماً) ولم يقل غير ذلك من الصيغ، فإشارة إلى صغر سنه بالنسبة إليه. وفي القاموس: الغلام: الطار الشارب، والكهل ضده[1]. وقال الخطابي: العرب تسمي الرجل المستجمع السن غلاماً، ما دامت فيه بقية من القوة.

قال في فتح الباري: ويظهر لي أن موسى عليه السلام أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا من استمرار القوة في الكهولة إلى أن دخل في أول سن الشيخوخة، ولم يدخل على بدنه هرم، ولا اعتراه في قوته نقص، حتى إن الناس في قدومه المدينة لما رأوه مردفاً أبا بكر، أطلقوا عليه اسم الشاب وعلى أبي بكر اسم الشيخ، مع كونه في العمر أسن من أبي بكر والله أعلم. وقد ذكرت ذلك في الهجرة من المقصد الأول.

وقد وقع في حديث أبي هريرة عند الطبراني في ذكر إبراهيم: فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسي. وفي رواية مسلم من حديث ثابت عن أنس: ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، وفيه: فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي، وأبي هريرة عند الطبراني: فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله: قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وهذا ظاهره أن يوسف عليه السلام كان أحسن من جميع الناس، لكن روى الترمذي من حديث أنس: «ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً»[2]. فعلى هذا يحمل حديث المعراج على أن المراد غير النبي ﷺ.

---

= البر في التمهيد ٥/ ٣٣٩ والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣١٨ و ٤/ ٢٥ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦/ ٤٣٥.

(١) انظر القاموس المحيط ٤/ ١٥٨ مادة (علم).

(٢) ذكره ابن عدي في الكامل في الضعفاء ٢/ ٨٤٠ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٤٧٠ والعراقي في المغني ٢/ ٢٦٨.

ويؤيده قول من قال: إن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه. وحمل ابن المنير حديث الباب على أن المراد: أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا ﷺ.

وأما قوله في الحديث عن إدريس: ثم قال: (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح) فيحمل على أخوة النبوة والإسلام، لأنها تجمع الوالد والولد، وقال ابن المنير: وفي طريق شاذة: مرحباً بالابن الصالح، وهذه هي القياس، لأنه جده الأعلى. وقيل: إن إدريس الذي لقيه ليس هو الجد المشهور، ولكنه إلياس، فإن كان كذلك ارتفع الإشكال.

فإن قلت: م كان هؤلاء الأنبياء عليهم السلام في السماوات دون غيرهم من الأنبياء؟ وما وجا اختصاص كل واحد منهم بسماء تخصه؟ ولم كان في السماء الثانية بخصوصها اثناز

أجيب: عن الاقتصار على هؤلاء دون غيرهم من الأنبياء، بأنهم أمروا بملاقات نبينا ﷺ، فمنهم من أدركه في أول وهلة، ومنهم من تأخر فلحقه، ومنهم من فاته. وقيل: إشارة إلى ما سيقع له ﷺ مع قومه، من نظير ما وقع لكل منهم:

فأما آدم عليه السلام فوقع التنبيه بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض، بما سيقع لنبينا ﷺ من الهجرة إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة. وكراهة فراق ما ألفه من الوطن، ثم كان عاقبة كل منهما أن يرجع إلى وطنه الذي خرج منه.

وبعيسى ويحيى ـ عليهما السلام ـ على ما وقع له أول الهجرة من عداوة اليهود وتماديهم على البغي عليه، وإرادتهم السوء به.

وبيوسف، بما وقع له من إخوته على ما وقع لنبينا ﷺ من قريش، من نصبهم الحرب له، وإرادتهم إهلاكه، وكانت العاقبة له، وقد أشار ﷺ إلى ذلك يوم الفتح بقوله لقريش: «أقول لكم كما قال يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1]، أي العتقاء. وبإدريس على رفيع منزلته عند الله تعالى. وبهارون على أن قومه رجعوا إلى محبته بعد أن آذوه.

وبموسى على ما وقع له من معالجة قومه، وقد أشار إلى ذلك ﷺ بقوله: «لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر». وبإبراهيم في استناده إلى البيت المعمور بما ختم له ﷺ في آخر عمره من إقامة مناسك الحج، وتعظيم البيت الحرام. وأجاب العارف ابن

---

(١) ذكره العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ٣/ ١٧٩.

أبي جمرة عن وجه اختصاص كل واحد منهم بسماء: بأن الحكمة في كون آدم في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء، وأول الآباء، وهو الأصل، ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة. وأما عيسى فإنما كان في السماء الثانية لأنه أقرب الأنبياء إلى النبي ﷺ، ولا انمحت شريعة عيسى عليه السلام إلا بشريعة محمد ﷺ، ولأنه ينزل في آخر الزمان لأمة محمد ﷺ على شريعته ويحكم بها، ولهذا قال ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى»[1] فكان في الثانية لأجل هذا المعنى.

وإنما كان يحيى عليه السلام معه هناك لأنه ابن خالته، وهما كالشيء الواحد، فلأجل التزام أحدهما بالآخر كانا هناك معاً. وإنما كان يوسف عليه السلام في السماء الثالثة لأن على حسنه تدخل أمة محمد ﷺ الجنة، فأري له هناك لكي يكون ذلك بشارة له ﷺ فيسر بذلك. وإنما كان إدريس عليه السلام في السماء الرابعة لأنه هناك توفي ولم تكن له تربة في الأرض على ما ذكر[2].

وإنما كان هارون عليه السلام في السماء الخامسة لأنه ملازم لموسى عليه السلام، لأجل أنه أخوه وخليفته في قومه، فكان هناك لأجل هذا المعنى. وإنما لم يكن مع موسى في السماء السادسة لأن لموسى مزية وحرمة وهي كونه كليماً، واختص بأشياء لم تكن لهارون فلأجل هذا المعنى لم يكن معه في السادسة.

وإنما كان موسى عليه السلام في السماء السادسة لأجل ما اختص به من الفضائل، ولأنه الكليم، وهو أكثر الأنبياء أتباعاً بعد نبينا ﷺ.

وإنما كان إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة لا نه الخليل والأب الأخير فناسب أن يتجدد للنبي ﷺ بلقياه أنس، لتوجهه بعد، إلى عالم آخر، وهو اختراق الحجب، وأيضاً لأنه الخليل، ولا أحد أفضل من الخليل إلا الحبيب، والحبيب ها هو قد علا ذلك المقام فكان الخليل فوق الكل لأجل خلته وفضله، وارتفع الحبيب فوق الكل لأجل ما اختص به بما زاد به عليهم، قال الله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ [البقرة: ٢٥٣] فحصل لهم الكمال والدرجة الرفيعة وهي درجة الرسالة والنبوة، ورفعوا بعضهم فوق بعض بمقتضى الحكمة ترفيعاً للمرفوع دون تنقيص بالمنزول. انتهى فليتأمل.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (١٤٣) وأبو داود برقم (٤٦٧٥) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٣١٩ والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢١٤ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٣٢) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٣٤٦).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: «إن هذا من الإسرائيليات والله أعلم بصحته، وإن رفع إدريس وهو حي لم يثبت من طريق مرفوعة» والقصة هذه مروية عن كعب الأحبار.

وقد اختلف في رؤية نبينا ﷺ لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام، فحمله بعضهم على رؤية أرواحهم إلا عيسى، لما ثبت من رفع جسده. وقد قيل في إدريس أيضاً ذلك.

وأما الذين صلوا معه في بيت المقدس، فيحتمل، الأرواح خاصة، ويحتمل: الأجساد بأرواحها.

وقيل: يحتمل أن يكون ﷺ عاين كل واحد منهم في قبره في الأرض على الصورة التي أخبر بها من الموضع الذي ذكر أنه عاينه فيه، فيكون الله عز وجل قد أعطاه من القوة في البصر والبصيرة ما أدرك به ذلك، ويشهد له رؤيته ﷺ الجنة والنار في عرض الحائط وهو محتمل لأن يكون ﷺ رآهما في ذلك الموضع أو مثل له صورتهما في عرض الحائط، والقدرة صالحة لكليهما.

وقيل: يحتمل أن يكون الله سبحانه وتعالى لما أراد بإسراء نبينا ﷺ، رفعهم من قبورهم لتلك المواضع إكراماً لنبيه ﷺ وتعظيماً له حتى يحصل له من قبلهم ما أشرنا إليه من الأنس والبشارة، وغير ذلك مما لم نشر إليه ولا نعلمه نحن. وكل هذه الوجوه محتمل، ولا ترجيح لأحدها على الآخر إذ القدرة صالحة لكل ذلك. انتهى.

وأما قوله في الحديث: (ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: وما هذا يا جبريل، قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات).

وفي رواية عند البخاري أيضاً: (فإذا في أصلها ـ أي سدرة المنتهى ـ أربعة أنهار). وعند مسلم: (يخرج من أصلها) وعنده أيضاً من حدبث أبي هريرة: (أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات وسيحان وجيحان) فيحتمل: أن تكون سدرة المنتهى مغروسة في الجنة، والأنهار تخرج من أصلها، فيصح أنها من الجنة. ووقع في حديث شريك، كما عند البخاري في التوحيد: أنه رأى في السماء الدنيا نهرين يطردان، فقال له جبريل: هما النيل والفرات عنصرهما.

والجمع بينهما: أنه رأى هذين النهرين عند سدرة المنتهى مع نهري . جنة، ورآهما في السماء الدنيا دون نهري الجنة، وأراد بـ «العنصر» عنصر انتشارهما بسماء الدنيا، كذا قاله ابن دحية. ووقع في حديث شريك أيضاً: (ومضى به إلى السماء، وإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، فقال: ما هذ يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك).

وروى ابن أبي حاتم عن أنس أنه ﷺ بعد أن رأى إبراهيم قال: ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعة، حتى انتهى إلى نهر عليه جام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعليه طير خضر، أنعم طير رأيت، قال جبريل: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا فيه آنية الذهب والفضة يجري على رضراض من الياقوت والزمرد، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، قال: فأخذت من آنيته فاغترفت من ذلك الماء فشربت، فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: فإذا فيها عين تجري يقال لها السلسبيل، فينشق منها نهران: أحدهما الكوثر، والآخر يقال له نهر الرحمة، وسيأتي مزيد لما ذكر هنا من الكوثر في المقصد الأخير إن شاء الله تعالى.

وقد وقع في حديث ثابت عن أنس عند مسلم: (ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت. فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها)[1].

وقد جاء في حديث ابن مسعود عند مسلم أيضاً بيان سبب تسميتها بـ «سدرة المنتهى»، ولفظه: (لما أسري برسول الله ﷺ قال: انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها)[2].

وهو معنى قول ابن أبي جمرة: لأن إليها تنتهي الأعمال، ومن هناك ينزل الأمر والنهي وتتلقى الأحكام، وعندها تقف الحفظة وغيرهم لا يتعدونها، فكانت منتهى، لأن إليها ينتهي ما يصعد من السفلي، وما ينزل من العالم العلوي من أمر العلي.

وقال النووي: لأن علم الملائكة ينتهي إليها. ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ. ولا يعارض قوله في حديث ابن مسعود هذا، أنها في السادسة، ما دل عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل في السماء السابعة، لأنه يحمل على أن أصلها في السماء السادسة، وأغصانها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها، قاله في فتح الباري. وجاء في حديث أبي ذر عند البخاري في الصلاة: (فغشيها ألوان لا أدري ما هي).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الايمان رقم الحديث (٢٥٩) والبخاري كتاب بدء الخلق (٦) والنسائي صلاة (١) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/١٢٨ و ٢١٠.

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/٣٨٧ و ٣/١٤٩ و ٥/١٤٤.

وفي حديث ابن مسعود، المذكور عند مسلم، (قال الله تعالى: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ [النجم: ١٦] قال: فراش من ذهب). وفي حديث يزيد بن أبي مالك عن أنس (جراد من ذهب). قال البيضاوي: وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل، لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه، وجعلها من الذهب حقيقة، والقدرة صالحة لذلك.

وفي حديث أبي سعيد وابن عباس (فغشيها الملائكة). وفي حديث علي (وعلى كل ورقة منها ملك). وفي رواية ثابت عن أنس عند مسلم (فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها). وفي رواية حميد عن أنس عند ابن مردويه: نحوه لكن قال: تحولت ياقوتاً، ونحو ذلك.

قال ابن دحية: واختيرت السدرة دون غيرها لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظل مديد وطعم لذيذ، ورائحة زكية، فكانت بمنزلة الإيمان الذي يجمع القول والعمل والنية، فالظل بمنزلة العمل، والطعم بمنزلة النية، والرائحة بمنزلة القول.

وقال العارف ابن أبي جمرة: وهل الشجرة مغروسة في شيء أم لا؟ يحتمل الوجهين معاً، لأن القدرة صالحة لكليهما. فكما جعل الله في هذه الدار الأرض مقراً للشجر، كذلك يجعل الهواء لتلك مقراً، وكما رجع ﷺ يمشي في الهواء كما كان يمشي في الأرض، ولأن بالقدرة استقرت الأرض مع أنها على الماء، فلا مانع من أن تكون الشجرة في الهواء، ويحتمل أن تكون مغروسة بأرض، وأن تكون من تراب الجنة، والله قادر على ما يشاء.

وأما قوله ﷺ في الحديث: (ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: «هي الفطرة التي أنت عليها»). فيدل على أنه عرض عليه الآنية مرتين، مرة ببيت المقدس، ومرة عند وصوله سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة

وأما الاختلاف في عدد الآنية وما فيها، فيحمل على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر، ومجموعها أربعة أوانٍ، فيها أربعة أشياء من الأنهار الأربعة التي رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى.

ووقع في حديث أبي هريرة عند الطبري: سدرة المنتهى يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، ومن عسل مصفى. فلعله عرض عليه من كل نهر إناء وجاء عن كعب: أن نهر العسل نهر النيل، ونهر اللبن نهر جيحان، ونهر الخمر نهر الفرات، ونهر الماء نهر سيحان. ولنهر النيل فضائل

ولطائف أفردها بالتأليف غير واحد من الأئمة. ووقع في بعض الطرق: .أنه ﷺ صلى بالأنبياء في السماوات.

وأما قوله ﷺ في الحديث: (ثم رفع إلي البيت المعمور). فمعناه أنه أري له، وقد يحتمل أن يكون المراد الرفع والرؤية معاً، لأنه قد يكون بينه وبين البيت المعمور عوالم حتى لا يقدر على إدراكه، فرفع اليه وأمد في بصره وبصيرته حتى رآه.

وروى الطبري من حديث ابن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: البيت المعمور مسجد في السماء بحذاء الكعبة لو خرَّ لخرَّ عليها، يدخله سبعون ألف ملك كل يوم، إذا خرجوا منه لم يعودوا.

وفي هذا دليل عظيم على قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزه شيء ممكن، لأن هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم هذا العدد العظيم منذ خلق الله تعالى الخلق إلى الأبد، ثم طائفة هذا اليوم لا ترجع إليه أبداً. ومع أنه قد روي أنه ليس في السماوات ولا في الأرض موضع شبر إلا وملك واضع جبهته هناك ساجداً، ثم البحار ما من قطرة إلا وبها ملك موكل، فإذا كانت السماوات والأرض والبحار هكذا، فهؤلاء الملائكة الذين يدخلون أين يذهبون؟ هذا من عظيم القدرة التي لا يشبهها شيء. وفي هذا دليل على أن الملائكة أكثر المخلوقات، لأنه إذا كان سبعون ألف ملك كل يوم تصلي في البيت المعمور على ما تقدم، ثم لا يعودون، مع أن الملائكة في السماوات والأرض والبحار.

وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه وابن أبي حاتم: أن في السماء نهراً يقال له: الحيوان، يدخله جبريل كل يوم فينغمس فيه، ثم يخرج فينتفض، فيخرج منه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكاً، فهم الذين يصلون فيه، أي في البيت المعمور، ثم لا يعودون إليه. وإسناده ضعيف[1].

وذكر الإمام فخر الدين الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النحل: ٨] أنه روى عن عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال: إن عن يمين العرش نهراً من نور مثل السماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة، يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر ويغتسل فيه، فيزداد نوراً إلى نوره وجمالاً إلى جماله، ثم ينتفض فيخلق الله من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون ألفاً، ثم لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة. وقد روي أن ثم ملائكة يسبحون الله تعالى، فيخلق الله بكل تسبيحة ملكاً.

---

(١) في اللآلىء المصنوعة قوله: منكر لا أصل له.

هذا ما عدا الملائكة التي للتعبد، وما عدا الملائكة الموكلين بالنبات والأرزاق، والحفظة، والملك الموكل بتصوير ابن آدم، والملائكة الذين ينزلون في السحاب، والملائكة الذين يكتبون الناس يوم الجمعة، وخزنة الجنة، والملائكة الذين يتعاقبون، والذين يؤمنون على قراءة المصلي، والذين يقولون: ربنا ولك الحمد، والذين يدعون لمنتظر الصلاة، والذين يلعنون من هجرت فراش زوجها.

وروي أن في السماء الدنيا ـ وهي من ماء ودخان ـ ملائكة خلقوا من ماء وريح عليهم ملك يقال له الرعد، وهو ملك موكل بالسحاب والمطر، يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت.

وأن في الثانية ملائكة على ألوان شتى، رافعين أصواتهم يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، وأن فيها ملكاً نصف جسده من نار ونصف جسده من ثلج، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج يطفىء النار، وهو يقول: يا من ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين.

وأن في الثالثة ـ وهي من حديد ـ ملائكة ذوي أجنحة شتى ووجوه شتى وأصوات شتى، رافعي أصواتهم بالتسبيح يقولون: سبحانك أنت الحي الذي لا يموت، وهم صفوف قيام، كأنهم بنيان مرصوص، لا يعرف أحدهم لون صاحبه من خشية الله.

وأن في السماء الرابعة ـ وهي من نحاس ـ ملائكة يضعفون على ملائكة الثالثة، وكذلك كل سماء أكثر عدداً من التي تليها، وأن ملائكة السماء الرابعة قيام وركوع وسجود على ألوان شتى من العبادة، يبعث الله الملك منهم إلى أمر من أموره، فينطلق الملك ثم ينصرف فلا يعرف صاحبه الذي إلى جنبه من شدة العبادة وهم يقولون. سبوح قدوس، ربنا الرحمن الذي لا إله إلا هو.

وأن في الخامسة ـ وهي من فضة ـ ملائكة يزيدون على ملائكة الأربع سماوات، وهم سجود وركوع لم يرفعوا أبصارهم إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة قالوا: ربنا، لم نعبدك حق عبادتك.

وأن في السماء السادسة ـ وهي من ذهب ـ جند الله الأعظم الكروبيون، لا يحصر عددهم إلا الله تعالى، وعليهم ملك له سبعون ألف ملك جنده، وكل ملك منهم جنوده سبعون ألف ملك، وهم الذين يبعثهم الله في أموره إلى أهل الدنيا، رافعوا أصواتهم بالتسبيح والتهليل.

وأن في السابعة ـ وهي ياقوتة حمراء ـ من الملائكة ما يزيدون على ما تقدم،

وعليهم ملك مقدم على سبعمائة ألف ملك، منهم جنود مثل قطر السماء، وتراب الثرى والرمل والسهل، وعدد الحصى والورق، وعدد كل خلق في السماوات والأرض، ويخلق الله تعالى في كل يوم ما يشاء، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وأن حملة العرش ثمانية يتجاوبون، لكل ملك منهم وجوه شتى وأعين شتى في جسده، لا يشبه بعضها بعضاً، رافعة أصواتهم بالتهليل، ينظرون إلى العرش لا يفترون، لو أن الملك منهم نشر جناحيه لطبق الدنيا بريشة من جناحه، لا يعلم عددهم إلا الله.

وحملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت حسن رخيم، تقول أربعة منهم: سبحانك اللهم وبحمدك على حلمك بعد علمك، وتقول أربعة: سبحانك اللهم وبحمدك على عفوك بعد قدرتك[1].

وقد روى الطبراني من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «على أي شيء أنت؟» قال على الريح والجنود، قال: «وعلى أي شيء ميكائيل؟» قال: على النبات والقطر، قال: «وعلى أي شي ملك الموت؟» قال: على قبض الأرواح، الحديث، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وقد ضعف لسوء حفظه ولم يترك.

وروى الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «وزيراي من أهل السماء: جبريل وميكائيل»[2] الحديث. وروى النقاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة، وأنه جوزي بولاية اللوح المحفوظ. وفي كتاب «العظمة» لأبي الشيخ ابن حيّان من ذلك العجب العجاب، وعندي منه الجزء الثاني. وقد وقعت في غير رواية البخاري هنا زيادات فمنها:

ما وقع في رواية أبي سعيد الخدري عند البيهقي في دلائله: ثم صعدت إلى السماء السابعة فإذا إبراهيم الخليل ساند ظهره إلى البيت المعمور، كأحسن الرجال، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم علي، وإذا بأمتي شطرين، شطر عليهم ثياب بيض كأنهم القراطيس، وشطر عليهم ثياب رمدة، قال: فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمدة، فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور.

وفي رواية الطبراني: فإذا هو برجل أشمط جالس على باب الجنة على كرسي،

---

(١) لم يعزه المؤلف ولا الزرقاني في شرحه ولكن أشار إلى بعض فقرات منه بأنها موضوعة.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب (١٦) رقم الحديث (٣٦٨٠) والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٦٥ والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٩٤ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٦٧٩ ـ ٣٦١٤٨).

وعنده قوم بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه وخرجوا وقد خلصت ألوانهم وصارت مثل ألوان البيض الوجوه، فقال: من هذا ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها وقد صفت ألوانهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم أول من شمط على الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما هؤلاء النفر الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابوا فتاب الله عليهم، وأما الأنهار، فأولها رحمة، والثانية نعمة الله، والثالث وسقاهم ربهم شراباً طهوراً.

وفي رواية البخاري في الصلاة (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام) الحديث. والمستوى: المصعد. وصريف الأقلام: ـ بفتح الصاد المهملة ـ تصويتها حالة الكتابة.

والمراد: ما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى. والقدر المكتوب قديم، وإنما الكتابة حادثة، وظاهر الأخبار أن اللوح المحفوظ فرغ من كتابته، وجف القلم بما فيه قبل خلق السماوات والأرض، وإنما هذه الكتابة في صحف الملائكة كالفروع المنتسخة من الأصل، وفيها الإثبات والمحو على ما ذكر في الآية. وذكر ابن القيم: أن الأقلام اثنا عشر قلماً، وأنها متفاوتة في الرتب:

فأعلاها وأجلها قدراً، قلم القدر السابق، الذي كتب الله به مقادير الخلائق، كما في سنن أبي داود، عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، قال له: اكتب، قال: رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»[1] فهذا أول قلم وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به.

والقلم الثاني: قلم الوحي.

والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله.

والرابع: قلم طب الأبدان الذي تحفظ به صحتها.

والخامس: قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم وبه تساس الممالك.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن برقم (٤٧٠٠) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/٣١٧ والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/٢٠٤ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٩٤) والهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٢٨ والسيوطي في جمع الجوامع (٦٣٧٥) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/٤٥٤ والطبراني في المعجم الكبير ١١/٤٣٣ والمتقي الهندي في كنز العمال (٥٩٧ ـ ١٥١١٦ ـ ١٥١١٧).

والسادس: قلم الحساب، وهو الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصرفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق.

والسابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا.

والثامن: قلم الشهادة التي تحفظ به الحقوق.

والتاسع: قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره.

والعاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه.

والحادي عشر: قلم اللغة وتفاصيلها.

والثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ودفع شبه المحرفين.

فهذه الأقلام التي بها انتظام مصالح العالم. قال: ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به وأنه تعالىٰ أقسم به في كتابه. انتهى ملخصاً من كتاب «أقسام القرآن».

وقد وقع في رواية أبي ذر عند مسلم وغيره من الزيادة أيضاً: (ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك) الحديث.

والجنابذ: ـ بالجيم ثم النون المفتوحتين ثم ألف ثم موحدة ثم ذال معجمة ـ هي القباب. ويؤيده ما في «التفسير» من البخاري من حديث قتادة عن أنس: (لما عرج به ﷺ قال: أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ. وأما ما في «كتاب الصلاة» من البخاري (وإذا فيها حبائل اللؤلؤ) ـ بالمهملة والموحدة وآخره لام ـ فقال القاضي عياض وغيره: هو تصحيف. وفي حديث الإمام أحمد من رواية حذيفة: (فتحت لهما أبواب السماء، قال: فرأيت الجنة والنار). وفي حديث أبي سعيد: أنه عرضت عليه الجنة، وأن رمانها كأنه الدلاء، وإذا طيرها كأنه البخت، وأنه عرضت عليه النار، فإذا هي لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها. ووقع عند مسلم من طريق همام عن قتادة عن أنس: (بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، وإذا طينه مسك أذفر، فقال جبريل: هذا الكوثر).

وفي رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه: أن إبراهيم عليه السلام قال للنبي ﷺ يا بني، إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك في أمتك فافعل.

ووقع في حديث أبي سعيد الخدري، عند البيهقي: ثم صعد بي إلى السماء السابعة، قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تغطي هذه الأمة، وإذا

فيها عين تجري يقال لها: السلسبيل، فيشق منها نهران، أحدهما الكوثر، والآخر يقال له: الرحمة، فاغتسلت فيه فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، ثم رفعت إلى الجنة، فاستقبلتني جارية، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ قالت: لزيد بن حارثة. وفيه: فإذا رمانها أنه الدلاء عظماً، ثم عرضت علي النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، لو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها، ثم أغلقت دوني.

وفي الطبراني من حديث عائشة: لما كان ليلة أسري بي إلى السماء، أدخلت الجنة، فوقفت على شجرة من أشجار الجنة لم أر في الجنة أحسن منها، ولا أبيض منها، ولا أطيب منها ثمرة، فتناولت ثمرة من ثمارها فأكلتها فصارت نطفة في صلبي، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة. وهو حديث ضعيف[1]. وفيه التصريح بأن الإسراء كان قبل ولادة فاطمة، وهي ولدت قبل النبوة بسبع سنين وشيء، ولا ريب أن الإسراء كان بعد النبوة.

وذكر أبو الحسن بن غالب، فيما تكلم فيه على أحاديث الحجب السبعين والسبعمائة والسبعين ألف حجاب وعزاها لأبي الربيع بن سبع في شفاء الصدور من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال بعد أن ذكر مبدأ حديث الإسراء، كما ورد في الأمهات:

أتاني جبريل وكان السفير بي إلى ربي، إلى أن انتهى إلى مقام ثم وقف عند ذلك، فقلت: يا جبريل، في مثل هذا المقام يترك الخليل خليله؟ فقال: إن تجاوزته احترقت بالنور، فقال النبي ﷺ: يا جبريل، هل لك من حاجة؟ قال: يا محمد، سل الله أن أبسط جناحي على الصراط لأمتك حتى يجوزوا عليه، قال النبي ﷺ: ثم زج بي في النور زجاً، فخرق بي إلى السبعين ألف حجاب، ليس فيها حجاب يشبه حجاباً، وانقطع عني حس كل إنسي وملك، فلحقني عند ذلك استيحاش، فعند ذلك ناداني مناد بلغة أبي بكر: قف إن ربك يصلي، فبينا أنا أتفكر في ذلك فأقول: هل سبقني أبو بكر؟ فإذا النداء من العلي الأعلى، ادن يا خير البرية، ادن يا أحمد ادن يا محمد، ليدن الحبيب، فأدناني ربي حتى كنت كما قال تعالى: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ [النجم: ٨ ـ ٩]. قال: وسألني ربي فلم أستطع أن أجيبه، فوضع يده بين كتفي ـ بلا تكييف ولا تحديد ـ فوجدت بردها بين ثديي، فأورثني علم الأولين والآخرين، وعلمني علوماً شتى، فعلم أخذ علي كتمانه إذ علم أنه لا يقدر على حمله أحد غيري، وعلم خيرني فيه، وعلمني القرآن فكان جبريل عليه السلام يذكرني به، وعلم أمرني بتبليغه إلى العام والخاص من

---

(١) قال الذهبي موضوع. وابن الجوزي.

أمتي. ولقد عاجلت جبريل عليه السلام في آية نزل بها علي، فعاتبني ربي وأنزل علي ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضىٰ إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾ [طه: ١١٤]، ثم قلت: اللهم إنه لما لحقني استيحاش قبل قدومي عليك سمعت منادياً ينادي بلغة تشبه لغة أبي بكر فقال لي: قف إن ربك يصلي[1]، فعجبت من هاتين، هل سبقني أبو بكر الى المقام؟ وإن ربي لغني عن أن يصلي، فقال تعالى: أنا الغني عن أن أصلي لأحد، وإنما أقول: سبحاني سبحاني، سبقت رحمتي غضبي، اقرأ يا محمد: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فصلاتي رحمة لك ولأمتك، وأما أمر صاحبك يا محمد، فإن أخاك موسى كان أنسه بالعصا، فلما أردنا كلامه قلنا: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي﴾ [طه: ١٧ ـ ١٨]، وشغل بذكر العصا عن عظيم الهيبة. وكذلك أنت يا محمد، لما كان أنسك بصاحبك أبي بكر وأنك خلقت أنت وهو من طينة واحدة، وهو أنيسك في الدنيا والآخرة، خلقنا ملكاً على صورته يناديك بلغته ليزول عنك الاستيحاش، فلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك. ثم قال الله تعالى: وأين حاجة جبريل؟ فقلت: اللهم إنك أعلم، فقال: يا محمد، قد أجبته فيما سأل، ولكن فيمن أحبك وصحبك.

وفي رواية: فتقدمت وجبريل على أثري، حتى انتهى بي إلى حجاب فراش الذهب فحرك الحجاب، فقيل من هذا؟ قال: أنا جبريل ومعي محمد ﷺ فقال الملك: الله أكبر، فأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملني فوضعني بين يديه في أسرع من طرفة عين، وغلظ الحجاب مسيرة خمسمائة عام، فقال لي: تقدم يا محمد، فمضيت فانطلق بي الملك في أسرع من طرفة عين إلى حجاب اللؤلؤ، فحرك الحجاب، فقال الملك من وراء الحجاب: من هذا؟ فقال أنا فلان صاحب حجاب الذهب، وهذا محمد ﷺ رسول رب العزة معي، فقال: الله أكبر، فأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملني حتى وضعني بين يديه، فلم أزل كذلك من حجاب إلى حجاب، حتى جاوزت سبعين حجاباً، غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، فقال لي: تقدم يا محمد، فمضيت فانطلق بي الملك، ثم دلي لي رفرف أخضر يغلب ضوؤه ضوء الشمس، فالتمع بصري، ووضعت على ذلك الرفرف، ثم احتملت حتى وصلت إلى العرش، فأبصرت أمراً عظيماً لا تناله الألسن، ثم دلي لي قطرة من العرش، فوقعت على لساني، فما ذاق الذائقون شيئاً قط أحلى منها

---

(١) قال محمود الحوت البيروتي في «أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب» حديث: قف إن ربك يصلي، باطل.

فأنبأني الله بها نبأ الأولين والآخرين، ونور قلبي، وغشي نور عرشه بصري فلم أر شيئاً فجعلت أرى بقلبي ولا أرى بعيني، ورأيت من خلفي ومن بين كتفي، كما رأيت أمامي، الحديث. رواه والذي قبله في كتاب «شفاء الصدور» كما ذكره ابن غالب والعهدة عليه في ذلك.

وتكثير الحجب لم يرد في طريق صحيح، ولم يصح في ذلك غير ما في مسلم: (حجابه النور)[1]. والرفرف: البساط، وقيل إنه في الأصل ما كان من الديباج وغيره رقيقاً حسن الصنعة ثم اتسع فيه.

واعلم أن ما ذكر في هذا المحل الرفيع من الحجب فهو في حق المخلوق، لا في حق الخالق عز وجل، والله سبحانه وتعالى منزه عما يحجب، إذ الحجب إنما تحيط بمقدر محسوس، فالخلق كلهم محجوبون عنه تعالى بمعاني الأسماء والصفات والأفعال، وسائر المخلوقات من معاني الأنوار والظلمات كل له مقام من الحجب معلوم، وحظ من الإدراك والمعرفة مقسوم، وأقرب الخلق إلى الله تعالى الملائكة الحافون والكروبيون، وهم محجوبون بنور المهابة والعظمة والكبرياء والجلال والقدس والقيومية، حجب الذات بالصفات. وهم في الحجب عنه على طبقات مختلفات، كل على مقام معلوم ودرجات.

وبالجملة، فالمخلوقات كلها ما كانت حجاباً عن الخالق؟ فقوم حجبوا برؤية النعم عن المنعم، وبرؤية الأحوال عن المحول، وبرؤية الأسباب عن المسبب، وقوم حجبوا بالعلم عن المعلم وبالفهم عن المفهم، وبالعقل عن المعقل، وذلك كله من معنى حجاب النعم عن المنعم، والمواهب عن الواهب.

وقوم حجبوا بالشهوات المباحة، وقوم بالشهوات المحرمات والمعاصي والسيئات، وقوم حجبوا بالمال والبنين وزينة الحياة الدنيا. اللهم لا تحجب قلوبنا عنك في الدنيا ولا أبصارنا عنك في الآخرة يا كريم.

وقد ورد في الصحيح عن أنس قال: (لما عرج بي جبريل إلى سدرة المنتهى. ودنا الجبار رب العزة جل جلاله فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى)[2] الحديث.

وهذا الدنو والتدلي المذكور في هذا الحديث وغيره من أحاديث المعراج غير الدنو

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الايمان برقم (٢٩٣).

(٢) الحديث في البخاري برقم (٧٥١٧) ولفظه: فأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة.

والتدلي المذكور في قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ [النجم: ٨ و ٩]. وإن اتفقا في اللفظ. فإن الصحيح أن المراد في الآية جبريل، لأنه الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٤]. هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح.

قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «ذاك جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين»[1]. ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه.

أحدها: أنه قال: ﴿علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٥]. وهذا جبريل الذي وصفه بالقوة في سورة التكوير.

الثاني: أنه قال: ﴿ذو مرة﴾ [النجم: ٦] أي حسن الخلق وهو الكريم الذي في سورة التكوير.

الثالث: أنه قال: ﴿فاستوى وهو بالأفق الأعلى﴾ [النجم: ٦ و ٧] وهو ناحية السماء العليا، وهذا استواء جبريل عليه السلام، وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه.

الرابع: أنه قال: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ [النجم ٨ و ٩] فهذا دنو جبريل وقد نزل إلى الأرض حيث كان رسول الله ﷺ بها. وأما الدنو والتدلي في حديث المعراج فرسول الله ﷺ كان فوق السماوات فهناك دنى الجبار جل جلاله منه وتدلى.

الخامس: أنه قال: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾ [النجم: ١٣ و ١٤] والذي عند سدرة المنتهى قطعاً هو جبريل، وبهذا فسره النبي ﷺ فقال: ذاك جبريل.

السادس: أن نفس الضمير في قوله: ﴿ولقد رآه﴾ [النجم: ١٣] وقوله: ﴿دنا فتدلى﴾ [النجم: ٨] وقوله: ﴿فاستوى﴾ [النجم: ٦] وقوله: ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ [النجم: ٧] واحد، فلا يجوز أن يخالف بين المفسرين من غير دليل.

السابع: أنه سبحانه وتعالى أخبر أن هذا الذي دنا فتدلى كان بالأفق الأعلى، وهو أفق السماء، بل تحتها فدنا من الأرض فتدلى من رسول الله ﷺ، ودنو الرب تبارك

---

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب الايمان رقم (٢٨٧) وفي مسند أبي عوانة ١/ ١٥٤ وفي الترمذي برقم (٣٢٧٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/٢٣٦.

وتدليه ـ على ما في حديث شريك ـ كان فوق العرش لا إلى الأرض.

ثم نفى سبحانه وتعالى عن نبيه ﷺ بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧] ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء من التفاته يميناً وشمالاً، ومجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانباً ولم يمد بصره إلى غير ما أري من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أريه دون التفاته إلى غيره ودون تطلعه إلى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجأش وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال.

وقال في «مدارج السالكين»: وفي هذه الآية أسرار عجيبة هي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر، صلوات الله وسلامه عليه، تواطأ هناك بصره وبصيرته وتوافقا وتصادقا، فما شاهده بصره فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضاً حق مشهود بالبصر، فتواطآ في حقه، أي: ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره، ولهذا قرأها هشام وأبو جعفر ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ [النجم: ١١] بتشديد الذال، أي لم يكذب القلب البصر بل صدقه وواطأه بصحة الفؤاد والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقاً. وقرأ الجمهور ﴿ما كذب الفؤاد﴾ [النجم: ١١] بالتخفيف، وهو متعد، و «ما رأى» مفعوله، أي: أي ما كذب قلبه ما رأت عيناه بل واطأه ووافقه.

فلمواطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته، لم يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حده، ولم يمل عن المرئي فيزيغ، بل اعتدل البصر على المرئي لم يتجاوزه ولا مال عنه لما اعتدل القلب في الإقبال على الله بكليته والإعراض عما سواه، فإنه أقبل على الله بكليته وأعرض عما سواه، بكليته.

وللقلب زيغ وطغيان، كما أن للبصر زيغاً وطغياناً وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلى غيره ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه، وهذا غاية الكمال والأدب مع الله تعالى الذي لا يلحقه فيه سواه، فإن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه، ألا ترى إلى موسى عليه السلام، لما أقيم مقام التكليم والمناجاة طلبت نفسه الرؤية، ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام وفاه حقه، ولم يتلفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه البتة، ولأجل هذا ما عاقه عائق، ولا وقف به مراد، حتى جاوز السماوات السبع فلم تعقه إرادة منه لشيء، ولم تقف به دون كمال العبودية همة، ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطرف، فيضع قدمه عند

منتهى طرفه، مشاكلاً لحال راكبه وبعد شأوه الذي يسبق به العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يتخلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لا يتخلف عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مرتبة عبوديته له، حتى خرق حجب السماوات، وجاوز السبع الطباق، وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبت له هناك أقسام القرب انصباباً، وانقشعت سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجاباً، وأقيم مقاماً غبطه فيه الأنبياء والمرسلون.

فإذا كان في المعاد أقيم مقاماً من القرب تاماً، يغبطه فيه الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله تعالى، ما زاغ البصر وما طغى، فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط على الحق والهدى، وأقسم بكلامه القديم على ذلك في الذكر الحكيم فقال: ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾ [يس: ١ ـ ٤] فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط، فيسأل السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزوا إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ثم إن ما ذكر هنا من القرب والدنو، المراد به تأكيد المحبة والقربة، ورفع المنزلة والرتبة، قال جعفر الصادق: لما قرب الحبيب من الحبيب غاية القرب، نالته غاية الهيبة، فلاطفه الحق تعالى بغاية اللطف، وذلك قوله جل جلاله: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ [النجم: ١٠] أي كان ما كان وجرى ما جرى، وقال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب للحبيب: وألطف به الطاف الحبيب بالحبيب، فخفي السر ولم يطلع عليه أحد، ما أوحى إلا الذي أوحى.

وقال غيره في قوله: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ [النجم: ١٠] أبهمه لعظمه، فإن الإبهام قد يقع للتعظيم، فهو مبهم لا يطلع عليه بل يتعبد بالإيمان به. وقيل: بل هو مفسر بالأخبار الواردة، قال سعيد بن جبير: أوحى الله تعالى إليه ﷺ، ألم نجدك يتيماً فآويتك، ألم أجدك ضالاً فهديتك، ألم أجدك عائلاً فأغنيتك، ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك﴾ [الشرح: ١ ـ ٤]. وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك. ذكره الثعلبي والقشيري. وقيل: أوحى الله إليه: خصصتك بحوض الكوثر، فكل أهل الجنة أضيافك بالماء، ولهم الخمر واللبن والعسل. ذكره القشيري. وذكر أيضاً: أنه أوحى إليه ما أوحى إلى الرسل لقوله تعالى: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ [فصلت: ٤٣]. وقيل: أوحى إليه الصلوات الخمس.

وفي رواية أبي سعيد الخدري عند البيهقي: أن الله تعالى قال له صلوات الله وسلامه عليه: سل، فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الإنس والجن والشياطين، وسخرت له الرياح، وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليهما سبيل. فقال له ربه تعالى: قد اتخذتك حبيباً، فهو مكتوب في التوراة: حبيب الرحمن، وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولون وهم الآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشي لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام والهجرة والجهاد والصلاة والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلتك فاتحاً وخاتماً. وفي إسناده أبو جعفر الرازي ضعفه بعضهم، وقال أبو زرعة: إنه متهم، وقال ابن كثير: الأظهر أنه سيء الحفظ.

وذكر الفخر الرازي عن والده قال: سمعت أبا القاسم سليمان الأنصاري يقول: لما وصل محمد ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعارج، أوحى الله تعالى إليه: يا محمد بم شرفك؟ قال: يا رب، بنسبتي إليك بالعبودية. فأنزل الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ [الإسراء: ١] فسماه تعالى بهذا الاسم لتحققه ﷺ بالاسم الأعظم واتصافه بجميع صفاته، فلا يصلح هذا الاسم بالحقيقة إلا له ﷺ وللأقطاب من بعده بتبعيته لا بالحقيقة، وإن أطلق على غيره مجازاً، ويرحم الله الأديب برهان الدين القيراطي فلقد أجاد حيث قال:

ودعتني بالعبد يوماً فقالوا قد دعته بأشرف الأسماء

ولبعض أهل الإشارات: كأن الله تعالى قال له: يا محمد، قد أعطيتك نوراً تنظر به جمالي، وسمعاً تسمع به كلامي، يا محمد، إني أعرفك بلسان الحال معنى عروجك إلي، يا محمد، أرسلتك إلى الناس شاهداً ومبشراً ونذيراً، والشاهد مطالب بحقيقة ما يشهد به، فأريك جنتي لتشاهد ما أعددت فيها لأوليائي، وأريك ناري لتشاهد ما أعددت

فيها لأعدائي، ثم أشهدك جلالي، وأكشف لك جمالي لتعلم أني منزه في كمالي عن الشبيه والنظير، والوزير والمشير، فرآه ﷺ بالنور الذي قواه من غير إدراك ولا إحاطة فرداً صمداً، لا في شيء، ولا من شيء، ولا قائماً بشيء، ولا على شيء، ولا مفتقراً إلى شيء، ليس كمثله شيء، فلما كلمه شفاها، وشاهده كفاحاً، فقيل له: يا محمد لا بد لهذه الخلوة من سر لا يذاع ورمز لا يشاع، فأوحى إلى عبده ما أوحى، فكان سراً من سر، لم يقف عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وأنشد لسان الحال:

بين المحبين سر ليس يفشيه ... قول ولا قلم في الكون يحكيه
سر يمازجه أنس يقابله ... نور تحير في بحر من التيه

ولما انتهى إلى العرش تمسك العرش بأذياله، وناداه بلسان حاله: يا محمد، أنت في صفاء وقتك من مقتك أشهدك جمال أحديته، وأطلعك على جلال صمديته، وأنا الظمآن إليه اللهفان عليه المتحير فيه لا أدري من أي وجه آتيه، جعلني أعظم خلقه، فكنت أعظمهم منه هيبة، وأكثرهم فيه حيرة، وأشهدهم منه خوفاً. يا محمد، خلقني فكنت أرعد لهيبة جلاله، فكتب على قائمتي، لا إله إلا الله فازددت لهيبة إسمه ارتعاداً وارتعاشاً، فكتب محمد رسول الله، فسكن لذلك قلقي، وهدأ روعي، فكان اسمك لقاحاً لقلبي، وطمأنينة لسري، فهذه بركة كتابة اسمك علي، فكيف إذا وقع جميل نظرك إلي، يا محمد أنت المرسل رحمة للعالمين، ولا بد لي من نصيب من هذه الرحمة، ونصيبي يا حبيبي أن تشهد لي بالبراءة مما نسبه أهل الزور إلي، وتقوله أهل الغرور علي، زعموا: أني أسع من لا مثيل له، وأحيط بمن لا كيفية له. يا محمد، من لا حدَّ لذاته، ولا عدَّ لصفاته كيف يكون مفتقراً إلي؟ أو محمولاً علي؟ إذا كان الرحمن اسمه، والاستواء صفته وصفته متصلة بذاته فكيف يتصل بي أو ينفصل عني؟ يا محمد، وعزلته، لست بالقريب منه وصلاً، ولا بالبعيد عنه فصلاً، ولا بالمطيق له حملاً، أوجدني رحمة منه وفضلاً، ولو محقني لكان حقاً منه، وعدلاً، يا محمد، أنا محمول قدرته، ومعمول حكمته.

فأجاب لسان حال سيدي، زاده الله فضلاً وشرفاً لديه، ووالى صلاته وسلامه عليه: أيها العرش إليك عني، أنا مشغول عنك، فلا تكدر علي صفوتي، ولا تشوش علي خلوتي، فما أعاره ﷺ منه طرفاً، ولا أقرأه من مسطور ما أوحي إليه حرفاً، ما زاغ البصر وما طغى.

وقد ورد في بعض أخبار الإسراء مما ذكره العلامة ابن مرزوق في شرحه لبردة المديح: أنه ﷺ لما كان من ربه تعالى قاب قوسين قال: اللهم إنك عذبت الأمم بعضهم بالحجارة وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالمسخ، فما أنت فاعل بأمتي؟ قال: أنزل عليهم الرحمة وأبدل سيئاتهم حسنات، ومن دعاني منهم لبيته، ومن سألني أعطيته، ومن توكل

علي كفيته، وفي الدنيا أستر على العصاة، وفي الآخرة أشفعك فيهم، ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه لما حاسبت أمتك. ولما أراد ﷺ الانصراف قال: يا رب، لكل قادم من سفره تحفة، فما تحفة أمتي؟ قال الله تعالى: أنا لهم ما عاشوا، وأنا لهم إذا ماتوا، وأنا لهم في القبور، وأنا لهم في النشور.

واعلم أنه قد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في رؤيته ﷺ لربه ليلة الإسراء. فروى البخاري من حديث مسروق قال: (قلت لعائشة: يا أمتاه، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ [الأنعام: ١٠٣] ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾ [الشورى: ٥١] ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ [لقمان: ٣٤] ومن حدثك أنه كتم فقد كذب، ثم قرأت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة: ٦٧] الآية، [ولكن][1] رأى جبريل في صورته مرتين)[2].

وفي رواية مسلم (من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية). وقولها: «قف شعري» أي قام من الفزع، لما حصل عندها من هيبة الله، واعتقدته من تنزيهه واستحالة وقوع ذلك. قال النووي ـ تبعاً لغيره ـ: لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية، وقد خالفها غيرها من الصحابة، والصحابي إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك القول حجة اتفاقاً، انتهى.

قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني: جزمه بأن عائشة لم تنف الرؤية بحديث مرفوع، تبع فيه ابن خزيمة، وهو عجيب، فقد ثبت عنها في صحيح مسلم ـ الذي شرحه الشيخ ـ فعنده من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق، في الطريق المذكورة، قال مسروق: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: ألم يقل الله: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ [النجم: ١٣].

فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عن هذا فقلت: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ فقال: لا، إنما رأيت جبريل منهبطاً.

---

(١) هكذا في البخاري وفي الأصل [ولكنه].

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (١) رقم الحديث (٤٨٥٥).

نعم، احتجاج عائشة ـ رضي الله عنها ـ بالآية، خالفها فيه ابن عباس. فأخرج الترمذي من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: (رأى محمد ربه، فقلت: أليس يقول الله: (لا تدركه الأبصار) [الأنعام: ١٠٣] قال: ويحك، ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربه مرتين)[1]. وقال القرطبي: «الأبصار» في الآية جمع محلى بالألف واللام، فيقبل التخصيص، وقد ثبت دليل ذلك سمعاً في قوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ [المطففين: ١٥] فيكون المراد: الكفار، بدليل قوله في الآية الأخرى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢ و ٢٣]، وإذا جازت في الآخرة جازت في الدنيا لتساوي الوقتين بالنسبة إلى المرئي، انتهى وهو استدلال جيد.

وقال القاضي عياض: رؤية الله تعالى جائزة عقلاً، وليس في العقل ما يحيلها، والدليل على جوازها: سؤال موسى ـ عليه السلام ـ لها، ثم قال: وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها، إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة، ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣] لاختلاف التأويلات في الآية، انتهى.

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن إسماعيل بن علية في تأويل هذه الآية قال: هذا في الدنيا. وقال آخرون: لا تدركه الأبصار، أي جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة. وقال آخرون من المعتزلة، بمقتضى ما فهموا من هذه الآية: أنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة. فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢ و ٢٣] وقوله: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ [المطففين: ١٥] قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى. وأما السنة: فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس وجرير، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله تبارك وتعالى في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله منهم. وقيل: المنفي في الآية، إدراك العقول: قال الحافظ ابن كثير: وهو غريب جداً، وخلاف ظاهر الآية.

وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي، ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو، وإن رآه المؤمنون، كما أن من

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٢٧٩).

رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك، وله المثل الأعلى.

وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة، قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية: كما لا يلزم من عدم الرؤية عدم العلم. وفي صحيح مسلم (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك[1]) ولا يلزم من هذا عدم الثناء فكذلك هذا.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣] فقال: لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا، صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً. قال ابن كثير: غريب، لا يعرف إلا من هذا الوجه ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة والله أعلم.

ومما نسب لإمام الحرمين في «لمع الأدلة» أنه قال: من أصحابنا من قال: إن الرب تعالى يُرى ولا يُدرَك، لأن الإدراك ينبي عن الإحاطة، ودرك الغاية، والرب جل جلاله تقدس عن الغاية والنهاية، ثم قال: فإن عارضوا بقوله تعالى في جواب موسى عليه السلام: ﴿لن تراني﴾ [الأعراف: ١٤٣] وزعموا: أن «لن» تفيد النفي على التأبيد، قلنا: هذه الآية أوضح الأدلة على جواز الرؤية، فإنها لو كانت مستحيلة لكان معتقد جواز الرؤية ضالاً وكافراً، وكيف يعتقد ما لا يجوز على الله تعالى من اصطفاه لرسالته واختاره لنبوته، وخصه بكرامته، وشرفه بتكليمه، وجعله أفضل أهل زمانه، وأيده ببرهانه، وكيف يجوز على الأنبياء الريب في أمر يتعلق بعلم الغيب. فيجب حمل الآية على أن ما اعتقد موسى عليه السلام جوازه جائز، لكن ظن أن ما اعتقد جوازه ناجز، فرجع النفي في الجواب إلى الإنجاز، وما سأل موسى عليه السلام ربه رؤيته في المآل، فصرف النفي إليه، والجواب يدل على قضية الخطاب، انتهى.

وقال البيضاوي: في هذه الآية دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة، لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله تعالى، ولذلك رده بقوله: ﴿لن تراني﴾ [الأعراف: ١٤٣] دون: لن أرى، انتهى.

ونقل القاضي عياض عن أبي بكر الهذلي، في الآية، أن المراد: ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إليَّ في الدنيا، وأنه من نظر إليَّ مات. قال: وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه: أن رؤيته تبارك وتعالى في الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم، وكونها متغيرة، غرضاً للآفات والفناء، فلم تكن لهم قوة على الرؤية، فإذا كان في الآخرة وركبوا تركيباً آخر، ورزقوا قوى ثابتة باقية، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم،

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة برقم (٢٢٢) والنسائي في قيام الليل (٥١) والترمذي في الدعوات (١١٢٠٧٥) ومالك في الموطأ في مس القرآن (٣١).

قووا بها على الرؤية. قال: وقد رأيت نحو هذا لمالك بن أنس ـ رحمه الله ـ قال: لم ير في الدنيا لأنه باق، ولا يرى الباقي بالفاني. فإذا كان في الآخرة رزقوا أبصاراً باقية، رؤي الباقي بالباقي، وهذا كلام حسن مليح، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القوة، فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه، انتهى.

والاستثناء في قوله: «إلا من حيث ضعف القوة» ينبغي أن يكون منقطعاً، على معنى: لكن من حيث ضعف القوة، وإلا فضعف القوة قصاراه أن يكون مانعاً، أي امتنع من جهة ضعف القوة لا من جهة كونه مستحيلاً، ويدل غلى هذا قوله: «فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقه». وقد وقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه (واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)[1]. واخرجه ابن خزيمة أيضاً من حديث أبي أمامة، ومن حديث عبادة بن الصامت.

فإن جازت الرؤية في الدنيا عقلاً فقد امتنعت شرعاً، لكن من أثبتها للنبي ﷺ له أن يقول: إن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه. وفي كلام ابن كثير: أن في بعض كتب الله المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى لما سأله الرؤية، يا موسى، إنه لن يراني حي إلا مات. وقد جزم القشيري ـ في الرسالة ـ بأنها لا تجوز في الدنيا على جهة الكرامة، وادعى حصول الإجماع عليه. وحكى القاضي عياض امتناعها في الدنيا عن جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين. وقال القشيري أيضاً: سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يحكي عن أبي الحسن الأشعري في ذلك قولين في كتاب الرؤية الكبير. انتهى.

وقد ذهبت عائشة وابن مسعود إلى أنه ﷺ لم ير ربه ليلة الإسراء. واختلف عن أبي ذر. وذهب جماعة إلى إثباتها. وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن: أنه حلف أن محمداً رأى ربه. وأخرج ابن خزيمة عن عروة ابن الزبير إثباتها، وبه قال سائر أصحاب ابن عباس. وجزم به كعب الأحبار والزهري، وصاحبه معمر وآخرون وهو قول الأشعري وغالب أتباعه. ثم اختلفوا: هل رآه بعينيه أو بقلبه؟ وجاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة، وأخرى مقيدة، فيجب حمل مطلقها على مقيدها، فمن ذلك، ما أخرجه النسائي بإسناد صحيح، وصححه الحاكم أيضاً من طريق عكرمة عن ابن عباس قال أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ.

ومنها: ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ما

---

(١) أخرج مسلم نحوه في كتاب الفتن برقم (٩٥) والترمذي برقم (٢٢٣٥).

كذب الفؤاد ما رأى﴾ [النجم: ١١] ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ [النجم: ١٣] قال: رآه بفؤاده مرتين. وله: من طريق عطاء عن ابن عباس قال: رآه بقلبه. وأصرح من ذلك: ما أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء عن ابن عباس قال: لم يره رسول الله ﷺ بعينيه وإنما رآه بقلبه.

وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة، بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب. لكن روى الطبراني في الأوسط بإسناد رجاله رجال الصحيح، خلا جهوّر بن منصور الكوفي، وجهور بن منصور قد ذكره ابن حبان في الثقات، عن ابن عباس أنه كان يقول: إن محمد ﷺ رأى ربه مرتين، مرة ببصره ومرة بفؤاده.

ثم المراد «برؤية الفؤاد» رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم، لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام. بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت له في قلبه كما تخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً، ولو جرت العادة بخلقها في العين. وروى ابن خزيمة بإسناد قوي عن أنس قال: (رأى محمد ربه) وفي مسلم من حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: (نور أنى أراه) أي حجابه نور فكيف أراه، ومعناه: أن النور منعني من الرؤية. وعند أحمد قال: (رأيت نوراً) ومن المستحيل أن تكون ذات الله تعالى نوراً، إذ النور من جملة الأعراض، والله تعالى يتعالى عن ذلك.

وعند ابن خزيمة عنه، قال: (رآه بقلبه ولم يره بعينه). وبهذا يتبين مراده في حديث أبي ذر بذكر النور، أي أن النور حال بينه وبين رؤيته له ببصره. وجنح ابن خزيمة في كتاب التوحيد إلى ترجيح الإثبات، وأطنب في الاستدلال بما يطول ذكره، وحمل ما ورد عن ابن عباس على أن الرؤية وقعت مرتين: مرة بقلبه ومرة بعينه.

ومما يعزى للأستاذ عبد العزيز المهدوي: أنه ﷺ لما رجع من سفر الإسراء، أخبر العوالم من حيث فلكهم مراتبهم، وسقى كل واحد من كأسه، وعلى قدر عقله، فخاطب الكفار، وهم آخر العوالم بما رأى في الطريق، وما كان في المسجد الأقصى على العيان وبما يعرفون، لأنهم في فلك الأجسام، حتى صدقوا بالإسراء، ثم ارتقى حتى حدث عن فلك السماء، وكذلك في كل سماء، وأخبر عما شاهد ورأى في كل فلك وما يليق أن يحدث به ـ أعني الصحابة ـ كلا على قدر مرتبته بلا ضيق ولا مزاحم إلى السماء السابعة، ولما وصل مقام جبريل تحدث عن الأفق المبين، وعما فوق إلى الدنو وإلى التدلي إلى موضع الإيحاء عند حضرة إسقاط الصور والخلق، فأخبر بذلك أصحابه، فمنهم من قال: رأى جبريل بالأفق المبين، وبالأفق الأعلى، وصدق، ومنهم من قال برؤية الفؤاد والبصيرة

وصدق، وهي عائشة ومن معها، ومنهم من قال: بعيني رأسه رأى وصدق. فكل أخبر بما حدثه ﷺ من مقامه وسقاه من كأسه وما يليق به، فإذا صح هذا المعراج عرفت الأمر، ومقامات الرؤية والقائلين بذلك وقولهم الجميع الحق انتهى.

وممن أثبت الرؤية لنبينا ﷺ الإمام أحمد. فروى الخلال[1] في «كتاب السنن» عن المروزي: قلت لأحمد: إنهم يقولون إن عائشة قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، فبأي معنى يدفع قولها؟ قال: بقول النبي ﷺ: «(رأيت ربي)» فقول النبي أكبر من قولها.

وقد أنكر صاحب «الهدي» على من زعم أن أحمد قال: رأى ربه بعيني رأسه. قال: وإنما قال مرة: رأى محمد ربه، وقال مرة: بفؤاده. وحكى عن بعض المتأخرين: رأى بعيني رأسه. وهذا من تصرف الحاكي، فإن نصوصه موجودة انتهى.

وقد رجح القرطبي في «المفهم» قول الوقف في هذه المسألة، وعزاه لجماعة من المحققين، وقواه: بأنه ليس في الباب دليل قاطع، وغاية ما استدل به الطائفتان ظواهر متعارضة، قابلة للتأويل. قال: وليست المسألة من العمليات فيكتفى فيها بالأدلة الظنية، وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفي فيها إلا بالدليل القطعي. والله أعلم.

وأما قوله في الحديث: (ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة في كل يوم). ففي رواية ثابت البناني عن أنس عند مسلم (ففرض الله علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة). ونحوه في رواية مالك بن صعصعة عند البخاري أيضاً. ويحتمل أن يقال: ذكر الفرض عليه يستلزم الفرض على الأمة، وبالعكس، إلا ما استثني من خصائصه.

وفي حديث ثابت عن أنس عند مسلم (فنزلت إلى موسى، فقال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب، خفف عن أمتي، فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في اليوم والليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة. ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف،

---

(١) هو الحسن بن علي بن محمد الخلال الهذلي الحلواني أبو علي محمدث حافظ توفي سنة (٢٤٢ هـ) انظر معجم المؤلفين ٣/ ٢٦١.

فقلت: لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه).

وفي رواية النسائي عن أنس: فقال لي: إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك، وذكر مراجعته مع موسى، وفيه: فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتان فما قاموا بهما. وقال في آخره: فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. قال: فعرفت أنها عزمة من الله فرجعت إلى موسى فقال: ارجع، فلم أرجع.

فإن قلت: لم قال موسى عليه السلام لنبينا ﷺ: إن أمتك لا يطيقون ذلك، ولم يقل: أنت وأمتك لا تطيقون ذلك؟

أجيب: بأن العجز مقصور على الأمة لا يتعداهم إلى النبي ﷺ، فهو لما رزقه الله تعالى من الكمال يطيق ذلك وأكثر منه، وكيف لا وقد جعلت قرة عينه في الصلاة. قال العارف ابن أبي جمرة: والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عرج به ورأى في تلك الليلة تعبد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله تعالى له ولأمته تلك العبادات كلها في ركعة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

وقد وقع من موسى عليه السلام من العناية بهذه الأمة في أمر الصلاة ما لم يقع لغيره، ووقعت الإشارة لذلك في حديث أبي هريرة عند الطبراني والبزار، قال ﷺ: «كان موسى أشدهم علي حين مررت، وخيرهم لي حين رجعت». وفي حديث أبي سعيد: فأقبلت راجعاً فمررت بموسى، ونعم الصاحب كان لكم، فسألني كم فرض عليك ربك. الحديث.

قال السهيلي: وأما اعتناء موسى عليه السلام بهذه الأمة، وإلحاحه على نبيها أن يشفع لها ويسأل التخفيف عنها، فكقوله ـ والله أعلم ـ حين قضي إليه الأمر بجانب الغربي، ورأى صفات أمة محمد ﷺ في الألواح، وجعل يقول: إني أجد في الألواح أمة صفتهم كذا، اللهم اجعلهم أمتي، فيقال له: تلك أمة أحمد، وهو حديث مشهور وقد تقدم ذكره في خصائص هذه الأمة. قال: فكان إشفاقه عليهم واعتناؤه بأمرهم كما يعتني بالقوم من هو منهم لقوله اللهم اجعلني منهم انتهى.

وقال القرطبي: الحكمة في أمر موسى بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلوات يحتمل أن تكون لكون أمة موسى عليه السلام كلفت من الصلوات ما لم يكلف به غيرها من الأمم قبلها، فثقلت عليهم، فأشفق موسى على أمة محمد ﷺ مثل ذلك، ويشير إليه قوله: إني جربت الناس قبلك. انتهى.

ووقع في كلام بعض أهل الإشارات: لما تمكنت نار المحبة من قلب موسى

أضاءت له أنوار نور الطور، فأسرع إليها ليقتبس فاحتبس، فلما نودي من النادي، اشتاق إلى المنادي، فكان يطوف في بني إسرائيل: من يحملني رسالة إلى ربي، ومراده أن تطول المناجاة مع الحبيب، فلما مر علينا نبينا ﷺ ليلة المعراج، ردده في أمر الصلوات ليسعد برؤية حبيب الحبيب.

وقال آخر: لما سأل موسى عليه السلام الرؤية، ولم تحصل له البغية، بقي الشوق يقلقه، والأمل يعلله، فلما تحقق أن سيدنا محمداً الحبيب منح الرؤية، وفتح له باب المزية، أكثر السؤال ليسعد برؤية من قد رأى. كما قيل:

واستنشق الأرواح من نحو أرضكم | لعلي أراكم أو أرى من يراكم
وأنشد من لاقيت عنكم عساكم | تجودون لي بالعطف منكم عساكم
فأنتم حياتي إن حييت وإن أمت | فيا حبذا إن مت عبد هواكم

وقال آخر:

وإنما السر في موسى يردده | ليجتلي حسن ليلى حين يشهده
يبدو سناها على وجه الرسول فيا | لله در رسول حين أشهده

وقال آخر: لما جلس الحبيب في مقام القرب، دارت عليه كؤوس الحب، ثم عاد، وهلال ما كذب الفؤاد ما رأى بين عينيه، وسرٌّ فأوحى إلى عبده ما أوحى ملء قلبه وأذنيه، فلما اجتاز بموسى عليه السلام، قال لسان حاله لنبينا ﷺ:

يا وارداً من أهيل الحي يخبرني | عن جيرتي شنف الأسماع بالخبر
ناشدتك الله يا راوي حديثهم | حدث فقد ناب سمعي اليوم عن بصر

فأجاب لسان حال نبينا ﷺ يقول:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا | سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفي نظرة أملتها | فغدوت معروفاً وكنت منكراً

فكل قوم يلحظون مذهبهم، وقد علم كل أناس مشربهم، والله بفضله وإحسانه يوالي انسجام سحائب عفوه ورضوانه على العارف الرباني أبي عبد الرحمن السلمي، فلقد أجاد إذ أفاد بما أفرد من لطائف المعراج حسبما جمعه من كلام أهل الإشارات، بأقوم منهاج.

وقد استدل العلماء بقوله في الحديث (فهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون): على عدم فرضية ما زاد على الصلوات الخمس، كالوتر. وعلى دخول النسخ قبل الفعل. قال ابن بطال وغيره: ألا ترى أنه عز وجل نسخ

الخمسين بالخمس قبل أن تصلى؟ ثم تفضل عليهم بأن أكمل لهم الثواب.

وتعقبه ابن المنير فقال: هذا ذكره طوائف من الأصوليين والشراح وغيرهم، وهو مشكل على من أثبت النسخ قبل الفعل كالأشاعرة، أو منعه كالمعتزلة. لكونهم اتفقوا جميعاً على أن النسخ لا يتصور قبل البلاغ. وحديث الإسراء وقع فيه النسخ قبل البلاغ، فهو مشكل عليهم جميعاً. اهـ.

فإن أراد قبل البلاغ لكل أحد فممنوع، وإن أراد قبل البلاغ إلى بعض الأمة فمسلَّم، لكن قد يقال: ليس هو بالنسبة إليهم نسخاً، لكن هو نسخ بالنسبة إلى النبي ﷺ لأنه كلف بذلك قطعاً، ثم نسخ بعد أن بلغه وقبل أن يفعله، فالمسألة صحيحة التصوير في حقه ﷺ.

ولما رجع ﷺ من سفر الإسراء، مر في طريقه بعير لقريش تحمل طعاماً، فيها جمل يحمل غرارتين: غرارة سوداء وغرارة بيضاء، فلما حاذى العير نفرت منه واستدارت وانصرع ذلك البعير.

وفي رواية: مر بعير قد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان. قال ﷺ: فسلمت عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتى مكة قبل الصبح وأخبر قومه بما رأى، وقال لهم: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعيركم في مكان كذا وكذا، وقد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان، وأن مسيرهم ينزلون بمكان كذا وكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى إذا كان قريب من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه ﷺ.

وفي رواية البيهقي: سألوه آية، أخبرهم بقدوم العير يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا حتى كادت الشمس أن تغرب، فدعا الله تعالى فحبس الشمس حتى قدموا كما وصف. وعن عائشة: لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس كانوا آمنوا، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح فقال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي الصديق. رواه الحاكم في المستدرك، وابن إسحاق. وزاد:

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس في هذه الليلة؟ قال: نعم، فقال: يا نبي الله صفه لي فإني قد جئته، قال

الحسن: فقال رسول الله ﷺ: فرفع لي المسجد حتى نظرت إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، فيقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله، كلما وصف له منه شيئاً.

وقول أبي بكر: صفه لي، لم يكن عن شك، فإنه صدقه من أول وهلة، ولكنه أراد إظهار صدقه لقومه، فإنهم كانوا يثقون بأبي بكر، فإذا طابق خبره ﷺ ما كان يعلم أبو بكر وصدقه كان حجة ظاهرة عليهم. وفي رواية البخاري (فجلا الله لي بيت المقدس) أي كشف الحجب بيني وبينه حتى رأيته. وفي رواية مسلم: (فسألوني عن أشياء لم أثبتها، فكربت كرباً شديداً لم أكرب مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به).

فيحتمل أن يكون حمل إلى أن وضع بحيث يراه، ثم أعيد، ففي حديث ابن عباس عند أحمد والبزار: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع عند دار عقيل فنعته وأنا أنظر إليه.

وهذا أبلغ في المعجزة، ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس في طرفة عين.

وأما ما وقع في حديث أم هانىء عند ابن سعد: فخيل إلي بيت المقدس، وطفقت أخبرهم عن آياته، فإن ثبت احتمل أن يكون مُثِل قريباً منه، كما قيل في حديث: (أريت الجنة والنار) ويؤول قوله: جيء بالمسجد، أي جيء بمثاله.

وفي حديث أم هانىء المذكور: أنهم قالوا له: كم للمسجد من باب، قال: ولم أكن عددتها قال: فجعلت أنظر إليه وأعدها أنظر إليه وأعدها باباً باباً.

وعند أبي يعلى: إن الذي سأله عن صفة بيت المقدس هو المطعم بن عدي، والد جبير بن مطعم.

وأشار ابن أبي جمرة: إلى أن الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس إظهار الحق للمعاند، لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح، حيث سألوه عن جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها، وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك، فلما أخبرهم بها حصل التحقيق أنه أسري به إلى بيت المقدس. وإذا صح البعض لزم تصحيح الباقي، فكان ذلك سبباً لقوة إيمان المؤمنين، وزيادة في شقاء من عاند وجحد من الكافرين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

# فيما ورد في آي التنزيل من تعظيم قدره ﷺ

فيما ورد في آي التنزيل من تعظيم قدره ﷺ ورفعة ذكره، وشهادته تعالى بصدق نبوته، وثبوت بعثته، وقسمه تعالى على تحقيق رسالته، وعلو منصبه الجليل ومكانته، ووجوب طاعته، واتباع سنته، وأخذه تعالى له الميثاق على سائر النبيين فضلاً ومنة ليؤمنن به إن أدركوه ولينصرنه، والتنويه به في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل بأنه صاحب الرسالة والتبجيل وغير ذلك.

اعلم أطلعني الله وإياك على أسرار التنزيل، ومنحنا بلطفه تبصرة تهدينا إلى سواء السبيل، أنه لا سبيل لنا أن نستوعب الآيات الدالة على ذلك، وما فيها من التصريح والإشارة إلى علو محله الرفيع ومرتبته، ووجوب المبالغة في حفظ الأدب معه، وكذلك الآيات التي فيها ثناؤه تعالى عليه وإظهار عظيم شأنه لديه، وقسمه تعالى بحياته، ونداؤه بـ «الرسول» وبـ «النبي» ولم يناده باسمه بخلاف غيره من الأنبياء، فناداهم بأسمائهم إلى غير ذلك مما يشير إلى أناقة قدره العلي عنده، وأنه لا مجد يساوي مجده. ومن تأمل القرآن العظيم وجده طافحاً بتعظيم الله تعالى لنبيه ﷺ. ويرحم الله ابن الخطيب الأندلسي حيث قال:

مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثني على علياك نظم مديحي
وإذا كتاب الله أثنى مفصحاً ... كان القصور قصار كل فصيح

وهذا المقصد ـ أكرمك الله ـ يشتمل على عشرة أنواع:

## النوع الأول
## في آيات تتضمن تعظيم قدره ورفعة ذكره وجليل رتبته وعلو درجته على الأنبياء وتشريف منزلته[1]

قال الله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله﴾

---

(1) انظر الشفا للقاضي عياض ١/١٣ وما بعدها.

[البقرة: ٢٥٣]. قال المفسرون: يعني موسى عليه السلام، كلمه بلا واسطة، وليس نصاً في اختصاص موسى عليه السلام بالكلام، فقد ثبت أنه تعالى كلم نبينا ﷺ أيضاً كما مر. فإن قلت: إذا ثبت أنه ﷺ كلمه ربه وقام به هذا الوصف، فلِمَ لم يشتق له من من الكلام اسم الكليم، كما اشتق لموسى؟

أجيب: بأن اعتبار المعنى قد يكون لتصحيح الاشتقاق كاسم الفاعل فيطرد، بمعنى أن كل من قام به ذلك الوصف يشتق له منه اسم وجوباً، وقد يكون للترجيح فقط، كالكليم والقارورة فلا يطرد، وحينئذ فلا يلزم في كل من قام به ذلك الوصف أن يشتق له منه اسم، كما حققه القاضي عضد الدين[1]، وهذا ملخصه وتحريره، كما قاله الموسى سعد الدين التفتازاني. انتهى. وقوله: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ [البقرة: ٢٥٣] يعني محمداً ﷺ رفعه الله تعالى من ثلاثة أوجه:

بالذات في المعراج.

وبالسيادة على جميع البشر.

وبالمعجزات لأنه ﷺ أوتي من المعجزات ما لم يؤته نبي قبله.

قال الزمخشري: وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفي لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس، انتهى. وقد بينت هذه الآية وكذا قوله تعالى: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ [الإسراء: ٥٥]. أن مراتب الرسل والأنبياء متفاوتة، خلافاً للمعتزلة القائلين: بأنه لا فضل لبعضهم على بعض، وفي هاتين الآيتين رد عليهم.

وقال قوم: آدم أفضل لحق الأبوة. وتوقف بعضهم فقال: السكوت أفضل. والمعتمد الذي عليه جماهير السلف والخلف: أن الرسل أفضل من الأنبياء، وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض بشهادة هاتين الآيتين وغيرهما. ،

قال بعض أهل العلم ـ فيما حكاه القاضي عياض ـ: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آياته ومعجزاته أظهر وأشهر، أو تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأظهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله تعالى به من كرامته واختصاصه: من كلام أو خلة أو ما شاء الله من ألطافه وتحف ولايته واختصاصه، انتهى.

فلا مرية أن آيات نبينا ﷺ ومعجزاته أظهر وأبهر وأكثر وأبقى وأقوى، ومنصبه أعلى ودولته أعظم وأوفر وذاته أفضل وأظهر، وخصوصياته على جميع الأنبياء أشهر من

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد الأيجي، المحقق، يروي تصانيف البيضاوي.

أن تذكر، فدرجته أرفع من درجات جميع المرسلين، وذاته أزكى وأفضل من سائر المخلوقين.
وتأمل حديث الشفاعة في المحشر، وانتهائها إليه، وانفراده هناك بالسؤدد، كما قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة»(١) رواه ابن ماجه. وفي حديث أنس عند الترمذي: (أنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربي ولا فخر)(٢). لكن هذا لا يدل على كونه أفضل من آدم، بل من أولاده، فالاستدلال بذلك على مطلق أفضليته ﷺ على الأنبياء كلهم ضعيف. واستدل الشيخ سعد الدين التفتازاني لمطلق أفضليته ﷺ بقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠] قال: لأنه لا شك أن خيرية الأمة بحسب كمالهم في الدين، وذلك تابع لكمال نبيهم الذين يتبعونه.

واستدل الفخر الرازي ـ في المعالم ـ بأنه تعالى وصف الأنبياء بالأوصاف الحميدة، ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠]، فأمره أن يقتدي بأثرهم، فيكون إتيانه به واجباً، وإلا فيكون تاركاً للأمر، وإذا أتى بجميع ما أتوا به من الخصال الحميدة فقد اجتمع فيه ما كان متفرقاً فيهم، فيكون أفضل منهم، وبأن: دعوته ﷺ في التوحيد والعبادة وصلت إلى أكثر بلاد العالم بخلاف سائر الأنبياء، فظهر أن انتفاع أهل الدنيا بدعوته ﷺ أكمل من انتفاع سائر الأمم بدعوة سائر الأنبياء، فوجب أن يكون أفضل من سائر الأنبياء. انتهى. وقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قا[ل]: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي»(٣). وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً ـ ع[ند] البخاري ـ: (أنا سيد الناس يوم القيامة)(٤) وهذا يدل على أنه أفضل من آدم عليه السلا[م]

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (٤٦٧٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٥٤٠ وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٣/ ٥٧.

(٢) الحديث في الدر المنثور للسيوطي ٦/ ١١٩ وفي تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٣ وفي تفسير ابن كثير ٧/ ١٢ وفي زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٢٤٥ وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ١٣ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٩٦.

(٣) الحديث في مسلم كتاب الفضائل رقم (٣) وفي الترمذي برقم (٣١٤٨) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٨١ و ٣/ ٢ وفي الشفا ١/ ٣٩٩ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٧٤١ ـ ٥٧٦١) وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٢٠٤ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٩/ ٢٢٥ وفي كنز العمال (٣١٨٨١ ـ ٣٩٠٥٢).

(٤) الحديث في مسلم (٣٢٧) وفي البخاري (٤٧١٢) وفي الترمذي (٢٤٣٤) وفي المسند للإمام أحمد ابن حنبل ٢/ ٤٣٥ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٥٧٣ وفي مشكاة المصابيح (٥٥٧٥) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٣٧٧ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٧٧ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٧٢ وفي كنز العمال (٣٢٠٤٢ ـ ٣٩٠٥١).

ومن كل أولاده بل أفضل من الأنبياء، بل أفضل الخلق كلهم.

وروى البيهقي في فضائل الصحابة، أنه ظهر علي بن أبي طالب من البعد، فقال ﷺ: «هذا سيد العرب» فقالت عائشة: ألست بسيد العرب؟ فقال: «أنا سيد العالمين وهو سيد العرب» وهذا يدل على أنه أفضل الأنبياء، بل أفضل خلق الله كلهم. وقد روى هذا الحديث ـ أيضاً ـ الحاكم في صحيحه عن ابن عباس، لكن بلفظ: «أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب». وقال: إنه صحيح ولم يخرجاه.

وله شاهد من حديث عروة عن عائشة، وساقه من طريق أحمد ابن عبيد عن ناصح قال حدثنا الحسين عن علوان ـ وهما ضعيفان ـ عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة بلفظ: «ادعوا لي سيد العرب» قالت: فقلت يا رسول الله ألست سيد العرب؟ فقال: وذكره[1]. وكذا أورده من حديث عمر بن موسى الوجيهي ـ وهو ضعيف أيضاً ـ عن أبي الزبير عن جابر مرفوعاً: «ادعوا لي سيد العرب» فقالت عائشة: ألست بسيد العرب وذكره. قال شيخنا: وكلها ضعيفة. بل جنح الذهبي إلى الحكم على ذلك بالوضع. انتهى.

ولم يقل ﷺ: أنا سيد الناس عجباً وافتخاراً على من دونه، حاشاه الله من ذلك، وإنما قاله ﷺ إظهاراً لنعمة الله تعالى عليه، وإعلاماً للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله تعالى، وعلو منزلته لديه، لتعرف نعمة الله عليه وعليهم. وكذا العبد إذ لاحظ ما هو فيه من فيض المدد، وشهده من عين المنة ومحض الجود، وشهد مع ذلك فقره إلى ربه في كل لحظة، وعدم استغنائه عنه طرفة عين أنشأ له ذلك في قلبه سحائب السرور، فإذا انبسطت هذه السحائب في سماء قلبه وامتلأ أفقه بها أمطرت عليه وابل الطرب بما هو فيه من لذيذ السرور، فإن لم يصبه وابل فطل، وحينئذ يجري على لسانه الافتخار من غير عجيب ولا فخر، بل فرح بفضل الله وبرحمته، كما قال تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ [يونس: ٥٨] فالافتخار على ظاهره، والافتخار والإنكسار في باطنه، ولا ينافي أحدهما الآخر، وإلى هذا المعنى يشير قول العارف الرباني سيد علي الوفائي في قصيدته التي أولها:

| | |
|---|---|
| من أنت مولاه حاشا | علاه أن يتلاشا |
| والله يا روح قلبي | لا مات من بك عاشا |
| قوم لهم أنت ساقٍ | لا يرجعون عطاشا |

---

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ١/ ٦٣ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٦٤٤٨).

| | |
|---|---|
| لا قـص دهـر جنـاحـا | لـه وفـاؤك راشـا |
| بـك النعيـم مقيـم | لمـن وهبـت انتعـاشـا |
| ومـن بحـولـك يقـوى | لـن يضعـف الـدهـر جـاشـا |
| عبـد لـه بـك عـز | فكيـف لا يتحـاشـا |
| حـاشـا وفـاؤك يـرمـي | مـن أنـت مـولاه حـاشـا |

فإن قلت: فما الجمع بين هاتين الآيتين، وبين قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٦].

والحديث الثابت في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودي في قسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده فلطم اليهودي وقال: أي خبيث، وعلى محمد؟ فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ واشتكى على المسلم فقال ﷺ: «لا تفضلوني على الأنبياء» وفي رواية (لا تفضلوا بين الأنبياء)[١]. وحديث أبي سعيد الخدري عند البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «لا تخيروا بين الأنبياء»[٢]. وحديث ابن عباس عند البخاري ومسلم مرفوعاً (ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)[٣]. وحديث أبي هريرة عند الشيخين، (من قال: أنا خير من يونس ابن متى فقد كذب).

أجاب العلماء: بأن قوله عز وجل: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ [البقرة: ١٣٦] يعني: في الإيمان بما أنزل إليهم والتصديق بهم، والإيمان بأنهم رسل الله وأنبياؤه، والتسوية بينهم في هذا لا تمنع أن يكون بعضهم أفضل من بعض. وأجابوا عن الأحاديث بأجوبة:

فقال بعضهم: أن نعتقد أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الجملة. ونكف

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأنبياء باب (٣٥) رقم الحديث (٣٤١٤) ومسلم في كتاب الفضائل باب (٤٢) رقم الحديث (١٥٩) والطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٤٥٢ والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٤٩٢ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٣٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات رقم الحديث (٢٤١٢ - ٣٣٩٨ - ٤٦٣٨ - ٦٩١٦ - ٦٩١٧ - ٧٤٢٧). ومسلم كتاب الفضائل رقم الحديث (١٦٠). وابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ٥٢٦.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٤١٦) ومسلم في كتاب الفضائل رقم الحديث (١٦٣) والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٤٩٥.

عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا، قال ابن طغر بك: فإن أراد هذا القائل أن نكف عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا فصحيح، وإن أراد أنا لا نذكر في ذلك ما فهمناه من كتاب الله وروي لنا من حديث رسول الله ﷺ فسقيم.

وقال آخر: تفضل من رفع الله درجته بخصائص الحظوة والزلفى، ولا نخوض في تفضيل بعضهم على بعض في سياسة المنذرين والصبر على الدين، والنهضة في أداء الرسالة، والحرص على هدى الضلّال، فإن كلا منهم قد بذل في ذلك وسعه الذي لا يكلفه الله تعالى أكثر منه.

وقال آخر ـ مما حكاه القاضي عياض ـ: إن نهيه ﷺ عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فنهى عن التفضيل إذ يحتاج إلى توقيف، وإن من فضل بلا علم فقد كذب. قال الحافظ عماد الدين بن كثير: وفي هذا نظر. انتهى. ولعل وجه النظر من جهة معرفة المتقدم تاريخاً من ذلك. ثم رأيت في تاريخ ابن كثير أن وجه النظر ـ من جهة ـ أن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة، وما هاجر أبو هريرة إلا عام خيبر متأخراً، فيبعد أنه لم يعلمه بهذا إلا بعد هذا. وقال آخر: إنما قاله ﷺ عن طريق التواضع ونفي التكبر والعجب. قال القاضي عياض: وهذا لا يسلم من الاعتراض. وقيل: لا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقيص بعضهم أو الغض منه. وقيل: منع التفضيل في حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيها على حد واحد، لا يتفاضل. وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والرتب، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور أخر زائدة عليها، ولذلك منهم رسل وأولو عزم، انتهى، وهذا قريب من القول الثاني.

وقال ابن أبي جمرة في حديث يونس: يريد بذلك نفي التكييف والتحديد على ما قاله ابن خطيب الري، لأنه قد وجدت الفضيلة بينهما في عالم الحس، لأن النبي ﷺ أسري به إلى فوق السبع الطباق، ويونس نزل به إلى قعر البحر، وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» وقال ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي» وقد اختص ﷺ بالشفاعة الكبرى التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم السلام. فهذه الفضيلة وجدت بالضرورة، فلم يبق أن يكون قوله ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى» إلا بالنسبة إلى القرب من الله سبحانه وتعالى والبعد، فمحمد صلوات الله وسلامه عليه وإن أسري به لفوق السبع الطباق واخترق الحجب، ويونس عليه الصلاة والسلام وإن نزل به لقعر البحر فهما بالنسبة إلى القرب والبعد من الله سبحانه وتعالى على حد واحد. انتهى. وهو مروي عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس وعزي نحوه لإمام الحرمين.

وقال ابن المنير: إن قلت إن لم يفضل على يونس باعتبار استواء الجهتين بالنسبة إلى وجود الحق تعالى، فقد فضله باعتبار تفاوت الجهتين في تفضيل الحق فإنه تعالى فضل الملأ الأعلى على الحضيض الأدنى، فكيف لا يفضله عليه الصلاة والسلام على يونس، فإن لم يكن التفضيل بالمكان فهو بالمكانة بلا إشكال. ثم قال: قلت لم ينه عن مطلق التفضيل، وإنما نهى عن تفضيل مقيد بالمكان يفهم منه القرب المكاني فعلى هذا يحمل جمعاً بين القواعد، انتهى.

واختلف هل البشر أفضل من الملائكة؟ فقال جمهور أهل السنة والجماعة: خواص بني آدم، وهم الأنبياء، أفضل من خواص الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش، والمقربون والكروبيون والروحانيون. وخواص الملائكة أفضل من عوام بني آدم ـ قال التفتازاني: بالإجماع بل بالضرورة ـ وعوام بني آدم أفضل من عوام الملائكة. فالمسجود له أفضل من الساجد، فإذا ثبت تفضيل الخواص على الخواص ثبت تفضيل العوام على العوام، فعوام الملائكة خدم عمال الخير، والمخدوم له فضل على الخادم، ولأن المؤمنين ركب فيهم الهوى والعقل، مع تسليط الشيطان عليهم بوسوسته، والملائكة ركب فيهم العقل دون الهوى لا سبيل للشيطان عليهم. فالإنسان ـ كما قاله في شرح العقائد ـ يحصل الفضائل والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق والموانع من الشهوة والغضب وسنوح الحاجات الضرورية الشاغلة عن اكتساب الكمالات، ولا شك أن العبادة والكمالات مع الشواغل والصوارف أشق وأدخل في الإخلاص فتكون أفضل.

والمراد بعوام بني آدم ـ هنا ـ الصلحاء لا الفسقة، كما نبه عليه العلامة كمال الدين ابن أبي شريف المقدسي، قال: ونص البيهقي عليه في الشعب وعبارته: قد تكلم الناس قديماً وحديثاً في الملائكة والبشر، فذهب ذاهبون إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، وأن الأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. انتهى.

وذهب المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة إلى تفضيل الملائكة. وهو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني[1]، وأبي عبد الله الحليمي[2]، وتمسكوا بوجوه:

---

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر الباقلاني (٣٣٨ ـ ٤٠٣ هـ) قاض من علماء الكلام. توفي في بغداد. الاعلام ٦/١٧٦ وفيات الأعيان ١/٤٨١ تاريخ بغداد ٥/٣٧٩ الوافي بالوفيات ٣/١٧٧.

(٢) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني أبو عبد الله (٣٣٨ ـ ٤٠٣ هـ) فقيه قاض رئيس أهل الحديث فيما وراء النهر، مولده في جرجان ووفاته في بخارى. الاعلام ٢/٢٣٥ الرسالة المستطرفة ٤٤ كشف الظنون ٢/١٨٧١.

الأول: أن الملائكة أرواح مجردة كاملة بالفعل مبرأة عن مبادىء الشرور والآفات كالشهوة والغضب، وعن ظلمات الهيولى والصورة، قوية على الأفعال العجيبة عالمة بالكوائن ماضيها وآتيها من غير غلط.

والجواب: أن مبنى ذلك على الأصول الفلسفية دون الأصول الإسلامية.

الثاني: أن الأنبياء مع كونهم أفضل البشر يتعلمون ويستفيدون منهم بدليل قوله تعالى: ﴿علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٥] وقوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ [الشعراء: ١٩٣ و ١٩٤] ولا شك أن المعلم أفضل من المتعلم.

والجواب: أن التعليم من الله تعالى والملائكة إنما هم مبلغون.

الثالث: أنه أطرد في الكتاب والسنة تقديم ذكرهم على ذكر الأنبياء، وما ذلك إلا لتقدمهم في الشرف والرتبة.

والجواب: أن ذلك لتقدمهم في الوجود، أو لأن وجودهم أخفى فالإيمان بهم أقوى وبالتقديم أولى.

الرابع: قوله تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾ [النساء: ١٧٢]، فإن أهل اللسان يفهمون من ذلك أفضلية الملائكة على عيسى، إذ القياس في مثله الترقي من الأدنى إلى الأعلى، يقال: لا يستنكف من هذا الأمر الوزير ولا السلطان، ولا يقال: السلطان ولا الوزير. ثم لا قائل بالفصل بين عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم السلام.

والجواب: أن النصارى استعظموا المسيح بحيث يترفع أن يكون عبداً من عباد الله، بل ينبغي أن يكون ابناً له، لأنه مجرد لا أب له، وكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، بخلاف سائر العباد من بني آدم، فرد عليهم بأنه لا يستنكف من ذلك المسيح ولا من هو أعلى منه في هذا المعنى وهم الملائكة الذين لا أب لهم ولا أم، ويقدرون بإذن الله على أفعال أقوى وأعجب من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى فالترقي والعلو إنما هو في أمر التجرد وإظهار الآثار القوية لا في مطلق الشرف والكمال، فلا دلالة على أفضلية الملائكة، انتهى.

ثم الملائكة بعضهم أفضل من بعض، وأفضلهم الروح الأمين جبريل، المزكى من رب العالمين، المقول فيه من ذي العزة ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين﴾ [التكوير: ١٩ و ٢٠ و ٢١] فوصفه بسبع صفات، فهو أفضل الملائكة الثلاثة ـ الذين هم أفضل الملائكة على الإطلاق ـ وهم: ميكائيل وإسرافيل وعزرائيل.

وكذلك الرسل أفضل من الأنبياء، وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض، ومحمد ﷺ أفضل الأنبياء والرسل، كما تقدم. وأول الأنبياء آدم وآخرهم نبينا محمد ﷺ. فأما نبوة آدم فبالكتاب الدال على أنه قد أمر ونهي، مع القطع بأنه لم يكن في زمنه نبي آخر، فهو بالوحي لا غير، وكذا السنة والإجماع، فإنكار نبوته على ما نقل عن البعض يكون كفراً[1].

وقد اختلف في عدد الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك ما في حديث أبي ذر عند ابن مردويه في تفسيره، قال: قلت يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: .«ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير»، قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: «آدم»، ثم قال: «يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيث ونوح وخنوخ» وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم ـ، «وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك»[2]، وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان في كتاب «الأنواع والتقاسيم» وقد وسمه بالصحيح.

وخالفه ابن الجوزي فذكره في الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام. قال الحافظ ابن كثير: ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث، فالله أعلم. وروى أبو يعلى عن أنس مرفوعاً: كان من خلى من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى بن مريم، ثم كنت أنا والذين نص الله تعالى على أسمائهم في القرآن: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم، ولوط وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب، وموسى وهارون ويونس، وداود وسليمان وإلياس واليسع، وزكريا ويحيى وعيسى. وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين والله أعلم.

وقال الله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ [الشرح: ٤]. روى ابن جرير من حديث أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل عليه السلام» فقال: إن ربي وربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: «الله أعلم» قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي[3].

---

(١) انظر شرح العقائد النسفية صفحة ١٦٧ للشيخ سعد الدين التفتازاني والفتاوى الهندية ٢/ ٢٠١ وفيها: «فيمن يقول آمنت بجميع أنبيائه ولا أعلم أن آدم نبي أم لا يكفر. .». وانظر أيضاً كتاب أصول الدين لعبد القاهر التميمي ١٥٧ و ١٥٩ ومراتب الإجماع لابن حزم صفحة ١٧٣. باب في الإجماع من الإعتقادات يكفر من خالفه بإجماع «وذكر أن آدم نبي».

(٢) ذكره أبو نعيم في الحلية ١/ ١٦٧.

(٣) ذكره الهيثمي في موارد الظمآن (١٧٧٢) وفي مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٤ والطبري في التفسير ٣٠/ ١٥١ وابن كثير في التفسير ٨/ ٤٥٢.

وذكره الطبراني، وصححه ابن حبان. وروينا عن الإمام الشافعي قال: أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح: معناه لا أذكر إلا ذكرت معي، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قال الإمام الشافعي يعني ـ والله أعلم ـ ذكره عند الإيمان بالله، والأذان، قال: ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية انتهى. وقيل: رفعه بالنبوة. قاله يحيى بن آدم. وعن ابن عطاء: جعلتك ذكراً من ذكري. فمن ذكرك ذكرني، وعنه أيضاً: جعلت تمام الإيمان بذكري معك. وعن جعفر بن محمد الصادق: لا يذكرك أحد بالرسالة إلا ذكرني بالربوبية. قال البيضاوي: وأي رفعة مثل أن قرن اسمه باسمه في كلمتي الشهادة، وجعل طاعته طاعته، انتهى، يشير إلى قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠] ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة: ٦٢] ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ [النساء: ١٣] ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقول قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، انتهى. فهو مذكور معه في الشهادة والتشهد، ومقرون ذكره بذكره في القرآن والخطب والأذان، ويؤذن باسمه في موقف القيامة. وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة رفعه: لما نزل آدم عليه السلام بالهند استوحش فنزل جبريل عليه السلام فنادى بالأذان: الله أكبر، الله أكبر مرتين، أشهد أن لا إله إلا الله مرتين، أشهد أن محمداً رسول الله مرتين، الحديث. وكتب اسمه الشريف على العرش وعلى كل سماء، وعلى الجنان وما فيها. رواه ابن عساكر. وأخرج البزار عن ابن عمر مرفوعاً: لما عرج بي إلى السماء، ما مررت بسماء إلا وجدت اسمي مكتوباً فيها: محمد رسول الله. وفي الحلية عن ابن عباس رفعه: ما في الجنة شجرة عليها ورقة إلا مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله. وأخرج الطبراني من حديث جابر مرفوعاً: كان نقش خاتم سليمان بن داود عليهما السلام لا إله إلا الله محمد رسول الله. وعزاه الحافظ ابن رجب[1] في كتاب أحكام الخواتيم لجزء أبي علي الخالدي، وقال: إنه باطل موضوع. وشق اسمه الكريم من اسمه تعالى، كما قال حسان:

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي الدمشقي أبو الفرج زين الدين (٧٣٦ ـ ٧٩٥ هـ) حافظ للحديث من العلماء. ولد في بغداد وتوفي في دمشق. الاعلام ٣/ ٢٩٥ شذرات الذهب ٦/ ٣٣٩ الدرر الكامنة ٢/ ٣٢١ رقم الترجمة (٢٢٧٦) وفيه ولادته سنة (٧٠٦ هـ).

وسماه من أسمائه الحسنى بنحو سبعين اسماً، كما بينت ذلك في أسمائه صلوات الله وسلامه عليه، وصلى عليه في ملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، فقال تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] فأخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، فيجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً.

وكتبه نبياً وآدم بين الروح والجسد، وختم به النبوة والرسالة، وأعلن بذكره الكريم في الأولين والآخرين، ونوه بقدره الرفيع حين أخذ الميثاق على جميع النبيين، وجعل ذكره في فواتح الرسائل وخواتمها، وشرف به المصاقع على المنابر، وزين بذكره أرباب الأقلام والمحابر، ونشر ذكره في الآفاق شرقاً وغرباً، براً وبحراً، حتى في السماوات السبع وعند المستوى وصريف الأقلام، والعرش والكرسي، وسائر الملائكة المقربين من الكروبين والروحانيين والعلويين والسفليين، وجعله في قلوب المؤمنين بحيث يستطيعون ذكره فترتاح أرواحهم، وربما تميل من طرب سماع اسمه أشباحهم:

وإذا ذكرتكمُ أميل كأنني ... من طيب ذكركمُ سقيت الراحا

كأنه تعالى يقول: أملأ الوجود كله من أتباعك، كلهم يثنون عليك، ويصلون عليك ويحفظون سنتك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعها سنة، فهم متمسكون في الفريضة بأمري، وفي السنة بأمرك، وجعلت طاعتي طاعتك، وبيعتي بيعتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك، والوعاظ يبلغون بليغ وعظك، والملوك والسلاطين يقفون في خدمتك ويسلمون من وراء الباب عليك، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باق إلى أبد الآبدين، والحمد لله رب العالمين.

وقال تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [طه: ١ ـ ٢]. اعلم أن للمفسرين في (طه) قولين، أحدهما: أنها من حروف التهجي، والثاني أنها كلمة مفيدة.

وعلى الأولى: قيل معناها، يا مطمع الشفاعة للأمة، ويا هادي الخلق إلى الملة، وقيل: «الطاء» في الحساب بتسعة والهاء بخمسة، فالجملة أربعة عشر، ومعناه: يا أيها البدر، وهذه الأقوال لا يجب أن يعتمد عليها إذ هي، كما قاله المحققون، من بدع المفسرين، ومثلها قول الواسطي، فيما حكاه القاضي عياض في «الشفاء»، أراد: يا طاهر يا هادي.

وأما على قول من قال: إنها كلمة مفيدة، ففيه وجهان: أحدهما، أن معناه: يا

رجل، وهو مروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة. قال سعيد بن جبير: بلسان النبطية، وقال قتادة: بلسان السريانية، وقال عكرمة: بلسان الحبشية. وقال البيضاوي: إن صح إن معناه: يا رجل فلعل أصله: يا هذا فتصرفوا فيه بالقلب والاختصار، انتهى.

وقال الكلبي: لو قلت في «عَكّ»[1] يا رجل، لم يجبك حتى تقول: طه. وقال السدي: معنى طه يا فلان. وقال الزمخشري: لعل «عكاً» تصرفوا في «يا هذا» كأنهم في لغتهم قالبون «الياء» «طاء» فقالوا: في «ياطاء» واختصروا هذا فاقتصروا على «ها»، وأثر الصيغة ظاهر لا يخفى في البيت المستشهد به:

إن السفاهة طه في خلائقكم      لا قدس الله أخلاق الملاعين

قال في البحر: وقد كان قدم أن «طه» في لغة «عك» في معنى يا رجل، ثم تخوض وتجرأ على «عك» بما لا يقوله نحوي، وهو أنهم قلبوا «الياء» «طاء» وهذا لا يوجد في لسان العرب قلب «الياء» التي للنداء «طاء» وكذلك حذف اسم الإشارة في النداء وإقرار «ها» التي للتنبيه، انتهى.

وقيل: معناه يا إنسان. وقرىء (طه) بإسكان الهاء، على أنه أمر له ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه. وقد روي أنه ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معاً، وأن الأصل «طاء» فقلبت همزته هاء، كما قالوا «هياك» في: إياك، و «هرقت» في: أرقت. ويجوز أن يكون الأصل من وطىء على ترك الهمزة، فيكون أصله «طا» يا رجل ثم أثبتت الهاء فيها للوقف. وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل «طه»: طاها، والألف مبدلة من الهمزة والهاء كناية عن الأرض. لكن يرد ذلك: كتبهما على صورة الحرف.

وأما قوله تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [طه: ٢] فذكروا في سبب نزولها أقوالاً:

أحدها: أن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدي قالوا لرسول الله ﷺ: إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك، فقال ﷺ: «بل بعثت رحمة للعالمين» فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم، وتعريفاً له ﷺ بأن دين الإسلام والقرآن هو السلَّم إلى نيل كل فوز، والسبب في إدراك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها.

وثانيها: أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه، فقال له جبريل: أبق على نفسك، فإن لها عليك حقاً. أي ما أنزلناه عليك لتنتهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة

---

(١) هو عكّ بن عدنان أخو معد. وهم باليمن وليس في لغتهم لفظ «رجل» ويقابلها لفظ «طه».

العظيمة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحاء. وروي أنه كان إذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام. وقال بعضهم: كان يسهر طول الليل. وتعقب: بأنه بعيد، لأنه ﷺ إن فعل شيئاً من ذلك فلا بد أن يكون قد فعله بأمر الله تعالى، وإذا فعله عن أمره فهو من باب السعادة لا من باب الشقاوة.

وثالثها: قال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد، لا تشق على نفسك وتعذبها بالأسف على كفر هؤلاء، فإنما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به من آمن، فمن آمن وأصلح فلنفسه، ومن كفر فلا يحزنك كفره، فما عليك إلا البلاغ، وهذا كقوله: ﴿لعلك باخع نفسك ألاَّ يكونوا مؤمنين﴾ [الشعراء: ٣] ﴿فلا يحزنك كفره﴾ [لقمان: ٢٣].

رابعها: أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة، وفي ذلك الوقت كان ﷺ مقهوراً مع أعدائه، فكأنه تعالى قال: لا تظن أنك تبقى على هذه الحالة، بل يعلو أمرك ويظهر قدرك، فإنا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقياً، بل تصير معظماً مكرماً، زاده الله تعالى تعظيماً وتكريماً وتشريفاً.

وقال تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١] السورة. قال الإمام فخر الدين بن الخطيب: في هذه السورة كثير من الفوائد، منها: أنها كالتتمة لما قبلها من السور، وذلك لأن الله تعالى جعل سورة (والضحى) في مدح نبينا ﷺ، وتفصيل أحواله، فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته وهي قوله: ﴿ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [الضحى: ٣ ـ ٥] ثم ختمها كذلك بأحوال ثلاثة فيما يتعلق بالدنيا، وهي قوله تعالى: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاًّ﴾ [الضحى: ٦ و ٧] أي عن علم الحكم والأحكام ﴿فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى﴾ [الضحى: ٧ و ٨]. ثم ذكر في سورة ﴿ألم نشرح﴾ [الشرح: ١] أنه تعالى شرفه ﷺ بثلاثة أشياء وهي ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أي: ألم نفسحه حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق، ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ [الشرح: ٢]. أي عناءك الثقيل ﴿الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك﴾ وهكذا سورة سورة، حتى قال: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١] أي أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها. وإذ أنعمنا عليك بهذه النعم فاشتغل بطاعتنا ولا تبال بقولهم. ثم إن الاشتغال بالعبادة إما أن يكون بالنفس وهو قوله: ﴿فصلِ لربك﴾، وإما بالمال وهو قوله: ﴿وانحر﴾ [الكوثر: ٢].

وتأمل قوله: ﴿إنا أعطيناك﴾ [الكوثر: ١] كيف ذكر بلفظ الماضي، ولم يقل: سنعطيك، ليدل على أن هذا الإعطاء حصل في الزمان الماضي، قال ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» ولا شك أن من كان في الزمان الماضي عزيزاً مرعي الجانب أشرف

ممن سيصير كذلك، كأنه تعالى يقول: يا محمد قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في هذا الوجود، فكيف أمرك بعد وجودك واشتغالك بعبوديتنا يا أيها العبد الكريم، إنا لم نعطك هذا الفضل العميم لأجل طاعتك، وإنما اخترناك بمجرد فضلنا وإحساسنا من غير موجب. واختلف المفسرون في تفسير (الكوثر) على وجوه:

منها: أنه نهر في الجنة، وهذا هو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف، فروى أنس أن رسول الله ﷺ قال: (بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه مسك إذفر)[1] رواه البخاري.

وقيل: الكوثر أولاده، لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه ﷺ بعدم الأولاد، وعلى هذا فالمعنى: أنه يعطيه نسلاً يبقون على ممر الزمان. فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلىء منهم، ولم يتفق ذلك لنبي من الأنبياء غيره. وقيل: الكوثر الخير الكثير. وقيل: النبوة، وهي الخير الكثير. وقيل: علماء أمته، وقيل الإسلام، ولا ريب أنهما من الخير الكثير، فالعلماء ورثة الأنبياء، كما رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وأما «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» فقال الحافظ ابن حجر، ومن قبله الدميري والزركشي، أنه لا أصل له.. نعم روى أبو نعيم في فضل العالم العفيف بسند ضعيف عن ابن عباس رفعه: أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد. وقيل: الكوثر كثرة الأتباع والأشياع.

وعن بعضهم: المراد بالكوثر العلم، وحمله عليه أولى لوجوه: أحدها أن العلم هو الخير الكثير، والثاني: إما أن يحمل الكوثر على نعم الآخرة أو على نعم الدنيا، قال: والأول غير جائز لأنه قال: إنا أعطيناك الكوثر، والجنة سيعطيها لا أنه أعطاها، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه في الدنيا، وأشرف الأمور الواصلة إليه في الدنيا هو العلم والنبوة، فوجب حمل اللفظ على العلم، والثالث: أنه لما قال ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١] قال عقبة: ﴿فصل لربك وانحر﴾ [الكوثر: ٢] والشيء الذي يتقدم على العبادة هو المعرفة، ولأن «الفاء» في قوله (فصلِ) للتعقيب، ومعلوم أن الموجب للعبادة ليس إلا العلم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/٢٠٧ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/٤٩٨ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٦٦) والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/٥١٧ والعراقي في المغني ٤/٥١٣ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٩١٣٣).

وقيل الكوثر الخلق الحسن كما في حديث: ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة. رواه الطبراني. وعن ابن عباس: جميع نعم الله على نبيه ﷺ.

وبالجملة: فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من حملها على الباقي، فوجب حملها على الكل، ولذا روي أن سعيد بن جبير لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم: إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه.

قال الإمام فخر الدين بن الخطيب: قال بعض العلماء: ظاهر قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١] يقتضي أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر فيجب أن يكون الأقرب حمله على ما آتاه الله من النبوة والقرآن والذكر العظيم والنصر على الأعداء. وأما الحوض وسائر ما أعدَّ له من الثواب فهو وإن جاز أن يقال: إنه داخل فيه لأن ما ثبت بحكم وعد الله فهو كالواقع، إلا أن الحقيقة ما قدمناه، لأن ذلك وإن أعدَّ له فلا يصح أن يقال على الحقيقة إنه أعطاه الكوثر في حال نزول هذه السورة بمكة، ويحتمل أن يجاب عنه بأن من أقر لولده الصغير بشيء له، يصح أن يقال: أعطاه ذلك الشيء مع أن الصبي في ذلك الحال ليس أهلاً للتصرف. انتهى.

وقد روينا في صحيح مسلم من حديث أنس (بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا ما يضحكك أضحك الله سنك، يا رسول الله؟ قال: نزلت على آنفاً سورة فقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣]. ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي عليه يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك)[1]. وهذا تفسير صريح منه ﷺ بأن المراد بالكوثر ـ هنا ـ الحوض، فالمصير إليه أولى، وهذا هو المشهور كما تقدم: فسبحان من أعطاه هذه الفضائل العظيمة وشرفه بهذه الخصال العميمة، وحباه بما أفاضه عليه من نعمه الجسيمة.

وقد جرت عادة الله مع أنبيائه عليهم الصلاة والسلام أن يناديهم بأسمائهم الأعلام نحو: ﴿يا آدم اسكن﴾ [البقرة: ٣٥] ﴿يا نوح اهبط﴾ [هود: ٤٨] ﴿يا موسى إني أنا

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب الافتتاح رقم (٢١) ٢/١٣٤ ومسلم في كتاب الصلاة رقم الحديث (٥٣) وأبو داود في كتاب الصلاة أيضاً رقم الحديث (٧٨٤) والترمذي نحوه برقم (٢٥٤٢).

الله﴾ [القصص: ٣٠] ﴿يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك﴾ [المائدة: ١١٠]، وأما نبينا محمد ﷺ فناداه بالوصف الشريف من الإنباء والإرسال فقال: (يا أيها الرسول) (يا أيها النبي). ولله در القائل:

فدعا جميع الرسل كلاً باسمه ودعاك وحدك بالرسول وبالنبي

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ولا يخفي على أحد أن السيد إذا دعا عبيده بأفضل ما أوجد لهم من الأوصاف العلية والأخلاق السنية ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر بوصف من الأوصاف، ولا بخلق من الأخلاق، أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم، وهذا معلوم بالعرف: أن من دعي بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه. انتهى.

وانظر ما في نحو قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠] من ذكر «الرب» تعالى وإضافته إليه ﷺ، وما في ذلك من التنبيه على شرفه واختصاصه بخطابه، وما في ذلك من الإشارة اللطيفة، وهي أن المقبل عليه بالخطاب، له الحظ الأعظم، والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها إذ هو في الحقيقة أعظم خلفائه. ألا ترى إلى عموم رسالته ودعائه، وجعله أفضل أنبيائه، أمَّ بهم ليلة إسرائه، وجعل آدم فمن دونه يوم القيامة تحت لوائه، فهو المقدم في أرضه وسمائه، وفي دار تكليفه وجزائه.

وبالجملة: فقد تضمن الكتاب العزيز من التصريح بجليل رتبته، وتعظيم قدره، وعلو منصبه، ورفعة ذكره ما يقضي بأنه استولى على أقصى درجات التكريم، ويكفي إخباره تعالى بالعفو عنه وملاطفته قبل ذكر العتاب في قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك، لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣]. وتقديم ذكره على الأنبياء تعظيماً له، مع تأخره عنهم في الزمان في قوله تعالى: ﴿ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾ [الأحزاب: ٧] وإخباره بتمني أهل النار طاعته في قوله تعالى: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ [الأحزاب: ٦٦]، وهذا بحر لا ينفد وقطر لا يعد.

## النوع الثاني

## في أخذ الله الميثاق له على النبيين فضلا ومنة ليؤمنن به إن أدركوه ولينصرنه[١]

قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/٤٣.

رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ [آل عمران: ٨١] الآية. أخبر تعالى أنه أخذ الميثاق على كل نبي بعثه، من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى محمد ﷺ أن يصدق بعضهم بعضاً، قاله الحسن وطاووس وقتادة. وقيل معناه: أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأممهم، واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم.

وعن علي بن أبي طالب وابن عباس: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن محمد ﷺ ـ وهو حي ـ ليؤمنن به ولينصرنه. وما قاله قتادة والحسن وطاووس لا يضاد ما قاله علي وابن عباس، ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه.

وقيل معناه: أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنه إذا بعث محمد ﷺ أن يؤمنوا به وأن ينصروه، واحتج له بأن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه، وكان الأنبياء عند مبعث محمد ﷺ من جملة الأموات، والميت لا يكون مكلفاً، فتعين أن يكون الميثاق مأخوذاً على الأمم. وقالوا: ويؤكد هذا، أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق بأنهم لو تولوا لكانوا فاسقين، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء، وإنما يليق بالأمم.

[وأجاب الفخر الرازي]: بأن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ. ونظيره قوله تعالى ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر: ٦٥]، وقد علم الله تعالى أنه لا يشرك قط، ولكنه خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض، وقال تعالى: ﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦] وقال في الملائكة: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾ [الأنبياء: ٢٩] مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم ﴿لا يسبقونه بالقول﴾ [الأنبياء: ٢٧] وبأنهم ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ [النحل: ٥٠]، فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير. وإذا نزلت هذه الآية على أن الله تعالى لما أوجب على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ لو كانوا في الأحياء، وأنهم لو تركوا ذلك لكانوا في زمرة الفاسقين، فلأن يكون الإيمان بمحمد ﷺ واجباً على أممهم من باب أولى. فكان صرف هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيل المقصود.

وقال السبكي في هذه الآية: إنه ﷺ على تقدير مجيئهم في زمانه يكون مرسلاً إليهم. فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق، من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته، ويكون قوله ﷺ: «وبعثت إلى الناس كافة» لا يختص به الناس في زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضاً، وإنما أخذ له المواثيق على الأنبياء ليعلموا إنه المتقدم عليهم، وأنه نبيهم ورسولهم. وفي أخذ المواثيق ـ وهي في

معنى الاستحلاف، ولذلك دخلت «لام» القسم في ﴿لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ [آل عمران: ٨١] ـ لطيفة: وهي كأنها أيمان البيعة التي تؤخذ للخلفاء، ولعل أيمان الخلفاء أخذت من هنا.

فانظر إلى هذا التعظيم العظيم للنبي ﷺ من ربه تعالى، فإذا عرف هذا فالنبي محمد ﷺ نبي الأنبياء، ولهذا ظهر ذلك في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه. وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم، ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم وعلى أممهم اتباعه والإيمان به ونصرته، وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم، فنبوته عليهم ورسالته إليهم معنى حاصل لهم في حياتهم، وإنما أمره يتوقف على اجتماعهم معه، فتأخر ذلك الأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عدم اتصافهم بما يقتضيه. وفرق بين توقف الفعل على قبول المحل وتوقفه على أهلية الفاعل، فهاهنا لا توقف من جهة الفاعل، ولا من ذات النبي ﷺ الشريفة، وإنما هو من جهة وجود العصر المشتمل عليه، فلو وجد في عصرهم لزمهم اتباعه بلا شك، ولهذا يأتي عيسى عليه السلام في آخر الزمان على شريعته، وهو نبي كريم على حاله، لا كما يظن بعض الناس أنه يأتي واحداً من هذه الأمة، نعم هو واحد من هذه الأمة لما قلنا من اتباعه للنبي ﷺ، وإنما يحكم بشريعة نبينا ﷺ بالقرآن والسنة، وكل ما فيهما من أمر ونهي، فهو متعلق به كما يتعلق بسائر الأمة، وهو نبي كريـم على حاله لم ينقص منه شيء.

وكذلك لو بعث النبي ﷺ في زمانه أو في زمان موسى وإبراهيم ونوح وآدم كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم، والنبي ﷺ نبي عليهم ورسول إلى جميعهم، فنبوته ورسالته أعم وأشمل وأعظم. وتتفق مع شرائعهم في الأصول، لأنها لا تختلف، وتقدم شريعته ﷺ فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع، إما على سبيل التخصيص، وإما على سبيل النسخ، أو: لا نسخ ولا تخصيص بل تكون شريعة النبي ﷺ في تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياؤهم ، وفي هذا الوقت بالنسبة إلى هذه الأمة الشريفة، والأحكام تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات، وبهذا بان لنا معنى حديثين كانا خفيا عنا:

أحدهما: قوله ﷺ: «بعثت إلى الناس كافة»، كنا نظن أنه من زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنه إلى جميع الناس أولهم وآخرهم.

والثاني: قوله ﷺ: كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»، كنا نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك، وإنما يفترق الحال بين ما بعد وجود جسده ﷺ وبلوغه الأربعين، وما قبل ذلك بالنسبة إلى المبعوث إليهم وتأهلهم لسماع كلامه لا بالنسبة إليه ولا إليهم، لو تأهلوا

قبل ذلك، وتعليق الأحكام على الشروط قد يكون بحسب المحل القابل، وقد يكون بحسب الفاعل المتصرف فهاهنا التعليق إنما هو بحسب المحل القابل، وهو المبعوث إليهم وقبولهم سماع الخطاب والجسد الشريف الذي يخاطبهم بلسانه.

وهذا كما يوكل الأب رجلاً في تزويج ابنته إذا وجدت كفءاً، فالتوكيل صحيح وذلك الرجل أهل للوكالة، ووكالته ثابتة، وقد يحصل توقف التصرف على وجود الكفء، ولا يوجد إلا بعد مدة، وذلك لا يقدح في صحة الوكالة وأهلية الوكيل، انتهى.

## النوع الثالث

## في وصفه له ﷺ بالشهادة وشهادته له بالرسالة[1]

قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ عند بناء البيت الحرام ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩]. فاستجاب الله دعاءهما، وبعث في أهل مكة رسولاً منهم بهذه الصفة من ولد إسماعيل الذي دعا مع أبيه إبراهيم عليهما السلام بهذا الدعاء. فإن قلت: من أين علم أن الرسول هنا المراد به محمد ﷺ؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: إجماع المفسرين وهو حجة.

والثاني: قوله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى»[2] قالوا: وأراد بالدعوة هذه الآية، وبشارة عيسى هي ما ذكر في سورة الصف من قوله: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف: ٦].

الثالث: إن إبراهيم إنما دعا بهذا الدعاء بمكة لذريته الذين كانوا بها وبما حولها، ولم يبعث الله تعالى إلى من بمكة إلا محمداً ﷺ. وقد امتن الله تعالى على المؤمنين ببعث هذا النبي منهم على هذه الصفة فقال تعالى: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٣.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٣٩ و ٥/ ٢٠٧ والبيهقي في دلائل النبوة ١/ ٦٩ وابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ١١٩ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨٣٣ ـ ٣١٨٨٩) وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٣٩.

رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية، فليس لله منة على المؤمنين أعظم من إرساله محمداً ﷺ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وإنما كانت النعمة على هذه الأمة بإرساله أعظم النعم، لأن النعمة به ﷺ تمت بها مصالح الدنيا والآخرة، وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده.

وقوله: ﴿من أنفسهم﴾ [آل عمران: ١٦٤] يعني أنه بشر مثلهم، وإنما امتاز عليهم بالوحي. وقرىء في الشواذ (من أنفَسهم) ـ بفتح الفاء ـ يعني من أشرفهم، لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل قريش، وقريش أفضل العرب، والعرب أفضل من غيرهم. ثم قيل: لفظ (المؤمنين) عام، ومعناه خاص في العرب، لأنه ليس حي من أحياء العرب إلا وقد ولده، وخص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به أكثر، فالمنة عليهم أعظم.

فإن قلت: هل العلم بكونه ﷺ بشراً، ومن العرب، شرط في صحة الإيمان، أو هو من فروض الكفاية.

أجاب الشيخ ولي الدين بن العراقي: بأنه شرط في صحة الإيمان. قال: فلو قال شخص: أومن برسالة محمد ﷺ إلى جميع الخلق، ولكني لا أدري هل هو من البشر أو الملائكة، أو من الجن، أو لا أدري أهو من العرب أو العجم، فلا شك في كفره لتكذيبه للقرآن وجحده ما تلقته قرون الإسلام خلفاً عن سلف، وصار معلوماً بالضرورة عند الخاص والعام، ولا أعلم في ذلك خلافاً. فلو كان غبياً لا يعرف ذلك وجب تعليمه إياه، فإن جحده بعد ذلك حكمنا بكفره. انتهى. فإن قلت: هل هو ﷺ باق على رسالته إلى الآن؟

أجاب أبو المعين النفسي[1]: بأن الأشعري قال: إنه ﷺ الآن في حكم الرسالة، وحكم الشيء يقوم مقام أصل الشيء، ألا ترى أن العدة تدل على ما كان من أحكام النكاح. انتهى. وقال غيره: إن النبوة والرسالة باقية بعد موته ﷺ حقيقة، كما يبقى وصف الإيمان بعد موته، لأن المتصف بالنبوة والرسالة، والإيمان هو الروح وهي باقية لا تتغير بموت البدن. انتهى. وتعقب: بأن الأنبياء أحياء في قبورهم، فوصف النبوة باق للجسد والروح معاً.

وقال القشيري: كلام الله تعالى لمن اصطفاه: أرسلتك أن تبلغ عني، وكلامه تعالى قديم، فهو ﷺ قبل أن يوجد كان رسولاً. وفي حال كونه وإلى الأبد رسولاً، لبقاء الكلام

---

(١) هو ميمون بن محمد بن محمد بن معبد بن مكحول أبو المعين النسفي الحنفي (٤١٨ ـ ٥٠٨ هـ) من علماء الكلام. الأعلام ٧/ ٣٤١ معجم المطبوعات ١٨٥٤ كشف الظنون ٣٣٧ و ١٨٤٥.

وقدمه، واستحالة البطلان على الإرسال الذي هو كلام الله تعالى. ونقل السبكي في طبقاته، عن ابن فورك أنه قال إنه ﷺ حي في قبره، رسول الله أبد الآباد على الحقيقة لا المجاز. انتهى.

وقال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [الجمعة: ٢].

والمراد بالأميين: العرب، تنبيهاً لهم على قدر هذه النعمة وعظمها حيث كانوا أميين، لا كتاب لهم، وليس عندهم شيء من آثار النبوة، كما عند أهل الكتاب، فمنَّ الله تعالى عليهم بهذا الرسول وبهذا الكتاب، حتى صاروا أفضل الأمم وأعلمهم، وعرفوا ضلالة من ضل قبلهم من الأمم. وفي كونه ﷺ منهم فائدتان:

إحداهما: أن هذا الرسول كان أيضاً أمياً كأميّة المبعوث إليهم، لم يقرأ كتاباً قط ولم يخطه بيمينه، كما قال تعالى: ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ولا خرج عن ديار قومه فأقام عند غيرهم حتى تعلم منهم، بل لم يزل أمياً بين أمة أمية لا يكتب ولا يقرأ حتى بلغ الأربعين من عمره، ثم جاء بعد ذلك بهذا الكتاب المبين، وهذه الشريعة الباهرة، وهذا الدين القيم الذي اعترف حذاق أهل الأرض ونظارها أنه لم يقرع العالم ناموس أعظم منه، وفي هذا برهان عظيم على صدقه ﷺ.

والفائدة الثانية: التنبيه على أن المبعوث منهم وهم الأميون، وخصوصاً أهل مكة، يعرفون نسبه وشرفه وصدقه وأمانته وعفته، وأنه نشأ بينهم معروفاً بذلك، وأنه لم يكذب قط، فكيف كان يدع الكذب على الناس ثم يفتري الكذب على الله عز وجل؟ هذا هو الباطل. ولذلك سأل هرقل عن هذه الأوصاف واستدل بها على صدقه فيما ادعاه من النبوة والرسالة.

وقد قال الله تعالى خطاباً له: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ [الأنعام: ٣٣]. ويروى أن رجلاً قال: والله يا محمد ما كذبتنا قط فنتهمك اليوم ولكنا إن نتبعك نتخطف من أرضنا، فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس. وعن مقاتل: كان الحارث بن عامر يكذب النبي ﷺ في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته قال: ما محمد من أهل الكذب. ويروى أن المشركين كانوا إذا رأوه ﷺ قالوا: إنه لنبي. وعن علي: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى الآية. والمعنى: أنهم ينكرونه مع العلم بصحته. إذ الجحد هو الإنكار مع العلم.

فإن قلت: فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾ [الأنعام: ٣٤]؟ أجيب: بأنه على طريق الجحد، وهو يختلف باختلاف أحوالهم في

الجهل، فمنهم من وقع منه ذلك لجهله، فحيث علم آمن، ومنهم من علم وأنكر كفراً وعناداً كأبي جهل. فيكون المراد بقوله فإنهم لا يكذبونك، قوماً مخصوصين منهم لا كلهم، وحينئذٍ فلا تعارض.

وروي أن أبا جهل لقيه فصافحه فقيل له: أتصافحه؟ فقال: والله إني لأعلم أنه نبي، ولكن متى كنا تبعاً لبني عبد مناف؟ فأنزل الله الآية، رواه أبي حاتم. والقرآن كله مملوء بالآيات الدالة على صدق هذا الرسول الكريم، وتحقيق رسالته، فكيف يليق بكمال الله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته ويرفع شأنه، ويجيب دعوته ويهلك عدوه، ويظهر على يده من الآيات والبراهين والأدلة ما يضعف عن مثله قوى البشر، وهو مع ذلك كاذب عليه، مفترٍ ساعٍ في الأرض بالفساد؟؟ ومعلوم أن شهادته سبحانه وتعالى على كل شيء، وقدرته على كلِّ شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبىٰ ذلك كل الإباء، ومن ظن ذلك به وجوزه عليه فهو من أبعد الخلق عن معرفته إن عرف منه بعض صفاته كصفة القدرة وصفة المشيئة.

والقرآن كله مملوء من هذه الطريق، وهذه طريقة الخاصة، بل خاصة الخاصة الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله. وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك ويبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، أفتراه سبحانه وتعالى يخبر أن كماله وحكمه يأبى أن يقرَّ من تقول عليه بعض الأقاويل، بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سننه في المتقولين عليه.

وقال تعالى: ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ [الشورى: ٢٤] هاهنا انتهى جواب الشرط. ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق بأنه يمحو الباطل ويحق الحق. وقال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ [الأنعام: ٩١]، فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره، ولا عرفه كما ينبغي ولا عظمه كما يستحق، فكيف من ظن أن الله ينصر الكاذب المفتري عليه، ويؤيده ويظهر على يديه الأيات والأدلة؟ وهذا في القرآن كثير يستدل تعالى بكماله المقدس وأوصافه وجلاله على صدق رسوله، وعلى وعده ووعيده، ويدعو عباده إلى ذلك.

وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك

الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ [العنكبوت: ٥١و ٥٢]، فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله يكفى من كل آية، ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله، وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، وينجيه من العذاب. ثو قال: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والأرض﴾ [العنكبوت: ٥٢] فإذا كان سبحانه عالماً بجميع الأشياء كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها، فإنها شهادة بعلم تام محيد بالمشهود به، وهو سبحانه وتعالى يذكر علمه عند شهادته وقدرته، وملكه عند مجازاته، وحكمته عند خلقه، وأمره ورحمته عند ذكر إرسال رسله، وحلمه عند ذنوب عباده. فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر والثواب والعقاب. انتهى.؟وقال تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥ و ٤٦]. أي شاهداً على الواحدانية، وشاهداً في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط، وشاهداً في الآخرة بأحوال الدنيا، وبالطاعة والمعصية والصلاح والفساد، وشاهداً على الخلق يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]. كأنه تعالى يقول: يا أيها المشرّف من قبلنا، إنا أرسلناك شاهداً بوحدانيتنا ومشاهداً كمال فردانيتنا، تبشر عبادنا عنا، وتحذرهم مخالفة أمرنا، وتعلمهم مواضع الخوف منا، وداعياً الخلق إلينا، وسراجاً يستضيئون بك، وشمساً تبسط شعاعك على جميع من صدقك وآمن بك، ولا يصل إلينا إلا من اتبعك وخدمك وقدمك، فبشر بفضلنا وطولنا عليهم وإحساننا إليهم.

ولما كان الله تعالى قد جعله ﷺ شاهداً على الوحدانية، والشاهد لا يكون مدعياً، فالله تعالى لم يجعل النبي في مسألة الواحدانية مدعياً لها، لأن المدعي من يقول شيئاً على خلاف الظاهر، والوحدانية أظهر من الشمس، والنبي ﷺ كان ادعى النبوة، فجعل الله تعالى نفسه شاهداً له في مجازاة كونه شاهداً له تعالى فقال سبحانه: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ [المنافقون: ١]، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد: ٤٣] فاستشهد على رسالته بشهادة الله له. وكذلك قوله تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾ [النساء: ١٦٦] وقوله: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ [المنافقون: ١] وقوله: ﴿محمد رسول الله﴾ [الفتح: ٢٩]، فهذا كله منه تعالى شهادة لرسوله قد

أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم بكونه سبحانه شاهداً لرسوله.

وقال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾ [الفتح: ٢٨]. فيظهر ظهورين: ظهوراً بالحجة والبيان، وظهوراً بالنصر والغلبة والتأييد حتى يظهر على مخالفيه ويكون منصوراً.

ومن شهادته تعالى أيضاً ما أودعه في قلوب عباده من التصديق الجازم، واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه ووحيه، فإن الله تعالى فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل والنفور عنه وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطرة على حالها لما آثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيْره. ولهذا ندب الحق سبحانه إلى تدبر القرآن، فإن كل من تدبره أوجب له علماً ضرورياً ويقيناً جازماً أنه حق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد: ٢٤]، فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علماً ضرورياً كسائر الأمور الوجدانية باللذة والألم أنه من عند الله، تكلم به حقاً، وبلغه رسوله جبريل إلى رسوله محمد ﷺ. فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد. انتهى ملخصاً من مدارج السالكين.

وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ففي هذه الآية دلالة على أنه ﷺ مبعوث إلى كافة الثقلين. وقالت العيسوية من اليهود - وهم أتباع عيسى الأصبهاني -: إن محمداً صادق مبعوث إلى العرب، غير مبعوث إلى بني إسرائيل.

ودليلنا على إبطال قولهم هذه الآية، لأن قوله: ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب يتناول كل الناس، ثم قال: ﴿إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨] وهذا يقتضي كونه مبعوثاً إلى جميع الناس. وأيضاً: فلأنا نعلم بالتواتر أنه كان يدعي أنه مبعوث إلى الثقلين. فإما أن تقول: كان رسولاً حقاً، أو ما كان كذلك، فإن كان رسولاً حقاً امتنع الكذب عليه، ووجب الجزم بكونه صادقاً في كل ما يدعيه، فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية أنه كان يدعي كونه مبعوثاً إلى جميع الثقلين، وجب كونه صادقاً، وذلك يبطل قول من يقول: إنه كان مبعوثاً إلى العرب فقط، لا إلى بني إسرائيل. وإذا ثبت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨]

من الناس من يقول إنه عام دخله التخصيص، ومنهم من أنكر ذلك. أما الأولون فقالوا: دخله التخصيص من وجهين:

الأول: أنه رسول إلى الناس إذا كانوا من جملة المكلفين، فأما إذا لم يكونوا من جملة المكلفين لم يكن رسولاً إليهم، وذلك لأنه ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق»[1] رواه ابن جرير عن ابن عباس.

والثاني: أنه رسول إلى من وصله خبر وجوده، وخبر معجزاته وشرائعه، حتى يمكنه عند ذلك متابعته. أما لو قدرنا حصول قوم في طرف من أطراف الأرض لم يبلغهم خبره وخبر معجزاته وشرائعه حتى لا يمكنهم عند ذلك متابعته فلا يكونون مكلفين بالإقرار بنبوته. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[2] رواه مسلم. ومفهومه: أن من لم يسمع ﷺ ولم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، على ما تقرر في الأصول أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح. وفي هذا الحديث نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ.

وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾ [المائدة: ١٩]. خاطب تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ولا رسول. بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال تعالى: ﴿على فترة من الرسل﴾ [المائدة: ١٩] أي بعد مدة متطاولة، ما بين إرساله وعيسى بن مريم.

وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي؟ فقال النهدي وقتادة في رواية عنه: ستمائة سنة. ورواه البخاري عن سلمان الفارسي. وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة، وقال الضحاك: أربعمائة وبضع وثلاثون سنة، وعن الشعبي ـ فيما ذكره ابن عساكر ـ تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة. قال الحافظ عماد الدين بن كثير: والمشهور أنها ستمائة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ١٠٠ والنسائي ٦/ ١٥٦ وأبو داود برقم (٤٤٠٢) والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩ و ٤/ ٣٨٩ والبغوي في شرح السنة ٩/ ٢٢١ وابن الجارود في المنتقى برقم (٨٠٨) والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٥٦ و ٣/ ٨٣ و ٦/ ٢٠ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٠٣٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الايمان رقم الحديث (٢٤٠).

سنة، قال: وكانت هي الفترة بين عيسى بن مريم، آخر أنبياء بني إسرائيل، وبين محمد آخر النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أنا أولى الناس بابن مريم [والأنبياء أولاد علات][1] ليس بيني وبينه نبي»[2] وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القضاعي وغيره.

والمقصود: أن الله بعث محمداً على فترة من الرسل وطموس من السبل وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم والنفع به أعم. وفي حديث عند الإمام أحمد مرفوعاً: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل»[3] وفي لفظ مسلم «من أهل الكتاب». فكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم، حتى بعث الله محمداً ﷺ فهدى به الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء، والشريعة الغراء، صلوات الله وسلامه عليه.

وقال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨]. أي: عزيز عليه عنتكم، أي إثمكم بالشرك والمعاصي، حريص عليكم أن تهتدوا. قال الحسن: عزيز عليه أن تدخلوا النار، حريص عليكم أن تدخلوا الجنة، ومن حرصه ﷺ علينا أنه لم يخاطبنا بما يريد إبلاغه إلينا، وفهمنا إياه على قدر منزلته، بل على قدر منزلتنا، وإلى هذا أشار صاحب البردة بقوله:

لم يمتحنا بما تعيي العقول به ... حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

أي لم نتحير ولم نشك فيما ألقاه إلينا. وقال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ولا رحمة مع التكليف بما لا يفهم. ومن حرصه ﷺ على هدايتنا أنه كان كثيراً ما يضرب المثل بالمحسوس ليحصل الفهم، وهذه سنة القرآن، ومن تتبع الكتاب والسنة رأى من ذلك العجب العجاب، ولما ساوى الله سبحانه وتعالى بين الناس في حرص رسوله ﷺ على إسلامهم، خص المؤمنين برأفته ورحمته لهم.

---

(١) ليست في الأصل وهي في البخاري.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٤٤٢) وأبو داود برقم (٤٦٧٥) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٤٠٦ ومسلم في كتاب الفضائل (١٤٣) والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢١٤ والمتقي الهندي في كنزه (٣٢٣٤٦).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الجنة (٦٣) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ١٦٢ والطبراني في المعجم الكبير ١٧/ ٣٥٩.

وقال تعالى: ﴿من أنفسكم﴾ [التوبة: ١٢٨] ولم يقل: من أرواحكم، فقيل يحتمل أن يكون مراده: أنه منا بجسده المنفس، لا بروه المقدس، ويرحم الله القائل:

إذا رمت مدح المصطفى شغفاً به ... تبلد ذهني هيبة لمقامه
فأقطع ليلي ساهر الجفن مطرقاً ... هوى فيه أحلى من لذيذ منامه
إذا قال فيه الله جل جلاله ... رؤوف رحيم في سياق كلامه
فمن ذا يجاري الوحي والوحي معجز ... بمختلفيه نثره ونظامه

تنبيه: أما قول القاضي عياض بعد ذكره الآية:

«ثم وصفه بعدُ بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم، ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يعنتهم ويضربهم في دنياهم وأخراهم، وعزته عليه...». فهو وإن كان المقصد صحيحاً، ففي ظاهره شيء، لأنه يوهم أن قوله «وشدة ما يعنتهم» معطوف على متعلق المصدر الذي هو «الحرص» فيكون مخفوضاً به.

ومما يقوي هذا التوهم قوة إعطاء الكلام، أن الضمير الأول من قوله «وعزته عليه» عائد على النبي ﷺ، والضمير الثاني عائد على الله عز وجل، فلا تبقى «الشدة» إلا أن تكون معطوفة على متعلق المصدر. ولا يخفى ما في هذا.

وقد تأوله بعض العلماء هلى حذف مضاف أي: وكراهة شدة ما يعنتهم، أو نحو ذلك من المضافات. والأولى ـ أو الصواب، إن شاء الله تعالى ـ أن تكون «الشدة» معطوفة على نفس المصدر الذي هو «الحرص» ويكون قوله «وعزته» معطوفاً على «وشدة» والضمير فيه راجع إلى الموصول وهو «ما» في قوله «ما يعنتهم» والهاء الثانية في «عليه» عائدة على النبي ﷺ. انتهى.

وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. يجوز أن يكون «رحمة» مفعولاً له، أي لأجل الرحمة، ويجوز أن ينتصب على الحال مبالغة في أن جعله نفس الرحمة، وإما على حذف مضاف أي: ذا رحمة، أو بمعنى: راحم. قاله السمين[(١)].

وقال أبو بكر بن طاهر ـ فيما ذكره القاضي عياض ـ: زين الله تعالى محمداً ﷺ بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه

---

(١) هو أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي أبو العباس شهاب الدين المعروف بالسمين. مفسر عالم بالعربية والقراءات. توفي سنة (٧٥٦ هـ). الاعلام ١/ ٢٧٤ غاية النهاية ١/ ١٥٢ الدرر الكامنة ١/ ٣٣٩ رقم الترجمة (٨٤٦).

شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، انتهى.

وقال ابن عباس: رحمة للبر والفاجر، لأن كل نبي إذا كذب أهلك الله من كذبه. ومحمد أخّر من كذبه إلى الموت أو إلى القيامة. وأما من صدقه فله الرحمة في الدنيا والآخرة. وقال السمرقندي: رحمة للعالمين يعني: الجن والإنس. وقيل: لجميع الخلق للمؤمن رحمة بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب. فذاته ﷺ ـ كما قيل ـ رحمة تعم المؤمن والكافر، قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣]، وقال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»[1] رواه الدارمي والبيهقي في «الشعب» من حديث أبي هريرة. وقال بعض العارفين: الأنبياء خلقوا كلهم من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة، ولقد أحسن القائل:

غنيمة عمر الكون بهجة عيشه سرور حياة الدهر فائدة الدهر
هو النعمة العظمى هو الرحمة التي تجلى بها الرحمن في السر والجهر

فبيانه ﷺ ونصحه رحمة، ودعاؤه واستغفاره رحمة، فرزِقَ ذلك منْ قبله، وحرمه من رده. فإن قلت: كيف كان رحمة، وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال؟ فالجواب: من وجهين:

أحدهما: أنه إنما جاء بالسيف، لمن استكبر وعاند، ولم يتفكر ولم يتدبر، ومن أوصاف الله تعالى: الرحمن الرحيم، ثم هو منتقم من العصاة، وقد قال تعالى: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً﴾ [ق: ٩] ثم قد يكون سبباً للفساد.

وثانيهما: أن كل نبي من الأنبياء قبل نبينا إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق، وقد أخر الله تعالى عذاب من كذب نبينا إلى الموت، أو إلى القيامة. لا يقال: إنه تعالى قال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ [التوبة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ليعذب الله المنافقين﴾ [الأحزاب: ٧٣]، لأنا نقول: تخصيص العام لا يقدح فيه.

وفي «الشفاء» للقاضي عياض: وحكى أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟» قال: نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنت، لثناء الله تعالى عليَّ بقوله

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١/١٥٨ والسيوطي في الجامع الصغير ١/٣٤٨ وفي الدر المنثور ٤/٣٤٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٥٧ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/١٦٢ وابن سعد في طبقاته ١/١٥١ وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٤/١٥٤٦.

عز وجل: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾ [التكوير: ٢٠و٢١][1]. انتهى.

وذكره السمرقندي في تفسيره بلفظ. وذكر أن النبي ﷺ قال لجبريل يقول الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فهل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، أصابني من هذه الرحمة شيء، كنت أخشى عاقبة الأمر فأمنت بك، لثناء الله تعالى عليَّ في قوله: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾ [التكوير: ٢٠].

وهذا يقتضي أن محمداً ﷺ أفضل من جبريل، وهو الذي عليه الجمهور، خلافاً لمن زعم أن جبريل أفضل واستدل: بأن الله تعالى وصف جبريل بسبعة أوصاف من صفات الكمال في قوله: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]، ووصف محمداً ﷺ بقوله: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ [التكوير: ٢٢]. ولو كان محمد ﷺ مساوياً لجبريل في صفات الفضل أو مقارباً له لكان وصف محمداً بمثل ذلك.

وأجيب: بأنا متفقون على أن لمحمد ﷺ فضائل أخرى سوى ما ذكر في هذه الآية، وعدم ذكر الله تعالى لتلك الفضائل هنا لا يدل على عدمها بالإجمال، وإذا ثبت أن لمحمد ﷺ فضائل أخر زائدة فيكون أفضل من جبريل.

وبالجملة: فإفراد أحد الشخصين بالوصف لا يدل ألبتة على انتفاء تلك الأوصاف عن الثاني، وإذا ثبت بالدليل القرآني أنه ﷺ رحمة للعالمين، والملائكة من جملة العالمين، وجب أن يكون أفضل منهم، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بطريق الأولى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس، كما قدمنا ذلك في أسمائه الشريفة من المقصد الثاني. وبذلك وردت الأحاديث عنه ﷺ:

فروى أحمد من حديث أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً، فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة فلم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة»[2] ورواه الترمذي عن بندار عن أبي عامر العقدي، وقال: حديث حسن

(١) قال السيوطي: لم أجده مخرجاً في شيء من كتب الحديث.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٦١٣) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ١٣٨ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٨١).

صحيح. وفي حديث أنس بن مالك مرفوعاً: (إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي)[1] رواه الترمذي وغيره. وفي حديث جابر مرفوعاً: (مثلي ومثل الأنبياء، كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، وأنا موضع هذه اللبنة، ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) رواه أبو داود الطيالسي، وكذا البخاري ومسلم. وفي حديث أبي سعيد الخدري: (فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة). رواه مسلم. وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: (وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون).

فمن تشريف الله تعالى له ﷺ ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه، أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل، ولو تحذق وتشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات[2]، فكلها محال وضلالة عند أولي الألباب. ولا يقدح في هذا نزول عيسى بن مريم عليه السلام بعده، لأنه إذا نزل كان على دين نبينا ﷺ ومنهاجه، مع أن المراد: أنه آخر من نبيء. قال أبو حيان: ومن ذهب إلى أن النبوة مكتسبة لا تنقطع، أو إلى أن الولي أفضل من النبي فهو زنديق يجب قتله والله أعلم.

## النوع الرابع

## في التنويه به ﷺ في الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل بأنه صاحب الرسالة والتبجيل[3]

قال الله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وهذ يدل على أنه لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول مقاله، فلما قال لهم ﷺ هذا دل على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل. وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته.

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٢٢٧٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٦٧.

(٢) قال في القاموس المحيط: النيرنج: أخذ كالسحر وليس به. ١/ ٢١٧ مادة (النورج).

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٢٧٠.

لكن أهل الكتاب كما قال الله تعالى: [وإن فريقاً منهم ليكتمون][1] الحق وهم يعلمون﴾ [البقرة: ١٤٦] و ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ [المائدة: ١٣]، وإلا فهم ـ قاتلهم الله ـ قد عرفوا محمداً ﷺ كما عرفوا أبناءهم، ووجدوه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، لكنهم حرفوهما وبدلوهما ليطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

فدلائل نبوة نبينا ﷺ في كتابيهما ـ بعد تحريفهما ـ طافحة، وأعلام شريعته ورسالته فيهما لائحة، وكيف يغني عنهم إنكارهم، وهذا اسم النبي ﷺ بالسريانية «مشفح»، فمشفح، محمد بغير شك، واعتباره أنهم يقولن «شفحا لاها» إذا أرادوا أن يقولوا: الحمد لله، وإذا كان الحمد، شفحا، فمشفح: محمد، ولأن الصفات التي أقروا بها هي وفاق لأحواله وزمانه، ومخرجه ومبعثه وشريعته ﷺ، فليدلونا على من هذه الصفات د ، ومن خرجت له الأمم من بين يديه، وانقادت له واستجابت لدعوته. ومن صاحب الجمل الذي هلكت بابل وأصنامها به؟

على أنا لو لم نأت بهذه الأنباء والقصص من كتبهم، ألم يك فيما أودع الله عز وجل القرآن دليل على ذلك؟ وفي تركهم جحد ذلك وإنكاره ـ وهو يقرعهم به ـ دليل على اعترافهم له؟ فإنه يقول: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) [الأعراف: ١٥٧] ويقول حكاية عن المسيح: ﴿إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف: ٦]. ويقول: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ [آل عمران: ٧١] ويقول: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ [البقرة: ١٤٦]، وكانوا يقولون لمخالفيهم عند القتال: هذا نبي قد أظل مولده، ويذكرون من صفته ما يجدون في كتابهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسداً وخوفاً على الرياسة. ويحتمل أنهم كانوا يظنون أنه من بني إسرائيل فلما، بعثه الله من العرب، من نسل إسماعيل عظم ذلك عليهم، وأظهروا التكذيب، فلعنة الله على الكافرين.

وقد كان ﷺ يدعوهم إلى اتباعه وتصديقه، فكيف يجوز أن يحتج بباطل من الحجج، ثم يحيل ذلك على ما عندهم وما في أيديهم، ويقول من علامة نبوتي وصدقي أنكم تجدوني عندكم مكتوباً وهم لا يجدونه كما ذكر؟! أو ليس ذلك مما يزيدهم عنه بعداً، وقد كان غنياً أن يدعوهم بما ينفرهم، ويستميلهم بما يوحشهم. وقد أسلم من

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

أسلم من علمائهم كعبد الله بن سلام[1]، وتميم الداري[2]، وكعب[3]، وقد وقفوا منه على مثل هذه الدعاوى.

وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق محمد بن حمزة بـن عبد الله بن سلام عند جده عبد الله بن سلام: أنه لما سمع بمخرج النبي ﷺ بمكة، خرج فلقيه، فقال له النبي ﷺ: «أنت ابن سلام عالم أهل يثرب؟» قال: نعم، قال: «ناشدتك الله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد صفتي في كتاب الله» قال: انسب ربك يا محمد، فارتج النبي ﷺ فقال له جبريل: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]، فقال ابن سلام: أشهد أنك رسول الله، وإن الله مظهرك ومظهر دينك على الأديان، وإني لأجد صفتك في كتاب الله: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة المعوجة، حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

### فصل

وقوله: «ليس بفظ ولا غليظ» موافق لقوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولا يعارض قوله: ﴿واغلظ عليهم﴾ [التوبة: ٧٣] لأن النفي محمول على طبعه الكريم الذي جبل عليه، والأمر محمول على المعالجة، أو النفي بالنسبة إلى المؤمنين والأمر بالنسبة إلى الكفار والمنافقين كما هو مصرح به في نفس الآية. و«قلوباً غلفاً»: أي مغشاة مغطاة، واحدها: أغلف، ومنه غلاف السيف وغيره.

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن أم الدرداء ـ امرأة أبي الدرداء ـ قالت: قلت لكعب، كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: كنا نجده موصوفاً فيها: محمد رسول الله اسمه المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، وأعطي المفاتيح، ليبصر الله به أعيناً عوراً، ويسمع به آذاناً صماً، ويقيم به ألسنة معوجة، حتى يشهدوا أن

---

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي أبو يوسف. صحابي توفي في المدينة سنة (٤٣ هـ). الاعلام ٤/ ٩٠ والاصابة رقم الترجمة (٤٧٢٥).

(٢) هو تميم بن أوس بن خارجة الداري أبو رقية. صحابي. مات بفلسطين سنة (٤٠ هـ). الأعلام ٢/ ٨٧ صفة الصفوة ١/ ٣١٠.

(٣) أي كعب الأحبار.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يعين المظلوم ويمنعه من أن يستضعف.

وفي البخاري: عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ قال: (أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً)[1].

وعند ابن إسحاق: ولا صخب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنا، أسدده بكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأسمي به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس.

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: قدم الجارود فأسلم فقال: والذي بعثك بالحق لقد وجدت وصفك في الإنجيل، ولقد بشر بك ابن البتول. وأخرج ابن سعد قال: لما أمر إبراهيم بإخراج هاجر حمل على البراق، فكان لا يمر بأرض عذبة سهلة إلا قال: انزل ها هنا يا جبريل، فيقول: لا، حتى أتى مكة فقال جبريل: انزل يا إبراهيم، قال: حيث لا ضرع ولا زرع؟ قال: نعم، ها هنا يخرج النبي الذي من ذرية ابنك الذي تتم به الكلمة العليا. وفي التوراة ـ مما اختاره بعد الحذف والتبديل والتحريف، مما ذكره ابن ظفر في «البشر» وابن قتيبة في «أعلام النبوة» ـ: تجلى الله من سينا، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران. و«سينا» هو الجبل الذي كلم الله فيه موسى. و«ساعير» هو الجبل الذي كلم الله فيه عيسى، وظهرت فيه نبوته. وجبال «فاران» هو اسم عبراني ـ وليست ألفه الأولى همزة ـ هي جبال بني هاشم التي كان رسول الله ﷺ يتحنث في أحدها وفيه فاتحة الوحي، وهو أحد ثلاثة جبال، أحدها: أبو قبيس، والمقابل له قعيقعان إلى بطن الوادي، والثالث: الشرقي فاران، ومنفتحه الذي يلي قعيقعان إلى بطن الوادي، وهو شعب بن هاشم، وفيه مولده ﷺ على أحد الأقوال.

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٤٨٣٨).

قال ابن قتيبة: وليس بهذا غموض، لأن تجلي الله من سينا، إنزاله التوراة على موسى عليه السلام بطور سيناء، ويجب أن يكون إشراقه من «ساعير» إنزاله على عيسى الإنجيل، وكان المسيح يسكن من ساعير أرض الخليل، بقرية تدعى ناصرة، وباسمها سمي من اتبعه نصارى، فكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله على المسيح الإنجيل فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران بإنزاله القرآن على محمد ﷺ، وهي جبال مكة، وليس بين المسلمين وأهل الكتاب في ذلك اختلاف في أن فاران هي مكة.

وإن أدعي أنها غير مكة قلنا: أليس في التوراة: إن الله أسكن هاجر واسماعيل فاران؟ وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح، أو ليس «استعلن» و«علن» بمعنى واحد، وهو ما ظهر وانكشف. فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام، وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه.

وفي التوراة أيضاً ـ مما ذركه ابن ظفر ـ خطاباً لموسى، والمراد به الذين اختارهم لميقات ربه الذين أخذتهم الرجفة خصوصاً، ثم بني إسرائيل عموماً: والله ربك يقيم نبياً من إخوتك، فاستمع له كالذي سمعت ربك في حوريت يوم الإجتماع حين قلت لا أعود اسمع صوت الله ربي لئلا أموت، فقال الله لي: نعم ما قالوا، وسأقيم لهم نبياً مثلك من إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه فيقول لهم كل شيء أمرته به، وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمي فإني أنتقم منه. قال: وفي هذا الكلام أدلة على نبوة محمد ﷺ:

فقوله: «نبياً من إخوتهم»، وموسى وقومه من بني إسحاق، وإخوتهم بنو إسماعيل، ولو كان هذا النبي الموعود به من بني إسحاق لكان من أنفسهم لا من إخوتهم.

وأما قوله: «نبياً مثلك» وقد قال في التوراة: لا يقوم في بني إسرائيل أحد مثل موسى، وفي ترجمة أخرى: مثل موسى لا يقوم في بني إسرائيل أبداً. فذهبت اليهود إلى أن هذا النبي الموعود به هو يوشع بن نون، وذلك باطل، لأن يوشع لم يكن كفؤاً لموسى عليهما السلام، بل كان خادماً له في حياته، ومؤكداً لدعوته بعد وفاته، فتعين أن يكون المراد به محمداً ﷺ فإنه كفؤ موسى لأنه مماثله في نصب الدعوة، والتحدي بالمعجزة، وشرع الأحكام، وإجراء النسخ على الشرائع السالفة.

وقوله تعالى: «اجعل كلامي في فمه» فإنه واضح في أن المقصود به محمد ﷺ لأن معناه أوحي إليه بكلامي، فينطق به على نحو ما سمعه، ولا أنزل صحفاً ولا ألواحاً لأنه أمي، لا يحسن أن يقرأ المكتوب.

وفي الإنجيل ـ مما ذكره ابن طغر بك في «الدر المنظم» قال يوحنا في إنجيله عن المسيح أنه قال: أنا أطلب من الأب أن يعطيكم «فار قليط» آخر يثبت معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقتلوه.

وهو عند ابن ظفر بلفظ: إن أحببتموني فاحفظوا وصيتي، وأنا أطلب إلى أبي فيعطيكم «فار قليط»[1] آخر يكون معكم الدهر كله.

قال: فهذا صريح بأن الله تعالى سيبعث إليهم من يقوم مقامه، فينوب عنه في تبليغ رسالة ربه وسياسة خلقه منابه، وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً، فهل هذا إلا محمد ﷺ؟ انتهى. ولم يذكر فصول «الفارقليط» ـ كما أفاده ابن طغر بك ـ سوى يوحنا، دون غيره من نقله الأناجيل. وقد اختلف النصارى في تفسير «الفارقليط». فقيل هو: الحامد، وقيل: المخلص.

فإن وافقناهم على أنه المخلص أفضىٰ بنا الأمر إلى أن المخلص رسول يأتي لخلاص العالم، وذلك من غرضنا، لأن كل نبي مخلص لأمته من الكفر، ويشهد له قول المسيح في الإنجيل: إني قد جئت لخلاص العالم، فإذا ثبت أن المسيح هو الذي وصف نفسه بأنه مخلص العالم، وهو الذي سأل الأب أن يعطيهم «فارقليط» آخر، ففي مقتضى اللفظ ما يدل على أنه قد تقدم فارقليط أول حتى يأتي آخر.

وإن تنزلنا معهم على القول بأنه: الحامد، فأي لفظ أقرب إلى أحمد ومحمد من هذا؟

قال ابن ظفر: وفي الإنجيل ـ مما ترجموه ـ ما يدل على أن الفارقليط: الرسول، فإنه قال: إن هذا الكلام الذي تسمعونه ليس هو لي، بل الأب أرسلني بهذا الكلام لكم، وأما «الفارقليط» روح القدس الذي يرسله أبي باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كلما قلته لكم.

فهل بعد هذا بيان؟ أليس هذا صريحاً في أن «الفارقليط» رسول يرسله الله، وهو روح القدس، وهو يصدق بالمسيح، ويظهر اسمه أنه رسول حق من الله، وليس بإله، وهو يعلم الخلق كل شيء، ويذكرهم كل ما قاله المسيح عليه السلام لهم، وكل ما أمرهم به من توحيد الله.

وأما قوله «أبي» فهذه اللفظة مبدلة محرفة، وليست منكرة الإستعمال عند أهل

(١) قال ثعلب: «البارقليط الذي يفرق بين الحق والباطل» الشفا ١/ ٢٣٤ وبهامشه: وقيل معناه الحامد وقيل الحماد وقيل الحمد. وأكثر النصارى على أن معناه المخلص.

الكتابين، إشارة إلى الرب سبحانه، لأنها عندهم لفظة تعظيم، يخاطب بها المتعلم معلمه الذي يستمد منه العلم. ومن المشهور مخاطبة النصارى عظماء دينهم بالآباء الروحانية، ولم تزل بنو إسرائيل وبنو عيصو يقولون نحن أبناء الله بسوء فهمهم عن الله تعالى.

وأما قوله «يرسله أبي باسمي» فهو إشارة إلى شهادة المصطفى ﷺ له بالصدق والرسالة، وما تضمنه القرآن من مدحه عما افتري في أمره. وفي ترجمة أخرى للإنجيل، أنه قال: «الفارقليط» إذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ما يسمع يكلمهم به، ويسوسهم بالحق، ويخبرهم بالحوادث. وهو عند ابن طغر بك لفظ: فإذا جاء روح الحق، ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي، وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم. فقوله «ليس ينطق من عنده» وفي الرواية الأخرى: «ولا يقول من تلقاء نفسه بل يتكلم بكل ما يسمع» أي: من الله الذي أرسله، وهذا كما قال تعالى في حقه ﷺ: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٣ و ٤].

وقوله: «وهو يمجدني» فلم يمجده حق تمجيده إلا محمد ﷺ، لأنه وصفه بأنه رسول الله، وبرأه وبرأ أمه ـ عليهما السلام ـ مما نسب إليهما، وأمر أمته بذلك.

قال ابن ظفر: فمن ذا الذي وبخ العلماء على كتمان الحق، وتحريف الكلم عن مواضعه، وبيع الدين بالثمن البخس، ومن ذا الذي أنذر بالحوادث وأخبر بالغيوب إلا محمد ﷺ، ولله در أبي محمد عبد الله الشقراطيسي حيث قال في قصيدته المشهورة:

| | |
|---|---|
| توراة موسى أتت عنه فصدقها | إنجيل عيسى بحق غير مفتعل |
| أخبار أحبار أهل الكتب قد وردت | عما رأوا ورووا في الأعصر الأول |

ويعجبني قول العارف الرباني أبي عبد الله بن النعمان.

| | |
|---|---|
| هذا النبي محمد جاءت به | توراة موسى للأنام تبشر |
| وكذاك إنجيل المسيح موافق | ذكراً لأحمد معرب ومذكر |

ويرحم الله ابن جابر حيث قال:

| | |
|---|---|
| لمبعثه في كل جيل علامة | على ما جلته الكتب من أمره الجلي |
| فجاء به إنجيل عيسى بآخر | كما قد مضت توراة موسى بأول |

وفي الدلائل للبيهقي عن الحاكم ـ بسند لا بأس به ـ عن أبي أمامة الباهلي عن هشام بن العاص الأموي قال: بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فذكر الحديث، وأنه أرسل إليهم ليلاً، قال: فدخلنا عليه، فدعا بشيء كهيئة

الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح واستخرج حريرة سوداء، فنشرها فإذا فيها صورة حمراء، فإذا رجل ضخم العينين عظيم الأليتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله تعالى، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا آدم عليه السلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، فإذا رجل أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا نوح عليه السلام، قال: ثم فتح باباً آخر وأخرج حريرة فإذا فيها صورة بيضاء، وإذا فيها . والله رسول الله ﷺ، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله ونبينا، قال: والله إنه لهو، ثم قام قائماً ثم جلس وقال: إنه لهو؟ قلنا: نعم إنه لهو كأنك تنظر إليه فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما والله إنه لآخر البيوت، ولكني عجلته لكم لأنظر ما عندكم. الحديث، وفيه ذكر الأنبياء: إبراهيم وموسى وعيسى وسليمان وغيرهم. قال: فقلنا له: من أين لك هذه الصور؟ فقال: إن آدم عليه السلام سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل الله عليه صورهم، فكان في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال.

وفي زبور داود عليه السلام، من مزمور أربعة وأربعين: فاضت النعمة من شفتيك، من أجل هذا باركك الله إلى الأبد، تقلد أيها الجبار بالسيف، فإن شرائعك وسنتك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، وجميع الأمم يخرون تحتك.

فهذا المزمور ينوه بنبوة محمد ﷺ، فالنعمة التي فاضت من شفتيه هي القول الذي يقوله، وهو الكتاب الذي أنزل عليه والسنة التي سنها.

وفي قوله: «تقلد سيفك أيها الجبار» دلالة على أنه النبي العربي، إذا ليس يتقلد السيوف أمة من الأمم سوى العرب، فكلهم يتقلدونها على عواتقهم. وفي قوله «فإن شرائعك وسنتك» نص صريح عى أنه صاحب شريعة وسنة، وأنها تقوم بسيفه. و«الجبار» الذي يجبر الخلق بالسيف على الحق ويصرفهم عن الكفر جبراً.

وعن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب القديمة، قال الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي، لأنزلنَّ على جبال العرب نوراً يملأ ما بين المشرق والمغرب، ولأخرجن من ولد إسماعيل نبياً أمياً يؤمن به عدد نجوم السماء ونبات الأرض، كلهم يؤمن بي رباً، وبه رسولاً، ويكفرون بملل آبائهم ويفرون منها، قال موسى: سبحانك وتقدست أسماؤك، لقد كرمت هذا النبي الكريم وشرفته، قال الله: يا موسى، إني أنتقم من عدوه في الدنيا والآخرة، وأظهر دعوته على كل دعوة، وأذل من خالف شريعته، بالعدل زينته، وللقسط أخرجته، وعزتي لأستنقذن به أمماً من النار، فتحت الدنيا

بإبراهيم وأختمها بمحمد، فمن أدركه ولم يؤمن به ولم يدخل في شريعته فهو من الله بريء. ذكره ابن ظفر وغيره.

## النوع الخامس
## في آيات تتضمن أقسامه تعالى على تحقيق رسالته وثبوت ما أوحى إليه من آياته وعلو رتبته الشريفة ومكانته

وهذا النوع - أعزك الله - لخصت أكثره من كتاب أقسام القرآن للعلامة ابن القيم، مع زيادات من فرائد الفوائد. فاعلم أنه تعالى أقسم بأمور على أمور، وإنما أقسم بنفسه الموصوفة بصفاته، وآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وأقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته[1]. ثم إنه تعالى تارة يذكر جواب القسم وهو الغالب. وتارة يحذفه. وتارة يقسم على أن القرآن حق. وتارة على أن الرسول حق. وتارة على أن الجزاء والوعد والوعيد حق.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٩].

والثاني: كقوله تعالى: ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ١ - ٣].

والثالث: كقوله: ﴿والذاريات ذروا﴾ إلى قوله: ﴿وإن الدين لواقع﴾ [الذاريات: ١ - ٦].

وهذه الأمور الثلاثة متلازمة، فمتى ثبت أن الرسول حق، ثبت أن القرآن حق، وثبت المعاد، ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به. وفي هذا النوع خمسة فصول.

## الفصل الأول
## في قسمه تعالى على ما خصه به من الخلق العظيم وحباه من الفضل العميم

قال الله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون. ما أنت بنعمة ربك بمجنون. وإن لك لأجراً غير ممنون. وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ١ - ٤].

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٣١ وما بعدها.

﴿ن﴾ [القلم: ١] من أسماء الحروف كـ ﴿الم﴾ [البقرة: ١] و ﴿المص﴾ [الأعراف: ١] و ﴿ق﴾ [ق: ١].

واختلف فيها، فقيل هي أسماء للقرآن، وقيل: أسماء للسور. وقيل: أسماء لله، ويدل عليه أن علياً رضي الله عنه كان يقول: يا ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١]، يا ﴿حم عسق﴾ [الشورى ١ و ٢] كما قيل، ولعله أراد يا منزلهما. وقيل: إنه سر استأثر الله بعلمه، وقد روي عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه، ولعلهم أرادوا أنها أسرار بين الله ورسوله، لم يقصد بها إفهام غيره، إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد.

وهل المراد بقوله تعالى هنا: «ن» اسم الحوت، وهل المراد به الجنس أو البهموت وهو الذي عليه الأرض؟

وقيل: المراد به الدواة وهو مروي عن ابن عباس، ويكون هذا قسماً بالدواة والقلم، فإن المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة، فإن التفاهم تارة يحصل بالنطق وتارة بالكتابة.

وقيل: إن «ن» لوح من نور تكتب فيه الملائكة ما يأمرهم به الله. رواه معاوية بن قرة مرفوعاً. والحق أنه اسم للسورة، وأقسم الله تعالى بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد بن الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، وقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيباً يبرىء بإذن بارئه من أنواع الألم على تنزيه نبيه ورسوله محمد المحمود في كل أفعاله وأقواله مما غمصته أعداؤه الكفرة به، وتكذيبهم له بقوله تعالى: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ [القلم: ٢].

وكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء قاطبة عن معارضته، وكلّت عن مماثلته، وعرفّهم من الحق ما لا تهتدي إليه عقولهم، بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الألباء، وتلاشت في جنب ما جاء به، بحيث لم يسعها إلا التسليم له، والانقياد والإذعان طائعة مختارة، فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي.

ثم أخبر تعالى عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وآخرته فقال: ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ [القلم: ٣] أي: ثواباً غير منقطع، بل هو دائم مستمر، ونكر الأجر للعظيم، أي أجراً عظيماً لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير.

ثم أثنى عليه بما منحه فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤] وهذه من

أعظم آيات نبوته ورسالته، ولقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» ومن ثم قال ابن عباس وغيره: أي على دين عظيم، وسمى الدين خلقاً لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة وإرادات زاكية وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات فتكتسب النفس بها أخلاقاً هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها. وهذه كانت أخلاقه ﷺ المقتبسة من القرآن، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً وتبييناً، وعلومه علوم القرآن، وإراداته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، فترجمت أم المؤمنين ـ لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول، وحسن تعبيرها ـ عن هذا كله بقولها: «كان خلقه القرآن»، وفهم السائل عنها هذا المعنى فاكتفى به واشتفى.

ولما وصفه تعالى بأنه على خلق عظيم قال: ﴿فستبصر ويبصرون، بأيكم المفتون﴾ [القلم: ٥ ـ ٦] أي فسترى يا محمد وسيرى المشركون كيف عاقبة أمرك، فإنك تصير معظماً في القلوب، ويصيرون أذلاء مغلوبين، وتستولي عليهم بالقتل والنهب[1].

## الفصل الثاني
## في قسمه تعالى على ما أنعم به عليه وأظهره من قدره العلي لديه

قال الله تعالى: ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى﴾ [الضحى: ١ ـ ٣] السورة. أقسم تعالى على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه له وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد. وأقسم تعالى بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته ووحدانيته، وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، وفسر بعضهم ـ كما حكاه الإمام فخر الدين ـ الضحى بوجهه ﷺ والليل بشعره، قال: ولا استبعاد فيه.

و أمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل، للمقسم عليه ، هو نو. الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى.قال أعداؤه: ودع محمداً ربُّه، فأقسم بف وء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

---

(١) ا' .ب في اللغة: الغنيمة. انظر لسان العرب ١٤/٢٩٨ مادة (نهب).

وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم لا يتركهم في ظلمة الجهل والغي بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم، فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه. وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها.

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، والتوديع: الترك، والقلى: البغض، أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أبغضك منذ أحبك، وحذف «الكاف» من «قلا» اكتفاء بكاف ودعك، ولأن رؤوس الآيات بالياء فأوجب اتفاق الفواصل حذفها.

وهذا يعم كل أحواله، وإن كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها، ثم وعده بما تقربه عينه وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى. وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى والنصر والظفر بأعدائه يوم بدر وفتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجاً، والغلبة على بني قريظة والنضير، وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، وقذف في قلوب أعدائه من الرعب، ونشر الدعوة، ورفع ذكره وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة من الشفاعة والمقام المحمود، وما يعطيه في الجنة من الوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر. وقال ابن عباس: يعطيه ألف قصر من لؤلؤ أبيض، ترابها المسك وفيها ما يليق بها.

وبالجملة: فقد دلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه ﷺ كل ما يرضيه. وأما ما يغتر به الجهال من أنه لا يرضى واحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار، فهو من غرور الشيطان لهم ولعبه بهم، فإنه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى، وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسول الله ﷺ حداً يشفع فيهم ـ كما سيأتي في المقصد الأخير إن شاء الله تعالى ـ ورسوله ﷺ أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن تدخل أحداً من أمتي النار أو تدعه فيها، بل ربه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له ورضيه.

ثم ذكره سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه، فقال: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ [الضحى: ٦] وذهب بعضهم إلى أن معنى اليتيم من قولهم: درة يتيمة، أي: ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فآواك إليه وأغناك بعد الفقر. ثم أمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم

النعمة، بل يحدث بها، فإن من شكر النعمة الحديث بها. وقيل المراد بالنعمة النبوة، والتحدث بها: تبليغها.

## الفصل الثالث

## في قسمه تعالى على تصديقه ﷺ فيما أتى به من وحيه وكتابه وتنزيهه عن الهوى في خطابه

قال الله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: ١ ـ ٣]. أقسم تعالى بالنجم على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي. واختلف المفسرون في المراد بالنجم بأقاويل معروفة. منها: «النجم» على ظاهره، وتكون «أل» لتعريف العهد في قول، ولتعريف الجنس في آخر، وهي النجوم التي يهتدى بها. فقيل: الثريا إذا سقطت وغابت، وهو مروي عن ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة وعطية. والعرب إذا أطلقت النجم تريد به الثريا. وعن ابن عباس في رواية عكرمة: النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع، وهذا قول الحسن، وعن السدي الزهري، وعن الحسن أيضاً النجوم إذا سقطت يوم القيامة.

وقيل المراد به النبت الذي لا ساق له، و «هوى» أي سقط على الأرض. وقيل: القرآن، رواه الكلبي عن ابن عباس، لأنه نزل نجوماً على رسول الله ﷺ وهو قول مجاهد ومقاتل والضحاك. وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: هو محمد ﷺ «إذا هوى» أي نزل من السماء ليلة المعراج. وأظهر الأقوال ـ كما قاله ابن القيم ـ أنها النجوم التي ترمى بها الشياطين، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله تعالى آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين. على أن ما أتى به رسوله حق وصدق لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوى رصداً بين يدي الوحي، وحرساً له، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور. وفي المقسم به دليل على المقسم عليه. وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله: بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هوياً، ولا عهد في القرآن بذلك، فيحمل هذا اللفظ عليه. وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت. وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة. بل هذا مما يقسم الرب عليه، ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً لعدم ظهوره للمخاطبين ولا سيما منكرو البعث، فإنه سبحانه إنما يستدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، ثم إن بين المقسم به والمقسم عليه من المناسبة ما لا يخفى.

فإن قلنا إن المراد النجوم التي هي للاهتداء فالمناسبة ظاهرة، وإن قلنا إن المراد الثريا فلأنه أظهر النجوم عند الرائي، لأنه لا يشتبه بغيره في السماء، بل هو ظاهر لكل أحد، والنبي ﷺ تميز عن الكل بما منح من الآيات البينات، ولأن الثريا إذا ظهرت من المشرق حان إدراك الثمار، وإذا ظهرت من المغرب قرب أواخر الخريف فتقل الأمراض، والنبي ﷺ لما ظهر قل الشرك والأمراض القلبية.

وإن قلنا إن المراد بها القرآن فهو استدلال بمعجزته ﷺ على صدقه وبراءته، وأنه ما ضل ولا غوى، وإن قلنا إن المراد النبات، فالنباب به نبات القوى الجسمانية وصلاحها، والقوى العقلية أولى بالصلاح، وذلك بالرسل وإيضاح السبل. وتأمل كيف قال تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم﴾ [النجم: ٢] ولم يقل: ما ضل محمد، تأكيداً لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط، وقد نبه تعالى على هذا المعنى بقوله عز وجل: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾ [المؤمنون: ٦٩]. ثم نزه نطق رسوله ﷺ أن يصدر عن هوى فقال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٣ و ٤] ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لأن نفي نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فيتضمن هو الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه، فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

ثم قال تعالى: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٤] فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي: ما نطقه إلا وحي يوحى، وهذا أحسن من جعل الضمير عائداً إلى القرآن، فإن نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي، قال الله تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ [النساء: ١١٣] وهما القرآن والسنة. وذكر الأوزاعي[1] عن حسان بن عطية[2] قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياها.

ثم أخبر تعالى في وصف من علمه الوحي والقرآن بما يعلم أنه مضاد لأوصاف

---

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي أبو عمرو (٨٨ ـ ١٥٧ هـ) فقيه زاهد. توفي في بيروت. الاعلام ٣/ ٣٢٠ وفيات الأعيان ١/ ٢٧٥ وحلية الأولياء ٦/ ١٣٥ رقم الترجمة (٣٥٤) وشذرات الذهب ١/ ٢٤١.

(٢) هو حسان بن عطية المحاربي فقيه عابد توفي بعد (١٢٠ هـ). حلية الأولياء ٦/ ٧٠ رقم الترجمة (٣٣٠).

الشيطان معلم الضلال والغواية فقال: ﴿علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٥] وهو جبريل، أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة، ولا شك أن مدح المعلم مدح للمتعلم. فلو قال: علمه جبريل ولم يصفه لم يحصل للنبي ﷺ به فضيلة ظاهرة. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾ [التكوير: ٢٠] كما سيأتي البحث فيه إن شاء الله تعالى.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه. وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به، فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد، وعلم أنه كذلك. وفي حديث قصة الإسراء مزيد لما ذكرته هنا، والله الموفق والمعين.

وقال تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس﴾ إلى قوله: ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ [التكوير: ١٥ ـ ٢٥]. أي: لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم. أو: أقسم، و «لا» مزيدة للتأكيد، وهذا قول أكثر المفسرين بدليل قوله تعالى: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ [الواقعة: ٧٦]. قال الزمخشري: والوجه أن يقال هي للنفي، أي أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له، فكأنه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي بإقسامي كلا إعظام، يعني أنه يستأهل فوق ذلك.

أقسم سبحانه وتعالى بالنجوم في أحوالها الثلاثة: في طلوعها وجريانها وغروبها، وبانصرام الليل وإقبال النهار عقيبه من غير فصل، فذكر سبحانه وتعالى حالة ضعف هذا وإدباره، وحالة قوة هذا وتنفسه وإقباله، يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته أن القرآن قول رسول كريم، وهو هنا جبريل، لأنه ذكر صفته قطعاً بعد ذلك بما يعينه به.

وأما ﴿رسول كريم﴾ في «الحاقة» [٤٠] فهو محمد ﷺ. فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري أخرى، وإضافته إليهما إضافة تبليغ، لا إضافة إنشاء من عندهما، ولفظ «الرسول» يدل على ذلك، فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله، فهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمداً ﷺ، فجبريل تلقاه عن الله، ومحمد ﷺ تلقاه عن جبريل. وقد وصف الله تعالى رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم يعطي أفضل العطايا، وهي العلم والمعرفة والهداية والبر والإرشاد، وهذا غاية الكرم. «ذو قوة» كما قال في النجم: ﴿علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٥] فيمنع بقوته الشياطين أن يدنوا منه وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، وروي أنه رفع قريات قوم لوط الأربع على قوادم جناحه حتى سمع أهل السماء نباح كلابها وأصوات بنيها. عند ذي العرش مكين، أي متمكن المنزلة، وهذه العندية عندية الإكرام والتشريف والتعظيم. مطاع ثم، في ملائكة

الله المقربين، يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه، أمين على وحي الله ورسالته، فقد عصمــه الله من الخيانة والزلل.

فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن، وأنه سماع محمد ﷺ من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علواً وجلالة، فقد تولى الله تزكيته بنفسه، ثم نزه رسوله البشري وزكاه مما يقول فيه أعداؤه فقال: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ [التكوير: ٢٢] وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه فهم يعلمون أنهم كاذبون.

ثم أخبر عن رؤيته ﷺ لجبريل عليه السلام، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج يرى بالعيان ويدرك بالبصر، خلافاً لقوم؛ فحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في العيان، وهذا مما خالفوا فيه جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل، ولهذا كان تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تبارك وتعالى، فإن رؤيته ﷺ لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها، ومن أنكرها كفر قطعاً، وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق. وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره، فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب سبحانه أعظم من رؤية جبريل، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة.

ثم نزه تعالى رسوليه كليهما صلى الله عليهما وسلم، أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة، فقال: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ [التكوير: ٢٤] فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: أدائها من غير كتمان وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان. والقراءتان كالآيتين، تضمنت إحداهما ـ وهي قراءة الضاد ـ تنزيهه عن البخل، فإن الضنين: البخيل، يقال: ضننت به أضن، بوزن: بخلت أبخل ومعناه، وقال ابن عباس: ليس ببخيل بما أنزل الله، وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم.

وأجمع المفسرون على أن الغيب ها هنا: القرآن والوحي. قال الفراء: يقول الله تعالى: يأتيه غيب من السماء وهو منفوس فيه، فلا يضنن به عليكم. وهذا معنى حسن جداً، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمن لا يعرف قدره، ومع هذا فالرسول ﷺ لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله. وقال أبو علي الفارسي: المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حلواناً.

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء فمعناه: المتهم، يقال: ظننت زيداً بمعنى اتهمته وليس هو من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذلك يتعدى إلى مفعولين، والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين فيه لا يزيد فيه ولا ينقص منه. وهذا يدل على أن الضمير فيه يرجع إلى محمد ﷺ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة ثم قال ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ [التكوير: ٢٢] ثم قال: وما هو: أي وما صاحبكم بمتهم وبخيل فنفى سبحانه عن رسوله ﷺ ذلك كله، وزكى سند القرآن أعظم تزكية. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقال تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠] الآية. أقسم تعالى بالأشياء كلها، ما يبصرون منها وما لا يبصرون، وهذا أعمّ قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس والعرش والكرسي وكل مخلوق، وذلك من آيات قدرته وربوبيته، ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله ﷺ، وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى وهو كلامه تعالى، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن، وأنه حق ثابت كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق، كما قال تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ [الذريات: ٢٣] فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إن القرآن حق كما أن ما تشاهدونه من الخلق وما لا تشاهدونه حق موجود، ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره «نفسه» ومبدأ خلقه ونشأته وما يشاهد من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب سبحانه وثبوت صفاته وصدق ما أخبر به رسوله ﷺ، ومن لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم يخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه وافترى لما أقره ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه وافترى عليه، وأضل عباده واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأقدر القادرين أن يقر على ذلك، بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بهم، فيسفك دماءهم ويستبيح أموالهم وأولادهم وبلادهم ونساءهم قائلاً إن الله أمرني بذلك، وأباحه لي؟ بل كيف يليق به أن يصدق بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقه، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها، فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يقيم الدلائل القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله، فمن أعظم المحال وأبطل

الباطل، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين أن يفعل ذلك.

والمراد بالرسول الكريم هنا محمد ﷺ ـ كما قدمته ـ لأنه لما قال: إنه لقول رسول كريم ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر ولا كاهن، والمشركون ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٩]. قيل المراد بـ «الكتاب المكنون» اللوح المحفوظ.

قال ابن القيم: والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة﴾ [عبس) ١٣ ـ ١٦] قال مالك: أحسن ما سمعت في هذه أنها مثل الذي في «عبس»، قال: ومن المفسرين من قال: إن المراد أن المصحف لا يمسه إلا طاهر، والأول أرجح لأن الآية سيقت تنزيهاً للقرآن أن تتنزل به الشياطين، أن محله لا تصل إليه، كما قال تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾ [الشعراء: ٢١٠ و ٢١١] وأيضاً:

فإن قوله ﴿لا يمسُّه﴾ [الواقعة: ٧٩] بالرفع، فهذا خبر لفظاً ومعنى، ولو كان نهياً لكان مفتوحاً. ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس ها هنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي، انتهى ملخصاً.

وهذا الذي قاله ابن القيم قد تمسك به جماعة منهم داود، بأنه يجوز مس المصحف للمحدث. وقد أجاب ابن الرفعة في «الكفاية» عن أدلتهم المزخرفة فقال ما نصه: القرآن لا يصح مسه، فعلم أن المراد به الكتاب الذي هو أقرب المذكورين، ولا يتوجه النهي إلى اللوح المحفوظ لأنه غير منزل، ومسه غير ممكن، ولا يمكن أن يكون المراد بالمطهرين الملائكة، لأنه قد نفى وأثبت فكأنه قال: يمسه المطهرون ولا يمسه غير المطهرين، والسماء ليس فيها غير مطهر بالإجماع، فعلم أن المراد: المطهرين من الآدميين، ويبين ذلك ما روي أنه ﷺ قال في كتاب عمرو بن حزم المروي في الدارقطني وغيره: «ولا تمس القرآن إلا وأنت على طهر»[1] ثم قال، فإن قيل: قد قال الواحدي أن

(١) أخرجه الدارقطني في سننه باب في نهي المحدث عن مس القرآن ١٠/ ١٢٢ رقم الحديث (٦) والحاكم في المستدرك ٣/ ٤٨٥ والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٢٣٠ والهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٧٦ والزيلعي في نصب الراية ١/ ١٩٨ والبيهقي في السنن الكبرى نحوه ١/ ٨٧ وفي كنز العمال برقم (٢٨٢٩).

أكثر أهل التفسير على أن المراد اللوح المحفوظ، وأن المطهرين الملائكة، ثم (لو صح ما قلتم لم يكن فيها دليل لأن قوله ﴿لا يمسُّه﴾ [الواقعة: ٧٩] بضم السين، ليس ينهي عن المراد ولو كان نهياً لكان بفتح السين، فهو إذاً خبر.

قلنا: أما قول «أكثر المفسرين» فهو معارض بقول الباقين، والمرجع إلى الدليل.
وأما كون المراد بالآية الخبر، فجوابه: أنا نقول: اللفظ لفظ الخبر ومعناه النهي، وهو كثير في القرآن، قال الله تعالى: ﴿لا تضارَّ والدة بولدها﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿والمطلقات يتربصن﴾ [البقرة: ٢٢٨]. انتهى.

وأجاب العلامة البساطي[1] في شرحه لمختصر الشيخ خليل: بأن (يمسه) مجزوم، وضم السين لأجل الضمير، كما صرح به جماعة، وقالوا: إنه مذهب البصريين، ومنهم ابن الحاجب في «شافيته» انتهى.

وقد ذكر هذا العلامة شهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود الحلبي الشافعي، المشهور بـ «السمين»، مع زيادة إيضاح وفوائد فقال في «لا» هذه وجهان، الثاني: أنها ناهية، والفعل بعدها مجزوم، لأنه لو فكَّ عن الإدغام لظهر ذلك فيه كقوله تعالى: ﴿لم يمسسهم سوء﴾ [آل عمران: ١٧٤] ولكنه أدغم، ولما أدغم حرك آخره بالضمة لأجل «هاء» ضمير المذكر الغائب، ولم يحفظ سيبويه في نحو هذا إلا الضم. وفي الحديث (إنا لم نردَّه عليك إلا أنا حرم)[2] وإن كان القياس جواز فتحه تخفيفاً. قال: وبهذا الذي ذكرته يظهر فساد رد من رد بأنه لو كان نهياً لكان يقال: (لا يمسَّه) بالفتح، لأنه خفي عليه جواز ضم ما قبل الهاء في هذا النحو، لا سيما على رأي سيبويه فإنه لا يجيز غيره.

## الفصل الرابع
## في قسمه تعالى على تحقيق رسالته

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ١ ـ ٣] الآية. أعلم أن كل سورة بدأ الله تعالى فيها بحروف التهجي كان في أوائلها الذكر أو

---

(١) هو يوسف بن خالد بن نعيم بن مقدم بن محمد بن حسن الطائي البساطي. أبو المحاسن، جمال الدين (٧٤١ ـ ٨٢٩ هـ). فقيه نحوي أديب. الضوء اللامع ١٠/ ٣١٢ نيل الابتهاج ٣٥٣ معجم المؤلفين ١٣/ ٢٩٥.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨٥٠) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٣٨ و ٧١ وفي الموطأ برقم (٣٥٣) والشافعي في المسند ٨٤ وابن عبد البر في التمهيد ٩/ ٥٤.

الكتاب أو القرآن إلا «نون». ثم إن في ذكر هذه الحروف في أوائل السور أموراً تدل على أنها غير خالية عن الحكمة، لكن علم الإنسان لا يصل إليها إلا إن كشف الله له سر ذلك.
واختلف المفسرون في معنى (يس) على أقوال:

أحدها: أنه يا إنسان، بلغة طيء، وهذا قول ابن عباس والحسن وعكرمة والضحاك وسعيف بن جبير، وقيل: بلغة الحبشة، وقيل: بلغة كلب، وحكى الكلبي أنها بالسريانية.

قال الإمام فخر الدين: وتقريره هو أن تصغير إنسان: أنيسين، وكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال (يس)، وعلى هذا فيكون الخطاب مع محمد ﷺ ويدل عليه قوله تعالى ﴿إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ٣].

وتعقبه أبو حيان: بأن الذي نقل عن العرب في تصغير إنسان: أنيسيان ـ بياء بعدها ألف ـ فدل على أن أصله: إنسيان، لأن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها، لا يعلم أنهم قالوا في تصغيره أنيسين، وعلى تقدير أنه يصغر كذلك فلا يجوز ذلك إلا أن يبنى على الضم لأنه منادى مقبل عليه، ومع ذلك فلا يجوز لأنه تحقير، ويمتنع ذلك في حق النبوة. انتهى.

قال السمين: وهذا الاعتراض الأخير صحيح، فقد نصوا على أن التصغير لا يدخل في الأسماء المعظمة شرعاً، ولذلك يحكى أن ابن قتيبة لما قال في «المهيمن» إنه مصغر من «مؤمن» والأصل: مؤتمن، فأبدلت الهمزة هاء، قيل له: هذا يقرب من الكفر، فليتق الله قائله، انتهى.

وقيل معنى (يس) يا محمد، قال ابن الحنفية والضحاك. وقيل: يا رجل، قاله أبو العالية. وقيل: هو اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة. وعن أبي بكر الوراق: يا سيد البشر. وعن جعفر الصادق: أن أراد يا سيد، مخاطبة للنبي ﷺ وفيه من تعظيمه وتمجيده ما لا يخفى. وعن طلحة عن ابن عباس: أنه قسم أقسم الله تعالى به، وهو من أسمائه.
وعن كعب: أقسم الله به قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام: يا محمد إنك لمن المرسلين. ثم قال: ﴿والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ٢و ٣] وهو رد على الكفار حيث قالوا: ﴿لست مرسلاً﴾ [الرعد: ٤٣] فأقسم الله تعالى باسمه وكتابه: إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده وعلى طريق مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق. قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له صلى الله عليه وسلم.

## الفصل الخامس
## في قسمه تعالى بمدة حياته ﷺ وعصره وبلده

قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر: ٧٢]. والعَمر والعُمر واحد، ولكنه في القسم يفتح لكثرة الاستعمال، فإذا أقسموا قالوا: لعمرك القسم. قال النحويون: ارتفع قوله (لعمرك) بالإبتداء، والخبر محذوف، والمعنى: قسمي، فحذف الخبر لأن في الكلام دليلاً عليه، وباب القسم يحذف منه الفعل نحو: تالله لأفعلن، والمعنى: أحلف بالله، فتحذف «أحلف» لعلم المخاطب بأنك حالف.

قال الزجاجي[1]: من قال: لعمر الله كأنه حلف ببقاء الله، ومن ثم قال المالكية والحنفية: ينعقد بها اليمين، لأن بقاء الله من صفات ذاته. وعن مالك: لا يعجبني الحلف بذلك. وقال الإمام الشافعي وإسحاق: لا يكون يميناً إلا بالنية، وعن أحمد كالمذهبين، والراجح عنه كالشافعي. واختلف فيمن المخاطب في الآية على قولين:

أحدهما: أن الملائكة قالت للوط عليه السلام ـ لما وعظ قومه وقال: ﴿هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ [الحجر: ٧١] ـ: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر: ٧٢]، أي يتحيرون، فكيف يعقلون قولك، ويلتفتون إلى نصيحتك؟!

والثاني: أن الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه تعالى أقسم بحياته، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض. قال ابن عباس: ما خلق الله، وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر: ٧٢] يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون. رواه ابن جرير

ومراده بقوله: «وما سمعت الله»؛ سمعت كلامه المتلو في الكتب المنزلة. ورواه البغوي في تفسيره بلفظ: وما أقسم الله بحياة أحد إلا بحياته[2]، وما أقسم بحياة أحد غيره، وذلك يدل على أنه أكرم خلق الله على الله، وعلى هذا فيكون قسمه تعالى بحياة محمد ﷺ كلاماً معترضاً في قصة لوط.

قال القرطبي: وإذا أقسم الله تعالى بحياة نبيه فإنما أراد بيان التصريح لنا: أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته. وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبي ﷺ ينعقد به يمينه وتجب

---

(١) هو عبد الرحمن بن إسحاق النهاوندي الزجاجي أبو القاسم. شيخ العربية في عصره. توفي في طبرية سنة (٣٣٧ هـ). الاعلام ٣/ ٢٩٩ وفيات الاعيان ١/ ٢٧٨ بغية الوعاة ٢٩٧.

(٢) انظر تفسير البغوي ٣/ ٤٥.

الكفارة بالحنث، واحتج بكونه ﷺ أحد ركني الشهادة. وقال ابن خويز منداد[1]: واستدل من جوز الحلف به ﷺ بأن أيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ أن يحلفوا به ﷺ حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا خاصم أحدهم صاحبه قال له: احلف لي بحق ما حواه صاحب القبر، أو بحق صاحب هذا القبر، أو بحق ساكن هذا القبر، يعني النبي ﷺ.

وقال الله تعالى: ﴿لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد﴾ [البلد: ١و ٢] الآية. أقسم تعالى بالبلد: الأمين، وهي مكة أم القرى بلده ﷺ، وقيده بحلوله ﷺ فيه إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله. قاله البيضاوي. ثم أقسم بالوالد وما ولد، وهو فيما قيل: إبراهيم وإسماعيل، وما ولد: محمد ﷺ، وعلى هذا فتتضمن السورة القسم به في موضعين، وقيل المراد به آدم وذريته، وهو قول الجمهور من المفسرين.

وإنما أقسم تعالى بهم لأنهم أعجب خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والنظر واستخراج العلوم، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى والأنصار لدينه، وكل ما في الأرض من مخلوق خلق لأجلهم، وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان وأصل السكان، فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم.

وقوله: ﴿وأنت حل﴾ [البلد: ٢] هو من: الحلول، ضد الظعن، فيتضمن إقسامه تعالى ببلده المشتمل على عبده ورسوله، فهو خير البقاع واشتمل على خير العباد فقد جعل الله تعالى بيته هدى للناس، ونبيه إماماً وهادياً لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه. وقيل: المعنى أنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين الذي يأمن فيه الطير والوحش، وقد استحل فيه قومك حرمتك. وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد.

وعن قتادة: ﴿وأنت حل﴾ [البلد: ٢] أي لست بآثم، وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت. وذلك أن الله تعالى يفتح عليه مكة وأهلها، وما فتحت على أحد قبله، فأحل ما شاء وحرم ما شاء، فقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة وغيره، وحرم دار أبي سفيان. فإن قلت: هذه السورة مكية، ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ [البلد: ٢] إخبار عن الحال، والواقعة التي ذكرت في آخر مدة هجرته إلى المدينة، فكيف الجمع بين الأمرين؟

أجيب: بأنه قد يكون اللفظ للحال، والمعنى مستقبل، كقوله تعالى ﴿أنك ميت

---

(١) هو محمد بن أحمد أبو بكر تفقه على الأبهري وله كتاب كبير في الخلاف وكتاب في أصول الفقه وكتاب في أحكام القرآن، ولم يكن بالجيد النظر ولا قوي الفقه.

وإنهم ميتون﴾ [الزمر: ٣٠]. وعلى كل حال فهذا متضمن للقسم ببلد رسول الله ﷺ، ولا يخفى ما فيه من زيادة التعظيم ، وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أقسم بحياتك دون سائر الأنبياء، ولقد بلغ من فضيلتك عنده أن أقسم بتراب قدميك فقال: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ [البلد: ١].

وقال تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ [العصر: ١ و ٢]. اختلف في تفسير العصر على أقوال:

فقيل: هو الدهر، لأنه مشتمل على الأعاجيب، لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم وغير ذلك. وقيل: ذكر العصر الذي بمضيه ينقضي عمرك، فإذا لم يكنى في مقابلته كسب صار ذلك عين الخسران، ولله در القائل.

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

وفي تفسير الإمام فخر الدين والبيضاوي وغيرهما: أنه أقسم بزمان الرسول ﷺ. قال الإمام الرازي: واحتجوا له بقوله ﷺ؛ «إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجراء، فقال: من يعمل لي من الفجر إلى الظهر بقيراط، فعملت اليهود، ثم قال من يعمل لي من الظهر إلى العصر بقيراط، فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى المغرب بقيراطين فعملتم، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل أجراً، فقال الله تعالى: وهل نقصت من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء، فكنتم أقل عملاً وأكثر أجراً[1]» رواه البخاري.

قالوا: فهذا الحديث دل على أن العصر هو عصره ﷺ الذي هو فيه، فيكون على هذا أقسم تعالى بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله: ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ [البلد: ٢]، وبعمره في قوله ﴿لعمرك﴾ [الحجر: ٧٢]، فكأنه قال: وعصرك وبلدك وعمرك، وذلك كله كالظرف له، فإذا وجب تعظيم الظرف فكيف حال المظروف، قال: ووجه القسم كأنه تعالى قال: ما أعظم خسرانهم إذا أعرضوا عنك. انتهى.

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٢٢٦٨ ـ ٢٢٦٩) وفي الترمذي في كتاب الأدب (٨٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/١١١.

## النوع السادس
## في وصفه تعالى له ﷺ بالنور والسراج المنير

اعلم أن الله تعالى قد وصف رسوله ﷺ بـ «النور» في قوله تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ [المائدة: ١٥]، وقيل المراد: القرآن. ووصفه ﷺ أيضاً بـ «السراج المنير» في قوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

والمراد: كونه هادياً مبيناً كالسراج الذي يري الطريق ويبين الهدى والرشاد، فبيانه أقوى وأتم وأنفع من نور الشمس، وإذا كان كذلك وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشمس، فكما أن الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيرها ولا تستفيد من غيرها فكذا نفس النبي ﷺ تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية، ولذلك وصف الله الشمس بأنها سراج حيث قال: ﴿وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ [الفرقان: ٦١].

وكما وصف الله رسوله بأنه نور، وصف نفسه المقدسة بذلك فقال: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ [النور: ٣٥]، فليس فيهما نور إلا الله، ونوره القدسي هو سر الوجود والحياة والجمال والكمال، وهو الذي أشرق على العالم فأشرق على العوالم الروحانية، وهم الملائكة، فصارت سرجاً منيره، يستمد منها من هو دونها بجود الله تعالى، ثم سرى النور إلى عالم النفوس الإنسانية، ثم طرحته النفوس على صفحات الجسوم، فليس في الوجود إلا نور الله الساري إلى الشيء منه بقدر قبوله ووسع استعداده ورحب تلقيه.

والنور في الأصل: كيفية يدركها الباصر أولاً، وبواسطتها سائر المبصرات، كالكيفية الفائضة من النيرين ـ الشمس والقمر ـ على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف، كقولك: زيد كرم، بمعنى: ذو كرم، أو بمعنى منور السماوات والأرض، فإنه تعالى نورهما بالكواكب، وما يفيض عنها من الأنوار، وبالملائكة والأنبياء من قولهم للرئيس الفائق في التدبير: نور القوم، لأنهم يهتدون به في الأمور، ويؤيد هذا القول قراءة علي بن أبي طالب وزيد بن علي وغيرهما (نوَّر) فعلاً ماضياً، و (الأرضَ) بالنصب. وقوله: (مثل نوره) أي: مثل هداه سبحانه وتعالى. وأضاف النور إلى السماوات والأرض إما دلالة على سعة إشراقه، وفشو إضاءته حتى تضيء له السماوات والأرض، وإما لإرادة أهل السماء والأرض، وأنهم يستضيئون به.

وعن مقاتل: أي مثل الإيمان في قلب محمد كمشكاة فيها مصباح، فالمشكاة نظير صدر عبد الله، والزجاجة نظير جسد محمد ﷺ، المصباح نظير الإيمان والنبوة في قلب محمد ﷺ. وعن غيره: المشكاة نظير إبراهيم، والزجاجة نظير إسماعيل عليهما السلام، والمصباح جسد محمد ﷺ، والشجرة: النبوة والرسالة.

وعن أبي سعيد الخراز[1]: المشكاة: جوف محمد ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي جعله الله في قلب محمد ﷺ. وعن كعب وابن جبير: النور الثاني هنا محمد ﷺ. وعن سهل بن عبد الله: مثل نور محمد إذ كان مستودعاً في الأصلاب كمشكاة صفتها كذا وكذا، وأراد بالمصباح قلبه وبالزجاجة صدره، أي كأنه كوكب دري لما فيه من الإيمان والحكمة.

توقد من شجرة مباركة، أي من نور إبراهيم، وضرب المثل بالشجرة المباركة.

وقوله: ﴿يكاد زيتها يضيء﴾ [النور: ٣٥] أي تكاد نبوة محمد تبين للناس قبل كلامه، حكى هذا القول الأخير القاضي أبو الفضل اليحصبي والفخر الرازي، لكنه عن كعب الأحبار.

وعن الضحاك: يكاد محمد يتكلم بالحكمة قبل الوحي. قال عبد الله بن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تنبيك بالخبر

لكن التفسير الأول في هذه الآية هو المختار، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ [النور: ٣٤] فإذا كان المراد بقوله (مثل نوره) أي مثل هداه كان ذلك مطابقاً لما قبله.

[واختلفوا في هذه التشبيه. أو هو مشبه جملة بجملة، لا يقصد فيها إلى تشبيه جزء بجزء، ومقابلة شيء بشيء، أو مما قصد منه ذلك؟ أي: مثل نور الله، الذي هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق، وبراهينه الساطعة، على الجملة كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين يدي الناس، أي: مثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيها البشر.

وقيل: هو من التشبيه المفصل، المقابل جزء بجزء، .قد رده على تلك الأقوال الثلاثة.

---

(١) هو أحمد بن عيسى الخراز أبو سعيد من مشايخ الصوفية. توفي سنة (٢٨٦ هـ وقيل ٢٧٧ هـ). الاعلام ١/ ١٩١ شذرات الذهب ٢/ ١٩٢.

أي: مثل نوره في محمد ﷺ، أو في المؤمنين، أو في القرآن والإيمان كمشكاة، فالمشكاة هو الرسول أو صدره، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من علمه وهداه، والزجاجة قلبه، والشجرة المباركة الوحي، والملائكة رسل الله إليه، وشبه الفضل به بالزيت وهو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي.

وعلى قول: «المؤمنين»، فالمشكاة صدره، والمصباح الإيمان والعلم، والزجاجة قلبه، والشجرة القرآن، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمنتها.

وعلى قول: «الإيمان والقرآن»، أي مثل الإيمان والقرآن في صدر المؤمنين وفي قلبه كمشكاة.

وأما الضمير على قول المؤمنين في قراءة أبي المذكورة في بعض التفاسير، ففيه إشكال من حيث الإفراد، وعن أبي: هو عائد على المؤمنين، وفي قراءته: مثل نور المؤمنين، وفي رواية عنه: مثل نور من آمن به. وعن الحسن: يعود على القرآن والإيمان][1].

## النوع السابع
## في آيات تتضمن وجوب طاعته واتباع سنته

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾ [الأنفال: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾ [آل عمران: ١٣٢]. وقال تعالى: ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ [آل عمران: ٣٢]. قال القاضي عياض: فجعل طاعته طاعة رسوله، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب.

وقال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠]. يعني: من أطاع الرسول لكونه رسولاً مبلغاً إلى الخلق أحكام الله فهو في الحقيقة ما أطاع إلا الله، وذلك في الحقيقة لا يكون إلا بتوفيق الله. ﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ [النساء: ٨٠] فإن من أعماه الله عن الرشد وأضله عن الطريق فإن أحداً من الخلق لا يقدر على إرشاده. وهذه الآية من أقوى الأدلة على أن الرسول معصوم في جميع الأوامر والنواهي، وفي كل ما يبلغه عن الله، لأنه لو أخطأ في شيء منها لم تكن طاعته طاعة الله تعالى، وأيضاً وجب أن يكون معصوماً في جميع أفعاله، لأنه تعالى أمر بمتابعته في قوله:

---

(١) زيادة نقلاً عن النسخة المطبوعة.

﴿واتبعوه﴾ [الأعراف: ١٥٨]، والمتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير، فثبت أن الانقياد له في جميع أقواله وأفعاله إلا ما خصه الدليل طاعة له، وانقياد لحكم الله تعالى. وقال الله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ [النساء: ٦٩] الآية. وهذا عام في المطيعين لله من أصحاب الرسول ومن بعدهم، وعام في المعية في هذه الدار، وإن فاتت فيها معية الأبدان.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية أن ثوبان، مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله ﷺ عن حاله فقال: يا رسول الله، ما بي وجع، غير أني إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة بحيث لا أراك هناك، لأني إذا دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين، وإن أنا لم أدخل الجنة فحينئذٍ لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية.

وذكر ابن أبي حاتم عن أبي الضحى عن مسروق، قال أصحاب محمد: يا رسول الله ما ينبغي لنا أن نفارقك، فإنك لو قدْ متَّ لرفعت فوقنا ولم نرك، فأنزل الله الآية. وذكر عن عكرمة مرسلاً، قال: أتى فتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لنا منك نظرة في الدنيا ويوم القيامة لا نراك لأنك في الجنة في الدرجات العلى، فأنزل الله هذه الآية فقال له رسول الله ﷺ: «أنت معي في الجنة»[1]. وذكر فيها أيضاً روايات أخر ستأتي إن شاء الله تعالى في مقصد محبته ﷺ.

لكن قال المحققون: لا ننكر صحة هذه الروايات، إلا أن سبب نزول هذه الآية يجب أن يكون شيئاً أعظم من ذلك، وهو الحث على الطاعة والترغيب فيها، فإنا نعلم أن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، فهذه الآية عامة في حق جميع المكلفين، وهو أن كل من أطاع الله وأطاع الرسول فقد فاز بالدرجات العالية والمراتب الشريفة عنده تعالى.

ثم إن ظاهر قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ [النساء: ٦٩] أنه يكفي الاكتفاء بالطاعة الواحدة، لأن اللفظ الدال على الصفة يكفي في جانب الثبوت حصول ذلك المسمى مرة واحدة، لكن لا بد أن يحمل على غير ظاهره، وأن تحمل الطاعة على

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٧١ وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٢٠٣ وابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٢١٥.

فعل جميع المأمورات وترك جميع المنهيات، إذ لو حملناه على الطاعة الواحدة لدخل فيه الفساق والكفار، لأنهم قد يأتون بالطاعة الواحدة.

قال الرازي: قد ثبت في أصول الفقه أن الحكم المذكور عقب الصفة مشعر بكون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف، وإذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿من يطع الله﴾ [النساء: ٦٩] أي في كونه إلّهاً، وطاعة الله في كونه إلّهاً هي معرفته والإقرار بجلالته وعزته وكبريائه وصمديته، فصارت هذه تنبيهاً على أمرين عظيمين من أحوال المعاد:

فالأول: أن منشأ جميع السعادات يوم القيامة إشراف الروح بأنوار معرفة الله، فكل من كانت هذه الأنوار في قلبه أكثر، وصفاؤها أقوى كان إلى السعادة أقرب، وإلى الفوز بالنجاة أوصل.

والثاني: أن الله تعالى ذكر في الآية السابقة وعد أهل الطاعة بالأجر العظيم والثواب الجزيل، ثم ذكر في هذه الآية وعدهم بكونهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين كون الكل في درجة واحدة، لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وذلك لا يجوز، فالمراد كونهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً، وإذا أرادوا الرؤية والتلاقي قدروا على ذلك، فهذا هو المراد من هذه المعية، وقد ثبت وصح عنه ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب»، وثبت عنه أيضاً أنه قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا نزلتم منزلاً إلا وهم معكم حبسهم العذر»[1]، فالمعية والصحبة الحقيقية إنما هي بالسر والروح لا بمجرد البدن، فهي بالقلب لا بالقالب، ولهذا كان النجاشي معه ﷺ ومن أقرب الناس إليه، وهو بين النصارى بأرض الحبشة، وعبد الله بن أبي من أبعد الخلق عنه، وهو معه في المسجد، وذلك أن العبد إذا أراد بقلبه أمراً من طاعة أو معصية أو شخص من الأشخاص فهو بإرادته ومحبته معه لا يفارقه، فالأرواح تكون مع الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وبينها وبينهم من المسافة الزمانية والمكانية بعد عظيم.

وقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ [آل عمران: ٣١]. وهذه الآية الشريفة تسمى: آية المحبة، قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحبة ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾ [آل عمران: ٣١] وقال تعالى: ﴿يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها،

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب (٣٥) وابن ماجه في كتاب الجهاد برقم (٢٧٦٤ ـ ٢٧٦٥).

فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فمْا لم تحصل المتابعة فلا محبة لكم حاصلة، ومحبته لكم منتفية، فجعل سبحانه اتباع رسوله ﷺ مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود تحقق شرطه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل حينئذ ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله ﷺ فدل على أن متابعة الرسول هي حب الله ورسوله وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يكون شيء أحب إليه من الله ورسوله، ومتى كان شيء عنده أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفر لصاحبه ألبتة ولا يهديه الله، قال الله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [التوبة: ٢٤]، فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحد منهم على معاملة الله ورسوله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قال بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بما ليس هو عليه. انتهى ملخصاً من كتاب «مارج السالكين»، وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في مقصد محبته ﷺ.

وقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ [الأعراف: ١٥٨]. أي إلى الصراط المستقيم، فجعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين، الإيمان بالرسول واتباعه، تنبيهاً على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو في الضلالة، فكل ما أتى به الرسول ﷺ يجب علينا اتباعه إلا ما خصه الدليل.

وقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ [التغابن: ٨] يعني القرآن، فالإيمان به ﷺ واجب متعين على كل أحد. لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه، قال تعالى: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً﴾ [الفتح: ١٣] أي ومن لم يؤمن بالله ورسوله فهو من الكافرين، وإنا أعتدنا للكافرين سعيراً.

وقال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ [النساء: ٦٥] الآية. معناه: فوربك، كقوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ [الحجر: ٩٢] و «لا» مزيدة للتأكيد لمعنى القسم، كما في ﴿لئلا يعلم﴾ [الحديد: ٢٩] ولا يؤمنون جواب. أقسم الله

تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول في جميع أموره، ويرضى بجميع ما حكم به، وينقاد له ظاهراً وباطناً، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفهم، كما ورد في الحديث: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)، وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول ﷺ لا يكون مؤمناً، وعلى أنه لا بد من حصول الرضى بحكمه في القلب، وذلك بأن يحصل الجزم والتيقن في القلب بأن الذي يحكم به ﷺ هو الحق والصدق، فلا بد من الانقياد باطناً وظاهراً، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله تعالى في مقصد محبته ﷺ. ثم إن ظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس، لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه، وأنه لا يجوز العدول عنه إلى غيره.

وقوله: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت﴾ [النساء: ٦٥] مشعر بذلك، لأنه متى خطر بقلبه قياس يقتضي ضد مدلول النص فهناك يحصل الحرج في النفس، فبين تعالى أنه لا يكمل إيمانه إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج ويسلم إلى النص تسليماً كلياً، قاله الإمام فخر الدين. وجوز غيره تخصيص الكتاب والسنة بالقياس، وبه صرح العلامة التاج بن السبكي في جمع الجوامع.

## النوع الثامن
## فيما يتضمن الأدب معه ﷺ

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ [الحجرات: ١]. فمن الأدب أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما أمر الله تعالى بذلك في هذه الآية، وهذا باق إلى يوم القيامة لم ينسخ. فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته، لا فرق بينهما عند كل ذي عقل سليم. قال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء، حتى يقضيه الله تعالى على لسانه. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون رسول الله ﷺ. وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر، ولا تنهوا حتى ينهى.

وانظر أدب الصديق ـ رضي الله عنه ـ معه ﷺ في الصلاة، إذ تقدم بين يديه كيف تأخر وقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ، كيف أورثه مقامه والإمامة بعده، فكان ذلك التأخر إلى خلفه، وقد أومأ إليه أن اثبت مكانك، سعياً إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي.

ومن الأدب معه ﷺ أن لا ترفع الأصوات فوق صوته، كما قال تعالى: ﴿يا أيها

الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾ [الحجرات: ٢]. قال الرازي: أفاد أنه ينبغي أن لا يتكلم المؤمن عنده ﷺ كما يتكلم العبد عند سيده، لأن العبد ادخل في قوله تعالى: ﴿كجهر بعضكم لبعض﴾ [الحجرات: ٢] لأنه للعموم، فلا ينبغي أن يجهر المؤمن للنبي ﷺ كما يجهر العبد للسيد، وإلا كان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض.

قال: ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [الأحزاب: ٦]، والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه، حتى لو كانا في مخمصة ووجد العبد ما لو لم يأكله لمات لا يجب عليه بذله لسيده، ويجب البذل للنبي ﷺ، ولو علم العبد أن بموته ينجو سيده لا يلزمه أن يلقي نفسه في التهلكة لإنجاء سيده، ويجب لإنجاء النبي ﷺ، فكما أن العضو الرئيس أولى بالرعاية من غيره، لأن عند خلل القلب مثلاً لا يبقى لليدين والرجلين استقامة، فلو حفظ الإنسان نفسه وترك النبي ﷺ لهلك هو أيضاً بخلاف العبد والسيد. انتهى. وإذا كان رفع الأصوات فوق صوته موجباً لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به.

واعلم أن في الرفع والجهر استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط، وذلك إذا انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة. وروي أن أبا بكر رضي الله عنه، لما نزلت هذه الآية قال: والله يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار، وأن عمر رضي الله عنه كان إذا حدثه حدّثه كأخي السرار ما كان يسمع النبي ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه.

وقد روي أن أبا جعفر أمير المؤمنين ناظر مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله عز وجل أدب قوماً فقال: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ [الحجرات: ٢] ومدح قوماً فقال: ﴿إن الذي يغضون أصواتهم﴾ [الحجرات: ٣] الآية، وذم قوماً فقال: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ [الحجرات: ٤] الآية. وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً، فاستكان لها أبو جعفر.

ومن الأدب أن لا يجعل دعاؤه كدعاء بعضنا بعضاً، قال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ [النور: ٦٣] وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضاً، بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، مع التوقير والتواضع، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاؤكم الرسول.

والثاني: إن المعنى، لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً، إن شاء

أجاب وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة، فإن المبادرة إلى إجابته واجبة، والمراجعة بغير إذنه محرمة، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي دعاءه إياكم، وقد تقدم في الخصائص من المقصد الرابع عن مذهب الشافعي أن الصلاة لا تبطل بإجابته ﷺ.

ومن الأدب معه ﷺ أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد، أو رباط، لم يذهب أحد مذهباً في حاجة له حتى يستأذنه، كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ [النور: ٦٢]. فإذا كان هذا مذهباً مقيداً لحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين، أصوله وفروعه، دقيقه وجليله، هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [النحل: ٤٣].

ومن الأدب معه ﷺ أنه لا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء بقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال مخالف، يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول وعن الصواب معزول، ولا يتوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه، وهو عين الجراءة عليه.

ورأس الأدب معه ﷺ كمال التسليم له والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه صاحبه معقولاً، أو يسميه شبهة، أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم، فيوحد التحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما، توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يتحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، انتهى ملخصاً من «المدارج» والقرآن مملوء بالآيات المرشدة إلى الأدب معه ﷺ فلتراجع.

## النوع التاسع
## في آيات تتضمن رده تعالى بنفسه المقدسة على عدوه ﷺ ترفيعاً لشأنه

قال الله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ [القلم: ١ ـ ٢] لما قال المشركون: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر: ٦]، أجاب تعالى عنه عدوه بنفسه من غير واسطة، وهكذا سنة الأحباب، فإن الحبيب إذا سمع من يسب حبيبه تولى بنفسه ـ منتصراً له ـ جوابه، فهنا تولى الحق سبحانه وتعالى

جوابهم بنفسه منتصراً له، لأن نصرته تعالى أتم من نصرته وأرفع لمنزلته، ورده أبلغ من رده وأثبت في ديوان مجده.

فأقسم تعالى بما أقسم به من عظيم آياته على تنزيه رسوله وحبيبه وخليله مما غمصته أعداؤه الكفرة بـه وتكذيبهم له بقوله: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ [القلم: ٢] وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون، هو أو هم؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا، ويزداد علمهم به في البرزخ، وينكشف ويظهر كل الظهور في الآخرة بحيث يتساوى الخلق كلهم في العلم به. وقال تعالى: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ [التكوير: ٢٢].

ولما رأى العاصي بن وائل السهمي النبي ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاصي قالوا: من ذا الذي كنت تحدث معه، قال: ذلك الأبتر، يعني النبي ﷺ، وكان قد توفي ابن لرسول الله ﷺ من خديجة، فرد الله تعالى عليه، وتولى جوابه بقوله: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ [الكوثر: ٣] أي عدوك ومبغضك هو الذليل الحقير.

ولما قالوا: ﴿أفترى على الله كذباً﴾ [سبأ: ٨] قال الله تعالى: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ [سبأ: ٨]. ولما قالوا: ﴿لست مرسلاً﴾ [الرعد: ٤٣] أجاب الله تعالى عنه فقال: ﴿يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ١ ـ ٣]. ولما قالوا: ﴿أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون﴾ [الصافات: ٣٦] رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾ [الصافات: ٣٧] فصدقه ثم ذكر وعيد خصمائه فقال: ﴿إنكم لذائقو العذاب الأليم﴾ [الصافات: ٣٨]. ولما قالوا: ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ [الطور: ٣٠] رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ [يس: ٦٩].

ولما حكى الله عنهم قولهم: ﴿إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾ [الفرقان: ٤] سماهم الله تعالى كاذبين بقوله: ﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ [الفرقان: ٤]. قال: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ [الفرقان: ٦]. ولما قالوا: يلقيه إليه شيطان قال الله تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ [الشعراء: ٢١٠] الآية ولما تلا عليهم نبأ الأولين قال النضر بن الحارث ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ [الأنفال: ٣١] قال الله تعالى: تكذيباً لهم ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولما قال الوليد بن المغيرة: ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر﴾

[المدثر: ٢٤ و ٢٥] قال الله تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ [الذاريات: ٥٢] تسلية له عليه الصلاة والسلام. ولما قالوا: محمد قلاه ربه، رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ [الضحى: ٣].

ولما قالوا: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ [الفرقان: ٧] قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ [الفرقان: ٢٠]. ولما حسدته أعداء الله اليهود على كثرة النكاح والزوجات، وقالوا: ما همته إلا النكاح، رد الله تعالى عليهم عن رسوله ونافح عنه فقال: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ [النساء: ٥٤].

ولما استبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر بقولهم الذي حكى الله عنهم: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً﴾ [الإسراء: ٩٤] وجهلوا أن التجانس يورث التآنس، وأن التخالف يورث التباين. قال الله تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ [الإسراء: ٩٥] أي لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة، لكن لما كان أهل الأرض من البشر وجب أن يكون رسولهم من البشر.

فما أجل هذه الكرامة، وقد كانت الأنبياء إنما يدافعون عن أنفسهم، ويردون على أعدائهم، كقول نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾ [الأعراف: ٦١]، وقول هود ﴿ليس بي سفاهة﴾ [الأعراف: ٦٧] وأشباه ذلك.

## النوع العاشر
## في إزالة الشبهات عن آيات وردت في حقه ﷺ متشابهات

قال الله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ [الضحى: ٧]. اعلم أنه قد اتفق العلماء على أنه ﷺ ما ضل لحظة واحدة قط، وهل هو جائز عقلاً على الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ قبل النبوة؟ قالت المعتزلة: هو غير جائز عقلاً لما فيه من التنفير. وعند أصحابنا: أنه جائز في العقول، ثم يكرم الله من أراد بالنبوة، إلا أن الدليل السمعي قام على أن هذا الجائز لم يقع لنبي، قال الله تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ [النجم: ٢] قاله الإمام فخر الدين.

وقال الإمام أبو الفضل اليحصبي في الشفاء: والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته، والتشكك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن

الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة، ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبيء و اصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل[1].

ثم قال: وقد استبان لك بما قررناه ما هو الحق من عصمته ﷺ عن الجهل بالله وصفاته، أو كونه على حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة بعد النبوة عقلاً وإجماعاً، وقبلها سمعاً ونقلاً، ولا بشيء مما قررناه من أمور الشرع وأداه عن ربه من الوحي قطعاً، عقلاً وشرعاً، وعصمته عن الكذب وخلف القول منذ نبأه الله وأرسله، قصداً وغير قصد، واستحالة ذلك عليه شرعاً وإجماعاً، نظراً وبرهاناً، وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعاً، وتنزيهه عن الكبائر إجماعاً، وعن الصغائر تحقيقاً، وعن استدامة السهو والغفلة، واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمة، وعصمته في كل حالاته من رضى وغضب، وجد ومزح، ما يجب لك أن تتلقاه باليمين، وتشد عليه يد الضنين، فإن من يجهل ما يجب للنبي ﷺ، أو يجوز أو يستحيل عليه، ولا يعرف صور أحكامه لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ما [هي] عليه، ولا ينزهه عما لا يجوز أن يضاف إليه، فيهلك من حيث لا يدري، ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار، إذ ظن الباطل به واعتقاد ما لا يجوز عليه يحل صاحبه دار البوار[2].

وقد استدل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر، بالمصير إلى امتثال أفعالهم واتباع آثارهم وسيرتهم مطلقاً. وجمهور الفقهاء على ذلك من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة في غير التزام قرينة بل مطلقاً عند بعضهم، وإن اختلفوا في حكم ذلك، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يكن الاقتداء بهم في أفعالهم، إذ ليس كل فعل من أفعاله يتميز مقصده من القربة والإباحة والحظر والمعصية. انتهى. واختلف في تفسير هذه الآية على وجوه كثيرة:

أحدها: وجدك ضالاً عن معالم النبوة. وهو مروي عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب، ويؤيده قوله تعالى ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى: ٥٢] أي ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، قاله السمرقندي، وقال بكر القاضي: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام، فقد كان ﷺ قبل مؤمناً بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل، فازداد بالتكاليف إيماناً[3]، وسيأتي آخر هذا النوع مزيد لذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ٢/١٠٩.
(٢) المصدر السابق ٢/١٧٢ وما بعدها.
(٣) المصدر السابق ٢/١١٣.

الثاني: من معنى قوله: (ضالاً) ما روي مرفوعاً مما ذكره الإمام فخر الدين: أنه ﷺ قال: «ضللت عن جدي عبد المطلب وأنا صبي حتى كاد الجوع يقتلني فهداني الله».

الثالث: يقال: ضل الماء في اللبن إذا صار مغموراً، فمعنى الآية: كنت مغموراً بين الكفار بمكة فقواك الله حتى أظهرت دينه.

الرابع: أن العرب تسمى الشجرة الفريدة في الفلاة ضالة، كأنه تعالى يقول: كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله تعالى ومعرفته إلا أنت، فأنت شجرة فريدة في مفازة الحمد.

الخامس: قد يخاطب السيد، والمراد قومه، أي وجد قومك ضالين فهداهم بك وبشرعك.

السادس: أي محباً لمعرفتي، وهو مروي عن ابن عطاء، والضال: المحب، كما قال تعالى: ﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾ [يوسف: ٩٥] أي محبتك القديمة، ولم يريدوا هاهنا: في الدين، إذ لو قالوا ذلك في نبي الله لكفروا[1].

السابع: أي وجدك ناسياً فذكرك، وذلك ليلة المعراج نسي ما يجب بأن يقال بسبب الهيبة، فهداه تعالى إلى كيفية الثناء حتى قال: لا أحصي ثناء عليك.

الثامن: أي وجدك بين أهل ضلال فعصمك من ذلك وهداك للإيمان وإلى إرشادهم[2].

التاسع: أي وجدك متحيراً في بيان ما أنزل إليك، فهداك لبيانه، كقوله: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ [النحل: ٤٤] وهذا مروي عن الجنيد[3].

العاشر: عن علي أنه ﷺ قال: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد، ثم ما هممت بعدهما بشيء حتى أكرمني الله برسالته». قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى بأعلى مكة: لو حفظت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت حتى أتيت أول دار من دور أهل مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير فجلست أنظر إليهم وضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك فضرب الله علي أذني

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١١٢.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٢.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٣.

فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته»[1].

وأما قوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك﴾ [الشرح: ٢و ٣]. فقد احتج بها جماعة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين المجوزين للصغائر على الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وبظواهر كثيرة من القرآن والحديث، إن التزموا ظواهرها أفضت بهم - كما قال القاضي عياض - إلى تجويز الكبائر، وخرق الإجماع، وما لا يقول به مسلم، فكيف وكلما احتجوا به منها مما اختلف المفسرون في معناه، وتقابلت الاحتمالات في مقتضاه. وجاءت الأقاويل فيها للسلف بخلاف ما التزموه من ذلك. فإذا لم يكن مذهبهم إجماعاً، وكان الخلاف فيما احتجوا به قديماً، وقامت الدلالة على خطأ قولهم، وصحة غيره، وجب تركه والمصير إلى ما صح، انتهى. وقد اختلف في هذه الآية:

فقال أهل اللغة: الأصل فيه أن الظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض، أي صوت كصوت المحامل والرحال، وهذا مثل لما كان يثقل على رسول الله ﷺ من أقداره. وقيل: المراد منه تخفيف أعباء البنوة التي يثقل الظهر القيام بأمرها، وحفظ موجباتها، والمحافظة على حقوقها، فسهل الله ذلك عليه، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له. وقيل الوزر: ما كان يكرهه من تغييرهم لسنة الخليل عليه السلام، وكان لا يقدر على منعهم إلى قواه الله تعالى وقال له: ﴿ [اتبع ملة إبراهيم﴾ [النحل: ١٢٣].

وقيل: معناه عصمناك من الوزر الذي أنقض ظهرك لو كان ذلك الذنب حاصلاً، فسمى الله العصمة «وضعاً» مجازاً، ومن ذلك ما في الحديث أنه ﷺ حضر وليمة فيها دف ومزامير قبل البعثة فضرب الله على أذنه فما أيقظه إلا حر الشمس من الغد. وقيل: ثقل شغل سرك وحيرتك وطلب شريعتك، حتى شرعنا لك ذلك. وقيل معناه: خففنا عليك ما حملت بحفظنا لما استحفظت وحفظ عليك، ومعنى (أنقض) أي كاد ينقضه. قال القاضي: فيكون المعنى على من جعل ذلك لما قبل النبوة: اهتمام النبي ﷺ بأمور فعلها قبل نبوته وحرمت عليه بعد النبوة فعدها أوزاراً وثقلت عليه وأشفق منها[2]. وقيل: إنها ذنوب أمته صارت كالوزر عليه، فأمنه الله تعالى من عذابهم في العاجل بقوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣] ووعده الشفاعة في الآجل.

وأما قوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢]. فقال

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٦ والقاضي عياض في الشفا ١/ ١٣٦ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٤٣٨).

(٢) انظر الشفا ٢/ ١٥٨.

ابن عباس: أي أنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب أن لو كان. وقال بعضهم: أراد غفران ما وقع وما لم يقع، أي أنك مغفور لك. وقيل: المراد ما كان عن سهو وغفلة وتأويل، حكاه الطبري واختاره القشيري. وقيل: ما تقدم لأبيك آدم وما تأخر من ذنوب أمتك، حكاه السمرقندي والسلمي عن ابن عطاء[1]. وقيل: المراد أمته وقيل المراد بالذنب ترك الأولى، كما قيل: حسنات الأبرار سيآت المقربين، وترك الأولى ليس بذنب، لأن الأولى وما يقابله مشتركان في إباحة الفعل.

وقال السبكي: قد تأملتها ـ يعني الآية ـ مع ما قبلها وما بعدها فوجدتها لا تحتمل إلا وجهاً واحداً، وهو تشريف النبي ﷺ من غير أن يكون هناك ذنب، ولكنه أريد أن يستوعب في الآية جميع أنواع النعم ـ من الله على عباده ـ الأخروية، وجميع النعم الأخروية شيئآن: سلبية وهي غفران الذنوب، وثبوتية وهي لا تتناهى، أشار إليها بقوله ﴿ويتم نعمته عليك﴾ [الفتح: ٢]، وجميع النعم الدنيوية شيئآن: دينية وأشار إليها بقوله ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ [الفتح: ٢]، ودنيوية وهي قوله: ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ [الفتح: ٣]، فانتظم بذلك تعظيم قدر النبي ﷺ بإتمام أنواع نعم الله تعالى عليه المتفرقة في غيره، ولهذا جعل ذلك غاية للفتح المبين الذي عظمه وفخمه بإسناده إليه بنون العظمة[2]، وجعله خاصاً بالنبي ﷺ بقوله: (لك) وقد سبق إلى نحو هذا ابن عطية فقال؛ وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم، ولم تكن ذنوب ألبتة.

ثم قال: وعلى تقدير الجواز لا شك ولا ارتياب أنه لم يقع منه ﷺ، وكيف يتخيل خلاف ذلك ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٣ ـ ٤][3]. وأما الفعل: فإجماع الصحابة على اتباعه والتأسي به في كل ما يفعله من قليل أو كثير، أو صغير أو كبير لم يكن عندهم في ذلك توقف ولا بحث، حتى أعماله في السر والخلوة يحرصون على العلم بها وعلى اتباعها، علم بهم أو لم يعلم، ومن تأمل أحوال الصحابة معه ﷺ استحيى من الله أن يخطر بباله خلاف ذلك، انتهى.

وأما قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ [الأحزاب: ١]. فلا مرية أنه ﷺ أتقى الخلق، والأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به، إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس، ولا للساكت اسكت، ولا يجوز عليه

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٥٧.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» الفتح (١).

(٣) لم يذكر المصنف من كلام السبكي قوله: وأحواله ﷺ منقسمة إلى قول وفعل: أما القول فقال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: ٣] وأما الفعل...

أن لا يبلغ، ولا أن يخالف أمر ربه، ولا أن يشرك، ولا أن يطيع الكافرين والمنافقين، حاشاه الله من ذلك، وإنما أمره الله تعالى بتقوى توجب استدامة الحضور.

وأجاب بعضهم عن هذا أيضاً بأنه ﷺ كان يزداد علمه بالله تعالى، ومرتبته، حتى كان حاله ﷺ فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه ترك للأفضل، فكان له في كل ساعة تقوى تتجدد.

وقيل: المراد دم على التقوى. فإنه يصح أن يقال للجالس: اجلس هاهنا إلى أن آتيك، وللساكت: قد أصبت فاسكت تسلم، أي دم على ما أنت عليه. وقيل: الخطاب مع النبي ﷺ والمراد أمته، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ [الأحزاب: ٢]، ولم يقل بما تعمل.

وأما قوله تعالى: ﴿فلا تطع المكذبين﴾ [القلم: ٨]. فاعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمره ﷺ، ونسبته إلى ما نسبوه إليه، مع ما أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق العظيم، أتبعه بما يقوي قلبه ويدعوه إلى التشديد مع قومه، وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال: ﴿فلا تطع المكذبين﴾ [القلم: ٨] والمراد رؤساء الكفار من أهل مكة، وذلك أنهم دعوه إلى دينهم، فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله تهييج للتشديد في مخالفتهم.

وأما قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ [يونس: ٩٤]، الآية فاعلم أن المفسرين اختلفوا فيمن المخاطب بهذا: فقال قوم المخاطب به النبي ﷺ، وقال آخرون: المخاطب به غيره. فأما من قال بالأول فاختلفوا على وجوه:

الأول: أن الخطاب مع النبي ﷺ في الظاهر والمراد غيره، كقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق: ١] وكقوله: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر: ٦٥]، وكقوله لعيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ [المائدة: ١١٦] ومثل هذا معتاد، فإن السلطان إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فإنه لا يوجه خطابه إليهم، بل يوجهه إلى ذلك الأمير ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم.

الثاني: قال الفراء: علم الله تعالى أن رسوله ﷺ غير شاك، ولكن هذا كما يقول الرجل لولده: إن كنت ابني فبرني، ولعبده: إن كنت عبدي فأطعني.

الثالث: أن يقال لضيق الصدر شاك، يقول: إن ضقت ذرعاً بما تعاني من تعنتهم

وأذاهم فاصبر واسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك كيف صبر الأنبياء على أذى قومهم، وكيف كان عاقبة أمرهم من النصر، فالمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة، وأن القرآن مصدق لم فيها، أو تهييج الرسول ﷺ وزيادة تثبيته، أو يكون على سبيل الفرض والتقدير، لا إمكان وقوع الشك له، ولذلك قال ﷺ «لما نزلت هذه الآية: والله لا أشك ولا أسأل»(١).

وأما الوجه الثاني - وهو أن المخاطب غيره ﷺ - فتقريره: أن الناس كانوا في زمانه ﷺ فرقاً ثلاثة: المصدقون به، والمكذبون له، والمتوقفون في أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال: فإن كنت في شك أيها الإنسان مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان نبينا ﷺ فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ [الإنفطار: ٦] و ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح﴾ [الإنشقاق: ٦] ﴿وإذا مس الإنسان ضر﴾ [الزمر: ٨] فإن المراد «بالإنسان» هنا الجنس، لا إنسان بعينه، فكذا هنا، ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثاني وهم المكذبون فقال: ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾ [يونس: ٩٥].

وأما قوله تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾ [الأنعام: ١١٤]. أي في أنهم لا يعلمون ذلك، أو يكون المراد: قل لمن امترى يا محمد، لا تكونن من الممترين فليس الخطاب له وأنه ﷺ يخاطب به غيره. وقيل غير ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ [الأنعام: ٣٥]. فقال القاضي عياض: لا يلتفت إلى قول من قال: لا تكونن ممن يجهل أن الله لو شاء لجمعهم على الهدى، إذا فيه إثبات الجهل بصفة من صفاته تعالى، وذلك لا يجوز على الأنبياء، والمقصود وعظهم أن لا يتشبهوا في أمورهم بسمات الجاهلين، وليس في الآية دليل على كونه على تلك الصفة التي نهاه الله عن الكون عليها، فأمره الله تعالى ﷺ بالتزام الصبر على إعراض قومه، ولا يخرج عند ذلك فيقارب حال الجاهل بشدة التحسر(٢) حكاه أبو بكر بن فورك.

وقيل: معنى الخطاب لأمته ﷺ، أي فلا تكونوا من الجاهلين. حكاه أبو محمد

---

(١) ذكره ابن جرير عن قتادة مرسلاً لكن بدون قسم.

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ١٠٧/٢.

مكي، قال: ومثله في القرآن كثير، وكذلك قوله تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض﴾ [الأنعام: ١١٦] فالمراد غيره، كما قال تعالى: ﴿إن تطيعوا الذين كفروا﴾ [آل عمران: ١٤٩] وقوله تعالى: ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ [الشورى: ٢٤] و﴿لئن أشركت لحبطن عملك﴾ [الزمر: ٦٥] وما أشبه ذلك فالمراد غيره، وأن هذه حال من أشرك والنبي ﷺ لا يجوز عليه هذا، والله تعالى ينهاه عما يشاء ويأمره بما يشاء، كما قال تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ [الأنعام: ٥٢] الآية، وما طردهم ﷺ وما كان من الظالمين[١].

وأما قوله تعالى: ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: ٣]. فليس بمعنى قوله ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ [يونس: ٧]، وإنما المعنى: لمن الغافلين عن قصة يوسف، إذ لم تخطر ببالك، ولم تقرع سمعك قط، فلم تعلمها إلا بوحينا[٢].

وأما قوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ [الأعراف: ٢٠٠] الآية. فمعناه: يستخفَّك غضب يحملك على ترك الإعراض عنهم.

والنزغ: أدنى حركة تكون، كما قاله الزجاج. فأمره الله تعالى أنه متى تحرك عليه غضب علىْ عدوه، أو رام الشيطان من إغرائه به وخواطر أدنى وساوسه ما لم يجعل له سبيل إليه أن يستعيذ به تعالى منه، فيكفي أمره، ويكون سبب تمام عصمته، إذ لم يسلط عليه بأكثر من التعرض له، ولم يجعل له قدرة عليه. وكذلك لا يصح أن يتصور له الشيطان في صورة الملك ويلبس عليه، لا في أول الرسالة ولا بعدها [والإعتماد في ذلك دليل المعجزة][٣] بل لا يشك النبي أن ما يأتيه من الله هو الملك ورسوله حقيقة إما بعلم ضروري يخلقه الله له أو ببرهان يظهر لديه كما قدمته في المقصد الأول عند البعثة، لتتم كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته.

وأما قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ [الحج: ٥٢] الآية. فأحسن ما قيل فيها ما عليه جمهور المفسرين: أن التمني المراد به هنا: التلاوة، وإلقاء الشيطان فيها إشغاله بخواطر وأذكار من أمور الدنيا للتالي حتى يدخل عليه الوهم والنسيان فيما تلاه، أو يدخل غير ذلك على أفهام السامعين من التحريف وسوء التأويل ما يزيله الله وينسخه ويكشف لبسه ويحكم آياته.

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٠٩.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٤.

(٣) ليست في الأصل: ولكنها في الأصل المنقول عنه. راجع الشفاء ٢/ ١٢٠.

قاله القاضي عياض، وقد تقدم في المقصد الأول مزيد لذلك.

قال في الشفاء: وأما قوله ﷺ حين نام عن الصلاة يوم الوادي: «إن هذا وادٍ به شيطان»[1] فليس فيه ذكر تسلطه عليه ولا وسوسته له، بل إن كان بمقتضى ظاهره فقد بين أمر ذلك الشيطان بقوله: إن الشيطان أتى بلالاً، فلم يزل يهديه[2] كما يهدي الصبي حتى نام، فاعلم أن تسلط الشيطان في ذلك الوادي إنما كان على بلال الموكل بكلاءة الفجر، هذا إن جعلنا قوله «إن هذا وادٍ به شيطان» تنبيهاً على سبب النوم عن الصلاة، وأما إن جعلناه تنبيهاً على سبب الرحيل عن الوادي وعلة لترك الصلاة به، وهو دليل مساق حديث زيد بن أسلم فلا اعتراض به في هذا الباب، لبيانه وارتفاع إشكاله.

قال عياض: وأما قوله تعالى: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾ [عبس: ١و ٢] الآيات، فليس فيها إثبات ذنب له ﷺ. بل إعلام الله له أن ذلك المتصدي له من لا يتزكى، وأن الصواب والأولى كان لو كشف له حال الرجلين لاختار الإقبال على الأعمى وفعل النبي ﷺ لما فعل وتصديه لذلك الكافر كان طاعة لله، وتبليغاً عنه، واستئلافاً له، كما شرعه الله [له] لا معصية ولا مخالفة له، وما قصة الله عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين، وتوهين أمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله: ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ [عبس: ٧][3] أي ليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام، أي لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم أن تعرض عمن أسلم بالإشتغال بدعوتهم، إن عليك إلا البلاغ.

وقد كان ابن أم مكتوم يستحق التأديب والزجر، لأنه ـ وإن فقد بصره ـ كان يسمع مخاطبة الرسول ﷺ لأولئك الكفار، وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمامه ﷺ بشأنهم، فكان إقدامه على قطع كلامه ﷺ إيذاء له ﷺ وذلك معصية عظيمة. فثبت أن فعل ابن أم مكتوم كان ذنباً ومعصية، وأن الذي فعله الرسول الله ﷺ كان هو الواجب المتعين. وقد كان ﷺ مأذوناً له في تأديب أصحابه، ولكن ابن أم مكتوم بسبب عماه استحق مزيد الرفق به.

وأما قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لمَ أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] الآية. فروى ابن أبي حاتم عن مسعر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة،

---

(١) الحديث في الموطأ (١٤) وفي مشكاة المصابيح ٦٨٧ وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٢٠٣ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٧٣.

(٢) يهديه: يسكنه وينومه من هدأت الصبي إذا وضعت عليه يدك لينام.

(٣) إلى هنا انتهى كلام القاضي عياض انظر الشفاء ٢/ ١٦١.

وكذا قال مورق العجلي[1] وغيره. وقال قتادة: عاتبه الله كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال: ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فائذن لمن شئت منهم﴾ [النور: ٦٢] ففوض الأمر إلى رأيه ﷺ.

وقال عمرو بن ميمون:[2] اثنتان فعلهما الرسول ﷺ لم يؤمر فيها بشيء: إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسرى، فعاتبه الله كما تسمعون. وأما قول بعضهم إن هذه الآية تدل على أنه وقع من الرسول ذنب لأنه تعالى قال: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] والعفو يستدعي سالفة ذنب، وقوله الآخر: ﴿لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] استفهام بمعنى الإنكار، فاعلم: أنا لا نسلم أن قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك﴾ [التوبة: ٤٣] يوجب ذنباً، ولم لا يقال إن ذلك يدل على مبالغة الله تعالى في توقيره وتعظيمه، كما يقول الرجل لغيره إذا كان عظيماً عنده: عفا الله عنك، ما صنعت في أمري ورضي الله عنك ما جوابك عن كلامي، وعافاك الله ألا عرفت حقي، فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا زيادة التبجيل والتعظيم، وليس (عفا) هنا بمعنى: غفر، بل كما قال ﷺ: «عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق»[3] ولم تجب عليهم قط، أي لم يلزمكم ذلك. ونحوه للقشيري قال: وإنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لا يعرف كلام العرب، قال: ومعنى عفا الله عنك أي لم يلزمك ذنباً.

وأما الجواب عن الثاني فيقال: إما أن يكون صدر من الرسول ﷺ ذنب أم لا؟ فإن قلنا: لا، امتنع على هذا التقدير أن يكون قوله: ﴿لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] إنكاراً عليه، وإن قلنا إنه قد صدر عنه ذنب ـ وحاشاه الله من ذلك ـ فقوله: ﴿عفا الله عنك﴾ [التوبة: ٤٣] يدل على حصول العفو، وبعد العفو يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه، فثبت أنه على جميع التقادير يمتنع أن يقال: إن قوله: ﴿لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] يدل على كون الرسول مذنباً، وهذا جواب كاف، شاف قاطع، وعند هذا يحمل قوله لم أذنت لهم على ترك الأولى والأكمل. بل لم يعد هذا أهل العلم معاتبة، وغلطوا من ذهب إلى ذلك. قال نفطويه[4]: ذهب ناس إلى أن النبي ﷺ معاتب بهذه الآية، وحاشاه الله من

---

(١) هو مورق العجلي تابعي توفي سنة (١٠١ هـ). شذرات الذهب ١/ ١٢٢.

(٢) هو عمرو بن ميمون بن مهران الجزري فقيه توفي سنة (١٤٥ هـ). شذرات الذهب ١/ ٢١٦.

(٣) أخرجه الترمذي في الزكاة برقم (٦٢٠). وابن ماجه برقم (١٧٩٠ ـ ١٨١٣) والدارمي زكاة (٧). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ١٢١ و ١٣٢ ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٤٨ والقاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٦.

(٤) هو إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي العتكي أبو عبد الله (٢٤٤ ـ ٣٢٣ هـ). نحوي فقيه. توفي=

ذلك، بل كان مخيراً، فلما أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه في الإذن.

وأما قوله تعالى في أسارى بدر: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ إلى قوله: ﴿عظيم﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]. فروى مسلم من أفراده من حديث عمر بن الخطاب قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر سبعون، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً، فقال أبو بكر: يا نبي الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت والله ما أرى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء، فما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت، فقال النبي ﷺ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من الفداء، لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ إلى قوله ﴿عظيم﴾ [الأنفال: ٦٧ و٦٨][(١)].

وقوله: ﴿حتى يثخن في الأرض﴾ [الأنفال: ٦٧]: أي يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه، ويعز الإسلام ويستولي أهله. وليس في هذا إلزام ذنب للنبي ﷺ، بل فيه بيان ما خص به وفضِّل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قال: ما كان هذا لنبي غيرك. قال ﷺ «أحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي». وأما قوله: ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ [الأنفال: ٦٧] فقيل المراد بالخطاب من أراد ذلك منهم وتجرد، غرضه لعرض الدنيا وحده، والإستكثار منها، وليس المراد بهذا النبي ﷺ ولا علية أصحابه.

بل قد روي عن الضحاك أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس

---

= ببغداد (لقب بنفطويه تقريباً لاسم سيبويه). الاعلام ١/ ٦١ وفيات الاعيان ١/ ١١ إنباه الرواة ١/ ١٧٦ شذرات الذهب ٢/ ٢٩٨.

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب الجهاد برقم (٥٨) وفي تفسير الطبري ١٠/ ٣١ وفي نصب الراية للزيلعي ٣/ ٤٠٢ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٤/ ٢٩٢ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ١٣٧.

بالسلب وجمع الغنائم عن القتال حتى خشي عمر أن يعطف عليهم العدو.

ثم قال تعالى: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ [الأنفال: ٦٨] فاختلف المفسرون في معنى هذه الآية: فقيل معناها لولا أنه سبق مني أن لا أعذب أحداً إلا بعد النهي لعذبتكم، فهذا ينفي أن يكون أمر الأسرى معصية. وقيل: لولا إيمانكم بالقرآن، وهو الكتاب السابق، فاستوجبتم به الصفح لعقوبتم على الغنائم. وقيل: لولا أنه سبق في اللوح المحفوظ أنها حلال لكم لعقوبتم. وهذا كله ينفي الذنب والمعصية، لأن من فعل ما أحل له لم يعص، قال الله تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ [الأنفال: ٦٩].

وقيل: بل كان ﷺ قد خير في ذلك، وقد روي عن علي قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ يوم بدر فقال: «خير أصحابك في الأساري إن شاؤوا القتل وإن شاؤوا الفداء على أن يقتل منهم في العام المقبل مثلهم فقالوا الفداء ويقتل منا[1]» وهذا دليل على أنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه. لكن بعضهم مال إلى أضعف الوجهين مما كان الأصلح غيره من الإثخان والقتل فعوتبوا على ذلك وبين لهم ضعف اختيارهم وتصويب اختيار غيرهم، وكلهم غير عصاة ولا مذنبين.

قال القاضي بكر بن العلاء: أخبر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء، وقد كان قبل هذا فادى في سرية عبد الله بن جحش التي قتل فيها ابن الحضرمي بالحكم بن كيسان وصاحبه، فما عتب الله ذلك عليهم، وذلك قبل بدر بأزيد من عام، فهذا كله يدل على أن فعل النبي ﷺ في شأن الأساري كان على تأويل وبصيرة على ما تقدم قبل ذلك مثله فلم ينكره الله عليه. لكن الله تعالى أراد لعظم أمر بدر وكثرة أسرارها ـ والله تعالى أعلم ـ إظهار نعمته وتأكيد منته بتعريفهم ما كتبه في اللوح المحفوظ من حل ذلك لا على وجه عتاب أو إنكار أو تذنيب[2] قاله القاضي عياض.

وأما قوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ [الإسراء: ٧٤ ـ ٧٥] الآية.

فالمعنى: لولا أن ثبتناك لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم، لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب فضلا عن أن تركن إليهم. وهو صريح في أنه ﷺ ما همَّ بإجابتهم مع قوة الدواعي إليها، فالعصمة بتوفيق الله وحفظه، ولو قاربت لأذقناك ضعف الحياة

---

(١) هو في الترمذي كتاب السير باب (١٨) رقم الحديث (١٥٦٧).

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ٢/ ١٥٩ وما بعدها.

وضعف الممات، أي ضعف ما يعذب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرك، لأن خطأ الخطير أخطر، وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه. ومما يعزي للحريري مما يؤيد ذلك قوله:

أنحوي هذا العصر ما هي لفظة جرت في لساني جرهم وثمود

إذا استعملت في صورة الجحد أثبتت وإن أثبتت قامت مقام جحود

وفسر الأول وهو النفي المثبت بنحو ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ [البقرة: ٧١] والثاني وهو الثبوت المنفي بنحو قوله تعالى ﴿لقد كدت تركن﴾ قالوا: وهو ﷺ ثبت قلبه ولم يركن.

وأما قوله تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾[الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]. فالمعنى: لو افترى علينا بشيء من عند نفسه لأخذنا منه باليمين وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه، وقد أعاذه الله من التقول عليه. فإن قلت: لا مرية أنه يعفى للمحب ولصاحب المحاسن والإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره، كما قال الشاعر:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

ولا شك أن نبينا ﷺ هو الحبيب الأعظم ذو المحاسن والإحسان الأكبر، فما هذه العقوبة المضاعفة والتهديد الشديد الوارد إن وقع منه ما يكره، وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه لم يعبأ به كأرباب البدع ونحوهم؟

فالجواب: أنه لا تنافي بين الأمرين، فإن من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره، وأعطاه منها ما لم يعط غيره، فحباه بالإنعام وخصه بمزيد القرب والإكرام اقتضت حالته من حفظ مرتبة القرب والولاية والإختصاص أن تراعى مرتبته عن أدنى مشوش وقاطع، فلشدة الإعتناء به ومزيد تقريبه واتخاذه لنفسه واصطفائه على غيره تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم ونعمه عليه أكمل، فالمطلوب منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غفل أو أخل بمقتضى مرتبته نبه بما لم ينبه عليه البعيد، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك البعيد أيضاً، فيجتمع في حقه الأمران. وإذا أردت معرفة اجتماعهما وعدم تناقضهما فالواقع شاهد بذلك، فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لا يسامح به من ليس في منزلتهم، ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به غيرهم. وأنت إذا كان لك عبدان أو ولدان أحدهما أحب إليك من الآخر وأقرب إلى قلبك وأعز عليك عاملته بهذين الأمرين، واجتمع في حقه المعاملتان بحسب قربه منك، وحبك له وعزته، فإذا نظرت إلى إكمال إحسانك إليه وإتمام نعمك عليه اقتضت معاملته بما لم تعامل به من هو دونه

من التنبيه وعدم الإهمال. وإذا نظرت إلى محبته لك وطاعته وخدمته وكمال عبوديته ونصحه، وهبت له وسامحته وعفوت عنه بما لا تفعله مع غيره. فالمعاملتان بحسب ما بينك وبينه.

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى في الشرع، حيث جعل حد من أنعم عليه بالتزويج إذا تعداه إلى الزنا الرجم، وحد من لم يعطه هذه النعمة الجلد، وكذلك ضاعف الحد على الحر الذي قد ملكه نفسه وأتم عليه نعمته ولم يجعله مملوكاً لغيره، وجعل حد العبد المنقوص بالرق ـ الذي لم يجعل له هذه النعمة ـ نصف ذلك. فسبحان من بهرت حكمته في خلقه.

فللّــــه ســــر تحــــت كــــل لطيفــــة فــأخــو البصــائــر غــائــص يتعقــل

انتهى ملخصاً.

وأما قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى: ٥٢]. فقيل: معناه ما كنت تدري الإيمان على التفصيل الذي شرع لك في القرآن. وقال أبو العالية: هو بمعنى الدعوة إلى الإيمان، لأنه كان قبل الوحي لا يقدر أن يدعو إلى الإيمان بالله تعالى. وقيل: معناه أنه ما كان يعرف الإيمان حين كان في المهد وقبل البلوغ. حكاه الماوردي والواحدي والقشيري. وقيل: إنه من باب حذف المضاف، أي ما كنت تدري أهل الإيمان، أي من الذي يؤمن، أبو طالب، أو العباس، أو غيرهما. وقيل: المراد به شرائع الإيمان ومعالمه وهي كلها إيمان، وقد سمى الله الصلاة بقول: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم إلى بيت المقدس، فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص. قاله ابن قتيبة وابن خزيمة. وقد اشتهر في الحديث أنه ﷺ كان يوحد الله ويبغض والأوثان ويحج ويعتمر. وروى أبو نعيم وابن عساكر عن علي قال: قيل للنبي ﷺ هل عبدت وثناً قط؟ قال لا، قيل: فهل شربت خمراً قط؟ قال: لا، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر. وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان.

وعن عائشة: كانت قريش ومن دان دينها، وهم الحمس، يقفون بمزدلفة ويقولون: نحن أهل الحرم رواه الشيخان. وكان رسول الله ﷺ في الجاهلية يقف بعرفات دونهم توفيقاً من الله تعالى. رواه البيهقي وأبو نعيم من حديث جبير بن مطعم. وقد ورد أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين إسماعيل، كحج البيت والختان والغسل من الجنابة، وكان ﷺ لا يقرب الأوثان ويعيبها، ولا يعرف شرائع الله التي شرعها لعباده على لسانه، فذلك قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى: ٥٢] ولم يرد الإيمان الذي هو الإقرار بالله، لأن آباءه الذين ماتوا على الشرك كانوا يؤمنون بالله ويحجون مع شركهم، والله أعلم.

# في وجوب محبته واتباع سنته والاهتداء بهديه وطريقته
# وفرض محبة آله وأصحابه وقرابته وعترته
# وحكم الصلاة والتسليم عليه زاده الله فضلاً وشرفاً لديه

وفيه ثلاثة فصول:

## الفصل الأول
## في وجوب محبته واتباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته ﷺ

أعلم أن المحبة ـ كما قال صاحب «المدارج» ـ هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون، وإليها يشخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات ، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام. واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيه، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا أبداً بدونها واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق إلى مقامات لم يكونوا لولا هي داخليها، وهي مطايا القوم التي سراهم في ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قدر الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيا لها من نعمة على المحبين سابغة، لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، ولقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون

مـــن لـــي بمثـــل سيـــرك المـــذلـــل     تمشـــى رويـــداً وتجـــي فـــي الأول

أجابوا مؤذن الشوق إذ نادى بهم حي على الفلاح، في الأول أنفسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج

والغدو والرواح، ولقد حمدوا عند وصولهم مسراهم، وإنما بحمد القوم-السرى عند الصباح.

وقد اختلفوا في تعريف المحبة، وعباراتهم وإن كثرت فليست في الحقيقة ترجع إلى اختلاف مقال، وإنما هي اختلاف أحوال، وأكثرها يرجع إلى ثمرتها دون حقيقتها. وقد قال بعض المحققين: حقيقة المحبة عند أهل المعرفة، من المعلومات التي لا تحد، وإنما يعرفها من قامت به وجداناً لا يمكن التعبير عنه. وهكذا كقول صاحب مدارج السالكين ـ تبعاً لغيره ـ: والمحبة لا تحد بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة.

وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذا الستة، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات بحسب الإدراك والمقام والحال. وقد وضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمى غاية المناسبة: [الحاء] التي هي من أقصى الحلق، و «الباء» الشفهية التي هي نهايته، فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء، وهذا شأن المحبة وتعلقها بالمحبوب، فإن ابتداءها منه وانتهاءها إليه.

وقد أعطوا «الحب» حركة الضم التي هي أشد الحركات وأقواها مطابقة لشدة حركة مسماه وقوتها، وأعطوا «الحِبّ» وهو المحبوب حركة الكسر لخفتها من الضمة، وخفة المحبوب وذكره على قلوبهم وألسنتهم. فتأمل هذا اللطف والمناسبة العجيبة بين الألفاظ والمعاني تطلعك على قدر هذه اللغة، وإن لها شأناً ليس لسائر اللغات. وهذا بعض رسوم وحدود قيلت في المحبة بحسب آثارها وشواهدها، والكلام على ما يحتاج إلى الكلام عليه منها.

فمنها: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب. وهذا موجبها ومقتضاها. ومنها: محو المحب لصفاته وإثبات المحب لذاته، وهذا من أحكام الفناء في المحبة، وهي أن تمحى صفات المحب وتفنى في صفات محبوبه وذاته، وهذا يستدعي بياناً أتم من هذا لا يدركه إلا من أفناه وارد المحبة عنه وأخذه منه.

ومنها: استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك، وهو لأبي يزيد، وهو أيضاً من أحكامها وموجباتها وشواهدها. والمحب الصادق لو بذل لمحبوبه جميع ما يقدر عليه لاستقله واستحيا منه، ولو ناله من محبوبه أيسر شيء لاستكثره واستعظمه.

ومنها: استكثار القليل من جنايتك، واستقلال الكثير من طاعتك. وهو قريب من

الأول لكنه مخصوص بما من المحب. ومنها: معانقة الطاعة ومباينة المخالفة، وهو لسهل بن عبد الله، وهو أيضاً حكم المحبة وموجبها.

ومنها أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء. وهو لسيدنا أبي عبد الله القرشي[1]، وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها. والمراد أن تهب إرادتك وعزماتك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبساً في مرضاته ومحابه، ولا تأخذ منها لنفسك إلا ما أعطاكه، فتأخذه منه له. ومنها: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب، وكمال المحبة يقتضي ذلك، فإنه ما دامت في القلب بقية لغيره ومسكن لغيره فالمحبة مدخولة.

ومنها: أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك. وهو للشبلي[2]، ومراده: احتقارك لنفسك واستصغارها أو يكون مثلك ممن يحبه. ومنها: غض طرف المحب عما سوى المحبوب غيرة، وعن المحبوب هيبة، وهذا يحتاج إلى إيضاح، أما الأول فظاهر، وأما الثاني: فإن غض طرف القلب عن المحبوب مع كمال محبته كالمستحيل، ولكن عند استيلاء سلطان المحبة يقع مثل هذا، وذلك من علامات المحبة المقارنة للهيبة والتعظيم.

ومنها: ميلك إلى الشيء بكليتك ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ثم علمك بتقصيرك في حبه. قال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي[3] يقول ذلك. ومنها: سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف، وأنشد بعضهم:

فـأسكــر القــوم دور الكــأس بينهــم لكــن سكــري نشــا مــن رؤيــة الســاقــي

ومنها: سفر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره على الدوام، أما سفر

---

(١) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو عبد الله القرشي الهاشمي (٥٤٤ ـ ٥٩٩ هـ). زاهد. اندلسي الاصل. توفي في القدس. الاعلام ٥/ ٣١٩ شذرات الذهب ٤/ ٣٤٢.

(٢) هو دلف بن جحدر الشبلي أبو بكر (٢٤٧ ـ ٣٣٤ هـ) ناسك والي. وفاته ببغداد. اختلف في اسمه ونسبه فقيل: دلف بن جعفر وقيل جحدر بن دلف ودلف بن جعترة ودلف بن جعونة وجعفر بن يونس. الاعلام ٢/ ٣٤١ وفيات الاعيان ١/ ١٨٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٨٩ صفة الصفوة ٢/ ٢٥٨ حلية الأولياء ١٠/ ٣٦٦ رقم الترجمة (٦٤٦) المنتظم ١٤/ ٥٠ رقم الترجمة (٢٤٨١) تاريخ بغداد ١٤/ ٣٨٩ والبداية والنهاية ١١/ ٢١٥.

(٣) هو الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله، صوفي عالماً بالأصول والمعاملات واعظ. توفي في بغداد سنة (٢٤٣ هـ). الاعلام ٢/ ١٥٣ صفة الصفوة ٢/ ٢٠٧ حلية الأولياء ١٠/ ٧٣ رقم الترجمة (٤٦٥) وفيات الاعيان ١/ ١٢٦ تاريخ بغداد ٨/ ٢١١ وفيه قيل: إن الحارث تكلم في شيء من الكلام فهجره أحمد بن حنبل فاختفى في دار ببغداد ومات فيها. ولم يصل عليه إلا أربعة نفر.

القلب في طلبه فهو الشوق إلى لقائه، وأما لهج اللسان بذكره فلا ريب أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

ومنها: الميل إلى ما يوافق الإنسان، كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة وغير ذلك من الملاذ التي لا يخلو كل طبع سليم عن الميل إليها لموافقتها له، أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسته، أو يكون حبه لذلك لموافقته له من جهة إحسانه إليه وإنعامه عليه، فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، كما رواه أبو نعيم في الحلية وأبو الشيخ وغيرهما[1] فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفاً فانياً منقطعاً، أو استنقذه من هلكة أو مضرة لا تدوم، فما بالك بمن منحه منحاً لا تبيد ولا تزول ووقاه من العذاب الأليم ما لا يفنى ولا يحول.

وإذا كان المرء يحب غيره على ما فيه من صور جميلة وسيرة حميدة، فكيف بهذا النبي الكريم والرسول العظيم الجامع لمحاسن الأخلاق والتكريم، المانح لنا جوامع المكارم والفضل العميم، فقد أخرجنا الله به من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وخلصنا به من نار الجهل إلى جنات المعارف والإيقان، فهو السبب لبقاء مهجنا البقاء الأبدي في النعيم السرمدي، فأي إحسان أجل قدراً وأعظم خطراً من إحسانه إلينا، فلا منة ـ وحياته ـ لأحد بعد الله كما له علينا، ولا فضل لبشر كفضله لدينا.

فكيف ننهض ببعض شكره، أو نقوم من واجب حقه بمعشار عشره، فقد منحنا الله به منح الدنيا والآخرة، وأسبغ علينا نعمه باطنة وظاهرة، فاستحق أن يكون حظه من محبتنا له أوفى وأزكى من محبتنا لأنفسنا وأولادنا وأموالنا وأهلينا والناس أجمعين، بل لو كان في منبت كل شعرة منا محبة تامة له صلوات الله وسلامه عليه لكان ذلك بعض ما يستحقه علينا.

وقد روى أبو هريرة أنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»[2] رواه البخاري.

وقدم الوالد للأكثرية، لأن كل أحد له والد، من غير عكس، وفي رواية النسائي

---

(١) الحديث في الحلية لأبي نعيم ٤/١٢١. وقال السخاوي هو باطل موقوفاً ومرفوعاً. وفي تذكرة ابن عبد الهادي: قال مهنا سألت أحمد ويحيى عن هذا الحديث فقالا: ليس له أصل وهو موضوع.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٤) ومسلم برقم (٧٠) والنسائي ٨/١١٤ وابن ماجه (٦٧) والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣/٢٠٧ و ٢٧٥ و ٢٧٨ وعبد الرزاق في مصنفه (١٠٣٢١) والحاكم في المستدرك ٢/٤٨٦ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/٥٤٧ والدارمي ٢/٣٠٧ والبغوي في شرح السنة ١/٥٠.

تقديم الولد على الوالد وذلك لمزيد الشفقة، وزاد في رواية عبد العزيز بن صهيب عن أنس (والناس أجمعين)، وفي صحيح ابن خزيمة: (من أهله وماله) بدل (من والده وولده) وذكر الوالد والولد أدخل في المعنى لأنهما أعز على العاقل من الأهل والمال، بل ربما يكونان أعز من نفسه، ولذا لم يذكر «النفس» في حديث أبي هريرة، وذكر الناس بعد الوالد والولد من عطف العام على الخاص.

قال الخطابي: والمراد بالمحبة هنا، حب الاختيار لا حب الطبع. وقال النووي: فيه تلميح إلى قضية النفس الأمارة والمطمئنة، فإن من رجح جانب المطمئنة كان حبه للنبي ﷺ راجحاً، ومن رجح جانب الأمارة كان حكمه بالعكس.

وفي كلام القاضي عياض: أن ذلك شرط في صحة الإيمان، لأنه حمل المحبة على معنى التعظيم والإجلال. وتعقبه صاحب المفهم: بأن ذلك ليس مراداً، لأن اعتقاد الأعظمية ليس مستلزماً للمحبة، إذ قد يجد الإنسان إعظام شيء مع خلوه من محبته. قال: فعلى هذا من لم يجد من نفسه ذلك الميل لم يكمل إيمانه، وإلى هذا يومىء قول عمر في الحديث الذي رواه البخاري في «الإيمان والنذور» من حديث عبد الله ابن هشام أن عمر بن الخطاب قال للنبي ﷺ: لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلى نفسي التي بين جنبي، فقال النبي ﷺ «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي، فقال له النبي ﷺ: «الآن يا عمر»[1]. فهذه المحبة ليست باعتقاد الأعظمية فقط. فإنها كانت حاصلة لعمر قبل ذلك قطعاً.

وفي رواية فقال ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك» قال بعض الزهاد: تقدير الكلام، لا تصدق في حبي حتى تؤثر رضاي على هواك وإن كان فيه الهلاك.

وأما وقوف عمر في أول أمره، واستثناؤه نفسه، فلأن حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد ﷺ منه حب الاختيار، إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه. وعلى هذا فجواب عمر أولاً كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتها من الهلكات في الدنيا والآخرة، فأخبره بما اقتضاه الاختيار، فلذلك حصل الجواب بقوله (الآن يا عمر) أي الآن عرفت فنطقت بما يجب.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦٣٢) والقاضي عياض في الشفا ١٩/٢ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٣٨٦).

وإذا كان هذا شأن نبينا محمد ﷺ عبد الله ورسوله في محبتنا له ووجوب تقديمها على محبة أنفسنا وأولادنا ووالدينا والناس أجمعين، فما الظن بمحبة الله تعالى ووجوب تقديمها على محبة ما سواه، ومحبة الله تعالى تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها، وإفراده سبحانه وتعالى بها، فإن الواجب له من ذلك أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده، بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه، فيكون إلهه الحق، ومعبوده أحب إليه من ذلك كله. والشيء قد يحب من وجه دون وجه، وقد يحب لغيره وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده، ولا تصلح الألوهية إلا له تعالى. والتأله هو المحبة والطاعة والخضوع.

ومن علامات الحب المذكور لرسول الله ﷺ أن يعرض الإنسان على نفسه أنه لو خير بين فقد غرض من أغراضه وفقد رؤية النبي ﷺ أن لو كانت ممكنة، فإن كان فقدها أشد عليه من فقد شيء من أغراضه فقد اتصف بالأحبية المذكورة لرسول الله ﷺ، ومن لا فلا.

قال القرطبي: كل من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من يأخذ بالحظ الأدنى، كمن كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً في الغفلات في أكثر الأوقات، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ اشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله وماله وولده ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة ويجد رجحان ذلك من نفسه وجداناً لا تردد فيه. وقد شوهد من هذا الجنس من يؤثر زيارة قبره ورؤية مواضع آثاره على جميع ما ذكر، لما وقر في قلوبهم من محبته، غير أن ذلك سريع الزوال لتوالي الغفلات، انتهى.

فكل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله، لا يدخل في الإسلام إلا بها، والناس متفاوتون في محبته ﷺ بحسب استحضار ما وصل إليهم من جهته عليه الصلاة والسلام من النفع الشامل لخير الدارين والغفلة عن ذلك. ولا شك أن حظ الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعين أتم، لأن هذا ثمرة المعرفة وهم بها أعلم.

وقد روى ابن إسحاق ـ كما حكاه في الشفاء ـ أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل تعني: صغيرة.

ورواه البيهقي في الدلائل، وذكره صاحب اللباب بلفظ: لما قيل يوم أحد قتل

محمد ﷺ وكثرت الصوارخ بالمدينة، خرجت امرأة من الأنصار، فاستقبلت بأخيها وابنها وزوجها وأبيها قتلى، لا تدري بأيهم استقبلت، فكلما مرت بواحد منهم صريعاً قالت: من هذا؟ قالوا: أخوك وأبوك وزوجك وابنك قالت: فما فعل النبي ﷺ؟ فيقولون: أمامك، حتى ذهبت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه ثم جعلت تقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت من عطب. وكذا رواه ابن أبي الدنيا بنحوه مختصراً.

وقال عمرو بن العاص ما كان أحـد أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال علي بن أبي طالب: كان رسول الله ﷺ أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ.

ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة ـ بفتح الدال المهملة وكسر المثلثة وتشديد النون ـ من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان بن حرب: أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وأني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً.

وروي ـ مما ذكره القاضي عياض ـ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من أهلي ومالي، وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء فأنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وأني إن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ [النساء: ٦٩] فدعا به فقرأها عليه.

قال: وفي حديث آخر: كان رجل عند النبي ﷺ ينظر إليه لا يطرف، فقال: «ما بالك»؟ فقال: بأبي أنت وأمي، أتمتع بالنظر إليك، فإذا كان يوم القيامة رفعك الله بتفضيله، فأنزل الله الآية.

وذكره البغوي في تفسيره بلفظ: نزلت ـ أي الآية ـ في ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم قد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: «ما غير لونك؟» فقال: يا رسول الله، ما بي مرض ولا وجع غير أني إن لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة، فأخاف أن لا أراك، لأنك ترفع مع النبيين، وأني إن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من

منزلتك، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية[1] وكذا ذكره الواحدي في «أسباب النزول»، وعزاه للكلبي عن ثوبان[2].

وقال قتادة: قال بعض أصحاب النبي ﷺ: كيف يكون الحال في الجنة وأنت في الدرجات العلى ونحن أسفل منك فكيف نراك؟ فأنزل الله الآية. وذكره ابن ظفر في «ينبوع الحياة»[3] بلفظ: إن عامر الشعبي قال: إن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من نفسي ومالي وولدي وأهلي، ولولا أن آتيك فأراك لرأيت أن أموت أو قال أن سوف أموت، وبكى الأنصاري، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبكاك»[4]؟ قال: بكيت أن ذكرت أنك ستموت ونموت، فترفع مع النبيين، ونكون نحن إن دخلنا الجنة دونك، فلم يحر النبي ﷺ إليه، بمعنى أي: لم يرجع إليه بقول، فأنزل الله الآية.

قال: وذكر مقاتل بن سليمان مثل هذا، وقال: هو عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري الذي رأى الأذان. وذكر أيضاً: أن عبد الله ابن زيد هذا كان يعمل في جنة له فأتاه ابنه فأخبره أن النبي ﷺ قد توفي فقال اللهم أذهب بصري حتى لا أدري بعد حبيبي محمد أحداً، فكف بصره.

واعلم أنه لا يمكن أن يجتمع في القلب حبان، فإن المحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، فليختر المرء لنفسه إحدى المحبتين فإنهما لا يجتمعان في القلب، والإنسان عند محبوبه كائناً ما كان كما قيل:

أنت القتيل بأي من أحببته ... فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي[5]

ولبعض الحكماء: كما أن الغمد لا يتسع لعضبين فكذلك القلب لا يتسع لحبين، ولذلك لازم إقبالك على من تهواه إعراضك عن كل شيء سواه، فمن داهن في المحبة أو داجى، فقد عرض لمدى الغيرة أوداجاً، فمحبة الرسول ﷺ - بل تقديمه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء - لا يتم الإيمان إلا بها، إذ محبته من محبة الله.

وقد حكي عن أبي سعيد الخراز - مما ذكره القشيري في رسالته - أنه قال: رأيت

---

(1) انظر تفسير البغوي ١/ ٣٥٨ وانظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/ ٣٨٣.

(2) انظر أسباب النزول للواحدي صفحة ٩٥.

(3) هو كتاب في التفسير لأبي عبد الله ابن ظفر محمد بن محمد الصقلي المتوفي سنة (٥٦٨ هـ). كشف الظنون ٢/ ٢٠٥٢.

(4) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٨٢.

(5) هو قول ابن الفارض.

النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله اعذرني فإن محبة الله شغلتني عن محبتك، فقال لي: «يا مبارك من أحب الله فقد أحبني». وقيل إن ذلك وقع لامرأة من الأنصار معه ﷺ يقظة، ولابن أبي المجد[1]:

ألا يـا محـب المصطفـى زد صبـابـة ... وضمـخ لسـان الـذكـر منـك بطيبـه
ولا تعبـأن بـالمبطليـن فـإنمـا ... عـلامـة حـب الله حـب حبيبـه

وكذلك كل حب في الله ولله، كما في الصحيحين، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[2]، فعلق ذوق الإيمان بالرضى بالله رباً، وعلق وجدان حلاوته بما هو موقوف عليه ولا يتم إلا به، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلى العبد هو ورسوله، فمن رضي الله رباً رضيه الله له عبداً.

ومعنى بحلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في الدين، ويؤثر ذلك على أغراض الدنيا، ومحبة العبد لله تعالى تحصل بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك الرسول، قاله النووي. وقال غيره: معناه أن من استكمل الإيمان علم أن حق الله ورسوله أكد عليه من حق والده وولده وجميع الناس، لأن الهدى من الضلال، والخلاص من النار، إنما كان على لسان رسوله.

وفي قوله ﷺ: «(حلاوة الإيمان)» استعارة تخييلية، فإنه شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو، وأثبت له لازم ذلك الشيء وأضافه إليه، وفيه تلميح إلى قصة المريض والصحيح، لأن المريض الصفروايٍ يجد طعم العسل مراً، والصحيح يذوق حلاوته على ما هي، وكلما نقصت القوة شيئاً ما، نقص ذوقه بقدر ذلك.

وقال العارف ابن أبي جمرة: واختلف في الحلاوة المذكورة هل هي محسوسة أو معنوية، فحملها قوم على المعنى وهم الفقهاء، وحملها قوم على المحسوس وأبقوا اللفظ على ظاهره من غير أن يتأولوه وهم أهل الصفة، أو قال الصوفة. قال: والصواب

---

(١) هو إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد (٦٣٣ ـ ٦٧٦ هـ) يتصل نسبه بالحسين السبط. صوفي تفقه على مذهب الشافعي. الاعلام ١/ ٥٩ طبقات الشعراني ١/ ١٤٣ خطط مبارك ١١/ ٧.

(٢) الحديث في مسلم كتاب الايمان برقم (٦٧) وفي النسائي ٨/ ٩٤ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٠٣ و ١٧٤ و ٢٣٠ وفي موارد الظمآن للهيثمي ٢٨٥ وفي مصنف عبد الرزاق (٢٠٣٢٠) وفي مجمع الزوائد ١/ ٥٥ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٤٧ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ١٤ وفي حلية الأولياء ١/ ٢٧ و ٢/ ٢٨٨ وفي كنز العمال (٤٣٢١٢).

معهم في ذلك والله أعلم، لأن ما ذهبوا إليه أبقوا لفظ الحديث على ظاهره من غير تأويل. قال: ويشهد إلى ما ذهبوا إليه أحوال الصحابة والسلف الصالح وأهل المعاملات، فإنه حكي عنهم أنهم وجدوا الحلاوة محسوسة.

فمن ذلك: حديث بلال حين صنع به ما صنع في الرمضاء إكراهاً على الكفر، وهو يقول أحد أحد، فمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان. وكذلك أيضاً عند موته، أهله يقولون: واكرباه، وهو يقول : واطرباه، غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه، فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء وهي حلاوة الإيمان.

ومنها حديث الصحابي الذي سُرق فرسه بليل وهو في الصلاة، فرأى السارق حين أخذه فلم يقطع لذلك صلاته، فقيل له في ذلك فقال: ما كنت فيه ألذ من ذلك، ولا ذاك إلا لحلاوة الإيمان التي وجدها محسوسة في وقته ذلك.

ومنها حديث الصحابيين اللذين جعلهما ﷺ في بعض مغازيه من قبل العدو، وقد أقبل فرآهما، فكبل الجاسوس القوس ورمى الصحابي فأصابه، فبقي على صلاته ولم يقطعها، ثم رماه ثانية فأصابه فلم يقطع لذلك صلاته، ثم رماه ثالثة فأصابه، فعند ذلك أيقظ صاحبه وقال: لولا أني خفت على المسلمين ما قطعت صلاتي[1]. ولا ذاك إلا لشدة ما وجد فيها من الحلاوة التي أذهبت عنه ما يجد من ألم السلاح. قال: ومثل هذا حكي عن كثير من أهل المعاملات. انتهى.

وحديث هذين الصحابيين ذكره البخاري في صحيحه في باب «من لم ير الوضوء إلا من المخرجين» بلفظ: ويذكر عن جابر أن النبي ﷺ كان في غزوة «ذات الرقاع» فرمي رجل بسهم فنزفه الدم فركع وسجد ومضى في صلاته، وقد وصله ابن إسحاق في المغازي فقال: حدثني صدقة بن يسار عن عقيل عن جابر عن أبيه مطولاً، وأخرجه أحمد وأبو داود والدارقطني وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، كلهم من طريق ابن إسحاق. قال في فتح الباري، وشيخه «صدقة» ثقة، وعقيل ـ بفتح العين ـ لا أعرف راوياً عنه غير صدقة، ولهذا لم يجزم به البخاري، أو لكونه اختصره، أو للخلاف في ابن إسحاق. وأخرجه البيهقي في الدلائل من وجه آخر، وسمى أحدهما: عباد بن بشر

---

(١) الحديث في دلائل النبوة للبيهقي ٣/٣٧٨ وفي البخاري نحوه (باب ٣٤ كتاب الوضوء). وفي سنن أبي داود كتاب الطهارة باب (٧٩) رقم الحديث (١٩٨) وفي مسند الامام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٤٤ وفي المستدرك للحاكم ١/١٥٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ١٤٠ و ٩/ ١٥٠ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٥٠) وفي البداية والنهاية ٤/٨٧ وفي سنن الدارقطني ١/ ٢٢٤ رقم الحديث (١) باب جواز الصلاة مع خروج الدم السائل من البدن.

الأنصاري، وعمار بن ياسر من المهاجرين، والسورة الكهف.

وإنما قال: (مما سواهما) ولم يقل «ممن» ليعم من يعقل ومن لا يعقل وفي قوله: (وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) دليل على أنه لا بأس بهذه التثنية، وأما قوله للذي خطب فقال: «ومن يعصهما» «بئس الخطيب أنت»[1] فليس بمن هذا، لأن المراد في الخطب الإيضاح، وأما هاهنا فالمراد الإيجاز في اللفظ ليحفظ، ويدل عليه أن النبي ﷺ قال في موضع آخر: «(ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه)»[2]. وقيل: إنه من تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: ٥٩] فأعاد (أطيعوا) الصوم، في مقصد عباداته عليه الصلاة والسلام.

ومن محاسن الأجوبة في الجمع بين هذا الحديث وقصة الخطيب، أن تثنية الضمير هنا للإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة منهما، فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى، فمن يدعي حب الله مثلاً ولا يحب رسوله لا ينفعه ذلك، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] فأوقع متابعته مكتنفة بين قطري محبة العباد لله، ومحبة الله للعباد. وأما أمر الخطيب بالإفراد فلأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية، إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل واحد من المعطوفين في الحكم، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: ٥٩] فأعاد (أطيعوا) في الرسول ولم يعده في أولي الأمر، لأنهم لا استقلال لهم في الطاعة كاستقلال الرسول. انتهى ملخصاً من كلام البيضاوي والطيبي، كما في فتح الباري.

وفي الصحيح: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً)[3]. قال في بالمدارج: فأخبر أن للإيمان طعماً، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب. وقد عبر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان والإحسان وحصوله للقلب ومباشرته له بالذوق تارة وبالطعام والشراب أخرى، وبوجدان الحلاوة تارة، كما قال «ذاق». وقال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان)، ولما نهاهم عن الوصال قالوا: إنك تواصل فقال: (إني لست كهيئتكم، إني أطعم وأسقى)[4] وقد غلظ حجاب

(١) أخرجه مسلم كتاب الجمعة برقم (٤٨) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/٢٥٦ و ٣٧٩ والحاكم في المستدرك ١/٢٨٩ والبيهقي في السنن الكبرى ١/٨٦ و ٣/٢١٦ والطحاوي في مشكل الآثار ٤/٢٩٦ والقرطبي في التفسير ١٤/٢٣٢. والحديث في سنن أبي داود برقم (١٠٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب (٢٢٣) رقم الحديث (١٠٩٧).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٥٦).

(٤) الحديث في مسلم (٧٧٤) وفي سنن أبي داود برقم (٢٣٦٠) وفي موطأ مالك برقم (٣٠٠) وفي

من ظن أن هذا طعام وشراب حسي للفم، وسيأتي تحقيق الكلام إن شاء الله تعالى في الصوم، في مقصد عباداته عليه الصلاة والسلام.

والمقصود أن ذوق حلاوة الإيمان أمر يجده القلب تكون نسبته إليه كذوق حلاوة الطعام إلى الفم، وذوق حلاوة الجماع إلى اللذة، كما قال ﷺ: «حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»[1].

وللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد، ولا تزول الشبه والشكوك إلا إذا وصل العبد إلى هذه الحالة، فيباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة، ، فيذوق طعمه ويجد حلاوته.

وقال العارف الكبير تاج الدين بن عطاء الله: يعني في هذا الحديث إشارة إلى أن القلوب السليمة من أمراض الغفلة والهوى تتنعم بملذوذات المعاني كما تتنعم النفوس بملذوذات الأطعمة، وإنما ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً لأنه لما رضي بالله رباً استسلم له وانقاد لحكمه، وألقى قياده إليه، فوجد لذاذة العيش وراحة التفويض، ولما رضي الله رباً كان له الرضى من الله، وإذا كان له الرضى من الله أوجده الله حلاوة ذلك ليعلم ما منّ به عليه، وليعرف إحسانه عليه، ولما سبقت لهذا العبد العناية خرجت له العطايا من خزائن المنن، فلما واصلته أمداد الله وأنواره عوفي قلبه من الأمراض والأسقام، فكان سليم الإدراك، فأدرك لذاذة الإيمان وحلاوته لصحة إدراكه وسلامة ذوقه. وقوله ﷺ: «وبالإسلام ديناً» لأنه إذا رضي بالإسلام ديناً فقد رضي به المولى، ولازمٌ من رضي بمحمد نبياً أن يكون له ولياً، وأن يتأدب بآدابه ويتخلق بأخلاقه زهداً في الدنيا وخروجاً عنها، وصفحاً عن الجناة وعفواً عمن أساء إليه، إلى غير ذلك من تحقيق المتابعة قولاً وفعلاً، وأخذاً وتركاً، وحباً وبغضاً، فمن رضي بالله استسلم له، ومن رضي بالإسلام عمل له، ومن رضي بمحمد ﷺ تابعه، ولا يكون واحد منها إلا بكلها، إذ محال أن يرضى بالله رباً ولا يرضى بالإسلام ديناً، أو يرضى بالإسلام ديناً ولا يرضى بمحمد نبياً، وتلازم ذلك بيّن لا خفاء فيه. انتهى ملخصاً.

واعلم أن محبة الله على قسمين: فرض وندب.

---

= تجريد التمهيد لابن عبد البر (٥٨٠) وفي تاريخ أصبهان لأبي نعيم ٢/ ٢٧٢.

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (١١١١) وفي صحيح البخاري كتاب الطلاق برقم (٥٣١٧) والنسائي ٦/ ١٤٦ رقم الحديث (٢٧٠٢) وفي ابن ماجه (١٩٣٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٤ و ٣٧ و ١٩٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٣٣٣ و ٣٧٤ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٧/ ١١٤ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٤/ ٢٧٤ وفي الدر المنثور للسيوطي ١/ ٢٨٤.

فالفرض: المحبة التي تبعث عل امتثال الأوامر والانتهاء عن المعاصي، والرضو بما يقدره، فمن وقع في معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره في محبة الله حيث قدم هوى نفسه، والتقصير يكون مع الاسترسال في المباحات والاستكثار منها فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في الرجاء فيقدم على المعصية، أو تستمر الغفلة فيقع. وهذا الثاني يسرع إلى الإقلاع مع الندم.

والندب: أن يواظب على النوافل ويجتنب الوقوع في الشبهات، والمتصف بذلك في عموم الأوقات والأحوال نادر.

وفي البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى أنه قال: (ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ـ وفي رواية: بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه ـ ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي سمع به، وبصهر الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته)[1].

ويستفاد من قوله: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي..) أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله تعالى. وعلى هذا فقد استشكل كون النوافل تنتج المحبة ولا تنتجها الفرائض؟

وأجيب: بأن المراد من النوافل إذا كانت مع الفرائض، مشتملة عليها ومكملة لها، ويؤيده: أن في رواية أبي أمامة «ابنَ آدم، إنك لا تدرك ما عندي إلا بأداء ما افترضته عليك»، أو يجاب: بأن الإتيان بالنوافل لمحض المحبة لا لخوف العقاب على الترك، بخلاف الفرائض. وقال الفاكهاني: معنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض، وداوم على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى ذلك إلى محبة الله تعالى. وقد استشكل أيضاً: كيف يكون الباري جل وعلا «سمع العبد وبصره» إلخ.

## وأجيب بأجوبة:

منها: أنه ورد على سبيل التمثيل، والمعنى: كنت كسمعه وبصره في إيثاره أمري، فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يحب هذه الجوارح.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق رقم الحديث (٦٥٠٢) والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٤٦، و ١٠/ ٢١٩ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/ ٤٧٧ وفي الاتحافات السنية (٥).

ومنها: أن المعنى أن كليته مشغولة بي، فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني، ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به.

ومنها: أن المعنى، كنت له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه.

ومنها: أنه على حذف مضاف، أي: كنت حافظ سمعه الذي يسمع به، فلا يسمع إلا ما يحل سماعه، وحافظ بصره كذلك الخ. قال الفاكهاني.

قال: ويحتمل معنى آخر أدق من الذي قبله: وهو: أن يكون بمعنى مسموعه، لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول، مثل: فلان أملي، بمعنى: مأمولي، والمعنى: أنه لا يسمع إلا ذكري ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابي ولا يأنس إلا بمناجاتي، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي، ولا يمد يده إلا فيما فيه رضاي، ورجله كذلك.

وقال غيره: اتفق العلماء ـ ممن يعتد بقولهم ـ على أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته، حتى كأنه سبحانه تنزل عنده منزلة الآلات التي يستعين بها، ولهذا وقع في رواية: «فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي». قال: والاتحادية زعموا أنه على حقيقته، وأن الحق عين العبد، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

وقال الخطابي: عبر بذلك عن سرعة إجابة الدعاء، والنجح في الطلب، وذلك أن مساعيَ الإنسان كلها إنما تكون بهذه الجوارح المذكورة. وعن أبي عثمان الحيري[1] ـ أحد أئمة الطريق ـ قال: معناه كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الإسماع وعينه في النظر، ويده في اللمس ورجله في المشي. كذا أسنده عنه البيهقي في «الزهد»[2].

وحمله بعض أهل الزيغ على ما يدعونه، من أن العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى [يصفى][3] من الكدورات، أنه يصير في معنى الحق، تعالى الله عن ذلك، وأنه يفنى عن نفسه جملة، حتى يشهد أن الله هو الذاكر لنفسه، والموحد لنفسه، والمحب لنفسه، وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدماً صرفاً. وعلى هذه الأوجه كلها فلا متمسك فيه للاتحادية ولا القائلين بالوحدة المطلقة، لقوله في بقية الحديث (ولئن

---

(١) هكذا في جميع النسخ وضبطه الشارح الزرقاني وفي فتح الباري المنقول عنه: الجيزي. صحب يحيى بن معاذ. قال الخطيب: كان مجاب الدعوة. مات بنيسابور سنة(٢٩٨ هـ).

(٢) انظر الزهد الكبير للبيهقي صفحة ٢٧٣ رقم الحديث (٧٠٢).

(٣) كذا في فتح الباري وفي الأصل (تصفى).

سألني)، زاد في رواية عبد الواحد (عبدي). انتهى ملخصاً.

قال العلامة ابن القيم: يتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي ـ الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به ـ حصر أسباب محبته في أمرين، أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله، فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملك عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة، فصار ذكر محبوبه وحبه مثله الأعلى مالكاً لزمام قلبه، مستولياً على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى محبه كلها له، ولا ريب أن هذا المحب إن سمع بمحبوبه وإن أبصر أبصر به، وإن مشى مشى به، فهو في قلبه ونفسه، وأنيسه وصاحبه. والباء ـ هنا ـ باء المصاحبة، وهي مصاحبة لا نظير لها، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها، فالمسألة حالية[1] لا علمية محضة.

قال: ولما حصلت الموافقة من العبد لربه في محابه، حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه فقال: «ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» أي كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري، والتقرب إلي بمحابي، فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعله به، وفيما يستعذ بي أن يناله. وقوي أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه في إماتة عبده لأنه يكره الموت، والرب تعالى يكره ما يكره عبده، ويكره مساءته فمن هذه الجهة يقتضي أن لا يميته ولكن مصلحته في إماتته، فإنه ما أماته إلا ليحييه، ولا أمرضه إلا ليصحه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا منعه إلا ليعطيه، ولم يخرجه من الجنة في صلب أبيه آدم إلا ليعاد إليها على أحسن أحواله، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه، انتهى.

وقال الخطابي: التردد في حق الله غير جائز، والبداء عليه في الأمور غير سائغ، ولكن له تأويلان:

أحدهما: أن العبد قد يشرف على الهلاك في أيام عمره من داء يصيبه، أو فاقة تنزل به، فيدعو الله فيشفيه منها، ويدفع عنه مكروهها، فيكون ذلك من فعله كتردد من يريد أمراً ثم يبدو له فيه فيتركه ويعرض عنه، ولا بد له من لقائه إذا بلغ الكتاب أجله، لأن الله تعالى قد كتب الفناء على خلقه، واستأثر بالبقاء لنفسه.

---

(١) أي: حال من أحوال النفس يدركها من قامت به.

والثاني: أن يكون معناه: ما رددت رسلي في شيء أنا فاعله كترديدي إياهم في قبض نفس عبدي المؤمن، كما روي في قصة موسى عليه الصلاة والسلام[1]، وما كان من لطمه عين ملك الموت، وتردده إليه مرة بعد أخرى. قال: وحقيقة المعنى ـ على الوجهين ـ عطف الله على العبد، ولطفه به، وشفقته عليه. ؟وقال الكلاباذي ما حاصله: إنه عبر عن صفة الفعل بصفة الذات، يعني باعتبار متعلقها، أي عن الترديد بالتردد، وجعل متعلق الترديد اختلاف أحوال العبد من ضعف ونصب إلى أن تنتقل محبته في الحياة إلى محبته للموت، فيقبض على ذلك.

قال: وقد يحدث الله تعالى في قلب عبده من الرغبة فيما عنده والشوق إليه والمحبة للقائه ما يشتاق معه إلى الموت، فضلاً عن إزالة الكراهة عنه، انتهى.

وبالجملة: فلا حياة للقلب إلا بمحبة الله ومحبة رسوله، ولا عيش إلا عيش المحبين الذين قرت أعينهم بحبيبهم وسكنت نفوسهم إليه واطمأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه وتنعموا بمحبته، ففي القلب طاقة لا يسدها إلا محبة الله ورسوله ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات.

قال صاحب المدارج: ولن يصل العبد إلى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية حتى يعرف الله ويهتدي إليه بطرق توصله إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارساً على قلبه فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله تعالى، ولا بخطرة فضول لا تنفعه، فيصفو لذلك قلبه بذكر ربه ومحبته والإنابة إليه، ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه، إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قال.

وأخرج من بين البيوت لعلني ... أحدث عنك النفس في السر خاليًا

فحينئذٍ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه وطلبه والشوق إليه، فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه واستاذه ومعلمه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديه، فيطالع سيرته ومبادي أموره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه وآدابه وحركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، إلى غير ذلك مما منحه الله تعالى، مما ذكرت بعضه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه، فإذا رسخ في قلبه ذلك فتح

---

(١) القصة متفق عليها من حديث أبي هريرة مرفوعاً. انظر قصص الأنبياء لابن كثير ٢/ ١٨٠.

عليه من ربه بحيث إذا قرأ السورة شاهد قلبه ماذا أنزلت فيه، وماذا أريد بها، وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق والأفعال المذمومة، فيجهد في التخلص منها، كما يجتهد في تحصيل الشفاء من المرض المخوف.

ولمحبة الرسول ﷺ علامات: أعظمها الاقتداء به، واستعمال سنته، وسلوك طريقته، والاهتداء بهديه وسيرته، والوقوف مع ما حدَّ لنا من شريعته. قال الله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل تعالى متابعة الرسول ﷺ آية محبة العبد ربه، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله تعالى إياه، وقد قال الحكيم ـ وهو محمود الوراق ـ[1] كما أفاده المحاسبي في كتابه «القصد والرجوع»:

| | |
|---|---|
| تعصي الإله وأنت تظهر حبه | هذا لعمري في القياس بديع |
| لو كان حبك صادقاً لأطعته | إن المحب لمن يحب مطيع[2] |

وهذه المحبة تنشأ من مطالعة منة الله عليه من نعمه الظاهرة والباطنة، فبقدر مطالعة ذلك تكون قوة المحبة. ومن أعظم مطالعة منة الله على عبده منة تؤهله لمحبته ومعرفته ومتابعة حبيبه ﷺ، وأصل هذا نور يقذفه الله تعالى في قلب ذلك العبد، فإذا دار ذلك النور أشرقت له ذاته، فرأى في نفسه وما أهلت له من الكمالات والمحاسن، فعلت به همته، وقويت عزيمته، وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه، لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرح أحدهما الآخر، فوقعت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول.

| | |
|---|---|
| نقل فؤادك حيث شئت من الهوى | ما الحب إلا للحبيب الأول |
| كم منزل في الأرض يألفه الفتى | وحنينه أبدًا لأول منزل[3] |

ويحسب هذا الإتباع توجب المحبة والمحبوبية معاً، ولا يتم الأمر إلا بهما، فليس الشأن أن تحب الله، بل الشأن أن يحبك الله، ولا يحبك إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً، وصدقته خبراً، وأطعته أمراً، وأجبته دعوة، وآثرته طوعاً، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم تكن كذلك فلا

---

(١) هو محمود بن حسن الوراق. شاعر توفي نحو (٢٢٥ هـ). الاعلام ٧/ ١٦٧ فوات الوفيات ٤/ ٧٩ رقم الترجمة (٥٠٧) تاريخ بغداد ١٣/ ٨٧ طبقات ابن المعتز ٣٦٧.

(٢) ذكره القاضي عياض في الشفا ٢/ ٩.

(٣) هو قول لأبي تمام الطائي.

تتعن، فلست على شيء. وتأمل قوله تعالى: ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] أي الشأن في أن الله تعالى يحبكم، لا في أنكم تحبونه، هذا لا ينالونه إلا باتباع الحبيب.

وقال المحاسبي في كتاب «القصد والرجوع»: وعلامة محبة العبد لله عز وجل اتباع مرضاة الله، والتمسك بسنن رسوله ﷺ، فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان، ووجد طعمه، ظهرت ثمرة ذلك على جوارحه ولسانه، فاستحلى اللسان ذكر الله تعالى وما والاه، وأسرعت الجوارح إلى طاعة الله، فحينئذ يدخل حب الإيمان في القلب كما يدخل حب الماء البارد الشديد برده في اليوم الشديد الحر للظمآن الشديد عطشه، فيرتفع عنه تعب الطاعة لاستلذاذه بها، بل تبقى الطاعات غذاء لقلبه وسروراً له، وقرة عين في حقه ونعيماً لروحه، يلتذ بها أعظم من اللذات الجسمانية، فلا يجد في أوراد العبادة كلفة.

وفي الترمذي عن أنس مرفوعاً: (ومن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة)[١]. وعن ابن عطاء: من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره ونواهيه، وأفعاله وأخلاقه. وقال أبو إسحاق الرقي[٢] - من أقران الجنيد: - علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ. وعن غيره: ولا يظهر على أحد شيء من نور الإيمان إلا باتباع السنة ومجانبة البدعة. فأما من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتلق العلم من مشكاة الرسول ﷺ بدعواه علماً لدنيا أوتيه فهو من لدن النفس والشيطان، وإنما يعرف كون العلم لدنيا روحانياً بموافقته لما جاء به الرسول عن ربه تعالى، فالعلم اللدني نوعان: لدني رحماني ولدني شيطاني، والمحك هو الوحي، ولا وحي بعد الرسول ﷺ.

وأما قصة موسى مع الخضر فالتعلق بها في تجويز الإستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد وكفر، يخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم، والفرق: أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته، ولو كان مأموراً بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه. ولهذا قال له: أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم[٣]، ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، فرسالته عامة للجن والإنس في كل زمان، ولو كان موسى وعيسى حيين لكانا من أتباعه.

---

(١) الحديث في الترمذي كتاب العلم باب (١٦) رقم الحديث (٢٦٧٨) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) هو إبراهيم بن داود القصار كان من جلة مشايخ الشام من أقران الجنيد عمر. توفي سنة (٣٢٦ هـ). المنتظم ١٣/ ٣٧٤ رقم الترجمة (٢٣٩٠).

(٣) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ٢/ ١٣١.

فمن ادعى أنه مع محمد كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة، فليجدد إسلامه، وليتشهد بشهادة الحق، فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلاً عن أن يكون من خاصة أولياء الله تعالى. وإنما هو من أولياء الشيطان وحلفائه ونوابه.

والعلم اللدني الرحماني هو ثمرة العبودية والمتابعة لهذا النبي الكريم. عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم، وبه يحصل الفهم في الكتاب والسنة بأمر يختص به صاحبه كما قال علي بن أبي طالب، وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا، إلا فهماً يؤتيه الله عبداًفي كتابه. فهذا هو العلم اللدني الحقيقي. فاتباع هذا النبي الكريم حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض النفوس، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين.

ومن علامة محبته: أن يرضى مدعيها بما شرعه، حتى لا يجد في نفسه حرجاً مما قضى. قال الله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [النساء: ٦٥]، فسلب اسم الإيمان عن من وجد في صدره حرجاً من قضائه ولم يسلم له. قال شيخ المحققين وإمام العارفين، تاج الدين بن عطاء الله الشاذلي ـ أذاقنا الله حلاوة مشربه ـ: في هذه الآية دلالة على أن الإيمان الحقيقي لا يحصل إلا لمن حكم الله ورسوله ﷺ على نفسه قولاً وفعلاً وأخذاً وتركاً، وحباً وبغضاً، ويشتمل ذلك على حكم التكليف وحكم التعريف، والتسليم والإنقياد واجب على كل مؤمن في كليهما. فأحكام التكليف: الأوامر والنواهي المتعلقة باكتساب العباد. وأحكام التعريف: هو ما أورده عليك من فهم المراد. فتبين من هذا: أنه لا يحصل لك حقيقة الإيمان إلا بأمرين: الإمتثال لأمره، والإستسلام لقهره.

ثم إنه سبحانه لم يكتف بنفي الإيمان عمن لم يحكم، أو حكم ووجد الحرج في نفسه، حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة برسوله ﷺ رأفة وعناية وتخصيصاً ورعاية، لأنه لم يقل: فلا والرب، وإنما قال: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ [النساء: ٦٥] ففي ذلك تأكيد بالقسم، وتأكيد في القسم، علماً منه سبحانه بما النفوس منطوية عليه من حب الغلبة ووجود النصرة سواء كان الحق عليها أو لها، وفي ذلك إظهار لعنايته برسوله ﷺ، إذ جعل حكمه حكمه، وقضاءه قضاءه، فأوجب على العباد الإستسلام لحكمه، والإنقياد لأمره، ولم يقبل منهم الإيمان بإلهيته حتى يذعنوا لأحكام رسوله ﷺ، لأنه كما وصفه به ربه ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، فحكمه حكم الله، وقضاؤه قضاء الله، كما قال: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ [الفتح: ١٠] وأكد ذلك بقوله: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ [الفتح: ١٠].

وفي الآية إشارة أخرى إلى تعظيم قدره، وتفخيم أمره ﷺ وهي قوله تعالى: ﴿وربك﴾ [النساء: ٦٥] فأضاف نفسه إليه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿كهيعص، ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾ [مريم: ١، ٢] فأضاف الحق سبحانه نفسه إلى محمد، وأضاف زكريا إليه ليعلم العباد فرق ما بين المنزلتين وتفاوت ما بين الرتبتين.

ثم إنه تعالى لم يكتف بالتحكيم الظاهر فيكونوا به مؤمنين، بل اشترط فقدان الحرج ـ وهو الضيق ـ من نفوسهم في أحكامه ﷺ، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها، وإنما تضيق النفوس لفقدان الأنوار، ووجود الأغيار، فعنه يكون الحرج وهو الضيق، والمؤمنون ليسوا كذلك، إن نور الإيمان ملأ قلوبهم فاتسعت وانشرحت، فكانت واسعة بنور الواسع العليم، ممدودة بوجود فضله العظيم، مهيأة لواردات أحكامه مفوضة له في نقضه وإبرامه. انتهى.

وقال سهل بن عبد الله: من لم ير ولاية الرسول عليه في جميع الأحوال، ويرى نفسه في ملكه لم يذق حلاوة سنته، لأنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». وروينا عن سيدنا العارف الكبير أبي عبد الله القرشي أنه قال: حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، ولا يبقى لك منك شيء. انتهى. فمن آثر هذا النبي الكريم على نفسه، كشف الله له عن حضرة قدسه، ومن كان معه بلا اختيار ظهرت له خفايا حقائق أسرار أنسه.

ومن علامات محبته ﷺ نصر دينه بالقول والفعل، والذب عن شريعته، والتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار، والحلم والصبر والتواضع وغيرها، مما ذكرته في أخلاقه العظيمة، وتقدم في كلام العارف ابن عطاء الله مزيد لذلك قريباً. فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان، ومن وجدها استلذ بالطاعات، وتحمل المشاق في الدين، وآثر ذلك على أغراض الدنيا.

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لا دعى الخلي حرقة الشجي، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١]، فتأخر أكثرهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة، بتزكية ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ [المائدة: ٥٤]. فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فهلموا إلى بيعة ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ [التوبة: ١١١]، فلما عرفوا عظمة ذلك المشتري وفضل الثمن وجلالة من أجري على يده عقد التبايع، عرفوا قدر السلعة، وأن

لها شأناً عظيم، فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم؛ قد صارت نفوسكم وأموالكم لنا، رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعافها معها ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

ومن علامات محبته ﷺ التسلي عن المصائب، فإن المحب يجد في هذه المحبة ما ينسيه المصائب، ولا يجد في مسها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق، بل يقوى سلطان المحبة حتى يلتذ بكثير من المصائب أعظم من التذاذ الخلي بحظوظه وشهواته، والذوق والوجود شاهد بذلك. فكرب المحبة موجود ممزوج بالحلاوة فإن فقد تلك الحلاوة اشتاق إلى ذلك الكرب كما قيل:

تشكى المحبون الصبابة ليتني ... نُحلت بما يلقون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

ومن علامات محبته ﷺ كثرة ذكره، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره. ولبعضهم: المحبة دوام الذكر للمحبوب، ولآخر: ذكر المحبوب على عدد الأنفاس. ولغيره: للمحب ثلاث علامات: أن يكون كلامه ذكر المحبوب، وصمته فكراً فيه، وعمله طاعة له. وقال المحاسبي: علامة المحبين كثرة الذكر للمحبوب على طريق الدوام، لا ينقطعون ولا يملون ولا يفترون، وقد أجمع الحكماء على أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، فذكر المحبوب هو الغالب على قلوب المحبين لا يريدون به بدلاً ولا يبغون عنه حولاً، ولو قطعوا عن ذكر محبوبهم لفسد عيشهم، وما تلذذ المتلذذون بشيء ألذ من ذكر المحبوب. انتهى.

فالمحبون قد اشتغلت قلوبهم بلزوم ذكر المحبوب عن اللذات، وانقطعت أوهامهم عن عارض دواعي الشهوات، ورقت إلى معادن الذخائر وبغية الطلبات، وربما تزايد وجد المحب، وهاج الحنين وباح الأنين، وتحركت المواجيد، وتغير اللون، واستبسلت الجوارح، وفتر البدن واقشعر الجلد، وربما صاح، وربما بكى، وربما شهق وربما وَله وربما سقط، ولسيدي محمد وفا:

إذا أباح دم المهجور هاجره ... باح المحب بما تخفي ضمائره
أيكتم الحب صب باح مدمعه ... لما جرى بالذي تخفي سرائره
كأنما قلبه أجفان مقلته ... ودمعه في أماقيه خواطره
يا جيرة الجزع هل من جيرة لفتى ... عليه في حكمه قد جار جائره

آه وكم لي على خطب الهوى خطب — من الغرام به تعلو منابره
مهفهف أبلج بدر على غصن — تخفي البدور إذا لاحت بوادره
مطرز الخد بالريحان في ضرج — مورد آسه تزهو أزاهره
مكحل الخلق ما تحصى خصائصه — منضر الحسن قد قلت نظائره

وربما زاد الوجد على المحب فقتله. أول نقد أثمان المحبة بذل الروح، فما للمفلس الجبان وسَوْمها؟! بدم المحب يباع وصلهم، تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فينفقها بالنسيئة المعسرون، لقد أسيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون وقام المحبون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمناً فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد **﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾** [المائدة: ٥٤].

فذكره ﷺ جلاء قلوبنا، وشفاء صدورنا، وحلاوة ألسنتنا في جميع الحالات، على اختلاف الأوقات والساعات، يتشرَّف بذكره في جميع العبادات، وفي الجمع والجماعات، والخطب والصلوات، وسائر التقلبات والتصرفات، حتى في المعاطاة والمبايعات، وعقود المصالحات، واستفتاح المعاقدات والمعاهدات، وخصوصاً عند الأذكار والدعوات، فإن بها وُلُوجها في أبواب الإجابات.

ومن علامات محبته ﷺ تعظيمه عند ذكره، وإظهار الخشوع والخضوع والإنكسار مع سماع اسمه، فكل من أحب شيئاً خضع له، كما كان كثير من الصحابة بعده إذا ذكروه خشعوا واقشعرت جلودهم وبكوا، وكذلك كان كثير من التابعين فمن بعدهم يفعلون ذلك محبة وشوقاً وتهيباً وتوقيراً. قال أبو إبراهيم التجيبي[1]: واجب على كل مؤمن متى ذكره، أو ذكر عنده، أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته، ويأخذ في هيبته وإجلاله، بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدب بما أدبنا الله به.

وكان أيوب السختياني[2] إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى نرحمه. وكان جعفر بن محمد كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر النبي ﷺ اصفر لونه. وكان عبد الرحمن بن القاسم إذا ذكر النبي ﷺ ينظر إلى لونه كأنه قد نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول

---

(١) هو إسحاق بن إبراهيم بن مسرة أبو إبراهيم التجيبي (٢٥٧ ـ ٣٥٢ هـ) فقيه مالكي. توفي بطليطلة في رجب لعشر بقين منه. انظر الديباج المذهب ١/٢٩٦ ومعجم المؤلفين ٢/٢٢٩ وفيه قول باختلاف وفاته فقيل (٣٥٤) وكشف الظنون (١٤٦٧) وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/١٦٣.

(٢) هو أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري أبو بكر (٦٦ ـ ١٣١ هـ). تابعي فقيه زاهد من حفاظ الحديث. الاعلام ٢/٣٨ حلية الأولياء ٣/٣ رقم الترجمة (٢٠١).

الله ﷺ. وكان عبد الله بن الزبير إذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع. وكان الزهري من أهنأ الناس وأقربهم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنك ما عرفته ولا عرفك. وكان صفوان بن سليم من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

وكان قتادة إذا سمع الحديث، أخذه البكاء والعويل والزويل. أشار إلى ذلك القاضي عياض[1]. ومن علامات محبته ﷺ كثرة الشوق إلى لقائه، إذ كل حبيب يحب لقاء حبيبه. ولبعضهم: المحبة الشوق إلى المحبوب، وعن معروف الكرخي[2]: المحبة ارتياح الذات لمشاهدة الصفات، أو مشاهدة أسرار الصفات، فيرى بلوغ السؤل ولو بمشاهدة الرسول. ولهذا كانت الصحابة رضي الله عنهم إذا اشتد بهم الشوق وأزعجتهم لواعج المحبة قصدوا رسول الله ﷺ واشتفوا بمشاهدته، وتلذذوا بالجلوس معه والنظر إليه والتبرك به ﷺ.

وعن عبدة بنت خالد بن معدان[3]: ما كان خالد يأوي إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار يسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل رب قبضي إليك حتى يغلبه النوم. ولما احتضر بلال نادت امرأته، واحَرَباه فقال: واطرباه، غداً ألقى الأحبة، محمداً وصحبه. إذا ذاق المحب طعم المحبة اشتاق وتأججت نيران الحب والطلب في قلبه، ويجد الصبر عن محبوبه من أعظم كبائره كما قيل:

والصبر يحمد في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمد

وعن زيد بن أسلم[4]: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة يحرس فرأى مصباحاً في بيت فإذا عجوز تنفش صوفاً وتقول:

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ٢/ ٤٢.

(٢) هو معروف بن فيروز الكرخي أبو محفوظ. زاهد متصوف. ولد ببغداد وتوفي فيها سنة (٢٠٠ هـ). الاعلام ٧/ ٢٦٩ طبقات الصوفية ٨٣ وفيات الاعيان ٢/ ١٠٤ صفة الصفوة ٢/ ١٧٩ طبقات الحنابلة ١/ ٣٨١ تاريخ بغداد ١٣/ ١٩٩.

(٣) هو خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي أبو عبد الله. تابعي عابد. أصله من اليمن وأقام في حمص الشام توفي سنة (١٠٤ هـ) الاعلام ٢/ ٢٩٩ وتاريخ دمشق ٥/ ٨٦.

(٤) هو زيد بن أسلم العدوي العمري أبو أسامة أو أبو عبد الله فقيه مفسر توفي سنة (١٣٦ هـ). الاعلام ٣/ ٥٦ تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٢ رقم الترجمة (١١٨). طبقات المفسرين للداوودي ١/ ١٨٢ رقم الترجمة (١٧٥) شذرات الذهب ١/ ١٩٤.

على محمد صلاة الأبرار صلى عليه الطيبون الأخيار
قد كنت قواماً بكاء بالأسحار يا ليت شعري والمنايا أطوار
هل تجمعني وحبيبي الدار

تعني النبي ﷺ، فجلس عمر يبكي[1]، ثم قام إلى باب خيمتها فقال: السلام عليكم، ثلاث مرات فقال لها: أعيدي علي قولك، فأعادته بصوت حزين، فبكى وقال لها: وعمر لا تنسينه يرحمك الله، فقالت: وعمر فاغفر له يا غفار.

ويحكى أنه رؤيت امرأة مسرفة على نفسها، بعد موتها، فقيل لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي، قيل: بماذا؟ قالت بمحبتي للنبي ﷺ وشهوتي النظر إليه، فنوديت: من اشتهى النظر إلى حبيبنا فنستحي أن نذله بعتابنا، بل نجمع بينه وبين من يحبه.

ومن علامات محبته ﷺ حب القرآن الذي أتى به، واهتدى به وتخلق به، وإذا أردت أن تعرف ما عندك وعند غيرك من محبة الله ورسوله فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، كما قيل:

إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي
أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

ويروى أن عثمان بن عفان قال: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه. قال النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود: «اقرأ علي» قال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ فقال «إني أحب أن أسمعه من غيري». فاستفتح وقرأ سورة النساء حتى بلغ ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: ٤١] قال: «حسبك»، فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء.[2] رواه البخاري..

وهذا يجده من سمع الكتاب العزيز بأذن قلبه، قال الله تعالى: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ٢/ ٢٢؛

(٢) أخرجه البخاري بألفاظ متقاربة في كتاب فضائل القرآن باب (٣٢) رقم الأحاديث (٥٠٤٩ ـ ٥٠٥٠ ـ ٥٠٥٥ ـ ٥٠٥٦). ومسلم برقم ٢٤٧ و ٢٤٨ والترمذي برقم (٣٠٢٥) وابن ماجه برقم (٤١٩٤) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٣٨٠ و ٤٣٣ والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٣١ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٢١٩٥) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤/ ٤٩٨ والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٦٣ وأبي نعيم في حليته ٧/ ٢٠٣ وأبو داود في سننه برقم (٣٦٦٨) والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٨٢٦).

إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ [المائدة: ٨٣]. قال صاحب «عوارف المعارف» ـ أذاقنا الله حلاوة مشربه ـ: هذا السماع هو السماع الحق، الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان، محكوم لصاحبه بالهداية، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين، فتفيض العين بالدمع، لأنه تارة يثير حزناً، والحزن حار، وتارة يثير شوقاً، والشوق حار، وتارة يورث ندماً، والندم حار، فإذا أثار السماع هذه الصفات، من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين بكى وأبكى، لأن الحرارة والبرودة إذا اضطربتا عصرتا ماء، فإذا ألمَّ السماع بالقلب تارة يخف إلمامه فيظهر أثره في الجسد ويقشعر منه الجلد، قال الله تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ [الزمر: ٢٣]، وتارة يعظم وقعه ويتصوب أثره ـ أي يقصد ـ نحو الدماغ فتندفق منه العين بالدمع، وتارة يتصوب أثره إلى الروح، فتموج منه الروح موجاً، ويكاد يضيق عنه نطاق القالب، فيكون من ذلك الصياح والاضطراب، وهذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الأحوال.

وقد كان ابن عمر، رضي الله عنهما، ربما مر بآية في ورده فتخنقه العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضاً.

وقد كان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى الأشعري يقولون: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يسمعون.

فلمحبي السماع القرآني من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل ذوقه ووجده وطربه ونشأته في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن كما قيل: نقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر، وبيت من الشعر ينشد تميل كالنشواني، فاعلم أن هذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله ورسوله، أدام الله لنا حلاوة محبته، ولا سلك بنا في غير سبيل سنته، بمنه ورحمته.

ومن علامات محبته ﷺ محبة سنته، وقراءة حديثه، فإن من دخلت حلاوة الإيمان في قلبه إذا سمع كلمة من كلام الله تعالى، أو من حديث رسوله ﷺ تشربتها روحه وقلبه ونفسه، ويقول:

أشم منك نسيماً لست أعرفه ... أظن لمياء جرت فيك أردانا[1]

---

(١) لمياء: صفة لأنثى قامت بشفتها اللمى، وهي سمرة تستحسن، والأردان جمع ردن: ثوب خز وغزل.

فتعمه تلك الكلمة وتشمله، فتصير كل شعرة منه سمعاً، وكل ذرة منه بصراً، فيسمع الكل بالكل ويبصر الكل بالكل ويقول:

لي حبيب خياله نصب عيني ... سره في ضمائري مدفون
إن تذكرته فكلي قلوب ... أو تأملته فكلي عيون

فحينئذ يستنير قلبه، ويشرق سره، وتتلاطم عليه أمواج التحقيق عند ظهور البراهين، ويرتوي بري عطف محبوبه، الذي لا شيء أروى لقلبه من عطفه عليه، ولا شيء أشد للهيبه وحريقه من إعراضه عنه، ولهذا كان عذاب أهل النار باحتجاب ربهم عنهم أشد عليهم من العذاب الجسماني، كما أن نعيم أهل الجنة برؤيته تعالى وسماع خطابه ورضاه وإقباله أعظم من النعيم الجسماني، لا حرمنا الله ذوق حلاوة هذا المشرب.

ومن علامات محبته ﷺ أن يلتذ محبه بذكره الشريف ويطرب عند سماع اسمه المنيف، وقد يوجب له ذلك سكراً يستغرق قلبه وروحه وسمعه. وسبب هذا السكر اللذة القاهرة للعقل، وسبب اللذة إدراك المحبوب ﷺ، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك هذا المحبوب قوياً كانت اللذة بإدراكه تابعة لقوة هذين الأمرين. فإن كان العقل قوياً مستحكماً لم يتغير لذلك، وإن كان ضعيفاً حدث السكر المخرج له عن حكمه. وقد حدوا السكر بأنه: سقوط التمالك في الطرب، كأنه يبقى في السكران بقية يلتذ بها ويطرب، فلا يتمالك صاحبها، ولا يقدر أن يفنى معها.

وقد يكون سبب السكر قوة الفرح بإدراك المحبوب، بحيث يختلط كلامه وتتغير أفعاله، بحيث يزول عقله ويعربد أعظم من عربدة شارب الخمر. وربما قتله سكر هذا الفرح بسبب طبيعي، وهو انبساط دم القلب وهلة واحدة انبساطاً غير معتاد، والدم هو حائل الحار الغريزي، فيبرد القلب بسبب انبساط الدم عنه فيحدث الموت

ومن هذا قول سكران الفرح ـ بوجود راحلته في المفازة بعد أن استشعر الموت ـ: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة فرحه[1]، وسكرة الفرح فوق سكرة الشراب

---

(١) إعلم أن الله واجب تعظيمه في حال الرضا وفي حال الغضب. ويحرم الاستخفاف به في الحالين. وعلى هذا أجمع المسلمون. ولذلك لا يوجد في الكتب المؤلفة في المذاهب الأربعة التفريق بين من يسب الله تعالى في حال الرضا ومن يسب في حال الغضب في الحكم بالتكفير، ولم يوجد من أحد منهم استثناء لحالة الغضب! . وإنما استثنوا الحالات الثلاث المعلومة وهي:
١ ـ من نطق بكلمة الكفر في حال الاكراه بالقتل ونحوه.
٢ ـ وحال غيبوبة العقل.

فصور في نفسك حال فقير معدم، عاشق للدنيا أشد العشق، ظفر بكنز عظيم، فاستولى عليه آمناً مطمئناً، كيف تكون سكرته؟ أو من غاب عنه غلامه بمال عظيم مدة سنين، حتى أضرَّ به العدم، فقدم عليه من غير انتظار له بماله كله، وقد كسب أضعافه، كيف تكون سكرته؟

ومن أقوى أسباب ما نحن فيه سماع الأصوات المطربة بالإنشادات بالصفات النبوية المغربة المعربة إذا صادفت محلاً قابلاً فلا تسأل عن سكرة السامع، وهذا السكر يحدث عندها من جهتين: إحداهما أنها في نفسها توجب لذة قوية ينغمر منها العقل، الثانية: أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها وجهته، فتحصل بتلك الحركة والشوق والطلب مع التخيل للمحبوب واحضاره في النفس، وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لذة عظيمة تغمر القلب، فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان، فتسكر الروح سكراً عجيباً أطيب وألذ من سكر الشراب، وتحصل له به نشأة ألذ من نشأة الشراب.

وقد ذكر الإمام أحمد وغيره: أن الله تعالى يقول لداود: مجدني بذلك الصوت الذي كنت تمجدني به في الدنيا، فيقول: كيف وقد أذهبته فيقول: أنا أرده عليك، فيقوم عند ساق العرش ويمجده، فإذا سمع أهل الجنة صوته استفرغ نعيم أهل الجنة. وأعظم من ذلك: إذا سمعوا كلام الرب جل جلاله وخطابه لهم، فإذا انضاف إلى ذلك رؤية وجهه الكريم الذي يغنيهم لذة رؤيته عن رؤية الجنة ونعيمها، فأمر لا تدركه العبارة ولا تحيط به الإشارة، وهذه صفة لا تلج كل أذن، وصيب لا تحيا به كل أرض، وعين لا يشرب منها كل وارد، وسماع لا يطرب عليه كل سامع، ومائدة لا يجلس عليها كل طفيلي، أشار إليه في المدارج.

فمن اتصف بهذه العلامات التي ذكرتها فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن خالف بعضها فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها بدليل قوله ﷺ للذي حده في الخمر ـ لما لعنه بعضهم وقال: ما أكثر ما يؤتى به ـ فقال: ﷺ «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»[1]، فيخبر أنه يحب الله ورسوله مع وجود ما صدر عنه. وفيه الرد على من زعم

---

= ٣ ـ وحال سبق اللسان. ومعلوم أن سبق اللسان يحصل في حال الرضا والغضب. وهذه الحالات الثلاث رداً على بعض الجاهلين المتعالين القائلين أن سب الله تعالى لا يكون كفراً إذا صدر في حال الغضب والعياذ بالله.

راجع الفتاوى الخانية روضة الطالبين، الشفا للقاضي عياض وقد ذكر في آخر كتابه جملة من الألفاظ المكفرة فليراجع من أراد الاستزادة.

(١) ذكره ابن سعد في طبقاته ٣/ ٣٧٥ وعبد الرزاق في مصنفه (١٣٥٥٢ ـ ١٧٠٨٢) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ٦٢٠ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٣٧٤٩).

أن مرتكب الكبيرة كافر، لثبوت النهي عن لعنه، وثبوت الأمر بالدعاء له. وفيه أنه لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب، وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة الله ورسوله. ويحتمل أن يكون استمرار ثبوت محبة الله ورسوله في قلب العاصي مقيداً بما إذا ندم على وقوع المعصية، أو إذا أقيم عليه الحد، فكفر عن ذنبه المذكور، بخلاف من لم يقع منه ذلك فإنه يخشى بتكرار الذنب أن ينطبع على قلبه حتى يسلب منه ذلك الحب، نسأل الله العفو والثبات على محبته وسلوك سنته برحمته ومنّه.

تنبيه: قد اختلف العلماء، أيما أرفع درجة المحبة أو درجة الخلة؟

فحكى القاضي عياض: أن بعضهم جعلهما سواء، فلا يكون الحبيب إلا خليلاً، ولا الخليل إلا حبيباً، لكنه خص إبراهيم بالخلة ومحمداً ﷺ بالمحبة، وقال بعضهم: درجة الخلة أرفع واحتج بقوله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر»[1] فلم يتخذه وقد أطلق المحبة لفاطمة وابنيها وأسامة. انتهى.

وهذا هو الظاهر من المعنى الأخص، لأن المحبة مأخوذة من معنى الخلة، لكن يرد ما روي في قصة الإسراء في مناجاته ﷺ لربه تعالى حيث قال له تعالى: يا محمد سل، فقال: يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً، فقال له تعالى: ألم أعطك خيراً من هذا. إلى قوله: واتخذتك حبيباً، أو ما في معناه، رواه البيهقي. بنحوه، وهذا يعطي أن درجة المحبة أرفع.

وقد احتج من قال بتفضيل مقام المحبة على الخلة بفروق كثيرة، ذكر القاضي عياض في الشفاء منها نقلاً عن الإمام أبي بكر بن فورك عن بعض المتكلمين نبذة:

منها: أن الخليل يصل بالواسطة، من قوله تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ [الأنعام: ٧٥]، والحبيب يصل إليه به، من قوله تعالى: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ [النجم: ٩].

ومنها: أن الخليل قال: ﴿ولا تخزني﴾ [الشعراء: ٨٧]، والحبيب قيل له: ﴿يوم لا يخزي الله النبي﴾ [التحريم: ٨].

ومنها: أن الخليل قال في المحنة: ﴿حسبي الله﴾ [الزمر: ٣٨ والتوبة: ١٢٩] والحبيب قيل له: ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾ [الأنفال: ٦٤].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٥٤) والسيوطي في الحاوي للفتاوى ٢/٥٤ والقاضي عياض في الشفا ١/٤١٢ وابن كثير في البداية والنهاية ٥/٢٢٩ وابن الجوزي في الموضوعات ١/٣٦٧.

ومنها: أن الخليل هو الذي تكون مغفرته في حد الطمع، من قوله: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ [الشعراء: ٨٢]، والحبيب الذي مغفرته في حد اليقين، من قوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢].

وفي كتابي «تحفة السامع والقاري بختم حجج البخاري» وجوه أخر غير ما حكاه القاضي عياض.

وفي كلها نظر واضح كما بينته في حاشية الشفاء، وذلك أن مقتضى الفرق بين الشيئين أن يكون في حد ذاتيهما، يعني باعتبار مدلولي «خليل» و «حبيب» وما حكاه القاضي عياض، وذكرته في التحفة، يقتضي تفضيل ذات محمد ﷺ ذات إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. لا يقال باعتبار ثبوت وصف الخلة له فيلزم ذلك. لأنا نقول: كل منهما ثابت له وصف الخلة والمحبة. إذ لا يسلب عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وصف المحبة لا سيما والخلة أخص من المحبة، ولا يسلب عن نبينا ﷺ وصف الخلة لا سيما وقد ثبت في حديث أبي هريرة قول الله تعالى له: (إني اتخذتك خليلاً)[1]. وقد قام الإجماع على فضل نبينا ﷺ على جميع الأنبياء، بل هو أفضل خلق الله تعالى مطلقاً.

أما قوله: إن الخليل يصل بالواسطة فلا يفيد غرضاً في هذا المقام الذي هو بصدده، وليس المراد به قطعاً إلا الوصول إلى المعرفة، إذ الوصول الحسي يمتنع على الله تعالى.

وأما قوله: والحبيب يصل إليه به، فالوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا به حبيباً كان أو خليلاً. وأما قوله: الخليل هو الذي تكون مغفرته في حد الطمع الخ... فإنه لا يصح أن يكون على جهة التفسير للخليل، ولا تعلق له بمعناه. وقصارى ما ذكره: أنه يعطي تفضيل نبينا ﷺ على إبراهيم عليه الصلاة والسلام في حد ذاته من غير نظر إلى ما جعله علة معنوية في ذلك من وصف المحبة والخلة. والحق: أن الخلة أعلى وأكمل وأفضل من المحبة.

قال ابن القيم: وأما ما يظنه بعض الغالطين أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله ومحمداً حبيب الله فمن جهله. فإن المحبة عامة والخلة خاصة والخلة نهاية المحبة. قال: وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذه خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم. وأيضاً فإنه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين، وخلته خاصة بالخليلين. قال: وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله. انتهى.

---

(١) عن أبي هريرة في المعراج.

وقال الشيخ بدر الدين الزركشي في شرحه لبردة الأبوصيري: وزعم بعضهم أن المحبة أفضل من الخلة وقال: محمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله. وضعف: بأن الخلة خاصة، وهو توحيد المحبة، والمحبة عامة، قال الله تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين﴾ [البقرة: ٢٢٢] قال: وقد صح أن الله اتخذ نبينا خليلاً فقال: إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً. انتهى.

تنبيه: والخليل مشتق من الخلة ـ بالفتح ـ وهي الحاجة، أو الخلة ـ بالضم ـ وهي المودة الحاصلة، أو من الخلل، قال ثعلب سمي خليلاً لأن مودته تتخلل القلب، وأنشد:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سمي الخليل خليلا

وقال الراغب: الخلة ـ بالفتح ـ: الاختلال العارض للنفس، إما لشهرتها بشيء أو لحاجتها إليه، ولهذا فسّر الخلة بالحاجة، والخلة ـ بالضم ـ إما لأنها تتخلل النفس أو تتوسطها، وإما لأنها تخل النفس فتؤثر فيها تأثير السهم في الرمية، وإما لفرط الحاجة إليها.

## الفصل الثاني
## في حكم الصلاة عليه والتسليم فريضة وسنة وفضيلة وصفة ومحلاً

قال الله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦]. قال أبو العالية: معنى صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه عند الملائكة، ومعنى صلاة الملائكة عليه الدعاء.

قال في فتح الباري: وهذا أولى الأقوال، فيكون معنى صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم طلب ذلك له من الله تعالى، والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة. وعن ابن عباس: أن معنى صلاة الملائكة الدعاء بالبركة. وروى ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان[1] قال: صلاة الله مغفرته وصلاة الملائكة الاستغفار.

---

(١) هو مقاتل بن حيان النبطي أبو بسطام البلخي الخراز. حافظ. انظر تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٤ رقم الترجمة (١٦٨) وطبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٣٢٩ رقم الترجمة (٦٤١) وميزان الاعتدال ٤/ ١٧١.

وقال الضحاك بن مزاحم: صلاة الله رحمته، وفي رواية عنه: مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء. أخرجهما إسماعيل القاضي عنه، وكأنه يريد الدعاء بالمغفرة ونحوها. وقال المبرد: الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة رقة تبعث على استدعاء الرحمة.

وتعقب: بأن الله غاير بين الصلاة والرحمة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ [البقرة: ١٥٧]، ولذلك فهم الصحابة المغايرة من قوله تعالى: ﴿صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] حتى سألوه عن كيفية الصلاة مع تقدم ذكر «الرحمة» في تعليم السلام، حيث جاء بلفظ: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وأقرهم النبي ﷺ، فلو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقال لهم، قد علمتم ذلك في السلام. وجوز الحليمي أن تكون الصلاة بمعنى السلام عليه، وفيه نظر. وقيل: صلاة الله على خلقه تكون خاصة وتكون عامة، فصلاته على أنبيائه هي ما تقدم من الثناء والتعظيم، وصلاته على غيرهم الرحمة، فهي التي وسعت كل شيء.

وحكى القاضي عياض: عن بكر القشيري أنه قال: الصلاة على النبي ﷺ من الله تشريف وزيادة تكرمة، وعلى من دون النبي رحمة. وبهذا يظهر الفرق بين النبي ﷺ وبين سائر المؤمنين حيث قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقال قبل ذلك في السورة المذكورة: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ومن المعلوم أن القدر الذي يليق بالنبي ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره. والإجماع منعقد على أن في هذه الآية من تعظيم النبي ﷺ والتنويه به ما ليس في غيرها.

وقال الحليمي في «الشعب»، معنى الصلاة على النبي ﷺ تعظيمه، فمعنى قولنا: اللهم صل على محمد، عظم محمداً، والمراد تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دينه وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بإجزال مثوبته، وتشفيعه في أمته، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى ﴿صلوا عليه﴾ [الأحزاب: ٥٦] ادعوا ربكم بالصلاة عليه. انتهى. ولا يعكر عليه عطف آله وأزواجه وذريته عليه، فإنه لا يمتنع أن يدعى لهم بالتعظيم إذ تعظيم كل أحد بحسب ما يليق به.

وما تقدم عن أبي العالية أظهر، فإنه يحصل به استعمال لفظ الصلاة بالنسبة إلى الله تعالى، وإلى ملائكته وإلى المؤمنين المأمورين بذلك بمعنى واحد، ويؤيده أنه لا خلاف في جواز الترحم على غير الأنبياء: واختلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء، ولو كان معنى قولنا: اللهم صل على محمد: ارحم محمداً، أو ترحم على محمد، جاز لغير الأنبياء، وكذا لو كان بمعنى البركة، وكذلك الرحمة، لسقط الوجوب في التشهد عند من

يوجبه بقول المصلي في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. ويمكن الانفصال عنه بأن ذلك وقع بطريق التعبد فلا بد من الاتيان به، ولو سبق الاتيان بما يدل عليه. فإن قلت: في أي وقت وقع الأمر بالصلاة عليه ﷺ؟

فالجواب ـ كما قال أبو ذر الهروي ـ: أنه وقع في السنة الثانية من الهجرة، وقيل ليلة الإسراء، وقيل: إن شهر شعبان شهر الصلاة على رسول الله ﷺ، لأن آية الصلاة ـ يعني﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ [الأحزاب: ٥٦] نزلت فيه. والله أعلم.

قال الحليمي: والمقصود بالصلاة عليه ﷺ التقرب إلى الله تعالى بامتثال أمره تعالى، وقضاء حق النبيّ ﷺ علينا. وتبعه ابن عبد السلام، فقال في الباب الثامن من كتابه المسمى «بشجرة المعارف»[1]: ليست صلاتنا على النبي ﷺ شفاعة له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله، ولكن الله أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا، فإن عجزنا عنها كافأناه بالدعاء، فأرشدنا الله ـ لما علم عجزنا عن مكافأة نبينا ـ إلى الصلاة عليه. وذكر نحوه عن الشيخ أبي محمد المرجاني. وقال ابن العربي: فائدة الصلاة عليه ترجع إلى الذي يصلي عليه، لدلالة ذلك على نصوح العقيدة وخلوص النية، وإظهار المحبة، والمداومة على الطاعة والاحترام للواسطة الكريمة ﷺ.

واختلف في حكم الصلاة عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على أقوال:

أحدها: أنها تجب في الجملة بغير حصر، لكن أقل ما يحصل به الإجزاء مرة.

الثاني: يجب الإكثار منها، من غير تقييد بعدد، قاله القاضي أبو بكر بن بكير[2] بن المالكية، وعبارته ـ كما قاله القاضي عياض ـ: افترض الله تعالى على خلقه أن يصلوا على نبيه ﷺ ويسلموا تسليماً، ولم يجعل ذلك لوقت معلوم، فالواجب أن يكثر المرء منها ولا يغفل عنها.

الثالث: تجب كل ما ذكر، قاله الطحاوي وجماعة من الحنفية، والحليمي، وجماعة من الشافعية، وقال ابن العربي: إنه الأحوط، وكذا قاله الزمخشري. واستدلوا لذلك بحديث: (من ذكرت عنده فلم يصل علي فمات فدخل النار فأبعده الله) أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة. وحديث: (رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل علي) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وصححه الحاكم. وحديث: (شقي عبد ذكرت عنده فلم يصل علي) أخرجه الطبراني من حديث جابر. لأن الدعاء بـ «الرغم والإبعاد والشقاء»

---

(١) انظر كشف الظنون ٢/١٠٢٧.

(٢) انظر أخبار القضاة لوكيع ٣/٣٢١.

يقتضي الوعيد، والوعيد على الترك من علامات الوجوب. ومن حيث المعنى: إن فائدة الأمر بالصلاة عليه مكافأته على إحسانه، وإحسانه مستمر، فتتأكد إذا ذكر.

واستدلوا أيضاً: بقوله تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ [النور: ٦٣] فلو كان إذا ذكر لا يصلى عليه كان كآحاد الناس وأجاب من لم يوجب ذلك بأجوبة، منها:

أنه قول لا يعرف عن أحد من الصحابة ولا التابعين، فهو مخترع. ولو كان ذلك على عمومه للزم المؤذن إذا أذن أن يصلي عليه، وكذا سامعه، وللزم القارىء إذا مر بآية فيها ذكره ﷺ في القرآن، وللزم الداخل في الإسلام إذا تلفظ بالشهادتين ولكان في ذلك من المشقة والحرج ما جاءت الشريعة السمحة المطهرة بخلافه، ولكان الثناء على الله تعالى كلما ذكر أحق بالوجوب، ولم يقولوا به.

وقد أطلق القدوري[1] وغيره من الحنفية: أن القول بوجوب الصلاة كلما ذكر مخالف للإجماع المنعقد قبل قائله، لأنه لا يحفظ عن أحد من الصحابة أنه خاطب النبي ﷺ فقال: يا رسول الله صلى الله عليك، ولأنه لو كان كذلك لما تفرغ لعبادة أخرى.

وأجابوا عن الأحاديث: بأنها خرجت مخرج المبالغة في تأكيد ذلك وطلبه، وفي حق من اعتاد ترك الصلاة عليه ديدنا. وبالجملة: فلا دلالة على تكرر وجوب ذلك بتكرر ذكره ﷺ في المجلس الواحد، انتهى ملخصاً، والله أعلم.

، الرابع: في كل مجلس مرة ولو تكرر ذكره مراراً. حكاه الزمخشري.

الخامس: في كل دعاء، حكاه أيضاً.

السادس: أنها من المستحبات، وهو قول ابن جرير الطبري، وادعى الإجماع على ذلك، واحتج على ذلك مع ورود صيغة الأمر بذلك، بالاتفاق من جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة، أن ذلك غير مستلزم فرضيتها حتى يكون تارك ذلك عاصياً، فدل على أن الأمر فيه للندب، ويحصل الامتثال لمن قاله ولو كان خارج الصلاة.

قال في فتح الباري: وما ادعاه من الإجماع معارض بدعوى غيره الإجماع على مشروعية ذلك في الصلاة، إما بطريق الوجوب، وإما بطريق الندب، ولا يعرف عن السلف لذلك مخالف، إلا ما أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني عن إبراهيم النخعي أنه كان يرى أن قول المصلي في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته مجزىء عن

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان أبو الحسين القدوري (٣٦٢ ـ ٤٢٨ هـ) فقيه حنفي ولد ومات في بغداد. الاعلام ١/ ٢١٢ وفيات الأعيان ١/ ٢١ النجوم الزاهرة ٥/ ٢٤.

الصلاة، ومع ذلك: إنما ادعى إجزاء السلام عن الصلاة.

السابع: تجب في العمر مرة في الصلاة أو غيرها، ككلمة التوحيد، قاله أبو بكر الرازي من الحنفية.

الثامن: تجب في الصلاة من غير تعيين المحل، ونقل ذلك عن أبي جعفر الباقر.

التاسع: تجب في التشهد، وهو قول الشعبي وإسحاق بن راهويه.

العاشر: تجب في القعود آخر الصلاة، بين قول التشهد وسلام التحلل، قاله الشافعي ومن تبعه. واستدل لذلك بما رواه أصحاب السنن، وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم عن أبي مسعود البدري: أنهم قالوا يا رسول الله: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا فقال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» الحديث. ومعنى قولهم: أما السلام عليك فقد عرفناه، هو الذي في التشهد، الذي كان قد علمهم إياه كما يعلمهم السورة من القرآن. وفيه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ورواه الشافعي في مسنده عن أبي هريرة بمثله. وقد احتج بهذه الزيادة جماعة من الشافعية، منهم ابن خزيمة، والبيهقي، لإيجاب الصلاة عليه ﷺ بعد التشهد وقبل السلام.

وقال الشافعي في الأم: فرض الله الصلاة على رسول الله ﷺ بقوله: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] ولم يكن فرض الصلاة عليه في موضع أولى منه في الصلاة، ووجدنا الدلالة عن النبي ﷺ بذلك: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثنا صفوان بن سليم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله، كيف نصلي عليك - يعني في الصلاة - قال: «تقولون اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم» الحديث. أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثني سعيد بن إسحاق ابن كعب بن عجرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في الصلاة: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم» الحديث.

قال الشافعي: فلما روي أن النبي ﷺ كان يعلمهم التشهد في الصلاة، وروي أنه علمهم كيف يصلون عليه في الصلاة، لم يجز أن نقول: التشهد في الصلاة واجب والصلاة فيه غير واجبة.

وقد تعقب بعض المخالفين هذا الاستدلال من أوجه:

أحدها: ضعف إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى، والكلام فيه مشهور.

الثاني: على تقدير صحته فقوله في الأول: يعني في الصلاة، لم يصرح بالقائل «يعني».

الثالث: قوله في الثاني: «أنه كان يقول في الصلاة» وإن كان ظاهره أن المراد الصلاة المكتوبة، لكنه يحتمل أن يكون المراد بقوله في الصلاة، أي في صفة الصلاة عليه، وهو احتمال قوي، لأن أكثر الطرق عن كعب بن عجرة يدل على أن السؤال وقع عن صفة الصلاة لا عن محلها.

الرابع: ليس في الحديث ما يدل على تعيين ذلك في التشهد، خصوصاً بينه وبين السلام. وقد أطنب قوم من متأخري المالكية وغيرهم في التشنيع على الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة وزعم أنه تفرد بذلك.

وحكى الإجماع على خلافه جماعة، منهم أبو جعفر الطبري والطحاوي وابن المنذر والخطابي.

وحكى القاضي عياض في الشفاء مقالاتهم. وقد عاب عليه غير واحد، وقالوا: كان ينبغي سكوته عنها، لأن مبنى تأليفه «الشفاء» على كمال المبالغة في تعظيمه ﷺ، وأداء حقوقه، والقول بوجوب الصلاة عليه في الصلاة من غرض المبالغة في تعظيمه، وقد استحسن هو القول بطهارة فضلاته، مع أن الأكثر على خلافه، لكنه استجاده لما فيه من الزيادة في تعظيمه، وكيف ينكر القول بوجوب الصلاة عليه وهو من جنس الصلاة ومقتضياتهـا، وإذا شرع السلام فيها على نفس المصلي وعلى عباد الله الصالحين، فكيف لا تجب الصلاة على سيد المرسلين؟

وقد انتصر جماعة كثيرة من العلماء الأعلام للشافعي، كالحافظ عماد الدين بن كثير، والعلامة ابن القيم، وشيخ الإسلام والحفاظ أبي الفضل بن حجر، وتلميذه شيخنا الحافظ والعلامة أبي أمامة بن النقاش وغيرهم ممن يطول عدهم.

واستدلوا لذلك بأدلة نقلية ونظرية، ودفعوا دعوى الشذوذ، فنقلوا القول بالوجوب عن جماعة من الصحابة، منهم ابن مسعود، وأبو مسعود والبدري وجابر بن عبد الله، ونقله أصحاب الشافعي عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، ومن التابعين: الشعبي، فيما رواه البيهقي كما سيأتي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل.

وأخرج الحاكم ـ بسند قوي ـ عن ابن مسعود قال: يتشهد الرجل ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو لنفسه. قال الحافظ ابن حجر: وهذا أقوى شيء يحتج به للشافعي، فإن ابن مسعود ذكر أن النبي ﷺ علمهم التشهد في الصلاة، وأنه قال: ثم ليتخير من

الدعاء ما شاء، فلما ثبت عن ابن مسعود الأمر بالصلاة عليه قبل الدعاء، دل على أنه اطلع على زيادة ذلك بين التشهد والدعاء، واندفعت حجة من تمسك بحديث ابن مسعود في دفع ما ذهب إليه الشافعي وادعى مثل ما ذكره القاضي عياض قال، وهذا تشهد ابن مسعود الذي علمه له النبي ﷺ ليس فيه ذكر الصلاة عليه.

وفي جزء الحسن بن عرفة، وأخرج المعمري[1] في عمل اليوم والليلة عن ابن عمر ـ بسند جيد ـ قال: لا تكون صلاة إلا بقراءة وتشهد وصلاة عليّ. وأخرج البيهقي في الخلافيات ـ بسند قوي ـ عن الشعبي، وهو من كبار التابعين، قال: كنا نُعلم التشهد، فإذا قال: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يحمد ربه ويثني عليه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل حاجته. وفي حديث أبي جعفر، عن ابن مسعود، مرفوعاً: «من صلى صلاة لم يصل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه». قال الدارقطني: والصواب أنه من قول أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبي ﷺ وعلى أهل بيته لرأيت أنها لا تتم، لكن راويه عن أبي جعفر جابر الجعفي وهو ضعيف. كذا في الشفاء.

وقد وافق الشافعي من فقهاء الأمصار أحمد في إحدى الروايتين عنه، وعمل به أخيراً، كما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي[2]، فيما ذكره الحافظ ابن كثير، وأوجب إسحاق بن راهويه الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان، والمشهور عن أحمد أنها تبطل بتركها عمداً أو سهواً، وعليه أكثر أصحابه، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه: صلى الله عليه وسلم، كما علمهم أن يقولوا لما سألوه، كما ذكره ابن كثير، ووافق الخرقي[3] إسحاق في التقييد بالعمد دون السهو.

والخلاف أيضاً عند المالكية كما ذكره ابن الحاجب في سنن الصلاة، ثم قال: على الصحيح، فقال شارحه ابن عبد السلام: يريد أن في وجوبها قولين، وهو ظاهر كلام

---

(١) هو الحسن بن علي بن شبيب المعمري أبو علي. قاض من حفاظ الحديث. توفي ببغداد سنة (٢٩٥ هـ). الاعلام ٢/ ٢٠٠ تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٦٧ رقم الترجمة (٦٨٧) تاريخ بغداد ٧/ ٣٦٩ العبر ٢/ ١٠١.

(٢) هو عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري أبو زرعة الدمشقي حافظ من رجال الحديث توفي في دمشق سنة (٢٨٠ هـ). الاعلام ٣/ ٣٢٠ تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٢٤ رقم الترجمة (٦٥١) شذرات الذهب ٢/ ١٧٧ النجوم الزاهرة ٣/ ٨٧ العبر ٢/ ٦٥ التهذيب ٦/ ٢٣٦.

(٣) هو عمر بن الحسين بن عبد الله الخرقي أبو القاسم فقيه من الحنابلة توفي في دمشق سنة (٣٣٤ هـ). الاعلام ٥/ ٤٤ وفيات الاعيان ١/ ٣٧٩ النجوم الزاهرة ٣/ ١٧٨ تاريخ بغداد ١١/ ٢٣٤ مفتاح السعادة ١/ ٤٣٨.

الإمام ابن المواز[1] وبه صرح عنه ابن القصار[2]، وعبد الوهاب[3]، كما في الشفاء بلفظ: إنه يراها فريضة في الصلاة كقول الشافعي، قال: وحكى أبو يعلى العبدي[4] عن المذهب فيها ثلاثة أقوال في الصلاة: الوجوب، والسنة، والندب. ورأيت مما يعزى للقاضي أبي بكر بن العربي في «سراج المريدين»[5]: قال ابن المواز والشافعي: الصلاة على النبي ﷺ من فرائض الصلاة وهو الصحيح. انتهى.

وقد يلزم القائل الحنفية بوجوب الصلاة عليه كلما ذكر كالطحاوي، ونقله السروجي[6] في شرح الهداية عن أصحاب المحيط والعقد والتحفة من كتبهم أن يقولوا بوجوبها في التشهد لتقدم ذكره ﷺ في آخر التشهد في قوله: وأشهد أن محمداً رسول الله، لكن لهم أن يلتزموا ذلك ولا يجعلونه شرطاً في صحة الصلاة. ولم يخالف الشافعي أحد من أصحابه في ذلك. بل قال بعض أصحابنا بوجوب الصلاة على الآل، كما حكاه البندنيجي[7] والدارمي، ونقله إمام الحرمين والغزالي قولاً عن الشافعي، قال الحافظ ابن كثير: والصحيح أنه وجه، على أن الجمهور على خلافه، والقول بوجوبه ظهور للحديث.

وأما مخالفة الخطابي من أصحاب الشافعي فلا يعتد به لمقتضى الآمر المحمول

---

(١) هو محمد بن إبراهيم بن زياد المواز أبو عبد الله فقيه مالكي توفي سنة (٢٨١ هـ). الاعلام ٥/ ٢٩٤ شذرات الذهب ٢/ ١٧٧ الوافي بالوفيات ١/ ٣٣٥.

(٢) هو علي بن أحمد البغدادي المعروف بابن القصار أبو الحسن فقيه أصولي قاض توفي سنة (٣٩٨ هـ). انظر الديباج ٢/ ١٠٠ وترتيب المدارك ٤/ ٦٠٢ وفيه أن وفاته سنة (٣٧٨ هـ) وشجرة النور الزكية ١/ ١٩٢ ايضاح المكنون ٢/ ١٣٣.

(٣) هو عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي أبو محمد (٣٦٢ ـ ٤٢٢ هـ) قاض فقيه مالكي. ولد في بغداد وتوفي في مصر. الاعلام ٤/ ١٨٤ فوات الوفيات ٢/ ٤١٩ رقم الترجمة (٣١٤) وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٧ شذرات الذهب ٣/ ٢٢٣ تاريخ بغداد ١١/ ٣١ النجوم الزاهرة ٤/ ٢٧٦ مرآة الجنان ٣/ ٤١ ترتيب المدارك ٤/ ٦٩١ الديباج ٢/ ٢٦ شجرة النور الزكية ١/ ١٠٣ حسن المحاضرة ١/ ٣١٤ البداية والنهاية ١٢/ ٣٢.

(٤) هو أحمد بن محمد أبو يعلى العبدي من البصرة إمام المالكية في وقته. الديباج المذهب ١/ ١٧٥ الصلة ١/ ٨٧.

(٥) انظر كشف الظنون ٢/ ٩٨٤.

(٦) هو الإمام أحمد بن إبراهيم السروجي أبو العباس قاضي مصر حنفي المذهب توفي سنة (٧١٠ هـ) انظر كشف الظنون ٢/ ٢٠٣٣.

(٧) هو محمد بن هبة الله بن ثابت أبو نصر البندنيجي (٤٠٧ ـ ٤٩٥ هـ) فقيه شافعي يعرف بفقيه الحرم. وفاته باليمن. الاعلام ٧/ ١٣٠ كشف الظنون ٥٧٥ هدية العارفين ٢/ ٧٨ معجم المؤلفين ١٢/ ٨٩.

على الوجوب إجماعاً، وأولى أحواله الصلاة ولا مانع من احتمال كونه مراداً. وأما قوله: ولا أعلم له فيها قدوة، فيقال عليه: لا ريب أن الشافعي قدوة يقتدى به، والمقام مقام اجتهاد، فلا افتقار له فيه إلى غيره. وأما قوله في «الشفاء»: والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعي وإجماعهم عليه. ففيه نظر، لأنه إن أراد بالعمل الاعتقاد فيحتاج إلى نقل صريح عنهم بأن ذلك ليس بواجب، وأنى يوجد ذلك؟

وأما قوله: وقد شنع الناس عليه - يعني الشافعي - في هذه المسألة جداً، فلا معنى له، وأي شناعة في ذلك؟ ولم يخالف فيه نصاً ولا إجماعاً ولا قياساً ولا مصلحة راجحة. بل القول بذلك من محاسن مذهبه، ولا ريب أن القائل بجواز ترك الصلاة على أفضل خلق الله في الصلاة التي هي رأس العبادة المطلوب فيها الخضوع واستحضار شارعها والثناء عليه أولى بالتشنيع. وأما نقله الإجماع فقد تقدم ما فيه. وأما قوله: إن الشافعي اختار تشهد ابن مسعود، قلم يقل به أحد، والشافعي إنما اختار تشهد ابن عباس كما سيأتي إن شاء الله تعالى في مقصد عباداته.

وقد استدل للوجوب بما أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وصححه، وكذا ابن خزيمة وابن حبان والحاكم من حديث فضالة بن عبيد قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، لم يحمد الله ولم يصل على النبي ﷺ فقال: «عجل هذا»، ثم دعاه إليه فقال: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بالحمد لله والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ﷺ ثم ليدع بما شاء»[1].

قلت: ومما يعد من كرامات إمامنا الشافعي وسره الساري، أن القاضي عياضاً ساق هذا الحديث بسنده من طريق الترمذي من غير أن يطعن في سنده بعد قوله: «فصل في المواطن التي تستحب فيها الصلاة على النبي ﷺ ويرغب» من ذلك: في تشهد الصلاة، وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء. وهذا الحديث - كما ترى - من أعظم الأدلة لنا. فإن قال قائل: ليس لكم فيه دلالة لأنه قال: سمع فيه رجلاً يدعو في صلاته، ولم يقل في تشهده.

فيجاب: بأنه يلزم على هذا أن القاضي عياضاً ساقه في غير محله، لأنه عقد

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٤٧٧) وفي سنن أبي داود برقم (١٤٨١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٨ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٢٣٠ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ١٤٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٣٠٧ وفي نصب الراية للزيلعي ١/ ٤٢٦ و ٢/ ٢٧٢ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ٧٧ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٤١ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٥١٠).

الفصل ـ كما قدمته ـ لبيان مواطن استحباب الصلاة. ثم قال: ومن ذلك في تشهد الصلاة.

وفي «مصابيح» البغوي، من حديث فضالة بن عبيد هذا ما يدل على أنه كان في التشهد، ولفظه: قال دخل رجل فقال اللهم اغفر لي وارحمني، فقال رسول الله ﷺ: «عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله، ثم صل عليّ، ثم ادعه»[1].

وفي قوله: «عجلت» استلواح فوات الكمال عن الحقيقة المجزئة، إذ لو كانت مجزئة لما حسن اللوم والتعليم بصيغة الأمر، فإن قيل إنه في مقام تعليم المستحبات إذ لو كان في الواجبات لأمره بالإعادة، كما أمر المسيء صلاته، فيجاب: بأن في قوله هذا غنية عن الأمر بالإعادة، لأنه حيث علمه ما هو الواجب علم قطعاً أنه لم يأت به أولاً فلم يكن آتياً به فوجبت إعادته، وهم أهل الفهم والعرفان. فإن قال: إن قوله «فقعدت» يحتمل أن يكون عطفاً على مقدر، تقديره: إذا صليت وفرغت فقعدت للدعاء فاحمد الله.

فيجاب: بأن الأصل عدمه، وإنما هو عطف على المذكور، أي: إذا كنت في الصلاة فقعدت للتشهد فاحمد الله، أي أثن عليه بقولك، التحيات لله الخ والله أعلم.

وقال الجرجاني من الحنفية وغيره: لو كانت فرضاً للزم تأخير البيان عن وقت الحاجة، لأنه ﷺ علمهم التشهد وقال: «فليتخير من الدعاء ما شاء، ولم يذكر الصلاة عليه».

وأجيب: باحتمال أن لا تكون فرضت حينئذ. وقال الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي: قد ورد هذا الصحيح بلفظ: ثم ليتخير، و «ثم» للتراخي، فدل على أنه كان هناك شيء بين التشهد والدعاء، انتهى. وقد أطنب الشيخ أبو أمامة بن النقاش في تفسيره في الانتصار للشافعي في هذه المسألة، مما يطول ذكره، فالله يثيبه على قصده الجميل.

وأما صفة الصلاة عليه ﷺ، (فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ إن النبي ﷺ خرج علينا، فقلنا يا رسول الله، قد علمنا

---

(١) الحديث في النسائي ٣/ ٤٤ وفي الترمذي (٣٤٧٦) وفي المعجم الكبير للطبراني ٣٠٨/١٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ١٥٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٩٣٠) وفي الترغيب والترهيب ٢/ ٤٨٧ وفي كنز العمال (٣٤٦١).

كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي. فإن قلت: كيف يطابق قوله: (اللهم صل على محمد) قول: (كما صليت على آل إبراهيم)؟

أجاب القاضي عياض: بأن «آل» مقحم، كما في قوله ﷺ في أبي موسى: «إنه أعطي مزماراً من مزامير آل داود»[1]، ولم يكن له آل مشهور بحسن الصوت. وقد روى هذا الحديث ابن أبي حاتم بلفظ: لما نزلت ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] قال: قلنا يا رسول الله، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبرهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد». وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول: وعلينا معهم.

وعن أبي حميد الساعدي: (أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»)[2] رواه الإمام أحمد.

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشر بن سعد أمرنا الله أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»، رواه مالك ومسلم وغيرهما.

فإن قلت: ما موقع التشبيه في قوله: (كما صليت على إبراهيم)، مع أن المقرر أن المشبه دون المشبه به؟ والواقع هنا عكسه، لأن محمداً ﷺ وحده أفضل من إبراهيم ومن آل إبراهيم، ولا سيما وقد أضيف إليه آل محمد، وقضية كونه أفضل أن تكون الصلاة

---

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن برقم (٥٠٤٨) ومسلم كتاب المسافرين برقم (٢٣٥) والترمذي في المناقب (٥٥) وابن ماجه في الاقامة برقم (١٣٤١). والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٣٦٩ و ٤٥٠ و ٥/ ٣٤٩.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٤٢٤.

المطلوبة له أفضل من كل صلاة حصلت أو تحصل لغيره. فقد أجاب العلماء عنه بأجوبة كثيرة:

منها: أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم أنه أفضل من إبراهيم. وقد أخرج مسلم حديث أنس: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا خير البرية، قال: «ذاك إبراهيم»[1]. وتعقب: بأنه لو كان كذلك لغير صيغة الصلاة عليه بعد أن علم أنه أفضل.

ومنها: أنه قال ذلك تواضعاً، وشرع ذلك لأمته ليكتسبوا بذلك الفضيلة.

ومنها: أن التشبيه إنما هو لأصل الصلاة بأصل الصلاة، لا للقدر بالقدر، فهو كقوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح﴾ [النساء: ١٦٣]، وهو كقول القائل: أحسن إلى ولدك كما أحسنت إلى فلان، ويريد بذلك أصل الإحسان لا قدره، ومنه قوله تعالى: ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ [القصص: ٧٧]، ورجح هذا القول القرطبي في «المفهم»[2].

ومنها: أن قوله: (اللهم صلى على محمد) مقطوع عن التشبيه، فيكون التشبيه متعلقاً بقوله: (وعلى آل محمد) وتعقب: بأن غير الأنبياء لا يمكن أن يساووا الأنبياء، فكيف يطلب لهم صلاة مثل الصلاة التي وقعت لإبراهيم والأنبياء من آله. ويمكن الجواب عنه: بأن المطلوب الثواب الحاصل لهم، لا جميع الصفات التي كانت سبباً للثواب.

وقد نقل العمراني[3] في «البيان»[4] عن الشيخ أبي حامد أنه نقل هذا الجواب عن نص الشافعي. واستبعد ابن القيم صحة ذلك عن الشافعي، لأنه مع فصاحته ومعرفته بلسان العرب لا يقول هذا الكلام المستلزم هذا التركيب الركيك البعيد من كلام العرب،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب (٤١) رقم الحديث (١٥٠) وأبو داود برقم (٤٦٧٢) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/١٧٨ و ١٨٤ وابن أبي شيبة في مصنفه ١١/٥١٨ والبيهقي في دلائل النبوة ٥/٤٩٧ والسيوطي في الدر المنثور ١/١١٦ والقاضي عياض في الشفا ١/ ٢٦٥ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٨٩٦) والقرطبي في تفسيره ١٠/٤٩ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٥٧٢).

(٢) كتاب المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي المتوفي سنة (٦٥٦ هـ). انظر كشف الظنون ١/ ٥٥٧.

(٣) هو يحيى بن سالم (أبي الخير) بن أسعد بن يحيى أبو الحسين العمراني (٤٨٩ ـ ٥٥٨ هـ) فقيه الشافعية في بلاد اليمن. توفي بذي سيفال باليمن. الاعلام ٨/١٤٦ مرآة الجنان ٣/ ٣٠٨ طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٣٢٤ وفيه اختلاف بسيط في اسمه.

(٤) انظر كشف الظنون ١/ ٢٦٤.

كذا قال. وتعقبه الحافظ ابن حجر فقال: ليس التركيب المذكور ركيكاً، بل التقدير: اللهم صل على محمد وصل على آل محمد كما صليت الخ، فلا يمتنع الشبيه بالجملة الثانية.

ومنها: رفع المقدمة المذكورة أولاً، وهي أن المشبه به يكون أرفع من المشبه، وأن ذلك ليس مطرداً، بل قد يكون التشبيه بالمثل، بل بالدون، كما في قوله تعالى: ﴿مثل نوره كمشكاة﴾ [النور: ٣٥]، وأين يقع نور المشكاة من نوره تعالى؟ ولكن لما كان المراد من المشبه به أن يكون شيئاً ظاهراً واضحاً للسامع حسن تشبيه النور بالمشكاة، وكذا هنا: لما كان تعظيم إبراهيم وآل إبراهيم بالصلاة عليهم مشهوراً واضحاً عند جميع الطوائف حسن أن يطلب لمحمد وآل محمد بالصلاة عليهم مثل ما حصل لإبراهيم وآل إبراهيم، ويؤيد ذلك ختم الطلب المذكور بقوله (في العالمين) أي كما أظهرت الصلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، ولهذا لم يقع (في العالمين) إلا في ذكر إبراهيم دون ذكر آل محمد على ما وقع في الحديث الذي وردت فيه، وهو حديث أبي مسعود الأنصاري الذي ذكرته.

وهذا معنى قول الطيبي: وليس التشبيه المذكور من باب إلحاق الناقص بالكامل، لكن من باب إلحاق ما لم يشتهر بما اشتهر. وقال النووي: أحسن الأجوبة ما نسب إلى الشافعي: أن التشبيه لأصل الصلاة أو للمجموع بالمجموع.

وقال ابن القيم ـ بعد أن زيف أكثر الأجوبة إلا تشبيه المجموع بالمجموع ـ: وأحسن منه أن يقال: هو ﷺ من آل إبراهيم. وقد ثبت ذلك عن ابن عباس في تفسير قوله: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم آل عمران على العالمين﴾ [آل عمران: ٣٣] قال: محمد من آل إبراهيم، فكأنه أمرنا أن نصلي على محمد وعلى آل محمد خصوصاً بقدر ما صلينا عليه مع إبراهيم وآل إبراهيم عموماً، فيحصل لآله ما يليق بهم، ويبقى الباقي كله له، وذلك القدر أزيد مما لغيره من آل إبراهيم. وتظهر حينئذ فائدة التشبيه، وأن المطلوب له بهذا اللفظ أفضل من المطلوب بغيره من الألفاظ.

وقال الحليمي: سبب هذا التشبيه أن الملائكة قالت في بيت إبراهيم: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ [هود: ٧٣] وقد علم أن محمداً وآل محمد من أهل بيت إبراهيم، فكأنه قال: قولوا اللهم أجب دعاء الملائكة الذين قالوا ذلك في محمد وآل محمد كما أجبتها عندما قالوها في آل إبراهيم الموجودين حينئذ، ولذلك ختم بما ختم به الآية وهو قوله إنك حميد مجيد.

ومما يعزى للعارف الرباني أبي محمد المرجاني أنه قال: وسر قوله ﷺ (كما صليت على إبراهيم، وكما باركت على إبراهيم) ولم يقل: كما صليت على موسى، لأن موسى عليه الصلاة والسلام كان التجلي له بالجلال، فخر موسى صعقاً، والخليل إبراهيم كان التجلي له بالجمال، لأن المحبة والخلة من آثار التجلي بالجمال؛ فلهذا أمرهم صلوات الله وسلامه عليه أن يصلوا عليه كما صلى على إبراهيم، فيسألوا له التجلي بالجمال، وهذا لا يقتضي التسوية فيما بينه وبين الخليل صلوات الله وسلامه عليهما، لأنه إنما أمرهم أن يسألوا له التجلي بالوصف الذي تجلى به للخليل عليه الصلاة والسلام، فالذي يقتضيه الحديث المشاركة في الوصف الذي هو التجلي بالجمال، ولا يقتضي التسوية في المقامين ولا الرتبتين، فإن الحق سبحانه يتجلى بالجمال لشخصين بحسب مقاميهما، وإن اشتركا في وصف التجلي بالجمال، فيتجلى لكل واحد منهما بحسب مقامه عنده، ورتبته منه ومكانته، فيتجلى للخليل عليه الصلاة والسلام بالجمال بحسب مقامه، ويتجلى لسيدنا محمد ﷺ بالجمال بحسب مقامه، فعلى هذا يفهم الحديث. انتهى. فإن قلت: ما المراد بآل محمد في هذا الحديث؟

فالجواب: إن الراجح أنهم من حرمت عليهم الصدقة، كما نص عليه الشافعي، واختاره الجمهور، ويؤيده قوله ﷺ للحسن بن علي: («إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة)»[1] وقيل: المراد بآل محمد أزواجه وذريته. وقيل: المراد بهم جميع الأمة أمة الإجابة. حكاه أبو الطيب الطبري عن بعض الشافعية، ورجحه النووي في شرح مسلم، وقيده القاضي حسين بالانقياد منهم، وعليه يحمل كلام من أطلق، ويؤيده ما رواه تمام في فوائده، والديلمي عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ: من آل محمد؟ فقال: «كل تقي من أمة محمد»، زاد الديلمي: ثم قرأ: ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ [الأنفال: ٣٤]، وإسنادهما ضعيف، لكن ورد ما يشهد لذلك في الصحيحين كحديث (إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين) انتهى ملخصاً.

وقد استدل العلماء بتعليمه ﷺ لأصحابه هذه الكيفية بعد سؤالهم عنها، بأنها أفضل كيفيات الصلاة عليه، لأنه لا يختار لنفسه إلا الأشرف الأفضل. ويترتب على ذلك: أنه لو حلف أن يصلي على النبي ﷺ أفضل الصلاة، فطريق البر أن يأتي بذلك، هكذا صوبه النووي في «الروضة»، بعد ذكر حكاية الرافعي عن إبراهيم المروزي أنه قال: يبر إذا قال: كلما ذكره الذاكرون، وكلما سها عن ذكره الغافلون. قال النووي: وكأنه أخذ ذلك

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٠٠ و٣/ ٤٩٠ و٦/ ٣٩٠ وفي المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٧٦ و١١/ ٦٩ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٢١٥.

من كون الشافعي ذكر هذه الكيفية ـ يعني في خطبة «الرسالة» له ـ ولكن بلفظ «غفل» بدل «سها».

وقال الأذرعي: «إبراهيم» المذكور كثير النقل من تعليقة القاضي حسين، ومع ذلك فالقاضي قال في طريق البر؛ أن يقول: اللهم صل على محمد كما هو أهله ويستحقه، وكذا نقله البغوي في تعليقه. ولو جمع بينها فقال ما في الحديث، وأضاف إليه أثر الشافعي، وما قاله القاضي لكان أشمل. ولو قيل: إنه يعمد إلى جميع ما اشتملت عليه الروايات الثابتة فيستعمل منها ذكراً يحصل به البر لكان حسناً.

وعن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا تشهد أحدكم في الصلاة فليقل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمداً وآل محمد، كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[1]، رواه الحاكم. وقد يستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ، كما هو قول الجمهور، ويعضده حديث الأعرابي الذي قال: اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً، فقال له رسول الله ﷺ «لقد تحجرت واسعاً»[2] وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه قال: وأجازه أبو محمد بن أبي زيد. انتهى. وسيأتي ما في ذلك من البحث إن شاء الله تعالى في المقصد التاسع عند الكلام على التشهد.

وعن سلامة الكندي أن علياً كان يعلم الناس الدعاء ـ وفي لفظ: يعلم الناس الصلاة على رسول الله ﷺ ـ فيقول: اللهم داحي المدحوات، وبارىء المسموكات، اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة تحننك، على محمد عبدك ورسولك، الفاتح لما أغلق، الخاتم لما سبق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ لجيشات الأباطيل، كما حمّل فاضطلع بأمرك بطاعتك، مستوفزاً في مرضاتك، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك، حتى أورى قبساً لقابس آلاء الله، تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب، بعد خوضات الفتن والإثم، وأبهج موضحات الأعلام، ونائرات الأحكام، ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة ورسولك بالحق رحمة، اللهم افسح له في عدنك، واجزه مضاعفات الخير

---

(١) قال المصنف في المقصد التاسع: «اغتر قوم بتصحيحه فوهموا لأنه من رواية يحيى بن السباق وهو مجهول عن رجل مبهم».

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٨٠) والنسائي ٣/ ٢٤ والترمذي برقم (١٤٧) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/ ٢٣٩ و ٢٨٣ والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٢٨ والحميدي في مسنده (٩٣٨) وعبد الرزاق في مصنفه (١٦٥٨) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٩٩ ـ ٤٩٣٦).

من فضلك، مهنئات له غير مكدرات، من فوز ثوابك المحلول، وجزيل عطائك المعلول، اللهم أعلِ على بناء الناس بناءه، وأكرم مثواه لديك ونزله، وأتمم له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة، ومرضي المقالة، ذا منطق عدل، وخطة فصل، وبرهان عظيم. حديث موقوف، رواه الطبراني لكن قال الحافظ ابن كثير: في سنده نظر، قال: وقال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي[1]: سلامة الكندي هذا ليس بمعروف، ولم يدرك علياً، كذا قال.

وقوله: «داحي المدحوات»: أي باسط الأرضين، وكل شيء بسطته ووسعته فقد دحوته. «وبارىء المسموكات»: أي خالق السماوات، وكل شيء رفعته وأعليته فقد سمكته. «والدافع لجيشات الأباطيل»: أي المهلك لما نجم وارتفع منها وفار. وأصل «الدمغ» من الدماغ، دمغه: أصاب دماغه، و «جيشات» من جاش إذا ارتفع. «واضطلع»: افتعل من الضلاعة، وهي القوة. «وأورى قبساً لقابس»: أي أظهر نوراً من الحق لطالبه. «وآلاء الله»: نعم الله. «تصل بأهله»: أي أهل ذلك القبس وهو الإسلام والحق أسبابه، وأهله المؤمنون. «وبه هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم»: أي هديت بعد الكفر والفتن لموضحات الأعلام. «ونائرات» و «المنيرات»: الواضحات، يقال: نار الشيء، وأنار إذا وضح. «وشهيدك يوم الدين»: يريد الشاهد على أمته يوم القيامة. «وبعيثك نعمة»: أي مبعوثك، فعيل بمعنى مفعول. «وافسح له»: أي وسع له. «وفي عدنك»: أي في جنة عدن. «والمعلول»: من العلل وهو الشرب بعد الشرب، يريد أن إعطاءه مضاعف، كأنه يعل به عباده، أي: يعطيهم عطاء بعد عطاء. «وأعل على بناء الناس» وفي رواية: البانين، أي ارفع فوق أعمال العاملين عمله. «وأكرم مثواه»: أي منزله. «ونزله»: رزقه. «والخطة»: بضم الخاء المعجمة، الأمر والقصة. «والفصل»: القطع.

وعن عبد الله بن مسعود قال: إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه، فقالوا له علمنا، قال: قولوا اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين محمد عبدك

---

(١) هو يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف أبو الحجاج جمال الدين بن الزكي أبي محمد القضاعي المزي. (٦٥٤ ـ ٧٤٢ هـ) محدث حافظ. ولد بظاهر حلب وتوفي في دمشق. الاعلام ٨/٢٣٦ وطبقات الشافعية للإسنوي (١٦٨) الدرر الكامنة ٤/٤٥٧ رقم الترجمة (١٢٦١) النجوم الزاهرة ١٠/٧٦ تذكرة الحفاظ ٤/١٤٩٨ رقم الترجمة (١١٧٦) شذرات الذهب ٦/١٣٦ مفتاح السعادة ٢/٢٢٤.

ورسولك، إمام الخير، ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاماً محموداً، يغبطه فيه الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. حديث موقوف، رواه ابن ماجة.

وعن رويفع بن ثابت الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: من صلى على محمد، وقال: اللهم أنزله المقعد الصدق المقرب عندك يوم القيامة، وجبت له شفاعتي. رواه الطبراني. قال ابن كثير: وإسناده حسن ولم يخرجوه. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صل على محمد النبي الأمي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد[1]» رواه أبو داود. وعن طاووس: سمعت ابن عباس يقول: اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وأعطه سؤله في الآخرة والأولى، كما آتيت إبراهيم وموسى. رواه إسماعيل القاضي. قال ابن كثير: وإسناده جيد قوي صحيح. وأما المواطن التي تشرع فيها الصلاة عليه ﷺ:

فمنها: التشهد الأخير، وهي واجبة فيه، كما قدمنا، وفي وجوبها في التشهد الأول قولان، أظهرهما المنع، لبنائه على التخفيف، بل هي سنة، وفي استحباب الصلاة على الآل في التشهد الأول القولان، وفي وجوبها في الأخير رأيان: أصحهما المنع، بل هي سنة تابعة، وأقلها اللهم صل على محمد، وكذا: صلى الله على محمد، وأقلها على الآل: وآله. وقال في «الكفاية» بإعادة «على».

ومنها: خطبة الجمعة، وكذا غيرها من الخطب، فلا تصح خطبتا الجمعة إلا بها، لأنها عبادة، وذكر الله فيها شرط، فوجب ذكر الرسول فيها كالأذان والصلاة، وهذا مذهب الشافعي وأحمد.

ومنها: عقب إجابة المؤذن، لما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاصي، أن رسول الله ﷺ قال: «(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة)»[2] وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٩٨٢) والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ١٥١ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٩٠ والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢١٦ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٩٣٢) والمتقي الهندي في كنز العمال (٢١٧٥ ـ ٣٤٨١).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة برقم (١١) وأبو داود برقم (٥٢٣) والترمذي برقم (٣٦١٤) والنسائي=

حديث كعب بن علقمة، وذكره بلفظ «الرجاء» وإن كان متحقق الوقوع أدباً وإرشاداً منه وتذكيراً بالخوف، وتفويضاً إلى الله بحسب مشيئته، وليكون الطالب للشيء بين الرجاء والخوف. وقوله: «حلت عليه الشفاعة» أي وجبت، وقيل غشيته ونزلت به.

تنبيه: قال شيخنا في «المقاصد الحسنة»: حديث «الدرجة الرفيعة» المدرج فيما يقال بعد الأذان، لم أره في شيء من الروايات، وأصل الحديث عند أحمد والبخاري والأربعة عن جابر مرفوعاً: (من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة)[1]: قال وكأن من زادها اغتر بما وقع في بعض نسخ «الشفاء» من حديث جابر المشار إليه، لكن مع زيادتها في هذه النسخة المعتمدة علم عليها كاتبها بما يشير إلى الشك فيها، ولم يرها في سائر نسخ الشفاء، بل في الشفاء عقد لها فصلاً في مكان آخر ولم يذكر فيه حديثاً صريحاً، وهو دليل لغلطها. انتهى والله أعلم.

ومنها: أول الدعاء وأوسطه وآخره، لما روى أحمد من حديث جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «(لا تجعلوني كقدح الراكب، فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه فإذا احتاج إلى شراب شرب، أو الوضوء توضأ، وإلا أهراقه، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره)»[2].

ومنها: وهو من أكدها، عقب دعاء القنوت، لما رواه أحمد وأهل السنن، وابن جرير وابن حبان والحاكم، من حديث أبي الجوزاء، عن الحسن بن علي قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: (اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي

---

= ٢/ ٢٥ وصحيح خزيمة (٤١٨) والبغوي في شرح السنة ٢/ ٢٨٤ والعراقي في المغني ١/ ٣١٢ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٦٥٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٦١ و ٥/ ٤٩ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٠٩٩٨ ـ ٢١٠٠٦).

(١) أخرجه النسائي ٢/ ٢٧ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٣٥٤ والبخاري في كتاب الآذان باب (٨) رقم الحديث (٦١٤ ـ ٤٧١٩). والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٤١٠ والطبراني في المعجم الصغير ١/ ٢٤٠ والمنذري في الترغيب والترهيب ١/ ١٨٥ والبغوي في شرح السنة ٢/ ٢٨٤ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٦٥٩) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٦ و ٥/ ٥٠ والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٩٨ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٠٩٨٦).

(٢) الحديث في مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ١٥٥ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٤٢ وفي مصنف عبد الرزاق (٣١١٧). وفي تذكرة الموضوعات للفتني (٨٨) وفي كنز العمال (٢٢٥٢ ـ ٣١١٧).

ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، [ولا يعز من عاديت][1] تباركت ربنا وتعاليت)[2] وزاد النسائي في سننه: وصلى الله على النبي، وسيأتي في المقصد التاسع البحث في ذلك إن شاء الله تعالى.

ومنها: أثناء تكبيرات العيدين، لما روى إسماعيل القاضي أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة، خرج عليهم الوليد بن عقبة فقال: إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه؟ فقال عبد الله: تبتدىء فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ، ثم تدعو وتكبر، وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع، ثم تقوم فتكبر وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة وأبو موسى صدق أبو عبد الرحمن. قال ابن كثير: إسناده صحيح.

ومنها: عند دخول المسجد والخروج منه، لما رواه أحمد عن فاطمة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج صلى على محمد ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك»[3].

ومنها: في صلاة الجنازة، فإن السنة أن يقرأ الفاتحة بعد إحدى التكبيرات، وبعد الأولى أولى، وأن يصلي على النبي ﷺ بعد الثانية، ويدعو للميت بعد الثالثة، وبعد الرابعة يقول: «اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده»[4]. وفي ذلك حديث رواه الشافعي والنسائي.

ومنها: عند التلبية، لما رواه الشافعي والدارقطني عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال.

ومنها: عند الصفا والمروة، لما روى إسماعيل القاضي عن عمر ابن الخطاب أنه قال: إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً، وصلوا عند المقام ركعتين، ثم ائتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت فكبروا سبع تكبيرات، تكبيراً بعد حمد لله وثناء عليه، وصلاة

---

(١) قال الزرقاني في شرح المواهب: زيادة للطبراني في المعجم الكبير.

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/١٩٩ و ٢٠٠ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٣٠٠.

(٣) الحديث في ابن ماجه برقم (٧٧١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٢٨٢ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٥/ ٩١ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٠٦ وفي كنز العمال (١٧٩٦٢ ـ ٢٣١٠٩).

(٤) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٧١ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ١٠٣ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٦٠.

على النبي ﷺ ومسألة لنفسك، وعلى المروة مثل ذلك. قال ابن كثير: إسناده حسن جيد قوي.

ومنها: عند الاجتماع والتفرق، لما روى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيه إلا كان عليه ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم»[1].

وروى إسماعيل القاضي عن أبي سعيد قال: ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب[2].

ومنها: عند الصباح والمساء، لما روى الطبراني من حديث أبي الدرداء مرفوعاً: من صلى علي حين يصبح عشراً، وحين يمسي عشراً، أدركته شفاعتي يوم القيامة»[3].

ومنها: عند الوضوء، لحديث ابن ماجة عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وضوء لمن لم يصل على النبي ﷺ».

ومنها: عند طنين الأذن، لحديث أبي رافع عند ابن السني مرفوعاً: «إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني، وليصل علي وليقل ذكر الله من ذكرني بخير»[4].

ومنها: عند نسيان الشيء، لحديث أبي موسى المديني، بسند فيه ضعف، عن أنس يرفعه: «إذا نسيتم شيئاً فصلوا علي تذكروه إن شاء الله تعالى».

ومنها: بعد العطاس، كما ذهب إليه أبو موسى المديني وجماعة، ونازعهم في ذلك آخرون، وقالوا: هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى، كالأكل والشرب والوقاع ونحو ذلك.

ومنها: عند زيارة قبره الشريف، لحديث أبي داود عن أبي هريرة: أن رسول الله

---

(١) الحديث في موارد الظمآن للهيثمي (٢٣٢١) وفي تفسير ابن كثير ٦/ ٤٦٠ وفي إتحاف السادة المتقين ٩/٥ وفي شرح السنة للبغوي ٥/ ٢٧ و ٢٨ وفي الترمذي (٣٣٨٠) وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢١٨ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٤٠٩ وفي كنز العمال (١٨١١ ـ ٢٥٤٦٢).

(٢) روى النسائي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «لا يجلس قوم مجلساً ثم لا يصلون فيه على رسول الله إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب».

(٣) الحديث في الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ٤٥٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ١٢٠ وفي المغني للعراقي ١/ ٣٣٨ وفي إتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٨٩ و ٥/ ٥١ و١٣٢. وفي كنز العمال (٢١٦٤).

(٤) قال السخاوي: سنده ضعيف وقال العقيلي لا أصل له، وقال ابن الجوزي موضوع. وقال الحافظ الهيثمي: إسناد الطبراني في الكبير حسن.

ﷺ قال: «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»[1]. وروى ابن عساكر: «من صلى علي عند قبري سمعته» وورد الأمر بالإكثار منها يوم الجمعة وليلتها، فعن أوس بن أوس الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي»، قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ـ يعني: وقد بليت ـ قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[2]، رواه أحمد وأبو داود والنسائي. وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني.

قال الحافظ ابن كثير: وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة، ولكن في إسناده ضعف. فإن قلت: ما الحكمة في خصوصية الإكثار من الصلاة عليه ﷺ يوم الجمعة وليلتها؟

أجاب ابن القيم بأن رسول الله ﷺ سيد الأنام، ويوم الجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه فيه مزية ليست لغيره، مع حكمة أخرى، وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنما نالته على يده ﷺ، فجمع الله لأمته بين خيري الدنيا والآخرة، وأعظم كرامة تحصل لهم فإنها تحصل لهم يوم الجمعة، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيدهم في الدنيا، ويوم فيه يسعفهم الله تعالى بطلباتهم وحوائجهم، ولا يرد سائلهم، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده، فمن شكره وحمده وأداء القليل من حقه ﷺ أن يكثر من الصلاة عليه في هذا اليوم وليلته.

وأما فضيلة الصلاة عليه ﷺ فقد ورد التصريح بها في أحاديث قوية، لم يخرج البخاري منها شيئاً، أمثلها ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ «من صلى على واحدة صلى الله عليه بها عشراً»[3].

---

(١) الحديث في سنن أبي داود في كتاب المناسك برقم (٢٠٤١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٥٢٧ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ٢٤٥ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ١٦٢ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٤/ ٤١٩ وفي كنز العمال للمتقي الهندي (٢٢٠٠).

(٢) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٠٤٧) وفي النسائي ٣/ ٩١ وفي سنن ابن ماجه (١٠٨٥ ـ ١٦٣٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣١١ و ٤/ ٨ وفي سنن الدارمي كتاب الصلاة (٢٠٦) وفي مستدرك الحاكم ١/ ٢٧٨ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٣٣٨ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٥٥٠) وفي كنز العمال (٢٢٠٢ ـ ٢٢٠٣٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة (٧٠) والنسائي ٣/ ٥٠ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٣٧٢ وأبو داود (١٥٣٠) وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ ٥١٧ والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٦٢=

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ لحاجة، فلم يجد أحداً يتبعه، فأتاه عمر بمطهرة من خلفه، فوجد النبي ﷺ ساجداً، فتنحى عنه حتى رفع النبي ﷺ رأسه، فقال: «أحسنت يا عمر حين وجدتني ساجداً فتنحيت عني، إن جبريل أتاني فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، ورفعه عشر درجات». رواه الطبراني وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح قال ابن كثير: وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج على الصحيحين».

وعن أبي طلحة أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك، فقال: «إنه أتاني الملك فقال: يا محمد، أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول: إنه لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً، قال: بلى»[1]، رواه الدرامي وأحمد وابن حبان والحاكم والنسائي، واللفظ له.

وعن عامر بن ربيعة، أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلي علي، فليقلَّ عبد من ذلك أو ليكثر». رواه أحمد وابن ماجه من حديث شعبة.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي: من صلى على رسول الله ﷺ صلاة صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة، فليقل عبد من ذلك أو ليكثر، رواه أحمد. والتخيير بعد الإعلام بما فيه الخيرة في المختبر فيه على جهة التحذير من التفريط في تحصيله، وهو قريب من معنى التهديد. وروى الترمذي، أن أبي ابن كعب قال: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت»، قلت: الربع؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير لك»، قلت: فالنصف؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير لك»، قلت: فالثلثين؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير لك»، قلت: أجعل لك صلاتي كلها، قال: «إذن تكفى همك، ويغفر ذنبك». ثم قال: هذا حديث حسن.

فهذا ما يتعلق بالصلاة، وأما السلام فقال النووي: يكره إفراد الصلاة عن السلام، واستدل بورود الأمر بهما معاً في الآية، يعني قوله تعالى ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وتعقبوه: بأن النبي ﷺ علم أصحابه التسليم قبل تعليمهم الصلاة، كما هو مصرح به في قولهم: يا

---

= والسيوطي في الدر المنثور ٥/٢١٨ وكنز العمال (٢١٦٢، ٢٢٠٦).

(١) الحديث في النسائي ٣/ ٤٤ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٤٢٠ وفي تفسير ابن كثير ٦/ ٤٥٧.

رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك، وقوله ﷺ بعد أن علمهم الصلاة والسلام: «كما قد علمتم»، فأفراد التسليم مدة قبل الصلاة عليه. لكن قال في فتح الباري: إنه يكره أن يفرد الصلاة ولا يسلم أصلاً، أما لو صلى في وقت، وسلم في وقت آخر فإنه يكون ممتثلاً.

وقال أبو محمد الجويني من أصحابنا: السلام بمعنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: علي عليه السلام، سواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيخاطب به فيقال: سلام عليك، أو عليكم، أو السلام عليك أو عليكم، وهذا مجمع عليه انتهى.

وقد جرت عادة بعض النساخ أن يفردوا علياً وفاطمة رضي الله عنهما بالسلام، فيقولوا: عليه أو عليها السلام من دون سائر الصحابة في ذلك، وهذا وإن كان معناه صحيحاً لكن ينبغي أن يساوي بين الصحابة رضي الله عنهم في ذلك، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، والشيخان وعثمان أولى بذلك منهما، أشار إليه ابن كثير.

وأما الصلاة على غير النبي ﷺ فاختلف فيها. وأخرج البيهقي بسند واه من حديث بريدة رفعه: «لا تتركن في التشهد الصلاة علي وعلى أنبياء الله». وأخرج إسماعيل القاضي بسند ضعيف من حديث أبي هريرة «صلوا على أنبياء الله». وأخرج الطبراني من حديث ابن عباس رفعه: «إذا صليتم علي فصلوا على أنبياء الله، فإن الله بعثهم كما بعثني».

وثبت عن ابن عباس اختصاص ذلك بالنبي ﷺ. أخرجه ابن أبي شيبة من طريق عثمان عن عكرمة عنه قال: «ما أعلم الصلاة تنبغي على أحد من أحد إلا على النبي ﷺ». وسنده صحيح. وحكي القول به عن مالك، وجاء نحوه عن عمر بن عبد العزيز. وقال سفيان: يكره أن يصلي إلا على نبي. وعن بعض شيوخ مذهب مالك: لا يجوز أن يصلي إلا على محمد. قالوا: وهذا غير معروف عن مالك، وإنما قال: أكره الصلاة على غير الأنبياء وما ينبغي لنا أن نتعدى ما أمرنا به. وخالفه يحيى بن يحيى[1] فقال: لا بأس به، واحتج بأن الصلاة دعاء بالرحمة، فلا تمنع إلا بنص أو إجماع.

وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كان على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث:

---

(١) هو يحيى بن يحيى بن أبي عيسى كثير بن وسلاس الليثي أبو محمد (١٥٢ ـ ٢٣٤ هـ). فقيه عالم. توفي بقرطبة. الاعلام ٨/ ١٧٦ نفح الطيب ١/ ٣٣٢ وفيات الأعيان ٢/ ٢١٦ الديباج (٣٥٠).

اللهم صل على محمد وآل محمد ونحوه، فهو جائز بالإجماع. وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم.

فقال قائلون بجواز ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ [الأحزاب: ٤٣] وبقوله: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ [البقرة: ١٥٧ ]، وبقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم﴾ [التوبة: ١٠٣]، وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صل عليهم»، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى». أخرجه الشيخان.

وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال أبو بكر صلى الله عليه وسلم. أو: قال علي صلى الله عليه وسلم، وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: قال محمد عز وجل، وإن كان عزيزاً جليلاً، لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل. وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم، ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى. وهذا مسلك حسن.

وقال آخرون: لا يجوز ذلك، لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم، فلا يقتدى بهم في ذلك. ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو كراهة التنزيه، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاها النووي في كتاب «الأذكار»، ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثرون، أنه مكروه كراهة تنزيه، لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم.

## الفصل الثالث
## في ذكر محبة أصحابه ﷺ وآله وقرابته وأهل بيته وذريته

قال الطبري: اعلم أن الله تعالى لما اصطفى نبيه ﷺ على جميع من سواه، وخصه بما عمه به من فضله الباهر وحباه، أعلى ببركته من انتمى إليه نسباً أو نسبة، ورفع من انطوى عليه نصرة وصحبة، وألزم مودة قرباه كافة بريته، وفرض محبة جملة أهل بيته المعظم وذريته، فقال تعالى: ﴿أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ [الشورى: ٢٣]. ويروي أنها لما نزلت قالوا: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما»[1]. وقال تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

(١) قال الولي العراقي: في إسناده حسين الأشقر شيعي مختلف فيه.

ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وقد اختلف في المراد بأهل البيت في هٰذه الآية:

فروى، ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت في نساء النبي ﷺ وروى ابن جرير عن عكرمة، أنه كان ينادي في السوق ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ [الأحزاب: ٣٣] قال: نزلت في نساء النبي ﷺ.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا يعني: ما في الآية نص في دخول أزواجه ﷺ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح. وقيل: المراد النبي ﷺ.

قال عكرمة: من شاء باهلته[1] أنها نزلت في نساء النبي ﷺ. فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن ففي هذا نظر فإنه قد ورد في ذلك أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك. فروى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ جاء ومعه علي وحسن وحسين آخذ كل واحد منهما بيده، حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه ـ أو قال: كساءه ـ ثم تلا هذه الآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الإحزاب: ٣٣] وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق». زاد في رواية ابن جرير، فقلت: وأنا يا رسول الله من أهلك، قال: وأنت من أهلي. قال واثلة: وإنها أرجى ما أرتجي.

وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان في بيتها، إذ جاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فدخلت عليه بها، فقال: «ادعي زوجك وابنيك» قالت: فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وتحته كساء، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فينزل الله عز وجل هذه الآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] قالت: فأخذ فضل الكساء فغشاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وحامتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، قالت: فأدخلت رأسي من البيت فقلت وأنا معكم يا رسول الله فقال: «إنك إلى خير، إنك إلى خير»[2] رواه أحمد في إسناده من لم يسم وبقية إسناده ثقات. وقوله: «حامتي» بالتشديد، أي خاصتي.

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآية في خمسة: فيَّ وفي علي

---

(١) باهلته: أي لاعنته. بأن يجعل اللعنة على الكاذب.

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٢٩٢ وفي الدر المنثور للسيوطي ٥/ ١٩٨.

وحسن وحسين وفاطمة ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] رواه ابن جرير، ورواه أحمد في المناقب، والطبراني.

وعن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي عز وجل فأجيبه، وإني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله عز وجل، فيه الهدى والنور، فتمسكوا بكتاب الله عز وجل، وخذوا به، وحث فيه ورغب فيه ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله عز وجل في أهل بيتي»، ثلاث مرات. فقيل لزيد: من أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: بلى، إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم[1]، خرجه مسلم. و«الثقل» محركة كما في القاموس كل شيء نفيس مصون، قال: ومنه حديث (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي)[2]، وهي بكسر المهملة وسكون المثناة الفوقية. والأخذ بهذا الحديث أحرى، وليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هن مع أهله، ولا يشك من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في الآية الكريمة، فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال بعد هذا كله ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ [الأحزاب: ٣٤]. وهذا اختيار ابن عطية[3] بعد أن نقل أن الجمهور على أنهم: علي وفاطمة والحسن والحسين. قال: وحجة الجمهور قوله تعالى: ﴿عنكم، ويطهركم﴾ [الأحزاب: ٣٣] بـ «الميم» ولو كان للنساء خاصة لقال: عنكن.

وأجيب بأن الخطاب بلفظ التذكير وقع على سبيل التغليب، فيكون المراد به كالمراد بـ «آل» في حديث كيفية الصلاة عليه السابق ذكره، على قول من فسره به، كما قدمته مع غيره قريباً في الفصل السابق، والله أعلم. ولله در القائل:

يا آل بيت رسول الله حبكم ... فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفضل أنكم ... من لم يصل عليكم لا صلاة له

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (٣٦). والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/ ٣٦٧ والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ١٤٨ و ٧/ ٣٠ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٦١٣١). والسيوطي في جمع الجوامع (٤٣٤١).

(٢) انظر القاموس المحيط ٣/ ٣٥٣ مادة (ثقل).

(٣) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي (٤٨١ ـ ٥٤٢ هـ) أبو محمد. فقيه مفسر عارف بالأحكام والحديث. توفي «بلورقة» بالأندلس من بلاد تدمير. الاعلام ٣/ ٢٨٢ نفح الطيب ١/ ٥٩٣ قضاة الأندلس ١٠٩ بغية الملتمس (٣٧٦) بغية الوعاة ٢٩٥.

وأخرج أحمد عن أبي سعيد معنى حديث زيد بن أرقم السابق مرفوعاً بلفظ: (إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا بماذا تخلفوني فيهما)[1] وعترة الرجل ـ كما قاله الجوهري ـ : أهله ونسله، ورهطه الأدنون، أي الأقارب. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: (يا أيها الناس ارقبوا محمداً في أهل بيته) رواه البخاري. والمراقبة للشيء: المحافظة عليه، يقول: احفظوهم فلا تؤذوهم.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ كما في البخاري أيضاً ـ (لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي) وهذا قاله على سبيل الاعتذار لفاطمة من منعه إياها ما طلبته منه من تركة النبي ﷺ، وقد جرى منه على موجب الإيمان، لأنه ﷺ شرط الأحبية فيه على النفس والمال والولد، كما ذكرته في الفصل الأول من هذا المقصد. ثم إنه ﷺ أثبت لأقاربه ما أثبت لنفسه من ذلك فقال: «من أحبهم فبحبي أحبهم» وحثنا على ذلك شفقة منه علينا صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، ولقد أحسن القائل:

| | |
|---|---|
| رأيت ولائي آل طه فريضة | على رغم أهل البعد يورثني القربى |
| فما طلب المبعوث أجرًا على الهدى | بتبليغه إلا المودة في القربى |

وفي الترمذي ـ وقال: حديث حسن غريب ـ: «أحبوا الله لما يغزوكم به، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي»[2]. وفي المناقب لأحمد: من أبغض أهل البيت فهو منافق. وروى ابن سعد: من صنع إلى أحد من أهل بيتي معروفاً، فعجز عن مكافأته في الدنيا، فأنا المكافى له في يوم القيامة..

والمراد بالقرابة من ينتسب إلى جده الأقرب، وهو عبد المطلب، ممن صحب النبي ﷺ، أو رآه من ذكر وأنثى، وهم:

● علي وأولاده: الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم من فاطمة رضي الله عنها.

● وجعفر بن أبي طالب وأولاده: عبد الله، وعون، ومحمد، ويقال إنه كان لجعفر ابن أبي طالب ابن اسمه أحمد.

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٧ وفي طبقات ابن سعد ٢/ ١٥٠ وفي كنز العمال (٩٤٤).

(٢) الحديث في الترمذي (٣٨٧٩) وفي المستدرك للحاكم ٣/ ١٤٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٣٩ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/ ٢١١.

● وعقيل بن أبي طالب، وولده مسلم بن عقيل.

● وحمزة بن عبد المطلب، وأولاده: يعلى، وعمارة، وأمامة.

● والعباس بن عبد المطلب، وأولاده الذكور العشرة، وهم: الفضل، وعبد الله، وقثم، وعبيد الله، والحارث، ومعبد، وعبد الرحمن، وكثير، وعون، وتمام، وفيه يقول العباس رضي الله عنه:

تمـــوا بتمـــام فصـــاروا عشـــرة يـــا رب فـــاجعلهـــم كـــرامًـــا بـــررة

ويقال: إن لكل منهم رؤية، وكان له من الإناث: أم حبيبة، وآمنة، وصفية، وأكثرهم من لبابة أم الفضل.

● ومعتب بن أبي لهب، والعباس ابن أبي لهب[1]، وكان زوج آمنة بنت العباس.

● وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب، وأخته ضباعة، وكانت زوج المقداد بن الأسود.

● وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابنه جعفر.

● ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وابناه: المغيرة والحارث، ولعبد الله بن الحارث هذا رؤية. وكان يلقب «ببة» بموحدتين، الثانية ثقيلة.

● وأميمة وأروى وعاتكة وصفية بنات عبد المطلب، أسلمت صفية وصحبت، وفي الباقيات خلاف، والله أعلم.

وفي البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»[2] وفي لفظ أخر (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى) أي نازلاً مني منزلة هارون من موسى. والباء زائدة.

وقال الطيبي: معنى الحديث: أنت متصل بي نازل مني منزلة هارون من موسى. وفيه تشبيه مبهم بينه بقوله: (إلا أنه لا نبي بعدي) فعرف أن الاتصال بينهما ليس من جهة النبوة، بل من جهة ما دونها وهو الخلافة، ولما كان هارون المشبه به، إنما كان خليفة في حياة موسى، دل ذلك على تخصيص خلافة علي النبي ﷺ بحياته والله أعلم. وأما ما

---

(١) صوابه: العباس بن عتبة بن أبي لهب الهاشمي. كذا في الاصابة ٤/ ٣٠ رقم الترجمة (٤٤٩٩).

(٢) الحديث في مسلم (٣٠) وفي الترمذي (٣٧٣٠) وفي ابن ماجه (١٢١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٧٩ وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٤/ ٣٤٥. وفي اتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٢٧ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٠٩.

استدل به من هذا الحديث على استحقاق علي للخلافة دون غيره من الصحابة، فإن هارون كان خليفة موسى، فأجيب: بأن هارون لم يكن خليفة موسى إلا في حياته لا بعد موته، لأنه مات قبل موسى باتفاق. أشار إلى ذلك الخطابي.

وأما حديث الترمذي والنسائي (من كنت مولاه فعلي مولاه)[1] فقال الشافعي: يعني بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ [محمد: ١١] وقول عمر: أصبحت مولى كل مؤمن، أي ولي كل مؤمن. وطرق هذا الحديث كثيرة جداً، استوعبها ابن عقدة[2] في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان.

وروي أنه ﷺ قال «من آذى علياً فقد آذاني»[3] خرجه أحمد. وأخرج المخلص الذهبي: «من أحب علياً فقد أحبني». وقد ذكر النقاش: أن قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ [مريم: ٩٦] نزلت في علي. وقال محمد بن الحنفية: لا تجد مؤمناً إلا وهو يحب علياً وأهل بيته. وقال أبو حيان في «البحر»: ومن الغريب ما أنشدنا الإمام اللغوي رضي الدين أبو عبد الله بن يوسف الأنصاري الشاطبي لزبينا ابن إسحاق النصراني الرسعني:

عدي وتيم لا أحاول ذكرهم ... بسوء ولكني محب لهاشم
وما يعتريني في علي ورهطه ... إذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبهم ... وأهل النهى من أعرب وأعاجم
فقلت لهم أني لأحسب حبهم ... سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

وقالت عائشة رضي الله عنها: كانت فاطمة أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وزوجها أحب الرجال إليه. رواه الترمذي. وفي البخاري: (إن فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني)[4] و«البضعة» بفتح الباء الموحدة، وحكي ضمها وكسرها أيضاً،

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٧١٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٨٤ و ١٥٢ وفي المستدرك للحاكم ٣/ ١١٠ وفي سنن ابن ماجه (١٢١) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ١٧ وفي حلية الأولياء ٤/ ٢٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٣٧٩ وفي كنز العمال (٣٢٩٠٤ ـ ٣٦٥١٥).

(٢) هو أحمد بن محمد بن سعيد ابن عقدة الكوفي أبو العباس: (٢٥٠ ـ ٣٣٢ هـ). حافظ. زيدي مولده ووفاته بالكوفة. الاعلام ١/ ٢٠٧ تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣٩ رقم الترجمة (٨٢٠) تاريخ بغداد ٥/ ١٤ العبر ٢/ ٢٣٠.

(٣) الحديث في المستدرك للحاكم ٣/ ١٢٢ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٧٥ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٢٠٢) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٩٥ وفي كنز العمال (٣٢٩٠١ ـ ٣٦٤٤٥).

(٤) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٢٦ وفي كنز العمال (٣٤٢١٢ ـ ٣٤٢٤٢).

ويسكون المعجمة، أي قطعة لحم. واستدل به السهيلي على أن من سبها فإنه يكفر.

وفي الترمذي من حديث أسامة بن زيد ـ وقال حسن غريب ـ إنه ﷺ قال في حسن وحسين «اللهم إني أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما»[1]. وخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في الحسن خاصة، زاد أبو حاتم فما كان أحد أحب إلي من الحسن بعد ما قال ﷺ ما قال.

وفي حديث أبي هريرة أيضاً عند الحافظ السلفي قال: ما رأيت الحسن بن علي قط إلا فاضت عيناي دموعاً، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج يوماً وأنا في المسجد فأخذ بيدي واتكأ علي حتى جئنا سوق قينقاع، فنظر فيه ثم رجع حتى جلس في المسجد ثم قال: «ادع ابني»، قال: فأتى الحسن بن علي يشتد حتى وقع في حجره، فجعل رسول الله ﷺ يفتح فمه، ثم يدخل فمه في فمه ويقول: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»، ثلاث مرات.

وفي الترمذي من حديث أنس، أنه ﷺ كان يشمهما ويضمهما إليه، وقال: «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»[2]، رواه أحمد، وقال الترمذي: «كان معي في الجنة»، وقال: حديث غريب. وليس المراد بالمعية هنا المعية من حيث المقام، بل من حيث رفع الحجاب، وتقدم نحوه في قوله تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ [النساء: ٦٩] في المقصد السادس.

وفي حديث أبي زهير بن الأرقم عن رجل من الأزد أنه ﷺ قال في الحسن «من أحبني فليحبه، فيبلغ الشاهد الغائب». وفي البخاري: (هما ريحانتاي من الدنيا). وكان ﷺ يمص لسان الحسن أو شفته، رواه أحمد.

وعن عقبة بن الحارث قال: رأيت أبا بكر، وحمل الحسن وهو يقول: بأبي شبيه بالنبي، ليس شبيهاً[3] بعلي. وعلي يضحك. وعن محمد بن سيرين عن أنس: كان ـ يعني الحسين ـ أشبههم برسول الله ﷺ. رواهما البخاري.

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٧٨٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/٤٤٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/٢٣٣ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٧٦١) وفي المعجم الكبير للطبراني ٣/٣٩ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/١٠٤٥ كنز العمال (٣٤٢٥٥ ـ ٣٧٦٩٧).

(٢) الحديث في الترمذي برقم (٣٧٣٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/٧٦ وفي كنز العمال (٣٤١٦١).

(٣) الذي في البخاري: «ليس شبيه بعلي» وقال في فتح الباري. قال ابن مالك، كذا وقع برفع «شبيه» على أن «ليس» حرف عطف وهو مذهب كوفي.

وعنده من رواية الزهري عن أنس (لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي) وهذا قد يعارضه قول علي في صفة النبي ﷺ: (لم أر قبله ولا بعده مثله)، أخرجه الترمذي في الشمائل كما تقدم في المقصد الثالث، وأجيب: بأن يحمل النفي على عموم الشبه، والإثبات على معظمه.

وقول أنس: (لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي) قد يعارض رواية ابن سيرين عنه السابقة (كان الحسين ـ يعني بالياء ـ أشبههم بالنبي ﷺ) ويمكن الجمع بأن يكون أنس قال ما وقع في رواية الزهري في حياة الحسن، لأنه كان يومئذ أشد شبهاً بالنبي ﷺ من أخيه الحسين. وأما ما وقع في رواية ابن سيرين فكان بعد ذلك، أو المراد بمن فضل عليه الحسين في الشبه، كانَ من عدا الحسن، ويحتمل أن يكون كل منهما كان أشد شبهاً به في بعض أعضائه، فقد روى الترمذي وابن حبان من طريق هانىء بن هانىء عن علي قال: الحسن أشبه رسول الله ﷺ ما بين الرأس إلى الصدر، والحسين أشبه النبي ﷺ ما كان أسفل من ذلك.

وقد عدوا من كان له شبه بالنبي ﷺ سوى الحسن والحسين، جعفر بن أبي طالب، وقد قال ﷺ لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي»[1] قال الترمذي: حسن صحيح. وابنه عبد الله بن جعفر. وقثم بن العباس بن عبد المطلب. وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. ومسلم بن عقيل بن أبي طالب. ومن غير بين هاشم: السائب بن يزيد المطلبي، الجد الأعلى للإمام الشافعي. وعبد الله بن عامر بن كريز ـ بضم الكاف وفتح الراء ـ وكابس بن ربيعة رجل من أهل البصرة، وجه إليه معاوية، وقبله بين عينيه وأقطعه قطيعة، وكان أنس إذا رآه بكى. فهؤلاء عشرة، ونظمهم شيخ الأسلام الحافظ أبو الفضل ابن حجر فقال:

شبـــه النبـــي لعشـــر ســـائـــب وأبـــي    سفيـــان والحسنيـــن الطـــاهـــريـــن همـــا
وجعفـــر وابنـــه ثـــم ابـــن عـــامـــر هـــم    ومسلـــم كـــابـــس يتلـــوه مـــع قثمـــا

وعدهم بعضهم: سبعة وعشرين. وممن كان يشبهه أيضاً: فاطمة ابنته، وإبراهيم ولده. وولدا جعفر، عبد الله ـ السابق ذكره ـ وأخوه عون. وكان يشبهه أيضاً من أهل

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٧٦٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٩٨ و ٤/ ٣٤٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٥ وفي المستدرك للحاكم ٣/ ١٢٠ وفي مصنف عبد الرزاق (٢٠٣٩٤) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٣٧٧) وفي تفسير ابن كثير ٦/ ٣٧٩ وفي المغني للعراقي ٢/ ٣١ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٤/ ١٧٣ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٠٧ وفي كنز العمال (٣٣١٩٦ ـ ٣٦٩٠٦).

البيت غير هؤلاء: إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ويحيى بن القاسم بن محمد بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي، وكان يقال له: الشبيه. قال الشريف محمد بن أسعد النسابة في الزورة الأنيسة لمشهد السيدة نفيسة أنه كان ليحيى هذا موضع خاتم النبوة شامة قدر بيضة الحمامة، تشبه خاتم النبوة، وكان إذا دخل الحمام ورآه الناس صلوا على النبي ﷺ وازدحموا عليه يقبلون ظهره تبركاً، ولذا وصف بالشبيه. والقاسم بن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب. وعلي بن علي بن نجاد بن رفاعة الرفاعي، شيخ بصري من أتباع التابعين. والمراد بالشبه هنا، الشبه في البعض، وإلا فتمام حسنه ﷺ منزه عن الشريك، كما قال الأبوصيري ـ رحمه الله ـ وأجاد:

منزه عن شريك في محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم

كما أشرت إليه في أول المقصد الثالث.

وقد أطلت المقال، وإنما جرني إلى ذلك ذكر حمل الصديق للحسن على عاتقه، المشعر بالإكرام من أفضل البشر بعد النبيين، لأهل البيت المحمدي، وحملهم على الأعناق، ولا سيما مع قوله ـ رضي الله عنه ـ لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي، فلما تضمن هذا الحديث ذلك الشبه الكريم جرني الكلام إليه، وهذا وقع لي كثير في هذا المجموع لكنه لا يخلو عن فرائد الفوائد.

وقد روي أنه ﷺ قال: «العباس بن عبد المطلب مني وأنا منه، لا تؤذوا العباس فتؤذني، من سب العباس فقد سبني» أخرجه البغوي[1] في معجمه. وقال ﷺ للعباس أيضاً «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله، ثم قال: أيها الناس، من آذى عمي فقد آذاني، فإنما عم الرجل صنو أبيه» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وفي قوله: «لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم» الإشارة إلى الإيمان الحقيقي المنجي، وهو التصديق القلبي، وبين المحبة والإيمان ارتباط من جهة أن المحبة ميل القلب إلى المحبوب، والإيمان التصديق القلبي، فيجتمعان في القلب، وجعلهما متلازمين، فيلزم من نفي أحدهما نفي الآخر، ثم علل هذه المحبة بكونها لله ولرسوله، فلا عبرة بمحبة تكون لغير ذلك، ثم جعل أذاه كأذى نفسه، لأنه عضوه وعصبه، ثم عظم مقامه بتنزيله منزلة الأب، فكما أنه يجب على الولد تعظيم والده والقيام بحقوقه فكذلك

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان أبو القاسم البغوي (٢١٣ ـ ٣١٧ هـ) حافظ عالم بالحديث. مولده ووفاته ببغداد. الاعلام ٤/١١٩ وتذكرة الحفاظ ٢/٧٣٧ رقم الترجمة (٧٣٨) شذرات الذهب ٢/ ٢٧٥ تاريخ بغداد ١٠/ ١١١ العبر ٢/ ١٧٠.

عمه، فقال: «وإنما عم الرجل صنو أبيه» وهو بكسر الصاد المهملة وسكون النون، أي: مثل أبيه، قال ابن الأثير: وأصله أن تطلع نخلتان من عرق واحد، يريد أن أصل العباس وأصل أبي واحد، انتهى.

وجلله ﷺ وبنيه بكساء ثم قال: «اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً، اللهم احفظه في ولده»[1] رواه الترمذي وقال: حسن غريب. وبين ابن السري في روايته: أن بنيه الذين جللوا بالكساء كانوا ستة: الفضل وعبد الله وعبيد الله وقثم ومعبد وعبد الرحمن. قال: وغطاهم بشملة له سوداء مخططة بحمرة وقال: «اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وعترتي فاسترهم من النار كسترهم بهذه الشملة» قال: فلم يبق في البيت مدرة ولا باب إلا أمن.

وروى أنه ﷺ قال لعقيل بن أبي طالب: «إني أحبك حبين، حباً لقرابتك مني، وحباً لما كنت أعلم من حب عمي لك»[2] قال الطبري: أخرجه أبو عمر، والبغوي. وروى الدارقطني أنه ﷺ قال يوم حنين: «أبو سفيان بن الحارث خير أهلي، أو من خير أهلي». وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار»[3].

أعلم أنه قد اشتهر استعمال أربعة ألفاظ يوصفون بها:

الأولى: آله عليه الصلاة والسلام.

والثانية: أهل بيته.

والثالثة: ذوو القربى.

والرابعة: عترته.

فأما الأولى: فذهب قوم إلى أنهم هم أهل بيته، وقال آخرون: هم الذين حرمت عليهم الصدقة وعوضوا عنها خمس الخمس، وقال قوم: من دان بدينه وتبعه فيه.

وأما اللفظة الثانية، وهي أهل بيته، فقيل من ناسبه إلى جده الأدنى، وقيل من اجتمع معه في رحم، وقيل من اتصل به بنسب أو سبب.

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٧٦٢) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٦١٤٩) وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٧٦٨) وفي كنز العمال (٣٣٤٤٣).

(٢) الحديث في كنز العمال (٣٣٦١٨).

(٣) الحديث في المستدرك للحاكم ٣٥٢/٤ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢٩٦/٧ وفي كنز العمال (٣٤٢٠٤).

وأما اللفظة الثالثة: وهي ذوو القربى، فروى الواحدي في تفسيره بسنده عن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ [الشورى: ٢٣] قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمرنا الله تعالى بمودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما».

وأما اللفظة الرابعة: وهي عترته، فقيل العشيرة، وقيل الذرية، فأما العشيرة فهي الأهل الأولون، وأما الذرية: فنسل الرجل، وأولاد بنت الرجل ذريته، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ومن ذريته داود﴾ إلى قوله: ﴿وعيسى﴾ [الأنعام: ٨٤ و ٨٥]، ولم يتصل عيسى بإبراهيم إلا من جهة أمه مريم.

فهذه الذرية الطاهرة، قد خصوا بمزايا التشريف، وعموا بواسطة السيدة فاطمة بفضل منيف، وألبسوا رداء الشرف، ومنحوا بمزيد الإكرام والتحف. وقد وقع الاصطلاح على اختصاصهم من بين ذوي الشرف كالعباسيين والجعافرة بالشطفة الخضراء، لمزيد شرفهم.

والسبب في ذلك ـ كما قيل ـ أن المأمون[1] أراد أن يجعل الخلافة في بني فاطمة فاتخذ لهم شعاراً وألبسهم ثياباً خضراً ـ لكون السواد شعار العباسيين، والبياض شعار سائر المسلمين في جمعهم ونحوها، والأحمر ومختلف في كراهته، والأصفر شعار اليهود بآخرة. ثم انثنى عزمه عن ذلك، ورد الخلافة لبني العباس، فبقي ذلك شعار الأشراف العلويين من الزهراء، لكنهم اختصروا الثياب إلى قطعة من ثوب أخضر توضع على عمائمهم شعاراً لهم ثم انقطع ذلك إلى أواخر القرن الثامن.

قال في حوادث سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة من «أنباء الغمر بأبناء العمر»: وفيها أمر السلطان الأشرف أن يمتازوا عن الناس بعصائب خضر على العمائم، ففعل ذلك بمصر والشام وغيرهما، وفي ذلك يقول الأديب أبو عبد الله بن جابر الأندلسي.

جعلوا لأبناء الرسول علامة ... إن العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة في كريم وجوههم ... يغني الشريف عن الطراز الأخضر

وللأديب شمس الدين الدمشقي رحمه الله:

أطراف تيجان أتت من سندس ... خضر بأعلام على الأشراف

---

(١) هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور أبو العباس (١٧٠ ـ ٢١٨ هـ). الخليفة العباسي السابع. توفي بالقرب من طرسوس. الاعلام ٤/ ١٤٢ تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٣ فوات الوفيات ٢/ ٢٣٥ رقم الترجمة (٢٣٨).

والأشـــــرف السلطـــــان خصهـــــمُ بهـــــا ـــــ شـــرفـــاً ليفــــرقهــــم مـــــن الأطـــراف

والأشرف السلطان هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن قلاوون[1].

## [في محبة الصحابة]

وأما الصحابة رضوان الله عليهم، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة. لما أخبر سبحانه وتعالى أن سيدنا محمداً ﷺ رسـوله حقاً من غير شك ولا ريب، قال: محمد رسول الله، وهذا مبتدأ وخبر. وقال البيضاوي وغيره: جملة مبينة للمشهود به، يعني قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ إلى قوله: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ [الفتح: ٢٨]، قال: ويجوز أن يكون «رسول الله» صفة، و «محمد» خبر مبتدأ محذوف انتهى.

وهذه الآية مشتملة على كل وصف جميل.

ثم ثنّى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ [الفتح: ٢٩]، كما قال تعالى: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ [المائدة: ٥٤] فوصفهم بالشدة والغلظة على الكفار، والرحمة والبر بالأخيار. ثم أثنى عليهم بكثرة الأعمال مع الإخلاص التام: ﴿تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا﴾ [الفتح: ٢٩]، فمن نظر إليهم أعجبه سمتهم وهديهم، لخلوص نياتهم، وحسن أعمالهم.

قال مالك: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا» وصدقوا، فإن هذا الأمة المحمدية، خصوصاً الصحابة، لم يزل ذكرهم معظماً في الكتب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾ [الفتح: ٢٩] أي أفراخه ﴿فآزره﴾ [الفتح: ٢٩] أي شده وقواه ﴿فاستغلظ﴾ [الفتح: ٢٩] شب فطال ﴿فاستوى على سوقه يعجب الزراع﴾ [الفتح: ٢٩] قوته وغلظه وحسن منظره. فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطأ مع الزرع ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن هذا الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله ـ في رواية عنه ـ تكفير الروافض الذين

---

(١) هو شعبان بن حسين ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، أبو المعالي ناصر الدين (٧٥٤ ـ ٧٧٨ هـ). مات خنقاً. الاعلام ٣/١٦٣، الدرر الكامنة ٢/١٩٠ رقم الترجمة (١٩٣٦).

يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر، وقد وافقه على ذلك جماعة من العلماء. والأحاديث في فضائل الصحابة كثيرة، ويكفي ثناء الله عليهم ورضاه عنهم، وقد وعدهم الله مغفرة وأجراً عظيماً، ووعد الله حق وصدق لا يخلف، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم. و «من» في قوله «منهم» لبيان الجنس ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ [الفتح: ٢٩].

واختلف في تعريف الصحابي:

فقيل: من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين. وإليه ذهب البخاري، وسبقه إليه شيخه ابن المديني[١]، وعبارته - كما قال شيخنا - من صحب النبي ﷺ أو رآه ولو ساعة من نهار فهو من أصحابه. انتهى. وهذا هو الراجح. والتقييد بـ «الإسلام» يخرج من صحبه أو رآه من الكفار، ولو اتفق إسلامه بعد موته.

لكن يرد على التعريف: من صحبه أو رآه مؤمناً به ثم ارتد بعد ذلك، ولم يعد إلى الإسلام، كعبيد الله بن جحش[٢]، فإنه ليس بصحابي اتفاقاً، وكذلك ابن خطل[٣]، وربيعة بن أمية بن خلف الجمحي[٤] وهو ممن أسلم في الفتح وشهد حجة الوداع وحدث عن النبي ﷺ بعد موته، ثم لحقه الخذلان - والعياذ بالله - في خلافة عمر فلحق بالروم وتنصر بسبب شيء أغضبه وقد أخرج له الإمام أحمد في مسنده، وإخراجه له مشكل ولعله لم يقف على قصة ارتداده، فينبغي أن يزاد في التعريف: ومات على ذلك.

فلو ارتد ثم عاد إلى الإسلام، لكنه لم ير النبي ﷺ ثانياً بعد عوده، فالصحيح أنه معدود في الصحابة، لإطباق المحدثين على عد الأشعث بن قيس ونحوه ممن وقع له ذلك، وإخراجهم أحاديثهم في المسانيد.

---

(١) هو علي بن عبد الله بن جعفر السعدي، المديني البصري، أبو الحسن (١٦١ - ٢٣٤ هـ). محدث حافظ. توفي في سامراء. الاعلام ٤/٣٠٣، تاريخ بغداد ١١/٤٥٨ مفتاح السعادة ٢/١٦٣ تذكرة الحفاظ ٢/٤٢٨ رقم الترجمة (٤٣٦) شذرات الذهب ٢/٨١.

(٢) كان أسلم وهاجر إلى الحبشة ولكنه تنصر فيها ومات على نصرانيته. انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/٦. والاصابة ١/٥.

(٣) هو رجل من بني تيم بن غالب كان مسلماً بعثه النبي ﷺ على الصدقة فقتل مولى كان معه يخدمه ثم ارتد مشركاً وكانت له قينتان [فرتنى وصاحبتها] وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما معه. انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/٥٢.

(٤) قال في الاصابة: أن عمر غرب ربيعة بن أمية بن خلف في الخمر إلى خيبر فلحق بهرقل فتنصر. فقال عمر: لا أغرب بعده أحداً أبداً. راجع ٢/٢٢٣ رقم الترجمة (٢٧٤٦).

لكن قال الحافظ زين الدين العراقي: إن في ذلك نظراً كبيراً، فإن الردة محبطة للعمل عند أبي حنيفة، ونص عليه الشافعي في الأم، وإن كان الرافعي قد حكى عنه أنها إنما تحبط بشرط اتصالها بالموت، وحينئذ فالظاهر أنها محبطة للصحبة المتقدمة، أما من رجع إلى الإسلام في حياته ﷺ كعبد الله بن أبي سرح فلا مانع من دخوله في الصحبة بدخوله الثاني في الإسلام.

وهل يشترط في الرائي أن يكون بحيث يميز ما رآه، أو يكتفي بمجرد حصول الرؤية؟ قال الحافظ ابن حجر: محل نظر، وعمل من صنف في الصحابة يدل على الثاني، فإنهم ذكروا مثل محمد بن أبي بكر الصديق، وإنما ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أشهر وأيام، كما ثبت أن أمه أسماء بنت عميس ولدته في حجة الوداع قبل أن تدخل مكة، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة عشرة من الهجرة.

ومنهم من بالغ فكان لا يعد في الصحابة إلا من صحب الصحبة العرفية. وروي عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يعد في الصحابة إلا من أقام مع النبي ﷺ سنة فصاعداً، أو غزا معه غزوة فصاعداً. والعمل على خلاف هذا القول. ومنهم من اشترط في ذلك أن يكون حين اجتماعه به بالغاً، وهو مردود أيضاً، لأنه يخرج مثل الحسن بن علي ونحوه من أحداث الصحابة.

وأما التقييد بالرؤية فالمراد به عند عدم المانع منها، فإن كان كابن أم مكتوم الأعمى فهو صحابي جزماً، فالأحسن أن يعبر بـ «اللقاء» بدل الرؤية ليدخل فيه ابن أم مكتوم ونحوه.

قال الحافظ زين الدين العراقي: قولهم «من رأى النبي ﷺ» هل المراد رآه في حال نبوته، أو أعم من ذلك، حتى يدخل من رآه قبل النبوة ومات قبل النبوة على دين الحنيفية كزيد بن عمرو بن نفيل، فقد قال النبي ﷺ: «**أنه يبعث أمة وحده**»، وقد ذكره في الصحابة أبو عبد الله بن منده، وكذلك لو رآه قبل النبوة ثم غاب عنه وعاش إلى بعد زمن البعثة، وأسلم ثم مات ولم يره، ولم أرَ من تعرض لذلك، ويدل على أن المراد: رآه بعد نبوته، أنهم ترجموا في الصحابة لمن ولد للنبي ﷺ كابراهيم وعبد الله، ولم يترجموا لمن ولد قبل النبوة ومات قبلها كالقاسم، انتهى.

وهل يختص جميع ذلك ببني آدم، أم يعم غيرهم من العقلاء؟ محل نظر. أما الجن، فالراجح دخولهم لأن النبي ﷺ بعث إليهم قطعاً، وهم مكلفون، فيهم العصاة والطائعون، فمن عرف اسمه منهم لا ينبغي التردد في ذكره في الصحابة، وإن كان ابن

الأثير عاب على أبي موسى فلم يستند في ذلك إلى حجة[1]، وأما الملائكة فيتوقف عدهم في ذلك على ثبوت البعثة إليهم، فإن فيه خلافاً بين الأصوليين، حتى نقل بعضهم الإجماع على ثبوته، وعكس بعضهم.

وهذا كله فيمن رآه في قيد الحياة الدنيوية، أما من رآه بعد موته وقبل دفنه[2] فالراجح أنه ليس صحابياً، وإلا لعد من اتفق أنه رأى جسده المكرم وهو في قبره المعظم، ولو في هذه الأعصار، وكذلك من كشف له من الأولياء عنه ﷺ فرآه كذلك على طريق الكرامة كما قدمت مباحثه في خصوصياته ﷺ من المقصد الرابع، إذ حجة من أثبت الصحبة لمن رآه قبل دفنه أنه مستمر الحياة، وهذه الحياة ليست دنيوية، وإنما هي أخروية لا تتعلق بها أحكام الدنيا، وأما من رآه في المنام، وإن كان قد رآه حقاً. فذلك فيما يرجع إلى الأمور المعنوية، لا الأحكام الدنيوية، فلذلك لا يعد صحابياً، ولا يجب عليه أن يعمل بما أمره به في تلك الحالة.

وقد أجمع جمهور العلماء من السلف والخلف على أنهم خير خلق الله، وأفضلهم بعد النبيين وخواص الملائكة المقربين، لما روى البخاري من حديث عبد الله أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وله من حديث عمران بن حصين (خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً.

قال في فتح الباري: والقرن أهل زمان واحد متقارب، اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة، ويطلق على مدة من الزمان، واختلفوا في تحديدها، من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين، لكن لم أر من صرح بالتسعين ولا بمائة وعشرة، وما عدا ذلك فقد قال به قائل، وقال صاحب المحكم: هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمن، وهذا أعدل الأقوال. والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث الصحابة، وتقدم في أول المقصد الأول حديث (بعثت من خير قرون بني آدم) وفي رواية بريدة عند أحمد (خير هذه الأمة القرن الذي بعثت فيهم).

وقد ضبط الأئمة من الحفاظ آخر من مات من الصحابة على الإطلاق بلا خلاف أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي، كما جزم به مسلم، وكان موته سنة مائة على الصحيح،

---

(١) عاب الحافظ ابن الأثير في أسد الغابة على أبي موسى المديني ذلك وليس بمعيب، قال ابن حزم: قد علمنا الله أن نفراً من الجن آمنوا وسمعوا منه ﷺ فهم صحابة فضلاء.

(٢) كما وقع ذلك لأبي ذؤيب الهذلي كما قال في الإصابة ٣/ ٢١٠ ترجمة الشماخ (٣٩١٣).

وقيل سنة سبع ومائة، وقيل سنة عشر ومائة، وهو الذي صححه الذهبي، وهو مطابق لقوله ﷺ ـ قبل وفاته بشهر ـ : (على رأسة مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد)، وفي رواية مسلم (أرأيتكم ليلتكم، هذه، فإنه ليس من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة)[1].

وأما ما ذكر أن عكراش بن ذؤيب عاش بعد يوم الجمل مائة سنة فذلك غير صحيح، وإن صح فمعناه أنه استكمل المائة بعد الجمل، لا أنه بقي بعدها مائة سنة، كما نص عليه الأئمة، وأما ما ذكر أيضاً من أمر «بابارتن»[2] ونحوه فإن ذلك لا يروج على من له أدنى مسكة من العقل، كما قاله الأئمة. وأما آخر الصحابة موتاً بالإضافة إلى النواحي فقد أفردهم ابن منده.

وأما قوله: (ثم الذين يلونهم) فهم أهل القرن الذين بعدهم، وهم التابعون، ثم الذين يلونهم وهم أتباع التابعين. واقتضى هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين. لكن هل هذه الفضيلة بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد؟

والذي ذهب إليه ابن عبد البر هو الأول، كما قدمت ذلك في خصائص هذه الأمة من المقصد الرابع، واحتج لذلك ـ سوى ما تقدم ـ بحديث (مثل أمتي مثل المطر، لا يدري آخره خير أم أوله) قال الحافظ ابن حجر: وهو حديث حسن، له طرق وقد يرتقي بها إلى درجة الصحة.

وقد روى ابن أبي شيبة من حديث عبد الرحمن بن جبير بن نفير ـ أحد التابعين ـ بإسناد حسن قال: قال رسول الله ﷺ: «ليدركن المسيح أقواماً إنهم لمثلكم أو خير، ثلاثاً، ولن يخزي الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها»[3].

وروى أبو داود والترمذي من حديث أبي ثعلبة ـ رفعه ـ: (تأتي أيام للعامل فيها أجر خمسين، قيل: منهم أو منا يا رسول الله؟ قال: بل منكم) وهو شاهد لحديث (مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره) لكن حديث (للعامل منهم أجر خمسين

---

(١) الحديث في مسلم كتاب فضائل الصحابة (٢١٧ ـ ٢١٨ ـ ٢١٩) وفي الترمذي برقم (٢٢٥١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٩٣ ٣/ ٣٤٥.

(٢) قال الذهبي في تجريده: رتن الهندي شيخ ظهر بعد الستمائة بالمشرق وادعى الصحبة، فسمع منه الجهال، أو لا وجود له، بل اختلق اسمه بعض الكذابين، وإنما ذكرته تعجباً.
وقال في الميزان: رتن وما أدراك ما رتن شيخ دجال بلا ريب ظهر بعد الستمائة.

(٣) الحديث في مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٢٩٩ باختلاف يسير وفي فتح الباري ٧/ ٦.

منكم) لا يدل على أفضلية غير الصحابة، لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وأيضاً: الأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل.

فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من فضيلة المشاهدة، فلا يعدله فيها أحد، ولا ريب أن من قاتل معه أو في زمانه بأمره، أو أنفق شيئاً من ماله بسببه، لا يعدله أحد في الفضل بعده كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ [الحديد: ١٠]، وكذلك من ضبط الشرع المتلقى عنه وبلغه لمن بعده. فمحصل النزاع يتمحض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة، وقد ظهر أنه فاز بما لم يفز به من لم يحصل له ذلك. وبهذا يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة.

ثم إن الصحابة على ثلاث أصناف: الأول: المهاجرون، الثاني: الأنصار وهم الأوس والخزرج وحلفاؤهم ومواليهم، الثالث: من أسلم يوم الفتح. قال ابن الأثير في «الجامع»: والمهاجرون أفضل من الأنصار، وهذا على سبيل الإجمال، وأما على سبيل التفصيل، فإن جماعة من سباق الأنصار أفضل من جماعة من متأخري المهاجرين وإنما سباق المهاجرين أفضل من سباق الأنصار، ثم هم بعد ذلك متفاوتون، فرب متأخر في الإسلام أفضل من متقدم عليه، مثل عمر بن الخطاب وبلال ابن رباح.

وقد ذكر العلماء للصحابة ترتيباً على طبقات، وممن قسمهم كذلك الحاكم في «علوم الحديث»:

الطبقة الأولى: قوم أسلموا بمكة أول البعث، وهم سباق المسلمين، مثل: خديجة بنت خويلد، وعلي بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق، وزيد بن حارثة، وبقية العشرة، وقد تقدم الخلاف في أول من أسلم في المقصد الأول.

الطبقة الثانية: أصحاب دار الندوة، بعد إسلام عمر بن الخطاب حمل النبيّ ﷺ ومن معه من المسلمين إلى دار الندوة، فأسلم لذلك جماعة من أهل مكة.

الطبقة الثالثة: الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من أذى المشركين أهل مكة، منهم: جعفر بن أبي طالب، وأبو سلمة بن عبد الأسد.

الطبقة الرابعة: أصحاب العقبة الأولى، وهم سباق الأنصار إلى الإسلام، وكانوا ستة، وأصحاب العقبة الثانية من العام المقبل، وكانوا اثني عشر، وقد قدمت أسماء أهل العقبتين في المقصد الأول.

الطبقة الخامسة: أصحاب العقبة الثالثة، وكانوا سبعين من الأنصار، منهم: البراء

بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة.

الطبقة السادسة: المهاجرون الذين وصلوا إلى النبي ﷺ بعد هجرته وهو بقباء قبل أن يبني المسجد وينتقل إلى المدينة.

الطبقة السابعة: أهل بدر الكبرى. قال ﷺ لعمر في قصة حاطب بن أبي بلتعة[1]: (وما يدريك، لعل الله اطلع على هذه العصابة من أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»)[2] رواه مسلم.

الطبقة الثامنة: الذين هاجروا بين بدر والحديبية.

الطبقة التاسعة: أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا بالحديبية تحت الشجرة، قال ﷺ: «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد»[3] رواه مسلم.

الطبقة العاشرة: الذين هاجروا بعد الحديبية وقبل الفتح، كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ومثل بعضهم بأبي هريرة لكن قال الحافظ العراقي، لا يصح التمثيل به، فإنه هاجر قبل الحديبية، عقيب خيبر بل في أواخرها.

الطبقة الحادية عشر: الذين أسلموا يوم الفتح، وهم خلق كثير، فمنهم من أسلم طائعاً، ومنهم من أسلم كارهاً ثم حسن إسلام بعضهم، والله أعلم بهم.

الطبقة الثانية عشر: صبيان أدركوا النبي ﷺ ورأوه عام الفتح وبعده في حجة الوداع وغيرهما، كالسائب بن يزيد. ثم انقطعت الهجرة بعد الفتح على الصحيح من الأقوال.

وأما عدة أصحابه ﷺ، فمن رام حصر ذلك رام أمراً بعيداً، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعالى، لكثرة من أسلم من أول البعثة إلى أن مات النبي ﷺ، وتفرقهم في البلدان والبوادي. وقد روى البخاري أن كعب بن مالك قال في قصة تخلفه عن غزوة تبوك: وأصحاب رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ، يعني الديوان، لكن قد جاء ضبطهم في بعض مشاهده كتبوك.

وقد روي أنه سار عام الفتح في عشرة آلاف من المقاتلة، وإلى حنين في اثني عشر ألفاً، وإلى حجة الوداع في تسعين ألفاً، وإلى تبوك في سبعين ألفاً، وقد روي أنه قبض

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٤١.

(٢) الحديث في صحيح البخاري برقم (٣٠٨١ ـ ٤٢٧٤) وفي مسلم (١٦١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٧٩ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٨٤ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٩٩.

(٣) الحديث في البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ١٧٣ باختلاف يسير.

عن مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً، والله أعلم بحقيقة ذلك.

ثم إن أفضلهم على الإطلاق عند أهل السنة إجماعاً أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما. عن ابن عمر قال: كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان بن عفان. رواه البخاري. وفي رواية عبيد الله بن عمر عن نافع: كنا في زمان النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ فلا نفاضل بينهم. رواه البخاري أيضاً. وقوله: «لا نعدل بأبي بكر أحداً» أي لا نجعل له مثيلاً.

ولأبي داود من طريق سالم عن ابن عمر: كنا نقول ـ ورسول الله ﷺ حي ـ: أفضل أمة النبي ﷺ بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان[1]. زاد الطبراني في رواية: فيسمع رسول الله ﷺ ذلك فلا ينكره.

وروى خيثمة بن سليمان في «فضائل الصحابة» من طريق سهيل ابن أبي صالح عن أبيه عن ابن عمر: كنا نقول: إذا ذهب أبو بكر وعمر وعثمان استوى الناس، فيسمع النبي ﷺ ذلك فلا ينكره. وفي ذلك تقديم عثمان بعد أبي بكر وعمر. وأهل السنة على أن علياً بعد عثمان. وذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان. وممن قال به سفيان الثوري.
وقيل: لا يفضل أحدهما على الآخر، ونقل ذلك عن مالك فى المدونة، وتبعه جماعة منهم يحيى بن القطان. وقال ابن معين: من قال أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وعرف علي سابقته وفضله فهو صاحب سنة، ولا شك أن من اقتصر على عثمان ولم يعرف لعلي فضله فهو مذموم.

وقد ادعى ابن عبد البر أن حديث الاقتصار على الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان خلاف قول أهل السنة أن علياً أفضل الناس بعد الثلاثة. وتعقب: بأنه لا يلزم من سكوتهم إذ ذاك عن تفضيله عدم تفضيله، فالمقطوع به عند أهل السنة: القول بأفضلية أبي بكر ثم عمر ثم اختلفوا فيمن بعدهما، فالجمهور على تقديم عثمان، وعن مالك الوقف، والمسألة اجتهادية، ومستندها أن هؤلاء الأربعة اختارهم الله لخلافة نبيه، وإقامة دينه، فمنزلتهم عنده بحسب ترتيبهم في الخلافة.

وقال الإمام أبو منصور البغدادي: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة تمام العشرة، يعني: طلحة والزبير وسعداً وسعيداً وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة عامر بن الجراح.

---

(١) راجع سنن أبي داود رقم (٤٦٢٧ ـ ٤٦٢٨).

وقد روى الترمذي عن سعيد بن زيد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عشرة في الجنة، أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص» فعد هؤلاء التسعة وسكت عن العاشر، فقال له القوم ننشدك الله، من العاشر؟ فقال: نشدتموني بالله، سعيد ابن زيد في الجنة، يعني نفسه[1].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أنه خرج إلى المسجد، فسأل عن النبي ﷺ فقالوا: وجه هاهنا، فخرجت في أثره حتى دخل بئر أريس[2]، فجلست عند الباب، وبابها من جريد، حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته، فتوضأ فقمت إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قفها، فجلست عند الباب فقلت: لأكونن بواباً للنبي ﷺ اليوم، فجاء أبو بكر، فدفع الباب فقلت من هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت على رسلك ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ فقلت: هذا أبو بكر يستأذن، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل، ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القف ودلى رجليه في البئر كما صنع رسول الله ﷺ وكشف عن ساقيه، ثم رجعت فجلست، وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني[3]، فقلت: إن يرد الله بفلان خيراً ـ يريد أخاه ـ يأت به، فإذا بإنسان يحرك الباب، فقلت: من هذا؟ قال: عمر ابن الخطاب، فقلت على رسلك، ثم جئت إلى النبي ﷺ فقلت: هذا عمر بن الخطاب يستأذن، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، فقلت: ادخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة، فجلس مع رسول الله ﷺ في القف عن يساره ودلى رجليه في البئر، فرجعت وقلت: إن يرد الله بفلان خيراً يأت به، فجاء إنسان فحرك الباب، فقلت من هذا؟ فقال: عثمان بن عفان، فقلت على رسلك، وجئت إلى النبي ﷺ فأخبرته فقال: «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه»، فجئت فقلت: ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة على بلوى تصيبك، فدخل فوجد القف قد ملىء، فجلس وجاهه من الصف الآخر[4]. قال شريك:

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (٤٦٤٩) وفي الترمذي (٣٧٤٨) وفي المستدرك للحاكم ٣/٣١٦ و ٤٤٠ وفي كنز العمال (٣٣١٠٥).

(٢) بئر بالمدينة معروفة. انظر معجم ما استعجم ١/١٤٣ ومعجم البلدان ١/٢٩٨.

(٣) قال الحافظ: كان له أخوان، أبو رهم وأبو بردة.

(٤) الحديث في البخاري برقم (٣٦٧٤) وفي مسلم برقم (٢٩) وفي الترمذي (٣٧١٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/١٦٥ وفي مجمع الزوائد ٩/٥٦ و ٧٣ وفي المعجم الكبير ١٢/٣٢٧ وفي حلية الأولياء ١/٥٨ و ٣/٢٤ وفي مشكل الآثار ٢/٨٤ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/١٧٨ وفي تفسير القرطبي ١٢/٢١٦ وفي كنز العمال (٣٦٣١٧).

قال سعيد بن المسيب: فأولتها قبورهم. رواه أحمد ومسلم وأبو حاتم وأخرجه البخاري.

وأخرج أبو داود نحوه عن أبي سلمة عن نافع بن عبد الحارث الخزاعي قال: دخل رسول الله ﷺ حائطاً من حوائط المدينة، فقال لبلال: «أمسك علي الباب»، فجاء أبو بكر فاستأذن.. فذكر نحوه. قال الطبراني: وفي حديث أن نافع بن الحارث هو الذي كان يستأذن. وهذا يدل على تكرر القصة، لكن صوب الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر عدم التعدد، وأنها عن أبي موسى، ووَهَّم القول بغيره. وأنشد لنفسه:

لقد بشر الهادي من الصحب زمرة ... بجنات عدن كلهم فضله اشتهر
سعيد زبير سعد طلحة عامر ... أبو بكر عثمان بن عوف علي عمر

ولأبي الوليد بن [الشحنة](1):

أسماء عشر رسول الله بشرهم ... بجنة الخلد عمن زانها وعمر
سعد سعيد علي عثمان طلحة بو ... بكر ابن عوف ابن جراح الزبير عمر

فإن قلت: من اعتقد في الخلفاء الأربعة الأفضلية على الترتيب المعلوم، ولكن محبته لبعضهم تكون أكثر، هل يكون آثماً به أم لا؟

فأجاب شيخ الإسلام الولي بن العراقي: أن المحبة قد تكون لأمر ديني، وقد تكن لأمر دنيوي، فالمحبة الدينية لازمة للأفضلية، فمن كان أفضل كانت محبتنا الدينية له أكثر، فمتى اعتقدنا في واحد منهم أنه أفضل ثم أحببنا غيره من جهة الدين أكثر كان تناقضاً، نعم إن أحببنا غير الأفضل أكثر من محبة الأفضل لأمر دنيوي كقرابة وإحسان فلا تناقض في ذلك ولا امتناع، فمن اعترف بأن أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، لكنه أحب علياً أكثر من أبي بكر مثلاً، فإن كانت المحبة المذكورة محبة دينية فلا معنى للذلك، إذ المحبة الدينية لازمة للأفضلية كما قررناه، وهذا لم يعترف بأفضلية أبي بكر إلا بلسانه، وأما بقلبه فهو مفضل لعلي لكونه أحبه محبة دينية زائدة على محبة أبي بكر، وهذا لا يجوز، وإن كانت المحبة المذكورة محبة دنيوية لكونه من ذرية علي أو لغير ذلك من المعاني فلا امتناع والله أعلم. انتهى.

وقد روى الطبري في «الرياض» وعزاه للملاء في «سيرته» عن أنس مرفوعاً، «إن الله افترض عليكم حب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي كما افترض الصلاة والزكاة والصوم

---

(1) هو محمد بن محمد أبو الوليد محب الدين ابن الشحنة الحلبي (٧٤٩ ـ ٨١٥ هـ). فقيه حنفي أديب عالم. مولده ووفاته بحلب. الاعلام ٧/ ٤٤ سير اعلام النبلاء ٥/ ١٦١ الضوء اللامع ١٠/ ٣.

والحج، فمن أنكر فضلهم فلا تقبل منه الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج».

وأخرج الحافظ السلفي في «مشيخته» من حديث أنس مرفوعاً: «حب أبي بكر واجب على أمتي».

وأخرج الأنصاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا بكر، ليت أني لقيت إخواني» فقال أبو بكر: يا رسول الله، نحن إخوانك، قال: «لا، أنتم أصحابي، إخواني الذين لم يروني، وصدقوا بي وأحبوني، حتى إني لأحب إلى أحدهم من ولده ووالده»، قالوا: يا رسول الله، أما نحن إخوانك؟ قال: لا، بل أنتم أصحابي، ألا تحب يا أبا بكر قوماً أحبوك بحبي إياك؟» قال: فأحبهم ما أحبوك بحبي إياك.

فمحبة من أحبه الرسول ﷺ كآل بيته وأصحابه رضي الله عنهم علامة على محبة رسول الله ﷺ، كما أن محبته ﷺ علامة على محبة الله تعالى. وكذلك عداوة من عاداهم وبغض من أبغضهم وسبهم. فمن أحب شيئاً أحب من يحب، وأبغض من يبغض، قال الله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله﴾ [المجادلة: ٢٢] فحب آله بيته ﷺ وأصحابه وأولاده وأزواجه من الواجبات المتعينات، وبغضهم من الموبقات المهلكات.

ومن محبتهم وجوب توقيرهم، وبرهم والقيام بحقوقهم، والإقتداء بهم بأن يمشي على سنتهم وآدابهم وأخلاقهم، والعمل بأقوالهم مما ليس للعقل فيه مجال، وحسن الثناء عليهم بأن يذكروا بأوصافهم الجملية على قصد التعظيم. فقد أثنى الله تعالى عليهم في كتابه المجيد، ومن أثنى الله عليه فهو واجب الثناء، والإستغفار لهم، قالت عائشة: (أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبوهم) رواه مسلم. وفائدة المستغفر لهم عائدة عليه. قال سهل بن عبد الله التستري: لم يؤمن بالرسول ﷺ من لم يوقر أصحابه ولم يعزَّ أوامره.

ومما يجب أيضاً: الإمساك عما شجر بينهم، أي وقع بينهم من الإختلاف، والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة، وضلال الشيعة والمبتدعين، القادحة في أحد منهم، قال ﷺ «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»[1]، وأن يلتمس لهم مما نقل من ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويخرج لهم أصوب المخارج، إذ هم أهل

---

(١) الحديث في المعجم الكبير ٢/ ٩٣ وفي مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٢ و ٢٢٣ وفي الدر المنثور ٣/ ٣٥ وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٤٢ و ٢٢٣ و ٨/ ٥٥ و ٩/ ٤٠٢ وفي المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣٠ و ٤١٤ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٦/ ٢١٧٢ وفي كنز العمال (٩٠١). وقال ابن رجب: روي من وجوه في أسانيدها كلها مقال.

ذلك كما هو في مناقبهم، ومعدود من مآثرهم، مما يطول إيراد بعضه.

وما وقع بينهم من المنازعات والمحاربات فله محامل وتأويلات، فسبهم والطعن فيهم إذا كان مما يخالف الأدلة القطعية كفر، كقذف عائشة رضي الله عنها، وإلا فبدعة وفسق. قال ﷺ: «أيها الناس احفظوني في أختاني وأصهاري وأصحابي، لا يطالبنكم الله بمظلمة أحد منهم، فإنها ليست مما يوهب»(١). رواه الخِلَعي(٢).

وقال ﷺ: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي، من أحبهم فقد أحبني، ومن أبغضهم فقد أبغضني، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه الله»(٣) رواه المخلص الذهبي. [أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن الذهبي]. وهذا الحديث ـ كما قال بعضهم ـ خرج مخرج الوصية بأصحابه على طريق التأكيد والترغيب في حبهم، والترهيب عن بعضهم. وفيه إشارة إلى أن حبهم من الإيمان، وبغضهم كفر، لأنه إذا كان بغضهم بغضاً له كان كفراً بلا نزاع، للحديث السابق (لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه).

وهذا يدل على كمال قربهم منه بتنزيلهم منزلة نفسه، حتى كأن أذاهم واقع عليه وواصل إليه ﷺ. و«الغرض»: الهدف الذي يرمي فيه. فهو نهي عن رميهم مؤكداً ذلك بتحذيرهم الله منه، وما ذاك إلا لشدة الحرمة. وروي مرفوعاً: «من سب أحداً من أصحابي فاجلدوه»(٤). خرجه تمام في فوائده. وقال مالك بن أنس وغيره ـ فيما ذكره القاضي عياض ـ: من أبغض الصحابة فليس له في فيء المسلمين حق. قال: ونزع بآية الحشر ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ [الحشر: ١٠] الآية. وقال: من غاظه أصحاب محمد فهو كافر، قال الله تعالى: ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ [الفتح: ٢٩] والله أعلم.

---

(١) الحديث في إتحاف السادة المتقين ٧/٤٩١ وفي تاريخ ابن عساكر ٦/١٢٩ وفي مجمع الزوائد ٩/١٥٧.

(٢) هو علي بن الحسن بن الحسين بن محمد أبو الحسن الخلعي الشافعي (٤٠٥ ـ ٤٩٢ هـ). فقيه شافعي مولده ووفاته بمصر. الاعلام ٤/٢٧٣، وفيات الاعيان ١/٣٣٨ كشف الظنون (٧٢٢ ـ ١٢٩٧).

(٣) الحديث في الترمذي برقم (٣٨٦٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٥٤ و ٥٧ وفي حلية الأولياء ٨/ ٢٨٧ وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٤٢ و ٢٢٣ وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٧٠ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٤٨٥ وفي جمع الجوامع (٩٦٥٧ ـ ٩٦٥٨) وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٢٨٤) وفي الشفا ٢/ ٦٠ و ١١٨ و ٦٥١ وفي مشكاة المصابيح (٦٠٠٥) وفي ميزان الاعتدال (٤٤١٢) وفيه: في الحديث اضطراب. وفي كنز العمال (٣٢٤٨٣ ـ ٣٢٥٣٠).

(٤) الحديث في مجمع الزوائد ١٠/ ٢١ وفي كنز العمال (٣٢٥٤١).

# فهرس المحتويات

الفصل الخامس



النوع السادس



النوع السابع



النوع الثامن



النوع التاسع



النوع العاشر



المقصد السابع

الفصل الأول

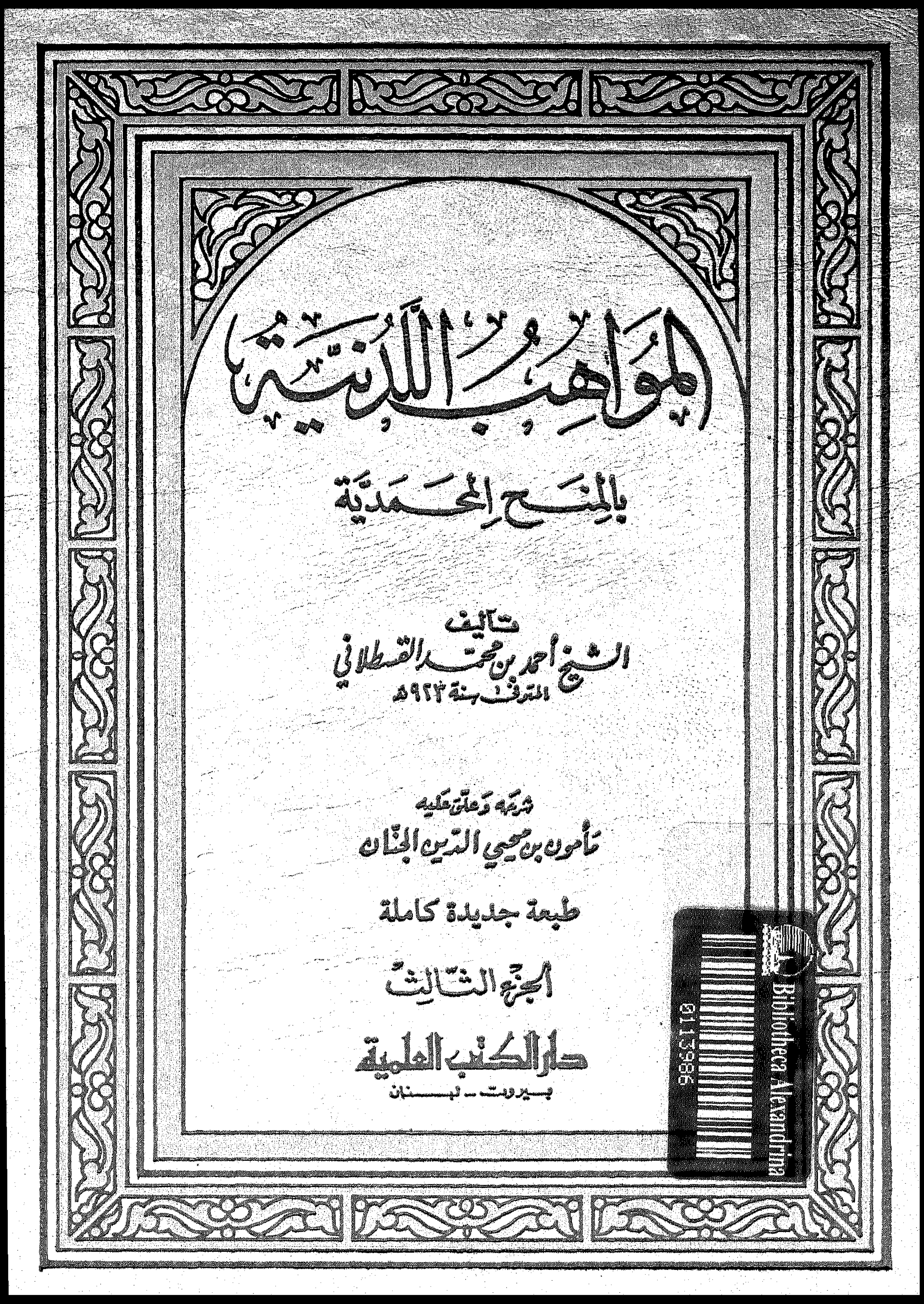


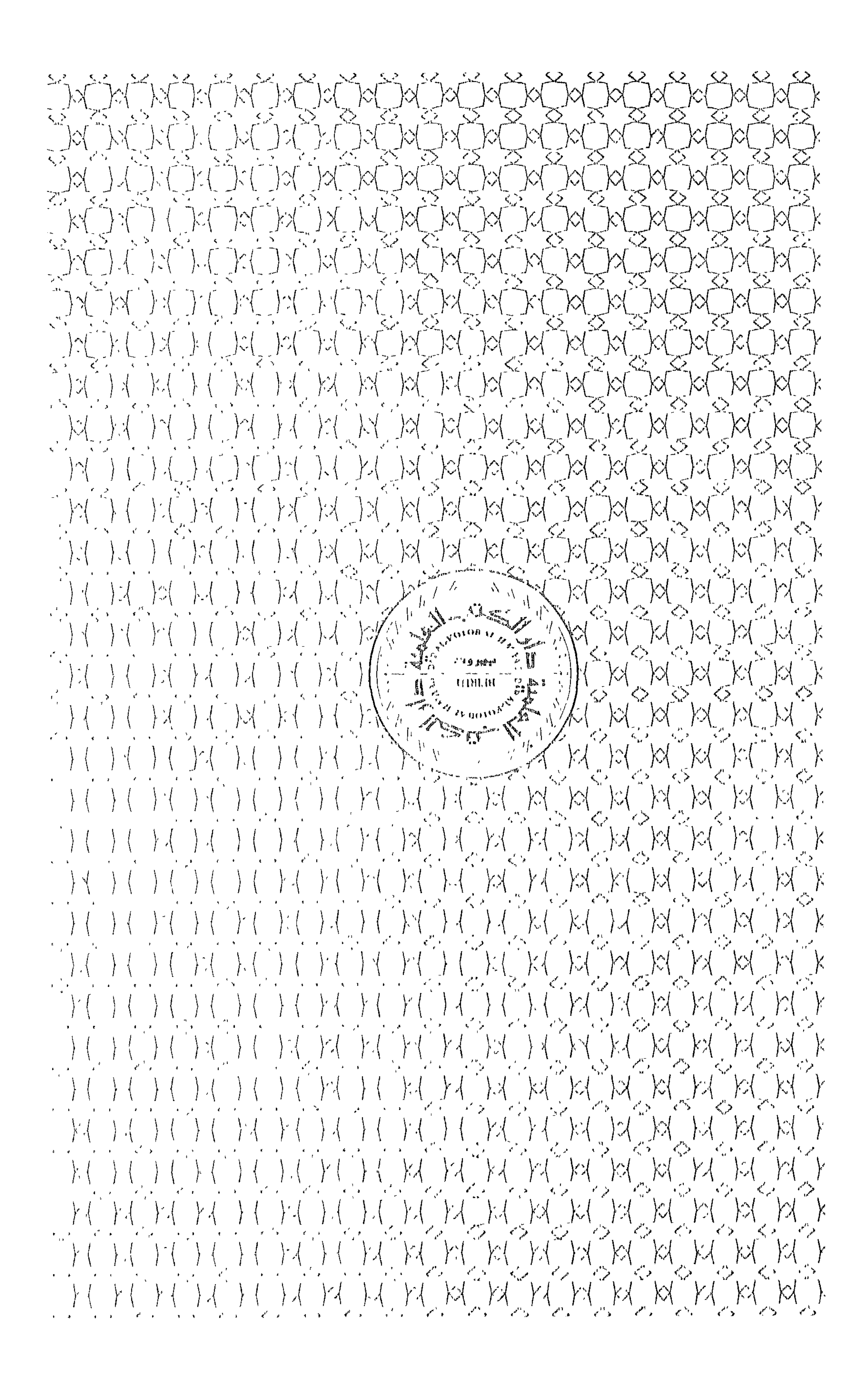
الفصل الثاني

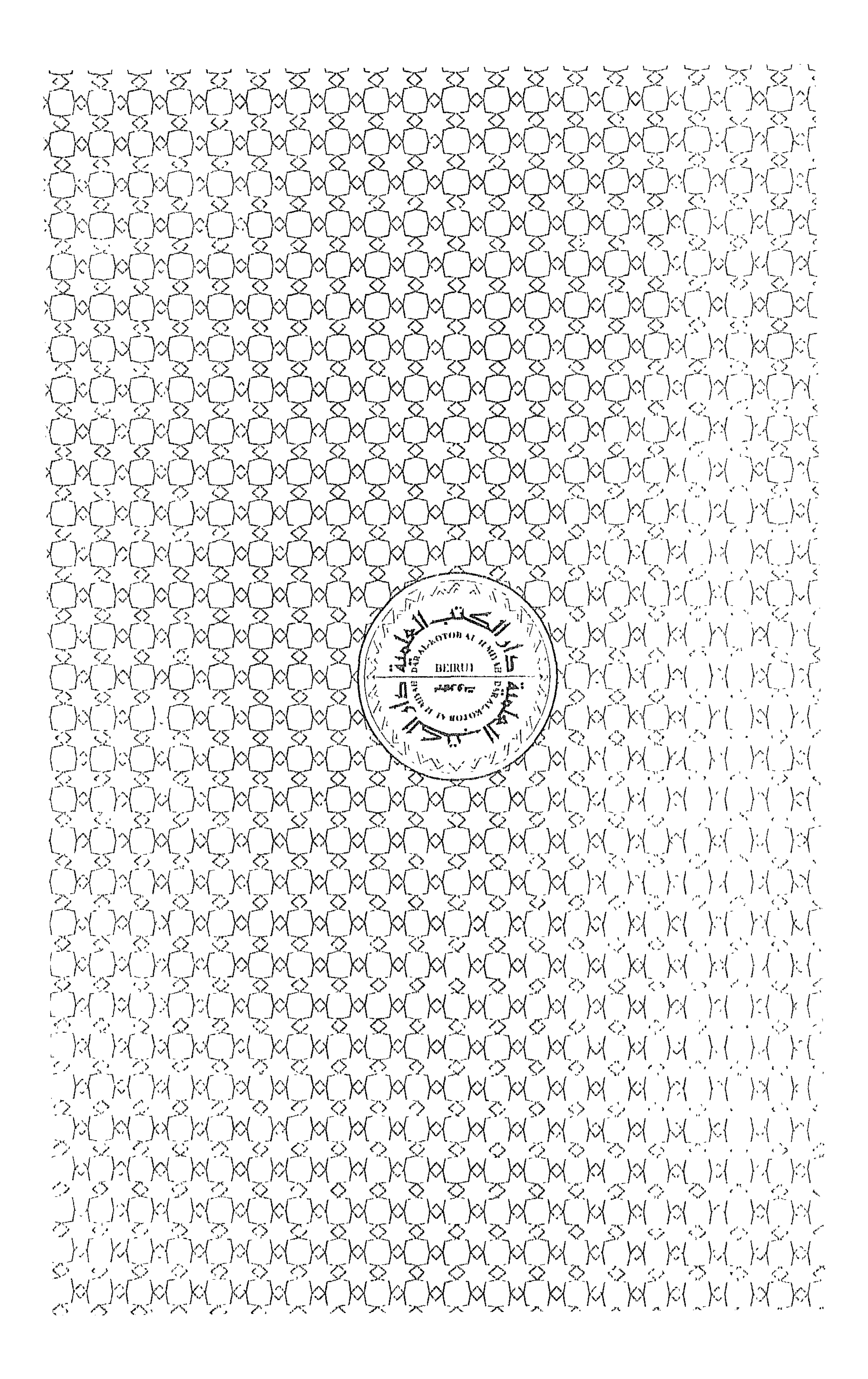


الفصل الثالث




المواهب اللدنية
بالمنح المحمدية
تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القسطلاني
المتوفى سنة ٩٢٣هـ
شرحه وعلق عليه
مأمون بن محيي الدين الجنان
طبعة جديدة كاملة
الجزء الثالث
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
Bibliotheca Alexandrina 0113986





# المواهب اللدنية

## بالمنح المحمدية

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القسطلاني
المتوفى سنة ٩٢٣هـ

شرحه وعلق عليه
مأمون بن محيي الدين الجنان

طبعة جديدة كاملة

الجزء الثالث


دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

دار الكتب العلمية
بيروت _ لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

# في طبه ﷺ لذوي الأمراض والعاهات وتعبيره الرؤيا وإنبائه بالأنباء المغيبات

اعلم أنه لا سبيل لأحد إلى الإحاطة بنقطة من بحار معارفه، أو قطرة مما أفاضه الله تعالىٰ عليه من سحائب عوارفه، وأنت إذا تأملت ما منحه الله تعالى به من جوامع الكلم، وخصه به من بدائع الحكم، وحسن سيره، وحكم حديثه، وإنبائه بأنباء القرون السالفة والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى مع الخضر، ويوسف مع إخوته، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، وأشباه ذلك، وبدء الخلق، وأخبار الدار الآخرة، وما في التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، وإظهار أحوال الأنبياء وأممهم، وأسرار علومهم ومستودعات سيرهم، وإعلامهم بمكتوم شرائعهم، ومضمنات كتبهم وغير ذلك مما صدقه فيه العلماء بها، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك فضلاً عما أفاضه من العلم ومحاسن الآداب والشيم، والمواعظ والحكم، والتنبيه على طرق الحجج العقليات، والرد على فرق الأمم ببراهين الأداة الواضحات، والإشارة إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة، وإشاراته حجة، كاللغة والمعاني والعربية، وقوانين الأحكام الشرعية والسياسات العقلية، ومعارف عوارف الحقائق القلبية، إلى غير ذلك من ضروب العلوم، وفنون المعارف الشاملة لمصالح أمته، كالطب والعبارة والحساب وغير ذلك مما لا يعد ولا يحد... قضيتَ بإن مجال هذا الباب في حقه ﷺ ممتد، تنقطع دون نفاده الأدلاء، وإن بحر علمه ومعارفه زاخر لا تكدره الدلاء. وهذا المقصد ـ أعزك الله ـ يشتمل على ثلاثة فصول:

## الفصل الأول

## في طبه ﷺ لذوي الأمراض والعاهات

اعلم أنه قد ثبت أنه ﷺ كان يعود من مرض من أصحابه، حتى لقد عاد غلاماً كان يخدمه من أهل الكتاب، وعاد عمه وهو مشرك، وعرض عليهما الإسلام، فأسلم الأول وكان يهودياً، كما روى البخاري وأبو داود من حديث أنس: أن غلاماً من اليهود كان

يخدم النبي ﷺ فمرض فعاده ﷺ فقعد عند رأسه، فقال: «أسلم»، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال: أطع أبا القاسم فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»(١).

وكان ﷺ يدنو من المريض، ويجلس عند رأسه، ويسأل عن حاله ويقول: «**كيف تجدك؟**».

وفي حديث جابر عند البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود، قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ يعودني وأبو بكر، وهما ماشيان، فوجداني أغمي علي، فتوضأ النبي ﷺ ثم صب وضوءه علي فأفقت، فإذا النبي ﷺ، وعند أبي داود: فنضح في وجهي فأفقت. وفيه: أنه ﷺ قال: «**يا جابر لا أراك ميتاً من وجعك هذا**»(٢).

وفي حديث أبي موسى عند البخاري مرفوعاً: (**أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني**)(٣). وعنده من رواية البراء: أمرنا ﷺ بسبع، وذكر منها عيادة المريض. وعند مسلم: خمس تجب للمسلم على المسلم، فذكرها منها. قال ابن بطال: يحتمل أن يكون الأمر على الوجوب، يعني الكفاية، كإطعام الجائع وفك الأسير، ويحتمل أن يكون للندب على التواصل والألفة. وعند الطبري: يتأكد في حق من ترجى بركته، ويسن فيمن يراعى حاله، ويباح فيما عدا ذلك. وهو فرض كفاية عند أبي حنيفة، كما قاله أبو الليث السمرقندي(٤) في «مقدمته».

واستدل بعموم قوله: «عودوا المريض» على مشروعية العيادة في كل مرض، واستثنى بعضهم: الأرمد، وردَّ: بأنه قد جاء في عيادة الأرمد بخصوصها حديث زيد بن

---

(١) الحديث في البخاري برقم (١٣٥٦ ـ ٥٦٥٧). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٨٠ و ٦/ ٣٤٩ وفي سنن أبي داود برقم (٣٠٩٥). وفي نصب الراية ٣/ ٤٦٠ و ٤/ ٢٧١ وفي الدر المنثور ٥/ ١٣ وفي تفسير ابن كثير ٥/ ٤٧٧ وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٧٠٠) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٥٠ وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٤٦.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الفرائض باب (٣) رقم (٢٨٨٧) والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٣١ وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ١٩٠ وابن الجوزي في زاد المسير ٢/ ٢٦٥.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٠٤٦ ـ ٥٦٤٩) وأبو داود برقم (٣١٠٥) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٣٩٤ والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٣٧٩ و ٩/ ٢٢٦ و ١٠/ ٣ والبغوي في شرح السنة ٥/ ٢١٤ والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٥٢٣) والطحاوي في مشكل الآثار ٤/ ٤ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٤٧٦).

(٤) هو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي أبو الليث الملقب بإمام الهدى. عالم زاهد متصوف حنفي المذهب توفي سنة (٣٧٣ هـ). الاعلام ٨/ ٢٧ كشف الظنون ٢/ ١٧٩٥.

الأرقم، قال: عادني رسول الله ﷺ من وجع كان بعيني[1]، رواه أبو داود وصححه الحاكم. وأما ما أخرجه البيهقي والطبراني مرفوعاً: «**ثلاثة ليس لهم عيادة، الرمد والدمل والضرس**»، فصحح البيهقي أنه موقوف على يحيى بن أبي كثير. ويؤخذ من إطلاقه عدم التقييد بزمان يمضي من ابتداء مرضه. وهو قول الجمهور، وجزم الغزالي في «الإحياء»: بأنه لا يعاد إلا بعد ليال ثلاث، واستند إلى حديث أخرجه ابن ماجه عن أنس: كان ﷺ لا يعود مريضاً إلا بعد ثلاثة. وهذا حديث ضعيف تفرد به مسلمة بن علي، وهو متروك، وقال أبو حاتم هو حديث باطل.

ولا نطيل بإيراد ما ورد في فضل العيادة، ويكفي حديث أبي هريرة، مما حسنه الترمذي مرفوعاً: «**من عاد مريضاً ناداه مناد من السماء: طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً**»[2] وهذا لفظ ابن ماجه. وفي سنن أبي داود عن أنس مرفوعاً: «**من توضأ فأحسن الوضوء، وعاد أخاه المسلم محتسباً، بُوعِدَ من جهنم مسيرة سبعين خريفاً**».[3] وفي حديث أبي سعيد عند ابن حبان في صحيحه مرفوعاً: «**خمس من عملهن في يوم كتبه الله من أهل الجنة: من عاد مريضاً، وشهد جنازة وصام يوماً، وراح إلى الجمعة وأعتق رقبة**». وعند أحمد، عن كعب مرفوعاً: من عاد مريضاً، خاض في الرحمة، فإذا جلس عند استنقع فيها. زاد الطبراني: وإذا قام من عنده فلا يزال يخوض فيها حتى يرجع من حيث خرج.

ولم يكن ﷺ يخص يوماً من الأيام بعيادة المريض، ولا وقتاً من الأوقات، فترك العيادة يوم السبت المخالفة للسنة، ابتدعه يهودي طبيب لملك قد مرض وألزمه بملازمته، فأراد يوم الجمعة أن يمضي لسبته فمنعه، فخاف على استحلال سبته، ومن سفك دمه، فقال: إن المريض لا يدخل عليه يوم السبت، فتركه الملك، ثم أشيع ذلك، وصار كثير من الناس يعتمده. ومن الغريب ما نقله ابن الصلاح عن الفراوي: أن العيادة تستحب في الشتاء ليلاً. وفي الصيف نهاراً، ولعل الحكمة في ذلك أن المريض يتضرر بطول الليل في الشتاء، وبطول النهار في الصيف، فتحصل له بالعيادة استراحة.

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (٣١٠٢).

(٢) الحديث في الترمذي برقم (٢٠٠٨) وفي سنن ابن ماجه (١٤٤٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٢٦ و ٣٤٤ و ٣٥٤ وفي الترغيب والترهيب ٤/ ٣١٩ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ١٧٦ و ٢٩٦ وفي مشكاة المصابيح (٢٥٧٥).

(٣) الحديث في سنن أبي داود برقم (٣٠٩٧) وفي الترغيب والترهيب ٤/ ٣١٩ وفي مشكاة المصابيح (١٥٥٢) وفي كنز العمال (٢٥١٣١).

وينبغي اجتناب التطبب بأعداء الدين، من يهودي أو نحوه، فإنه مقطوع بغشه سيما إن كان المريض كبيراً في دينه أو علمه، خصوصاً إن كان هذا العدو يهودياً، لأن قاعدة دينهم: أن من نصح منهم مسلماً فقد خرج عن دينه، وأن من استحل السبت فهو مهدر الدم عندهم، حلال لهم سفك دمه، ولا ريب أن من خاطر بنفسه يخشى عليه أن يدخل في عموم النهي فيمن قتل نفسه بشيء. وقد كثر الضرر في هذا الزمن بأهل الذمة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله تعالى يرحم القائل:

لعن النصارى واليهود فإنهم ... بلغوا بمكرهم بنا الآمالا
خرجوا أطباء وحساباً لكي ... يتقسموا الأرواح والأموالا

ومما كان يفعله ﷺ ويأمر به تطييب نفوس المرضى وتقوية قلوبهم، ففي حديث أبي سعيد الخدري، قال ﷺ «**إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في أجله، فإن ذلك يطيب نفسه**»[1]، مثل أن يقول له: لا بأس عليك، طهور إن شاء الله، ووجهك الآن أحسن، وما أشبه ذلك. وقد يكون من هذا أن يذكر له الأجور الداخلة عليه في مرضه، وأن المرض كفارة، فربما أصلح ذلك قلبه، وأمن من خوف ذلك ونحوه. وقال بعضهم: في هذا الحديث نوع شريف جداً من أنواع العلاج، وهو الإرشاد إلى ما يطيب نفس العليل من الكلام الذي تقوى به الطبيعة، وتنتعش به القوة، وينبعث به الحار الغريزي، ويساعد على دفع العلة أو تخفيفها الذي هو غاية تأثير الطبيب. وفي تفريج نفس المريض، وتطييب قلبه، وإدخال السرور عليه تأثير عجيب في شفاء علته وخفتها، فإن الأرواح والقوى تقوى بذلك، فتساعد الطبيعة على دفع المؤذي. وقد شاهد الناس كثيراً من المرضى تنتعش قواهم بعيادة من يحبونه ويعظمونه، ورؤيتهم له، ولطفهم بهم، ومكالمتهم إياهم.

قال في الهدي: وكان ﷺ يسأل المريض عن شكواه، وكيف يجد، وعما يشتهيه، فإن اشتهى شيئاً وعلم أنه لا يضره أمر له به، ويضع يده على جبهته، وربما وضعها بين ثدييه، ويدعو له، ويصف له ما ينفعه في علته، وربما توضأ وصب على المريض من وضوئه، كما في حديث جابر المتقدم، وربما كان يقول للمريض: لا بأس عليك، طهور إن شاء الله، وربما كان يقول: كفارة وطهور. وقالت عائشة: كان ﷺ إذا عاد مريضاً يضع يده على المكان الذي يألم ثم يقول: بسم الله. رواه أبو يعلى بنسد صحيح. وأخرج الترمذي من حديث أبي أمامة ـ بسند لين ـ رفعه: تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده

(١) الحديث في الترمذي برقم (٢٠٨٧) وفي سنن ابن ماجه (١٤٣٨) وفي مشكاة المصابيح (١٥٧٢) وفي ميزان الاعتدال (٨٩١٤) وفي كنز العمال (٢٥١٢٤).

على جبهته فيسأله كيف هو، وعند ابن السني بلفظ: كيف أصبحت أو كيف أمسيت؟

وإذا علمت هذا، فاعلم أن المرض نوعان: مرض القلوب ومرض الأبدان.

فأما طب القلوب ومعالجتها فخاص بما جاء به الرسول الكريم ﷺ عن ربه تعالى، لا سبيل إلى حصوله إلا من جهته، فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها وفاطرها وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن تكون مؤثرة لرضاه ومحابه، متجنبة لمناهيه ومساخطه، ولا صحة لها ولا حياة ألبتة إلا بذلك، ولا سبيل إلى تلقي ذلك إلا من جهة سيدنا محمد ﷺ.

وأما طب الأجساد، فمنه ما جاء في المنقول عنه ﷺ، ومنه ما جاء عن غيره، لأنه ﷺ إنما بعث هادياً وداعياً إلى الله وإلى جنته، ومعرفاً بالله، ومبيناً للأمة مواقع رضاه وآمراً لهم بها، ومواقع سخطه وناهياً لهم عنها، ومخبرهم أخبار الأنبياء والرسل وأحوالهم مع أممهم، وأخبار تخليق العالم، وأمر المبدأ والمعاد، وكيفية شقاوة النفوس وسعادتها وأسباب ذلك.

وأما طب الأجساد فجاء من تكميل شريعته، ومقصوداً لغيره، بحيث إنما يستعمل للحاجة إليه، فإذا قدر الإستغناء عنه كان صرف الهمم إلى علاج القلوب وحفظ صحتها، ودفع أسقامها وحميتها مما يفسدها هو المقصود بإصلاح الجسد، وإصلاح الجسد بدون إصلاح القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جداً، وهي مضرة زائلة تعقبهاالمنفعة الدائمة التامة.

وإذا علمت هذا، فاعلم أن ضرر الذنوب في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي، فللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة والمضرة بالقلب والبدن والدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفىء ذلك النور، وللإمام الشافعي رضي الله عنه:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يؤتاه عاصي

ومنها: حرمان الرزق، ففي المسند[1]: وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه[2].

---

(١) قال الزرقاني في الشرح: الظاهر أن المراد بالحديث المسند أي المرفوع، لقول مغلطاي: إذا كان الحديث في أحد السنة لا يجوز لحديثي نقله عن غيره. انتهى.

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٨٠ و ٢٨٢ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٠=

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه، بينه وبين الله، لا يوازيها ولا يقاربها لذة.

ومنها: تعسير أموره عليه، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه، أو متعسراً عليه.

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها، كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا أدلهم، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، ثم تقوى هذه الظلمة حتى تعلو الوجه وتصير سواداً فيه، يراها كل أحد.

ومنها: أنها توهن القلب والبدن.

ومنها: حرمان الطاعة، وتقصير العمر، ومحق البركة، ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب، كما ينقص بأسباب، وقيل: بتأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب، فليس عمر المرء إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعات تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها. وبالجملة: فالعبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية.

ومنها: أن المعصية تورث الذل.

ومنها: أنها تفسد العقل، فإن للعقل نوراً، والمعصية تطفىء نور العقل.

ومنها: أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير﴾** [الشورى: ٣٠] وقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد ... فرب العباد سريع النقم

ومن عقوباتها أنها تستجلب مواد(١) هلاك العبد في دنياه وآخرته، فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد، وكما أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة الأخلاط الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته، وحمية يمتنع بها من تناول من يؤذيه ويخشى ضرره فكذلك القلب، لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة يحفظ قوته، واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد

---

= و٨/٦١٧ وفي تفسير ابن كثير ٤/٣٩٩ و ٥٣١ وفي الدر المنثور ٦/٢٣٣.

(١) قال الزرقاني: أي أسباب هلاكه، ومادة الشيء ما يكون الشيء حاصلاً معه بالقوة فيتسبب حصوله منها.

الفاسدة والأخلاط الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته، وحمية توجب له حفظ الصحة، وتجنب ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة، والتقوى اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة، فما فات منها فات من التقوى بقدره.

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة، فإنها تستجلب المواد المؤذية، وتوجب التخليط المضاد للحمية، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح. فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض، وهو لا يستفرغها ولا يحتمي لها، كيف تكون صحته وبقاؤه، وقد أحسن القائل:

جسمك بالحمية حصنته ... مخافة من ألم طاري
وكان أولى بك أن تحتمي ... من المعاصي خشية النار

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر، واستعمل الحمية باجتناب النواهي، واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح، لم يدع للخير مطلباً، ولا للشر مهرباً، وفي حديث أنس: «**ألا أدلكم على داءكم ودوائكم، ألا إن دائكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار**». فقد ظهر لك أن طب القلوب ومعالجتها لا سبيل إلى معرفته إلا من جهة الرسول ﷺ بواسطة الوحي.

وأما طب الأجساد فغالبه يرجع إلى التجربة. ثم هو نوعان:

نوع لا يحتاج إلى فكر ونظر، بل فطر الله على معرفته الحيوانات، مثل ما يدفع الجوع والعطش والبرد والتعب، وهذا لا يحتاج فيه إلى معالجة طبيب.

ونوع يحتاج إلى الفكر والنظر، كدفع ما يحدث في البدن مما يخرجه عن الاعتدال، وهو إما حرارة أو برودة، وكل منهما: إما إلى رطوبة أو يبوسة، أو إلى ما يتركب منهما، وغالب ما يقاوم الواحد منها بضده، والدفع قد يقع من خارج البدن، وقد يقع داخله من وهو أعسرهما، والطريق إلى معرفته بتحقيق السبب والعلامة. فالطبيب الحاذق هو الذي يسعى في تفريق ما يضر بالبدن جمعه، أو عكسه، وفي تنقيص ما يضر بالبدن زيادته أو عكسه، ومدار ذلك على ثلاثة أشياء: حفظ الصحة. والاحتماء عن المؤذي واستفراغ المادة الفاسدة. وقد أشير إلى الثلاثة في القرآن:

فالأول: في قوله تعالى: ﴿**فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾ [البقرة: ١٨٤] وذلك أن السفر مظنة النصب، وهو من مغيرات الصحة، فإذا وقع فيه الصيام ازداد فأبيح الفطر، وكذلك القول في المرض.

والثاني: وهو الحمية، من قوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ [النساء: ٢٩] فإنه

استنبط منه جواز التيمم عند خوف استعمال الماء البارد، وقال تعالى في آية الوضوء **﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾** [النساء: ٤٣] فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهو تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له من داخل أو خارج.

والثالث: من قوله تعالى: **﴿أو به أذى من رأسه ففدية﴾** [البقرة: ١٩٦] فإنه أشير بذلك إلى جواز حلق الرأس الذي منع منه المحرم، لاستفراغ الأذى الحاصل من البخار المحتقن في الرأس تحت الشعر، لأنه إذا حلق رأسه تفتحت المسام فخرجت تلك الأبخرة منها. فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذى انحباسه. فقد أرشد تعالى عباده إلى أُصول الطب الثلاثة ومجامع قواعده.

وفي الصحيحين من حديث عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء**»[1]. وأخرجه النسائي وصححه ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود بلفظ (**إن الله لم ينزل داء إلا وأنزل له شفاء فتداووا**)[2] وعند أحمد من حديث أنس: (**إن الله حيث خلق الداء خلق الدواء فتداووا**)[3].

وعند البخاري في «الأدب المفرد»، وأحمد وأصحاب السنن، وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم عن أسامة بن شريك، رفعه: (**تداووا يا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء إلا داء واحداً وهو الهرم**)[4] وفي لفظ (إلا السام) ـ وهو بمهملة

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٥٦٧٨) وفي سنن ابن ماجه (٣٤٣٨ ـ ٣٤٣٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٧٧ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٣٥٩ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٨٥ وفي إتحاف السادة المتقين ٩/ ٥١٥ وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ١٣٨ وفي كنز العمال (٢٨٠٩٨).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٩٧ و ٣٩٩ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٤٤٣ و ٤٤٦ والهيثمي في موارد الظمآن (١٣٩٤ ـ ١٩٢٤) والسيوطي في جمع الجوامع (٤٩٥٩ ـ ٤٩٨٢) والطبراني في المعجم الكبير ١/ ١٤٨ وفي إتحاف السادة المتقين ٩/ ٥١٥ وفي كنز العمال (٢٨٠٧٩ ـ ٢٨٢١٤). والزيلعي في نصب الراية ٤/ ٢٨٣ وابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٣٦٠.

(٣) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٥٦ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ٨٤ وفي نصب الراية للزيلعي ٤/ ٢٨٥ و ٣٨٥ وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٢٨٥ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٣٥٩ وفي كنز العمال (٢٨٠٧٨).

(٤) الحديث في الترمذي برقم (٢٠٣٨) وفي سنن أبي داود برقم (٣٨٥٥) وفي سنن ابن ماجه (٣٤٣٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٧٨ وفي إتحاف السادة المتقين ٩/ ٥١٥ وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٢٨٢ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٥٨ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٣٦٠ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٣١٩٥) وفي كنز العمال (٢٨٠٧٦) وفي نصب الراية للزيلعي ٤/ ٢٨٣ وفي السنن=

مخففة ـ الموت، يعني إلا داء الموت، أي المرض الذي قدر على صاحبه الموت فيه. واستثنى الهرم في الرواية الأولى إما لأنه جعله شبيهاً بالموت، والجامع بينهما نقص الصحة، أو تقربه من الموت وإفضائه إليه، ويحتمل أن يكون استثناء منقطعاً، والتقدير: لكن الهرم لا دواء له.

ولأبي داود، عن أبي الدرداء، رفعه: «**إن الله جعل لكل داء دواء، فتداووا، ولا تدادوا بحرام**»[١]. وفي البخاري: إن الله تعالى لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم، فلا يجوز التداوي بالحرام.

وروى مسلم عن جابر، مرفوعاً: «**لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برىء بإذن الله تعالى**»[٢]. فالشفاء متوقف على إصابة الدواء بالداء بإذن الله تعالى. وذلك أن الدواء قد يحصل معه مجاوزة الحد في الكيفية أو الكمية فلا ينجح، بل ربما أحدث داء آخر. وفي رواية علي عند الحميدي في كتابه المسمى بطب أهل البيت: ما من داء إلا وله دواء، فإذا كان كذلك بعث الله عز وجل ملكاً ومعه ستر فجعله بين الداء والدواء، فكلما شرب المريض من الدواء لم يقع على الداء، فإذا أراد الله برءه أمر الملك فرفع الستر، ثم يشرب المريض الدواء فينفعه الله تعالى به.

وفي حديث ابن مسعود رفعه: «**إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله**» رواه أبو نعيم وغيره. وفيه إشارة إلى أن بعض الأدوية لا يعلمها كل أحد. وأما قوله «لكل داء دواء» فيجوز أن يكون على عمومه حتى يتناول الأدواء القاتلة، والأدواء التي لا يمكن طبيب معرفتها، ويكون الله قد جعل لها أدوية تبرئها، ولكن طوى علمها عن البشر، ولم يجعل لهم إليها سبيلاً، لأنه لا علم للخلق إلا ما علمهم الله. ولهذا علق ﷺ الشفـاء على مصادفة الدواء للداء، وقد يقع لبعض المرضى أنه يتداوى من دائه بدوائه فيبرأ، ثم يعتريه بعد ذلك الداء، والدواء بعينه فلا ينجح، والسبب في ذلك الجهل بصفة من صفات الدواء، فرب مرضين تشابها، ويكون أحدهما مركباً، لا ينجح فيه ما ينجح في الذي ليس مركباً، فيقع الخطأ من هناك، وقد يكون

---

= الكبرى للبيهقي ٩/ ٣٤٣ وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ١٤٦ وفي التفسير للقرطبي ١٠/ ١٣٨.

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (٣٨٧٤) وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٥ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٧١٤) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٥٣٨) وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ١٣٩ وفي نصب الراية للزيلعي ٤/ ٢٨٥ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٥٨ وفي كنز العمال (٢٨٣٢٤).

(٢) الحديث في صحيح مسلم باب (٢٦) رقم (٦٩) وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٤/ ٢٧٦ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل نحوه ٣/ ٣٣٥.

متحداً لكن يريد الله أن لا ينجح، وهنا تخضع رقاب الأطباء.

وفي مجموع ما ذكرناه من الأحاديث الإشارة إلى إثبات الأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب، وكذلك تجنب المهلكات، والدعاء بطلب الشفاء ودفع المضار وغير ذلك. وقد سئل الحارث المحاسبي في كتاب «القصد» من تأليفه: هل يتداوى المتوكل؟ قال: نعم، قيل له من أين ذلك؟ قال: من وجود ذلك عن سيد المتوكلين، الذي لم يلحقه لاحق، ولا يسبقه في التوكل سابق، محمد خير البرية ﷺ. قيل له: ما تقول في خبر النبي ﷺ: «**من استرقى واكتوى بريء من التوكل**»[1]؟ قال: بريء من توكل المتوكلين الذين ذكرهم في حديث آخر فقال: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب**»[2]، وأما سواهم من المتوكلين فمباح لهم الدواء والاسترقاء. فجعل المحاسبي التوكل بعضه أفضل من بعض.

وقال في «التمهيد»: إنما أراد بقوله: «بريء من التوكل» إذا استرقى الرقى المكروهة في الشريعة، أو اكتوى وهو يعلق رغبته في الشفاء بوجود الكي، وكذلك قوله «لا يسترقون» الرقى المخالفة للشريعة، «لا يكتوون» وقلوبهم معلقة بنفع الكي ومعرضة عن فعل الله تعالى وأن الشفاء من عنده. وأما إذا فعل ذلك على ما جاء في الشريعة، وكان ناظراً إلى رب الدواء، وتوقع الشفاء من الله تعالى، وقصد بذلك استعمال بدنه إذا صح لله تعالى، وإتعاب نفسه وكدها في خدمة ربه، فتوكله باق على حاله لا ينقص منه الدواء شيئاً، استدلالاً بفعل سيد المتوكلين إذ عمل بذلك في نفسه وفي غيره، انتهى.

فقد تبين أن التدواي لا ينافي التوكل، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة.

وحكى ابن القيم: أنه ورد في خبر إسرائيلي، أن الخليل عليه الصلاة والسلام قال: يا رب ممن الداء؟ قال: مني، قال: فممن الدواء؟ قال: مني قال: فما بال الطبيب؟ قال:

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٢٠٥٥) وفي سنن ابن ماجه برقم (٣٤٨٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٤٩ و ٢٥٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٣٤١ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٢٨ وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٤٠٨) وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ١٦٠ وفي مشكاة المصابيح (٤٥٥٥) وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٤/ ٣٣٩ وفي كنز العمال (٢٨٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٤٧٢) ومسلم كتاب الايمان (٣٧١) والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٣٤١ والإمام أجمد بن حنبل في مسنده ١/ ٣٢١ و ٢/ ٣٥١ و ٤٠٠ و ٤٤٣ و ٥/ ٣٣٥ والطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٦٤ و ١٨/ ١٨٣ و ٢٠٣ وكنز العمال (٥٦٨١).

رجل أرسل الدواء على يديه. قال: وفي قوله ﷺ «**لكل داء دواء**» تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث على طلب ذلك الدواء، والتفتيش عليه، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يزيله تعلق قلبه بروح الرجاء، وبرد من حرارة اليأس، وانفتح له باب الرجاء، وقويت نفسه وانبعثت حرارته الغريزية، وكان ذلك سبباً لقوة الأرواح الحيوانية والنفسانية والطبيعية، ومتى قويت هذه الأرواح قويت القوى التي هي حاملة لها، فقهرت المرض ودفعته. انتهى.

فإن قلت: ما المراد بالإنزال في قوله في الأحاديث السابقة «إلا أنزل له دواء» وفي الرواية الأخرى «شفاء» فالجواب: أنه يحتمل أن يكون عبر بالإنزال عن التقدير، ويحتمل أن يكون المراد إنزال علم ذلك على لسان الملك للنبي ﷺ.

وأين يقع طب حذاق الأطباء، الذي غايته أن يكون مأخوذاً من قياس أو مقدمات وحدس وتجربة، من الوحي الذي يوحيه الله تعالى إلى رسوله ﷺ بما ينفعه ويضره، فنسبة ما عند حذاق الأطباء من الطب إلى هذا الوحي كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاء به ﷺ. بل ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم تهتد إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجربتهم وأقيستهم من الأدوية القلبية والروحانية، وقوة القلب، واعتماده على الله تعالى والتوكل عليه والانكسار بين يديه، والصدقة والصلاة والدعاء والتوبة والاستغفار، والإحسان إلى الخلق والتفريج عن المكروب.

فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها، فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لم يصل إليه علم أعلم الأطباء، وقد جربت ذلك ـ والله ـ مرات، فوجدته يفعل ما لا تفعله الأدوية الحسية.

ولا ريب أن طب النبي ﷺ متيقن البرء، لصدوره عن الوحي ومشكاة النبوة، وطب غيره أكثره حدس وتجربة، وقد يتخلف الشفاء عن بعض من يستعمل طب النبوة، وذلك لمانع قام بالمستعمل، من ضعف اعتقاد الشفاء به وتلقيه بالقبول. وأظهر الأمثلة في ذلك القرآن، الذي هو شفاء لما في الصدور، ومع ذلك فقد لا يحصل لبعض الناس شفاء صدره به لقصوره في الاعتقاد والتلقي بالقبول، بل لا يزيد المنافق إلا رجساً إلى رجسه، ومرضاً إلى مرضه، فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، والقلوب الحية. فإعراض الناس عن طب النبوة لإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الكريم الذي هو الشفاء النافع.
وكان علاجه ﷺ للمريض على ثلاثة أنواع:

**أحدها**: بالأدوية لإلهية الروحانية. **والثاني**: بالأدوية الطبيعية. **والثالث**: بالمركب من الأمرين.

# النوع الأول
# في طبه ﷺ بالأدوية الإلهية

اعلم أن الله تعالى لم ينزل من السماء شفاء قط أعم ـ ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء ـ من القرآن، فهو للداء شفاء، ولصدأ القلوب جلاء، كما قال تعالى: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾ [الإسراء: ٨٢]. ولفظه «من» ـ كما قال الإمام فخر الدين ـ ليست للتبعيض بل للجنس، والمعنى: وننزل من هذا الجنس الذي هو القرآن شفاء من الأمراض الروحانية وشفاء أيضاً من الأمراض الجسمانية. أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر، وذلك لأن المرض الروحاني نوعان:

**الاعتقادات الباطلة**: وأشدها فساداً الاعتقادات الفاسدة في الإلهية والنبوات والمعاد والقضاء والقدر، والقرآن مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة. ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب، والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة في هذه المذاهب الباطلة من العيوب لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني.

وأما **الأخلاق المذمومة** فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريفها وما فيها من المفاسد، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة والأعمال المحمودة، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض. فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية.

وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية، فلأن التبرك بقراءته ينفع كثيراً من الأمراض. وإذا اعتبر الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثاراً عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد، أفلا تكون قراءة القرآن العظيم المشتمل على ذكر جلال الله تعالى وكبريائه، وتعظيم الملائكة المقربين، وتحقير المردة والشياطين سبباً لحصول النفع في الدين والدنيا.

ويتأيد ما ذكرناه بما روي أن النبي ﷺ قال: «**من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله**» ونقل عن الشيخ أبي القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ أن ولده مرض مرضاً شديداً حتى أشرف على الموت، فاشتد عليه الأمر، قال: فرأيت النبي ﷺ في المنام فشكوت إليه ما بولدي فقال: أين أنت من آيات الشفاء؟ فانتبهت فأفكرت فيها فإذا هي في ستة مواضع من كتاب الله، وهي قوله تعالى:

﴿**ويشف صدور قوم مؤمنين**﴾ [التوبة: ١٤].

﴿**وشفاء لما في الصدور**﴾ [يونس: ٥٧].

﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ [النحل: ٦٩].

﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ [الشعراء: ٨٠].

﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ [فصلت: ٤٤].

قال: فكتبتها ثم حللتها بالماء وسقيته إياها فكأنما نشط من عقال، أو كما قال. وانظر رقية اللديغ بـ «الفاتحة» وما فيها من السر البديع والبرهان الرفيع. وتأمل قوله ﷺ في بعض أدعيته: «**وأن تجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء حزني، وشفاء صدري**»[1] فيكون له بمنزلة الدواء الذي بيستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله. وفي حديث عند ابن ماجه مرفوعاً: «**خير الدواء القرآن**»[2].

وها هنا أمر ينبغي أن يتفطن له، نبه عليه ابن القيم: وهو أن الآيات والأذكار والأدعية التي يستشفى بها، ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المحل المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون المانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، وكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان الدواء في نفس فعالة، وهمة مؤثرة أثر في إزالة الداء.

وكذلك الدعاء، فإنه من أقوى الأسباب في رفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عنه، إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يجبيه الله لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام والظلم، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو، وقد روى الحاكم حديث: «**واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه**»[3].

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٩٥ و ٤٥٢.

(٢) الحديث في سنن ابن ماجه برقم (٣٥٠١ ـ ٣٥٣٣ ـ ٣٥٣٧) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ١٠٧ و ١٤٢ وفي كنز العمال (٢٨١٠٣).

(٣) الحديث في الترمذي برقم (٣٤٧٩) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٢٤١) وفي المغني للعراقي ١/ ٣٠٨ وفي الدر المنثور ١/ ١٩٥ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٩ وفي كنز العمال (٣١٧٦) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٣٨٠.

ومن أنفع الأدوية الدعاء، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وإذا جمع من الدعاء حضور القلب، والجمعية بالكلية على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة كثلث الليل الأخير، مع الخضوع والانكسار، والذل والتضرع، واستقبال القبلة، والطهارة ورفع اليدين، والبداءة بالحمد والثناء على الله تعالى، والصلاة والتسليم على سيدنا محمد، بعد التوبة والاستغفار والصدقة، والح في المسألة، وأكثر التملق والدعاء، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته، والتوجه إليه بنبيه ﷺ فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً، لا سيما إن دعاه بالأدعية التي أخبر ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم. ولا خلاف في مشروعية الفزع إلى الله تعالى والالتجاء إليه في كل ما ينوب الإنسان.

وأما الرقى[1]، فاعلم أن الرقي بالمعوذات من أسماء الله تعالى، هو الطب الروحاني، وإذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى، لكن لما عزَّ هذا النوع، فزع الناس إلى الطب الجسماني. وفي البخاري، من حديث عائشة، (أنه ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات وهي الفلق والناس والإخلاص) فيكون من باب التغليب، أو المراد الفلق والناس. وكذلك كل ما ورد في التعويذ في القرآن، كقوله تعالى: ﴿**وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين**﴾ [المؤمنون: ٩٧].

وأما ما أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ كان يكره عشر خصال، فذكر منها الرقى إلا بالمعوذات، ففي سنده عبد الرحمن بن حرملة، قال البخاري: لا يصح حديثه. وعلى تقدير صحته فهو منسوخ بالإذن في الرقية بالفاتحة.

وأما حديث أبي سعيد عند النسائي: كان ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فأخذ بهما وترك ما سواهما، وحسنه الترمذي، فلا يدل على المنع من التعوذ بغير هاتين السورتين، بل على الأولوية، ولا سيما مع ثبوت التعوذ بغيرهما. وإنما اجتزأ بهما لما اشتملتا عليه من جوامع الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً. وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

- أن تكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته.

---

(١) الرقى: جمع رقية وهي العوذة معروفة قال رؤبة:

فما تركا من عوذة يعرفانها ... ولا رقية إلا بها رقياني

ويقال رقى الراقي رقيةً ورقياً إذا عوذ ونفث في عوذته. انظر لسان العرب ٥/٢٩٣ مادة (رقا).

ـ وباللسان العربي، أو بما يعرف معناه من غيره.
ـ وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى.

واختلفوا في كونها شرطاً، والراجح أنه لا بد من اعتبارها. وفي صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك: (**كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا على رقاكم، لا بأس بالرقي إذا لم يكن فيه شرك**)[١].

وله من حديث جابر: (نهى رسول الله ﷺ عن الرقى، فجاء آل عمرو بن حزم، فقالوا: يا رسول الله، إنها كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب، قال: «**فاعرضوها علي**»، قال: فعرضوا عليه، قال: «**ما أرى بأساً، من استطاع أن ينفع أخاه فلينفعه**»[٢] وقد تمسك قوم بهذا العموم، فأجازوا كل رقية جربت منفعتها، ولو لم يعقل معناها، لكن دل حديث عوف أنه مهما كان من الرقى يؤدي إلى الشرك فإنه يمتنع، وما لا يعقل معناه لا يؤمن أن يؤدي إلى الشرك فيمنع احتياطاً. والشرط الأخير لا بد منه.

وقال قوم: لا تجوز الرقية إلا من العين واللدغة، لحديث عمران ابن حصين: (لا رقية إلا من عين أو حمة)[٣]. وأجيب: بأن معنى الحصر فيه أنهما أصل كل ما يحتاج إلى الرقية، فيلحق بالعين جواز رقية من به خبل أو مسّ ونحو ذلك، لاشتراكهما في كونهما ينشآن عن أحوال شيطانية من إنس أو جن، ويلحق بالسم كل ما عرض للبدن من قرح ونحوه من المواد السمية. وقد وقع عند أبي داود من حديث أنس مثل حديث عمران وزاد: (أو دم)، وفي مسلم من حديث أنس أيضاً (رخص رسول الله ﷺ في الرقى من العين والحمة والنملة) وفي حديث آخر (والأذن)، ولأبي داود من حديث الشفاء بنت عبد الله أن النبي ﷺ قال: «**ألا تعلمين هذه ـ يعني حفصة ـ رقية النملة؟**»[٤]. والنملة:

---

(١) الحديث في مسلم كتاب السلام برقم (٦٤) وفي سنن أبي داود (٣٨٨٦) وفي سنن ابن ماجه (٣٥١٥) وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٢١٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٣٤٩ وفي مشكاة المصابيح (٤٥٣٠) وفي التمهيد لابن عبد البر ٢/ ٢٧٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٤٩.

(٢) الحديث في مسلم برقم (٦٠ ـ ٦٢ ـ ٦٣) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٠٢ و ٣٣٤ وفي مجمع الزوائد ٥/ ١١١ وفي المعجم الكبير ١٠/ ١١١.

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٣٨٨٤ ـ ٣٨٨٩) والترمذي برقم (٢٠٥٧) وابن ماجه برقم (٣٥١٣) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٧١ وابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٣٩٣ والحاكم في المستدرك ٤/ ٤١٣ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٥٥٧ ـ ٤٥٥٩) والطبراني في المعجم الكبير ١٨/ ٢٣٥ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٨٣٧١).

(٤) الحديث في سنن أبي داود برقم (٣٨٨٧) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٧٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٣٤٩ وفي مصنف عبد الرزاق (١٩٧٦٨) وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٠٧١)=

قروح تخرج في الجنب وغيره من الجسد. وقيل: المراد بالحصر يعني الأفضل، أي لا رقية أنفع، كما قيل: لا سيف إلا ذو الفقار. وقال قوم: المنهي عنه من الرقي ما يكون قبل وقوع البلاء، والمأذون فيه ما كان بعد وقوعه، ذكر ابن عبد البر والبيهقي وغيرهما.

وروى أبو داود وابن ماجه، وصححه الحاكم عن ابن مسعود، رفعه (**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**)[1]. والتمائم: جمع تميمة وهي خرزة أو قلادة تعلق في الرأس، كانوا في الجاهلية يعتقدون أن ذلك يدفع الآفات. والتِوَلَة: بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً ـ شيء كانت المرأة تستجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر وإنما كان ذلك من الشرك لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله، ولا يدخل في ذلك ما كان بأسماء الله وكلامه. فقد ثبت في الأحاديث استعمال ذلك قبل وقوعه، كما سيأتي إن شاء الله تعالى. ولا خلاف في مشروعية الفزع إلى الله سبحانه وتعالى، والالتجاء إليه سبحانه في كل ما يقع وكل ما يتوقع.

وقال بعضهم: المنهي عنه من الرقى هو الذي يستعمله المعزم وغيره ممن يدعي تسخير الجن له، فيأتي بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل، يجمع إلى ذكر الله تعالى وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم، والتعوذ من مردتهم، ويقال إن الحية لعداوتها للإنسان بالطبع تصادق الشياطين لكونهم أعداء بني آدم، فإذا عزم على الحية بأسماء الشياطين أجابت وخرجت من مكانها، وكذلك اللديغ إذا رقي بتلك الأسماء سالت سمومها من بدن الإنسان، فلذلك كره من الرقى ما لم يكن بذكر الله وأسمائه خاصة، وباللسان العربي الذي يعرف معناه ليكون بريئاً من الشرك. وعلى كراهة الرقى بغير كتاب الله علماء الأمة. وقال القرطبي: الرقى ثلاثة أقسام:

**أحدها**: ما كان يرقى به في الجاهلية، مما لا يعقل معناه، فيجب اجتنابه لئلا يكون فيه شرك أو يؤدي إلى الشرك.

**الثاني**: ما كان بكلام الله أو بأسمائه فيجوز، فإن كان مأثوراً فيستحب.

**الثالث**: ما كان بأسماء غير الله من ملك أو صالح أو معظم من المخلوقات

---

= وفي كنز العمال (٢٨٣٥٩ ـ ٣٤٣٨٢).

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (٣٨٨٣) وفي سنن ابن ماجه برقم (٣٥٣٠) وفي مسند الإمام أحمد ابن حنبل ١/ ٣٨١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٣٥٠ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٤١٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٢٦٢ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٥٥٦٩) وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٤١٢) وفي مشكاة المصابيح (٤٥٥٢) وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ١٥٧ وفي الترغيب والترهيب ٤/ ٣٠٨ وفي كنز العمال (٢٨٤١٥).

كالعرش قال: فهذا ليس من الواجب اجتنابه، ولا من المشروع الذي يتضمن الالتجاء إلى الله تعالى به والتبرك بأسمائه، فيكون تركه أولى، إلا أن يتضمن تعظيم المرقي به فينبغي أن يجتنب كالحلف بغير الله تعالى.

وقال الربيع: سألت الشافعي عن الرقية فقال: لا بأس أن يرقي بكتاب الله تعالى، وبما يعرف من ذكر الله تعالى. فقلت: أيرقي أهل الكتاب المسلمين؟ قال: نعم إذا رقوا بما يعرف من كتاب الله وبذكر الله. انتهى.

وفي الموطأ: أن أبا بكر قال لليهودية التي كانت ترقي عائشة: ارقيها بكتاب الله. قال النووي وقال القاضي عياض: واختلف قول مالك في رقية اليهودي والنصراني المسلم، وبالجواز قال الشافعي والله أعلم.

وروى ابن وهب عن مالك كراهية الرقية بالحديدة والملح وعقد الخيط، والذي يكتب خاتم سليمان، وقال: لم يكن ذلك من أمر الناس القديم.

## رقية الذي يصاب بالعين

روى مسلم عن ابن عباس قال: (قال رسول الله ﷺ: «**العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين**»)[1]. أي الإصابة بالعين شيء ثابت موجود، وهي من جملة ما تحقق كونه. قال المازري: أخذ الجمهور بظاهر الحديث، وأنكره طوائف من المبتدعة لغير معنى، لأن كل شيء ليس محالاً في نفسه، ولا يؤدي إلى قلب حقيقة، ولا إلى فساد دليل، فهو من مجوزات العقول. فإذا أخبر الشارع بوقوعه لم يكن لإنكاره معنى. وهل من فرق بين إنكارهم هذا وإنكارهم ما يخبر به من أمور الآخرة. وقد استشكل بعض الناس هذه الإصابة فقال: كيف تعمل العين من بعد حتى يحصل الضرر للمعيون؟

**وأجيب**: بأن طبائع الناس تختلف، فقد يكون ذلك من سم يصل من عين العائن في الهواء إلى بدن المعيون. وقد نقل عن بعض من كان معياناً أنه قال: إذا رأيت شيئاً يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني. ويقرب ذلك بالمرأة الحائض تضع يدها في إناء اللبن فيفسد، ولو وضعتها بعد طهرها لم يفسد. ومن ذلك أن الصحيح قد ينظر إلى العين الرمداء فيرمد.

وقال المازري: زعم بعض الطبائعيين أن العائن تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢١٨٨) وابن عبد البر في التمهيد ٦/٢٤٦ وفي الترمذي نحوه برقم (٢٠٦١) وفي سنن أبي داود برقم (٣٨٧٩) وفي سنن ابن ماجه برقم (٣٥٠٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/٢٨٩ و ٣١٩.

بالمعين فيهلك أو يفسد. وهو كإصابة السم من نظر الأفعى، وأشار إلى منع الحصر في ذلك مع تجويزه. وإن الذي يتمشى على طريقة أهل السنة أن العين إنما تضر عند نظر العائن بعادة أجراها الله تعالى أن يحدث الضرر عند مقابلة شخص آخر، وهل ثم جواهر حقيقة أو لا؟ هو أمر محتمل لا يقطع بإثباته ولا نفيه. ومن قال ممن ينتمي إلى الإسلام من أصحاب الطبائع بالقطع بأن ثم جواهر لطيفة غير مرئية تنبعث من العائن فتتصل بالمعيون، وتتخلل مسام جسمه، فيخلق الباري الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السم فقد أخطأ بدعوى القطع، ولكنه جائز أن تكون عادة ليست ضرورية ولا طبيعية، انتهى.

وهو كلام سديد. وليس المراد بالتأثير المعنى الذي تذهب إليه الفلاسفة، بل ما أجرى الله به العادة من حصول الضرر للمعيون. وقد أخرج البزار بسنده عن جابر رفعه: «**أكثر من يموت بعد قضاء الله وقدره بالنفس**»[1]. قال الراوي: يعني العين. وقد أجرى الله تعالى العادة بوجود كثير من القوى والخواص في الأجسام والأرواح، كما يحدث لمن ينظر إليه من يحتشمه من الخجل فيرى في وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك، وكذا الاصفرار عند رؤية من يخافه. وكثير من الناس يسقم بمجرد النظر إليه وتضعف قواه. وكل ذلك بواسطة ما خلق الله تعالى في الأرواح من التأثيرات لشدة ارتباطها بالعين، وليست هي المؤثرة، وإما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وكيفياتها وخواصها، فمنها ما يؤثر في البدن بمجرد الرؤية من غير اتصال به لشدة خبث تلك الروح وكيفيتها الخبيثة.

والحاصل: أن التأثير بإرادة الله تعالى وخلقه ليس مقصوراً على الاتصال الجسماني، بل يكون تارة به، وتارة بالمقابلة، وأخرى بمجرد الرؤية، وأخرى بتوجه الروح، كالذي يحدث من الأدعية والرقى والالتجاء إلى الله تعالى، وتارة يقع ذلك بالتوهم والتخيل، فالذي يخرج من عين العائن سهم معنوي، إن صادف البدن ـ لا وقاية له ـ أثر فيه، وإلا لم ينفذ السهم بل ربما عاد على صاحبه كالسهم الحسي. انتهى ملخصاً من فتح الباري وغيره.

قال ابن القيم: والغرض العلاج النبوي لهذه العلة، فمن التعوذات والرقى: الإكثار من قراءة المعوذتين والفاتحة وآية الكرسي، ومنها التعوذات النبوية نحو: أعوذ بكلمات الله التامة من شر كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامة. ونحو: أعوذ بكلمات الله

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٩٩ والفتني في تذكرة الموضوعات (٢٠٧) ونحوه في الكامل لابن عدي ٤/ ١٤٤٠ وللسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٨ وفي الدرر المنتثرة أيضاً (٤١).

التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمان.

وإذا كان يخشى ضرر عينه وإصابتها للمعين فليدفع شرها بقوله: اللهم بارك عليه. كما قال ﷺ لعامر بن ربيعة لما عاين سهل بن حنيف: «**ألا برَّكت عليه**». ومما يدفع به إصابة العين: قول ما شاء الله لا قوة إلا بالله. ومنها رقية جبريل للنبي ﷺ كما رواه مسلم: (بسم الله أرقيك من شر كل شيء يؤذيك، من شر كل ذي نفس أو عين حاسد. الله يشفيك، بسم الله أرقيك)[1]. وعنده أيضاً من حديث عائشة: كان جبريل يرقي النبي ﷺ إذا اشتكى: بسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر كل حاسد إذا حسد، ومن شر كل ذي عين. وأخرج مسلم من حديث ابن عباس رفعه: (**العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا**).

وظاهر الأمر الوجوب، وحكى فيه المازري خلافاً وصحح الوجوب، وقال: متى خشي الهلاك وكان اغتسال العائن مما جرت العادة بالشفاء به فإنه يتعين، وقد تقرر أنه يجب بذل الطعام للمضطر، وهذا أولى.

ولم يبين في حديث ابن عباس صفة الاغتسال. قال الحافظ ابن حجر: وقد وقع في حديث سهل بن حنيف عند أحمد والنسائي [وصححه ابن حبان من طريق الزهري عن أبي أمامة بن سهل][2]: أن أباه حدثه أن النبي ﷺ خرج وساروا معه نحو ماء، حتى إذا كانوا بشعب الخرار من الجحفة، اغتسل سهل بن حنيف وكان أبيض حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة[3]، فلبط سهل - أي صرع - وسقط إلى الأرض. فأتى رسول الله ﷺ فقال: «**هل تتهمون من أحد؟**» قالوا: عامر بن ربيعة، فدعا عامراً، فتغيظ عليه، فقال: «**علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك برَّكت**». ثم قال: اغتسل له، فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صب ذلك الماء عليه رجل من خلفه على رأسه وظهره،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب سلام (٣٩) وابن ماجه في كتاب الطب برقم (٣٥٢٣) والامام أحمد في مسنده ٦/ ١٦٠ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١١٠ وفي مصنف عبد الرزاق (١٩٧٧٩) كنز العمال (٢٨٥٢٢).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من قلم المصنف وهو في الأصل المنقول عنه. انظر فتح الباري ١٠/ ٢٥٠.

(٣) أي: أن جلد سهل كجلد المخبأة المكنونة التي لا تراها العيون ولا تبرز للشمس فتغيرها.

ثم كفأ القدح ففعل ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأس[1].

قال المازري: المراد بـ «داخلة إزاره» الطرف المتدلي الذي يلي حقوه الأيمن، قال: وظن بعضهم أنه كناية عن الفرج. انتهى. وزاد القاضي عياض: أن المراد ما يلي جسده من الإزار. وقيل: أراد موضع الإزار من الجسد، وقيل أراد وركه لأنه معقد الإزار. رأيت مما عزي لخط شيخنا الحافظ أبي الخير السخاوي: قال ابن بكير عن مالك: أنه كناية عن الثوب الذي يلي الجسد.

وقال ابن الأثير في النهاية: كان من عادتهم أن الإنسان إذا أصابته عين من أحد جاء للعائن بقدح فيه ماء فيدخل كفه فيه فيتمضمض ثم يمجه في القدح ثم يغسل وجهه فيه، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على يده اليمنى، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على يده اليسرى، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على مرفقه الأيمن، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على مرفقه الأيسر، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على قدمه الأيمن، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على قدمه الأيسر، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على ركبته اليمنى ثم يدخل يده اليمنى فيصب على ركبته اليسرى، ثم يغسل داخلة إزاره ولا يوضع القدح بالأرض، ثم يصب ذلك الماء المستعمل على رأس المصاب بالعين من خلفه صبة واحدة فيبرأ بإذن الله تعالى، انتهى.

قال المازري: وهذا المعنى مما لا يمكن تعليله ومعرفة وجهه من جهة العقل، فلا يرد لكونه لا يعقل معناه. وقال ابن العربي: إن توقف فيه متشرع قلنا له: قل الله ورسوله أعلم، وقد عضدته التجربة وصدقته المعاينة، أو متفلسف؛ فالرد عليه أظهر، لأن عنده أن الأدوية تفعل بقواها، وقد تفعل بمعنى لا يدرك، ويسمون ما هذا سبيله: الخواص. قال ابن القيم: ومن علاج ذلك والاحتراز منه، ستر محاسن من يخاف عليه العين، بما يردها عنه، كما ذكره البغوي في كتاب شرح السنة: أن عثمان بن عفان رأى صبياً مليحاً، فقال: دسموا نونته لئلا تصيبه العين، ثم قال في تفسيره، ومعنى دسموا نونته: أي سودوا نونته، والنونة: النقرة التي تكون في ذقن الصغير.

وذكر عن أبي عبد الله الساجي أنه كان في بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقة فارهة، فكان في الرفقة رجل عائن قل ما نظر إلى شيء إلا أتلفه، فقيل لأبي عبد الله: احفظ ناقتك من العائن، فقال ليس له إلى ناقتي سبيل، فأخبر العائن بقوله، فتحين غيبة أبي عبد الله، فجاء إلى رحله فنظر إلى الناقة فاضطربت وسقطت، فجاء أبو عبد الله فأخبر

---

(١) الحديث في دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٦٣ وفي المعجم الكبير للطبراني ٦/ ٩٧.

أن العائن قد عانها وهي كما ترى. فقال: دلوني عليه، فوقف عليه فقال: بسم الله حَبْس حابس، وحجر يابس، وشهاب قابس، رددت عين العائن عليه، وعلى أحب الناس إليه، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير. فخرجت حدقتا العائن وقامت الناقة لا بأس بها. انتهى.

وفي حديث هذا الباب من الفوائد: أن العائن إذا عرف يقضى عليه بالاغتسال، وأن الاغتسال من النشرة النافعة، وأن العين تكون مع الإعجاب ولو بغير حسد، ولو من الرجل المحب، ومن الرجل الصالح، وأن الذي يعجبه الشيء يبادر إلى الدعاء للذي يعجبه بالبركة، ويكون ذلك رقية منه، وأن الإصابة بالعين قد تقتل.

## عقوبة العائن

وقد إختلف في جريان القصاص بذلك:

فقال القرطبي: لو أتلف العائن شيئاً ضمنه، ولو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرر ذلك منه بحيث يصير عادة، وهو في ذلك كالساحر عند من لا يقتله كفراً. انتهى. ولم تتعرض الشافعية للقصاص في ذلك، بل منعوه وقالوا: إنه لا يقتل غالباً ولا يعد مهلكاً. وقال النووي في «الروضة»: ولا دية فيه ولا كفارة، لأن الحكم إنما يترتب على منضبط عام، دون ما يختص ببعض الناس وبعض الأحوال مما لا انضباط لها، كيف ول يقع منه فعل أصلاً، وإنما غايته حسد وتمن لزوال النعمة، وأيضاً: فالذي ينشأ ع الإصابة بالعين حصول مكروه لذلك الشخص، ولا يتعين ذلك المكروه في زوال الحياة فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين، انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: ولا يعكر عليه إلا الحكم بقتل الساحر، فإنه في معناه، والفرق بينهما عسر. ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم: أنه ينبغي للإمام منع العائن إذا عرف بذلك من مداخلة الناس، وأن يلزم بيته، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذي منعه عمر من مخالطة الناس، وأشد من ضرر الثوم الذي منع الشارع أكله من حضور الجماعة. قال النووي: وهذا القول صحيح متعين لا يعرف من غيره تصريح بخلافه.

## ذكر رقية النبي ﷺ التي كان يرقي بها

عن عبد العزيز قال: دخلت أنا وثابت على أنس بن مالك، فقال ثابت: يا أبا حمزة اشتكيت، فقال أنس: ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ؟ قال: بلى، قال: قل اللهم رب الناس، مذهب الباس، اشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقماً[1]. رواه

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٥٧٤٢) وفي سنن أبي داود رقم (٣٨٩٠) وفي مسند الإمام أحمد بن=

البخاري. وقوله: «مذهب الباس»: بغير همزة للمواخاة، أصله الهمز. وفي قوله «لا شافي إلا أنت» إشارة إلى أن كل ما يقع من الدواء والتداوي إن لم يصادف تقدير الله وإلا فلا ينجع. وقوله «لا يغادر ـ بالعين المعجمة ـ أي لا يترك.

وفي البخاري أيضاً عن مسروق عن عائشة أن النبي ﷺ كان يعوذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: (**اللهم رب الناس أذهب الباس، واشفه وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**). وقوله «يمسح بيده» أي على الوجع. وقوله «إلا شفاؤك» بالرفع بدل من موضع: لا شفاء. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يرقي ويقول: «**امسح الباس رب الناس، بيدك الشفاء، لا كاشف له إلا أنت**». رواه البخاري أيضاً.

وفي صحيح مسلم، عن عثمان بن أبي العاص، أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال النبي ﷺ: «**ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: بسم الله، ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**»[1]. وإنما كرره ليكون أنجح وأبلغ، كتكرار الدواء لإخراج المادة.

## كر طبه ﷺ من الفزع والأرق المانع من النوم

عن بريدة قال: شكا خالد إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما أنام الليل من لأرق، فقال ﷺ: إذا أويت إلى فراشك فقل: «**اللهم رب السماوات السبع وما أظلت، ورب الأرضين السبع وما أقلت ورب الشياطين وما أضلت، كن لي جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرط علي أحد منهم أو يبغي علي، عزَّ جارك، وجل ثناؤك ولا إله غيرك**»[2] رواه الترمذي.

## ذكر طبه ﷺ من حر المصيبة ببرد الرجوع إلى الله تعالى

في المسند مرفوعاً: «**ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها**»[3]. قال في الهدي النبوي: وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب وأنفعه له في

= حنبل ٣/ ١٥١ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٦٨٣) وفي كنز العمال (٢٨٣٦٧).

(١) الحديث في مسلم برقم (٦٧) وفي شرح السنة للبغوي ٥/ ٢٢٨ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٩٧ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٣٠٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١٥٣٣) وفي كنز العمال (٢٨٣٧٤).

(٢) الحديث في الترمذي برقم (٣٥٢٣) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ١٣٤ وفي إتحاف السادة المتقين ٤/ ٣٢٩ وفي الترغيب والترهيب ٢/ ٤٥٧.

(٣) ذكر نحوه أبو داود برقم (٣١١٩) وابن ماجه برقم (١٥٩٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٢١ =

عاجلته وآجلته، فإنها تتضمن أصلين عظيمين، إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن المصيبة:

**أحدهما**: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله الله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير.

**الثاني**: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فرداً كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد ونهايته فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء.

قال: ومن علاجه أن يطفىء نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وأنه لو فتش العالم لم ير فيه إلا مبتلي إما بفوات محبوب أو حصول مكروه، وإن سرور الدنيا أحلام نوم، أو ظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرت يوماً أساءت دهراً، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً، وما ملأت داراً حبرة إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيوم سرورٍ، إلا خبأت له يوم شرور. قال ابن مسعود: لكل فرحة ترحة، وما ملىء بيت فرحاً إلا ملىء ترحاً.

## ذكر طبه ﷺ من داء الهم والكرب بدواء التوجه إلى الرب

عن ابن عباس (أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: (**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب العرش الكريم**)[1]. وقوله «عند الكرب» أي عند حلول الكرب. وعند مسلم: كان يدعو بهن ويقولهن عند الكرب. وعنده أيضاً: (كان إذا حزبه أمر) ـ وهي بفتح المهملة والزاي وبالموحدة ـ أي هجم عليه أو غلبه.

قال الطبري: معنى قول ابن عباس «يدعو»، وإنما هو تهليل وتعظم، يحتمل أمرين: أحدهما، أن المراد تقديم ذلك قبل الدعاء، كما عند عبد بن حميد «كان إذا حزبه أمر قال..» فذكر الذكر المأثور، وزاد: ثم دعا. قال الطبري: ويؤيد هذا ما روى الأعمش عن إبراهيم قال: كان يقال إذا بدأ الرجل بالثناء قبل الدعاء استجيب له، وإذا بدأ بالدعاء قبل الثناء كان على الرجاء. ثانيهما: ما أجاب به ابن عيينة وقد سئل عن الحديث الذي فيه «أكثر ما كان يدعو به النبي ﷺ بعرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»

---

= وابن عبد البر في التمهيد ٣/ ١٨٠. وقول المصنف في المسند: أي المتصل.

(١) الحديث في البخاري برقم (٦٣٤٥ ـ ٦٣٤٦) وفي صحيح مسلم برقم (٢٧٣٠).

الحديث. فقال سفيان: هو ذكر وليس فيه دعاء، ولكن قال النبي ﷺ عن ربه عز وجل: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين. وقال أمية ابن أبي الصلت في مدح عبد الله بن جدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرضك الثناء

فهذا مخلوق حين نسبه إلى الكرم اكتفى بالثناء عن السؤال، فكيف بالخالق.

ثم إن حديث ابن عباس هذا ـ كما قاله ابن القيم ـ قد اشتمل على توحيد الإلهية والربوبية ووصف الرب سبحانه بالعظمة والحلم، وهاتان الصفتان مستلزمتان لكمال القدرة والرحمة والإحسان والتجاوز، ووصفه بكمال ربوبيته الشاملة للعالم العلوي والسفلي والعرش الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها، والربوبية التامة تستلزم توحيده، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والحب والخوف والرجاء والإجلال والطاعة إلا له، وعظمته المطلقة تستلزم إثبات كل كمال له، وسلب كل نقص وتمثيل عنه، وحلمه يستلزم كمال رحمته وإحسانه إلى خلقه. فعلم القلب ومعرفته بذلك توجب محبته وإجلاله وتوحيده، فيحصل له من الابتهاج واللذة والسرور ما يدفع عنه ألم الكرب والهم والغم، وأنت تجد المريض إذا ورد عليه ما يسره ويفرحه ويقوي نفسه، كيف[1] تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسي، فحصول هذا الشفاء للقلب أولى وأحرى. ثم إذا قابلت بين ضيق الكرب وسعة هذه الأوصاف التي تضمنها هذا الحديث وجدته في غاية المناسبة لتفريج هذا الضيق، وخرج القلب منه إلى سعة البهجة والسرور. وإنما يصدق هذه الأمور من أشرقت فيه أنوارها وباشر قلبه حقائقها.

قال ابن بطال حدثني أبو بكر الرازي قال: كنت بأصبهان عند أبي نعيم فقال له شيخ: إن أبا بكر بن علي قد سعي به إلى السلطان فسجن، فرأيت النبي ﷺ في المنام وجبريل عن يمينه يحرك شفتيه بالتسبيح لا يفتر، فقال لي النبي ﷺ قل لأبي بكر بن علي يدعو بدعاء الكرب الذي في صحيح البخاري حتى يفرج الله عنه، قال: فأصبحت فأخبرته فدعا به، فلم يمكث إلا قليلاً حتى أخرج.

وفي حديث علي عند النسائي وصححه الحاكم: لقنني رسول الله ﷺ هذه الكلمات وأمرني إن نزل بي كرب أو شدة أن أقولها: «**لا إله إلا الله الكريم العظيم، سبحان الله تبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين**» وفي لفظ: «الحليم الكريم» في

(١) المعنى: أنت تجد المريض كيف تقوى طبيعته على دفع المرض إذا ورد عليه ما يسره.

الأولى، وفي لفظ لا إله إلا الله وحده لا شريك له العليم العلي العظيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحليم الكريم، وفي لفظ لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحانه، تبارك وتعالى رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين. أخرجها كلها النسائي.

وروى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا أهمه أمر رفع طرفه إلى السماء فقال: «**سبحان الله العظيم**» وإذا اجتهد في الدعاء قال: «**يا حي يا قيوم**». وعنده أيضاً من حديث أنس: أنه ﷺ كان إذا حزبه أمر قال: «**يا حي يا قيوم، بك أستغيث**»[١].

قال العلامة ابن القيم: وفي تأثير قوله: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**» في دفع هذا الداء مناسبة بديعة، فإن صفة «الحياة» متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها، وصفة «القيومية» متضمنة لجميع صفات الأفعال. ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى هو اسم الحي القيوم، والحياة التامة تضاد جميع الآلام والأسقام، ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقها هم ولا غم ولا حزن ولا شيء من الآفات. فالتوسل بصفة «الحياة والقيومية» له تأثير في إزالة ما يضاد الحياة ويضر بالأفعال. فلهذا الاسم «الحي القيوم» تأثير عظيم خاص في إجابة الدعوات وكشف الكربات. ولهذا كان ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال: يا حي يا قيوم.

وروى أبو داود عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**»[٢]. وفي هذا الدعاء ـ كما قاله في زاد المعاد ـ من تحقيق الرجاء لمن الخير كله بيده، والاعتماد عليه وحده، وتفويض الأمر إليه والتضرع إليه أن يتولى إصلاح شأنه ولا يكله إلى نفسه، والتوسل إليه بتوحيده، مما له تأثير في دفع هذا الداء. وكذا قوله في حديث أسماء بنت عميس عند أبي داود أيضاً مرفوعاً: «**كلمات الكرب: الله ربي لا أشرك به شيئاً**».

وفي مسند الإمام أحمد من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: ما أصاب عبداً همّ ولا حزن فقال: «**اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك**

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٥٢٤) وفي إتحاف السادة المتقين ٥/٦٦ وفي مشكاة المصابيح (٢٤٥٤) وفي الترغيب والترهيب ١/٤٥٧ وفي كنز العمال (٣٤٩٨ ـ ٣٩١٨ ـ ١٨٠٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٩٠) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/٤٢ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٢٤٤٧) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٢٢).

أو أعلمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً»[1].

وإنما كان هذا الدعاء بهذه المنزلة لاشتماله على الاعتراف بعبودية الداعي وعبودية آبائه وأمهاته، وأن ناصيته بيده، يصرفهاكيف يشاء، وإثبات القدر، وأن أحكام الرب نافذة في عبده، ماضية فيه، لا انفكاك له عنها، ولا حيلة له في دفعها، وأنه سبحانه وتعالى عدل في هذه الأحكام غير ظالم لعبده، ثم توسله بأسماء الرب تعالى التي سمى بها نفسه، ما علم العباد منها، وما لم يعلموا، ومنها ما استأثر به في علم الغيب عنده، فلم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً، وهذه الوسيلة أعظم الوسائل وأحبها إلى الله، وأقربها تحصيلاً للمطلوب، ثم سؤاله أن يجعل القرآن لقلبه ربيعاً، أي كالربيع الذي يرتع فيه الحيوان، وأن يجعله لصدره كالنور الذي هو مادة الحياة، وبه يتم معاش العباد وأن يجعله شفاء همه وغمه فيكون بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله، وأن يجعله لحزنه كالجلاء الذي يجلو الطبوع[2] والأصدية، فإذا صدق العليل في استعمال هذا الدواء أعقبه شفاء تاماً.

وفي سنن أبي داود، عن أبي سعيد الحذري قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال: «يا أبا أمامة ما لي أراك في المسجد في غير وقت الصلاة» فقال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله، فقال: «ألا أعلمك كلاماً إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك، وقضى دينك» قال: قلت بلى يا رسول الله، قال: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت، اللهم إني أعوذ بك من الهم والحَزَن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» قال: ففعلت ذلك فأذهب الله همي، وقضى ديني[3].

وقد تضمن هذا الحديث الاستعاذة من ثمانية أشياء، كل اثنين منها قرينان مزدوجان: فالهم والحزن أخوان، والجبن والبخل أخوان، والعجز والكسل أخوان وضَلَع الدين وغلبة الرجال أخوان، فحصلت الاستعاذة من كل شر.

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٩١ و ٤٥٢ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٥٠٩ وفي الدر المنثور ٣/ ١٤٩ وفي موارد الظمآن (٢٣٧٢) وفي مجمع الزوائد ١٠/ ١٧٦ وفي المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣٢٩ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ١٠٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٢١٠ وفي كنز العمال (٣٤٣٦ ـ ٣٤٣٥).

(٢) الطبوع: جمع طبع وهو الصدأ أو الدنس. انظر القاموس المحيط ٣/ ٦٠ مادة (طبع).

(٣) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٥٥٥) وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ١٠٠.

وفي سنن أبي داود ـ أيضاً ـ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لايحتسب**»[١]. وإنما كان الاستغفار له تأثير في دفع الهم والضيق لأنه قد اتفق أهل الملل وعقلاء كل ملة على أن المعاصي والفساد يوجبان الهم والغم والحزن وضيق الصدر وأمراض القلب، وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار.

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ: «**من كثرت همومه فليكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله**». وثبت في الصحيحين أنها كنز من كنوز الجنة، وفي الترمذي: أنها باب من أبواب الجنة، وفي بعض الآثار: أنه ما ينزل ملك من السماء ولا يصعد إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله.

وروى الطبراني من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل فقال لي: يا محمد قل توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً**». وفي كتاب ابن السني من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ: من «**قرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة عند الكرب أغاثه الله عز وجل**». وعنده ـ أيضاً ـ من حديث سعد بن أبي وقاص، قال: قال ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه، كلمة أخي يونس: فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**» وعند الترمذي: «**لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له**».

وروى الديلمي في مسند الفردوس، عن جعفر بن محمد ـ يعني الصادق ـ قال: حدثني أبي عن جدي أنه ﷺ كان إذا حزبه أمر دعا بهذا الدعاء: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بكنفك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك علي فلا أهلك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمت بها علي قلَّ لك بها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قلَّ لك بها صبري، فيا من قلَّ عند نعمته شكري فلم يحرمني، ويا من قلَّ عند بليته صبري فلم يخذلني، ويا من رآني على الخطايا فلم يفضحني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبداً، ويا ذا النعمة التي لا تحصى عدداً، أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد وبك أدرأ في نحور الأعداء والجبارين، اللهم أعني على ديني بالدنيا، وعلى آخرتي بالتقوى واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكلني إلى نفسي فيما حظرته علي، يا من لا

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٢٧) وابن السني في عمل اليوم والليلة ٣٣٨.

تضره الذنوب، ولا ينقصه العفو، هب لي ما لا ينقصك، واغفر لي ما لا يضرك، إنك أنت الوهاب، أسألك فرجاً قريباً وصبراً جميلاً، ورزقاً واسعاً، والعافية من البلايا، وشكر العافية ـ وفي رواية: وأسألك الشكر على العافية ـ وأسألك الغنى عن الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

## ذكر طبه ﷺ من داء الفقر

عن ابن عمر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن الدنيا أدبرت عني وتولت، قال له: «**فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبه يرزقون، قل عند طلوع الفجر: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، استغفر الله مائة مرة تأتيك**[1] **الدنيا صاغرة**» فولى الرجل فمكث ثم عاد فقال: يا رسول الله لقد أقبلت علي الدنيا فما أدري أين أضعها. رواه الخطيب في رواة مالك.

## ذكر طبه ﷺ من داء الحريق

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن التكبير يطفئه**»[2]. فإن قلت ما وجه الحكمة في إطفاء الحريق بالتكبير، أجاب صاحب زاد المعاد: بأنه لما كان الحريق سببه النار، وهي مادة الشيطان التي خلق منها، وكان فيه من الفساد العام ما يناسب الشيطان بمادته وفعله، وكان للشيطان إعانة عليه وتنفيذ له، وكانت النار تطلب بطبعها العلو والفساد، وهما هدي الشيطان، وإليهما يدعو، وبهما يهلك بني آدم، فالنار والشيطان كل منهما يريد العلو في الأرض والفساد، وكبرياء الله تعالى تقمع الشيطان وفعله، فلهذا كان تكبير الله له أثر في إطفاء الحريق، فإن كبرياء الله تعالى لا يقوم لها شيء، فإذا كبر المسلم ربه أثر تكبره في خمود النار التي هي مادة الشيطان. وقد جربنا نحن وغيرنا هذا فوجدناه كذلك. انتهى. وقد جربت ذلك بطيبة في سنة خمس وتسعين وثمانمائة فوجدت له أثراً عظيماً لم أجده لغيره. ولقد شاع وذاع رؤية طيور بحريق طيبة الواقع في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة معلنة بالتكبير. وفيه يقول قاضي القضاة شمس الدين السخاوي:

فظن كلٌّ بأن النار تحرقه ... فما ترى من جواها غير منهزم

---

(١) الواجب حذف الياء لأنها في جواب الأمر، ويمكن أن يكون جواب «إذا» مقدرة وهي غير جازمة، أي: فإنك إذا فعلت ذلك تأتيك.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٩٣ وابن حجر في المطالب العالية (٣٤٢٤) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٥/ ١٧٦٥ و ٤/ ١٤٦٩ وعمل اليوم والليلة لابن السني (٢٨٩ ـ ٢٩٢) وفي ميزان الاعتدال (٤٥٣٠).

فجـــاءت الطيـــر روتهـــا بـــأجنحـــة عـــن البيـــوت رآهـــا غيـــر متهـــم

وقال أيضاً في قصيدة أخرى:

فكـــل شخـــص تـــولـــى خـــائفـــاً حـــذراً فجـــاءت الطيـــر للنيـــران تطـــردهـــا

عن البيوت ولا يخفى لمن بصرا

## ذكر ما كان ﷺ يطب به من داء الصرع

في الصحيحين أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، فقال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك**» فقالت: أصبر، قالت: فإني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها[1].

قال ابن القيم: الصرع صرعان، صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصرع من الأخلاط الرديئة، والثاني هو الذي يتكلم فيه الأطباء. فأما علاج صرع الأرواح فيكون بأمرين: أمر من جهة المصروع وأمر من جهة المعالج، فالذي من جهة المصروع يكون بقوة نفسه وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان، فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحاً في نفسه جيداً، وأن يكون الساعد قوياً. والثاني: من جهة المعالج بأن يكون فيه هذان الأمران أيضاً، حتى إن من المعالجين من يكتفي بقوله: اخرج منه، أو يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، أو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال: وقد كان النبي ﷺ يقول: «**اخرج عدو الله أنا رسول الله**» وكان بعضهم يعالج ذلك بآية الكرسي ويأمر بكثرة قراءتها للمصروع ومن يعالجه بها وبقراءة المعوذتين. قال: ومن حدث له الصرع وله خمسة وعشرون سنة وخصوصاً بسبب دماغي أيس من برئه، وكذلك إذا استمر به إلى هذه السن. قال: فهذه المرأة التي جاء الحديث أنها تصرع وتتكشف يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع فوعدها النبي ﷺ بصبرها على هذا المرض بالجنة.

ولقد جربت الإقسام بالنبي ﷺ على الله تعالى مع قوله تعالى ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار**﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر سورة الفتح في ابنتين صغيرتين صرعتا فشفيتا. ومن الغريب قصة غزالة الحبشية خادمتنا لما صرعت بدرب الحجاز الشريف واستغثت به ﷺ في ذلك، فجيء إلي بصارعها في المنام بأمره ﷺ فوبخته

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٢٤٢) وفي صحيح مسلم أيضاً برقم (٢٥٧٦).

وأقسم أن لا يعود إليها، فاستيقظت وما بها قَلَبَة ومن ثم لم يعد إليها فلله الحمد.

## ذكر دوائه ﷺ من داء السحر

قال النووي: السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد يكون كفراً، وقد لا يكون كفراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفر، وإلا فلا، وأما تعليمه وتعلمه فحرام، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عزر فاعله واستتيب منه، ولا يقتل عندنا، وإن تاب قبلت توبته. وقال مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب ولا تقبل توبته بل يتحتم قتله. والمسألة مبنية على الخلاف في قبول توبة الزنديق، لأن الساحر عنده كافر، كما ذكرناه، وعندنا: ليس بكافر، وعندنا تقبل توبة المنافق والزنديق.

قال القاضي عياض: وبقول مالك قال أحمد بن حنبل وهو مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين. قال أصحابنا: فإذا قتل الساحر بسحره إنساناً واعترف أنه مات بسحره وأنه يقتل غالباً لزمه القصاص. فإن قال مات به ولكنه قد يقتل وقد لا يقتل فلا قصاص وتجب الدية والكفارة، وتكون الدية في ماله لا على عاقلته، لأن العاقلة لا تحمل ما ثبت باعتراف الجاني. قال أصحابنا: ولا يتصور ثبوت القتل بالسحر بالبينة، وإنما يتصور باعتراف الساحر. انتهى. واختلف في السحر:

فقيل: هو تخييل فقط، ولا حقيقة له، وهو اختيار أبي جعفر الاسترابادي من الشافعية، وأبي بكر الرازي من الحنفية وطائفة. قال النووي، والصحيح أن له حقيقة، وبه قطع الجمهور وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة.

قال شيخ الإسلام أبو الفضل العسقلاني: لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا؟ فمن قال إنه تخييل فقط منع ذلك، والقائلون بأن له حقيقة اختلفوا: هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعاً من الأمراض، أو ينتهي إلى الإحالة بحيث يصير الجماد حيواناً مثلاً وعكسه، فالذي عليه الجمهور هو الأول.

وقال المازري: جمهور العلماء على إثبات السحر، لأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق، أو تركيب أجسام، او مزج قوى على ترتيب مخصوص. ونظير ذلك ما وقع من حذاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض حتى ينقلب الضار منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعاً. وقيل: لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله في قوله: ﴿**يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾ [البقرة: ١٠٢]، لكون المقام مقام تهويل.

فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره الله تعالى. وقال المازري: والصحيح من جهة العقل أن يقع به أكثر من ذلك، قال: والآية ليست نصاً في منع الزيادة، ولو قلنا إنها ظاهرة في ذلك. ثم قال: والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة، أن السحر يكون معاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد، والكرامة لا تحتاج إلى ذلك، إنما تقع غالباً اتفاقاً، وأما المعجزة فتمتاز عن الكرامة بالتحدي.

ونقل إمام الحرمين: الإجماع على أن السحر لا يقع إلا من فاسق، وأن الكرامة لا تظهر على يد فاسق. ونقل نحوه النووي في «زيادة الروضة» عن المتولي. وينبغي أن يعتبر حال من يقع منه الخارق، فإن كان متمسكاً بالشريعة متجنباً للموبقات، فإن الذي يظهر على يديه من الخوارق كرامة وإلا فهو سحر.

وقال القرطبي: السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجود تركيبها وأوقاتها، وأكثرها تخييلات بغير حقيقة وإيهامات بغير ثبوت، فيعظم عند من لا يعرف ذلك، كما قال تعالى عن سحرة فرعون ﴿**وجاؤوا بسحر عظيم**﴾ [الأعراف: ١١٦] مع أن حبالهم وعصيهم لم يخرجوها عن كونها حبالاً وعصياً.

وقال أبو بكر الرازي في «الأحكام»: (أخبر الله تعالى أن الذي ظنه موسى أنها تسعى لم يكن سعياً، وإنما كان تخييلاً، وذلك أن عصيهم كانت مجوفة وقد ملئت زئبقاً، وكذلك الحبال كانت من أدم محشوة زئبقاً، وقد حفروا قبل ذلك أسراباً وجعلوا لها آزاجاً وملؤوها ناراً، فلما طرحت على ذلك الموضع وحمي الزئبق حركا، لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير، فلما أثقلته كثافة الحبال والعصي صارت تتحرك بحركته، فظن من رآها أنها تسعى، ولم تكن تسعى حقيقة، انتهى.

قال القرطبي: والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيراً في القلوب كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر، وفي الأبدان بالألم والسقم، وإنما المنكر أن ينقلب الجماد حيواناً، أو عكسه، بسحر الساحر.

وقد ثبت في البخاري من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ سُحِر، حتى إن كان ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات ليلة عند عائشة دعا ودعا ثم قال: «**يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته؟» أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال من طبه قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان**» فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه،

فجاء فقال: **يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء، وكان رؤوس نخلها رؤوس الشياطين،** فقلت يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: **قد عافاني الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شراً، فأمر بها فدفنت**[١]. **وفي رواية للبخاري أيضاً: فأتى البئر حتى استخرجه فقال: هذه البئر التي رأيتها، قالت عائشة: أفلا تنشرت؟ قال: «أما الله شفاني، وأكره أن أثير على الناس شراً»**. وفي حديث ابن عباس عند البيهقي ـ بسند ضعيف ـ في آخر قصة السحر الذي سحر به النبي ﷺ أنهم وجدوا وتراً فيه إحدى عشرة عقدة، وأنزلت الفلق والناس، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة. وأخرجه ابن سعد بسند آخر منقطع عن ابن عباس أن علياً وعماراً لما بعثهما النبي ﷺ لاستخراج السحر وجدا طلعة فيها إحدى عشرة عقدة فذكر نحوه. وفي رواية ذكرها في فتح الباري: فنزل رجل فاستخرجه وأنه وجد في الطلعة تمثالاً من شمع تمثال رسول الله ﷺ وإذا فيه أبر مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة، فنزل جبريل بالمعوذتين، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، وكلما نزع إبرة وجد لها ألماً، ثم يجد بعدها راحة.

وقد بين الواقدي السنة التي وقع فيها السحر، كما أخرجه عنه ابن سعد بسند له إلى عمر بن عبد الحكم مرسلاً قال: لما رجع ﷺ من الحديبية في ذي الحجة ودخل المحرم سنة سبع جاءت رؤوس اليهود إلى لبيد بن الأعصم، وكان حليفاً إلى بني زريق، وكان ساحراً، فقالوا: أنت أسحرنا، وقد سحرنا محمداً فلم نصنع شيئاً، ونحن نجعل لك جعلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير[٢]. ووقع في رواية أبي ضمرة عند الإسماعيلي: فأقام أربعين ليلة، وفي رواية وهيب عن هشام عند أحمد: ستة أشهر.

ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه، والأربعين يوماً من استحكامه. وقال السهيلي: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث ﷺ فيها في السحر، حتى ظفرت به في جامع معمر عن الزهري: أنه لبث سنة. قال الحافظ ابن حجر: وقد وجدناه موصولاً[٣] بالإسناد الصحيح، فهو المعتمد. وقال المازري: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وزعموا أنه يحط منصب النبوة، ويشكك فيها، قالوا: وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل. وزعموا: أن تجويز هذا يعدم

---

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (٢١٨٩) وفي صحيح البخاري برقم (١٤٩٩) وبئر ذروان: بناحية المدينة. في دور بني زريق من الأنصار. انظر معجم ما استعجم للبكري ٢/ ٦١١.

(٢) ذكره ابن سعد في الطبقات ٢/ ١٥٢.

(٣) أي عند الإسماعيلي وأحمد في الروايتين السابقتين.

الثقة بما شرعوه من الشرائع، إذ يحمل على هذا أنه يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثَمَّ، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء.

قال المازري: وهذا كله مردود، لأن الدليل قد قام على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى، وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل. وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها، ولا كانت الرسالة من أجلها، فهو في ذلك عرضة لما يعرض لبشر كالأمراض، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له، مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين، انتهى. وقال غيره: لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يجزم بفعله ذلك، وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت، فلا يبقى على هذا للملحد حجة.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بالتخيل المذكور، أنه يظهر له من نشاطه ومن سابق عادته من الاقتدار على الوطء، فإذا دنا من المرأة فتر عن ذلك، كما هو شأن المعقور، ويكون قوله في الرواية الأخرى «حتى كاد ينكر بصره» أي كالذي ينكر بصره بحيث إنه إذا رأى الشيء يخيل إليه أنه على غير صفته، فإذا تأمله عرف حقيقته. ويؤيد جميع ما تقدم: أنه لم ينقل عنه في خبر من الأخبار أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به.

قال بعضهم: وقد سلك النبي ﷺ في هذه القصة مسلكي التفويض وتعاطي الأسباب، ففي أول الأمر فوض وسلم لأمر ربه، واحتسب الأجر في صبره على بلائه، ثم لما تمادى ذلك وخشي من تماديه أن يضعفه عن فنون عبادته جنح إلى التداوي. فقد أخرج أبو عبيد من مرسل عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: احتجم النبي ﷺ على رأسه، يعني حين طب، ثم جنح إلى الدعاء، وكل من المقامين غاية في الكمال.

وقال ابن القيم: من أنفع الأدوية وأقوى ما يؤخذ من النشرة مقاومة السحر الذي هو من تأثير الأرواح الخبيثة بالأدوية الإلهية من الذكر والدعاء والقراءة، فالقلب إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره، وله ورد من الذكر والدعاء والتوجه لا يخل به، كان ذلك من أعظم الأسباب المانعة من إصابة السحر له، قال: وسلطان تأثير السحر هو في القلوب الضعيفة، ولهذا كان غالب ما يؤثر في النساء والصبيان والجهال، لأن الأرواح الخبيثة إنما تتسلط على أرواح تلقاها مستعدة لما يناسبها، انتهى ملخصاً.

ويعكر عليه حديث الباب، وجواز السحر على النبي ﷺ مع عظم مقامه، وصدق توجهه وملازمة ورده، ولكن يمكن الانفصال عن ذلك بأن الذي ذكره محمول على

الغالب، وإنما وقع به ﷺ لبيان تجويز ذلك عليه. وأما ما يعالج به من النشرة المقاومة للسحر، فذكر ابن بطال: أن في كتب وهب بن منبه: أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فتدق بين حجرين ثم يضرب ذلك بالماء، ويقرأ فيه آية الكرسي والقلاقل[1] ثم يحسو منه ثلاث حسيات ثم يغتسل به، فإنه يذهب عنه ما كان به، وهو جيد للرجل إذا احتبس عن أهله. وممن صرح بجواز النشرة، المزني عن الشافعي، وأبو جعفر الطبري وغيرهما. انتهى.

وقال ابن الحاج في «المدخل»: كان الشيخ أبو محمد المرجاني أكثر تداويه بالنشرة يعملها لنفسه ولأولاده ولأصحابه فيجدون على ذلك الشفاء، وأخبر رحمه الله أن النبي ﷺ أعطاها له في المنام، وقال: إنه مرة رأى النبي ﷺ وقال له: ما تعلم ما عمل معك ومع أصحابك في هذه النشرة، نقله عنه خادمه، وهي هذه: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه**﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخر السورة، ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾ [الإسراء: ٨٢] ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً**﴾ [الحشر: ٢١] إلى آخر السورة، وسورة الإخلاص والمعوذتين، ثم يكتب: اللهم أنت المحيي وأنت المميت، وأنت الخالق البارىء وأنت المبلي، وأنت المعافي، وأنت الشافي، خلقتنا من ماء مهين، وجعلتنا في قرار مكين إلى قدر معلوم، اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا، يا من بيده الابتلاء والمعافاة، والشفاء والدواء أسألك بمعجزات نبيك محمد ﷺ حبيبك، وبركات خليلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وحرمة كليمك موسى عليه الصلاة والسلام، اللهم اشفه.

## ذكر رقية لكل شكوى

عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من اشتكى منكم شيئاً فليقل: ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض واغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين أنزل رحمة من عندك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ بإذن الله**»[2] رواه أبو داود في سننه.

## رقيته ﷺ من الصداع

روى الحميدي في «الطب» عن يونس بن يعقوب عن عبد الله قال: كان رسول الله

---

(١) القلاقل: أي (قل هو الله أحد) والمعوذتان.

(٢) الحديث في سنن أبي داود برقم (٣٨٩٢) وفي المستدرك للحاكم ١/٣٤٣ و ٤/٢١٨ وفي مشكاة المصابيح (١٥٥٥) وفي كنز العمال (٢٨٣٦٣).

ﷺ يتعوذ من الصداع، بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله الكبير وأعوذ بالله العظيم من كل عرق نعار[1] ومن شر حر النار. ورواه ابن السني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأصاب أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ورم في رأسها، فوضع رسول الله ﷺ يده على ذلك من فوق الثياب فقال: «**بسم الله أذهب عنها سوءه وفحشه بدعوة نبيك الطيب المبارك المكين عندك، بسم الله**» صنع ذلك ثلاث مرات، وأمرها أن تقول ذلك، فقالت ثلاثة أيام. فذهب الورم رواه الشيخ ابن النعمان بسنده والبيهقي.

## رقيته ﷺ من وجع الضرس

روى البيهقي أن عبد الله بن رواحة شكا إلى النبي ﷺ وجع ضرسه، فوضع ﷺ يده على خده الذي فيه وقال: «**اللهم أذهب عنه سوء ما يجد وفحشه، بدعوة نبيك المكين المبارك عندك**» سبع مرات، فشفاه الله قبل أن يبرح. وروي الحميدي أن فاطمة رضي الله عنها أتت رسول الله ﷺ تشكو ما تلقى من ضربان الضرس، فأدخل سبابته اليمنى فوضعها على السن الذي تألم، فقال: «**بسم الله وبالله، أسألك بعزتك وجلالك وقدرتك على كل شيء، فإن مريم لم تلد غير عيسى من روحك وكلمتك، أن تكشف ما تلقى فاطمة بنت خديجة من الضر كله، فسكن ما بها**».

ومن الغريب: ما شاع وذاع عن شيخنا المحب الطبري إمام مقام الخليل بمكة، ورأيته يفعله غير مرة، وضع يده على رأس الموجوع ضرسه، ويسأل عن اسمه واسم أمه وعن المدة التي يريد المألوم أن لا يألمه فيها، فيقول: سبع سنين أو تسع سنين مثلاً بالوتر، قالوا: فما يرفع يده إلا وقد سكن ألمه، ويمكث المدة المذكورة لا يألمه، كما أشيع ذلك واشتهر. ومما جرب أن يكتب على الخد الذي يلي الوجع: بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿**قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون**﴾ [الملك: ٢٣]، وإن شاء كتب ﴿**وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم**﴾ [الأنعام: ١٣].

## رقية لعسر البول

روى النسائي عن أبي الدرداء أنه أتاه رجل يذكر أن أخاه احتبس بوله، فأصابه حصاة البول، فعلمه رقية سمعها من رسول الله ﷺ: ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، أنت رب المتطببين فأنزل شفاء من شفائك، ورحمة من

---

(١) نعار: فار منه الدم أو صوت خروج الدم انظر القاموس المحيط ٢/ ١٥٠ مادة (نعر).

رحمتك على هذا الوجع فيبرأ. وأمره أن يرقيه بها، فرقاه بها فبرىء. وقد تقدم هذا في رقية الشكوى العامة من حديث أبي الدرداء.

### رقية الحمى

عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على عائشة وهي موعوكة، وهي تسب الحمى، فقال: «**لا تسبيها فإنها مأمورة ولكن إن شئت علمتك كلمات إذا قلتهن أذهبها الله عنك**» قالت: علمني، قال: «**قولي اللهم ارحم جلدي الرقيق وعظمي الدقيق من شدة الحريق، ما أم مِلدم**[1]**، إن كنت آمنت بالله العظيم فلا تصدعي الرأس، ولا تنتني الفم، ولا تأكلي اللحم، ولا تشربي الدم، وتحولي عني إلى من اتخذ مع الله إلهاً آخر**»[2] فقالتها فذهبت عنها، رواه البيهقي.

وقد جرب ذلك ـ كما رأيته بخط شيخنا ـ ولفظه: اللهم ارحم عظمي الدقيق وجلدي الرقيق، وأعوذ بك من فورة الحريق، يا أم ملدم، إن كنت آمنت بالله واليوم الآخر، فلا تأكلي اللحم، ولا تشربي الدم، ولا تفوري على الفم، وانتقلي إلى من يزعم أن مع الله إلهاً آخر، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

ويكتب للحمى المثلثة ـ مما ذكره صاحب الهدي ـ على ثلاث ورقات لطاف: بسم الله فرَّت، بسم الله مرَّت. بسم الله قلَّت، ويأخذ كل يوم ورقة ويجعلها في فمه ويبلعها بماء. وقد رخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعله الله فيه. قال ابن الحاج في «المدخل»: وقد كان الشيخ أبو محمد المرجاني لا تزال الأوراق للحمى وغيرها على باب الزاوية، فمن كان به ألم أخذ ورقة منها فاستعملها فيبرأ بإذن الله تعالى، وكان المكتوب فيها: أزلي لم يزل، ولا يزال، يزيل الزوال، وهو لا يزال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال المروزي[3]: بلغ أبا عبد الله أني حممت فكتب لي من الحمى رقعة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله وبالله ومحمد رسول الله، يا نار كوني برداً وسلاماً على

---

(١) أم ملدم: كنية الحمى.

(٢) الحديث في دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٦٩ وفي كنز العمال (٢٨٥١٢) وفي ابن ماجه نحوه برقم (٣٤٦٩) وهو ضعيف ففي إسناده موسى بن عبينة.

(٣) هو أحمد بن علي بن سعيد المروزي أبو بكر. قاض من حفاظ الحديث توفي بدمشق سنة (٢٩٢ هـ). الاعلام ١/ ١٧١ تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٦٣ رقم الترجمة (٦٨٣) تاريخ بغداد ٤/ ٣٠٤ العبر ٢/ ٩١.

إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين، اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل اشف صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبروتك، إله الحق آمين.

● ومما جرب للخراج، ونقله صاحب زاد المعاد، أن يكتب عليه **﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾** [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

● ومما يكتب لعسر الولادة ما روى الخلال عن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قال: رأيت أبي يكتب للمرأة إذا عسر عليها ولادتها في جام أبيض، أو شيء نظيف، حديث ابن عباس: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها.

قال الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزي أن أبا عبد الله جاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله اكتب لامرأة قد عسر عليها الولادة منذ يومين فقال: قل له يجيء بجام واسع وزعفران. قال المروزي: ورأيته يكتب لغير واحد.

وفي «المدخل»: يكتب في آنية جديدة: اخرج أيها الولد من بطن ضيق إلى سعة هذه الدنيا، اخرج بقدرة الذي جعلك في قرار مكين إلى قدر معلوم، لو أنزلنا هذا القرآن على جبل، إلى آخر السورة، وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. وتشربها النفساء، ويرش منها على وجهها. قال الشيخ المرجاني: أخذته عن بعض السادة، فما كتبته لأحد إلا نجح في وقته. انتهى.

وروى عن عكرمة عن ابن عباس قال: مر عيسى عليه السلام على امرأة وقد اعترض ولدها في بطنها فقالت: يا كلمة الله ادع الله لي أن يخلصني مما أنا فيه فقال: يا خالق النفس من النفس، ويا مخلص النفس من النفس، ويا مخرج النفس من النفس خلصها، قال: فرمت بولدها وإذا هي قائمة. قال: فإذا عسر على المرأة ولدها فاكتبه لها.

ومما يكتب أيضاً لذلك، ويكون في إناء نظيف: **﴿إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت، وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت﴾** [الإنشقاق: ١ ـ٤] وتشرب الحامل منه وترش على بطنها.

● ومما يكتب للرعاف على جبهة المرعوف **﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر﴾** [هود: ٤٤]، ولا يجوز كتابتها بدم الرعاف كما يفعله

بعض الجهال، فإن الدم نجس فلا يجوز أن يكتب به كلام الله.

● ومما يكتب لعرق النسا: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم رب كل شيء، ومليك كل شيء، وخالق كل شيء، أنت خلقتني وخلقت عرق النسا فيَّ فلا تسلطه عليَّ بأذى، ولا تسلطني عليه بقطع، واشفني شفاء لا يغادر سقماً، لا شافي إلا أنت.

وأما حفيظة رمضان: لا آلاء إلا آلاؤك يا الله، إنك سميع عليم محيط به علمك كعسلهون، وبالحق أنزلناه وبالحق نزل إلى آخرها.. فقال شيخنا: اشتهرت ببلاد اليمن ومكة ومصر والمغرب وجملة بلدان أنها حفيظة رمضان، تحفظ من الغرق والسرق والحرق وسائر الآفات، وتكتب في آخر جمعة منه، وجمهورهم يكتبها والخطيب يخطب على المنبر، وبعضهم بعد صلاة العصر. وهذه بدعة لا أصل لها، وإن وقعت في كلام غير واحد من الأكابر، بل أشعر كلام بعضهم إلى ورودها في حديث ضعيف، وكان الحافظ ابن حجر ينكرها جداً، حتى وهو قائم على المنبر في أثناء خطبته حين يرى من يكتبها.

## ذكر ما يقي من كل بلاء

عن أبان بن عثمان عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قال بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات حين يمسي لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي. قال: فأصاب أبان بن عثمان الفالج، فتجعل الذي سمع منه الحديث ينظر إليه، فقال مالك تنظر فوالله ما كذبت على عثمان ولا كذب عثمان على رسول الله ﷺ، ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني غضبت فنسيت أن أقولها**»[1] رواه أبو داود، ورواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وعنده: فكان أبان أصابه طرف فالج فجعل الرجل ينظر إليه فقال له أبان: مالك تنظر إلي، أما إن الحديث كما حدثتك ولكن لم أقله يومئذ ليمضي الله أمراً قدره.

## ذكر ما يستجلب به المعافاة من سبعين بلاء

وذكر أبو محمد عبد الله بن محمد المالكي الإفريقي، في كتابه «أخبار أفريقية» عن أنس بن مالك مرفوعاً: «**من قال بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي**

(١) أخرجه أبو داوود في سننه برقم (٥٠٨٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٦٢ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥/ ١٣٢ والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٧١٤) وابن سني في عمل اليوم والليلة (٤٢).

**العظيم عشر مرات بريء من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وعوفي من سبعين بلاء من بلايا الدنيا، منها الجنون والجذام والبرص والريح»**. ويشهد له ما رواه الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ أكثروا من ذكر «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فإنها من كنز الجنة»[1]. قال مكحول[2]: من قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا ملجأ من الله إلا إليه، كشف الله عنه سبعين باباً من الضر أدناها الفقر.

وروى الطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال لا حول ولا قوة إلا بالله كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم»**. ومن ذلك في الأمان من الفقر: عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: **«من قال لا حول ولا قوة إلا بالله مائة مرة في كل يوم لم يصبه فقر أبداً»**. رواه ابن أبي الدنيا.

وروى الطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أبطأ عليه رزقه فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله»**. وعن جعفر بن محمد عن أبه عن جده عن علي بن أبي طالب يرفعه: من قال كل يوم وليلة: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، مائة مرة كان له أماناً من الفقر وأنساً من وحشة القبر، واستفتح به باب الغنى، واستقرع به باب الجنة. قال بعض رواته: لو رحلتم في هذا الحديث إلى الصين ما كان كثيراً. ذكره عبد الحق في كتاب الطب النبوي.

## ذكر دواء داء الطعام

روى البخاري في تاريخه عن عبد الله بن مسعود: من قال حين يوضع الطعام: بسم الله خير الأسماء في الأرض وفي السماء، لا يضر مع اسمه داء، اجعل فيه رحمة وشفاء. لم يضره ما كان.

## ذكر دواء أم الصبيان

عن علي قال قال رسول الله ﷺ **«من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى**

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٦٠١) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٣٣٣ والطبراني في المعجم الكبير ٤/ ٣٨ والهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٣٠٦ والعجلوني في كشف الخفاء ٢/ ١٩٠ وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٧٠٣ وفي كنز العمال (١٩٥٧ ـ ١٩٧٠).

(٢) هو مكحول بن أبي مسلم شهراب بن شاذل أبو عبد الله الهذلي. فقيه الشام. حافظ توفي بدمشق سنة (١١٢ هـ). الاعلام ٧/ ٢٨٤ تذكرة الحفاظ ١/ ١٠٧ رقم الترجمة (٩٦) وفيات الأعيان ١/ ١٢٢ ميزان الاعتدال ٣/ ١٩٨ شذرات الذهب ١/ ١٤٦ وفي طبقات ابن سعد ٧/ ٣١٥ رقم الترجمة (٣٨٥٢). والنجوم الزاهرة ١/ ٢٧٢. وفي وفاته روايات بين سنة (١١٢ ـ ١١٨ هـ).

لم تضره أم الصبيان»[1] رواه ابن السني، وذكره عبد الحق في «الطب النبوي». وأم الصبيان: هي الريح التي تعرض لهم، فربما يخشى عليهم منها[2]. وسر التأذين ـ كما قاله صاحب تحفة المودود بأحكام المولود ـ أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلماته المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته، والشهادة التي أول ما يدخل بها في الإسلام، فكان ذلك كالتلقين له شعار الإسلام عند دخوله إلى الدنيا، كما يلقن كلمة التوحيد عند خروجه منها [وغير مستنكر وصول أثر التأذين إلى قلبه وتأثره به وإن لم يشعر][3]. مع ما في ذلك من فائدة أخرى، وهي هروب الشيطان من كلمات الأذان، وهو كان يرصده حتى يولد فيقارنه للمحنة التي قدرها الله وشاءها، فيسمع شيطانه ما يضعفه ويغيظه أو أوقات تعلقه به.

## النوع الثاني

## طبه ﷺ بالأدوية الطبيعية

## ذكر ما كان ﷺ يعالج به الصداع والشقيقة

اعلم أن الصداع ألم في بعض أجزاء الرأس أو كله، فما كان منه في أحد جانبي الرأس لازماً سمي شقيقة ـ بوزن عظيمة ـ وسببه أبخرة مرتفعة، أو أخلاط حارة أو باردة ترتفع إلى الدماغ، فإن لم تجد منفذاً أحدثت الصداع، فإن مال إلى أحد شقي الرأس أحدث الشقيقة، وإن ملك كل الرأس أحدث داء البيضة تشبيهاً ببيضة السلاح تشتمل على الرأس كله.

وأسباب الصداع كثيرة: منها ما تقدم، ومنها ما يكون عن ورم في المعدة أو في عروقها، أو ريح غليظة فيها، أو لامتلائها، ومنها ما يكون من الحركة العنيفة كالجماع والقيء والاستفراغ والسهر وكثرة الكلام، ومنها ما يحدث من الأعراض النفسانية كالهم والحزن والجوع والحمى، ومنها ما يحدث عن حادث في الرأس كضربة تصيبه أو ورم في صفاق الدماغ، أو حمل شيء ثقيل يضغط الرأس، أو تسخينه بشيء خارج عن الاعتدال، أو بتبريده بملاقاة الهواء أو الماء في البرد.

وأما الشقيقة: فهي في شرايين الرأس وحدها، أو تختص بالموضع الأضعف من الرأس. وعلاجها بشد العصابة. وقد أخرج الإمام أحمد من حديث بريدة أنه ﷺ كان

(١) ذكر نحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥/٦٨ والعراقي في المغني ٢/٥٥ وابن عدي في الكامل ٦/٢٦٥٦ وابن سني في عمل اليوم والليلة (٦١٧) وفي الأذكار للنووي ٢٥٣.

(٢) قال الحافظ ابن حجر: أم الصبيان: هي التابعة من الجن.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من قلم المصنف وهو موجود في الأصل المنقول عنه. صفحة ٢١ وما بعدها.

ربما أخذته الشقيقة فيمكث اليوم واليومين لا يخرج. وفي الصحيح أنه ﷺ قال في مرض موته: «**وارأساه**»[1] وأنه خطب وقد عصب رأسه. فعصب الرأس ينفع في الشقيقة وغيرها من أوجاع الرأس.

وفي البخاري من حديث ابن عباس: احتجم ﷺ وهو محرم في رأسه من شقيقة كانت به. وقد جاءت مقيدة في بعض طرق ابن عباس نفسه، فعند أبي داود الطيالسي في مسنده من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ احتجم في وسط رأسه. وقد قال الأطباء إنها نافعة جداً. وورد أنه ﷺ احتجم أيضاً في الأخدعين[2] والكاهل[3]. أخرجه الترمذي وحسنه، وأبو داود وابن ماجه وصححه الحاكم. وقد قال الأطباء: الحجامة على الأخدعين تنفع من أمراض الرأس والوجه والأذنين والعينين والأسنان والأنف.

وقد ورد في حديث ضعيف جداً، أخرجه ابن عدي من طريق عمر بن رباح عن عبد الله بن طاووس عن أبيه عن ابن عباس رفعه: الحجامة في الرأس تنفع في سبع، من الجنون والجذام والبرص والنعاس والصداع ووجع الضرس والعين. وعمر متروك، رماه الفلاس وغيره بالكذب.

وروى ابن ماجة في سننه أن النبي ﷺ كان إذا صدع غلف رأسه بالحناء، ويقول: إنه نافع بإذن الله من الصداع. وفي صحته نظر. وهو علاج خاص بما إذا كان الصداع من حرارة ملتهبة، ولم يكن من مادة يجب استفراغها، وإذا كان كذلك نفع فيه الحناء نفعاً ظاهراً. قالوا: وإذا دق وضمدت به الجبهة مع الخل سكن الصداع، وهذا لا يختص بوجع الرأس بل يعم جميع الأعضاء.

وفي تاريخ البخاري وسنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ ما شكا إليه أحد وجعاً في رأسه إلا قال له «**احتجم**»، ولا شكا وجعاً في رجليه إلا قال له «**اختضب بالحناء**».
وفي الترمذي عن علي بن عبد الله عن جدته ـ وكانت تخدم النبي ﷺ ـ قالت: ما كان يكون برسول الله ﷺ قرحة ولا نكتة إلا أمرني أن أضع عليها الحناء.

## ذكر طبه ﷺ للرمد

وهو ورم حار يعرض في الطبقة الملتحمة من العين، وهو بياضها، وسببه:

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٥٦٦٦) وفي سنن ابن ماجه برقم (١٤٦٥). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ١٤٤.

(٢) الاخدعين: قال أهل اللغة هما عرقان في سالفة العنق كما في الترغيب والمصباح. هما عرقان في موضع الحجامة.

(٣) الكاهل: ما بين الكتفين. والحديث في سنن أبي داود برقم (٣٨٦٠) وفي الترمذي برقم (٢٠٥١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٣٤ و ٣٣٣ و ٣/ ١١٩.

انصباب أحد الأخلاط أو أبخرة تصعد من المعدة إلى الدماغ، فإن اندفع إلى الخياشيم أحدث الزكام، أو إلى العين أحدث الرمد، أو إلى اللهاة[1] والمنخرين أحدث الخنان ـ بالخاء المعجمة والنون ـ، أو إلى الصدر أحدث النزلة، أو إلى القلب أحدث الشوصة[2]، وإن لم ينحدر وطلب نفاذاً فلم يجد أحدث الصداع، كما تقدم. وروي أنه ﷺ كان يعالج الرمد بالسكون والدعة وترك الحركة.

وفي سنن ابن ماجه عن صهيب قال: قدمت على النبي ﷺ وبين يديه خبز وتمر فقال: «**ادن وكل**»، فأخذت تمراً فأكلت، فقال: «**تأكل تمراً وبك رمد؟**» فقلت: يا رسول الله، أمضغ من الناحية الأخرى، فتبسم رسول الله ﷺ[3]. وقد روي أنه حمى علياً من الرطب لما أصابه الرمد.

وفي البخاري من حديث سعيد بن زيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين**»[4]. والكمأة: نبات لا ورق لها ولا ساق، يوجد في الأرض من غير أن يزرع. وروى الطبراني من طريق المنكدر عن جابر قال: كثرت الكمأة على عهد رسول الله ﷺ، فامتنع قوم من أكلها وقالوا: هو جدري الأرض، فبلغه ذلك فقال: «**إن الكمأة ليست جدري الأرض، ألا أن الكمأة من المن**». واختلف في قوله: «من المن»، فقيل: من المن الذي أنزل الله على بني إسرائيل، وهو الطل الذي يسقط على الشجر فيجمع ويؤكل حلواً[5]، ومنه الترنجبيل فكأنه يشبه الكمأة بجامع ما بينهما من وجود كل منهما عفواً بغير علاج.

وقال الخطابي: ليس المراد أنها نوع من المن الذي أنزل الله على بني إسرائيل، فإن الذي أنزل على بني إسرائيل كان كالترنجبيل الذي يسقط على الشجر، وإنما المعنى أن الكمأة شيء ينبت من غير تكلف ببذر ولا سقي، وإنما اختصت الكمأة بهذه الفضيلة لأنها

---

(١) اللهاة: لحمة حمراء في الحنك معلقة على عكرة اللسان. والجمع لهيات. انظر لسان العرب ١٢/ ٣٤٩ مادة (لها).

(٢) والشوصة: ريح تنعقد في الضلوع يجد صاحبها كالوخز فيها وتجول مرة هنا ومرة هناك ومرة في الحواقن وهي في البطن من أثر ذلك الريح. انظر لسان العرب ٧/ ٢٣٧ مادة (شوص).

(٣) الحديث في ابن ماجه برقم (٣٤٤٣).

(٤) الحديث في البخاري برقم (٥٧٠٨) وفي مسلم برقم (١٥٧) وفي المسند ١/ ١٨٧ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٣٤٥ وفي الدر المنثور ١/ ٧٠ وفي كنز العمال (٢٨٣٠٨).

(٥) قال ابن سيده: المن طل ينزل من السماء وقيل هو شبه العسل كان ينزل على بني إسرائيل. وأهل التفسير يقولون إن المن شيء كان يسقط على الشجر حلوٌ يشرب ويقال إنه الترنجبين. انظر لسان العرب ١٣/ ١٩٨ مادة (منن).

منن الحلال المحض، الذي ليس في اكتسابه شبهة، ويستنبط منه أن استعمال الحلال المحض يجلو البصر.

وقال ابن الجوزي: في المراد بكونها شفاء للعين قولان: أحدهما: أنه ماؤها حقيقة إلا أن أصحاب هذا القول اتفقوا على أنها لا تستعمل صرفاً في العين، لكن اختلفوا كيف يصنع بها على رأيين: أحدهما أن يختلط في الأدوية التي يكتحل بها، حكاه أبو عبيد، ثانيهما: أن تؤخذ فتشق وتوضع على الجمر حتى يغلي ماؤها ثم يؤخذ الميل فيجعل في ذلك الشق وهو فاتر، فيكتحل بمائها، لأن النار تلطفه وتذهب فضلاته الرديئة ويبقى النافع منه، ولا يجعل الميل في مائها وهي باردة يابسة فلا ينجع[1].

وقال آخر: تجعل الكمأة في قدر جديدة ويصب عليها الماء، ولا يطرح فيها ملح، ثم يؤخذ غطاء جديد نقي فيجعل على القدر، فما جرى على الغطاء من بخار الكمأة فذلك الماء الذي يكتحل به.

وقال ابن واقد: إن ماء الكمأة إذا عصر وربي به الإثمد كان ذلك من أصلح الأشياء للعين إذا اكتحل به يقوي أجفانها، ويزيد الروح الباصرة قوة وحدة، ويدفع عنها نزول النوازل. وقال أيضاً: إذا اكتحل بماء الكمأة وحده بميل من ذهب تبين للفاعل لذلك قوة عجيبة وحدة في البصر كثيرة.

وقال ابن القيم: اعترف فضلاء الأطباء أن ماء الكمأة يجلو العين، منهم المسيحي[2] وابن سينا وغيرهما، قال: والذي يزيل الإشكالات عن هذا الاختلاف أن الكمأة وغيرها خلقت في الأصل سليمة من المضار، ثم عرضت لها الآفات بأمور أخرى، من مجاورة أو امتزاج أو غير ذلك من الأسباب التي أرادها الله تعالى، فالكمأة في الأصل نافعة لما اختصت به من وصفها بأنها من الله، وإنما عرضت لها المضار بالمجاورة، واستعمال كل ما وردت به السنة بصدق ينتفع به من يستعمله، ويدفع الله عنه الضر لنيته والعكس بالعكس والله أعلم.

## ذكر طبه ﷺ من العذرة

وهي ـ بضم المهملة وسكون الذال المعجمة ـ وجع في الحلق يعتري الصبيان

---

(١) لم يذكر المصنف القول الثاني أن المراد ماؤها الذي تنبت به فإنه أول مطر يقع في الأرض فتربى به الأكحال. انظر فتح الباري ١٠/٢٠٣.

(٢) هو عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني أبو سهل حكيم غلب عليه الطب علماً وعملاً توفي سنة (٤٠١ هـ). الاعلام ٥/ ١١٠ طبقات الاطباء ١/ ٣٢٧ تاريخ حكماء الإسلام ٩٥.

غالباً، وقيل: هي قرحة تخرج بين الأذن والحلق، أو في الخرم الذي بين الأنف والحلق، وهو الذي يسمي سقوط اللهاة، وقيل هو اسم اللهاة والمراد وجعها سمي باسمها، وقيل: هو موضع قريب من الهاة، واللهاة ـ بفتح اللام ـ اللحمة التي في أقصى الحلق.

وفي البخاري، من حديث أم قيس بنت محصن الأسدية ـ أسد خزيمة ـ وهي أخت عكاشة، أنها أتت رسول الله ﷺ بابن لها قد علقت عليه من العذرة، فقال النبي ﷺ: **(علامَ تدغرن أولادكن بهذا العلاق؟ عليكم بهذا العود الهندي فإن فيه سبعة أشفية منها ذات الجنب)** يريد الكست وهو العود الهندي[1]. قوله: «تدغرن» خطاب للنسوة، وهو بالغين المعجمة والدال المهملة، والدغر: غمز الحلق.

وعن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ على عائشة وعندها صبي يسيل منخراه دماً، فقال: «ما هذا؟» فقالوا: به العذرة، أو وجع في رأسه، فقال: **«ويلكن لا تقتلن أولادكن، أيما امرأة أصاب ولدها عذرة أو وجع فلتأخذ قسطاً هندياً فلتحله بماء ثم تسعطه إياه»** فأمرت عائشة فصنع ذلك للصبي فبرىء. الحديث. وفي القسط تجفيف يشد اللهاة ويرفعها إلى مكانها، وكانوا يعالجون أولادهم بغمز اللهاة، وبالعلاق: وهو شيء يعلقونه على الصبيان، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك وأرشدهم إلى ما هو أنفع للأطفال وأسهل عليهم.

والسعوط: ما يصب في الأنف.

وقد استشكل معالجتها ـ أي العذرة ـ بالقسط الهندي مع كونه حاراً، والعذرة إنما تعرض في زمن الحر بالصبيان، وأمزجتهم حارة، لا سيما وقطر الحجارة حار؟

وأجيب: بأن مادة العذرة دم يغلب عليه البلغم، وفي القسط تجفيف للرطوبة وقد يكون نفعه في هذا الداء بالخاصية، وأيضاً فالأدوية الحارة قد تنفع في الأمراض الحارة بالعرض كثيراً، بل وبالذات أيضاً، وقد ذكر ابن سينا في معالجة سقوط اللهاة بالقسط مع الشب اليماني، على أنا لو لم نجد شيئاً من التوجيهات لكان المعجز خارجاً من القواعد الطبية.

## ذكر طبه ﷺ لداء استطلاق البطن

في الصحيحين من حديث أبي المتوكل عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً أتى النبي

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٥٧١٣ ـ ٥٧١٥ ـ ٥٧١٨) وفي مسلم برقم (٨٦ ـ ٨٧) وفي سنن أبي داود (٣٨٧٧) وفي سنن ابن ماجه (٣٤٦٢) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٦٥ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٣٦٦ وفي مشكاة المصابيح (٥٤٢٤) وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٧.

ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه ـ وفي رواية: استطلق بطنه ـ فقال: «**اسقه عسلاً**»، فسقاه فقال: إني سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال: «**صدق الله وكذب بطن أخيك**»[1]. وفي رواية مسلم فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: «**اسقه عسلاً**»، فقال: سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال: «**صدق الله**». وفي رواية أحمد عن يزيد بن هارون فقال في الرابعة: «**اسقه عسلاً**»، قال فأظنه فسقاه فبرأ، فقال ﷺ: «**صدق الله وكذب بطن أخيك**».

قال الخطابي وغيره: أهل الحجاز يطلقون الكذب في موضع الخطأ، يقال: كذب سمعك، أي زل فلم يدرك حقيقة ما قيل له، فمعنى: كذب بطن أخيك، أي لم يصلح لقبول الشفاء بل زل عنه.

وقال الإمام فخر الدين الرازي: لعله ﷺ علم بنور الوحي أن ذلك العسل سيظهر نفعه بعد ذلك، فلما لم يظهر نفعه في الحال مع كونه ﷺ كان عالماً بأنه سيظهر نفعه بعد ذلك كان جارياً مجرى الكذب، فلهذا أطلق عليه هذا اللفظ. وقد اعترض بعض الملاحدة فقال: العسل مسهل، فكيف يوصف لمن وقع به الإسهال؟

وأجيب: بأن ذلك جهل من قائله، بل هو كقوله تعالى: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه**﴾ [يونس: ٣٩]. فقد اتفق الأطباء على أن المرض الواحد يختلف علاجه باختلاف السن والعادة والزمان والغذاء المألوف، والتدبير وقوة الطبيعة، وعلى أن الإسهال يحدث من أنواع: منها الهيضة التي تنشأ عن تخمة، واتفقوا على أن علاجها بترك الطبيعة وفعلها، فإن احتاجت إلى مسهل أعينت ما دام بالعليل قوة، فكأن هذا الرجل كان استطلاق بطنه من تخمة أصابته فوصف له ﷺ العسل لدفع الفضول المجتمع في نواحي المعدة من أخلاط لزجة تمنع من استقرار الغذاء فيها، وللمعدة خمل كخمل المنشفة، فإذا علقت بها الأخلاط اللزجة أفسدتها وأفسدت الغذاء الواصل إليها، فكان دواؤها باستعمال ما يجلو تلك الأخلاط، ولا شيء في ذلك مثل العسل، لا سيما إن مزج بالماء الحار، وإنما لم يفده أول مرة لأن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب الداء، إن قصر عنه لم يدفعه بالكلية؛ وإن جاوزه أوهى القوة وأحدث ضرراً آخر، فكأنه شرب

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٨٤ ـ ٥٧١٦) وفي مسلم برقم (٩١) وفي الترمذي برقم (٢٠٨٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/١٩ و ٩٢ وفي المستدرك للحاكم ٤/٤٠٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/٣٤٤ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/١٦٤ وفي الدر المنثور ٤/١٢٣ وفي كنز العمال (٢٨١٧٠).

منه أولاً مقداراً لا يفي بمقاومة الداء، فأمره بمعاودة سقيه، فلما تكررت الشربات بحسب مادة الداء برأ بإذن الله تعالى.

وفي قوله ﷺ: وكذب بطن أخيك» إشارة إلى أن هذا الدواء نافع، وأن بقاء الداء ليس لقصور الدواء في الشفاء، ولكن لكثرة المادة الفاسدة، فمن ثم أمره بمعاودة شرب العسل لاستفراغها.

وقال بعضهم: إن العسل تارة يجري سريعاً إلى العروق وينفذ معه جل الغذاء ويدر البول فيكون قابضاً، وتارة يبقى في المعدة فيهيجها بلذعة لها حتى تدفع ويسهل البطن فيكون مسهلاً، فإنكار وصفه بالمسهل مطلقاً قصور من المنكر. وقال ابن الجوزي: في وصفه ﷺ العسل لهذا المسهل أربعة أقوال:

**أحدها**: أن حمل الآية على عمومها في الشفاء أولى، وإلى ذلك أشار بقوله: صدق الله، أي في قوله: ﴿**فيه شفاء للناس**﴾ [النحل: ٦٩] فلما نبه على هذه الحكمة تلقاها بالقبول فشفي بإذن الله تعالى.

**الثاني**: أن الوصف المذكور على المألوف من عادتهم من التداوي بالعسل من الأمراض كلها.

**الثالث**: أن الموصوف له ذلك كانت به هيضة، كما تقدم تقريره.

**الرابعه**: يحتمل أن يكون أمره بطبيخ العسل قبل شربه، فإنه يعقد البلغم، فلعله شربه أولاً بغير طبخ، انتهى.

والثاني والرابع ضعيفان. ويؤيد الأول حديث ابن مسعود: (**عليكم بالشفاءين العسل والقرآن**)[1] أخرجه ابن ماجه والحاكم مرفوعاً، وأخرجه ابن أبي شيبة والحاكم موقوفاً، ورجاله رجال الصحيح. وأثر علي: إذا اشتكى أحدكم فليستوهب من امرأته شيئاً من صداقها فليشتر به عسلاً، ثم يأخذ ماء السماء، فيجمع هنيئاً مريئاً مباركاً، أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير بسند حسن.

وروينا عنه رضي الله عنه أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحفة وليغسلها بماء السماء وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه فإنه شفاء. قال الحافظ ابن كثير، بعد أن ذكره، أي من وجوه: قال الله

---

(١) الحديث في سنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٢) وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٢٠٠ و٤٠٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٣٤٤ وفي الدر المنثور ٤/ ١٢٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ١٤٢ وفي حلية الأولياء ٧/ ١٣٣ وفي الكامل في الضعفاء ٣/ ١٠٦٥ وفي كنز العمال (٢٨١٠٢).

تعالى ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء﴾ [الإسراء: ٨٢] وقال: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً﴾ [ق: ٩] وقال: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ [النساء: ٤] وقال في العسل: ﴿فيه شفاء للناس﴾ [النحل: ٦٩].

## ذكـر طبه ﷺ في يبس الطبيعة بما يمشيه ويلينه

روى الترمذي وابن ماجه في سننه من حديث أسماء بنت عميس قالت: قال رسول الله ﷺ «**بماذا كنت تستمشين؟**» قالت: بالشبرم، قال: «**حار حار ضار ضار**»[١] ثم قالت: استمشيت بالسنا، فقال النبي ﷺ: «**لو أن شيئاً كان فيه شفاء من الموت لكان في السنا**»[٢]. قال أبو عيسى هذا حديث غريب، وقد ذكر البخاري في تاريخه الكبير من حديث أسماء بنت عميس مثل ما ذكره الترمذي. وذكر أبو محمد الحميدي في كتاب «الطب» له أنه ﷺ قال: «**إياكم والشبرم فإنه حار حار، ضار ضار، وعليكم بالسنا فتداووا به، فلو دفع الموتَ شيء لدفعه السنا**». وحكى عبد الحق الإشبيلي في كتاب «الطب النبوي» له أن المحاسبي ذكر في كتابه المسمى بـ «القصد إلى الله» أن النبي ﷺ شرب السنا بالتمر.

وفي سنن ابن ماجه، من حديث إبراهيم بن أبي عبلة قال: سمعت عبد الله بن حرام[٣]، وكان ممن صلى مع رسول الله ﷺ إلى القبلتين، يقول: «**عليكم بالسنا والسنوت فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام**»، قيل: يا رسول الله وما السام؟ قال: «**الموت**»[٤]. قالوا: والشبرم: قشر عرق شجرة، وهو حار يابس في الدرجة الرابعة، وهو من الأدوية التي منع الأطباء من استعمالها لخطرها وفرط إسهالها.

وأما السنا: فهو نبت حجازي، وأفضله المكي، وهو دواء شريف مأمون الغائلة، قريب من الاعتدال، حار يابس في الدرجة الأولى، يسهل الصفراء أو السوداء، ويقوي جرم القلب، وهذه فضيلة شريفة، ومن خاصيته النفع في الوسواس السوداوي.

قال الرازي: السنا والشاهترج يسهلان الأخلاط المحترقة وينفعان في الجرب والحكة، قال والشربة من كل واحد منهما من أربعة دراهم إلى سبعة دراهم. وأما

---

(١) في الترمذي: [حار جار] وكذلك في ابن ماجه.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٨١) وابن ماجه برقم (٣٤٦١) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/٣٤٧ وفي كنز العمال (٢٨٢٦٨).

(٣) هكذا في النسخ وفي الإصابة عبد الله بن أم حرام ٤/٥٦ رقم الترجمة (٤٦١٤). وهو عبد الله بن عمرو بن قيس.

(٤) أخرجه ابن ماجه برقم (٣٤٥٧) وفي المستدرك للحاكم ٤/٢٠١ وكنز العمال (٢٨٢٧١ ـ ٢٨٢٦٧).

السنوت، فقيل هو العسل، وقيل: رب عكة السمن يخرج خطوطاً سوداً على السمن، وقيل: حب يشبه الكمون وليس به، وقيل: هو الكمون الكرماني، وقيل: إنه الرازيانج، وقيل إنه الشبث، وقيل إنه العسل الذي يكون في زقاق السمن.

قال بعض الأطباء: وهذا أجدر بالمعنى وأقرب إلى الصواب، أي: يخلط السنا مدقوقاً بالعسل المخالط للسمن، ثم يلعق فيكون أصلح من استعماله مفرداً، لما في العسل والسمن من إصلاح السنا وإعانته على الإسهال.

## ذكر طبه ﷺ للمفؤود

وهو الذي أصيب فؤاده، فهو يشتكيه كالمبطون. روى أبو داود عن سعد قال: مرضت مرضاً، فأتاني رسول الله ﷺ يعودني، فوضع يده بين ثديَّ حتى وجدت بردها على فؤادي، وقال لي: «**إنك رجل مفؤود، فائت الحارث بن كلدة[1] من ثقيف فإنه رجل متطبب، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة فليجأهن بنواهن ثم ليلد بهن الفؤاد**»[2].

وهذا الحديث من الخطاب العام الذي أريد به الخاص، كأهل المدينة ومن جاورهم. والتمر لأهل المدينة كالحنطة لغيرهم. و «اللدود»: ما يسقاه الإنسان من أحد جانبي الفم. وفي التمر خاصية عجيبة لهذا الداء، سيما أهل المدينة، ولا سيما العجوة، وفي كونها سبعاً خاصية أخرى تدرك بالوحي. وفي الصحيحين (**من تصبح بسبع تمرات عجوة من تمر العالية لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر**)[3].

## ذكر طبه ﷺ لذات الجنب

في البخاري مرفوعاً (**عليكم بهذا العود الهندي، فإن فيه سبعة أشفية، منها ذات الجنب**). وفي الترمذي من حديث زيد بن أرقم قال: قال ﷺ: «**تداووا من ذات الجنب**

---

(١) هو الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب في عصره وأحد الحكماء المشهورين، اختلفوا في اسلامه. وكان النبي ﷺ يأمر من به علة أن يأتيه فيتطبب عنده. توفي نحو سنة (٥٠ هـ). الاعلام ٢/ ١٥٧ طبقات الأطباء ١/ ١٠٩ والمؤتلف والمختلف ١٧٢.

(٢) الحديث في سنن أبي داود برقم (٣٨٧٥) وفي مشكاة المصابيح (٤٢٢٤) وفي كنز العمال (٢٨١٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب (٤٣) برقم (٥٤٤٥ ـ ٥٧٦٨ ـ ٥٧٦٩ ـ ٥٧٧٩). وفي صحيح مسلم كتاب الأشربة برقم (١٥٥) وفي سنن أبي داود برقم (٣٨٧٦) وفي مسند الإمام أحمد ابن حنبل ١/ ١٨١ و ١٨٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٣٤٥ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٣٧٦ وفي مشكاة المصابيح (٤١٩٠).

**بالقسط البحري والزيت**»[1]. واعلم أن ذات الجنب هو ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن للأعضاء، وقد يطلق على ما يعرض في نواحي الجنب من رياح غليظة تحتقن بين الصفاقات والعضل الذي في الصدر والأضلاع، فيحدث وجعاً. فالأول هو ذات الجنب الحقيقي، الذي تكلم عليه الأطباء، قالوا: ويحدث بسببه خمسة أمراض: الحمى والسعال والنخس وضيق النفس والنبض المنشاري.

ويقال لذات الجنب أيضاً: وجع الخاصرة، وهو من الأمراض المخوفة لأنها تحدث بين القلب والكبد، وهو من سيء الأسقام. والمراد بذات الجنب هنا الثاني، لأن القسط وهو العود الهندي هو الذي يداوي به الريح الغليظة.

وقد حكى الإمام ابن القيم عن المسيحي أنه قال: العود حار يابس قايض، محبس للبطن، ويقوي الأعضاء الباطنة، ويطرد الريح ويفتح السدد، ويذهب فضل الرطوبة، نافع من ذات الجنب، جيد للدماغ. قال: ويجوز أن ينفع من ذات الجنب الحقيقية أيضاً إذا كانت ناشئة عن مادة بلغمية، ولا سيما في وقت انحطاط العلة.

## ذكر طبه ﷺ لداء الاستسقاء

عن أنس قال: قدم رهط من عرينة وعكل على النبي ﷺ، فاجتووا المدينة فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «**لو خرجتم إلى إبل الصدقة فشربتم من ألبانها وأبوالها**»، فلما صحوا عمدوا إلى الرعاة فقتلوهم واستاقوا الإبل، وحاربوا الله ورسوله، فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم، فأخذوا فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وألقاهم في الشمس حتى ماتوا[2]. رواه الشيخان.

واعلم أن الاستسقاء مرض مادي، سببه مادة غريبة باردة تتخلل الأعضاء فتربو بها، إما الأعضاء الظاهرة كلها، وإما المواضع الخالية من النواحي التي فيها تدبير الغذاء والأخلاط. وأقسامه ثلاثة: لحمي، وهو أصعبها، وهو الذي يربو معه لحم جميع البدن بمادة بلغمية تفشو مع الدم في الأعضاء. وزقي: وهو الذي يجتمع منه في البطن الأسفل مادة مائية رديئة يسمع لها عند الحركة خضخضة كالماء في الزق، وهو أردأ أنواعه عند أكثر الأطباء، وطبلي: وهو الذي ينتفخ معه البطن بمادة ريحية، إذا ضربت عليه سمعت له صوتاً كصوت الطبل.

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٢٠٧٩) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/٣٤٦ وفي إتحاف السادة المتقين ٩/٥٣ وفي كنز العمال (٢٨١٨٧).

(٢) الحديث في البخاري باختلاف يسير برقم (١٥٠١) وفي شرح السنة للبغوي ١٠/٢٥٦ وفي كتاب الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ١/٣٩.

وإنما أمرهم ﷺ بشرب ذلك، لأن في لبن اللقاح جلاء وتليينا وإدراراً وتلطيفاً وتفتيحاً للسدد، إذ كان أكثر رعيها الشيح والقيصوم والبابونج والأقحوان والإذخر وغير ذلك من الأدوية النافعة للاستسقاء خصوصاً إذا استعمل بحرارته التي يخرج بها من الضرع، مع بول الفصيل، وهو حار كما يخرج من الحيوان، فإن ذلك ما يزيد في ملوحة اللبن وتقطيعه الفضول وإطلاقه البطن.

وأما ضعف المعدة فذكر ابن الحاج في المدخل: أن بعض الناس مرض بمعدته، فرأى الشيخ الجليل أبو محمد المرجاني النبي ﷺ وهو يشير بهذا الدواء، وهو أن يأخذ كل يوم على الريق وزن درهم من الورد المربى، ويكون ملتوتاً بالمصطكى بعد دقها ويجعل فيها سبع حبات من الشونيز، يفعل ذلك سبعة أيام ففعله فبرىء. ومرض بعض الناس ببرد المعدة فرأى الشيخ المرجاني أيضاً النبي ﷺ وهو يشير بهذا الدواء: أوقية ونصف أوقية عسل نحل، ودرهمين شونيز، ومثلها أنيسون، ونصف أوقية من النعنع الأخضر، ومن القرنفل نصف درهم، ومن القرفة نصف درهم، وشيء من قشر الليمون، مع قليل من الخل، ويعقد ذلك على النار، فاستعمله فبرىء.

ومرض آخر بسلس الريح، فرأى الشيخ المرجاني النبي ﷺ وهو يشير بهذا الدواء: شونيز ثلاثة دراهم، ومن خزامى درهمين ونصف، ومن الكمون الأبيض ثلاثة دراهم، ومثله من السعتر الشامي ومثله من الغليا، ووزن درهم من البلوط وهو ثمرة الفؤاد، وأوقية من الزيت المرقي تجعل فيه من عسل النحل ما يعقد به وهو ربع رطل، ويؤخذ منه غدوة النهار وزن درهمين على الريق، وعند النوم وزن درهم ونصف، فاستعمله فبرىء. ثم إنه ﷺ بعد ذلك قال في النوم لذلك الشخص الذي أخبره بهذا الدواء إنه ينفع لأدواء هي: الريح، وسلس الريح، والمعدة وبرودتها، ووجع الفؤاد وألم الحيض، وألم النفاس، وتعقد الرياح.

والزيت المرقي: صفته أن تأخذ شيئاً من الزيت الطيب، وتجعله في إناء نظيف وتحركه بعود، وتقرأ عليه سورة الإخلاص والمعوذتين، و **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾** [التوبة: ١٢٨] إلى آخر السورة **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾** [الإسراء: ٨٢] **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾** [الحشر: ٢١] إلى آخر السورة.

وحصل لآخر قولنج، فرأى الشيخ المرجاني النبي ﷺ فأشار بهذا الدواء: وهو أن يأخذ ثلاثة دراهم من عسل النحل، ووزن درهم ونصف من الزيت المرقي، وإحدى وعشرين حبة من الشونيز ويخلط الجميع ثم يفطر عليه، ويفعل مثله عند النوم، يفعل ذلك حتى يبرأ، وتعمل له التلبينة ويستعملها بعد إن يفطر على ذلك، والتلبينة حساء

يعمل من دقيق أو نخالة، وربما عمل فيها عسل، ويكون غذاؤه مصلوقة الدجاج أو لحم الضأن، ففعله فبرىء بعد أن أعيى الأطباء.

ومرض آخر بوجع الظهر، فشكا ذلك للشيخ فرأى النبي ﷺ وهو يشير بهذا الدواء، وهو عسل نحل وشونيز ودهن الألية والزيت المرقي، ورقيق البيضة، ويخلط ذلك كله، ويمده على الموضع ويذر عليه دقيق العدس بقشرة مع الحرمل بعدما يدق دقاً ناعماً حتى يعود مثل الدقيق. ففعله فبرىء.

وشكا بعض الناس الدوخة في رأسه فرأى الشيخ النبي ﷺ في النوم فأشار إلى هذا الدواء: قرنفل وزنجبيل وقرفة وجوزة طيب وسنبل، من كل واحد درهم ونصف، وشونيز درهمين، يدق الجميع ثم يطبخ ويعقد بعسل النحل، فإذا قرب استواؤه عصر عليه قليل ليمون، فيكون عسل النحل غالباً عليه، ففعله فبرأ، انتهى. وهذا وإن كان مناماً فقد عضدته التجربة مع إرشاد الشيخ المرجاني لذلك.

## ذكر طبه ﷺ من داء عرق النسا

وهو بفتح النون والمهملة، المرض الحال بالعرق، والإضافة فيه من باب إضافة الشيء إلى محله. قيل: وسمي بذلك لأن ألمه ينسى ما سواه. وهذا العرق ممتد من مفصل الورك وينتهي إلى آخر القدم وراء الكعب. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«دواء عرق النسا ألية شاة أعرابية تذاب ثم تجزأ ثلاثة، أجزاء ثم يشرب على الريق في كل يوم جزءاً»**[1] رواه ابن ماجه.

وهذا الدواء خاص بالعرب وأهل الحجاز ومن جاورهم، وهو أنفعه لهم، لأن هذا المرض يحدث عن يبس، وقد يحدث من مادة غليظة لزجة، فعلاجها بالإسهال. والألية فيها الخاصيتان: الإنضاج والتليين. وهذا المرض يحتاج علاجه إلى هذين الأمرين. وفي تعيين الشاة الأعرابية، قلة فضولها وصغر مقدارها ولطف جوهرها، وخاصية مرعاها، لأنها ترعى أعشاب البر الحارة، كالشيح والقيصوم ونحوهما، وهذه إذا تغذى بها الحيوان صار في لحمه من طبعها، بعد أن يلطفه تغذية، ويكسبها مزاجاً ألطف منها ولا سيما الألية.

## ذكر طبه ﷺ من الأورام والخراجات

بالبط والبزل، يذكر عن علي رضي الله عنه قال: دخلت مع رسول الله ﷺ على

---

(١) الحديث في سنن ابن ماجه برقم (٣٤٦٣). وفي الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ١/ ٧٠.

رجل يعوده، بظهره ورم، فقالوا: يا رسول الله، هو بهذه مدة، فقال: «**بطوا عنه**» قال علي: فما برحت حتى بطت، والنبي ﷺ شاهد[1].

## ذكر طبه ﷺ بقطع العروق والكي

روى البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله، أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيباً، فقطع له عرقاً وكواه عليه. وأخرج مسلم عن جابر: لما رمي سعد بن معاذ في أكحله، حسمه النبي ﷺ. وروى الطحاوي، وصححه الحاكم عن أنس قال: كواني أبو طلحة في زمن النبي ﷺ.

وعند الترمذي: أنه ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة. وروى مسلم عن عمران ابن حصين قال: كان يُسلِّم علي حتى اكتويت فتُرِكت، ثم تركت فعاد. وفي رواية: إن الذي كان انقطع عني رجع إلي، يعني تسليم الملائكة. وروى أحمد وأبو داود والترمذي عن عمران: نهى رسول الله ﷺ عن الكي، فاكتوينا فما أفلحنا ولا أنجحنا، الحديث.

وإنما يستعمل الكي في الخلط الباغي الذي لا تحسم مادته إلا به، ولهذا وصفه ﷺ ثم نهى عنه[2]، وإنما كرهه لما فيه من الألم الشديد والخطر العظيم، ولهذا كانت العرب تقول في أمثلتها: آخر الدوءا الكي. والنهي فيه محمول على الكراهة أو على خلاف الأولى، لما يقتضيه مجموع الأحاديث، وقيل: إنه خاص بعمران لأنه كان به الباسور، وكان موضعه خطراً فنهاه عن كيه، فلما اشتد عليه كواه فلم ينجح.

وقال ابن قتيبة: الكي نوعان: كي الصحيح لئلا يعتل، فهذا الذي قيل فيه: لم يتوكل من اكتوى. لأنه يريد أن يدفع القدر، والقدر لا يدافع، والثاني: كي الجرح إذا فسد، والعضو إذا قطع، فهو الذي شرع التداوي له، فإن كان الكي لأمر محتمل فهو خلاف الأولى لما فيه من تعجيل التعذيب بالنار لأمر غير محقق.

وحاصل الجمع: أن الفعل يدل على الجواز، وعدم الفعل لا يدل على المنع بل يدل على أن تركه أرجح من فعله، ولذا وقع الثناء على تاركه، وأما النهي عنه فإما على سبيل الاختيار والتنزيه، وإما عما لا يتعين طريقاً إلى الشفاء. وقال بعضهم: إنما نهى عنه مع إثباته الشفاء فيه إما لكونهم كانوا يرون أنه يحسم الداء بطبعه فكرهه لذلك، ولذلك كانوا يبادرون إليه قبل حصول الداء لظنهم أنه يحسم الداء، فيتعجل الذي يكتوي التعذيب بالنار لأمر مظنون.

---

(١) ذكره الكحال في الأحكام النبوية ١/ ١٦٠.

(٢) الحديث في البخاري برقم (٥٦٨٠).

قال في فتح الباري: ولم أر في أثر صحيح أن النبي ﷺ اكتوى، إلا أن القرطبي نسب إلى كتاب آداب النفوس للطبري أن النبي ﷺ اكتوى، وذكره الحليمي بلفظ: وروي أنه أكوى للجرح الذي أصابه بأحد. قال الحافظ ابن حجر: والثابت في الصحيح في غزوة أحد أن فاطمة أحرقت حصيراً فحشت به جرحه، وليس هذا الكي المعهود.

## ذكر طبه ﷺ من الطاعون

قال الخليل: الطاعون الوباء، وقال ابن الأثير: الطاعون المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان، وقال القاضي أبو بكر بن العربي: الطاعون، الوجع الغالب الذي يطفىء الروح، سمي بذلك لعموم مصابه وسرعة قتله، وقال أبو الوليد الباجي: وهو مرض يعم الكثير من الناس في جهة من الجهات، بخلاف المعتاد من أمراض الناس. وقال القاضي عياض: أصل الطاعون القروح الخارجة في الجسد، والوباء عموم الأمراض فسميت طاعوناً تشبيهاً بها في الهلاك. وقال النووي في تهذيبه: هو بثر وورم مؤلم جداً ويخرج مع لهب، ويسود ما حوله أو يخضر أو يحمر حمرة شديدة بنفسجية كدرة، ويحصل معه خفقان وقيء، ويخرج غالباً في المراق والآباط، وقد يخرج في الأيدي والأصابع وسائر البدن.

وقال ابن سينا: الطاعون مادة سمية تحدث ورماً قتالاً يحدث في المواضع الرخوة والمغابن من البدن، وأغلب ما يكون تحت الإبط، أو خلف الأذن، أو عند الأربية، وسببه ورم رديء يستحيل إلى جوهر سمي يفسد العضو، ويغير ما يليه، ويؤدي إلى القلب كيفية رديئة تحدث القيء والغثيان والغشي والخفقان، وهو لرداءته لا يقبل من الأعضاء إلا ما كان أضعف بالطبع، وأردؤه ما يقع في الأعضاء الرئيسة، والأسود منه قلَّ من يسلم منه، وأسلمه الأحمر ثم الأصفر، والطواعين تكثر عن الوباء في البلاد الوبيئة، ومن ثم أطلق على الطاعون وباء وبالعكس، وأما الوباء: فهو فساد جواهر الهواء الذي هو مادة الروح ومدده.

والحاصل: أن حقيقته ورم ينشأ عن هيجان الدم وانصباب الدم إلى عضو فيفسده، وأن غير ذلك من الأمراض العامة الناشئة عن فساد الهواء، يسمى طاعوناً بطريق المجاز، لاشتراكهما في عموم المرض أو كثرة الموت. والدليل على أن الطاعون يغاير الوباء، أن الطاعون لم يدخل المدينة النبوية، وقد قالت عائشة: دخلنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، وقال بلال: أخرجونا إلى أرض الوباء.

والطاعون: من طعن الجن، وإنما لم يتعرض له الأطباء لكونه من طعن الجن، لأنه أمر لا يدرك بالعقل، وإنما عرف من الشارع، فتكلموا في ذلك على ما اقتضته

قواعدهم، وإنما يؤيد أن الطاعون إنما يكون من طعن الجن وقوعه غالباً في أعدل الفصول، وفي أصح البلاد هواء، وأطيبها ماء، ولأنه لو كان بسبب فساد الهواء لدام في الأرض لأن الهواء يفسد تارة ويصح أخرى، والطاعون يذهب أحياناً ويجيء أحياناً على غير قياس ولا تجربة، فربما جاء سنة على سنة، وربما أبطأ سنين، وبأنه لو كان كذلك لعم الناس والحيوان، والموجود بالمشاهدة أنه يصيب الكثير، ولا يصيب من هم بجانبهم ممن هو في مثل مزاجهم، ولو كان كذلك لعم جميع البدن، وهذا يختص بموضع دون موضع من الجسد لا يجاوزه، ولأن فساد الهواء يقتضي تغير الأخلاط وكثرة الأسقام، وهذا في الغالب يقتل غالباً بلا مرض، فدل على أنه من طعن الجن. كما ثبت في الأحاديث الواردة في ذلك.

منها حديث أحمد والطبراني عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري عن أبيه قال: سألت عنه رسول الله ﷺ فقال: «**هو وخز أعدائكم من الجن وهو لكم شهادة**».

وقال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: يقع في الألسنة، وهو في النهاية تبعاً لغريبي الهروي بلفظ «**وخز إخوانكم**» ولم أره بلفظ «إخوانكم» بعد التتبع الطويل البالغ في شيء من طرق الحديث المسندة، لا في الكتب المشهورة ولا في الأجزاء المنثورة، وقد عزاه بعضهم لمسند أحمد الطبراني أو كتاب الطواعين لابن أبي الدنيا، ولا وجود لذلك في واحد منها والله أعلم. انتهى.

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل، وعلى من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه**»[1]. وقد ذكر العلماء في النهي عن الخروج حكماً:

منها: أن الطاعون: في الغالب يكون عاماً في البلد الذي يقع به، فإذا وقع فالظاهر مداخلة سببه لمن هو بها، فلا يفيده الفرار، لأن المفسدة إذا تعينت حتى لا يقع الانفكاك عنها كان الفرار عبثاً فلا يليق بالعاقل.

ومنها أن الناس لو تواردوا على الخروج لصار من عجز عنه بالمرض المذكور أو بغيره ضائع المصلحة، لفقد من يتعهده حياً وميتاً. وأيضاً: لو شرع الخروج. فخرج الأقوياء لكان في ذلك كسر قلوب الضعفاء، وقد قالوا: إن حكمة الوعيد في الفرار من الزحف لما فيه من كسر قلب من لم يفر، وإدخال الرعب عليه بخلافه.

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٢٤٧٣ ـ ٥٧٢٨ ـ ٦٩٧٤) وفي موطأ مالك برقم (٨٩٦) وفي صحيح مسلم برقم (٩٣ ـ ٩٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٨٣ و ٥/ ٢١٣.

وقد جمع الغزالي بين الأمرين فقال: الهواء لا يضر من حيث ملاقاته ظاهر البدن، بل من حيث دوام الاستنشاق، فيصل إلى القلب والرئة فيؤثر في الباطن ولا يظهر على الظاهر إلا بعد التأثير في الباطن، فالخارج من البلد الذي يقع فيه لا يخلص غالباً مما استحكم به، وينضاف إلى ذلك أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لبقي المرضى لا يجدون من يتعاهدهم فتضيع مصالحهم.

ومنها: ما ذكره بعض الأطباء: أن المكان الذي يقع به الوباء تتكيف أمزجة أهله بهواء تلك البقعة فتألفها وتصير لهم كالأهوية الصحيحة لغيرهم فلو انتقلوا إلى الأماكن الصحيحة لم توافقهم، بل ربما إذا استنشقوا هواءها استصحب معه إلى القلب من الأبخرة الرديئة التي حصل تكيف بدنها بها فأفسدته فمنع من الخروج لهذه النكتة.

ومنها: أن الخارج يقول: لو أقمت لأصبت، والمقيم يقول: لو خرجت لسلمت، فيقع اللوم المنهي عنه. وقال العارف ابن أبي جمرة: البلاء إنما يقصد به أهل البقعة، لا البقعة نفسها، فمن أراد الله تعالى إنزل البلاد به فهو واقع به لا محالة، فأينما تو-جه يدركه، فأرشدنا الشارع إلى عدم النصب. وقال ابن القيم: جمع ﷺ للأمة في نهيه عن الدخول إلى الأرض التي هو بها، ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه، كمال التحرز منه، فإن في الدخول في الأرض التي هو فيها تعرضاً للبلاء وموافاة له في محل سلطانه، وإعانة الإنسان على نفسه، وهذا مخالف للشرع والعقل، بل تجنب الدخول إلى أرضه من باب الحمية التي أرشد الله تعالى إليها، وهي حمية من الأمكنة والأهوية المؤذية، وأما نهيه عن الخروج من بلده ففيه معنيان.

**أحدهما**: حمل النفوس على الثقة بالله تعالى والتوكل عليه، والصبر على أقضيته والرضى.

**والثاني**: ما قاله أئمة الطب أنه يجب على من كان يحترز من الوباء أن يخرج عن بدنه الرطوبات الفضلية، ويقلل الغذاء، ويميل إلى التدبير المجفف من كل وجه، والخروج من أرض الوباء والسفر منها لا يكون إلا بحركة شديدة، وهي مضرة جداً. هذا كلام أفضل المتأخرين من الأطباء، فظهر المعنى الطبي من الحديث النبوي، وما فيه من علاج القلب والبدن وصلاحهما، انتهى.

## ذكر طبه ﷺ من السلعة

أخرج البخاري في تاريخه، والطبراني والبيهقي عن شرحبيل الجعفي قال: أتيت النبي ﷺ وبكفي سلعة، فقلت يا رسول الله قد آذتني، تحول بيني وبين قائم السيف أن

أقبض عليه وعنان الدابة، فنفث في كفي، ووضع كفه على السلعة فما زال يطحنها بكفه حتى رفعها عنها وما أرى أثرها. ومسح ﷺ وجه أبيض بن حَمالٍ وكان به القوباء فلم يمس من ذلك اليوم ومنها أثر[1]، رواه البيهقي وغيره.

## ذكر طبه ﷺ من الحمى

روى البخاري من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء البارد**»[2] واختلف في نسبتها إلى جهنم. فقيل: حقيقة، واللهب الحاصل في جسم المحموم قطعة من جهنم، وقدر الله ظهورها بأسباب تقتضيها ليعتبر العباد بذلك، كما أن أنواع الفرح واللذة من نعيم الجنة، أظهرّها في هذه الدار عبرة ودلالة.

وقيل: الخبر ورد مورد التشبيه، والمعنى: أن حر الحمى شبيه بحر جهنم، تنبيهاً للنفوس على شدة حر النار، وأن هذه الحرارة الشديدة شبيهة بفيحها، وهو ما يصيب من قرب منها من حرها. قوله «فأطفئوها» بهمزة قطع، أمر من: أطفأ. وروى الطبراني «**الحمى حظ المؤمن من النار**». وفي رواية نافع عن ابن عمر، عند الشيخين: قال رسول الله ﷺ «**إن الحمى أو شدة الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء**» بهمزة وصل والراء مضمومة على المشهور وحكي كسر الراء. وفي رواية ابن ماجه (**بالماء البارد**). وفي رواية أبي جمرة ـ بالجيم ـ عند البخاري، قال: كنت أجالس ابن عباس بمكة، فأخذتني الحمى، فاحتسبت أياماً، فقال: ما حبسك؟ فقلت: الحمى، قال: أبردها بماء زمزم، فإن رسول الله ﷺ قال: «**الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء، أو بماء زمزم**» شك.

قال ابن القيم: قوله «بالماء» فيه قولان: أحدهما: أنه كل ماء، وهو الصحيح. والثاني: أنه ماء زمزم. ثم قال بعد أن روى حديث أبي جمرة هذا، وراوي هذا قد شك فيه، ولو جزم به لكان أمراً لأهل مكة بماء زمزم، إذ هو متيسر عندهم، وأخبرهم بما عندهم من الماء، انتهى. وتعقب: بأنه وقع في رواية أحمد عن عفان بن همام:

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٧٧.

(٢) الحديث في البخاري برقم (٣٢٦٤ ـ ٥٧٢٣) وفي صحيح مسلم برقم (٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٤). وفي سنن ابن ماجه برقم (٣٤٧١ ـ ٣٤٧٣). وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٩١ و ٢/ ٢١ وفي سنن الدارمي ٢/ ٣١٦ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٤٠٣ وفي مجمع الزوائد ٢/ ٣٠٦ وفي المعجم الكبير ٤/ ٣٢٦ و ١٢/ ٢٣٠ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٢/ ٣٤٤ وفي مشكاة المصابيح ٤٥٢٥ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٣٨ وفي حلية الأولياء لابن نعيم ٧/ ١٦١ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٥/ ١٦٨٠ وفي الموطأ للإمام مالك (٩٤٥). وفي كنز العمال (٢٨٢٣٠ ـ ٢٨٢٣٧).

(**فابردوها بماء زمزم**) ولم يشك، وكذا أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم.

وقال ابن القيم: واختلف من قال إنه على عمومه هل المراد به الصدقة بالماء أو استعماله على قولين، والصحيح أنه استعماله، وأظن أن الذي حمل من قال إن المراد به الصدقة به أنه أشكل عليه استعمال الماء البارد في الحمى ولم يفهم وجهه. مع أن لقوله وجهاً حسناً وهو أن الجزاء من جنس العمل، فكما أخمد لهيب العطش عن الظمآن بالماء البارد أحمد الله لهيب الحمى عنه جزاء وفاقاً، انتهى.

وقال الخطابي وغيره: اعترض بعض سخفاء الأطباء على هذا الحديث، بأن اغتسال المحموم بالماء خطر يقربه من الهلاك، لأنه يجمع المسام، ويحقن البخار ويعكس الحرارة إلى داخل الجسم، فيكون ذلك سبباً للتلف. وقد غلط بعض من ينسب إلى [العلم][1]، فانغمس في الماء لما أصابته الحمى، فاحتنقت الحرارة في باطن بدنه، فأصابته علة صعبة كادت تهلكه، فلما خرج من علته قال قولاً سيئاً لا يحسن ذكره، وإنما أوقعه في ذلك جهله بمعنى الحديث.

والجواب: أن هذا الإشكال صدر عن صدر مرتاب في صدق الخبر، فيقال له أولاً، من أين حملت الأمر على الاغتسال، وليس في الحديث الصحيح بيان الكيفية فضلاً عن اختصاصها بالغسل، وإنما في الحديث الإرشاد إلى تبريد الحمى بالماء، فإن أظهر الوجود أو اقتضت صناعة الطب أن انغماس كل محموم في الماء أو صبه إياه على جميع بدنه يضره فليس هو المراد، وإنما قصده ﷺ استعمال الماء على وجه ينفع فليبحث عن ذلك الوجه ليحصل الانتفاع به، وهذا كما وقع في أمره العائن بالاغتسال وأطلق، وقد ظهر من الحديث الآخر أنه لم يرد مطلق الاغتسال، وإنما أراد الاغتسال على كيفية مخصوصة، وأولى ما يحمل عليه كيفية تبريد الحمى بالماء ما صنعته أسماء بنت أبي كبر الصديق رضي الله عنهما: فإنها كانت ترش على بدن المحموم شيئاً من الماء بين يديه وثوبه، فيكون ذلك من باب النشرة المأذون فيها، والصحابي ولا سيما مثل أسماء بنت أبي بكر التي هي كانت تلازم بيت النبي ﷺ أعلم بالمراد من غيرها[2].

وقد ذكر أبو نعيم وغيره، من حديث أنس يرفعه: «**إذا حم أحدكم فليرش عليه الماء البارد ثلاث ليال من السحر**». وقال المازري: لا شك أن علم الطب من أكثر العلوم

---

(١) في الأصل العمل وفي الأصل المنقول عنه العلم. والمقصود: العلم بالأحاديث. راجع فتح الباري ٢١٦/١٠.

(٢) التصويب من الأصل المنقول عنه. راجع فتح الباري ١٠/ ٢١٧.

احتياجاً إلى التفصيل حتى إن المريض يكون الشيء دواءه في ساعة فيكون داءه في الساعة التي تليها لعارض يعرض له من غضب يحمي مزاجه مثلاً فيتغير علاجه، ومثل ذلك كثير. فإذا فرض وجود الشفاء لشخص لشيء في حالة ما لم يلزم منه وجود الشفاء به له أو لغيره في سائر الأحوال. والأطباء مجمعون على أن المرض الواحد يختلف علاجه باختلاف السن والزمان والعادة والغذاء المتقدم والتأثير المألوف، وقوة الطباع. ويحتمل أن يكون هذا في وقت مخصوص فيكون من الخواص التي اطلع عليها النبي ﷺ بالوحي، ويضمحل عند ذلك جميع كلام أهل الطب.

وجعل ابن القيم خطابه ﷺ في هذا الحديث خاصاً لأهل الحجاز وما والاهم، إذ كان أكثر الحميات التي تعرض لهم من نوع الحمى اليومة العرضية، الحادثة من شدة حرارة الشمس. قال: هذه ينفعها الماء البارد شرباً واغتسالاً، لأن الحمى حراة غريبة تشتعل في القلب، وتنشر منه بتوسط الروح والدم في العروق إلى جميع البدن وهي قسمان: عرضية وهي الحادثة عن ورم أو حركة أو إصابة حرارة الشمس، أو القيظ الشديد ونحو ذلك، ومرضية وهي ثلاثة أنواع، وتكون عن مادة، ثم منها ما يسخن جميع البدن، فإن كان مبدأ تعلقها بالروح فهي حمى يوم، لا تقلع غالباً في يوم ونهايتها إلى ثلاث، وإن كان تعلقها بالأعضاء الأصلية فهي حمى دق، وهي أخطرها، وإن كان تعلقها بالأخلاط سميت عفينية، وهي بعدد الأخلاط الأربعة: أعني صفراوية، سوداوية، بلغمية، دموية، وتحت هذا الأنواع المذكورة أصناف كثيرة بسبب الأفراد والتركيب. انتهى.

وإذا تقرر هذا فيجوز أن يكون المراد النوع الأول. فإنها تسكن بالانغماس في الماء البارد، وشرب الماء المبرد بالثلج وبغيره، ولا يحتاج إلى علاج آخر. وقد قال جالينوس: لو أن شاباً خشن اللحم خصب البدن ليس في أحشائه ورم استحم بماء بارد وسبح فيه في وقت القيظ عند منتهى الحمى لانتفع بذلك.

وقد تكرر في الحديث استعماله ﷺ الماء البارد في علته، كما في الحديث: «**صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن**». وفي المسند وغيره من حديث الحسن عن سمرة يرفعه «**الحمى قطعة من النار فأبردوها عنكم بالماء البارد**» وكان ﷺ إذا حم دعا بقربة من ماء فأفرغها على رأسه فاغتسل، وصححه الحاكم، ولكن قال[1] في إسناده راو ضعيف. وعن أنس رفعه: «**إذا حم أحدكم فليشن عليه من الماء البارد من السحر ثلاث ليال**» أخرجه الطحاوي وأبو نعيم في الطب. وأخرج الطبراني من حديث عبد الرحمن بن

---

(١) سقط من قلم المصنف هنا كلمة (غيره) فكيف يصححه ويقول عنه ضعيف.

المرقع، رفعه: «**الحمى رائد الموت، وهي سجن الله في الأرض، فبردوا لها الماء في الشنان وصبوه عليكم فيما بين الأذانين المغرب والعشاء**. قال ففعلوا فذهب عنهم.

وقد أخرج الترمذي من حديث ثوبان مرفوعاً: «**إذا أصاب أحدكم الحمى وهي قطعة من النار فليطفئها عنه بالماء، يستنقع في نهر جار، ويستقبل جريته، وليقل: بسم الله، اللهم اشف عبدك، وصدق رسولك، بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس، ولينغمس فيه ثلاث غمسات، ثلاثة أيام، فإن لم يبرأ فخمس، وإلا فسبع، وإلا فتسع، فإنها لا تكاد تجاوز تسعاً بإذن الله**»[1] قال الترمذي: غريب، وفي سنده سعيد بن زرعة مختلف فيه.

## ذكر طبه ﷺ من حكة الجسد وما يولد القمل

لما كانت الحكة لا تكون إلا عن حرارة ويبس وخشونة رخص ﷺ للزبير بين العوام وعبد الرحمن بن عوف في لبس الحرير لحكة كانت بهما، كما في البخاري عن قتادة أن أنساً حدثهم أن النبي ﷺ رخص لعبد الرحمن بن عوف والزبير في قميص من حرير من حكة كانت بهما. وفي رواية أن عبد الرحمن والزبير شكيا إلى النبي ﷺ - يعني القمل - فأرخص لهما في الحرير، فرأيته عليهما في غزاة. وفي رواية رخص النبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام في الحرير. وفي رواية رخص النبي ﷺ، أو رُخِصَ لحكة كانت بهما[2].

ويحتمل أن تكون إحدى العلتين بأحد الرجلين، أو أن الحكة حصلت من القمل فنسبت العلة تارة إلى السبب وتارة إلى المسبب. قال النووي: هذا الحديث صريح في الدلالة لمذهب الشافعي وموافقيه: أنه يجوز لبس الحرير للرجل إذا كانت به حكة لما فيه من البرودة، وكذا للقمل وما في معنى ذلك. وقال مالك: لا يجوز، وهذا الحديث حجة عليه، انتهى. وتعقب قوله: «لما فيه من البرودة» بأن الحرير حار. والصواب: أن الحكمة فيه إنما هي لخاصية فيه تدفع الحكة والقمل.

وقال ابن القيم: وإذا اتخذ منه ملبوس كان معتدل الحرارة في مزاجه، مسخناً للبدن، وربما برد البـدن بتسمينه إياه. وقال الرازي: الابريسم أسخن من الكتان وأبرد من

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٨٤) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٢٨١ والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٥٨٢) والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ٣/ ٢١٨ والهيثمي في موارد الظمآن (٢٢٦٩) وفي عمل اليوم والليلة لابن السني (٥٦٢) وفي كنز العمال (٢٨٢٣٣).

(٢) الروايات في البخاري برقم (٢٩١٩ - ٢٩٢١ - ٥٧٩٥).

القطن، يربي اللحم، وكل لباس خشن فإنه يهزل ويصلب البشرة، فملابس الأوبار والأصواف تسخن وتدفىء وملابس الكتان والحرير والقطن تدفىء ولا تسخن، فثياب الكتان باردة يابسة، وثياب الصوف حارة يابسة، وثياب القطن معتدلة الحرارة، وثياب الحرير ألين من ثياب القطن وأقل حرارة منه، ولما كانت ثياب الحرير ليس فيها من اليبس والخشونة كغيرها صارت نافعة من الحكة، لأن الحكة ـ كما قدمته ـ لا تكون إلا عن حرارة ويبس وخشونة، فلذلك رخص ﷺ لهما في الحرير لمداواة الحكة.

## ذكر طبه ﷺ من السم الذي أصابه بخيبر

تقدم في غزوتها قصة اليهودية التي أهدت إليه الشاة المسمومة، وقد روى عبد الرازق عن معمر عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن امرأة يهودية أهدت للنبي ﷺ شاة مصلية بخيبر، فقال: «**ما هذه؟**» قالت: هدية، وحذرت أن تقول صدقة فلا يأكل. فأكل النبي ﷺ وأكل أصحابه، ثم قال: «**أمسكوا**» ثم قال للمرأة: «**هل سميت هذا الشاة؟**» قالت من أخبرك؟ قال: «**هذا العظم، لساقها**» وهو في يده، قالت: نعم قال «**لِمَ؟**» قالت: أردت إن كنت كاذباً أن يستريح منك الناس، وإن كنت نبياً لم يضرك. قال: فاحتجم النبي ﷺ ثلاثاً على كاهله[1].

وقد ذكروا في علاج السم أنه يكون بالاستفراغات وبالأدوية التي تعارض فعل السم وتبطله، إما بكيفياتها وإما بخواصها، فمن عدم الدواء فليبادر إلى الدواء الكلي، وأنفعه الحجامة، ولا سيما إذا كان البلد حاراً، فإن القوة السمية تسري في الدم، فتبعثه في العروق والمجاري، حتى تصل إلى القلب والأعضاء، فإذا بادر المسموم وأخرج الدم خرجت معه تلك الكيفية السمية التي خالطته، فإن كان استفراغاً تاماً لم يضره السم، بل إما أن يذهب، وإما أن يضعف فتقوى عليه الطبيعة فتبطل فعله، أو تضعفه.

ولما احتجم ﷺ احتجم على الكاهل، لأنه أقرب إلى القلب، فخرجت المادة السمية مع الدم، لا خروجاً كلياً بل بقي أثرها مع ضعفه لما يريد الله تعالى من تكميل مراتب الفضل كلها له بالشهادة زاده الله فضلاً وشرفاً.

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٩٨ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٦١ وفي المعجم الكبير ١٨/ ١٥٩ و ١٧٩ وفي مجمع الزوائد ٤/ ١٠٥ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ١٥١ و ٣/ ١٢٥ و ٨/ ١٨٢ و ٣٤٣ وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٢٧١.

## النوع الثالث
## في طبه ﷺ بالأدوية المركبة من الإلٰهية والطبيعية

### ذكر طبه ﷺ من القرحة والجرح وكل شكوى

عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول للمريض: «**بسم الله تربة أرضنا، وريقة بعضنا، يشفى سقيمنا**». وفي رواية: كان يقول في الرقية: «**بسم الله تربة أرضنا، وريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا**»[1] رواه البخاري.

وفي رواية: لمسلم: كان إذا اشتكى الإنسان، أو كانت به قرحة أو جرح قال بإصبعه هكذا ووضع سفيان سبابته بالأرض، الحديث. وقوله: «تربة أرضنا» خبر مبتدأ محذوف، أي هذه تربة أرضنا. وقوله «يشفى سقيمنا» ضبط بوجهين، بضم أوله على البناء للمجهول، وسقيمنا بالرفع، وبفتح أوله على أن الفاعل مقدر، وسقيمنا بالنصب على المفعولية.

قال النووي: معنى الحديث: أنه أخذ من ريق نفسه: على أصبعه السبابة، ثم وضعها على التراب فعلق بها شيء منه، ثم مسح به على الموضع العليل أو الجرح قائلاً الكلام المذكور في حالة المسح.

وقال القرطبي: زعم بعض الناس أن السر فيه أن تراب الأرض لبرودته ويبسه يبرىء الموضع الذي به الألم، ويمنع انصباب المواد إليه ليبسه، مع منفعته في تجفيف الجراح واندمالها. وقال في الريق: إنه يختص بالتحليل والإنضاج وإبراء الجرح والورم، ولا سيما من الصائم والجائع.

وتعقبة القرطبي: بأن ذلك إنما يتم إذا وقعت المعالجة على قوانينها من مراعاة مقدار التراب والريق، وملازمة ذلك في أوقاته، وإلا فالنفث ووضع السبابة على الأرض إنما يعلق بها ما ليس له بال ولا أثر، وإنما هذا من باب التبرك بأسماء الله تعالى وآثار رسوله ﷺ: وأما وضع الأصبع بالأرض فلعله لخاصية في ذلك، أو لحكمة إخفاء آثار القدرة بمباشرة الأسباب المعتادة.

---

(١) الحديث في صحيح البخاري برقم (٥٧٤٥ ـ ٥٧٤٦). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٩٣ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٤١٢ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١٥٣١) وفي المغني عن حمل الأسفار للعراقي ١/ ٣٣٠ و ٤/ ٢٧٧ وفي مسند الحميدي (٢٥٢) وفي شرح السنة للبغوي ٥/ ٢٢٤ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ١٠٦ و ٦/ ٢٩٧ وفي الأسرار المرفوعة لعلي القاري (٢٠٩) وفي كنز العمال (٢٨٥٣٥).

وقال البيضاوي: قد شهدت المباحث الطبية على أن للريق مدخلاً في النضج وتعديل المزاج، وتراب الوطن له تأثير في حفظ المزاج ودفع الضرر، فقد ذكروا أنه ينبغي للمسافر أن يستصحب تراب أرضه إن عجز عن استصحاب مائها، حتى إذا ورد المياه المختلفة جعل شيئاً منه في سقائه ليأمن مضرة ذلك، ثم إن الرقى والعزائم لها آثار عجيبة تتقاعد العقول عن الوصول إلى كنهها.

وقال التوربشتي كأن المراد بالتربة الإشارة إلى النطفة، كأنه تضرع بلسان الحال: إنك اخترعت الأصل الأول من التراب ثم أبدعته من ماء مهين، فهين عليك أن تشفي من كاننت هذه نشأته.

وقال النووي: وقيل المراد «بأرضنا» أرض المدينة لبركتها، و«بعضنا» رسول الله ﷺ لشرف ريقه فيكون ذلك مخصوصاً. وفيه نظر. وفي حديث عائشة عند أبي داود والنسائي: أن النبي ﷺ دخل على ثابت بن قيس بن شماس وهو مريض، فقال: «**اكشف الباس رب الناس**»، ثم أخذ تراباً من بطحان فجعله في قدح ثم نفث عليه، ثم صبه عليه قال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث تفرد به الشخص المرقي.

## ذكر طبه ﷺ من لدغة العقرب:

عن عبد الله بن مسعود قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي إذ سجد فلدغته عقرب في إصبعه، فانصرف رسول الله ﷺ وقال: «**لعن الله العقرب، ما تدع نبياً ولا غيره**»، ثم دعا بإناء فيه ماء وملح فجعل يضع موضع اللدغة في الماء والملح، ويقرأ ﴿**قل هو الله أحد**﴾ [الإخلاص: ١] والمعوذتين حتى سكنت رواه ابن أبي شيبة في مسنده. وقال ابن عبد البر: رقي رسول الله ﷺ من العقرب بالمعوذتين، وكان يمسح الموضع بماء فيه ملح.

وهذا طب مركب من الطبيعي والإلهي، فإن سورة الإخلاص قد جمعت الأصول الثلاثة، التي هي مجامع التوحيد، وفي المعوذتين استعاذه من كل مكروه جملة وتفصيلاً. ولهذا أوصى ﷺ عقبة بن عامر أن يقرأهما عقب كل صلاة. رواه الترمذي. وفي هذا سر عظيم في استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة. وقال «**ما تعوذ المتعوذون بمثلهما**»[1].

وأما الماء والملح فهو الطب الطبيعي، فإن في الملح نفعاً لكثير من السموم ولا سيما لدغة العقرب، وفيه من القوة الجاذبة ما يجذب السموم ويحللها، ولما كان في لسعها قوة نارية تحتاج إلى تبريد وجذب استعمل ﷺ الماء والملح لذلك.

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٤٦٣).

## ذكر الطب من النملة

وهي بفتح النون وإسكان الميم، قروح تخرج في الجنب، وسمي نملة لأن صاحبه يحس في مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضه. وفي حديث مسلم عن أنس أنه ﷺ رخص في الرقية من الحمة والعين والنملة. وروى الخلال أن الشفاء بنت عبد الله كانت ترقي في الجاهلية من النملة، فلما هاجرت إلى النبي ﷺ وكانت بايعته بمكة قالت: يا رسول الله إني كنت أرقي في الجاهلية من النملة، وأريد أن أعرضها عليك، فعرضتها فقالت: بسم الله ضلت حتى تعود من أفواهها ولا تضر أحداً، اللهم اكشف الباس رب الناس. قال: «**ترقي بها على عود سبع مرات، وتقصد به مكاناً نظيفاً وتدلكه على حجر بخل خمر حاذق وتطليه على النملة**».

## ذكر طبه ﷺ من البثرة

روى النسائي عن بعض أزواج النبي ﷺ قال: «**عندك ذريرة**»؟ قلت: نعم، فدعا بها فوضعها على بثرة بين أصبعين من أصابع رجله، ثم قال: «**اللهم مطفىء الكبير، ومكبر الصغير، أطفئها عني، فطفئت**»[1].

## ذكر طبه ﷺ من حرق النار

روى النسائي عن محمد بن حاطب قال: تناولت قدراً، فأصاب كفي من مائها، فاحترق ظهر كفي، فانطلقت بي أمي إلى النبي ﷺ، فقال: «**أذهب الباس رب الناس**» قال: وأحسبه قال: **واشف أنت الشافي**» وتفل.

## ذكر طبه ﷺ بالحمية

وهي قسمان: حمية عما يجلب المرض، وحمية عما يزيده فيقف على حاله.

فالأولى: حمية الأصحاء.

والثانية: حمية المرضى، فإن المريض إذا احتمى وقف مرضه عن التزايد، وأخذت القوى في دفعه.

والأصل في الحمية قوله تعالى: ﴿**وإن كنتم مرضى أو على سفر**﴾ إلى قوله:

(١) الحديث أيضاً في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٣٧٠ وفي مستدرك الحاكم ٤/ ٢٠٧ وفي مجمع الزوائد ٥/ ٩٥ وفي جمع الجوامع للسيوطي (٩٩٨٠) وفي عمل اليوم والليلة لابن السني (٦٢٩) وفي الأحكام النبوية في الصناعة الطبية للكحال ٢/ ١٤٩ وفي الأذكار للنووي (١٢١) والذريرة: ما انتحت من قصب الطيب الذي يجاء به من بلد الهند يشبه قصب النشاب. انظر لسان العرب ٥/ ٣٣ مادة (ذرر).

﴿فتيمموا صعيداً طيباً﴾ [النساء: ٤٣] فحمى المريض من استعمال الماء لأنه يضره، كما وقعت الإشارة لذلك في أوائل هذا المقصد.

وقد قال بعض أفاضل الأطباء: رأس الطب الحمية. والحمية للصحيح عندهم في المضرة بمنزلة التخليط للمريض والناقة، وأنفع ما تكون الحمية للناقة من المرض، لأن التخليط يوجب الإنتكاس والإنتكاس أصعب من ابتداء المرض. والفاكهة تضر الناقة من المرض، لسرعة استحالتها وضعف الطبيعة عن دفعها لعدم القوة، وفي سنن ابن ماجه عن صهيب قال: قدمت على النبي ﷺ وبين يديه خبز وتمر، فقال: «**ادن وكل**» فأخذت تمراً فأكلت، «**فقال أتأكل تمراً وبك رمد؟**» فقلت يا رسول الله أمضغ من الناحية الأخرى، فتبسم رسول الله ﷺ. ففيه الإشارة إلى الحمية وعدم التخليط، وأن الرمد يضر به التمر.

وعن أم المنذر بنت قيس الأنصارية قالت: دخل علي رسول الله ﷺ ومعه علي، وهو ناقه من مرض، ولنا دوال معلقة، فقام رسول الله ﷺ يأكل منها، وقام علي يأكل منها، فطفق النبي ﷺ يقول لعلي: «**إنك ناقه**» حتى كف. قالت: وصنعت شعيراً وسلقاً فجئت به فقال ﷺ لعلي: «**من هذا أصب فإنه أنفع لك**»(١) رواه ابن ماجه.

وإنما منعه ﷺ من أكله من الدوالي لأن في الفاكهة نوع ثقل على المعدة، ولم يمنعه من السلق والشعير لأنه من أنفع الأغذية للناقه، ففي ماء الشعير التغذية والتطليف والتليين وتقوية الطبيعة. فالحمية من أكبر الأدوية للناقة قبل زوال الداء، لكي يمتنع تزايده وانتشاره.

قال ابن القيم: ومما ينبغي أن يعلم أن كثيراً مما يحمى عنه العليل والناقه والصحيح إذا اشتدت الشهوة إليه، ومالت إليه الطبيعة، فتناول منه الشيء اليسير الذي لا تعجز الطبيعة عن هضمه لم يضره تناوله، بل ربما انتفع به، فإن الطبيعة والمعدة يتلقيانه بالقبول والمحبة، فيصلحان ما يخشى من ضرره، وقد يكون أنفع من تناوله ما تكرهه الطبيعة وتدفعه من الدواء. ولهذا أقر النبي ﷺ صهيباً وهو أرمد على تناول التمرات اليسيرة وعلم أنها لا تضره. ففي هذا الحديث ـ يعني حديث صهيب ـ سر طبي لطيف، فإن المريض إذا تناول ما يشتهيه عن جوع صادق وكان فيه ضرر ما، كان أنفع وأقل ضرراً مما لايشتهيه عن جوع صادق وإن كان نافعاً في نفسه. فإن صدق شهوته ومحبة الطبيعة له تدفع ضرره، وكذلك بالعكس.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب باب (٢) برقم (٣٨٥٦) وفي سنن ابن ماجه كتاب الطب باب (٣) رقم الحديث (٣٤٤٢). وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٦٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٢٤٤ وفي الشمائل للترمذي (٩٣).

## ذكر حمية المريض من الماء

عن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أحب الله العبد حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء**»[1]. قال الترمذي حديث حسن غريب.

وروى الحميدي مرفوعاً: «**لو أن الناس أقلوا من شرب الماء لاستقامت أبدانهم**».

وللطبراني في الأوسط عن أبي سعيد مرفوعاً: «**من شرب الماء على الريق انتقصت قوته**» وفيه محمد بن مخلد الرعيني، وهو ضعيف.

## ذكر أمره ﷺ بالحمية من الماء المشمس خوف البرص

روى الدارقطني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**لا تغتسلوا بالماء المشمس فإنه يورث البرص**»[2]. وروى الدارقطني هذا المعنى مرفوعاً من حديث عامر عن النبي ﷺ، وهو ضعيف. وكذا خرج العقيلي نحوه عن أنس بن مالك، ورواه الشافعي عن عمر.

فعلى هذا يكره استعمال الماء المشمس شرعاً خوف البرص، لكنهم اشترطوا شروطاً: أن يكون في البلاد الحارة، والأوقات الحارة دون الباردة، وفي الأواني المنطبعة على الأصح دون الحجر والخشب ونحوهما. واستثني النقدان لصفائهما. وقال الجويني بالتسوية، حكاه ابن الصلاح. ولا يكره المشمس في الحياض والبرك قطعاً، وأن يكون الإستعمال في البدن لا في الثوب، وأن يكون مستعملاً حال حرارته، فلو برد زالت الكراهة في الأصح في الروضة وصحح في الشرح الصغير عدم الزوال. واشترط صاحب التهذيب ـ كما قاله الجيلي ـ أن يكون رأس الإناء منسداً لتنحبس الحرارة، وفي شرح المهذب أنها شرعية يثاب تاركها وقال في شرح التنبيه: إن اعتبرنا القصد فشرعية وإلا فإرشادية، وإذا قلنا بالكراهة فكراهة تنزيه لا تمنع صحة الطهارة. وقال الطبري: إن خاف الأذى حرم، وقال ابن عبد السلام: لو لم يجد غيره وجب استعماله، واختار النووي في الروضة عدم الكراهة مطلقاً، وحكاه الروياني في البحر عن النص.

## ذكر الحمية من طعام البخلاء

عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «**طعام البخيل داء وطعام الأسخياء**

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٢٠٣٦) وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٣٠٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ٤/ ٢٩٨ وفي مشكاة المصابيح (٥٢٥٠) وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٤٧٤) وفي الترغيب والترهيب ٤/ ١٣٢ وفي الدر المنثور ٣/ ٢٣٨ وفي كنز العمال (٦٠٦٨ ـ ١٦٥٩٧).

(٢) انظر سنن الدارقطني ١/ ٣٩ رقم الحديث (٤).

شفاء». رواه التنيسي عن مالك في غير الموطأ، كما ذكره عبد الحق في الأحكام.

## ذكر الحمية من داء الكسل

روى أبو داود في المراسيل عن يونس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن: أنه رآه مضطجعاً في الشمس، قال يونس فنهاني وقال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**إنها تورث الكسل وتثير الداء الدفين**».

## ذكر الحمية من داء البواسير

عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ «**لا يجامعن أحدكم وبه حقن خلاء، فإنه يكون منه البواسير**»[1] رواه أبو أحمد والحاكم.

## ذكر حماية الشراب من سم أحد جناحي الذباب بانغماس الثاني

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء**»[2]. وفي رواية أبي داود (**فإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء، فليغمسه كله**). وفي رواية الطحاوي: فإن يقدم السم ويؤخر الشفاء. وفي قوله «كله» دفع توهم المجاز في الإكتفاء بالبعض.

قال شيخ شيوخنا[3]: لم يقع لي في شيء من الطرق تعيين الجناح الذي فيه الشفاء من غيره. لكن ذكر بعض العلماء أنه تأمله فوجده يتقي بجناحه الأيسر. فعرف أن الأيمن هو الذي فيه الشفاء. وأخرج أبو يعلى عن ابن عمر مرفوعاً: «**عمر الذباب أربعون ليلة. والذباب كله في النار إلا النحل**». وسنده لا بأس به.

قال الجاحظ: كونه في النار ليس تعذيباً له بل ليعذب أهل النار له، ويتولد من العفونة. ومن عجيب أمره أن رجيعه يقع على الثوب الأسود أبيض وبالعكس، وأكثر ما يظهر في أماكن العفونة، ومبدأ خلقه منها ثم من التوالد، وهو أكثر الطيور سفاداً، وربما بقي عامة اليوم على الأنثى. ويحكى أن بعض الخلفاء سأل الشافعي: لأي علة خلق الذباب؟ فقال: مذلة للملوك، وكان ألحت عليه ذبابة. وقال الشافعي: سألني ولم يكن

---

(١) انظر كنز العمال (٤٤٩٠٢ ـ ٤٥٨٩٢).

(٢) الحديث في البخاري برقم (٣٣٢٠ ـ ٥٧٨٢) وفي سنن أبي داود برقم (٣٨٤٤) وفي سنن النسائي ١٧٩/٧ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٢٩/٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢٥٢/١ وفي إتحاف السادة المتقين ١٨/٦ وفي مجمع الزوائد ٣٨/٥ وفي موارد الظمآن (١٣٥٥). وفي كنز العمال (٢٨٣٠١ ـ ٢٨٣٠٢).

(٣) هو الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٣٠٨/١٠.

عندي جواب فاستنبطت ذلك من الهيئة الحاصلة، فرحمة الله عليه ورضوانه.

## ذكره أمره ﷺ بالحمية من الوباء النازل في الإناء بالليل بتغطيته

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «**غطوا الإناء وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا ينزل فيه من ذلك الوباء**»[1]. رواه مسلم في صحيحه. قيل: وذلك في آخر شهور السنة الرومية.

## ذكر حمية الوليد من إرضاع الحمقى

روى أبو داود في المراسيل بإسناد صحيح عن زياد السهمي قال: نهى رسول الله ﷺ أن نسترضع الحمقاء، فإن اللبن يشبه. وعند ابن حبيب: يعدي، وعند القضاعي بسند حسن من حديث ابن عباس مرفوعاً: «**الرضاع يغير الطباع**»[2]. وعند ابن حبيب أيضاً مرفوعاً: «**أنه نهى عن استرضاع الفاجرة**». وعن عمر بن الخطاب: «**أن اللبن ينزع لمن تسترضع**».

وأما الحمية من البرد فاشتهر على الألسنة: اتقوا البرد فإنه قتل أبا الدرداء. لكن قال شيخ الحفاظ ابن حجر: لا أعرفه: فإن كان وارداً فيحتاج إلى تأويل، فإن أبا الدرداء عاش بعد النبي دهراً. انتهى. وأما ما اشتهر أيضاً: أصل كل داء البردة، فقال شيخنا: رواه أبو نعيم والمستغفري معاً في الطب النبوي والدارقطني في العلل، كلهم من طريق تمام بن نجيج عن الحسن البصري عن أنس رفعه. وتمام: ضعفه الدارقطني وغيره، ووثقه ابن معين.

ولأبي نعيم أيضاً من حديث ابن المبارك عن السائب بن عبد الله ابن علي بن زحر عن ابن عباس مرفوعاً مثله. ومن حديث عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رفعه: «**أصل كل داء من البردة**». وقد قال الدارقطني عقب حديث أنس من علله[3]: عباد بن منصور عن الحسن من قوله، وهو أشبه بالصواب. وجعله الزمخشري في «الفائق» من كلام ابن مسعود.

قال الدارقطني في كتاب التصحيف: قال أهل اللغة «البردة» يعني بإسكان الراء،

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (٩٦ ـ ٩٩) وفي سنن ابن ماجه (٣٤١٠) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٥٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٢٥٧ وفي مشكل الآثار ٢/ ٢٠ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٩٦ ـ ٤٢٩٨). وفي كنز العمال (٤١٢٨٥).

(٢) قال الزرقاني في الشرح: فيه صالح بن عبد الجبار قال في الميزان: أتى بخبر منكر جداً وساق هذا الحديث. وفيه عبد الملك بن مسلمة ضعيف.

(٣) سقط من قلم المصنف هنا (وقد رواه) وهو ثابت عند شيخه.

والصواب «البردة» يعني بالفتح، وهي التخمة، لأنها تبرد حرارة الشهوة، أو لأنها ثقيلة على المعدة بطيئة الذهاب. من «برد» إذا ثبت وسكن. وقد أورد أبو نعيم مضموماً لهذه الأحاديث، حديث الحارث بن فضيل عن زياد بن ميناء عن أبي هريرة رفعه: «**استدفئوا من الحر والبرد**». وكذا أورد المستغفري مع ما عنده منها حديث إسحاق بن نجيح عن أبان عن أنس رفعه: «**إن الملائكة لتفرح بفراغ البرد عن أمتي، أصل كل داء البرد**» وهما ضعيفان وذلك شاهد لما حكي عن اللغويين في كون المحدثين رووه بالسكون. انتهى.

## الفصل الثاني
## في تعبيره ﷺ الرؤيا

يقال: عبرت الرؤيا بالتخفيف: إذا فسرتها، وعبرتها بالتشديد للمبالغة في ذلك. وأما «الرؤيا» بوزن فعلى ـ وقد تسهل الهمزة ـ فهي ما يراه الشخص في منامه.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: الرؤيا إدراكات يخلقها الله تعالى في قلب العبد على يد ملك أو شيطان، إما بأسمائها، أي حقيقتها، وإما بكناها أي بعبارتها، وإما تخليطاً. وذهب أبو بكر بن الطيب[1]: إلى أنها اعتقادات، واحتج بأن الرائي قد يرى نفسه بهيمة أو طائراً مثلاً، وليس هذا إدراكاً، فوجب أن يكون اعتقاداً، لأن الإعتقاد قد يكون على خلاف المعتقد. قال ابن العربي: والأول أولى، والذي ذكره ابن الطيب من قبيل المثل فالإدراك يتعلق به لا بأصل الذات.

وقال المازري: كثر كلام الناس في حقيقة الرؤيا، وقال فيها غير الإسلاميين أقاويل كثيرة منكرة، لأنهم حاولوا الوقوف على حقائق لا تدرك بالعقل، ولا يقوم عليها برهان، وهم لا يصدقون بالسمع، فاضطربت أقاويلهم، فمن ينتمي إلى الطب ينسب جميع الرؤيا إلى الأخلاط، فيقول: من غلب عليه البلغم رأى أنه يسبح في الماء ونحو ذلك لمناسبة الماء طبيعة البلغم، ومن غلبت عليه الصفراء رأى النيران والصعود في الجو وهكذا إلى آخره، وهذا وإن جوزه العقل، وجاز أن يجري الله العادة به لكنه لم يقم عليه دليل، ولا اطردت به عادة، والقطع في موضع التجويز غلط.

ومن ينتمي إلى الفلسفة يقول: إن صور ما يجري في الأرض هي في العالم العلوي كالنقوش، فما حاذى بعض النفوس منها انتقش فيها. قال: وهذا أشد فساداً من الأول، لكونه تحكماً لا برهان عليه. والإنتقاش من صفات الأجسام، وأكثر ما يجري في العالم

---

(١) أي الباقلاني المتوفي سنة (٤٠٣ هـ) وفيات الأعيان ١/ ٦٠٩.

العلوي الأعراض، والأعراض لا ينتقش فيها.

قال: والصحيح ما عليه أهل السنة، أن الله تعالى يخلق في النائم اعتقادات كل يخلقها في قلب اليقظان فإذا خلقها جعلها علماً على أمور أخرى خلقها أو يخلقها في ثاني الحال، ومهما وقع منها على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان، ونظيره أن الله تعالى خلق الغيم علامة على المطر، وقد يتخلف. وتلك الإعتقادات تقع تارة بحضرة الملك فيقع بعدها ما يسره، وتارة بحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضره، والعلم عند الله.

وأخرج الحاكم والعقيلي من رواية محمد بن عجلان عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه قال: لقي عمر علياً فقال: يا أبا الحسن، الرجل يرى الرؤيا، فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب، قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد ولا أمة ينام فيمتلىء نوماً إلا تخرج روحه إلى العرش، فالذي لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي صدق، والذي يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تكذب**». قال الذهبي في تلخيصه: هذا حديث منكر، ولم يصححه المؤلف[1].

وذكر ابن القيم حديثاً مرفوعاً غير معزو: أن رؤيا المؤمن كلام يكلمه ربه به في المنام. ووجد الحديث للترمذي في «نوادر الأصول» من حديث عبادة بن الصامت، أخرجه في الأصل الثامن والسبعين، وهو من روايته عن شيخه عمر بن أبي عمر، وهو واه، وفي سنده جند ابن ميمون عن حمزة بن الزبير عن عبادة.

قال الحكيم[2]. قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب**﴾ [الشورى: ٥١] أي في المنام. ورؤيا الأنبياء وحي بخلاف غيرهم، فالوحي لا يدخله خلل لأنه محروس، بخلاف رؤيا غير الأنبياء فإنه قد يحضرها الشيطان.

وقال الحكيم أيضاً: وكل الله بالرؤيا ملكاً اطلع على أحوال بني آدم من اللوح المحفوظ فينسخ منها، ويضرب لكل على قصته مثلاً، فإذا نام مثلت له تلك الأشياء على طريق الحكمة الإلهية لتكون له بشرى أو نذارة أو معاتبة، والآدمي قد يسلط عليه الشيطان لشدة العداوة بينهما، فهو يكيده بكل وجه، ويريد إفساد أموره بكل طريق، فيلبس عليه رؤياه إما بتغليطه فيها أو بغفلته عنها.

---

(١) أي لم يصرح الحاكم بأنه صحيح وهو في المستدرك ٤/٣٩٦ و ٣٩٧ وفي كنز العمال (٤١٤٣٠).
(٢) أي الحكيم الترمذي.

## الرؤيا الصالحة جزء من النبوة

وفي البخاري من حديث أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «**الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**». والمراد غالب رؤيا الصالحين، وإلا فالصالح قد يرى الأضغاث، ولكنه نادر لقلة تمكن الشيطان منهم، بخلاف عكسهم، فإن الصدق فيها نادر لغلبة تسلطه عليهم. وقد استشكل كون الرؤيا جزءاً من النبوة، مع أن النبوة انقطعت بموته ﷺ.

وأجيب: بأن الرؤيا إن وقعت منه ﷺ فهي جزء من أجزاء النبوة حقيقة، وإن وقعت من غير النبي فهي جزء من أجزاء النبوة على سبيل المجاز. وقيل: المعنى أنها جزء من علم النبوة، لأن النبوة وإن انقطعت فعلمها باق. وتعقب بقول مالك ـ كما حكاه ابن عبد البر ـ أنه سئل: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يلعب. ثم قال: الرؤية جزء من النبوة.

**وأجيب**: بأنه لم يرد أنها نبوة باقية، وإنما أراد أنها أشبهت النبوة من جهة الاطلاع على بعض الغيب لا ينبغي أني تكلم فيها بغير علم، فليس المراد أن الرؤيا الصالحة نبوة، لأن المراد تشبيه الرؤية بالنبوة، وجزء الشيء لا يستلزم ثبوت وصفه، كمن قال: أشهد أن لا إله إلا الله رافعاً صوته لا يسمى مؤذناً، وفي حديث أم كرز الكعبية عند أحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان: (**ذهبت النبوة وبقيت المبشرات**)[1]. وعند أحمد من حديث عائشة مرفوعاً: (**لم يبق بعدي من المبشرات إلا الرؤيا**) وفي حديث ابن عباس عند مسلم وأبي داود: أنه ﷺ كشف الستارة ورأسه معصوب في مرضه الذي مات فيه، والناس صفوف خلف أبي بكر فقال: «**يا أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له**»، والتعبير بالمبشرات خرج مخرج الغالب، فإن من الرؤيا ما تكون منذرة وهي صادقة يريها الله للمؤمن رفقاً به ليستعد لما يقع قبل وقوعه.

وقوله: «من الرجل الصالح» لا مفهوم له، فإن المرأة الصالحة كذلك، وحكى ابن بطال الاتفاق عليه. وقوله: «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» كذا في أكثر الأحاديث. وروى مسلم من حديث أبي هريرة (**جزء من خمسة وأربعين جزءاً من**

---

(١) الحديث في سنن ابن ماجه برقم (٣٩٨٦) وفي سنن الدارمي ٢/ ١٢٣ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٨١ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٥٠٣ وفي الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٣١٢ وفي مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ٤٧ وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ٥٧ وفي كنز العمال (٤١٤٥٣).

**النبوة)**، وعنده أيضاً من حديث ابن عمر **(جزء من سبعين جزءاً)**، وعند الطبراني: «**جزء من ستة وسبعين**»، وسنده ضعيف، وعنه عن عبد البر من طريق عبد العزيز بن المختار عن ثابت عن أنس مرفوعاً: «**جزء من ستة وعشرين جزءاً**». ووقع في شرح مسلم للنووي وفي رواية عبادة: «**أربعة وعشرين**». والذي يتحصل من الروايات عشرة، أقلها ما عند النووي، وأكثرها: من ستة وسبعين، وأضربنا عن باقيها خوف الإطالة.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: أجزاء النبوة لا يعلم حقيقتها إلا ملك أو نبي، وإنما القدر الذي أراده النبي ﷺ أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوة في الجملة، لأن فيها اطلاعاً على الغيب من وجه ما، وأما تفصيل النسبة فيختص بمعرفته درجة النبوة.

وقال المازري: لا يلزم العالم أن يعرف كل شيء جملة وتفصيلاً، فقد جعل الله للعالم حداً يقف عنده، فمنه ما يعلم به المراد جملة وتفصيلاً، ومنه ما يعلمه جملة لا تفصيلاً، وهذا من هذا القبيل.

وقد تكلم بعضهم على الرواية المشهورة وأبدى لها مناسبة، فنقل ابن بطال عن أبي سعيد السفاقسي أن بعض أهل العلم ذكر أن الله تعالى أوحى إلى نبيه في المنام ستة أشهر، ثم أوحى إليه بعد ذلك في اليقظة بقية مدة حياته، ونسبتها إلى الوحي في المنام جزء من ستة وأربعين جزءاً، لأنه عاش بعد النبوة ثلاثاً وعشرين سنة على الصحيح. قال ابن بطال: هذا التأويل بعيد من وجهين:

**أحدهما**: أنه قد اختلف في قدر المدة التي بعد بعثته ﷺ.

**والثاني**: أنه يبقى حديث السبعين جزءاً بغير معنى.

وهذا الذي قاله من الإنكار في هذه المسألة سبقه إليه الخطابي فقال: كان بعض أهل العلم يقولون في تأويل هذا العدد قولاً لا يكاد يتحقق، وذلك أنه ﷺ أقام بعد الوحي ثلاثاً وعشرين سنة، وكان يوحي إليه في منامه ستة أشهر، وهي نصف سنة، فهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. قال الخطابي: وهذا وإن كان وجهاً تحتمله قسمة الحساب والعدد، فأول ما يجب على من قاله أن يثبت ما ادعاه خبراً، ولم نسمع فيه أثراً ولا ذكر مدعيه في ذلك خبراً، فكأنه قاله على سبيل الظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً. وليس كل ما خفي علينا علمه يلزمنا حجته، كأعداد الركعات وأيام الصيام، ورمي الجمرات، فإنا لا نصل من علمها إلى أمر يوجب حصرها تحت أعدادها، ولم يقدح ذلك في موجب اعتقادنا للزومها. وقد ذكروا في المناسبات غير ذلك ما يطول ذكره.

وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «**أصدق الرؤيا بالأسحار**»[1] رواه الترمذي والدارمي. وروى مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً**»[2]. قال الخطابي في «المعالم» في قوله: «إذا اقترب الزمان» قولان:

**أحدهما**: أن يكون معناه تقارب زمان الليل وزمان النهار، وهو وقت استهوائهما، أيام الربيع، وذلك وقت اعتدال الطبائع الأربع غالباً، قال: والمعبرون يقولون: أصدق الرؤيا ما كان عند اعتدال الليل والنهار وإدراك الثمار.

**والثاني**: أن اقتراب الزمان انتهاء مدته، إذا دنا قيام الساعة.

وتعقب الأول: بأنه يبعده التقييد بالمؤمن، فإن الوقت الذي تعتدل فيه الطبائع لا يختص به. وجزم ابن بطال بأن الثاني هو الصواب، واستند إلى ما أخرجه الترمذي من طريق معمر عن أيوب في هذا الحديث بلفظ: في آخر الزمان لا تكذب رؤيا المؤمن. وقيل: المراد بالزمان المذكور زمان المهدي عند بسط العدل وكثرة الأمن وبسط الخير والرزق، فإن ذلك الزمان يستقصر لاستلذاذه فتتقارب أطرافه.

وقال القرطبي في «المفهم»: المراد ـ والله أعلم ـ بآخر الزمان المذكور في الحديث، زمان الطائفة الباقية مع عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ بعد قتله الدجال، فأهل هذا الزمان أحسن هذه الأمة حالاً بعد الصدر الأول، وأصدقهم أقوالاً، فكانت رؤياهم لا تكذب، ومن ثم قال عقب هذا: وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، وإنما كانت كذلك لأن من كثر صدقه تنور قلبه وقوي إدراكه، وانتقشت فيه المعاني على وجه الصحة، وكذلك من كان غالب أحواله الصدق في يقظته فإنه يستصحب ذلك في نومه فلا يرى إلا صدقاً، وهذا بخلاف الكاذب والمخلط، فإنه يفسد قلبه ويظلم، فلا يرى إلا تخليطاً وأضغاثاً، وقد يندر المنام أحياناً، فيرى الصادق ما لا يصح، ويرى الكاذب ما يصح، ولكن الأغلب الأكثر ما تقدم. انتهى ملخصاً.

---

(١) الحديث في سنن الترمذي برقم (٢٢٧٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٩ و ٦٨ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٣٩٢ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٦٢٧) وفي موارد الظمآن للهيثمي (١٧٩٩) وفي ميزان الاعتدال (٢٦٦٧) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/ ٩٨٠ و ٩٨٢ و ٤/ ١٥١٩.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الرؤيا رقم (٦) والترمذي برقم (٢٢٧) وفي سنن أبي داود (٥٠١٩) وفي سنن الدارمي ٢/ ١٢٥ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٥٠٧ وفي مشكاة المصابيح (٤٦١٤). وفي الدر المنثور ٣/ ٣١٢ وفي كنز العمال (٤١٤٥٠ ـ ٤١٤٢٧).

وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها وليتحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها، فإنها لا تضره**»[1] رواه البخاري. وفي رواية لمسلم: (**ورؤيا السوء من الشيطان، فمن رأى رؤيا وكره منها شيئاً فلينفث عن يساره وليتعوذ بالله من الشيطان، ولا يخبر بها أحداً، فإن رأى رؤيا حسنة فليبشر ولا يخبر بها إلا من يحب**). وقوله: «فليبشر» بفتح التحتانية وسكون الموحدة وضم المعجمة، من البشرى.

وفي حديث أبي رزين عند الترمذي: «**ولا يقصها إلا على وادّ**» ـ بتشديد الدال، اسم فاعل من الود ـ «**أو ذي رأي**» وفي أخرى: «**ولا يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً**» وفي أخرى: «**لا تقص رؤياك إلا على عالم أو ناصح**». وفي حديث أبي سعيد عند مسلم: «**فليحمد الله عليها وليحدث بها**».

وحاصل ما ذكر من آداب الرؤيا الصالحة ثلاثة أشياء: أن يحمد الله عليها، وأن يبشر بها، وأن يتحدث بها لكن لمن يحب دون من يكره.

وحاصل ما ذكر من آداب الرؤيا المكروهة أربعة أشياء: أن يتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، ويتفل حين يهب من نومه، ولا يذكرها لأحد أصلاً. في البخاري من حديث أبي هريرة هامسة: وهي الصلاة، ولفظه: ﴿**فمن رأى شيئاً يكرهه فلا يقصه على أحد وليقم فليصل**». لكن لم يصرح البخاري بوصله، وصرح به مسلم، وزاد مسلم سادسة: وهي التحول من جنبه الذي كان عليه فقال: عن جابر رفعه: «**إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه**»[2].

قال النووي: وينبغي أن تجمع هذه الروايات كلها، ويعمل بجميع ما تضمنته، فإن اقتصر على بعضها أجزأ في رفع ضررها كما صرحت به الأحاديث. وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأنه لم ير في شيء من الأحاديث الاقتصار على واحد، ثم قال: لكن أشار المهلب إلى أن الاستعاذة كافية في دفع شرها. انتهى.

ولا ريب أن الصلاة تجمع ذلك كله كما قاله القرطبي، لأنه إذا قام يصلي تحول عن جنبه، وبصق ونفث عند المضمضة في الوضوء، واستعاذ قبل القراءة، ثم دعا الله في

(١) الحديث أخرجه البخاري برقم (٦٩٨٥) وفي الترمذي برقم (٣٤٥٣). وفي سنن أبي داود (٥٠٢٢) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٨ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٣٩٢ وفي الدر المنثور ٣/ ٣١٢ وفي عمل اليوم والليلة لابن السني (٧٦٤). وفي كنز العمال (٤١٣٩٦).

(٢) الحديث في مسلم برقم (٥) وفي سنن ابن ماجه (٣٩٠٨ ـ ٣٩١٠).

أقر بالأحوال إليه، فيكفيه الله شرها. وذكر بعضهم سابعة: وهي قراءة آية الكرسي، ولم يذكر لذلك مستنداً، فإن أخذه من عموم قوله في حديث أبي هريرة: (**ولا يقربك شيطان**)فيتجه، قال: وينبغي أن يقرأها في صلاته المذكورة.

وحكمة التفل ـ كما قال القاضي عياض ـ أمر به طرداً للشيطان الذي حضر الرؤيا المكروهة، تحقيراً له واستقذاراً، وخصت به اليسار لأنها محل الأقذار ونحوها، والتثليث للتأكيد. وقد رود التفل والنفث والبصق، قال النووي في الكلام على النفث على الرقية ـ تبعاً للقاضي عياض ـ: اختلف في التفل والنفث، فقيل: هما بمعنى واحد لا يكونان إلا بريق. وقال أبو عبيد: يشترط في التفل ريق يسير، ولا يكون في النفث، وقيل عكسه. وسئلت عائشة عن النفث في الرقية فقالت: كما ينفث آكل الزبيب، لا ريق معه. قال: ولا اعتبار بما يخرج معه من بلة بغير قصد. قال: وقد جاء في حديث أبي سعيد في الرقية بفاتحة الكتاب: فجعل يجمع بزاقه.

قال القاضي: وفائدة التفل التبرك بتلك الرطوبة والهواء والنفس المباشر للرقية المقارن للذكر الحسن، كما يتبرك بغسالة ما يكتب من الذكر والأسماء. وقال النووي أيضاً: وأكثر الروايات في الرؤية «فلينفث» وهو النفخ اللطيف بلا ريق، فيكون التفل والبصق محمولين عليه مجازاً. وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأن المطلوب في الموضعين مختلف، لأن المطلوب في الرقية التبرك برطوبة الذكر كما تقدم، والمطلوب هنا طرد الشيطان، وإظهار احتقاره واستقذاره كما نقله هو عن عياض كما تقدم.

فالذي يجمع الثلاثة، الحمل على التفل، فإنه نفخ معه ريق لطيف، فبالنظر إلى النفخ قيل له نفث، وبالنظر إلى الريق قيل له بصق. وأما قوله: «فإنها لا تضره» فمعناه ـ كما قاله النووي ـ: أن الله تعالى جعل ما ذكر سبب للسلامة من المكروه المرتب على الرؤيا، كما جعل الصدقة وقاية للمال. وأما التحول، فللتفاؤل بتحول تلك الحال التي كان عليها.

والحكمة في قوله في الرؤيا الحسنة: «ولا يخبر بها إلا من يحب» لأنه إذا حدث بها من لا يحب قد يفسرها له بما لا يحب، إما بغضاً وإما حسداً، فقد تقع على تلك الصفة، أو يتعجل لنفسه من ذلك حزناً ونكداً فأمر بترك تحديث من لا يحب بسبب ذلك.

وقد روي من حديث أنس مرفوعاً: «**الرؤيا لأول عابر**». وهو حديث ضعيف، فيه يزيد الرقاشي، ولكن له شاهد أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه، بسند حسن،

وصححه الحاكم عن أبي رزين العقيلي رفعه: «**الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت**»[١].

وعند الدارمي بسند حسن عن سليمان بن يسار عن عائشة قالت: كانت امرأة من أهل المدينة لها زوج تاجر يختلف في التجارة، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن زوجي غائب، وتركني حاملاً، فرأيت في منامي أن سارية بيتي انكسرت وأني ولدت غلاماً أعور، فقال: «**خير يرجع زوجك إن شاء الله تعالى صالحاً، وتلدين غلاماً برًّا**»، فذكرت ذلك ثلاثاً، فجاءت ورسول الله ﷺ غائب، فسألتُها فأخبرتني بالمنام، فقلت لها: لئن صدقت رؤياك ليموتن زوجك، وتلدين غلاماً فاجراً، فقعدت تبكي، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**مه يا عائشة، إذا عبرتم للمسلم الرؤيا فاعبروها على خير، فإن الرؤيا تكون على ما يعبرها صاحبها**»[٢].

وعند سعيد بن منصور بن مرسل عطاء بن أبي رباح: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني رأيت كأن جائزة بيتي انكسرت، وكان زوجها غائباً، فقال: «**رد الله عليك زوجك، فرجع سالماً**»[٣] الحديث. قال أبو عبيد وغيره: معنى قوله: «الرؤيا لأول عابر» إذا كان العابر الأول عالماً، فعبر وأصاب وجه التعبير، وإلا فهي لمن أصاب بعده، إذ ليس المدار إلا على إصابة الصواب في تعبير المنام ليتوصل بذلك إلى مراد الله تعالى فيما ضربه من المثل، فإن أصاب فلا ينبغي أن يسأل غيره، وإن لم يصب فليسأل الثاني، وعليه أن يخبر بما عنده ويبين ما جهل الأول. هكذا قال، وفيه بحث يطول ذكره.

ومن آداب المعبر، ما أخرجه عبد الرزاق عن معمر أنه كتب إلى أبي موسى: فإذا رأى أحدكم رؤيا فقصها على أخيه فليقل: خير لنا وشر لأعدائنا. ورجاله ثقات، ولكن سنده منقطع. وفي حديث ابن زمل[٤] عند الطبراني والبيهقي في الدلائل[٥]: لما قص على النبي ﷺ رؤياه، فقال ﷺ: «**خير تتلقاه وشر تتوقاه، وخير لنا وشر على أعدائنا**

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٢٠) وابن ماجه برقم (٣٩١٤) والإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٠ والطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٢٠٦ والهيثمي في موارد الظمآن (١٧٩٥) وابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ٥٠ والطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٢٩٥ والسيوطي في الدرر المنتثرة (٨٧). وفي كنز العمال (٤١٣٩٠).

(٢) ذكره الحافظ في فتح الباري ١٢/ ٥٣٥ رقم الحديث (٧٠٤٦).

(٣) المصدر السابق ١٢/ ٥٣٥.

(٤) هو عبد الله بن زمل الجهني قال ابن حبان: له صحبة لكن لا اعتمد على إسناد خبره. له ترجمة في الإصابة ٤/ ٧١ برقم (٤٦٧٦).

(٥) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ٣٧.

والحمد لله رب العالمين اقصص علي رؤياك» الحديث، وسنده ضعيف جداً، ويأتي إن شاء الله تعالى. ومن آداب المعبر أن لا يعبرها عند طلوع الشمس ولا عند غروبها، ولا عند الزوال، ولا في الليل، وأن لا يقصها على امرأة، لكن ثبت أنه ﷺ كان إذا صلى الغداة يقول: «هل رأى أحد الليلة رؤيا»، فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، ويعبر لهم ما يقصون، وبوب عليه البخاري: باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح.

قالوا: وفيه إشارة إلى ضعف ما أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن سعيد بن عبد الرحمن عن بعض علمائهم قال: لا تقص رؤياك على امرأة، ولا تخبر بها حتى تطلع الشمس، وفيه إشارة إلى الرد على من قال من أهل التعبير: إن المستحب أن يكون التعبير من بعد طلوع الشمس إلى الرابعة، ومن العصر إلى قبل الغروب، فإن الحديث دل على استحباب تعبيرها قبل طلوع الشمس، فلا يخالف قولهم بكراهة تعبيرها في أوقات كراهة الصلاة.

قال المهلب[1]: تعبير الرؤيا عند صلاة الصبح أولى من غيره من الأوقات، لحفظ صاحبها لها القرب عهده بها، وقبل ما يعرض له نسيانها، ولحضور ذهن العابر وقلة شغله بالفكرة فيما يتعلق بمعاشه، وليعرف الرائي ما يعرض له بسبب رؤياه، فيستبشر بالخير ويحذر من الشر، ويتأهب لذلك، فربما كان في الرؤيا تحذير من معصية فكيف عنها، وربما كانت إنذاراً لأمر فيكون له مترقباً. قال: فهذه عدة فوائد لتعبير الرؤيا أول النهار. قاله في فتح الباري.

وذكر أئمة التعبير أن من آداب الرائي أن يكون صادق اللهجة، وأن ينام على وضوء، على جنبه الأيمن، وأن يقرأ عند نومه والشمس، والليل، والتين، وسورة الإخلاص والمعوذتين وأن يقول: اللهم إني أعوذ بك من سيء الأحلام، وأستجير بك من تلاعب الشيطان في اليقظة والمنام، اللهم إني أسألك رؤيا صالحة صادقة نافعة حافظة غير منسية، اللهم أرني في منامي ما أحب. وأن لا يقصها على عدو ولا جاهل. إذا علمت هذا، فاعلم أن جميع المرائي تنحصر في قسمين:

● أضغاث أحلام وهي لا تنذر بشيء وهي أنواع:

**الأول**: تلاعب الشيطان ليحزن الرائي، كأنه يرى أنه قطع رأسه وهو يتبعه، أو رأى أنه واقع في هول ولا يجد من ينجده ونحو ذلك. وروى مسلم عن جابر: جاء أعرابي

---

(١) هو المهلب أحمد بن أبي صفرة الأزدي الأندلسي أبو القسم فقيه قاض. توفي سنة (٤٣٥هـ). شذرات الذهب ٣/ ٢٥٥ كشف الظنون ١/ ٥٤٥.

فقال: يا رسول الله، إني حلمت أن رأسي قطع وأنا أتبعه، فزجره ﷺ وقال: «**لا تخبر بتلعب الشيطان بك في المنام**»[1].

**الثاني**: أن يرى أن بعض الملائكة يأمره أن يفعل المحرمات ونحوه من المحال عقلاً.

**الثالث**: ما يحدث به نفسه في اليقظة أو يتمناه، فيراه كما هو في المنام، وكذا رؤية ما جرت به عادته في اليقظة، أو ما يغلب على مزاجه ويقع على المستقبل غالباً، وعن الحال كثيراً، وعن الماضي قليلاً.

● **القسم الثاني**: الرؤيا الصادقة، وهي رؤيا الأنبياء، ومن تبعهم من الصالحين، وقد تقع لغيرهم بندور، وهي التي تقع في اليقظة على وفق ما وقعت في النوم، وقد وقع لنبينا ﷺ من الرؤيا الصادقة التي كفلق الصبح ما لا يعد ولا يحد. قالت عائشة: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. الحديث رواه البخاري. وفي رواية: الرؤيا الصالحة.

وهما بمعنى واحد بالنسبة إلى أمور الآخرة في حق الأنبياء، وأما بالنسبة إلى أمور الدنيا، فالصالحة في الأصل أخص. فرؤيا النبي ﷺ كلها صادقة، وقد تكون صالحة وهو الأكثر، وغير صالحة بالنسبة إلى الدنيا، كما وقع في الرؤيا يوم أحد، فإنه ﷺ رأى بقراً تذبح، ورأى في سيفه ثلماً، فأول البقر ما أصاب أصحابه يوم أحد، والثلم الذي في سيفه برجل من أهل بيته يقتل، ثم كانت العاقبة للمتقين، وكان بعد ذلك النصر والفتح على الخلق أجمعين.

وأما رؤيا غير الأنبياء، فبينهما عموم وخصوص إن فسرنا الصادقة بأنها التي لا تحتاج إلى تفسير، وأما إن فسرناها بأنها غير الأضغاث فالصالحة أخص مطلقاً. وقال الإمام نصر بن يعقوب الدينوري[2] في «التعبير القادري»: الرؤيا الصالحة ما يقع بعينه، أو ما يعبر في المنام، أو يخبر به من لا يكذب، والصالحة ما فسر. وأعلم أن الناس في الرؤيا على ثلاث درجات:

---

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (١٤) وفي مستدرك الحاكم ٤/ ٣٩٢ وفي كنز العمال نحوه (٤١٤٣٣).

(٢) هو نصر بن يعقوب بن إبراهيم الدينوري أبو سعد. عالم بالأدب، كاتب. كان يتولى عمل الفرض والإعطاء بنيسابور. توفي نحو سنة (٤١٠ هـ). الاعلام ٨/ ٢٩ يتيمة الدهر ٤/ ٤٤٩ رقم الترجمة (٩٤) وكشف الظنون (٤١٧ ـ ٥٣٢ ـ ٩١٤).

**الأنبياء** ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ورؤياهم كلها صدق، وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير.

**والصالحون**: والأغلب على رؤياهم الصدق، وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير.

**ومن عداهم**: يقع في رؤياهم الصدق والأضغاث، وهم على ثلاثة أقسام: مستورون، فالغالب استواء الحال في حقهم، وفسقة فالغالب على رؤياهم الأضغاث ويقل فيها الصدق، وكفار: ويندر في رؤياهم الصدق جداً، ويشير إلى ذلك قوله ﷺ: «**وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً**»، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

وقد وقعت الصادقة من بعض الكفار كما في رؤيا صاحبي السجن مع يوسف عليه السلام، ورؤيا ملكهما وغير ذلك. وقد روى الإمام أحمد مرفوعاً وصححه إبن حبان من حديث أبي سعيد: أصدق الرؤيا بالأسحار. وذكر الإمام نصر بن يعقوب الدينوري أن الرؤيا أول الليل يبطىء تأويلها، ومن النصف الثاني يسرع بتفاوت أجزاء الليل، وإن أسرعها تأويلاً رؤيا السحر، ولا سيما عند طلوع الفجر، وعن جعفر الصادق أسرعها تأويلاً رؤيا القيلولة، وعن محمد بن سيرين: رؤيا النهار مثل رؤيا الليل، والنساء بمثل الرجال، وعن القيرواني: أن المرأة إذا رأت ما ليست له أهلاً فهو لزوجها، وكذا حكم العبد لسيده، كما أن رؤيا الطفل لأبويه.

ومن مرائيه الكريمة ﷺ: شربه اللبن وتعبره بالعلم، كما في حديث ابن عمر عند البخاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه، حتى إني لأرى الري يخرج من أظفاري، ثم أعطيت فضلي، يعني عمر، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم**»[1]. وفي رواية الكشميهني: من أظافري، وفي رواية صالح بن كيسان: من أطرافي.

وهذه الرؤية يحتمل بأن تكون بصرية، وهو الظاهر، ويحتمل أن تكون علمية، ويؤيد الأول: ما أخرجه الحاكم والطبراني من طريق أبي بكر بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده في هذا الحديث: «**فشربت حتى رأيته يجري في عروقي بين الجلد واللحم**»، على أنه محتمل أيضاً. قال بعض العارفين:[2] الذي خلص اللبن من بين فرث ودم قادر على أن يخلق المعرفة من بين شك وجهل، وهو كما قال، لكن اطردت العادة بأن العلم

---

(١) الحديث في صحيح البخاري برقم (٧٠٠٦ ـ ٧٠٠٧ ـ ٧٠٢٧ ـ ٧٠٣٢) وفي سنن الدارمي ٢/ ١٢٨ وفي مشكاة المصابيح (٦٠٣٠) وفي كنز العمال (٣٢٧٢٩).

(٢) هو القاضي أبو بكر بن العربي.

بالتعلم والذي ذكره قد يكون خارقاً للعادة فيكون من باب الكرامة.

وقال العارف ابن أبي جمرة: تأول النبي ﷺ اللبن بالعلم اعتباراً بما بين له أو الأمر حين أتى بقدح خمر وقدح لبن، فأخذ اللبن فقال له جبريل: أخذت الفطرة، انتهى. وقد جاء في بعض الأحاديث المرفوعة تأويله بالفطرة، كما أخرجه البزار من حديث أبي هريرة رفعه: اللبن في المنام فطرة.

وذكر الدينوري: أن اللبن المذكور في هذا يختص بلبن الإبل، وأنه لشاربه مال حلال وعلم، قال: ولبن البقر خصب السنة ومال حلال وفطرة أيضاً، ولبن الشاة مال وسرور وصحة جسم، وألبان الوحش شك في الدين، وألبان السباع غير محمودة، إلا أن لبن اللبوة مال مع عدواة لذي أمر، وفي الحديث: أن علم النبي ﷺ بالله لا يبلغ أحد درجته فيه، لأنه شرب حتى رأى الري يخرج من أطرافه. وأما إعطاؤه فضله لعمر، ففيه إشارة إلى ما حصل لعمر من العلم بالله بحيث كان لا تأخذه في الله لومة لائم، ووجه التعبير في الحديث بذلك من جهة اشتراك اللبن والعلم في كثرة النفع، وكونهما سبباً للصلاح، فاللبن للغذاء البدني، والعلم للغذاء المعنوي.

ومن ذلك رؤيته ﷺ القميص وتعبيره بالدين. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون عليَّ وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، ومرَّ عليَّ عمر وعليه قميص يجره. قالوا: ما أولته يا رسول الله؟ قال: الدين**»[1]، رواه البخاري. وفي رواية الترمذي الحكيم من طريق أخرى في هـذا الحديث، فقال أبو بكر: علامَ تؤول هذا يا رسول الله؟

و«الثدي» بضم المثلثة وكسر الدال وتشـديد الياء، جمع ثدي، بفتح ثم سكون، والمعنى: أن القميص قصير جداً بحيث لا يستر من الحلق إلى نحو السرة بل فوقها. وقوله: «ومنها ما يبلغ دون ذلك» يحتمل أن يريد به من جهة السفل، وهو الظاهر فيكون أطول، ويحتمل أن يكون دونه من جهة العلو فيكون أقصر، ويؤيد الأول ما في رواية الترمذي الحكيـم المذكورة: فمنهم من كان قميصه إلى سرته، ومنهم من كان قميصه إلى ركبته، ومنهم من كان قميصه إلى أنصاف ساقيه.

ويجوز النصب في قوله «الدين» والتقدير: أولته الدين، ويجوز الرفع. وفي رواية الحكيم المذكورة: على الإيمان. وقد قيل في وجه تعبير القميص بالدين أن القميص

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٣ ـ ٧٠٠٨) وفي الترمذي برقم (٢٢٨٥) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٨٦ وفي شرح السنة للبغوي ١٢/ ٢٤١.

يستر العورة في الدنيا، والدين يسترها في الآخرة ويحجبها عن كل مكروه، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ [الأعراف: ٢٦].

واتفق أهل التعبير على أن القميص يعبر بالدين، وأن طوله يدل على بقاء آثار صاحبه من بعده. وقال ابن العربي: إنما أول ﷺ القميص بالدين، لأن الدين يستر عورة الجهل، كما يستر القميص عورة البدن. قال: وأما غير عمر فالذي كان يبلغ الثدي هو الذي يستر قلبه عن الكفر ولو كان يتعاطى المعاصي، والذي كان يبلغ أسفل من ذلك وفرجه بادٍ هو الذي لم يستر رجله عن المشي إلى المعصية، والذي يستر رجله هو الذي احتجب بالتقوى من جميع الوجوه، والذي يجر قميصه زاد على ذلك بالعمل الصالح الخالص.

وأشار العارف ابن أبي جمرة: إلى أن المراد بالناس في الحديث: المؤمنون، لتأويله القميص بالدين، قال: والذي يظهر أن المراد خصوص هذه الأمة المحمدية، بل بعضها، والمراد بالدين العمل بمقتضاه، كالحرص على امتثال الأوامر واجتناب المناهي، وكان لعمر في ذلك المقام العالي.

قال: ويؤخذ من هذا الحديث، أن كل ما يرى في القميص من حسن أو غيره فإنه يعبر بدين لابسه، قال: والنكتة في القميص أن لابسه إذا اختار نزعه، وإذا اختار أبقاه، فلما ألبس الله المؤمنين لباس الإيمان واتصفوا به كان الكامل في ذلك سابغ الأثواب، ومن لا فلا، وقد يكون نقص الثوب بسبب نقص الإيمان، وقد يكون بسبب نقص العمل. وفي الحديث: أن أهل الدين يتفاضلون في الدين بالقلة والكثرة، وبالقوة والضعف، وهذا من أمثلة ما يحمد في المنام ويذم في اليقظة شرعاً، أعني جر القميص، لما روي من الوعيد في تطويله.

ومن ذلك رؤيته ﷺ السوارين الذهب في يده الشريفة وتعبيرهما بالكذابين. روى البخاري عن عبيد الله بن عبد الله قال: سألت عبد الله بن عباس عن رؤيا النبي ﷺ التي ذكر فقال ابن عباس ذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «**بينا أنا نائم إذ رأيت أنه وضع في يديّ سواران من ذهب فقطعتهما وكرهتهما، فأُذِنَ لي فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان**»[1] . فقال عبيد الله: أحدهما العنسي الذي قتله فيروز باليمن، والآخر مسيلمة[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٠٣٤) ومسلم في الرؤيا برقم (٢١) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٦٣ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٣٥٨.

(٢) في البخاري برقم (٤٣٧٤).

وفي رواية أبي هريرة عند الشيخين: «**بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يديّ سواران من ذهب، فكبرا علي وأهماني، فأوحي إلي أن أنفخهما، فأولتهما الكذابين أنا بينهما، صاحب صنعاء وصاحب اليمامة**»[1]. قال المهلب: هذه الرؤيا ليست على وجهها، وإنما هي ضرب من المثل، وإنما أول النبي ﷺ السوارين بالكذابين لأن الكذب وضع الشيء في غير موضعه، فلما رأى في يديه سوارين من ذهب وليسا من لبسه، لأنهما من حلية النساء، عرف أنه سيظهر من يدعي ما ليس له. وأيضاً: ففي كونهما من ذهب، والذهب منهي عن لبسه، دليل على الكذب، وأيضاً: فالذهب مشتق من الذهاب، فعلم أنه شيء يذهب عنه، وتأكد ذلك بالإذن له في نفخهما فطارا، فعرف أنه ينسب إليهما أمر، وأن كلامه بالوحي الذي جاء به يزيلهما من موضعهما.

وقال ابن العربي: كان النبي ﷺ يتوقع بطلان أمر مسيلمة والعنسي، فأول الرؤيا عليهما ليكونا ذلك، إخراجاً للمنام عليهما، فإن الرؤيا إذا عبرت خرجت. ويحتمل أن يكون بوحي. والمراد بـ«خزائن الأرض» التي ذكر، ما فتح على أمته من الغنائم ومن ذخائر كسرى وقيصر وغيرهما، ويحتمل معادن الأرض التي فيها الذهب والفضة.

وقال القرطبي: إنما كبر عليه السواران لكون الذهب من حلية النساء، ومما حرم على الرجال، وفي طيرانهما إشارة إلى اضمحلال أمرهما، ومناسبة هذا التأويل لهذه الرؤيا، أن أهل صنعاء وأهل اليمامة كانوا أسلموا، فكانوا كالساعدين للإسلام، فلما ظهر الكذابان، وبهرجا على أهلهما بزخرف أقوالهما ودعاويهما الباطلة انخدع أكثرهم بذلك، فكأن اليدين بمنزلة البلدين، والسوارين بمنزلة الكذابين، وكونهما من ذهب إشارة إلى ما زخرفا، والزخرف من أسماء الذهب.

وقال أهل التعبير: من رأى أنه يطير فإن كان إلى جهة السماء تعريجاً ناله ضرر، فإن غاب في السماء ولم يرجع مات، وإن رجع أفاق من مرضه، وإن كان يطير عرضاً سافر ونال رفعة بقدر طيرانه.

ومن ذلك: رؤيته ﷺ المرأة السوداء الثائرة الرأس، تعبيرها بنقل وباء المدينة إلى الجحفة. روى البخاري من حديث عبد الله بن عمر، أن النبي ﷺ قال: «**رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس، خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة ـ وهي الجحفة ـ فأولت أن وباء المدينة نقل إليها**»[2].

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٧٠٣٧). باختلاف يسير.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٠٣٩ ـ ٧٠٤٠) والترمذي برقم (٢٢٩٠) وابن ماجه برقم (٣٩٢٤) والإمام =

وهذا من قسم الرؤيا المعبرة، وهي مما ضرب به المثل، ووجه التمثيل أنه شق من اسم السوداء: السوء والداء، فتأول خروجها بما جمع اسمها، وتأول من ثوران شعرها أن الذي يسوء ويثير الشر يخرج من المدينة.

وقال القيرواني من أهل التعبير: كل شيء غلبت عليه السوداء في أكثر وجوهها فهو مكروه، وقال غيره: ثوران الرأس يؤول بالحمى لأنها تثير البدن بالاقشعرار وبارتفاع الرأس، لا سيما من السوداء فإنها أكثر استيحاشاً.

ومن ذلك: رؤيته ﷺ أنه في درع حصينة وبقراً تنحر وتعبير ذلك. عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب، ورأيت فيه بقراً، والله خير، فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير بعد، وثواب الصدق الذي أتانا[1] بعد يوم بدر**»[2] رواه البخاري ومسلم. وروى الإمام أحمد وغيره عن جابر: أن النبي ﷺ قال: «**رأيت كأني في درع حصينة، ورأيت بقراً تنحر، فأولت الدرع الحصينة بالمدينة، والبقر بَقْراً**». وهذه اللفظة الأخيرة وهي «بقر» بفتح الموحدة، وسكون القاف مصدر بقره يبقره بقراً.

ولهذا الحديث سبب جاء بيانه في حديث ابن عباس عند أحمد أيضاً والنسائي والطبراني، وصححه الحاكم من طريق أبي الزناد عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس في قصة أحد، وإشارة النبي ﷺ عليهم أن لا يبرحوا من المدينة، وإيثارهم الخروج لطلب الشهادة، ولبسه اللأمة وندامتهم على ذلك، وقوله ﷺ: «**لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل**» وفيه: «**إني رأيت أني في درع حصينة**» الحديث، بنحو حديث جابر، وأتم منه، وقد تقدمت الإشارة إليه في غزوة أحد من المقصد الأول.

والمراد بقوله: «**وإذا الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي أتانا الله بعد يوم بدر**» فتح خيبر ثم مكة، أي ما جاء الله به بعد بدر الثانية من تثبيت قلوب المؤمنين.

قال في فتح الباري: وفي هذا السياق إشعار بأن قوله في الخبر «والله خير» من جملة الرؤيا. قال: والذي يظهر لي أن لفظة «والله خير» لم يتحرر إيراده، وأن رواية ابن

---

= أحمد بن حنبل ٢/١٠٧ و ١١٧ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٢٧٣٥) والبيهقي في دلائل النبوة ٢/٥٦٨.

(١) سقط من قلم المصنف لفظ الجلالة هنا (الله) وهو ثابت في الصحيحين.

(٢) الحديث في صحيح البخاري برقم (٣٦٢٢ - ٧٠٣٥) وفي مسلم برقم (٢٠) وفي ابن ماجه (٣٩٢١) وفي شرح السنة للبغوي ١٢/٢٤٧ وفي كنز العمال (٤١٤٩٣).

إسحاق هي المحررة، وأنه رأى بقراً ورأى خيراً. فأول البقر على من قتل من الصحابة يوم أحد، وأول الخير على ما حصل لهم من ثواب الصدق في القتال والصبر على الجهاد يوم بدر وبعده إلى فتح مكة، والمراد بالبعدية على هذا لا يختص بما بين بدر وأحد نبه عليه ابن بطال.

ومن ذلك رؤيته ﷺ أنه أتى برطب. روى مسلم عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رأيت الليلة فيما يرى النائم، كأني في دار عقبة بن رافع، وأتيت برطب من رطب ابن طاب**[1]**، فأولته بأن الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب**»[2].

ومن ذلك: رؤيته ﷺ سيفاً يهزه، وتعبيره ما روي في حديث أبي موسى المتقدم أنه قال: «**ورأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفاً فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب به المؤمنون يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان. فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين**» رواه الشيخان.

وهذه أيضاً من ضرب المثل، ولما كان ﷺ يصول بالصحابة عبر عن السيف بهم، وبهزه عن أمره لهم بالحرب، وعن القطع فيه بالقتل فيهم، وفي الهزة الأخرى لما عاد إلى حالته من الاستواء عبر به عن اجتماعهم والفتح عليهم.

وقال أهل التعبير: السيف يصرف على أوجه؛ منها أن من نال سيفاً فإنه ينال سلطاناً، وإما ولاية وإما وديعة، وإما زوجة، وإما ولداً، فإن سله من غمده فانثلم سلمت زوجته وأصيب ولده، فإن انكسر الغمد وسلم السيف فبالعكس، فإن سلما أو عطبا فكذلك. وقائم السيف يتعلق بالأب والعصبات، ونعله بالأم وذوي الرحم، وإن جرد السيف وأراد قتل شخص فهو لسانه يجرده في خصومة. وربما عبر السيف بسلطان جائر.

وقال بعض أهل التعبير أيضاً: من رأى أنه أغمد سيفاً فإنه يتزوج، أو ضرب شخصاً بسيف فإنه يبسط لسانه فيه، ومن رأى أنه يقاتل آخر وسيفه أطول من سيفه فإنه يغلبه، ومن رأى سيفاً عظيماً فهو فتنة، ومن قلد سيفاً قلد أمراً، فإن كان قصيراً لم يدم أمره.

ومن ذلك: رؤيته ﷺ أنه على قليب. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بينا أنا نائم، رأيتني على قليب، وعليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها**

---

(١) طب ابن طاب: نوع من أنواع تمر المدينة منسوب إلى ابن طاب رجل من أهلها.

(٢) الحديث في سنن أبي داود برقم (٥٠٢٥).

**ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم استحالت غرباً فأخذها عمر بن الخطاب، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع ابن الخطاب حتى ضرب الناس بعطن».**

وعبقري القوم: سيدهم وكبيرهم وقويهم. وفي رواية: فلم يزل ينزع حتى تولى الناس والحوض يتفجر. وفي رواية: فأتاني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليريحني. وفي رواية موسى عن سالم عن أبيه: رأيت الناس اجتمعوا فقام أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له، ثم قام عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً، فما رأيت من الناس يفري فرية حتى ضرب الناس بعطن. رواه البخاري.

قال النووي: قالوا هذا المنام مثال لما جرى للخليفتين، من ظهور آثارهما الصالحة، وانتفاع الناس بهما، وكل ذلك مأخوذ من النبي ﷺ، لأنه صاحب الأمر، فقام به أكمل مقام، وقرر به قواعد الدين، ثم خلفه أبو بكر فقاتل أهل الردة وقطع دابرهم، ثم خلفه عمر فاتسع الإسلام في زمنه. فشبه أمر المسلمين بقليب فيه الماء الذي فيه حياتهم وصلاحهم، وأميرهم المستقي لهم منها، وفي قوله: «فأخذ الدلو من يدي ليريحني» إشارة إلى خلافة أبي بكر بعد موته ﷺ، لأن الموت راحة من كد الدنيا وتعبها، فقام أبو بكر بتدبير أمر الأمة ومعاناة أحوالهم. وأما قوله: «وفي نزعه ضعف» فهو إخبار عن حاله في قصر مدة ولايته، وأما ولاية عمر فإنها لما طالت كثر انتفاع الناس بها واتسعت دائرة الإسلام بكثرة الفتوح وتمصير الأمصار وتدوين الدواوين، وليس في قوله ﷺ: «والله يغفر له» نقص، ولا إشارة إلى أنه وقع منه ذنب، إنما هي كلمة كانوا يقولونها. وقوله: «فاستحالت في يده غرباً» أي تحولت الدلو غرباً ـ بفتح المعجمة وسكون الراء بعدها موحدة ـ أي: دلواً عظيماً.

وأخرج أحمد وأبو داود عن سمرة بن جندب أن رجلاً قال: يا رسول الله، رأيت كأن دلواً عظيماً دلي من السماء فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شرباً ضعيفاً، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء علي فانتشطت وانتضح عليه منها شيء. والعراقي: جمع عرقوة الدلو، وهي الخشبة المعروضة على فم الدلو، وهما عرقوتان كالصليب، وقد يقال: عرقيت الدلو إذا ركبت العرقوة فيها. وانتشطت: أي جذبت ورفعت. فهذه نبذة من مرائيه الكريمة ﷺ مع تعبيرها.

وأما ما رآه غيره فعبر ﷺ له بما يخص ويعم من أمور الدنيا والآخرة. فقد كان ﷺ إذا انفتل من صلاة الصبح أقبل على الصحابة فيقول: **«من رأى منكم الليلة رؤيا فليقصها**

علي أعبرها له، فيقص الناس عليه مرائيهم». وروى بالبخاري والترمذي عن سمرة بن جندب قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم رأيا؟» فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وأنه قال ذات غداة: «هل رأى أحد منكم رؤيا» وقالوا: ما منا أحد رأى شيئاً، قال: «لكني أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني فقالا لي: انطلق، فانطلقت فأتيت على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فتثْلَغ رأسه[1] الحديث.

وأقام ﷺ يسأل أصحابه: «هل رأى منكم الليلة أحد رؤيا، ما شاء الله» ثم ترك السؤال فكان يعبر لمن قص متبرعاً. واختلف النقلة في سبب تركه السؤال:

فقيل: سبب بذلك حديث أبي بكرة ـ عند الترمذي وأبي داود ـ أنه ﷺ قال ذات يوم: (من رأى منكم رؤيا؟) فقال رجل: أنا يا رسول الله، رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء، فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبي بكر، ووزن أبو بكر وعمر فرجح أبو بكر، ووزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رفع الميزان. فرأينا الكراهة في وجه رسول الله ﷺ. انتهى. قالوا: فمن حينئذ لم يسأل رسول الله ﷺ أحداً عن رؤيا.

قال بعضهم: وسبب كراهته ﷺ إيثاره لستر العواقب وإخفاء المراتب، فلما كانت هذه الرؤيا كاشفة لمنازلهم مبينة لفضل بعضهم على بعض في التعيين خشي أن يتواتر ويتوالى ما هو أبلغ في الكشف من ذلك، ولله في ستر خلقه حكمة بالغة ومشيئة نافذة.

وقال ابن قتيبة ـ فيما ذكره ابن المنير ـ: سبب تركه السؤال في حديث ابن زمل: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال ﷺ وهو ثان رجليه: «سبحان الله وبحمده واستغفر الله، إن الله كان تواب، سبعين مرة» ثم يقول: «سبعون بسبعمائة، لا خير فيمن كانت ذنوبه في يوم أكثر من سبعمائة» ثم يستقبل الناس بوجهه فيقول: «هل رأى أحد منكم شيئاً؟» قال ابن زمل: فقلت ذات يوم أنا يا رسول الله، قال: «خير تتلقاه وشر تتوقاه، وخير لنا وشر لأعدائنا، والحمدلله رب العالمين اقصص رؤياك». قال: رأيت جميع الناس على طريق رحب لاحب سهل، والناس على الجادة منطلقون، فبينما هم كذلك أشفى ذلك الطريق بهم على مرج لم تر عيني مثله، يرف رفيفاً، يقطر نداه، فيه من أنواع الكلأ، فكأني بالرعلة الأولى حين أشرفوا على المرج كبروا ثم أكبوا رواحلهم في الطريق فلم يضلوه يميناً وشمالاً، ثم جاءت الرعلة الثانية من بعدهم، وهم أكثرُ منهم أضعافاً، فلما أشرفوا على

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٧٠٤٧) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/٨ و ١٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/١٨٨ وفي مشكاة المصابيح (٤٦٢٥).

المرج كبروا، ثم أكبوا رواحلهم في الطريق، فمنهم المرتع، ومنهم الآخذ الضغث، ومضوا على ذلك. قال: ثم قدم عظم الناس، فلما أشرفوا على المرج كبروا وقالوا: هذا خير المنزل، فمالوا في المرج يمينا وشمالاً، فلما رأيت ذلك لزمت الطريق حتى أتيت أقصى المرج، فإذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات، وأنت في أعلاها درجة، وإذا عن يمينك رجل أقنى آدم[1]، إذا هو تكلم يسمو، يكاد يفزع الرجال طولاً، وإذا عن يسارك رجل ربعة تارّ أحمر، كثير خيلان الوجه، إذا هو تكلم أصغيتم إليه إكراماً له، وإذا أمام ذلك شيخ كأنكم تقتدون به، وإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارف، وأذا أنت كأنك تبعثها يا رسول الله. قال: فانتقع لون رسول الله ﷺ ساعة، ثم سري عنه، فقال: «**أما ما رأيت من الطريق الرحب اللاحب السهل، فذلك ما حملتكم عليه من الهدى، فأنتم عليه، وأما المرج الذي رأيت فالدنيا وغضارة عيشها، لم نتعلق بها ولم تردنا ولم نردها، وأما الرعلة الثانية والثالثة**» ـ وقص كلامه ـ **فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأما أنت فعلى طريقة صالحة، فلن تزال عليها حتى تلقاني، وأما المنبر فالدنيا سبعة آلاف سنة، أنا في آخرها ألفاً، وأما الرجل الطويل الآدم فذلك موسى، نكرمه بفضل الله إياه، وأما الرجل الربعة التار الأحمر، فذلك عيسى عليه السلام نكرمه بفضل منزلته من الله، وأما الشيخ الذي رأيت كأننا نقتدي به فذلك إبراهيم عليه السلام، وأما الناقة العجفاء الشارف التي رأيتني أبعثها فهي الساعة عليها، أي على الأمة تقوم، لأنه لا نبي بعدي ولا أمة بعد أمتي**. قال الراوي: فما سأل رسول الله ﷺ بعد هذا أحداً عن رؤيا، إلا أن يجيء الرجل متبرعاً فيحدثه بها رواه ابن قتيبة والطبراني والبيهقي في الدلائل[2]، وسنده ضعيف جداً.

ومن غريب ما نقل عنه ﷺ من التعبير، أن زرارة بن عمرو النخعي قدم على رسول الله ﷺ في وفد النخع، فقال: يا رسول الله، إني رأيت في طريقي هذا رؤيا، رأيت أتانا تركتها في الحي ولدت جدياً أسفع أحوى، فقال له رسول الله ﷺ: «**هل لك من أمة تركتها مصرة حملاً؟**» قال: نعم تركت أمة أظنها قد حملت، قال: «**فقد ولدت غلاماً وهو ابنك**»، قال: فما باله أسفع أحوى؟ قال: «**ادن مني**»، فدنا منه، قال: «**هل بك برص تكتمه؟**» قال: نعم والذي بعثك بالحق ما رآه مخلوق ولا علم به أحد، قال «**فهو ذاك**».

فقال: ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان ومسكتان، قال: ذلك مُلْك

---

(١) الاقنى: من الأنوف والجمع قنو وهو ارتفاع في أعلاه بين القصبة والمارن من غير قبح. انظر لسان العرب ١١/ ٣٣٠ مادة (قنا). والأدمة: السمرة والآدم من الناس: الأسمر انظر لسان العرب ١/ ٩٧ مادة (ادم).

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ٣٦ باب ما روي في رؤيا ابن زمل الجهني.

العرب عاد إلى أفضل زيه وبهجته. قال: ورأيت عجوزاً شمطاء تخرج من الأرض، قال: تلك بقية الدنيا. قال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو، ورأيتها تقول: لظى لظى، بصير وأعمى، آكلكم وأهلكم ومالكم فقال النبي ﷺ: «**تلك فتنة تكون في آخر الزمان**»، قال: وما الفتنة يا رسول الله؟ قال: «**يفتك الناس بإمامهم ثم يشتجرون اشتجار أطباق الرأس**»، **وخالف ﷺ بين أصابعه، يحسب المسيء أنه محسن، ودم المؤمن عند المؤمن أحلى من شرب الماء البارد.**

فانظر إلى هذا التعبير البارز من مشكاة النبوة، محشواً حلاوة الحق، مكسواً طلاوة الصدق مجلواً بأنوار الوحي. والأسفع: الذي أصاب جسده لون آخر. والأحوى: الأسود الذي ليس بالشديد. والمسكتان: السواران من ذهب. وأطبق الرأس: عظامه. والاشتجار: الاختلاف والاشتباك. فإن قلت: تعبيره ﷺ السوارين هنا يرجع إلى بشرى، وعبرهما بالكذابين فيما مر.

**أجيب**: بأن النعمان بن المنذر كان ملك العرب، وكان مملكاً من جهة الأكاسرة، وكانوا يسورون الملوك ويحلونهم، وكان السواران من زي النعمان ليسا بمنكرين في حقه، ولا موضوعين في غير موضعهما عرفاً، وأما النبي فنهى عن لباس الذهب لآحاد أمته فجدير أن يهمه ذلك لأنه ليس من زيه، فاستدل به على أمر يوضع في غير موضعه، ولكن حمدت العاقبة بذهابهما، ولله الحمد.

ومن ذلك: ما روي عن قيس بن عباد ـ بضم العين وتخفيف الموحدة ـ قال: كنت في حلقة فيها سعد بن مالك وابن عمر، فمر عبد الله بن سلام فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة، فقلت له: إنهم قالوا كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما كان ينبغي لهم أن يقولوا ما ليس لهم به علم، إنما رأيت كأنما عمود وضع في روضة خضراء، فنصب فيها، وفي رأسها عروة، وفي أسفلها منصف ـ والمنصف الوصيف ـ فقال: ارقه، فرقيته حتى أخذت بالعروة، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «**يموت عبد الله وهو آخذ بالعروة الوثقى**»[1]. رواه البخاري.

وفي رواية خرشة: بينما أنا نائم أتاني رجل فقال لي قم، فأخذ بيدي فانطلقت معه، فإذا أنا بجوادّ ـ بجيم ودال مشددة، جمع جادة وهي الطريق المسلوك ـ عن شمالي، قال: فأخذت لآخذ فيها ـ أي أسير فقال: لا تأخذ فيها فإنها طريق أهل الشمال.

وفي رواية النسائي من طريقه: فبينا أنا أمشي إذ عرض لي طريق عن شمالي،

(١) أخرجه البخاري في كتاب التعبير باب (١٩) رقم الحديث (٧٠١٠) وفي مسلم كتاب فضائل الصحابة (١٤٩) وفي كنز العمال (٣٣٥١٨).

فأردت أن أسلكها، فقال: إنك لست من أهلها.

وفي رواية مسلم: فإذا منهج عن يميني، فقال لي خذ ها هنا، فأتى بي جبلاً فقال لي: اصعد، قال فجعلت إذا أردت أن أصعد خررت، حتى فعلت ذلك مراراً.

وفي رواية ابن عون: فقال تلك الروضة روضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العروة، العروة الوثقى، لا تزال متمسكاً بالإسلام حتى تموت.

وفي رواية خرشة عند النسائي وابن ماجة قال: رأيت خيراً، أما المنهج فالمحشر وأما الجبل فهو منزل الشهداء، زاد مسلم: ولن تناله.

وهذا علم من أعلام نبوة نبينا ﷺ فإن عبد الله بن سلام لم يمت شهيداً، وإنما مات على فراشه في أول خلافة معاوية بالمدينة.

وقولهم إنه من أهل الجنة، أخذوه من قوله لما ذكر طريق الشمال: إنك لست من أهلها. وإنما قال: «**ما كان ينبغي لهم أن يقولوا ما ليس لهم به علم**» على سبيل التواضع وكراهية أن يشار إليه بالأصابع، خشية أن يدخله العجب، عافانا الله من سائر المكاره.

وقال القيرواني: الروضة التي لا يعرف نبتها تعبر بالإسلام لنضارتها وحسن بهجتها، وتعبر أيضاً بكل مكان فاضل، وقد تعبر بالمصحف وكتب العلم والعالم ونحو ذلك انتهى. وقال غيره من المعبرين: الحلقة والعروة المجهولة، تدل لمن تمسك بها على قوته في دينه، وإخلاصه فيه.

ومن ذلك، ما رواه البخاري عن أم العلاء، وهي امرأة من نسائهم، بايعت رسول الله: وأريت لعثمان بن مظعون بعد موته في النوم عينا تجري، فجئت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «**ذاك عمله يجري له**»[1]. وقد قيل: يحتمل أنه كان لعثمان شيء من عمله بقي له ثوابه جارياً كالصدقة، وأنكره مغلطاي وقال: لم يكن له شيء من الأمور الثلاثة التي ذكرها مسلم في حديث أبي هريرة رفعه: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث**»[2].

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٢٦٨٧ ـ ٣٩٢٩) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٧٦ و ١٠/ ٢٨٨ وفي إتحاف السادة المتقين ٩/ ٢٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في الوصية برقم (١٤) وأبو داود كتاب الوصايا باب (١٤) رقم الحديث (٢٨٨٠). والترمذي برقم (١٣٧٦). والنسائي ٦/ ٢٥١ برقم (١٧٩٦) وابن ماجه في المقدمة باب (٢٠) رقم الحديث (٢٤١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٣٧٢. وفي نصب الراية للزيلعي ٣/ ١٥٩ وفي إتحاف السادة المتقين ١/ ١١٤ و ٥/ ٢٢ و ٩/ ٨٧ والترغيب والترهيب ١/ ٩٩ و ١١٠ و ١١٨ والمغني عن حمل الأسفار للعراقي ١/ ١٢ و ٢/ ٢٣ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ١٠٥.

وتعقبه شيخ الحفاظ ابن حجر: بأنه كان له ولد صالح شهد بدراً وما بعدها، وهو السائب، مات في خلافة أبي بكر، فهو أحد الثلاث. قال: وقد كان عثمان من الأغنياء، فلا ببعد أن يكون له صدقة استمرت بعد موته. وقال المهلب: العين الجارية تحتمل وجوهاً، فإن كان ماؤها صافياً عبرت بالعمل الصالح، وإلا فلا. وقال غيره: العين الجارية عمل جار من صدقة أو معروف لحي أو ميت. وقال آخر: عين الماء نعمة وبركة وخير، وبلوغ أمنية إن كان صاحبها مستوراً، فإن كان غير عفيف أصابته مصيبة يبكي لها أهل داره، والله أعلم.

فهذا طرف من تعبيره ﷺ، يهدي إلى غيره مما يشبهه، وإلا فالذي نقل عنه ﷺ من غرائب التأويل، ولطائف التعبير ـ كما قاله ابن المنير ـ لا تحصره المجلدات.

وأنت إذا تأملت أن كل كرامة أوتيها واحدة من هذه الأمة في علم أو عمل، هي من آثار معجزة نبيه ﷺ، وسر تصديقه، وبركات طريقه، وثمرات الاهتداء بهديه وتوفيقه، واستحضرت ما أوتيه الإمام محمد بن سيرين من لطائف التعبير، مما شاع وذاع، وامتلأت به الأسماع، طبق الأرض صدقاً وصواباً، وعجباً عجاباً، بل بحراً عبابا، قضيت بأن ما منحه ﷺ من العلوم والمعارف، لا تحيط به العبارات، ولا تدرك حقيقة كنهه الإشارات، وإذا كان هذا ابن سيرين واحد من أمته ﷺ نقل عنه في فن التعبير ما لا يعد لكثرته، فكيف به ﷺ وزاده فضلاً وشرفاً لديه، وأفاض علينا من سحائب علومه ومعارفه، وتعطف علينا بعواطفه.

## الفصل الثالث
## في إنبائه ﷺ بالأنباء المغيبات

اعلم أن الغيب يختص به تعالى، وما وقع منه على لسان رسوله ﷺ وغيره فمن الله تعالى، إما بوحي أو إلهام، والشاهد لهذا قوله تعالى: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول**﴾ [الجن: ٢٦ و٢٧] ليكون معجزة له. واستدل به على إبطال الكرامات.

**وأجيب**: بتخصيص الرسول بالملك، والإظهار بما يكون بغير توسطه، وكرامات الأولياء على المغيبات إنما تكون برؤيا الملائكة، كاطلاعنا على أحوال الآخرة بتوسط الأنبياء، وفي حديث مرَّ: أنه ﷺ قال: «**والله إني لا أعلم إلا ما علمني ربي**» فكل ما ورد عنه ﷺ من الأنباء المنبئة عن الغيوب ليس هو إلا من إعلام الله له به، إعلاماً على ثبوت نبوته، ودلائل على صدق رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره ﷺ بين أصحابه بالاطلاع على

الغيوب، حتى إن كان بعضهم ليقول لصاحبه: اسكت فوالله لو لم يكن عندنا من يخبره لأخبرته حجارة البطحاء، ويشهد له قول ابن رواحة[1]:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع

وقول حسان بن ثابت:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مشهد
فإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في ضحوة اليوم أو غد

**وهذا الفصل ينقسم قسمين:**

الأول: فيما أخبر به ﷺ مما نطق به القرآن. من ذلك: في قوله تعالى: **﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾** [البقرة: ٢٣] إلى قوله: **﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾** [البقرة: ٢٤] فقوله **﴿ولن تفعلوا﴾** [البقرة: ٢٤] إخبار عن غيب تقضي العادة بخلافه.

● ومن ذلك: قوله تعالى: **﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾** [الأنفال: ٧] الآية، فإنه قد كان لقريش قافلتان: إحداهما ذات غنيمة دون الأخرى، فأخبر الله تعالى عما في ضمائرهم، وأنجز ما وعد، ولا شك أن الوعد كان قبل اللقاء، لأن الوعد بالشيء بعد وقوعه غير جائز

● ومن ذلك: قوله تعالى: **﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾** [القمر: ٤٥]، وهذا إخبار عن المستقبل، لأن «السين» بمعنى الاستقبال، يعني كفار قريش يوم بدر، وقد كان عددهم ما بين التسعمائة إلى الألف، وكانوا مستعدين بالمال والسلاح، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وليس معهم إلا فرسان، إحداهما للزبير بن العوام، والأخرى للمقداد، فهزم الله المشركين ومكن المسلمين من قتل أبطالهم واغتنام أموالهم.

● ومن ذلك: قوله تعالى في كفار قريش **﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾** [آل عمران: ١٥١]، يريد ما قذف الله في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب، ونادى أبو سفيان: يا

---

(١) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري من الخزرج أبو محمد. صحابي يعد من الشعراء الراجزين. توفي سنة (٨ هـ) في وقعة مؤتة. الاعلام ٤/٨٦ حلية الأولياء ١/١١٨ رقم الترجمة (١٨) والإصابة رقم الترجمة (٤٦٦٧) وصفة الصفوة ١/١٩١ وطبقات ابن سعد ٣/٣٩٨ رقم الترجمة (٢٠٩) وخزانة الأدب ١/٣٦٢.

محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، فقال ﷺ: «إن شاء الله»، وقيل: لما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا، وعزموا أن يعودوا عليهم ليستأصلوهم، فألقى الله في قلوبهم الرعب.

● ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿**ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين**﴾ إلى قوله: ﴿**لا يخلف الله وعده**﴾ [الروم: ١ ـ ٦]، سبب نزول هذه الآية أن كسرى وقيصر تقاتلا فغلب كسرى قيصر، فساء المسلمين ذلك، لأن الروم أهل كتاب، ولتعظيم قيصر كتاب النبي ﷺ، وتمزيق كسرى كتابه، وفرح المشركون به، فأخبر الله تعالى بأن الروم بعد أن غلبوا سيغلبون في بضع سنين، والبضع ما بين الثلاثة إلى العشر، فغلبت الروم أهل فارس يوم الحديبية، وأخرجوهم من بلادهم، وذلك بعد سبع سنين.

● ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿**فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً**﴾ [الجمعة: ٦ و٧] فأخبر أنهم لا يتمنون الموت بالقلب ولا بالنطق باللسان مع قدرتهم عليه أبداً، فأخبر فوجد مخبره كما أخبر، فلو لم يعلموا ما يلحقهم من الموت لسارعوا إلى تكذيبه بالتمني، ولو لم يعلم ذلك لخشي أن يجيبوا إليه فيقضى عليه بالكذب، قال البيضاوي: وهذه الجملة إخبار بالغيب وكان كما أخبر، لأنهم لو تمنوا الموت لنقل واشتهر، فإن التمني ليس من عمل القلب فيخفى. وروي مرفوعاً: «**لو تمنوا الموت لغص كل إنسان منهم بريقه فمات وما بقي يهودي على وجه الأرض**»[1].

● ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم**﴾ [النور: ٥٥] الآية. هذا وعد من الله لرسوله بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، وأئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعل تعالى ذلك ولله الحمد والمنة، فإنه لم يمت ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر والإسكندرية وهو المقوقس[2]، وملوك عمان، والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله.

---

(١) ذكر نحوه في المسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٤٨/١ والقرطبي في تفسيره ٩٦/١٨ وابن كثير في التفسير ١٢٧/١.

(٢) المقوقس: اسم اطلقه العرب على كورش وزير حاكم مصر البيزنطي وبطريرك الاسكندرية لما فتح عمرو بن العاص مصر. [٦٣٩ ـ ٦٤٢ ر].

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فلمَّ شعث ما وهى عند موته ﷺ ووطد جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ففتحوا طرفاً منها، وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة إلى أرض الشام، وجيشاً ثالثاً صحبة عمرو بن العاص إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفها من بلاد حوران وما والاها. وتوفاه الله تعالى واختار له ما عنده. ومنَّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق.

فقام في الأمر بعده قياماً تاماً، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيره وكمال عدله، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر وانتزاع يده من بلاد الشام، فانحاز إلى قسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ﷺ.

ثم لما كانت الدولة العثمانية[1] امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وجيء بالخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان ابن عفان، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه للأمة على حفظ القرآن، فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله.

● ومن ذلك: قوله تعالى: **﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾** [البقرة: ٦١]، فاليهود أذل الكفار في كل مكان وزمان كما أخبر.

● ومن ذلك: قوله تعالى: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾** [التوبة: ٣٣]، وهذا ظاهر في العباد بأن دين الإسلام كما أخبر عال على سائر الأديان.

● ومن ذلك، قوله تعالى: **﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾** [النصر: ١] إلى آخرها، فكان كما أخبر، دخل الناس في الإسلام أفواجاً، فما مات ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام. إلى غير ذلك مما يطول استقصاؤه.

**القسم الثاني**: فيما أخبر به ﷺ من الغيوب سوى ما في القرآن العزيز فكان كما

(١) نسبة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه.

أخبر به في حياته وبعد مماته. أخرج الطبراني عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قد رفع لي الدنيا، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة، كأنما أنظر إلى كفي هذه**»[1].

وعن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ [قائماً]، فما ترك شيئاً [يكون] في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدّث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه [أصحابه] هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء [قد نسيته فأراه فأعرفه][2] فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه[3] ثم قال حذيفة: ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا وقد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته رواه أبو داود.

وروى مسلم من حديث ابن مسعود في الدجال: فيبعثن عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم، وهم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ**»[4]. فوضح من هذا الخبر وغيره مما يأتي من الأخبار، وسنح من خواطر الأبرار الأخيار أنه ﷺ عرفهم بما يقع في حياته وبعد موته، وما قد انحتم وقوعه فلا سبيل إلى فوته. وقال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحه في السماء إلا ذكرنا منه علماً. ولا شك أن الله تعالى قد أطلعه على أزيد من ذلك، وألقى عليه علم الأولين والآخرين. وأما علم عوارف المعارف الإلهية فتلك لا يتناهى عددها، وإليه ﷺ ينتهي مددها.

● ومن ذلك: ما رواه الشيخان عن أبي هريرة (أن النبي ﷺ نعى النجاشي للناس في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى وصف بهم وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات)[5]. وفي حديث أنس عند أحمد والبخاري: (أن رسول الله ﷺ صعد أحداً،

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٨٧ وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٠١ والسيوطي في جمع الجوامع (٤٨٤٩) وفي كنز العمال (٣١٨١٠ ـ ٣١٩٧٩).

(٢) هذه العبارة ليست في سنن أبي داود.

(٣) الحديث عند أبي داود برقم (٤٢٤٠).

(٤) الحديث في صحيح مسلم برقم (٢٢٢٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٣٨٥ وفي مستدرك الحاكم ٤/ ٤٤٧ وفي مصنف عبد الرزاق (٢٠٨١٢) وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٥/ ١٣٩ وفي مشكاة المصابيح (٥٤٢٢).

(٥) الحديث في البخاري برقم (١٢٤٥ ـ ١٣١٨ ـ ١٣٢٨ ـ ١٣٣٣ ـ ٣٨٨٠ ـ ٣٨٨١). وفي مسلم برقم (٦٣ ـ ٦٤) والنسائي جنائز (٢٧ ـ ٧٢ ـ ٧٦ ـ ١٠٣) وفي سنن أبي داود برقم (٣٢٠٤) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٨١ و ٤٣٨.

ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فضربه برجله وقال له: أثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان) فكان كما أخبر ﷺ.

ومن ذلك: ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»[1] قال النووي قال الشافعي وسائر العلماء: معناه لا يكون كسرى بالعراق ولا قيصر بالشام، كما كان في زمنه ﷺ، فأعلمنا ﷺ بانقطاع ملكهما من هذين الإقليمين، وكان كما قال، فأما كسرى فانقطع ملكه وزال بالكلية من جميع الأرض، وتمزق ملكه كل ممزق، واضمحل بدعوة النبي ﷺ، وأما قيصر فانهزم من الشام ودخل أقصى بلاده، فافتتح المسلمون بلاده واستقرت للمسلمين ولله الحمد، انتهى.

وقد وقع ذلك في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب كما قدمته، وقال ﷺ لسراقة: «**كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟**» فلما أتي بهما عمر ألبسهما إياه وقال: «**الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة**».

ومن ذلك: إخباره ﷺ بالمال الذي تركه عمه العباس عند أم الفضل، بعد أن كتمه، فقال: ما علمه غيري وغيرها وأسلم كما تقدم ذلك في غزوة بدر من المقصد الأول. وإخباره بشأن كتاب حاطب إلى أهل مكة. وبموضع ناقته حين ضلت وكيف تعلقت بخطامها في الشجرة.

ولما رجع المشركون يوم الأحزاب، قال النبي ﷺ: «**الآن نغزوهم ولا يغزونا، فلم يُغْزَ ﷺ بعدها**». وبعث ﷺ جيشاً إلى مؤتة، وأمر عليهم زيد بن حارثة ثم قال: «**فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة**»، فلما التقى المسلمون بمؤتة جلس النبي ﷺ على المنبر، فكشف له حتى نظر إلى معركتهم فقال: «**أخذ الراية زيد بن حارثة حتى استشهد**»، فصلى عليه ثم قال: «**استغفروا له، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب حتى استشهد**»، فصلى عليه ثم قال: «**استغفروا لأخيكم جعفر، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فاستشهد**» فصلى عليه، ثم قال: «**استغفروا لأخيكم**». فأخبر أصحابه بقتلهم في الساعة التي قتلوا فيها، ومؤتة دون دمشق بأرض البلقاء[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٢٠ ـ ٣٦١٨ ـ ٦٦٣٠) وفي مسلم برقم (٧٧) وفي الترمذي (٢٢١٦) وفي المسند ٢/ ٢٣٣ وفي السنن الكبرى ٩/ ١٧٧ وفي المعجم الكبير ٢/ ٢٣٤ و ٢٣٥ وفي مشكل الآثار ١/ ٢١٣ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٩٣ وفي مسند الحميدي (١٠٩٤) وفي كنز العمال (٣١٧٦٥ ـ ٣١٨٠٢).

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٥٨ باب ما جاء في غزوة مؤتة. والسنن الكبرى ٨/ ١٥٤ ومجمع=

وعن أسماء بنت عميس قالت: دخل رسول الله ﷺ صبيحة اليوم الذي قتل فيه جعفر وأصحابه فقال: «**يا أسماء، أين بنو جعفر**» فجئت بهم، فضمهم وشمهم ثم ذرفت عيناه بالدموع فبكى، فقلت: يا رسول الله، أبلغك عن جعفر شيء؟ قال: «**نعم قتل اليوم**»[1]، رواه يعقوب الاسفرايني في كتاب دلائل الإعجاز، وخرجه ابن إسحاق والبغوي.

ومن ذلك، قوله ﷺ: «**زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها، فكان كذلك امتدت في المشارق والمغارب ما بين أقصى الهند إلى أقصى المشرق إلى بحر طنجة حيث لا عمارة وراءه، وذلك ما لم تملكه أية أمة من الأمم**»[2].

ومن ذلك: إعلامه قريشاً بأكل الأرضة ما في صحيفتهم التي تظاهروا بها على بني هاشم، وقطعوا بها رحمهم، وأنها أبقت فيها كل اسم لله، فوجدوها كما قال ﷺ.

ومن ذلك: ما رواه الطبراني في الكبير، والبزار من حديث ابن عمر قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ في مسجد منى، فأتى رجل من الأنصار ورجل من ثقيف فسلما ثم قالا: يا رسول الله، جئنا نسألك فقال: «**إن شئتما أن أخبركما بما جئتما تسألاني عنه فعلت، وإن شئتما أن أمسك وتسألاني فعلت**» فقالا: أخبرنا يا رسول الله، فقال الثقفي للأنصاري: سل، فقال: أخبرني يا رسول الله، قال: «**جئتني تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام، ومالك فيه، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما، وعن سعيك بني الصفا والمروة ومالك فيه، وعن وقوفك عشية عرفة ومالك فيه، وعن رميك الجمار ومالك فيه، وعن نحرك ومالك فيه، وعن حلاقك رأسك ومالك فيه مع الإفاضة**»[3]. فقال: والذي بعثك بالحق لعنْ هذا جئت أسألك.

ومن ذلك: ما روي عن واثلة بن الأسقع قال: أتيت رسول الله ﷺ، وهو في نفر من أصحابه يحدثهم، فجلست وسط الحلقة، فقال بعضهم: يا واثلة قم عن هذا المجلس، فقد نهينا عنه، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوني وإياه فإني أعلم بالذي أخرجه من**

---

= الزوائد للهيثمي ٦/ ١٦٠ ونصب الراية للزيلعي ٢/ ٢٨٤.

(١) ذكره ابن سعد في طبقاته ٨/ ٢٢٠.

(٢) الحديث في سنن ابن ماجه برقم (٣٩٥٢) وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٢١٠ وفي المغني للعراقي ٢/ ٣٨٧ وفي الشفا ١/ ٥١٩ وفي البداية لابن كثير ٦/ ٢٩٩.

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٧٤ و ٢٧٥ وابن حجر في المطالب العالية (١٠٥٧) والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٢٩ و ٢٣٠.

منزله» قلت: يا رسول الله ما الذي أخرجني؟ قال: «أخرجك من منزلك لتسأل عن البر وعن الشك» قال: قلت والذي بعثك بالحق ما أخرجني غيره، فقال ﷺ: «البر ما استقر في الصدر، واطمأن إليه القلب، والشك ما لم يستقر في الصدر، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك وإن أفتاك المفتون»[(١)].

ومن ذلك: قوله لفاطمة رضي الله عنها في مرضه: «إنك أول أهلي لحوقاً بي»[(٢)] فعاشت بعده ثمانية أشهر، وقيل ستة أشهر. وقوله ﷺ لنسائه: «أسرعكن بي لحوقاً، أطولكن يداً، فكانت زينب بنت جحش لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق[(٣)].

ومن ذلك، قوله ﷺ لعلي «أتدري من أشقى الآخرين» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: قاتلك. أخرجه أحمد في المناقب. وعند ابن أبي حاتم «الذي يضربك على هذا» وأشار إلى يافوخه، وعند المحاملي: قال علي: عهد إلي رسول الله ﷺ، لتخضبن هذه من هذه، وأشار إلى لحيته ورأسه، وعند الضحاك: «الذي يضربك على هذه فتبتل منها هذه» وأخذ بلحيته. فضربه عبد الرحمن بن ملجم. وعند الطبراني وأبي نعيم، من حديث جابر مرفوعاً: إنك مؤمر مستخلف، وإنك مقتول، وإن هذه مخضوبة من هذه.

وقال ﷺ لمعاوية: «أما انك ستلي أمر أمتي من بعدي، فإذا كان ذلك فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم». قال معاوية: فما زلت أرجوها حتى قمت مقامي هذا. رواه ابن عساكر.

وأخرج ابن عساكر أيضاً من حديث عروة بن رويم مرفوعاً: لن يغلب معاوية أبداً، وإن علياً قال يوم صفين: لو ذكرت هذا الحديث ما قاتلت معاوية.

---

(١) ذكر نحوه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ١٨٢ و ٢٢٨ عن وابصة. والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٥٥ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٥٥ ونحوه في مسلم برقم (١٤) وفي الترمذي برقم (٢٣٨٩) وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٤٢ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ١٤ والسيوطي في جمع الجوامع (١٠٢٨٨) وفي مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ٢٤ وفي شرح السنة للبغوي ١٣/ ٧٧ وفي تنزيه الشريعة لابن عراق ١/ ٣٣٦ وفي مشكاة المصابيح (٥٠٧٣) وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٣٣٤ وفي كنز العمال (٥١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٦٢٤) ومسلم برقم (٩٩) وفي سنن ابن ماجه (١٦٢١) وفي المسند ٦/ ٢٨٢ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ١٢٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٣٣٠.

(٣) أخرج الحديث مسلم في صحيحه كتاب الفضائل برقم (١٠١) والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٥ والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٨٩ و ٩/ ٢٤٨ والطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٨٢ والبيهقي في دلائله ٦/ ٣٧٤ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٥ و ٨/ ١٤٧ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٥٩٥٢).

ومن ذلك قوله ﷺ: «**يقتل هذا مظلوماً**» وأشار إلى عثمان رضي الله عنه. خرجه البغوي في المصابيح من الحسان والترمذي وقال حسن غريب، وخرجه أحمد، فكان كما قال ﷺ، فاستشهد في الدار وبين يديه المصحف، فنضح الدم على هذه الآية ﴿**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾ [البقرة: ١٣٧].

وفي الشفاء أنه ﷺ قال: يقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف، وإن الله عسى أن يلبسه قميصاً، وإنهم يريدون خلعه وإنه سيقطر دمه على قوله: ﴿**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾ [البقرة: ١٣٧]. وقد أخرجه الحاكم عن ابن عباس بلفظ: إن رسول الله ﷺ قال: «**يا عثمان تقتل وأنت تقرأ سورة البقرة فتقع قطرة من دمك**» على قوله ﴿**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾ [البقرة: ١٣٧][1] لكن قال الذهبي: إنه حديث موضوع.

وقد روى مسلم عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ أشرف على أطم من آطام المدينة ثم قال: (هل ترون ما أرى، إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر). فوقعت فتنة قتلة عثمان وتتابعت الفتن إلى فتنة الحرة وكانت لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين من الهجرة، وجرت فيها مواقع كثيرة موجودة في كتب التواريخ.

وأخرج البيهقي عن الحسن[2] قال: لما كان يوم الحرة قتل أهلي، حتى لا يكاد ينفلت منهم أحد. وأخرج أيضاً عن أنس بن مالك قال: قتل يوم الحرة سبعمائة رجل من حملة القرآن، منهم ثلاثمائة من الصحابة، وذلك في خلافة يزيد. وأخرج أيضاً عن مغيرة قال: انتهب أبو مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام وافتض فيها ألف عذراء.

وقال ﷺ لأبي موسى وهو قاعد على قف بئر أريس، لما طرق عثمان الباب «**ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه إشارة إلى ما تقدم من استشهاده يوم الدار**» بل أصرح من ذلك كله ما رواه أحمد عن ابن عمر قال ذكر رسول الله ﷺ فتنة، فمر رجل فقال: «**يقتل فيها هذا يومئذ ظلماً**[3]»، قال: فنظرت فإذا هو عثمان. وإسناده صحيح.

وأخبر ﷺ بوقعة الجمل وصفين وقتال عائشة والزبير علياً، كما أخرجه الحاكم وصححه البيهقي عن أم سلمة قالت: ذكر رسول الله ﷺ خروج بعض أمهات المؤمنين،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٠٣ والسيوطي في الدر المنثور ١/ ١٤٠.

(٢) أي: الحسن البصري.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٧٠٨) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ١١٥ وابن كثير في البداية والنهاية ٧/ ٢٠٩ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٦٠٦٩).

فضحكت عائشة فقال: «**انظري يا حميراء أن لا تكوني أنت**»، ثم التفت إلى علي فقال له: «**إن وليت من أمرها شيئاً فارفق بها**».

وعن ابن عباس مرفوعاً: «**أيتكن صاحبة الجمل الأدبب تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب**[1]، **ويقتل حولها قتلى كثيرة، تنجو بعدما كادت**». رواه البزار وأبو نعيم.

وأخرج الحاكم وصححه البيهقي عن أبي الأسود قال: شهدت الزبير خرج يريد علياً فقال علي: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقاتله وأنت له ظالم**»[2]، فمضى الزبير منصرفاً. وفي رواية أبي يعلى والبيهقي قال الزبير: بلى ولكن نسيت.

ومن ذلك قوله ﷺ في الحسن بن علي «**إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**» رواه البخاري، فكان كما قال ﷺ، لأنه لما قتل علي بن أبي طالب بايع الحسن أكثر من أربعين ألفاً، فبقي سبعة أشهر خليفة بالعراق وما وراء النهر من خراسان، ثم سار إلى معاوية وسار معاوية إليه، فلما تراء الجمعان بموضع يقال له بستكين بناحية الأنبار من أرض السواد، فعلم أن لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأخرى، فكتب إلى معاوية يخبره أنه يصير الأمر إليه دون غيره على أن يشترط عليه أن لا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان في أيام أبيه، فأجابه معاوية إلا عشرة، فلم يزل يراجعه حتى بعث إليه برق أبيض وقال: اكتب فيه ما شئت فأنا ألتزمه، واصطلحا على ذلك، فكان الأمر كما قال النبي ﷺ: «**أن الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**».

وأخرج الدولابي أن الحسن قال: كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله تعالى وحقن دماء المسلمين.

ومن ذلك: إعلامه ﷺ بقتل الحسين بالطف، وأخرج بيده تربة وقال: فيها مضجعه، رواه البغوي في معجمه من حديث أنس بن مالك بلفظ: استأذن ملك القطر ربه أن يزور النبي ﷺ فأذن له وكان في يوم أم سلمة، فقال النبي ﷺ «**يا أم سلمة احفظي علينا الباب لا يدخل علينا أحد**» فبينما هي على الباب إذ دخل الحسين فاقتحم فوثب على رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يلثمه ويقبله، فقال له الملك: أتحبه؟ قال: «**نعم**»، قال: إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل به، فأراه فجاء بسهلة أو

---

(١) الحوأب: اسم ماء أو قرية فيها ماء بطريق البصرة.

(٢) الحديث في المستدرك للحاكم ٣/٣٦٦ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/٤١٥.

تراب أحمر، فأخذته أم سلمة فجعلته في ثوبها. قال: ثابت: كنا نقول: إنها كربلاء[1]. وخرجه أبو حاتم في صحيحه ورواه أحمد بنحوه. والسهلة ـ بالكسر ـ: رمل خشن ليس بالدقاق الناعم.

وفي رواية الملاء، قالت ثم ناولني كفاً من تراب أحمر، وقال: إن هذا من تربة الأرض التي يقتل بها فمتى صار دماً فاعلمي أن قد قتل. قالت أم سلمة: فوضعته في قارورة عندي وكنت أقول: إن يوماً يتحول فيه دماً ليوم عظيم[2]. الحديث.

فاستشهد الحسين كما قال ﷺ بكربلاء من أرض العراق، بناحية الكوفة، ويعرف الموضع بالطف، وقتله سنان بن أنس النخعي وقيل غيره، ولما قتلوه بعثوا برأسه إلى يزيد، فنزلوا أول مرحلة فجعلوا يشربون بالرأس، فبينما هم كذلك إذ خرجت عليهم من الحائط يد معها قلم من حديد فكتبت سطراً بدم:

أترجوا أمة قتلت حسيناً     شفاعة جده يوم الحساب

فهربوا وتركوا الرأس. أخرجه منصور بن عمار وذكر أبو نعيم الحافظ في كتاب دلائل النبوة عن نضرة الأزدية أنها قالت: لما قتل الحسين بن علي أمطرت السماء دماً فأصبحنا وجبابنا وجرارنا مملوءة دماً. وكذا روي في أحاديث غير هذا «**وقال ﷺ لعمار تقتلك الفئة الباغية**»[3]. رواه البخاري فكان كما قال صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك: ما رواه أبو عمر بن عبد البر أن عبد الله بن عمر رأى رجلاً مع النبي ﷺ فلم يعرفه، فقال النبي ﷺ «**أرأيته؟**» قال: نعم، قال: «**ذاك جبريل، أما إنك ستفقد بصرك**»، فعمي في آخر عمره.

ومن ذلك: قوله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: «**تعيش حميداً وتقتل شهيداً**»[4] رواه الحاكم وصححه، والبيهقي وأبو نعيم، فقتل يوم مسيلمة الكذاب باليمامة.

---

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١١٢ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/٣٢٨ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٧٦٦٩).

(٢) هذا الخبر أورده اليعقوبي في تاريخه ٢/ ٢٤٦.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٤٧ ـ ٢٨١٢) ومسلم في الفتن برقم (٧٠ ـ ٧٢ ـ ٧٣). وفي المسند ٢/ ١٦١ و ٥/ ٢١٤ و ٢١٥ و ٣٠٦ و ٣٠٧ و ٦/ ٣٠٠ و ٣١١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٥٤٦ و ٥٤٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ١/ ٣٠٠ و ٤/ ٩٨ و ٢٠٠ و ٥/ ٣٠٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ٢٤٢ وفي كنز العمال (٢٣٧٣٦ ـ ٣٣٥٥١).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٨٥.

ومن ذلك: قوله لعبد الله بن الزبير: «**ويل لك من الناس، وويل للناس منك**»[1]. فكان من أمره مع الحجاج ما كان.

ومن ذلك: حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «**إن هذا الدين بدأ نبوة ورحمة ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكاً عضوضاً، ثم يكون سلطاناً وجبرية**». وقوله: **ملكاً عضوضاً أي يصيب الرعية فيه عسف وظلم، كأنهم يعضون فيه عضاً**.

وفي حديث سفينة عند أبي داود والترمذي قال قال رسول الله ﷺ: «**الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك**»[2]. قال سعيد بن جمعان: أمسك خلافة أبي بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان وخلافة علي فوجدناها ثلاثين سنة، فقيل له: إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم فقال: كذب بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك.

وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس أن أم الفضل مرت به ﷺ فقال: إنك حامل بغلام فإذا ولدتيه فائتني به، قالت: فلما ولدته أتيته به فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى وألبأه من ريقه وسماه عبد الله وقال: اذهبي بأبي الخلفاء فأخبرت العباس فأتاه فذكر له ذلك فقال: هو ما أخبرتك، هذا أبو الخلفاء حتى يكون منهم السفاح، حتى يكون منهم المهدي، حتى يكون منهم من يصلي بعيسى بن مريم.

وأخرج أبو يعلى عن معاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لتظهرن الترك على العرب حتى تلحقها بمنابت الشيح والقيصوم**».

ومن ذلك: إخباره ﷺ بعالم المدينة، أخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلم يجدوا عالماً أعلم من عالم المدينة**»[3]. قال سفيان بن عيينة: نرى هذا العالم مالك بن أنس، وقال عبد الرزاق: ولم يعرف بهذا الاسم غيره ولا ضربت أكباد الإبل إلى أحد مثل ما ضربت إليه، وقال أبو مصعب: كان الناس يزدحمون على باب مالك ويقتتلون عليه من الزحام، يعني لطلب العلم. وممن روى عنه من الأئمة المشهورين: محمد بن شهاب الزهري، والسفيانان والشافعي والأوزاعي إمام أهل الشام، والليث بن سعد إمام أهل مصر، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت الإمام، وصاحباه: أبو يوسف ومحمد بن الحسن وعبد الرحمن بن مهدي

---

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ١/ ٣٣٠ وابن عساكر في تاريخه ٧/ ٤٠١ وابن كثير في البداية ٨/ ٣٤٣ وفي كنز العمال (٣٣٥٩١ ـ ٣٧٢٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٢٢٦) وفي المسند ٥/ ٢٢١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٣٤٢ وفي البداية والنهاية ٥/ ٣١٥.

(٣) ذكر نحوه الترمذي برقم (٢٦٨٠) وفي المسند ٢/ ٢٩٩ وفي التمهيد لابن عبد البر ٦/ ٣٥ وفي مشكاة المصابيح (٢٤٦) وفي البداية والنهاية ٦/ ٢٨٤ و ١٠/ ١٧٤ وفي كنز العمال (٣٤٠٩٩).

شيخ الإمام أحمد ويحيى بن يحيى شيخ البخاري، وأبو رجاء قتيبة بن سعيد شيخ البخاري، وذو النون المصري، والفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك، وإبراهيم بن أدهم. كما نقله العلامة عيسى بن مسعود الزواوي في كتابه «المنهج السالك إلى معرفة قدر الإمام مالك».

وإخباره بعالم قريش؛ عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: **«لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً»**[1]. رواه أبو داود الطيالسي في مسنده، وفيه الجارود مجهول، لكن له شواهد عن أبي هريرة في تاريخ بغداد للخطيب وعن علي وابن عباس في المدخل للبيهقي. قال الإمام أحمد وغيره: هذا العالم هو الشافعي، لأنه لم ينتشر في طباق الأرض من علم عالم قريش من الصحابة وغيرهم ما انتشر من علم الشافعي، وما كان الإمام أحمد ليذكر حديثاً موضوعاً يحتج أو يستأنس به في أمر شيخه الشافعي. وأما قوله: «وروي عن النبي ﷺ أنه قالت عالم قريش» الخ، بصيغة التمريض احتياطاً للشك في ضعفه، فإن إسناده لا يخلو من ضعف. قاله العراقي رداً على الصغاني في زعمه أنه موضوع، وقد جمع الحافظ ابن حجر طرقه في كتابه سماه: لذة العيش في طرق حديث الأئمة من قربش، كما أفاده شيخنا.

وأخبر ﷺ بأن طائفة من أمته لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله. رواه الشيخان من حديث المغيرة بن شعبة وبأن الله تعالى يبعث إلى هذه الأمه على رأس كل مائه سنة من يجدد لها دينها[2]. رواه الحاكم من حديث أبي هريرة. وبذهاب الأمثل فالأمثل رواه الحاكم وصححه بلفظ: تذهبون الخير فالخير. وبالخوارج رواه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً إذ أتاه ذو الخويصرة، فقال: يا رسول الله، **«اعدل»** فقال: **«ويلك، ومن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل»** فقال: عمر يا رسول الله دعني أضرب عنقه، فقال ﷺ: **دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، آيتهم رجل أسود إحدى**

---

(١) وذكره أيضاً أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٩٥ و٩/ ٦٥ وفي المطالب العالية لابن حجر (٤١٦٧) وفي البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٢٨٥ و ١٠/ ٢٥٣ وفي تذكرة الموضوعات للفتني (١١٢). وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٦٨ وفي المستدرك للحاكم ٢/ ٦٣٧ و ٦٤١.

(٢) الحديث في سنن أبي داود برقم (٤٢٩١) وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٥٢٢ وفي مشكاة المصابيح (٢٤٧) وفي الدرر المنتثرة للسيوطي (٢٧) وفي جمع الجوامع (٥١٦٩) وفي الدر المنثور ١/ ٣٢١ وفي كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٢٨٢ والبداية ٦/ ٢٨٩ و ٩/ ٢٠٦ و ١٠/ ٢٥٣ وتذكرة الموضوعات للفتني (٩١) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ١/ ١٢٣.

**عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس»**[1].
قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، وأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته.

وأخبر ﷺ أيضاً بالرافضة، أخرجه البيهقي عن علي قال قال رسول الله ﷺ «**يكون في أمتي قوم يسمون الرافضة، يرفضون الإسلام**»[2].

وأخبر أيضاً بالقدرية والمرجئة وقال: هم مجوس هذه الأمة، رواه الطبراني في الأوسط عن أنس.

وقد أخبر ﷺ أصحابه بأشياء بين موته وبين الساعة وحذر من مفاجأتها، كما يحذر من حاد عن الطاعة، وأن الساعة لا تقوم حتى تظهر جملة الأمارات في العالم، فإذا جاءت الطامة الكبرى، يطيش منها الجاهل والعالم. كما روي من رفع الأمانة والقرآن، واشتهار الخيانة وحسد الأقران وقلة الرجال، وكثرة النسوان، إلى غير ذلك مما شهدت بصحته الأخبار، وقضى بحقيقة وقوعه الإعتبار. وقد تعين أن نلمَّ بذكر طرف من الآثار الصحاح والحسان: فروى البخاري من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج ـ وهو القتل ـ وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم الرجل من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي فيه، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانهم لم تكون آمنت من قبل أو كسبت فيب إيمانها خيراً، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتوقمن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ولا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»**[3].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب (٩٥) برقم (٦١٦٣ ـ ٦٩٣٣) وفي صحيح مسلم برقم (١٤٢) وفي سنن ابن ماجه برقم (١٧٢) وفي الدر المنثور ٣/ ٢٥٠ وفي كنز العمال (٣٠٩٤٠ـ ٣١٢٢٣ ـ ٣١٥٨٩) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ١٨٧ وفي سنن سعيد بن منصور (٢٩٠٢) وفي المسند ٣/ ٥٦ و ٣٥٣ و (٣٥٥).

(٢) الحديث في دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٥٤٧.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٦٠٨ ـ ٣٦٠٩) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٩٥ وفي شرح السنة=

فهذه ثلاث عشرة علامة جمعها أبو هريرة في حديث واحد، ولم يبق بعد هذا ما ينظر من صحيح العلامات والأشراط. وقد ظهر أكثر هذه العلامات:

فأما قوله: **«حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة»** يريد **فتنة معاوية وعلي بصفين. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وهذا أول خطب طرق الإسلام.**

وتعقبه القرطبي بأن أول أمر دهم الإسلام موت النبي ﷺ، ثم بعد موته موت عمر، لأن بموته ﷺ انقطع الوحي وكان أول ظهور الشر ارتداد العرب وغير ذلك، وبموت عمر سل سيف الفتنة بقتل عثمان. وكان من قضاء الله وقدره ما كان وما يكون.

وأما قوله: **«دجالون كذابون قريب من ثلاثين»** فقد جاء عددهم معيناً من حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ **«يكون في أمتي دجالون كذابون سبعة وعشرون، منهم أربع نسوة. وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»**. أخرجه الحافظ أبو نعيم وقال: هذا حديث غريب قال القاضي عياض: هذا الحديث قد ظهر، فلو عدَّ من تنب من زمن النبي ﷺ إلى الآن من اشتهر بذلك لوجد هذا العدد، ومن طالع كتب التاريخ عرف صحة هذا.

وقوله: **«حتى يقبض العلم»** فقد قبض ولم يبق ألا رسمه. وأما: **«الزلازل»** فوقع منها شيء كثير، وقد شاهدنا بعضها. وأما قوله: **«حتى يكثر فيكم المال فيفيض وحتى يهم رب المال من يقبل صدقته»** فهذا مما لم يقع. وقوله: **«حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه»** لما يرى من عظيم البلاء ورياسة الجهلاء وخمول العلماء وغير ذلك، مما ظهر كثير منه.

وفي حديث أبي هريرة عند الشيخين أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى»**[1]. وقد خرجت نار عظيمة على قرب مرحلة من المدينة، وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العشاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة، وفي يوم الثلاثاء اشتدت حركتها، وعظمت رجفتها، وتتابعت حطمتها، وارتجت الأرض بمن عليها، وعجت الأصوات لباريها، ودامت الحركة إثر الحركة، حتى أيقن أهل المدينة بوقوع الهلكة، وزلزلوا زلزالاً شديداً، من جملة ثمانية عشر حركة في يوم واحد دون ليلته.

---

= للبغوي ١٥/ ٢٦ وفي مسند الحميدي (١١٠٤) وفي الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٥١ وفي كنز العمال (٣٨٤٠٢).

(١) الحديث في البخاري برقم (٧١١٨) وفي مسلم برقم (٤٢) وفي شرح السنة للبغوي ١٥/ ٤٦ وفي مشكاة المصابيح (٥٤٤٦) وفي البداية والنهاية ١٣/ ١٩٩ وما بعدها وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٤٤٣ وفي الدر المنثور ٦/ ٥٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ٣/ ١٩٢ وفي كنز العمال (٣٨٨٨٣).

قال القرطبي: وكان يأتي المدينة ببركته ﷺ نسيم بارد. وشوهد من هذه النار غليان كغليان البحر، وانتهت إلى قرية من قرى اليمن فأحرقتها. قال: وقال لي بعض أصحابنا: ولقد رأيتها صاعدة في الهواء من مسيرة خمسة أيام. قال: وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى.

وقال الشيخ قطب الدين القسطلاني[1]: أقامت اثنين وخمسين يوماً، وكان انطفاؤها في السابع والعشرين من رجب ليلة الإسراء والمعراج به ﷺ.

وبالجملة فاستيفاء الكلام على هذه النار يخرج عن المقصود، وقد نبه عليه القرطبي في التذكرة، وأفردها بالتأليف قطب الدين القسطلاني في كتاب سماه «جمل الإيجاز في الإعجاز بنار الحجاز» فأتى فيه من دقائق الحقائق بالعجب العجاب، والله الموفق للصواب.

(1) هو محمد بن أحمد بن علي القيسي الشاطبي أبو بكر قطب الدين التوزري القسطلاني (٦١٤ ـ ٦٨٦ هـ). عالم بالحديث ورجاله مولده بمصر ووفاته بالقاهرة. الاعلام ٥/٣٢٣ طبقات الشافعية ٥/١٨ شذرات الذهب ٥/٣٩٧ النجوم الزاهرة ٧/٣٧٣ حسن المحاضرة ١/٢٣٦ وفوات الوفيات ٣/٣١٠ رقم الترجمة (٤٣٣) والوافي بالوفيات ٢/ ١٣٢ تاريخ علماء بغداد (١٧٣).

# في لطيفة من عباداته

قال الله تعالى مخاطباً له ﷺ: ﴿**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩]. فأمره تعالى بعبادته حتى يأتيه الموت، وهو المراد بـ «اليقين»، وإنما سمي الموت باليقين لأنه أمر متيقن. فإن قلت: ما الفائدة في قوله: ﴿**حتى يأتيك اليقين**﴾ [الحجر: ٩٩] وكان قوله: ﴿**واعبد ربك**﴾ [الحجر: ٩٩] كافياً في الأمر بالعبادة؟ أجاب القرطبي تبعاً لغيره: بأنه لو قال: ﴿**واعبد ربك**﴾ [الحجر: ٩٩] مطلقاً ثم عبده مرة واحدة كان مطيعاً، ولما قال: ﴿**حتى يأتيك اليقين**﴾ [الحجر: ٩٩] أي اعبد ربك في جميع زمان حياتك ولا تمل ولا تخل لحظة من لحظات الحياة من هذه العبادة. كما قال العبد الصالح: ﴿**وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً**﴾ [مريم: ٣١].

وهذا مصير منه إلى أن الأمر المطلق لا يفيد التكرار، وهي مسألة معروفة في الأصول اختلف فيها. وهي: هل الأمر المطلق يفيد التكرار، أو المرة الواحدة، أو لا يفيد شيئاً منها؟ على مذاهب:

**الأول**: أنه لا يفيد التكرار ولا ينافيه، بل إنما يفيد طلب فعل المأمور به من غير إشعار بالمرة أو المرات، لكن المرة ضرورية لأجل تحقيق الامتثال، إذ لا توجد الماهية بأقل منها، وهذا مختار الإمام[1] مع نقله له على الأقلين، ورجحه الآمدي وابن الحاجب وغيرهما.

**الثاني**: أنه يفيد التكرار مطلقاً، كما ذهب إليه الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني وأبو حاتم القزويني، فإن عيَّن للتكرار أمداً استوعبه، وإلا استوعب زمان العمر، لكن بحسب الإمكان، فلا يستوعب زمن قضاء الحاجة والنوم وغيرهما من الضروريات.

**الثالث**: أنه يدل على المرة، حكاه الشيخ أبو إسحاق في شرح «اللمع» عن أكثر

(١) أي إمام الحرمين الجويني المتوفي سنة (٤٧٨ هـ).

أصحابنا وأبي حنيفة وغيرهم. وإن علق بشرط أو صفة اقتضى التكرار بحسب تكرار المعلق به، نحو ﴿**وإن كنتم جنباً فاطهروا**﴾ [المائدة: ٦] و﴿**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة**﴾ [النور: ٢]، انتهى ملخصاً من شرح العلامة أبي الحسن الأشموني لنظمه جمع الجوامع للعلامة ابن السبكي.

وقد روى جبير بن نفير[١] مرسلاً أن النبي ﷺ قال: «**ما أوحي إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحي إلي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**»[٢]. رواه البغوي في شرح السنة وأبو نعيم في الحلية عن أبي مسلم الخولاني[٣]. وقد أمر الله نبيه ﷺ في هذه الآية بأربعة أشياء: التسبيح والتحميد والسجود والعبادة. واختلف العلماء في أنه كيف صار الإقبال على مثل هذه الطاعات سبباً لزوال ضيق القلب والحزن.

فحكى الإمام فخر الدين الرازي عن بعض المحققين أنه قال: إذا اشتغل الإنسان بمثل هذه الأنواع من العبادات انكشفت له أضواء عالم الربوبية، ومتى حصل ذلك الانكشاف صارت الدنيا بالكلية حقيرة، وإذا صارت حقيرة خف على القلب فقدانها ووجدانها، فلا يستوحش من فقدانها ولا يستريح بوجدانها، وعند ذلك يزول الحزن والغم. وقال أهل السنة: إذا نزل بالعبد بعض المكاره فزع إلى الطاعات، كأنه يقول: تجب علي عبادتك سواء أعطيتني الخيرات أو ألقيتني في المكروهات.

وقال تعالى: ﴿**فاعبده واصطبر لعبادته**﴾ [مريم: ٦٥]. فأمره تعالى ﷺ بالعبادة والمصابرة على مشاق التكاليف في الإنذار والإبلاغ. فإن قلت: لمَ لم يقل: واصبر على عبادته، بل قال: ﴿**واصطبر لعبادته**﴾ [مريم: ٦٥].

**فالجواب**: لأن العبادة جعلت بمنزلة القِرْن في قولك للمحارب: اصطبر لقرنك أي: اثبت له فيما يورده عليك من مشاقه. والمعنى: أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها قاله الفخر الرازي وكذا البيضاوي.

---

(١) هو جبير بن نفير الحضرمي أبو عبد الرحمن (تابعي) كان جاهلياً أسلم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مات سنة ثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان.
طبقات ابن سعد ٣٠٦/٧ رقم الترجمة (٣٨٠٧) وانظر التقريب ١٢٦/١.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١٠٩/٤ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٢٠٦) والعراقي في المغني ٦٥/٢ و٢٥٩/٣ وأبو نعيم في الحلية ٢٣١/٢ .وابن عدي في الكامل في الضعفاء ١٨٩٧/٥ والمتقي الهندي في كنز العمال (٦٣٧٤).

(٣) هو عبد الله بن ثوب أبو مسلم الخولاني تابعي رحل إلى النبي ﷺ فلم يدركه. توفي في خلافة يزيد بن معاوية. طبقات ابن سعد ٣١٢/٧ رقم الترجمة (٣٨٣٤).

وقال تعالى: ﴿ولله غيب السماوات والأرض وإليه يُرجَع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه﴾ [هود: ١٢٣]. فأول درجات السير إلى الله عبودية الله تعالى، وآخرها التوكل عليه، وإذا كان العبد لا يزال مسافراً إلى ربه لا ينقطع سيره إليه ما دام في قيد الحياة، فهو محتاج إلى زاد العبادة لا يستغني عنه البتة، ولو أتى بأعمال الثقلين جميعاً، وكلما كان العبد إلى ربه أقرب كان جهاده إلى الله أعظم، قال تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [الحج: ٧٨] ولهذا كان النبي ﷺ أعظم الخلق اجتهاداً وقياماً بوظائف العبادة، ومحافظته عليها إلى أن توفاه الله تعالى. وتأمل أصحابه رضي الله عنهم فإنهم كانوا كلما ترقوا من القرب مقاماً عظم جهادهم واجتهادهم.

ولا يلتفت إلى ما يظنه بعض المنتسبين إلى التصوف حيث قال: «القرب الحقيقي ينقل العبد من الأعمال الظاهرة إلى الأعمال الباطنة ويريح الجسد والجوارح من كد العمل». زاعماً بذلك سقوط التكليف عنه. وهؤلاء أعظم كفراً وإلحاداً، حيث عطلوا العبودية وظنوا أنهم استغنوا عنها بما حصل لهم من الخيالات الباطلة، التي هي أماني النفس وخدع الشيطان. فلو وصل العبد من القرب إلى أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرة ما دام قادراً عليه.

وقد اختلف العلماء: هل كان ﷺ قبل بعثته متعبداً بشرع من قبله أم لا؟

فقال جماعة: لم يكن متعبداً بشيء، وهو قول الجمهور، واحتجوا بأنه لو كان كذلك لنقل، ولما أمكن كتمه وستره في العادة، إذ كان من مهم أمره، وأولى ما اهتُبِل به من سيرته، ولفخر به أهل تلك الشريعة ولاحتجوا به عايه، ولم يؤثر شيء من ذلك.

وذهبت طائفة إلى امتناع ذلك عقلاً، قالوا: لأنه يبعد أن يكون متبوعاً من عرف تابعاً. والتعليل الأول المستند إلى النقل أولى.

وذهب آخرون إلى الوقف في أمره ﷺ وترك قطع الحكم عليه بشيء من ذلك، إذ لم يحل الوجهين منها العقل، وهذا مذهب الإمام أبي المعالي إمام الحرمين وكذا الغزالي والآمدي.

وقال آخرون: كان عاملاً بشرع من قبله. ثم اختلفوا: هل يتعين ذلك الشرع أم لا؟ فوقف بعضهم عن التعيين وأحجم، وجسر بعضهم على التعيين وصمم، ثم اختلفت هذه المعينة فيمن كان يتبع فقيل نوح، وقيل إبراهيم، وقيل موسى، وقيل عيسى.

فهذه جملة المذاهب في هذه المسألة. والأظهر فيها ما ذهب إليه القاضي أبو بكر[1]،

---

(١) أي الباقلاني المتوفي سنة (٤٠٣ هـ) وهو قول الجمهور.

وأبعدها مذاهب التعيين، إذ لو كان شيء من ذلك لنقل ـ كما قدمناه ـ ولم يخف جملة، ولا حجة لهم في أن عيسى عليه السلام آخر الأنبياء فلزمت شريعته من جاء بعده، إذ لم يثبت عموم دعوة عيسى، بل الصحيح أنه لم يكن لنبي دعوة عامة إلا لنبينا ﷺ. انتهى ملخصاً من كلام القاضي عياض، وهو كلام حسن بديع، لكن قوله: فهذه جملة المذاهب، فيه نظر، لأنه بقي منها شيء، فقد قيل شريعة آدم أيضاً، وهو محكي عن ابن برهان، وقيل جميع الشرائع. حكاه صاحب «المحصول» من المالكية.

وأما قول من قال: إنه ﷺ كان على شريعة إبراهيم، وليس له شرع منفرد به، وأن المقصود من بعثته ﷺ إحياء شرع إبراهيم، وعول في إثبات مذهبه على قوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ [النحل: ١٢٣] فهذا قول ساقط مردود، لا يصدر مثله إلا عن سخيف العقل كثيف الطبع.

وإنما المراد بهذه الآية الاتباع في التوحيد، لأنه لما وصف إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بأنه ما كان من المشركين، فلما قال: ﴿أن اتبع﴾ [النحل: ١٢٣] كان المراد منه ذلك. ومثله قوله تعالى: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠] وقد سمى الله تعالى فيهم من لم يبعث ولم يكن له شريعة تخصه كيوسف بن يعقوب. على قول من يقول إنه ليس برسول. وقد سمى الله تعالى جماعة منهم في هذه الآية وشرائعهم مختلفة لا يمكن الجمع بينها، فدل على أن المراد ما اجتمعوا عليه من التوحيد وعبادة الله تعالى.

فإن قيل: النبي ﷺ إنما نفى الشرك وثبت التوحيد بناء على الدلائل القطعية، وإذا كان كذلك لم يكن متابعاً لأحد، فيمتنع حمل قوله: ﴿أن اتبع﴾ [النحل: ١٢٣] على هذا المعنى، فوجب حمله على الشرائع التي يصح حصول المتابعة فيها.

أجاب الفخر الرازي: بأنه يحتمل أن يكون المراد الأمر بمتابعته في كيفية الدعوة إلى التوحيد، وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة، على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن.

وقد قال صاحب الكشاف: لفظة «ثم» في قوله: ﴿ثم أوحينا إليك﴾ [النحل: ١٢٣] تدل على تعظيم منزلة رسول الله ﷺ واجلال محله، فإن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة وأجل ما أوتي من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته، من قِبَل أن هذه اللفظة دلت على تباعد النعت في المرتبة على سائر المدائح التي مدحه الله بها، انتهى.

ومراده بالمدائح: المذكورة في قوله: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم، وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في

الآخرة لمن الصالحين﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢].

وقال ابن العراقي في شرح تقريب الأسانيد: وليت شعري كيف تلك العبادة؟ وأي أنواعها هي؟ وعلى أي وجه فعلها؟ يحتاج ذلك لنقل. ولا استحضره الآن. انتهى.

وقال شيخ الإسلام البلقيني في شرح البخاري: لم تجيء في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبده ﷺ، لكن روى ابن إسحاق وغيره أنه ﷺ كان يخرج إلى حراء في كل عام شهراً من السنة يتنسك فيه، وكان من تنسك قريش في الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين، حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة، وحمل بعضهم التعبد على التفكر.

قال[1]: وعندي أن هذا التعبد يشتمل على أنواع: وهي الانعزال عن الناس، كما صنع إبراهيم عليه السلام باعتزاله قومه والانقطاع إلى الله تعالى، فإن «انتظار الفرج عبادة»، كما رواه علي بن أبي طالب مرفوعاً، وينضم إلى ذلك الأفكار، وعن بعضهم: كانت عبادته ﷺ في حراء التفكر. انتهى.

وقد آن أن أشرع فيما قصدته على النحو الذي أردته. وقد اقتصرت من عباداته على سبعة أنواع:

## النوع الأول
## في الطهارة وفيه فصول

### الفصل الأول:
### في ذكر وضوئه ﷺ وسواكه ومقدار ما كان يتوضأ به

أعلم أن الوضوء، بالضم: الفعل، وبالفتح: الماء الذي يتوضأ به، على المشهور فيهما، وهو مشتق من الوضاءة، وسمي به لأن المصلي يتنظف به فيصير وضيئاً. وقد استنبط بعض العلماء ـ كما حكاه في فتح الباري ـ إيجاب النية في الوضوء من قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾ [المائدة: ٦] لأن التقدير: إذا أردتم القيام إلى الصلاة فتوضؤوا لأجلها. ومثله قوله: إذا رأيت الأمير فقم، أي، لأجله.

وقال ابن القيم: لم يروَ أنه ﷺ كان يقول في أول وضوئه نويت رفع الحدث ولا غيرها، لا هو ولا أصحابه ألبتة، ولم يروَ عنه لا بسند صحيح ولا ضعيف. انتهى.

---

(١) أي البلقيني المتوفي سنة (٨٦٨ هـ) الضوء اللامع ٣/ ٣١٢.

قال: أما التلفظ بالنية فلا نعلم أنه روي عنه ﷺ، وأما كونه أتي بها فقد قال الإمام فخر الدين الرازي في «المعالم»: اعلم أنا إذا أردنا أن نقول في أمر من الأمور: هل فعله الرسول ﷺ؟ قلنا في إثباته طرق:

**الأول**: أنا إذا أردنا أن نقول إنه ﷺ توضأ مع النية والترتيب، قلنا: لا شك أن الوضوء مع النية والترتيب أفضل، والعلم الضروري حاصل بأن أفضل الخلق لم يواظب على ترك الأفضل طول عمره، فثبت أنه أتى بالوضوء المرتب المنوي، ولم يثبت عندنا أنه أتى بالوضوء العاري عن النية والترتيب، والشك لا يعارض اليقين، فثبت أنه أتى بالوضوء المرتب المنوي، فوجب أن يجب علينا مثله.

**والطريق الثاني**: أن نقول: لو أنه ﷺ ترك النية والترتيب وجب علينا تركه للدلائل الدالة على وجوب الاقتداء به، ولما لم يجب علينا تركه ثبت أنه ما تركه، بل فعله. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث عمر مرفوعاً (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى)[1]. قال البخاري: **«فدخل فيه الإيمان والوضوء والصلاة والزكاة والحج والصوم والأحكام»**.

وأشار بذكر الوضوء إلى خلاف من لم يشترط فيه النية، كما نقل عن الأوزاعي وأبي حنيفة وغيرهما. وحجتهم: أنه ليس عبادة مستقلة، بل وسيلة إلى عبادة كالصلاة. ونوقضوا بالتيمم، فإنه وسيلة، وقد اشترط الحنفية فيه النية. واستدل الجمهور على اشتراط النية في الوضوء بالأدلة الصحيحة المصرحة بوعد الثواب عليه، فلا بد من قصد يميزه ليحصل الثواب الموعود به.

وقوله: **(إنما الأعمال بالنيات)**. ليس المراد منه نفي ذات العمل لأنه قد يوجد بغير نية، بل المراد نفي أحكامها كالصحة والكمال. ولكن الحمل على نفي الصحة أولى لأنه أشبه بنفي الشيء نفسه، ولأن اللفظ دل على نفي الذات بالصريح وعلى نفي الصفات بالتبع، فلما منع الدليل نفي الذات بقيت دلالته على نفي الصفات مستمرة.

قال ابن دقيق العيد: الذين اشترطوا النية، قدروا: صحة الأعمال، والذين لم يشترطوها قدروا: كمال الأعمال. ورجح الأول لأن الصحة أكثر لزوماً للحقيقة من الكمال، فالحمل عليها أولى.

---

(١) الحديث في سنن أبي داود أيضاً برقم (٢٢٠١) وفي سنن الترمذي برقم (١٦٤٧) وفي النسائي الطهارة باب (٥٩) وفي سنن ابن ماجه برقم (٤٢٢٧) وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٤١ و ٢١٥ و ٦/ ٣٣١ وفي حلية الأولياء ٦/ ٣٤٢ وفي المغني للعراقي ٤/ ٣٥١ وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣٨٠.

وفي هذا الكلام إيهام أن بعض العلماء لا يرى اشتراط النية، وليس الخلاف بينهم في ذلك إلا في الوسائل، وأما المقاصد فلا اختلاف بينهم في اشتراط النية لها. ومن ثم خالف الحنفية في اشتراطها للوضوء كما تقدم، وخالف الأوزاعي في اشتراطها في التيمم أيضاً. نعم بين العلماء اختلاف في اقتران النية بأول العمل كما هو معروف في مبسوطات الفقه.

وأما قوله ـ أي البخاري ـ «فدخل فيه الإيمان»، فتوجيه دخول النية في الإيمان على طريقة البخاري: أن الإيمان عمل، وأما الإيمان بمعنى التصديق فلا يحتاج إلى نية كسائر أعمال القلوب، من خشية الله وتعظيمه ومحبته والتقرب إليه، لأنها متميزة لله فلا تحتاج إلى نية تميزها، لأن النية إنما تميز العمل لله عن العمل لغيره رياء، وتميز مراتب الأعمال كالفرض عن الندب، وتميز العبادة عن العادة كالصوم عن الحمية.

وقوله أيضاً: «والأحكام» أي المعاملات التي يدخل فيها الاحتياج إلى المحاكمات فتشمل البيوع والأنكحة والأقارير وغيرها، وكل صورة لم تشترط فيها النية فذلك لدليل خاص.

وقد ذكر ابن المنير ضابطاً ـ لما تشترط فيه النية مما لا تشترط فيه ـ فقال: كل عمل لا تظهر له فائدة عاجلة بل المقصود به طلب الثواب فالنية مشترطة فيه، وكل عمل ظهرت فائدته ناجزة، وتقاضته الطبيعة قبل الشريعة لملاءمة بينهما فلا تشترط النية فيه إلا لمن قصد بفعله معنى آخر يترتب عليه الثواب. قال: وإنما اختلف العلماء في بعض الصور من جهة تحقيق مناط التفرقة. قال: وأما ما كان من المعاني المحضة كالخوف والرجاء فهذا لا يقال باشتراط النية فيه لأنه لا يمكن أن يقع إلا منوياً، ومتى فرضت النية مفقودة فيه استحالت حقيقته، فالنية فيه شرط عقلي.

وأما الأقوال، فتحتاج إلى النية في ثلاثة مواطن: **أحدها**، التقرب إلى الله تعالى فراراً من الرياء، **والثاني**: التمييز عن الألفاظ المحتملة لغير المقصود. **والثالث**: قصد الإنشاء ليخرج سبق اللسان. انتهى، ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

وقد اختلف العلماء في الوقت الذي وجب فيه الوضوء:

فقال بعضهم: أول ما فرض بالمدينة، وتمسك بقوله تعالى: ﴿**إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم**﴾ [المائدة: ٦] الآية. ونقل ابن عبد البر اتفاق أهل السير على أن غسل الجنابة فرض عليه ﷺ وهو بمكة، كما افترضت الصلاة، وأنه لم يصل قطّ إلا بوضوء، وقال: وهذا مما لا يجهله عالم.

وقال الحاكم في المستدرك: أهل السنة بهم حاجة إلى دليل الرد على من زعم أن

الوضوء لم يكن قبل نزول آية المائدة، ثم ساق حديث ابن عباس: دخلت فاطمة رضي الله عنها على النبي ﷺ وهي تبكي فقالت: هؤلاء الملأ من قريش قد تعاهدوا ليقتلوك، فقال: «ائتوني بوضوء فتوضأ». قال الحافظ ابن حجر: وذا يصلح أن يكون رداً على من أنكر وجود الوضوء قبل الهجرة، لا على من أنكر وجوبه حينئذ.

وقد جزم ابن الجهم المالكي بأنه كان قبل الهجرة مندوباً، وجزم ابن حزم بأنه لم يشرع إلا بالمدينة. ورد عليه بما أخرجه ابن لهيعة في المغازي التي يرويها عن أبي الأسود عن عروة أن جبريل عليه السلام علم النبي ﷺ الوضوء عند نزوله عليه بالوحي. وهو مرسل، ووصله أحمد من طريق ابن لهيعة أيضاً، لكن قال: عن الزهري عن عروة، عن أسامة بن زيد عن أبيه، وأخرجه ابن ماجه من رواية رشدين بن سعد عن عقيل عن الزهري نحوه، لكن لم يذكر زيد بن حارثة في السند، وأخرجه الطبراني في الأوسط من طريق الليث عن عقيل موصولاً. ولو ثبت لكان على شرط الصحيح، لكن المعروف رواية ابن لهيعة.

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يتوضأ لكل صلاة. قيل له: كيف كنتم تصنعون؟ قال: يجزي أحدنا الوضوء ما لم يحدث[1] رواه البخاري وأبو داود والترمذي. وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يتوضأ لكل صلاة. رواه الدارمي. وروى مسلم عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يتوضأ لكل صلاة، فلما كان يوم الفتح صلى صلوات بوضوء واحد. فقال له عمر: فعلت شيئاً لم تكن تفعله، فقال: «عمداً فعلته يا عمر»[2] يعني لبيان الجواز. وفي رواية أحمد وأبي داود، من حديث عبد الله بن أبي عامر الغسيل، أنه ﷺ أمر بالوضوء، لكل صلاة طاهراً أو غير طاهر، فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك عند كل صلاة ووضع عنه الوضوء إلا من حدث. واختلف العلماء في موجب الوضوء:

فقيل: يجب بالحدث وجوباً موسعاً.

وقيل: به وبالقيام إلى الصلاة معاً، ورجحه جماعة من الشافعية.

وقيل: بالقيام إلى الصلاة حسب، ويدل له ما رواه أصحاب السنن عن ابن عباس

---

(١) الحديث في البخاري كتاب الوضوء باب (٥٤) وفي سنن أبي داود برقم (١٧١) وفي الترمذي طهارة (٤٤) وفي النسائي طهارة (١٠٠) وابن ماجه طهارة (٧٢) وفي الموطأ طهارة (٢٣) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٣٢ و ١٥٤ و ٢٦٠ و ٥/ ٣٥١.

(٢) الحديث في مسلم كتاب الطهارة برقم (٨٦) وفي سنن أبي داود برقم (١٧٢) وفي الترمذي (٦١) وفي النسائي ١/ ٨٦ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٣٥٠ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ١٦٢ وفي نصب الراية للزيلعي ١/ ١٦٤ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٣٧٨) وفي الدر المنثور ٢/ ٢٦١.

مرفوعاً: إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة. وقد تمسك بحديث عبد الله بن أبي عامر هذا من قال بوجوب السواك عليه ﷺ، لكن في إسناده محمد بن إسحاق، وقد رواه بالعنعنة وهو مدلس، والخصائص لا تثبت إلا بدليل صحيح.

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في السنن عن عائشة مرفوعاً: «**ثلاث هن عليَّ فرائض وهن لكم سنة: الوتر والسواك وقيام الليل**»[١]. وقد روى أحمد في مسنده بإسناد حسن من حديث واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت بالسواك حتى خشيت أن يكتب علي**»[٢]. وقد حكى بعضهم الإجماع على أنه ليس بواجب علينا. لكن حكي عن بعض الشافعية أنه أوجبه للصلاة ونوزع فيه. واتفقوا على أنه مستحب مطلقاً، ويتأكد بأحوال:

منها: عند الوضوء وإرادة الصلاة.

ومنها: عند القيام من النوم، لما ثبت في الصحيحين من حديث حذيفة أنه ﷺ (كان إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك)، لكن قد يقال: المراد، قام من الليل للصلاة، فيكون المراد السواك للصلاة وعند الوضوء.

ومنها: قراءة القرآن، كما جزم به الرافعي.

ومنها: تغير الفم، سواء فيه تغير الرائحة أو تغير اللون، كصفرة الأسنان، كما ذكره الرافعي.

ومنها: دخول المنزل، جزم به النووي في زيادة الروضة، لما روى مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث عائشة، أنه ﷺ (كان إذا دخل بيته يبدأ بالسواك).

ومنها: إرادة النوم، كما ذكره الشيخ أبو حامد[٣] في «**الرونق**»[٤]، وروى فيه ما رواه ابن عدي في الكامل من حديث جابر: أن رسول الله ﷺ كان يستاك إذا أخذ مضجعه. وفيه: حرام بن عثمان، متروك.

---

(١) الحديث في السنن الكبرى للبيهقي ٢/٤٦٨ و٩/٢٦٤ وفي مجمع الزوائد ٨/٢٦٤ وفي نصب الراية ٤/٢٠٦ وفي التلخيص لابن حجر ٢/١٨ و٣/١١٨.

(٢) الحديث في المسند ٣/٤٩٠ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ١/١٦٦ وفي مجمع الزوائد ٢/٩٨ وفي جمع الجوامع (٤٤٢٣ ـ ٤٤٣٠ ـ ٤٤٣٦).

(٣) أي الإسفراييني المتوفي سنة (٤٠٦ هـ).

(٤) الرونق مختصر في فروع الشافعية على طريقة اللباب للمحاملي. وقد اختلف في مؤلفه قيل إنه منسوب للشيخ أبي حامد الإسفراييني وقيل أنه من تصنيف أبي حاتم القزويني. انظر كشف الظنون ١/٩٣٤.

ومنها: الانصراف من صلاة الليل، لما روى ابن ماجه من حديث ابن عباس بإسناد صحيح قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بالليل ركعتين ركعتين، ثم ينصرف فيستاك.

ويجزىء بكل خشن، ولو بأصبع غيره الخشنة، وقد جزم النووي في شرح المهذب ودقائق المنهاج أنه يجزىء بها قطعاً. قال في شرح تقريب الأسانيد: وما أدري ما وجه التفرقة بين أصبعه وأصبع غيره وكونه جزءاً منه لا يظهر منه ما يقتضي منعه، بل كونها أصبعه أبلغ في الإزالة، لأنه يتمكن بها أكثر من تمكن غيره أن يسوكه بأصبعه لا جرم. قال النووي في شرح المهذب: المختار أجزاؤه مطلقاً. قال: وبه قطع القاضي حسين والمحاملي في اللباب والبغوي واختاره في البحر. انتهى.

ولقد أطبق أصحاب الشافعي على استحباب «الأراك» فروى الطبراني من حديث أبي خيرة الصنابحي ـ وله صحبة ـ حديثاً قال فيه: ثم أمر لنا رسول الله ﷺ بأراك فقال: «**استاكوا بهذا**»[1].

وفي مستدرك الحاكم من حديث عائشة في دخول أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر في مرضه ﷺ ومعه سواك من أراك، فأخذته عائشة فطيبته ثم أعطته رسول الله ﷺ فاستاك به. والحديث في الصحيح وليس فيه ذكر الأراك. وفي بعض طرقه عند البخاري: ومعه سواك من جريد النخل.

وقد روى أبو نعيم في كتاب السواك، من حديث عائشة قالت: كان النبي ﷺ يستاك عرضاً، وروى البيهقي أيضاً من حديث ربيعة بن أكثم قال: كان رسول الله ﷺ يستاك عرضاً الحديث.

قال أصحابنا: والمراد بقوله «عرضاً»: عرض الأسنان في طول الفم. وهل الأولى أن يباشر المستاك بيمينه أو شماله؟ قال بعضهم بيمينه، لحديث: كان يعجبه التيمن في ترجله وتنعله وطهره وسواكه. وبناه بعضهم على أنه هل هو من باب التطهير والتطييب، أو من باب إزالة القاذورات. فإن قلنا بالأول استحب أن يكون باليمنى، وإن قلنا بالثاني فبشماله لحديث عائشة: كانت يد رسول الله ﷺ اليمين لطهوره وطعامه، واليسرى لخلائه وما كان من أذى[2]. رواه أبو داود بإسناد صحيح.

قال في شرح تقريب الأسانيد: وما استدل به على أنه يستحب باليمين ليس فيه دلالة،

---

(١) الحديث في مجمع الزوائد للهيثمي ٥/٦٢ وفي التلخيص لابن حجر ١/٧١ وفي طبقات ابن سعد ٧/٢٩٧ رقم الترجمة (٣٧٦٦).

(٢) الحديث في سنن أبي داود برقم (٣٣ ـ ٣٤).

فإن المراد منه بالشق الأيمن في الترجل، والبداءة بلبس النعل، والبداءة بالأعضاء اليمنى في التطهير، والبداءة بالجانب الأيمن في الاستياك، وأما كونه يفعل ذلك بيمينه فيحتاج إلى نقل، والظاهر أنه من باب إزالة الأذى كالامتخاط ونحوه فيكون باليسرى. وقد صرح بذلك أبو العباس أحمد القرطبي فقال في «المفهم» حكاية عن مالك: أنه لا يتسوك في المساجد لأنه من باب إزالة القذر والله أعلم.

وأما مقدار ما كان ﷺ يتوضأ أو يغتسل به من الماء:

فعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد، ويتوضأ بالمد، وفي رواية: كان يغتسل بخمسة مكاكيك ويتوضأ بمكوك. رواه البخاري ومسلم وأبو داود وعنده: يتوضأ بإناء يسع رطلين ويغتسل بالصاع. ورواه الترمذي وعنده: أنه ﷺ قال: «**يجزىء في الوضوء رطلان من الماء**»[1]. وعن عائشة قالت: كان ﷺ يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد. رواه أبو داود. وعن ابن عباس، أن النبي ﷺ وميمونة كانا يغتسلان من إناء واحد. والصاع: خمسة أرطال وثلث، برطل بغداد، وهو على ما قاله النووي مائة وثمانية وعشرون درهماً وأربعة أسباع درهم. وحذر ﷺ أمته من الإسراف فيه.

ومر بسعد وهو يتوضأ، فقال: «**ما هذا السرف يا سعد؟**» قال: أفي الوضوء سرف؟ قال: «**نعم، وإن كنت على نهر جار**»[2]، رواه أحمد بإسناد لين، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي.

وقال ﷺ: «**إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان، فاتقوا وسواس الماء**[3]». رواه الترمذي من حديث أبي بن كعب.

## الفصل الثاني
## في وضوئه ﷺ مرة مرة ومرتين مرتين وثلاثاً ثلاثاً

عن ابن عباس قال: توضأ رسول الله ﷺ مرة مرة. رواه البخاري وأبو داود وغيرهما.

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٦٠٩) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ١٧٩ وفي شرح السنة للبغوي ٢/ ٥٢.

(٢) الحديث في المسند ٢/ ٢٢١ وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣٧٠ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٤٢٧).

(٣) أخرجه أيضاً البيهقي في السنن الكبرى ١/ ١٩٧ وابن حجر في التلخيص ١/ ١٠١ وابن خزيمة في صحيحه (١٢٢) والتبريزي في المشكاة (٤١٩) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٨٨ والعراقي في المغني ٣/ ٢٧ وفي ميزان الإعتدال (٢٣٩٧) وابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٣٤٦.

وهو بيان لمجمل قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾ [المائدة: ٦] الآية إذ الأمر يفيد طلب إيجاد الحقيقة ولا يتعين بعدد، فبين الشارع أن المرة الواحدة، للإيجاب، وما زاد عليها للاستحباب. وأما حديث أبي بن كعب أنه ﷺ دعا بماء فتوضأ مرة مرة وقال: «**هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به**»[1]، ففيه بيان القول والفعل معاً، لكنه حديث ضعيف أخرجه ابن ماجه، وله طرق أخرى كلها ضعيفة، كما قال في فتح الباري.

وعن عبد الله بن زيد أن رسول الله ﷺ توضأ مرتين مرتين وقال: «**نور على نور**» ذكره رزين. وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً. رواه أحمد ومسلم. وعنه أن رسول الله ﷺ توضأ ثلاثاً وقال: «**هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي ووضوء إبراهيم**»[2]. ذكره رزين، وضعفه النووي في شرح مسلم كما حكاه في مشكاة المصابيح.

ولم يأت في شيء من الأحاديث المرفوعة في صفة وضوئه ﷺ أنه زاد على ثلاث، بل روي عنه أنه نهى عن الزيادة على الثلاث.

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: «**من زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم**»، رواه أبو داود بإسناد جيد، لكن عده مسلم في جملة ما أنكروه على عمرو بن شعيب، لأن ظاهره ذم النقص عن الثلاثة.

وأجيب: بأنه أمر نسبي، والإساءة تتعلق بالنقص والظلم بالزيادة، وقيل: فيه حذف تقديره: من نقص من واحدة، ويؤيده ما رواه أبو نعيم عن حماد من طريق المطلب بن حنطب مرفوعاً: «**الوضوء مرة ومرتين وثلاثاً، فإن نقص من واحدة أو زاد على الثلاث فقد أخطأ**»[3] وهو مرسل رجاله ثقات.

وأجيب عن الحديث أيضاً: بأن الرواة لم يتفقوا على ذكر النقص فيه، بل أكثرهم يقتصر على قوله: فمن زاد فقط، كذا رواه ابن خزيمة في صحيحه. قال الشافعي: لا أحب أن يزيد المتوضىء على ثلاث، فإن زاد أكرهه، أي لم أحرمه، لأن قوله: لا أحب، يقتضي الكراهة وهذا هو الأصح عند الشافعية أنه يكره كراهة تنزيه.

وحكى الدارمي من الشافعية عن قوم أن الزيادة على الثلاث تبطل الوضوء، كالزيادة

---

(١) أخرجه أيضاً العراقي في المغني ١/ ١٣٤ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣٦٠ و ٣٧٤ والهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٣٩ وابن حجر في التلخيص ١/ ٥٧.

(٢) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ١/ ٨٠ والهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٣١ والزبيدي في الإتحاف ٢/ ٣٧٤ وابن حجر في التلخيص ١/ ٨٢.

(٣) ذكر نحوه الترمذي برقم (٩٥).

في الصلاة، وهو قياس فاسد. وقال أحمد وإسحاق وغيرهما: لا تجوز الزيادة على الثلاث. وقال ابن المبارك: لا آمن أن يأثم. ويلزم من القول بتحريم الزيادة على الثلاث أو كراهتها أنه لا يندب تجديد الوضوء على الإطلاق.

## الفصل الثالث
## في صفة وضوئه ﷺ

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه دعا بإناء فأفرغ على يديه ثلاث مرات فغسلهما، ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه ثلاثاً إلى المرفقين، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه**»[1] رواه البخاري.

وقد استدل بعضهم بقوله: «**ثم أدخل يمينه**» على عدم اشتراط نية الاغتراف. ولا دلالة فيه نفياً ولا إثباتاً، وأما اشتراط نية الاغتراف فليس في هذا الحديث ما يثبتها ولا ما ينفيها. قال الغزالي: مجرد الاغتراف لا يصيّر الماء مستعملاً، لأن الاستعمال إنما يقع في المغترف منه. وبهذا قطع البغوي.

وقد ذكروا في حكمة تأخير غسل الوجه، أنه لاعتبار أوصاف الماء، لأن اللون يدرك بالبصر، والطعم يدرك بالفم، والريح بالأنف. فقدمت المضمضة والاستنشاق قبل الوجه، وهو مفروض احتياطاً للعبادة.

وقال النووي في قوله: «**نحو وضوئي**»، إنما لم يقل ﷺ: مثل، لأن حقيقة مماثلته لا يقدر عليها غيره. لكن تعقبه في «فتح الباري» بأنه ثبت التعبير بها في رواية البخاري في الرقاق من طريق معاذ بن عبد الرحمن عن حمران بن عثمان ولفظه: «من توضأ مثل وضوئي هذا». وفي الصيام من رواية معمر: «**من توضأ وضوئي هذا**»، قال: وعلى هذا فالتعبير بنحو من تصرف الرواة، لأنها تطلق على المثلية مجازاً، ولأن «مثل» وإن كانت تقتضي المساواة ظاهراً، لكنها تطلق على الغالب، فبهذا تلتئم الروايتان، ويكون المتروك بحيث لا يخل بالمقصود، انتهى.

---

(١) الحديث في النسائي كتاب الطهارة باب (٦٧ و٩٣) وفي المسند ١/٥٩ و ٦٤ و ٦٦، وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/٤٨ و٥٣ و ٢/٢٨٠ وفي المغني للعراقي ١/١٣٤ وفي كنز العمال (١٨٩٤٩).

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاري، أنه قيل له: توضأ لنا وضوء رسول الله ﷺ، فدعا بإناء، فأكفأ منه على يديه فغسلهما ثلاثاً، [ثم أدخل يده فاستخرجها فتمضمض واستنشق من كف واحد ففعل ذلك ثلاثاً][1]. ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل وجهه ثلاثاً. ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل يديه إلى المرفقين مرتين مرتين، ثم أدخل يده فاستخرجها فمسح برأسه فأقبل بيديه وأدبر، ثم غسل رجليه إلى الكعبين، ثم قال: هكذا كان وضوء رسول الله ﷺ.

وفي رواية: فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه. رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي. وفي رواية لأبي داود: ثم مسح برأسه وأذنيه ظاهرهما وباطنهما، وأدخل أصابعه في صماخي أذنيه.

وفي رواية أبي داود والترمذي والنسائي عن عبد خير، أبي عمارة بن زيد بن خَوْلي ـ بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو وتشديد الياء ـ الهمداني، من كبار أصحاب علي بن أبي طالب، قال: أتانا علي وقد صلى، فدعا بطهور، فقلنا ما يصنع بالطهور وقد صلى، ما يريد إلا ليعلمنا، فأتي بإنا فيه ماء وطست، فأفرغ من الإناء على يمينه فغسل يديه ثلاثاً، ثم تمضمض واستنثر ثلاثاً، فمضمض ونثر من الكف الذي يأخذ فيه، ثم غسل وجهه ثلاثاً، وغسل يده اليمنى ثلاثاً، وغسل يده اليسرى ثلاثاً، ثم جعل يده اليمنى في الإناء فمسح برأسه مرة واحدة، ثم غسل رجله اليمنى ثلاثاً ورجله اليسرى ثلاثاً، وقال: من سره أن يعلم وضوء رسول الله ﷺ فهو هذا.

قال ابن القيم: والصحيح أنه ﷺ لم يكرر مسح رأسه، انتهى. وقال النووي: والأحاديث الصحيحة فيها المسح مرة واحدة وفي بعضها الاقتصار على قوله: مسح. واحتج الشافعي بحديث عثمان رضي الله عنه في صحيح مسلم أنه ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً، وبالقياس على باقي الأعضاء، انتهى.

وأجيب: بأنه مجمل مبين في الروايات الصحيحة أن المسح لم يتكرر، فيحمل على الغالب ويخص بالمغسول، وبأن المسح مبني على التخفيف فلا يقاس على الغسل الذي المراد منه المبالغة في الإسباغ، وبأن العدد لو اعتبر في المسح لصار في صورة الغسل، إذ حقيقة الغسل جريان الماء.

واحتج الشافعية أيضاً بما رواه أبو داود في سننه عن عثمان من وجهين، صحح أحدهما

---

(١) لم يذكر المصنف هذه الجملة وهي في صحيح مسلم الحديث رقم (٢٣٥).

ابن خزيمة: أنه ﷺ مسح رأسه ثلاثاً. وفي رواية أبي داود والترمذي من حديث الربيع بنت معوذ: فغسل كفيه ثلاثاً، ووضأ وجهه ثلاثاً، وتمضمض واستنشق مرة، ووضأ يديه ثلاثاً، ومسح رأسه مرتين بدأ بمؤخر رأسه ثم بمقدمه وبأذنيه كليهما ظهورهما وبطونهما، ووضأ رجليه ثلاثاً ثلاثاً.

وقد أجاب العلماء عن أحاديث المسح مرة واحدة بأن ذلك لبيان الجواز، ويؤيده رواية مرتين هذه. وقال ابن السمعاني ـ كما حكاه في فتح الباري ـ: اختلاف الرواية يحمل على التعدد، فيكون مسح تارة مرة، وتارة ثلاثاً، فليس في رواية مسح مرة حجة على منع التعدد، ويحتج للتعدد بالقياس على المغسول، لأن الوضوء طهارة حكمية، ولا فرق في الطهارة الحكمية بين الغسل والمسح.

قال[1]: ومن أقوى الأدلة على عدم التعدد، الحديث المشهور الذي صححه ابن خزيمة وغيره من طريق عبد الله بن عمرو بن العاصي في صفة الوضوء بعد أن فرغ: «من زاد على هذا فقد أساء وظلم» فإن في رواية سعيد بن منصور التصريح بأنه مسح رأسه مرة، واحدة، فدل على أن الزيادة في مسح الرأس على المرة غير مستحبة، ويحمل ما ورد من الأحاديث في تثليث المسح، إن صحت ـ على إرادة الاستيعاب بالمسح، لا أنها مسحات مستقلة لجميع الرأس، جمعاً بين الأدلة. انتهى.

وفي حديث عبد الله بن زيد ـ عند البخاري ـ الذي ذكرته قبل: ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر. وفي رواية: بدأ بمقدم رأسه حتى ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما في المكان الذي بدأ منه. وزاد ابن الطباع[2] بعد قوله: «ثم مسح رأسه» كله، كما هو في رواية ابن خزيمة. وفي رواية غيره ـ كما قدمته ـ: «برأسه» بزيادة الباء، موافقة لقوله تعالى: ﴿**وامسحوا برؤوسكم**﴾ [المائدة: ٦].

قال البيضاوي: «الباء» أي في الآية مزيدة، وقيل: للتبعيض، فإنه الفارق بين قولك، مسحت المنديل وبالمنديل، ووجه أن يقال: إنها تدل على تضمين الفعل معنى الإلصاق، فلكأنه قيل: وألصقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب، بخلاف ما لو قيل: وامسحوا رؤوسكم فإنه كقوله: ﴿**فاغسلوا وجوهكم**﴾، انتهى.

وقال الشافعي: احتمل قوله تعالى: ﴿**وامسحوا برؤوسكم**﴾ [المائدة: ٦] جميع

---

(١) أي ابن حجر المتوفي سنة (٨٥٢ هـ). في فتح الباري.

(٢) هو إسحاق بن عيسى بن الطباع البغدادي أبو يعقوب توفي سنة (٢١٥ هـ). الكاشف ١/ ٦٤ رقم الترجمة (٣١٣).

الرأس أو بعضه، فدلت السنة على أن بعضه يجزىء، والفرق بينه وبين قوله تعالى: ﴿**فامسحوا بوجوهكم**﴾ [المائدة: ٦] في التيمم، أن المسح فيه بدل عن الغسل، ومسح الرأس أصل فافترقا. ولا يرد كون مسح الخف بدلاً عن غسل الرجل، لأن الرخصة فيه ثبتت بالإجماع.

وقد روي من حديث عطاء أنه ﷺ توضأ، فحسر العمامة عن رأسه ومسح مقدم رأسه، وهو مرسل، لكنه اعتضد بمجيئه من وجه آخر موصولاً أخرجه أبو داود من حديث أنس، وفي إسناده أبو معقل، لا يعرف حاله، لكن اعتضد كل من المرسل والموصول بالآخر وحصلت القوة من الصورة المجموعة وهذا مثال لما ذكره الشافعي من أن المرسل يعضد بمرسل آخر أو مسند.

وفي الباب أيضاً عن عثمان في صفة الوضوء قال: ومسح مقدم رأسه، أخرجه سعيد ابن منصور، وفيه خالد بن يزيد بن أبي مالك مختلف فيه. وصح عن ابن عمر الاكتفاء بمسح بعض الرأس، قاله ابن المنذر وغيره، ولم يصح عن أحد من الصحابة إنكار ذلك قاله ابن حزم. قال الحافظ ابن حجر: وهذا كله مما يقوى به المرسل المتقدم ذكره. انتهى.

واختلف في القدر الواجب في مسح الرأس، فذهب الشافعي وجماعة إلى أن الواجب ما ينطلق عليه الاسم ولو شعرة واحدة أخذاً باليقين. وذهب مالك وأحمد وجماعة إلى وجوب استيعابه أخذاً بالاحتياط. وقال أبو حنيفة في رواية: الواجب ربعه، لأنه ﷺ مسح على ناصيته وهو قريب من الربع. والله أعلم.

وعن طلحة بن مصرف عن أبيه عن جده قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يتوضأ والماء يسيل من وجهه ولحيته على صدره، فرأيته يفصل بين المضمضة والاستنشاق[1]. رواه أبو داود. وعنه أيضاً قال: إن رسول الله ﷺ توضأ، فمضمض ثلاثاً واستنشق ثلاثاً من كف واحد. رواه ابن ماجه.

وفي حديث مسلم أن عثمان دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلهما، ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنثر ثم غسل وجهه ثلاث مرات. وفي حديث عبد الله بن زيد عند البخاري: ثم غسل ومضمض واستنشق من كف واحد ثم قال: هكذا وضوء رسول الله ﷺ. قال النووي: فيه أن السنة في المضمضة والاستنشاق، أن يأخذ الماء لهما بيمينه، قال: وفي الأفضل في كيفية المضمضة والاستنشاق خمسة أوجه:

الأصح: يتمضمض ويستنشق بثلاث غرفات، يتمضمض من كل واحدة ثم يستنشق.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٣٩).

**والثاني**: يجمع بينهما بغرفة واحدة، يتمضمض منها ثلاثاً ثم يستنشق منها ثلاثاً.

**والثالث**: يجمع أيضاً بغرفة، ولكن يتمضمض منها ثم يستنشق، ثم يتمضمض منها ثم يستنشق، ثم يتمضمض منها ثم يستنشق.

**والرابع**: يفصل بينهما بغرفتين، فيتمضمض من إحداهما ثلاثاً، ثم يستنشق من الأخرى ثلاثاً.

**والخامس**: يفصل بست غرفات، يتمضمض بثلاث غرفات، ثم يستنشق بثلاث غرفات.

قال: والصحيح الأول، وبه جاءت الأحاديث الصحيحة. وقد ذهب الإمام أحمد وأبو ثور إلى وجوب الاستنشاق، وهو أن يبلغ الماء إلى خياشيمه، مستدلين بقوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «**إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه ماء ثم ليستنثر**»(١) لظاهر الأمر. وحمله الجمهور ومالك والشافعي وأهل الكوفة على الندب، لقوله ﷺ للأعرابي: «**توضأ كما أمر الله**»(٢)، وليس في الآية [المائدة: ٦] ذكر الاستنشاق، والله أعلم.

وعند أبي داود: كان ﷺ يمسح الماقين. وعن عثمان أنه ﷺ كان يخلل لحيته، رواه الترمذي وابن ماجه. وعنده من حديث ابن عمر: كان ﷺ إذا توضأ عرك عارضيه بعض العرك ثم شبك لحيته بأصابعه من تحتها. وعن أنس كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فيدخله تحت حنكه ويخلل به لحيته ويقول: «**بهذا أمرني ربي عز وجل**»(٣) رواه أبو داود. وعن أبي رافع: كان ﷺ إذا توضأ حرك خاتمه. رواه ابن ماجه والدارقطني وضعفه. وعن المستورد بن شداد: كان ﷺ إذا توضأ يدلك أصابع رجليه بخنصره، رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه. وعن عائشة: كانت يد رسول الله ﷺ اليمنى لطهوره وطعامه. وكانت اليسرى لخلائه وما كان من أذى.

وعن المغيرة بن شعبة أنه كان مع رسول الله ﷺ في سفر، وأنه ذهب لحاجة له وأن المغيرة جعل يصب الماء عليه وهو يتوضأ. رواه البخاري ومسلم. وعن صفوان ابن عسال:

---

(١) الحديث في مسلم كتاب الطهارة برقم (٢٠ و ٢١) وفي سنن أبي داود برقم (١٤٠) وفي النسائي ١/ ٦٦ وفي المسند ٢/ ٢٤٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٤٩ وفي شرح السنة للبغوي ١/ ٤١٢ وفي نصب الراية للزيلعي ١/ ٢ وفي تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤.

(٢) الحديث في سنن أبي داود برقم (٨٦١) وفي نصب الراية ١/ ٣٦٧ وفي تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤ أيضاً.

(٣) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٤٥) بلفظ: «**هكذا أمرني ربي عز وجل**». وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٥٤ وفي مجمع الزوائد ١/ ٢٣٢ وفي كنز العمال (١٧٨٣٩).

صببت على النبي ﷺ الماء في السفر والحضر في الوضوء. رواه ابن ماجه. وفي ذلك جواز استعانة الرجل بغيره في صب الماء في الوضوء من غير كراهة، وكذا إحضار الماء من باب أولى، ولا دليل في هذين الحديثين لجواز الإعانة المباشرة.

وقد روى الحاكم في المستدرك، من حديث الربيع بنت معوذ أنها قالت: أتيت النبي ﷺ بوضوء فقال: «أمسكي»، فمسكت عليه. وهذا أصرح في عدم الكراهة من الحديثين المذكورين لكونه في الحضر، ولكونه بصيغة الطلب، والله أعلم.

وفي الترمذي، من حديث معاذ بن جبل: كان ﷺ إذا توضأ مسح وجهه بطرف ثوبه. وعن عائشة: كانت له ﷺ خرقة ينشف بها بعد الوضوء. قال الترمذي: هذا الحديث ليس بالقائم، وأبو معاذ الراوي ضعيف عند أهل الحديث.

وقد احتجم ﷺ ولم يتوضأ، ولم يزد، على غسل محاجمه، رواه الدارقطني. وأكل كتف شاة ثم صلى ولم يتوضأ. رواه البخاري ومسلم. وللنسائي: قال كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما غيرت النار. وشرب ﷺ لبناً ولم يتمضمض ولم يتوضأ وصلى. رواه أبو داود، وأتي بالسويق فأمر به فثري فأكل منه، ثم قام إلى المغرب فتمضمض. رواه البخاري ومالك والنسائي. وكان ﷺ إذا قام من النوم ربما توضأ، وربما لم يتوضأ، لأن عينه تنام ولا ينام قلبه كما في البخاري وغيره. وفيه دليل على أن النوم ليس حدثاً بل مظنة الحدث، فلو أحدث لعلم بذلك فتكون الخصوصية شعوره بالوقوع بخلاف غيره. قال الخطابي: وإنما منع قلبه النوم ليعي الوحي الذي يأتيه في منامه.

## الفصل الرابع
## في مسحه ﷺ على الخفين

اعلم أنه قد صرح جمع من الحفاظ بأن المسح على الخفين متواتر، وجمع بعضهم رواته فجاوزوا الثمانين، منهم العشرة، وقال ابن عبد البر: لا أعلم أنه قد روي عن أحد من فقهاء السلف إنكاره إلا عن مالك، مع أن الروايات الصحيحة عنه مصرحة بإثباته، وقد أشار الشافعي في الأم إلى إنكار ذلك على المالكية، والمعروف المستقر عندهم الآن قولان: الجواز مطلقاً، وثانيهما: للمسافر دون المقيم، وهذا الثاني مقتضى ما في «المدونة»، وبه جزم ابن الحاجب.

وقال ابن المنذر: اختلف العلماء أيهما أفضل، المسح على الخفين أو نزعهما وغسل الرجلين؟ والذي اختاره: أن المسح أفضل لأجل من طعن فيه من أهل البدع من الخوارج

والروافض. وقال النووي: مذهب أصحابنا أن الغسل أفضل لكونه الأصل، لكن بشرط أن لا يترك المسح.

وقد تمسك من اكتفى بالمسح بقوله تعالى: ﴿**وأرجلكم**﴾ [المائدة: ٦] عطفاً على ﴿**وامسحوا برؤوسكم**﴾ [المائدة: ٦]. فذهب إلى ظاهرها جماعة من الصحابة والتابعين، وحكي عن ابن عباس في رواية ضعيفة، والثابت عنه خلافه. وعن عكرمة والشعبي وقتادة: الواجب الغسل أو المسح. وعن بعض أهل الظاهر: يجب الجمع بينهما. وحجة الجمهور: الأحاديث الصحيحة من فعله ﷺ كما سيأتي إن شاء الله تعالى، فإنه بيان للمراد، وأجابوا عن الآية بأجوبة:

منها: أنه قرىء ﴿**وأرجلكم**﴾ [المائدة: ٦] بالنصب عطفاً على أيديكم.

وقيل: إنه معطوف على محل ﴿**برؤوسكم**﴾ [المائدة: ٦]، كقوله تعالى: ﴿**يا جبال أوبي معه والطير**﴾ [سبأ: ١٠] بالنصب.

وقيل: المسح في الآية محمول على مشروعية المسح على الخفين، فحملوا قراءة «الجر» على مسح الخفين، وقراءة «النصب» على غسل الرجلين. وجعل البيضاوي «الجر» على الجوار، قال: ونظيره في القرآن كقوله تعالى: ﴿**عذاب يوم أليم**﴾ [هود: ٢٦] ﴿**وحور عين**﴾ [الواقعة: ٢٢] بالجر في قراءة حمزة والكسائي. وقولهم «جحر ضب خرب» وللنحاة باب في ذلك. **وفائدته**: التنبيه على أنه ينبغي أن يقتصد في صب الماء عليهما ويغسلا غسلاً يقرب من المسح. انتهى.

وعن المغيرة بن شعبة أنه غزا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فتبرز رسول الله قبل الغائط فحملت معه إداوة ـ قبل الفجر ـ فلما رجع أخذت أهريق على يديه من الإداوة، فغسل يديه ووجهه، وعليه جبة من صوف، ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة، فأخرج يده من تحت الجبة، وألقى الجبة على منكبيه وغسل ذراعيه، ثم مسح بناصيته وعلى العمامة، ثم أهويت لأنزع خفيه فقال: «**دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين، فمسح عليهما، ثم ركب وركبت**»[1]. الحديث رواه مسلم.

وعند الترمذي من حديث المغيرة أيضاً أنه ﷺ مسح على الخفين على ظاهرهما. وعند أبي داود من حديثه أيضاً: ومسح عليه الصلاة والسلام على الجوربين والنعلين. وعنه

(١) الحديث في مسلم برقم (٧٩) وفي البخاري برقم (٢٠٦ ـ ٥٧٩٩) وفي المسند ٢٥١/٤ وفي السنن=

قال: مسح رسول الله ﷺ على الخفين، فقلت يا رسول الله: نسيت، فقال: «**بل أنت نسيت، بهذا أمرني ربي عز وجل**». رواه أبو داود وأحمد. وعن عمرو بن أمية الضمري قال: رأيته ﷺ يمسح على عمامته وخفيه. رواه البخاري. وقال علي بن أبي طالب: جعل ﷺ المسح على الخفين ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر، ويوماً وليلة للمقيم. رواه مسلم.

## الفصل الخامس
## في تيممه ﷺ

اعلم أن التيمم ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، وهو من خصائص هذه الأمة. وأجمعوا على أن التيمم لا يكون إلا في الوجه واليدين، سواء كان عن حدث أكبر، أو عن حدث أصغر، وسواء تيمم عن الأعضاء كلها أو بعضها. واختلفوا في كيفيته: فمذهبنا ومذهب الأكثرين، أنه لا بد من ضربتين: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين.

وعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء**»[1] رواه مسلم. وفي رواية أبي أمامة عند البخاري: «**جعلت الأرض كلها لي ولأمتي مسجداً وطهوراً**». وهذا عام، وحديث حذيفة خاص، فينبغي أن يحمل العام عليه، فتختص الطهورية بالتراب. ومنع بعضهم الاستدلال بلفظ «التربة» على خصوصية التيمم بالتراب، بأن قال: تربة كل مكان ما فيه من تراب أو غيره.

وأجيب: بأنه ورد في الحديث بلفظ التراب، أخرجه ابن خزيمة وغيره. وفي حديث علي (**وجعل لي التراب طهوراً**) أخرجه أحمد والبيهقي بإسناد حسن. وعن عمار: قال رجل لعمر بن الخطاب: إني أجنبت فلم أصب الماء، فقال عمار لعمر: أما تذكر أنا كنا في سفر، أنا وأنت، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمعكت فصليت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «**إنما كان يكفيك هكذا**»، وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه

---

= الكبرى للبيهقي ١/٣٠٩ وفي الدارمي ١/١٨١ وفي مشكاة المصابيح (٥١٨) وفي شرح السنن للبغوي ١/٣٠٩ و ٢/٤٤٠.

(١) الحديث في مسلم كتاب المساجد برقم (٤) وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/٢١٣ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٤٣٥ وفي مشكل الآثار ١/ ٤٥٠ وفي مشكاة المصابيح (٥٢٦) وفي كنز العمال (٣١٩١٢ ـ ٣٢٠٧٥).

وكفيه[1] رواه البخاري ومسلم.

واستدل بالنفخ على استحباب تخفيف التراب، وسقوط استحباب التكرار في التيمم لأن التكرّار يستلزم عدم التخفيف. وعن أبي الجهيم بن الحارث بن الصمة قال: مررت على النبي ﷺ وهو يبول، فسلمت عليه فلم يرد علي، حتى قام إلى جَدَار فحته بعصا كانت معه، ثم وضع يديه على الجدار فمسح وجهه وذراعيه، ثم رد علي، رواه البغوي في شرح السنة وقال: حديث حسن. وهذا محمول على أن الجدار كان مباحاً، أو مملوكاً لإنسان كان يعرف رضاه.

## الفصل السادس
## في غسله ﷺ

والغُسل ـ بضم الغين ـ اسم للاغتسال. وقيل: إذا أريد به الماء فهو مضموم، وأما المصدر فيجوز فيه الضم والفتح، حكاه ابن سيده وغيره. وقيل: المصدر بالفتح، والاغتسال بالضم. وقيل: الغَسل ـ بالفتح ـ: فعل المغتسل، وبالضم: الماء الذي يغتسل به، وبالكسر: ما يجعل مع الماء كالإشنان. وحقيقة الغسل: جريان الماء على الأعضاء. وحقيقة الاغتسال: غسل جميع الأعضاء مع تمييز ما للعبادة عما للعادة بالنية.

ووجوب الغسل على الجنب مستفاد من قوله تعالى: ﴿**وإن كنتم جنباً فاطهروا**﴾ [المائدة: ٦] وقوله تعالى: ﴿**لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا**﴾ [النساء: ٤٣]. ففي الآية الأولى إجمال، وهو قوله تعالى: ﴿**فاطهروا**﴾ [المائدة: ٦] بينه قوله في الآية الثانية ﴿**حتى تغتسلوا**﴾ [النساء: ٤٣]. ويؤيده قوله تعالى في الحائض: ﴿**ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن**﴾ [البقرة: ٢٢٢] المفسر بـ «اغتسلن». اتفاقاً.

وقد كان رسول الله ﷺ يطوف على نسائه بغسل واحد. رواه مسلم من حديث أنس. وعن أبي رافع: طاف ﷺ ذات يوم على نسائه يغتسل عند هذه، وعند هذه، قال: قلت له يا

(١) الحديث في سنن أبي داود أيضاً برقم (٣٢٤) وفي النسائي ١٦٦/١ و ١٧٠ وفي المسند ٢٦٤/٤ وفي مسند الحميدي برقم (١٤٤) وفي الدارقطني نحوه ١٨٣/١ ونحوه في سنن ابن ماجه برقم (٥٦٩) وفي الدر المنثور ١٦٧/٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢٠٩/١ و ٢١٠ و ٢١٦.

رسول الله، ألا تجعله غسلاً واحداً آخراً، قال: «**هذا أزكى وأطيب وأطهر**»[١]. رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

وقد أجمع العلماء على أنه لا يجب الغسل بين الجماعين وأما الوضوء فاستحبه الجمهور، وقال أبو يوسف إنه لا يستحب، وأوجبه ابن حبيب من المالكية، وأهل الظاهر، لحديث: (**إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ بينهما وضوءاً**)[٢] رواه مسلم. وحمله بعضهم على الوضوء اللغوي، فقال: المراد به غسل الفرج، انتهى. وقالت عائشة: كان ﷺ إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يدخل أصابعه في الماء فيخلل بها أصول الشعر، ثم يصب على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يفيض الماء على جسده كله[٣]. رواه البخاري.

ويحتمل أن يكون غسلهما للتنظيف مما بهما، ويحتمل أن يكون هو الغسل المشروع عند القيام من النوم. ويدل عليه زيادة ابن عيينه في هذا الحديث عن هشام «قبل أن يدخلهما في الإناء» رواه الشافعي والترمذي وزاد أيضاً: «ثم يغسل فرجه» وكذا لمسلم وأبي داود. وهي زيادة جليلة، لأن تقديم غسله يحصل به الأمن من مسه في أثناء الغسل.

ويحتمل أن يكون الابتداء بالوضوء قبل الغسل سنة مستقلة، بحيث يجب غسل أعضاء الوضوء مع بقية الجسد، ويحتمل أن يكتفي بغسلها في الوضوء عن إعادته، وعلى هذا فيحتاج إلى نية غسل الجنابة في أول عضو. وإنما قدم أعضاء الوضوء تشريفاً لها، ولتحصل له صورة الطهارتين الصغرى والكبرى. ونقل ابن بطال: الإجماع على أن الوضوء لا يجب مع الغسل. وهو مردود، فقد ذهب جماعة منهم أبو ثور وداود وغيرهما إلى أن الغسل لا ينوب عن الوضوء للمحدث.

وقوله: «فيخلل بها أصول الشعر» أي شعر رأسه، ويدل عليه رواية حماد بن سملة عن هشام ـ عند البيهقي: ـ يخلل بها شق رأسه الأيمن فيتبع بها أصول الشعر، ثم يفعل بشق رأسه الأيسر كذلك. وقال القاضي عياض: احتج به بعضهم على تخليل شعر اللحية في

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (٢١٩) وفي المسند ٦/٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/٢٠٤ و ٧/١٩٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١/٣٠٧.

(٢) الحديث في صحيح مسلم برقم (٢٧) وفي سنن أبي داود برقم (٢٢٠) وفي الترمذي برقم (١٤١) وفي ابن ماجه (٥١٧) وفي المستدرك للحاكم ١/١٥٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/٢٠٣ و ٢٠٤ و ٧/١٩٢ وفي مجمع الزوائد ٤/٣٩٥ وفي كنز العمال (٤٤٨٥٥).

(٣) الحديث في البخاري برقم (٢٤٨ ـ ٢٦٢ ـ ٢٧٢) ونحوه في سنن أبي داود برقم (٢٤٢) باختلاف يسير.

الغسل. إما لعموم قوله: «أصول الشعر» وإما بالقياس على شعر الرأس. وفائدة التخليل، إيصال الماء إلى الشعر والبشرة، ومباشرة الشعر باليد ليحصل تعميمه بالماء، وهذا التخليل غير واجب اتفاقاً، إلا إن كان الشعر متلبداً بشيء يحول بين الماء وبين الوصول إلى أصوله[1].

واختلف في وجوب الدلك، فلم يوجبه الأكثر. ونقل عن مالك والمزني: وجوبه، واحتج له ابن بطال بالإجماع على وجوب إمرار اليد على أعضاء الوضوء عند غسلها، فيجب ذلك في الغسل قياساً لعدم الفرق بينهما. وتعقب: بأن جميع من لم يوجب الدلك أجازوا غمس اليد في الماء للمتوضىء من غير إمرار، فبطل الإجماع وانتفت الملازمة.

وفي قوله في هذا الحديث: «ثلاث غرفات» استحباب التثليث في الغسل. قال النووي: ولا نعلم فيه خلافاً إلا ما انفرد به الماوردي، فإنه قال: لا يستحب التكرار في الغسل. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ـ ومنه لخصت ما ذكرته ـ قلت: وكذا قال الشيخ أبو علي السنجي وكذا قال القرطبي. وقالت ميمونة: وضعت له ﷺ ماء للغسل، فغسل يديه مرتين أو ثلاثاً، ثم أفرغ على شماله فغسل مذاكيره، ثم مسح يده بالأرض، ثم مضمض واستنشق وغسل وجهه ويديه، ثم أفاض على جسده، ثم تحول عن مكانه فغسل قدميه[2]. رواه البخاري. ولم يقيد في هذه الرواية بعدد، فيحمل على أقل مسمى الغسل، وهو مرة واحدة لأن الأصل عدم الزيادة عليها. وفيه مشروعية المضمضة والاستنشاق في غسل الجنابة، لقوله: «ثم مضمض واستنشق» وتمسك به الحنفية للقول بوجوبهما. وتعقب: بأن الفعل المجرد لا يدل على الوجوب، إلا إذا كان بياناً لمجمل تعلق به الوجوب، وليس الأمر هنا كذلك.

وعنها (توضأ ﷺ وضوءه للصلاة غير رجليه، وغسل فرجه وما أصابه من الأذى، ثم أفاض عليه الماء ثم نحى رجليه فغسلهما)[3] رواه البخاري. وفيه التصريح بتأخير الرجلين في وضوء الغسل إلى آخره، وهو مخالف لظاهر رواية عائشة. ويمكن الجمع بينهما، إما بحمل رواية عائشة على المجاز، وإما بحمله على حالة أخرى. وبحسب اختلاف هاتين الحالتين اختلف نظر العلماء. فذهب الجمهور إلى استحباب تأخير غسل الرجلين. وعن

---

(١) انظر فتح الباري ١/٤٧٧.

(٢) والحديث نحوه في سنن أبي داود برقم (٢٤٥).

(٣) الحديث في البخاري برقم (٢٤٩ ـ ٢٥٧ ـ ٢٦٦ ـ ٢٧٦ ـ ٢٨١) وفي الترمذي طهارة (٧٦) والنسائي كتاب الغسل (١٤ ـ ٢٢) وفي المسند ٦/٣٣٧ و ٣٣٦.

مالك: إن كان المكان غير نظيف فالمستحب تأخيرهما، وإلا فالتقديم، وعند الشافعية: في الأفضل قولان، قال النووي: أصحهما وأشهرهما ومختارهما أنه يكمل وضوءه[١].

قال: ولم يقع في شيء من طرق هذا الحديث التنصيص على مسح الرأس في هذا الوضوء، وتمسك به المالكية لقولهم: إن الوضوء للغسل لا يمسح فيه الرأس، بل يكتفي عنه بغسلها[٢]. وعن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: (**أما أنا فأفيض على رأسي ثلاثاً، وأشار بيديه كلتيهما**)[٣] رواه البخاري. وفيه عن أبي هريرة قال: أقيمت الصلاة، وعدلت الصفوف قياماً، فخرج إلينا رسول الله ﷺ، فلما قام في مصلاه ذكر أنه جنب، فقال لنا: «**مكانكم**»، ثم رجع فاغتسل ثم خرج إلينا ورأسه يقطر، فكبر فصلينا معه[٤]. وقوله: «ذكر» أي تذكر، لا أنه قال ذلك لفظاً، وعلم الراوي ذلك من قرائن، أو بإعلامه له بعد ذلك. وظاهر قوله: «فكبر» الاكتفاء بالإقامة السابقة، فيؤخذ منه جواز التخلل الكثير بين الإقامة والدخول في الصلاة. وعنده أيضاً من حديث ميمونة: وضعت للنبي ﷺ غسلاً وسترته بثوب، وصب على يديه فغسلهما، ثم صب بيمينه على شماله فغسل فرجه، فضرب بيده الأرض فمسحها، ثم غسلها، فتمضمض واستنشق، وغسل وجهه وذراعيه، ثم صب على رأسه، وأفاض على جسده، ثم تنحى فغسل قدميه، فناولته ثوباً فلم يأخذه، فانطلق وهو ينفض يديه[٥]. وقد استدل بعضهم بقولها: «فناولته ثوباً فلم يأخذه» على كراهة التنشيف بعد الغسل. ولا حجة فيه، لأنها واقعة حال يتطرق إليها الاحتمال، فيجوز أن يكون عدم الأخذ لأمر آخر لا يتعلق بكراهة التنشيف، بل لأمر يتعلق بالخرقة أو غير ذلك. قال المهلب[٦]: يحتمل تركه الثوب لإبقاء بركة بلل الماء، وللتواضع، أو لشيء رآه في الثوب من حرير أو وسخ. وقد وقع عند أحمد في هذا الحديث عن الأعمش قال: فذكرت

---

(١) انظر فتح الباري ١/ ٤٧٧.

(٢) أي الرأس: أنثه وهو مذكر باعتبار أنه قطعة من البدن.

(٣) الحديث أيضاً في سنن أبي داود برقم (٢٣٩) وفي سنن ابن ماجه برقم (٥٧٥) وفي المسند ٣/ ٣٠٤ و ٤/ ٨٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ١٧٦ و ١٧٧ وفي مسلم برقم (٢٥٩) وفي جمع الجوامع للسيوطي (٤٣٠٩) وفي المعجم الكبير للطبراني ٢/ ١١٢ و ١١٣ وفي كنز العمال (٢٧٣٥١ ـ ٢٧٣٨١).

(٤) الحديث أيضاً في مسلم برقم (١٥٧ ـ ١٥٨) وفي النسائي ٢/ ٨١ و ٨٩ وفي سنن أبي داود برقم (٢٣٥) وفي المسند ٢/ ٢٣٧ و٢٨٣ و ٥١٨ و٥/ ٤١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٣٩٨ وفي مصنف عبد الرزاق (٣٦٤٢) وفي نصب الراية للزيلعي ١/ ٨٩.

(٥) الحديث في سنن أبي داود برقم (٢٤٥) باختلاف يسير والرواية للبخاري.

(٦) هو المهلب بن أحمد بن أبي صفرة الأزدي المتوفى سنة (٤٣٥ هـ). انظر كشف الظنون ١/ ٥٤٥.

ذلك لإبراهيم النخعي فقال: لا بأس بالمنديل، وإنما رده مخافة أن يصير عادة.

وقال التيمي[1] في شرحه: في هذا الحديث دليل على أنه كان ينشف، ولولا ذلك لم تأته بالمنديل. وقال ابن دقيق العيد: نفضه الماء بيده يدل على أن لا كراهة في التنشيف لأن كلاً منهما إزالة. وقال النووي: اختلف أصحابنا فيه على خمسة أوجه، أشهرها: أن المستحب تركه، وقيل مكروه، وقيل مباح، وقيل مستحب، وقيل مكروه في الصيف مباح في الشتاء. وفي هذا الحديث جواز نفض اليدين من ماء الغسل، وكذا ماء الوضوء، ولكن فيه حديث ضعيف أورده الرافعي وغيره، ولفظه: «**تنفضوا أيديكم في الوضوء فإنها مراوح الشيطان**» قال ابن الصلاح: لم أجده، وتبعه النووي.

وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن ينام وهو جنب غسل فرجه وتوضأ للصلاة[2]. رواه البخاري. وفيه رد على من حمل الوضوء هنا على التنظيف. وقوله: «وتوضأ للصلاة» أي وضوءاً كما للصلاة، أي وضوءاً شرعياً لا لغوياً، وليس المراد أنه توضأ لأداء الصلاة.

والحكمة فيه أنه يخفف الحدث، ولا سيما على القول بجواز تفريق الغسل، فينويه فيرتفع الحدث عن تلك الأعضاء المخصوصة على الصحيح، ويؤيده ما رواه ابن أبي شيبة بسند رجاله ثقات عن شداد بن أوس الصحابي قال: إذا أجنب أحدكم من الليل ثم أراد أن ينام فليتوضأ، فإنه نصف غسل الجنابة.

وقيل: الحكمة فيه أنه أحد الطهارتين، فعلى هذا يقوم التيمم مقامه، وقد روى البيهقي بإسناد حسن عن عائشة أنه ﷺ كان إذا أجنب وأراد أن ينام توضأ أو تيمم. ويحتمل أن يكون التيمم هنا عند عسر وجود الماء، وقيل غير ذلك. انتهى ملخصاً من فتح الباري.

## النوع الثاني
## في ذكر صلاته ﷺ

اعلم أن بالصلاة يحصل تحقيق العبودية، وأداء حق الربوبية وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سر الصلاة. وقد جمع الله تعالى للمصلين في كل ركعة ما فرق على أهل

---

(١) قال في كشف الظنون: «واعتنى الإمام محمد التميمي (التيمي) بشرح لصحيح البخاري لم يذكره الخطابي مع التنبيه على أوهامه. كشف الظنون ١/ ٥٤٥.

(٢) الحديث في البخاري برقم (٢٨٨).

السموات، فلله ملائكة في الركوع منذ خلقهم الله تعالى لا يرفعون من الركوع إلى يوم القيامة، وهكذا السجود والقيام والقعود.

واجتمع فيها أيضاً من العبوديات ما لم يجتمع في غيرها، منها: الطهارة والصمت واستقبال القبلة، والاستفتاح بالتكبير، والقراءة والقيام والركوع والسجود، والتسبيح في الركوع، والدعاء في السجود، إلى غير ذلك. فهي مجموع عبادات عديدة، لأن الذكر بمجرده عبادة، والقراءة بمجردها عبادة وكذا كل فرد فرد.

وقد أمر الله تعالى نبيه بالصلاة في قوله سبحانه: ﴿**اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة**﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها**﴾ [طه: ١٣٢].

وفي ذلك ـ كما نبه عليه صاحب كتاب التنوير[1]: أمدنا الله بمدده ـ إشارة إلى أن في الصلاة تكليفاً للنفوس شاقاً عليها، لأنها تأتي في أوقات ملاذّ العباد وأشغالهم، فيطالبون بالخروج عن ذلك كله إلى القيام بين يديه، والفراغ مما سوى الله تعالى، فلذلك قال تعالى: ﴿**واصطبر عليها**﴾ [طه: ١٣٢].

قال: ومما يدل على أن في القيام بالصلاة تكاليف العبودية وأن القيام بها على خلاف ما تقتضيه البشرية، قوله تعالى: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين**﴾ [البقرة: ٤٥]. فجعل الصبر والصلاة مقترنين إشارة إلى أنه يحتاج في الصلاة إلى الصبر، صبر على ملازمة أوقاتها، وصبر على القيام بمسنوناتها وواجباتها، وصبر يمنع القلوب فيها عن غفلاتها، ولذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿**وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين**﴾ [البقرة: ٤٥] فأفرد الصلاة بالذكر ولم يفرد الصبر، إذ لو كان كذلك لقال: وإنه لكبير، فذلك يدل على ما قلنا، أو لأن الصبر والصلاة مقترنان متلازمان، فكان أحدهما هو عين الآخر، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿**والله ورسوله أحق أن يرضوه**﴾ [التوبة: ٦٢]. انتهى ملخصاً. ثم أن الكلام فيها ينقسم إلى خمسة أقسام:

---

(١) كتاب «التنوير في إسقاط التدبير» لابن عطاء الله الإسكندراني المتوفي سنة (٧٠٩ هـ). انظر كشف الظنون ١/ ٥٠٢.

# في الفرائض وما يتعلق بها وفيه أبواب

## الباب الأول
## في الصلوات الخمس وفيه فصول:
### الفصل الأول
### في فرضها

عن أنس قال: فرضت على النبي ﷺ ليلة أسري به خمسون صلاة، ثم نقصت حتى جعلت خمساً، ثم نادى: يا محمد إنه لا يبدل القول لدي، وإن لك بهذه الخمس خمسين. رواه الترمذي هكذا مختصراً، ورواه البخاري ومسلم من حديث طويل تقدم في مقصد الإسراء مع ما فيه من المباحث.

وعن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة[1]. رواه مسلم وأبو داود والنسائي. وقوله: «في الخوف ركعة» محمول على أن المراد ركعة مع الإمام وينفرد بالأخرى.

وعن عائشة: فرض الله الصلاة ـ حين فرضها ـ ركعتين ركعتين، ثم أتمها في الحضر، وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى. رواه البخاري. وعنده ـ في كتاب الهجرة ـ من طريق معمر عن الزهري، عن عروة عن عائشة قالت: فرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر ﷺ ففرضت أربعاً. فعيَّن في هذه الرواية أن الزيادة في قوله في الحديث الذي قبله «وزيد في صلاة الحضر» وقعت بالمدينة. وقد أخذ بظاهر هذا الحديث الحنفية، وبنوا عليه: أن القصر في السفر عزيمة لا رخصة.

واحتج مخالفوهم بقوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٢٤٧).

[النساء: ١٠١]، لأن نفي الجناح لا يدل على العزيمة، والقصر إنما يكون من شيء أطول منه، ويدل على أنه رخصة أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: «**صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**»[١] رواه مسلم. وأما خبر: فرضت الصلاة ركعتين، أي في السفر فمعناه: لمن أراد الاقتصار عليهما، جمعاً بين الأخبار. قاله في الجموع.

## الفصل الثاني
## في ذكر تعيين الأوقات التي صلى فيها ﷺ الصلوات الخمس

عن جابر: أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى النبي ﷺ يعلمه مواقيت الصلاة، فتقدم جبريل، ورسول الله ﷺ خلفه، والناس خلف رسول الله ﷺ، فصلى الظهر حين زالت الشمس، وأتاه حين كان الظل مثل ظل شخصه، فصنع كما صنع، فتقدم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه، والناس خلف رسول الله ﷺ، فصلى العصر، ثم أتاه جبريل حين وجبت الشمس، فتقدم جبريل، ورسول الله ﷺ خلفه، والناس خلف رسول الله ﷺ فصلى المغرب، ثم أتاه [جبريل] حين غاب الشفق، فتقدم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه، والناس خلف رسول الله ﷺ فصلى العشاء. ثم أتاه حين انشق الفجر، فتقدم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه، والناس خلف رسول الله ﷺ، فصلى الغداة.

ثم أتاه في اليوم الثاني حين كان ظل الرجل مثل شخصه، فصنع كما صنع بالأمس، فصلى الظهر، ثم أتاه حين كان ظل الرجل مثلي شخصه فصنع كما صنع بالأمس فصلى العصر، ثم أتاه حين وجبت الشمس فصنع كما صنع بالأمس فصلى المغرب، ثم أتاه حين غاب الشفق فصنع كما صنع بالأمس فصلى العشاء، ثم أتاه حين امتد الفجر وأصبح والنجوم بادية مشتبكة وصنع كما صنع بالأمس فصلى الغداة. ثم قال: ما بين هاتين الصلاتين وقت. رواه النسائي.

وفي رواية قال: خرج رسول الله ﷺ فصلى الظهر حين زالت الشمس، وكان الفيء قدر الشراك، ثم صلى العصر حين كان الفيء قدر الشراك، وظل الرجل مثله، ثم صلى المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق، ثم صلى الفجر حين الفجر، ثم صلى الغداة ـ أي الظهر ـ حين كان الظل طول الرجل، ثم صلى العصر حين كان

---

(١) الحديث في مسلم كتاب المسافرين باب (١) رقم (٤) وفي سنن أبي داود (١١٩٩ ـ ١٢٠٩) وفي الترمذي برقم (٣٠٣٤) وفي ابن ماجه (١٠٦٥) وفي النسائي ٣/١١٧ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ١/٢٥ و٣٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/١٤١ وفي مشكاة المصابيح (١٣٣٥) وفي الدر المنثور ٢/٢٠٩ وفي شرح السنة للبغوي ١/٥٨٦ وفي كنز العمال (٢٠١٧٥).

ظل الرجل مثليه، ثم صلى المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى العشاء إلى ثلث الليل أو نصف الليل ـ شك أحد رواته ـ ثم صلى الفجر فأسفر.

وعن ابن عباس: قال ﷺ: «**أمَّني جبريل عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر في الأولى حين كان الفيء مثل الشراك، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شيء مثله، ثم صلى المغرب حين وجبت الشمس وأفطر الصائم، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق، ثم صلى الفجر حين برق الفجر وحرم الطعام على الصائم**»[1].

وصلى المرة الثانية الظهر حين كان ظل كل شيء مثله كوقت العصر بالأمس، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شيء مثليه، ثم صلى المغرب كوقت الأولى، ثم صلى العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل، ثم صلى الصبح حين أسفر، ثم التفت إلي جبريل فقال: يا محمد، هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت فيما بين هذين الوقتين، رواه الترمذي وغيره.

وقوله «**صلى بي الظهر حين كان ظل كل شيء مثله**» أي فرغ منها حينئذ، كما شرع في العصر في اليوم الأول، وحينئذ فلا اشتراك بينهما في وقت، ويدل له حديث مسلم «وقت الظهر إذا زالت الشمس ما لم تحضر العصر».

وقوله في حديث جابر «فصلى الظهر حين زالت الشمس» يقتضي جواز فعل الظهر إذا زالت الشمس، ولا ينتظر بها وجوباً ولا ندباً مصير الفيء، مثل الشراك، كما اتفقت عليه أئمتنا ودلت عليه الأخبار الصحيحة، وأما حديث ابن عباس فالمراد به أنه حين زالت الشمس كان الفيء حينئذ مثل الشراك، لا أنه أخر إلى أن صار مثل الشراك. ذكره في المجموع.

وقد بيَّن ابن إسحاق في المغازي أن صلاة جبريل به ﷺ كانت صبيحة الليلة التي فرضت الصلاة فيها، وهي ليلة الإسراء. ولفظه: قال نافع بن جبير وغيره: لما أصبح ﷺ من الليلة التي أسري به لم يرعه إلا جبريل نزل حين زاغت الشمس، ولذلك سميت «الأولى» ـ أي صلاة الظهر ـ فأمر فصيح بأصحابه: «**الصلاة جامعة**»، فاجتمعوا فصلى به

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (٣٩٣) وفي الترمذي برقم (١٩٤) وفي المسند ١/٣٣٣ و ٣٥٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/٣٦٤ و ٣٦٦ و ٣٧٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/٣٧٦ وفي المستدرك للحاكم ١/١٩٦ وفي نصب الراية للزيلعي ١/٢٢١ و ٢٢٥ و ٢٢٧ وفي الدر المنثور ٢/٢١٥ وفي سنن الدارقطني ١/٢٥٧ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١/٣١٧ وفي كنز العمال (١٥٢٥٥ ـ ١٩٢٥٥).

جبريل وصلى النبي ﷺ بأصحابه[1] فذكر الحديث.

وفيه رد على من زعم أن بيان الأوقات إنما وقع بعد الهجرة، والحق أن ذلك وقع قبلها ببيان جبريل، وبعدها ببيان النبي ﷺ. وإنما دعاهم بقوله: «الصلاة جامعة» لأن الأذان لم يكن شرع حينئذ. واستدل بهذا الحديث على جواز الإئتمام بمن يأتم بغيره. ويجاب عنه بما يجاب عن قصة أبي بكر في صلاته خلف النبي ﷺ وصلاة الناس خلفه، فإنه محمول على أنه كان مبلغاً فقط، كما سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

وقد صلى ﷺ العصر والشمس في حجرة عائشة لم يظهر الفيء من حجرتها. رواه البخاري ومسلم. وقال أنس: كان رسول الله ﷺ يصلي العصر والشمس مرتفعة حية، فيذهب الذاهب إلى العوالي فيأتيهم والشمس مرتفعة، وبعض العوالي من المدينة على أربعة أميال. رواه البخاري.

وفي ذلك دليل على تعجيله ﷺ بصلاة العصر، لوصف الشمس بالارتفاع بعد أن تمضي مسافة أربعة أميال، والمراد بالشمس ضوؤها. وعن سلمة بن الأكوع أنه ﷺ كان يصلي المغرب إذا غربت الشمس وتوارت بالحجاب. رواه البخاري ومسلم والترمذي. وعن رافع بن خديج: كنا نصلي المغرب معه ﷺ فينصرف أحدنا، وإنه ليرى مواقع نبله. رواه البخاري ومسلم.

والنبل ـ بفتح النون ـ: السهام العربية: أي يبصر مواقع سهامه إذا رمى بها، ومقتضاه المبادرة بالمغرب في أول وقتها، بحيث إن الفراغ منها يقع والضوء باق.

وكان ﷺ إذا كان الحر أبرد بالصلاة، وإذا كان البرد عجل، رواه النسائي من حديث أنس. ويؤخر العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية. رواه أبو داود من رواية علي بن شيبان. وقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا قدِّم العَشاء فابدؤوا به قبل صلاة المغرب ولا تعجلوا عن عشائكم**»[2]، رواه البخاري ومسلم.

وعند أبي داود: «**ولا تؤخروا الصلاة لطعام ولا غيره**»[3].

---

(١) الحديث في صحيح مسلم باب (١) رقم (٤) وفي الباب (٥) رقم (٢٠) وفي البخاري برقم (١٠٦٦) وفي النسائي باب (٥ و ١٠ و ١٢) وفي المسند ٢/ ٩٣ و ١٦١ و ٣/ ٨٤ و ٥/ ٢٩٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٣٦٢ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٩٤ و ٧/ ٣٣٩ وفي الدر المنثور ٦/ ٥٦ و ١٢٢ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٩٤ وفي مصنف عبد الرزاق (١٨٠٤٣) وفي كنز العمال (٣٠٢٤٢).

(٢) الحديث في البخاري برقم (٦٧٢) وفي نصب الراية للزيلعي ١/ ٢٣١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٧٣ وفي إتحاف السادة المتقين ٣/ ٩٣.

(٣) قال الزرقاني في شرح المواهب: ولا تعارض بين هذا الحديث والذي سبقه. إذ هو محمول على من لم يشتغل قلبه بالطعام.

واعتم ﷺ بالعشاء ليلة، حتى ناداه عمر: الصلاة، نام النساء والصبيان، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «**ما ينتظرها من أهل الأرض أحد غيركم**»، قال ولا تصلى يومئذ إلا بالمدينة، وكانوا يصلون فيما بين أن يغيب الشفق إلى ثلث الليل الأول[1]. زاد في رواية: وذلك قبل أن يفشو الإسلام.

وفي رواية: فخرج ورأسه تقطر ماء يقول: «**لولا أن أشق على أمتي، أو على الناس، لأمرتهم بالصلاة هذه الساعة**»[2]. رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية أبي داود من حديث أبي سعيد: فلم يخرج حتى مضى نحو من شطر الليل، فقال: «**خذوا مقاعدكم**»، فأخذنا مقاعدنا، فقال: «**إن الناس قد صلوها وأخذوا مضاجعهم، وإنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة، ولولا ضعف الضعيف، وسقم السقيم لأخرت هذه الصلاة إلى شطر الليل**»[3]. وفي حديث أبي هريرة: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم أن يؤخروا العشاء إلى ثلث الليل أو نصفه**»، صححه الترمذي.

فعلى هذا: من وجد به قوة على تأخيرها ولم يغلبه النوم، ولم يشق على أحد من المأمورين فالتأخير في حقه أفضل. وقد قرر النووي ذلك في شرح مسلم، وهو اختيار كثير من أهل الحديث من الشافعية وغيرهم. وقال الطحاوي: يستحب إلى الثلث، وبه قال مالك وأحمد وأكثر الصحابة والتابعين، وهو قول الشافعي في الجديد.

وقال في القديم: التعجيل أفضل. وكذا قال في «الإملاء» وصححه النووي في جماعة، وقالوا: إنه مما يفتى به على القديم. وتعقب: بأنه ذكره في «الإملاء» وهو من كتبه الجديدة. والمختار من حيث الدليل أفضلية التأخير، قاله في فتح الباري.

## الفصل الثالث
## في ذكر كيفية صلاته ﷺ وفيه فروع:
## [الفرع] الأول: في صفة افتتاحه ﷺ

روى أبو داود أنه عليه الصلاة والسلام سمع بلالاً يقيم الصلاة، فلما قال: قد قامت

---

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (٢١٨) وفي البخاري برقم (٥٦٦ ـ ٥٦٩ ـ ٨٦٤) وفي المسند ٦/ ٢٤٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٣٧٤.

(٢) الحديث في البخاري عن ابن عباس برقم (٥٧١) وفي الترمذي برقم (١٦٧) وفي النسائي ١/ ٢٦٦ وفي المسند ١/ ٢٢١ و ٣٣٦ و ٢/ ٢٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٤٤٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ١١/ ١٨٠ وفي مصنف عبد الرزاق (٢١١٢) وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣٥٠ وفي الدر المنثور ١/ ١١٤ وفي كنز العمال (١٩٤٦٤ ـ ١٩٤٦٦ ـ ٢١٨٤٧).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٢٢) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٥ وابن خزيمة في صحيحه=

الصلاة، قال: «**أقامها الله وأدامها**»[1]. وكان ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير. رواه عبد الرزاق من حديث عائشة. وروى البخاري عن ابن عمر قال: رأيت النبي ﷺ افتتح التكبير في الصلاة.

واستدل بهما على تعيين لفظ «التكبير» دون غيره من ألفاظ التعظيم، وهو قول الجمهور، ووافقهم أبو يوسف. وعن الحنفية: تنعقد بكل لفظ يقصد به التعظيم. وقد روى البزار بإسناد صحيح، على شرط مسلم، عن علي أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: «الله أكبر». ولأحمد والنسائي من طريق واسع بن حبان أنه سأل ابن عمر عن صلاة رسول الله ﷺ فقال: الله أكبر كلما وضع ورفع. وليعلم أن تكبيرة الإحرام ركن عند الجمهور، وقيل شرط، وهو مذهب الحنفية، ووجه عند الشافعية، وقيل سنة، قال ابن المنذر: ولم يقل به أحد غير الزهري.

ولم يختلف أحد في إيجاب النية في الصلاة. قال البخاري ـ في أواخر الإيمان ـ: باب ما جاء في قوله ﷺ الأعمال بالنية[2]، فدخل فيه الإيمان والوضوء والصلاة والزكاة.

وقال ابن القيم في الهدي النبوي: كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة قال: الله أكبر، ولم يقل شيئاً قبلها، ولا تلفظ بالنية، ولا قال: أصلي صلاة كذا مستقبل القبلة أربع ركعات إماماً أو مأموماً، ولا أداء ولا قضاء، ولا فرض الوقت. قال: وهذه عشر بدع لم ينقل عنه أحد قط بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا مسند ولا مرسل لفظة واحدة البتة، بل ولا عن أحد من الصحابة، ولا استحبه أحد من التابعين، ولا الأئمة الأربعة. وقال الشافعي: «إنها ليست كالصيام فلا يدخل أحد فيها إلا بذكر» أي تكبيرة الإحرام ليس إلا، وكيف يستحب الشافعي أمراً لم يفعله ﷺ في صلاة واحدة، ولا أحد من أصحابه. انتهى.

وعبارة الشافعي في كتاب المناسك: «ولو نوى الإحرام بقلبه، ولم يلب أجزأه، وليس كالصلاة، لأن في أولها نطقاً واجباً»، هذا نصه. وقد قال الشيخ أبو علي السنجي في شرح التلخيص، وابن الرفعة في المطلب، والزركشي في الديباج وغيرهم: إنما أراد الشافعي بذلك تكبيرة الإحرام فقط، انتهى.

---

= (٣٤٥) وفي كنز العمال (١٩٤٥٩ ـ ٢١٨٥١).

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (٥٢٨) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤١١/١ وفي حلية الأولياء ٨١/٧ وفي شرح السنة للبغوي ٢٨٨/٢ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٦٧٠) وفي إتحاف السادة المتقين ٦/٣ وفي كنز العمال ٢١٠٢٤ ـ ٢٣٢٦٣).

(٢) انظر صحيح البخاري باب رقم (٤١) وفي فتح الباري ١٧٩/١ الحديث رقم (٥٤).

وبالجملة: فلم ينقل أحد أنه ﷺ تلفظ بالنية، ولا علّم أحداً من أصحابه التلفظ بها، ولا أقره على ذلك. بل المنقول عنه في السنن أنه قال: «**مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم**»[1]. وفي الصحيحين أنه ﷺ لما علم المسيء صلاته قال له: «**إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن**»[2] فلم يأمره بالتلفظ بشيء قبل التكبير. نعم اختلف العلماء في التلفظ بها:

فقال قائلون: هو بدعة لأنه لم ينقل فعله.

وقال آخرون: هو مستحب، لأنه عون على استحضار النية القلبية، وعبادة للسان، كما أنه عبودية للقلب، والأفعال المعنوية عبودية الجوارح. وبنحو ذلك أجاب الشيخ تقي الدين السبكي والحافظ عماد الدين بن كثير.

وأطنب ابن القيم ـ في غير الهدي ـ في رد الاستحباب، وأكثر في الاستدلال بما في ذكره طول يخرجنا عن المقصود، لا سيما والذي استقر عليه أصحابنا استحباب النطق بها.

وقاسه بعضهم على ما في الصحيحين، من حديث أنس: أنه سمع النبي ﷺ يلبي بالحج والعمرة جميعاً، يقول: «**لبيك عمرة وحجاً**»[3] وفي البخاري من حديث عمر: (سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وهو بوادي العقيق ـ: «**أتاني الليلة آت من ربي فقال: صل في هذا الوادي المبارك وقل: عمرة في حجة**»)[4]. وهذا تصريح باللفظ، والحكم كما يثبت بالنص يثبت بالقياس.

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣ ـ ٢٣٨) وفي المسند ١/ ١٢٣ وفي سنن أبي داود برقم (٦١) وفي الدارمي ١/ ١٧٥ وفي سنن الدارقطني ١/ ٣٥٩ و ٣٧٩ وفي مصنف عبد الرزاق (٢٥٣٩) وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢/ ١٠٤ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٤٤٨ و ٦/ ٢٤٠٥ وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ١٨٥ وفي المغني للعراقي ١/ ١٢٥ وفي الحلية لأبي نعيم ٧/ ١٢٤ و ٨/ ٣٧٢ وفي كنز العمال (١٩٦٣٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٥٧ ـ ٧٩٣) والترمذي برقم (٣٠٣) وفي المسند ٢/ ٤٣٧ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٣٧ و ٦٢ وفي نصب الراية للزيلعي ١/ ١٤٧ و ٣٦٦ و ٣٧٧ وفي إتحاف السادة المتقين ٣/ ١٠٠ وفي كنز العمال (١٩٦٢٥).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٨٥ ـ ٢١٤ ـ ٢١٥) وأبو داود برقم (١٧٩٥) والنسائي في الحج باب (٤٩) وابن ماجه برقم (٢٩٦٨ ـ ٢٩٦٩) وأحمد بن حنبل في المسند ٣/ ٩٩ و ١٠٠ و ١٨٧ والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٩ و ٤٠ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤/ ٣٠٨.

(٤) أخرجه البخاري برقم (١٥٣٤) وأبو داود برقم (١٨٠٠) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٤ وابن خزيمة في صحيحه (٢٦١٧) والبغوي في شرح السنة ٧/ ٧٣ والزيلعي في نصب الراية =

ولكن تعقب هذا بأنه ﷺ قال ذلك في ابتداء إحرامه تعليماً للصحابة ما يهلون به ويقصدونه من النسك، وامتثالاً للأمر الذي جاءه من ربه تعالى في ذلك الوادي، ولقد صلى ﷺ أكثر من ثلاثين ألف صلاة فلم ينقل عنه أنه قال: نويت أصلي صلاة كذا وكذا، وتركه سنة، كما أن فعله سنة، فليس لنا أن نسوي بين ما فعله وتركه، فنأتي من القول في الموضع الذي تركه بنظير ما أتى به في الموضع الذي فعله، والفرق بين الحج والصلاة أظهر من أن يقاس أحدهما على الآخر. انتهى ما قاله هذا المتعقب فليتأمل.

وكان ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه، ثم يكبر، فإذا أراد أن يركع فعل مثل ذلك، فإذا رفع رأسه من الركوع فعل مثل ذلك.

وفي رواية: وإذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك أيضاً، وقال: «**سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**». وفي أخرى: نحوه وقال: ولا يفعل ذلك حين يسجد ولا حين يرفع من السجود. رواه البخاري ومسلم.

وعند أبي داود من حديث علقمة: كان ﷺ إذا قام من سجدتين كبر ورفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، كما صنع حين افتتح. وهو قطعة من حديث رواه أيضاً الترمذي. وكان يكبر في كل خفض ورفع. رواه مالك.

وقال النووي: أجمعت الأمة على استحباب رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام، واختلفوا فيما سواها: فقال الشافعي وأحمد وجمهور العلماء من الصحابة: يستحب أيضاً رفعهما عند الركوع، وعند الرفع منه. وهو رواية عن مالك. وللشافعي قول: أنه يستحب رفعهما في موضع رابع وهو: إذا قام من التشهد الأول. وهذا القول هو الصواب، فقد صح فيه حديث ابن عمر عنه ﷺ أنه كان يفعله. رواه البخاري.

وكان ﷺ يضع يده اليمنى على اليسرى، رواه أبو داود. ومذهب الشافعي والأكثرين: أن المصلي إذا وضع يديه حطهما تحت صدره فوق سرته. وقال أبو حنيفة وبعض الشافعية: تحت سرته.

وكان ﷺ يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتة، فقال له أبو هريرة: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إسكاتتك بين التكبير وبين القراءة ما تقول؟ قال: «**أقول اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب**

---

= ٣/ ١٠٠ و ١٠٦ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٢٧٥٨٥) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤/ ٣٠٨ وفي كنز العمال (١١٩٧٣ ـ ٣٩٧٥٢).

**الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد»**[1]. رواه البخاري ومسلم.

وعن علي: كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة ـ وفي رواية: إذا افتتح الصلاة ـ كبر، ثم قال: **«وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، استغفرك وأتوب إليك»**[2]، الحديث رواه مسلم.

وعن عائشة: كان ﷺ إذا افتتح الصلاة قال: **«سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك»**[3]. رواه الترمذي وأبو دود.

وعن جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي صلاة قال: **«الله أكبر كبيراً**[4]، **والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، أعوذ بالله من الشيطان، من نفخه ونفثه وهمزه»**[5]. قال ابن عمر: نفخه الكبر، ونفثه الشعر، وهمزه الموتة[6]. رواه أبو داود.

---

(١) أخرجه أيضاً ابن ماجه برقم (٨٠٥) والدارمي ١/ ٢٨٤ والنسائي ١/ ٥١ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٢٣١ و ٤٩٤ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٤٥ والبيهقي ٢/ ١٩٥ وابن أبي شيبة ١٠/ ٢١٤.

(٢) الحديث في صحيح مسلم برقم (٧٧١).

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٢ ـ ٢٤٣) وأبو داود برقم (٧٧٥ ـ ٧٧٦) وابن ماجه برقم (٨٠٤ ـ ٨٠٦) والنسائي في الافتتاح باب (١٨) والدارمي ١/ ٢٨٢ والإمام أحمد في المسند ٣/ ٥٠ و ٦٩ والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣٤ و ٣٥ والحاكم في المستدرك ١/ ٢٣٥ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٤٦ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٨١٥ ـ ٨١٦) والدارقطني في سننه ١/ ٢٩٨ وعبد الرزاق في المصنف (٢٥٥٤) والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٣٠ وابن خزيمة في صحيحه (٤٧٠) وابن أبي شيبة ١/ ٢٣٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ١٠٧ و ٢٦٥ وفي كنز العمال (١٧٨٨٧ ـ ٢٢٠٨٥).

(٤) هذه العبارة مكررة ثلاث مرات في نص أبي داود.

(٥) أخرجه أبو داود برقم (٧٦٤) وفي صحيح مسلم برقم (٤٢٠) وابن ماجه برقم (٨٠٧) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٨٠ و ٨٣ و ٨٥ والحاكم في المستدرك ١/ ٤٣٥ وفي دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١١١ و ١٤٠ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٤٦ وعبد الرزاق في مصنفه برقم (٢٥٧٣) والطبراني في المعجم الكبير ٢/ ١٤٠ وكنز العمال (١٩٦٤٢ ـ ٢٣٤٣٩).

(٦) الموتة: بضم الميم وسكون الواو: ضرب من الجنون. والصواب كما في أبي داود «قال عمرو»=

وعن محمد بن مسلمة قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا قام يصلي تطوعاً قال: «**الله أكبر، وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**»[1]. وذكر الحديث مثل حديث جابر إلا أنه قال: وأنا من المسلمين، ثم قال: اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ثم يقرأ. رواه النسائي.

## الفرع الثاني: في ذكر قراءته ﷺ البسملة في أول الفاتحة

روي عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم. رواه أبو داود. وقال الترمذي: ليس إسناده بذاك. ورواه الحاكم عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال: صحيح. وفي صحيح ابن خزيمة عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة أول الفاتحة في الصلاة، وعدها آية، لكنه من رواية عمر بن هارون البلخي، وفيه ضعف عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عنها.

وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه في تفسيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله رب العالمين سبع آيات، بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وهي أم الكتاب**» ورواه الدارقطني عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه أو مثله، وقال: رواته كلهم ثقات. وروى البيهقي عن علي وابن عباس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله ﴿**سبعاً من المثاني**﴾ [الحجر: ٨٧] بالفاتحة، وأن البسملة هي الآية السابعة منها.

وعن شعبة عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون القراءة بـ ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ [الفاتحة: ١]. رواه البخاري، أي كانوا يفتتحون بالفاتحة. وفي رواية مسلم: فلم أسمع أحداً منهم قرأ ببسم الله الرحمن الرحيم. كذا أخرجه مسلم وغيره. لكنه معلول أعله الحفاظ، كما هو في كتب علوم الحديث. وفي شرح ألفية العراقي لشيخنا الحافظ أبي الخير السخاوي ـ أمتع الله بوجوده ـ في باب العلل ما نصه: وعلة المتن القادحة فيه كحديث نفي قراءة البسملة في الصلاة المروي عن أنس، إذ ظن راو من رواته حين سمع قول أنس: صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين، نفي البسملة، فنقله مصرحاً بما ظنه وقال: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول القراءة ولا في آخرها. وفي لفظ: فلم يكونوا يفتتحون

---

= أما ابن عمر فلا ذكر له في هذا الحديث.

(١) ذكره الطبراني في المعجم الكبير ٢٣١/١٩ وابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث (٤٣٨) والزيلعي في نصب الراية ٣١٣/١.

القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم. وصار بمقتضى ذلك حديثاً مرفوعاً. والراوي لذلك مخطىء في ظنه.

ولذا قال الشافعي ـ رحمه الله ـ في الأم، ونقله عنه الترمذي في جامعه: المعنى أنهم يبدؤون بقراءة أم القرآن قبل ما يقرأ بعدها، لا أنهم يتركون البسملة أصلاً.

ويتأيد بثبوت تسمية أم القرآن بجملة ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ [الفاتحة: ١] في صحيح البخاري، وكذا بحديث قتادة قال: سئل أنس: كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ؟ قال: كانت مداً، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، يمد «بسم الله» ويمد «الرحمن» ويمد «الرحيم». كذا أخرجه البخاري في صحيحه، وكذا صححه الدارقطني والحازمي وقال: إنه لا علة له، لأن الظاهر ـ كما أشار إليه أبو شامة ـ أن قتادة لما سأل أنساً عن الاستفتاح في الصلاة بأي سورة وأجابه بـ «الحمد لله»، سأله عن كيفية قراءته فيها، وكأنه لم ير إبهام السائل مانعاً من تعيينه بقتادة خصوصاً وهو السائل أولاً.

وقد أخرج ابن خزيمة في صحيحه، وصححه الدارقطني أن أبا مسلمة سعيد بن يزيد[1] سأل أنساً: أكان رسول الله ﷺ يستفتح بـ (الحمد لله) أو بـ (بسم الله)؟ فقال: لا أحفظ فيه شيئاً. قال وهذا مما يتأيد به خطأ النافي.

ولكن قد روى هذا الحديث عن أنس جماعة منهم حميد وقتادة، والتحقيق أن المعل رواية حميد خاصة، إذ رفعها وهم من الوليد بن مسلم عن مالك عنه، بل ومن بعضه أصحاب حميد عنه، فإنها في سائر الموطآت عن مالك: صليت وراء أبي بكر وعمر وعثمان فكلهم كان لا يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، لا ذكر للنبي ﷺ فيه، وكذا الذي عند سائر حفاظ أصحاب حميد عنه، إنما هو في الوقف خاصة. وبه صرح ابن معين عن ابن أبي عدي حيث قال: إن حميداً كان إذا رواه عن أنس لم يرفعه، وإذا قال فيه: عن قتادة عن أنس رفعه.

وأما رواية قتادة، وهي من رواية الوليد بن مسلم وغيره عن الأوزاعي: أن قتادة كتب إليه ليخبره أن أنساً حدثه قال: صليت.. فذكره بلفظ: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم لا في أول قراءة ولا في آخرها، فلم يتفق أصحابه عنه على هذا اللفظ، بل أكثرهم لا ذكر عندهم للنفي فيه، وجماعة منهم بلفظ: فلم يكونوا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم.

وممن اختلف عليه فيه من أصحابه شعبة، فجماعة منهم «غندر» لا ذكر عندهم فيه للنفي، وأبو داود الطيالسي فقط حسبما وقع من طريق غير واحد عنه بلفظ: فلم يكونوا

---

(١) ضبطه الزرقاني في شرحه (بيزيد الأزدي البصري ثقة من رجال الجميع).

يفتتحون القراءة بـ «بسم الله» وهي موافقة للأوزاعي. وأبو عمر الدوري وكذا الطيالسي وغندر أيضاً بلفظ: فلم أسمع أحداً منهم يقرأ بـ «بسم الله».

بل كذا اختلف غير قتادة من أصحاب أنس، فإسحاق بن أبي طلحة وثابت البناني باختلاف عليهما، ومالك بن دينار ثلاثتهم عن أنس بدون نفي، وإسحاق وثابت أيضاً ومنصور بن زاذان وأبو قلابة وأبو نعامة كلهم عنه باللفظ النافي للجهر خاصة. ولفظ إسحاق منهم: يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين فيما يجهر فيه.

وحينئذ فطريق الجمع بين هذه الروايات ـ كما قال شيخنا، يعني شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله ـ ممكن بحمل نفي القراءة على نفي السماع، ونفي السماع على نفي الجهر. ويؤيده: أن لفظ رواية منصور بن زاذان: فلم يسمعنا قراءة بسم الله. وأصرح منها رواية الحسن عن أنس ـ كما عند ابن خزيمة ـ: كانوا يسرون ببسم الله.

وبهذا الجمع زالت دعوى الاضطراب. كما أنه ظهر أن الأوزاعي ـ الذي رواه عن قتادة مكاتبة مع أن قتادة ولد أكمه، وكاتبه مجهول لعدم تسميته ـ لم ينفرد به، وحينئذ فيجاب عن قول أنس: «لا أحفظه» بأن المثبت مقدم على النافي، خصوصاً وقد تضمن النفي عدم استحضار أنس رضي الله عنه لأهم شيء يستحضره. وبإمكان نسيانه حين سؤال أبي مسلمة له وتذكره له بعد، فإنه ثبت أن قتادة أيضاً سأله: أيقرأ الرجل في الصلاة بسم الله؟ فقال: صليت وراء رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر فلم أسمع أحداً منهم يقرأ ببسم الله. ويحتاج إذا استقر محصل حديث أنس على نفي الجهر إلى دليل له، وإن لم يكن من مباحثنا.

وقد ذكر له الشارح[1] دليلاً، وأرشد شيخنا ـ يعني الحافظ ابن حجر ـ لما يؤخذ منه ذلك. بل قال: إن قول نعيم المجمر «صليت وراء أبي هريرة فقرأ ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم قرأ بأم القرآن حتى بلغ ولا الضالين، وقال الناس: آمين، وكان كلما سجد وإذا قام من الجلوس في الاثنتين يقول الله أكبر، ويقول إذا سلم: والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ» أصح حديث ورد فيه، ولا علة له.

وممن صححه ابن خزيمة وابن حبان، ورواه النسائي والحاكم، وقد بوب عليه النسائي: الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم. ولكن تعقب الاستدلال به، لاحتمال أن يكون أبو هريرة أراد بقوله «أشبهكم» في معظم الصلاة لا في جميع أجزائها، لا سيما وقد رواه عنه جماعة غير نعيم بدون ذكر البسملة.

---

(١) أي السخاوي في شرحه لألفية العراقي.

وأجيب: بأن نعيماً ثقة، فزيادته مقبولة، والخبر ظاهر في جميع الأجزاء فيحمل على عمومه حتى يثبت دليل يخصه. ومع ذلك فيطرقه أن يكون سماع نعيم لها من أبي هريرة حال مخافتته لقربه منه.

وقد قال الإمام فخر الدين الرازي في تصنيف له في الفاتحة: روى الشافعي بإسناده وكذا رواه الحاكم في مستدركه أن معاوية قدم المدينة فصلى بهم ولم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، ولم يكبر عند الخفض إلى الركوع والسجود، فلما سلم ناداه المهاجرون والأنصار: يا معاوية سرقت الصلاة، أين بسم الله الرحمن الرحيم، أين التكبير عند الركوع والسجود، فأعاد الصلاة مع التسمية والتكبير. ثم قال الشافعي: وكان معاوية سلطاناً عظيم القوة شديد الشوكة، فلولا أن الجهر بالتسمية والتكبير كان كالأمر المقرر عن كل الصحابة من المهاجرين والأنصار لما قدروا على إظهار الإنكار عليه بسبب تركه. انتهى. وهو حديث حسن أخرجه الحاكم في صحيحه والدارقطني وقال: إن رجاله ثقات.

ثم قال الإمام بعد: وقد بينا أن هذا ـ يعني الإنكار المتقدم ـ يدل على أن الجهر بهذه الكلمة كالأمر المتواتر فيما بينهم. وكذا قال الترمذي عقب إيراده، بعد أن ترجم بالجهر بالبسملة حديث معتمر بن سليمان عن إسماعيل بن حماد بن أبي سليمان عن أبي خالد الوالبي الكوفي عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم. ووافقه على تخريجه الدارقطني، وأبو داود وضعفه. بل وقال الترمذي: ليس إسناده بذاك. والبيهقي في المعرفة، واستشهد له بحديث سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم يمد بها صوته الحديث، وهو عند الحاكم في مستدركه أيضاً، ما نصه: وقد قال بهذا عدة من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ منهم: أبو هريرة، وابن عمر، وابن الزبير، ومن بعدهم من التابعين رووا الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وبه يقول الشافعي، انتهى.

وقال الشيخ أبو أمامة بن النقاش: والذي يروم تحقيق هذه المسألة ينبغي أن يعرف أن هذه المسألة بعلم القراءات أمسّ، وذلك أن من القراء الذين صحت قراءتهم وتواترت عن النبي ﷺ من كان يقرأ بها آية من الفاتحة وهم: حمزة وعاصم والكسائي وابن كثير وغيرهم من الصحابة والتابعين، ومنهم من لا يعدها آية من الفاتحة كابن عامر، وأبي عمرو، ونافع في رواية عنه.

وحكم قراءتها في الصلاة حكم قراءتها خارجها، فمن قرأ على قراءة من جعلها من أم القرآن لزمه فرضاً أن يقرأ بها. ومن قرأ على قراءة من لم يرها من أم القرآن فهو مخير بين القراءة والترك. فحينئذ الخلاف فيها كالخلاف في حرف من حروف القرآن، وكلا القولين

صحيح ثابت لا مطعن على مثبته ولا على منفيه. ولا ريب أن النبي ﷺ تارة قرأ بها، وتارة لم يقرأ بها، هذا هو الإنصاف.

ثم قال: والمستيقن الذي يجب المصير إليه، أن كلا من العملين ثابت، لأنه لا يختلف اثنان من أهل الإسلام أن هذه القراءات السبع كلها حق مقطوع بها من عند الله، وليست هذه أول كلمة ولا أول حرف اختلف في إثباته وحذفه، وقلّ سورة من القرآن ليس فيها ذلك، كلفظ «هو» في سورة الحديد ﴿هو الغني الحميد﴾ [الحديد: ٢٤]، ولفظ «من» في سورة التوبة، في قوله تعالى: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ [التوبة: ٧٢]، وألفات عديدة، وواوات، وهاءات كذلك، وكل هذا من نتيجة كون القرآن أنزل على سبعة أحرف، وهذا هو الذي يدلك على بطلان قول من لم يجعلها من الفاتحة لموضع اختلاف الناس فيها، وقوله: إن الاختلاف لا يثبت معه قرآن[1]، فما أدري ما هذا الظن. وهذا الذي ذكرناه هو الذي يريحك من تلك التقريرات من الجانبين.

ثم قال: ولا ريب أن الواقع من النبي ﷺ كلا الأمرين، من الجهر والإسرار، فجهر وأسر، غير أن إسراره كان أكثر من جهره، وقد صح في الجهر أحاديث، لا مطعن فيها لمنصف نحو ثلاثة أحاديث، كما أنه قد صح في الإسرار بها أحاديث لا مطعن فيها لعارٍ من العصبية، ولا يلتفت لمن يقول: إن الواقع من النبي ﷺ كان الجهر فقط، انتهى. وقيل لبعض العارفين: بماذا ترى ظهر إسم الإمام الشافعي وغلب ذكره؟ أرى ذلك بإظهار اسم الله في البسملة لكل صلاة. انتهى.

## الفرع الثالث: في ذكر قراءته ﷺ الفاتحة وقوله آمين بعدها

كان النبي ﷺ إذا قرأ ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ [الفاتحة: ٧] قال: «آمين»، ومد بها صوته، وفي رواية: وخفض بها صوته[2]، رواه الترمذي. وفي رواية أبي داود: ورفع بها صوته، وفي رواية له: جهر بآمين. وقال ابن شهاب: وكان ﷺ إذا قال: ﴿ولا الضالين﴾ [الفاتحة: ٧] جهر بآمين، أخرجه السراج. ولابن حبان من رواية الزبيدي عن ابن شهاب: كان إذا فرغ من قراءة أم القرآن، رفع صوته وقال: «آمين». وللحميدي من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة بنحوه بلفظ: إذا قال: ﴿ولا الضالين﴾ [الفاتحة: ٧] ولأبي داود، وصححه ابن حبان من حديث وائل بن حجر نحو رواية الزبيدي. وفيه رد على

(١) قال الزرقاني في الشرح: هذا إشارة إلى قول أبي بكر بن العربي: يكفيك أنها ليست من الفاتحة اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يختلف فيه.

(٢) خطّأ البخاري رواية: «وخفض بها صوته». راجع شرح المواهب للزرقاني.

من أومأ إلى النسخ فقال: إنما كان ﷺ يجهر بآمين في ابتداء الإسلام ليعلمهم، فإن وائل بن حجر إنما أسلم في أواخر الأمر.

## الفرع الرابع: في ذكر قراءته ﷺ بعد الفاتحة في صلاة الغداة

عن أبي برزة: كان ﷺ يقرأ في صلاة الغداة ما بين الستين إلى المائة. رواه النسائي. وعن عمرو بن حريث: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في الفجر ﴿**والليل إذا عسعس**﴾ [التكوير: ١٧] رواه مسلم. وفي رواية النسائي: أنه ﷺ قرأ في الفجر ﴿**إذا الشمس كورت**﴾ [التكوير: ١] وعن جابر بن سمرة كان ﷺ يقرأ في الفجر بـ ﴿**ق والقرآن المجيد**﴾ [ق: ١] ونحوها، وكانت قراءته بعد تخفيفاً. رواه مسلم.

وعن عبد الله بن السائب قال: صلى ﷺ الصبح بمكة، فاستفتح سورة المؤمنين، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر عيسى ـ شك الراوي، أو اختلف عليه ـ أخذت النبي ﷺ سعلة فركع. الحديث رواه مسلم. قال النووي: فيه جواز قطع القراءة، وجواز القراءة ببعض السورة. وكرهه مالك. انتهى.

وتعقب: بأن الذي كرهه مالك أن يقتصر على بعض السورة مختاراً، والمستدل به ظاهر في أنه كان للضرورة فلا يرد عليه. وكذا يرد على من استدل به على أنه لا يكره قراءة بعض الآية أخذاً من قوله: حتى جاء ذكر موسى وهارون أو ذكر عيسى، لأن كلاً من الموضعين يقع في وسط آية، نعم الكراهة لا تثبت إلا بدليل.

وأدلة الجواز كثيرة: وفي حديث زيد بن ثابت أنه ﷺ قرأ الأعراف في الركعتين، وأمَّ أبو بكر بالصحابة في صلاة الصبح بسورة البقرة قرأها في الركعتين. وهذا إجماع منهم. وقرأ في الصبح ﴿**إذا زلزلت**﴾ [الزلزلة: ١] في الركعتين كلتيهما، قال الراوي: فلا أدري أنسي أم قرأ ذلك عمداً. رواه أبو داود.

وكان ﷺ يقرأ في صبح الجمعة ﴿**ألم تنزيل**﴾ [السجدة: ١ و ٢]، و ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر**﴾ [الإنسان: ١]. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة. وإنما كان يقرؤهما كاملتين، وقراءة بعضهما خلاف السنة. وإنما كان يقرأ بهما لما اشتملتا عليه من ذكر المبدأ والمعاد، وخلق آدم، ودخول الجنة والنار، وأحوال يوم القيامة، لأن ذلك يقع يوم الجمعة. ذكره ابن دحية في «العلم المشهور» وقرره تقريراً حسناً، كما أفاده ابن حجر.

قال: وقد ورد في حديث ابن مسعود التصريح بمداومته ﷺ على قراءتهما في صبح

الجمعة. أخرجه الطبراني، ولفظه «يديم ذلك» وأصله في ابن ماجه لكن بدون هذه الزيادة، ورجاله ثقات، لكن صوب أبو حاتم إرساله.

قال: وكأن ابن دقيق العيد لم يقف عليه فقال في الكلام على حديث الباب: «ليس في الحديث ما يقتضي فعل ذلك دائماً اقتضاء قوياً»، وهو كما قال بالنسبة لحديث الباب، فإن الصيغة ليست نصاً في المداومة، لكن الزيادة المذكورة نص في ذلك، ولهذا الزيادة شاهد من حديث ابن عباس بلفظ: «كل جمعة» أخرجه الطبراني في الكبير.

وأما تعيين السورة للركعة فورد من حديث علي ـ عند الطبراني ـ بلفظ: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الركعة الأولى من صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الم تنزيل﴾ [السجدة: ١ و ٢]، وفي الركعة الثانية ﴿هل أتى على الإنسان﴾ [الإنسان: ١].

وقد اختلف تعليل المالكية لكراهة قراءة السجدة في الصلاة:

فقيل: لكونها تشتمل على زيادة سجود في الفرض. قال القرطبي: وهو تعليل فاسد، بشهادة هذا الحديث.

وقيل لخشية التخليط على المصلين، ومن ثم فرق بعضهم بين الجهرية والسرية، لأن الجهرية يؤمن معها التخليط. لكن صح من حديث ابن عمر أنه ﷺ قرأ سورة فيها سجدة في صلاة الظهر فسجد بهم فيها. رواه أبو داود والحاكم، فبطلت التفرقة. ومنهم من علل الكراهة بخشية اعتقاد العوام أنها فرض. قال ابن دقيق العيد: أما القول بالكراهية مطلقاً فيأباه الحديث، لكن إذا انتهى الحال إلى وقوع هذه المفسدة فينبغي أن تترك أحياناً لتندفع، فإن المستحب قد يترك لدفع المفسدة المتوقعة، وهو يحصل بالترك في بعض الأوقات. انتهى.

وقال صاحب «المحيط» من الحنفية: يستحب قراءتها في صبح يوم الجمعة بشرط أن يقرأ غير ذلك أحياناً لئلا يظن الجاهل أنه لا يجزىء غيره. قال الحافظ ابن حجر: ولم أر في شيء من الطرق التصريح بأنه ﷺ سجد لما قرأ سورة ﴿الم تنزيل﴾ [السجدة: ١ و ٢] في هذا المحل، إلا في كتاب «الشريعة» لابن أبي داود[1] من طريق أخرى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: غدوت على النبي ﷺ يوم الجمعة في صلاة الفجر، فقرأ سورة فيها سجدة فسجد، الحديث، وفي إسناده من ينظر في حاله. انتهى. وعن علي عند الطبراني في

(١) هو عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني. أبو بكر بن أبي داود. حافظ للحديث توفي في بغداد. الأعلام ٩١/٤ وتذكرة الحفاظ ٧٦٧/٢ رقم الترجمة (٧٦٨) وفيات الأعيان ٢١٤/١ في ترجمة أبيه، تاريخ بغداد ٤٦٤/٩ وفي طبقات الحنابلة ٥١/٢ وفي لسان الميزان ٢٩٣/٣.

الأوسط: أن رسول الله ﷺ سجد في الصبح يوم الجمعة في ﴿ألم تنزيل﴾ [السجدة: ١ و ٢]، وهذه الزيادة حسنة[1] تدفع احتمال أن يكون قرأ السورة ولم يسجد.

## الفرع الخامس: في ذكر قراءته ﷺ في صلاتي الظهر والعصر

عن أبي قتادة قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر في الأوليين بأم الكتاب وسورتين، وفي الركعتين الأخريين بأم الكتاب، ويسمعنا الآية أحياناً، ويطول في الركعة الأولى ما لا يطول في الركعة الثانية، وهكذا في العصر، وهكذا في الصبح. رواه البخاري ومسلم.

قال الشيخ تقي الدين السبكي: كأن السبب في تطويله الأولى على الثانية أن النشاط في الأولى يكون أكثر، فناسب التخفيف في الثانية حذراً من الملل. انتهى. وروى عبد الرزاق عن معمر عن يحيى في آخر هذا الحديث: فظننا أنه يريد بذلك أن يدرك الناس الركعة الأولى. وعن أبي سعيد الخدري قال: كنا نحزر أي نقدر ـ قيام رسول الله ﷺ في الظهر والعصر، فحزرنا قيامه في الركعتين الأوليين من الظهر قدر ﴿ألم تنزيل﴾ [السجدة: ١ و ٢]، وفي رواية: في كل ركعة قدر ثلاثين آية، وحزرنا قيامه في الأخريين قدر النصف من ذلك، وحزرناه في الركعتين الأوليين من العصر على قدر قيامه في الأخريين من الظهر، وفي الأخريين من العصر على النصف من ذلك. رواه مسلم.

وعن جابر بن سمرة: كان ﷺ يقرأ في الظهر بالليل إذا يغشى، وفي رواية بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: ١] وفي العصر نحو ذلك. الحديث رواه مسلم. وعنه: كان ﷺ يقرأ في الظهر والعصر بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق، رواه أبو داود والترمذي. وعن البراء: كنا نصلي خلفه ﷺ الظهر فنسمع منه الآية بعد الآيات من لقمان والذاريات. رواه النسائي.

قال ابن دقيق العيد: فيه جواز الاكتفاء بظاهر الحال في الأخبار دون التوقف على اليقين، لأن الطريق إلى العلم بقراءة السورة في السرية لا يكون إلا بسماع كلها، وإنما يفيد يقين ذلك لو كان في الجهرية. وكأنه مأخوذ من سماع بعضها مع قيام القرينة على باقيها. ويحتمل أن يكون الرسول ﷺ كان يخبرهم عقب الصلاة دائماً أو غالباً بقراءة السورتين، وهو بعيد جداً. انتهى.

وعن أنس: قرأ ﷺ في الظهر بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: ١] و ﴿هل أتاك

---

(١) قال الحافظ: «في إسناده ضعف» وتبعه المصنف في شرح البخاري (أي إرشاد الساري).

حديث الغاشية﴾ [الغاشية: ١] رواه النسائي. وعن أبي سعيد: كانت صلاة الظهر تقام، فيذهب الذاهب إلى البقيع فيقضي حاجته، ثم يأتي أهله فيتوضأ ويدرك النبي ﷺ في الركعة الأولى. رواه مسلم.

## الفرع السادس: في ذكر قراءته ﷺ في صلاة المغرب

عن أم الفضل بنت الحارث قالت: سمعته ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً[١] رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي وصرح عقيل في روايته عن ابن شهاب: أنها آخر صلاته ﷺ ولفظه: ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله تعالى. أورده البخاري في باب الوفاة. وعنده في باب «إنما جعل الإمام ليؤتم به» من حديث عائشة: أن الصلاة التي صلاها النبي ﷺ بأصحابه في مرض موته كانت الظهر.

وجمع بينهما: بأن الصلاة التي حكتها عائشة كانت في المسجد، والتي حكتها أم الفضل كانت في بيته، كما رواه النسائي. لكن يعكر عليه رواية ابن إسحاق عن ابن شهاب في هذا الحديث بلفظ: خرج إلينا رسول الله ﷺ وهو عاصب رأسه في مرضه فصلى المغرب. الحديث رواه الترمذي. ويمكن حمل قوله: «خرج إلينا» أي من مكانه الذي هو راقد فيه إلى من في البيت فصلى بهم فتلتئم الروايات.

وعن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور. رواه البخاري ومسلم. زاد مسلم في «الجهاد»: وكان جبير بن مطعم جاء في أسارى بدر. وزاد الإسماعيلي: وهو يومئذ مشرك. وللبخاري في «المغازي»: وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي. وللطبراني: وأخذني من قراءته الكرب، ولسعيد بن منصور: فكأنما صدع قلبي. وفي قوله: «سمعته ﷺ» دليل على الجهر بها، والله أعلم. وعن مروان بن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت: ما لك تقرأ في المغرب بقصار المفصل؟ وقد سمعتُ النبي ﷺ يقرأ بطولى الطوليين. رواه البخاري. زاد أبو داود: قلت وما طولي الطوليين؟ قال: الأعراف. وفي رواية النسائي من حديث عائشة أنه ﷺ صلى المغرب بسورة الأعراف فرقها في ركعتين. وعن عبد الله بن عتبة: قرأ ﷺ في صلاة المغرب بـ «حم» الدخان. رواه النسائي.

وهذه الأحاديث في القراءة مختلفة المقادير، لأن «الأعراف» من السبع الطوال، و «الطور» من طوال المفصل، و «المرسلات» من أوساطه قال الحافظ ابن حجر: ولم أر

---

(١) الحديث في البخاري مغازي (٨٣) وفي النسائي افتتاح (٦٤) وفي الدارمي صلاة (٦٤) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣٣٨/٦ و ٣٤٠ ونحوه في مسلم صلاة (١٧٣) وفي أبي داود صلاة (١٢٨) وفي الموطأ نداء (٢٤).

حديثاً مرفوعاً فيه التنصيص على القراءة فيها بشيء من قصار المفصل، إلا حديثاً في ابن ماجه عن ابن عمر نص فيه على الكافرون والإخلاص. ومثله لابن حبان عن جابر بن سمرة. فأما حديث ابن عمر فظاهر إسناده الصحة إلا أنه معلول، قال الدارقطني: أخطأ بعض رواته فيه، وأما حديث جابر بن سمرة ففيه سعد بن السماك وهو متروك، والمحفوظ أنه قرأ بهما في الركعتين بعد المغرب.

واعتمد بعض أصحابنا وغيرهم حديث سليمان بن يسار عن أبي هريرة قال: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من فلان، قال سليمان: فكان يقرأ في الصبح بطوال المفصل، وفي المغرب بقصار المفصل. رواه النسائي، وصححه ابن خزيمة وغيره.

وهذا يشعر بالمواظبة على ذلك، لكن في الاستدلال به نظر، نعم حديث رافع أنهم كانوا ينتضلون[1] بعد صلاة المغرب يدل على تخفيف القراءة فيها. وطريق الجمع بين هذه الأحاديث: أنه ﷺ كان أحياناً يطيل القراءة في المغرب، إما لبيان الجواز، وإما لعلمه بعدم المشقة على المأمومين، وليس في حديث جبير دليل على أن ذلك تكرر منه، وأما حديث زيد بن ثابت ففيه إشعار بذلك لكونه أنكر على مروان المواظبة على القراءة بقصار المفصل، ولو كان مروان يعلم أن النبي ﷺ واظب على ذلك لاحتج به على زيد، لكن لم يرد زيد منه ـ فيما يظهر ـ المواظبة على القراءة بالطوال، وإنما أراد منه أن يتعاهد ذلك كما رآه من النبي ﷺ.

وفي حديث أم الفضل إشعاره بأنه ﷺ كان يقرأ في الصحة بأطول من المرسلات، لكونه كان في حال شدة مرضه، وهو مظنة التخفيف. وهو يرد على أبي داود ادعاء نسخ التطويل في المغرب، لأنه روى عقب حديث زيد بن ثابت من طريق عروة أنه كان يقرأ في المغرب بالقصار قال: وهذا يدل على نسخ حديث زيد ولم يبين وجه الدلالة. وكيف تصح دعوى النسخ وأم الفضل تقول: إن آخر صلاة صلاها بهم قرأ بالمرسلات. قال ابن خزيمة في صحيحه: هذا من الاختلاف المباح، فجائز للمصلي أن يقرأ في المغرب وفي الصلوات كلها بما أحب، إلا أنه إذا كان إماماً استحب له أن يخفف القراءة. انتهى.

والراجح عند النووي: أن المفصل من الحجرات إلى آخر القرآن، والله أعلم.

## الفرع السابع: في ذكر ما كان ﷺ يقرأ في صلاة العشاء

عن البراء: كان ﷺ يقرأ في العشاء ﴿**والتين والزيتون**﴾ [التين: ١] فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه ﷺ. رواه البخاري ومسلم. وكان ﷺ إذا أتى على آية عذاب وقف

(١) أي يلعبون بالنضال: وهي السهام. وفي بعض النسخ (يتنفلون) وهو تحريف هذا قول الزرقاني في الشرح.

وتعوذ، رواه الترمذي من حديث حذيفة.

وكان إذا قرأ ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ [الأعلى: ١] قال: سبحان ربي الأعلى، رواه أحمد وأبو داود من رواية ابن عباس.

وقال ﷺ: (من قرأ منكم ﴿**والتين والزيتون**﴾ فانتهى إلى ﴿**أليس الله بأحكم الحاكمين**﴾ [التين: ١ ـ ٨] فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ ﴿**لا أقسم بيوم القيامة**﴾ فانتهى إلى قوله: ﴿**أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى**﴾ [القيامة: ١ ـ ٤٠] فليقل: بلى، ومن قرأ ﴿**والمرسلات عرفاً**﴾ فبلغ ﴿**فبأي حديث بعده يؤمنون**﴾ [المرسلات: ١ ـ ٥٠] فليقل: آمنا بالله)[1] رواه أبو داود، والترمذي إلى قوله «وأنا على ذلك من الشاهدين».

وكان ﷺ يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتة وعنها سأله أبو هريرة، ويسكت بعد الفاتحة، ويسكت ثالثة بعد قراءة السورة، وهي سكتة لطيفة جداً حتى يترادَّ إليه النفس، ولم يكن يصل القراءة بالركوع. وأما السكتة الأولى، فإنه كان يجعلها بقدر الاستفتاح، وأما الثانية فلأجل قراءة المأموم الفاتحة، فينبغي تطويلها بقدرها. ذكره في زاد المعاد.

وعن سمرة بن جندب: سكتتان حفظتهما من رسول الله ﷺ: إذا دخل في صلاته، وإذا فرغ من القراءة، ثم قال بعد ذلك: وإذا قرأ ﴿**ولا الضالين**﴾ [الفاتحة: ٧] قال: وكان يعجبه إذا فرغ من القراءة أن يسكت حتى يترادَّ إليه نفسه. رواه الترمذي.

## الفرع الثامن: في ذكر صفة ركوعه ﷺ

عن أبي حميد الساعدي: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، فذكر الحديث، إلى أن قال: ثم يكبر ويرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، ثم يركع ويضع راحتيه على ركبتيه، ثم يعتدل فلا يصوب رأسه ولا يقنع[2] رواه أبو داود والدارمي.

## الفرع التاسع: في مقدار ركوعه ﷺ

عن ابن جبير قال سمعت أنس بن مالك يقول: ما صليت وراء أحد بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى ـ يعني عمر بن عبد العزيز ـ قال: فخررنا ركوعه

---

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣١٠ والبغوي في شرح السنة ٣/ ١٠٤ و ٤/ ٣٣٣ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٨٦٠) وفي تفسير ابن كثير ٨/ ٣٠٩ وفي كنز العمال (٢٧٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٧٣٠).

عشر تسبيحات، وسجوده عشر تسبيحات[1]. رواه أبو داود. وعن البراء: كان ركوع النبي ﷺ وسجوده، وبين السجدتين، وإذا رفع من الركوع، ما خلا القيام والقعود، قريباً من السواء. رواه البخاري ومسلم. قال النووي: هذا الحديث محمول على بعض الأحوال، وإلا فقد ثبت في الحديث تطويل القيام، فإنه كان يقرأ في الصبح بالستين آية إلى المائة، وفي الظهر بـ (ألم) السجدة، وأنه كانت تقام الصلاة فيذهب الذاهب إلى البقيع فيقضي حاجته ثم يرجع إلى أهله فيتوضأ ثم يأتي المسجد فيدرك الركعة الأولى، وأنه قرأ سورة المؤمنين حتى بلغ ذر موسى وهارون، وأنه قرأ في المغرب بالطور والمرسلات. وفي البخاري: بالأعراف، فكل هذا يدل أنه كانت في إطالة القيام أحوال بحسب الأوقات. انتهى.

وقال ابن القيم: مراد البراء أن صلاته ﷺ كانت معتدلة، فكان إذا أطال القراءة أطال القيام والركوع والسجود، وإذا خفف خفف الركوع والسجود، وتارة يجعل الركوع والسجود بقدر القيام، وهديه ﷺ الغالب تعديل الصلاة وتناسبها. انتهى.

## الفرع العاشر: في ذكر ما كان ﷺ يقوله في الركوع والرفع منه

عن عائشة: كان ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن. رواه البخاري ومسلم. ومعنى «يتأول القرآن»: يعمل بما أمر به في قوله تعالى: ﴿**فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً**﴾ [النصر: ٣] فكان ﷺ يقول هذا الكلام البديع في الجزالة المستوفي ما أمر به في الآية. وعنها: كان ﷺ يقول في ركوعه: سبوح قدوس رب الملائكة والروح. رواه البخاري.

وعن حذيفة أنه ﷺ كان يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم، وفي سجوده سبحان ربي الأعلى، وكان ﷺ إذا رفع ظهره من الركوع قال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد. رواه مسلم. قال النووي: يبدأ ـ يعني المصلي ـ بقوله: «سمع الله لمن حمده» حين الشروع في الرفع من الركوع، ويمده حتى ينتصب قائماً، ثم يشرع في ذكر الاعتدال وهو: ربنا ولك الحمد الخ.

قال: وفي هذا الحديث دلالة للشافعي وطائفة: أنه يستحب لكل مصل من إمام ومأموم ومنفرد أن يجمع بين «سمع الله لمن حمده» و «ربنا ولك الحمد» في حال انتصابه في الاعتدال. لأنه ثبت أنه ﷺ فعلهما جميعاً. وقد قال ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني**

---

(١) الحديث عند أبي داود برقم (٨٨٨).

أصلي»[1] رواه البخاري. انتهى.

وقال ابن القيم: كان ﷺ إذا استوى قائماً قال: ربنا ولك الحمد، وربما قال: وربنا لك الحمد، وربما قال: اللهم ربنا لك الحمد. صح عنه ذلك كله، وأما الجمع بين «اللهم» و «الواو» فلم يصح. انتهى.

قلت: وقع في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ـ في رواية الأصيلي ـ مرفوعاً: «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا ولك الحمد**»[2] فجمع بين «اللهم» و «الواو» وهو يرد على ابن القيم كما ترى.

وقال الشيخ تقي الدين في شرح العمدة: كأن إثبات «الواو» دال على معنى زائد، لأنه يكون التقدير: ربنا استجب، أو ما قارب ذلك، ولك الحمد، فيكون الكلام مشتملاً على معنى الدعاء، ومعنى الخبر، وإذا قيل بإسقاط «الواو» دل على أحد هذين. انتهى.

وقال ابن العراقي: إسقاط «الواو» حكاه عن الشافعي ابن قدامة وقال: لأن «الواو» للعطف، وليس هنا شيء يعطف عليه. وعن مالك وأحمد في ذلك خلاف.

وقال النووي: كلاهما جاءت به روايات كثيرة، والمختار أنه على وجه الجواز وأن الأمرين جائزان، ولا ترجيح لأحدهما على الآخر. انتهى.

وعن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «**اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»[3] رواه مسلم.

---

(١) ذكره أيضاً البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣٤٥ وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ١١٧ والدارقطني ١/ ٢٧٣ و ٣٤٦ والتبريزي في المشكاة (٦٨٣) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٧١ و ٣٠٣ و ٣٩٦ والبغوي في شرح السنة ٢/ ٢٩٦.

(٢) أخرجه أيضاً مسلم صلاة (٧١) وأبو داود برقم (٨٤٨) والترمذي (٢٦٧) والنسائي ٢/ ١٩٦ وابن ماجه (٨٧٦ ـ ٨٧٧) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل (٢/ ٣٩٤ ـ ٤٥٩) وفي الدارمي ١/ ٣٠٠ والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٩٦ والدارقطني ١/ ٣٤٠ وفي الموطأ (٨٨) وفي مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٢٥٢ وفي مصنف عبد الرزاق (٢٩٠٩ ـ ٢٩١٣) وفي نصب الراية للزيلعي ١/ ٣٧٧ وفي كنز العمال (١٩٧٤٥ ـ ٢٠٤٧١ ـ ٢٠٤٧٢).

(٣) الحديث في مسلم مسافرين (٢٠١ ـ ٢٠٢ ـ ٢٠٦) وفي النسائي الإفتتاح باب (١١١) و ٢/ ١٩٥ و ١٩٨ وفي سنن أبي داود الاستفتاح باب (٦) وفي ابن ماجه (٣٧٩) وفي الترمذي (٣٤٢١ ـ ٣٤٢٣). وفي المسند ١/ ٢٧٠ و ٢٧٥ ـ ٣٧٠ و ٤/ ٢٨٥ ـ ٣٥٦ و ٣٨١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٩٤ وفي نصب الراية للزيلعي ١/ ٣٧٦ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٢٠٨.

قوله: «ملء السماوات وملء الأرض»: أي حمداً لو كان أجساماً لملأ السماوات والأرض.

ومعنى «سمع الله لمن حمده» أي أجاب، يعني: أن من حمد الله تعالى متعرضاً لثوابه استجاب الله له، فأعطاه ما تعرض له، فأنا أقول ربنا لك الحمد ليحصل ذلك.

وقوله «أهل»: منصوب على النداء.

وقوله: «وكلنا لك عبد» بالواو، يعني: أحق قول العبد: لا مانع لما أعطيت الخ. واعترض بينهما قوله: «وكلنا لك عبد»، ومثل هذا الاعتراض قوله تعالى: **﴿قالت رب إني وضعتها أنثى ـ والله أعلم بما وضعت ـ وليس الذكر كالأنثى﴾** [آل عمران: ٣٦] على قراءة من قرأ «وضعَتْ» بفتح العين وإسكان التاء.

و «الجد» بفتح الجيم، الغنى أي: لا ينفع ذا الغنى منك غناه، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة، وقيل غير ذلك والله أعلم.

وفي رواية ابن أبي أوفي ـ عند مسلم ـ: كان ﷺ يقول بعد قوله «من شيء»: **«اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد»**.

## الفرع الحادي عشر: في ذكر صفة سجوده ﷺ وما يقول فيه

كان ﷺ إذا انتهى من ذكر قيامه عن الركوع يكبر، ويخرّ ساجداً، ولا يرفع يديه. وقد روي أنه ﷺ كان يرفع يديه أيضاً، وصححه بعض الحفاظ كابن حزم، والذي غره أن الراوي غلط من قوله: «كان يكبر في كل خفض ورفع» إلى قوله: «كان يرفع يديه في كل خفض ورفع» وهو ثقة، ولم يفطن لسبب غلطه، ووهم فصححه. نبه عليه في زاد المعاد.

وكان ﷺ يضع يديه قبل ركبتيه. رواه أبو داود، ثم جبهته وأنفه. وقال: **«أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: الجبهة واليدين والركبتين وأطراف القدمين»**[(١)]. ورواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس.

قال النووي: فينبغي للساجد أن يسجد على هذه الأعضاء كلها، وأن يسجد على الجبهة والأنف جميعاً، فأما الجبهة فيجب وضعها مكشوفة على الأرض، ويكفي بعضها، والأنف مستحب، فلو تركه جاز، ولو اقتصر عليه وترك الجبهة لم يجز، هذا مذهب

---

(١) الحديث في البخاري اذان (١٣٣) وفي مسلم صلاة (٢٢٧) وفي الترمذي مواقيت (٨٧) والنسائي تطبيق (٤٤ ـ ٥٨) وفي ابن ماجه إقامة (١٩) وفي الدارمي صلاة (٧٢) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٧٩ و ٣٠٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٥١ وفي الإتحاف للزبيدي ٣/ ٩١ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ١/ ٣١٦.

الشافعي ومالك والأكثرين، وقال أبو حنيفة عليهما معاً لظاهر الحديث، وقال الأكثرون: بل ظاهر الحديث أنهما في حكم عضو واحد، لأنه قال فيه «سبعة» فلو جعلا عضوين لصارت ثمانية.

وكان ﷺ إذا سجد فرج بين يديه، حتى يبدو بياض إبطيه. رواه الشيخان. وقالت ميمونة: جافى بين يديه، حتى لو شاءت بهيمة أن تمر بين يديه لمرت. رواه مسلم. ولم يذكر عنه ﷺ أنه سجد على كور عمامته، ولم يثبت عنه ذلك في حديث صحيح ولا حسن، ولكن روى عبد الرزاق في المصنف عن أبي هريرة: كان ﷺ يسجد على كور عمامته، وهو من رواية عبد الله بن محرز، وهو متروكٌ. وذكر أبو داود في المراسيل أنه ﷺ رأى رجلاً يصلي فسجد بجبينه وقد اعتم فحسر ﷺ عن جبهته.

وكان ﷺ يقول في سجوده: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، أوله وآخره، علانيته وسره**» رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

وقوله: «دقه وجله» بكسر أولهما، أي قليله وكثيره.

وعن عائشة قالت: (فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في السجود، وهما منصوبتان، وهو يقول: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**») رواه مسلم.

قال الخطابي: في هذا الحديث معنى لطيف، وذلك أنه ﷺ استعاذ بالله وسأله أن يجيره برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، والرضى والسخط ضدان متقابلان، وكذلك المعافاة والمعاقبة، فلما صار إلى ذكر ما لا ضد له وهو الله تعالى استعاذ به منه، ومعناه: الاستغفار من التقصير في بلوغ الواجب من حق عبادته والثناء عليه.

وقوله: «**لا أحصي ثناء عليك**» أي لا أطيقه ولا آتي عليه، وقيل: لا أحيط به، وقال مالك: لا أحصي نعمتك وإحساناتك والثناء بهما عليك وإن اجتهدت في الثناء عليك.

وقوله: «**أنت كما أثنيت على نفسك**» اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء، فإنه لا يقدر على بلوغ حقيقته، ورد الثناء إلى الجملة دون التفصيل والإحصاء والتعيين، فوكل ذلك كله لله تعالى المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً، وكما أنه لا نهاية لصفاته لا نهاية للثناء عليه، لأن الثناء تابع للمثنى عليه، فكل شيء أثني به عليه ـ وإن كثر وطال وبولغ فيه ـ فقدر الله أعظم وسلطانه أعز، وصفاته أكثر وأكبر، وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ. انتهى.

وها هنا فائدة لطيفة ذكرها بعض المحققين، في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع

والسجود[1]، وهي أن القرآن أشرف الكلام، وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد، فمن الأدب مع كلام الله تعالى أن لا يقرأ في هاتين الحالتين، وتكون حالة القيام والانتصاب أولى به والله أعلم.

وروى أبو داود: أنه ﷺ سجد على الماء والطين. وكان ﷺ يرفع رأسه من السجود مكبراً غير رافع يديه، ثم يجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى. وكان ﷺ يجلس للإستراحة جلسة لطيفة، بحيث تسكن جوارحه سكوناً بيناً، ثم يقوم إلى الركعة الثانية، كما في صحيح البخاري وغيره. قال النووي: ومذهبنا استحبابها عقب السجدة الثانية من كل ركعة يقوم عنها، ولا تستحب في سجود التلاوة في الصلاة. وكان ﷺ يقول بين السجدتين: «**اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني**». رواه أبو داود والدارمي من حديث ابن عباس.

## الفرع الثاني عشر: في ذكر جلوسه ﷺ للتشهد

كان ﷺ إذا جلس للتشهد يفرش رجله اليسرى وينصب اليمنى. رواه مسلم. قال النووي: معناه يجلس مفترشاً، وفيه حجة لأبي حنيفة ومن وافقه: أن الجلوس في الصلاة يكون مفترشاً سواء فيه جميع الجلسات. وعند مالك: يسن متوركاً بأن يخرج رجله اليسرى من تحته ويفضي بوركه إلى الأرض.

وقال الشافعي رحمه الله: السنة أن يجلس كل الجلسات مفترشاً إلا الجلسة التي يعقبها السلام. والجلسات عند الشافعي أربع: الجلوس بين السجدتين، وجلسة الاستراحة في كل ركعة يعقبها قيام، والجلسة للتشهد الأول، والجلسة للتشهد الأخير، والجميع يسن مفترشاً إلا الأخيرة، ولو كان على المصلي سجود سهو فالأصح أن يجلس مفترشاً في تشهده فإذا سجد سجدتي السهو تورك ثم سلم. هذا تفصيل مذهب الشافعي.

واحتج أبو حنيفة: بإطلاق حديث عائشة هذا.

واحتج الشافعي: بحديث أبي حميد الساعدي في صحيح البخاري، وفيه التصريح بالافتراش في الجلوس الأول والتورك في آخر الصلاة، وحمل حديث عائشة هذا على الجلوس في غير التشهد الأخير ليجمع بين هذه الأحاديث. انتهى.

فليتأمل مع قول ابن القيم في الهدي: إنه لم ينقل أحد عنه ﷺ أن هذا كان صفة جلوسه في التشهد الأول، ولا أعلم أحداً قال به. انتهى. وقال أبو حميد الساعدي في عشرة

(١) الحديث في الموطأ ومسلم من حديث عليّ.

من أصحابه ﷺ: أنا أعلمكم بصلاة رسول الله ﷺ، قالوا: فاعرض. . فذكر الحديث إلى أن قال: حتى إذا كانت السجدة التي فيها التسليم أخرج رجله اليسرى وقعد متوركاً على شقه الأيسر ثم سلم، قالوا: صدقت هكذا كان يصلي، رواه أبو داود والدارمي.

وفي رواية لأبي داود: فإذا قعد في الركعتين قعد على بطن قدمه اليسرى، ونصب اليمنى، وإذا كان في الرابعة أفضى بوركه إلى الأرض وأخرج قدميه من ناحية واحدة. الحديث. وكان ﷺ إذا قعد في التشهد وضع يده اليسرى على ركبته اليسرى، ووضع يده اليمنى على ركبته اليمنى وعقد ثلاثاً وخمسين وأشار بالسبابة.

وفي رواية مسلم: وضع يديه على ركبتيه، ورفع أصبعه اليمنى التي تلي الإبهام ويدعو بها، ويده اليسرى على ركبته باسطها عليها. وفي حديث ابن الزبير عنده أيضاً: كان يشير بها ولا يحركها. الحديث. وعند أبي داود من حديث وائل بن حجر: مد مرفقه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض ثنتين وحلق حلقة ثم رفع أصبعه فرأيته يحركها ويدعو. وكان ﷺ يستقبل بأصابعه القبلة في رفع يديه وركوعه وفي سجوده وفي التشهد، ويستقبل بأصابع رجليه القبلة في سجوده.

## الفرع الثالث عشر: في ذكر تشهده ﷺ

كان ﷺ يتشهد دائماً في هذه الجلسة الأخيرة، ويعلم أصحابه أن يقولوا: «**التحيات المباركات، الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله**» رواه مسلم من رواية ابن عباس.

وهو الذي اختاره الشافعي لزيادة «المباركات» لا تشهد ابن مسعود، وإن قاله القاضي عياض رحمه الله تعالى وعبارة الشافعي فيما أخرجه البيهقي بسنده إلى الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي جواباً لمن سأله بعد ذكر حديث ابن عباس: «فإنا نرى الرواية اختلفت فيه عن النبي ﷺ، فروى ابن مسعود خلاف هذا، فساق الكلام إلى أن قال: فلما رأيته واسعاً وسمعته ـ يعني حديث ابن عباس ـ صحيحاً، ورأيته أكثر لفظاً من غيره ـ يعني من المرفوعات ـ أخذت به غير معنف لمن أخذ بغيره «هذا آخر كلامه، وليس فيه تصريح بالأفضلية، والعلم عند الله.

وقال أبو حنيفة وأحمد وجمهور الفقهاء وأهل الحديث: تشهد ابن مسعود أفضل لأنه عند المحدثين أشد صحة. وقال مالك ـ رحمه الله ـ: تشهد عمر بن الخطاب الموقوف عليه أفضل، لأنه علمه للناس على المنبر ولم ينازعه أحد فدل على تفضيله. ومذهب الشافعي

أن التشهد الأول سنة والثاني واجب. وجمهور المحدثين: أنهما واجبان.

وقال أحمد: الأول واجب يجبر تركه بالسجود، والثاني ركن تبطل الصلاة بتركه.
وقال أبو حنيفة ومالك وجمهور الفقهاء: هما سنتان. وعن مالك رواية بوجوب الأخير.
وقد كان ﷺ يأتي بالتشهدين.

وفي الغيلانيات عن القاسم بن محمد قال: علمتني عائشة قالت: هذا تشهد رسول الله ﷺ: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي رحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وهو مثل حديث ابن مسعود سواء. رواه البيهقي بإسناد جيد. قال النووي: في هذا الحديث فائدة حسنة وهي أن تشهده ﷺ بلفظ تشهدنا[١]. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: وكأنه[٢] يشير إلى رد ما وقع في الرافعي: أنه ﷺ كان يقول في التشهد: «**وأشهد أني رسول الله**»، وتعقبوه بأنه لم يرو كذلك صريحاً. نعم وقع في البخاري من حديث سلمة بن الأكوع قال: خفَّت أزواد القوم فذكر الحديث وفيه: فقال ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**».

ومن لطائف التشهد ما قاله البيضاوي: علمهم أن يفردوه ﷺ بالذكر لشرفه ومزيد حقه عليهم، فإن قيل: كيف يشرع هذا اللفظ، وهو خطاب لبشر مع كونه منهياً عنه في الصلاة؟ فالجواب: أن ذلك من خصائصه ﷺ.

فإن قلت: ما الحكمة في العدول عن الغيبة إلى الخطاب في قوله: «السلام عليك أيها النبي» مع أن لفظ الغيبة هو الذي يقتضيه السياق، كأن يقول: السلام على النبي، فينتقل من تحية الله إلى تحية النبي، ثم إلى تحية النفس، ثم إلى تحية الصالحين؟

أجاب الطيبي بما محصله: نحن نتبع لفظ الرسول بعينه الذي علمه للصحابة.
ويحتمل أن يقال على طريق أهل المعرفة بالله: إن المصلين لما استفتحوا باب الملكوت بالتحيات، أذن لهم في الدخول في حريم الحي الذي لا يموت، فقرت أعينهم بالمناجاة، فنبهوا على أن ذلك بواسطة نبي الرحمة وبركة متابعته، فالتفتوا فإذا الحبيب في حرم الحبيب حاضر، فأقبلوا عليه قائلين: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. انتهى.

---

(١) أي: كان يقول: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله
(٢) أي النووي.

وقال الترمذي الحكيم: في قوله: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»: من أراد أن يحظى بهذا السلام الذي يسلمه الخلق في صلاتهم فليكن عبداً صالحاً، وإلا حرم هذا الفضل العظيم.

وقال القفال[1] في فتاويه: وترك الصلاة يضر جميع المسلمين، لأن المصلي يقول: اللهم اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات، ولا بد أن يقول في التشهد: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فيكون التارك للصلاة مقصراً في خدمة الله وفي حق رسوله، وفي حق نفسه، وفي حق كافة المسلمين. ولذلك عظمت المعصية بتركها.

واستنبط منه السبكي: أن في الصلاة حقاً للعباد مع حق الله تعالى، وأن من تركها أخل بجميع حق المؤمنين، من مضى ومن يجيء إلى يوم القيامة، لوجوب قوله فيها: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**». انتهى.

وتقدم الكلام[2] على وجوب الصلاة عليه ﷺ بعد التشهد الأخير، وما في ذلك من المباحث في فضل الصلاة ﷺ. وعن الطبراني مرفوعاً، عن سهل بن سعد: «**لا صلاة لمن لم يصل على نبيه**»[3] وكذا عن ابن ماجه والدارقطني. وعن ابن مسعود الأنصاري ـ عند الدارقطني ـ: «**من صلى صلاة لم يصل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه**»[4].

وعن أبي مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا تشهد أحدكم في الصلاة فليقل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمداً وآل محمد، كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**». رواه الحاكم. واغتر قوم بتصحيحه فوهموا، فإنه من رواية يحيى بن السباق، وهو مجهول عن رجل مبهم، وبالغ ابن العربي في إنكار ذلك فقال: حذار مما ذكره ابن أبي زيد من زيادة وترحم، فإنه قريب من البدعة، لأنه ﷺ علمهم كيفية الصلاة بالوحي، ففي الزيادة على ذلك استدراك عليه. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: وابن أبي زيد ذكر ذلك في الرسالة في صفة التشهد، لما ذكر ما يستحب في التشهد، ومنه: اللهم صل على محمد وآل محمد، فزاد: وترحم على محمد

---

(١) هو محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي القفال أبو بكر (٢٩١ ـ ٣٦٥) وفقيه لغوي أديب مولده ووفاته في الشاش. الأعلام ٦/ ٢٧٤ وفيات الأعيان ١/ ٤٥٨ طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ١٧٦ مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢ سير أعلام النبلاء ١/ ٢١٧ عيون التواريخ لابن شاكر ١٢/ ١٦٩.

(٢) في المقصد السابع.

(٣) الحديث في السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٣٧٩ وفي الدارقطني ١/ ٣٥٥ ونصب الراية للزيلعي ١/ ٤٢٦.

(٤) الحديث في سنن الدارقطني ١/ ٣٥٥ برقم (٦) ونصب الراية للزيلعي ٣/ ٤٢٧.

وآل محمد، وبارك على محمد وآل محمد الخ. فإن كان إنكاره ذلك لكونه لم يصح فمسلم، وإلا فدعوى من ادعى أنه لا يقال: وارحم محمداً، مردودة لثبوت ذلك في عدة أحاديث أصحها في التشهد: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

قال: ثم وجدت لابن أبي زيد مستنداً، فأخرج الطبري في تهذيبه[1]، من طريق حنظلة بن علي عن أبي هريرة رفعه: «**من قال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وترحم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، شهدت له يوم القيامة وشفعت له**» ورجال سنده رجال الصحيح، إلا سعيد بن سلميان مولى سعيد بن العاصي، الراوي له عن حنظلة بن علي فإنه مجهول، وهذا كله فيما يقال مضموماً إلى السلام أو الصلاة.

وقد وافق ابن العربي الصيدلانيُ من الشافعية على المنع. ونقل القاضي عياض عن الجمهور الجواز مطلقاً، وقال القرطبي في «المفهم»: إنه الصحيح لورود الأحاديث به، وخالفه غيره. ففي «الذخيرة» من كتب الحنفية عن محمد: يكره ذلك لإيهامه النقص، لأن الرحمة غالباً إنما تكون لفعل ما يلام عليه. وجزم ابن عبد البر بمنعه، فقال؛ لا يجوز لأحد إذا ذكر النبي ﷺ أن يقول: رحمه الله، لأنه ﷺ قال: «**من صلى علي**» ولم يقل: من ترحم علي، ولا من دعا لي، وإن كان معنى الصلاة الرحمة، ولكنه خص بهذا اللفظ تعظيماً له. فلا يعدل عنه إلى غيره. انتهى.

وأخرج أبو العباس السراج عن أبي هريرة: أنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: «**قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صليت وباركت على إبراهيم، وآل إبراهيم إنك حميد مجيد**». وفي حديث بريدة رفعه: «**اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد، كما جعلتها على إبراهيم وعلى آل إبراهيم**».

ووقع في حديث ابن مسعود عند أبي داود والنسائي: «**على محمد النبي الأمي**». وفي حديث أبي سعيد: «**على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم**» ولم يذكر آل محمد ولا آل إبراهيم. وعند أبي داود من حديث أبي هريرة: «**اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته**». ووقع في آخر حديث ابن مسعود: «**في العالمين إنك حميد مجيد**».

---

(١) هو كتاب تهذيب الآثار لمحمد بن جرير الطبري انظر كشف الظنون ١/ ٥١٤.

قال النووي في شرح المهذب: ينبغي أن يجمع ما في الأحاديث الصحيحة، فيقول: اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك. . . مثله، ويزيد في آخره: في العالمين. وقال في «الأذكار» مثله، وزاد: عبدك ورسولك بعد قوله: محمد في «صل» ولم يزدها في «بارك». وقال في «التحقيق والفتاوى» مثله، إلا أنه أسقط النبي الأمي.

وقد تعقبه الإسنوي فقال: لم يستوعب ما ثبت في الأحاديث مع اختلاف كلامه. وقال الأذرعي: لم يُسبَق إلى ما قاله، والأظهر أن الأفضل لمن تشهد أن يأتي بأكمل الروايات، ويقول ـ كما ثبت ـ هذا مرة وهذا مرة، وأما التلفيق فإنه يستلزم إحداث صفة في التشهد لم ترد مجموعة، وسبقه إلى معنى ذلك ابن القيم.

وقد كان ﷺ يدعو في الصلاة: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم وأعوذ بك من المأثم والمغرم**». فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم، فقال: «**إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف**». رواه البخاري ومسلم من رواية عائشة.

قال ابن دقيق العيد: «فتنة المحيا»: ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتتان بالدنيا والشهوات والجهالات وأعظمها ـ والعياذ بالله تعالى ـ أمر الخاتمة عند الموت، و «فتنة الممات»: يجوز أن يراد بها الفتنة عند الموت، أضيفت إليه لقربها منه، ويجوز أن يكون المراد بها: فتنة القبر: ولا يكون مع هذا الوجه متكرراً مع قوله: «عذاب القبر»، لأن العذاب مرتب على الفتنة، والسبب غير المسبب.

وروى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»[1] عن سفيان الثوري: أن الميت إذا سئل من ربك تراءى له الشيطان فيشير إلى نفسه، إني أنا ربك، فلهذا ورد سؤال التثبيت له حين يسأل. وقد استشكل دعاؤه ﷺ بما ذكر مع أنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وأجيب بأجوبة، منها أنه قصد التعليم لأمته، ومنها: أن المراد السؤال منه لأمته، فيكون المعنى هنا: أعوذ بالله لأمتي، ومنها: سلوك طريق التواضع وإظهار العبودية والتزام خوف الله، وإعظامه والافتقار إليه، وامتثال أمره في الرغبة إليه، ولا يمتنع تكرير الطلب مع تحقيق الإجابة، لأن في ذلك تحصيل الحسنات، ورفع الدرجات، وفيه تحريض لأمته على ملازمة ذلك، لأنه إذا كانت مع تحقق المغفرة لا يترك التضرع، فمن لم يتحقق ذلك أحرى بالملازمة.

---

(١) هو كتاب نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول. انظر كشف الظنون ٢/ ١٩٧٩.

وأما الاستعاذة من فتنة الدجال، مع تحققه أنه لا يدركه فلا إشكال فيه على الوجهين الأولين، وقيل على الثالث: يحتمل أن يكون ذلك قبل أن يتحقق عدم إدراكه ويدل عليه قوله في الحديث الآخر عند مسلم: «**إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه**»[1]، الحديث، والله أعلم.

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقول بعد التشهد: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة الدجال الأعور، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**». رواه أبو داود. وعن علي بن أبي طالب: أن النبي ﷺ كان يقول ما بين التشهد والتسليم: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت**». رواه مسلم وغيره. وفي رواية له: وإذا سلم قال: «**اللهم اغفر لي ما قدمت**»... الخ.

ويجمع بينهما: بحمل الرواية الثانية على إرادة السلام، لأن مخرج الطريقين واحد. وأورده ابن حبان بلفظ: كان إذا فرغ من الصلاة وسلم، وهذا ظاهر في أنه بعد السلام، ويحتمل أنه كان يقول ذلك قبل السلام وبعده، وسيأتي الجواب عما استشكل في دعائه ﷺ بهذا الدعاء في أدعيته ﷺ إن شاء الله تعالى.

وحاصل ما ثبت عنه ﷺ من المواضع التي كان يدعو بها في داخل صلاته ستة مواطن:

**الأول** ـ عقب تكبيرة الإحرام، كما في حديث أبي هريرة في الصحيحين: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي**»[2] الحديث ونحوه.

**الثاني** ـ في الركوع، كما في حديث عائشة عند الشيخين: كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي**».

**الثالث** ـ في الاعتدال من الركوع، كما في حديث ابن أبي أوفى عند مسلم: أنه كان يقول بعد قوله: «من شيء بعد» «**اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد**».

---

(١) والحديث أيضاً في سنن أبي داود برقم (٤٣٢١) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٨١ وفي المستدرك للحاكم ٤/ ٤٩٢ وفي مصنف عبد الرزاق (٢٠٨٢١) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٤٧٥) وفي مسند الحميدي ١/ ١٧٨ رقم الحديث (٣٦٥) وفي كنز العمال (٣٨٧٩٠).

(٢) الحديث في صحيح مسلم (١٤٧) وفي النسائي كتاب الطهارة باب (٤٨) وفي سنن أبي داود الافتتاح باب (٨) وفي سنن ابن ماجه رقم (٨٠٥). وفي المسند ٢/ ٢٣١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ١٩٥ وفي سنن الدارمي ١/ ٢٨٤ وفي كنز العمال (٣٨٠٣).

الرابع ـ في سجوده، وهو أكثر ما كان يدعو فيه، وأمر به،

الخامس ـ بين السجدتين: «اللهم اغفر لي». . . الخ.

السادس ـ في التشهد.

وكان أيضاً يدعو في القنوت، وفي حال القراءة إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب استعاذ، وتقدم كل ذلك، والله أعلم.

## الفرع الرابع عشر: في ذكر تسليمه ﷺ من الصلاة

كان ﷺ يسلم عن يمينه وعن شماله حتى يرى بياض خده. رواه مسلم والنسائي من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه. وفي حديث ابن مسعود: كان ﷺ يسلم عن يمينه وعن يساره، السلام عليكم ورحمة الله. رواه الترمذي، وزاد أبو داود: حتى يرى بياض خده، وفي رواية النسائي: حتى يرى بياض خده من ها هنا، وبياض خده من ها هنا. الحديث.

وهذا كان فعله الراتب. رواه عنه خمسة عشر صحابياً، وهم: عبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وسهل بن سعد، ووائل بن حجر، وأبو موسى الأشعري، وحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن عمر، وجابر بن سمرة، والبراء بن عازب، وأبو مالك الأشعري، وطلق بن علي، وأوس بن أوس، وأبو ثور، وعدي بن عمرو[1]. هذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد والجمهور.

ومذهب مالك في طائفة: المشروع تسليمه. ودليل مذهبنا ما تقدم. وأما ما روي أنه ﷺ كان يسلم تسليمة واحدة تلقاء وجهه، فلم يثبت من وجه صحيح، وأجود ما في ذلك حديث عائشة أنه ﷺ كان يسلم تسليمة واحدة، السلام عليكم، يرفع بها صوته حتى يوقظنا، وهو حديث معلول، وهو في السنن، لكنه في قيام الليل، والذين رووا عنه التسليمتين رووا ما شاهدوا في الفرض والنفل، وحديث عائشة ليس هو صريحاً في الاقتصار على تسليمة واحدة، بل أخبرت أنه كان يسلم تسليمة واحدة يوقظهم بها، ولم تنف الأخرى بل سكتت عنها، وليس سكوتها عنها مقدماً على رواية من حفظها وضبطها، وهم أكثر عدداً وأحاديثهم أصح، والله أعلم.

واختلف في التسليم: فقال مالك والشافعي وأحمد، وجمهور العلماء: إنه فرض لا تصح الصلاة إلا به.

---

(١) صوابه عدي بن عميرة انظر الإصابة ٤/٢٣١ رقم الترجمة (٥٤٧٩).

وقال أبو حنيفة والثوري والأوزاعي: سنة، لو ترك صحت صلاته. وقال أبو حنيفة: لو فعل منافياً للصلاة من حدث أو غيره في آخرها صحت صلاته، واحتج بأنه ﷺ لم يعلمه الأعرابي حين علمه واجبات الصلاة. واحتج الجمهور بحديث أبي داود (مفتاح الصلاة الطهور وتحليلها التسليم)[١].

وكان ﷺ إذا قام في الصلاة طأطأ رأسه. رواه أحمد. وكان لا يجاوز بصره إشارته[٢]، وكان قد جعل الله قرة عينه في الصلاة كما قال: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**» رواه النسائي. ولم يكن يشغله ﷺ ما هو فيه عن مراعاة أحوال المأمومين، مع كمال إقباله وقربه من ربه وحضور قلبه بين يديه. وكان يدخل في الصلاة فيريد إطالتها فيسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته مخافة أن يشق على أمه. رواه البخاري وأبو داود والنسائي.

وكان يؤم الناس وهو حامل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع[٣] على عاتقه. رواه مسلم وغيره. قال النووي: وهذا يدل لمذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ ومن وافقه أنه يجوز حمل الصبي والصبية وغيرهما من الحيوان في صلاة الفرض والنفل للإمام والمأموم والمنفرد. وحمله أصحاب مالك ـ رحمه الله ـ على النافلة، ومنعوا جواز ذلك في الفريضة.

وهذا التأويل فاسد، لأن قوله: «يؤم الناس» صريح أو كالصريح في أنه كان في الفرض. وادعى بعض المالكية أنه منسوخ، وبعضهم أنه خاص به ﷺ، وبعضهم أنه كان لضرورة، وكلها مردودة ولا دليل عليها ولا ضرورة إليها، بل الحديث صحيح صريح في جواز ذلك، وليس فيه ما يخالف الشرع، . لأن الآدمي طاهر، وما في جوفه من النجاسة معفو عنها لكونه في معدته، وثياب الأطفال وأجسادهم محمولة على الطهارة، ودلائل الشرع متظاهرة على هذا، والأفعال في الصلاة لا تبطلها إذا قلّت أو تفرقت، وفعله ﷺ للجواز، وتنبيهاً على هذه القواعد التي ذكرتها.

وهذا يرد ما ادعاه أبو سليمان الخطابي: أن هذا الفعل يشبه أن يكون بغير تعمد

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٦١) والترمذي ٣/٢٣٨ وأحمد بن حنبل في المسند ١/١٢٣ والدارقطني ١/٣٧٩ والدارمي ١/١٧٥ وابن أبي شيبة في المصنف ١/٢٢٩ وعبد الرزاق في مصنفه (٢٥٣٩). والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/١٠٤ وابن عدي في الكامل ٤/١٤٤٨ وابن عبد البر في التمهيد ٩/١٨٥ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/٣٠٣ والعراقي في المغني ١/١٢٥ وأبو نعيم في حليته ٧/١٢٤ و ٨/٣٧٢ والهندي في كنز العمال (١٩٦٣٢).

(٢) أي إصبعه السبابة التي يشير بها.

(٣) وهي بنت زينب بنت النبي ﷺ انظر الإصابة ٨/١٤ رقم الترجمة (٧٠).

لحملها في الصلاة، لكنها كانت تتعلق به ﷺ فلم يدفعها، فإذا قام بقيت معه، قال: ولا يتوهم أنه حملها ووضعها مرة بعد أخرى، لأنه عمل كثير، ويشغل القلب، وإذا كان علم الخميصة شغله[1] فيكف لا يشغله هذا؟

هذا كلام الخطابي، وهو باطل، ودعوى مجردة، ومما يرده قوله في صحيح مسلم: «فإذا قام حملها، وإذا رفع من السجود أعادها» وقوله في رواية غير مسلم: «خرج حاملاً أمامة وصلى» وذكر الحديث. وأما قصة الخميصة فإنها تشغل القلب بلا فائدة، وحمل أمامة لا نسلم أنه يشغل القلب، وإن شغله فيترتب عليه فوائد، وبيان قواعد مما ذكرناه وغيره، فاحتمل ذلك الشغل لهذه الفوائد بخلاف الخميصة.

والصواب الذي لا يعدل عنه أن الحديث كان للبيان والتنبيه على هذه القواعد، فهو جائز لنا وشرع مستمر إلى يوم القيامة، والله أعلم انتهى.

وكان ﷺ يصلي فيجيء الحسن أو الحسين فيركب على ظهره، فيطيل السجدة كراهية أن يلقيه عن ظهره. وكان يرد السلام بالإشارة على من يسلم عليه وهو في الصلاة. قال جابر: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، فأدركته وهو يصلي فسلمت عليه، فأشار إلي، رواه مسلم. وقال عبد الله بن مسعود: لما قدمت من الحبشة أتيت النبي ﷺ وهو يصلي، فسلمت عليه، فأومأ برأسه، رواه البيهقي. وكان يصلي وعائشة معترض بينه وبين القبلة، فإذا سجد غمزها بيده فقبضت رجليها، وإذا قام بسطتهما. رواه البخاري.

وكان ﷺ لا يلتفت في صلاته. وفي البخاري عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**»[2].

وروى أبو داود من حديث سهل بن الحنظلية: أنه ﷺ قال يوم حنين: «**من يحرسنا الليلة**»؟ قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله، قال: «**اركب**»، فركب فرساً له، فقال: «**استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه**»، فلما أصبحنا ثُوِّب[3] بالصلاة، فجعل ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب، حتى إذا قضى الصلاة قال: «**أبشروا قد جاء فارسكم**»[4].

---

(١) الحديث في البخاري بلفظ: «أن النبي ﷺ صلى في خميصة لها أعلام فنظر إلى أعلامها نظرة فلما انصرف قال: اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم وأتوني بأنبجانية أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي» وهو برقم (٣٧٣ ـ ٧٥٢ ـ ٥٨١٧).

(٢) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٦١) وفي الترمذي الجمعة (٥٩) وفي النسائي كتاب السهو باب (١٠) وفي المسند ٦/٧ و ١٠٦.

(٣) ثُوِّب: أي نودي.

(٤) أخرجه أبو داود برقم (٢٥٠١) وأحمد بن حنبل في المسند ١/٣٩١ والبيهقي في السنن الكبرى=

فهذا الالتفات من الاشتغال بالجهاد في الصلاة، وهو يدخل في مداخل العبادات، كصلاة الخوف، وقريب منه قول عمر - رضي الله عنه - إني لأجهز الجيش وأنا في الصلاة، فهذا جمع بين الصلاة والجهاد، ونظيره التفكير في معاني القرآن واستخراج كنوز العلم منه.

وكان ﷺ يصلي فعرض له الشيطان ليقطع عليه صلاته، فأخذه وخنقه حتى سال لعابه على يديه. وروى مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل، يعني يبكي، وفي رواية: ولصدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء. رواه أحمد. ولم يكن ﷺ يغمض عينيه في صلاته.

وعن أنس قال: كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها. فقال ﷺ: «**أميطي عنا قرامك هذا فإنه لا تزال تصاوير تعرض لي في صلاتي**»[1]. رواه البخاري.

ولو كان يغمض عينيه لما عرضت له في صلاته، وقد اختلف الفقهاء في كراهيته، والحق أن يقال: إن كان تفتيح العين لا يخل بالخشوع فهو أفضل، وإن كان يحول بينه وبين الخشوع كأن يكون في قبلته زخرفة أو غيرها مما يشغل قلبه فلا يكره التغميض قطعاً بل ينبغي أن يكون مستحباً في هذه الحالة.

وقد كانت صلاته ﷺ متوسطة، عارية عن الغلو كالوسوسة في عقد النية، ورفع الصوت بها، والجهر بالأذكار والدعوات التي شرعت سراً، وتطويل ما السنة تخفيفه، كالتشهد الأول، إلى غير ذلك مما يفعله كثير ممن ابتلي بداء الوسوسة، عافانا الله منها.

وهي نوع من الجنون، وصاحبها بلا ريب مبتدع مستنبط في أفعاله وأقواله شيئاً لم يفعله النبي ﷺ، ولا أحد من أصحابه. وقد قال ﷺ: «**إن خير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها**» وعنه: «**إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»[2]. ومما نسب لإمام الحرمين: الوسوسة نقص في العقل، أو جهل بأحكام الشرع. ومن غرائب ما يقع لهؤلاء الموسوسين، أن بعضهم يشتغل بتكرير الطهارة حتى تفوته الجماعة، وربما فاته الوقت، ومنهم من يشتغل بالنية حتى تفوته التكبيرة الأولى، وربما تفوته ركعة أو أكثر، ومنهم من يحلف أن لا يزيد على هذه التكبيرة ثم يكذب.

---

= ٧/٢ و ١٤٩/٩ والطبراني في المعجم الكبير ١١٦/٦ وابن أبي شيبة في مصنفه ٣٥٠/٥ والهيثمي في مجمع الزوائد ٣١٨/١ والبيهقي في دلائل النبوة ٢٧٥/٤ و ١٢٦/٥ والزيلعي في نصب الراية ٣/٢ والهندي في كنز العمال (٣٦٨٤٥).

(١) أخرجه أيضاً الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١٥١/٣.

(٢) الحديث في تلبيس إبليس لابن الجوزي صفحة (١٥) وفي المسند للأمام أحمد بن حنبل ١٢٦/٤.

ثم من العجب أن بعضهم يتوسوس في حال قيامه حتى يركع الإمام، فإذا خشي فوات الركوع كبر سريعاً وأدركه، فمن لم يحصل له النية في القيام الطويل حال فراغ باله، فكيف حصلت له في الوقت الضيق مع شغل باله بفوات الركعة.

ومنهم من يكثر التلفظ بالتكبير، حتى يشوش على غيره من المأمومين، ولا ريب أن ذلك مكروه، ومنهم من يزعج أعضاءه، ويحني جبهته، ويقيم عروق عينيه، ويصرخ بالتكبير كأنه يكبر على العدو ومنهم من يغسل عضوه غسلاً يشاهده ويبصره، ويكبر ويقرأ بلسانه، ويسمع بأذنه، ويعلمه بقلبه، ومع ذلك يصدق الشيطان في إنكاره يقين نفسه وجحده لما رآه ببصره، وسمعه بأذنه.

وقد سأل رجل أبا الوفاء بن عقيل فقال: إني أكبر وأقول ما كبرت، وأغسل العضو في الوضوء وأقول ما غسلته، فقال ابن عقيل: دع الصلاة فإنها لا تجب عليك، فقال له: كيف ذلك؟ فقال لأن النبي ﷺ قال: «**رفع القلم عن المجنون حتى يفيق**»، ومن يكبر ثم يقول ما كبرت فليس بعاقل، والمجنون لا تجب عليه الصلاة.

فمن أراد التخلص من هذه البلية فليتبع سنة نبيه ﷺ السنية، ويقتدي بملته الحنيفية، فإن غلبه الأمر وضاقت عليه المسالك فليتضرع إلى الله ويبتهل إليه في كشف ذلك.

## الفرع الخامس عشر: في ذكر قنوته ﷺ

ليعلم أن القنوت يطلق على القيام، والسكوت، ودوام العبادة، والدعاء والتسبيح، والخضوع. كما قال تعالى: ﴿**وله من في السماوات والأرض كل له قانتون**﴾ [الروم: ٢٦] وقال تعالى: ﴿**أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً**﴾ [الزمر: ٩] الآية. وقال تعالى: ﴿**وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين**﴾ [التحريم: ١٢]. والمراد به هنا: الدعاء في محل مخصوص من القيام.

وعن أنس قال: بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً يقال لهم القراء، فعرض لهم حيان من سليم، رعل وذكوان، عند بئر يقال لها بئر معونة فقتلوهم، فدعا عليهم النبي ﷺ شهراً في صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت، قال عبد العزيز بن صهيب: فسأل رجل أنساً عن القنوت أبعد الركوع أو عند فراغ القراءة؟ قال: بل عند فراغ القراءة.

وفي أخرى: قنت شهراً بعد الركوع يدعو على أحياء من العرب وفي أخرى، قنت شهراً بعد الركوع في صلاة الصبح يدعو على رعل وذكوان، ويقول: «**عصية عصت الله ورسوله**»[1].

---

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (٢٩٤ ـ ٢٩٧ ـ ٢٩٩) في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٢٠=

وفي أخرى: بعث رسول الله ﷺ سرية يقال لهم: «القراء» فأصيبوا، فما رأيت رسول الله ﷺ وجد[1] على شيء ما وجد عليهم، فقنت شهراً في صلاة الفجر. هذه [روايات] البخاري ومسلم.

وللبخاري: كان القنوت في المغرب والفجر. وفي رواية أبي داود والنسائي: قنت في صلاة الصبح بعد الركوع، وفي أخرى: قنت شهراً ثم تركه. وفي أخرى للنسائي: قنت شهراً يلعن رعلاً وذكوان ولحيان. وعن ابن عباس: قنت ﷺ شهراً متتابعاً، في الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصلاة الصبح، في دبر كل صلاة، إذا قال **«سمع الله لمن حمده»** من الركعة الأخيرة، يدعو على أحياء من سليم، على رعل وذكوان وعصية، ويؤمّن من خلفه. رواه أبو داود.

وعن ابن عمر: أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: **«اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً»**، بعد ما يقول: **«سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد»**، فأنزل الله عليه **﴿ليس لك من الأمر شيء﴾**، إلى قوله: **﴿فإنهم ظالمون﴾** [آل عمران: ١٢٨][2] رواه البخاري.

وعن أبي هريرة: لما رفع ﷺ رأسه من الركعة الثانية، قال: **«اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»**[3]. وفي رواية: في صلاة الفجر. وفي رواية: ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله تعالى: **﴿ليس لك من الأمر شيء﴾** [آل عمران: ١٢٨] رواه البخاري ومسلم.

وعن البراء: كان ﷺ يقنت في الصبح والمغرب. رواه مسلم والترمذي. ولأبي

---

= و ٣/١١٦ و ٤/٥٧ وفي الدارمي ٢/٢٤٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/١٩٧ و ٢٠٨ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/٤٣ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/٣١٧ وفي الدر المنثور ٢/٧١ و ٦/٤٢٢ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/٣٥٠.

(١) وجد: أي حزن.

(٢) الحديث في المسند ٢/٢٥٥ وفي النسائي ٢/٢٠٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/١٩٧ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٢/٢٨٠.

(٣) الحديث في البخاري برقم (٨٠٤) وفي النسائي ٢/٢٠١ وفي المسند ٢/٢٣٩ و ٢٥٥ والرواية لابن ماجه برقم (١٢٤٤) وهو في السنن الكبرى للبيهقي ٢/١٩٧ وفي مسند الحميدي برقم (٩٣٩) وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/٣١٦ وفي نصب الراية للزيلعي ١/١٢٧ وفي كنز العمال للهندي (٢١٩٩٦).

داود: في صلاة الصبح ولم يذكر المغرب. وعن أبي مالك الأشجعي قال: قلت لأبي: يا أبت، قد صليت خلف رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب ـ ها هنا بالكوفة خمس سنين ـ أكانوا يقنتون؟ قال: أي بني، محدث[1]. رواه الترمذي. وعن سعيد بن جبير قال: أشهد أني سمعت ابن عباس يقول: إن القنوت في صلاة الفجر بدعة. رواه الدارقطني.

قال بعض العلماء: والصواب أنه ﷺ قنت وترك، وكان تركه للقنوت أكثر من فعله، فإنه إنما قنت عند النوازل للدعاء لقوم، والدعاء على آخرين، ثم تركه لما قدم من دعا لهم وخلصوا من الأسر وأسلم من دعا عليهم فجاؤوا تائبين، وكان قنوته لعارض. فلما زال العارض ترك القنوت.

ولم يكن مختصاً بالفجر، بل كان يقنت في صلاة الفجر والمغرب، ذكره البخاري في صحيحه عن أنس، وذكره مسلم عن البراء، وصح عن أبي هريرة أنه قال: والله لأنا أقربكم صلاة من صلاة رسول الله ﷺ إنه كان يقنت في الركعة الأخيرة من الصبح بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده»، وقال: ابن أبي فديك: ولا ريب أن رسول الله ﷺ فعل ذلك ثم تركه. فهذا رد على القائل بكراهة القنوت في الفجر مطلقاً عند النوازل وغيرها ويقولون هو منسوخ وفعله بدعة.

وأهل الحديث متوسطون بين هؤلاء وبين من استحبه، ويقولون فعله سنة، وتركه سنة، ولا ينكرون على من داوم عليه، ولا يكرهون فعله، ولا يرونه بدعة، ولا فاعله مخالفاً للسنة، من قنت فقد أحسن ومن ترك فقد أحسن. انتهى. ومذهب الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ أن القنوت مشروع في صلاة الصبح دائماً، في الاعتدال من ثانية صلاة الصبح، لما رواه أنس: ما زال رسول الله ﷺ يقنت في الفجر حتى فارق الدنيا. رواه أحمد وغيره.

قال ابن الصلاح: قد حكم بصحته غير واحد من الحفاظ، منهم الحاكم والبيهقي وأبو عبد الله محمد بن علي البلخي[2]، وفي البيهقي العمل بمقتضاه عن الخلفاء الأربعة.

وقال بعضهم: أجمعوا على أنه ﷺ قنت في الصبح، ثم اختلفوا: هل تركه؟ فيتمسك بما أجمعوا عليه حتى يثبت ما اختلفوا فيه. انتهى.

وأما حديث ابن أبي فديك عن عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي

---

(١) يحتمل أن يكون مراده أنه لم يكن من أول فرض الصلاة، وإنما حدث بعد الهجرة.

(٢) هو محمد بن علي بن طرخان بن جياش البلخي أبو بكر أو أبو عبد الله (٢٢١ ـ ٢٩٨ هـ) محدث حافظ توفي في رجب. تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٩٤ رقم الترجمة (٧١٥).

هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من صلاة الصبح يرفع يديه ويدعو بهذا الدعاء: «**اللهم اهدني فيمن هديت**» الخ. . . فقال ابن القيم ـ في زاد المعاد ـ: ما أبين الاحتجاج به لو كان صحيحاً أو حسناً، ولكن لا يحتج بعبد الله هذا، وإن كان الحاكم صحح حديثه في القنوت، انتهى. وهذا الحديث رواه الحاكم وصححه، ورُدَّ عليه، كما قاله ابن القيم، وقد اتفقوا على ضعف عبد الله بن سعيد.

وعن ابن عباس: كان ﷺ يقنت في صلاة الصبح وفي وتر الليل بهؤلاء الكلمات: «**اللهم اهدني فيمن هديت**»، أخرجه محمد بن نصر في كتاب قيام الليل. والصحيح: أنه لا يتعين فيه دعاء مخصوص، بل يحصل بكل دعاء.

وفيه وجه أنه لا يحصل إلا بالدعاء المشهور وهو: «اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت» رواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث الحسن بن علي قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر فذكره. وإسنادهم صحيح، قال البيهقي: قد صح أن تعليم هذا الدعاء وقع لقنوت صلاة الصبح وقنوت الوتر، انتهى.

وقوله: «فإنك تقضي» بالفاء. وبالواو في قوله: «وإنه لا يذل» «وربنا» قبل «وتعاليت» إلا أن الفاء لم تقع في رواية أبي داود. وزاد البيهقي بعد قوله: «إنه لا يذل من واليت»: ولا يعز من عاديت. وزاد ابن أبي عاصم في كتاب التوبة: نستغفرك اللهم ونتوب إليك.

وتسن الصلاة على رسول الله ﷺ في آخره، لأن النسائي قد رواه من حديث الحسن بسند صحيح أو حسن، كما قاله في شرح «المهذب» ولفظه ـ أي النسائي ـ: وصلى الله على النبي.

وجزم في «الأذكار» باستحباب الصلاة على الآل والسلام. وخالفه صاحب «الاقليد»[1] فقال: أما ما وقع في كتب أصحابنا من زيادة «وسلم» وما يعتاده الأئمة الآن من ذكر الآل والأزواج والأصحاب فكل ذلك لا أصل له.

قلت: وعبارة النووي في «الأذكار»: يستحب أن يقول عقب هذا الدعاء: اللهم صل

---

(١) هو الإمام تاج الدين عبد الرحمٰن بن إبراهيم المعروف بالعركاح الشافعي المتوفي سنة (٦٩٠ هـ). انظر كشف الظنون ١/٤٨٩.

على محمد وعلى آل محمد وسلم. فقد جاء في حديث النسائي بإسناد حسن، وصلى الله على النبي. انتهى.

وتعقب: بأن لفظ الدعوى خلاف الدليل، ويزيد عليه ذكر الآل والتسليم. نعم وقعت الزيادة عند «الرافعي» و «الروياني» معزوة لحديث الحسن بن علي، عند النسائي لكنها ليست عنده في رواية أحد من الرواة عنه، على أن لفظ «وصلى الله على النبي» زائد على رواية الترمذي، وهي زيادة غريبة غير ثابتة لأجل عبد الله بن علي، أحد رواته، لأنه غير معروف، وعلى تقدير أن يكون هو عبد الله بن علي بـن الحسن بن علي، فهو منقطع، لأنه لم يسمع من جده الحسن بن علي، فقد تبين أنه ليس من شرط «الحسن» لانقطاعه أو لجهالة راويه، ولم تجبر الزيادة بمجيئها من وجه آخر، وحينئذ فقد تبين شذوذها على ما لا يخفى. نعم: أصل الحديث إلى آخر «وتعاليت» حسن لاعتضاده برواية الترمذي وغيره، بخلاف الزيادة، إذ لم تجيء في غيره، وحيث سننا الصلاة على الآل على ما جزم به النووي فينبغي عدها في القنوت بعضاً.

قال في «المجموع» عن البغوي: ويكره إطالة القنوت كالتشهد الأول، وهو ظاهر على ما صححه فيه، وفي تحقيقه في باب «سجود السهو» من أن الاعتدال ركن طويل، أما على ما صححه فيهما في «صلاة الجماعة» من أنه قصير، وهو ما في «المنهاج» و «الروضة» فقد يقال القياس البطلان، لأن تطويل الركن القصير عمداً مبطل.

ويجاب: يحمل ذلك على غير محل القنوت، إذ البغوي نفسه القائل بكراهة الإطالة قائل بأن تطويل الركن القصير مبطل عمده.

ويسن للمنفرد والإمام برضى المحصورين، الجمع في قنوت الوتر بين القنوت السابق وبين قنوت عمر، وهو: «اللهم إنا نستعينك» الخ، والأولى تأخيره عن القنوت السابق. ويسن رفع يديه، رواه البيهقي بإسناد جيد.

قال في «المجموع»: وفي سن مسح وجهه بهما وجهان: أشهرهما: نعم، وأصحهما: لا، قال البيهقي: ولا أحفظ في مسحه هنا عن أحد من السلف شيئاً. وإن روي عن بعضهم في الدعاء خارج الصلاة. ومسح غير [الوجه][1] كالصدر مكروه.

وقال النووي في «الأذكار»: اختلف أصحابنا في رفع اليدين في القنوت، ومسح الوجه بهما على ثلاثة أوجه: **أصحها**: يستحب رفعهما ولا يمسح الوجه، **والثاني**: يرفع

(١) ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق.

ويمسح، والثالث: لا يمسح ولا يرفع، واتفقوا على أنه لا يمسح غير الوجه من الصدر ونحوه، بل قالوا ذلك مكروه. انتهى.

ويجهر الإمام دون المنفرد بالقنوت وإن كانت الصلاة سرية للاتباع. رواه البخاري. قال الماوردي: وليكن جهره به دون جهره بالقراءة، فإن سمعه المأموم أمن كما كانت الصحابة يؤمنون خلف رسول الله ﷺ في ذلك. رواه أبو داود بإسناد حسن. ويوافقه في الثناء سراً أو يسكت، لأنه ثناء أو ذكر لا يليق به التأمين، والدعاء يشمل الصلاة على النبي ﷺ فيؤمن فيها: صرح به الطبري.

وإن لم يسمع المأموم قنوت الإمام قنت معه سراً كبقية الأذكار والدعوات، ولا قنوت لغير وتر وصبح، إلا لنازلة من خوف أو قحط أو وباء أو جراد أو نحوها، فيستحب أن يقنت في مكتوبة غير الصبح، لا منذورة، وصلاة جنازة ونافلة. وفي البخاري من حديث أبي هريرة أنه ﷺ جهر بالقنوت في النازلة. انتهى ملخصاً من شرح البهجة لشيخ الإسلام أبي يحيى زكريا الأنصاري، مع زيادة من غيره، والله أعلم.

## الفصل الرابع
## في سجوده ﷺ للسهو في الصلاة

اعلم أن السهو هو الغفلة عن الشيء، وذهاب القلب إلى غيره، قاله الأزهري. وفرق بعضهم ـ فيما حكاه القاضي عياض ـ بين السهو والنسيان من حيث المعنى، وزعم أن السهو جائز في الصلاة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بخلاف النسيان، قال: لأن النسيان غفلة وآفة، والسهو إنما هو شغل، فكان النبي ﷺ يسهو في الصلاة ولا يغفل عنها، وكان يشغله عن حركات الصلاة ما هو في الصلاة شغلاً بها لا غفلة عنها، انتهى.

قال ابن كيكلدي[1]: وهو ضعيف من جهة الحديث ومن جهة اللغة، أما من جهة الحديث فلما ثبت في الصحيحين من قوله ﷺ: «**إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون**»[2]، وأما من جهة اللغة فقول الأزهري الماضي، ونحوه قول الجوهري وغيره.

---

(١) هو خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقي أبو سعيد صلاح الدين (٦٩٤ ـ ٧٦١ هـ) محدث باحث. توفي في القدس. الأعلام ٢/ ٣٢١ الدرر الكامنة ٢/ ٩٠ رقم الترجمة (١٦٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة برقم (٤٠١) ومسلم في المساجد برقم (٩٠) وأبو داود في الصلاة برقم (١٠٢٢) والنسائي كتاب السهو باب (٢٥) وابن ماجه في الإقامة (١٢٩ ـ ١٣٣) والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/ ٣٧٩ و ٤٥٥.

وقال في النهاية: السهو في الشيء: تركه من غير علم، والسهو عنه: تركه مع العلم، وهو فرق حسن دقيق، وبه يظهر الفرق بين السهو الذي وقع من النبي ﷺ غير مرة، والسهو عن الصلاة الذي ذم الله فاعله.

وقد كان سهوه ﷺ من إتمام نعم الله تعالى على أمته، وإكمال دينهم ليقتدوا به فيما يشرعه لهم عند السهو، وهذا معنى الحديث المنقطع الذي في الموطأ ـ الآتي التنبيه عليه إن شاء الله تعالى ـ: إنما أنسى أو أنسى لأسن، فكان ﷺ ينسى فيترتب على سهوه أحكام شرعية تجري على سهو أمته إلى يوم القيامة. واختلف في حكمه: فقال الشافعية والمالكية: مسنون كله، وعن المالكية قول آخر: السجود للنقص واجب دون الزيادة.

وعن الحنابلة: التفصيل بين الواجبات، فيجب لتركها سهواً، وبين السنن القولية فلا يجب، وكذا يجب إذا سها بزيادة فعل أو قول يبطل عمده.

وعن الحنفية: واجب كله، وحجتهم قوله ﷺ في حديث ابن مسعود عند البخاري «**ليسجد سجدتين**» والأمر للوجوب، وقد ثبت من فعله ﷺ، وأفعاله في الصلاة محمولة على البيان، وبيان الواجب واجب، ولا سيما مع قوله ﷺ «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» انتهى.

وقد ورد عنه ﷺ السجود على قسمين: **الأول**: السجود قبل التسليم. فعن الأعرج عن عبد الله بن مالك بن بحينة أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ركعتين من بعض الصلوات، ثم قام فلم يجلس، فقام الناس، فلما قضى صلاته ونظرنا تسليمه كبر قبل التسليم فسجد سجدتين وهو جالس ثم سلم. رواه البخاري.

وهو رواية له عن يحيى بن سعيد عن عبد الله بن بحينة أيضاً أنه قال: إن رسول الله ﷺ قام من اثنتين من الظهر، لم يجلس بينهما، فلما قضى صلاته سجد سجدتين ثم سلم بعد ذلك.

وفي روايته أيضاً عن الأعرج عنه، أن رسول الله ﷺ قام في صلاة الظهر وعليه جلوس، فلما أتم صلاته سجد سجدتين يكبر في كل سجدة وهو جالس قبل أن يسلم، وسجدهما الناس معه مكان ما نسي من الجلوس. ورواه مسلم أيضاً. وزاد الضحاك عن الأعرج ـ عند ابن خزيمة ـ بعد قوله: «ثم قام فلم يجلس» فسبحوا به، فمضى حتى فرغ من صلاته.

وفي رواية الترمذي: قام في الظهر وعليه جلوس، فلما أتم صلاته سجد سجدتين، يكبر في كل سجدة وهو جالس قبل أن يسلم.

وفي هذا: مشروعية سجود السهو، وأنه سجدتان. فلو اقتصر على سجدة واحدة ساهياً لم يلزمه شيء، أو عامداً بطلت صلاته لأنه تعمد الاتيان بسجدة زائدة ليست مشروعة. وأنه يكبر لهما كما يكبر في غيرهما من السجود. واستدل به على أن سجود السهو قبل السلام، ولا حجة فيه، في كون جميعه كذلك، نعم يرد على من زعم أن جميعه بعد السلام كالحنفية. واستدل به أيضاً على أن المأموم يسجد مع الإمام إذا سها الإمام، وإن لم يسه المأموم.

وأن سجود السهو لا تشهد بعده، وأن محله آخر الصلاة، فلو سجد للسهو قبل أن يتشهد ساهياً أعاد عند من يوجب التشهد الأخير وهم الجمهور. وفيه أن من سها عن التشهد الأول حتى قام إلى الركعة، ثم ذكر لا يرجع، فقد سبحوا به ﷺ ـ كما في رواية ابن خزيمة ـ فلم يرجع، فلو تعمد المصلي الرجوع بعد تلبسه بالركن بطلت صلاته عند الشافعي.

عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر أو العصر، فسلم من ركعتين، فقال له ذو اليدين: الصلاة يا رسول الله أنقصت؟ فقال النبي ﷺ لأصحابه: **«أحق ما يقول هذا؟»** قالوا نعم. فصلى ركعتين أخراوين ثم سجد سجدتين[1]. قال سعد: ورأيت عروة بن الزبير صلى من المغرب ركعتين فسلم وتكلم ثم صلى ما بقي منها، وسجد سجدتين وقال: هكذا فعل النبي ﷺ. رواه البخاري. وقوله: «صلى بنا رسول الله ﷺ» ظاهر في أن أبا هريرة حضر القصة.

وحمله الطحاوي على المجاز، فقال المراد به: صلى بالمسلمين. وسبب ذلك قول الزهري: إن صاحب القصة استشهد ببدر، فإن مقتضاه أن تكون القصة وقعت قبل بدر وقبل إسلام أبي هريرة بأكثر من خمس سنين. لكن اتفق أئمة الحديث ـ كما نقله ابن عبد البر وغيره ـ على أن الزهري وهم في ذلك، وسببه أنه جعل القصة لذي الشمالين، وذو الشمالين هو الذي قتل ببدر، وهو خزاعي، واسمه عمير، وأما ذو اليدين فتأخر بعد النبي ﷺ بمدة لأنه حدث بهذا الحديث بعد النبي ﷺ كما أخرجه الطبراني وغيره، وهو سلمي، واسمه الخرباق، كما سيأتي، فلما وقع عند الزهري بلفظ «فقام ذو الشمالين» وهو يعرف

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة برقم (١٠٠٨) والبخاري سهو (٤) ومسلم في المساجد برقم (٩٧ ـ ٩٩) والترمذي في المواقيت برقم (٣٩٩) وابن ماجه في الإقامة (١٣٤) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٢٧١ و ٤٦٠ والحديث في السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٣٣٥ وفي النسائي ٣/ ٢٢ وفي الدارقطني ١/ ٣٦٦ وفي الموطأ (٩٣) وفي نصب الراية للزيلعي ٢/ ٦٨ وفي التمهيد لابن عبد البر ١/ ٣١١ وفي المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٢٦١ وفي كنز العمال (٢٢٢٦٨ ـ ٢٢٢٨٠ ـ ٢٢٢٩٠).

أنه قتل ببدر، قال لأجل ذلك: إن القصة وقعت قبل بدر.

وقد جوز بعض الأئمة أن تكون القصة وقعت لكل من ذي الشمالين وذي اليدين، وأن أبا هريرةَ روى الحديثين فأرسل أحدهما، وهو قصة ذي الشمالين، وشاهد الأخرى وهي قصة ذي اليدين، وهذا محتمل في طريق الجمع. وروى البخاري أيضاً عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: صلى رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي ـ قال محمد بن سيرين: وأكثر ظني العصر ـ ركعتين ثم سلم، ثم قام إلى خشبة في مقدم المسجد فوضع يده عليها، وفيهم أبو بكر وعمر، فهابا أن يكلماه، وخرج سَرَعَان[1] الناس، فقالوا قصرت الصلاة، ورجل يدعوه النبي ﷺ ذا اليدين، فقال: أنسيت أم قصرت الصلاة؟ فقال: «**لم أنس، ولم تقصر**»، فقال: بلى قد نسيت، فصلى ركعتين ثم سلم فكبر فسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبر، ثم وضع رأسه فكبر وسجد، فسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبر.

وعن ابن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ صلى العصر فسلم من ثلاثة ركعات ثم دخل منزله فقام إليه رجل يقال له الخرباق، وكان في يديه طول، فقال: يا رسول الله، فذكر صنيعه وخرج غضبان يجر رداءه حتى انتهى إلى الناس، فقال: «**أصدق هذا؟**» قالوا: نعم، فصلى ركعة ثم سلم ثم سجد سجدتين ثم سلم. رواه مسلم وهو من أفراده لم يروه البخاري. ورواه أحمد وأبو داود.

و «الخرباق» بكسر الخاء المعجمة، وسكون الراء، بعدها موحدة، وآخره قاف، هو اسم ذي اليدين، كما ذهب إليه الأكثر، وطول يديه يمكن أن يحمل على الحقيقة، أو كناية عن طولهما بالعمل أو البذل..

قال الحافظ ابن حجر: الظاهر في نظري توحد حديث أبي هريرة، وإن كان قد جنح ابن خزيمة ومن تبعه إلى تعدد هذه القصة، والحامل لهم على ذلك الخلاف الواقع في السياقين، ففي حديث أبي هريرة أن السلام وقع من اثنتين، وأنه ﷺ قام إلى خشبة في المسجد، وفي حديث عمران هذا: أنه سلم من ثلاث، وأنه دخل منزله لما فرغ من الصلاة. فأما الأول فقد حكى كيكلدى العلائي أن بعض شيوخه حمله على المراد به أنه سلم في ابتداء الركعة الثالثة، واستبعده، ولكن طريق الجمع يكتفي فيها بأدنى مناسبة، وليس بأبعد من دعوى تعدد القصة، فإنه يلزم منه كون ذي اليدين في كل مرة استفهم النبي ﷺ عن ذلك، واستفهم النبي ﷺ الصحابة عن صحة قوله. وأما الثاني: فلعل الراوي لما رآه تقدم من مكانه إلى جهة الخشبة ظن أنه دخل منزله، لكون الخشبة كانت في جهة منزله،

---

(١) سَرعان الناس: أي أوائل الناس خروجاً وهم أصحاب الحاجات غالباً.

فإن كان كذلك وإلا فرواية أبي هريرة أرجح لموافقة ابن عمر له على سياقه، كما أخرجه الشافعي وأبو داود وابن ماجه وابن خزيمة. انتهى.

وعن معاوية بن حُديج ـ بضم الحاء المهملة آخره جيم ـ أن رسول الله ﷺ صلى يوماً فانصرف وقد بقي من الصلاة ركعة، فأدركه رجل فقال: نسيت من الصلاة ركعة؟ فرجع فدخل المسجد، فأمر بلالاً فأقام الصلاة فصلى بالناس ركعة، فأخبرت بذلك الناس، فقالوا: أو تعرف الرجل؟ قلت: لا، إلا أن أراه، فمر بي فقلت: هو هذا، فقالوا: هذا طلحة بن عبيد الله[1]. رواه أبو داود والبيهقي في سننهما، وابن خزيمة في صحيحه، وعين الصلاة المغرب.

وقال ابن خزيمة: وهذه القصة غير قصة ذي اليدين، لأن المعلم للنبي ﷺ في هذه القصة طلحة بن عبيد الله، ومخبره في تلك القصة ذو اليدين، والسهو منه ﷺ في قصة ذي اليدين إنما كان في الظهر أو العصر، وفي هذه القصة إنما كان السهو في المغرب لا في الظهر ولا في العصر.

وعن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من اثنتين، فقال له ذو اليدين: أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أصدق ذو اليدين؟»** فقال الناس: نعم، فقام ﷺ فصلى اثنتين أخريين ثم سلم، ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع ثم كبر فسجد مثل سجوده للصلاة أو أطول، ثم رفع.

وفي رواية سلمة بن علقمة، قلت لمحمد ـ يعني ابن سيرين ـ في سجدتي السهو تشهد؟ فقال: ليس في حديث أبي هريرة. رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي. قال الحافظ ابن حجر: لم يقع في غير هذه الرواية لفظ «القيام» وقد استشكل بأنه ﷺ كان قائماً. وأجيب: بأن المراد بقوله: «فقام» أي اعتدل، لأنه كان مستنداً إلى الخشبة كما أمر.

وقد يفهم من قول محمد بن سيرين عن التشهد: «ليس في حديث أبي هريرة» أنه ورد في حديث غيره. وهو كذلك: فقد رواه أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم من طريق أشعث بن عبد الملك عن محمد بن سيرين عن خالد الحذاء عن أبي قلابة أبي المهلب عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ صلى بهم، فسها فسجد سجدتين ثم تشهد ثم سلم. قال الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم صحيح على شرطهما. وقال ابن حبان: ما روى ابن سيرين عن خالد غير هذا الحديث، وضعفه البيهقي وابن عبد البر وغيرهما. ووهموا رواية

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٠٢٣).

أشعث لمخالفته غيره من الحفاظ عن ابن سيرين، فرواية أشعث شاذة.

لكن قد ورد في التشهد في سجود السهو عن ابن مسعود عند أبي داود والنسائي، وعن المغيرة عند البيهقي، وفي إسنادهما ضعف. فقد يقال إن الأحاديث الثلاثة في التشهد باجتماعها ترتقي إلى درجة الحسن، قال العلائي: وليس ذلك ببعيد، وقد صح ذلك عن ابن مسعود من قوله. أخرجه ابن أبي شيبة. انتهى ملخصاً من فتح الباري.

وفي رواية أبي سفيان عن أبي هريرة عند مسلم: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة العصر، فسلم في ركعتين، فقام ذو اليدين فقال: أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت، فقال رسول الله ﷺ: «**كل ذلك لم يكن**»، فقال: قد كان بعض ذلك يا رسول الله.

وفي رواية أبي داود من طريق حماد بن زيد عن هشام بن حسان عن ابن سيرين عن أبي هريرة في هذا الحديث قال: فكبر ثم كبر وسجد للسهو. وهذا يؤيد من قال لا بد من تكبيرة الإحرام في سجود السهو بعد السلام، والجمهور على الاكتفاء بتكبيرة السجود، وهو ظاهر غالب الأحاديث.

وقال أبو داود: لم يقل أحد: «كبر ثم كبر» إلا حماد بن زيد، فأشار إلى شذوذ هذه الزيادة. ويحتمل أن تكون الخشبة المذكورة في هذا الحديث الجذع الذي كان ﷺ يستند إليه قبل اتخاذ المنبر. وإنما وقع الاستفهام «هل قصرت الصلاة؟» لأن الزمان كان زمان النسخ.

وقوله: «فقال: «**لم أنس ولم تقصر**» صريح في نفي النسيان ونفي القصر. وفيه تفسير للمراد بقوله في رواية أبي سفيان المتقدمة «كل ذلك لم يكن»، وتأييد لما قاله أصحاب المعاني بأن لفظة «كل» إذا تقدمت وعقبها النفي كان نفياً لكل فرد لا للمجموع، بخلاف ما إذا تأخرت، كأن يقول: لم يكن كل ذلك، ولهذا أجاب ذو اليدين في رواية أبي سفيان بقوله: قد كان بعض ذلك، وأجابه في هذه الرواية بقوله: «بلى قد نسيت» لأنه لما نفى الأمرين وكان مقرراً عند الصحابة أن السهو غير جائز عليه في الأمور البلاغية جزم بوقوع النسيان لا القصر.

وهو حجة لمن قال إن السهو جائز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما طريقه التشريع. قال ابن دقيق العيد: وهو قول عامة العلماء والنظار، وشذت طائفة فقالوا: لا يجوز على النبي السهو، وهذا الحديث يرد عليهم ـ يعني حديث ابن مسعود ـ فإن فيه «**إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون**». وإن كان القاضي عياض نقل الإجماع على عدم جواز دخول السهو في الأقوال التبليغية، وخص الخلاف بالأفعال. لكنهم تعقبوه.

نعم اتفق من جوز ذلك على أنه لا يقر عليه، بل يقع له بيان ذلك، إما متصلاً بالفعل أو بعده، كما وقع في هذا الحديث من قوله: «**لم أنس ولم تقصر**» ثم تبين أنه نسي.

ومعنى قوله: «لم أنس» أي في اعتقادي، لا في نفس الأمر، ويستفاد منه: أن الاعتقاد عند فقد اليقين يقوم مقام اليقين، وفائدة السهو في مثل ذلك بيان الحكم الشرعي إذا وقع مثله لغيره. وأما من منع السهو مطلقاً، فأجابوا عن هذا الحديث بأجوبة:

فقيل: قوله «لم أنس» نفي للنسيان، ولا يلزم منه نفي السهو، وهذا قول من فرق بينهما، وقد تقدم تضعيفه، ويكفي فيه قوله في هذه الرواية: «بلى قد نسيت» وأقره على ذلك.

وقيل: قوله: «لم أنس» على ظاهره وحقيقته، وكان يتعمد ما يقع منه من ذلك ليقع التشريع منه بالفعل، لكونه أبلغ من القول.

وتعقب: بحديث ابن مسعود عند البخاري ومسلم بلفظ «صلى رسول الله ﷺ فزاد أو نقص، شك بعض الرواة، والصحيح أنه زاد، فلما سلم قيل له: يا رسول الله أحدث في الصلاة شيء؟ قال: «**وما ذاك؟**» قالوا: صليت كذا وكذا، قالوا فثنى رجليه واستقبل القبلة وسجد سجدتين ثم سلم، فلما أقبل علينا بوجهه قال: «**إنه لو حدث في الصلاة شيء لنبأتكم به، ولكن إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون. فإذا نسيت فذكروني، وإذا شك أحدكم في صلاته فليتحر الصواب، فليتم عليه ثم يسلم، ثم يسجد سجدتين**».

ففيه: إثبات العلة قبل الحكم، بقوله: «**إنما أنا بشر مثلكم**» ولم يكتف بإثبات وصف النسيان له، حتى دفع قول من عساه يقول: ليس نسيانه كنسياننا فقال: «كما تنسون».

وبهذا الحديث أيضاً يرد قول من قال «معنى قوله لم أنس» إنكار اللفظ الذي نفاه عن نفسه حيث قال: «**إني لأنس [أو] أنسّى لأسن**»[1] وإنكار للفظ الذي أنكره على غيره حيث قال: «**بئسما لأحدكما أن يقول نسيت آية كذا وكذا**»[2].

وقد تعقبوا هذا أيضاً بأن حديث «لا أنسى» لا أصل له، فإنه من بلاغات مالك التي لم توجد موصولة بعد البحث الشديد، وهي أربعة، قاله ابن عبد البر. وأما الآخر فلا يلزم من

---

(١) ذكره ابن عبد البر في تجريد التمهيد (٨٢٨) وفي الإستذكار ١/١٠٠ وفي التمهيد ٥/٢٠٦ و٦/٣٩٢ و١٠/١٨٤ وفي الموطأ برقم (١٠٠) وفي الشفا ٢/٣٢٠ـ ٣٤٢ و٣٤٦ ما بين المعقوفين تصويب من الموطأ.

(٢) الحديث في البخاري برقم (٥٠٣٢ ـ ٥٠٣٩) وهو باختلاف يسير وفي صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين برقم (٢٣٠).

ذم إضافة نسيان الآية ذم إضافة نسيان كل شيء، فإن الفرق بينهما واضح جداً.

وقيل: إن قوله «لم أنس» راجع إلى السلام، أي سلمت قصداً بانياً على اعتقادي أني صليت أربعاً، وهذا جيد، وكأن ذا اليدين فهم العموم فقال: «بلى قد نسيت»، وكأن هذا القول أوقع شكاً احتاج معه إلى استثبات الحاضرين.

وبهذا التقرير يندفع إيراد من استشكل كون ذي اليدين عدلاً ولم يقبل خبره بمفرده، فسبب التوقف فيه كونه أخبر عن أمر يتعلق بفعل المسؤول مغايراً لما في اعتقاده.

وبهذا يجاب من قال: إن من أخبر بأمر حسي بحضرة جمع لا يخفى عليهم ولا يجوز عليهم التواطؤ، ولا حامل لهم على السكوت، ثم لم يكذبوه أنه لا يقطع بصدقه، فإن سبب عدم القطع كون خبره معارضاً باعتقاد المسؤول خلاف ما أخبر به.

وفيه: أن الثقة إذا انفرد بزيادة خبر وكان المجلس متحداً، وامتنع في العادة غفلتهم عن ذلك أنه لا يقبل خبره.

وفيه: جواز البناء على الصلاة لمن أتى بالمنافي سهواً. وقال سحنون: إنما يبني من سلم من ركعتين كما في قصة ذي اليدين، لأن ذلك وقع على غير القياس، فيقتصر فيه على مورد النص. وألزم بقصر ذلك على إحدى صلاتي العشي، فيمنعه مثلاً في الصبح، والذين قالوا بجواز البناء مطلقاً قيدوه بما إذا لم يطل الفصل.

وفيه: أن الكلام سهواً لا يقطع الصلاة، خلافاً للحنفية، واستدل به على أن تعمد الكلام لمصلحة الصلاة لا يبطلها.

وتعقب: بأنه ﷺ لم يتكلم إلا ناسياً، وأما قول ذي اليدين له: «بلى قد نسيت» وقول الصحابة له: «صدق ذو اليدين» فإنهم تكلموا معتقدين للنسخ في وقت يمكن وقوعه، فتكلموا ظناً أنهم ليسوا في صلاة. كذا قيل، وهو فاسد، لأنهم تكلموا بعد قوله ﷺ: «لم تقصر».

وأجيب: بأنهم لم ينطقوا، وإنما أومؤوا، كما عند أبي داود في رواية ساق مسلم إسنادها، وهذا اعتمده الخطابي، وقال: حمل القول على الإشارة مجاز سائغ، بخلاف عكسه، فينبغي رد الروايات التي فيها التصريح بالقول إلى هذه الرواية، وهو قوي، أقوى من قول غيره: يحمل على أن بعضهم قال بالنطق وبعضهم قال بالإشارة. لكن يقول قول ذي اليدين: «بلى قد نسيت».

ويجاب عنه وعن البقية على تقدير ترجيح أنهم نطقوا: بأن كلامهم كان جواباً للنبي ﷺ، وجوابه لا يقطع الصلاة. وتعقب: بأنه لا يلزم من وجوب الإجابة عدم قطع الصلاة.

وأجيب: بأنه ثبتت مخاطبته في التشهد، وهو حي، بقولهم: السلام عليك أيها النبي، ولم تفسد الصلاة، والظاهر: أن ذلك من خصائصه. وعن عبد الله أن رسول الله ﷺ صلى الظهر خمساً، فقيل له: أزيد في الصلاة؟ فقال: «وما ذاك؟» قالوا: صليت خمساً، فسجد سجدتين بعدما سلم[1]. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي بهذا اللفظ، إلا أن مسلماً لم يقل فيه: «بعدما سلم» وعبد الله هذا هو ابن مسعود. ففي هذه الأحاديث السجود بعد السلام. وقد اختلف في ذلك:

فقال مالك والمزني، وأبو ثور - من الشافعية - بالتفرقة إذا كان السهو بالنقصان أو بالزيادة، في الأول يسجد قبل السلام، وفي الزيادة يسجد بعده. وزعم ابن عبد البر أنه أولى من قول غيره، للجمع بين الخبرين، قال: وهو موافق للنظر، لأنه في النقص جبر، فينبغي أن يكون من أصل الصلاة، وفي الزيادة ترغيم للشيطان، فيكون خارجها.

وقال ابن دقيق العيد: لا شك أن الجمع أولى من الترجيح وادعاء النسخ، ويترجح الجمع المذكور بالمناسبة المذكورة، وإذا كانت المناسبة ظاهرة وكان الحكم على وفقها فيعم الحكم جميع محالها فلا يتخصص إلا بنص.

وتعقب بأن كون السجود في الزيادة ترغيماً للشيطان فقط ممنوع، بل هو جبر أيضاً لما وقع من الخلل، فإنه وإن كان زيادة فهو نقص في المعنى.

وقال الخطابي: لم يرجع من فرق بين الزيادة والنقصان إلى فرق صحيح. وأيضاً فقصة ذي اليدين وقع فيها السجود بعد السلام وهي عن نقصان.

وأما قول النووي: أقوى المذاهب قول مالك ثم أحمد، فقد قال غيره: بل طريق أحمد أقوى، لأنه قال: يستعمل كل حديث فيما يرد فيه، وما لم يرد فيه شيء يسجد قبل السلام، قال: ولولا ما روي عن النبي ﷺ في ذلك لرأيت كله قبل السلام، لأنه من شأن الصلاة فيفعل قبل التسليم. وعند إمامنا الشافعي: سجود السهو كله قبل السلام. وعند الحنفية: كله بعد السلام، واعتمد الحنفية على حديث ابن مسعود هذا.

وتعقب: بأنه لم يعلم بزيادة الركعة إلا بعد السلام حين سألوه: هل زيد في الصلاة،

---

(١) الحديث في صحيح مسلم إيمان (١٧٩) وفي الترمذي برقم (٧٣١) وفي ابن ماجه (١٢٠٥) وفي سنن أبي داود برقم (١٠١٩) وفي المسند ١/ ٤٢٤ و٢/ ٢٨١ و٦/ ٢٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ١٨٦ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٠ وفي سنن الدارقطني ٣/ ٢٢ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٥٢ وفي إتحاف السادة المتقين ٩/ ٢١٦ وفي كنز العمال (١٧٠١٥ ـ ٢٢٢٨١ ـ ٣٧٧٥٥ ـ ٤٠٧٠١).

وقد اتفق العلماء في هذه الصورة على أن سجود السهو بعد السلام لتعذره قبله، لعدم علمه بالسهو، وإنما تابعه الصحابة لتجويزهم الزيادة في الصلاة، لأنه كان زمان توقع النسخ.

وأجاب بعضهم: بما وقع في حديث ابن مسعود من الزيادة. وهي: «**إذا شك أحدكم في صلاته فليتحر الصواب، فليتم عليه ثم يسلم، ثم يسجد سجدتين**».

وأجيب: بأنه معارض بحديث أبي سعيد عند مسلم، ولفظه: «**إذا شك أحدكم في صلاته فلم يدر كم صلى، فليطرح الشك وليبن على ما استيقن، ثم يسجد سجدتين قبل أن يسلم**»[1]. وبه تمسك الشافعية.

وجمع بعضهم بينهما بحمل الصورتين على حالتين، ورجح البيهقي طريقة التخيير في سجود السهو قبل السلام أو بعده. ونقل الماوردي الإجماع على الجواز، وإنما الخلاف في الأفضل، وكذا أطلق النووي.

وتعقب: بأن إمام الحرمين نقل في «النهاية» الخلاف في الإجزاء عن المذهب: واستبعد القول بالجواز. ويمكن أن يقال: الإجماع الذي نقله الماوردي والنووي قبل هذه الآراء في المذاهب المذكورة والله أعلم. قاله الحافظ ابن حجر رحمه الله. ولو سها سهوين فأكثر، كفاه عند الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد سجدتان للجميع. والجمهور: أنه يسجد للسهو في التطوع كالفرض.

## الفصل الخامس
## فيما كان ﷺ يقوله بعد انصرافه من الصلاة وجلوسه بعدها وسرعة انفتاله بعدها

عن ثوبان: كان النبي ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**» رواه مسلم. ولم يمكث مستقبل القبلة إلا مقدار ما يقول ذلك. وقد ثبت أنه ﷺ كان إذا صلى أقبل على أصحابه[2]. فيحمل ما ورد من الدعاء بعد الصلاة على أنه كان يقوله بعد أن يقبل على أصحابه بوجهه الشريف، فقد كان ﷺ يسرع الانفتال إلى المأمومين، وكان ينفتل عن يمينه وعن شماله.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب المساجد برقم (٨٨) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٧٢ وفي الموطأ للإمام مالك برقم (٩٥). وفي سنن الدارقطني ١/ ٣٧٥ وفي مصنف عبد الرزاق (٣٤٦٦) وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (١٠١٥) وفي التمهيد لابن عبد البر ٥/ ١٩ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٦ وفي سنن أبي داود برقم (١٠٢٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٨٤٥ ـ ١٣٨٦) والبغوي في شرح السنة ٣/ ٢١٤ وابن حجر في تغليق التعليق (٥٠٢) والهندي في كنز العمال (٣٠٢٤٤).

وقال ابن مسعود: رأيته ﷺ كثيراً ينصرف عن يساره، رواه الشيخان. وقالت أم سلمة: كان إذا سلم مكث في مكانه يسيراً، قالت: فنرى ـ والله أعلم ـ لكي ينصرف النساء قبل أن يدركهن الرجال. رواه البخاري.

وقالت عائشة: كان لم يقعد إلا بمقدار ما يقول: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**». رواه مسلم. وهذا الحديث يتمسك به من قال إن الدعاء بعد الصلاة لا يشرع.

**والجواب**: إن المراد بالنفي المذكور نفي استمراره ﷺ جالساً على هيئته قبل السلام إلا بمقدار أن يقول ما ذكر. وكان يقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**». رواه الشيخان من حديث المغيرة بن شعبة.

وكان يقول بأعلى صوته: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن الجميل، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**»، رواه مسلم من حديث عبد الله بن الزبير.

وعن سعد أنه كان يعلم بنيه هؤلاء الكلمات ويقول: إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بهن دبر الصلوات «**اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر**» رواه البخاري.

وعن زيد بن أرقم: كان ﷺ يقول دبر كل صلاة: «**اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أنك [أنت] الرب وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك، اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة، اللهم ربنا ورب كل شيء، اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة [في] الدنيا والآخرة، يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب، الله أكبر الله أكبر، الله نور السماوات والأرض، الله أكبر حسبي الله ونعم الوكيل، الله أكبر الله أكبر**»[1] رواه أبو داود وأحمد.

ورأيت في كتاب «الهدي» لابن القيم: وأما الدعاء بعد السلام من الصلاة مستقبل القبلة، سواء للمنفرد والإمام والمأموم، فلم يكن ذلك من هدي النبي ﷺ أصلاً، ولا روي

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٥٠٨) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣٦٩/٤ والسيوطي في الدر المنثور (٤٧١٥) والزبيدي في الإتحاف ٢/ ٩٤ و ٥/ ٩٨ والبيهقي في الأسماء والصفات (١٣٦).

عنه بإسناد صحيح، ولا حسن، وخصص بعضهم بصلاتي الفجر والعصر، ولم يفعله النبي ﷺ ولا الخلفاء بعده، ولا أرشد إليه أمته، وإنما هو استحسان رآه من رآه عوضاً عن السنة بعدهما.

قال: وغاية الأدعية المتعلقة بالصلاة إنما فعلها فيها، وأمر بها فيها، قال: وهذا هو الأليق بحال المصلي، فإنه مقبل على ربه مناجيه، فإذا سلم منها انقطعت المناجاة وانتهى موقفه وقربه، فكيف يترك سؤاله في حال مناجاته والقرب منه وهو مقبل عليه، ثم يسأل إذا انصرف عنه.

ثم قال: لكن الأذكار الواردة بعد المكتوبة يستحب لمن أتى بها أن يصلي على النبي ﷺ بعد أن يفرغ منها، ويدعو بما شاء ويكون دعاؤه عقب هذه العبادة الثانية، وهي الذكر الوارد بعد المكتوبة، لا لكونه دبر المكتوبة، انتهى.

وقد كان في خاطري من دعواه «النفي مطلقاً» شيء لما سيأتي، ثم رأيت شيخ مشايخنا إمام الحفاظ أبا الفضل ابن حجر تعقبه فقال:

وما ادعاه من النفي مطلقاً مردود، فقد ثبت عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال له: «**يا معاذ والله إني لأحبك، فلا تدع دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[1] أخرجه أبو داود والنسائي.

وحديث زيد بن أرقم: سمعته ﷺ يدعو في دبر الصلاة: «**اللهم ربنا ورب كل شيء**».. أخرجه أبو داود والنسائي.

وحديث صهيب رفعه: كان يقول إذا انصرف من الصلاة: «**اللهم أصلح لي ديني**».. أخرجه النسائي وصححه ابن حبان. وغير ذلك.

ثم قال: فإن قيل: المراد بدبر الصلاة قرب آخرها وهو التشهد، قلنا: قد ورد الأمر بالذكر دبر الصلاة، والمراد به السلام إجماعاً، فكذا هذا حتى يثبت ما يخالفه، وقد أخرج الترمذي من حديث أمامة: قيل يا رسول الله أي الدعاء أسمع؟ قال: «**جوف الليل الأخير ودبر الصلوات المكتوبات**»، وقال: حسن، وأخرج الطبراني من رواية جعفر بن محمد الصادق قال: «**الدعاء بعد المكتوبة أفضل من الدعاء بعد النافلة، كفضل المكتوبة على النافلة**».

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٥٢٢) وفي المستدرك للحاكم ١/٢٧٣ وفي اتحاف السادة المتقين ٥/٩٨ وفي حلية الأولياء ١/٢٤١ وفي نصب الراية للزيلعي ٢/٢٣٥ وفي كنز العمال (٣٤٥٧).

قال: وفهم كثير من الحنابلة أن مراد ابن القيم نفي الدعاء بعد الصلاة مطلقاً، وليس كذلك، فإن حاصل كلامه أنه نفاه بقيد استمرار استقبال المصلي القبلة، وإيراده عقب السلام، وأما إذا انفتل بوجهه أو قدم الأذكار المشروعة فلا يمتنع عنده الإتيان بالدعاء حينئذ. انتهى.

وكان ﷺ حين تقام الصلاة في المسجد إذا رآهم قليلاً جلس، وإذا رآهم جماعة صلى. رواه أبو داود. وقال أبو مسعود البدري: كان ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: **«استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم»**[1] رواه مسلم.

وقال ابن عباس: قام رسول الله ﷺ يصلي فقمت عن يساره، فأخذ بيدي من وراء ظهره فعدلني كذلك من وراء ظهره إلى الشق الأيمن. رواه البخاري ومسلم.

قال أنس: سقط ﷺ عن فرس، فَجُحِش[2] شقه الأيمن، فدخلنا عليه نعوده، فحضرت الصلاة فصلى بنا قاعداً، فصلينا وراءه قعوداً، فلما قضى الصلاة قال: **«إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا ركع فاركعوا»**، حتى قال: **«وإذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً أجمعون»**[3]. زاد بعض الرواة: وإذا صلى قائماً فصلوا قياماً. رواه البخاري ومسلم.

قال الحميدي: ومعاني سائر الروايات متقاربة وزاد البخاري: قوله: **«وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً»** هو في مرضه القديم. وقد صلى في مرضه الذي مات فيه جالساً والناس خلفه قياماً لم يأمرهم بالقعود، وإنما يؤخذ بالآخر فالآخر من أمره ﷺ انتهى.

وقال الشافعي وأبو حنيفة وجمهور السلف: لا يجوز للقادر على القيام أن يصلي

---

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب الصلاة (١٢٢) وفي النسائي كتاب الإمامة باب (٢٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/٢٧٦ وفي مشكاة المصابيح (١٠٨٨) وفي الترغيب والترهيب ١/٣٢٥ وفي حلية الأولياء ٥/٢٧ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١/٣٥١ وفي كنز العمال (٢٠٥٩٥).

(٢) فَجُحِشَ: أي خدش، وقيل هو فوق الخدش.

(٣) الحديث في مسلم برقم (٨٢) وفي الموطأ برقم (١٣٥) وفي أبي داود برقم (٦٠٥) وفي ابن ماجه (١٢٣٧) وفي النسائي ٢/١٤٢ وفي المسند ٦/٥١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/٢٦١ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٢/٧٨ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١/٢٥٣ وفي شرح السنة للبغوي ٣/٤٢١ وفي مسند الحميدي (١١٨٩) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/١٢٦١ وفي الكنز (٢٣٠٦٥). وقال الزرقاني في شرح المواهب: (أجمعون) بالواو في جميع طرق حديث أنس - وفي المخطوطات (أجمعين).

خلف القاعد إلا قائماً، واحتجوا بأنه ﷺ صلى في مرض موته بعد هذا قاعداً، وأبو بكر والناس خلفه قياماً. وإن كان بعض العلماء زعم أن أبا بكر رضي الله عنه كان هو الإمام، والنبي ﷺ مقتد به، لكن الصواب أن النبي ﷺ كان هو الإمام.

## الباب الثاني
## في ذكر صلاته ﷺ الجمعة

عن أنس بن مالك قال: أتى جبريل النبي ﷺ بمرآة بيضاء فيها نكتة سوداء، فقال النبي ﷺ **«ما هذا؟»** فقال: هذه الجمعة فضلت بها أنت وأمتك، الناس لكم فيها تبع ـ اليهود والنصارى ـ ولكم فيها خير، ولكم فيها ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيد، فقال النبي ﷺ **«يا جبريل: وما يوم المزيد؟»** فقال: إن ربك اتخذ في الفردوس وادياً أفيح[1] فيه كثيب من مسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء من ملائكته، وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين، وحفت تلك المنابر بمنابر من ذهب مكللة بالياقوت والزمرد عليها الشهداء والصديقون، فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب[2]، فيقول الله تعالى: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدي، فسلوني أعطكم، فيقولون: ربنا نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم ما تمنيتم ولدي مزيد، فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم ربهم فيه من الخير، وفيه استوى ربك على العرش . رواه الشافعي في مسنده.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»**[3].

وروى البيهقي في الدعوات من حديث أنس: كان ﷺ إذا دخل رجب قال: **«اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان»**، وكان يقول ليلة الجمعة: **«ليل أغر ويوم الجمعة يوم أزهر»**.

---

(١) أفيح: كل موضع واسع. وروضة فيحاء واسعة وبحر أفيح واسع. انظر لسان العرب ١٠/ ٣٦٣ مادة (فيح).

(٢) قال الزرقاني: كذا في النسخ والذي في المسند: (على ذلك الكثيب).

(٣) الحديث في صحيح مسلم كتاب الجمعة رقم (١٧ ـ ١٨) وفي سنن أبي داود برقم (١٠٤٦) وفي الترمذي برقم (٤٩١) وفي النسائي ٣/ ٩٠ وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٤٠١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٢٥١ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٢٧٨ وفي كنز العمال (٢١٠٥٠).

وليوم الجمعة من الخواص ما يبلغ العشرين، ذكرها ابن القيم في «الهدي النبوي» لا أطيل بذكرها سيما وليس من غرضي. وهو أفضل أيام الأسبوع، كما أن يوم عرفة أفضل أيام العام، وكذلك ليلة القدر وليلة الجمعة، ولهذا كان لوقفة الجمعة يوم عرفة مزية على سائر الأيام.

وقال أبو أمامة بن النقاش: يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، ويوم النحر أفضل أيام العام، قال: وغير هذا لا يسلم قائله من اعتراض يعجز عن دفعه. انتهى.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتو الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا تبع: اليهود غداً، والنصارى بعد غد**»، رواه البخاري.

وفي رواية ابن عيينة عن أبي الزياد عند مسلم: «**نحن الآخرون ونحن السابقون**». أي الآخرون زماناً، والأولون منزلة. والمراد باليوم: يوم الجمعة.

وقوله: «بيد» ـ بفتح الباء الموحدة، وإسكان المثناة من تحت وفتح الدال المهملة ـ أي: غير. وإذا عرف هذا، فقوله تعالى: ﴿**إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه**﴾ [النحل: ١٢٤] أي على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت، فاختلافهم في السبت كان اختلافاً على نبيهم في ذلك اليوم لأجله.

فإن قيل: هل في العقل وجه يدل على أن يوم الجمعة أفضل من يوم السبت والأحد، وذلك لأن أهل الملل اتفقوا على أنه تعالى خلق العالم في ستة أيام، وبدأ الخلق والتكوين في يوم الأحد، وتم يوم الجمعة، فكان الفراغ يوم السبت، فقالت اليهود: نحن نوافق ربنا في ترك الأعمال، فعينوا السبت لهذا المعنى، وقالت النصارى: مبدأ الخلق والتكوين يوم الأحد، فنجعل هذا عيداً لنا، فهذان اليومان معقولان، فما الوجه في جعل يوم الجمعة عيداً؟.

فالجواب: إن يوم الجمعة هو يوم الكمال والتمام، وحصول الكمال والتمام يوجب الفرح الكامل والسرور العظيم، فجعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه والله أعلم.

قال ابن بطال: وليس المراد في الحديث أنه فرض عليهم يوم الجمعة بعينه فتركوه، لأنه لا يجوز لأحد أن يترك ما فرض الله تعالى عليه وهو مؤمن، وإنما يدل ـ والله أعلم ـ أنه فرض عليهم يوم الجمعة، ووكل إلى اختيارهم ليقوموا فيه بشريعتهم فاختلفوا فيه ولم يهتدوا ليوم الجمعة.

كذا قال، لكن قد روى ابن أبي حاتم عن السدي التصريح بأنه فرض عليهم يوم

الجمعة بعينه، فأبوا، ولفظه: «إن الله تعالى فرض على اليهود الجمعة فأبوا، وقالوا: يا موسى اجعل لنا يوم السبت فجعل عليهم». وليس ذلك بعجيب من مخالفتهم، كما وقع لهم في قوله تعالى: ﴿وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة﴾ [البقرة: ٥٨] وهم القائلون ﴿سمعنا وعصينا﴾ [البقرة: ٩٣].

ويحتمل قوله «فهدانا الله له» بأن نص لنا عليه، وأن يراد الهداية إليه بالاجتهاد، ويشهد للثاني ما رواه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة، فقالت الأنصار: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فهلم فلنجعل لنا يوماً نجتمع فيه نذكر الله تعالى ونصلي ونشكره، فجعلوه يوم العروبة. واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ، وأنزل الله تعالى بعد ذلك ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ [الجمعة: ٩]. وهذا وإن كان مرسلاً فله شاهد بإسناد حسن أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وصححه ابن خزيمة من حديث كعب بن مالك قال: كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة أسعد بن زرارة. فمرسل ابن سيرين يدل على أن أولئك الصحابة اختاروا يوم الجمعة بالاجتهاد، ولا يمنع ذلك أن النبي ﷺ علمه بالوحي وهو بمكة، فلم يتمكن من إقامتها ثَمَّ، ولذلك جمَّع بهم أول ما قدم المدينة. انتهى.

وقال ابن إسحاق: لما قدم ﷺ المدينة أقام بقباء، في بني عمرو بن عوف، يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس، وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة، فأدركته الجمعة في بني سالم، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة وذلك قبل تأسيس مسجده.

وكان ﷺ يصلي الجمعة حين تميل الشمس. رواه البخاري من حديث أنس، وفي رواية: إذا اشتد البرد بكر بالصلاة، وإذا اشتد الحر أبرد بالصلاة - يعني الجمعة - وفي رواية سهل بن سعد عند البخاري ومسلم: كنا نصلي معه ﷺ الجمعة ونقيل بعد الجمعة.

ثم اعلم أن الخطبة شرط في انعقاد الجمعة، لا تصح إلا بها، وقال سعيد بن جبير: هي بمنزلة الركعتين من صلاة الظهر، فإذا تركها وصلى الجمعة فقد ترك ركعتين من صلاة الظهر.

ولم يكن يؤذن في زمانه ﷺ على المنار، وبين يديه، وإنما كان بلال يؤذن وحده بين يديه ﷺ إذا جلس على المنبر، كما صرح به ائمة الحنفية والمالكية والشافعية وغيرهم.

وعبارة البرهان المرغيناني[1] من الحنفية في هدايته: وإذا صعد الإمام المنبر جلس،

---

(١) هو علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني المرغيناني أبو الحسن برهان الدين (٥٣٠ - ٥٩٣ هـ) =

وأذن المؤذن بين يدي المنبر، بذلك جرى التوارث، ولم يكن على عهد رسول الله ﷺ إلا هذا الأذان.

وعبارة ابن الحاجب من المالكية: ويحرم السعي عند آذان جلوس الخطبة، وهو المعهود، فلما كان عثمان وكثروا أمر بأذان قبله على الزوراء، ثم نقله هشام إلى المسجد، وجعل الآخر بين يديه. انتهى. ونحوه قال ابن عبد الحق في «تهذيب الطالب».

وأما قول ابن أبي زيد في رسالته: وهذا الأذان الثاني أحدثه بنو أمية. فقال شارحوه ـ الفاكهاني وغيره ـ: يعني الأذان الثاني في الإحداث وهو الأول في الفعل، قال: وكان بعض شيوخنا يقول: الأول هو الثاني، والثاني هو الأول ومنشؤه ما تقدم. انتهى.

وعبارة الزركشي ـ كغيره من الشافعية ـ: ويجلس الإمام على المستراح يستريح من تعب الصعود، ثم يؤذن المؤذن بعد جلوسه، فإن التأذين كان حين يجلس رسول الله ﷺ، ولم يكن قبله أذان، فلما كان زمن عثمان وكثر الناس، أمرهم بالتأذين ثانياً، ثم يديم الجلوس إلى فراغ المؤذن، انتهى.

وعن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس، زاد النداء الثالث على الزوراء، رواه البخاري وقال: الزوراء موضع بالسوق بالمدينة.

وفي رواية له أيضاً: أن التأذين الثاني يوم الجمعة أمر به عثمان حين كثر أهل المسجد، وهو يفسر بما فسر به قول ابن أبي زيد السابق. وعند ابن خزيمة: كان الأذان على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر أذانين يوم الجمعة. قال ابن خزيمة: قوله «أذانين» يريد: الأذان والإقامة تغليباً أو لاشتراكهما في الإعلام.

وللنسائي: كان بلال يؤذن إذا جلس النبي ﷺ على المنبر، فإذا نزل أقام. وفي رواية وكيع عن ابن أبي ذئب[1] فأمر عثمان بالأذان الأول، ونحوه للإمام الشافعي من هذا الوجه. قال في فتح الباري: ولا منافاة بينهما، لأنه باعتبار كونه مزيداً يسمى ثالثاً، وباعتبار كونه مقدماً على الأذان والإقامة يسمى أولاً. وأما قوله في رواية «البخاري: إن التأذين الثاني» فمتوجه بالنظر إلى الأذان الحقيقي لا الإقامة.

---

= فقيه حنفي حافظ مفسر محقق أديب نسب إلى الاجتهاد. الأعلام ٤/٢٦٦ الفوائد البهية (١٤١) الجواهر المضية ١/٣٨٣ وكشف الظنون ٢/٢٠٣١.

(١) عند ابن خزيمة.

وقال الشيخ خليل في «التوضيح»: واختلف النقل: هل كان يؤذن بين يديه ﷺ، أو على المنار؟ الذي نقله أصحابنا أنه كان على المنار، نقله ابن القاسم عن مالك في «المجموعة». ونقل ابن عبد البر في «كافيه» عن مالك أن الأذان بين يدي الإمام ليس من الأمر القديم. وقال غيره: هو أصل الأذان في الجمعة، وكذلك نقل صاحب «تهذيب الطالب» والمازري. وفي «الاستذكار»: إن هذا اشتبه على بعض أصحابنا، فأنكر أن يكون الأذان يوم الجمعة بين يدي الإمام كان في زمنه ﷺ وأبي بكر وعمر، وأن ذلك حدث في زمن هشام.

قال: وهذا قول من قل علمه، ثم استشهد بحديث السائب بن يزيد المروي في البخاري السابق، ثم قال: وقد رفع الإشكال فيه ابن إسحاق عن الزهري عن السائب بن يزيد، قال: كان يؤذن بين يدي النبي ﷺ إذا جلس على المنبر يوم الجمعة وأبي بكر وعمر. انتهى. والحكمة في جعل الأذان في هذا المحل ليعرف الناس بجلوس الإمام على المنبر فينصتون له إذا خطب. قاله المهلب.

قال في فتح الباري: وفيه نظر، فإن في سياق محمد بن إسحاق عند الطبراني وغيره في هذا الحديث: أن بلالاً كان يؤذن على باب المسجد، فالظاهر أنه كان لمطلق الإعلام لا لخصوص الإنصات.

والذي يظهر أن الناس أخذوا بفعل عثمان في جميع البلاد إذ ذاك، لكونه كان حينئذ خليفة مطاع الأمر، لكن ذكر الفاكهاني أن أول من أحدث الأذان الأول بمكة الحجاج وبالبصرة زياد.

وفي تفسير جويبر عن الضحاك عن معاذ: أن عمر أمر مؤذنين أن يؤذنا للناس الجمعة خارج المسجد حتى يسمع الناس، وأمر أن يؤذن بين يديه كما كان في عهد النبي ﷺ وأبي بكر، ثم قال عمر: نحن ابتدعناه لكثرة المسلمين. وهذا منقطع بين محكول ومعاذ، ولا يثبت، وقد تواردت الأخبار أن عثمان هو الذي زاده فهو المعتمد.

وقد روى عبد الرزاق ما يقوي هذا الأثر عن ابن جريج قال: قال سليمان بن موسى: أول من زاد الأذان بالمدينة عثمان، فقال عطاء: كلا، إنما كان يدعو الناس ولا يؤذن غير أذان واحد. انتهى.

لكن عطاء لم يدرك عثمان بن عفان، فرواية من أثبت ذلك عنه مقدمة على إنكاره. ويمكن الجمع: بأن الذي كان في زمن عمر بن الخطاب استمر على عهد عثمان، ثم رأى أن يجعله أذاناً وأن يكون على مكان عال، ففعل ذلك، فنسب إليه لكونه بألفاظ الأذان، وترك ما كان يفعله عمر لكونه مجرد إعلام.

وروى ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال: الأذان الأول يوم الجمعة بدعة. فيحتمل أن يكون قال ذلك على سبيل الإنكار، وأن يكون أراد به: لم يكن في زمنه ﷺ، لأن كل ما لم يكن في زمنه ﷺ يسمى بدعة، لكن منها ما يكون حسناً، ومنها ما يكون غير ذلك. ثم إن فعل عثمان رضي الله عنه كان إجماعاً سكوتياً لأنهم لم ينكروه عليه. انتهى.

وأول جمعة جمعها النبي ﷺ بأصحابه ـ كما قدمناه في حديث الهجرة ـ في بني سالم بن عوف، في بطن وادٍ لهم، فخطبهم وهي أول خطبة خطبها بالمدينة وقال فيها:

«الحمد لله أحمده، وأستعينه وأستغفره، وأستهديه وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفر به، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة والحكمة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنوٍ من الساعة، وقرب من الأجل من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً، أوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، واحذروا ما حذركم الله من نفسه، فإن تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه عون وصدق على ما يبتغون من الآخرة، ومن يصل الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي به إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان مما سوف ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد، هو الذي صدق وأنجز وعده لا خلف له فإنه يقول: ﴿ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد﴾ [ق: ٢٩].

فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن تقوى الله توقي مقته وتوقي عقوبته وسخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه وترضي الرب، وترفع الدرجة، فخذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، فقد علمكم كتابه ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيي عن بينة، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس، ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١]. ذكر هذه الخطبة القرطبي في تفسيره، وغيره.

---

(١) الحديث في دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٧٧ وفي المراسيل لأبي داود برقم (٩) وفي تفسير القرطبي =

وقد كان ﷺ يخطب متوكئاً على قوس أو عصا. وفي سنن ابن ماجه: أنه ﷺ كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس، وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا، وعند أبي داود بإسناد حسن: أنه ﷺ قام متوكئاً على قوس أو عصا.

قالوا: والحكمة في التوكؤ على نحو السيف، الإشارة إلى أن هذا الدين قام بالسلاح، ولهذا قبضه باليسرى كعادة مريد الجهاد.

ونازع فيه العلامة ابن القيم في «الهدي والنبوي» وقال: إن الدين لم يقم إلا بالقرآن والوحي[(١)] كذا قاله، والله أعلم.

وكان ﷺ إذا صعد المنبر سلم. رواه ابن ماجه[(٢)]. وكان ﷺ يخطب قائماً ثم يجلس، ثم يقوم فيخطب قائماً، رواه مسلم من رواية جابر بن سمرة. وفي رواية له: كانت له ﷺ خطبتان يجلس بينهما، يقرأ القرآن ويذكر الناس. وفي حديث ابن عمر عند أبي داود: كان ﷺ يخطب خطبتين، كان يجلس إذا صعد المنبر حتى يفرغ المؤذن، ثم يقوم فيخطب، ثم يجلس فلا يتكلم، ثم يقوم فيخطب. قال ابن المنذر: الذي عليه أهل العلم من علماء الأمصار: الخطبة قائماً. ونقل غيره عن أبي حنيفة: أن القيام في الخطبة سنة وليس بواجب. وعن مالك رواية أنه واجب، فإن تركه أساء وصحت الخطبة.

وعن الباقين: أن القيام شرط، يشترط للقادر كالصلاة، واستدلوا بحديث جابر بن سمرة، وبمواظبته ﷺ على القيام، وبمشروعية الجلوس بين الخطبتين، فلو كان القعود مشروعاً في الخطبتين ما احتيج إلى الفصل بالجلوس. ولأن الذي نقل عنه الجلوس، وهو معاوية، كان معذوراً، فعند ابن أبي شيبة من طريق الشعبي: أن معاوية إنما خطب قاعداً لما كثر شحم بطنه. واستدل الشافعي لوجوب الجلوس بين الخطبتين بما تقدم، وبمواظبة النبي ﷺ على ذلك، مع قوله: صلوا كما رأيتموني أصلي. وكان ﷺ يقول بعد الثناء: «أما بعد» كما قاله البخاري.

---

= ١٨/٩٨ وفي البداية والنهاية ٣/٢١٣ وفي تاريخ بغداد ١٤/٤٤١.

(١) قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها». [رواه مسلم كتاب الفتن برقم ٢٠]. لقد ظهر صدق حديث رسول الله حيث أن أمته لم يسلط عليها إلى هذا الوقت مجاعة عامة ولا غرق عام ولا عدو يستأصلهم مع أنهم يعلنون بفساد كل الأديان سوى دينهم الإسلام وهو ينادي بوجوب وفرضية نشره بين البشر بالجهاد. فقد تحقق حفظ الله لهذا الدين ولا يزال قائماً إلى قيام الساعة.

(٢) قال الزيلعي واهٍ. وقال ابن أبي حاتم موضوع وقال الحافظ سنده ضعيف جداً.

وكان ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: «**صبحكم ومساكم**» ويقول: «**بعثت وأنا والساعة كهاتين**»، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: «**أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**» ثم يقول: «**أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليَّ وعليَّ**»[1] رواه مسلم والنسائي من حديث جابر.

وفي رواية[2]: كانت خطبته ﷺ يوم الجمعة: **يحمد الله ويثني عليه، ثم يقول على أثر ذلك**، وقد علا صوته، وذكر نحوه.

وفي أخرى: كان يخطب الناس يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: «**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وخير الحديث كتاب الله**»[3]. ثم ذكر نحو ما تقدم.

وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: ما أخذت ﴿**ق والقرآن المجيد**﴾ [ق: ١] إلا عن رسول الله ﷺ يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس. رواه مسلم.

وعن الحكم بن حزن الكلفي قال: قدمت إلى النبي ﷺ سابع سبعة، أو تاسع تسعة، فلبثنا عنده أياماً، شهدنا فيها الجمعة، فقام رسول الله ﷺ متوكئاً على قوس، أو قال: عصا، فحمد الله وأثنى عليه، كلمات خفيفات طيبات مباركات، ثم قال: «**يا أيها الناس، إنكم لن تفعلوا أو لن تطيقوا كل ما أمرتكم به، ولكن سددوا وأبشروا**». رواه أحمد ومسلم.

وعن يعلى بن أمية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر ﴿**ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك**﴾ [الزخرف: ٧٧]. رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي الدرداء قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الجمعة فقال: «**توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشتغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم تسعدوا، وأكثروا الصدقة ترزقوا، وأمروا بالمعروف تخصبوا، وانهوا عن المنكر تنصروا، يا أيها الناس إن أكيسكم أكثركم ذكراً للموت، وأكرمكم أحسنكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكن القبور،**

---

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب الجمعة رقم (٤٣) وفي النسائي ٣/٢٠٦ وفي المستدرك للحاكم ٤/٥٢٣ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/١٤ و ١٠/ ٢٥٤ وفي كنز العمال (١٧٩٧٤).

(٢) وهي عند مسلم أيضاً.

(٣) الحديث في صحيح مسلم كتاب الجمعة رقم (٤٥).

والتأهب ليوم النشور» رواه[1]. ورواه ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله مختصراً بنحوه.

وفي مراسيل أبي داود عن الزهري قال: كان صدر خطبة النبي ﷺ: «الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى». نسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه.

وعنده أيضاً عنه قال: بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول إذا خطب: «كل ما هو آت قريب، لا بعد لما هو آت، يريد الله أمراً، ويريد الناس أمراً، ما شاء الله كان ولو كره الناس، ولا مبعد لما قرب الله، ولا مقرب لما بعد الله، لا يكون شيء إلا بإذن الله عز وجل».

وقال جابر: كان ﷺ إذا خطب يوم الجمعة يقول بعد أن يحمد الله ويصلي على أنبيائه: «أيها الناس، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. إن العبد المؤمن بين مخافتين، أجل قد مضى لا يدري ما الله قاض فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله صانع فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات، والذي نفسي بيده، ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم».

وعن عمرو أن النبي ﷺ خطب يوماً فقال: «ألا إن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، ألا وإن الآخرة أجل صادق يقضي فيها ملك قادر، ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة، ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار، ألا فاعلموا وأنتم من الله على حذر، واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره». رواه الشافعي، وعند أبي نعيم في الحلية نحوه.

واختلف: هل يجب الإنصات، ويمنع من جميع أنواع الكلام حال الخطبة، أم لا[2].
وعن الشافعي في المسألة قولان مشهوران، وبناهما بعض الأصحاب على الخلاف في أن الخطبتين بدل عن الركعتين أم لا؟ فعلى الأول يحرم، لا على الثاني، والثاني هو الأرجح

---

(١) في الأصل بياض بعد رواه الأولى قال الزرقاني رواه البيهقي.

(٢) ذهب الجمهور إلى منع جميع أنواع الكلام حال الخطبة، ولو لم يسمعها للحديث المتفق عليه: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت». أخرجه البخاري برقم (٩٣٤) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣١٨/٢ والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٣٨٥).

عندهم، فمن ثم أطلق من أطلق منهم إباحة الكلام، حتى شنع من شنع عليهم من المخالفين. وعن أحمد أيضاً روايتان. وعنهما أيضاً: التفرقة بين من يسمع الخطبة وبين من لا يسمعها. وأغرب ابن عبد البر فنقل الإجماع على وجوب الإنصات على من سمعهما إلا عن قليل من التابعين.

ودخل سليك[1] الغطفاني، وهو ﷺ يخطب، فقال له ﷺ: «**صليت**»؟ قال: لا، قال: «**قم فاركع ركعتين**». رواه البخاري ومسلم وأبو داود. واستدل به على أن الخطبة لا تمنع الداخل من صلاة تحية المسجد.

وتعقب: بأنها واقعة عين لا عموم لها، فيحتمل اختصاصها بسليك، ويدل عليه قوله في حديث أبي سعيد ـ عند أهل السنن ـ: جاء رجل ـ والنبي ﷺ يخطب ـ في هيئة بذة، فقال له: «**أصليت**»؟ قال: لا، قال: «**صل ركعتين**»، وحض الناس على الصدقة الحديث. . . فأمره بأن يصلي ركعتين ليراه بعض الناس وهو قائم فيتصدق عليه، وورد أيضاً ما يؤيد الخصوصية، وهو ما أخرجه ابن حبان وهو قوله ﷺ لسليك في آخر الحديث: «**لا تعودن لمثلها**»، ومما يضعف الاستدلال به على جواز التحية في تلك الحالة أنهم أطلقوا أن التحية تفوت بالجلوس.

فهذا ما اعتل به من طعن في الاستدلال بهذه القصة على جواز التحية، وكله مردود، لأن الأصل عدم الخصوصية، والتعليل بكونه ﷺ قصد التصدق عليه لا يمنع القول بجواز التحية، فإن المانعين منها لا يجيزون التطوع لعلة التصدق. قال ابن المنير: لو ساغ ذلك لساغ مثله في التطوع عند طلوع الشمس وسائر الأوقات المكروهة، ولا قائل به.

ومما يدل على أن أمره بالصلاة لم ينحصر في قصد التصدق، معاودته ﷺ بأمره بالصلاة في الجمعة الثانية بعد أن حصل له في الجمعة الأولى ثوبان تصدق بهما عليه، فدخل بهما في الثانية فتصدق بأحدهما فنهاه ﷺ عن ذلك. أخرجه النسائي وابنُ خزيمة من حديث أبي سعيد أيضاً. ولأحمد وابن حبان: أنه كرر أمره بالصلاة ثلاث مرات في ثلاث جمع، فدل على أن قصد التصدق عليه جزء علة، لا علة كاملة.

وأما إطلاق من أطلق أن التحية تفوت بالجلوس، فقد حكى النووي في شرح مسلم عن المحققين: أن ذلك في حق العامد العالم، أما الجاهل والناسي فلا، وحال هذا الداخل محمولة في المرة الأولى على أحدهما، وفي المرتين الأخيرتين على النسيان.

والحامل للمانعين على التأويل المذكور أنهم زعموا أن ظاهره معارض للأمر

---

(١) في عدة نسخ أبو سليك والصواب حذف (أبو). انظر الإصابة ٣/ ١٢٤ رقم الترجمة (٣٤٢٣).

بالإنصات والاستماع للخطبة. وقد أجاب الحافظ ابن حجر عن ذلك وغيره من أدلة المانعين بما يطول ذكره، ثم قال: وهذه الأجوبة التي قدمناها تندفع من أصلها بعموم قوله ﷺ في حديث أبي قتادة: «**إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين**» متفق عليه. قال: وورد أخص منه في حال الخطبة، ففي رواية شعبة عن عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ وهو يخطب: «**إذا جاء أحدكم والإمام يخطب، أو قد خرج فليصل ركعتين**» متفق عليه.

ولمسلم من طريق أبي سفيان عن جابر أنه قال ذلك في قصة سليك ولفظه بعد قوله: «**فاركعهما وتجوز**» ثم قال: «**إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما**». قال النووي: هذا نص لا يتطرق إليه التأويل، ولا أظن عالماً يبلغه هذا اللفظ ويعتقده صحيحاً فيخالفه. وقال العارف أبو محمد بن أبي جمرة: هذا الذي أخرجه مسلم نص في الباب لا يحتمل التأويل. انتهى.

وقد قال قوم: إنما أمره ﷺ بسنة الجمعة التي قبلها ومستندهم قوله ﷺ في قصة سليك ـ عند ابن ماجه ـ «أصليت ركعتين قبل أن تجيء؟» لأن ظاهره: قبل أن تجيء من البيت، ولهذا قال الأوزاعي: إن كان صلى في البيت قبل أن يجيء فلا يصلي إذا دخل المسجد.

وتعقب: بأن المانع من صلاة التحية لا يجيز التنفل حال الخطبة مطلقاً، ويحتمل أن يكون معنى قوله: «قبل أن تجيء» أي إلى الموضع الذي أنت فيه الآن، وفائدة الاستفهام، احتمال أن يكون صلاهما في مؤخر المسجد ثم تقدم ليقرب من سماع الخطبة، ويؤيده: أن في رواية مسلم «**أصليت الركعتين**»؟ بالألف واللام، وهي للعهد، ولا عهد هناك أقرب من تحية المسجد، وأما سنة الجمعة التي قبلها فيأتي الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

وكانت صلاته ﷺ الجمعة قصداً، وخطبته قصداً. رواه مسلم والترمذي من رواية جابر بن سمرة. زاد في رواية أبي داود: يقرأ بآيات من القرآن ويذكر الناس. وله في أخرى: كان لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنما هي كلمات يسيرات.

وعن عمرو بن حريث أنه ﷺ خطب وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه. رواه مسلم.

قال ابن القيم في الهدي: وكان ﷺ إذا اجتمع الناس خرج إليهم وحده من غير شاويش يصيح بين يديه، ولا لبس طيلسان ولا طرحة ولا سواد، فإذا دخل المسجد سلم عليهم، فإذا صعد المنبر استقبل الناس بوجهه وسلم عليهم ثم يجلس. ويأخذ بلال في

الأذان، فإذا فرغ منه قام ﷺ فخطب من غير فصل بين الأذان والخطبة، لا بإيراد خبر ولا غيره، ولم يكن يأخذ بيده سيفاً ولا غيره، وإنما كان يعتمد على قوس أو عصا قبل أن يتخذ المنبر، وكان يأمر الناس بالدنو منه، ويأمرهم بالإنصات. انتهى. وينظر في قوله: «ولم يكن يأخذ بيده سيفاً ولا غيره، وإنما كان يعتمد على قوس، أو عصا قبل أن يتخذ المنبر»[1].

وكان ﷺ يقرأ بسورة الجمعة في الركعة الأولى، و﴿إذا جاءك المنافقون﴾ في الثانية. رواه مسلم والترمذي وأبو داود. والحكمة في قراءته ﷺ بسورة الجمعة، اشتمالها على وجوب الجمعة وغير ذلك، مما فيه من القواعد، والحث على التوكل والذكر وغير ذلك. وقراءة سورة المنافقين لتوبيخ حاضريها منهم وتنبيههم على التوبة وغير ذلك مما فيه من القواعد، لأنهم ما كانوا يجتمعون في مجلس أكثر من اجتماعهم فيها.

وفي حديث النعمان بن بشير عند مسلم: وكان يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: ١] و ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ [الغاشية: ١].

وقد اختلف في العدد الذي تنعقد بهم الجمعة، وللعلماء فيه خمسة عشر قولاً:

أحدها ـ تصح من الواحد، نقله ابن حزم.

الثاني ـ اثنان كالجماعة، وهو قول النخعي وأهل الظاهر.

الثالث اثنان مع الإمام، عند أبي يوسف ومحمد والليث.

الرابع ـ ثلاثة معه، عند أبي حنيفة وسفيان الثوري.

الخامس ـ سبعة، عند عكرمة.

السادس ـ تسعة، عند ربيعة.

السابع ـ اثنا عشر، عند ربيعة أيضاً في رواية.

الثامن ـ مثله غير الإمام، عند إسحاق.

التاسع ـ عشرون في رواية ابن حبيب عن مالك.

العاشر ـ ثلاثون، كذلك.

الحادي عشر ـ أربعون بالإمام عند إمامنا الشافعي، واشتراط كونهم أحراراً، بالغين عقلاء، مقيمين لا يظعنون صيفاً ولا شتاء إلا لحاجة، وأن يكونوا حاضرين من أول الخطبة إلى أن تقام الجمعة.

---

(١) قال الزرقاني في شرح المواهب: فإنه مخالف لما مر أنه كان يخطب متوكئاً على قوس أو عصا كيف وفي أبي داود: كان إذا قام يخطب أخذ عصاه فتوكأ عليها وهو على المنبر.

وحجة الشافعي: ما رواه الدارقطني وابن ماجه والبيهقي في الدلائل عن عبد الرحمن بن كعب بـن مالك قال: كنت قائد أبي[1] حين ذهب بصره، فإذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان صلى على أبي أمامة واستغفر له، قال فمكث كذلك حيناً لا يسمع الأذان في الجمعة إلا فعل ذلك، فقلت له: يا أبت، استغفارك لأبي أمامة كلما سمعت أذان الجمعة ما هو؟ قال: يا بني، هو أول من جمَّع بالمدينة، قال: قلت له: كم كنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً.

وقال جابر بن عبد الله: مضت السنة أن في كل ثلاثة إماماً، وفي كل أربعين فما فوق ذلك جمعة. خرجه الدارقطني. وروى البيهقي عن ابن مسعود: أنه ﷺ جمَّع بالمدينة وكانوا أربعين رجلاً. قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ـ نفع الله بوجوده ـ قال في «المجموع»: قال أصحابنا: وجه الدلالة أن الأمة أجمعوا على اشتراط العدد، والأصل الظهر، فلا تصح الجمعة إلا بعدد ثبت فيه توقيف، وقد ثبت جوازها بأربعين، وثبت (صلوا كما رأيتموني أصلي)، ولم يثبت صلاته لها بأقل من ذلك، فلا يجوز بأقل منه.

قال: وأما خبر انفضاضهم فلم يبق إلا اثنا عشر، فليس فيه أن ابتداءها كان باثني عشر، بل يحتمل عودهم، أو عود غيرهم مع سماعهم أركان الخطبة. وفي مسلم: «انفضوا في الخطبة» وفي رواية البخاي «انفضوا في الصلاة» وهي محمولة على الخطبة جمعاً بين الأخبار. انتهى.

الثاني عشر ـ أربعون غير الإمام عند الشافعي أيضاً، وبه قال عمر بن عبد العزيز وطائفة.

الثالث عشر ـ خمسون، عند أحمد في رواية، وحكيت عن عمر بن عبد العزيز وطائفة.

الرابع عشر ـ ثمانون، حكاه الرازي.

الخامس عشر ـ جمع كثر بغير حصر.

ولعل هذا الأخير أرجحها من حيث الدليل. قاله في فتح الباري[1].

## الباب الثالث
## في ذكر تهجده صلوات الله وسلامه عليه

قال الله تعالى له ﷺ: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ [الإسراء: ٧٩] أي بالقرآن،

---

(١) في النسخ: قائداً أبي وفي الدارقطني هكذا كما أثبتناه.

والمراد منه الصلاة المشتملة على القرآن. والهجود في اللغة: النوم، وعن أبي عبيدة: الهاجد: النائم، والهاجد: المصلي بالليل، وعن الأزهري: الهاجد: النائم، وقال المازري: التهجد: الصلاة بعد الرقاد، ثم صلاة أخرى بعد رقدة، ثم صلاة أخرى بعد رقدة، قال: وهكذا كانت صلاة رسول الله ﷺ.

وقوله: (نافلة لك) أي عبارة زائدة في فرائضك، ويمكن نصرة هذا القول بأن قوله: (فتهجد) أمر، وصيغة الأمر للوجوب، فوجب كون هذا التهجد واجباً، وروى الطبري عن ابن عباس أن النافلة للنبي ﷺ خاصة، لأنه أمر بقيام الليل، وكتب عليه دون أمته، وإسناده ضعيف.

وقيل معناه: زيادة لك خاصة، لأن تطوع غيره يكفر ما على صاحبه من ذنب، وتطوعه هو ﷺ يقع خالصاً له لكونه لا ذنب عليه، فكل طاعة يأتي بها ﷺ سوى المكتوبة إنما تكون لزيادة الدرجات، وكثرة الحسنات، ولهذا سمي نافلة بخلاف الأمة، فإن لهم ذنوباً محتاجة إلى الكفارات، فهذه الطاعات يحتاجون إليها لتكفير الذنوب والسيئات.

وروى مسلم[1] من طريق سعد بن هشام عن عائشة قالت: إن الله افترض قيام الليل في هذه السورة، تعني ﴿يا أيها المزمل﴾ [المزمل: ١] فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى أنزل في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة. وروى محمد بن نصر في قيام الليل من طريق سماك عن ابن عباس شاهداً لحديث عائشة في أن بير الإيجاب والنسخ سنة.

وحكى الشافعي عن بعض أهل العلم أن آخر السورة نسخ افتراض قيام الليل إلا م تيسر منه، ثم نسخ فرض ذلك بالصلوات الخمس. وروى محمد بن نصر من حديث جابر أن نسخ قيام الليل وقع لما توجهوا مع أبي عبيدة في جيش الخبط، وكان ذلك بعد الهجرة، لكن في إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. فوجوب قيام الليل قد نسخ في حقنا. وهل نسخ في حقه ﷺ؟ أكثر الأصحاب: لا، والصحيح: نعم، ونقله الشيخ أبو حامد عن النص[2].

وقالت عائشة: قام ﷺ حتى تورمت قدماه، وفي رواية: حتى تفطرت قدماه، فقلت: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**» قالت: فلما بدن وكثر شحمه ﷺ صلى جالساً، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع. رواه البخاري ومسلم.

---

(٢) للإمام الشافعي.

والفاء في قوله: «أفلا أكون» للسببية، وهي عن محذوف تقديره: أأترك تهجدي؟ فلا أكون عبداً شكوراً، والمعنى: إن المغفرة سبب لكون التهجد شكراً، فكيف أتركه؟

قال ابن بطال: في هذا الحديث أخذ الإنسان على نفسه بالشدة في العبادة، وإن أضر ذلك ببدنه، لأنه إذا فعل ذلك مع علمه بما سبق له، فكيف بمن لا يعلم، فضلاً عمن لم يأمن أنه استحق النار. انتهى.

ومحل ذلك ـ كما قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ـ ما لم يفض ذلك إلى الملال، لأن حال النبي ﷺ كانت أكمل الأحوال، فكان لا يمل من عبادة ربه، وإن أضر ذلك ببدنه، بل صح أنه ﷺ قال: **(وجعلت قرة عيني في الصلاة)** كما أخرجه النسائي من حديث أنس، فأما غيره ﷺ فإذا خشي الملل ينبغي له أن لا يكد نفسه، وعليه يحمل قوله ﷺ: **(خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا)** انتهى.

لكن ربما دست النفس أو الشيطان على المجتهد في العبادة بمثل ما ذكر، خصوصاً إذا كبر، فيقول: قد ضعفت وكبرت فأبق على نفسك لئلا ينقطع عملك بالكلية، وهذا وإن كان ظاهره جميلاً لكن فيه دسائس، فإنه إن أطاعه فقد يكون استدراجاً يؤول به إلى ترك العمل شيئاً فشيئاً، إلى أن ينقطع بالكلية، وما ترك سيد المرسلين، المغفور له، شيئاً من عمله بعد كبره.

نعم كان يصلي بعض ورده جالساً بعد أن كان يقوم حتى تفطرت قدماه، فكيف بمن أثقلت ظهره الذنوب والأوزار، ولا يأمن عذاب النار، أن يغفل حال شيبته، ويتوانى عند ظهور شيبه، فينبغي للإنسان أن يستعد قبل حلول مشيبه. «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك» فإن من شاب فقد لاح صبح سواد ليل شعره، وقد قال تعالى منذراً لمن يدخل في الصباح: **﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾** [هود: ٨١] فكيف بقرب من دخل في الصباح، وظهر كوكب نهاره في أفق رأسه ولاح؟!

قال القرطبي: ظن من سأله ﷺ عن سبب تحمله المشقة في العبادة أنه إنما يعبد الله خوفاً من الذنوب، وطلباً للمغفرة والرحمة، فمن تحقق أنه غفر له لا يحتاج إلى ذلك، فأفادهم أن هناك طريقاً آخر للعبادة، وهو الشكر على المغفرة، وإيصال النعمة لمن لا يستحق عليه فيها شيئاً، فيتعين كثرة الشكر على ذلك، والشكر: الاعتراف بالنعمة والقيام بالخدمة، فمن كثر ذلك منه سمي شكوراً، ومن ثم قال الله تعالى: **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾** [سبأ: ١٣].

وفيه: ما كان النبي ﷺ عليه من الاجتهاد في العبادة والخشية من ربه عز وجل، قال

العلماء: إنما ألزم الأنبياء أنفسهم بشدة الخوف لعلمهم بعظيم نعمة الله عليهم، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبذلوا مجهودهم في عبادته ليؤدوا بعض شكره، مع أن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، والله أعلم، انتهى.

## ذكر سياق صلاته ﷺ بالليل

عن شريح بن هانىء قالت عائشة رضي الله عنها: ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط فدخل بيتي إلا صلى أربع ركعات أو ست ركعات. رواه أبو داود. وكان يقوم إذا سمع الصارخ[1] رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة. وهو يصرخ في النصف الثاني. وقالت: كان ﷺ ينام أول الليل ويقوم آخره، فيصلي ثم يرجع إلى فراشه فإذا أذن المؤذن وثب، فإن كانت به حاجة اغتسل، وإلا توضأ وخرج. رواه الشيخان. وقالت أيضاً: كان ﷺ ربما اغتسل في أول الليل، وربما اغتسل في آخره، وربما أوتر في أول الليل، وربما أوتر في آخره، وربما جهر بالقراءة، وربما خفت.

وقالت أم سلمة كان يصلي بنا ثم ينام قدر ما صلى، ثم يصلي قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح. رواه أبو داود والترمذي والنسائي. وفي رواية للنسائي: كان يصلي العتمة، ثم يسبح ثم يصلي بعدها ما شاء من الليل ثم ينصرف فيرقد مثل ما صلى ثم يستيقظ من نومه فيصلي مثل ما نام، وصلاته تلك الآخرة تكون إلى الصبح.

وعن أنس قال: ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ من الليل مصلياً إلا رأيناه، ولا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه. رواه النسائي.

وكان إذا استيقظ من الليل قال: «**لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك، استغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً ولا تزغ قلبي إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**» رواه أبو داود من حديث عائشة.

وعنها: كان ﷺ إذا هب من الليل كبر الله عشراً، وحمد الله عشراً، وقال سبحان الله وبحمده عشراً، وقال سبحان الملك القدوس عشراً، واستغفر الله عشراً، وهلل عشراً، ثم قال: «**اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشراً**»، ثم يفتتح الصلاة. رواه أبو داود. وقد روى حديث قيامه بالليل ووتره عائشة وابن عباس.

---

(١) الصارخ: يعني الديك لأنه كثير الصياح في الليل. انظر لسان العرب ٣١٨/٧ مادة (صرخ) والحديث في صحيح البخاري برقم (٦٤٦١) وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٧/٣ وفي إتحاف السادة المتقين ٢٠٣/٥ وفي المغني للعراقي ٣٦٦/١ وفي كنز العمال (١٧٩٩٣):

قال ابن القيم: وإذا اختلف ابن عباس وعائشة في شيء من أمر قيامه ﷺ بالليل، فالقول قول عائشة، لكونها أعلم الخلق بقيامه بالليل. انتهى. فأما حديث ابن عباس، فرواه البخاري ومسلم بلفظ: بت عند خالتي ميمونة ليلة والنبي ﷺ عندها، فتحدث النبي ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر أو نصفه قعد ينظر إلى السماء فقرأ ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار**﴾ [آل عمران: ١٩٠] حتى ختم السورة، ثم قام إلى القربة فأطلق شناقها[1]، ثم صب في الجفنة، ثم توضأ وضوءاً حسناً بين الوضوأين لم يكثر وقد أبلغ، فقام فصلى، فقمت وتوضأت فقمت عن يساره، فأخذ بأذني فأدارني عن يمينه، فتتامت صلاته ثلاث عشرة ركعة، ثم اضطجع فنام حتى نفخ، وكان إذا نام نفخ، فآذنة بلال الصلاة فصلى ولم يتوضأ. وكان يقول في دعائه: «**اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً وتحتي نوراً، وأمامي نوراً وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً**»، وزاد بعضهم: وفي لساني نوراً، وذكر: عصبي ولحمي ودمي وشعري وبشري.

وفي رواية: فصلى ركعتين خفيفتين، قلت قرأ فيها بأم الكتاب في كل ركعة، ثم سلم، ثم صلى إحدى عشر ركعة بالوتر ثم نام، فأتاه بلال فقال: الصلاة يا رسول الله، فقام فركع ركعتين ثم صلى للناس. وفي رواية: فقام فصلى ثلاث عشرة ركعة، منها ركعتا الفجر، حزرت قيامه في كل ركعة بقدر ﴿**يا أيها المزمل**﴾ [المزمل: ١]. وفي رواية: فصلى ركعتين ركعتين حتى صلى ثماني ركعات، ثم أوتر بخمس لم يجلس فيهن. وفي رواية النسائي: أنه صلى إحدى عشر ركعة بالوتر، ثم نام حتى استثقل فرأيته ينفخ فأتاه بلال، الحديث.

وفي أخرى له: فتوضأ واستاك وهو يقرأ هذه الآية حتى فرغ منها ﴿**إن في خلق السماوات والأرض**﴾ [البقرة: ١٦٤] ثم صلى ركعتين. ثم عاد فنام حتى سمعت نفخه، ثم قام فتوضأ واستاك ثم صلى ركعتين ثم نام ثم قام فتوضأ واستاك وصلى ركعتين وأوتر بثلاث.

ولمسلم: فاستيقظ فتسوك وتوضأ وهو يقول: ﴿**إن في خلق السموات والأرض**﴾ [البقرة: ١٦٤] حتى ختم السورة، ثم قام فصلى ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف فنام حتى نفخ، ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات، كل ذلك

---

(١) والشناق: كل خيط علقت به شيئاً وهو خيط يشد به فم القربة. انظر اللسان ٧/٢١٥ مادة (شنق).

يستاك ويتوضأ وهو يقرأ هذه الآيات، ثم أوتر بثلاث.

وأما حديث عائشة فعن سعد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة فقلت: يا أم المؤمنين، انبئيني عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: كان خلقه القرآن، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ، فقالت: كنا نعد له ﷺ سواكه وطهوره، فيبعثه الله متى شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ويتوضأ، ويصلي تسع ركعات ولا يجلس فيها إلا في الثامنة، فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يسلم فيصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله ويحمده ويدعو، ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين بعدما يسلم وهو قاعد، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن وأخذه اللحم أوتر بسبع، وصنع في الركعتين مثل صنيعه في الأول، فتلك تسع يا بني. رواه مسلم. وللنسائي: كنا نعد له سواكه وطهوره، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيستاك ويتوضأ ويصلي تسع ركعات، ولا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، ويحمد الله تعالى ويصلي على نبيه ويدعو بينهن ولا يسلم، ثم يصلي ويقعد ويحمد الله تعالى ويصلي على نبيه، ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو قاعد ـ زاد في أخرى: فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني ـ فلما أسن ﷺ وأخذه اللحم أوتر بسبع، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما سلم، فتلك تسع، أي بني.

وفي رواية له: فصلى ست ركعات يخيل إليّ أنه سوى بينهن في القراءة والركوع والسجود، ثم يوتر بركعة، ثم يصلي ركعتين وهو جالس ثم يضع جنبه. وعن عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين. رواه مسلم وأحمد.

وعنها: كان ﷺ يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة، ويسلم من كل ركعتين، ويوتر بواحدة، فيسجد السجدة في ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه، فإذا سكت المؤذن من صلاة الفجر وتبين لنا الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الأيمن، حتى يأتيه المؤذن للإقامة، رواه أبو داود. وعنها قالت: كان يصلي ثلاث عشر ركعة، يوتر من ذلك بخمس ولا يجلس في شيء إلا في آخرها. رواه البخاري ومسلم.

وفي البخاري عن مسروق: سألت عائشة عن صلاة رسول الله ﷺ فقالت: سبعاً وتسعاً وإحدى عشرة، سوى ركعتي الفجر. وعنده أيضاً، عن القاسم بن محمد، عنها: كان ﷺ يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة منها الوتر وركعتا الفجر.

قال القرطبي: أشكلت روايات عائشة على كثير من أهل العلم، حتى نسب بعضهم حديثها إلى الاضطراب. وهذا إنما يتم لو كان الراوي عنها واحداً، وأخبرت عن وقت واحد.

والصواب: أن كل شيء ذكرته من ذلك محمول على أوقات متعددة، وأحوال مختلفة بحسب النشاط وبيان الجواز، انتهى. وأما حديث القاسم عنها فمحمول على أن ذلك كان غالب أحواله. قيل: والحكمة في عدم الزيادة على إحدى عشرة: أن التهجد، والوتر مختص بصلاة الليل، وفرائض النهار: الظهر وهي أربع، والعصر وهي أربع، والمغرب وهي ثلاث وتر النهار، فناسب أن تكون صلاة الليل كصلاة النهار في العدد جملة وتفصيلاً، وأما مناسبة «ثلاث عشرة» فبضم صلاة الصبح لكونها نهارية إلى ما بعدها. انتهى.

وعن زيد بن خالد الجهني أنه قال: لأرمقن صلاة رسول الله ﷺ الليلة، قال: فصلى ركعتين خفيفتين، ثم ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة. رواه مسلم.

وقوله: «ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما» أربع مرات، هكذا في صحيح مسلم وموطأ مالك وسنن أبي داود وجامع الأصول لابن الأثير. فقد كان قيامه ﷺ بالليل أنواعاً:

**أحدها** ـ ست ركعات، يسلم من كل ركعتين ثم يوتر بثلاث، كما في حديث ابن عباس، عند مسلم.

**ثانيها** ـ أنه كان يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين، ثم يتم ورده إحدى عشرة ركعة يسلم من كل ركعتين، ويوتر بركعة. رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة.

**ثالثها** ـ ثلاث عشرة، كذلك رواه مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني.

**رابعها** ـ ثماني ركعات، يسلم من كل ركعتين، ثم يوتر بخمس سرداً متوالية، لا يجلس إلا في آخرهن. رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس.

**خامسها** ـ تسع ركعات، لا يجلس فيها إلا في الثامنة، فيذكر الله ويحمده ويدعو، ثم ينهض ولا يسلم فيصلي التاسعة، ثم يقعد فيحمده ويدعوه ثم يسلم، ثم يصلي ركعتين بعدما يسلم قاعداً. رواه مسلم من حديث عائشة.

**سادسها** ـ يصلي سبعاً كالتسع، ثم يصلي بعدها ركعتين جالساً. رواه مسلم أيضاً من حديثها.

**سابعها** ـ كان يصلي مثنى مثنى، ثم يوتر بثلاث لا يفصل بينهن. رواه أحمد عنها.

ثامنها ـ ما رواه النسائي عن حذيفة أنه صلى مع رسول الله ﷺ في رمضان، فركع فقال في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**» مثل ما كان قائماً، ثم جلس يقول: «**رب اغفر لي، رب اغفر لي**»، فما صلى إلا أربع ركعات حتى جاء بلال يدعوه إلى الغداة.

ورواه أبو داود، ولفظه: أنه رأى النبي ﷺ يصلي من الليل فكان يقول: «**الله أكبر، ثلاثاً، ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة**»، ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه، وكان يقول في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**»، ثم رفع رأسه من الركوع فكان قيامه نحواً من ركوعه، يقول: «**لربي الحمد**»، ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه، فكان يقول في سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**»، ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من سجوده، وكان يقول: «**رب اغفر لي**»، فصلى أربع ركعات، فقرأ فيهم البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام، شك شعبة.

ورواه البخاري ومسلم بلفظ: صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى فقلت يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: «**سبحان ربي العظيم**»، فكان ركوعه نحو قيامه، ثم قال: «**سمع الله لمن حمده**» ـ زاد في رواية: «**ربنا لك الحمد**» ـ ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: «**سبحان ربي الأعلى**»، فكان سجوده قريباً من قيامه.

وزاد النسائي: لا يمر بآية تخويف أو تعظيم لله عز وجل إلا ذكره.

وقد كانت هيئة صلاته ﷺ ثلاثة:

**أحدها** ـ أنه كان أكثر صلاته قائماً: فعن حفصة قالت: ما رأيته ﷺ صلى في سبحته[1] قاعداً، حتى كان قبل وفاته بعام فكان يصلي في سبحته قاعداً، الحديث رواه أحمد ومسلم والنسائي وصححه الترمذي.

**الثاني** ـ كان يصلي قاعداً ويركع قاعداً. رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة بلفظ: وإذا قرأ وهو قاعد ركع وسجد وهو قاعد.

**الثالث** ـ كان يقرأ قاعداً، فإذا بقي يسير من قراءته قام فركع قائماً. رواه مسلم من حديث عائشة ولفظه: إن رسول الله ﷺ كان يصلي جالساً، ويقرأ وهو جالس فإذا بقي من قراءته قدر ما يكون ثلاثين آية أو أربعين آية قام وقرأ وهو قائم، ثم ركع ثم سجد، ثم يفعل في الركعة الثانية مثل ذلك.

---

(١) أي نافلته، سميت بذلك لاشتمالها على التسبيح.

وعن عائشة: كان ﷺ يصلي متربعاً. رواه الدارقطني. وكان ﷺ يصلي ركعتين بعد الوتر جالساً تارة، وتارة يقرأ فيهما وهو جالس فإذا أراد أن يركع قام فركع. قالت عائشة: كان يوتر بواحدة، ثم يركع ركعتين يقرأ فيهما وهو جالس، فإذا أراد أن يركع قام فركع. رواه ابن ماجه.

وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ كان يصلي ركعتين بعد الوتر وهو جالس، يقرأ فيهما ﴿إذا زلزلت﴾ [الزلزلة: ١] و ﴿الكافرون﴾ [الكافرون: ١]. رواه أحمد. واختلف في هاتين الركعتين فأنكرهما مالك وكذا النووي في المجموع. وقال أحمد: لا أفعله ولا أمنعه. انتهى.

والصواب: أنه إنما فعلهما بياناً لجواز الصلاة بعد الوتر، وجواز الصلاة جالساً. ولفظة «كان» لا تفيد دواماً ولا أكثرية هنا. وغلط من ظنهما سنة راتبة، فأنه ﷺ ما داومهما، ولا تشبه السنة بالفرض حتى يكون للوتر صلاة بعده.

وأما قيامه ﷺ ليلة النصف من شعبان، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قام رسول الله ﷺ من الليل فصلى فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض، فلما رأيت ذلك قمت حتى حركت إبهامه فتحرك فرجعت، فلما رفع رأسه من السجود وفرغ من صلاته، قال: «يا عائشة، أو يا حميراء، أظننت أن النبي ﷺ قد خاس بك»، قلت: لا والله يا رسول الله، ولكني ظننت أنك قد قبضت لطول سجودك، فقال: «أتدرين أي ليلة هذه؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «هذه ليلة النصف من شعبان، إن الله عز وجل يطلع على عباده ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين، ويرحم المسترحمين، ويؤخر أهل الحقد كما هم»[١]، رواه البيهقي من طريق العلاء بن الحارث عنها، وقال: هذا مرسل جيد، يعني أن العلاء لم يسمع من عائشة.

وقد ورد في فضل ليلة النصف من شعبان أحاديث كثيرة، لكن ضعفها الأكثرون، وصحح ابن حبان بعضها وخرجه في صحيحه، ومن أمثلها ـ كما نبه عليه الحافظ ابن رجب ـ حديث عائشة قالت: فقدت النبي ﷺ فخرجت فإذا هو بالبقيع، رافع رأسه إلى السماء، فقال: «أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله»، فقلت: يا رسول الله قد ظننت أنك أتيت بعض نسائك، فقال: «إن الله تعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب»[٢] رواه أحمد، وقال الترمذي: إن البخاري ضعفه.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧.

(٢) الحديث في الترمذي برقم (٧٣٩) وفي ابن ماجه (١٣٨٩) وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل=

وفي سنن ابن ماجه، بإسناد ضعيف، عن علي مرفوعاً: «**إذا كان ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها، فإن الله تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى سماء الدنيا، فيقول: ألا مستغفر فأغفر له، ألا مسترزق فأرزقه، ألا مبتلي فأعافيه، ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر**»[1]. وقد كان التابعون من أهل الشام، كخالد بن معدان، ومكحول يجتهدون ليلة النصف من شعبان في العبادة، وعنهم أخذ الناس تعظيمها، ويقال: إنه بلغهم في ذلك آثار إسرائيلية، فلما اشتهر ذلك عنهم اختلف الناس، فمنهم من قبله منهم، وقد أنكر ذلك أكثر العلماء من أهل الحجاز، منهم عطاء، وابن أبي مليكة، ونقله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن فقهاء أهل المدينة، وهو قول أصحاب مالك وغيرهم، وقالوا: ذلك كله بدعة. واختلف علماء أهل الشام في صفة إحيائها على قولين:

**أحدهما**: إنه يستحب إحياؤها جماعة في المساجد، وكان خالد بن معدان، ولقمان بن عامر يلبسون فيها أحسن ثيابهم ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المسجد ليلتهم تلك، ووافقهم إسحاق بن راهويه على ذلك، وقال في قيامها في المساجد جماعة ليس ذلك ببدعة، نقله عنه حرب الكرماني في مسائله.

**الثاني**: أنه يكره الاجتماع لها في المساجد للصلاة والقصص والدعاء، ولا يكره أن يصلي الرجل فيها لخاصة نفسه، وهذا قول الأوزاعي إمام أهل الشام وفقيههم وعالمهم.

ولا يعرف للإمام أحمد كلام في ليلة النصف من شعبان، ويتخرج في استحباب قيامها عنه روايتان من الروايتين عنه في قيام ليلتي العيد، فإنه في رواية لم يستحب قيامها جماعة، لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه فعلها، واستحبها في رواية لفعل عبد الرحمن بن زيد بن الأسود لذلك، وهو من التابعين. وكذلك قيام ليلة النصف من شعبان لم يثبت فيها شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه، إنما ثبت عن جماعة من التابعين من أعيان فقهاء أهل الشام. انتهى ملخصاً من اللطائف.

وأما قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿**إنا أنزلناه في ليلة مباركة**﴾ [الدخان: ٣] فالمراد

---

= ٦/ ٢٣٨ وفي مشكاة المصابيح (١٢٩٩) وفي العلل المتناهية لابن الجوزي (٦٦).

(١) لقد ثبت التأويل عن مالك في حديث النزول أنه قال: نزول رحمة لا نزول نقلة. وعند أهل الحديث يحمل حديث النزول على نزول الملك بأمر الله بدليل ما أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح عن النبي ﷺ: «إن الله يمهل حتى إذا مضى شطر الليل الأول أمر منادياً ينادي هل من داع فيستجاب له . . .» الحديث. وهذا تفسير للرواية المشهورة «وينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الد نيا فيقول هل من داع فأستجيب له» الحديث وقد تقرر عند أهل الحديث أن خير ما يفسر به الحديث الوارد. كما قال العراقي في ألفيته: «وخير ما فسرته بالوارد».

بها إنزاله تعالى القرآن في ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾ [القدر: ١] وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن**﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال الحافظ ابن كثير: ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان، كما روي عن عكرمة، فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان. وأما الحديث الذي رواه عبد الله بن صالح عن الليث عن عقيل عن الزهري، أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة: أن الأخنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**تقطع الأجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد وقد أخرج اسمه في الموتى**»[(١)]. فهو حديث مرسل، ومثله لا تعارض به النصوص. انتهى.

وأما قيامه ﷺ في شهر رمضان، وهو الذي يسمى بالتراويح: جمع روحية، وهي المرة الواحدة من الراحة، وسميت بذلك لأنهم أول ما اجتمعوا عليها كانوا يستريحون بين كل تسليمتين.

فعن عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل وأيقظ أهله، وجد وشد المئزر. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

ولمسلم: قالت: كان ﷺ يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، وفي العشر الأخير منه ما لا يجتهد في غيره. وفي رواية الترمذي: كان يجتهد في العشر الأواخر منه ما لا يجتهد في غيره.

وعنها: أن رسول الله ﷺ صلى في المسجد، فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال: «**قد رأيت الذي صنعتم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم**»، وذلك في رمضان. رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

وفي رواية للبخاري[(٢)] ومسلم[(٣)]، أنه ﷺ خرج من جوف الليل فصلى في المسجد، فصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس يتحدثون بذلك، فاجتمع أكثر منهم فخرج ﷺ في الليلة الثانية فصلوا بصلاته، فأصبح الناس يذكرون ذلك، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج فصلوا بصلاته، فلما كان في الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله، فلم يخرج إليه

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/٢٨٠ والسيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦ والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٢٧٨٠).

(٢) برقم (١١٢٩ ـ ٢٠١٢).

(٣) في كتاب صلاة المسافرين برقم (١٧٨).

ﷺ، فطفق رجال منهم يقولون: الصلاة فلا يخرج إليهم، حتى خرج لصلاة الفجر، فلما قضى الفجر أقبل على الناس، ثم تشهد فقال: «**أما بعد؛ إنه لم يخف علي شأنكم الليلة، ولكني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليلة فتعجزوا عنها**». وفي رواية بنحوه ومعناه مختصراً: قال: وذلك في رمضان.

قال في فتح الباري: ظاهر الحديث أنه ﷺ توقع ترتب افتراض الصلاة بالليل جماعة على وجود المواظبة عليها، وفي ذلك إشكال بناه بعض المالكية على قاعدتهم: في أن الشروع ملزم، وفيه نظر.

وأجاب المحب الطبري: أنه يحتمل أن يكون الله عز وجل أوحى إليه: إنك إن واظبت على هذه الصلاة معهم افترضتها عليهم، فأحب التخفيف عنهم.

وقيل: خشي أن يظن أحد من الأمة من مداومته عليها الوجوب، قال القرطبي: أي يظنوه فرضاً، فيجب على من ظن ذلك، كما إذا ظن المجتهد حل شيء أو تحريمه فإنه يجب عليه العمل به.

وقد استشكل الخطابي أصل هذه الخشية، مع ما ثبت في حديث الإسراء، من أن الله تعالى قال: (هن خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدي) فإذا أمن التبديل كيف يقع الخوف من الزيادة، وهذا يدفع في صدور الأجوبة المتقدمة.

وقد أجاب عنه الخطابي: بأن صلاة الليل كانت واجبة عليه ﷺ، وأفعاله الشرعية يجب على الأمة الاقتداء به فيها ـ يعني عند المواظبة ـ فترك الخروج إليهم لئلا يدخل ذلك في الواجب من طريق الأمر بالاقتداء به، لا من طريق إنشاء فرض جديد زائد على الخمس، وهذا كما يوجب المرء على نفسه صلاة نذر، فتجب عليه ولا يلزم من ذلك زيادة فرض في أصل الشرع.

قال: وفيه احتمال آخر، وهو أن الله تعالى فرض الصلاة خمسين، ثم حط معظمها بشفاعة نبيه ﷺ، فإذا عادت الأمة فيما استوهب لها والتزمت ما استعفى لهم نبيهم ﷺ منه، لم يستنكر أن يثبت ذلك فرضاً عليهم.

قال الحافظ ابن حجر: وقد تلقى هذين الجوابين عن الخطابي جماعة كابن الجوزي، وهو مبني على أن قيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ، وعلى وجوب الاقتداء بأفعاله، وفي كل من الأمرين نزاع.

ثم أجاب عنه بثلاثة أجوبة:

**أحدها**: أنه يحتمل أن يكون المخوف افتراض قيام الليل بمعنى جعل التهجد في

المسجد جماعة شرطاً في صحة التنفل بالليل، قال: ويومىء إليه قوله في حديث زيد بن ثابت: «**حتى خشيت أن يكتب عليكم، ولو كتب عليكم ما قمتم به، فصلوا أيها الناس في بيوتكم**» فمنعهم من التجمع في المسجد إشفاقاً عليهم من اشتراطه، وأمن مع إذنه في المواظبة على ذلك في بيوتهم من افتراضه عليهم.

**وثانيها**: أن يكون المخوف افتراض قيام الليل على الكفاية لا على الأعيان، فلا يكون ذلك زائداً على الخمس، بل هو نظير ما ذهب إليه قوم في العيد ونحوها.

**وثالثها**: يحتمل أن يكون المخوف افتراض قيام رمضان خاصة، فقد وقع في حديث الباب أن ذلك كان في رمضان، وفي حديث سفيان بن حسين «**خشيت أن يفرض عليكم قيام هذا الشهر**»، قال: فعلى هذا يرتفع الإشكال لأن قيام رمضان لا يتكرر كل يوم في السنة، فلا يكون ذلك قدراً زائداً على الخمس. وأقوى هذه الأجوبة الثلاثة في نظري الأول.

وعن النعمان بن بشير قال: قمنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين إلى ثلث الليل الأول، ثم قمنا معه ليلة خمس وعشرين إلى نصف الليل، ثم قمنا معه ليلة سبع وعشرين حتى ظننا أن لا ندرك الفلاح، وكانوا يسمونه السحور. رواه النسائي. واختلف العلماء: هل الأفضل في صلاة التراويح أن تصلي جماعة في المسجد، أو في البيوت فرادى؟

فقال الشافعي وجمهور أصحابه وأبو حنيفة وبعض المالكية وغيرهم: الأفضل صلاتها جماعة، كما فعله عمر بن الخطاب والصحابة، واستمر عمل المسلمين عليه، لأنه من الشعائر الظاهرة، فأشبه صلاة العيد.

فإن قلت: قد ذكرت أن الحافظ ابن حجر حمل قوله ﷺ: «**إني خشيت أن تفرض عليكم**» على التجميع في المسجد، وقال: إنه أقوى الأوجه. فالجواب: أنه ﷺ لما مات حصل الأمن من ذلك، ورجح عمر التجميع لما في الاختلاف من افتراق الكلمة، ولأن الاجتماع على واحدة أنشط لكثير من المصلين.

وقال مالك وأبو يوسف وبعض الشافعية وغيرهم: الأفضل صلاتها فرادى في البيوت، لقوله ﷺ: «**أفضل [الصلاة] صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**»[1]، قالوا: وإنما فعلها ﷺ في المسجد لبيان الجواز، أو لأنه كان معتكفاً.

وأما عدد الركعات التي كان ﷺ يصليها في رمضان، فعن أبي سلمة أنه سأل عائشة:

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٥/ ١٦٠ والسيوطي في جمع الجوامع (٣٧٥٤).

كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ قالت: ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً، قالت عائشة: فقلت يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ قال: «**يا عائشة، إن عيني [تنامان] ولا ينام قلبي**»[1]. رواه البخاري ومسلم.

وأما ما رواه ابن أبي شيبة من حديث ابن عباس: كان ﷺ يصلي في رمضان عشرين ركعة والوتر. فإسناده ضعيف. وقد عارضه حديث عائشة هذا، وهي أعلم بحال النبي ﷺ ليلاً من غيرها.

وقد كان الأمر في زمنه ﷺ استمر على أن كل واحد يقوم في رمضان في بيته منفرداً، حتى انقضى صدر من خلافة عمر.

وفي البخاري: أن عمر خرج ليلة في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع متفرقون، يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط، فقال عمر: إني لو جمعت هؤلاء على قارىء واحد لكان أجمع، ثم عزم فجمعهم على أُبي بن كعب، ثم خرج ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم، قال عمر: نعمت البدعة هذه، والتي تنامون عنها أفضل من التي تقومون، يريد آخر الليل، وكان الناس يقومون أوله. وإنما اختار أبياً لأنه كان أقرأهم، كما قال عمر.

وروى سعيد بن منصور من طريق عروة: أن عمر جمع الناس على أبي بن كعب، فكان يصلي بالرجال، وكان تميم الداري يصلي بالنساء. وفي الموطأ: أمر عمر أبي بن كعب وتميماً الداري أن يقوما للناس في رمضان. وروى البيهقي بإسناد صحيح أن الناس كانوا يقومون على عهد عمر بن الخطاب في شهر رمضان بعشرين ركعة.

قال الحليمي: والسر في كونها عشرين ركعة أن الرواتب في غير رمضان عشر ركعات، فضوعفت لأنه وقت جد وتشمير.

وفي الموطأ: بثلاث وعشرين. وجمع البيهقي بينهما بأنهم كانوا يوترون بثلاث. وفي الموطأ: عن محمد بن يوسف عن السائب بن يزيد أنها إحدى عشرة، وعند عبد العزيز: إحدى وعشرين.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٢٥) والترمذي (٤٣٩) والنسائي قيام الليل (٣٦) والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٩٦ وفي دلائل النبوة له أيضاً ١/ ٣٧٢ وابن عبد البر في التمهيد (٢٠٩) وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٣٨٤ وفي موطأ مالك (١٢٠) والزيلعي في نصب الراية ٢/ ١٥٣ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٧٩).

والجمع بين هذه الروايات ممكن باختلاف الأحوال، ويحتمل أن ذلك الاختلاف بحسب تطويل القراءة وتخفيفها، فحيث يطيل القراءة يقل الركعات وبالعكس.

وقد روى محمد بن نصر من طريق داود بن قيس، قال: أدركت الناس في إمارة أبان بن عثمان وعمر بن عبد العزيز ـ يعني بالمدينة ـ يقومون بست وثلاثين ركعة ويوترون بثلاث. وقال مالك: هو الأمر القديم عندنا. وعن الزعفراني[1] عن الشافعي: رأيت الناس يقومون بالمدينة بتسع وثلاثين وبمكة بثلاث وعشرين، وليس في شيء من ذلك ضيق. وعنه قال: إن أطالوا القيام وأقلوا السجود فحسن، وإن أكثروا السجود وأخفوا القراءة فحسن، والأول أحب إلي. انتهى.

وهل يجوز لغير أهل المدينة صلاتها ستاً وثلاثين، قال النووي قال الشافعي: لا يجوز ذلك لغيرهم، لأن لأهلها شرفاً بهجرته ﷺ ومدفنه، ويخالفه قول الحليمي: ومن اقتدى بأهل المدينة فقام بست وثلاثين فحسن أيضاً.

وينبغي أن يسلم من كل ركعتين، فلو صلى أربعاً بتسليمة واحدة لم يصح وفاقاً للقاضي حسين في فتاويه، ولو صلى سنة الظهر أو العصر أربعاً بتسليمة واحدة جاز، والفرق: أن التراويح بمشروعية الجماعة أشبهت الفرائض، قاله النووي في فتاويه، وصرح به في «الروضة».

وقد كان ﷺ يطيل القراءة في رمضان بالليل أكثر من غيره. وقد صلى معه حذيفة ليلة في رمضان، قال: فقرأ بالبقرة ثم بالنساء ثم آل عمران، لا يمر بآية تخويف إلا وقف وسأل، قال: فما صلى الركعتين حتى جاءه بلال فآذنه بالصلاة. أخرجه أحمد وأخرجه النسائي. وعنده أيضاً: أنه ما صلى إلا أربع ركعات. وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرؤها في غير الصلاة.

## الباب الرابع
## في صلاته ﷺ الوتر

قد صح عنه ﷺ أنه أوتر بخمس لم يجلس في آخرها. لكن أحاديث الفصل أثبت وأكثر طرقاً. واحتج الحنفية لما ذهبوا إليه ـ من تعيين الوصل، والاقتصار على ثلاث ـ بأن الصحابة أجمعوا على أن الوتر بثلاث موصولة حسن جائز، واختلفوا فيما زاد أو نقص،

(١) هو الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني البغدادي محدث فقيه. توفي سنة (٢٦٠ هـ) وقيل (٢٥٩ هـ) الوافي بالوفيات ١١/٢٦ مرآة الجنان ٢/١٧١ شذرات الذهب ٢/١٤٠ تهذيب التهذيب ٢/٣١٨ روضات الجنات (٢١٤).

قال: فأخذنا بما أجمعوا عليه وتركنا ما اختلفوا فيه.

وتعقبه محمد بن منصور المروزي، بما رواه من طريق عراك بن مالك عن أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً «**لا توتروا بثلاث تشبهوا بصلاة المغرب**» وقد صححه الحاكم، وعن سليمان بن يسار أنه كره الثلاث في الوتر وقال: لا يشبه التطوع بالفرض. انتهى.

لكن قد روى الحاكم من حديث عائشة أنه كان ﷺ يوتر بثلاث لا يقعد إلا في آخرهن، وروى النسائي من حديث أبي بن كعب نحوه، ولفظه: (يوتر بـ ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ [الأعلى: ١] و ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ [الكافرون: ١] و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ [الإخلاص: ١] ولا يسلم إلا في آخرهن) وبين في عدة طرق أن السور الثلاث بثلاث ركعات.

والجمع بين هذا وبين ما تقدم من النهي عن التشبيه بصلاة المغرب، أن يحمل النهي على صلاة الثلاث بتشهدين، وقد فعله السلف أيضاً. وروى محمد بن نصر من طريق الحسن أن عمر كان ينهض إلى الثالثة من الوتر بالتكبير، ومن طريق المسور بن مخرمة: أن عمر أوتر بثلاث لم يسلم إلا في آخرهن، ومن طريق ابن طاووس عن أبيه أنه كان يوتر بثلاث لا يقعد بينهن. وكان ابن عمر يسلم من الركعة والركعتين في الوتر. حتى يأمر ببعض حاجته، وهذا ظاهره أنه كان يصلي الوتر موصولاً، فإن عرضت له حاجة فصل ثم بنى على ما مضى. وفي هذا رد على من قال: لا يصح الوتر إلا موصولاً.

وأصرح من ذلك ما روى الطحاوي من طريق سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه، أنه كان يفصل بين شفعه ووتره بتسليمة، وأخبر أن النبي ﷺ كان يفعله، وإسناده قوي. وقد استدل بعضهم على فضل الفصل بأنه ﷺ أمر به وفعله، وأما الوصل فورد من فعله فقط. وقد حمل المخالف من الحنفية كل ما ورد من الثلاث على الوصل، مع أن كثيراً من الأحاديث ظاهر في الفصل، كحديث عائشة «يسلم من كل ركعتين» فإنه يدخل فيه الركعتان اللتان قبل الأخيرة، فهو كالنص في موضع النزاع.

وقد حمل الطحاوي هذا ومثله على أن الركعة مضمومة إلى الركعتين قبلها، ولم يتمسك في دعوى ذلك إلا بالنهي عن البتيراء[1]، مع احتمال أن يكون المراد بالبتيراء أن يوتر بواحدة فردة ليس قبلها شيء، وهو أعم من أن يكون مع الوصل والفصل. وقد اختلف السلف في أمرين:

---

(١) أخرجه ابن عبد البر عن أبي سعيد: أن النبي ﷺ نهى عن البتيراء: أن يصلي الرجل واحدة يوتر بها. وهو حديث ضعيف.

أحدهما: في مشروعية ركعتين بعد الوتر عن جلوس.

**والثاني**: فيمن أوتر ثم أراد أن يتنفل في الليل، هل يكتفي بوتره الأول ويتنفل ما شاء، أو يشفع وتره بركعة ثم يتنفل؟ ثم إذا فعل هل يحتاج إلى وتر آخر أم لا؟

**أما الأول**: فوقع عند مسلم من طريق أبي سلمة عن عائشة أنه ﷺ كان يصلي ركعتين بعد الوتر وهو جالس. وقد ذهب إليه بعض أهل العلم، وجعلوا الأمر في قوله: «**اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً**» مختصاً بمن أوتر آخر الليل. وأجاب من لم يقل بذلك بأن بالركعتين المذكورتين هما ركعتا الفجر. وحمله النووي على أنه ﷺ فعله لبيان جواز التنفل بعد الوتر، وجواز التنفل جالساً.

**وأما الثاني**: فذهب الأكثر إلى أنه يصلي شفعاً ما أراد ولا ينقض وتره، عملاً بقوله ﷺ : «**لا وتران في ليلة**» وهو حديث حسن أخرجه النسائي وابن خزيمة من حديث طلق بن علي، وإنما يصح نقض الوتر عند من يقول بمشروعية التنفل بركعة واحدة غير الوتر.

واختلف السلف أيضاً في مشروعية قضاء الوتر، فنفاه الأكثر، وفي مسلم عن عائشة أنه ﷺ كان إذا نام من الليل من وجع أو غيره فلم يقم من الليل صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة.

وقال محمد بن نصر: لم نجد عن النبي ﷺ في شيء من الأخبار أنه قضى الوتر، ولا أمر بقضائه. وعن عطاء والأوزاعي: يقضي ولو طلعت الشمس إلى الغروب، وهو وجه عند الشافعي حكاه النووي في شرح مسلم، وعن سعيد بن جبير: يقضي من القابلة، وعن الشافعية: يقضي مطلقاً. وقالت عائشة: أوتر ﷺ من كل الليل، من أوله وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

والمراد بأوله: بعد صلاة العشاء. ويحتمل أن يكون اختلاف وقت الوتر باختلاف الأحوال، فحيث أوتر أوله لعله كان وجعاً، وحيث أوتر في وسطه لعله كان مسافراً، وأما وتره في آخره فكان غالب أحواله لما عرف من مواظبته على الصلاة آخر الليل والسحر قبيل الصبح. وحكى الماوردي أنه السدس الأخير، وقيل أوله الفجر الأول. وفي رواية طلحة بن نافع عن ابن عباس، عند ابن خزيمة: فلما انفجر الفجر قام ﷺ فأوتر بركعة. قال ابن خزيمة والمراد به: الفجر الأول.

وروى أحمد من حديث معاذ مرفوعاً: «**زادني ربي صلاة وهي الوتر، وقتها [ما بين] العشاء إلى طلوع الفجر**»[1]. وفي إسناده ضعف، وكذا في حديث خارجة بن حذافة في

---

(١) الحديث في المسند ٥/ ٢٤٢ وفي مجمع الزوائد ٢/ ٢٣٩ وكنز العمال (١٩٥٢٠).

السنن، وهو الذي احتج به من قال بوجوب الوتر، وليس صريحا في الوجوب.

وأما حديث بريدة رفعه: «**الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا وأعاد ذلك ثلاثاً**»[1]. ففي سنده أبو المنيب، وفيه ضعف، وعلى تقدير قبوله فيحتاج من احتج به إلى أن يثبت أن لفظة «حق» بمعنى واجب في عرف الشارع، وأن لفظة «واجب» بمعنى ما ثبت من طريق الآحاد، والله أعلم.

وقد كان ﷺ يصلي وعائشة راقدة معترضة على فراشه، فإذا أراد أن يوتر أيقظها فتوتر، كما في البخاري. وهذا يدل على استحباب الوتر في آخر الليل، سواء المتهجد وغيره، ومحله إذا وثق أن يستيقظ بنفسه أو بإيقاظ غيره. واستدل به على وجوب الوتر، لكونه ﷺ سلك به مسلك الواجب، حيث لم يدعها نائمة للوتر، وأبقاها للتهجد.

وتعقب: بأنه لا يلزم من ذلك الوجوب، نعم يدل على تأكيد أمره بالوتر، وأنه فوق غيره من النوافل الليلية. وفيه: استحباب إيقاظ النائم لإدراك الصلاة، ولا يختص ذلك بالمفروضة ولا بخشية خروج الوقت، بل يشرع ذلك لإدراك الجماعة، وإدراك أول الوقت وغير ذلك من المندوبات. قال القرطبي: ولا يبعد أن يقال: إنه واجب في الواجب، مندوب في المندوب، لأن النائم وإن لم يكن مكلفاً لكن مانعه سريع الزوال، فهو كالغافل، وتنبيه الغافل واجب والله أعلم.

وعن علي: كان رسول الله ﷺ يوتر بثلاث يقرأ فيهن بتسع سور من المفصل، يقرأ في كل ركعة بثلاث سور آخرهن ﴿**قل هو الله أحد**﴾. رواه الترمذي. وعن ابن عباس: كان يقرأ في الوتر بـ ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ [الأعلى: ١] و ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ [الكافرون: ١] و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ [الإخلاص: ١] في كل ركعة.

وعن عائشة: كان يقرأ في الأولى بـ ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ [الأعلى: ١] وفي الثانية بـ ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ [الكافرون: ١] وفي الثالثة بـ ﴿**قل هو الله أحد**﴾ [الإخلاص: ١] و «المعوذتين». رواه أبو داود والترمذي. ولأبي داود: وكان إذا سلم قال: «**سبحان الملك القدوس**». وعند النسائي: ثلاثاً يطيل في آخرهن، وفي رواية: ويرفع صوته بالثالثة. وعن علي: كان ﷺ يقول في آخر وتره: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**». رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

---

(١) الحديث في سنن أبي داود (١٤١٩) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٧٠ وفي الترغيب والترهيب ١/ ٤٠٨ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٩٧ وفي الكامل لابن عدي ٣/ ١٢٥٢ و ٤/ ١٦٣٧.

قال ابن تيمية: سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل، والوتر خاتمته، وقد كان ﷺ يقرأ في سنة الفجر وفي الوتر بسورتي الإخلاص، وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل، وتوحيد المعرفة والإرادة، وتوحيد الاعتقاد، فسورة ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١] متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص، ونفي الولد والوالد والكفؤ، المتضمن لنفي الشبيه والمثيل والنظير، فتضمنت إثبات كل كمال ونفي كل نقص عنه، ونفي كل شبيه، وهذه هي مجامع التوحيد العملي والاعتقادي، فلذلك كانت تعدل ثلث القرآن، فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر ونهي وإباحة، والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه، فأخلصت سورة الإخلاص للخبر عنه وعن أسمائه وصفاته، فعدلت ثلث القرآن، وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصته سورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [الكافرون: ١] من الشرك العملي. قاله ابن القيم.

وأما القنوت في الركعة الأخيرة من الوتر، في النصف الأخير من شهر رمضان، فقال النووي في «الأذكار» باستحبابه، ولم يذكر لذلك دليلاً. وقد أخرج أبو داود بإسنادين رجالهما ثقات، لكن أحدهما منقطع، وفي الآخر راو لم يسم: أن عمر لما جمع الناس على أبي بن كعب كان لا يقنت إلا في النصف الأخير من رمضان.

وعن الحسن بن علي قال: علمني جدي كلمات أقولهن في الوتر: «اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت، إنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت». وهذا لفظ رواية شريك رواه الطبراني وغيره.

## الباب الخامس
## في ذكر صلاته ﷺ الضحى

وهي معدودة من خصائصه اختلف الرواة، هل صلاها النبي ﷺ أم لا؟ فمنهم المثبت ومنهم النافي. فمن العلماء من رجح رواية المثبت على النافي، جرياً على القاعدة المعروفة، لأنها تتضمن زيادة علم خفيت على النافي، قالوا: وقد يجوز أن يذهب علم مثل هذا.

قال الحاكم: وفي الباب عن أبي سعيد، وأبي ذر الغفاري، وزيد بن أرقم، وأبي هريرة، وبريدة الأسلمي، وأبي الدرداء، وعبد الله بن أبي أوفى، وعتبان بن مالك،

وعتبة بن عبد السلمي، ونعيم بن همار [١] الغطفاني، وأبي أمامة الباهلي، وعائشة بنت أبي بكر، وأم هانىء، وأم سلمة. كلهم شهدوا أن النبي ﷺ كان يصلي الضحى. انتهى.

فأما حديث أبي سعيد فأخرجه الحاكم والترمذي عن عطية العوفي عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى حتى نقول لا يدعها، ويدعها حتى نقول لا يصليها. وقال الترمذي: حسن غريب، لكن قال النووي: عطية ضعيف، فلعله اعتضد. وأما حديث أبي ذر الغفاري، فرواه البزار في مسنده. وأما حديث زيد بن أرقم، فرواه مسلم بلفظ «إن رسول الله ﷺ كان يصلي من الضحى» الحديث. وأما حديث أبي هريرة فرواه البزار في مسنده بلفظ: «إن رسول الله ﷺ كان لا يترك الضحى في سفر ولا في غيره. وإسناده ضعيف، فيه يوسف بن خالد السمتي ضعيف جداً. وأما حديث بريدة الأسلمي فرواه. . . » وأما حديث أبي الدرداء فرواه الطبراني.

وأما حديث ابن أبي أوفى، فرواه ابن عدي والحاكم بلفظ: قال رأيت رسول الله ﷺ صلى الضحى ركعتين يوم بشر برأس أبي جهل. قال بعض العلماء النافين لرواية المثبتين: هذا الحديث إن كان صحيحاً فهو صلاة شكر وقعت وقت الضحى، كشكره يوم فتح مكة. وأما حديث عتبان بن مالك، فرواه أحمد من رواية محمود بن الربيع عنه، أن النبي ﷺ صلى في بيته سبحة الضحى.

وأما حديث عتبة بن عبد فرواه[٢]. . .

وأما حديث نعيم بن همار فرواه[٣]. . .

وأما حديث أبي أمامة فرواه[٤]. . .

وأما حديث عائشة فرواه مسلم وأحمد وابن ماجه، قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى أربعاً، ويزيد ما شاء الله. وعن عبد الله بن شقيق قال: سألت عائشة، هل كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى قالت: لا إلا أن يجيء من مغيبه.

وأما حديث أم هانىء، فرواه البخاري ومسلم، قالت: إن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة فاغتسل وصلى ثماني ركعات، فلم أر صلاة قط أخف منها، غير أنه يتم الركوع

---

(١) في الأصل همام والصواب ما قاله الزرقاني في شرح المواهب: همار بتشديد الميم آخره راء أو هبار أو خمار. وقد أثبتنا الأول وهو ما في الإصابة ٦/ ٢٥٠ رقم الترجمة (٨٧٨٥).

(٢) هكذا في الأصل لم يذكر الحديث.

(٣) قال الزرقاني وقد رواه النسائي.

(٤) هكذا في الأصل لم يذكر الحديث. قال الزرقاني وقد رواه ابن جرير الطبري.

والسجود. قالت في رواية أخرى: وذلك ضحى. ولمسلم: أن رسول الله ﷺ صلى في بيتها عام الفتح ثماني ركعات في ثوب واحد، وقد خالف بين طرفيه. وللنسائي: أنها ذهبت إلى النبي ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة تستره بثوب. فسلمت فقال:
«من هذه»؟ قلت: أنا أم هانيء، فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفاً في ثوب واحد[1]. ولأبي داود: أن رسول الله ﷺ يوم الفتح صلى سبحة الضحى ثماني ركعات يسلم من كل ركعتين.

وقد استدل بحديث البخاري ومسلم على استحباب تخفيف صلاة الضحى، وفيه نظر، لاحتمال أن يكون السبب فيه التفرغ لمهمات الفتح لكثرة شغله به، وقد ثبت من فعله ﷺ أنه صلى الضحى فطول فيها، أخرجه ابن أبي شيبة من حديث حذيفة.

وأما حديث أم سلمة فرواه الحاكم من طريق إسحاق بن بشر المحاربي، قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي صلاة الضحى ثنتي عشرة ركعة. قلت: وروي عن ابن جبير بن مطعم عن أبيه: أنه رأى النبي ﷺ يصلي الضحى ست ركعات. رواه الحاكم أيضاً. وعن أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله ﷺ صلى في السفر سبحة الضحى ثماني ركعات. رواه أحمد، وصححه ابن خزيمة والحاكم. وعن علي: أن رسول الله ﷺ كان يصلي من الضحى، رواه النسائي في سننه الكبرى وأحمد وأبو يعلى، وإسناده جيد. وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان لا يصلي من الضحى إلا يومين، يوم يقدم مكة ويوم يقدم المدينة. وعن أبي بكرة عند ابن عدي في الكامل من رواية عمرو بن عبيد عن الحسن عن أبي بكرة قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى، فجاء الحسن وهو غلام فلما سجد ركب ظهره. الحديث، وعمرو بن عبيد متروك. وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ صلى الضحى ست ركعات رواه الحاكم.

قال الشيخ ولي الدين العراقي: وقد ورد فيها أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة، حتى قال محمد بن جرير الطبري: إنها بلغت حد التواتر. وقال ابن العربي: وهي كانت صلاة الأنبياء قبل محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، قال الله تعالى مخبراً عن داود: ﴿**إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق**﴾ [ص: ١٨] فأبقى الله تعالى من ذلك في دين محمد «العصر» ونسخ صلاة الإشراق.

واحتج القائلون بالنفي بحديث عائشة: إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليه ـ وما سبح رسول الله ﷺ سبحة الضحى فقط، وإني لأسبحها، رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود. وبحديث مورق العجلي

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (١٩١٨) وفي المسند ٦/٤٢٣ و ٤٢٥.

قال: قلت لابن عمر، أتصلي الضحى؟ قال: لا، قلت: فعمر؟ قال: لا، قلت: فأبو بكر؟ قال: لا، قلت: فالنبي ﷺ؟ قال: لا إخاله. رواه البخاري. وقوله: «لا إخاله» أي لا أظنه، وهو بكسر الهمزة وتفتح أيضاً، والخاء معجمة.

وقول الشعبي: سمعت ابن عمر يقول: ما ابتدع المسلمون أفضل من صلاة الضحى. وروى عن مجاهد قال: دخلت أنا وعروة بن الزبير المسجد، فإذا ابن عمر جالس عند حجرة عائشة، فإذا الناس في المسجد يصلون صلاة الضحى، فسألناه عن صلاتهم فقال بدعة. وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن الحكم بن الأعرج قال: سألت ابن عمر عن صلاة الضحى فقال بدعة ونعمت البدعة. وروى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن سالم عن أبيه قال: لقد قتل عثمان وما أحد يسبحها، وما أحدث الناس شيئاً أحب إلي منها.

وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث، بأنه ﷺ كان لا يداوم على صلاة الضحى مخافة أن تفرض على أمته فيعجزوا عنها، وكان يفعلها كما صرحت به عائشة كما تقدم، وكما ذكرته أم هانيء وغيرها.

وقول عائشة: «ما رأيته صلاها» لا يخالف قولها: «كان يصليها» لأنه ﷺ كان لا يكون عندها في وقت الضحى إلا في النادر من الأوقات، لأنه قد يكون مسافراً، وقد يكون حاضراً، وفي الحضر قد يكون في المسجد، وقد يكون في بيت من بيوت زوجاته، أو غيره، وما رأته صلاها في تلك الأوقات النادرة، فقالت: ما رأيته، وعلمت بغير رؤية أنه كان يصليها بإخباره ﷺ أو بإخبار غيره، فروت ذلك.

وقول ابن عمر: «لا إخاله» فتوقف، وكأن سبب توقفه أنه بلغه عن غيره أنه صلاها ولم يثق بذلك عمن ذكره. وأما قوله: «إنها بدعة» فمؤولة على أنه لم تبلغه الأحاديث المذكورة، أو أراد أنه ﷺ لم يداوم عليها، أو أن إظهارها في المساجد ونحوها بدعة، وإنما هي سنة نافلة في البيوت والله أعلم.

وبالجملة: فليس في أحاديث ابن عمر هذه ما يدفع مشروعية صلاة الضحى، لأن نفيه محمول على عدم رؤيته، لا على عدم الوقوع في نفس الأمر، أو الذي نفاه صفة مخصوصة كما قدمناه. وقد روى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود أنه رأى قوماً يصلونها فأنكر عليهم وقال: إن كان ولا بد ففي بيوتكم.

وذهب آخرون إلى استحباب فعلها غباً، فتصلى في بعض الأيام دون بعض، وكان ابن عباس يصليها يوماً ويدعها عشرة أيام. وذهب آخرون: إلى أنها تفعل لسبب من

الأسباب، وأنه ﷺ إنما صلاها يوم الفتح من أجل الفتح، وكان الأمراء يسمونها صلاة الفتح. متمسكين بما قاله القاضي عياض وغيره: أن حديث أم هانىء ليس بظاهر في أنه ﷺ قصد سنة الضحى، وإنما فيه أنها أخبرت عن وقت صلاته فقط، قال: وقد قيل إنها كانت قضاء عما شغل عنه تلك الليلة من حزبه فيها.

وتعقبه النووي: بأن الصواب صحة الاستدلال به، لما رواه أبو داود من طريق كريب عن أم هانىء أنه ﷺ صلى سبحة الضحى. ولمسلم: في كتاب الطهارة من طريق أبي مرة عن أم هانىء في قصة اغتساله ﷺ يوم الفتح، ثم صلى ثماني ركعات سبحة الضحى. وروى ابن عبد البر في «التمهيد» من طريق عكرمة بن خالد عن أم هانىء قالت: قدم رسول الله ﷺ مكة فصلى ثماني ركعات، فقلت: ما هذه الصلاة؟ قال: **«هذه صلاة الضحى»**.

واستدل به على أن أكثر الضحى ثمان ركعات. واستبعده السبكي. ووجَّه بأن الأصل في العبادة التوقف، وهذا أكثر ما ورد من فعله ﷺ. وقد ورد من فعله دون ذلك كحديث ابن أبي أوفى: أنه ﷺ صلى الضحى ركعتين، أخرجه ابن عدي.

وأما ما ورد من قوله ﷺ مما فيه زيادة على ذلك كحديث أنس مرفوعاً: «**من صلى الضحى ثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصراً في الجنة**»[1] أخرجه الترمذي واستغربه وليس في إسناده من أطلق عليه الضعف. ومن ثم قال الروياني: أكثرها ثنتا عشرة ركعة. وقال النووي في شرح المهذب: فيه حديث ضعيف، كأنه يشير إلى حديث أنس، لكن إذا ضم إليه حديث أبي الدرداء رفعه، وفيه «**ومن صلى ثنتي عشرة ركعة بنى الله له بيتاً في الجنة**»[2] رواه الطبراني. وحديث أبي ذر عند البزار، وفي إسناده ضعف أيضاً، قوي وصلح للاحتجاج به.

ونقل الترمذي عن أحمد: أن أصح شيء ورد في الباب حديث أم هانىء، وهو كما قال، ولهذا قال النووي في الروضة: أفضلها ثمان، وأكثرها ثنتا عشرة. ففرق بين الأكثر والأفضل.

وأجاب القائلون بأنها لا تفعل إلا لسبب عن قول أبي هريرة المروي في البخاري (**أوصاني خليلي ﷺ بثلاث، لا أدعهن حتى أموت، صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى**)[3] الحديث، بأنه قد روي أن أبا هريرة كان يختار درس الحديث بالليل على

(١) الحديث في الترمذي برقم (٤٧٣) وفي سنن ابن ماجه برقم (١٣٨٠) وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٥٧٥ وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٣/ ٣٦٨ وفي الدر المنثور ٥/ ٢٩٩ وفي الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ٤٦٣.

(٢) الحديث في النسائي ٣/ ٢٦٣ وفي صحيح ابن خزيمة (١١٨٩).

(٣) الحديث في البخاري برقم (١١٧٨) وفي المسند ٢/ ٢٣٣ و ٢٥٨ و ٢٦٠ وفي مجمع الزوائد ٢/ ٢١٧.

الصلاة، فأمره بالضحى بدلاً عن قيام الليل، ولهذا أمره أن لا ينام إلا على وتر، ولم يأمر بذلك أبا بكر ولا عمر ولا سائر الصحابة. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: وهذه الوصية لأبي هريرة ورد مثلها لأبي الدرداء فيما رواه مسلم، ولأبي ذر فيما رواه النسائي، قال: والحكمة في الوصية على المحافظة على ذلك تمرين النفس على جنس الصلاة والصيام ليدخل في الواجب منهما بانشراح، ولينجبر ما لعله يقع [فيه] من نقص. ومن فوائد صلاة الضحى أنها تجزىء [عن] الصدقة التي تصبح على مفاصل الإنسان [في كل يوم وهي] الثلاثمائة وستون مفصلاً، كما أخرجه مسلم من حديث أبي ذر، قال فيه: ويجزي [عن] ذلك ركعتا الضحى(1).

وقد ذكر أصحابنا الشافعية أنها أفضل التطوع بعد الرواتب، لكن النووي في شرح المهذب قدم عليها صلاة التراويح فجعلها في الفضل بين الرواتب والضحى.

وحكى الحافظ أبو الفضل العراقي في شرح الترمذي: أنه اشتهر بين العوام أن من صلى الضحى ثم قطعها يعمى، فصار كثير من الناس يتركها أصلاً لذلك، وليس لما قالوه أصل، بل الظاهر أنه مما ألقاه الشيطان على ألسنة العوام ليحرمهم الخير الكثير، لاسيما ما وقع في حديث أبي ذر واقتصر في الوصية للثلاثة المذكورين على الثلاثة المذكورة في الحديث، لأن الصلاة والصيام أشرف العبادات البدنية، ولم يكن المذكورون من أصحاب الأموال فكان يجزيهم من الصدقة على السلامي، كما في الحديث والله أعلم.

وروى الحاكم من طريق أبي الخير عن عقبة بن عامر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي الضحى بسور منها: ﴿**والشمس وضحاها**﴾ [الشمس: ١] ﴿**والضحى والليل**﴾ [الضحى: ١ و٢] ومناسبة ذلك ظاهرة جداً والله أعلم.

تنبيه: قال شيخ الإسلام والحفاظ أبو الفضل ابن حجر: قول عائشة في الصحيح «ما رأيت رسول الله ﷺ يسبح سبحة الضحى» يدل على ضعف ما روي عنه ﷺ أن صلاة الضحى كانت واجبة عليه. وقد عدها جماعة من العلماء من خصائصه ﷺ. ولم يثبت ذلك في خبر صحيح.

وقول الماوردي في «الحاوي» إنه ﷺ واظب عليها بعد يوم الفتح إلى أن مات. يعكر عليه ما رواه مسلم من حديث أم هانىء: «أنه لم يصلها قبل ولا بعد» ولا يقال إن نفي أم هانىء لذلك يلزم منه العدم، لأنا نقول: يحتاج من أثبته إلى دليل، ولو وجد لم يكن حجة،

---

(١) انظر فتح الباري ٣/٧٣ وما بين المعقوفتين تصويب من الفتح.

لأن عائشة ذكرت أنه كان إذا عمل عملاً أثبته، فلا تستلزم المواظبة على هذا الوجوب عليه، انتهى.

وقال ابن العربي في «عارضة الأحوذي»: أخبرنا أبو الحسن الأزدي أخبرنا طاهر، أخبرنا علي، أخبرنا أبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن العسكري، حدثنا الحسين الختني، حدثنا أبو غسان حدثنا قيس عن جابر عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «**كتب علي النحر ولم يكتب عليكم وأمرت بصلاة الضحى ولم تؤمروا بها**»[1]. رواه الدارقطني.

(١) الحديث في المسند ١/٣١٧ وفي السنن الكبرى ٧/٨٩ و ٩/٢٦٤ وفي المعجم الكبير ١١/٣٠١ وفي الدارقطني ٤/٢٨٢ وفي مشكاة المصابيح (٥٧٧٥) وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٢/٥١٣.

# في صلاته ﷺ النوافل وأحكامها وفيه بابان

## الباب الأول
## في النوافل المقرونة بالأوقات

وفيه فصلان:

### الفصل الأول
### في رواتب الصلوات الخمس والجمعة

### الفرع الأول: في أحاديث جامعة لرواتب مشتركة

عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يصلي قبل الظهر، ركعتين، وبعدها ركعتين، وبعد المغرب ركعتين في بيته، وبعد صلاة العشاء ركعتين، وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصلي في بيته ركعتين[(1)].

قال: وأخبرتني حفصة أن رسول الله ﷺ كان إذا سكت المؤذن من الأذان لصلاة الصبح، وبدا له الصبح صلى ركعتين خفيفتين قبل أن تقام الصلاة[(2)]. رواه البخاري. فهذه عشر ركعات، لأن الركعتين بعد الجمعة لا يجتمعان مع الركعتين بعد الظهر، إلا لعارض، بأن يصلي الجمعة وسنتها التي بعدها، ثم يتبين له فسادها فيصلي الظهر ويصلي بعدها سنتها كما نبه عليه الشيخ ولي الدين العراقي.

واختلف في دلالة «كان» على التكرار، وصحح ابن الحاجب أنها تقتضيه، قال: وهذا استفدناه من قولهم: كان حاتم يقري الضيف، وصحح الإمام فخر الدين في «المحصول» أنها لا تقتضيه، لا لغة ولا عرفاً، وقال النووي في شرح مسلم، إنه المختار

(1) الحديث في البخاري برقم (٩٣٧ ـ ١١٦٥ ـ ١١٧٢ ـ ١١٨٠).
(2) هذا حديث آخر في البخاري برقم (٦١٨) وهو في مسلم أيضاً برقم (٨٧) وفي النسائي ٣/ ٢٥٥ وفي المسند ٦/ ٢٨٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٨١.

الذي عليه الأكثرون والمحققون من الأصوليين. وذكر ابن دقيق العيد أنها تقتضيه عرفاً. فعلى هذا: ففي الحديث دلالة على تكرار هذه النوافل من النبي ﷺ وأنه كان دأبه وعادته.

وعن عائشة: كان ﷺ يصلي في بيته قبل الظهر أربعاً ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيصلي ركعتين، وكان يصلي بالناس المغرب ثم يدخل فيصلي ركعتين، ثم يصلي بالناس العشاء ويدخل بيتي فيصلي ركعتين، الحديث، وفي آخره: وكان إذا طلع الفجر صلى ركعتين. رواه مسلم. فهذه ثنتا عشرة ركعة[1]. وعنها: كان ﷺ لا يدع أربعاً قبل الظهر، وركعتين قبل الغداة[2] وفي رواية: لم يكن يتركهما سراً وعلانية، في سفر ولا حضر ركعتان قبل الصبح وركعتان بعد العصر. رواه البخاري ومسلم.

## الفرع الثاني: في ركعتي الفجر

قالت عائشة: لم يكن ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر[3]. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

ولمسلم: «**لهما أحب إلي من الدنيا جميعاً**»[4] وكان يصليهما إذا سكت المؤذن بعد أن يستنير الفجر ويخففهما. رواه الشيخان وهذا لفظ النسائي.

واختلف في حكمة تخفيفهما فقيل: ليبادر إلى صلاة الصبح في أول الوقت، وبه جزم القرطبي، وقيل: ليستفتح صلاة النهار بركعتين خفيفتين، كما كان يصنع في صلاة الليل كما تقدم، ليدخل في الفرض أو ما شابهه في الفضل بنشاط واستعداد تام.

وقد ذهب بعضهم إلى إطالة القراءة فيهما، وهو قول أكثر الحنفية، ونقل عن الشعبي، وأورد البيهقي فيه حديثاً مرفوعاً من مرسل سعيد بن جبير، وفي سنده راو لم يسم، وخص بعضهم ذلك بمن فاته شيء من قراءته في صلاة الليل، فيستدركها في ركعتي الفجر، وأخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح عن الحسن البصري.

كان كثيراً ما يقرأ في الأولى منهما ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا**﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية التي في البقرة، وفي الآخرة ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم**﴾ إلى قوله: ﴿**اشهدوا بأنا مسلمون**﴾ [آل عمران: ٦٤]. رواه مسلم وأبو داود والنسائي من رواية ابن عباس.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (١٠٥) وفي مشكاة المصابيح (١١٦٢) وفي إتحاف السادة المتقين ٣/ ٣٤٠ و ٥/ ١٤٥ وفي تفسير القرطبي ٨/ ٣٧٢.

(٢) الحديث في البخاري برقم (١١٨٢) وفي سنن أبي داود برقم (١٢٥٣).

(٣) هو في سنن أبي داود برقم (١٢٥٤).

(٤) الحديث في صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين باب (١٤) برقم (٩٧).

وفي رواية أبي داود، من حديث أبي هريرة ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا**﴾ [البقرة: ١٣٦] في الركعة الأولى، وبهذه الآية ﴿**ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين**﴾ [آل عمران: ٥٣] أو ﴿**إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم**﴾ [البقرة: ١١٩] قال أبو داود: شك الراوي.

وقال أبو هريرة: قرأ في ركعتي الفجر ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ [الكافرون: ١] و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ [الإخلاص: ١] رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

وقد روى ابن ماجه بإسناد قوي، عن عبد الله بن شقيق عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي ركعتين قبل الفجر، وكان يقول: «**نعم السورتان يقرأ بهما في ركعتي الفجر ﴿قل يا أيها الكافرون﴾** [الكافرون: ١] و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ [الإخلاص: ١]».

ولابن أبي شيبة من طريق ابن سيرين عن عائشة: كان يقرأ فيهما بهما. وللترمذي والنسائي من حديث ابن عمر: رمقت النبي ﷺ شهراً فكان يقرأ بهما.

وقد استدل بعضهم بهذا على الجهر بالقراءة في ركعتي الفجر، ولا حجة فيه، لاحتمال أن يكون ذلك عرف بقراءته بعض السورة، ويدل على ذلك أن في رواية ابن سيرين المذكورة: «يسر فيهما القراءة» وصححه ابن عبد البر.

واستدل بعضهم أيضاً بهذه الأحاديث المذكورة، على أنه لا تتعين الفاتحة، لأنه لم يذكرها مع سورتي الإخلاص. وأجيب: بأنه ترك ذكر الفاتحة لوضوح الأمر فيها. انتهى.

وكان ﷺ إذا صلى ركعتي الفجر اضطجع على شقه الأيمن[1]. رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة.

لأنه ﷺ كان يحب التيمن، وقد قيل: الحكمة فيه أن القلْب من جهة اليسار فلو اضطجع عليه لاستغرق نوماً، لكونه أبلغ في الراحة، بخلاف اليمين فيكون القلب معلقاً فلا يستغرق، وهذا إنما يصح بالنسبة إلى غيره ﷺ كما لا يخفى.

وأما ما روي أن ابن عمر رأى رجلاً يصلي ركعتي الفجر ثم اضطجع فقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: أردت أن أفصل بين صلاتي فقال له: وأي فصل أفضل من السلام، قال: فإنها سنة، قال: بل بدعة. رواه ابن الأثير في جامعه عن رزين. وكذا ما روي من إنكار ابن مسعود، ومن قول إبراهيم النخعي: إنها ضجعة الشيطان، كما أخرجهما ابن أبي شيبة[2]، فهو محمول على أنه لم يبلغهم الأمر بفعله.

---

(١) في البخاري برقم (١١٦٠).

(٢) انظر مصنف ابن أبي شيبة ٢٤٧/٢.

وأرجح الأقوال مشروعيته للفصل، لكن لم يداوم ﷺ [عليها]، ولذا احتج الأئمة على عدم الوجوب، وحملوا الأمر الوارد بذلك عند أبي داود وغيره على الاستحباب. وفائدة ذلك: الراحة والنشاط لصلاة الصبح، وعلى هذا فلا يستحب ذلك إلا [للتهجد]. وبه جزم ابن العربي. ويشهد لهذا ما رواه عبد الرزاق أن عائشة كانت تقول: إن النبي ﷺ لم يضطجع لسنة، ولكنه كان يدأب ليلته فيستريح. وفيه راوا لم يسم.

وقيل: فائدتها الفصل بين ركعتي الفجر وصلاة الصبح، وعلى هذا فلا اختصاص. ومن ثم قال الشافعي: إن السنة تتأدى بكل ما يحصل به الفصل من مشي وكلام وغيره، حكاه البيهقي. وقال النووي: المختار [أنه] سنة لظاهر حديث أبي هريرة، وقد قال أبو هريرة راوي الحديث: إن الفصل بالمشي إلى المسجد [لا] يكفي.

وأفرط ابن حزم فقال: يجب على كل أحد، وجعله شرطاً لصحة صلاة الصبح، فرد عليه العلماء بعده، حتى طعن ابن تيمية في صحة الحديث لتفرد عبد الواحد بن زياد به، وفي حفظه مقال، والحق: أنه تقوم به الحجة.

وذهب بعض السلف إلى استحبابها في البيت دون المسجد، وهو محكي عن ابن عمر. وقواه بعض شيوخنا[1]، بأنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه فعله في المسجد، وصح عن ابن عمر أنه كان يحصب من يفعله في المسجد، أخرجه ابن أبي شيبة[2]. وقال ﷺ: «من **لم يصل ركعتي الفجر، فليصلهما بعدما تطلع الشمس**»[3] رواه الترمذي من رواية أبي هريرة.

## الفرع الثالث في راتبة الظهر

عن ابن عمر: صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر وركعتين بعدها. رواه البخاري ومسلم والترمذي. وعن عائشة: كان ﷺ لا يدع أربعاً قبل الظهر، وركعتين قبل صلاة الغداة. رواه البخاري أيضاً:

فإما أن يقال: إنه ﷺ كان إذا صلى في بيته صلى أربعاً، وإذا صلى في المسجد صلى ركعتين، وهذا أظهر. وإما أن يقال: كان يفعل هذا وهذا، فحكى كل من عائشة وابن عمر ما شاهده، والحديثان صحيحان لا مطعن في واحد منهما.

---

(١) أي شيوخ ابن حجر.

(٢) انظر الفتح الباري ٣/ ٥٥ والتصويب منه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٢٧٤ والترمذي برقم (٤٢٣) والبغوي في شرح السنة ٣/ ٣٣٥ والقرطبي في التفسير ٢/ ٣٠٤ والهندي في كنز العمال (١٩٣٣١).

وقال أبو جعفر الطبري: الأربع كانت في كثير من أحواله، والركعتان في قليلها. انتهى. وقد يقال: إن الأربع التي قبل الظهر لم تكن سنة الظهر، بل هي صلاة مستقلة، كان يصليها بعد الزوال. وروى البزار من حديث ثوبان: إنه ﷺ كان يستحب أن يصلي بعد نصف النهار، فقالت عائشة: يا رسول الله، أراك تستحب الصلاة هذه الساعة، قال: «**تفتح فيها أبواب السماء، وينظر الله تعالى إلى خلقه بالرحمة، وهي صلاة كان يحافظ عليها آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى**»[1].

وعن عبد الله بن السائب: كان ﷺ يصلي أربعاً بعد أن تزول الشمس قبل الظهر، وقال: «**إنها ساعة تفتح لها أبواب السماء، وأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح**» رواه الترمذي. وروى الترمذي أيضاً حديث «**أربع قبل الظهر وبعد الزوال تحسب بمثلهن في السحر وما من شيء إلا وهو يسبح الله تعالى تلك الساعة**» ثم قرأ ﴿**يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون**﴾ [النحل: ٤٨].

فهذه ـ والله أعلم ـ هي الأربع التي أرادت عائشة أنه كان لا يدعهن. وأما سنة الظهر فالركعتان التي قال ابن عمر. ويوضح هذا أن سائر الصلوات سنتها ركعتان، وعلى هذا فتكون هذه الأربع ورداً مستقلاً، سببه انتصاف النهار وزوال الشمس. وسر هذا ـ والله أعلم ـ أن انتصاف النهار مقابل [لانتصاف] الليل، وأبواب السماء تفتح بعد زوال الشمس، ويحصل النزول الإلهي بعد انتصاف الليل، فهما وقت قرب رحمة، هذا فيه تفتح أبواب السماء، وهذا ينزل فيه الرب تبارك وتعالى عن حركة الأجسام[2].

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥/١٤٥ والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/٢١٩ والمنذري في الترغيب والترهيب ١/٤٠٠ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٣٤٦٣).

(٢) قال الإمام مالك في حديث النزول أنه: نزول رحمة لا نزول نقلة. والأولى أن يحمل هذا الحديث على نزول الملك بأمر الله. فقد أخرج النسائي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح عن النبي ﷺ: إن الله يمهل حتى إذا مضى شطر الليل الأول أمر منادياً فينادي هل من داع فيستجاب له..» الحديث: وعلى هذا يكون تفسير الرواية المشهورة «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا».. الحديث. والأحاديث الثابتة الإسناد بطريق الآحاد التي توهم التجسيم والمكان فإنها تؤول. وقد احتاط العلماء في الإحتجاج بالأخبار الواردة في الصفات حتى أن بعضهم اشترط للإحتجاج بالخبر في الصفات أن يكون الحديث قطعي الثبوت يعني المتواتر وعلى ذلك كثير من الأشاعرة. وتوسط بعضهم وهم الماتريدية أصحاب أبي حنيفة فشرطوا للإحتجاج بالحديث أن يكون مشهوراً مستفيضاً وهو أقل من المتواتر إذ لا يراعى فيه إلا أن يكون من رواية ثلاثة فأكثر.

وقد اشترط الحافظ ابن حجر أن يكون الحديث الوارد في الصفات متفقاً على ثقة رواته ومثل ذلك ذكر الذهبي فلا سبيل إلى الإحتجاج بالخبر المختلف في رواته.

## الفرع الرابع في سنة العصر

عن علي: كان ﷺ يصلي قبل العصر ركعتين. رواه أبو داود. وعن علي أيضاً: كان ﷺ يصلي قبل العصر أربع ركعات يفصل بينهن بالتسليم على الملائكة المقربين ومن تبعهم من المسلمين والمؤمنين. رواه الترمذي. وروي مرفوعاً أيضاً حديث «**رحم الله امرأً صلى قبل العصر أربعاً**»[1].

وقالت عائشة: ما كان ﷺ يأتيني في يومي بعد العصر إلا صلى ركعتين، وفي رواية: ما ترك ركعتين بعد العصر عندي قط. رواه البخاري ومسلم. ولمسلم: أن أبا سلمة سألها عن السجدتين اللتين كان يصليهما بعد العصر فقالت: كان يصليهما قبل العصر، ثم إنه شغل عنهما ونسيهما فصلاهما بعد العصر، ثم أثبتهما، وكان إذا صلى صلاة أثبتها، تعني داوم عليها. ولأبي داود، قالت: كان يصلي بعد العصر ركعتين وينهى عنهما، ويواصل وينهى [عن] الوصال[2].

وقال ابن عباس: إنما صلى ﷺ ركعتين بعد العصر، لأنه اشتغل بقسمة مال أتاه عن الركعتين اللتين بعد الظهر فقضاهما بعد العصر، ثم لم يعد لهما. رواه الترمذي.

وقالت أم سلمة: سمعته ﷺ ينهى عنهما، ثم رأيته يصليهما حين صلى العصر، ثم سألته عنهما فقال: «**إنه أتاني أناس من عبد القيس بالإسلام فشغلوني عن الركعتين بعد الظهر، فهما هاتان**»[3]، الحديث. وفيه: أن ابن عباس قال: كنت أضرب مع عمر بن الخطاب الناس عنهما.

قال ابن القيم: قضاء السنن الرواتب في أوقات النهي عام له ولأمته، وأما المداومة على تلك الركعتين في وقت النهي فخاص به، قال: وقد عد هذا من خصائصه. انتهى. والدليل عليه رواية عائشة: كان يصلي ركعتين بعد العصر وينهى عنهما ويواصل وينهى عن الوصال. لكن قال البيهقي: الذي اختص به ﷺ المداومة على ذلك، لا أصل القضاء.

وأما رواية ابن عباس عند الترمذي: أنه إنما صلاهما بعد العصر لأنه اشتغل بقسمة

---

(١) رواه أحمد بن حنبل في المسند ٢/ ١١٧ وأبو داود برقم (١٢٧١) والترمذي (٤٣٠) والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٧٣ والهيثمي في موارد الظمآن (٦١٦) والتبريزي في مشكاة المصابيح (١١٧٠٥) والبغوي في شرح السنة ٣/ ٤٧٠ وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٢٤٧ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٩٣٩٠ ـ ١٩٤١٠) وصححه ابن حبان من حديث ابن عمر وحسنه الترمذي.

(٢) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٢٨٠) ويواصل: أي في الصيام.

(٣) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٥٧.

مال أتاه. فهو من رواية جرير عن عطاء، وقد سمع منه بعد اختلاطه، وإن صح فهو شاهد لحديث أم سلمة، لكن ظاهر قوله: «ثم لم يعد» معارض لحديث عائشة المذكور في الباب، فيحمل النفي على نفي علم الراوي، فإنه لم يطلع على ذلك، والمثبت مقدم على النافي».

وكذا ما رواه النسائي من طريق أبي سلمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ صلى في بيتها بعد العصر ركعتين مرة واحدة، الحديث، وفي رواية له عنها: لم أره يصليهما قبل ولا بعد. فيجمع بين الحديثين بأنه ﷺ لم يكن يصليهما إلا في بيته، فلذلك لم يره ابن عباس ولا أم سلمة. ويشير إلى ذلك قول عائشة في رواية: «وكان لا يصليهما في المسجد مخافة أن يثقل على أمته».

ومراد عائشة بقولها: «ما كان في يومي بعد العصر إلا صلى ركعتين» من الوقت الذي شغل عن الركعتين بعد الظهر فصلاهما. ولم ترد أنه كان يصلي بعد العصر من أول ما فرضت الصلوات مثلاً إلى آخر عمره، والله أعلم.

## الفرع الخامس في راتبة المغرب

عن ابن مسعود قال: ما أحصي ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب، وفي الركعتين قبل صلاة الفجر بـ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [الكافرون: ١] و ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١] رواه الترمذي. وعن ابن عباس: كان ﷺ يطيل القراءة في الركعتين بعد المغرب حتى يتفرق أهل المسجد[1]، رواه أبو داود.

وكان أصحابه عليه السلام يصلون ركعتين قبل المغرب قبل أن يخرج إليهم ﷺ. رواه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث أنس. وفي رواية أبي داود، قال أنس: رآنا ﷺ فلم يأمرنا ولم ينهنا. وقال عقبة: كنا نفعله على عهده، ﷺ. رواه البخاري ومسلم.

وظاهره: أن الركعتين بعد الغروب وقبل صلاة المغرب كان أمراً قرر أصحابه عليه، وعملوا به، وهذا يدل على الاستحباب، وأما كونه ﷺ لم يصلهما فلا ينفي الاستحباب، بل يدل على أنهما ليسا من الرواتب، وإلى استحبابهما ذهب أحمد وإسحاق وأصحاب الحديث. وعن ابن عمر: ما رأيت أحداً يصليهما على عهده ﷺ. وعن الخلفاء الأربعة وجماعة من الصحابة أنهم كانوا لا يصلونهما. فادعى بعض المالكية نسخهما، وتعقب: بأن

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٣٠١ ـ ١٣٠٢) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ١٩٠ وفي المشكاة للتبريزي (١١٨٣).

دعوى النسخ لا دليل عليها، ورواية المثبت ـ وهو أنس ـ تقدم على رواية النافي ـ وهو ابن عمر ـ.

وعن سعيد بن المسيب أنه كان يقول: حق على كل مؤمن إذا أذن المؤذن أن يركع ركعتين. وعن مالك قول آخر باستحبابهما، وهو عند الشافعية وجه رجحه النووي ومن تبعه، وقال في شرح مسلم: قول من قال: «إن فعلهما يؤدي إلى تأخير المغرب عن أول وقتها» خيال فاسد منابذ للسنة، ومع ذلك فزمنهما يسير، لا تتأخر به الصلاة عن أول وقتها. ومجموع الأدلة يرشد إلى استحباب تخفيفهما.

وقال ﷺ: «**صلوا قبل المغرب ركعتين لمن شاء**»[1] خشية أن يتخذها الناس سنة. رواه أبو داود. قال المحب الطبري: لم يرد نفي استحبابهما، لأنه لا يمكن أن يأمر بما لا يستحب، بل هذا الحديث من أقوى الأدلة على استحبابهما. ومعنى قوله: «سنة» أي شريعة وطريقة لازمة. وكأن المراد انحطاط مرتبتهما عن رواتب الفرائض، ولهذا لم يعدهما أكثر الشافعية في الرواتب، واستدركهما بعضهم. وتعقب: بأنه لم يثبت أنه ﷺ واظب عليهما.

وقال ﷺ في الصلاة بعد المغرب: «**هذه صلاة البيوت**»[2]، رواه أبو داود والنسائي من حديث كعب بن عجرة. وعنه ﷺ «**من صلى بعد المغرب ركعتين قبل أن يتكلم رفعت صلاته في عليين**»[3]. رواه رزين.

## الفرع السادس في راتبة العشاء

قالت عائشة: ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط فدخل بيتي إلا صلى أربع ركعات، أو ست ركعات. رواه أبو داود. وفي مسلم قالت عائشة: ثم يصلي بالناس العشاء فيدخل بيتي فيصلي ركعتين. وكذا في حديث ابن عمر عند الشيخين. وتقدما أول هذا القسم، والله أعلم.

## الفرع السابع في راتبة الجمعة

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ كان يصلي قبل الظهر ركعتين، وبعدها ركعتين،

---

(١) الحديث في البخاري برقم (١١٨٣) وفي سنن أبي داود برقم (١٢٨١) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٧٤ وفي صحيح ابن خزيمة (١٢٨٩) وفي سنن الدارقطني ٢/ ٢٦٥ وفي مشكاة المصابيح (١١٦٥) وفي إتحاف السادة المتقين ٣/ ٣٥٠ وفي شرح السنة للبغوي ٣/ ٤٧١ وفي كنز العمال (١٩٤١٨).

(٢) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٣٠٠) وفي إتحاف السادة المتقين ٣/ ٣٤٩ وفي مشكاة المصابيح (٧٨٢) وفي كنز العمال (١٩٤٢٤).

(٣) قال الحافظ العراقي: سنده ضعيف.

وبعد المغرب ركعتين في بيته، وبعد العشاء ركعتين، وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصلي ركعتين. رواه البخاري ولم يذكر شيئاً في الصلاة قبل صلاة الجمعة.

قال ابن المنير ـ كما حكاه في فتح الباري ـ: كأنه يقول الأصل استواء الظهر والجمعة حتى يدل دليل على خلافه، لأن الجمعة بدل الظهر.

وقال ابن بطال: إنما أعاد ابن عمر ذكر الجمعة بعد ذكر الظهر من أجل أنه كان ﷺ يصلي سنة الجمعة في بيته بخلاف الظهر، قال: والحكمة فيه أن الجمعة لما كانت بدل الظهر واقتصر فيها على ركعتين ترك التنفل بعدها في المسجد خشية أن يظن أنها التي حذفت. انتهى.

وعلى هذا فينبغي أن لا يتنفل قبلها ركعتين متصلتين بها في المسجد لهذا المعنى. وقد روى أبو داود وابن حبان من طريق أيوب عن نافع قال: كان ابن عمر يطيل الصلاة قبل الجمعة ويصلي بعدها ركعتين في بيته، ويحدث أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك، وقد احتج به النووي في «الخلاصة» على إثبات سنة الجمعة التي قبلها.

وتعقب: بأن قوله: «كان يفعل ذلك» عائد على قوله: «ويصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته»، ويدل عليه رواية الليث عن نافع عن عبد الله: أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فسجد سجدتين في بيته ثم قال: كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك. رواه مسلم.

وأما قوله: «كان يطيل الصلاة قبل الجمعة» فإن كان المراد بعد دخول الوقت فلا يصح أن يكون مرفوعاً، لأنه ﷺ كان يخرج إذا زالت الشمس فيشتغل بالخطبة ثم بصلاة الجمعة، وإن كان المراد قبل دخول الوقت فذلك مطلق نافلة لا صلاة راتبة، فلا حجة فيه لسنة الجمعة التي قبلها، بل هو تنفل مطلق.

وقد أنكر جماعة كون الجمعة لها سنة قبلها، وبالغوا في الإنكار منهم: الإمام شهاب الدين أبو شامة[1]، لأنه لم يكن يؤذن للجمعة إلا بين يديه ﷺ وهو على المنبر، فلم يكن يصليها، وكذلك الصحابة لأنه إذا خرج الإمام انقطعت الصلاة. قال ابن العراقي: ولم أر في كلام الفقهاء من الحنفية والمالكية استحباب سنة الجمعة التي قبلها. انتهى. وقد ورد في سنة الجمعة التي قبلها أحاديث أخرى ضعيفة، منها عن أبي هريرة، رواه البزار، ولفظه:

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي أبو القاسم شهاب الدين أبو شامة (٥٩٩ ـ ٦٦٥ هـ) محدّث مؤرخ باحث توفي في دمشق الأعلام ٣/ ٢٩٩ فوات الوفيات ٢/ ٢٦٩ رقم الترجمة (٢٥١) وطبقات الشافعية للسبكي ٥/ ٦١ والبداية والنهاية ١٣/ ٢٥٠ غاية النهاية ١/ ٣٦٥ بغية الوعاة (٢٩٧) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٦٠ رقم الترجمة (١١٥٧).

كان يصلي قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً.

وأقوى ما يتمسك به في مشروعية الركعتين قبل الجمعة عموم ما صححه ابن حبان من حديث عبد الله بن الزبير مرفوعاً: «**ما من صلاة مفروضة إلا وبين يديها ركعتان**». قاله في فتح الباري.

وعن عطاء قال: كان ابن عمر إذا صلى الجمعة بمكة تقدم فصلى ركعتين ثم يتقدم فيصلي أربعاً، وإذا كان بالمدينة صلى الجمعة ثم رجع إلى بيته فيصلي ركعتين ولم يصل في المسجد، فقيل له: فقال: كان رسول الله ﷺ يفعله. رواه أبو داود.

وفي رواية الترمذي: قال: رأيت ابن عمر صلى بعد الجمعة ركعتين ثم صلى بعد ذلك أربعاً. وعن ابن عمر أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بعد الجمعة ركعتين. رواه النسائي، وفي رواية أنه كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته. وفي أخرى: أن ابن عمر كان يصلي بعد الجمعة ركعتين يطيل فيهما ويقول: كان رسول الله ﷺ يفعله.

وتقدم حديث دخول سليك الغطفاني يوم الجمعة، وهو ﷺ يخطب، وقوله ﷺ له: «**صليت؟**» قال: لا، قال: «**قم فاركع ركعتين**». مع ما فيه من المباحث في صلاة الجمعة.

## الفصل الثاني
## في صلاته ﷺ العيدين

وفيه فروع:

### الفـــرع الأول في عدد الركعات

عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ خرج يوم عيد فصلى ركعتين لم يصل قبلهما ولا بعدهما، ثم أتى النساء وبلال معه، فأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تتصدق بخرصها[1] وسخابها[2]. وفي رواية: خرج يوم أضحى أو فطر، وفي أخرى: أن النبي ﷺ صلى يوم الفطر ركعتين. الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

---

(١) الخرص: القرط بحبة واحدة وقيل هي الحلقة من الذهب والفضة. انظر لسان العرب ٤/ ٦٣ مادة (خرص).

(٢) السخاب: قلادة تتخذ من قرنفل ومسك ومحلب ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء: قال ابن الاثير: السخاب: هو خيط ينظم فيه خرز تلبسه الصبيان والجواري. انظر لسان العرب ٦/ ٢٠١ مادة (سخب).

## الفـرع الثـاني في عدد التكبير

عـن عـائشـة أن رسـول الله ﷺ كـان يكبـر فـي الفطـر والأضحـى، فـي الأولـى سبـع تكبيرات، وفي الثانية: خمس تكبيرات. زاد في رواية: سوى تكبير الإحرام والركوع.

وعن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ كبر في العيدين، في الأولى سبعاً قبل القراءة، وفي الأخرى خمساً قبل القراءة. رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي.

## الفـرع الثـالث في الوقت والمكان

عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى، فأول شيء يبدأ به الصلاة. الحديث رواه البخاري ومسلم. وفي هذا دليل لمن قال باستحباب الخروج لصلاة العيد إلى المصلى، وأنه أفضل من صلاتها في المسجد، لمواظبته ﷺ على ذلك، مع فضل مسجده، وعلى هذا عمل الناس في الأمصار. وأما أهل مكة فلا يصلونها إلا في المسجد من الزمن الأول. ولأصحابنا الشافعية وجهان: **أحدهما**، الصحراء أفضل لهذا الحديث، **والثاني**: وهو الأصح عند أكثرهم، المسجد أفضل إلا أن يضيق، قالوا: وإنما صلى أهل مكة في المسجد لسعته، وإنما خرج النبي ﷺ لضيق المسجد، فدل على أن المسجد أفضل إذا اتسع. والمراد بالمصلى المذكور، الذي على باب المدينة الشرقي.

قال ابن القيم: ولم يصل العيد بمسجده إلا مرة واحدة، أصابهم مطر فصلى بهم العيد في المسجد، إن ثبت الحديث، وهو في سنن أبي داود وابن ماجه. انتهى. ولفظ أبي داود: عن أبي هريرة قال: أصابنا مطر في يوم فطر فصلى بنا رسول الله ﷺ في المسجد. زاد رزين: ولم يخرج بنا إلى المصلى.

## الفـــرع الرابع في الأذان والإقامة

عن جابر بن سمرة قال: صليت مع رسول الله ﷺ العيدين غير مرة ولا مرتين بغير أذان ولا إقامة. رواه مسلم وأبو داود والترمذي. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ صلى العيد بلا أذان ولا إقامة. رواه أبو داود.

## الفـــرع الخامس في قراءته ﷺ في صلاة العيدين

عن أبي واقد الليثي قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الأضحى والفطر بـ ﴿**ق والقرآن المجيد**﴾ [ق: ١] و ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ [القمر: ١]. رواه مسلم ومالك وأبو داود والترمذي. وعن النعمان بن بشير قال: كان النبي ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة

بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: ١] و ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ [الغاشية : ١]. وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأ بهما. رواه مسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي.

## الفـرع السادس في خطبته ﷺ وتقديمه صلاة العيدين عليها

عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يصلون العيدين قبل الخطبة. رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي. وعن جابر: أنه ﷺ خرج يوم الفطر، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة.

وفي رواية: قام فبدأ بالصلاة ثم خطب الناس فلما فرغ نزل فأتى النساء فذكرهن، وهو يتوكأ على يد بلال، وبلال بأسط ثوبه تلقي فيه النساء الصدقة.

وفي أخرى، قال: شهدت مع رسول الله ﷺ العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بلا أذان ولا إقامة، ثم قام متوكئاً على بلال، فأمر بتقوى الله، وحث على طاعته، ووعظ الناس وذكرهم، ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن فقال: «**تصدقن، فإن أكثركن حطب جهنم**»، فقامت امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين[١]، فقالت: لم يا رسول الله؟ قال: «**لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير**». قال: فجعلن يتصدقن من حليهن ويلقين في ثوب بلال من أقراطهن وخواتيمهن[٢]. رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية أبي سعيد الخدري عند البخاري: فأول شيء يبدأ به الصلاة، ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس، والناس على صفوفهم، فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم، فإن كان يريد أن يقطع بعثاً قطعه، أو يأمر بشيء أمر به، ثم ينصرف. قال أبو سعيد: فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان، وهو أمير المدينة في أضحى أو فطر، فلما أتينا المصلى إذا منبر بناه كثير بن الصلت، فإذا مروان يريد أن يرتقيه، فقلت له: غيرتم والله. الحديث[٣].

ولابن خزيمة: خطب ﷺ يوم عيد على رجليه. وهذا يشعر بأنه لم يكن في المصلى في زمانه ﷺ منبر، ويدل على ذلك قول أبي سعيد: «فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان» ومقتضاه أن أول من اتخذه مروان[٤].

ووقع في المدونة للإمام مالك: أن أول من خطب الناس في المصلى على منبر

---

(١) سفعاء الخدين: أي امرأة سوداء الخدين انظر اللسان ٦/٢٨١ مادة (سفع).
(٢) الحديث في البخاري برقم (٩٧٩).
(٣) هو أيضاً في البخاري برقم (٩٥٦).
(٤) انظر المدونة ١/٢٤٦.

عثمان بن عفان، كلمهم على منبر من طين بناه كثير بن الصلت،لكنه معضل، وما في الصحيحين أصح، فقد رواه مسلم من طريق داود بن قيس نحو رواية البخاري. ويحتمل أن يكون عثمان فعل ذلك مرة ثم تركه حتى أعاده مروان ولم يطلع على ذلك أبو سعيد. قاله شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله تعالى.

## الفـــرع السابع في أكله ﷺ يوم الفطر قبل خروجه إلى الصلاة

عن أنس: كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات. رواه البخاري وقال: مرجأ بن رجاء حدثني عبيد الله حدثني أنس عن النبي ﷺ: ويأكلهن وتراً. ورواه الحاكم من رواية عتبة بن حميد عنه بلفظ: ما خرج يوم فطر حتى يأكل تمرات، ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً أو أقل من ذلك أو أكثر وتراً.

قال المهلب: الحكمة في الأكل قبل الصلاة، أن لا يظن ظان لزوم الصوم حتى يصلي العيد، فكأنه أراد سد هذه الذريعة.

وقال غيره: لما وقع وجوب الفطر عقب وجوب الصوم استحب تعجيل الفطر مبادرة إلى امتثال أمر الله تعالى، ويشعر بذلك اقتصاره على القليل من ذلك، ولو كان لغير الامتثال لأكل قدر الشبع، أشار إلى ذلك ابن أبي جمرة.

وقيل: لأن الشيطان الذي يحبس في رمضان لا يطلق إلا بعد صلاة العيد فاستحب تعجيل الفطر بداراً إلى السلامة من وسوسته.

والحكمة في استحباب التمر لما في الحلو من تقوية البصر الذي يضعفه الصوم، ولأن الحلو مما يوافق الإيمان ويعبر به في المنام، ويرق القلب، ومن ثم استحب بعض التابعين أن يفطر على الحلو مطلقاً كالعسل. رواه ابن أبي شيبة عن معاوية بن قرة وابن سيرين وغيرهما.

وفي الترمذي والحاكم من حديث بريدة قال: كان رسول الله ﷺ لا يخرج يوم الفطر حتى يطعم ولا يطعم يوم الأضحى حتى يصلي، ونحوه عند البزار عن جابر بن سمرة. وروى الطبراني والدارقطني من حديث ابن عباس قال: من السنة أن لا يخرج يوم الفطر حتى يخرج الصدقة ويطعم شيئاً قبل أن يخرج. وفي كل من الأسانيد الثلاثة مقال.

وقد أخذ أكثر الفقهاء بما دلت عليه. قال ابن المنير: وقع أكله ﷺ في كل من العيدين في الوقت المشروع لإخراج صدقتهما الخاصة بهما، فإخراج صدقة الفطر قبل الغدو إلى المصلى، وإخراج صدقة الأضحية بعد ذبحها، فاجتمعا من جهة، وافترقا من أخرى.

وقال الشافعي في الأم: بلغنا عن الزهري قال: ما ركب رسول الله ﷺ في عيد ولا جنازة قط[1]. وفي الترمذي عن علي قال: من السنة أن يخرج إلى العيد ماشياً، وفي ابن ماجه عن سعد القرظي أنه ﷺ كان يخرج إلى العيد ماشياً، وفيه عن أبي رافع نحوه، وأسانيد الثلاثة ضعاف. وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج يوم العيد في طريق رجع في غيره. رواه الترمذي.

وقد اختلف في معنى ذلك على أقوال كثيرة، قال الحافظ ابن حجر: اجتمع لي منها أكثر من عشرين، وقد لخصتها وبينت الواهي منها.

فمن ذلك: أنه فعل ذلك ليشهد له الطريقان، وقيل: سكانهما من الجن والإنس، وقيل: ليسوي بينهما في مزية الفضل بمروره وفي التبرك، أو ليشم رائحة المسك من الطريق التي يمر بها لأنه كان معروفاً بذلك. وقيل: لأن طريقه إلىٰ المصلى كانت على اليمين، فلو رجع منها لرجع على جهة الشمال فرجع من غيرها. وهذا يحتاج إلى دليل.

وقيل: لإظهار شعائر الإسلام فيهما، وقيل: لإظهار ذكر الله، وقيل: ليغيظ المنافقين أو اليهود، وقيل حذراً من كيد الطائفتين أو إحداهما، وقيل ليعمهم بالسرور به أو التبرك بمروره والانتفاع به في قضاء حوائجهم في الاستفتاء أو التعليم والاقتداء، والاسترشاد والسلام عليهم أو غير ذلك، وقيل ليزور أقاربه الأحياء والأموات، وقيل: ليصل رحمه، وقيل ليتفاءل بتغير الحال إلى المغفرة والرضا، وقيل: كان يتصدق في ذهابه فإذا رجع لم يبق معه شيء فيرجع في طريق آخر لئلا يرد من يسأله. وهذا ضعيف جداً مع احتياجه إلى دليل.

وقيل فعل ذلك لتخفيف الزحام، وهذا رجحه الشيخ أبو حامد، وقيل كان طريقه التي يتوجه منها أبعد من التي يرجع فيها، فأراد تكثير الأجر بتكثير الخطا في الذهاب، وأما في الرجوع فيسرع إلى منزله، وهذا اختيار الرافعي. وتعقب بأنه يحتاج إلى دليل وبأن أجر الخطا في الرجوع أيضاً، كما ثبت في حديث أبي بن كعب عند الترمذي وغيره، وقيل: لأن الملائكة تقف في الطرقات فأراد أن يشهد له فريقان منهم. وقال ابن أبي جمرة: هو في معنى قول يعقوب لبنيه: لا تدخلوا من باب واحد، فأشار إلى أنه فعل حذر إصابة العين. انتهى.

وكان ﷺ يخرج الأبكار والعواتق وذوات الخدور والحيض في العيدين، فأما الحيض فيعتزلن المصلى ويشهدن دعوة المسلمين. قالت إحداهن: يا رسول الله إحدانا لم يكن لها

---

(١) انظر كتاب الأم للشافعي ١/ ٢٣٣.

جلباب، قال: «**فلتعرها أختها من جلابيبها**»[1]. رواه البخاري ومسلم والترمذي واللفظ له.

ولا دلالة فيه على وجوب صلاة العيد، لأن من جملة من أمر بذلك من ليس بمكلف، فظهر أن القصد منه إظهار شعائر الإسلام بالمبالغة في الاجتماع، ولتعم الجميع البركة.

وفيه: استحباب خروج النساء إلى شهود العيد، سواء كن شواب أم لا، أو ذوات هيئات أم لا، لكن نص الشافعي في الأم يقتضي استثناء ذوات الهيئات. قال: وأحب شهود العجائز غير ذوات الهيئات الصلاة. وأما شهودهن الأعياد فأشد استحباباً[2].

وادعى بعضهم النسخ فيه، وقال الطحاوي: وأمره ﷺ بخروج الحيض وذوات الخدور إلى العيد يحتمل أن يكون في أول الإسلام، والمسلمون قليل، فأريد التكثير بحضورهن إرهاباً للعدو. وأما اليوم فلا يحتاج إلى ذلك.

وتعقب: بأن النسخ لا يثبت بالاحتمال، وقد صرح في حديث أم عطية بعلة الحكم، وهي شهودهن الخير ودعوة المسلمين، ورجاء بركة ذلك اليوم وطهرته، وقد أفتت به أم عطية بعد النبي ﷺ بمدة، ولم يثبت عن أحد من الصحابة مخالفتها في ذلك.

وأما قول عائشة: «لو رأى النبي ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد» فلا يعارض ذلك لندوره، إن سلمنا أن فيه دلالة على أنها أفتت بخلافه، مع أن الدلالة منه بأن عائشة أفتت بالمنع ليست صريحة.

وفي قول الطحاوي: «إرهاباً للعدو» نظر، لأن الاستنصار بالنساء والتكثير بهن في الحرب دال على الضعف. والأولى: أن يخص ذلك بمن يؤمن عليها وبها الفتنة، فلا يترتب على حضورها محظور، ولا تزاحم الرجال في الطرق ولا في المجامع. قاله في فتح الباري.

وكان ﷺ يخرج العنزة[3] يوم الفطر والأضحى يكرزها فيصلي إليها. رواه النسائي وغيره.

وإذا علمت هذا فاعلم أن للمؤمنين في هذه الدار ثلاثة أعياد، عيد يتكرر كل أسبوع،

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٩٨٠) وفي صحيح مسلم (١٢) وفي سنن ابن ماجه برقم (١٣٠٧) وفي المسند ٥/ ٨٥ وفي مسند الحميدي (٣٦١).
(٢) انظر كتاب الأم للشافعي ١/ ٢٤٠.
(٣) وهي الحربة القصيرة.

وعيدان يأتيان في كل عام مرة من غير تكرار في السنة. فأما العيد المتكرر فهو يوم الجمعة، وهو عيد الأسبوع، وهو مترتب على إكمال الصلوات المكتوبات من الله تعالى فشرع لهم فيه عيداً. وأما العيدان اللذان لا يتكرران في كل عام، وإنما يأتي كل واحد منهما في العام مرة واحدة:

**فأحدهما**: عيد الفطر من صوم رمضان، وهو مرتب على إكمال صيام رمضان، وهو الركن الثالث من أركان الإسلام ومبانيه، فإذا أكمل المسلمون صيام شهر رمضان المفروض عليهم استوجبوا من الله المغفرة والعتق من النار، فإن صيامه يوجب مغفرة ما تقدم من الذنب، وآخره عتق من النار يعتق الله فيه من النار من استحقها بذنوبه، فشرع الله تعالى لهم عقب صيامهم عيداً يجتمعون فيه على شكر الله تعالى وذكره وتكبيره على ما هداهم له، وشرع لهم في ذلك العيد الصلاة والصدقة، وهو يوم الجوائز يستوفي فيه الصائمون أجر صيامهم ويرجعون بالمغفرة.

**والعيد الثاني عيد النحر**: وهو أكبر العيدين وأفضلهما، وهو مرتب على إكمال الحج وهو الركن الرابع من أركان الإسلام ومبانيه، فإذا أكمل المسلمون حجهم غفر لهم، وإنما يكمل الحج بيوم عرفة، فإن الوقوف بعرفة ركن الحج الأعظم، ويوم عرفة هو يوم العتق من النار، فيعتق الله فيه من النار من وقف بعرفة ومن لم يقف بها من أهل الأمصار من المسلمين، فلذلك صار اليوم الذي يليه عيداً لجميع المسلمين في جميع أمصارهم، من شهد الموسم منهم ومن لم يشهد، لاشتراكهم في العتق والمغفرة يوم عرفة، وشرع للجميع التقرب إليه تعالى بالنسك بإراقة دماء ضحاياهم، فيكون ذلك اليوم شكراً منهم لهذه النعمة، والصلاة والنحر الذي يجتمع في عيد النحر أفضل من الصلاة والصدقة في عيد الفطر، ولهذا أمر رسول الله ﷺ أن يجعل شكره لربه على إعطائه الكوثر أن يصلي لربه وينحر.

وقد ضحى ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر. رواه البخاري من حديث أنس، قال: ورأيته واضعاً قدميه على صفاحهما، يقول: «**بسم الله والله أكبر**». وعن عائشة: أنه ﷺ أمبر بكبش يطأ في سواد[1]، ويبرك في سواد[2]، فأتي به ليضحي به، قال: «**يا عائشة، هلمي المدية**»، ثم قال: «**اشحذيها بحجر**» ففعلت، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه، قال: «**بسم الله اللهم تقبل عن محمد وآل محمد ومن أمة محمد**» ثم ضحى به[3] رواه مسلم.

---

(١) يطأ في سواد: أي قوائمه سود

(٢) يبرك في سواد: أي أن ملاقى محل بروكه على الأرض من بدنه أسود.

(٣) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩) وفي سنن أبي داود (٢٧٩٢) وفي المسند ٧٨/٦ وفي السنن=

وعن جابر: ذبح النبي ﷺ يوم النحر كبشين أقرنين أملحين موجوءين[1]، فلما وجههما قال: «**إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض، على ملة إبراهيم حنيفاً، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك عن محمد وأمته، بسم الله والله أكبر**» ثم ذبح. رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه والدارمي.

وفي رواية لأحمد والترمذي: ذبح بيده وقال: «**بسم الله والله أكبر، اللهم إن هذا عني وعمن لم يضح من أمتي**»[2]. فهذه أعياد المسلمين في الدنيا، وكلها عند إكمال طاعات مولاهم الملك الوهاب، وحيازتهم لما وعدهم من جزيل الأجر والثواب، فليس العيد لمن لبس الجديد، إنما العيد لمن طاعاته تزيد، وليس العيد لمن تجمل باللباس والمركوب، وإنما العيد لمن غفرت له الذنوب، في ليلة العيد تفرق خلع العتق والمغفرة على العبيد، فمن ناله منها شيء فهو له عيد، وإلا فهو مطرود بعيد.

وأما أعياد المؤمنين في الجنة، فهي أيام زيارتهم ربهم عز وجل، فيزورونه ويكرمهم غاية الإكرام، ويتجلى لهم فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً هو أحب إليهم من ذلك وهو الزيارة، فليس للمحب عيد سوى قرب محبوبه.

إن يـــومـــاً جـــامعـــاً شملـــي بهـــم ذاك عيـــدي ليـــس لـــي عيـــد ســـواه

## الباب الثاني
## في النوافل المقرونة بالأسباب

وفيه أربعة فصول:

### الفصل الأول: في صلاته ﷺ الكسوف

الكسوف لغة التغير إلى السواد، يقال: كسفت الشمس: إذا اسودت وذهب شعاعها.

عن قبيصة بن المخارق قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فخرج فزعاً يجر ثوبه وأنا معه يومئذ بالمدينة، فصلى ركعتين فأطال فيهما القيام، ثم انصرف وانجلت، ثم قال:

---

= الكبرى للبيهقي ٩/٢٦٧ وفي مشكاة المصابيح (١٤٥٤) وفي نصب الراية ٤/١٨٤ وفي إتحاف السادة المتقين ٤/٣٩٨.

(١) الوجء: إذا دق عروق خصيته بين حجرين من غير أن يخرجهما. وقيل الوجأ: أن ترض الخصيتين حتى تنفضخا فيكون شبيهاً بالخصاء. انظر لسان العرب ١٥/٢١٤ مادة (وجأ).

(٢) الحديث في المسند ٣/٣٥٦ وفي الترمذي (١٥٢١) وفي الدارقطني ٤/٢٨٥ وفي مشكاة المصابيح (١٤٦١) وفي المستدرك للحاكم ٤/٢٢٩.

«**إنما هذه الآية يخوف الله بها عباده، فإذا رأيتموها فصلوا**»(١). رواه أبو داود والنسائي.

وفي قوله: ﷺ «يخوف الله بها عباده» رد على من يزعم من أهل الهيئة أن الكسوف أمر عادي لا يتأخر ولا يتقدم، إذ لو كان كما يقولون لم يكن في ذلك تخويف.

وقد رد عليهم ابن العربي وغيره، بما في حديث أبي موسى عند البخاري، حيث قال فيه: «فقام فزعاً يخشى أن تكون الساعة» قالوا: فلو كان الكسوف بالحساب لم يقع الفزع، ولو كان بالحساب لم يكن للأمر بالعتق والصدقة والصلاة معنى، يعني كما في حديث أسماء عند البخاري «لقد أمر النبي ﷺ بالعتاقة في كسوف الشمس» وكما عنده أيضاً من حديث عائشة مرفوعاً «**فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا**» فإن ظاهر الأحاديث أن ذلك يفيد التخويف، وأن كلما ذكر من أنواع الطاعات يرجى أن يندفع به ما يخشى من أثر ذلك الكسوف.

ومما نقض به ابن العربي وغيره أنهم يزعمون: أن الشمس لا تنكسف على الحقيقة وإنما يحول القمر بينها وبين أهل الأرض عند اجتماعهما في العقدتين. فقال: «هم يزعمون أن الشمس أضعاف القمر في الجرم فكيف يحجب الصغير الكبير إذا قابله؟ أم كيف يظلم الكثير بالقليل لا سيما وهو من جنسه؟ وكيف تحجب الأرض نور الشمس.

وقد وقع في حديث النعمان بن بشير وغيره للكسوف سبب آخر غير ما يزعم أهل الهيئة، وهو ما أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه، وصححه ابن خزيمة والحاكم، بلفظ: «**إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، وإن الله إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له**»(٢).

وقد استشكل الغزالي هذه الزيادة، وقال: أنها لم تثبت، فيجب تكذيب ناقلها، قال: ولو صحت لكان تأويلها أهون من مكابرة أمور قطعية لا تصادم أصلاً من أصول الشريعة.

وقال ابن بزيزة: وهذا عجب منه، كيف يسلم دعوى الفلاسفة ويزعم أنها لا تصادم الشريعة، مع أنها مبنية على أن العالم كري الشكل، وظاهر الشرع يعطي خلاف ذلك

---

(١) الحديث في سنن أبي داود (١١٨٥) في المستدرك للحاكم ١/٣٣٣.

(٢) أخرجه النسائي ٣/١٢٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٢/١١٨ وفي صحيح مسلم كتاب الكسوف (١) وفي سنن ابن ماجه (١٢٦١). وفي المستدرك للحاكم ١/٣٣٤ وفي سنن أبي داود برقم (١١٧٧) وفي مجمع الزوائد ٢/٢٠٨ وفي إتحاف السادة المتقين ٣/٤٢٩ وفي كنز العمال (٢١٥٥١ ـ ٢٣٥٢١).

والثابت من قواعد الشرع أن الكسوف أثر الإرادة القديمة وفعل الفاعل المختار، فيخلق في هذين الجرمين النور متى شاء والظلمة متى شاء من غير توقيف على سبب أو ربط باقتران، والحديث الذي رده الغزالي قد أثبته غير واحد من أهل العلم، وهو ثابت من حيث المعنى أيضاً، لأن النورية والإضاءة من عالم الجمال الحسي، فإذا تجلت صفة الجلال انطمست الأنوار لهيبته، ويؤيده قوله تعالى: ﴿**فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً**﴾ [الأعراف: ١٤٣]، انتهى.

ويؤيد هذا الحديث ما رويناه عن طاوس أنه نظر إلى الشمس وقد انكسفت فبكى حتى كاد أن يموت، وقال: هي أخوف لله منا. وقال ابن دقيق العيد: ربما يعتقد بعضهم أن الذي يذكره أهل الحساب ينافي قوله: «يخوف الله بهما عباده»، وليس بشيء، لأن لله تعالى أفعالاً على حسب العادة، وأفعالاً خارجة عن ذلك، وقدرته حاكمة على كل سبب، يقتطع ما يشاء من الأسباب والمسببات بعضها عن بعض، وإذا ثبت ذلك فالعلماء بالله لقوة اعتقادهم في عموم قدرته على خرق العادة وأنه يفعل ما يشاء إذا وقع شيء غريب، حدث عندهم الخوف لقوة ذلك الاعتقاد، وذلك لا يمنع أن يكون هناك أسباب تجري عليها العادة إلى أن يشاء الله خرقها. وحاصله: أن الذي يذكره أهل الحساب إن كان حقاً في نفس الأمر لا ينافي كون ذلك مخوفاً لعباد الله تعالى. قاله في فتح الباري.

وعن ابن عباس قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فقام قياماً طويلاً، نحواً من قراءة سورة البقرة، ثم ركع ركوعاً طويلاً، ثم رفع فقام قياماً طويلاً، وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم رفع، ثم سجد، ثم قام قياماً طويلاً وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم سجد ثم انصرف وقد انجلت الشمس، فقال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله**»، فقالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت؟ قال: «**إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء**»، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «**بكفرهن**»، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «**يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط**»[1]. رواه البخاري ومسلم.

وقوله: «ورأيت الجنة والنار» قال القاضي عياض: يحتمل أنه رآهما رؤية عين،

---

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب الكسوف رقم (١) وفي صحيح البخاري برقم (١٠٤٣).

كشف الله له عنهما، وأزال الحجاب بينه وبينهما، كما فرج له عن المسجد الأقصى حين وصفه، ويكون قوله ﷺ: «**في عرض هذا الحائط**» ـ كما في رواية ـ: في جهته وناحيته، ويحتمل أن تكون رؤية علم وعرض وحي بإطلاعه وتعريفه من أمورهما مفصلاً ما لم يعرفه قبل ذلك اليوم. قال القاضي؛ والأول أولى وأشبه بألفاظ الحديث، لما فيه من الأمور الدالة على رؤية العين، كتناوله العنقود، وتأخره مخافة أن يصيبه لفح النار. انتهى.

واستشكل قوله: «ولو أصبته» مع قوله: «تناولت». وأجيب: بحمل «التناول» على تكلف الأخذ، لا حقيقة الأخذ، وقيل: المراد تناولته لنفسي ولو أخذته لكم، حكاه الكرماني، قال الحافظ ابن حجر: وليس بجيد، وقيل: المراد بقوله تناولت: وضعت يدي عليه، بحيث كنت قادراً على تحويله، لكن لم يقدر لي قطفه، ولو أصبته، أي لو تمكنت من قطفه، ويدل عليه من قوله في حديث عقبة بن عامر عند ابن خزيمة «أهوى بيده ليتناول شيئاً» وفي حديث أسماء عند البخاري «حتى لو اجترأت عليه» وكأنه لم يؤذن له في ذلك فلم يجترىء عليه. قال ابن بطال: لم يأخذ العنقود لأنه من طعام الجنة، وهو لا يفنى والدنيا فانية لا يجوز أن يؤكل فيها ما لا يفنى. انتهى.

وفي حديث أسماء بنت أبي بكر، عند البخاري ومسلم ومالك والنسائي قال: ما من شيء كنت لم أره إلا رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار، ولقد أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم، مثل أو قريباً ـ لا أدري أي ذلك قالت أسماء ـ من فتنة المسيح الدجال. يؤتى أحدكم في قبره فيقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن ـ لا أدري أي ذلك قالت أسماء ـ فيقول: هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا واتبعنا، هو محمد ثلاثاً، فيقال: نم صالحاً، قد علمنا إن كنت لموقنا، وأما المنافق أو المرتاب ـ لا أدري أي ذلك قالت أسماء ـ فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

وفي رواية: فرأى امرأة تخدشها هرة، ربطتها حتى ماتت جوعاً وعطشاً. وفي رواية: فرأى عمرو بن مالك يجر قصبه في النار، وكان أول من غير دين إبراهيم، ورأى فيها سارق الحاج يعذب.

قوله: «قصبه» بضم القاف وسكون الصاد، أي أمعاءه. وفي رواية عائشة: ثم قال: **«يا أمة محمد، والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ألا هل بلغت»**[1].

---

(١) الحديث في البخاري برقم (١٠٤٤ ـ ٥٢٢١) وفي الموطأ برقم (١٨٦) وفي مسلم كتاب الكسوف رقم (١) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣٣٣٨/٣ وفي نصب الراية للزيعلي ٢٣٦/٢ وفي مشكاة المصابيح (١٤٨٣).

أي لو تعلمون من عظم انتقام الله من أهل الجرائم وشدة عقابه وأهوال القيامة ما أعلم، وما بعدها. كما علمت وترون النار كما رأيت في مقامي هذا وفي غيره لبكيتم كثيراً، ولقلَّ ضحككم لتفكركم فيما علمتوه. وفي حديث عائشة عند البخاري: فخرج إلى المسجد، فصف الناس وراءه، فكبرنا فاقترأ رسول الله ﷺ قراءة طويلة، ثم كبر فركع ركوعاً طويلاً، ثم قال: «**سمع الله لمن حمده**»، فقام ولم يسجد، وقرأ قراءة طويلة، وهي أدنى من القراءة الأولى، وزاد في رواية: «**ربنا ولك الحمد**».

واستدل به على استحباب الذكر المشروع في الاعتدال في أول القيام الثاني من الركعة الأولى. واستشكله بعض متأخري الشافعية من جهة كونه قيام قراءة لا قيام اعتدال، بدليل اتفاق العلماء ممن قال بزيادة الركوع في كل ركعة على قراءة الفاتحة فيه، وإن كان محمد بن مسلمة المالكي خالف فيه.

**والجواب**: إن صلاة الكسوف جاءت على صفة مخصوصة، فلا مدخل للقياس فيها، بل كل ما ثبت أنه ﷺ فعله فيها كان مشروعاً، لأنها أصل برأسها. وبهذا المعنى رد الجمهور على من قاسها على صلاة النافلة، حتى منع من زيادة الركوع فيها، فصلاة الكسوف أشبه شيء بصلاة العيد ونحوها، مما يجمع فيه من مطلق النوافل، فامتازت صلاة الجنازة بترك الركوع والسجود، وصلاة العيد بزيادة التكبيرات، وصلاة الخوف بزيادة الأفعال الكثيرة واستدبار القبلة، فكذلك اختصت صلاة الكسوف بزيادة الركوع، فالآخذ به جامع بين العملين بالنص والقياس بخلاف من لم يعمل به.

وقد تبين أن لصلاة الكسوف هيئة تخصها من التطويل الزائد على العادة في القيام وغيره، ومن زيادة ركوع في كل ركعة، وقد وردت زيادة في ذلك من طرق أخر، فعند مسلم من وجه آخر عن عائشة، وآخر عن جابر أن في كل ركعة ثلاث ركوعات، وعنده من وجه آخر عن ابن عباس: أن في كل ركعة أربع ركوعات، ولأبي داود من حديث أبي بن كعب، والبزار من حديث علي: أن في كل ركعة خمس ركوعات ولا يخلو إسناد منها من علة.

ونقل ابن القيم في «الهدي» عن الشافعي وأحمد والبخاري: أنهم كانوا يعدون الزيادة على الركوعين في كل ركعة غلطاً من بعض الرواة، فإن أكثر طرق الحديث يمكن رد بعضها إلى بعض، ويجمعها أن ذلك كان يوم مات إبراهيم عليه السلام وإذا اتحدت القصة تعين الأخذ بالراجح.

وقال ابن خزيمة وابن المنذر والخطابي وغيرهم من الشافعية: يجوز العمل بجميع ما ثبت من ذلك. وهو من الاختلاف المباح، وقواه النووي في شرح مسلم.

وأبدى بعضهم أن حكمة الزيادة في الركوع والنقص كان بحسب سرعة الانجلاء وبطئه، فحين وقع الانجلاء في أول ركوع اقتصر على مثل النافلة، وحين أبطأ زاد ركوعاً، وحين زاد في الإبطاء زاد ثالثاً، وهكذا إلى غاية ما ورد في ذلك. وتعقبه النووي وغيره: بأن إبطاء الانجلاء وعدمه لا يعلم في أول الحال، ولا في الركعة الأولى، وقد اتفقت الروايات على أن عدد الركوع في الركعتين سواء، وهذا يدل على أنه مقصود في نفسه، منوي من أول الحال. انتهى ملخصاً من فتح الباري.

وعند الإمام أحمد: أنه لما سلم حمد الله وأثنى عليه، وشهد أن لا إله إلا الله، وشهد أنه عبد الله ورسوله، ثم قال: «**يا أيها الناس، أنشدكم بالله إن كنتم تعلمون أني قصرت عن شيء من تبليغ رسالات ربي لما أخبرتموني ذلك**» فقام رجل فقال: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك ونصحت لأمتك وقضيت الذي عليك، ثم قال: «**وأيم الله لقد رأيت منذ قمت أصلي ما أنتم لاقون من أمر دنياكم وآخرتكم، وإنه والله لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً، آخرهم الأعور الدجال، من تبعه لم ينفعه صالح من عمله**»[1].

وفي البخاري: وقالت عائشة وأسماء: خطب النبي ﷺ. وقد اختلف في الخطبة فيه، فاستحبها الشافعي وإسحاق وأكثر أهل الحديث. وقال ابن قدامة لم يبلغنا عن أحمد ذلك. وقال صاحب الهداية من الحنفية ليس في الكسوف خطبة لأنه لم ينقل. وتعقب بأن الأحاديث ثبتت فيه، وهي ذات كثرة.

والمشهور عند المالكية أنه لا خطبة لها، مع أن مالكاً روى الحديث وفيه ذكر الخطبة، وأجاب بعضهم: بأنه ﷺ لم يقصد بها الخطبة بخصوصها، وإنما أراد أن يبين لهم الرد على من يعتقد أن الكسوف لموت بعض الناس.

وتعقب: بما في الأحاديث الصحيحة من التصريح بالخطبة، وحكاية شرائطها من الحمد والثناء والموعظة وغير ذلك مما تضمنته الأحاديث، فلم يقتصر على الإعلام بسبب الكسوف، والأصل مشروعية الاتباع، والخصائص لا تثبت إلا بدليل، انتهى.

وعن المغيرة بن شعبة عند البخاري: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا الله**».

---

(١) الحديث في مجمع الزوائد للهيثمي ٣٤١/٧.

وإبراهيم هو ابن النبي ﷺ، وقد ذكر جمهور أهل السير أنه مات في السنة العاشرة من الهجرة، فقيل في ربيع الأول، وقيل في رمضان، وقيل في ذي الحجة، والأكثر على أنها وقعت في عاشر الشهر، وقيل في رابعه وقيل في رابع عشره، ولا يصح شيء منها على قول ذي الحجة، لأن النبي ﷺ كان إذ ذاك بمكة في الحج، وقد ثبت أنه شهد وفاته، وكانت بالمدينة بلا خلاف.

نعم قيل إنه مات سنة تسع، فإن ثبت فيصح، وجزم النووي بأنها كانت سنة الحديبية فلعل ذلك كان في آخر ذي القعدة حين رجع منها.

وفي هذا الحديث إبطال ما كان أهل الجاهلية يعتقدونه من تأثير الكواكب في الأرض. قال الخطابي: كانوا في الجاهلية يعتقدون أن الكسوف يوجب حدوث تغير في الأرض، من موت أو ضرر، فأعلم النبي ﷺ أنه اعتقاد باطل، وأن الشمس والقمر خلقان مسخران لله، ليس لهما سلطان في غيرهما، ولا قدرة للدفع عن أنفسهما.

وعن عبد الله بن عمرو قال: لما كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ نودي: أن الصلاة جامعة. رواه البخاري. وقوله: «أن» بفتح الهمزة وتخفيف النون، وهي المفسرة. وفي رواية له ولمسلم، من حديث عائشة: بعث النبي ﷺ منادياً فنادى: الصلاة جامعة.

قال ابن دقيق العيد: هذا الحديث حجة لمن استحب ذلك. وقد أجمعوا على أنه لا يؤذن له ولا يقام. وروى ابن حبان أنه ﷺ صلى في كسوف الشمس والقمر ركعتين مثل صلاتكم، وأخرجه الدارقطني أيضاً. وفيه: رد على من أطلق ـ كابن رشيد ـ أنه ﷺ لم يصل في كسوف القمر، ومنهم من أول قوله: «صلى» أي أمر بالصلاة، جمعاً بين الروايتين.

وقال ابن القيم في «الهدي»: لم ينقل أنه ﷺ صلى في كسوف القمر في جماعة، لكن حكى ابن حبان في السيرة له: أن القمر خسف في السنة الخامسة، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الكسوف، فكانت أول صلاة كسوف في الإسلام، وهذا إن ثبت انتفى التأويل المذكور. وقد جزم به مغلطاي في سيرته المختصرة، وتبعه الحافظ زين الدين العراقي في نظمها.

وفي البخاري من حديث عائشة: جهر النبي ﷺ في صلاة الخسوف بقراءته. فإذا فرغ من قراءته كبر فركع، فإذا فرغ من الركعة قال: «**سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**» ثم يعاود القراءة في صلاة الكسوف، أربع ركعات وأربع سجدات.

واستدل به على الجهر فيها بالنهار، وحمله جماعة ممن لم ير ذلك على كسوف القمر. قال الحافظ ابن حجر: وليس بجيد، لأن الاسماعيلي روى هذا الحديث من وجه

آخر عن الوليد بلفظ كسفت الشمس في عهد رسول الله ﷺ، وفي مسند أبي داود الطيالسي أنه ﷺ جهر بالقراءة في صلاة الكسوف. وقد ورد فيها عن علي مرفوعاً وموقوفاً. أخرجه ابن خزيمة وغيره.

وقال به صاحبا أبي حنيفة وأحمد وإسحاق وابن خزيمة وابن المنذر وغيرهما من محدثي الشافعية وابن العربي من المالكية. وقال الطبري: يخير بين الجهر والإسرار. وقال الأئمة الثلاثة: يسر في الشمس ويجهر في القمر.

واحتج الشافعي بقول ابن عباس: «قرأ نحواً من سورة البقرة» لأنه لو جهر لم يحتج إلى التقدير. وقد روى الشافعي تعليقاً عن ابن عباس أنه صلى بجنب النبي ﷺ في الكسوف فلم يسمع منه حرفاً، ووصله البيهقي من ثلاثة طرق أسانيدها واهية. وعلى تقدير صحتها فمثبت الجهر معه قدر زائد فالأخذ به أولى.

قال ابن العربي: الجهر عندي أولى، لأنها صلاة جماعة ينادى لها ويخطب فأشبهت العيد والاستسقاء. انتهى ملخصاً والله أعلم.

## الفصل الثاني

## في صلاته ﷺ صلاة الاستسقاء

اعلم أن الاستسقاء طلب السقيا من الله تعالى عند الحاجة إليها، كما تقول: استعطى: أي طلب العطاء. ولم يخالف أحد من العلماء في سنية الصلاة في الاستسقاء إلا أبو حنيفة محتجاً بأحاديث الاستسقاء التي ليس فيها صلاة.

واحتج الجمهور بالأحاديث الثابتة في الصحيحين وغيرهما: أنه ﷺ صلى الاستسقاء ركعتين. وأما الأحاديث التي ليس فيها الصلاة، فبعضها محمول على نسيان الراوي، وبعضها كان في الخطبة للجمعة، وتعقبه صلاة الجمعة فاكتفي بها، ولو لم تصل أصلاً كان بياناً لجواز الاستسقاء بالدعاء بلا صلاة، ولا خلاف في جوازه، وتكون الأحاديث المثبتة للصلاة مقدمة لأن فيها زيادة علم، ولا معارضة بينهما. والاستسقاء أنواع:

**الأول**: الاستسقاء بصلاة ركعتين وخطبتين، ويتأهب قبله بصدقة وصيام وتوبة، وإقبال على الخير ومجانبة الشر ونحو ذلك من طاعة الله تعالى. قال ابن عباس: خرج رسول الله ﷺ متبذلاً متواضعاً متخشعاً متضرعاً حتى أتى المصلى، فرقى المنبر، فلم يخطب خطبتكم هذه ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير، ثم صلى ركعتين كما يصلي في العيد. رواه الترمذي وغيره.

وفي حديث عبد الله بن زيد المازني، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى هذا المصلى ليستسقي، ثم استقبل القبلة وقلب رداءه، ثم صلى. رواه البخاري ومسلم. وفي رواية: خرج بالناس إلى المصلى ليستسقي فصلى بهم ركعتين جهر فيهما بالقراءة واستقبل يدعو، ورفع يديه وحول رداءه حين استقبل القبلة. وفي رواية؛ قال: وحول رداءه وجعل عطافه[1] الأيسر على عاتقه الأيمن ثم دعا الله.

قال الحافظ ابن حجر: ولم أقف في شيء من طرق حديث عبد الله بن زيد على سبب ذلك ولا على صفته ﷺ حال الذهاب إلى المصلى، ولا على وقت ذهابه، وقد وقع ذلك في حديث عائشة عند أبي داود وابن حبان قالت: شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحط المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى، ووعد الناس يوماً يخرجون فيه، فخرج حين بدا حاجب الشمس، فقعد على المنبر فكبر وحمد الله، ثم قال «**إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم، ثم قال: ﴿الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين﴾** [الفاتحة: ١ ـ ٥]، **الذي لا إله إلا هو، يفعل ما يريد، اللهم أنت الله الذي لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء، اللهم أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين**»، ثم رفع يديه حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره، وقلب ـ أو حول ـ رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل فصلى ركعتين، فأنشأ الله سحاباً، فرعدت وبرقت، ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن[2] ضحك حتى بدت نواجذه، فقال: «**أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله**»[3].

وقد حكى ابن المنذر الاختلاف في وقتها، والراجح أنه لا وقت لها معين، وإن كان أكثر أحكامها كالعيد، لكنها تخالفه بأنها لا تختص بيوم معين، وهل تصنع بالليل؟ استنبط بعضهم من كونه ﷺ جهر بالقراءة فيها بالنهار، أنها نهارية كالعيد، وإلا فلو كانت تصلى بالليل لأسر فيها بالنهار وجهر بالليل كمطلق النوافل.

ونقل ابن قدامة الإجماع على أنها لا تصلى في وقت الكراهة. وأفاد ابن حبان أن

---

(١) عطافه: أي جانبه والعطف: الرداء سمي بذلك لوقوعه على عطفي الرجل وهما ناحيتا عنقه.

(٢) الكن: ما يرد الحر والبرد من الأبنية والمساكن. وقيل الكن: كل شيء وقى شيئاً فهو كنه وكنانه. انظر اللسان ١٢/ ١٧٢ مادة (كنن).

(٣) الحديث في سنن أبي داود برقم (١١٧٣) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٤٩ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٣٢٨ وفي مشكاة المصابيح (١٥٠٨) وفي الدر المنثور ١/ ١٤ وفي كنز العمال (٢١٥٨٧).

خروجه ﷺ إلى المصلى للاستسقاء كان في شهر رمضان سنة ست من الهجرة. وذكر الواقدي: أن طول ردائه ﷺ كان ستة أذرع في ثلاثة أذرع، وطول إزاره أربعة أذرع وشبرين في ذراعين وشبر، كان يلبسهما في الجمعة والعيدين.

وقد روى أبو داود عن عباد: استسقى رسول الله ﷺ وعليه خميصة سوداء فأراد أن يأخذ بأسفلها فيجعله أعلاها، فلما ثقلت عليه قلبها على عاتقه. وقد استحب الشافعي في الجديد فعل ما همَّ به ﷺ من تنكيس الرداء مع التحويل الموصوف. وزعم القرطبي تبعاً لغيره أن الشافعي اختار في الجديد تنكيس الرداء لا تحويله، والذي في الأم ما ذكرته.

والجمهور على استحباب التحويل فقط. ولا ريب أن الذي استحبه الشافعي أحوط. وعن أبي حنيفة وبعض المالكية: لا يستحب شيء من ذلك. واستحب الجمهور أن يحول الناس بتحويل الإمام، ويشهد له ما رواه أحمد من طريق أخرى عن عباد في هذا الحديث بلفظ: «وحول الناس معه». وقال الليث وأبو يوسف: يحول الإمام وحده. واستثنى ابن الماجشون النساء فقال: لا يستحب في حقهن.

واختلف في حكمة هذا التحويل فجزم المهلب بأنه للتفاؤل بتحويل الحال عما هي عليه. وتعقبه ابن العربي بأن من شرط الفأل أن لا يقصد إليه، قال: وإنما التحويل أمارة بينه وبين ربه، قيل له حول رداءك ليتحول حالك. وتعقب بأن الذي جزم به يحتاج إلى نقل، والذي رده ورد فيه حديث رجاله ثقات، أخرجه الدارقطني والحاكم من طريق جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عن جابر. ورجح الدارقطني إرساله. وعلى كل حال فهو أولى من القول بالظن.

واستدل بقوله في حديث عائشة: «ثم صلى ركعتين» بعد قوله: «فقعد على المنبر» على أن الخطبة في الاستسقاء قبل الصلاة، وهي مقتضى حديث ابن عباس، لكن وقع عند أحمد في حديث عبد الله بن زيد التصريح بأنه بدأ بالصلاة قبل الخطبة، وكذا في حديث أبي هريرة عند ابن ماجه، حيث قال: فصلى بنا ركعتين بغير أذان ولا إقامة، والمرجح عند الشافعية والمالكية الثاني.

ولم يقع في شيء من طرق حديث عبد الله بن زيد صفة الصلاة المذكورة ولا ما يقرأ فيها، وقد أخرج الدارقطني من حديث ابن عباس أنه يكبر فيهما سبعاً وخمساً كالعيد، وأنه يقرأ فيهما بـ «سبح» [الأعلى: ١] و «هل أتاك» [الغاشية: ١]. وفي إسناده مقال. لكن أصله في السنن بلفظ: ثم صلى ركعتين كما يصلي في العيدين. فأخذ بظاهره الشافعي فقال يكبر فيهما.

الثاني: استسقاؤه ﷺ في خطبة الجمعة. عن أنس: أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة من باب كان نحو دار القضاء ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً، ثم قال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «**اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا**»، قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة، وما بيننا وبين «سلع» من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت. قال: فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً، قال: ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبله قائماً، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «**اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر**»، قال: فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس. قال شريك: فسألت أنس بن مالك: أهو الرجل الأول؟ قال: لا أدري[1] رواه مسلم. وفي رواية قال: فما يشير بيده إلى ناحية إلا تفرجت، حتى رأيت المدينة مثل الجوبة، وسال وادي قناة شهراً. ولم يجيء أحداً من ناحية إلا أخبر بجود.

وقوله: «يغيثنا» بفتح أوله، يقال: غاث الله البلاد يغيثها، إذا أرسل عليها المطر. وقوله: «من باب كان نحو دار القضاء» هي دار عمر بن الخطاب وسميت بذلك لأنها بيعت في قضاء دينه. وقوله: «هلكت الأموال»، وفي رواية كريمة وأبي ذر عند الكشميهني: هلكت المواشي، وهي المراد بالأموال هنا. وفي رواية البخاري: هلك الكراع ـ بضم الكاف ـ وهو يطلق على الخيل وغيرها، وفي البخاري أيضاً: هلكت الماشية، هلك العيال، هلك الناس، وهو من ذكر العام بعد الخاص. والمراد بهلاكهم: عدم وجود ما يعيشون به من الأقوات المفقودة بحبس المطر. وانقطعت السبل: لأن الإبل ضعفت لقلة القوت عن السفر، أو لكونها لا تجد في طريقها من الكلأ ما يقيم أودها.

و «الآكام» بكسر الهمزة، وقد تفتح وتمد: جمع «أكمة» ـ بفتحات ـ : التراب المجتمع، وقيل: الجبل الصغير، وقيل؛ ما ارتفع من الأرض. و «الظراب» بكسر المعجمة، جمع «ظرب» ـ بكسر الراء ـ: الجبل المنبسط العالي. وقوله: «مثل الجوبة» بفتح الجيم، وسكون الواو، وفتح الموحدة، هي الحفرة المستديرة الواسعة، والمراد بها

---

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب الاستسقاء (٨ ـ ٩) وفي النسائي ٣/ ١٦٠ وفي ابن ماجه (١٢٦٩) وفي المسند ٣/ ١٠٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٥٣ وفي الدر المنثور ٦/ ٢٨ وفي مجمع الزوائد ٣/ ١٢ وفي نصب الراية ٢/ ٢٣٩ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٣٤٦.

هنا: الفرجة في السحاب. و «الجود»: المطر الغزير. وقوله: «قناة شهراً»: أي جرى فيه المطر من الماء شهراً.

وفي هذا دليل على عظم معجزته ﷺ، وهو أن سخرت السحاب له كلما أشار إليها امتثلت أمره بالإشارة دون كلام، لأن كلامه ﷺ مناجاة للحق تعالى، وأما السحاب فبالإشارة، فلولا الأمر لها بالطاعة له ﷺ لما كان ذلك، لأنها أيضاً ـ كما جاء ـ مأمورة حيث تسير، وقدر ما تقيم، وأين تقيم. ورحم الله الشقراطيسي فلقد أحسن حيث قال:

| | |
|---|---|
| دعـوت للخلـق عـام المحـل مبتهـلاً | أفـديـك بـالخلـق مـن داع ومبتهـل |
| صعَّـدت كفيـك إذ كـفَّ الغمـام فمـا | صـوبـت إلا بصـوب الـواكـف الهطـل |
| أراق بـالأرض ثجـا صـوب ريقـه | فحـل بـالـروض نسجـاً رائـق الحلـل |
| زهـر مـن النـور حلـت روض أرضهـم | زهـراً مـن النَّـور صـافـي النبـت مكتمـل |
| مـن كـل غصـن نضيـر مـورق خضـر | وكـل نـور نضيـد مـونـق خضـل |
| تحيـة أحيـت الأحيـاء مـن مضـر | بعـد المضـرة تـروي السبـل بـالسبـل |
| دامـت علـى الأرض سبعـاً غيـر مقلعـة | لـولا دعـاؤك بـالإقـلاع لـم تـزل |

وقوله في الحديث «سبتاً»: أي من السبت إلى السبت. وقوله: «ثم دخل رجل» الظاهر أنه غير الأول، لأن النكرة إذا تكررت دلت على التعدد، وفي رواية ابن إسحاق: فقام الرجل أو غيره، وفي رواية لمسلم: فتقشعت عن المدينة فجعلت تمطر حواليها وما تمطر بالمدينة قطرة، فنظرت إلى المدينة وإنها لفي مثل الاكليل ـ وهو بكسر الهمزة وسكون الكاف: كل شيء دار من جوانبه، واشتهر لما يوضع على الرأس فيحيط به، وهو من ملابس الملوك كالتاج ـ.

وفي رواية له أيضاً: فألف الله بين السحاب ومكثت حتى رأيت الرجل الشديد تهمه نفسه أن يأتي أهله، وفي رواية له أيضاً: فرأيت السحاب يتمزق كأنه الملاء حين تطوى. والملاء: بضم الميم والقصر وقد تمد، جمع ملاءة وهي ثوب معروف.

واستدل بهذا الحديث على جواز الاستسقاء بغير صلاة مخصوصة، وعلى أن الاستسقاء ليس فيه صلاة. فأما الأول فقال به الشافعي، وأما الثاني فقال به أبو حنيفة، وتعقب: بأن الذي وقع في هذه القصة مجرد دعاء، لا ينافي مشروعية الصلاة لها، وقد ثبَت في واقعة أخرى كما تقدم، والله أعلم.

**الثالث**: استسقاؤه ﷺ على منبر المدينة. روى البيهقي في الدلائل من طريق يزيد بن عبيد السلمي قال: لما قفل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أتاه وفد من بني فزارة، بضعة عشر

رجلاً، وفيهم خارجة بن حصن، والحر بن قيس، وهو أصغرهم، فنزلوا في دار رملة بنت الحارث من الأنصار، وقدموا على إبل عجاف مسنتون، فأتوا مقرين بالإسلام، فسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم فقالوا: يا رسول الله أسنتت بلادنا، وأجدب جنابنا، وغرث عيالنا وهلكت مواشينا، فادع ربك أن يغيثنا، وتشفع لنا إلى ربك، ويشفع ربك إليك، فقال ﷺ: **«سبحان الله!! ويلك، أنا شفعت إلى ربي، فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه، لا إله إلا هو العلي العظيم، وسع كرسيه السموات والأرض، وهو يئط من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد»** فقال النبي ﷺ: **«إن الله ليضحك من شفقكم وقرب غياثكم»**، فقال أعرابي: أويضحك ربنا يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال الأعرابي: لن نعدم يا رسول الله من رب يضحك خيراً. فضحك ﷺ من قوله، فقام ﷺ فصعد المنبر وتكلم بكلمات ورفع يديه، وكان رسول الله ﷺ لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء، فرفع يديه حتى رؤى بياض ابطيه، وكان مما حفظ من دعائه:

**«اللهم اسق بلدك وبهيمتك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مربعاً طبقاً واسعاً، عاجلاً غير آجل نافعاً غير ضار، اللهم سقياً رحمة لا سقياً عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء»**.

فقام أبو لبابة بن عبد المنذر فقال: يا رسول الله إن التمر في المربد، فقال ﷺ: **«اللهم اسقنا»**، فقال أبو لبابة: إن التمر في المرابد، ثلاث مرات، فقال ﷺ: **«اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عرياناً يسد ثعلب مربده بإزاره»**.

قال: فلا والله ما في السماء من قزعة ولا سحاب، وما بين المسجد وسلع من بناء ولا دار، فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، وهم ينظرون، ثم أمطرت، فوالله ما رأوا الشمس سبتاً، وقام أبو لبابة عرياناً يسد ثعلب مربده بإزاره لئلا يخرج التمر منه.

فقال الرجل: يا رسول الله ـ يعني الذي سأله أن يستسقي له ـ: هلكت الأموال، وانقطعت السبل. فصعد ﷺ المنبر فدعا ورفع يديه مداً، حتى رؤي بياض ابطيه ثم قال: **«اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الأكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر»** فانجابت السحابة عن المدينة كانجياب الثوب.

و «الأطيط» صوت الأقتاب، يعني: أن الكرسي ليعجز عن حمله وعظمته، إذ كان معلوماً أن أطيط الرحل بالراكب إنما يكون لقوة ما فوقه، وعجزه عن احتماله. وهذا مثل لعظمته تعالى وجلاله، ولم يكن أطيط وإنما هو كلام تقريب، أريد به تقرير عظمة الله تعالى.

وقوله: «طبقاً» بفتح الطاء والموحدة، أي مالئاً للأرض مغطياً لها، يقال: غيث طبق أي عام واسع. و «المربد»: موضع يجفف فيه التمر. و «ثعلبه» ثقبه الذي يسيل منه ماء المطر.

وعن أنس بن مالك قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أتيناك وما لنا صبي يغط، ولا بعير يئط ـ أي مالنا بعير أصلاً لأن البعير لا بد أن يئط ـ وأنشد:

أتينـــاك والعـــذراء يـــدمـــى لبـــانهـــا ... وقـــد شغلـــت أم الصبـــي عـــن الطفـــل

وألقـــى بكفيـــه الفتـــى لاستكـــانـــة ... مـــن الجـــوع ضعفـــاً مـــا يمـــر ولا يحلـــي

ولا شـــيء ممـــا يـــأكـــل النـــاس عنـــدنـــا ... ســـوى الحنظـــل العـــامـــي والعلهـــز الغســـل

وليـــس لنـــا إلا إليـــك فـــرارنـــا ... وأيـــن فـــرار النـــاس إلا إلـــى الـــرســـل

فقام ﷺ يجر رداءه، حتى صعد المنبر، فرفع يديه إلى السماء ثم قال: «**اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريعاً غدقاً طبقاً نافعاً غير ضار، عاجلاً غير رائث**[1]**، تملأ به الضرع وتنبت به الزرع، وتحيي به الأرض بعد موتها**» قال؛ فما رد ﷺ يديه إلى نحره حتى ألقت السماء بأبراقها، وجاء أهل البطانة يضجون: الغرق الغرق، فقال ﷺ: «**حوالينا ولا علينا**» فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالاكليل. وضحك ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: «**لله در أبي طالب، لو كان حياً لقرت عيناه. من ينشدنا قوله؟**» فقال علي: يا رسول الله كأنك تريد قوله:

وأبيـــض يستسقـــى الغمـــام بـــوجهـــه ... ثمـــال اليتـــامـــى عصمـــة لـــلأرامـــل

تطيـــف بـــه الهـــلاك مـــن آل هـــاشـــم ... فهـــم عنـــده فـــي نعمـــة وفـــواضـــل

كـــذبتـــم وبيـــت الله نبـــزي محمـــداً ... ولمـــا نطـــاعـــن حـــولـــه ونـــاضـــل

ونسلمـــه حتـــى نصـــرع حـــولـــه ... ونـــذهـــل عـــن أبنـــائنـــا والحـــلائـــل

فقال: «**أجل**» رواه البيهقي.

وقوله: «يدمى لبانها» أي يدمى صدرها لامتهانها نفسها في الخدمة حيث لا تجد ما تعطيه من يخدمها من الجدب وشدة الزمان، وأصل اللبان من الفرس موضع اللبب ثم استعير للناس. وقوله: «ما يمر وما يحلي» أي ما ينطق بخير ولا بشر من الجوع والضعف. وقوله: «سوى الحنظل العامي» نسبة إلى العام، لأنه يتخذ في عام الجدب، كما قالوا للجدب: السنة. «والعلهز» بالكسر، طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في سني

---

(١) غير رائث: أي بطيء.

المجاعة. قاله الجوهري. و «الغسل» الرذل، قال السهيلي: فإن قلت: كيف قال أبو طالب «وأبيض يستسقي الغمام بوجهه» ولم يره قط يستسقي، وإنما كان ذلك منه بعد الهجرة؟

وأجاب بما حاصله: أن أبو طالب أشار إلى ما وقع في زمن عبد المطلب، حيث استسقى لقريش والنبي ﷺ معه وهو غلام. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر: ويحتمل أن يكون أبو طالب مدحه بذلك لما رأى من مخايل ذلك فيه، وإن لم يشاهد ذلك فيه. انتهى.

قلت: وقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة، وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادي وأجدب العيال وأنت فيهم أما تستسقي؟ فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتماء، وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام بأصبعه وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا، وأغدق واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب «وأبيض يستسقي الغمام بوجهه» انتهى.

**الرابع**: استسقاؤه ﷺ بالدعاء من غير صلاة. عن ابن مسعود أن قريشاً أبطؤوا عن الإسلام، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام، فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم، وإن قومك هلكوا، فادع الله، فقرأ ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين**﴾ [الدخان: ١٠]، ثم عادوا إلى كفرهم، فذلك قوله تعالى: ﴿**يوم نبطش البطشة الكبرى**﴾ [الدخان: ١٦]، يوم بدر. زاد أسباط عن منصور: فدعا رسول الله ﷺ فسقوا الغيث، فأطبقت عليهم سبعاً، وشكا الناس كثرة المطر فقال: «**اللهم حوالينا ولا علينا**» فانحدرت السحابة عن رأسه، فسقوا الناس حولهم رواه البخاري.

وأفاد الدمياطي أن ابتداء الدعاء على قريش كان عقب طرحهم على ظهره سلا الجزور، وكان ذلك بمكة قبل الهجرة، وقد دعا النبي ﷺ بذلك بالمدينة في القنوت كما في حديث أبي هريرة عند البخاري، ولا يلزم من ذلك اتحاد هذه القصص، إذ لا مانع أن يدعو عليهم مراراً. والظاهر أن مجيء أبي سفيان كان قبل الهجرة لقول ابن مسعود: «ثم عادوا، فذلك قوله: ﴿**يوم نبطش البطشة الكبرى**﴾ [الدخان: ١٦] يوم بدر» ولم ينقل أن أبا سفيان قدم المدينة قبل بدر. وعلى هذا فيحتمل أن يكون أبو طالب كان حاضراً ذلك، فلذلك قال: «وأبيض يستسقي الغمام بوجهه» لكن ورد ما يدل على أن القصة وقعت بالمدينة، فإن لم يحمل على التعدد وإلا فهو مشكل.

وفي الدلائل للبيهقي عن كعب بن مرة أو مرة بن كعب قال: دعا رسول الله ﷺ على مضر، فأتاه أبو سفيان فقال: ادع الله لقومك قد هلكوا. وقد رواه أحمد وابن ماجه عن كعب ابن مرة، ولم يشك، وأبهم أبا سفيان فقال: جاءه رجل فقال: استسق الله لمضر، قال: يا رسول الله استنصرت الله فنصرك ودعوت الله فأجابك، فرفع يديه فقال: «**اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً**» الحديث فظهر أن هذا الرجل المبهم المقول له: «إنك لجريء» هو أبو سفيان.

لكن يظهر أن فاعل «قال يا رسول الله استنصرت الله الخ» هو كعب بن مرة راوي هذا الحديث، فما أخرجه أحمد والحاكم عن كعب بن مرة المذكور قال: «دعا رسول الله على مضر، فأتيته فقلت يا رسول الله إن الله قد نصرك وأعطاك واستجاب لك، وإن قومك قد هلكوا». وعلى هذا: فكأن أبا سفيان وكعباً حضرا جميعاً، فكلمه أبو سفيان بشيء، فدل ذلك على اتحاد قصتهما، وقد ثبت في هذه ما ثبت في تلك من قوله «إنك لجريء» ومن قوله: «اللهم حوالينا ولا علينا». وسياق كعب بن مرة يشعر بأن ذلك وقع بالمدينة لقوله «استنصرت الله فنصرك».

ولا يلزم من هذا اتحاد هذه القصة مع قصة أنس السابقة، فهي واقعة أخرى، لأن في رواية أنس «فلم ينزل عن المنبر حتى مطروا» وفي هذه «فما كان إلا جمعة أو نحوها حتى مطروا»، والسائل في هذه القصة غير السائل في تلك، فهما قصتان، وقع في كل منهما طلب الدعاء بالاستسقاء، ثم طلب الدعاء بالاستصحاء. وإن ثبت أن كعب بن مرة أسلم قبل الهجرة حمل قوله: «استنصرت الله فنصرك» على النصر بإجابة دعائه عليهم، وزال الإشكال المتقدم والله أعلم. انتهى ملخصاً من فتح الباري.

**الخامس**: استسقاءه ﷺ عند أحجار الزيت، قريباً من الزوراء، وهي خارج باب المسجد الذي يدعى باب السلام نحو قذفة بحجر، ينعطف على يمين الخارج من المسجد. عن عمير، مولى آبي اللحم، أنه رأى النبي ﷺ يستسقي رافعاً يديه قبل وجهه، لا يجاوزهما رأسه، رواه أبو داود والترمذي.

**السادس**: استسقاؤه ﷺ في بعض غزواته، لما سبقه المشركون إلى الماء، فأصاب المسلمين العطش، فشكوا إلى رسول الله ﷺ، وقال بعض المنافقين: لو كان نبياً لاستسقى لقومه كما استسقى موسى لقومه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**أو قد قالوها، عسى ربكم أن يسقيكم**»، ثم بسط يديه ودعا، فما رد يديه من دعائه حتى أظلم السحاب وأمطروا إلى أن سال الوادي، فشرب الناس وارتووا[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٤٤٧ وابن كثير في تفسيره ٤/ ٢٧٤.

## الفصل [الثالث]

عن سالم عن عبد الله عن أبيه مرفوعاً: أنه كان إذا استسقى قال: اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من الغانطين، اللهم إن بالعباد والبلاد والبهائم والخلق من اللأواء والجهد والضنك ما لا نشكوه إلا إليك، اللهم أنبت لنا الزرع، وأدرَّ لنا الضرع، واسقنا من بركات السماء، وأنبت لنا من بركات الأرض، اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعري، واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفاراً، فأرسل السماء علينا مدراءاً. رواه الشافعي.

## الفصل [الرابع]

روى أبو الجوزاء قال: قحط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب، وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق.

وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان، عن مالك الدار قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتى الرجل في المنام فقيل له: أئت عمر.

وفي رواية عبد الرزاق: أن عمراً استسقى بالمصلى، فقال للعباس: قم فاستسق. وذكر الزبير بن بكار أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس عام الرمادة ـ بفتح الراء وتخفيف الميم ـ وسمي به لما حصل من شدة الجدب، فأغبرت الأرض جداً لعدم المطر.

وذكر ابن عساكر في كتاب الاستسقاء أن العباس لما استسقى ذلك اليوم قال: اللهم إن عندك سحاباً وعندك ماء، فانشر السحاب ثم أنزل منه الماء ثم أنزله علينا، واشدد به الأصل وأطل به الفرع وأدرَّ به الضرع. اللهم تشفعنا إليك بمن لا منطق له من بهائمنا وأنعامنا، اللهم اسقنا سقياً وادعة بالغة طبقاً، اللهم لا نرغب إلا إليك وحدك، لا شريك لك، اللهم نشكو إليك سغب كل ساغب، وعدم كل عادم، وجوع كل جائع، وعري كل عارٍ، وخوف كل خائف.

وفي رواية الزبير بن بكار: أن العباس لما استسقى به عمر قال: اللهم أنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك. وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث. فأرخت السماء مثل الحبال، حتى أخصبت الأرض وعاش الناس. وعنده أيضاً: قحط الناس فقال عمر أن رسول الله ﷺ كان

يرى للعباس ما يرى الولد للوالد فاقتدوا يا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس، فاتخذوه وسيلة إلى الله. وفيه فما برحوا حتى سقوا، وفي ذلك يقول العباس بن عتبة بن أبي لهب:

بعمـــي سقـــى الله الحجـــاز وأهلـــه ... عشيـــة يستسقـــي بشيبتـــه عمـــر
تـوجـه بـالعبـاس فـي الجـدب راغبـاً ... إليـــه فمـــا إن رام حتـــى أتـــى المطـــر
ومنـــا رســـول الله فينـــا تـــراثـــه ... فهـــل فـــوق هـــذه للمفـــاخـــر مفتخـــر

# في ذكر صلاته ﷺ في السفر

وفيه فصول:

## الفصل الأول
## في قصره ﷺ الصلاة فيه وأحكامه

وفيه فرعان:

### [الفرع] الأول في كم كان ﷺ يقصر الصلاة

تقدم هل القصر رخصة أو عزيمة، وما استدل به لكل من القولين، في أوائل هذا المقصد. وعن أنس بن مالك قال: صليت الظهر مع رسول الله ﷺ بالمدينة أربعاً، وخرج يريد مكة فصلى بذي الحليفة العصر ركعتين. رواه البخاري ومسلم. وهذا الحديث مما احتج به أهل الظاهر في جواز القصر في طويل السفر وقصيره، فإن بين المدينة وذي الحليفة ستة أميال، ويقال سبعة.

وقال الجمهور: لا يجوز القصر إلا في سفر يبلغ مرحلتين، وقال أبو حنيفة وطائفة شرطه ثلاث مراحل، واعتمدوا في ذلك آثاراً عن الصحابة. وأما هذا الحديث فلا دلالة فيه لأهل الظاهر، لأن المراد أنه ﷺ حين سافر إلى مكة في حجة الوداع صلى الظهر بالمدينة أربعاً ثم سافر، فأدركته العصر وهو مسافر بذي الحليفة، فصلاها ركعتين. وليس المراد أن ذا الحليفة غاية سفره، فلا دلالة فيه قطعاً. والأحاديث المطلقة مع ظاهر القرآن متعاضدان على جواز القصر من حين يخرج من البلد، فإنه حينئذ يسمى مسافراً.

وطويل السفر ثمانية وأربعون ميلاً هاشمية، وهي ستة عشر فرسخاً، وهي أربعة برد. والميل من الأرض منتهى مد البصر، لأن البصر يميل عنه على وجه الأرض حتى يفنى إدراكه. وبذلك جزم ابن الجوزي. وقيل: حده أن تنظر إلى الشخص في أرض مصطحبة فلا تدري أهو رجل أو امرأة. أو هو ذاهب أو آت؟

قال النووي: الميل ستة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرون أصبعاً معترضة، وقد حرره غيره بذراع الحديد المستعمل الآن بمصر والحجاز في هذه الأعصار فوجده ينقص عن ذراع الحديد بقدر الثمن. فعلى هذا فالميل بذراع الحديد خمسة آلاف ذراع ومائتان وخمسون ذراعاً، وهذه فائدة جليلة قل من تنبه لها.

روى البيهقي عن عطاء أن ابن عمر وابن عباس كانا يصليان ركعتين، أي يقصران في أربعة برد فما فوقها. وذكره البخاري في صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم. ورواه بعضهم عن صحيح ابن خزيمة مرفوعاً من رواية ابن عباس. وقد كان فرض الصلاة ركعتين، فلما هاجر ﷺ فرضت أربعاً. رواه البخاري من حديث عائشة، لكن يعارضه حديث ابن عباس: فرضت الصلاة في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين. رواه مسلم. وجمع بينهما بما يطول ذكره.

ثم بعد أن استقر فرض الرباعية خفف منها في السفر عند نزول قوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ [النساء: ١٠١]، ويؤيده ما ذكره ابن الأثير في شرح المسند أن قصر الصلاة كان في السنة الرابعة من الهجرة، وقيل كان قصر الصلاة في ربيع الآخر من السنة الثانية. ذكره الدولابي، وقيل بعد الهجرة بأربعين يوماً.

## [الفرع] الثاني في القصر مع الإقامة

عن أنس قال: خرجنا مع النبي ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة. قيل له: أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عشراً. رواه البخاري، ومسلم مختصراً قال: أقمنا مع النبي ﷺ عشرة يقصر الصلاة.

وعن ابن عباس: أقام النبي ﷺ تسع عشرة يقصر الصلاة. فنحن إذا سافرنا تسعة عشر قصرنا، وإن زدنا أتممنا. رواه البخاري. وفي رواية أبي داود: أنه ﷺ أقام سبعة عشر بمكة يقصر الصلاة. قال ابن عباس: فلو أقام أكثر أتم. والرواية الأولى بتقديم التاء على السين، والثانية بتقديم السين على الموحدة. ولأبي داود، من حديث عمران بن حصين: غزوت مع رسول ﷺ الفتح، فأقام بمكة ثماني عشرة ليلة لا يصلي إلا ركعتين. وله من طريق ابن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس: أقام ﷺ بمكة عام الفتح خمسة عشر يوماً يقصر الصلاة.

وجمع البيهقي بين هذا الاختلاف: بأن من قال: «تسعة عشر» عد يومي الدخول والخروج، ومن قال: «سبعة عشر» حذفهما، وأما رواية «خمس عشرة» فضعفها النووي في «الخلاصة» وليس بجيد، لأن رواتها ثقات، ولم ينفرد بها ابن إسحاق، فقد أخرجها

النسائي من رواية عراك بن مالك عن عبيد الله كذلك، فإذا ثبت أنها صحيحة فلتحمل على أن الراوي ظن أن رواية الأصل سبع عشرة، فحذف منها يومي الدخول والخروج، فذكر أنها خمس عشرة، واقتضى ذلك أن رواية «تسع عشرة» أرجح الروايات.

وأخذ الشافعي بحديث عمران بن حصين، لكن محله عنده فيمن لم يزمع الإقامة، فإنه إذا مضت عليه المدة المذكورة وجب الإتمام، فإن أزمع الإقامة في أول الحال على أربعة أيام أتم، على خلاف بين أصحابه في دخول يومي الدخول والخروج فيها، أو: لا.

ولا معارضة بين حديث ابن عباس وحديث أنس، لأن حديث ابن عباس كان في فتح مكة، وحديث أنس كان في حجة الوداع. وفي حديث ابن عباس: قدم ﷺ وأصحابه ـ يعني مكة ـ لصبح رابعة، ولا شك أنه خرج من مكة صبح الرابع عشر فتكون مدة الإقامة بمكة ونواحيها عشرة أيام بلياليها، كما قال أنس، وتكون مدة إقامته بمكة أربعة أيام سواء، لأنه قدم في اليوم الرابع وخرج منها في اليوم الثامن، فصلى الظهر في منى، ومن ثم قال الشافعي: إن المسافر إذا أقام ببلدة قصر أربعة أيام، فالمدة التي في حديث ابن عباس يسوغ الاستدلال بها على من لم ينو الإقامة بل كان متردداً، متى تهيأ له فراغ حاجته يرحل. والمدة التي في حديث أنس يستدل بها على من نوى الإقامة، لأنه ﷺ في أيام الحج كان جازماً بالإقامة تلك المدة، ووجه الدلالة من حديث ابن عباس: لما كان الأصل في المقيم الإتمام فلما لم يجيء عنه ﷺ أنه أقام في حال السفر أكثر من تلك المدة جعلها غاية للقصر. والله أعلم.

## الفصل الثاني
## في الجمع

وفيه فرعان أيضاً:

### الفرع الأول: في جمعه ﷺ

عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر، ثم نزل فجمع بينهما، فإذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر ثم ركب. وفي رواية: أنه كان إذا أراد أن يجمع بين صلاتين في السفر أخر الظهر حتى يدخل أول وقت العصر. وفي أخرى: كان إذا عجل عليه السير يؤخر الظهر إلى أول وقت العصر فيجمع بينهما، ويؤخر المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء، رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

وفي رواية البخاري: كان يجمع بين هاتين الصلاتين في السفر، يعني: المغرب

والعشاء. وفي حديث ابن عباس: كان ﷺ يجمع بين صلاتي الظهر والعصر إذا كان على ظهر سير، ويجمع بين المغرب والعشاء، رواه البخاري.

ولمسلم: جمع بين الصلاة في سفرة سافرها في غزوة تبوك، فجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء. وله ولمالك وأبي داود والنسائي: أنهم خرجوا معه ﷺ في غزوة تبوك، فكان ﷺ يجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، فأخروا الظهر يوماً، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً، ودخل ثم خرج فصلى المغرب والعشاء جميعاً.

وفي رواية أبي داود والترمذي من حديث معاذ بن جبل: كان في غزوة تبوك إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر، فإن رحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر حتى ينزل للعصر، وفي المغرب مثل ذلك: إن غابت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين المغرب والعشاء، وإن ارتحل قبل أن تغيب الشمس أخر المغرب حتى ينزل للعشاء، ثم يجمع بينهما.

## الفرع الثاني: في جمعه ﷺ بجمع[1] مزدلفة [وبعرفة]

عن ابن عمر: أنه ﷺ صلى المغرب والعشاء بالمزدلفة جمعاً. رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود. وزاد البخاري: كل واحدة منهما بإقامة ولم يسبح بينهما. ولمسلم: جمع بين المغرب والعشاء بجمع، وصلى المغرب ثلاث ركعات، وصلى العشاء ركعتين. وفي حديث أبي أيوب الأنصاري، عند البخاري ومسلم: جمع في حجة الوداع بين المغرب والعشاء في المزدلفة.

وفي رواية ابن عباس، عند النسائي: صلى المغرب والعشاء بإقامة واحدة. وفي رواية جعفر بن محمد عن أبيه عند أبي داود: صلى الظهر والعصر بأذان واحد بعرفة، ولم يسبح بينهما وإقامتين، وصلى المغرب والعشاء بجمع بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما.

## الفصل الثالث
## في ذكر صلاته ﷺ النوافل في السفر

عن ابن عمر قال: سافرت مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يصلون الظهر والعصر ركعتين ركعتين، ولا يصلي قبلهما ولا بعدهما، وقال ابن عمر: لو كنت مصلياً

(١) جَمْع: بفتح الجيم وسكون الميم أي المزدلفة وسميت جمعاً لأن آدم اجتمع فيها مع حواء فازدلف إليها أي دنى منها.

قبلهما أو بعدهما لأتممتهما[1]. رواه الترمذي. وفي رواية: صحبت النبي ﷺ فلم أره يسبح في السفر، أي يتنفل للرواتب التي قبل الفرائض وبعدها. وهو مستفاد من قوله في الرواية الأخرى، فكان لا يزيد في السفر على ركعتين.

قال ابن دقيق العيد: وهذا اللفظ يحتمل أن يريد: لا يزيد على عدد ركعات الفرض، فيكون كناية عن نفي الاتمام، والمراد به الإخبار عن المداومة على القصر، ويحتمل أن يريد: لا يزيد نفلاً، ويمكن أن يريد ما هو أعم من ذلك. وفي رواية مسلم: صحبت ابن عمر في طريق مكة، فصلى لنا الظهر ركعتين، ثم أقبل وأقبلنا معه، حتى جاء رجل فجلس وجلسنا معه، فحانت منه التفاتة فرأى ناساً قياماً، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قلت: يسبحون، قال: لو كنت مسبحاً لأتممت.

قال النووي: أجابوا عن قول ابن عمر هذا بأن الفريضة محتمة، فلو شرعت تامة لتحتم إتمامها، وأما النافلة فهي إلى خيرة المصلي، فطريق الرفق به أن تكون مشروعة، ويخير فيها. انتهى. وتعقب: بأن مراد ابن عمر بقول: «لو كنت مسبحاً لأتممت» يعني أنه لو كان مخيراً بين الإتمام وصلاة الراتبة لكان الإتمام أحب إليه لكنه فهم من القصر التخفيف، فلذلك كان لا يصلي الراتبة ولا يتم.

وفي البخاري، من حديث ابن عمر: كان ﷺ يوتر على راحلته، وبوب عليه «باب الوتر في السفر»[2]، وأشار به إلى الرد على من قال: «لا يسن الوتر في السفر»، وهو منقول عن الضحاك، وأما قول ابن عمر: «لو كنت مسبحاً في السفر لأتممت» كما أخرجه مسلم، فإنما أراد به راتبة المكتوبة، لا النافلة المقصودة كالوتر، وذلك بيّن من سياق الحديث المذكور عند الترمذي من وجه آخر بلفظ «لو كنت مصلياً قبلهما أو بعدهما لأتممت» وأما حديث عائشة عند البخاري: أنه ﷺ كان لا يدع أربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها فليس بصريح في فعله ذلك في السفر، ولعلها أخبرت عن أكثر أحواله وهو الإقامة، والرجال أعلم بسفره من النساء.

وأجاب النووي ـ تبعاً لغيره ـ بما لفظه: لعل النبي ﷺ كان يصلي الرواتب في رحله فلا يراه ابن عمر، أو لعله تركها في بعض الأوقات لبيان الجواز. انتهى. وفي رواية الترمذي من حديث ابن عمر قال: صليت مع رسول الله ﷺ الظهر في السفر ركعتين، وبعدها ركعتين. وفي رواية: صليت معه في الحضر والسفر، فصليت معه في الحضر الظهر أربعاً

---

(١) هو في البخاري أيضاً برقم (١١٠٢) باختلاف يسير.

(٢) انظر فتح الباري ٢/٦٢٠.

وبعدها ركعتين. وصليت معه في السفر الظهر ركعتين وبعدها ركعتين، والعصر ركعتين ولم يصل بعدها شيئاً والمغرب في الحضر والسفر سواء ثلاث ركعات لا تنقص في حضر ولا سفر، وهي وتر النهار وبعدها ركعتين.

وفي حديث أبي قتادة عند مسلم في قصة النوم عن صلاة الصبح: أنه ﷺ صلى ركعتين قبل الصبح، ثم صلى الصبح كما كان يصلي. وقول صاحب «الهدي» إنه لم يحفظ عنه ﷺ أنه صلى سنة صلاة قبلها ولا بعدها في السفر إلا ما كان من سنة الفجر. يرد على إطلاقه ما قدمناه في رواية الترمذي من حديث ابن عمر. وما رواه أبو داود والترمذي من حديث البراء بن عازب قال: سافرت مع النبي ﷺ ثمانية عشر سفراً فلم أره ترك ركعتين إذا زاغت الشمس قبل الظهر، وكأنه لم يثبت عند ذلك، لكن الترمذي استغربه، ونقل عن البخاري أنه رآه حسناً، وقد حمله بعض العلماء على سنة الزوال لا على الراتبة قبل الظهر.

## الفصل الرابع

## في صلاته ﷺ التطوع في السفر على الدابة

عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يصلي سبحته حيثما توجهت به ناقته. وفي رواية: يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة حيث كان وجهه وفيه نزلت: ﴿**فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾ [البقرة: ١١٥]. وفي رواية: رأيته ﷺ يصلي على حمار وهو متوجه إلى خيبر. وفي رواية: كان يوتر على البعير، رواه مسلم.

وقد أخذ بهذه الأحاديث فقهاء الأمصار، في جواز التنفل على الراحلة في السفر حيث توجهت، إلا أن أحمد وأبا ثور كانا يستحبان أن يستقبلا القبلة بالتكبير حال ابتداء الصلاة. والحجة لذلك ما في حديث أنس عند أبي داود أنه ﷺ كان إذا أراد أن يتطوع في السفر استقبل بناقته القبلة ثم صلى حيث توجهت ركابه. وذهب الجمهور إلى جواز التنفل على الدابة سواء كان السفر طويلاً أو قصيراً، إلا مالكاً فخصه بالسفر الطويل، وحجته أن هذه الأحاديث إنما وردت في أسفاره ﷺ، ولم ينقل عنه ﷺ أنه سافر سفراً قصيراً فصنع ذلك. وحجة الجمهور مطلق الأخبار في ذلك.

وقوله: «يصلي على حمار»، قال النووي: قال الدارقطني وغيره: هذا غلط من عمرو بن يحيى المازني، وإنما المعروف في صلاته ﷺ على راحلة أو بعير. والصواب أن الصلاة على الحمار من فعل أنس كما ذكره مسلم. ثم قال: وفي تغليط راويه نظر لأنه ثقة نقل شيئاً محتملاً، فلعله كان الحمار مرة والبعير مرة أو مرات، لكن قد يقال إنه شاذ

مخالف لرواية الجمهور، والشاذ مردود. انتهى.

وعن يعلى بن مرة عن أبيه عن جده[1]، أنهم كانوا مع النبي ﷺ في مسيرة فانتهوا إلى مضيق فحضرت الصلاة فمطروا، السماء من فوقهم والبلة من أسفل منهم، فأذن رسول الله ﷺ وهو على راحلته، فصلى بهم يومىء إيماء، فجعل السجود أخفض من الركوع. رواه الترمذي.

(١) شهد يعلى الحديبية وما بعدها، وأبوه يقال له صحبة. فالصواب حذف قوله: «عن أبيه عن جده» إذ لا صحبة لجده قطعاً والحديث إنما هو ليعلى نفسه.

# في ذكر صلاته ﷺ صلاة الخوف

عن جابر قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بالشجرة، فاخترطه فقال: تخافني؟ فقال: لا، فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله، فتهدده أصحاب النبي ﷺ، فغمد السيف وعلقه، فأقيمت الصلاة، فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكان للنبي ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتان. رواه البخاري ومسلم.

ولمسلم: فصففنا صفين خلف رسول الله ﷺ، والعدو بيننا وبين القبلة فكبر النبي ﷺ وكبرنا جميعاً، ثم ركع وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه، وقام الصف المؤخر في نحر العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود وقام الصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا، ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم، ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه ـ الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى ـ فقام الصف المؤخر في نحر العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه، انحدر الصف المؤخر بالسجود، فسجدوا ثم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعاً.

ولمسلم والبخاري أيضاً من حديث يزيد بن رومان عن صالح بن خوات عمن صلى معه ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف: أن طائفة صفت معه، وطائفة وجاه العدو، فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم.

قال مالك: وذلك أحسن ما سمعت في صلاة الخوف. وما ذهب إليه مالك من ترجيح هذه الكيفية وافقه الشافعي وأحمد على ترجيحها لسلامتها من كثرة المخالفة، ولكونها أحوط لأمر الحرب.

وعن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فوازينا العدو، فصافننا لهم، فقام رسول الله ﷺ يصلي بنا، فقامت طائفة معه، وأقبلت طائفة على العدو، وركع رسول الله ﷺ ومن معه، وسجد سجدتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصل، فجاؤوا فركع رسول الله ﷺ بهم ركعة وسجد سجدتين ثم سلم، فقام كل واحد منهم يركع لنفسه ركعة ويسجد سجدتين. وفي حديث جابر: أنه ﷺ كان يصلي بالناس صلاة الظهر في الخوف ببطن نخل[1]، فصلى بطائفة ركعتين ثم سلم ثم جاءت طائفة أخرى فصلى بهم ركعتين ثم سلم، رواه البغوي في شرح السنة[2].

وعنه: أنه ﷺ نزل بين ضجنان وعسفان، فقال المشركون: لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم وأمهاتهم، وهي العصر، فأجمعوا أمركم فتميلوا عليهم ميلة واحدة، وإن جبريل أتى النبي ﷺ فأمره أن يقسم أصحابه شطرين، فيصلي بهم، وتقوم طائفة أخرى وراءهم وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، فتكون لهم ركعة ولرسول الله ﷺ ركعتان. رواه الترمذي والنسائي.

قال ابن حزم: وقد صح فيها ـ يعني صلاة الخوف ـ أربعة عشر وجهاً. وبينها في جزء مفرد. وقال ابن العربي في «القبس»: جاء فيها روايات كثيرة، أصحها ست عشرة رواية مختلفة، ولم يبينها. وقال النووي نحوه في شرح مسلم ولم يبينها أيضاً. وقد بينها الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي وزاد وجهاً آخر، فصارت سبعة عشر وجهاً، لكن يمكن أن تتداخل.

وقال صاحب «الهدي»: أصولها ست صفات، وبلغها بعضهم أكثر، وهؤلاء كلما رأوا اختلاف الرواة في قصة جعلوا ذلك وجهاً من فعله ﷺ، وإنما هو من اختلاف الرواة. انتهى. وهذا هو المعتمد، وإليه أشار الحافظ العراقي بقوله: يمكن تداخلها. وقد حكى ابن القصار المالكي: أن النبي ﷺ صلاها عشر مرات، وقال ابن العربي: أربعاً وعشرين، وقال الخطابي: صلاها ﷺ في أيام مختلفة بأشكال متباينة، يتحرى فيها ما هو الأحوط للصلاة، والأبلغ للحراسة، فهي على اختلاف صورها متفقة المعنى. انتهى. وفي كتب الفقه تفاصيل لها كثيرة، وفروع يطول ذكرها. حكاها في فتح الباري.

---

(١) أنظر معجم ما استعجم ١٣٠٣/٤ ومعجم البلدان ٢٧٦/٥.

(٢) ورواه أيضاً البيهقي في «المعرفة» بسند فيه ضعف وانقطاع ورواه الدارقطني بنحوه بسند فيه ضعف أيضاً.

# في ذكر صلاته ﷺ على الجنازة

وفيه فروع أربعة:

## [الفرع] الأول: في عدد التكبيرات

عن أبي هريرة أنه ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه. وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات. رواه البخاري ومسلم. وعند الترمذي من حديث أبي هريرة أنه ﷺ كبر على جنازة فرفع يديه مع أول تكبيرة، ووضع اليمنى على اليسرى.

## الفرع الثاني: في القراءة والدعاء

نقل ابن المنذر عن ابن مسعود، والحسن بن علي، وابن الزبير، والمسور بن مخرمة، مشروعية قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة. وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق. ونقل عن أبي هريرة وابن عمر: ليس فيها قراءة، وهو قول ابن مالك والكوفيين. وروى عبد الرزاق والنسائي بإسناد صحيح عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر ثم يقرأ بأم القرآن، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يخلص الدعاء للميت ولا يقرأ إلا في الأولى.

وفي البخاري عن سعد عن طلحة قال: صليت خلف ابن عباس على جنازة فقرأ فاتحة الكتاب وقال: لتعلموا أنها سنة، وليس فيه بيان محل قراءة الفاتحة، وقد وقع التصريح بذلك في حديث جابر عند الشافعي بلفظ: وقرأ بأم الكتاب بعد التكبيرة الأولى، كما ذكره الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي.

وعن ابن عباس قال: صلى رسول الله ﷺ على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب. رواه الترمذي وقال: لا يصح هذا. والصحيح عن ابن عباس قوله: «من السنة» وهذا مصير منه إلى الفرق بين الصيغتين. ولعله أراد الفرق بالنسبة إلى الصراحة والاحتمال.

وعن عوف بن مالك: صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظنا من دعائه: «اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجه، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار»[1]. قال عوف: حتى تمنيت أن أكون ذلك الميت لدعاء رسول الله ﷺ. رواه مسلم.

وعن واثلة بن الأسقع قال: صلى بنا رسول الله ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول: «اللهم إن فلان بن فلان في ذمتك، [وحبل] جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحق، اللهم اغفر له وارحمه، إنك أنت الغفور الرحيم»[2]. رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى على الجنازة قال: «اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا. اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان. اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده»[3]. رواه أحمد وأبو داود والترمذي. وعنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أنت ربها وأنت خالقها، هديتها إلى الإسلام، قبضت روحها وأنت أعلم بسرها وعلانيتها، جئناك شفعاء فاغفر لها»[4]. رواه أبو داود.

## الفرع الثالث: في صلاته ﷺ على القبر

عن أبي هريرة أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد، ففقدها رسول الله ﷺ، فسأل عنها فقالوا: ماتت، قال: «أفلا آذنتموني؟» قال: فكأنهم صغروا أمرها، فقال: «دلوني على

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٦٦٢ ـ ٦٦٣) والنسائي ١/ ٥٢ و ٤/ ٧٣ وفي المسند للإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٢٣.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٢٠٢) وابن ماجه برقم (١٤٩٩) والتبريزي في مشكاته (١٦٧٧) وأبو نعيم في حليته ٥/ ٢٥٢ والهيثمي في موارد الظمآن (٧٥٨). والسيوطي في جمع الجوامع (٩٩٩٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٢٣٩٥).

(٣) الحديث في سنن أبي داود برقم (٣٢٠١) وفي الترمذي برقم (١٠٢٤) وفي ابن ماجه برقم (١٤٩٨) وفي النسائي ٤/ ٧٤ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٤١ وفي المستدرك ١/ ٣٥٨ وفي مجمع الزوائد ٣/ ٣٣ وفي كنز العمال (٤٢٣٠٠).

(٤) الحديث في سنن أبي داود برقم (٣٢٠٠) وفي المسند ٢/ ٣٤٥ و ٣٦٣ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٤٢ وفي مشكاة المصابيح (١٦٨٨) وفي جمع الجوامع (٩٩٩٦). وفي كنز العمال (٤٢٣٠٢).

**قبرها»**، فدلوه فصلى عليها. رواه البخاري ومسلم. زاد ابن حبان فقال في رواية حماد بن سلمة عن ثابت: «**إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله ينورها بصلاتي عليهم**». وأشار إلى أن بعض المخالفين احتج بهذه الزيادة، على أن ذلك من خصائصه ﷺ. ثم ساق من طريق خارجة بن زيد بن ثابت عن عمه يزيد بن ثابت نحو هذه القصة، وفيها: ثم أتى القبر فصففنا خلفه وكبر عليه أربعاً. قال ابن حبان: في ترك إنكاره ﷺ على من صلى معه على القبر بيان جواز ذلك لغيره، وأنه ليس من خصائصه، وتعقب بأن الذي يقع بالتبعية لا ينهض دليلاً للأصالة.

وعن عقبة بن عامر: أنه ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف، وفي رواية: صلى على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات. رواه أبو داود والنسائي. ورواه الشيخان أيضاً بلفظ: خرج يوماً فصلى على أهل أحد كصلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال فرط لكم. الحديث.

وفيه: الصلاة على الشهداء في حرب الكفار. وقد اختلف العلماء في هذه المسألة: فذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق والجمهور: إلى أن لا يصلى عليهم. وذهب أبو حنيفة إلى الصلاة عليهم كغيرهم، وبه قال المزني، وهي رواية عن أحمد اختارها الخلال.

وحجة الجمهور: أنه ﷺ لم يصل على قتلى أحد ـ كما رواه البخاري في صحيحه عن جابر ـ وأما هذه الصلاة فالمراد بها الدعاء، وليس المراد بها صلاة الجنازة المعهودة. قال النووي: أي دعا لهم بدعاء صلاة الميت، وأن هذه الصلاة مخصوصة بشهداء أحد، فإنه لم يصل عليهم قبل دفنهم كما هو المعهود من صلاة الجنازة، وإنما صلى عليهم في القبور بعد ثمان سنين، والحنفية يمنعون الصلاة على القبر مطلقاً، ولو كانت الصلاة عليهم واجبة لما تركها في الأول.

ثم إن الشافعية اختلفوا في معنى قولهم: لا يصلى على الشهيد، فقال أكثرهم: معناه: تحريم الصلاة عليه، وهو الصحيح عندهم. وقال آخرون: معناه: لا تجب الصلاة عليه. لكن تجوز. وذكر ابن قدامة: أن كلام أحمد في الرواية التي قال فيها يصلى عليهم: يشير إلى أنها مستحبة غير واجبة.

[قال ابن القاسم صاحب مالك: إنه لا يصلى على الشهيد فيما إذا كان المسلمون هم الذين غزوا الكفار، فإن كان الكفار هم الذين غزوا المسلمين فيصلى عليهم][1].

---

(١) هذه الفقرة زيادة من الزرقاني في الشرح. أشار إلى وجودها المصحح في بعض النسخ.

## الفرع الرابع في صلاته ﷺ على الغائب

عن جابر أنه ﷺ قال: «**قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش، فهلم فصلوا عليه**»، قال: فصففنا فصلى النبي ﷺ ونحن وراءه[1]. رواه البخاري ومسلم. وعن أبي هريرة أنه ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات. رواه الشيخان أيضاً. وعند البخاري من طريق ابن عيينة عن ابن جريج: «**فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة**»[2].

وبهذا الحديث استدل من منع الصلاة على الميت في المسجد، وهو قول الحنفية والمالكية، لكن قال أبو يوسف: إن أعد مسجد للصلاة على الموتى لم يكن في الصلاة فيه عليهم بأس.

قال النووي: ولا حجة فيه، لأن الممتنع عند الحنفية إدخال الميت المسجد، لا مجرد الصلاة عليه، حتى لو كان الميت خارج المسجد جازت الصلاة عليه لمن هو داخله.

وقال ابن بزبزة وغيره: استدل به بعض المالكية، وهو باطل، لأنه ليس فيه صيغة نهي، ولا احتمال أن يكون خرج بهم إلى المصلى لأمر غير المعنى المذكور، وقد ثبت[3] أنه ﷺ صلى على سهيل بن بيضاء في المسجد، فكيف يترك هذا التصريح لأمر محتمل، بل الظاهر أنه إنما خرج بالمسلمين إلى المصلى لقصد تكثير الجمع الذين يصلون عليه، ولإشاعة كونه مات على الإسلام، فقد كان بعض الناس لم يدر كونه أسلم، فقد روى ابن أبي حاتم في التفسير، والدارقطني في الأفراد، والبزار، كلاهما[4] عن أنس أن النبي ﷺ لما صلى على النجاشي قال بعض أصحابه: صلى على علج من الحبشة؟ فنزلت **﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم﴾** [آل عمران: ١٩٩][5]، الآية، وله شاهد من حديث أبي سعيد عند الطبراني في معجمه الكبير، وزاد فيه: إن الذي طعن بذلك كان منافقاً.

وقد قال البخاري: «باب الصلاة على الجنازة بالمصلى والمسجد» وروى حديثاً عن

---

(١) الحديث في البخاري برقم (١٣٢٠) وفي الترمذي برقم (٤٨٠) وفي المسند ٣/ ٢٩٥ وفي مشكل الآثار للطحاوي ١/ ١٤٨.

(٢) أخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٢٧٨ وابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٣٣١ والحميدي في مسنده (١٢٩١).

(٣) في صحيح مسلم وغيره.

(٤) أي ثابت وحميد. راويا الحديث عن أنس.

(٥) انظر أسباب النزول للواحدي صفحة (٨١).

ابن عمر أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة زنيا فأمر بهما فرجما قريباً من موضع الجنائز عند المسجد. وحكى ابن بطال عن ابن حبيب أن مصلى الجنائز بالمدينة كان لاصقاً بالمسجد النبوي من ناحية المشرق، انتهى. فإن ثبت ما قال وإلا فيحتمل أن يكون المراد بالمسجد هنا المصلى المتخذ للعيدين والاستسقاء، لأنه لم يكن عند المسجد النبوي مكان مهيأ للرجم.

ودل حديث ابن عمر المذكور على أنه كان للجنائز مكان معد للصلاة عليها، فقد يستفاد منه أن ما وقع من الصلاة على بعض الجنائز في المسجد كان لأمر عارض، أو لبيان الجواز، واستدل به على مشروعية الصلاة على الجنائز في المسجد، ويقويه حديث عائشة «ما صلى ﷺ على سهيل بن بيضاء إلا في المسجد» أخرجه مسلم، وبه قال الجمهور. وحمل المانعون الصلاة على سهيل: بأنه كان خارج المسجد، والمصلون داخله، وذلك جائز اتفاقاً.

وفيه نظر: لأن عائشة استدلت بذلك لما أنكروا عليها أمرها بالمرور بجنازة سعد على حجرتها لتصلي عليه. وقد سلم لها الصحابة ذلك، فيدل على أنها حفظت ما نسوه.

وقد روى ابن أبي شيبة وغيره أن عمر صلى على أبي بكر في المسجد، وأن صهيباً صلى على عمر في المسجد، زاد في رواية: ووضعت الجنازة في المسجد تجاه المنبر، وهذا يقتضي الإجماع على جواز ذلك. وقد استدل أيضاً بحديث قصة النجاشي على مشروعية الصلاة على الميت الغائب عن البلد، وبذلك قال الشافعي وأحمد وجمهور السلف، حتى قال ابن حزم: لم يأت عن أحد من الصحابة منعه. وعن الحنفية والمالكية لا يشرع ذلك. وعن بعض أهل العلم: إنما يجوز ذلك في اليوم الذي يموت فيه الميت أو ما قرب، لا ما إذا ما طالت المدة، حكاه ابن عبد البر.

وقال ابن حبان: إنما يجوز ذلك لمن في جهة القبلة، فلو كان بلد الميت مستدبر القبلة مثلاً لم يجز. قال المحب الطبري: لم أر ذلك لغيره. وقد اعتذر من لم يقل بالصلاة على الغائب عن قصة النجاشي بأمور:

منها: أنه كان بأرض لم يصل عليه بها أحد، فتعينت الصلاة عليه لذلك، ومن ثم قال الخطابي: لا يصلى على الغائب إلا إذا وقع موته بأرض ليس بها من يصلي عليه، واستحسنه الروياني من الشافعية.

ومنها: قول بعضهم: إنه كشف له ﷺ عنه حتى رآه، وعبر عنه القاضي عياض في «الشفاء» بقوله: ورفع له النجاشي حتى صلى عليه، فتكون صلاته كصلاة الإمام على ميت

رآه ولم يره المأمومون، ولا خلاف في جوازها. قال ابن دقيق العيد: وهذا يحتاج إلى نقل ولا يثبت بالاحتمال. وتعقبه بعض الحنفية: بأن الاحتمال كاف في مثل هذا، وكأن مستند هذا القائل ما ذكره الواحدي في أسباب النزول بغير إسناد عن ابن عباس: كشف للنبي ﷺ عن سرير النجاشي حتى رآه وصلى عليه[1]. ولابن حبان من حديث عمران بن حصين: فقام وصفوا خلفه وهم لا يظنون إلا أن الجنازة بين يديه.

ومن الاعتذارات أيضاً: أن ذلك خاص بالنجاشي، لأنه لم يثبت أنه ﷺ صلى على ميت غائب غيره. قاله المهلب، وكأنه لم يثبت عنده قصة معاوية بن معاوية الليثي. واستند من قال بتخصيص النجاشي بذلك إلى ما تقدم من إشاعة أنه مات مسلماً أو استئلاف قلوب الملوك الذين أسلموا في حياته.

قال النووي: لو فتح هذا الباب[2] لانسد كثير من ظواهر الشرع، مع أنه لو كان شيء مما ذكروه لتوفرت الدواعي على نقله. وقال ابن العربي: قال المالكية: ليس ذلك إلا لمحمد ﷺ، قلنا: وما عمل به محمد ﷺ تعمل به أمته، يعني لأن الأصل عدم الخصوصية، قالوا طويت له الأرض، وأحضرت الجنازة بين يديه، قلنا: إن ربنا لقادر، وإن نبينا لأهل لذلك، ولكن لا تقولوا إلا ما رويتم ولا تخترعوا حديثاً من عند أنفسكم، ولا تحدثوا إلا بالثابتات ودعوا الضعاف فإنها سبيل إلى إتلاف ما ليس له تلاف. وقال الكرماني: قولهم «رفع الحجاب عنه» ممنوع، ولئن سلمنا فكان غائباً عن الصحابة الذين صلوا مع النبي ﷺ، انتهى ملخصاً من فتح الباري.

## النوع الثالث
## في ذكر سيرته ﷺ في الزكاة

وهي في اللغة: النماء والتطهير. والمال ينمى بها من حيث لا يرى، وهي مطهرة لمؤديها من الذنوب، وقيل: ينمى أجرها عند الله تعالى. وسميت في الشرع زكاة لوجود المعنى اللغوي فيها. وقيل: لأنها تزكي صاحبها وتشهد بصحة إيمانه، وهي قيد النعمة، وسميت الصدقة صدقة لأنها دليل لتصديق صاحبها وصحة إيمانه بظاهره وباطنه.

وقد فهم من شرعه ﷺ أن الزكاة وجبت للمواساة، وأن المواساة لا تكون إلا في مال له بال، وهو النصاب. ثم جعلها ﷺ في الأموال النامية، وهي أربعة أصناف:

[الأول] الذهب والفضة اللذان بهما قوام العالم.

---

(١) المصدر السابق صفحة (٨١).
(٢) أي باب القول بالخصوص.

والثاني: الزروع والثمار.

والثالث: بهيمة الأنعام: الإبل والبقر والغنم.

والرابع: أموال التجارة على اختلاف أنواعها.

وحدد ﷺ نصاب كل صنف بما يحتمل المواساة: فنصاب الفضة خمس أواق، وهي مائتا درهم بنص الحديث والإجماع، وأما الذهب فعشرون مثقالاً، وأما الزروع والثمار فخمسة أوسق، وأما الغنم فأربعون شاة، والبقر ثلاثون بقرة، والإبل خمس.

ورتب ﷺ مقدار الواجب بحسب المؤنة والتعب في المال: فأعلاها وأقلها تعباً الركاز، وفيه الخمس لعدم التعب فيه، ولم يعتبر له حولاً بل أوجب فيه الخمس متى ظفر به. ويليه الزروع والثمار، فإن سقي بماء السماء ونحوه ففيه العشر، وإلا فنصفه. ويليه الذهب والفضة والتجارة، وفيها ربع العشر، لأنه يحتاج إلى العمل فيه جميع السنة. ويليه الماشية، فإنه يدخلها الأوقاص[1] بخلاف الأنواع السابقة.

ولما كان نصاب الإبل لا يحتمل المواساة من جنسه أوجب فيها شاة، فإذا صارت الخمس خمساً وعشرين احتمل نصابها واحداً، فكان هو الواجب. ثم إنه قد سنَّ هذا الواجب في الزيادة والنقصان بحسب كثرة الإبل وقلتها. وفي كتابه ﷺ الذي كتبه في الصدقة ولم يخرجه إلى عماله حتى قبض: في خمس من الإبل شاة، وفي عشر شاتان، وفي خمسة عشر ثلاث شياه، وفي عشرين أربع شياه، وفي خمس وعشرين بنت مخاض إلى خمس وثلاثين، فإذا زادت واحدة ففيها ابنة لبون إلى خمس وأربعين، فإذا زادت واحدة ففيها حقة إلى ستين، فإن زادت واحدة ففيها جذعة إلى خمس وسبعين، فإذا زادت واحدة ففيها ابنتا لبون إلى تسعين فإذا زادت واحدة ففيها حقتان إلى عشرين ومائة، فإذا كانت الإبل أكثر من ذلك ففي كل خمسين حقة، وفي كل أربعين ابنة لبون، وفي الغنم في كل أربعين شاة شاة، إلى عشرين ومائة، فإذا زادت واحدة فشاتان إلى المائتين، فإن زادت على المائتين ففيها ثلاث شياه، إلى ثلاثمائة، فإن كانت الغنم أكثر من ذلك ففي كل مائة شاة شاة، ثم ليس فيها شيء حتى تبلغ المائة. رواه أبو داود والترمذي من حديث سالم بن عبد الله بن عمر.

وفرض ﷺ زكاة الفطر صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة،

---

(١) الأوقاص جمع وقص: وهي ما بين الفريضتين من الإبل والغنم انظر اللسان ٣٦٨/١٥ مادة (وقص).

رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر. وفي رواية أبي داود من حديث ابن عباس، فرض ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين.

وقال ﷺ: «**إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها، فجزأها ثمانية أجزاء**»[1]. رواه أبو داود من حديث زياد بن الحارث الصدائي. وهذه الثمانية الأجزاء يجمعها صنفان من الناس:

**أحدهما**: من يأخذ لحاجته، فيأخذ بحسب شدة الحاجة وضعفها، وكثرتها وقلتها، وهم الفقراء والمساكين وفي الرقاب وابن السبيل.

**والثاني**: من يأخذ لمنفعته، وهم العاملون عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمون لإصلاح ذات البين، والغزاة في سبيل الله، فإن لم يكن الآخذ محتاجاً، ولا فيه منفعة للمسلمين فلا سهم له في الزكاة.

واعلم أن الأنبياء لا تجب عليهم الزكاة، لأنهم لا ملك لهم مع الله حتى تجب عليهم الزكاة فيه، وإنما تجب عليك زكاة ما أنت له مالك، إنما كانوا يشهدون ما في أيديهم من ودائع الله لهم يبذلونه في أوان بذله، ويمنعونه في غير محله، ولأن الزكاة إنما هي طهرة لما عساه أن يكون ممن وجبت عليه لقوله تعالى: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾ [التوبة: ١٠٣]، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام مبرؤون من الدنس، لوجوب العصمة لهم، ولهذا لم يوجب أبو حنيفة على الصبيان زكاة لعدم دنس المخالفة، والمخالفة لا تكون إلا بعد جريان التكليف، وذلك بعد البلوغ. وإذا كان أهل المعرفة بالله المشاهدون لأحديته لا يشهدون لهم مع الله ملكاً كما هو مشهور من حكاياتهم، فما ظنك بالأنبياء والرسل، وأهل التوحيد والمعرفة إنما غرفوا من بحارهم واقتبسوا من أنوارهم. انتهى ملخصاً من كتاب «التنوير» للعارف الكبير أبي الفضل بن عطاء الله الشاذلي، أذاقنا الله حلاوة مشربه.

تنبيه: ما حكي إن الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل كانا جالسين، إذ أقبل شيبان الراعي، فقال أحمد بن حنبل للشافعي: أريد أن أسأل هذا المشار إليه في هذا الزمن، فقال الشافعي: لا تفعل، فقال: لا بد من ذلك، فقال: يا شيبان ما تقول فيمن نسي أربع سجدات من أربع ركعات؟ فقال: يا أحمد، هذا قلب غافل عن الله، يجب أن يؤدب حتى لا يعود إلى مثل ذلك. قال: فخر أحمد مغشياً عليه، ثم أفاق فقال: ما تقول فيمن له أربعون شاة، ما

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٦٣٠) والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ١٧٤ والسيوطي في جمع الجوامع (٤٩٧٥) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤/ ٩٩ والطبراني في المعجم الكبير ٥/ ٣٠٣ والدارقطني ٢/ ١٣٧ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٦٤٩٧).

زكاتها؟ فقال: على مذهبنا أو على مذهبكم؟ فقال: أو هما مذهبان؟ فقال: نعم، أما على مذهبكم ففي الأربعين شاة شاة، وأما على مذهبنا فالعبد لا يملك مع سيده شيئاً. فقد نقل شيخنا في «المقاصد» عن ابن تيمية أن ذلك باطل باتفاق أهل المعرفة، لأن الشافعي وأحمد لم يدركا شيبان الراعي والله أعلم. انتهى.

وقد كان ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: «**اللهم صل على آل فلان**»، فأتاه أبو أوفى بصدقة فقال: «**اللهم صل على آل أبي أوفى**». رواه البخاري ومسلم. واختلف في أول وقت فرض الزكاة. فذهب الأكثرون إلى أنه وقع بعد الهجرة، فقيل: كان في السنة الثانية قبل فرض رمضان أشار إليه النووي في باب السير من الروضة.

وجزم ابن الأثير في التاريخ بأن ذلك كان في التاسعة، وفيه نظر: لما في حديث ضمام بن ثعلبة، وحديث وفد عبد القيس، ومخاطبة أبي سفيان مع هرقل وكان في أول السابعة، وقال فيها: يأمرنا بالزكاة.

وقوى بعضهم ما ذهب إليه ابن الأثير بما وقع في قصة ثعلبة بن حاطب المطولة ففيها: لما أنزلت آية الصدقة بعث النبي ﷺ عاملاً: فقال: ما هذه إلا الجزية أو أخت الجزية، والجزية إنما وجبت في التاسعة، فتكون الزكاة في التاسعة. لكنه حديث ضعيف لا يحتج بمثله. وادعى ابن خزيمة في صحيحه أن فرضها كان قبل الهجرة، واحتج بما أخرجه من حديث أم سلمة في قصة هجرتهم إلى الحبشة، وفيها: أن جعفر بن أبي طالب قال للنجاشي في جملة ما أخبره به عن الرجل: الذي يأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. انتهى.

وفي الاستدلال بذلك نظر، لأن الصلوات الخمس لم تكن فرضت بعد، ولا صيام رمضان، فيحتمل أن تكون مراجعة جعفر لم تكن في أول ما قدم على النجاشي، وإنما أخبره بذلك بعد مدة قد وقع فيها ما ذكر من فريضة الصلاة والصيام، وبلغ ذلك جعفراً فقال: يأمرنا، يعني أمته، وهو بعيد جداً. وأولى ما حمل عليه حديث أم سلمة هذا ـ إن سلم من قدح في إسناده ـ أن المراد بقول جعفر «يأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام» أي في الجملة، ولا يلزم من ذلك أن يكون المراد بالصلاة الصلوات الخمس ولا بالصيام صيام شهر رمضان، ولا بالزكاة هذه الزكاة المخصوصة ذات النصاب والحول.

ومما يدل على أن فرض الزكاة كان قبل التاسعة حديث أنس في قصة ضمام بن ثعلبة[1] وقوله: «أنشدك الله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على

---

(١) هو ضمام بن ثعلبة السعدي انظر الإصابة ٣/ ٢٧١ رقم الترجمة (٤١٧٣).

فقرائنا؟» وكان قدوم ضمام سنة خمس، وإنما الذي وقع في التاسعة بعث العمال لأخذ الصدقات، وذلك يستدعي تقدم فريضة الزكاة قبل ذلك.

ومما يدل على أن فرض الزكاة وقع بعد الهجرة اتفاقهم على أن صيام رمضان إنما فرض بعد الهجرة، لأن الآية الدالة على فرضيته مدنية بلا خلاف. وثبت عند أحمد وابن خزيمة والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث قيس بن سعد بن عبادة قال: أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة، ثم نزلت فريضة الزكاة، فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله. إسناده صحيح، ورجاله رجال الصحيح، إلا أبا عمار، الراوي عن قيس بن سعد، وقد وثقه أحمد وابن معين. وهو دال على أن فرض صدقة الفطر كان قبل فرض الزكاة، فيقتضي وقوعها بعد فرض رمضان. قاله الحافظ أبو الفضل بن حجر رحمه الله.

وكان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها. رواه البخاري من حديث عائشة. وإذا أتي بطعام سأل عنه أهدية أم صدقة، فإن قيل صدقة قال لأصحابه: كلوا ولم يأكل، وإن قيل هدية ضرب بيده فأكل معهم. رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة. وقال ﷺ لعائشة: «هل عندكم شيء» فقالت: لا، إلا شيء بعثت به إلينا نسيبة من الشاة التي بعثت بها إليها من الصدقة، قال: **«إنها بلغت محلها»**[1]. رواه البخاري ومسلم. وقوله: **«محلها»** بكسر الحاء، أي زال عنها حكم الصدقة وصارت حلاً لنا. وأتي بلحم قد تصدق به على بريرة فقال: **«هو عليها صدقة، ولنا هدية»**[2]، رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي. وفي حديث عائشة عند البخاري ومسلم: دخل ﷺ وعلى النار برمة تفور، فدعا بالغداء، فأتي بخبز وأدم من أدم البيت، فقال: **«ألم أر برمة على النار تفور؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، لكنه لحم تصدق به على بريرة، وأهدت إلينا منه، وأنت لا تأكل الصدقة، فقال: **«هو صدقة عليها، وهدية لنا»**[3].

---

(١) الحديث في البخاري برقم (١٤٩٤) وفي صحيح مسلم كتاب الصيام (١٦٩ ـ ١٧٠) وفي كتاب الزكاة (١٧٤) وفي النسائي ١٩٣/٤ وفي سنن ابن ماجه (١٧٠١) وفي الترمذي برقم (٧٣٣ ـ ١٨٤١) وفي المسند ٣٠٧/٦ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣٠٣/٤ وفي مجمع الزوائد ١٤٩/٣ وفي التمهيد لابن عبد البر ١٠٦/٥ وفي مشكاة المصابيح للتبريزي (٢٠٧٦) وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٣٠٢/٤.

(٢) الحديث في البخاري برقم (٥٠٩٧) وفي صحيح مسلم كتاب العتق برقم (١٠ ـ ١٤) وفي المسند ٣٦١/١ وفي سنن الدارمي ١٦٩/٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٨٥/٦، وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٢٣٤/٥ وفي مجمع الزوائد ٢٤٧/٤ وفي المعجم الكبير للطبراني ٣٠٨/١١ وفي كنز العمال (١٦٥١١).

(٣) الحديث في البخاري برقم (٥٢٧٩) وفي صحيح مسلم كتاب العتق برقم (١٤) وفي النسائي =

# النوع الرابع
## في ذكر صيامه ﷺ

اعلم أن المقصود من الصيام إمساك النفس عن خسيس عاداتها، وحبسها عن شهواتها، وفطامها عن مألوفاتها، فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر أعمال العاملين، كما قال الله تعالى في الحديث الإلهي الذي رواه مسلم: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فهو لي وأنا أجزي به**»[1]. فأضافه تعالى إليه إضافة تشريف وتكريم، كما قال تعالى: ﴿**ناقة الله**﴾ [الشمس: ١٣] مع أن العالم كله له سبحانه.

وقيل: لأنه لم يعبد غيره به، فلم يعظم الكفار في عصر من الأعصار معبوداً لهم بالصيام، وإن كانوا يعظمونه بصورة الصلاة والسجود وغيرها. قال في شرح تقريب الأسانيد: واعترض بما يقع من عباد النجوم وأصحاب الهياكل والاستخدامات فإنهم يتعبدون لها بالصيام.

**وأجيب**: بأنهم لا يعتقدون أنها فعالة بأنفسها.

وقيل: لأن الصوم بعيد عن الرياء لخفائه، بخلاف الصلاة والحج والغزو وغير ذلك من العبادات الظاهرات، قال في فتح الباري: معنى النفي في قولهم «لا رياء في الصوم» أنه لا يدخله الرياء بفعله، وإن كان قد يدخله الرياء بالقول، كمن يصوم ثم يخبر بأنه صائم، فقد يدخله الرياء من هذه الحيثية، فدخول الرياء في الصوم إنما يقع من جهة الإخبار، بخلاف بقية الأعمال، فإن الرياء يدخلها بمجرد فعلها. انتهى.

وعن شداد بن أوس مرفوعاً: «**من صام يرائي فقد أشرك**»[2]. رواه البيهقي. وقيل: لأنه ليس للصائم ونفسه فيه حظ. وقيل: لأن الاستغناء عن الطعام وغيره من الشهوات من صفات الرب تعالى، فلما تقرب الصائم إليه بما يوافق صفاته أضافه إليه، قال القرطبي

---

= ٦/ ١٦٢ وفي المسند للإمام أحمد ٦/ ١٧٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٣٢٨ وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٢٦ وفي نصب الراية للزيلعي ٤/ ١٤٧.

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى أيضاً ٤/ ٢٧٠ و ٢٧٤ و ٣٠٥ والسيوطي في الدر المنثور ١/ ١٧٩ و ٢/ ٧٩ وابن عدي في الكامل ٣/ ٩٤٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٥٦ والمنذري في الترغيب ١/ ٦٧ و ٧١ والقرطبي في التفسير ١١/ ٧١ وابن كثير في تفسيره ٥/ ٢٠٢.

معناه: أن أعمال العباد مناسبة لأحوالهم، إلا الصيام فإنه مناسب لصفة من صفات الحق، كأنه تعالى يقول: إن الصائم يتقرب إلي بأمر هو متعلق بصفة من صفاتي. أو لكون ذلك من صفات الملائكة، أو لأنه تعالى هو المنفرد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته، بخلاف غيره من العبادات، فقد أظهر سبحانه بعض مخلوقاته على مقدار ثوابها، ولذا قال في بقية الحديث: (وأنا أجزي به) وقد علم بأن الكريم إذا أخبر بأنه يتولى بنفسه الجزاء اقتضى ذلك سعة العطاء، وإنما جوزي الصائم هذا الجزاء لأنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده.

والمراد بالشهوة في الحديث شهوة الجماع لعطفها على الطعام والشراب، ويحتمل أن يكون من العام بعد الخاص، لكن وقع في رواية عند ابن خزيمة «يدع لذته من أجلي، ويدع زوجته من أجلي، وأصرح منه ما روي «من الطعام والشراب والجماع من أجلي».

وللصيام تأثير عجيب في حفظ الأعضاء الظاهرة، وقوى الجوارح الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب للمواد الفاسدة، واستفراغ المواد الرديئة المانعة له من صحتها، فهو من أكبر العون على التقوى، كما أشار إليه تعالى بقوله: **﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾** [البقرة: ١٨٣] وقال ﷺ ـ كما في البخاري: ـ **(الصوم جُنة)**[١] هي بضم الجيم، الوقاية والستر، أي: ستر من النار. وبه جزم ابن عبد البر، وفي النهاية: أي يقي صاحبه مما يؤذيه من الشهوات، وقال القاضي عياض: من الآثام. وقد اتفقوا على أن المراد بالصيام هنا صيام من سلم صيامه من المعاصي قولاً وفعلاً.

وقد اختلف: هل الصوم أفضل أم الصلاة؟ فقيل الصوم أفضل الأعمال البدنية، لحديث النسائي عن أبي أمامة قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، مرني بأمر آخذه عنك قال: **(عليك بالصوم فإنه لا عِدل له)**[٢]، والمشهور تفضيل الصلاة، وهو مذهب الشافعي وغيره، لقوله ﷺ: **(واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة)** رواه أبو داود وغيره. ثم إن الكلام في صيامه ﷺ على قسمين:

---

(١) أخرجه أيضاً الترمذي برقم (٦١٤ ـ ٢٦١٦) والنسائي ١٦٦/٤ وابن ماجه (٣٩٧٣) وأحمد بن حنبل في المسند ٣٠٦/٢ و ٣٩٣ والدارمي ٢٥/٢ والبيهقي في السنن الكبرى ٤٢/١ والسيوطي في الدر المنثور ٣٥٤/١ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٣٦١٦).

(٢) أخرجه النسائي ١٦٥/٤ و ١٦٦ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٢٤٩/٥ وأبو نعيم في حليته ١٧٥/٥ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٣٦٣٨، ٢٤٢٧٥).

# في صيامه ﷺ شهر رمضان وفيه فصول

## الفصل الأول

## فيما كان يخص به رمضان من العبادات وتضاعف جوده ﷺ فيه

اعلم أن «رمضان» مشتق من الرمض، وهو شدة الحر، لأن العرب لما أرادوا أن يضعوا أسماء الشهور وافق أن الشهر المذكور شديد الحر فسموه بذلك، كما سمي الربيعان لموافقتهما زمن الربيع. أو لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها، وهو ضعيف لأن التسمية به ثابتة قبل الشرع. ورمضان أفضل الشهور، كما حكاه الأسنوي عن قواعد الشيخ عز الدين بن عبد السلام[١].

قال النووي: وقولهم إنه من أسماء الله تعالى ليس بصحيح، وإن كان قد جاء فيه أثر ضعيف، وأسماء الله تعالى توقيفية لا تثبت إلا بدليل صحيح. انتهى. وقد اختلف السلف: هل فرض صيام قبل صيام رمضان أم لا؟ فالجمهور ـ وهو المشهور عند الشافعية ـ أنه لم يجب قط صوم قبل صوم رمضان، وفي وجه ـ وهو قول الحنفية ـ أول ما فرض يوم عاشوراء، فلما نزل رمضان نسخ. وسيأتي أدلة الفريقين في الكلام على صوم عاشوراء إن شاء الله تعالى. وقد كان فرض رمضان في السنة الثانية من الهجرة ـ كما تقدم ـ فتوفي سيدنا رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات.

ولما كان شهر رمضان موسم الخيرات ومنبع الجود والبركات لأن نعم الله فيه تزيد على غيره من الشهور، وكان سيدنا رسول الله ﷺ يكثر فيه من العبادات وأنواع القربات الجامعة لوجوه السعادات، من الصدقة والإحسان والصلاة والذكر والاعتكاف ويخص به من العبادات ما لا يخص به غيره من الشهور، وكان جوده ﷺ يتضاعف في شهر رمضان على غيره من الشهور، كما أن جود ربه تعالى يتضاعف فيه أيضاً، فإن الله تعالى جبله على ما يحبه من الأخلاق الكريمة.

---

(١) انظر كشف الظنون ٢/١٣٥٩.

وفي حديث ابن عباس عند الشيخين، قال: (كان النبي ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة). فبمجموع ما ذكر في هذا الحديث من الوقت وهو شهر رمضان، والمنزل وهو القرآن، والنازل به وهو جبريل، والمذاكرة وهي مدارسة القرآن، حصل له ﷺ المزيد في الجود.

والمرسلة: المطلقة، يعني أنه في الإسراع بالجود أسرع من الريح، وعبر بالمرسلة إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة، إلى عموم النفع بجوده ﷺ، كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه. ووقع عند الإمام أحمد في آخر هذا الحديث (لا يسأل شيئاً إلا أعطاه). وتقدم في ذكر سخائه ﷺ مزيد لذلك.

وقد كان ابتداء نزول القرآن في شهر رمضان، وكذا نزوله إلى سماء الدنيا جملة واحدة، فكان جبريل عليه الصلاة والسلام يتعاهده ﷺ في كل سنة، فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه ﷺ عارضه به مرتين، كما ثبت في الصحيح عن فاطمة رضي الله عنها. قال في فتح الباري: وفي معارضة جبريل النبي ﷺ بالقرآن في شهر رمضان حكمتان، إحداهما: تعاهده، والأخرى: تبقية ما لم ينسخ منه ورفع ما نسخ، فكان رمضان ظرفاً لإنزاله جملة وتفصيلاً وعرضاً وإحكاماً.

وفي المسند[1]، عن واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ أنه قال: أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان لأربع وعشربن خلت من رمضان. وقد دل الحديث على استحباب مدارسة القرآن في رمضان، والاجتماع عليه، وعرض القرآن على من هو أحفظ منه. وفي حديث ابن عباس أن المدارسة بينه ﷺ وبين جبريل كانت ليلاً، وهو يدل على استحباب الإكثار من تلاوة القرآن في رمضان ليلاً، لأن الليل تنقطع فيه الشواغل وتجتمع فيه الهمم، ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر.

وقد كان ﷺ يبشر أصحابه بقدوم رمضان، كما أخرجه الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة ولفظه قال: كان النبي ﷺ يبشر أصحابه بقدوم رمضان يقول: قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، كتب عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم الخير الكثير. قال بعض العلماء: هذا الحديث أصل في تهنئة الناس بعضهم بعضاً بشهر رمضان.

(١) للإمام أحمد بن حنبل ٤/١٠٧.

وروي أنه ﷺ كان يدعو ببلوغ رمضان، فكان إذا دخل شهر رجب وشعبان قال: «**اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان**»[1] رواه الطبراني وغيره من حديث أنس. وكان ﷺ إذا رأى هلال رمضان قال: «**هلال رشد وخير، هلال رشد وخير [هلال رشد وخير]**، آمنت بالذي خلقك»[2]، رواه النسائي من حديث أنس.

وروي أن ﷺ كان يقول، إذا دخل شهر رمضان: «**اللهم سلمني من رمضان، وسلم رمضان لي، وسلمه مني**» أي: سلمني منه حتى لا يصيبني فيه ما يحول بيني وبين صومه من مرض أو غيره. وسلمه لي: حتى لا يغم هلاله علي في أوله وآخره، فيلتبس علي الصوم والفطر، وسلمه مني: أن تعصمني من المعاصي فيه. وهذا منه ﷺ تشريع لأمته[3].

## الفصل الثاني

## في صيامه ﷺ برؤية الهلال

عن عائشة (كان ﷺ يتحفظ من شعبان ما لا يتحفظ من غيره، ثم يصوم لرؤية رمضان، فإن غم عليه عد ثلاثين يوماً ثم صام. رواه أبو داود. قوله: «فإن غم عليكم» أي: حال بينكم وبينه غيم. «فاقدروا له» من التقدير، أي: قدروا له تمام العدد ثلاثين يوماً، ويؤيده قوله في الرواية السابقة: «فإن غم عليه ﷺ عد ثلاثين» وهو مفسر لـ «اقدروا له» ولهذا لم يجتمعا في رواية. ويؤكده رواية «فاقدروا له ثلاثين».

قال المازري: حمل جمهور الفقهاء قوله ﷺ: «اقدروا» على أن المراد إكمال العدة ثلاثين كما فسره في حديث آخر، قالوا: ولا يجوز أن يكون المراد حساب المنجمين، لأن الناس لو كلفوا به لضاق عليهم، لأنه لا يعرفه إلا الأفراد، والشرع إنما يعرف الناس بما يعرفه جماهيرهم. انتهى.

وهذا مذهبنا ومذهب مالك وأبي حنيفة، وجمهور السلف والخلف. وفيه دليل: أنه لا يجوز صوم يوم الشك، ولا يوم الثلاثين من شعبان عن رمضان إذا كانت ليلة الثلاثين ليلة

---

(١) أخرجه الامام أحمد بن حنبل في المسند ١/٢٥٩ والسيوطي في الدر المنثور ١/١٨٣ والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/١٦٥ و٣/١٤٠ والعجلوني في كشف الخفا ١/٢١٣ والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٣٦٩) والمتقي الهندي في كنز العمال (١٨٠٤٩ ـ ٣٨٢٨٨).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب (١١٠) والطبراني في المعجم الكبير ٤/٣٢٩ والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٣٩ والتبريزي في المشكاة (٢٤٥١) وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٣٣٨ ـ ٧٣٥١٣). والمتقي الهندي في كنز العمال (٧٣٥٣ ـ ١٨٠٤٠ ـ ١٨٠٤٧).

(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٢٤٢٧٧).

غيم. وقال الإمام أحمد بن حنبل في طائفة: أي اقدروا له تحت السحاب، فيجوزون صوم ليلة الغيم عن رمضان، بل قال أحمد بوجوبه. وقال ابن سريج وجماعة منهم مطرف بن عبد الله وابن قتيبة وآخرون معناه: قدروا بحساب المنازل.

## الفصل الثالث
## في صومه ﷺ بشهادة العدل الواحد

عن ابن عمر قال: تراءى الناس الهلال، فأخبرت رسول الله ﷺ أني رأيته، فصام وأمر الناس بصيامه. رواه أبو داود وصححه ابن حبان. وعن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت هلال رمضان، فقال: «**أتشهد أن لا إله إلا الله**» قال: نعم، قال: «**أتشهد أن محمداً رسول الله**» قال: نعم، قال: «**يا بلال، أذن في الناس فليصوموا**»، رواه أبو داود والترمذي والنسائي. والمراد في قوله ﷺ في الحديث السابق: «إذا رأيتموه» رؤية بعض المسلمين، ولا يشترط رؤية كل إنسان بل يكفي جميع الناس رؤية عدل على الأصح في مذهبنا. وهذا في الصوم، وأما في الفطر فلا يجوز بشهادة عدل واحد على هلال شوال عند جميع العلماء، إلا أبا ثور فجوزه بعدل.

قال الأسنوي: إذا قلنا بالعدل الواحد في الصوم فلا خلاف أنه لا يتعدى إلى غيره، فلا يقع به الطلاق والعتق المعلقين بدخول رمضان، ولا يحل به الدين المؤجل، ولا يتم به حول الزكاة، كذا أطلقه الرافعي هنا نقلاً عن البغوي، وأقره وتبعه عليه في الروضة، وصورته: فيما إذا سبق التعليق على الشهادة، فإن وقعت الشهادة أولاً، وحكم الحاكم بدخول رمضان ثم جرى التعليق فإن الطلاق والعتق يقعان. كذا نقله القاضي حسين في تعليقه عن ابن سريج وقال الرافعي: في الباب الثاني من كتاب الشهادات: إنه القياس، انتهى.

## الفصل الرابع
## فيما كان يفعله ﷺ وهو صائم

عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ احتجم وهو صائم. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي. واعلم أن الجمهور على عدم الفطر بالحجامة مطلقاً. وعن علي وعطاء والأوزاعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور: يفطر الحاجم والمحجوم، وأوجبوا عليهما القضاء. وشذ عطاء فأوجب الكفارة أيضاً. وقال بقول أحمد، من الشافعية: ابن خزيمة وابن المنذر وابن حبان.

ونقل الترمذي عن الزعفراني[1]: أن الشافعي علق القول به على صحة الحديث. قال الترمذي: كان الشافعي يقول ذلك ببغداد، وأما بمصر فمال إلى الرخصة. انتهى.

وقال الشافعي في «اختلاف الحديث»[2]، بعد أن أخرج حديث شداد «كنا مع رسول الله ﷺ في زمان الفتح، فرأى رجلاً يحتجم لثمان عشرة خلت من رمضان. فقال ـ وهو آخذ بيدي ـ: أفطر الحاجم والمحجوم» ثم ساق حديث ابن عباس «أنه ﷺ احتجم وهو صائم» قال: وحديث ابن عباس أمثلهما إسناداً[3]، فإن توقى أحد الحجامة كان أحب إلى احتياطاً، والقياس مع حديث ابن عباس. والذي أحفظ عن الصحابة والتابعين وعامة أهل العلم أنه لا يفطر أحد بالحجامة، انتهى.

وأول بعضهم حديث «أفطر الحاجم والمحجوم» أن المراد به أنهما سيفطران، كقوله تعالى: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ [يوسف: ٣٦]، أي ما يؤول إليه. ولا يخفى بعد هذا التأويل. وقال البغوي في «شرح السنة» معناه: أي تعرضا للإفطار، أما الحاجم فإنه لا يأمن من وصول شيء من الدم إلى جوفه عند مصه، وأما المحجوم فإنه لا يأمن من ضعف قوته بخروج الدم، فيؤول أمره إلى أن يفطر. وقيل: معنى أفطرا: فعلا مكروهاً وهو الحجامة، فصارا كأنهما غير متلبسين بالعبادة.

وقال ابن حزم: صح حديث «أفطر الحاجم والمحجوم» بلا ريب، لكن وجدنا من حديث أبي سعيد «أرخص النبي ﷺ في الحجامة للصائم» وإسناده صحيح[4]، فوجب الأخذ به، لأن الرخصة إنما تكون بعد العزيمة، فدل على نسخ الفطر بالحجامة، سواء كان حاجماً أو محجوماً. انتهى.

والحديث المذكور[5]، أخرجه النسائي وابن خزيمة والدارقطني، ورجاله ثقات، ولكن اختلف في رفعه ووقفه، وله شاهد من حديث أنس عند الدارقطني ولفظه «أول ما كرهت الحجامة للصائم أن جعفر بن أبي طالب احتجم وهو صائم، فمر به رسول الله ﷺ فقال: «**أفطر هذان**»، ثم أرخص رسول الله ﷺ بعد في الحجامة للصائم، وكان أنس يحتجم وهو صائم»[6]. ورواته كلهم من رجال البخاري إلا أن في المتن ما ينكر، لأن فيه أن ذلك

---

(١) هو الحسين بن علي بن يزيد البغدادي الزعفراني فقيه إمام في اللغة توفي سنة (٢٤٨ هـ).
(٢) وهو اسم كتاب للإمام الشافعي انظر كشف الظنون ١/ ٣٢.
(٣) قال الزرقاني في شرحه على المواهب: «حديث ابن عباس متفق عليه وحديث شداد فيه كلام».
(٤) أخرجه النسائي وابن خزيمة والدارقطني.
(٥) أي حديث أبي سعيد المتقدم (أرخص..).
(٦) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٢٦٨ والدارقطني في سننه ٢/ ١٨٢ وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٥١.

كان في الفتح، وجعفر كان قتل قبل ذلك.

ومن أحسن ما ورد في ذلك، ما رواه عبد الرزاق وأبو داود عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: نهى النبي ﷺ عن الحجامة للصائم، وعن المواصلة، ولم يحرمهما إبقاء على أصحابه. وإسناده صحيح، والجهالة بالصحابي لا تضر، ورواه ابن أبي شيبة عن وكيع عن الثوري بلفظ «عن أصحاب محمد ﷺ قالوا: إنما نهى النبي ﷺ عن الحجامة للصائم وكرهها للضعف» أي لئلا يضعف. انتهى ملخصاً من فتح الباري والله أعلم.

وقالت عائشة: (كان ﷺ يقبل بعض أزواجه وهو صائم، ثم ضحكت) رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود. قالت: (وكان أملككم لإربه) أي لحاجته، تعني أنه كان غالباً لهواه. قال ابن الأثير: أكثر المحدثين يروونه بفتح الهمزة والراء، يعنون به الحاجة، وبعضهم يرويه بكسر الهمزة وسكون الراء، وله تأويلان: **أحدهما**: أنه الحاجة يقال فيها؛ الأَرَب، والإِرْب، والإربة والمأربة، **والثاني**: أرادت به العضو، وعنت به من الأعضاء الذكر خاصة، انتهى. فمذهب الشافعي والأصحاب: أن القبلة ليست محرمة على من لم تحرك شهوته، لكن الأولى تركها، وأما من حركت شهوته فهي حرام في حقه على الأصح عند أصحابنا.

وقوله: «فضحكت» قيل: يحتمل ضحكها التعجب ممن خالف هذا، وقيل: تعجبت من نفسها، إذ حدثت بمثل هذا مما يستحي من ذكر النساء مثله للرجال، ولكنها ألجأتها الضرورة في تبليغ العلم إلى ذكر ذلك، وقد يكون خجلاً لإخبارها عن نفسها بذلك، أو تنبيهاً على أنها صاحبة القصة ليكون ذلك أبلغ في الثقة بها، أو سروراً بمكانتها من النبي ﷺ ومحبته لها.

وقد روى ابن أبي شيبة عن شريك عن هشام في هذا الحديث: «**فضحكت فظننا أنها هي**». وروى النسائي عنها قالت: أهوى إليَّ النبي ﷺ ليقبلني فقلت: إني صائمة، فقال: «**وأنا صائم فقبلني**»[1]. وقد روى أبو داود عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقبلها ويمص لسانها، يعني وهو صائم. وإسناده ضعيف، ولو صح فهو محمول على أنه لم يبتلع ريقه الذي خالط ريقها.

---

(١) أخرجه الامام أحمد بن حنبل في المسند ١٣٤/٦ و ١٧٦ والبيهقي في السنن الكبرى ٢٣٣/٤ وعبد الرزاق في مصنفه (٨٤١٠).

وكان ﷺ يكتحل بالإثمد وهو صائم[1]. رواه البيهقي من رواية محمد بن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده. ثم قال: إن محمداً هذا ليس بالقوي، وثقه الحاكم وأخرج له في مستدركه. وقالت أم سلمة: كان ﷺ يصبح جنباً من جماع لا حلم، ثم لا يفطر ولا يقضي. رواه البخاري ومسلم.

قال القرطبي: في هذا الحديث فائدتان، إحداهما: أنه كان يجامع في رمضان ويؤخر الغسل إلى بعد طلوع الفجر بياناً للجواز، الثانية: أن ذلك كان من جماع لا من احتلام، لأنه كان لا يحتلم، إذ الاحتلام من الشيطان، وهو معصوم منه، وقال غيره في قولها: «من غير الاحتلام» إشارة إلى جواز الاحتلام عليه، وإلا لما كان لاستثنائه معنى.

وردّ: بأن الاحتلام من الشيطان، وهو معصوم منه. وأجيب: بأن الاحتلام يطلق على الإنزال، وقد يقع الإنزال بغير رؤية شيء في المنام. وأرادت بالتقييد بالجماع المبالغة في الرد على من زعم أن فاعل ذلك عمداً يفطر. انتهى. وقال عامر بن ربيعة: رأيته ﷺ يستاك وهو صائم ما لا أعد ولا أحصي. رواه أبو داود والترمذي.

## الفصل الخامس
## في وقت إفطاره ﷺ

عن عبد الله بن أبي أوفى قال: (كنا مع رسول الله ﷺ في سفر في شهر رمضان، فلما غابت الشمس قال: «**يا بلال انزل فاجدح لنا**» قال: يا رسول الله، إن عليك نهاراً، قال: «**انزل فاجدح لنا**»، قال فنزل فجدح فأتى به فشرب النبي ﷺ ثم قال بيده: «**إذا غابت الشمس من ها هنا، وجاء الليل من ها هنا فقد أفطر الصائم**» رواه البخاري ومسلم. والجدح ـ بجيم ثم حاء مهملة ـ خلط الشيء بغيره. والمراد: خلط السويق بالماء وتحريكه حتى يستوي.

ومعنى الحديث: أنه ﷺ وأصحابه كانوا صياماً، فلما غربت الشمس أمره ﷺ بالجدح ليفطروا، فرأى المخاطب آثار الضياء والحمرة التي تبقى معه بعد غروب الشمس، فظن أن الفطر لا يحصل إلا بعد ذهاب ذلك، واحتمل عنده أنه ﷺ لم يردها، فأراد تذكيره وإعلامه بذلك، ويؤيد هذا قوله: إن عليك نهاراً، لتوهمه أن ذلك الضوء من النهار الذي يجب صومه، وهو معنى قوله في الرواية الأخرى: «لو أمسيت» وتكريره المراجعة لغلبة اعتقاده على أن ذلك نهار يحرم الأكل فيه، مع تجويزه أنه ﷺ لم ينظر إلى ذلك الضوء نظراً تاماً، فقصد زيادة الإعلام ببقاء الضوء والله أعلم. قاله النووي.

(١) قال عنه أبو حاتم: «حديث منكر».

## الفصل السادس
## فيما كان ﷺ يفطر عليه

عن أنس: كان ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم يجد رطبات فتمرات، فإن لم يجد تمرات حسا حسوات من ماء[1]. رواه أبو داود. وإنما خص ﷺ الفطر بما ذكر لأن إعطاء الطبيعة الشيء الحلو مع خلو المعدة أدعى إلى قبوله وانتفاع القوى به، لا سيما قوة البصر. وأما الماء فإن الكبد يحصل لها بالصوم نوع يبس، فإذا رطبت بالماء كمل انتفاعها بالغذاء بعده، ولهذا كان الأولى بالظمآن الجائع أن يبدأ بشرب قليل من الماء ثم يأكل بعده. قاله ابن القيم.

## الفصل السابع
## فيما كان يقوله ﷺ عند الإفطار

عن معاذ بن زهرة: بلغه أن رسول الله ﷺ كان إذا أفطر قال: «**اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت**». وهو حديث مرسل، ومعاذ هذا ذكره البخاري في التابعين لكن قال: معاذ أبو زهرة ـ وتبعه ابن أبي حاتم وابن حبان ـ في الثقات. وذكره يحيى بن يونس الشيرازي في الصحابة، وغلطه جعفر المستغفري. قال الحافظ ابن حجر: ويحتمل أن يكون الحديث موصولاً، ولو كان معاذ تابعياً، لاحتمال أن يكون الذي بلغه له صحابياً. قال: وبهذا الاعتبار أورده أبو داود في السنن، وبالاعتبار الآخر أورده في المراسيل.

وخرج ابن السني والطبراني في المعجم الكبير، بسند واه جداً، عن ابن عباس: كان ﷺ إذا أفطر قال: «**اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت، فتقبل مني إنك أنت السميع العليم**». وعن ابن عمر: كان ﷺ إذا أفطر قال: «**ذهب الظمأ وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله**»، رواه أبو داود. وزاد رزين: «**الحمد لله**» في أول الحديث.

وفي كتاب ابن السني، عن معاذ بن زهرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أفطر قال: «**الحمد لله الذي أعانني فصمت ورزقني فأفطرت**».

## الفصل الثامن
## في وصاله ﷺ

عن ابن عمر: أن النبي ﷺ نهى عن الوصال، قالوا: إنك تواصل، قال: «**إني لست كهيئتكم، إني أطعم وأسقى**». رواه البخاري ومسلم.

---

(١) رواه النسائي أيضاً والترمذي: «حسنه».

وللبخاري: أنه ﷺ واصل، فواصل الناس فشق عليهم، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يواصلوا، قالوا: إنك تواصل، قال: «**لست كهيئتكم، إني أظل أطعم وأسقى**». وفي رواية أنس: واصل ﷺ في آخر شهر رمضان، فواصل ناس من المسلمين فبلغه ذلك فقال: «**لو مد لنا الشهر لواصلنا وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم، إنكم لستم مثلي**» - أو قال: «**لست مثلكم - إني أظل يطعمني ربي ويسقيني**». وفي رواية: «**لا تواصلوا**»، قالوا: إنك تواصل، قال: «**لست كأحد منكم، إني أطعم وأسقى**». رواه البخاري ومسلم.

والمتعمقون: هم المتشددون في الأمر، المجاوزون الحدود في قول أو فعل. وفي رواية سعيد بن منصور وابن أبي شيبة من مرسل الحسن: «**إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**». وعن عائشة قالت: نهاهم رسول الله ﷺ عن الوصال، رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل. فقال: «**إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني**». رواه البخاري ومسلم إلا أن البخاري قال «نهى» ولم يقل: نهاهم. وعن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم، فأبوا فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال فقال: «**لو تأخر لزدتكم**» كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا، رواه البخاري.

والوصال: هو عبارة عن صوم يومين فصاعداً من غير أكل وشرب بينهما قال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: وقد اختلف في معنى قوله «يطعمني ربي ويسقيني». فقيل: هو على حقيقته، وأنه ﷺ كان يؤتى بطعام وشراب من عند الله كرامة له في ليالي صيامه. وتعقب: بأنه لو كان كذلك لم يكن مواصلاً، وبأن قوله: «أظل» يدل على وقوع ذلك بالنهار، فلو كان الأكل والشرب حقيقة لم يكن صائماً.

وأجيب: بأن الراجح من الروايات لفظ «أبيت» دون «أظل» وعلى تقدير ثبوتها فهي محمولة على مطلق الكون لا على حقيقة اللفظ، لأن المتحدث عنه هو الإمساك ليلاً لا نهاراً، وأكثر الروايات إنما هو «أبيت» فكأن بعض الرواة عبر عنها بـ «أظل» نظراً إلى اشتراكهما في مطلق الكون. يقولون كثيراً: أضحى فلان كذا، ولا يريدون تخصيص ذلك بوقت الضحى، ومنه قوله تعالى: ﴿**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً**﴾ [النحل: ٥٨] فإن المراد به مطلق الوقت، ولا اختصاص لذلك بنهار دون ليل، وليس حمل الطعام والشراب على المجاز بأولى من حمل لفظ «أظل» على المجاز وعلى التنزل فلا يضر شيء من ذلك، لأن ما يؤتى به الرسول على سبيل الكرامة من طعام الجنة وشرابها لا تجري عليه أحكام المكلفين فيه، كما غسل صدره الشريف في طست الذهب، مع أن استعمال أواني الذهب الدنيوية محرمة.

وقال ابن المنير: الذي يفطر شرعاً إنما هو الطعام المعتاد، وأما الخارق للعادة

كالمحضر من الجنة فعلى غير هذا المعنى، وليس تعاطيه من جنس الأعمال، وإنما هو من جنس الثواب كأكل أهل الجنة في الجنة، والكرامة لا تبطل العادة[1].

وقال غيره: لا مانع من حمل الطعام والشراب على حقيقتهما، وأكله وشربه في الليل لا يقطع وصاله خصوصية له بذلك، فكأنه لما قيل له: إنك تواصل، قال: «إني لست في ذلك كهيئتكم»، أي على صفتكم في أن من أكل منكم أو شرب انقطع وصاله، بل إنما يطعمني ربي ويسقيني ولا ينقطع بذلك مواصلتي، فطعامي وشرابي على غير طعامكم وشرابكم صورة ومعنى.

وقال الجمهور: هو مجاز عن لازم الطعام والشراب وهو القوة، فكأنه قال: يعطيني قوة الآكل والشارب، ويفيض علي ما يسد مسد الطعام والشراب، ويقوي على أنواع الطاعة من غير ضعف في القوة. أو المعنى: أن الله يخلق فيه من الشبع والري ما يغنيه عن الطعام والشراب، ولا يحس بجوع ولا عطش.

والفرق بينه وبين الأول: أنه على الأول يعطى القوة من غير شبع ولا ري، بل مع الجوع والظمأ، وعلى الثاني: يعطى القوة مع الشبع والري. ورجح الأول بأن الثاني ينافي حال الصائم ويفوت المقصود من الصوم والوصال، لأن الجوع هو روح هذه العبادة بخصوصها. قال القرطبي: ويبعده النظر إلى حاله ﷺ فإنه كان يجوع أكثر مما يشبع ويربط على بطنه الحجر. انتهى.

ويحتمل كما قاله ابن القيم في «الهدي» وابن رجب في اللطائف ـ أن يكون المراد به ما يغذيه الله به من معارفه، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته وقرة عينه بقربه، ونعيمه بحبه والشوق إليه، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الأرواح وقرة العين، وبهجة النفوس، فللروح والقلب بها أعظم غذاء وأجله وأنفعه، وقد يغني هذا الغذاء عن غذاء الأجسام مدة من الزمان كما قيل:

لهـا أحـاديـث مـن ذكـراك تشغلهـا ... عـن الشـارب وتلهيهـا عـن الـزاد
إذا اشتكـت مـن كـلال السيـر أو عـدهـا ... روح القـدوم فتحيـا عنـد ميعـاد

ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الحيواني، ولا سيما الفرحان الظافر بمطلوبه الذي قد قرت عينه بمحبوبه، وتنعم بقربه والرضا عنه، وألطاف محبوبه...[2] مكرم له غاية الإكرام مع الحب التام، أفليس

---

(١) قال الزرقاني: «إذ لو أبطلتها لم تكن كرامة فلا يبطل بذلك صومه ولا ينقطع وصاله».
(٢) اختصر المصنف كلام ابن القيم هنا.

هذا من أعظم غذاء لهذا المحب، فكيف بالحبيب الذي لا شيء أعظم منه ولا أجل ولا أجمل ولا أكمل ولا أعظم إحساناً، أفليس هذا المحب عند حبيبه يطعمه ويسقيه ليلاً ونهاراً، ولهذا قال: إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني. انتهى.

وحكى النووي في شرح المهذب، كما قاله في شرح تقريب الأسانيد: أن معناه أن محبة الله تشغلني عن الطعام والشراب. قال: والحب البالغ يشغل عنهما. انتهى. فإن قلت: لم آثر اسم الرب دون اسم الذات المقدسة في قوله: «يطعمني ربي» دون أن يقول: يطعمني الله؟ أجيب: بأن التجلي باسم الربوبية أقرب إلى العباد من الإلهية، لأنه تجلي عظمة لا طاقة للبشر بها، وتجلي الربوبية تجلي رحمة وشفقة.

وقد اختلف الناس في الوصال لنا، هل هو جائز أو محرم أو مكروه؟ فقال طائفة: إنه جائز إن قدر عليه، وهذا يروى عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف، وكان ابن الزبير يواصل الأيام، وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح أنه كان يواصل خمسة عشر يوماً، وذكر معه من الصحابة أيضاً أخت أبي سعيد، ومن التابعين عبد الرحمن بن أبي معمر، وعامر بن عبد الله بن الزبير، وإبراهيم بن يزيد التيمي، وأبا الجوزاء، كما نقله أبو نعيم في الحلية[1].

ومن حجتهم أنه ﷺ واصل بأصحابه بعد النهي، فلو كان النهي للتحريم لما أقرهم على فعله، فعلم أنه أراد بالنهي الرحمة لهم والتخفيف عنهم، كما صرحت به عائشة في حديثها، فمن لم يشق عليه ولم يقصد موافقته أهل الكتاب في تأخيرهم الفطر. ولا رغب عن السنة في تعجيل الفطر لم يمنع من الوصال.

ومن أدلة الجواز أيضاً: إقدام الصحابة عليه بعد النهي، فدل على أنهم فهموا أن النهي للتنزيه لا للتحريم، وإلا لما قدموا عليه. وقال الأكثرون: لا يجوز الوصال، وبه قال مالك وأبو حنيفة، ونص الشافعي وأصحابه على كراهته، ولهم في هذه الكراهة وجهان: **أصحهما**: أنها كراهة تحريم، **والثاني**: أنها كراهة تنزيه. واختار ابن وهب وأحمد بن حنبل وإسحاق جواز الوصال إلى السحر، لحديث أبي سعيد عند البخاري: «عنه ﷺ: «**لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر**»، وهذا الوصال لا يترتب عليه شيء مما يترتب على غيره، لأنه في الحقيقة بمنزلة عشائه، إلا أنه يؤخره، لأن الصائم له في اليوم والليلة أكلة، فإذا أكلها في السحر كان قد نقلها من أول الليل إلى آخره، وكان أخف لجسمه في قيام الليل، ولا يخفى أن محل ذلك ما لم يشق على الصائم، وإلا فلا يكون قربة.

---

(١) انظر حلية الأولياء ٣/٧٩.

وقد صرح في الحديث بأن الوصال من خصائصه ﷺ فقال: «**إني لست كهيئتكم**».
وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب قال: قال ﷺ: «**إذا أقبل الليل من ها هنا وأدبر النهار من ها هنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم**» قالوا: فجعله مفطراً حكماً بدخول وقت الفطر وإن لم يفطر، وذلك يحيل الوصال شرعاً. واحتج الجمهور للتحريم: بعموم النهي في قوله ﷺ «**لا تواصلوا**» وأجابوا عن قوله «رحمة» بأنه لا يمنع ذلك كونه منهياً عنه للتحريم، وسبب تحريمه الشفقة عليهم لئلا يتكلفوا ما يشق عليهم، وأما الوصال بهم يوماً ثم يوماً، فاحتمل للمصلحة في تأكيد زجرهم وبيان الحكمة في نهيهم والمفسدة المترتبة على الوصال، وهي الملل من العبادة، والتعرض للتقصير في بعض وظائف الدين، من إتمام الصلاة بخشوعها وأذكارها، وسائر الوظائف المشروعة في نهاره وليله. وأجابوا أيضاً بقوله ﷺ: «**إذا أقبل الليل من ها هنا وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم**» إذ لم يجعل الليل محلاً لسوى الفطر، فالصوم فيه مخالف لوضعه. وروى الطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر أن جبريل قال للنبي ﷺ: «**إن الله قد قبل وصالك، ولا يحل لأحد بعدك**». ولكن إسناده ليس بصحيح ولا حجة فيه.

## الفصل التاسع
## في سحوره ﷺ

عن أبي هريرة عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يتسحر فقال: «**إنها بركة أعطاكم الله إياها فلا تدعوه**». رواه النسائي. وعن العرباض بن سارية قال: دعاني رسول الله ﷺ إلى السحور في رمضان قال: «**هلم إلى الغداء المبارك**». رواه أبو داود والنسائي. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ ـ وذلك عند السحور ـ: «**يا أنس إني أريد الصيام فأطعمني شيئاً**»، فأتيته بتمر وإناء فيه ماء، وذلك بعد ما أذن بلال، قال: «**يا أنس انظر رجلاً يأكل معي**» فدعوت زيد بن ثابت فجاء فقال: إني أريد شربة سويق وأنا أريد الصيام، فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا أريد الصيام**» فتسحر معه، ثم قام فصلى ركعتين ثم خرج إلى الصلاة. رواه النسائي. وعن زر بن حبيش: قلنا لحذيفة: أي ساعة تسحرت مع رسول الله ﷺ؟ قال: «هو النهار إلا أن الشمس لم تطلع» رواه النسائي أيضاً. وعن زيد بن ثابت قال تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس بن مالك: قلت: كم كان قدر ما بينهما؟ قال: قدر خمسين آية. رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

والمراد آية متوسطة، لا طويلة ولا قصيرة لا سريعة ولا بطيئة. قال ابن أبي جمرة: كان ﷺ ينظر ما هو الأرفق بأمته فيفعله، لأنه لو لم يتسحر لاتبعوه فشق على بعضهم، ولو تسحر في جوف الليل لشق أيضاً على بعضهم ممن يغلب عليه النوم، فقد يفضي إلى ترك

الصبح، أو يحتاج إلى المجاهدة بالسهر. وقال القرطبي: فيه دلالة على أن الفراغ من السحور كان قبل طلوع الفجر، فهو معارض لقول حذيفة «هو النهار إلا أن الشمس لم تطلع». انتهى. وأجاب في فتح الباري: بأن لا معارضة، بل يحمل على اختلاف الحال، فليس في رواية واحد منهما ما يشعر بالمواظبة.

## الفصل العاشر
## في إفطاره ﷺ في رمضان في السفر وصومه

عن جابر أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان، فصام حتى بلغ كراع الغميم، وصام الناس، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس ثم شرب، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال: **«أولئك العصاة، أولئك العصاة»**. زاد في رواية: فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام، وإنما ينتظرون فيما فعلت، فدعا بقدح من ماء بعد العصر. رواه مسلم. وعن ابن عباس قال: سافر[1] رسول الله ﷺ في رمضان، فصام حتى بلغ عسفان، ثم دعا بإناء من ماء فشرب نهاراً ليراه الناس، وأفطر حتى قدم مكة. وكان ابن عباس يقول صام رسول الله ﷺ في السفر وأفطر، فمن شاء صام ومن شاء أفطر، رواه البخاري ومسلم.

ولمسلم: أن ابن عباس كان لا يعيب على من صام ولا على من أفطر، قد صام رسول الله ﷺ في السفر وأفطر[2] قال النووي رحمه الله: اختلف العلماء في صوم رمضان في السفر.

فقال بعض أهل الظاهر: لا يصح صوم رمضان في السفر، فإن صامه لم ينعقد، ويجب قضاؤه، لظاهر الآية [البقرة: ١٨٤] ولحديث «ليس من البر الصيام في السفر»[3]، وفي الحديث الآخر **«أولئك العصاة»**.

---

(١) قال الزرقاني: «هذا من مرسلات الصحابة لأن ابن عباس لم يكن معه في الفتح. فما في بعض نسخ المواهب «سافرنا مع رسول الله» خطأ صراح مخالف لما في الصحيحين.

(٢) أخرجه أيضاً الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/٢٣٢ وهو في صحيح مسلم برقم (٨٩) في كتاب الصيام.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الصوم باب (٤٣) النسائي ٤/١٧٦ و١٧٧ وابن ماجه برقم (١٦٦٤ - ١٦٦٥) والترمذي برقم (٧١٠) والامام أحمد بن حنبل ٣/٣١٩ و ٥/٤٣٤ والبيهقي في السنن الكبرى ٤/٢٤٢ والدارمي ٢/٩ والحاكم في المستدرك ١/٤٣٣ وابن عبد البر في التمهيد ٤/٣٠٣ والطبراني في المعجم الكبير ١١/١٨٧ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٣٨٤٥).

وقال جماهير العلماء وجميع أهل الفتوى: يجوز صومه في السفر، وينعقد ويجزيه، واختلفوا في أن الصوم أفضل أم الفطر أم هما سواء؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعي والأكثرون: الصوم أفضل لمن أطاقه بلا مشقة ظاهرة ولا ضرر، فإن تضرر به فالفطر أفضل، واحتجوا بصومه ﷺ، ولأنه يحصل به براءة الذمة في الحال.

وقال سعيد بن المسيب والأوزاعي وأحمد وإسحاق وغيرهم: الفطر أفضل مطلقاً، وحكاه بعض أصحابنا قولاً للشافعي، وهو غريب، واحتجوا بما سبق لأهل الظاهر، وبقوله ﷺ: **«هي رخصة من الله فمن أخذ بها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه»**[1] وظاهره ترجيح الفطر.

وأجاب الأكثرون: بأن هذا كله فيمن يخاف ضرراً، أو يجد مشقة، كما هو صريح في الأحاديث، واعتمدوا حديث أبي سعيد الخدري قال: «كنا نغزوا مع رسول الله ﷺ في رمضان، فمنا الصائم ومنا المفطر، ولا يجد الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم يرون أن من وجد قوة فصام فإن ذلك حسن، ويرون أن من وجد ضعفاً فأفطر فإن ذلك حسن»، وهذا صريح في ترجيح مذهب الأكثرين، وهو تفضيل الصوم لمن أطاقه بلا ضرر ولا مشقة ظاهرة. وقال بعض العلماء: الفطر والصوم سواء لتعادل الأحاديث. والصحيح: قول الأكثرين، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصيام (١٠٧) والنسائي ٤/١٨٧ والبيهقي في السنن الكبرى ٤/٢٤٣ والدارقطني ٢/١٩٠ والتبريزي في المشكاة (٢٠٢٩) والسيوطي في الدر المنثور ١/١٩٠.

# في صومه ﷺ غير شهر رمضان وفيه فصول

## الفصل الأول
## في سرده ﷺ صوم أيام من الشهر وفطره أياماً

عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ كان يسرد الصوم فيقال: لا يفطر، ويفطر فيقال: لا يصوم. رواه النسائي. وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه، ثم يصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئاً. وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته، ولا نائماً إلا رأيته. وفي رواية: ما كنت أحب أن أراه من الشهر صائماً إلا رأيته ولا مفطراً إلا رأيته، ولا من الليل قائماً إلا رأيته ولا نائماً إلا رأيته، رواه البخاري.

ولمسلم: كان يصوم حتى يقال: قد صام صام، ويفطر حتى يقال: أفطر أفطر. وعن ابن عباس: ما صام رسول الله ﷺ شهراً كاملاً غير رمضان، وكان يصوم حتى يقول القائل: لا والله ما يفطر، ويفطر حتى يقول القائل: لا والله لا يصوم. رواه البخاري ومسلم والنسائي وزاد: ما صام شهراً متتابعاً غير رمضان منذ قدم المدينة.

ففي هذا: أنه ﷺ لم يصم الدهر كله، ولا قام الليل كله، وكأنه ترك ذلك لئلا يقتدى به فيشق على الأمة، وإن كان قد أعطي من القوة ما لو التزم ذلك لاقتدر عليه، لكنه سلك من العبادة الطريقة الوسطى، فصام وأفطر، وقام ونام.

## الفصل الثاني
## في صومه ﷺ عاشوراء

وهو بالمد على المشهور. واختلف في تعيينه: فعن الحكم بن الأعرج قال: انتهيت إلى ابن عباس ـ وهو متوسد رداءه في زمزم ـ فقلت له: أخبرني عن صوم عاشوراء، فقال: إذا رأيت هلال المحرم فاعدد وأصبح يوم التاسع صائماً، قلت: هكذا كان محمد ﷺ يصومه؟ قال: نعم. رواه مسلم. قال النووي: هذا تصريح من ابن عباس بأن مذهبه بأن

عاشوراء هو اليوم التاسع من المحرم، ويتأوله على أنه مأخوذ من أظمأ الإبل، فإن العرب تسمي اليوم الخامس من أيام الورد ربعاً، وكذا باقي الأيام على هذه النسبة، فيكون التاسع عاشراً. انتهى.

لكن قال ابن المنير: قوله: «إذا أصبحت من تاسعه فأصبح صائماً» يشعر بأنه أراد العاشر، لأنه لا يصبح صائماً بعد أن أصبح صائماً تاسعه إلا ذا نوى الصوم من الليلة المقبلة، وهي الليلة العاشرة. انتهى. وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف إلى أن عاشوراء هو اليوم العاشر من المحرم، وممن قال ذلك: سعيد بن المسيب، والحسن البصري، ومالك وأحمد وإسحاق، وخلائق. وهذا ظاهر الأحاديث، ومقتضى اللفظ، وأما تقدير أخذه من الإظماء فبعيد، ثم إن حديث ابن عباس يرد عليه معنى قوله: إن النبي ﷺ صام يوم عاشوراء فقالوا له يا رسول، يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال ﷺ: «**فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع**»، قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ[1] وهذا تصريح بأن الذي كان يصومه ليس هو التاسع، فتعين كونه العاشر. قاله النووي.

وقال القرطبي: عاشوراء معدول عن عاشر للمبالغة والتعظيم، وهو في الأصل صفة الليلة العاشرة، لأنه مأخوذ من العَشَر الذي هو اسم للعقد، واليوم يضاف إليها، فإذا قيل يوم عاشوراء فكأنه قيل يوم الليلة العاشرة ، إلا أنهم لما عدلوا به عن الصفة غلبت عليه الاسمية فاستغنوا عن الموصوف فحذفوا الليلة. وعلى هذا فيوم عاشوراء هو العاشر. وهذا قول الخليل وغيره. وقال ابن المنير: الأكثر على أن عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر الله المحرم، وهو مقتضى الاشتقاق والتسمية. وقال ابن القيم. من تأمل مجموع روايات ابن عباس تبين له زوال الإشكال وسعة علم ابن عباس، فإنه لم يجعل يوم عاشوراء اليوم التاسع بل قال للسائل صم اليوم التاسع، واكتفى بمعرفة السائل أن يوم عاشوراء هو اليوم العاشر الذي يعده الناس يوم عاشوراء، فأرشد السائل إلى صوم التاسع معه، وأخبر أن رسول الله ﷺ كان يصومه كذلك، فإما أن يكون فِعلُ ذلك وهو الأولى، وأما أن يكون حَمْلُ فعله على الأمر به وعزمه عليه في المستقبل، وهو الذي روى «أمرنا رسول الله ﷺ بصيام يوم عاشوراء يوم العاشر» وكل هذه الآثار يصدق بعضها بعضاً. انتهى فليتأمل.

وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه في الجاهلية، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٤٤٥).

فلما فرض رمضان ترك عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه. رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والترمذي. واستفيد من هذه الرواية تعيين الوقت الذي وقع الأمر فيه بصيام عاشوراء، وهو أول قدومه المدينة، ولا شك أن قدومه ﷺ كان في ربيع الأول، فحينئذ كان الأمر بذلك في أول السنة الثانية، وفي السنة الثانية فرض شهر رمضان، فعلى هذا لم يقع الآمر بصوم يوم عاشوراء إلا في سنة واحدة، ثم فوض الأمر في صومه إلى رأي المتطوع، فعلى تقدير صحة قول من يدعي أنه كان قد فرض فقد نسخ فرضه بهذه الأحاديث الصحيحة.

وأما صيام قريش لعاشوراء فلعلهم تلقوه من الشرع السالف، ولذا كانوا يعظمونه بكسوة الكعبة، وقد روي عن عكرمة أنه سئل عن ذلك فقال: أذنبت قريش ذنباً في الجاهلية، فعظم في صدورهم، فقيل لهم صوموا عاشوراء يكفر ذلك. قاله في فتح الباري. وعن ابن عمر: أن أهل الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء، وأن رسول الله ﷺ قال: «**إن عاشوراء يوم من أيام الله فمن شاء صامه**» رواه البخاري ومسلم وأبو داود، وفي رواية: وكان عبد الله لا يصومه إلا أن يوافق صومه. وعن سلمة بن الأكوع: بعث رسول الله ﷺ رجلاً من أسلم يوم عاشوراء، فأمره أن يؤذن في الناس: من كان لم يصم فليصم، ومن كان أكل فليتم صيامه إلى الليل رواه مسلم. قال النووي: اختلفوا في حكم صوم عاشوراء في أول الإسلام حين شرع صومه قبل صوم رمضان: فقال أبو حنيفة: كان واجباً.

واختلف أصحاب الشافعي فيه على وجهين: **أشهرهما**: عندهم أنه لم يزل سنة من حين شرع، ولم يكن واجباً قط في هذه الأمة، ولكنه كان متأكد الاستحباب، فلما نزل صوم رمضان صار مستحباً دون ذلك الاستحباب، **والثاني**: كان واجباً كقول أبي حنيفة. وتظهر فائدة الخلاف في اشتراط نية الصوم الواجب من الليل، فأبو حنيفة لا يشترطها، ويقول: كان الناس مفطرين أول يوم عاشوراء ثم أمروا بصيامه بنية من النهار، ولم يؤمروا بقضائه بعد صومه. وأصحاب الشافعي يقولون: كان مستحباً فصح بنية من النهار، ويتمسك أبو حنيفة بقوله: «أمر بصيامه» والأمر للوجوب، وبقوله: «فلما فرض شهر رمضان قال: من شاء صامه ومن شاء تركه». ويحتج الشافعية بقوله: «هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه»، والشافعية يقولون أيضاً: معنى قوله في حديث سلمة: «فأمره أن يؤذن في الناس من كان لم يصم فليصم الخ». أن من كان نوى الصوم فليتم صومه، ومن كان لم ينو الصوم ولم يأكل أو أكل فليمسك بقية يومه لحرمة اليوم. واحتج أبو حنيفة بهذا الحديث لمذهبه: أن صوم الفرض يجب بنية في النهار ولا يشترط تبييتها، قال: لأنهم نووا في النهار وأجزأهم. وأجاب الجمهور عن هذا الحديث: بأن المراد إمساك بقية النهار لا حقيقة

الصوم، والدليل على هذا: أنهم أكلوا ثم أمروا بالإتمام، وقد وافق أبو حنيفة وغيره على أن شرط إجزاء النية في النهار في الفرض والنفل أن لا يتقدمها مفسد للصوم من أكل وغيره، انتهى.

وقال الحافظ شيخ الإسلام أبو الفضل بن حجر: يؤخذ من مجموع الأحاديث أنه كان واجباً لثبوت الأمر بصومه، ثم تأكيد الأمر بذلك، ثم زيادة التأكيد بالنداء العام، ثم زيادته بأمر من أكل بالإمساك، ثم زيادته بأمر الأمهات أن لا يرضعن فيه الأطفال، وبقول ابن مسعود الثابت في مسلم: «لما فرض رمضان ترك عاشوراء» مع العلم بأنه ما ترك استحبابه، بل هو باق، فدل على أن المتروك وجوبه، وأما قول بعضهم: «المتروك تأكد استحبابه، والباقي مطلق استمرار الاهتمام به حتى في عام وفاته ﷺ حيث قال: «لئن عشت لأصومن التاسع والعاشر» وترغيبه في صومه وأنه يكفر السنة، فأي تأكيد أبلغ من هذا. انتهى.

وعن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء فقال: «**ما هذا**»؟ قالوا: يوم صالح نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوهم، فصامه فقال: «**أنا أحق بموسى منكم**»، فصامه وأمر بصيامه. وفي رواية: فقال لهم: «**ما هذا اليوم الذين تصومونه**»[1]؟ قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وأغرق فيه فرعون وقومه فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: «**فنحن أحق وأولى بموسى منكم**»، فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه[2] وفي أخرى: فنحن نصومه تعظيماً له، رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

وقد أجاب صاحب «زاد المعاد» وغيره عما استشكله بعضهم في هذا الحديث ـ وقال: إن رسول الله إنما قدم المدينة في شهر ربيع الأول فكيف يقول ابن عباس إنه قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء؟ ـ بأنه ليس في الحديث أن يوم قدومه وجدهم يصومونه، فإنه إنما قدم يوم الإثنين في ربيع الأول، ثاني عشره، ولكن أول علمه بذلك ووقوع القصة في اليوم الذي كان بعد قدومه المدينة لم يكن وهو بمكة.

وقال في الفتح: غايته أن في الكلام حذفاً تقديره: قدم ﷺ المدينة فأقام إلى يوم عاشوراء، فوجد اليهود فيه صياماً. ويحتمل أن يكون أولئك اليهود كانوا يحسبون يوم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصيام (١٢٨) والامام أحمد بن حنبل في المسند ٢٩١/١ و ٣١٠ والبيهقي في السنن الكبرى ٢٨٦/٤ والسيوطي في الدر المنثور ٦٩/١ والزيلعي في نصب الراية ٤٥٤/٢ والحميدي في المسند (٥١٥).

(٢) أخرجه أيضاً البيهقي في السنن الكبرى ٢٨٦/٤ والتبريزي في المشكاة (٢٠٦٧) والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٣٣٧٢).

عاشوراء بحساب السنين الشمسية، فصادف يوم عاشوراء بحسابهم اليوم الذي قدم فيه ﷺ المدينة. وهذا التأويل مما يترجح به أولوية المسلمين وأحقيتهم بموسى، لإضلالهم اليوم المذكور وهداية المسلمين له، ولكن سياق الأحاديث يدفع هذا التأويل، والاعتماد على التأويل الأول. انتهى. وقد استشكل أيضاً رجوعه ﷺ إلى خبر اليهود، وهو غير مقبول.

وأجاب المازري: بأنه يحتمل أنه ﷺ أوحي إليه بصدقهم فيما قالوه، أو تواتر عنده النقل بذلك حتى حصل له العلم بذلك. قال القاضي عياض رداً على المازري: قد روى مسلم أن قريشاً كانت تصومه، فلما قدم المدينة صامه، فلم يحدث له بقول اليهود حكم يحتاج إلى الكلام عليه، وإنما هي صفة حال، وجواب سؤال، فقوله: «صامه» ليس فيه أن ابتداء صومه حينئذ، ولو كان هذا لحملناه على أنه أخبره به من أسلم من علمائهم كابن سلام وغيره. قال: وقد قال بعضهم يحتمل أنه ﷺ كان يصومه بمكة ثم ترك صيامه حتى علم ما عند أهل الكتاب منه فصامه، قال: وما ذكرناه أولى بلفظ الحديث.

قال النووي: المختار قول المازري، ومختصر ذلك أنه ﷺ كان يصومه كما تصومه قريش في مكة، ثم قدم المدينة فوجد اليهود يصومونه فصامه أيضاً بوحي أو تواتر أو اجتهاد، لا بمجرد إخبار آحادهم. انتهى.

وقال القرطبي: لعل قريشاً كانوا يستندون في صومه إليه شرع من مضى كإبراهيم، وصوم رسول الله ﷺ يحتمل أن يكون بحكم الموافقة لهم، كما في الحج، وأذن الله له في صيامه على أنه فعل خير، فلما هاجر ووجد اليهود يصومونه وسألهم وصامه وأمر بصيامه احتمل أن يكون استئلافاً لليهود كما استألفهم باستقبال قبلتهم، ويحتمل غير ذلك. وعلى كل حال فلم يصمه اقتداء بهم، فإنه كان يصومه قبل ذلك، وكان ذلك في الوقت الذي يحب فيه موافقة أهل الكتاب فيما لم ينه عنه، ولا سيما إذا كان فيه ما يخالف أهل الأوثان، فلما فتحت مكة واشتهر أمر الإسلام أحب مخالفة أهل الكتاب أيضاً كما في حديث ابن عباس «إن رسول الله ﷺ حين صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال ﷺ: فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ».

وفي رواية: «**لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع**»[1]. رواه مسلم. وهذا دليل الشافعي وأصحابه وأحمد وإسحاق القائلين باستحباب صوم التاسع والعاشر جميعاً، لأنه ﷺ صام العاشر ونوى صوم التاسع. قال النووي: قال بعض العلماء: ولعل السبب في صوم التاسع مع العاشر أن لا يتشبه باليهود في إفراد العاشر، وفي الحديث إشارة إلى هذا،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة أيضاً في المصنف ٣/٥٨ وابن عبد البر في التمهيد ٧/٢١٤.

وقيل للاحتياط في تحصيل عاشوراء، والأول أولى. انتهى. وفي رواية البزار من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال ـ يوم عاشوراء ـ: **«صوموه وخالفوا فيه اليهود، وصوموا قبله يوماً وبعده يوماً»**[1] ولأحمد نحوه.

فمراتب صومه ثلاثة: أدناها أن يصام وحده، وأكملها أن يصام يوماً[2] قبله ويوماً بعده، ويلي ذلك أن يصام التاسع والعاشر، وعليه أكثر الأحاديث. وقال بعضهم: قد ظهر أن القصد مخالفة أهل الكتاب في هذه العبادة، وذلك يحصل بأحد أمرين، إما بنقل العاشر إلى التاسع، وإما بصيامهما معاً، والله أعلم. وفي البخاري من حديث أبي موسى قال: كان يوم عاشوراء تعده اليهود عيداً قال النبي ﷺ: **«فصوموه أنتم»**[3]. وهذا ظاهره أن الباعث على الأمر بصومه محبة مخالفة اليهود، حتى يصام ما يفطرون فيه، لأن يوم العيد لا يصام، وحديث ابن عباس يدل على أن الباعث على صيامه موافقتهم على السبب وهو شكر الله تعالى على نجاة موسى. لكن لا يلزم من تعظيمهم له واعتقادهم بأنه عيد أنهم كانوا لا يصومونه، فلعله كان من جملة تعظيمهم في شرعهم أن يصوموه، وقد ورد ذلك صريحاً في مسلم «كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء يتخذونه عيداً ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم» وهو بالشين المعجمة أي هيئتهم الحسنة. ومحصل ما ورد في صيامه ﷺ عاشوراء أربعة أحوال:

**أولها**: أنه كان يصومه بمكة، ولا يأمر الناس بصيامه كما تقدم في حديث عائشة عند الشيخين وغيرهما: «كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية وكان ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه. . .» الحديث.

**الثانية**: أنه ﷺ لما قدم المدينة، ورأى صيام أهل الكتاب له، وتعظيمهم له، وكان يحب موافقتهم فيما لم يؤمر به، صامه وأمر الناس بصيامه، وأكد الأمر بصيامه والحث عليه، حتى كانوا يصوِّمونه أطفالهم، كما تقدم في حديث ابن عباس عند الشيخين وغيرهما.

---

(١) أخرج نحوه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/٢٤١ والبيهقي في السنن الكبرى ٤/٢٨٧ والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٤٥ والمتقي الهندي في كنزه (٢٤٢٢١ ـ ٢٤٢٣١).

(٢) كذا في جميع النسخ بنصب «يوماً». قال الزرقاني: «ويوجه بأنه نائب فاعل يصام ضمير يعود إلى عاشوراء ونصب يوماً على الحال بتقدير ضاماً إليه يوماً».

(٣) أخرجه مسلم أيضاً في كتاب الصيام (١٢٩ ـ ١٣٠) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٥ والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٢٨٩ وابن أبي شيبة في المصنف ٣/ ٥٥ والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٤٥.

**الثالثة**: أنه لما فرض صوم شهر رمضان ترك ﷺ صيامه وقال: «**إن عاشوراء يوم من أيام الله، فمن شاء صامه ومن شاء تركه**» ويشهد له حديث عائشة السابق.

**الحالة الرابعة**: أنه ﷺ عزم في آخر عمره أن لا يصومه مفرداً، بل يضم إليه يوماً آخر، مخالفة لأهل الكتاب في صيامه، كما قدمناه.

وقد روى مسلم من حديث أبي قتادة مرفوعاً: «**أن صوم عاشوراء يكفر سنة وأن صيام يوم عرفة يكفر سنتين**»[1] وظاهره أن صيام يوم عرفة أفضل من صيام يوم عاشوراء. وقد قيل: الحكمة في ذلك أن يوم عاشوراء منسوب إلى موسى ويوم عرفة منسوب إلى النبي ﷺ، فلذلك كان أفضل. والله أعلم.

وأما ما روي: من وسع على عياله في يوم عاشوراء وسع الله عليه السنة كلها، فرواه الطبراني والبيهقي في «الشعب» وفي «فضائل الأوقات»، وأبو الشيخ عن ابن مسعود، والأولان فقط عن أبي سعيد، والثاني فقط في الشعب عن جابر وأبي هريرة، وقال[2]: إن أسانيده كلها ضعيفة، ولكن إذا ضم بعضها إلى بعض أفاد قوة، بل قال العراقي في أماليه: لحديث أبي هريرة طرق صحح بعضها ابن ناصر الحافظ. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق سليمان بن أبي عبد الله، وقال: سليمان مجهول. وسليمان ذكره ابن حبان في الثقات، فالحديث حسن على رأيه. قال[3]: وله طرق عن جابر على شرط مسلم أخرجها ابن عبد البر في «الاستذكار» من رواية أبي الزبير عنه، وهي أصح طرقه. ورواه هو[4] والدارقطني في «الأفراد» بسند جيد عن عمر موقوفاً عليه، والبيهقي في «الشعب» من جهة محمد بن المنتشر، قال: كان يقال.. وذكره.

## الفصل الثالث
## في صيامه ﷺ شعبان

عن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان، وما رأيته في شهر أكثر منه صياماً في شعبان. رواه البخاري ومسلم، وفي أخرى لهما: لم يكن يصوم شهراً أكثر من شعبان فإنه كان يصومه كله. وفي رواية الترمذي: كان يصومه إلا قليلاً بل كان يصومه كله. وفي رواية أبي داود: كان أحب الشهور إلى رسول الله ﷺ أن يصومه شعبان، ثم يصله برمضان. وللنسائي: كان يصوم شعبان، أو عامة شعبان. وفي أخرى له: كان يصوم شعبان إلا قليلاً. وفي أخرى له أيضاً: كان يصوم شعبان كله.

---

(١) انظر فتح الباري ٢٤٩/٤.
(٢) أي البيهقي.
(٣) أي العراقي.
(٤) أي ابن عبد البر.

قال الحافظ ابن حجر: أي يصوم معظمه.

ونقل الترمذي عن ابن المبارك أنه قال: جائز في كلام العرب إذا صام أكثر الشهر أن يقول: صام الشهر كله. ويقال: قام فلان ليلته أجمع، ولعله قد تعشى واشتغل ببعض أمره، قال الترمذي: كأن ابن المبارك جمع بين الحديثين بذلك، وحاصله: أن الرواية الأولى مفسرة للثانية ومخصصة لها، وأن المراد بـ «الكل» الأكثر، وهو مجاز قليل الاستعمال.

واستبعده الطيبي وقال: يحمل على أنه كان يصوم شعبان كله تارة ويصوم معظمه أخرى، لئلا يتوهم أنه واجب كله كرمضان. وقال ابن المنير: إما أن يحمل قول عائشة على المبالغة، والمراد الأكثر، وإما أن يجمع بأن قولها الثاني متأخر عن قولها الأول، فأخبرت عن أول أمره أنه كان يصوم أكثر شعبان، وأخبرت ثانياً عن آخر أمره أنه كان يصومه كله. انتهى. ولا يخفى تكلفه، والأول [المحمول على المبالغة] هو الصواب.

واختلف في الحكمة في إكثاره ﷺ من صوم شعبان، فقيل: كان يشتغل عن صيام الثلاثة أيام من كل شهر لسفر أو غيره، فتجتمع فيقضيها في شعبان. أشار إلى ذلك ابن بطال، وفيه حديث أخرجه الطبراني في الأوسط من طريق أبي ليلى عن أخيه عيسى عن أبيه عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، فربما أخر ذلك حتى يجتمع عليه صوم السنة فيصوم شعبان. وابن أبي ليلى ضعيف، وقيل كان يضع الحديث.

وقيل: كان يصنع ذلك لتعظيم رمضان، وورد فيه حديث أخرجه الترمذي من طريق صدقة بن موسى عن ثابت عن أنس قال: سئل النبي ﷺ: أي الصوم أفضل بعد رمضان قال: «شعبان لتعظيم رمضان»[1] قال الترمذي: حديث غريب، وصدقة عندهم ليس بذلك القوي.

لكن يعارضه ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**أفضل الصيام بعد رمضان صوم المحرم**». والأولى في ذلك ما جاء في حديث أصح مما مضى، أخرجه النسائي وأبو داود، وصححه ابن خزيمة عن أسامة بن زيد قال: قلت يا رسول الله، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: «**ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترتفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم**». فبين ﷺ وجه صيامه لشعبان دون غيره من الشهور بقوله: «**إنه شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان**» يشير إلى أنه لما اكتنفه شهران عظيمان: الشهر الحرام وشهر

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٦٦٣) والبغوي في شرح السنة ٦/ ٣٢٩ والمنذري في الترغيب ٢/ ١١٧.

الصيام، اشتغل الناس بهما، فصار مغفولاً عنه، وكثير من الناس يظن أن صيام رجب أفضل من صيامه لأنه شهر حرام وليس كذلك.

وفي إحياء الوقت المغفول عنه بالطاعة فوائد، منها أن يكون أخفى، وإخفاء النوافل وإسرارها أفضل، ولا سيما الصيام فإنه سر بين العبد وربه، ومنها: أنه أشق على النفوس، لأن النفوس تتأسى بما تشاهد من أحوال بني الجنس، فإذا كثرت يقظة الناس وطاعتهم سهلت الطاعات، وإذا كثرت الغفلات وأهلها تأسى بهم عموم الناس، فيشق على نفوس المستيقظين طاعاتهم لقلة من يقتدي بهم.

وقد روي في صيامه ﷺ شعبان معنى آخر، وهو أنه تنسخ فيه الآجال، فروي ـ بإسناد فيه ضعف ـ عن عائشة قالت: كان أكثر صيام النبي ﷺ في شعبان فقلت: يا رسول الله، أرى أكثر صيامك في شعبان؟ قال: «**إن هذا الشهر يُكتب فيه لملك الموت أسماء من يقبض، فأنا أحب أن لا ينسخ اسمي إلا وأنا صائم**» وقد روي مرسلاً، وقيل إنه أصح.

وقد قيل في صوم شعبان معنى آخر: وهو أن صيامه كالتمرين على صيام رمضان، فلا يدخل في صيامه على مشقة وكلفة، بل يكون قد تمرن على الصيام واعتاده، ووجد بصيام شعبان قبل رمضان حلاوة الصوم ولذته، فيدخل في صيام رمضان بقوة ونشاط. واعلم أنه لا تعارض بين هذا وبين النهي عن تقدم رمضان بصوم يوم أو يومين، وكذا ما جاء في النهي عن صوم نصف شعبان الثاني، فإن الجمع بينهما ظاهر، بأن يحمل النهي على من لم يدخل تلك الأيام في صيام اعتاده.

وأجاب النووي عن كونه ﷺ لم يكثر الصوم في المحرم، مع قوله: «إن أفضل الصيام ما يقع فيه»، بأنه يحتمل أن يكون ما علم ذلك إلا في آخر عمره، فلم يتمكن من كثرة الصوم في المحرم، أو اتفق له فيه من الأعذار كالسفر ما منعه من كثرة الصوم فيه.

وأما شهر رجب بخصوصه ـ وقد قال بعض الشافعية: إنه أفضل من سائر الشهور، وضعفه النووي وغيره ـ فلم يعلم أنه صح أنه ﷺ صامه، بل روي عنه من حديث ابن عباس، مما صح وقفه، أنه نهى عن صيامه. ذكره ابن ماجه لكن في سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ ندب إلى الصوم من الأشهر الحرم، ورجب أحدها. وفي حديث مجيبة[1] الباهلية عن أبيها أو عمها أنه ﷺ قال له: «**صم من الحرم واترك**»، قالها ثلاثاً[2]. وفي رواية

---

(١) قال الزرقاني: «في نسخة المتن جخيفة وهو من تصحيف الكتاب».. وانظر الاصابة ٧/ ١٧٠ رقم الترجمة (١٠٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الصيام باب (٥٤) والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٢٩١ والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٣٥.

مسلم عن عثمان بن حكيم الأنصاري قال: سألت سعيد بن جبير عن صوم رجب ـ ونحن يومئذ في رجب ـ فقال: سمعت ابن عباس يقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم. والظاهر: أن مراد سعيد بهذا الاستدلال على أنه لا نهي عنه ولا ندب فيه بعينه، بل له حكم باقي الشهور.

وفي «اللطائف» روى عن الكتاني أخبرنا تمام الرازي حدثنا القاضي يوسف حدثنا محمد بن إسحاق السراج حدثنا يوسف بن موسى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا حبيب المعلم عن عطاء أن عروة قال لعبد الله بن عمر: هل كان رسول الله ﷺ يصوم في رجب؟ قال: نعم ويشرفه، قالها ثلاثاً، أخرجه أبو داود وغيره. وعن أبي قلابة[1] قال: إن في الجنة قصراً لصوام رجب. قال البيهقي: أبو قلابة من كبار التابعين لا يقوله إلا عن بلاغ والله أعلم.

## الفصل الرابع
## في صومه ﷺ عشر ذي الحجة

والمراد بها الأيام التسعة من أول ذي الحجة. عن هنيدة بن خالد عن امرأته عن بعض أزواج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم تسع ذي الحجة[2]. رواه أبو داود. وعن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ صائماً في العشر قط. رواه مسلم والترمذي.

وهذا يوهم كراهة صوم العشر، وليس فيها كراهة، بل هي مستحبة استحباباً شديداً لا سيما يوم التاسع منها وهو يوم عرفة، وقد ثبت في صحيح البخاري أنه ﷺ قال: «**ما من أيام العمل فيها أفضل منه في هذه**» يعني العشر الأول من ذي الحجة، واستدل به على فضل صيام عشر ذي الحجة لاندراج الصوم في العمل.

واستشكل بتحريم الصوم يوم العيد؟ وأجيب: بأنه محمول على الغالب، والله أعلم. ويتأول قولها ـ يعني عائشة ـ: «لم يصم العشر» أنه لم يصمه لعارض من مرض أو سفر أو غيرهما، أو أنها لم تره صائماً فيه، ولا يلزم من ذلك عدم صيامه في نفس الأمر، ويدل عليه حديث هنيدة بن خالد الذي ذكرته.

---

(١) هو عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي عالم بالقضاء والأحكام مات في الشام سنة (١٠٤ هـ) وكان من رجال الحديث الثقات. الاعلام ٤/٨٨ تهذيب التهذيب ٥/٢٢٤ حلية الأولياء ٢/٢٨٢ رقم الترجمة (١٩٢) وطبقات ابن سعد ٧/١٣٦ رقم الترجمة (٣٠٥٨).

(٢) حسنه بعض الحفاظ وقال الزيلعي: حديث ضعيف.

قال الحافظ ابن حجر: وقد وقع في رواية القاسم بن أبي أيوب: «ما من عمل أزكى عند الله ولا أعظم أجراً من خير يعمله في عشر الأضحى»[1]. وفي حديث جابر في صحيحي أبي عوانة وابن حبان «ما من أيام أفضل عند الله من أيام عشر ذي الحجة». فقد ثبتت الفضيلة لأيام عشر ذي الحجة على غيرها من أيام السنة، وتظهر فائدة ذلك: فيمن نذر الصيام أو علق عملاً من الأعمال بأفضل الأيام، فلو أفرد يوماً منها تعين يوم عرفة لأنه على الصحيح أفضل أيام العشر المذكور، فإن أراد أفضل أيام الأسبوع تعين يوم الجمعة، جمعاً بين الحديث السابق وبين حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة**» رواه مسلم. أشار إلى ذلك النووي في شرحه، وقال الداودي: لم يرد ﷺ أن هذه الأيام خير من يوم الجمعة لأنه قد يكون فيها يوم الجمعة، يعني: فيلزم تفضيل الشيء على نفسه، وتعقب: بأن المراد: كل يوم من أيام العشر أفضل من غيره من أيام السنة، سواء كان يوم الجمعة أم لا، ويوم الجمعة فيه أفضل من يوم الجمعة في غيره لاجتماع الفضيلتين فيه. والذي يظهر أن السبب في امتياز عشر ذي الحجة إمكان اجتماع أمهات العبادات فيه وهي الصلاة والصيام والصدقة والحج، ولا يتأتى ذلك في غيرها. وعلى هذا: هل يخص الفضل بالحاج أو يعم المقيم؟ فيه احتمال. انتهى.

وقال أبو أمامة ابن النقاش: فإن قلت أيما أفضل، عشر ذي الحجة أو العشر الأواخر من رمضان؟ فالجواب: أن أيام عشر ذي الحجة أفضل لاشتمالها على اليوم الذي ما رؤي الشيطان في يوم غير يوم بدر أدحر ولا أغيظ ولا أحقر منه فيه وهو يوم عرفة، ولكون صيامه يكفر سنتين[2]، ولاشتمالها على أعظم الأيام عند الله حرمة وهو يوم النحر الذي سماه الله تعالى يوم الحج الأكبر، وليالي عشر رمضان الأخير أفضل لاشتمالها على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. ومن تأمل هذا الجواب وجده كافياً شافياً، أشار إليه الفاضل المفضل في قوله: «ما من أيام العمل فيهن أحب إلى الله من عشر ذي الحجة» الحديث، فتأمل قوله «ما من أيام» دون أن يقول: ما من عشر ونحوه. ومن أجاب بغير هذا التفصيل لم يدل بحجة صحيحة صريحة قط.

## الفصل الخامس
## في صومه ﷺ أيام الأسبوع

عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يتحرى صيام يوم الإثنين والخميس. رواه الترمذي

---

(١) أخرجه الدارمي ٢/٢٦ والمنذري في الترغيب ٢/١٩٨ والمتقي الهندي في الكنز (٣٥١٨٧).
(٢) رواه مسلم برقم (١١٦٢).

والنسائي. وعن أبي قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صوم الإثنين فقال: **«فيه ولدت وفيه أنزل علي»**[1]. رواه مسلم. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«تعرض الأعمال على الله تعالى يوم الإثنين والخميس فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم»**[2]. رواه الترمذي. وعن أسامة بن زيد: قلت يا رسول الله، إنك تصوم حتى لا تكاد تفطر، وتفطر حتى لا تكاد تصوم، إلا يومين إن دخلا في صيامك وإلا صمتهما، قال: **«أي يومين؟»** قلت: يوم الإثنين والخميس، قال: **«ذانك يومان تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم»**[3]. رواه النسائي.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾** [ق: ١٨] قال: يكتب كل ما يتكلم به من خير وشر، حتى إنه ليكتب قوله: أكلت وشربت وذهبت وجئت ورأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر ما كان فيه من خير أو شر، وألقي سائره، وهذا عرض خاص في هذين اليومين غير العرض العام كل يوم فإن ذلك عرض خاص دائم بكرة وعشياً. ويدل على ذلك ما في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: **«إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل»**[4] الحديث.

وعن أم سلمة كان ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام: الإثنين والخميس من هذه الجمعة، والإثنين من المقبلة وفي رواية أول إثنين من الشهر، ثم الخميس ثم الخميس الذي يليه. رواه النسائي. وعن عائشة: كان يصوم من شهر: السبت والأحد والإثنين، ومن الشهر الآخر: الثلاثاء والأربعاء والخميس. رواه الترمذي. وعن كريب، مولى ابن عباس، قال: أرسلني ابن عباس وناس من أصحاب النبي ﷺ إلى أم سلمة أسألها: أي الأيام كان النبي ﷺ أكثرها صياماً؟ قالت: السبت والأحد، ويقول: إنهما عيد المشركين، وأنا أحب أن أخالفهما. رواه أحمد والنسائي، وفيه محمد بن عمر، ولا يعرف حاله، ويرويه عنه ابنه

---

(١) الحديث في مسلم كتاب الصيام برقم (١٩٨) وأخرجه أيضاً الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٢٩٩ والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٢٩٣ وفي دلائل النبوة أيضاً ٢/ ١٣٣ والتبريزي في المشكاة (٢٠٤٥).

(٢) الحديث في الترمذي برقم (٧٤٧) وفي الترغيب والترهيب ٢/ ١٢٤ وفي مشكاة المصابيح (٢٠٥٦) وفي اتحاف السادة المتقين ٤/ ٢٥٨وفي مجمع الزوائد٨/ ٦٦ وفي كنز العمال (٢٤١٩١).

(٣) الحديث في المسند ٥/ ٢٠١ وفي كنز العمال (٢٤٥٧٥).

(٤) أخرجه مسلم كتاب الإيمان (٢٩٤ ـ ٢٩٥) وابن ماجه برقم (١٩٥ ـ ١٩٦) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٣٩٥ و ٤٠٥ والسيوطي في جمع الجوامع (٥١٤١) والتبريزي في المشكاة (٩١) والبغوي في شرح السنة ١/ ١٧٣.

عبد الله بن محمد بن عمر ولا يعرف حاله أيضاً.

وعن عبد الله بن بسر عن أخته الصماء أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم، فإن لم يجد أحدكم إلا لحاء عنبة أو عود شجرة فليمضغه**»[1]. رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي[2]. قال بعضهم: لا تعارض بينه وبين حديث أم سلمة، فإن النهي عن صومه إنما هو عن إفراده، وعلى ذلك ترجم أبو داود، فقال: باب النهي أن يخص يوم السبت بالصوم وحديث صيامه إنما هو مع يوم الأحد. قالوا: ونظير هذا أنه نهى عن إفراد يوم الجمعة بالصوم إلا أن يصوم يوماً قبله أو يوماً بعده.

قال النووي: وأما قول مالك في الموطأ «لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه ومن يقتدى به ينهى عن صيام يوم الجمعة وصيامه حسن، فقد رأيت بعض أهل العلم يصومه، وأراه كان يتحراه «فهذا الذي قاله هو الذي رآه، وقد رأى غيره خلاف ما رأى هو، والسنة مقدمة على ما رآه هو وغيره، وقد ثبت النهي عن صوم يوم الجمعة فتعين القول به، ومالك معذور فإنه لم يبلغه. قال الداودي من أصحاب مالك: لم يبلغ مالكاً هذا الحديث ولو بلغه لم يخالفه.

قالوا: واستحباب الفطر يوم الجمعة ليكون أعون له على وظائف العبادات المشروعة في الجمعة، وأدائها بنشاط وانشراح لها، والتذاذ بها من غير ملل ولا سآمة كالحاج بعرفة.

فإن قلت: لو كان كذلك لم يزل النهي والكراهة بصوم يوم قبله أو بعده لبقاء المعنى، فالجواب: أنه يحصل له بفضيلة الصوم الذي قبله أو بعده ما يجبره ما قد يحصل من فتور أو تقصير في وظائف يوم الجمعة بسبب صومه، والله أعلم.

## الفصل السادس
## في صومه ﷺ الأيام البيض

وهي التي يكون فيها القمر من أول الليل إلى آخره، وهي: ثلاث عشرة، وأربع عشرة وخمس عشرة، وليس في الشهر يوم أبيض كله إلا هذه الأيام، لأن ليلها أبيض ونهارها

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (٢٤٢١) وفي سنن الترمذي برقم (٧٤٤) وفي ابن ماجه (١٧٢٦) وفي المسند ٤/١٨٩ و٦/٣٦٨ وفي سنن الدارمي ٢/١٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/٣٠٢ وفي المستدرك للحاكم ١/٤٣٥ وفي شرح السنة للبغوي ٦/٣٦١ وفي المشكاة للتبريزي (٢٠٦٣) وفي إتحاف السادة المتقين ٤/٢٥٩ وفي كنز العمال (٢٣٩٣٧).

(٢) قال الزرقاني في شرح المواهب: «قال مالك هذا الخبر كذب وقال النسائي مضطرب وقال أبو داود: منسوخ وقال أحمد: هذا الحديث على ما فيه يعارضه حديث أم سلمة». أي الذي مر قبل هذا الحديث.

أبيض فصح قول من قال: الأيام البيض، على الوصف، واليوم الكامل هو النهار بليلته. وفيه رد لقول الجواليقي: «من قال الأيام البيض فجعل البيض صفة الأيام فقد أخطأ» والله أعلم.

عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ لا يفطر أيام البيض في حضر ولا سفر. رواه النسائي. وعن حفصة: أربع لم يكن النبي ﷺ يدعهن: صيام عاشوراء، والعشر، وأيام البيض من كل شهر، وركعتا الفجر، رواه أحمد.

وعن معاذة العدوية: أنها سألت عائشة: أكان رسول الله ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت: نعم، فقلت لها: من أي أيام الشهر كان يصوم؟ قالت: ما كان يبالي من أي أيام الشهر يصوم. رواه مسلم. قال بعضهم: لعله ﷺ لم يواظب على ثلاثة معينة لئلا يظن تعينها. قال: وقد جعل الله تعالى صيام هذه الثلاثة أيام من الشهر بمنزلة صيام الدهر، لأن الحسنة بعشر أمثالها. وقد روى أصحاب السنن وصححه ابن خزيمة من حديث ابن مسعود قال: كان النبي ﷺ يصوم ثلاثة أيام من غرة كل شهر. وقد تحصل أن صيامه ﷺ في الشهر على أوجه:

**الأول**: أنه كان يصوم أول اثنين من الشهر، ثم الخميس ثم الخميس الذي يليه، رواه النسائي.

**الثاني**: كان يصوم من الشهر السبت والأحد والإثنين، ومن الشهر الآخر: الثلاثاء والأربعاء والخميس. رواه الترمذي.

**الثالث**: أيام البيض، ثالث عشر، ورابع عشر، وخامس عشر.

**الرابع**: أنه كان يصوم ثلاثة غير معينة كما روته معاذة عن عائشة عند مسلم.

**الخامس**: أنه كان يصوم ثلاثة من أول الشهر، واختار جماعة منهم: الحسن وهو ما رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود.

قال القاضي عياض: واختار النخعي صوم ثلاثة أيام من آخر الشهر لتكون كفارة لما مضى، واختار آخرون: أول يوم من الشهر والعاشر والعشرين، وقيل إنه صيام مالك بن أنس. وقال ابن شعبان من المالكية: أول يوم من الشهر والحادي عشر، والحادي والعشرون، ونقل ذلك عن أبي الدرداء، وهو موافق لما رواه النسائي من حديث عبد الله بن عمر «**وصم من كل عشرة أيام يوماً**» وحكى الإسنوي عن الماوردي أنه يستحب أيضاً صوم الأيام السود وهي السابع والعشرون واليومان بعده.

وتترجح البيض بكونها وسط الشهر، ووسط الشيء أعدله، ولأن الكسوف غالباً يقع فيها وقد ورد الأمر بمزيد العبادة إذا وقع، فإذا اتفق الكسوف صادف الذي يعتاد صيام البيض صائماً، فيتهيأ له أن يجمع بين أنواع العبادات من الصيام والصلاة والصدقة، بخلاف من لم يصمها فإنه لا يتهيأ له استدراك صيامها. ورجح بعضهم صيام الثلاثة في أول الشهر، لأن المرء لا يدري ما يعرض له من الموانع، والله أعلم.

## النوع الخامس
## في ذكر اعتكافه ﷺ واجتهاده في العشر الأخير من رمضان وتحريه ليلة القدر

اعلم أن الاعتكاف في اللغة: الحبس والمكث واللزوم. وفي الشرع: المكث في المسجد من شخص مخصوص بصفة مخصوصة. ومقصوده وروحه عكوف القلب على الله، وجمعيته عليه، والفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، ليكون ذلك أنسه يوم الوحشة في القبر حين لا أنيس له. وليس بواجب إجماعاً، إلا على من نذره، وكذا من شرع فيه فقطعه عامداً عن قوم. واختلف في اشتراط الصوم له:

ومذهب الشافعي: أنه ليس بشرط لصحة الاعتكاف، بل يصح اعتكاف المفطر.

وقال مالك وأبو حنيفة والأكثرون: يشترط الصوم، فلا يصح اعتكاف المفطر.

واحتج الشافعي باعتكافه ﷺ في العشر الأول من شوال. رواه البخاري ومسلم، وبحديث عمر: أنه قال: يا رسول الله، إني نذر ، أن اعتكف ليلة في الجاهلية، فقال: «أوف بنذرك»[1]. رواه البخاري ومسلم، والليل ليس محلاً للصوم، فدل على أنه ليس بشرط لصحة الاعتكاف. واتفق العلماء على مشروطية المسجد للاعتكاف، إلا محمد بن عمر بن لبابة المالكي[2] فأجازه في كل مكان. وأجاز الحنفية للمرأة أن تعتكف في مسجد بيتها وهو المكان المعد للصلاة فيه. وفيه قول قديم للشافعي. وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى

---

(١) أخرجه أيضاً أبو داود برقم (٣٣١٢ ـ ٣٣٢٥) والترمذي برقم (١٥٣٩) وابن ماجه (٢١٣٠) وأحمد بن حنبل في المسند ١/ ٣٧ و ٣/ ٤١٩ و ٦/ ٣٦٦ والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٣١٨ و ١٠/ ٧٦ والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٢٣.

(٢) هو محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة أبو عبد الله فقيه مالكي أندلسي مات بالاسكندرية سنة (٣٣٠ هـ) الاعلام ٧/ ١٣٦ الديباج المذهب ١/ ٢٠٠ رقم الترجمة (٥٧٧) بغية الملتمس (١٣٤) وجذوة المقتبس (٩١).

اختصاصه بالمساجد التي تقام فيها الصلوات. وخصه أبو يوسف بالواجب منه، وأما النفل ففي كل مسجد.

وقال الجمهور: بعمومه في كل مسجد إلا لمن تلزمه الجمعة، فاستحبه له الشافعي في الجامع. وشرطه مالك، لأن الاعتكاف عنده ينقطع بالجمعة، ويجب بالشروع عند مالك. وخصه طائفة من السلف، كالزهري بالجامع مطلقاً، وأومأ إليه الشافعي في القديم. وخصه حذيفة بن ' يمان بالمساجد الثلاثة، وعطاء بمسجدي مكة والمدينة، وابن المسيب بمسجد المدينة. ;اتفقوا على أنه لا حد لأكثره، واختلفوا في أقله، فمن شرط فيه الصيام قال: أقله يوم، ;منهم من قال: يصح مع شرط الصيام في دون اليوم. حكاه ابن قدامة. وعن مالك: ي نرط عشرة أيام، وعنه: يوم أو يومان. ومن لم يشترط الصوم قالوا: أقله ما ينطلق عليه ا‍سم لبث، ولا يشترط القعود. واتفقوا على فساده بالجماع.

وقد كان سيدنا رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان. رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يعتكف كل عام عشراً، فاعتكف عشرين في العام الذي قبض فيه. رواه البخاري. وعن أبي سعيد الخدري أنه ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان، ثم اعتكف العشر الأوسط في قبة تركية، ثم أطلع رأسه فقال: إني أعتكفت العشر الأول ألتمس هذه الليلة ـ يعني ليلة القدر ـ ثم اعتكف العشر الأوسط، ثم أتيت فقيل لي إنها في العشر الأواخر فقد رأيت هذه الليلة ثم أنسيتها، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين من صبيحتها فالتمسوها في العشر الأواخر والتمسوها في كل وتر منه، قال: فمطرت السماء تلك الليلة وكان المسجد على عريش فوكف المسجد، فبصرت عيناي رسول الله ﷺ وعلى جبهته أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين. رواه الشيخان.

وفي حديث عبادة بن الصامت: أنه ﷺ خرج يخبر بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة، رواه البخاري. ولمسلم من حديث عبد الله بن أنيس: أنه ﷺ قال: أريت ليلة القدر ثم أنسيتها، وأراني في صبيحتها أسجد في ماء وطين، قال: فمطرت ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا وأثر الماء والطين في جبهته وأنفه. وفي سنن أبي داود عن ابن مسعود مرفوعاً: «**اطلبوها ليلة سبع عشرة**». وأخرج الطبراني مرفوعاً من حديث أبي هريرة: «**التمسوا ليلة القدر في ليلة سبع عشرة، أو تسع عشرة، أو إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو تسع وعشرين**».

وقد اختلف العلماء في ليلة القدر اختلافاً كثيراً، وأفردها بعضهم بالتأليف، وقد جمع الحافظ أبو الفضل بن حجر من كلام العلماء في ذلك أكثر من أربعين قولاً، كساعة الجمعة. ومذهب الشافعي: انحصارها في العشر الأخير، كما نص عليه الشافعي، فيما حكاه عنه الإسنوي.

وعن المحاملي في «التجريد»[1]: إنها تلتمس في جميع الشهر، وتبعه عليه الشيخ أبو إسحاق في «التنبيه» فقال: وتطلب ليلة القدر في جميع شهر رمضان. ثم الغزالي في كتبه. وتردد صاحب «التقريب» في جواز كونها في النصف الأخير، كذا نقله عنه الإمام وضعفه. وحكاه ابن الملقن في شرح العمدة. وفي المفهم للقرطبي حكاية قول إنها ليلة النصف من شعبان.

ودليل الأول: حديث أبي سعيد الذي قدمناه، قال النووي: وميل الشافعي إلى أنها ليلة الحادي والعشرين أو الثالث والعشرين، أما الحادي والعشرون فلقوله ﷺ في حديث أبي سعيد: «**فقد رأيت هذه الليلة، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين من صبيحتها**»، فبصرت عيناي رسول الله ﷺ وعلى جبهته أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين، وأما الثالث والعشرون فلحديث عبد الله بن أنيس المتقدم أيضاً. وجزم جماعة من الشافعية: بأنها ليلة الحادي والعشرين، ولكن قال السبكي: إنه ليس مجزوماً به عندهم لاتفاقهم على عدم حنث من علق يوم العشرين عتق عبده بليلة القدر أنه لا يعتق تلك الليلة، بل بانقضاء الشهر على الصحيح بناء على أنها في العشر الأخير. وعن ابن خزيمة ـ من أصحابنا ـ أنها تنتقل في كل سنة إلى ليلة من ليالي العشر الأخير.

وحاصله: قولان، ووجه[2]، واختار النووي في الفتاوى وشرح المهذب رأي ابن خزيمة. وجزم ابن حبيب من المالكية، ونقله الجمهور، وحكاه صاحب «العدة» من الشافعية ورجحه: أن ليلة القدر خاصة بهذه الأمة، ولم تكن في الأمم قبلهم،

وهو معترض: بحديث أبي ذر عند النسائي، حيث قال فيه: قلت يا رسول الله أتكون مع الأنبياء فإذا ماتوا رفعت؟ قلت: بل هي باقية. وعمدتهم قول مالك في «الموطأ» بلغني أن رسول الله ﷺ تقاصر أعمار أمته عن أعمار الأمم الماضية فأعطاه الله تعالى ليلة القدر.

---

(١) قال الزرقاني: «قال شيخنا: لا يعرف له كتاب يسمى التجريد ولا ذكره الإسنوي في الطبقات». وفي كشف الظنون كتاب التجريد في الفروع لأبي الحسن أحمد بن محمد المحاملي الشافعي المتوفي سنة (٤٢٥ هـ) راجع ٣٥١/١.

(٢) أي قولان للشافعي ووجه لابن خزيمة.

وهذا محتمل للتأويل، فلا يدفع الصريح من حديث أبي ذر كما قاله الحافظان ابن كثير في تفسيره وابن حجر في فتح الباري.

قال: وقد ظهر لليلة القدر علامات؛ منها: ما في صحيح مسلم عن أبي بن كعب أن الشمس تطلع في صبيحتها لا شعاع لها، ولابن خزيمة من حديث ابن عباس مرفوعاً: «**ليلة القدر لا حارة ولا باردة، تصبح الشمس يومها حمراء ضعيفة**»[1]، ولأحمد من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً أنها صافية، كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنة صاحية. لا حر فيها ولا برد ولا يحل لكوكب يرمى به فيها، وإن من أماراتها أن الشمس في صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، لا يحل للشيطان أن يخرج معها حينئذ.

وروى البيهقي في «فضائل الأوقات» أن المياه المالحة تعذب في تلك الليلة. وقد كان ﷺ يجتهد في العشر الأخير من رمضان ما لا يجتهد في غيره. رواه مسلم من حديث عائشة. وفي البخاري عنها: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله. وجزم عبد الرزاق بأن «شد مئزره» هو اعتزاله النساء، وحكاه عن الثوري. وقال الخطابي: يحتمل أن يراد به الجد في العبادة، كما يقال: شددت لهذا الأمر مئزري، أي: تشمرت له، ويحتمل أن يراد به التشمير والاعتزال معاً، ويحتمل أن يراد به الحقيقة والمجاز، فيكون المراد: شد مئزره حقيقة فلم يحله واعتزل النساء وتشمر للعبادة.

وقوله: «وأحيا ليله» أي: سهره فأحياه بالطاعة، وأحيا نفسه بسهره فيه، لأن النوم أخو الموت، وأضافه إلى الليل اتساعاً، لأن النائم إذا حيي باليقظة حيي ليله بحياته، وهو نحو قوله: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**»[2]، أي: لا تناموا فتكونوا كالأموات فتكون بيوتكم كالقبور. فقد كان ﷺ يخص العشر الأخير بأعمال لا يعملها في بقية الشهر:

فمنها: إحياء الليل، فيحتمل أن المراد إحياء الليل كله، ويشهد له حديث عائشة من وجه ضعيف «وأحيا الليل كله» وفي المسند عنها أيضاً، قالت: كان ﷺ يخلط العشرين بصلاة ونوم، فإذا كان العشر شمر وشد المئزر، وفي حديث ضعيف عن أنس عند أبي نعيم: كان ﷺ إذا دخل شهر رمضان قام ونام فإذا كان أربعاً وعشرين لم يذق غمضاً ويحتمل أن تريد بإحياء الليل غالبه، وقد قال الشافعي في القديم: من شهد العشاء والصبح في جماعة

(١) الحديث في مجمع الزوائد ٣/١٧٨ وفي الدر المنثور ٦/٣٧٦ وفي كنز العمال (٢٤٠٥١ ـ ٢٤٠٥٢).

(٢) الحديث في سنن أبي داود برقم (٢٠٤٢) ونحوه في الترمذي (٢٨٧٧) وفي صحيح مسلم صلاة المسافرين (٢١٢) وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/٢٥٦ وفي مشكاة المصابيح (٩٢٦ ـ ٢١١٩) وفي الدر المنثور ١/١٩ وفي الترغيب والترهيب. ٢/٣٦٩ وفي كنز العمال (٤١٥١١ ـ ٤١٥١٢).

ليلة القدر فقد أخذ بحظه منها. وروي في حديث مرفوع عن أبي هريرة: **«من صلى العشاء الآخرة في جماعة في رمضان فقد أدرك ليلة القدر»**[1]. رواه أبو الشيخ.

ومنها: أنه كان يوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيره من الليالي.

ومنها: تأخير الفطر إلى السحور، ففي حديث أنس وعائشة أنه ﷺ كان في ليالي العشر يجعل عشاءه سحوراً. ولفظ حديث عائشة: كان ﷺ إذا كان رمضان قام ونام فإذا دخل العشر شد المئزر واجتنب النساء، واغتسل بين الأذانين، وجعل العشاء سحوراً، أخرجه ابن أبي عاصم. ولفظ حديث أنس: كان إذا دخل العشر الأخير من رمضان طوى فراشه واعتزل النساء وجعل عشاءه سحوراً. وإسناد الأول مقارب، والثاني فيه حفص بن غياث، وقال فيه ابن عدي: إنه من أنكر ما لقيت له. لكن يشهد له حديث الوصال المخرج في الصحيح كما قدمته.

ومنها: اغتساله ﷺ بين العشاءين: المغرب والعشاء، روي من حديث علي، وفي إسناده ضعف.

## النوع السادس
## في ذكر حجه وعمره ﷺ

اعلم أن الحج حلول بحضرة المعبود، ووقوف بساحة الجود، ومشاهدة لذلك المشهد العلي الرحماني، والمام بمعهد العهد الرباني، ولا يخفى أن نفس الكون بتلك الأماكن شرف وعلو، وأن التردد في تلك المواطن فخار وسمو، فإن المحالّ المحترمة لم تزل تفرع على الحال فيها من سجال وصفها بفيض غامر، وحسبك في هذا ما يحكى في أبيات عن مجنون بني عامر:

رأى المجنون في البيداء كلباً ... فجر عليه للإحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه ... وقالوا لم منحت الكلب نيلا
فقال دعوا الملام فإن عيني ... رأته مرة في حي ليلا

فينبغي للعبد أن يهتم بأمر الحج ويبادر إليه، وينهض فاتر عزمه إنهاضاً يحثه عليه، ولا يتوانى في غسل أدران سيئات العمر بصابون المغفرة، ولا يتكاسل عن البدار، فيعرضه للفوات بركوب عمياء المخاطرة.

---

(١) الحديث في مجمع الزوائد ٢/ ٢٣١ وفي الدر المنثور ٦/ ٣٧٧ وفي حلية الأولياء نحوه ٩/ ٤٥ وفي المعجم الكبير للطبراني ٨/ ٢١٠.

وروى ابن عباس أنه ﷺ قال: «**من أراد الحج فليتعجل**»[1]. رواه أبو داود. وفي حديث علي بن أبي طالب، عنه ﷺ: «**من ملك راحلة وزاداً يبلغه إلى بيت الله الحرام، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً**»[2]. الحديث رواه الترمذي. وخطب ﷺ فقال: «**أيها الناس: قد فرض الله عليكم الحج فحجوا**». رواه مسلم والنسائي من حديث أبي هريرة. وفي رواية النسائي، من حديث ابن عباس مرفوعاً: «**إن الله كتب عليكم الحج**»، فقال الأقرع بن حابس التميمي: كل عام يا رسول الله؟ فقال: «لو قلت نعم لوجبت» الحديث. فوجوب الحج معلوم من الدين بالضرورة، وقد أجمعوا على أنه لا يتكرر إلا لعارض كالنذر. واختلفوا: هل هو على الفور، أو على التراخي؟ فقال الشافعي وأبو يوسف وطائفة: هو على التراخي، إلى أن ينتهي إلى حال يظن فواته لو أخره عنها. وقال مالك وأبو حنيفة وآخرون: هو على الفور. واختلفوا أيضاً في وقت ابتداء فرضه، فقيل: قبل الهجرة، وهو شاذ، وقيل: بعدها، ثم اختلف في سنته.

فالجمهور على أنه سنة ست، لأنه نزل فيها قوله تعالى: ﴿**وأتموا الحج والعمرة لله**﴾ [البقرة: ١٦٩]، وهذا ينبني على أن المراد بالإتمام ابتداء الفرض. ويؤيده قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعي بلفظ «وأقيموا» رواه الطبري بأسانيد صحيحة عنهم.

وقيل: المراد بالإتمام الإكمال بعد الشروع، وهذا يقتضي تقدم فرضه قبل ذلك. وقد وقع في قصة ضمام ذكر الأمر بالحج وكان قدومه على ما ذكر الواقدي سنة خمس، وهذا يدل ـ إن ثبت ـ على تقدمه على سنة خمس، أو وقوعه فيها.

وقالت طائفة: إنه تأخر نزول فرضه إلى التاسعة والعاشرة. واحتجوا: بأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ وصالحهم على أداء الجزية، والجزية نزلت عام تبوك سنة تسع وفيها نزل صدر سورة آل عمران، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد. ويدل عليه أن أهل مكة وجدوا في أنفسهم بما فاتهم من التجارة مع المشركين لما أنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس**﴾ [التوبة: ٢٨] الآية فأعاضهم الله من ذلك بالجزية، ونزول هذه الآيات والمناداة بها إنما

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٧٣٣) والحاكم في المستدرك ٤٤٨/١ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢٢٥/١ والبيهقي في السنن الكبرى ٣٤٠/٤ والتبريزي في المشكاة (٢٥٢٣) وفي كنز العمال (١١٨٨٧).

(٢) الحديث في الترمذي برقم (٨١٢)، وفي إتحاف السادة المتقين ٢٦٧/٤ ونحوه في مشكاة المصابيح (٢٥٢١) وفي الدر المنثور ٥٦/٢ وفي تفسير القرطبي ١٥٣/٤ وفي كنز العمال (١١٨٧٧).

كان سنة تسع، وبعث الصديق يؤذن بذلك في مكة في موسم الحج، وأردفه بعلي.

وفي الترمذي من حديث جابر، أن النبي ﷺ حج ثلاث حجج، حجتين قبل أن يهاجر وحجة بعدما هاجر معها عمرة، فساق ثلاثاً وستين بدنة، ثم جاء علي من اليمن ببقيتها، فيها جمل في أنفه برة من فضة شعرها، الحديث. وعن ابن عباس: حج ﷺ قبل أن يهاجر ثلاث حجج. أخرجه الحاكم وابن ماجه وهو مبني على عدد وفود الأنصار إلى العقبة بمنى بعد الحج، وهذا لا يقتضي نفي الحج قبل ذلك. وقد أخرج الحاكم بسند صحيح إلى الثوري، أن النبي ﷺ حج قبل أن يهاجر حججاً.

وقال ابن الجوزي: حج حججاً لا يعلم عددها، وقال ابن الأثير: كان ﷺ يحج كل سنة قبل أن يهاجر. وقال جابر في حديثه الطويل ـ كما في رواية مسلم[1] ـ: مكث ﷺ تسع سنين لم يحج ثم أذن في العاشرة؛ أن رسول الله ﷺ حاج. فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ، ويعمل مثله عمله، فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟ قال: «**اغتسلي واستثفري[2] بثوب وأحرمي**»، فصلى رسول الله ﷺ في المسجد، ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به ناقته على البيداء، نظرت مدَّ بصري بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل من شيء عملنا به.

وفي رواية عند النسائي: قال جابر: خرج رسول الله ﷺ لخمس بقين من ذي القعدة وخرجنا معه، حتى إذا أتى ذا الحليفة الحديث. وكان خروجه ﷺ من المدينة بين الظهر والعصر، فنزل بذي الحليفة، فصلى بها العصر ركعتين، ثم بات بها، وصلى بها المغرب. والعشاء والصبح والظهر، وكان نساؤه كلهن معه، فطاف عليهن تلك الليلة ثم اغتسل غسلاً ثانياً لإحرامه، غير غسل الجماع الأول

وفي الترمذي، عن خارجة بن زيد عن أبيه: تجرد رسول الله ﷺ لإهلاله واغتسل. وفي الصحيحين: أن عائشة طيبته بذريرة، وفي رواية قالت: كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفارقه ﷺ وهو محرم، وفي رواية قالت: طيبته عند إحرامه، ثم طاف في نسائه، ثم

---

(١) برقم (١٢١٨).

(٢) أي أمر المستحاضة أن تستثفر وتلجم إذا غلبها سيلان الدم، وهو أن تشد فرجها بخرقة عريضة أو قطن تحتشي بها وتوثق طرفيها في شيء تشده على وسطها فتمنع سيلان الدم. انظر لسان العرب ٢/ ١٠ مادة (ثفر).

أصبح محرماً، زاد في رواية: ينضح طيباً. وفي رواية[١]: طيبته طيباً لا يشبه طيبكم، تعني ليس له بقاء. وهذا يدل على استحباب الطيب عند إرادة الإحرام، وأنه لا بأس باستدامته بعد الإحرام، ولا يضر بقاء لونه ورائحته، وإنما يحرم في الإحرام ابتداؤه، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأبي يوسف وأحمد بن حنبل، وحكاه الخطابي عن أكثر الصحابة، وحكاه النووي عن جمهور العلماء من السلف والخلف.

وذهب مالك: إلى منع التطيب قبل الإحرام بما تبقى رائحته بعده، لكنه قال: إن فعل فقد أساء ولا فدية عليه. وعن عائشة قالت: كان ﷺ إذا أراد أن يحرم غسل رأسه بخطمي وأشنان، رواه الدارقطني. وفي حديث أنس عند أبي داود والترمذي: أنه ﷺ صلى الظهر ثم ركب راحلته، فلما علا على جبل البيداء أهل. وفي رواية ابن عمر، عند البخاري ومسلم وغيرهما: ما أهل إلا من عند المسجد، يعني مسجد ذي الحليفة.

وفي رواية[٢]: ما أهل إلا من عند الشجرة حين قام به بعيره. وفي رواية: حين وضع رجله في الغرز، واستوت به راحلته قائماً، أهل من عند مسجد ذي الحليفة. وفي رواية جابر ـ عند أبي داود والترمذي ـ أنه ﷺ لما أراد الحج أذن في الناس فاجتمعوا له، فلما أتى البيداء أحرم.

وفي حديث ابن جبير ـ عند أبي داود ـ قال: قلت لابن عباس: عجبت لاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في إهلال رسول الله ﷺ حين أوجب!؟ فقال: إني لأعلم الناس بذلك، إنها إنما كانت من رسول الله ﷺ حجة واحدة، فمن هناك اختلفوا. خرج ﷺ حاجاً فلما صلى في مسجده بذي الحليفة ركعتيه أوجبه في مجلسه فأهل بالحج حين فرغ من ركعتيه، فسمع ذلك منه أقوام فحفظته عنه، ثم ركب فلما استقلت به ناقته أهل، وأدرك ذلك منه أقوام، وذلك أن الناس إنما كانوا يأتون إليه أرسالاً، فسمعوه حين استقلت به ناقته يهل فقالوا إنما أهل رسول الله ﷺ حين استقلت به ناقته، ثم مضى رسول الله ﷺ، فلما علا على شرف البيداء أهل، وأدرك ذلك منه أقوام فقالوا إنما أهل حين علا على شرف البيداء، وأيم الله لقد أوجب في مصلاه، وأهل حين استقلت به ناقته، وأهل حين علا على شرف البيداء.

قال سعيد بن جبير: فمن أخذ بقول عبد الله بن عباس أهل في مصلاه إذا فرغ من ركعتيه، وهو مذهب أبي حنيفة، والصحيح من مذهب الشافعي أن الأفضل أم يحرم إذا

---

(١) هي للنسائي.
(٢) هي عند مسلم وكذا التي بعدها.

انبعثت به راحلته. قال ابن القيم: ولم ينقل عنه ﷺ أنه صلى للاحرام ركعتين غير فرض الظهر، انتهى.

قلت: ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أنه ﷺ كان يركع بذي الحليفة ركعتين، ثم إذا استوت به الناقة قائمة عند مسجد ذي الحليفة أهل. قال النووي: فيه استحباب صلاة ركعتين عند إرادة الإحرام، ويصليهما قبل الإحرام، ويكونان نافلة، هذا مذهبنا ومذهب العلماء كافة، إلا ما حكاه القاضي وغيره عن الحسن البصري أنه يستحب كونهما بعد صلاة فرض، قل: لأنه روي أن هاتين الركعتين كانتا صلاة الصبح، والصواب ما قاله الجمهور وهو ظاهر الحديث.

وقد اختلفت روايات الصحابة في حجه ﷺ حجة الوداع، هل كان مفرداً أو قارناً أو متمتعاً؟ وروي كل منها في البخاري ومسلم وغيرهما. واختلف الناس في ذلك على ستة أقوال:

أحدها: أنه حج مفرداً لم يعتمر معه.

الثاني: حج متمتعاً تمتعاً حل منه ثم أحرم بعده بالحج، كما قاله القاضي أبو يعلى وغيره.

الثالث: أنه حج متمتعاً تمتعاً لم يحل فيه لأجل سوق الهدي ولم يكن قارناً.

الرابع: أنه حج قارناً قراناً طاف له طوافين وسعى له سعيين.

الخامس: أنه حج مفرداً، اعتمر بعده من التنعيم.

السادس: أنه ﷺ حج قارناً بالحج والعمرة ولم يحل حتى حل منهما جميعاً، وطاف لهما طوافاً واحداً وسعياً واحداً وساق الهدي.

واختلفوا أيضاً في إحرامه على ستة أقوال:

أحدها: أنه لبى بالعمرة وحدها، واستمر عليها.

الثاني: أنه لبى بالحج وحده واستمر عليه.

الثالث: أنه لبى بالحج مفرداً ثم أدخل عليه العمرة.

الرابع: أنه لبى بالعمرة وحدها ثم أدخل عليها الحج.

الخامس: أنه أحرم إحراماً مطلقاً لم يعين فيه نسكاً، ثم عينه بعد إحرامه.

السادس: لبى بالحج والعمرة معاً.

وقد أطنب أبو جعفر الطحاوي الحنفي في الكلام على ذلك، فإنه تكلم عليه في زيادة على ألف ورقة كما ذكره عنه جماعة من العلماء، وبينه ابن حزم في حجة الوداع بيانا شافياً، ومهده المحب الطبري تمهيداً بالغاً، وأشار إليه القاضي عياض والنووي في شرحيهما لمسلم، ونقحه الحافظ ابن حجر مستوفياً لكثير من مباحثه استيفاء كافياً.

والذي ذهب إليه الشافعي في جماعة: أنه ﷺ حج حجاً مفرداً لم يعتمر معه، واحتج بما في الصحيحين أن عائشة قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع، فمنا من أهلَّ بعمرة، ومنا من أهلَّ بحج وعمرة، ومنا أهلَّ بالحج وحده، وأهلَّ رسول الله ﷺ بالحج». فهذا التقسيم والتنويع صريح في إهلاله بالحج وحده. ولمسلم عنها: أنه ﷺ أهل بالحج وحده. ولمسلم أيضاً عن ابن عباس: أهل رسول الله ﷺ بالحج. ولابن ماجه عن جابر: أن رسول الله ﷺ أفرد الحج. وعن ابن عمر: أنه ﷺ أفرد الحج. رواه البخاري.

قالوا: وهؤلاء لهم قرب في حجة الوداع على غيرهم: فأما جابر، فهو أحسن الصحابة سياقاً لرواية حديث حجة الوداع، فإنه ذكرها من حين خروجه ﷺ من المدينة إلى آخرها، فهو أضبط لها من غيره. وأما ابن عمر، فصح عنه أنه كان آخذاً بخطام ناقته ﷺ في حجة الوداع، وأنكر على من رجح قول أنس على قوله وقال: كان أنس يدخل على النساء وهن مكشفات الرؤوس وإني كنت تحت ناقته ﷺ يمسني لعابها، أسمعه يلبي بالحج، وأما عائشة فقربها من رسول الله ﷺ معروف، وكذا اطلاعها على باطن أمره وظاهره، وفعله في خلواته وعلانيته، مع كثرة فهمها وعظم فطنتها. وأما ابن عباس فمحله من العلم والفقه في الدين والفهم الثاقب معروف، مع كثرة بحثه وتحفظه أحوال رسول الله ﷺ التي لم يحفظها غيره وأخذه إياها من كبار الصحابة.

واحتجوا أيضاً: بأن الخلفاء الراشدين واظبوا على «الإفراد» مع أنهم الأئمة الأعلام، وقادة الإسلام، والمقتدى بهم، فكيف يظن بهم المواظبة على ترك الأفضل. وبأنه لم ينقل عن أحد منهم كراهة الإفراد، وقد نقل عنهم كراهة التمتع والجمع بينهما، حتى فعله علي رضي الله عنه لبيان الجواز. وبأن الإفراد لا يجب فيه دم بالإجماع بخلاف التمتع والقران.

وذهب النووي إلى أن الصواب أنه ﷺ كان قارناً، ويؤيده أنه ﷺ لم يعتمر في تلك السنة بعد الحج، قال: ولا شك أن القران أفضل من الإفراد والذي لا يعتمر في سنته عندنا، ولم يقل أحد إن الحج وحده أفضل من القران. انتهى. وقد صرح القاضي حسين والمتولي بترجيح الإفراد ولو لم يعتمر في تلك السنة. قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: وتترجح رواية من روى القران بأمور.

منها: أن معه زيادة علم على من روى الإفراد والتمتع. وبأن من روى الإفراد والتمتع

اختلف عليه في ذلك، وأشهر من روي عنه الإفراد عائشة، وقد ثبت عنها أنه اعتمر مع حجته. وابن عمر، وقد ثبت عنه أنه ﷺ بدأ بالعمرة ثم أهل بالحج. وجابر، وقد روى عنه أنه اعتمر مع حجته أيضاً. وبأن القران رواه عنه ﷺ جماعة من الصحابة لم يختلف عليهم فيه. وبأنه لم يقع في شيء من الروايات النقل عنه من لفظه أنه قال: أفردت، ولا تمتعت، بل صح عنه أنه قال: «**لولا أن معي الهدي لأحللت**»[1].

وأيضاً: فإن من روى القران لا يحتمل حديثه التأويل إلا بتعسف، بخلاف من روى الإفراد فإنه محمول على أول الحال وينتفي التعارض، ويؤيده: أن من جاء عنه الإفراد جاء عنه صورة القران، ومن روى عنه التمتع فإنه محمول على سفر واحد للنسكين، ويؤيده: أن من جاء عنه التمتع لما وصفه، وصفه بصورة القران، لأنهم اتفقوا على أنه لم يحل من عمرته حتى أتم عمل جميع الحج، وهذه إحدى صور القران.

وأيضاً: فإن رواية القران جاءت عن بضعة عشر صحابياً. انتهى. وعدهم ابن القيم سبعة عشر: عائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عباس، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان بإقراره لعلي، وعمران بن الحصين، والبراء بن عازب، وحفصة أم المؤمنين، وأبو قتادة، وابن أبي أوفى، وأبو طلحة، والهرماس بن زياد، وأم سلمة، وأنس بن مالك، وسعد بن أبي وقاص، وجابر، وابن عمر، قال: فهؤلاء سبعة عشر صحابياً، منهم من روى فعله، ومنهم من روى لفظ إحرامه، ومنهم من روى خبره عن نفسه، ومنهم من روى أمره به.

فإن قيل: كيف تجعلون منهم ابن عمر وجابراً، وعائشة، وابن عباس؟ وعائشة تقول: أهلَّ رسول الله ﷺ بالحج، وفي لفظ: أفرد الحج، والأول في الصحيحين، والثاني في مسلم. وهذا ابن عمر يقول: لبى بالحج وحده، ذكره البخاري، وهذا ابن عباس يقول: أهلَّ بالحج، رواه مسلم. وهذا جابر يقول: أفرد الحج، رواه ابن ماجه.

قيل: إن كانت الأحاديث عن هؤلاء تعارضت وتساقطت، فإن أحاديث الباقين لم تتعارض، فهب أن أحاديث من ذكرتم لا حجة فيها على القران ولا على الإفراد، فما الموجب للعدول عن أحاديث الباقين مع صراحتها وصحتها، فكيف وأحاديثهم يصدق بعضها بعضاً، ولا تعارض بينها. انتهى.

---

(١) الحديث في البخاري برقم (١٥٥٨ - ١٧٨٥ - ٢٠٥٥ - ٢٥٠٦) وفي مسلم الحج (٢١٣) وفي النسائي الحج (١٣٩) وفي الترمذي (٦٥٦) وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٣٠٥ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ٤ و ١٥.

وهذا يقتضي رفع الشك عنها والمصير إلى أنه ﷺ كان قارناً، ومقتضى ذلك أن يكون القران أفضل من الإفراد والتمتع، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين، وبه قال [الثوري و][1] أبو حنيفة وإسحاق بن راهويه واختاره من الشافعية المزني وابن المنذر، وأبو إسحاق المروزي، ومن المتأخرين الشيخ تقي الدين السبكي، وبحث مع النووي في اختياره أنه ﷺ كان قارناً، وأن الإفراد مع ذلك أفضل، مستنداً إلى أنه ﷺ اختار الإفراد أولاً ثم أدخل عليه العمرة لبيان جواز الاعتمار في أشهرالحج لكونهم كانوا يعتقدونه من أفجر الفجور، وتعقب: بأن البيان قد سبق منه ﷺ في عمره الثلاث، فإنه أحرم بكل منها في ذي القعدة، وهي عمرة الحديبية التي صد عن البيت فيها، وعمرة القضية، وعمرة الجعرانة، ولو كان أراد باعتماره مع حجته بيان الجواز فقط ـ مع أن الأفضل خلافه ـ لاكتفى في ذلك بأمره أصحابه أنْ يفسخوا حجهم إلى العمرة[2]، انتهى.

ومذهب الشافعي ومالك وكثيرين أن أفضلها: الإفراد، ثم التمتع، ثم القران، فإن قلت: إذا كان الراجح أنه ﷺ كان قارناً، فلم رجح الشافعية والمالكية الإفراد على القران؟ فقد أجاب عن ذلك النووي في شرح المهذب: بأن ترجيح الإفراد لأنه ﷺ اختاره أولاً، فأهلّ بالحج وحده، وإنما أدخل عليه العمرة لمصلحة بيان جواز الاعتمار في أشهر الحج، وكانت العرب تعتقده من أفجر الفجور كما ذكرته.

وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم: إلى أن التمتع أفضل، وهو مذهب أحمد، لكونه ﷺ تمناه، فقال: «**لولا أني سقت الهدي لأحللت**» ولا يتمنى إلا الأفضل. وأجيب: بأنه إنما تمناه تطييباً لقلوب أصحابه لحزنهم على فوات موافقته، وإلا فالأفضل ما اختاره الله تعالى له، واستمر عليه ﷺ.

وأما القائلون إنه ﷺ لبى بالعمرة واستمر عليها، فحجتهم حديث ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج. وقال ابن شهاب عن عروة: إن عائشة أخبرته عن النبي ﷺ في تمتعه بالعمرة إلى الحج، فتمتع الناس معه بمثل الذي أخبرني سالم عن ابن عمر. وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: (**هذه عمرة استمتعنا بها**)[3]. وقال سعد بن أبي وقاص في المتعة: صنعها رسول الله ﷺ وصنعناها معه.

---

(١) ليست في الأصل ولكنها في فتح الباري الأصل المنقول عنه.

(٢) انظر فتح الباري ٣/ ٥٤٧ شرح حديث رقم (١٥٦٤).

(٣) الحديث في صحيح مسلم الحج رقم (٢٠٣) وفي سنن أبي داوود (١٧٩٠) وفي المسند ١/ ٢٣٦ و ٣٤١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ١٨ وفي الدارمي ٢/ ٥١ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٤/ ١٠٢ =.

وأجيب: بأن التمتع عندهم يتناول القران، ويدل له ما في الصحيحين عن سعيد بن المسيب: اجتمع علي وعثمان بعسفان، فكان عثمان ينهى عن المتعة، فقال علي: ما تريد إلى أمر فعله رسول الله ﷺ تنهى عنه؟ فقال عثمان: دعنا منك، فقال: إني لا أستطيع أن أدعك، فلما رأى علي ذلك أهلّ بهما جميعاً.

فهذا يبين أن من جمع بينهما كانت متمتعاً عندهم، وأن هذا هو الذي فعله رسول الله ﷺ. ووافقه عثمان على أنه ﷺ فعله، لكن النزاع بينهما: هل ذلك الأفضل في حقنا أم لا؟ فقد اتفق علي وعثمان على أنه ﷺ تمتع وأن المراد بالتمتع عندهم القران. وأيضاً: فإنه ﷺ قد تمتع تمتع قران باعتبار ترفهه بترك أحد السفرين. انتهى.

وفي فتح الباري عن أحمد: أن من ساق الهدي فالقران له أفضل ليوافق فعل النبي ﷺ، ومن لم يسق الهدي فالتمتع له أفضل ليوافق ما تمناه وأمر به أصحابه. انتهى.

وأما من قال: إنه ﷺ حج مفرداً ثم اعتمر عقبه من التنعيم أو غيره فهو غلط، لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين، ولا الأئمة الأربعة، ولا أحد من أهل الحديث. قاله ابن تيمية.

وأما من قال: إنه حج متمتعاً، حل فيه من إحرامه، ثم أحرم يوم التروية بالحج مع سوق الهدي فحجته حديث معاوية أنه قصر عن رأس رسول الله ﷺ بمشقص على المروة، وحديثه في الصحيحين، ولا يمكن أن يكون هذا في غير حجة الوداع، لأن معاوية أسلم بعد الفتح، والنبي ﷺ لم يكن زمن الفتح محرماً، ولا يمكن أن يكون في عمرة الجعرانة لوجهين: **أحدهما**، أنه في بعض ألفاظ الحديث الصحيح «وذلك في حجته»، **الثاني**: أن في رواية النسائي بإسناد صحيح: «وذلك في أيام العشر» وهذا إنما كان في حجته، وهذا مما أنكره الناس على معاوية وغلطوه فيه، وأصابه فيه ما أصاب ابن عمر في قوله: إنه اعتمر في رجب كما سيأتي. وسائر الأحاديث الصحيحة كلها تدل على أنه ﷺ لم يحل من إحرامه إلى يوم النحر، وبذلك أخبر عن نفسه بقوله: «**لولا أن معي الهدي لأحللت**» وقوله: «**إني سقت الهدي وقرنت فلا أحل عن حتى أنحر**»[1]، وهذا خبر عنه لا يدخله الوهم ولا الغلاط، بخلاف خبر غيره عنه. قاله في زاد المعاد.

---

= وفي المشكاة (٢٥٥٨) وفي شرح السنة للبغوي ٧/ ٧٩ وفي المعجم الكبير للطبراني نحوه ١١/ ٦١.

(١) أعله البيهقي بأنه مروي في البخاري ومسلم وليس فيهما لفظ (وقرنت). والحديث في سنن أبي داود برقم (١٧٩٧) وفي النسائي ٥/ ١٤٩.

وأما اختلاف الروايات عنه ﷺ في إهلاله، هل هو بالحج أو بالعمرة أو القران، والجمع بينها، فكل تأول بما يناسب مذهبه الذي قدمته. قال البغوي: والذي ذكره الشافعي في كتاب «اختلاف الأحاديث» كلاماً موجزه: «أن أصحاب رسول الله ﷺ كان منهم المفرد والقارن والمتمتع، فكل كان يأخذ عنه أمر نسكه، ويصدر عن تعليمه، فأضيف الكل إليه على معنى أنه أمر بها وأذن فيها، ويجوز في لغة الغرب إضافة الفعل إلى الآمر به، كما يجوز إضافته إلى الفاعل له، كما يقال: بنى فلان داراً. ويريد أنه أمر ببنائها، وكما روي أنه ﷺ رجم ماعزا، وإنما أمر برجمه، ثم احتج بأنه ﷺ كان أفرد الحج. انتهى، وقال الخطابي نحوه.

وقال النووي: كان ﷺ أولاً مفرداً، ثم أحرم بالعمرة بعد ذلك، وأدخلها على الحج فصار قارناً، فمن روى الإفراد فهو الأصل، يعني حمله على ما أهلَّ به في أول الحال، ومن روى القران أراد ما استقر عليه أمره، ومن روى التمتع أراد به التمتع اللغوي والارتفاق، فقد ارتفق بالقران كارتفاق التمتع وزيادة، وهو الاقتصار على فعل واحد. وقال غيره: أراد بالتمتع ما أمر به غيره. قالوا: وبهذا الجمع تنتظم الأحاديث كلها ويزول عنها الاضطراب والتناقض.

وقالت طائفة: إنما أحرم ﷺ قارناً ابتداء يعني بالحج والعمرة معاً واحتجوا بأحاديث صحيحة تزيد على العشرين، منها حديث أنس في صحيح مسلم «سمعت رسول الله ﷺ أهل بهما: «**لبيك عمرة وحجاً**»[1] ورواه عن أنس ستة عشر نفساً من الثقات، كلهم متفقون عن أنس أن لفظ النبي ﷺ كان إهلالاً بحج وعمرة معاً[2].

وأما من قال: إنه ﷺ أهل بالعمرة وأدخل عليها الحج، فحجته ما في البخاري من حديث ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، وأهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة، وبدأ ﷺ فأهلَّ بالعمرة، ثم أهلَّ بالحج.

وقد تقدم في الأحاديث الكثيرة الصريحة أنه ﷺ بدأ بالإهلال بالحج ثم أدخل عليه العمرة، وهذا عكسه. والمشكل في هذا الحديث قوله: «بدأ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج». وأجيب عنه: بأن المراد به صورة الإهلال، أي لما أدخل العمرة على الحج لبى بهما فقال:

---

(١) الحديث في مسلم الحج رقم (١٨٥) وفي سنن أبي داود (١٧٩٥) وفي النسائي الحج باب (٤٩) وفي ابن ماجه (٢٩٦٨ ـ ٢٩٦٩) وفي المسند ٣/ ٩٩ و ١٨٧ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ٩ و ٤٠ وفي إتحاف السادة المتقين ٤/ ٣٠٨.

(٢) انظر إنكار ابن عمر ذلك على أنس في الصحيحين.

«لبيك بعمرة وحج معاً» ولبعضهم: بدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة، أي أمرهم بها أولاً، أي بتقديمها على الحج.

ومذهب الشافعي: أنه لو أدخل الحج على العمرة قبل الطواف صح، وصار قارناً، فلو أحرم بالحج ثم أدخل عليه العمرة ففيه قولان للشافعي، أصحهما لا يصح إحرامه بالعمرة، لأن الحج أقوى منها لاختصاصه بالوقوف والرمي. والضعيف لا يدخل على القوي. انتهى.

وعن ابن عباس قال: صلى ﷺ الظهر بذي الحليفة، ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن وسلت الدم عنها وقلدها نعلين. رواه مسلم وأبو داود. وفي رواية الترمذي: قلد نعلين، وأشعر الهدي في الشق الأيمن، بذي الحليفة، وأماط عنه الدم. وفي رواية لأبي داود بمعناه، وقال: ثم سلت الدم بيده، وفي أخرى بأصبعه. وعند النسائي: أشعر بدنه من الجانب الأيمن وسلت الدم عنها وقلدها نعلين. وفي أخرى: أمر ببدنة فأشعر في سنامها من الشق الأيمن ثم سلت عنها الدم وقلدها نعلين.

وكان حجه ﷺ على رحل رث يساوي أربعة دراهم. رواه الترمذي في الشمائل وابن ماجه من حديث أنس، والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس.

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجاً حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله ﷺ ونزلنا، فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ، وجلست إلى جنب أبي بكر، وكانت زمالة رسول الله ﷺ وزمالة أبي بكر واحدة، مع غلام لأبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه، فطلع عليه وليس معه بعيره، فقال له أبو بكر: أين بعيرك؟ فقال: أضللته البارحة. قال أبو بكر: بعير واحد تضله؟ وطفق يضربه ورسول الله ﷺ يبتسم ويقول: «**انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع**»[1]، وما يزيد على ذلك ويبتسم. رواه أبو داود.

وخرج معه ﷺ أصحابه لا يعرفون إلا الحج ـ كما قالت عائشة ـ فبين لهم ﷺ وجوه الإحرام وجوز لهم الاعتمار في أشهر الحج فقال: «**من أحب أن يهل بعمرة فليهل، ومن أحب أن يهل بحج فليهل**». رواه البخاري. ولأحمد: «**من شاء فليهل بعمرة**».

ولما بلغ ﷺ الأبواء أو ودان، أهدى له الصعب بن جثامة[2] حماراً وحشياً فرده

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٨١٨) وابن ماجه برقم (٢٩٣٣) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ٣٤٤ والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٦٨ والسيوطي في جمع الجوامع (٤٥٧٧) وفي الدر المنثور أيضاً ١/ ٢٢٠.

(٢) هو الصعب بن جثامة بن قيس الليثي. صحابي مات في خلافة عثمان وقيل قبلها نحو (٢٥ هـ).=

عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: «**إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم**»[1]. رواه البخاري ومسلم. وله في رواية: حمار وحش، وفي أخرى: من لحم حمار وحش، وفي رواية: عجز حمار وحش يقطر دماً، وفي رواية: شق حمار وحش، وفي رواية عضو من لحم صيد.

ورواه أبو داود وابن حبان من طريق عطاء عن ابن عباس أنه قال: يا زيد بن أرقم، هل علمت أن رسول الله ﷺ.. فذكره. واتفقت الروايات كلها عن أنه رده عليه، إلا ما رواه ابن وهب والبيهقي من طريقه بإسناد حسن من طريق عمرو بن أمية: أن الصعب أهدى للنبي ﷺ عجز حمار وحش، وهو بالجحفة، فأكل منه وأكل القوم، قال البيهقي: إن كان هذا محفوظاً فلعله رد الحي وقبل اللحم.

قال في فتح الباري: وفي هذا الجمع نظر، فإن كانت الطرق محفوظة فلعله رد حياً لكونه صيد لأجله، ورد اللحم تارة لذلك، وقبله تارة أخرى حيث علم أنه لم يصده لأجله. وقد قال الشافعي في «الأم»: إن كان الصعب أهدى حماراً حياً فليس للمحرم أن يذبح حمار وحش حي، وإن كان أهدى له لحماً فقد يحتمل أن يكون علم أنه صيد له فرده عليه. ونقل الترمذي عن الشافعي: أنه رده لظنه أنه صيد من أجله فتركه على وجه التنزه، ويحتمل أن يحمل القبول المذكور في حديث عمرو بن أمية على وقت آخر، وهو حال رجوعه ﷺ من مكة، ويؤيده: أنه جازم فيه بوقوع ذلك في الجحفة، وفي غيرها من الروايات: بالأبواء أو بودان. وقال القرطبي: يحتمل أن يكون الصعب أحضر الحمار مذبوحاً ثم قطع منه عضواً بحضرته ﷺ فقدمه له، فمن قال: أهدى حماراً أراد بتمامه مذبوحاً لا حياً، ومن قال: لحم حمار أراد ما قدمه للنبي ﷺ، قال: ويحتمل أن يكون من قال حماراً، أطلق وأراد بعضه مجازاً، قال: ويحتمل أنه أهداه له حياً، فلما رده عليه ذكاه وأتاه بعضو منه ظاناً أنه إنما رده عليه لمعنى يختص بجملته، فأعلمه بامتناعه أن حكم الجزء حكم الكل. قال: والجمع مهما أمكن أولى من توهيم بعض الرواة[2].

قال النووي: قال الشافعي وآخرون: ويحرم تملك الصيد بالبيع والهبة ونحوها، وفي ملكه بالإرث خلاف، وأما لحم الصيد فإن صاده أو صيد له فهو حرام، سواء صيد له بإذنه أو بغير إذنه، وإن صاده حلال لنفسه ولم يقصد المحرم، ثم أهدى من لحمه للمحرم أو

---

= الاعلام ٣/ ٢٠٤ الاصابة ٣/ ٢٤٣ رقم الترجمة (٤٠٦٠).

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (٨٥٠) وفي المسند ٤/ ٧١ وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/ ٥٤ وفي موطأ مالك برقم (٣٥٣) والبخاري برقم (١٨٢٥).

(٢) انظر فتح الباري ٤/ ٣٩ وما بعدها شرح حديث رقم (١٨٢٥).

باعه لم يحرم عليه، هذا مذهبنا، وبه قال مالك وأحمد وداود، وقال أبو حنيفة: لا يحرم عليه ما صيد له بغير إعانة منه، وقالت طائفة: لا يحل له لحم الصيد أصلاً، سواء صاده، أو صاده غيره له، قصده أو لم يقصده، فيحرم مطلقاً. حكاه القاضي عياض عن علي وابن عمر وابن عباس لقوله تعالى: ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾ [المائدة: ٩٦]، قالوا: والمراد بالصيد المصيد، ولظاهر حديث الصعب بن جثامة، فإنه ﷺ رد وعلل رده بأنه محرم، ولم يقل: بأنك صدته لنا.

واحتج الشافعي وموافقوه: بحديث أبي قتادة المذكور في صحيح مسلم، فإنه ﷺ قال في الصيد الذي صاده أبو قتادة وهو حلال، قال للمحرمين: «**هو حلال فكلوه**»[١]. وفي الرواية الأخرى قال: «**فهل معكم منه شيء؟**» قالوا: معنا رجله فأخذها رسول الله ﷺ فأكلها[٢].

ولما مرَّ ﷺ بوادي عسفان قال: «**يا أبا بكر، أي واد هذا؟**» قال وادي عسفان قال: «**لقد مرَّ به هود وصالح على بكرين أحمرين خطامهما الليف، وأزرهما العباء وأرديتهما النمار يلبون بالحج يحجون البيت العتيق**»[٣]. رواه أحمد. وفي رواية مسلم من حديث ابن عباس، لما مر بوادي الأزرق قال: «**كأني أنظر إلى موسى هابطاً من الثنية واضعاً أصبعيه في أذنيه ماراً بهذا الوادي، وله جؤار إلى الله بالتلبية**»[٤].

ووادي الأزرق خلف أمج ـ بفتح الهمزة والميم والجيم ـ قرية ذات مزارع، بينه وبين مكة ميل واحد. ولم يعين في رواية البخاري الوادي، ولفظه: أما موسى كأني أنظر إليه إذ انحدر من الوادي يلبي. قال المهلب: هذا وهم من بعض رواته، لأنه لم يأت في أثر ولا خبر أن موسى حي، وأنه سيحج، وإنما أتى ذلك عن عيسى فاشتبه على الراوي، ويدل عليه قوله في الحديث الآخر: «**ليهلن ابن مريم بفج الروحاء**»[٥] انتهى.

---

(١) أخرجه مسلم في الحج برقم (٥٦) والبيهقي في السنن ٥/١٨٨ والحميدي في المسند برقم (٤٢٤).

(٢) الحديث في الترمذي برقم (٨٤٨) وفي سنن أبي داود كتاب الأطعمة باب (٤٧) وفي النسائي الصيد باب (٣١ و ٣٤) وفي المسند ٣/٣١٢ و ٥/٣٠١ وفي موطأ الإمام مالك برقم (٣٥١) وفي سنن الدارقطني ٤/٢٦٦ وفي المشكاة (٢٦٩٧ ـ ٤١٠٨) وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/١٨٧ وفي موارد الظمآن (٩٨٤) وفي التمهيد ٤/١٢٦.

(٣) الحديث في المسند ١/٢٣٢ وفي مجمع الزوائد ٣/٢٢٠ وفي البداية والنهاية ١/١١٩ ـ ١٣٨.

(٤) أخرجه مسلم الايمان برقم (٢٦٨) والمتقي الهندي في كنز العمال برقم (٣٢٣٨٢) ونحوه في المسند ١/٢١٥.

(٥) الحديث في مسلم الحج برقم (٢١٦) وفي المسند ٢/٥١٣ و ٥٤٠ وفي الدر المنثور ٢/٢٤٢ وفي تفسير القرطبي ٤/١٠١.

وهو تغليط للثقات بمجرد التوهم، وقد ذكر البخاري الحديث في اللباس من صحيحه بزيادة ذكر إبراهيم فيه أفيقال: إن الراوي الآخر قد غلط فزاده؟ وفي رواية مسلم المتقدمة ذكر يونس، أفيقال: إن الراوي الآخر قد غلط فزاد يونس؟

وتعقب أيضاً: بأن توهيم المهلب للراوي وهم منه، وإلا فأي فرق بين موسى وعيسى؟ لأنه لم يثبت أن عيسى منذ رفع نزل إلى الأرض، وإنما ثبت أنه سينزل. وأجيب: بأن المهلب أراد أن عيسى لما ثبت أنه سينزل كان كالمحقق، فقال: «**كأني أنظر إليه**» ولهذا استدل المهلب بحديث أبي هريرة الذي فيه «**ليهلن ابن مريم بالحج**».

وقد اختلف في معنى قوله: «**كأني أنظر إليه**». فقيل: إن ذلك رؤيا منام تقدمت له فأخبر عنها لما حج عندما تذكر ذلك، ورؤيا الأنبياء وحي. وقيل: هو على الحقيقة، لأن الأنبياء أحياء عند ربهم يرزقون، فلا مانع أن يحجوا في هذه الحالة، كما في صحيح مسلم عن أنس: أنه رأى موسى عليه السلام قائماً في قبره يصلي.

قال القرطبي: حببت إليهم العبادة، فهم يتعبدون بما يجدونه من دواعي أنفسهم لا بما يلزمون به، كما يلهم أهل الجنة الذكر. ويؤيده أن عمل الآخرة ذكر ودعاء لقوله تعالى: ﴿**دعواهم فيها سبحانك اللهم**﴾ [يونس: ١٠] الآية. لكن تمام هذا التوجيه أن يقال: المنظور إليه هي أرواحهم، فلعلها مثلت له ﷺ في الدنيا كما مثلت له ليلة الإسراء، وأما أجسادهم فهي في القبور.

قال ابن المنير وغيره: يجعل الله لروحه مثالاً، ويرى في اليقظة كما يرى في النوم. وقيل: كأنه مثلت أحوالهم التي كانت في الحياة الدنيا، كيف تعبدوا، وكيف حجوا، وكيف لبوا، ولهذا قال: «**كأني**». . وقيل: كأنه أخبر بالوحي عن ذلك، فلشدة قطعه به قال: «**كأني أنظر إليه**». انتهى. وقد ذكرت في مقصد الإسراء من ذلك ما يكفي والله الموفق.

ولما نزل ﷺ بسرف خرج إلى أصحابه فقال من لم يكن معه هدي فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه الهدي فلا. وحاضت عائشة فدخل عليها ﷺ وهي تبكي، فقال: «**ما يبكيك يا هنتاه**»، قالت: سمعت قولك لأصحابك فمنعت العمرة، قال: «**وما شأنك؟**» قالت: لا أصلي، قال: «**فلا يضرك، إنما أنت امرأة من بنات آدم، كتب الله عليك ما كتب عليهن، فكوني في حجك، فعسى الله أن يرزقكها**»[1]. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب الحج رقم (١٢٠ ـ ١٢٣).

وفي رواية[1] قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نذكر إلا الحج، حتى جئنا سرف، فطمثت، فدخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقال: «ما يبكيك؟» فقلت: والله لوددت أني لم أكن خرجت العام، فقال: «ما لك، لعلك نفست؟» قلت: نعم، قال: «هذا شيء كتبه الله على بنات آدم، افعلي ما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري». الحديث.

وقد اختلف فيما أحرمت به عائشة، كما اختلف: هل كانت متمتعة أم مفردة؟ وإذا كانت متمتعة فقيل إنها كانت أولاً أحرمت بالحج وهو ظاهر هذا الحديث.

وفي حجة الوداع من المغازي عند البخاري، من طريق هشام بن عروة عن أبيه قالت: وكنت فيمن أهل بعمرة. وزاد أحمد من وجه آخر عن الزهري: ولم أسق هدياً، وفي رواية الأسود عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ نلبي لا نذكر حجاً ولا عمرة.

ويحتمل في الجمع أن يقال: أهلت عائشة بالحج مفردة، كما صنع غيرها من الصحابة، ثم أمر النبي ﷺ أن يفسخوا الحج إلى العمرة، ففعلت عائشة ما صنعوا، فصارت متمتعة، ثم لما دخلت مكة وهي حائض ولم تقدر على الطواف لأجل الحيض أمرها أن تحرم بالحج.

وقال القاضي عياض: واختلف في الكلام على حديث عائشة، فقال: مالك ليس العمل على حديث عروة عن عائشة عندنا قديماً ولا حديثاً. قال ابن عبد البر: يريد ليس العمل عليه في رفض العمرة وجعلها حجاً، بخلاف جعل الحج عمرة، فإنه وقع للصحابة. واختلف في جوازه من بعدهم، لكن أجاب جماعة من العلماء عن ذلك باحتمال أن يكون معنى قوله: «ارفضي عمرتك»[2] أي اتركي التحلل منها وأدخلي عليها الحج، فتصير قارنة، ويؤيده قوله في رواية لمسلم «وامسكي عن العمرة» أي عن أعمالها. وإنما قالت عائشة: «وأرجع بحج» لاعتقادها أن إفراد العمرة بالعمل أفضل، كما وقع لغيرها من أمهات المؤمنين. واستبعد هذا التأويل لقولها في رواية عطاء عنها «وأرجع أنا بحجة ليس معها عمرة» أخرجه أحمد. وهذا يقوي قول الكوفيين: إن عائشة تركت العمرة وحجت مفردة، وتمسكوا في ذلك بقوله لها «دعي عمرتك»، وفي رواية «اقضي عمرتك» ونحو ذلك. واستدلوا به على أن للمرأة إذا أهلت بالعمرة متمتعة فحاضت قبل أن تطوف أن تترك العمرة وتهل بالحج مفرداً كما صنعت عائشة.

لكن في رواية عطاء عنها ضعف، والرافع للإشكال في ذلك: ما رواه مسلم من

---

(١) عند أبي داود والنسائي والشيخين.

(٢) الحديث في البخاري برقم (١٧٨٣) وفي التمهيد لابن عبد البر ٨/ ٢٢٢.

حديث جابر أن عائشة أهلت بعمرة، حتى إذا كان بسرف حاضت فقال لها النبي ﷺ: **«أهلي بالحج»** حتى إذا طهرت طافت بالكعبة وسعت، فقال: **«قد حللت من حجتك وعمرتك»**، قالت: يا رسول الله إني أجد نفسي أني لم أطف بالبيت حين حججت، قال: **«فأعمرها من التنعيم»**.

ولمسلم من طريق طاوس عنها: فقال لها النبي ﷺ: **«طوافك يسعك لحجك وعمرتك»** فهذا صريح في أنها كانت قارنة، لقوله: **«قد حللت من حجك وعمرتك، وإنما أعمرها من التنعيم»** تطيباً لقلبها لكونها لم تطف بالبيت لما دخلت معتمرة، وقد وقع في رواية مسلم: وكان ﷺ رجلاً سهلاً إذا هويت الشيء تابعها عليه.

ثم قال ﷺ لأصحابه: **«من كان معه هدي فليهلل بالحج مع العمرة، ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعاً»**. وإنما قال لهم هذا القول بعد إحرامهم بالحج، وفي منتهى سفرهم ودنوهم من مكة بسرف، كما جاء في رواية عائشة، أو بعد طوافه بالبيت كما جاء في رواية جابر، ويحتمل تكرار الأمر بذلك في الموضعين. وأن العزيمة كانت آخراً حين أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة.

وفي رواية قالت عائشة: فمنا من أهل بعمرة، ومنا من أهل بحج، حتى قدمنا مكة فقال ﷺ: **«من أحرم بعمرة ولم يهد فليحلل، ومن أحرم بعمرة وأهدى فلا يحل حتى ينحر هديه، ومن أهل بحج فليتم حجه»**[1]. وهذا الحديث ظاهر في الدلالة لأبي حنيفة وأحمد وموافقيهما، في أن المعتمر المتمتع إذا كان معه الهدي لا يتحلل من عمرته حتى ينحر هديه يوم النحر.

ومذهب مالك والشافعي وموافقيهما أنه إذا طاف وسعى وحلق حل من عمرته وحل له كل شيء في الحال، سواء أكان ساق هدياً أم لا. واحتجوا بالقياس على من لم يسق الهدي، وبأنه تحلل من نسكه فوجب أن يحل له كل شيء، كما لو تحلل المحرم بالحج.

وأجابوا عن هذه الرواية بأنها مختصرة من الرواية التي ذكرها مسلم عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع، فأهللنا بعمرة، ثم قال رسول الله ﷺ: **«من كان معه هدي فليهلل بالحج مع العمرة، ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعاً»** فهذه الرواية مفسرة للمحذوف من الرواية التي احتج بها أبو حنيفة وتقديرها: ومن أحرم بعمرة فليهل بالحج ولا يحل حتى ينحر هديه، ولا بد من هذا التأويل، لأن القصة واحدة، والراوي واحد، فتعين الجمع بين الروايتين على ما ذكر والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج برقم (١١١ ـ ١١٢)

ولما بلغ سيدنا رسول الله ﷺ ذا طوى ـ بضم الطاء وبفتحها، وقيدها الأصيلي بالكسر ـ عند آبار الزاهر، بات بها بي الثنيتين، فلما أصبح صلى الغداة ثم اغتسل. رواه البخاري. وللنسائي: كان ﷺ ينزل بذي طوى، يبيت به حتى يصلي صلاة الصبح حين يقدم إلى مكة.

ومصلى[1] رسول الله ﷺ ذلك، على أكمة خشنة غليظة، ليس في المسجد الذي بنى ثَمَّ، ولكن من أسفل ذلك على أكمة خشنة غليظة. وفي الصحيحين: أنه ﷺ دخلها من أعلاها. وفي حديث ابن عمر في الصحيح: كان ﷺ يدخل من الثنية العليا، يعني أعلى مكة من كداء ـ بفتح الكاف والمد، قال أبو عبيد: لا يصرف ـ وهذه الثنية هي التي ينزل منها إلى المعلاة ـ مقبرة مكة ـ وهي التي يقال لها: الحجون ـ بفتح الحاء المهملة وضم الجيم ـ.

ولم يقع أنه ﷺ دخل مكة ليلاً إلا في عمرة الجعرانة، فإنه ﷺ أحرم من الجعرانة، ودخل مكة ليلاً، فقضى أمر العمرة ثم رجع ليلاً فأصبح بالجعرانة كبائت كما رواه أصحاب السنن الثلاثة، من حديث محرش الكعبي. وعن عطاء قال: إن شئتم فادخلوا ليلاً، إنكم لستم كرسول الله ﷺ، إنه كان إماماً، فأحب أن يدخلها نهاراً ليراه الناس. رواه النسائي.

ثم دخل ﷺ مكة لأربع خلون من ذي الحجة. ودخل المسجد الحرام ضحى من باب بني عبد مناف، وهو باب بني شيبة، والمعنى فيه أن باب الكعبة في جهة ذلك الباب، والبيوت تؤتى من أبوابها، وأيضاً: فلأن جهة باب الكعبة أشرف الجهات الأربع، كما قال ابن عبد السلام في «القواعد»[2].

وكان ﷺ إذا رأى البيت قال: «**اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً ومهابة وبراً**»[3]. رواه الثوري عن أبي سعيد الشامي[4] عن مكحول. وروى الطبراني عن حذيفة بن أسيد[5]: كان ﷺ إذا نظر إلى البيت قال: «**اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً وتكريماً وبراً ومهابة،**

---

(١) في الأصل «فصلى» قال الزرقاني في شرحه: بالميم أي مكان الصلاة كما في مسلم والنسائي.

(٢) أي القواعد الكبرى في فروع الشافعية للشيخ عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام الشامي المتوفى سنة (٦٦٠ هـ). انظر كشف الظنون ٢/١٣٥٩ وما بعدها.

(٣) الحديث في إتحاف السادة المتقين ٤/٣٤٣ وفي مجمع الزوائد ٣/٢٣٨ وفي المعجم الكبير للطبراني ٣/٢٠٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/٧٣ وفي الدر المنثور ١/١٣٢ وفي نصب الراية ٣/٣٧ وفي جمع الجوامع برقم (٩٨١٣) وفي مصنف ابن أبي شيبة ٤/٩٧ و ١٠/٣٦٦ وفي كنز العمال (١٨١١٢).

(٤) قال الزرقاني في شرحه: (مجهول).

(٥) هو حذيفة بن أسيد من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة توفي سنة (٤٢) وقيل غير ذلك. انظر الاصابة ١/٣٣٢ رقم الترجمة (١٦٣٩).

وزد من شرفه وعظمه ممن حجه واعتمره تعظيماً وتشريفاً وبراً ومهابة»[1].

ولم يركع ﷺ تحية المسجد، إنما بدأ بالطواف لأنه تحية البيت كما صرح به كثير من أصحابنا، وليس بتحية المسجد. ثم استلم ﷺ الحجر الأسود، وفي رواية جابر عند البخاري: «استلم الركن»، والاستلام افتعال من السلام، أي التحية، قاله الأزهري، وقيل من السلام ـ بالكسر ـ أي الحجارة، والمعنى: أنه يومىء بعصاه إلى الركن حتى تصيبه، وكانت محنية الرأس، وهي المراد بقوله في الحديث بـ «المحجن».

واعلم أن للبيت أربعة أركان: **الأول** له فضيلتان: كون الحجر الأسود فيه، وكونه على قواعد إبراهيم، **وللثاني**: الثانية فقط، وليس للآخرين شيء منها، فلذلك يقبل الأول، ويستلم الثاني فقط، ولا يقبل الآخران ولا يستلمان.

وروى الشافعي عن ابن عمر قال: استقبل رسول الله ﷺ الحجر، فاستلمه ثم وضع شفتيه عليه طويلاً. وكان إذا استلم الركن قال: «**بسم الله والله أكبر**»، وكلما أتى الحجر قال: «**الله أكبر**»، رواه الطبراني. وهل كان ﷺ طائفاً على بعيره أم على قدميه؟

ففي مسلم عن عائشة: طاف ﷺ في حجة الوداع على بعيره. وفيه عن أبي الطفيل: رأيته ﷺ يطوف بالبيت على بعيره. وقد اختلف في علة ذلك: فروى أبو داود من حديث ابن عباس: أنه ﷺ قدم مكة وهو يشتكي، فطاف على راحلته، وفي حديث جابر عند مسلم: أنه ﷺ طاف راكباً ليراه الناس ويسألوه. فيحتمل أنه فعل ذلك للأمرين.

قال ابن بطال: فيه جواز دخول الدواب التي يؤكل لحمها المسجد إذا احتيج إلى ذلك، لأن بولها لا ينجسه بخلاف غيرها من الدواب. وتعقب: بأنه ليس في الحديث دلالة على عدم الجواز مع الحاجة، بل ذلك دائر مع التلويث وعدمه، فحيث يخشى التلوث يمتنع الدخول، وقد قيل: إن ناقته ﷺ كانت منوقة، أي مدربة معلمة، فيأمن معها ما يحذر من التلويث.

قال بعضهم: وهذا كان ـ والله أعلم ـ في طواف الإفاضة، لا في طواف القدوم، فإن جابراً حكى عنه الرمل في الثلاثة الأول، وذلك لا يكون إلا مع المشي، ولم يقل أحد رملت به راحلته، وإنما قالوا: رمل، أي بنفسه. وقال الشافعي: أما سعيه الذي طاف لمقدمه فعلى قدميه. انتهى.

ولما استلم ﷺ الحجر مضى على يمينه، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً. وكان ابتداء الرمل في عمرة القضية، لما قدم ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حمى يثرب، فقال المشركون:

---

(١) قال الزرقاني في شرحه للمواهب: في سنده من اتهم بالكذب ومن نسب للوضع.

إنه يقدم عليكم غداً قوم قد وهنتهم الحمى، ولقوا منها شدة، فجلسوا مما يلي الحجر، وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط، ويمشوا بين الركنين ليري المشركين جلدهم، فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا. رواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس.

ولما كان في حجة الوداع رمل ﷺ وأصحابه، فكان سنة مستقلة. قال الطبري: قد ثبت أنه ﷺ رمل ولا مشرك يومئذ بمكة، يعني في حجة الوداع، فعلم أنه من مناسك الحج، إلا أن تاركه ليس تاركاً لعمل، بل لهيئة مخصوصة، فكان كرفع الصوت بالتلبية، فمن لبى خافضاً صوته لم يكن تاركاً للتلبية بل لصفتها، فلا شيء عليه. انتهى. فلو ترك الرمل في الثلاث لم يقضه في الأربع، لأن هيئتها السكينة فلا تغير، والله أعلم.

ولما فرغ ﷺ من طوافه أتى المقام، فقرأ ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾ [البقرة: ١٢٥] فصلى ركعتين بينه وبين البيت، قرأ فيهما بـ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ [الكافرون: ١] و ﴿**قل هو الله أحد**﴾ [الإخلاص: ١] ثم رجع إلى الركن الذي فيه الحجر فاستلمه. ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله**﴾ [البقرة: ١٥٨]، أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت واستقبل القبلة، فوحد الله وكبره، وقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»، ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي رمل، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة.

وفي حديث أبي الطفيل عند مسلم وأبي داود، قال: قلت لابن عباس، أخبرني عن الطواف بين الصفا والمروة راكباً، أسنة هو؟ فإن قومك يزعمون أنه سنة، قال: صدقوا وكذبوا، قلت: وما قولك صدقوا وكذبوا؟ قال: إن رسول الله ﷺ كثر عليه الناس، يقولون: هذا محمد، هذا محمد، حتى خرج العواتق من البيوت. قال: وكان رسول الله ﷺ لا يضرب الناس بين يديه، فلما كثر عليه ركب، والمشي والسعي أفضل. هذا لفظ رواية مسلم. وفي أوله ذكر الرمل في طواف البيت.

وعند أبي داود أن قريشاً قالت زمن الحديبية: دعوا محمداً وأصحابه حتى يموتوا موت النغف[1]، فلما صالحوه على أن يجيؤوا العام المقبل، فيقيموا ثلاثة أيام، فقدم ﷺ

---

(١) النغف: دود يسقط من أنوف الغنم والإبل، وفي الصحاح: هو الدود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم واحدته نغفة. انظر لسان العرب ١٤/ ٢٢١ مادة (نغف).

فقال لأصحابه: «**ارملوا بالبيت**»، وفيه: طاف ﷺ بين الصفا والمروة على بعير، لأن الناس كانوا لا يدفعون ولا يصرفون عنه، فطاف على بعير ليسمعوا كلامه، وليروا مكانه، ولا تناله أيديهم.

وكان ﷺ إذا وصل إلى المروة رقى عليها، واستقبل البيت وكبر الله وحده، وفعل كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة قال: «**لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة**»، فقام سراقة بن جعشم فقال: يا رسول الله، ألعامنا هذا، أم لأبد؟ فشبك ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى وقال: «**دخلت العمرة في الحج هكذا ـ مرتين ـ، لا بل لأبد أبد**». وهذا معنى فسخ الحج إلى العمرة.

قال النووي: وقد اختلف في هذا الفسخ، هل هو خاص للصحابة تلك السنة خاصة، أم باق لهم ولغيرهم إلى يوم القيامة؟

فقال أحمد وطائفة من أهل الظاهر: ليس خاصاً، بل هو باق إلى يوم القيامة فيجوز لكل من أحرم بالحج وليس معه هدي أن يقلب إحرامه ويتحلل بأعمالها.

وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وجماهير العلماء من السلف والخلف: هو مختص بهم في تلك السنة، لا يجوز بعدها، وإنما أمروا به تلك السنة ليخالفوا ما كانت عليه الجاهلية من تحريم العمرة في أشهر الحج.

ومما يستدل به للجماهير، حديث أبي ذر في مسلم: كانت المتعة في الحج لأصحاب محمد ﷺ خاصة. يعني فسخ الحج إلى العمرة. وفي النسائي عن الحارث بن بلال عن أبيه قال: قلت يا رسول الله، أرأيت فسخ الحج إلى العمرة لنا خاصة، أم للناس عامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**بل لنا خاصة**»[1].

قال: وأما الذي في حديث سراقة: «**ألعامنا هذا أم لأبد؟ فقال: لا، بل لأبد أبد**» فمعناه: جواز الاعتمار في أشهر الحج، والقران كما سبق تفسيره. فالحاصل من مجموع طرق الأحاديث: أن العمرة في أشهر الحج جائزة إلى يوم القيامة، وكذلك القران، وأن فسخ الحج إلى العمرة مختص بتلك السنة، والله أعلم، انتهى.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٩٨٤) وأحمد بن حنبل في المسند ٣/٤٦٩ وقال: حديث لا يثبت. والحاكم في المستدرك ٣/٥١٧ والدارمي ٢/٥٠ والزيلعي في نصب الراية ٣/١٠٤ والطبراني في المعجم الكبير ١/٣٥٧ وابن عبد البر في التمهيد ٨/٣٥٧ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٢٨٦٩ ـ ١٢٨٧٠).

وفي رواية للنسائي أيضاً: لا تصلح المتعتان إلا لنا خاصة، يعني متعة النساء ومتعة الحج، يعني فسخ إلى العمرة، ومتعة النساء: هي نكاح المرأة إلى أجل، كان ذلك مباحاً، ثم نسخ يوم خيبر، ثم أبيح يوم فتح مكة ثم نسخ في أيام الفتح، واستمر تحريمه إلى يوم القيامة. وقد كان فيه خلاف في العصر الأول، ثم ارتفع وأجمعوا على تحريمه.

وكان ﷺ مدة مقامه بمنزله الذي نزل فيه بالمسلمين بظاهر مكة، يقصر الصلاة فيه، وكانت مدة إقامته بمكة قبل الخروج إلى منى أربعة أيام ملفقة، لأنه قدم في الرابع، وخرج في الثامن، فصلى بها إحدى وعشرين صلاة، من أول ظهر الرابع إلى آخر ظهر الثامن، ومن يوم دخوله ﷺ مكة وخروجه يوم النفر الثاني من منى إلى الأبطح عشرة أيام سواء. وقدم علي من اليمن على رسول الله ﷺ فقال له: «**بما أهللت؟**» فقال: بما أهل به رسول الله ﷺ، فقال: «**لولا أن معي الهدي لأحللت**». رواه الشيخان من حديث أنس.

وفي حديث البراء عند الترمذي والنسائي: دخل علي على فاطمة رضي الله عنهما فوجدها قد نضحت البيت بنضوح فغضب. فقالت: ما لك؟ فإن رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه فأحلوا، قال: قلت لها إني أهللت بإهلال رسول الله ﷺ قال: فأتيته فقال لي رسول الله ﷺ: «**كيف صنعت؟**» قال: وقال لي: انحر من البُدْن سبعاً وستين، أو ستاً وستين، وأمسك لنفسك ثلاثاً وثلاثين أو أربعاً وثلاثين، وأمسك من كل بدنة منها قطعة.

وفي رواية جابر عند مسلم: فوجد فاطمة ممن حل، ولبست ثوباً صبيغاً واكتحلت، فانكر ذلك عليها، فقالت: أبي أمرني بهذا، فقال: صدقتْ صدقتْ، ما قلتَ حين فرضت الحج؟ قال: قلت اللهم إني أهل بما أهل به رسولك، قال: فإن معي الهدي فلا تحل. قال: فكان جماعة الهدي الذي قدم به علي من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ مائة. قال: فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي.

فلما كان يوم التروية، وكان يوم الخميس ضحى، ركب ﷺ وتوجه بالمسلمين إلى منى، وقد أحرم بالحج من كان أحل منهم، وصلى ﷺ بمنى: الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر فضربت له بنمرة، فسار على طريق ضب، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، وكان «الحمس» وهم قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن قطين الله، أي جيران بيته فلا نخرج من حرمه، وكان الناس كلهم يبلغون عرفات، وذلك قوله تعالى: ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ البقرة: ١٩٩].

وعن جبير بن مطعم قال: أضللت حماراً لي في الجاهلية، فوجدته بعرفة، فرأيت

رسول الله ﷺ واقفاً بعرفات مع الناس، فلما أسلمت عرفت أن الله وفقه لذلك[1]. وفي رواية[2]: كان رسول الله ﷺ في الجاهلية يقف مع الناس بعرفة على جمل له، ثم يصبح مع قومه بالمزدلفة فيقف معهم ويدفع إذا دفعوا، الحديث. ولما بلغ ﷺ عرفة وجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بـ «القصواء» فرحلت له، فركب فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال: **«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع وأول رباً أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما إن لا تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟»** قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس ويقول: «اللهم اشهد، ثلاث»[3] مرات.

ثم أذن بلال، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئاً. وهذا الجمع مختص بالمسافرين عند الجمهور، وعن مالك والأوزاعي، وهو وجه للشافعية: أن الجمع بعرفة وجمع[4] للنسك، فيجوز لكل أحد. قال الأسنوي: فلا يجوز إلا للمسافر بلا خلاف. قال الشافعي والأصحاب: إذا خرج الحاج يوم التروية، ونووا الذهاب، إلى أوطانهم عند فراغ مناسكهم كان لهم القصر من حين خروجهم.

ولما فرغ ﷺ من صلاته ركب حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة[5] بين يديه، واستقبل القبلة، وكان أكثر دعائه ﷺ يوم عرفة

---

(١) رواه في مسنده إسحاق بن راهويه.

(٢) لجبير عند ابن راهويه وابن خزيمة.

(٣) ذكره التبريزي في المشكاة برقم (٢٥٥٥) وابن عبد البر نحوه في التمهيد ١٠/ ٢٣١ والإمام أحمد ابن حنبل في المسند ٣/ ٣١٣ و ٤٨٥ والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٢١٥ و ٥/ ٨ و ٢٤٧ والطبراني في المعجم الكبير ٥/ ٣١٦ و ٧١٦ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٣٤٣.

(٤) جمع: أي المزدلفة قال أبو ذؤيب:

فبات بجمع ثم آب إلى منى ... فأصبح راداً يبتغي المزج بالسحل

وسميت بذلك لأن آدم وحواء لما هبطا اجتمعا بها. انظر لسان العرب ٢/ ٣٥٩ مادة (جمع).

(٥) حبل المشاة: أي ما طال من الرمل. وقيل: أراد طريقهم الذي يسلكونه في الرمل.

في الموقف: «اللهم لك الحمد كالذي نقول وخيراً مما نقول، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، ولك رب تراثي، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر، اللهم إني أسألك من خير ما تجيء به الرياح وأعوذ بك من شر ما تجيء به الريح»[1] رواه الترمذي من حديث علي.

وفي رواية ذكرها رزين: كان أكثر دعائه ﷺ يوم عرفة بعد قوله؛ لا إله إلا الله وحده لا شريك له: «اللهم لك الحمد كالذي نقول: اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، وعليك يا رب ثوابي، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن وسوسة الصدر، ومن شتات الأمر، ومن شر كل ذي شر».

وفي الترمذي: «أفضل الدعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»[2].

وكان من دعائه في عرفة أيضاً ـ كما في الطبراني الصغير ـ من حديث ابن عباس: «اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير المستغيث المتسجير الوجل المشفق المقر المعترف بذنوبه، أسألك مسألة المسكين، وابتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته وذل جسده، ورغم أنفه لك، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين»[3].

وأتاه ﷺ ناس من أهل نجد ـ وهو بعرفة ـ فسألوه كيف الحج؟ فأمر منادياً ينادي: الحج عرفة، من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج، أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه، رواه الترمذي. وفي رواية جابر عند أبي داود، قال ﷺ بعرفة: «وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف»[4]. وهناك أنزلت عليه ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ [المائدة: ٣] الآية كما في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهناك سقط رجل من المسلمين عن راحلته ـ وهو محرم ـ فمات، فأمر رسول الله ﷺ أن يكفن في ثوبيه ولا يمس بطيب، وأن يغسل بماء وسدر، ولا يغطى رأسه

---

(١) قال الترمذي: ليس إسناده بقوي.

(٢) الحديث في إتحاف السادة المتقين ٤/ ٣٧١ و ٣٧٣ وفي كشف الخفا للعجلوني ١/ ١٧٣ وفي الكامل في الضعفاء لابن عدي ٤/ ١٦٠٠ وفي كنز العمال (١٢٠٧٩ ـ ١٢٠٨٠).

(٣) قال العراقي وغيره: إسناده ضعيف.

(٤) الحديث في صحيح مسلم الحج (١٤٩) وفي سنن أبي داود (١٩٣٦) وفي المسند ٣/ ٣٢٠ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ١١٥ و ٢٣٩ وفي مسند خزيمة (٢٨١٥).

ولا وجهه، وأخبر أن الله يبعثه يوم القيامة يلبي. رواه البخاري ومسلم. أي يبعث على هيئته التي مات عليها.

واستدل بذلك على بقاء إحرامه، خلافاً للمالكية والحنفية، قال النووي: يتأول هذا الحديث على أن النهي عن تغطية وجهه ليس لكون المحرم لا يجوز له تغطية وجهه، بل هو صيانة للرأس، فإنهم لو غطوا وجهه لم يؤمن أن يغطوا رأسه. انتهى. قال الحافظ ابن حجر: وكان وقوع المحرم المذكور عند الصخرات من عرفة، والله أعلم.

ولما غربت الشمس بحيث ذهبت الصفرة قليلاً، حين غاب القرص، أفاض ﷺ من عرفة وأردف أسامة خلفه، وقد شنق للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده: أيها الناس السكينة السكينة، وكلما أتى حبلاً من الحبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد[1] وأفاض من طريق المأزمين. وفي رواية ابن عباس أنه ﷺ سمع وراءه زجراً شديداً، وضرباً للإبل وراءه فأشار بسوطه وقال: «**أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع**»[2]، يعني بالإسراع.

وفي رواية أبي داود: أفاض من عرفة، وعليه السكينة، ورديفه أسامة، فقال: «**أيها الناس، عليكم بالسكينة فإن البر ليس بإيجاف الخيل والإبل**»، فما رأيتها رافعة يديها عادية حتى أتى جمعاً. وفي رواية أسامة بن زيد عند الشيخين: كان يسير العنق فإذا وجد فجوة نص. قال هشام: والنص فوق العنق.

وأخرج الطبراني في المعجم عن سالم بن عبد الله عن أبيه: أن رسول الله ﷺ أفاض من عرفات وهو يقول:

إليـــك تعـــدو قلِقـــا وضنينهـــا مخـــالـــف ديـــن النصـــارى دينهـــا

قال في النهاية: والحديث مشهور بابن عمر من قوله. والقلق: الانزعاج: والوضين: بالضاد المعجمة، حزام الرحل. ولما كان ﷺ في أثناء الطريق نزل فبال وتوضأ وضوءاً خفيفاً، فقال له أسامة: الصلاة يا رسول الله؟ قال: «**الصلاة أمامك**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر برقم (١٢١٨).

(٢) الحديث في البخاري ٢/٢٠١ وفي المستدرك للحاكم ١/٤٦٥ و ٣/٢٧٥ وفي المسند ١/٢٦٩ و ٥/٢٠١ ـ ٢٠٧ وفي كنز العمال (١٢٦٠٩ ـ ١٢٦١٣).

(٣) الحديث في النسائي ١/٢٩٢ و ٥/٢٥٩ ومسلم في الحج (٢٦٦ ـ ٢٨٠) وفي سنن ابن ماجه (٣٠١٩) وفي الدارمي ٢/٥٧ وفي المسند ٥/٢٠٠ و ٢٠٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ١/٨٣ وفي التمهيد لابن عبد البر ٩/٢٦٧ وفي اتحاف السادة المتقين ٤/٣٨٧ وفي سنن أبي داود (١٩٢١ ـ ١٩٢٥) وفي مسند الحميدي (٥٤٨) وفي حلية الأولياء ٧/١٠٦ وفي موطأ الإمام مالك برقم (٤٠١)=

فركب حتى أتى مزدلفة، وهي المسماة بـ «جَمْع» بفتح الجيم وسكون الميم، وسميت جمعاً لأن آدم اجتمع فيها مع حواء فازدلف إليها، أي دنى منها، وعن قتادة: إنما سميت جمعاً لأنه يجمع فيها بين صلاتين، وقيل: لأن الناس يجتمعون فيها ويزدلفون إلى الله تعالى، أي يتقربون إليه بالوقوف فيها. انتهى.

فصلى رسول الله ﷺ بها المغرب والعشاء، كل واحدة منهما بإقامة، ولا صلى إثر كل واحدة منهما. وفي رواية: فأقام المغرب، ثم أناخ الناس في منازلهم ولم يحلوا حتى أقام العشاء الآخرة فصلى ثم حلوا. وترك ﷺ قيام الليل تلك الليلة، ونام حتى أصبح، لما تقدم له من الأعمال بعرفة من الوقوف من الزوال إلى بعد الغروب، واجتهاده ﷺ في الدعاء، وسيره بعد الغروب إلى المزدلفة، واقتصر فيها على صلاة المغرب والعشاء قصراً، ورقد بقية ليلته مع كونه ﷺ كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه، ولكنه أراح نفسه الشريفة لما تقدم في عرفة، ولما هو بصدده يوم النحر من كونه ينحر بيده المباركة ثلاثاً وستين بدنة، وذهب إلى مكة لطواف الإفاضة، ورجع إلى منى. كما نبه عليه في شرح تقريب الأسانيد.

وعن عباس بن مرداس أن رسول الله ﷺ دعا لأمته عشية عرفة بالمغفرة، فأجيب: إني قد غفرت لهم ما خلا الظالم، فإني آخذ للمظلوم منه، قال: «**أي رب إن شئت أعطيت المظلوم من الجنة وغفرت للظالم**»، فلم يجب عشيته، فلما أصبح بالمزدلفة أعاد الدعاء فأجيب إلى ما سأل، قال: فضحك ﷺ، أو قال: تبسم، فقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: بأبي أنت وأمي، إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها، فما الذي أضحكك، أضحك الله سنك، قال: «**إن عدو الله إبليس لما علم أن الله قد استجاب دعائي وغفر لأمتي أخذ التراب فجعل يحثو على رأسه ويدعو بالويل والثبور فأضحكني ما رأيت من جزعه**»[1]. رواه ابن ماجه. ورواه أبو دود من الوجه الذي رواه ابن ماجه ولم يضعفه.

وقد جاء في بعض الروايات عن غير العباس ما يبين أن المراد من «الأمة» من وقف بعرفة. وقال القرطبي: إنه محمول بالنسبة إلى المظالم على من تاب وعجز عن وفائها. وقد رواه البيهقي بنحو رواية ابن ماجه ثم قال: وله شواهد كثيرة، فإن صح بشواهده ففيه الحجة، وإن لم يصح فقد قال الله تعالى: ﴿**ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء: ٤٨]

---

= وفي كنز العمال (١٢٥٩٣ ـ ١٢٥٩٤ ـ ١٢٥٩٧ ـ ١٢٦٠٠ ـ ١٢٦٠٣ ـ ١٢٦٠٤).

(١) ذكره ابن ماجه في المناسك برقم (٣٠١٣) وفي الترغيب للمنذري ٢/٢٠٢ وفي كنز العمال (١١٨٠٩ ـ ٣١٩٥٧) وخلاصة رأي ابن حجر في هذا الحديث أنه ضعيف ويعتضد بكثرة طرقه. وهو مخرج في مسند أحمد وأخرج أبو داود طرفاً منه وسكت عليه.

وظلم بعضهم بعضاً دون الشرك. انتهى.

وقال الترمذي في الحديث الصحيح: (**من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**)[1]. وهو مخصوص بالمعاصي المتعلقة بحقوق الله تعالى خاصة دون العباد، ولا تسقط الحقوق أنفسها، فمن كان عليه صلاة أو كفارة ونحوها من حقوق الله تعالى لا تسقط عنه، لأنها حقوق لا ذنوب، إنما الذنب تأخيرها، فنفس التأخير يسقط بالحج لا هي نفسها، فلو أخرها بعده تجدد إثم آخر، فالحج المبرور يسقط إثم المخالفة لا الحقوق.

وقال ابن تيمية: من اعتقد أن الحج يسقط ما وجب عليه من الحقوق كالصلاة يستتاب وإلا قتل، ولا يسقط حق الآدمي بالحج إجماعاً. انتهى والله أعلم.

واستأذنت سودة رسول الله ﷺ ليلة جمع، وكانت ثقيلة ثبطة فأذن لها، فقالت عائشة: فليتني كنت استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته سودة. وفي رواية: فاستأذنته أن تدفع قبل حَطْمة الناس، وكانت امرأة بطيئة، فأذن لها أن تدفع قبل حطمة الناس، قالت عائشة: فلأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنت سودة أحب إليّ من مفروح به رواه البخاري. وفي رواية أبي داود والنسائي: أرسل ﷺ بأم سلمة ليلة النحر فرمت الجمرة قبل الفجر، ثم مضت فأفاضت. فكان ذلك اليوم اليوم الذي يكون رسول الله ﷺ، تعني عندها.

وعند مسلم: بعث أم حبيبة من جمع بليل. وفي رواية البخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس قال: أرسلني ﷺ مع ضعفة أهله فصلينا الصبح بمنى ورمينا الجمرة. وفي الموطأ والصحيحين والنسائي عن أسماء أنها نزلت ليلة جمع عند المزدلفة، فقامت تصلي ساعة ثم قالت: يا بني هل غاب القمر؟ قلت: لا، ثم صلت ساعة ثم قالت: هل غاب القمر؟ فقلت: نعم، قالت: فارتحلوا، إن رسول الله ﷺ قد أذن للظُعن ـ بالضم ـ: النساء في الهوادج.

وقد اختلف السلف في ترك المبيت بالمزدلفة؛ فقال علقمة والنخعي والشعبي: من تركه فاته الحج، وقال عطاء والزهري وقتادة والشافعي والكوفيون وإسحاق: عليه دم، ومن بات بها لم يجز له الدفع قبل النصف. وقال مالك: إن مر بها فلم ينزل فعليه دم، وإن

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٨١١) وفي المسند ٢/٢٢٩ وفي الترغيب ٢/١٦٣ وفي مسلم الحج (٤٣٨).

نزل فلا دم عليه متى دفع. انتهى. ولما طلع الفجر صلى النبي ﷺ الفجر حين تبين الصبح بأذان وإقامة.

وفي سنن البيهقي والنسائي بإسناد صحيح على شرط مسلم أنه ﷺ قال للفضل بن العباس غداة يوم النحر: «**التقط لي حصى**»، فالتقط له حصيات مثل حصى الخذف[1] ـ وهو بالمعجمتين ـ ولم يكسرها كما يفعل من لا علم عنده. وفي رواية للنسائي قال ﷺ لابن عباس، غداة النحر، وهو ﷺ على راحلته: «**هات القط لي**»، فلقط حصيات مثل حصى الخذف، فلما وضعهن في يده قال: «**بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلوّ في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلوّ في الدين**»[2].

قال العلماء: في هذا الحديث دليل على استحباب أخذ الحصيات بالنهار، وهو رأي البغوي؛ قال: ويكون ذلك بعد صلاة الصبح، نص عليه الشافعي في «الأم» و «الإملاء» لكن الجمهور كما قال الرافعي: على استحباب الأخذ بالليل لفراغهم فيه، وهل يستحب أن يلتقط جميع ما يرمي به في الحج، وبه جزم في «التنبيه»[3] وأقره عليه النووي في تصحيحه. لكن الأكثرون كما قال الرافعي، على استحباب الأخذ ليوم النحر خاصة، ونص عليه الشافعي أيضاً في شرح «المهذب». والاحتياط أن يزيد فربما سقط منها شيء. انتهى.

ثم ركب النبي ﷺ القصواء، حتى أتى المشعر الحرام، فرقى عليه فاستقبل القبلة، فحمد الله وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس. وفي رواية غير جابر: وكان المشركون لا ينفرون حتى تطلع الشمس، وإن رسول الله ﷺ كره ذلك، فنفر قبل طلوع الشمس.

وفي حديث علي عند الطبري: لما أصبح ﷺ بالمزدلفة غدا فوقف على قزح وأردف الفضل ثم قال: «**هذا الموقف وكل المزدلفة موقف**»، حتى إذا أسفر دفع.

وفي رواية جابر: وأردف ﷺ الفضل بن العباس، قال: وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً، فلما دفع ﷺ مرت ظعن يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله

---

(١) الخذف بالحصى: الرمي به بالاصابع ومنه قول امرىء القيس:

كأن الحصى من خلفها وأمامها إذا نجلته رجلها خذف أعسرا

وخص بعضهم الخذف بالحصى. انظر لسان العرب ٤/ ٤٤ مادة (خذف).

(٢) الحديث في النسائي ٥/ ٢٦٨ وفي المسند ١/ ٣٤٧ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٤٦٦ وفي حلية الأولياء ٢/ ٢٢٣ وفي إتحاف السادة المتقين ٤/ ٣٩١ وفي الدر المنثور ١/ ٢٣٥.

(٣) انظر كتاب التنبيه صفحة ٧٨ وفيه: «ولا يجوز رمي الجمار إلا مرتباً ولا يجوز إلا بعد الزوال..».

ﷺ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، فصرف وجهه من الشق الآخر ينظر[1].

وفي رواية: كان الفضل رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، قالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم». وذلك في حجة الوداع، رواه الشيخان وغيرهما. وقد روي أيضاً من حديث عبد الله بن عباس، لكن رجح البخاري رواية الفضل لأنه كان رديف النبي ﷺ حينئذ، وكان عبد الله بن عباس تقدم إلى منى مع الضعفة، فكأن الفضل حدث أخاه بما شاهد في تلك الحالة، ويحتمل أن يكون سؤال الخثعمية وقع بعد رمي جمرة العقبة، فحضره عبد الله بن عباس، فنقله تارة عن أخيه لكونه صاحب القصة، وتارة عما شاهده، ويؤيده ما في الترمذي: أن السؤال المذكور وقع عند المنحر، بعد الفراغ من الرمي، وأن العباس كان شاهداً. وفيه: أنه ﷺ لوى عنق الفضل، فقال العباس: يا رسول الله، لويت عنق ابن عمك، قال: «**رأيت شاباً وشابة فلم آمن عليهما من الشيطان**»[2]. وظاهر هذا أن العباس كان حاضراً لذلك، فلا مانع أن يكون ابنه عبد الله أيضاً كان معه.

وفي هذا الحديث دلالة على جواز النيابة في الحج عمن لا يستطيع من الأحياء، خلافاً لمالك في ذلك، ولمن قال: لا يحج عن أحد مطلقاً كابن عمر، ونقل ابن المنذر وغيره الإجماع على أنه لا يجوز أن يستنيب من يقدر على الحج بنفسه في الحج الواجب، وأما النفل فيجوز عند أبي حنيفة خلافاً للشافعي. وعن أحمد روايتان انتهى.

وفي رواية ابن عباس: أن أسامة قال: كنت ردف النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة، ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى، فكلاهما قال: لم يزل النبي ﷺ يلبي حتى رمى جمرة العقبة. رواه الشيخان وغيرهما. وفي رواية جابر[3]: فلما أتى ﷺ بطن محسر حرك ناقته وأسرع السير قليلاً.

قال الإسنوي: سببه أن النصارى كانت تقف فيه، كما قاله الرافعي، أو العرب، كما قاله في الوسيط، فأمر بمخالفتهم. قال: وظهر لي فيه معنى آخر، وهو أنه مكان نزل فيه

---

(١) الحديث في مسلم برقم (١٢١٨).

(٢) الحديث في كنز العمال (١٢٩٠٣ ـ١٣٠٣٧).

(٣) عند مسلم.

العذاب على أصحاب الفيل القاصدين هدم البيت، فاستحب فيه الإسراع لما ثبت في الصحيح: أمره المار على ديار ثمود ونحوهم بذلك. وقال غيره: وهذه كانت عادته ﷺ في المواضع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه، وسمي وادي محسر لأن الفيل حسر فيه، أي أعيى وانقطع عن الذهاب. انتهى.

ثم سلك ﷺ الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة. رمى من بطن الوادي، وجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه، واستقبل الجمرة، وكان رميه ﷺ يوم النحر ضحى، كما قاله جابر في رواية مسلم والترمذي وأبي داود والنسائي.

وفي رواية أم الحصين، عند أبي داود: رأيت أسامة وبلالاً أحدهما آخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ والآخر رافع ثوبه يستره من الحر حتى رمى جمرة العقبة. وفي رواية النسائي: ثم خطب فحمد الله وأثنى عليه، وذكر قولاً كثيراً. وعن أم جندب: رأيته ﷺ يرمي الجمرة من بطن الوادي، وهو راكب، يكبر مع كل حصاة، ورجل من خلفه يستره، فسألت عن الرجل فقالوا: الفضل بن العباس. وازدحم الناس فقال النبي ﷺ «**يا أيها الناس، لا يقتل بعضكم بعضاً، وإذا رميتم الجمرة فارموا بمثل حصى الخذف**»[1]. وفي هذا دليل على جواز استظلال المحرم بالمحمل ونحوه، وقد مر أنه ﷺ ضربت له قبة من شعر بنمرة.

وفي رواية جابر عند مسلم وأبي داود قال: رأيته ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر، وهو يقول: (**خذوا عني مناسككم لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**)[2]. وفي رواية قدامة عند الترمذي رأيته يرمي الجمار على ناقة له صهباء، ليس ضرب ولا طرد ولا إليك إليك[3] انتهى. ثم انصرف ﷺ إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بدنة، ثم أعطى علياً فنحر ما غَبَرَ، وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها[4]. وفي رواية جابر عند مسلم: نحر ﷺ عن نسائه بقرة. وقالت عائشة: نحر ﷺ عن آل محمد في حجة الوداع بقرة واحدة. رواه أبو داود.

ثم أتى رسول الله ﷺ منزله بمنى، ثم قال للحلاق: «خذ»، وأشار بيده إلى جانبه

---

(١) رواه أحمد بن حنبل ٥/٣٧٩ و ٦/٣٧٦ و ٣٧٩ وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٣/٩ والبغوي في شرح السنة ٧/ ١٨١.

(٢) الحديث أيضاً في التمهيد لابن عبد البر ٢/٦٩ و ٩١ و ٩٨ و ٤/٣٣٣ و ٥/١١٧ و ٧/ ٢٧٢ وفي نصب الراية للزيلعي ٣/ ٥٥ وفي إتحاف السادة المتقين ٤/٤٣٧ وفي المغني للعراقي ١/ ٢٦٥.

(٣) أي ما كان الناس يضربون أو يطردون ولا يقال لهم إليك إليك.

(٤) أخرجه مسلم من حديث جابر برقم (١٢١٨).

الأيمن ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس. وفي رواية: أنه قال للحلاق: «ها»، وأشار بيده إلى الجانب الأيمن، فقسم شعره بين من يليه، ثم أشار إلى الحلاق إلى الجانب الأيسر فحلقه وأعطاه أم سليم. وفي أخرى: فبدأ بالشق الأيمن فوزعه الشعرة والشعرتين بين الناس، ثم قال بالأيسر، فصنع مثل ذلك، ثم قال: هاهنا أبو طلحة؟ فدفعه إليه. وفي أخرى: رمى جمرة العقبة ثم انصرف إلى البدن فنحرها والحجام جالس، وقال بيده على رأسه، فحلق الشق الأيمن فقسمه بين من يليه، ثم قال: احلق الشق الآخر، فقال: أين أبو طلحة؟ فأعطاه إياه. رواه الشيخان.

وعند الإمام أحمد[1]. أنه استدعى الحلاق فقال له وهو قائم على رأسه بالموسى، ونظر في وجهه وقال: يا معمر، أمكنك رسول الله ﷺ من شحمة أذنه وفي يدك الموسى، قال: فقلت له. أما والله يا رسول الله، إن ذلك لمن نعم الله عليَّ ومنِّه، قال: «**أجل**». وقال البخاري: وزعموا أن الذي حلق للنبي ﷺ معمر بن عبد الله بن نضلة بن عوف. انتهى. وهو عند ابن خزيمة في صحيحه. وعند الإمام أحمد: وقلم ﷺ أظفاره وقسمها بين الناس.

وعنده أيضاً[2]: من حديث محمد بن زياد، أن أباه حدثه، أنه شهد النبي ﷺ عند المنحر ورجل من قريش وهو يقسم أضاحي، فلم يصبه شيء ولا صاحبه، فحلق رسول الله ﷺ رأسه في ثوبه فأعطاه شعره، فقسم منه على رجال وقلم أظفاره فأعطاه صاحبه، وكان يخضب بالحناء والكتم.

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم اغفر للمحلقين**»، قالوا يا رسول الله، وللمقصرين، قال: «**اللهم اغفر للمحلقين**»، قالوا يا رسول الله، وللمقصرين، قال: «**اللهم اغفر للمحلقين**»، قالوا يا رسول الله، وللمقصرين، قال: «**وللمقصرين**» رواه الشيخان. وليس فيه تعيين: هل قاله ﷺ في الحديبية أو في حجة الوداع؟

قالوا: ولم يقع في شيء من طرقه التصريح بسماعه لذلك من النبي ﷺ، ولو وقع لقطعنا بأنه كان في حجة الوداع لأنه شهدها ولم يشهد الحديبية. وقد وقع تعيين الحديبية من حديث جابر عند أبي قرة في «السنن» ومن طريقه الطبراني في الأوسط، ومن حديث المسور بن مخرمة عند ابن إسحاق في المغازي. وورد تعيين حجة الوداع من حديث أبي مريم السلولي عند أحمد وابن أبي شيبة، ومن حديث أم الحصين عند مسلم ومن حديث قارب بن الأسود الثقفي عند أحمد وابن أبي شيبة، ومن حديث أم عمارة عند الحارث.

---

(١) في المسند ٦/ ٤٠٠.

(٢) في المسند ٤/ ٤٢.

والأحاديث التي فيها تعيين حجة الوداع أكثر عدداً، وأصح إسناداً، ولهذا قال النووي عقب أحاديث ابن عمر وأبي هريرة وأم الحصين: هذه أحاديث تدل على أن هذه الواقعة كانت في حجة الوداع. قال: وهو الصحيح المشهور، وقيل: كانت في الحديبية، وجزم إمام الحرمين في النهاية أن ذلك كان في الحديبية، ثم قال النووي: ولا يبعد أن يكون وقع ذلك في الموضعين. انتهى. وكذا قال ابن دقيق العيد: إنه الأقرب.

قال في فتح الباري: بل هو المتعين لتظاهر الروايات بذلك في الموضعين، إلا أن السبب في الموضعين مختلف، فالذي في الحديبية كان بسبب توقف من توقف من الصحابة عن الإحلال، لما دخل عليهم من الحزن، لكونهم منعوا من الوصول إلى البيت مع اقتدارهم في أنفسهم على ذلك، فخالفهم النبي ﷺ وصالح قريشاً على أن يرجع من العام المقبل، فلما أمرهم بالإحلال توقفوا، فأشارت أم سلمة أن يحل هو ﷺ قبلهم ففعل، فتبعوه فحلق بعضهم وقصر بعضهم، فكان من بادر إلى الحلق أسرع إلى امتثال الأمر، ممن اقتصر على التقصير، وقد وقع التصريح بهذا السبب في حديث ابن عباس، فإن في آخره عند ابن ماجه وغيره أنهم قالوا: يا رسول الله، ما بال المحلقين ظاهرت لهم بالترحم؟ قال: «لأنهم لم يشكوا».

وأما السبب في تكرير الدعاء للمحلقين في حجة الوداع، فقال ابن الأثير في «النهاية»: كان أكثر من حج معه ﷺ لم يسق الهدي، فلما أمرهم أن يفسخوا الحج إلى العمرة ثم يتحللوا منها، ويحلقوا رؤوسهم، شق عليهم، ثم لما لم يكن لهم بد من الطاعة كان التقصير في أنفسهم أخف من الحلق، ففعله أكثرهم، فرجح ﷺ فعل من حلق لكونه أبين في امتثال الأمر. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: وفيما قاله نظر، وإن تابعه عليه غير واحد، لأن المتمتع يستحب في حقه أن يقصر في العمرة ويحلق في الحج إذا كان ما بين النسكين متقارباً، وقد كان ذلك في حقهم كذلك، والأولى ما قاله الخطابي وغيره: إن عادة العرب أنها كانت تحب توفير الشعور والتزين بها، وكان الحلق فيهم قليلاً، وربما كانوا يرونه من الشهرة ومن فعل الأعاجم، فلذلك كرهوا الحلق واقتصروا على التقصير.[1]. انتهى.

وفي رواية عبد الله بن عمرو بن العاصي: وقف رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاء رجل فقال: يا رسول الله، لم أشعر فحلقت قبل أن أنحر؟ فقال: «اذبح ولا حرج»، ثم جاء رجل آخر فقال: يا رسول الله لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي؟

---

(١) انظر فتح الباري شرح الحديث رقم (١٧٢٧).

فقال: «ارم ولا حرج». قال: فما سئل عن شيء قدم أو أخر إلا قال: افعل ولا حرج[1]. رواه مسلم.

وفي رواية: حلقت قبل أن أرمي، وفي رواية: وقف ﷺ على راحلته فطفق الناس يسألونه فيقول القائل منهم: يا رسول الله إني لم أكن أشعر أن الرمي قبل النحر، فنحرت قبل أن أرمي، فقال ﷺ: **«فارم ولا حرج»**، قال: فما سمعته يسأل يومئذ عن أمر مما ينسى المرء أو يجهل من تقديم بعض الأمور قبل بعض وأشباهها إلا قال ﷺ: **«افعلوا ذلك ولا حرج»**.

وفي رواية: أنه ﷺ بينا هو قائم يخطب يوم النحر، فقام إليه رجل فقال: ما كنت أحسب أن كذا وكذا، قبل كذا وكذا، وفي رواية: حلقت قبل أن أنحر، نحرت قبل أن أرمي وأشباه ذلك. وفي رواية: حلقت قبل أن أذبح، ذبحت قبل أن أرمي.

ومن المعروف أن الترتيب أولى، وذلك أن وظائف يوم النحر بالاتفاق أربعة أشياء: رمي جمرة العقبة، ثم نحر الهدي أو ذبحه، ثم الحلق أو التقصير، ثم طواف الإفاضة مع السعي بعده. وقد تقدم أنه ﷺ رمى جمرة العقبة ثم نحر ثم حلق.

وقد أجمع العلماء على مطلوبية هذا الترتيب، وأجمعوا أيضاً على جواز تقديم بعضها على بعض، إلا أنهم اختلفوا في وجوب الدم في بعض المواضع. ومذهب الشافعي وجمهور السلف والعلماء وفقهاء الحديث: الجواز وعدم وجوب الدم لقوله ﷺ للسائل: «لا حرج»، وهو ظاهر في رفع الإثم والفدية معاً، لأن اسم الضيق يشملهما.

وقال الطحاوي: ظاهر الحديث يدل على التوسعة في تقديم بعض هذه الأشياء على بعض، إلا أنه يحتمل أن يكون قوله «لا حرج» أي لا إثم في ذلك الفعل، وهو كذلك لمن كان ناسياً أو جاهلاً، وأما من تعمد المخالفة فتجب عليه الفدية.

وتعقب: بأن وجوب الفدية يحتاج إلى دليل، ولو كان واجباً لبينه ﷺ حينئذ لأنه وقت الحاجة فلا يجوز تأخير عنه. وتمسك الإمام أحمد بقوله في الحديث «لم أشعر» وبما في رواية يونس عند مسلم، وصالح عند أحمد فما سمعته يومئذ يسأل عن أمر مما ينسى المرء أو يجهل من تقديم بعض الأمور قبل بعضها إلا قال: **«افعل ولا حرج»** بأنه إذا كان ناسياً أو جاهلاً فلا شيء عليه وإن كان عالماً فلا.

قال ابن دقيق العيد: ما قاله أحمد قوي من جهة أن الدليل دل على وجوب اتباع

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٠١٤) والترمذي برقم (٩١٦) والدارقطني ٢/ ٢٥١ والطبراني في المعجم الكبير ١/ ١٥١ والمتقي الهندي في كنز العمال (١٢٨٩٢ ـ ١٢٦٦٢).

الرسول في الحج لقوله «**خذوا عني مناسككم**» وهذه الأحاديث المرخصة في تقديم ما وقع عنه تأخيره قد قرنت بقول السائل «لم أشعر» فيختص الحكم بهذه الحالة، وتبقى حالة العمد على أصل وجوب الاتباع في الحج. انتهى.

وعن أبي بكرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر قال:

«**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان**». وقال «**أي شهر هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليس ذا الحجة؟**» قلنا: بلى، قال: «**أي بلد هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليس البلد الحرام؟**» قلنا: بلى، قال: «**فأي يوم هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليس يوم النحر؟**» قلنا: بلى، قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعن بعدي كفاراً ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم، قال: «**اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع**»[1].
رواه الشيخان. وفي رواية للبخاري: «فودع الناس».

ووقع في طريق ضعيفة عند البيهقي من حديث ابن عمر سبب ذلك، ولفظه: أنزلت ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ [النصر: ١] على رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، وعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت له فركب ووقف بالعقبة واجتمع إليه الناس فقال: يا أيها الناس فذكر الحديث. وفيه دلالة على مشروعية الخطبة يوم النحر بمنى، وبه أخذ الشافعي ومن تبعه.

وخالف في ذلك المالكية والحنفية، فقالوا: خطب الحج ثلاثة: سابع ذي الحجة، ويوم عرفة، وثاني يوم النحر بمنى. ووافقهم الشافعي إلا أنه قال: بدل ثاني النحر ثالثه، لأنه أول النفر، وزاد خطبة رابعة وهي يوم النحر، قال: وبالناس حاجة إليها ليعلموا أعمال ذلك اليوم من الرمي والذبح والحلق والطواف.

وتعقبه الطحاوي: بأن الخطبة المذكورة ليست من متعلقات الحج، لأنه لم يذكر فيها شيئاً من أمور الحج، وإنما ذكر فيها وصايا عامة، ولم ينقل أحد أنه علمهم فيها شيئاً من الذي يتعلق بيوم النحر، فعلمنا أنها لم تقصد لأجل الحج.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (١٦٧٩).

وقال ابن بطال: إنما فعل ذلك من أجل تبليغ ما ذكره لكثرة الجمع الذي اجتمع من أقاصي الدنيا، فظن الذي رآه أنه خطب. قال: وأما ما ذكره الشافعي: أن بالناس حاجة إلى تعليمهم أسباب التحلل المذكورة فليس بمتعين، لأن الإمام يمكنه أن يعلمهم إياها يوم عرفة: انتهى.

وأجيب: بأنه ﷺ نبه في الخطبة المذكورة على تعظيم يوم النحر، وعلى تعظيم ذي الحجة، وعلى تعظيم البلد الحرام، وقد جزم الصحابة المذكورون بتسميتها خطبة، فلا يلتفت لتأويل غيرهم، وما ذكره من إمكان تعليم ما ذكر يوم عرفة، يعكر عليه في كونه يرى مشروعية الخطبة ثاني يوم النحر، وكان يمكن أن يعلموا ذلك يوم عرفة، بل يمكن أن يعلموا يوم التروية جميع ما يؤتى به من أعمال الحج، لكن لما كان في كل يوم أعمال ليست في غيره شرع تجديد التعليم بحسب تجديد الأسباب. وأما قول الطحاوي: «إنه لم ينقل أنه علمهم شيئاً من أسباب التحلل» فلا ينفي وقوع ذلك أو شيء منه في نفس الأمر، بل قد ثبت من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي أنه شهد النبي ﷺ يخطب يوم النحر، وذكر فيه السؤال عن تقدم بعض المناسك على بعض، فكيف ساغ للطحاوي هذا النفي المطلق. انتهى.

وقد روى أبو داود والنسائي عن عبد الرحمن بن معاذ التيمي قال: خطبنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى، ففتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا، فطفق يعلمهم مناسكهم حتى بلغ الجمار، فوضع أصبعيه السبابتين ثم قال: «**بحصى الخذف**»، ثم أمر المهاجرين فنزلوا في مقدم المسجد وأمر الأنصار أن ينزلوا من وراء المسجد، قال: ثم نزل الناس بعد ذلك.

وفي رواية عن عبد الرحمن بن معاذ عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: خطب النبي ﷺ الناس بمنى ونزلهم منازلهم فقال: «**لينزل المهاجرون هاهنا**»، وأشار إلى ميمنة القبلة، «**والأنصار هاهنا**»، وأشار إلى ميسرة القبلة، ثم قال: «**لينزل الناس حولهم**»[1].

وعن ابن أبي نجيح عن أبيه عن رجلين من بني بكر قالا: رأينا رسول الله ﷺ يخطب بين أوسط أيام التشريق، ونحن عند راحلته، وهي خطبة رسول الله ﷺ التي خطب بمنى. رواه أبو داود. وعن رافع بن عمرو المزني قال: رأيت رسول الله ﷺ يخطب الناس بمنى، حين ارتفع الضحاء على بغلة شهباء، وعلي يعبر عنه، والناس بين قائم وقاعد. رواه أبو داود أيضاً.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٩٥١) وأحمد بن حنبل في المسند ٤/ ٦١ و ٥/ ٣٧٤ والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ١٣٨.

وعن ربيعة بن عبد الرحمن بن حصن قال: حدثتني جدتي سراء بنت نبهان، وكانت ربة بيت في الجاهلية، قالت خطبنا النبي ﷺ يوم الرؤوس[1] فقال: «**أي يوم هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أليس أوسط أيام التشريق؟**» وفي رواية: أنه خطب أوسط أيام التشريق. رواه أبو داود أيضاً.

ثم ركب ﷺ قبل الظهر فأفاض إلى البيت فطاف طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة والركن والصدر. وفي البخاري: ويُذكَر عن أبي حسان عن ابن عباس، أن النبي ﷺ كان يزور البيت أيام منى. وقد وصله الطبراني من طريق قتادة عنه. وقال ابن المديني في «العلل»: روى قتادة حديثاً غريباً لا نحفظه عن أحد من أصحاب قتادة إلا من حديث هشام. فنسخته من كتاب ابنه معاذ بن هشام، ولم أسمعه منه، عن أبيه عن قتادة حدثني جدي حدثني أبو حسان عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يزور البيت كل ليلة ما أقام بمنى الحديث.

وأتى ﷺ زمزم، وبنو عبد المطلب يسقون عليها، فقال: «**انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم**»، فناولوه دلواً فشرب منه[2]. وفي رواية ابن عباس: فشرب وهو قائم، وفي رواية: فحلف عكرمة: ما كان يومئذٍ إلا على بعير، لكن لم يعين فيها -حجة الوداع ولا غيرها، إنما التعيين في رواية جابر عند مسلم. واختلف أين صلى ﷺ الظهر يومئذٍ، ففي رواية جابر عند مسلم: أنه ﷺ صلى بمكة، وكذلك قالت عائشة. وفي حديث ابن عمر - في الصحيحين - أنه ﷺ أفاض يوم النحر ثم رجع فصلى الظهر بمنى.

فرجح ابن حزم في كتاب حجة الوداع له قول عائشة وجابر، وتبعه على ذلك جماعة، لأنهما اثنان، وهما أولى من الواحد، ولأن عائشة أخص الناس به، ولها من القرب والاختصاص ما ليس لغيرها، ولأن سياق جابر لحجته ﷺ من أولها إلى آخرها أتم سياق، وأحفظ للقصة وضبطها، حتى ضبط جزئياتها، حتى أقرَّ منها ما لا يتعلق بالمناسك، وهو نزوله ﷺ في الطريق فبال عند الشعب وتوضأ وضوءاً خفيفاً، فمن ضبط هذا القدر فهو لضبط مكان صلاته الظهر يوم النحر أولى، وأيضاً: فإن حجة الوداع كانت في «آذار» وهو تساوي الليل والنهار، وقد دفع من مزدلفة قبل طلوع الشمس إلى منى، وخطب بها الناس،

---

(١) أي حادي عشر ذي الحجة لأنهم يذبحون يوم النحر، ثم يطبخون الرؤوس تلك الليلة فيكبرون على أكلها.

(٢) الحديث في مسلم الحج برقم (١٤٧) وفي ابن ماجه (٣٠٧٤) وفي المسند ١/٧٦ وفي الدارمي ٢/[illegible] وفي السنن الكبرى ٥/١٥٧ وفي جمع الجوامع (٤٥١٢) وفي الدر المنثور ١/٢٢٦ وفي كنز العمال (٣٤٧٧٠).

ونحر بدنة وقسمها، وطبخ له من لحمها وأكل منه، ورمى الجمرة، وحلق رأسه وتطيب ثم أفاض، وطاف وشرب من ماء زمزم، ووقف عليهم وهم يسقون، وهذه أعمال يظهر منها أنها لا تنقضي في مقدار يمكن معه الرجوع إلى منى بحيث يدرك الظهر في فصل آذار.

ورجحت طائفة أخرى قول ابن عمر: بأنه لا يحفظ عنه في حجته ﷺ أنه صلى الفرض بجوف مكة، بل إنما كان يصلي بمنزله بالمسلمين مدة مقامه، وبأن حديث ابن عمر متفق عليه، وحديث جابر من إفراد مسلم، فحديث ابن عمر أصح منه، فإن رواته أحفظ وأشهر، وبأن حديث عائشة قد اضطرب في وقت طوافه، فروي عنها أنه طاف نهاراً، وفي رواية عنها: أن أخر الطواف إلى الليل، وفي رواية عنها: أنه أفاض من آخر يومه، فلم تضبط فيه وقت الإفاضة، ولا مكان الصلاة. وأيضاً: فإن حديث ابن عمر أصح منه بلا نزاع، لأن حديث عائشة من رواية محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن القاسم، وابن إسحاق مختلف في الاحتجاج به، ولم يصرح بالسماع، بل عنعنه، فلا يقدم على حديث عبد الله بن عمر، انتهى.

ثم رجع ﷺ إلى منى، فمكث بها ليالي أيام التشريق، يرمي الجمرة إذا زالت الشمس كل جمرة بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة، ويقف عند الأولى والثانية، فيطيل القيام ويتضرع، ويرمي الثالثة فلا يقف عندها. رواه أبو داود من حديث عائشة. وعن ابن عمر ـ عند الترمذي ـ: كان ﷺ إذا رمى الجمار مشى إليها ذاهباً وراجعاً. وفي رواية أبي داود: وكان يستقبل القبلة في الجمرتين الدنيا والوسطى، ويرمي جمرة العقبة من بطن الوادي الحديث[1].

واستأذنه ﷺ العباس بن عبد المطلب أن يبيت بمكة ليالي منى، من أجل السقاية فأذن له، رواه البخاري ومسلم من رواية ابن عمر، وفي رواية الإسماعيلي: رخص للعباس أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته. وفيه دليل على وجوب المبيت بمنى، وأنه من مناسك الحج، لأن التعبيربـ «الرخصة» يقتضي أن يقابلها: العزيمة، وأن الإذن وقع للعلة المذكورة، وإذا لم توجد أو ما في معناها لم يحصل الإذن. وبالوجوب قال الجمهور. وفي قول للشافعي، وهو رواية عن أحمد، وهو مذهب الحنفية: أنه سنة. ووجوب الدم بتركه مبني على هذا الخلاف. ولا يحصل المبيت إلا بمعظم الليل، وهل يختص الإذن بالسقاية، وبالعباس؟ الصحيح العموم، والعلة في ذلك إعداد الماء للشاربين.

---

(١) والحديث أيضاً في الصحيحين من حديث ابن مسعود.

وجزم الشافعي، بإلحاق من له مال يخاف ضياعه، أو أمر يخاف فوته، أو مريض يتعهده، بأهل السقاية، كما جزم الجمهور: بإلحاق الرعاء خاصة، وهو قول أحمد. قالوا[1]: ومن ترك المبيت لغير عذر وجب عليه دم عن كل ليلة.

ثم أفاض ﷺ بعد الظهر يوم الثلاثاء ـ بعد أن أكمل رمي أيام التشريق، ولم يتعجل في يومين ـ إلى المحصب، وهو الأبطح، وحده: ما بين الجبلين إلى المقبرة، وهو خيف بني كنانة، فوجد أبا رافع قد ضرب قبته هناك، وكان على ثقَله، قال أبو رافع: لم يأمرني ﷺ أن أنزل الأبطح حين خرج من منى، ولكني جئت فضربت فيه قبته فجاء فنزل[2]: رواه مسلم.

وفيه وفي البخاري، عن أنس أنه ﷺ صلى الظهر والعصر يوم النفر بالأبطح. وفيهما من حديث أبي هريرة: أنه ﷺ قال ـ من الغد يوم النحر، وهو بمنى ـ: «**نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر**»، يعني بذلك المحصب. وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ. وعن ابن عباس، ليس التحصيب بشيء، إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ، أي: ليس التحصيب من أمر المناسك الذي يلزم فعله، لكن لما نزل به ﷺ كان النزول به مستحباً اتباعاً له، لتقريره على ذلك. وقد فعله الخلفاء بعده، كما في مسلم.

وعن أنس أن النبي ﷺ صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة بالمحصب، ثم ركب إلى البيت فطاف به، رواه البخاري. وهذا هو طواف الوداع، ومذهب الشافعي أنه واجب يلزم بتركه دم على الصحيح: وهو قول أكثر العلماء. وقال مالك وداود: هو سنة لا شيء بتركه.

واختلف في المرأة إذا حاضت بعدما طافت طواف الإفاضة، هل عليها طواف الوداع أم لا؟ وكان ابن عباس يرخص لها أن تنفر إذا أفاضت[3] وكان ابن عمر يقول في أول أمره: إنها لا تنفر، ثم قال في آخر أمره: إن رسول الله ﷺ رخص لهن. رواه الشيخان. وعن عائشة: أن صفية بنت حيي حاضت، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**أحابستنا هي؟**» قالوا: إنها قد أفاضت، قال: «**فلا إذن**»[4]. ومعنى أحابستنا هي؟ أي أمانعتنا من التوجه من

---

(١) أي المالكية لأن الضمير يعود إليهم كما هو أصل العبارة في فتح الباري.

(٢) الحديث رقمه (١٣١٣) في صحيح مسلم.

(٣) الحديث في البخاري برقم (١٧٦٠).

(٤) الحديث في الترمذي برقم (٩٤٣) وفي المسند ٦/١٠٢ و ٢٠٧ وعند البيهقي في السنن الكبرى ٥/١٦٢ وفي شرح السنة للبغوي ٧/٢٣٣.

مكة في الوقت الذي أردنا التوجه فيه؟ ظناً منه ﷺ أنها ما طافت طواف الإفاضة، وإنما قال ذلك لأنه كان لا يتركها ويتوجه ولا يأمرها بالتوجه معه وهي باقية على إحرامها، فيحتاج إلى أن يقيم حتى تطهر وتطوف وتحل الحل الثاني.

وفي رواية: فحاضت صفية، فأراد النبي ﷺ منها ما يريد الرجل من أهله، فقلت يا رسول الله إنها حائض. قال: «**أحابستنا هي؟**» الحديث. وهذا مشكل، لأنه ﷺ إن كان علم أنها طافت طواف الإفاضة فكيف يقول: «**أحابستنا هي؟**» وإن كان ما علم، فكيف يريد وقاعها قبل التحلل الثاني؟

ويجاب عنه: بأنه ﷺ ما أراد ذلك منها إلا بعد أن استأذنه نساؤه في طواف الإفاضة فأذن لهن، فكان بانياً على أنها قد حلت، فلما قيل له إنها حائض جوز أن يكون وقع لها قبل ذلك حتى منعها من طواف الإفاضة، فاستفهم عن ذلك، فأعلمته عائشة أنها طافت معهن فزال عنه ما خشيه من ذلك. انتهى.

وقالت عائشة: يا رسول الله، ينطلقون بحج وعمرة وانطلق بحج؟ فأمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن يخرج معها إلى التنعيم، فاعتمرت بعد الحج. رواه الشيخان. وفي رواية لمسلم أنها وقفت المواقف كلها، حتى إذا طهرت طافت بالكعبة والصفا والمروة، ثم قال لها ـ يعني رسول الله ﷺ ـ: «**قد حللت من حجك وعمرتك جميعاً**»، فقالت: يا رسول الله، إني أجد في نفسي أني لم أطف بالبيت حين حججت، قال: «**فاذهب بها يا عبد الرحمن فأعمرها من التنعيم**»، وذلك ليلة الحصبة(١). زاد في رواية: وكان ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويت شيئاً تابعها عليه.

وقد كانت عائشة قارنة، لأنها كانت قد أهلت بالعمرة، فحاضت فأمرها فأدخلت عليها الحج، وصارت قارنة، وأخبرها أن طوافها بالبيت وبين الصفا والمروة قد وقع عن حجها وعمرتها، فوجدت في نفسها أن يرجع صواحباتها بحج وعمرة مستقلتين، فإنهن كن متمتعات ولم يحضن ولم يَقْرِنَّ، وترجع هي بعمرة في ضمن حجتها، فأمر أخاها أن يعمرها من التنعيم تطييباً لقلبها.

ثم ارتحل ﷺ راجعاً إلى المدينة، فخرج من كدى ـ بضم الكاف مقصوراً ـ وهي عند باب شبيكة، بقرب شعب الشاميين من ناحية قعيقعان. واختلف في المعنى الذي لأجله خالف ﷺ بين طريقيه، فقيل: ليتبرك به كل من في طريقه، وقيل: الحكمة في ذلك المناسبة لجهة العلو عند الدخول لما فيه من تعظيم المكان، وعكسه الإشارة إلى فراقه،

---

(١) أي ليلة المبيت بالمحصب.

وقيل: لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما دخل مكة دخل منها. وقيل غير ذلك.

وفي صحيح مسلم وغيره، من حديث ابن عباس: أنه ﷺ لقي ركباً بالروحاء، فقال: «**من القوم؟**» فقالوا: المسلمون يا رسول الله، فرفعت امرأة صبياً لها في محفة فقالت: يا رسول الله، ألهذا حج؟ قال: «**نعم ولك أجر**». ولما وصل ﷺ لذي الحليفة بات بها. قال بعضهم: إن نزوله لم يكن قصداً، وإنما كان انفاقاً، حكاه القاضي إسماعيل في أحكامه عن محمد بن الحسن وتعقبه. والصحيح أنه كان قصداً لئلا يدخل المدينة ليلاً.

فلما رأى المدينة كبر ثلاثاً وقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**». ثم دخل المدينة نهاراً من طريق المعرَّس ـ بفتح الراء المشددة وبالمهملتين ـ وهو مكان معروف، فكل من المعرس والشجرة التي بات بها ﷺ في ذهابه إلى مكة على ستة أميال من المدينة. انتهى ملخصاً من فتح الباري وغيره، والله أعلم.

وأما عمره ﷺ، فالعمرة في اللغة: الزيارة. ومذهب الشافعي وأحمد وغيرهما: أنها واجبة كالحج، والمشهور عن المالكية أنها تطوع وهو قول الحنفية. وقد اعتمر ﷺ أربع عمر، ففي الصحيحين وسنن الترمذي وأبي داود عن قتادة قال: سألت أنساً: كم حج رسول الله ﷺ قال: حج حجة واحدة، واعتمر أربع عمر، عمرة في ذي القعدة، وعمرة الحديبية، وعمرة مع حجته، وعمرة الجعرانة إذ قسم غنيمة حنين، هذا لفظ رواية الترمذي وقال: حسن صحيح.

وفي رواية الصحيحين: اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة إلا التي مع حجته: عمرة الحديبية ـ أو زمن الحديبية ـ في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة في حجته.

وعن محرش الكعبي: أنه ﷺ خرج من الجعرانة ليلاً معتمراً، فدخل مكة ليلاً، فقضى عمرته ثم خرج من ليلته فأصبح بالجعرانة كبائت، فلما زالت الشمس من الغد، خرج من بطن سرف، حتى جاء مع الطريق طريق جمع ببطن سرف، فمن أجل ذلك خفيت عمرته على الناس. رواه الترمذي وقال: حديث غريب(١). وعن ابن عمر قال: اعتمر النبي ﷺ قبل أن يحج، رواه أبو داود.

---

(١) في الإصابة قال الترمذي: حسن غريب ٦/٤٩ رقم الترجمة (٧٧٤٢).

وعن عروة بن الزبير قال: كنت أنا وابن عمر مستندين إلى حجرة عائشة، وإنا لنسمع صوتها بالسواك تستن، قال: فقلت يا أبا عبد الرحمن، اعتمر النبي ﷺ في رجب؟ قال: نعم، فقلت لعائشة: أي أمتاه، ألا تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن؟ قالت. وما يقول؟ قلت: يقول اعتمر النبي ﷺ في رجب، فقالت: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، لعمري ما اعتمر في رجب، وما اعتمر من عمرة إلا وأنا معه. قال عروة: وابن عمر يسمع، فما قال: لا ولا نعم، سكت.

وفي رواية أبي داود عن عروة عن عائشة قالت: إن رسول الله ﷺ اعتمر عمرتين في ذي القعدة، وعمرة في شوال. وفي رواية له عن مجاهد قال: سئل ابن عمر: كم اعتمر النبي ﷺ قال: عمرتين، فبلغ عائشة فقالت: لقد علم أن رسول الله ﷺ اعتمر ثلاثاً سوى التي قرنها بحجة الوداع.

وقد ذكرت الاختلاف فيما كان ﷺ محرماً به في حجة الوداع. والجمع بين ما اختلف فيه من ذلك. والمشهور عن عائشة أنه ﷺ كان مفرداً، وحديثها هذا يشعر بأنه كان قارناً، وكذا ابن عمر قد أنكر على أنس لكونه قال: «إنه ﷺ كان قارناً» مع أن حديثه هذا المتقدم يدل على أنه كان قارناً؛ لأنه لم ينقل أنه ﷺ اعتمر مع حجته، ولم يكن متمتعاً لأنه ﷺ اعتذر عن ذلك بكونه ساق الهدي.

واحتاج بعضهم إلى تأويل ما وقع عن عائشة وابن عمر هنا فقال: إنما يجوز نسبة العمرة الرابعة إليه ﷺ باعتبار أنه أمر الناس بها وعملت بحضرته، لا أنه ﷺ اعتمرها بنفسه. وأنت إذا تأملت ما تقدم من أقوال الأئمة في حجته ﷺ من الجمع استغنيت عن هذا التأويل المتعسف.

قال بعض العلماء المحققين: وفي عدهم عمرة الحديبية التي صُدَّ عنها ﷺ ما يدل على أنها عمرة تامة. وفيه إشارة إلى حجة قول الجمهور: أنه لا يجب القضاء على من صُدَّ عن البيت خلافاً للحنفية، ولو كانت عمرة القضية بدلاً عن عمرة الحديبية لكانتا واحدة، وإنما سميت عمرة القضية والقضاء لأن النبي ﷺ قاضى قريشاً فيها، لا أنها وقعت قضاء عن العمرة التي صُدَّ عنها، إذ لو كان كذلك لكانت عمرة واحدة. وأما حديث أبي داود عن عائشة: أنه اعتمر في شوال، فإن كان محفوظاً فلعله يريد عمرة الجعرانة حين خرج في شوال، ولكن إنما أحرم في ذي القعدة.

وأنكر ابن القيم أن يكون ﷺ اعتمر في رمضان، نعم قد أخرج الدارقطني من طريق العلاء بن زهير عن عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد عن أبيه عن عائشة قالت: خرجت مع

رسول الله ﷺ في عمرة رمضان فأفطر وصمت وقصر وأتممت، وقال: إن إسناده حسن. لكن يمكن حمله على أن قولها: «في رمضان» متعلق بقولها: خرجت، ويكون المراد سفر فتح مكة، فإنه كان في رمضان، واعتمر ﷺ في تلك السنة من الجعرانة، لكن في ذي القعدة كما تقدم.

وأما قول ابن القيم ـ في الهدي أيضاً ـ: ولم يكن في عمره ﷺ عمرة واحدة خارجاً من مكة كما يفعله كثير من الناس اليوم، وإنما كانت عمره كلها داخلاً إلى مكة. وقد أقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة لم ينقل عنه أحد أنه اعتمر خارجاً من مكة في تلك المدة أصلاً، فالعمرة التي فعلها وشرعها هي عمرة الداخل إلى مكة لا عمرة من كان بها، فيخرج إلى الحل ليعتمر. ولم يفعل هذا على عهده أحد قط إلا عائشة وحدها. انتهى.

فيقال عليه: بعد أن فعلته عائشة بأمره، فدل على مشروعيته. وروى الفاكهي وغيره من طريق محمد بن سيرين قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ وقت لأهل مكة التنعيم. ومن طريق عطاء قال: من أراد العمرة ممن هو من أهل مكة أو غيرها فليخرج إلى التنعيم أو إلى الجعرانة فليحرم منها. فثبت بذلك أن ميقات العمرة الحل وأن التنعيم وغيره في ذلك سواء والله أعلم.

## النوع السابع
## من عبادته ﷺ في ذكر نبذة من أدعيته وأذكاره وقراءته

اختلف هل الدعاء أفضل أم تركه والاستسلام للقضاء أفضل؟ فقال الجمهور: الدعاء أفضل، وهو من أعظم العبادة، ويؤيده ما أخرجه الترمذي من حديث أنس رفعه: «**الدعاء مخ العبادة**»[1]. وقد تواترت الأخبار عنه ﷺ بالترغيب في الدعاء والحث عليه. وأخرج الترمذي وصححه ابن حبان والحاكم عنه ﷺ «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[2]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لا أحمل همَّ الإجابة ولكن هم الدعاء، فإذا أتممت الدعاء علمت أن الإجابة معه. وفي هذا يقول القائل:

لـو لـم تـرد نيـل مـا أرجـو وآملـه      مـن جـود كفـك مـا عـودتنـي الطلبـا

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٣٧١) وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث لهيعة. وفي إتحاف السادة المتقين ٢/ ٢٨٤ و ٥/ ٢٩ وفي المشكاة برقم (٢٢٣١) وفي كشف الخفا للعجلوني ١/ ٤٨٥ وفي المغني للعراقي ١/ ٣٠٦ وفي كنز العمال (٣١١٤).

(٢) الحديث في الترمذي برقم (٣٣٧٣) وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٠ وفي مشكاة المصابيح برقم (٢٢٣٨). فيه صالح الخوزي مختلف في ضعفه.

فإنه سبحانه وتعالى يحب تذلل عبيده بين يديه، وسؤالهم إياه، وطلبهم حوائجهم منه، وشكواهم منه إليه، وعياذتهم به منه، وفرارهم منه إليه. كما قيل:

قـــالـــوا أتشكـــو إليـــه ... مـــا ليـــس يخفـــى عليـــه

فقلـــت ربـــي يـــرضـــى ... ذل العبيـــد لـــديـــه

وقالت طائفة: الأفضل ترك الدعاء، والاستسلام للقضاء، وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم**﴾ [غافر: ٦٠] بأن آخرها دل على أن المراد بالدعاء هو العبادة. [إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ [غافر: ٦٠]](١).

قال الشيخ تقي الدين السبكي: الأولى حمل الدعاء في الآية على ظاهره. وأما قوله تعالى بعد ذلك ﴿**عن عبادتي**﴾ [غافر: ٦٠] فوجه الربط أن الدعاء أخص من العبادة، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء، وعلى هذا: فالوعيد إنما هو في حق ترك الدعاء استكباراً، ومن فعل ذلك كفر، وأما تركه لمقصد من المقاصد فلا يتوجه إليه الوعيد المذكور، وإن كنا نرى أن ملازمة الدعاء والاستكثار منه أرجح من الترك لكثرة الأدلة الواردة فيه.

وقال القشيري في «الرسالة»: اختلف أي الأمرين أولى، الدعاء أو السكوت والرضاء؟ فقيل الدعاء، وهو الذي ينبغي ترجيحه لكثرة الأدلة، ولما فيه من إظهار الخضوع والافتقار، وقيل: السكوت والرضى أولى لما في التسليم من الفضل. انتهى.

وشبهتهم: أن الداعي لا يعرف ما قدر له، فدعاؤه إن كان على وفق القدرة فهو تحصيل الحاصل، وإن كان على خلافه فهو مغاند.

وأجيب: بأنه إذا اعتقد أنه لا يقع إلا ما قدر الله تعالى كان إذعاناً لا معاندة وفائدة الدعاء تحصيل الثواب بامتثال الأمر، ولاحتمال أن يكون المدعو به موقوفاً على الدعاء، لأن الله تعالى خلق الأسباب ومسبباتها(٢). انتهى.

وقد أرشد ﷺ أمته لكيفية الدعاء فقال: «**إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه، وليصل على النبي ﷺ، ثم ليدع بما شاء**»(٣)، رواه الترمذي من حديث فضالة بن

---

(١) هذه الفقرة ليست من الأصل والسياق يقتضيها.

(٢) هذه الفقرة بكاملها من مقدمة كتاب الدعوات في فتح الباري ١١/ ١١٤ وما بعدها.

(٣) الحديث في الترمذي برقم (٣٤٧٧) وفي المستدرك ١/ ٢٣٠ وفي نصب الراية ١/ ٤٢١ و ٢/ ٢٧٢ وفي مشكل الآثار ٣/ ٧٧ وفي إتحاف السادة المتقين ٥/ ٤١.

عبيد. وقال ﷺ في رجل يدعو: «**أوجب إن ختم بآمين**»[1]. رواه أبو داود. وقال: «**لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ولكن ليعزم على المسألة فإن الله لا مكره له**»، رواه البخاري وغيره.

ومعنى الأمر بالعزم الجد فيه، وأن يجزم بوقوع مطلوبه، ولا يعلق ذلك بمشيئة الله تعالى، وإن كان مأموراً في جميع ما يريد فعله أن يعلقه بمشيئة الله تعالى، وقيل معنى العزم أن يحسن الظن بالله في الإجابة، فإنه يدعو كريماً، وقد قال ابن عيينة: لا يمنعن أحداً الدعاء ما يعلم من نفسه، يعني التقصير، فإن الله تعالى قد استجاب دعاء شر خلقه وهو إبليس حين قال: ﴿**أنظرني إلى يوم يبعثون**﴾ [الأعراف: ١٤]. وقال ﷺ: (**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي**) رواه الشيخان وغيرهما.

وكان ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء، ويدَعُ ما سوى ذلك، رواه أبو داود من حديث عائشة. والجوامع: التي تجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة، أو تجمع الثناء على الله تعالى وآداب المسألة.

وكان ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**». رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

وكان يقول: «**اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، الحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار**». رواه الترمذي من حديث أبي هريرة[2].

وكان يقول: «**اللهم متعني بسمعي وبصري. واجعلهما الوارث مني، وانصرني على من ظلمني، وخذ منه بثأري**». رواه الترمذي من حديث أبي هريرة أيضاً.

وكان أكثر دعائه: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**». رواه الشيخان من حديث أنس.

وكان يقول: «**ربِّ أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شاكراً، لك ذاكراً، لك راهباً، مطواعاً لك، مخبتاً إليك، أواهاً منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري**» رواه الترمذي.

---

(١) الحديث في سنن أبي داود برقم (٩٣٨) وفي الدر المنثور ١/ ١٧ وفي كنز العمال (٣٢٣٣).
(٢) ولكن فيه راو مجهول.

وكان يقول: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت، أن تضلني، أنت الحي الذي لا تموت، والجن والإنس يموتون» رواه الشيخان عن ابن عباس.

وكان يقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى». رواه مسلم والترمذي من حديث ابن مسعود.

وكان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير» رواه الشيخان من حديث أبي موسى.

وكان أكثر دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». رواه الترمذي من حديث أم سلمة.

وكان يقول: «اللهم عافني في جسدي، وعافني في سمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني، لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين». رواه الترمذي.

وكان يقول: «اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس» رواه النسائي.

وكان يقول: «اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون». رواه في الموطأ.

وكان يدعو: «اللهم فالق الاصباح، وجاعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً، اقض عني الدين وأغنني من الفقر، وأمتعني بسمعي وبصري وقوتي، وتوفني في سبيلك» رواه في الموطأ.

وكان ﷺ يتعوذ فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات». رواه الشيخان من حديث أنس. وفي رواية أبي داود «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وضلع الدين وغلبة الرجال».

وكان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجذام والبرص والجنون، ومن سيء الأسقام» رواه أبو داود والنسائي، من حديث أنس.

وكان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمت، ومن شر ما لم أعلم**». رواه مسلم من حديث عائشة.

وكان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هذه الأربع**» رواه الترمذي والنسائي من حديث ابن عمرو بن العاص.

وكان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك**». رواه مسلم وأبو داود من حديث ابن عمرو بن العاص أيضاً.

وكان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم**»، رواه أبو داود من حديث أبي هريرة.

وكان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق**»، رواه أبو داود من حديث أبي هريرة أيضاً.

وكان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة**». رواه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة أيضاً.

وكان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو، وشماتة الأعداء**» رواه النسائي.

وكان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الهدم، وأعوذ بك من التردي ومن الغرق والحرق والهرم، وأعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديغاً**»، رواه أبو داود والنسائي من حديث أبي اليسر.

وكان يتعوذ من عين الجن والإنس، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك. رواه النسائي.

وكان إذا خاف قوماً قال: «**اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم**». رواه أبو داود.

وكان يعوذ الحسن والحسين ويقول ـ «**إن أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق**» ـ «**أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**». رواه البخاري والترمذي.

وقد استشكل صدور هذه الأدعية ونحوها منه ﷺ مع قوله تعالى: ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ [الفتح: ٢] ووجوب عصمته. وأجيب: بأنه امتثل ما أمره الله به

من تسبيحه وسؤاله المغفرة في قوله تعالى: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ [النصر: ١]. ويحتمل أن يكون قاله على سبيل التواضع والاستكانة والخضوع والشكر لربه تعالى، لما علم أنه قد غفر له، ويحتمل أن يكون سؤاله ذلك لأمته وللتشريع، والله أعلم.

وكان ﷺ عند الكرب ـ وهو ما يهجم على الإنسان مما يأخذ بنفسه ويحزنه ويغمه ـ يدعو: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرضين رب العرش العظيم**» رواه البخاري. وفي رواية: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرضين ورب العرش الكريم**»(١).

قال الطيبي: صدر هذا الثناء بذكر الرب ليناسب كشف الكرب لأنه مقتضى التربية، ومنه التهليل المشتمل على التوحيد، وهو أصل التنزيهات الجلالية، والعظمة التي تدل على تمام القدرة، والحلم الذي يدل على العلم. إذ الجاهل لا يتصور منه حلم ولا كرم، وهما أصل الأوصاف الإكرامية. انتهى. وكان ﷺ إذا همه أمر رفع رأسه إلى السماء وقال: «**سبحان الله العظيم**». رواه الترمذي من حديث أبي هريرة. فإن قلت: هذا ذكر ليس فيه دعاء. **فالجواب**: إن التعرض للطلب تارة يكون بذكر أوصاف العبد من فقره وحاجته، وتارة بذكر أوصاف السيد من وحدانيته والثناء عليه. وقد قال أمية بن أبي الصلت في مدح عبد الله بن جدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرضك الثناء

قال سفيان الثوري: فهذا مخلوق حين نسب إلى الكرم اكتفى بالثناء، فكيف بالخالق.

وكان ﷺ إذا كربه أمر قال: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**» رواه أبو داود من حديث أنس.

وقال ﷺ: ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل فقال: يا محمد قل: **توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً**» رواه الطبراني عن أبي هريرة. وتقدم في المقصد الثامن مزيد لذلك.

وكان ﷺ يقول في الضالة: «**اللهم رادَّ الضالة وهادي الضالة أنت تهدي من الضلالة،**

---

(١) هذه الرواية لمسلم والتي قبلها أيضاً متفق عليها.

اردد عليّ ضالتي بعزتك وسلطانك، فإنها من عطائك وفضلك». رواه الطبراني في الصغير من حديث ابن عمر.

وكان ﷺ يدعو هكذا بباطن كفيه وظاهرهما. رواه أبو داود عن أنس. وقال أبو موسى الأشعري ـ كما عند البخاري ـ دعا النبي ﷺ ثم رفع يديه حتى رأيت بياض ابطيه. وعنده أيضاً من حديث ابن عمر: رفع ﷺ يديه فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد».

لكن في حديث أنس «لم يكن النبي ﷺ يرفع يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء» وهو حديث صحيح. ويجمع بينه وبين ما تقدم: بأن الرفع في الاستسقاء يخالف غيره إما بالمبالغة إلى أن تصير اليدان في حذو الوجه مثلاً، وفي الدعاء إلى حذو المنكبين، ولا يعكر على ذلك أنه ثبت في كل منهما «حتى يرى بياض إبطيه» بل يجمع: بأن تكون رؤية البياض في الاستقساء أبلغ منها في غيره، وإما أن الكفين في الاستقساء يليان الأرض وفي الدعاء يليان السماء. قال الحافظ عبد العظيم المنذري[1]: وبتقدير تعذر الجمع فجانب الإثبات أرجح[2]. انتهى.

وروى الإمام أحمد والحاكم وأبو داود أنه ﷺ كان يرفع يديه إذا دعا حذو منكبيه. وفي رواية ابن ماجه: وبسطهما. وهذا يقتضي أن تكونا متفرقتين مبسوطتين، لا كهيئة الاغتراف. قال الحافظ ابن حجر: غالب الأحاديث التي وردت في رفع اليدين في الدعاء إنما المراد بها مد اليدين وبسطهما عند الدعاء. وروى ابن عباس: كان ﷺ إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه. رواه الطبراني في الكبير بسند ضعيف.

وهل يمسح بهما وجهه؟ أما في القنوت في الصلاة فالأصح، لا، لعدم وروده فيه، قال البيهقي: لا أحفظ فيه عن أحد من السلف شيئاً، وإن روي عن بعضهم في الدعاء خارج الصلاة، وقد روي فيه عن النبي ﷺ خبر ضعيف مستعمل عند بعضهم في الدعاء خارجها، فأما فيها فعمل لم يثبت فيه خبر ولا أثر ولا قياس، والأولى أن لا يفعله.

وقد دعا ﷺ لأنس فقال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته» رواه البخاري. وفي «الأدب» المفرد» له، عن أنس قال: قالت أم سليم ـ وهي أم أنس ـ:

---

(١) هو عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله أبو محمد زكي الدين المنذري (٥٨١ ـ ٦٥٦ هـ) عالم بالحديث والعربية حافظ مؤرخ. مولده ووفاته بمصر: الاعلام ٤/ ٣٠ تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٣٦ رقم الترجمة (١١٤٤) فوات الوفيات ٢/ ٣٦٦ رقم الترجمة (٢٩١) طبقات الشافعية للسبكي ٥/ ١٠٨ شذرات الذهب ٥/ ٢٧٧

(٢) انظر فتح الباري شرح الحديث رقم (٦٣٤١).

خويدمك ألا تدعو له؟ فقال: **«اللهم أكثر ماله وولده، وأطل حياته، واغفر له»**[1].

وفي الصحيح: إن أنساً كان في الهجرة ابن تسع سنين، وكانت وفاته سنه إحدى وتسعين فيما قيل ـ وقيل ـ سنة ثلاث ـ وله مائة وثلاث سنين. قاله خليفة وهو المعتمد. وأكثر ما قيل في سنه: أنه بلغ مائة سنة وسبع سنين، وأقل ما قيل فيه بلغ تسعاً وتسعين سنة. وأما كثرة ولده، فروى مسلم قال أنس: «فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليعادون على نحو المائة اليوم». وورد في حديث رواه الشيخان «أن أنساً قال: أخبرتني ابنتي أمينة ـ بضم الهمزة وفتح الميم، وسكون المثناة التحتية، بعدها نون ـ أنه دفن من صلبي إلى مقدم الحجاج البصرة مائة وعشرون.

وقال ابن قتيبة في «المعارف»: كان بالبصرة ثلاث ما ماتوا حتى رأى كل واحد منهم من ولده مائة ذكر لصلبه: أبو بكرة، وخليفة بن بدر، وأنس، وزاد غيره رابعاً: وهو المهلب ابن أبي صفرة.

وأخرج ابن سعد عن أنس قال: دعا لي النبي ﷺ: **«اللهم أكثر ماله وولده، وأطل عمره، واغفر له»**، فقد دفنت من صلبي مائة واثنين، وإن ثمرتي لتحمل في السنة مرتين، ولقد بقيت حتى سئمت الحياة، وأرجو الرابعة[2]. وأخرج الترمذي عن أبي العالية في ذكر أنس: وكان له بستان يؤتي في كل سنة الفاكهة مرتين، وكان فيه ريحان تفوح منه رائحة المسك. ورجاله ثقات.

ودعا ﷺ لمالك بن ربيعة السلولي أن يبارك له في ولده، فولد له ثمانون ذكراً، رواه ابن عساكر. وأرسل ﷺ إلى علي يوم خيبر، وكان أرمد، فتفل في عينيه وقال: **«اللهم أذهب عنه الحر والبرد»**، قال: فما وجدت حراً ولا برداً منذ ذلك اليوم، ولا رمدت عيناي.

وبعث ﷺ علياً إلى اليمن قاضياً فقال: يا رسول الله، لا علم لي بالقضاء، فقال: **«ادن مني»**، فدنا منه، فضرب يده على صدره وقال: **«اللهم اهد قلبه وثبت لسانه»**، قال علي: فوالله ما شككت في قضاء بين اثنين، رواه أبو داود وغيره.

وعاد ﷺ علياً من مرض فقال: **«اللهم اشفه اللهم عافه»**، ثم قال: **«قم»**، قال علي: فما عاد لي ذلك الوجع بعد[3]. رواه الحاكم وصححه البيهقي وأبو نعيم. ومرض أبو

(1) أخرجه مسلم برقم (٤٥٨ ـ ١٩٢٨) والترمذي برقم (٣٨٢٩) والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٩٤ و ٦/ ٤٣٠ والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٩٦ وأبي نعيم في الحلية ٨/ ٢٦٧ والتبريزي في المشكاة (٦١٩٩) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٦٨٢٤).

(2) انظر طبقات ابن سعد ٧/ ١٤.

(3) أخرجه الامام أحمد بن حنبل في المسند ١/ ٨٤ والحاكم في المستدرك ٢/ ٦٢٠ وأبي نعيم في=

طالب. فعاده النبي ﷺ، فقال: «**يا ابن أخي ادع ربك الذي تعبد أن يعافيني**، فقال: «**اللهم اشف عمي**»، فقام أبو طالب كأنما نشط من عقال، فقال: يا ابن أخي، إن ربك الذي تعبد ليطيعك، فقال: «**وأنت يا عماه لئن أطعت الله ليطيعنك**»[1]. رواه ابن عدي والبيهقي وأبو نعيم من حديث أنس. وتفرد به الهيثمي، وهو ضعيف. ودعا ﷺ لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين، اللهم أعط ابن عباس الحكمة وعلمه التأويل**»[2] رواه البغوي وابن سعد. وفي البخاري: «**اللهم علمه الكتاب**» فكان عالماً بالكتاب، حبر الأمة، بحر العلم، رئيس المفسرين، ترجمان القرآن، وكونه في الدرجة العليا والمحل الأقصى لا يخفى. وقال للنابغة الجعدي لما قال:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في علم إذا لم يكن له ... حكيم إذا ما أورد الأمر أصدرا

«**لا يفضض الله فاك**»[3] أي لا يسقط الله أسنانك، وتقديره: لا يسقط الله أسنان فيك، فحذف المضاف: قال: فأتى عليه أكثر من مائة سنة وكان من أحسن الناس ثغراً. رواه البيهقي. وقال فيه: فلقد رأيته ولقد أتى عليه نيف ومائة سنة وما ذهب له سن، وفي رواية ابن أبي أسامة: وكان من أحسن الناس ثغراً وإذا سقطت له سن، نبتت له أخرى، وعند ابن السكن: فرأيت أسنان النابغة أبيض من البرد لدعوته ﷺ.

وسقاه ﷺ عمرو بن أحطب ماء في قدح قوارير، فرأى فيه شعرة بيضاء فأخذها، فقال: «**اللهم جمله**»، فبلغ ثلاثاً وتسعين سنة وما في لحيته ورأسه شعرة بيضاء، رواه الإمام أحمد من طريق أبي نهيك. قال أبو نهيك: فرأيته ابن أربع وتسعين سنة وليس في لحيته شعرة بيضاء. وصححه ابن حبان والحاكم.

وأخرج البيهقي عن أنس أن يهودياً أخذ من لحية النبي ﷺ فقال. «**اللهم جمله**».

---

= الحلية ٥/ ٩٧ والقاضي عياض في الشفا ١/ ٦٢٢ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٩٧.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٢ والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٣٠٠ والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ١٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة برقم (١٣٨) وفي المسند ١/ ٢٦٦ و ٣٢٨ والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٢٠ وفي جمع الجوامع للسيوطي (١٠٠٣٩) وفي إتحاف السادة المتقين ١/ ٢٥٨ و ٩/ ٦٤٧.

(٣) ذكره ابن حجر في المطالب العالية (٤٠٦٥) والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٢٥١ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٤٨٠ والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٢٧٢ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٠٢٧٦).

فاسودت لحيته بعد أن كانت بيضاء. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة قال: حلب يهودي للنبي ﷺ ناقة، فقال: «**اللهم جمله**»، فاسود شعره، حتى صار أشد سواداً من كذا وكذا. قال معمر: وسمعت غير قتادة يذكر أنه عاش تسعين سنة فلم يشب. أخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود في المراسيل والبيهقي وقال: مرسل شاهد لما قبله. وقال ﷺ لابن الحمق الخزاعي، وقد سقاه ﷺ: «**اللهم متعه بشبابه**»، فمرت عليه ثمانون سنة ولم ير شعرة بيضاء، رواه أبو نعيم وغيره.

وجاءته فاطمة وقد علاها الصفرة من الجوع، فنظر إليها ﷺ ووضع يده على صدرها ثم قال: «**اللهم مشبع الجاعة لا تجع فاطمة بنت محمد**» قال عمران بن حصين: فنظرت إليها وقد علاها الدم على الصفرة في وجهها، ولقيتها بعد فقالت: ما جعت يا عمران، ذكره يعقوب بن سلميان الأسفرايني في دلائل الإعجاز. ودعا ﷺ لعروة بن الجعد البارقي فقال: «**اللهم بارك في صفقة يمينه**» قال فما اشتريت شيئاً قط إلا وربحت فيه[1].

وقال لجرير وكان لا يثبت عل الخيل، وضرب في صدره: «**اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً**». قال فما وقعت عن فرسي بعد[2]. وقال لسعد بن أبي وقاص: «**اللهم أجب دعوته**». فكان مجاب الدعوة. رواه البيهقي والطبراني في الأوسط. ودعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة. رواه الشيخان عن أنس، زاد البيهقي من وجه آخر، قال عبد الرحمن: فلو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة. الحديث.

قال القاضي عياض: وقد فتح الله عليه ومات فحفر الذهب في تركته بالفؤوس حتى مجلت فيه الأيدي، وأخذت كل زوجة ثمانين ألفاً، وكن أربعاً، وقيل: مائة ألف، وقيل: بل صولحت إحداهن لأنه طلقها في مرض موته على ثمانين ألفاً. وأوصى بخمسين ألفاً بعد صدقاته الفاشية في حياته، وعوارفه العظيمة، أعتق يوماً ثلاثين عبداً، وتصدق مرة بعير فيها سبعمائة بعير، وردت عليه تحمل من كل شيء فتصدق بها وبما عليها وبأقتابها وأحلاسها.

وذكر المحب الطبري، مما عزاه للصفوة عن الزهري: أنه تصدق بشطر ماله: أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة في في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة. ودعا على مضر فأقحطوا حتى أكلوا العلهز ـ وهو الدم بالوبر ـ حتى استعطفته قريش.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٢٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة برقم (١٣٥ ـ ١٣٧) وابن ماجه برقم (١٥٩) والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٧ والطبراني في المعجم الكبير ٢/ ٣٣٨ والحميدي في المسند (٨٠١) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٤٨.

ولما تلى ﷺ ﴿والنجم إذا هوى﴾ [النجم: ١] قال عتيبة بن أبي لهب: كفرت برب النجم، «**اللهم سلط عليه كلباً من كلابك**». فخرج عتيبة مع أصحابه في عير إلى الشام حتى إذا كانوا بالشام زأر أسد، فجعلت فرائصه ترعد، فقيل له: من أي شيء ترتعد؟ فوالله ما نحن وأنت في هذا إلا سواء، فقال: إن محمداً دعا علي، ولا والله ما أظلت هذه السماء من ذي لهجة أصدق من محمد. ثم وضعوا العشاء فلم يدخل يديه فيه حتى جاء النوم، فأحاطوا به وأحاطوا أنفسهم بمتاعهم، ووسطوه بينهم وناموا، فجاء الأسد يستنشق رؤوسهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه فمضغه مضغة، وهو يقول: ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس، ومات. ذكره يعقوب الأسفرايني. وتقدم في ذكر أولاده ﷺ قصة بنحو هذه.

وعن مازن الطائي، وكان بأرض عمان، قلت: يا رسول الله، إني امرؤ مولع بالطرب وشرب الخمر والنساء، وألحت علينا السنون، فأذهبن الأموال وأهزلن الذراري والرجال، وليس لي ولد، فادع الله أن يذهب عني ما أجد ويأتيني بالحياء ويهب لي ولداً، فقال ﷺ: «**اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن وبالحرام الحلال وائته بالحياء، وهب له ولداً**» قال مازن: فأذهب الله عني كلما كنت أجد، وأخصبت عمان وتزوجت أربع حرائر، ووهب الله لي حيان ابن مازن[١]. رواه البيهقي.

ولما نزل ﷺ بتبوك صلى إلى نخلة فمر رجل بينه وبينها فقال ﷺ: «**قطع صلاتنا قطع الله أثره فأقعد فلم يقم**». رواه أبو داود والبيهقي، لكن سنده ضعيف.

وأكل رجل عنده بشماله فقال: «**كل بيمينك**» قال: لا أستطيع، قال: «**لا استطعت**» فما رفعها إلى فيه بعد[٢]. والرجل هو بسر ـ بضم الموحدة وسكون المهملة ـ ابن راعي العير، بفتح المهملة وسكون المثناة التحتية.

وطلب ﷺ معاوية، فقيل له إنه يأكل، فقال في الثانية: لا «**أشبع الله بطنه**»، فما شبع بطنه أبداً، رواه البيهقي من حديث ابن عباس، وكان معاوية رديفه يوماً فقال: «**يا معاوية، ما يليني منك؟**» قال: بطني؟ قال: «**اللهم املأه علماً وحلماً**». رواه البخاري في تاريخه. وقال لابن ثروان: «**اللهم أطل شقاءه وبقاءه**» فأدرك شيخاً كبيراً شقياً يتمنى الموت[٣].

وكم له ﷺ من دعوات مستجابات، وقد أفرد القاضي عياض باباً في الشفاء ذكر فيه

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٤٨ والبيهقي في دلائل النبوة ٢/٣٦ و ٢٥٦ وأبي نعيم في دلائل النبوة أيضاً ١/٣٣.

(٢) انظر فتح الباري ١٢/٧٦.

(٣) ذكره أبو نعيم في دلائله ١/١٦١.

طرفاً منها، وكذا الإمام يوسف بن يعقوب الاسفرايني في كتابه «دلائل الإعجاز» فحم أجابه الله تعالى إلى مسؤوله، وأجناه من شجرة دعائه ثمرة سؤله.

وأما حديث أبي هريرة عند البخاري[1] (أن رسول الله ﷺ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبيء دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة») فقد استشكل ظاهره بما ذكرته، وبما وقع لنبينا ولكثير من الأنبياء صلى الله عليهم وسلم من الدعوات المجابة، فإن ظاهره أن لكل نبي دعوة مجابة فقط.

وأجيب: بأن المراد بالإجابة في الدعوة المذكورة القطع بها، وما عدا ذلك من دعواتهم فهم على رجاء الإجابة. وقيل: معنى قوله «لكل نبي دعوة» أي أفضل دعواته، ولهم دعوات أخرى، وقيل: لكل منهم دعوة عامة مستجابة في أمته، إما بإهلاكهم، وإما بنجاتهم، وأما الدعوات الخاصة: فمنها ما يستجاب ومنها ما لا يستجاب. وقيل: لكل نبي منهم دعوة تخصه لدنياه أو لنفسه، كقول نوح: ﴿**رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً**﴾ [نوح: ٢٦] وقول زكريا: ﴿**فهب لي من لدنك ولياً يرثني**﴾ [مريم: ٥، ٦]، وقول سليمان: رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي [إشارة إلى قوله: قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب][1].

وأما قول الكرماني في شرحه على البخاري: فإن قلت: هل جاز أن لا يستجاب دعاء النبي ﷺ؟ قلت: لكل نبي دعوة مستجابة، وإجابة الباقي في مشيئة الله تعالى، فقال العيني: هذا السؤال لا يعجبني، فإن فيه بشاعة، وأنا لا أشك أن جميع دعوات النبي ﷺ مستجابة. وقوله: «**لكل نبي دعوة مستجابة**» لا ينفي ذلك، لأنه ليس بمحصور. انتهى. ولم ينقل أنه ﷺ دعا بشيء فلم يستجب[3].

وفي هذا الحديث بيان فضيلة نبينا ﷺ على سائر الأنبياء، حيث آثر أمته على نفسه وأهل بيته بدعوته المجابة، ولم يجعلها دعاء عليهم بالهلاك كما وقع لغيره، صلوات الله وسلامه عليهم.

وظاهر الحديث يقتضي أنه ﷺ أخر الدعاء والشفاعة ليوم القيامة، فذلك اليوم يدعو

(١) الحديث برقم (٦٣٠٤) وفي مسلم -الإيمان برقم (٣٣٩). وفي المسند لأحمد ٤٨٦/٢ وفي إتحاف السادة المتقين ١٨٤/٩ و ٤٨٩/١٠.

(٢) سورة صٓ الآية (٣٥) وهذه الفقرة ليست في الأصل ولكن السياق يقتضيها.

(٣) جاء في الحديث الصحيح (سألت الله ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة...) رواه أحمد بن حنبل ٢٤٠/٥.

ويشفع، ويحتمل أن يكون المؤخر ليوم القيامة ثمرة تلك الدعوة ومنفعتها، وأما طلبها فحصل من النبي ﷺ في الدنيا حكاه صاحب مزيد الفتح.

وقد أمر الله النبي ﷺ بالترقي في مراتب التوحيد بقوله: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله**﴾ [محمد: ١٩] فإنه ليس أمراً بتحصيل ذلك العلم، لأنه عالم بذلك، ولا بالثبات، لأنه معصوم، فتعين أن يكون للترقي في مراتبه ومقاماته، إشارة إلى أن العلم به تعالى والسير إليه لا نهاية له أبداً، فجميع العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية في العالم منتظم في سلك تحقيقها، وستثمر من أفنان طواياها، ولذا اكتفى بعلمها له ﷺ في الآية فالشأن كله في تصحيح التوحيد وتجريده وتكميله، وقد قال تعالى له ﷺ: ﴿**واذكر اسم ربك**﴾ [المزمل: ٨] وقال: ﴿**واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة**﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، لأنه لا بد في أول السلوك من الذكر باللسان مدة، ثم يزول الاسم ويبقى المسمى، فالدرجة الأولى هي المرادة بقوله: ﴿**واذكر اسم ربك**﴾ [المزمل: ٨]، والمرتبة الثانية هي المرادة بقوله: ﴿**واذكر ربك**﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وفي استيفاء مباحث ذلك طول، يخرج عن الغرض، وقد تقدم جملة من أذكاره ﷺ مفرقة في الوضوء والصلاة والحج وغير ذلك.

وقد كان ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة. كما رواه عنه أبو هريرة عند البخاري. وظاهره أنه يطلب المغفرة، ويعزم على التوبة، ويحتمل أن يكون المراد: أنه ﷺ يقول هذا اللفظ بعينه، ويرجح الثاني ما أخرجه النسائي بسند جيد من طريق مجاهد عن ابن عمر: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه**» في المجلس قبل أن يقوم مائة مرة. وله: من رواية محمد بن سوقة عن نافع عن ابن عمر بلفظ: «إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس: «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور**»، مائة مرة. ويحتمل أن يريد بقوله في حديث أبي هريرة «أكثر من سبعين مرة» المبالغة. ويحتمل أن يريد العدد بعينه، ولفظ «أكثر» مبهم، فيمكن أن يفسر بحديث ابن عمر المذكور، وأنه يبلغ المائة. وقد وقع في طريق أخرى عن أبي هريرة، من رواية معمر عن الزهري بلفظ «إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» لكن خالف معمر أصحاب الزهري في ذلك.

نعم أخرج النسائي أيضاً من رواية محمد بن عمرو عن أبي سلمة بلفظ: «**إني لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة**». وأخرج النسائي أيضاً من طريق عطاء، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ جمع الناس فقال: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**». واستغفاره ﷺ تشريع لأمته، أو من ذنوبهم، وقيل غير ذلك، وتقدم ما ينتظم في سلك ذلك. فإن قلت: ما كيفية استغفاره ﷺ؟

فالجواب: أنه ورد في حديث شداد بن أوس، عند البخاري[1]: رفعه (سيد **الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**. قال: **من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل موقناً بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**) فتعين أن هذه الكيفية هي الأفضل، وهو ﷺ لا يترك الأفضل.

وأما قراءته ﷺ وصفها، فكانت مداً، يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم[2]. رواه البخاري عن أنس. ونعتتها أم سلمة: قراءة مفسرة حرفاً حرفاً. رواه أبو داود والنسائي والترمذي. وقالت أيضاً: كان ﷺ يقطع قراءته، يقول: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ [الفاتحة: ١] ثم يقف، ثم يقول: ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ [الفاتحة: ٢] ثم يقف. رواه الترمذي. وقالت حفصة: كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها. رواه مسلم. وقال البراء: كان يقرأ في العشاء ﴿**والتين والزيتون**﴾ [التين: ١] فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه ﷺ. رواه الشيخان.

فقد كانت قراءته ﷺ ترتيلاً لا هَذّاً ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفاً حرفاً، وكان يقطع قراءته آية آية، وكان يمد عند حروف المد، وكان يتغنى بقراءته، ويرجع صوته بها أحياناً، كما رجع يوم الفتح في قراءة ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ [الفتح: ١]. وحكى عبد الله بن مغفل ترجيعه: أثلاث مرات، ذكره البخاري.

وإذا جمعت هذا الحديث إلى قوله: (**زينوا القرآن بأصواتكم**)[3] وقوله: (**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**)[4]، وقوله: (**ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن**)[5] أي ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن يتلوه يجهر به، يقال منه: أَذِن يأذَن أذَناً بالتحريك. علمت أن هذا الترجيع منه ﷺ كان اختياراً، لا اضطراراً لهز الناقة له، فإن هذا

---

(١) الحديث عنده برقم (٦٣٠٦) وعند ابن ماجه برقم (٣٨٧٢). وفي المسند ٤/ ١٢٢ و ٥/ ٣٥٦.

(٢) الحديث في البخاري برقم (٥٠٤٦).

(٣) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٤٦٨) وفي النسائي ٢/ ١٨٠ وفي ابن ماجه (١٣٤٢) وفي المسند لأحمد بن حنبل ٤/ ٢٨٣ و ٣٠٤ وفي الدارمي ٢/ ٤٧٤ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٥٧١.

(٤) الحديث في سنن أبي داود برقم (١٤٦٩ ـ ١٤٧٠ ـ ١٤٧١) وفي المسند ١/ ١٧٢ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٥٤ وفي المستدرك للحاكم ١/ ٥٦٩ وفي كنز العمال (٢٧٦٩ ـ ٢٧٩٧).

(٥) الحديث في البخاري برقم (٥٠٢٤) وفي مسلم في صلاة المسافرين برقم (٢٣٢) وفي مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٥٢٢.

لو كان لأجل هز الناقة لما كان داخلاً تحت الاختيار، فلم يكن عبد الله بن مغفل يحكيه ويفعله اختياراً ليتأسى به وهو يرى هذا من هز الراحلة له حتى ينقطع صوته، ثم يقول: «كان يرجع في قراءته» فنسب الترجيع إلى فعله، ولو كان من هز الراحلة لم يكن منه فعل يسمى ترجيعاً.

وقد استمع ﷺ ليلة لقراءة أبي موسى الأشعري، فلما أخبره بذلك قال: لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيراً. أي حسنته وزينته بصوتي تزييناً. وهذا الحديث يرد على من قال: إن قوله: (**زينوا القرآن بأصواتكم**) من باب القلب، أي: زينوا أصواتكم بالقرآن، فإن القلب لا وجه له. قال ابن الأثير: ويؤيد ذلك تأييداً لا شبهة فيه حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل شيء حلية، وحلية القرآن حسن الصوت**»[1] والله أعلم. وقد اختلف العلماء في هذه المسألة اختلافاً كثيراً يطول ذكره، وفصل النزاع في ذلك أن يقال: إن التطريب والتغني على وجهين:

**أحدهما**: ما اقتضته الطبيعة وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين وتعليم، بل إذا خلا في ذلك وطبعه، واسترسلت طبيعته، جاءت بذلك التطريب والتلحين، فهذا جائز وإن أعانته طبيعته على فضل تزيين وتحسين، كما قال أبو موسى للنبي ﷺ: لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً. والحزين ومن هاجه الطرب والحب والشوق لا يملك من نفسه دفع التخزين والتطريب في القراءة. ولكن النفوس تستجلبه وتستملحه لموافقة الطبع وعدم التكلف والتصنع، فهو مطبوع لا متطبع، وكلف لا متكلف، فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويسمعونه، وهو التغني المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامع.

**والوجه الثاني**: ما كان من ذلك صناعة من الصنائع، ليس في الطبائع السماحة به، بل لا يحصل إلا بتكلف وتصنع وتمرن، كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة والمركبة على إيقاعات مخصوصة وأوزان مخترعة لا تحصل إلا بالتعليم والتكلف، فهذه هي التي كرهها السلف وعابوها وأنكروا القراءة بها.

وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، ويتبين الصواب من غيره، وكل من له علم بأحوال السلف يعلم قطعاً أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلفة التي هي على إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم اتقى لله من أن يقرؤوا بها ويسوغوها، ويعلم قطعاً أنهم كانوا يقرؤون بالتخزين والتطريب، ويحسنون أصواتهم بالقراءة، ويقرؤونه

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٧١ وعبد الرزاق في مصنفه (٤١٧٣) وابن عدي في الكامل ٤/ ١٤٥٢ والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٧٦٨) وضعفه ابن حبان والذهبي.

بسجاياهم تارة، وتطريباً أخرى، وهذا أمر في الطباع، ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضي الطباع له، بل أرشد إليه وندب إليه ﷺ، وأخبر عن استماع الله لمن قرأ به، وقال: (**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**) وليس المراد الاستغناء به عن غيره كما ظنه بعضهم، ولو كان كذلك لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنى. والمعروف في كلام العرب أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع، كما قال الشاعر:

تغـن بـالشعـر إذا مـا كنـت قـائلـه ... إن الغنـاء لهـذا الشعـر مضمـار

وروى ابن أبي شيبة عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «**تعلموا القرآن وتغنوا به واكتبوه**»[1] الحديث والله أعلم. وقد صح أنه ﷺ سمع أبا موسى الأشعري يقرأ فقال: «**لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود**». يعني من مزامير داود نفسه، كما ذكره أهل المعاني. وفي طريق آخر ـ كما تقدم ـ أن أبا موسى قال: يا رسول الله، لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً. قال ابن المنير: فهذا يدل على أنه كان يستطيع أن يتلو أشجى من المزامير عند المبالغة في التحبير، لأنه قد تلا مثلها وما بلغ الحد، فكيف لو بلغ حد استطاعته.

وقد كان داود عليه السلام إذا أراد أن يتكلم على بني إسرائيل يجوع سبعة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا يأتي النساء، ثم يأمر سليمان فينادي في الضواحي والنواحي والآكام والأودية والجبال: إن داود يجلس يوم كذا، ثم يخرج له منبراً إلى الصحراء، فيجلس عليه، وسليمان قائم على رأسه، فتأتي الإنس والجن والطير والوحش والهوام والعذارى والمخدرات يسمعون الذكر، فيأخذ في الثناء على الله بما هو أهله، فتموت طائفة من المستمعين، ثم يأخذ في النياحة على المذنبين فتموت طائفة، فإذا استجر الموت بالخلق قال له سليمان: يا نبي الله، قد استجر الموت بالناس، وقد مزقت المستمعين كل ممزق، فيخر داود مغشياً عليه، فيحمل على سريره إلى بيته، وينادي منادي سليمان: أيها الناس، من كان له مع داود قريب أو حميم فليخرج لافتقاده، فكانت المرأة تأتي فتقف على زوجها أو ابنها أو أخيها، فتدخل به المدينة، فإذا أفاق داود في اليوم الثاني قال: يا سليمان، ما فعل عباد بني إسرائيل؟ فيقول له سليمان: قد مات فلان وفلان وهلم جراً. فيضع داود يده على رأسه وينوح ويقول: يا ربَّ داود، . أغضبان أنت على داود حتى إنه لم يمت فيمن مات خوفاً منك أو شوقاً إليك؟ فلا يزال ذلك دأبه إلى المجلس الآخر، وأقام داود عليه السلام على ذلك ما شاء الله تعالى.

---

(١) رواه أحمد بن حنبل في المسند ٤/١٤٦ و١٥٠ و١٥٣ برجال الصحيح وذكره القرطبي في تفسيره ١/١٥.

ولا تظن بما ذكرته من حال بني إسرائيل أنهم في ذلك أعلى من هذه الأمة، فأما المزامير فحسبك ما ذكر من حال أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وأما الموت من الموعظة شوقاً أو خوفاً فلنا فيه طريقان:

**أحدهما**: أن نقول إن القوة التي أوتيتها هذه الأمة تقاوم الأحوال الواردة عليها فتتماسك الحياة، فلا تفنى القوة الجسمانية بل القوة الروحانية، والتأييدات الإلهية. فلفرط قوة هذه الأمة ـ إن شاء الله تعالى ـ تقارب عند سلفها الصالح ما بين حال سماع الموعظة وحال عدم سماعها، لتوالي أحوال الذكر وأطوار اليقين. وقد قال بعضهم: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. فتماسك قوة السلف عند واردات الأحوال هو الذي فرق بينهم وبين من قبلهم. ألا ترى أن داود وسليمان عليهما السلام ـ وهما أصحاب المزامير ـ لم يتفق لهما الموت كما اتفق لمن مات، وما ذلك من تقصيرهما في الخوف والشوق، ولكن من القوة الربانية التي أمدهما بها. ولا خلاف بأن داود عليه السلام وإن لم يمت من الذكر أفضل ممن مات من أمته، وأما نواحه على كونه لم يمت فذلك من التواضع الذي يزيده شرفاً، لا من التقصير عن آحاد أمته، بل لارتفاعه عنهم درجات وزلفى، وإلى هذه القوة الإلهية أشار أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد رأى إنساناً يبكي من الموعظة فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب. عبر عن القوة بالقسوة تواضعاً، ومرتبته بحمد الله محفوظة ومنزلته مرفوعة.

**والطريق الثاني**: أن نقول: قد روي ما لا يحصى كثرة عن هذه الأمة مثل ما اتفق في مجلس داود عليه السلام من موت المستمعين للذكر في مجلس السماع قديماً وحديثاً، ولأبي إسحاق الثعلبي[1] جزء في قتلى القرآن رويناه، وعندي من ذلك جملة أرجو تدوينها، بل قد روي عن كثير من المريدين أنهم ماتوا بمجرد النظر إلى المشايخ، كما حكي أن مريداً لأبي تراب النخشبي كان يتجلى له الحق تعالى في كل يوم مرات، فقال له أبو تراب: لو رأيت أبا يزيد لرأيت أمراً عظيماً، فلما ارتحل المريد مع شيخه أبي تراب النخشبي لأبي يزيد ووقع بصر المريد عليه وقع ميتاً، فقال له أبو تراب يا أبا يزيد نظرة منك قتلته، وقد كان يدعي رؤية الحق فقال له أبو يزيد قد كان صاحبك صادقاً، وكان الحق يتجلى له على قدر مقامه، فلما رآني تجلى له على قدر ما رأى، فلم يطق فمات. واصطلاح أهل الطريق في التجلي معروف، وحاصله: رتبة من المعرفة جلية علية ولم يكونوا يعنون بالتجلي رؤية البصر التي قيل فيها لموسى عليه السلام ـ على خصوصيته ـ ﴿لن تراني﴾

---

(١) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أبو إسحاق مفسر مؤرخ توفي سنة (٤٢٧ هـ). الأعلام ٢١٢/١ وفيات الأعيان ٢٢/١ إنباه الرواة ١١٩/١ وهو فيه الثعالبي ويقال الثعلبي. معجم المطبوعات ٦٦٣.

[الأعراف: ١٤٣] والتي قيل فيها على العموم ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وإذا فهمت أن مرادهم الذي أثبتوه غير المعنى الذي حصل منه الناس على اليأس في الدنيا، ووعد الخواص به في الأخرى، فلا ضير بعد ذلك عليك. ولا طريق لسوء الظن بالقوم إليك، والله متولي السرائر. انتهى منخصاً.

وإذا علمت هذا فاعلم أن السماع في طريق القوم معروف، وفي الجواذب إلى المحبة معدود وموصوف، وقد نقل إباحته أبو طالب في «القوت»[1] عن جماعة من الصحابة كعبد الله بن جعفر، وابن الزبير، والمغيرة بن شعبة ومعاوية، وكذا الجنيد، والسري وذي النون، واحتج له الغزالي في «الإحياء» بما يطول ذكره، خصوصاً في أوقات السرور المباحة، تأكيداً له وتهييجاً، كعرس وقدوم غائب، ووليمة وعقيقة وحفظ قرآن، وختم درس أو كتاب أو تأليف.

وفي الصحيحين من حديث عائشة: أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفقان وتضربان، ورسول الله ﷺ متغش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف ﷺ عن وجهه وقال: «**دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد**»[2]. وفي رواية: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء يوم بعاث ـ بضم الموحدة والعين المهملة آخره مثلثة ـ اسم حصن للأوس، وبالمعجمة تصحيف، أي تنشدان الأشعار التي قيلت يوم بعاث، وهو حرب كان بين الأنصار، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، فدخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند رسول الله ﷺ فأقبل عليه ﷺ وقال: «**دعهما**». واستدل جماعة من الصوفية بهذا الحديث على إباحة الغناء وسماعه بآلة وبغير آلة.

وتعقب: بأن في الحديث الآخر عند البخاري عن عائشة: «وليستا بمغنيتين» فنفت عنهما من طريق المعنى ما أثبتته لهما باللفظ، لأن الغناء يطلق على رفع الصوت وعلى الترنم وعلى الحداء، ولا يسمى فاعله مغنياً، وإنما يسمى بذلك من ينشد بتمطيط وتكسير وتهييج وتشويق لما فيه من تعريض بالفواحش أو تصريح.

قال القرطبي: قولها ـ يعني عائشة ـ: «ليستا بمغنيتين» أي ليستا ممن يعرف الغناء

---

(١) هو كتاب يسمى «قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد» لابي طالب محمد بن علي بن عطية العجمي ثم المكي المتوفى سنة (٣٨٦ هـ) ببغداد انظر كشف الظنون ٢/ ١٣٦١.

(٢) الحديث في صحيح مسلم العيدين برقم (١٧ ـ ١٩) وفي النسائي ٣/١٩٧ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٩٢ و ١٠/ ٢٢٤ وفي إتحاف السادة المتقين ٦/ ٤٩٠ وفي مشكاة المصابيح (١٤٣٢).

كما تعرفه المغنيات المعروفات بذلك. قال: وهذا منها تحرز عن الغناء المعتاد عند المشتهرين، وهو الذي يحرك الساكن، ويبعث الكامن، وهذا إذا كان في شعر فيه وصف محاسن النساء أو الخمر أو غيرهما من الأمور المحرمة لا يختلف في تحريمه. قال: وأما ما ابتدعته الصوفية في ذلك فمن قبيل ما لا يختلف في تحريمه، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب إلى الخير، حتى لقد ظهرت في كثير منهم فعلات المجانين والصبيان، حتى رقصوا بحركات متطابقة، وتقطيعات متلاحقة، وانتهى التواقح بقوم منهم إلى أن جعلوها من باب القرب وصالح الأعمال، وأن ذلك يثمر سنيَّ الأحوال، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة. انتهى.

والحق: أن السماع إذا وقع بصوت حسن، بشعر متضمن للصفات العلية، أو النعوت النبوية المحمدية، عرياً عن الآلات المحرمة، والحظوظ الخسيسة الغبية، والشبه الدنية، وأثار كامن المحبة الشريفة العلية، وضبط السامع نفسه ما أمكنه، بحيث لا يرفع صوته بالبكاء، ولا يظهر التواجد وهو يقدر على ضبط نفسه ما أمكنه مع العلم بما يجب لله ورسوله ويستحيل، لئلا ينزل ما يسمعه على ما لا يليق، كان من الحسن في غاية، ولتمام تزكية النفس نهاية. نعم تركه والاشتغال بما هو أعلى أسلم لخوف الشبهة، وللخروج من الخلاف، إلا نادراً.

وقد نقل عن الإمام الشافعي ومالك وأبي حنيفة وجماعة من العلماء ألفاظ تدل على التحريم، ولعل مرادهم ما كان فيه تهييج شيطاني، وإذا كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلوب، لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم، بل يختلف ذلك بالأشخاص، واختلاف طرق النغمات، فحكمه حكم ما في القلب، وهو لمن يرتقي لربه ترقية مثير للكامن في النفوس من الأزل، حين خاطبنا الحق تعالى بقوله: ﴿**ألست بربكم**﴾ [الأعراف: ١٧٢] فما كان في القلب من رقة ووجد وحقيقة فهو من حلاوة ذلك الخطاب، والأعضاء كلها ناطقة بذكره، مستطيبة لاسمه، فالسماع من أكبر مصايد النفوس، وإذا اقترن بألحانه المناسبة، وكان الشعر متضمناً لذكر المحبوب الحق، برز الكامن وذاعت الأسرار سيما في أرباب البدايات.

وقد شوهد تأثير السماع حتى في الحيوانات الغير الناطقة من الطيور والبهائم، فقد شوهد تدلي الطيور من الأغصان على أولى النغمات الفائقة، والألحان الرائقة، وهذا الجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثيراً يستخف معه الأحمال الثقيلة، ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافة الطويلة، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه، فتراه إذا طالت عليه البوادي، وأعياه الإعياء تحت الحمل إذا سمع منادي الحداء يمد عنقه ويصغي

إلى الحادي، ويسرع في سيره، وربما أتلف نفسه في شدة السير وثقل الحمل، وهو لا يشعر بذلك لنشاطه.

وقد حكى مما ذكره في «الإحياء» عن أبي بكر الدينوري: أن عبداً أسود قتل جمالاً كثيرة بطيب نغمته إذا حداها، وكانت محملة أحمالاً ثقيلة، فقطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة، وأنه حدا على جمل غيرها بحضرته، فهام الجمل وقطع حباله وحصل له ما غيبه عن حسه، حتى خر لوجهه. فتأثير السماع محسوس، ومن لم يحركه فهو فاسد المزاج، بعيد العلاج، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال. وإذا كانت هذه البهائم تتأثر بالنغمات، فتأثير النفوس الإنسانية أولى. وقد قال:

نعم لولا ـ ما ذكر العقيق ... ولا جابت له الفلوات نوق

نعم أسعى إليك على جفوني ... تداني الحي أو بعد الطريق

إذا كانت تحن لك المطايا ... فماذا يفعل الصب المشوق

فزبدة السماع تلطيف السر، ومن ثم وضع العارف الكبير سيدي علي الوفوي حزبه المشهور على الألحان والأوزان اللطيفة، تنشيطاً لقلوب المريدين وترويحاً لأسرار السالكين، فإن النفوس ـ كما قدمناه ـ لها حظ من الألحان، فإذا قيلت هذه الواردات السنية الفائضة من الموارد النبوية المحمدية بهذه النغمات الفائقة والأوزان الرائقة، تشربتها العروق، وأخذ كل عضو نصيبه من ذلك المدد الوفوي المحمدي، فأثمرت شجرة خطاب الأزل بما سقيته من موارد هذه اللطائف عوارف المعارف.

تنبيه: زعم بعضهم أن السماع أدعى للوجد من التلاوة وأظهر تأثيراً. والحجة عن ذلك: أن جلال القرآن لا تحتمله القوى البشرية المحدثة، ولا تحتمله صفاتها المخلوقة، ولو كشف للقلوب ذرة من معناه لدهشت وتصدعت وتحيرت، والألحان مناسبة للطباع بنسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق، والشعر نسبته بنسبة الحظوظ، فإذا علقت الأشجان والأصوات بما في الأبيات من الإشارات واللطائف، شاكل بعضها بعضاً فكان أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب بمشاكلة المخلوق. قاله أبو نصر السراج[1].

---

(١) هو عبد الله بن علي الطوسي أبو نصر السراج زاهد صوفي على طريقة السنة. توفي سنة (٣٧٨ هـ). الاعلام ٤/ ١٠٤ شذرات الذهب ٣/ ٩١ معجم المطبوعات (١٠١٧).

## الفصل الأول
## في إتمامه تعالى نعمته عليه بوفاته ونقلته إلى حظيرة قدسه لديه ﷺ

اعلم ـ وصلني الله وإياك بحبل تأييده، وأوصلنا بلطفه إلى مقام توفيقه وتسديده ـ أن هذا الفصل مضمونه يسكب المدامع من الأجفان، ويجلب الفجائع لإثارة الأحزان، ويلهب نيران الموجدة على أكباد ذوي الإيمان. واعلم أنه لما كان الموت مكروهاً بالطبع، لما فيه من الشدة والمشقة العظيمة، لم يمت نبي من الأنبياء حتى يخير.

وأول ما أعلم النبي ﷺ من انقضاء عمره باقتراب أجله بنزول سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ [النصر: ١]، فإن المراد من هذه السورة: إنك يا محمد إذا فتح الله عليك البلاد، ودخل الناس في دينك الذي دعوتهم إليه أفواجاً، فقد اقترب أجلك، فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار، فإنه قد حصل منك مقصود ما أمرت به، من أداء الرسالة والتبليغ، وما عندنا خير لك من الدنيا، فاستعد للنقلة إلينا.

وقد قيل إن هذه السورة آخر سورة، [نز]لت يوم النحر، وهو ﷺ بمنى في حجة الوداع، وقيل: عاش بعدها إحدى وثمانين يوماً. وعند ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس: عاش بعدها تسع ليال: وعن مقاتل: سبعاً، وعن بعضهم: ثلاثاً.

ولأبي يعلى من حديث ابن عمر: نزلت هذه السورة في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع.

وفي حديث ابن عباس، عند الدارمي: لما نزلت: **﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾** [النصر: ١] دعا رسول الله ﷺ فاطمة، وقال: «**نعيت إلي نفسي**» فبكت، قال: «**لا تبكي، فإنك أول أهلي لحوقاً بي**»، فضحكت. الحديث.

وروى الطبراني من طريق عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت **﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾** [النصر: ١] نعيت إلى رسول الله ﷺ نفسه، فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً في أمر

الآخرة. وللطبراني أيضاً، من حديث جابر: لما نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ لجبريل: «نعيت إلي نفسي». فقال له جبريل: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ [الضحى: ٤]. وروي في حديث ذكره ابن رجب في «اللطائف»[١]: أنه تعبد حتى صار كالشن البالي[٢].

وكان ﷺ يعرض القرآن كل عام على جبريل مرة، فعرضه ذلك العام مرتين. وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان كل عام فاعتكف في ذلك العام عشرين، وأكثر من الذكر والاستغفار.

وقالت أم سلمة: كان ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «**سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه**»، فقلت له: إنك تدعو بدعاء لم تكن تدعو به قبل اليوم؟ فقال: «**إن ربي أخبرني أني سأرى علماً في أمتي، وأني إذا رأيته أن أسبح بحمده وأستغفره**»، ثم تلا هذه السورة. رواه ابن جرير وابن خزيمة. وأخرج ابن مردويه من طريق مسروق عن عائشة نحوه.

وروى الشيخان من حديث عقبة بن عامر قال: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء وللأموات، ثم طلع المنبر فقال: «**إني بين أيديكم فرط**[٣]**، وأنا عليكم شهيد. وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه وأنا في مقامي هذا، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها**»[٤]. وزاد بعضهم: «**فتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم**».

وعن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: «**إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده**»، فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله، فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فعجبنا، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عند الله، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان

---

(١) هو كتاب يسمى (لطائف المعارف) في المواعظ لابن رجب عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي المتوفي سنة (٧٩٥ هـ). انظر كشف الظنون ٢/ ١٥٥٤.

(٢) قال الزرقاني في الشرح: الله أعلم بحال هذا الحديث ففي الأحاديث الصحيحة أنه لم يصل إلى هذه الحالة وإن زاد في العبادة إلى الغاية.

(٣) أي: هو المتقدم على الواردين ليصلح لهم الحياض والدلاء ونحوها. أي أنا سابقكم إلى الحوض.

(٤) الحديث أيضاً في السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ١٤ وفي شرح السنة للبغوي ١٤/ ٣٩.

أبو بكر أعلمنا به، فقال النبي ﷺ: «**إن أمنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام، لا يبقى في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر رضي الله عنه**». رواه البخاري ومسلم.

ولمسلم من حديث جندب: سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بخمس ليال [إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل][1]. وكأن أبا بكر رضي الله عنه فهم الرمز الذي أشار به النبي ﷺ من قرينة ذكره ذلك في مرض موته، فاستشعر منه أنه أراد نفسه، فلذلك بكى.

وما زال ﷺ يعرض باقتراب أجله في آخر عمره، فإنه لما خطب في حجة الوداع قال للناس: «**خذوا عني مناسككم، فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا**» وطفق يودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع.

فلما رجع ﷺ من حجة الوداع إلى المدينة جمع الناس بماء يدعى «خما»[2] في طريقه بين مكة والمدينة، فخطبهم وقال: «**أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب**»، ثم حض على التمسك بكتاب الله ووصى بأهل بيته.

قال الحافظ ابن رجب: وكان ابتداء مرضه ﷺ في أواخر شهر صفر، وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً في المشهور. وكانت خطبته التي خطب بها المذكورة في حديث أبي سعيد الذي قدمته في ابتداء مرضه الذي مات فيه، فإنه خرج ـ كما رواه الدارمي ـ وهو معصوب الرأس بخرقة، حتى أهوى إلى المنبر فاستوى عليه فقال: «**والذي نفسي بيده، إني لأنظر إلى الحوض من مقامي هذا، ثم قال: إن عبداً عرضت عليه الدنيا**».. الخ، ثم هبط عنه فما رؤي عليه حتى الساعة.

فلما عرَّض ﷺ على المنبر باختياره اللقاء على البقاء، ولم يصرح، خفي المعنى على كثير ممن سمع، ولم يفهم المقصود غير صاحبه الخصيص به، ﴿**ثاني اثنين إذ هما في الغار**﴾ [التوبة: ٤٠]، وكان أعلم الأمة بمقاصد الرسول ﷺ، فلما فهمْ المقصود من هذه الإشارة بكى وقال: بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا، فسكَّن الرسول ﷺ جزعه، وأخذ في مدحه والثناء عليه على المنبر، ليعلم الناس كلهم فضله، فلا يقع عليه اختلاف في خلافته فقال: «**إن أمنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر** ـ رضي الله عنه ـ ثم قال ﷺ: **لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام**»، لما كان

(١) ما بين المعكوفين تتمة الحديث عند مسلم برقم (٥٣٢) أثبتها بعد أن أسقطها المصنف.

(٢) أي غدير خم بضم أوله وتشديد ثانيه وخم بئر احتفرها عبد شمس بالبطحاء بعد بئره العجول وخم عند ردم بني جمح. انظر معجم ما استعجم ٢/ ٥١٠.

ﷺ لا يصلح له أن يخالل مخلوقاً، فإن الخليل من جرت صحبة خليله منه مجرى الروح ولا يصلح هذا لبشر، كما قيل:

قــد تخللــت مسلــك الــروح منــي وبــذا سمــي الخليــل خليــلا

أثبت له أخوة الإسلام، ثم قال ﷺ: **«لا يبقى في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر»**، إشارة إلى أن أبا بكر هو الإمام بعده، فإن الإمام يحتاج إلى سكن المسجد والاستطراق فيه بخلاف غيره، وذلك من مصالح المسلمين المصلين، ثم أكد هذا المعنى بأمره صريحاً أن يصلي بالناس أبو بكر رضي الله عنه، فروجع في ذلك وهو يقول: **«مروا أبا بكر أن يصلي بالناس»**، فولاه إمامة الصلاة، ولذا قال الصحابة عند بيعة أبي بكر رضي الله عنه: رضيه رسول الله ﷺ لديننا أفلا نرضاه لدنيانا.

وكان ابتداء مرض رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، كما ثبت في رواية معمر عن الزهري، وفي سيرة أبي معشر: كان في بيت زينب بنت جحش، وفي سيرة سليمان التيمي كان في بيت ريحانة، والأول هو المعتمد. وذكر الخطابي، أنه ابتدأ به يوم الاثنين، وقيل يوم السبت، وقال الحاكم أبو أحمد: يوم الأربعاء، واختلف في مدة مرضه، فالأكثر أنها ثلاثة عشر يوماً، وقيل: أربعة عشر، وقيل: اثنا عشر، وذكرهما في الروضة، وصدر بالثاني، وقيل عشرة أيام، وبه جزم سليمان التيمي في مغازيه، وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح.

وفي البخاري: قالت عائشة: لما ثقل رسول الله ﷺ واشتد وجعه استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذنَّ له، فخرج وهو بين رجلين تخط رجلاه في الأرض بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر. قال عبيد الله فأخبرت عبد الله بالذي قالت عائشة فقال لي عبد الله بن عباس: هل تدري من الرجل الآخر الذي لم تسم عائشة؟ قال: قلت لا، قال ابن عباس: هو علي بن أبي طالب. الحديث.

وفي رواية مسلم عن عائشة: فخرج بين الفضل بن العباس ورجل آخر. وفي أخرى [لغير مسلم][1]: رجلين أحدهما أسامة. وعند الدارقطني: أسامة والفضل، وعند ابن حبان في أخرى: بريرة ونوبة ـ بضم النون وسكون الواو ثم موحدة ـ قيل وهو اسم أمة، وقيل: عبد. وعند ابن سعد من وجه آخر: بين الفضل وثوبان. وجمعوا بين هذه الروايات على تقدير ثبوتها بأن خروجه تعدد، فتعدد من اتكأ عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها، أنه ﷺ قال لنسائه: **«إني لا أستطيع أن أدور في بيوتكن،**

---

(١) ليست في الأصل.

فإن شئتن أذنتن لي». رواه أحمد. وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أنه ﷺ كان يقول: «أين أنا غداً، أين أنا غداً؟» يريد يوم عائشة. وذكر ابن سعد بإسناد صحيح عن الزهري: أن فاطمة هي التي خاطبت أمهات المؤمنين بذلك فقالت لهن: إنه يشق عليه الاختلاف. وفي رواية ابن أبي مليكة عن عائشة أن دخوله ﷺ بيتها كان يوم الإثنين، وموته يوم الإثنين الذي يليه.

وفي مرسل أبي جعفر عند ابن ابي شيبة: أنه ﷺ قال: «أين أكون أنا غداً»، كررها مرتين، فعرف أزواجه أنه إنما يريد عائشة، فقلن: يا رسول الله، قد وهبنا أيامنا لأختنا عائشة. وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه ـ عند الإسماعيلي ـ كان يقول: «أين أنا غداً» حرصاً على بيت عائشة، فلما كان يومي أذن له نساؤه أن يمرض في بيتي.

وعن عائشة: أتى رسول الله ﷺ ذات يوم من جنازة بالبقيع، وأنا أجد صداعاً في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، فقال: «بل أنا وارأساه»، ثم قال «ما ضرك لو مت قبلي فغسلتك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك»، فقالت: لكأني بك والله لو فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك، فتبسم ﷺ، ثم بدأ في وجعه الذي مات فيه[1]. رواه أحمد والنسائي.

وفي البخاري، قالت عائشة: وارأساه فقال ﷺ «ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك»، فقالت عائشة: واثكلياه، والله إني لأظنك تحب موتي، فلو كان ذلك لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك، فقال ﷺ: «بل أنا وارأساه»، لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد أن يقول القائلون أو يتمنى المتمنون، ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون.

وقوله: «بل أنا وارأساه» إضراب، يعني: دعي ذكر ما تجدينه من وجع رأسك واشتغلي بي. فإن قلت: قد اتفقوا على كراهة شكوى العبد كربه، وروى أحمد في الزهد عن طاووس أنه قال: «أنين المريض شكوى»[2]، وجزم أبو الطيب وابن الصباغ وجماعة من الشافعية أن تأوه المريض مكروه.

قلت: تعقبه النووي فقال: هذا ضعيف أو باطل، فإن المكروه ما ثبت فيه نهي

---

(١) الحديث في البخاري برقم (٧٢١٧) وفي المسند ٦/٢٢٨ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٣/٣٧٨ وفي حلية الأولياء ٢/١٨٥ وفي سنن الدارقطني ٢/ ٧٤.

(٢) ذكره السيوطي في جمع الجوامع برقم (٤٦١٢) وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/٣٨٢ والمتقي الهندي في كنز العمال (٦٧٠٥).

مخصوص، وهو لم يثبت فيه ذلك، ثم احتج بحديث عائشة هذا. ثم قال: فلعلهم أرادوا بالكراهة خلاف الأولى، فإنه لا شك أن اشتغاله بالذكر أولى. انتهى.

قال في فتح الباري: ولعلهم أخذوه بالمعنى من كون كثرة الشكوى تدل على ضعف اليقين وتشعر بالتسخط للقضاء، وتورث شماتة الأعداء، وأما إخبار المريض صديقه أو طبيبه عن حاله فلا بأس به اتفاقاً، فليس ذكر الوجع شكاية. فكم من ساكت وهو ساخط، وكم من شاك وهو راض، فالمعوَّل في ذلك على عمل القلب اتفاقاً لا على نطق اللسان.

وقد تبين ـ كما نبه عليه في «اللطائف» ـ أن أول مرضه ﷺ كان صداع الرأس، والظاهر أنه كان مع حمى، فإن الحمى اشتدت به في مرضه، فكان يجلس في مِخْضَب ويصب عليه الماء من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، يتبرد بذلك.

وفي البخاري قالت عائشة: لما دخل بيتي واشتد وجعه قال: «**أهريقوا عليَّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس**»، فأجلسناه في مخضب لحفصة ـ زوج النبي ﷺ ـ ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن[1]. الحديث.

وقد قيل في الحكمة في هذا العدد: أن له خاصية في دفع ضرر السم والسحر. وسيأتي إن شاء الله تعالى أنه ﷺ قال: «**هذا أوان انقطاع أبهري**»[2]، أي من ذلك السم. وتمسك بعض من أنكر نجاسة سؤر الكلب به، وزعم أن الأمر بالغسل منه سبعاً إنما هو لدفع السمية التي في ريقه.

وكانت عليه ﷺ قطيفة، فكانت الحمى تصيب من يضع يده عليه من فوقها فقيل له في ذلك فقال: «**إنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر**»[3]، رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، كلهم من رواية أبي سعيد الخدري. وقالت عائشة: ما رأيت أحداً كان أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ.

وعن عبد الله قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله، إنك توعك وعكاً شديداً، قال: «**أجل، أني أوعك كما يوعك رجلان منكم**»، قلت: ذلك أن لك

---

(١) الحديث أيضاً في السنن الكبرى للبيهقي ١/٣١ وفي اتحاف السادة المتقين ١٠/٢٨٧ وفي طبقات ابن سعد ٢/٢٩ وفي كنز العمال (٢٨٢٣٤).

(٢) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ١٠/١١ وابن حجر في التغليق (١١٩١) والذهبي في الطب النبوي (١٥٣).

(٣) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٤/٢٨١.

أجرين، قال: «**أجل، ذلك كذلك ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله به سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها**». رواه البخاري.

والوَعْك ـ بفتح الواو وسكون العين المهملة، وقد تفتح ـ: الحمى، وقيل: ألم الحمى، وقيل: إرعادها الموعك وتحريكها إياه. وعن الأصمعي: الوعك: الحر، فإن كان محفوظاً فلعل الحمى سميت وعكاً لحرارتها. قال أبو هريرة: ما من وجع يصيبني أحب إليَّ من الحمى، إنها تدخل في كل مفصل من ابن آدم، وإن الله يعطي كل مفصل قسطاً من الأجر.

وأخرج النسائي، وصححه الحاكم، من حديث فاطمة بنت اليمان ـ أخت حذيفة ـ قالت: أتيت النبي ﷺ في نساء نعوده: فإذا سقاء يقطر عليه من شدة الحمى، فقال: «**إن من أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم**».

وفي حديث عائشة: أنه ﷺ كان بين يديه علبة أو ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه ويقول: (**لا إله إلا الله إن للموت سكرات**) الحديث رواه الشيخان. وروى أيضاً عن عروة أنه ﷺ قال: «**ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم**».

وفي رواية: «**ما زالت أكلة خيبر تُعادّني**»[1].

والأُكلة: بالضم، اللقمة التي أكل من الشاة. وبعض الرواة يفتح الألف، وهو خطأ لأنه ﷺ لم يأكل منها إلا لقمة واحدة، قاله ابن الأثير. ومعنى الحديث: أنه نقض عليه سم الشاة التي أهدتها له اليهودية، فكان ذلك يثور عليه أحياناً. والأبهر: عرق مستبطن بالصلب يتصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه. وقد كان ابن مسعود وغيره يرون أنه ﷺ مات شهيداً من السم.

وعند البخاري أيضاً قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح بيده، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه، طفقت أنفث عليه بالمعوذات التي كان ينفث وأمسح بيد النبي ﷺ عنه. وفي رواية مالك: وأمسح بيده رجاء بركتها. ولمسلم فلما مرض مرضه الذي مات فيه جعلت أنفث عليه وأمسح بيد نفسه لأنها كانت أعظم بركة من يدي. وأطلقت على السور الثلاث: المعوذات، تغليباً.

وفي البخاري عن عائشة: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسندته

---

(١) ذكر نحوه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٢١٨٩) وابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٣٩.

إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به، فأبده رسول الله ﷺ بصره، فأخذت السواك فقضمته ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستن به، فما رأيته استن استناناً قط أحسن منه. الحديث.

قولها: «فأبده» بتشديد الدال المهملة أي: مد نظره إليه. وقولها: «فقضمته» ـ بكسر الضاد المعجمة ـ أي: لطوله ولإزالة المكان الذي تسوك به عبد الرحمن. «ثم طيبته»: أي لينته بالماء. وفي رواية له أيضاً: قالت: إن من نعم الله تعالى عليَّ أن جمع الله بين ريقي وريقه عند موته، دخل عليَّ عبد الرحمن وبيده سواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت آخذه لك؟ فأشار برأسه: أن نعم.

وفي رواية: مر عبد الرحمن وفي يده جريدة رطبة، فنظر إليه ﷺ فظننت أن له بها حاجة، فأخذتها فمضغت رأسها ونفضتها ودفعتها إليه فاستن بها كأحسن ما كان مستناً، ثم ناولنيها فسقطت يده أو سقطت من يده، فجمع الله بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة.

وفي حديث خرجه العقيلي، أنه ﷺ قال لها في مرضه: **«ائتيني بسواك رطب فامضغيه ثم ائتيني به أمضغه لكي يختلط ريقي بريقك لكي يهون علي عند الموت»**[1].

قال الحسن: لما كرهت الأنبياء الموت هون الله عليهم ذلك بلقاء الله، وبكلما أحبوا من تحفة أو كرامة، حتى إن نفس أحدهم لتنزع من بين جنبيه وهو محب لذلك، لما قد مثل له.

وفي المسند عن عائشة أيضاً: أن النبي ﷺ قال: **«إنه ليهون علي الموت لأني رأيت بياض كف عائشة في الجنة»**. وخرجه ابن سعد وغيره مرسلاً: أنه ﷺ قال: **«لقد رأيتها في الجنة، حتى ليهون عليَّ بذلك موتي، كأني أرى كفيها»**، يعني عائشة.

فقد كان ﷺ يحب عائشة حباً شديداً، حتى لا يكاد يصبر عنها، فمثلت له بين يديه في الجنة ليهون عليه موته، فإن العيش إنما يطيب باجتماع الأحبة، وقد سأله ﷺ رجل فقال: **«أي الناس أحب إليك؟»** فقال: **«عائشة»** فقال: من الرجال: قال: **«أبوها»**، ولهذا قال لها في ابتداء مرضه لما قالت: وارأساه: **«وددت أن ذلك كان وأنا حي فأصلي عليك وأدفنك»**، فعظم ذلك عليها، وظنت أنه يحب فراقها، وإنما ﷺ يريد تعجيلها بين يديه ليقرب اجتماعهما.

---

(١) الحديث أيضاً أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٨٨.

ويروى أنه كان عنده ﷺ في مرضه سبعة دنانير، فكان يأمرهم بالصدقة بها ثم يغمى عليه، فيشتغلون بوجعه، فدعا بها فوضعها في كفه فقال: «**ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه؟**» ثم تصدق بها كلها، رواه البيهقي.

انظر إذا كان هذا سيد المرسلين، وحبيب رب العالمين المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف حال من لقي الله وعنده دماء المسلمين وأموالهم المحرمة، وما ظنه بربه تعالى.

وفي البخاري من طريق عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: دعا النبي ﷺ فاطمة في شكواه الذي قبض فيه، فسارَّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارَّها فضحكت، فسألناها عن ذلك فقالت: سارَّني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت، ثم سارَّني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت.

وفي رواية مسروق عن عائشة: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية النبي ﷺ، فقال: «مرحباً بابنتي»[1]، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارَّها.

ولأبي داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم من طريق عائشة بنت طلحة عن عائشة قالت: ما رأيت أحداً أشبه سمتاً وهدياً ودلاً برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها من فاطمة. وكانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها وقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها فعلت ذلك، فلما مرض دخلت عليه فأكبت عليه فقبلته.

واتفقت الروايتان: على أن الذي سارَّها به أولاً فبكت، هو إعلامه إياها أنه ميت في مرضه ذلك، واختلفتا فيما سارَّها به فضحكت، ففي رواية عروة أنه: إخباره إياها بأنها أول أهله لحوقاً به، وفي رواية مسروق أنه: إخباره إياها أنها سيدة نساء أهل الجنة. وجعل كونها أول أهله لحوقاً به مضموماً إلى الأول، وهو الراجح، فإن حديث مسروق يشتمل على زيادات ليست في حديث عروة، وهو من الثقات الضابطين.

فمما زاده مسروق: قول عائشة فقلت: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن، فسألتها عن ذلك فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، حتى توفي النبي ﷺ فسألتها فقالت: أسر إليَّ أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وأنك أول أهل بيتي لحاقاً بي.

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة برقم (٩٩) وابن ماجه برقم (١٦٢١) وفي المسند ٦/ ٢٨٢ وفي المشكاة (٦١٢٩) وفي إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٨٥ و١٠/ ٢٩٦ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٣٦٤ و٧/ ١٦٥ وفي حلية الأولياء ٢/ ٤٠ وفي كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٤١٠.

وفي رواية عائشة بنت طلحة من الزيادة: أن عائشة لما رأت بكاها وضحكها قالت: إن كنت لأظن أن هذه المرأة من أعقل النسا، فإذا هي من النساء. ويحتمل تعدد القصة. وفي رواية عروة الجزم أنه ميت من وجعه ذلك بخلاف رواية مسروق ففيها أنه ظن ذلك بطريق الاستنباط مما ذكره من معارضة القرآن.

وقد يقال: لا منافاة بين الخبرين إلا بالزيادة، ولا يمتنع أن يكون إخباره بكونها أول أهله لحوقاً به سبباً لبكائها ولضحكها باعتبارين، فذكر كل من الراويين ما لم يذكره الآخر. وقد روى النسائي من طريق أبي سلمة عن عائشة في سبب البكاء أنه ميت، وفي سبب الضحك الأمرين الآخرين.

ولابن سعد من رواية أبي سلمة عنها: أن سبب البكاء موته، وسبب الضحك لحاقها به. وعند الطبراني ـ من وجه آخر ـ عن عائشة أنه قال لفاطمة: «**إن جبريل أخبرني أنه ليس امرأة من نساء المؤمنين أعظم رزية منك، فلا تكوني أدنى امرأة منهن صبراً**». وفي الحديث: إخباره ﷺ بما سيقع، فوقع كما قال ﷺ، فإنهم اتفقوا على أن فاطمة رضي الله عنها كانت أول من مات من أهل بيت النبي ﷺ بعده، حتى من أزواجه عليه الصلاة والسلام[1].

وقد كان ﷺ من شدة وجعه يغمى عليه في مرضه ثم يفيق، وأغمي عليه مرة فظنوا أن وجعه ذات الجنب فلدوه، فجعل يشير إليهم أن لا يلدوه، فقالوا: كراهية للدواء، فلما أفاق قال: «**ألم أنهكم أن تلدوني؟**» فقالوا: كراهية المريض للدواء، فقال: «**لا يبقى أحد في البيت إلا لدَّ وأنا أنظر، إلا العباس فإنه لم يشهدكم**». رواه البخاري. واللدود، هو ما يجعل في جانب الفم من الدواء، فأما ما يصب في الحلق فيقال له: الوجور. وفي الطبراني من حديث العباس: أنهم أذابوا قسطاً بزيت ولدوه به.

وفي قوله «لا يبقى أحد في البيت إلا لدَّ، الخ» مشروعية القصاص فيما يصاب به الإنسان، وفيه نظر: لأن الجميع لم يتعاطوا ذلك، وإنما فعل بهم ذلك عقوبة لهم لتركهم امتثال نهيه عما نهاهم عنه. قال ابن العربي: أراد أن لا يأتوا يوم القيامة وعليهم حقه فيقعوا في خطيئة عظيمة. وتعقب: بأنه كان يمكن أن يقع العفو، ولأنه كان لا ينتقم لنفسه، والذي يظهر أنه أراد بذلك تأديبهم لئلا يعودوا، فكان ذلك تأديباً لا اقتصاصاً ولا انتقاماً. قيل: وإنما كره اللدود مع أنه كان يتداوى، لأنه تحقق أنه يموت في مرضه، ومن تحقق ذلك كره له التداوي.

قال الحافظ ابن حجر: وفيه نظر، والذي يظهر أن ذلك كان قبل التخيير والتحقيق،

---

(١) انظر فتح الباري شرح الحديث رقم (٤٤٣٣) ٨/ ١٧٢ كتاب المغازي.

وإنما أنكر التداوي لأنه كان غير ملائم لدائه، لأنهم ظنوا أن به ذات الجنب فداووه بما يلائمها، ولم يكن فيه ذلك، كما هو ظاهر في سياق الخبر.

وعند ابن سعد[1] قال: كانت تأخذ رسول الله ﷺ الخاصرة، فاشتدت فأغمي عليه، فلدوه، فلما أفاق قال: **«كنتم ترون أن الله يسلط عليّ ذات الجنب، ما كان الله ليجعل لها علي سلطاناً، والله لا يبقى أحد في البيت إلا لدَّ»**، فما بقي أحد في البيت إلا لدَّ، ولددنا ميمونة وهي صائمة.

وروى أبو يعلى ـ بسند ضعيف فيه ابن لهيعة ـ من وجه آخر عن عائشة: أنه ﷺ مات من ذات الجنب. وجمع بينهما: بأن ذات الجنب تطلق بإزاء مرضين: **أحدهما**: ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن، **والآخر**: ريح محتقن بين الأضلاع، فالأول هو المنفي هنا. وقد وقع في رواية الحاكم في المستدرك: ذات الجنب من الشيطان، والثاني هو الذي أثبت هنا وليس فيه محذور كالأول.

وفي حديث ابن عباس عند البخاري: لما حُضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: **«هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده»**، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله ﷺ **«قوموا»**. قال عبيد الله: فكان ابن عباس يقول: الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم[2].

قال المازري: إنما جاز للصحابة الاختلاف في هذا الكتاب: مع صريح أمره لهم بذلك. لأن الأوامر قد يقارنها ما ينقلها من الوجوب، فكأنه ظهرت منه قرينة دلت على أن الأمر ليس على التحتم، بل على الاختيار، فاختلف اجتهادهم، وصمم عمر على الامتناع لما قام عنده من القرائن بأنه ﷺ قال ذلك عن غير قصد جازم.

وقال النووي: اتفق العلماء على أن اقول عمر: «حسبنا كتاب الله» من قوة فقهه ودقيق نظره، لأنه خشي أن يكتب أموراً ربما عجزوا عنها فيستحقوا العقوبة لكونها منصوصة، وأراد أن لا يسد باب الاجتهاد على العلماء، وفي تركه ﷺ الانكار على عمر إشارة إلى تصويبه، وأشار بقوله: «حسبنا كتاب الله» إلى قوله تعالى: **﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾** [الأنعام: ٣٨]، ولا يعارض ذلك قول ابن عباس: «إن الرزية الخ» لأن عمر كان أفقه منه

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ١٨١.

(٢) الحديث في البخاري برقم (٤٤٣٢).

قطعاً، ولا يقال إن ابن عباس لم يكتف بالقرآن مع أنه حبر القرآن، وأعلم الناس بتفسيره وتأويله، ولكنه أسفاً على ما فاته من البيان بالتنصيص عليه، لكونه أولى من الاستنباط، والله أعلم.

ولما اشتد به ﷺ وجعه قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، فقالت له عائشة: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء، قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، فعاودته بمثل مقالتها، فقال: «**إنكن صواحبات يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس**». رواه الشيخان وأبو حاتم واللفظ له. وفي رواية: إن أبا بكر رجل أسِيْف.

وفي حديث عروة عن عائشة عند البخاري: فمر عمر فليصل بالناس، قالت: قلت لحفصة قولي له إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس، ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: «**مه. إنكن لأنتن صواحب يوسف. مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً[(1)].

والأسيف: بوزن فعيل، وهو بمعنى فاعل، من الأسف وهو شدة الحزن، والمراد به هنا، رقيق القلب. ولابن حبان من رواية عاصم عن شقيق عن مسروق عن عائشة في هذا الحديث: قال عاصم: والأسيف الرقيق الرحيم، وصواحب: جمع صاحبة، والمراد: أنهن مثل صواحب يوسف في إظهار ما في الباطن. ثم إن هذا الخطاب، وإن كان بلفظ الجمع، فالمراد به واحدة وهي عائشة رضي الله عنها. ووجه المشابهة بينهما في ذلك أن زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة، ومرادها الزيادة على ذلك وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته، وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها لكونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك، وهو أن لا يتشاءم الناس به. وقد صرحت هي بذلك، كما عند البخاري في باب وفاته ﷺ فقالت: لقد راجعته وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً. وأن لا كنت أُرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به.

وقد نقل الدمياطي: أن الصديق صلى بالناس سبع عشرة صلاة. وقد ذكر الفاكهي في «الفجر المنير» مما عزاه لسيف الدين بن عمر[(2)] في كتاب «الفتوح» أن الأنصار لما رأوا رسول الله ﷺ يزداد وجعاً، أطافوا بالمسجد، فدخل العباس فأعلمه ﷺ بمكانهم

(1) المصدر السابق رقم (٦٧٩).

(2) هو سيف بن عمر الأسدي التميمي من أصحاب السير توفي ببغداد سنة (٢٠٠ هـ). الاعلام ٣/ ١٥٠ تهذيب التهذيب ٤/ ٢٩٥ هدية العارفين ١/ ٤١٣ قيل فيه أنه ضعيف الحديث وأفحش ابن حبان القول فيه.

وإشفاقهم، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك، ثم دخل عليه علي بن أبي طالب كذلك. فخر ﷺ متوكئاً على علي والفضل والعباس أمامه، والنبي ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه، حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثار الناس إليه، فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث إليه فأخلد فيكم؟ ألا إني لاحق بربي، وإنكم لاحقون به، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿**والعصر إن الإنسان لفي خسر**﴾ [العصر: ١ و ٢] إلى آخرها، وإن الأمور تجري بإذن الله تعالى، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، ﴿**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾ [محمد: ٢٢]، وأوصيكم بالأنصار خيراً، فإنهم الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلكم أن تسحنوا إليهم، ألم يشاطروكم في الثمار؟ ألم يوسعوا لكم في الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم، إلا وإني فرط لكم، وأنتم لاحقون بي، إلا وإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يَرِدَه عليَّ غداً فليكفف يده ولسانه، إلا فيما ينبغي، يا أيها الناس، إن الذنوب تغير النعم، وتبدل القِسَم، فإذا برَّ الناس، برَّهم أئمتهم، وإذا فجر الناس عقوهم.

وفي حديث أنس عند البخاري: قال: مرَّ أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا، فدخل أحدهما على النبي ﷺ فأخبره بذلك، فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد، فصعد المنبر ـ ولم يصعده بعد ذلك اليوم ـ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**»[1].

وقوله «كرشي وعيبتي» أي موضع سري أراد أنهم بطانته وموضع أمانته، والذين يعتمد عليهم في أموره. واستعار الكرش والعيبة لذلك. لأن المجتر يجمع علفه في كرشه، والرجل يجمع ثيابه في عيبته، وقيل: أراد بالكرش الجماعة، أي جماعتي وصحابتي. يقال: عليه كرش من الناس، أي جماعة، قاله في النهاية.

وذكر الواحدي بسند وصله بعبد الله بن مسعود قال: نعى لنا رسول الله ﷺ نفسه قبل

---

(١) الحديث أيضاً في السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٣٧١ وفي المشكاة للتبريزي (٦٢١٥) وفي إتحاف الزبيدي ١٠/ ٢٩٠ وفي كنز العمال (٣٣٦٩٨).

موته بشهر، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت عائشة فقال: «**حياكم الله بالسلام، رحمكم الله، جبركم الله، رزقكم الله، نصركم الله، رفعكم الله، آواكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأستخلفه عليكم، وأحذركم الله، إني لكم منه نذير مبين، أن لا تعلوا على الله في بلاده وعباده، فإنه قال لي ولكم: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾** [القصص: ٨٣] وقال: **﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾** [الزمر: ٦٠]»، قلنا يا رسول الله، متى أجلك؟ قال: «**دنا الفراق، والمنقلب إلى الله وإلى جنة المأوى**»، قلنا: يا رسول الله، من يغسلك؟ قال: «**رجال من أهل بيتي الأدنى فالأدنى**»، قلنا يا رسول الله، فيم نكفنك؟ قال: «**في ثيابي هذه وإن شئتم في بياض ثياب مصر، أو حلة يمنية**»، قلنا: يا رسول الله، من يصلي عليك؟ قال: «**إذا أنتم غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري هذا على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي علي جبريل، ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت ومعه جنود من الملائكة، ثم ادخلوا علي فوجاً فوجاً، فصلوا عليَّ وسلموا تسليماً، وليبدأ بالصلاة عليَّ رجال أهل بيتي، ثم نساؤهم، ثم أنتم، واقرؤوا السلام على من غاب من أصحابي ومن تبعني على ديني، من يومي هذا إلى يوم القيامة**»، قلنا: يا رسول الله، من يدخلك قبرك؟ قال: «**أهلي مع ملائكة ربي**»[1]. وكذا رواه الطبراني في «الدعاء» وهو واه جداً.

وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: «**إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُحيَّا[2] أو يخير**». فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذي غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: «**اللهم في الرفيق الأعلى**»، فقلت: إذاً لا يختارنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح. وفي رواية: أنها أصغت إليه قبل أن يموت، وهو مُستند إليَّ ظهره يقول: «**اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى**». رواه البخاري من طريق الزهري عن عروة.

وما فهمته عائشة من قوله ﷺ: اللهم في الرفيق الأعلى» أنه خير، نظير فهم أبيها رضي الله عنه من قوله ﷺ: «إن عبداً خيره الله ما بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده» أن العبد المراد هو النبي ﷺ حتى بكى كما قدمته. ذكره الحافظ ابن حجر.

وعند أحمد من طريق المطلب بن عبد المطلب بن عبد الله عن عائشة: أن النبي ﷺ

---

(١) وذكره أيضاً الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/٢٨٦ و ٢٩٠.

(٢) قال الزرقاني في الشرح: أي يسلم إليه الأمر أو يملك في أمره، أو يسلم عليه تسليم الوداع. والشك من الراوي. والحديث في صحيح البخاري برقم (٤٤٣٧).

كان يقول: «**ما من نبي يقبض إلا يرى الثواب ثم يخير**». ولأحمد أيضاً، من حديث أبي مويهة[1] قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**أوتيت مفاتيح خزائن الأرض والخلد ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي فاخترت لقاء ربي والجنة**». وعند عبد الرزاق من مرسل طاووس، رفعه: «**خيرت بين أن أبقى حتى أرى ما يفتح على أمتي، وبين التعجيل فاخترت التعجيل**»، وفي رواية أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه عند النسائي، وصححه ابن حبان: «فقال اسأل الله الرفيق الأعلى الأسعد مع جبريل وميكائيل وإسرافيل. وظاهره: أن الرفيق الأعلى، المكان الذي تحصل المرافقة فيه مع المذكورين، وقال ابن الأثير في «النهاية» الرفيق: جماعة الأنبياء الذين يسكنون أعلى عليين، وقيل: المراد به الله تعالى، يقال: الله رفيق بعباده من الرفق والرأفة، انتهى، وقيل: المراد حظيرة القدس.

[وفي كتاب «روضة التعريف بالحب الشريف»[2]: لما تجلى له الحق ضعفت العلائق بينه وبين المحسوسات والحظوظ الضرورية من أواني معاني الترقيات البشرية، فكانت أحواله في زيادة الترقي، ولذلك روي أنه ﷺ قال: «**كل يوم لا أزداد فيه قرباً من الله فلا بورك لي في طلوع شمسه**». وكلما فارق مقاماً واتصل بما هو أعلى منه لمح الأول بعين النقص، وسار على ظهر المحبة، ونعمت المطية لقطع هذه المراحل والمقامات والأحوال، والسفر إلى حضرة ذي الجلال، والاتصال بالمحبوب الذي كل شيء هالك إلا وجهه][3].

وقال السهيلي: الحكمة في اختتام كلامه ﷺ بهذه الكلمة، كونها تتضمن التوحيد والذكر بالقلب، حتى يستفاد منها الرخصة لغيره أنه لا يشترط أن يكون الذكر باللسان، لأن بعض الناس قد يمنعه من النطق مانع، فلا يضره إذا كان قلبه عامراً بالذكر. انتهى ملخصاً.

قال الحافظ ابن رجب: وقد روي ما يدل على أنه قبض ثم رأى مقعده من الجنة ثم ردت إليه نفسه ثم خير. ففي المسند قالت ـ يعني عائشة ـ كان النبي ﷺ يقول: «**ما من نبي إلا تقبض نفسه ثم يرى الثواب ثم ترد إليه فيخير بين أن ترد إليه إلى أن يلحق**»، فكنت قد حفظت ذلك عنه، فإني لمسندته إلى صدري، فنظرت إليه حتى مالت عنقه، فقلت: قضى، قالت: فعرفت الذي قال، فنظرت إليه حين ارتفع ونظر، فقلت: إذا والله لا يختارنا، فقال:

---

(١) أبو مويهبة هو مولى للرسول ﷺ ويقال أبو موهوبة أو أبو موهبة وهو قول الواقدي. انظر الاصابة ٧/ ١٨٤ رقم الترجمة (١٠٩٤).

(٢) هو كتاب في التصوف للإمام محمد ابن الخطيب الوزير لسان الدين أبو عبد الله المتوفي سنة (٧٧٦ هـ) انظر كشف الظنون ١/ ٩٢٥.

(٣) هذه الفقرة أشار الزرقاني إلى أنها سقطت من غالب النسخ.

مع الرفيق الأعلى في الجنة، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وفي البخاري من حديث عروة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ ـ وهو صحيح ـ يقول: «**إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُحيّا أو يخير**»، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: «**اللهم في الرفيق الأعلى**». ونبه السهيلي على أنه النكتة في الإتيان بهذه الكملة بالإفراد، الإشارة إلى أن أهل الجنة يدخلونها على قلب رجل واحد. وفي صحيح ابن حبان عنها قالت: أغمي على رسول الله ﷺ ورأسه في حجري. فجعلت أمسحه وأدعو له بالشفاء، فلما أفاق قال: «**أسأل الله الرفيق الأعلى مع جبريل وميكائيل وإسرافيل**».

ولما احتضر ﷺ، اشتد به الأمر، قالت عائشة: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على النبي ﷺ، قالت: وكان عنده قدح من ماء، فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول: «**اللهم أعني على سكرات الموت**». وفي رواية[1]: فجعل يقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات**».

قال بعض العلماء: فيه أن ذلك من شدة الآلام والأوجاع لرفعة منزلته. وقال الشيخ أبو محمد المرجاني[2]: تلك السكرات سكرات الطرب، ألا ترى إلى قول بلال حين قال له أهله وهو في السياق: واكرباه، ففتح عينيه وقال: واطرباه، غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه، فإذا كان هذا طربه وهو في هذا الحال بلقاء محبوبه وهو النبي ﷺ وحزبه، فما بالك بلقاء النبي ﷺ لربه تعالى: ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين**﴾ [السجدة: ١٧] وهذا موضع تقصر العبارة عن وصف بعضه.

وفي حديث مرسل ذكره الحافظ ابن رجب: أنه ﷺ قال: «**اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل، فأعني عليه وهونه علي**». وعند الإمام أحمد والترمذي من طريق القاسم عنها قالت: ورأيته وعنده قدح فيه ماء وهو يموت، فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول: «**اللهم أعني على سكرات الموت**».

ولما تغشاه الكرب، قالت فاطمة رضي الله عنها: واكرب أبتاه، فقال لها: «**لا كرب**

---

(١) عند البخاري برقم (٦٥١٠).

(٢) هو عبد الله بن محمد بن عبد الملك أبو محمد المرجاني (٦٣٣ ـ ٦٩٩ هـ). متصوف له علم بالتفسير، ولد في الاسكندرية وتوفي بتونس ـ الاعلام ١٢٥/٤ شذرات الذهب ٤٥١/٥ وكشف الظنون (١٢٣٧).

**على أبيك بعد اليوم»**، رواه البخاري. قال الخطابي: زعم من لا يعد من أهل العلم: أن المراد بقوله ﷺ: «لا كرب على أبيك بعد اليوم» أن كربه كان شفقة على أمته، لما علم من وقوع الاختلاف والفتن بعده، وهذا ليس بشيء، لأنه كان يلزم أن تنقطع شفقته على أمته بموته، والواقع أنها باقية إلى يوم القيامة، لأنه مبعوث إلى من جاء بعده، وأعمالهم تعرض عليه، وإنما الكلام على ظاهره، وإن المراد بالكرب ما كان يجده ﷺ من شدة الموت، وكان ﷺ فيما يصيب جسده من الآلام كالبشر ليتضاعف له الأجر، انتهى.

وروى ابن ماجه: أنه ﷺ قال لفاطمة: «**إنه حضر من أبيك ما الله تعالى بتارك منه أحداً لموافاة يوم القيامة**».

وفي البخاري من حديث أنس بن مالك: أن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر من يوم الإثنين، وأبو بكر يصلي لهم لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، قال أنس: وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده ﷺ أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

وفي رواية أبي اليمان عن شعيب، عند البخاري، في «الصلاة»: فتوفي من يومه. وفي رواية معمر عنده أيضاً. وكلها من حديث أنس: لم يخرج إلينا ﷺ ثلاثاً، فأقيمت الصلاة، فذهب أبو بكر يتقدم، فقال نبي الله ﷺ بالحجاب فرفعه، فلما وضح لنا وجه رسول الله ﷺ ما نظرنا منظراً كان أعجب إلينا من وجه رسول الله ﷺ حين وضح لنا، قال: فأومأ رسول الله ﷺ إلى أبي بكر أن يتقدم وأرخى الحجاب. الحديث رواه الشيخان.

وعنه أن أبا بكر كان يصلي بهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الإثنين، وهم صفوف في الصلاة، كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة، فنظرنا إليه وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم رسول الله ﷺ ضاحكاً. الحديث رواه مسلم. وقد جزم موسى بن عقبة عن ابن شهاب، أنه ﷺ مات حين زاغت الشمس، وكذا لأبي الأسود عن عروة.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما بقي من أجل رسول الله ﷺ ثلاث، نزل عليه جبريل، فقال: يا محمد إن الله قد أرسلني إليك إكراماً لك، وتفضيلاً لك، وخاصة لك، يسألك عما هو أعلم به منك يقول: كيف تجدك؟ فقال: «**أجدني يا جبريل مغموماً، وأجدني يا جبريل مكروباً**»، ثم أتاه في اليوم الثاني فقال له مثل ذلك، ثم جاءه في اليوم الثالث فقال له مثل ذلك، ثم استأذن فيه ملك الموت فقال جبريل: يا محمد هذا ملك

الموت يستأذن عليك، ولم يأذن على نبي قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك، قال: «ائذن له»، فدخل ملك الموت فوقف بين يديه فقال: يا رسول الله، إن الله عز وجل أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمر، إن أمرتني أن أقبض روحك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها، فقال جبريل: يا محمد، إن الله قد اشتاق إلى لقائك، فقال ﷺ: «فامض يا ملك الموت لما أُمرت به»، فقال جبريل: يا رسول الله، هذا آخر موطئي من الأرض، إنما كنت حاجتي من الدنيا. فقبض روحه، فلما توفي ﷺ، وجاءت التعزية سمعوا صوتاً من ناحية البيت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فقال علي: أتدرون من هذا؟ هو الخضر عليه السلام[1]. رواه البيهقي في دلائل النبوة.

وفي تخريج أحاديث الإحياء للحافظ العراقي: وذكر التعزية المذكورة عن ابن عمر، مما ذكره في الإحياء وأن النووي أنكر وجود الحديث المذكور في كتب الحديث، وقال: إنما ذكره الأصحاب ثم قال العراقي: قد رواه الحاكم في المستدرك من حديث أنس ولم يصححه، ولا يصح.

ورواه ابن أبي الدنيا عن أنس أيضاً قال: لما قبض رسول الله ﷺ اجتمع أصحابه حوله يبكون، فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين في إزار ورداء، يتخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بعضادتي باب البيت فبكى على رسول الله ﷺ، ثم أقبل على أصحابه فقال: إن في الله عزاء من كل مصيبة، وعوضاً من كل فان. الحديث. وفيه: ثم ذهب الرجل، فقال أبو بكر: عليّ بالرجل، فنظروا يميناً وشمالاً فلم يروا أحداً، فقال أبو بكر لعلي: هذا الخضر، جاء يعزينا. ورواه ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث علي بن أبي طالب، وفيه محمد بن جعفر الصادق، تكلم فيه، وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي، والمعروف عن علي بن الحسين مرسلاً من غير ذكر علي، كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر للخضر عليه السلام.

قال البيهقي: قوله: «إن الله اشتاق إلى لقائك» معناه: قد أراد لقاءك بأن يردك من دنياك إلى معادك زيادة في قربك وكرامتك. وأخرج الطبراني من حديث ابن عباس قال:

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٧/٢١١ و ٢٦٧ والمعجم الكبير للطبراني ٣/١٣٩ وإتحاف السادة المتقين ١٠/٢٩٥ و ٢٩٦ وكنز العمال (١٨٨٢٥).

جاء ملك الموت إلى النبي ﷺ في مرضه ورأسه في حجر علي، فاستأذن فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال له علي؛ ارجع فإنا مشاغيل عنك، فقال ﷺ: «**هذا ملك الموت، ادخل راشداً**»، فلما دخل قال: إن ربك يقرئك السلام. فبلغني أن ملك الموت لم يسلم على أهل بيت قبله ولا يسلم بعده.

وقالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ في بيتي، في يومي، وبين سحري ونحري، وفي رواية: بين حاقنتي وذاقنتي. رواه البخاري. والحاقنة: بالمهملة والقاف والنون، أسفل من الذقن. والذاقنة: طرف الحلقوم. والسَحْر: بفتح السين وسكون الحاء المهملتين، هو الصدر. والنَحْر: بفتح النون وسكون الحاء المهملة. والمراد: أنه ﷺ توفي ورأسه بين عنقها وصدرها.

وهذا لا يعارضه ما أخرجه الحاكم وابن سعد من طرق: أنه ﷺ مات ورأسه في حجر علي، لأن كل طريق منها ـ كما قاله الحافظ ابن حجر ـ لا تخلو من شيء، فلا يلتفت لذلك والله أعلم.

قال السهيلي: وجدت في بعض كتب الواقدي: أن أول كلمة تكلم بها النبي ﷺ وهو مسترضع عند حليمة: الله أكبر، وآخر كلمة تكلم بها: الرفيق الأعلى.

وروى الحاكم من حديث أنس: أن آخر ما تكلم به ﷺ: «**جلال ربي الرفيع**».

ولما توفي ﷺ كان أبو بكر غائباً بالسنح ـ يعني العالية، عند زوجته بنت خارجة ـ وكان ﷺ قد أذن له في الذهاب إليها، فسل عمر بن الخطاب سيفه وتوعد من يقول: مات رسول الله ﷺ، وكان يقول: إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عليه السلام، فلبث عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم. فأقبل أبو بكر من السنح حين بلغه الخبر إلى بيت عائشة فدخل، فكشف عن وجه رسول الله ﷺ فجثا يقبله ويبكي ويقول: توفي والذي نفسي بيده، صلوات الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حياً وميتاً، ذكره الطبري في «الرياض».

وقالت عائشة: أقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنح، حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة، فبصر برسول الله ﷺ وهو مسجى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله ثم بكى وقال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها. رواه البخاري.

واختلف في قول أبي بكر رضي الله عنه: «**لا يجمع الله عليك موتتين**».

فقيل هو على حقيقته، وأشار بذلك إلى الرد على من زعم أنه سيحيا فيقطع أيدي

رجال، لأنه لو صح ذلك للزم أن يموت موتة أخرى، فأخبر أنه أكرم على الله من أن يجمع عليه موتتين كما جمعهما على غيره، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وكالذي مر على قرية، وهذا أوضح الأجوبة وأسلمها.

وقيل: أراد أنه لا يموت موتة أخرى في القبر كغيره، إذ يحيا ليسئل ثم يموت، وهذا جواب الداودي. وقيل: لا يجمع الله موت نفسك وموت شريعتك. وقيل: كنى بالموت الثاني عن الكرب، أي لا يلقى بعد كرب الموت كرباً آخر. قاله في فتح الباري.

وعنها: أن عمر قام يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله وقال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده، لا يذيقك الله الموتتين أبداً، ثم خرج فقال: أيها الحالف، على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال: **﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾** [الزمر: ٣٠] وقال: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** [آل عمران: ١٤٤] الآية، قال: فنشج الناس يبكون، رواه البخاري.

يقال: نشج الباكي، إذا غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب.

وعن سالم بن عبيد الأشجعي قال: لما مات رسول الله ﷺ كان أجزع الناس كلهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخذ بقائم سيفه وقال: لا أسمع أحداً يقول: مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفي هذا، قال: فقال الناس يا سالم، أطلب صاحب رسول الله ﷺ، قال: فخرجت إلى المسجد، فإذا بأبي بكر، فلما رأيته أجهشت بالبكاء، فقال: يا سالم أمات رسول الله ﷺ؟ فقلت: إن هذا عمر بن الخطاب يقول: لا أسمع أحداً يقول: مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفي هذا، قال: فأقبل أبو بكر حتى دخل على النبي ﷺ وهو مسجى، فرفع البرد عن وجهه، ووضع فاه على فيه واستنشى الريح، ثم سجاه والتفت إلينا فقال: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** [آل عمران: ١٤٤] الآية، وقال: **﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾** [الزمر: ٣٠] يا أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال عمر: فوالله لكأني لم أتل هذه الآيات قط، خرجه الحافظ أبو أحمد حمزة بن الحارث، كما ذكره الطبري في «الرياض» له، وقال: خرج الترمذي معناه بتمامه. واستنشى الريح: شمها، أي شم ريح الموت.

وعند أحمد: عن عائشة قالت: سجيت النبي ﷺ ثوباً، فجاء عمر والمغيرة بن شعبة فاستأذنا، فأذنت لهما وجذبت الحجاب، فنظر عمر إليه فقال: واغشياه، ثم قاما، فقال

المغيرة: يا عمر، مات، قال: كذبت، إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفني الله المنافقين. ثم جاء أبو بكر، فرفعت الحجاب فنظر إليه فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات رسول الله ﷺ.

وفي حديث ابن عباس عند البخاري: إن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله عز وجل: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** [آل عمران: ١٤٤] قال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها الناس منه كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

وفي حديث ابن عمر عند ابن أبي شيبة أن أبا بكر مر بعمر وهو يقول: ما مات رسول الله ﷺ ولا يموت حتى يقتل الله المنافقين. قال: وكانوا أظهروا الاستبشار ورفعوا رؤوسهم، فقال: أيها الرجل، إن رسول الله ﷺ قد مات: ألم تسمع الله تعالى يقول: **﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾** [الزمر: ٣٠] وقال: **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾** [الأنبياء: ٣٤] ثم أتى المنبر. الحديث.

قال القرطبي أبو عبد الله المفسر: وفي هذا أدل دليل على شجاعة الصديق، فإن الشجاعة حدها: ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ. فظهر عنده شجاعته وعلمه. قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ، واضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية، فرجع عمر عن مقالته التي قالها.

كما ذكر الوائلي أبو نصر عبد الله في كتاب «الإنابة» عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسجد رسول الله ﷺ واستوى على منبره ﷺ، تشهد ثم قال: أما بعد، فإني قلت لكم أمس مقالة وإنها لم تكن كما قلت، وإني والله ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب الله، ولا في عهد عهده رسول الله ﷺ ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا ـ أي يكون آخرنا موتاً، أو كما قال ـ فاختار الله عز وجل لرسوله الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا لما هدى له رسوله ﷺ.

قال أبو نصر: المقالة التي قالها ثم رجع عنها: هي أن النبي ﷺ لم يمت ولن يموت حتى يقطع أيدي وأرجل، وكان ذلك لعظيم ما ورد عليه وخشي الفتنة وظهور المنافقين، فلما شاهد قوة يقين الصديق الأكبر وتفوهه بقول الله عز وجل: **﴿كل نفس ذائقة الموت﴾**

[آل عمران: ١٨٥] وقوله: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر: ٣٠] وخرج الناس يتلونها في سكك المدينة كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم انتهى.

وقال ابن المنير: لما مات ﷺ طاشت العقول، فمنهم من خبل، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام، ومنهم من أضني، وكان عمر ممن خبل، وكان عثمان ممن أخرس، يذهب به ويجاء ولا يستطيع كلاماً، وكان علي ممن أقعد فلم يستطع حراكاً، وأضني عبد الله بن أنيس فمات كمداً. وكان أثبتهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، جاء وعيناه تهملان وزفراته تتردد وغصصه تتصاعد وتترفع، فدخل على النبي ﷺ فأكب عليه وكشف الثوب عن وجهه وقال: طبت حياً وميتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، ولو أن موتك كان اختياراً لجدنا لموتك بالنفوس. اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك.

ووقع في حديث ابن عباس وعائشة عند البخاري: أن أبا بكر قبل النبي ﷺ بعد ما مات، كما قدمنا. وكذا وقع في رواية غيره.

وفي رواية يزيد بن بابنوس عنها، عند أحمد، أنه أتاه من قبل رأسه، فحدر فاه وقبل جبهته ثم قال، وانبياه، ثم رفع رأسه فحدر فاه وقبل جبهته ثم قال: واصفياه، ثم رفع رأسه فحدر فاه وقبل جبهته وقال: واخليلاه.

وعند ابن أبي شيبة عن ابن عمر: فوضع فاه على جبين رسول الله ﷺ فجعل يقبله ويبكي ويقول: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً.

وعن عائشة: أن أبا بكر دخل على النبي ﷺ بعد وفاته، فوضع فاه بين عينيه، ووضع يديه على صدغيه وقال: وانبياه واخليلاه واصفياه. أخرجه ابن عرفة العبدي كما ذكره الطبري. قال: ولا تضاد بين هذا على تقدير صحته وبين ما تقدم مما تضمن ثباته، بأن يكون قد قال ذلك من غير انزعاج ولا قلق خافتاً به صوته، ثم التفت إليهم وقال لهم ما قال.

وأخرج البيهقي وأبو نعيم من طريق الواقدي عن شيوخه: أنهم شكوا في موته ﷺ، قال بعضهم: قد مات، وقال بعضهم: لم يمت، فوضعت أسماء بنت عميس يدها بين كتفيه ﷺ فقالت: قد توفي، قد رفع الخاتم من بين كتفيه، فكان هذا الذي قد عرف به موته. وأخرجه ابن سعد عن الواقدي أيضاً.

ولما توفي ﷺ قالت فاطمة: يا أبتاه، أجاب رباً دعاه، يا أبتاه، من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه[1]. رواه البخاري.

---

(١) هو عند البخاري برقم (٤٤٦٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وقد قيل الصواب: إليّ جبريل نعاه. جزم بذلك سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان. قال: والأول متوجه فلا معنى لتغليط الرواة بالظن. وزاد الطبراني: يا أبتاه، من ربه ما أدناه. وقد عاشت فاطمة رضي الله عنها بعده ﷺ ستة أشهر فما ضحكت تلك المدة، وحق لها ذلك.

علــى مثــل ليلــي يقتــل المــرء نفســه وإن كــان مــن ليلــى علــى الهجــر طــاويــا

وأخرج أبو نعيم عن علي قال: لما قبض ﷺ صعد ملك الموت باكياً إلى السماء، والذي بعثه بالحق نبياً لقد سمعت صوتاً من السماء ينادي: وامحمداه. الحديث. كل المصائب تهون عند هذه المصيبة.

وفي سنن ابن ماجه: أنه ﷺ قال في مرضه: **«أيها الناس، إن أحد من الناس، أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي»** . وقال أبو الجوزاء : كان الرجل من أهل المدينة إذا أصابته مصيبة جاء أخوه فصافحه ويقول: يا عبد الله، اتق الله، فإن في رسول الله أسوة حسنة. ويعجبني قول القائل:

اصبــــر لكــــل مصيبــــة وتجلــــد واعلــــم بــــأن المــــرء غيــــر مخلــــد

واصبــــر كمــــا صبــــر الكــــرام فــــإنهــــا نــــوب تنــــوب اليــــوم تكشــــف فــــي غــــد

وإذا أتتــــك مصيبــــة تشجــــى بهــــا فــــاذكــــر مصــــابــــك بــــالنبــــي محمــــد

ويرحم الله القائل:

تــــذكــــرت لمــــا فــــرق الــــدهــــر بيننــــا فعــــزيــــت نفســــي بــــالنبــــي محمــــد

وقلــــت لهــــا إن المنــــايــــا سبيلنــــا فمــــن لــــم يمــــت فــــي يــــومــــه مــــات فــــي غــــد

كادت الجمادات تتصدع من ألم فراقه ﷺ، فكيف بقلوب المؤمنين؟ لما فقده الجذع الذي كان يخطب إليه قبل اتخاذ المنبر حنَّ إليه وصاح. كان الحسن[1] إذا حدث بهذا الحديث بكى وقال: هذه خشبة تحن إلى رسول الله ﷺ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه.

وروي أن بلالاً لما كان يؤذن بعد وفاته ﷺ وقبل دفنه، فإذا قال: أشهد أن محمداً رسول الله، ارتج المسجد بالبكاء والنحيب. فلما دفن ترك بلال الأذان. ما أمرَّ عيش من فارق الأحباب خصوصاً من كانت رؤيته حياة الألباب.

لــــو ذاق طعــــم الفــــراق رضــــوى لكــــان مــــن وجــــده يميــــد

(١) أي الحسن البصري المتوفى سنة (١١٠ هـ).

قد حملوني عذاب شوق يعجز عن حمله الحديد

وقد كانت وفاته ﷺ يوم الإثنين بلا خلاف، وقت دخول المدينة في هجرته حين اشتد الضحاء، ودفن يوم الثلاثاء، وقيل ليلة الأربعاء.

فعند ابن سعد في الطبقات، عن علي: توفي رسول الله ﷺ يوم الإثنين، ودفن يوم الثلاثاء. وعنده أيضاً عن عكرمة، توفي يوم الإثنين، فحبس بقية يومه وليلته، ومن الغد حتى دفن من الليل، وعنده أيضاً: عن عثمان بن محمد الأخنس: توفي يوم الإثنين حين زاغت الشمس ودفن يوم الأربعاء. وروى أيضاً عن أبيّ بن عباس بن سهل عن أبيه عن جده: توفي يوم الإثنين، فمكث بقية يوم الإثنين والثلاثاء حتى دفن يوم الأربعاء. وعنده أيضاً: عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب: توفي يوم الإثنين حين زاغت الشمس[1].

[ورثته عمته صفية بمراثي كثيرة منها قولها:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا براً ولم تك جافيا
وكنت رحيماً هادياً ومعلما ليبك عليك اليوم من كان باكيا
لعمرك ما أبكي النبي لفقده ولكن لما أخشى من الهجر آتيا
كأن على قلبي لذكر محمد وما خفت من بعد النبي المكاويا
أفاطم صلى الله رب محمد على جدث أمسى بيثرب ثاويا
فدى لرسول الله أمي وخالتي وعمي وخالي ثم نفسي وماليا
فلو أن رب الناس أبقى نبينا سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية وأدخلت جنات من العدن راضيا
أرى حسناً أيتمته وتركته يبكّي ويدعو جده اليوم نائيا]

ورثاه أبو سفيان بن الحارث فقال:

أرقت فبت ليلي لا يزول وليل أخي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء وذاك فيما أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت عشية قيل قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحي والتنزيل فينا يروح به ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ما سالت عليه نفوس الناس أو كادت تسيل
نبي كان يجلو الشك عنا بما يوحى إليه وما يقول

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/٢٠٨ وما بعدها.

ويهـديـنـا فـلا نخشـى ضـلالاً عليـنـا والـرسـول لنـا دليـل
أفـاطـم إن جـزعـت فـذاك عـذر وإن لـم تجـزعـي ذاك السبيـل
فقبـر أبيـك سيـد كـل قبـر وفيـه سيـد النـاس الـرسـول

ورثاه الصديق بقوله:

لمـا رأيـت نبينـا متجنـدلاً ضـاقـت علـي بعـرضهـن الـدور
فـارتـاع قلبـي عنـد ذاك لهلكـه والعظـم منـي مـا حييـت كسيـر
أعتيـق ويحـك إن حبـك قـد ثـوى فـالصبـر عنـك لمـا لقيـت يسيـر
يـا ليتنـي مـن قبـل مهلـك صـاحبـي غيبـت فـي جـدث علـي صخـور
فلتحـدثـن بـدائـع مـن بعـده يعيـى بهـن جـوارح وصـدور

ورثاه الصديق أيضاً بقوله:

ودعنـا الـوحـي إذا وليـت عنـا فـودعنـا مـن الله الكـلام
سـوى مـا قـد تـركـت لنـا رهينـاً تضمنـه القـراطيـس الكـرام

ولقد أحسن حسان بقوله يرثيه ﷺ:

كنـت الســواد لنـاظـري فعمـي عليـك النـاظـر
مـن شـاء بعـدك فليمـت فعليـك كنـت أحـاذر

ورثاه حسان بقوله أيضاً:

بطيبـة رسـم للـرسـول ومعهـد مبيـن وقـد تعفـو الـرسـوم وتهمـد
ولا تنمحـي الآيـات مـن دار حـرمـه بهـا منبـر الهـادي الـذي كـان يصعـد
وأوضـح آيـات وبـاقـي معـالـم وربـع لـه فيـه مصلـى ومسجـد
بهـا حجـرات كـان ينـزل وسطهـا مـن الله نـور يستضـاء ويـوقـد
معـارف لـم تطمس علـى العهـد آيهـا أتـاهـا البلـى فـالآي منهـا تجـدد
عـرفـت بهـا رسـم الـرسـول وعهـده وقبـراً بهـا واراه فـي التـرب ملحـد
أطـالـت وقـوفـاً تـذرف العيـن دمعهـا علـى طلـل القبـر الـذي فيـه أحمـد
فبـوركـت يـا قبـر الـرسـول وبـوركـت بـلاد ثـوى فيهـا الـرشيـد المسـدد
وبـورك لحـد منـك ضمـن طيبـا عليـه بنـاء مـن صفيـح منضـد
تهيـل عليـه التـرب أيـد وأعيـن تبـاكـت وقـد غـارت بـذلـك أسعـد
لقـد غيبـوا حلمـاً وعلمـاً ورحمـة عشيـة عـالـوه الثـرى لا يـوسـد
وراحـوا بحـزن ليـس فيهـم نبيهـم وقـد وهنـت منهـم ظهـور وأعضـد

يبكـون مـن تبكـي السمـوات مـوتـه ... ومـن قـد بكتـه الأرض والنـاس أكمـد
وهـل عـدلـت يـومـاً رزيـة هـالـك ... رزيـة يـوم مـات فيـه محمـد

ولما تحقق عمر بن الخطاب رضي الله عنه موته ﷺ بقول أبي بكر، ورجع إلى قوله، قال وهو يبكي: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه، فلما كثروا اتخذت منبراً لتسمعهم، فحن الجذع لفراقك، حتى جعلت يدك عليه فسكن، فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته، فقال: من يطع الرسول فقد أطاع الله، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم، فقال تعالى: ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح**﴾ [الأحزاب: ٧] الآية، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده، أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم في أطباقها يعذبون ، يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول . الخبر ذكره أبو العباس القصار في شرحه لبردة الأبوصيري، ونقله عنه الرشاطي[1] في كتابه «اقتباس الأنوار والتماس الأزهار» وذكره ابن الحاج في المدخل وساقه بتمامه، والقاضي عياض في «الشفاء» لكنه ذكر بعضه، ويقع في كثير من نسخ الشفاء: روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في كلام بكى به النبي ﷺ، بتشديد الكاف من بكى، والصواب فيها التخفيف، لأن هذا الكلام إنما سمع من عمر رضي الله عنه بعد موته ﷺ كما تقدم، ونبهت عليه في حاشية الشفاء والله أعلم. ويؤيد هذا قوله في الخبر نفسه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد اتبعك في قصر عمرك ما لم يتبع نوحاً في كثرة سنه وطول عمره، فلقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل.

وأخرج ابن عساكر عن أبي ذؤيب الهذلي قال: بلغنا أن النبي ﷺ عليل، فأوجس الحي خيفه، وبث بليلة طويلة حتى إذا كان السحر نمت فهتف بي هاتف وهو يقول:

خطـب أجـل أنـاخ بـالإسـلام ... بيـن النخيـل ومقعـد الآطـام
قبـض النبـي محمـد فعيـوننـا ... تبـدي الـدمـوع عليـه بـالتسجـام

فوثبت من نومي فزعاً، فنظرت إلى السماء فلم أر إلا سعد الذابح فعلمت أن النبي ﷺ قبض!! أو هو ميت، فقدمت المدينة ولأهلها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلوا بالإحرام، فقلت: مه؟ فقيل: قبض رسول الله ﷺ.

---

(١) هو عبد الله بن علي اللخمي الشهير بالرشاطي أبو محمد المتوفى سنة (٤٦٦ هـ). انظر كشف الظنون ١/ ١٣٤.

ومن عجيب ما اتفق ما روي عن عائشة: أنهم لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: لا ندري، انجرد النبي ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه، فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت، لا يدرون من هو، اغسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا وغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه بالقميص. رواه البيهقي في دلائل النبوة[1].

وروى ابن ماجه بسند جيد عن علي يرفعه: «**إذا أنا مت فاغسلوني بسبع قرب من بئري بئر غرس**»[2]. قال في النهاية: بفتح الغين المعجمة وسكون الراء والسين المهملتين.

وقد روى ابن النجار: أنه ﷺ قال: «**رأيت الليلة أني أصبحت على بئر من الجنة**»، فأصبح على بئر غرس فتوضأ منها وبزق فيها.

وغسل ﷺ ثلاث غسلات، الأولى بالماء القراح، والثانية بالماء والسدر، والثالثة بالماء والكافور، وغسله علي، والعباس وابنه الفضل يعينانه، وقثم وأسامة وشقران مولاه ﷺ يصبون الماء وأعينهم معصوبة من وراء الستر. لحديث علي: «**لا يغسلني إلا أنت فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طمست عيناه**» رواه البزار والبيهقي.

وأخرج البيهقي عن الشعبي قال: غسل علي النبي ﷺ فكان يقول وهو يغسله ﷺ: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً.

أخرج أبو داود، وصححه الحاكم عن علي قال: غسلته ﷺ فذهبت أنظر ما يكون من الميت، فلم أر شيئاً، وكان طيباً حياً وميتاً.

وفي رواية ابن سعد: وسطعت ريح طيبة لم يجدوا مثلها قط.

قيل: وجعل علي على يده خرقة وأدخلها تحت القميص ثم اعتصروا قميصه، وحنطوا مساجده[3] ومفاصله، ووضؤوا منه ذراعيه ووجهه وكفيه وقدميه وجمروه عوداً ونداً.

وذكر ابن الجوزي أنه روي عن جعفر بن محمد قال: كان الماء يستنقع في جفون النبي ﷺ فكان علي يحسوه. وأما ما روي أن علياً لما غسله ﷺ امتص ماء محاجر عينيه فشربه، وأنه قد ورث بذلك علم الأولين والآخرين، فقال النووي: ليس بصحيح.

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٧/٢٤٢ وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٥٩ ونقله السيوطي في الخصائص الكبرى ٢/٢٧٥ وعزاه لابن سعد ولأبي داود والبيهقي. وانظر طبقات ابن سعد ٢/٢١٢.

(٢) الحديث في سنن ابن ماجه (١٤٦٨) وفي المغني للعراقي ١/٢٦١ وفي اتحاف السادة المتقين ١٠/٢٨٨ وفي الكامل لابن عدي ٢/٧٦٢ وفي كنز العمال (٤٢٢٩).

(٣) أي أماكن السجود من جسمه ﷺ.

وفي حديث عروة عن عائشة قالت: كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب سحولية بيض، أخرجه النسائي من رواية عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة. واتفق عليه الأئمة الستة من طريق هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة بزيادة: من كرسف ليس فيها قميص ولا عمامة. وليس قوله «من كرسف» عند الترمذي ولا ابن ماجه.

زاد مسلم: أما الحلة فإنما شُبِّه على الناس فيها أنها اشتريت له ليكفن فيها، فتركت الحلة وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية، فأخذها عبد الله بن أبي بكر فقال: لأحبسنها حتى أكفن فيها نفسي، ثم قال: لو رضيها الله عز وجل لنبيه لكفنه فيها فباعها وتصدق بثمنها.

وفي رواية له: أدرج رسول الله ﷺ في حلة يمانية كانت لعبد الله بن أبي بكر ثم نزعت عنه، وذكر الحديث بطوله.

وفي رواية أصحاب السنن الأربعة: فذكر لعائشة قولهم كفن في ثوبين وبرد حبرة، فقالت: قد، أتي بالبرد ولكنهم ردوه ولم يكفنوه فيه. قال الترمذي: حسن صحيح.

وفي رواية البيهقي: في ثلاثة أثواب بيض سحولية جدد.

والسحولية: بفتح السين وضمها، قال النووي: والفتح أشهر، وهو رواية الأكثرين، وفي النهاية تبعاً للهروي، فالفتح منسوب إلى السحول وهو القصار، لأنه يسحلها، أي يغسلها، أو إلى سحول وهي قرية باليمن، وأما الضم فهو جمع سحل وهو الثوب الأبيض النقي، ولا يكون إلا من قطن، وفيه شذوذ لأنه نسب إلى الجمع، وقيل: إن اسم القرية بالضم أيضاً.

والكرسف: بضم الكاف وإسكان الراء، وضم السين المهملتين والفاء: القطن.

وقال الترمذي: روي في كفن النبي ﷺ روايات مختلفة، وحديث عائشة أصح الأحاديث في ذلك، والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم.

وقال البيهقي في «الخلافيات»: قال أبو عبد الله ـ يعني الحاكم ـ: تواترت الأخبار عن علي بن أبي طالب وابن عباس وعائشة وابن عمر، وجابر وعبد الله بن مغفل، في تكفين النبي ﷺ في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة.

وعن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن ابن الحنفية عن علي: أن رسول الله ﷺ كفن في سبعة أثواب، وقد روى هذا الحديث أحمد في مسنده، وذكر ابن حزم: أن الوهم فيه من ابن عقيل أو ممن بعده.

وقد اختلف في معنى قوله: «ليس فيها قميص ولا عمامة». فالصحيح أن معناه: أنه ليس في الكفن قميص ولا عمامة أصلاً. والثاني: أن معناه أنه كفن في ثلاثة أثواب خارج عن القميص والعمامة.

قال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد: والأول أظهر في المراد، وذكر النووي في شرح مسلم أن الأول تفسير الشافعي وجمهور العلماء، قال: وهو الصواب الذي يقتضيه ظاهر الحديث، وقال: إن الثاني ضعيف، فلم يثبت أنه ﷺ كفن في قميص وعمامة، انتهى.

وترتب على هذا اختلافهم: في أنه هل يستحب أن يكون في الكفن قميص وعمامة أم لا؟

فقال مالك والشافعي وأحمد: يستحب أن تكون الثلاثة لفائف، ليس فيها قميص ولا عمامة، واختلفوا في زيادة القميص والعمامة أو غيرها على اللفائف الثلاثة لتصير خمسة، فذكر الحنابلة أنه مكروه، وقال الشافعية: إنه جائز غير مستحب، وقال المالكية: إنه يستحب للرجال والنساء، وهو في حق النساء أكد. قال: والزيادة إلى السبعة غير مكروهة، وما زاد عليها سرف، وقال الحنفية: الأثواب الثلاثة، إزار وقميص ولفافة. وقد أجمع المسلمون على وجوبه، وهو فرض كفاية فيجب في ماله، فإن لم يكن له مال فعلى من تلزمه نفقته.

واختلف أصحابنا في المتزوجة إذا كان لها مال، هل يجب تكفينها من مالها، أو هو على زوجها، فذهب إلى الأول الرافعي في «الشرح الصغير» و «المحرر» والنووي في «المنهاج». وذهب إلى الثاني: الرافعي في «الشرح الكبير» والنووي في «الروضة» و «شرح المهذب» وقال فيه: قيد الغزالي وجوب التكفين على الزوج بشرط إعسار المرأة، وأنكروه عليه، انتهى.

ومتى كانت معسرة فتكفينها على زوجها قطعاً، ثم إن الواجب ثوب واحد، وهو حق الله تعالى، لا تنفذ وصية الميت بإسقاطه بخلاف الثاني والثالث فإنه حق للميت، تنفذ وصيته بإسقاطهما.

وفي هذا الحديث أيضاً دلالة على أن القميص الذي غسل فيه النبي ﷺ نزع عنه عند تكفينه. قال النووي في شرح مسلم: وهذا هو الصواب الذي لا يتجه غيره، لأنه لو بقي مع رطوبته لأفسد الأكفان. قال: وأما الحديث الذي في سنن أبي داود عن ابن عباس أن النبي ﷺ كفن في ثلاثة أثواب: الحلة ثوبان وقميصه الذي توفي فيه، فحديث ضعيف، لا يصح الاحتجاج به، لأن يزيد بن زياد، أحد رواته مجمع على ضعفه، لا سيما وقد خالف بروايته الثقات.

وفي حديث ابن عباس عند ابن ماجه: لما فرغوا من جهازه ﷺ يوم الثلاثاء، وضع على سريره في بيته ثم دخل الناس عليه ﷺ أرسالاً يصلون عليه، حتى إذا فرغوا دخل النساء، حتى إذا فرغن دخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد.

وفي رواية[1]: إن أول من صلى عليه ﷺ الملائكة أفواجاً، ثم أهل بيته، ثم الناس فوجاً فوجاً، ثم نساؤه آخراً.

وروي أنه لما صلى أهل بيته لم يدر الناس ما يقولون فسألوا ابن مسعود، فأمرهم أن يسألوا علياً فقال لهم: قولوا: ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي**﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآية، لبيك اللهم ربنا وسعديك، صلوات الله البر الرحيم، والملائكة المقربين، والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وما سبح لك من شيء يا رب العالمين، على محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وإمام المتقين ورسول رب العالمين، الشاهد البشير الداعي إليك بإذنك السراج المنير، وعليه السلام، ذكره الشيخ زين الدين بن الحسين المراغي[2] في كتابه تحقيق النصرة.

ثم قالوا: أين تدفنونه؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما هلك نبي قط إلا يدفن حيث تقبض روحه**»، وقال علي: وأنا أيضاً سمعته.

وحفر أبو طلحة لحد رسول الله ﷺ في موضع فراشه حيث قبض. وقد اختلف فيمن أدخله قبره، وأصح ما روي: أنه نزل في قبره عمه العباس وعلي وقثم بن العباس والفضل بن العباس، وكان آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ قثم بن العباس.

وروي أنه بني في قبره تسع لبنات، وفرش تحته قطيفة نجرانية كان يتغطى بها، فرشها شقران في القبر، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك.

قال النووي: وقد نص الشافعي وجميع أصحابه وغيرهم من العلماء على كراهة وضع قطيفة أو مضربة أو مخدة ونحو ذلك تحت الميت في القبر. وشذ البغوي من أصحابنا فقال في كتابه «التهذيب»: لا بأس بذلك لهذا الحديث، والصواب كراهية ذلك كما قاله الجمهور، وأجابوا عن هذا الحديث: بأن شقران انفرد بفعل ذلك، ولم يوافقه أحد من الصحابة، ولا علموا بذلك، وإنما فعله شقران لما ذكرناه عنه من كراهيته أن يلبسها أحد بعد النبي ﷺ. انتهى.

---

(١) عند الطبراني وغيره.

(٢) هو زين الدين أبي بكر بن الحسين بن عمر العثماني المراغي نزيل طيبة. المتوفى سنة (٨١٦ هـ). انظر كشف الظنون ١/٣٧٨.

وفي كتاب «تحقيق النصرة»: قال ابن عبد البر: ثم أخرجت، يعني القطيفة من القبر لما فرغوا من وضع اللبنات التسع. حكاه ابن زبالة.

ولما دفن ﷺ جاءت فاطمة رضي الله عنها فقالت: كيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟ وأخذت من تراب القبر الشريف ووضعته على عينيها وأنشأت تقول:

| | |
|---|---|
| مــاذا علــى مــن شـم تــربــة أحمــد | أن لا يشــم مــدى الــزمــان غــواليــا |
| صبــت علــيَّ مصــائــب لــو أنهــا | صبــت علــى الأيــام عــدن ليــاليــا |

قال رزين: ورش قبره ﷺ، رشه بلال بن رباح بقربة، بدأ من قبل رأسه. حكاه ابن عساكر. وجعل عليه من حصباء العرصة حمراء وبيضاء. ورفع قبره من الأرض قدر شبر.

وفي حديث عائشة عند البخاري قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: (**لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**)[1] لولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أو خُشي أن يُتخذ مسجداً.

كذا في رواية أبي عوانة عن هلال «خَشي أو خُشي» على الشك. فرواية «الضم» مبهمة يمكن أن تفسر بأنها هي التي منعت من إبرازه، والهاء ضمير الشأن، وكأنها أرادت نفسها ومن وافقها على ذلك. وهذا يقتضي أنهم فعلوه باجتهاد، بخلاف رواية الفتح فإنها تقتضي أن النبي ﷺ هو الذي أمرهم بذلك.

وقوله: «لأبرز قبره» أي: لكشف قبره ﷺ ولم يتخذ عليه حائل. والمراد: الدفن خارج بيته، وهذا قالته عائشة رضي الله عنها قبل أن يوسع المسجد، ولهذا لما وسع المسجد جعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة، حتى لا يتأتى لأحد أن يصلي إلى جهة القبر الكريم مع استقبال القبلة.

وفي البخاري أيضاً من حديث أبي بكر بن عياش عن سفيان التمار: أنه حدثه أنه رأى قبر النبي ﷺ مسنماً أي مرتفعاً. زاد أبو نعيم في «المستخرج»: وقبر أبي بكر وعمر كذلك.

واستدل به على أن المستحب تسنيم القبور، وهو قول أبي حنيفة ومالك وأحمد والمزني وكثير من الشافعية، وادعى القاضي حسين اتفاق الأصحاب عليه. وتعقب: بأن

---

(١) الحديث أيضاً عند مسلم في المساجد رقم (١٩) وفي المسند ٢١٨/١ و٥١٨ و٢٠٤/٥ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢٦٤/٧ وفي التمهيد لابن عبد البر ١٩٦/١ و٤٦/٥ وفي مجمع الزوائد ٢٧/٢ وفي المشكاة (٧١٢) وفي كنز العمال (١٨٧٦٢ ـ ١٩١٨٩ ـ ٢٢٥٢٣).

جماعة من قدماء الشافعية استحبوا التسطيح كما نص عليه الشافعي. وبه جزم الماوردي وآخرون.

وقول سفيان التمار لا حجة فيه، كما قال البيهقي لاحتمال أن قبره ﷺ في الأول لم يكن مسنماً. فقد روى أبو داود والحاكم من طريق القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: دخلت على عائشة فقلت: يا أمه، اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء. زاد الحاكم: فرأيت رسول الله ﷺ مقدماً وأبو بكر رأسه بين كتفي النبي ﷺ، وعمر رأسه عند رجلي النبي ﷺ. وهذا كان في خلافة معاوية. فكأنها كانت في الأول مسطحة، ثم لما بني جدار القبور في إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك صيروها مرتفعة.

وقد روى أبو بكر الآجري[1] في كتاب «صفة قبر النبي ﷺ» من طريق إسحاق بن عيسى ابن بنت داود بن أبي هند، عن عثيم بن نسطاس المدني قال: رأيت قبر النبي ﷺ في إمارة عمر بن عبد العزيز: رأيته مرتفعاً نحواً من أربع أصابع، ورأيت قبر أبي بكر وراء قبره، ورأيت قبر عمر وراء قبر أبي بكر أسفل منه.

ثم الاختلاف في ذلك في أنهما أفضل، لا في أصل الجواز، ورجح المزني التسنيم من حيث المعنى، بأن المسطح يشبه ما يصنع للجلوس، بخلاف المسنم. ويرجح التسطيح ما رواه مسلم من حديث فضالة بن عبيد أنه أمر بقبر فسوي ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها.

وعن هشام بن عروة عن أبيه: لما سقط عليهم الحائط، يعني حائط حجرة النبي ﷺ في زمان الوليد بن عبد الملك، أخذوا في بنائه، فبدت لهم قدم ففزعوا وظنوا أنها قدم النبي ﷺ، فما وجدوا أحداً يعلم ذلك حتى قال لهم عروة: والله ما هي قدم النبي ﷺ، والله ما هي إلا قدم عمر، رواه البخاري أيضاً.

والسبب في ذلك ما رواه الآجري من طريق شعيب بن إسحاق عن هشام بن عروة قال: أخبرني أبي قال: كان الناس يصلون إلى القبر الشريف، فأمر عمر بن عبد العزيز فرفع حتى لا يصلي إليه أحد، فلما هدم بدت قدم بساق وركبة، ففزع عمر بن عبد العزيز فأتاه عروة فقال: هذا ساق عمر وركبته فسري عن عمر بن عبد العزيز.

---

(١) هو محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري، فقيه شافعي محدث. ولد في آجر وتوفي في مكة سنة (٣٦٠ هـ). الأعلام ٦/ ٩٧، وفيات الأعيان ١/ ٤٨٨ صفة الصفوة ٢/ ٢٦٥، وتاريخ بغداد ٢/ ٢٤٣:

وروى الآجري قال رجاء بن حيوة: قبر أبي بكر عند وسط النبي ﷺ، وعمر خلف أبي بكر، رأسه عند وسطه، وهذا ظاهره يخالف حديث القاسم، فإن أمكن الجمع، وإلا فحديث القاسم أصح.

وأما ما أخرجه أبو يعلى من وجه آخر عن عائشة: أبو بكر عن يمينه وعمر عن يساره فسنده ضعيف. انتهى ملخصاً من فتح الباري.

وقد اختلف أهل السير وغيرهم في صفة القبور المقدسة على سبع روايات، أوردها ابن عساكر في «تحفة الزائر» ونقل أهل السير عن سعيد بن المسيب قال: بقي في البيت موضع قبر في السهوة الشرقية يدفن فيه عيسى ابن مريم عليهما السلام، ويكون قبره الرابع.

وفي «المنتظم» لابن الجوزي: عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: **«ينزل عيسى ابن مريم في الأرض، فيتزوج ويولد له ويمكث خمساً وأربعين سنة ثم يموت فيدفن معي في قبري، فأقوم أنا وعيسى ابن مريم من قبر واحد بين أبي بكر وعمر»**[1]. كذا ذكره في «تحقيق النصرة» والله أعلم.

فإن قلت: تقدم أنه ﷺ توفي يوم الإثنين، ودفن يوم الأربعاء، فلمَ أخر دفنه ﷺ؟ وقد قال ﷺ لأهل بيت أخروا دفن ميتهم: **«عجلوا دفن ميتكم ولا تؤخروه»**[2].

فالجواب: لما ذكر من عدم اتفاقهم على موته، أو لأنهم كانوا لا يعلمون حيث يدفن، قال قوم في البقيع وقال آخرون: في المسجد، وقال قوم: يحمل إلى إبراهيم حتى يدفن عنده، حتى قال العالم الأكبر صديق الأمة: سمعته يقول: **«ما دفن نبي إلا حيث يموت»**. ذكره ابن ماجه والموطأ كما تقدم. وفي رواية الترمذي: **«ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه، ادفنوه في موضع فراشه»**.

ولأنهم اشتغلوا في الخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة، فنظروا فيها حتى استقر الأمر في الخلافة ونظامها، فبايعوا أبا بكر، ثم بايعوه بالغد بيعة أخرى على ملأ منهم، وكشف الله به الكربة من أهل الردة، ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبي ﷺ، فنظروا في دفنه فغسلوه وكفنوه ودفنوه.

ولما قبض ﷺ تزينت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة، لا كزينة المدينة يوم قدوم

---

(١) الحديث في المنتظم ٢/ ٣٩.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ٤/ ٢٢٤ و ٥/ ٢٩٨.

الملك. إذا كان عرش الرحمن قد اهتز لموت بعض أتباعه(١) فرحاً واستبشاراً لقدوم روحه، فكيف بقدوم روح الأرواح.

ولما قدم ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابهم فرحاً بقدومه. كما رواه أبو داود من حديث أنس، وفي رواية الدارمي قال أنس: ما رأيت يوماً كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ المدينة، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ.

وفي رواية الترمذي: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا أيدينا من التراب، وإنا لفي دفنه، حتى أنكرنا قلوبنا.

ومن آياته ﷺ ما ذكر من بعد موته، من حزن حماره عليه حتى تردى في بئر وكذا ناقته فإنها لم تأكل ولم تشرب حتى ماتت. ومن ذلك: ظهور ما أخبر أنه كائن بعد موته، مما لا نهاية له ولا عد يحصيه، مما ذكرت بعضه في المقصد الثامن.

وفي حديث أبي موسى عند مسلم: أنه ﷺ قال: «**إن الله إذا أراد بأمة خيراً قبض نبيها قبلها، فجعله فرطاً وسلفاً بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي، فأهلكها وهو ينظر، فأقر عينيه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره**».

وإنما كان قبض النبي ﷺ قبل أمته خيراً، لأنهم إذا قبضوا قبله انقطعت أعمالهم، وإذا أراد الله بهم خيراً جعل خيرهم مستمراً ببقائهم محافظين على ما أمروا به من العبادات وحسن المعاملات نسلاً وعقباً بعد عقب.

## الفصل الثاني
## في زيارة قبره الشريف ومسجده المنيف

اعلم أن زيارة قبره الشريف من أعظم القربات، وأرجى الطاعات، والسبيل إلى أعلى الدرجات، ومن اعتقد غير هذا فقد انخلع من ربقة الإسلام، وخالف الله ورسوله وجماعة العلماء الأعلام(٢).

وقد أطلق بعض المالكية، وهو أبو عمران الفاسي، كما ذكره في المدخل عن تهذيب الطالب لعبد الحق، أنها واجبة، قال: ولعله أراد وجوب السنن المؤكدة. وقال القاضي

---

(١) هو سعد بن معاذ رضي الله عنه.

(٢) انظر كتاب براءة الأشعريين من عقائد المخالفين ١/ ١٧٥.

عياض: إنها سنة من سنن المسلمين مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها.

وروى الدارقطني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**من زار قبري وجبت له شفاعتي**»[1]، ورواه عبد الحق في أحكامه الوسطى، وفي الصغرى وسكت عنه وسكوته عن الحديث فيهما دليل على صحته[2].

وفي المعجم الكبير للطبراني: أن النبي ﷺ قال: «**من جاءني زائراً لا تعمله حاجة إلا زيارتي، كان حقاً عليّ أن أكون شفيعاً له يوم القيامة**»[3] وصححه ابن السكن.

وروي عنه ﷺ: «**من وجد سعة ولم يفد إلي فقد جفاني**»[4]. ذكره ابن فرحون في مناسكه، والغزالي في الإحياء، ولم يخرجه العراقي، بل أشار إلى ما أخرجه ابن النجار في تاريخ المدينة مما هو في معناه عن أنس بلفظ: «**ما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرني إلا وليس له عذر**».

ولابن عدي في «الكامل» وابن حبان في «الضعفاء»، والدارقطني في «العلل» و«غرائب مالك» وآخرين كلهم عن ابن عمر مرفوعاً: «**من حج ولم يزرني فقد جفاني**». ولا يصح.

وعلى تقدير ثبوته، فليتأمل قوله «فقد جفاني» فإنه ظاهر في حرمة ترك الزيارة لأن الجفاء أذى، والأذى حرام بالإجماع فتجب الزيارة، إذ إزالة الجفاء واجبة، حينئذ، فمن تمكن من زيارته ولم يزره فقد جفاه، وليس من حقه علينا ذلك.

وعن حاطب أن رسول الله ﷺ قال: «**من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن مات بأحد الحرمين بعث من الآمنين**»[5]. رواه البيهقي عن رجل من آل حاطب لم يسمه عن حاطب.

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه ٢/٢٧٨، والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/٢، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤/٤١٧ وفي كنز العمال (٤٢٥٨٣).

(٢) ضعفه البيهقي، وقال الذهبي: طرقه كلها لينة.

(٣) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤/٤١٦ والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/٢ والطبراني في المعجم ١٢/٢٩١ والسيوطي في الدر المنثور ١/٢٣٧ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٩٢٨).

(٤) الحديث في الدر المنثور ١/٢٣٧، وفي كشف الخفاء ٢/٣٣٨ ـ ٣٨٢، وفي الدرر المنتثرة (١٥٩).

(٥) أخرجه الدارقطني في السنن ٢/٢٧٨، وفي إتحاف السادة المتقين ٤/٤١٦، وفي كشف الخفاء ٢/٣٤٧ وفي كنز العمال (١٢٣٧٢).

وعن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من زار قبري» أبو قال: «من زارني كنت له شفيعاً وشهيداً»[1] رواه البيهقي وغيره عن رجل من آل عمر لم يسمه عن عمر.

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: « من زارني محتسباً إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة»[2]. رواه البيهقي أيضاً.

قال العلامة زين الدين بن الحسين المراغي: وينبغي لكل مسلم اعتقاد كون زيارته ﷺ قربة، للأحاديث الواردة ذلك ولقوله تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول﴾ [النساء: ٦٤] الآية، لأن تعظيمه ﷺ لا ينقطع بموته، ولا يقال إن استغفار الرسول لهم إنما هو في حال حياته وليست الزيارة كذلك، لما أجاب به بعض أئمة المحققين: أن الآية دلت على تعليق وجدان الله تواباً رحيماً بثلاثة أمور: المجيء، واستغفارهم، واستغفار الرسول لهم، وقد حصل استغفار الرسول لجميع المؤمنين والمؤمنات لأنه ﷺ قد استغفر للجميع، قال الله تعالى: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ [محمد: ١٩] فإذا وجد مجيئهم واستغفارهم تكملت الأمور الثلاثة الموجبة لتوبة الله ورحمته.

وقد أجمع المسلمون على استحباب زيارة القبور، كما حكاه النووي، وأوجبها الظاهرية، فزيارته ﷺ مطلوبة بالعموم والخصوص. لما سبق، ولأن زيارة القبور تعظيم، وتعظيمه ﷺ واجب. ولهذا قال بعض العلماء: لا فرق في زيارته ﷺ بين الرجال والنساء، وإن كان محل الإجماع على استحباب زيارة القبور للرجال، وفي النساء خلاف، والأشهر في مذهب الشافعي الكراهة.

قال ابن حبيب من المالكية: ولا تدع زيارة قبره ﷺ والصلاة في مسجده، فإن فيه من الرغبة ما لا غنى بك ولا بأحد عنه.

وينبغي لمن نوى الزيارة أن ينوي مع ذلك زيارة مسجده الشريف، والصلاة فيه، لأنه أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها، وهو أفضلها عند مالك، وليس لشد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة فضل، لأن الشرع لم يجيء به، وهذا الأمر لا يدخله قياس، لأن شرف البقعة إنما يعرف بالنص الصريح عليه، وقد ورد النص في هذه دون غيرها.

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٢٢٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٥٥ والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٢٢٤.

وقد صح أن عمر بن عبد العزيز كان يبرد البريد للسلام على النبي ﷺ[1]. فالسفر إليه قربة لعموم الأدلة. ومن نذر الزيارة وجبت عليه. كما جزم به ابن كج من أصحابنا، وعبارته: إذا نذر زيارة قبر النبي ﷺ لزمه الوفاء، وجهاً واحداً، انتهى: ولو نذر إتيان المسجد الأقصى للصلاة لزمه ذلك على الأصح عندنا، وبه قال المالكية والحنابلة، لكنه يخرج عنه بالصلاة في المسجد الحرام. وصحح النووي أيضاً أنه يخرج عنه بالصلاة في مسجد المدينة. قال: ونص عليه الشافعي في البويطي. وبه قال الحنفية والحنابلة.

وللشيخ تقي الدين بن تيمية هنا كلام شنيع عجيب، يتضمن منع شد الرحال للزيارة النبوية المحمدية ،وأنه ليس من القرب ،بل بضد ذلك[2]. ورد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في «شفاء السقام» فشفى صدور المؤمنين.

وحكى الشيخ ولي الدين العراقي، أن والده كان معادلاً للشيخ زين الدين عبد الرحمن بن رجب الدمشقي في التوجه إلى بلد الخليل عليه السلام، فلما دنا من البلد قال: نويت الصلاة في مسجد الخليل، ليحترز عن شد الرحال لزيارته على طريقة شيخ الحنابلة ابن تيمية، فقلت: نويت زيارة قبر الخليل عليه السلام. ثم قلت: أما أنت فقد خالفت النبي ﷺ، لأنه قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» وقد شددت الرحل إلى مسجد

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب.

(٢) قال الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية صفحة (١٢٩) ما نصه: «وليس هذا بأول ورطة وقع فيها ابن تيمية وأتباعه فإنه جعل شد الرحال إلى بيت المقدس معصية كما تقدم ذلك وردَّه، ونهى عن التوسل بالنبي ﷺ إلى الله تعالى وبغيره من الأولياء أيضاً وخالف الإجماع من الأئمة الأربعة في عدم وقوع الطلاق الثلاث بلفظة واحدة. إلى غير ذلك من التهورات الفظيعة الموجبة لكمال القطيعة التي استوفاها الشيخ العلامة والعمدة الفهامة تقي الدين الحصني الشافعي رحمه الله تعالى في كتاب مستقل في الرد على ابن تيمية وأتباعه وصرَّح فيه بكفره.
هذا وقد صرح بعض الحنابلة كأبي الفرج بن الجوزي وشيخه ابن عقيل بأنه يكره قصد القبور للدعاء لكنهما لم يحرما ولم يحرم أحد من السلف ولا الخلف ذلك إنما الذي ورد عن بعض العلماء هو الكراهة وليس التحريم أما ابن تيمية فقد طغى قلمه فزاغ عن الصواب إلى تكفير المسلمين بذلك. ومن تتبع تراجم المحدثين والعلماء يجد الكثير منها فيه أن فلاناً من المخدثين أو الصالحين دفن ببلد كذا وأنه يزار قبره وتستجاب الدعوة عنده، وقد قال إبراهيم الحربي في تاريخ بغداد: «وقبر معروف الترياق المجرب». وقد ذكر المحدث الحافظ شيخ القراء شمس الدين بن الجزري في كتابه الحصن الحصين: «أن من مواضع إجابة الدعاء قبور الصالحين» وهو بعد ابن تيمية من أقران الحافظ ابن حجر العسقلاني فأنى لابن تيمية أن يحكم على هذا الأمر المتواتر بين المسلمين خواصهم وعوامهم بأنه شرك. سبحانك هذا بهتان عظيم.

رابع، وأما أنا فاتبعت النبي ﷺ لأنه قال: «زوروا القبور»[1] أفقال: إلا قبور الأنبياء؟! قال: فبهت.

وينبغي لمن أراد الزيارة أن يكثر من الصلاة والتسليم عليه في طريقه، فإذا وقع بصره على معالم المدينة الشريفة وما تعرف به، فليردد الصلاة والتسليم، وليسأل الله أن ينفعه بزيارته ويسعده بها في الدارين. وليغتسل ويلبس النظيف من ثيابه، وليترجل ماشياً باكياً. ولما رأى وفد عبد القيس رسول الله ﷺ ألقوا أنفسهم عن رواحلهم ولم ينيخوها وسارعوا إليه، فلم ينكر ذلك عليهم صلوات الله وسلامه عليه.

وروينا مما ذكره القاضي عياض في «الشفاء» أن أبا الفضل الجوهري لما ورد إلى المدينة زائراً، وقرب من بيوتها ترجل ومشى باكياً منشداً:

| | |
|---|---|
| ولما رأينا رسم من لم يدع لنا | فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبا |
| نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة | لمن بان عنه أن نلم به ركبا |

وأنبئت بأن العلامة أبا عبد الله بن رشيد قال: لما قدمنا المدينة سنة أربع وثمانين وستمائة، كان معي رفيقي الوزير أبو عبد الله بن أبي القاسم بن الحكيم[2]، وكان أرمد، فلما دخلنا ذا الحليفة أو نحوها نزلنا عن الأكوار، وقوي الشوق لقرب المزار، فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتساباً لتلك الآثار، وإعظاماً لمن حل تلك الديار، فأحس بالشفاء، فأنشد لنفسه في وصف الحال لمن حل في تلك الديار:

| | |
|---|---|
| ولما رأينا من ربوع حبيبنا | بيثرب أعلاماً أثرن لنا الحبا |
| وبالترب منها إذ كحلنا جفوننا | شفينا فلا بأساً نخاف ولا كربا |
| وحين تبدى للعيون جمالها | ومن بعدها عنا أذيلت لنا قربا |
| نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة | لمن حل فيها أن نلم به ركبا |
| نسح سجال الدمع في عرصاته | ونلثم من حب لواطئه التربا |
| وإن بقائي دونه لخسارة | ولو أن كفي تملك الشرق والغربا |

---

(١) الحديث في صحيح مسلم الجنائز برقم (١٠٦) وفي النسائي باب (١٠٠) وفي ابن ماجه برقم (١٥٧٢) وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٣٥٢ وفي المسند ٢/ ٤٤١ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٧٠ وفي كشف الخفا للعجلوني ١/ ٥٣٤ وفي مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٤٣ وفي مجمع الزوائد ٣/ ٥٨ وفي كنز العمال (٤٢٥٥٢).

(٢) هو محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم اللخمي الرندي أبو عبد الله المعروف بابن الحكيم (٦٦٠ ـ ٧٠٨ هـ) وزير أندلسي له نظم ونثر ولد (برنده) وتوفي بغرناطة. الاعلام ٦/ ١٩٢ وفي الدرر الكامنة ٣/ ٤٩٥ رقم الترجمة (١٣٣٢) وفي أزهار الرياض ٢/ ٣٤٠.

فيا عجباً ممن يحب بزعمه　　يقيم مع الدعوى ويستعمل الكذبا
وزلات مثلي لا تعدد كثرة　　وبُعدي عن المختار أعظمها ذنبا

ولما كنت سائراً لقصد الزيارة في ربيع الآخر سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة، ولاح لنا عند الصباح جبل مفرح الأرواح المبشر بقرب المزار من أشرف الديار، تسابق الزوار إليه، وتعالوا بالصعود عليه استعجالاً لمشاهدة تلك الآثار واقتباساً لمشاهدة تلك الأنوار فبرقت لوامع الأنوار النبوية، وهبت عَرْف نسمات المعارف المحمدية، فطبنا وغبنا إذ شهدنا أعلام ديار أشرف البرية فأنشدت:

ألا مع برق يغتدي ويروح　　أم النور من أرض الحجاز يلوح
وريح الصبا هبت بطيِّب عرفهم　　أم الروض في وجه الصباح يفوح
إذا ريح ذاك الحي هب فإنها　　حياة لمن يغدو لها ويروح
ترفق بنا يا حادي العيس والتفت　　فللنور بين الواديين وضوح
فما هذه إلا ديار محمد　　وذاك سناها يغتدي ويروح
وإلا فما للركب هاج اشتياقهم　　فكل من الشوق الشديد يصيح
وأنَّت مطايا الركب حتى كأنها　　حمام على قضب الأراك تنوح
وقد مدت الأعناق شوقاً وطرفها　　إلى النور من تلك الديار لموح
رأت دار من تهوى فزاد اشتياقها　　ومدمعها في الوجنتين سفوح
إذا العيس باحت بالغرام ولم تطق　　خفاء فما للصب ليس يبوح

ولما قربنا من ديار المدينة وأعلامها، وتدانينا من معاينة رباها الكريمة وآكامها، وانتشقنا عرف لطائف أزهارها، وبدت لنواظرنا بوارق أنوارها، وترادفت واردات المنح والعطايا، ونزل القوم عن المطايا، فأنشدت متمثلاً:

أتيتك زائراً وودت أني　　جعلت سواد عيني أمتطيه
ومالي لا أسير على المآقي　　إلى قبرِ رسول الله فيه

ولما وقع بصري على القبر الشريف والمسجد المنيف فاضت من الفرح سوابق العبرات حتى أصابت بعض الثرى والجدرات وقلت:

أيها المغرم المشوق هنيئاً　　ما أنالوك من لذيذ التلاق
قل لعينيك تهملان سروراً　　طالما أسعداك يوم الفراق
واجمع الوجد والسرور ابتهاجاً　　وجميع الأشجان والأشواق
ومر العين أن تفيض انهمالاً　　وتوالي بدمعها المهراق

هــــذه دارهـــــم وأنـــــت محـــــب ... مـــا بقـــاء الـــدمـــوع فـــي الآمـــاق

وقلت:

وكـــان مـــا كـــان ممـــا لســـت أذكـــره ... فظـــن خيـــراً ولا تســـأل عـــن الخبـــر

ويستحب صلاة ركعتين تحية المسجد قبل الزيارة، وهذا إذا لم يكن مروره من جهة وجهه الشريف ﷺ. فإن كان استحبت الزيارة قبل التحية. قال في «تحقيق النصرة» وهو استدراك حسن. قاله بعض شيوخنا.

وفي منسك ابن فرحون: فإن قلت: المسجد إنما تشرف بإضافته إليه ﷺ فينبغي البداءة بالوقوف عنده ﷺ. قلت: قال ابن حبيب في أول كتاب الصلاة: حدثني مطرف عن مالك عن يحيى بن سعيد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قدمت من سفر، فجئت رسول الله ﷺ أسلم عليه وهو بفناء المسجد، فقال: «**أدخلت المسجد فصليت فيه؟**» قلت: لا، قال: «**فاذهب فادخل المسجد وصل فيه، ثم ائت فسلم عليّ**».

قال: ورخص بعضهم في تقديم الزيارة على الصلاة. قال ابن الحاج: وكل ذلك واسع ولعل هذا الحديث لم يبلغهم، والله أعلم. انتهى.

وينبغي للزائر أن يستحضر الخشوع ما أمكنه، وليكن مقتصداً في سلامه بين الجهر والإسرار. وفي البخاري: أن عمر رضي الله عنه قال لرجلين من أهل الطائف: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ضرباً، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ؟.

وقد روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: لا ينبغي رفع الصوت على نبي حياً ولا ميتاً. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تسمع صوت الوتد يوتد والمسمار يضرب في بعض الدور المطيفة بمسجد النبي ﷺ فترسل إليهم: لا تؤذوا رسول الله ﷺ.

قالوا: وما عمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه مصراعي داره إلا بالمصانع توقياً لذلك. نقله ابن زبالة. فيجب الأدب معه كما في حياته.

وينبغي للزائر أن يتقدم إلى القبر الشريف من جهة القبلة، وإن جاء من جهة رجلي الصاحبين فهو أبلغ في الأدب من الإتيان من جهة رأسه المكرم. ويستدبر القبلة ويقف قبالة وجهه ﷺ بأن يقابل المسمار الفضة المضروب في الرخام الذي في الجدار، ولا عبرة بالقنديل الكبير اليوم، لأن هناك عدة قناديل.

وقد روي أن مالكاً لما سأله أبو جعفر المنصور العباسي: يا أبا عبد الله أستقبل رسول الله ﷺ وأدعو، أم أستقبل القبلة وأدعو؟ فقال له مالك: ولمَ تصرف وجهك عنه، وهو

وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله عز وجل يوم القيامة.

لكن رأيت منسوباً للشيخ تقي الدين بن تيمية في منسكه: أن هذه الحكاية كذب على مالك[١]. وأن الوقوف عند القبر بدعة، قال: ولم يكن أحد من الصحابة يقف عنده ويدعو لنفسه، ولكن كانوا يستقبلون القبلة ويدعون في مسجده ﷺ. قال: ومالك من أعظم الأئمة كراهية لذلك[٢].

وينبغي أن يقف عند محاذاة أربعة أذرع ويلازم الأدب والخشوع والتواضع، غاض البصر في مقام الهيبة، كما كان يفعل بين يديه في حياته، ويستحضر علمه بوقوفه بين يديه وسماعه لسلامه، كما هو الحال في حال حياته، إذ لا فرق بين موته وحياته في مشاهدته لأمته ومعرفته بأحوالهم وعزائمهم وخواطرهم، وذلك عنده جلي لا خفاء به[٣].

فإن قلت: هذه الصفات مختصة بالله تعالى. فالجواب: إن من انتقل إلى عالم البرزخ من المؤمنين يعلم أحوال الأحياء غالباً، وقد وقع كثير من ذلك كما هو مسطور في مظنة ذلك من الكتب.

وقد روى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب: ليس من يوم إلا ويعرض على النبي ﷺ أعمال أمته غدوة وعشية، فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم، فلذلك يشهد عليهم.

ويمثل الزائر وجهه الكريم ﷺ في ذهنه، ويحضر قلبه جلال رتبته، وعلو منزلته، وعظيم حرمته، وإن أكابر الصحابة ما كانوا يخاطبونه إلا كأخي السرار، تعظيماً لما عظم الله من شأنه.

وقد روى ابن النجار أن امرأة سألت عائشة رضي الله عنها: أن اكشفي لي عن قبر رسول الله ﷺ فكشفته فبكت حتى ماتت.

وحكي عن أبي الفضائل الحموي، أحد خدام الحجرة المقدسة، أنه شاهد شخصاً من الزوار الشيوخ، أتى باب مقصورة الحجرة الشريفة، فطأطأ رأسه نحو العتبة، فحركوه فإذا هو ميت، وكان ممن شهد جنازته.

---

(١) قال الزرقاني: هذا تهور عجيب، فإن الحكاية رواها أبو الحسن علي بن فهر في كتابه «فضائل مالك» بإسناد لا بأس به وأخرجها القاضي عياض عن شيوخ عدة من ثقات مشايخه، فمن أين أنها كذب. وليس في إسنادها وضاع ولا كذاب!.

(٢) هذا كذب وافتراء لأن كتب المالكية طافحة باستحباب الدعاء عند القبر مستقبلاً له مستدبراً القبلة. وإلى هذا ذهب الشافعي والجمهور.

(٣) قال الزرقاني: بإطلاع الله تعالى له على ذلك.

ثم يقول الزائر بحضور قلب، وغض بصر وصوت، وسكون جوارح وإطراق: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا خيرة [خلق] الله، السلام عليك يا صفوة الله، السلام عليك يا سيد المرسلين، وخاتم النبيين، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين، السلام عليك وعلى أهل بيتك الطيبين الطاهرين، السلام عليك وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين، السلام عليك وعلى أصحابك أجمعين، السلام عليك وعلى سائر الأنبياء وسائر عباد الله الصالحين، جزاك الله عنا يا رسول الله أفضل ما جازى نبياً ورسولاً عن أمته، وصلى الله عليك كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه، وخيرته من خلقه، وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت في الله حق جهاده.

ومن ضاق وقته عن ذلك، أو عن حفظه فليقل ما تيسر منه، أو مما يحصل به الغرض.

وفي «التحفة»[1]: أن ابن عمر وغيره من السلف كانوا يقتصرون ويوجزون في هذا جداً. فعن مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، وناهيك به خبرة بهذا الشأن من رواية ابن وهب عنه، يقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

وعن نافع عن ابن عمر، أنه كان إذا قدم من سفر دخل المسجد، ثم أتى القبر المقدس فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه.

وينبغي أن يدعو، ولا يتكلف السجع فإنه قد يؤدي إلى الإخلال بالخشوع.

وقد حكى جماعة منهم الإمام أبو نصر بن الصباغ[2] في «الشامل» الحكاية المشهورة عن العتبي، واسمه: محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب، وتوفي في سنة ثمان وعشرين ومائتين، وذكرها ابن النجار وابن عساكر وابن الجوزي في مثير الغرام الساكن[3] عن محمد بن حرب الهلالي قال: أتيت قبر النبي

---

(١) هو كتاب «تحفة الزائر» لابن عساكر.

(٢) هو عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد أبو نصر ابن الصباغ (٤٠٠ ـ ٤٧٧ هـ) فقيه شافعي أصولي متكلم توفي في بغداد. الاعلام ٤/ ١٠ وفيات الأعيان ١/ ٣٠٣ طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٢٣٠ نكت الهميان (١٩٣) مفتاح السعادة ٢/ ١٨٥ النجوم الزاهرة ٥/ ١١٩ مرآة الجنان ٣/ ١٢٢ مختصر دول الإسلام ٢/ ٥ شذرات الذهب ٣/ ٣٥٥ الجواهر المضيئة ١/ ٣١٦ كشف الظنون (١٠٤ ـ ٣٨٩ ـ ١٠٢٥).

(٣) هو كتاب مثير الغرام الساكن إلى أشراف الأماكن لابن الجوزي. ذكره الحصني في كتاب الرد على ابن تيمية. انظر كشف الظنون ١/ ١٥٨٩.

ﷺ فزرته وجلست بحذائه، فجاء أعرابي فزاره ثم قال: يا خير الرسل، إن الله أنزل عليك كتاباً صادقاً، قال فيه: **﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾** [النساء: ٦٤] وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي وأنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه — فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه — فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ووقف أعرابي على قبره الشريف وقال: اللهم إنك أمرت بعتق العبيد، وهذا حبيبك وأنا عبدك، فأعتقني من النار على قبر حبيبك، فهتف به هاتف: يا هذا تسأل العتق لك وحدك، هلا سألت لجميع الخلق. اذهب فقد أعتقناك من النار.

إن الملوك إذا شابت عبيدهم — في رقهم أعتقوهم عتق أبرار
وأنت يا سيدي أولى بذا كرماً — قد شبت في الرق فاعتقني من النار

وعن الحسن البصري قال: وقف حاتم الأصم على قبر النبي ﷺ فقال: يا رب، إنا زرنا قبر نبيك فلا تردنا خائبين، فنودي: يا هذا ما أذنا لك في زيارة قبر حبيبنا إلا وقد قبلناك فارجع أنت ومن معك من الزوار مغفوراً لكم.

وقال ابن أبي فديك: سمعت بعض من أدركت يقول: بلغنا أنه من وقف عند قبر النبي ﷺ فتلا هذه الآية: **﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾** [الأحزاب: ٥٦] وقال: صلى الله عليك يا محمد، حتى يقولها سبعين مرة ناداه ملك: صلى الله عليك يا فلان، ولم تسقط له حاجة.

قال الشيخ زين الدين المراغي وغيره: الأولى أن ينادي يا رسول الله وإن كانت الرواية يا محمد، انتهى. وقد نبهت على ذلك مع مزيد بيان في كتاب «لوامع الأنوار في الأدعية والأذكار». فإن أوصاه أحد بإبلاغ السلام إلى النبي ﷺ فليقل: السلام عليك يا رسول الله من فلان.

ثم ينتقل عن يمينه قدر ذراع، فيسلم على أبي بكر رضي الله عنه، لأن رأسه بحذاء منكب رسول الله ﷺ، على ما جزم به رزين وغيره، وعليه الأكثر، فيقول: السلام عليك يا خليفة سيد المرسلين، السلام عليك يا من أيد الله به ـ يوم الردة ـ الدين، جزاك الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، اللهم ارض عنه، وارض عنا به.

ثم ينتقل عن يمينه قدر ذراع، فيسلم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين، السلام عليك يا من أيد الله به الدين، جزاك الله عن الإسلام

والمسلمين خيراً، اللهم ارض عنه، وارض عنا به.

ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه سيدنا رسول الله ﷺ بعد السلام على سيدنا أبي بكر وعمر، فيحمد الله تعالى ويمجده، ويصلي على النبي ﷺ، ويكثر من الدعاء والتضرع، ويجدد التوبة في حضرته الكريمة، ويسأل الله بجاهه أن يجعلها توبة نصوحاً، ويكثر من الصلاة والسلام على النبي ﷺ بحضرته الشريفة حيث يسمعه ويرد عليه.

وقد روى أبو داود من حديث أبي هريرة: أنه ﷺ قال: «ما من مسلم يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام».

وعند ابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من صلى علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي نائياً بلغته».

وعن سليمان بن سحيم، مما ذكره القاضي عياض في «الشفاء» قال: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله، هؤلاء الذين يأتونك فيسلمون عليك أتفقه سلامهم؟ قال: نعم وأرد عليهم.

ولا شك أن حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثابتة معلومة مستمرة، ونبينا ﷺ أفضلهم، وإذا كان كذلك فينبغي أن تكون حياته ﷺ أكمل وأتم من حياة سائرهم.

فإن قال سقيم الطبع رديء الفهم، لو كانت حياته ﷺ مستمرة ثابتة لما كان لرد روحه معنى كما قال: «إلا رد الله علي روحي». يجاب على ذلك من وجوه:

أحدها: أن هذا إعلام بثبوت وصف الحياة دائماً لثبوت رد السلام دائماً، فوصف الحياة لازم لرد السلام اللازم، واللازم يجب وجوده عند ملزومه أو ملزوم ملزومه، فوصف الحياة ثابت دائماً لأن ملزوم ملزومه ثابت دائماً، وهذا من نفاثات سحر البيان في إثبات المقصود بأكمل أنواع البلاغة، وأجمل فنون البراعة التي هي قطرة من بحار بلاغته العظمى.

ومنها: أن ذلك عبارة عن إقبال خاص، والتفات روحاني يحصل من الحضرة النبوية إلى عالم الدنيا، وقوالب الأجساد الترابية، وتنزل إلى دائرة البشرية، حتى يحصل عند ذلك رد السلام، وهذا الإقبال يكون عاماً شاملاً، حتى لو كان المسلمون في كل لمحة أكثر من ألف ألف لوسعهم ذلك الإقبال النبوي والالتفات الروحاني، ولقد رأيت من ذلك ما لا أستطيع أن أعبر عنه، ولقد أحسن من سئل: كيف يرد النبي ﷺ على من يسلم عليه من مشارق الأرض ومغاربها في آن واحد فأنشد قول أبي الطيب:

كالشمس في وسط السماء ونورها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا

ولا ريب أن حاله ﷺ في البرزخ أفضل وأكمل من حال الملائكة، هذا سيدنا عزرائيل عليه السلام يقبض مائة ألف روح في وقت واحد ولا يشغله قبض عن قبض، وهو مع ذلك مشغول بعبادة الله تعالى، مقبل على التسبيح والتقديس، فنبينا ﷺ حي يصلي ويعبد ربه ويشاهده، لا يزال في حضرة اقترابه، متلذذاً بسماع خطابه، وقد تقدم الجواب عن قوله تعالى: **﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾** [الزمر: ٣٠] في أواخر الخصائص من المقصد الرابع.

وقد روى الدارمي عن سعيد بن عبد العزيز قال: لما كان أيام الحرة، لم يؤذن في مسجد النبي ﷺ، ولم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي ﷺ، وذكر ابن النجار وابن زبالة بلفظ قال سعيد - يعني ابن المسيب -: فلما حضرت الظهر سمعت الأذان في القبر، فصليت ركعتين، ثم سمعت الإقامة فصليت الظهر، ثم مضى ذلك الأذان والإقامة في القبر المقدس لكل صلاة حتى مضت الثلاث ليال، يعني ليالي أيام الحرة.

وقد روى البيهقي وغيره: من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**». وفي رواية: «**أن الأنبياء لا يتركون في قبورهم بعد أربعين ليلة، ولكنهم يصلون بين يدي الله حتى ينفخ في الصور**».

وله شواهد في صحيح مسلم منها: قوله ﷺ: «**مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره**» وفي حديث أبي ذر في قصة المعراج: أنه لقي الأنبياء في السموات، وكلموه وكلمهم. وقد ذكرت مزيد بيان لذلك في حجة الوداع من مقصد عباداته، وفي ذكر الخصائص الكريمة في مقصد معجزاته، وفي مقصد الإسراء والمعراج.

وهذه الصلوات والحج الصادر من الأنبياء ليس على سبيل التكليف، إنما هو على سبيل التلذذ، ويحتمل أن يكونوا في البرزخ ينسحب عليهم حكم الدنيا في استكثارهم من الأعمال وزيادة الأجور من غير خطاب بتكليف، وبالله التوفيق.

وإذا ثبت بشهادة قوله تعالى: **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾** [آل عمران: ١٦٩] حياة الشهيد، ثبت للنبي ﷺ بطريق الأولى، والذي عليه جمهور العلماء: أن الشهداء أحياء حقيقة، وهل ذلك للروح فقط أو للجسد معها؟ بمعنى عدم البلى، قولان.

وقد صح عن جابر[١]: أن أباه وعمرو بن الجموح وكانا ممن استشهد بأحد ودفنا في

---

(١) هو عند ابن سعد في الطبقات، وهو في الموطأ من وجه آخر.

قبر واحد، حتى حفر السيل قبرهما، فوجدا لم يتغيرا، وكان أحدهما قد جرح، فوضع يده على جرحه، فدفن وهو كذلك، فأمطيت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت. وكان بين ذلك وبين أحد ست وأربعون سنة.

وروي عنه ﷺ أنه قال في شهداء أحد: **«والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه»**. رواه البيهقي عن أبي هريرة.

وقد قال ابن شهاب: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: **«أكثروا من الصلاة عليَّ في الليلة الزهراء واليوم الأزهر[1]، فإنهما يؤديان عنكم، وإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء»** رواه أبو داود وابن ماجه.

ونقل ابن زبالة عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: **«من كلمه روح القدس لم يؤذن للأرض أن تأكل من لحمه»**.

وقد ثبت أن نبينا ﷺ مات شهيداً لأكله يوم خيبر من شاة مسمومة سماً قاتلاً من ساعته حتى مات منه بشر بن البراء، وصار بقاؤه ﷺ معجزة، فكان ألم السم يتعاهده إلى أن مات به، ولذا قال في مرض موته ـ كما مر ـ: **«ما زالت أكلة خيبر تعادّني حتى كان الآن قطعت أبهري»**.

والأبهران: عرقان يخرجان من القلب تتشعب منهما الشرايين، كما ذكره في الصحاح. قال العلماء: فجمع الله له بذلك بين النبوة والشهادة. انتهى.

وقد اختلف في محل الوقوف للدعاء. فعند الشافعية أنه قبالة وجهه كما ذكرته، وقال ابن فرحون من المالكية: اختلف أصحابنا في محل الوقوف للدعاء، ففي الشفاء قال مالك ـ في رواية ابن وهب ـ: إذا سلم على النبي ﷺ يقف للدعاء ووجهه إلى القبر الشريف لا إلى القبلة، وقد سأل الخليفة المنصور مالكاً فقال: يا أبا عبد الله، أأستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال مالك: ولمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة. وقال مالك في «المبسوط»[2]، لا أرى أن يقف عند القبر يدعو، ولكن يسلم ويمَضي. قال ابن فرحون: ولعل ذلك ليس اختلاف قول، وإنما أمر المنصور بذلك لأنه يعلم ما يدعو، ويعلم آداب الدعاء بين يديه ﷺ، فأمن عليه من سوء الأدب فأفتاه بذلك، وأفتى العامة أن يسلموا وينصرفوا، لئلا يدعوا تلقاء وجهه الكريم

---

(١) يعني ليلة الجمعة ويومها.

(٢) هو اسم كتاب لإسماعيل القاضي.

ويتوسلوا به في حضرته إلى الله العظيم فيما لا ينبغي الدعاء به، أو فيما يكره أو يحرم، فمقاصد الناس وسرائرهم مختلفة، وأكثرهم لا يقوم بآداب الدعاء ولا يعرفها، فلذلك أمرهم مالك بالسلام والانصراف. انتهى.

ورأيت مما نسب للشيخ تقي الدين بن تيمية في منسكه: ولا يدعو هناك مستقبل الحجرة، ولا يصلي إليها ولا يقبلها، فإن هذا كله منهي عنه باتفاق الأئمة، ومالك من أعظم الأئمة كراهية لذلك، والحكاية المروية عنه أنه أمر المنصور أن يستقبل القبر وقت الدعاء، كذب على مالك، وكذا قال، والله أعلم[1]، انتهى.

وأما قول الأبوصيري في بردة المديح:

لا طيب يعدل تربا ضم أعظمه طوبى لمنتشق منه وملتثم

فقال شارحها العلامة ابن مرزوق وغيره: كأنه إشارة إلى النوعين المستعملين في الطيب، لأنه إما أن يستعمل بالشم، وإليه أشار بقوله «لمنتشق» وإما بالتضمخ وإليها أشار بـ «ملتثم»، قال: وأقل ذلك بتعفير جبهته وأنفه بتربته حال السجود في مسجده ﷺ، فليس المراد به تقبيل القبر الشريف فإنه مكروه.

ونقل الزركشي عن السيرافي: أنّ «طوبى» الطيب، قال ابن مرزوق: طوبى فعلى من أنواع الطيب.

وهذا مبني على أن المراد أن تربته أفضل أنواع الطيب باعتبار الحقيقة الحسية، وذلك إما لأنه كذلك في نفس الأمر، أدركه من أدركه أم لا، وإما باعتبار المؤمن في ذلك فإن المؤمن لا يعدل بشم رائحة تربته ﷺ شيئاً من الطيب.

فإن قلت: لو كان المراد الحقيقة الحسية لأدرك ذلك كل أحد.

فالجواب: لا يلزم من قيام المعنى بمحل إدراكه لكل أحد، بل حتى توجد الشرائط وتنتفي الموانع، وعدم الإدراك لا يدل على عدم المدرك، وانتفاء الدليل لا يدل على انتفاء المدلول، فالمزكوم لا يدرك رائحة المسك، مع أن الرائحة قائمة بالمسك لم تنتف عنه.

ولما كانت أحوال القبر من الأمور الأخروية، لا جرم لا يدركها من الأحياء إلا من كشف له الغطاء من الأولياء المقربين، لأن متاع الآخرة باق، ومن في الدنيا فان، والفاني لا يتمتع بالباقي للتضاد، ولا ريب عند من له أدنى تعلق بشريعة الإسلام أن قبره ﷺ روضة من رياض الجنة، بل أفضلها، وإذا كان القبر كما ذكرناه وقد حوى جسمه الشريف عليه الصلاة

---

(١) انظر قول الزرقاني في الشرح ص ٥٨٠ حاشية رقم (١).

والسلام هو أطيب الطيب، فلا مرية أنه لا طيب يعدل تراب قبره المقدس. ويرحم الله أحمد بن محمد العريف حيث يقول في قصيدته التي أولها:

إذا ما حدا الحادي بأحمال يثرب ... فليت المطايا فوق خدي تُعَبَّق

ثم قال بعد أبيات:

فما عبق الريحان إلا وتربها ... أجلّ من الريحان طيباً وأعبق

وله أيضاً:

راحت ركائبهم تبدي روائحها ... طيباً فيا طيب ذاك الوفد أشباحا
نسيم قبر النبي المصطفى لهم ... روض إذا نشروا من ذكره فاحا

ولله در القائل:

فاح الصعيد بجسمه فكأنه ... روض بنم يعرفه المتأرج
ما جسمه مما يغيره الثرى ... والروح منه كالصباح الأبلج

وقال ابن بطال في قوله ﷺ: «**المدينة يَنْصَع طيِّبُها**»[1] هو مثل ضربه للمؤمن المخلص الساكن فيها، الصابر على لأوائها مع فراق الأهل والتزام المخافة من العدو فلما باع نفسه والتزم هذا الأمر بان صدقه ونصع إيمانه وقوي لاغتباطه بسكن المدينة ولقربه من رسوله، كما ينصع ريح الطيب فيها ويزيد عبقاً على سائر البلاد، خصوصية خص الله بها بلدة رسوله ﷺ الذي اختار تربتها المباشرة جسده الطيب المطهر، وقد جاء في الحديث «**أن المؤمن يقبر في التربة التي خلق منها**» فكانت بهذا تربة المدينة أفضل الترب، كما أنه هو ﷺ أفضل البشر، فلهذا والله أعلم يتضاعف ريح الطيب فيها على سائر البلدان. انتهى.

وينبغي للزائر أن يكثر من الدعاء والتضرع والاستغاثة والتشفع والتوسل به ﷺ، فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله تعالى فيه.

واعلم أن الاستغاثة هي طلب الغوث، فالمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث منه، فلا فرق بين أن يعبر بلفظ: الاستغاثة أو التوسل أو التشفع أو التجوّه أو التوجه، لأنهما من الجاه والوجاهة ومعناه: علو القدر والمنزلة.

وقد يتوسل بصاحب الجاه إلى من هو أعلى منه، ثم إن كلاً من الاستغاثة والتوسل والتشفع والتوجه بالنبي ﷺ - كما ذكره في «تحقيق النصرة» و «مصباح الظلام» - واقع في

---

(١) الحديث: «المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها» والنصوع هو الخلوص الظاهر البين.

كل حال، قبل خلقه وبعد خلقه، في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة.

فأما الحالة الأولى فحسبك ما قدمته في المقصد الأول من استشفاع آدم عليه السلام به لما أخرج من الجنة، وقول الله تعالى له: «يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السماوات والأرض لشفعناك»[1] وفي حديث عمر بن الخطاب عند الحاكم والبيهقي وغيرهما: «وإن سألتني بحقه فقد غفرت لك»[2]. ويرحم الله ابن جابر حيث قال:

به قد أجاب الله آدم إذ دعا — ونُجِّي في بطن السفينة نوح

وما ضرت النار الخليل لنوره — ومن أجله نال الفداء ذبيح

[وصح أن رسول الله ﷺ قال لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب، أسألك بحق محمد لما غفرت لي، قال الله تعالى: يا آدم، وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه، قال: يا رب، إنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك، رفعت رأسي فرأيت قوائم العرش مكتوباً عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله فعرفت أنك لا تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك. ذكره الطبري[3] وزاد فيه: وهو آخر الأنبياء من ذريتك].

وأما التوسل بعد خلقه في مدة حياته، فمن ذلك الاستغاثة به ﷺ عند القحط وعدم الأمطار، وكذلك الاستغاثة به من الجوع ونحو ذلك مما ذكرته في مقصد المعجزات ومقصد العبادات في الاستسقاء، ومن ذلك استغاثة ذوي العاهات به، وحسبك ما رواه النسائي والترمذي عن عثمان بن حنيف، أن رجلاً ضرير أتاه ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك في حاجتي لتقضى، اللهم شفعه في، وصححه البيهقي، وزاد: فقام وقد أبصر.

وأما التوسل به ﷺ بعد موته في البرزخ فهو أكثر من أن يحصى أو يدرك باستقصاء وفي كتاب «مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام» للشيخ أبي عبد الله بن النعمان[4] طرف من ذلك.

---

(١) قال الزرقاني: رواه ابن عساكر عن كعب الأحبار.

(٢) قال البيهقي: غريب مع ضعف راويه.

(٣) قال الزرقاني: الذي في المقصد الأول: ذكره الطبراني.

(٤) هو محمد بن موسى بن النعمان أبو عبد الله شمس الدين المراكشي. صوفي باحث من المالكية. توفي سنة (٦٨٣ هـ). الاعلام ٧/ ١١٨ هدية العارفين ٢/ ١٣٤ وفي كشف الظنون ٢/ ١٧٠٦ وفي إيضاح المكنون ٢/ ٦٨٨ وفي معجم المؤلفين ١٢/ ٦٨.

ولقد كان حصل لي داء أعيا دواؤه الأطباء، وأقمت به سنين، فاستغثت به ﷺ ليلة الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة بمكة زادها الله شرفاً، ومنَّ عليَّ بالعود في عافية بلا محنة، فبينا أنا نائم إذ جاء رجل معه قرطاس يكتب فيه: هذا دواء لداء أحمد بن القسطلاني من الحضرة الشريفة بعد الإذن الشريف النبوي، ثم استيقظت فلم أجد بي ـ والله ـ شيئاً مما كنت أجده، وحصل الشفاء ببركة النبي ﷺ.

ووقع لي أيضاً في سنة خمس وثمانين وثمانمائة في طريق مكة، بعد رجوعي من الزيارة الشريفة لقصد مصر، أن صرعت خادمتنا غزال الحبشية، واستمر بها أياماً، فاستشفعت به ﷺ في ذلك، فأتاني آت في منامي، ومعه الجني الصارع لها فقال: لقد أرسله لك النبي ﷺ، فعاتبته وحلفته أن لا يعود إليها، ثم استيقظت وليس بها قلبة[1] كأنما نشطت من عقال، ولا زالت في عافية من ذلك حتى فارقتها بمكة سنة أربع وتسعين وثمانمائة، والحمد لله رب العالمين.

وأما التوسل به ﷺ في عرصات القيامة، فمما قام عليه الإجماع وتواترت به الأخبار في حديث الشفاعة.

فعليك أيها الطالب إدراك السعادة الموصل لحسن الحال في حضرة الغيب والشهادة، بالتعلق بأذيال عطفه وكرمه، والتطفل على موائد نعمه، والتوسل بجاهه الشريف والتشفع بقدره المنيف، فهو الوسيلة إلى نيل المعالي واقتناص المرام، والمفزع يوم الجزع والهلع لكافة الرسل الكرام، واجعله أمامك فيما نزل بك من النوازل، وإمامك فيما تحاول من القرب والمنازل، فإنك تظفر من المراد بأقصاه، وتدرك رضى من أحاط بكل شيء علماً وأحصاه، واجتهد ما دمت بطيبة الطيبة حسب طاقتك في تحصيل أنواع القربات، ولازم قرع أبواب السعادات بأظافير الطلبات، وارق في مدارج العبادات، ولج في سرادق المرادات.

تمتـــع إن ظفـــرت بنيـــل قـــرب ... وحصـــل مـــا استطعـــت مـــن ادخـــار
فهـــا أنـــا قـــد أبحـــت لكم عطائـــي ... وهـــا قـــد صـــرت عنـــدي فـــي جـــواري
فخـــذ مـــا شئـــت مـــن كـــرم وجـــود ... ونل مـــا شئـــت مـــن نعـــم غـــزار
فقـــد وسعـــت أبـــواب التـــدانـــي ... وقـــد قـــربـــت للـــزوار داري
فمتـــع نـــاظـــريـــك فهـــا جمـــالـــي ... تجلـــى للقلـــوب بـــلا استتـــار

ولازم الصلوات مكتوبة ونافلة في مسجده المكرم، خصوصاً بالروضة التي ثبت أنها

---

(١) أي: داء وتعب.

روضة من رياض الجنة[1]. كما رواه البخاري.

قال ابن أبي جمرة معناه: تنقل تلك البقعة بعينها في الجنة، فتكون روضة من رياض الجنة، ويحتمل أن يكون المراد: العمل فيها يوجب لصاحبه روضة في الجنة، قال: والأظهر الجمع بين الوجهين معاً، يعني احتمال كونها تنقل إلى الجنة، وكون العمل فيها يوجب لصاحبه روضة في الجنة، قال: ولكل وجه منهما دليل يعضده ويقويه من جهة النظر والقياس.

أما الدليل على أن العمل فيها يوجب روضة في الجنة، فلأنه إذا كانت الصلاة في مسجده ﷺ بألف فيما سواه من المساجد، فلهذه البقعة زيادة على باقي البقع كما كان للمسجد زيادة على غيره.

وأما الدليل على كونها بعينها في الجنة، وكون المنبر أيضاً على الحوض، كما أخبر ﷺ وأن الجذع في الجنة، والجذع في البقعة نفسها، فالعلة التي أوجبت للجذع الجنة هي في البقعة سواء، على ما أذكره بعد إن شاء الله تعالى.

والذي أخبر بهذا أخبر بهذا، فينبغي الحمل على أكمل الوجوه، وهو الجمع بينهما، لأنه قد تقرر من قواعد الشرع أن البقعة المباركة، ما فائدة بركتها لنا، والإخبار بها لنا إلا لتعميرها بالطاعات، فإن الثواب فيها أكثر، وكذلك الأيام المباركة أيضاً، فعلى هذا يكون الموضع روضة من رياض الجنة الآن، ويعود روضة كما كان في موضعه، ويكون للعامل فيه روضة في الجنة، وهو الأظهر لوجهين: **أحدهما**: لعلو منزلته ﷺ، ولما خص الخليل عليه السلام بالحجر من الجنة، خص الحبيب ﷺ بالروضة من الجنة[2].

وها هنا بحث: لم جعلت هذه البقعة من بين سائر البقع روضة من رياض الجنة؟ فإن قلنا: تعبد، فلا بحث، وإن قلنا: لحكمة فحينئذ يحتاج إلى البحث.

والأظهر أنه لحكمة، وهي أنه قد سبق في العلم الرباني بما ظهر أن الله عز وجل فضله على جميع خلقه، وأن كل ما كان منه بنسبة ما من جميع المخلوقات يكون له تفضيل على جنسه كما استقرىء في كل أموره، من بدء ظهوره ﷺ إلى حين وفاته، في الجاهلية والإسلام. فمنها ما كان في شأن أمه، وما نالها من بركته مع الجاهلية الجهلاء، حسب ما هو مذكور معلوم. ومثل ذلك حليمة السعدية. وحتى الأتان، وحتى البقعة التي تجعل الأتان يدها عليها تخضر من حينها، وما هو من ذلك كله معلوم.

---

(١) أخرج الحديث البخاري ومسلم وغيرهما، قال ﷺ: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي).

(٢) هذا هو الوجه الثاني.

وكان مشيه ﷺ حيث ما مشى ظهرت البركات مع ذلك كله، وحيث وضع ﷺ يده المباركة ظهر في ذلك كله من الخيرات والبركات حساً ومعنى، كما هو منقول معروف.

ولما شاء [صاحب] القدرة أنه ﷺ لا بدّ له من بيت، ولا بدّ له من منبر، وأنه بالضرورة يكثر تردده ﷺ بين المنبر والبيت، فالحرمة التي أعطي غيرهما إذا كان من مسَّة واحدة بمباشرته أو بواسطة حيوان أو غيره تظهر البركة والخير، فكيف مع كثرة ترداده ﷺ في البقعة الواحدة مراراً في اليوم الواحد طول عمره، من وقت هجرته إلى حين وفاته. فلم يبق من الترفيع بالنسبة إلى عالمها أعلى مما وصفناه، وهو أنها كانت من الجنة، وتعود إليها، وهي الآن منها، وللعامل فيها مثلها، فلو كانت مرتبة يمكن أن تكون أرفع من هذه في هذه الدار، لكان لهذه أعلى مرتبة مما ذكرنا في جنسها.

فإن احتج محتج لا فهم له بأن يقول: ينبغي أن يكون ذلك للمدينة بكمالها، لأنه ﷺ كان يطؤها بقدمه مراراً.

فالجواب: أنه قد حصل للمدينة تفضيل لم يحصل لغيرها، من ذلك أن ترابها شفاء كما أخبر ﷺ، مع ما شاركت فيه البقعة المكرمة من منعها من الدجال وتلك الفتن العظام. وأنه ﷺ أول ما يشفع لأهلها يوم القيامة، وأن ما كان لها من الوباء والحمى رفع عنها، وأنه بورك في طعامها وشرابها وأشياء كثيرة، فكان التفضيل لها بنسبة ما أشرنا إليه أولاً، بأن تردده ﷺ في المسجد نفسه أكثر مما في المدينة نفسها، وتردده ﷺ فيما بين المنبر والبيت أكثر مما سواه من سائر المسجد، فالبحث تأكد بالاعتراض، لأنه جاءت البركة متناسبة لتكرار تلك الخطوات المباركة، والقرب من تلك النسمة المرتفعة لا خفاء فيه إلا على ملحد أعمى البصيرة، فالمدينة أرفع المدن، والمسجد أرفع المساجد والبقعة أرفع البقع، قضية معلومة وحجة ظاهرة موجودة. انتهى[1].

وقال الخطابي: المراد من هذا الحديث الترغيب في سكنى المدينة، وأن من لازم ذكر الله في مسجدها آل به إلى روضة من رياض الجنة، وسقي يوم القيامة من الحوض انتهى. وتقدم في الخصائص من مقصد المعجزات مزيد لذلك.

وعند مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**»[2]. وقد اختلف العلماء في المراد بهذا الاستثناء على حسب اختلافهم في مكة والمدينة أيهما أفضل؟

---

(١) أي كلام ابن أبي جمرة.

(٢) هو عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة.

ومذهب سفيان بن عيينة والشافعي وأحمد ـ في أصح الروايتين عنه ـ وابن وهب ومطرف وابن حبيب ـ الثلاثة من المالكية ـ وحكاه الساجي عن عطاء بن أبي رباح، والمكيين والكوفيين. وحكاه ابن عبد البر عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي الدرداء وجابر وابن الزبير وقتادة، وجماهير العلماء، أن مكة أفضل من المدينة، وأن مسجد مكة أفضل من مسجد المدينة، لأن الأمكنة تشرف بفضل العبادة فيها على غيرها مما تكون العبادة فيها مرجوحة.

وقد حكى ابن عبد البر أنه روي عن مالك ما يدل على أن مكة أفضل الأرض كلها، قال: ولكن المشهور عن أصحابه في مذهبه تفضيل المدينة. انتهى. وقال مالك[1]: المدينة ومسجدها أفضل.

ومما احتج به أصحابنا لتفضيل مكة: حديث عبد الله بن الحمراء[2] أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته يقول: «**والله إنك لخير أرض الله وأحبها إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**»[3]. قال الترمذي: حسن صحيح. وقال ابن عبد البر: هذا أصح الآثار عنه ﷺ. قال: وهذا قاطع في محل الخلاف. انتهى.

فعند الشافعي والجمهور معناه ـ أي الحديث ـ: إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل من الصلاة في مسجدي.

وعند مالك وموافقيه: إلا المسجد الحرام فإن الصلاة في مسجدي تفضله بدون الألف.

وعن عبد الله بن الزبير قال رسول الله ﷺ: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في هذا**» رواه أحمد وابن حبان في صحيحه. وزاد: يعني في مسجد المدينة، البزار ولفظه: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام فإنه يزيد عليه مائة**». قال المنذري: وإسناده صحيح أيضاً.

---

(١) وكذا أكثر أهل المدينة وعمر بن الخطاب وجماعة.

(٢) هو قرشي زهري أسلم في الفتح له ترجمة في الكاشف ٢/ ٩٧ رقم الترجمة (٢٨٨٦) وفي الإصابة ٤/ ١٠٥ رقم الترجمة (٤٨١٣).

(٣) الحديث في الترمذي برقم (٣٩٢٥) وفي ابن ماجه برقم (٣١٠٨) وفي المستدرك للحاكم ٣/ ٧ وفي المسند ٤/ ٣٠٥ وفي سنن الدارمي ٢/ ٢٣٩ وفي التمهيد لابن عبد البر ٢/ ٢٨٨ وفي الدر المنثور ١/ ١٢٣ وفي إتحاف السادة المتقين ٤/ ٢٨٣ وفي كنز العمال (٣٤٧٠٦).

ومما يستدل به المالكية، ما ذكره ابن حبيب في «الواضحة» أنه ﷺ قال: **«صلاة في مسجدي كألف صلاة فيما سواه. وجمعة في مسجدي كألف جمعة فيما سواه، ورمضان في مسجدي كألف رمضان فيما سواه»**[1].

ومذهب عمر بن الخطاب وبعض الصحابة وأكثر المدنيين ـ كما قاله القاضي عياض ـ أن المدينة أفضل، وهو أحد الروايتين عن أحمد.

وأجمعوا على أن الموضع الذي ضم أعضاءه الشريفة ﷺ أفضل بقاع الأرض، حتى موضع الكعبة، كما قاله ابن عساكر والباجي والقاضي عياض، بل نقل التاج السبكي كما ذكره السيد السمهودي[2] في «فضائل المدينة» عن ابن عقيل الحنبلي أنها أفضل من العرش، وصرح الفاكهاني بتفضيلها على السماوات ولفظه: وأقول أنا وأفضل من بقاع السماوات أيضاً. ولم أر من تعرض لذلك، والذي أعتقده لو أن ذلك عرض على علماء الأمة لم يختلفوا فيه، وقد جاء أن السماوات شرفت بمواطىء قدميه، بل لو قال قائل: إن جميع بقاع الأرض أفضل من جميع بقاع السماء لشرفها لكونه ﷺ حالاً فيها لم يبعد، بل هو عندي الظاهر المتعين. انتهى.

وحكاه بعضهم[3] عن الأكثرين لخلق الأنبياء منها ودفنهم فيها، لكن قال النووي: إن الجمهور على تفضيل السماء على الأرض، أي ما عدا ما ضم الأعضاء الشريفة.

وقد استشكل ما ذكر من الإجماع على أفضلية ما ضم أعضاءه الشريفة على جميع بقاع الأرض، ويؤيده ما قاله الشيخ عز الدين بن عبد السلام في تفضيل بعض الأماكن على بعض، من أن الأماكن والأزمان كلها متساوية، ويفضلان بما يقع فيهما لا بصفات قائمة بهما. قال: ويرجع تفضيلهما إلى ما ينيل الله العباد فيهما من فضله وكرمه، والتفضيل الذي فيهما أن الله تعالى يجود على عباده بتفضيل أجر العاملين فيهما. انتهى. ملخصاً.

لكن تعقبه الشيخ تقي الدين السبكي بما حاصله: إن الذي قاله لا ينفي أن يكون التفضيل لأمر آخر فيهما وإن لم يكن عمل، لأن قبر رسول الله ﷺ ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة، وله عند الله من المحبة ولساكنه ما تقصر العقول عن إدراكه، وليس

---

(١) أخرجه البيهقي.

(٢) هو علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشافعي، نور الدين أبو الحسن (٨٤٤ ـ ٩١١ هـ). مؤرخ المدينة ومفتيها. ولد في سمهود وتوفي في المدينة. الأعلام ٣٠٧/٤ ومعجم المطبوعات (١٠٥٢) والضوء اللامع ٢٤٥/٥.

(٣) أي تفضيل الأرض على السماء.

ذلك لمكان غيره، فكيف لا يكون أفضل؟ وليس محل عمل لنا لأنه ليس مسجداً، ولا له حكم المسجد، بل هو مستحق للنبي ﷺ.

وأيضاً فقد تكون الأعمال مضاعفة فيه باعتبار أن النبي ﷺ حي كما تقرر، وأن أعماله مضاعفة فيه أكثر من كل أحد، فلا يختص التضعيف بأعمالنا نحن.

قال: ومن فهم هذا انشرح صدره لما قاله القاضي عياض من تفضيل ما ضم أعضاءه الشريفة ﷺ باعتبارين: **أحدهما**، ما قيل إن كل أحد يدفن في الموضع الذي خلق منه، **والثاني**: تنزل الملائكة والبركات عليه، وإقبال الله تعالى. ولا نسلم أن الفضل للمكان لذاته ولكن لأجل من حلَّ فيه ﷺ. انتهى.

وقد روى أبو يعلى عن أبي بكر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يقبض النبي إلا في أحب الأمكنة إليه**». ولا شك أن أحبها إليه أحبها إلى ربه تعالى، لأن حبه تابع لحب ربه جل وعلا، وما كان أحب إلى الله ورسوله كيف لا يكون أفضل؟ وقد قال ﷺ: «**اللهم إن إبراهيم دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك إبراهيم لمكة ومثله معه**»[1]. ولا ريب أن دعاء النبي ﷺ أفضل من دعاء إبراهيم، لأن فضل الدعاء على قدر فضل الداعي. وقد صح أنه ﷺ قال: «**اللهم حبب إلينا المدينة، كحبنا مكة أو أشد**»[2]. وفي رواية «بل أشد» وقد أجيبت دعوته، حتى كان يحرك دابته إذا رآها من حبها. وروى الحاكم أنه ﷺ قال: «**اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع إلي فأسكني في أحب البقاع إليك**»[3] أي في موضع تصيره كذلك، فيجتمع فيه الحبان. قيل ضعفه ابن عبد البر، [4] ولو سلمت صحته فالمراد: أحب إليك بعد مكة لحديث «**إن مكة خير بلاد الله**»، وفي رواية «**أحب أرض الله إلى الله**»، ولزيادة التضعيف بمسجد مكة.

وتعقبه العلامة السيد السمهودي: بأن ما ذكر لا يقتضي صرفه عن ظاهره، إذ القصد به الدعاء لدار هجرته بأن يصيرها الله كذلك. وحديث: «**إن مكة خير بلاد الله**» محمول على بدء الأمر قبل ثبوت الفضل للمدينة، وإظهار الدين، وافتتاح البلاد منها حتى مكة، فقد

---

(١) أخرجه مسلم والإمام مالك في الموطأ وغيرهما.

(٢) الحديث رواه الشيخان والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦/ ٥٦ ومالك في الموطأ (٨٩١) والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٣٣٢ والتبريزي في مشكاة المصابيح (٢٧٣٤) والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٢٢٦ والسيوطي في جمع الجوامع (٩٩٦٠) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٤٧٩ والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٨١٥٩ ـ ٣٤٨٨١).

(٣) الحديث في المستدرك ٣/ ٣ وفي جمع الجوامع برقم (٩٩٦٩) وفي دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٤٣.

(٤) قال ابن عبد البر: لا يختلف أهل العلم في نكارته وضعفه.

أنالها وأنال بها ما لم يكن لغيرها من البلاد، فظهر إجابة دعوته، وصيرورتها أحب مطلقاً بعد، ولهذا افترض الله تعالى على نبيه ﷺ الإقامة بها، وحث هو ﷺ على الاقتداء به في سكناها والموت بها، فكيف لا تكون أفضل.

قال: وأما مزيد المضاعفة، فأسباب التفضيل لا تنحصر في ذلك، فالصلوات الخمس بمنى للمتوجه لعرفة أفضل منها بمسجد مكة، وإن انتفت عنها المضاعفة، إذ في الاتباع ما يربو عليها، ومذهبنا: شمول المضاعفة للنفل مع تفضيله بالمنزل، ولهذا قال عمر رضي الله عنه بمزيد المضاعفة لمسجد مكة، مع قوله بتفضيل المدينة، ولم يصب من أخذ من قوله بمزيد المضاعفة: تفضيل مكة. إذ غايته أن للمفضول مزية ليست للفاضل، مع أن دعاءه ﷺ بمزيد تضعيف البركة بالمدينة على مكة شامل للأمور الدينية أيضاً. وقد يبارك في العدد القليل فيربو نفعه على الكثير، ولهذا استدل به على تفضيل المدينة.

وإن أريد من حديث المضاعفة الكعبة فقط، فالجواب: إن الكلام فيما عداها، فلا يرد شيء مما جاء في فضلها، ولا ما بمكة من مواضع النسك لتعلقه بها، ولذا قال عمر لعبد الله بن عياش المخزومي. أنت القائل: لمكة خير من المدينة؟ فقال عبد الله: هي حرم الله وأمنه وفيها بيته، فقال عمر: لا أقول في حرم الله وبيته شيئاً، ثم كرر عمر قوله الأول، فأعاد عبد الله جوابه، فأعاد له: لا أقول في حرم الله وبيته شيئاً، فأشير على عبد الله فانصرف.

وقد عوضت المدينة عن العمرة، ما صح في إتيان مسجد قباء، وعن الحج ما جاء في فضل الزيارة النبوية والمسجد، والإقامة بعد النبوة بالمدينة وإن كانت أقل من مكة على القول به، فقد كانت سبباً لإعزاز الدين وإظهاره، ونزول أكثر الفرائض وإكمال الدين، حتى كثر تردد جبريل عليه السلام بها، ثم استقر بها ﷺ إلى قيام الساعة. ولهذا قيل لمالك: أيما أحب إليك المقام هنا ـ يعني المدينة ـ أو مكة؟ فقال: هنا، وكيف لا أختار المدينة وما بها طريق إلا سلك عليها رسول الله ﷺ، وجبريل ينزل عليه من عند رب العالمين في أقل من ساعة؟!

وروى الطبراني حديث «المدينة خير من مكة» وفي رواية للجندي «أفضل من مكة» وفيه: محمد بن عبد الرحمن الرداد، ذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان يخطىء، وقال أبو زرعة: لين، وقال: ابن عدي، روايته ليست محفوظة، وقال أبو حاتم: ليس بقوي.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: (**أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد**). أي أمرني الله بالهجرة إليها، إن كان قاله ﷺ بمكة، أو: بسكناها، إن كان قاله بالمدينة. وقال القاضي

عبد الوهاب: لا معنى لقوله: «تأكل القرى» إلا رجوح فضلها عليها، أي على القرى وزيادتها على غيرها.

وقال ابن المنير: يحتمل أن يكون المراد بذلك: غلبة فضلها على فضل غيرها، أي أن الفضائل تضمحل في جنب عظيم فضلها حتى تكون عدماً، وهذا أبلغ من تسمية مكة «أم القرى» لأن الأمومة لا ينمحي معها ما هي له أم، لكن يكون لها حق الأمومة، انتهى

ويحتمل أن يكون المراد غلبة أهلها على القرى، والأقرب: حمله عليهما، إذ هو أبلغ في الغرض المسوق له. انتهى ما قاله السيد السمهودي.

وقد أطلت في الاحتجاج لتفضيل المدينة على مكة، وإن كان مذهب إمامنا الشافعي - رحمه الله - تفضيل مكة، لأن هوى كل نفس أين حل حبيبها.

| | |
|---|---|
| عليّ لربع العامرية وقفة | ليملي علي الشوق والدمع كاتب |
| ومن مذهبي حب الديار لأهلها | وللناس فيما يعشقون مذاهب |

على أن للقلم في أرجاء تفضيل المدينة مجالاً واسعاً ومقالاً جامعاً، لكن الرغبة في الاختصار تطوي أطراف بساطه، والرهبة من الإكثار تصرف عن تطويله وإفراطه.

وقد استنبط العارف ابن أبي جمرة من قوله ﷺ المروي في البخاري **(ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة)**[1] التساوي بين فضل مكة والمدينة. قال: وظاهر هذا الحديث يعطي التسوية بينهما في الفضل، لأن جميع الأرض يطؤها الدجال إلا هذين البلدين، فدل على تسويتهما في الفضل، قال: ويؤيد ذلك أيضاً من وجوه النظر: لأنه إن كانت خصت المدينة بمدفنه ﷺ وإقامته بها ومسجده، فقد خصت مكة بمسقطه ﷺ بها ومبعثه منها، وهي قبلته، فمطلع شمس ذاته الكريمة المباركة مكة، ومغربها المدينة، وإقامته بعد النبوة على المشهور من الأقاويل بمكة مثل إقامته ﷺ بالمدينة، عشر سنين في كل واحدة منهما[2]. كذا قاله.

وأنت إذا تأملت قوله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث سعد[3] **(يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه: هلم إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذي**

---

(١) الحديث في مسلم أيضاً كتاب الفتن برقم (١٢٣) وفي مشكاة المصابيح (٢٧٤٢) وفي تفسير القرطبي ٤/ ٨٩ وفي كنز العمال (٣٤٨٥٨).

(٢) من المعلوم أن إقامته ﷺ بمكة بعد النبوة كانت ثلاث عشر سنة.

(٣) قال الزرقاني: كذا في النسخ والذي في مسلم إنما هو عن أبي هريرة.

**نفسي بيده لا يخرج أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه)** ظهر لك أن فيه إشعاراً بذم الخروج من المدينة. بل نقل الشيخ محب الطبري عن قوم أنه عام أبداً مطلقاً، وقال: إنه ظاهر اللفظ.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **(لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة أو شهيداً)**.

وفيه[1] عن سعيد[2] ـ مولى المهري ـ أنه جاء إلى أبي سعيد الخدري ليالي الحرة، فاستشاره في الجلاء من المدينة، وشكا إليه أسعارها وكثرة عياله، وأخبره أنه لا صبر له على جهد المدينة ولأوائها، فقال: ويحك. لا آمرك بذلك، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يصبر أحد على لأوائها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة**». و «اللأواء»: بالمد، الشدة والجوع. و «أو» في قوله: **(إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً)** الأظهر أنها ليست للشك، لأن هذا الحديث رواه جابر بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وأبو سعيد، وأبو هريرة، وأسماء بنت عميس، وصفية بنت أبي عبيد، عنه ﷺ بهذا اللفظ، ويبعد اتفاق جميعهم أو رواتهم على الشك وتطابقهم فيه على صيغة واحدة، بل الأظهر أنه قاله ﷺ.

وتكون «أو» للتقسيم، ويكون شهيداً لبعض أهل المدينة وشفيعاً لباقيهم، إما شفيعاً للعاصين وشهيداً للمطيعين، وإما شهيداً لمن مات في حياته، وشفيعاً لمن مات بعده، أو غير ذلك.

وهذه خصوصية زائدة على الشفاعة للمذنبين أو للعالمين في القيامة، وعلى شهادته على جميع الأمم، فيكون لتخصيصهم بهذا كله علو مرتبة وزيادة منزلة وحظوة.

وإذا قلنا «أو» للشك، فإن كانت اللفظة الصحيحة «شهيداً» اندفع الاعتراض لأنها زائدة على الشفاعة المدخرة لغيرهم، وإن كانت اللفظة الصحيحة «شفيعاً» فاختصاص أهل المدينة بهذا مع ما جاء من عمومها وادخارها لجميع الأمة أن هذه شفاعة أخرى غير العامة، وتكون هذه الشفاعة لأهل المدينة بزيادة الدرجات، أو تخفيف الحساب، وأو بما شاء الله من ذلك، أو بإكرامهم يوم القيامة بأنواع الكرامات لكونهم على منابر، أو في ظل العرش، أو الإسراع بهم إلى الجنة أو غير ذلك من خصوص الكرامات.

---

(١) أي في صحيح مسلم.
(٢) الصواب كما في مسلم: عن أبي سعيد.

كيف لا يتحمل المشقات من يحب أن يتمتع بسيد أهل الأرض والسماوات، وينال ما وعده به من جزيل المثوبات وجسيم الهبات، وإنجاز وعده لشفاعته وشهادته وبلوغ قصده في المحيا والممات، وكم عسى تكون شدة المدينة ولأوائها، وإلى متى تستمر مشقتها وبلواها، لو تأملت يا هذا، لوجدت في البلاد ما هو في الشدة وشظف العيش مثلها أو أشق منها، وأهلها مقيمون فيها، وربما يوجد فيهم من هو قادر على الانتقال فلا ينتقل، وقوي على الرحلة فلا يرتحل، ويؤثر وطنه مع إمكان الارتحال والقدرة على الانتقال.

على أن المدينة مع شظف العيش بها في غالب الأحيان، قد وسع الله فيها على بعض السكان، حتى من أصحابنا من غير أهلها ممن استوطنها وحسن فيها حاله، وتنعم بها باله دون سائر البلدان، فإن من الله على المرء بمثل ذلك هنالك، وإلا فالصبر للمؤمن أولى، فمن وفقه الله تعالى صبره في إقامته بها ولو على أحر من الجمر، فيتجرع مرارة غصتها ليجتلي عروس منصتها، ويلقى نزراً من لأوائها ليوقى بذلك من مصائب الدنيا وبلائها.

وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال **(إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها)** أي ينقبض وينضم ويلتجىء، مع أنها أصل في انتشاره، فكل مؤمن له من نفسه سائق إليها في جميع الأزمان، لحبه في ساكنها ﷺ، فأكرم بسكانها ولو قيل في بعضهم ما قيل، فقد حظوا بشرف المجاورة بهذا الحبيب الجليل. فقد ثبت لهم حق الجوار وإن عظمت إساءتهم، فلا يسلب عنهم اسم الجار، وقد عمم ﷺ في قوله: **(ما زال جبريل يوصيني بالجار)** ولم يخص جاراً دون جار، وكل ما احتج به محتج من رمي بعض عوامهم السنية بالابتداع وترك الاتباع، فإنه إذا ثبت ذلك في شخص منهم فلا يترك إكرامه، ولا ينقص احترامه فإنه لا يخرج عن حكم الجار ولو جار، ولا يزول عنه شرف مساكنته في الدار كيفما دار، بل يرجى أن يختتم له بالحسنى ويمنح بهذا القرب الصوري قرب المعنى.

فيا ساكني أكناف طيبة كلكم ... إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

ولله در ابن جابر حيث قال:

هناؤكم يا أهل طيبة قد حقا ... فبالقرب من خير الورى حزتم السبقا
فلا يتحرك ساكن منكمُ إلى ... سواها وإن جار الزمان وإن شقا
فكم ملك رام الوصول لمثل ما ... وصلتم فلم يقدر ولو ملك الخلقا
فبشراكم نلتم عناية ربكم ... فها أنتم في بحر نعمته غرقى
ترون رسول الله في كل ساعة ... ومن يره فهو السعيد به حقا

متى جئتم لا يغلق الباب دونكم — وباب ذوي الإحسان لا يقبل الغلقا
فيسمع شكواكم ويكشف ضركم — ولا يمنع الإحسان حراً ولا رقا
بطيبة مثواكم وأكرم مرسل — يلاحظكم فالدهر يجري لكم وفقا
وكم من نعمة لله فيها عليكم — فشكراً ونعم الله بالشكر تستبقى
أمنتم من الدجال فيها فحولها — ملائكة يحمون من دونها الطرقا
كذاك من الطاعون أنتم بمأمن — فوجه الليالي لا يزال لكم طلقا
فلا تنظروا إلا لوجه حبيبكم — وإن جاءت الدنيا ومرت فلا فرقا
حياة وموتا تحت رحماه أنتم — وحشرا فستر الجاه فوقكم ملقى
فيا راحلاً عنها لدنيا تريدها — أتطلب ما يفنى وتترك ما يبقى
أتخرج عن حوز النبي وحرزه — إلى غيره تسفيه مثلك قد حقا
لئن سرت تبغي من كريم إعانة — فأكرم من خير البرية ما تلقى
هو الرزق مقسوم فليس بزائد — ولو سرت حتى كدت تخرق الأفقا
فكم قاعد قد وسع الله رزقه — ومرتحل قد ضاق بين الورى رزقا
فعش في حمى خير الأنام ومت به — إذا كنت في الدارين تطلب أن ترقا
إذا قمت فيما بين قبر ومنبر — بطيبة فاعرف أن منزلك الأرقى
لقد أسعد الرحمن جار محمد — ومن جار في ترحاله فهو الأشقى

وقد روى الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: **(من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن يموت بها)** ورواه الطبراني في الكبير من حديث سبيعة الأسلمية. وفي البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **(لا يدخل المدينة الدجال ولا الطاعون)**.

وفيه[1]: عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **(لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان)**.

قال في فتح الباري: وقد استشكل عدم دخول الطاعون المدينة مع كونه شهادة، وكيف قرن بالدجال، ومدحت المدينة بعدم دخولهما.

وأجيب: بأن كون الطاعون شهادة ليس المراد بوصفه بذلك ذاته، وإنما المراد أن ذلك يترتب عليه، وينشأ عنه لكونه سببه، فإذا استحضر ما تقدم في المقصد الثامن من أنه طعن الجن حَسُنَ مدح المدينة بعدم دخوله إياها، فإن فيه إشارة إلى أن كفار الجن

---

(١) أي في البخاري برقم (١٨٧٩).

وشياطينهم ممنوعون من دخول المدينة، ومن اتفق دخوله فيها لا يتمكن من طعن أحد منهم.

وقد أجاب القرطبي في المفهم عن ذلك فقال: المعنى لا يدخلها من الطاعون مثل الذي وقع في غيرها، كطاعون عمواس[1] والجارف.

وهذا الذي قاله يقتضي أنه دخلها في الجملة، وليس كذلك، فقد جزم ابن قتيبة في «المعارف» وتبعه جمع منهم الشيخ محي الدين النووي في «الأذكار»: بأن الطاعون لم يدخل المدينة أصلاً، ولا مكة أيضاً، لكن نقل جماعة أنه دخل مكة الطاعون في العام الذي كان في سنة تسع وأربعين وسبعمائة، بخلاف المدينة فلم يذكر أحد أنه وقع الطاعون بها أصلاً.

وأجاب بعضهم بأنه ﷺ عوضهم عن الطاعون بالحمى، لأن الطاعون يأتي مرة بعد مرة، والحمى تتكرر في كل حين فيتعادلان في الأجر، ويتم المراد من عدم دخول الطاعون المدينة.

قال الحافظ ابن حجر: ويظهر لي جواب آخر، بعد استحضار الذي أخرجه أحمد من رواية أبي عسيب ـ بمهملتين آخره موحدة، بوزن عظيم ـ رفعه: **«أتاني جبريل بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام»**، وهو أن الحكمة في ذلك: أنه ﷺ لما دخل المدينة كان في قلة من أصحابه عدداً ومدداً، وكانت المدينة وبيئة، كما في حديث عائشة، ثم خير ﷺ في أمرين يحصل بكل منهما الأجر الجزيل، فاختار الحمى حينئذٍ لقلة الموت بها غالباً بخلاف الطاعون، ثم لما احتاج إلى جهاد الكفار، وأذن له في القتال كانت قضية استمرار الحمى بالمدينة تضعف أجساد الذين يحتاجون إلى التقوية لأجل الجهاد، فدعا بنقل الحمى من المدينة إلى الجحفة، فعادت المدينة أصح بلاد الله بعد أن كانت بخلاف ذلك، ثم كانوا من حينئذ من فاتته الشهادة بالطاعون ربما حصلت له بالقتل في سبيل الله، ومن فاته ذلك حصلت له الحمى التي هي حظ المؤمن من النار، ثم استمر ذلك بالمدينة تمييزاً لها عن غيرها لتحقق إجابة دعوته وظهور هذه المعجزة العظيمة بتصديق خبره في هذه المدة المتطاولة، فكان منع دخول الطاعون من خصائصها ولوازم دعائه ﷺ لها بالصحة. وقال بعضهم: هذا من المعجزات المحمدية، لأن الأطباء من أولهم إلى آخرهم عجزوا أن يدفعوا الطاعون عن بلد، بل عن قرية، وقد امتنع الطاعون عن المدينة

---

(١) عمواس: قرية بين الرملة وبيت المقدس، نسب إليها لكونه بدأ فيها، وكان سنة ثماني عشرة زمن عمر، والجارف وقع سنة تسع وستين وسمي بذلك لكثرة من مات فيه.

هذه الدهور الطويلة، انتهى ملخصاً والله أعلم.

ومن خصائص المدينة أن غبارها شفاء من الجذام والبرص بل من كل داء، كما رواه رزين العبدري في جامعه من حديث سعد، زاد في حديث ابن عمر: وعجوتها شفاء من السم، ونقل البغوي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**لنبوئنَّهم في الدنيا حسنة**﴾ [النحل: ٤١] أنها المدينة.

وذكر ابن النجار تعليقاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كل البلاد افتتحت بالسيف وافتتحت المدينة بالقرآن. وروى الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به عن أبي هريرة يرفعه: «**المدينة قبة الإسلام ودار الإيمان، وأرض الهجرة، ومثوى الحلال والحرام**».

وبالجملة، فكل المدينة وترابها وطرقها وفجاجها ودورها وما حولها قد شملته بركته ﷺ، فإنهم كانوا يتبركون بدخوله منازلهم، ويدعونه إليها وإلى الصلاة في بيوتهم، ولذلك امتنع مالك من ركوب دابة في المدينة وقال: لا أطأ بحافر دابة في عراص كان ﷺ يمشي فيها بقدميه ﷺ.

وينبغي أن يأتي قباء للصلاة فيه والزيارة، فقد كان ﷺ يزوره راكباً وماشياً، رواه مسلم وفي رواية له: «يأتي» بدل «يزور» فيصلي فيه ركعتين. وعنده أيضاً: إن ابن عمر كان يأتيه كل سبت ويقول: رأيت النبي ﷺ يأتيه كل سبت.

وعند الترمذي وابن ماجه والبيهقي من حديث أسيد بن ظُهَير الأنصاري، يرفعه: «**صلاة في مسجد قباء كعمرة**»، قال الترمذي حسن غريب. وقال المنذري: لا نعرف لأسيد حديثاً صحيحاً غير هذا[1].

ورواه أحمد وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف بلفظ: «**من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة**»، وصححه الحاكم.

وينبغي أيضاً بعد زيارته ﷺ أن يقصد المزارات التي بالمدينة الشريفة، والآثار المباركة، والمساجد التي صلى فيها ﷺ التماساً لبركته، ويخرج إلى البقيع لزيارة من فيه، فإن أكثر الصحابة ممن توفي في المدينة في حياته ﷺ وبعد وفاته مدفون في البقيع، وكذلك سادات أهل البيت والتابعين.

وروي عن مالك أنه قال: من مات بالمدينة من الصحابة عشرة آلاف، وكذلك أمهات المؤمنين سوى خديجة فإنها بمكة، وميمونة فإنها بسرف. وقد كان ﷺ يخرج آخر الليل إلى

(١) قال الحافظ العراقي: رواته كلهم ثقات. وقول ابن العربي إنه ضعيف غير جيد.

البقيع فيقول: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**» رواه مسلم.

قال ابن الحاج في «المدخل» وقد فرق علماؤنا بين الآفاقي والمقيم في التنفل بالطواف والصلاة، فقالوا: الطواف في حق الآفاقي أفضل له، والتنفل في حق المقيم أفضل، قال: وما نحن بسبيله من باب أولى، فمن كان مقيماً خرج إلى زيارة أهل البقيع ومن كان مسافراً فليغتنم مشاهدته ﷺ.

وحكي عن العارف ابن أبي جمرة، أنه لما دخل المسجد النبوي لم يجلس إلا الجلوس في الصلاة، وأنه لم يزل واقفاً بين يديه صلوات الله وسلامه عليه، وكان قد خطر له أن يذهب إلى البقيع فقال: إلى أين أذهب، هذا باب الله المفتوح للسائلين والطالبين والمنكسرين. انتهى.

وروى ابن النجار مرفوعاً: «**مقبرتان مضيئتان لأهل السماء كما تضيء الشمس والقمر لأهل الدنيا: بقيع الغرقد ومقبرة بعسقلان**»[1]، وعن كعب الأحبار قال: نجدها في التوراة ـ يعني مقبرة المدينة ـ كقبة محفوفة بالنخيل موكل بها ملائكة كلما امتلأت أخذوها مكفؤوها في الجنة.

وأخرج أبو حاتم من حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض، ثم أبو بكر ثم عمر، ثم آتي البقيع فيحشرون معي، ثم انتظر أهل مكة حتى يحشروا بين الحرمين**»[2].

## الفصل الثالث

في تفضيله ﷺ في الآخرة بفضائل الأوليات الجامعة لمزايا التكريم وعلى الدرجات العاليات وتحميده بالشفاعة والمقام المحمود، المغبوط عليه من الأولين والآخرين، وانفراده بالسؤدد في مجمع جامع الأنبياء والمرسلين، وترقيه في جنات عدن أرقى مدارج السعادة، وتعاليه يوم المزيد في أعلى معالي الحسنى وزيادة.

اعلم أن الله تعالى كما فضل نبينا ﷺ في البدء بأن جعله أول الأنبياء في الخلق، وأولهم في الإجابة في عالم الذر، يوم **ألست بربكم**[3]، فضل له ختم كمال الفضائل في العود، فجعله أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع، وأول من يؤذن له

---

(١) هي مدينة في فلسطين.

(٢) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة في سورة الأعراف آية: ١٧٢.

بالسجود، وأول من ينظر إلى رب العالمين، والخلق محجوبون عن رؤيته إذ ذاك، وأول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وأول داخل الجنة، وأمته أول الأمم دخولاً إليها. وزاده من لطائف التحف ونفائس الطرف ما لا يحد ولا يعد:

فمن ذلك أنه يبعث راكباً، وتخصيصه بالمقام المحمود، ولواء الحمد تحته آدم فمن دونه من الأنبياء، واختصاصه أيضاً بالسجود لله تعالى أمام العرش، وما يفتحه الله عليه في سجوده من التحميد والثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبله ولا يفتحه على أحد بعده زيادة في كرامته وقربه، وكلام الله له: يا محمد، ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع، ولا كرامة فوق هذا إلا النظر إليه تعالى.

ومن ذلك: تكراره في الشفاعة، وسجوده ثانية وثالثة، وتجديد الثناء عليه بما يفتح الله عليه.

ومن ذلك: كلام الله تعالى له في كل سجدة: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع، فعل المدل على ربه الكريم عليه الرفيع عنده، المحب ذلك منه تشريفاً له وتكريماً وتبجيلاً وتعظيماً.

ومن ذلك: قيامه عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيره، يغبطه فيه الأولون والآخرون، وشهادته بين الأنبياء وأممهم، وإتيانهم إليه يسألونه الشفاعة ليريحهم من غمهم وعرقهم وطول وقوفهم، وشفاعته في أقوام قد أمر بهم إلى النار.

ومنها: الحوض، الذي ليس في الموقف أكثر أوان منه، وأن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته.

ومنها: أنه يشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم.

وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، إلى غير ذلك مما يزيده تعالى به جلالة وتعظيماً وتبجيلاً وتكريماً على رؤوس الأشهاد من الأولين والآخرين والملائكة أجمعين. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فأما تفضيله ﷺ بأولية انشقاق القبر المقدس عنه، فروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع**).

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي ـ آدم فمن سواه ـ إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر..**) رواه الترمذي.

وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر، ثم آتي أهل البقيع فيحشرون معي، ثم أنتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين**» قال الترمذي حسن صحيح. ورواه أبو حاتم وقال: حتى نحشر. وتقدم.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يصعق الناس حين يصعقون، فأكون أول من قام، فإذا موسى آخذ بالعرش: فما أدري أكان فيمن صعق**»[1]. وفي رواية «**فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله**»[2] رواه البخاري. والمراد بالصعق: غشي يلحق من سمع صوتاً أو رأى شيئاً ففزع منه.

ولم يبين في هذه الرواية ـ من الطريقين ـ محل الإفاقة، من أي الصعقتين. ووقع في رواية الشعبي عن أبي هريرة في تفسير سورة الزمر[3] (إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الأخيرة).

والمراد بقوله: «ممن استثنى الله» قوله تعالى: ﴿**ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله**﴾ [النمل: ٨٧]. وقد استشكل كون جميع الخلق يصعقون، مع أن الموتى لا إحساس لهم؟

فقيل المراد: الذين يصعقون هم الأحياء، وأما الموتى فهم في الاستثناء في قوله: ﴿**إلا من شاء الله**﴾ [النمل: ٨٧] أي إلا من سبق له الموت قبل ذلك فإنه لا يصعق، وإلى هذا جنح القرطبي. ولا يعارضه ما ورد في الحديث: إن موسى ممن استثنى الله، لأن الأنبياء أحياء عند الله.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد صعقة فزع بعد البعث حين تنشق السماء والأرض. وتعقبه القرطبي: بأنه صرح ﷺ بأنه يخرج من قبره فيلقى موسى وهو متعلق بالعرش وهذا إنما هو عند نفخة البعث. انتهى.

ووقع في رواية أبي سلمة عند ابن مردويه: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة فأقوم فأنفض التراب عن رأسي، فآتي قائمة العرش فأجد موسى قائماً عندها، فلا أدري أنفض التراب عن رأسه قبلي، أو كان ممن استثنى الله**».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥١٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥١٧).

(٣) الآية ٦٨ راجع صحيح البخاري حديث رقم (٤٨١٣).

واختلف في المستثنى من هو على عشرة أقوال: فقيل الملائكة، وقيل الأنبياء، وبه قال البيهقي في تأويل الحديث في تجويزه: أن يكون موسى ممن استثنى الله، قال: ووجهه عندي أنهم أحياء كالشهداء، فإذا نفخ في الصور النفخة الأولى صعقوا، ثم لا يكون ذلك موتاً في جميع معانيه إلا في ذهاب الاستشعار.

وقيل الشهداء: واختاره الحليمي قال: وهو مروي عن ابن عباس، فإن الله تعالى يقول: ﴿**أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وضعف غيره من الأقوال.

وقال أبو العباس القرطبي صاحب «المفهم»: الصحيح أنه لم يأت في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل. وتعقبه تلميذه في «التذكرة» فقال: قد ورد في حديث أبي هريرة بأنهم الشهداء وهو صحيح. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عن هذه الآية: «**من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا؟**» قال: هم شهداء الله. وصححه الحاكم.

وقيل: هم حملة العرش وجبريل وميكائيل وملك الموت، ثم يموتون، وآخرهم ملك الموت، وقيل هم الحور العين والولدان في الجنة.

وتعقب: بأن حملة العرش ليسوا من سكان السماوات والأرض، لأن العرش فوق السماوات كلها، وبأن جبريل وميكائيل وملك الموت من الصافين المسبحين، ولأن الحور العين والولدان في الجنة، وهي فوق السماوات ودون العرش، وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء فلا شك أنها بمعزل عما خلقه الله للفناء. ثم إنه وردت الأخبار بأن الله تعالى يميت حملة العرش وملك الموت وميكائيل ثم يحييهم. وأما أهل الجنة فلم يأت عنهم خبر، والأظهر أنها دار خلود، فالذي يدخلها لا يموت فيها أبداً، مع كونه قابلاً للموت، فالذي خلق فيها أولى أن لا يموت فيها أبداً.

فإن قلت: قوله: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ [القصص: ٨٨] يدل على أن الجنة نفسها تفنى ثم تعاد ليوم الجزاء، ويموت الحور العين ثم يحيون.

أجيب: بأنه يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿**كل شيء هالك**﴾ [القصص: ٨٨] أي أنه قابل للهلاك، فيهلك إن أراد الله به ذلك، إلا هو سبحانه فإنه قديم، والقديم لا يمكن أن يفنى، انتهى ملخصاً من تذكرة القرطبي.

ويؤيد القول بعدم موت الحور قولهن: نحن الخالدات فلا نموت، كما في الحديث. ولا يقال: المراد من قولهن الخلود الكائن بعد القيامة، لأنه لا خصوصية فيه، والأوصاف المشتركة لا يتباهى بها، والله أعلم.

وفي كتاب العظمة لأبي الشيخ بن حبان من طريق وهب بن منبه من قوله: قال: خلق

الله الصور من لؤلؤة بيضاء في صفاء الزجاجة، ثم قال للعرش: خذ الصور فتعلق به، ثم قال: كن فكان إسرافيل، فأمره أن يأخذ الصور وبه ثقب بعدد كل روح مخلوقة ونفس منفوسة، فذكر الحديث وفيه: ثم تجتمع الأرواح كلها في الصور، ثم يأمر الله إسرافيل فينفخ فيه فتدخل كل روح في جسدها. فعلى هذا فالنفخ يقع في الصور أولاً ليصل النفخ بالروح إلى الصّوَر وهي الأجساد، فإضافة النفخ إلى الصور الذي هو القرن حقيقة، وإلى الصور التي هي الأجساد مجاز[1].

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر، رفعه: **«ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتا ورفع لِيتا، ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل فينبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون»**.

و «الليت» بكسر اللام وبالمثناة التحتية ثم الفوقية: صفحة العنق، وهما ليتان. و «أصغى»: أمال.

وأخرج البيهقي بسند قوي، عن ابن مسعود موقوفاً[2]: ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض فينفخ فيه ـ والصور قرن ـ فلا يبقى لله خلق في السماوات والأرض إلا مات، إلا من شاء ربك، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون.

---

(١) تنبيه: اشتهر أن صاحب الصور «إسرافيل» عليه السلام ونقل فيه الحليمي الإجماع. ووقع التصريح به في حديث وهب المذكور وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي وأبي هريرة عند ابن مردويه، وكذا في حديث الصور الطويل الذي أخرجه عبد بن حميد والطبري وأبو يعلى في «الكبير» والطبراني في «الطوالات» وعلي بن معبد في كتاب «الطاعة والمعصية» والبيهقي في البعث من حديث أبي هريرة، ومداره على إسماعيل بن رافع. واضطرب في سنده مع ضعفه: فرواه عن محمد بن كعب القرظي تارة بلا واسطة وتارة بواسطة رجل مبهم ومحمد عن أبي هريرة تارة بلا واسطة وتارة بواسطة رجل من الأنصار مبهم أيضاً. وأخرجه إسماعيل بن أبي زياد الشامي ـ أحد الضعفاء أيضاً ـ في «تفسيره» عن محمد بن عجلان، عن محمد بن كعب القرظي. واعترض مغلطاي على عبد الحق في تضعيفه الحديث بإسماعيل بن رافع، وخفي عليه أن الشامي أضعف منه، ولعله سرقه منه فألصقه بابن عجلان. وقد قال الدارقطني: إنه متروك، يضع الحديث. وقال الخليلي: شيخ ضعيف شحن «تفسيره» بما لا يتابع عليه: وقال الحافظ عماد الدين بن كثير في حديث الصور: جمعه إسماعيل بن رافع من عدة آثار، وأصله عنده عن أبي هريرة، فساقه كله مساقاً واحداً. وقد صحح الحديث من طريق إسماعيل بن رافع القاضي أبو بكر ابن العربي في «سراجه» وتبعه القرطبي في «التذكرة». وقول عبد الحق في تضعيفه أولى. وضعفه قبله البيهقي. قال الزرقاني: (هذا كلام وهب بن منبه الذي لم يروه عن غيره وكأنه من الإسرائيليات).

(٢) قال الزرقاني في الشرح: في النسخ مرفوعاً وهو خطأ فقد صرح في مجمع الزوائد بأنه موقوف.

وأخرج ابن المبارك في الرقاق من مرسل الحسن: بين النفختين أربعون سنة، الأولى يميت الله بها كل حي، والأخرى يحيي الله بها كل ميت، ونحوه عند ابن مردويه من حديث ابن عباس، وهو ضعيف.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا مستشفعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي، ولواء الحمد يومئذٍ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي، يطوف علي ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور**»، رواه الدارمي، وقال الترمذي: حديث غريب[1].

ولم يقل: وأنا إمامهم، لأن دار الآخرة ليست دار تكليف.

وفي حديث رواه صاحب كتاب «حادي الأرواح»: أن رسول الله ﷺ يبعث يوم القيامة وبلال بين يديه ينادي بالأذان.

وفي كتاب «ذخائر العقبى» للطبري، مما عزاه لتخريج الحافظ السلفي من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**تبعث الأنبياء على الدواب، ويحشر صالح على ناقته، ويحشر ابنا فاطمة على ناقتيَّ العضباء والقصواء، وأحشر أنا على البراق، خطوها عند أقصى طرفها، ويحشر بلال على ناقة من نوق الجنة**».

وأخرجه الطبراني والحاكم بلفظ: «**يحشر الأنبياء على الدواب، وأبعث على البراق، ويبعث بلال على ناقة من نوق الجنة فينادي بالأذان محضاً وبالشهادة حقاً، حتى إذا قال أشهد أن محمداً رسول الله، شهد له المؤمنون من الأولين والآخرين**».

وعند ابن زنجويه في «فضائل الأعمال» عن كثير بن مرة الحضرمي، قال قال رسول الله ﷺ: «**تبعث ناقة ثمود لصالح فيركبها من عند قبره حتى توافي به المحشر، وأنا على البراق اختصصت به من دون الأنبياء يومئذ، ويبعث بلال على ناقة من نوق الجنة ينادي على ظهرها بالأذان حقاً، فإذا سمعت الأنبياء وأممها: أشهد أن محمداً رسول الله قالوا: ونحن نشهد على ذلك**».

وذكر الشيخ زين الدين المراغي، مما عزاه لابن النجار في تاريخ المدينة عن كعب الأحبار، والقرطبي في «التذكرة» وابن أبي الدنيا عن كعب: أنه دخل على عائشة رضي الله عنها، فذكروا رسول الله ﷺ فقال كعب: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة

---

(١) فيه الحسين بن يزيد الكوفي. قال أبو حاتم: لين.

حتى يحفون بالقبر، ويضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط سبعون ألف ملك يحفون بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ، سبعون ألفاً بالليل وسبعون ألفاً بالنهار، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه ﷺ.

وفي «نوادر الأصول» للحكيم الترمذي من حديث ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ ويمينه على أبي بكر وشماله على عمر، فقال: «**هكذا نبعث يوم القيامة**»[1].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**فأكسى حلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري**». رواه الترمذي.

وفي رواية جامع الأصول عنه: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى**»، وفي رواية كعب: حلة خضراء.

وفي البخاري، من حديث ابن عباس، عنه ﷺ: «**تحشرون حفاة عراة غرلا، (كما بدأنا أول خلق نعيده) وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم**»[2].

وأخرجه البيهقي، وزاد: وأول من يكسى من الجنة إبراهيم، يكسى حلة من الجنة ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش، ثم يؤتى بي فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر. وفيه: أنه يجلس على الكرسي عن يمين العرش.

ولا يلزم من تخصيص إبراهيم عليه السلام بأنه أول من يكسى أن يكون أفضل من نبينا ﷺ، على أنه يحتمل أن يكون نبينا ﷺ خرج من قبره في ثيابه التي مات فيها، والحلة التي يكساها يومئذٍ حلة الكرامة، بقرينة إجلاسه عند ساق العرش، فتكون أولية إبراهيم في الكسوة بالنسبة لبقية الخلق.

وأجاب الحليمي: بأنه يكسى إبراهيم أولاً، ثم يكسى نبينا، عليهما الصلاة والسلام، على ظاهر الخبر، لكن حلة نبينا أعلى وأكمل، فتجبر بنفاستها ما فات من الأولية.

وفي حديث أبي سعيد عند أبي داود وصححه ابن حبان، أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد فلبسها وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها**»[3].

---

(١) الحديث في الترمذي برقم (٣٦٣٩) وفي سنن ابن ماجه (٩٩) وفي المستدرك ٣/ ٦٨ وفي مجمع الزوائد ٩/ ٥٣ وفي مشكاة المصابيح (٦٠٥٤) وفي كنز العمال (٣٦١٣٠ ـ ٣٨٩١٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٤٤٧).

(٣) الحديث في سنن أبي داود برقم (٣١١٤) وفي المستدرك ١/ ٣٤٠ وفي جمع الجوامع (٥٩٥٧) وفي =

وعند الحارث بن أبي أسامة وأحمد بن منيع: **«فإنهم يبعثون في أكفانهم ويتزاورون في أكفانهم»**[1].

ويجمع بينه وبين ما في البخاري بأن بعضهم يحشر عارياً وبعضهم كاسياً، أو يحشرون كلهم عراة ثم يكسى الأنبياء، وأول من يكسى إبراهيم عليه السلام، أو يخرجون من القبور بالثياب التي ماتوا فيها ثم تتناثر عنهم عند ابتداء الحشر، فيحشرون عراة ثم يكون أول من يكسى إبراهيم.

وحمل بعضهم حديث أبي سعيد على الشهداء، فيكون أبو سعيد سمعه في الشهداء فحمله على العموم.

وأما ما رواه الطبري في «الرياض النضرة» وعزاه للإمام أحمد في المناقب عن محدوج بن زيد الهذلي أن النبي ﷺ قال لعلي: **«أما علمت يا علي أنه أول من يدعى به يوم القيامة بي، فأقوم عن يمين العرش في ظله، فأكسى حلة خضراء من حلل الجنة، ثم يدعى بالنبيين بعضهم على أثر بعض، فيقومون سماطين عن يمين العرش ويكسون حللاً خضراً من حلل الجنة، ألا وإن أمتي أول الأمم يحاسبون يوم القيامة، ثم أَبْشِر، فأول من يدعى بك، فيدفع لك لوائي وهو لواء الحمد، فتسير به بين السماطين، آدم وجميع خلق الله تعالى يستظلون بظل لوائي يوم القيامة، وطوله مسيرة ألف سنة وستمائة سنة، وسنانه ياقوتة حمراء، قبضته فضة بيضاء، زجه درة خضراء، له ثلاث ذوائب من نور، ذؤابة في المشرق، وذؤابة في المغرب، والثالثة في وسط الدنيا، مكتوب عليه ثلاثة أسطر، الأول: بسم الله الرحمن الرحيم، الثاني: الحمد لله رب العالمين، الثالث: لا إله إلا الله محمد رسول الله، طول كل سطر ألف سنة، وعرضه مسيرة ألف سنة، فتسير باللواء والحسن عن يمينك، والحسين عن يسارك، حتى تقف بيني وبين إبراهيم عليه السلام في ظل العرش، ثم تكسى حلة من الجنة. والسماطان من الناس والنخل: الجانبان»**.

ورواه ابن سبع في الخصائص بلفظ: قال سأل عبد الله بن سلام رسول الله ﷺ عن لواء الحمد ما صفته؟ قال: «**طوله مسيرة**» الحديث. فقال الحافظ قطب الدين الحليمي: كما نقله عنه المحب بن الهمام: إنه موضوع بين الوضع. قال: والله أعلم بحقيقة لواء الحمد.

---

= السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٣٨٤ وفي مصنف عبد الرزاق (٦٢٠٣) وفي كنز العمال (٤٢٢٥١).

(١) الحديث عن جابر رفعه: إذا ولي أحدكم أخاه فليحسن كفنه فإنهم...، قال الحافظ إسناده صالح.

وفي حديث أبي سعيد ـ عند الترمذي بسند حسن ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي**» الحديث. واللواء: الراية، وفي عرفهم لا يمسكها إلا صاحب الجيش ورئيسه، ويحتمل أن تكون بيد غيره بإذنه وتكون تابعة له ومتحركة بحركته، تميل معه حيث مال، لا أنه يمسكها بيده، إذ هذه الحالة أشرف.

وفي استعمال العرب عند الحروب، إنما يمسكها صاحبها، ولا يمنعه ذلك من القتال بها، بل يقاتل بها ممسكاً لها أشد القتال، ولذا لا يليق بإمساكها كل أحد، بل مثل علي رضي الله عنه، كما قال «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»[1]. وإنما أضاف «اللواء» إلى «الحمد» الذي هو الثناء على الله بما هو أهله، لأن ذلك هو منصبه في ذلك الموقف دون غيره من الأنبياء. وقد اختلف في هيئة حشر الناس:

ففي البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (**يحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير وأربعة على بعير. وعشرة على بعير، ويحشر بقيتَهم النار، تَقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا**)[2] رواه الشيخان.

وقد مال الحليمي إلى أن هذا الحشر يكون عند الخروج من القبور، وجزم به الغزالي، وقيل: إنهم يخرجون من القبور بالوصف المذكور في حديث ابن عباس عند الشيخين: أن رسول الله ﷺ قال: (**إنكم محشورون حفاة عراة غرلا، ثم قرأ «كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين»**) ثم يفترق حالهم من ثم إلى الموقف، كما في حديث أبي هريرة: «**ويحشر الكافر على وجهه**»، قال رجل: يا رسول الله، كيف يحشر على وجهه؟ قال: «**أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**) أخرجه الشيخان.

وفي حديث أبي ذر عند النسائي مرفوعاً: «**إن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج. فوجاً راكبين طاعمين كاسين، وفوجاً تسحبهم الملائكة على وجوههم، وفوجاً يمشون ويسعون**»[3].

---

(١) الحديث في المسند ١/ ٩٩ وفي السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٣٦٢ وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨/ ٢٣٧ وفي مجمع الزوائد ٩/ ١٢٤ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠٦/١ وفي دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٠٩ وفي حلية الأولياء ٤/ ٣٥٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٢٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل والحاكم والبيهقي.

وفي حديث سهل بن سعد مرفوعاً: (**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقى**[1] **ليس فيها علم لأحد**) رواه الشيخان.

وفي حديث عقبة بن عامر ـ عند الحاكم ـ رفعه: «**تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس، فمنهم من يبلغ نصف ساقه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ فخذه، ومنهم من يبلغ خاصرته، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومنهم من يبلغ فاه وأشار بيده ألجمها فاه، ومنهم من يغطيه عرقه، وضرب بيده على رأسه**»[2].

وله شاهد عند مسلم، من حديث المقداد بن الأسود، وليس بتمامه، وفيه: «**تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق**». وهذا ظاهر في أنهم يستوون في وصول العرق إليهم ويتفاوتون في حصوله فيهم.

فإن قلت: الشمس محلها السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿**يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب**﴾ [الأنبياء: ١٠٤] والألف واللام في «السماء» للجنس، بدليل ﴿**والسموات مطويات بيمينه**﴾ [الزمر: ٦٧] فما طريق الجمع؟

فالجواب: يجوز أن تقام بنفسها دانية من الناس في المحشر ليقوى هوله وكربه، عافانا الله من كل مكروه.

وقا ابن أبي جمرة: ظاهر الحديث يقتضي تعميم الناس بذلك، ولكن دلت الأحاديث الأخرى على أنه مخصوص بالبعض وهم الأكثر، ويستثنى الأنبياء والشهداء ومن شاء الله، فأشدهم الكفار، ثم أصحاب الكبائر، ثم من بعدهم.

وأخرج أبو يعلى، وصححه ابن حبان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ [المطففين: ٦] قال: مقداره نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهون على المؤمنين كتدلي الشمس إلى أن تغرب. وأخرج أحمد وابن حبان نحوه من حديث أبي سعيد.

وللبيهقي في البعث عن أبي هريرة: «**يحشر الناس قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم**

---

(١) أي كخبز الدقيق النقي.

(٢) أخرج نحوه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤/١٥٧ وفي المستدرك ٤/٥٧١ وفي مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٥ وفي إتحاف السادة المتقين ١٠/٤٥٨ وفي الترغيب والترهيب ٤/٣٨٩ وفي المغني للعراقي ٤/٤٨٩ وفي كنز العمال (٣٨٩٦٦).

**إلى السماء، فيلجمهم العرق من شدة الكرب»**[1].

وفي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عنه ﷺ **«يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم العرق حتى يبلغ آذانهم»**.

وعند البيهقي من حديث ابن مسعود، **«إذا حشر الناس قاموا أربعين عاماً شاخصة أبصارهم إلى السماء، لا يكلمهم**[2]**، والشمس على رؤوسهم حتى يلجم العرق كل بر منهم وفاجر»**.

وفي حديث أبي سعيد، عند أحمد، أنه يخفف الوقوف عن المؤمن حتى يكون كصلاة فريضة مكتوبة، وسنده حسن. وللطبراني من حديث ابن عمر: ويكون ذلك اليوم أقصر على المؤمن من ساعة من نهار.

وجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاصي: أن الذي يلجمه العرق الكافر، أخرجه البيهقي في البعث بسند حسن عنه قال: يشتد كرب الناس ذلك اليوم حتى يلجم الكافر العرق، قيل له: فأين المؤمنون؟ قال: على كراسي من ذهب ويظلل عليهم الغمام.

وبسند قوي[3] عن أبي موسى قال: الشمس فوق رؤوس الناس يوم القيامة، وأعمالهم تظلهم.

وأخرج ابن المبارك في «الزهد» وابن أبي شيبة في «المصنف» واللفظ له، بسند جيد عن سلمان قال: تعطى الشمس يوم القيامة حر عشر سنين، ثم تدنو من جماجم الرأس حتى تكون قاب قوسين، فيعرقون حتى يرشح العرق في الأرض قامة، ثم يرتفع حتى يغرغر الرجل. زاد ابن المبارك في روايته: ولا يضر حرها يومئذ مؤمناً ولا مؤمنة. قال القرطبي: المراد من يكون كامل الإيمان لما يدل عليه حديث المقداد وغيره: أنهم يتفاوتون في ذلك بحسب أعمالهم.

وفي رواية عند أبي يعلى، وصححها ابن حبان: إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة حتى يقول: يا رب، أرحني ولو إلى النار. وهو كالصريح في أن ذلك كله في الموقف. ومن تأمل الحالة المذكورة، عرف عظيم الهول فيها، وذلك أن النار تحف بأرض الموقف، وتدنو الشمس من الرؤوس قدر ميل، فكيف تكون حرارة تلك الأرض، وماذا يرونه من

---

(١) انظر البعث والنشور للبيهقي صفحة (٣٣٩).

(٢) قال الزرقاني: بمعنى لا يتاركون الشخوص هذه المدة.

(٣) أخرجه البيهقي.

العرق مع أن كل أحد لا يجد إلا قدر موضع قدميه، فكيف يكون حال هؤلاء في عرقهم مع تنوعهم فيه.

إن هذا لما يبهر العقول، ويدل على عظيم القدرة، ويقتضي الإيمان بأمور الآخرة، وأن ليس للعقل فيه مجال، ولا يُعترض على ذلك بعقل ولا قياس ولا عادة، وإنما يؤخذ بالقبول.

فتأمل ـ رحمك الله ـ شدة هذا الازدحام والانضمام والاتساق والالتصاق، واجتماع الإنس والجان، ومن يجمع معهم من سائر أصناف الحيوان، وانضغاطهم وتدافعهم واختلاطهم، وقرب الشمس منهم، وما يزاد في حرها، ويضاعف في وهجها، ولا ظل إلا ظل عرش ربك بما قدمته، مع ما انضاف إلى ذلك من حر البأس، لتزاحم الناس واحتراق القلوب، لما غشيها من الكروب.

ولا ريب أن هذا موجب لحصول العطش في ذلك اليوم، وكثرة الالتهاب، والماء ثم أعز موجود، وأعظم مفقود، فلا منهل مورود إلا حوض صاحب المقام المحمود ﷺ وزاده فضلاً وشرفاً لديه، ولا مشرب لأمته سواه، ولا تبرد أكبادهم إلا به، فالشربة منه كما ورد تروي الظمأ، وتشفي من الصدى. وتذهب بكل داء فلا يظمأ شاربها ولا يسقم بعدها أبداً.

وفي حديث أنس عند البزار: من شرب منه ـ أي من الحوض ـ شربة لم يظمأ أبداً، ومن لم يشرب منه لم يرو أبداً، وزاد في حديث أبي أمامة عند أحمد وابن حبان: ولم يسود وجهه أبداً.

وفي حديث ثوبان عند الترمذي وصححه الحاكم: «**أكثر الناس عليه وروداً فقراء المهاجرين**».

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي، عند الشيخين (**حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، ورائحته أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه شربة لا يظمأ أبداً**).

قال القرطبي في «التذكرة»: ذهب صاحب «القوت» وغيره إلى أن الحوض يكون بعد الصراط، وذهب آخرون إلى العكس، والصحيح أن للنبي ﷺ حوضين، أحدهما في الموقف قبل الصراط، والآخر داخل الجنة، وكل منهما يسمى كوثراً.

وتعقبه شيخ الحفاظ ابن حجر: بأن الكوثر نهر داخل الجنة، وماؤه يصب في الحوض، ويطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه. فغاية ما يؤخذ من كلام القرطبي أن الحوض يكون قبل الصراط لأن الناس يردون الموقف عطاشاً، فيرد المؤمنون الحوض،

وتتساقط الكفار في النار بعد أن يقولوا ربنا عطشنا، فترفع لهم جهنم كأنهـا سراب فيقال ألا تردون، فيظنونها ماء فيتساقطون فيها.

وفي حديث أبي ذر مما رواه مسلم: (**أن الحوض يشخب فيه ميزابان من الجنة**) وهو حجة على القرطبي لا له، لأن الصراط جسر جهنم، وهو بين الموقف والجنة، والمؤمنون يمرون عليه لدخول الجنة، فلو كان الحوض دونه لحالت النار بينه وبين الماء الذي يصب من الكوثر في الحوض، وظاهر الحديث أن الحوض، بجانب الجنة ليصب فيه الماء من النهر الذي داخلها.

وقال القاضي عياض: ظاهر قوله ﷺ: «**من شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً**» يدل على أن الشرب منه يقع بعد الحساب والنجاة من النار، لأن ظاهر حال من لا يظمأ أن لا يعذب بالنار، ولكن يحتمل أن من قدر عليه التعذيب منهم أن لا يعذب فيها بالظمأ بل بغيره.

وعن أنس قال: سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: «**أنا فاعل إن شاء الله**»، قلت: فأين أطلبك؟ قال: «**أول ما تطلبني على الصراط**»، قلت: فإن لم ألقك على الطراط؟ قال: «**فاطلبني عند الميزان**»، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «**فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطىء هذه الثلاثة مواطن**». رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

وفي حديث ابن مسعود عند أحمد: «**ثم أوتى بكسوتي فألبسها فأقوم عن يمين العرش مقاماً لا يقومه أحد، فيغبطني به الأولون والآخرون**». قال: «**ويفتح لهم من الكوثر إلى الحوض**». الحديث.

وقد بين في حديث ابن عمرو بن العاصي، عند البخاري، أن الحوض مسيرة شهر، وزاد في رواية مسلم من هذا الوجه: وزواياه سواء طوله كعرضه. وهذه الزيادة ـ كما قاله في فتح الباري ـ تدفع تأويل من جمع بين مختلف الأحاديث في تقدير مسافة الحوض على اختلاف العرض والطول. وفي حديث أبي سعيد عند ابن ماجه رفعه: «**إن لي حوضاً ما بين الكعبة وبيت المقدس**»[1].

وفي حديث أبي برزة عند الطبراني وابن حبان في صحيحه: «**ما بين ناحيتي حوضي كما بين أيلة وصنعاء، مسيرة شهر عرضه كطوله**». وفي حديث أنس ـ عند الشيخين ـ كما

---

(١) ذكر نحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥٠٢ والسيوطي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٦٥ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ١٤٦.

بين صنعاء والمدينة. وفي حديث عتبة بن عبد السلمي عند ابن حبان في صحيحه كما بين صنعاء إلى بصرى. وفي حديث أبي أمامة عند الطبراني: ما بين عدن وعُمان ـ بضم المهلمة وتخفيف الميم ـ وقال ابن الأثير في النهاية في حديث الحوض: عرضه من مقامي إلى عمَّان ـ هي بفتح العين وتشديد الميم ـ مدينة قديمة بالشام من أرض البلقاء، فأما بالضم والتخفيف فهو صقع عند البحرين. انتهى.

وهذه المسافات كلها متقاربة، وظن بعضهم أنه وقع اضطراب في ذلك، وليس كذلك. وأجاب النووي عن ذلك: بأنه ليس في ذكر المسافة القليلة ما يدفع المسافة الكثيرة، فالأكثر ثابت بالحديث الصحيح فلا معارضة. وحاصله يشير إلى أنه أخبر أولاً بالمسافة اليسيرة ثم أعلم بالمسافة الطويلة فأخبر بما كان الله تفضل عليه باتساعه شيئاً بعد شيء، فيكون الاعتماد على أطولها مسافة.

فإن قلت: هل لكل نبي من الأنبياء غير نبينا ﷺ حوض هناك يقوم عليه كنبينا؟ **فالجواب**: أنه اشتهر اختصاص نبينا ﷺ بالحوض. قال القرطبي في «المفهم» مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به، أنه تعالى قد خص نبيه محمداً ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي، إذ روى ذلك عنه ﷺ من الصحابة نيف على الثلاثين، منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين، وفي غيرهما بقية ذلك، كما صح نقله واشتهرت رواته، ثم رواه عن الصحابة المذكورين من التابعين أمثالهم، ومن بعدهم أضعاف أضعافهم وهلم جراً، واجتمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف. انتهى.

لكن أخرج الترمذي من حديث سمرة رفعه: «**إن لكل نبي حوضاً**» وأشار إلى أنه اختلف في وصله وإرساله، وأن المرسل أصح، والمرسل أخرجه ابن أبي الدنيا بسند صحيح عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل نبي حوضاً**»، وهو قائم على حوضه بيده عصا يدعو من عرف من أمته، ألا وإنهم يتباهون أيهم أكثر تبعاً، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً. وأخرجه الطبراني من وجه آخر عن سمرة موصولاً مرفوعاً مثله، وفي سنده لين.

وأخرج ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث أبي سعيد رفعه: «**وكل نبي يدعو أمته، ولكل نبي حوض، فمنهم من يأتيه الفئام، ومنهم من يأتيه العصبة، ومنهم من يأتيه الواحد، ومنهم من يأتيه الاثنان، ومنهم من لا يأتيه أحد، وإني لأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة**»، وفي إسناده لين.

فإن ثبت، فالمختص نبينا ﷺ الكوثر الذي يصب من مائه في حوضه، فإنه لم ينقل نظيره لغيره، ووقع الامتنان عليه به في سورة ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ [الكوثر: ١] انتهى ملخصاً من فتح الباري[١].

و «الفئام» كما في الصحاح، الجماعة من الناس، لا واحد له من لفظه، والعامة تقول «فيام» بلا همز.

وفي رواية مسلم من حديث أبي هريرة رفعه، قال: (**ترد عليَّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل عن إبله**»، قالوا: يا رسول الله، تعرفنا؟ قال: «**نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم، تردون علي غرا محجلين من آثار الوضوء**).

قالوا: والحكمة في الذود المذكور، أنه ﷺ يريد أن يرشد كل أحد إلى حوض نبيه، كما تقدم «**إن لكل نبي حوضاً**»، فيكون هذا من جملة إنصافه ﷺ ورعاية إخوانه من النبيين، لا أنه يطردهم بخلاً عليهم بالماء، ويحتمل أن يكون بطرد من لا يستحق الشرب من الحوض. والله أعلم.

وفي حديث أنس أنه ﷺ قال: «**لحوضي أربعة أركان، الأول بيد أبي بكر الصديق، والثاني بيد عمر الفاروق، والثالث بيد عثمان ذي النورين، والرابع بيد علي بن أبي طالب. فمن كان محباً لأبي بكر مبغضاً لعمر لا يسقيه أبو بكر، ومن كان محباً لعلي مبغضاً لعثمان لا يسقيه علي**». رواه أبو سعد في «شرف النبوة»[٢] والغيلاني والله أعلم.

وأما تفضيله ﷺ بالشفاعة والمقام المحمود، فقد قال تعالى: ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾ [الإسراء: ٧٩]. اتفق المفسرون على أن كلمة «عسى» من الله واجب، قال أهل المعاني: لأن لفظة «عسى» تفيد الإطماع، ومن أطمع إنساناً في شيء ثم أحرمه كان عاراً، والله تعالى أكرم من أن يطمع أحداً في شيء ثم لا يعطيه ذلك. وقد اختلف في تفسير المقام المحمود على أقوال:

**أحدها**: أنه الشفاعة. قال الواحدي: أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة كما قال ﷺ في هذه الآية: «**هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي**».

وقال الإمام ابن الخطيب: اللفظ مشعر بذلك، لأن الإنسان إنما يصير محموداً إذا حمده حامد، والحمد إنما يكون على الإنعام، فهذا المقام المحمود يجب أن يكون مقاماً

---

(١) انظر فتح الباري ١١/ ٥٧٠ رقم الحديث (٦٥٧٥).

(٢) في كشف الظنون ٢/ ١٠٤٥ هو أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان محمد الواعظ الخركوشي.

أنعم فيه رسول الله ﷺ على قوم فحمدوه على ذلك الإنعام، وذلك الإنعام لا يجوز أن يكون هو تبليغ الدين وتعليمهم الشرع لأن ذلك كان حاصلاً في الحال. وقوله: ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾ [الإسراء: ٧٩] يدل على أنه يحصل للنبي ﷺ في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل، ومن المعلوم أن حمد الإنسان على سعيه في التخلص عن العقاب أعظم من سعيه في زيادة من الثواب لا حاجة به إليها، لأن احتياج الإنسان في دفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه إلى تحصيل المنافع الزائدة التي لا حاجة إلى تحصيلها.

وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله: ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾ [الإسراء: ٧٩] هو الشفاعة في إسقاط العذاب على ما هو مذهب أهل السنة.

ولما ثبت أن لفظ الآية مشعر بهذا المعنى إشعاراً قوياً. ثم وردت الأخبار الصحيحة في تقرير هذا المعنى كما في البخاري من حديث ابن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ عن المقام المحمود فقال: «هو الشفاعة» وفيه أيضاً عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًى كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلي فذلك المقام المحمود**).

فإذا ثبت هذا، فيجب حمل اللفظ عليه قال: ومما يؤكد هذا، الدعاء المشهور: وابعثه مقاماً محموداً يغبطه فيه الأولون والآخرون.

ونصب قوله «مقاماً» على الظرفية، أي وابعثه يوم القيامة فأقمه مقاماً محموداً، أو على أنه مفعول به، وضمن معنى «ابعثه» معنى «أقمه»، ويجوز أن يكون حالاً بعد حال، أي: ابعثه ذا مقام. قال الطيبي: وإنما نكَّره لأنه أفخم وأجزل، أي مقاماً محموداً بكل لسان. وقول النووي: «إن الرواية ثبتت بالتنكير، وأنه كان حكاية للفظ القرآن» متعقب بأنه جاء في هذه الرواية بعينها بالتعريف عند النسائي.

قال ابن الجوزي: الأكثر على أن المراد بالمقام المحمود الشفاعة، وادعى الإمام فخر الدين الاتفاق عليه.

**القول الثاني**: قال حذيفة: يجمع الله الناس في صعيد واحد، فلا تكلم نفس، فأول مدعو محمد ﷺ فيقول: «**لبيك وسعديك والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهتدي من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت**» قال: فهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾ [الإسراء: ٧٩][1] رواه الطبراني وقال ابن منده: حديث مجمع على صحة إسناده وثقة رجاله.

---

(١) ورواه النسائي بإسناد صحيح وصححه الحاكم.

قال الرازي: والقول الأول أولى، لأن سعيه في الشفاعة يفيد إقدام الناس على حمده فيصير محموداً، وأما ما ذكر من الدعاء فلا يفيد إلا الثواب، أما الحمد فلا.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إنه تعالى يحمده على هذا القول؟ فالجواب: لأن الحمد في اللغة مختص بالثناء المذكور في مقابلة الإنعام فقط، فإن ورد لفظ «الحمد» في غير هذا المعنى فعلى سبيل المجاز.

**القول الثالث**: مقام تحمد عاقبته، قال الإمام فخر الدين: وهذا أيضاً ضعيف للوجه الذي ذكرنا.

***القول الرابع***: قيل هو إجلاسه ﷺ على العرش وقيل على الكرسي، روي عن ابن مسعود أنه قال: يقعد الله تعالى محمداً ﷺ على العرش، وعن مجاهد أنه قال: يجلسه معه على العرش[1]. قال الواحدي: وهذا قول رذل موحش فظيع، ونص الكتاب ينادي بفساد

---

(١) قال الإمام محمد الرازي ابن العلامة ضياء الدين عمر في كتابه مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير في تفسير قوله تعالى **﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾** [طه: ٥].

قال: المشبهة تعلقت بهذه الآية في أن معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه **أحدها**: إنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ولما خلق الخلق لم يحتج إلى مكان بل كان غنياً عنه فهو بالصفة التي لم يزل عليها إلا أن يزعم أنه لم يزل مع الله عرش.

**وثانيها**: أن الجالس على العرش لا بد وأن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الحاصل في يسار العرش فيكون مؤلفاً مركباً وكل ما كان كذلك احتاج إلى المؤلف والمركب وذلك محال على الله.

**وثالثها**: أن الجالس على العرش إما أن يكون متمكناً من الانتقال والحركة أو لا يمكنه ذلك فإن كان الأول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثاً لا محالة وإن كان الثاني كان كالمربوط بل كان كالزَمِنْ [ذو الزمانة] بل أسوأ حالاً منه فإن الزمِنْ إذا شاء الحركة في رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم.

**ورابعها**: هو أن معبودهم إما أن يحصل في كل مكان أو في مكان دون مكان فإن حصل في كل مكان لزمهم أن يحصل في مكان النجاسات والقاذورات وذلك لا يقوله عاقل وإن حصل في مكان دون مكان افتقر إلى مخصص يخصصه بذلك المكان فيكون محتاجاً وهو على الله محال.

**وخامسها**: أن قوله **﴿ليس كمثله شيء﴾** [الشورى: ١١] يتناول نفي المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء تقتضي دخول جميع هذه الأمور تحته فلو كان جالساً لحصل من يماثله في الجلوس فحين إذٍ يبطل معنى الآية.

**وسادسها**: قوله تعالى **﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية﴾** [الحاقة: ١٧] فإذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم وذلك غير معقول لأن الخالق هو الذي يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله.

**وسابعها**: أنه لو جاز أن يكون المستقر في مكان إلهاً فكيف يُعلم أن الشمس والقمر ليسا بإله لأن=

هذا التفسير، ويدل عليه وجوه:

**الأول**: أن البعث ضد الإجلاس، يقال: بعثت البارك والقاعد فانبعث، ويقال بعث الله الميت أي أقامه من قبره، فتفسير البعث بالإجلاس تفسير الضد بالضد وهو فاسد.

**والثاني**: يوجب أنه تعالى لو كان جالساً على العرش بحيث يجلس عنده محمد ﷺ لكان محموداً متناهياً، ومن كان كذلك فهو محدث تعالى الله علواً كبيراً.

**والثالث**: أنه تعالى قال: ﴿**مقاماً محموداً**﴾ [الإسراء: ٧٩] ولم يقل مقعداً، والمقام موضع القيام، لا موضع القعود.

**الرابع**: وإذا قيل: السلطان بعث فلاناً، فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم، ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه، فثبت أن هذا القول ساقط، لا يميل إليه إلا قليل العقل عديم الدين، انتهى.

وتعقب القول الثاني: بأنه تعالى يجلس[1] على العرش كما أخبر جل وعلا عن نفسه

---

= طريقنا إلى نفي إلهية الشمس والقمر أنهما موصوفان بالحركة والسكون وما كان كذلك كان محدثاً ولم يكن إلهاً. فإذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح في إليهة الشمس والقمر.

وثامنها: أن العالم كرة فالجهة التي هي فوق بالنسبة إلينا هي تحت بالنسبة إلى ساكني ذلك الجانب الآخر من الأرض وبالعكس فلو كان المعبود مختصاً بجهة فتلك الجهة. وإن كانت فوقاً لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المعبود تحت جميع الأشياء.

وتاسعها: أجمعت الأمة على أن قوله ﴿**قل هو الله أحد**﴾ [الإخلاص: ١] من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصاً بالمكان لكان الجانب الذي منه يلي ما على يمينه غير الجانب الذي منه على يساره فيكون مركباً منقسماً فلا يكون أحداً في الحقيقة فيبطل قوله ﴿**قل هو الله أحد**﴾.

وعاشرها: أن الخليل عليه السلام قال ﴿**لا أحب الآفلين**﴾ [الأنعام: ٧٦] ولو كان المعبود جسماً لكان آفلاً أبداً غائباً أبداً فكان يندرج تحت قوله ﴿**لا أحب الآفلين**﴾. فثبت بهذه الدلائل أن الاستقرار على الله تعالى محال... ا. هـ.

ونذكر في ختام هذه المقالة نص الفقهاء الحنفيين من الفتاوى الهندية ٢/٢٥٩ في تكفير مثبت المكان لله عزّ وجلّ. قالوا: «يكفر بإثبات المكان لله تعالى فلو قال: لا محل خال من الله يكفر ولو قال: الله تعالى في السماء فإن قصد به حكاية ما جاء فيه ظاهر الإخبار لا يكفر وإن أراد به المكان يكفر. وإن لم تكن له نية يكفر عند الأكثر وهو الأصح وعليه الفتوى، ويكفر بقوله الله تعالى جلس للإنصاف. اهـ.

(١) معنى قوله بلا كيف نفي للجلوس والإستقرار والحركة والأعضاء ونحو ذلك مما هو من صفات الأجسام أو الأعضاء، ولا يجوز القول بأن استواءه على العرش وإتيانه له كيفية لا نعلمها نحن والله يعلمها بل المراد نفي الكيفية عنه البتة. وليعلم العاقل أن الجلوس كيفما كان افتراشاً أو تربعاً أو غيرهما فهو كيفية لأنه لا يخرج عن كونه من صفات الأجسام. لأن الجلوس لا يصح إلا من ذي أعضاء=

المقدسة بلا كيف، وليس إقعاد محمد ﷺ على العرش موجباً له صفة الربوبية، أو مخرجاً له عن صفة العبودية، بل هو رفع لمحله وتشريف له على خلقه، وأما قوله «معه» فهو بمنزلة قوله تعالى: ﴿**إن الذين عند ربك**﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقوله: ﴿**رب ابن لي بيتاً عندك في الجنة**﴾ [التحريم: ١١] فكل هذا ونحوه عائد على الرتبة والمنزلة والحظوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان.

وقال شيخ الإسلام أبو الفضل العسقلاني: قول مجاهد «يجلسه معه على العرش» ليس بمدفوع لا من جهة النقل ولا من جهة النظر. وقال ابن عطية: هو كذلك إذا حمل على ما يليق به قال: وبالغ الواحدي في رد هذا القول. ونقل النقاش عن أبي داود صاحب السنن أنه قال: من أنكر هذا فهو متهم. وقد جاء عن ابن مسعود عند الثعلبي، وعن ابن عباس عند أبي الشيخ قال: إن محمداً يوم القيامة يجلس على كرسي الرب بين يدي الرب، فيحتمل أن تكون الإضافة إضافة تشريف، وعلى ذلك يحمل ما جاء عن مجاهد وغيره، ويحتمل أن يكون المراد بالمقام المحمود الشفاعة كما هو المشهور، وأن يكون الإجلاس هي المنزلة المعبر عنها بالوسيلة. كذا قاله بعضهم، ويحتمل أن يكون الإجلاس علامة الإذن في الشفاعة[1].

واختلف في «فاعل» الحمد من قوله تعالى: ﴿**محموداً**﴾ [الإسراء: ٧٩] فالأكثر على أن المراد به أهل الموقف، وقيل النبي ﷺ، أي أنه يحمد عاقبة ذلك المقام بتهجده في الليل، والأول أرجح لما ثبت من حديث ابن عمر بلفظ: «مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم» ويجوز أن يحمل على أعم من ذلك، أي: مقاماً يحمده القائم فيه وكل من عرفه، وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات، واستحسن هذا أبو حيان، وأيده بأنه نكرة تدل على أنه ليس المراد مقاماً مخصوصاً. انتهى.

فإن قلت: إذا قلنا بالمشهور، أن المراد بالمقام المحمود الشفاعة، فأي شفاعة هي؟

---

= أي (كآلية وركبة) وتعالى الله عن ذلك. وباتفاق العلماء لا يجوز القول وجلوسه بلا كيف. لأنه تناقض فالجلوس يقتضي الكيفية وهي عن الله منفية.

قال الفقيه اللغوي المحدث مرتضى الزبيدي: المقْدِم على تفسير الاستواء بالاستيلاء لم يرتكب محذوراً ولا وصف الله بما لا يجوز عليه ثم قال فيمن يفسر الاستواء بالقعود ومن أطلق القعود وقال إنه لم يُرِدْ صفات الأجسام قال شيئاً لم تشهد له به اللغة فيكون باطلاً وهو كالمقر بالتجسيم المنكر له فيؤاخذ بإقراره ولا يفيده إنكاره. ا. هـ.

(١) لا يقف هذا التعقيب في وجه ما قاله الواحدي، ذلك أن القولين المذكورين ليسا من المرفوع وليسا مما ورد في الصحاح أو السنن، وهما يقرران أمراً يتعلق بالعقيدة، وأمور العقيدة لا تقرر إلا بالصحيح الثابت الذي لا خلاف فيه.

فالجواب: إن الشفاعة التي وردت في الأحاديث، في المقام المحمود نوعان: **النوع الأول**: العامة في فصل القضاء، **والثاني**: في الشفاعة في إخراج المذنبين من النار، لكن الذي يتجه: رد هذه الأقوال كلها إلى الشفاعة العظمى العامة، فإن إعطاءه لواء الحمد، وثناءه على ربه وكلامه بين يديه، وجلوسه على كرسيه كل ذلك صفات للمقام المحمود الذي يشفع فيه ليقضي بين الخلق.

وأما شفاعته في إخراج المذنبين من النار فمن توابع ذلك، وقد أنكر بعض المعتزلة والخوارج الشفاعة في إخراج من أدخل النار من المذنبين وتمسكوا بقوله تعالى: **﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾** [المدثر: ٤٨] وقوله تعالى: **﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾** [غافر: ١٨].

وأجاب أهل السنة بأن هذه الآيات في الكفار. قال القاضي عياض: مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلاً، ووجوبها[1] سمعاً، لصريح قوله تعالى: **﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾** [طه: ١٠٩] وقوله: **﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾** [الأنبياء: ٢٨] ولقوله: **﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾** [الإسراء: ٧٩] المفسر بها عند الأكثرين، كما قدمنا.

وقد جاءت الأحاديث التي بلغ مجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لذنبي المؤمنين، وعن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أريت ما تلقى أمتي من بعدي، وسفك بعضهم دماء بعض، وسبق لهم من الله ما سبق للأمم قبلهم فسألت الله أن يؤتيني فيهم شفاعة يوم القيامة ففعل**»[2].

وفي حديث أبي هريرة «**لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة**». وفي رواية أنس: «**فجعلت دعوتي شفاعة لأمتي**»[3]. وهذا من مزيد شفقته علينا، وحسن تصرفه حيث جعل دعوته المجابة في أهم أوقات حاجاتنا، فجزاه الله عنا أفضل الجزاء.

وعن أبي هريرة؛ قلت: يا رسول الله ماذا ورد عليك في الشفاعة؟ فقال: «**شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق لسانه قلبه**»[4].

---

(١) أي ثبوتها ووجوب القول بها.

(٢) أخرجه الحاكم والبيهقي وصححاه.

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

(٤) الحديث في المسند ٢/٣٠٧ وفي موارد الظمآن للهيثمي (٢٥٩٤) وفي الترغيب والترهيب ٤/٤٣٧.

وعن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس ألا ترون إلى ما أنتم فيه، إلى ما بلغتم، ألا تنظرون منْ يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فقال: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة، دعوت بها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات، فذكرها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى عليه السلام، فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضلك برسالته وبكلامه على الناس، ألا ترى إلى ما نحن فيه، اشفع لنا إلى ربك، فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون: يا عيسى: أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد، ألا ترى إلى ما نحن فيه، اشفع لنا إلى ربك، فيقول عيسى عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ألا ترى إلى ما نحن فيه، اشفع لنا إلى ربك، فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من

**الأبواب»**[1] الحديث رواه البخاري ومسلم.

قال في فتح الباري: وقد استشكل قولهم لنوح: **«أنت أول الرسل من أهل الأرض»**، فإن آدم نبي مرسل، وكذا شيث وإدريس، وهم قبل نوح.

ومحصل الأجوبة عن ذلك: أن الأولية مقيدة بقوله «أهل الأرض» لأن آدم ومن ذكر معه لم يرسلوا إلى أهل الأرض، أو أن الثلاثة كانوا أنبياء ولم يكونوا رسلاً، وإلى هذا جنح ابن بطال في حق آدم. وتعقبه القاضي عياض بما صححه ابن حبان من حديث أبي ذر، فإنه كالصريح في أنه كان مرسلاً، وفيه التصريح بإنزال الصحف على شيث وهو من علامات الإرسال. وأما إدريس فذهبت طائفة إلى أنه كان من بني إسرائيل.

ومن الأجوبة: أن رسالة آدم كانت إلى بنيه، وهم موحدون، ليعلمهم شريعته ونوح رسالته كانت إلى قوم كفار يدعوهم إلى التوحيد.

وذكر الغزالي في كتاب «كشف علوم الآخرة» أن بين إتيان أهل الموقف آدم وإتيانهم نوحاً ألف سنة، وكذا بين كل نبي ونبي، إلى نبينا ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر: ولم أقف لذلك على أصل، قال: ولقد أكثر في هذا الكتاب من إيراد أحاديث لا أصول لها، فلا يغتر بشيء منها.

ووقع في رواية حذيفة: أن الخليل عليه السلام قال: «لست بصاحب ذاك، إنما كنت خليلاً من وراء وراء». بفتح الهمزة فيهما بلا تنوين، ويجوز البناء فيها على الضم للقطع عن الإضافة نحو «من قبل ومن بعد» واختار، أبو البقاء. قال الأخفش: يقال لقيته من وراء بالضم، وقال:

إذا أنا لم أومن عليك ولم يكن ... لقاؤك إلا من وراء وراء

ويجوز فيهما النصب والتنوين جوازاً جيداً، قاله أبو عبد الله الأبي[2].

ومعناه: لم أكن في التقريب والإدلال بمنزلة الحبيب، وقيل: مراده: إن الفضل الذي أعطيته كان بسفارة جبريل، ولكن ائتوا موسى الذي كلمه الله بلا واسطة، وكرر «وراء» إشارة إلى نبينا ﷺ لأنه حصلت له الرؤية والسماع بلا واسطة، فكأنه قال: أنا من وراء

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان برقم (٣٢٧) والبخاري برقم (٣٤٤٠ ـ ٤٧١٢).

(٢) هو محمد بن خلفة بن عمر الأبي الوشتاتي المالكي أبو عبد الله. محدث حافظ فقيه ناظم مفسر. توفي في تونس سنة (٨٢٧ هـ) الاعلام ٦/ ١١٥ وفي البدر الطالع ٢/ ١٦٩ وفي نيل الابتهاج (٢٨٧) وفي شجرة النور ١/ ٢٤٤ وفي معجم المطبوعات (٣٦٣) وفي كشف الظنون ١/ ٥٥٧ ـ ١٢٥٦.

موسى، الذي هو من وراء محمد، وسبق مزيد لذلك في الخصائص.

وأما ما ذكره من الكذبات الثلاث، فقال البيضاوي: الحق أنها إنما كانت من معاريض الكلام، لكن لما كانت صورتها صورة الكذب أشفق منها استقصاراً لنفسه عن الشفاعة، لأن من كان أعرف بالله وأقرب إليه منزلة، كان أعظم خوفاً.

وأما قوله عن عيسى: «**إنه لم يذكر ذنباً**»، فوقع في حديث ابن عباس عند أحمد والنسائي: «**إني اتُخِذْت إلهاً من دون الله**».

وفي حديث النضر بن أنس عن أبيه، حدثني نبي الله ﷺ قال: «**إني لقائم انتظر أمتي عند الصراط، إذ جاء عيسى فقال: يا محمد، هذه الأنبياء قد جاءتك يسألونك لتدعو الله أن يفرق جمع الأمم إلى حيث شاء، لعظم ما هم فيه**».

فأفادت هذه الرواية تعيين موقف النبي ﷺ حينئذ، وأن هذا الذي وصف من كلام أهل الموقف كله يقع عند نصب الصراط بعد تساقط الكفار في النار، وأن عيسى هو الذي يخاطب نبينا ﷺ، وأن جميع الأنبياء يسألونه في ذلك.

وفي حديث سلمان عند ابن أبي شيبة: يأتون محمداً فيقولون: يا نبي الله، أنت فتح الله بك وختم بك، وغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وجئت في هذا اليوم، وترى ما نحن فيه فقم فاشفع لنا إلى ربنا، فيقول: «**أنا صاحبكم**»، فيجوس الناس حتى ينتهي إلى باب الجنة.

فإن قلت: ما الحكمة في انتقاله ﷺ من مكانه إلى الجنة؟

أجيب: بأن أرض الموقف لما كانت مقام عرض وحساب كانت مقام مخافة وإشفاق، ومقام الشافع يناسب أن يكون في مكان إكرام.

وفي حديث أُبي بن كعب عند أبي يعلى رفعه: فأسجد له سجدة يرضى بها عني، ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عني.

وفي حديث أبي بكر الصديق[1]، فينطلق إليه جبريل، فيخر ساجداً قدر جمعة، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك.

وفي رواية النضر بن أنس: **فأوحى الله إلى جبريل أن اذهب إلى محمد فقل له: ارفع رأسك.**

---

(١) هو عند أبي عوانة.

وعلى هذا، فالمعنى يقول لي على لسان جبريل، والظاهر أنه ﷺ يلهم التحميد قبل سجوده وبعده وفيه، ويكون في كل مكان ما يليق به، فإنه ورد في رواية[1] **«فأقوم بين يديه فيلهمني بمحامد لا أقدر عليها، ثم أخر ساجداً»**. وفي رواية البخاري: **«فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمني»**.

وفي رواية أبي هريرة، عند الشيخين: **«فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي: ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي»**، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك. الحديث.

وفي رواية البخاري من حديث قتادة عن أنس: **«ثم أشفع، فيحد لي حداً، ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة»**.

قال الطيبي: أي يبين لي كل طور من أطوار الشفاعة حداً أقف عنده فلا أتعداه، مثل أن يقول شفعتك فيمن أخل بالجماعة، ثم فيمن أخل بالصلاة، ثم فيمن شرب الخمر، ثم فيمن زنا، وهكذا على هذا الأسلوب، والذي يدل عليه سياق الأخبار أن المراد به تفصيل مراتب المخرجين في الأعمال الصالحة، كما وقع عند أحمد عن يحيى القطان عن سعيد بن أبي عروبة.

وفي رواية ثابت عند أحمد فأقول: **«أي رب، أمتي أمتي»**، فيقول: أخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة، وفي حديث سلمان: فيشفع في كل من كان في قلبه مثقال حبة من حنطة، ثم شعيرة، ثم حبة خردل، فذلك المقام المحمود.

وفي رواية أبي سعيد عند مسلم: «ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير». قال القاضي عياض: قيل معنى الخير: اليقين بالإيمان. وأما قوله في رواية أنس عند البخاري: «فأخرجهم من النار» فقال الداودي: كأن راوي هذا الحديث ركب شيئاً على غير أصله، وذلك أن في أول الحديث ذكر الشفاعة في الإراحة من كرب الموقف، وفي آخره ذكر الشفاعة في الإخراج من النار، يعني: وذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف والمرور على الصراط وسقوط من يسقط في تلك الحالة في النار. ثم تقع بعد ذلك الشفاعة في الإخراج. وهو إشكال قوي.

وقد أجاب عنه النووي. ومن قبله القاضي عياض: بأنه قد وقع في حديث حذيفة وأبي هريرة: فيأتون محمداً فيقوم ويؤذن له في الشفاعة، وترسل معه الأمانة والرحم

---

(١) عند الشيخين.

فيقومان جنبتي الصراط، يميناً وشمالاً، أي يقفان في ناحيتي الصراط. قال القاضي عياض: فبهذا ينفصل الكلام، لأن الشفاعة التي لجأ الناس إليه فيها هي لإراحة الناس من كرب الموقف، ثم تجيء الشفاعة في الإخراج. انتهى.

والمعنى في قيام الأمانة والرحم، أنهما لعظم شأنهما، وفخامة ما يلزم العباد من رعاية حقهما، يوقفان للأمين والخائن، وللواصل والقاطع، فتحاجان عن المحق، ويشهدان على المبطل.

وقد وقع في حديث أبي هريرة[1] بعد ذكر الجمع في الموقف: الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد، ثم تمييز المنافقين من المؤمنين، ثم حلول الشفاعة بعد وضع الصراط والمرور عليه، فكأن الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد هو أول فصل القضاء، والإراحة من كرب الموقف، وبهذا تجتمع متون الأحاديث وتترتب معانيها. انتهى.

فظهر أنه ﷺ أول ما يشفع ليقضى بين الخلق، وأن الشفاعة فيمن يخرج من النار ممن سقط تقع بعد ذلك، وأن العرض والميزان وتطاير الصحف تقع في هذا الموطن، ثم ينادى لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيسقط الكفار في النار، ثم يميز بين المؤمنين والمنافقين بالامتحان بالسجود عند كشف الساق، ثم يؤذن في نصب الصراط والمرور عليه، فيطفأ نور المنافقين، فيسقطون في النار أيضاً، ويمر المؤمنون عليه إلى الجنة، فمن العصاة من يسقط، ويوقف من نجا عند القنطرة للمقاصصة بينهم، ثمّ يدخلون الجنة.

وقد قال النووي ومن قبله القاضي عياض: الشفاعات خمس:

**الأولى**: في الإراحة من هول الموقف.

**الثانية**: في إدخال قوم الجنة بغير حساب.

**الثالثة**: في إدخال قوم حوسبوا واستحقوا العذاب أن لا يعذبوا.

**الرابعة**: في إخراج من أدخل النار من العصاة.

**الخامسة**: في رفع الدرجات. انتهى.

**فأما الأولى**، وهي لإراحة الناس من هول الموقف، فيدل عليها حديث أبي هريرة وغيره المتقدم، وحديث أنس عند البخاري، ولفظه: (**يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا عند ربك، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ائتوا نوحاً، وذكر إتيانهم الأنبياء واحداً واحداً، إلى أن قال:**

(١) الذي في الصحيحين مطولاً.

**فيأتوني، فأستأذن على ربي، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله ثم يقال لي: ارفع رأسك، سل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمد ربي، بتحميد يعلمني)** الحديث.

**وأما الثانية**: وهي إدخال قوم الجنة بغير حساب، فيدل عليها ما في آخر حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم الذي قدمته (**فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي، يا رب أمتي**»، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة) قال أبو حامد: والسبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب، لا يرفع لهم ميزان ولا يأخذون صحفاً، وإنما هي براءة مكتوبة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، هذه براءة فلان ابن فلان، قد غفر له وسعد سعادة لا شقاء بعدها أبداً، فما مر عليه شيء أسر من ذلك المقام.

**وأما الثالثة**: وهي إدخال قوم حوسبوا أن لا يعذبوا، فيدل على ذلك قوله في حديث حذيفة عند مسلم: (ونبيكم على الصراط يقول: **رب سلم سلم**).

**وأما الرابعة**: وهي في إخراج من أدخل النار من العصاة، فدلائلها كثيرة، وقد روى البخاري عن عمران بن حصين مرفوعاً: «**يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميين**».

**وأما الخامسة**: وهي في رفع الدرجات، فقال النووي «في الروضة»: إنها من خصائصه ﷺ ولم يذكر لذلك مستنداً فالله أعلم.

وقد ذكر القاضي عياض شفاعة سادسة، وهي شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب لما ثبت في الصحيح أن العباس قال لرسول الله ﷺ: إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك، فهل نفعه ذلك؟ قال: نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح. وفي الصحيح أيضاً من طريق أبي سعيد أنه ﷺ قال: «**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه**».

وزاد بعضهم سابعة: وهي الشفاعة لأهل المدينة، لحديث سعد، رفعه: «**لا يثبت أحد على لأوائها إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة**».

وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأن متعلقها لا يخرج عن واحد من الخمس الأول، وبأنه لو عدَّ مثل ذلك لعدَّ حديث عبد الملك بن عباد: سمعت النبي ﷺ يقول: «**أول من أشفع له أهل المدينة ثم أهل مكة. ثم أهل الطائف**». رواه البزار، وأخرى لمن زار قبره الشريف، وأخرى لمن أجاب المؤذن ثم صلى عليه ﷺ، وأخرى في التجاوز عن تقصير الصلحاء. لكن قال الحافظ ابن حجر إنها مندرجة في الخامسة.

وزاد القرطبي: أنه أول شافع في دخول أمته الجنة قبل الناس، ويدل له ما رواه...[1].

وزاد في فتح الباري أخرى، فيمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة، لما أخرجه الطبراني عن ابن عباس قال: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون بشفاعته ﷺ. وأرجح الأقوال في أصحاب الأعراف أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

وشفاعة أخرى وهي شفاعته فيمن قال: «لا إله إلا الله» ولم يعمل خيراً قط، لرواية الحسن عن أنس: فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، قال: ليس ذلك لك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن من النار من قال: لا إله إلا الله[2].

فالوارد على الخمسة أربعة، وما عداها لا يرد، كما لا ترد الشفاعة في التخفيف عن صاحبي القبرين وغير ذلك لكونه من جملة أحوال الدنيا. انتهى.

فإن قلت: فأي شفاعة ادخرهاﷺ لأمته؟ أما الأولى فلا تختص بهم بل هي لإراحة الجمع كلهم، وهي المقام المحمود كما تقدم، وكذلك باقي الشفاعات الظاهر أنه يشاركهم فيها بقية الأمم.

**فالجواب**: أنه يحتمل أن المراد الشفاعة العظمى التي للإراحة من هول الموقف وهي وإن كانت غير مختصة بهذه الأمة لكن هم الأصل فيها، وغيرهم تبع لهم، ولهذا كان اللفظ المنقول عنه ﷺ فيها أنه قال: «**يا رب أمتي أمتي**» فدعا لهم فأجيب، وكان غيرهم تبعاً لهم في ذلك، ويحتمل أن تكون الشفاعة الثانية، وهي التي في إدخال قوم الجنة بغير حساب هي المختصة بهذه الأمة، فإن الحديث الوارد فيها: «**يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب**»، الحديث[3]. ولم ينقل ذلك في بقية الأمم، ويحتمل أن يكون المراد مطلق الشفاعة المشتركة بين الشفاعات الخمس. وكون غير هذه الأمة يشاركونهم فيها أو في بعضها لا ينافي أن يكون ﷺ أخر دعوته شفاعة لأمته، فلعله لا يشفع لغيرهم من الأمم بل يشفع لهم أنبياؤهم، ويحتمل أن تكون الشفاعة لغيرهم تبعاً كما تقدم مثله في الشفاعة العظمى، والله أعلم.

---

(١) هكذا بياض في الأصل.

(٢) الحديث متفق عليه وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان برقم (٣٢٦).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عباس.

وعن بريدة أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما في الأرض من شجرة ومدرة» رواه أحمد.

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «نحن آخر الأمم وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبيها، فنحن الآخرون الأولون»، رواه ابن ماجه.

وفي حديث ابن عباس عند أبي داود الطيالسي مرفوعاً: «فإذا أراد الله أن يقضي بين خلقه نادى مناد: أين محمد وأمته فأقوم وتتبعني أمتي غرا محجلين من أثر الطهور». قال رسول الله ﷺ: «فنحن الآخرون الأولون وأول من يحاسب، وتفرج لنا الأمم عن طريقنا وتقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها».

وقد صح أن أول ما يقضى بين الناس في الدماء. رواه البخاري. وللنسائي مرفوعاً: «أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء».

وفي البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أنا أول من يجثو يوم القيامة بين يدي الرحمن للخصومة، يريد قصته في مبارزته هو وصاحباه الثلاثة من كفار قريش. قال أبو ذر: وفيهم نزلت ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ [الحج: ١٩] الآية.

وعن أبي هريرة: قال قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل فيه[1]، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه». رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وفي البخاري من حديث عائشة، أن النبي ﷺ قال: (من نوقش الحساب عذب).

وروى البزار عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول لأصغر نعمة ـ أحسبه قال من ديوان النعم ـ: خذي ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح وتقول: وعزتك ما استوفيت، وتبقى الذنوب والنعم، وقد ذهب العمل الصالح، فأراد الله أن يرحم عبداً، قال: يا عبدي، قد ضاعفت لك حسناتك، وتجاوزت عن سيئاتك ـ أحسبه قال: ووهبت لك نعمي ـ».

وروى الإمام أحمد بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليختصمن كل شيء يوم القيامة، حتى الشاتان فيما انتطحتا».

وعن أنس: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه، فقال له

---

(١) قال الزرقاني: الذي في الترمذي: وعن علمه ما عمل فيه.

عمر: ما أضحكك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قال: «**رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله: كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء؟ قال: يا رب فليتحمل من أوزاري**»، وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال: إن ذلك ليوم عظيم، يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله للطالب: ارفع بصرك فانظر، فقال: يا رب أرى مدائن من ذهب وفضة مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا، أو لأي صديق هذا، أو لأي شهيد هذا؟ قال: لمن يعطي الثمن، فقال: يا رب، ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه، قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب فإني قد عفوت عنه، قال الله تعالى: فخذ بيد أخيك وأدخله الجنة، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله يصلح بين المسلمين يوم القيامة**» رواه الحاكم والبيهقي في البعث، كلاهما عن عباد بن أبي شيبة الحبطي، عن سعيد بن أنس عنه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد. كذا قال.

وقد نقل: لو أن رجلاً له ثواب سبعين نبياً، وله خصم بنصف دانق لم يدخل الجنة حتى يرضي خصمه. وقيل: يؤخذ بدانق سبعمائة صلاة مقبولة فتعطى للخصم. ذكره القشيري في التحبير.

ثم بعد انقضاء الحساب يكون وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها.

وقد ذكر الله تعالى الميزان في كتابه بلفظ الجمع، وجاءت السنة بلفظ الإفراد والجمع، فقيل: إن صورة الإفراد محمولة على أن المراد الجنس، جمعاً بين الكلامين، وقال بعضهم: يحتمل أن يكون تعددها بتعدد الأعمال، فيكون هناك موازين للعامل الواحد، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله، وذهبت طائفة إلى أنها ميزان واحد يوزن بها للجميع، وإنما ورد في الآية بصيغة الجمع للتفخيم، وليس المراد حقيقة العدد، وهو نظير قوله: ﴿**كذبت قوم نوح المرسلين**﴾ [الشعراء: ١٠٥]، والمراد رسول واحد، وهذا هو المعتمد، وعليه الأكثرون.

واختلف في كيفية وضع الميزان، والذي جاء في أكثر الأخبار، أن الجنة توضع عن يمين العرش، والنار عن يسار العرش، ثم يؤتى بالميزان، فينصب بين يدي الله تعالى، فتوضع كفة الحسنات مقابل الجنة، وكفة السيئات مقابل النار. ذكره الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول».

واختلف أيضاً في الموزون نفسه. فقال بعضهم: توزن الأعمال نفسها. وهي وإن

كانت أعراضاً إلا أنها تجسم يوم القيامة فتوزن وقال بعضهم: الموزون صحائف الأعمال، ويدل له حديث البطاقة المشهور، وقد رواه الترمذي، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي، يرفعه بلفظ: «**إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل منها مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقات في كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء**»[1].

فإن قلت: إن من شأن الميزان أن يوضع في الكفة شيء وفي الأخرى ضده، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، والذي يقابل شهادة التوحيد الكفر، ويستحيل أن يأتي عبد واحد بالكفر والإيمان معاً حتى يوضع الإيمان في كفة والكفر في أخرى؟

أجاب الترمذي الحكيم: بأنه ليس المراد وضع شهادة التوحيد في كفة الميزان، وإنما المراد وضع الحسنة المترتبة على النطق بهذه الكلمة مع سائر الحسنات. ويدل لما قاله قوله: «بلى إن لك عندنا حسنة» ولم يقل لك عندنا إيماناً. وقد سئل ﷺ عن لا إله إلا الله، أمن الحسنات هي؟ فقال: من أعظم الحسنات. أخرجه البيهقي وغيره. ويجوز ـ كما قاله القرطبي في التذكرة ـ أن تكون هذه الكلمة هي آخر كلامه في الدنيا، كما في حديث معاذ: قال رسول الله ﷺ «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[2].

وفي «التحبير» للقشيري: قيل لبعضهم في المنام: ما فعل الله بك؟ قال: وزنت حسناتي فرجحت السيئات على الحسنات، فسقطت صرة في كفة الحسنات فرجحت، فحلت الصرة فإذا فيها، كف تراب ألقيته في قبر مسلم.

وفي الخبر: إذا خفت حسنات المؤمن أخرج رسول الله ﷺ بطاقة كالأنملة فيلقيها في كفة الميزان التي فيها الحسنات فترجح الحسنات، فيقول ذلك العبد المؤمن للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك، فمن أنت؟ فيقول أنا نبيك محمد، وهذه صلاتك عليَّ وقد وفيتك إياها أحوج ما تكون إليها. ذكره القشيري في تفسيره.

وذكر الغزالي أنه يؤتى برجل يوم القيامة، فما يجد حسنة يرجح بها ميزانه، وقد

---

(١) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب ورواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه البيهقي.

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم وصححه.

اعتدلت بالسوية، فيقول الله له ـ رحمة منه ـ: اذهب في الناس فالتمس من يعطيك حسنة أدخلك بها الجنة، فما يجد أحداً يكلمه في ذلك الأمر إلا قال له: أنا أحوج لذلك منك فييأس، فيقول له رجل: لقد لقيت الله فما في صحيفتي إلا حسنة واحدة، وما أظنها تغني عني شيئاً، خذها هبة، فينطلق بها فرحاً مسروراً، فيقول الله له ما بالك؟ ـ وهو أعلم ـ فيقول: يا رب اتفق لي من أمري كيت وكيت، قال: فينادي الله تعالى بصاحبه الذي وهب له الحسنة فيقول له تعالى: كرمي أوسع من كرمك، خذ بيد أخيك وانطلقا إلى الجنة.

وكذا تستوي كفتا الميزان لرجل، فيقول الله تعالى له: لست من أهل الجنة ولا من أهل النار، فيأتي الملك بصحيفة فيضعها في كفة الميزان فيها مكتوب «أف» فترجح على الحسنات لأنها كلمة عقوق، فيؤمر به إلى النار، قال: فيطلب أن يرد إلى الله تعالى، فيقول الله تعالى: ردوه، فيقول له: أيها العبد العاق لأي شيء تطلب الرد؟ فيقول: إلهي، إني سائر إلى النار وكنت عاقاً لأبي وهو سائر إلى النار مثلي، فضعف عليَّ عذابه وأنقذه منها، قال: فيضحك الله تعالى ويقول: عققته في الدنيا وبررته في الآخرة، خذ بيد أبيك فانطلقا إلى الجنة.

وقد روى حذيفة أن صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام، وهو الذي يزن الأعمال يوم القيامة[1].

واختلف أيضاً في كيفية الرجحان والنقص فقال بعضهم: الراجح أن الموزون في الآخرة يصعد، عكس ما في الدنيا، واستشهد في ذلك بقوله تعالى: ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب**﴾ [فاطر: ١٠] الآية. قال الزركشي: وهو غريب مصادم لقوله تعالى: ﴿**فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية**﴾ [القارعة: ٦ و ٧].

وهل توزن الأعمال كلها أو خواتيمها؟ حكي عن وهب بن منبه أنه قال: يوزن من الأعمال خواتيمها، واستدل بقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بخواتيمها**»[2].

وذكر الحافظ أبو نعيم عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**من قضى لأخيه المؤمن حاجة كنت واقفاً عند ميزانه، فإن رجح وإلا شفعت له**». وقال بعض أهل العلم، فيما حكاه القرطبي في «التذكرة»: ولن يجوز أحد الصراط حتى يسأل على سبع قناطر، فأما القنطرة الأولى: فيسأل عن الإيمان بالله، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، فإن جاء بها مخلصاً

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره، وهو موقوف.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٦٠٧).

جاز، ثم يسأل في القنطرة الثانية عن الصلاة، فإن جاء بها تامة جاز، ثم يسأل في القنطرة الثالثة عن صوم شهر رمضان، فإن جاء به تاماً جاز، ثم يسأل في القنطرة الرابعة عن الزكاة، فإن جاء بها تامة جاز، ثم يسأل في القنطرة الخامسة عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما تامتين جاز، ثم يسأل في السادسة عن الغسل والوضوء، فإن جاء بهما تامين جاز، ثم يسأل في السابعة، وليس في القناطر أصعب منها، فيسأل عن ظلامات الناس.

وفي حديث أبي هريرة عنه ﷺ: «**ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم، أكون أنا وأمتي أول من يجوز عليه، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى، فتخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو**»[1]. الحديث رواه البخاري.

وفي حديث حذيفة وأبي هريرة عند مسلم: «**ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلِّم سلِّم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يأتي الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به: فمخدوش ناج ومكردس في النار**».

وهذه الكلاليب هي الشهوات المشار إليها في الحديث « **حفت النار بالشهوات** » فالشهوات موضوعة على جوانبها، فمن اقتحم الشهوة سقط في النار. قاله ابن العربي.

ويؤخذ من قوله: «فمخدوش الخ» أن المارين على الصراط ثلاثة أصناف: ناج بلا خدش، وهالك من أول وهلة، ومتوسط بينهما مصاب ثم ينجو.

وفي حديث المغيرة عند الترمذي: شعار المؤمنين على الصراط: ربِّ سلِّم سلِّم. ولا يلزم من كون هذا الكلام شعار المؤمنين أن ينطقوا به، بل ينطق به الرسل، يدعون للمؤمنين بالسلامة، فيسمى ذلك شعاراً لهم.

وفي حديث ابن مسعود: فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم، يسعى بين أيديهم، الحديث؛ وفيه: فيمرون على قدر نورهم، منهم من يمر كطرفة العين، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالسحاب، ومنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الفرس، ومنهم من يمر كشد الرجل، حتى يمر الذي يعطى نوره على ظهر قدميه، يحبو على وجهه ويديه ورجليه،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه والبخاري برقم (٦٥٧٣).

تُجرّ يد وتعلق يد، وتجر رجل وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فلا يزال كذلك حتى يخلص، فإذا خلص وقف عليها وقال: الحمد لله الذي أعطاني ما لم يعط أحداً إذ نجاني منها بعد أن رأيتها. الحديث. رواه ابن أبي الدنيا والطبراني.

وروى مسلم: قال أبو سعيد، بلغني أن الصراط أحد من السيف وأرق من الشعرة. وفي رواية ابن منده من هذا الوجه: قال سعيد بن أبي هلال. ووصله البيهقي عن أنس عن النبي ﷺ مجزوماً به، وفي سنده لين.

ولابن المبارك من مرسل عبيد بن عمير: «**أن الصراط مثل السيف وبجنبتيه كلاليب، والذي نفسي بيده إنه ليؤخذ بالكلوب الواحد أكثر من ربيعة ومضر**». وأخرجه ابن أبي الدنيا من هذا الوجه وفيه: والملائكة على جنبتيه يقولون: رب سلم سلم.

وعن الفضيل بن عياض: بلغنا أن الصراط مسيرة خمس عشرة ألف سنة، خمسة آلاف صعود، وخمسة آلاف هبوط، وخمسة آلاف مستوي، أدق من الشعرة وأحد من السيف على متن جهنم، لا يجوز عليه إلا ضامر مهزول من خشية الله. ذكره ابن عساكر في ترجمته، قال في فتح الباري: وهذا معضل لا يثبت.

قال: وعن سعيد بن أبي هلال: بلغنا أن الصراط أدق من الشعرة على بعض الناس، ولبعض الناس مثل الوادي الواسع، أخرجه ابن المبارك، وهو مرسل أو معضل.

وقد ذهب بعضهم إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾ [مريم: ٧١] الجواز على الصراط لأنه ممدود على النار.

وروى ابن عساكر عن ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار أنهم قالوا: الورود المرور على الصراط. وقيل الورود: الدخول.

وعن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: اختلفنا في الورود فقال: يردونها جميعاً، فقلت له: إنا اختلفنا في ذلك، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا، يدخلونها جميعاً، فأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال: صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: الورود الدخول، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ـ أو قال: لجهنم ـ ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً. رواه أحمد والبيهقي بإسناد حسن.

وأخرج ابن الجوزي ـ كما ذكره القرطبي في التذكرة ـ رفعه: الزالون عن الصراط

كثير، وأكثر من يزل عنه النساء، قال: وإذا صار الناس على طرفي الصراط نادى ملك من تحت العرش: يا فطرة الملك الجبار جوزوا على الصراط وليقف كل عاص منكم وظالم. فيا لها من ساعة ما أعظم خوفها، وأشد حرها، يتقدم فيها من كان في الدنيا ضعيفاً مهيناً، ويتأخر عنها من كان فيها عظيماً مكيناً، ثم يؤذن لجميعهم بعد ذلك في الجواز على الصراط على قدر أعمالهم، فإذا عصف[1] الصراط بأمة محمد ﷺ نادوا: وامحمداه وامحمداه، فبادر ﷺ من شدة إشفاقه عليهم، وجبريل آخذ بحجزته، فينادي ﷺ رافعاً صوته: رب أمتي أمتي، لا أسلك اليوم نفسي ولا فاطمة ابنتي، والملائكة قيام عن يمين الصراط ويساره ينادون رب سلم. وقد عظمت الأهوال واشتدت الأوجال، والعصاة يتساقطون عن اليمين والشمال، والزبانية يتلقونهم بالسلاسل والأغلال. وينادونهم: أما نهيتم عن كسب الأوزار، أم أما أنذرتم كل الإنذار، أما جاءكم النبي المختار. ذكره ابن الجوزي في كتابه «روضة المشتاق».

وقد جاء في حديث أبي هريرة عنه ﷺ قال: **«من أحسن الصدقة في الدنيا مر على الصراط»**[2]. رواه أبو نعيم.

وفي الحديث: من يكن المسجد بيته ضمن الله له بالرَّوح والرحمة الجواز على الصراط إلى الجنة.

وروى القرطبي عن ابن المبارك عن عبد الله بن سلام: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأنبياء نبياً نبياً، وأمة أمة، ويضرب الجسر على جهنم وينادي أين أحمد وأمته، فيقوم رسول الله ﷺ وتتبعه أمته، برها وفاجرها، حتى إذا كان على الصراط طمس الله أبصار أعدائه فيتهافتون في النار يميناً وشمالاً، ويمضي النبي ﷺ والصالحون معه، فتتلقاهم الملائكة فيدلونهم على الطريق، على يمينك، على شمالك، حتى ينتهي إلى ربه، فيوضع له كرسي عن يمين العرش، ثم يتبعه عيسى عليه السلام على مثل سبيله، وتتبعه أمته برها وفاجرها، فإذا كانوا على الصراط طمس الله أبصار أعدائهم فيتهافتون في النار يميناً وشمالاً. الحديث.

واعلم أن في الآخرة صراطين: أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم إلا من دخل الجنة بغير حساب، أو يلتقطه عنق من النار، فإذا خلص من خلص من الصراط الأكبر حبسوا على

---

(١) عصف: أي صعب الأمر واشتد.

(٢) قال الزرقاني في الشرح: «سقط من المصنف كلمة «مدلاً» في آخره أي الحديث ـ ومعناها آمناً».

صراط آخر لهم، ولا يرجع إلى النار أحد من هؤلاء إن شاء الله لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم. وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى في الجنة بمنزله منه بمنزله كان في الدنيا).

وأما تفضيله ﷺ بأنه أول من يقرع باب الجنة وأول من يدخلها، ففي صحيح مسلم من حديث المختار بن فلفل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة).

وفيه أيضاً من حديث أنس قال ﷺ: (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت، لا أفتح لأحد قبلك). ورواه الطبراني وزاد فيه: قال فيقوم الخازن ويقول: لا أفتح لأحد قبلك، ولا أقوم لأحد بعدك.

فقيامه له ﷺ خاصة، فيه إظهار لمزيته ومرتبته، وأنه لا يقوم في خدمة أحد بعده، بل خزنة الجنة يقومون في خدمته وهو كالملك عليهم، وقد أقامه تعالى في خدمة عبده ورسوله محمد ﷺ.

وروى سهيل بن أبي صالح عن زياد المهري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أول من يأخذ بحلقة الجنة ولا فخر. وهو في مسند الفردوس لكن من حديث ابن عباس.

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر**»، قال: فيفزع الناس ثلاث فزعات، فيأتون آدم، فذكر الحديث إلى أن قال: «**فيأتوني فأنطلق معهم**»، قال ابن جدعان قال أنس: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ، قال فآخذ بحلقة باب الجنة فاقعقعها، فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد، فيفتحون لي ويرحبون بي فيقولون: مرحباً، فأخر ساجداً، فيلهمني الله من الثناء والحمد، فيقال: ارفع رأسك. الحديث. رواه الترمذي وقال: حسن.

وفي حديث سلمان: فيأخذ بحلقة الباب وهي من ذهب، فيقرع الباب فيقال: من هذا؟ فيقول: محمد، فيفتح. وفي حديث الصور: إن المؤمنين إذا انتهوا إلى باب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم في الدخول، فيقصدون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم

عيسى ثم محمداً ﷺ، كما فعلوا عند العرصات عند استشفاعهم إلى الله عز وجل في فصل القضاء ليظهر شرف نبينا محمد ﷺ على سائر البشر كلهم في المواطن كلها.

وروى أبو هريرة مرفوعاً: «**أنا أول من يفتح له باب الجنة، إلا أن امرأة تبادرني فأقول لها مالك؟ وما أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على يتامى**». رواه أبو يعلى، ورواته لا بأس بهم. قال المنذري: إسناده حسن إن شاء الله.

وقوله: «تبادرني» أي لتدخل معي، أو تدخل في أثري، ويشهد له حديث (**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى**) رواه البخاري من حديث سهل بن سعد.[1] قال ابن بطال: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الجنة أفضل من ذلك، انتهى، ويحتمل أن يكون المراد قرب المنزلة حال دخول الجنة كما في الحديث قبله.

ووجه التشبيه: أن النبي ﷺ من شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم فيكون كافلاً لهم ومرشداً، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه، بل ولا دنياه ويعلمه ويحسن أدبه.

وعن ابن عباس قال: جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ ينتظرونه، قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم وهم يتذاكرون، فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً، اتخذ إبراهيم خليلاً، وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى، كلمه تكليماً، وقال آخر: فعيسى روح الله، وقال آخر: وآدم اصطفاه الله، فخرج عليهم فسلم وقال: قد سمعت كلامكم وعجبكم، إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وهو كذلك، وموسى كلمه الله وهو كذلك، وعيسى روح الله وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك. ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر. رواه الترمذي.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وقائدهم إذا وفدوا، وشافعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا يئسوا، لواء الحمد بيدي، ومفاتيح الجنة يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر، ويطوف علي ألف خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون**»، رواه الترمذي والبيهقي واللفظ له.

---

(١) هو في البخاري برقم [٦٠٠٥].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة**) رواه مسلم. وعنه أيضاً، عن النبي ﷺ قال: (**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة**).

فهذه الأمة أسبق الأمم خروجاً من الأرض وأسبقهم إلى أعلى مكان في الموقف، وأسبقهم إلى ظل العرش، وأسبقهم إلى فصل القضاء، وأسبقهم إلى الجواز على الصراط، وأسبقهم إلى دخول الجنة، وهي أكثر أهل الجنة.

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد من حديث أبي هريرة: لما نزلت هذه الآية ﴿**ثلة من الأولين وثلة من الآخرين**﴾ [الواقعة: ٣٩ و ٤٠] قال ﷺ: «**أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلثا أهل الجنة**»، قال الطبراني: تفرد برفعه ابن المبارك عن الثوري. وفي حديث بهز بن حكيم، رفعه: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، أنتم منها ثمانون**»[(١)].

وعن عمر بن الخطاب، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي**». قال الدارقطني: غريب عن الزهري.

فإن قلت: فما تقول في الحديث الذي صححه الترمذي من حديث بريدة بن الحصيب قال: أصبح رسول الله ﷺ، فدعا بلالاً فقال: «**يا بلال، بم سبقتني إلى الجنة، فما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي**». الحديث.

أجاب عنه ابن القيم: بأن تقدم بلال بين يديه ﷺ إنما هو لأنه كان يدعو إلى الله أولاً بالأذان، ويتقدم أذانه بين يدي النبي ﷺ، فيتقدم دخوله بين يديه كالحاجب والخادم. قال: وقد روي في حديث أن النبي ﷺ يبعث يوم القيامة وبلال بين يديه [ينادي] بالأذان، فتقدمه بين يديه كرامة له ﷺ، وإظهاراً لشرفه وفضيلته لا سبقاً من بلال له.

وروى ابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ أتاني جبريل فأخذ بيدي، فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي، فقال أبو بكر: يا رسول الله وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه، فقال ﷺ: أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي.

وقد دل هذا الحديث على أن لهذه الأمة باباً مختصاً يدخلون منه الجنة دون سائر الأمم.

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد بن جنبل ١/٤٥٣ وفي مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٤٧١ وفي الكامل لابن عدي ٧/٢٦٦ وفي مجمع الزوائد ١٠/ ٤٠٣.

فإن قلت: من أي أبواب الجنة يدخل النبي ﷺ؟

فالجواب: إنه قد ذكر الترمذي الحكيم أبواب الجنة، كما نقله عنه القرطبي في التذكرة، فذكر باب محمد ﷺ قال: وهو باب الرحمة، وهو باب التوبة.

فإن قلت: كم عدة أبواب الجنة؟

فاعلم أن في حديث أبي هريرة عند الشيخين مرفوعاً: من أنفق زوجين في سبيل الله دعي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان.

وروى الترمذي من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له من أبواب الجنة الثمانية**». بزيادة «من».

قال القرطبي: وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية، قال: وانتهى عددها إلى ثلاثة عشر باباً، كذا قال؟!

فإن قلت: أي الجنان يسكنها النبي ﷺ ؟

فاعلم ـ منحني الله وإياك التمتع بذاته القدسية في الحضرة الفردوسية ـ أن الله تعالى قد اتخذ من الجنان داراً اصطفاها لنفسه، وخصها بالقرب من عرشه، وغرسها بيده[1]، فهي

---

(١) أعلم أن الله تعالى غني عن العالمين أي مستغن عن كل ما سواه أزلاً وأبداً فلا يحتاج إلى مكان يقوم به أو شيء يحل به أو إلى جهة. ويكفي في تنزيه الله تعالى عن المكان والحيز والجهة قوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١] فلو كان له مكان لكان له أمثال وأبعاد طول وعرض وعمق ومن كان كذلك كان مُحْدثاً محتاجاً لمن حده بهذا الطول وبهذا العرض وبهذا العمق. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره...» رواه البخاري وابن الجارود والبيهقي. ومعناه أن الله لم يزل موجوداً في الأزل ليس معه غيره ماء ولا هواء ولا أرض ولا سماء ولا كرسي ولا عرش ولا أنس ولا جن ولا ملائكة ولا زمان ولا مكان، فهو تعالى موجود قبل المكان بلا مكان وهو الذي خلق المكان فليس بحاجة إليه وهذا ما يستفاد من الحديث المذكور. وقد قال الإمام علي رضي الله عنه «كان الله ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان» رواه أبو منصور البغدادي.
وليس محور هذا الاعتقاد على الوهم بل ما على ما يقتضيه العقل الصحيح السليم الذي هو شاهد للشرع. وذلك أن المحدود محتاج إلى من حده بذلك الحد. فلا يكون إلهاً.
فكما صح وجود الله تعالى بلا مكان وجهة قبل خلق الأماكن والجهات فكذلك يصح وجوده بعد خلق الأماكن بلا مكان وجهة وهذا لا يكون نفياً لوجوده تعالى. وقد قال الشيخ عبد الغني النابلسي «من=

سيدة الجنان، والله يختار من كل نوع أعلاه وأفضله، كما اختار من الملائكة جبريل ومن البشر محمداً ﷺ، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

وفي الطبراني من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: ينزل الله تعالى في آخر ثلاث ساعات بقين من الليل، فينظر في الساعة الأولى منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه غيره، فيمحو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء، ثم ينظر في الساعة الثانية في جنة عدن، وهي مسكنه الذي يسكن لا يكون معه فيها أحد إلا الأنبياء والشهداء والصالحون والصديقون[1]،

---

= اعتقد أن الله ملأ السموات والأرض أو أنه جسم قاعد فوق العرش فهو كافر وإن زعم أنه مسلم. وقال الإمام الرفاعي قدس الله سره: «غاية المعرفة بالله الإيقان بوجوده تعالى بلا كيف ولا مكان». وقال الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين ما نصه: «إنه ـ أي الله ـ أزلي ليس لوجوده أول وليس لوجوده آخر وأنه ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحوادث وإنه ليس بجسم مؤلف من جواهر، ولو حاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الألوهية للشمس والقمر أو لشيء آخر من أقسام الأجسام فإذاً لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء بل هو الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء وأنى يشبه المخلوق خالقه والمقدور مقدره والمصوَّر مصوره».

واعلم أن الله تعالى كان قبل الزمان وقبل المكان وقبل الظلمات وقبل النور فهو تعالى ليس من قبيل العالم الكثيف كالأرض والحجر والكواكب والنبات والإنسان وليس من قبيل العالم اللطيف كالنور والروح والنار والهواء والجن والملائكة. لمخالفته للحوادث وقد قال الإمام جعفر الطحاوي: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر». ويكفر أيضاً من يعتقد التحيز لله تعالى أو يعتقد أن الله شيء كالهواء أو كالنور يملأ مكاناً أو غرفة أو مسجداً. ونسمي المساجد بيوت الله لا لأن الله يسكنها بل لأنها أماكن يُعْبَد الله فيها. وأما معنى الحديث الذي رواه الترمذي «. . . ارحمو من في الأرض يرحمكم من في السماء». معناه أهل السماء لأن الرواية الأخرى تقول «يرحمكم أهل السماء» فيجب علينا إخراج النص عن ظاهره الذي يوهم أن الله في السماء ثم لو كان الله ساكن السماء كما يزعم بعض الجهلة الزائغون عن الصراط المستقيم لكان الله يزاحم الملائكة وهذا محال فقد ورد في الحديث أنه ما في السموات موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد. ولفهم هذا الموضوع كما ينبغي يجب معرفة أن القرآن فيه آيات محكمات وآيات متشابهات قال الله تعالى **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أمُّ الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون امنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾** [آل عمران: ٧].

**فالآيات المحكمة**: هي ما لا يحتمل من التأويل بحسب وضع اللغة إلا وجهاً واحداً، أو ما عرف بوضوح المعنى المراد منه.

**والآيات المتشابهات**: والمتشابه هو ما لم تتضح دلالته أو يحتمل أوجهاً عديدة، واحتاج إلى النظر لحمله على الوجه المطابق للآية المحكمة. بدليل قوله «هن أم الكتاب» أي أصله وإذا أشكل علينا شيء نعود إلى الأصل فيجب حمل المتشابه على المحكم الذي هو أصل الكتاب والله أعلم.

(١) راجع ما كتبته في الحاشية الأولى لأن الكلام هنا فيه نظر ويحتاج إليه.

وفيها ما لم يره أحد، ولا خطر على قلب بشر، ثم يهبط آخر ساعة من الليل فيقول: ألا مستغفر يستغفرني فأغفر له، ألا سائل يسألني فأعطيه، ألا داع يدعوني فأستجيب له، حتى يطلع الفجر.

وروى أبو الشيخ عن شمر بن عطية قال: خلق الله جنة الفردوس بيده، فهو يفتحها كل يوم خمس مرات فيقول: ازدادي طيباً لأوليائي، ازدادي حسناً لأوليائي.

فتأمل هذه العناية، كيف جعل الجنة التي غرسها بيده لمن خلقه بيده، ولأفضل بريته اعتناء وتشريفاً، وإظهاراً لفضل ما خلقه بيده وشرفه، وتمييزه بذلك عن غيره.

وروى الدارمي عن عبد الله بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: خلق الله ثلاثة أشياء بيده، خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده وغرس الفردوس بيده، ثم قال: وعزتي وجلالي لا يدخلها مدمن خمر ولا الديوث. وفيه أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن تكلم فيه.

وروى الدارمي أيضاً، عن عبد الله بن عمر: خلق الله أربعة أشياء بيده، العرش والقلم وعدناً وآدم عليه السلام، ثم قال لسائر الخلق كن فكان.

وعنده أيضاً عن ميسرة قال: إن الله لم يمس[1] شيئاً من خلقه غير ثلاث: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده.

فجنة عدن أعلى الجنان وسيدتها، وهي قصبة الجنة، وفيها الكثيب الذي تقع فيه

---

(١) اعلم أن جميع ما ورد في الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية كاليد والعين يجب الإيمان به مقروناً بالتنزيه فإن كلاً منها صفة له تعالى لا بمعنى الجارحة بل على وجه يليق به. وقال البيهقي في كتابه الاسماء والصفات: باب ما جاء في إثبات اليد: صفةً لا من حيث الصورة.

وقد احتاط العلماء في الاحتجاج بالأخبار الواردة في الصفات حتى أن بعضهم اشترط للاحتجاج بالخبر في الصفات أن يكون الحديث قطعي الثبوت يعني التواتر وعلى ذلك كثير من الأشاعرة.

وقال الإمام أبي حنيفة في الفقه الأكبر صفحة (١٥) وما بعدها: «والله تعالى واحد لا من طريق العدد ولكن من طريق أنه لا شريك له «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». لا يشبه شيئاً من الأشياء من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته الذاتية والفعلية... وهو شيء لا كالأشياء ومعنى الشيء إثباته بلا جسم ولا جوهر ولا عرض ولا حد له ولا ضد له ولا ند له ولا مثل له. وله يد ووجه ونفس فما ذكر الله تعالى في القرآن. من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف.

وقد نقل البيهقي بإسناده عن الأوزاعي ومالك وسفيان والليث بن سعد أنهم سئلوا عن هذه الأحاديث فقالوا: «أمِرُّوها كما جاءت بلا كيفية».

وليعلم العاقل أن التحيز في مكان كيفية من كيفيات الأجسام وكذا اللون والمماسة لجسم من الأجسام كيفية وهي عن الله منفية.

الرؤية، وعليها تدور ثمانية أسوار بين كل سورين جنة، فالتي تلي جنة عدن من الجنان جنة الفردوس، وأصله البستان، وهي أوسط الجنان التي دون جنة عدن وأفضلها ثم جنة الخلد، ثم جنة النعيم، ثم جنة المأوى، وهي التي يأوي إليها جبريل والملائكة. وعن مقاتل: تأوي إليها أرواح الشهداء، ثم دار السلام، لأنها دار السلامة من كل مكروه، ثم دار المقامة.

واعلم أن للجنة أسماء عديدة باعتبار صفاتها، ومسماها واحد باعتبار ذاتها، فهي مترادفة من هذا الوجه، ومختلفة باعتبار صفاتها، فاسم الجنة هو الاسم العام المتناول لتلك الذوات وما اشتملت عليه من أنواع النعيم والسرور وقرة العين، وهذه اللفظة مشتقة من الستر، ومنه سمي البستان جنة لأنه يستر داخله بالأشجار، والجنان كثيرة جداً، كما قال ﷺ لأم حارثة لما قتل ببدر، وقد قالت: يا رسول الله ألا تحدثني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت في البكاء عليه، فقال: يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى. وقال تعالى: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ [الرحمن: ٤٦] فذكرهما ثم قال: ﴿**ومن دونهما جنتان**﴾ [الرحمن: ٦٢] أي فهذه أربع، وقال ﷺ: من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما. رواه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري.

وقد قسم بعضهم الجنان بالنسبة إلى الداخلين فيها ثلاثة:

اختصاص إلهي وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، ومن أهلها أهل الفترات، ومن لم تصل إليه دعوة رسول.

**والجنة الثانية**: جنة ميراث، ينالها كل من دخل الجنة من المؤمنين، وهي الأماكن التي كانت معينة لأهل النار لو دخلوها.

**والجنة الثالثة**: جنة الأعمال، وهي التي ينزل الناس فيها بأعمالهم، فمن كان أفضل من غيره في وجوه التفاضل كان له من الجنة أكثر. وسواء كان الفاضل دون المفضول أو لم يكن، غير أن فضله في هذا المقام لهذه الحالة، فما من عمل من الأعمال إلا وله جنة، ويقع التفاضل فيها بين أصحابها بحسب ما تقتضي أحوالهم. قال ﷺ: يا بلال، بم سبقتني إلى الجنة الحديث، فعلم أنها كانت جنة مخصوصة، فما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خير ولا ترك محرم إلا وله جنة مخصوصة ونعيم خاص، يناله من دخلها، وقد يجمع الواحد من الناس في الزمان الواحد أعمالاً من العبادات فيؤجر في الزمان الواحد من وجوه كثيرة، فيفضل غيره ممن ليس له ذلك.

فقد تبين أن نيل المنازل والدرجات في الجنات بالأعمال، وأما الدخول فلا يكون إلا

برحمة الله تعالى، كما في البخاري ومسلم من حديث عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: (**لن يدخل أحد الجنة بعمله**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**) أي يلبسنيها ويسترني بها، مأخوذ من غمد السيف وهو غلافه.

وعند الإمام أحمد، بإسناد حسن، من حديث أبي سعيد الخدري: **لن يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ **قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**، وقال بيده فوق رأسه. يعني أن الجنة إنما تدخل برحمة الله، وليس عمل العبد سبباً مستقلاً بدخولها وإن كان سبباً، ولهذا أثبت الله دخولها بالأعمال في قوله تعالى: ﴿**وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ [الزخرف: ٧٢]، ونفى ﷺ دخولها بالأعمال في قوله «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» ولا تنافي بين الأمرين، لما ذكره سفيان وغيره، قال: كانوا يقولون: النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمة الله، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال، ويدل له حديث أبي هريرة: إن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم: رواه الترمذي.

قال ابن بطال: محمل الآية على أن الجنة تنال المنازل فيها بالأعمال، فإن درجات الجنة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال، ومحل الحديث على دخول الجنة والخلود فيها. ثم أورد على هذا الجواب قوله تعالى: ﴿**سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾ [النحل: ٣٢] فصرح بأن دخول الجنة أيضاً بالأعمال. وأجاب: بأنه لفظ مجمل بينه الحديث، والتقدير: ادخلوا منازل الجنة وقصورها بما كنتم تعملون، وليس المراد بذلك أصل الدخول.

ثم قال: ويجوز أن يكون الحديث مفسراً للآية والتقدير: ادخلوها بما كنتم تعملون مع رحمة الله لكم وتفضله عليكم، لأن اقتسام منازل الجنة برحمة الله، وكذا أصل دخول الجنة برحمته، حيث ألهم العاملين ما نالوا به ذلك، ولا يخلو شيء من مجازاته لعباده من رحمته وفضله، وقد تفضل الله عليهم ابتداء بإيجادهم، ثم برزقهم، ثم بتعليمهم.

وأشار إلى نحوه القاضي عياض فقال: وإن من رحمة الله توفيقه للعمل، وهدايته للطاعة، وكل ذلك لم يستحقه العامل بعمله، وإنما هو بفضل الله ورحمته.

وقال غيره: لا تنافي بين ما في الآية والحديث، لأن «الباء» التي أثبتت الدخول هي باء السبب التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره، وإن لم يكن مستقلاً بحصوله و «الباء» التي نفت الدخول هي باء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابلاً للآخر، نحو: اشتريت منه بكذا، فأخبر أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد، وأنه لولا رحمة الله

لعبده لما أدخله الجنة، لأن العمل بمجرده ـ ولو تناهى ـ لا يوجب بمجرده دخول الجنة، ولا يكون عوضاً لها، لأنه لو وقع على الوجه الذي يحبه الله، لا يقاوم نعمة الله، بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة. فلو طالبه بحقه لبقيت عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بها، فلذلك لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً من أعمالهم، كما في حديث أُبي بن كعب عند أبي داود وابن ماجه.

وهذا فصل الخطاب مع الجبرية النفاة للحكمة والتعليل القائلين بأن القيام للعبادة ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن يكون سبباً للسعادة في معاش ولا معاد، ولا لنجاة المعتقدين أن النار ليست سبباً للإحراق، وأن الماء ليس سبباً للإرواء والتبريد.

والقدرية الذين ينفون نوعاً من الحكمة والتعليل، القائلين بأن العبادات شرعت أثماناً لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وإنما هي بمنزلة استيفاء الأجير أجرته، محتجين بأن الله تعالى يجعلها عوضاً عن العمل، كما في قوله تعالى: ﴿**ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾ [النحل: ٣٢] وبقوله ﷺ حاكياً عن ربه تعالى: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها».

وهؤلاء الطائفتان متقابلتان أشد التقابل، وبينهما أعظم التباين، فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء البتة، والقدرية جعلت ذلك بمحض الأعمال وثمناً لها. والطائفتان جائرتان منحرفتان عن الصراط المستقيم الذي فطر الله عليه عباده، وجاءت به رسله، ونزلت به كتبه، وهو: أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب، مقتضيات لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله تعالى ومنته وصدقته على عبده أن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحببها إليه وزينها في قلبه، وكره إليه أضدادها، ومع هذا فليست ثمناً لجزائه وثوابه، بل غايتها أن تكون شكراً له تعالى أن قبلها سبحانه، ولهذا نفى ﷺ دخول الجنة بالعمل رداً على القدرية القائلين بأن الجزاء بمحض الأعمال وثمناً لها، وأثبت سبحانه وتعالى دخول الجنة بالعمل رداً على الجبرية الذين لم يجعلوا للأعمال ارتباطاً بالجزاء. فتبين أنه لا تنافي بينهما، إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد، فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمناً وعوضاً لها رداً على القدرية، والمثبت الدخول بسبب العمل رداً على الجبرية، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقال الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر: يحمل الحديث على أن العمل من حيث هو، عمل لا يستفيد به العامل دخول الجنة ما لم يكن مقبولاً. وإذا كان كذلك فأمر القبول إلى الله تعالى، وإنما يحصل برحمة الله لمن يقبل منه، وعلى هذا: فمعنى قوله ﴿**ادخلوا الجنة**

**بما كنتم تعملون﴾** [النحل: ٣٢] أي تعملونه من العمل المقبول، ولا يضر مع هذا أن تكون «الباء» للمصاحبة أو للإلصاق أو للمقابلة، ولا يلزم من ذلك أن تكون سببية.

قال: ثم رأيت النووي جزم بأن ظاهر الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال، والجمع بينها وبين الحديث: أن التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها. وقبولها إنما هو برحمة الله وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل، وهو مراد الحديث، ويصح أنه دخل بسبب العمل، وهو من رحمة الله تعالى. انتهى.

وروى الدارقطني عن أبي أمامة، أن رسول الله ﷺ قال: «**نعم الرجل أنا لشرار أمتي**، فقالوا: فكيف؟ أنت لخيارها، فقال: **أما خيارها فيدخلون الجنة بأعمالهم وأما شرار أمتي فيدخلون الجنة بشفاعتي**»، ذكره عبد الحق في العاقبة.

وأما تفضيله ﷺ في الجنة بالكوثر ـ وهو على وزن فوعل من الكثرة ـ سمي به هذا النهر العظيم لكثرة مائه وآنيته وعظم قدره وخيره.

فقد نقل المفسرون في تفسير «الكوثر» أقوالاً تزيد على العشرة، ذكرت كثيراً منها في المقصد السادس من هذا الكتاب، وأولاها قول ابن عباس: إنه الخير الكثير لعمومه، لكن ثبت تخصيصه بالنهر من لفظ النبي ﷺ فلا معدل عنه.

فقد روى مسلم وأبو داود والنسائي من طريق محمد بن فضيل وعلي بن مسهر، كلاهما عن المختار بن فلفل عن أنس ـ واللفظ لمسلم ـ قال: (بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «**أنزلت علي آنفاً سورة، فقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر﴾** [الكوثر: ١ ـ ٣] **ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **إنه نهر وعدنيه ربي عز وجل**». الحديث.

لكن فيه إطلاق الكوثر على الحوض، وقد جاء صريحاً في حديث عند البخاري أن الكوثر هو النهر الذي يصب في الحوض. وعند أحمد: «ويفتح نهر الكوثر إلى الحوض»، وعند مسلم «يغت فيه ـ يعني الحوض ـ ميزابان يمدانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من ورق».

وقوله: «يغت» بالغين المعجمة، أي: يصب.

وفي البخاري من حديث قتادة عن أنس قال: (لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «**أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل**»؟ قال: هذا الكوثر).

ورواه ابن جرير عن شريك بن أبي نمر قال: سمعت أنس بن مالك يحدثنا قال:

لما أسري بالنبي ﷺ مضى به جبريل، فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد،فذهب يشم ترابه فإذا هو مسك، قال: «**يا جبريل، ما هذا النهر؟**» قال: الكوثر الذي خبأ لك ربك.

وروى أحمد عن أنس: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكوثر؟ قال: «**نهر في الجنة أعطانيه ربي، لهو أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل**».

وعن أبي عبيدة عن عائشة قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ [الكوثر: ١] قالت: نهر أعطيه نبيكم شاطئاه عليه در مجوف، آنيته كعدد النجوم. رواه البخاري. وقوله: «شاطئاه» أي: حافتاه. وقوله: «در مجوف» أي: القباب التي على جوانبه.

ورواه النسائي بلفظ قالت: نهر في بطنان الجنة، قلت: وما بطنان الجنة؟ قالت: وسطها، حافتاه قصور اللؤلؤ والياقوت، ترابه المسك وحصباؤه اللؤلؤ والياقوت. و «بطنان»: بضم الموحدة وسكون المهملة بعدها نون. و «وسط» بفتح المهملة، المراد به أعلاها، أرفعها قدراً، والمراد به: أعدلها.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكوثر نهر في الجنة حافتاه من الذهب والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل**»، رواه أحمد وابن ماجه، وقال الترمذي، حسن صحيح.

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ قال: هو نهر في الجنة، عمقه سبعون ألف فرسخ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، شاطئاه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، خص الله به نبيه قبل الأنبياء، رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً.

وعن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ: ما الكوثر؟ قال: «**نهر أعطانيه الله ـ يعني في الجنة ـ أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق البخت، أو أعناق الجزر**»، قال عمر: إنها لناعمة، قال رسول الله ﷺ: «**أكلتها أنعم منها**». رواه الترمذي وقال: حسن. و «الجزر» بضم الجيم والزاي، جمع جزور وهو البعير.

قال الحافظ ابن كثير: قد تواترت ـ يعني أحاديث الكوثر ـ من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث، وكذلك أحاديث الحوض، قال: وهكذا روي عن أنس وأبي العالية ومجاهد وغير واحد من السلف: أن الكوثر نهر في الجنة.

وأما تفضيله ﷺ في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والفضيلة، فروى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي، أن رسول الله ﷺ قال: (**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول: ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي**

**الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة).**

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: الوسيلة علم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش.

وقال غيره: الوسيلة «فعيلة» من وسل إليه إذا تقرب، يقال: توسلت أي تقربت، وتطلق على المنزلة العلية، كما قال في هذا الحديث، فإنها منزلة في الجنة، على أنه يمكن ردها إلى الأول، فإن الواصل إلى تلك المنزلة قريب من الله، فيكون كالقربة التي يتوسل بها، ولما كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق عبودية لربه، وأعلمهم به، وأشدهم له خشية وأعظمهم له محبة، كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله تعالى، وهي أعلى درجة في الجنة، وأمر أمته أن يسألوها له لينالوا بهذا الدعاء الزلفى وزيادة الإيمان، وأيضاً: فإن الله تعالى قدرها له بأسباب منها دعاء أمته له، بما نالوه على يده من الهدى والإيمان.

وأما الفضيلة، فهي المرتبة الزائدة على سائر الخلق، ويحتمل أن تكون منزلة أخرى، أو تفسيراً للوسيلة. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**الوسيلة درجة عند الله عز وجل ليس فوقها درجة، فسلوا الله لي الوسيلة**». رواه أحمد في المسند، وذكره ابن أبي الدنيا وقال: الوسيلة درجة ليس في الجنة أعلى منها، فسلوا الله أن يؤتينيها على رؤوس الخلائق.

وروى ابن مردويه عن علي عن النبي ﷺ قال: «**إذا سألتم الله فسلوا لي الوسيلة**»، قالوا: يا رسول الله، من يسكن معك؟ قال: «**علي وفاطمة والحسن والحسين**». لكن قال الحافظ عماد الدين بن كثير: إنه حديث غريب منكر من هذا الوجه.

وعند ابن أبي حاتم من حديث علي أيضاً: أنه قال على منبر الكوفة: أيها الناس إن في الجنة لؤلؤتين إحداهما بيضاء والأخرى صفراء، فأما البيضاء فإنها إلى بطنان العرش. والمقام المحمود من اللؤلؤة البيضاء سبعون ألف غرفة، كل بيت منها ثلاثة أميال، وغرفها وأبوابها وأسرتها وسكانها من عرق واحد، واسمها الوسيلة، هي لمحمد ﷺ وأهل بيته، والصفراء فيها مثل ذلك، هي لإبراهيم عليه السلام وأهل بيته. وهذا أثر غريب كما نبه عليه الحافظ ابن كثير أيضاً.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ [الضحى: ٥] قال: أعطاه الله في الجنة ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريقه، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف، فهو في حكم المرفوع.

# خاتمة

عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من أهلي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك. وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وأني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك. فلم يردَّ عليه النبي ﷺ شيئاً، حتى نزل عليه جبريل عليه السلام بهذه الآية ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**﴾ [النساء: ٦٩] رواه أبو نعيم، وقال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: لا أعلم بإسناد هذا الحديث بأساً. كذا نقله في «حادي الأرواح».

وذكره البغوي في «معالم التنزيل» بلفظ: نزلت - يعني الآية - في ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم، وقد تغير لونه، يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله ﷺ: ما غير لونك؟ فقال: يا رسول الله، ما بي وجع ولا مرض، غير أني إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك، لأنك ترفع مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية[1].

وكذا ذكره ابن ظفر في «ينبوع الحياة» لكن قال: إن الرجل هو عبد الله بن زيد الأنصاري الذي رأى الأذان.

وليس المراد أن يكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين كون الكل في درجة واحدة، لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وذلك لا يجوز، فالمراد كونهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر وإن بعد المكان، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً، فإذا أرادوا الرؤية والتلاقي قدروا على

---

(١) انظر تفسير البغوي ١/٣٥٨ تفسير الآية ٦٩ من سورة النساء.

ذلك، فهذا هو المراد من هذه المعية.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس، أن رجلاً قال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «**وما أعددت لها؟**» قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، قال: «**أنت مع من أحببت**»، قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت، قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم.

وفي الحديث الإلهي الذي رواه حذيفة ـ كما عند الطبراني بسند غريب ـ أنه تعالى قال: «**ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**». الحديث. وفيه من الزيادة على حديث البخاري: «**ويكون من أوليائي وأصفيائي، ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء في الجنة**».

فللّه درها من كرامة بالغة، ونعمة على المحبين سابغة، فالمحب يرقى في درجات الجنات على أهل المقامات، بحيث ينظر إليه كما ينظر إلى الكوكب الغابر في أفق السماوات لعلو درجته وقرب منزلته من حبيبه، ومعيته معه، فإن المرء مع من أحب، ولكل عمل جزاء، وجزاء المحبة المحبة والوصول والقرب من المحبوب.

رؤيت امرأة مسرفة على نفسها بعد موتها فقيل لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي، فقيل لها: بماذا؟ قالت: بمحبتي لرسول الله ﷺ وشهوتي النظر إليه، نوديت: من اشتهى النظر إلى حبيبنا نستحي أن نذله بعتابنا، بل نجمع بينه وبين من يحبه.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿**طوبى لهم وحسن مآب**﴾ [الرعد: ٢٩] وإن طوبى اسم شجرة غرسها الله بيده، وتنبت الحلي والحلل، وإن أغصانها لترمى من وراء سور الجنة، وإن أصلها في دار النبي ﷺ، وفي دار كل مؤمن منها غصن، فما من جنة من الجنات إلا وفيها من شجرة طوبى، ليكون سر كل نعيم، ونصيب كل ولي من سره ﷺ، وأنه ﷺ ملأ الجنة، فلا ولي يتنعم في جنته إلا والرسول متنعم بنعمته، لأن الولي ما وصل إلى ما وصل إليه من النعيم إلا باتباعه لنبيه ﷺ، فلهذا كان سر النبوة قائماً به في تنعمه. وكذلك إبليس ملأ النار، فلا عذاب لأحد من أهلها إلا وإبليس ـ لعنه الله ـ سر تعذيبه ومشارك له فيه.

وفي «البحر» لأبي حيان عند تفسير قوله تعالى: ﴿**عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً**﴾ [الإنسان: ٦] قيل: هي عين في دار رسول الله ﷺ تفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين.

وإذا علمت هذا، فاعلم أن أعظم نعيم الجنة وأكمله التمتع بالنظر إلى وجه الرب تبارك وتعالى، ورسوله ﷺ، وقرة العين بالقرب من الله ورسوله مع الفوز بكرامة الرضوان

التي هي أكبر من الجنان وما فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [التوبة: ٧٢].

ولا ريب أن الأمر أجل مما يخطر ببال أو يدور في خيال، ولا سيما عند فوز المحبين في روضة الأنس وحظيرة القدس، بمعية محبوبهم الذي هو غاية مطلوبهم، فأي نعيم وأي لذة وأي قرة عين وأي فوز يداني تلك المعية ولذتها، وقرة العين بها، وهل فوق نعيم قرة العين بمعية الله ورسوله نعيم، فلا شيء - والله - أجل ولا أكمل ولا أجمل ولا أجلى ولا أحلى ولا أعلى ولا أغلى من حضرة يجتمع فيها المحب بأحبابه في مشهد مشاهد الإكرام حيث ينجلي لهم حبيبهم ومعبودهم الإله الحق جل جلاله خلف حجاب واحد في اسمه الجميل اللطيف، فينفهق عليهم نور يسري في ذواتهم فيبهتون من جمال الله، وتشرق ذواتهم بنور ذلك الجمال الأقدس، بحضرة الرسول الأرأس، ويقول لهم الحق جل جلاله: سلام عليكم عبادي، ومرحباً بكم أهل ودادي، أنتم المؤمنون الآمنون، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، أنتم أوليائي وجيراني، وأحبابي، إني أنا الله الجواد الغني، وهذه داري قد أسكنتكموها، وجنتي قد أبحتكموها، وهذه يدي مبسوطة ممتدة عليكم، وأنا ربكم أنظر إليكم، لا أصرف نظري عنكم، أنا لكم جليس وأنيس، فارفعوا إلي حوائجكم، فيقولون ربنا حاجتنا إليك النظر إلى وجهك الكريم والرضى عنا، فيقول لهم جل جلاله: هذا وجهي فانظروا إليه وأبشروا، فإني عنكم راض، ثم يرفع الحجاب ويتجلى لهم فيخرون سجداً فيقول لهم: ارفعوا رؤوسكم، فليس هذا موضع سجود يا عبادي، ما دعوتكم إلا لتتمتعوا بمشاهدتي، يا عبادي قد رضيت عنكم فلا أسخط عليكم أبداً.

فما أحلاها من كلمة، وما ألذها من بشرى، فعندها يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وأحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب، إن ربنا لغفور شكور.

وهذا يدل على أن جميع العبادات تزول في الجنة إلا عبادة الشكر والحمد والتسبيح والتهليل. والذي يدل عليه الحديث الصحيح، أنهم يلهمون ذلك كإلهام النفَس، كما في مسلم من حديث جابر: أن رسول الله ﷺ قال: يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولا يمتخطون ولا يبولون، ويكون طعامهم ذلك جشاء ورشحاً كرشح المسك، يلهمون التسبيح والحمد، كما يلهمون النفَس، يعني أن تسبيحهم وتحميدهم يجري مع الأنفاس، فليس عن تكليف وإلزام، وإنما هو عن تيسير وإلهام، ووجه التشبيه أن تنفس الإنسان لا بد له منه ولا كلفة ولا مشقة في فعله، وكذلك يكون ذكر الله تعالى على ألسنة أهل الجنة. وسر ذلك أن

قلوبهم قد تنورت بمعرفته، وأبصارهم قد تمتعت برؤيته، وقد غمرتهم سوابغ نعمته، وامتلأت أفئدتهم بمحبته ومخاللته، فألسنتهم ملازمة لذكره، وقد أخبر تعالى عن شأنهم في ذلك بقوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين**﴾ [الزمر: ٧٤] وقوله تعالى: ﴿**دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**﴾ [يونس: ١٠]، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

قال مؤلفه وجامعه أحمد بن الخطيب القسطلاني ـ عامله الله بما يليق بكرمه ـ: فهذا آخر ما جرى به قلم المدد، من هذه المواهب اللدنية، وسطرته يد الفيض من المنح المحمدية، وذلك وإن كثر لقليل في جنب شرفه الشامخ، ويسير مما أكرمه الله به من فضله الراسخ، ولو تتبعنا ما منحه الله به من مواهبه، وشرفه به من مناقبه، لما وسعت بعض بعضه الدفاتر، وكلّت دون مرماه الأقلام وجفت المحابر، وضاقت عن جمعه الكتب، وعجزت عن حمله النجب.

وعلى تفنن واصفيه لحسنه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف[2]

وإلى الله أضرع أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مخلصاً من شوائب الرياء، ودواعي التعظيم، وأن ينفعني به والمسلمين والمسلمات في المحيا وبعد الممات، سائلاً من وقف

---

(١) فائدة في التوبة: التوبة هي الرجوع عن المعصية إلى الطاعة وهي كاملة وغير كاملة.
فالكاملة: هي الرجوع عن جميع المعاصي.
والناقصة: أن يتوب من بعض معاصيه دون بعض وهي إما نصوح وإما غير نصوح.
فالتوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ولا يعود إليه.
والتوبة غير النصوح: فهي أن يعود إلى الذنب بعد أن تاب منه.
فمن تاب من ذنب ثم عاد إليه لم تنتقض التوبة التي تابها ثم إن تاب من المرة الثانية قبلت توبته وهكذا كل ما عاد إلى الذنب ثم جدد التوبة فالتي تاب منها تمحى كما جاء ذلك في الخبر الصحيح الذي رواه البخاري وغيره «روى ابن ماجه بإسناد حسن عن النبي ﷺ «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» ثم إن شرط صحة التوبة الإقلاع عن المعصية والندم والعزم على ترك العود وإن كانت المعصية تتعلق بحق بني آدم كالضرب بغير حق والشتم والغيبة إذا بلغت المغتاب وأكل مال الغير ظلماً فلا بد من الخروج من المظلمة إما برد المال أو التمكين من القصاص أو استرضاء المظلوم ويشترط لقبول التوبة أن تكون قبل الغرغرة وقبل عذاب الاستئصال فلا تقبل التوبة لمن أدركه الغرق كفرعون فإن الله تعالى قال: ﴿**الآن وقد عصيت قبل**﴾ [يونس ٩١] وانعقد الإجماع من المسلمين على موته كافراً ويشترط لصحتها للتوبة مسيرة عرضه سبعون عاماً لا يغلق حتى تطلع الشمس منه رواه ابن حبان والترمذي من حديث صفوان بن عسال المرادي.
(٢) هذا البيت منسوب لابن الفارض انظر الديوان صفحة (٩١).

عليه من فاضل أنار الله بصيرته، وجبل على الإنصاف سريرته، أن يصلح بحلمه عثاري وزللي، ويسد بسداد فضله خطئي وخللي، فالكريم يقيل العثار، ويقبل الاعتذار، خصوصاً عذر مثلي، مع قصر باعه في هذه الصناعة، وكساد سوقه بما لديه من مزجاة البضاعة، وما ابتلي به من شواغل الدنيا الدنية، والعوارض البدنية، وتحمله من الأثقال التي لو حملها رضوى لتضعضع، أو أنزلت على ثبير لخشع وتصدع، لكنني أخذت غفلة الظلام الغاسق، والليل الواسق، فسرقته من أيدي العوائق، والليل يعين السارق، واستفتحت مغاليق المعاني بمفاتيح فتح الباري، واستخرجت من مطالب كنوز العلوم نفائس الدراري، حامدَ الله تعالى على ما أنعم وألهم وعلم ما لم أكن أعلم. مصلياً مسلماً على رسوله محمد أشرف أنبيائه، وأفضل مبلغ لأنبائه، وعلى آله وأصحابه وخلفائه صلاة لا ينقطع مددها، ولا يفنى أمدها.

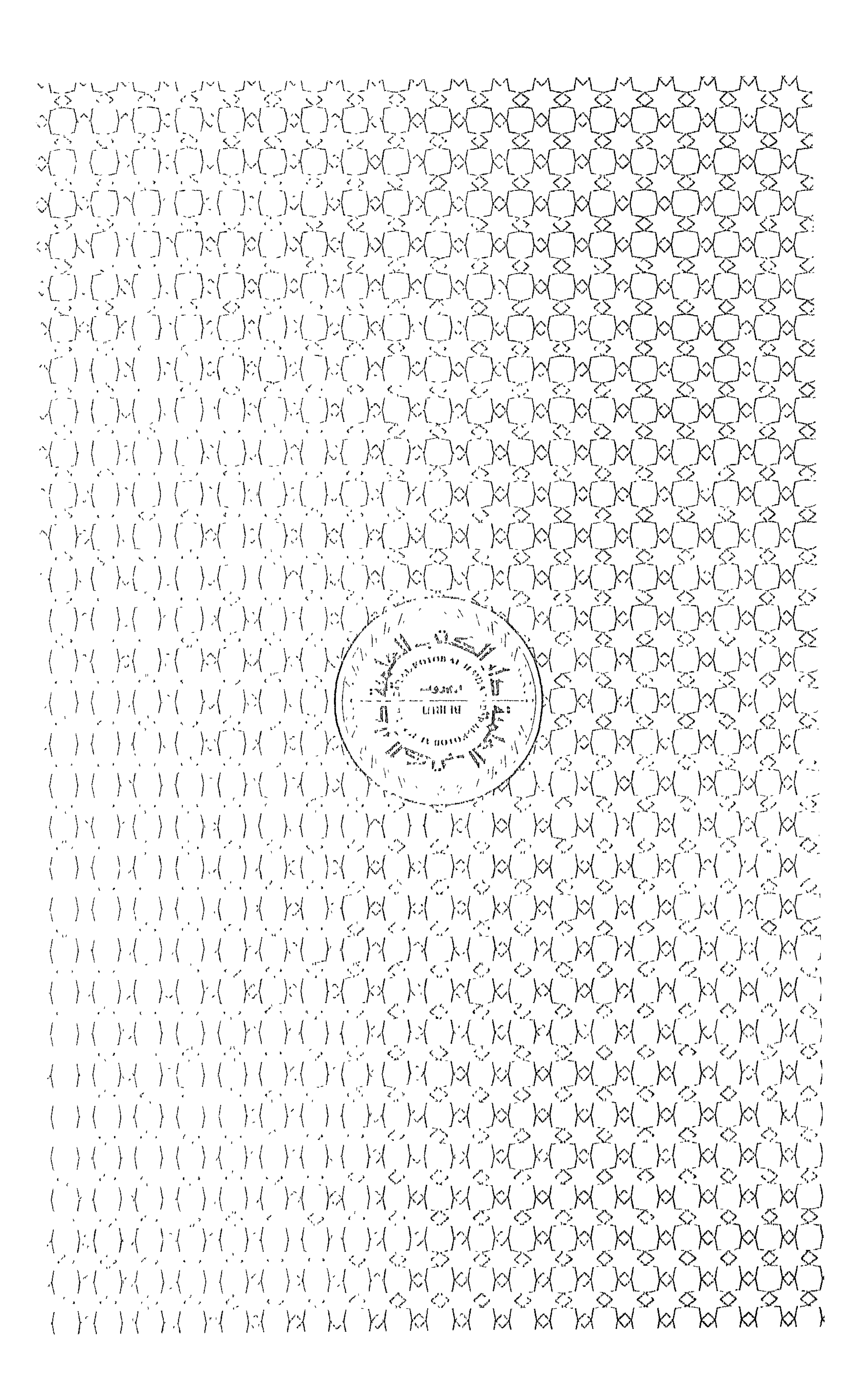
والله أسأل أن ينفع به جيلاً بعد جيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل [وأستودع الله نفسي وديني وخواتيم عملي، وما أنعم به علي ربي، وهذا الكتاب، وأن ينفعني به والمسلمين، وأن يردني وأحبابي إلى الحرمين الشريفين على أحسن وجه وأتمه، وأن يرزقني الإقامة بهما في عافية بلا محنة، وأن يطيل عمري في طاعته، ويلبسني أثواب عافيته، ويجمع لي وللمسلمين بين خيري الدنيا والآخرة، ويصرف عني سوءهما، ويجعل وفاتي ببلد رسوله، ويمنحنا من المدد المحمدي بما منح به عباده الصالحين مع رضوانه، ويمتعنا بلذة النظر إلى وجهه الكريم من غير عذاب يسبق، فإنه سبحانه إذا استودع شيئاً حفظه، والحمد لله وحده] وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

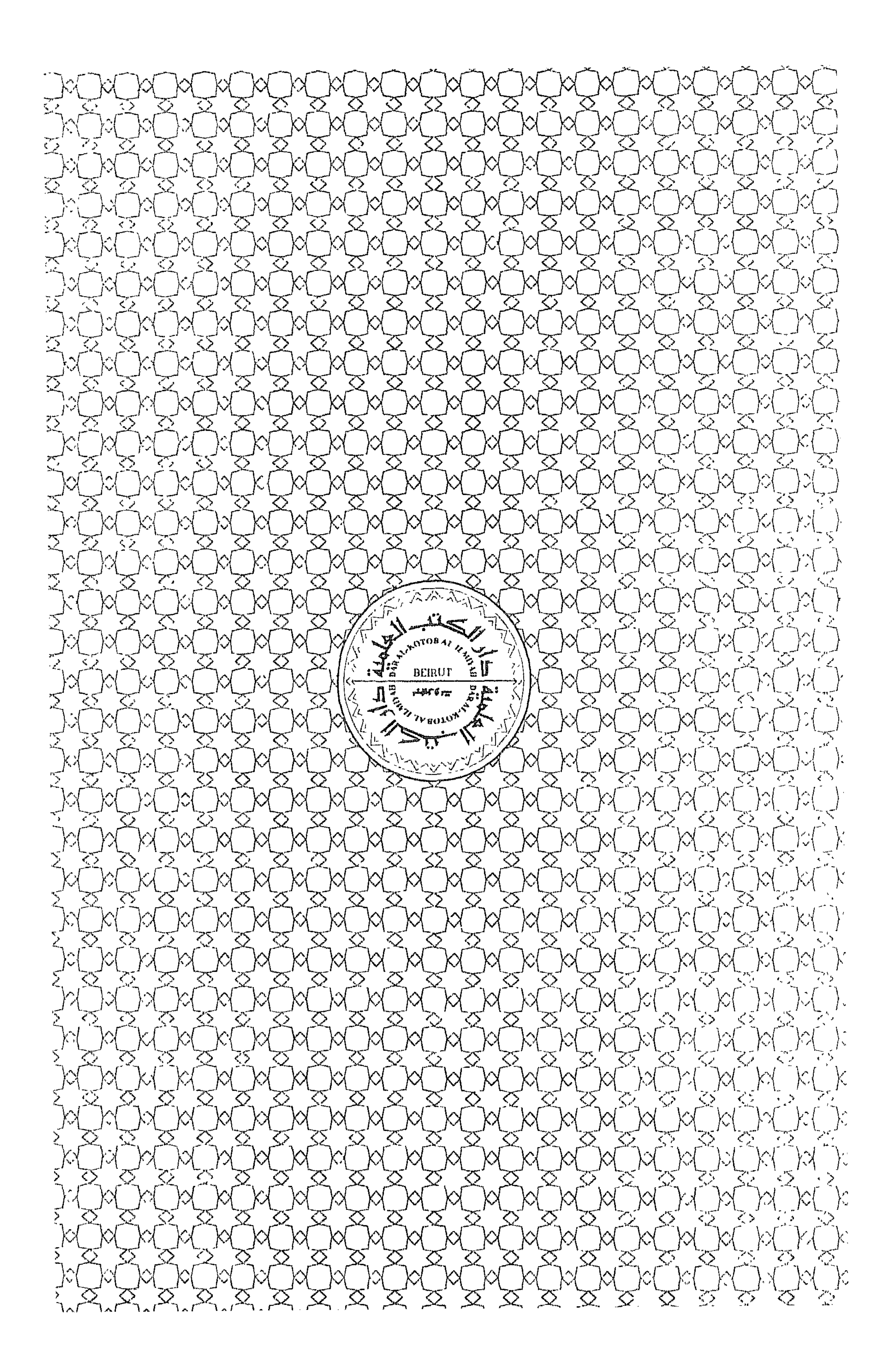
قال مؤلفه رحمه الله: وقد انتهت كتابة النسخة المنقول منها النسخة المباركة النافعة إن شاء الله تعالى في خامس عشر شعبان المكرم سنة تسع وتسعين وثمانمائة، وكان الابتداء في المسودة المذكورة ثاني يوم قدومي من مكة المشرفة، [صبيحة] الحاج في شهر محرم سنة ثمان وتسعين وثمانمائة، والحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. آمين. (بعونه تعالى تم الكتاب).



# فهرس المحتويات






BEIRUT

